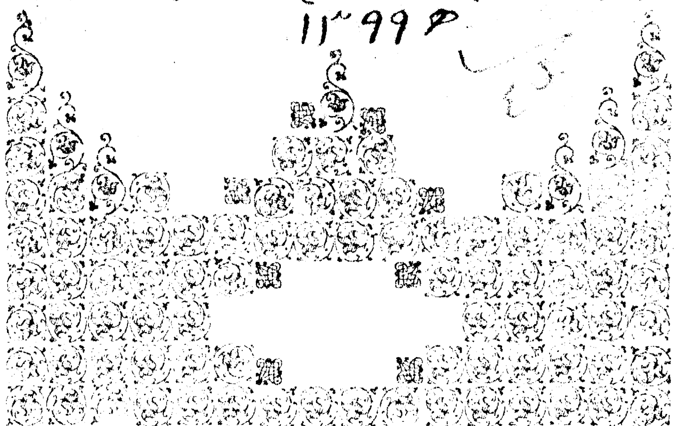
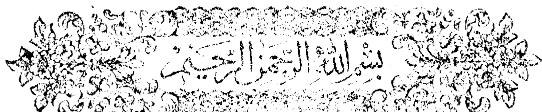
الجزء السابع من مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير
الكبير للامام محمد الرازى فخر الدين
ابن العلامة ضياء الدين عمر
المشتهر بخطيب الرى
نفع الله به المسلمين
آمـــين

﴿ وبهامشه تفسير العلامة أبى السعود ﴾

❊ سورة سبأ ❊ مكية وقيل الا ويرى الذين أوتوا العلم الآية وهي أربع وخمسون آية ❊ بسم الله الرحمن الرحيم ❊
(الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض) أي له تعالى خلقا وملكا وتصرفا بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة جميع ما وجد فيهما داخلا في حقيقتهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما فكأنه قيل له جميع المخلوقات كما مر في آية الكرسي ووصفه تعالى بذلك لتقرير ما أفاده تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة بالاسم الجليل من اختصاص جميع أفراده به تعالى على ما بين في فاتحة الكتاب ببيان تفرده تعالى واستقلاله بما يوجب ذلك وكون كل ما سواه من الموجودات التي من جملتها الانسان تحت ملكوته تعالى ليس لها في حد ذاتها استحقاق الوجود فضلا عما عداه من صفاتها بل كل ذلك نعم فائضة عليها من جهته عز وجل فما هذا شانه فهو بمعزل من استحقاق الحمد الذي مداره الجميل الصادر عن القادر بالاختيار فظهر اختصاص جميع افراده به تعالى وقوله تعالى (وله الحمد في الآخرة) بيان لاختصاص الحمد الاخروي به تعالى اثر بيان اختصاص الدنيوي به على أن الجار متعلق اما بنفس الحمد أو بما تعلق به الخبر من الاستقرار واطلاقه عن ذكر ما يشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء بذكر كونه في الآخرة عن التعيين كما اكتفى فيما سبق بذكر كون المحمود عليه في الدنيا عن ذكر كون الحمد أيضا فيها بل ليعم النعم الاخروية كما في قوله تعالى الحمد لله الذي صدقنا وعده ❊ الى ❊ واورثنا الارض نتبوأ من الجنة وقوله تعالى الذي أحلنا دار المقامة من فضله الآية وما يكون ذريعة الى نيلها من النعم الدنيوية كما في قوله تعالى الحمد لله الذي هدانا لهذا أي لما جزاؤه هذا من الايمان والعمل الصالح والفرق بين الحمدين مع كون نعمتي الدنيا والآخرة بطريق





(سورة سبأ مكية وقيل فيها آية مدنية وهي ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك الآية وهي أربع وقيل خمس وخمسون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير) السور المفتتحة بالحمد خمس سور سورتان منها في النصف الاول وهما الانعام والكهف وسورتان في الاخير وهما هذه السورة وسورة الملائكة والخامسة وهي فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الاول ومع النصف الاخير والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على احصائها منحصرة في قسمين نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فان الله تعالى خلقنا اولا برحمته وخلق لنا ما نقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالاعادة فانه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ما يدوم فلنا حالتان الابتداء والاعادة وفي كل حالة له تعالى علينا نعمتان نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فقال في النصف الاول الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور اشارة الى الشكر على نعمة الايجاد ويدل عليه قوله تعالى فيه هو الذي خلقكم من طين اشارة الى الايجاد الاول وقال في السورة الثانية وهي الكهف الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما اشارة الى الشكر على نعمة الابقاء فان الشرائع بها البقاء ولولا شرع ينقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه ولوقعت المنازعات في المشتهيات وأدى الى التقاتل والتفاني ثم قال في هذه السورة الحمد لله اشارة الى نعمة الايجاد الثاني ويدل عليه قوله تعالى وله الحمد في الآخرة وقال في الملائكة الحمد لله اشارة

تفضل أن الاول على نهج العبادة والثانى على وجه التلذذ والاغتباط وقد ورد فى الخبر أنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس (وهو الحكيم) الذى أحكم أمور الدين والدنيا ودبرها حسبما تقتضيه الحكمة (الخبير) بباطن الاشياء ومكنوناتها وقوله تعالى (يعلم ما يلج فى الارض) الخ تفصيل لبعض ما يحيط به علمه من الامور التى نيطت بها مصالحهم الدنيوية والدينية أى يعلم ما يدخل فيها من الغيث والكنوز والدفائن والاموات ونحوها (وما يخرج منها) كالحيوان والنبات وماء العيون ونحوها (وما ينزل من السماء) كالملائكة والكتب والمقادير ونحوها وقرئ وما ننزل بالتشديد ونون العظمة (وما يعرج فيها) كالملائكة وأعمال العباد والابخرة والادخنة (وهو الرحيم) للحامدين على ما ذكر من نعمه (الغفور) للمفرطين فى ذلك بلطفه وكرمه (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة) أرادوا بضمير المتكلم جنس البشر قاطبة لا أنفسهم أو معاصريهم فقط كما أرادوا بنفى اتيانها نفى وجودها بالكلية لا عدم حضورها مع تحققها فى نفس الامر وانما عبروا عنه بذلك لانهم كانوا يوعدون باتيانها ولان وجود الامور الزمانية المستقبلة لا سيما اجزاء الزمان لا يكون الا بالاتيان والحضور وقيل هو استبطاء لاتيانها الموعود بطريق الهزء والسخرية كقولهم متى هذا الوعد (قل بلى) رد لكلامهم واثبات لما نفوه على معنى ليس الامر الا اتيانها وقوله تعالى (وربى لتأتينكم) تأكيد له على أتم الوجوه وأكملها وقرئ ليأتينكم على تأويل الساعة باليوم أو الوقت وقوله تعالى (عالم الغيب) الخ امداد للتأكيد وتشديد له اثر تشديد وكسر لسورة نكيرهم واستبعادهم فان تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به على الاطلاق يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة ثباته وصحته لما أن ذلك فى حكم الاستشهاد على الامر ولا ريب فى أن المستشهد به كلما كان أجل وأعلى كانت الشهادة آكد وأقوى والمستشهد عليه أحق بالثبوت وأولى لا سيما اذا خص بالذكر من النعوت ماله مزيد اختصاص بالارض

الى نعمة الابقاء ويدل عليه قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا والملائكة بأجمعهم لا يكونون رسلا الا يوم القيامة يرسلهم الله مسلمين على المسلمين كما قال تعالى وتتلقاهم الملائكة وقال تعالى عنهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله تعالى الحمد لله رب العالمين اشارة الى النعمة العاجلة وقوله مالك يوم الدين اشارة الى النعمة الآجلة قرئت فى الافتتاح وفى الاختتام ثم فى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) الحمد شكر والشكر على النعمة والله تعالى جعل ما فى السموات وما فى الارض لنفسه بقوله ما فى السموات وما فى الارض ولم يبين أنه لنا حتى يجب الشكر نقول جوابا عنه الحمد يفارق الشكر فى معنى وهو أن الحمد أعم فيحمد من فيه صفات حميدة وان لم ينعم على الحامد أصلا فان الانسان يحسن منه أن يقول فى حق عالم لم يجتمع به أصلا انه عالم عامل بارع كامل فيقال له انه يحمد فلانا ولا يقال انه يشكره الا اذا ذكر انعامه أو ذكره على نعمه فالله تعالى محمود فى الازل لاتصافه بأوصاف الكمال ونعوت الجلال ومشكور لا يزال على ما أبدى من الكرم وأسدى من النعم فلا يلزم ذكر النعمة للحمد بل يكفى ذكر العظمة وفى كونه مالك ما فى السموات وما فى الارض عظمة كاملة فله الحمد على أنا نقول قوله له ما فى السموات وما فى الارض يوجب شكرا أتم مما يوجبه قوله تعالى خلق لكم ما فى الارض وذلك لان ما فى السموات والارض اذا كان لله ونحن المنتفعون به لا هو يوجب ذلك شكرا لا يوجبه كون ذلك لنا (المسئلة الثانية) قد ذكرتم أن الحمد ههنا اشارة الى النعمة التى فى الآخرة فلم ذكر الله السموات والارض فنقول نعم الآخرة غير مرئية فذكر الله النعم المرئية وهى ما فى السموات وما فى الارض ثم قال وله الحمد فى الآخرة ليقاس نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها بدوامها وفناء العاجلة ولهذا قال وهو الحكيم الخبير اشارة الى أن خلق هذه الاشياء بالحكمة والخبرة والحكمة صفة ثابتة لله لا يمكن زوالها فيمكن منه ايجاد أمثال هذه مرة أخرى فى الآخرة (المسئلة الثالثة) الحكمة هى العلم الذى يتصل به الفعل فان من يعلم أمرا ولم يأت بما يناسب علمه لا يقال له حكيم ومن يأتى بأمر عجيب على سبيل الاتفاق من غير علم لا يقال له حكيم فالفاعل الذى فعله على وفق العلم هو الحكيم والخبير هو الذى يعلم عواقب الامور وبواطنها فقال حكيم أى فى الابتداء يخلق كما ينبغى وخبير أى بالانتهاء يعلم ماذا يصدر من المخلوق وما لا يصدر الى ماذا يكون مصير كل أحد فهو حكيم فى الابتداء خبير فى الانتهاء * ثم بين الله تعالى كمال خبره بقوله (يعلم ما يلج فى الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور) ما يلج فى الارض من الحبة والاموات ويخرج منها من السنابل والاحياء وما ينزل من السماء من أنواع رحمته منها المطر ومنها الملائكة ومنها القرآن وما يعرج فيها منها الكلم الطيب لقوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب ومنها الارواح ومنها الاعمال الصالحة لقوله والعمل الصالح يرفعه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قدم ما يلج فى الارض على ما ينزل من السماء لان الحبة تبذر أولا ثم تسقى ثانيا (المسئلة الثانية)

بالمقسم عليه كما عرفته فإن وصفه بعلم الغيب الذي هو أشهر أفراده وأدخلها في الخفاء هو المقسم عليه تنبيه لهم على علة الحكم وكونه مما لا يحوم حوله شائبة ريب ما وفائدة الأمر بهذه المرتبة من اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذر ما أصلا فإنهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن وصمة الكذب فضلا عن اليمين الفاجرة وإنما لم يصدقوه مكابرة وقرئ علام الغيب وعالم الغيب وعالم الغيوب بالرفع على المدح (لا يعزب عنه) أي لا يبعد وقرئ بكسر الزاي (مثقال ذرة) مقدار أصغر نملة (في السموات ولا في الأرض) أي كائنة فيهما (ولا أصغر من ذلك) أي من مثقال ذرة (ولا أكبر) أي منه ورفعهما على الابتداء والخبر قوله تعالى (إلا في كتاب مبين) هو اللوح المحفوظ والجملة مؤكدة لنفي العزوب وقرئ ولا أصغر ولا أكبر بفتح الراء على نفي الجنس ولا يجوز أن يعطف المرفوع على مثقال والمفتوح على ذرة بأنه فتح في محل الجر لامتناع الصرف لأن الاستثناء يمنعه اللهم إلا أن يجعل الضمير في عنه للغيب ويجعل المثبت في اللوح خارجا عنه لظهوره للمطالعين له فيكون المعنى لا ينفصل عن الغيب شيء إلا مسطورا في اللوح (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات) علة لقوله تعالى لتأتينكم وبيان لما يقتضي إتيانها (أولئك) إشارة إلى الموصول من حيث اتصافه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو منزلتهم في الفضل والشرف أي أولئك الموصوفون بالصفات الجليلة (لهم) بسبب ذلك (مغفرة) لما فرط منهم من بعض فرطات قلما يخلو عنها البشر (ورزق كريم) لا تعب فيه ولا من عليه (والذين سعوا في آياتنا) بالقدح فيها وصد الناس عن التصديق بها (معاجزين) أي مسابقين كي يفوتونا وقرئ معجزين أي مثبطين عن الإيمان من أراده (أولئك لهم عذاب) الكلام فيه كالذي مر آنفا ومن في قوله تعالى (من رجز) للبيان قال قتادة رضي الله عنه الرجز سوء العذاب وقوله تعالى (أليم) بالرفع صفة عذاب أي أولئك الساعون لهم عذاب من جنس [illegible] عذاب شديد

قال وما يعرج فيها ولم يقل يعرج إليها إشارة إلى قبول الأعمال الصالحة ومرتبة النفوس الزكية وهذا لأن كلمة إلى للغاية فلو قال وما يعرج إليها لفهم الوقوف عند السموات فقال وما يعرج فيها ليفهم نفوذها فيها وصعودها منها ولهذا قال في الكلم الطيب إليه يصعد الكلم الطيب لأن الله هو المنتهى ولا مرتبة فوق الوصول إليه وأما السماء فهي دنيا وفوقها المنتهى (المسئلة الثالثة) قال وهو الرحيم الغفور رحيم بالإنزال حيث ينزل الرزق من السماء غفور عند ما تعرج إليه الأرواح والأعمال فرحم أولا بالإنزال وغفر ثانيا عند العروج ﴿ ثم بين أن هذه النعمة التي يستحق الله بها الحمد وهي نعمة الآخرة أنكرها قوم فقال تعالى (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة) ثم رد عليهم وقال (قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) أخبر بإتيانها وأكده باليمين قال الزمخشري رحمه الله لو قال قائل كيف يصح التأكيد باليمين مع أنهم يقولون لا رب وإن كانوا يقولون به لكن المسئلة الأصولية لا تثبت باليمين وأجاب عنه بأنه لم يقتصر على اليمين بل ذكر الدليل وهو قوله ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبيان كونه دليلا هو أن المسيء قد يبقى في الدنيا مدة مديدة في اللذات العاجلة ويموت عليها والمحسن قد يدوم في دار الدنيا في الآلام الشديدة مدة ويموت فيها فلولا دار تكون الأجزية فيها لكان الأمر على خلاف الحكمة والذي أقوله أن قوله الدليل المذكور في قوله عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة أظهر وذلك لأنه إذا كان عالما بجميع الأشياء يعلم أجزاء الأحياء ويقدر على جمعها فالساعة ممكنة القيام وقد أخبر عنها الصادق فتكون واقعة وعلى هذا فقوله تعالى في السموات ولا في الأرض فيه لطيفة وهي أن الإنسان له جسم وروح فالأجسام أجزاؤها في الأرض والأرواح في السماء فقوله لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات إشارة إلى علمه بالأرواح وقوله ولا في الأرض إشارة إلى علمه بالأجسام وإذا علم الأرواح والأشباح وقدر على جمعها لا يبقى استبعاد في المعاد وقوله ولا أصغر من ذلك إشارة إلى أن ذكر مثقال الذرة ليس للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب وعلى هذا لو قال قائل فأي حاجة إلى ذكر الأكبر فإن من علم الأصغر من الذرة لا بد من أن يعلم الأكبر فنقول لما كان الله تعالى أراد بيان إثبات الأمور في الكتاب فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغار لكونها محل النسيان أما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته فقال الإثبات في الكتاب ليس كذلك فإن الأكبر أيضا فيه مكتوب ثم لما بين علمه بالصغائر والكبائر ذكر أن جمع ذلك وإثباته للجزاء فقال ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ذكر فيهم أمرين الإيمان والعمل الصالح وذكر لهم أمرين المغفرة والرزق الكريم فالمغفرة جزاء الإيمان فكل مؤمن مغفور له ويدل عليه قوله تعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله عليه السلام فيما أخبرنا تاج الدين عيسى بن أحمد بن الحاكم البندهي قال

لا بالام وقرئ أليم بالجر صفة لرجز (ويرى الذين أوتوا العلم) أي يعلم أولوا العلم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن شايعهم
من علماء الامة أو من آمن من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما رضي الله عنهم (الذي أنزل إليك من ربك)
أي القرآن (هو الحق) بالنصب على أنه مفعول ثان ليرى والمفعول الاول هو الموصول الثاني وهو ضمير الفصل وقرئ بالرفع على
الابتداء والخبر والجملة هو المفعول الثاني ليرى وقوله عز [illegible] تعالى ويرى الخ مستأنف مسوق للاستشهاد بأولي العلم على
الجهلة الساعين في الآيات وقيل
منصوب عطفا على يجزى أي
وليعلم أولوا العلم عند مجيء
الساعة معاينة أنه الحق حسبما
علموه الآن برهانا ويحتجوا به
على المكذبين وقد جوز أن يراد
بأولي العلم من لم يؤمن من
الأحبار أي ليعلموا يوم القيامة أنه هو
الحق فيزدادوا حسرة وغما
(ويهدي) عطف على
الحق بتقدير [illegible] على الاسم
كأنه [illegible] قوله تعالى
صافات ويقبضن أي
وقابضات كأنه قيل ويرى الذين
أوتوا العلم الذي أنزل إليك
الحق وهاديا (إلى صراط
العزيز الحميد) الذي هو التوحيد
والتدرع بلباس التقوى وقيل
مستأنف وقيل حال من الذي
أنزل على اضمار مبتدأ أي وهو
يهدي كأنه قول من قال [illegible]
يموت ورزقهم ماله (وقال
الذين كفروا) هم كفار قريش
قالوا مخاطبا بعضهم لبعض
(هل ندلكم على رجل) يعنون به
النبي عليه الصلاة والسلام
وإنما قصدوا بالتنكير الطعن
والسخرية فقاتلهم الله أنى [illegible]
(ينبئكم) أي يحدثكم [illegible]
عجاب وقرئ [illegible]
[illegible] الخارق
[illegible]

(إذا مزقتم كل ممزق) أي إذا متم وفرقت أجسادكم كل تفريق بحيث صرتم ترابا ورفاتا (إنكم لفي خلق جد
يد) أي مستقرون فيه وعدل إليه عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث مثل تبعثون أو تخلقون خلقا جديدا للاشعار
بالتحقيق وكذلك تقديم الظرف والعامل فيه ما دل عليه الذكر [illegible] لأن ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها وجديد
فاعل من جد فهو جديد وقل فهو قليل

أخبرني والدي عن جدي عن محيي السنة عن عبد الواحد المليحي عن أحمد بن عبد الله
النعيمي عن محمد بن يوسف الفربري عن محمد بن اسمعيل البخاري يخرج من النار من قال
لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من إيمان والرزق الكريم من العمل الصالح وهو مناسب
فان من عمل لسيد كريم عملا فعند فراغه من العمل لا بد أن ينعم عليه انعاما ويطعمه
طعاما ووصف الرزق بالكريم وقد ذكرنا أنه بمعنى ذي كرم أو مكرم أو لأنه يأتي من غير طلب
بخلاف رزق الدنيا فانه ما لم يطلب ويتسبب فيه لا يأتي وفي التفسير مسائل (المسألة
الاولى) قوله أولئك لهم مغفرة ورزق كريم يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون لهم ذلك
جزاء فوصله الله بقوله ليجزي الذين آمنوا (وثانيهما) أن يكون ذلك [illegible] والفعل لهم
بنى آخر من قوله أولئك لهم جملة تامة [illegible] وقوله تعالى ليجزي الذين آمنوا جملة
مستقلة وهذا أبلغ في البشارة من قول القائل ليجزي الذين آمنوا رزقا (المسألة الثانية)
اللام في ليجزي للتعليل معناه الآخرة ليجزي [illegible] فما وجه التناسب قلنا الله
تعالى أراد أن لا ينقطع ثوابه [illegible]
وجعل قبلها دارا فيها الاعمال [illegible] مقدار ما يكون فيه
[illegible] (المسألة الثالثة) [illegible] الرزق
بالوصف بقوله كريم ولم يصف المغفرة لأن المغفرة [illegible] الرزق
الزقوم والحميم ومنه الفواكه والشراب [illegible] الرزق لحصول الانقسام [illegible]
المغفرة لعدم الانقسام فيها ثم قال تعالى (والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب
من رجز أليم) لما بين حال المؤمنين يوم القيامة بين حال الكافرين وقوله والذين سعوا
في آياتنا أي بالابطال [illegible] الذين آمنوا [illegible] وحينئذ يكون هذا في مقابلة
ما تقدم لأن قوله تعالى آمنوا معناه صدقوا وهذا معناه كذبوا فان قيل [illegible]
سعيهم في الابطال [illegible]
[illegible] في القرآن [illegible]
الساعي معجزا لان القرآن [illegible] في نفسها [illegible]
فهو آيات بينات [illegible] العظيم [illegible]
يعجز المتمسك به وقيل بأن المراد [illegible]
يكون الساعي ساعيا بالباطل [illegible]
الآية لطائف (الأولى) قال ههنا [illegible] الله [illegible]
هنا أن قوله تعالى ليجزي الذين آمنوا يحتمل أن يكون الله يجزيهم [illegible] وقوله أولئك
لهم مغفرة اخبار عن [illegible] وعلى الجملة [illegible] قام [illegible]
قوله ليجزي [illegible] بقوله أولئك لهم مغفرة [illegible]
[illegible] ورزق كريم [illegible] لهم عذاب من رجز أليم والجواب تقدم مثله (الثالثة)
[illegible] لهم مغفرة ورزق كريم ولم يقل [illegible] من رزق ولا [illegible]

وقيل بمعنى مفعول من جد النساج الثوب اذا قطعه ثم شاع (أفترى على الله كذبا) فيما قال (أم به جنة) أي جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه والاستدلال بهذا الترديد على ان بين الصدق والكذب واسطة هو ما لا يكون من الاخبار عن بصيرة بين الفساد لظهور كون الافتراء أخص من الكذب (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد) جواب من جهة الله تعالى عن ترديدهم الوارد على طريقة الاستفهام بالاضراب عن شقيه وابطالهما ﴿٦﴾ واثبات قسم ثالث كاشف عن حقيقة الحال ناع عليهم سوء حالهم وابتلائهم بما قالوا في حقه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل ليس الأمر كما زعموا بل هم في كمال اختلال العقل وغاية الضلال عن الفهم والادراك الذي هو الجنون حقيقة وفيما يؤدي اليه ذلك من العذاب ولذلك يقولون ما يقولون وتقديم العذاب على ما يوجبه ويستتبعه للمسارعة الى بيان ما يسوءهم ويفت في أعضادهم والاشعار بغاية سرعة ترتبه عليه كأنه يسابقه فيسبقه ووصف الضلال بالبعد الذي هو وصف الضال للمبالغة ووضع الموصول موضع ضميرهم للتنبيه بما في حيز الصلة على أن علة ما ارتكبوه واجترؤا عليه من الشناعة الفظيعة كفرهم بالآخرة وما فيها من فنون العقاب ولولاه لما فعلوا ذلك خوفا من غائلته وقوله تعالى (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض) استئناف مسوق لتهويل ما اجترؤا عليه من تكذيب آيات الله تعالى واستعظام ما قالوا في حقه عليه الصلاة والسلام [illegible]ائم الموجبة لنزول حلول افظع العذاب من غير ريث وتأخير والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى (ان نبئ عنه ذكر احاطتهما بهم من المحذور المتوقع من جهتهما وفيه تنبيه على أنه لم يبق من أسباب وقوع عذاب بهم لو اما فعلوا من المنكر الهائل المستتبع ال... فلم ينظروا الى ما أحاط بهم من جميع جوانبهم بحيث لم ... ان نشأ ...

من جنس كريم وقال ههنا لهم عذاب من رجز أليم بلفظة صالحة للتبعيض وكل ذلك اشارة الى سعة الرحمة وقلة الغضب بالنسبة اليها والرجز قيل أسوأ العذاب وعلى هذا من لبيان الجنس كقول القائل خاتم من فضة وفي الاليم قراءتان الجر والرفع فالرفع على أن الاليم وصف العذاب كأنه قال عذاب أليم من أسوأ العذاب والجر على انه وصف الرجز والرفع أقرب نظرا الى المعنى والجر نظرا الى اللفظ فان قيل لم تنحصر الاقسام في المؤمن الصالح عمله والمكذب الساعي المعجز لجواز أن يكون أحد مؤمنا ليس له عمل صالح أو كافر متوقف فنقول اذا علم حال الفريقين المذكورين يعلم ان المؤمن قريب الدرجة ممن تقدم أمره والكافر قريب الدرجة ممن سبق ذكره وللمؤمن مغفرة ورزق كريم وان لم يكن في الكرامة مثل رزق الذي عمل صالحا والكافر الغير المعاند عذاب وان لم يكن من أسوأ الانواع التي للمكذبين المعاندين ثم قال تعالى (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدي الى صراط العزيز الحميد) لما بين حال من يسعى في التكذيب في الآخرة بين حاله في الدنيا وهو أن سعيه باطل فان من أوتي علما لا يغتر بتكذيبه ويعلم أن ما أنزل الى محمد صلى الله عليه وسلم حق وصدق وقوله هو الحق يفيد الحصر أي ليس الحق الا ذلك وأما قول المكذب فباطل بخلاف ما اذا تنازع خصمان والنزاع لفظي فيكون قول كل واحد حقا في المعنى وقوله تعالى ويهدي الى صراط العزيز الحميد يحتمل أن يكون بيانا لكونه هو الحق فانه هاد الى هذا الصراط ويحتمل أن يكون بيانا لفائدة أخرى وهي انه مع كونه حقا هاديا الى الحق واجب القبول يهدي الى ما كان فيه فائدة في الاستقبال وهي الوصول الى الله وقوله العزيز الحميد يفيد رغبة ورهبة فانه اذا كان عزيزا يكون ذا انتقام ينتقم من الذي يسعى في التكذيب واذا كان حميدا يشكر سعي من يصدق ويعمل صالحا فان قيل قدم الصفة التي للهيبة على الصفة التي للرحمة مع انك بينا في غير موضع تقديم جانب الرحمة فنقول كونه عزيزا تام الهيبة هنا لاتمام تقوية جانب الرغبة لأن رضا الجبار العزيز أعز وأكرم من رضا من لا يكون كذلك فالعزة تشوف ترجي رضاه كما ترغب عن التكذيب ترغب في التصديق ليحصل القرب من العزيز ثم قال تعالى (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفي خلق جديد) وجه الترتيب هو أن الله تعالى لما بين أنهم أنكروا الساعة ورد عليهم بقوله قل بلى وربي لتأتينكم وبين ما يكون بعد اتيانها من جزاء المؤمن على عمله الصالح وجزاء الساعي في تكذيب الآيات بالتعذيب على السيآت بين حال المؤمن والكافر بعد قوله قل بلى وربي لتأتينكم فقال المؤمن هو الذي يقول الذي أنزل اليك الحق وهو يهدي وقال الكافر هو الذي يقول هو باطل ومن غاية اعتقادهم وعنادهم في ابطال ذلك قالوا على سبيل التعجب هل ندلكم على رجل منكم ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفي خلق جديد وهذا كقول القائل في الاستبعاد جاء رجل يقول ان الشمس تطلع من المغرب الى غير ذلك

على موجب جناياتهم (نخسف بهم الأرض) كما خسفناها بقارون (أو نسقط عليهم كسفا) أي قطعا (من السماء) كما أسقطناها على أصحاب الأيكة لاستيجابهم ذلك بما ارتكبوه من الجرائم وقيل هو تذكير بما يعاينونه مما يدل على كمال قدرته وما يحتمل فيه إزاحة لاستحالتهم البعث حتى جعلوه افتراء وهزؤا وتهديد عليها والمعنى أعموا فلم ينظروا الى ما أحاط بجوانبهم من السماء والأرض ولم يتفكروا أهم أشد خلقا أم هي وإن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات فتأمل وكن على الحق المبين وقرئ يخسف ويسقط بالياء لقوله تعالى أفترى على الله كذبا وكسفا بسكون السين (إن في ذلك) أي فيما ذكر من السماء والأرض من حيث إحاطتهما بالناظر من جميع الجوانب أو فيما تلي من الوحي الناطق بما ذكر (لآية) واضحة (لكل عبد منيب) شأنه الإنابة الى ربه فإنه إذا تأمل فيهما أو في الوحي المذكور ينزجر عن تعاطي القبائح وينيب اليه تعالى وفيه حث بليغ على التوبة والإنابة وقد أكد ذلك بقوله تعالى (ولقد آتينا داود منا فضلا) أي آتيناه لحسن إنابته وصحة توبته فضلا على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أي نوعا من الفضل وهو ما ذكر بعد فإنه معجزة خاصة به عليه الصلاة والسلام أو على سائر الناس فيندرج فيه النبوة والكتاب والملك والصوت الحسن وتنكيره للتفخيم ومنا لتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية كما في قوله تعالى وآتيناه من لدنا علما وتقديمه على المفعول [illegible] للاهتمام بالمقدم [illegible] إذا أمر [illegible] ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة له فإذا ورد ها تمكن عندها فضل تمكن (يا جبال أوبي معه) [illegible] (بدل) أي [illegible] التسبيح أو النوحة على الذنب وذلك إما بأن يخلق الله تعالى فيها صوتا مثل صوته كما خلق الكلام [illegible] المجيب [illegible] وقرئ أوبي من الأوب أي ارجعي معه في التسبيح كلما رجع فيه وكان كلما سبح عليه الصلاة والسلام [illegible] فاعل في [illegible] تسبيح معجزة له عليه الصلاة والسلام

من المحالات * ثم قال تعالى (أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد) هذا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تمام قول الذين كفروا أولا أعني هو من كلام من قال هل ندلكم ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب لمن قال هل ندلكم كأن السامع لما سمع قول القائل هل ندلكم على رجل قال له أهو يفتري على الله كذبا إن كان يعتقد خلافه أم به جنة جنون إن كان لا يعتقد خلافه (وفي هذا لطيفة) وهي أن الكافر لا يرضى بأن يظهر كذبه ولهذا قسم ولم يجزم بأنه مفتر بل قال مفتر أو مجنون احترازا من أن يقول قائل كيف تقول إنه مفتر مع أنه يجوز أن يظن أن الحق ذلك فظن الصدق يمنع تسمية القائل مفتريا وكاذبا في بعض المواضع ألا ترى أن من يقول جاء زيد فإذا تبين أنه لم يجئ وقيل له كذبت يقول ما كذبت وإنما سمعت من فلان أنه جاء فظننت أنه صادق فيدفع الكذب عن نفسه بالظن فهم احترزوا عن تبين كذبهم فكل عاقل ينبغي أن يحترز عن ظهور كذبه عند الناس ولا يكون العاقل أدنى درجة من الكافر ثم إنه تعالى أجابهم مرة أخرى وقال بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب في مقابلة قولهم أفترى على الله كذبا وقوله والضلال البعيد في مقابلة قولهم به جنة والكلام مناسب أما العذاب فلأن نسبة الكذب الى الصادق مؤذية لأنه شهادة عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب عليهم حيث نسبوه الى الكذب وأما الجنون فلأن نسبة الجنون الى العاقل دون نسبة الإيذاء لأنه لا تشهد عليه بأنه يعذب ولكن ينسبه الى عدم الهداية فبين أنهم هم الضالون ثم وصف ضلالهم بالبعد لأن من يسمي المهتدي ضالا يكون هو الضال فمن يسمي الهادي ضالا يكون أضل والنبي عليه الصلاة والسلام كان هادي كل مهتد * ثم قال تعالى (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء) لما ذكر الدليل بكونه عالم الغيب وكونه مجازيا على السيآت والحسنات ذكر دليلا آخر وذكر فيه تهديدا أما الدليل فقوله السماء والأرض فإنهما يدلان على الوحدانية كما بيناه مرارا وكما قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ويدلان على الحشر لأنهما يدلان على كمال قدرته ومنها الإعادة وقد ذكرناه مرارا وقال تعالى أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم وأما التهديد فبقوله إن نشأ نخسف بهم الأرض يعني نجعل عين نفعهم ضارهم بالخسف والكسف * ثم قال تعالى (إن في ذلك لآية لكل عبد منيب) أي لكل من يرجع الى الله ويترك التعصب * ثم إن الله تعالى لما ذكر من ينيب من عباده ذكر منهم من أناب وأصاب ومن جملتهم داود كما قال تعالى عنه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب وبين ما آتاه الله على إنابته فقال (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد) وفي الآية مسائل (المسألة الأولى) قوله تعالى منا إشارة الى بيان فضل داود عليه السلام وتقريره هو أن قوله ولقد آتينا داود منا فضلا مستقل بالمفهوم وتام

وقيل قدر في مساميرها فلا تعملها دقاقا ولا غلاظا وردبان درعه عليه الصلاة والسلام لم تكن مسمرة كما ينبئ عنه الانة الحديد وقيل معنى قدر في السرد لا تصرف جميع أوقاتك اليه بل مقدار ما يحصل به القوت واما الباقي فاصرفه الى العبادة وهو الانسب بقوله تعالى (واعملوا صالحا) عمم الخطاب حسب عموم التكليف له عليه الصلاة والسلام ولاهله (اني بما تعملون بصير) تعليل للامر او لوجوب الامتثال به (ولسليمان الريح) أي وسخرنا له ﴿ ٩ ﴾ الريح وقرئ برفع الريح أي ولسليمان الريح مسخرة وقرئ الرياح (غدوها شهر ورواحها شهر) أي جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشي كذلك والجملة اما مستأنفة أو حال من الريح وقرئ غدوتها وروحتها وعن الحسن رحمه الله كان يغدو أي من دمشق فيقيل باصطخر ثم يروح فيكون رواحه بكابل وقيل كان يتغدى بالري ويتعشى بسمرقند ويحكى أن بعضهم رأى مكتوبا في منزل بناحية دجلة كتبه بعض أصحاب سليمان عليه السلام نحن نزلناه وما بنيناه ومبنيا وجدناه غدونا من اصطخر فقلناه ونحن رائحون منه فبائتون بالشام ان شاء الله تعالى (وأسلنا له عين القطر) أي النحاس المذاب أساله من معدنه كما الان الحديد لداود عليهما السلام فنبع منه نبوع الماء من الينبوع ولذلك سمي عينا وكان ذلك باليمن وقيل كان يسيل في الشهر ثلاثة أيام وقوله تعالى (ومن الجن من يعمل بين يديه) اما جملة من مبتدا وخبر أو ومن يعمل عطف على الريح ومن الجن حال متقدمة (باذن ربه) بأمره تعالى كما ينبئ عنه قوله تعالى (ومن يزغ منهم عن أمرنا) أي ومن يعدل منهم عما أمرناه به من طاعة سليمان وقرئ يزغ ﴿ ٢ ﴾ سا على البناء للمفعول من ازاغه (نذقه من عذاب السعير) أي عذاب النار في الآخرة روي عن السدي رحمه الله كان معه ملك بيده سوط من نار كل من استعصى عليه ضربه به من حيث لا يراه الجني (يعملون له ما يشاء) تفصيل لما ذكر من عملهم وقوله تعالى (من محاريب) الخ بيان لما يشاء أي من قصور حصينة

لمن رأى من الملك يحسن العمل ويتقنه ويجتهد فيه ثم لما ذكر المنيب الواحد ذكر منيبا آخر وهو سليمان كما قال تعالى وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب ۞ وذكر ما استفاده هو بالانابة فقال (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ ولسليمان الريح بالرفع وبالنصب وجه الرفع ولسليمان الريح مسخرة أو سخرت لسليمان الريح ووجه النصب ولسليمان سخرنا الريح والرفع وجه آخر وهو أن يقال معناه ولسليمان الريح كما يقال لزيد الدار وذلك لان الريح كانت له كالمملوك المختص به يأمرها بما يريد حيث يريد (المسئلة الثانية) الواو للعطف فعلى قراءة الرفع يصير عطفا للجملة الاسمية على جملة فعلية وهو لا يجوز أو لا يحسن فكيف هذا فنقول لما بين حال داود كأنه تعالى قال ما ذكرنا لداود ولسليمان الريح وأما على النصب فعلى قولنا وألنا له الحديد كأنه قال وألنا لداود الحديد وسخرنا لسليمان الريح (المسئلة الثالثة) المسخر لسليمان كانت ريحا مخصوصة لا هذه الرياح فانها المنافع عامة في أوقات الحاجات ويدل عليه انه لم يقرأ الا على التوحيد فما قرأ أحد الرياح (المسئلة الرابعة) قال بعض الناس المراد من تسخير الجبال وتسبيحها مع داود انها كانت تسبح كما يسبح كل شئ وان من شئ الا يسبح بحمده وكان هو عليه السلام يفقه تسبيحها فيسبح ومن تسخير الريح انه راض الخيل وهي كالريح وقوله غدوها شهر أي ثلاثون فرسخا لان من يخرج للتفرج في أكثر الامر لا يسير أكثر من فرسخ ويرجع كذلك وقوله في حق داود وألنا له الحديد وقوله في حق سليمان وأسلنا له عين القطر انهم استخرجوا تذويب الحديد والنحاس بالنار واستعمال الآلات منهما والشياطين أي أناسا أقوياء وهذا كله فاسد حمله على هذا ضعف اعتقاده وعدم اعتماده على قدرة الله والله قادر على كل ممكن وهذه أشياء ممكنة (المسئلة الخامسة) أقول قوله تعالى وسخرنا مع داود الجبال وقوله ولسليمان الريح عاصفة لو قال قائل ما الحكمة في ان الله تعالى قال في الانبياء وسخرنا مع داود الجبال وفي هذه السورة قال يا جبال أوبي معه وقال في الريح هناك وههنا لسليمان نقول الجبال لما سبحت شرفت بذكر الله فلم يضفها الى داود بلام الملك بل جعلها معه كالمصاحب والريح لم يذكر فيها انها سبحت فجعلها كالمملوكة له وهذا حسن وفيه أمر آخر نقول يظهر لي وهو ان على قولنا أوبي معه سيري فالجبل في السير ليس تبعا بل هو يتحرك معه تبعا والريح لا تتحرك مع سليمان بل تحرك سليمان مع نفسها فلم يقل الريح مع سليمان بل سليمان كان مع الريح وأسلنا له عين القطر أي النحاس ومن الجن أي سخرنا له من الجن وهذا ينبئ عن ان جميعهم ما كانوا تحت أمره وهو الظاهر واعلم أن الله تعالى ذكر ثلاثة أشياء في حق داود وثلاثة في حق سليمان عليهما الصلاة والسلام فالجبال المسخرة لداود من جنس تسخير الريح لسليمان وذلك لان الثقيل مع ما هو أخف منه اذا تحرك كما يسبق الخفيف الثقيل ويبقى الثقيل مكانه لكن الجبال كانت أثقل من الآدمي والآدمي أثقل

وقيل قدر في مسامير ها فلا تعملها دقاقاً ولا غلاظاً ... عليه الصلاة والسلام ...

وقيل معنى قدر في السرد لا تصرف جميع أوقاتك اليه ... فقال ... قوله

تعالى (واعملوا صالحاً) ... عليه الصلاة والسلام ...

لوجوب الامتثال ... (ولسليمان الريح) ... الريح ...

[illegible]

... تسخير الريح لسليمان وذلك ...

الخفيف الثقيل ورق الثقيل ... الجن ... الآدمي ...

... سليمان وقرئ الريح ... (ومن يزغ منهم عن أمرنا) ... (نذقه من عذاب السعير) أي عذاب النار

... روي عن السدي رحمه الله ...

(يعملون له ما يشاء) تفصيل لما ذكر من عملهم وقوله تعالى (من محاريب) الخ بيان لما يشاء ...

ومساكن شريفة سميت بذلك لانها يذب عنها ويحارب عليها وقيل هي المساجد (وتماثيل) وصور الملائكة والانبياء عليهم الصلاة
والسلام على ما اعتادوه فانها كانت تعمل حينئذ في المساجد ليراها الناس و يعبدوا مثل عبادتهم وحرمة التصاوير شرع جديد
وروي أنهم عملوا أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه فاذا أراد أن يصعد بسط الاسدان ذراعيهما واذا قعد أظله النسران
بأجنحتهما (وجفان) جمع جفنة وهي الصحفة (كالجواب) كالحياض ﴿ ١٠ ﴾ الكبار جمع جابية من الجباية لاجتماع الماء
فيها وهي من الصفات الغالبة كالدابة وقرئ باثبات الياء قيل كان يقعد على الجفنة ألف رجل (وقدور راسيات) ثابتات على الاثافي لا تنزل عنها لعظمها (اعملوا آل داود شكرا) حكاية لما قيل لهم وشكرا نصب على انه مفعول له أو مصدر لاعملوا لان العمل للمنعم شكر له أو لفعله المحذوف أي اشكروا شكرا أو حال أي شاكرين أو مفعول به أي اعملوا شكرا (وقليل من عبادي الشكور) أي المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته ومع ذلك لا يوفي حقه لان التوفيق للشكر نعمة تستدعي شكرا آخر لا الى نهاية ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر وروي أنه عليه الصلاة والسلام جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من الساعات الا وانسان من آل داود قائم يصلي (فلما قضينا عليه الموت) أي على سليمان عليه السلام (مادلهم) أي الجن أو آله (على موته الا دابة الارض) أي الارضة أضيفت الى فعلها وقرئ بفتح الراء وهو تأثر
الخشبة من فعلها يقال أرضت الارضة الخشبة أرضا فأرضت أرضا مثل أكلت القوادح أسنانه اكلا فأكلت أكلا (تأكل ﴿ كان ﴾
منسأته) أي عصاه من نسأت البعير اذا طردته لانها يطرد بها ما يطرد وقرئ منساته بألف ساكنة بدلا من الهمزة و بهمزة ساكنة
وباخراجها بين بين عند الوقف ومنساءته على مفعالة كميضاءة في ميضأة ومن سأته أي من طرف عصاه من سأة

من الريح فقدر الله ان سار الثقيل مع الخفيف أي الجبال مع داود على ما قلنا أوبي أي سيري وسليمان وجنوده مع الريح الثقيل مع الخفيف أيضا والطير من جنس تسخير الجن لانهما لا يجتمعان مع الانسان الطير لنفوره من الانس والانس لنفوره من الجن فان الانسان يتقي مواضع الجن والجن يطلب أبدا اصطياد الانسان والانسان يطلب اصطياد الطير فقدر الله ان صار الطير لا ينفر من داود بل يستأنس به ويطلبه وسليمان لا ينفر من الجن بل يسخره ويستخدمه وأما القطر والحديد فبجانسهما غير خفي (وهنا لطيفة) وهي ان الآدمي ينبغي أن يتقي الجن ويجتنبه والاجتماع به يفضي الى المفسدة ولهذا قال تعالى أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون فكيف طلب سليمان الاجتماع بهم فنقول قوله تعالى من يعمل بين يديه باذن ربه اشارة الى أن ذلك الحضور لم يكن فيه مفسدة (ولطيفة أخرى) وهي أن الله تعالى قال ههنا باذن ربه بلفظ الرب وقال ومن يزغ منهم عن أمرنا ولم يقل عن أمر ربه وذلك لان الرب لفظ ينبئ عن الرحمة فعندما كانت الاشارة الى حفظ سليمان عليه السلام قال ربه وعندما كانت الاشارة الى تعذيبهم قال عن أمرنا بلفظ التعظيم الموجب لزيادة الخوف وقوله تعالى نذقه من عذاب السعير فيه وجهان (أحدهما) ان الملائكة كانوا موكلين بهم وبأيديهم مقارع من نار فالاشارة اليه (وثانيهما) ان السعير هي ما يكون في الآخرة فأوعدهم بما في الآخرة من العذاب * ثم قال تعالى (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور) المحاريب اشارة الى الابنية الرفيعة ولهذا قال تعالى اذ تسوروا المحراب والتماثيل ما يكون فيها من النقوش ثم لما ذكر البناء الذي هو المسكن بين ما يكون في المسكن من ماعون الاكل فقال وجفان كالجواب جمع جابية وهي الحوض الكبير الذي يجبي الماء أي يجمعه وقيل كان يجتمع على جفنة واحدة ألف نفس وقدور راسيات ثابتات لا تنقل لكبرها وانما يغرف منها في تلك الجفان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قدم المحاريب على التماثيل لان النقوش تكون في الابنية وقدم الجفان في الذكر على القدور مع ان القدور آلة الطبخ والجفان آلة الاكل والطبخ قبل الاكل فنقول لما بين الابنية الملكية أراد بيان عظمة السماط الذي يمد في تلك الدور واشار الى الجفان لانها تكون فيه وأما القدور فلا تكون فيه ولا تحضر هناك ولهذا قال راسيات أي غير منقولات ثم لما بين حال الجفان العظيمة كان يقع في النفس ان الطعام الذي يكون فيها في أي شيء يطبخ فأشار الى القدور المناسبة للجفان (المسئلة الثانية) ذكر في حق داود اشتغاله بآلة الحرب وفي حق سليمان بحالة السلم وهي المساكن والمآكل وذلك لان سليمان كان ولد داود وداود قتل جالوت والملوك الجبابرة واستوى داود على الملك فكان سليمان كولد ملك يكون أبوه قد سوى على ابنه الملك وجمع له المال فهو يفرقه على جنوده ولان سليمان لم يقدر أحد عليه في ظنه فتركوا الحرب معه وان حارب به أحد

القوس وفيه لغتان كما في قحة بالكسر والفتح وقرئ أكلت منساته (فلما خر تبينت الجن) من تبينت الشيء اذا علمته بعد التباسه عليك اي علمت الجن علما بينا بعد التباس الامر عليهم (أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) أي أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا موته عليه الصلاة والسلام حينما وقع فلم يلبثوا بعده حولا في تسخيره الى أن خر أو من تبين الشيء اذا ظهر وتجلى أي ظهرت الجن وأن مع ما في حيزها بدل ﴿ ١١ ﴾ اشتمال من الجن أي ظهر أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب الخ وقرئ تبينت الجن على البناء للمفعول على أن المتبين في الحقيقة هو أن مع ما في حيزها لانه بدل وقرئ تبينت الانس والضمير في كانوا للجن في قوله تعالى ومن الجن من يعمل وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه تبينت الانس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب * روي أن داود عليه السلام أسس بنيان بيت المقدس في موضع فسطاط موسى فتوفي قبل تمامه فوصى به الى سليمان عليهما السلام فاستعمل فيه الجن والشياطين فباشروه حتى اذا حان أجله وعلم به سأل ربه أن يعمي عليهم موته حتى يفرغوا منه ولتبطل دعواهم علم الغيب فدعاهم فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلي متكئا على عصاه فقبض روحه وهو متكئ عليها فبقي كذلك وهم فيما أمروا به من الاعمال حتى أكلت الارضة عصاه فخر ميتا وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى عليه الصلاة والسلام فلم يكن ينظر اليه شيطان في صلاته

كان زمان الحرب يسيرا لادراكه اياه بالريح فكان في زمانه العظمة بالاطعام والانعام (المسئلة الثالثة) لما قال عقيب قوله تعالى أن اعمل سابغات اعملوا صالحا قال عقيب ما يعمله الجن اعملوا آل داود شكرا اشارة الى ما ذكرنا ان هذه الاشياء حالية لا ينبغي ان يجعل الانسان نفسه مستغرقة فيها وانما الواجب الذي ينبغي أن يكثر منه هو العمل الصالح الذي يكون شكرا وفيه اشارة الى عدم الالتفات الى هذه الاشياء وقلة الاشتغال بها كما في قوله وقدر في السرد أي اجعله بقدر الحاجة (المسئلة الرابعة) انتصاب شكرا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون مفعولا له كقول القائل جئتك طمعا وعبدت الله رجاء غفرانه (وثانيها) أن يكون مصدرا كقول القائل شكرت الله شكرا و يكون المصدر من غير لفظ الفعل كقول القائل جلست قعودا وذلك لان العمل شكر فقوله اعملوا يقوم مقام قوله اشكروا (وثالثها) أن يكون مفعولا به كقولك اضرب زيدا كما قال تعالى واعملوا صالحا لان الشكر صالح (المسئلة الخامسة) قوله وقليل من عبادي الشكور اشارة الى ان الله خفف الامر على عباده وذلك لانه لما قال اعملوا آل داود شكرا فهم منه ان الشكر واجب لكن شكر نعمه كما ينبغي لا يمكن لان الشكر بالتوفيق وهو نعمة تحتاج الى شكر آخر وهو بتوفيق آخر فدائما تكون نعمة الله بعد الشكر خالية عن الشكر فقال تعالى ان كنتم لا تقدرون على الشكر التام فليس عليكم في ذلك حرج فان عبادي قليل منهم الشكور و يقوي قولنا أنه تعالى أدخل الكل في قوله عبادي مع الاضافة الى نفسه وعبادي بلفظ الاضافة الى نفس المتكلم لم ترد في القرآن الا في حق الناجين كقوله تعالى يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله وقوله ان عبادي ليس لك عليهم سلطان فان قيل على ما ذكرتم شكر الله بتمامه لا يمكن وقوله قليل يدل على ان في عباده من هو شاكر لانعمه نقول الشكر بقدر الطاقة البشرية هو الواقع وقليل فاعله وأما الشكر الذي يناسب نعم الله فلا قدرة عليه ولا يكلف الله نفسا الا وسعها أو نقول الشاكر التام ليس الا من رضي الله عنه وقال له يا عبدي ما أتيت به من الشكر القليل قبلته منك وكتبت لك انك شاكر لانعمي بأسرها وهذا القبول نعمة عظيمة لا أكلفك شكرها * ثم قال تعالى (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) لما بين عظمة سليمان وتسخير الريح والروح له بين انه لم ينج من الموت وانه قضى عليه الموت تنبيها للخلق على ان الموت لا بد منه ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولى بالنجاة منه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كان سليمان عليه السلام يقف في عبادة الله ليلة كاملة و يوما تاما وفي بعض الاوقات يزيد عليه وكان له عصا يتكئ عليها واقفا بين يدي ربه ثم في بعض الاوقات كان واقفا على عادته في عبادته اذ توفي فظن جنوده انه في العبادة وبقي كذلك أياما وتمادى شهورا ثم أراد الله اظهار الامر لهم فقدر ان أكلت دابة الارض عصاه فوقع

الا احترق فمر به يوما شيطان فنظر فاذا سليمان عليه السلام قد خر ففتحوا عنه فاذا عصاه قد أكلتها الارضة فارادوا أن يعرفوا وقت موته فوضعوا الارضة على العصا فاكلت منها في يوم وليلة مقدارا فحسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة وكان عمره ثلاثا وخمسين سنة ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وبقي في ملكه أربعين سنة وابتدأ بناء بيت المقدس لاربع مضين من ملكه (لقد كان لسبأ) بيان لاخبار بعض الكافرين بنعم الله تعالى اثر بيان أحوال الشاكرين لها أي لاولاد سبا بن يشجب بن يعرب بن

قحطان وقرئ بمنع الصرف على أنه اسم القبيلة وقرئ بقلب الهمزة ألفا ولعله اخراج لها بين بين (في مسكنهم) وقرئ بكسر الكاف كالمسجد وقرئ بلفظ الجمع أي مواضع سكناهم وهي باليمن يقال لها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال (آية) دالة بملاحظة أحوالها السابقة واللاحقة على وجود الصانع المختار القادر على كل ما يشاء من الأمور البديعة المجازي للمحسن والمسيء معاضدة للبرهان السابق كما في قصتي داود وسليمان عليهما السلام ﴿ ١٢ ﴾ (جنتان) بدل من آية أو خبر لمبتدأ محذوف أي هي جنتان وفيه معنى المدح ويؤيده قراءة النصب على المدح والمراد بهما جماعتان من البساتين (عن يمين وشمال) جماعة عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله كل واحدة من تينك الجماعتين في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة أو بستانا كل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله (كلوا من رزق ربكم واشكروا له) حكاية لما قيل لهم على لسان نبيهم تكميلا للنعمة وتذكيرا لحقوقها أو لما نطق به لسان الحال أو بيان لكونهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك (بلدة طيبة ورب غفور) استئناف مبين لما يوجب الشكر المأمور به أي بلدتكم بلدة طيبة وربكم الذي رزقكم ما فيها من الطيبات وطلب منكم الشكر رب غفور لفرطات من يشكره وقرئ الكل بالنصب على المدح قيل كانت أطيب البلاد هواء وأخصبها وكانت المرأة تخرج وعلى رأسها المكتل فتعمل بيديها وتسير فيما بين الأشجار فيمتلئ المكتل مما يتساقط فيه من الثمار ولم يكن فيه من مؤذيات الهوام شيء (فأعرضوا) عن الشكر بعد ابانة الآيات الداعية لهم اليه قيل ﴿ دوام ﴾ أرسل الله اليهم ثلاثة عشر نبيا فدعوهم الى الله تعالى وذكروهم بنعمه وأنذروهم عقابه فكذبوهم (فأرسلنا عليهم سيل العرم) أي الصعب من عرم الرجل فهو عارم وعرم اذا شرس خلقه وصعب أو المطر الشديد وقيل العرم جمع عرمة وهي الحجارة المركومة وقيل هو السكر الذي يحبس الماء وقيل هو اسم البناء الذي يجعل سدا

وعلم حاله وقوله تعالى فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين كانت الجن تعلم ما لا يعلمه الانسان فظن أن ذلك القدر علم الغيب وليس كذلك بل الانسان لم يؤت من العلم الا قليلا فهو أكثر الاشياء الحاضرة لا يعلمه والجن لم تعلم الا الاشياء الظاهرة وان كانت خفية بالنسبة الى الانسان وتبين لهم الامر بأنهم لا يعلمون الغيب اذ لو كانوا يعلمونه لما بقوا في الاعمال الشاقة ظانين ان سليمان حي وقوله ما لبثوا في العذاب المهين دليل على ان المؤمنين من الجن لم يكونوا في التسخير لان المؤمن لا يكون في زمان النبي في العذاب المهين ثم ❊ قال تعالى (لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) لما بين الله حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان بين حال الكافرين بأنعمه بحكاية أهل سبأ وفي سبأ قراءتان بالفتح على انه اسم بقعة وبالجر مع التنوين على انه اسم قبيلة وهو الاظهر لان الله جعل الآية لسبأ والفاهم وهو العاقل لا المكان فلا يحتاج الى اضمار الاهل وقوله آية أي من فضل ربهم ثم بينها ذكر بدله بقوله جنتان عن يمين وشمال قال الزمخشري أية آية في جنتين مع ان بعض بلاد العراق فيها آلاف من الجنان وأجاب بان المراد ان لكل واحد جنتين أو عن يمين بلدهم وشمالها جماعتان من الجنات ولاتصال بعضها ببعض جعلها جنة واحدة قوله كلوا من رزق ربكم اشارة الى تكميل النعم عليهم حيث لم يمنعهم من أكل ثمارها خوف ولا مرض وقوله واشكروا له بيان أيضا لكمال النعمة فان الشكر لا يطلب الا على النعمة المعتبرة ثم لما بين حالهم في مساكنهم وبساتينهم وأكلهم أتم بيان النعمة بان بين ان لا غائلة عليه ولا تبعة في المآل في الدنيا فقال بلدة طيبة أي طاهرة عن المؤذيات لا حية فيها ولا عقرب ولا وباء ولا وخم وقال ورب غفور أي لا عقاب عليه ولا عذاب في الآخرة فعند هذا بان كمال النعمة حيث كانت لذة خالية عن المفاسد المآلية * ثم انه تعالى لما بين ما كان من جانبه ذكر ما كان من جانبهم فقال (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور) فبين كمال ظلمهم بالاعراض بعد ابانة الآية كما قال تعالى ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ثم بين كيفية الانتقام منهم كما قال انا من المجرمين منتقمون وكيفيته انه تعالى أرسل عليهم سيلا غرق أموالهم وخرب دورهم وفي العرم وجوه (أحدها) انه الجرذ الذي سبب خراب السكر وذلك من حيث ان بلقيس كانت قد عمدت الى جبال بينها شعب فسدت الشعب حتى كانت مياه الامطار والعيون تجتمع فيها وتصير كالبحر وجعلت لها أبوابا ثلاثة مرتبة بعضها فوق بعض وكانت الابواب يفتح بعضها بعد بعض فنقب الجرذ السكر وخرب السكر بسببه وانقلب البحر عليهم (وثانيها) ان العرم اسم السكر وهو جمع العرمة وهي الحجارة (ثالثها) اسم للوادي خرج منه الماء وقوله وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط بين به

وقيل هو البناء الرصين الذي بنته الملكة بلقيس بين الجبلين بالصخر والقار وحقنت به ماء العيون والامطار وتركت فيه خروقا على ما يحتاجون اليه في سقيهم وقيل العرم الجرذ الذي نقب عليهم ذلك السد وهو الفار الاعمى الذي يقال له الخلد سلطه الله تعالى على سدهم فنقبه فغرق بلادهم وقيل العرم اسم الوادي وقرئ العرم بسكون الراء قالوا كان ذلك في الفترة التي كانت بين عيسى والنبي عليهما الصلاة ﴿١٣﴾ والسلام (وبدلناهم بجنتيهم) أي أذهبنا جنتيهم وآتيناهم بدلهما (جنتين ذواتى اكل خمط) أي ثمر بشع فان الخمط كل نبت أخذ طعما من مرارة حتى لا يمكن أكله وقيل هو الحامض والمر من كل شئ وقيل هو ثمرة شجرة يقال لها فسوة الضبع على صورة الخشخاش لا ينتفع بها وقيل هو الاراك أو كل شجر ذي شوك والتقدير أكل أكل خمط فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه وقرئ اكل خمط بالاضافة وبتخفيف أكل (وأثل وشئ من سدر قليل) معطوفان على اكل لا على خمط فان الاثل هو الطرفاء وقيل شجر يشبهه أعظم منه ولا ثمر له وقرئ وأثلا وشيأ عطفا على جنتين قيل وصف السدر بالقلة لما أن جناه وهو النبق مما يطيب أكله ولذلك يغرس في البساتين والصحيح أن السدر صنفان صنف يؤكل من ثمره وينتفع بورقه لغسل اليد وصنف له ثمرة عفصة لا تؤكل اصلا ولا ينتفع بورقه وهو الضال والمراد ههنا هو الثاني حكاه قتادة كان شجرهم خير الشجر فصيره الله تعالى من شر الشجر باعمالهم وتسمية البدل جنتين للمشاكلة والتهكم (ذلك) اشارة الى مصدر قوله تعالى (جزيناهم) أو الى ما ذكر من التبديل وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد رتبته في الفظاعة ومحله على الاول النصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور وعلى الثاني النصب على أنه مفعول ثان له أي ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم لا جزاء آخر أو ذلك التبديل جزيناهم لا غيره (بما كفروا) بسبب كفرانهم النعمة حيث نزعناها منهم ووضعنا مكانها ضدها أو بسبب كفرهم بالرسل (وهل نجازي الا الكفور) أي وما نجازي هذا [illegible]

دوام الخراب وذلك لان البساتين التي فيها الناس يكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة فاذا تركت سنين تصير كالغيضة والاجمة تلتف الاشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها فتقل الثمار وتكثر الاشجار والخمط كل شجرة لها شوك أو كل شجرة ثمرتها مرة أو كل شجرة ثمرتها لا تؤكل والاثل نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمرة الا في بعض الاوقات يكون عليه شئ كالعفص أو أصغر منه في طعمه وطبعه والسدر معروف وقال فيه قليل لانه كان أحسن أشجارهم فقلله الله ثم بين الله ان ذلك كان مجازاة لهم على كفرانهم فقال ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي أي لا نجازي بذلك الجزاء الا الكفور قال بعضهم المجازاة تقال في النقمة والجزاء في النعمة لكن قوله تعالى ذلك جزيناهم يدل على ان الجزاء يستعمل في النقمة ولعل من قال ذلك أخذه من أن المجازاة مفاعلة وهي في أكثر الامر تكون بين اثنين يؤخذ من كل واحد جزاء في حق الآخر وفي النعمة لا تكون مجازاة لان الله تعالى مبتدئ بالنعم * ثم قال تعالى (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور) أي بينهم وبين الشام فانها هي البقعة المباركة وقرئ ظاهرة أي يظهر بعضها لبعضها يرى سواد القرية من القرية الاخرى فان قال قائل هذا من النعم ولله تعالى قد شرع في بيان تبديل نعمهم بقوله وبدلناهم بجنتيهم جنتين فكيف عاد مرة أخرى الى بيان النعمة بعد النقمة فنقول ذكر حال نفس بلدهم وبين تبديل ذلك بالخمط والاثل ثم ذكر حال خارج بلدهم وذكر عمارتها بكثرة القرى ثم ذكر تبديله ذلك بالمفاوز والبيادي والبراري بقوله ربنا باعد بين أسفارنا وقد فعل ذلك ويدل عليه قراءة من قرأ ربنا بعد على المبتدأ والخبر وقوله وقدرنا فيها السير الاماكن المعمورة تكون منازلها معلومة مقدرة لا تتجاوز فلما كان بين كل قرية مسيرة نصف نهار وكانوا يغدون الى قرية ويروحون الى أخرى ما أمكن في العرف تجاوزها فهو المراد بالتقدير والمفاوز لا يتقدر السير فيها بل يسير السائر فيها بقدر الطاقة جادا حتى يقطعها وقوله سيروا فيها ليالي وأياما أي كان بينهم ليال وأيام معلومة وقوله آمنين اشارة الى كثرة العمارة فان خوف قطاع الطريق والانقطاع عن الرفيق لا يكون في مثل هذه الاماكن وقيل بأن معنى قوله ليالي وأياما تسيرون فيه ان شئتم ليالي وان شئتم أياما لعدم الخوف بخلاف المواضع المخوفة فان بعضها يسلك ليلا لئلا يعلم العدو بسيرهم وبعضها يسلك نهارا لئلا يقصدهم العدو اذا كان العدو غير مجاهر بالقصد والعداوة وقوله تعالى قالوا ربنا باعد بين أسفارنا قيل بأنهم طلبوا ذلك وهو يحتمل وجهين أحدهما أن يسألوا بطرا كما طلبت اليهود الثوم والبصل ويحتمل أن يكون ذلك لفساد اعتقادهم وشدة اعتمادهم على أن ذلك لا يقدر كما يقول القائل لغيره اضربني اشارة الى انه لا يقدر عليه ويمكن أن يقال قالوا ربنا بعد بلسان الحال أي لما كفروا فقد

في الكفران أو الكفر وقرئ يجازى على البناء للفاعل وهو الله عز وجل وهل يجازى على البناء للمفعول ورفع الكفور وهل يجزى على البناء للمفعول أيضا وهذا بيان ما أوتوا من النعم الحاضرة في مساكنهم وما فعلوا بها من الكفران وما فعل بهم من الجزاء وقوله تعالى (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها) حكاية لما أوتوا من النعم البادية في مسايرهم ومتاجرهم وما فعلوا بها من الكفران وما حاق بهم بسبب ذلك تكملة لقصتهم وبيانا لعاقبتهم وانما لم يذكر الكل معا لما في التثنية والتكرير من زيادة تنبيه وتذكير وهو عطف على كان لسبإ لا على ما بعده من الجمل الناطقة بأفعالهم أو بأجزيتها أي وجعلنا مع ما آتيناهم في مساكنهم من فنون النعم بينهم أي بين بلادهم وبين القرى الشامية التي باركنا فيها للعالمين (قرى ظاهرة) متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهي ظاهرة لأعين أهلها أو راكبة متن الطريق ظاهرة للسابلة غير بعيدة عن مسالكهم حتى تخفى عليهم (وقدرنا فيها السير) أي جعلناها في نسبة بعضها الى بعض على مقدار معين يليق بحال أبناء السبيل قيل كان الغادي من قرية يقيل في أخرى والرائح منها يبيت في أخرى الى أن يبلغ الشام كل ذلك كان تكميلا لما أوتوا من أنواع النعماء وتوفيرا لها في الحضر والسفر (سيروا فيها) على ارادة القول أي وقلنا لهم سيروا في تلك القرى (ليالي وأياما) أي متى شئتم من الليالي والايام (آمنين) من كل ما تكرهونه لا يختلف الامن فيها باختلاف الاوقات أو سيروا فيها آمنين وان تطاولت مدة سفركم وامتدت ليالي وأياما كثيرة أو سيروا فيها ليالي أعماركم وأيامها لا تلقون فيها الا الامن لكن لا على ﴿ حتى ﴾ الحقيقة بل على تنزيل تمكينهم من السير المذكور وتسوية مباديه وأسبابه على الوجه المذكور منزلة أمرهم بذلك (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) وقرئ يا ربنا بعد بطروا النعمة وسئموا أطيب العيش وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو اسرائيل الثوم والبصل مكان المن والسلوى وقالوا

طلبوا أن يبعد بين أسفارهم ويخرب المعمور من ديارهم وقوله وظلموا أنفسهم يكون بيانا لذلك وقوله فجعلناهم أحاديث أي فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلا يقال تفرقوا أيدي سبا وقوله ومزقناهم كل ممزق بيان لجعلهم أحاديث وقوله تعالى ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور أي فيما ذكرناه من حال الشاكرين ووبال الكافرين * ثم قال تعالى (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين) أي ظنه انه يغويهم كما قال فبعزتك لأغوينهم وقوله فاتبعوه بيان لذلك أي أغواهم فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين وهم الذين قال الله تعالى في حقهم ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ويمكن أن يقال صدق عليهم ظنه في انه خير منه كما قال تعالى عنه أنا خير منه ويتحقق ذلك في قوله فاتبعوه لان المتبوع خير من التابع والا لا يتبعه العاقل والذي يدل على ان ابليس خير من الكافر هو أن ابليس امتنع من عبادة غير الله لكن لما كان في امتناعه ترك عبادة الله عنادا كفر والمشرك يعبد غير الله فهو كفر بأمر أقرب الى التوحيد وهم كفروا بأمر هو الاشراك ويؤيد هذا الذي اخترناه الاستثناء وبيانه هو انه وان لم يظن انه يغوي الكل بدليل انه تعالى قال عنه الا عبادك منهم المخلصين فما ظن انه يغوي المؤمنين فظنه صدقه ولا حاجة الى الاستثناء وأما في قوله أنا خير منه اعتقد الخيرية بالنسبة الى جميع الناس بدليل تعليله بقوله خلقتني من نار وخلقته من طين وقد كذب في ظنه في حق المؤمنين ويمكن الجواب عن هذا في الوجه الاول وهو انه وان لم يظن اغواء الكل وعلم ان البعض ناج لكن ظن في كل واحد أنه ليس هو ذلك الناجي الى ان تبين له فظن انه يغويه فكذب في ظنه في حق البعض وصدق في البعض * ثم قال تعالى (وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شئ حفيظ) قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ان علم الله من الازل الى الابد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو في كونه عالما لا يتغير ولكن يتغير تعلق علمه فان العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما في نفس الامر فعلم الله في الازل ان العالم سيوجد فاذا وجد علمه موجودا بذلك العلم واذا عدم يعلمه معدوما بذلك مثاله ان المرآة المصقولة فيها الصفاء فيظهر فيها صورة زيد ان قابلها ثم اذا قابلها عمرو يظهر فيها صورته والمرآة تتغير في ذاتها ولا تبدلت في صفاتها انما التغير في الخارجات فكذلك ههنا قوله الا لنعلم أي ليقع في العلم صدور الكفر من الكافر والايمان من المؤمن وكان قبله فيه انه سيكفر زيد ويؤمن عمرو وقوله وما كان له عليهم من سلطان اشارة الى انه ليس بملجئ وانما هو آية وعلامة خلقها الله لتبيين ما هو في علمه السابق وقوله وربك على كل شئ حفيظ يحقق ذلك أي الله تعالى قادر على منع ابليس عنهم عالم بما سيقع فالحفظ يدخل في مفهومه العلم والقدرة اذ الجاهل بالشئ لا يمكنه حفظه ولا العاجز * ثم قال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له

لوكان جنى جناننا ابعد لكان اجدر أن نشتهيه وسالوا أن يجعل الله تعالى بينهم وبين الشام مفاوز وقفارا ليركبوا فيها الرواحل و يتزودوا الازواد و يتطاولوا فيها على الفقراء فجعل الله تعالى لهم الاجابة بتخريب تلك القرى المتوسطة وجعلها بلقعا لايسمع فيها داع ولا مجيب وقرئ بعد وربنا بعد بين أسفارنا و بعد بين أسفارنا على النداء واسناد الفعل الى بين ورفعه به كما يقال سير فرسخان و بوعد بين أسفارنا وقرئ ربنا ۞ ١٥ ۞ باعد بين أسفارنا و بين سفرنا و بعد برفع ربنا على الابتداء والمعنى على خلاف الاول وهو استبعاد مسايرهم مع قصرها أودنوها وسهولة سلوكها لفرط تنعمهم وغاية ترفههم وعدم اعتدادهم بنعم الله تعالى كأنهم يتشاجون على الله تعالى و يتحازون عليه (وظلموا أنفسهم) حيث عرضوها للسخط والعذاب حين بطروا النعمة أو غمطوها (فجعلناهم أحاديث) أي جعلناهم بحيث يتحدث الناس بهم متعجبين من أحوالهم ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم (ومزقناهم كل ممزق) أي فرقناهم كل تفريق على أن الممزق مصدر أو كل مطرح ومكان تفريق على أنه اسم مكان وفي عبارة التمزيق الخاص بتفريق المتصل وخرقه من تهويل الامر والدلالة على شدة التأثير والايلام ما لا يخفى أي مزقناهم تمزيقا لاغاية وراءه بحيث يضرب به الامثال في كل فرقة ليس بعدها وصال حتى لحق غسان بالشام وأنمار بيثرب و جذام بتهامة والازد بعمان وأصل قصتهم على ما رواه الكلبي عن أبي صالح أن عمرو بن عامر من أولاد سبأ و بينهم اثنا عشر أبا وهو الذي يقال له مزيقيا بن ماء السماء أخبرته طريفة الكاهنة بخراب سد مأرب وتغريق سيل العرم الجنتين وعن أبي زيد الانصاري ان عمرا رأى جرذا يحفر السد فعلم أنه لابقاء له بعد وقيل انه كان كاهنا وقد علمه بكهانته فباع أملاكه وسار بقومه وهم ألوف من بلد الى بلد حتى انتهى الى مكة المعظمة وأهلها جرهم وكانوا قهروا الناس وحازوا ولاية البيت على بني اسمعيل عليه السلام وغيرهم فارسل اليهم ثعلبة بن عمرو بن عامر يسألهم المقام معهم الى

حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير) لما بين الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين وذكرهم بمن مضى عاد الى خطابهم وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم من دون الله ليكشفوا عنكم الضر على سبيل التهكم ثم بين انهم لا يملكون شيئا بقوله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ✻ واعلم ان المذاهب المفيضة الى الشرك أربعة (أحدها) قول من يقول الله تعالى خلق السماء والسماويات وجعل الارض والارضيات في حكمهم ونحن من جملة الارضيات فنعبد الكواكب والملائكة التي في السماء فهم آلهتنا والله الههم فقال الله تعالى في ابطال قولهم انهم لا يملكون في السموات شيئا كما اعترفتم ثم قال ولا في الارض على خلاف ما زعمتم (وثانيها) قول من يقول السموات من الله على سبيل الاستبداد والأرضيات منه ولكن بواسطة الكواكب فان الله خلق العناصر والتركيبات التي فيها بالاتصالات والحركات والطوالع فجعلوا لغير الله معه شركا في الارض والاولون جعلوا الارض لغيره والسماء له فقال في ابطال قولهم وما لهم فيهما من شرك أي الارض كالسماء لله لا لغيره ولا لغيره فيها نصيب (وثالثها) قول من قال التركيبات والحوادث كلها من الله تعالى لكن فوض ذلك الى الكواكب وفعل المأذون ينسب الى الآذن و يسلب عن المأذون فيه مثاله اذا قال ملك لمملوكه اضرب فلانا فضربه يقال في العرف الملك ضربه و يصح عرفا قول القائل ما ضرب فلان فلانا وانما الملك أمر بضربه فضربه فهؤلاء جعلوا السماويات معينات لله فقال تعالى في ابطال قولهم وما له منهم من ظهير ما فوض الى شئ شيئا بل هو على كل شئ حفيظ ورقيب (ورابعها) قول من قال انا نعبد الاصنام التي هي صور الملائكة ليشفعوا لنا فقال تعالى في ابطال قولهم ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له فلا فائدة لعبادتكم غير الله فان الله لا يأذن في الشفاعة لمن يعبد غيره فبطلبكم الشفاعة تفوتون على أنفسكم الشفاعة وقوله حتى اذا فزع عن قلوبهم أي أزيل الفزع عنهم يقال قرد البعير اذا أخذ منه القراد و يقال لهذا تشديد السلب ✻ وفي قوله تعالى حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وجوه (أحدها) الفزع الذي عند الوحي فان الله عندما يوحي يفزع من في السموات ثم يزيل الله عنهم الفزع فيقولون لجبريل عليه السلام ماذا قال الله فيقول قال الحق أي الوحي (وثانيها) الفزع الذي من الساعة وذلك لان الله تعالى لما أوحى الى محمد عليه السلام فزع من في السموات من القيامة لان ارسال محمد عليه السلام من اشراط الساعة فلما زال عنهم ذلك الفزع قالوا ماذا قال الله قال جبريل الحق أي الوحي (وثالثها) هو ان الله تعالى يزيل الفزع وقت الموت عن القلوب فيعترف كل أحد بأن ما قال الله تعالى هو الحق فينفع ذلك القول من سبق ذلك منه ثم يقبض روحه على الايمان المتفق عليه بينه و بين الله تعالى و يضر ذلك القول من سبق منه خلافه فيقبض روحه على الكفر المتفق بينه و بين الله تعالى اذا علمت هذا فنقول على

أن يرجع اليه رواده الذين أرسلهم الى أصقاع البلاد يطلبون له موضعا يسعه ومن معه من قومه فابوا فاقتتلوا ثلاثة ايام فانهزمت جرهم ولم يفلت منهم الا الشريد وأقام ثعلبة بمكة وماحولها في قومه وعساكره حولا فاصابتهم الحمى فاضطروا الى الخروج وقد رجع اليه رواده فافترقوا فرقتين فرقة توجهت نحو عمان وهم الازد وكندة وحمير ومن يتلوهم وسارت ثعلبة نحو الشام فنزل الاوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بالمدينة وهم الانصار ومضت غسان فنزلوا ﴿ ١٦ ﴾ بالشام وانخزعت خزاعة بمكة فاقام بها

ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر وهو لحي فولي أمر مكة وحجابة البيت ثم جاءهم أولاد اسمعيل عليه السلام فسألوهم السكنى معهم وحولهم فاذنوا لهم في ذلك وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن فروة بن مسيك القطيفي سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن سبا فقال عليه الصلاة والسلام هو رجل كان له عشرة أولاد ستة منهم سكنوا اليمن وهم مذحج وكندة والازد والاشعريون وحمير وأنمار منهم بجيلة وخثعم وأربعة منهم سكنوا الشام وهم لخم وجذام وعاملة وغسان لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم تفرقوا أيدي سبا شذر مذر فنزلت طوائف منهم بالحجاز فمنهم خزاعة نزلوا بظاهر مكة ونزلت الاوس والخزرج بيثرب فكانوا أول من سكنها ثم نزل عندهم ثلاث قبائل من اليهود بنو قينقاع وبنو قريظة والنضير فحالفوا الاوس والخزرج وأقاموا عندهم ونزلت طوائف أخر منهم بالشام وهم الذين تنصروا فيما بعد وهم غسان وعاملة ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم وسبأ تجمع هذه القبائل كلها والجمهور على أن جميع العرب قسمان ﴿ ان كنتم ﴾ قحطانية وعدنانية والقحطانية شعبان سبأ وحضرموت والعدنانية شعبان ربيعة ومضر وأما قضاعة فمختلف فيها فبعضهم ينسبونها الى قحطان وبعضهم الى عدنان والله تعالى أعلم (ان في ذلك) أي فيما ذكر من قصتهم (لآيات) عظيمة (لكل صبار شكور) أي شأنه الصبر عن الشهوات ودواعي الهوى وعلى مشاق الطاعات والشكر على النعم

القولين الاولين قوله تعالى حتى غاية متعلقة بقوله تعالى قل لانه بينه بالوحي لان قول القائل قل لفلان للانذار حتى يسمع المخاطب مايقوله ثم يقول بعد هذا الكلام مايجب قوله فلما قال قل فزع من في السموات ثم أزيل عنه الفزع وعلى الثالث متعلقة بقوله تعالى زعمتم أي زعمتم الكفر الى غاية التفزيع ثم تركتم مازعمتم وقلتم قال الحق وعلى القولين الاولين فاعل قوله تعالى قالوا ماذا هو الملائكة السائلون من جبريل وعلى الثالث الكفار السائلون من الملائكة والفاعل في قوله الحق على القولين الاولين هم الملائكة وعلى الثالث هم المشركون * واعلم ان الحق هو الموجود ثم ان الله تعالى لما كان وجوده لا يرد عليه عدم كان حقا مطلقا لا يرتفع بالباطل الذي هو العدم والكلام الذي يكون صدقا يسمى حقا لان الكلام له متعلق في الخارج بواسطة انه متعلق بما في الذهن والذي في الذهن متعلق بما في الخارج فاذا قال القائل جاء زيد يكون هذا اللفظ تعلقه بما في ذهن القائل وذهن القائل تعلقه بما في الخارج لكن الصدق متعلق يكون في الخارج فيصير له وجود مستمر والكذب متعلق لا يكون في الخارج وحينئذ اما ان لا يكون له متعلق في الذهن فيكون كالمعدوم من الاول وهو الالفاظ التي تكون صادرة عن معاند كاذب واما أن يكون له متعلق في الذهن على خلاف ما في الخارج فيكون اعتقادا باطلا جهلا أو ظنا لكن لما لم يكن لمتعلقه متعلق يزول ذلك الكلام ويبطل وكلام الله لابطلان له في أول الامر كما يكون كلام الكاذب المعاند ولا يأتيه الباطل كما يكون كلام الظان وقوله تعالى وهو العلي الكبير قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى ذلك بأن الله هو الحق وان مايدعون من دونه الباطل وان الله هو العلي الكبير ان الحق اشارة الى أنه كامل لانقص فيه فيقبل نسبة العدم وفوق الكاملين لان كل كامل فوقه كامل فقوله وهو العلي الكبير اشارة الى انه فوق الكاملين في ذاته وصفاته وهذا يبطل القول بكونه جسما وفي حيز لان كل من كان في حيز فان العقل يحكم بأنه مشار اليه وهو مقطع الاشارة لان الاشارة لولم تقع اليه لما كان المشار اليه هو واذا وقعت الاشارة اليه فقد تناهت الاشارة عنده وفي كل موضع تقف الاشارة يقدر العقل على أن يفرض البعد أكثر من ذلك فيقول لو كان بين ماخذ الاشارة والمشار اليه أكثر من هذا البعد لكان هذا المشار اليه أعلى فيصير عليا بالاضافة لامطلقا وهو علي مطلقا ولو كان جسما لكان له مقدار وكل مقدار يمكن أن يفرض أكبر منه فيكون كبيرا بالنسبة الى غيره لامطلقا وهو كبير مطلقا * ثم قال تعالى (قل من يرزقكم من السموات والارض) قد ذكرنا مرارا ان العامة يعبدون الله لا لكونه الها وانما يطلبون به شيأ وذلك اما دفع ضرر او جر نفع فنبه الله تعالى العامة بقوله قل ادعوا الذين زعمتم على انه لا يدفع الضرر أحد الا هو كما قال تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وقال بعد اتمام بيان ذلك قل من يرزقكم من السموات والارض اشارة الى أن جر النفع ليس الا به ومنه فاذا

وتخصيص هؤلاء بذلك لأنهم المنتفعون بها (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه) أي حقق عليهم ظنه اووجده صادقا وقرئ بالتخفيف أي صدق في ظنه أوصدق بظن ظنه و يجوز تعدية الفعل اليه بنفسه لانه نوع من القول وقرئ بنصب ابليس ورفع الظن مع التشديد بمعنى وجده ظنه صادقا ومع التخفيف بمعنى قال له الصدق حين خيل له اغواءهم و برفعهما والتخفيف على الابدال وذلك اما ظنه بسبا حين رأى انهماكهم في الشهوات ﴿ ١٧ ﴾ أو ببني آدم حين شاهد آدم عليه السلام قد أصغى الى وسوسته

ان كنتم من الخواص فاعبدوه لعلوه وكبريائه سواء دفع عنكم ضرا أولم يدفع وسواء نفعكم بخير أولم ينفع فان لم تكونوا كذلك فاعبدوه لدفع الضر وجر النفع * ثم قال تعالى (قل الله) يعني ان لم يقولوا هم فقل أنت الله يرزق (وههنا لطيفة) وهي ان الله تعالى عند الضر ذكر انهم يقولون الله و يعترفون بالحق حيث قال قالوا الحق وعند النفع لم يقل انهم يقولون ذلك وذلك لان لهم حالة يعترفون بأن كاشف الضر هو الله حيث يقعون في الضر كما قال تعالى واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه وأما عند الراحة فلا تنبه لهم لذلك فلذلك قال قل الله أي هم حالة الراحة غافلون عن الله * ثم قال تعالى (وانا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا ارشاد من الله لرسوله الى المناظرات الجارية في العلوم وغيرها وذلك لان أحد المناظرين اذا قال للآخر هذا الذي تقوله خطأ وأنت فيه مخطئ يغضبه وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر وعند اختلاله لامطمع في الفهم فيفوت الغرض وأما اذا قال له بأن أحدنا لايشك في انه مخطئ والتمادي في الباطل قبيح والرجوع الى الحق أحسن الاخلاق فنجتهد ونبصر أينا على الخطأ ليحترز فانه يجتهد ذلك الخصم في النظر و يترك التعصب وذلك لا يوجب نقصا في المنزلة لانه أوهم بانه في قوله شاك و يدل عليه قول الله تعالى لنبيه وانا أو اياكم مع انه لايشك في انه هو الهادي وهو المهتدي وهم الضالون والمضلون (المسئلة الثانية) في قوله لعلى هدى أو في ضلال مبين ذكر في الهدى كلمة على وفي الضلال كلمة في لان المهتدي كأنه مرتفع متطلع فذكره بكلمة التعلي والضال منغمس في الظلمة غريق فيها فذكره بكلمة في (المسئلة الثالثة) وصف الضلال بالمبين ولم يصف الهدى لان الهدى هو الصراط المستقيم الموصل الى الحق والضلال خلافه لكن المستقيم واحد وما هو غيره كله ضلال و بعضه أبين من بعض فميز البعض عن البعض بالوصف (المسئلة الرابعة) قدم الهدى على الضلال لانه كان وصف المؤمنين المذكورين بقوله انا وهو مقدم في الذكر * ثم قال تعالى (قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون) اضاف الاجرام الى النفس وقال في حقهم ولا نسأل عما تعملون ذكر بلفظ العمل لئلا يحصل الاغضاب المانع من الفهم وقوله لا تسألون ولا نسأل زيادة حث على النظر وذلك لان كل أحد اذا كان مؤاخذا بجرمه فاذا احترز نجا ولو كان البرئ يؤاخذ بالمجرم لما كفى النظر * ثم قال تعالى (قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم) أكد ما يوجب النظر والتفكر فان مجرد الخطأ والضلال واجب الاجتناب فكيف اذا كان يوم عرض وحساب وثواب وعذاب وقوله يفتح قيل معناه يحكم و يمكن أن يقال بأن الفتح ههنا مجاز وذلك لان الباب المغلق والمنفذ المسدود يقال فيه فتحه على طريق الحقيقة ثم ان الامر اذا كان فيه انغلاق وعدم وصول اليه فاذا بينه أحد يكون قد فتحه وقوله وهو الفتاح العليم اشارة الى أن حكمه يكون مع العلم لامثل حكم من يحكم بما يتفق له بمجرد هواه * ثم قال تعالى (قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز

قال ان ذريته أضعف منه عزما وقيل ظن ذلك عند اخبار الله تعالى الملائكة أنه يجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء وقال لاضلنهم ولاغوينهم (فاتبعوه) أي أهل سبأ والناس (الا فريقا من المؤمنين) الا فريقهم المؤمنون لم يتبعوه على أن من بيانية وتقليلهم بالاضافة الى الكفار أو الا فريقا من فرق المؤمنين لم يتبعوه وهم المخلصون (وما كان له عليهم من سلطان) أي تسلط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء وقوله تعالى (الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) استثناء مفرغ من أعم العلل ومن موصولة أي وما كان تسلطه عليهم الا ليتعلق علمنا بمن يؤمن بالآخرة متميزا ممن هو في شك منها تعلقا حاليا يترتب عليه الجزاء أو الا ليتميز المؤمن من الشاك أو الا ليؤمن من قدر ايمانه و يشك من قدر ضلاله والمراد من حصول العلم حصول متعلقه مبالغة (وربك على كل شئ حفيظ) أي محافظ عليه فان فعيلا ومفاعلا صيغتان متآخيتان (قل) أي للمشركين

اظهارا لبطلان ماهم عليه وتبكيتا لهم ﴿ ٣ ﴾ سا (ادعوا الذين زعمتم) أي زعمتموهم آلهة وهما مفعولا زعم ثم حذف الاول تخفيفا لطول الموصول بصلته والثاني لقيام صفته أعني قوله تعالى (من دون الله) مقامه ولاسبيل الى جعله مفعولا ثانيا لانه لا يلتئم مع الضمير كلاما وكذا لا يملكون لانهم لايزعمونه والمعنى ادعوهم فيما يهمكم من جلب نفع أو دفع ضر لعلهم يستجيبون لكم أن صح دعواكم ثم أجاب عنهم اشعارا بتعين الجواب وانه لا يقبل المكابرة فقال (لايملكون

مثقال ذرة) من خير وشر ونفع وضر (في السموات ولا في الارض) أي في أمر ما من الامور وذكرهما للتعميم عرفا ولان آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالاصنام أو لان الاسباب القريبة للخير والشر سماوية وأرضية والجملة استئناف لبيان حالهم (ومالهم) أي لآلهتهم (فيهما من شرك) أي شركة لا خلقا ولا ملكا ولا تصرفا (وماله) أي لله تعالى (منهم) من آلهتهم (من ظهير) يعينه في تدبير أمرهما ﴿ ١٨ ﴾ (ولا تنفع الشفاعة عنده) أي لا توجد رأسا كما في قوله *ولا ترى الضب بها ينجحر

* لقوله تعالى من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه وانما علق النفي بنفعها لا بوقوعها تصريحا بنفي ما هو غرضهم من وقوعها وقوله تعالى (الا لمن أذن له) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أي لا تقع الشفاعة في حال من الاحوال الا كائنة لمن أذن له في الشفاعة من النبيين والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة فتبين حرمان الكفرة منها بالكلية أما من جهة أصنامهم فلظهور انتفاء الاذن لها ضرورة استحالة الاذن في الشفاعة لجماد لا يعقل ولا ينطق وأما من جهة من يعبدونه من الملائكة فلان اذنهم مقصور على الشفاعة للمستحقين لها لقوله تعالى لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا ومن البين أن الشفاعة للكفرة بمعزل من الصواب أو لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المستأهلين لها في حال من الاحوال الا كائنة لمن أذن له أي لاجله وفي شأنه من المستحقين لها فلا تنفعهم أصلا وان فرض وقوعها وصدورها عن الشفعاء اذ لم يؤذن لهم في شفاعتهم

الحكيم) قد ذكرنا ان المعبود قد يعبده قوم لدفع الضرر وجمع لتوقع المنفعة وقليل من الاشراف الاعزة يعبدونه لانه يستحق العبادة لذاته فلما بين انه لا يعبد غير الله لدفع الضرر اذ لا دافع للضرر غيره بقوله قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله و بين انه لا يعبد غير الله لتوقع المنفعة بقوله قل من يرزقكم من السموات والارض بين ههنا انه لا يعبد أحد لاستحقاق العبادة غير الله فقال قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم أي هو المعبود لذاته واتصافه بالعزة وهي القدرة الكاملة والحكمة وهي العلم التام الذي عمله موافق له * ثم قال تعالى (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن اكثر الناس لا يعلمون) لما بين مسئلة التوحيد شرع في الرسالة فقال تعالى وما أرسلناك الا كافة وفيه وجهان (أحدهما) كافة أي ارسالة كافة أي عامة لجميع الناس تمنعهم من الخروج عن الانقياد لها (والثاني) كافة أي أرسلناك كافة تكف الناس أنت من الكفر والهاء للمبالغة على هذا الوجه بشيرا أي تحثهم بالوعد ونذيرا تزجرهم بالوعيد ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك لا لخفائه ولكن لغفلتهم * ثم قال تعالى (و يقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) لما ذكر الرسالة بين الحشر وقال (قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون)قد ذكرنا في سورة الاعراف أن قوله لا تستأخرون يوجب الانذار لان معناه عدم المهلة عن الاجل ولكن الاستقدام ما وجهه وذكرنا هنالك وجهه ونذكر ههنا انهم لما طلبوا الاستعجال بين أنه لا استعجال فيه كما لا امهال وهذا يفيد عظم الامر وخطر الخطب وذلك لان الامر الحقير اذا طالبه طالب من غيره لا يؤخره ولا يوقفه على وقت بخلاف الامر الخطير وفي قوله تعالى لكم ميعاد يوم قراآت (أحدها) رفعهما مع التنوين وعلى هذا يوم بدل (ثانيها) نصب يوم مع رفع ميعاد والتنوين فيهما ميعاد يوما قال الزمخشري ووجهه انه منصوب بفعل محذوف كأنه قال ميعاد اعني يوما وذلك يفيد التعظيم والتهويل ويحتمل أن يقال نصب على الظرف تقديره لكم ميعاد يوما كما يقول القائل اناجايئك يوما وعلى هذا يكون العامل فيه العلم كأنه يقول لكم ميعاد تعلمونه يوما وقوله معلوم يدل عليه كقول القائل انه مقتول يوما (الثالثة) الاضافة لكم ميعاد يوم كما في قول القائل سحق ثوب للتبيين واسناد الفعل اليهم بقوله لا تستأخرون عنه بدلا عن قوله لا يؤخر عنكم زيادة تأكيد لوقوع اليوم * ثم قال تعالى (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه) لما بين الامور الثلاثة من التوحيد والرسالة والحشر وكانوا بالكل كافرين بين كفرهم العام بقوله وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن وذلك لان القرآن مشتمل على الكل وقوله ولا بالذي بين يديه المشهور انه التوراة والانجيل وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم المشركون المنكرون للنبوات والحشر ويحتمل أن يقال ان المعنى هو أنا لا نؤمن بالقرآن أنه من الله ولا بالذي بين يديه أي والايمان فيه من الاخبارات والمسائل والآيات والدلائل وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم

بل في شفاعة غيرهم فعلى هذا يثبت حرمانهم من شفاعة هؤلاء بعبارة النص ومن شفاعة الاصنام بدلالته ﴿ العموم ﴾ اذ حيث حرموها عن جهة القادرين على شفاعة بعض المحتاجين اليها فلأن يحرموها من جهة العجزة عنها أولى وقرئ أذن له مبنيا للمفعول (حتى اذا فزع عن قلوبهم) أي قلوب الشفعاء والمشفوع لهم من المؤمنين وأما الكفرة فهم من موقف الاستشفاع بمعزل وعن

التفزيع عن قلوبهم بالالف منزل والتفزيع ازالة الفزع ثم ترك ذكر الفزع وأسند الفعل الى الجار والمجرور وحتى غاية لما ينبئ عنه
ما قبلها من الاشعار بوقوع الاذن لمن أذن له فانه مسبوق بالاستئذان المستدعى للترقب والانتظار للجواب كأنه سئل كيف يؤذن
لهم فقيل يتربصون فى موقف الاستئذان والاستدعاء ويتوقفون على وجل وفزع مليا حتى اذا أزيل الفزع عن قلوبهم بعد
اللتيا والتى وظهرت لهم تباشير الاجابة ﴿ ١٩ ﴾ (قالوا) أى المشفوع لهم اذهم المحتاجون الى الاذن والمهتمون بأمره
(ماذا قال ربكم) أى فى شأن الاذن (قالوا) أى الشفعاء لانهم المباشرون الاستئذان بالذات المتوسطون بينهم وبينه عز وجل بالشفاعة (الحق) أى قال ربنا القول الحق وهو الاذن فى الشفاعة للمستحقين لها وقرئ الحق مرفوعا أى ما قاله الحق (وهو العلى الكبير) من تمام كلام الشفعاء قالوه اعترافا بغاية عظمة جناب العزة عز وجل وقصور شأن كل من سواه أى هو المتفرد بالعلو والكبرياء ليس لاحد من أشراف الخلائق أن يتكلم الا باذنه وقرئ فزع مخففا بمعنى فزع وقرئ فزع على البناء للفاعل وهو الله وحده وقرئ فرغ بالراء المهملة والغين المعجمة أى نفى الوجل عنها وأفنى من فرغ الزاد اذا لم يبق منه شئ وهو من الاسناد المجازى لان الفراغ وهو الخلق حال ظرفه عند نفاده فأسند اليه على عكس قولهم جرى النهر وعن الحسن تخفيف الراء وأصله فرغ الوجل عنها أى انتفى عنها وفنى ثم حذف الفاعل واسند الى الجار والمجرور وبه
يعرف حال التفزيع وقرئ ارتفع عن قلوبهم بمعنى انكشف عنها (قل من يرزقكم من السموات والارض) أمر عليه الصلاة
والسلام بتبكيت المشركين بحملهم على الاقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما وأن الرازق هو الله تعالى فانهم لا ينكرونه
كما ينطق به قوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض أم من يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت
من الحى ومن يدبر الامر فسيقولون الله وحيث كانوا يتلعثمون احيانا فى الجواب مخافة الالزام قيل له عليه الصلاة والسلام

العموم لان أهل الكتاب لم يؤمنوا بالقرآن أنه من الله ولا بالذى فيه من الرسالة وتفصيل
الحشر فان قيل أليس هم مؤمنون بالوحدانية والحشر فنقول اذا لم يصدق واحد ما فى
الكتاب من الامور المختصة به يقال فيه انه لم يؤمن بشئ منه وان آمن ببعض ما فيه لكونه فى
غيره فيكون ايمانه لا بما فيه مثاله أن من يكذب رجلا فى بقوله فاذا أخبره بأن النار حارة
لا يكذبه فيه ولكن لا يقال انه صدقه لانه انما صدقت نفسه فانه كان عالما به من قبل وعلى
هذا فقوله بين يديه أى الذى هو مشتمل عليه من حيث انه وارد فيه ❊ وقوله تعالى (ولو ترى
اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا
للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين) لما وقع اليأس من ايمانهم فى هذه الدار بقولهم
لن نؤمن فانه لتأييد النفى وعد نبيه عليه الصلاة والسلام بانه يراهم على أذل حال موقوفين
للسؤال يرجع بعضهم الى بعض القول كما يكون عليه حال جماعة اخطؤا فى أمر يقول
بعضهم لبعض كان ذلك بسببك ويرد عليه الآخر مثل ذلك وجواب لو محذوف تقديره
ولو ترى اذ الظالمون موقوفون لرأيت عجبا ثم بدأ بالاتباع لان المضل أولى بالتوبيخ فقال
يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين اشارة الى ان كفرهم كان
لمانع لا لعدم المقتضى لانهم لا يمكنهم ان يقولوا ما جاءنا رسول ولا ان يقولوا قصر الرسول
وهذا اشارة الى اتيان الرسول بما عليه لان الرسول لو اهمل شيئا لما كانوا يؤمنون ولولا
المستكبرون لآمنوا ❊ ثم قال تعالى (قال الذين استكبروا للذين استضعفوا) ردا لما قالوا
ان كفرنا كان لمانع (أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين) يعنى
المانع ينبغى ان يكون راجحا على المقتضى حتى يعمل عمله والذى جاء به هو الهدى والذى
صدر من المستكبرين لم يكن شيئا يوجب الامتناع من قبول ما جاء به فلم يصح تعليلكم
بالمانع ثم بين ان كفرهم كان اجراما من حيث ان المعذور لا يكون معذورا الا لعدم
المقتضى أو لقيام المانع ولم يوجد شئ منهما ❊ ثم قال تعالى (وقال الذين استضعفوا للذين
استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا ان نكفر بالله ونجعل له أندادا) لما ذكر
المستكبرون أنا ما صددناكم وما صدر منا ما يصلح مانعا وصارفا اعترف المستضعفون به
وقالوا بل مكر الليل والنهار منعنا ثم قالوا لهم انكم وان كنتم ما أتيتم بالصارف القطعى
والمانع القوى ولكن انضم أمركم ايانا بالكفر الى طول الامد وامتداد المدد فكفرنا فكان
قولكم جزء السبب ويحتمل وجها آخر وهو ان يكون المراد بل مكركم بالليل والنهار فحذف
المضاف اليه وقوله اذ تأمروننا أن نكفر بالله أى ننكره ونجعل له أنداد هذا يبين ان
المشرك بالله مع انه فى الصورة مثبت لكنه فى الحقيقة منكر لوجود الله لان من يساويه
المخلوق المنحوت لا يكون الها وقوله فى الاول يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين
استضعفوا بلفظ المستقبل وقوله فى الآيتين المتأخرتين قال الذين استكبروا وقال الذين
استضعفوا بصيغة الماضى مع ان السؤال والتراجع فى القول لم يقع اشارة الى ان ذلك

(قل الله) اذلاجواب سواء عندهم ايضا (وانا آواياكم لعلى هدى اوفى ضلال مبين) اى وان أحد الفريقين من الذين يوحدون والمتوحد بالرزق والقدرة الذاتية ويخصونه بالعبادة والذين يشركون به فى العبادة الجماد النازل فى أدنى المراتب الامكانية لعلى أحد الامرين من الهدى والضلال المبين وهذا بعدما سبق من التقرير البليغ الناطق بتعيين من هو على الهدى ومن هو فى الضلال أبلغ من التصريح بذلك لجريانه على سنن ﴿ ٢٠ ﴾ الانصاف المسكت للخصم الالد وقرئ وانا أو ياكم اما على هدى أوفى ضلال مبين واختلاف الجارين للايذان بان الهادى كمن استعلى منارا ينظر الاشياء ويتطلع عليها والضال كأنه منغمس فى ظلام لايرى شيئا أو محبوس فى مطمورة لايستطيع الخروج منها (قل لاتسألون عما أجرمنا ولانسأل عما تعملون) وهذا أبلغ فى الانصاف وأبعد من الجدل والاعتساف حيث أسند فيه الاجرام وان أريد به الزلة وترك الاولى الى أنفسهم ومطلق العمل الى المخاطبين مع أن أعمالهم أكبر الكبائر (قل يجمع بيننا ربنا) يوم القيامة عند الحشر والحساب (ثم يفتح بيننا بالحق) أى يحكم بيننا ويفصل بعد ظهور حال كل منا ومنكم بأن يدخل المحقين الجنة والمبطلين النار (وهو الفتاح) الحاكم الفيصل فى القضايا المنغلقة (العليم) بما ينبغى أن يقضى به (قل أرونى الذين ألحقتم) أى ألحقتموهم (به شركاء) أريد بأمرهم بإراءة الاصنام مع كونها بمرأى منه عليه الصلاة والسلام اظهار خطئهم العظيم واطلاعهم على بطلان رأيهم أى أرونيها لانظر بأى صفة ألحقتموها بالله الذى ليس كمثله شئ فى استحقاق العبادة ﴿ ايضا ﴾ وفيه مزيد تبكيت لهم بعد الزام الحجة عليهم (كلا) ردع لهم عن المشاركة بعد ابطال المقايسة (بل هو الله العزيز الحكيم) أى الموصوف بالغلبة القاهرة والحكمة الباهرة فاين شركاؤكم التى أخس الاشياء واذلها من هذه الرتبة العالية والضمير اما لله عز وعلا أو للشان كما فى قل هو الله أحد (وما أرسلناك الا كافة للناس) أى الا رسالة عامة لهم فانها اذا عمتهم فقد كفتهم أن يخرج منها

لابد وان يقع فان الامر الواجب الوقوع يوجد كأنه وقع الاترى الى قوله تعالى انك ميت وانهم ميتون * ثم قال تعالى (واسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الاغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون) معناه انهم يتراجعون القول فى الاول ثم اذا جاءهم العذاب الشاغل يسرون ذلك التراجع الدال على الندامة وقيل معنى الاسرار الاظهار اى اظهروا الندامة ويحتمل ان يقال بأنهم لما تراجعوا فى القول رجعوا الى الله بقولهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا ثم أجيبوا وأخبروا بأن لا مرد لكم فأسروا ذلك القول وقوله وجعلنا الاغلال فى اعناق الذين كفروا اشارة الى كيفية العذاب والى ان مجرد الرؤية ليس كافيا بل لما رأوا العذاب قطعوا بأنهم واقعون فيه فتركوا الندم ووقعوا فيه فجعل الاغلال فى أعناقهم وقوله هل يجزون الا ما كانوا يعملون اشارة الى ان ذلك حقهم عدلا * ثم قال تعالى (وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) تسلية لقلب النبى صلى الله عليه وسلم وبيانا لان ايذاء الكفار الانبياء الاخيار ليس بدعا بل ذلك عادة جرت من قبل وانما نسب القول الى المترفين مع ان غيرهم أيضا قالوا انا بما أرسلتم به كافرون لان الاغنياء المترفين هم الاصل فى ذلك القول ألا ترى ان الله قال عن الذين استضعفوا انهم قالوا للمستكبرين لولا أنتم لكنا مؤمنين ثم استدلوا على كونهم مصيبين فى ذلك بكثرة الاموال والاولاد فقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا أى بسبب لزومنا لديننا وقوله وما نحن بمعذبين أى فى الآخرة كأنهم قالوا حالنا عاجلا خير من حالكم وأما آجلا فلا نعذب اما انكارا منهم للعذاب رأسا أو اعتقاد الحسن حالهم فى الآخرة أيضا قياسا * ثم ان الله تعالى بين خطأهم بقوله (قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يعنى ان الرزق فى الدنيا لا تدل سعته وضيقه على حال المحق والمبطل فكم من موسر شقى ومعسر تقى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ان قلة الرزق وضنك العيش وكثرة المال وخصب العيش بالمشيئة من غير اختصاص بالفاسق والصالح * ثم بين فساد استدلالهم بقوله (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون) يعنى قولكم نحن أكثر أموالا فنحن أحسن عند الله حالا ليس استدلالا صحيحا فان المال لا يقرب الى الله ولا اعتبار بالتعزز به وانما المفيد العمل الصالح بعد الايمان والذى يدل عليه هو أن المال والولد يشغل عن الله فيبعد عنه فكيف يقرب منه والعمل الصالح اقبال على الله واشتغال بالله ومن توجه الى الله وصل ومن طلب من الله شيئا حصل وقوله فأولئك لهم جزاء الضعف أى الحسنة فان الضعف لا يكون الا فى الحسنة وفى السيئة لا يكون الا المثل ثم زاد وقال وهم فى الغرفات آمنون اشارة الى دوام النعيم وتأبيده فان من تنقطع عنه النعمة لا يكون آمنا * ثم بين حال المسئ بقوله (والذين يسعون فى آياتنا معاجزين) وقد ذكرنا تفسيره وقوله (أولئك فى العذاب محضرون) اشارة الى الدوام

احد منهم أو الاجامعا لهم فى الابلاغ فهى حال من الكاف والتاء للمبالغة ولا سبيل الى جعلها حالا من الناس لاستحالة تقدم الحال على صاحبها المجرور (بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لايعلمون) ذلك فيحملهم جهلهم على ماهم عليه من الغى والضلال (ويقولون) من فرط جهلهم وغاية غيهم (متى هذا الوعد) بطريق الاستهزاء يعنون به المبشر به والمنذر عنه او الموعود بقوله تعالى يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا (ان كنتم صادقين) ﴿٢١﴾ مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به (قل لكم ميعاد يوم) أى وعد يوم او زمان وعد والاضافة للتبيين وقرئ ميعاد يوم منونين على البدل ويوما باضمار أعنى للتعظيم (لاتستأخرون عنه) عند مفاجأته (ساعة ولاتستقدمون) صفة لميعاد وفى هذا الجواب من المبالغة فى التهديد مالا يخفى حيث جعل الاستئخار فى الاستحالة كالاستقدام الممتنع عقلا وقد مر بيانه مرارا ويجوز أن يكون نفى الاستئخار والاستقدام غير مقيد بالمفاجأة فيكون وصف الميعاد بذلك لتحقيقه وتقريره (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) أى من الكتب القديمة الدالة على البعث وقيل ان كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروهم انهم يجدون نعته فى كتبهم فغضبوا فقالوا ذلك وقيل الذى بين يديه القيامة (ولو ترى اذ الظالمون) المنكرون للبعث (موقوفون عند ربهم) أى فى موقف المحاسبة (يرجع بعضهم الى بعض القول) أى يتحاورون ويتراجعون القول (يقول الذين استضعفوا) بدل من يرجع الخ أى يقول الاتباع (للذين استكبروا) فى الدنيا واستتبعوهم فى الغى والضلال (لولا أنتم) أى لولا اضلالكم وصدكم لنا عن الايمان (لكنا مؤمنين) باتباع الرسول عليه الصلاة والسلام (قال الذين استكبروا للذين استضعفوا) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال الذين استكبروا فى الجواب فقيل قالوا (أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين) منكرين لكونهم هم الصادين لهم عن الايمان مثبتين أنهم هم الصادون

أيضا كما قال تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وكما قال تعالى وماهم عنها بغائبين ❊ ثم قال تعالى مرة أخرى (قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين) اشارة الى أن نعيم الآخرة لاينافى نعمة الدنيا بل الصالحون قد يحصل لهم فى الدنيا النعم مع القطع بحصول النعيم لهم فى العقبى بناء على الوعد قطعا لقول من يقول اذا كانت العاجلة لنا والآجلة لهم فالنقد أولى فقال هذا النقد غير مختص بكم فان كثيرا من الاشقياء مدقعون وكثير من الاتقياء ممتعون وفيه مسائل (الاولى) ذكر هذا المعنى مرتين مرة لبيان أن كثرة أموالهم وأولادهم غير دالة على حسن أحوالهم واعتقادهم ومرة لبيان انه غير مختص بهم كأنه قال وجود الترف لايدل على الشرف ثم ان سلمنا انه كذلك لكن المؤمنين سيحصل لهم ذلك فان الله يملككم دياركم وأموالكم والذى يدل عليه هو ان الله تعالى لم يذكر أولا لمن يشاء من عباده بل قال ان يشاء وثانيا قال لمن يشاء من عباده والعباد المضافة يراد بها المؤمن ثم وعد المؤمن بخلاف مال الكافر فان الكافر دابره مقطوع وماله الى الزوال وما له الى الوبال وأما المؤمن فماينفقه يخلفه الله ومخلف الله خير فان ما فى يد الانسان فى معرض البوار والتلف وهما لايتطرقان الى ما عند الله من الخلف ثم أكد ذلك بقوله والله خير الرازقين وخيرية الرازق فى أمور (احدها) أن لايؤخر عن وقت الحاجة (والثانى) أن لاينقص عن قدر الحاجة (والثالث) أن لاينكده بالحساب (والرابع) أن لايكدره بطلب الثواب والله تعالى كذلك اما الاول فلانه عالم وقادر والثانى فلانه غنى واسع والثالث فلانه كريم وقد ذكر ذلك بقوله يرزق من يشاء بغير حساب وماذكرنا هو المراد أى يرزقه حلالا لايحاسبه عليه والرابع فلانه على كبير والثواب يطلبه الادنى من الاعلى الاترى أن هبة الاعلى من الادنى لاتقتضى ثوابا (المسئلة الثانية) قوله تعالى وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه تحقيق معنى قوله عليه الصلاة والسلام ما من يوم يصبح العباد فيه الا وملكان ينزلان يقول أحدهما اللهم اعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفا وذلك لان الله تعالى ملك على وهو غنى ملى فاذا قال أنفق وعلى بدله فبحكم الوعد يلزمه كما اذا قال قائل ألق متاعك فى البحر وعلى ضمانه فمن أنفق فقد أتى بما هو شرط حصول البدل فيحصل البدل ومن لم ينفق فالزوال لازم للمال ولم يأت بما يستحق عليه من البدل فيفوت من غير خلف وهو التلف ثم ان من العجب ان التاجر اذا علم ان مالا من أمواله فى معرض الهلاك يبيعه نسيئة وان كان من الفقراء ويقول بأن ذلك أولى من الاهمال الى الهلاك فان لم يبع حتى يهلك ينسب الى الخطا ثم ان حصل به كفيل ملى ولا يبيع ينسب الى قلة العقل فان حصل به رهن وكتب به وثيقة ولا يبيعه ينسب الى الجنون ثم ان كل أحد يفعل هذا ولايعلم ان ذلك قريب من الجنون فان أموالنا كلها فى معرض الزوال المحقق والانفاق على الاهل والولد اقراض وقد حصل الضامن الملى وهو الله العلى وقال تعالى وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه ثم رهن

بأنفسهم بسبب كونهم راسخين في الاجرام (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا) اضرابا عن اضرابهم وابطالا له (بل مكر الليل والنهار) أي بل صدنا مكركم بنا بالليل والنهار فحذف المضاف اليه وأقيم مقامه الظرف اتساعا أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الاسناد المجازي وقرئ بل مكر الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين اي بل صدنا مكركم في الليل والنهار على أن التنوين عوض عن المضاف اليه أو مكر عظيم على أنه للتفخيم وقرئ بل ﴿٢٢﴾ مكر الليل والنهار بالرفع والنصب اي تكرون الاغواء مكرا دائبا لاتفترون عنه فالرفع على الفاعلية أي بل صدنا مكركم الاغواء في الليل والنهار على ماسبق من الاتساع في الظرف باقامته مقام المضاف اليه والنصب على المصدرية أي بل تكرون الاغواء مكر الليل والنهار أي مكرا دائما وقوله تعالى (اذ تأمروننا) ظرف للمكر أي بل مكركم الدائم وقت أمركم لنا أن نكفر بالله ونجعل له اندادا) على أن المراد بمكرهم اما نفس امرهم بما ذكر كما في قوله تعالى ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا فان الجعلين المذكورين نعمة من الله تعالى واي نعمة واما امور أخر مقارنة لامرهم داعية الى الامتثال به من الترغيب والترهيب وغير ذلك (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) أي أضمر الفريقان الندامة على مافعلا من الضلال والاضلال وأخفاها كل منهما عن الآخر مخافة التعيير أو أظهروها فانه من الاضداد وهو المناسب لحالهم (وجعلنا الاغلال في أعناق الذين كفروا) أي في أعناقهم والاظهار في موضع الاضمار للتنويه والتنبيه على موجب اغلالهم (هل يجزون الا ما كانوا يعملون) أي ﴿ وقالوا ﴾ لا يجزون الا جزاء ما كانوا يعملون او الا بما كانوا يعملونه على نزع الجار (وما أرسلنا في قرية) من القرى (من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما مني به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به والمنافسة بكثرة الاموال والاولاد والمفاخرة بحظوظ الدنيا وزخارفها والتكبر بذلك

عند كل واحد اما أرضا أو بستانا أو طاحونة أو حماما أو منفعة فان الانسان لابد من أن يكون له صنعة أو جهة تحصل له منها المال وكل ذلك ملك الله وفي يد الانسان بحكم العارية فكأنه مرهون بما تكفل الله من رزقه ليحصل له الوثوق التام ومع هذا لا ينفق ويترك ماله ليتلف لا مأجورا ولا مشكورا (المسألة الثالثة) قوله خير الرازقين ينبئ عن كثرة في الرازقين ولا رازق الا الله فالجواب عنه فنقول عنه جوابان (أحدهما) ان يقال الله خير الرازقين الذين تظنونهم رازقين وكذلك في قوله تعالى وهو أحسن الخالقين (وثانيهما) هو ان الصفات منها ما حصل لله وللعبد حقيقة ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة وللعبد بطريق المجاز ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة ولا يقال للعبد لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز لعدم حصوله للعبد لا حقيقة ولا صورة مثال الاول العلم فان الله يعلم انه واحد والعبد يعلم انه واحد بطريق الحقيقة وكذلك العلم بكون النار حارة غاية ما في الباب ان علمه قديم وعلمنا حادث مثال الثاني الرازق والخالق فان العبد اذا أعطى غيره شيأ فان الله هو المعطي ولكن لاجل صورة العطاء منه سمي معطيا كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط فرس وانسان مثال الثالث الازلي والله وغيرهما وقد يقال في الاشياء في الاطلاق على العبد حقيقة وعلى الله مجازا كالاستواء والنزول والمعية ويد الله وجنب الله * ثم قال تعالى (ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) لما بين ان حال النبي صلى الله عليه وسلم كحال من تقدمه من الانبياء وحال قومه كحال من تقدم من الكفار وبين بطلان استدلالهم بكثرة اموالهم وأولادهم بين ما يكون عاقبة حالهم فقال ويوم نحشرهم جميعا يعني المكذبين بك ومن تقدمك ثم نقول لمن يدعون انهم يعبدونهم وهم الملائكة فان غاية ما ترتقي اليه منزلتهم انهم يقولون نحن نعبد الملائكة والكواكب فيسأل الملائكة انهم كانوا يعبدونكم اهانة لهم فيقول كل منهم سبحانك ننزهك عن أن يكون غيرك معبودا وأنت معبودنا ومعبود كل خلق وقولهم أنت ولينا من دونهم اشارة الى معنى لطيف وهو ان مذاهب الناس مختلفة بعضهم لا يسكن المواضع المعمورة التي يكون فيها سواد عظيم لانه لا يترأس هناك فيرضى بالضياع والبلاد الصغيرة وبعضهم لا يريد البلاد الصغيرة لعدم اجتماعه فيها بالناس وقلة وصوله فيها الى الاكياس ثم ان الفريقين جميعا اذا عرض عليهم خدمة السلطان واستخدام الارذال الذين لا التفات اليهم أصلا يختار العاقل خدمة السلطان على استخدام من لا يؤبه به ولو أن رجلا سكن جبلا ووضع بين يديه شيأ من القاذورات واجتمع عليه الذباب والديدان وهو يقول هؤلاء أتباعي وأشياعي ولا أدخل المدينة مخافة ان احتاج الى خدمة السلطان العظيم والتردد اليه ينسب الى جنون فكذلك من رضي بأن يترك خدمة الله وعبادته ورضي باستتباع الهمج الذين هم أضل من البهائم وأول من الهوام يكون مجنونا فقالوا أنت ولينا من دونهم يعني كونك ولينا بالمعبودية أولى وأحب الينا من كونهم أولياء بالعبادة لنا

وقالوا بل كانوا يعبدون الجن أى كانوا ينقادون لامر الجن فهم فى الحقيقة كانوا يعبدون الجن ونحن كنا كالقبلة لهم لان العبادة هى الطاعة وقوله تعالى أكثرهم بهم مؤمنون لوقال قائل جميعهم كانوا تابعين للشياطين فاوجه قوله أكثرهم بهم مؤمنون فانه ينبئ أن بعضهم لم يؤمن بهم ولم يطع لهم نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الملائكة احترزوا عن دعوى الاحاطة بهم فقالوا أكثرهم لان الذين رأوهم واطلعوا على أحوالهم كانوا يعبدون الجن و يؤمنون بهم ولعل فى الوجود من لم يطلع الله الملائكة عليه من الكفار (الثانى) هو أن العبادة عمل ظاهر والايمان عمل باطل فقالوا بل كانوا يعبدون الجن لاطلاعهم على أعمالهم وقالوا أكثرهم بهم مؤمنون عند عمل القلب لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على ما فى القلوب فان القلب لا اطلاع عليه الا لله كما قال تعالى انه عليم بذات الصدور ❊ ثم بين ان ما كانوا يعبدونه لا ينفعهم فقال (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الخطاب بقوله بعضكم مع من نقول يحتمل أن يكون مع الملائكة لسبق قوله تعالى أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون وعلى هذا يكون ذلك تنكيلا للكافرين حيث بين لهم أن معبودهم لا ينفع ولا يضر ويصحح هذا قوله تعالى لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا وقوله ولا يشفعون الا لمن ارتضى ولانه قال بعده ونقول للذين ظلموا ذوقوا وأفردهم ولو كان المخاطب هم الكفار لقال فذوقوا وعلى هذا يكون الكفار داخلين فى الخطاب حتى يصح معنى قوله بعضكم لبعض أى الملائكة للكفار والحاضر الواحد يجوز أن يجعل من يشاركه فى أمر مخاطبا بسببه كما يقول القائل لواحد حاضر له شريك فى كلام أنتم قلتم على معنى أنت قلت وهم قالوا ويحتمل أن يكون معهم الجن أى لا يملك بعضكم لبعض أيها الملائكة والجن واذا لم تملكوها لانفسكم فلا تملكوها لغيركم ويحتمل أن يكون المخاطب الكفار لان ذكر اليوم يدل على حضورهم وعلى هذا فقوله ونقول للذين ظلموا انما ذكره تأكيدا لبيان حالهم فى الظلم وسبب نكالهم من الاثم ولو قال فذوقوا عذاب النار لكان كافيا لكنه لا يحصل ما ذكرنا من الفائدة فانهم كلما كانوا يسمعون ما كانوا عليه من الظلم والعناد والاثم والفساد يتحسرون ويندمون (المسئلة الثانية) قوله نفعا مفيد الحسرة وأما الضر ففى الفائدة فيه مع انهم لو كانوا يملكون الضر لما نفع الكافرين ذلك فنقول لما كانت العبادة تقع لدفع ضر المعبود كما يعبد الجبار ويخدم مخافة شره بين انهم ليس فيهم ذلك الوجه الذى يحسن لاجله عبادتهم (المسئلة الثالثة) قال ههنا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون وقال فى السجدة عذاب النار الذى كنتم به جعل المكذب هنالك العذاب وجعل المكذب ههنا النار وهم كانوا يكذبون بالكل والفائدة فيها أن هناك لم يكن أول ما رأوا النار بل كانوا هم فيها من زمان بدليل قوله تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم

على المؤمنين والاستهانة بهم من أجله وقولهم أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا بانه لم يرسل قط الى اهل قرية من نذير الاقال مترفوهم مثل ما قال مترفوا أهل مكة فى حقه عليه الصلاة والسلام وكادوا به نحو ما كادوا به عليه الصلاة والسلام وقاسوا أمور الآخرة الموهومة والمفروضة عندهم على أمور الدنيا وزعموا أنهم لو لم يكرموا على الله تعالى لما رزقهم طيبات الدنيا ولولا أن المؤمنين هانوا عليه تعالى لما حرمهموها وعلى ذلك الرأى الركيك بنوا احكامهم (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) اما بناء على انتفاء العذاب الاخروى رأسا أو على اعتقاد أنه تعالى اكرمهم فى الدنيا فلا يهينهم فى الآخرة على تقدير وقوعها (قل) ردا عليهم وحسما لمادة طمعهم الفارغ وتحقيقا للحق الذى عليه يدور أمر التكوين (ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء) أن يبسطه (ويقدر) على من يشاء أن يقدره عليه من غير أن يكون لاحد من الفريقين داع الى ما فعل به من البسط والقدر فربما يوسع على العاصى ويضيق على المطيع وربما يعكس الامر وربما يوسع عليهما معا وقد يضيق عليهما وقد يوسع على شخص تارة ويضيق عليه أخرى يفعل كلا من ذلك حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة فلا يقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب اللذين مناطهما الطاعة وعدمها وقرئ ويقدر بالتشديد (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيزعمون أن مدار البسط هو الشرف والكرامة ومدار القدر هو الهوان ولا يدرون أن الاول كثيرا ما يكون بطريق الاستدراج والثانى بطريق الابتلاء ورفع الدرجات (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) كلام مستأنف من جهته عز وعلا خوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغة فى تحقيق الحق وتقرير ما سبق أى وما جماعة أموالكم وأولادكم بالجماعة التى تقربكم عندنا قربة فان الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء فى حكم التأنيث أو بالخصلة التى تقربكم وقرئ بالذى أى بالشئ الذى (الا من آمن وعمل صالحا) استثناء

من مفعول تقربكم أي وما الاموال والاولاد تقرب أحدا الا المؤمن الصالح الذي أنفق أمواله في سبيل الله تعالى وعلم أولاده الخير
ورباهم على الصلاح ورشحهم للطاعة وقيل من أموالكم وأولادكم على حذف المضاف أي الا أموال من الخ (وأولئك) اشارة
الى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد في الفعلين باعتبار لفظها ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو
رتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل أي فأولئك المنعوتون بالايمان والعمل ﴿ ٢٤ ﴾ الصالح (لهم جزاء الضعف) أي ثابت لهم
ذلك على أن الجار والمجرور
خبر لما بعده والجملة خبر لاولئك
وفيه تأكيد لتكرر الاسناد أو
يثبت لهم ذلك على أن الجار
والمجرور خبر لاولئك وما
بعده مرتفع على الفاعلية
واضافة الجزاء الى الضعف
من اضافة المصدر الى المفعول
أصله فأولئك لهم أن يجازوا
الضعف ثم جزاء الضعف ثم
جزاء الضعف ومعناه أن
تضاعف لهم حسناتهم
الواحدة عشرا فما فوقها
وقرئ جزاء الضعف على
فأولئك لهم الضعف جزاء
وجزاء الضعف على أن يجازوا
الضعف وجزاء الضعف بالرفع
على ان الضعف بدل من جزاء
(بما عملوا) من الصالحات
(وهم في الغرفات) أي غرفات
الجنة (آمنون) من جميع المكاره
وقرئ بفتح الراء وسكونها
وقرئ في الغرفة على ارادة
الجنس (والذين يسعون في
آياتنا) بالرد والطعن فيها
(معاجزين) سابقين لانبيائنا
أو زاعمين أنهم يفوتوننا (أولئك
في العذاب محضرون) لا يجديهم
ما عولوا عليه نفعا (قل ان ربي
يبسط الرزق لمن يشاء من عباده)
أي يوسعه عليه تارة (ويقدر له)
أي يضيقه عليه تارة أخرى فلا تخشوا الفقر وأنفقوا في سبيل الله وتعرضوا لنفحاته تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) ﴿من﴾
عوضا اما عاجلا واما آجلا (وهو خير الرازقين) فان غيره واسطة في ايصال رزقه لا حقيقة لرازقيته (ويوم يحشرهم جميعا) أي
المستكبرين والمستضعفين وما كانوا يعبدون من دون الله ويوم ظرف لمضمر متأخر سيأتي تقديره أو مفعول لمضمر مقدم نحو اذكر
(ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون) تقريعا للمشركين وتبكيتا لهم على نهج قوله تعالى أأنت قلت للناس اتخذوني

ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون أي العذاب المؤبد الذي أنكرتموه بقولكم لن
تمسنا النار الا أياما معدودة أي قلتم ان العذاب ان وقع فلا يدوم فذوقوا الدائم وههنا
أول ما رأوا النار لانه مذكور عقيب الحشر والسؤال فقيل لهم هذه النار التي كنتم بها
تكذبون * ثم قال تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم
عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا
سحر مبين) اظهارا لفساد اعتقادهم واشتداد عنادهم حيث تبين أن أعلى من يعبدونه وهم
الملائكة لا يتأهل للعبادة لذواتهم كما قالوا سبحانك أنت ولينا أي لا أهلية لنا الا عبادتك
من دونهم أي لا أهلية لنا لان نكون معبودين لهم ولا نفع أو ضر كما قال تعالى فاليوم
لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ثم مع هذا كله اذا قال لهم النبي عليه السلام كلاما من
التوحيد وتلا عليهم آيات الله الدالة عليه فان لله في كل شيء آيات دالة على وحدانيته
أنكروها وقالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم يعني يعارضون
البرهان بالتقليد وقالوا ما هذا الا افك مفترى وهو يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون
المراد ان القول بالوحدانية افك مفترى ويدل عليه هو ان الموحد كان يقول في حق
المشرك انه يأفك كما قال تعالى في حقهم أئفكا آلهة دون الله تريدون وكما قالوا هم للرسول
أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا (وثانيها) أن يكون المراد ما هذا الا افك أي القرآن افك وعلى
الاول يكون قوله وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين اشارة الى
القرآن وعلى الثاني يكون اشارة الى ما أتى به من المعجزات وعلى الوجهين فقوله تعالى
وقال الذين كفروا بدلا عن أن يقول وقالوا للحق هو ان انكار التوحيد كان مختصا
بالمشركين وأما انكار القرآن والمعجزات كان متفقا عليه بين المشركين وأهل الكتاب فقال
تعالى وقال الذين كفروا للحق على وجه العموم * ثم قال تعالى (وما آتيناهم من كتب
يدرسونها وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار
ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير) وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير تأكيد لبيان
تقليدهم يعني يقولون عندما تتلى عليهم الآيات البينات هذا رجل كاذب وقولهم افك
مفترى من غير برهان ولا كتاب انزل عليهم ولا رسول أرسل اليهم فالآيات البينات
لا تعارض الا بالبراهين العقلية ولم يأتوا بها أو بالنقليات وما عندهم كتاب ولا رسول غيرك
والنقل المعتبر آيات من كتاب الله أو خبر رسول ثم بين أنهم كالذين من قبلهم كذبوا مثل
عاد وثمود وقوله تعالى وما بلغوا معشار ما آتيناهم قال المفسرون معناه وما بلغ هؤلاء
المشركون معشار ما آتينا المتقدمين من القوة والنعمة وطول العمر ثم ان الله أخذهم
وما نفعتهم قوتهم فكيف حال هؤلاء الضعفاء وعندي يحتمل ذلك وجها آخر وهو أن
يقال المراد وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم أي الذين من قبلهم ما بلغوا
معشار ما آتينا قوم محمد من البيان والبرهان وذلك لان كتاب محمد عليه السلام أكمل

وأمي الخ واقناطالهم عماعلقوا به أطماعهم الفارغة من شفاعتهم وتخصيص الملائكة لانهم أشرف شركائهم والصالحون للخطاب منهم ولان عبادتهم مبدأ الشرك فبظهور قصورهم عن رتبة المعبودية وتنزههم عن عبادتهم يظهر حال سائر شركائهم بطريق الاولوية وقرئ الفعلان بالنون (قالوا) استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية سؤال الملائكة كأنه قيل فماذا يقول الملائكة حينئذ فقيل يقولون متنزهين عن ذلك ﴿ ٢٥ ﴾ (سبحانك أنت ولينا من دونهم) والعدول الى صيغة الماضي للدلالة على التحقق أي أنت الذي نواليه من دونهم لاموالاة بيننا وبينهم كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم (بل كانوا يعبدون الجن) أي الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله سبحانه وتعالى وقيل كانوا يتمثلون لهم ويخيلون لهم أنهم الملائكة فيعبدونهم وقيل يدخلون أجواف الاصنام اذا عبدت فيعبدون بعبادتها (أكثرهم بهم مؤمنون) الضمير الاول للانس أو للمشركين والاكثر بمعنى الكل والثاني للجن (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا) من جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتنزه والتبرؤ عما نسب اليهم الكفرة يخاطبون بذلك على رؤس الاشهاد اظهارا لعجزهم وقصورهم عند عبدتهم وتنصيصا على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية والفاء ليست لترتيب ما بعدها من الحكم على جواب الملائكة فانه محقق أجابوا بذلك أم لا بل لترتيب الاخبار به عليه ونسبة عدم النفع والضر الى البعض المبهم ﴿ ٤ ﴾ سا للمبالغة فيما هو المقصود الذي هو بيان عدم نفع الملائكة للعبدة بنظمه في سلك عدم نفع العبدة لهم كأن نفع الملائكة لعبدتهم في الاستحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم والتعرض لعدم الضر مع أنه لا بحث عنه اصلا اما لتعميم العجز أو لحمل عدم النفع على تقدير العبادة وعدم الضر على تقدير تركها أو لان المراد دفع الضر على حذف المضاف وتقييد هذا الحكم بذلك اليوم مع ثبوته على الاطلاق لانعقاد رجائهم على تحقق النفع

من سائر الكتب وأوضح ومحمد عليه السلام أفضل من جميع الرسل وأفصح وبرهانه أوفى وبيانه أشفى ثم ان المتقدمين لما كذبوا بما جاءهم من الكتب وبمن أتاهم من الرسل انكر عليهم وكيف لا ينكر عليهم وقد كذبوا بأفصح الرسل وأوضح السبل ويؤيد ما ذكرنا من المعنى قوله تعالى وما آتيناهم من كتب يدرسونها يعني غير القرآن ما آتيناهم كتابا وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير فلما كان المؤتى في الآية الاولى هو الكتاب فحمل الايتاء في الآية الثانية على ايتاء الكتاب أولى ثم قال تعالى (قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) ذكر الاصول الثلاثة في هذه الآية بعد ما سبق منه تقريرها بالدلائل فقوله أن تقوموا لله اشارة الى التوحيد وقوله ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم اشارة الى الرسالة وقوله بين يدي عذاب شديد اشارة الى اليوم الآخر وفي الآية مسائل (الاولى) قوله انما أعظكم بواحدة يقتضي أن لا يكون الا بالتوحيد والايمان لا يتم الا بالاعتراف بالرسالة والحشر فكيف يصح الحصر المذكور بقوله انما أعظكم بواحدة فنقول التوحيد هو المقصود ومن وحد الله حق التوحيد يشرح الله صدره ويرفع في الآخرة قدره فالنبي صلى الله عليه وسلم أمرهم بما يفتح عليهم أبواب العبادات ويهيئ لهم أسباب السعادات وجواب آخر وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم ما قال اني لا آمركم في جميع عمري الا بشيء واحد وانما قال أعظكم أولا بالتوحيد ولا آمركم في أول الامر بغيره لانه سابق على الكل ويدل عليه قوله تعالى ثم تتفكروا فان الفكر أيضا صار مأمورا به وموعوظا (المسئلة الثانية) قوله بواحدة قال المفسرون أنثها على انها صفة خصلة أي أعظكم بخصلة واحدة ويحتمل أن يقال المراد حسنة واحدة لان التوحيد حسنة واحسان وقد ذكرنا في قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان ان العدل نفي الالهية عن غير الله والاحسان اثبات الالهية له وقيل في تفسير قوله تعالى هل جزاء الاحسان الا الاحسان أن المراد هل جزاء الايمان الا الجنان وكذلك يدل عليه قوله تعالى ومن احسن قولا ممن دعا الى الله (المسئلة الثالثة) قوله مثنى وفرادى اشارة الى جميع الاحوال فان الانسان اما أن يكون مع غيره أو يكون وحده فاذا كان مع غيره دخل في قوله مثنى واذا كان وحده دخل في قوله فرادى فكأنه يقول تقوموا لله مجتمعين ومنفردين لا تمنعكم الجمعية من ذكر الله ولا يحوجكم الانفراد الى معين يعينكم على ذكر الله (المسئلة الرابعة) قوله ثم تتفكروا يعني اعترفوا بما هو الاصل والتوحيد ولا حاجة فيه الى تفكر ونظر بعد ما بان وظهر ثم تتفكروا فيما أقول بعده من الرسالة والحشر فانه يحتاج الى تفكر وكلمة ثم تفيد ما ذكرنا فانه قال أن تقوموا لله ثم تتفكروا ثم بين ما يتفكرون فيه وهو أمر النبي عليه السلام فقال ما بصاحبكم من جنة (المسئلة الخامسة) قوله ما بصاحبكم من جنة يفيد كونه رسولا وان كان لا يلزم في كل من لا يكون به جنة أن يكون رسولا وذلك لان

يومئذ وقوله عز وجل (ونقول للذين ظلموا) عطف على للملائكة لا على لا يملك كما قيل فانه مما يقال يوم القيامة خطابا للملائكة مترتبا على جوابهم المحكى وهذا حكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما سيقال للعبدة يومئذ اثر حكاية ما سيقال للملائكة أى يوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة كذا وكذا ويقولون كذا وكذا ونقول للمشركين (ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون) يكون من الاهوال والاحوال ما لا يحيط به نطاق المقال ﴿ ٢٦ ﴾ وقوله تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) بيان لبعض آخر من كفرانهم أى اذا تتلى عليهم بلسان الرسول عليه الصلاة والسلام آياتنا الناطقة بحقية التوحيد وبطلان الشرك (قالوا ما هذا) يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم (الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) فيستتبعكم بما يستدعيه من غير أن يكون هناك دين الهى واضافة الآباء الى المخاطبين لا الى أنفسهم لتحريك عرق العصبية منهم مبالغة فى تقريرهم على الشرك وتنفيرهم عن التوحيد (وقالوا ما هذا) يعنون القرآن الكريم (الا افك) أى كلام مصروف عن وجهه لا مصداق له فى الواقع (مفترى) باسناده الى الله تعالى (وقال الذين كفروا للحق) أى لامر النبوة أو الاسلام أو القرآن على أن العطف لاختلاف العنوان بأن يراد بالاول معناه وبالثانى نظمه المعجز (لما جاءهم) من غير تدبر ولا تأمل فيه (ان هذا الا سحر مبين) ظاهر سحريته وفى تكرير الفعل والتصريح بذكر الكفرة وما فى اللامين من الاشارة الى القائلين والمقول فيه وما فى لما من المسارعة الى البت بهذا القول الباطل انكار عظيم له وتعجيب بليغ منه (وما آتيناهم من كتب يدرسونها) فيها دليل على صحة الاشراك ﴿ اذا ﴾ كما فى قوله تعالى أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون وقوله تعالى أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون وقرئ يدرسونها ويدرسونها بتشديد الدال يفتعلون من الدرس (وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير) يدعوهم اليه وينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا وقد بان من قبل ان لا وجه له بوجه من

النبى عليه السلام كان يظهر منه أشياء لا تكون مقدورا للبشر وغير البشر ممن تظهر منه العجائب اما الجن أو الملك واذا لم يكن الصادر من النبى صلى الله عليه وسلم بواسطة الجن يكون بواسطة الملك أو بقدرة الله تعالى من غير واسطة وعلى التقديرين فهو رسول الله وهذا من أحسن الطرق وهو أن يثبت الصفة التى هى أشرف الصفات فى البشر بنفى أخس الصفات فانه لو قال أولا هو رسول الله كانوا يقولون فيه النزاع فاذا قال ما هو مجنون لم يسعهم انكار ذلك لعلمهم بعلو شأنه وحاله فى قوة لسانه وباله فاذا ساعدوا على ذلك لزمتهم المسئلة ولهذا قال بعده ان هو الا نذير يعنى اما هو به جنة أو هو رسول لكن تبين انه ليس به جنة فهو نذير (المسئلة السادسة) قوله بين يدى عذاب شديد اشارة الى قرب العذاب كأنه قال ينذركم بعذاب حاضر يمسكم عن قريب بين يدى العذاب أى سوف يأتى العذاب بعده * ثم قال تعالى (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ان أجرى الا على الله وهو على كل شئ شهيد) لما ذكر أنه ما به جنة ليلزم منه كونه نبيا ذكر وجها آخر يلزم منه انه نبى اذا لم يكن مجنونا لان من يرتكب العناء الشديد لا لغرض عاجل اذا لم يكن ذلك فيه ثواب أخروى يكون مجنونا فالنبى عليه السلام بدعواه النبوة يجعل نفسه عرضة للهلاك عاجلا فان كل احد يقصده ويعاديه ولا يطلب أجرا فى الدنيا فهو يفعله للآخرة والكاذب فى الآخرة معذب لا مثاب فلو كان كاذبا لكان مجنونا لكنه ليس بمجنون فليس بكاذب فهو نبى صادق وقوله وهو على كل شئ شهيد تقرير آخر للرسالة وذلك لان الرسالة لا تثبت الا بالدعوى والبينة بأن يدعى شخص النبوة ويظهر الله له المعجزة فهى بينة شاهدة والتصديق بالفعل يقوم مقام التصديق بالقول فى افادة العلم بدليل أن من قال لقوم انى مرسل من هذا الملك اليكم ألزمكم قبول قولى والملك حاضر ناظر ثم قال للملك أيها الملك ان كنت انا رسولك اليهم فقل لهم انى رسولك فاذا قال انه رسولى اليكم لا يبقى فيه شك كذلك اذا قال يا أيها الملك ان كنت أنا رسولك اليهم فألبسنى قباءك فلو ألبسه قباءه فى عقب كلامه يجزم الناس بأنه رسوله كذلك حال الرسل اذا قال الانبياء لقومهم نحن رسل الله ثم قالوا يا الهنا ان كنا رسلك فأنطق هذه الحجارة أو انشر هذا الميت ففعله حصل الجزم بأنه صدقه * ثم قال تعالى (قل ان ربى يقذف بالحق علام الغيوب) وفيه وجهان (أحدهما) يقذف بالحق فى قلوب المحقين وعلى هذا الوجه للآية بما قبلها تعلق وذلك من حيث ان الله تعالى لما بين رسالة النبى صلى الله عليه وسلم بقوله ان هو الا نذير لكم وأكده بقوله قل ما سألتكم من أجر فهو لكم وكان من عادة المشركين استبعاد تخصيص واحد من بينهم بانزال الذكر عليه كما قال تعالى عنهم أأنزل عليه الذكر من بيننا ذكر ما يصلح جوابا لهم فقال قل ان ربى يقذف بالحق أى فى القلوب اشارة الى أن الامر بيده يفعل ما يريد ويعطى ما يشاء لمن يشاء ثم قال تعالى علام الغيوب اشارة الى جواب سؤال فاسد يذكر عليه وهو ان من يفعل شيئا كما يريد من غير اختصاص محل الفعل بشئ لا يوجد فى غيره لا يكون عالما وانما فعل ذلك اتفاقا كما

الوجوه فمن أين ذهبوا هذا المذهب الزائغ وهذا غاية تجهيل لهم وتسفيه لرأيهم ثم هددهم بقوله تعالى (وكذب الذين من قبلهم) من الامم المتقدمة والقرون الخالية كما كذبوا (وما بلغوا معشار ما آتيناهم) أي ما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال أو ما بلغ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى (فكذبوا رسلي) عطف على كذب الذين الخ بطريق التفصيل والتفسير كقوله تعالى كذبت قبلهم ﴿٢٧﴾ قوم نوح فكذبوا عبدنا الخ (فكيف كان نكير) أي انكاري لهم بالتدمير فليحذر هؤلاء من مثل ذلك (قل انما أعظكم بواحدة) أي ما أرشدكم وأنصح لكم الا بخصلة واحدة هي ما دل عليه قوله تعالى (أن تقوموا لله) على أنه بدل منها أو بيان لها أو خبر مبتدأ محذوف أي هي أن تقوموا من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تنتصبوا للامر خالصا لوجه الله تعالى معرضا عن المماراة والتقليد (مثنى وفرادى) أي متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا فان الازدحام يشوش الافهام ويخلط الافكار بالاوهام وفي تقدم مثنى ايذان بأنه أوثق وأقرب الى الاطمئنان (ثم تتفكروا) في أمره عليه الصلاة والسلام وما جاء به لتعلموا حقيقته وحقيته وقوله تعالى (ما بصاحبكم من جنة) استئناف مسوق من جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمل بأن مثل هذا الامر العظيم الذي تحته ملاك الدنيا والآخرة لا يتصدى لادعائه الا مجنون لا يبالي بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان وظهور عجزه أو مؤيد من عند الله مرشح للنبوة واثق بحجته وبرهانه واذ قد علمتم أنه عليه الصلاة والسلام أرجح العالمين عقلا وأصدقهم قولا وأزكاهم نفسا وأفضلهم علما وأحسنهم عملا وأجمعهم للكمالات البشرية وجب أن تصدقوه في دعواه فكيف وقد انضم الى ذلك معجزات تخر لها صم الجبال ويجوز أن يتعلق بما قبله على معنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوز أن تكون ما استفهامية على معنى ثم تتفكروا اي شيء به من آثار الجنون (ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) هو عذاب الآخرة فانه عليه

اذا أصاب السهم موضعا دون غيره مع تسوية المواضع في المحاذاة فقال يقذف بالحق كيف يشاء وهو عالم بما يفعله وعالم بعواقب ما يفعله فهو يفعل ما يريد لا كما يفعله الهاجم الغافل عن العواقب اذ هو علام الغيوب (الوجه الثاني) أن المراد منه هو أنه يقذف بالحق على الباطل كما قال في سورة الانبياء بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه وعلى هذا تعلق الآية بما قبلها أيضا ظاهر وذلك من حيث ان براهين التوحيد لما ظهرت وشبههم دحضت قال قل ان ربي يقذف بالحق أي على باطلكم وقوله علام الغيوب على هذا الوجه له معنى لطيف وهو أن البرهان الباهر المعقول الظاهر لم يقم الا على التوحيد والرسالة وأما الحشر فعلى وقوعه لا برهان غير اخبار الله تعالى عنه وعن أحواله وأهواله ولولا بيان الله بالقول لما بان لاحد بخلاف التوحيد والرسالة فلما قال يقذف بالحق أي على الباطل اشارة الى ظهور البراهين على التوحيد والنبوة قال علام الغيوب أي ما يخبره عن الغيب وهو قيام الساعة وأحوالها فهو لا خلاف فيه فان الله علام الغيوب والآية تحتمل تفسيرا آخر وهو أن يقال ربي يقذف بالحق أي ما يقذفه يقذفه بالحق لا بالباطل والباء على الوجهين الاولين متعلق بالمفعول به أي الحق مقذوف وعلى هذا الباء فيه كالباء في قوله وقضى بينهم بالحق وفي قوله فاحكم بين الناس بالحق والمعنى على هذا الوجه هو ان الله تعالى قذف ما قذف في قلب الرسل وهو علام الغيوب يعلم ما في قلوبهم وما في قلوبكم * ثم قال تعالى (قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد) لما ذكر الله أنه يقذف بالحق وكان ذلك بصيغة الاستقبال ذكر أن ذلك الحق قد جاء وفيه وجوه (أحدها) انه القرآن (الثاني) انه بيان التوحيد والحشر وكل ما ظهر على لسان النبي صلى الله عليه وسلم (الثالث) المعجزات الدالة على نبوة محمد عليه السلام ويحتمل أن يكون المراد من جاء الحق ظهر الحق لان كل ما جاء فقد ظهر والباطل خلاف الحق وقد بينا أن الحق هو الموجود ولما كان ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم لم يمكن انتفاؤه كالتوحيد والرسالة والحشر كان حقا لا ينتفي ولما كان ما يأتون به من الاشراك والتكذيب لا يمكن وجوده كان باطلا لا يثبت وهذا المعنى يفهم من قوله وما يبدئ الباطل أي الباطل لا يفيد شيئا في الاولى ولا في الآخرة فلا امكان لوجوده أصلا والحق الآتي به لا عدم له أصلا وقيل المراد لا يبدئ الشيطان ولا يعيد وفيه معنى لطيف وهو أن قوله تعالى قل ان ربي يقذف بالحق لما كان فيه معنى قوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه كان يقع لمتوهم أن الباطل كان فورد عليه الحق وأبطله ودمغه فقال ههنا ليس للباطل تحقق أولا وآخرا وانما المراد من قوله فيدمغه أي فيظهر بطلانه الذي لم يزل كذلك واليه الاشارة بقوله تعالى في موضع آخر وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا يعني ليس أمرا متجددا زهوق الباطل فقوله وما يبدئ الباطل أي لا يثبت في الاول شيئا خلاف الحق ولا يعيد أي لا يعيد في الآخرة شيئا خلاف الحق * ثم قال تعالى (قل ان ضللت فانما أضل على نفسي وان اهتديت فبما يوحي الي ربي انه سميع قريب)

الصلاة والسلام مبعوث فى نسم الساعة (قل ما سألتكم من اجر) أى أى شئ سألتكم من أجر على الرسالة (فهو لكم) والمراد نفى السؤال رأسا كقول من قال لمن لم يعطه شيئا ان أعطيتنى شيئا فخذه وقيل ما موصولة أريد بها ما سألهم بقوله تعالى ما أسألكم عليه من أجر الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا وقوله تعالى لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى واتخاذ السبيل اليه تعالى منفعتهم الكبرى وقرباه عليه الصلاة والسلام قرباهم (ان أجرى الا على الله وهو على كل شئ شهيد) مطلع يعلم صدقى وخلوص نيتى وقرئ ان أجرى بسكون الياء (قل ان ربى يقذف بالحق) أى يلقيه وينزله على من يجتبيه من عباده أو يرمى به الباطل فيدمغه أو يرمى به فى أقطار الآفاق فيكون وعدا باظهار الاسلام واعلاء كلمة الحق (علام الغيوب) صفة محمولة على محل ان واسمها أو بدل من المستكن فى يقذف أو خبر ثان لان أو خبر مبتدأ محذوف وقرئ بالنصب صفة لربى أو مقدرا بأعنى وقرئ بكسر الغين وبالفتح كصبور مبالغة غائب (قل جاء الحق) أى الاسلام والتوحيد (وما يبدئ الباطل وما يعيد) أى زهق الشرك بحيث لم يبق أثره أصلا مأخوذ من هلاك الحى فانه اذا هلك لم يبق له ابداء ولا اعادة فجعل مثلا فى الهلاك بالمرة ومنه قول عبيد

أقفر من أهله عبيد * فليس يبدى ولا يعيد

وقيل الباطل ابليس أو الصنم والمعنى لا ينشئ خلقا ولا يعيد أو لا يبدئ خيرا لاهله ولا يعيد وقيل ما استفهامية منصوبة بما بعدها (قل ان ضللت) عن الطريق (فانما اضل على نفسى) فان وبال ضلالى عليها لانه بسببها اذ هى الجاهلة بالذات والامارة بالسوء ﴿ الحكاية ﴾ وبهذا الاعتبار قوبل الشرطية بقوله تعالى (وان اهتديت فيما يوحى الى ربى) لان الاهتداء بهدايته وتوفيقه وقرئ ربى بفتح الياء (انه سميع قريب) يعلم قول كل من المهتدى والضلال وفعله وان بالغ فى اخفائهما (ولو ترى اذ فزعوا) عند الموت أو البعث أو يوم بدر وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان ثمانين ألفا يغزون الكعبة ليخربوها فاذا دخلوا البيداء خسف

هذا فيه تقرير الرسالة أيضا وذلك لان الله تعالى قال على سبيل العموم من اهتدى فلنفسه وقال فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وان اهتديت فبما يوحى الى ربى يعنى ضلالى على نفسى كضلالكم وأما اهتدائى فليس بالنظر والاستدلال كاهتدائكم وانما هو بالوحى المبين وقوله انه سميع أى يسمع اذا ناديته واستعديت به عليكم قريب يأتيكم من غير تأخير ليس كمن يسمع من بعد ولا يلحق الداعى * ثم قال تعالى (ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب) لما قال سميع قال هو قريب فان لم يعذب عاجلا ولا يعين صاحب الحق فى الحال فيوم الفزع آت لا فوت وانما يستعجل من يخاف الفوت وقوله ولو ترى جوابه محذوف أى ترى عجبا وأخذوا من مكان قريب لا يهربون وانما الاخذ قبل تمكنهم من الهرب * ثم قال تعالى (وقالوا آمنا به) أى بعد ظهور الامر حيث لا ينفع ايمان قالوا آمنا (وأنى لهم التناوش) أى كيف يقدرون على الظفر بالمطلوب وذلك لا يكون الا فى الدنيا وهم فى الآخرة والدنيا من الآخرة بعيدة فان قيل فكيف قال فى كثير من المواضع ان الآخرة من الدنيا قريبة ولهذا سماها الله الساعة وقال لعل الساعة قريب نقول الماضى كالامس الدابر بعدما يكون اذ لا وصول اليه والمستقبل وان كان بينه وبين الحاضر سنين فانه آت فيوم القيامة الدنيا بعيدة لمضيها وفى الدنيا يوم القيامة قريب لاتيانه والتناوش هو التناول عن قرب وقيل عن بعد ولما جعل الله الفعل مأخوذا كالجسم جعل ظرف الفعل وهو الزمان كظرف الجسم وهو المكان فقال (من مكان بعيد) والمراد ما مضى من الدنيا * ثم بين الله تعالى أن ايمانهم لا نفع فيه بسبب انهم كفروا به من قبل والاشارة فى قوله آمنا به وقوله (وقد كفروا به من قبل) الى شئ واحد اما محمد عليه الصلاة والسلام واما القرآن واما الحق الذى أتى به محمد عليه السلام وهو أقرب وأولى وقوله (ويقذفون بالغيب) ضد يؤمنون بالغيب لان الغيب ينزل من الله على لسان الرسول فيقذفه الله فى القلوب ويقبله المؤمن وأما الكافر فهو يقذف بالغيب أى يقول ما لا يعلمه وقوله (من مكان بعيد) يحتمل أن يكون المراد منه ان مأخذهم بعيد أخذوا الشريك من انهم لا يقدرون على أعمال كثيرة الا اذا كانوا اشخاصا كثيرة فكذلك المخلوقات الكثيرة وأخذوا بعد الاعادة من حالهم وعجزهم عن الاحياء فان المريض يداوى فاذا مات لا يمكنهم اعادة الروح اليه وقياس الله على المخلوقات بعيد المأخذ ويحتمل ان يقال انهم كانوا يقولون بأن الساعة اذا كانت قائمة فالثواب والنعيم لنا كقول قائلهم ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى فكانوا يقولون ذلك فان كان من قول الرسول فما كان ذلك عندهم حتى يقولوا عن احساس فان ما لا يجب عقلا لا يعلم الا بالاحساس أو بقول الصادق فهم كانوا يقولون عن الغيب من مكان بعيد فان قيل قد ذكرت ان الآخرة قريب فكيف قال من مكان بعيد نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن ذلك قريب عند من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ومن لم يؤمن لا يمكنه التصديق به فيكون بعيدا عنده (الثانى)

بهم وجواب لو محذوف اى لرأيت أمرا هائلا (فلا فوت) فلا يفوتون الله عز وجل بهرب أو تحصن (وأخذوا من مكان قريب) من ظهر الارض أو من الموقف الى النار أو من صحراء بدر الى قليبها أو من تحت أقدامهم اذا خسف بهم والجملة معطوفة على فزعوا وقيل على لا فوت على معنى اذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا ويؤيده أنه قرئ وأخذ بالعطف على محله أى فلا فوت هنا وهنالك أخذ (وقالوا آمنا به) أي بمحمد عليه الصلاة ﴿ ٢٩ ﴾ والسلام وقد مر ذكره فى قوله تعالى ما بصاحبكم (وأنى لهم التناوش) التناوش التناول السهل أى ومن أين لهم أن يتناولوا الايمان تناولا سهلا (من مكان بعيد) فانه فى حيز التكليف وهم منه بمعزل بعيد وهو تمثيل حالهم فى الاستخلاص بالايمان بعد ما فات عنهم وبعد بحال من يريد أن يتناول الشئ من غلوة تناوله من ذراع فى الاستحالة وقرئ بالهمز على قلب الواو لضمتها وهو من نأشت الشئ اذا طلبته وعن أبى عمرو التناؤش بالهمز التناول من بعد من قولهم نأشت اذا أبطأت وتأخرت ومنه قول من قال

تمنى نئيشا أن يكون اطاعنى
وقد حدثت بعد الامور أمور

(وقد كفروا به) أى بمحمد صلى الله عليه وسلم أو بالعذاب الشديد الذى أنذرهم اياه (من قبل) أى من قبل ذلك فى أوان التكليف (ويقذفون بالغيب) ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم فى حق الرسول عليه الصلاة والسلام من المطاعن أو فى العذاب المذكور من بت القول بنفيه (من مكان بعيد) من جهة بعيدة من حاله عليه الصلاة والسلام حيث ينسبونه صلى الله عليه وسلم الى الشعر والسحر والكذب وان أبعد شئ مما جاء به الشعر والسحر وأبعد شئ من عادته المعروفة فيما بين الدانى والقاصى الكذب ولعله تمثيل لحالهم فى ذلك بحال من يرى شيئا لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم فى لحوقه وقرئ ويقذفون على أن الشيطان يلقى اليهم ويلقنهم ذلك وهو معطوف على قد كفروا به على حكاية الحال الماضية أو على قالوا فيكون تمثيلا لحالهم بحال القاذف فى تحصيل ما ضيعوه

ان الحكاية يوم القيامة فكأنه قال كانوا يقذفون من مكان بعيد وهو الدنيا ويحتمل وجها آخر وهو أنهم فى الآخرة يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا وهو قذف بالغيب من مكان بعيد وهو الدنيا * ثم قال تعالى (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) من العود الى الدنيا أو بين لذات الدنيا فان قيل كيف يصح قولك ما يشتهون من العود مع أنه تعالى قال (كما فعل بأشياعهم من قبل انهم كانوا فى شك مريب) وما حيل بينهم وبين العود قلنا لم قلتم انه ما حيل بينهم بل كل من جاءه الهلاك طلب التأخير ولم يعط وأرادوا أن يؤمنوا عند ظهور اليأس ولم يقبل وقوله مريب يحتمل وجهين (أحدهما) ذى ريب (والثانى) موقع فى الريب وسنذكره فى موضع آخر ان شاء الله تعالى والله أعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين وصلاته على خير خلقه محمد النبى وآله وصحبه وأزواجه أجمعين

(سورة فاطر أربعون وخمس آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله فاطر السموات والارض جاعل الملائكة رسلا) قد ذكرنا فيما تقدم أن الحمد يكون على النعمة فى أكثر الامر ونعم الله قسمان عاجلة وآجلة والعاجلة وجود وبقاء والآجلة كذلك ايجاد مرة وابقاء أخرى وقوله تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور اشارة الى النعمة العاجلة التى هى الايجاد واستدللنا عليه بقوله تعالى هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وقوله فى الكهف الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب اشارة الى النعمة العاجلة التى هى الابقاء فان البقاء والصلاح بالشرع والكتاب ولولاه لوقعت المنازعة والمخاصمة بين الناس ولا يفصل بينهم فكان يفضى ذلك الى التقاتل والتفانى فانزال الكتاب نعمة يتعلق بها البقاء العاجل وفى قوله فى سورة سبأ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الارض وله الحمد فى الآخرة اشارة الى نعمة الايجاد الثانى بالحشر واستدللنا عليه بقوله يعلم ما يلج فى الارض من الاجسام وما يخرج منها وما ينزل من السماء من الارواح وما يعرج فيها منها وقوله عن الكافرين وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى وههنا الحمد اشارة الى نعمة البقاء فى الآخرة ويدل عليه قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا أى يجعلهم رسلا يتلقون عباد الله كما قال تعالى وتتلقاهم الملائكة وعلى هذا فقوله تعالى فاطر السموات يحتمل وجهين (الاول) معناه مبدعها كما نقل عن ابن عباس (والثانى) فاطر السموات والارض أى شاقهما لنزول الارواح من السماء وخروج الاجساد من الارض ويدل عليه قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا فان فى ذلك اليوم تكون الملائكة رسلا وعلى هذا فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى لان قوله كما فعل بأشياعهم بيان لانقطاع رجاء من كان فى شك مريب وتيقنه بأن لا قبول لتوبته ولا فائدة لقوله آمنت كما قال تعالى عنهم وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش فلما ذكر حالهم بين حال الموقن وبشره بارسال الملائكة اليهم مبشرين وبين أنه يفتح لهم

من الايمان في الدنيا (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) من نفع الايمان والنجاة من النار وقرئ باشمام الضم للحاء (كما فعل باشياعهم من قبل) أي باشباههم من كفرة الامم الدارجة (انهم كانوا في شك مريب) أي موقع في الريبة أو ذي ريبة والاول منقول ممن يصح أن يكون مريبا من الاعيان الى المعنى والثاني من صاحب الشك الى الشك كما يقال شعر شاعر والله أعلم * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة سبا لم يبق رسول ولا نبي الا كان له يوم القيامة رفيقا ﴿ ٣٠ ﴾ ومصافحا * سورة الملائكة مكية وهي خمس وأربعون آية *

(بسم الله الرحمن الرحيم) * (الحمد لله فاطر السموات والارض) مبدعهما من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه من الفطر وهو الشق وقيل الشق طولا كأنه شق العدم باخراجهما منه واضافته محضة لانه بمعنى الماضي فهو نعت للاسم الجليل ومن جعلها غير محضة جعله بدلا منه وهو قليل في المشتق (جاعل الملائكة) الكلام في اضافته وكونه نعتا أو بدلا كما قبله وقوله تعالى (رسلا) منصوب به على الوجه الثاني من الاضافة بالاتفاق وأما على الوجه الاول فكذلك عند الكسائي وأما عند البصريين فبمضمر يدل هو عليه لان اسم الفاعل اذا كان بمعنى الماضي لا يعمل عندهم الا معرفا باللام وقال أبو سعيد السيرافي اسم الفاعل المتعدي الى اثنين يعمل في الثاني لان باضافته الى الاول تعذرت اضافته الى الثاني فتعين نصبه له وعلل بعضهم ذلك بأنه بالاضافة أشبه المعرف باللام فعمل عمله وقرئ جاعل بالرفع على المدح وقرئ الذي فطر السموات والارض وجعل الملائكة أي جاعلهم وسائط بينه تعالى ﴿ ولا ﴾ وبين أنبيائه والصالحين من عباده يبلغون اليهم رسالاته بالوحي والالهام والرؤيا الصادقة أو بينه تعالى وبين خلقه أيضا حيث يوصلون اليهم آثار قدرته وصنعه هذا على تقدير كون الجعل تصييريا أما على تقدير كونه ابداعيا فرسلا نصب على الحالية وقرئ رسلا بسكون السين (أولي أجنحة) صفة لرسلا وأولو اسم جمع لذو

أبواب الرحمة * وقوله تعالى (أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع) أقل ما يكون لذي الجناح أن يكون له جناحان وما بعدهما زيادة وقال قوم فيه ان الجناح اشارة الى الجهة وبيانه هو أن الله تعالى ليس فوقه شئ وكل شئ فهو تحت قدرته ونعمته والملائكة لهم وجه الى الله يأخذون منه نعمه ويعطون من دونهم مما أخذوه باذن الله كما قال تعالى نزل به الروح الامين على قلبك وقوله علمه شديد القوى وقال تعالى في حقهم فالمدبرات أمرا فهما جناحان وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة وفيهم من يفعله لا بواسطة فالفاعل بواسطة فيه ثلاث جهات ومنهم من له أربع جهات واكثر والظاهر ما ذكرناه أولا وهو الذي عليه اطباق المفسرين * وقوله تعالى (يزيد في الخلق ما يشاء) من المفسرين من خصصه وقال المراد الوجه الحسن ومنهم من قال الصوت الحسن ومنهم من قال كل وصف محمود والاولى أن يعمم ويقال الله تعالى قادر كامل يفعل ما يشاء فيزيد ما يشاء وينقص ما يشاء وقوله تعالى (ان الله على كل شئ قدير) يقرر قوله يزيد في الخلق ما يشاء * ثم قال تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) لما بين كمال القدرة ذكر بيان نفوذ المشيئة ونفاذ الامر وقال ما يفتح الله للناس يعني ان رحم فلا مانع له وان لم يرحم فلا باعث له عليها وفي الآية دليل على سبق رحمته غضبه من وجوه (أحدها) التقديم حيث قدم بيان فتح أبواب الرحمة في الذكر وهو وان كان ضعيفا لكنه وجه من وجوه الفضل (وثانيها) هو أنه أنث الكناية في الاول فقال ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وجاز من حيث العربية أن يقال له ويكون عائدا الى ما ولكن قال تعالى لها ليعلم أن المفتوح أبواب الرحمة ولا ممسك لرحمته فهي واصلة الى من رحمه وقال عند الامساك وما يمسك فلا مرسل له بالتذكير ولم يقل لها فما صرح بأنه لا مرسل للرحمة بل ذكره بلفظ يحتمل ان يكون الذي لا يرسل هو غير الرحمة فان قوله تعالى وما يمسك عام من غير بيان وتخصيص بخلاف قوله تعالى ما يفتح الله للناس من رحمة فانه مخصص مبين (وثالثها) قوله من بعده أي من بعد الله فاستثنى ههنا وقال لا مرسل له الا الله فنزل له مرسلا وعند الامساك قال لا ممسك لها ولم يقل غير الله لان الرحمة اذا جاءت لا ترتفع فان من رحمة الله في الآخرة لا يعذبه بعدها هو ولا غيره ومن يعذبه الله فقد يرحمه الله بعد العذاب كالفساق من أهل الايمان * ثم قال تعالى (وهو العزيز) أي كامل القدرة (الحكيم) أي كامل العلم * ثم قال تعالى (يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم) لما بين ان الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة التي تستوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمه على سبيل الاجمال فقال اذكروا نعمة الله وهي مع كثرتها منحصرة في قسمين نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فقال تعالى (هل من خالق غير الله) اشارة الى نعمة الايجاد في الابتداء وقال تعالى (يرزقكم من السماء والارض) اشارة الى نعمة الابقاء بالرزق الى الانتهاء ثم بين انه (لا اله الا هو) نظرا الى عظمته حيث هو عزيز حكيم قادر على كل شئ قدير نافذ الارادة في كل شئ

كان أولاء اسم جمع لذا ونظيرهما في الاسماء المتمكنة المخاض والخلفة وقوله تعالى (مثنى وثلاث ورباع) صفات لاجنحة أي ذوي أجنحة متعددة متفاوتة في العدد حسب تفاوت مالهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون أو يسرعون بها والمعنى ان من الملائكة خلقا لكل واحد منهم جناحان وخلقا أجنحة كل منهم ثلاثة وخلقا أخر لكل منهم أربعة أجنحة ويروى أن صنفا من الملائكة لهم ستة أجنحة بجناحين منها يلفون أجسادهم وبآخرين منها يطيرون فيما أمروا به من جهته تعالى وجناحان منها مرخيان على وجوههم حياء من الله عز وجل وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح وروى أنه سأله عليهما السلام أن يتراءى له في صورة فقال انك لن تطيق ذلك قال اني أحب أن تفعل فخرج عليه الصلاة والسلام في ليلة مقمرة فأتاه جبريل عليهما السلام في صورته فغشي عليه عليه الصلاة والسلام ثم أفاق وجبريل مسنده واحدى يديه على صدره والاخرى بين كتفيه فقال سبحان الله ما كنت أرى أن شيئا من الخلق هكذا فقال جبريل عليه السلام فكيف لو رأيت اسرافيل له اثنا عشر جناحا جناح منها بالمشرق وجناح منها بالمغرب وان العرش على كاهله وانه ليتضاءل الاحايين لعظمة الله عز وجل حتى يعود مثل الوضع وهو العصفور الصغير (يزيد في الخلق ما يشاء) استئناف مقرر لما قبله من تفاوت أحوال الملائكة في عدد الاجنحة ومؤذن بان ذلك من أحكام مشيئته تعالى لا لامر راجع الى ذواتهم ببيان حكم كلي ناطق بأنه تعالى يزيد في أي خلق كان كل ما يشاء أن يزيده بموجب مشيئته ومقتضى حكمته من الامور التي لا يحيط بها الوصف وما روى عن النبي عليه الصلوة والسلام من تخصيص بعض المعاني بالذكر من الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن فبيان لبعض المواد المعهودة بطريق التمثيل لا بطريق الحصر فيها وقوله تعالى (ان الله على كل شئ قدير) تعليل بطريق التحقيق للحكم المذكور فان شمول قدرته تعالى لجميع الاشياء مما يوجب قدرته

ولا مثل لهذا ولا معبود لذاته غير هذا ونظرا الى نعمته حيث لا خالق غيره ولا رازق الا هو * ثم قال تعالى (فأنى تؤفكون) أي كيف تصرفون عن هذا الظاهر فكيف تشركون المنحوت بمن له الملكوت * ثم لما بين الاصل الاول وهو التوحيد ذكر الاصل الثاني وهو الرسالة فقال تعالى (وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) ثم بين من حيث الاجمال أن المكذب في العذاب والمكذب له الثواب بقوله تعالى (والى الله ترجع الامور) ثم بين الاصل الثالث وهو الحشر فقال تعالى (يا أيها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) أي الشيطان وقد ذكرنا ما فيه من المعنى اللطيف في تفسير سورة لقمان ونعيده ههنا فنقول المكلف قد يكون ضعيف الذهن قليل العقل سخيف الرأي فيغتر بأدنى شئ وقد يكون فوق ذلك فلا يغتر به ولكن اذا جاءه غار وزين ذلك الشئ وهون عليه مفاسده وبين له منافع يغتر لما فيهما من اللذة مع ما ينضم اليه من دعاء ذلك الغار اليه وقد يكون قوي الجاش غزير العقل فلا يغتر ولا يغر فقال الله تعالى لا تغرنكم الحياة الدنيا اشارة الى الدرجة الاولى وقال ولا يغرنكم بالله الغرور اشارة الى الثانية ليكون واقعا في الدرجة الثالثة وهي العليا فلا يغر ولا يغتر * ثم قال تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) لما قال تعالى ولا يغرنكم بالله الغرور ذكر ما يمنع العاقل من الاغترار وقال ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ولا تسمعوا قوله وقوله فاتخذوه عدوا أي اعملوا ما يسوءه وهو العمل الصالح * ثم قال تعالى (انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) اشارة الى معنى لطيف وهو ان من يكون له عدو فله في أمره طريقان (أحدهما) أن يعاديه مجازاة له على معاداته (والثاني) ان يذهب عداوته بارضائه فلما قال الله تعالى ان الشيطان لكم عدو أمرهم بالعداوة وأشار الى أن الطريق ليس الا هذا وأما الطريق الآخر وهو الارضاء فلا فائدة فيه لانكم اذا راضيتموه واتبعتموه فهو لا يؤديكم الا الى السعير واعلم أن من علم أن له عدوا لا مهرب له منه وجزم بذلك فانه يقف عنده ويصبر على قتاله والصبر معه الظفر فكذلك الشيطان لا يقدر الانسان ان يهرب منه فانه معه ولا يزال يتبعه الا أن يقف له ويهزمه فهزيمة الشيطان بعزيمة الانسان فالطريق الثبات على الجادة والاتكال على العبادة * ثم بين الله تعالى حال حزبه وحال حزب الله فقال (الذين كفروا لهم عذاب شديد) فالمعادي للشيطان وان كان في الحال في عذاب ظاهر فهو ليس بشديد والانسان اذا كان عاقلا يختار العذاب المنقطع اليسير دفعا للعذاب الشديد المؤبد ألا ترى ان الانسان اذا عرض في طريقه شوك ونار ولا يكون له بد من أحدهما يتخطى الشوك ولا يدخل النار ونسبة النار التي في الدنيا الى النار التي في الآخرة دون نسبة الشوك الى النار العاجلة * وقال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير) قد ذكر تفسيره مرارا وبين فيه ان الايمان في مقابلته المغفرة فلا يؤبد مؤمن في النار والعمل الصالح في مقابلته الاجر الكبير * ثم قال تعالى (أفمن زين

تعالى على أن يريد كل مايشاؤه ايجابا بينا (مايفتح الله للناس من رحمة) عبرعن ارسالها بالفتح ايذانا بأنها أنفس الخزائن التي يتنافس فيها المتنافسون واعزها منالا وتنكيرها للاشاعة والابهام أي أي شيء يفتح الله من خزائن رحمته أية رحمة كانت من نعمة وصحة وأمن وعلم وحكمة الى غير ذلك مما لايحاط به (فلاممسك لها) أي لا أحد يقدر على امساكها (ومايمسك) أي أي شيء يمسك (فلا مرسل له) أي لا أحد يقدر على ارساله واختلاف الضميرين لما أن مرجع الاول ﴿ ٣٢ ﴾ مفسر بالرحمة ومرجع الثاني مطلق يتناولها وغيرها كائنا ما كان وفيه اشعار بأن رحمته سبقت غضبه (من بعده) أي من بعد امساكه (وهو العزيز) الغالب على كل مايشاء من الامور التي من جملتها الفتح والامساك (الحكيم) الذي يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تذييل مقرر لما قبلها ومعرب عن كون كل من الفتح والامساك بموجب الحكمة التي عليها يدور أمر التكوين و بعد مابين سبحانه أنه الموجد للملك والملكوت والمتصرف فيهما بالقبض والبسط من غير أن يكون لاحد في ذلك دخل ما بوجه من الوجوه أمر الناس قاطبة أو أهل مكة خاصة بشكر نعمته فقال (ياأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم) أي انعامه عليكم ان جعلت النعمة مصدرا أو كائنة عليكم ان جعلت اسما أي راعوها واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها وتخصيص العبادة والطاعة بموليها ولما كانت نعم الله تعالى مع تشعب فنونها منحصرة في نعمة الايجاد ونعمة الابقاء نفي أن يكون في الوجود شيء غيره تعالى يصدر عنه احدى النعمتين بطريق الاستفهام الانكاري المنادي باستحالة أن يجاب عنه بنعم فقال (هل من خالق غير الله) ﴿ فان ﴾ أي هل خالق مغاير له تعالى موجود على أن خالق مبتدأ محذوف الخبر زيدت عليه كلمة من لتأكيد العموم وغير الله نعت له باعتبار محله كما أنه نعت له في قراءة الجر باعتبار لفظه وقرئ بالنصب على الاستثناء وقوله تعالى (يرزقكم من السماء والارض) أي بالمطر والنبات كلام مبتدأ على التقادير لا محل له من الاعراب

له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون) يعني ليس من عمل سيأ كالذي عمل صالحا كما قال بعد هذا بآيات ومايستوي الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور وله تعلق بما قبله وذلك من حيث انه تعالى لما بين حال المسيء الكافر والمحسن المؤمن ومامن أحد يعترف بأنه يعمل سيأ الا قليل فكان الكافر يقول الذي له العذاب الشديد هو الذي يتبع الشيطان وهو محمد وقومه الذين استهوتهم الجن فاتبعوها والذي له الاجر العظيم نحن الذين دمنا على ما كان عليه آباؤنا فقال الله تعالى لستم أنتم بذلك فان المحسن غير ومن زين له العمل السيء فرآه حسنا غير بل الذين زين لهم السيء دون من أساء وعلم انه مسيء فان الجاهل الذي يعلم جهله والمسيء الذي يعلم سوء عمله يرجع ويتوب والذي لايعلم يصر على الذنوب والمسيء العالم له صفة ذم بالاساءة وصفة مدح بالعلم والمسيء الذي يرى الاساءة احسانا له صفتاذم الاساءة والجهل ثم بين أن الكل بمشيئة الله وقال فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء وذلك لان الناس اشخاصهم متساوية في الحقيقة والاساءة والاحسان والسيئة والحسنة يمتاز بعضها عن بعض فاذا عرفها البعض دون البعض لايكون ذلك باستقلال منهم فلابد من الاستناد الى ارادة الله ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث حزن من اصرارهم بعد اتيانه بكل آية ظاهرة وحجة باهرة فقال فلا تذهب نفسك عليهم حسرات كما قال تعالى فلعلك باخع نفسك على آثارهم ثم بين أن حزنه ان كان لما بهم من الضلال فالله عالم بهم و بما يصنعون لو أراد ايمانهم واحسانهم لصدهم عن الضلال وردهم عن الاضلال وان كان لما بهم من الايذاء فالله عالم بفعلهم يجازيهم على مايصنعون * ثم عاد الى البيان فقال تعالى (والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور) هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار وذلك لان الهواء قد يسكن وقد يتحرك وعند حركته قد يتحرك الى اليمين وقد يتحرك الى اليسار وفي حركاته المختلفة قد ينشئ السحاب وقد لاينشئ فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال تعالى والله الذي أرسل بلفظ الماضي وقال فتثير سحابا بصيغة المستقبل وذلك لانه لما أسند فعل الارسال الى الله ومايفعل الله يكون بقوله كن فلا يبقى في العدم لازمانا ولا جزأ من الزمان فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان وكأنه فرغ من كل شيء فهو قدر الارسال في الاوقات المعلومة الى المواضع المعينة والتقدير كالارسال ولما أسند فعل الاثارة الى الريح وهو يؤلف في زمان فقال تثير اي على هيئتها (المسئلة الثانية) قال أرسل اسناد الفعل الى الغائب وقال سقناه باسناد الفعل الى المتكلم وكذلك في قوله فأحيينا وذلك لانه في الاول عرف نفسه بفعل من الافعال وهو الارسال ثم لما عرف قال أنا الذي عرفتني سقت السحاب وأحييت الارض ففي الاول كان تعريفا بالفعل العجيب وفي الثاني كان تذكيرا بالنعمة

داخل في حيز النفي والانكار ولامساغ لما قيل من أنه صفة أخرى لخالق مرفوعة المحل أو مجرورته لان معناه نفي وجود خالق
موصوف بوصفي المغايرة والرازقية معا من غير تعرض لنفي وجود ما اتصف بالمغايرة فقط ولا لما قيل من أنه الخبر للمبتدا ولا لما قيل
من أنه مفسر لمضمر ارتفع به قوله تعالى من خالق على الفاعلية أي هل يرزقكم من خالق الخ لما أن معناهما نفي رازقية خالق
مغاير له تعالى من غير تعرض لنفي وجوده رأسا مع أنه المراد ﴿ ٣٣ ﴾ حتما ألا يرى الى قوله تعالى (لا اله الا هو) فانه استئناف
مسوق لتقرير النفي المستفاد
منه قصدا وجار مجرى الجواب
عما يوهمه الاستفهام صورة
فحيث كان هذا ناطقا بنفي الوجود
تعين أن يكون ذلك أيضا
قطعا والفاء في قوله تعالى
(فأنى تؤفكون) لترتيب
انكار عدولهم عن التوحيد الى
الاشراك على ما قبلها كأنه قيل
واذا تبين تفرده تعالى بالالوهية
والخالقية والرازقية فمن أي
وجه تصرفون عن التوحيد
الى الشرك وقوله تعالى (وان
يكذبوك فقد كذبت رسل من
قبلك) تلوين للخطاب وتوجيه له
الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم بين خطابي الناس مسارعة
الى تسليته عليه الصلاة والسلام
بعموم البلية أولا والاشارة
الى الوعد والوعيد ثانيا أي
وان استمروا على أن يكذبوك
فيما بلغت اليهم من الحق المبين
بعد ما أقمت عليهم الحجة
والقمتهم الحجر فتأس بأولئك
الرسل في المصابرة على ما أصابهم
من قبل قومهم فوضع موضعه
ما ذكر اكتفاء بذكر السبب
عن ذكر المسبب وتنكير الرسل
للتفخيم الموجب لمزيد التسلية
والتوجه الى المصابرة أي رسل
أولو شأن خطير وذوو عدد كثير (والى الله ترجع ﴿ ٥ ﴾ سا الامور) لا الى غيره فيجازي كلا منك ومنهم بما أنتم عليه
من الاحوال التي من جملتها صبرك وتكذيبهم وفي الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع بالله تعالى مع ابهام الجزاء ثوابا وعقابا
من المبالغة في الوعد والوعيد ما لا يخفى وقرئ ترجع بفتح التاء من الرجوع والاول أدخل في التهويل (يا أيها الناس) رجوع

فان كان نعمة الرياح والسحب بالسوق والاحياء وقوله سقناه وأحيينا بصيغة الماضي
يؤيد ما ذكرناه من الفرق بين قوله أرسل وبين قوله تثير (المسئلة الثالثة) ما وجه التشبيه
بقوله كذلك النشور نقول فيه وجوه (أحدها) ان الارض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة
بها كذلك الاعضاء تقبل الحياة (وثانيها) كما ان الريح يجمع القطع السحابية كذلك
يجمع بين اجزاء الاعضاء وابعاض الاشياء (وثالثها) كما انا نسوق الريح والسحاب الى
البلد الميت نسوق الروح والحياة الى البدن الميت (المسئلة الرابعة) ما الحكمة في اختيار
هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له في كل شئ آية تدل على انه واحد فنقول
لما ذكر الله انه فاطر السموات والارض وذكر من الامور السماوية الارواح وارسالها
بقوله جاعل الملائكة رسلا ذكر من الامور الارضية الرياح وارسالها بقوله والله الذي
أرسل الرياح * ثم قال تعالى (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا اليه يصعد الكلم الطيب
والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور)
لما بين برهان الايمان اشار الى ما كان يمنع الكفار منه وهو العزة الظاهرة التي كانوا
يتوهمونها من حيث انهم ما كانوا في طاعة أحد ولم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم فكانوا
ينحتون الاصنام وكانوا يقولون ان هذه آلهتنا ثم انهم كانوا يتقلدونها مع أنفسهم وأية عزة
فوق المعية مع المعبود فهم كانوا يطلبون العزة وهي عدم التذلل للرسول وترك الاتباع له
فقال ان كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة في الحقيقة فهي كلها لله ومن يتذلل له فهو
العزيز ومن يتعزز عليه فهو الذليل وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال في هذه الآية
فلله العزة جميعا وقال في آية أخرى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين فقوله جميعا يدل على أن
لا عزة لغيره فنقول قوله لله العزة أي في الحقيقة وبالذات وقوله ولرسوله أي بواسطة
القرب من العزيز وهو الله وللمؤمنين بواسطة قربهم من العزيز بالله وهو الرسول وذلك
لان عزة المؤمنين بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم ألا ترى قوله تعالى ان كنتم تحبون الله
فاتبعوني يحببكم الله (المسئلة الثانية) قوله اليه يصعد الكلم الطيب تقرير لبيان العزة
وذلك لان الكفار كانوا يقولون نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده لان البعد من الملك
ذلة فقال تعالى ان كنتم لا تصلون اليه فهو يسمع كلامكم ويقبل الطيب فمن قبل كلامه
وصعد اليه فهو عزيز ومن رد كلامه في وجهه فهو ذليل وأما هذه الاصنام لا يتبين عندها
الذليل من العزيز اذ لا علم لها فكل أحد عندها وكذلك يرى عملكم فمن عمل صالحا رفعه
اليه ومن عمل سيأ رد عليه فالعزيز من يرفع الذي عمله لوجهه والذليل من يدفع الذي عمله
في وجهه وأما هذه الاصنام فلا تعلم شيئا فلا عزيز عندها ولا ذليل فلا عزة بها بل عليها ذلة
وذلك لان ذلة السيد ذلة للعبد ومن كان معبوده وربه واله حجارة أو خشبا ماذا يكون
هو (المسئلة الثالثة) في قوله اليه يصعد الكلم الطيب وجوه (أحدها) كلمة لا اله الا الله
هي الطيبة (ثانيها) سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر طيب (ثالثها) هذه

الى خطابهم وتكرير النداء لتأكيد العظة والتذكير (ان وعد الله) المشار اليه برجوع الامور اليه تعالى من البعث والجزاء (حق) ثابت لامحالة من غير خلف (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) بأن يذهلكم التمتع بمتاعها ويلهيكم التلهي بزخارفها عن تدارك مايهمكم يوم حلول الميعاد والمراد نهيهم عن الاغترار بها وان توجه النهي صورة اليها كما في قوله تعالى لايجرمنكم شقاق (ولا يغرنكم بالله) وعفوه وكرمه تعالى (الغرور) أى ﴿ ٣٤ ﴾ المبالغ في الغرور وهو الشيطان بأن يمنيكم المغفرة مع الاصرار على المعاصي قائلا اعملوا ماشئتم ان الله غفور يغفر الذنوب جميعا فان ذلك وان أمكن لكن تعاطي الذنوب بهذا التوقع من قبيل تناول السم تعويلا على دفع الطبيعة وتكرير فعل النهي للمبالغة فيه ولاختلاف الغرورين في الكيفية وقرئ الغرور بالضم على أنه مصدر أو جمع غار كقعود جمع قاعد (ان الشيطان لكم عدو) عداوة قديمة لاتكاد تزول وتقديم لكم للاهتمام به (فاتخذوه عدوا) بمخالفتكم له في عقائدكم وأفعالكم وكونكم على حذر منه في مجامع أحوالكم وقوله تعالى (انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) تقرير لعداوته وتحذير من طاعته بالتنبيه على أن غرضه في دعوة شيعته الى اتباع الهوى والركون الى ملاذ الدنيا ليس تحصيل مطالبهم ومنافعهم الدنيوية كما هو مقصد المتحابين في الدنيا عند سعي بعضهم في حاجة بعض بل هو توريطهم والقاؤهم في العذاب المخلد من حيث لايحتسبون (الذين كفروا لهم) بسبب كفرهم واجابتهم لدعوة الشيطان واتباعهم لخطواته (عذاب شديد) لاتقادر قدره مديد لايبلغ مداه (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم) بسبب ماذكر ﴿ وذكرنا ﴾ من الايمان والعمل الصالح الذي من جملته عداوة الشيطان (مغفرة) عظيمة (وأجر كبير) لاغاية لهما (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) اما تقرير لماسبق من التباين البين بين عاقبتي الفريقين ببيان تباين حاليهما المؤديين الى تينك العاقبتين والفاء لانكار ترتيب

الكلمات الاربع وخامسة وهي تبارك الله والمختار أن كل كلام هو ذكر الله أو هو لله كالنصيحة والعلم فهو اليه يصعد (المسئلة الرابعة) قوله تعالى والعمل الصالح يرفعه في الهاء وجهان (أحدهما) هي عائدة الى الكلم الطيب أي العمل الصالح هو الذي يرفع الكلم الطيب ورد في الخبر لايقبل الله قولا بلا عمل (وثانيهما) هي عائدة الى العمل الصالح وعلى هذا في الفاعل الرافع وجهان (أحدهما) هو الكلم الطيب أي الكلم الطيب يرفع العمل الصالح وهذا يؤيده قوله تعالى من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن (وثانيهما) الرافع هو الله تعالى (المسئلة الخامسة) ماوجه ترجيح الذكر على العمل على الوجه الثاني حيث يصعد الكلم بنفسه ويرفع العمل بغيره فنقول الكلام شريف فان امتياز الانسان عن كل حيوان بالنطق ولهذا قال تعالى ولقد كرمنا بني آدم أي بالنفس الناطقة والعمل حركة وسكون يشترك فيه الانسان وغيره والشريف اذا وصل الى باب الملك لايمنع ومن دونه لايجد الطريق الا عند الطلب ويدل على هذا أن الكافر اذا تكلم بكلمة الشهادة ان كان عن صدق أمن عذاب الدنيا والآخرة وان كان ظاهرا أمن في نفسه ودمه وأهله وحرمه في الدنيا ولا كذلك العمل بالجوارح وقد ذكرنا ذلك في تفسير قوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات (ووجه آخر) القلب هو الاصل وقد تقدم مايدل عليه وقال النبي صلى الله عليه وسلم ألا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب وما في القلب لايظهر الا باللسان وما في اللسان لايتبين صدقه الا بالفعل فالقول أقرب الى القلب من الفعل ألا ترى أن الانسان لايتكلم بكلمة الا عن قلب وأما الفعل فقد يكون لا عن قلب كالعبث باللحية ولان النائم لايخلو عن فعل من حركة وتقلب وهو في أكثر الامر لايتكلم في نومه الا نادرا لماذكرنا ان الكلام بالقلب ولا كذلك العمل فالقول أشرف (المسئلة السادسة) قال الزمخشري المكر لايتعدى فبم انتصاب السيآت وقال بأن معناه الذين يمكرون المكرات السيآت فهو وصف مصدر محذوف ويحتمل أن يقال استعمل المكر استعمال العمل فعداه تعديته كما قال الذين يعملون السيآت وفي قوله الذين يعملون السيآت يحتمل ماذكرناه أن يكون السيآت صفة المصدر تقديره الذين يعملون العملات السيآت وعلى هذا فيكون هذا في مقابلة قوله والعمل الصالح يرفعه اشارة الى بقائه وارتقائه ومكر أولئك أي العمل السيء هو يبور اشارة الى فنائه * ثم قال تعالى (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وماتحمل من انثى ولاتضع الا بعلمه ومايعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب ان ذلك على الله يسير) قد ذكرنا مرارا ان الدلائل مع كثرتها وعدم دخولها في عدد محصور منحصرة في قسمين دلائل الآفاق ودلائل الانفس كما قال تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم فلماذكر دلائل الآفاق من السموات ومايرسل منهما من الملائكة والارض ومايرسل فيها من الرياح شرع في دلائل الانفس وقد ذكرنا تفسيره مرارا

مابعدها على ماقبلها أى أبعد كون حالهما كما ذكر يكون من زين له الكفر من جهة الشيطان فانهمك فيه كمن استقبحه واجتنبه واختار الايمان والعمل الصالح حتى لاتكون عاقبتاهما كما ذكر فحذف ماحذف لدلالة ماسبق عليه وقوله تعالى (فان الله يضل) الخ تقرير له وتحقيق للحق ببيان أن الكل بمشيئته تعالى أى فانه تعالى يضل (من يشاء) أن يضله لاستحسانه واستحبابه الضلال وصرف اختياره اليه فيرده أسفل سافلين (ويهدى من يشاء) أن يهديه بصرف اختياره الى الهدى فيرفعه الى أعلى علين واما تمهيد لمايعقبه من نهيه عليه الصلاة والسلام عن التحسر والتحزن عليهم لعدم اسلامهم ببيان أنهم ليسوا بأهل لذلك بل لأن يضرب عنهم صفحا ولايبالى بهم قطعا أى أبعد كون حالهم كما ذكر تحسر عليهم فحذف لمادل عليه قوله تعالى (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) دلالة بينة واما تمهيد لصرفه عليه الصلاة والسلام عما كان عليه من الحرص الشديد على اسلامهم والمبالغة فى دعوتهم اليه ببيان استحالة تحولهم عن الكفر لكونه فى غاية الحسن عندهم أى أبعد ماذكر من زين له الكفر من قبل الشيطان فرآه حسنا فانهمك فيه يقبل الهداية حتى تطمع فى اسلامه وتتعب نفسك فى دعوته فحذف ماحذف لدلالة مامر من قوله تعالى فان الله يضل من يشاء الخ على أنه ممن شاء الله تعالى أن يضله فمن يهدى من أضل الله ومالهم من ناصرين وقرئ فلاتذهب نفسك وقوله تعالى حسرات اما مفعول له أى فلا تهلك نفسك للحسرات والجمع للدلالة على تضاعف اغتمامه عليه الصلاة والسلام على أحوالهم أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجبة للتأسف والتحسر وعليهم صلة تذهب كما يقال هلك عليه حبا ومات عليه حزنا أو هو بيان للمتحسر عليه ولايجوز أن يتعلق بحسرات لان المصدر لاتتقدم عليه صلته واما حال كأن كلها صارت حسرات وقوله تعالى (ان الله عليم بمايصنعون) أى من القبائح تعليل لماقبله على الوجوه الثلاثة مع مافيه من الوعيد * عن ابن عباس رضى

وذكرنا ماقيل من ان قوله من تراب اشارة الى خلق آدم ثم من نطفة اشارة الى خلق أولاده وبينا أن الكلام غير محتاج الى هذا التأويل بل خلقكم خطاب مع الناس وهم أولاد آدم كلهم من تراب ومن نطفة لان كلهم من نطفة والنطفة من غذاء والغذاء بالآخرة ينتهى الى الماء والتراب فهو من تراب صار نطفة وقوله وماتحمل من أنثى ولاتضع اشارة الى كمال العلم فان مافى الارحام قبل الانخلاق بل بعده مادام فى البطن لايعلم حاله أحد كيف والام الحاملة لاتعلم منه شيئا فلما ذكر بقوله خلقكم من تراب كمال قدرته بين بقوله وما تحمل من أنثى ولاتضع الا بعلمه كمال علمه ثم بين نفوذ ارادته بقوله ومايعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب فبين انه هو القادر العالم المريد والاصنام لاقدرة لها ولاعلم ولا ارادة فكيف يستحق شئ منها العبادة وقوله ان ذلك على الله يسير أى الخلق من التراب ويحتمل أن يكون المراد التعمير والنقصان على الله يسير ويحتمل أن يكون المراد ان العلم بما تحمله الانثى يسير والكل على الله يسير والاول أشبه فان اليسير استعماله فى الفعل أليق * ثم قال تعالى (ومايستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) قال أكثر المفسرين ان المراد من الآية ضرب المثل فى حق الكفر والايمان أو الكافر والمؤمن فالايمان لايشتبه بالكفر فى الحسن والنفع كما لايشتبه البحران العذب الفرات والملح الاجاج ثم على هذا فقوله ومن كل تأكلون لحما طريا لبيان أن حال الكافر والمؤمن أو الكفر والايمان دون حال البحرين لان الاجاج يشارك الفرات فى خير ونفع اذ اللحم الطرى يوجد فيهما والحلية توجد منهما والفلك تجرى فيهما ولانفع فى الكفر والكافر وهذا على نسق قوله تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل وقوله كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار والاظهر ان المراد منه ذكر دليل آخر على قدرة الله وذلك من حيث ان البحرين يستويان فى الصورة ويختلفان فى الماء فان أحدهما عذب فرات والآخر ملح اجاج ولو كان ذلك بايجاب لما اختلف المتساويان ثم انهما بعد اختلافهما يوجد منهما امور متشابهة فان اللحم الطرى يوجد فيهما والحلية تؤخذ منهما ومن يوجد فى المتشابهين اختلافا ومن المختلفين اشتباها لايكون الا قادرا مختارا وقوله ومايستوى البحران اشارة الى أن عدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ ارادته وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال اهل اللغة لايقال فى ماء البحر اذا كان فيه ملوحة مالح وانما يقال له ملح وقد يذكر فى بعض كتب الفقه يصير بها ماء البحر مالحا ويؤاخذ قائله به وهو أصح مما ذهب اليه القوم وذلك لان الماء العذب اذا ألقى فيه ملح حتى ملح لايقال له الا مالح وماء ملح يقال للماء الذى صار من أصل خلقته كذلك لان المالح شئ فيه ملح ظاهر فى الذوق والماء الملح ليس ماء وملحا بخلاف الطعام المالح فالماء العذب الملقى فيه الملح ماء فيه ملح ظاهر

الله عنهما أنها نزلت في أبي جهل ومشركي مكة (والله الذي أرسل الرياح) مبتدأ وخبر وقرئ الريح وصيغة المضارع في قوله تعالى (فتثير سحابا) لحكاية الحال الماضية استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة ولان المراد بيان احداثها لتلك الخاصية ولذلك أسند اليها أو لانه على استمرار الاثارة (فسقناه الى بلد ميت) وقرئ بالتخفيف (فأحيينا به الارض) أي بالمطر النازل منه المدلول عليه بالسحاب فان بينهما تلازما ﴿ ٣٦ ﴾ في الذهن كما في الخارج او بالسحاب فانه سبب السبب (بعد موتها) أي يبسها وايراد الفعلين على صيغة الماضي للدلالة على التحقق واسنادهما الى نون العظمة المنبئ عن اختصاصهما به تعالى لما فيهما من مزيد الصنع ولتكميل المماثلة بين احياء الارض وبين البعث الذي شبه به بقوله تعالى (كذلك النشور) في كمال الاختصاص بالقدرة الربانية والكاف في حيز الرفع على الخبرية أي مثل ذلك الاحياء الذي تشاهدونه احياء الاموات في صحة المقدورية وسهولة التأتي من غير تفاوت بينهما أصلا سوى الالف في الاول دون الثاني وقيل في كيفية الاحياء يرسل الله تعالى من تحت العرش ماء فينبت منه أجساد الخلق (من كان يريد العزة) هم المشركون الذين كانوا يتعززون بعبادة الاصنام كقوله تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا والذين كانوا يتعززون بهم من الذين آمنوا بألسنتهم كما في قوله تعالى الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة والجمع بين كان ويريد للدلالة على دوام الارادة واستمرارها (فلله العزة جميعا) أي له تعالى وحده ﴿ لا يسمعون ﴾ لا لغيره عزة الدنيا وعزة الآخرة أي فليطلبها منه لا من غيره فاستغنى عن ذكره بذكر دليله ايذانا بأن اختصاص العزة به تعالى موجب لتخصيص طلبها به تعالى وقوله تعالى (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) بيان لما يطلب به العزة وهو التوحيد والعمل الصالح وصعودهما اليه مجاز

في الذوق بخلاف ما هو من أصل خلقته كذلك فلما قال الفقيه الملح اجزاء ارضية سبخة يصير بها ماء البحر ما خالراعي فيه الاصل فانه جعله ما جاوره ملح وأهل اللغة حيث قالوا في البحر ماؤه ملح جعلوه كذلك من أصل الخلقة والاجاج المر وقوله ومن كل تأكلون لحما طريا من السمك وتستخرجون حلية تلبسونها من اللؤلؤ والمرجان وترى الفلك فيه مواخر أي ماخرات تمخر البحر بالجريان أي تشق وقوله ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون يدل على ما ذكرناه من أن المراد من الآية الاستدلال بالبحرين وما فيهما على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته * ثم قال تعالى (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى) استدلال آخر باختلاف الازمنة وقد ذكرناه مرارا وذكرنا أن قوله تعالى بعده وسخر الشمس والقمر جواب لسؤال يذكره المشركون وهو أنهم قالوا اختلاف الليل والنهار بسبب اختلاف القسي الواقعة فوق الارض وتحتها فان في الصيف تمر الشمس على سمت الرؤس في بعض البلاد المائلة في الآفاق وحركة الشمس هناك حمائلية فتقع تحت الارض أقل من نصف دائرة زمان مكثها تحت الارض فيقصر الليل وفي الشتاء بالضد فيقصر النهار فقال الله تعالى وسخر الشمس والقمر يعني سبب الاختلاف وان كان ما ذكرتم لكن سير الشمس والقمر بارادة الله وقدرته فهو الذي فعل ذلك * ثم قال تعالى (ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) أي ذلك الذي فعل هذه الاشياء من فطر السموات والارض وارسال الارواح وارسال الرياح وخلق الانسان من تراب وغير ذلك له الملك كله فلا معبود الا هو لذاته الكامل ولكونه ملكا والملك مخدوم بقدر ملكه فاذا كان له الملك كله فله العبادة كلها ثم بين ما بينا في صفة الالهية وهو قوله والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير (وههنا لطيفة) وهي ان الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من الاوصاف (أحدهما) ان الخلق بالقدرة والارادة (والثاني) الملك واستدل بهما على انه الله معبود كما قال تعالى قل أعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس ذكر الرب والملك ورتب عليهما كونه الها أي معبودا وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة واحدة وهو عدم الملك بقوله والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ولم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين (أحدهما) ان كلهم كانوا معترفين بأن لا خالق لهم الا الله وانما كانوا يقولون بأن الله تعالى فوض أمر الارض والارضيات الى الكواكب التي الاصنام على صورتها وطوالعها فقال لا ملك لهم ولا ملكهم الله شيئا ولا ملكوا شيئا (وثانيهما) انه يلزم من عدم الملك عدم الخلق لانه لو خلق شيئا لملكه فاذا لم يملك قطميرا ما خلق قليلا ولا كثيرا * ثم قال تعالى (ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير) ابطالا لما كانوا يقولون ان في عبادة الاصنام عزة من حيث القرب منها والنظر اليها وعرض الحوائج عليها والله لا يرى ولا يصل اليه أحد فقال هؤلاء

عن قبوله تعالى اياهما او صعود الكتبة بصحيفتهما وتقديم الجار والمجرور عبارة عن كمال الاعتداد به كقوله تعالى وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات أي اليه يصل الكلم الطيب الذي به يطلب العزة لا الى الملائكة الموكلين باعمال العباد فقط وهو يعز صاحبه ويعطي طلبته بالذات والمستكن في يرفعه للكلم فان مدار قبول العمل هو التوحيد ويؤيده القراءة بنصب العمل أو للعمل فانه يحقق الايمان ويقويه ﴿ ٣٧ ﴾ ولا ينال الدرجات العالية الا به وقرئ يصعد من الاصعاد على البناءين والمصعد هو الله سبحانه أو المتكلم به أو الملك وقيل الكلم الطيب يتناول الذكر والدعاء والاستغفار وقراءة القرآن وعنه عليه الصلاة والسلام أنه سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر اذا قالها العبد عرج بها الى السماء فحيا بها وجه الرحمن فاذا لم يكن عمل صالح لم تقبل وعن ابن مسعود رضي الله عنه ما من عبد مسلم يقول خمس كلمات سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وتبارك الله الا أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن فلا يمر بهن على جمع من الملائكة الا استغفروا لقائلهن حتى يحيي بهن وجه رب العالمين ومصداقه قوله عز وجل اليه يصعد الكلم الطيب الخ (والذين يمكرون السيآت) بيان لحال الكلم الخبيث والعمل السيء وأهلهما بعد بيان حال الكلم الطيب والعمل الصالح وانتصاب السيآت على أنها صفة للمصدر المحذوف أي يمكرون المكرات السيآت وهي مكرات قريش بالنبي عليه الصلاة والسلام في دار الندوة وتداورهم الرأي في احدى الثلاث التي هي الاثبات والقتل والاخراج (لهم) بسبب مكراتهم (عذاب شديد) لا يقادر قدره ولا يؤبه عنده لما يمكرون (ومكر أولئك) وضع اسم الاشارة موضع ضميرهم للايذان بكمال تميزهم بما هم فيه من الشر والفساد عن سائر المفسدين واشتهارهم بذلك وما فيه من معنى البعد للتنبيه على ترامي أمرهم في الطغيان وبعد منزلتهم في العدوان أي ومكر أولئك المفسدين الذين أرادوا أن يمكروا به عليه

لا يسمعون دعاءكم والله يصعد اليه الكلم الطيب فيسمع ويقبل ثم نزل عن تلك الدرجة وقال هب انهم يسمعون كما يظنون فانهم كانوا يقولون بأن الاصنام تسمع وتعلم ولكن ما كان يمكنهم أن يقولوا انهم يجيبون لان ذلك انكار للمحس به وعدم سماعهم انكار للمعقول والنزاع وان كان يقع في المعقول فلا يمكن وقوعه في المحس به ثم انه تعالى قال ويوم القيامة يكفرون بشرككم لما بين عدم النفع فيهم في الدنيا بين عدم النفع منهم في الآخرة بل اشار الى وجود الضرر منهم في الآخرة بقوله ويوم القيامة يكفرون بشرككم أي باشراككم بالله شيأ كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم أي الاشراك وقوله ولا ينبئك مثل خبير يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك خطابا مع النبي صلى الله عليه وسلم ووجهه هو ان الله تعالى لما أخبران الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده وذلك أمر لا يعلم بالعقل المجرد ولولا اخبار الله تعالى عنه انهم يكفرون بهم يوم القيامة وهذا القول مع كون الخبر عنه أمرا عجيبا هو كما قال لان المخبر عنه خبير (وثانيهما) هو أن يكون ذلك خطابا غير مختص باحد أي هذا الذي ذكره هو كما قال ولا ينبئك ايها السامع كائنا من كنت مثل خبير ✲ ثم قال تعالى (يأيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد) لما كثر الدعاء من النبي صلى الله عليه وسلم والاصرار من الكفار قالوا ان الله لعله يحتاج الى عبادتنا حتى يأمرنا بها أمرا بالغا ويهددنا على تركها مبالغا فقال تعالى أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني فلا يأمركم بالعبادة لاحتياجه اليكم وانما هو لاشفاقه عليكم وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) التعريف في الخبر قليل والاكثر أن يكون الخبر نكرة والمبتدأ معرفة وهو معقول وذلك لان المخبر لا يخبر في الاكثر الا بأمر لا يكون عند المخبر به علم أو في ظن المتكلم ان السامع لا علم له به ثم ان المبتدأ لا بد من أن يكون معلوما عند السامع حتى يقول له أيها السامع الامر الذي تعرفه أنت فيه المعنى الفلاني كقول القائل زيد قائم أو قام أي زيد الذي تعرفه ثبت له قيام لا علم عندك به فان كان الخبر معلوما عند السامع والمبتدأ كذلك ويقع الخبر تنبيها لا تفهيما يحسن تعريف الخبر غاية الحسن كقول القائل الله ربنا ومحمد نبينا حيث عرف كون الله ربا وكون محمد نبيا وههنا لما كان كون الناس فقراء أمرا ظاهرا لا يخفى على أحد قال أنتم الفقراء (المسئلة الثانية) قوله الى الله اعلام بأنه لا افتقار الا اليه ولا اتكال الا عليه وهذا يوجب عبادته لكونه مفتقرا اليه وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار الى غيره ثم قال والله هو الغني أي هو مع استغنائه يدعوكم كل الدعاء وانتم مع احتياجكم لا تجيبونه ولا تدعونه فيجيبكم (المسئلة الثالثة) في قوله الحميد لما زاد في الخبر الاول وهو قوله انتم الفقراء زيادة وهو قوله الى الله اشارة الى وجوب حصر العبادة في عبادته زاد في وصفه بالغني زيادة وهو كونه حميدا اشارة الى كونكم فقراء وفي مقابلته الله غني وفقركم اليه في مقابلة نعمه عليكم لكونه حميدا واجب الشكر فلستم أنتم فقراء والله مثلكم في الفقر بل هو غني على الاطلاق ولستم أنتم لما افتقرتم اليه

تركتكم غير مقضي الحاجات بل قضى في الدنيا حوائجكم وإن آمنتم يقضي في الآخرة حوائجكم فهو حميد * ثم قال تعالى (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) بيانا لغناه وفيه بلاغة كاملة وبيانها أنه تعالى قال إن يشأ يذهبكم أي ليس إذهابكم موقوفا إلا على مشيئته بخلاف الشيء المحتاج إليه فإن المحتاج لا يقول فيه إن يشأ فلان هدم داره وأعدم عقاره وإنما يقول لولا حاجة السكنى إلى الدار لبعتها أو لولا الافتقار إلى العقار لتركتها ثم إنه تعالى زاد بيان الاستغناء بقوله ويأت بخلق جديد يعني إن كان يتوهم متوهم أن هذا الملك له كمال وعظمة فلو أذهبه لزال ملكه وعظمته فهو قادر بأن يخلق خلقا جديدا أحسن من هذا وأجمل وأتم وأكمل * ثم قال تعالى (وما ذلك على الله بعزيز) أي الإذهاب والإتيان وههنا مسئلة وهي أن لفظ العزيز استعمله الله تعالى تارة في القائم بنفسه حيث قال في حق نفسه وكان الله قويا عزيزا وقال في هذه السورة إن الله عزيز غفور واستعمله في القائم بغيره حيث قال وما ذلك على الله بعزيز وقال عزيز عليه ما عنتم فهل هما بمعنى واحد أم بمعنيين فنقول العزيز هو الغالب في اللغة يقال من عز بز أي من غلب سلب فالله عزيز أي غالب والفعل إذا كان لا يطيقه شخص يقال هو مغلوب بالنسبة إلى ذلك الفعل فقوله وما ذلك على الله بعزيز أي لا يغلب الله ذلك الفعل بل هو هين على الله وقوله عزيز عليه ما عنتم أي تحزنه وتؤذيه كالشغل الغالب * قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) متعلق بما قبله وذلك من حيث إنه تعالى لما بين الحق بالدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة ذكر ما يدعوهم إلى النظر فيه فقال ولا تزر وازرة وزر أخرى أي لا تحمل نفس ذنب نفس فالنبي صلى الله عليه وسلم لو كان كاذبا في دعائه لكان مذنبا وهو معتقد بأن ذنبه لا تحملونه أنتم فهو يتوقى ويحترز والله تعالى غير فقير إلى عبادتكم فتفكروا واعلموا أنكم إن ضللتم فلا يحمل أحد عنكم وزركم وليس كما يقول أكابركم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وفي الآية مسائل (المسئلة الأولى) قوله وازرة أي نفس وازرة ولم يقل ولا تزر نفس وزر أخرى ولا جمع بين الموصوف والصفة فلم يقل ولا تزر نفس وازرة وزر أخرى لفائدة (أما الأول) فلأنه لو قال ولا تزر نفس وزر أخرى لما علم أن كل نفس وازرة مهمومة بهم وزرها متحيرة في أمرها (ووجه آخر) وهو أن قول القائل ولا تزر نفس وزر أخرى قد يجتمع معها أن لا تزر وزرا أصلا كالمعصوم لا يزر وزر غيره ومع ذلك لا يزر وزرا أسا فقوله ولا تزر وازرة يبين أنها تزر وزرها ولا تزر وزر الغير (وأما) ترك ذكر الموصوف فلظهور الصفة ولزومها للموصوف ثم قال تعالى وإن تدع مثقلة إشارة إلى أن أحدا لا يحمل عن أحد شيأ مبتدئا ولا بعد السؤال فإن المحتاج قد يصبر وتقضى حاجته من غير سؤاله فإذا انتهى الافتقار إلى حد الكمال يحوجه إلى السؤال (المسئلة الثانية) في قوله مثقلة زيادة بيان لما تقدم من حيث إنه قال أولا ولا تزر وازرة وزر أخرى فيظن أن أحدا لا يحمل عن أحد لكون ذلك الواحد قادرا على حمله كما

الصلاة والسلام (هو يبور) أي هو يهلك ويفسد خاصة لا من مكروا به ولقد أبارهم الله تعالى بعد إبارة مكراتهم حيث أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر فجمع عليهم مكراتهم الثلاث التي اكتفوا في حقه عليه الصلاة والسلام بواحدة منهن (والله خلقكم من تراب) دليل آخر على صحة البعث والنشور أي خلقكم ابتداء منه في ضمن خلق آدم عليه السلام خلقا إجماليا كما مر تحقيقه مرارا (ثم من نطفة) أي خلقكم منها خلقا تفصيليا (ثم جعلكم أزواجا) ﴿٣٨﴾ أي أصنافا أو ذكرانا وإناثا وعن قتادة جعل بعضكم زوجا لبعض (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) إلا ملتبسة بعلمه تابعة لمشيئته (وما يعمر من معمر) أي من أحد وإنما سمي معمرا باعتبار مصيره أي وما يمد في عمر أحد (ولا ينقص من عمره) أي من عمر أحد على طريقة قولهم لا يثيب الله عبدا ولا يعاقبه إلا بحق لكن لا على معنى لا ينقص عمره بعد كونه زائدا بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصا وقيل الزيادة والنقص في عمر واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت في اللوح مثل أن يكتب فيه إن حج فلان فعمره ستون وإلا فأربعون وإليه أشار عليه الصلاة والسلام بقوله الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار وقيل المراد بالنقص ما يمر من عمره وينقص فإنه يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة ثم يكتب تحت ذلك ذهب يوم ذهب يومان وهكذا حتى يأتي على آخره وقرئ ولا ينقص على البناء للفاعل ومن عمره بسكون الميم (إلا في كتاب) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه اللوح وقيل علم الله عز وجل وقيل صحيفة كل إنسان (إن ذلك) أي ما ذكر من الخلق وما بعده ﴿ ان ﴾ مع كونه محار العقول والأفهام (على الله يسير) لاستغنائه عن الأسباب فكذلك البعث (وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) مثل ضرب للمؤمن والكافر والفرات الذي يكسر العطش والسائغ الذي يسهل انحداره لعذوبته والأجاج الذي يحرق بملوحته وقرئ سيغ كسيد وسيغ بالتخفيف وملح ككتف

وقوله تعالى (ومن كل) أي من كل واحد منهما (تأكلون لحما طريا وتستخرجون) أي من المالح خاصة (حلية تلبسونها) اما استطراد في صفة البحرين وما فيهما من النعم والمنافع واما تكملة للتمثيل والمعنى كما أنهما وان اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان من حيث أنهما متفاوتان فيما هو المقصود بالذات من الماء لما خالط أحدهما ما أفسده وغيره عن كمال فطرته لا يساوي الكافر المؤمن وان شاركه في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ونحوهما لتباينهما فيما هو الخاصية العظمى لبقاء أحدهما على فطرته الاصلية وحيازته لكماله اللائق دون الآخر أو تفضيل للاجاج على الكافر من حيث انه يشارك العذب في منافع كثيرة والكافر خلو من المنافع بالكلية على طريقة قوله تعالى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان (وترى الفلك فيه) أي في كل منهما وافراد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحق لان الخطاب لكل أحد تتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط (مواخر) شواق للماء بجريها مقبلة ومدبرة بريح واحدة (لتبتغوا من فضله) من فضل الله تعالى بالنقلة فيها واللام متعلقة بمواخر وقد يجوز تعلقها بما دل عليه الافعال المذكورة أي فعل ذلك لتبتغوا من فضله (ولعلكم تشكرون) أي ولتشكروا على ذلك وحرف الترجي للايذان بكونه مرضيا عند الله تعالى (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) بزيادة أحدهما ونقص الآخر باضافة بعض أجزاء كل منهما الى الآخر (وسخر الشمس والقمر) عطف على يولج واختلافهما صيغة لما أن ايلاج أحد الملوين في الآخر متجدد حينا فحينا وأما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه وانما التعدد والتجدد في آثاره وقد أشير اليه بقوله تعالى (كل يجري) أي بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات اليومية المتعددة حسب

ان القوي اذا أخذ بيده رمانة أو سفرجلة لا يحمل عنه واما اذا كان الحمل ثقيلا فقد يرحم الحامل فيحمل عنه فقال مثقلة يعني ليس عدم الوزر لعدم كونه محلا للرحمة بالثقل بل لكون النفس مثقلة ولا يحمل منها شيء (المسئلة الثالثة) زاد في ذلك بقوله ولو كان ذا قربى أي المدعو لو كان ذا قربى لا يحمله وفي الاول كان يمكن أن يقال لا يحمله لعدم تعلقه به كالعدو والذي يرى عدوه تحت ثقل أو الاجنبي الذي يرى أجنبيا تحت حمل لا يحمل عنه فقال ولو كان ذا قربى أي يحصل جميع المعاني الداعية الى الحمل من كون النفس وازرة قوية تحتمل وكون الاخرى مثقلة لا يقال كونها قوية قادرة ليس عليها حمل وكونها سائلة داعية فان السؤال مظنة الرحمة ولو كان المسؤل قريبا فاذن لا يكون التخلف الا لمانع وهو كون كل نفس تحت حمل ثقيل * ثم قال تعالى (انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلوة) اشارة الى أن الارشاد فوق ما أتيت به ولم يفدهم فلا تنذر انذارا مفيدا الا الذين تملئ قلوبهم خشية وتحلى ظواهرهم بالعبادة كقوله الذين آمنوا اشارة الى عمل القلب وعملوا الصالحات اشارة الى عمل الظواهر فقوله الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة في ذلك المعنى ثم لما بين ان لا تزر وازرة وزر أخرى بين ان الحسنة تنفع المحسنين فقال (ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه) أي فتزكيته لنفسه * ثم قال تعالى (والى الله المصير) أي المتزكي ان لم تظهر فائدته عاجلا فالمصير الى الله يظهر عنده في يوم اللقاء في دار البقاء والوازر ان لم تظهر تبعة وزره في الدنيا فهي تظهر في الآخرة اذ المصير الى الله * ثم قال تعالى (وما يستوي الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الاحياء ولا الاموات) لما بين الهدى والضلالة ولم يهتد الكافر وهدى الله المؤمن ضرب لهم مثلا بالبصير والاعمى فالمؤمن بصير حيث أبصر الطريق الواضح والكافر أعمى وفي تفسير الآية مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة في تكثير الامثلة ههنا حيث ذكر الاعمى والبصير والظلمة والنور والظل والحرور والاحياء والاموات فنقول الاول مثل المؤمن والكافر فالمؤمن بصير والكافر أعمى ثم البصير وان كان حديد البصر ولكن لا يبصر شيئا ان لم يكن في ضوء فذكر للايمان والكفر مثلا وقال الايمان نور والمؤمن بصير والبصير لا يخفى عليه النور والكفر ظلمة والكافر أعمى فله صاد فوق صاد ثم ذكر لمآلهما ومرجعهما مثلا وهو الظل والحرور فالمؤمن بايمانه في ظل وراحة والكافر بكفره في حر وتعب ثم قال تعالى وما يستوي الاحياء ولا الاموات مثلا آخر في حق المؤمن والكافر كأنه قال تعالى حال المؤمن والكافر فوق حال الاعمى والبصير فان الاعمى يشارك البصير في ادراك ما والكافر غير مدرك ادراكا نافعا فهو كالميت ويدل على ما ذكرنا انه تعالى أعاد الفعل حيث قال أولا وما يستوي الاعمى والبصير وعطف الظلمات والنور والظل والحرور ثم أعاد الفعل وقال وما يستوي الاحياء ولا الاموات كأنه جعل هذا مقابلا لذلك (المسئلة الثانية) كرر كلمة النفي بين الظلمات والنور والظل والحرور والاحياء والاموات

النعم على سائر الموجودات المستوجب للحمد (ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) ليسوا على صفتكم بل مستمرون على الطاعة أو بعالم آخر غير ما تعرفونه (وما ذلك) أي ما ذكر من الاذهاب بهم والاتيان بآخرين (على الله بعزيز) بمتعذر ولا متعسر (ولا تزر وازرة) أي لا تحمل نفس ﴿ ٤١ ﴾ آثمة (وزر أخرى) اثم نفس أخرى بل انما تحمل كل منهما وزرها وأما في قوله تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم من حمل المضلين أثقالا غير أثقالهم فهو حمل أثقال اضلالهم مع أثقال ضلالهم وكلاهما أوزارهم ليس فيها من أوزار غيرهم شيء (وان تدع مثقلة) اي نفس أثقلها الاوزار (الى حملها) لحمل بعض أوزارها (لا يحمل منه شيء) لم تجب بحمل شيء منه (ولو كان) أي المدعو المفهوم من الدعوة (ذا قربى) ذا قرابة من الداعي وقرئ ذو قربى وهذا نفي للحمل اختيارا والاول نفي له اجبارا (انما تنذر) استئناف مسوق لبيان من يتعظ بما ذكر أي انما تنذر بهذه الانذارات (الذين يخشون ربهم بالغيب) أي يخشونه تعالى غائبين عن عذابه أو عن الناس في خلواتهم أو يخشون عذابه وهو غائب عنهم (وأقاموا الصلوة) أي راعوها كما ينبغي وجعلوها منارا منصوبا وعلما مرفوعا أي انما ينفع انذارك وتحذيرك هؤلاء ﴿ ٦ ﴾ س من قومك دون من عداهم من أهل التمرد والعناد (ومن تزكى) أي تطهر من أوضار الاوزار والمعاصي بالتأثر من هذه الانذارات (فانما يتزكى لنفسه) لاقتصار نفعه عليها كما أن من تدنس بها لا يتدنس الا عليها وقرئ من أزكى فانما يزكى وهو

جنس البصير خير من جنس الاعمى وأما الاحياء والاموات فالتفاوت بينهما أكثر اذ ما من ميت يساوي في الادراك حيا من الاحياء فذكر ان الاحياء لا يساوون الاموات سواء قابلت الجنس بالجنس أو قابلت الفرد بالفرد وأما الظلمات والنور فالحق واحد وهو التوحيد والباطل كثير وهو طرق الاشراك على ما بينا أن بعضهم يعبدون الكواكب وبعضهم النار وبعضهم الاصنام التي هي على صورة الملائكة والى غير ذلك والتفاوت بين كل فرد من تلك الافراد وبين هذا الواحد بين فقال الظلمات كلها اذا اعتبرتها لا تجد فيها ما يساوي النور وقد ذكرنا في تفسير قوله وجعل الظلمات والنور السبب في توحيد النور وجمع الظلمات ومن جملة ذلك أن النور لا يكون الا بوجود منور ومحل قابل للاستنارة وعدم الحائل بين النور والمستنير مثاله الشمس اذا طلعت وكان هناك موضع قابل للاستنارة وهو الذي يسلك الشعاع فان البيت الذي فيه كوة يدخل منها الشعاع اذا كان في مقابلة الكوة منفذ يخرج منه الشعاع ويدخل بيتا آخر ويبسط الشعاع على ارضه يرى البيت الثاني مضيأ والاول مظلما وان لم يكن هناك حائل كالبيت الذي لا كوة له فانه لا يضيء فاذا حصلت الامور الثلاثة يستنير البيت والا فلا تحقق الظلمة بفقد أي أمر كان من الامور الثلاثة * ثم قوله تعالى (ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور) وفيه احتمال معنيين (الاول) أن يكون المراد بيان كون الكفار بالنسبة الى سماعهم كلام النبي والوحي النازل عليه دون حال الموتى فان الله يسمع الموتى والنبي لا يسمع من مات وقبر فالموتى سامعون من الله والكفار كالموتى لا يسمعون من النبي (والثاني) أن يكون المراد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم فانه لما بين له أنه لا ينفعهم ولا يسمعهم قال له هؤلاء لا يسمعهم الا الله فانه يسمع من يشاء ولو كان صخرة صماء وأما أنت فلا تسمع من في القبور فاتعلق من حسابهم من شيء * ثم قال تعالى (ان أنت الا نذير) بيانا للتسلية * ثم قال تعالى (انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) فقال ان أنت الا نذير بين انه ليس نذيرا من تلقاء نفسه انما هو نذير باذن الله وارساله * ثم قال تعالى (وان من أمة الا خلا فيها نذير) تقريرا لامرين (احدهما) لتسلية قلبه حيث يعلم ان غيره كان مثله محتملا لاذى القوم (وثانيهما) الزام القوم قبوله فانه ليس بدعا من الرسل وانما هو مثل غيره يدعي ما ادعاه الرسل ويقرره * قوله تعالى (وان يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات) يعني ان جئتهم بالبينة والكتاب فكذبوك فاذوك وغيرك أيضا أتاهم مثل ذلك وفعلوا بهم ما فعلوا بك وصبروا على ما كذبوا فكذلك تلزمهم بأن من تقدم من الرسل لم يعلم كونهم رسلا الا بالمعجزات البينات وقد آتيناها محمدا صلى الله عليه وسلم (وبالزبر وبالكتاب المنير) والكل آتيناها محمدا فهو رسول مثل الرسل يلزمهم قبوله كما لزم قبول موسى وعيسى عليهم السلام اجمعين وهذا يكون تقريرا مع أهل الكتاب واعلم انه تعالى ذكر امورا ثلاثة اولها البينات وذلك لان كل رسول فلا بد له من معجزة وهي أدنى الدرجات ثم

النعم علينا الموجودات المستوجب للحمد (ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) [illegible]
الطاعة أو بعالم آخر غير ما تعرفونه (وما ذلك) أي ما ذكر من الاذهاب بهم والاتيان بآخرين (على الله بعزيز) بمتعذر
ولا متعسر (ولا تزر وازرة) أي لا تحمل نفس ﴿ ٤١ ﴾ آثمة (وزر أخرى) اثم نفس أخرى بل انما تحمل كل
منهما وزرها وأما في قوله تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم من حمل المضلين أثقالا غير أثقالهم فهو حمل أثقال اضلالهم مع أثقال ضلالهم وكلاهما أوزارهم ليس فيها من أوزار غيرهم شئ (وان تدع مثقلة) اى نفس أثقلها الاوزار (الى حملها) لحمل بعض أوزارها (لا يحمل منه شئ) لم تجب بحمل شئ منه (ولو كان) أى المدعو المفهوم من الدعوة (ذا قربى) ذا قرابة من الداعي وقرئ ذو قربى وهذا نفي للحمل اختيارا والاول نفي له اجبارا (انما تنذر) استئناف مسوق لبيان من يتعظ بما ذكر أي انما تنذر بهذه الانذارات (الذين يخشون ربهم بالغيب) أى يخشونه تعالى غائبين عن عذابه أو عن الناس في خلواتهم أو يخشون عذابه وهو غائب عنهم (وأقاموا الصلوة) أى راعوها كما ينبغي وجعلوها منارا منصوبا وعلما مرفوعا أى
انما ينفع انذارك وتحذيرك هؤلاء ﴿ ٦ ﴾ سا من قومك دون من عداهم من أهل التمرد والعناد (ومن تزكى)
أى تطهر من أوضار الاوزار والمعاصي بالتأثر من هذه الانذارات (فانما يتزكى لنفسه) لاقتصار نفعه عليها كما أن من تدنس
بها لا يتدنس الا عليها وقرئ من ازكى فانما يزكى وهو

جنس البصير خير من جنس الاعمى وأما الاحياء والاموات فالتفاوت بينهما أكثر اذ ما من ميت يساوي في الادراك حيا من الاحياء فذكر ان الاحياء لا يساوون الاموات سواء قابلت الجنس بالجنس أو قابلت الفرد بالفرد وأما الظلمات والنور فالحق واحد وهو التوحيد والباطل كثير وهو طرق الاشراك على ما بينا أن بعضهم يعبدون الكواكب وبعضهم النار وبعضهم الاصنام التي هي على صورة الملائكة والى غير ذلك والتفاوت بين كل فرد من تلك الافراد وبين هذا الواحد بين فقال الظلمات كلها اذا اعتبرتها لا تجد فيها ما يساوي النور وقد ذكرنا في تفسير قوله وجعل الظلمات والنور السبب في توحيد النور وجمع الظلمات ومن جملة ذلك أن النور لا يكون الا بوجود منور ومحل قابل للاستنارة وعدم الحائل بين النور والمستنير مثاله الشمس اذا طلعت وكان هناك موضع قابل للاستنارة وهو الذي يمسك الشعاع فان البيت الذي فيه كوة يدخل منها الشعاع اذا كان في مقابلة الكوة منفذ يخرج منه الشعاع ويدخل بيتا آخر ويبسط الشعاع على أرضه يرى البيت الثاني مضيأ والاول مظلما وان لم يكن هناك حائل كالبيت الذي لا كوة له فانه لا يضئ فاذا حصلت الامور الثلاثة يستنير البيت والا فلا تتحقق الظلمة بفقد أى أمر كان من الامور الثلاثة * ثم قوله تعالى (ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور) وفيه احتمال معنيين (الاول) أن يكون المراد بيان كون الكفار بالنسبة الى سماعهم كلام النبي والوحي النازل عليه دون حال الموتى فان الله يسمع الموتى والنبي لا يسمع من مات وقبر فالموتى سامعون من الله والكفار كالموتى لا يسمعون من النبي (والثاني) أن يكون المراد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم فانه لما بين له أنه لا ينفعهم ولا يسمعهم قال له هؤلاء لا يسمعهم الا الله فانه يسمع من يشاء ولو كان صخرة صماء وأما أنت فلا تسمع من في القبور فما عليك من حسابهم من شئ * ثم قال تعالى (ان أنت الا نذير) بيانا للتسلية * ثم قال تعالى (انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) لما قال ان أنت الا نذير بين انه ليس نذيرا من تلقاء نفسه انما هو نذير باذن الله وارساله * ثم قال تعالى (وان من أمة الا خلا فيها نذير) تقريرا لامرين (احدهما) لتسلية قلبه حيث يعلم ان غيره كان مثله محتملا لاذى القوم (وثانيهما) الزام القوم قبوله فانه ليس بدعا من الرسل وانما هو مثل غيره يدعي ما ادعاه الرسل ويقرره * قوله تعالى (وان يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات) يعني ان جئتهم بالبينة والكتاب فكذبوك وآذوك وغيرك أيضا أتاهم بمثل ذلك وفعلوا بهم ما فعلوا بك وصبروا على ما كذبوا فكذلك تلزمهم بأن من تقدم من الرسل لم يعلم كونهم رسلا الا بالمعجزات البينات وقد آتيناها محمدا صلى الله عليه وسلم (وبالزبر وبالكتاب المنير) والكل آتيناها محمدا فهو رسول مثل الرسل يلزمهم قبوله كما لزم قبول موسى وعيسى عليهم السلام اجمعين وهذا يكون تقريرا مع أهل الكتاب واعلم انه تعالى ذكر امورا ثلاثة أولها البينات وذلك لان كل رسول فلا بد له من معجزة وهي أدنى الدرجات ثم

اعتراض مقرر لخشيتهم واقامتهم الصلاة لانهما من معظم مبادي التزكي (والى الله المصير) لا الى أحد غيره استقلالا أو اشتراكا فيجازيهم على تزكيهم أحسن الجزاء (وما يستوي الاعمى والبصير) أي الكافر والمؤمن (ولا الظلمات ولا النور) أي ولا الباطل ولا الحق وجمع الظلمات مع افراد النور لتعدد فنون الباطل واتحاد الحق (ولا الظل ولا الحرور) أي ولا الثواب ولا العقاب وادخال لا على المتقابلين لتذكير نفي الاستواء وتوسيطها بينهما للتأكيد والحرور فعول من الحر غالب على السموم وقيل السموم ما يهب نهارا والحرور ما يهب ليلا (وما يستوي الاحياء ولا الاموات) تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الاول ولذلك كرر الفعل وأوثر صيغة الجمع في الطرفين تحقيقا للتباين بين أفراد الفريقين وقيل تمثيل للعلماء والجهلة (ان الله يسمع من يشاء) أن يسمعه ويوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعظاته (وما أنت بمسمع من في القبور) ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالاموات واشباع في اقناطه عليه الصلاة والسلام من ايمانهم (ان أنت الا نذير) ما عليك الا الانذار وأما الاسماع البتة فليس من وظائفك ولا حيلة لك اليه في المطبوع على قلوبهم (انا أرسلناك بالحق) أي محقين أو محقا أنت أو ارسالا مصحوبا بالحق ويجوز أن يتعلق بقوله (بشيرا ونذيرا) أي بشيرا بالوعد الحق ونذيرا بالوعيد الحق (وان من أمة) أي ما من أمة من الامم الدارجة في الازمنة الماضية (الا خلا) أي مضى (فيها نذير) من نبي أو عالم ينذرهم والاكتفاء بذكره للعلم

فمن ينزل عليه كتاب يكون فيه مواعظ وتنبيهات وان لم يكن فيه نسخ واحكام مشروعة شرعا ناسخا ومن ينزل عليه مثله أعلى مرتبة ممن لا ينزل عليه ذلك وقد تنسخ شريعته الشرائع وينزل عليه كتاب فيه أحكام على وفق الحكمة الالهية ومن يكون كذلك فهو من أولي العزم فقال الرسل تبين رسالتهم بالبينات وان كانوا أعلى مرتبة فبالزبر وان كانوا أعلى فبالكتاب والنبي آتاه الله الكل فهو رسول أشرف من الكل لكون كتابه أتم وأكمل من كل كتاب * ثم قال تعالى (ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير) أي من كذب بالكتاب المنزل من قبل وبالرسول المرسل أخذه الله تعالى فكذلك من يكذب بالنبي عليه السلام وقوله فكيف كان نكير سؤال التقرير فانهم علموا شدة انكار الله عليهم واتيانه بالامر المنكر من الاستئصال * ثم قال تعالى (ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها) وهذا استدلال بدليل آخر على وحدانية الله وقدرته وفي تفسيرها مسائل (المسئلة الاولى) ذكر هذا الدليل على طريقة الاستخبار وقال ألم تر وذكر الدليل المتقدم على طريقة الاخبار وقال والله الذي أرسل الرياح وفيه وجهان (الاول) ان انزال الماء أقرب الى النفع والنعمة فيه أظهر فانه لا يخفى على أحد في الرؤية أن الماء منه حياة الارض فعظم دلالته بالاستفهام لان الاستفهام الذي للتقرير لا يقال الا في شئ الظاهر جدا كما أن من أبصر الهلال وهو خفي جدا فقال لغيره أين هو فقال له يقول له في الموضع الفلاني فان لم يره يقول له الحق معك انه خفي وأنت معذور واذا كان بارزا يقول له أما تراه هذا هو ظاهر (والثاني) وهو أنه ذكره بعدما قرر المسئلة بدليل آخر وظهر بما تقدم للمدعو بصارة بوجوه الدلالات فقال له أنت صرت بصيرا بما ذكرناه ولم يبق لك عذر ألا ترى هذه الآية (المسئلة الثانية) المخاطب من هو يحتمل وجهين (أحدهما) النبي صلى الله عليه وسلم وفيه حكمة وهي ان الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تنفعهم قطع الكلام معهم والتفت الى غيرهم كما ان السيد اذا نصح بعض العبيد ومنعهم من الفساد ولا ينفعهم الارشاد يقول لغيره اسمع ولا تكن مثل هذا ويكرر معه ما ذكره مع الاول ويكون فيه اشعار بأن الاول فيه نقيصة لا يستأهل الخطاب فليتنبه لامر يدفع عن نفسه تلك النقيصة (والآخر) أن لا يخرج الى كلام أجنبي عن الاول بل يأتي بما يقاربه لئلا يسمع الاول كلاما آخر فيترك الفكر فيما كان فيه من النصيحة (المسئلة الثالثة) هذا استدلال على قدرة الله واختياره حيث أخرج من الماء الواحد ثمرات مختلفة وفيه لطائف (الاولى) قال أنزل وقال أخرجنا وقد ذكرنا فائدته ونعيدها فنقول قال الله تعالى ألم تر أن الله أنزل فان كان جاهلا يقول نزول الماء بالطبع لثقله فيقال له فالاخراج لا يمكنك ان تقول فيه انه بالطبع فهو بارادة الله فلما كان ذلك أظهر أسنده الى المتكلم (ووجه آخر) هو أن الله تعالى لما قال أن الله أنزل علم الله بدليل وقرب المتفكر فيه الى الله تعالى فصار من الحاضرين فقال له أخرجنا لقربه (ووجه ثالث) الاخراج اتم نعمة من الانزال لان الانزال لفائدة

﴿ الاخراج ﴾

بأن النذارة قرينة البشارة لا سيما وقد اقترنتا آنفا ولأن الانذار هو الانسب بالمقام (وإن يكذبوك) أى تموا على تكذيبك فلا تبال بهم وبتكذيبهم (فقد كذب الذين من قبلهم) من الامم العاتية جاءتهم رسلهم بالبينات) أى المعجزات الظاهرة الدالة على نبوتهم (وبالزبر) كصحف ابراهيم (وبالكتاب المنير) كالتوراة والانجيل والزبور وعلى ارادة التفصيل دون الجمع ويجوز أن يراد بهما واحد والعطف لتغاير العنوانين (ثم أخذت الذين كفروا) وضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما فى حيز الصلة والاشعار بعلة الأخذ (فكيف كان نكير) أى انكارى بالعقوبة وفيه من مزيد تشديد وتهويل لها (ألم تر) استئناف مسوق لتقرير ما قبله من اختلاف أحوال الناس ببيان أن الاختلاف والتفاوت أمر مطرد فى جميع المخلوقات من النبات والجماد والحيوان والرؤية قلبية أى ألم تعلم (أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به) بذلك الماء والالتفات لاظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة (ثمرات مختلفا ألوانها) أى أجناسها أو أصنافها على أن كلا منها ذو أصناف مختلفة أو هيئاتها وأشكالها أو ألوانها من الصفرة والخضرة والحمرة وغيرها وهو الاوفق لما فى قوله تعالى (ومن الجبال جدد) أى ذو جدد أى خطط وطرائق يقال جدة الحمار للخطة السوداء على ظهره وقرئ جدد بالضم جمع جديد بمعنى الجدة وجدد بفتحتين وهو الطريق الواضح (بيض وحمر مختلف ألوانها) بالشدة والضعف

الاخراج فأسنده الى نفسه بصيغة المتكلم وما دونه بصيغة الغائب (المسألة الثانية) قال تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك) كأن قائلا قال اختلاف الثمرات لاختلاف البقاع ألا ترى أن بعض النباتات لا تنبت ببعض البلاد كالزعفران وغيره فقال تعالى اختلاف البقاع ليس الا بارادة الله والا فلم صار بعض الجبال فيه مواضع حمر ومواضع بيض والجدد جمع جدة وهى الخطط والطرائق فان قيل الواو فى ومن الجبال ما تقديرها نقول هى تحتمل وجهين (أحدهما) أن تكون للاستئناف كأنه قال تعالى وأخرجنا بالماء ثمرات مختلفة الالوان وفى الاشياء الكائنات من الجبال جدد بيض دالة على القدرة رادة على من ينكر الارادة فى اختلاف ألوان الثمار (ثانيهما) أن تكون للعطف تقديرها وخلق من الجبال قال الزمخشرى أراد ذو جدد (المسألة الثالثة) ذكر الجبال ولم يذكر الارض كما قال فى موضع آخر وفى الارض قطع متجاورات مع أن هذا الدليل مثل ذلك وذلك لان الله تعالى لما ذكر فى الاول أخرجنا به ثمرات كان نفس اخراج الثمار دليلا على القدرة ثم زاد عليه بيانا وقال مختلفا كذلك فى الجبال فى نفسها دليل للقدرة والارادة لان كون الجبل فى بعض نواحى الارض دون بعضها والاختلاف الذى فى هيئة الجبل فان بعضها يكون أخفض وبعضها أرفع دليل القدرة والاختيار ثم زاده بيانا وقال جدد بيض أى مع دلالتها بنفسها هى دالة باختلاف ألوانها فان اخراج الثمرات فى نفسها دلائل واختلاف ألوانها دلائل (المسألة الرابعة) مختلف ألوانها الظاهر أن الاختلاف راجع الى كل لون أى بيض مختلف ألوانها وحمر مختلف ألوانها لان الابيض قد يكون على لون الجص وقد يكون على لون التراب الابيض دون بياض الجص وكذلك الاحمر ولو كان المراد أن البيض والحمر مختلف الالوان لكان مجرد تأكيد والاول أولى وعلى هذا فنقول لم يذكر مختلف ألوانها بعد البيض والحمر والسود بل ذكره بعد البيض والحمر وأخر السود الغرابيب لان الاسود لما ذكره مع المؤكد وهو الغرابيب يكون بالغا غاية السواد فلا يكون فيه اختلاف (المسألة الخامسة) قيل ان الغربيب مؤكد للاسود يقال أسود غربيب والمؤكد لا يجئ الا متأخرا فكيف جاء غرابيب سود نقول قال الزمخشرى غرابيب مؤكد لذى لون مقدر فى الكلام كأنه تعالى قال سود غرابيب ثم أعاد السود مرة أخرى وفيه فائدة وهى زيادة التأكيد لانه تعالى ذكره مضمرا ومظهرا ومنهم من قال هو على التقديم والتأخير ثم قال تعالى ومن الناس والدواب والانعام استدلالا آخر على قدرته وارادته وكأن الله تعالى قسم دلائل الخلق فى العالم الذى نحن فيه وهو عالم المركبات قسمين حيوان وغير حيوان وغير الحيوان اما نبات واما معدن والنبات أشرف وأشار اليه بقوله فأخرجنا به ثمرات ثم ذكر المعدن بقوله ومن الجبال ثم ذكر الحيوان وبدأ بالاشرف منها وهو الانسان فقال ومن الناس ثم ذكر الدواب لان منافعها

في حياتها والانعام منفعتها في الاكل منها أو لان الدابة في العرف تطلق على الفرس وهو بعد الانسان أشرف من غيره وقوله مختلف ألوانه القول فيه كما أنها في أنفسها دلائل كذلك في اختلافها دلائل وأما قوله مختلف الوانه فذكر لكون الانسان من جملة المذكورين وكون التذكير أعلى وأولى * ثم قال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور) الخشية بقدر معرفة المخشي والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد لان الله تعالى قال ان أكرمكم عند الله أتقاكم فبين ان الكرامة بقدر التقوى والتقوى بقدر العلم فالكرامة بقدر العلم لا بقدر العمل نعم العالم اذا ترك العمل قدح ذلك في علمه فان من يراه يقول لو علم لعمل ثم قال تعالى ان الله عزيز غفور ذكر ما يوجب الخوف والرجاء فكونه عزيزا ذا انتقام يوجب الخوف التام وكونه غفورا لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ وقراءة من قرأ بنصب العلماء ورفع الله معناها انما يعظم ويبجل * ثم قال تعالى (ان الذين يتلون كتاب الله) لما بين العلماء بالله وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه وقوله يتلون كتاب الله اشارة الى الذكر وقوله تعالى (وأقاموا الصلاة) اشارة الى العمل البدني وقوله (وأنفقوا مما رزقناهم) اشارة الى العمل المالي وفي الآيتين حكمة بالغة فقوله انما يخشى الله اشارة الى عمل القلب وقوله ان الذين يتلون اشارة الى عمل اللسان وقوله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم اشارة الى عمل الجوارح ثم ان هذه الاشياء الثلاثة متعلقة بجانب تعظيم الله والشفقة على خلقه لانا بينا ان من يعظم ملكا اذا رأى عبدا من عباده في حاجة يلزمه قضاء حاجته والتهاون فيه يخل بالتعظيم والى هذا أشار بقوله عبدي مرضت فما عدتني فيقول العبد كيف تمرض وأنت رب العالمين فيقول الله مرض عبدي فلان ولو عدته أو زرته لوجدتني عنده يعني التعظيم متعلق بالشفقة بحيث لا شفقة على خلق الله لا تعظيم لجانب الله وقوله تعالى (سرا وعلانية) حث على الانفاق كيفما تهيأ فان تهيأ سرا فذاك والا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء فان ترك الخير مخافة أن يقال فيه انه مراء عين الرياء ويمكن أن يكون المراد بقوله سرا أي صدقة وعلانية أي زكاة فان الاعلان بالزكاة كالاعلان بالفرض وهو مستحب وقوله تعالى (يرجون تجارة لن تبور) اشارة الى الاخلاص أي ينفقون لا ليقال انه كريم ولا لشيء من الاشياء غير وجه الله فان غير الله بائر والتاجر فيه تجارته بائرة وقوله تعالى (ليوفيهم أجورهم) أي ما يتوقعونه ولو كان أمرا بالغ الغاية (ويزيدهم من فضله) أي يعطيهم ما لم يخطر ببالهم عند العمل ويحتمل أن يكون يزيدهم النظر اليه كما جاء في تفسير الزيادة (انه غفور) عند عطاء الاجور (شكور) عند اعطاء الزيادة * ثم قال تعالى (والذي أوحينا اليك من الكتاب هو الحق) لما بين الاصل الاول وهو وجود الله الواحد بأنواع الدلائل من قوله والله الذي أرسل الرياح وقوله والله خلقكم وقوله ألم تر أن الله أنزل ذكر

(وغرابيب سود) عطف على بيض أو على جدد كأنه قيل ومن الجبال مخطط ذو جدد ومنها ما هو على لون واحد غرابيب وهو تأكيد لمضمر يفسره ما بعده فان الغربيب تأكيد للاسود كالفاقع للاصفر والقانئ للاحمر ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد ونظيره في الصفة قول النابغة * والمؤمن

العائذات الطير يمسحها * وفي مثله من مزيد التأكيد لما فيه من التكرار باعتبار الاضمار والاظهار (ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه) أي ومنهم بعض مختلف ألوانه أو وبعضهم مختلف ألوانه على ما مر في قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وايراد الجملتين اسميتين مع مشاركتهما لما قبلهما من الجملة الفعلية في الاستشهاد بمضمونهما على تباين الناس في الاحوال الباطنة لما أن اختلاف الجبال والناس والدواب والانعام فيما ذكر من الالوان أمر مستمر فعبر عنه بما يدل على الاستمرار وأما اخراج الثمرات المختلفة فحيث كان أمرا حادثا عبر عنه بما يدل على الحدوث ثم لما كان فيه نوع خفاء علق به الرؤية ثم بطريق الاستفهام التقريري المنبئ عن الحمل عليها والترغيب فيها بخلاف أحوال الجبال والناس وغيرهما فانها مشاهدة غنية عن التأمل فلذلك جردت عن التعليق بالرؤية فتدبر وقوله تعالى (كذلك) مصدر تشبيهي لقوله تعالى مختلف أي صفة لمصدره المؤكد تقديره مختلف اختلافا كائنا كذلك أي كاختلاف الثمار والجبال وقرئ ألوانها وقرئ والدواب بالتخفيف مبالغة في الهرب من التقاء الساكنين وقوله تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) تكملة

الاصل الثانى وهو الرسالة فقال والذى أوحينا اليك من الكتاب هو الحق وأيضا كأنه قد ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم الله فقال والذى أوحينا اليك من الكتاب هو الحق تقريرا لما بين من الاجر والثواب فى تلاوة كتاب الله فانه حق وصدق فتاليه محق ومحقق وفى تفسيرها مسائل (المسئلة الاولى) قوله من الكتاب يحتمل أن يكون لابتداء الغاية كما يقال أرسل الى كتاب من الامير أو الوالى وعلى هذا فالكتاب يمكن أن يكون المراد منه اللوح المحفوظ يعنى الذى أوحينا من اللوح المحفوظ اليك حق ويمكن أن يكون المراد هو القرآن يعنى الارشاد والتبيين الذى أوحينا اليك من القرآن ويحتمل أن يكون البيان كما يقال أرسل الى فلان من الثياب والقماش جملة (المسئلة الثانية) قوله هو الحق آكد من قول القائل الذى أوحينا اليك حق من وجهين (أحدهما) ان تعريف الخبر يدل على أن الامر فى غاية الظهور لان الخبر فى الاكثر يكون نكرة لان الاخبار فى الغالب يكون اعلاما بثبوت أمر لا معرفة للسامع به لامر يعرفه السامع كقولنا زيد قام فان السامع ينبغى أن يكون عارفا بزيد ولا يعلم قيامه فيخبر به فاذا كان الخبر أيضا معلوما فيكون الاخبار للتنبيه فيعرف باللام كقولنا زيد العالم فى هذه المدينة اذا كان علمه مشهورا (المسئلة الثالثة) قوله (مصدقا لما بين يديه) حال مؤكدة لكونه حقا لان الحق اذا كان لا خلاف بينه وبين كتب الله يكون خاليا عن احتمال البطلان وفى قوله مصدقا تقرير لكونه وحيا لان النبى صلى الله عليه وسلم لما لم يكن قارئا كاتبا وأتى ببيان ما فى كتب الله لا يكون ذلك الا من الله تعالى وجواب عن سؤال الكفار وهو أنهم كانوا يقولون بأن التوراة ورد فيها كذا والانجيل ذكر فيه كذا وكانوا يفترون من التثليث وغيره وكانوا يقولون بأن القرآن فيه خلاف ذلك فقال التوراة والانجيل لم يبق بهما وثوق بسبب تغييركم فهذا القرآن ما ورد فيه ان كان فى التوراة فهو حق وباق على ما نزل وان لم يكن فيه ويكون فيه خلافه فهو ليس من التوراة فالقرآن مصدق للتوراة (وفيه وجه آخر) وهو أن يقال ان هذا الوحى مصدق لما تقدم لان الوحى لو لم يكن وجوده لكذب موسى وعيسى عليهما السلام فى انزال التوراة والانجيل فاذا وجد الوحى ونزل على محمد صلى الله عليه وسلم علم جوازه وصدق به ما تقدم وعلى هذا ففيه لطيفة وهى أنه تعالى جعل القرآن مصدقا للماضى مع أن ماضى أيضا مصدق له لان الوحى اذا نزل على واحد جاز أن ينزل على غيره وهو محمد صلى الله عليه وسلم ولم يجعل ما تقدم مصدقا للقرآن لان القرآن كونه معجزة يكفى فى تصديقه بأنه وحى وأما ما تقدم فلا بد معه من معجزة تصدقه (المسئلة الرابعة) قوله (ان الله بعباده لخبير بصير) فيه وجهان (أحدهما) انه تقرير لكونه هو الحق لانه وحى من الله والله خبير عالم بالبواطن بصير عالم بالظواهر فلا يكون باطلا فى وجه لا فى الباطن ولا فى الظاهر (وثانيهما) أن يكون جوابا لما كانوا يقولون انه لم لم ينزل على رجل عظيم فيقال ان الله بعباده لخبير يعلم بواطنهم وبصير يرى ظواهرهم

لقوله تعالى انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب تعيين من يخشاه عز وجل من الناس بعد بيان اختلاف طبقاتهم وتباين مراتبهم اما فى الاوصاف المعنوية فبطريق التمثيل واما فى الاوصاف الصورية فبطريق التصريح توفية لكل واحدة منهما حقها اللائق بها من البيان أى انما يخشاه تعالى ﴿ ٤٥ ﴾ بالغيب العالمون به عز وجل وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة لما أن مدار الخشية معرفة المخشى والعلم بشؤنه فمن كان أعلم به تعالى كان أخشى منه عز وجل كما قال عليه الصلاة والسلام انا أخشاكم لله وأتقاكم له ولذلك عقب بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته وحيث كان الكفرة بمعزل من هذه المعرفة امتنع انذارهم بالكلية وتقديم المفعول لان المقصود حصر الفاعلية ولو أخر انعكس الامر وقرئ برفع الاسم الجليل ونصب العلماء على أن الخشية مستعارة للتعظيم فان المعظم يكون مهيبا (ان الله عزيز غفور) تعليل لوجوب الخشية لدلالته على أنه معاقب للمصر على طغيانه غفور للتائب عن عصيانه (ان الذين يتلون كتاب الله) أى يداومون على قراءته أو متابعة ما فيه حتى صارت سمة لهم وعنوانا والمراد بكتاب الله تعالى القرآن وقيل جنس كتب الله فيكون ثناء على المصدقين من الامم بعد اقتصاص حال المكذبين منهم وايس بذاك فان صيغة المضارع منادية باستمرار مشروعية تلاوته والعمل بما فيه واستتباعهما لما سيأتى من توفية الاجور وزيادة الفضل وحملها على حكاية الحال الماضية مع كونه تعسفا

ظاهر أما الاسبيل اليه كيف لا والمقصود الترغيب في دين الاسلام والعمل بالقرآن الناسخ لما بين يديه من الكتب فالتعرض لبيان حقيتها قبل انتساخها والاشباع في ذكر استتباعها لما ذكر من الفوائد العظيمة مما يورث الرغبة في تلاوتها والاقبال على العمل بها وتخصيص التلاوة بما لم ينسخ منها باطل ﴿ ٤٦ ﴾ قطعا لان الباقي مشروعا ليس الا حكمها بل من حيث انه حكم القرآن وأما تلاوتها فبمعزل من المشروعية واستتباع الاجر بالمرة فتدبر (واقاموا الصلوة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) كيفما اتفق من غير قصد اليهما وقيل السر في المسنونة والعلانية في المفروضة (يرجون تجارة) تحصيل ثواب بالطاعة وهو خبر ان قوله تعالى (لن تبور) أي لن تكسد ولن تهلك بالخسران أصلا صفة للتجارة جيء بها للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخسران لانه اشتراء باق بفان والاخبار برجائهم من اكرم الاكرمين عدة قطعية بحصول مرجوهم وقوله تعالى (ليوفيهم أجورهم) متعلق بلن تبور على معنى أنه ينتفي عنها الكساد وتنفق عند الله تعالى ليوفيهم اجور أعمالهم (ويزيدهم من فضله) على ذلك من خزائن رحمته ما يشاء وقيل بمضمر دل عليه عد من أعمالهم المرضية أي فعلوا ذلك ليوفيهم الخ وقيل يرجون على أن اللام للعاقبة (انه غفور شكور) تعليل لما قبله من التوفية والزيادة أي غفور لفرطاتهم شكور لطاعاتهم أي مجازيهم عليها وقيل هو خبر ان الذين ويرجون حال من واو

كتاب)

ما اختير محمدا عليه السلام ولم يختر غيره فهو أصلح من الكل * ثم قال تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) اتفق أكثر المفسرين على أن المراد من الكتاب القرآن وعلى هذا فالذين اصطفيناهم الذين أخذوا بالكتاب وهم المؤمنون والظالم والمقتصد والسابق كلهم منهم ويدل عليه قوله تعالى جنات عدن يدخلونها أخبر بدخولهم الجنة وكلمة أورثنا أيضا تدل عليه لان الارث اذا كان بعد الايحاء ولا كتاب بعد القرآن فهو الموروث والايراث المراد منه الاعطاء بعد ذهاب من كان بيده المعطى ويحتمل أن يقال المراد من الكتاب هو جنس الكتاب كما في قوله تعالى جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير والمعنى على هذا انا أعطينا الكتاب الذين اصطفينا وهم الانبياء ويدل عليه ان لفظ المصطفى على الانبياء اطلاقه كثير ولا كذلك على غيرهم ولان قوله من عبادنا دل على أن العباد أكابر مكرمون بالاضافة اليه ثم ان المصطفين منهم أشرف منهم ولا يليق بمن يكون أشرف من الشرفاء أن يكون ظالما مع أن لفظ الظالم أطلقه الله في كثير من المواضع على الكافر وسمى الشرك ظلما وعلى الوجه الاول التفسير ظاهر بين معناه آتينا القرآن لمن آمن بمحمد وأخذوه منه وافترقوا فمنهم ظالم وهو المسيء ومقتصد وهو الذي خلط عملا صالحا وآخر سيأ وسابق بالخيرات وهو الذي أخلص العمل لله وجرده عن السيآت فان قال قائل كيف قال في حق من ذكر في حقه انه من عباده وأنه مصطفى انه ظالم مع أن الظالم يطلق على الكافر في كثير من المواضع فنقول المؤمن عند المعصية يضع نفسه في غير موضعها فهو ظالم لنفسه حال المعصية واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ويصحح هذا قول عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ظالمنا مغفور له وقال آدم عليه السلام مع كونه مصطفى ربنا ظلمنا أنفسنا وأما الكافر فيضع قلبه الذي به اعتبار الجسد في غير موضعه فهو ظالم على الاطلاق وأما قلب المؤمن فمطمئن بالايمان لا يضعه في غير التفكر في آلاء الله ولا يضع فيه غير محبة الله وفي المراتب الثلاثة أقوال كثيرة (أحدها) الظالم هو الراجح السيآت والمقتصد هو الذي تساوت سيآته وحسناته والسابق هو الذي ترجحت حسناته (ثانيها) ظالم هو الذي ظاهره خير من باطنه والمقتصد من تساوى ظاهره وباطنه والسابق من باطنه خير (ثالثها) الظالم هو الموحد بلسانه الذي تخالفه جوارحه والمقتصد هو الموحد الذي يمنع جوارحه من المخالفة بالتكليف والسابق هو الموحد الذي ينسيه التوحيد عن التوحيد (رابعها) الظالم صاحب الكبيرة والمقتصد صاحب الصغيرة والسابق المعصوم (خامسها) الظالم التالي للقرآن غير العالم به والعامل بموجبه والمقتصد التالي العالم والسابق التالي العالم العامل (سادسها) الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم (سابعها) الظالم أصحاب المشأمة والمقتصد أصحاب الميمنة والسابق السابقون المقربون (ثامنها) الظالم الذي يحاسب فيدخل النار

وهو القرآن ومن للتبيين أو الجنس ومن للتبعيض وقيل اللوح ومن للابتداء (هو الحق مصدقا لما بين يديه) أي أحقه مصدقا لما تقدمه من الكتب السماوية حال مؤكدة لأن حقيته تستلزم موافقته اياه في العقائد وأصول الاحكام (ان الله بعباده لخبير بصير) محيط ببواطن أمورهم وظواهرها فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوة لم يوح اليك مثل هذا الحق المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب وتقديم الخبير للتنبيه على أن العمدة هي الامور الروحانية (ثم أورثنا الكتاب) أي قضينا بتوريثه منك أو نورثه والتعبير عنه بالماضي لتقرره وتحققه وقيل أورثناه من الامم السالفة أي أخرناه عنهم وأعطيناه (الذين اصطفينا من عبادنا) وهم علماء الامة من الصحابة ومن بعدهم ممن يسير بسيرهم أو الامة بأسرهم فان الله تعالى اصطفاهم على سائر الامم وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس واختصهم بكرامة الانتماء الى أفضل رسله عليهم الصلاة والسلام وليس من ضرورة وراثة الكتاب مراعاته حق رعايته لقوله تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب الآية (فمنهم ظالم لنفسه) بالتقصير في العمل به وهو المرجا لامر الله (ومنهم مقتصد) يعمل به في أغلب الاوقات ولا يخلو من خلط السيء (ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) قيل هم السابقون الاولون من المهاجرين والانصار وقيل هم المداومون على اقامة مواجبه علما وعملا وتعليما وفي قوله تعالى باذن الله أي بتيسيره وتوفيقه تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها

والمقتصد الذي يحاسب فيدخل الجنة والسابق الذي يدخل الجنة من غير حساب (تاسعها) الظالم المصر على المعصية والمقتصد هو النادم والتائب والسابق هو المقبول التوبة (عاشرها) الظالم الذي أخذ القرآن ولم يعمل به والمقتصد الذي عمل به والسابق الذي أخذه وعمل به وبين للناس العمل به فعملوا به بقوله فهو كامل ومكمل والمقتصد كامل والظالم ناقص والمختار هو أن الظالم من خالف فترك أوامر الله وارتكب مناهيه فانه واضع للشيء في غير موضعه والمقتصد هو المجتهد في ترك المخالفة وان لم يوفق لذلك وندر منه ذنب وصدر عنه اثم فانه اقتصد واجتهد وقصد الحق والسابق هو الذي لم يخالف بتوفيق الله ويدل عليه قوله تعالى (باذن الله) أي اجتهد ووفق لما اجتهد فيه وفيما اجتهد فهو سابق بالخير يقع في قلبه فيسبق اليه قبل تسويل النفس والمقتصد يقع في قلبه فترده النفس والظالم تغلبه النفس ونقول بعبارة أخرى من غلبته النفس الامارة وأمرته فأطاعها ظالم ومن جاهد نفسه فغلب تارة وغلب أخرى فهو المقتصد ومن قهر نفسه فهو السابق وقوله (ذلك هو الفضل الكبير) يحتمل وجوها (أحدها) التوفيق المدلول عليه بقوله باذن الله ذلك هو الفضل الكبير (ثانيها) السبق بالخيرات هو الفضل الكبير (ثالثها) الايراث فضل كبير هذا على الوجه المشهور من التفسير أما الوجه الآخر وهو أن يقال ثم أورثنا الكتاب أي جنس الكتاب كما قال تعالى جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير يرد عليه أسئلة (أحدها) ثم للتراخي وايتاء الكتاب بعد الايحاء الى محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن فالمراد بكلمة ثم تقول معناه ان الله خبير بصير خبرهم وأبصرهم ثم أورثهم الكتاب كأنه قال تعالى انا علمنا البواطن وأبصرنا الظواهر فاصطفينا عبادا ثم أورثناهم الكتاب (ثانيها) كيف يكون من الانبياء ظالم لنفسه نقول منهم غير راجع الى الانبياء المصطفين بل المعنى ان الذي أوحينا اليك هو الحق وأنت المصطفى كما اصطفينا رسلا وآتيناهم كتبا ومنهم أي من قومك ظالم كفر بك وبما أنزل اليك ومقتصد آمن بك ولم يأت بجميع ما أمرته به وسابق آمن وعمل صالحا (وثالثها) قوله جنات عدن يدخلونها الداخلون هم المذكورون وعلى ما ذكرتم لا يكون الظالم داخلا نقول الداخلون هم السابقون وأما المقتصد فأمره موقوف أو هو يدخل النار أولا ثم يدخل الجنة والبيان لاول الامر لا لما بعده ويدل عليه قوله يحلون فيها من أساور من ذهب وقوله أذهب عنا الحزن * ثم قال (جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) وفي الداخلين وجوه (أحدها) الاقسام الثلاثة وهي على قولنا ان الظالم والمقتصد والسابق أقسام المؤمنين (والثاني) الذين يتلون كتاب الله (والثالث) هم السابقون وهو أقوى لقرب ذكرهم ولانه ذكر اكرامهم بقوله يحلون فالمكرم هو السابق وعلى هذا فيه أبحاث (الاول) تقديم الفاعل على الفعل وتأخير المفعول عنه موافق لترتيب المعنى اذا كان المفعول حقيقيا كقولنا الله خلق السموات وقول القائل

وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم وقيل الظالم المجرم والمقتصد الذى خلط الصالح بالسيء والسابق الذى ترجحت حسناته بحيث صارت سيآته مكفرة وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام أما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب واما المقتصد فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون فى طول المحشر ثم يتلقاهم الله تعالى برحمته وقد روى أن عمر رضى الله عنه قال وهو على المنبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له (ذلك) اشارة الى السبق بالخيرات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار بعلو رتبته و بعد منزلته فى الشرف (هو الفضل الكبير) من الله عز وجل لا ينال الا بتوفيقه تعالى (جنات عدن) اما بدل من الفضل الكبير بتنزيل السبب منزلة المسبب أو مبتدأ خبر (يدخلونها) وعلى الاول هو مستأنف وجمع الضمير لان المراد بالسابق الجنس وتخصيص حال السابقين ومآلهم بالذكر والسكوت عن الفريقين الآخرين وان لم يدل على حرمانهما من دخول الجنة مطلقا لكن فيه تحذير لهما من التقصير وتحريض على السعى فى ادراك شأو السابقين وقرئ جنات عدن

رحمه

عدن على النصب بفعل يفسره الظاهر وقرئ يدخلونها على البناء للمفعول (يحلون فيها) خبر ثان أو حال مقدرة وقرئ يحلون من حليت المرأة فهى حالية (من أساور) هى جمع اسورة جمع سوار (من ذهب) من الاولى

تبعيضية والثانية بيانية وقد مر فى سورة الكهف من ولؤلؤ بالجر عطفا على ذهب وقرئ بالنصب عطفا على محل من أساور ... حال من واو

يبنى الجدار فان الله موجود قبل كل شئ ثم له فعل هو الخلق ثم حصل به المفعول وهو السموات وكذلك زيد قبل البناء ثم الجدار من بنائه واذا لم يكن المفعول حقيقيا كقولنا زيد دخل الدار وضرب عمرا فان الدار فى الحقيقة ليس مفعولا للداخل وانما فعل من أفعاله تحقق بالنسبة الى الدار وكذلك عمرو فعل من أفعال زيد تعلق به فسمى مفعولا لا يحصل هذا الترتيب ولكن الاصل تقديم الفاعل على المفعول ولهذا يعاد المفعول المقدم بالضمير تقول عمرا ضربه زيد فتوقعه بعد الفعل بالهاء العائدة اليه وحينئذ يطول الكلام فلا يختاره الحكيم الا لفائدة فالفائدة فى تقديم الجنات على الفعل الذى هو الدخول واعادة ذكرها بالهاء فى يدخلونها وما الفرق بين هذا و بين قول القائل يدخلون جنات عدن نقول السامع اذا علم ان له مدخلا من المداخل وله دخول ولم يعلم عين المدخل فاذا قيل له أنت تدخل فالى أن يسمع الدار أو السوق يبقى متعلق القلب بأنه فى أى المداخل يكون فاذا قيل له دار زيد تدخلها فبذكر الدار يعلم مدخله و بما عنده من العلم السابق بأنه له دخول يعلم الدخول فلا يبقى له توقف ولا سيما الجنة والنار فان بين المدخلين بونا بعيدا (الثانى) قوله يحلون فيها اشارة الى سرعة الدخول فان التحلية لو وقعت خارجا لكان فيه تأخير الدخول فقال يدخلونها وفيها تقع تحليتهم (الثالث) قوله من أساور بجمع الجمع فانه جمع أسورة وهى جمع سوار وقوله ولباسهم فيها حرير ليس كذلك لان الاكثار من اللباس يدل على حاجة من دفع برد أو غيره والاكثار من الزينة لا يدل الا على الغنى (الرابع) ذكر الاساور من بين سائر الحلى فى كثير من المواضع منها قوله تعالى وحلوا أساور من فضة وذلك لان التحلى بمعنيين (أحدهما) اظهار كون المتحلى غير مبتذل فى الاشغال لان التحلى لا يكون حالة الطبخ والغسل (وثانيهما) اظهار الاستغناء عن الاشياء واظهار القدرة على الاشياء وذلك لان التحلى اما باللآلئ والجواهر واما بالذهب والفضة والتحلى بالجواهر واللآلئ يدل على ان المتحلى لا يعجز عن الوصول الى الاشياء الكثيرة عند الحاجة حيث لم يعجز عن الوصول الى الاشياء القليلة الوجود لا لحاجة والتحلى بالذهب والفضة يدل على أنه غير محتاج حاجة أصلية والا لصرف الذهب والفضة الى دفع الحاجة اذا عرفت هذا فنقول الاساور محلها الايدى وأكثر الاعمال باليد فانها للبطش فاذا حليت بالاساور علم الفراغ والذهب واللؤلؤ اشارة الى النوعين اللذين منهما الحلى * ثم قال تعالى (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور) فى الحزن أقوال كثيرة والاولى أن يقال المراد اذهاب كل حزن والالف واللام للجنس واستغراقه واذهاب الحزن بحصول كل ما ينبغى و بقائه دائما فان شيئا منه لو لم يحصل لكان الحزن موجودا بسببه وان حصل ولم يدم لكان الحزن غير ذاهب بعد بسبب زواله وخوف فواته وقوله ان ربنا لغفور شكور ذكر الله عنهم أمورا كلها تفيد الكرامة من الله (الاول) الحمد فان الحامد مثاب (الثانى) قولهم ربنا فان الله لم يناد بهذا اللفظ الا واستجاب لهم اللهم الا أن يكون المنادى

تبعيضية والثانية بيانية أي يحلون بعض اساور من ذهب كأنه أفضل من سائر أفرادها (ولؤلؤا) بالنصب عطفا على محل من أساور وقرئ بالجر عطفا على ذهب أي من ذهب مرصع باللؤلؤ أومن ذهب في صفاء اللؤلؤ (ولباسهم فيها حرير) وتغيير الاسلوب قد مر سره في سورة الحج (وقالوا) أي يقولون وصيغة الماضي للدلالة على التحقق (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة وعن ابن عباس رضي الله عنهما حزن الاعراض والآفات وعنه حزن الموت وعن الضحاك حزن وسوسة ابليس وقيل هم المعاش وقيل حزن زوال النعم والظاهر أنه الجنس المنتظم لجميع أحزان الدين والدنيا وقرئ الحزن وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس على أهل لا اله الا الله وحشة في قبورهم ولا في محشرهم ولا في مسيرهم وكأني بأهل لا اله الا الله يخرجون من قبورهم ينفضون التراب عن وجوههم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن (ان ربنا لغفور) أي للمذنبين (شكور) للمطيعين (الذي أحلنا دار المقامة) أي دار الاقامة التي لا انتقال عنها أبدا (من فضله) من انعامه وتفضله من غير أن يوجبه شئ من قبلنا (لا يمسنا فيها نصب) تعب (ولا يمسنا فيها لغوب) كلال والفرق بينهما

قد ضيع الوقت الواجب أوطلب مالا يجوز كالرد الى الدنيا من الآخرة (الثالث) قولهم غفور (الرابع) قولهم شكور والغفور اشارة الى ماغفر لهم في الآخرة بما وجدلهم من الحمد في الدنيا والشكور اشارة الى ما يعطيهم ويزيد لهم بسبب ما وجد لهم في الآخرة من الحمد * ثم قال تعالى (الذي أحلنا دار المقامة من فضله) أي دار الاقامة لما ذكر الله سرورهم وكرامتهم بتحليتهم ولباسهم الجنات بين سرورهم ببقائهم فيها وأعلمهم بدوامها حيث قالوا الذي أحلنا دار المقامة أي الاقامة والمفعول ربما يجيء للمصدر من كل باب يقال ماله معقول أي عقل وقال تعالى مدخل صدق وقال تعالى ومزقناهم كل ممزق كذلك مستخرج للاستخراج وذلك لان المصدر هو المفعول في الحقيقة فانه هو الذي فعل فجاز اقامة المفعول مقامه وفي قوله دار المقامة اشارة الى ان الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل عنها الى منزلة القبور ومنها الى منزلة العرصة التي فيها الجمع ومنها التفريق وقد تكون النار لبعضهم منزلة أخرى والجنة دار المقامة وكذلك النار لاهلها وقولهم من فضله أي بحكم وعده لا بايجاب من عنده وقوله تعالى (لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) اللغوب الاعياء والنصب هو السبب للاعياء فان قال قائل اذا بين انه لا يمسهم فيها نصب علم انه لا يمسهم فيها لغوب ولا ينفي المتكلم الحكيم السبب ثم ينفي مسببه بحرف العطف فلا يقول القائل لا أكلت ولا شبعت أولا قمت ولا مشيت والعكس كثير فانه يقال لا شبعت ولا أكلت لما ان نفي الشبع لا يلزمه انتفاء الأكل وسياق ماتقرر ان يقال لا يمسنا فيها اعياء ولا مشقة فنقول ماقال الله في غاية الجلالة وكلام الله أجل وبيانه أجمل ووجهه هو انه تعالى بين مخالفة الجنة لدار الدنيا فان الدنيا أماكنها على قسمين (أحدهما) موضع تمس فيه المشاق والمتاعب كالبراري والصحارى والطرقات والاراضي (والآخر) موضع يظهر فيه الاعياء كالبيوت والمنازل التي في الاسفار من الخانات فان من يكون في مباشرة شغل لا يظهر عليه الاعياء الا بعدما يستريح فقال تعالى لا يمسنا فيها نصب أي ليست الجنة كالمواضع التي في الدنيا مظان المتاعب بل هي أفضل من المواضع التي هي مواضع مرجع المتعب فقال ولا يمسنا فيها لغوب أي ولا نخرج منها الى مواضع نتعب ونرجع اليها فيمسنا فيها الاعياء وقرئ لغوب بفتح اللام والترتيب على هذه القراءة ظاهر كأنه قال لا نتعب ولا يمسنا ما يصلح لذلك وهذا لان القوي السوي اذا قال ماتعبت اليوم لا يفهم من كلامه انه ماعمل شيئا لجواز انه عمل عملا لم يكن بالنسبة اليه متعبا لقوته فاذا قال مامسني ما يصلح ان يكون متعبا يفهم انه لم يعمل شيئا لان نفس العمل قد يصلح ان يكون متعبا لضعيف أومتعبا بسبب كثرته واللغوب هو ما يلغب منه وقيل النصب التعب الممرض وعلى هذا فحسن الترتيب ظاهر كأنه قال لا يمسنا مرض ولا دون ذلك وهو الذي يعيا منه مباشره * ثم قال تعالى (والذين كفروا لهم نار جهنم) عطف على قوله ان الذين يتلون كتاب الله وما بينهما كلام يتعلق

آن النصب نفس المشقة والكلفة واللغوب مايحدث منه من الفتور والتصريح بنفي الثاني مع استلزام نفي الاول له وتكرير الفعل المنفي للمبالغة في بيان انتفاء كل منهما (والذين كفروا ﴿٥٠﴾ لهم نار جهنم لا يقضى عليهم) لا يحكم عليهم بموت ثان (فيموتوا) ويستريحوا ونصبه باضمار أن وقرئ فيموتون عطفا على يقضى كقوله تعالى ولا يؤذن لهم فيعتذرون (ولا يخفف عنهم من عذابها) بل كلما خبت زيد اسعارها (كذلك) أي مثل ذلك الجزاء الفظيع (نجزي كل كفور) مبالغ في الكفر أو الكفران لا جزاء أخف وأدنى منه وقرئ يجزى على البناء للمفعول واسناده الى الكل وقرئ يجازى (وهم يصطرخون فيها) يستغيثون والاصطراخ افتعال من الصراخ استعمل في الاستغاثة لجهد المستغيث صوته (ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل) باضمار القول وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به والاشعار بأن استخراجهم لتلافيه وانهم كانوا يحسبونه صالحا والآن تبين خلافه وقوله تعالى

بالذين يتلون كتاب الله على ما بينا وقوله جنات عدن يدخلونها وقد ذكرنا انه على بعض الاقوال راجع الى الذين يتلون كتاب الله ❋ ثم قال تعالى (لا يقضى عليهم فيموتوا) أي لا يستريحون بالموت بل العذاب دائم (ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور) أي النار وفيه لطائف (الاولى) ان العذاب في الدنيا ان دام كثيرا يقتل فان لم يقتل يعتاده البدن ويصير مزاجا فاسدا متمكنا لا يحس به المعذب فقال عذاب نار الآخرة ليس كعذاب الدنيا اما أن يفني واما أن يألفه البدن بل هو في كل زمان شديد والمعذب فيه دائم (الثانية) راعى الترتيب على أحسن وجه وذلك لان الترتيب أن لا ينقطع العذاب ولا يفتر فقال لا ينقطع ولا بأدوى الاسباب وهو الموت حتى يتمنون الموت ولا يجابون كما قال تعالى ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك أي بالموت (الثالثة) في المعذبين اكتفى بأنه لا ينقص عذابهم ولم يقل نزيدهم عذابا وفي المثابين ذكر الزيادة بقوله ويزيدهم من فضله ثم لما بين ان عذابهم لا يخفف قال تعالى (وهم يصطرخون فيها) أي لا يخفف وان اصطرخوا واضطربوا ولا يخفف الله من عنده انعاما الى أن يطلبوه بل يطلبون ولا يجدون والاصطراخ من الصراخ والصراخ صوت المعذب وقوله تعالى (ربنا أخرجنا) أي صراخهم بهذا أي يقولون ربنا أخرجنا لان صراخهم كلام وفيه اشارة الى ان ايلامهم تعذيب لا تأديب وذلك لان المؤدب اذا قال لمؤدبه لا أرجع الى ما فعلت ويسمعها فعلت بتركه وأما المعذب فلا وترتيبه حسن وذلك لانه لما بين انه لا يخفف عنهم بالكلية ولا يعفو عنهم انه لا يقبل منهم وعدا وهذا لان المحبوس يصبر أمله يخرج من غير سؤال فاذا طال لبثه تطلب الاخراج من غير قطيعة على نفسه فان يفده يقع على نفسه قطيعة ويقول اخرجني أفعل كذا وكذا واعلم أن الله تعالى قد بين ان من يكون في الدنيا ضالا فهو في الآخرة ضال كما قال تعالى ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى ثم انهم لم يعلموا ان العود الى الدنيا بعيد محال بحكم الاخبار وعلى هذا قالوا (نعمل صالحا) جازمين من غير استعانة بالله ولا مثنوية فيه ولم يقولوا ان الامر بيد الله فقال الله لهم اذا كان اعتمادكم على أنفسكم فقد عمرناكم مقدارا يمكن التذكر فيه والاتيان بالايمان والاقبال على الاعمال وقولهم (غير الذي كنا نعمل) اشارة الى ظهور فساد عملهم لهم وكان الله تعالى كما لم يهدهم في الدنيا لم يهدهم في الآخرة فما قالوا ربنا زدت للمحسنين حسنات بفضلك لا بعملهم ونحن أحوج الى تخفيف العذاب منهم الى تضعيف الثواب فافعل بنا ما أنت أهله نظرا الى فضلك ولا تفعل بنا ما نحن أهله نظرا الى عدلك وانظر الى مغفرتك الهاطلة ولا تنظر الى معذرتنا الباطلة وكما هدى الله المؤمن في الدنيا هداه في العقبى حتى دعاه بأقرب دعاء الى الاجابة وأثنى عليه بأطيب ثناء عند الانابة فقالوا الحمد لله وقالوا ربنا غفور اعترافا بتقصيرهم شكور اقرارا بوصول ما لم يخطر ببالهم اليهم وقالوا أحلنا دار المقامة من فضله أي لا عمل لنا بالنسبة الى نعم الله وهم قالوا أخرجنا نعمل صالحا

﴿ اختصاصنا ﴾

اغماضا في حق تعظيمه واعراضا عن الاعتراف بعجزهم عن الاتيان بما يناسب عظمته ثم انه تعالى بين انه آتاهم ما يتعلق بقبول المحل من العمر الطويل وما يتعلق بالفاعل في المحل فان النبي صلى الله عليه وسلم كفاعل الخير فيهم ومظهر السعادات فقال تعالى (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) فان المانع اما أن يكون فيهم حيث لم يتمكنوا من النظر فيما أنزل الله واما أن يكون في مرشدهم حيث لم يتل عليهم ما يرشدهم * ثم قال تعالى (فذوقوا فما للظالمين من نصير) وقوله فذوقوا اشارة الى الدوام وهو أمر اهانة فما للظالمين الذين وضعوا أعمالهم وأقوالهم في غير موضعها وأتوا بالمعذرة في غير وقتها من نصير في وقت الحاجة ينصرهم قال بعض الحكماء قوله فما للظالمين من نصير وقوله وما للظالمين من أنصار يحتمل أن يكون المراد من الظالم الجاهل جهلا مركبا وهو الذي يعتقد الباطل حقا في الدنيا وماله من نصير أي من علم ينفعه في الآخرة والذي يدل عليه هو أن الله تعالى سمى البرهان سلطانا كما قال تعالى فأتوا بسلطان والسلطان أقوى ناصر اذ هو القوة أو الولاية وكلاهما ينصر والحق التعميم لان الله لا ينصره وليس غيره نصيرا فما لهم من نصير أصلا ويمكن ان يقال ان الله تعالى قال في آل عمران وما للظالمين من أنصار وقال فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين وقال ههنا فما للظالمين من نصير أي هذا وقت كونهم واقعين في النار فقد أيس كل منهم من كثير ممن كانوا يتوقعون منهم النصرة ولم يبق الا توقعهم من الله فقال ما لكم من نصير أصلا وهنالك كان الامر محكيا في الدنيا أو في أوائل الحشر ففي ما كانوا يتوقعون منهم النصرة وهم آلهتهم * ثم قال تعالى (ان الله عالم غيب السموات والارض انه عليم بذات الصدور) تقريرا لدوامهم في العذاب وذلك من حيث ان الله تعالى لما قال وجزاء سيئة سيئة مثلها ولا يزاد عليها فلو قال قائل الكافر ما كفر بالله الا أياما معدودة فكان ينبغي أن لا يعذب الا مثل تلك الايام فقال تعالى ان الله لا يخفى عليه غيب السموات فلا يخفى عليه ما في الصدور وكان يعلم من الكافر ان في قلبه تمكن الكفر بحيث لو دام الى الابد لما أطاع الله ولا عبده * وفي قوله تعالى بذات الصدور مسئلة قد ذكرناها مرة ونعيدها أخرى وهي ان القائل ان يقول الصدور هي ذات اعتقادات وظنون فكيف سمى الله الاعتقادات بذات الصدور ويقرر السؤال قولهم أرض ذات أشجار وذات جني اذا كان فيها ذلك فكذلك الصدر فيه اعتقاد فهو ذو اعتقاد فيقال له لما كان اعتبار الصدر بما فيه صار ما فيه كالساكن المالك حيث لا يقال الدار ذات زيد ويصح ان يقال زيد ذو دار ومال وان كان هو فيها * ثم قال تعالى (هو الذي جعلكم خلائف في الارض) تقريرا لقطع حجتهم فانهم لما قالوا ربنا أخرجنا نعمل صالحا وقال تعالى أولم نعمركم ما يتذكر اشارة الى أن التمكين والامهال مدة يمكن فيها المعرفة قد حصل وما آمنتم وزاد عليه بقوله وجاءكم النذير أي آتيناكم عقولا وأرسلنا اليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول زاد على ذلك بقوله تعالى هو الذي جعلكم خلائف في الارض أي نبهكم بمن مضى

(أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) جواب من جهته تعالى وتوبيخ لهم والهمزة للانكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام وما نكرة موصوفة (١٥٥) أي ألم نمهلكم أو ألم نؤخركم ولم نعمركم عمرا يتذكر فيه من تذكر أي يتمكن فيه المتذكر من التذكر والتفكر قيل هو أربعون سنة وعن ابن عباس رضي الله عنهما ستون سنة وروى ذلك عن علي رضي الله عنه وهو العمر الذي أعذر الله فيه الى ابن آدم قال عليه الصلاة والسلام أعذر الله الى امرئ أخر أجله حتى بلغ ستين سنة وقوله تعالى (وجاءكم النذير) عطف على الجملة الاستفهامية لانها في معنى قد عمرناكم كما في قوله تعالى ألم نشرح لك صدرك ووضعنا الخ لانه في معنى قد شرحنا الخ والمراد بالنذير رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ما معه من القرآن وقيل العقل وقيل الشيب وقيل موت الاقارب والاقتصار على ذكر النذير لانه الذي يقتضيه المقام والفاء في قوله تعالى (فذوقوا) لترتيب الامر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجيء النذير وفي قوله تعالى (فما للظالمين من نصير) للتعليل (ان الله عالم غيب السموات والارض) بالاضافة وقرئ بالتنوين ونصب غيب على المفعولية أي لا يخفى عليه خافية فيهما فلا يخفى عليه أحوالهم

(انه عليم بذات الصدور) قيل انه تعليل لما قبله لانه اذا علم مضمرات الصدور وهي أخفى ما يكون كان أعلم بغيرها (هو الذي جعلكم خلائف في الارض) يقال للمستخلف خليفة وخليف ﴿ ٥٢ ﴾ والاول يجمع خلائف والثاني خلفاء والمعنى انه تعالى جعلكم خلفاء في أرضه وألقى اليكم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وأباح لكم منافعها أو جعلكم خلفاء عن قبلكم من الامم وأورثكم ما بأيديهم من متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة (فمن كفر) منكم مثل هذه النعمة السنية وغمطها (فعليه كفره) أي وبال كفره لا يتعداه الى غيره وقوله تعالى (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا) بيان لوبال الكفر وغائلته والمقت هو بغض الله تعالى اياهم أي البغض الشديد الذي ليس وراءه خزي وصغار وخسار الآخرة الذي ما بعده شر وخسار والتكرير لزيادة التقرير والتنبيه على أن اقتضاء الكفر لكل واحد من الامرين الهائلين القبيحين بطريق الاستقلال والاصالة (قل) تبكيتا لهم (أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله) أي آلهتكم والاضافة اليهم ﴿ لم ﴾ لانهم جعلوهم شركاء لله تعالى من غير أن يكون له أصل ما أصلا

وحال من انقضى فانكم لو لم يحصل لكم علم بأن من كذب الرسل أهلك لكان عنادكم أخف وفسادكم أخف لكن أمهلتم وعمرتم وأمرتم على لسان الرسل بما أمرتم وجعلتم خلائف في الارض أي خليفة بعد خليفة تعلمون حال الماضين وتصبحون بحالهم راضين (فمن كفر) بعد هذا كله (فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا) لان الكافر السابق كان ممقوتا كالعبد الذي لا يخدم سيده والاحق الذي انذره الرسول ولم يتنبه امقت كالعبد الذي ينصحه الناصح ويأمره بخدمة سيده ويعده ويوعده ولا ينفعه النصح ولا يسعده والتالي لهم الذي رأى عذاب من تقدم ولم يخش عذابه امقت الكل ثم قال تعالى (ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا) أي الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيد الا المقت ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يفيدهم الا الخسار فان العمر كرأس مال من اشترى به رضا الله ربح ومن اشترى به سخطه خسر * ثم قال تعالى (قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا) تقريرا للتوحيد وابطالا للاشراك وقوله أرأيتم المراد منه أخبروني لان الاستفهام يستدعي جوابا يقول القائل أرأيت ماذا فعل زيد فيقول السامع باع أو اشترى ولولا تضمنه معنى أخبروني والا لما كان الجواب الا قوله لا أو نعم وقوله شركاءكم انما أضاف الشركاء اليهم من حيث ان الاصنام في الحقيقة لم تكن شركاء الله وانما هم جعلوها شركاء فقال شركاءكم أي الشركاء بجعلكم ويحتمل أن يقال شركاءكم أي شركاءكم في النار لقوله انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وهو قريب ويحتمل ان يقال هو بعيد لاتفاق المفسرين على الاول وقوله أروني بدل عن أرأيتم لان كليهما يفيد معنى أخبروني ويحتمل أن يقال قوله أرأيتم استفهام حقيقي وأروني أمر تعجيز للتبيين فلما قال أرأيتم يعني أعلمتم هذه التي تدعونها كما هي وعلى ما هي عليه من العجز أو تتوهمون فيها قدرة فان كنتم تعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها وان كان وقع لكم ان لها قدرة فأروني قدرتها في أي شيء هي أهي في الارض كما قال بعضهم ان الله اله السماء وهؤلاء آلهة الارض وهم الذين قالوا أمور الارض من الكواكب والاصنام صورها أم هي في السموات كما قال بعضهم ان السماء خلقت باستعانة الملائكة والملائكة شركاء في خلق السموات وهذه الاصنام صورها أم قدرتها في الشفاعة لكم كما قال بعضهم ان الملائكة ما خلقوا شيئا ولكنهم مقربون عند الله فنعبدها ليشفعوا لنا فهل معهم كتاب من الله فيه اذنه لهم بالشفاعة وقوله أم آتيناهم كتابا في العائد اليه الضمير وجهان (أحدهما) انه عائد الى الشركاء أي هل آتينا الشركاء كتابا (وثانيهما) انه عائد الى المشركين أي هل آتينا المشركين كتابا وعلى الاول فمعناه ما ذكرنا أي هل مع ما جعل شريكا كتاب من الله فيه أن له شفاعة عند الله فان أحدا لا يشفع عنده الا باذنه وعلى الثاني معناه ان عبادة هؤلاء اما بالعقل ولا عقل لمن يعبد من

وقيل جعلوهم شركاء لانفسهم فيما يملكونه ويأباه سياق النظم الكريم وسباقه (أروني ماذا خلقوا من الارض) بدل اشتمال من أرأيتم كأنه قيل أخبروني عن شركائكم ﴿ ٥٣ ﴾ أروني أى جزء خلقوا من الارض (أم لهم شرك فى السموات) أى أم لهم شركة مع الله سبحانه فى خلق السموات ليستحقوا بذلك شركة فى الالوهية ذاتية (أم آتيناهم كتابا) ينطق بأنا اتخذناهم شركاء (فهم على بينة منه) أى حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بان لهم شركة جعلية ويجوز أن يكون ضمير آتيناهم للمشركين كما فى قوله تعالى أم أنزلنا عليهم سلطانا الخ وقرئ على بينات وفيه ايماء الى أن الشرك أمر خطير لا بد فى اثباته من تعاضد الدلائل (بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا) لما نفى أنواع الحجج فى ذلك اضرب عنه بذكر ما حملهم عليه وهو تغرير الاسلاف للاخلاف واضلال الرؤساء للاتباع بأنهم شفعاء عند الله يشفعون لهم بالتقريب اليه (ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا) استئناف مسوق لبيان غاية قبح الشرك وهوله أى يمسكهما كراهة زوالهما أو يمنعهما أن تزولا لان الامساك منع (ولئن زالتا ان أمسكهما) أى ما أمسكهما (من أحد من بعده) من بعد امساكه تعالى أو من بعد الزوال

لم يخلق من الارض جزأ من الاجزاء ولا فى السماء شيأ من الاشياء واما بالنقل ونحن ما آتينا المشركين كتابا فيه أمرنا بالسجود لهؤلاء ولو أمرنا لجاز كما أمرنا بالسجود لآدم والى جهة الكعبة فهذه العبادة لا عقلية ولا نقلية فوعد بعضهم بعضا ليس الا غرورا غرهم الشيطان وزين لهم عبادة الاصنام ثم لما بين انه لا خلق للاصنام ولا قدرة لها ولا على جزء من الاجزاء بين ان الله قدير بقوله (ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا) ويحتمل ان يقال لما بين شركهم قال مقتضى شركهم زوال السموات والارض كما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا ويدل على هذا قوله تعالى فى آخر الآية انه كان حليما غفورا كان حليما ما ترك تعذيبهم الا حلما منه والا كانوا يستحقون اسقاط السماء وانطباق الارض عليهم وانما أخر ازالة السموات الى قيام الساعة حلما ويحتمل الآية وجها ثالثا وهو أن يكون ذلك من باب التسليم واثبات المطلوب على تقدير التسليم أيضا كأنه تعالى قال شركاؤكم ما خلقوا من الارض شيأ ولا فى السماء جزأ ولا قدروا على الشفاعة ولا عبادة لهم وهب انهم فعلوا شيأ من الاشياء فهل يقدرون على امساك السموات والارض ولا يمكنهم القول بانهم يقدرون لانهم ما كانوا يقولون به كما قال تعالى عنهم ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ويؤيد هذا قوله ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده فاذا تبين أن لا معبود الا الله من حيث ان غيره لم يخلق من الاشياء وان قال الكافر بأن غيره خلق فما خلق مثل ما خلق فلا شريك له انه كان حليما غفورا حليما حيث لم يعجل فى اهلاكهم بعد اصرارهم على اشراكهم وغفورا يغفر لمن تاب ويرحمه وان استحق العذاب * ثم قال تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا استكبارا فى الارض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله) لما بين انكارهم للتوحيد ذكر تكذيبهم للرسول ومبالغتهم فيه حيث انهم كانوا يقسمون على انهم لا يكذبون الرسل اذا تبين لهم كونهم رسلا وقالوا انما نكذب محمدا صلى الله عليه وسلم لكونه كاذبا ولو تبين لنا كونه رسولا لآمنا كما قال تعالى عنهم وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها وهذا مبالغة منهم فى التكذيب كما ان من ينكر دين انسان قد يقول والله لو علمت ان له شيأ على قضيته وزدت له اظهارا لكونه مطالبا بالباطل فكذلك ههنا عاندوا وقالوا والله لو جاءنا رسول لكنا أهدى الامم فلما جاءهم نذير أى محمد صلى الله عليه وسلم جاءهم أى صح مجيئه لهم بالبينة ما زادهم الا نفورا فانهم قبل الرسالة كانوا كافرين بالله وبعدها صاروا كافرين بالله ورسوله ولانهم قبل الرسالة ما كانوا معذبين كما صاروا بعد الرسالة وقال بعض المفسرين ان أهل مكة كانوا يلعنون اليهود والنصارى على انهم كذبوا برسلهم لما جاؤهم وقالوا لو جاءنا رسول لاطعناه واتبعناه وهذا فيه اشكال من حيث أن المشركين

والجملة سادة مسد الجوابين ومن الاولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية للابتداء (انه كان حليما غفورا) غير معاجل بالعقوبة التي تستوجبها جناياتهم حيث أمسكهما وكانتا جديرتين ﴿ ٥٤ ﴾ بان تهدا هدا حسبما قال تعالى تكاد السموات

يتفطرن منه وتنشق الارض وقرئ ولوزالتا (واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم) بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من احدى الامم اليهود والنصارى وغيرهم أومن الامة التي يقال لها احدى الامم تفضيلا لها على غيرها في الهدى والاستقامة (فلما جاءهم نذير) وأى نذير أشرف الرسل عليهم الصلاة والسلام (مازادهم) أى النذير أومجيئه (الانفورا) تباعدا عن الحق (استكبارا في الارض) بدل من نفورا أومفعول له (ومكر السيئ) أصله وأن مكروا السيئ أى ثم ومكر السيئ وقرئ بسكون الهمزة في الوصل ولعله اختلاس فظن سكونا أووقفة حقيقة وقرئ مكراسيأ (ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله

كانوا منكرين للرسالة والحشر مطلقا فكيف كانوا يعترفون بالرسل فمن أين عرفوا ان اليهود كذبوا وماجاءهم كتاب ولولا كتاب الله وبيان رسوله من أين كان يعلم المشركون انهم صدقوا شيأ وكذبوا في شئ بل المراد ماذكرنا انهم كانوا يقولون نحن لوجاءنا رسول لانتكره وانما ننكر كون محمد رسولا من حيث انه كاذب ولو صح كونه رسولا لآمنا وقوله فلما جاءهم أى فلما صح لهم مجيئه بالمعجزة وفي قوله أهدى وجهان (أحدهما) أن يكون المراد أهدى مما نحن عليه وعلى هذا فقوله من احدى الامم للتبيين كما يقول القائل زيد من المسلمين ويدل على هذا قوله تعالى فلما جاءهم نذير مازادهم الانفورا أى صاروا أضل مما كانوا وكانوا يقولون نكون أهدى (وثانيهما) أن يكون المراد أن نكون أهدى من احدى الامم كما يقول القائل زيد أولى من عمرو وفي الامم وجهان (أحدهما) أن يكون المراد العموم أى أ‍   أى احدى الامم وفيه تعريض (وثانيهما) أن يكون المراد تعريف العهد أى أمة محمد وموسى وعيسى ومن كان في زمانهم ثم قال تعالى استكبارا في الارض ونصبه يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون حالا أى مستكبرين في الارض (وثانيها) أن يكون مفعولا له أى للاستكبار (وثالثها) أن يكون بدلا عن النفور وقوله ومكر السيئ اضافة الجنس الى نوعه كما يقال علم الفقه وحرفة الحدادة وتحقيقه أن يقال معناه ومكروا مكراسيئا ثم عرف لظهور مكرهم ثم ترك التعريف باللام وأضيف الى السيئ لكون السوء فيه أبين الامور ويحتمل ان يقال بأن المكر يستعمل استعمال العمل كما ذكرنا في قوله تعالى والذين يمكرون السيئات أى يعملون السيئات ومكرهم السيئ وهو جميع ماكان يصدر منهم من القصد الى الايذاء ومنع الناس من الدخول في الايمان واظهار الانكار ثم قال ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله أى لا يحيط الا بفاعله وفي قوله ولا يحيق وقوله الا بأهله فوائد اما قوله يحيق فهى أنه ينبئ عن الاحاطة التي هى فوق اللحوق وفيه من التحذير ماليس في قوله ولا يلحق أوولا يصل واما في قوله بأهله ففيه ماليس في قول القائل ولا يحيق المكر السيئ الا بالماكر كى لا يأمن المسيئ فان من أساء ومكر سيئ آخر قد يلحقه جزاء على سيئه وأما اذا لم يكن سيئا فلا يكون أهلا فيأمن المكر السيئ وأما في النفي والاثبات ففائدته الحصر بخلاف ما يقول القائل المكر السيئ يحيق بأهله فلا ينبئ عن عدم الحيق بغير أهله فان قال قائل كثيرا مانرى ان الماكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك فنقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) ان المكر المذكور في الآية هو المكر الذى مكروه مع النبي صلى الله عليه وسلم من العزم على القتل والاخراج ولم يحق الا بهم حيث قتلوا يوم بدر وغيره (وثانيها) هو ان نقول المكر السيئ عام وهو الاصح فان النبي عليه السلام نهى عن المكر وأخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لاتمكروا ولا تعينوا ماكرا فان الله يقول ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله وعلى هذا فذلك الرجل الممكور به يكون أهلا فلا يرد نقضا (وثالثها) ان الامور

﴿ بعواقبها ﴾

يعواقبها ومن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلا فى الظاهر ففى الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك وذلك مثل راحة الكافر ومشقة المسلم فى الدنيا ويبين هذا المعنى قوله تعالى فهل ينظرون الا سنة الاولين يعنى اذا كان لمكرهم فى الحال رواج فالعاقبة للتقوى والامور بخواتيمها فيهلكون كما هلك الاولون ۞ وقوله تعالى (فهل ينظرون الا سنة الاولين) أى ليس لهم بعد هذا الانتظار الا الاهلاك وهو سنة الاولين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الاهلاك ليس سنة الاولين انما هو سنة الله بالاولين فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المصدر الذى هو المفعول المطلق يضاف الى الفاعل والمفعول لتعلقه بهما من وجه دون وجه فيقال فيما اذا ضرب زيد عمرا عجبت من ضرب عمرو كيف ضرب مع ماله من العزم والقوة وعجبت من ضرب زيد كيف ضرب مع ماله من العلم والحكمة فكذلك سنة الله بهم أضافها اليهم لانها سنة سنت بهم وأضافها الى نفسه بعدها بقوله (فلن تجد لسنت الله تبديلا) لانها سنة من سنن الله اذا علمت هذا فنقول أضافها فى الاول اليهم حيث قال سنة الاولين لان سنة الله الاهلاك بالاشراك والاكرام على الاسلام فلا يعلم انهم ينتظرون أيهما فاذا قال سنة الاولين تميزت وفى الثانى أضافها الى الله لانها لما علمت فالاضافة الى الله تعظمها وتبين أنها أمر واقع ليس لها من دافع (وثانيهما) ان المراد من سنة الاولين استمرارهم على الانكار واستكبارهم عن الاقرار وسنة الله استئصالهم باصرارهم فكأنه قال أنتم تريدون الاتيان بسنة الاولين والله يأتى بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقها (المسئلة الثانية) التبديل تحويل فما الحكمة فى التكرار نقول بقوله فلن تجد لسنت الله تبديلا حصل العلم بان العذاب لا تبديل له بغيره وبقوله (ولن تجد لسنت الله تحويلا) حصل العلم بأن العذاب مع انه لا تبديل له بالثواب لا يتحول عن مستحقه الى غيره فيتم تهديد المسئ (المسئلة الثالثة) المخاطب بقوله فلن تجد يحتمل وجهين وقد تقدم مرارا (أحدهما) ان يكون عاما كأنه قال فلن تجد أيها السامع لسنة الله تبديلا (والثانى) ان يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا فكأنه قال سنة الله انه لا يهلك ما بقى فى القوم من كتب الله ايمانه فاذا آمن من فى علم الله انه يؤمن يهلك الباقين كما قال نوح انك ان تذرهم أى تمهل الامر وجاء وقت سنتك ۞ ثم قال تعالى (أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة) لما ذكر ان للاولين سنة وهى الاهلاك نبههم بتذكير حال الاولين فانهم كانوا مارين على ديارهم رائين لآثارهم واملهم كان فوق املهم وعلمهم كان دون عملهم اما الاول فلطول أعمارهم وشدة اقتدارهم واما عملهم فلانهم لم يكذبوا مثل محمد ولا محمدا وأنتم يا أهل مكة كذبتم محمدا ومن تقدمه قوله تعالى وكانوا أشد منهم قوة وقد ذكرناه فى سورة الروم بقى فيه ابحاث (الاول) قال هناك كانوا أشد من غير واو وقال ههنا بالواو فما الفرق نقول قول القائل اما رأيت زيدا كيف أكرمنى وأعظم منك يفيد ان القائل يخبره بان زيدا

تبديلا) بان يضع موضع العذاب غير العذاب (ولن تجد لسنت الله تحويلا) بأن ينقله من المكذبين الى غيرهم والفاء لتعليل ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب من مجيئه ونفى وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفى وجودهما بالطريق البرهانى وتخصيص كل منهما بنفى مستقل لتأكيد انتفائهما (أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) استشهاد على ماقبله من جريان سنته تعالى على تعذيب المكذبين بما يشاهدونه فى مسايرهم الى الشام واليمن والعراق من آثار دمار الامم الماضية العاتية والهمزة للانكار والنفى والواو للعطف على مقدر يليق بالمقام أى أقعدوا فى مساكنهم ولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم (وكانوا أشد منهم قوة) واطول أعمارا فانفعهم طول المدى وما أغنى عنهم شدة القوى ومحل الجملة النصب على الحالية

أعظم واذا قال أما رأيته كيف أكرمني هو أعظم منك يفيد انه تقرر ان كلا المعنيين حاصل عند السامع كأنه رآه أكرمه ورآه أكبر منه ولا شك ان هذه العبارة الاخيرة تفيد كون الامر الثاني في الظهور مثل الاول بحيث لا يحتاج الى اعلام من المتكلم ولا اخبار اذا علمت هذا فنقول المذكور ههنا كونهم أشد منهم قوة لا غير ولعل ذلك كان ظاهرا عندهم فقال بالواو وأى نظركم كا يقع على عاقبة أمرهم يقع على قوتهم وأما هناك فالمذكور أشياء كثيرة فانه قال كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها وفي موضع آخر قال أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الارض ولعل علمهم لم يحصل بآثارهم الارض أو بكثرتهم ولكن نفس القوة ورعفانهم فى اعلبيهم كان معلوما عندهم فان كل طائفة تعتقد فيمن تقدمهم انهم أقوى منهم ولا نزاع فيه * وقوله تعالى (وما كان الله ليعجزه من شئ في السموات ولا في الارض انه كان عليما قديرا) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون بيانا لهم أى ان الاولين مع شدة قوتهم ما أعجزوا الله وما فاتوه فهم أولى بأن لا يعجزوه (والثاني) أن يكون قطعا لاطماع الجهال فان قائلا لو قال هب ان الاولين كانوا أشد قوة وأطول أعمارا لكنا نستخرج بذكائنا ما يزيد على قواهم ونستعين بأمور أرضية لها خواص أو كواكب سماوية لها آثار فقال تعالى وما كان الله ليعجزه من شئ في السموات ولا في الارض انه كان عليما بأفعالهم وأقوالهم قديرا على اهلاكهم واستئصالهم * ثم قال تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا) لما خوف الله المكذبين بمن مضى وكانوا من شدة عنادهم وفساد اعتقادهم يستعجلون بالعذاب ويقولون عجل لنا عذابنا قال الله للعذاب أجل والله لا يؤاخذ الناس بنفس الظلم فان الانسان ظلوم جهول وانما يؤاخذ بالاصرار وحصول يأس الناس عن ايمانهم ووجود الايمان ممن كتب الله ايمانه فاذا لم يبق فيهم من يؤمن يهلك المكذبين ولو آخذهم بنفس الظلم لكان كل يوم اهلاك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذا كان الله يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدواب يهلكون نقول الجواب من وجوه (أحدها) ان خلق الدواب نعمة فاذا كفر الناس يزيل الله النعم والدواب أقرب النعم لان المفرد أولا ثم المركب والمركب اما أن يكون معدنيا واما أن يكون ناميا والنامي اما أن يكون حيوانا واما أن يكون نباتا والحيوان اما انسان واما غير انسان فالدواب أعلى درجات المخلوقات في عالم العناصر للانسان (الثاني) هو ان ذلك بيان لشدة العذاب وعمومه فان بقاء الاشياء بالانسان كما ان بقاء الانسان بالاشياء وذلك لان الانسان يدبر الاشياء ويصلحها فتبقى الاشياء ثم ينتفع بها الانسان فيبقى الانسان فاذا كان الهلاك عاما لا يبقى من الانسان من يعمر فلا تبقى الابنية والزروع فلا تبقى الحيوانات الاهلية لان بقاءها بحفظ الانسان اياها عن التلف والهلاك بالسقي والعلف

وقوله تعالى (وما كان الله ليعجزه من شئ) أى ليسبقه ويفوته (في السموات ولا في الارض) اعتراض مقرر لما يفهم مما قبله من استئصال الامم السالفة وقوله تعالى (انه كان عليما قديرا) أى مبالغا في العلم والقدرة ولذلك علم بجميع أعمالهم السيئة فعاقبهم بموجبها تعليل لذلك (ولو يؤاخذ الله الناس) جميعا (بما كسبوا) من السيئات كما فعل بأولئك (ما ترك على ظهرها) أى على ظهر الارض (من دابة) من نسمة تدب عليها من بني آدم وقيل ومن غيرهم أيضا من شؤم معاصيهم وهو المروى عن ابن مسعود وأنس رضي الله عنهما ويعضد الاول قوله تعالى (ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى) وهو يوم القيامة (فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا) فيجازيهم عند ذلك بأعمالهم ان خيرا فخير وان شرا فشر * عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة أن أدخل من أى باب شئت والله تعالى أعلم

ثالث) هو ان انزال المطر هو انعام من الله فى حق العباد فاذا لم يستحقوا الانعام قطعت
مطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الارض فتموت جميع الحيوانات وقوله تعالى
ترك على ظهرها من دابة تؤيد الوجه الثالث لان بسبب انقطاع الامطار تموت حيوانات
ر اما حيوانات البحر فتعيش بماء البحار (المسئلة الثانية) قوله تعالى على ظهرها كناية
ن الارض وهى غير مذكورة فكيف علم نقول بما تقدم وبما تأخر أما ما تقدم فقوله
ما كان الله ليعجزه من شئ فى السموات ولا فى الارض فهو أقرب المذكورات الصالحة
ود الهاء اليها وأما ما تأخر فقوله من دابة لان الدواب على ظهر الارض فان قيل
ف يقال لما عليه الخلق من الارض وجه الارض وظهر الارض مع ان الوجه مقابل
ظهر كالمضاد نقول من حيث ان الارض كالدابة الحاملة للاثقال والحمل يكون على
ظهر يقال له ظهر الارض ومن حيث ان ذلك هو المقابل للخلق المواجه لهم يقال له
جهها على ان الظهر فى مقابلة البطن والظهر والظاهر من باب والبطن والباطن من
ب فوجه الارض ظهر لانه هو الظاهر وغيره منها باطن وبطن (المسئلة الثالثة) فى قوله
الى ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى وجوه (أحدها) الى يوم القيامة وهو مسمى
ذكور فى كثير من المواضع (ثانيها) يوم لا يوجد فى الخلق من يؤمن على ما تقدم
ثالثها) لكل أمة أجل ولكل أجل كتاب وأجل قوم محمد صلى الله عليه وسلم أيام القتل
الاسر كيوم بدر وغيره (المسئلة الرابعة) قوله تعالى فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده
صيرا تسلية للمؤمنين وذلك لانه تعالى لما قال ما ترك على ظهرها من دابة وقال لا تصيبن
الذين ظلموا منكم خاصة قال فاذا جاء الهلاك فالله بالعباد بصير اما ان ينجيهم أو يكون
توفيهم تقريبا من الله لا تعذيبا لا يقال فقد ذكرت ان الله لا يؤاخذ بمجرد الظلم وانما يؤاخذ
حين يجتمع الناس على الضلال وتقول انه تعالى عند الاهلاك يهلك المؤمن فكيف
هذا نقول قد ذكرنا ان الامانة والافناء ان كان للتعذيب فهو مؤاخذة بالذنب
واهلاك وان كان لايصال الثواب فليس باهلاك ولا بمؤاخذة والله لا يؤاخذ الناس
الا عند عموم الكفر وقوله بصيرا لفظ أتم فى التسلية من العليم وغيره لان البصير بالشئ
الناظر اليه أولى بالانجاء من العالم بحاله دون أن يراه والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين

(سورة يس ثمانون وثلاث آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

يس والقرآن الحكيم) قد ذكرنا كلاما كليا فى حروف التهجى فى سورة العنكبوت
وذكرنا أن فى كل سورة بدأ الله فيها بحرف التهجى كان فى أوائلها الذكر أو الكتاب
أو القرآن ولنذكر ههنا ابحاثا (البحث الاول) هو ان فى ذكر هذه الحروف فى أوائل
السور أمور تدل على انها غير خالية عن الحكمة ولكن علم الانسان لا يصل اليها بعينها

في يس مكية وعنه عليه الصلاة والسلام تدعى المعمة تعم صاحبها خير الدارين والدافعة والقاضية تدفع عنه كل سوء وتقضى له كل حاجة وآيها ثلاث وثمانون * (بسم الله الرحمن الرحيم) * (يس) اما مسرود على نمط التعديد فلا حظ له من الاعراب أو اسم السورة كما نص عليه الخليل وسيبويه وعليه الاكثر فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو النصب على أنه مفعول لفعل مضمر وعليهما مدار قراءة يس بالرفع والنصب أى هذه يس أو اقرأ يس ولامساغ للنصب باضمار فعل القسم لان ما بعده مقسم به وقد أبوا الجمع بين قسمين على شئ واحد قبل انقضاء الاول ولامجال للعطف لاختلافهما اعرابا وقيل هو مجرور باضمار باء القسم مفتوح لكونه غير منصرف كما سلف فى فاتحة سورة البقرة من أن ما كانت من هذه الفواتح مفردة مثل صاد وقاف ونون أو كانت موازنة لمفرد نحو طس ويس وحم الموازنة لقابيل وهابيل يأتى فيها الاعراب اللفظى ذكر سيبويه فى باب أسماء

فنقول ماهو الكلى من الحكمة فيها أما بيان أن فيها ما يدل على الحكمة فهو ان الله تعالى ذكر من الحروف نصفها وهى أربعة عشر حرفا وهى نصف ثمانية وعشرين حرفا وهى جميع الحروف التى فى لسان العرب على قولنا الهمزة ألف متحركة ثم انه تعالى قسم الحروف ثلاثة أقسام تسعة أحرف من الالف الى الذال وتسعة أحرف أخر فى آخر الحروف من الفاء الى الياء وعشرة من الوسط من الراء الى الغين وذكر من القسم الاول حرفين هما الالف والحاء وترك سبعة وترك من القسم الآخر حرفين هما الفاء والواو وذكر سبعة ولم يترك من القسم الاول من حروف الحلق والصدر الا واحدا لم يذكره وهو الخاء ولم يذكر من القسم الآخر من حروف الشفة الا واحدا لم يتركه وهو الميم والعشر الاواسط ذكر منها حرفا وترك حرفا فذكر الراء وترك الزاى وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد وذكر الطاء وترك الظاء وذكر العين وترك الغين وليس هذا أمرا يقع اتفاقا بل هو ترتيب مقصود فهو لحكمة واما ان عينها غير معلومة فظاهر وهب ان واحدا يدعى فيه شيئا فماذا يقول فى كون بعض السورة مفتتحة بحرف كسورة ن وق وص و بعضها بحرفين كسورة حم ويس وطس وطه و بعضها بثلاثة أحرف كسورة الم وطسم والر و بعضها بأربعة كسورتى المر والمص و بعضها بخمسة أحرف كسورتى حم عسق وكهيعص وهب أن قائلا يقول ان هذا اشارة الى أن الكلام اما حرف واما فعل واما اسم والحرف كثيرا ما جاء على حرف كواو العطف وفاء التعقيب وهمزة الاستفهام وكاف التشبيه وباء الالصاق وغيرها وجاء على حرفين كمن للتبعيض وأو للتخيير وأم للاستفهام المتوسط وان الشرط وغيرها والاسم والفعل والحرف جاء على ثلاثة أحرف كالى وعلى فى الحرف والى وعلا فى الاسم وألا يألو وعلا يعلو فى الفعل والاسم والفعل جاء على أربعة والاسم خاصة جاء على ثلاثة وأربعة وخمسة كفعل وسجل وجردحل فلما جاء فى القرآن اشارة الى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه فماذا يقول هذا القائل فى تخصيص بعض السور بالحرف الواحد والبعض بأكثر فلا يعلم تمام السر الا الله ومن أعلمه الله به اذا علمت هذا فنقول اعلم أن العبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جارحية وكل واحدة منها قسمان قسم عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم أما القلبية مع انها أبعد عن الشك والجهل ففيها ما لم يعلم دليله عقلا وانما وجب الايمان به والاعتقاد سمعا كالصراط الذى أرق من الشعرة واحد من السيف ويمر عليه المؤمن والموقن كالبرق الخاطف والميزان الذى توزن به الاعمال التى لا ثقل لها فى نظر الناظر وكيفيات الجنة والنار فان هذه الاشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلى وانما المعلوم بالعقل امكانها ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع ومنها ما علم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله وصدق الرسول وكذلك فى العبادات الجارحية ما علم معناه وما لم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات وقد ذكرنا الحكمة فيه وهى ان العبد اذا أتى بما أمر به من غير ان يعلم

السور من كتابه وقيل هما حركتا بناء كما فى حيث وأين حسبما يشهد بذلك قراءة يس بالكسر كجير وقيل الفتح والكسر تحريك للجد فى الهرب من التقاء الساكنين وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن معناه يا انسان فى لغة طى قالوا والمراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعل أصله يا أنيسين فاقتصر على شطره كما قيل من الله فى أيمن الله (والقرآن) بالجر على أنه مقسم به ابتداء وقد جوز أن يكون عطفا على يس على تقدير كونه مجرورا باضمار باء القسم (الحكيم) أى المتضمن للحكمة أو الناطق بها بطريق الاستعارة أو المتصف بها على الاسناد المجازى وقد جوز أن يكون الاصل الحكيم قائله فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فبانقلابه مرفوعا بعد الجر استكن فى الصفة المشبهة كما مر فى صدر سورة لقمان (انك لمن المرسلين) جواب للقسم والجملة لرد انكار الكفرة بقولهم فى حقه عليه الصلاة والسلام لست مرسلا وهذه الشهادة منه عز وجل من جملة ما أشير اليه بقوله تعالى فى جوابهم قل كفى بالله شهيدا بينى

كما شهد برسالته عليه الصلاة والسلام من حيث نظمه المعجز المنطوى على بدائع الحكم يشهد بها من هذه الحيثية أيضا لما أن الاقسام بالشئ استشهاد به على تحقق مضمون الجملة القسمية وتقوية لثبوته فيكون شاهدا به ودليلا عليه قطعا وقوله تعالى (على صراط مستقيم) خبر آخر لان أو حال من المستكن فى الجار والمجرور وعلى أنه عبارة عن الشريعة الشريفة بكمالها لاعن التوحيد فقط وفائدته بيان أن شريعته عليه الصلاة والسلام أقوم الشرائع وأعدلها كما عرب عنه التنكير التفخيمى والوصف اثر بيان أنه عليه الصلاة والسلام من جملة المرسلين بالشرائع (تنزيل العزيز الرحيم) نصب على المدح وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وبالجر على أنه بدل من القرآن وأياما كان فهو مصدر بمعنى المفعول عبر به عن القرآن بيانا لكمال عراقته فى كونه منزلا من عند الله عزوجل كأنه نفس

مافيه من الفائدة لايكون الآتيا بمحض العبادة بخلاف مالو علم الفائدة فربما يأتى للفائدة وان لم يؤمن كما لو قال السيد لعبده انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما فى النقل فنقلها ولو قال انقلها فان تحتها كنزا هو لك ينقلها وان لم يؤمن اذا علم هذا فكذلك فى العبادات اللسانية الذكرية فوجب أن يكون منها مالا يفهم معناه حتى اذا تكلم به العبد علم منه انه لايقصد غير الانقياد لامر المعبود الآمر الناهى فاذا قال حم يس الم طس علم انه لم يذكر ذلك لمعنى يفهمه أو يفهمه فهو يتلفظ به اقامة لما أمر به (البحث الثانى) قيل فى خصوص يس انه كلام هو نداء معناه يا انسان وتقريره هو ان تصغير انسان انيسين فكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال يس أى انيسين وعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب مع محمد صلى الله عليه وسلم ويدل عليه قوله تعالى بعده انك لمن المرسلين (البحث الثالث) قرئ يس اما بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف هو قوله هذه كأنه قال هذه يس واما بالضم على نداء المفرد أو على انه مبنى كحيث وقرئ يس اما بالنصب على معنى اتل يس واما بالفتح كأين وكيف وقرئ يس بالكسر كجير لاسكان الياء وكسرة ماقبلها ولا يجوز أن يقال بالجر لان اضمار الجار غير جائز وليس فيه حرف قسم ظاهر وقوله تعالى والقرآن الحكيم أى ذى الحكمة كعيشة راضية أى ذات رضا أو على انه ناطق بالحكمة فهو كالحى المتكلم * وقوله تعالى (انك لمن المرسلين) مقسم عليه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الكفار انكروا كون محمد مرسلا والمطالب تثبت بالدليل لا بالقسم فالحكمة فى الاقسام نقول فيه وجوه (الاول) هو أن العرب كانوا يتوقون الايمان الفاجرة وكانوا يقولون ان اليمين الفاجرة توجب خراب العالم وصحح النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع ثم انهم كانوا يقولون ان النبى صلى الله عليه وسلم يصيبه من آلهتهم عذاب وهى الكواكب فكان النبى صلى الله عليه وسلم يحلف بأمر الله وانزال كلامه عليه وبأشياء مختلفة وماكان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أرفع شأنا وأمنع مكانا فكان ذلك يوجب اعتقاد انه ليس بكاذب (الثانى) هو ان المتناظرين اذا وقع بينهما كلام وغلب أحدهما الآخر بتمشية دليله وأسكته يقول المطلوب انك قررت هذا بقوة جدالك وأنت خبير فى نفسك بضعف مقالك وتعلم أن الامر ليس كما تقول وان أقمت عليه صورة دليل وعجزت أنا عن القدح فيه وهذا كثير الوقوع بين المتناظرين فعند هذا لايجوز أن يأتى هو بدليل آخر لان الساكت المنقطع يقول فى الدليل الآخر ماقاله فى الاول فلا يجد أمرا الا اليمين فيقول والله انى لست مكابرا وان الامر على ماذكرت ولو علمت خلافه لرجعت اليه فههنا يتعين اليمين فكذلك النبى صلى الله عليه وسلم لما أقام البراهين وقالت الكفرة ماهذا الا رجل يريد أن يصدكم وقالوا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين تعين التمسك بالايمان لعدم فائدة الدليل (الثالث) هو ان هذا ليس مجرد الحلف وانما هو دليل خرج فى صورة اليمين لان القرآن معجزة ودليل

كونه مرسلا هو المعجزة والقرآن كذلك فان قيل فلم يذكر في صورة الدليل وما الحكمة في ذكر الدليل في صورة اليمين قلنا الدليل اذا ذكر لا في صورة اليمين قد لا يقبل عليه سامع فلا يقبله فؤاده فاذا ابتدئ به على صورة اليمين واليمين لا يقع لا سيما من العظيم الاعلى الا على أمر عظيم والامر العظيم تتوفر الدواعي على الاصغاء اليه فلصورة اليمين تشرئب اليه الاجساد ولكونه دليلا شافيا يتشربه الفؤاد فيقع في السمع وينفع في القلب (المسألة الثانية) كون القرآن حكيما عندهم لكون محمد رسولا فلهم أن يقولوا ان هذا ليس بقسم نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان كون القرآن معجزة بين ان أنكروه قيل لهم فأتوا بسورة من مثله (والثاني) ان العاقل لا يثق بيمين غيره الا اذا حلف بما يعتقد عظمته فالكافر ان حلف بمحمد لا نصدقه كما نصدقه لو حلف بالصليب والصنم ولو حلف بديننا الحق لا يوثق به مثل ما يوثق لو حلف بدينه الباطل وكان من المعلوم ان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعظمون القرآن فالقسم به هو الذي يوجب ثقتهم به * وقوله تعالى (على صراط مستقيم) خبر بعد خبر أي انك على صراط مستقيم والمستقيم أقرب الطرق الموصلة الى المقصد والدين كذلك فانه توجه الى الله تعالى وتولى عن غيره والمقصد هو الله والمتوجه الى المقصد أقرب اليه من المولى عنه والمنحرف منه ولا يذهب فهم أحد الى ان قوله انك لمن المرسلين على صراط مستقيم مميز له عن غيره كما يقال ان محمدا من الناس مجتبى لان جميع المرسلين على صراط مستقيم وانما المقصود بيان كون النبي صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم الذي يكون عليه المرسلون وقوله على صراط مستقيم فيه معنى لطيف يعلم منه فساد قول الاباحية الذين يقولون المكلف يصير واصلا الى الحق فلا يبقى عليه تكليف وذلك من حيث ان الله بين ان المرسلين ماداموا في الدنيا فهم سالكون سائحون مهتدون منتهجون الى السبيل المستقيم فكيف ذلك الجاهل العاجز * وقوله تعالى (تنزيل العزيز الرحيم) قرئ بالجر على انه بدل من القرآن كأنه قال والقرآن الحكيم تنزيل العزيز الرحيم انك لمن المرسلين لتنذر وقرئ بالنصب وفيه وجهان (أحدهما) انه مصدر فعل له منوى كأنه قال نزل تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويكون تقديره نزل القرآن أو الكتاب الحكيم (والثاني) انه مفعول فعل منوى كأنه قال والقرآن الحكيم أعني تنزيل العزيز الرحيم انك لمن المرسلين لتنذر وهذا ما اختاره الزمخشري وقرئ الرفع على انه خبر مبتدأ منوى كأنه قال هذا تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويحتمل وجها آخر على هذه القراءة وهو أن يكون مبتدأ خبره لتنذر كأنه قال تنزيل العزيز للانذار وقوله العزيز الرحيم اشارة الى أن الملك اذا أرسل رسولا فالمرسل اليهم اما أن يخالفوا المرسل ويهينوا المرسل وحينئذ لا يقدر الملك على الانتقام منهم الا اذا كان عزيزا أو يخافوا المرسل ويكرموا المرسل وحينئذ يرحمهم الملك أو نقول المرسل يكون معه في رسالته منع عن أشياء واطلاق لأشياء فالمنع يؤكد العزة والاطلاق يدل على الرحمة * وقوله تعالى

التنزيل واظهارا لفخامته الاضافية بعد بيان فخامته الذاتية بوصفه بالحكمة وفي تخصيص الاسمين الكريمين المعربين عن الغلبة التامة والرأفة العامة حث على الايمان به ترهيبا وترغيبا واشعار بأن تنزيله ناشئ عن غاية الرحمة حسبما نطق به قوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين وقيل النصب على أنه مصدر مؤكد لفعله المضمر أي نزل تنزيل العزيز الرحيم على أنه استئناف مسوق لبيان ما ذكر من فخامة شأن القرآن وعلى كل تقدير ففيه فضل تأكيد لمضمون الجملة القسمية (لتنذر) متعلق بتنزيل على الوجوه الاول وبعامله المضمر على الوجه الاخير أي لتنذر به كما في صدر الاعراف وقيل هو متعلق بما يدل عليه لمن المرسلين أي انك مرسل لتنذر (قوما ما أنذر آباؤهم) أي لم ينذر آباؤهم الاقربون لتطاول مدة الفترة على أن ما نافية فيكون صفة مبينة لغاية احتياجهم الى الانذار أو الذي أنذره أو شيئا أنذره آباؤهم الابعدون على أنها موصولة أو موصوفة فيكون مفعولا ثانيا ﴿ لتنذر ﴾ لتنذر أو انذار آبائهم الاقدمين

(لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) قد تقدم تفسيره في قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك وقيل المراد الاثبات وهو على وجهين (أحدهما) لتنذر قوما ما انذار آباؤهم فتكون ما مصدرية (الثاني) ان تكون موصولة معناه لتنذر قوما الذي أنذر آباؤهم فهم غافلون فعلى قولنا ما نافية تفسيره ظاهر فان من لم ينذر آباؤه وبعد الانذار عنه فهو يكون غافلا وعلى قولنا هي للاثبات كذلك لان معناه لتنذرهم انذار آبائهم فانهم غافلون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كيف يفهم التفسيران وأحدهما يقتضي أن لا يكون آباؤهم منذرين والآخر يقتضي أن يكونوا منذرين وبينهما تضاد نقول على قولنا ما نافية معناه ما أنذر آباؤهم وانذار آبائهم الاولين لا ينافي أن يكون المتقدمون من آبائهم منذرين والمتأخرون منهم غير منذرين (المسئلة الثانية) قوله لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم يقتضي ان لا يكون النبي صلى الله عليه وسلم مأمورا بانذار اليهود لان آباءهم أنذروا نقول ليس كذلك اما على قولنا ما للاثبات لا للنفي فظاهر وأما على قولنا هي نافية فكذلك وقد بينا ذلك في قوله تعالى بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك وقلنا ان المراد أن آباءهم قد انذروا بعد ضلالهم وبعد ارسال من تقدم فان الله اذا أرسل رسولا فما دام في القوم من يبين دين ذلك النبي ويأمر به لا يرسل الرسول في أكثر الامر فاذا لم يبق فيهم من يبين ويضل الكل ويتباعد العهد ويفشو الكفر يبعث رسولا آخر مقرر الدين من كان قبله أو واضعا لشرع آخر فمعنى قوله تعالى لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم أي ما أنذروا بعدما ضلوا عن طريق الرسول المتقدم واليهود والنصارى دخلوا فيه لانهم لم تنذر آباؤهم الادنون بعد ما ضلوا فهذا دليل على كون النبي صلى الله عليه وسلم مبعوثا بالحق الى الخلق كافة (المسئلة الثالثة) قوله فهم غافلون دليل على أن البعثة لا تكون الا عند الغفلة اما ان حصل لهم العلم بما أنزل الله بان يكون منهم من يبلغهم شريعة ويخالفونه فحق عليهم الهلاك ولا يكون ذلك تعذيبا من قبل أن يبعث الله رسولا وكذلك من خالف الامور التي لا تفتقر الى بيان الرسل يستحق الاهلاك من غير بعثة وليس هذا قولا بمذهب المعتزلة من التحسين والتقبيح العقلي بل معناه ان الله تعالى لو خلق في قوم علما بوجوب الاشياء وتركوه لا يكونون غافلين فلا يتوقف تعذيبهم على بعثة الرسل * ثم قال تعالى (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) لما بين أن الارسال أو الانزال للانذار أشار الى أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس عليه الهداية المستلزمة للاهتداء وانما عليه الانذار وقد لا يؤمن من المنذرين كثير وفي قوله تعالى لقد حق القول وجوه (الاول) وهو المشهور ان المراد من القول هو قوله تعالى حق القول مني لأملأن جهنم منك وممن تبعك (الثاني) هو أن معناه لقد سبق في علمه ان هذا يؤمن وان هذا لا يؤمن فقال في حق البعض انه لا يؤمن وقال في حق غيره انه يؤمن فحق القول أي وجد وثبت بحيث لا يبدل بغيره (الثالث) هو أن يقال المراد منه لقد حق القول الذي قاله الله على لسان الرسل من

على أنها مصدرية فيكون نعتا للمصدر مؤكد أي لتنذر انذارا كائنا مثل انذارهم (فهم غافلون) على الوجه الاول متعلق بنفي الانذار مترتب عليه والضمير للفريقين أي لم تنذر آباؤهم فهم جميعا لاجله غافلون وعلى الوجوه الباقية متعلق بقوله تعالى لتنذر أو بما يفيده انك لمن المرسلين وارد لتعليل انذاره عليه السلام أو ارساله بغفلتهم المحوجة اليهما على أن الضمير للقوم خاصة فالمعنى فهم غافلون عنه أي عما أنذر آباؤهم الاقدمون لامتداد المدة واللام في قوله تعالى (لقد حق القول على أكثرهم) جواب القسم أي والله لقد ثبت وتحقق عليهم البتة لكن لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم ما يقتضيه بل بسبب اصرارهم الاختياري على الكفر والانكار وعدم تأثرهم من التذكير والانذار وغلوهم في العتو والطغيان وتماديهم في اتباع خطوات الشيطان بحيث لا يلويهم صارف ولا يثنيهم عاطف كيف لا والمراد بما حق من القول قوله تعالى لابليس عند قوله لاغوينهم أجمعين لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وهو المعنى بقوله

التوحيد وغيره وبان برهانه فأكثرهم لا يؤمنون بعد ذلك لان من يتوقف لاستماع الدليل في مهلة النظر يرجى منه الايمان اذا بان له البرهان فاذا تحقق وأكديا لايمان ولم يؤمن أكثرهم فأكثرهم تبين انهم لا يؤمنون لمضي وقت رجاء الايمان ولانهم لما لم يؤمنوا عند ماحق القول واستمروا فان كانوا يريدون شيأ أوضح من البرهان فهو العيان وعند العيان لا يفيد الايمان وقوله على أكثرهم على هذا الوجه معناه أن من لم تبلغه الدعوة والبرهان قليلون فحق القول على أكثر من لم يوجد منه الايمان وعلى الاول والثاني ظاهر فان أكثر الكفار ماتوا على الكفر ولم يؤمنوا (وفيه وجه رابع) وهو أن يقال لقد حقت كلمة العذاب العاجل على أكثرهم فهم لا يؤمنون وهو قريب من الاول * ثم قال تعالى (انا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي الى الاذقان فهم مقمحون) لما بين انهم لا يؤمنون بين أن ذلك من الله فقال انا جعلنا وفيه وجوه (أحدها) أن المراد انا جعلناهم ممسكين لا ينفقون في سبيل الله كما قال تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك (والثاني) أن الآية نزلت في ابي جهل وصاحبيه المخزوميين حيث حلف أبو جهل انه يرضخ رأس محمد فرآه ساجدا فأخذ صخرة ورفعها ليرسلها على رأسه فالتزقت بيده ويده بعنقه (والثالث) وهو الاقوى وأشد مناسبة لما تقدم وهو أن ذلك كناية عن منع الله اياهم عن الاهتداء وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هل للوجهين الاولين مناسبة مع ما تقدم من الكلام نقول الوجه الاول له مناسبة وهي ان قوله تعالى فهم لا يؤمنون يدخل فيه انهم لا يصلون كما قال تعالى وما كان الله ليضيع ايمانكم أي صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة على ما بيناه فكأنه قال لا يصلون ولا يزكون وأما على الوجه الثاني فمناسبة خفية وهي انه لما قال لقد حق القول على أكثرهم وذكرنا أن المراد به البرهان قال بعد ذلك بل عاينوا وأبصروا ما يقرب من الضرورة حيث التزقت يده بعنقه ومنع من ارسال الحجر وهو يضطر الى الايمان ولم يؤمن علم انه لا يؤمن أصلا والتفسير هو الوجه الثالث (المسئلة الثانية) قوله فهي راجعة الى ماذا نقول فيها وجهان (أحدهما) انها راجعة الى الايدي وان كانت غير مذكورة ولكنها معلومة لان المغلول تكون أيديه مجموعة في الغل الى عنقه (وثانيهما) وهو ما اختاره الزمخشري انها راجعة الى الاغلال معناه انا جعلنا في أعناقهم أغلالا ثقالا غلاظا بحيث تبلغ الى الاذقان فلم يتمكن المغلول معها من أن يطأطئ رأسه (المسئلة الثالثة) كيف يفهم من الغل في العنق المنع من الايمان حتى يجعل كناية فنقول المغلول الذي بلغ الغل ذقنه وبقي مقمحا رافع الرأس لا يبصر الطريق الذي عند قدمه وذكر بعده ان بين يديه سدا ومن خلفه سدا فهو لا يقدر على انتهاج السبيل ورؤيته وقد ذكر من قبل أن المرسل على صراط مستقيم فهذا الذي يهديه النبي الى الصراط المستقيم العقلي جعل ممنوعا كالمغلول الذي يجعل ممنوعا من ابصار الطريق الحسي ويحتمل وجها آخر وهو ان يقال الاغلال في الاعناق عبارة عن عدم الانقياد فان المنقاد

﴿ يقال ﴾

باد خال جهنم على من تبع ابليس وذلك تعليل له بتبعيته قطعا وثبوت القول على هؤلاء الذين عبر عنهم بأكثرهم انما هو لكونهم من جملة أولئك المصرين على تبعية ابليس أبدا واذ قد تبين أن مناط ثبوت القول وتحققه عليهم اصرارهم على الكفر الى الموت ظهر أن قوله تعالى (فهم لا يؤمنون) متفرع في الحقيقة على ذلك لا على ثبوت القول وقوله تعالى (انا جعلنا في أعناقهم أغلالا) تقرير لتصميمهم على الكفر وعدم ارعوائهم عنه بتمثيل حالهم بحال الذين غلت أعناقهم (فهي الى الاذقان) أي فالاغلال منتهية الى أذقانهم فلا تدعهم يلتفتون الى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤسهم له (فهم مقمحون) رافعون رؤسهم غاضون أبصارهم بحيث لا يكادون يرون الحق أو ينظرون الى جهته (وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون)

يقال فيه انه وضع رأسه على الحط وخضع عنقه والذى فى رقبته الغل الثخين الى الذقن
لا يطأطئ رأسه ولا يحركه تحريك المصدق ويصدق هذا قوله مقمحون فان المقمح هو
الرافع رأسه كالمتأبى يقال بعير قامح اذا رفع رأسه فلم يشرب الماء ولم يطأطئه للشرب
والايمان كالماء الزلال الذى به الحياة وكأنه تعالى قال انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهم
مقمحون لا يخضعون الرقاب لامر الله وعلى هذا فقوله تعالى (وجعلنا من بين أيديهم سدا
ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) يكون متمما لمعنى جعل الله اياهم مغلولين
لان قوله وجعلنا من بين أيديهم سدا اشارة الى انهم لا ينتهجون سبيل الرشاد فكأنه قال
لا يبصرون الحق فينقادون لمكان السد ولا ينقادون لك فيبصرون الحق فينقادون له
لمكان الغل والايمان المورث للايقان اما باتباع الرسول أولا فتلوح له الحقائق ثانيا واما
بظهور الامور أولا واتباع الرسول ثانيا ولا يتبعون الرسول أولا لانهم مغلولون فلا يظهر
لهم الحق من الرسول ثانيا ولا يظهر لهم الحق أولا لانهم واقعون فى السد فلا يتبعون
الرسول ثانيا (وفيه وجه آخر) وهو ان يقال المانع اما أن يكون فى النفس واما أن يكون
خارجا عنها ولهم المانعان جميعا من الايمان اما فى النفس فالغل وأما من الخارج فالسد
ولا يقع نظرهم على أنفسهم فيرون الآيات التى فى أنفسهم كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى
الآفاق وفى أنفسهم وذلك لان المقمح لا يرى نفسه ولا يقع بصره على يديه ولا يقع نظرهم
على الآفاق لان من بين السدين لا يبصرون الآفاق فلا تتبين لهم الآيات التى فى الآفاق
وعلى هذا فقوله انا جعلنا فى أعناقهم وجعلنا من بين أيديهم اشارة الى عدم هدايتهم
لآيات الله فى الانفس والآفاق وفى تفسير قوله تعالى وجعلنا من بين أيديهم سدا مسائل
(المسألة الاولى) السد من بين الايدى ذكره ظاهر الفائدة فانهم فى الدنيا سالكون
وينبغى أن يسلكوا الطريقة المستقيمة ومن بين أيديهم سدا فلا يقدرون على السلوك
وأما السد من خلفهم فما الفائدة فيه فنقول الجواب عنه من وجوه (الاول) هو ان
الانسان له هداية فطرية والكافر قد يتركها وهداية نظرية والكافر ما أدركها
فكأنه تعالى يقول جعلنا من بين أيديهم سدا فلا يسلكون طريقة الاهتداء التى هى
نظرية وجعلنا من خلفهم سدا فلا يرجعون الى الهداية الجبلية التى هى الفطرية (الثانى)
هو ان الانسان مبدؤه من الله ومصيره اليه فعمى الكافر لا يبصر ما بين يديه من المصير
الى الله ولا ما خلفه من الدخول فى الوجود بخلق الله (الثالث) هو ان السالك اذا لم يكن
له بد من سلوك طريق فان انسد الطريق الذى قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع واذا
انسد الطريق من خلفه ومن قدامه فالموضع الذى هو فيه لا يكون موضع اقامة لانه
مهلك فقوله وجعلنا من بين أيديهم ومن خلفهم اشارة الى اهلاكهم (المسألة الثانية)
قوله تعالى فأغشيناهم بحرف الفاء يقتضى أن يكون للاغشاء بالسد تعلق ويكون
الاغشاء مرتبا على جعل السد فكيف ذلك فنقول ذلك من وجهين (أحدهما) أن يكون

اما تتمة للتمثيل وتكميل له أى تكميل أى وجعلنا مع ما ذكر من أمامهم سدا عظيما ومن
ورائهم سدا كذلك
فغطينا بهما أبصارهم
فهم بسبب ذلك لا يقدرون
على ابصار شئ ما
أصلا واما تمثيل مستقل
فان ما ذكر من جعلهم
محصورين بين سدين
هائلين قد غطيا
أبصارهم بحيث لا يبصرون
شيئا قطعا كاف فى
الكشف عن كمال فظاعة
حالهم وكونهم محبوسين
فى مطمورة الغى والجهالات
محرومين عن النظر فى
الادلة والآيات وقرئ
سدا بالضم وهى لغة
فيه وقيل ما كان من
عمل الناس فهو بالفتح
وما كان من خلق الله
فبالضم وقرئ فأعشيناهم
من العشا وقيل الآيتان
فى بنى مخزوم وذلك أن
أبا جهل حلف لئن
رأى رسول الله صلى الله
عليه وسلم يصلى ليرضخن
رأسه فأتاه وهو عليه
الصلاة والسلام يصلى
ومعه حجر ليدمغه فلما
رفع يده انثنت يده الى
عنقه ولزق الحجر بيده
حتى فكوه عنها بجهد
فرجع الى قومه فأخبرهم
بذلك فقال مخزومي آخر أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى الله تعالى بصره (وسواء عليهم

ذلك بيانا لامور مترتبة يكون بعضها سببا للبعض فكأنه تعالى قال انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فلا يبصرون أنفسهم لاقماحهم وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فلا يبصرون ما فى الآفاق وحينئذ يمكن أن يروا السماء وما على يمينهم وشمالهم فقال بعد هذا كله وجعلنا على أبصارهم غشاوة فلا يبصرون شيئا أصلا (وثانيهما) هو ان ذلك بيان لكون السد قريبا منهم بحيث يصير ذلك كالغشاوة على أبصارهم فان من جعل من خلفه ومن قدامه سدين ملتزقين به بحيث يبقى بينهما ملتزقا بهما تبقى عينه على سطح السد فلا يبصر شيئا اما غير السد فللحجاب واما عين السد فلكون شرط المرئى أن لا يكون قريبا من العين جدا (المسئلة الثالثة) ذكر السدين من بين الايدى ومن خلف ولم يذكر من اليمين والشمال ما الحكمة فيه فنقول اما على قولنا انه اشارة الى الهداية الفطرية والنظرية فظاهر واما على غير ذلك فنقول بما ذكر حصل العموم والمنع من انتهاج المناهج المستقيمة لانهم ان قصدوا السلوك الى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين الى شئ وموليين عن شئ فصار ما اليه توجههم ما بين أيديهم فيجعل الله السد هنالك فيمنعه من السلوك فكيف ما توجه الكافر يجعل الله بين يديه سدا (ووجه آخر) أحسن مما ذكرنا وهو انا لما بينا ان جعل السد صار سببا للاغشاء كان السد ملتزقا به وهو ملتزق بالسدين فلا قدرة له على الحركة يمنة ولا يسرة فلا حاجة الى السد عن اليمين وعن الشمال وقوله تعالى فأغشيناهم فهم لا يبصرون يحتمل ما ذكرنا انهم لا يبصرون شيئا ويحتمل ان يكون المراد هو ان الكافر مصدود وسبيل الحق عليه مسدود وهو لا يبصر السد ولا يعلم الصد فيظن انه على الطريقة المستقيمة وغيره ضال ثم انه تعالى بين ان الانذار لا ينفعهم مع ما فعل الله بهم من الغل والسد والاغشاء والاعماء بقوله تعالى (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) أى الانذار وعدمه سيان بالنسبة الى الايمان منهم اذ لا وجود له منهم على التقديرين فان قيل اذا كان الانذار وعدمه سواء فلماذا الانذار نقول قد أجبنا فى غير هذا الموضع انه تعالى قال سواء عليهم وما قال سواء عليك فالانذار بالنسبة الى النبى صلى الله عليه وسلم ليس كعدم الانذار لان أحدهما مخرج له عن العهدة وسبب فى زيادة سيادته عاجلا وسعادته آجلا وأما بالنسبة اليهم على السواء فانذار النبى صلى الله عليه وسلم يخرج عما عليه وينال ثواب الانذار وان لم ينتفعوا به لما كتب عليهم من البوار فى دار القرار ۞ ثم قال تعالى (انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم) والترتيب ظاهر وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) قال من قبل لتنذر وذلك يقتضى الانذار العام على ما بينا وقال انما تنذر وهو يقتضى التخصيص فكيف الجمع بينهما نقول من وجوه (الاول) هو ان قوله لتنذر أى كيف ما كان سواء كان مفيدا أو لم يكن وقوله انما تنذر أى الانذار المفيد لا يكون الا بالنسبة الى من يتبع الذكر ويخشى (الثانى) هو ان الله تعالى لما قال ان الارسال والانزال للانذار وذكر ان الانذار وعدمه سيان بالنسبة

أأنذرتهم أم لم تنذرهم) بيان لشأنهم بطريق التصريح اثر بيانه بطريق التمثيل أى مستو عندهم انذارك اياهم وعدمه حسبما مر تحقيقه فى سورة البقرة وقوله تعالى (لا يؤمنون) استئناف مؤكد لما قبله مبين لما فيه من اجمال ما فيه الاستواء أو حال مؤكدة له أو بدل منه ولما بين كون الانذار عندهم كعدمه عقب ببيان من يتأثر منه فقيل (انما تنذر) أى انذارا مستتبعا للاثر (من اتبع الذكر) أى القرآن بالتأمل فيه أو الوعظ ولم يصر على اتباع خطوات الشيطان (وخشى الرحمن بالغيب) أى خاف عقابه وهو غائب عنه على أنه حال من الفاعل أو المفعول أو خافه فى سريرته ولم يغتر برحمته فانه منتقم قهار كما أنه رحيم غفار كما نطق به قوله تعالى نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الاليم (فبشره بمغفرة) عظيمة (وأجر كريم) لا يقادر قدره والفاء لترتيب البشارة أو الامر بها على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية

(انا نحن نحيي الموتى) بيان لشأن عظيم ﴿ ٦٥ ﴾ ينطوي على الانذار والتبشير انطواءً اجمالياً أي نبعثهم بعد

الى أهل العناد فقال تنبيه ليس انذارك غير مفيد من جميع الوجوه فأنذر على سبيل العموم وانما تنذر بذلك الانذار العام من يتبع الذكر كأنه يقول يا محمد انك بانذارك تهدي ولا تدري من تهدي فأنذر الاسود والاحمر ومقصودك من يتبع انذارك وينتفع بذكراك (الثالث) هو ان نقول قوله لتنذر أي أولا فاذا أنذرت وبالغت وبلغت واستهزأ البعض وتولى واستكبر وولى فأعرض بعد ذلك فانما تنذر الذين اتبعوك (الرابع) وهو قريب من الثالث انك تنذر الكل بالاصول وانما تنذر بالفروع من ترك الصلاة والزكاة من اتبع الذكر وآمن (المسئلة الثانية) قوله من اتبع الذكر يحتمل وجوهاً (الاول) وهو المشهور من اتبع القرآن (الثاني) من اتبع ما في القرآن من الآيات ويدل عليه قوله تعالى والقرآن ذي الذكر فجعل القرآن نفس الذكر (الثالث) من اتبع البرهان فانه ذكر يكمل الفطرة وعلى كل وجه فمعناه انما تنذر العلماء الذين يخشون وهو كقوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وكقوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات فقوله اتبع الذكر أي آمن وقوله وخشي الرحمن أي عمل صالحاً وهذا الوجه يتأيد بقوله فبشره بمغفرة وأجر كريم لانا ذكرنا مراراً أن الغفران جزاء الايمان فكل مؤمن مغفور والاجر الكريم جزاء العمل كما قال تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم وتفسير الذكر بالقرآن يتأيد بتعريف الذكر بالالف واللام وقد تقدم ذكر القرآن في قوله تعالى والقرآن الحكيم وقوله وخشي الرحمن فيه لطيفة وهي أن الرحمة تورث الاتكال والرجاء فقال مع أنه رحمن رحيم فالعاقل لا ينبغي أن يترك الخشية فان كل من كانت نعمته بسبب رحمته اكثر فالخوف منه أتم مخافة أن يقطع عنه النعم المتواترة وتكملة اللطيفة هي ان من اسماء الله اسمين يختصان به هما الله والرحمن كما قال تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن حتى قال بعض الأئمة هما علمان اذا عرفت هذا فالله اسم ينبئ عن الهيبة والرحمن ينبئ عن العاطفية فقال في موضع يرجو الله وقال ههنا وخشي الرحمن يعني مع كونه ذا هيبة لا تقطعوا عنه رجاءكم ومع كونه ذا رحمة لا تأمنوه وقوله بالغيب يعني بالدليل وان لم ينته الى درجة المرئي المشاهد فان عند الانتهاء الى تلك الدرجة لا يبقى للخشية فائدة والمشهور ان المراد بالغيب ما غاب عنا وهو أحوال القيـ... وقيل ان الوحدانية تدخل فيه وقوله فبشره فيه اشارة الى الامر الثاني من امـ... لة فان النبي صلى الله عليه وسلم بشير ونذير وقد ذكر أنه أرسل لينذر وذكر ان الانذار ينفع عند اتباع الذكر فقال بشر كما انذرت ونفعت وقوله بمغفرة على التنكير أي بمغفرة واسعة تستر من جميع الجوانب حتى لا يرى عليه أثر من آثار النفس ويظهر عليه أنوار الروح الزكية وأجر كريم أي ذي كرم وقد ذكرنا ما في الكريم في قوله ورزق كريم وفي قوله ورزقاً كريماً * قال تعالى (انا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في امام مبين) في الترتيب وجوه (أحدها) ان الله تعالى لما بين الرسالة وهو أصل من الاصول

مماتهم وعن الحسن احياؤهم اخراجهم من الشرك الى الايمان فهو حينئذ عدة كريمة بتحقيق المبشر به (ونكتب ما قدموا) أي ما اسلفوا من الاعمال الصالحة وغيرها (وآثارهم) التي أبقوها من الحسنات كعلم علموه أو كتاب ألفوه أو حبيس وقفوه أو بناء بنوه من المساجد والرباطات والقناطر وغير ذلك من وجوه البر ومن السيآت كتأسيس قوانين الظلم والعدوان وترتيب مبادي الشر والفساد فيما بين العباد وغير ذلك من فنون الشرور التي أحدثوها وسنوها لمن بعدهم من المفسدين وقيل هي آثار المشائين الى المساجد ولعل المراد أنها من جملة الآثار وقرئ ويكتب على البناء للمفعول ورفع آثارهم (وكل شيء) من الاشياء كائناً ما كان (أحصيناه في امام مبين) أصل عظيم الشأن مظهر لجميع الاشياء مما كان وما سيكون وهو اللوح المحفوظ وقرئ كل شيء بالرفع (واضرب لهم

الثلاثة التي يصير بها المكلف مؤمنا مسلما ذكر أصلا آخر وهو الحشر (وثانيها) وهو أن الله تعالى لما ذكر الانذار والبشارة بقوله فبشره بمغفرة ولم يظهر ذلك بكماله في الدنيا فقال ان لم ير في الدنيا فالله يحيي الموتى ويجزي المنذرين ويجزي المبشرين (وثالثها) أنه تعالى لما ذكر خشية الرحمن بالغيب ذكر ما يؤكده وهو احياء الموتى وفي التفسير مسائل (المسئلة الاولى) انا نحن يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون مبتدأ وخبرا كقول القائل * أنا أبو النجم وشعري شعري * ومثل هذا يقال عند الشهرة العظيمة وذلك لان من لا يعرف يقال من انت فيقول انا ابن فلان فيعرف ومن يكون مشهورا اذا قيل له من انت يقول أنا أي لا معرف لي أظهر من نفسي فقال انا نحن معروفون باوصاف الكمال واذا عرفنا بانفسنا فلا تنكر قدرتنا على احياء الموتى (وثانيهما) أن يكون الخبر نحيي كأنه قال انا نحيي الموتى ونحن يكون تأكيدا والاول أولى (المسئلة الثانية) انا نحن فيه اشارة الى التوحيد لان الاشتراك يوجب التمييز بغير النفس فان زيدا اذا شاركه غيره في الاسم فلو قال أنا زيد لم يحصل التعريف التام لان للسامع أن يقول أيما زيد فيقول ابن عمرو ولو كان هناك زيد آخر ابوه عمرو لا يكفي قوله ابن عمرو فلما قال الله انا نحن أي ليس غيرنا أحد يشاركنا حتى نقول انا كذا فنمتاز وحينئذ تصير الاصول الثلاثة مذكورة الرسالة والتوحيد والحشر (المسئلة الثالثة) قوله ونكتب ما قدموا فيه وجوه (أحدها) المراد ما قدموا وأخروا فاكتفى بذكر أحدهما كما في قوله تعالى سرابيل تقيكم الحر والمراد والبرد أيضا (وثانيها) المعنى ما أسلفوا من الاعمال صالحة كانت أو فاسدة وهو كما قال تعالى بما قدمت أيديهم أي بما قدمت في الوجود على غيره أوجدته (وثالثها) نكتب نياتهم فانها قبل الاعمال وآثارهم أي أعمالهم على هذا الوجه (المسئلة الرابعة) وآثارهم فيه وجوه (الاول) آثارهم أقدامهم فان جماعة من أصحابه بعدت دورهم عن المساجد فأرادوا النقلة فقال صلى الله عليه وسلم ان الله يكتب خطواتكم ويثيبكم عليه فالزموا بيوتكم (الثاني) هي السنن الحسنة كالكتب المصنفة والقناطر المبنية والحبائس الدارة والسنن السيئة كالظلمات المستمرة التي وضعها ظالم والكتب المضلة وآلات الملاهي وأدوات المناهي المعمولة الباقية وهو في معنى قوله صلى الله عليه وسلم من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجر العامل شيء ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها فما قدموا هو أفعالهم وآثارهم افعال الشاكرين فبشرهم حيث يؤاخذون بها ويؤجرون عليها (والثالث) ما ذكرنا ان الآثار الاعمال وما قدموا النيات فان النية قبل العمل (المسئلة الخامسة) الكتابة قبل الاحياء فكيف أخر في الذكر حيث قال نحيي ونكتب ولم يقل نكتب ما قدموا ونحييهم نقول الكتابة معظمة لامر الاحياء لان الاحياء ان لم يكن للحساب لا يعظم والكتابة في نفسها ان لم تكن احياء واعادة لا يبقى لها أثر أصلا فالاحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لامره

مثلا أصحاب القرية) ضرب المثل يستعمل تارة في تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما في قوله تعالى ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط وأخرى في ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد الى تطبيقها بنظيرة لها كما في قوله تعالى وضربنا لكم الامثال على أحد الوجهين أي بينا لكم أحوالا بديعة هي في الغرابة كالامثال فالمعنى على الاول اجعل أصحاب القرية لهؤلاء في الغلو في الكفر والاصرار على تكذيب الرسل أي طبق حالهم بحالهم على أن مثلا مفعول ثان لاضرب وأصحاب القرية مفعوله الاول أخر عنه ليتصل به ما هو شرحه وبيانه وعلى الثاني اذكر وبين لهم قصة هي في الغرابة كالمثل وقوله تعالى أصحاب القرية بدل منه بتقدير المضاف أو بيان له والقرية انطاكية (اذ جاءها المرسلون) بدل اشتمال من أصحاب القرية وهم رسل عيسى عليه السلام الى أهلها ونسبة ارسالهم اليه تعالى في قوله (اذ أرسلنا اليهم اثنين) بناء على أنه كان بأمره تعالى لتكميل التمثيل وتتميم التسلية

فلهذا قسم الاحياء ولانه تعالى لما قال إنا نحن وذلك يفيد العظمة والجبروت والاحياء عظيم يختص بالله والكتابة دونه فقرن بالتعريف الامر العظيم وذكر ما يعظم ذلك العظيم وقوله وكل شئ أحصيناه فى امام مبين يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون ذلك بيانا لكون ما قدموا وآثارهم امرا مكتوبا عليهم لا يبدل فان القلم جف بما هو كائن فلما قال نكتب ما قدموا بين ان قبل ذلك كتابة أخرى فان الله كتب عليهم أنهم سيفعلون كذا وكذا ثم اذا فعلوه كتب عليهم انهم فعلوه (وثانيها) أن يكون ذلك مؤكدا لمعنى قوله ونكتب لان من يكتب شيئا فى أوراق ويرميها قد لا يجدها فكأنه لم يكتب فقال نكتب ونحفظ ذلك فى امام مبين وهذا كقوله تعالى علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى (وثالثها) أن يكون ذلك تعميما بعد التخصيص كأنه تعالى يكتب ما قدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرة عليه بل كل شئ محصى فى امام مبين وهذا يفيد أن شيئا من الاقوال والافعال لا يعزب عن علم الله ولا يفوته وهذا كقوله تعالى وكل شئ فعلوه فى الزبر وكل صغير وكبير مستطر يعنى ليس ما فى الزبر منحصرا فيما فعلوه بل كل شئ فعلوه مكتوب وقوله احصيناه ابلغ من كتبناه لان من كتب شيئا مفرقا يحتاج الى جمع عدده فقال هو محصى فيه وسمى الكتاب اماما لان الملائكة يتبعونه فما كتب فيه من أجل ورزق واحياء واماتة اتبعوه وقيل هو اللوح المحفوظ وامام جاء جمعا فى قوله تعالى يوم ندعوا كل أناس بامامهم أى بأئمتهم وحينئذ فامام اذا كان فردا فهو ككتاب وحجاب واذا كان جمعا فهو كجبال وحبال والمبين هو المظهر للامور لكونه مظهرا للملائكة ما يفعلون وللناس ما يفعل بهم وهو الفارق يفرق بين احوال الخلق فيجعل فريقا فى الجنة وفريقا فى السعير * ثم قال تعالى (واضرب لهم مثلا اصحاب القرية اذ جاءها المرسلون) وفيه وجهان والترتيب ظاهر على الوجهين (الوجه الاول) هو أن يكون المعنى واضرب لاجلهم مثلا (والثانى) أن يكون المعنى واضرب لاجل نفسك اصحاب القرية لهم مثلا أى مثلهم عند نفسك باصحاب القرية وعلى الاول نقول لما قال الله انك لمن المرسلين وقال لتنذر قال قل لهم ما كنت بدعا من الرسل بل قبلى بقليل جاء اصحاب القرية مرسلون وأنذروهم بما انذرتكم وذكروا التوحيد وخوفوا بالقيامة وبشروا بنعيم دار الاقامة وعلى الثانى نقول لما قال الله تعالى ان الانذار لا ينفع من أضله الله وكتب عليه انه لا يؤمن قال للنبى عليه الصلاة والسلام فلا تأس واضرب لنفسك ولقومك مثلا أى مثل لهم عند نفسك مثلا حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا وصبر الرسل على القتل والايذاء وأنت جئتهم واحدا وقومك أكثر من قوم الثلاثة فانهم جاؤا قرية وأنت بعثت الى العالم وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) ما معنى قول القائل ضرب مثلا وقوله تعالى واضرب مع أن الضرب فى اللغة اما امساس جسم جسما بعنف واما السير اذا قرن به حرف فى كقوله تعالى اذا ضربتم فى الارض نقول قوله ضرب مثلا معناه مثل مثلا وذلك لان الضرب

وهما يحنا وبولس وقيل غيرهما (فكذبوهما) أى فأتياهم فدعواهم الى الحق فكذبوهما فى الرسالة (فعززنا) أى قوينا يقال عزز المطر الارض اذا لبدها وقرئ بالتخفيف من عزه اذا غلبه وقهره وحذف المفعول لدلالة ما قبله عليه ولان المقصد ذكر المعزز به (بثالث) هو شمعون (فقالوا) أى جميعا (انا اليكم مرسلون) مؤكدين كلامهم لسبق الانكار لما ان تكذيبهما تكذيب للثالث لاتحاد كلامهم وذلك أنهم كانوا عبدة أصنام فارسل اليهم عيسى عليه السلام اثنين فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب يس فسألهما فاخبراه قال أمعكما آية فقالا نشفى المريض ونبرئ الاكمه والابرص وكان له ولد مريض منذ سنتين فمسحاه فقام فآمن حبيب وفشا الخبر وشفى على أيديهما خلق وبلغ حديثهما الى الملك وقال لهما ألنا اله سوى آلهتنا قالا نعم من أوجدك وآلهتك فقال حتى أنظر فى أمركما فتبعهما الناس وقيل ضربوهما وقيل حبسا ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون فدخل متنكرا وعاشر حاشية الملك

اسم النوع يقال هذه الاشياء من ضرب واحد أي اجعل هذا وذاك من ضرب واحد
(المسئلة الثانية) أصحاب القرية معناه واضرب لهم مثلا مثل أصحاب القرية فترك المثل
وأقيم الاصحاب مقامه في الاعراب كقوله واسأل القرية هذا قول الزمخشري في الكشاف
ويحتمل أن يقال لا حاجة الى الاضمار بل المعنى اجعل أصحاب القرية لهم مثلا أو مثل
أصحاب القرية بهم (المسئلة الثالثة) اذ جاءها المرسلون اذ منصوبة لانها بدل من أصحاب
القرية كأنه قال تعالى واضرب لهم وقت مجئ المرسلين ومثل ذلك الوقت بوقت مجيئك
وهذا أيضا قول الزمخشري وعلى قولنا ان هذا المثل مضروب لنفس محمد صلى الله عليه
وسلم تسلية فيحتمل أن يقال اذ ظرف منصوب بقوله اضرب أي اجعل الضرب كأنه
حين مجيئهم وواقع فيه والقرية انطاكية والمرسلون من قوم عيسى وهم أقرب مرسل
أرسل الى قوم الى زمان محمد صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثة كما بين الله تعالى وقوله اذ أرسلنا
يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون اذ أرسلنا بدلا من اذ جاءها كأنه قال اضرب لهم مثلا
اذ أرسلنا الى أصحاب القرية اثنين (وثانيهما) وهو الاصح الاوضح أن يكون اذ ظرفا
والفعل الواقع فيه جاءها أي جاءها المرسلون حين أرسلناهم اليهم أي لم يكن مجيئهم من
تلقاء أنفسهم وانما جاؤهم حيث أمروا وهذا فيه لطيفة وهي ان في الحكاية ان الرسل كانوا
مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام أرسلهم الى انطاكية فقال تعالى ارسال عيسى
عليه السلام هو ارسالنا ورسول رسول الله باذن الله رسول الله فلا يقع لك يا محمد أن أولئك
كانوا رسل الرسول وأنا رسول الله فان تكذيبهم كتكذيبك فتتم التسلية بقوله اذ أرسلنا
وهذا يؤيد مسئلة فقهية وهي أن وكيل الوكيل باذن الموكل وكيل الموكل لا وكيل الوكيل
حتى لا ينعزل بعزل الوكيل اياه وينعزل اذا عزله الموكل الاول وهذا على قولنا واضرب لهم
مثلا ضرب المثل لاجل محمد صلى الله عليه وسلم ظاهر * وقوله (اذ أرسلنا اليهم اثنين
فكذبوهما) في بعثه الاثنين حكمة بالغة وهي انهما كانا مبعوثين من جهة عيسى باذن
الله فكان عليهما انهاء الامر الى عيسى والاتيان بأمر الله والله عالم بكل شئ لا يحتاج
الى شاهد يشهد عنده وأما عيسى فهو بشر فأمره الله بارسال اثنين ليكون قولهما على
قومهما عند عيسى حجة تامة * وقوله (فعززنا بثالث) أي قوينا وقرئ فعززنا بثالث
مخففا من عز اذا غلب فكأنه قال فغلبنا نحن وقهرنا بثالث والاول أظهر وأشهر وترك
المفعول حيث لم يقل فعززناهما لمعنى لطيف وهو أن المقصود من بعثهما نصرة الحق
لا نصرتهما والكل مقوون للدين المتين بالبرهان المبين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) النبي
صلى الله عليه وسلم بعث رسله الى الاطراف واكتفى بواحد وعيسى عليه السلام بعث
اثنين نقول النبي بعث لتقرير الفروع وهو دون الاصول فاكتفى بواحد فان خبر الواحد
في الفروع مقبول وأما هما فبعثا بالاصول وجعل لهما معجزة تفيد اليقين والا لما كفى
ارسال اثنين أيضا ولا ثلاثة (المسئلة الثانية) قال الله تعالى لموسى عليه السلام سنشد
﴿ عضدك ﴾

حتى استأنسوا به ورفعوا خبره الى الملك وأنس به فقال له يوما بلغني أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولان قال لا حال الغضب بيني وبين ذلك فدعاهما فقال شمعون من أرسلكما قالا الله الذي خلق كل شئ وليس له شريك فقال صفاه وأوجزا قالا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قال وما آيتكما قالا ما تتمنى الملك فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله تعالى حتى انشق له بصر فأخذا بندقتين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين ينظر بهما فقال له شمعون أرأيت لو سألت الهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف قال ليس لي عنك سر ان الهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلي ويتضرع وهم يحسبون أنه منهم ثم قال ان قدر الهكما على احياء ميت آمنا به فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال اني أدخلت في سبعة أودية من النار واني أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا وقال فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك من هم قال شمعون وهذان فتعجب الملك فلما رأى شمعون أن قوله

عضدك فذكر المفعول هناك ولم يذكره ههنا مع ان المقصود هناك أيضا نصرة الحق نقول موسى عليه السلام كان أفضل من هرون وهرون بعث بطلبه معه حيث قال فأرسله معى فكان هرون مبعوثا ليصدق موسى فيما يقول ويقوم بما يأمره وأما هما فكل واحد مستقل ناطق بالحق فكان هناك المقصود تقوية موسى وارسال من يؤنس معه وهو هرون وأما ههنا المقصود تقوية الحق فظهر الفرق * ثم بين الله ما جرى منهم وعليهم مثل ما جرى من محمد صلى الله عليه وسلم وعليه (فقالوا انا اليكم مرسلون) كما قال انك ان المرسلين وبين ما قال القوم بقوله (قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شئ) جعلوا كونهم بشرا مثلهم دليلا على عدم الارسال وهذا عام من المشركين قالوا في حق محمد أأنزل عليه الذكر وانما ظنوه دليلا بناء على انهم لم يعتقدوا في الله الاختيار وانما قالوا فيه انه موجب بالذات وقد استوينا في البشرية فلا يمكن الرجحان والله تعالى رد عليهم قولهم بقوله الله أعلم حيث يجعل رسالته وبقوله الله يجتبي اليه من يشاء الى غير ذلك وقوله وما أنزل الرحمن من شئ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون متمما لما ذكروه فيكون الكل شبهة واحدة ووجهه هو أنهم قالوا أنتم بشر فما نزلتم من عند الله وما أنزل الله اليكم أحدا فكيف صرتم رسل الله (وثانيهما) أن يكون هذا شبهة أخرى مستقلة ووجهه هو أنهم لما قالوا أنتم بشر مثلنا فلا يجوز رجحانكم علينا ذكروا الشبهة من جهة النظر الى المرسلين ثم قالوا شبهة أخرى من جهة المرسل وهو أنه تعالى ليس بمنزل شيأ في هذا العالم فان تصرفه في العالم العلوى وللعلويات التصرف في السفليات على مذهبهم فالله تعالى لم ينزل شيأ من الاشياء في الدنيا فكيف أنزل اليكم وقوله الرحمن اشارة الى الرد عليهم لان الله لما كان رحمن الدنيا والارسال رحمة فكيف لا ينزل رحمته وهو رحمن فقال انهم قالوا ما أنزل الرحمن شيأ وكيف لا ينزل الرحمن مع كونه رحمن شيأ هو الرحمة الكاملة * ثم قال تعالى (ان أنتم الا تكذبون) أى ما أنتم الا كاذبين (قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون) اشارة الى انهم بمجرد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا بل أعادوا ذلك لهم وكرروا القول عليهم وأكدوه باليمين وقالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون وأكدوه باللام لان يعلم الله يجرى مجرى القسم لان من يقول يعلم الله فيما لا يكون فقد نسب الله الى الجهل وهو سبب العقاب كما ان الحنث سببه وفي قوله ربنا يعلم اشارة الى الرد عليهم حيث قالوا أنتم بشر وذلك لان الله اذا كان يعلم انهم لمرسلون يكون كقوله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته يعنى هو عالم بالامور وقادر فاختارنا بعلمه لرسالته * ثم قال (وما علينا الا البلاغ المبين) تسلية لانفسهم أى نحن خرجنا عن عهدة ما علينا وحثا لهم على النظر فانهم لما قالوا ما علينا الا البلاغ كان ذلك يوجب تفكرهم في أمرهم حيث لم يطلبوا منهم أجرا ولا قصدوا رياسة وانما كان شغلهم التبليغ والذكر وذلك مما يحمل العاقل على النظر والمبين يحتمل أمورا (أحدها) البلاغ المبين للحق عن الباطل أى الفارق بالمعجزة والبرهان (وثانيها) البلاغ المظهر

قد أثر فيه نصحه فآمن وآمن قوم ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام فهلكوا هكذا قالوا ولكن لا يساعده سياق النظم الكريم حيث اقتصر فيه على حكاية تماديهم في العناد واللجاج وركوبهم متن المكابرة في الحجاج ولم يذكر فيه ممن يؤمن أحد سوى حبيب ولو أن الملك وقوما من حواشيه آمنوا لكان الظاهر أن يظاهروا الرسل ويساعدوهم قبلوا في ذلك أو قتلوا كدأب النجار الشهيد ولكان لهم فيه ذكر ما بوجه من الوجوه اللهم الا أن يكون ايمان الملك بطريق الخفية على خوف من عتاة ملئه فيعتزل عنهم معتذرا بعذر من الاعذار (قالوا) أى أهل انطاكية الذين لم يؤمنوا مخاطبين للثلاثة (ما أنتم الا بشر مثلنا) من غير مزية لكم علينا موجبة لاختصاصكم بما تدعونه ورفع بشر لانتقاض النفى المقتضى لاعمال ما بالا (وما أنزل الرحمن من شئ) مما تدعونه من الوحى والرسالة (ان أنتم الا تكذبون) في دعوى

لما أرسلنا للكل أي لا يكفي أن نبلغ الرسالة الى شخص أو شخصين (وثالثها) البلاغ المظهر للحق بكل ما يمكن فاذا تم ذلك ولم يقبلوا يحق هنالك الهلاك * ثم كان جوابهم بعد هذا انهم (قالوا انا تطيرنا بكم) وذلك انه لما ظهر من الرسل المبالغة في البلاغ ظهر منهم الغلو في التكذيب فلما قال المرسلون انا اليكم لمرسلون قالوا ان أنتم الا تكذبون ولما أكد الرسل قولهم باليمين حيث قالوا ربنا يعلم أكدوا قولهم بالتطير بهم فكأنهم قالوا في الاول كنتم كاذبين وفي الثاني صرتم مصرين على الكذب حالفين مقسمين عليه واليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع فنشاءمنا بكم ثانيا وفي الاول كما تركتم في الثاني لانترككم لكون الشؤم مدركنا بسببكم وقالوا (لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم) وقوله لنرجمنكم يحتمل وجهين (أحدهما) لنشتمنكم من الرجم بالقول وعلى هذا فقوله وليمسنكم ترق كأنهم قالوا ولا يكتفى بالشتم بل يؤدي ذلك الى الضرب والايلام الحسي (وثانيهما) أن يكون المراد الرجم بالحجارة وحينئذ فقوله وليمسنكم بيان للرجم يعني ولا يكون الرجم رجما قليلا نرجمكم بحجر وحجرين بل نديم ذلك عليكم الى الموت وهو عذاب أليم ويكون المراد لنرجمنكم وليمسنكم بسبب الرجم عذاب منا أليم وقد ذكرنا في الاليم أنه بمعنى المؤلم والفعيل بمعنى مفعل قليل ويحتمل أن يقال هو من باب قوله عيشة راضية أي ذات رضا فالعذاب الاليم هو ذو ألم وحينئذ يكون فعيلا بمعنى فاعل وهو كثير * ثم أجابهم المرسلون بقولهم (قالوا طائركم معكم) أي شؤمكم معكم وهو الكفر * ثم قالوا (أئن ذكرتم) جوابا عن قولهم لنرجمنكم يعني أتفعلون بنا ذلك وان ذكرتم أي بين لكم الامر بالمعجز والبرهان (بل أنتم قوم مسرفون) حيث تجعلون من يتبرك به كمن يتشاءم به وتقصدون ايلام من يجب في حقه الاكرام أو مسرفون حيث تكفرون ثم تصرون بعد ظهور الحق بالمعجز والبرهان فان الكافر مسيء فاذا تم عليه الدليل وأوضح له السبيل و يصر يكون مسرفا والمسرف هو المجاوز الحد بحيث يبلغ الضد وهم كانوا كذلك في كثير من الاشياء أما في التبرك والتشاؤم فقد علم وكذلك في الايلام والاكرام وأما في الكفر فلان الواجب اتباع الدليل فان لم يوجد به فلا أقل من أن لا يجزم بنقضيه وهم جزموا بالكفر بعد البرهان على الايمان فان قيل بل للاضراب فالامر المضرب عنه نقول يحتمل أن يقال قوله أئن ذكرتم وارد على تكذيبهم ونسبتهم الرسل الى الكذب بقولهم ان أنتم الا تكذبون فكأنهم قالوا أنحن كاذبون وان جئنا بالبرهان لا بل أنتم قوم مسرفون و يحتمل أن يقال أنحن مشؤمون وان جئنا ببيان صحة ما نحن عليه لا بل أنتم قوم مسرفون و يحتمل أن يقال أنحن مستحقون للرجم والايلام وان بينا صحة ما أتينا به لا بل أنتم قوم مسرفون وأما الحكاية فمشهورة وهي ان عيسى عليه السلام بعث رجلين الى انطاكية فدعيا الى التوحيد وأظهرا المعجزة من ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى فحبسهما الملك فأرسل بعدهما شمعون فأتى الملك ولم يدع الرسالة وقرب نفسه الى الملك بحسن التدبير ثم قال له اني أسمع أن في

رسالته (قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون) استشهدوا بعلم الله تعالى وهو يجري مجرى القسم مع ما فيه من تحذيرهم معارضة علم الله تعالى وزادوا اللام المؤكدة لما شاهدوا منهم من شدة الانكار (وما علينا) أي من جهة ربنا (الا البلاغ المبين) أي الا تبليغ رسالته تبليغا ظاهرا بينا بالآيات الشاهدة بالصحة وقد خرجنا عن عهدته فلا مؤاخذة لنا بعد ذلك من جهة ربنا أو ما علينا شيء نطالب به من جهتكم الا تبليغ الرسالة على الوجه المذكور وقد فعلناه فاي شيء تطلبون منا حتى تصدقونا بذلك (قالوا) لما ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل (انا تطيرنا بكم) تشاءمنا بكم جريا على ديدن الجهلة حيث كانوا يتيمنون بكل ما يوافق شهواتهم وان كان مستجلبا لكل شر و وبال و يتشاءمون بما لا يوافقها وان كان

مستتبعا السعادة الدارين أو بناء على أن الدعوة لا تخلو عن الوعيد بما يكرهونه من اصابة ضر متعلق

الحبس رجلين يدعيان أمرا بديعا أفلا يحضران حتى نسمع كلامهما قال الملك لى فأحضرا وذكرا مقالتهما الحقة فقال لهما شمعون فهل لكما بينة قالا نعم فأبرآ الاكمه والابرص وأحييا الموتى فقال شمعون أيها الملك ان شئت أن تغلبهم فقل للآلهة التى تعبدونها تفعل شيئا من ذلك قال الملك أنت لا يخفى عليك أنها لا تبصر ولا تسمع ولا تقدر ولا تعلم فقال شمعون فاذن ظهر الحق من جانبهم فآمن الملك وقوم وكفر آخرون وكانت الغلبة للمكذبين * ثم قال تعالى (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين) وفى فائدته وتعلقه بما قبله وجهان (أحدهما) انه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن بهم الرجل الساعى وعلى هذا فقوله من أقصى المدينة فيه بلاغة باهرة وذلك لانه لما جاء من أقصى المدينة رجل وهو قد آمن دل على أن انذارهم واظهارهم بلغ الى أقصى المدينة (وثانيهما) ان ضرب المثل لما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم تسلية لقلبه ذكر بعد الفراغ من ذكر الرسل سعى المؤمنين فى تصديق رسلهم وصبرهم على ما أوذوا ووصول الجزاء الاوفى اليهم ليكون ذلك تسلية لقلب أصحاب محمد كما ان ذكر المرسلين تسلية لقلب محمد صلى الله عليه وسلم وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) قوله وجاء من أقصى المدينة رجل فى تنكير الرجل مع انه كان معروفا معلوما عند الله فائدتان (الاولى) أن يكون تعظيما لشانه أى رجل كامل فى الرجولية (الثانية) أن يكون مفيدا لظهور الحق من جانب المرسلين حيث آمن رجل من الرجال لا معرفة لهم به فلا يقال انهم تواطؤا والرجل هو حبيب النجار كان ينحت الاصنام وقد آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل وجوده حيث صار من العلماء بكتاب الله ورأى فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم وبعثته (المسئلة الثانية) قوله يسعى تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ليكونوا فى النصح باذلين جهدهم وقد ذكرنا فائدة قوله من أقصى المدينة وهى تبليغهم الرسالة بحيث انتهى الى من فى أقصى المدينة والمدينة هى انطاكية وهى كانت كبيرة شاسعة وهى الآن دون ذلك ومع هذا فهى كبيرة وقوله تعالى قال ياقوم اتبعوا المرسلين فيه معان لطيفة (الاول) فى قوله ياقوم فانه ينبئ عن اشفاق عليهم وشفقة فان اضافتهم الى نفسه بقوله ياقوم يفيد انه لا يريد بهم الا خيرا وهذا مثل قول مؤمن آل فرعون ياقوم اتبعوا فان قيل قال هذا الرجل اتبعوا المرسلين وقال ذلك اتبعونى فما الفرق نقول هذا الرجل جاءهم وفى أول مجيئه نصحهم وما رأوا سيرته فقال اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لكم السبيل واما مؤمن آل فرعون فكان فيهم واتبع موسى ونصحهم مرارا فقال اتبعونى فى الايمان بموسى وهرون عليهما السلام واعلموا انه لو لم يكن خيرا لما اخترته لنفسى وأنتم تعلمون أنى اخترته ولم يكن للرجل الذى جاء من أقصى المدينة أن يقول أنتم تعلمون اتباعى لهم (الثانى) جمع بين اظهار النصيحة واظهار ايمانه فقوله اتبعوا نصيحة وقوله المرسلين اظهار انه آمن (الثالث) قدم اظهار النصيحة على اظهار الايمان لانه كان ساعيا

بانفسهم وأهليهم وأموالهم ان لم يؤمنوا فكانوا ينفرون عنه وقد روى أنه حبس عنهم القطر فقالوه (لئن لم تنتهوا) أى عن مقالتكم هذه (لنرجمنكم) بالحجارة (وليمسنكم منا عذاب أليم) لا يقادر قدره (قالوا طائركم) أى سبب شؤمكم (معكم) لا من قبلنا وهو سوء عقيدتكم وقبح أعمالكم وقرئ طيركم (أئن ذكرتم) أى وعظتم بما فيه سعادتكم وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه أى تطيرتم و توعدتم بالرجم والتعذيب وقرئ بألف بين الهمزتين و بفتح أن بمعنى أتطيرتم لأن ذكرتم وأن ذكرتم وان ذكرتم بغير استفهام وأين ذكرتم بمعنى طائركم معكم حيث جرى ذكركم وهو أبلغ (بل أنتم قوم مسرفون) اضراب عما تقتضيه الشرطية من كون التذكير سببا للشؤم أو مصححا للتوعد أى ليس الامر كذلك بل أنتم قوم عادتكم الاسراف فى العصيان فلذلك أتاكم الشؤم أو فى الظلم والعدوان ولذلك توعدتم

ينحت أصنامهم وهو ممن آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الاكبر وورقة بن نوفل وغيرهما ولم يؤمن بنبي غيره عليه الصلاة والسلام أحد قبل مبعثه وقيل كان في غار يعبد الله تعالى فلما بلغه خبر الرسل عليهم الصلاة والسلام أظهر دينه (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية مجيئه ساعيا كأنه قيل فماذا قال عند مجيئه فقيل قال (ياقوم اتبعوا المرسلين) تعرض لعنوان رسالتهم حثا لهم على اتباعهم كما أن خطابهم بياقوم لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصيحته وقوله تعالى (اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) تكرير للتأكيد وللتوسل به الى وصفهم بما يرغبهم في اتباعهم من التنزه عن الغرض الدنيوي والاهتداء الى خير الدنيا والدين (ومالي لا أعبد الذي فطرني) تلطف في الارشاد بايراده في معرض المناصحة لنفسه وامحاض النصح حيث أراهم انه اختار لهم ما يختار لنفسه والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم الى عبادة غيره

النصح وأما الايمان فكان قد آمن من قبل وقوله رجل يسعى يدل على كونه مريدا للنصح وماذكر في حكايته انه كان يقتل ويقول اللهم اهد قومي * ثم قال تعالى (اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) وهذا في غاية الحسن وذلك من حيث انه لما قال اتبعوا المرسلين كأنهم منعوا كونهم مرسلين فنزل درجة وقال لاشك ان الخلق في الدنيا سالكون طريقة وطالبون للاستقامة والطريق اذا حصل فيه دليل يدل يجب اتباعه والامتناع من الاتباع لا يحسن الا عند أحد أمرين اما مغالاة الدليل في طلب الاجرة واما عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته الطريق لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة الى الحق فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين أليسو بمهتدين فاتبعوهم * ثم قال تعالى (ومالي لا أعبد الذي فطرني) لما قال وهم مهتدون بين ظهور اهتدائهم بأنهم يدعون من عبادة الجماد الى عبادة الحي القيوم ومن عبادة ما لا ينفع الى عبادة من منه كل نفع (وفيه لطائف) الاولى قوله مالي أي مالي مانع من جانبي اشارة الى أن الامر من جهة المعبود ظاهر لاخفاء فيه فمن يمتنع من عبادته يكون من جانبه مانع ولا مانع من جانبي فلاجرم عبدته وفي العدول عن مخاطبة القوم الى حال نفسه حكمة أخرى ولطيفة ثانية وهي أنه لو قال مالكم لا تعبدون الذي فطركم لم يكن في البيان مثل قوله ومالي لانه لما قال ومالي وأحد لا يخفى عليه حال نفسه علم كل أحد انه لا يطلب العلة وبيانها من أحد لانه أعلم بحال نفسه فهو يبين عدم المانع وأما لو قال مالكم جاز أن يفهم منه أنه يطلب بيان العلة لكون غيره أعلم بحال نفسه فان قيل قال الله مالكم لا ترجون لله وقارا نقول القائل هناك غير مدعو وانما هو داع وههنا الرجل مدعو الى الايمان فقال ومالي لا أعبد وقد طلب مني ذلك (الثانية) قوله الذي فطرني اشارة الى وجود المقتضي فان قوله ومالي اشارة الى عدم المانع وعند عدم المانع لا يوجد الفعل مالم يوجد المقتضي فقوله الذي فطرني ينبئ عن الاقتضاء فان الخالق ابتداء مالك والمالك يجب على المملوك اكرامه وتعظيمه ومنعم بالايجاد والمنعم يجب على المنعم عليه شكر نعمته (الثالثة) قدم بيان عدم المانع على بيان وجود المقتضي مع أن المستحسن تقديم المقتضي حيث وجد المقتضي ولا مانع فيوجد لان المقتضي لظهوره كان مستغنيا عن البيان رأسا فلا أقل من تقديم ما هو أولى بالبيان لوجود الحاجة اليه (الرابعة) اختار من الآيات فطرة نفسه لانه لما قال ومالي لا أعبد باسناد العبادة الى نفسه اختار ما هو أقرب الى ايجاب العبادة على نفسه وبيان ذلك هو ان خالق عمرو يجب على زيد عبادته لان من خلق عمرا لا يكون الا كامل القدرة شامل العلم واجب الوجود وهو مستحق للعبادة بالنسبة الى كل مكلف لكن العبادة على زيد بخلق زيد أظهر ايجابا واعلم أن المشهور في قوله فطرني خلقني اختراعا وابتداعا والغريب فيه أن يقال فطرني أي جعلني على الفطرة كما قال الله تعالى فطرة الله التي فطر الناس عليها وعلى هذا فقوله ومالي لا أعبد أي لم يوجد في مانع فأنا باق

على فطرة ربي والفطرة كافية في الشهادة والعبادة فان قيل فعلى هذا يختلف معنى الفطر في قوله فاطر السموات فنقول قد قيل بأن فاطر السموات من الفطر الذي هو الشق فالمحذور لازم اونقول المعنى فيهما واحد كأنه قال فطر المكلف على فطرته وفطر السموات على فطرتها والاول من التفسير أظهر * وقوله تعالى (واليه ترجعون) اشارة الى الخوف والرجاء كما قال ادعوه خوفا وطمعا وذلك لان من يكون اليه المرجع يخاف منه ويرجى وفيه أيضا معنى لطيف وهو أن العابد على أقسام ثلاثة ذكرناها مرارا (فالاول) عابد يعبد الله لكونه الها مالكا سواء أنعم بعد ذلك أولم ينعم كالعبد الذي يجب عليه خدمة سيده سواء أحسن اليه أو أساء (والثاني) عابد يعبد الله للنعمة الواصلة اليه (والثالث) عابد يعبد الله خوفا مثال الاول من يخدم الجواد ومثال الثاني من يخدم الغاشم فجعل القائل نفسه من القسم الاعلى وقال ومالي لا أعبد الذي فطرني أي هو مالكي أعبده لا انظر الى ما سيعطيني ولا انظر الى أن لا يعذبني وجعلهم دون ذلك فقال واليه ترجعون أي خوفكم منه ورجاؤكم فيه فكيف لا تعبدونه ولهذا لم يقل واليه أرجع كما قال فطرني لانه صار عابدا من القسم الاول فرجوعه الى الله لا يكون الا للاكرام وليس سبب عبادته ذلك بل غيره * ثم قال تعالى (أأتخذ من دونه آلهة) ليتم التوحيد فان التوحيد بين التعطيل والاشراك فقال ومالي لا أعبد اشارة الى وجود الاله وقال أأتخذ من دونه اشارة الى نفي غيره فيتحقق معنى لا اله الا الله * وفي الآية أيضا لطائف (الاولى) ذكره على طريق الاستفهام فيه معنى وضوح الامر وذلك ان من أخبر عن شئ فقال مثلا لا أتخذ يصح من السامع أن يقول له لم لا تتخذ ويسأله عن السبب فاذا قال أأتخذ يكون كلامه انه مستغن عن بيان السبب الذي يطالب به عند الاخبار كأنه يقول استشرتك فدلني والمستشار يتفكر فكأنه يقول تفكر في الامر تفهم من غير اخبار مني (الثانية) قوله من دونه وهي لطيفة عجيبة وبيانها هو انه لما بين انه يعبد الله بقوله الذي فطرني بين ان من دونه لا تجوز عبادته فان عبد غير الله وجب عبادة كل شئ مشارك للمعبود الذي اتخذ غير الله لان الكل محتاج مفتقر حادث فلو قال لا اتخذ آلهة اقيل له ذلك يختلف ان اتخذت الها غير الذي فطرك ويلزمك عقلا ان تتخذ آلهة لا حصر لها وان كان الهك ربك وخالقك فلا يجوز أن تتخذ آلهة (الثالثة) قوله أأتخذ اشارة الى أن غيره ليس باله لان المتخذ لا يكون الها ولهذا قال تعالى ما اتخذ صاحبة ولا ولدا وقال الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا لانه تعالى لا يكون له ولد حقيقة ولا يجوز وانما النصارى قالوا تبنى الله عيسى وسماه ولدا فقال ولم يتخذ ولدا ولا يقال قال الله تعالى فاتخذه وكيلا في حق الله تعالى حيث قال رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا نقول ذلك أمر متجدد وذلك لان الانسان في أول الامر يكون قليل الصبر ضعيف القوة فلا يجوز أن يترك أسباب الدنيا ويقول اني أتوكل فلا يحسن من الواحد منا أن لا يشتغل بأمر أصلا ويترك أطفاله في ورطة الحاجة ولا يوصل

كما بني عنه قوله (واليه ترجعون) مبالغة في التهديد ثم عاد الى المساق الاول فقال (أأتخذ من دونه آلهة) انكار ونفي لاتخاذ الآلهة على الاطلاق وقوله

الى أهله نفقتهم و يجلس فى مسجد وقلبه متعلق بعطاء زيد وعمرو فاذا قوى بالعبادة قلبه
ونسى نفسه فضلا عن غيره وأقبل على عبادة ربه بجميع قلبه وترك الدنيا وأسبابها
وفوض أمره الى الله حينئذ يكون من الابرار الاخيار فقال الله لرسوله أنت علمت ان
الامور كلها بيد الله وعرفت الله حق المعرفة وتيقنت أن المشرق والمغرب ومافيهما ومايقع
بينهما بأمر الله ولا اله يطلب لقضاء الحوائج الا هو فاتخذه وكيلا وفوض جميع أمورك
اليه فقد ارتقيت عن درجة من يؤمر بالكسب الحلال وكنت من قبل تتجر فى الحلال
ومعنى قوله فاتخذه وكيلا أى فى جميع أمورك وقوله تعالى لاتغن عنى يحتمل وجهين
(أحدهما) أن يكون كالوصف كأنه قال أأتخذ آلهة غير مغنية عند ارادة الرحمن بى
ضرا (وثانيهما) أن يكون استئنافا كأنه قال لاأتخذ من دونه آلهة * ثم قال تعالى
(ان يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئا ولاينقذون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى)
قال ان يردن الرحمن بضر معبود بل ان يرد الرحمن بى ضرا وكذلك قال تعالى ان أرادنى الله
بضر هل هن كاشفات حرم عبدته يقل ان أراد الله بى ضرا نقول الفعل اذا كان متعديا الى
مفعول واحد تعدى الى مفعول أنه لو فيه بحرف كاللازم يتعدى بحرف فى قولهم ذهب به وخرج
به ثم ان المتكلم البليغ يجعل المفعول بغير حرف ماهو أولى بوقوع الفعل عليه و يجعل
الآخر مفعولا بحرف فاذا قال القائل مثلا كيف حال فلان يقول اختصه الملك بالكرامة
والنعمة فاذا قال كيف كرامة الملك يقول اختصها بزيد فيجعل المسؤل مفعولا بغير حرف
لانه هو المقصود اذا علمت هذا فالمقصود فيما نحن فيه بيان كون العبد تحت تصرف الله
يقلبه كيف يشاء فى البؤس والرخاء وليس الضر بمقصود بيانه كيف والقائل مؤمن
يرجو الرحمة والنعمة بناء على ايمانه بحكم وعد الله ويؤيده هذا قوله من قبل الذى فطرنى
حيث جعل نفسه مفعول الفطرة وكذلك ههنا جعلها مفعول الارادة والضر وقع تبعا
وكذا القول فى قوله تعالى ان أرادنى الله بضر المقصود بيان أنه يكون كما يريد الله وليس
الضر بخصوصه مقصودا بالذكر ويؤيده ماتقدم حيث قال تعالى أليس الله بكاف عبده
يعنى هو تحت ارادته ويتأيد ماذكرناه بالنظر فى قوله تعالى قل من ذا الذى يعصمكم من الله
ان اراد بكم سوأ حيث خالف هذا النظم وجعل المفعول من غير حرف السوء وهو كالضر
والمفعول بحرف هو المكلف وذلك لان المقصود ذكر الضر للتخويف وكونهم محلا له
وكيف لاوهم كفرة استحقوا العذاب بكفرهم فجعل الضر مقصودا بالذكر لزجرهم فان قيل
فقد ذكر الله الرحمة أيضا حيث قال أو أراد بكم رحمة نقول المقصود ذلك و يدل عليه قوله
تعالى من بعده ولايجدون لهم من دون الله وليا ولانصيرا وانما ذكر الرحمة تتمة للامر
بالتقسيم الحاصر وكذلك اذا تأملت فى قوله تعالى يقولون بالسنتهم ماليس فى قلوبهم قل
فمن يملك لكم من الله شيئا ان أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا فان الكلام أيضا مع الكفار
وذكر النفع وقع تبعا لحصر الامر بالتقسيم و يدل عليه قوله تعالى بل كان الله بما تعملون

(ان يردن الرحمن بضر
لاتغن عنى شفاعتهم شيئا)
أى لاتنفعنى شيئا من النفع
(ولاينقذون) من ذلك
الضر بالنصرة والمظاهرة
استئناف سيق لتعليل
النفى المذكور وجعله
صفة لآلهة كما ذهب اليه
بعضهم ربما يوهم أن
هناك آلهة ليست كذلك
وقرئ ان يردن بفتح الياء
على معنى ان يوردنى ضرا
أى يجعلنى موردا للضر

خبيرا فانه للتخويف وهذا كقوله تعالى وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين والمقصود انى على هدى وأنتم فى ضلال ولو قال هكذا لمنع مانع فقال بالتقسيم كذلك ههنا المقصود الضر واقع بكم ولاجل دفع المانع قال الضر والنفع (المسئلة الثانية) قال ههنا ان يردن الرحمن وقال فى الزمر ان أرادنى الله فما الحكمة فى اختيار صيغة الماضى هنالك واختيار صيغة المضارع ههنا وذكر المريد باسم الرحمن هنا وذكر المريد باسم الله هناك نقول اما الماضى و المستقبل فان ان فى الشرط تصير الماضى مستقبلا و ذلك لان المذكور ههنا من قبل بصيغة الاستقبال فى قوله أأتخذ وقوله ومالى لا أعبد والمذكور هناك من قبل بصيغة الماضى فى قوله أفرأيتم وكذلك فى قوله تعالى وان يمسسك الله بضر فيكون المتقدم عليه مذكورا بصيغة المستقبل وهو قوله من يصرف عنه و قوله انى أخاف ان عصيت والحكمة فيه هو ان الكفار كانوا يخوفون النبى صلى الله عليه وسلم بضر يصيبه من آلهتهم فكأنه قال صدر منكم التخويف وهذا ماسبق منكم وههنا ابتداء كلام صدر من المؤمن للتقرير والجواب ماكان يكن صدوره منهم فافترق الامران واما قوله هنالك ان أرادنى الله فنقول قد ذكرنا ان الاسمين المختصين بواجب الوجود الله والرحمن كما قال تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن والله للهيبة و العظمة والرحمن للرأفة والرحمة وهنالك وصف الله بالعزة والانتقام فى قوله أليس الله بعزيز ذى انتقام وذكر مايدل على العظمة بقوله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض فذكر الاسم الدال على العظمة وقال ههنا مايدل على الرحمة بقوله الذى فطرنى فانه نعمة هى شرط سائر النعم فقال ان يردن الرحمن بضر ثم قال تعالى لاتغن عنى شفاعتهم شيئا ولاينقذون على ترتيب مايقع من العقلاء وذلك لان من يريد دفع الضر عن شخص أضر به شخص يدفع بالوجه الاحسن فيشفع أولا فان قبله والا يدفع فقال لاتغن عنى شفاعتهم ولا يقدرون على انقاذى بوجه من الوجوه وفى هذه الآيات حصل بيان ان الله تعالى معبود من كل وجه ان كان نظرا الى جانبه فهو فاطر و رب مالك يستحق العبادة سواء أحسن بعد ذلك أولم يحسن وان كان نظرا الى احسانه فهو رحمن وان كان نظر الى الخوف فهو يدفع ضره وحصل بيان أن غيره لا يصلح أن يعبد بوجه من الوجوه فان أدنى مراتبه أن يعد ليوم كريهة وغير الله لا يدفع شيئا الا اذا أراد الله وان يرد فلا حاجة الى دافع ❁ ثم قال تعالى (انى اذا لفى ضلال مبين) يعنى ان فعلت ذلك فأنا ضال ضلالا بينا والمبين مفعل بمعنى فعيل كما جاء عكسه فعيل بمعنى مفعل فى قوله أليم أى مؤلم و يمكن أن يقال ضلال مبين أى مظهور الامر للناظر والاول هو الصحيح ❁ ثم قال تعالى (انى آمنت بربكم فاسمعون) فى الخطاب بقوله بربكم وجوه (أحدها) هم المرسلون قال المفسرون أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين وقال انى آمنت بربكم فاسمعوا قولى واشهدوا لى (وثانيها) هم الكفار كأنه لما نصحهم و ما نفعهم قال فانا آمنت فاسمعون (وثالثها) بربكم أيها السامعون

الضر بالخالق المقتدر الذى لاقادر غيره ولا خير الا خيره ضلال بين لا يخفى على أحد ممن له تمييز فى الجملة (انى آمنت بربكم) خطاب منه للرسل بطريق التلوين قيل لما نصح قومه بما ذكر هموا برجمه فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتلوه فقال ذلك وانما أكده لاظهار صدوره عنه بكمال الرغبة والنشاط وأضاف الرب الى ضميرهم روما لزيادة التقرير واظهار للاختصاص والاقتداء بهم كأنه قال بربكم الذى أرسلكم أو الذى تدعوننا الى الايمان به (فاسمعون) أى اسمعوا ايمانى واشهدوا لى به عند الله تعالى وقيل الخطاب للكفرة شافههم بذلك اظهارا للتصلب فى الدين وعدم المبالاة بالقتل واضافة الرب الى ضميرهم لتحقيق الحق و التنبيه على بطلان ماهم عليه من اتخاذ الاصنام أربابا و قيل للناس جميعا

(قيل ادخل الجنة) قيل له ذلك لما قتلوه اكراماله بدخولها حينئذ كسائر الشهداء وقيل لما هموا بقتله رفعه الله تعالى الى الجنة قاله الحسن وعن قتادة أدخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق وقيل معناه البشرى بدخول الجنة وأنه من أهلها وانما لم يقل له لان الغرض بيان المقول لا المقول له لظهوره والمبالغة في المسارعة الى بيانه والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية حاله ومقاله كأنه قيل كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب في دينه والتسخي بروحه لوجهه تعالى فقيل قيل ادخل الجنة وكذلك قوله تعالى (قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) فانه جواب عن سؤال نشأ من حكاية حاله كأنه قيل فماذا قال عند نيله تلك الكرامة السنية فقيل قال الخ وانما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب مثله بالتوبة عن الكفر والدخول في الايمان والطاعة جريا على سنن الاولياء في كظم الغيظ والترحم على الاعداء أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على الحق وأن عداوتهم لم تكسبه الا سعادة وقرئ من المكرمين وما موصولة أو مصدرية والباء صلة يعلمون أو استفهامية ﴿ الاولى ﴾ وردت على الاصل والباء متعلقة بغفر أي بأي شئ غفر لي ربي يريد به تفخيم شأن

فاسمعون على العموم كما قلنا في قول الواعظ حيث يقول يامسكين ما أكثر أملك وما أنزر عملك يريد به كل سامع يسمعه وفي قوله فاسمعون فوائد (أحدها) انه كلام مترو متفكر حيث قال فاسمعون فان المتكلم اذا كان يعلم ان لكلامه جماعة سامعين يتفكر (وثانيها) ان ينبه القوم ويقول انى أخبرتكم بما فعلت حتى لا تقولوا لم أخفيت عنا أمرك ولو أظهرت لآمنا معك (وثالثها) ان يكون المراد السماع الذي بمعنى القبول يقول القائل نصحته فسمع قوله أي قبله فان قلت لم قال من قبل ومالى لا أعبد الذي فطرني وقال ههنا آمنت بربكم ولم يقل آمنت بربي نقول على قولنا الخطاب مع الرسل أمر ظاهر لانه لما قال آمنت بربكم ظهر عند الرسل انه قبل قولهم وآمن بالرب الذي دعوه اليه ولو قال بربي لعلهم كانوا يقولون كل كافر يقول لي رب وأنا مؤمن بربي وأما على قولنا الخطاب مع الكفار ففيه بيان للتوحيد وذلك لانه لما قال أعبد الذي فطرني ثم قال آمنت بربكم فهم انه يقول ربي وربكم واحد وهو الذي فطرني وهو بعينه ربكم بخلاف مالو قال آمنت بربي فيقول الكافر وأنا أيضا آمنت بربي ومثل هذا قوله تعالى الله ربنا وربكم * ثم قال تعالى (قيل ادخل الجنة) فيه وجهان (أحدهما) انه قتل ثم قيل له ادخل الجنة بعد القتل (وثانيهما) قيل ادخل الجنة عقيب قوله آمنت وعلى الاول * فقوله تعالى (قال ياليت قومي يعلمون) يكون بعد موته والله أخبر بقوله وعلى الثاني قال ذلك في حياته وكأنه سمع الرسل انه من الداخلين الجنة وصدقهم وقطع به وعلمه فقال ياليت قومي يعلمون كما علمت فيؤمنون كما آمنت وفي معنى قوله تعالى قيل وجهان كما ان في وقت ذلك وجهان (احدهما) قيل من القول (والثاني) ادخل الجنة وهذا كما في قوله تعالى انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن ليس المراد القول في وجه بل هو الفعل أي يفعله في حينه من غير تأخير وتراخ وكذلك في قوله تعالى وقيل ياأرض ابلعي في وجه جعل الارض بالعة ماءها * وفي قوله تعالى (بما غفر لي ربي) وجوه (أحدها) ان ما استفهامية كأنه قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي حتى يشتغلوا به وهو ضعيف والا لكان الاحسن أن تكون ما محذوفة الالف يقال بم وفيم وعم ولم (وثانيها) خبرية كأنه قال ياليت قومي يعلمون بالذي غفر لي ربي (وثالثها) مصدرية كأنه قال ياليت قومي يعلمون بمغفرة ربي لي والوجهان الآخران هما المختاران * ثم قال تعالى (وجعلني من المكرمين) قد ذكرنا أن الايمان والعمل الصالح يوجبان أمرين هما الغفران والاكرام كما في قوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم والرجل كان من المؤمنين الصلحاء والمكرم على ضد المهان والاهانة بالحاجة والاكرام بالاستغناء فيغني الله الصالح عن كل أحد ويدفع جميع حاجاته بنفسه ثم انه تعالى لما بين حاله بين حال المتخلفين المخالفين له من قومه بقوله تعالى (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء) اشارة الى هلاكهم بعده سريعا على أسهل وجه فانه لم يحتج الى ارسال جند يهلكهم وفيه مسائل (المسئلة

الاولى) قال هٰهنا وما أنزلنا باسناد الفعل الى النفس وقال فى بيان حال المؤمن قيل ادخل الجنة باسناد القول الى غير مذكور وذلك لان العذاب من باب الهيبة فقال بلفظ التعظيم وأما فى ادخل الجنة فقال قيل ليكون هو كالمهنا بقول الملائكة حيث يقول له كل ملك وكل صالح يراه ادخل الجنة خالدا فيها وكثيرا ما ورد فى القرآن قوله تعالى وقيل ادخلوا اشارة الى أن الدخول يكون دخولا باكرام كما يدخل العريس البيت المزين على رؤس الاشهاد يهنيه كل أحد (المسئلة الثانية) لم أضاف القوم اليه مع أن الرسل أولى بكون الجمع قومالهم فان الواحد يكون له قوم هم آله وأصحابه والرسول لكونه مرسلا يكون جمع الخلق وجمع من أرسل اليهم قوماله نقول لوجهين (أحدهما) ليبين الفرق بين اثنين هما من قبيلة واحدة أكرم أحدهما غاية الاكرام بسبب الايمان وأهين الآخر غاية الاهانة بسبب الكفر وهذا من قوم أولئك فى النسب (وثانيهما) أن العذاب كان مختصا بأقارب ذلك لان غيرهم من قوم الرسل آمنوا بهم فلم يصبهم العذاب (المسئلة الثالثة) خصص عدم الانزال بما بعده والله تعالى لم ينزل عليهم جندا قبله أيضا فافائدة التخصيص نقول استحقاقهم العذاب كان بعده حيث أصروا واستكبروا فبين حال الهلاك أنه لم يكن بجند (المسئلة الرابعة) قال من السماء وهو تعالى لم ينزل عليهم ولا أرسل اليهم جندا من الارض فافائدة التقييد نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن يكون المراد وما أنزلنا عليهم جندا بأمر من السماء فيكون للعموم (وثانيهما) أن العذاب نزل عليهم من السماء فبين أن النازل لم يكن جندا لهم عظمة وانما كان ذلك بصيحة أخمدت نارهم وخربت ديارهم (المسئلة الخامسة) * (وما كنا منزلين) أية فائدة فيه مع ان قوله وما أنزلنا يستلزم انه لا يكون من المنزلين نقول قوله وما كنا أى ما كان ينبغى لنا أن ننزل لان الامر كان يتم بدون ذلك فما أنزلنا وما كنا محتاجين الى انزال أو نقول وما أنزلنا وما كنا منزلين فى مثل تلك الواقعة جندا فى غير تلك الواقعة فان قيل فكيف أنزل الله جنودا فى يوم بدر وفى غير ذلك حيث قال وأنزل جنودا لم تروها نقول ذلك تعظيما لمحمد صلى الله عليه وسلم والا كان تحريك ريشة من جناح ملك كافيا فى استئصالهم وما كان رسل عيسى عليه السلام فى درجة محمد صلى الله عليه وسلم * ثم بين الله تعالى ما كان بقوله (ان كانت) الواقعة (الاصيحة) وقال الزمخشرى أصله ان كان شئ الا صيحة فكان الاصل ان يذكر لكنه تعالى انث لما بعده من المفسر وهو الصيحة * وقوله تعالى (واحدة) تأكيد لكون الامر هينا عند الله * وقوله تعالى (فاذاهم خامدون) فيه اشارة الى سرعة الهلاك فان خمودهم كان مع الصيحة وفى وقتها لم يتأخر ووصفهم بالخمود فى غاية الحسن وذلك لان الحى فيه الحرارة الغريزية وكلما كانت الحرارة أوفر كانت القوة الغضبية والشهوانية أتم وهم كانوا كذلك أما الغضب فانهم قتلوا مؤمنا كان ينصحهم وأما الشهوة فلأنهم احتملوا العذاب الدائم بسبب استيفاء اللذات الحالية فاذن كانوا كالنار الموقدة ولانهم كانوا جبارين مستكبرين كالنار ومن

من السماء) لاهلاكهم والانتقام منهم كما فعلناه يوم بدر والخندق بل كفينا أمرهم بصيحة ملك وفيه استحقار لهم ولاهلاكهم وايماء الى تفخيم شأن الرسول صلى الله عليه وسلم (وما كنا منزلين) وما صح فى حكمتنا أن ننزل لاهلاك قومه جندا من السماء لما أنا قدرنا لكل شئ سببا حيث أهلكنا بعض من أهلكنا من الامم بالحاصب وبعضهم بالصيحة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالاغراق وجعلنا انزال الجند من خصائصك فى الانتصار من قومك وقيل ما موصولة معطوفة على جند أى وما كنا منزلين على من قبلهم من حجارة وريح وأمطار شديدة وغيرها (ان كانت) أى ما كانت الأخذة أو العقوبة (الاصيحة واحدة) صاح بها جبريل عليه السلام وقرئ الاصيحة بالرفع على أن كان تامة وقرئ الازقية واحدة

من زقا الطائر اذا صاح (فاذاهم خامدون) ميتون شبهوا بالنار الخامدة رمزا الى أن الحى كالنار الساطعة فى الحركة والالتهاب والميت كالرماد كما قال لبيد * وما المرء الا كالشهاب وضوئه * يحور رمادا بعد اذ هو ساطع

خلق منها فقال فاذا هم خامدون (وفيه وجه آخر) وهو ان العناصر الاربعة يخرج بعضها عن طبيعته التي خلقه الله عليها و يصير العنصر الآخر بارادة الله فالاحجار تصير مياها والمياه تصير أحجارا و كذلك الماء يصير هواء عند الغليان والسخونة والهواء يصير ماء للبرد ولكن ذلك في العادة بزمان وأما الهواء فيصير نارا والنار تصير هواء بالاشتعال والخمود في أسرع زمان فقال خامدين بسببها فخمود النار في السرعة كاطفاء سراج أو شعلة * ثم قال تعالى (ياحسرة على العباد) أي هذا وقت الحسرة فاحضري ياحسرة والتنكير للتكثير وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الالف واللام في العباد يحتمل وجهين (أحدهما) للمعهود وهم الذين أخذتهم الصيحة فياحسرة على أولئك (وثانيهما) لتعريف الجنس جنس الكفار المكذبين (المسئلة الثانية) من المتحسر نقول فيه وجوه (الاول) لا متحسر أصلا في الحقيقة اذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب (وههنا بحث لغوى) وهو أن المفعول قد يرفض رأسا اذا كان الغرض غير متعلق به يقال ان فلانا يعطى و يمنع ولا يكون هناك شئ معطى اذ المقصود أن له المنع والاعطاء ورفض المفعول كثير وما نحن فيه رفض الفاعل وهو قليل والوجه فيه ما ذكرنا ان ذكر المتحسر غير مقصود وانما المقصود ان الحسرة متحققة في ذلك الوقت (الثاني) ان قائل ياحسرة هو الله على الاستعارة تعظيما للامر وتهويلا له وحينئذ يكون كالالفاظ التي وردت في حق الله كالضحك والنسيان والسخر والتعجب والتمني أو نقول ليس معنى قولنا ياحسرة و يا ندامة ان القائل متحسر أو نادم بل المعنى انه مخبر عن وقوع الندامة ولا يحتاج الى تجوز في بيان كونه تعالى قال ياحسرة بل يخبر به على حقيقته الا في النداء فان النداء مجاز والمراد الاخبار (الثالث) المتلهفون من المسلمين والملائكة الا ترى الى ما حكى عن حبيب انه حين القتل كان يقول اللهم اهد قومي و بعدما قتلوه وأدخل الجنة قال ياليت قومي يعلمون فيجوز أن يتحسر المسلم للكافر و يتندم له وعليه (المسئلة الثالثة) قرئ ياحسرة بالتنوين و ياحسرة العباد بالاضافة من غير كلمة على وقرئ ياحسره على بالهاء اجراء للوصل مجرى الوقف (المسئلة الرابعة) من المراد بالعباد نقول فيه وجوه (أحدها) الرسل الثلاثة كأن الكافرين يقولون عند ظهور البأس ياحسرة عليهم ياليتهم كانوا حاضرين شأننا لنؤمن بهم (وثانيها) هم قوم حبيب (وثالثها) كل من كفر وأصر واستكبر وعلى الاول فاطلاق العباد على المؤمنين كما في قوله ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وقوله ياعبادي الذين أسرفوا وعلى الثاني فاطلاق العباد على الكفار وفرق بين العبد مطلقا و بين المضاف الى الله تعالى فان الاضافة الى الشريف تكسو المضاف شرفا تقول بيت الله فيكون فيه من الشرف ما لا يكون في قولك البيت وعلى هذا فقوله تعالى وعباد الرحمن من قبيل قوله ان عبادي وكذلك عباد الله * ثم بين الله تعالى سبب الحسرة بقوله تعالى (ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن) وهذا سبب الندامة وذلك لان من جاءه ملك في

(ياحسرة على العباد) تعالى فهذه من الاحوال التي حقها أن تحضري فيها وهي ما دل عليه قوله تعالى (ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن) فان المستهزئين بالناصحين الذين نيطت بنصائحهم سعادة الدارين أحقاء بأن يتحسروا ويتحسر عليهم المتحسرون أو قد تلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين وقد جوز أن يكون تحسرا عليهم من جهة الله تعالى بطريق الاستعارة لتعظيم ما جنوه على أنفسهم ويؤيده قراءة يا حسرتا لان المعنى يا حسرتي ونصبها لطولها بما تعلق بها من الجار وقيل باضمار فعلها والمنادى محذوف وقرئ يا حسرة العباد بالاضافة الى الفاعل او المفعول و يا حسره على العباد باجراء الوصل مجرى الوقف (ألم يروا) أي ألم يعلموا وهو معلق عن العمل في قوله تعالى (كم أهلكنا قبلهم من القرون) لان كم لا يعمل فيها ما قبلها وان كانت خبرية لان أصلها الاستفهام خلا أن معناه نافذ في الجملة كما نفذ في قولك ألم تر ان زيدا لمنطلق وان لم يعمل في لفظه (انهم اليهم لا يرجعون) بدل من كم أهلكنا على المعنى أي ألم يروا كثرة اهلاكنا من قبلهم من المذكورين آنفا ومن غيرهم كونهم غير راجعين اليهم وقرئ بالكسر على الاستئناف وقرئ ألم يروا من أهلكنا والبدل حينئذ بدل اشتمال

بادية وعرفه نفسه وطلب منه أمراهينا فكذبه ولم يجبه الى مادعاه ثم وقف بين يديه وهو على سرير ملكه فعرفه انه ذلك يكون عنده من الندامة مالا من يدعليه فكذلك الرسل هم ملوك وأعظم منهم باعزاز الله اياهم وجعلهم نوابه كما قال ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله وجاؤا وعرفوا أنفسهم ولم يكن لهم عظمة ظاهرة في الحس ثم يوم القيامة أو عند ظهور البأس ظهرت عظمتهم عند الله لهم وكان مايدعون اليه أمراهينا نفعه عائدا اليهم من عبادة الله وما كانوا يسألون عليه أجرا فعند ذلك تكون الندامة الشديدة وكيف لا وهم لم يقتنعوا بالاعراض حتى آذوا واستهزؤا واستخفوا واستهانوا وقوله ما يأتيهم الضمير يجوز أن يكون عائدا الى قوم حبيب أي ما يأتيهم من رسول من الرسل الثلاثة الا كانوا به يستهزؤن على قولنا الحسرة عليهم ويجوز أن يكون عائدا الى الكفار المصرين ❁ ثم ان الله تعالى لما بين حال الاولين قال للحاضرين (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون) أي الباقون لا يرون ماجرى على من تقدمهم ويحتمل أن يقال ان الذين قيل في حقهم ياحسرة هم الذين قال في حقهم ألم يروا ومعناه ان كل مهلك تقدمه قوم كذبوا وأهلكوا الى قوم نوح وقبله ❁ وقوله (انهم اليهم لا يرجعون) بدل في المعنى عن قوله كم أهلكنا وذلك لان معنى كم أهلكنا ألم يروا كثرة اهلاكنا وفيه معنى ألم يروا المهلكين الكثيرين أنهم اليهم لا يرجعون وحينئذ يكون كبدل الاشتمال لان قوله أنهم اليهم لا يرجعون حال من أحوال المهلكين أي أهلكوا بحيث لا رجوع لهم اليهم فيصير كقولك ألا ترى زيدا أدبه وعلى هذا فقوله أنهم اليهم لا يرجعون فيه وجهان (أحدهما) اهلكوا اهلاكا لا رجوع لهم الى من في الدنيا (وثانيهما) هو انهم لا يرجعون اليهم أي الباقون لا يرجعون الى المهلكين بنسب ولا ولادة يعني أهلكناهم وقطعنا نسلهم ولا شك في أن الاهلاك الذي يكون مع قطع النسل أتم وأعم والوجه الاول أشهر نقلا والثاني أظهر عقلا ❁ ثم قال تعالى (وان كل لما جميع لدينا محضرون) لما بين الاهلاك بين انه ليس من أهلكه الله تركه بل بعده جمع وحساب وحبس وعقاب ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة ونعم ماقال القائل

ولو أنا اذا متنا تركنا ❁ لكان الموت راحة كل حي
ولكنا اذا متنا بعثنا ❁ ونسئل بعده عن كل شئ

وقوله وان كل لما في ان وجهان (أحدهما) انها مخففة من الثقيلة واللام في لما فارقة بينها وبين النافية وما زائدة مؤكدة في المعنى والقراءة حينئذ بالتخفيف في لما (وثانيهما) انها نافية ولما بمعنى الا قال سيبويه يقال نشدتك بالله لما فعلت بمعنى الافعلت والقراءة حينئذ بالتشديد في لما يؤيده هذا ماروي ان أبيا قرأ وما كل الا جميع وفي قول سيبويه لما بمعنى الا وارد معنى مناسب وهو ان لما كأنها حرفا نفي جمعا وهما لم وما فتأكد النفي ولهذا يقال في جواب من قال قد فعل لما يفعل وفي جواب من قال فعل لم يفعل والا كأنها حرفا نفي

مجموعون لدينا محضرون للحساب والجزاء وقيل محضرون معذبون فكل عبارة عن الكفرة وقرئ لما بالتخفيف على أن ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة وما مزيدة للتأكيد والمعنى ان كلهم مجموعون الخ (وآية لهم الارض الميتة) بالتخفيف وقرئ بالتشديد وقوله تعالى آية خبر مقدم للاهتمام به وتنكيرها للتفخيم ولهم اما متعلقة بها لانها بمعنى العلامة أو بمضمر هو صفة لها والارض مبتدأ والميتة صفتها وقوله تعالى (أحييناها) استئناف مبين لكيفية كونها آية وقيل آية مبتدأ ولهم خبر والارض الميتة مبتدأ موصوف وأحييناها خبره والجملة مفسرة لآية وقيل الارض مبتدأ وأحييناها خبره والجملة خبر لآية وقيل الخبر لها هو الارض وأحييناها صفتها لان المراد بها الجنس لا المعينة والاول هو الاولى لان مصب الفائدة هو كون الارض آية لهم لا كون

ان ولا فاستعمل أحدهما مكان الآخر قال الزمخشري فان قال قائل كل و جميع بمعنى واحد فكيف جعل جميعا خبر الكل حيث دخلت اللام عليه اذ التقدير وان كل لجميع نقول معنى جميع مجموع ومعنى كل كل فرد بحيث لايخرج عن الحكم أحد فصار المعنى كل فرد مجموع مع الآخر مضموم اليه ويمكن أن يقال محضرون يعني عما ذكره وذلك لانه لو قال وان جميع لجميع محضرون لكان كلاما صحيحا ولم يوجد ماذكره من الجواب بل الصحيح ان محضرون كالصفة للجميع فكأنه قال جميع جميع محضرون كما يقال الرجل رجل عالم والنبي نبي مرسل والواو في وان كل لعطف الحكاية على الحكاية كأنه يقول بينت لك ماذكرت وأبين ان كلا لدينا محضرون وكذلك الواو في قوله تعالى * وآية لهم الارض الميتة احييناها واخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته ايديهم افلا يشكرون) كأنه يقول وأقول أيضا آية لهم الارض الميتة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ماوجه تعلق هذا بما قبله نقول مناسب لما قبله من وجهين (أحدهما) انه لما قال وان كل لما جميع كان ذلك اشارة الى الحشر فذكر مايدل على امكانه قطعا لانكارهم واستبعادهم واصرارهم وعنادهم فقال وآية لهم الارض الميتة أحييناها كذلك نحيي الموتى (وثانيهما) انه لما ذكر حال المرسلين واهلاك المكذبين وكان شغلهم التوحيد ذكر مايدل عليه وبدأ بالارض لكونها مكانهم لامفارقة لهم منها عند الحركة والسكون (المسئلة الثانية) الارض آية مطلقا فلم خصصها بهم حيث قال وآية لهم نقول الآية تعدد وتسرد لمن لم يعرف الشئ بأبلغ الوجوه وأما من عرف الشئ بطريقة الرؤية لايذكر له دليل فان النبي وعباد الله المخلصين عرفوا الله قبل الارض والسماء فليست الارض معرفة لهم وهذا كما قال تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق وقال أولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد يعني أنت كفاك ربك معرفا به عرفت كل شئ فهو شهيد لك على كل شئ واما هؤلاء تبين لهم الحق بالآفاق والانفس وكذلك ههنا آية لهم (المسئلة الثالثة) ان قلنا ان الآية مذكورة للاستدلال على جواز احياء الموتى فيكفي قوله احييناها ولا حاجة الى قوله وأخرجنا منها حبا وغير ذلك وان قلنا انها للاستدلال على وجود الاله ووحدته فلا فائدة في قوله الارض الميتة أحييناها لان نفس الارض دليل ظاهر وبرهان باهر ثم هب أنها غير كافية فقوله الميتة أحييناها كاف في التوحيد فما فائدة قوله واخرجنا منها حبا نقول مذكورة للاستدلال عليهما ولكل ماذكره الله تعالى فائدة اما قوله وأخرجنا منها حبا فله فائدة بالنسبة الى بيان احياء الموتى وذلك لانه لما احيا الارض وأخرج منها حبا كان ذلك احياء تاما لان الارض المخضرة التي لاتنبت الزرع ولا تخرج الحب دون ماتنبته في الحياة فكأنه قال تعالى الذي أحيا الارض احياء كاملا منبتا للزرع يحيي الموتى احياء كاملا بحيث تدرك الامور واما بالنسبة الى التوحيد فلأن فيه تعديد النعم كأنه يقول آية لهم الارض

ويعاش به (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب) أي من أنواع النخل والعنب ولذلك جمعهما دون الحب فان الدال على الجنس مشعر بالاختلاف ولا كذلك الدال على الانواع وذكر النخيل دون التمور ليطابق الحب والاعناب لاختصاص شجرها بمزيد النفع وآثار الصنع (وفجرنا فيها) وقرئ بالتخفيف والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظا ومعنى (من العيون) أي بعضا من العيون فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه أو العيون ومن مزيدة على رأي الاخفش (ليأكلوا من ثمره) متعلق بجعلنا وتأخيره عن تفجير العيون لانه من مبادى الاثمار أي وجعلنا فيها جنات من نخيل ورتبنا مبادى اثمارها ليأكلوا من ثمر ماذكر من الجنات والنخيل باجراء الضمير لله تعالى بطريق الالتفات الى الغيبة والاضافة لان الثمر بخلقه تعالى وقرئ بضمتين وهي لغة فيه أو جمع ثمار بضمه وسكون (وما عملته ايديهم) عطف على ثمره وهو ما يتخذ منه من العصير والدبس ونحوهما وقيل ما نافية والمعنى أن الثمر بخلق الله تعالى لابفعلهم ومحل الجملة النصب على الحالية ويؤكد الاول قراءة ﴿ فانها ﴾ عملت بلاهاء فان حذف العائد من الصلة أحسن من الحذف من غيرها (أفلا يشكرون) انكار

فانها مكانهم ومهدهم الذى فيه تحريكهم واسكانهم والامر الضرورى الذى عنده وجودهم وامكانهم وسواء كانت ميتة أولم تكن فهى مكان لهم لابد لهم منها فهى نعمة ثم احياؤها بحيث تخضر نعمة ثانية فانها تصير أحسن وأنزه ثم اخراج الحب منها نعمة ثالثة فان قوتهم يصير فى مكانهم وكان يمكن ان يجعل الله رزقهم فى السماء أوفى الهواء فلا يحصل لهم الوثوق ثم جعل الجنات فيها نعمة رابعة لان الارض تنبت الحب فى كل سنة واما الاشجار بحيث تؤخذ منهـا الثمار فتكون بعد الحب وجودا ثم فجرنا فيهـا العيون ليحصل لهم الاعتماد بالحصول ولو كان ماؤها من السماء لحصل ولكن لم يعلم أين تغرس وأين يقع المطر وينزل القطر وبالنسبة الى بيان احياء الموتى كل ذلك مفيد وذلك لان قوله وأخرجنا منها حبا كالاشارة الى الامر الضرورى الذى لا بد منه وقوله وجعلنا فيهـا جنات كالامر المحتاج اليه الذى ان لم يكن لايمنى الانسان لكنه يبقى مختل الحال وقوله وفجرنا فيها من العيون اشارة الى الزينة التى ان لم تكن لاتمنى الانسان ولا يبقى فى ورطة الحاجة لكنه لايكون على أحسن ماينبغى وكان حال الانسان بالحب كحال الفقير الذى له مايسد خلته من بعض الوجوه ولا يدفع حاجته من كل الوجوه وبالثمار يعتبر حاله كحال المكتفى بالعيون الجارية التى يعتمد عليها الانسان ويقوى بها قلبه كالمستغنى الغنى المدخر لقوت سنين فيقول الله عزوجل كما فعلنا فى موات الارض كذلك نفعل فى الاموات فى الارض فنحييهم ونعطيهم مالابد لهم منه فى بقائهم ونكونهم من الاعضاء المحتاج اليها وقواها كالعين والقوة الباصرة والاذن والقوة السامعة وغيرهما ونزيد له ماهو زينة كالعقل الكامل والادراك الشامل فيكون كأنه قال نحيى الموتى احياء تاما كما أحيينـا الارض احياء تاما (المسئلة الرابعة) قال عند ذكر الحب فمنه يأكلون وفى الاشجار والثمار قال ليأكلوا من ثمره وذلك لان الحب قوت لابد منه فقال فمنه يأكلون أى هم آكلوه وأما الثمار ليست كذلك فكأنه تعالى قال ان كنا ما أخرجناها كانوا يبقون من غير أكل وأخرجناها ليأكلوها (المسئلة الخامسة) خصص النخيل والاعناب بالذكر من سائر الفواكه لان ألذ المطعوم الحلاوة وهى فيهما أتم ولان التمر والعنب قوت وفاكهة ولا كذلك غيرهما ولانهما أعم نفعا فانها تحمل من البلاد الى الاماكن البعيدة فان قيل فقد ذكر الله الرمان والزيتون فى الانعام والقضب والزيتون والتين فى مواضع نقول فى الانعام وغيرها المقصود ذكر الفواكه والثمار ألا ترى الى قوله تعالى أنزل من السماء ماء فاخرجنا به والى قوله فلينظر الانسان الى طعامه فاستوفى الانواع بالذكر وههنا المقصود ذكر صفات الارض فاختار منها الالذ الانفع وقد ذكرنا فى سورة الانعام مايستفاد منه الفوائد ويعلم منه فائدة قوله تعالى فاكهة ونخل ورمان (المسئلة السادسة) فى المواضع التى ذكر الله الفواكه لم يذكر التمر بلفظ شجرته وهى النخلة ولم يذكر العنب بلفظ شجرته بل ذكره بلفظ العنب والاعناب ولم يذكر الكرم وذلك لان العنب شجرته بالنسبة الى ثمرته حقيرة قليلة

واستقباح لعدم شكرهم للنعم المعدودة والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أيرون هذه النعم أو أيتنعمون بهـا فلا يشكرونهـا (سبحان الذى خلق الازواج كلها) استئناف مسوق لتنزيهه تعالى عما فعلوه من ترك شكره على الآئه المذكورة واستعظام ماذكر فى حيز الصلة من بدائع آثار قدرته وأسرار حكمته وروائع نعمائه الموجبة للشكر وتخصيص العبادة به والتعجيب من اخلالهم بذلك والحـالة هذه وسبحان علم للتسبيح الذى هو التبعيد عن السوء اعتقادا وقولا أى اعتقاد البعد عنه والحكم به من سبح فى الارض والماء اذا أبعد فيهما

الفائدة والنخل بالنسبة الى ثمرته عظيمة جليلة القدر كثيرة الجدوى فان كثيرا من الظروف
منها يتخذ وبلحائها ينتفع ولها شبه بالحيوان فاختار منها ماهو الاعجب منها وقوله تعالى
وفجرنا فيها من العيون آية عظيمة لان الارض أجزاؤها بحكم المادة لا تصعد ونحن نرى
منابع الانهار والعيون في المواضع المرتفعة وذلك دليل القدرة والاختيار والقائلون
بالطبائع قالوا ان الجبال كالقباب المبنية والابخرة ترتفع اليها كما ترتفع الى سقوف
الحمامات وتتكون هناك قطرات من الماء ثم تجتمع فان لم تكن قوية تحصل المياه الراكدة
كالآبار وتجرى في القنوات وان كانت قوية تشق الارض وتخرج انهارا جارية وتجتمع
فتحصل الانهار العظيمة وتمدها مياه الامطار والثلوج فنقول اختصاص بعض الجبال
بالعيون دليل ظاهر على الاختيار وماذكروه تعسف فالحق هو ان الله تعالى خلق الماء
في المواضع المرتفعة وساقه في الانهار والسواقي أو صعد الماء من المواضع المتسفلة الى
الاماكن المرتفعة بأمر الله وجرى في الاودية الى البقاع التي انعم الله على أهلها ثم قال
تعالى ليأكلوا من ثمره وماعملته أيديهم أفلا يشكرون والترتيب ظاهر ويظهر أيضا في
التفسير وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لم أخر التنبيه على الانتفاع بقوله ليأكلوا عن ذكر
الثمار حتى قال وفجرنا فيها من العيون وقال في الحب فمنه يأكلون عقيب ذكر الحب ولم
يقل عقيب ذكر النخيل والاعناب ليأكلوا نقول الحب قوت وهو يتم وجوده بماء
الامطار ولهذا يرى أكثر البلاد لايكون بها شئ من الاشجار والزرع والحراثة لاتبطل
هناك اعتمادا على ماء السماء وهذا لطف من الله حيث جعل مايحتاج اليه الانسان أعم
وجودا وأما الثمار فلا تتم الا بالانهار ولاتصير الاشجار حاملة للثمار الا بعد وجود الانهار
فلهذا أخر (المسئلة الثانية) الضمير في قوله من ثمره عائد الى أي شئ نقول المشهور انه عائد
الى الله أي ليأكلوا من ثمر الله (وفيه لطيفة) وهي ان الثمار بعد وجود الاشجار وجريان
الانهار لم توجد الا بالله تعالى ولولا خلق الله ذلك لم توجد فالثمر بعد جميع مايظن الظان انه
سبب وجوده ليس الا بالله تعالى وارادته فهي ثمره ويحتمل ان يعود الى النخيل وترك
الاعناب لحصول العلم بانها في حكم النخيل ويحتمل ان يقال هو راجع الى المذكور أي من
ثمر ماذكرنا وهذان الوجهان نقلهما الزمخشري ويحتمل وجها آخر أغرب وأقرب وهو أن
يقال المراد من الثمر الفوائد يقال ثمرة التجارة الربح ويقال ثمرة العبادة الثواب وحينئذ
يكون الضمير عائدا الى التفجير المدلول عليه بقوله وفجرنا فيها من العيون تفجيرا ليأكلوا
من فوائد ذلك التفجير وفوائده أكثر من الثمار بل يدخل فيه ماقال الله تعالى انا صببنا الماء
صبا الى أن قال فأخرجنا به حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا
والتفجير أقرب في الذكر من النخيل ولو كان عائدا الى الله لقال من ثمرنا كما قال وجعلنا
وفجرنا (المسئلة الثالثة) ما في قوله وماعملته من أي الماآت هي نقول فيها وجوه (أحدها)
نافية كانه قال وماعملت التفجير أيديهم بل الله فجر (وثانيها) موصولة بمعنى الذي كأنه قال

وأمعن ومنه فرس سبوح
أي واسع الجري وانتصابه
على المصدرية ولا يكاد
يذكر ناصبه أي أسبح
سبحانه أي أنزهه عما
لايليق به عقدا وعملا
تنزيها خاصا به حقيقا
بشأنه وفيه مبالغة من
جهة الاشتقاق من السبح
ومن جهة النقل الى
التفعيل ومن جهة العدول
عن المصدر الدال على
الجنس الى الاسم الموضوع
له خاصة لاسيما العلم
المشير الى الحقيقة الحاضرة
في الذهن ومن جهة
اقامته مقام المصدر مع
الفعل وقيل هو مصدر
كغفران أريد به التنزه
التام والتباعد الكلي
عن السوء ففيه مبالغة
من جهة اسناد التنزه
الى الذات المقدسة فالمعنى
تنزه بذاته

والذي عملته أيديهم من الغراس بعد التفجير يأكلون منه أيضا و يأكلون من ثمر الله الذي أخرجها من غير سعي من الناس فعطف الذي عملته الايدي على ما خلقه الله من غير مدخل للانسان فيه (وثالثها) هي مصدرية على قراءة من قرأ وما عملت من غير ضمير عائد معناه ليأكلوا من ثمره وعمل أيديهم يعني يغرسون والله ينبتها و يخلق ثمرها فيأكلون مجموع عمل أيديهم وخلق الله وهذا الوجه لا يمكن على قراءة من قرأ مع الضمير (المسئلة الرابعة) على قولنا ما موصولة يحتمل أن تكون بمعنى وما عملته أي بالتجارة كأنه ذكر نوعي ما يأكل الانسان بهما وهما الزراعة والتجارة ومن النبات ما يؤكل من غير عمل الايدي كالعنب والتمر وغيرهما ومنه ما يعمل فيه عمل صنعة فيؤكل كالاشياء التي لا تؤكل الا مطبوخة أو كالزيتون الذي لا يؤكل الا بعد اصلاح ثم لما عدد النعم أشار الى الشكر بقوله أفلا يشكرون وذكر بصيغة الاستفهام لما بينا من فوائد الاستفهام فيما تقدم ✲ ثم قال تعالى (سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) قد ذكرنا أن لفظة سبحان علم دال على التسبيح وتقديره سبح تسبيح الذي خلق الازواج كلها ومعنى سبح نزه ووجه تعلق الآية بما قبلها هو انه تعالى لما قال أفلا يشكرون وشكر الله بالعبادة وهم تركوها ولم يقتنعوا بالترك بل عبدوا غيره وأتوا بالشرك فقال سبحان الذي خلق الازواج وغيره لم يخلق شيأ فقال أو نقول لما بين أنهم انكروا الآيات ولم يشكروا بين ما ينبغي أن يكون عليه العاقل فقال سبحان الذي خلق الازواج كلها أو نقول لما بين الآيات قال سبحان الذي خلق ما ذكره عن أن يكون له شريك أو يكون عاجزا عن احياء الموتى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله كلها يدل على ان أفعال العباد مخلوقة لله لان الزوج هو الصنف وأفعال العباد أصناف ولها اشباه هي واقعة تحت اجناس الاعراض فتكون من الكل الذي قال الله فيها انه خالق الازواج كلها لا يقال مما تنبت الارض يخرج الكلام عن العموم لان من قال أعطيت زيدا كل ما كان لي يكون للعموم ان اقتصر عليه فاذا قال بعده من الثياب لا يبقى الكلام على عمومه لانا نقول ذلك اذا كانت من للبيان للتخصيص اما اذا كانت لتأكيد العموم فلا بدليل ان من قال أعطيته كل شئ من الدواب والثياب والعبيد والجواري يفهم منه انه بعدد الاصناف لتأكيد العموم ويؤيد هذا قوله تعالى في حم الذي خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون من غير تقييد (المسئلة الثانية) ذكر الله تعالى أمورا ثلاثة ينحصر فيها المخلوقات فقوله مما تنبت الارض يدخل فيها ما في الارض من الامور الظاهرة كالنبات والثمار وقوله ومن أنفسهم يدخل فيها الدلائل النفسية وقوله ومما لا يعلمون يدخل ما في أقطار السموات وتخوم الارضين وهذا دليل على انه لم يذكر ذلك للتخصيص بدليل ان الانعام مما خلقها الله والمعادن لم يذكرها وانما ذكر الاشياء لتأكيد معنى العموم كما ذكرنا في المثال (المسئلة الثالثة) قوله ومما لا يعلمون فيه معنى لطيف وهو انه تعالى انما ذكر كون الكل

عن كل ما لا يليق به تنزها خاصا به فالجملة على هذا اخبار من الله تعالى بتنزهه وبراءته عن كل ما لا يليق به مما فعلوه وما تركوه وعلى الاول حكم منه عز وجل بذلك وتلقين للمؤمنين أن يقولوه ويعتقدوا مضمونه ولا يخلوا به ولا يغفلوا عنه والمراد بالازواج الاصناف والانواع (مما تنبت الارض) بيان لها والمراد به كل ما ينبت فيها من الاشياء المذكورة وغيرها (ومن أنفسهم) أي خلق الازواج من من أنفسهم أي الذكر والانثى (ومما لا يعلمون) أي والازواج مما لم يطلعهم الله تعالى على خصوصياته لعدم قدرتهم على الاحاطة بها ولما لم يتعلق بذلك شئ من مصالحهم الدينية والدنيوية

مخلوقاليزه الله عن الشريك فان المخلوق لا يصلح شريكا للخالق لكن التوحيد الحقيقي لا يحصل الا بالاعتراف بأن لا اله الا الله فقال تعالى اعلموا أن المانع من الشريك فيما تعلمون وما لا تعلمون لان الخلق عام والمانع من الشركة الخلق فلا تشركوا بالله شيأ مما تعلمون فانكم تعلمون أنه مخلوق ومما لا تعلمون فان عند الله كله مخلوق لكون كله ممكنا * ثم قال تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون) لما استدل الله باحوال الارض وهي المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي فان دلالة المكان والزمان مناسبة لان المكان لا تستغني عنه الجواهر والزمان لا تستغني عنه الاعراض لان كل عرض فهو في زمان ومثله مذكور في قوله تعالى ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ثم قال بعده ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت حيث استدل بالزمان والمكان هناك أيضا لكن المقصود أولا هناك اثبات الوحدانية بدليل قوله تعالى لا تسجدوا للشمس ثم الحشر بدليل قوله تعالى ان الذي أحياها لمحيي الموتى وههنا المقصود أولا اثبات الحشر لان السورة فيها ذكر الحشر أكثر يدل عليه النظر في السورة وهناك ذكر التوحيد أكثر بدليل قوله تعالى فيه قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين الى غيره وآخر السورتين يبين الامر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المكان يدفع عن أهل السنة شبه الفلاسفة والزمان يدفع عنهم شبه المشبهة (اما بيان الاول) فذلك لان الفلسفي يقول لو كان عدم العالم قبل وجوده لكان عند فرض عدم العالم قبل وقبل و بعد لا يتحقق الا بالزمان فقبل العالم زمان والزمان من جملة العالم فيلزم وجود الشئ عند عدمه وهو محال فنقول لهم قد وافقتمونا على أن الامكنة متناهية لان الابعاد متناهية بالاتفاق فاذن فوق السطح الاعلى من العالم يكون عدم وهو موصوف بالفوقية وفوق وتحت لا يتحقق الا بالمكان ففوق العالم مكان والمكان من العالم فيلزم وجود الشئ عند عدمه فان أجابوا بأن فوق السطح الاعلى لا خلا ولا ملا نقول قبل وجود العالم لا آن ولا زمان موجود (واما بيان الثاني) فلان المشبهي يقول لا يمكن وجود موجود الا في مكان فالله في مكان فنقول فيلزمكم ان تقولوا الله في زمان لان الوهم كما لا يمكنه ان يقول هو موجود ولا مكان لا يمكنه أن يقول هو كان موجودا ولا زمان وكل زمان فهو حادث وقد أجمعنا على ان الله تعالى قديم (المسئلة الثانية) لو قال قائل اذا كان المراد منه الاستدلال بالزمان فلم اختار الليل حيث قال وآية لهم الليل نقول لما استدل بالمكان الذي هو المظلم وهو الارض وقال وآية لهم الارض استدل بالزمان الذي فيه الظلمة وهو الليل (ووجه آخر) وهو أن الليل فيه سكون الناس وهدو الاصوات وفيه النوم وهو كالموت و يكون بعده طلوع الشمس كالنفخ في الصور فيتحرك الناس فذكر الموت كما قال في الارض وآية لهم الارض الميتة فذكر من الزمانين أشبههما بالموت كما ذكر من المكانين أشبههما بالموت (المسئلة الثالثة) ما معنى سلخ النهار من الليل نقول معناه تميزه منه يقال

وانما أطلعهم على ذلك بطريق الاجمال على منهاج قوله تعالى ويخلق ما لا تعلمون لما نيط به وقوفهم على عظم قدرته وسعة ملكه وسلطانه (وآية لهم الليل) جملة من خبر مقدم ومبتدا مؤخر كامر وقوله تعالى (نسلخ منه النهار) جملة مبينة لكيفية كونه آية أي نزيله ونكشفه عن مكانه مستعار من السلخ وهو ازالة ما بين الحيوان و جلده من الاتصال والاذاب في الاستعمال تعليقه بالجلد يقال سلخت الاهاب من الشاة وقد يعكس ومنه الشاة المسلوخة (فاذا هم مظلمون) أي داخلون في الظلام مفاجأة وفيه رمز الى أن الاصل هو الظلام

انسلخ النهار من الليل اذا أتى آخر النهار ودخل أول الليل وسلخه الله منه فانسلخ هو منه وأما اذا استعمل بغير كلمة من فقيل سلخت النهار أو الشمس فمعناه دخلت فى آخره فان قيل فالليل فى نفسه آية فأية حاجة الى قوله نسلخ منه النهار نقول الشئ تتبين بضده منافعه ومحاسنه ولهذا لم يجعل الله الليل وحده آية فى موضع من المواضع الاوذكر آية النهار معها وقوله فاذاهم مظلمون أى داخلون فى الظلام واذا للمفاجأة أي ليس بيدهم بعد ذلك أمر ولابدلهم من الدخول فيه ❊ وقوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) يحتمل أن يكون الواو للعطف على الليل تقديره وآية لهم الليل نسلخ والشمس تجرى والقمر قدرناه فهى كلها آية وقوله والشمس تجرى اشارة الى سبب سلخ النهار فانها تجرى لمستقر لها وهو وقت الغروب فينسلخ النهار وفائدة ذكر السبب هو أن الله لما قال نسلخ منه النهار وكان غير بعيد من الجهال ان يقول قائل منهم سلخ النهار ليس من الله انما يسلخ النهار بغروب الشمس فقال تعالى والشمس تجرى لمستقر لها بأمر الله فغرب الشمس سالخ للنهار فبذكر السبب يتبين صحة الدعوى ويحتمل ان يقال بان قوله والشمس تجرى لمستقر لها اشارة الى نعمة النهار بعد الليل كانه تعالى لما قال وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ذكر أن الشمس تجرى فتطلع عند انقضاء الليل فيعود النهار بمنافعه وقوله لمستقر اللام يحتمل أن تكون للوقت كقوله تعالى أقم الصلاة لدلوك الشمس وقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن ووجه استعمال اللام للوقت هو ان اللام المكسورة فى الاسماء لتحقيق معنى الاضافة لكن اضافة الفعل الى سببه أحسن الاضافات لان الاضافة لتعريف المضاف بالمضاف اليه كما فى قوله دار زيد لكن الفعل يعرف بسببه فيقال اتجر للربح واشترللاكل واذا علم أن اللام تستعمل للتعليل فنقول وقت الشئ يشبه سبب الشئ لان الوقت يأتى بالامر الكائن فيه والامور متعلقة باوقاتها فيقال خرج لعشر من كذا وأقم الصلاة لدلوك الشمس لان الوقت معرف كالسبب وعلى هذا فمعناه تجرى الشمس وقت استقرارها أى كلما استقرت زمانا أمرت بالجرى فجرت ويحتمل أن تكون بمعنى الى أى الى مستقرلها وتقريره هو أن اللام تذكر للوقت والوقت طرفان ابتداء وانتهاء يقال سرت من يوم الجمعة الى يوم الخميس فجاز استعمال ما يستعمل فيه فى أحد طرفيه لما بينهما من الاتصال ويؤيد هذا قراءة من قرأ والشمس تجرى الى مستقرلها وعلى هذا فى ذلك المستقر وجوه (الاول) يوم القيامة وعنده تستقر ولايبقى لها حركة (الثانى) السنة (الثالث) الليل أى تجرى الى الليل (الرابع) ان ذلك المستقر ليس بالنسبة الى الزمان بل هو للمكان وحينئذ ففيه وجوه (الاول) هو غاية ارتفاعها فى الصيف وغاية انخفاضها فى الشتاء أى تجرى الى أن تبلغ ذلك الموضع فترجع (الثانى) هو غاية مشارقها فان فى كل يوم لها مشرق الى ستة أشهر ثم تعود الى تلك المنقطرات وهذا هو القول الذى تقدم فى الارتفاع فان اختلاف المشارق بسبب اختلاف الارتفاع (الثالث) هو وصولها الى

والنور عارض (والشمس تجرى لمستقر لها) لحد معين ينتهى اليه دورها فشبه بمستقر المسافر اذا قطع مسيرة أو لكبد السماء فان حركتها فيه توجد أبطأ بحيث يظن أن لها هناك وقفة قال * والشمس حيرى لها بالجو تدويم ❊ أو لا استقرار لها على نهج مخصوص أو لمنتهى مقدر لكل يوم من المشارق والمغارب فان لها فى دورها ثلثمائة وستين مشرقا ومغربا تطلع كل يوم من مطلع وتغرب من مغرب ثم لا تعود اليهما الى العام القابل أو لمنقطع جريها عند خراب العالم وقرئ الى مستقر لها وقرئ لا مستقر لها أى لاسكون لها فانها متحركة دائما وقرئ

بيتها فى الابتداء (الرابع) هو الدائرة التى عليها حركتها حيث لا تميل عن منطقة البروج
على مرور الشمس وسنذكرها ويحتمل أن يقال لمستقر لها أى تجرى مجرى مستقرها فان
أصحاب الهيئة قالوا الشمس فى فلك والفلك يدور فيدير الشمس فالشمس تجرى مجرى
مستقرها وقالت الفلاسفة تجرى لمستقرها أى لامر لو وجدها لاستقر وهو استخراج
الاوضاع الممكنة وهو فى غاية السقوط وأجاب الله عنه بقوله ذلك تقدير العزيز العليم أى
ليس لارادتها وانما ذلك بارادة الله وتقديره وتدبيره وتسخيره اياها فان قيل عددت
الوجوه الكثيرة وماذكرت المختار فما الوجه المختار عندك نقول المختار هو أن المراد من
المستقر المكان أى تجرى لبلوغ مستقرها وهو غاية الارتفاع والانخفاض فان ذلك يشمل
المشارق والمغارب والمجرى الذى لا يختلف والزمان وهو السنة والليل فهو أتم فائدة وقوله
ذلك يحتمل أن يكون اشارة الى جرى الشمس أى ذلك الجرى تقدير الله ويحتمل ان يكون
اشارة الى المستقر أى لمستقر لها وذلك المستقر تقدير الله والعزيز الغالب وهو بكمال القدرة
يغلب والعليم كامل العلم أى الذى قدر على أجرائها على الوجه الانفع وعلم الانفع فاجراها
على ذلك وبيانه من وجوه (الاول) هو ان الشمس فى ستة أشهر كل يوم تمر على مسامتة
شئ لم تمر من أمسها على تلك المسامتة ولو قدر الله مرورها على مسامتة واحدة لاحترقت
الارض التى هى مسامتة لممرها وبقى المجموع مستوليا على الاماكن الاخر فقدر الله لها
بعد التجمع الرطوبات فى باطن الارض والاشجار فى زمان الشتاء ثم قدر بها بتدريج
لتخرج النبات والثمار من الارض والشجر وتنضج وتجفف ثم تبعد لئلا يحترق وجه
الارض واغصان الاشجار (الثانى) هو ان الله قدر لها فى كل يوم طلوعا وفى كل ليلة
غروبا لئلا تكل القوى والابصار بالسهر والتعب ولا يخرب العالم بترك العمارة بسبب
الظلمة الدائمة (الثالث) جعل سيرها ابطأ من سير القمر وأسرع من سير زحل لانها كاملة
النور فلو كانت بطيئة السير لدامت زمانا كثيرا فى مسامتة شئ واحد فتحرقه ولو كانت
سريعة السير لما حصل لها لبث بقدر ما ينضج الثمار فى بقعة واحدة * ثم قال تعالى
(والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) قال الزمخشرى لابد من تقدير لفظ
يتم به معنى الكلام لان القمر لم يجعل نفسه منازل فالمعنى اناقدرنا مسيره منازل وعلى
ماذكره يحتمل أن يقال المراد منه والقمر قدرناه ذامنازل لان ذا الشئ قريب من الشئ
ولهذا جاز قول القائل عيشة راضية لان ذا الشئ كالقائم بالشئ فأتوا بلفظ الوصف
وقوله حتى عاد كالعرجون القديم أى رجع فى الدقة الى حالته التى كان عليها من قبل
والعرجون من الانعراج يقال لعود العذق عرجون والقديم المتقادم الزمان قيل ان
ماغبر عليه سنة فهو قديم والصحيح أن هذه بعينها لا تشترط فى جواز اطلاق القديم عليه
وانما تعتبر العادة حتى لا يقال لمدينة بنيت من سنة وسنتين انها بناء قديم أو هى قديمة
ويقال لبعض الاشياء انه قديم وان لم يكن له سنة ولهذا جاز أن يقال بيت قديم وبناء قديم

لامستقر لها على أن
لا بمعنى ليس (ذلك)
اشارة الى جريها وما
فيه من معنى البعد مع
قرب العهد بالمشار اليه
للايذان بعلو رتبته وبعد
منزلته أى ذلك الجرى
البديع المنطوى على
الحكم الرائعة التى تحار
فى فهمها العقول والافهام
(تقدير العزيز) الغالب
بقدرته على كل مقدور
(العليم) المحيط علمه بكل
معلوم (والقمر قدرناه)
بالنصب باضمار فعل
يفسره الظاهر وقرئ
بالرفع على الابتداء أى
قدرناله (منازل) وقيل
قدرنا مسيره منازل وقيل
قدرناه ذا منازل وهى
ثمانية وعشرون الشرطان
البطين الثريا الدبران
الهقعة الهنعة الذراع

ولم يجز أن يقال في العالم انه قديم لان القدم في البيت والبناء يثبت بحكم تقادم العهد ومرور السنين عليه واطلاق القديم على العالم لايعتاد الاعند من يعتقد انه لاأول له ولاسابق عليه * ثم قال تعالى (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) اشارة الى أن كل شئ من الاشياء المذكورة خلقها على وفق الحكمة فالشمس لم تكن تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرك القمر والا لكان في شهر واحد صيف وشتاء فلا تدرك الثمار وقوله ولا الليل سابق النهار قيل في تفسيره ان سلطان الليل وهو القمر ليس يسبق الشمس وهي سلطان النهار وقيل معناه ولا الليل سابق النهار اى الليل لا يدخل وقت النهار والثاني بعيد لان ذلك يقع ايضاحا للواضح والاول صحيح ان أريد به ما بينته وهو ان معنى قوله تعالى ولا الليل سابق النهار ان القمر اذا كان على أفق المشرق أيام الاستقبال تكون الشمس في مقابلته على أفق المغرب ثم ان عند غروب الشمس يطلع القمر وعند طلوعها يغرب القمر كأن لهما حركة واحدة مع ان الشمس تتأخر عن القمر في ليلة مقدارا ظاهرا في الحس فلو كان للقمر حركة واحدة بها يسبق الشمس ولا تدركه الشمس وللشمس حركة واحدة بها تتأخر عن القمر ولا تدرك القمر لبقي القمر والشمس مدة مديدة في مكان واحد لان حركة الشمس كل يوم درجة فخلق الله تعالى في جميع الكواكب حركة أخرى غير حركة الشهر والسنة وهي الدورة اليومية وبهذه الدورة لايسبق كوكب كوكبا أصلا لان كل كوكب من الكواكب اذا طلع غرب مقابله وكلما تقدم كوكب الى الموضع الذي فيه الكوكب الآخر بالنسبة الينا تقدم ذلك الكوكب فبهذه الحركة لايسبق القمر الشمس فتبين ان سلطان الليل لايسبق سلطان النهار فالمراد من الليل القمر ومن النهار الشمس فقوله لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر اشارة الى حركتها البطيئة التي تتم الدورة في سنة وقوله ولا الليل سابق النهار اشارة الى حركتها اليومية التي بها تعود من المشرق الى المشرق مرة أخرى في يوم وليلة وعلى هذا فيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الحكمة في اطلاق الليل وارادة سلطانه وهو القمر وماذا يكون لو قال ولا القمر سابق الشمس نقول لو قال ولا القمر سابق الشمس ما كان يفهم ان الاشارة الى الحركة اليومية فكان يتوهم التناقض فان الشمس اذا كانت لاتدرك القمر والقمر أسرع ظاهرا واذا قال ولا القمر سابق يظن أن القمر لايسبق فليس بأسرع فقال الليل والنهار ليعلم أن الاشارة الى الحركة التي بها تتم الدورة في مدة يوم وليلة ويكون لجميع الكواكب أوعليها طلوع وغروب في الليل والنهار (المسئلة الثانية) ما الفائدة في قوله تعالى لا الشمس ينبغي لها أن تدرك بصيغة الفعل وقوله ولا الليل سابق النهار بصيغة اسم الفاعل ولم يقل ولا الليل يسبق ولا قال مدركة القمر نقول الحركة الاولية التي للشمس ولا يدرك بها القمر مختصة بالشمس فجعلها كالصادرة منها وذكر بصيغة الفعل لان صيغة الفعل لاتطلق على من لايصدر منه الفعل فلا يقال هو

النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العواء السماك الغفر الزباني الاكليل القلب الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الاخبية فرغ الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا وهو بطن الحوت ينزل كل ليلة في احد منها لايتخطاها ولا يتقاصر عنها فاذا كان في آخر منازله وهو الذي يكون قبيل الاجتماع دق واستقوس (حتى عاد كالعرجون) كالشمراخ المعوج فعلون من الانعراج وهو الاعوجاج وقرئ كالعرجون وهما لغتان كالبزيون والبزيون (القديم) العتيق وقيل هو ما مر عليه حول فصاعدا (لا الشمس ينبغي لها) أي يصح ويتسهل (أن تدرك القمر) في سرعة السير

فان ذلك يخل بتكون النبات وتعيش الحيوان أو في الآثار والمنافع أو في المكان بأن تنزل في منزله أو في سلطانه فتطمس نوره وايلاء حرف النفي الشمس للدلالة على انها مسخرة لا يتيسر لها الا ما قدر لها (ولا الليل سابق النهار) أي يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه وقيل المراد بهما آيتاهما وهما النيران وبالسبق سبق القمر الى سلطان الشمس فيكون عكسا للاول وايراد السبق مكان الادراك لانه الملائم لسرعة سيره (وكل) أي وكلهم على أن التنوين عوض عن المضاف اليه الذى هو الضمير العائد الى الشمس والقمر والجمع باعتبار التكاثر العارض لهما بتكاثر مطالعهما فان اختلاف الاحوال يوجب تعددا ما في الذات أو الى الكواكب فان ذكرهما مشعر بها (في فلك يسبحون) يسيرون بانبساط وسهولة .

يخيط ولا يكون يصدر منه الخياطة والحركة الثانية ليست مختصة بكوكب من الكواكب بل الكل فيها مشتركة بسبب حركة فلك ليس ذلك فلك الكوكب من الكواكب فالحركة ليست كانها صادرة منه فأطلق اسم الفاعل لانه لا يستلزم صدور الفعل يقال فلان خياط وان لم يكن خياطا فان قيل قوله تعالى يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا يدل على خلاف ما ذكرتم لان النهار اذا كان يطلب الليل فالليل سابقه وقلتم ان قوله ولا الليل سابق النهار معناه ما ذكرتم فيكون الليل سابقا ولا يكون سابقا نقول قد ذكرنا ان المراد بالليل ههنا سلطان الليل وهو القمر وهو لا يسبق الشمس بالحركة اليومية السريعة والمراد من الليل هناك نفس الليل وكل واحد لما كان في عقيب الآخر فكأنه طالبه فان قيل فلم ذكر ههنا سابق النهار وقد ذكر هناك يطلبه ولم يقل طالبه نقول ذلك لما بينا من أن المراد في هذه السورة من الليل كواكب الليل وهي في هذه الحركة كأنها لا حركة لها ولا تسبق ولا من شأنها انها سابقة والمراد هناك نفس الليل والنهار وهما زمانان والزمان لا قرار له فهو يطلب حثيثا لصدور التقضي منه وقوله تعالى وكل في فلك يسبحون ويحقق ما ذكرنا أي للكل طلوع وغروب في يوم وليلة لا يسبق بعضها بعضا بالنسبة الى هذه الحركة وكل حركة في فلك تخصه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) التنوين في قوله وكل عوض عن الاضافة معناه كل واحد واسقاط التنوين للاضافة حتى لا يجتمع التعريف والتنكير في شيء واحد فلما اسقط المضاف اليه لفظا رد التنوين عليه لفظا وفي المعنى معرف بالاضافة فان قيل فهل يختلف الامر عند الاضافة لفظا وتركها فنقول نعم وذلك لان قول القائل كل واحد من الناس كذا لا يذهب الفهم الى غيرهم فيفيد اقتصار الفهم عليه فاذا قال كل كذا يدخل في الفهم عموم أكثر من العموم عند الاضافة وهذا كما في قبل وبعد اذا قلت افعل قبل كذا فاذا حذفت المضاف وقلت افعل قبل أفاد فهم الفعل قبل كل شيء فان قيل فهل بين قولنا كل منهم وبين قولنا كلهم وبين كل فرق نقول نعم عند قولك كلهم تثبت الامر للاقتصار عليهم وعند قولك كل منهم تثبت الامر أولا للعموم ثم استدركت بالتخصيص فقلت منهم وعند قولك كل تثبت الامر على العموم وتتركه عليه (المسئلة الثانية) اذا كان كل بمعنى كل واحد منهم والمذكور الشمس والقمر فكيف قال يسبحون نقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) ما بينا أن قوله كل للعموم فكأنه أخبر عن كل كوكب في السماء سيار (ثانيها) ان لفظ كل يجوز أن يوحد نظرا الى كونه لفظا موحدا غير مثنى ولا مجموع ويجوز أن يجمع لكون معناه جمعا وأما التثنية فلا يدل عليها اللفظ ولا المعنى فعلى هذا يحسن أن يقول القائل زيد وعمرو كل جاء أو كل جاؤا ولا يقول كل جا آ بالتثنية (وثالثها) لما قال ولا الليل سابق النهار والمراد ما في الليل من الكواكب قال يسبحون (المسئلة الثالثة) الفلك ماذا نقول الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة لان أهل اللغة اتفقوا على أن فلكة المغزل سميت فلكة لاستدارتها وفلكة الخيمة

هي الخشبة المسطحة المستديرة التي توضع على رأس العمود لئلا يخرق العمود الخيمة وهي صفحة مستديرة فان قيل فعلى هذا تكون السماء مستديرة وقد اتفق أكثر المفسرين على أن السماء مبسوطة لها أطراف على جبال وهي كالسقف المستوى ويدل عليه قوله تعالى والسقف المرفوع نقول ليس في النصوص ما يدل دلالة قاطعة على كون السماء مبسوطة غير مستديرة ودل الدليل الحسي على كونها مستديرة فوجب المصير اليه أما الاول فظاهر لان السقف المقبب لا يخرج عن كونه سقفا وكذلك كونها على جبال وأما الدليل الحسي فوجوه (أحدها) ان من أمعن في السير في جانب الجنوب يظهر له كواكب مثل سهيل وغيره ظهورا أبديا حتى ان من يرصد يراه دائما ويخفى عليه بنات نعش وغيرها خفاء أبديا ولو كان السماء مسطحا مستويا لبان الكل للكل بخلاف ما اذا كان مستديرا فان بعضه حينئذ يستتر بأطراف الارض فلا يرى (الثاني) هو ان الشمس اذا كانت مقارنة للحمل مثلا فاذا غربت ظهر لنا كوكب في منطقة البروج من الحمل الى الميزان ثم في كل قليل يستتر الكوكب الذي كان غروبه بعد غروب الشمس ويظهر الكوكب الذي كان طلوعه بعد طلوع الشمس وبالعكس وهو دليل ظاهر وان بحث فيه يصير قطعيا (الثالث) هو ان الشمس قبل طلوعها وبعد غروبها يظهر ضوءها ويستنير الجو بعض الاستنارة ثم يطلع ولولا أن بعض السماء مستتر بالارض وهو محل الشمس فلا يرى جرمها وينتشر نورها لما كان كذلك بل كان عند اعادتها الى السماء يظهر لكل أحد جرمها ونورها معا لكون السماء مستوية حينئذ مكشوفة كلها لكل أحد (الرابع) القمر اذا انكسف في ساعة من الليل في جانب الشرق ثم سئل أهل المغرب عن وقت الكسوف أخبروا عن الخسوف في ساعة أخرى قبل تلك الساعة التي رأى أهل المشرق فيها الخسوف لكن الخسوف في وقت واحد في جميع نواحي العالم والليل يختلف فدل على أن الليل في جانب المشرق قبل الليل في جانب المغرب فالشمس غربت من عند أهل المشرق وهي بعد في السماء ظاهرة لاهل المغرب فعلم أن استتارها بالارض ولو كانت مستوية لما كان كذلك (الخامس) لو كانت السماء مبسوطة لكان القمر عندما يكون فوق رؤسنا على المسامتة أقرب الينا وعند ما يكون على الافق أبعد منا لان العمود أصغر من القطر والوتر وكذلك في الشمس والكواكب كان يجب أن يرى أكبر لان القريب يرى أكبر وليس كذلك فان قيل جاز أن يكون وهو على الافق على سطح السماء وعندما يكون على مسامتة رؤسنا في بحر السماء غائرا فيها لان الخرق جائز على السماء نقول لا نزاع في جواز الخرق لكن القمر حينئذ تكون حركته في دائرة لا على خط مستقيم وهو غرضنا ولا نانقول لو كان كذلك لكان القمر عند أهل المشرق وهو في منتصف نهارهم أكبر مقدارا لكونه قريبا من رؤسهم ضرورة فرضه على سطح السماء الادنى وعندنا في بحر السماء وبالجملة الدلائل كثيرة والاكثار منها يليق بكتب الهيئة التي الغرض منها بيان

ذلك العلم وليس الغرض في التفسير بيان ذلك غير أن القدر الذي أوردناه يكفي في بيان كونه فلكا مستديرا (المسئلة الرابعة) هذا يدل على أن لكل كوكب فلكا فاقول فيه نقول أما السبعة السيارة فلكل فلك وأما الكواكب الاخر فقيل للكل فلك واحد ولنذكر كلاما مختصرا في هذا الباب من الهيئة حيث وجب الشروع بسبب تفسير الفلك فنقول قيل ان للقمر فلكا لان حركته أسرع من حركة الستة الباقية وكذلك لكل كوكب فلك لاختلاف غيرها بالسرعة والبطء والممر فان بعضها يمر في دائرة وبعضها في دائرة أخرى حتى في بعض الاوقات يمر بعضها ببعض ولا يكسفه وفي بعض الاوقات يكسفه فلكل كوكب فلك ثم ان أهل الهيئة قالوا فكل فلك هو جسم كرة وذلك غير لازم بل اللازم أن نقول لكل فلك هو كرة أو صفحة أو دائرة يفعلها الكوكب بحركته والله تعالى قادر على أن يخلق الكوكب في كرة يكون وجوده فيها كوجود مسمار مغرق في ثخن كرة مجوفة و يدير الكرة فيدور الكوكب بدوران الكرة وعلى مذهب أرباب الهيئة حركة الكواكب السيارة على هذا الوجه وكذلك قادر على أن يخلق حلقة يحيط بها أربع سطوح متوازية بها فانها أربع دوائر متوازية كحجر الرحى اذا قورناه وأخرجنا من وسطه طاحونة من طواحين اليد و يبقى منه حلقة يحيط بها سطوح ودوائر كما ذكرنا وتكون الكواكب فيه وهو فلك فتدور تلك الحلقة وتدير الكوكب والحركة على هذا الوجه وان كانت متصورة لكن لم يذهب اليه أحد ممن يعتبر وكذلك هو قادر على أن يجعل الكواكب بحيث تشق السماء فتجعل دائرة متوهمة كما لو فرضت سمكة في الماء على وجهه تنزل من جانب وتصعد الى موضع من الجانب الآخر على استدارة وهذا هو المفهوم من قوله تعالى وكل في فلك يسبحون والظاهر ان حركة الكواكب على هذا الوجه وأرباب الهيئة انكروا ذلك وقالوا لا يجوز الحركة على هذا الوجه لان الكوكب له جرم فاذا شق السماء وتحرك فاما أن يكون موضع دورانه ينشق و يلتئم كالماء تحركه السمكة أو لا ينشق ولا يلتئم بل هناك خلاء يدور الكواكب فيه لكن الخلاء محال والسماء لا تقبل الشق والالتئام هذا ما اعتمدوا عليه ونحن نقول كلاهما جائز أما الخلاء فلا يحتاج اليه ههنا لان قوله تعالى يسبحون يفهم منه انه يشق والتئام وأما امتناع الشق والالتئام فلا دليل لهم عليه وشبهتهم في المحدد للجهات وهي هناك ضعيفة ثم انهم قالوا على ما بينا تخرج الحركات وبه علمنا الكسوفات ولو كان لها حركات مختلفة لما وجب الكسوف في الوقت الذي يحكم فيه بالكسوف والخسوف وذلك لانا نقول للشمس فلكان (أحدهما) مركزه مركز العالم (ثانيهما) مركزه فوق مركز العالم وهو مثل بياض البيض بين صفرته و بين القيض والشمس كرة في الفلك الخارج المركز تدور بدورانه في السنة دورة فاذا جعلت في الجانب الاعلى تكون بعيدة عن الارض فيقال انها في الاوج واذا حصلت في الجانب الاسفل تكون قريبة من الارض فتكون في الحضيض وأما القمر فله فلك شامل لجميع

أجزائه وافلاكه وفلك آخرهو بعض من الفلك الاول محيط به كالقشرة الفوقانية من البصلة وفلك ثالث فى الفلك التحتانى كما كان فى الفلك الخارج المركز فى فلك الشمس وفى الفلك الخارج المركز كرة مثل جرم الشمس وفى الكرة القمر مركوز كمسمار فى كرة مغرق فيها ويسمى الفلك الفوقانى الجوزهر والخارج المركز الفلك الحامل والفلك التحتانى الذى فيه الفلك الحامل المائل والكرة التى فى الحامل تسمى فلك التدوير وكذلك قالوا فى الكواكب الخمسة الباقية من السيارات غير ان الفوقانى الذى سموه فلك الجوزهر لم يثبتوه لها فاثبتوا أربعة وعشرين فلكا لفلك الاعلى وفلك البروج ولزحل ثلاثة أفلاك الممثل والحامل وفلك التدوير وللمشترى ثلاثة كما لزحل وللمريخ كذلك ثلاثة وللشمس فلكان الممثل والخارج المركز وللزهرة ثلاثة أفلاك كالعلويات ولعطارد أربعة أفلاك الثلاثة التى ذكرناها فى العلويات وفلك آخر يسمونه المدير وللقمر أربعة أفلاك والرابع يسمونه فلك الجوزهر والمدير ليس كالجوزهر لان المدير غير محيط بافلاك عطارد وفلك الجوزهر محيط ومنهم من زاد فى الخمسة فى كل فلك فلكين آخرين وجعل تدويراتها مركبة من ثلاثة افلاك وقالوا ان بسبب هذه الاجرام تختلف حركات الكواكب ويكون لها عروض ورجوع واستقامة وبطء وسرعة هذا كلامهم على سبيل الاقتصاص والاقتصار ونحن نقول لايبعد من قدرة الله خلق مثل ذلك وأما على سبيل الوجوب فلا نسلم ورجوعها واستقامتها بارادة الله وكذلك عرضها وطولها وبطؤها وسرعتها وقربها وبعدها هذا تمام الكلام (المسألة الخامسة) قال المنجمون الكواكب أحياء بدليل انه تعالى قال يسبحون وذلك لايطلق الاعلى العاقل نقول ان أردتم القدر الذى يصح به التسبيح فنقول به لانه مامن شئ من هذه الاشياء الاوهو يسبح بحمد الله وان أردتم شيئا آخر فلم يثبت ذلك والاستعمال لايدل كما فى قوله تعالى فى حق الاصنام مالكم لاتنطقون وقوله الاتنطقون * ثم قال تعالى (وآية لهم أناحملناذريتهم فى الفلك المشحون) ولها مناسبة مع ماتقدم من وجهين (احدهما) انه تعالى لما من باحياء الارض وهى مكان الحيوانات بين انه لم يقتصر بل جعل للانسان طريقا يتخذ من البحر خيرا يتوسطه أو يسير فيه كما يسير فى البر وهذا حينئذ كقوله وحملناكم فى البر والبحر ويؤيد هذا قوله تعالى وخلقنا لهم من مثله مايركبون اذا فسرناه بأن المراد الابل فانها كسفن البرارى (وثانيهما) هو انه تعالى لما بين سباحة الكوكب فى الافلاك وذكر ماهو مثله وهو سباحة الفلك فى البحار ولها وجه ثالث وهى ان الامور التى أنعم الله بها على عباده منها ضرورية ومنها نافعة والاول للحاجة والثانى للزينة فخلق الارض واحياؤها من القبيل الاول فانها المكان الذى لولاه لما وجد الانسان ولولا احياؤها لما عاش والليل والنهار فى قوله وآية لهم الليل أيضا من القبيل الاول لانه الزمان الذى لولاه لماحدث الانسان والشمس والقمر وحركتهما ولم تكن لما عاش ثم انه تعالى لما ذكر من القبيل

(وآية لهم أناحملناذريتهم) أولادهم الذين يبعثونهم الى تجاراتهم أوصبيانهم ونساءهم الذين يستصحبونهم فان الذرية تطلق عليهن لاسيما مع الاختلاط وتخصيصهم بالذكر لما أن استقرارهم فى السفن أشق واستمساكهم فيها أبدع (فى الفلك المشحون) أى المملوء وقيل هوفلك نوح عليه السلام وحمل ذرياتهم فيها حمل آبائهم الاقدمين وفى أصلابهم هؤلاء وذرياتهم وتخصيص أعقابهم بالذكر دونهم لانه أبلغ فى الامتنان وأدخل فى التعجب الذى عليه يدور كونه آية

الاول آيتين ذكر من القبيل الثاني وهو الزينة آيتين (احدهما) الفلك التي تجري في البحر فيستخرج من البحر ما يتزين به كما قال تعالى ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر (وثانيهما) الدواب التي هي في البر كالفلك في البحر في قوله وخلقنا لهم من مثله ما يركبون فان الدواب زينة كما قال تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة وقال ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون فيكون استدلالا عليهم بالضروري والنافع لا يقال بان النافع ذكره في قوله جنات من نخيل وأعناب فانها للزينة لانا نقول ذلك حصل تبعا للضروري لان الله تعالى لما خلق الارض منبتة لدفع الضرورة وأنزل الماء عليها كذلك لزم أن يخرج من الجنة النخيل والاعناب بقدرة الله وأما الفلك فمقصود لا تبع اذا علمت المناسبة ففي الآيات ابحاث لغوية ومعنوية (اما اللغوية) قال المفسرون الذرية هم الآباء أي حملنا آباءكم في الفلك والالف واللام للتعريف أي فلك نوح وهو مذكور في قوله واصنع الفلك ومعلوم عند العرب فقال الفلك هذا قول بعضهم وأما الاكثرون فعلى أن الذرية لا تطلق الا على الولد وعلى هذا فلا بد من بيان المعنى فنقول الفلك اما أن يكون المراد الفلك المعين الذي كان لنوح واما أن يكون المراد الجنس كما قال تعالى وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون وقال تعالى وترى الفلك فيه مواخر وقال تعالى فاذا ركبوا في الفلك الى غير ذلك من استعمال لام التعريف في الفلك لبيان الجنس فان كان المراد سفينة نوح عليه السلام ففيه وجوه (الاول) أن المراد انا حملنا أولادكم الى يوم القيامة في ذلك الفلك ولولا ذلك لما بقي للآدمي نسل ولا عقب وعلى هذا فقوله حملنا ذريتهم بدل قوله حملناهم اشارة الى كمال النعمة أي لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعدية الى اعقابكم الى يوم القيامة هذا ما قاله الزمخشري ويحتمل عندي أن يقال على هذا انه تعالى انما خص الذرية بالذكر لان الموجودين كانوا كفارا لا فائدة في وجودهم فقال حملنا ذريتهم أي لم يكن الحمل حملا لهم وانما كان حملا لما في اصلابهم من المؤمنين كمن حمل صندوقا لا قيمة له وفيه جواهر اذا قيل له لم تحمل هذا الصندوق وتتعب في حمله وهو لا يشترى بشئ يقول لا أحمل الصندوق وانما أحمل ما فيه (الثاني) هو ان المراد بالذرية الجنس معناه حملنا اجناسهم وذلك لان ولد الحيوان من جنسه ونوعه والذرية تطلق على الجنس ولهذا يطلق على النساء نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الذراري أي النساء وذلك لان المرأة وان كانت صنفا غير صنف الرجل لكنها من جنسه ونوعه يقال ذراريّنا أي أمثالنا فقوله انا حملنا ذريتهم أي أمثالهم وآباؤهم حينئذ تدخل فيهم (الثالث) هو ان الضمير في قوله وآية لهم عائد الى العباد حيث قال يا حسرة على العباد وقال بعد ذلك وآية لهم الارض وقال وآية لهم الليل وقال وآية لهم انا حملنا ذريتهم اذا علم هذا فكأنه تعالى قال وآية للعباد انا حملنا ذريات العباد ولا يلزم أن يكون المراد بالضمير في الموضعين اشخاصا معينين كما قال تعالى ولا تقتلوا أنفسكم ويريد بعضكم

بعضا وكذلك اذا تقاتل قوم ومات الكل فى القتال يقال هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم فهم فى الموضعين يكون عائدا الى القوم ولا يكون المراد اشخاصا معينين بل المراد ان بعضهم قتل بعضا فكذلك قوله تعالى وآية لهم أى آية لكل بعض منهم انا حملنا ذرية كل بعض منهم أو ذرية بعض منهم وأما ان قلنا ان المراد جنس الفلك فهو أظهر لان سفينة نوح لم تكن بحضرتهم ولم يعلموا من حمل فيها فاما جنس الفلك فانه ظاهر لكل أحد وقوله تعالى فى سفينة نوح وجعلناها آية للعالمين أى بوجود جنسها ومثلها ويؤيده قوله تعالى ألم تر ان الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور فنقول قوله تعالى حملنا ذريتهم أى ذريات العباد ولم يقل حملناهم لان سكون الارض عام لكل أحد يسكنها فقال وآية لهم الارض الميتة الى ان قال فمنه يأكلون لان الاكل عام وأما الحمل فى السفينة فمن الناس من لا يركبها فى عمره ولا يحمل فيها ولكن ذرية العباد لابد لهم من ذلك فان فيهم من يحتاج اليها فيحمل فيها (المسئلة الثانية) جعل الفلك تارة جمعا حيث قال وترى الفلك فيه مواخر جمع ماخرة وأخرى فردا حيث قال فى الفلك المشحون نقول فيه تدقيق مليح من علم اللغة وهو ان الكلمة قد تكون حركتها مثل حركة تلك الكلمة فى الصورة والحركتان مختلفتان فى المعنى مثالها قولك سجد يسجد سجودا للمصدر وهم قوم سجود فى جمع ساجد تظن انهما كلمة واحدة لمعنيين وليس كذلك بل السجود عند كونه مصدرا حركته أصلية اذا قلنا ان الفعل مشتق من المصدر وحركة السجود عند كونه للجمع حركة متغيرة من حيث ان الجمع يشتق من الواحد وينبغى أن يلحق المشتق تغيير فى حركة أو حرف أو فى مجموعهما فساجد لما أردنا أن يشتق منه لفظ جمع غيرناه وجئنا بلفظ السجود فاذا السجود للمصدر والجمع ليس من قبيل الالفاظ المشتركة التى وضعت بحركة واحدة لمعنيين اذا عرفت هذا فنقول الفلك عند كونه واحدا مثل قفل وبرد وعند كونها جمعا مثل خشب ومرد وغيرهما فان قلت فاذا جعلته جمعا ماذا يكون واحدها نقول جاز أن يكون واحدها فلكة أو غيرها مما لم يستعمل كواحد النساء حيث لم يستعمل وكذا القول فى امام مبين وفى قوله ندعوا كل أناس بامامهم أى بأئمتهم عند قوله تعالى امام مبين امام كزمام وكتاب وعند قوله تعالى كل أناس بامامهم امام كسهام وكرام وحجاب وهذا من دقيق التصريف (واما المعنوية) فنذكرها فى مسائل (المسئلة الاولى) قال ههنا حملنا ذريتهم من عليهم بحمل ذريتهم وقال تعالى انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية من هناك عليهم بحمل أنفسهم نقول لان من ينفع المتعلق بالغير يكون قد نفع ذلك الغير ومن يدفع الضرر عن المتعلق بالغير لا يكون قد دفع الضرر عن ذلك الغير بل يكون قد نفعه مثاله من أحسن الى ولد انسان وفرحه فرح بفرحه أبوه واذا دفع واحد الالم عن ولد انسان يكون قد فرح أباه ولا يكون فى الحقيقة قد أزال الالم عن أبيه فعند طغيان الماء كان الضرر يلحقهم فقال دفعت عنكم الضرر ولو قال دفعت عن أولادكم الضرر لما حصل

(وخلقنا لهم من مثله) مما يماثل الفلك (ما يركبون) من الابل فانها سفائن البر أو مما يماثل ذلك الفلك من السفن والزوارق وجعلها مخلوقة لله تعالى مع كونها ﴿ ٩٣ ﴾ من مصنوعات العباد ليس لمجرد كون صنعهم باقدار الله تعالى والهامه بل لمزيد اختصاص أصلها بقدرته تعالى وحكمته حسبما يعرب عنه قوله عز وجل واصنع الفلك بأعيننا ووحينا والتعبير عن ملابستهم بهذه السفن بالركوب لانها باختيارهم كما أن التعبير عن ملابسة ذريتهم بفلك نوح عليه السلام بالحمل لكونها بغير شعور منهم واختيار (وان نشأ نغرقهم) الخ من تمام الآية فانهم معترفون بمضمونه كما ينطق به قوله تعالى واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين وقرئ نغرقهم بالتشديد وفى تعليق الاغراق بمحض المشيئة اشعار بانه قد تكامل ما يوجب اهلاكهم من معاصيهم ولم يبق الا تعلق مشيئته تعالى به أى ان نشأ نغرقهم فى اليم مع ما حملناهم فيه من الفلك فحديث خلق الابل حينئذ كلام جئ به فى خلال الآية بطريق الاستطراد لكمال التماثل بين الابل والفلك فكأنها نوع منه أو مع ما يركبون من السفن والزوارق (فلا صريخ لهم) أى فلا مغيث لهم يحرسهم من الغرق ويدفعه عنهم قبل

بيان دفع الضرر وههنا أراد بيان المنافع فقال حملنا ذريتهم لان النفع حاصل بنفع الذرية و يدلك على هذا ان ههنا قال فى الفلك المشحون فان امتلاء الفلك من الاموال يحصل بذكره بيان المنفعة وأما دفع المضرة فلالان الفلك كلما كان أثقل كان الخلاص به ابطأ وهنالك السلامة فاختار هنالك مايدل على الخلاص من الضرر وهو الجرى وههنا مايدل على كمال المنفعة وهو الشحن فان قيل قال تعالى وحملناهم فى البر والبحر ولم يقل وحملنا ذريتهم مع أن المقصود فى الموضعين بيان النعمة لادفع النقمة نقول لماقال فى البر والبحر عم الخلق لان مامن أحد الا وحمل فى البر أو البحر وأما الحمل فى البحر فلم يعم فقال ان كنا ماحملناكم بأنفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره من الاولاد والاقارب والاخوان والاصدقاء (المسئلة الثانية) قوله المشحون يفيد فائدة أخرى غير ماذكرنا وهى ان الآدمى يرسب فى الماء ويغرق فحمله فى الفلك واقع بقدرته لكن من الطبيعيين من يقول الخفيف لايرسب فى الماء لان الخفيف يطلب جهة فوق فقال الفلك المشحون اثقل من الثقال التى ترسب ومع هذا حمل الله الانسان فيه مع ثقله فان قالوا اذاك لامتناع الخلاء نقول قد ذكرنا الدلائل الدالة على جواز الخلاء فى الكتب العقلية فاذن ليس حفظ الثقيل فوق الماء الا بارادة الله (المسئلة الثالثة) قال تعالى وآية لهم الارض وقال وآية لهم الليل ولم يقل وآية لهم الفلك جعلناها بحيث تحملهم وذلك لان حملهم فى الفلك هو العجب أما نفس الفلك فليس بعجب لانه كبيت مبنى من خشب وأما نفس الارض فعجب ونفس الليل عجب لاقدرة عليهما لاحد الا الله * ثم قال تعالى (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) من حيث اللغة والمعنى أما اللغة فقوله لهم يحتمل أن يكون عائدا الى الذرية أى حملنا ذريتهم وخلقنا للمحمولين ما يركبون و يحتمل أن يكون عائدا الى العباد الذين عاد اليهم قوله وآية لهم وهو الحق لان الظاهر عود الضمائر الى شئ واحد (المسئلة الثانية) من يحتمل وجهين (احدهما) أن يكون صلة تقديره وخلقنا لهم مثله وهذا على رأى الاخفش وسيبويه يقول من لايكون صلة الا عند النفى تقول ماجاءنى من أحد كما فى قوله تعالى ومامسنا من لغوب (وثانيهما) هى مبينة كما فى قوله تعالى يغفر لكم من ذنوبكم كأنه لماقال خلقنا لهم والمخلوق كان اشياء قال من مثل الفلك للبيان (المسئلة الثالثة) الضمير فى مثله على قول الاكثرين عائد الى الفلك فيكون هذا كقوله تعالى وآخر من شكله أزواج وعلى هذا فالاظهر أن يكون المراد الفلك الآخر الموجود فى زمانهم ويؤيد هذا قوله تعالى قال وان نشأ نغرقهم ولو كان المراد الابل على ماقاله بعض المفسرين لكان قوله وخلقنا لهم من مثله ما يركبون فاصلا بين متصلين و يحتمل أن يقال الضمير عائد الى معلوم غير مذكور تقديره أن يقال وخلقنا لهم من مثل ماذكرنا من المخلوقات فى قوله خلق الازواج كلها مما تنبت الارض وهذا كما قالوا فى قوله تعالى ليأكلوا من ثمره ان الهاء عائد الى ماذكرنا أى من ثمر ماذكرنا (وعلى هذا فقوله خلقنا لهم فيه لطيفة) وهى ان مامن

وقوعه وقيل فلا استغاثة لهم من قولهم أتاهم الصريخ (ولاهم ينقذون) أى ينجون منه بعد وقوعه وقوله تعالى (الارحمة مناومتاعا) استثناء مفرغ من أعم العلل الشاملة للباعث المتقدم والغاية المتأخرة أى لايغاثون ولاينقذون لشئ من الاشياء الارحمة عظيمة من قبلنا داعية الى الاغاثة والانقاذ وتمتيع بالحياة مترتب عليهما ويجوز أن يراد بالرحمة مايقارن التمتيع من الرحمة الدنيوية فيكون كلاهما غاية للاغاثة والانقاذ أى لنوع من الرحمة وتمتيع (الى حين) أى الى زمان قدر فيه آجالهم كما قيل * ولم أسلم لكى ابقى ولكن * سلمت من الحمام الى الحمام * (واذا قيل لهم اتقوا) بيان لاعراضهم عن الآيات التنزيلية بعد بيان اعراضهم عن الآيات الآفاقية التى كانوا يشاهدونها أوعدم تأملهم فيها أى اذا قيل لهم بطريق الانذار بمانزل من الآيات اوبغيره اتقوا (مابين أيديكم وما خلفكم) من الآفات والنوازل فانها محيطة بكم أوما يصيبكم من المكاره من حيث تحتسبون ومن حيث لاتحتسبون أومن الوقائع النازلة على الامم الخالية قبلكم والعذاب المعد لكم فى الآخرة أومن نوازل السماء ونوائب الارض أومن عذاب الدنيا وعذاب

الآخرة أوماتقدم من الذنوب وماتأخر (لعلكم ترحمون) اماحال من واو اتقوا أوغاية له أى راجين أن ترحموا أوكى ترحموا فتنجوا من ذلك لماعرفتم أن مناط النجاة ليس الا رحمة الله تعالى وجواب اذا محذوف ثقة بانفهامه من قوله تعالى (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين) انفهاما بينا أما اذا كان الانذار بالآية الكريمة فبعبارة النص وأما اذا كان بغيرها فبدلالته لانهم حين أعرضوا عن آيات ربهم فلأن يعرضوا عن غيرها بطريق الاولوية كأنه قيل واذا قيل لهم اتقوا العذاب أعرضوا حسبما اعتادوه وما نافية وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددي ومن الاولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية تبعيضية واقعة مع مجرورها صفة لآية واضافة الآيات الى اسم الرب المضاف الى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترؤا عليه فى حقها والمراد بها اما الآيات التنزيلية فاتيانها نزولها والمعنى ما ينزل اليهم آية من الآيات القرآنية التى من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله تعالى وسوابغ آلائه الموجبة للاقبال عليها والايمان بها الا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب

احد الاول له ركوب مركوب من الدواب وليس كل أحد يركب الفلك فقال فى الفلك حملنا ذريتهم وان كنا ما حملناهم وأما الخلق فلهم عام وما يركبون فيه وجهان (احدهما) هو الفلك الذى مثل فلك نوح (وثانيهما) هو الابل التى هى سفن البر فان قيل اذا كان المراد سفينة نوح فما وجه مناسبة الكلام نقول ذكرهم بحال قوم نوح وان المكذبين هلكوا والمؤمنين فازوا فكذلك هم ان آمنوا يفوزوا وان كذبوا يهلكوا * ثم قال تعالى (وان نشأ نغرقهم) اشارة الى فائدتين (احداهما) ان فى حال النعمة ينبغى أن لا يأمنوا عذاب الله (وثانيتهما) هو أن ذلك جواب سؤال مقدر وهو ان الطبيعى يقول السفينة تحمل بمقتضى الطبيعة والمجوف لا يرسب فقال ليس كذلك بل لو شاء الله أغرقهم وليس ذلك بمقتضى الطبع ولو صح كلامه الفاسد لكان لقائل أن يقول ألست توافق ان من السفن ما ينقلب وينكسر ومنها ما ينقبه ثاقب فيرسب وكل ذلك بمشيئة الله فان شاء الله اغراقهم أغرقهم من غير شئ من هذه الاسباب كما هو مذهب أهل السنة أو بشئ من تلك الاسباب كما تسلم أنت * وقوله تعالى (فلا صريخ لهم) أى لا مغيث لهم يمنع عنهم الغرق (ولا هم ينقذون) اذا أدركهم الغرق وذلك لان الخلاص من العذاب اما أن يكون بدفع العذاب من أصله أو برفعه بعد وقوعه فقال لا صريخ لهم يدفع ولا هم ينقذون بعد الوقوع فيه وهذا مثل قوله تعالى لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون فقوله لا صريخ لهم ولا هم ينقذون فيه فائدة أخرى غير الحصر وهى أنه تعالى قال لا صريخ لهم ولم يقل ولا منقذ لهم وذلك لان من لا يكون من شأنه أن ينصر لا يشرع فى النصرة مخافة أن يغلب ويذهب ماء وجهه وانما ينصر ويغيث من يكون من شأنه ان يغيث فقال لا صريخ لهم وأما من لا يكون من شأنه ان ينقذ اذا رأى من يعز عليه فى ضر يشرع فى الانقاذ وان لم يثق بنفسه فى الانقاذ ولا يغلب على ظنه وانما يبذل المجهود فقال ولا هم ينقذون ولم يقل ولا منقذ لهم ثم استثنى فقال (الا رحمة منا ومتاعا الى حين) وهو يفيد أمرين (أحدهما) انقسام الانقاذ الى قسمين الرحمة والمتاع أى فيمن علم الله منه انه يؤمن فينقذه الله رحمة وفيمن علم انه لا يؤمن فليتمتع زمانا ويزداد اثما (وثانيهما) انه بيان لكون الانقاذ غير مفيد للدوام بل الزوال فى الدنيا لابد منه فينقذه الله رحمة ويمتعه الى حين ثم يميته فالزوال لازم ان يقع * ثم قال تعالى (واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون) وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان الله تعالى لما عدد الآيات بقوله وآية لهم الارض وآية لهم الليل وآية لهم انا حملنا ذريتهم وكانت الآيات تفيد اليقين وتوجب القطع بما قال تعالى ولم تفدهم اليقين قال فلا أقل من ان يحترزوا عن العذاب فان من أخبر بوقوع عذاب يتقيه وان لم يقطع بصدق قول المخبر احتياطا فقال تعالى اذا ذكر لهم الدليل القاطع لا يعترفون به واذا قيل لهم اتقوا لا يتقون فهم فى غاية الجهل ونهاية الغفلة لا مثل العلماء الذين يتبعون البرهان ولا مثل العامة الذين يبنون الامر على الاحوط ويدل على ما ذكرنا

قوله تعالى لعلكم ترحمون بحرف التمني أي في ظنكم فان من يخفى عليه وجه البرهان لايترك طريقة الاحتراز والاحتياط وجواب قوله اذا قيل لهم اتقوا محذوف معناه واذا قيل لهم ذلك لايتقون أو يعرضون وانما حذف لدلالة ما بعده عليه وهو قوله تعالى وما تأتيهم من آية من آيات ربهم وفي قوله تعالى ما بين أيديكم وما خلفكم وجوه (أحدها) ما بين أيديكم الآخرة فانهم مستقبلون لها وما خلفكم الدنيا فانهم تاركون لها (وثانيها) ما بين أيديكم من أنواع العذاب مثل الغرق والحرق وغيرهما المداول عليه بقوله تعالى وان نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولاهم ينقذون وما خلفكم من الموت الطالب لكم ان نجوتم من هذه الاشياء فلا نجاة لكم منه يدل عليه قوله تعالى ومتاعا الى حين (وثالثها) ما بين أيديكم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم فانه حاضر عندكم وما خلفكم من أمر الحشر فانكم اذا اتقيتم تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم والتكذيب بالحشر رحمكم الله وقوله تعالى لعلكم ترحمون مع أن الرحمة واجبة فيه وجوه ذكرناها مرارا ونزيد ههنا وجها آخر وهو أنه تعالى لما قال اتقوا يعني أنكم ان لم تقطعوا بناء على البراهين فاتقوا احتياطا قال لعلكم ترحمون يعني أرباب اليقين يرحمون جزما وأرباب الاحتياط يرجى أن يرحموا والحق ماذكرنا من وجهين (أحدهما) اتقوا راجين الرحمة فان الله لا يجب عليه شئ (وثانيهما) هو ان الاتقاء نظرا اليه أمر يفيد الظن بالرحمة فان كان يقطع به أحد لامر من خارج فذلك لايمنع الرجاء فان الملك اذا كان في قلبه أن يعطي من يخدمه أكثر من أجرته أضعافا مضاعفة لكن الخدمة لاتقتضي ذلك يصح منه أن يقول افعل كذا ولايبعد أن يصل اليك أجرتك أكثر مما تستحق * ثم قال تعالى (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين) وهذا متعلق بما تقدم من قوله تعالى ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين يعني اذا جاءتهم الرسل كذبوهم فاذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها وما التفتوا اليها وقوله ألم يروا كم اهلكنا قبلهم من القرون الى قوله لعلكم ترحمون كلام بين كلامين متصلين ويحتمل أن يقال هو متصل بما قبله من الآية وبيانه هو أنه تعالى لما قال واذا قيل لهم اتقوا وكان فيه تقدير أعرضوا قال ليس اعراضهم مقتصرا على ذلك بل هم عن كل آية معرضون أو يقال اذا قيل لهم اتقوا اقترحوا آيات مثل انزال الملك وغيره فقال وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين وعلى هذا كانوا في المعنى يكون زائدا معناه الا يعرضون عنها أي لاتنفعهم الآيات ومن كذب بالبعض هان عليه التكذيب بالكل * وقوله تعالى (واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله) اشارة الى أنهم يخلون بجميع ما على المكلف وذلك لان المكلف عليه التعظيم لجانب الله والشفقة على خلق الله وهم تركوا التعظيم حيث قيل لهم اتقوا فلم يتقوا وتركوا الشفقة على خلق الله حيث قيل لهم انفقوا فلم ينفقوا (وفيه لطائف) الاولى خوطبوا بأدنى الدرجات في التعظيم والشفقة فلم يأتوا بشئ

والاستهزاء واما مابعدها وغيرها من الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات التي من جملتها الآيات الثلاث المعدودة آنفا فالمراد باتيانها ما يعم نزول الوحي وظهور تلك الامور لهم والمعنى ما يظهر لهم آية من الآيات التي من جملتها ماذكر من شؤنه الشاهدة بواحدانيته تعالى وتفرده بالالوهية الا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدي الى الايمان به تعالى وايثاره على أن يقال الا اعرضوا عنها كما وقع مثله في قوله تعالى وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر للدلالة على استمرارهم على الاعراض حسب استمرار اتيان الآيات وعن متعلقة بمعرضين قدمت عليه مراعاة للفواصل والجملة في حيز النصب على انها حال من مفعول تأتي أو من فاعله المتخصص بالوصف لاشتمالها على ضمير كل منهما والاستثناء مفرغ من أعم الاحوال أي ما تأتيهم من آية من آيات ربهم في حال من أحوالهم الا حال اعراضهم عنها (واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله) أي أعطاكم بطريق التفضل والانعام من أنواع الاموال عبر عنها بذلك تحقيقا للحق وترغيبا في الانفاق

﴿ منه ﴾

على منهاج قوله تعالى وأحسن كما أحسن الله اليك وتنبيها على عظم جنايتهم فى ترك الامتثال بالامر وكذلك من التبعيضية
أى اذا قيل لهم بطريق النصيحة انفقوا بعض ما أعطاكم الله تعالى من فضله على المحتاجين فان ذلك

منه وعباد الله المخلصون خوطبوا بالادنى فأتوا بالاعلى انما فعلنا ذلك لانهم فى التقوى أمروا
بأن يتقوا ما بين أيديهم من العذاب أو الآخرة وما خلفهم من الموت أو العذاب وهو أدنى
ما يكون من الاتقاء وأما الخاص فيتقى تغيير قلب الملك عليه وان لم يعاقبه ومتى العذاب
لا يكون الا للبعيد فهم لم يتقوا معصية الله ولم يتقوا عذاب الله والمخلصون اتقوا الله
واجتنبوا مخالفته سواء كان يعاقبهم عليه أو لا يعاقبهم وأما فى الشفقة فقيل لهم انفقوا مما
أى بعض ما هو لله فى أيديكم فلم ينفقوا والمخلصون آثروا على أنفسهم وبذلوا كل ما فى
أيديهم بل أنفسهم صرفوها الى نفع عباد الله ودفع الضرر عنهم (الثانية) كما ان فى جانب
التعظيم ما كان فائدة التعظيم راجعة الا اليهم فان الله مستغن عن تعظيمهم كذلك فى جانب
الشفقة ما كان فائدة الشفقة راجعة الا اليهم فان من لا يرزقه المتمول لا يموت الا بأجله
ولابد من وصول رزقه اليه لكن السعيد من قدر الله ايصال الرزق على يده الى غيره
(الثالثة) قوله مما رزقكم اشارة الى أمرين (أحدهما) ان البخل به فى غاية القبح فان أبخل
البخلاء من يبخل بمال الغير (وثانيهما) أنه لا ينبغى أن يمنعكم من ذلك مخافة الفقر فان الله
رزقكم فاذا أنفقتم فهو يخلفه لكم ثانيا كما رزقكم أولا * وفيه مسائل أيضا (المسئلة الاولى)
عند قوله تعالى واذا قيل لهم اتقوا حذف الجواب وههنا أجاب وأتى بأكثر من الجواب
وذلك لانه تعالى لو قال واذا قيل لهم انفقوا قالوا أنطعم من لو يشاء الله اطعمه لكان
كافيا فما الفائدة فى قوله تعالى قال الذين كفروا للذين آمنوا نقول الكفار كانوا يقولون
بأن الاطعام من الصفات الحميدة وكانوا يفتخرون به وانما أرادوا بذلك القول ردا على
المؤمنين فقالوا نحن نطعم الضيوف معتقدين بأن افعالنا ثناء ولولا اطعامنا لما اندفع
حاجة الضيف وأنتم تقولون ان الهكم يرزق من يشاء فلم تقولون لنا أنفقوا فلما كان
غرضهم الرد على المؤمنين لا الامتناع من الاطعام قال تعالى عنهم قال الذين كفروا للذين
آمنوا اشارة الى الرد وأما فى قولهم اتقوا ما بين أيديكم لم يكن لهم رد على المؤمنين
فأعرضوا وأعرض الله عن ذكر اعراضهم لحصول العلم به (المسئلة الثانية) ما الفائدة فى
تغيير اللفظ فى جوابهم حيث لم يقولوا انفق على من لو يشاء الله رزقه وذلك لانهم أمروا
بالانفاق فى قوله واذا قيل لهم انفقوا فكان جوابهم بأن يقولوا انفق فلم قالوا أنطعم نقول
فيه بيان غاية مخالفتهم وذلك لانهم اذا أمروا بالانفاق والانفاق يدخل فيه الاطعام وغيره
لم يأتوا بالانفاق ولا بأقل منه وهو الاطعام وقالوا لا نطعم وهذا كما يقول القائل لغيره أعط
زيدا دينارا يقول لا أعطيه درهما مع أن المطابق هو أن يقول لا أعطيه دينارا ولكن
المبالغة فى هذا الوجه أتم فكذلك ههنا (المسئلة الثالثة) كان كلامهم حقا فان الله لو شاء
أطعمه فلماذا ذكره فى معرض الذم نقول لان مرادهم كان الانكار لقدرة الله أو لعدم
جواز الامر بالانفاق مع قدرة الله وكلاهما فاسد بين الله ذلك فى قوله مما رزقكم فانه يدل
على قدرته ويصحح أمره بالاعطاء لان من كان له فى يد الغير مال وله فى خزائنه مال فهو

مما يرد البلاء ويدفع المكاره (قال الذين كفروا) بالصانع عزوجل وهم زنادقة كانوا بمكة (للذين آمنوا) تهكما بهم وبما كانوا عليه من تعليق الامور بمشيئة الله تعالى (أنطعم) حسبما تعظوننا به (من لو يشاء الله أطعمه) أى على زعمكم وعن ابن عباس رضى الله عنهما كان بمكة زنادقة اذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن وقيل قاله مشركو قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين من أموالهم التى زعموا أنهم جعلوها لله تعالى من الحرث والانعام يوهمون أنه تعالى لما لم يشأ اطعامهم وهو قادر عليه فنحن أحق بذلك وما هو الا فرط جهالتهم فان الله تعالى يطعم عباده بأسباب من جملتها حث الاغنياء على اطعام الفقراء وتوفيقهم لذلك (ان انتم الا فى ضلال مبين) حيث تأمروننا بما يخالف مشيئة الله تعالى وقد جوز أن يكون جوابا لهم من جهته

تعالى أو حكاية لجواب المؤمنين لهم (ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) أى فيما

تعدوننا به من قيام الساعة مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لما أنهم أيضا كانوا يتلون عليهم آيات
الوعيد بقيامها ومعنى الترب فى هذا المابطر يق الاستهزاء واما باعتبار قرب العهد بالوعد (ما ينظرون)

مخير ان أراد أعطى مما فى خزائنه وان أراد أمر من عنده المال بالاعطاء ولا يجوز ان يقول من بيده ماله فى خزائنك أكثر مما فى يدى أعطه منه وقوله ان أنتم الا فى ضلال مبين اشارة الى اعتقادهم انهم قطعوا المؤمنين بهذا الكلام وان أمرهم بالانفاق مع قولهم بقدرة الله ظاهر الفساد واعتقادهم هو الفاسد وفيه مباحث لغوية ومعنوية (أما اللغوية) فنقول ان وردت للنفى بمعنى ما وكان الاصل فى ان أن تكون للشرط والاصل فى ما ان تكون للنفى لكنهما اشتركا من بعض الوجوه فتقارضا واستعمل ما فى الشرط واستعمل ان فى النفى أما الوجه المشترك فهو ان كل واحد منهما حرف مركب من حرفين متقاربين فان الهمزة تقرب من الالف والميم من النون ولا بد من أن يكون المعنى الذى يدخل عليه ما وان لا يكون ثابتا أما فى ما فظاهر وأما فى ان فلانك اذا قلت ان جاءنى زيد أكرمه ينبغى ان لا يكون له فى الحال مجئ فاستعمل ان مكان ما وقيل ان زيد قائم أى ما زيد بقائم واستعمل ما فى الشرط تقول ما تصنع اصنع والذى يدل على ما ذكرنا ان ما النافية تستعمل حيث لا تستعمل ان وذلك لانك تقول ما ان جلس زيد فتجعل ان صلة ولا تقول ان جلس زيد بمعنى النفى وبمعنى الشرط تقول اما تر ين فتجعل ان أصلا وما صلة فدلنا هذا على ان ان فى الشرط أصل وما دخيل وما فى النفى بالعكس (البحث الثانى) قد ذكرنا ان قوله ان أنتم الا يفيد ما لا يفيد قوله أنتم فى ضلال لانه يوجب الحصر وانهم ليسوا فى غير الضلال (البحث الثالث) وصف الضلال بالمبين وقد ذكرنا معناه انه لظهوره يبين نفسه انه ضلال أى فى ضلال لا يخفى على أحد انه ضلال (البحث الرابع) قد ذكرنا ان قوله فى ضلال يفيد كونهم مغمورين فيه غائصين وقوله فى مواضع على بينة وعلى هدى اشارة الى كونهم راكبين متن الطريق المستقيم قادرين عليه (وأما المعنوية) فهى انهم انما وصفوا الذين آمنوا بكونهم فى ضلال مبين لكونهم ظانين ان المؤمن كلامه متناقض ومن تناقض كلامه يكون فى غاية الضلال انما قلنا ذلك لانهم قالوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه اشارة الى ان الله ان شاء أن يطعمهم كان يطعمهم فلا نقدر على اطعامهم لانه يكون تحصيلا للحاصل وان لم يشأ اطعامهم لا يقدر أحد على اطعامهم لامتناع وقوع ما لم يشأ الله فلا قدرة لنا على الاطعام فكيف تأمروننا بالاطعام (ووجه آخر) وهو انهم قالوا أراد الله تجويعهم فلو أطعمناهم يكون ذلك سعيا فى ابطال فعل الله وانه لا يجوز وأنتم تقولون اطعموهم فهو ضلال ولم يكن فى الضلال الا هم حيث نظروا الى المراد ولم ينظروا الى الطلب والامر وذلك لان العبد اذا أمره السيد بأمر لا ينبغى ان يكشف سبب الامر والاطلاع على المقصود الذى أمر به لاجله مثاله الملك اذا أراد الركوب للهجوم على عدوه بحيث لا يطلع عليه أحد وقال لعبده أحضر المركوب فلو تطلع واستكشف المقصود الذى لاجله الركوب لنسب الى أنه يريد أن يطلع عدوه على الحذر منه وكشف سره فالادب فى الطاعة وهو اتباع الامر لا تتبع المراد فالله تعالى اذ قال انفقوا مما رزقكم لا يجوز ان يقولوا لم لم يطعمهم

جواب من جهته تعالى أى ما ينتظرون (الا صيحة واحدة) هى النفخة الاولى (تأخذهم) مفاجأة (وهم يخصمون) أى يتخاصمون فى متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم شئ من مخايلها كقوله تعالى فأخذتهم الصاعقة بغتة وهم لا يشعرون فلا يغتروا بعدم ظهور علائمها ولا يزعموا أنها لا تأتيهم وأصل يخصمون يختصمون فسكنت التاء وأدغمت فى الصاد ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين وقرئ بكسر الياء للاتباع وبفتح الخاء على القاء حركة التاء عليه وقرئ على الاختلاس وبالاسكان على تجويز الجمع بين الساكنين اذا كان الثانى مدغما وان لم يكن الاول حرف مد وقرئ يخصمون من خصمه اذا جادله (فلا يستطيعون توصية) فى شئ من أمورهم ان كانوا فيما بين أهليهم (ولا الى أهلهم يرجعون) ان كانوا فى خارج أبوابهم بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا (ونفخ فى الصور) هى النفخة الثانية بينها

و بين الاولى أربعون سنة أي ينفخ فيه وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع (فاذاهم من الاجداث) أي القبور جمع جدث وقرئ بالفاء (الى ربهم) مالك أمرهم على الاطلاق (ينسلون) يسرعون بطريق الاجبار دون الاختيار لقوله تعالى لدينا محضرون وقرئ بضم السين (قالوا) أي في ابتداء بعثهم من القبور (ياويلنا) احضر فهذا أوانك وقرئ ياويلتنا (من بعثنا من مرقدنا) وقرئ من أهبنا من هب من نومه اذا انتبه وقرئ من هبنا بمعنى أهبنا وقيل أصله هب بنا فحذف الجار واوصل الفعل الى الضمير قيل فيه ترشيح ورمز واشعار بأنهم لاختلاط عقولهم يظنون أنهم كانوا نياما وعن مجاهد ان للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم فاذا صيح بأهل القبور يقولون ذلك وعن ابن عباس وأبي بن كعب وقتادة رحمهم الله تعالى ان الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فاذا بعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا من أهوال القيامة ما شاهدوا دعوا بالويل وقالوا ذلك وقيل اذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب يصير عذاب القبر في جنبها مثل النوم فيقولون ذلك وقرئ من بعثنا ومن هبنا بمن الجارة والمصدر والمرقد اما مصدر أي من رقادنا أو اسم مكان أو بدنه

الله مما في خزائنه * ثم قال تعالى (و يقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) وهو اشارة الى ما اعتقدوه وهو ان التقوى المأمور بها في قوله واذا قيل لهم اتقوا والانفاق المذكور في قوله تعالى واذا قيل لهم انفقوا لافائدة فيه لان الوعد لاحقيقة له وقوله متى هذا الوعد أي متى يقع الموعود به وفيه مسائل (المسئلة الاولى) وهي ان ان للشرط وهي تستدعى جزاء ومتى استفهام لايصلح جزاء فالجواب نقول هي في الصورة استفهام وفي المعنى انكار انهم قالوا ان كنتم صادقين في وقوع الحشر فقولوا متى يكون (المسئلة الثانية) الخطاب مع من في قولهم ان كنتم نقول الظاهر أنه مع الانبياء لانهم لما أنكروا الرسالة قالوا ان كنتم أيها المدعون للرسالة صادقين فاخبرونا متى يكون (المسئلة الثالثة) ليس في هذا الموضع وعد فالاشارة بقوله هذا الوعد الى أي وعد نقول هو ما في قوله تعالى واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم من قيام الساعة أو نقول هو معلوم وان لم يكن مذكورا لكون الانبياء مقيمين على تذكيرهم بالساعة والحساب والثواب والعقاب * ثم قال تعالى (ما ينظرون الا صيحة واحدة) أي لا ينتظرون الا الصيحة المعلومة والتنكير للتكثير فان قيل هم ما كانوا ينتظرون بل كانوا يجزمون بعدمها فنقول الانتظار فعلي لانهم كانوا يفعلون ما يستحق به فاعله البوار وتعجيل العذاب وتقريب الساعة لولا حكم الله وقدرته وعلمه فانهم لا يقولون أو نقول لما لم يكن قوله متى استفهاما حقيقيا قال ينتظرون انتظارا غير حقيقي لان القائل متى يفهم منه الانتظار نظرا الى قوله * وقد ذكروا ههنا في الصيحة أمورا تدل على هولها وعظمها (احدها) التنكير يقال لفلان مال أي كثير وله قلب أي جريء (وثانيها) واحدة أي لا يحتاج معها الى ثانية (وثالثها) تأخذهم أي تعمهم بالاخذ وتصل الى من في مشارق الارض ومغاربها ولا شك ان مثلها لا يكون الا عظيما * وقوله (تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون) مما يعظم به الامر لان الصيحة المعتادة اذا وردت على غافل يرجف فان المقبل على مهم اذا صاح به صائح يرجف فؤاده بخلاف المنتظر للصيحة فاذا كان حال الصيحة ما ذكرناه من الشدة والقوة وترد على الغافل الذي هو مع خصمه مشغول يكون الارتجاف أتم والايجاف أعظم ويحتمل أن يقال يخصمون في البعث ويقولون لا يكون ذلك أصلا فيكونون غافلين عنه بخلاف من يعتقد انه يكون فيتهيأ له وينتظر وقوعه فانه لا يرتجف وهذا هو المراد بقوله تعالى فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء من اعتقد وقوعها فاستعد لها وقد مثلنا ذلك فيمن شام برقا وعلم ان سيكون رعد ومن لم يشمه ولم يعلم ثم رعد الرعد ترى الشائم العالم ثابتا والغافل الذاهل مغشيا عليه ثم بين شدة الاخذ وهي بحيث لا تمهلهم الى أن يوصوا * وفيه أمور مبينة للشدة (احدها) عدم الاستطاعة فان قول القائل فلان في هذه الحال لا يوصي دون قوله لا يستطيع التوصية لان من لا يوصي قد يستطيعها (الثاني) التوصية وهي بالقول والقول يوجد اسرع مما يوجد الفعل فقال لا يستطيعون كلمة فكيف فعلا يحتاج الى زمان

طويل من أداء الواجبات ورد المظالم (الثالث) اختيار التوصية من بين سائر الكلمات يدل على أنه لا اقدرة له على أهم الكلمات فان وقت الموت الحاجة الى التوصية أمس (الرابع) التنكير فى التوصية للتعميم أى لا يقدر على توصية ما ولو كانت بكلمة يسيرة ولان التوصية قد تحصل بالاشارة فالعاجز عنها عاجز عن غيرها (الخامس) قوله ولا الى أهلهم يرجعون بيان لشدة الحاجة الى التوصية لان من يرجو الوصول الى أهله قد يمسك عن الوصية لعدم الحاجة اليها وأما من يقطع بانه لا وصول له الى أهله فلا بد له من التوصية فاذا لم يستطع مع الحاجة دل على غاية الشدة ✲ وفى قوله ولا الى أهلهم يرجعون وجهان (احدهما) ما ذكرنا انهم يقطعون بانهم لا يمهلون الى أن يجتمعوا بأهاليهم وذلك يوجب الحاجة الى التوصية (وثانيهما) انهم الى أهلهم لا يرجعون يعنى يموتون ولا رجوع لهم الى الدنيا ومن يسافر سفرا و يعلم أنه لا رجوع له من ذلك السفر ولا اجتماع له بأهله مرة أخرى يأتى بالوصية ✲ ثم بين ما بعده الصيحة الاولى فقال (ونفخ فى الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون) أى نفخ فيه أخرى كما قال تعالى ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال تعالى فى موضع آخر ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وقال ههنا فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون والقيام غير النسلان وقوله فى الموضعين اذا هم يقتضى أن يكونا معا نقول (الجواب) عنه من وجهين (أحدهما) أن القيام لا ينافى المشى السريع لان الماشى قائم ولا ينافى النظر (وثانيهما) أن لسرعة الامور كان الكل فى زمان واحد كقول القائل ✲ مكر مفر مقبل مدبر معا ✲ (المسئلة الثانية) كيف صارت النفختان مؤثرتين فى أمرين متضادين الاحياء والاماتة نقول لا مؤثر غير الله والنفخ علامة ثم ان الصوت الهائل يزلزل الاجسام فعند الحياة كانت اجزاء الحى مجتمعة فزلزلها فحصل فيها تفريق وحالة الموت كانت الاجزاء متفرقة فزلزلها فحصل فيها اجتماع فالحاصل ان النفختين يؤثران تزلزلا وانتقالا للاجرام فعند الاجتماع تتفرق وعند الافتراق تجتمع (المسئلة الثالثة) ما التحقيق فى اذا التى للمفاجأة نقول هى اذا التى للظرف معناه نفخ فى الصور فاذا نفخ فيه هم ينسلون لكن الشئ قد يكون ظرفا للشئ معلوما كونه ظرفا فعند الكلام يعلم كونه ظرفا وعند المشاهدة لا يتجدد علم كقول القائل اذا طلعت الشمس أضاء الجو وغير ذلك فاذا رأى اضاءة الجو عند الطلوع لم يتجدد علم زائد وأما اذا قلت خرجت فاذا أسد بالباب كان ذلك الوقت ظرف كون الاسد بالباب لكنه لم يكن معلوما فاذا رآه علمه فحصل العلم بكونه ظرفا له مفاجأة عند الاحساس فقيل اذا للمفاجأة (المسئلة الرابعة) أين يكون فى ذلك الوقت اجداث وقد زلزلت الصيحة الجبال نقول يجمع الله اجزاء كل واحد فى الموضع الذى قبر فيه فيخرج من ذلك الموضع وهو جدثه (المسئلة الخامسة) الموضع موضع ذكر الهيبة وتقدم ذكر الكافر ولفظ الرب يدل على رحمة فلو قال بدل الرب المضاف اليهم لفظ ادالاعلى الهيبة هل يكون أليق أم لا (قلنا) هذا

الجنس فينتظم مرقدا الكل (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) جملة من مبتدا وخبر وما موصولة محذوفة العائد أو مصدرية وهو جواب من قبل الملائكة أو المؤمنون عدل به عن سنن ﴿ ١٠٠ ﴾ سؤالهم تذكيرا لكفرهم وتقريعا لهم عليه وتنبيها على أن الذى يهمهم هو السؤال عن نفس البعث ماذا هو دون الباعث كأنهم قالوا بعثكم الرحمن الذى وعدكم ذلك فى كتبه وأرسل اليكم الرسل فصدقوكم فيه وليس الامر كما تتوهمونه حتى تسألوا عن الباعث وقيل هو من كلام الكافرين حيث يتذكرون ما سمعوه من الرسل عليهم الصلاة والسلام فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضا وقيل هذا صفة لمرقدنا وما وعد الخ خبر مبتدا محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أى ما وعد الرحمن وصدق المرسلون حق (ان كانت) أى ما كانت النفخة التى حكيت آنفا (الا صيحة واحدة) حصلت من نفخ اسرافيل عليه السلام فى الصور (فاذا هم جميع) أى مجموع (لدينا محضرون) من غير لبث ما طرفة عين وفيه من تهوين أمر البعث والحشر والايذان باستغنائهما عن الاسباب ما لا يخفى (فاليوم لا تظلم نفس) من النفوس برة كانت أو فاجرة (شيأ) من الظلم (ولا تجزون الا ما كنتم تعملون) أى الاجزاء

ماكنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار من الكفر والمعاصي على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه للتنبيه على قوة التلازم والارتباط بينهما كأنهما ﴿ ١٠١ ﴾ شئ واحد أو الا بما كنتم تعملونه أي بمقابلته أو بسببه وتعميم الخطاب للمؤمنين يرده أنه تعالى يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله أضعافا مضاعفة وهذه حكاية لما سيقال لهم حين يرون العذاب المعد لهم تحقيقا للحق وتقريعا لهم وقوله تعالى (ان أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون) من جملة ما سيقال يومئذ زيادة لحسرتهم وندامتهم فان الاخبار بحسن حال أعدائهم اثر بيان سوء حالهم مما يزيدهم مساءة وفي هذه الحكاية مزجرة لهؤلاء الكفرة عماهم عليه ومدعاة الى الاقتداء بسيرة المؤمنين والشغل هو الشأن الذي يصد المرء ويشغله عما سواه من شؤنه لكونه أهم عنده من الكل اما لايجابه كمال المسرة والبهجة أو كمال المساءة والغم والمراد ههنا هو الاول وما فيه من التنكير والابهام للايذان بارتفاعه عن رتبة البيان والمراد به ماهم فيه من فنون الملاذ التي تلهيهم عما عداهم بالكلية واما ان المراد به افتضاض الابكار أو السماع وضرب الاوتار أو التزاور

اللفظ أحسن مايكون لان من أساء واضطر الى التوجه الى من أحسن اليه يكون ذلك أشد ألما وأكثر ندما من غيره (المسئلة السادسة) المسئ اذا توجه الى المحسن يقدم رجلا ويؤخر أخرى والنسلان هو سرعة المشي فكيف يوجد منهم ذلك نقول ينسلون من غير اختيارهم وقد ذكرنا في تفسير قوله فاذاهم ينظرون انه أراد أن يبين كمال قدرته ونفوذ ارادته حيث ينفخ في الصور فيكون في وقته جمع وتركيب واحياء وقيام وعدو في زمان واحد فقوله فاذاهم من الاجداث الى ربهم ينسلون يعني في زمان واحد ينتهون الى هذه الدرجة وهي النسلان الذي لا يكون الا بعد مراتب * ثم قال تعالى (قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون) يعني لما بعثوا قالوا ذلك لان قوله ونفخ في الصور يدل على انهم بعثوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لو قال قائل لو قال الله تعالى فاذاهم من الاجداث الى ربهم ينسلون يقولون ياويلنا كان أليق نقول معاذ الله وذلك لان قوله فاذاهم من الاجداث الى ربهم ينسلون على ماذكرنا اشارة الى أنه تعالى في أسرع زمان يجمع اجزاءهم ويؤلفها ويحييها ويحركها بحيث يقع نسلانهم في وقت النفخ مع ان ذلك لابد له من الجمع والتأليف فلو قال يقولون لكان ذلك مثل الحال لينسلون أي ينسلون قائلين ياويلنا وليس كذلك فان قولهم ياويلنا قبل أن ينسلوا وانما ذكر النسلان لما ذكرنا من الفوائد (المسئلة الثانية) لو قال قائل قد عرفنا معنى النداء في مثل ياحسرة وياحسرتا وياويلنا ولكن ما الفرق بين قولهم وقول الله حيث قال ياحسرة على العباد من غير اضافة وقالوا ياحسرتا وياحسرتنا وياويلنا نقول حيث كان القائل هو المكلف لم تكن لاحد علم الا بحاله أو بحال من قرب منه فكان كل واحد مشغولا بنفسه فكان كل واحد يقول ياحسرتنا وياويلنا فقوله قالوا ياويلنا أي كل واحد قال ياويلي وأما حيث قال الله قال على سبيل العموم لشمول علمه بحالهم (المسئلة الثالثة) ماوجه تعلق من بعثنا من مرقدنا بقولهم ياويلنا نقول لما بعثوا تذكروا ما كانوا يسمعون من الرسل فقالوا ياويلنا من بعثنا أبعثنا الله البعث الموعود به أم كنا نياما فنبهنا وهذا كما اذا كان انسان موعودا بان يأتيه عدو لا يطيقه ثم يرى رجلا هائلا يقبل عليه فيرتجف في نفسه ويقول هذا ذلك أم لا ويدل على ماذكرنا قولهم من مرقدنا حيث جعلوا القبور موضع الرقاد اشارة الى انهم شكوا في انهم كانوا نياما فنبهوا أو كانوا موتى وكان الغالب على ظنهم هو البعث فجمعوا بين الامرين فقالوا من بعثنا اشارة الى ظنهم أنه بعثهم الموعود به وقالوا من مرقدنا اشارة الى توهمهم احتمال الانتباه (المسئلة الرابعة) هذا اشارة الى ماذا نقول فيه وجهان (أحدهما) انه اشارة الى المرقد كأنهم قالوا من بعثنا من مرقدنا هذا فيكون صفة للمرقد يقال كلامي هذا صدق (وثانيهما) هذا اشارة الى البعث أي هذا البعث ماوعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون (المسئلة الخامسة) اذا كان هذا صفة للمرقد فكيف يصح قوله تعالى ماوعد الرحمن وصدق المرسلون نقول يكون ماوعد الرحمن مبتدأ خبره محذوف

تقديره ماوعد الرحمن حق والمرسلون صدقوا أو يقال ماوعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون حق والاول أظهر لقلة الاضمار أو يقال ماوعد الرحمن خبر مبتدا محذوف تقديره هو ما وعد الرحمن من البعث ليس تنبيها من النوم وصدق المرسلون فيما أخبروكم به (المسئلة السادسة) ان قلنا هذا اشارة الى المرقد أو الى البعث فجواب الاستفهام بقولهم من بعثنا أين يكون نقول لما كان غرضهم من قولهم من بعثنا حصول العلم بأنه بعث أو تنبيه حصل الجواب بقوله هذا بعث وعد الرحمن به ليس تنبيها كما أن الخائف اذا قال لغيره ماذا تقول أيقتلني فلان فله أن يقول لا تخف ويسكت لعلمه ان غرضه ازالة الرعب عنه وبه يحصل الجواب * ثم قال تعالى (ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون) أي ما كانت النفخة الا صيحة واحدة يدل على النفخة قوله تعالى ونفخ في الصور ويحتمل أن يقال ان كانت الواقعة وقرئت الصيحة مرفوعة على ان كان هي التامة بمعنى ما وقعت الا صيحة وقال الزمخشري لو كان كذلك لكان الاحسن أن يقال ان كان لان المعنى حينئذ ما وقع شئ الا صيحة لكن التأنيث جاز احالة على الظاهر ويمكن أن يقول الذي قرأ بالرفع ان قوله اذا وقعت الواقعة تأنيث تهويل ومبالغة يدل عليه قوله ليس لوقعتها كاذبة فانها للمبالغة فكذلك ههنا قال ان كانت الا صيحة مؤنثة تأنيث تهويل ولهذا جاءت اسماء يوم الحشر كلها مؤنثة كالقيامة والقارعة والحاقة والطامة والصاخة الى غيرها والزمخشري يقول كاذبة بمعنى ليس لوقعتها نفس كاذبة وتأنيث اسماء الحشر لكون الحشر مسمى بالقيامة وقوله محضرون دل على أن كونهم ينسلون اجباري لا اختياري * ثم بين ما يكون في ذلك اليوم بقوله تعالى (فاليوم لا تظلم نفس شيأ ولا تجزون الا ما كنتم تعملون) فقوله لا تظلم نفس ليأمن المؤمن ولا تجزون الا ما كنتم تعملون ليياس المجرم الكافر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة في الخطاب عند الاشارة الى يأس المجرم بقوله ولا تجزون وترك الخطاب في الاشارة الى أمان المؤمن من العذاب بقوله لا تظلم ولم يقل ولا تظلمون أيها المؤمنون نقول لان قوله لا تظلم نفس شيأ يفيد العموم وهو كذلك فانها لا تظلم أبدا ولا تجزون مختص بالكافر فان الله يجزي المؤمن وان لم يفعل فان لله فضلا مختصا بالمؤمن وعدلا عاما وفيه بشارة (المسئلة الثانية) ما المقتضى لذكر فاء التعقيب نقول لما قال محضرون مجموعون والجمع للفصل والحساب فكأنه تعالى قال اذا جمعوا لم يجمعوا الا للفصل بالعدل فلا ظلم عند الجمع للعدل فصار عدم الظلم مترتبا على الاحضار للعدل ولهذا يقول القائل للوالي أو للقاضي جلست للعدل فلا تظلم أي ذلك يقتضي هذا ويستعقبه (المسئلة الثالثة) لا يجزون عين ما كانوا يعملون بل يجزون بما كانوا أو على ما كانوا وقوله ولا تجزون الا ما كنتم تعملون يدل على أن الجزاء بعين العمل لا يقال جزى يتعدى بنفسه وبالباء يقال جزيته خيرا وجزيته بخير لان ذلك ليس من هذا لانك اذا قلت جزيته بخير لا يكون الخير مفعولك بل تكون الباء للمقابلة والسببية كأنك تقول جزيته جزاء بسبب

أو ضيافة الله تعالى أو شغلهم عما فيه أهل النار على الاطلاق أو شغلهم عن أهاليهم في النار لا يهمهم أمرهم ولا يبالون بهم كيلا يدخل عليهم تنغيص في نعيمهم كما روى كل واحد منها عن واحد من أكابر السلف فليس مرادهم بذلك حصر شغلهم فيما ذكروه فقط بل بيان أنه من جملة أشغالهم وتخصيص كل منهم كلا من تلك الامور بالذكر محمول على اقتضاء مقام البيان اياه وهو مع جاره خبر لان وفاكهون خبر آخر لها أي انهم مستقرون في شغل وأي شغل في شغل عظيم الشان متنعمون بنعيم مقيم فائزون بملك كبير والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسمية قبل تحققها بتنزيل المترقب المتوقع منزلة الواقع للايذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها ولزيادة مساءة المخاطبين بذلك وقرئ في شغل بسكون الغين وفي شغل بفتحتين وبفتحة وسكون والكل لغات وقرئ فكهون للمبالغة وفكهون بضم الكاف وهي لغة كنطس وفاكهين وفكهين على الحال من المستكن في الظرف وقوله تعالى (هم وأزواجهم في ظلال على الارائك متكئون) استئناف مسوق لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلهما بما يزيدهم بهجة وسرورا من شركة

أزواجهم لهم فيما هم فيه من الشغل والفكاهة على أن هم مبتدأ وأزواجهم عطف عليه ومتكؤن خبر والجاران صلتان له قدمتا عليه لمراعاة الفواصل أو هو والجاران بما تعلقا به من الاستقرار أخبار مترتبة وقيل

ما فعل فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك اشارة على وجه المبالغة الى عدم الزيادة وذلك لان الشئ لا يزيد على عينه فنقول قوله تعالى تجزون بما كانوا يعملون فى المساواة كانه عين ما عملوا يقال فلان يجاوبني حرفا بحرف أى لا يترك شيئا وهذا يوجب اليأس العظيم (الثانى) هو ان ما غير راجع الى الخصوص وانما هى للجنس تقديره ولا تجزون الا جنس العمل أى ان كان حسنة فحسنة وان كانت سيئة فسيئة فتجزون ما تعملون من السيئة والحسنة وهذا كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها * ثم بين حال المحسن وقال (ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وأزواجهم فى ظلال على الارائك متكؤن لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) وقوله فى شغل يحتمل وجوها (أحدها) فى شغل عن هول اليوم بأخذ ما آتاهم الله من الثواب فما عندهم خبر من عذاب ولا حساب وقوله فاكهون يكون متمما لبيان سلامتهم فانه لو قال فى شغل جاز أن يقال هم فى شغل أعظم من التفكر فى اليوم وأهواله فان من يصيبه فتنة عظيمة ثم يعرض عليه أمر من أموره ويخبر بخسران وقع فى ماله يقول أنا مشغول عن هذا بأهم منه فقال فاكهون أى شغلوا عنه باللذة والسرور لا بالويل والثبور (وثانيها) ان يكون ذلك بيانا لحالهم ولا يريد انهم شغلوا عن شئ بل يكون معناه هم فى عمل ثم بين عملهم بانه ليس بشاق بل هو ملذ محبوب (وثالثها) فى شغل عما توقعوه فانهم تصوروا فى الدنيا أمورا وقالوا نحن اذا دخلنا الجنة لا نطلب الا كذا وكذا فرأوا ما لم يخطر ببالهم فاشتغلوا به وفيه وجوه غير هذه ضعيفة (أحدها) قيل افتضاض الابكار وهذا ما ذكرناه فى الوجه الثالث ان الانسان قد يترجح فى نظره الآن مداعبة الكواعب فيقول فى الجنة التذ بها ثم ان الله ربما يؤتيه ما يشغله عنها (وثانيها) قيل فى ضرب الاوتار وهو من قبيل ما ذكرناه توهم (وثالثها) فى التزاور (ورابعها) فى ضيافة الله وهو قريب مما قلنا لان ضيافة الله تكون بالذ ما يمكن وحينئذ تشغله تلك عما توهمه فى دنياه وقوله فاكهون خبر ان وفى شغل بيان ما فكاهتهم فيه يقال زيد على عمله مقبل وفى بيته جالس فلا يكون الجار والمجرور خبرا ولو نصبت جالسا لكان الجار والمجرور خبرا وكذلك لو قال فى شغل فاكهين لكان معناه أصحاب الجنة مشغولون فاكهين على الحال وقرئ بالنصب والفاكهة الملتذ المتنعم به ومنه الفاكهة لانها لا تكون فى السعة الا للذة ولا تؤكل لدفع ألم الجوع وفيه معنى لطيف وهو انه اشار بقوله فى شغل عن عدمهم الالم فلا ألم عندهم ثم بين بقوله فاكهون عن وجدانهم اللذة وعادم الالم قد لا يكون واجد اللذة فبين انهم على أتم حال ثم بين الكمال بقوله هم وأزواجهم وذلك لان من يكون فى لذة قد تتنغص عليه بسبب تفكره فى حال من يهمه أمره فقال هم وأزواجهم أيضا فلا يبقى لهم تعلق قلب وأما من فى النار من أقاربهم وأخوانهم فيكونون هم عنهم فى شغل ولا يكون منهم عندهم ألم ولا يشتهون حضورهم والازواج يحتمل وجهين (أحدهما) أشكالهم فى الاحسان وأمثالهم فى الايمان كما قال تعالى من شكله أزواج (وثانيهما)

الخبر هو الظرف الاول والثانى مستأنف على أنه متعلق بمتكؤن وهو خبر لمبتدأ محذوف وقيل على أنه خبر مقدم ومتكؤن مبتدأ مؤخر وقرئ متكئين بلا همز نصبا على الحال من المستكن فى الظرفين أو أحدهما وقيل هم تأكيد للمستكن فى خبر ان ومتكؤن خبر آخر لها وعلى الارائك متعلق به وكذا فى ظلال أو هذا بمضمر هو حال من المعطوفين و الضلال جمع ظل كشعاب جمع شعب أو جمع ظلة كقباب جمع قبة ويؤيده قراءة فى ظلل والارائك جمع أريكة وهى السرير المزين بالثياب والستور قال ثعلب لا تكون أريكة حتى تكون عليها حجلة وقوله تعالى (لهم فيها فاكهة) الخ بيان لما يتمتعون به فى الجنة من المآكل والمشارب ويتلذذون به من الملاذ الجسمانية والروحانية بعد بيان ما لهم فيها من مجالس الانس ومحافل القدس تكميلا لبيان كيفية ما هم فيه من الشغل والبهجة أى لهم فيها فاكهة

كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه وما في قوله تعالى (ولهم ما يدعون) موصولة أو موصوفة عبر بها عن مدعو عظيم الشان معين أو مبهم أيذانا بأنه الحقيق بالدعاء دون ما عداه ثم صرح به رومالزيادة التقرير بالتحقيق بعد التشويق كما ستعرفه أو هي باقية على عمومها قصد بها التعميم بعد تخصيص بعض المواد المعتاد بالذكر وأياما كان فهو مبتدأ ولهم خبره والجملة معطوفة على الجملة السابقة وعدم الاكتفاء بعطف ما يدعون على فاكهة لئلا يتوهم كونها عبارة عن توابع الفاكهة وتتماتها والمعنى ولهم ما يدعون به لانفسهم من مدعو عظيم الشان أو كل ما يدعون به كائنا ما كان من أسباب البهجة وموجبات السرور وأياما كان ففيه دلالة على أنهم في أقصى غاية البهجة والغبطة ويدعون يفتعلون من الدعاء كما أشير اليه مثل اشتوى واجتمل اذا شوى وجمل لنفسه وقيل بمعنى يتداعون كالارتماء بمعنى الترامي وقيل بمعنى يتمنون من قولهم ادع على ما شئت بمعنى تمنه على وقال الزجاج هو من الدعاء أي ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم فيكون الافتعال بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحلة ويعضده القراءة بالتخفيف كما ذكره الكواشي ﴿ وان ﴾

الازواج هم انفسهم من زوج المرأة وزوجة الرجل كما في قوله تعالى الاعلى أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم وقوله تعالى ويذرون أزواجا فان المراد ليس هو الاشكال قوله في ظلال جمع ظل وظلل جمع ظلة والمراد به الوقاية عن مكان الالم فان الجالس تحت كن لا يخشى المطر ولا حر الشمس فيكون به مستعدا لدفع الالام فكذلك لهم من ظل الله ما يقيهم الاسواء كما قال تعالى لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب وقال لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا اشارة الى عدم الآلام (وفيه لطيفة) أيضا وهي ان حال المكلف اما ان يكون اختلالها بسبب ما فيه من الشغل وان كان في مكان عال كالقاعد في حر الشمس في البستان المتنزه أو يكون بسبب المكان وان كان الشغل مطلوبا كملاعبة الكواعب في المكان المكشوف واما ان يكون بسبب المأكل كالمتفرج في البستان اذا أعوزه الطعام واما بسبب فقد الحبيب والى هذا يشير أهل القلب في شرائط السماع بقولهم الزمان والمكان والاخوان فقال تعالى في شغل فاكهون اشارة الى أنهم ليسوا في تعب وقال هم وأزواجهم اشارة الى عدم الوحدة الموحشة وقال في ظلال على الارائك متكؤن اشارة الى المكان وقال لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون اشارة الى دفع جميع حوائجهم وقوله متكؤن اشارة الى أدل وضع على القوة والفراغة فان القائم قد يقوم لشغل والقاعد قد يقعد لهم وأما المتكئ فلا يتكئ الاعند الفرغ والقدرة لان المريض لا يقدر على الاتكاء وانما يكون مضطجعا أو مستلقيا والارائك جمع أريكة وهي السرير الذي عليه الفرش وهو تحت الحجلات فيكون مرئيا هو وما فوقه وقوله لهم فيها فاكهة اشارة الى أن لا جوع هناك وليس الاكل لدفع ألم الجوع وانما ما كولهم فاكهة ولو كان لحما طريا لا يقال قوله تعالى ولحم طير مما يشتهون يدل على التغاير وصدق الشهوة وهو الجوع لانا نقول قوله مما يشتهون يؤكد معنى عدم الالم لان أكل الشئ قد يكون للتداوي من غير شهوة فقال مما يشتهون لان لحم الطير في الدنيا يؤكل في حالتين (احداهما) حالة المتنعم (والثانية) حالة ضعف المعدة وحينئذ لا يأكل لحم طير يشتهيه وانما يأكل ما يوافقه ويأمره به الطبيب وأما انه يدل على التغاير فنقول مسلم ذلك لان الخاص يخالف العام على ان ذلك لا يقدح في غرضنا لانا نقول انما اختار من أنواع المأكول الفاكهة في هذا الموضع لانها أدل على التنعم والتلذذ وعدم الجوع والتنكير لبيان الكمال وقد ذكرناه مرارا وقوله لهم فيها فاكهة ولم يقل يأكلون اشارة الى كون زمام الاختيار بيدهم وكونهم مالكين وقادرين وقوله ولهم ما يدعون فيه وجوه (أحدها) لهم فيها ما يدعون لانفسهم أي دعاؤهم مستجاب وحينئذ يكون هذا افتعالا بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحيل وعلى هذا فليس معناه انهم يدعون لانفسهم دعاء فيستجاب دعاؤهم بعد الطلب بل معناه ولهم ما يدعون لانفسهم أي ذلك لهم فلا حاجة لهم الى الدعاء والطلب كما ان الملك اذا طلب منه مملوكه شيئا يقول لك ذلك فيفهم منه تارة ان طلبك مجاب

وقوله تعالى (سلام) على التقدير الاول بدل ﴿ ١٠٥ ﴾ من مايدعون أو خبر لمبتدأ محذوف وقوله تعالى (قولا)

وأن هذا أمر هين بأنه يعطي ماطلبت ويفهم تارة منه الرد وبيان أن ذلك حاصل فلم تطلبه فقال تعالى ولهم مايدعون ويطلبون فلا طلب لهم وتقريره هو أن يكون مايدعون بمعنى مايصح أن يطلب ويدعى يعني كل مايصح أن يطلب فهو حاصل لهم قبل الطلب أو نقول المراد الطلب والاجابة وذلك لان الطلب من الله أيضا فيه لذة فلو قطع الله الاسباب بينهم وبينه لما كان يطيب لهم فأبقى أشياء يعطيهم اياها عند الطلب ليكون لهم عند الطلب لذة وعند العطاء فان كون المملوك بحيث يتمكن من أن يخاطب الملك في حوائجه منصب عظيم والملك الجبار قد يدفع حوائج المماليك بأسرها قصدا منه لئلا يخاطب (الثاني) مايدعون مايتداعون وحينئذ يكون افتعالا بمعنى التفاعل كالاقتتال بمعنى التقاتل ومعناه ماذكرناه ان كل مايصح ان يدعو احد صاحبه اليه أو يطلبه أحد من صاحبه فهو حاصل لهم (الثالث) مايتمنونه (الرابع) بمعنى الدعوى ومعناه حينئذ انهم كانوا يدعون في الدنيا أن لهم الله وهو مولاهم وان الكافرين لامولى لهم فقال لهم في الجنة مايدعون به في الدنيا فتكون الحكاية محكية في الدنيا كأنه يقول في يومنا هذا لكم أيها المؤمنون غدا ماتدعون اليوم لايقال بان قوله ان أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال يدل على ان القول يوم القيامة لانا نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان قوله هم مبتدأ وأزواجهم عطف عليهم فيحتمل أن يكون هذا الكلام في يومنا هذا يخبرنا أن المؤمن وأزواجه في ظلال غدا وله مايدعيه (والجواب الثاني) وهو أولى هو ان نقول معناه لهم مايدعون أي ماكانوا يدعون * لايقال بأنه اضمار حيث لاضرورة وانه غير جائز لانا نقول على ماذكرنا يبقى الادعاء مستعملا في معناه المشهور ولان الدعاء هو الاتيان بالدعوى وانما قلنا ان هذا أولى لان قوله سلام قولا من رب رحيم هو في دار الآخرة وهو كالتفسير لقوله مايدعون ولان قوله مايدعون مذكور بين جمل كلها في الآخرة فمايدعون أيضا ينبغي أن يكون في الآخرة وفي الآخرة لايبقى دعوى وبينة لظهور الامور والفصل بين أهل الثبور والحبور * وقوله تعالى (سلام قولا من رب رحيم) هو أكمل الاشياء وهو آخرها الذي لاشئ فوقه ولنبينه في مسائل (المسئلة الاولى) ما الرافع لقوله سلام نقول يحتمل ذلك وجوها (أحدها) هو بدل مما يدعون كأنه تعالى لما قال لهم مايدعون بينه ببدله فقال لهم سلام فيكون في المعنى كالمبتدأ الذي خبره جار ومجرور كما يقال في الدار رجل ولزيد مال وان كان في النحو ليس كذلك بل هو بدل وبدل النكرة من المعرفة جائز فتكون ما بمعنى الذي معرفة وسلام نكرة ويحتمل على هذا أن يقال ما في قوله تعالى مايدعون لاموصوفة ولاموصولة بل هي نكرة تقديره لهم شئ يدعون ثم بين بذكر البدل فقال سلام والاول هو الصحيح (وثانيها) سلام خبر ما ولهم لبيان الجهة تقديره مايدعون سالم لهم أي خالص والسلام بمعنى السالم الخالص أو السليم يقال عبد سلام أي سليم من العيوب كما يقال لزيد الشرف متوفر والجار والمجرور يكون لبيان من له ذلك والشرف

مصدر مؤكد لفعل هو صفة السلام ومابعده من الجار متعلق بمضمر هو صفة له كأنه قيل ولهم سلام أو مايدعون سلام يقال لهم قولا كائنا (من) جهة (رب رحيم) أي يسلم عليهم من جهته تعالى بواسطة الملك أو بدونها مبالغة في تعظيمهم قال ابن عباس رضي الله عنهما والملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين وأما على التقدير الثاني فقد قيل انه خبر لما يدعون ولهم لبيان الجهة كما يقال لزيد الشرف متوفر على أن الشرف مبتدأ ومتوفر خبره والجار والمجرور لبيان من له ذلك أي مايدعون سالم لهم خالص لاشوب فيه وقولا حينئذ مصدر مؤكد لمضمون الجملة أي عدة من رب رحيم والاوجه أن ينتصب على الاختصاص وقيل هو مبتدأ محذوف الخبر أي لهم سلام أي تسليم قولا من رب رحيم أو سلامة من الآفات

هو المبتدأ ومتوفر خبره (وثالثها) قوله تعالى سلام منقطع عما تقدم وسلام مبتدأ وخبره محذوف تقديره سلام عليهم فيكون ذلك اخبارا من الله تعالى في يومنا هذا كأنه تعالى حكى لنا وقال ان أصحاب الجنة اليوم في شغل ثم لما بين كمال حالهم قال سلام عليهم وهذا كما في قوله تعالى سلام على نوح وسلام على المرسلين فيكون الله تعالى أحسن الى عباده المؤمنين كما أحسن الى عباده المرسلين وهذا وجه مبتكر جيد ما يدل عليه منقول أو نقول تقديره سلام عليكم و يكون هذا نوعا من الالتفات حيث قال لهم كذا وكذا ثم قال سلام عليكم (المسئلة الثانية) قولا منصوب بماذا نقول يحتمل وجوها (أحدها) نصب على المصدر تقديره على قولنا المراد لهم سلام هو أن يقال لهم سلام يقوله الله قولا أو تقوله الملائكة قولا وعلى قولنا ما يدعون سالم لهم تقديره قال الله ذلك قولا ووعدهم بأن لهم ما يدعون سالم وعدا وعلى قولنا سلام عليهم تقديره أقوله قولا وقوله من رب رحيم يكون لبيان ان السلام منه أي سلام عليهم من رب رحيم أقوله قولا و يحتمل ان يقال على هذا انه تمييز لان السلام قد يكون قولا وقد يكون فعلا فان من يدخل على الملك فيطاطئ رأسه يقول سلمت على الملك وهو حينئذ كقول القائل البيع موجود حكما لا حسا وهذا ممنوع عنه قطعا لا ظنا (المسئلة الثالثة) قال في السلام من رب رحيم وقال في غيره من أنواع الاكرام نزلا من غفور رحيم فهل بينهما فرق نقول نعم أما هناك فلان النزل ما يرزق النزيل أولا وذلك وان كان يدل عليه ما بعده فان النزيل اذا أكرم أولا يدل على انه مكرم واذا أخل باكرامه في الاول يدل على انه مهان دائما غير ان ذلك غير مقطوع به لجواز أن يكون الملك واسع الرزق فيرزق نزيله أولا ولا يمنع منه الطعام والشراب و يناقشه في غيره فقال غفور لما صدر من العبيد ليأمن العبد ولا يقول بأن الاطعام قد يوجد ممن يعاقب بعده والسلام يظهر مزية تعظيمه للمسلم عليه لا بمغفرة فقال رب غفور لان رب الشئ مالكه الذي اذا نظر الى علو مرتبته لا يرجى منه الالتفات اليه بالتعظيم فاذا سلم عليه يجب منه وقيل انظر هو سيده و يسلم عليه * ثم قوله تعالى (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) وفيه وجوه منها تبيين وجه الترتيب أيضا (الاول) امتازوا في أنفسكم وتفرقوا كما قال تعالى تكاد تميز من الغيظ أي بعضه من بعض غير أن تميزهم من الحسرة والندامة ووجه الترتيب حينئذ ان المجرم يرى منزلة المؤمن ورفعته ونزول دركته وضعته فيتحسر فيقال لهم امتازوا اليوم اذ لادواء لألمكم ولا شفاء لسقمكم (الثاني) امتازوا عن المؤمنين وذلك لانهم يكونون مشاهدين لما يصل الى المؤمن من الثواب والاكرام ثم يقال لهم تفرقوا وادخلوا مساكنكم من النار فلم يبق لكم اجتماع بهم ابدا (الثالث) امتازوا بعضكم عن بعض على خلاف ما للمؤمن من الاجتماع بالاخوان الذي أشار اليه بقوله تعالى هم وأزواجهم فأهل النار يكون لهم العذاب الأليم وعذاب الفرقة أيضا ولا عذاب فوق الفرقة بل العقلاء قالوا بأن كل عذاب فهو بسبب تفرق اتصال

لهم من جهته تعالى يومئذ وقول خبر الفعل المقدر ناصبا لقولا وقيل خبره من رب رحيم وقرئ سلاما بالنصب على الحالية أي لهم مرادهم سالما خالصا وقرئ سلم وهو بمعنى السلام في المعنيين (وامتازوا اليوم) عطف اما على الجملة السابقة المسوقة لبيان أحوال أهل الجنة لا على أن المقصود عطف فعل الامر بخصوصه حتى يتمحل له مشاكل يصح عطفه عليه بل على أنه عطف قصة سوء حال هؤلاء و كيفية عقابهم على قصة حسن حال أولئك ووصف ثوابهم كما في قوله تعالى و بشر الذين آمنوا الآية وكأن تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين الفريقين وحاليهما واما على مضمر ينساق اليه حكاية حال أهل الجنة كأنه قيل اثر بيان كونهم في شغل عظيم الشأن وفوزهم بنعيم مقيم يقصر عنه البيان

فان من قطعت يده أو احرق جسمه فانما يألم بسبب تفرق المتصلات بعضها عن بعض لكن التفرق الجسمي دون التفرق العقلي (الرابع) امتازوا عن شفعائكم وقرنائكم فالكم اليوم حميم ولا شفيع (الخامس) امتازوا عما ترجون واعتزلوا عن كل خير والمجرم هو الذي يأتي بالجريمة ويحتمل أن يقال ان المراد منه ان الله تعالى يقول امتازوا فيظهر عليهم سيما يعرفون بها كما قال تعالى يعرف المجرمون بسيماهم وحينئذ يكون قوله تعالى امتازوا أمر تكوين كما أنه يقول كن فيكون كذلك يقول امتازوا فيتميزون بسيماهم ويظهر على جباههم أو في وجوههم سواد * ثم قال تعالى (ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين) لما ذكر الله تعالى حال المؤمنين والمجرمين كان لقائل أن يقول ان الانسان كان ظلوما جهولا والجهل من الاعذار فقال الله ذلك عند عدم الانذار وقد سبق ايضاح السبل بايضاح الرسل وعهدنا اليكم وتلونا عليكم ما ينبغي أن تفعلوه ومالا ينبغي * وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) في اللغات التي في أعهد وهي كثيرة (الاولى) كسر همزة أعهد وحروف الاستقبال كلها تكسر الا الياء فلا يقال يعلم ويعلم (الثانية) كسر الهاء من باب ضرب يضرب (الثالثة) قلب العين حيما ألم أحهد وذلك في كل عين بعدها هاء (الرابعة) ادغام الهاء في الحاء بعد القلب فيقال ألم أحد وقد سمع قوم يقولون دحا محا أي دعها معها (المسئلة الثانية) في معنى أعهد وجوه أقربها وأقواها ألم أوص اليكم (المسئلة الثالثة) في هذا العهد وجوه (الاول) انه هو العهد الذي كان مع أبينا آدم بقوله وعهدنا الى آدم (الثاني) انه هو الذي كان مع ذرية آدم بقوله تعالى ألست بربكم قالوا بلى فان ذلك يقتضي أن لا نعبد غير الله (الثالث) وهو الاقوى ان ذلك كان مع كل قوم على لسان رسول ولذلك اتفق العقلاء على ان الشيطان يأمر بالشر وان اختلفوا في حقيقته وكيفيته (المسئلة الرابعة) قوله لا تعبدوا الشيطان معناه لا تطيعوه بدليل ان المنهي عنه ليس هو السجود له فحسب بل الانقياد لامره والطاعة فالطاعة عبادة لا يقال فنكون نحن مأمورين بعبادة الامراء حيث أمرنا بطاعتهم في قوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم لانا نقول طاعتهم اذا كانت بأمر الله لا تكون الا عبادة لله وطاعة له وكيف لا ونفس السجود والركوع للغير اذا كان بأمر الله لا يكون الا عبادة لله ألا ترى ان الملائكة سجدوا لآدم ولم يكن ذلك الا عبادة لله وانما عبادة الامراء هو طاعتهم فيما لم يأذن الله فيه فان قيل بماذا تعلم طاعة الشيطان من طاعة الرحمن مع انا لا نسمع من الشيطان خبرا ولا نرى منه أثرا نقول عبادة الشيطان في مخالفة أمر الله أو الاتيان بما أمر الله لا لانه أمر به ففي بعض الاوقات يكون الشيطان يأمرك وهو في غيرك وفي بعض الاوقات يأمرك وهو فيك فاذا جاءك شخص يأمرك بشيء فانظر ان كان ذلك موافقا لامر الله أو ليس موافقا فان لم يكن موافقا فذلك الشخص معه الشيطان يأمرك بما يأمرك به فان أطعته فقد

يكون فيه لا يرى ولا يرى. وأما ما قيل من أن المضمر فليتمازوا فيعتزل من السداد لما أن المحكي عنهم ليس مصيرهم الى ما ذكر من الحال المرضية حتى ينسى ترتيب الامر المذكور عليه بل انما هو استقرارهم عليها بالفعل وكون ذلك بطريق تنزيل المترقب منزلة الواقع لا يجدي نفعا لان مناط الاضمار انسياق الافهام اليه وانصباب نظم الكلام عليه فبعد ما نزلت تلك الحالة منزلة الواقع بالفعل لما اقتضاه المقام من النكتة البارعة والحكمة الرائعة حسبما مر بيانه واسقط كونها مترقبة عن درجة الاعتبار بالكلية يكون التصدي لاضمار شيء يتعلق به اخراجا للنظم الكريم عن الجزالة بالمرة (ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان) من جملة ما يقال لهم بطريق التقريع والالزام والتبكيت بين الامر بالامتياز وبين الامر بدخول جهنم

عبدت الشيطان واندعتك نفسك الى فعل فانظر أهو مأذون فيه من جهة الشرع أو ليس كذلك فان لم يكن مأذونا فيه فنفسك هي الشيطان أو معها الشيطان يدعوك فان اتبعته فقد عبدته ثم ان الشيطان يأمر أولا بمخالفة الله ظاهرا فمن أطاعه فقد عبده ومن لم يطعه فلا يرجع عنه بل يقول له اعبد الله كي لا تهان وليرتفع عند الناس شأنك وينتفع بك اخوانك واعوانك فان أجاب اليه فقد عبده لكن عبادة الشيطان على تفاوت وذلك لان الاعمال منها ما يقع والعامل موافق فيه جنانه ولسانه وأركانه ومنها ما يقع والجنان واللسان مخالف للجوارح أو للاركان فمن الناس من يرتكب جريمة كارها بقلبه لما يقترف ذنبه مستغفرا لربه يعترف بسوء ما يقترف فهو عبادة الشيطان بالاعضاء الظاهرة ومنهم من يرتكبها وقلبه طيب ولسانه رطب كما انك تجد كثيرا من الناس يفرح بكونه مترددا الى أبواب الظلمة للسعاية ويعد من المحاسن كونه سار يا مع الملوك ويفتخر به بلسانه وتجدهم يفرحون بكونهم آمرين الملك بالظلم والملك ينقاد لهم أو يفرحون بكونه يأمرهم بالظلم فيظلمون فرحين بما ورد عليهم من الامر اذا عرفت هذا فالطاعة التي بالاعضاء الظاهرة والبواطن طاهرة مكفرة بالاسقام والآلام كما ورد في الاخبار ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم الحمى من فيح جهنم وقوله صلى الله عليه وسلم السيف محاء للذنوب أي لمثل هذه الذنوب ويدل عليه ما قال صلى الله عليه وسلم في الحدود انها كفارات ومايكون بالقلوب فلا خلاص عنه الا بالتوبة والندم واقبال القلب على الرب ومايكون باللسان فهو من قبيل مايكون بالقلب في الظاهر والمثال يوضح الحال فنقول اذا كان عند السلطان أمير وله غلمان هم من خواص الامير واتباع بعداء هم من عوام الناس فاذا صدر من الامير مخالفة ومسارة مع عدو السلطان ومصادقة بينهما لا يعفو الملك عن ذلك الا اذا كان في غاية الصفح أو يكون للامير عنده يد سابقة أو توبة لاحقة فان صدر من خواص الامير مخالفة وهو به عالم ولم يزجره عدت المخالفة موجودة منه وان كان كارها وأظهر الانكار حسنت معاتبته دون معاقبته لان اقدام خواصه على المخالفة دليل على سوء التربية فان كان الصادر من الحواشي الاباعد وبلغ الامير ولم يزجره عوتب الامير وان زجرهم استحق الامير بذلك الزجر الاكرام وحسن من الملك أن يسدي الى المزجور الاحسان والانعام ان علم حصول انزجاره اذا علمت هذا فالقلب أمير واللسان خاصته والاعضاء خدمه فما يصدر من القلب فهو العظيم من الذنب فان أقبل على محبة غير الله فهو الويل العظيم والضلال المبين المستعقب للعقاب الأليم والعذاب المهين ومايصدر من اللسان فهو محسوب على القلب ولا يقبل قوله انه لم ينكر فعله ومايصدر من الاعضاء والقلب قد أظهر عليه الانكار وحصل له الانزجار فهو الذنب الذي حكى النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه أنه قال لو لم تذنبوا لخلقت أقواما يذنبون ويستغفرون فاغفر لهم وههنا لطيفة وهي ان الشيطان قد يرجع عن عبد من عباد الله فرحا فيظن انه قد

تعالى على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام من الاوامر والنواهي التي من جملتها قوله تعالى يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة الآية وقوله تعالى ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين وغيرهما من الآيات الكريمة الواردة في هذا المعنى وقيل هو الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهور بني آدم وأشهدوا على أنفسهم وقيل هو مانصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادته تعالى الزاجرة عن عبادة غيره والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به اليهم ويزينه لهم عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها ولوقوعها في مقابلة عبادته عز وجل وقرئ اعهد بكسر الهمزة واعهد بكسر الهاء واحهد بالحاء مكان العين واحد بالادغام وهي لغة بني تميم

حصل مقصوده من الاغواء حيث يرى ذلك العبد ارتكب الذنب ظاهرا ويكون ذلك رافعا لدرجة العبد فان بالذنب ينكسر قلب العبد فيتخلص من الاعجاب بنفسه وعبادته ويصير أقرب من المقربين لان من لم يذنب مقرب عند الله كما قال تعالى لهم درجات عند ربهم والمذنب التائب النادم منكسر القلب والله عنده كما قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه أنا عند المنكسرة قلوبهم وفرق بين من يكون عند الله وبين من يكون عنده الله ولعل ما يحكى من الذنوب الصادرة عن الانبياء من هذا القبيل لتحصل لهم الفضيلة على الملائكة حيث تبجحوا بأنفسهم بقولهم ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك وقد يرجع الشيطان عن آخر يكون قد أمره بشئ فلم يفعله والشخص يظن انه غلب الشيطان ورده خائبا فيتبجح فى نفسه وهو لا يعلم ان الشيطان رجع عنه بحصل المقصود مقبولا غير مردود ومن هذا يتبين أمر اصولى وهو ان الناس اختلفوا فى ان المذنب هل يخرج من الايمان أم لا وسبب النزاع وقوع نظر الخصمين على أمرين متباينين فالذنب الذى بالجسد لا بالقلب لا يخرج بل قد يزيد فى الايمان والذى بالقلب يخاف منه الخروج عن ربقة الايمان ولذلك اختلفوا فى عصمة الانبياء من الذنوب والاشبه ان الجسدى جائز عليهم والقرآن دليل عليه والقلبى لا يجوز عليهم ثم انه تعالى لما نهى عباده عن عبادة الشيطان ذكر ما يحملهم على قبول ما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه بقوله انه لكم عدو مبين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) من أين حصلت العداوة بين الشيطان والانسان فنقول ابتداؤها من الشيطان وسببه تكريم الله بنى آدم لما رأى ابليس ربه كرم آدم وبنيه عاداهم فعاداه الله تعالى والاول منه لؤم والثانى من الله كرم أما الاول فلان الملك اذا اكرم شخصا ولم ينقص من الآخر شيئا اذ لا ضيق فى الخزانة فعداوة من يعادى ذلك المكرم لا تكون الا لؤما وأما الثانى فلان الملك اذا علم ان اكرامه ليس الا منه وذلك الضعيف ما كان يقدر ان يصل الى بعض تلك المنزلة لولا اكرام الملك يعلم أن من يبغضه ينكر فعل الملك أو ينسب الى خزانته ضيقا وكلاهما يحسن التعذيب عليه فيعاديه اتماما للاكرام واكمالا للافضال ثم ان كثيرا من الناس على مذهب ابليس اذا رأوا واحدا عند ملك محترما يبغضوه وسعوا فيه اقامة لسنة ابليس فالملك ان لم يكن متخلقا باخلاق الله لا يبعد الساعى ويسمع كلامه ويترك اكرام ذلك الشخص واحترامه (المسئلة الثانية) من أين ابانة عداوة ابليس نقول لما أكرم الله آدم عاداه ابليس وظن أنه يبقى فى منزلته وآدم فى منزلته مثل متباغضين عند الملك والله كان عالما بالضمائر فأبعده وأظهر أمره وأظهر هو من نفسه ما كان يخفيه لزوال ما كان يحمله على اخفاء فقال لأقعدن لهم صراطك المستقيم وقال لاحتنكن ذريته (المسئلة الثالثة) اذا كان الشيطان للانسان عدوا مبينا فما بال الانسان يميل الى مراضيه من الشرب والزنا ويكره مساخطه من المجاهدة والعبادة نقول سبب ذلك استعانة الشيطان باعوان من عند الانسان وترك استعانة

(انه لكم عدو مبين) أى ظاهر العداوة وهو تعليل لوجوب الانتهاء عن المنهى عنه وقيل تعليل للنهى (وأن اعبدونى) عطف على أن لا تعبدوا على أن فيهما مفسرة للعهد الذى فيه معنى القول بالنهى والامر أو مصدرية حذف عنها الجار أى ألم أعهد اليكم فى ترك عبادة الشيطان وفى عبادتى وتقديم النهى على الامر لما أن حق التخلية التقدم على التحلية كما فى كلمة التوحيد وليتصل به قوله تعالى (هذا صراط مستقيم) فانه اشارة الى عبادته تعالى التى هى عبارة عن التوحيد والاسلام وهو المشار اليه بقوله تعالى هذا صراط على مستقيم والمقصود بقوله تعالى لأقعدن لهم صراطك المستقيم والتنكير للتفخيم واللام فى قوله تعالى (ولقد أضل منكم جبلا كثيرا) جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوق لتشديد التوبيخ وتأكيد التقريع ببيان أن جناياتهم ليست بنقض العهد فقط بل به وبعدم الاتعاظ بما

الانسان بالله فيستعين بشهوته التي خلقها الله تعالى فيه لمصالح بقائه وبقاء نوعه ويجعلها سببا لفساد حاله ويدعوه بها الى مسالك المهالك وكذلك يستعين بغضبه الذي خلقه الله فيه لدفع المفاسد عنه ويجعله سببا لوباله وفساد أحواله وميل الانسان الى المعاصي كميل المريض الى المضار وذلك حيث ينحرف المزاج عن الاعتدال فترى المحموم يريد الماء البارد وهو يزيد في مرضه * ومن به فساد المعدة فلا يهضم القليل من الغذاء يميل الى الاكل الكثير ولا يشبع بشيء وهو يزيد في معدته فسادا وصحيح المزاج لا يشتهي الاما ينفعه فالدنيا كالهواء الوبيء لا يستغني الانسان فيه عن استنشاق الهواء وهو المفسد لمزاجه ولا طريق له غير اصلاح الهواء بالروائح الطيبة والاشياء الزكية والرش بالخل والماورد من جملة المصلحات فكذلك الانسان في الدنيا لا يستغني عن أمورها وهي المعينات للشيطان وطريقه ترك الهوى وتقليل التأميل وتحريف الهوى بالذكر الطيب والزهد فاذا صح مزاج عقله لا يميل الا الى الحق ولا يبقى عليه في التكاليف كلفة ويحصل له مع الامور الالهية الفة وهنالك يعترف الشيطان بأنه ليس له عليه سلطان * ثم قال تعالى (وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) لما منع من عبادة الشيطان حمل على عبادة الرحمن والشارع طبيب الارواح كما ان الطبيب طبيب الاشباح وكما ان الطبيب يقول للمريض لا تفعل كذا ولا تأكل من ذا وهي الحمية التي هي رأس الدواء لئلا يزيد مرضه ثم يقول له تناول الدواء الفلاني تقوية لقوته المقاومة لمرضه كذلك الشارع منع من المفسد وهو اتباع الشيطان وحمل على المصلح وهو عبادة الرحمن وفيه مسائل

(المسئلة الاولى) عند المنع من عبادة الشيطان قال انه لكم عدو مبين لان العداوة أبلغ الموانع من الاتباع وعند الامر بعبادة الرحمن لم يقل انه لكم حبيب لان المحبة لا توجب متابعة المحبوب بل ربما يورث ذلك الاتكال على المحبة فيقول انه يحبني فلا حاجة الى تحمل المشقة في تحصيل مراضيه بل ذكر ما هو أبلغ الاشياء في الحمل على العبادة وذلك كونه طريقا مستقيما وذلك لان الانسان في دار الدنيا في منزل قفر مخوف وهو متوجه الى دار اقامة فيها اخوانه والنازل في بادية خالية يخاف على روحه وماله ولا يكون عنده شيء أحب من طريق قريب آمن فلما قال الله تعالى هذا صراط مستقيم كان ذلك سببا حاثا على السلوك وفي ضمن قوله تعالى هذا صراط اشارة الى ان الانسان مجتاز لانه لو كان في دار اقامة فقوله هذا صراط مستقيم لا يكون له معنى لان المقيم يقول وماذا أفعل بالطريق وانا من المقيمين (المسئلة الثانية) ماذا يدل على كونه طريقا مستقيما نقول الانسان مسافر اما مسافرة راجع الى وطنه واما مسافرة تاجر له متاع يتجر فيه وعلى الوجهين فالله هو المقصد وأما الوطن فلانه لا يوطن الا في مأمن ولا أمن الا عند ملك لا يزول ملكه لان عند زوال ملك الملوك لا يبقى الأمن والراحة والله سبحانه هو الذي ملكه دائم وكل ما عداه فهو فان وأما التجارة فلأن التاجر لا يقصد الا الى موضع يسمع أو يعلم ان

الذين من جملتهم كفار مكة خصوا بزيادة التوبيخ والتقريع لتضاعف جناياتهم والجبل بكسر الجيم والباء وتشديد اللام الخلق وقرئ بضمتين وتشديد وبضمتين وتخفيف وبضمة وسكون وبكسرتين وتخفيف وبكسرة وسكون والكل لغات وقرئ جبلا جمع جبلة كفطر وخلق في جمع فطرة وخلقة وقرئ جيلا بالياء وهو الصنف من الناس أي وبالله لقد أضل منكم خلقا كثيرا أو صنفا كثيرا عن ذلك الصراط المستقيم الذي أمرتكم بالثبات عليه فاصابهم لاجل ذلك ما أصابهم من العقوبات الهائلة التي ملأ الآفاق أخبارها وبقي مدى الدهر آثارها والفاء في قوله تعالى (أفلم تكونوا تعقلون) للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون أنها لضلالهم أو فلم تكونوا تعقلون شيئا أصلا حتى

لتاعه هناك زواجا والله تعالى يقول ان العمل الصالح عنده مثاب عليه مقابل باضعاف ما يستحق والله هو المقصود وعبادته توجه اليه ولاشك ان القاصد لجهة اذا توجه اليها يكون على الطريق المستقيم (المسئلة الثالثة) العبادة تنبئ عن معنى التذلل فلما قال لا تعبدوا الشيطان لزم أن يتكبر الانسان على ماسوى الله ولما قال وأن اعبدوني ينبغي أن لا يتكبر على الله لكن التكبر على ماسوى الله ليس معناه انه يرى نفسه خيرا من غيره فان نفسه من جملة ماسوى الله فينبغي أن لا يلتفت اليها ولو كانت متجملة بعبادة الله بل معنى التكبر على ماسوى الله ان لا ينقاد لشئ الا باذن الله وفي هذا التكبر غاية التواضع فانه حينئذ لا ينقاد الى نفسه وحظ نفسه في التفوق على غيره فلا يتفوق فيحصل التواضع التام ولا ينقاد لامر الملوك اذا خالفوا أمر الله فيحصل التكبر التام فيرى نفسه بهذا التكبر دون الفقير وفوق الامير * ثم ان الله تعالى ذكر ما ينبه لعداوة الشيطان بقوله تعالى (ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) في الجبل ست لغات كسر الجيم والباء مع تشديد اللام وضمهما مع التشديد وكسرهما مع التخفيف وضمهما معه وتسكين الباء وتخفيف اللام مع ضم الجيم ومع كسره (المسئلة الثانية) في معنى الجبل الجيم والباء واللام لا تخلو عن معنى الاجتماع والجبل فيه اجتماع الاجسام الكثيرة وجبل الطين فيه اجتماع أجزاء الماء والتراب وشاة جبلاء اذا كانت مجتمعة اللبن الكثير لا يقال البلجة نقض على ما ذكرتم فانها تنبئ عن التفرق فان الابلج خلاف المقرون لانا نقول هي لاجتماع الاماكن الخالية التي تسع المتمكنات فان البلجة والبلدة بمعنى والبلد سمي بلدا للاجتماع لا للتفرق فالجبل الجمع العظيم حتى قيل ان دون العشرة آلاف لا يكون جبلا وان لم يكن صحيحا (المسئلة الثالثة) كيف الاضلال نقول على وجهين أحدهما ان الاضلال تولية عن المقصود وصد عنه فالشيطان يأمر البعض بترك عبادة الله و بعبادة غيره فهو تولية فان لم يقدر يأمره بعبادة الله لامر غير الله من رياسة وجاه وغيرهما فهو صد وهو يفضي الى التولية لان مقصوده لو حصل لترك الله وأقبل على ذلك الغير فتحصل التولية * ثم بين مآل أهل الضلال بقوله تعالى (هذه جنهم التي كنتم توعدون) وحال الضال كحال شخص خرج من وطنه مخافة عدو فوقع في مشقة ولو أقام في وطنه لعل ذلك العدو كان لا يظفر به أو يرحمه كذلك حال من لم يتحرك لطاعة ولا عصيان كالمجانين وحال من استعمل عقله فأخطأ الطريق فان المجنون من اهل النجاة وان لم يكن من أهل الدرجات وقد قيل بأن البلاهة أدنى الى الخلاص من فطانة بتراء وذلك ظاهر في المحسوس فان لم يعرف الطريق اذا أقام بمكانه لا يبعد عن الطريق كثيرا ومن سار الى خلاف المقصد يبعد عنه كثيرا * ثم بين انهم واصلون اليها حاصلون فيها بقوله تعالى (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) وفي هذا الكلام ما يوجب شدة ندامتهم وحسرتهم من ثلاثة أوجه (أحدها) قوله تعالى اصلوها فانه أمر تنكيل واهانة كقوله

يخاطبون به بعد تمام التوبيخ والتقريع والالزام والتبكيت عند اشرافهم على شفير جهنم أي كنتم توعدونها على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام بمقابلة عبادة الشيطان مثل قوله تعالى لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقوله تعالى قال اذهب فمن تبعك منهم فان جنهم جزاؤكم جزاء موفورا وقوله تعالى قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم أجمعين وغير ذلك مما لا يحصى وقوله تعالى (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) أمر تنكيل واهانة كقوله تعالى ذق انك أنت العزيز الخ أي ادخلوها من فوق وقاسوا فنون عذابها اليوم بكفركم المستمر في الدنيا وقوله تعالى (اليوم نختم على أفواههم) أي نمنعها عن الكلام التفات الى الغيبة للايذان بأن ذكر أحوالهم القبيحة

ذق انك أنت العزيز الكريم (والثانى) قوله اليوم يعنى العذاب حاضر ولذاتك قد مضت وأيامها قد انقضت و بقى اليوم العذاب (الثالث) قوله تعالى بما كنتم تكفرون فان الكفر والكفران ينبئ عن نعمة كانت يكفر بها وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام ولهذا كثيرا ما يقول العبد المجرم افعلوا بى ما يأمر به السيد ولا تحضرونى بين يديه والى هذا المعنى أشار القائل

أليس بكاف لذى نعمة ❁ حياء المسئ من المحسن

❁ثم قال تعالى (اليوم نختم على افواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون) فى الترتيب وجوه (الاول) انهم حين يسمعون قوله تعالى بما كنتم تكفرون يريدون ينكرون كفرهم كما قال تعالى عنهم ما أشركنا وقالوا آمنا به فيختم الله على أفواههم فلا يقدرون على الانكار وينطق الله غير لسانهم من الجوارح فيعترفون بذنوبهم (الثانى) لما قال الله تعالى لهم ألم أعهد اليكم لم يكن لهم جواب فسكتوا وخرسوا وتكلمت أعضاؤهم غير اللسان وفى الختم على الافواه وجوه (أقواها) ان الله تعالى يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها وينطق جوارحهم فتشهد عليهم وانه فى قدرة الله يسير أما الاسكات فلا خفاء فيه وأما الانطاق فلان اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة فكما جاز تحركه بها جاز تحرك غيره بمثلها والله قادر على الممكنات والوجه الآخر انهم لا يتكلمون بشئ لانقطاع أعذارهم وانهتاك أستارهم فيقفون ناكسى الرؤس وقوف القنوط اليؤس لا يجد عذرا فيعتذر ولا مجال توبة فيستغفر وتكلم الايدى ظهور الامور بحيث لا يسع معه الانكار حتى تنطق به الايدى والابصار كما يقول القائل الحيطان تبكى على صاحب الدار اشارة الى ظهور الحزن والاول الصحيح وفيه لطائف لفظية ومعنوية (أما اللفظية فالاولى) منها هى ان الله تعالى أسند فعل الختم الى نفسه وقال نختم وأسند الكلام والشهادة الى الايدى والارجل لانه لو قال تعالى نختم على أفواههم وننطق أيديهم يكون فيه احتمال ان ذلك منهم كان جبرا وقهرا والاقرار بالاجبار غير مقبول فقال تعالى تكلمنا أيديهم وتشهد ارجلهم أى باختيارها بعدما يقدرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم (الثانية) منها هى ان الله تعالى قال تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم جعل الشهادة للارجل والكلام للايدى لان الافعال تسند الى الايدى قال تعالى وما عملته أيديهم أى ما عملوه وقال ولا تلقوا بأيديكم أى ولا تلقوا بأنفسكم فاذا الايدى كالعاملة والشاهد على العامل ينبغى أن يكون غيره فجعل الارجل والجلود من جملة الشهود لبعد اضافة الافعال اليها وأما المعنوية (فالاولى) منها ان يوم القيامة من تقبل شهادته من المقربين والصديقين كلهم أعداء للمجرمين وشهادة العدو على العدو غير مقبولة وان كان من الشهود العدول وغير الصديقين من الكفار والفساق غير مقبول الشهادة فجعل الله الشاهد عليهم منهم لا يقال الايدى والارجل أيضا صدرت

مقتضيات الختم لان الخطاب لتلقى الجواب وقد انقطع بالكلية وقرئ تختم (وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) يروى أنهم يجحدون و يخاصمون فتشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم فيحلفون ما كانوا مشركين فحينئذ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم وفى الحديث يقول العبد يوم القيامة انى لا أجيز على شاهدا الا من نفسى فيختم على فيه و يقال لاركانه انطقى فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه و بين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل وقيل تكليم الاركان وشهادتها دلالتها على أفعالها وظهور آثار المعاصى عليها وقرئ وتتكلم ايديهم وقرئ ولتكلمنا أيديهم ولتشهد بلام كى والنصب على معنى ولذلك نختم على أفواههم وقرئ ولتكلمنا أيديهم ولتشهد بلام الامر والجزم

(ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) الطمس تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة التي هي وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء أي لو نشاء أن نطمس على أعينهم لفعلناه وايثار صيغة الاستقبال وان كان المعنى على المضي لافادة أن عدم الطمس على أعينهم لاستمرار عدم المشيئة فان المضارع الواقع موقع الماضي ليس بنص في افادة انتفاء استمرار الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه بحسب المقام كما مر في قوله تعالى ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير (فاستبقوا الصراط) أي فأرادوا أن يستبقوا الى الطريق الذي اعتادوا سلوكه على أن انتصابه بنزع الجار أو هو بتضمين الاستباق معنى الابتدار أو بالظرفية (فأنى يبصرون) الطريق وجهة السلوك (ولو نشاء لمسخناهم) بتغيير صورهم وابطال قواهم (على مكانتهم) أي مكانهم الا أن المكانة أخص كالمقامة والمقام وقرئ على مكاناتهم أي لمسخناهم مسخا يجمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه باقبال ولا ادبار ولا رجوع وذلك قوله تعالى (فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون) أي ولا رجوعا فوضع موضعه الفعل لمراعاة الفاصلة عن ابن عباس رضي الله عنهما قردة وخنازير وقيل حجارة وعن قتادة لأقعدناهم على أرجلهم وأزمناهم وقرئ مضيا بكسر الميم وفتحها وليس مساق الشرطيتين لمجرد بيان قدرته تعالى على ما ذكر من عقوبة الطمس والمسخ بل لبيان أنهم بما هم عليه من الكفر ونقض العهد وعدم الاتعاظ بما شاهدوا من آثار دمار أمثالهم أحقاء بان يفعل بهم في الدنيا تلك العقوبة كما فعل بهم في الآخرة عقوبة الختم وأن المانع من ذلك ليس الا عدم تعلق المشيئة الالهية به كأنه قيل لو نشاء عقوبتهم بما ذكر من الطمس والمسخ جريا على موجب جناياتهم المستدعية لها لفعلناها ولكنا لم نشأها جريا على سنن الرحمة والحكمة الداعيتين الى امهالهم (ومن نعمره) أي نطل عمره (ننكسه في الخلق) أي نقلبه فيه

الذنوب منها فهي فسقة فينبغي أن لا تقبل شهادتها الا أنا نقول في رد شهادتها قبول شهادتها لانها ان كذبت في مثل ذلك اليوم فقد صدر الذنب منها في ذلك اليوم والمذنب في ذلك اليوم مع ظهور الامور لا بد من أن يكون مذنبا في الدنيا وان صدقت في ذلك اليوم فقد صدر منها الذنب في الدنيا وهذا كما قال لفاسق ان كذبت في نهار هذا اليوم فعبدي حر فقال الفاسق كذبت في نهار هذا اليوم عتق العبد لانه ان صدق في قوله كذبت في نهار هذا اليوم فقد وجد الشرط ووجب الجزاء وان كذب في قوله كذبت فقد كذب في نهار ذلك اليوم فوجد الشرط أيضا بخلاف ما لو قال في اليوم الثاني كذبت في نهار اليوم الذي علقت عتق عبدك على كذبي فيه (المسئلة الثانية) الختم لازم الكفار في الدنيا على قلوبهم وفي الآخرة على أفواههم ففي الوقت الذي كان الختم على قلوبهم كان قولهم بأفواههم كما قال تعالى ذلك قولهم بأفواههم فلما ختم على أفواههم أيضا لزم أن يكون قولهم بأعضائهم لان الانسان لا يملك غير القلب واللسان والاعضاء فاذا لم يبق القلب واللسان تعين الجوارح والاركان * ثم قال تعالى (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون) قد ذكرنا مرارا أن الصراط المستقيم هو بين الجبر والقدر وهو الطريقة الوسطى والله تعالى في كل موضع ذكر ما تمسك به الجبرية ذكر عقيبه ما تمسك به القدرية وبالعكس وههنا كذلك لما قال الله تعالى وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون وقال اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون وكان ذلك متمسك القدرية حيث أسند الله الكفر والكسب اليهم وأحال الخير والشر عليهم ذكر عقيبه ما يدل على أن كفرهم وكسبهم بمشيئة الله وذلك لان الكفر يعمي البصيرة ويضعف القوة العقلية وعمى البصيرة بارادة الله ومشيئته اذا شاء أعمى البصر كما أنه لو شاء لطمس على أعينهم البصرية وسلب القوة العقلية باختياره ومشيئته كما أن سلب القوة الجسمية بمشيئته حتى لو شاء لمسخ الكافر على مكانه وأقامه بحيث لا يتحرك يمنة ولا يسرة ولا يقدر على المضي والرجوع فاعماء البصائر منه كاعماء الابصار وسلب القوة العقلية كسلب القوة الجسمية فقال ولو نشاء لطمسنا على أعينهم اشارة الى أنه شاء وأراد اعماء بصائرهم فضلوا وأنه لو شاء طمس أعينهم لما اهتدوا الى طريقتهم الظاهرة وشاء واختار سلب قوة عقولهم فزلوا وانه لو شاء سلب قوة أجسامهم ومسخهم لما قدروا على تقدم ولا تأخر وفي الآيتين أبحاث لفظية (البحث الاول) في قوله فاستبقوا الصراط قال الزمخشري فيه وجوه (الاول) انه يكون فيه حذف حرف الى واتصال الفعل من غير حرف وأصله فاستبقوا الى الصراط (الثاني) أن يكون المراد من الاستباق الابتدار فاعمله اعمال الابتدار (الثالث) ان يجعل الصراط مستبقا لا مستبقا اليه يقال استبقنا فسبقتهم وحينئذ يكون مبالغة في الاهتداء الى الطريق كأنه يقول الصراط الذي هو معهم ليسوا طالبين له قاصدين اياه وانما هم

وتخلفه على عكس ما خلقناه أولا فلا يزال يتزايد ضعفه وتتناقص قوته وتنتقص بنيته ويتغير شكله وصورته حتى يعود الى حالة شبيهة بحال الصبي في ضعف الجسد وقلة العقل والخلو عن الفهم والادراك وقرئ ننكسه من الثلاثي المجرد ونكسه من الانكاس (أفلا يعقلون) أي أيرون ذلك فلا يعقلون أن من قدر على ذلك يقدر على ما ذكر من الطمس والمسخ وأن عدم ايقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما وقرئ تعقلون بالتاء ﴿ ١١٤ ﴾ لجرى الخطاب قبله (وما علمناه الشعر) رد وابطال لما كانوا يقولونه في حقه عليه الصلاة والسلام من أنه شاعر وما يقوله شعر أي ما علمناه الشعر بتعليم القرآن على معنى أن القرآن ليس بشعر فان الشعر كلام متكلف موضوع ومقال مزخرف مصنوع منسوج على منوال الوزن والقافية مبني على خيالات وأوهام واهية فاين ذلك من التنزيل الجليل الخطر المنزه عن مماثلة كلام البشر المشحون بفنون الحكم والاحكام الباهرة الموصولة الى سعادة الدنيا والآخرة ومن أين اشتبه عليهم الشؤون واختلط بهم الظنون قاتلهم الله أنى يؤفكون (وما ينبغي له) وما يصح له الشعر ولا يتأتى له او طلبه أي جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له كما جعلناه أميا لا يهتدي للخط لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض وأما قوله عليه الصلاة والسلام أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب وقوله عليه الصلاة والسلام هل أنت الا اصبع دميت * وفي سبيل الله ما لقيت * فمن قبيل الاتفاقات الواردة من غير قصد اليها وعزم على ترتيبها وقيل الضمير في له للقرآن أي وما ينبغي للقرآن أن يكون شعرا (ان هو) أي ما القرآن (الا ذكر) ﴿ الجزء ﴾ أي عظة من الله عز وجل وارشاد للثقلين كما قال تعالى ان هو الا ذكر للعالمين (وقرآن مبين) أي كتاب سماوي بين كونه كذلك أو فارق بين الحق والباطل يقرأ في المحاريب ويتلى في المعابد وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز

عليه اذا طمس الله على أعينهم لا يبصرونه فكيف ان لم يكونوا على الصراط (البحث الثاني) قدم الطمس والاعماء على المسخ والاعجاز ليكون الكلام مدرجا كأنه قال ان أعماهم لم يروا الطريق الذي هم عليه وحينئذ لا يهتدون اليه فان قال قائل الاعمى قد يهتدي الى الطريق بامارات عقلية أو حسية غير حس البصر كالاصوات والمشي بحس اللمس فارتقى وقال فلو مسخناهم وسلب قوتهم بالكلية لا يهتدون الى الصراط بوجه من الوجوه (البحث الثالث) قدم المضي على الرجوع لان الرجوع أهون من المضي لان المضي لا ينبئ عن سلوك الطريق من قبل وأما الرجوع فينبئ عنه ولا شك ان سلوك طريق قد روئي مرة أهون من سلوك طريق لم ير فقال لا يستطيعون مضيا ولا أقل من ذلك وهو الرجوع الذي هو أهون من المضي * ثم قال تعالى (ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون) قد ذكرنا ان قوله تعالى ألم أعهد اليكم قطع للاعذار بسبق الانذار ثم لما قرر ذلك وأتمه شرع في قطع عذر آخر وهو أن الكافر يقول لم يكن لبثنا في الدنيا الا يسيرا ولو عمرتنا لما وجدت منا تقصيرا فقال الله تعالى أفلا تعقلون أنكم كلما دخلتم في السن ضعفتم وقد عمرناكم مقدار ما تتمكنون من البحث والادراك كما قال تعالى أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ثم انكم علمتم أن الزمان كلما يعبر عليكم يزداد ضعفكم فضيعتم زمان الامكان فلو عمرناكم أكثر من ذلك لكان بعده زمان الازمان ومن لم يأت بالواجب زمان الامكان ما كان يأتي به زمان الازمان * ثم قال تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين) في الترتيب وجهان قد ذكرنا أن الله في كل موضع ذكر أصلين من الاصول الثلاثة وهي الوحدانية والرسالة والحشر ذكر الاصل الثالث منها وههنا ذكر الاصلين الوحدانية والحشر اما الوحدانية ففي قوله تعالى ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان وفي قوله وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم وأما الحشر ففي قوله تعالى اصلوها اليوم وفي قوله اليوم نختم على أفواههم الى غير ذلك فلما ذكرهما وبينهما ذكر الاصل الثالث وهو الرسالة فقال وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين وقوله وما علمناه الشعر اشارة الى أنه معلم من عند الله فعلمه ما أراد ولم يعلمه ما لم يرد وفي تفسير الآية مباحث (البحث الاول) خص الشعر بنفي التعليم مع أن الكفار كانوا ينسبون الى النبي صلى الله عليه وسلم أشياء من جملتها السحر ولم يقل وما علمناه السحر وكذلك كانوا ينسبونه الى الكهانة ولم يقل وما علمناه الكهانة فنقول أما الكهانة فكانوا ينسبون النبي صلى الله عليه وسلم اليها عند ما كان يخبر عن الغيوب ويكون كما يقول وأما السحر فكانوا ينسبونه اليه عند ما كان يفعل ما لا يقدر عليه الغير كشق القمر وتكلم الحصى والجذع وغير ذلك وأما الشعر فكانوا ينسبونه اليه عند ما كان يتلو القرآن عليهم لكنه صلى الله عليه وسلم ما كان يتحدى الا بالقرآن كما قال تعالى وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله الى غير ذلك ولم يقل ان كنتم في شك من رسالتي فأنطقوا

الدار بن فكم بينه وبين ماقالوا (لينذر) أى القرآن أو الرسول عليه الصلاة والسلام ويؤيده القراءة بالتاء وقرئ لينذر من نذر به أى علمه ولينذر مبنيا للمفعول من الانذار (من كان حيا) أى عاقلا متأملا فان الغافل بمنزلة الميت أو مؤمنا فى علم الله تعالى فان الحياة الابدية بالايمان وتخصيص الانذار به لانه المنتفع به (ويحق القول) أى تجب كلمة العذاب (على الكافرين) المصرين على الكفر وفى ايرادهم بمقابلة من كان حيا

اشعار بأنهم لخلوهم عن آثار الحياة وأحكامها التى هى المعرفة أموات فى الحقيقة (أولم يروا) الهمزة للانكار والتعجيب والواو للعطف على جملة منفية مقدرة مستتبعة للمعطوف أى ألم يتفكروا أو ألم يلاحظوا ولم يعلموا علما يقينيا متاخما للمعاينة (انا خلقنا لهم) أى لاجلهم وانتفاعهم (مما عملت ايدينا) أى مما تولينا احداثه بالذات وذكر الايدى واسناد العمل اليها استعارة تفيد مبالغة فى الاختصاص والتفرد بالاحداث والاعتناء به (انعاما) مفعول خلقنا وتأخيره عن الجارين المتعلقين به مع أن حقه التقدم عليها لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ماحقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة له فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن لاسيما عند كون المقدم منبئا عن كون المؤخر أمرا نافعا خطيرا كما فى النظم الكريم فان الجار الاول المعرب عن كون المؤخر من منافعهم والثانى المفصح عن كونه من الامور الخطيرة يزيدان النفس شوقا اليه ورغبة فيه ولان فى تأخيره جمعا بينه وبين أحكامه المتفرعة عليه بقوله تعالى

الجذوع أو أشبعوا الخلق العظيم او اخبروا بالغيوب فلما كان تحديه صلى الله عليه وسلم بالكلام وكانوا ينسبونه الى الشعر عند الكلام خص الشعر بنفى التعليم (البحث الثانى) ما معنى قوله وما ينبغى له قلنا قال قوم ما كان يتأتى له وآخرون ما ينسهل له حتى انه ان تمثل ببيت شعر سمع منه مزاحفا يروى أنه كان يقول صلى الله عليه وسلم ويأتيك من لم تزود بالاخبار (وفيه وجه) أحسن من ذلك وهو ان يحمل ما ينبغى له على مفهومه الظاهر وهو ان الشعر ما كان يليق به ولا يصلح له وذلك لان الشعر يدعو الى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن فالشارع يكون اللفظ منه تبعا للمعنى والشاعر يكون المعنى منه تبعا للفظ لانه يقصد لفظا به يصح وزن الشعر أو قافيته فيحتاج الى التحيل لمعنى يأتى به لاجل ذلك اللفظ وعلى هذا نقول الشعر هو الكلام الموزون الذى قصد الى وزنه قصدا أوليا واما من يقصد المعنى فيصدر موزونا مقفى فلا يكون شاعرا ألا ترى الى قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ليس بشعر والشاعر اذا صدر منه كلام فيه متحركات وساكنات بعددما فى الآية تقطيعه بفاعلاتن فاعلاتن يكون شعرا لانه قصد الاتيان بألفاظ حروفها متحركة وساكنة كذلك والمعنى تبعه والحكيم قصد المعنى فجاء على تلك الالفاظ وعلى هذا يحصل الجواب عن قول من يقول ان النبى صلى الله عليه وسلم ذكر بيت شعر وهو قوله أنا النبى لا كذب ۞ أنا عبد ابن المطلب أو بيتين لانا نقول ذلك ليس بشعر لعدم قصده الى الوزن والقافية وعلى هذا لو صدر من النبى صلى الله عليه وسلم كلام كثير موزون مقفى لا يكون شعرا لعدم قصده اللفظ قصدا أوليا ويؤيد ماذكرنا أنك اذا تتبعت كلام الناس فى الاسواق تجد فيه ما يكون موزونا واقعا فى بحر من بحور الشعر ولا يسمى المتكلم به شاعرا ولا الكلام شعرا لفقد القصد الى اللفظ أولا ثم قوله تعالى ان هو الا ذكر وقرآن مبين يحقق ذلك المعنى أى هو ذكر وموعظة للقصد الى المعنى والشعر لفظ مزخرف بالقافية والوزن (وههنا لطيفة) وهى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان من الشعر لحكمة يعنى قد يقصد الشاعر اللفظ فيوافقه معنى حكمى كما أن الحكيم قد يقصد معنى فيوافقه وزن شعرى لكن الحكيم بسبب ذلك الوزن لا يصير شاعرا والشاعر بسبب ذلك الذكر يصير حكيما حيث سمى النبى صلى الله عليه وسلم شعره حكمة ونفى الله كون النبى شاعرا وذلك لان اللفظ قالب المعنى والمعنى قلب اللفظ وروحه فاذا وجد القلب لا نظر الى القالب فيكون الحكيم الموزون كلامه حكيما ولا يخرجه عن الحكمة وزن كلامه والشاعر الموعظ كلامه حكيما ۞ ثم قال تعالى (لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين) قرئ بالتاء والياء بالتاء خطابا مع النبى صلى الله عليه وسلم وبالياء على وجهين (أحدهما) أن يكون المنذر هو النبى صلى الله عليه وسلم حيث سبق ذكره فى قوله وما علمناه وقوله وما ينبغى له (وثانيهما) أن يكون المراد أن القرآن ينذر والاول أقرب الى المعنى (والثانى) أقرب الى اللفظ اما الاول

(فهم لها مالكون) الآيات الثلاث أى فملكناها اياهم وايثار الجملة الاسمية على ذلك للدلالة على استقرار مالكيتهم لها واستمرارها واللام متعلقة بمالكون مقوية لعمله أى فهم مالكون لها بتمليكنا اياها لهم متصرفون فيها بالاستقلال مختصون بالانتفاع بها لا يزاحمهم فى ذلك غيرهم أو قادرون على ضبطها متمكنون من التصرف فيها باقدارنا وتمكيننا وتسخيرنا اياها لهم كما فى قول من قال

أصبحت لأجل السلاح ولا * أملك رأس البعير ان نفرا والاول هو الاظهر ليكون قوله تعالى (وذللناها لهم) تأسيسا للنعمة على حيالها الاتعة لما قبلها أى صيرناها منقادة لهم بحيث لا تستعصى عليهم فى شئ مما يريدون بها حتى الذبح حسبما ينطق به قوله تعالى (فمنها ركوبهم) الخ فان الفاء فيه للتفريع أحكام التذليل عليه وتفصيلها أى فبعض منها ركوبهم أى مركوبهم أى معظم منافعها الركوب وعدم التعرض للحمل لكونه من تتمات الركوب

وقرئ ركوبتهم وهى بمعناه كالحلوب والحلوبة وقيل الركوبة اسم جمع وقرئ ركوبها أى ذو ركوبهم (ومنها يأكلون) أى وبعض منها يأكلون لحمه (ولهم فيها) أى فى الانعام بكلا قسميها (منافع) أخر غير الركوب والاكل كالجلود والاصواف والاوبار وغيرها وكالحراثة بالثيران (ومشارب) من اللبن جمع مشرب وهذا مجمل ما فصل فى سورة النحل (أفلا يشكرون) أى أيشاهدون هذه النعم أو أيتنعمون بها فلا يشكرون المنعم بها (واتخذوا من دون الله) أى متجاوزين الله تعالى الذى شاهدوا تفرده بتلك القدرة الباهرة وتفضله عليهم بهاتيك النعم المتظاهرة (آلهة) من الاصنام وأشركوها به تعالى فى العبادة (لعلهم ينصرون) رجاء أن ينصروا من جهتهم فيما حزبهم من الامور أو يشفعوا لهم فى الآخرة وقوله تعالى (لا يستطيعون نصرهم) الخ استئناف سيق لبيان بطلان رأيهم وخيبة رجائهم وانعكاس تدبيرهم أى لا تقدر آلهتهم على نصرهم (وهم) أى المشركون (لهم) أى لآلهتهم (جند محضرون) يشيعونهم عند مساقهم الى النار وقيل معدون فى الدنيا لحفظهم وخدمتهم والذب عنهم ﴿ وأزواجهم ﴾ ولا يساعده مساق النظم الكريم فان الفاء فى قوله تعالى (فلا يحزنك قولهم) لترتيب النهى على ما قبله فلا بد أن يكون عبارة عن خسرانهم وحرمانهم عما عقدوا به أطماعهم الفارغة وانعكاس الامر عليهم بترتب الشر على ما رتبوه لرجاء الخير فان ذلك مما يهون الخطب ويورث السلوة وأما كونهم معدين لخدمتهم

فلان المنذر منه فارسيا أكثر ورودا من المنذر صفة للمكتب (وأما الثانى) فلان القرآن أقرب المذكورين الى قوله لينذر وقوله من كان حيا أى من كان حى القلب ويحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد من كان حيا فى علم الله فينذره به فيؤمن (الثانى) أن يكون المراد لينذر به من كان حيا فى نفس الامر أى من آمن فينذره بما على المعاصى من العقاب وبما على الطاعة من الثواب ويحق القول على الكافرين اما قول العذاب وكلمته كما قال تعالى ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وقوله تعالى حقت كلمة العذاب وذلك لان الله تعالى قال وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا واذا جاء حق التعذيب على من وجد منه التكذيب واما القول المقول فى الوحدانية والرسالة والحشر وسائر المسائل الاصولية الدينية فان القرآن فيه ذكر الدلائل التى بها تثبت المسائل ثم انه تعالى أعاد الوحدانية ودلائل دالة عليها * فقال تعالى (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما) أى من جملة ما عملت أيدينا أى ما عملناه من غير معين ولا ظهير بل عملناه بقدرتنا وارادتنا * وقوله تعالى (فهم لها مالكون) اشارة الى اتمام الانعام فى خلق الانعام فانه تعالى لو خلقها ولم يملكها الانسان ما كان ينتفع بها * وقوله تعالى (وذللناها لهم) زيادة انعام فان المملوك اذا كان آبيا متمردا لا ينتفع فلولا تذليل الانسان تلك الانعام وهى زيادة صادرة لما تم الانعام الذى فى الركوب وان كان يحصل الاكل كما فى الحيوانات الوحشية بل ما كان يكمل نعمة الاكل أيضا الا بالتعب الذى فى الاصطياد ولعل ذلك لا يتهيأ للبعض وفى البعض * وقوله تعالى (فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) بيان لمنفعة التذليل اذ لولا التذليل لما وجدت احدى المنفعتين وكانت الاخرى قليلة الوجود ثم بين تعالى غير الركوب والاكل من الفوائد * بقوله تعالى (ولهم فيها منافع ومشارب) وذلك لان من الحيوانات ما لا يركب كالغنم فقال منافع لتعمها والمشارب كذلك عامة ان قلنا بأن المراد جمع مشرب وهو الآنية فان من الجلود ما يتخذ أوانى الشرب والادوات من القرب وان قلنا ان المراد المشروب وهو الالبان والاسمان فهى مختصة بالاناث ولكن بسبب الذكور فان ذلك متوقف على الحمل وهو بالذكور والاناث * ثم قال تعالى (أفلا يشكرون) هذه النعم التى توجب العبادة شكرا ولو شكرتم لزادكم من فضله ولو كفرتم لسلبها منكم فاذ قولكم أفلا تشكرون استدامة لها واستزادة فيها * ثم قال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون) اشارة الى بيان زيادة ضلالهم ونهايتها فانهم كان الواجب عليهم عبادة الله شكرا لانعمه فتركوها وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع وتوقعوا منه النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم كما قال عنهم حرقوه وانصروا آلهتكم وفى الحقيقة لا هى ناصرة ولا منصورة * وقوله تعالى (لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) اشارة الى الحشر بعد تقرير التوحيد وهذا كقوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون وقوله احشروا الذين ظلموا

وحمطهم جمعزلمن ذلك والنهي وان كان بحسب الظاهر متوجها الى قولهم لكنه فى الحقيقة متوجه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى له عليه السلام عن الأثر منه بطريق الكناية على أبلغ وجه وآكده فان النهي عن أسباب الشئ ومباديه المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهاني وابطال السببية وقد يوجه النهى الى المسبب ويراد النهى عن السبب كما فى قوله لا أرينك ههنا يريد به نهى مخاطبه عن الحضور لديه ﴿ ١١٧ ﴾ والمراد بقولهم ما ينبئ عنه ما ذكر من اتخاذهم الاصنام آلهة فان ذلك مما لا يخلو من التفوه بقولهم هؤلاء آلهتنا وانهم شركاء الله سبحانه فى العبودية وغير ذلك مما يورث الحزن وقرئ يحزنك بضم الياء وكسر الزاى من أحزن المنقول من حزن اللازم وقوله تعالى (انا نعلم ما يسرون وما يعلنون) تعليل صريح للنهي بطريق الاستئناف بعد تعليله بطريق الاشعار فان العلم بما ذكر مستلزم للمجازاة قطعا أى انا نجازيهم بجميع جناياتهم الخافية والبادية التى لا يعزب عن علمنا شئ منها وفيه فضل تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتقديم السر على العلن اما للمبالغة فى بيان شمول علمه تعالى لجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع استوائهما فى الحقيقة فان علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شئ فى نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفى هذا المعنى لا يختلف الحال بين الاشياء البارزة والكامنة واما لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن اذ ما من شئ يعلن الا وهو أو مباديه مضمر فى القلب قبل ذلك فتعلق علمه تعالى بحالته الاولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقة (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة) كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان انكارهم البعث بعد ما شاهدوا فى أنفسهم أوضح دلائله وأعدل شواهده كما أن ما سبق مسوق لبيان بطلان اشراكهم بالله تعالى بعد ما عاينوا فى ايديهم ما يوجب التوحيد والاسلام وأما ما قيل من أنه تسلية ثانية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتهوين ما يقولونه بالنسبة الى

وأرهاجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم، قوله وقفوهم فى العذاب محضرون وهو يحتمل معنيين (أحدهما) أن يكون العابدون جندا لما اتخذوه آلهة كما ذكرنا (الثانى) أن يكون الاصنام جندا للعابدين وعلى هذا ففيه معنى لطيف وهو أنه تعالى لما قال لا يستطيعون نصرهم أكدها بأنهم لا يستطيعون نصرهم حال ما يكونوا جندا لهم ومحضرون لنصرتهم فان ذلك دال على عدم الاستطاعة فان من حضر واجتمع ثم عجز عن النصر يكون فى غاية الضعف بخلاف من لم يكن متأهبا ولم يجمع أنصاره * وقوله تعالى (فلا يحزنك قولهم) اشارة الى الرسالة لان الخطاب معه بما يوجب تسلية فيه دليل اجتبائه واختياره اياه * وقوله تعالى (انا نعلم ما يسرون وما يعلنون) يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون ذلك تهديدا للمنافقين والكافرين فقوله ما يسرون من النفاق وما يعلنون من الشرك (والثانى) ما يسرون من العلم بك وما يعلنون من الكفر بك (الثالث) ما يسرون من العقائد الفاسدة وما يعلنون من الافعال القبيحة ثم انه تعالى لما ذكر دليلا من الآفاق على وجوب عبادته بقوله أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ذكر دليلا من الانفس * فقال (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة) قيل ان المراد بالانسان أبى بن خلف فان الآية وردت فيه حيث أخذ عظما باليا وأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال انك تقول ان الهك يحيى هذه العظام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم ويدخلك جهنم وقد ثبت فى أصول الفقه أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ألا ترى ان قوله تعالى قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها نزلت فى واحدة وأراد الكل فى الحكم فكذلك كل انسان ينكر الله أو الحشر فهذه الآية رد عليه اذا علمت عمومها فنقول فيها لطائف (اللطيفة الاولى) قوله أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا معناه الكافرون المنكرون التاركون عبادة الله المتخذون من دونه آلهة أولم يروا خلق الانعام لهم وعلى هذا فقوله تعالى أولم ير الانسان كلام أعم من قوله أولم يروا لانه مع جنس الانسان وهو مع جمع منهم فنقول سبب ذلك أن دليل الانفس أشمل وأكمل وأتم والزم فان الانسان قد يغفل عن الانعام وخلقها عند غيبتها ولكن هو مع نفسه متى ما يكون وأينما يكون فقال ان غاب عن الحيوان وخلقه فهو لا يغيب عن نفسه فما باله أولم ير أنا خلقناه من نطفة وهو أتم نعمة فان سائر النعم بعد وجوده وقوله من نطفة اشارة الى وجه الدلالة وذلك لان خلقه لو كان من أشياء مختلفة الصور كان يمكن أن يقال العظم خلق من جنس صلب واللحم من جنس رخو وكذلك الحال فى كل عضو ولما كان خلقه من نطفة متشابهة الاجزاء وهو مختلف الصور دل على الاختيار والقدرة والى هذا أشار بقوله تعالى يسقى بماء واحد * وقوله (فاذا هو خصيم مبين) (فيه لطيفة) غريبة وهى انه تعالى قال اختلاف صور أعضائه مع تشابه أجزاء ما خلق منه آية ظاهرة ومع هذا فههنا ما هو أظهر وهو نطقه وفهمه وذلك لان النطفة جسم فهب أن جاهلا يقول انه استحال

انكارهم الحشر فالاولى والهمزة للانكار والتعجيب والواو للعطف على جملة مقدرة هي مستتبعة للمعطوف كما مر في الجملة
الانكارية السابقة أي ألم يتفكر الانسان ولم يعلم علما يقينيا انا خلقناه من نطفة الخ أوهي عين الجملة السابقة أعيدت تأكيدا
للنكير السابق وتمهيد الانكار ماهو أحق منه بالانكار والتعجيب لما أن المنكر هناك عدم علمهم بما يتعلق بخلق أسباب معايشهم
وههنا عدم علمهم بما يتعلق بخلق أنفسهم ولا ريب في أن علم الانسان

باحوال نفسه أهم واحاطته بها أسهل
وأكمل فالانكار والتعجيب
من الاخلال بذلك أدخل
كأنه قيل ألم يعلموا خلقه تعالى
لاسباب معايشهم ولم يعلموا
خلقه تعالى لانفسهم أيضا
مع كون العلم بذلك في غاية
الظهور ونهاية الاهمية على
معنى أن المنكر الاول بعيد
قبيح والثاني أبعد وأقبح
ويجوز أن تكون الواو لعطف
الجملة الانكارية الثانية على
الاولى على أنها متقدمة
في الاعتبار وان تقدم الهمزة
عليها لاقتضائها الصدارة
في الكلام كما هو رأي الجمهور
وايراد الانسان مورد الضمير
لان مدار الانكار متعلق
بأحواله من حيث هو انسان
كما في قوله تعالى أولا يذكر
الانسان أنا خلقناه من قبل
ولم يك شيأ وقوله تعالى (فاذا
هو خصيم مبين) أي شديد
الخصومة والجدال بالباطل
عطف على الجملة المنفية
داخل في حيز الانكار
والتعجيب كأنه قيل أولم ير أنا
خلقناه من أخس الاشياء
وأمهنها ففاجأ خصومتنا
في أمر يشهد بصحته وتحققه
مبدأ فطرته شهادة بينة وايراد
الجملة الاسمية للدلالة على استقراره في الخصومة واستمراره عليها روي أن جماعة من كفار قريش منهم أبي ﴿ أن ﴾
بن خلف الجمحي وأبو جهل والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا في ذلك فقال لهم أبي بن خلف الا ترون الى ما يقول
محمد ان الله يبعث الاموات ثم قال واللات والعزى لاصيرن اليه ولاخصمنه وأخذ عظما باليا فجعل يفته بيده ويقول يا محمد أترى الله
يحيي هذا بعدما رم قال صلى الله عليه وسلم نعم ويبعثك ويدخلك جهنم فنزلت وقيل معنى قوله تعالى فاذا هو خصيم مبين فاذا

وتكون جسما آخر لكن القوة الناطقة والقوة الفاهمة من أين تقتضيهما النطفة
فابداع النطق والفهم أعجب وأغرب من ابداع الخلق والجسم وهو الى ادراك القدرة
والاختيار منه أقرب فقوله خصيم أي ناطق وانما ذكر الخصيم مكان الناطق لانه أعلى
أحوال الناطق فان الناطق مع نفسه لايبين كلامه مثل مايبينه وهو يتكلم مع غيره
والمتكلم مع غيره اذا لم يكن خصما لايبين ولا يجتهد مثل مايجتهد اذا كان كلامه مع خصمه
وقوله مبين اشارة الى قوة عقله واختار الابانة لان العاقل عند الافهام أعلى درجة منه
عند عدمه لان المبين بان عنده الشيء ثم أبانه فقوله تعالى من نطفة اشارة الى أدنى ما كان
عليه وقوله خصيم مبين اشارة الى أعلى ما حصل عليه وهذا مثل قوله تعالى ثم خلقنا النطفة
علقة فخلقنا العلقة مضغة الى أن قال تعالى ثم أنشأناه خلقا آخر فما تقدم من خلق النطفة
علقة وخلق العلقة مضغة وخلق المضغة عظاما اشارة الى التغيرات في الجسم وقوله ثم
انشأناه خلقا آخر اشارة الى ما أشار اليه بقوله فاذا هو خصيم مبين أي ناطق عاقل * ثم
قوله تعالى (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه) اشارة الى بيان الحشر وفي هذه الآيات الى آخر
السورة غرائب وعجائب نذكرها بقدر الامكان ان شاء الله تعالى فنقول المنكرون للحشر
منهم من لم يذكر فيه دليلا ولا شبهة واكتفى بالاستبعاد وادعى الضرورة وهم الاكثرون
ويدل عليه قوله تعالى حكاية عنهم في كثير من المواضع بلفظ الاستبعاد كما قال وقالوا أئذا
ضللنا في الارض أئنا لفي خلق جديد أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أئنك لمن
المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون الى غير ذلك فكذلك ههنا قال
(قال من يحيي العظام وهي رميم) على طريق الاستبعاد فبدأ أولا بابطال استبعادهم
بقوله ونسي خلقه أي نسي أنا خلقناه من تراب ومن نطفة متشابهة الاجزاء ثم جعلنا لهم
من النواصي الى الاقدام أعضاء مختلفة الصور والقوام وما اكتفينا بذلك حتى
أودعناهم ما ليس من قبيل هذه الاجرام وهو النطق والعقل الذي بهما استحقوا الاكرام
فان كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة قذرة
لم تكن محل الحياة أصلا ويستبعدون اعادة النطق والعقل الى محل كانا فيه ثم ان
استبعادهم كان من جهة ما في المعاد من التفتت والتفرق حيث قالوا من يحيي العظام
وهي رميم اختاروا العظم للذكر لانه أبعد عن الحياة لعدم الاحساس فيه ووصفوه بما
يقوي جانب الاستبعاد من البلا والتفتت والله تعالى دفع استبعادهم من جهة ما في
المعيد من القدرة والعلم فقال وضرب لنا مثلا أي جعل قدرتنا كقدرتهم ونسي خلقه
العجيب وبدأه الغريب ومنهم من ذكر شبهة وان كانت في آخرها تعود الى مجرد الاستبعاد
وهي على وجهين (أحدهما) انه بعد العدم لم يبق شيأ فكيف يصح على العدم الحكم
بالوجود وأجاب عن هذه الشبهة * بقوله تعالى (قل يحييها الذي أنشأها أول مرة) يعني
كما خلق الانسان ولم يكن شيأ مذكورا كذلك يعيده وان لم يبق شيأ مذكورا (وثانيهما)

هو بعدما كان ماء مهينا رجل مميز منطيق قادر على الخصام مبين معرب عما في نفسه فصيح فهو حينئذ معطوف على خلقناه غير داخل تحت الانكار والتعجيب بل هو من متممات شواهد صحة البعث فقوله تعالى (وضرب لنا مثلا) معطوف حينئذ على الجملة المنفية داخل في حيز الانكار والتقبيح وأما على التقدير الاول فهو عطف على الجملة الفجائية والمعنى ففاجأ خصومتنا وضرب لنا مثلا أي أورد في شأننا قصة عجيبة في نفس ﴿١١٩﴾ الامر هي في الغرابة والبعد عن العقول كالمثل وهي انكار احيائنا العظام أو

أن من تفرق أجزاؤه في مشارق العالم ومغاربه وصار بعضه في أبدان السباع وبعضه في جدران الرباع كيف يجمع وأبعد من هذا هو أن انسانا اذا أكل انسانا وصار أجزاء المأكول في أجزاء الآكل فان أعيد فأجزاء المأكول اما أن تعاد الى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه واما أن تعاد الى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء فقال تعالى في ابطال هذه الشبهة (وهو بكل خلق عليم) ووجهه هو أن في الآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية وفي المأكول كذلك فاذا أكل انسان انسانا صار الاصلي من أجزاء المأكول فضليا من أجزاء الآكل والاجزاء الاصلية للآكل هي ما كان له قبل الاكل والله بكل خلق عليم يعلم الاصلي من الفضلي فيجمع الاجزاء الاصلية للآكل وينفخ فيها روحه ويجمع الاجزاء الاصلية للمأكول وينفخ فيها روحه وكذلك يجمع الاجزاء المتفرقة في البقاع المبددة في الاصقاع بحكمته الشاملة وقدرته الكاملة ثم انه تعالى عاد الى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم وابطال انكارهم وعنادهم * فقال تعالى (الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون) ووجهه هو ان الانسان مشتمل على جسم يحس به وحياة سارية فيه وهي كحرارة جارية فيه فان استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه فان النار في الشجر الاخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب وأنتم تحضرون حيث منه توقدون وان استبعدتم خلق جسمه فخلق السموات والارض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه فان الله خلق السموات والارض فبان اصف قوله تعالى الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون * وقوله تعالى (أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم) قدم ذكر النار في الشجر على ذكر الخلق الاكبر لان استبعادهم كان بالصريح واقعا على الاحياء حيث قالوا من يحيي العظام ولم يقولوا من يجمعها ويؤلفها والنار في الشجر تناسب الحياة * وقوله تعالى (بلى وهو الخلاق) اشارة الى انه في القدرة كامل * وقوله تعالى (العليم) اشارة الى ان علمه شامل ثم أكد بيانه * بقوله تعالى (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وهذا اظهار فساد تمثيلهم وتشبيههم وضرب مثلهم حيث ضربوا لله مثلا وقالوا لا يقدر أحد على مثل هذا قياسا للغائب على الشاهد فقال في الشاهد الخلق يكون بالآلات البدنية والانتقالات المكانية ولا يقع الا في الازمنة الممتدة والله يخلق بكن فيكون فكيف تضربون المثل الادنى وله المثل الاعلى من أن يدرك وفي الآية مباحث (البحث الاول) قالت المعتزلة هذه الآية دالة على أن المعدوم شيء لانه يقول للمراد كن فيكون فهو قبل القول له كن لا يكون وهو في تلك الحالة شيء حيث قال انما أمره اذا أراد شيئا والجواب ان هذا بيان لعدم تخلف الشيء عن تعلق ارادته به فقوله اذا مفهوم الحين والوقت والآية دالة على أن المراد شيء حين تعلق الارادة به ولا دلالة فيها على أنه شيء قبل ما اذا أراد وحينئذ لا يرد ما ذكروه لان الشيء حين تعلق الارادة به شيء

قصة عجيبة في زعمه واستبعدها وعدها من قبيل المثل وأنكرها أشد الانكار وهي احياؤنا اياها وجعل لنا مثلا ونظيرا من الخلق وقاس قدرتنا على قدرتهم ونفى الكل على العموم وقوله تعالى (ونسي خلقه) اي خلقنا اياه على الوجه المذكور الدال على بطلان ما ضرب به اما عطف على ضرب داخل في حيز الانكار والتعجيب أو حال من فاعله باضمار قد أو بدونه وقوله تعالى (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية ضرب به المثل كأنه قيل أي مثل ضرب أو ماذا قال فقيل قال (من يحيي العظام) منكرا له أشد النكير مؤكدا له بقوله تعالى (وهي رميم) أي بالية أشد البلا بعيدة من الحياة غاية البعد فالمثل على الاول هو انكار احيائه تعالى للعظام فانه امر عجيب في نفس الامر حقيق لغرابته وبعده من العقول بأن يعد مثلا ضرورة جزم العقول ببطلان الانكار ووقوع المنكر لكونه كالانشاء بل أهون منه في قياس العقل وعلى الثاني هو احياؤه تعالى لها فانه أمر عجيب في زعمه قد استبعده وعده من

قبيل المثل وأنكره أشد الانكار مع أنه في نفس الامر أقرب شيء من الوقوع لما سبق من كونه مثل الانشاء أو أهون منه وأما على الثالث فلا فرق بين أن يكون المثل هو الانكار أو المنكر وعدم تأنيث الرميم مع وقوعه خبرا للمؤنث لانه اسم لما بلى من العظام غير صفة كالرفات وقد تمسك بظاهر الآية الكريمة من أثبت للعظم حياة وبنى عليه الحكم بنجاسة عظم الميتة وأما

أصحابنا فلا يقولون بحياته كالشعر و يقولون المراد باحياء العظام ردها الى ما كانت عليه من الغضاضة والرطوبة فى بدن حى حساس (قل) تبكيتا له بتذكير ما نسيه من فطرته الدالة على حقيقة الحال وارشاده الى طريقة الاستشهاد بها (يحييها الذى أنشأها أول مرة) فان قدرته كما هى لاستحالة التغير فيها والمادة على حالها (وهو بكل خلق عليم) مبالغ فى العلم بتفاصيل كيفيات الخلق والايجاد واعادة محيط بجميع الاجزاء المتفتتة المتبددة لكل شخص من الاشخاص أصولها وفروعها وأوضاع بعضها من بعض من الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق فيعيد كلا من ذلك على النمط السابق مع القوى التى كانت قبل والجملة اما اعتراض تذييلى مقرر لمضمون الجواب أو معطوفة على الصلة والعدول الى الجملة الاسمية للتنبيه على أن علمه تعيين بما ذكر أمر مستمر ليس كانشائه للمنشآت وقوله تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا) بدل من الموصول الاول وعدم الاكتفاء بعطف صلته على صلته للتأكيد ولتفاوتهما فى كيفية الدلالة أى خلق لاجلكم ولمنفعتكم منه نارا على أن الجعل ابداعى والجاران متعلقان به قدما على مفعوله الصريح مع تأخرهما عنه رتبة لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ووصف الشجر بالاخضر نظرا الى اللفظ وقد قرئ الخضراء نظرا الى المعنى وهو المرخ والعفار يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فتنقدح النار باذن الله تعالى وذلك قوله تعالى (فاذا أنتم منه توقدون) فمن قدر على احداث النار من الشجر الاخضر مع ﴿ معنى ﴾ مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفيته كان أقدر على اعادة الغضاضة الى ما كان غضا مطرأ عليه اليبوسة والبلا وقوله تعالى (أوليس الذى خلق السموات) الخ استئناف مسوق من جهته عز وجل لتحقيق مضمون الجواب الذى أمر عليه

موجود لا يريده فى زمان و يكون فى زمان آخر بل يكون فى زمان تعلق الارادة فاذا الشئ هو الوجود لا المعدوم لا يقال كيف يريد الموجود وهو موجود فيكون ذلك ايجادا لموجود نقول هذا الاشكال من باب المعقولات ونجيب عنه فى موضعه وانما غرضنا ابطال تمسكهم باللفظ وقد ظهر أن المفهوم من هذا الكلام انه يريد ما هو شئ اذا أراد وليس فى الآية أنه اذا أراده كان شيئا قبل تعلق الارادة (البحث الثانى) قالت الكرامية لله ارادة محدثة بدليل قوله تعالى اذا أراد ووجه دلالته من أمرين (أحدهما) من حيث انه جعل الارادة زمانا فان اذا ظرف زمان وكل ما هو زمانى فهو حادث (وثانيهما) هو أنه تعالى جعل ارادته متصلة بقوله كن وقوله كن متصل بكون الشئ ووقوعه لانه تعالى قال فيكون بفاء التعقيب لكن الكون حادث وما قبل الحادث متصل به حادث والفلاسفة وافقوهم فى هذا الاشكال من وجه آخر فقالوا ارادته متصلة بأمره وأمره متصل بالكون لكن ارادته قديمة فالكون قديم فمكونات الله قديمة وجواب الضالين من التمسك باللفظ هو أن المفهوم من قوله اذا أراد من حيث اللغة اذا تعلقت ارادته بالشئ لان قوله أراد فعل ماض واذا دخلت كلمة اذا على الماضى تجعله فى معنى المستقبل ونحن نقول بأن مفهوم قولنا أراد و يريد وعلم يجوز أن يدخله الحدوث وانما نقول لله تعالى صفة قديمة هى الارادة وتلك الصفة اذا تعلقت بشئ نقول أراد و يريد وقبل التعلق لا نقول أراد وانما نقول له ارادة وهو بها مريد ولنضرب مثالا للافهام الضعيفة ليزول ما يقع فى الاوهام السخيفة فنقول قولنا فلان خاط يراد به أن له صنعة الخياطة فلو لم يصح منا أن نقول انه خاط ثوب زيد أو يخيط ثوب زيد لا يلزم منه نفى صحة قولنا انه خياط بمعنى ان له صنعة بها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة فى ثوب زيد فى زمان ماض خاط ثوبه و بها يطلق عليه عند استعماله الصنعة فى ثوب زيد فى زمان مستقبل يخيط ثوبه ولله المثل الاعلى فافهم أن الارادة أمر ثابت ان تعلقت بوجود شئ نقول أراد وجوده أى يريد وجوده واذا علمت هذا فهو فى المعنى من كلام أهل السنة ان تعلق الارادة حادث وخرج بما ذكرنا جواب الفريقين (البحث الثالث) قالت المعتزلة والكرامية كلام الله حرف صوت وحادث لان قوله كن كلام وكن من حرفين والحرف من الصوت و يلزم من هذا ان كلامه من الحروف والاصوات وأما انه حادث فلما تقدم من الوجهين (أحدها) انه زمانى (والثانى) انه متصل بالكون والكون حادث والجواب يعلم بما ذكرنا ذلك لان الكلام صفة اذا تعلقت بشئ نقول قال و يقول فتعلق الخطاب حادث والكلام قديم فقوله تعالى انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فيه تعلق واضافة لان قوله تعالى يقول له باللام للاضافة صريح فى التعلق ونحن نقول ان قوله لشئ الحادث حادث لانه مع التعلق وانما القديم قوله وكلامه لا مع التعلق وكل قديم وحادث اذ نظرت الى مجموعهما لا تجدهما فى الازل وانما تجدهما جميعا فيما لا يزال فله

بذلك ويلزمهم الحجة والهمزة للانكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أليس الذي انشأها أول مرة وليس الذي جعل لهم من الشجر الاخضر نارا ﴿ ١٢١ ﴾ وليس الذي خلق السموات والارض مع كبر جرمهما وعظم شأنهما (بقادر على أن يخلق مثلهم) في الصغر والقماءة بالنسبة اليهما فان بديهة العقل قاضية بأن من قدر على خلقهما فهو على خلق الاناسي أقدر كما قال تعالى لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس وقرئ يقدر وقوله تعالى (بلى) جواب من جهته تعالى وتصريح بما أفاده الاستفهام الانكاري من تقرير ما بعد النفي وايذان بتعين الجواب نطقوا به او تلعثموا فيه مخافة الالزام وقوله تعالى (وهو الخلاق العليم) عطف على ما يفيده الايجاب أي بلى هو قادر على ذلك وهو المبالغ في الخلق والعلم كيفا وكما (انما أمره) أي شأنه (اذا اراد شيئا) من الاشياء (أن يقول له كن) أي أن يعلق به قدرته (فيكون) فيحدث من غير توقف على شئ آخر أصلا وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى فيما أراده بأمر الآمر المطاع للمأمور المطيع في سرعة حصول المأمور به من غير توقف على شئ ما وقرئ فيكون بالنصب عطفا على يقول

معنى الحدوث ولكن الاطلاق موهم فتفكر جدا ولاتقل المجموع حادث من غير بيان مرادك فان ذلك قد يفهم منه ان الجميع حادث بل حقق الاشارة وجود العبارة وقل أحد طرفي المجموع قديم والآخر حادث ولم يكن الآخر معه في الازل واما قوله كن من الحروف نقول الكلام يطلق على معنيين (أحدهما) ماعند المتكلم (والثاني) ماعند السامع ثم ان أحدهما يطلق عليه انه هو الآخر ومن هذا يظهر فوائد ما بيان ماذكرناه فلان الانسان اذا قال لغيره عندي كلام أريد أن أقوله لك غدا ثم ان السامع أتاه غدا وسأله عن الكلام الذي عنده أمس فيقول له اني أريد أن تحضر عندي اليوم فهذا الكلام أطلق عليه المتكلم انه كان عندك أمس ولم يكن عند السامع ثم حصل عند السامع بحرف وصوت ويطلق عليه أن هذا الذي سمعت هو الذي كان عندي ويعلم كل عاقل أن الصوت لم يكن عند المتكلم أمس ولا الحرف لان الكلام الذي عنده جاز أن يذكره بالعربي فيكون له حروف وجاز أن يذكره بالفارسية فيكون له حروف أخر والكلام الذي عنده ووعد به واحد والحروف مختلفة كثيرة فاذا معنى قوله هذا ماكان عندي هو ان هذا يؤدي اليك ماكان عندي وهذا أيضا مجاز لان الذي عنده ماانتقل اليه وانما علم ذلك وحصل عنده به علم مستفاد من السمع أو البصر في القراءة والكتابة أو الاشارة اذا علمت هذا فالكلام الذي عند الله وصفة له ليس بحرف على ما بان والذي يحصل عند السامع حرف وصوت وأحدهما الآخر لما ذكرنا من المعنى وتوسع الاطلاق فاذا قال تعالى يقول له حصل قائل وسامع فاعتبرها من جانب السامع لكون وجود الفعل من السامع لذلك القول فعبر عنه بالكاف والنون الذي يحدث عند السامع ويحدث به المطلوب * ثم قال تعالى (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ واليه ترجعون) لما تقررت الوحدانية والاعادة وأنكروها وقالوا بأن غير الله آلهة قال تعالى وتنزه عن الشريك الذي بيده ملكوت كل شئ وكل شئ ملكه فكيف يكون المملوك للمالك شريكا وقالوا بأن الاعادة لاتكون فقال واليه ترجعون ردا عليهم في الامرين وقد ذكرنا ما يتعلق بالنحو في قوله سبحان أي سبحوا تسبيح الذي أو سبح من في السموات والارض تسبيح الذي فسبحان علم للتسبيح والتسبيح هو التنزيه والملكوت مبالغة في الملك كالرحموت والرهبوت وهو فعلول أو فعلوت فيه كلام ومن قال هو فعلول جعلوه ملحقا به * ثم ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان لكل شئ قلبا وقلب القرآن يس وقال الغزالي فيه ان ذلك لان الايمان صحته بالاعتراف بالحشر والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه فجعله قلب القرآن لذلك واستحسنه فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى سمعته يترحم عليه بسبب هذا الكلام ويمكن ان يقال بأن هذه السورة ليس فيها الا تقرير الاصول الثلاثة بأقوى البراهين فابتداؤها بيان الرسالة بقوله انك لمن المرسلين ودليلها ماقدمه عليها بقوله والقرآن الحكيم وما أخر عنها بقوله لتنذر قوما وانتهاؤها بيان الوحدانية والحشر بقوله فسبحان الذي بيده

ملكوت كل شئ اشارة الى التوحيد وقوله واليه ترجعون اشارة الى الحشر وليس في هذه السورة الا هذه الاصول الثلاثة ودلائله وثوابه ومن حصل من القرآن هذا القدر فقد حصل نصيب قلبه وهو التصديق الذي بالجنان واما وظيفة اللسان التي هي القول فكما في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا وفي قوله تعالى ومن أحسن قولا وقوله تعالى بالقول الثابت وألزمهم كلمة التقوى واليه يصعد الكلم الطيب الى غير هذه مما في غير هذه السورة وظيفة الاركان وهو العمل كما في قوله تعالى وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وقوله تعالى ولا تقربوا الزنا ولا تقتلوا النفس وقوله واعملوا صالحا وأيضا مما في غير هذه السورة فلما لم يكن فيها الا أعمال القلب لا غير سماها قلبا ولهذا ورد في الاخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم ندب الى تلقين يس لمن دنا منه الموت وقراءتها عند رأسه لان في ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوة والاعضاء الظاهرة ساقطة البنية لكن القلب يكون قد اقبل على الله ورجع عن كل ما سواه فيقرأ عند رأسه ما يزاد به قوة قلبه و يشتد تصديقه بالاصول الثلاثة وهي شفاء له وأسرار كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلمها الا الله ورسوله وما ذكرناه ظن لا نقطع به ونرجو الله أن يرحمنا وهو أرحم الراحمين تم تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين

(سورة الصفات مائة واثنان وثمانون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ان الهكم لواحد رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو وحمزة والصافات صفا بادغام التاء فيما يليه وكذلك في قوله فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا والباقون بالاظهار وقال الواحدي رحمه الله ادغام التاء في الصاد حسن لمقاربة الحرفين الا ترى انهما من طرف اللسان وأصول الثنايا يسمعان في الهمس والمدغم فيه يزيد على المدغم بالاطباق والصفير وادغام الانقص في الازيد حسن ولا يجوز أن يدغم الازيد صوتا في الانقص وأيضا ادغام التاء في الزاي في قوله فالزاجرات زجرا حسن لان التاء مهموسة والزاي مجهورة وفيها زيادة صفير كما كان في الصاد وأيضا حسن ادغام التاء في الذال في قوله فالتاليات ذكرا لاتفاقهما في انهما من طرف اللسان وأصول الثنايا واما من قرأ بالاظهار وترك الادغام فذلك لاختلاف المخارج والله أعلم (المسئلة الثانية) في هذه الاشياء الثلاثة المذكورة المقسم بها يحتمل أن تكون صفات ثلاثة لموصوف واحد ويحتمل أن تكون أشياء ثلاثة متباينة اما على التقدير الأول ففيه وجوه (الاول) انها صفات الملائكة وتقديره أن الملائكة يقفون صفوفا اما في السموات لاداء العبادات كما أخبر الله عنهم انهم قالوا وانا لنحن الصافون وقيل انهم يصفون أجنحتهم في الهواء

إيجاب كما أن وصفه تعالى بالمالكية الكلية المطلقة للاشعار بأنها مقتضية لذلك أتم اقتضاء والملكوت مبالغة في الملك كالرحموت والرهبوت وقرئ ملكة كل شئ وملكة كل شئ وملك كل شئ (واليه ترجعون) لا الى غيره وقرئ ترجعون بفتح التاء من الرجوع وفيه من الوعد والوعيد ما لا يخفى *عن ابن عباس رضي الله عنهما كنت لا أعلم ما روي في فضائل يس وقراءتها كيف خصت بذلك فاذا انه لهذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل شئ قلبا وان قلب القرآن يس من قرأها يريد بها وجه الله تعالى غفر الله له وأعطي من الاجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة وأيما مسلم قرئ عنده اذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفا يصلون عليه و يستغفرون له و يشهدون غسله و يتبعون جنازته و يصلون عليه و يشهدون دفنه وأيما مسلم قرأ يس وهو في سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان خازن الجنة بشربة ﴿ و يقفون معه باذن الله تعالى (

و يقفون منتظرين وصول أمر الله اليهم و يحتمل أيضا أن يقال معنى كونهم صفوفا أن لكل واحد منهم مرتبة معينة ودرجة معينة في الشرف والفضيلة أو في الذات والعلية وتلك الدرجة المرتبة باقية غير متغيرة وذلك يشبه الصفوف وأما قوله فالزاجرات زجرا فقال الليث يقال زجرت البعير فأنا أزجره زجرا اذا أحثثته ليمضي وزجرت فلانا عن سوء فانزجر أي نهيته فانتهى فعلى هذا الزجر للبعير كالحث وللانسان كالنهي اذا عرفت هذا فنقول في وصف الملائكة بالزجر وجوه (الاول) قال ابن عباس يريد الملائكة الذين وكلوا بالسحاب يزجرونها بمعنى انهم يأتون بها من موضع الى موضع (الثاني) المراد منه ان الملائكة لهم تأثيرات في قلوب بني آدم على سبيل الالهامات فهم يزجرونهم عن المعاصي زجرا (الثالث) لعل الملائكة أيضا يزجرون الشياطين عن التعرض لبني آدم بالشر والايذاء وأقول قد ثبت في العلوم العقلية أن الموجودات على ثلاثة أقسام مؤثر لا يقبل الاثر وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الموجودات ومتأثر لا يؤثر وهو عالم الاجسام وهو أخس الموجودات وموجود يؤثر في شيء ويتأثر عن شيء آخر وهو عالم الارواح وذلك لانها تقبل الاثر عن عالم كبرياء الله ثم انها تؤثر في عالم الاجسام واعلم أن الجهة التي باعتبارها تقبل الاثر من عالم كبرياء الله غير الجهة التي باعتبارها تستولي على عالم الاجسام وتقدر على التصرف فيها وقوله فالتاليات ذكرا اشارة الى الاشرف من الجهة التي باعتبارها تقوى على التأثير في عالم الاجسام اذا عرفت هذا فقوله والصافات صفا اشارة الى وقوفها صفا صفا في مقام العبودية والطاعة بالخشوع والخضوع وهي الجهة التي باعتبارها تقبل تلك الجواهر القدسية أصناف الانوار الالهية والكمالات الصمدية وقوله تعالى فالزاجرات زجرا اشارة الى تأثير الجواهر الملكية في تنوير الارواح القدسية البشرية واخراجها من القوة الى الفعل وذلك لما ثبت أن هذه الارواح النطقية البشرية بالنسبة الى أرواح الملائكة كالقطرة بالنسبة الى البحر وكالشعلة بالنسبة الى الشمس وان هذه الارواح البشرية انما تنتقل من القوة الى الفعل في المعارف الالهية والكمالات الروحانية بتأثيرات جواهر الملائكة ونظيره قوله تعالى ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده وقوله نزل به الروح الامين على قلبك وقوله تعالى فالملقيات ذكرا اذا عرفت هذا فنقول في هذه الآية دقيقة أخرى وهي ان الكمال المطلق للشيء انما يحصل اذا كان تاما وفوق التام والمراد بكونه تاما أن تحصل جميع الكمالات اللائقة به حصولا بالفعل والمراد بكونه فوق التام أن تفيض منه أصناف الكمالات والسعادات على غيره ومن المعلوم ان كونه كاملا في ذاته مقدم على كونه مكملا لغيره اذا عرفت هذا فقوله والصافات صفا اشارة الى استكمال جواهر الملائكة في ذواتها وقت وقوفها في مواقف العبودية وصفوف الخدمة والطاعة وقوله تعالى فالزاجرات زجرا اشارة الى كيفية تأثيراتها في ازالة ما لا ينبغي عن جواهر الارواح البشرية وقوله تعالى فالتاليات ذكرا

من شراب الجنة فيشربها وهو على فراشه فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان ويمكث في قبره وهو ريان ولا يحتاج الى حوض من حياض الانبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان وقال صلى الله تعالى عليه وسلم ان في القرآن سورة تشفع لقارئها وتستغفر لمستمعها الا وهي سورة يس

* (سورة والصافات مكية وآيها مائة واحدى أو اثنتان وثمانون آية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) * (والصافات صفا) اقسام من الله عز وجل بطوائف الملائكة الفاعلات للصفوف على أن المراد ايقاع نفس الفعل من غير قصد الى المفعول أو الصافات أنفسها أي الناظمات لها في سلك الصفوف بقيامها في مقاماتها المعلومة حسبما ينطق به قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم وعلى هذين المعنيين مدار قوله تعالى وانا لنحن الصافون وقيل الصافات أقدامها في الصلاة وقيل اجنحتها في الهواء (فالزاجرات زجرا) أي الفاعلات للزجر أو الزاجرات لما نيط به زجره من الاجرام العلوية والسفلية وغيرها على وجه يليق بالزجور ومن جملة ذلك زجر العباد عن المعاصي وزجر الشياطين عن الوسوسة والاغواء وعن استراق السمع كما سيأتي وصفا وزجرا مصدران مؤكدان لما قبلهما أي صفا بديعا وزجرا بليغا وأما ذكرا

فى قوله تعالى (فالتاليات ذكرا) فمفعول التاليات أى التاليات ذكرا عظيم الشأن من آيات الله تعالى وكتبه المنزلة على الانبياء عليهم الصلاة والسلام وغيرها من التسبيح ﴿ ١٢٤ ﴾ والتقديس والتحميد والتمجيد وقيل هو ايضا مصدر مؤكد لماقبله فان التلاوة من باب الذكر ثم ان هذه الصفات ان أجريت على الكل فعطفها بالفاء للدلالة على ترتبها فى الفضل اما بكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة أو على العكس وان أجريت كل واحدة منهن على طوائف معينة فهو للدلالة على ترتب الموصوفات فى مراتب الفضل بمعنى أن طوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل والتاليات أبهر فضلا أو على العكس وقيل المراد بالمذكورات نفوس العلماء العمال الصافات أنفسها فى صفوف الجماعات وأقدامها فى الصلوات الزاجرات بالمواعظ والنصائح التاليات آيات الله تعالى الدارسات شرائعه وأحكامه وقيل طوائف الغزاة الصافات أنفسهم فى مواطن الحروب كأنهم بنيان مرصوص أو طوائف قوادهم الصافات لهم فيها الزاجرات الخيل للجهاد سوقا والعدو فى المعارك طردا التاليات آيات الله تعالى وذكره ﴿ مايقال ﴾ وتسبيحه فى تضاعيف ذلك والكلام فى العطف ولالته على ترتب الصافات فى الفضل أو ترتب موصوفاتها فيه

اشارة الى كيفية تأثيراتها فى افاضة الجلايا القدسية والانوار الالهية على الارواح الناطقة البشرية فهذه مناسبات عقلية واعتبارات حقيقية تنطبق عليها هذه الالفاظ الثلاثة قال أبو مسلم الاصفهانى لايجوز حمل هذه الالفاظ على الملائكة لانها مشعرة بالتأنيث والملائكة مبرؤن عن هذه الصفة والجواب من وجهين (الاول) ان الصافات جمع الجمع فانه يقال جماعة صافة ثم يجمع على صافات (والثانى) انهم مبرؤن عن التأنيث المعنوى أما التأنيث فى اللفظ فلا وكيف وهم يسمعون بالملائكة مع أن علامة التأنيث حاصلة فى هذا الوجه (الثانى) ان تحمل هذه الصفات على النفوس البشرية الطاهرة المقدسة المقبلة على عبودية الله تعالى الذين هم ملائكة الارض وبيانه من وجهين (الاول) ان قوله تعالى والصافات صفا المراد الصفوف الحاصلة عند أداء الصلوات بالجماعة وقوله فالزاجرات زجرا اشارة الى قراءة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كأنهم بسبب قراءة هذه الكلمة يزجرون الشياطين عن القاء الوساوس فى قلوبهم فى اثناء الصلاة وقوله فالتاليات ذكرا اشارة الى قراءة القرآن فى الصلاة وقيل فالزاجرات زجرا اشارة الى رفع الصوت بالقراءة كأنه يزجر الشيطان بواسطة رفع الصوت روى انه صلى الله عليه وسلم طاف على بيوت أصحابه فى الليالى فسمع أبا بكر يقرأ بصوت منخفض وسمع عمر يقرأ بصوت رفيع فسأل أبا بكر لم تقرأ هكذا فقال المعبود سميع عليم وسأل عمر لم تقرأ هكذا فقال أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان (الوجه الثانى) فى تفسير هذه الالفاظ الثلاث فى هذه الآية ان المراد من قوله والصافات صفا الصفوف الحاصلة من العلماء المحقين الذين يدعون الى دين الله تعالى والمراد من قوله والزاجرات زجرا اشتغالهم بالزجر عن الشبهات والشهوات والمراد من قوله تعالى فالتاليات ذكرا اشتغالهم بالدعوة الى دين الله والترغيب فى العمل بشرائع الله (الوجه الثالث) فى تفسير هذه الالفاظ الثلاثة أن نحملها على احوال الغزاة والمجاهدين فى سبيل الله فقوله والصافات صفا المراد منه صفوف القتال لقوله تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا وأما الزاجرات زجرا فالزجرة والصيحة سواء والمراد منه رفع الصوت بزجر الخيل وأما التاليات ذكرا فالمراد اشتغال الغزاة وقت شروعهم فى محاربة العدو بقراءة القرآن وذكر الله تعالى بالتهليل والتقديس (الوجه الرابع) فى تفسير هذه الالفاظ الثلاثة ان نجعلها صفات لآيات القرآن فقوله والصافات صفا المراد آيات القرآن فانها انواع مختلفة بعضها فى دلائل التوحيد وبعضها فى دلائل العلم والقدرة والحكمة وبعضها فى دلائل النبوة وبعضها فى دلائل المعاد وبعضها فى بيان التكليف والاحكام وبعضها فى تعليم الاخلاق الفاضلة وهذه الآيات مرتبة ترتيبا لايتغير ولايتبدل فهذه الآيات تشبه اشخاصا واقفين فى صفوف معينة وقوله فالزاجرات زجرا المراد منه الآيات الزاجرة عن الافعال المنكرة وقوله فالتاليات ذكرا المراد منه الآيات الدالة على وجوب الاقدام على أعمال البر والخير وصف الآيات بكونها تالية على قانون

كالذي سلف وأما الدلالة على الترتيب في الوجود كما في قوله بالهف زبانة للحرث الصابح فالغانم فالآيب فغير ظاهرة في شيء من الطوائف المذكورة فانه

لوسلم تقدم الصف على الزجر في الملائكة والقراءة فتأخر التلاوة عن الزجر غير ظاهر وقيل الصافات الطير من قوله تعالى والطير صافات و الزاجرات كل ما يزجر عن المعاصي والتاليات كل من يتلو كتاب الله تعالى و قيل الزاجرات القوارع القرآنية وقرئ بادغام التاء في الصاد والزاي والذال (ان الهكم لواحد) جواب للقسم والجملة تحقيق للحق الذي هو التوحيد بما هو المألوف في كلامهم من التأكيد القسمي وتمهيد لما يعقبه من البرهان الناطق به أعني قوله تعالى (رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق) فان وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع من أوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وأعدل شواهد وحدته كما مر في قوله تعالى لوكان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ورب خبر ثان لان أو خبر لمبتدا محذوف أي مالك السموات والارض وما بينهما من الموجودات

ما يقال شعر وشاعر وكلام قائل قال تعالى ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم وقال يس والقرآن الحكيم قيل الحكيم بمعنى الحاكم فهذه جملة الوجوه المحتملة على تقدير ان نجعل هذه الالفاظ الثلاثة صفات لشيء واحد (وأما الاحتمال الثاني) وهو أن يكون المراد بهذه الثلاثة أشياء متغايرة فقيل المراد بقوله والصافات صف الطير من قوله تعالى والطير صافات والزاجرات كل ما زجر عن معاصي الله والتاليات كل ما يتلى من كتاب الله وأقول فيه وجه آخر وهو أن مخلوقات الله اما جسمانية واما روحانية أما الجسمانية فانها مرتبة على طبقات ودرجات لا تتغير البتة فالارض وسط العالم وهي محفوفة بكرة الماء والماء محفوف بالهواء والهواء محفوف بالنار ثم هذه الاربعة محفوفة بكرات الافلاك الى آخر العالم الجسماني فهذه الاجسام كأنها صفوف واقفة على عتبة جلال الله تعالى وأما الجواهر الروحانية الملكية فهي على اختلاف درجاتها وتباين صفاتها مشتركة في صفتين أحدهما التأثير في عالم الاجسام بالتحريك والتصريف واليه الاشارة بقوله فالزاجرات زجرا فانا بينا أن المراد من هذا الزجر السوق والتحريك والثاني الادراك والمعرفة والاستغراق في معرفة الله تعالى والثناء عليه واليه الاشارة بقوله تعالى فالتاليات ذكرا ولما كان الجسم أدنى منزلة من الارواح المستقلة فالتصرف في الجسمانيات أدون منزلة من الارواح المستغرقة في معرفة جلال الله المقدمة على تسبيح الله كما قال ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته لاجرم بدأ في المرتبة الاولى بذكر الاجسام فقال والصافات صفا ثم ذكر في المرتبة الثانية الارواح المدبرة لاجسام هذا العالم ثم ذكر في هذه المرتبة الثالثة أعلى الدرجات وهي الارواح المقدسة المتوجهة بكليتها الى معرفة جلال الله والاستغراق في الثناء عليه فهذه احتمالات خطرت بالبال والعالم بأسرار كلام الله تعالى ليس الا الله (المسئلة الثالثة) للناس في هذا الموضع قولان (الاول) قول من يقول القسم ههنا بخالق هذه الاشياء لا بأعيان هذه الاشياء واحتجوا عليه بوجوه (الاول) انه صلى الله عليه وسلم نهى عن الحلف بغير الله فكيف يليق بحكمة الله أن يحلف بغير الله (والثاني) ان الحلف بالشيء في مثل هذا الموضع تعظيم عظيم للمحلوف به ومثل هذا التعظيم لا يليق الا بالله (الثالث) أن هذا الذي ذكرناه تأكد بما أنه تعالى صرح به في بعض السور وهو قوله تعالى والسماء وما بناها والارض وما طحاها ونفس وما سواها (والقول الثاني) قول من يقول ان القسم واقع بأعيان هذه الاشياء واحتجوا عليه بوجوه (الاول) أن القسم وقع بهذه الاشياء بحسب ظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل (والثاني) أنه تعالى قال والسماء وما بناها فعلق لفظ القسم بالسماء ثم عطف عليه القسم بالباني للسماء فلو كان المراد من القسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار في موضع واحد وانه لا يجوز (الثالث) انه لا يبعد أن تكون الحكمة في قسم الله تعالى بهذه الاشياء التنبيه على شرف ذواتها

ومن بينهما ومبلغها الى كمالاتها والمراد بالمشارق مشارق الشمس واعادة الرب فيها لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجددها كل يوم فانها ثلثمائة

وستون مشرقا تشرق كل يوم من مشرق منها وبحسبها تختلف المغارب وتغرب كل يوم في مغرب منها وأما قوله تعالى رب المشرقين ورب المغربين فهما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباهما ﴿١٣٦﴾ (انا زينا السماء الدنيا) أي القربى منكم (بزينة) عجيبة بديعة (الكواكب) بالجر بدل من زينة على أن المراد بها الاسم أي مايزان به لا المصدر فان الكواكب بانفسها وأوضاع بعضها من بعض زينة وأي زينة وقرئ بالاضافة على أنها بيانية لما أن الزينة مبهمة صادقة على كل مايزان به فتقع الكواكب بيانا لها ويجوز أن يراد بزينة الكواكب مازينت هي به وهو ضوؤها وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما بزينة الكواكب بضوء الكواكب هذا وأما على تقدير كون الزينة مصدرا فالمعنى على تقدير اضافتها الى الفاعل بان زانت الكواكب اياها وأصله بزينة الكواكب وعلى تقدير اضافتها الى المفعول بان زان الله الكواكب وحسنها وأصله بزينة الكواكب والمراد هو التزيين في رأي العين فان جميع الكواكب من ثوابت والسيارات تبدو للناظرين كأنها جواهر متلألئة في سطح سماء الدنيا بصور بديعة واشكال رائعة ﴿لاعمال﴾ ولا يقدح في ذلك ارتكاز الثوابت في الفلك الثامن وما عدا القمر في الستة المتوسطة

وكمال حقائقها لاسيما اذا حملنا هذه الالفاظ على الملائكة فانه تكون الحكمة في القسم بها التنبيه على جلالة درجاتها وكمال مراتبها والله أعلم فان قيل ذكر الحلف في هذا الموضع غير لائق وبيانه من وجوه (الاول) ان المقصود من هذا القسم اما اثبات هذا المطلوب عند المؤمن أو عند الكافر والاول باطل لان المؤمن مقر به من غير هذا الحلف والثاني باطل لان الكافر لا يقر به سواء حصل الحلف أولم يحصل فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات (الثاني) انه تعالى حلف في أول هذه السورة على ان الاله واحد وحلف في أول سورة والذاريات على أن القيامة حق فقال والذاريات ذروا الى قوله انما توعدون لصادق وان الدين لواقع واثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف واليمين لا يليق بالعقلاء والجواب من وجوه (الاول) انه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة في سائر السور بالدلائل اليقينية فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيدا لما تقدم لاسيما والقرآن انما أنزل بلغة العرب واثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب (والوجه الثاني) في الجواب انه تعالى لما أقسم بهذه الاشياء على صحة قوله تعالى ان الهكم لواحد ذكر عقيبه ماهو كالدليل اليقيني في كون الاله واحدا وهو قوله تعالى رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق وذلك لانه تعالى بين في قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ان انتظام احوال السموات والارض يدل على ان الاله واحد فههنا قال ان الهكم لواحد أردفه بقوله رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق كأنه قيل قد بينا ان النظر في انتظام هذا العالم يدل على كون الاله واحدا فتأملوا في ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد (الوجه الثالث) في الجواب ان المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الاصنام في قولهم بانها آلهة فكأنه قيل هذا المذهب قد بلغ في السقوط والركاكة الى حيث يكفي في ابطالها مثل هذه الحجة والله أعلم (المسئلة الرابعة) اما دلالة أحوال السموات والارض على وجود الاله القادر العالم الحكيم وعلى كونه واحدا منزها عن الشريك فقد سبق تقريرها في هذا الكتاب مرارا وأطوارا وأما قوله تعالى ورب المشارق فيحتمل أن يكون المراد مشارق الشمس قال السدي المشارق ثلثمائة وستون مشرقا وكذلك المغارب فانه تطلع الشمس كل يوم من مشرق وتغرب كل يوم في مغرب ويحتمل أن يكون المراد مشارق الكواكب لان لكل كوكب مشرقا ومغربا فان قيل لم اكتفى بذكر المشارق قلنا لوجهين (الاول) أنه اكتفى بذكر المشارق كقوله تقيكم الحر (والثاني) أن الشروق أقوى حالا من الغروب وأكثر نفعا من الغروب فذكر الشروق تنبيها على كثرة احسان الله تعالى على عباده ولهذه الدقيقة استدل ابراهيم عليه السلام بالشروق فقال ان الله يأتي بالشمس من المشرق (المسئلة الخامسة) احتج الاصحاب بقوله تعالى رب السموات والارض وما بينهما على كونه تعالى خالقا

ان ثبت ذلك (وحفظا) منصوب امابعطفه على زينة باعتبار المعنى كأنه قيل انا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظا (من كل شيطان مارد) أى خارج عن الطاعة برمى الشهب واما باضمار فعله واما بتقدير فعل مؤخر معلل به كأنه قيل وحفظا من كل شيطان مارد زينا بالكواكب كقوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح و جعلناها رجوما للشياطين وقوله تعالى (لايسمعون الى الملا الاعلى) كلام مبتدأ مسوق لبيان حالهم بعد بيان حفظ السماء عنهم مع التنبيه على كيفية الحفظ ومايعتريهم فى أثناء ذلك من العذاب ولاسبيل الى جعله صفة لكل شيطان ولاجوابا عن سؤال مقدر لعدم استقامة المعنى ولاعلة للحفظ على أن يكون الاصل لئلا يسمعوا فحذفت اللام كما حذفت من قولك جئتك أن تكرمنى فبقى أن لايسمعوا ثم يحذف أن و يهدر عملها كما فى قول من قال * ألاأيهذا الزاجرى أحضر الوغى * لما أن كل واحد من ذينك الحذفين غير منكر بانفراده فاما اجتماعهما فمن أنكر المنكرات التى يجب تنزيه ساحة التنزيل الجليل عن أمثالها وأصل يسمعون يتسمعون والملأ الاعلى الملائكة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هم الكتبة وعنه أشراف الملائكة عليهم

لاعمال العباد قالوا لان أعمال العباد موجودة فيما بين السموات والارض وهذه الآية دالة على ان كل ماحصل بين السموات والارض فالله ربه ومالكه فهذا يدل على ان فعل العبد حصل بخلق الله وان قالوا الاعراض لايصح وصفها بانها حصلت بين السموات والارض لان هذا الوصف انما يليق بما يكون حاصلا فى حيز وجهة والاعراض ليست كذلك قلنا انها لما كانت حاصلة فى الاجسام الحاصلة بين السموات والارض فهى أيضا حاصلة بين السماء والارض * ثم قال تعالى (انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لايسمعون الى الملا الاعلى و يقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة وحفص عن عاصم زينة منونة الكواكب بالجر وهو قراءة مسروق بن الاجدع قال الفراء وهو رد معرفة على نكرة كما قال بالناصية ناصية فرد نكرة على معرفة وقال الزجاج الكواكب بدل من الزينة لانها هى كما تقول مررت بأبى عبدالله زيد وقرأ عاصم بالتنوين فى الزينة ونصب الكواكب قال الفراء يريد زينا الكواكب وقال الزجاج يجوز أن تكون الكواكب فى النصب بدلا من قوله بزينة لان بزينة فى موضع نصب وقرأ الباقون بزينة الكواكب بالجر على الاضافة (المسئلة الثانية) بين تعالى انه زين السماء الدنيا و بين انه انما زينها لمنفعتين (احداهما) تحصيل الزينة (والثانية) الحفظ من الشيطان المارد فوجب ان نحقق الكلام فى هذه المطالب الثلاثة (أما الاول) وهو تزيين السماء الدنيا بهذه الكواكب فلقائل أن يقول انه ثبت فى علم الهيئة ان هذه الثوابت مركوزة فى الكرة الثامنة وان السيارات الستة مركوزة فى الكرات الستة المحيطة بسماء الدنيا فكيف يصح قوله انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب والجواب أن الناس الساكنين على سطح كرة الارض اذا نظروا الى السماء فانهم يشاهدونها مزينة بهذه الكواكب فصح قوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وعلى انا قد بينا فى علم الهيئة ان الفلاسفة لم يتم لهم دليل فى بيان ان هذه الكواكب مركوزة فى الفلك الثامن ولعلنا شرحنا هذا الكلام فى تفسير سورة تبارك الذى بيده الملك فى تفسير قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح (وأما المطلوب الثانى) وهو كون هذه الكواكب زينة السماء الدنيا ففيه بحثان (البحث الاول) ان الزينة مصدر كالنسبة واسم لما يزان به كالليقة اسم لما تلاق به الدواة قال صاحب الكشاف وقوله بزينة الكواكب يحتملهما فان أردت المصدر فعلى اضافته الى الفاعل أى بأن زينتها الكواكب أو على أضافته الى المفعول أى بأن زان الله الكواكب وحسنها لانه انما زينت السماء بحسنها فى أنفسها وان أردت الاسم فللاضافة وجهان أن تقع الكواكب بيانا للزينة لان الزينة قد تحصل بالكواكب و بغيرها وان يراد مازينت به الكواكب (البحث الثانى) فى بيان كيفية كون الكواكب زينة للسماء

الصلاة والسلام أى يتطلبون السماع والاصغاء اليهم وقرئ يسمعون بالتخفيف (ويقذفون) يرمون (من كل جانب) من جميع جوانب السماء اذا قصدوا الصعود اليها (دحورا) علة للقذف أى للدحور وهو الطرد أو حال بمعنى مدحورين أو مصدر مؤكد له لانهما من واد واحد وقرئ دحورا بفتح الدال أى قذفا دحورا مبالغا فى الطرد وقد يجوز أن يكون مصدرا كالقبول والولوع (ولهم عذاب واصب) أى ولهم فى الآخرة غير ما فى الدنيا من عذاب الرجم بالشهب عذاب شديد أم غير منقطع كقوله تعالى واعتدنا لهم عذاب السعير (الا من خطف الخطفة) استثناء من واو يسمعون ومن بدل منه والخطف الاختلاس والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقة كما يعرب عنه تعريف الخطفة وقرئ بكسر الخاء والطاء المشددة وبفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها وأصلهما اختطف (فاتبعه شهاب) أى تبعه ولحقه وقرئ فاتبعه والشهاب ما يرى منقضا من السماء (ثاقب) مضئ فى الغاية كأنه يثقب الجو بضوئه يرجم به الشياطين اذا صعدوا لاستراق السمع فيقتلهم او يحرقهم أو يخبلهم قالوا وانما يعود من يسلم منهم حيا طمعا فى السلامة ونيل المراد كراكب السفينة ﴿ تلك ﴾

وجوه (الاول) أن النور والضوء أحسن الصفات وأكملها فان تحصل هذه الكواكب المشرقة المضيئة فى سطح الفلك لاجرم بقى الضوء والنور فى جرم الفلك بسبب حصول هذه الكواكب فيها قال ابن عباس بزينة الكواكب أى بضوء الكواكب (الوجه الثانى) يجوز أن يراد اشكالها المتناسبة المختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها (الوجه الثالث) يجوز أن يكون المراد بهذه الزينة كيفية طلوعها وغروبها (الوجه الرابع) ان الانسان اذا نظر فى الليلة الظلماء الى سطح فلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح الازرق فلا شك انها أحسن الاشياء وأكملها فى التركيب والجوهر وكل ذلك يفيد كون هذه الكواكب زينة (وأما المطلوب الثالث) وهو قوله وحفظا من كل شيطان مارد ففيه بحثان (البحث الاول) فيما يتعلق باللغة فقوله وحفظا أى وحفظناها قال المبرد اذا ذكرت فعلا ثم عطفت عليه مصدر فعل آخر نصبت المصدر لانه قد دل على فعله مثل قولك افعل وكرامة لانه لما قال افعل علم ان الاسماء لا تعطف على الافعال فكان المعنى افعل ذلك وأكرمك كرامة قال ابن عباس يريد حفظ السماء بالكواكب من كل شيطان مارد يريد الذى تمرد على الله قيل انه الذى لا يتمكن منه وأصله من الملاسة ومنه قوله صرح ممرد ومنه الامرد وذكرنا تفسير المارد عند قوله مردوا على النفاق (البحث الثانى) فيما يتعلق بالمباحث العقلية فى هذا الموضع فنقول الاستقصاء فيه مذكور فى قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين قال المفسرون الشياطين كانوا يصعدون الى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب وكانوا يخبرونهم به ويوهمونهم انهم يعلمون الغيب فمنعهم الله تعالى من الصعود الى قرب السماء بهذه الشهب فانه تعالى يرميهم بها فيحرقهم بها (وبقى ههنا سؤالات السؤال الاول) هذه الشهب هل هى من الكواكب التى زين السماء بها أم لا والاول باطل لان هذه الشهب تبطل وتضمحل فلو كانت هذه الشهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير فى أعداد كواكب السماء ومعلوم ان هذا المعنى لم يوجد البتة فان أعداد كواكب السماء باقية على حالة واحدة من غير تغير البتة وأيضا فجعلها رجوما للشياطين مما يوجب وقوع النقصان فى زينة السماء فكان الجمع بين هذين المقصودين كالمتناقض وأما القسم الثانى وهو أن يقال ان هذه الشهب جنس آخر غير الكواكب المركوزة فى الفلك فهذا أيضا مشكل لانه تعالى قال فى سورة تبارك الذى بيده الملك ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فالضمير فى قوله وجعلناها عائد الى المصابيح فوجب ان تكون تلك المصابيح هى الرجوم بأعيانها من غير تفاوت والجواب ان هذه الشهب غير تلك الثواقب الباقية وأما قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فنقول كل نير يحصل فى الجو العالى فهو مصابيح لاهل الارض الا ان

تلك المصابيح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد ومنها ما لا يكون كذلك وهي هذه الشهب التي يحدثها الله تعالى و يجعلها رجوما للشياطين و بهذا التقدير فقد زال الاشكال والله أعلم (السؤال الثاني) كيف يجوز أن تذهب الشياطين الى حيث يعلمون بالتجويز ان الشهب تحرقهم ولا يصلون الى مقصودهم البتة وهل يمكن أن يصدر مثل هذا الفعل عن عاقل فكيف من الشياطين الذين لهم مزية في معرفة الحيل الدقيقة والجواب ان حصول هذه الحالة ليس له موضع معين والا لم يذهبوا اليه وانما يمنعون من المصير الى مواضع الملائكة ومواضعها مختلفة فربما صاروا الى موضع تصيبهم فيه الشهب وربما صاروا الى غيره ولا يصادفون الملائكة فلا تصيبهم الشهب فلما هلكوا في بعض الاوقات وسلموا في بعض الاوقات جاز أن يصيروا الى مواضع يغلب على ظنونهم انه لا تصيبهم الشهب فيها كما يجوز فيمن يسلك البحران يسلكه في موضع يغلب على ظنه حصول النجاة هذا ما ذكره أبو علي الجبائي من الجواب عن هذا السؤال في تفسيره ولقائل ان يقول انهم اذا صعدوا فاما ان يصلوا الى مواضع الملائكة أو الى غير تلك المواضع فان وصلوا الى مواضع الملائكة احترقوا وان وصلوا الى غير مواضع الملائكة لم يفوزوا بمقصودهم أصلا فعلى كلا التقديرين المقصود غير حاصل واذا حصلت هذه التجربة وثبت بالاستقراء ان الفوز بالمقصود محال وجب ان يمتنعوا عن هذا العمل وان لا يقدموا عليه أصلا بخلاف حال المسافرين في البحر فان الغالب عليهم السلامة والفوز بالمقصود أما ههنا فالشيطان الذي يسلم من الاحتراق انما يسلم اذا لم يصل الى مواضع الملائكة واذا لم يصل الى تلك المواضع لم يفز بالمقصود فوجب أن لا يعود الى هذا العمل البتة والا قرب في الجواب أن نقول هذه الواقعة انما تتفق في الندرة فلعلها لا تشتهر بسبب كونها نادرة بين الشياطين والله أعلم (السؤال الثالث) قالوا دلت التواريخ المتواترة على ان حدوث الشهب كان حاصلا قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم فان الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم بزمان طويل ذكروا ذلك وتكلموا في سبب حدوثه واذا ثبت ان ذلك كان موجودا قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم امتنع حمله على مجيء النبي صلى الله عليه وسلم أجاب القاضي بأن الاقرب ان هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي صلى الله عليه وسلم لكنها كثرت في زمان النبي صلى الله عليه وسلم فصارت بسبب الكثرة معجزة (السؤال الرابع) الشيطان مخلوق من النار قال تعالى حكاية عن ابليس خلقتني من نار وقال والجان خلقناه من قبل من نار السموم ولهذا السبب يقدر على الصعود الى السموات واذا كان كذلك فكيف يعقل احراق النار بالنار والجواب يحتمل ان الشياطين وان كانوا من النيران الا انها نيران ضعيفة فاذا وصلت نيران الشهب اليهم وتلك النيران أقوى حالا منهم لا جرم صار الاقوى مبطلا للاضعف ألا ترى ان السراج الضعيف اذا رجع في النار القوية فانه ينطفئ فكذلك ههنا (السؤال الخامس) ان مقر

الملائكة هو السطح الاعلى من الفلك والشياطين لا يمكنهم الوصول الا الى الاقرب من السطح الاسفل من الفلك فيبقى جرم الفلك مانعا من وصول الشياطين الى القرب من الملائكة ولعل الفلك عظيم المقدار فمع حصول هذا المانع العظيم كيف يعقل أن تسمع الشياطين كلام الملائكة فان قلتم ان الله تعالى يقوى سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة فنقول فعلى هذا التقدير اذا كان الله تعالى يقوى سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة وجب ان لا ينفى سمع الشيطان وان كان لا يريد منع الشيطان من العمل فما الفائدة فى رميه بالرجوم فالجواب مذهبنا ان أفعال الله تعالى غير معللة فيفعل الله ما يشاء و يحكم ما يريد ولا اعتراض لاحد عليه فى شئ من أفعاله فهذا ما يتعلق بمباحث هذا الباب واذا اضيف ما كتبناه ههنا الى ما كتبناه فى سورة الملك وفى سائر الآيات المشتملة على هذه المسئلة بلغ تمام الكفاية فى هذا الباب والله أعلم * وأما قوله لا يسمعون الى الملأ الأعلى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم لا يسمعون بتشديد السين والميم وأصله يتسمعون فادغمت التاء فى السين لاشتراكهما فى الهمس والتسمع تطلب السماع يقال تسمع سمع أولم يسمع والباقون بتخفيف السين واختار أبو عبيد التشديد فى يسمعون قال لان العرب تقول تسمعت الى فلان و يقولون سمعت فلانا ولا يكادون يقولون سمعت الى فلان وقيل فى تقوية هذه القراءة اذا نفى التسمع فقد نفى سمعه وحجة القراءة الثانية قوله تعالى انهم عن السمع لمعزولون وروى مجاهد عن ابن عباس ان الشياطين يسمعون الى الملا الاعلى ثم يمنعون فلا يسمعون وللاولين ان يجيبوا فيقولون التنصيص على كونهم معزولين عن السمع لا يمنع من كونهم معزولين أيضا عن التسمع بدلالة هذه الآية بل هو أقوى فى ردع الشياطين ومنعهم من استماع أخبار السماء فان الذى منع من الاستماع فبأن يكون ممنوعا من السمع أولى (المسئلة الثانية) الفرق بين قولك سمعت حديث فلان و بين قولك سمعت الى حديثه بأن قولك سمعت حديثه يفيد الادراك وسمعت الى حديثه يفيد الاصغاء مع الادراك (المسئلة الثالثة) فى قوله لا يسمعون الى الملأ الاعلى قولان (الاول) وهو المشهور ان تقدير الكلام لئلا يسمعوا فلما حذف الناصب عاد الفعل الى الرفع كما قال يبين الله لكم أن تضلوا وكما قال رواسى أن تميد بكم قال صاحب الكشاف حذف أن واللام كل واحد منهما جائز بانفراده أما اجتماعهما فمن المنكرات التى يجب صون القرآن عنها (والقول الثانى) وهو الذى اختاره صاحب الكشاف انه كلام مبتدأ منقطع عما قبله وهو حكاية حال المسترقة للسمع وانهم لا يقدرون أن يسمعوا الى كلام الملائكة و يتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب مدحورون عن ذلك المقصود (المسئلة الرابعة) الملأ الأعلى الملائكة لانهم يسكنون السموات وأما الانس والجن فهم الملأ الاسفل لانهم سكان الارض واعلم أنه تعالى وصف أولئك الشياطين بصفات ثلاثة (الاولى) انهم لا يسمعون (الثانية) انهم يقذفون

من كل جانب دحورا وفيه ابحاث (الاول) قد ذكرنا معنى الدحور في سورة الاعراف
عند قوله اخرج منها مذؤما مدحورا قال المبرد الدحور أشد الصغار والذل وقال ابن
قتيبة دحرته دحرا ودحورا أي دفعته وطردته (البحث الثاني) في انتصاب قوله دحورا
وجوه (الاول) انه انتصب بالمصدر على معنى يدحرون دحورا ودل على الفعل قوله تعالى
ويقذفون (الثاني) التقدير ويقذفون للدحور ثم حذف اللام (الثالث) قال مجاهد
دحورا مطرودين فعلى هذا هو حال سميت بالمصدر كالركوع والسجود والحضور
(البحث الثالث) قرأ أبو عبد الرحمن السلمي دحورا بفتح الدال قال الفراء كأنه قال يقذفون
يدحرون بما يدحر ثم قال ولست اشتهي الفتح لانه لو وجه ذلك على صحة لكان فيها الباء
كما تقول يقذفون بالحجارة ولا تقول يقذفون الحجارة الا انه جائز في الجملة كما قال الشاعر
* نغال اللحم للاضياف نيئا * أي نغالي باللحم (الصفة الثالثة) قوله تعالى ولهم عذاب
واصب والمعنى انهم مرجومون بالشهب وهذا العذاب مسلط عليهم على سبيل الدوام
وقد ذكرنا تفسير الواصب في سورة النحل عند قوله تعالى وله الدين واصبا قالوا كلهم انه
الدائم قال الواحدي ومن فسر الواصب بالشديد والموجع فهو معنى وليس بتفسير * ثم قال
تعالى الا من خطف الخطفة قد ذكرنا معنى الخطف في سورة الحج قال الزجاج وهو أخذ الشئ
بسرعة واصل خطف اختطف قال صاحب الكشاف من في محل الرفع بدل من الواو في
لا يسمعون أي لا يسمع الشياطين الا الشيطان الذي خطف الخطفة أي اختلس الكلمة
على وجه المسارقة فأتبعه يعني لحقه وأصابه يقال تبعه وأتبعه اذا مضى في أثره واتبعه
اذا لحقه وأصله من قوله تعالى فأتبعه الشيطان وقد مر تفسيره وقوله تعالى شهاب ثاقب
قال الحسن ثاقب أي مضئ وأقول سمي ثاقبا لانه يثقب بنوره الهواء قال ابن عباس
في تفسير قوله والنجم الثاقب قال انه زحل سمي بذلك لانه يثقب بنوره سمك سبع سموات
والله أعلم * قوله تعالى (فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا انا خلقناهم من طين لازب)
في الآية مسائل (المسئلة الاولى) في بيان النظم اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصد الاقصى
من هذا الكتاب الكريم اثبات الاصول الاربعة وهي الالهيات والمعاد والنبوة
واثبات القضاء والقدر فنقول انه تعالى افتتح هذه السورة باثبات ما يدل على وجود
الصانع ويدل على علمه وقدرته وحكمته ويدل على وحدانيته وهو خلق السموات
والارض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب فلما أحكم الكلام في هذا الباب فرع
عليها اثبات القول بالحشر والنشر والقيامة واعلم أن الكلام في هذه المسئلة يتعلق
بطرفين أولهما اثبات الجواز العقلي وثانيهما اثبات الوقوع أما الكلام في المطلوب
الاول فاعلم أن الاستدلال على الشئ يقع على وجهين (أحدهما) أن يقال انه قدر على
ما هو أصعب وأشد وأشق منه فوجب أيضا أن يقدر عليه (والثاني) أن يقال انه قدر
عليه في احدى الحالتين والفاعل والقابل باقيين كما كانا فوجب أن تبقى القدرة عليه في

(فاستفتهم) فاستخبر مشركي مكة (أهم أشد خلقا) أي أقوى خلقة وأمتن بنية أو أصعب خلقا وأشق ايجادا (أم من خلقنا) من الملائكة والسماء والارض وما بينهما والمشارق والكواكب والشهب الثواقب ومن لتغليب العقلاء على غيرهم ويدل عليه اطلاقه ومجيئه بعد ذلك لاسيما قراءة من قرأ ام من عددنا وقوله تعالى (انا خلقناهم من طين لازب) فانه الفارق بينهم وبينها لا بينهم وبين من قبلهم من الامم كعاد وثمود ولا المراد اثبات المعاد ورد استحالتهم والامر فيه بالاضافة اليهم والى من قبلهم سواء وقرئ لازم ولاتب

الحالة الثانية والله تعالى ذكر هذين الطريقين في بيان أن القول بالبعث والقيامة أمر جائز ممكن (أما الطريق الاول) فهو المراد من قوله فاستفتهم أهم أشد خلقا والتقدير كأنه تعالى يقول استفت يا محمد هؤلاء المنكرين أهم أشد خلقا أمن خلقنا من خلق السموات والارض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب وخلق الشياطين الذين يصعدون الفلك ولاشك أنهم يعترفون بأن خلق هذا القسم أشق وأشد في العرف من خلق القسم الاول فلما ثبت بالدلائل المذكورة في اثبات التوحيد كونه تعالى قادرا على هذا القسم الذي هو أشد وأصعب فبأن يكون قادرا على اعادة الحياة في هذه الاجساد كان أولى ونظير هذه الدلالة قوله تعالى في آخر يس أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم وقوله تعالى لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس (وأما الطريق الثاني) فهو المراد من قوله انا خلقناهم من طين لازب والمعنى ان هذه الاجسام قابلة للحياة اذ لولم تكن قابلة للحياة لما صارت حية في المرة الاولى والاله قادر على خلق هذه الحياة في هذه الاجسام ولولا كونه تعالى قادرا على هذا المعنى لما حصلت الحياة في المرة الاولى ولاشك أن قابلية تلك الاجسام باقية وان قادرية الله تعالى باقية لان هذه القابلية وهذه القادرية من الصفات الذاتية فامتنع زوالها فثبت بهذين الطريقين ان القول بالبعث والقيامة أمر ممكن ولما بين تعالى امكان هذا المعنى بهذين الطريقين بين وقوعه بقوله قل نعم وأنتم داخرون وذلك لانه ثبت صدق الرسول صلى الله عليه وسلم لاجل ظهور المعجزات عليه والصادق اذا أخبر عن أمر ممكن الوقوع وجب الاعتراف بوقوعه فهذا تقرير نظم هذه الآية وهو في غاية الحسن والله أعلم (المسئلة الثانية) في تفسير ألفاظ هذه الآية أما قوله فاستفتهم يعني أنه لما ثبت بالدلائل القاطعة كونه تعالى خالقا للسموات والارض وما بينهما فاستفت هؤلاء المنكرين وقل لهم أهم أشد خلقا أم هذه الاشياء التي بينا كونه تعالى خالقا لها ولم يحك عنهم أنهم أقروا أن خلق هذه الاشياء أصعب لاجل ان ظهور ذلك كالمعلوم بالضرورة فلا حاجة أن يحكى عنهم صحة ان الامر كذلك ثم قال تعالى انا خلقناهم من طين لازب يعني انا لما قدرنا على خلق الحياة في ذواتهم أولا وجب ان نبقى قادرين على خلق الحياة فيهم ثانيا لما بينا أن حال القابل وحال الفاعل ممتنع التغير وفيه دقيقة أخرى وهي ان القوم قالوا كيف يعقل تولد الانسان لامن النطفه ولامن الابوين فكأنه قيل لهم انكم لما أقررتم بحدوث العالم واعترفتم بان السموات والارض وما بينهما انما حصل بتخليق الله تعالى وتكوينه فلابد وان تعترفوا بان الانسان الاول انما حدث لامن الابوين فاذا عقلتم ذلك واعترفتم به فقد سقط قولكم الانسان كيف يحدث من غير النطفة ومن غير الابوين وأيضا فقد اشتهر عند الجمهور أن آدم مخلوق من الطين اللازب ومن قدر على خلق الحياة في الطين اللازب فكيف يعجز عن اعادة الحياة الى هذه الذوات وأما كيفية خلق الانسان من الطين اللازب فهي مذكورة في السورة المتقدمة واعلم ان

هذا الوجه انما يحسن اذا قلنا المراد من قوله تعالى انا خلقناهم من طين لازب هو انا خلقنا أباهم آدم من طين لازب وفيه وجوه أخر وهو أن يكون المراد انا خلقنا كل انسان من طين لازب وتقريره ان الحيوان انما يتولد من المني ودم الطمث والمني يتولد من الدم فالحيوان انما يتولد من الدم والدم انما يتولد من الغذاء والغذاء اما حيواني واما نباتي أما تولد الحيوان الذي صار غذاء فالكلام في كيفية تولده كالكلام في تولد الانسان فثبت أن الاصل في الاغذية هو النبات والنبات انما يتولد من امتزاج الارض بالماء وهو الطين اللازب واذا كان الامر كذلك فقد ظهر ان كل الخلق متولدون من الطين اللازب واذا ثبت هذا فنقول ان هذه الاجزاء التي منها تركب هذا الطين اللازب قابلة للحياة والله تعالى قادر عليها وهذه القابلية والقادرية واجبة البقاء فوجب بقاء هذه الصحة في كل الاوقات وهذه بيانات ظاهرة واضحة وأما اللازب فقيل اللاصق وقيل اللازج وقيل الحتدوا أكثر أهل اللغة على ان الباء لازب بدل من الميم يقال لازب ولازم * ثم قال تعالى (بل عجبت ويسخرون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) تقرير الكلام ان يقال ان هؤلاء المنكرين أقروا بانه تعالى قادر على تكوين أشياء أصعب من اعادة الحياة الى هذه الاجساد وقد تقرر في صرائح العقول ان القادر على الاشق الاشد يكون قادرا على الاسهل الايسر ثم مع قيام هذه الحجة البديهية بقي هؤلاء الاقوام مصرين على انكار البعث والقيامة وهذا في موضع التعجب الشديد فانه مع ظهور هذه الحجة الجلية الظاهرة كيف يعقل بقاء القوم على الاصرار فانت يا محمد تتعجب من اصرارهم على الانكار وهم في طرف الانكار وصلوا الى حيث يسخرون منك في قولك باثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة فهذا هو المراد من قوله بل عجبت ويسخرون (المسئلة الثانية) قرأ حمزة والكسائي عجبت بضم التاء والباقون بفتحها قال الواحدي والضم قراءة ابن عباس وابن مسعود وابراهيم ويحيى ابن وثاب والاعمش وقراءة أهل الكوفة واختيار أبي عبيدة أما الذين قرؤا بالفتح فقد احتجوا بوجوه (الاول) ان القراءة بالضم تدل على اسناد العجب الى الله تعالى وذلك محال لان التعجب حالة تحصل عند الجهل بصفة الشيء ومعلوم ان الجهل على الله محال (والثاني) ان الله تعالى أضاف التعجب الى محمد صلى الله عليه وسلم في آية أخرى في هذه المسئلة فقال وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا (والثالث) انه تعالى قال بل عجبت ويسخرون والظاهر انهم انما سخروا لاجل ذلك التعجب فلما سخروا منه وجب أن يكون ذلك التعجب صادرا منه وأما الذين قرؤا بضم التاء فقد أجابوا عن الحجة الاولى من وجوه (الاول) ان القراءة بالضم لا نسلم أنها تدل على اسناد التعجب الى الله تعالى وبيانه أنه يكون التقدير قل يا محمد بل عجبت ويسخرون ونظيره قوله تعالى أسمع بهم وأبصر معناه أن هؤلاء مما تقولون فيه أنتم هذا النحو من الكلام وكذلك قوله تعالى فما أصبرهم على النار الثاني سلمنا أن ذلك يقتضي اضافة التعجب الى الله تعالى فلم قلتم ان ذلك محال وروي ان شريحا كان

(بل عجبت) أي من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وانكارهم للبعث (ويسخرون) من تعجبك وتقريرك للبعث وقرئ بضم التاء على معنى انه بلغ كمال قدرتي وكثرة مخلوقاتي الى حيث عجبت منها وهؤلاء لجهلهم يسخرون منها أو عجبت من أن ينكروا البعث ممن هذه أفاعيله ويسخروا ممن يجوزه والعجب من الله تعالى اما على الفرض والتخييل أو على معنى الاستعظام اللازم له فانه روعة تعتري الانسان عند استعظام الشيء وقيل انه مقدر بالقول أي قل يا محمد بل عجبت

(واذا ذكروا) أي وذأبهم المستمر أنهم اذا وعظوا بشئ من المواعظ (لايذكرون) لا يتعظون واذا ذكر لهم ما يدل على صحة البعث لا ينتفعون به لغاية بلادتهم وقصور فكرهم (واذا رأوا آية) أي معجزة تدل على صدق القائل به (يستسخرون) يبالغون في السخرية ويقولون انه سحر أو يستدعى بعضهم من بعض أن يسخر منها (وقالوا ان هذا) أي ما يرونه من الآيات الباهرة (الا سحر مبين) ظاهر سحريته (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما) أي كان بعض أجزائنا ترابا وبعضها عظاما وتقديم التراب لانه منقلب من الاجزاء البادية والعامل في اذا ما دل عليه مبعوثون في قوله تعالى (أئنا لمبعوثون) أي نبعث لانفسه لان دونه خطو با لو تفرد واحد منها الكفى في المنع وتقديم الظرف لتقوية الانكار للبعث بتوجيهه الى حالة منافية له غاية المنافاة وكذا تكرير الهمزة في أئنا للمبالغة والتشديد في ذلك وكذا تحلية الجملة بان واللام لتأكيد الانكار لا لانكار التاكيد كما يوهمه ظاهر النظم الكريم فان تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما في مثل قوله أفلا تعقلون على رأى الجمهور فان المعنى عندهم تعقيب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور وقرئ بطرح الهمزة

يختار القراءة بالنصب ويقول العجب لا يليق الا بمن لا يعلم قال الاعمش فذكرت ذلك لابراهيم فقال ان شريحا يعجب بعلمه وكان عبد الله أعلم وكان يقرأ بالضم وتحقيق القول فيه أن نقول دل القرآن والخبر على جواز اضافة العجب الى الله تعالى أما القرآن فقوله تعالى وان تعجب فعجب قولهم والمعنى وان تعجب يا محمد من قولهم فهو أيضا عجب عندي وأجيب عنه انه لا يمتنع أن يكون المراد وان تعجب فعجب قولهم عندكم وأما الخبر فقوله صلى الله عليه وسلم عجب ربكم من الكم وقنوطكم وعجب ربكم من شاب ليست له صبوة واذا ثبت هذا فنقول العجب من الله تعالى خلاف العجب من الآدميين كما قال ويمكرون ويمكر الله وقال سخر الله منهم وقال تعالى وهو خادعهم والمكر والخداع والسخرية من الله تعالى بخلاف هذه الاحوال من العباد وقد ذكرنا ان القانون في هذا الباب ان هذه الالفاظ محمولة على نهايات الاعراض لا على بدايات الاعراض وكذلك ههنا من تعجب من شئ فانه يستعظمه فالتعجب في حق الله تعالى محمول على أنه تعالى يستعظم تلك الحالة ان كانت قبيحة فيترتب العقاب العظيم عليه وان كانت حسنة فيترتب الثواب العظيم عليه فهذا تمام الكلام في هذه المناظرة والاقرب ان يقال القراءة بالضم ان ثبتت بالتواتر وجب المصير اليها ويكون التأويل ما ذكرناه وان لم تثبت هذه القراءة بالتواتر كانت القراءة بفتح التاء أولى والله أعلم * ثم قال تعالى (واذا ذكروا لا يذكرون واذا رأوا آية يستسخرون وقالوا ان هذا الا سحر مبين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أوآباؤنا الاولون قل نعم وأنتم داخرون) اعلم أنه تعالى لما قرر الدليل القاطع في اثبات امكان البعث والقيامة حكى عن المنكرين أشياء أولها أن النبي صلى الله عليه وسلم يتعجب من اصرارهم على الانكار وهم يسخرون منه في اصراره على الاثبات وهذا يدل على انه صلى الله عليه وسلم مع أولئك الاقوام كانوا في غاية التباعد وفي طرفي النقيض وثانيها قوله واذا ذكروا لا يذكرون وثالثها قوله واذا رأوا آية يستسخرون ويجب أن يكون المراد من هذا الثاني والثالث غير الاول لان العطف يوجب التغاير ولان التكرير خلاف الاصل والذي عندي في هذا الباب أن يقال القوم كانوا يستبعدون الحشر والقيامة ويقولون من مات وصار ترابا وتفرقت أجزاؤه في العالم كيف يعقل عوده بعينه وبلغوا في هذا الاستبعاد الى حيث كانوا يستسخرون ممن يذهب الى هذا المذهب واذا كان كذلك فلا طريق الى ازالة هذا الاستبعاد عنهم الا من وجهين (أحدهما) ان يذكر لهم الدليل الدال على صحة الحشر والنشر مثل أن يقال لهم هل تعلمون أن خلق السموات والارض أشد وأصعب من اعادة انسان بعد موته وهل تعلمون ان القادر على الاصعب الاشق يجب أن يكون قادرا على الاسهل الايسر فهذا الدليل وان كان جليا قويا الا أن أولئك المنكرين اذا عرض على عقولهم هذه المقدمات لا يفهمونها ولا يقفون عليها واذا ذكروا لم يذكروها لشدة بلادتهم وجهلهم فلا جرم لم ينتفعوا بهذا النوع من البيان (والطريق

الثاني) ان يثبت الرسول صلى الله عليه وسلم جهة رسالته بالمعجزات ثم يقول لما ثبت بالمعجز كوني رسولا صادقا من عند الله فانا أخبركم بأن البعث والقيامة حق ثم ان أولئك المنكرين لا ينتفعون بهذا الطريق أيضا لانهم اذا رأوا معجزة قاهرة وآية باهرة حملوها على كونها سحرا وسخروا بها واستهزؤا منها وهذا هو المراد من قوله واذا رأوا آية يستسخرون فظهر بالبيان الذي ذكرناه أن هذه الالفاظ الثلاثة منبهة على هذه الفوائد الجليلة واعلم أن أكثر الناس لم يقفوا على هذه الدقائق فقالوا انه تعالى قال بل عجبت ويسخرون ثم قال واذا رأوا آية يستسخرون فوجب أن يكون المراد من قوله يستسخرون غير ما تقدم ذكره من قوله ويسخرون فقال هذا القائل المراد من قوله ويسخرون اقدامهم على السخرية والمراد من قوله يستسخرون طلب كل واحد منهم من صاحبه ان يقدم على السخرية وهذا التكليف انما لزمهم لعدم وقوفهم على الفوائد التي ذكرناها والله أعلم (والرابع) من الامور التي حكاها الله تعالى عنهم أنهم قالوا ان هذا الا سحر مبين يعني أنهم اذا رأوا آية ومعجزة سخروا منها والسبب في تلك السخرية اعتقادهم أنها من باب السحر وقوله مبين معناه ان كونه سحرا أمر بين لا شبهة لاحد فيه ثم بين تعالى ان السبب الذي يحملهم على الاستهزاء بالقول بالبعث وعلى عدم الالتفات الى الدلائل الدالة على صحة القول وعلى الاستهزاء بجميع المعجزات هو قولهم ان الذي مات وتفرقت أجزاؤه في جملة العالم فما فيه من الارضية اختلط بتراب الارض وما فيه من المائية والهوائية اختلط ببخارات العالم فهذا الانسان كيف يعقل عوده بعينه حيا فاهما فهذا الكلام هو الذي يحملهم على تلك الاحوال الثلاثة المتقدمة ثم انه تعالى لما حكى عنهم هذه الشبهة قال قل يا محمد نعم وأنتم داخرون وانما اكتفى تعالى بهذا القدر من الجواب لانه ذكر في الآية المتقدمة بالبرهان اليقيني القطعي انه أمر ممكن واذا ثبت الجواز القطعي فلا سبيل الى القطع بالوقوع الا باخبار المخبر الصادق فلما قامت المعجزات على صدق محمد صلى الله عليه وسلم كان واجب الصدق فكان مجرد قوله قل نعم دليلا قاطعا على الوقوع ومن تأمل في هذه الآيات علم أنها وردت على أحسن وجوه الترتيب وذلك لانه بين الامكان بالدليل العقلي وبين وقوع ذلك الممكن بالدليل السمعي ومن المعلوم ان الزيادة على هذا البيان كالامر الممتنع * أما قوله أوآباؤنا فالمعنى أوتبعث آباؤنا وهذه ألف الاستفهام دخلت على حرف العطف وقرأ نافع وابن عامر ههنا وفي سورة الواقعة ساكنة الواو وذكرنا الكلام في هذا في سورة الاعراف عند قوله أوأمن أهل القرى * أما قوله تعالى قل نعم فنقول قرأ الكسائي وحده نعم بكسر العين * أما قوله تعالى وأنتم داخرون أي صاغرون قال أبو عبيد الدخور أشد الصغار وذكرنا تفسير هذه اللفظة عند قوله سجدا لله وهم داخرون * قوله تعالى (فانما هي زجرة واحدة فاذا هم ينظرون وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون) اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة

الاولى ويطرح الثانية فقط (آباؤنا الاولون) رفع على الابتداء وخبره محذوف عند سيبويه أي وآباؤنا الاولون أيضا مبعوثون وقيل عطف على محل ان واسمها وقيل على الضمير في مبعوثون للفصل بهمزة الانكار الجارية مجرى حرف النفي في قوله تعالى ما أشركنا ولا آباؤنا وأياما كان فمرادهم زيادة الاستبعاد بناء على أنهم أقدم فبعثهم أبعد على زعمهم وقرئ أوآباؤنا (قل) تبكيتا لهم (نعم) والخطاب في قوله تعالى (وأنتم داخرون) لهم ولآبائهم بطريق التغليب والجملة حال من فاعل ما دل عليه نعم أي كلكم مبعوثون والحال أنكم صاغرون أذلاء وقرئ نعم بكسر العين وهي لغة فيه (فانما هي زجرة واحدة) هي اما ضمير مبهم يفسره خبره أو ضمير البعثة والجملة جواب شرط مضمر أو تعليل لنهي مقدر أي اذا كان كذلك فانما هي الخ أو لا تستصعبوه فانما هي الخ والزجرة الصيحة من زجر الراعي غنمه اذا صاح عليها وهي النفخة

مايدل على امكان البعث والقيامة ثم أردفه بمايدل على وقوع القيامة ذكر في هذه الآيات بعض تفاصيل أحوال القيامة وانه تعالى ذكر في هذه الآية أنواعا من تلك الاحوال (فالحالة الاولى) قوله تعالى فانما هي زجرة واحدة فاذاهم ينظرون وفيه ابحاث (البحث الاول) قوله فانما جواب شرط مقدر والتقدير اذا كان كذلك فما هي الازجرة واحدة (البحث الثاني) الضمير في قوله فانما هي ضمير على شريطة التفسير والتقدير فانما البعث زجرة واحدة (البحث الثالث) الزجرة في اللغة الصيحة التي يزجر بها كالزجرة بالنعم والابل عند الحث ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيحة وان لم يكن فيهامعنى الزجر كما في هذه الآية وأقول لايبعد ان يقال ان تلك الصيحة انما سميت زجرة لانها تزجر الموتى عن الرقود في القبور وتحثهم على القيام من القبور والحضور في موقف القيامة فاذا عرفت هذا فنقول المراد من هذه الزجرة ماذكره الله تعالى في قوله ثم نفخ فيه أخرى فاذاهم قيام ينظرون فبالنفخة الاولى يموتون وبالنفخة الثانية يحيون ويقومون * وههنا سؤالات (السؤال الاول) ماالفائدة في هذه الصيحة فان القوم في تلك الساعة أموات لان النفخة جارية مجرى السبب لحياتهم فتكون مقدمة على حصول حياتهم فثبت أن هذه الصيحة انما حصلت حال كون الخلق أمواتا فتكون تلك الصيحة عديمة الفائدة فهي عبث والعبث لايجوز في فعل الله (والجواب) أما أصحابنا فيقولون يفعل الله مايشاء واما المعتزلة فقال القاضي فيه وجهان (الاول) ان تعتبر بها الملائكة (الثاني) أن تكون الفائدة التخويف والارهاب (السؤال الثاني) هل لتلك الصيحة تأثير في اعادة الحياة والجواب لا بدليل أن الصيحة الاولى استعقبت الموت والثانية الحياة وذلك يدل على أن الصيحة لاأثر لها في الموت ولا في الحياة بل خالق الموت والحياة هو الله تعالى كما قال الذي خلق الموت والحياة (السؤال الثالث) تلك الصيحة صوت الملائكة أو الله تعالى يخلقها ابتداء (الجواب) الكل جائز الا انه روى أن الله تعالى يأمر اسرافيل حتى ينادي أيتها العظام النخرة والجلود البالية والاجزاء المتفرقة اجتمعوا باذن الله تعالى (اللفظ الرابع) من الالفاظ المذكورة في هذه الآية قوله تعالى فاذاهم ينظرون فيحتمل أن يكون المراد ينظرون مايحدث بهم ويحتمل ينظر بعضهم الى بعض وان يكون المراد ينظرون الى البعث الذي كذبوا به (الحالة الثانية) من وقائع القيامة ماأخبر الله عنهم أنهم بعد القيام من القبور قالوا ياويلنا هذا يوم الدين قال الزجاج الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة والمقصود أنهم لماشاهدوا القيامة قالوا هذا يوم الدين أي يوم الجزاء هذا والمقصود أن الله تعالى ذكر في آيات كثيرة من القرآن انا نرى في الدنيا محسنا ومسيئا وعاصيا ومطيعا وزنديقا ورأينا أنه لم يصل اليهم في الدنيا مايليق بهم من الجزاء فوجب القول باثبات القيامة ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى وبالجملة فهذا يدل على أن الجزاء انما يحصل بعد الموت والكفار وان سمعوا هذا الدليل

الثانية (فاذاهم) قائمون من مراقدهم أحياء (ينظرون) يبصرون كما كانوا أو ينتظرون مايفعل بهم (وقالوا) أي المبعوثون وصيغة الماضي للدلالة على التحقق والتقرر (ياويلنا) أي هلاكنا احضر فهذا أوان حضورك وقوله تعالى (هذا يوم الدين) تعليل لدعائهم الويل بطريق الاستئناف أي اليوم الذي نجازى فيه بأعمالنا وانما علموا ذلك لانهم كانوا يسمعون في الدنيا أنهم يبعثون ويحاسبون ويجزون باعمالهم فلما شاهدوا البعث أيقنوا بما بعده أيضا وقوله تعالى (هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون) كلام الملائكة جوابا لهم بطريق التوبيخ والتقريع وقيل هو ايضا من كلام بعضهم لبعض والفصل القضاء أو الفرق بين فرق الهدى والضلال

وقوله تعالى (احشروا الذين ظلموا) خطاب من الله عز وجل للملائكة أو من بعضهم لبعض بحشر الظلمة من مقامهم الى الموقف وقيل من الموقف الى الجحيم (وأزواجهم) أى أشباههم ونظراءهم من العصاة عابد الصنم مع عبدته وعابد الكوكب مع عبدته كقوله تعالى وكنتم ﴿ ١٣٧ ﴾ أزواجا ثلاثة وقيل قرناءهم من الشياطين وقيل نساءهم اللاتى على دينهم (وما كانوا يعبدون من دون الله) من الاصنام ونحوها زيادة فى تحسيرهم وتخجيلهم قيل هو عام مخصوص بقوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية الكريمة وأنت خبير بأن الموصول عبارة عن المشركين خاصة جئ به لتعليل الحكم بما فى حيز صلته فلا عموم ولا تخصيص (فاهدوهم الى صراط الجحيم) أى عرفوهم طرقها ووجهوهم اليها وفيه تهكم بهم (وقفوهم) احبسوهم فى الموقف كأن الملائكة سارعوا الى ما أمروا به من حشرهم الى الجحيم فأمروا بذلك وعلل بقوله تعالى (انهم مسئولون) ايذانا من أول الامر بأن ذلك ليس للعفو عنهم ولا ليستريحوا بتأخير العذاب فى الجملة بل ليسألوا لكن لا عن عقائدهم وأعمالهم كما قيل فان ذلك قد وقع قبل الامر بهم الى الجحيم بل عما ينطق به قوله تعالى (ما لكم لا تناصرون) بطريق التوبيخ والتقريع والتهكم أى ﴿ ١٨ ﴾ سا لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم تزعمون فى الدنيا وتأخير هذا السؤال الى ذلك الوقت لانه وقت تنجز العذاب وشدة الحاجة الى النصرة وحالة انقطاع الرجاء عنها بالكلية فالتوبيخ والتقريع حينئذ أشد وقعا وتأثيرا وقرئ لا تتناصرون ولا تناصرون بالادغام (بل هم

القوى لكنهم أنكروا وتمردوا ثم انه تعالى اذا أحياهم يوم القيامة فاذا شاهدوا القيامة يذكرون ذلك اليوم ويقولون هذا يوم الدين أى يوم الجزاء الذى ذكر الله الدلائل الكثيرة عليه فى القرآن فكفرنا بها ونظيره ان من خوف بشئ ولم يلتفت اليه ثم عاينه بعد ذلك فقد يقول هذا يوم الواقعة الفلانية فكذا ههنا وفيه احتمال آخر وهو انه تعالى قال فى سورة الفاتحة مالك يوم الدين فبين أنه لا مالك فى ذلك اليوم الا الله فقولهم هذا يوم الدين اشارة الى أن هذا هو اليوم الذى لا حكم فيه لاحد الا الله وانما ذكروه لما حصل فى قلوبهم من الخوف الشديد أما قوله تعالى هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ففيه بحثان (الاول) اختلفوا فى أن هذا هل هو من بقية كلام الكفار أو يقال تم كلامهم عند قوله تعالى هذا يوم الدين وأما قوله هذا يوم الفصل فهو كلام غيرهم فبعضهم قال بالاول وزعم ان قوله يوم الفصل الآية من كلام بعضهم لبعض والاكثرون على القول الثانى واحتجوا بوجهين (الاول) ان قوله كنتم به تكذبون من كلام بعضهم لبعض خطاب مع جمع الكفار فقائل هذا القول لابد وأن يكون غير الكفار (الثانى) أن قوله احشروا الذين ظلموا وأزواجهم منسوق على قوله هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون فلما كان قوله احشروا الذين ظلموا كلام غير الكفار فكذلك قوله هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون يجب أن يكون كلام غير الكفار وعلى هذا التقدير فقوله هذا يوم الدين من كلام الكفار وقوله هذا يوم الفصل من كلام الملائكة جوابا لهم والوجه فى كونه جوابا لهم ان أولئك الكفار انما اعتقدوا فى أنفسهم كونهم محقين فى انكار دعوة الانبياء عليهم السلام وكونهم محقين فى تلك الاديان الفاسدة فقالوا هذا يوم الدين أى هذا هو اليوم الذى يصل فيه الينا جزاء طاعاتنا وخيراتنا فالملائكة يقولون لهم انه لا اعتبار بظواهر الامور فى هذا اليوم فان هذا اليوم يفصل فيه الجزاء الحقيقى عن الجزاء الظاهرى وتميز فيه الطاعات الحقيقية عن الطاعات المقرونة بالرياء والسمعة فبهذا الطريق صار هذا الكلام من الملائكة جوابا لما ذكره الكفار * ثم قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم) وفى الآية ابحاث (البحث الاول) اعلم انه لا نزاع فى ان هذا من كلام الملائكة فان قيل ما معنى احشروا مع انهم قد حشروا من قبل وحضروا فى محفل القيامة وقالوا هذا يوم الدين وقالت الملائكة لهم بل هذا يوم الفصل أجاب القاضى عنه فقال المراد احشروهم الى دار الجزاء وهى النار ولذلك قال بعده فاهدوهم الى صراط الجحيم أى خذوهم الى ذلك الطريق ودلوهم عليه ثم سأل نفسه فقال كيف يصح ذلك وقد قال بعده وقفوهم انهم مسؤلون ومعلوم أن حشرهم الى الجحيم انما يكون بعد المسئلة وأجاب انه ليس فى العطف بحرف الواو ترتيب فلا يمتنع ان يقال احشروهم وقفوهم مع انا بعقولنا نعلم أن الوقوف كان قبل الحشر الى النار هذا ما قاله القاضى وعندى فيه وجه آخر وهو ان يقال انهم اذا قاموا من قبورهم لم يبعد أن يقفوا هناك بحيرة لحقتهم بسبب

اليوم مستسلمون) منقادون خاضعون لظهور عجزهم وانسداد باب الحيل عليهم أو أسلم بعضهم بعضا وخذله عن عجزة كلهم مستسلم غير منتصر (وأقبل) حينئذ (بعضهم على بعض) هم الاتباع والرؤساء أو الكفرة والقرناء (يتساءلون) يسأل بعضهم بعضا سؤال توبيخ بطريق الخصومة ﴿ ١٣٠ ﴾ والجدال (قالوا) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية تساؤلهم كأنه قيل كيف تساءلوا فقيل قالوا أي الاتباع للرؤساء أو الكل القرناء (انكم كنتم تأتوننا) في الدنيا (عن اليمين) عن أقوى الوجوه وأمتنها أو عن الدين أو عن الخير كأنكم تنفعوننا نفع السانح فتبعناكم وهلكنا مستعار من يمين الانسان الذي هو أشرف الجانبين وأقواهما وأنفعهما ولذلك سمي يمينا وتيمن بالسانح أو عن القوة والقسر فتقسروننا على الغي وهو الاوفق للجواب أو عن الحلف حيث كانوا يحلفون أنهم على الحق (قالوا) استئناف كما سبق أي قال الرؤساء أو القرناء (بل لم تكونوا مؤمنين) أي لم نمنعكم من الايمان بل لم تؤمنوا باختياركم وأعرضتم عنه مع تمكنكم منه وآثرتم الكفر عليه (وما كان لنا عليكم من سلطان) من قهر وتسلط نسلبكم به اختياركم (بل كنتم قوما طاغين) مختارين للطغيان مصرين عليه (فحق علينا) أي لزمنا وثبت علينا (قول ربنا) وهو قوله تعالى لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (انا لذائقون) ﴿ عقلاء ﴾ أي العذاب الذي ورد به الوعيد (فأغويناكم) فدعوناكم الى دعوة غير ملجئة فاستجبتم لنا باختياركم واستحبابكم الغي على الرشد (انا كنا غاوين) فلا عتب علينا في تعرضنا لاغوائكم بتلك

معاينة أهوال القيامة ثم ان الله تعالى يقول للملائكة احشروا الذين ظلموا واهدوهم الى صراط الجحيم أي سوقوهم الى طريق جهنم وقفوهم هنالك وتحصل المسئلة هنالك ثم من هنالك يساقون الى النار وعلى هذا التقدير فظاهر النظم موافق لما عليه الوجه (البحث الثاني) الآمر في قوله تعالى احشروا الذين ظلموا هو الله فهو تعالى أمر الملائكة أن تحشروا الكفار الى موقف السؤال والمراد من الحشر أن الملائكة يسوقونهم الى ذلك موقف (البحث الثالث) أن الله أمر الملائكة بحشر ثلاثة أشياء الظالمين وأزواجهم والاشياء التي كانوا يعبدونها وفيه فوائد (الفائدة الاولى) انه تعالى قال احشروا الذين ظلموا ثم ذكر من صفات الذين ظلموا كونهم عابدين لغير الله وهذا يدل على ان الظالم المطلق هو الكافر وذلك يدل على أن كل وعيد ورد في حق الظالم فهو مصروف الى الكفار ومما يؤكد هذا قوله تعالى والكافرون هم الظالمون (الفائدة الثانية) اختلفوا في المراد بأزواجهم وفيه ثلاثة أقوال (الاول) المراد بأزواجهم اشباههم أي احزابهم ونظراؤهم من الكفرة فاليهودي مع اليهودي والنصراني مع النصراني والذي يدل على جواز أن يكون المراد من الازواج الاشباه وجوه (الاول) قوله تعالى وكنتم أزواجا ثلاثة أي أشكالا واشباها (الثاني) انك تقول عندي من هذا أزواج أي امثال وتقول زوجان من الخف لكون كل واحد منهما نظير الآخر وكذلك الرجل والمرأة سميا زوجين لكونهما متشابهين في أكثر أحكام النكاح وكذلك العدد الزوج سمي بهذا الاسم لكون كل واحد من قسميه مثلا للقسم الثاني في العدد الصحيح قال الواحدي فعلى هذا القول يجب أن يكون المراد بالذين ظلموا الرؤساء لانك لو جعلت الذين ظلموا عاما في كل من أشرك لم يكن للازواج معنى (القول الثاني) في تفسير الازواج ان المراد قرناؤهم من الشياطين لقوله تعالى واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون (والقول الثالث) أن المراد نساؤهم اللواتي على دينهم اما قوله وما كانوا يعبدون من دون الله ففيه قولان (الاول) المراد ما كانوا يعبدون من دون الله من الاوثان والطواغيت ونظيره قوله فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة قيل المراد بالناس عباد الاوثان والمراد بالحجارة الاصنام التي هي أحجار منحوتة فان قيل ان تلك الاحجار جمادات فما الفائدة في حشرها الى جهنم أجاب القاضي بأنه ورد الخبر بأنها تعاد وتحيي لتحصل المبالغة في توبيخ الكفار الذين كانوا يعبدونها ولقائل أن يقول هب ان الله تعالى يحيي تلك الاصنام الا أنه لم يصدر عنها ذنب فكيف يجوز من الله تعالى تعذيبها والاقرب أن يقال ان الله تعالى لا يحيي تلك الاصنام بل يتركها على الجمادية ثم يلقيها في جهنم لان ذلك مما يزيد في تخجيل الكفار (القول الثاني) أن المراد من قوله وما كانوا يعبدون من دون الله الشياطين الذين دعوهم الى عبادة ما عبدوه فلما قبلوا منهم ذلك الذين صاروا كالعابدين لاولئك الشياطين وتأكد هذا بقوله تعالى ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشياطين والقول الاول أولى لان الشياطين

المرتبة من الدعوة لتكونوا امثالنا فى الغواية (فانهم) أى الاتباع والمتبوعين (يومئذ فى العذاب مشتركون) حسبما كانوا مشتركين فى الغواية (انا كذلك) أى مثل ذلك الفعل البديع الذى تقتضيه الحكمة التشريعية (نفعل بالمجرمين) المتناهين فى الاجرام وهم المشركون كما يعرب عنه التعليل بقوله تعالى (انهم كانوا اذا قيل لهم) بطريق الدعوة والتلقين (لا اله الا الله يستكبرون) عن القبول (و يقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين) رد عليهم وتكذيب لهم ببيان ان ما جاء به من التوحيد هو الحق الذى قام به البرهان وأجمع عليه كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام فأين الشعر والجنون من ساحته الرفيعة (انكم) بما فعلتم من الاشراك وتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام والاستكبار (لذائقو العذاب الاليم) والالتفات لاظهار كمال الغضب عليهم وقرئ بنصب العذاب على تقدير النون كقوله ولا ذاكر الله الا قليلا وقرئ لذائقون العذاب على الاصل (وما تجزون الا ما كنتم تعملون) أى الا جزاء ما كنتم تعملونه من السيئات أو الا بما كنتم تعملونه منها (الا عباد الله المخلصين) استثناء منقطع من ضمير ذائقو وما بينهما اعتراض جئ به مسارعة الى تحقيق الحق ببيان أن ذوقهم العذاب ليس الا من جهتهم لا من جهة غيرهم أصلا وجعله استثناء من ضمير تجزون على معنى أن الكفرة لا يجزون الا بقدر أعمالهم دون عباد الله المخلصين فانهم يجزون أضعافا مضاعفة مما لا وجه له أصلا لا سيما جعله استثناء متصلا بتعميم الخطاب فى تجزون لجميع المكلفين فانه

عقلاء وكلمة ما لا تليق بالعقلاء والله أعلم ثم قال فاهدوهم الى صراط الجحيم قال ابن عباس دلوهم يقال هديت الرجل اذا دللته وانما استعملت الهداية ههنا لانه جعل بدل الهداية الى الجنة كما قال فبشرهم بعذاب أليم فوقعت البشارة بالعذاب لهؤلاء بدل البشارة بالنعيم لاولئك وعن ابن عباس فاهدوهم سوقوهم وقال الاصم قدموهم قال الواحدى وهذا وهم لانه يقال هدى اذا تقدم ومنه الهداية والهوادى والهاديات لوحش قال ولا يقال هدى بمعنى قدم ثم قال وقفوهم يقال وقفت الدابة اقفها وقفا فوقفت هى وقوفا والمعنى احبسوهم وفى الآية قولان (أحدهما) على التقديم والتأخير والمعنى قفوهم واهدوهم والاصوب أنه لا حاجة اليه بل كأنه قيل فاهدوهم الى صراط الجحيم فاذا انتهوا الى الصراط قيل وقفوهم فان السؤال يقع هنالك وقوله انهم مسؤلون قيل عن أعمالهم فى الدنيا وأقوالهم وقيل المراد سألتهم الخزنة ألم يأتكم رسل منكم بالبينات قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين و يجوز أن يكون هذا السؤال ما ذكر بعد ذلك وهو قوله تعالى ما لكم لا تناصرون أى انهم يسئلون توبيخا لهم فيقال ما لكم لا تناصرون قال ابن عباس رضى الله عنهما لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم فى الدنيا وذلك ان أبا جهل قال يوم بدر نحن جميع منتصر فقيل لهم يوم القيامة ما لكم غير متناصرين وقيل يقال للكفار ما شركاؤكم لا يمنعونكم من العذاب ✿ ثم قال تعالى (بل هم اليوم مستسلمون) يقال استسلم للشئ اذا انقاد له وخضع ومعناه فى الاصل طلب السلامة بترك المنازعة والمقصود أنهم صاروا منقادين لا حيلة لهم فى دفع تلك المضار لا العابد ولا المعبود ✿ ثم قال تعالى (وأقبل بعضهم على بعض) قيل هم والشياطين وقيل الرؤساء والاتباع (يتساءلون) أى يسأل بعضهم بعضا وهذا التساؤل عبارة عن التخاصم وهو سؤال التبكيت يقولون غررتمونا و يقول أولئك لم قبلتم منا وبالجملة فليس ذلك تساؤل المستفهمين بل هو تساؤل التوبيخ واللوم والله أعلم قوله تعالى (قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين فحق علينا قول ربنا انا لذائقون فأغويناكم انا كنا غاوين فانهم يومئذ فى العذاب مشتركون انا كذلك نفعل بالمجرمين انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون و يقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين انكم لذائقوا العذاب الاليم وما تجزون الا ما كنتم تعملون الا عباد الله المخلصين) واعلم أن الله تعالى لما حكى عنهم انه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون شرح كيفية ذلك التساؤل فقال قالوا انكم تأتوننا عن اليمين وهذا قول الاتباع لمن دعاهم الى الضلالة وفى تفسير اليمين وجوه (الاول) ان لفظ اليمين ههنا استعارة عن الخيرات والسعادات و بيان كيفية هذه الاستعارة ان الجانب الايمن أفضل من الجانب الايسر لوجوه (أحدها) اتفاق الكل على ان أشرف الجانبين هو اليمين (والثانى) لا يباشرون الاعمال الشريفة الا باليمين مثل مصافحة الاخيار والاكل

ليس فى حيز الاحتمال فالمعنى انكم لذائقوا العذاب الاليم لكن عباد الله المخلصين الموحدين ليسوا كذلك وقوله تعالى (اولئك) اشارة اليهم للايذان بأنهم ممتازون بما اتصفوا به من الاخلاص فى عبادة الله تعالى عمن عداهم امتيازا بالغا منتظمون بسببه فى سلك الامور المشاهدة ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى (لهم) اما خبرله وقوله تعالى (رزق) مرتفع على الفاعلية بما فيه من الاستقرار أو مبتدأ ولهم خبر مقدم والجملة خبر لاولئك والجملة الكبرى استئناف مبين لما أفاده الاستثناء اجمالا بيانا تفصيليا وقيل هى خبر للاستثناء المنقطع على أنه متأول بالمبتدا وقوله تعالى (معلوم) أى معلوم الخصائص من حسن المنظر ولذة الطعم وطيب الرائحة ونحوها من نعوت الكمال وقيل معلوم الوقت كقوله تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وقوله تعالى (فواكه) اما بدل من رزق أو خبر مبتدإ مضمر أى ذلك الرزق فواكه وتخصيصها بالذكر لان أرزاق أهل الجنة كلها فواكه أى ما يؤكل لمجرد التلذذ دون الاقتيات لانهم مستغنون عن القوت لكون خلقتهم محكمة محفوظة من التحلل المحوج الى البدل وقيل لان الفواكه من أتباع سائر الاطعمة فذكرها مغن عن ذكرها ﴿ وكا ﴾ (وهم مكرمون) عند الله عز وجل لا يلحقهم هوان وذلك أعظم المثوبات وأليقها باولى الهمم وقيل مكرمون فى نيله حيث يصل اليهم بغير تعب وسؤال كما هو شأن أرزاق الدنيا وقرئ مكرمون بالتشديد (فى جنات النعيم)

والشرب وما على العكس منه يباشرونه باليد اليسرى (الثالث) انهم كانوا يتفاءلون وكانوا يتيمنون بالجانب الايمن ويسمونه بالبارح (الرابع) ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب التيامن فى كل شئ (الخامس) ان الشريعة حكمت بأن الجانب الايمن لكاتب الحسنات والايسر لكاتب السيآت (السادس) ان الله تعالى وعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه والمسئ أن يؤتى كتابه بيساره فثبت ان الجانب الايمن أفضل من الجانب الايسر واذا كان كذلك لاجرم استعير لفظ اليمين للخيرات والحسنات والطاعات فقوله انكم كنتم تأتوننا عن اليمين يعنى انكم كنتم تخدعوننا وتوهموننا ان مقصودكم من الدعوة الى تلك الاديان نصرة الحق وتقوية الصدق (والوجه الثانى) فى التأويل انه يقال فلان يمين فلان اذا كان عنده بالمنزلة الحسنة فقال هؤلاء الكفار لائمتهم الذين أضلوهم وزينوا لهم الكفر انكم كنتم تخدعوننا وتوهموننا انا عندكم بمنزلة اليمين أى بالمنزلة الحسنة فوثقنا بكم وقبلنا عنكم (الوجه الثالث) ان أئمة الكفار كانوا قد حلفوا لهؤلاء المستضعفين أن ما يدعونهم اليه هو الحق فوثقوا بايمانهم وتمسكوا بعهودهم التى عهدوها لهم فمعنى قوله كنتم تأتوننا عن اليمين أى من ناحية المواثيق والايمان التى قدمتموها لنا (الوجه الرابع) أن لفظ اليمين مستعار من القوة والقهر لان اليمين موصوفة بالقوة وبها يقع البطش والمعنى انكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتجبرونا عليه ثم حكى الله تعالى عن الرؤساء انهم أجابوا الاتباع من وجوه (الاول) انهم قالوا لهم بل لم تكونوا مؤمنين يعنى انكم ما كنتم موصوفين بالايمان حتى يقال انا أزلناكم عنه (الثانى) قولهم وما كان لنا عليكم من سلطان يعنى لا قدرة لنا عليكم حتى نقهركم ونجبركم (الثالث) بل كنتم قوما طاغين أى ضالين غالين فى معصية الله (الرابع) قولهم فحق علينا قول ربنا انا لذائقون والمعنى ان الله تعالى لما أخبر عن وقوعنا فى العذاب فلو لم يحصل وقوعنا فى العذاب لما كان خبر الله حقا بل كان باطلا ولما كان خبر الله أمرا واجبا لاجرم كان الوقوع فى العذاب الاليم لازما قال مقاتل قوله تعالى فحق علينا قول ربنا اشارة الى قول الله لابليس لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقوله تعالى انا لذائقون يعنى لما وجب أن يحق علينا قول ربنا وجب أن نكون ذائقين لهذا العذاب (الخامس) قولهم فأغويناكم انا كنا غاوين والمعنى انا انما أقدمنا على اغوائكم لانا كنا موصوفين فى أنفسنا بالغواية وفيه دقيقة أخرى كأنهم قالوا ان اعتقدتم ان غوايتكم بسبب اغوائنا فغوايتنا ان كانت بسبب اغواء غاو آخر لزم التسلسل وذلك محال فعلمنا أن حصول الغواية والرشاد ليس من قبلنا بل من قبل غيرنا وذلك الغير هو الذى ذكره فيما قبل وهو قوله فحق علينا قول ربنا ولما حكى الله تعالى كلام الاتباع للرؤساء وكلام الرؤساء للاتباع قال بعده فانهم يومئذ فى العذاب مشتركون يعنى فالمتبوع والتابع والمخدوم والخادم مشتركون فى الوقوع فى العذاب

كما كانوا في الدنيا مشتركين في الغواية ثم قال أيضا انا كذلك نفعل بالمجرمين وعنى بالمجرمين ههنا الكفار بدليل انه تعالى قال بعد هذه الكلمة انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون والضمير في قوله انهم عائد الى المذكور السابق وهو قوله بالمجرمين وهذا يدل على أن لفظ المجرم المطلق مختص في القرآن بالكافر ثم بين تعالى انهم انما وقعوا في ذلك العذاب لانهم كانوا مكذبين بالتوحيد وبالنبوة اما التكذيب بالتوحيد فهو قوله تعالى انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون يعني يتكبرون ويتعصبون لاثبات الشرك ويستنكفون عن الاقرار بالتوحيد وأما التكذيب بالنبوة فهو قولهم أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ويعنون محمدا ثم انه تعالى كذبهم في ذلك الكلام فقال بل جاء بالحق وصدق المرسلين وتقرير هذا الكلام انه جاء بالدين الحق لانه ثبت بالعقل انه تعالى منزه عن الضد والند والشريك فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم بتقرير هذه المعاني كان مجيئه بالدين الحق قرأ ابن كثير أئنا لتاركو آلهتنا بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مد وقرأ نافع في رواية قالون وابو عمرو على هذا التفسير ويمدان والباقون بهمزتين بلا مد وقوله تعالى وصدق المرسلين يعني صدقهم في مجيئهم بالتوحيد ونفي الشريك وهذا تنبيه على أن القول بالتوحيد دين لكل الانبياء ولما حكى الله عنهم تكذيبهم بالتوحيد وبالنبوة نقل الكلام من الغيبة الى الحضور فقال انكم لذائقو العذاب الاليم كأنه قيل فكيف يليق بالرحيم الكريم المتعالي عن النفع والضر أن يعذب عباده فأجاب عنه بقوله وما تجزون الا ما كنتم تعملون والمعنى ان الحكمة تقتضي الامر بالحسن والطاعة والنهي عن القبيح والمعصية والامر والنهي لا يكمل المقصود منهما الا بالترغيب في الثواب والترهيب بالعقاب واذا وقع الاخبار عنه وجب تحقيقه صونا للكلام عن الكذب فلهذا السبب وقعوا في العذاب ثم قال الا عباد الله المخلصين يعني ولكن عباد الله من الاستثناء المنقطع

* قوله تعالى (أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون في جنات النعيم على سرر متقابلين يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) اعلم انه تعالى لما وصف أحوال المتكبرين عن قبول التوحيد المصرين على انكار النبوة أردفه بذكر حال المخلصين في كيفية الثواب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكرنا في فتح اللام وكسرها من المخلصين قراءتين فالفتح ان الله تعالى أخلصهم بلطفه واصطفاهم بفضله والكسر هو انهم اخلصوا الطاعة لله تعالى (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى وصف رزقهم بكونه معلوما ولم يبين ان أي الصفات منه هو المعلوم فلذلك اختلفت الاقوال فقيل معناه ان ذلك الرزق معلوم الوقت وهو مقدار غدوة وعشية وان لم يكن ثمة لا بكرة ولا عشية قال تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وقيل معناه ان ذلك الرزق معلوم الصفة لكونه مخصوصا بخصائص خلقها الله فيه من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر وقيل معناه

أي في جنات ليس فيها الا النعيم وهو ظرف أو حال من المستكن في مكرمون أو خبر ثان لاولئك وقوله تعالى (على سرر) محتمل الحالية والخبرية فقوله تعالى (متقابلين) حال من المستكن فيه أو في مكرمون وقوله تعالى (يطاف عليهم) اما استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية تكامل مجالس أنسهم أو حال من الضمير في متقابلين أو في أحد الجارين وقد يجوز كونه صفة لمكرمون (بكأس) باناء فيه خمر أو بخمر فان الكأس تطلق على نفس الخمر كما في قول من قال وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها (من معين) متعلق بمضمر هو صفة لكأس أي كائنة من شراب معين أو من نهر معين وهو الجاري على وجه الارض الظاهر للعيون أو الخارج من العيون من عان الماء اذا نبع وصف به الخمر وهو للماء لانها تجري في الجنة في أنهار كما يجري الماء قال تعالى وأنهار من خمر (بيضاء لذة للشاربين) صفتان أيضا لكأس ووصفها بلذة اما للمبالغة كانها نفس اللذة أو لانها تأنيث اللذ بمعنى اللذيذ ووزنه فعل قال ولذ كطعم الصرخدي تركته بأرض العدا من خيفة الحدثان يريد به النوم (لا فيها غول) أي غائلة كما في خمور الدنيا من غاله اذا أفسده وأهلكه ومنه الغول (ولا هم عنها ينزفون) يسكرون من نزف الشارب فهو نزيف ومنزوف اذا ذهب عقله ويقال للمطعون نزف فمات اذا اخرج دمه كله أفرد هذا بالنفي مع اندراجه فيما قبله من نفي الغول عنها لما أنه من معظم مفاسد الخمر كانه جنس برأسه والمعنى لا فيها

نوع من أنواع الفساد من مغص او صداع أو خمار او عربدة ولغو وتاثيم ولاهم يسكرون وقرئ يتزفون بكسر الزاى من انزف الشارب اذا نفد عقله أو شرابه وقرئ يتزفون بضم الزاى من نزف ينزف بضم الزاى فيهما (وعندهم قاصرات الطرف) قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمددن طرفا الى ﴿ ١٤٢ ﴾ غيرهم (عين) نجل العيون جمع عيناء والنجل سعة العين (كأنهن بيض مكنون) شبههن ببيض النعام المصون من الغبار ونحوه فى الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة فان ذلك أحسن ألوان الابدان (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) معطوف على يطاف أى يشربون فيتحادثون على الشراب كما هو عادة الشرب قال وما بقيت من اللذات الا أحاديث الكرام على المدام فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن الفضائل والمعارف وعما جرى لهم وعليهم فى الدنيا فالتعبير عنه بصيغة الماضى للتأكيد والدلالة على تحقق الوقوع حتما (قال قائل منهم) فى تضاعيف محاوراتهم (انى كان لى) فى الدنيا (قرين) مصاحب (يقول) لى على طريقة التوبيخ بما كنت عليه من الايمان والتصديق بالبعث (أئنك لمن المصدقين) اى بالبعث وقرئ بتشديد الصاد من التصدق والاول هو الاوفق لقوله تعالى (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون) أى لمبعوثون ﴿ رحمه ﴾ ومجزيون من الدين بمعنى الجزاء أو لمسوسون يقال دانه أى ساسه ومنه الحديث العاقل من دان نفسه وقيل كان رجل تصدق بماله لوجه الله تعالى فاحتاج فاستجدى بعض اخوانه فقال أين مالك قال تصدقت به ليعوضني الله

انهم يتيقنون دوامه لا كرزق الدنيا الذى لا يعلم متى يحصل ومتى ينقطع وقيل معناه انه القدر الذى يستحقونه بأعمالهم من ثواب الله وكرامته عليهم وقد بين تعالى انه يعطيهم غير ذلك على سبيل التفضل ثم انه لما ذكر تعالى أن لهم رزقا بين أن ذلك الرزق ما هو فقال فواكه وفيه قولان (الاول) أن الفاكهة عبارة عما يؤكل لاجل التلذذ لا لاجل الحاجة وارزاق أهل الجنة كلها فواكه لانهم مستغنون عن حفظ الصحة بالاقوات فانهم أجسام محكمة مخلوقة للابد فكل ما يأكلونه فهو على سبيل التلذذ (والثانى) أن المقصود من ذكر الفاكهة التنبيه بالادنى على الاعلى يعنى لما كانت الفاكهة حاضرة أبدا كان الادام أولى بالحضور والقول الاول أقرب الى التحقيق واعلم انه تعالى لما ذكر الاكل بين ان ذلك الاكل حاصل مع الاكرام والتعظيم فقال وهم مكرمون لان الاكل الخالى عن التعظيم يليق بالبهائم ولما ذكر تعالى مأكولهم وصف تعالى مساكنهم فقال فى جنات النعيم على سرر متقابلين ومعناه انه لا كلفة عليهم فى التلاقى الانس والتخاطب وفى بعض الاخبار انهم اذا أرادوا القرب سار السرير بهم ولا يجوز أن يكونوا متقابلين الا مع حصول الخواطر والسرائر وان يكونوا كذلك الا مع الصحة والسعة ولا يجوز أن يسمع بعضهم خطاب بعض ويراه على بعد الاماكن يقوى الله أبصارهم وأسماعهم وأصواتهم ولما شرح الله صفة المأكل والمسكن ذكر بعده صفة الشراب فقال يطاف عليهم بكأس من معين يقال للزجاجة التى فيها الخمر كأس وتسمى الخمرة نفسها كأسا قال * وكأس شربت على لذة * وعن الاخفش كل كأس فى القرآن فهى الخمر وقوله من معين أى من شراب معين أو من نهر معين المعين مأخوذ من عين الماء أى يخرج من العيون كما يخرج الماء وسمى معينا لظهوره يقال عان الماء اذا ظهر جاريا قاله ثعلب فهو مفعول من العين نحو مبيع ومكيل وقيل سمى معينا لانه يجرى ظاهر العين ويجوز أن يكون فعيلا من المعين وهو الماء الشديد الجرى ومنه أمعن فى السير اذا اشتد فيه وقوله بيضاء صفة للخمر قال الاخفش خمر الجنة اشد بياضا من اللبن وقوله لذة فيه وجوه (أحدها) انها وصفت باللذة كأنها نفس اللذة وعينها كما يقال فلان جود وكرم اذا أرادوا المبالغة فى وصفه بهاتين الصفتين (وثانيها) قال الزجاج أى ذات لذة فعلى هذا حذف المضاف (وثالثها) قال الليث اللذ واللذيذ يجريان مجرى واحد فى النعت ويقال شراب لذ ولذيذ قال تعالى بيضاء لذة للشاربين وقال تعالى من خمر لذة للشاربين ولذلك سمى النوم لذا لاستلذاذه وعلى هذا لذة بمعنى لذيذة والاقرب من هذه الوجوه الاول ثم قال تعالى لا فيها غول وفيه ابحاث (البحث الاول) قال الفراء العرب تقول ليس فيها غيلة وغائلة وغول سواء وقال أبو عبيدة الغول ان يغتال عقولهم وأنشد قول مطيع بن اياس

وما زالت الكأس تغتالهم * وتذهب بالاول الاول

وقال الليث الغول الصداع والمعنى ليس فيها صداع كما فى خمر الدنيا قال الواحدى

تعالى فى الآخرة خيرا منه فقال أئنك لمن المصدقين بيوم الدين أو من المتصدقين لطلب الثواب والله لا أعطيك شيئا فيكون التعرض لذكر موتهم وكونهم ترابا وعظاما حينئذ لتأكيد انكار الجزاء المبنى على انكار البعث (قال) أى ذلك القائل بعد ما حكى لجلسائه مقالة قرينه فى الدنيا (هل أنتم مطلعون) أى الى أهل النار لاريكم ذلك القرين يريد بذلك بيان صدقه فيما حكاه وقيل القائل هو الله تعالى أو بعض الملائكة يقول لهم هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لاريكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم قيل ان فى الجنة كوى ينظر منها أهلها الى أهل النار (فاطلع) أى عليهم (فرآه) أى قرينه (فى سواء الجحيم) أى فى وسطها وقرئ فأطلع على لفظ المضارع المنصوب وقرئ مطلعون فأطلع وفاطلع بالتخفيف على لفظ الماضى والمضارع المنصوب يقال طلع علينا فلان واطلع وأطلع بمعنى واحد والمعنى هل أنتم مطلعون الى القرين فأطلع انا أيضا أو عرض عليهم الاطلاع فقبلوا ما عرضه فاطلع هو بعد ذلك وان جعل الاطلاع متعديا فالمعنى انه لما شرط فى اطلاعه اطلاعهم كما هو دين الجلساء فكأنهم مطلعوه وقيل الخطاب على هذا للملائكة وقرئ مطلعون بكسر النون أراد مطلعون اياى فوضع المتصل موضع المنفصل كقوله * هم الفاعلون الخير والآمرونه * أو شبه اسم الفاعل بالمضارع لما بينهما من التآخى (قال) أى القائل مخاطبا لقرينه (تالله ان كدت لتردين) أى لتهلكنى بالاغواء وقرئ لتغوين والتاء فيه معنى التعجب وان هى المخففة من ان وضمير الشان الذى هو اسمها

رحمه الله وحقيقته الاهلاك يقال غاله غولا أى أهلكه والغول والغائل المهلك ثم سمى الصداع غولا لانه يؤدى الى الهلاك ثم قال تعالى ولاهم عنها ينزفون وقرئ بكسر الزاى قال الفراء من كسر الزاى فله معنيان يقال انزف الرجل اذا نفدت خمرته وأنزف اذا ذهب عقله من السكر ومن فتح الزاى فمعناه لا يذهب عقولهم أى لا يسكرون يقال نزف الرجل فهو منزوف ونزيف والمعنى ليس فيها قط نوع من أنواع الفساد التى تكون فى شراب الخمر من صداع أو خمار أو عربدة ولاهم يسكرون أيضا وخصه بالذكر لانه أعظم مفاسد شرب الخمر ولما ذكر الله تعالى صفة مشروبهم ذكر عقيبه صفة منكوحهم من ثلاثة أوجه (الاول) قوله وعندهم قاصرات الطرف ومعنى القصر فى اللغة الحبس ومنه قوله تعالى حور مقصورات فى الخيام والمعنى انهن يحبسن نظرهن ولا ينظرن الى غير أزواجهن (الصفة الثانية) قوله تعالى عين قال الزجاج كبار الاعين حسانها واحدها عيناء (الصفة الثالثة) قوله تعالى كأنهن بيض مكنون المكنون فى اللغة المستور يقال كننت الشئ واكننته ومعنى هذا التشبيه ان ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة فاذا كان مكنونا كان مصونا عن الغبرة والقترة فكان هذا اللون فى غاية الحسن والعرب كانوا يسمون النساء بيضات الخدور ولما تمم الله صفات أهل الجنة قال فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون فان قيل على أى شئ عطف قوله فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قلنا على قوله يطاف عليهم والمعنى يشربون ويتحادثون على الشراب قال الشاعر

وما بقيت من اللذات الا * محادثة الكرام على المدام

والمعنى فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم فى الدنيا * قوله تعالى (قال قائل منهم انى كان لى قرين يقولون أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون قال هل أنتم مطلعون فاطلع فرآه فى سواء الجحيم قال تالله ان كدت لتردين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين أفما نحن بميتين الا موتتنا الاولى وما نحن بمعذبين ان هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر فى أهل الجنة انهم يتساءلون عند الاجتماع على شرب خمر الجنة فان محادثة العقلاء بعضهم مع بعض على الشرب من الامور اللذيذة وتذكر الخلاص عند اجتماع أسباب الهلاك من الامور اللذيذة ذكر تعالى فى هذه الآية ان أهل الجنة اذا اجتمعوا على الشرب وأخذوا فى المكالمة والمساءلة كان من جملة تلك الكلمات انهم يتذكرون انهم كان قد حصل لهم فى الدنيا ما يوجب لهم الوقوع فى عذاب الله ثم انهم تخلصوا عنه وفازوا بالسعادة الابدية والمقصود من ذكر هذه الاشياء ان أهل الجنة يتكامل سرورهم وبهجتهم اما قوله قال قائل منهم انى كان لى قرين أى قال قائل من أهل الجنة انى كان لى قرين فى الدنيا يقول أئنك لمن المصدقين أى كان يوبخنى على التصديق بالبعث والقيامة ويقول تعجبا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون أى

لمحاسبون ومجازون والمعنى أن ذلك القرين كان يقول هذه الكلمات على سبيل الاستنكار ثم ان ذلك الرجل الذي هو من أهل الجنة يقول لجلسائه يدعوهم الى كمال السرور بالاطلاع الى النار لمشاهدة ذلك القرين ومخاطبته هل أنتم مطلعون فاطلع والاقرب انه تكلف أمرا اطلع معه لانه لو كان مطلعا بلا تكلف لم يكن الى اطلاعه حاجة فلذلك قال بعضهم انه ذهب الى بعض اطراف الجنة فاطلع عندها الى النار فرآه في سواء الجحيم أي في وسط الجحيم قال له موبخا تالله ان كدت لتردين أي لتهلكني بدعائك اياي الى انكار البعث والقيامة ولولا نعمة ربي بالارشاد الى الحق والعصمة عن الباطل لكنت من المحضرين في النار مثلك ولما تمم ذلك الكلام مع الرجل الذي كان في الدنيا قرينا له وهو الآن من أهل النار عاد الى مخاطبة جلسائه الذين هم من أهل الجنة فقال أفما نحن بميتين وفيه قولان (الاول) ان أهل الجنة لا يعلمون في أول دخولهم في الجنة انهم لا يموتون فاذا جيء بالموت على صورة كبش أملح وذبح فعند ذلك يعلمون أنهم لا يموتون فلعل هذا الكلام حصل قبل ذبح الموت (والثاني) ان الذي يتكامل خيره وسعادته فاذا عظم تعجبه بها فقد يقول أيدوم هذا الي أفيبقى هذا الي وان كان على يقين من دوامه ثم عند فراغهم من هذه المباحثات يقولون ان هذا لهو الفوز العظيم وأما قوله لمثل هذا فليعمل العاملون فقيل انه من بقية كلامهم وقيل انه ابتداء كلام من الله تعالى أي اطلب مثل هذه السعادات يجب أن يعمل العاملون (المسئلة الثانية) قال بعضهم المراد من هذا القائل ومن قرينه ما ذكره الله تعالى في سورة الكهف في قوله واضرب لهم مثلا رجلين الى آخر الآيات وروي أن رجلين كانا شريكين فحصل لهما ثمانية آلاف دينار فقال أحدهما للآخر أقاسمك فقاسمه واشترى دارا بألف دينار فأراها صاحبه وقال وكيف ترى حسنها فقال ما أحسنها فخرج فقال اللهم ان صاحبي هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار واني أسألك دارا من دور الجنة فتصدق بألف دينار ثم ان صاحبه تزوج بامرأة حسناء بألف دينار فتصدق هذا بألف دينار لاجل ان يزوجه الله من الحور العين ثم ان صاحبه اشترى بستانين بألفي دينار فتصدق هذا بألفي دينار ثم ان الله أعطاه في الجنة ما طلب فعند هذا قال انه كان لي قرين فاطلع فرآه في سواء الجحيم (المسئلة الثالثة) قوله أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون اختلف القراء في هذه الاستفهامات الثلاثة قرأ نافع الاولى والثانية بالاستفهام بهمزة غير ممدودة والثالثة بكسر الالف من غير استفهام ووافقه الكسائي الا انه يستفهم الثالثة بهمزتين وقرأ ابن عامر الاولى والثالثة بالاستفهام بهمزتين والثانية بكسر الالف من غير استفهام وقرأ الباقون بالاستفهام في جميعها ثم اختلفوا فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة و بعدها ياء ساكنة خفيفة وأبو عمرو مطولة وعاصم وحمزة بهمزتين وأما قوله ان كدت لتردين قرأ نافع برواية ورش لترديني باثبات الياء في الوصل والباقون بحذفها (المسئلة الرابعة) احتج أصحابنا على أن الهدى

محذوف واللام فارقة أي تالله ان الشان كدت لتردين (ولولا نعمة ربي) بالهداية والعصمة (لكنت من المحضرين) أي من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأضرابك وقوله تعالى (أفما نحن بميتين) رجوع الى محاورة جلسائه بعد اتمام الكلام مع قرينه تبجحا وابتهاجا بما أتاح الله عز وجل لهم من الفضل العظيم والنعيم المقيم والهمزة للتقرير وفيها معنى التعجب والفاء للعطف على مقدر يقتضيه نظم الكلام أي أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين أي بمن شانه الموت وقرئ بمائتين (الا موتتنا الاولى) التي كانت في الدنيا وهي متناولة لما في القبر بعد الاحياء للسؤال قاله تصديقا لقوله تعالى لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى وقيل ان أهل الجنة أول ما دخلوا الجنة لا يعلمون أنهم لا يموتون فاذا جيء بالموت على صورة كبش أملح فذبح ونودي يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت يعلمونه فيتداولون ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى واغتباطا بها (وما نحن بمعذبين) كالكفار فان النجاة من العذاب أيضا نعمة جليلة مستوجبة للتحدث بها (ان هذا) أي الامر العظيم الذي نحن فيه (لهو الفوز العظيم) وقيل هو من قول الله عز وجل تقريرا لقولهم وتصديقا له وقرئ انه هو الرزق العظيم وهو ما رزقوه من السعادة العظمى ﴿ والضلال ﴾
(لمثل هذا فليعمل العاملون) أي لنيل هذا المرام الجليل يجب أن يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية السريعة الانصرام المشوبة بفنون الآلام وهذا أيضا يحتمل أن يكون من كلام رب العزة

ذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم) أصل النزل الفضل والريع فاستعير للحاصل من الشيء وانتصابه على التمييز اى أذلك رزق المعلوم الذى حاصله اللذة والسرور خير نزلا أم شجرة الزقوم التى حاصلها الالم والغم و يقال النزل لما يقام و يهيأ من الطعام الحاضر للنازل فانتصابه على الحالية والمعنى أن الرزق المعلوم نزل أهل الجنة وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم فأيهما خير فى كونه نزلا والزقوم اسم شجرة صغيرة

الورق دفرة مرة كريهة الرائحة تكون فى تهامة سميت به الشجرة الموصوفة (انا جعلناها فتنة للظالمين) محنة وعذابا لهم فى الآخرة وابتلاء فى الدنيا فانهم لما سمعوا أنها فى النار قالوا كيف يكن ذلك والنار تحرق الشجر ولم يعلموا أن من قدر على خلق حيوان يعيش فى النار ويتلذذ بها أقدر على خلق الشجر فى النار وحفظه من الاحراق (انهما شجرة تخرج فى أصل الجحيم) منبتها فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع الى دركاتها وقرئ نابتة فى أصل الجحيم (طلعها) أى حملها الذى يخرج منها مستعار من طلع النخلة لمشاركته له فى الشكل والطلوع من الشجر قالوا أول التمر طلع ثم خلال ثم بلح ثم بسر ثم رطب ثم تمر (كأنه رؤس الشياطين) فى تناهى القبح والهول وهو تشبيه بالمخيل كتشبيه الفائق فى الحسن بالملك وقيل الشياطين الحيات الهائلة القبيحة المنظر

الضلال من الله تعالى بقوله تعالى ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين وقالوا مذهب الخصم ان كل ما فعله الله تعالى من وجوه الانعام فى حق المؤمن فقد فعله فى حق الكافر واذا كان ذلك الانعام مشتركا فيه امتنع أن يكون سببا لحصول الهداية للمؤمن وان يكون سببا لخلاصه من الكفر والردى فوجب أن تكون تلك النعمة المخصوصة أمرا زائدا على تلك الانعامات التى حصل الاشتراك فيها وما ذلك الا بقوة الداعى الى الايمان وتكميل الصارف عن الكفر (المسئلة الخامسة) احتج نفاة عذاب القبر بقول الرجل الذى من أهل الجنة أفما نحن بميتين الا موتتنا الاولى فهذا يدل على ان الانسان لا يموت الا مرة واحدة ولو حصلت الحياة فى القبر لكان الموت حاصلا مرتين (والجواب) أن قوله الا موتتنا الاولى المراد منه كل ما وقع فى الدنيا والله أعلم ❊ قوله تعالى (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم انا جعلناها فتنة للظالمين انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤس الشياطين فانهم لآكلون منها فمالؤن منها البطون ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم ثم ان مرجعهم لالى الجحيم انهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الا عباد الله المخلصين) اعلم أنه تعالى لما قال بعد ذكر أهل الجنة ووصفها لمثل هذا فليعمل العاملون أتبعه بقوله أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يورد ذلك على كفار قومه ليصير ذلك زاجرا لهم عن الكفر وكما وصف من قبل مأكل أهل الجنة ومشاربهم وصف أيضا فى هذه الآية مأكل أهل النار ومشاربهم ❊ أما قوله أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم فالمعنى ان الرزق المعلوم المذكور لاهل الجنة خير نزلا أى خير حاصلا أم شجرة الزقوم وأصل النزل الفضل الواسع فى الطعام يقال طعام كثير النزل فاستعير للحاصل من الشيء ويقال أرسل الامير الى فلان نزلا وهو الشيء الذى يصلح حال من ينزل بسببه اذا عرفت هذا فنقول حاصل الرزق المعلوم لاهل الجنة اللذة والسرور وحاصل شجرة الزقوم الالم والغم ومعلوم انه لا نسبة لاحدهما الى الآخر فى الخيرية الا أنه جاء هذا الكلام اما على سبيل السخرية بهم أولاجل ان المؤمنين لما اختاروا ما أوصلهم الى الرزق الكريم والكافرين اختاروا ما أوصلهم الى العذاب الاليم فقيل لهم ذلك توبيخا لهم على سوء اختيارهم وأما الزقوم فقال الواحدى رحمه الله لم يذكر المفسرون للزقوم تفسيرا الا الكلبى فانه روى انه لما نزلت هذه الآية قال ابن الزبعرى أكثر الله فى بيوتكم الزقوم فان أهل اليمن يسمون التمر والزبد بالزقوم فقال أبو جهل لجاريته زقينا فأتته بزبد وتمر فقال تزقوا ثم قال الواحدى ومعلوم أن الله تعالى لم يرد بالزقوم ههنا الزبد والتمر قال ابن دريد لم يكن للزقوم اشتقاق من التزقم وهو الافراط من أكل الشيء حتى يكره ذلك يقال بات فلان يتزقم وظاهر لفظ القرآن يدل على انها شجرة كريهة الطعم منتنة الرائحة شديدة الخشونة موصوفة بصفات كل من تناولها عظم من تناولها ثم انه تعالى يكره أهل النار على

العراق وقيل ان شجرا

سا يقال له الاستن خشنا منتنا مرا منكر الصورة يسمى ثمره رؤس الشياطين (فانهم لآكلون منها) أى من الشجرة أو من طلعها فالتأنيث مكتسب من المضاف اليه (فمالؤن منها البطون) لغلبة الجوع أو للقسر على أكلها وان كرهوها ليكون ذلك باب من العذاب (ثم ان لهم عليها) على الشجرة التى ملؤا منها بطونهم بعد ما شبعوا منها وغلبهم العطش وطال استسقاؤهم

كالنبيّ عنه كلمة ثم ويجوز أن تكون لما فى شرابهم من مزيد الكراهة والبشاعة (لشوبا من حميم) لشرابا من غساق أو صديد مشوبا بماء حميم يقطع امعاءهم وقرئ بالضم وهو اسم لما يشاب به والاول مصدر سمى به (ثم ان مرجعهم) أى مصيرهم وقد قرئ كذلك (لالى الجحيم) لالى دركاتها أو الى نفسها فان الزقوم والحميم نزل يقدم اليهم قبل دخولها وقيل الجحيم خارج عنها لقوله تعالى هذه جهنم التى ﴿ ١٤٦ ﴾ يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم فى الجحيم الى شجرة الزقوم فيأكلون منها الى أن يتملؤا ثم يسقون من الحميم ثم يردون الى الجحيم ويؤيده أنه قرئ ثم ان منقلبهم (انهم ألفوا آباءهم ضالين) تعليل لاستحقاقهم ما ذكر من فنون العذاب بتقليد الآباء فى الدين من غير أن يكون لهم ولا لآبائهم شئ يتمسك به أصلا أى وجدوهم ضالين فى نفس الامر ليس لهم ما يصلح شبهة فضلا عن صلاحية الدليل (فهم على آثارهم يهرعون) من غير أن يتدبروا أنهم على الحق أولا مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمل والاهراع الاسراع الشديد كأنهم يزعجون ويحثون حثا على الاسراع على آثارهم وقيل هو اسراع فيه شبه رعدة (ولقد ضل قبلهم) أى قبل قومك قريش (أكثر الاولين) من الامم السالفة وهو جواب قسم محذوف وكذا قوله تعالى (ولقد أرسلنا فيهم منذرين) أى أنبياء أولى عدد ﴿ الاول ﴾ كثير وذوى شأن خطير بينوا لهم بطلان ما هم عليه وأنذروهم عاقبة الوخيمة وتكرير القسم لابراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كل من الجملتين (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) من الهول والفظاعة لما لم يلتفتوا الى الانذار ولم يرفعوا له رأسا والخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل احد ممن يتمكن من مشاهدة آثارهم وحيث

تناول بعض اجزائها * أما قوله تعالى انا جعلناها فتنة للظالمين ففيه أقوال (الاول) انها انما صارت فتنة للظالمين من حيث ان الكفار لما سمعوا هذه الآية قالوا كيف يعقل أن تنبت الشجرة فى جهنم مع ان النار تحرق الشجرة والجواب عنه ان خالق النار قادر على أن يمنع النار من احراق الشجر ولانه اذا جاز أن يكون فى النار زبانية والله تعالى يمنع النار عن احراقهم فلم لا يجوز مثله فى هذه الشجرة اذا عرفت هذا السؤال والجواب فمعنى كون شجرة الزقوم فتنة للظالمين هو انهم لما سمعوا هذه الآية وقعت تلك الشبهة فى قلوبهم وصارت تلك الشبهة سببا لتماديهم فى الكفر فهذا هو المراد من كونها فتنة لهم (والوجه الثانى) فى التفسير أن يكون المراد صيرورة هذه الشجرة فتنة لهم فى النار لانهم اذا كلفوا تناولها وشق ذلك عليهم فحينئذ يصير ذلك فتنة فى حقهم (الوجه الثالث) أن يكون المراد من الفتنة الامتحان والاختبار فان هذا شئ بعيد عن العرف والعادة مخالف للمألوف والمعروف فاذا ورد على سمع المؤمن فوض علمه الى الله واذا ورد على الزنديق توسل به الى الطعن فى القرآن والنبوة * ثم انه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وصفها بصفات (الصفة الاولى) قوله انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم قيل منبتها فى قعر جهنم واغصانها ترتفع من دركاتها (الصفة الثانية) قوله طلعها كأنه رؤس الشياطين قال صاحب الكشاف الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها اما استعارة لفظية أو معنوية وقال ابن قتيبة سمى طلعا لطلوعه كل سنة ولذلك قيل طلع النخل الاول ما يخرج من ثمره واما تشبيه هذا الطلع برؤس الشياطين ففيه سؤال لانه قيل انا ما رأينا رؤس الشياطين فكيف يمكن تشبيه شئ بها وأجابوا عنه من وجوه (الاول) وهو الصحيح ان الناس لما اعتقدوا فى الملائكة كمال الفضل فى الصورة والسيرة واعتقدوا فى الشياطين نهاية القبح والتشويه فى الصورة والسيرة فكما حسن التشبيه بالملك عند ارادة تقرير الكمال والفضيلة فى قوله ان هذا الا ملك كريم فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برؤس الشياطين فى القبح وتشويه الخلقة والحاصل ان هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس بل بالمتخيل كأنه قيل ان أقبح الاشياء فى الوهم والخيال هو رؤس الشياطين فهذه الشجرة تشبهها فى قبح النظر وتشويه الصورة والذى يؤكد هذا ان العقلاء اذا رأوا شيئا شديد الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة قالوا انه شيطان واذا رأوا شيئا حسن الصورة والسيرة قالوا انه ملك وقال امرؤ القيس

أتقتلنى والمشرفى مضاجعى * ومسنونة زرق كأنياب اغوال

(والقول الثانى) أن الشياطين حيات لها رؤس واعراف وهى من أقبح الحيات وبها يضرب المثل فى القبح والعرب اذا رأت منظرا قبيحا قالت كأنه شيطان الحماطة والحماطة شجرة معينة (والقول الثالث) ان رؤس الشياطين نبت معروف قبيح الرأس والوجه الاول هو الجواب الحق واعلم انه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وذكر صفتها بين أن الكفار لآكلون منها فمالئون منها البطون واعلم أن اقدامهم على ذلك الاكل يحتمل وجهين

كان المعنى انهم اهلكوا اهلاكا فظيعا استثنى منهم المخلصون بقوله تعالى (الا عباد الله المخلصين) اى الذين اخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للايمان والعمل بموجب الانذار وقرئ المخلصين بكسر اللام أى الذين أخلصوا دينهم لله تعالى (ولقد نادانا نوح) نوع تفصيل لما أجمل فيما قبل ببيان أحوال بعض المرسلين وحسن عاقبتهم متضمن لبيان سوء عاقبة بعض المنذرين ﴿ ١٤٧ ﴾ حسبما أشير اليه بقوله تعالى فانظر كيف كان عاقبة المنذرين كقوم نوح وآل فرعون وقوم لوط وقوم الياس ولبيان حسن عاقبة بعضهم الذين أخلصهم الله تعالى ووفقهم للايمان كما أشار اليه الاستثناء كقوم يونس عليه السلام ووجه تقديم قصة نوح على سائر القصص غني عن البيان واللام جواب قسم محذوف وكذا ما في قوله تعالى (فلنعم المجيبون) أي وبالله لقد دعانا نوح حين يئس من ايمان قومه بعد ما دعاهم اليه أحقابا ودهورا فلم يزدهم دعاؤه الا فرارا ونفورا فأجبناه أحسن الاجابة فوالله لنعم المجيبون نحن فحذف ما حذف ثقة بدلالة ما ذكر عليه والجمع دليل العظمة والكبرياء (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) أي من الغرق وقيل من أذى قومه (وجعلنا ذريته هم الباقين) فحسب حيث أهلكنا الكفرة بموجب دعائه رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وقد روى انه مات كل من كان معه في السفينة غير أبنائه وأزواجهم اوهم الذين بقوا متناسلين الى يوم القيامة قال قتادة الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام وكان له ثلاثة أولاد سام وحام ويافث فسام أبو العرب وفارس والروم وحام أبو السودان من المشرق الى المغرب ويافث أبو الترك ويأجوج ومأجوج (وتركنا عليه في الآخرين) من الامم (سلام على نوح) أي هذا الكلام بعينه وهو وارد على الحكاية كقولك قرأت

(الاول) انهم أكلوا منها لشدة الجوع فان قيل وكيف يأكلونها مع نهاية خشونتها ونتنها ومرارة طعمها قلنا ان الواقع في الضرر العظيم ربما استروح منه الى ما يقاربه في الضرر فاذا جوعهم الله جوع الشديد فزعوا في ازالة ذلك الجوع الى تناول هذا الشيء وان كان بالصفة التي ذكرتموها (الوجه الثاني) أن يقال الزبانية يكرهونهم على الاكل من تلك الشجرة تكميلا لعذابهم * واعلم انهم اذا شبعوا فحينئذ يشتد عطشهم ويحتاجون الى الشراب فعند هذا وصف الله شرابهم فقال ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم قال الزجاج الشوب اسم عام في كل ما خلط بغيره والحميم الماء الحار المتناهي في الحرارة والمعنى انه اذا غلبهم ذلك العطش الشديد سقوا من ذلك الحميم فحينئذ يشوب الزقوم بالحميم نعوذ بالله منهما واعلم أن الله وصف شرابهم في القرآن بأشياء منها كونه غساقا ومنها قوله وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ومنها ما ذكره في هذه الآية (فان قيل) ما الفائدة في كلمة ثم في قوله ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم قلنا فيه وجهان (الاول) انهم يملؤن بطونهم من شجرة الزقوم وهو حار يحرق بطونهم فيعظم عطشهم ثم انهم لا يسقون الا بعد مدة مديدة والغرض تكميل التعذيب (والثاني) انه تعالى ذكر الطعام بتلك البشاعة والكراهة ثم وصف الشراب بما هو أبشع منه فكان المقصود من كلمة ثم بيان أن حال المشروب في البشاعة أعظم من حال المأكول ثم قال تعالى ثم ان مرجعهم لالى الجحيم قال مقاتل أي بعد أكل الزقوم وشرب الحميم وهذا يدل على انهم عند شرب الحميم لم يكونوا في الجحيم وذلك بأن يكون الحميم من موضع خارج عن الجحيم فهم يوردون الحميم لاجل الشرب كما تورد الابل الى الماء ثم يوردون الى الجحيم وهذا قول مقاتل واحتج على صحته بقوله تعالى هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن وذلك يدل على صحة ما ذكرناه ثم انه تعالى لما وصف عذابهم في أكلهم وشربهم قال انهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون قال الفراء الاهراع الاسراع يقال هرع وأهرع اذا استحث والمعنى انهم يتبعون آباءهم اتباعا في سرعة كأنهم يزعجون الى اتباع آبائهم والمقصود من الآية انه تعالى علل استحقاقهم الوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين وترك اتباع الدليل ولو لم يوجد في القرآن آية غير هذه الآية في ذم التقليد لكفى * ثم انه تعالى ذكر لرسوله ما يوجب التسلية له في كفرهم وتكذيبهم فقال ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين ولقد أرسلنا فيهم منذرين فبين تعالى ان ارسال الرسل قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف ويجب أن يكون له صلى الله عليه وسلم أسوة بهم حتى يصبر كما صبروا ويستمر على الدعاء الى الله وان تمردوا فليس عليه الا البلاغ * ثم قال تعالى فانظر كيف كان عاقبة المنذرين وهذا وان كان في الظاهر خطابا مع الرسول صلى الله عليه وسلم الا أن المقصود منه خطاب الكفار لانهم سمعوا بالاخبار جميع ما جرى من أنواع العذاب على قوم نوح وعلى عاد وثمود وغيرهم فان لم يعلموا ذلك فلا أقل من ظن وخوف يصلح أن يكون زاجرا لهم عن كفرهم * وقوله تعالى

سورة أنزلناها والمعنى يسلمون عليه تسليما و يدعون له على الدوام امة بعد أمة وقيل ثمة قول مقدر اى فقلنا وقيل ضمن تركنا معنى قلنا وقوله تعالى (فى العالمين) متعلق بالجار والمجرور ومعناه الدعاء بثبات هذه التحية واستمرارها أبدا فى العالمين من الملائكة والثقلين جميعا وقوله تعالى (انا كذلك نجزى المحسنين) تعليل لما فعل به عليه الصلاة والسلام من التكرمة السنية من اجابة دعائه أحسن اجابة وابقاء ذريته وتبقية ذكره الجميل وتسليم العالمين عليه الى آخر الدهر بكونه من زمرة المعروفين بالاحسان الراسخين فيه وأن ذلك من قبيل مجازاة الاحسان بالاحسان وذلك اشارة الى ماذكر من الكرامات السنية التى وقعت جزاء عليه الصلاة والسلام ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو رتبته و بعد منزلته فى الفضل والشرف والكاف متعلقة بما بعدها أى مثل ذلك الجزاء الكامل نجزى الكاملين فى الاحسان لا جزاء أدنى منه وقوله تعالى (انه من عبادنا المؤمنين) تعليل لكونه من المحسنين بخلوص عبوديته وكمال ايمانه وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما مالا يخفى (ثم أغرقنا الآخرين) أى المغايرين لنوح وأهله وهم كفار قومه أجمعين (وان من شيعته) أى ممن شايعه فى اصول الدين (لابراهيم) وان اختلف فروع شرائعهما و يجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق كلى أو أكثرى ﴿ قيل ﴾ وعن ابن عباس رضى الله عنهما من أهل دينه وعلى سنته أو ممن شايعه على التصلب فى دين الله ومصابرة المكذبين وما كان بينهما الا نبيان هود وصالح عليهم السلام وكان بين نوح و ابراهيم الفان وستمائة وأربعون سنة (اذ جاء ربه) منصوب باذكر أو متعلق بما فى الشيعة من معنى المشايعة (بقلب

الا عباد الله المخلصين فيه قولان (أحدهما) انه استثناء من قوله ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين (والثانى) انه استثناء من قوله كيف كان عاقبة المنذرين فانها كانت أقبح العواقب وأفظعها الا عاقبة عباد الله المخلصين فانها كانت مقرونة بالخير والراحة ✱ قوله تعالى (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم وجعلنا ذريته هم الباقين وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين انا كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين ثم أغرقنا الآخرين) اعلم انه تعالى لما قال من قبل ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين وقال فانظر كيف كان عاقبة المنذرين أتبعه بشرح وقائع الانبياء عليهم السلام (والقصة الاولى) حكاية حال نوح عليه السلام وقوله ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون فيه مباحث (الاول) ان اللام فى قوله فلنعم المجيبون جواب قسم محذوف والمخصوص بالمدح محذوف أى فلنعم المجيبون نحن (البحث الثانى) انه تعالى ذكر أن نوحا نادى ولم يذكر أن ذلك النداء فى أى الوقائع كان لاجرم حصل فيه قولان (الاول) وهو المشهور عند الجمهور انه نادى الرب تعالى فى أن ينجيه من محنة الغرق وكرب تلك الواقعة (والقول الثانى) ان نوحا عليه السلام لما اشتغل بدعوة قومه الى الدين الحق بالغوا فى ايذائه وقصدوا قتله ثم انه عليه السلام نادى ربه واستنصره على كفار قومه فأجابه الله تعالى ومنعهم من قتله وايذائه واحتج هذا القائل على ضعف القول الاول بانه عليه السلام انما دعا عليهم لاجل أن ينجيه الله تعالى وأهله وأجاب الله دعاءه فيه فكان حصول تلك النجاة كالمعلوم المتيقن فى دعائه وذلك يمنع من أن يقال المطلوب من هذا النداء حصول هذه النجاة ✱ ثم انه تعالى لما حكى عن نوح انه ناداه قال بعده فلنعم المجيبون وهذه اللفظة تدل على أن تلك الاجابة كانت من النعم العظيمة وبيانه من وجوه (الاول) انه تعالى عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال ولقد نادانا نوح والقادر العظيم لايليق به الا الاحسان العظيم (والثانى) انه أعاد صيغة الجمع فى قوله فلنعم المجيبون وذلك أيضا يدل على تعظيم تلك النعمة لاسيما وقد وصف تلك الاجابة بأنها نعمت الاجابة (والثالث) أن الفاء فى قوله فلنعم المجيبون يدل على أن حصول هذه الاجابة مرتب على ذلك النداء والحكم المرتب على الوصف المناسب يقتضى كونه معللا به وهذا يدل على ان النداء بالاخلاص سبب لحصول الاجابة ثم انه تعالى لما بين سبحانه نعم المجيب على سبيل الاجمال بين أن الانعام حصل فى تلك الاجابة من وجوه (الاول) قوله تعالى ونجيناه وأهله من الكرب العظيم وهو على القول الاول الكرب الحاصل بسبب الخوف من الغرق وعلى الثانى الكرب الحاصل من أذى قومه (والثانى) قوله وجعلنا ذريته هم الباقين يفيد الحصر وذلك يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته فقد فنوا قال ابن عباس ذريته بنوه الثلاثة سام وحام و يافث فسام أبو العرب وفارس والروم وحام أبو السودان و يافث أبو الترك (النعمة الثالثة) قوله تعالى وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين يعنى يذكرون هذه الكلمة فان

سليم) اي من آفات القلوب أو من العلايق الشاغلة عن التبتل الى الله عز وجل ومعنى المجيء به ربه اخلاصه له كأنه جاء به متحفا اياه بطريق التمثيل (اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون) بدل من الاولى أو ظرف لجاء أو لسليم أي أي شيء تعبدونه (أئفكا آلهة دون الله تريدون) ﴿١٤٩﴾ أي أتريدون آلهة من دون الله افكا أي للافك فقدم المفعول على الفعل للعناية ثم المفعول له على المفعول به لان الاهم مكافحتهم بأنهم على أفك وباطل في شركهم ويجوز أن يكون افكا مفعولا به بمعنى أتريدون افكا ثم يفسر الافك بقوله آلهة من دون الله دلالة على أنها افك في نفسها للمبالغة أو يراد بها عبادتها ثم حذف المضاف ويجوز ان يكون حالا بمعنى آفكين (فما ظنكم برب العالمين) أي بمن هو حقيق بالعبادة لكونه ربا للعالمين حتى تركتم عبادته خاصة واشركتم به أخس مخلوقاته أو فما ظنكم به أي شيء هو من الاشياء حتى جعلتم الاصنام له أندادا أو فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم بعد ما فعلتم ما فعلتم من الاشراك به (فنظر نظرة في النجوم) قيل كانت له عليه الصلاة والسلام حمى لها نوبة معينة في بعض ساعات الليل فنظر ليعرف هل هي تلك الساعة فاذا هي قد حضرت (فقال اني سقيم) وكان صادقا في ذلك فجعله عذرا في تخلفه عن عيدهم وقيل أراد اني سقيم القلب لكفركم وقيل نظر في علمها أو في كتبها أو في أحكامها ولا منع من ذلك حيث كان قصده عليه الصلاة والسلام ايهامهم حين أرادوا أن يخرجوا به عليه الصلاة والسلام الى معيدهم ليتركوه فان القوم كانوا نجامين فأوهمهم أنه قد استدل بأمارة

قيل فما معنى قوله في العالمين قلنا معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعا اي لا يخلو أحد منهم منها كأنه قيل أثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين فيسلمون عليه بكليتهم ثم انه تعالى لما شرح تفاصيل انعامه عليه قال انا كذلك نجزي المحسنين والمعنى انا انما خصصنا نوحا عليه السلام بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوءة من ذريته ومن تبقية ذكره الحسن في ألسنة جميع العالمين لاجل انه كان محسنا ثم علل كونه محسنا بأنه كان عبدا لله مؤمنا والمقصود منه بيان ان أعظم الدرجات وأشرف المقامات الايمان بالله والانقياد لطاعته (القصة الثانية) قصة ابراهيم عليه السلام * قوله تعالى (وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم فتولوا عنه مدبرين فراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين فأقبلوا اليه يزفون) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) الضمير في قوله من شيعته الى ماذا يعود فيه قولان (الاول) وهو الاظهر انه عائد الى نوح عليه السلام أي من شيعة نوح أي من أهل دينه وعلى دينه ومنهاجه لابراهيم قالوا وما كان بين نوح وابراهيم الا نبيان هود وصالح وروى صاحب الكشاف انه كان بين نوح وابراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة (والثاني) قال الكلبي المراد من شيعته محمد لابراهيم يعني انه كان على دينه ومنهاجه فهو من شيعته وان كان سابقا له والاول أظهر لانه تقدم ذكر نوح عليه السلام ولم يتقدم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فعود الضمير الى نوح أولى (المسئلة الثانية) العامل في اذ ما دل عليه قوله وان من شيعته من معنى المشايعة يعني وان ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لابراهيم أما قوله اذ جاء ربه بقلب سليم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) في قوله بقلب سليم قولان (الاول) قال مقاتل والكلبي يعني خالص من الشرك والمعنى انه سلم من الشرك فلم يشرك بالله (والثاني) قال الاصوليون المراد انه عاش ومات على طهارة القلب من كل دنس من المعاصي فيدخل فيه كونه سليما عن الشرك وعن الشك وعن الغل والغش والحقد والحسد عن ابن عباس انه كان يحب للناس ما يحب لنفسه وسلم جميع الناس من غشه وظلمه وأسلمه الله تعالى فلم يعدل به أحدا واحتج الذاهبون الى القول الاول بأنه تعالى ذكر بعد هذه الكلمة انكاره على قومه الشرك بالله وهو قوله اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون واحتج الذاهبون الى القول الثاني بأن اللفظ مطلق فلا يقيد بصفة دون صفة ويتأكد هذا بقوله تعالى ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين مع انه تعالى قال الله أعلم حيث يجعل رسالاته وقال وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين فان قيل ما معنى المجيء بقلبه ربه قلنا معناه انه أخلص لله قلبه فكأنه أتحف حضرة الله بذلك القلب ورأيت في التوراة ان الله قال لموسى أجب الهك بكل قلبك واعلم انه تعالى لما ذكر أن ابراهيم جاء ربه بقلب سليم ذكر أن من جملة آثار تلك السلامة ان دعا

أباه وقومه الى التوحيد فقال اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون والمقصود من هذا الكلام تعيين تلك الطريقة وتقبيحها ثم قال أئفكا آلهة دون الله تريدون قال صاحب الكشاف أئفكا مفعول له تقديره أتريدون آلهة من دونه افكا وانما قدم المفعول على الفعل للعناية وقدم المفعول له على المفعول به لانه كان الاهم عنده أن يقرر عندهم بانهم على افك وباطل في شركهم ويجوز أن يكون افكا مفعولا به يعني أتريدون افكا ثم فسر الافك بقوله آلهة دون الله على انها افك في أنفسها ويجوز أن يكون حالا بمعنى تريدون آلهة من دون الله آفكين * ثم قال فما ظنكم برب العالمين وفيه وجهان (أحدهما) أتظنون برب العالمين انه يجوز جعل هذه الجمادات مشاركة له في المعبودية (وثانيها) أتظنون برب العالمين انه من جنس هذه الاجسام حتى جعلتموها مساوية له في المعبودية فنبههم بذلك على انه ليس كمثله شئ ثم قال فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم عن ابن عباس انهم كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم على مقتضى عادتهم وذلك انه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجة في انها غير معبودة وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون اليه فأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خاليا في بيت الاصنام فيقدر على كسرها وههنا سؤالان (الاول) ان النظر في علم النجوم غير جائز فكيف أقدم عليه ابراهيم (والثاني) انه عليه السلام ما كان سقيما فلما قال اني سقيم كان ذلك كذبا واعلم أن العلماء ذكروا في الجواب عنهما وجوها كثيرة (الاول) انه نظر نظرة في النجوم في أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه سقامة كالحمى في بعض ساعات الليل والنهار فنظر ليعرف هل هي في تلك الساعة وقال اني سقيم فجعله عذرا في تخلفه عن العيد الذي لهم وكان صادقا فيما قال لان السقم كان يأتيه في ذلك الوقت وانما تخلف لاجل تكسير أصنامهم (الوجه الثاني) في الجواب أن قوم ابراهيم عليه السلام كانوا أصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها على غائب الامور فلذلك نظر ابراهيم في النجوم أي في علوم النجوم وفي معانيه لانه نظر بعينه اليها وهو كما يقال فلان نظر في الفقه وفي النحو وانما أراد أن يوهمهم انه يعلم ما يعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون حتى اذا قال اني سقيم سكنوا الى قوله وأما قوله اني سقيم فمعناه سأسقم كقوله انك ميت أي ستموت (الوجه الثالث) أن قوله فنظر نظرة في النجوم هو قوله تعالى فلما جن عليه الليل رأى كوكبا الى آخر الآيات وكان ذلك النظر لاجل أن يتعرف أحوال هذه الكواكب هل هي قديمة أو محدثة وقوله اني سقيم يعني سقيم القلب غير عارف بربي وكان ذلك قبل البلوغ (الوجه الرابع) قال ابن زيد كان له نجم مخصوص وكلما طلع على صفة مخصوصة مرض ابراهيم ولاجل هذا الاستقراء لما رآه في ذلك الوقت طالعا على تلك الصفة المخصوصة قال اني سقيم أي هذا السقم واقع لا محالة (الوجه الخامس) أن قوله اني سقيم أي مريض القلب بسبب اطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم لعلك باخع نفسك (الوجه السادس) في الجواب انا لا نسلم أن النظر في

في علم النجوم على انه سقيم أي مشارف للسقم وهو الطاعون وكان اغلب اسقام عليهم وكانوا يخافون العدوى ليتفرقوا عنه فهربوا منه الى معيدهم وتركوه في بيت الاصنام وذلك قوله تعالى (فتولوا عنه مدبرين) أي هاربين مخافة العدوى (فراغ الى آلهتهم) اي ذهب اليها في خفية وأصله الميل بحيلة (فقال)

للاصنام استهزاء (ألا تأكلون) أي من الطعام الذي كانوا يصنعونه عندها لتبرك عليه (مالكم لا تنطقون) أي بجوابي (فراغ عليهم) فمال مستعليا عليهم وقوله تعالى (ضربا باليمين) مصدر مؤكد لراغ عليهم فانه بمعنى ضربهم أو لفعل مضمر هو حال من فاعله أي فراغ عليهم يضربهم ضربا أو هو الحال منه على أنه مصدر بمعنى الفاعل أي فراغ عليهم ضاربا باليمين أي ضربا شديدا قويا وذلك لان اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما وقوة الآلة تقتضي قوة الفعل وشدته وقيل بالقوة والمتانة كما في قوله

اذا ما راية رفعت لمجد … تلقاها عرابة باليمين

أي بالقوة وعلى ذلك مدار تسمية الحلف باليمين لانه يقوي الكلام ويؤكده وقيل بسبب الحلف وهو قوله تعالى وتالله لأكيدن أصنامكم (فأقبلوا اليه) أي المأمورون باحضاره عليه الصلاة والسلام بعدما رجعوا من عيدهم الى بيت الاصنام فوجدوها مكسورة فسألوا عن الفاعل ﴿ علم ﴾ فظنوا أنه عليه الصلاة والسلام فعله فأتوا به (يزفون) حال من واو أقبلوا أي يسرعون من زفيف النعام وقرئ يزفون من أزف اذا دخل في الزفيف أو من أزفه أي حمله على الزفيف أي يزف بعضهم بعضا ويزفون

على البناء للمفعول أي يحملون على الزفيف و يزفون من وزف يزف اذا أسرع و يزفون من زفاه اذا حداه كأن بعضهم يزفو بعضا لتسارعهم اليه عليه الصلاة والسلام (قال) أي بعدما أتوا به عليه الصلاة والسلام وجرى بينه صلى الله عليه وسلم و بينهم من المحاورات ما نطق به ﴿ ١٥١ ﴾ قوله تعالى قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم الى قوله تعالى لقد علمت ما هؤلاء ينطقون (أتعبدون ما تنحتون) ما تنحتونه من الاصنام وقوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) حال من فاعل تعبدون مؤكدة للانكار والتوبيخ أي والحال أنه تعالى خلقكم وخلق ما تعملونه فان جواهر أصنامهم ومادتها بخلقه تعالى وشكلها وان كان بفعلهم لكنه باقداره تعالى اياهم عليه وخلقه ما يتوقف عليه فعلهم من الدواعي والعدد والاسباب وما تعملون اما عبارة عن الاصنام فوضعه موضع ضميرما تنحتون للايذان بأن مخلوقيتها لله عز وجل ليس من حيث نحتهم لها فقط بل من حيث سائر أعمالهم أيضا من التصوير والتحلية والتزيين ونحوها وام[ا] على عمومه فينتظم الاصن[ام] انتظاما أوليا مع ما فيه من تحقيق الحق ببيان أن جميع ما يعملونه كائ[نا] ما كان مخلوق له سبحا[نه] وقيل ما مصدرية أي عملكم على أنه بمعنى المفعول وقيل بمعناه فان فعلهم اذا كان بخلق الله تعالى كان مفعولهم المتوقف على فعلهم أولى بذلك (قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه في الجحيم) أي في النار الشديدة الاتقاد من الجحمة

علم النجوم والاستدلال بمقايستها حرام لان من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بقوة و بخاصية لاجلها يظهر منه أثر مخصوص فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل وأما الكذب فغير لازم لانه ذكر قوله اني سقيم على سبيل التعريض بمعنى أن الانسان لا ينفك في أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة اما في بدنه واما في قلبه وكل ذلك سقم (الوجه السابع) قال بعضهم ذلك القول عن ابراهيم عليه السلام كذبة ورووا فيه حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما كذب ابراهيم الا ثلاث كذبات قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغي أن يقبل لان نسبة الكذب الى ابراهيم لا تجوز فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب الى الراوي و بين نسبته الى الخليل عليه السلام كان المعلوم بالضرورة أن نسبته الى الراوي أولى ثم نقول لم لا يجوز أن يكون المراد بكونه كذبا خبرا شبيها بالكذب (والوجه الثامن) أن المراد من قوله فنظر نظرة في النجوم أي نظر في نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم فان الاشياء التي تحدث قطعة قطعة يقال انها منجمة أي متفرقة ومنه نجوم الكتابة والمعنى انه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها حتى يستخرج منها حيلة يقدر بها على اقامة عذر لنفسه في التخلف عنهم فلم يجد عذرا أحسن من قوله اني سقيم والمراد انه لا بد من أن أصير سقيما كما تقول لمن رأيته على أوقات السفر انك مسافر واعلم أن ابراهيم عليه السلام لما قال اني سقيم تولوا عنه معرضين فتركوه وعذروه في أن لا يخرج اليوم فكان ذلك مراده فراغ الى آلهتهم يقال راغ اليه اذا مال اليه في السر على سبيل الخفية ومنه روغان الثعلب وقوله ألا تأكلون يعني الطعام الذي كان بين أيديهم وانما قال ذلك استهزاء بها وكذا قوله ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا فاقبل عليهم مستخفيا كأنه قال فضربهم ضربا لان راغ عليهم في معنى ضربهم أو فراغ عليهم ضربا بمعنى ضاربا * وفي قوله باليمين قولان (الاول) معناه بالقوة والشدة لان اليمين أقوى الجارحتين (والثاني) انه أتى بذلك الفعل بسبب الحلف وهو قوله تعالى عنه وتالله لا كيدن أصنامكم ثم قال فأقبلوا اليه يزفون قرأ حمزة يزفون بضم الياء والباقون بفتحها وهما لغتان قال ابن عرفة من قرأ بالنصب فهو من زف يزف ومن قرأ بالضم فهو من أزف يزف قال الزجاج يزفون يسرعون وأصله من زفيف النعامة وهو ابتداء عدوها وقرأ حمزة يزفون أي يحملون غيرهم على الزفيف قال الاصمعي يقال ازففت الابل اذا حملتها على أن تزف قال وهو سرعة الخطوة ومقاربة المشي والمفعول محذوف على قراءته كأنهم حملوا دوابهم على الاسراع في المشي فان قيل مقتضى هذه الآية أن ابراهيم عليه السلام لما كسرها عدوا اليه واخذوه وقال في سورة أخرى في عين هذه القصة قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وهذا يقتضي انهم في أول الامر ما عرفوه فبين هاتين الآيتين تناقض قلنا لا يبعد أن يقال ان جماعة عرفوه فعدوا اليه مسرعين والاكثرون ما عرفوه فتعرفوا ان ذلك

وهي شدة التأجج واللام عوض من المضاف اليه أي جحيم ذلك البنيان وقد ذكر كيفية بنائهم له في سورة الانبياء (فأرادوا به كيدا) فانه عليه الصلاة والسلام لما قهرهم بالحجة وألقمهم الحجر قصدوا ما قصدوا لئلا يظهر للعامة عجزهم (فجعلناهم الاسفلين) الاذلين بابطال كيدهم وجعله برهانا نيرا على علو شأنه عليه الصلاة والسلام بجعل النار عليه بردا وسلاما (وقال اني ذاهب الى ربي) أي مهاجر الى حيث أمرني ربي كما قال اني مهاجر الى ربي وهو الشام أو الى حيث أتجرد فيه لعبادته تعالى (سيهدين) أي الى ما فيه صلاح ديني أو الى مقصدي وبت القول بذلك لسبق الوعد أو لفرط توكله أو البناء على عادته تعالى معه ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ولذلك أتى بصيغة التوقع (رب هب لي من الصالحين) أي بعض الصالحين يعينني على الدعوة والطاعة ويؤنسني في الغربة يعني الولد لان لفظ الهبة على الاطلاق خاص به وان كان قد ورد مقيدا بالاخوة في قوله تعالى ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا ولقوله تعالى (فبشرناه بغلام حليم) فانه صريح في أن المبشر به عين ما استوهبه عليه الصلاة والسلام ولقد جمع فيه بشارات ثلاث

الكاسر من هو والله أعلم * قوله تعالى (قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين وقال اني ذاهب الى ربي سيهدين رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن القوم لما عاتبوا ابراهيم على كسر الاصنام فهو أيضا ذكر لهم الدليل الدال على فساد المصير الى عبادتها فقال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ووجه الاستدلال ظاهر وهو ان الخشب والحجر قبل النحت والاصلاح ما كان معبودا للانسان البتة فاذا نحته وشكله على الوجه المخصوص لم يحدث فيه الا آثار تصرفه فلو صار معبودا عند ذلك لكان معناه ان الشئ الذي ما كان معبودا لما حصلت آثار تصرفاته فيه صار معبودا عند ذلك وفساد ذلك معلوم ببديهة العقل (المسئلة الثانية) احتج جمهور الاصحاب بقوله والله خلقكم وما تعملون على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى فقالوا النحويون اتفقوا على أن لفظ ما مع ما بعده في تقدير المصدر فقوله وما تعملون معناه وعملكم وعلى هذا التقدير صار معنى الآية والله خلقكم وخلق عملكم فان قيل هذه الآية حجة عليكم من وجوه (الاول) انه تعالى قال أتعبدون ما تنحتون اضاف العبادة والنحت اليهم اضافة الفعل الى الفاعل ولو كان ذلك واقعا بتخليق الله لاستحال كونه فعلا للعبد (الثاني) انه تعالى انما ذكر هذه الآية توبيخا لهم على عبادة الاصنام لانه تعالى بين انه خالقهم وخالق لتلك الاصنام والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق فلما تركوا عبادته سبحانه وهو خالقهم وعبدوا الاصنام لاجرم انه سبحانه وتعالى وبخهم على هذا الخطا العظيم فقال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ولو لم يكونوا فاعلين لافعالهم لما جاز توبيخهم عليها سلمنا أن هذه الآية ليست حجة عليكم لكن لانسلم انها حجة لكم قوله لفظة ما مع ما بعدها في تقدير المصدر قلنا هذا ممنوع وبيانه أن سيبويه والاخفش اختلفا في أنه هل يجوز أن يقال أعجبني ما قمت أي قيامك فجوزه سيبويه ومنعه الاخفش وزعم أن هذا لا يجوز الا في الفعل المتعدي وذلك يدل على أن ما مع ما بعدها في تقدير المفعول عند الاخفش سلمنا أن ذلك قد يكون بمعنى المصدر لكنه أيضا قد يكون بمعنى المفعول ويدل عليه وجوه (الاول) قوله أتعبدون ما تنحتون والمراد بقوله ما تنحتون المنحوت لا النحت لانهم ما عبدوا النحت وانما عبدوا المنحوت فوجب أن يكون المراد بقوله ما تعملون المعمول لا العمل حتى يكون كل واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر (والثاني) انه تعالى قال فاذا هي تلقف ما يأفكون وليس المراد انها تلقف نفس الافك بل أراد العصي والحبال التي هي متعلقات ذلك الافك فكذا ههنا (الثالث) أن العرب تسمي محل العمل عملا يقال في الباب والخاتم هذا عمل فلان والمراد محل عمله فثبت بهذه الوجوه الثلاثة أن لفظة ما مع ما بعدها كما تجئ بمعنى المصدر فقد تجئ أيضا بمعنى المفعول فكان حمله ههنا على المفعول أولى لان المقصود في هذه الآية تزييف مذهبهم في

بشارة أنه غلام وأنه يبلغ أوان الحلم وأنه يكون حليما وأي حلم يعادل حلمه عليه الصلاة والسلام حين عرض عليه ﴿عبادة﴾ أبوه الذبح فقال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين وقيل ما نعت الله الانبياء عليهم الصلاة والسلام بأقل مما نعتهم بالحلم لعزة وجوده غير ابراهيم وابنه فانه تعالى نعتهما به وحالهما المحكية بعد أعدل بينة بذلك والفاء في قوله تعالى

عبادة الاصنام لابيان انهم لايوجدون افعال أنفسهم لان الذى جرى ذكره فى اول الآية الى هذا الموضع هو مسألة عبادة الاصنام لاخلق الاعمال واعلم أن هذه السؤالات قوية وفى دلائلنا كثرة فالاولى ترك الاستدلال بهذه الآية والله أعلم واعلم أن ابراهيم عليه السلام لما أورد عليهم هذه الحجة القوية ولم يقدروا على الجواب عدلوا الى طريق الايذاء فقالوا ابنوا له بنيانا واعلم أن كيفية ذلك البناء لايدل عليها لفظ القرآن قال ابن عباس بنوا حائطا من حجر طوله فى السماء ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا وملؤه نارا فطرحوه فيها وذلك هو قوله تعالى فألقوه فى الجحيم وهى النار العظيمة قال الزجاج كل نار بعضها فوق بعض فهى جحيم والالف واللام فى الجحيم يدل على النهاية والمعنى فى جحيمه أى فى جحيم ذلك البنيان ثم قال تعالى فارادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين والمعنى ان فى وقت المحاجة حصلت الغلبة له وعند ما ألقوه فى النار صرف الله عنه ضرر النار فصار هو الغالب عليهم واعلم انه لما انقضت هذه الواقعة قال ابراهيم انى ذاهب الى ربى سيهدين ونظير هذه الآية قوله تعالى وقال انى مهاجر الى ربى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) دلت هذه الآية على أن الموضع الذى تكثر فيه الاعداء تجب مهاجرته وذلك لان ابراهيم صلوات الله عليه وسلامه مع ان الله سبحانه خصه بأعظم أنواع النصرة لما أحس منهم بالعداوة الشديدة هاجر من تلك الديار فلان يجب ذلك على الغير كان أولى (المسئلة الثانية) فى قوله انى ذاهب الى ربى قولان (الاول) المراد منه مفارقة تلك الديار والمعنى انى ذاهب الى مواضع دين ربى (والقول الثانى) قال الكلبى ذاهب بعبادتى الى ربى فعلى القول الاول المراد بالذهاب الى الرب هو الهجرة من الديار وبه اقتدى موسى حيث قال كلا ان معى ربى سيهدين وعلى القول الثانى المراد رعاية أحوال القلوب وهو أن لا يأتى بشئ من الاعمال الا لله تعالى كما قال وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض قيل ان القول الاول أولى لان المقصود من هذه الآية بيان مهاجرته الى أرض الشام وأيضا يبعد حمله على الهداية فى الدين لانه كان على الدين فى ذلك الوقت الا أن يحمل ذلك على الثبات عليه أو يحمل ذلك على الاهتداء الى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة فى أمر الدين (المسئلة الثالثة) قوله سيهدين يدل على ان الهداية لاتحصل الا من الله تعالى كما يقول أصحابنا ولا يمكن حمل هذه الهداية على وضع الادلة وازاحة الاعذار لان كل ذلك قد حصل فى الزمان الماضى وقوله سيهدين يدل على اختصاص تلك الهداية بالمستقبل فوجب حمل الهداية فى هذه الآية على تحصيل العلم والمعرفة فى قلبه فان قيل ابراهيم عليه السلام جزم فى هذه الآية بأنه تعالى سيهديه وان موسى عليه السلام لم يجزم به بل قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل فما الفرق قلنا العبد اذا تجلى له مقامات رحمة الله فقد يجزم بحصول المقصود واذا تجلى له مقامات كونه غنيا عن العالمين فحينئذ يستحقر نفسه فلا يجزم بل لا يظهر الا الرجاء والطمع (المسئلة الرابعة) قوله تعالى انى ذاهب الى ربى يدل على فساد تمسك

(فلما بلغ معه السعى) فصيحة معربة عن مقدر قد حذف تعويلا على شهادة الحال وايذانا بعدم الحاجة الى التصريح به لاستحالة التخلف والتأخر بعد البشارة كما مر فى قوله تعالى فلما رأينه أكبرنه وفى قوله تعالى فلما رآه مستقرا عنده أى فوهبناه له فنشأ فلما بلغ رتبة أن يسعى معه فى أشغاله وحوائجه ومعه متعلق بمحذوف ينبئ عنه السعى لا بنفسه لان صلة المصدر لاتتقدمه ولا ببلغ لان بلوغهما لم يكن معا كأنه لما ذكر السعى قيل مع من فقيل معه وتخصيصه لان الاب أكمل فى الرفق والاستصلاح فلا يستسعيه قبل أوانه أو لانه استوهبه لذلك وكان له يومئذ ثلاث عشرة سنة (قال) أى ابراهيم عليه السلام (يابنى انى ارى فى المنام انى أذبحك) أى أرى هذه الصورة بعينها أو ما هذه عبارته وتأويلا وقيل انه رأى ليلة التروية كأن قائلا يقول ان الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح روى فى ذلك من الصباح الى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان فمن ثمة سمى يوم التروية فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله تعالى فمن ثمة سمى يوم عرفة ثم

المشبهة بقوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب لان كلمة الى موجودة في قوله انى ذاهب الى ربي مع انه لم يلزم أن يكون الاله موجودا في ذلك المكان فكذلك ههنا واعلم انه صلوات الله عليه لما هاجر الى الارض المقدسة أراد الولد فقال هب لى من الصالحين أى هب لى بعض الصالحين يريد الولد لان لفظ الهبة غلب في الولد وان كان قد جاء في الاخ في قوله تعالى ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا وقال تعالى ووهبنا له اسحق ويعقوب ووهبنا له يحيى وقال على بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهم حين هنأه بولده على أبي الاملاك شكرت الواهب وبورك لك في الموهوب ولذلك وقعت التسمية بهبة الله تعالى وبهبة الوهاب وبموهوب ووهب واعلم أن هذا الدعاء اشتمل على ثلاثة أشياء على أن الولد غلام ذكر وانه يبلغ الحلم وانه يكون حليما وأى حلم يكون أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال ستجدني ان شاء الله من الصابرين ثم استسلم لذلك وأيضا فان ابراهيم عليه السلام كان موصوفا بالحلم قال تعالى ان ابراهيم لاواه حليم ان ابراهيم لحليم أواه منيب فبين انه واده موصوف بالحلم وانه قائم مقامه في صفات الشرف والفضيلة واعلم أن الصلاح أفضل الصفات بدليل أن الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه فقال رب هب لى حكما وألحقني بالصالحين وطلبه للولد فقال هب لى من الصالحين وطلبه سليمان عليه السلام بعد كمال درجته في الدين والدنيا وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد * قوله تعالى (فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى أرى في المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن ياابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه في الآخرين سلام على ابراهيم كذلك نجزي المحسنين انه من عبادنا المؤمنين وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين وباركنا عليه وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) اعلم انه سبحانه وتعالى لما قال فبشرناه بغلام حليم أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به وبلوغه فقال فلما بلغ معه السعى ومعناه فلما أدرك وبلغ الحد الذي يقدر فيه على السعى وقوله معه في موضع الحال والتقدير كائنا معه والفائدة في اعتبار هذا المعنى أن الاب أرفق الناس بالولد وغيره ربما عنف به في الاستسعاء فلا يحتمله لانه لم تستحكم قوته قال بعضهم كان في ذلك الوقت ابن ثلاث عشرة سنة والمقصود من هذا الكلام ان الله تعالى لما وعده في الآية الاولى بكون ذلك الغلام حليما بين في هذه الآية ما يدل على كمال حلمه وذلك لانه كان به من كمال الحلم وفسحة الصدر ما قواه على احتمال تلك البلية العظيمة والاتيان بذلك الجواب الحسن اما قوله انى أرى في المنام انى أذبحك ففيه مسائل (المسئلة الاولى) في تفسير هذه اللفظة وجهان (الاول) قال السدى كان ابراهيم حين بشر باسحق قبل أن يولد له قال هو اذن لله ذبيح فقيل لابراهيم قد نذرت نذرا فف بنذرك فلما أصبح قال يابنى انى أرى في

﴿ المنام ﴾

رأى مثله في الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى اليوم يوم النحر وقيل ان الملائكة حين بشرته بغلام حليم قال اذن هو ذبيح الله فلما ولد وبلغ حد السعى معه قيل له أوف بنذرك * والاظهر الاشهر أن المخاطب اسمعيل عليه السلام اذ هو الذى وهب اثر المهاجرة ولان البشارة باسحق بعده معطوف على البشارة بهذا الغلام ولقوله عليه الصلاة والسلام أنا ابن الذبيحين فأحدهما جده اسمعيل عليه السلام والآخر أبوه عبد الله فان عبد المطلب نذر أن يذبح ولدا ان سهل الله تعالى له حفر بئر زمزم أو بلغ بنوه عشرة فلما حصل ذلك وخرج السهم على عبد الله فداه بمائة من الابل ولذلك سنت الدية مائة ولان ذلك كان بمكة وكان قرنا الكبش معلقين بالكعبة حتى احترقا في أيام ابن الزبير ولم يكن اسحق ثمة ولان بشارة اسحق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه فلا يناسبه الامر بذبحه مراهقا وما روى أنه عليه الصلاة والسلام مثل أى النسب أشرف فقال يوسف صديق الله ابن يعقوب اسرائيل الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله فالصحيح أنه عليه الصلاة

المنام انى اذبحك وروى من طريق آخر انه رأى ليلة التروية فى منامه كأن قائلا يقول له
ان الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح تروى فى ذلك من الصباح الى الرواح أمن الله هذا
الحلم أم من الشيطان فمن ثم سمي يوم التروية فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف انه من الله
فسمي يوم عرفة ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمي يوم النحر فهذا هو قول أهل
التفسير وهو يدل على أنه رأى فى المنام مايوجب أن يذبح ابنه فى اليقظة وعلى هذا فتقدير
اللفظ انى أرى فى المنام مايوجب أن أذبحك (والقول الثانى) انه رأى فى المنام انه يذبحه
ورؤيا الانبياء عليهم السلام من باب الوحي وعلى هذا القول فالرؤيا فى المنام ليس الا انه
يذبح فان قيل اما أن يقال انه ثبت بالدليل عند الانبياء عليهم السلام ان كل ماراه فى
المنام فهو حق وحجة أو لم يثبت ذلك بالدليل عندهم فان كان الاول فلم راجع الولد فى هذه
الواقعة بل كان من الواجب عليه أن يشتغل بتحصيل ذلك المأمور وان لا يراجع الولد
فيه وان لا يقول له فانظر ماذا ترى وان لا يوقف العمل على أن يقول له الولد افعل ماتؤمر
وأيضا فقد قلتم انه بقي فى اليوم الاول متفكرا وان ثبت عنده بالدليل ان كل مارآه فى
النوم فهو حق لم يكن الى هذا التروي والتفكر حاجة وان كان الثانى وهو انه لم يثبت
بالدليل عندهم ان مايرونه فى المنام حق فكيف يجوز له أن يقدم على ذبح ذلك الطفل
بمجرد رؤيا لم يدل الدليل على كونها حجة (والجواب) لايبعد أن يقال انه كان عند الرؤيا
مترددا فيه ثم تأكدت الرؤيا بالوحي الصريح والله أعلم (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ان
هذا الذبيح من هو فقيل انه اسحق وهذا قول عمر وعلي والعباس بن عبد المطلب وابن
مسعود وكعب الاحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهري والسدي
ومقاتل رضي الله عنهم وقيل انه اسمعيل وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن
المسيب والحسن والشعبي ومجاهد والكلبي واحتج القائلون بانه اسمعيل بوجوه
(الاول) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنا ابن الذبيحين وقال له أعرابي يا ابن الذبيحين
فتبسم فسئل عن ذلك فقال ان عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله لئن سهل الله له أمرها
ليذبحن أحد ولده فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له افد ابنك بمائة من
الابل ففداه بمائة من الابل والذبيح الثانى اسمعيل (الحجة الثانية) نقل عن الاصمعي انه
قال سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال يا أصمعي أين عقلك ومتى كان اسحق بمكة
وانما كان اسمعيل بمكة والذى بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة (الحجة الثالثة) ان الله
تعالى وصف اسمعيل بالصبر دون اسحق فى قوله واسمعيل واليسع وذا الكفل كل من
الصابرين وهو صبره على الذبح ووصفه أيضا بصدق الوعد فى قوله انه كان صادق الوعد
لانه وعد اباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به (الحجة الرابعة) قوله تعالى فبشرناها باسحق
ومن وراء اسحق يعقوب فنقول لو كان الذبيح اسحق لكان الامر بذبحه اما أن يقع
قبل ظهور يعقوب منه أو بعد ذلك (فالاول) باطل لانه تعالى لما بشرها باسحق وبشرها

والسلام قال يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم والزوائد من الراوى وماروى من أن
يعقوب كتب الى يوسف
مثل ذلك لم يثبت وقرئ
انى بفتح الياء فيهما
(فانظر ماذا ترى) من
الرأى وانما شاوره فيه
وهو أمر محتوم ليعلم
ماعنده فيما نزل من بلاء الله
تعالى فيثبت قدمه
ان جزع ويأمن عليه
ان سلم وليوطن نفسه عليه
فيهون ويكتسب
المثوبة عليه بالانقياد له
قبل نزوله وقرئ ماذا
ترى بضم التاء وكسر
الراء وبفتحها مبنيا
للمفعول (قال يا أبت افعل
ماتؤمر) أى تؤمر به
فحذف الجار أولا على
القاعدة المطردة ثم
حذف العائد الى الموصول
بعد انقلابه منصوبا
بايصاله الى الفعل أو حذفا
دفعة أو افعل أمرك على
اضافة المصدر الى
المفعول وتسمية المأمور به
أمرا وقرئ ماتؤمر به
وصيغة المضارع للدلالة
على أن الامر متعلق به
متوجه اليه مستمر الى حين
الامتثال به (ستجدنى
ان شاء الله من الصابرين)
على الذبح أو على قضاء الله
تعالى (فلما أسلما) أى استسلما لامر الله تعالى وانقادا وخضعا له يقال سلم لامر الله وأسلم

معه بأنه يحصل منه يعقوب فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الامر بذبحه والا حصل الخلف في قوله ومن وراء اسحق يعقوب (والثانى) باطل لان قوله فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى أرى في المنام أنى أذبحك يدل على ان ذلك الابن لما قدر على السعى ووصل الى حد القدرة على الفعل امر الله تعالى ابراهيم بذبحه وذلك ينا فى وقوع هذه القصة فى زمان آخر وثبت انه لا يجوز أن يكون الذبيح هو اسحق (الحجة الخامسة) حكى الله تعالى عنه انه قال انى ذاهب الى ربى سيهدين ثم طلب من الله تعالى ولدا يستأنس به فى غربته فقال رب هب لى من الصالحين وهذا السؤال انما يحسن قبل أن يحصل له الولد لانه لو حصل له ولد واحد لما طلب الولد الواحد لان طلب الحاصل محال وقوله هب لى من الصالحين لا يفيد الا طلب الولد الواحد وكلمة من للتبعيض وأقل درجات البعضية الواحد فكان قوله من الصالحين لا يفيد الا طلب الولد الواحد فثبت ان هذا السؤال لا يحسن الا عند عدم كل الاولاد فثبت ان هذا السؤال وقع حال طلب الولد الاول وأجمع الناس على ان اسمعيل متقدم فى الوجود على اسحق فثبت ان المطلوب بهذا الدعاء هو اسمعيل ثم ان الله تعالى ذكر عقيبه قصة الذبيح فوجب أن يكون الذبيح هو اسمعيل (الحجة السادسة) الاخبار الكثيرة فى تعليق قرن الكبش بالكعبة وكان الذبيح بمكة ولو كان الذبيح اسحق لكان الذبيح بالشام واحتج من قال ان ذلك الذبيح هو اسحق بوجهين (الوجه الاول) ان أول الآية وآخرها يدل على ذلك اما أولها فانه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام قبل هذه الآية انه قال انى ذاهب الى ربى سيهدين وأجمعوا على أن المراد منه مهاجرته الى الشام ثم قال فبشرناه بغلام حليم فوجب أن يكون هذا الغلام ليس الا اسحق ثم قال بعده فلما بلغ معه السعى وذلك يقتضى أن يكون المراد من هذا الغلام الذى بلغ معه السعى هو ذلك الغلام الذى حصل فى الشام فثبت ان مقدمة هذه الآية تدل على أن الذبيح هو اسحق وأما آخر الآية فهو أيضا يدل على ذلك لانه تعالى لما تمم قصة الذبيح قال بعده وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين ومعناه انه بشره بكونه نبيا من الصالحين وذكر هذه البشارة عقيب حكاية تلك القصة يدل على انه تعالى انما بشره بهذه النبوة لاجل أنه تحمل هذه الشدائد فى قصة الذبيح فثبت بما ذكرنا ان أول الآية وآخرها يدل على أن الذبيح هو اسحق عليه السلام (الحجة الثانية) على صحة ذلك ما اشتهر من كتاب يعقوب الى يوسف عليه السلام من يعقوب اسرائيل نبى الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله فهذا جملة الكلام فى هذا الباب وكان الزجاج يقول الله أعلم أيهما الذبيح والله أعلم واعلم انه يتفرع على ما ذكرنا اختلافهم فى موضع الذبح فالذين قالوا الذبيح هو اسمعيل قالوا كان الذبح بمنى والذين قالوا انه اسحق قالوا هو بالشام وقيل ببيت المقدس والله أعلم (المسئلة الثالثة) اختلف الناس فى ان ابراهيم عليه السلام كان مأمورا بهذا بما رأى وهذا الاختلاف مفرع على مسئلة من مسائل أصول الفقه وهى انه هل يجوز نسخ الحكم قبل حضور مدة الامتثال فقال أكثر أصحابنا انه يجوز وقالت المعتزلة وكثير من فقهاء الشافعية والحنفية انه لا يجوز

سلم من أن ينازع فيه وقولهم سلم لامر الله وأسلم له منقولان منه ومعناهما أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه له تعالى وعن قتادة رضى الله عنه فى أسلما أسلم ابراهيم ابنه واسمعيل نفسه (وتله للجبين) صرعه على شقه فوقع جبينه على الارض وهو أحد جانبى الجبهة وقيل كبه على وجهه باشارته كيلا يرى منه ما يورث رقة تحول بينه وبين أمر الله تعالى وكان ذلك عند الصخرة من منى وقيل فى الموضع المشرف على مسجد منى وقيل فى المنحر الذى ينحر اليوم فيه (وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا) بالعزم على الاتيان بالمأمور به وترتيب مقدماته وروى أنه أمر السكين بقوته على حلقه مرارا فلم يقطع ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين فعند ذلك وقع النداء وجواب لما محذوف ايذانا بعدم وفاء التعبير بتفاصيله كأنه قيل كان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان ﴿ فصل ﴾

من استبشارهما وشكرهما الله تعالى على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق لما لم يوفق أحد لمثله واظهار فضلهما بذلك على العالمين مع احراز الثواب العظيم الى غير ذلك (اناكذلك نجزى المحسنين) تعليل لتفريج تلك الكرب باحسانهما واحتج به من جوز النسخ قبل وقوع المأمور به فانه عليه الصلاة والسلام كان مأمورا بالذبح لقوله تعالى افعل ما تؤمر ولم يحصل (ان هذا لهو البلاء المبين) الابتلاء البين الذى يتميز فيه المخلص عن غيره أو المحنة البينة الصعوبة اذ لا شئ أصعب منها (وفديناه بذبح) بما يذبح بدله فيتم به الفعل (عظيم) أى عظيم الجثة سمين أو عظيم القدر لانه يفدى به الله نبيا ابن نبى وأى نبى من نسله سيد المرسلين قيل كان ذلك كبشا من الجنة عن ابن عباس رضى الله عنهما انه الكبش الذى قربه هابيل فتقبل منه وكان يرعى فى الجنة حتى فدى به اسمعيل عليه السلام وقيل فدى بوعل أهبط عليه من ثبير وروى انه هرب من ابراهيم عليه السلام عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فبقى سنة فى الرمى وروى انه رمى الشيطان

فعلى القول الاول انه سبحانه وتعالى أمره بالذبح ثم انه تعالى نسخ هذا التكليف قبل حضور وقته وعلى القول الثانى انه تعالى ما أمره بالذبح وانما أمره بمقدمات الذبح وهذه مسئلة شريفة من مسائل باب النسخ واحتج أصحابنا على انه يجوز نسخ الامر قبل مجئ مدة الامتثال بأن الله تعالى أمر ابراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم انه تعالى نسخه عنه قبل اقدامه عليه وذلك يفيد المطلوب انما قلنا انه تعالى أمره بذبح الولد لوجهين (الاول) انه عليه السلام قال لولده انى أرى فى المنام انى أذبحك فقال الولد افعل ما تؤمر وهذا يدل على انه عليه السلام كان مأمورا بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح ثم انه أتى بمقدمات الذبح وأدخلها فى الوجود فحينئذ يكون قد أمر بشئ وقد أتى به وفى هذا الموضع لا يحتاج الى الفداء لكنه احتاج الى الفداء بدليل قوله تعالى وفديناه بذبح عظيم فدل هذا على انه أتى بالمأمور به وقد ثبت انه أتى بكل مقدمات الذبح وهذا يدل على انه تعالى كان قد أمره بنفس الذبح اذا ثبت هذا فنقول انه تعالى نسخ ذلك الحكم قبل اتيانه وذلك يدل على المقصود وقالت المعتزلة لا نسلم ان الله أمره بذبح الولد بل نقول انه تعالى أمره بمقدمات الذبح ويدل عليه وجوه (الاول) انه ما أتى بالذبح وانما أتى بمقدمات الذبح ثم ان الله تعالى أخبر عنه بأنه أتى بما أمر به بدليل قوله تعالى وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا وذلك يدل على انه تعالى انما أمره فى المنام بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح وتلك المقدمات عبارة عن اضجاعه ووضع السكين على حلقه والعزم الصحيح على الاتيان بذلك الفعل ان ورد الامر (الوجه الثانى) الذبح عبارة عن قطع الحلقوم فلعل ابراهيم عليه السلام قطع الحلقوم الا انه كلما قطع جزأ أعاد الله التأليف اليه فلهذا السبب لم يحصل الموت (والوجه الثالث) وهو الذى عليه تعويل القوم انه تعالى لو أمر شخصا معينا بايقاع فعل معين فى وقت معين فهذا يدل على أن ايقاع ذلك الفعل فى ذلك الوقت حسن فاذا نهاه عنه فذلك النهى يدل على أن ايقاع ذلك الفعل فى ذلك الوقت قبيح فلو حصل هذا النهى عقيب ذلك الامر لزم أحد أمرين لانه تعالى ان كان عالما بحال ذلك الفعل لزم أن يقال انه أمر بالقبيح أو نهى عن الحسن وان لم يكن عالما به لزم جهل الله تعالى وانه محال فهذا تمام الكلام فى هذا الباب (والجواب) عن الاول انا قد دللنا على انه تعالى انما أمره بالذبح اما قوله تعالى قد صدقت الرؤيا فهذا يدل على انه اعترف بكون تلك الرؤيا واجب العمل بها ولا يدل على انه أتى بكل ما رآه فى ذلك المنام واما قوله ثانيا كلما قطع ابراهيم عليه السلام جزأ أعاد الله تعالى التأليف اليه فنقول هذا باطل لان ابراهيم عليه السلام لو أتى بكل ما أمر به لما احتاج الى الفداء وحيث احتاج اليه علمنا انه لم يأت بما أمر به وأما قوله ثالثا انه يلزم اما الامر بالقبيح واما الجهل فنقول هذا بناء على ان الله تعالى لا يأمر الا بما يكون حسنا فى ذاته ولا ينهى الا عما يكون قبيحا فى ذاته وذلك بناء على تحسين العقل وتقبيحه وهو باطل أيضا فهب أنا نسلم ذلك الا انا نقول لم لا يجوز أن يقال ان الامر بالشئ

فقال الذبيح لا إله إلا الله والله أكبر فقال ابراهيم الله أكبر ولله الحمد فبقى سنة والفادي في الحقيقة هو ابراهيم وانما قيل وفديناه لانه تعالى هو المعطي له والآمر به على التجوز في الفداء أو الاسناد (وتركنا عليه في الآخرين سلام على ابراهيم) قد سلف بيانه في خاتمة قصة نوح عليه السلام (كذلك نجزي المحسنين) ذلك اشارة الى ابقاء ذكره الجميل فيما بين الامم لا الى ما أشير اليه فيما سبق فلا تكرار وعدم تصدير الجملة بانا للاكتفاء بتمام آنفا (انه من عبادنا المؤمنين) الراسخين في الايمان على وجه الايقان والاطمئنان (وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين) أي مقضيا نبوته مقدرا كونه من الصالحين وبهذا الاعتبار وقعا حالين ولا حاجة الى وجود المبشر به وقت البشارة فان وجود ذي الحال ليس بشرط وانما الشرط مقارنة تعلق الفعل به لاعتبار معنى الحال فلا حاجة الى تقدير مضاف يجعل عاملا فيهما مثل وبشرناه ﴿ بلغ ﴾ بوجود اسحق أي بأن يوجد اسحق

تارة يحسن لكون المأمور به حسنا وتارة لاجل ان ذلك الامر يفيد صحة مصلحة من المصالح وان لم يكن المأمور به حسنا ألا ترى ان السيد اذا أراد أن يروض عبده فانه يقول له اذا جاء يوم الجمعة فافعل الفعل الفلاني و يكون ذلك الفعل من الافعال الشاقة و يكون مقصود السيد من ذلك الامر ليس أن يأتي ذلك العبد بذلك الفعل بل أن يوطن العبد نفسه على الانقياد والطاعة ثم ان السيد اذا علم منه انه وطن نفسه على الطاعة فقد يزيل عنه ذلك التكليف فكذا ههنا فالم تقيموا الدلالة على فساد هذا الاحتمال لم يتم كلامكم (المسئلة الرابعة) احتج أصحابنا بهذه الآية على ان الله تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه والدليل عليه انه أمر بالذبح وما أراد وقوعه أما انه أمر بالذبح فلما تقدم في المسئلة الاولى واما انه ما أراد وقوعه فلأن عندنا ان كل ما أراد الله وقوعه فانه يقع وحيث لم يقع هذا الذبح علمنا انه تعالى ما أراد وقوعه واما عند المعتزلة فلان الله تعالى نهى عن ذلك الذبح والنهي عن الشئ يدل على ان الناهي لا يريد وقوعه فثبت انه تعالى أمر بالذبح وثبت انه تعالى ما أراده وذلك يدل على ان الامر قد يوجد بدون الارادة وتمام الكلام في ان الله تعالى أمر بالذبح ما تقدم في المسئلة المتقدمة والله أعلم (المسئلة الخامسة) في بيان الحكمة في ورود هذا التكليف في النوم لا في اليقظة و بيانه من وجوه (الاول) ان هذا التكليف كان في نهاية المشقة على الذابح والمذبوح فورد أولا في النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة فحينئذ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة بل شيأ فشيأ (الثاني) ان الله تعالى جعل رؤيا الانبياء عليهم السلام حقا قال تعالى في حق محمد صلى الله عليه وسلم لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام وقال عن يوسف عليه السلام اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين وقال في حق ابراهيم عليه السلام اني أرى في المنام أني أذبحك والمقصود من ذلك تقوية الدلالة على كونهم صادقين لان الحال اما حال يقظة واما حال منام فاذا تظاهرت الحالتان على الصدق كان ذلك هو النهاية في بيان كونهم محقين صادقين في كل الاحوال والله أعلم ثم نقول مقامات الانبياء عليهم السلام على ثلاثة أقسام منها ما يقع على وفق الرؤيه كما في قوله تعالى في حق رسولنا صلى الله عليه وسلم لتدخلن المسجد الحرام ثم وقع ذلك الشئ بعينه ومنها ما يقع على الضد كما في حق ابراهيم عليه السلام فانه رأى الذبح وكان الحاصل هو الفداء والنجاة ومنها ما يقع على ضرب من التأويل والمناسبة كما في رؤيا يوسف عليه السلام فلهذا السبب أطبق أهل التعبير على أن المنامات واقعة على هذه الوجوه الثلاثة (المسئلة السادسة) قرأ حمزة والكسائي ترى بضم التاء وكسر الراء أي ماترى من نفسك من الصبر والتسليم وقيل ماتشير والباقون بفتح التاء ثم منهم من يميل ومنهم من لا يميل (المسئلة السابعة) الحكمة في مشاورة الابن في هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره في طاعة الله فتكون فيه قرة عين لابراهيم حيث يراه قد

بلغ في الحلم الى هذا الحد العظيم وفي الصبر على أشد المكاره الى هذه الدرجة العالية ويحصل الابن الثواب العظيم في الآخرة والثناء الحسن في الدنيا ثم انه تعالى حكى عن ولد ابراهيم عليه السلام انه قال أفعل ما تؤمر ومعناه افعل ما تؤمر به فحذف الجار كما حذف من قوله أمرتك الخير فافعل ما أمرت ثم قال ستجدني ان شاء الله من الصابرين وانما علق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك والتيمن وانه لا حول عن معصية الله الا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله الا بتوفيق الله ثم قال تعالى فلما أسلما يقال سلم لامر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد وقد قرئ بهن جميعا اذا انقاد له وخضع وأصلها من قولك سلم هذا لفلان اذا خلص له ومعناه سلم من أن ينازع فيه وقولهم سلم لامر الله وأسلم له منقولان عنه بالهمزة وحقيقة معناها أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه لله وعن قتادة في أسلما أسلم هذا ابنه وهذا نفسه ثم قال تعالى وتله للجبين أي صرعه على شقه فوقع أحد جبينيه على الارض وللوجه جبينان والجبهة بينهما قال الاعرابي التليل والمتلول المصروع والمتل الذي يتل به أي يصرع فالمعنى انه صرعه على جبينه وقال مقاتل كبه على جبهته وهذا خطأ لان الجبين غير الجبهة * ثم قال تعالى وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا وفيه قولان (الاول) ان هذا جواب فلما عند الكوفيين والفراء والواو زائدة (والقول الثاني) أن عند البصريين لا يجوز ذلك والجواب مقدر والتقدير فلما فعل ذلك وناداه الله أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا سعد سعادة عظيمة وآتاه الله نبوة ولده وأجزل له الثواب قالوا وحذف الجواب ليس بغريب في القرآن والفائدة فيه انه اذا كان محذوفا كان أعظم وأفخم قال المفسرون لما أضجعه للذبح نودي من الجبل يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا قال المحققون السبب في هذا التكليف كمال طاعة ابراهيم لتكاليف الله تعالى فلما كلفه الله تعالى بهذا التكليف الشاق الشديد وظهر منه كمال الطاعة وظهر من ولده كمال الطاعة والانقياد لا جرم قال قد صدقت الرؤيا يعني حصل المقصود من تلك الرؤيا وقوله انا كذلك نجزي المحسنين ابتداء اخبار من الله تعالى وليس يتصل بما تقدم من الكلام والمعنى أن ابراهيم وولده كانا محسنين في هذه الطاعة فكما جزيناهذين المحسنين فكذلك نجزي كل المحسنين * ثم قال تعالى ان هذا لهو البلاء المبين أي الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم او المحنة البينة الصعوبة التي لا محنة أصعب منها وفديناه بذبح عظيم الذبح مصدر ذبحت والذبح أيضا ما يذبح وهو المراد في هذه الآية وههنا مباحث تتعلق بالحكايات (فالاول) حكي في قصة الذبيح ان ابراهيم عليه السلام لما أراد ذبحه قال يا بني خذ الحبل والمدية وانطلق بنا الى الشعب نحتطب فلما توسطا شعب ثبير أخبره بما أمر به فقال يا أبت اشدد رباطي كي لا اضطرب واكفف عني ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن واستحد شفرتك وأسرع امرارها على حلقي ليكون أهون فان الموت شديد واقرأ على أمي سلامي وان رأيت ان ترد قميصي على امي فافعل فانه عسى أن يكون أسهل

وقت الدخول واسحق عليه السلام لم يكن مقدرا نبوة نفسه وصلاحها حين ما يوجد ومن فسر الغلام باسحق جعل المقصود من البشارة نبوته عليه الصلاة والسلام وفي ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه وايماء الى انه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الاطلاق (وباركنا عليه) على ابراهيم في أولاده (وعلى اسحق) بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بني اسرائيل وغيرهم كأيوب وشعيب عليهم السلام أو أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا وقرئ وبركنا (ومن ذريتهما محسن) في عمله أو لنفسه بالايمان والطاعة (وظالم لنفسه) بالكفر والمعاصي (مبين) ظاهر ظلمه وفيه تنبيه على أن النسب لا تأثير له في الهداية والضلال وأن الظلم في أعقابهما لا يعود اليهما بنقيصة ولا عيب (ولقد مننا على موسى وهرون) أي أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من النعم الدينية والدنيوية (ونجيناهما وقومهما) وهم بنو اسرائيل (من الكرب العظيم) هو ملكة آل فرعون وتسلطهم عليهم بألوان الغشم والعذاب كما في قوله تعالى

لها فقال ابراهيم عليه السلام نعم العون أنت يا بني على أمر الله ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان ثم وضع السكين على حلقه فقال كبني على وجهي فانك اذا نظرت وجهي رحمتني وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله سبحانه وتعالى ففعل ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت السكين ونودي يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا (البحث الثاني) اختلفوا في ذلك الكبش فقيل انه الكبش الذي تقرب به هابيل ابن آدم الى الله تعالى فقبله وكان في الجنة يرعى حتى فدى الله تعالى به اسمعيل وقال آخرون أرسل الله كبشا من الجنة قد رعى أربعين خريفا وقال السدي نودي ابراهيم فالتفت فاذا هو بكبش أملح انحط من الجبل فقام عند ابراهيم فأخذه فذبحه وخلى عن ابنه ثم اعتنق ابنه وقال يا بني اليوم وهبت لي وأما قوله عظيم فقيل سمي عظيما لعظمه وسمنه وقال سعيد بن جبير حق له أن يكون عظيما قد رعى في الجنة أربعين خريفا وقيل سمي عظيما لعظم قدره حيث قبله الله تعالى فداء عن ولد ابراهيم ثم قال تعالى انه من عبادنا المؤمنين الضمير في قوله انه عائد الى ابراهيم ثم قال تعالى وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين فقوله نبيا حال مقدرة أي بشرناه بوجود اسحق مقدرة نبوته ولمن يقول ان الذبيح هو اسمعيل أن يحتج بهذه الآية وذلك لان قوله نبيا حال ولا يجوز أن يكون المعنى فبشرناه باسحق حال كون اسحق نبيا لان البشارة به متقدمة على صيرورته نبيا فوجب أن يكون المعنى وبشرناه باسحق حال ما قدرناه نبيا وحال ما حكمنا عليه فصبر واذا كان الامر كذلك فحينئذ كانت هذه البشارة بشارة بوجود اسحق حاصلة بعد قصة الذبيح فوجب أن يكون الذبيح غير اسحق اقصى ما في الباب أن يقال لا يبعد أن يقال هذه الآية وان كانت متأخرة في التلاوة عن قصة الذبيح الا انها كانت متقدمة عليها في الوقوع والوجود الا انا نقول الاصل رعاية الترتيب وعدم التغيير في النظم والله أعلم بالصواب ثم قال تعالى وباركنا عليه وعلى اسحق وفي تفسير هذه البركة وجهان (الاول) انه تعالى أخرج جميع أنبياء بني اسرائيل من صلب اسحق (والثاني) انه أبقى الثناء الحسن على ابراهيم واسحق الى قيام القيامة لان البركة عبارة عن الدوام والثبات ثم قال تعالى ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين وفي ذلك تنبيه على انه لا يلزم من كثرة فضائل الاب فضيلة الابن لئلا تصير هذه الشبهة سببا لمفاخرة اليهود ودخل تحت قوله محسن الانبياء والمؤمنون وتحت قوله ظالم الكافر والفاسق والله اعلم * قوله تعالى (ولقد مننا على موسى وهرون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم وتركنا عليهما في الآخرين سلام على موسى وهرون انا كذلك نجزي المحسنين انهما من عبادنا المؤمنين) اعلم ان هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة واعلم أن وجوه الانعام وان كانت كثيرة الا انها محصورة في نوعين ايصال المنافع اليه ودفع المضار عنه والله تعالى ذكر القسمين ههنا فقوله ولقد مننا على موسى وهرون اشارة الى ايصال

ايا هما وقومهما على عدوهم (فكانوا) بسبب ذلك (هم الغالبين) عليهم غلبة لا غاية وراءها بعد أن كان قومهما في أسرهم وقسرهم مقهورين تحت أيديهم العادية يسومونهم سوء العذاب وهذه التنجية وان كانت بحسب الوجود مقارنة لما ذكر من النصر والغلبة لكنها لما كانت بحسب المفهوم عبارة عن التخليص من المكروه بدئ بها ثم بالنصر الذي يتحقق مدلوله بمحض تنجية المنصور من عدوه ومن غير تغليبه عليه ثم بالغلبة لتوفية مقام الامتنان حقه باظهار أن كل مرتبة من هذه المراتب الثلاث نعمة جليلة على حيالها (وآتيناهما) بعد ذلك (الكتاب المستبين) أي البليغ في البيان والتفصيل وهو التوراة (وهديناهما) بذلك (الصراط المستقيم) الموصل الى الحق والصواب بما فيه من تفاصيل الشرائع وتفاريع الاحكام (وتركنا عليهما في الآخرين سلام

على موسى وهرون) أي أبقينا فيما بين الامم الآخرين هذا الذكر الجميل والثناء الجزيل (انا كذلك) ﴿ المنافع ﴾ الجزاء الكامل (نجزي المحسنين) الذين هما من جملتهم لا جزاء قاصرا عنه (انهما من عبادنا المؤمنين) سبق بيانه

(وان الياس لمن المرسلين) هو الياس بن ياسين من سبط هرون أخي موسى عليهم السلام بعث بعده وقيل ادريس لانه قرئ مكانه ادريس وادراس وقرئ ايليس وقرئ الياس بحذف الهمزة (اذ قال لقومه ألا تتقون) أي عذاب الله تعالى (أتدعون بعلا) أتعبدونه وتطلبون الخير وهو اسم صنم كان لاهل بك من الشام وهو البلد المعروف اليوم ببعلبك قيل كان من ذهب طوله عشرون ذراعا وله أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى أخدموه

أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء فكان الشيطان يدخل جوفه ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وقيل البعل الرب بلغة اليمن أي أتعبدون بعض البعول (وتذرون أحسن الخالقين) أي وتتركون عبادته وقد أشير الى المقتضى للانكار المعنى بالهمزة ثم صرح به بقوله تعالى (الله ربكم ورب آبائكم الاولين) بالنصب على البدلية من أحسن الخالقين وقرئ بالرفع على الابتداء والتعرض لذكر ربوبيته تعالى لآبائهم لتأكيد انكار تركهم عبادته تعالى والاشعار ببطلان آراء آبائهم أيضا (فكذبوه فانهم) بسبب تكذيبهم ذلك (لمحضرون) أي العذاب والاطلاق للاكتفاء بالقرائن على ان الاحضار المطلق مخصوص بالشر عرفا (الا عباد الله المخلصين) استثناء من ضمير محضرون (وتركنا عليه في الآخرين سلام على آل ياسين) هو لغة في الياس كسيناء في سينين وقيل هو جمع له أريد به هو وأتباعه كالمهلبين والخبيبين وفيه أن العلم اذا جمع يجب تعريفه كالمثالين وقرئ باضافة آل الى ياسين لانهما في المصحف مفصولان فيكون ياسين أبا الياس

(انا كذلك نجزي المحسنين انه من عبادنا المؤمنين) مر تفسيره (وان لوطا لمن المرسلين اذ نجيناه) أي اذكر وقت تنجيتنا اياه (وأهله أجمعين الا عجوزا في الغابرين) أي الباقين في العذاب أو الماضين الهالكين (ثم دمرنا الآخرين) فان في ذلك شواهد على جلية أمره وكونه من جملة المرسلين (وانكم) يا أهل مكة (لتمرون عليهم) على منازلهم في متاجركم الى الشام وتشاهدون آثار هلاكهم فان سدوم في طريق الشام

المنافع اليهما وقوله ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم اشارة الى دفع المضار عنهما (أما القسم الاول) وهو ايصال المنافع فلاشك أن المنافع على قسمين منافع الدنيا ومنافع الدين أما منافع الدنيا فالوجود والحياة والعقل والتربية والصحة وتحصيل صفات الكمال في ذات كل واحد منهما وأما منافع الدين فالعلم والطاعة وأعلى هذه الدرجات النبوة الرفيعة المقرونة بالمعجزات الباهرة ولما ذكر الله تعالى هذه التفاصيل في سائر السور لاجرم اكتفى ههنا بهذا الرمز (وأما القسم الثاني) وهو دفع الضرر فهو المراد من قوله ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم وفيه قولان قيل انه الغرق أغرق الله فرعون وقومه ونجى الله بني اسرائيل وقيل المراد انه تعالى نجاهم من ايذاء فرعون حيث كان يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم واعلم انه تعالى لما ذكر انه من على موسى وهرون فصل أقسام تلك المنة والهناء في قوله ونصرناهم أي نصرنا موسى وهرون وقومهما وكانوا هم الغالبين في كل الاحوال بظهور الحجة وفي آخر الامر بالدولة والرفعة (وثانيهما) قوله تعالى آتيناهما الكتاب المستبين والمراد منه التوراة وهو الكتاب المشتمل على جميع العلوم التي يحتاج اليها في مصالح الدين والدنيا كما قال انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور (وثالثها) قوله تعالى وهديناهما الصراط المستقيم أي دللناهما على طريق الحق عقلا وسمعا وأمددناهما بالتوفيق والعصمة وتثبيته الدلائل الحقة بالطريق المستقيم الواضح (ورابعها) قوله تعالى وتركنا عليهما في الآخرين وفيه قولان (الاول) ان المراد وتركنا عليهما في الآخرين وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم قولهم سلام على موسى وهرون (والثاني) ان المراد وتركنا عليهما في الآخرين وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الثناء الحسن والذكر الجميل وعلى هذا التقدير فقوله بعد ذلك سلام على موسى وهرون هو كلام الله تعالى ولما ذكر تعالى هذه الاقسام الاربعة من أبواب التعظيم والتفضيل قال انا كذلك نجزي المحسنين وقد سبق تفسيره ثم قال تعالى انهما من عبادنا المؤمنين والمقصود التنبيه على ان الفضيلة الحاصلة بسبب الايمان أشرف وأعلى وأكمل من كل الفضائل ولولا ذلك لما حسن ختم فضائل موسى وهرون بكونهما من المؤمنين والله أعلم * قوله تعالى (وان الياس لمن المرسلين اذ قال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلا وتذرون احسن الخالقين الله ربكم ورب آبائكم الاولين فكذبوه فانهم لمحضرون الا عباد الله المخلصين وتركنا عليه في الآخرين سلام على آل ياسين انا كذلك نجزي المحسنين انه من عبادنا المؤمنين) اعلم أن هذه القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر وان الياس بغير همزة على وصل الالف والباقون بالهمزة وقطع الالف قال أبو بكر بن مهران من ذكر عند الوصل الالف فقد أخطأ وكان أهل الشام ينكرونه ولا يعرفونه قال الواحدي وله وجهان (احدهما) انه حذف الهمزة من الياس حذفا كما حذفها ابن كثير من قوله انها لاحدى الكبر وكقول الشاعر

(مصبحين) داخلين فى الصباح (وبالليل) أى ومساء أونهارا وليلا ولعلها وقعت بقرب منزل يمر بها المرتحل عنه صباحا والقاصد له مساء (أفلا تعقلون) أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم (وان يونس لمن المرسلين) وقرئ بكسر النون (اذ أبق) أى هرب وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير اذن ربه حسن اطلاقه عليه (الى الفلك المشحون) أى المملوء ﴿ ١٦٢ ﴾ (فساهم) فقارع أهله (فكان من المدحضين) فصار من المغلوبين بالقرعة وأصله المزلق عن مقام الظفر روى أنه عليه الصلاة والسلام لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل أن يأمره الله تعالى به فركب السفينة فوقفت فقالوا فيها عبد آبق فاقترعوا فخرجت القرعة عليه فقال أنا الآبق ورمى بنفسه فى الماء (فالتقمه الحوت) فابتلعه من اللقمة (وهو مليم) داخل فى الملامة أوآت بما يلام عليه أومليم نفسه وقرئ مليم بالفتح مبنيا من ليم كمشيب فى مشوب (فلولا أنه كان من المسبحين) الذاكرين الله كثيرا بالتسبيح مدة عمره أوفى بطن الحوت وهو قوله لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين وقيل من المصلين فانه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة فى الرخاء (للبث فى بطنه الى يوم يبعثون) حيا وقيل ميتا وفيه حث على اكثار الذكر وتعظيم لشأنه ومن أقبل عليه فى السراء أخذ بيده عند الضراء (فنبذناه بالعراء) بأن حملنا الحوت على لفظه بالمكان الخالى عما يغطيه من شجر أونبت روى أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس عليه السلام ويسبح ولم يفارقهم حتى انتهوا الى البر ﴿ وقف ﴾ فلفظه سالما لم يتغير منه شئ فأسلموا وروى أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل واختلف فى مقدار لبثه فقيل أربعون يوما وقيل عشرون وقيل سبعة وقيل ثلاثة وقيل لم يلبث الا قليلا ثم أخرج من بطنه بعيد الوقت الذى التقم فيه روى عطاء أنه حين ابتلعه أوحى الله تعالى الى الحوت انى جعلت بطنك له سجنا ولم أجعله لك طعاما (وهو سقيم) مما ناله قيل صار بدنه كبدن

ويلها فى هواء الجوطالية ۞ والآخر انه جعل الهمزة التى تصحب اللام للتعريف كقوله واليسع (المسئلة الثانية) فى الياس قولان يروى عن ابن مسعود انه قرأ وان ادريس وقال ان الياس هو ادريس وهذا قول عكرمة وأما أكثر المفسرين فهم متفقون على انه نبى من أنبياء بنى اسرائيل وهو الياس بن ياسين من ولد هرون أخى موسى عليهم السلام ثم قال تعالى اذ قال لقومه الا تتقون والتقدير اذكر يا محمد لقومك اذ قال لقومه ألا تتقون أى ألا تخافون الله وقال الكلبى ألا تخافون عبادة غير الله واعلم انه لما خوفهم أولا على سبيل الاجمال ذكر ما هو السبب لذلك الخوف فقال أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين وفيه ابحاث الاول فى بعل قولان (أحدهما) انه اسم علم لصنم كان لهم كمناة وهبل وقيل كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعا وله أربعة أوجه وفتنوا به وعظموه حتى عينوا له أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء وكان الشيطان يدخل فى جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وهم أهل بعلبك من بلاد الشام وبه سميت مدينتهم بعلبك واعلم أن قولهم بعل اسم لصنم من أصنامهم لا بأس به وأما قولهم ان الشيطان كان يدخل فى جوف بعلبك ويتكلم بشريعة الضلالة فهذا مشكل لانا ان جوزنا هذا كان ذلك قادحا فى كثير من المعجزات لانه نقل فى معجزات النبى صلى الله عليه وسلم كلام الذئب معه وكلام الجمل معه وحنين الجذع ولو جوزنا أن يدخل الشيطان فى جوف جسم ويتكلم فحينئذ يكون هذا الاحتمال قائما فى الذئب والجمل والجذع وذلك يقدح فى كون هذه الاشياء معجزات (والقول الثانى) أن البعل هو الرب بلغة اليمن يقال من بعل هذه الدار أى من ربها وسمى الزوج بعلا بهذا المعنى قال تعالى وبعولتهن أحق بردهن وقال تعالى وهذا بعلى شيخا فعلى هذا التقدير المعنى أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله (البحث الثانى) المعتزلة احتجوا بهذه الآية على كون العبد خالقا لافعال نفسه قالوا ولو لم يكن غير الله خالقا لما جاز وصف الله بأنه أحسن الخالقين والكلام فيه قد تقدم فى قوله تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين (البحث الثالث) كان الملقب بالرشيد الكاتب يقول لو قيل أتدعون بعلا وتدعون أحسن الخالقين أوهم انه أحسن لانه كان قد تحصل فيه رعاية معنى التجنيس وجوابه ان فصاحة القرآن ليست لاجل رعاية هذه التكاليف بل لاجل قوة المعانى وجزالة الالفاظ واعلم انه لما عابهم على عبادة غير الله صرح بالتوحيد ونفى الشركاء فقال الله ربكم ورب آبائكم الاولين وفيه مباحث (الاول) انا ذكرنا فى هذا الكتاب أن حدوث الاشخاص البشرية كيف يدل على وجود الصانع المختار وكيف يدل على وحدته وبراءته عن الاضداد والانداد فلا فائدة فى الاعادة (البحث الثانى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم الله ربكم ورب آبائكم كلها بالنصب على البدل من قوله أحسن الخالقين والباقون بالرفع على الاستئناف والاول اختيار أبى حاتم وأبى عبيدة ونقل صاحب الكشاف أن حمزة اذا وصل نصب واذا

الطفل حين يولد (وانبتنا عليه) اى فوقه مظلة عليه (شجرة من يقطين) وهو كل ما ينبسط على الارض ولا يقوم على ساق كشجرة البطيخ والقثاء والحنظل وهو يفعيل من قطن بالمكان اذا أقام به والا كثرون على أنه الدباء غطته بأوراقها عن الذباب فانه لا يقع عليه ويدل عليه أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك تحب القرع قال أجل هى شجرة أخى يونس وقيل هى التين وقيل الموز تغطى بورقه واستظل بأغصانه وأفطر على ثماره وقيل كان يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف اليه فيشرب من لبنها (وأرسلناه الى مائة ألف) هم قومه الذين هرب منهم وهم أهل نينوى والمراد به ارساله السابق أخبر أولا بأنه من المرسلين على الاطلاق ثم أخبر بأنه قد أرسل الى أمة جمة وكأن توسيط تذكير وقت هربه الى الفلك وما بعده بينهما لتذكير سببه وهو ما جرى بينه عليه الصلاة والسلام وبين قومه من انذاره اياهم عذاب الله تعالى وتعيينه لوقت حلوله وتعللهم وتعليقهم لايمانهم بظهور اماراته كما مر تفصيله فى سورة يونس ليعلم أن ايمانهم الذى سيحكى بعد لم يكن عقيب الارسال كما هو المتبادر من ترتيب الايمان عليه بالفاء بل بعد اللتيا والتى وقيل هو ارسال آخر اليهم وقيل الى غيرهم وليس بظاهر (أو يزيدون) أى فى مرأى الناظر فانه اذا نظر اليهم قال انهم مائة ألف أو يزيدون والمراد هو الوصف بالكثرة وقرئ بالواو (فآمنوا) أى بعد ما شاهدوا علائم حلول العذاب ايمانا خالصا (فمتعناهم) أى بالحياة الدنيا (الى حين) قدره الله سبحانه لهم قيل ولعل عدم ختم هذه القصة وقصة لوط بما ختم به سائر القصص للتفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع وأولى العزم من الرسل أو اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين فى آخر السورة (فاستفتهم) أمر الله عز وجل فى صدر السورة الكريمة رسوله صلى الله عليه وسلم بتبكيت قريش وابطال مذهبهم فى انكار البعث بطريق الاستفتاء وساق البراهين القاطعة الناطقة بتحققه لا محالة وبين وقوعه وما سيلقونه عند ذلك من فنون العذاب واستثنى

وقف رفع ولما حكى الله عنه انه قرر مع قومه التوحيد قال فكذبوه فانهم لمحضرون أى لمحضرون النار غدا وقد ذكرنا الكلام فيه عند قوله لكنت من المحضرين ثم قال تعالى الا عباد الله المخلصين وذلك لان قومه ما كذبوه بكليتهم بل كان فيهم من قبل ذلك التوحيد فلهذا قال تعالى الا عباد الله المخلصين يعنى الذين أتوا بالتوحيد الخالص فانهم لا يحضرون ثم قال وتركنا عليه فى الآخرين سلام على آل ياسين قرأ نافع وابن عامر ويعقوب آل ياسين على اضافة لفظ آل الى لفظ ياسين والباقون بكسر الالف وجزم اللام موصولة بياسين أما القراءة الاولى ففيها وجوه (الاول) وهو الاقرب انا ذكرنا انه الياس بن ياسين فكان الياس آل ياسين (الثانى) آل ياسين آل محمد صلى الله عليه وسلم (والثالث) أن ياسين اسم القرآن كأنه قيل سلام الله على من آمن بكتاب الله الذى هو ياسين والوجه هو الاول لانه أليق بسياق الكلام وأما القراءة الثانية ففيها وجوه (الاول) قال الزجاج يقال ميكال وميكائيل وميكائين فكذا ههنا الياس والياسين (والثانى) قال الفراء هو جمع وأراد به الياس وأتباعه من المؤمنين كقولهم المهلبون والسعدون قال

* أنا ابن سعد أكرم السعدينا *

ثم قال تعالى انا كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين وقد سبق تفسيره والله أعلم * قوله تعالى (وان لوطا لمن المرسلين اذ نجيناه وأهله أجمعين الا عجوزا فى الغابرين ثم دمرنا الآخرين وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون) هذا هو القصة الخامسة وانه تعالى انما ذكر هذه القصة ليعتبر بها مشركوا العرب فان الذين كفروا من قومه هلكوا والذين آمنوا نجوا وقد تقدم شرح هذه القصة وقد نبههم بقوله تعالى وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل وذلك لان القوم كانوا يسافرون الى الشام والمسافر فى أكثر الامر انما يمشى فى الليل وفى أول النهار فلهذا السبب عين تعالى هذين الوقتين ثم قال تعالى أفلا تعقلون يعنى أليس فيكم عقول تعتبرون بها والله أعلم * قوله تعالى (وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون فنبذناه بالعراء وهو سقيم وانبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم الى حين) اعلم ان هذا هو القصة السادسة وهو آخر القصص المذكورة فى هذه السورة وانما صارت هذه القصة خاتمة للقصص لاجل انه لما لم يصبر على أذى قومه وأبق الى الفلك وقع فى تلك الشدائد فصيره هذا سببا لتصبير النبى صلى الله عليه وسلم على أذى قومه أما قوله وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قرئ يونس بضم النون وكسرها (المسئلة الثانية) دلت هذه الآية على أن هذه الواقعة انما وقعت ليونس عليه السلام بعد ان صار رسولا لان قوله وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك معناه انه كان من المرسلين حين ما أبق الى الفلك ويمكن أن يقال انه جاء فى كثير من الروايات انه أرسله ملك زمانه الى أولئك القوم ليدعوهم

منهم عباده المخلصين وفصل مالهم من النعيم المقيم ثم ذكر انه قد ضل من قبلهم أكثر الاولين وانه تعالى أرسل اليهم منذرين على وجه الاجمال ثم أورد قصص كل واحد منهم على وجه التفصيل مبينا في كل قصة منها أنهم من عباده تعالى واصفا لهم تارة بالاخلاص وأخرى بالايمان ثم أمره عليه الصلاة والسلام ههنا بتبكيتهم بطريق الاستفتاء عن وجه أمر منكر خارج عن العقول بالكلية وهي القسمة الباطلة اللازمة لما كانوا عليه من الاعتقاد الزائغ حيث كانوا يقولون كبعض أجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح الملائكة بنات الله والفاء لترتيب الامر على ما سبق من كون أولئك الرسل الذين هم أعلام الخلق عليهم الصلاة والسلام عباده تعالى فان ذلك مما يؤكد التبكيت ويظهر بطلان مذهبهم الفاسد ثم تبكيتهم بما يتضمنه كفرهم المذكور من الاستهانة بالملائكة بجعلهم اناثا ثم أبطل أصل كفرهم المنطوي على هذين الكفرين وهو نسبة الولد اليه سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ولم ينظمه في سلك التبكيت لمشاركتهم النصارى في ذلك أي فاستخبرهم (أربك البنات) اللاتي هن وضع الجنسين ((ولهم البنون)) الذين هم أرفعهما فان ذلك مما لا يقول به من له أدنى شئ من العقل وقوله تعالى (أم خلقنا الملائكة اناثا) اضراب وانتقال من التبكيت بالاستفتاء السابق الى التبكيت بهذا كما أشير اليه أي بل أخلقنا الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق وأبعدهم من صفات الاجسام ورذائل الطبائع اناثا والانوثة من أخس صفات الحيوان وقوله تعالى (وهم شاهدون) استهزاء بهم وتجهيل لهم كقوله تعالى أشهدوا خلقهم وقوله تعالى ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم فان أمثال هذه الامور لا تعلم الا بالمشاهدة اذ لا سبيل الى معرفتها بطريق العقل وانتفاء النقل مما لا ريب فيه فلا بد أن يكون القائل بأنوثتهم شاهدا عند خلقهم والجملة اما حال من فاعل خلقنا أي بل أخلقناهم اناثا والحال انهم حاضرون حينئذ أو عطف على خلقنا أي بل أهم شاهدون

الى الله ثم أبق والتقمه الحوت فعند ذلك أرسله الله تعالى والحاصل أن قوله لمن المرسلين لا يدل على انه كان في ذلك الوقت مرسلا من عند الله تعالى ويمكن أن يجاب بأنه سبحانه وتعالى ذكر هذا الوصف في معرض تعظيمه ولن يفيد هذه الفائدة الا اذا كان المراد من قوله لمن المرسلين انه من المرسلين عند الله تعالى (المسئلة الثالثة) أبق من اباق العبد وهو هربه من سيده ثم اختلف المفسرون فقال بعضهم انه أبق من الله تعالى وهذا بعيد لان ذلك لا يقال الا فيمن يتعمد مخالفة ربه وذلك لا يجوز على الانبياء واختلفوا فيما لاجله صار مخطئا فقيل لانه أمر بالخروج الى بني اسرائيل فلم يقبل ذلك التكليف وخرج مغاضبا له به وهذا بعيد سواء أمره الله تعالى بذلك بوحي أو بلسان نبي آخر وقيل ان ذنبه انه ترك دعاء قومه ولم يصبر عليهم وهذا أيضا بعيد لان الله تعالى لما أمره بهذا العمل فلا يجوز أن يتركه والاقرب فيه وجهان (الاول) ان ذنبه كان لان الله تعالى وعده انزال الاهلاك بقومه الذين كذبوه فظن انه نازل لا محالة فلاجل هذا الظن لم يصبر على دعائهم فكان الواجب عليه أن يستمر على الدعاء لجواز أن لا يهلكهم الله بالعذاب وان انزله وهذا هو الاقرب لانه اقدام على أمر ظهرت أماراته فلا يكون تعمدا للمعصية وان كان الاولى في مثل هذا الباب أن لا يعمل فيه بالظن ثم انكشف ليونس من بعد انه أخطأ في ذلك الظن لاجل انه ظهر الايمان منهم فمعنى قوله اذ أبق الى الفلك ما ذكرناه (الوجه الثاني) أن يونس كان وعد قومه بالعذاب فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمستور عنهم فقصد البحر وركب السفينة فذلك هو قوله اذ أبق الى الفلك وتمام الكلام في مشكلات هذه الآية ذكرناه في قوله تعالى وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه وقوله الى الفلك المشحون مفسر في سورة يونس والسفينة اذا كان فيها الحمل الكثير والناس يقال انها مشحونة ثم قال تعالى فساهم المساهمة هي المقارعة يقال أسهم القوم اذا اقترعوا قال المبرد وانما أخذ من السهام التي تجال للقرعة فكان من المدحضين أي المغلوبين يقال أدحض الله حجته فدحضت أي ازالها فزالت وأصل الكلمة من الدحض الذي هو الزلق يقال دحضت رجل البعير اذا زلقت وذكر ابن عباس في قصة يونس عليه السلام انه كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة اسباط ونصفا وبقي سبطان ونصف وكان الله تعالى أوحى الى بني اسرائيل اذا اسركم عدوكم أو أصابتكم مصيبة فادعوني أستجب لكم فلما نسوا ذلك وأسروا أوحى الله تعالى بعد حين الى نبي من أنبيائهم أن اذهب الى ملك هؤلاء الاقوام وقل له حتى يبعث الى بني اسرائيل نبيا فاختار يونس عليه السلام لقوته وأمانته قال يونس آلله أمرك بهذا قال لا ولكن أمرت أن أبعث قويا أمينا وأنت كذلك فقال يونس وفي بني اسرائيل من هو أقوى مني فلم لا تبعثه فألح الملك عليه فغضب يونس منه وخرج حتى أتى بحر الروم ووجد سفينة مشحونة فحملوه فيها فلما دخلت لجة البحر أشرفت على الغرق فقال الملاحون ان فيكم عاصيا والا لم يحصل في السفينة ما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر وقال التجار قد جربنا

﴿ مثل ﴾

وقوله تعالى (ألا انهم من افكهم ليقولون ولد الله) استئناف من جهته غير داخل تحت الامر بالاستفتاء مسوق لابطال اصل مذهبهم الفاسد ببيان أن مبناه ليس الا الافك الصريح والافتراء القبيح من غير أن يكون لهم دليل أو شبهة قطعا (وانهم لكاذبون) في قولهم ذلك كذبا بينا لا ريب فيه وقرئ ولد الله على أنه خبر مبتدأ محذوف أي الملائكة ولده تعالى عن ذلك علوا كبيرا فان الولد فعل بمعنى مفعول ﴿ ١٦٥ ﴾ يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث (أصطفى البنات على البنين) اثبات لافكهم وتقرير لكذبهم فيما قالوا ببيان استلزامه لامر بين الاستحالة هو اصطفاؤه تعالى البنات على البنين والاصطفاء أخذ صفوة الشيء لنفسه وقرئ بكسر الهمزة على حذف حرف الاستفهام ثقة بدلالة القرائن عليه وجعله بدلا من ولد الله ضعيف وتقدير القول اي لكاذبون في قولهم اصطفى الخ تعسف بعيد (مالكم كيف تحكمون) بهذا الحكم الذي يقضي ببطلانه بديهة العقل (أفلا تذكرون) بحذف احدى التاءين من تتذكرون وقرئ تذكرون من ذكر والفاء للعطف على مقدر أي ألا تلاحظون ذلك فلا تذكرون بطلانه فانه مركوز في عقل كل ذكي وغبي (أم لكم سلطان مبين) اضراب وانتقال من توبيخهم وتبكيتهم بما ذكر الى تبكيتهم بتكليفهم مالا يدخل تحت الوجود أصلا أي بل ألكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بان الملائكة بناته تعالى ضرورة أن الحكم بذلك لابد له من سند حسي أو عقلي وحيث انتفى كلاهما فلابد من سند نقلي (فأتوا بكتابكم) الناطق بصحة دعواكم (ان كنتم صادقين) فيها وفي هذه الآيات من الانباء عن السخط العظيم والانكار الفظيع لاقاويلهم والاستبعاد الشديد لاباطيلهم وتسفيه أحلامهم وتركيك عقولهم

مثل هذا فاذا رأيناه نقترع فمن خرج سهمه نغرقه فلأن يغرق واحد خير من غرق الكل فخرج سهم يونس فقال التجار نحن أولى بالمعصية من نبي الله ثم عادوا ثانيا وثالثا يقترعون فخرج سهم يونس فقال ياهؤلاء أنا العاصي وتلفف في كساء ورمى بنفسه فابتلعته السمكة فأوحى الله تعالى الى الحوت لا تكسر منه عظما ولا تقطع له وصلا ثم ان السمكة أخرجته الى نيل مصر ثم الى بحر فارس ثم الى بحر البطائح ثم دجلة فصعدت به ورمته بأرض نصيبين بالعراء وهو كالفرخ المنتوف لا شعر ولا لحم فأنبت الله عليه شجرة من يقطين فكان يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى تشدد ثم ان الارضة أكلتها فخرت من أصلها فحزن يونس لذلك حزنا شديدا فقال يارب كنت أستظل تحت هذه الشجرة من الشمس والريح وأمص من ثمرها وقد سقطت فقيل له يايونس تحزن على شجرة أنبتت في ساعة واقتلعت في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم انطلق اليهم فانطلق اليهم والله اعلم بحقيقة الواقعة ثم قال تعالى فالتقمه الحوت وهو مليم يقال التقمه والتهمه والكل بمعنى واحد وقوله تعالى وهو مليم يقال ألام اذا أتى بما يلام عليه فالمليم المستحق للوم الآتي بما يلام عليه ثم قال تعالى فلولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون وفي تفسير كونه من المسبحين قولان (الاول) أن المراد منه ما حكى الله تعالى عنه في آية اخرى انه كان يقول في تلك الظلمات لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين (الثاني) انه لولا انه كان قبل أن التقمه الحوت من المسبحين يعني المصلين وكان في اكثر الاوقات مواظبا على ذكر الله وطاعته للبث في بطن ذلك الحوت وكان بطنه قبرا له الى يوم البعث قال بعضهم اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة فان يونس عليه السلام كان عبدا صالحا ذاكرا لله تعالى فلما وقع في بطن الحوت قال الله تعالى فلولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون وان فرعون كان عبدا طاغيا ناسيا فلما أدركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنوا اسرائيل قال الله تعالى آلآن وقد عصيت قبل واختلفوا في انه كم لبث في بطن الحوت ولفظ القرآن لا يدل عليه قال الحسن لم يلبث الا قليلا وأخرج من بطنه بعد الوقت الذي التقمه وعن مقاتل بن حيان ثلاثة أيام وعن عطاء سبعة ايام وعن الضحاك عشرين يوما وقيل شهرا ولا أدري بأي دليل عينوا هذه المقادير وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال سبح يونس في بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا ربنا انا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة فقال ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر فقالوا العبد الصالح الذي كان يصعد اليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا له فأمر الحوت فقذفه في الساحل فذلك هو قوله فنبذناه بالعراء وفيه مباحث (الاول) العراء المكان الخالي قال أبو عبيدة انما قيل له العراء لانه لا شجر فيه ولا شيء يغطيه (الثاني) انه تعالى قال فنبذناه بالعراء وأضاف ذلك النبذ الى نفسه والنبذ انما حصل بفعل الحوت وهذا يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى ثم قال تعالى وهو سقيم قيل المراد انه بلي لحمه

وأفهامهم مع استهزائهم بهم وتعجيب من جهلهم مالايخفى على من تأمل فيها وقوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) التفات الى الغيبة للايذان بانقطاعهم عن الجواب سقوطهم عن درجة الخطاب واقتضاء حالهم أن يعرض عنهم وتحكى جناياتهم لآخرين والمراد بالجنة الملائكة قالوا الجنس واحد ولكن من خبث من الجن ومرد وكان شراكله فهو شيطان ومن طهر منهم ونسك وكان خيرا كله فهو ملك وانما عبر عنهم بذلك الاسم وضعا منهم وتقصيرا بهم مع عظم شأنهم فيما بين الخلق أن يبلغوا منزلة المناسبة التى أضافوها اليهم فجعلهم هذا عبارة عن قولهم الملائكة بنات الله وانما أعيد ذكره تمهيدا لما يعقبه من قوله تعالى (ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون) أى وبالله لقد علمت الجنة التى عظموها بان جعلوا بينه تعالى نسبا وهم الملائكة ان الكفرة لمحضرون النار معذبون بها لكذبهم وافترائهم فى قولهم ذلك والمراد به المبالغة فى التكذيب ببيان أن الذين يدعى هؤلاء لهم تلك النسبة ويعلمون أنهم أعلم منهم بحقيقة الحال يكذبونهم فى ذلك ويحكمون بانهم معذبون لاجله حكما مؤكدا وقيل ان قوما من الزنادقة يقولون الله تعالى وابليس أخوان فالله هو الخير الكريم وابليس هو الشرير اللئيم وهو المراد بقوله تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا قال الامام الرازى وهذا القول عندى اقرب الاقاويل وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان واهرمن وقال مجاهد قالت قريش الملائكة بنات الله فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فمن أمهاتهم تبكيتا لهم فقالوا سروات الجن وقيل معنى جعلوا بينه وبين الجنة نسبا جعلوا بينهما مناسبة حيث أشركوا به تعالى الجن فى استحقاق العبادة فعلى هذه الاقاويل يجوزأن

وصار ضعيفا كالطفل المولود كالفرخ الممعط الذى ليس عليه ريش وقال مجاهد سقيم أى سليب ثم قال تعالى وانبتنا عليه شجرة من يقطين ظاهر اللفظ يدل على أن الحوت لما نبذه فى العراء فالله تعالى أنبت عليه شجرة من يقطين وذلك المعجزة قال المبرد والزجاج كل شجر لايقوم على ساق وانما يمتد على وجه الارض فهو يقطين نحو الدباء والحنظل والبطيخ قال الزجاج أحسب اشتقاقها من قطن بالمكان اذا أقام به وهذا الشجر ورقه كله على وجه الارض فلذلك قيل له اليقطين روى الفراء انه قيل عند ابن عباس هو ورق القرع فقال ومن جعل القرع من بين الشجر يقطينا كل ورقة اتسعت وسترت فهى يقطين قال الواحدى رحمه الله والآية تقتضى شيئين لم يذكرهما المفسرون (أحدهما) أن هذا اليقطين لم يكن قبل فأنبته الله لاجله (والآخر) أن اليقطين معروشا ليحصل له ظل لانه لو كان منبسطا على الارض لم يمكن أن يستظل به ثم قال تعالى وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون وفيه مباحث (الاول) يحتمل أن يكون المراد وأرسلناه قبل أن يلتقمه الحوت وعلى هذا الارسال وان ذكر بعد الالتقام فالمراد به التقديم والواو معناها الجمع ويحتمل أن يكون المراد به الارسال بعد الالتقام عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت وعلى هذا التقدير يجوز أن يكون أرسل الى قوم آخرين سوى القوم الاول ويجوز أن يكون أرسل الى الاولين ثانيا بشريعة فآمنوا بها (البحث الثانى) ظاهر قوله أو يزيدون يوجب الشك وذلك على الله تعالى محال ونظيره قوله تعالى عذرا أو نذرا وقوله تعالى لعله يتذكر أو يخشى وقوله تعالى لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا وقوله تعالى وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب وقوله تعالى فكان قاب قوسين أو أدنى وأجابوا عنه من وجوه كثيرة والاصح منها وجه واحد وهو أن يكون المعنى أو يزيدون فى تقديركم بمعنى انهم اذا رآهم الرائى قال هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة وهذا هو الجواب عن كل مايشبه هذا ثم قال تعالى فآمنوا فمتعناهم الى حين والمعنى ان أولئك الاقوام لما آمنوا أزال الله الخوف عنهم وآمنهم من العذاب ومتعهم الله الى حين أى الى الوقت الذى جعله الله أجلا لكل واحد منهم * قوله تعالى (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ام خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون الا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون سبحان الله عما يصفون الا عباد الله المخلصين) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر أقاصيص الانبياء عليهم السلام عاد الى شرح مذاهب المشركين وبيان قبحها وسخافتها ومن جملة أقوالهم الباطلة انهم أثبتوا الاولاد لله سبحانه وتعالى ثم زعموا انها من جنس الاناث لا من جنس الذكور فقال فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون وهذا معطوف على قوله فى أول السورة فاستفتهم اهم

يكون الضمير فى انهم لمحضرون للجنة فالمعنى لقد علمت الشياطين أن الله تعالى يحضرهم النار و يعذبهم بها ولوكانوا مناسبين له تعالى أوشركاء فى استحقاق العبادة لما عذبهم والوجه هو الاول فان قوله (سبحان الله عما يصفون) حكاية لتنزيه الملائكة اياه تعالى عما وصفه المشركون به بعد تكذيبهم لهم فى ذلك بتقدير قول معطوف على علمت وقوله تعالى (الاعباد الله المخلصين) شهادة

منهم ببراءة المخلصين من أن يصفوه تعالى بذلك متضمنة

أشد خلقا أمن خلقنا وذلك لانه تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم باستفتاء قريش عن وجه انكار البعث أولا ثم ساق الكلام موصولا بعضه ببعض الى ان أمره بان يستفتيهم فى انهم لم أثبتوا لله سبحانه البنات ولانفسهم البنين ونقل الواحدى عن المفسرين انهم قالوا ان قريشا واجناس العرب جهينة وبنى سلمة وخزاعة وبنى مليح قالوا الملائكة بنات الله واعلم أن هذا الكلام يشتمل على أمرين (أحدهما) اثبات البنات لله وذلك باطل لان العرب كانوا يستنكفون من البنت والشئ الذى يستنكف المخلوق منه كيف يمكن اثباته للخالق (والثانى) اثبات ان الملائكة اناث وهذا أيضا باطل لان طريق العلم اما الحس واما الخبر واما النظر اما الحس ففقود ههنا لانهم ماشهدوا كيفية تخليق الله الملائكة وهو المراد من قوله أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون وأما الخبر ففقود ايضا لان الخبر انما يفيد العلم اذا علم كونه صدقا قطعا وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذابون أفاكون لم يدل على صدقهم لادلالة ولا أمارة وهو المراد من قوله الا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون ❊ وأما النظر ففقود وبيانه من وجهين (الاول) أن دليل العقل يقتضى فساد هذا المذهب لان الله تعالى أكمل الموجودات والاكمل لايليق به اصطفاء الاخس وهو المراد من قوله أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون يعنى اسناد الافضل الى الافضل أقرب عند العقل من اسناد الاخس الى الافضل فان كان حكم العقل معتبرا فى هذا الباب كان قولكم باطلا (والوجه الثانى) ان نترك الاستدلال على فساد مذهبهم بل نطالبهم باثبات الدليل الدال على صحة مذهبهم فاذا لم يجدوا ذلك الدليل فعنده يظهر انه لم يوجد ما يدل على صحة قولهم وهذا هو المراد من قوله أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين فثبت بما ذكرنا ان القول الذى ذهبوا اليه لم يدل على صحته لا الحس ولا الخبر ولا النظر فكان المصير اليه باطلا قطعا واعلم انه تعالى لما طالبهم بما يدل على صحة مذهبهم دل ذلك على ان التقليد باطل وان الدين لايصح الا بالدليل (المسئلة الثانية) قوله أصطفى البنات على البنين قراءة العامة بفتح الهمزة وقطعها من أصطفى ثم بحذف ألف الوصل وهو استفهام توبيخ وتقريع كقوله تعالى أم اتخذ مما يخلق بنات وقوله تعالى أم له البنات ولكم البنون وقوله تعالى ألكم الذكر وله الانثى وكما ان هذه المواضع كلها استفهام فكذلك فى هذه الآية وقرأ نافع فى بعض الروايات لكاذبون اصطفى موصولة بغير استفهام واذا ابتدأ كسر الهمزة على وجه الخبر والتقدير اصطفى البنات فى زعمهم كقوله ذق انك أنت العزيز الكريم فى زعمه واعتقاده ثم قال تعالى وجعلوا بينه و بين الجنة نسبا واختلفوا فى المراد بالجنة على وجوه (الاول) قال مقاتل أثبتوا نسبا بين الله تعالى و بين الملائكة حين زعموا انهم بنات الله وعلى هذا القول فالجنة هم الملائكة سموا جنا لاجتنانهم عن الابصار أولانهم خزان الجنة وأقول هذا القول عندى مشكل لانه تعالى أبطل قولهم الملائكة بنات الله ثم عطف عليه قوله وجعلوا بينه

لتبرئهم منه بحكم اندراجهم فى زمرة المخلصين على ابلغ وجه وآكده على أنه استثناء منقطع من واو يصفون كأنه قيل ولقد علمت الملائكة أن المشركين لمعذبون لقولهم ذلك وقالوا سبحان الله عما يصفونه به لكن عباد الله الذين نحن من جملتهم براء من ذلك الوصف وقوله تعالى (فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين) تعليل وتحقيق لبراءة المخلصين عما ذكر ببيان عجزهم عن اغوائهم واضلالهم والالتفات الى الخطاب لاظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام وما تعبدون عبارة عن الشياطين الذين أغووهم ونبذا يذان بتبرئهم عنهم وعن عبادتهم كقولهم بل كانوا يعبدون الجن وما نافية وأنتم خطاب لهم ولمعبوديهم تغليبا وعلى متعلقة بفاتنين يقال فتن فلان على فلان امرأته أى أفسدها عليه والمعنى فانكم ومعبوديكم أيها المشركون لستم بفاتنين عليه تعالى بافساد عباده واضلالهم (الامن هو صال الجحيم) منهم أى داخلها لعلمه تعالى بأنه يصبر على الكفر بسوء اختياره و يصير من أهل النار لامحالة وأما المخلصون منهم فأنتم بمعزل من افسادهم واضلالهم فهم لاجرم براء من أن يفتتنوا بكم و يسلكوا مسلككم فى وصفه تعالى بما وصفتموه به وقرئ صال بضم اللام على أنه جمع محمول على معنى من قد

سقط واوه لالتقاء الساكنين وقوله تعالى (ومامنا الاله مقام معلوم) تبيين لجلية أمرهم وتعيين لحيزهم فى موقف العبودية بعد ماذكر من تكذيب الكفرة فيماقالوا وتنزيه الله تعالى عن ذلك وتبرئة المخلصين عنه واظهار لقصور شأنهم وقماءتهم أى ومامنا أحد الاله مقام معلوم فى العبادة والانتهاء الى أمر الله تعالى مقصور عليه لايتجاوزه ولايستطيع أن يزل عنه خضوعا لعظمته وخشوعا لهيبته وتواضعا لجلاله كاروى فنهم راكع لايقيم صلبه وساجد لايرفع رأسه قال ابن عباس رضى الله عنهما مافى السموات موضع شبرالاوعليه ملك يصلى أو يسبح وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال أطت السماء وحق لها أن تئط والذى نفسى بيده مافيها موضع أربع أصابع الاوفيه ملك واضع جبهته ساجدلله تعالى وقال السدى الاله مقام معلوم فى القربة والمشاهدة (وانالنحن الصافون) فى مواقف الطاعة ومواطن الخدمة (وانالنحن المسبحون) المقدسون لله سبحانه عن كل مالايليق بجناب كبريائه وتحلية كلامهم بفنون التاكيدلابرازأن صدوره عنهم بكمال الرغبة والنشاط هذا هوالذى تقتضيه جزالة التنزيل وقد ذكر فى تفسير الآيات الكريمة واعرابها وجوه أخر فتأمل والله الموفق (وان كانوا ليقولون) ان هى المخففة من الثقيلة وضمير الشان محذوف واللام هى الفارقة أى ان الشأن كانت قريش تقول (لوأن عندناذكرامن الاولين) أى كتابا من كتب الاولين من التوراة والانجيل (لكنا عبادالله المخلصين) أى لاخلصنا العبادة لله تعالى ولماخالفنا كماخالفوا وهذا كقولهم لئن جاءنا نذير لنكونن أهدى من احدى ﴿ فحمل ﴾ الامم والفاء فى قوله تعالى (فكفروا به) فصيحة كما فى قوله تعالى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فجاءهم ذكروأى ذكرسيد الاذكار وكتاب مهيمن على سائر الكتب والاسفار فكفروابه (فسوف يعلمون) أى عاقبة كفرهم وغائلته

و بين الجنة نسبا والعطف يقتضى كون المعطوف مغايرا للمعطوف عليه فوجب أن يكون المراد من هذه الآية غيرما تقدم (الثانى) قال مجاهد قالت كفار قريش الملائكة بنات الله فقال لهم أبو بكر الصديق فمن أمهاتهم قالوا سروات الجن وهذا أيضا عندى بعيد لان المصاهرة لاتسمى نسبا (والثالث) روينا فى تفسير قوله تعالى وجعلوا لله شركاء الجن ان قوما من الزنادقة يقولون الله وابليس اخوان فالله الخير الكريم وابليس هو الاخ الشرير الخسيس فقوله تعالى وجعلوا بينه و بين الجنة نسبا المراد منه هذا المذهب وعندى ان هذا القول اقرب الاقاويل وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان وهومن ثم قال تعالى ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون أى قد علمت الجنة ان الذين قالوا هذا القول محضرون النار و يعذبون وقيل المراد ولقد علمت الجنة انهم سيحضرون فى العذاب فعلى القول الاول الضمير عائد الى قائل هذا القول وعلى القول الثانى عائد الى الجنة أنفسهم ثم انه تعالى نزه نفسه عما قالوا من الكذب فقال سبحان الله عما يصفون الا عباد الله المخلصين وفى هذا الاستثناء وجوه قيل استثناء من المحضرين يعنى انهم ناجون وقيل هو استثناء من قوله تعالى وجعلوا بينه و بين الجنة نسبا وقيل هو استثناء منقطع من المحضرين ومعناه ولكن المخلصين برآء من أن يصفوه بذلك والمخلص بكسر اللام من أخلص العبادة والاعتقاد لله و بفتحها من أخلصه الله بلطفه والله أعلم ۞ قوله تعالى (فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين الامن هو صال الجحيم ومامنا الاله مقام معلوم وانا لنحن الصافون وانا لنحن المسبحون وان كانوا ليقولون لوان عندنا ذكرا من الاولين لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به فسوف يعلمون) فيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد مذهب الكفار اتبعه بما نبه به على ان هؤلاء الكفار لايقدرون على حمل أحد على الضلال الا اذا كان قد سبق حكم الله فى حقه بالعذاب والوقوع فى النار وذكر صاحب الكشاف فى قوله فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين قولين (الاول) الضمير فى عليه لله عز وجل معناه فانكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعا بفاتنين على الله الا أصحاب النار الذين سبق فى علم الله كونهم من أهل النار فان قيل كيف يفتنونهم على الله قلنا يفتنونهم عليه باغوائهم من قولك فتن فلان على فلان امرأته كما تقول أفسدها عليه (والوجه الثانى) أن تكون الواو فى قوله وما تعبدون بمعنى مع كما فى قولهم كل رجل وضيعته فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته فكذلك جاز أن يسكت على قوله فانكم وما تعبدون لان قوله وما تعبدون ساد مسد الخبر لان معناه فانكم مع ما تعبدون والمعنى فانكم مع آلهتكم أى فانكم قرناؤهم وأصحابهم لاتتركون عبادتها ثم قال تعالى ما أنتم عليه أى على ما تعبدون بفاتنين باعثين أو حاملين على طريق الفتنة والاضلال الا من هو صال الجحيم مثلكم وقرأ الحسن صال الجحيم بضم اللام ووجه أن يكون جمعا وسقوط واوه لالتقاء الساكنين فان قيل كيف يستقيم الجمع مع قوله من هو قلنا من موحد اللفظ مجموع المعنى

(ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) استئناف مقرر للوعيد وتصديره بالقسم لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه اى و بالله لقد سبق وعدنا لهم بالنصرة والغلبة وهو قوله تعالى (انهم لهم المنصورون وان جندنا) وهم أتباع المرسلين (لهم الغالبون) على أعدائهم فى الدنيا والآخرة ولا يقدح فى ذلك انهزامهم فى بعض المشاهد فان قاعدة أمرهم وأساسه الظفر والنصرة وان وقع فى تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة والحكم للغالب ﴿ ١٦٩ ﴾ وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان لم ينصروا فى الدنيا نصروا فى الآخرة وقرئ على عبادنا بتضمين سبقت معنى حقت وتسميتها كلمة مع انها كلمات لانتظامها فى معنى واحد وقرئ كلماتنا (فتول عنهم) فاعرض عنهم واصبر (حتى حين) الى مدة يسيرة وهى مدة الكف عن القتال وقيل يوم بدر وقيل يوم الفتح (وأبصرهم) على اسوأ حال وأفظع نكال حل بهم من القتل والاسر والمراد بالامر بابصارهم الايذان بغاية قربه كأنه بين يديه (فسوف يبصرون) ما يقع حينئذ من الامور وسوف للوعيد دون التبعيد (أفبعذابنا يستعجلون) روى أنه لما نزل فسوف يبصرون قالوا متى هذا فنزل (فاذا نزل بساحتهم) أى فاذا نزل العذاب الموعود بفنائهم كانه جيش قد هجمهم وأناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة وقطع دابرهم بالمرة وقيل المراد نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح وقرئ نزل بساحتهم على اسناده الى الجار والمجرور وقرئ نزل مبنيا للمفعول من التنزيل أى نزل العذاب (فساء صباح المنذرين) فبئس صباح المنذرين صباحهم واللام للجنس والصباح ﴿ ٢٢ ﴾ سا مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب ولما كثرت منهم الغارة فى الصباح سموها صباحا وان وقعت ليلا روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أتى خيبر وكانوا خارجين الى مزارعهم ومعهم المساحى قالوا محمد والخميس ورجعوا الى حصنهم فقال عليه الصلاة والسلام الله أكبر خربت خيبر انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين (وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف

فحمل هو على لفظه والصالون على معناه (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على انه لا تأثير لاغواء الشيطان ووسوسته وانما المؤثر قضاء الله تعالى وتقديره لان قوله تعالى فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين تصريح بانه لا تأثير لقولهم ولا تأثير لاحوال معبوديهم فى وقوع الفتنة والضلال وقوله تعالى الا من هو صال الجحيم يعنى الا من كان كذلك فى حكم الله وتقديره وذلك تصريح بأن المقتضى لوقوع هذه الحوادث حكم الله تعالى وكان عمر بن عبد العزيز يحتج بهذه الآية فى اثبات هذا المطلوب قال الجبائى المراد ان الذين عبدوا الملائكة يزعمون انهم بنات الله لا يكفرون أحدا الا من ثبت فى معلوم الله انه سيكفر فدل هذا على أن من ضل بدعاء الشيطان لم يكن ليؤمن بالله لو منع الله الشيطان من دعائه والا كان يمنع الشيطان فصح بهذا ان كل من يعصى لم يكن ليصلح عنه شئ من الافعال والجواب حاصل هذا الكلام أنه لا تأثير لاغواء شياطين الانس والجن وهذا لا نزاع فيه الا ان وجه الاستدلال انه تعالى بين انه لا تأثير لكلامهم فى وقوع الفتنة ثم استثنى عنه ما فى قوله تعالى الا من هو صال الجحيم فوجب أن يكون المراد من وقوع الفتنة هو كونه محكوما عليه بانه صال الجحيم وذلك تصريح بأن حكم الله بالسعادة والشقاوة هو الذى يؤثر فى حصول الشقاوة والسعادة واعلم أن أصحابنا قرروا هذه الحجة بالحديث المشهور وهو انه حج آدم موسى قال القاضى هذا الحديث لم يقبله علماء التوحيد لانه يوجب أن لا يلام أحد على شئ من الذنوب لانه ان كان آدم لا يجوز لموسى أن يلومه على عمل كتبه الله عليه قبل أن يخلقه فكذلك كل مذنب فان صحت هذه الحجة لآدم عليه السلام فلماذا قال موسى عليه السلام فى الوكزة هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين ولماذا قال فلن أكون ظهيرا للمجرمين ولماذا لام فرعون وجنوده على أمر كتبه الله عليهم ومن عجيب أمرهم انهم يكفرون القدرية وهذا الحديث يوجب أن آدم كان قدريا فلزمهم أن يكفروه وكيف يجوز مع قول آدم وحواء عليهما السلام ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين أن يحتج على موسى بأنه لا لوم عليه وقد كتب عليه ذلك قبل ان يخلقه هذا جملة كلام القاضى فيقال له هب أنك لا تقبل ذلك الخبر فهل ترد هذه الآية أم لا فانا بينا أن صريح هذه الآية يدل على انه لا تأثير للوساوس فى هذا الباب فان الكل يحصل بحكمة الله تعالى والذى يدل عليه وجوه (الاول) ان الكافر ان ضل بسبب وسوسة الشيطان فضلال الشيطان ان كان بسبب شيطان آخر لزم تسلسل الشياطين وهو محال وان انتهى الى ضلال لم يحصل بسبب وسوسة متقدمة فهو المطلوب (الثانى) أن كل أحد يريد ان يحصل لنفسه الاعتقاد الحق والدين الصدق فحصول ضده يدل على أن ذلك ليس منه (الثالث) أن الافعال موقوفة على الدواعى وحصول الدواعى بخلق الله فيكون الكل من الله تعالى (الرابع) انه تعالى لما اقتضت حكمته شيئا وعلم وقوعه فلو لم يقع ذلك الشئ لزم انقلاب ذلك الحكم كذبا وانقلاب ذلك العلم جهلا

يبصرون) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم اثر تسلية وتأكيد لوقوع الميعاد غب تأكيد مع ما في اطلاق الفعلين عن المفعول من الايذان بأن ما يبصره عليه الصلاة والسلام حينئذ من فنون المسار وما يبصرونه من أنواع المضار لا يحيط به الوصف والبيان وقيل أريد بالاول عذاب الدنيا وبالثاني عذاب الآخرة (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) تنزيه لله سبحانه عن كل ما يصفه المشركون به مما لا يليق بجناب ﴿ ١٧٠ ﴾ كبريائه وجبروته مما ذكر في السورة الكريمة وما لم يذكر من الامور التي من جملتها ترك انجاز وعوده على موجب كلمته السابقة لاسيما في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية المعربة عن التربية والتكميل والمالكية الكلية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام أولا والى العزة ثانيا كأنه قيل سبحان من هو مربيك ومكملك ومالك العزة والغلبة على الاطلاق عما يصفه المشركون به من الاشياء التي منها ترك نصرتك عليهم كما يدل عليه استعجالهم بالعذاب وقوله تعالى (وسلام على المرسلين) تشريف لهم عليهم السلام بعد تنزيهه تعالى عما ذكر وتنويه بشأنهم وايذان بأنهم سالمون عن كل المكاره فائزون بجميع المآرب وقوله تعالى (والحمد لله رب العالمين) اشارة الى وصفه عز وجل بصفاته الكريمة الثبوتية بعد التنبيه على اتصافه تعالى بجميع صفاته السلبية وايذان باستتباعها للافعال الجميلة التي من جملتها افاضته عليهم من فنون الكرامات السنية والكمالات الدينية والدنيوية واسباغه عليهم وعلى من تبعهم من صنوف النعماء الظاهرة والباطنة الموجبة لحمده تعالى واشعار بأن ما وعده عليه الصلاة والسلام من النصرة والغلبة قد تحققت والمراد تنبيه المؤمنين على كيفية تسبيحه تعالى وتحميده والتسليم على رسله الذين هم وسائط بينهم وبينه عز وعلا في فيضان الكمالات الدينية والدنيوية عليهم ولعل توسط التسليم على المرسلين بين تسبيحه تعالى وتحميده لختم السورة الكريمة بحمده تعالى مع ما فيه من الاشعار

وهو محال وأما الآيات التي تمسك بها القاضي فهي معارضة بالآيات الدالة على أن الكل من الله والقرآن كالبحر المملوء من مثل هذه الآيات فتبقى الدلائل العقلية التي ذكرناها سليمة والله أعلم ثم قال تعالى وما منا الا له مقام معلوم فالجمهور على أنهم الملائكة وصفوا أنفسهم بالمبالغة في العبودية فانهم يصطفون للصلاة والتسبيح والغرض منه التنبيه على فساد قول من يقول انهم أولاد الله وذلك لان مبالغتهم في العبودية تدل على اعترافهم بالعبودية واعلم أن هذه الآية تدل على ثلاثة أنواع من صفات الملائكة (فأولها) قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم وهذا يدل على أن لكل واحد منهم مرتبة لا يتجاوزها ودرجة لا يتعدى عنها وتلك الدرجات اشارة الى درجاتهم في التصرف في أجسام هذا العالم والى درجاتهم في معرفة الله تعالى أما درجاتهم في التصرفات والافعال فهي قوله وانا لنحن الصافون والمراد كونهم صافين في أداء الطاعات ومنازل الخدمة والعبودية وأما درجاتهم في المعارف فهي قوله تعالى وانا لنحن المسبحون والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به واعلم ان قوله انا لنحن الصافون وانا لنحن المسبحون يفيد الحصر ومعناه أنهم هم الصافون في مواقف العبودية لا غيرهم وأنهم هم المسبحون لا غيرهم وذلك يدل على ان طاعات البشر ومعارفهم بالنسبة الى طاعات الملائكة والى معارفهم كالعدم حتى يصح هذا الحصر وبالجملة فهذه الالفاظ الثلاثة تدل على أسرار عجيبة من صفات الملائكة فكيف يجوز مع هذا الحصر أن يقال البشر أقرب درجة من الملك فضلا عن أن يقال هل هو أفضل منه أم لا والله أعلم قوله وان كانوا ليقولون لو ان عندنا ذكرا من الاولين لكنا عباد الله المخلصين فالمعنى أن مشركي قريش وغيرهم كانوا يقولون لو ان عندنا ذكرا أي كتابا من كتب الاولين الذين نزل عليهم التوراة والانجيل لأخلصنا العبادة لله ولما كذبنا كما كذبوا ثم جاءهم الذكر الذي هو سيد الاذكار والكتاب المهيمن على كل الكتب وهو القرآن فكفروا به ونظير هذه الآية قوله تعالى فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا ثم قال تعالى فسوف يعلمون أي فسوف يعلمون عاقبة هذا الكفر والتكذيب * قوله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون أفبعذابنا يستعجلون فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) اعلم انه تعالى لما هدد الكفار بقوله تعالى فسوف يعلمون عاقبة كفرهم أردفه بما يقوي قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون فبين أن وعده بنصرته قد تقدم والدليل عليه قوله تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلي وأيضا ان الخير مقضي بالذات والشر مقضي بالعرض وما بالذات أقوى مما بالعرض وأما النصرة والغلبة فقد تكون بقوة الحجة وقد تكون بالدولة والاستيلاء وقد تكون بالدوام والثبات

بأن توفيقه تعالى للتسليم عليهم من جملة نعمه الموجبة للحمد * عن علي رضي الله عنه من أحب أن يكتال بالمكيال الاوفى من الاجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه اذا قام من مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين * وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ والصافات أعطي من الاجر عشر حسنات بعدد كل جني وشيطان وتباعدت عنه الشياطين وبرئ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمنا بالمرسلين * (سورة ص مكية وآياتها ست

فالمؤمن وان صار مغلوبا في بعض الاوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب ولا يلزم على هذه الآية أن يقال فقد قتل بعض الانبياء وقد هزم كثير من المؤمنين ثم قال تعالى لرسوله وقد أخبره بما تقدم فتول عنهم حتى حين والمراد ترك مقاتلتهم والصبر على ما وعدناهم الى حين يتمتعون ثم تحل بهم الحسرة والندامة واختلف المفسرون فقيل المراد الى يوم بدر وقيل الى فتح مكة وقيل يوم القيامة ثم قال وأبصرهم فسوف يبصرون والمعنى فأبصرهم وما يقضى عليهم من القتل والاسر في الدنيا والعذاب في الآخرة فسوف يبصرونك مع ما قدر لك من النصرة والتأييد في الدنيا والثواب العظيم في الآخرة والمراد من الامر بابصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على أنها كائنة واقعة لا محالة وان كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك وقوله فسوف يبصرون للتهديد والوعيد ثم قال أفبعذابنا يستعجلون والمعنى أن الرسول عليه السلام كان يعدهم بالعذاب وما رأوا شيأ فكانوا يستعجلون نزول ذلك العذاب على سبيل الاستهزاء فبين تعالى أن ذلك الاستعجال جهل لان لكل شئ من افعال الله تعالى وقتا معينا لا يتقدم ولا يتأخر فكان طلب حدوثه قبل مجئ ذلك الوقت جهلا ثم قال تعالى في صفة العذاب الذي يستعجلونه فاذا نزل بساحتهم أي هذا العذاب فساء صباح المنذرين وانما وقع هذا التعبير عن هذه المعاني لانهم كانوا يقدمون على الغارة في وقت الصباح فجعل ذكر ذلك الوقت كناية عن ذلك العذاب ثم أعاد قوله تعالى فتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون وقيل المراد من هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا وفي هذه الكلمة أحوال القيامة وعلى هذا التقدير فالتكرير زائل وقيل ان المراد من التكرير المبالغة في التهديد والتهويل ثم انه تعالى ختم السورة بخاتمة شريفة جامعة لكل المطالب العالية وذلك لان أهم المهمات للعاقل معرفة أحوال ثلاثة (فأولها) معرفة اله العالم بقدر الطاقة البشرية وأقصى ما يمكن عرفانه من صفات الله تعالى ثلاثة أنواع (أحدها) تنزيهه وتقديسه عن كل ما لا يليق بصفات الالهية وهو لفظة سبحان (وثانيها) وصفه بكل ما يليق بصفات الالهية وهو قوله رب العزة فان الربوبية اشارة الى التربية وهي دالة على كمال الحكمة والرحمة والعزة اشارة الى كمال القدرة (وثالثها) كونه منزها في الالهية عن الشريك والنظير وقوله رب العزة يدل على انه القادر على جميع الحوادث لان الالف واللام في قوله العزة تفيد الاستغراق واذا كان الكل ملكا له وملكا له لم يبق لغيره شئ فثبت ان قوله سبحان ربك رب العزة عما يصفون كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات في معرفة اله العالم (والمهم الثاني) من مهمات العاقل أن يعرف انه كيف ينبغي أن يعامل نفسه ويعامل الخلق في هذه الحياة الدنيوية واعلم أن أكثر الخلق ناقصون ولا بد لهم من مكمل يكملهم ومرشد يرشدهم وهاد يهديهم وما ذاك الا الانبياء عليهم الصلاة والسلام وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكامل فنبه على هذا الحرف بقوله وسلام على المرسلين لان هذا اللفظ يدل على انهم في

او ثمان وثمانون آية) *
*(بسم الله الرحمن الرحيم) *
(ص) بالسكون على الوقف وقرئ بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين ويجوز أن يكون الفتح باضمار حرف القسم في موضع الجر كقولهم الله لافعلن بالجر وأن يكون ذلك نصبا باضمار اذكر أو اقرأ وفتحا كما مر في فاتحة سورة البقرة وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث لانها علم للسورة وقد صرفها من قرأ صاد بالتنوين على انه اسم الكتاب أو التنزيل وقيل هو في قراءة الكسر أمر من المصاداة وهي المعارضة والمقابلة ومنها الصدى الذي ينعكس من الاجسام الصلبة الصوت ومعناه عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه وتخلق بأخلاقه ثم ان جعل اسما للحرف مسرودا على منهاج التحدي أو الرمز الى كلام مثل صدق الله أو صدق محمد كما نقل عن أكابر السلف أو اسما للسورة خبر المبتدأ محذوف أو نصبا على اضمار اذكر أو اقرأ أمرا من المصاداة

فالواو في قوله تعالى (والقرآن ذي الذكر) للقسم وان جعل مقسما به فهي للعطف عليه فان أريد بالقرآن كله فالمغايرة بينهما حقيقية وان أريد غير السورة فهي أعتبارية كما في قولك مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة وأيا ما كان ففي التكرير مزيد تأكيد لمضمون الجملة المقسم عليها والذكر الشرف والنباهة كما في قوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك أو الذكرى والموعظة أو ذكر ما يحتاج اليه في أمر

الكمال اللائق بالبشر فاقوا غيرهم ولاجرم يجب على كل من سواهم الاقتداء بهم (والمهم الثالث) من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف يكون حاله بعد الموت واعلم أن معرفة هذه الحالة قبل الموت صعبة فالاعتماد فيها على حرف واحد وهو انه اله العالم غنى رحيم والغنى الرحيم لايعذب فنبه على هذا الحرف بقوله والحمد لله رب العالمين وذلك لان استحقاق الحمد لايحصل الا بالانعام العظيم فبين بهذا كونه منعما وظاهر كونه غنيا عن العالمين ومن هذا وصفه كان الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم فكان هذا الحرف منبها على سلامة الحال بعد الموت فظهر بماذكرنا أن هذه الخاتمة كالصدفة المحتوية على درر أشرف من دراري الكواكب ونسأل الله سبحانه وتعالى حسن الخاتمة والعافية فى الدنيا والآخرة ❁ تم تفسير هذه السورة ضحوة يوم الجمعة السابع عشر من ذى القعدة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه وأزواجه وذرياته أجمعين

(سورة ص ثمانون وثمان آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ص والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا فى عزة وشقاق كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الكلام المستقصى فى امثال هذه الفواتح مذكور فى أول سورة البقرة ولابأس باعادة بعض الوجوه فالاول انه مفتاح أسماء الله تعالى التى أولها صاد كقولنا صادق الوعد صانع المصنوعات صمد (والثانى) معناه صدق محمد فى كل ماأخبر به عن الله (الثالث) معناه صد الكفار عن قبول هذا الدين كما قال تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله (الرابع) معناه ان القرآن مركب من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها ولستم قادرين على معارضة القرآن فدل ذلك على أن القرآن معجز (الخامس) أن يكون صاد بكسر الدال من المصاداة وهى المعارضة ومنها الصدى وهو مايعارض صوتك فى الاماكن الخالية من الاجسام الصلبة ومعناه عارض القرآن بعملك فاعمل باوامره وانته عن نواهيه (السادس) انه اسم السورة والتقدير هذه صاد فان قيل ههنا اشكالان أحدهما أن قوله والقرآن ذى الذكر قسم وأين المقسم عليه (والثانى) أن كلمة بل تقتضى رفع حكم ثبت قبلها واثبات حكم بعدها يناقض الحكم السابق فأين هذا المعنى ههنا والجواب عن الاول من وجوه (الاول) أن يكون معنى صاد بمعنى صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيكون صاد هو المقسم عليه وقوله والقرآن ذى الذكر هو القسم (الثانى) أن يكون المقسم عليه محذوفا والتقدير سورة ص والقرآن ذى الذكر انه لكلام معجز لانا بينا أن قوله صاد تنبيه على التحدى (والثالث) أن يكون صاد اسما للسورة ويكون التقدير هذه صاد والقرآن ذى الذكر ولما كان المشهور أن محمدا

الذين من الشرائع والاحكام وغيرها من أقاصيص الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأخبار الامم الدارجة والوعد والوعيد وجواب القسم على الوجه الاول والرابع والخامس محذوف هو ماينبئ عنه التحدى والامر والاقسام به من كون المتحدى به معجزا وكون المأمور به واجبا وكون المقسم به حقيقا بالاعظام أى أقسم بالقرآن أو بصاد و به انه لمعجز أو اواجب العمل به أو لحقيق بالاعظام وأما على الوجهين الباقيين فهو الكلام المرموز اليه ونفس الجملة المذكورة قبل القسم فان التسمية تنويه بشأن المسمى وتنبيه على عظم خطره اى انه لصادق والقرآن ذى الذكر أو هذه السورة عظيمة الشأن والقرآن الخ على طريقة قولهم هذا حاتم والله ولما كان كل واحد من هذه الاجوبة منبئا عن انتفاء الريب عن مضمونه بالكلية انباء بينا كان قوله تعالى (بل الذين كفروا فى عزة وشقاق) اضرابا عن ذلك كأنه قيل لاريب فيه قطعا وليس عدم اذعان الكفرة له لشائبة ريب مافيه بل هم فى استكبار وحمية شديدة وشقاق بعيد لله تعالى ولرسوله ولذلك لايذعنون له وقيل الجواب مادل عليه الجملة الاضرابية أى ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه بل الذين كفروا الخ وقرئ فى غرة أى فى غفلة عما يجب عليهم التنبه له من مبادى الايمان ودواعيه (كم اهلكنا من قبلهم من قرن) وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب من قبلهم من المستكبرين وكم مفعول أهلكنا ومن قرن تمييز والمعنى وقرنا كثيرا أهلكنا من القرون الخالية (فنادوا) عند نزول بأس او حلول نقمة استغاثة وتوبة لينجوا من ذلك وقوله تعالى (ولات حين ﴿ عليه ﴾ مناص) حال من ضمير نادوا أى نادوا واستغاثوا طلبا للنجاة والحال أن ليس الحين حين مناص أى فوت ونجاة من ناصه أى فاته لامن ناص بمعنى تأخر ولا هى المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد كما زيدت على رب وثم وخصت بنفى الاحيان ولم يبرز الا أحد معموليها والاكثر حذف اسمها وقيل هى النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفى الاحيان وحين مناص منصوب

عليه السلام يدعي في هذه السورة كونها معجزة كان قوله هذه ص جاريا مجرى قوله هذه هي السورة المعجزة ونظيره قولك هذا حاتم والله أي هذا هو المشهور بالسخاء (والجواب) عن السؤال الثاني أن الحكم المذكور قبل كلمة بل كون محمد صادقا في تبليغ الرسالة أو كون القرآن أو هذه السورة معجزة والحكم المذكور بعد كلمة بل ههنا هو المنازعة والمشاقة في كونه كذلك فحصل المطلوب والله أعلم (المسئلة الثانية) قرأ الحسن صاد بكسر الدال لاجل التقاء الساكنين وقرأ عيسى بن عمر بنصب صاد ونون وبحذف حرف القسم وايصال فعله كقولهم الله لافعلن وأكثر القراء على الجزم لان الاسماء العارية عن العوامل تذكر موقوفة الاواخر (المسئلة الثالثة) في قوله ذي الذكر وجهان (الاول) المراد ذي الشرف قال تعالى وانه لذكر لك ولقومك وقال تعالى لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم ومجاز هذا من قولهم لفلان ذكر في الناس كما يقولون له صيت (الثاني) ذي البيان أي فيه قصص الاولين والآخرين وفيه بيان العلوم الاصلية والفرعية ونظيره من قوله ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة القرآن ذي الذكر والذكر محدث (بيان الاول) قوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك وهذا ذكر مبارك والقرآن ذي الذكر هو الاذكر وقرآن مبين (بيان الثاني) ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث (والجواب) انا نصرف دليلكم الى الحروف والاصوات وهي محدثة اما قوله بل الذين كفروا فاعلم ان هذه الكفار من رؤساء قريش الذين يجوز على مثلهم الاجماع على الحسد والتكبر عن الانقياد الى الحق والعزة ههنا التعظيم وما يعتقده الانسان في نفسه من الاحوال التي تمنعه من متابعة الغير كقوله تعالى واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم والشقاق هو اظهار المخالفة على جهة المساواة للمخالف أو على جهة الفضيلة عليه وهو مأخوذ من الشق كأنه يرتفع عن أن يلزمه الانقياد له بل يجعل نفسه في شق وخصمه في شق فيريد أن يكون في شق نفسه ولا يجري عليه حكم خصمه ومثله المحاداة وهو أن يكون أحدهما في عدوة والآخر في عدوة وهي جانب الوادي وكذلك المعاداة أن يكون هذا في حد غير حد الآخر ويقال انحرف فلان عن فلان وجانب فلان فلانا أي صار منه على حرف وفي جانب غير جانبه والله أعلم ثم انه تعالى لما وصفهم بالعزة والشقاق خوفهم فقال كم أهلكنا قبلهم من قرن فنادوا والمعنى انهم نادوا عند نزول العذاب في الدنيا ولم يذكر بأي شئ نادوا وفيه وجوه (الاول) وهو الاظهر أنهم نادوا بالاستغاثة لان نداء من نزل به العذاب ليس الا بالاستغاثة (الثاني) نادوا بالايمان والتوبة عند معاينة العذاب (الثالث) نادوا أي رفعوا أصواتهم يقال فلان اندى صوتا من فلان أي ارفع صوتا ثم قال ولات حين مناص يعني ولم يكن ذلك الوقت وقت فرار من العذاب وهو كقوله فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا وقال حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذاهم يجأرون والجؤار رفع الصوت بالتضرع والاستغاثة وكقوله آلآن وقد عصيت قبل وقوله فلم يك ينفعهم

على أنه اسمها أي ولاحين مناص لهم او بفعل مضمر أي ولا أرى حين مناص وقرئ بالرفع فهو على الاول اسمها والخبر محذوف أي وليس حين مناص حاصلا لهم وعلى الثاني مبتدأ محذوف الخبر أي ولاحين مناص كائن لهم وقرئ بالكسر كما في قوله * طلبوا صلحنا ولات أوان * فأجبنا أن لات حين بقاء * اما لان لات تجر الاحيان كما أن لولا تجر الضمائر في نحو قوله * لولاك هذا العام لم أحجج * أو لان أوان شبه باذ في قوله * نهيتك عن طلابك أم عمرو * بعافية وأنت اذ صحيح * في أنه زمان قطع منه المضاف اليه وعوض التنوين لان أصله أوان صلح ثم حمل عليه حين مناص تنزيلا لقطع المضاف اليه من مناص اذ أصله حين مناصهم منزلة قطعه من حين لما بين المضافين من الاتحاد ثم بني الحين لاضافته الى غير متمكن وقرئ لات بالكسر كجير ويقف الكوفيون عليها بالهاء كالاسماء والبصريون بالتاء كالافعال وما قيل من أن التاء مزيدة على حين لاتصالها به في الامام مما لا وجه له فان خط المصحف خارج عن القياس (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) حكاية لاباطيلهم المتفرعة على ما حكي من استكبارهم وشقاقهم أي عجبوا من أن جاءهم رسول من جنسهم بل أدون منهم في الرياسة الدنيوية والمال على معنى أنهم عدوا ذلك أمرا عجيبا خارجا عن احتمال الوقوع وأنكروه أشد الانكار لا أنهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا منه (وقال الكافرون) وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضبا عليهم وايذانا بأنه لا يتجاسر على مثل ما يقولونه الا المتوغلون في الكفر وفي الفسوق (هذا ساحر) فيما يظهره من الخوارق (كذاب) فيما يسنده الى الله تعالى من الارسال والانزال (أجعل الآلهة الها واحدا) بان نفى الالوهية عنهم وقصرها على واحد (ان هذا لشيء عجاب) بليغ في العجب وذلك لانه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم الذين أجمعوا على ألوهيتهم وواظبوا على عبادتهم كابرا عن كابر فان مدار كل ما يأتون وما يذرون من أمور دينهم هو

التقليد والاعتياد فيعدون ما يخالف ما اعتادوه عجيبا بل محالا وأما جعل مدار تعجبهم عدم وفاء علم الواحد وقدرته بالاشياء الكثيرة فلا وجه له لما أنهم لا يدعون أن لآلهتهم علما وقدرة ومدخلا في حدوث شئ من الاشياء حتى يلزم من نفي ألوهيتهم بقاء الآثار بلا مؤثر وقرئ عجاب بالتشديد وهو أبلغ ككرام وكرام روى أنه لما أسلم عمر رضي الله عنه شق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون من صناديدهم فأتوا أبا طالب فقالوا أنت شيخنا وكبيرنا

وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء وقد جئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك فقال صلى الله عليه وسلم ماذا يسألونني قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك وإلهك فقال صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان أعطيتكم ما سألتم امعطي أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم قالوا نعم وعشرا فقال قولوا لا اله الا الله فقاموا وقالوا ذلك (وانطلق الملأ منهم) أي وانطلق الاشراف من قريش عن مجلس أبي طالب بعدما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد وشاهدوا تصلبه عليه الصلاة والسلام في الدين وعزيمته على أن يظهره على الدين كله ويئسوا مما كانوا يرجونه بتوسط أبي طالب من المصالحة على الوجه المذكور (أن امشوا) أي قائلين بعضهم لبعض على وجه النصيحة امشوا (واصبروا على آلهتكم) أي واثبتوا على عبادتها متحملين لما تسمعونه في حقها من القدح وأن هي المفسرة لان الانطلاق عن مجلس التقاول لا يخلو عن القول وقيل المراد بالانطلاق الاندفاع في القول وامشوا ﴿ احدها ﴾ من مشت المرأة اذا كثرت ولادتها ومنه الماشية للتفاؤل أي اجتمعوا واكثروا وقرئ امشوا بغير أن على اضمار القول وقرئ يمشون أن اصبروا (ان هذا الشئ يراد) تعليل للامر بالصبر أو لوجوب الامتثال به أي هذا الذي شاهدناه من محمد صلى الله عليه وسلم من أمر التوحيد ونفي آلهتنا وابطال أمرها لشئ يراد أي

ايمانهم لما رأوا بأسنا بقي ههنا أبحاث (البحث الاول) في تحقيق الكلام في لفظ لات زعم الخليل وسيبويه ان لات هي لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب وثم للتأكيد وبسبب هذه الزيادة حدثت لها أحكام جديدة منها انها لا تدخل الا على الاحيان ومنها ان لا يبرز الا أحد جزئيها اما الاسم واما الخبر ويمتنع بروزهما جميعا وقال الاخفش انها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفي الاحيان وحين مناص منصوب بها كأنك قلت ولات حين مناص لهم ويرتفع بالابتداء أي ولات حين مناص كائن لهم (البحث الثاني) الجمهور يقفون على التاء من قوله ولات والكسائي يقف عليها بالهاء كما يقف على الاسماء المؤنثة قال صاحب الكشاف واما قول أبي عبيدة التاء داخلة على الحين فلا وجه له واستشهاده بأن التاء ملتزقة بحين في مصحف عثمان فضعيف فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط (البحث الثالث) المناص المنجا والفوت يقال ناصه ينوصه اذا فاته واستناص طلب المناص والله أعلم * قوله تعالى (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشئ عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشئ يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق) اعلم انه تعالى لما حكى عن الكفار كونهم في عزة وشقاق أردفه بشرح كلماتهم الفاسدة فقال وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وفي قوله منهم وجهان (الاول) انهم قالوا ان محمدا مساو لنا في الخلقة الظاهرة والاخلاق الباطنة والنسب والشكل والصورة فكيف يعقل أن يختص من بيننا بهذا المنصب العالي والدرجات الرفيعة (والثاني) أن الغرض من هذه الكلمة التنبيه على كمال جهالتهم وذلك لانه جاءهم رجل يدعوهم الى التوحيد وتعظيم الملائكة والترغيب في الآخرة والتنفير عن الدنيا ثم ان هذا الرجل من أقاربهم يعلمون أنه كان بعيدا من الكذب والتهمة وكل ذلك مما يوجب الاعتراف بتصديقه ثم ان هؤلاء الاقوام لحماقتهم يتعجبون من قوله ونظيره قوله أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون فقال وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ومعناه ان محمدا كان من رهطهم وعشيرتهم وكان مساويا لهم في الاسباب الدنيوية فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته ومن الانقياد لتكاليفه وعجبوا أن يختص هو من بينهم برسالة الله وان يتميز عنهم بهذه الخاصية الشريفة وبالجملة فما كان لهذا التعجب سبب الا الحسد ثم قال تعالى وقال الكافرون هذا ساحر كذاب وانما لم يقل وقالوا بل قال وقال الكافرون اظهارا للتعجب ودلالة على ان هذا القول لا يصدر الا عن الكفر التام فان الساحر هو الذي يمنع من طاعة الله ويدعو الى طاعة الشيطان وهو عندكم بالعكس من ذلك والكذاب هو الذي يخبر عن الشئ لا على ما هو عليه وهو يخبر عن وجود الصانع القديم الحكيم العليم وعن الحشر والنشر وسائر الاشياء التي تثبت بدلائل العقول صحتها فكيف يكون كذابا ثم انه تعالى حكى جميع ما عولوا عليه في اثبات كونه كاذبا وهي ثلاثة أشياء

من جهته عليه الصلاة والسلام امضاؤه وتنفيذه لامحالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لاقول يقال من طرف اللسان
أو أمر يرجى فيه المسامحة بشفاعة أو امتنان فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله من رأيه بوساطة أبي طالب وشفاعته وحسبكم
أن لا تمنعوا من عبادة آلهتكم بالكلية فاصبروا عليها وتحملوا ما تسمعونه في حقها من القدح وسوء القالة وقيل ان هذا الامر
لشيء يريده الله تعالى ويحكم بامضائه وما أراد الله كونه فلا مرد له ولا ينفع فيه الا الصبر وقيل ان هذا الامر

(أحدها) ما يتعلق بالالهيات (وثانيها) ما يتعلق بالنبوات (وثالثها) ما يتعلق بالمعاد اما الشبهة المتعلقة بالالهيات فهي قولهم اجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب روى انه لما أسلم عمر فرح به المسلمون فرحا شديدا وشق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون نفسا من صناديدهم ومشوا الى أبي طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء يعنون المسلمين فجئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك فقال صلى الله عليه وسلم ماذا يسألونني قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك والهك فقال صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان أعطيتكم ما سألتم أتعطوني أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم العجم قالوا نعم فقال قولوا لا اله الا الله فقاموا وقالوا أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب أي بليغ في التعجب وأقول منشأ التعجب من وجهين (الاول) هو ان القوم ما كانوا من أصحاب النظر والاستدلال بل كانت أوهامهم تابعة للمحسوسات فلما وجدوا في الشاهد أن الفاعل الواحد لا تفي قدرته وعلمه بحفظ الخلق العظيم قاسوا الغائب على الشاهد فقالوا لابد في حفظ هذا العالم الكثير من آلهة كثيرة يتكفل كل واحد منهم بحفظ نوع آخر (والوجه الثاني) ان أسلافهم لكثرتهم وقوة عقولهم كانوا مطبقين على الشرك فقالوا من العجيب أن يكون أولئك الاقوام على كثرتهم وقوة عقولهم كانوا جاهلين مبطلين وهذا الانسان الواحد يكون محقا صادقا وأقول لعمري لو سلمنا اجراء حكم الشاهد على الغائب من غير دليل وحجة لكانت الشبهة الاولى لازمة ولما توافقنا على فسادها علمنا أن اجراء حكم الشاهد على الغائب فاسد قطعا واذا بطلت هذه القاعدة فقد بطل أصل كلام المشبهة في الذات وكلام المشبهة في الافعال اما المشبهة في الذات فهو أنهم يقولون لما كان كل موجود في الشاهد يجب أن يكون جسما ومختصا بحيز وجب في الغائب أن يكون كذلك واما المشبهة في الافعال فهم المعتزلة الذين يقولون ان الامر الفلاني قبيح منا فوجب أن يكون قبيحا من الله فثبت بما ذكرنا انه ان صح كلام هؤلاء المشبهة في الذات وفي الافعال لزم القطع بصحة شبهة هؤلاء المشركين وحيث توافقنا على فسادها علمنا أن عمدة كلام المجسمة وكلام المعتزلة باطل فاسد واما الشبهة الثانية فلعمري لو كان التقليد حقا لكانت هذه الشبهة لازمة وحيث كانت فاسدة علمنا أن التقليد باطل بقي ههنا أبحاث (البحث الاول) أن العجاب هو العجيب الا انه أبلغ من العجيب كقولهم طويل وطوال وعريض وعراض وكبير وكبار وقد يشدد للمبالغة كقوله تعالى ومكروا مكرا كبارا (الثاني) قال صاحب الكشاف قرئ عجاب بالتخفيف والتشديد فقال والتشديد أبلغ من التخفيف كقوله تعالى مكرا كبارا ثم قال تعالى وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم قد ذكرنا أن الملأ عبارة عن القوم الذين اذا حضروا في المجلس فانه تمتلئ القلوب والعيون من مهابتهم

لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه وقيل ان دينكم لشيء يراد أي يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه وقيل ان هذا الذي يدعيه من التوحيد او يقصده من الرياسة والترفع على العرب والعجم لشيء يتمنى ويريده كل أحد فتأمل في هذه الاقاويل واختر منها ما يساعده النظم الجليل (ما سمعنا بهذا) الذي يقوله (في الملة الآخرة) أي الملة النصرانية التي هي آخر الملل فانهم مثلثة أو في الملة التي ادركنا عليها آباءنا ويجوز أن يكون الجار والمجرور حالا من هذا أي ما سمعنا بهذا من أهل الكتاب ولا الكهان كائنا في الملة المترقبة ولقد كذبوا في ذلك اقبح كذب فان حديث البعثة والتوحيد كان أشهر الامور قبل الظهور (ان هذا) أي ما هذا (الا اختلاق) أي كذب اختلقه (أأنزل عليه الذكر) أي القرآن (من بيننا) ونحن رؤساء الناس وأشرافهم كقولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ومرادهم انكار كونه ذكرا منزلا من

عند الله عز وجل كقولهم لو كان خيرا ما سبقونا اليه وامثال هذه المقالات الباطلة دليل على أن مناط تكذيبهم ليس الا الحسد وقصر النظر على الحطام الدنيوي (بل هم في شك من ذكري) أي من القرآن أو الوحي لميلهم الى التقليد واعراضهم عن النظر في الادلة المؤدية الى العلم بحقيته وليس في عقيدتهم ما يبتون به فهم مذبذبون بين الاوهام ينسبونه تارة الى السحر وأخرى الى الاختلاق (بل لما يذوقوا عذاب) أي بل لم يذوقوا بعد عذابي فاذا ذاقوه تبين لهم حقيقة

الحال وفي لما دلالة على أن ذوقهم على شرف الوقوع والمعنى انهم لايصدقون به حتى يمسهم العذاب وقيل لم يذوقوا عذابي الموعود في القرآن ولذلك شكوا فيه (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) بل أعندهم خزائن رحمته تعالى يتصرفون فيها حسبما يشاؤن حتى يصيبوا بها من شاؤا ويصرفوها عمن شاؤا ويتحكموا فيها بمقتضى آرائهم فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم والمعنى أن النبوة عطية ﴿١٧٦﴾ من الله عزوجل يتفضل بها على من يشاء من عباده المصطفين لامانع له فانه العزيز أي الغالب الذي لايغالب الوهاب الذي له ان يهب كل مايشاء وفي اضافة اسم الرب المنبئ عن التربية والتبليغ الى الكمال الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه واللطف به مالايخفى وقوله تعالى (أم لهم ملك السموات والارض ومابينهما) ترشيح لما سبق أي بل ألهم ملك هذه العوالم العلوية والسفلية حتى يتكلموا في الامور الربانية ويتحكموا في التدابير الالهية التي يستأثر بها رب العزة والكبرياء وقوله تعالى (فليرتقوا في الاسباب) جواب شرط محذوف أي ان كان لهم ما ذكر من الملك فليصعدوا في المعارج والمناهيج التي يتوصل بها الى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وينزلوا الوحي الى من يختارون ويستصوبون وفيه من التهكم بهم مالاغاية وراءه والسبب في الاصل هو الوصلة وقيل المراد بالاسباب السموات لانها أسباب الحوادث السفلية وقيل أبوابها (جند ماهنالك مهزوم من الاحزاب) أي هم جند ما من الكفار المتحزبين على الرسل مهزوم مكسور عما قريب فلا تبال ﴿ وهي ﴾ بما يقولون ولا تكترث بما يهذون وما مزيدة للتقليل والتحقير نحو قولك أكلت شيأ ما وقيل للتعظيم على الهزء وهنالك إشارة الى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم

وعظمائهم وقوله منهم أي من قريش انطلقوا عن مجلس أبي طالب بعدما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد قائلين بعضهم لبعض أن امشوا واصبروا على آلهتكم وفيه مباحث (البحث الاول) القراءة المشهورة أن امشوا وقرأ ابن أبي عبلة امشوا بحذف أن قال صاحب الكشاف أن بمعنى أي لان المنطلقين عن مجلس التقاول لابد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى في المجلس المتقدم فكان انطلاقهم مضمنا معنى القول وعن ابن عباس وانطلق الملأ منهم يمشون (البحث الثاني) معنى أن امشوا أنه قال بعضهم لبعض امشوا واصبروا فلا حيلة لكم في دفع أمر محمد ان هذا لشئ يراد وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) ظهور دين محمد صلى الله عليه وسلم ليس له سبب ظاهر فثبت أن تزايد ظهوره ليس الا لان الله يريده وما أراد الله كونه فلا دافع له (وثانيها) ان الامر كشئ من نوائب الدهر فلا انفكاك لنا منه (وثالثها) ان دينكم لشئ يراد أي يطلب ليؤخذ منكم قال القفال هذه كلمة تذكر للتهديد والتخويف وكان معناها انه ليس غرض محمد من هذا القول تقرير الدين وانما غرضه أن يستولي علينا فيحكم في أموالنا وأولادنا بما يريد ثم قال ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة والملة الآخرة هي ملة النصارى فقالوا ان هذا التوحيد الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ما سمعناه في دين النصارى أو يكون المراد الملة الآخرة ملة قريش التي أدركوا آباءهم عليها ثم قالوا ما هذا الا اختلاق افتعال وكذب وحاصل الكلام من هذا الوجه انهم قالوا نحن ماسمعنا عن أسلافنا القول بالتوحيد فوجب أن يكون باطلا ولو كان القول بالتقليد حقا لكان كلام هؤلاء المشركين حقا وحيث كان باطلا علمنا أن القول بالتقليد باطل * قوله تعالى (أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب أم لهم ملك السموات والارض وما بينهما فليرتقوا في الاسباب جند ما هنالك مهزوم من الاحزاب) اعلم أن هذا هو الشبهة الثالثة لأولئك الكفار وهي الشبهة المتعلقة بالنبوات وهي قولهم ان محمدا لما كان مساويا لغيره في الذات والصفات والخلقة الظاهرة والاخلاق الباطنة فكيف يعقل أن يختص هو بهذه الدرجة العالية والمنزلة الشريفة وهو المراد من قولهم أأنزل عليه الذكر من بيننا فانه استفهام على سبيل الانكار وحكى الله تعالى عن قوم صالح انهم قالوا مثل هذا القول فقالوا أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر وحكى الله تعالى عن قوم محمد صلى الله عليه وسلم أيضا انهم قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وتمام الكلام في تقرير هذه الشبهة ان قالوا النبوة أشرف المراتب فوجب أن لاتحصل الا لاشرف الناس ومحمد ليس أشرف الناس فوجب أن لاتحصل له النبوة والمقدمتان الاوليان حقيتان لكن الثالثة كاذبة وسبب رواج هذا التغليط عليهم أنهم ظنوا ان الشرف لا يحصل الا بالمال والاعوان وذلك باطل فان مراتب السعادة ثلاثة أعلاها هي النفسانية وأوسطها هي البدنية وأدونها هي الخارجية

وقوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد) الخ استيناف مقرر لمضمون ماقبله ببيان أحوال العتاة الطغاة الذين هؤلاء جند مامن جنودهم مما فعلوا من التكذيب وفعل بهم من العقاب وذو الاوتاد معناه ذو الملك الثابت أصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده فاستعير لثبات الملك ورسوخ السلطنة واستقامة الامر قال الاسود بن يعفر * ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة * في ظل ملك ثابت الاوتاد * أو ذو الجموع الكثيرة سموا ﴿ ١٧٧ ﴾ بذلك لان بعضهم يشد بعضا كالوتد يشد البناء وقيل نصب أربع سوار وكان يمد يدي المعذب ورجليه اليها ويضرب عليها أوتادا ويتركه حتى يموت وقيل كان يمده بين أربعة أوتاد في الارض ويرسل عليه العقارب والحيات وقيل كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه (وثمود وقوم لوط وأصحاب الايكة) أصحاب الغيضة من قوم شعيب عليه السلام وقوله تعالى (أولئك الاحزاب) اما بدل من الطوائف المذكورة كما أن ذلك الكتاب بدل من الم على أحد الوجوه وفيه فضل تأكيد وتنبيه على أنهم الذين جعل الجند المهزوم منهم وقوله تعالى (ان كل الا كذب الرسل) استئناف جيء به تقريرا لتكذيبهم وبيانا لكيفيته وتمهيدا لما يعقبه أي ما كل أحد من آحاد أولئك الاحزاب أو ما كل حزب منهم الا كذب الرسل لان تكذيب واحد منهم تكذيب لهم جميعا لاتفاق الكل على الحق وقيل ما كل حزب الا كذب رسوله على نهج مقابلة الجمع بالجمع وأيا ما كان فالاستثناء مفرغ من أعم العام في خبر المبتدأ أي ما كل أحد منهم محكوما عليه بأنه كذب الرسل وقيل ما كل واحد منهم مخبرا عنه بخبر الا مخبرا عنه بانه كذب الرسل وفي اسناد التكذيب الى الطوائف المذكورة على وجه الابهام أولا والايذان بأن كلا منهم حزب على حياله تحزب على رسوله ثانيا وتبيين كيفية تكذيبهم بالجملة الاستثنائية ثالثا فنون من المبالغة مسجلة عليهم باستحقاق أشد العذاب وأفظعه ولذلك رتب عليه قوله تعالى (فحق عقاب) أي ثبت

وهي المال والجاه فالقوم عكسوا القضية وظنوا باخس المراتب أشرفها فلما وجدوا المال والجاه عند غيره أكثر ظنوا ان غيره أشرف منه فحينئذ انعقد هذا القياس الفاسد في أفكارهم ثم انه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من وجوه (الاول) قوله تعالى بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب وفيه وجهان (أحدهما) أن قوله بل هم في شك من ذكري أي من الدلائل التي لو نظروا فيها لزال هذا الشك عنهم وذلك لان كل ما ذكروه من الشبهات فهي كلمات ضعيفة وأما الدلائل التي تدل بنفسها على صحة نبوته فهي دلائل قاطعة فلو تأملوا حق التأمل في الكلام لوقفوا على ضعف الشبهات التي تمسكوا بها في ابطال النبوة ولعرفوا صحة الدلائل الدالة على صحة نبوته فحيث لم يعرفوا ذلك كان لاجل أنهم تركوا النظر والاستدلال فاما قوله تعالى بل لما يذوقوا عذاب فوقعه من هذا الكلام انه تعالى يقول هؤلاء انما تركوا النظر والاستدلال لاني لم اذقهم عذابي ولو ذاقوه لم يقع منهم الا الاقبال على أداء المأمورات والانتهاء عن المنهيات (وثانيها) أن يكون المراد من قوله بل هم في شك من ذكري هو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم من عذاب الله لو أصروا على الكفر ثم أنهم أصروا على الكفر ولم ينزل عليهم العذاب فصار ذلك سببا لشكهم في صدقه وقالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فقال بل هم في شك من ذكري معناه ما ذكرناه وقوله تعالى بل لما يذوقوا عذاب معناه ان ذلك الشك انما حصل بسبب عدم نزول العذاب (والوجه الثاني) من الوجوه التي ذكرها الله تعالى في الجواب عن تلك الشبهة قوله تعالى أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب وتقرير هذا الجواب أن منصب النبوة منصب عظيم ودرجة عالية والقادر على هبتها يجب أن يكون عزيزا أي كامل القدرة ووهابا أي عظيم الجود وذلك هو الله سبحانه وتعالى واذا كان هو تعالى كامل القدرة وكامل الجود لم يتوقف كونه واهبا لهذه النعمة على كون الموهوب منه غنيا أو فقيرا ولم يختلف ذلك أيضا بسبب أن أعداءه يحبونه أو يكرهونه (والوجه الثالث) في الجواب عن هذه الشبهة قوله تعالى أم لهم ملك السموات والارض وما بينهما فليرتقوا في الاسباب واعلم أنه يجب أن يكون المراد من هذا الكلام مغايرا للمراد من قوله أم عندهم خزائن رحمة ربك والفرق أن خزائن الله تعالى غير متناهية كما قال وان من شيء الا عندنا خزائنه ومن جملة تلك الخزائن هو هذه السموات والارض فلما ذكر الخزائن أولا على عمومها أردفها بذكر ملك السموات والارض وما بينهما يعني ان هذه الاشياء أحد أنواع خزائن الله فاذا كنتم عاجزين عن هذا القسم فبأن تكونوا عاجزين عن كل خزائن الله كان أولى فهذا ما أمكنني ذكره في الفرق بين الكلامين أما قوله تعالى فليرتقوا في الاسباب فالمعنى انهم ان ادعوا ان لهم ملك السموات والارض فعند هذا يقال لهم ارتقوا في الاسباب واصعدوا في المعارج التي يتوصل بها الى العرش حتى يرتفعوا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحي

ووقع على كل منهم عقابي الذي كانت توجبه جناياتهم من أصناف العقوبات المفصلة في مواقعها واما مبتدأ وقوله تعالى ان كل الا كذب الرسل خبره بحذف العائد أي ان كل منهم الخ والجملة استئناف مقرر لما قبله مؤكد لمضمونه مع ما فيه من بيان كيفية تكذيبهم والتنبيه على أنهم الذين جعل الجند المهزوم منهم كما ذكر وقيل هو مبتدأ وخبره والمعنى ان الاحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم وأنهم الذين وجد منهم التكذيب ﴿ ١٧٨ ﴾ فتدبر وأما ما قيل من أنه خبره المبتدأ قوله تعالى وعاد الخ أو قوله وقوم لوط الخ فمما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله (وما ينظر هؤلاء) شروع في بيان عقاب كفار مكة اثر بيان عقاب أضرابهم من الاحزاب لخبره أشير فيما سبق بأنهم جند حقير منهم مهزوم عن قريب فان ذلك مما يوجب انتظار السامع وترقبه الى بيانه وفي الاشارة اليهم بهؤلاء تحقير لشأنهم وتهوين لأمرهم وأما جعله اشارة الى الاحزاب باعتبار حضورهم بحسب الذكر أو حضورهم في علم الله عز وجل فليس في حيز الاحتمال أصلا كيف لا والانتظار سواء كان حقيقة أو استهزاء انما يتصور في حق من لم يترتب على أعماله نتائجها بعد وبعد ما بين عقاب الاحزاب واستئصالهم بالمرة لم يبق مما أريد بيانه من عقوباتهم أمر منتظر وانما الذين في مرصد الانتظار كفار مكة حيث ارتكبوا من عظائم الجرائم وكبائر الجرائر الموجبة لاشد العقوبات مثل ما ارتكب الاحزاب أو أشد منه ولما يلاقوا بعد شيئا من غوائلها أي وما ينتظر هؤلاء الكفرة الذين هم أمثال أولئك الطوائف المهلكة في الكفر والتكذيب (الا صيحة واحدة) هي النفخة الثانية لا بمعنى أن عقابهم ﴿المعذب﴾ نفسها بما فيها من الشدة والهول فانها داهية يعم هولها جميع الامم برها وفاجرها بل بمعنى أنه ليس بينهم و بين حلول ما أعد لهم من العقاب الفظيع الا هي حيث أخرت عقوبتهم الى الآخرة لما أن تعذيبهم بالاستئصال حسبما يستحقونه والنبي عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم خارج عن السنة الالهية المبنية على الحكم الباهرة كما نطق به قوله تعالى وما كان ليعذبهم وأنت فيهم

على من يختارون واعلم أن حكماء الاسلام استدلوا بقوله فليرتقوا في الاسباب على ان الاجرام الفلكية وما أودع الله فيها من القوى والخواص أسباب لحوادث العالم السفلي لان الله تعالى سمى الفلكيات أسبابا وذلك يدل على ما قلناه والله أعلم أما قوله تعالى جند ما هنالك مهزوم من الاحزاب ففيه مقامان من البحث (أحدهما) في تفسير هذه الالفاظ (والثاني) في كيفية تعلقها بما قبلها (أما المقام الاول) فقوله جند مبتدأ وما للابهام كقوله جئت لامر ما وعندي طعام ما ومن الاحزاب صفة لجند ومهزوم خبر المبتدا وأما قوله هنالك فيجوز أن يكون صفة لجند أي جند ثابت هنالك ويجوز أن يكون متعلقا بمهزوم معناه ان الجند من الاحزاب مهزوم هنالك أي في ذلك الموضع الذي كانوا يذكرون فيه هذه الكلمات الطاعنة في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وأما المقام الثاني) فهو انه تعالى لما قال ان كانوا يملكون السموات والارض فليرتقوا في الاسباب ذكر عقيبه انهم جند من الاحزاب مهزومون منهزمون فكيف يكونون مالكين السموات والارض وما بينهما قال قتادة هنالك اشارة الى يوم بدر فأخبر الله تعالى بمكة أنه سيهزم جند المشركين فجاء تأويلها يوم بدر وقيل يوم الخندق والاصوب عندي حمله على يوم فتح مكة وذلك لان المعنى انهم جند سيصيرون منهزمين في الموضع الذي ذكروا فيه هذه الكلمات وذلك الموضع هو مكة فوجب أن يكون المراد انهم سيصيرون منهزمين في مكة وما ذاك الا يوم الفتح والله أعلم * قوله تعالى

(كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الايكة أولئك الاحزاب ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة ما لها من فواق) اعلم انه تعالى لما ذكر في الجواب عن شبهة القوم أنهم انما توانوا وتكاسلوا في النظر والاستدلال لاجل انهم لم ينزل بهم العذاب بين تعالى في هذه الآية ان أقوام سائر الانبياء هكذا كانوا ثم بالآخرة نزل ذلك العقاب والمقصود منه تخويف أولئك الكفار الذين كانوا يكذبون الرسول في اخباره عن نزول العقاب عليهم فذكر الله ستة أصناف منهم أولهم قوم نوح عليه السلام ولما كذبوا نوحا أهلكهم الله بالغرق والطوفان (والثاني) عاد قوم هود لما كذبوه أهلكهم الله بالريح (والثالث) فرعون لما كذب موسى أهلكه الله مع قومه بالغرق (والرابع) ثمود قوم صالح لما كذبوه فأهلكوا بالصيحة (والخامس) قوم لوط كذبوه فأهلكوا بالخسف (والسادس) أصحاب الايكة وهم قوم شعيب كذبوه فأهلكوا بعذاب يوم الظلة قالوا وانما وصف الله فرعون بكونه ذا الاوتاد لوجوه (الاول) ان أصل هذه الكلمة من ثبات البيت المطنب بأوتاده ثم استعير لاثبات العز والملك قال الشاعر

ولقد غنوا فيها بانعم عيشة * في ظل ملك ثابت الاوتاد

قال القاضي حمل الكلام على هذا الوجه أولى لانه لما وصف بتكذيب الرسل فيجب فيما وصف به ان يكون تفخيما لامر ملكه ليكون الزجر بما ورد من قبل الله تعالى عليه من الهلاك مع قوة أمره أبلغ (والثاني) انه كان ينصب الخشب في الهواء وكان يمد يدي

وأما ماقيل من أنها النفخة الاولى فمالا وجه له اصلا لما أنه لايشاهد هولها ولايصعق بها الا من كان حيا عند وقوعها
وليس عقابهم الموعود واقعا عقيبها ولا العذاب المطلق مؤخرا اليها بل يحل بهم من حين موتهم (مالها من فواق)
أي من توقف مقدار فواق، وهو ما بين الحلبتين وقرئ بضم الفاء وهما لغتان وقوله تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا
قبل يوم الحساب) حكاية لما قالوه عند سماعهم بتأخير عقابهم الى الآخرة أي قالوا بطريق الاستهزاء
والسخرية عجل لنا قطنا من العذاب الذي توعدنا به ولا تؤخره الى يوم الحساب الذي مبدؤه الصيحة المذكورة والقط القطعة من الشئ من قطه اذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط لانها قطعة من القرطاس وقد فسر بها أي عجل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها وقيل ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد الله تعالى المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الهزؤ به عجل لنا نصيبنا منها وتصدير دعائهم النداء المذكور للامعان في الاستهزاء كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال (اصبر على ما يقولون) من أمثال هذه المقالات الباطلة (واذكر) لهم (عبدنا داود) أي قصته تهويلا للامر المعصية في أعينهم وتنبيها لهم على كمال قبح ما اجترؤا عليه من المعاصي فانه عليه الصلاة والسلام مع علو شأنه واختصاصه بعظائم النعم والكرامات لما ألم بصغيرة نزل عن منزلته ووبخته الملائكة بالتمثيل والتعريض حتى تفطن فاستغفر ربه وأناب ووجد منه مايحكى من بكائه الدائب وغمه الواصب ونوحه
الدائم فما الظن بهؤلاء الكفرة الاذلين من كل ذليل المرتكبين لاكبر الكبائر المصرين على أعظم المعاصي أو تذكر قصته عليه الصلاة
والسلام وصن نفسك أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذيتهم كي لايلقاك ما لقيه من المعاتبة (ذا الايد) أي ذا القوة يقال
فلان أيد وذو أيد وآد بمعنى واياد كل شئ ما يتقوى به (انه أواب) رجاع الى مرضاة الله تعالى وهو تعليل لكونه ذا الايد ودليل على أن
المراد به القوة في الدين فانه عليه الصلاة والسلام كان يصوم يوما ويفطر يوما ويقوم نصف الليل (انا سخرنا الجبال معه) استئناف

المعذب ورجليه الى تلك الخشب الاربع ويضرب على كل واحد من هذه الاعضاء وتدا ويتركه معلقا في الهواء الى أن يموت (والثالث) انه كان يمد المعذب بين أربعة أوتاد في الارض ويرسل عليه العقارب والحيات (والرابع) قال قتادة كانت أوتادا وارسانا وملاعب يلعب بها عنده (والخامس) ان عساكره كانوا كثيرين وكانوا كثيري الاهبة عظيمي النعم وكانوا يكثرون من الاوتاد لاجل الخيام فعرف بها (والسادس) ذو الاوتاد والجموع الكثيرة وسميت الجموع أوتادا لانهم يقوون أمره ويشدون مملكته كما يقوي الوتد البناء وأما الايكة فهي الغيضة الملتفة ثم قال تعالى أولئك الاحزاب وفيه أقوال (الاول) ان هؤلاء الذين ذكرناهم من الامم هم الذين تحزبوا على أنبيائهم وأهلكناهم فكذلك نفعل بقومك لانه تعالى بين بقوله جند ما هنالك مهزوم من الاحزاب ان قوم محمد صلى الله عليه وسلم جند من الاحزاب أي من جنس الاحزاب المتقدمين فلما ذكر انه عامل الاحزاب المتقدمين بالاهلاك كان ذلك تخويفا شديدا لقوم محمد صلى الله عليه وسلم (الثاني) ان معنى قوله أولئك الاحزاب مبالغة لوصفهم بالقوة والكثرة كما يقال فلان هو الرجل والمعنى ان حال أولئك الاحزاب مع كمال قوتهم لما كان هو الهلاك والبوار فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين واعلم أن هؤلاء الاقوام ان صدقوا بهذه الاخبار فهو تحذير وان لم يصدقوا بها فهو تحذير أيضا لان آثار هذه الوقائع باقية وهو يفيد الظن القوي فيحذرون ولان ذكر ذلك على سبيل التكرير يوجب الحذر أيضا ثم قال ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب أي كل هذه الطوائف لما كذبوا أنبياءهم في الترغيب والترهيب لاجرم نزل العقاب عليهم وان كان ذلك بعد حين والمقصود منه زجر السامعين ثم بين تعالى ان هؤلاء المكذبين وان تأخر هلاكهم فكأنه واقع بهم فقال وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق وفي تفسير هذه الصيحة قولان (الاول) أن يكون المراد عذابا يفجأهم ويجيئهم دفعة واحدة كما يقال صاح الزمان بهم اذا هلكوا قال الشاعر

صاح الزمان بآل برمك صيحة * خروا لشدتها على الاذقان

ويشبه أن يكون أصل ذلك من الغارة اذا عافصت القوم فوقعت الصيحة فيهم ونظيره قوله تعالى فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم الآية (والقول الثاني) ان هذه الصيحة هي صيحة النفخة الاولى في الصور كما قال تعالى في سورة يس ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون والمعنى انهم وان لم يذوقوا عذابي في الدنيا فهو معد لهم يوم القيامة فكأنهم بذلك العذاب وقد جاءهم فجعلهم منتظرين لها على معنى قربها منهم كالرجل الذي ينتظر الشئ فهو ماد الطرف اليه يطمع كل ساعة في حضوره ثم انه سبحانه وصف هذه الصيحة فقال مالها من فواق قرأ حمزة والكسائي فواق بضم الفاء والباقون بفتحها قال الكسائي والفراء وأبو عبيدة والاخفش هما لغتان من فواق الناقة وهو ما بين حلبتي الناقة وأصله من الرجوع يقال أفاق من مرضه أي رجع الى الصحة فالزمان

مسوق لتعليل قوته في الدين وأوابيته الى مرضاته تعالى وقيل متعلقة بالتسخير وايثارها على اللام لما أشير اليه في سورة الأنبياء من أن تسخير الجبال له عليه الصلاة والسلام لم يكن بطريق تفويض التصرف الكلي فيها اليه عليه الصلاة والسلام كتسخير الريح وغيرها لسليمان عليه السلام بل بطريق التبعية له عليه الصلاة والسلام والاقتداء به في عبادة الله تعالى وقيل متعلقة بما بعدها وهو أقرب بالنسبة الى ما في سورة الانبياء عليهم الصلاة والسلام (يسبحن) أي يقدسن الله عز وجل بصوت يتمثل له أو بخلق الله تعالى فيها الكلام أو بلسان الحال وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال من الجبال وضع موضع مسبحات للدلالة على تجدد التسبيح حالا بعد حال أو استئناف مبين لكيفية التسخير (بالعشي والاشراق) اي ووقت الاشراق وهو حين تشرق الشمس أي تضيء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى وأما شروقها فطلوعها يقال شرقت الشمس ولما تشرق وعن أم هانئ رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام صلى صلاة الضحى وقال هذه صلاة الاشراق وعن ابن عباس رضي الله عنهما ما عرفت صلاة الضحى الا بهذه الآية (والطير) عطف على الجبال (محشورة) حال من الطير والعامل سخرنا أي وسخرنا الطير حال كونها محشورة عن ابن عباس رضي الله عنهما كان اذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت اليه الطير فسبحت وذلك حشرها وقرئ والطير محشورة بالرفع على الابتداء والخبرية (كل له أواب) استئناف مقرر لمضمون ما قبله مصرح بما فهم منه اجمالا من تسبيح الطير أي كل واحد من الجبال والطير لاجل تسبيحه رجاع الى التسبيح ووضع الاواب موضع المسبح اما لانها كانت ترجع التسبيح والمرجع رجاع لانه ﴿ ذلك ﴾ يرجع الى فعله رجوعا بعد رجوع وأما لان الاواب هو التواب الكثير الرجوع الى الله تعالى ومن دأبه اكثار الذكر وادامة التسبيح والتقديس وقيل الضمير لله عز وجل أي كل من داود والجبال والطير لله أواب أي مسبح مرجع للتسبيح (وشددنا ملكه) قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود وقرئ بالتشديد للمبالغة قيل كان يبيت حول محرابه أربعون

الحاصل بين الحلبتين لعود اللبن الى الضرع يسمى فواقا بالفتح وبالضم كقولك قصاص الشعر وقصاصه قال الواحدي والفواق والفواق اسمان من الافاقة والافاقة معناها الرجوع والسكون كافاقة المريض الا أن الفواق بالفتح يجوز أن يقام مقام المصدر والفواق بالضم اسم لذلك الزمان الذي يعود فيه اللبن الى الضرع وروى الواحدي في البسيط عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في هذه الآية يأمر الله اسرافيل فينفخ نفخة الفزع قال فيمدها ويطولها وهي التي يقول ما لها من فواق ثم قال الواحدي وهذا يحتمل معنيين (أحدهما) ما لها سكون (والثاني) ما لها رجوع والمعنى ما تسكن تلك الصيحة ولا ترجع الى السكون ويقال لكل من بقي على حالة واحدة انه لا يفيق منه ولا يستفيق والله أعلم * قوله تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الايد انه أواب) اعلم انا ذكرنا في تفسير قوله وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أن القوم انما تعجبوا من الشبهات ثلاثة (أولها) تتعلق بالالهيات وهو قوله أجعل الآلهة الها واحدا (والثانية) تتعلق بالنبوات وهو قوله أأنزل عليه الذكر من بيننا (والثالثة) تتعلق بالمعاد وهو قوله تعالى وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب وذلك لان القوم كانوا في نهاية الانكار للقول بالحشر والنشر فكانوا يستدلون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوته والقط القطعة من الشئ لانه قطع منه من قطه اذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد المؤمنين بالجنة قالوا على سبيل الاستهزاء عجل لنا نصيبنا من الجنة أو عجل لنا صحيفة أعمالنا حتى ننظر فيها واعلم أن الكفار لما بالغوا في السفاهة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قالوا انه ساحر كذاب وقالوا له على سبيل الاستهزاء عجل لنا قطنا أمره الله بالصبر على سفاهتهم فقال اصبر على ما يقولون فان قيل أي تعلق بين قوله اصبر على ما يقولون وبين قوله واذكر عبدنا داود قلنا بيان هذا التعلق من وجوه (الاول) كأنه قيل ان كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهال جراءتهم على الله وانكارهم الحشر والنشر فاذكر قصة داود حتى تعرف شدة خوفه من الله تعالى ومن يوم الحشر فان بقدر ما يزداد أحد الضدين شرفا يزداد الضد الآخر نقصانا (والثاني) كأنه قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم لا يضيق صدرك بسبب انكارهم لقولك ودينك فانهم اذا خالفوك فالاكابر من الانبياء وافقوك (والثالث) ان الناس في قصة داود قولين منهم من قال انها تدل على ذنبه ومنهم من قال انها لا تدل عليه (فمن قال بالاول) كان وجه المناسبة فيه كأنه قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم ان حزنك ليس الا لان الكفار يكذبونك وأما حزن داود فكان بسبب وقوعه في ذلك الذنب ولا شك أن حزنه أشد فتأمل في قصة داود وما كان فيه من الحزن العظيم حتى يخف عليك ما أنت فيه من الحزن (ومن قال بالثاني) قال الخصمان اللذان دخلا على داود كانا من البشر وانما دخلا عليه لقصد قتله فخاف منهم داود ومع

ألف مستلئم وقيل ادعى رجل على آخر بقرة وعجز عن اقامة البينة فأوحى الله تعالى اليه في المنام أن اقتل المدعى عليه فتأخر فأعيد الوحي في اليقظة فاعلمه الرجل فقال ان الله تعالى لم يأخذني بهذا الذنب ولكن باني قتلت أباهذا غيلة فقال الناس ان اذنب أحد ذنبا أظهره الله تعالى عليه فقتله فهابوه وعظمت هيبته في القلوب (وآتيناه الحكمة) النبوة وكمال العلم واتقان العمل وقيل الزبور وعلم الشرائع وقيل كل كلام وافق الحق ﴿ ١٨١ ﴾ فهو حكمة (وفصل الخطاب) أي فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل أو الكلام الملخص الذي ينبه المخاطب على المرام من غير التباس لما قد روعي فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف والاظهار والاضمار والحذف والتكرار وانما سمي به أما بعد لانه يفصل المقصود عما سبق تمهيدا له كالحمد والصلاة وقيل هو الخطاب الفصل الذي ليس فيه ايجاز مخل ولا اطناب ممل كما جاء في نعت كلام النبوة فصل لانزر ولا هذر (وهل أتاك نبأ الخصم) استفهام معناه التعجيب والتشويق الى استماع ما في حيزه لايذانه بانه من الانباء البديعة التي حقها ان تشيع فيما بين كل حاضر وباد والخصم في الاصل مصدر ولذلك يطلق على الواحد وما فوقه كالضيف ومعنى خصمان فريقان (اذ تسوروا المحراب) اذ تصعدوا سوره ونزلوا اليه والسور الحائط المرتفع ونظيره تسنمه اذا علا سنامه وتذراه اذا علا ذروته واذ متعلقة بمحذوف أي نبأ تحاكم الخصم اذ تسوروا أو بالنبأ على أن المراد به الواقع في عهد داود عليه السلام وأن اسناد الاتيان اليه على حذف مضاف أي قصة نبأ الخصم أو بالخصم لما فيه من معنى الخصومة لا بأتى لان اتيانه الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن حينئذ وقوله تعالى (اذ دخلوا على داود) بدل مما قبله أو ظرف تسوروا (ففزع منهم) روى أنه تعالى بعث اليه ملكين في صورة انسانين قيل هما جبريل وميكائيل عليهما السلام فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحرس فتسورا عليه المحراب بمن معهما من الملائكة فلم يشعر الا وهما بين يديه جالسان ففزع منهم لانهم نزلوا عليه من فوق على خلاف العادة

ذلك فلم يتعرض لايذائهما ولا دعا عليهما بسوء بل استغفر لهما على ما سيجيء تقرير هذه الطريقة فلا جرم أمر الله تعالى محمدا عليه السلام بان يقتدي به في حسن الخلق (والخامس) ان قريشا انما كذبوا محمدا عليه السلام واستخفوا به لقولهم في أكثر الامر انه يتيم فقير ثم انه تعالى قص على محمد كمال مملكة داود ثم بين انه مع ذلك ما سلم من الاحزان والغموم ليعلم أن الخلاص عن الحزن لا سبيل اليه في الدنيا (والسادس) أن قوله تعالى اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود غير مقتصر على داود فقط بل ذكر عقيب قصة داود قصص سائر الانبياء فكأنه قال فاصبر على ما يقولون واعتبر بحال سائر الانبياء ليعلم أن كل واحد منهم كان مشغولا بهم خاص وحزن خاص فحينئذ يعلم أن الدنيا لا تنفك عن الهموم والاحزان وان استحقاق الدرجات العالية عند الله لا يحصل الا بتحمل المشاق والمتاعب في الدنيا وهذه وجوه ذكرناها في هذا المقام وههنا وجه آخر أقوى وأحسن من كل ما تقدم وسيجيء ذكره ان شاء الله تعالى عند الانتهاء الى تفسير قوله كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته واعلم انه تعالى ذكر بعد ذلك حال تسعة من الانبياء فذكر حال ثلاثة منهم على التفصيل وحال ستة آخرين على الاجمال (فالقصة الاولى) قصة داود واعلم أن مجامع ما ذكره الله تعالى في هذه القصة ثلاثة أنواع من الكلام (فالاول) تفصيل ما آتى الله داود من الصفات التي توجب سعادة الآخرة والدنيا (والثاني) شرح تلك الواقعة التي وقعت له من أمر الخصمين (والثالث) استخلاف الله تعالى اياه بعد وقوع تلك الواقعة (أما النوع الاول) وهو شرح الصفات التي آتاها الله داود من الصفات الموجبة لكمال السعادة فهي عشرة (الاول) قوله لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود وأمر محمدا صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره بان يقتدي في الصبر على طاعة الله بداود وذلك تشريف عظيم واكرام تام لداود حيث امر الله أفضل الخلق محمدا صلى الله عليه وسلم بان يقتدي به في مكارم الاخلاق (والثاني) أنه قال في حقه عبدنا داود فوصفه بكونه عبدا له وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم وذلك غاية التشريف الا ترى انه سبحانه وتعالى لما أراد أن يشرف محمدا عليه السلام ليلة المعراج قال سبحان الذي أسرى بعبده فههنا يدل على ذلك التشريف لداود فكان ذلك دليلا على علو درجته أيضا فان وصف الله تعالى الانبياء بعبوديته مشعر بانهم قد حققوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد في الطاعة (والثالث) قوله ذا الايد أي ذا القوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصي وذلك لانه تعالى لما مدحه بالقوة وجب ان تكون تلك القوة موجبة للمدح والقوة التي توجب المدح العظيم ليست الا القوة على فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه والايد المذكور ههنا كالقوة المذكورة في قوله يا يحيى خذ الكتاب بقوة وقوله تعالى وكتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة أي باجتهاد في أداء الامانة وتشدد في القيام بالدعوة وترك اظهار الوهن والضعف والايد

والحرس حوله في غير يوم الحكومة والقضاء قال ابن عباس رضي الله عنهما ان داود عليه السلام جزأ زمانه اربعة اجزاء يوما للعبادة ويوما للقضاء ويوما للاشتغال بخاصة نفسه ويوما للوعظ والتذكير (قالوا) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية فزعه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قالت الملائكة عند مشاهدتهم لفزعه فقيل قالوا ازالة لفزعه (لا تخف خصمان) أي نحن فوجان متخاصمان على تسمية مصاحب الخصم خصما (بغى بعضنا على ﴿١٨٢﴾ بعض) هو على الفرض وقصد التعريض فلا كذب فيه (فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط) أي لا تجر في الحكومة وقرئ ولا تشطط أي لا تبعد عن الحق وقرئ ولا تشطط ولا تشاطط وكلها من معنى الشطط وهو مجاوزة الحد وتخطي الحق (واهدنا الى سواء الصراط) الى وسط طريق الحق بزجر الباغي عما سلكه من طريق الجور وارشاده الى منهاج العدل (ان هذا أخي) استئناف لبيان ما فيه الخصومة أي أخي في الدين أو في الصحبة والتعرض لذلك تمهيد لبيان كمال قبح ما فعل به صاحبه (له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة) هي الانثى من الضأن وقد يكنى بها عن المرأة والكناية والتعريض أبلغ في المقصود وقرئ تسع وتسعون بفتح التاء ونعجة بكسر النون وقرئ ولي نعجة بسكون الياء (فقال أكفلنيها) أي ملكنيها وحقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي وقيل اجعلها كفلي أي نصيبي (وعزني في الخطاب) أي غلبني في مخاطبته اياي محاجة بان جاء بحجاج لم أقدر على رده أو في مغالبته اياي في الخطبة يقال خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبني خطابا أي غالبني في الخطبة فغلبني حيث ﴿ انه ﴾ زوجها دوني وقرئ وعازني أي غالبني وعزني بتخفيف الزاي طلبا للخفة وهو تخفيف غريب كأنه قيس على ظلت ومست (قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه) جواب قسم محذوف قصد به عليه الصلاة والسلام المبالغة في انكار فعل صاحبه وتهجين طمعه في نعجة من ليس له غيرها مع أن له قطيعا منها ولعله عليه الصلاة والسلام قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادعاه

والقوة سواء ومنه قوله تعالى هو الذي أيدك بنصره وقوله تعالى وأيدناه بروح القدس وقال والسماء بنيناها بأيد وعن قتادة أعطي قوة في العبادة وفقها في الدين وكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر (الرابع) قوله انه أواب أي ان داود كان رجاعا في أموره كلها الى طاعتي والاواب فعال من آب اذا رجع كما قال تعالى ان الينا ايابهم وفعال بناء المبالغة كما يقال قتال وضراب فانه أبلغ من قاتل وضارب (الخامس) قوله تعالى انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق ونظير هذه الآية قوله تعالى يا جبال أوبي معه والطير وفيه مباحث (البحث الاول) وفيه وجوه (الاول) ان الله سبحانه خلق في جسم الجبل حياة وعقلا وقدرة ومنطقا وحينئذ صار الجبل مسبحا لله تعالى ونظيره قوله تعالى فلما تجلى ربه للجبل فان معناه انه تعالى خلق في الجبل عقلا وفهما ثم خلق فيه رؤية الله تعالى فكذا ههنا (الثاني) في التأويل ما رواه القفال في تفسيره انه يجوز أن يقال ان داود عليه السلام قد أوتي من شدة الصوت وحسنه ما كان له في الجبال دوي حسن وما يصغي الطير اليه لحسنه فيكون دوي الجبال وتصويت الطير معه واصغاؤها اليه تسبيحا وذكر محمد بن اسحق ان الله تعالى لم يعط أحدا من خلقه مثل صوت داود حتى انه كان اذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتى يأخذ باعناقها (الثالث) ان الله سبحانه سخر الجبال حتى انها كانت تسير الى حيث يريده داود وجعل ذلك السير تسبيحا لانه كان يدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته (البحث الثاني) قال صاحب الكشاف يسبحن في معنى مسبحات فان قالوا هل من فرق بين يسبحن ومسبحات قلنا نعم لان صيغة الفعل تدل على الحدوث والتجدد وصيغة الاسم على الدوام على ما بينه عبد القاهر النحوي في كتاب دلائل الاعجاز اذا ثبت هذا فنقول قوله يسبحن يدل على حدوث التسبيح من الجبال شيأ بعد شيء وحالا بعد حال وكأن السامع محاضر تلك الجبال يسمعها تسبح (البحث الثالث) قال الزجاج يقال شرقت الشمس اذا طلعت وأشرقت اذا أضاءت وقيل هما بمعنى (والاول) أكثر تقول العرب شرقت الشمس ولما تشرق (البحث الرابع) احتجوا على شرعية صلاة الضحى بهذه الآية عن أم هانئ قالت دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى وقال يا أم هانئ هذه صلاة الاشراق وعن طاوس عن ابن عباس قال هل تجدون ذكر صلاة الضحى في القرآن قالوا لا فقرأ انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق وقال كان يصليها داود عليه السلام وقال لم يزل في نفسي شيء من صلاة الضحى حتى وجدتها في قوله يسبحن بالعشي والاشراق (الصفة السادسة) من صفات داود عليه السلام قوله تعالى والطير محشورة كل له أواب وفيه مباحث (البحث الاول) قوله والطير معطوفة على الجبال والتقدير وسخرنا الطير محشورة قال ابن عباس رضي الله عنهما كان داود اذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت اليه الطير فسبحت معه واجتماعها اليه هو حشرها فيكون على هذا التقدير حاشرها هو الله (فان قيل) كيف يصدر تسبيح الله عن الطير مع

عليه أو بناء على تقدير صدق المدعى والسؤال مصدر مضاف الى مفعوله وتعديته الى مفعول آخر بالى لتضمنه معنى الاضافة والضم (وان كثيرا من الخلطاء) أى الشركاء الذين خلطوا اموالهم (ليبغى) ليتعدى وقرئ بفتح الياء اكتفاء بالكسرة (بعضهم على بعض) غير مراع لحق الصحبة والشركة (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) منهم فانهم يتحامون عن البغى والعدوان (وقليل ماهم) أى وهم قليل وما مزيدة للابهام والتعجب من قلتهم والجملة اعتراض (وظن داود أنما فتناه) الظن مستعار للعلم الاستدلالى لما بينهما من المشابهة الظاهرة أى علم بما جرى فى مجلس الحكومة وقيل لما قضى بينهما نظر أحدهما الى صاحبه فضحك ثم صعد الى السماء حيال وجهه فعلم عليه الصلاة والسلام انه تعالى ابتلاه وليس المعنى على تخصيص الفتنة به عليه الصلاة والسلام دون غيره بتوجيه القصر المستفاد من كلمة انما الى المفعول بالقياس الى مفعول آخر كما هو الاستعمال الشائع الوارد على توجيه القصر الى متعلقات الفعل وقيوده باعتبار النفى فيه والاثبات فيها كما فى مثل قولك انما ضربت زيدا وانما ضربته تأديبا بل على تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام بالفتنة بتوجيه القصر الى نفس الفعل بالقياس الى مغايره من الافعال لكن لا باعتبار النفى والاثبات معا فى خصوصية الفعل فانه غير ممكن قطعا بل باعتبار النفى فيما فيه من معنى مطلق الفعل واعتبار الاثبات فيما يقارنه من المعنى المخصوص فان كل فعل من الافعال المخصوصة ينحل عند التحقيق الى معنى مطلق هو مدلول لفظ الفعل والى معنى مخصوص يقارنه ويقيده وهو أثره فى الحقيقة فان معنى نصر مثلا فعل النصر يرشدك الى ذلك قولهم معنى فلان يعطى ويمنع يفعل الاعطاء والمنع فورد القصر فى الحقيقة ما يتعلق بالفعل باعتبار النفى فيه والاثبات فيما يتعلق به فالمعنى وعلم داود عليه السلام أنما فعلنا به الفتنة لا غير قيل ابتليناه بامرأة أوريا وقيل امتحناه بتلك الحكومة هل يتنبه بها لما قصد منها وايثار طريق التمثيل لانه أبلغ فى التوبيخ

انه لا عقل لها قلنا لا يبعد أن يقال ان الله تعالى كان يخلق لها عقلا حتى تعرف الله فتسبحه حينئذ وكل ذلك كان معجزة لداود عليه السلام (البحث الثانى) قال صاحب الكشاف قوله محشورة فى مقابلة يسبحن الا انه ليس فى الحشر مثل ما كان فى التسبيح من ارادة الدلالة على الحدوث شيئا بعد شئ فلا جرم جئ به اسما لا فعلا وذلك لو قيل وسخرنا الطير يحشرن على تقدير ان الحشر وجد من حاشرها جملة واحدة دل على القدرة المذكورة والله أعلم (البحث الثالث) قرئ والطير محشورة بالرفع (الصفة السابعة) من صفات داود عليه السلام قوله تعالى كل له أواب ومعناه كل واحد من الجبال والطير أواب أى رجاع أى كلما رجع داود الى التسبيح جاوبته فهذه الاشياء أيضا كانت ترجع الى تسبيحاتها والفرق بين هذه الصفة وبين ما قبلها أن فيما سبق علمنا ان الجبال والطير سبحت مع تسبيح داود عليه السلام وبهذا اللفظ فهمنا دوام تلك الموافقة وقيل الضمير فى قوله كل له أواب لله تعالى أى كل من داود والجبال والطير لله أواب أى مسبح مرجع للتسبيح (الصفة الثامنة) قوله تعالى وشددنا ملكه أى قويناه وقال تعالى سنشد عضدك بأخيك وقيل شددنا على المبالغة وأما الاسباب الموجبة لحصول هذا الشد فكثيرة وهى اما الاسباب الدنيوية أو الدينية أما الاول فذكروا فيه وجهين (الاول) روى الواحدى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما انه كان يحرسه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل فاذا أصبح قيل ارجعوا فقد رضى عنكم نبى الله وزاد آخرون فذكروا اربعين الفا قالوا وكان أشد ملوك الارض سلطانا وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلا ادعى عند داود على رجل أخذ منه بقرة فانكر المدعى عليه فقال داود للمدعى أقم البينة فلم يقمها فرأى داود فى منامه ان الله يأمره أن يقتل المدعى عليه فتثبت داود وقال هو منام فأتاه الوحى بعد ذلك بان يقتله فاحضره وأعلمه أن الله أمره بقتله فقال المدعى عليه صدق الله انى كنت قتلت أبا هذا الرجل غيلة فقتله داود فهذه الواقعة شددت ملكه وأما الاسباب الدينية الموجبة لهذا الشد فهى الصبر والتأمل التام والاحتياط الكامل (الصفة التاسعة) قوله وآتيناه الحكمة واعلم انه تعالى قال ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا واعلم أن الفضائل على ثلاثة أقسام النفسانية والبدنية والخارجية والفضائل النفسانية محصورة فى قسمين العلم والعمل أما العلم فهو ان تصير النفس بالتصورات الحقيقية والتصديقات النفسانية بمقتضى الطاقة البشرية وأما العمل فهو ان يكون الانسان آتيا بالعمل الاصلح الاصوب بمصالح الدنيا والآخرة فهذا هو الحكمة وانما سمى هذا بالحكمة لان اشتقاق الحكمة من احكام الامور وتقويتها وتبعيدها عن اسباب الرخاوة والضعف والاعتقادات الصائبة الصحيحة لا تقبل النسخ والنقض فكانت فى غاية الاحكام وأما الاعمال المطابقة لمصالح الدنيا والآخرة فانها واجبة الرعاية ولا تقبل النقض والنسخ فلهذا السبب سمينا تلك المعارف وهذه الاعمال بالحكمة (الصفة العاشرة)

قوله وفصل الخطاب واعلم أن اجسام هذا العالم على ثلاثة أقسام (أحدها) ما تكون خالية عن الادراك والشعور وهى الجمادات والنباتات (وثانيها) التى يحصل لها ادراك وشعور ولكنها لا تقدر على تعريف غيرها الاحوال التى عرفوها فى الاكثر وهذا القسم هو جملة الحيوانات سوى الانسان (وثالثها) الذى يحصل له ادراك وشعور ويحصل عنده قدرة على تعريف غيره الاحوال المعلومة له وذاك هو الانسان وقدرته على تعريف الغير الاحوال المعلومة عنده بالنطق والخطاب ثم ان الناس مختلفون فى مراتب القدرة على التعبير عما فى الضمير فمنهم من يتعذر عليه ايراد الكلام المرتب المنتظم بل يكون مختلط الكلام مضطرب القول ومنهم من يتعذر عليه الترتيب من بعض الوجوه ومنهم من يكون قادرا على ضبط المعنى والتعبير عنه الى أقصى الغايات وكل من كانت هذه القدرة فى حقه أكمل كانت الآثار الصادرة عن النفس النطقية فى حقه أكمل وكل من كانت تلك القدرة فى حقه أقل كانت تلك الآثار أضعف ولما بين الله تعالى كمال حال جوهر النفس النطقية التى لداود بقوله وآتيناه الحكمة أردفه ببيان كمال حاله فى النطق واللفظ والعبارة فقال وفصل الخطاب وهذا الترتيب فى غاية الجلالة ومن المفسرين من فسر ذلك بأن داود أول من قال فى كلامه أما بعد وأقول حقا ان الذين يتبعون أمثال هذه الكلمات فقد حرموا الوقوف على معانى كلام الله تعالى حرمانا عظيما والله أعلم وقول من قال المراد معرفة الامور التى بها يفصل بين الخصوم وهو طلب البينة واليمين فبعيد أيضا لان فصل الخطاب عبارة عن كونه قادرا على التعبير عن كل ما يخطر بالبال ويحضر فى الخيال بحيث لا يختلط شئ بشئ وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام وهذا معنى عام يتناول جميع الاقسام والله أعلم وههنا آخر الكلام فى الصفات العشرة التى ذكرها الله تعالى فى مدح داود عليه السلام * قوله تعالى (وهل اتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب اذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط ان هذا اخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا واناب فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) اعلم ان الله تعالى لما مدحه وأثنى عليه من الوجوه العشرة أردفه بذكر قصة ليبين بها أن الاحوال الواقعة فى هذه القصة لا يبين شئ منها كونه عليه السلام مستحقا للثناء والمدح والتعظيم أما قوله تعالى وهل أتاك نبأ الخصم فهو نظير قوله تعالى هل أتاك حديث موسى وفائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصة المستقيم عنها ليكون داعيا الى الاصغاء لها والاعتبار بها وأقول للناس فى هذه القصة ثلاثة أقوال (أحدها) ذكر هذه القصة على وجه يدل على صدور الكبيرة عنه (وثانيها) دلالتها على ﴿الصغيرة﴾

فان التأمل فيه اذا اداه الى الشعور بما هو الغرض كان أوقع فى نفسه وأعظم تأثيرا فى قلبه وأدعى الى التنبه للخطأ مع فيه من مراعاة حرمته عليه الصلاة والسلام بترك المجاهرة والاشعار بأنه أمر يستحيى من التصريح به وتصويره بصورة التحاكم لالجائه عليه الصلاة والسلام الى التصريح بنسبة نفسه الى الظلم وتنبيهه عليه الصلاة والسلام على أن أوريا بصدد الخصام (فاستغفر ربه) اثر ما علم أن ما صدر عنه ذنب (وخر راكعا) أى ساجدا على تسمية السجود ركوعا لانه مبدؤه أو خر للسجود راكعا أى مصليا كأنه أحرم بركعتى الاستغفار (وأناب) أى رجع الى الله تعالى بالتوبة * وأصل القصة أن داود عليه السلام رأى امرأة رجل يقال له أوريا فمال قلبه اليها فسأله أن يطلقها فاستحيى أن يرده ففعل فتزوجها وهى أم سليمان عليه السلام وكان ذلك جائزا فى شريعته معتادا فيما بين أمته غير مخل بالمروءة حيث كان يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها اذا اعجبته وقد كان الانصار فى صدر الاسلام يواسون المهاجرين بمثل ذلك من غير نكير خلا أنه عليه الصلاة والسلام لعظم منزلته وارتفاع مرتبته وعلو شأنه نبه بالتمثيل على أنه لم يكن ينبغى له أن يتعاطى ما يتعاطاه آحاد أمته ويسأل رجلا ليس له الا امرأة واحدة أن ينزل عنها فيتزوجها مع كثرة نسائه بل كان يجب عليه أن يغالب هواه ويقهر نفسه ويصبر على ما امتحن به وقيل لم يكن أوريا تزوجها بل كان خطبها ثم خطبها داود عليه السلام فآثره عليه السلام أهلها فكان ذنبه عليه الصلاة والسلام أن خطب على خطبة أخيه المسلم هذا وأما ما يذكر من أنه عليه الصلاة والسلام دخل ذات يوم محرابه وأغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور فبينما هو كذلك اذ جاءه الشيطان فى صورة حمامة من ذهب فمد يده ليأخذها لابن صغير له فطارت فوقعت كوة فتبعها فأبصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بدنها وهى امرأة أوريا وهو من غزاة البلقاء فكتب الى أيوب بن صوريا وهو صاحب بعث البلقاء أن ابعث أوريا وقدمه على

الصغيرة (وثالثها) بحيث لاتدل على الكبيرة ولا على الصغيرة فأما القول الاول فحاصل كلامهم فيها ان داود عشق امرأة أوريا فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله اليه ملكين فى صورة المتخاصمين فى واقعة شبيهة بواقعته وعرضا تلك الواقعة عليه فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنبا ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة والذى أدين به وأذهب اليه ان ذلك باطل و يدل عليه وجوه الاول ان هذه الحكاية لو نسبت الى أفسق الناس وأشدهم فجورا لاستنكف منها والرجل الحشوى الخبيث الذى يقرر تلك القصة لو نسب الى مثل هذا العمل لبالغ فى تنزيه نفسه وربما لعن من ينسبه اليها واذا كان الامر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم اليه (الثانى) ان حاصل القصة يرجع الى أمرين الى السعى فى قتل رجل مسلم بغير حق والى الطمع فى زوجته (أما الاول) فامر منكر قال صلى الله عليه وسلم من سعى فى دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله (وأما الثانى) فمنكر عظيم قال صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده وان أوريا لم يسلم من داود لا فى روحه ولا فى منكوحه (والثالث) ان الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشرة المذكورة ووصفه أيضا بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة وكل هذه الصفات تنافى كونه عليه السلام موصوفا بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح ولا بأس باعادة هذه الصفات لاجل المبالغة فى البيان فنقول (أما الصفة الاولى) فهى انه تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يقتدى بداود فى المصابرة مع المكابدة ولو قلنا ان داود لم يصبر على مخالفة النفس بل سعى فى اراقة دم امرئ مسلم لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمدا أفضل الرسل بان يقتدى بداود فى الصبر على طاعة الله (وأما الصفة الثانية) فهى أنه وصفه بكونه عبدا له وقد بينا ان المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملا فى موقف العبودية تاما فى القيام باداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات ولو قلنا ان داود عليه السلام اشتغل بتلك الاعمال الباطلة فحينئذ ما كان داود كاملا فى عبوديته لله تعالى بل كان كاملا فى طاعة الهوى والشهوة (الصفة الثالثة) هو قوله ذا الايد أى ذا القوة ولا شك أن المراد منه القوة فى الدين لان القوة فى غير الدين كانت موجودة فى ملوك الكفار ولا معنى للقوة فى الدين الا القوة الكاملة على أداء الواجبات والاجتناب عن المحظورات وأى قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة فى زوجة المسلم (الصفة الرابعة) كونه أوابا كثير الرجوع الى الله تعالى وكيف يليق هذا بمن يكون قلبه مشغوفا بالقتل والفجور (الصفة الخامسة) قوله تعالى انا سخرنا الجبال معه أفترى أنه سخرت له الجبال ليتخذه وسيلة الى القتل والفجور (الصفة السادسة) قوله والطير محشورة وقيل انه كان محرما عليه صيد شئ من الطير وكيف يعقل أن يكون الطير آمنا منه ولا ينجو منه الرجل المسلم على روحه ومنكوحه (الصفة السابعة) قوله تعالى وشددنا ملكه ومحال أن يكون

التابوت وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد ففتح الله تعالى على يده وسلم فأمر برده مرة أخرى وثالثة حتى قتل وأتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء وتزوج امرأته فافك مبتدع مكروه ومكر مخترع بئس ما مكروه تمجه الاسماع وتنفر عنه الطباع و يل لمن ابتدعه وأشاعه وتبا لمن اخترعه وأذاعه ولذلك قال على رضى الله عنه من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وذلك حد الفرية على الانبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم هذا وقد قيل ان قوما قصدوا أن يقتلوه عليه الصلاة والسلام فتسوروا المحراب ودخلوا عليه فوجدوا عنده أقواما فتصنعوا بهذا التحاكم فعلم عليه الصلاة والسلام غرضهم فهم بأن ينتقم منهم فظن أن ذلك

المراد انه تعالى شدد ملكه بأسباب الدنيا بل المراد انه تعالى شد ملكه بما يقوى الدين وأسباب سعادة الآخرة والمراد تشديد ملكه في الدين والدنيا ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك (الصفة الثامنة) قوله تعالى وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغي علما وعملا فكيف يجوز أن يقول الله تعالى انا آتيناه الحكمة وفصل الخطاب مع اصراره على ما يستنكف عنه الخبيث الشيطان من مزاحمة اخلص أصحابه في الروح والمنكوح فهذه الصفات المذكورة قبل شرح تلك القصة دالة على براءة ساحته عن تلك الاكاذيب * وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهي عشرة (الاول) قوله وان له عندنا لزلفى وحسن مآب وذكر هذا الكلام انما يناسب لو دلت القصة المتقدمة على قوته في طاعة الله أما لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه في القتل والفجور لم يكن قوله وان له عندنا لزلفى لائقا به (الثاني) قوله تعالى يا داود انا جعلناك خليفة في الارض وهذا يدل على كذب تلك القصة من وجوه (أحدها) ان الملك الكبير اذا حكى عن بعض عبيده انه قصد دماء الناس وأموالهم وأزواجهم فبعد فراغه من شرح تلك القصة على ملا من الناس يقبح منه أن يقول عقيبه أيها العبد انى فوضت اليك خلافتي ونيابتي وذلك لان ذكر تلك القبائح والافعال المنكرة يناسب الزجر والحجر فاما جعله نائبا وخليفة لنفسه فذلك البتة مما لا يليق (وثانيها) انه ثبت في أصول الفقه ان ذكر الحكم عقيب الوصف يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف فلما حكى الله تعالى عنه تلك الواقعة القبيحة ثم قال بعده انا جعلناك خليفة في الارض أشعر هذا بان الموجب لتفويض هذه الخلافة هو اتيانه بتلك الافعال المنكرة ومعلوم ان هذا فاسد أما لو ذكر تلك القصة على وجوه تدل على براءة ساحته عن المعاصي والذنوب وعلى شدة مصابرته على طاعة الله تعالى فحينئذ يناسب أن يذكر عقيبه انا جعلناك خليفة في الارض فثبت ان هذا الذي نختاره أولى (والثالث) وهو انه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود عليه السلام وتعظيمه ومؤخرتها أيضا دالة على ذلك فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعايب لجرى مجرى أن يقال فلان عظيم الدرجة عالي المرتبة في طاعة الله يقتل ويزنى ويسرق وقد جعله خليفة في أرضه وصوب أحكامه وكما ان هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل فكذا ههنا ومن المعلوم ان ذكر العشق والسعي في القتل من أعظم أبواب العيوب (والرابع) وهو ان القائلين بهذا القول ذكروا في هذه الرواية ان داود عليه السلام تمنى أن يحصل له في الدين كما حصل للانبياء المتقدمين من المنازل العالية مثل ما حصل للخليل من الالقاء في النار وحصل للذبيح من الذبح وحصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب فأوحى الله اليه انهم انما وجدوا تلك الدرجات لانهم لما ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود عليه السلام الابتلاء فأوحى الله اليه انك ستبلى في يوم كذا فبالغ في الاحتراز ثم وقعت الواقعة فنقول أول حكايتهم يدل على ان الله تعالى يبتليه بالبلاء

قوله الصفة الثامنة الخ الموافق لما ذكره في أول القصة أن يجعل قوله وآتيناه الحكمة هي التاسعة وقوله وفصل الخطاب هي العاشرة و[illegible] أسقط [illegible] قوله كل له أواب وقوله بعد ذلك وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهي عشرة لا يخفى ما فيه فتأمل ابتلاءه من الله عز وجل فاستغفر ربه مما هم به وأناب (فغفرنا له ذلك) أي ما استغفر منه وروى أنه عليه الصلاة والسلام بقي ساجدا أربعين يوما وليلة لا يرفع رأسه الا لصلاة مكتوبة أو لما لابد منه ولا يرقأ دمعه حتى نبت منه العشب الى رأسه ولم يشرب ماء الا ثلثاه دمع وجهد نفسه راغبا الى الله تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له ايشا على ملكه ودعا الى نفسه فاجتمع اليه أهل الزيغ من بني اسرائيل فلما غفر له حاربه فهزمه (وان له عندنا لزلفى) لقربة وكرامة بعد المغفرة (وحسن مآب) حسن مرجع في الجنة (يا داود انا جعلناك خليفة في الارض) اما حكاية لما خوطب به عليه الصلاة والسلام مبينة لزلفاه عنده عز وجل واما ﴿ الذي ﴾ مقول قول مقدر هو معطوف على

الذي يزيد في منقبته و يكمل مراتب اخلاصه فالسعي في قتل النفس بغير الحق والافراط في العشق كيف يليق بهذه الحالة و يثبت ان الحكاية التي ذكروها يناقض أولها آخرها (الخامس) ان داود عليه السلام قال وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض الاالذين آمنوا استثنى الذين آمنوا عن البغي فلو قلنا انه كان موصوفا بالبغي لزم أن يقال انه حكم بعدم الايمان على نفسه وذلك باطل (السادس) حضرت في بعض المجالس وحضر فيه بعض أكابر الملوك وكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك فقلت له لاشك ان داود عليه السلام كان من أكابر الانبياء والرسل ولقد قال الله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا أن نبالغ في الطعن فيه وأيضا فبتقدير انه ما كان نبيا فلاشك انه كان مسلما ولقد قال صلى الله عليه وسلم لاتذكروا موتاكم الابخير ثم على تقدير انا لانلتفت الى شئ من هذه الدلائل الا انا نقول ان من المعلوم بالضرورة ان بتقدير أن تكون القصة التي ذكرتموها حقة صحيحة فان روايتها وذكرها لايوجب شيئا من الثواب لان اشاعة الفاحشة ان لم توجب العقاب فلا أقل من أن لاتوجب الثواب وأما بتقدير أن تكون هذه القصة باطلة فاسدة فان ذاكرها يستحق أعظم العقاب والواقعة التي هذا شأنها وصفتها فان صريح العقل يوجب السكوت عنها فثبت أن الحق ما ذهبنا اليه وان شرح تلك القصة محرم محذور فلما سمع ذلك الملك هذا الكلام سكت ولم يذكر شيئا (السابع) ان ذكر هذه القصة وذكر قصة يوسف عليه السلام يقتضي اشاعة الفاحشة فوجب أن يكون محرما لقوله تعالى ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا (الثامن) لوسعى داود في قتل ذلك الرجل لدخل تحت قوله من سعى في دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله وأيضا لو فعل ذلك لكان ظالما فكان يدخل تحت قوله ألا لعنة الله على الظالمين (التاسع) عن سعيد بن المسيب أن علي بن أبي طالب عليه السلام قال من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وهو حد الفرية على الانبياء ومما يقوي هذا انهم لما قالوا ان المغيرة بن شعبة زنى وشهد ثلاثة من عدول الصحابة بذلك واما الرابع فانه لم يقل بأني رأيت ذلك العمل بعيني فان عمر بن الخطاب كذب أولئك الثلاثة وجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة لاجل انهم قذفوا واذا كان الحال في واحد من آحاد الصحابة كذلك فكيف الحال مع داود عليه السلام مع انه من أكابر الانبياء عليهم السلام (العاشر) روى أن بعضهم ذكر هذه القصة على ما في كتاب الله تعالى فقال ينبغي أن يزاد عليها وان كانت الواقعة على ما ذكرت ثم انه تعالى لم يذكرها لاجل أن يستر تلك الواقعة على داود عليه السلام فلا يجوز للعاقل أن يسعى في هتك ذلك الستر بعد ألف سنة أو أقل أو أكثر فقال عمر سماعي هذا الكلام أحب الي مما طلعت عليه الشمس فثبت بهذه الوجوه التي ذكرناها ان القصة التي ذكروها فاسدة باطلة فان قال قائل

فيما بين أهلها أو جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الانبياء القائمين بالحق وفيه دليل بين على ان حاله عليه الصلاة والسلام بعد التوبة كما كانت قبلها لم تتغير قط (فاحكم بين الناس بالحق) بحكم الله تعالى فان الخلافة بكلا معنييه مقتضية له حتما (ولا تتبع الهوى) أي هوى النفس في الحكومات وغيرها من أمور الدين والدنيا (فيضلك عن سبيل الله) بالنصب على أنه جواب النهي وقيل هو مجزوم بالعطف على النهي مفتوح لالتقاء الساكنين أي فيكون الهوى أو اتباعه سببا لضلالك عن دلائله التي نصبها على الحق تكوينا وتشريعا وقوله تعالى (ان الذين يضلون عن سبيل الله) تعليل لما قبله ببيان غائلته واظهار

ان كثيرا من أكابر المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة فكيف الحال فيها فالجواب الحقيق انه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع الى الدلائل القاطعة أولى وأيضا فالاصل براءة الذمة وأيضا فلما تعارض دليل التحريم والتحليل كان جانب التحريم أولى وأيضا طريقة الاحتياط توجب ترجيح قولنا وأيضا فنحن نعلم بالضرورة ان بتقدير وقوع هذه الواقعة لا يقول الله لنا يوم القيامة لم لم تسعوا فى تشهير هذه الواقعة وأما بتقدير كونها باطلة فان علينا فى ذكرها أعظم العقاب وأيضا فقال عليه السلام اذا علمت مثل الشمس فاشهد وههنا لم يحصل العلم ولا الظن فى صحة هذه الحكاية بل الدلائل القاهرة التى ذكرناها قائمة فوجب أن لا تجوز الشهادة بها وأيضا كل المفسرين لم يتفقوا على هذا القول بل الاكثرون المحققون والمدققون منهم يردونه ويحكمون عليه بالكذب والفساد وأيضا اذا تعارضت أقوال المفسرين والمحدثين فيه تساقطت وبقى الرجوع الى الدلائل التى ذكرناها فهذا تمام الكلام فى هذه القصة (أما الاحتمال الثانى) وهو ان نحمل هذه القصة على وجه يوجب حصول الصغيرة ولا يوجب حصول الكبيرة فنقول فى كيفية هذه القصة على هذا التقدير وجوه (الاول) ان هذه المرأة خطبها أوريا فاجابوه ثم خطبها داود فآثره أهلها فكان ذنبه ان خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه (الثانى) قالوا انه وقع بصره عليها فمال قلبه اليها وليس له فى هذا ذنب البتة أما وقوع بصره عليها من غير قصد فذلك ليس بذنب وأما حصول الميل عقيب النظر فليس أيضا ذنبا لان هذا الميل ليس فى وسعه فلا يكون مكلفا به بل لما اتفق أن قتل زوجها لم يتأذ تأذيا عظيما بسبب قتله لاجل انه طمع أن يتزوج بتلك المرأة فحصلت الزلة بسبب هذا المعنى وهو انه لم يشق عليه قتل ذلك الرجل (والثالث) انه كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضا أن يطلق امرأته حتى يتزوجها وكانت عادتهم فى هذا المعنى مألوفة معروفة روينا ان الانصار كانوا يواسون المهاجرين بهذا المعنى فاتفق ان عين داود عليه السلام وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأله النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل وهى أم سليمان فقيل له هذا وان كان جائزا فى ظاهر الشريعة الا انه لا يليق بك فان حسنات الابرار سيآت المقربين فهذه وجوه ثلاثة لو حملنا هذه القصة على واحد منها لم يلزم فى حق داود عليه السلام الا ترك الافضل والاولى (وأما الاحتمال الثالث) وهو أن هذه القصة على وجه لا يلزم الحاق الكبيرة والصغيرة بداود عليه السلام بل يوجب الحاق أعظم أنواع المدح والثناء به وهو أن نقول روى أن جماعة من الاعداء طمعوا فى أن يقتلوا نبى الله داود عليه السلام وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويشتغل بطاعة ربه فانتهزوا الفرصة فى ذلك اليوم وتسوروا المحراب فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواما يمنعونه منهم فخافوا فوضعوا كذبا فقالوا خصمان بغى بعضنا على بعض الى آخر القصة وليس فى لفظ القرآن ما يمكن أن يحتج به فى الحاق الذنب

سبيل الله فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والايذان بكمال شناعة الضلال عنه (لهم عذاب شديد) جملة من خبر ومبتدا وقعت خبرا لان أو الظرف خبر لان وعذاب مرتفع على الفاعلية بما فيه من معنى الاستقرار (بما نسوا) بسبب نسيانهم وقوله تعالى (يوم الحساب) اما مفعول لنسوا فيكون تعليلا صريحا لثبوت العذاب الشديد لهم بنسيان يوم الحساب بعد الاشعار بعلية ما يستتبعه ويستلزمه أعنى الضلال عن سبيل الله تعالى فانه مستلزم لنسيان يوم الحساب بالمرة بل هذا فرد من أفراده أو ظرف لقوله تعالى لهم أى لهم عذاب شديد يوم القيامة بسبب نسيانهم الذى هو عبارة عن ضلالهم ومن ضرورته أن يكون مفعوله سبيل الله فيكون التعليل المصرح به حينئذ عين التعليل المشعر به بالذات غيره

بداود الالفاظ اربعة (أحدها) قوله وظن داود انما فتناه (وثانيها) قوله تعالى فاستغفر ربه (وثالثها) قوله وأناب (ورابعها) قوله فغفرنا له ذلك ثم نقول وهذه الالفاظ لا يدل شئ منها على ماذكروه وتقريره من وجوه (الاول) انهم لما دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق وعلم داود عليه السلام ذلك دعاه الغضب الى أن يشتغل بالانتقام منهم الا انه مال الى الصفح والتجاوز عنهم طلبا لمرضاة الله قال وكانت هذه الواقعة هي الفتنة لانها جارية مجرى الابتلاء والامتحان ثم انه استغفر ربه مما هم به من الانتقام منهم وتاب عن ذلك الهم وأناب فغفر له ذلك القدر من الهم والعزم (والثاني) أنه وان غلب على ظنه أنهم دخلوا عليه ليقتلوه الا انه ندم على ذلك الظن وقال لما لم تقم دلالة ولا امارة على أن الامر كذلك فبئسما عملت بهم حيث ظننت بهم هذا الظن الردئ فكان هذا هو المراد من قوله وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب منه فغفر الله له ذلك (الثالث) أن دخولهم عليه كان فتنة لداود عليه السلام الا انه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العازم على قتله كما قال في حق محمد صلى الله عليه وسلم واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات فداود عليه السلام استغفر لهم وأناب أي رجع الى الله تعالى في طلب مغفرة ذلك الداخل القاصد للقتل وقوله فغفرنا له ذلك أي غفرنا له ذلك الذنب لاجل احترام داود ولتعظيمه كما قال بعض المفسرين في قوله تعالى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك ان معناه ان الله تعالى يغفر لك ولاجلك ما تقدم من ذنب أمتك (الرابع) هب انه تاب داود عليه السلام عن زلة صدرت منه لكن لا نسلم أن تلك الزلة وقعت بسبب المرأة فلم لا يجوز أن يقال ان تلك الزلة انما حصلت لانه قضى لاحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الخصم الثاني فانه لما قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه فحكم عليه بكونه ظالما بمجرد دعوى الخصم بغير بينة لكون هذا الحكم مخالفا للصواب فعند هذا اشتغل بالاستغفار والتوبة لأن هذا من باب ترك الافضل والاولى فثبت بهذه البيانات انا اذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه فانه لا يلزم اسناد شئ من الذنوب الى داود عليه السلام بل ذلك يوجب اسناد أعظم الطاعات اليه ثم نقول وحمل الآية عليه أولى لوجوه (الاول) ان الاصل في حال المسلم البعد عن المناهي لاسيما وهو رجل من اكابر الانبياء والرسل (والثاني) انه أحوط (والثالث) أنه تعالى قال أول الآية لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود فان قوم محمد عليه السلام لما أظهروا السفاهة حيث قالوا انه ساحر كذاب واستهزؤا به حيث قالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب قال تعالى في أول الآية اصبر يا محمد على سفاهتهم وتحمل وتحلم ولا تظهر الغضب واذكر عبدنا داود فهذا الذكر انما يحسن اذا كان داود عليه السلام قد صبر على ايذائهم وتحمل سفاهتهم وحلم ولم يظهر الطيش والغضب وهذا المعنى انما يحصل اذا حملنا الآية على ما ذكرناه أما اذا حملناها على ماذكروه صار الكلام متناقضا فاسدا (والرابع) ان تلك الرواية انما تمشي

بالعنوان ومن لم يتنبه لهذا السر السري قال بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل فان تذكره يقتضي ملازمة الحق ومخالفة الهوى فتدبر (وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا) كلام مستأنف مقرر لما قبله من أمر البعث والحساب والجزاء أي وما خلقنا هما وما بينهما من المخلوقات على هذا النظام البديع الذي تحار في فهمه العقول خلقا باطلا أي خاليا عن الغاية الجليلة والحكمة الباهرة بل منطويا على الحق المبين والحكم البالغة حيث خلقنا من بين ما خلقنا نفوسا أودعناها العقل والتمييز بين الحق والباطل والنافع والضار ومكناها من التصرفات العلمية والعملية في استجلاب منافعها واستدفاع مضارها ونصبنا للحق دلائل آفاقية وأنفسية ومنحناه القدرة على الاستشهاد بها ثم لم نقتصر على

اذا قلنا الخصمان كانا ملكين ولما كانا من الملائكة وماكان بينهما مخاصمة ومابغى أحدهما على الآخر كان قولهما خصمان بغى بعضنا على بعض كذبافهذه الرواية لاتتم الابشيئين (أحدهما) اسناد الكذب الى الملائكة (والثانى) أن يتوسل باسناد الكذب الى الملائكة الى اسناد أفحش القبائح الى رجل كبير من أكابر الانبياء فأما اذا حملنا الآية على ماذكرنا استغنينا عن اسناد الكذب الى الملائكة وعن اسناد القبيح الى الانبياء فكان قولنا أولى فهذا ماعندنا فى هذا الباب والله أعلم باسرار كلامه ونرجع الآن الى تفسير الآيات أما قوله وهل أتاك نبأ الخصم قال الواحدى الخصم مصدر خصمته اخصمه خصما ثم يسمى به الاثنان والجمع ولايثنى ولايجمع يقال هما خصم وهم خصم كما يقال هما عدل وهم عدل والمعنى ذوا خصم وذو وخصم وأريد بالخصم ههنا الشخصان اللذان دخلا على داود عليه السلام وقوله تعالى اذتسوروا المحراب يقال تسورت السور تسورا اذا علوته ومعنى تسوروا المحراب أى أتوه من سوره وهو أعلاه يقال تسور فلان الدار اذا أتاها من قبل سورها وأما المحراب فالمراد منه البيت الذى كان داود يدخل فيه و يشتغل بطاعة ربه وسمى ذلك البيت بالمحراب لاشتماله على المحراب كما يسمى الشئ باشرف أجزائه وههنا مسئلة من علم أصول الفقه وهى أن أقل الجمع اثنان عند بعض الناس وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية لانه تعالى ذكر صيغة الجمع فى هذه الآيات فى أربعة مواضع (أحدها) قوله تعالى اذ تسوروا المحراب (وثانيها) قوله اذ دخلوا (وثالثها) قوله منهم (ورابعها) قوله قالوا لاتخف فهذه الالفاظ الاربعة كلها صيغ الجمع وهم كانوا اثنين بدليل أنهم قالوا خصمان فهذه الآية تدل على ان أقل الجمع اثنان (والجواب) لايمتنع أن يكون كل واحد من الخصمين جمعا كثيرين لانا بينا ان الخصم اذا جعل اسما فانه لايثنى ولايجمع ثم قال تعالى اذ دخلوا على داود والفائدة فيه انهم ربما تسوروا المحراب وما دخلوا عليه فلما قال اذ دخلوا عليه دل على انهم بعد التسور دخلوا عليه قال الفراء وقد يجاء باذ مرتين و يكون معناهما كالواحد كقولك ضربتك اذ دخلت على اذ اجترأت مع أنه يكون وقت الدخول ووقت الاجتراء واحدا ثم قال تعالى ففزع منهم والسبب أن داود عليه السلام لما رآهما قد دخلوا عليه لامن الطريق المعتاد علم أنهم انما دخلوا عليه للشر فلاجرم فزع منهم ثم قال تعالى قالوا لاتخف خصمان بغى بعضنا على بعض وفيه مسائل (المسئلة الاولى) خصمان خبر مبتدا محذوف أى نحن خصمان (المسئلة الثانية) ههنا قولان (الاول) انهما كانا ملكين نزلا من السماء وأراد تنبيه داود عليه السلام على قبح العمل الذى أقدم عليه (والثانى) انهما كانا انسانين دخلا عليه للشر والقتل فظنا انهما يجدانه خاليا فلما رأيا عنده جماعة من الخدم اختلقا ذلك الكذب لدفع الشر وأما المنكرون لكونهما ملكين فقد احتجوا عليه بانهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين فى قولهما خصمان فانه ليس بين الملائكة خصومة ولكانا كاذبين

لك المقدار من الالطاف بل أرسلنا اليها رسلا وأنزلنا عليها كتابا بينا فيها كل دقيق وجليل وأزحنا عللها بالكلية وعرضناها بالتكليف للمنافع العظيمة وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالها (ذلك) اشارة الى ما نفى من خلق ماذكر باطلا (ظن الذين كفروا) أى مظنونهم فان جحودهم بأمر البعث والجزاء الذى عليه يدور فلك تكوين العالم قول منهم ببطلان خلق ماذكروا خلوه عن الحكمة سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا (فويل للذين كفروا) مبتدأ وخبر والفاء لافادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل كما أن وضع الموصول موضع ضميرهم لاشعار بمافى حيز الصلة بعلية كفرهم له ولاتنافى بينهما لان ظنهم من باب كفرهم ومن فى قوله تعالى (من النار) تعليلية كما فى قوله تعالى

في قولهما بغى بعضنا على بعض ولكانا كاذبين في قولهما ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة فثبت انهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين والكذب على الملك غير جائز لقوله تعالى لايسبقونه بالقول ولقوله و يفعلون ما يؤمرون أجاب الذاهبون الى القول الاول عن هذا الكلام بأن قالوا ان الملكين انما ذكرا هذا الكلام على سبيل ضرب المثل لا على سبيل التحقيق فلم يلزم الكذب وأجيب عن هذا الجواب بأن ماذكرتم يقتضي العدول عن ظاهر اللفظ ومعلوم انه على خلاف الاصل أما اذا حملنا الكلام على أن الخصمين كانا رجلين دخلا عليه لغرض الشر ثم وضعا هذا الحديث الباطل فحينئذ لزم اسناد الكذب الى شخصين فاسقين فكان هذا أولى من القول الاول والله أعلم وأما القائلون بكونهما ملكين فقد احتجوا بوجوه (الاول) اتفاق أكثر المفسرين عليه (والثاني) انه أرفع منزلة من أن يتسور عليه آحاد الرعية في حال تعبده فيجب أن يكون ذلك من الملائكة (الثالث) أن قوله تعالى قالوا لاتخف كالدلالة على كونهما ملكين لان من هو من رعيته لايكاد يقول له مثل ذلك مع رفعة منزلته (الرابع) ان قولهما ولاتشطط كالدلالة على كونهما ملكين لان أحدا من رعيته لايتجاسر أن يقول له لاتظلم ولاتتجاوز عن الحق واعلم أن ضعف هذه الدلائل ظاهر ولا حاجة الى الجواب والله أعلم (المسئلة الثالثة) بغى بعضنا على بعض أي تعدى وخرج عن الحد يقال بغى الجرح اذا أفرط وجعه وانتهى الى الغاية و يقال بغت المرأة اذا زنت لان الزنا كبيرة منكرة قال تعالى ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء ثم قال فاحكم بيننا بالحق معنى الحكم احكام الامر في امضاء تكليف الله عليهما في الواقعة ومنه حكمة الدابة لانها تمنع من الجماح ومنه بناء محكم اذا كان قويا وقوله بالحق أي بالحكم الحق وهو الذي حكم الله به ولاتشطط يقال شط الرجل اذا بعد ومنه قوله شطت الدار اذا بعدت قال تعالى لقد قلنا اذا شططا أي قولا بعيدا عن الحق فقوله ولاتشطط أي لاتبعد في هذا الحكم عن الحق ثم قال واهدنا الى سواء الصراط وسواء الصراط هو وسطه قال تعالى فاطلع فرآه في سواء الجحيم ووسط الشئ أفضله وأعدله قال تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا وأقول انهم عبروا عن المقصود الواحد بثلاث عبارات (أولها) قولهم فاحكم بالحق (وثانيها) قولهم ولاتشطط وهي نهي عن الباطل (وثالثها) قولهم واهدنا الى سواء الصراط يعني يجب أن يكون سعيك في ايجاد هذا الحق و في الاحتراز عن هذا الباطل أن تردنا من الطريق الباطل الى الطريق الحق وهذا مبالغة تامة في تقرير المطلوب واعلم انهم لما أخبروا عن وقوع الخصومة على سبيل الاجمال أردفوه ببيان سبب تلك الخصومة على سبيل التفصيل فقال ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف أخي بدل من هذا أو خبر لقوله ان والمراد أخوة الدين أو أخوة الصداقة والالفة أو أخوة الشركة والخلطة لقوله تعالى وان كثيرا من الخلطاء وكل واحدة من هذه الاخوات توجب الامتناع من الظلم

فويل لهم مما كتبت أيديهم ونظائره مفيدة لعلية النار لثبوت الويل لهم صريحا بعد الاشعار بعلية ما يؤدي اليها من ظنهم وكفرهم أي فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم وكفرهم (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض) أم منقطعة وما فيها من بل للاضراب الانتقالي عن تقرير أمر البعث والحساب والجزاء بما مر من نفي خلق العالم خاليا عن الحكم والمصالح الى تقريره وتحقيقه بما في الهمزة من انكار التسوية بين الفريقين ونفيها على أبلغ وجه وآكده أي بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين في أقطار الارض كما يقتضيه عدم البعث وما يترتب عليه من الجزاء لاستواء الفريقين في التمتع بالحياة الدنيا بل الكفرة أوفر حظا منها من المؤمنين لكن ذلك الجعل محال فتعين البعث والجزاء حتما لرفع الاولين الى أعلى عليين ورد الآخرين الى أسفل سافلين وقوله تعالى (أم نجعل المتقين كالفجار) اضراب

والابتداء (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ تسع وتسعون بفتح التاء ونعجة بكسر النون وهذا من اختلاف اللغات نحو نطع ونطع ولقوة ولقوة وهي الانثى من العقبان (المسئلة الثالثة) قال الليث النعجة الانثى من الضأن والبقرة الوحشية والشاة الجبلية والجمع النعجات والعرب جرت عادتهم بجعل النعجة والظبية كناية عن المرأة (المسئلة الرابعة) قرأ عبدالله تسع وتسعون نعجة أنثى وهذا يكون لاجل التأكيد كقوله تعالى وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد ثم قال أكفلنيها وعزني الخطاب قال صاحب الكشاف أكفلنيها حقيقته اجعلني أكفلها كما أكفل ماتحت يدي وعزني غلبني يقال عزه يعزه والمعنى جاءني بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ماأرده به وقرئ وعازني من المعازة وهي المغالبة واعلم ان الذين قالوا ان هذين الخصمين كانا من الملائكة زعموا ان المقصود من ذكر النعاج التمثيل لان داود كان تحته تسع وتسعون امرأة ولم يكن لاوريا الا امرأة واحدة فذكرت الملائكة تلك الواقعة على سبيل الرمز والتمثيل ثم قال تعالى قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه أي سؤال اضافة نعجتك الى نعاجه وروى انه قال له ان رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا وأشار الى الانف والجبهة فقال يا داود انت أحق ان نضرب منك هذا وهذا وأنت فعلت كيت وكيت ثم نظر داود فلم ير أحدا فعرف الحال فان قيل كيف جاز لداود أن يحكم على أحد الخصمين بمجرد قول خصمه قلنا ذكروا فيه وجوها (الاول) قال محمد بن اسحق لما فرغ الخصم الاول من كلامه نظر داود الى الخصم الذي لم يتكلم وقال لئن صدق لقد ظلمته والحاصل ان هذا الحكم كان مشروطا بشرط كونه صادقا في دعواه (والثاني) قال ابن الانباري لما ادعى أحد الخصمين اعترف الثاني فحكم داود عليه السلام ولم يذكر الله تعالى ذكر الاعتراف لدلالة ظاهر الكلام عليه كما تقول أمرتك بالتجارة فكسبت تريد اتجرت فكسبت وقال تعالى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق أي فضرب فانفلق والثالث أن يكون التقدير أن الخصم الذي هذا شأنه يكون قد ظلمك ثم قال وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض قال الليث خليط الرجل مخالطه وقال الزجاج الخلطاء الشركاء فان قيل لم خص داود الخلطاء ببغي بعضهم على بعض مع أن غير الخلطاء قد يفعلون ذلك والجواب لاشك أن المخالطة توجب كثرة المنازعة والمخاصمة وذلك لانهما اذا اختلطا اطلع كل واحد منهما على أحوال الآخر فكل مايملكه من الاشياء النفيسة اذا اطلع عليه عظمت رغبته فيه فيفضي ذلك الى زيادة المخاصمة والمنازعة فلهذا السبب خص داود عليه السلام الخلطاء بزيادة البغي والعدوان ثم استثنى عن هذا الحكم الذين آمنوا وعملوا الصالحات لان مخالطة هؤلاء لاتكون الا لاجل الدين وطلب السعادات الروحانية الحقيقية فلاجرم مخالطتهم لاتوجب المنازعة وأما الذين تكون مخالطتهم لاجل حب الدنيا لابد وان تصير مخالطتهم سببا لمزيد البغي والعدوان واعلم أن هذا الاستثناء يدل على ان الذين آمنوا

الى اثباته بلزوم ماهو أظهر منه استحالة وهو التسوية بين أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة وحمل الفجار على خيرة المؤمنين مما لايساعده المقام ويجوز أن يراد بهذين الفريقين عين الاولين ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين هما أدخل في انكار التسوية من الوصفين الاولين وقيل قال كفار قريش للمؤمنين انا نعطى في الآخرة من الخير ما تعطون فنزلت (كتاب) خبر مبتدا محذوف هو عبارة عن القرآن أو السورة وقوله تعالى (أنزلناه اليك) صفته وقوله تعالى (مبارك) خبر ثان للمبتدا أو صفة لكتاب عند من يجوز تأخير الوصف الصريح وقرئ مباركا على أنه حال من مفعول أنزلنا ومعنى المبارك الكثير المنافع الدينية والدنيوية وقوله تعالى (ليدبروا آياته) متعلق بأنزلناه أي أنزلناه ليتفكروا في

وعملوا الصالحات لايبغي بعضهم على بعض فلو كان داود عليه السلام قد بغى وتعدى على ذلك الرجل لزم بحكم فتوى داود أن لايكون هو من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ومعلوم ان ذلك باطل فثبت ان قول من يقول المراد من واقعة النعجة قصة داود قول باطل ثم قال تعالى وقليل ماهم واعلم أن الحكم بقلة أهل الخير كثير في القرآن قال تعالى وقليل من عبادي الشكور وقال داود عليه السلام في هذا الموضع وقليل ماهم وحكى تعالى عن ابليس انه قال ولاتجد أكثرهم شاكرين وسبب القلة ان الدواعي الى الدنيا كثيرة وهي الحواس الباطنة والظاهرة وهي عشرة والشهوة والغضب والقوى الطبيعية السبعة فالمجموع تسعة عشر واقفون على باب جهنم البدن وكلها تدعو الى الخلق والدنيا واللذة الحسية وأما الداعي الى الحق والدين فليس الا العقل واستيلاء القوة الحسية والطبيعية على الخلق أكثر من القوة العقلية فيهم فلهذا السبب وقعت القلة في جانب أهل الخير والكثرة في جانب أهل الشر قال صاحب الكشاف وما في قوله وقليل ماهم للابهام وفيه تعجب من قلتهم قال واذا أردت ان تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها من قول امرئ القيس وحديث ما على قصره وانظر هل بقي له معنى قط ثم قال تعالى وظن داود انما فتناه قالوا معناه وعلم داود انما فتناه أي امتحناه قالوا والسبب الذي أوجب حمل لفظ الظن على العلم ههنا ان داود عليه السلام لما قضى بينهما نظر أحدهما الى صاحبه فضحك ثم صعدا الى السماء قبل وجهه فعلم داود ان الله ابتلاه بذلك فثبت ان داود علم ذلك وانما جاز حمل لفظ الظن على العلم لان العلم الاستدلالي يشبه الظن مشابهة عظيمة والمشابهة علة لجواز المجاز وأقول هذا الكلام انما يلزم اذا قلنا الخصمان كانا ملكين أما اذا لم نقل ذلك لايلزمنا حمل الظن على العلم بل للقائل أن يقول انه لما غلب على ظنه حصول الابتلاء من الله تعالى اشتغل بالاستغفار والانابة أما قوله فاستغفر ربه أي سأل الغفران من ربه ثم ههنا وجهان ان قلنا بأنه قد صدرت زلة منه حملنا هذا الاستغفار عليها وان لم نقل به قلنا فيه وجوه (الاول) ان القوم لما دخلوا عليه قاصدين قتله وانه كان سلطانا شديد القهر عظيم القوة ثم انه مع انه مع القدرة الشديدة على الانتقام ومع حصول الفزع في قلبه عفا عنهم ولم يقل لهم شيئا قرب الامر من أن يدخل في قلبه شيء من العجب فاستغفر ربه عن تلك الحالة وأناب الى الله واعترف بأن اقدامه على ذلك الخير ما كان الا بتوفيق الله فغفر الله له وتجاوز عنه بسبب طريان ذلك الخاطر (الثاني) لعله هم بايذاء القوم ثم قال انه لم يدل دليل قاطع على هؤلاء قصدوا الشر فعفا عنهم ثم استغفر عن ذلك الهم (الثالث) لعل القوم تابوا الى الله وطلبوا منه أن يستغفر الله لهم لاجل أن يقبل توبتهم فاستغفر وتضرع الى الله فغفر الله ذنوبهم بسبب شفاعته ودعائه وكل هذه الوجوه محتملة ظاهرة والقرآن مملوء من أمثال هذه الوجوه واذا كان اللفظ محتملا لما ذكرناه ولم يقم دليل قطعي ولا ظني على التزام المنكرات التي يذكرونها فالذي يحملنا على التزامها

آياته التي من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار التكوين والتشريع فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من المعاني الفائقة والتأويلات اللائقة وقرئ ليتدبروا على الاصل ولتدبروا على الخطاب أي أنت وعلماء أمتك بحذف احدى التاءين (وليتذكر أولوا الالباب) أي وليتعظ به ذووا العقول السليمة أو ليستحضروا ما هو كالمركوز في عقولهم من فرط تمكنهم من معرفته لما نصب عليه من الدلائل فان الكتب الالهية مبينة لما لايعرف الا بالشرع ومرشدة الى ما لا سبيل للعقل اليه (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد) وقرئ نعم العبد أي سليمان كما ينبئ عنه تأخيره عن داود مع كونه مفعولا صريحا اوهبنا ولان قوله تعالى (انه أواب) أي رجاع الى الله تعالى بالتوبة أو الى التسبيح مرجع له تعليل للمدح وهو من حاله لما أن الضمير المجرور في قوله تعالى (اذ عرض

والقول بها والذي يؤكد أن الذي ذكرناه أقرب وأقوى أن يقال ختم الله هذه القصة بقوله وان له عندنا لزلفى وحسن مآب ومثل هذه الخاتمة انما تحسن في حق من صدر منه عمل كثير في الخدمة والطاعة وتحمل أنواعا من الشدائد في الموافقة والانقياد أما اذا كان المذكور السابق هو الاقدام على الجرم والذنب فان مثل هذه الخاتمة لاتليق به قال مالك بن دينار اذا كان يوم القيامة أتي بمنبر رفيع ويوضع في الجنة ويقال ياداود مجدني بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا والله أعلم بقي ههنا مباحث (فالاول) قرئ فتناه وفتناه على ان الالف ضمير الملكين (الثاني) المشهور ان الاستغفار انما كان بسبب قصة النعجة والنعاج وقيل أيضا انما كان بسبب انه حكم لاحد الخصمين قبل ان سمع كلام الثاني وذلك غير جائز (الثالث) قوله خر راكعا وأناب يدل على حصول الركوع وأما السجود فقد ثبت بالاخبار وكذلك البكاء الشديد في مدة أربعين يوما ثبت بالاخبار (الرابع) ان مذهب الشافعي رضي الله عنه ان هذا الموضع ليس فيه سجدة التلاوة وقال لانه توبة نبي فلا توجب سجدة التلاوة (الخامس) استشهد أبو حنيفة رضي الله عنه بهذه الآية في سجود التلاوة على ان الركوع يقوم مقام السجود * قوله تعالى (ياداود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب) اعلم أنه تعالى لما تمم الكلام في شرح القصة أردفها ببيان أنه تعالى فوض الى داود خلافة الارض وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول المشهور في تلك القصة لان من البعيد جدا أن يوصف الرجل بكونه ساعيا في سفك دماء المسلمين راغبا في انتزاع أزواجهم منهم ثم يذكر عقيبه ان الله تعالى فوض خلافة الارض اليه ثم نقول في تفسير كونه خليفة وجهان (الاول) جعلناك تخلف من تقدمك من الانبياء في الدعاء الى الله تعالى وفي سياسة الناس لان خليفة الرجل من يخلفه وذلك انما يعقل في حق من يصح عليه الغيبة وذلك على الله محال (الثاني) انا جعلناك مالكا للناس ونافذ الحكم فيهم فبهذا التأويل يسمى خليفة ومنه يقال خلفاء الله في أرضه وحاصله ان خليفة الرجل يكون نافذ الحكم في رعيته وحقيقة الخلافة ممتنعة في حق الله فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة مفيدة اللزوم في تلك الحقيقة وهو نفاذ الحكم ثم قال تعالى فاحكم بين الناس بالحق واعلم أن الانسان خلق مدنيا بالطبع لان الانسان الواحد لا ينتظم مصالحه الا عند وجود مدينة تامة حتى ان هذا يحرث وذلك يطحن وذلك يخبز وذلك ينسج وهذا يخيط وبالجملة فيكون كل واحد منهم مشغولا بمهم وينتظم من أعمال الجميع مصالح الجميع فثبت ان الانسان مدني بالطبع

عليه) راجع اليه عليه الصلاة والسلام قطعا واذ منصوب باذكر أي اذكر ما صدر عنه اذ عرض عليه (بالعشي) هو من الظهر الى آخر النهار (الصافنات) فانه يشهد بأنه أواب وقيل ظرف لاواب وقيل لنعم وتأخير الصافنات عن الظرفين لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر والصافن من الخيل الذي يقوم على طرف سنبك يد أو رجل وهو من الصفات المحمودة في الخيل لا يكاد يتفق الا في العراب الخالص وقيل هو الذي يجمع يديه ويسويهما وأما الذي يقف على سنبكه فهو المتخيم (الجياد) جمع جواد وجود وهو الذي يسرع في جريه وقيل الذي يجود عند الركض وقيل وصفت بالصفون والجودة لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية أي اذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها واذا جرت كانت سراعا خفافا في جريها وقيل هو جمع جيد

وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات ولا بد من انسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات و يفصل تلك الحكومات وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل فثبت انه لا ينتظم مصالح الخلق الا بسلطان قاهر سائس ثم ان ذلك السلطان القاهر السائس ان كان حكمه على وفق هواه وطلب مصالح دنياه عظم ضرره على الخلق فانه يجعل الرعية فداء لنفسه ويتوسل بهم الى تحصيل مقاصد نفسه وذلك يفضي الى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج في الخلق وذلك يفضي بالآخرة الى هلاك ذلك الملك أما اذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقة الالهية انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه فهذا هو المراد من قوله فاحكم بين الناس بالحق يعني لابد من حاكم بين الناس بالحق فكن أنت ذلك الحاكم ثم قال ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله الآية وتفسيره ان متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب فينتج ان متابعة الهوى توجب سوء العذاب (أما المقام الاول) وهو ان متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله فتقريره أن الهوى يدعو الى الاستغراق في اللذات الجسمانيات والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادات الروحانية التي هي الباقيات الصالحات لانهما حالتان متضادتان فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر (أما المقام الثاني) وهو ان الضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب فالامر فيه ظاهر لان الانسان اذا عظم الفه بهذه الجسمانيات ونسي بالكلية أحواله الروحانيات فاذا مات فقد فارق المحبوب والمعشوق ودخل ديارا ليس له باهل تلك الديار الف وليس لعينه قوة مطالعة أنوار تلك الديار فكأنه فارق المحبوب ووصل الى المكروه فكان لا محالة في أعظم العناء والبلاء فثبت ان متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله وثبت ان الضلال عن سبيل الله يوجب العذاب وهذا بيان في غاية الكمال ثم قال تعالى بما نسوا يوم الحساب يعني ان السبب الاول لحصول ذلك الضلال هو نسيان يوم الحساب لانه لو كان متذكرا ليوم الحساب لما أعرض عن اعداد الزاد ليوم المعاد ولما صار مستغرقا في هذه اللذات الفاسدة * روي عن بعض خلفاء بني مروان انه قال لعمر بن عبد العزيز هل سمعت ما بلغنا ان الخليفة لا يجري عليه القلم ولا يكتب عليه معصية فقال يا أمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الانبياء ثم تلا هذه الآية ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ثم قال تعالى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ونظيره قوله تعالى ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار وقوله تعالى ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج الجبائي بهذه الآية على انه تعالى لا يجوز أن يكون خالقا لاعمال العباد قال لانها مشتملة على الكفر والفسق وكلها أباطيل فلما بين تعالى أنه ما خلق السموات والارض وما بينهما

روي أنه عليه الصلاة والسلام غزا أهل دمشق ونصيبين وأصاب ألف فرس وقيل أصابها أبوه من العمالقة فورثها منه وقيل خرجت من البحر لها أجنحة فقعد يوما بعد ما صلى الظهر على كرسيه فاستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر أو عن ورد كان له من الذكر وقتئذ وتهيبوه فلم يعلموه فاغتم لما فاته فاستردها فعقرها تقربا لله تعالى وبقي مائة فما في أيدي الناس من الجياد فمن نسلها وقيل لما عقرها أبدله الله خيرا منها وهي الريح تجري بأمره (فقال اني أحببت حب الخير عن ذكر ربي) قاله عليه الصلاة والسلام عند غروب الشمس اعترافا بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة وندما عليه وتمهيدا لما يعقبه من الامر بردها وعقرها والتعقيب باعتبار أواخر العرض المستمر دون ابتدائه والتأكيد للدلالة على أن اعترافه وندمه عن صميم القلب لا لتحقيق مضمون الخبر وأصل أحببت أن

باطلا دل هذا على انه تعالى لم يخلق أعمال العباد ومثله قوله تعالى وماخلقنا السموات والارض ومابينهما الا بالحق وعند المجبرة أنه خلق الكافر لاجل أن يكفر والكفر باطل وقد خلق الباطل ثم أكد تعالى ذلك بأن قال ذلك ظن الذين كفروا أى كل من قال بهذا القول فهو كافر فهذا تصريح بان مذهب المجبرة عين الكفر واحتج أصحابنا رحمهم الله بأن هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقا لاعمال العباد فقالوا هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقا لكل مابين السموات والارض وأعمال العباد حاصلة بين السماء والارض فوجب أن يكون الله تعالى خالقها (المسئلة الثانية) هذه الآية دالة على صحة القول بالحشر والنشر والقيامة وذلك لانه تعالى خلق الخلق فى هذا العالم فاما ان يقال انه خلقهم للاضرار أوللانفاع أولا للانفاع اولا للاضرار والاول باطل لان ذلك لايليق بالرحيم الكريم والثالث أيضا باطل لان هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين فلم يبق الا أن يقال انه خلقهم للانفاع فنقول وذلك الانفاع اما أن يكون فى حياة الدنيا أوفى حياة الآخرة والاول باطل لان منافع الدنيا قليلة ومضارها كثيرة وتحمل المضار الكثيرة للمنفعة القليلة لايليق بالحكمة ولما بطل هذا القسم ثبت القول بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيوية وذلك هو القول بالحشر والنشر والقيامة واعلم أن هذا الدليل يمكن تقريره من وجوه كثيرة وقد لخصناها فى أول سورة يونس بالاقتصاء فلا سبيل الى التكرير فثبت بماذكرنا انه تعالى ماخلق السماء والارض ومابينهما باطلا واذا لم يكن خلقهما باطلا كان القول بالحشر والنشر لازما وان كل من أنكر القول بالحشر والنشر كان شاكا فى حكمة الله فى خلق السماء والارض وهذا هو المراد من قوله ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ولما بين الله تعالى على سبيل الاجمال ان انكار الحشر والنشر يوجب الشك فى حكمة الله تعالى بين ذلك على سبيل التفصيل فقال أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار وتقريره أنا نرى فى الدنيا من أطاع الله واحترز عن معصيته فى الفقر والزمانة وأنواع البلاء ونرى الكفرة والفساق فى الراحة والغبطة فلو لم يكن حشر ونشر ومعاد فحينئذ يكون حال المطيع أدون من حال العاصى وذلك لايليق بحكمة الحكيم الرحيم واذا كان ذلك قادحا فى الحكمة ثبت أن انكار الحشر والنشر يوجب انكار حكمة الله ۞ ثم قال تعالى كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة دلت الآية على انه تعالى انما أنزل هذا القرآن لاجل الخير والرحمة والهداية وهذا يفيد أمرين (أحدهما) أن أفعال الله معللة برعاية المصالح (والثانى) أنه تعالى أراد الايمان والخير والطاعة من الكل بخلاف قول من يقول انه اراد الكفر من الكافر (المسئلة الثانية) فى تقرير نظم هذه الآيات فنقول لسائل أن يسأل فيقول انه تعالى حكى فى أول السورة عن المستهزئين من الكفار أنهم بالغوا فى انكار البعث

يتعدى بعلى لانه بمعنى آثرت لكن لما أنيب مناب أنبت عدى تعديته وحب الخير مفعوله كأنه قيل أنبت حب الخير عن ذكر ربى ووضعته موضعه والخير المال الكثير والمراد به الخيل التى شغلته عليه الصلاة والسلام ويحتمل أنه سماها خيرا لتعلق الخير بها قال عليه الصلاة والسلام الخير معقود بنواصى الخيل الى يوم القيامة وقرئ انى (حتى توارت بالحجاب) متعلق بقوله أحببت باعتبار استمرار المحبة ودوامها حسب استمرار العرض أى أنبت حب الخير عن ذكر ربى واستمر ذلك حتى توارت أى غربت الشمس تشبيها لغروبها فى مغربها بتوارى المخبأة بحجابها واضمارها من غير ذكر لدلالة العشى عليها وقيل الضمير للصافنات أى حتى توارت بحجاب الليل أى بظلامه (ردوها على) من تمام مقالة سليمان عليه السلام

والقيامة وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ولما حكى الله تعالى عنهم ذلك لم يذكر الجواب بل قال اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ومعلوم انه لا تعلق لذكر داود عليه السلام بأن القول بالقيامة حق ثم انه تعالى اطنب في شرح قصة داود ثم اتبعه بقوله وما خلقنا السماء والارض ومعلوم انه لا تعلق لمسئلة اثبات حكمة الله بقصة داود ثم لما ذكر اثبات حكمة الله وفرع عليه اثبات أن القول بالحشر والنشر حق ذكر بعده أن القرآن كتاب شريف فاضل كثير النفع والخير ولا تعلق لهذا الفصل بالكلمات المتقدمة واذا كان كذلك كانت هذه الفصول فصولا متباينة لا تعلق للبعض منها بالبعض فكيف يليق بهذا الموضع وصف القرآن بكونه كتابا شريفا فاضلا هذا تمام السؤال (والجواب) أن نقول ان العقلاء قالوا من ابتلى بخصم جاهل مصر متعصب ورآه قد خاض في ذلك التعصب والاصرار وجب عليه أن يقطع الكلام معه في تلك المسئلة لانه كلما كان خوضه في تقريره أكثر كانت نفرته عن القبول أشد فالطريق حينئذ أن يقطع الكلام معه في تلك المسئلة وأن يخوض في كلام آخر أجنبي عن المسئلة الاولى بالكلية ويطنب في ذلك الكلام الاجنبي بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسئلة الاولى فاذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الاجنبي ونسي المسئلة الاولى فحينئذ يدرج في اثناء الكلام في هذا الفصل الاجنبي مقدمة مناسبة لذلك المطلوب الاول فان ذلك المتعصب يسلم هذه المقدمة فاذا سلمها فحينئذ يتمسك بها في اثبات المطلوب الاول وحينئذ يصير ذلك الخصم المصر المتعصب منقطعا مفحما اذا عرفت هذا فنقول ان الكفار بلغوا في انكار الحشر والنشر والقيامة الى حيث قالوا على سبيل الاستهزاء ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب فقال يا محمد اقطع الكلام معهم في هذه المسئلة واشرع في كلام آخر اجنبي بالكلية عن هذه المسئلة وهي قصة داود عليه السلام فان من المعلوم أنه لا تعلق لهذه القصة بمسئلة الحشر والنشر ثم انه تعالى أطنب في شرح تلك القصة ثم قال في آخر القصة يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق وكل من سمع هذا قال نعم ما فعل حيث أمره بالحكم بالحق ثم كأنه تعالى قال وأنا لا آمرك بالحق فقط بل انا مع أني رب العالمين لا أفعل الا بالحق ولا أقضي بالباطل فههنا الخصم يقول نعم ما فعل حيث لم يقض الا بالحق فعند هذا يقال لما سلمت أن حكم الله يجب أن يكون بالحق لا بالباطل لزمك أن تسلم صحة القول بالحشر والنشر لانه لو لم يحصل ذلك لزم أن يكون الكافر راجحا على المسلم في ايصال الخيرات اليه وذلك ضد الحكمة وعين الباطل فبهذا الطريق اللطيف أورد الله تعالى الالزام القاطع على منكري الحشر والنشر ايرادا لا يمكنهم الخلاص عنه فصار ذلك الخصم الذي بلغ في انكار المعاد الى حد الاستهزاء مفحما ملزما بهذا الطريق ولما ذكر الله تعالى هذه الطريقة الدقيقة في الالزام في القرآن لا جرم وصف القرآن بالكمال والفضل فقال كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب فان من

ومرمى غرضه من تقديم ما قدمه ومن لم يتنبه له مع ظهوره توهم أنه متصل بمضمر هو جواب لمضمر آخر كأن سائلا قال فماذا قال سليمان عليه السلام فقيل قال ردوها فتأمل والفاء في قوله تعالى (فطفق مسحا) فصيحة مفصحة عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وايذانا بغاية سرعة الامتثال بالامر أي فردوها عليه فأخذ يمسح السيف مسحا (بالسوق والاعناق) أي بسوقها وأعناقها يقطعها من قولهم مسح علاوته أي ضرب عنقه وقيل جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها حبا لها واعجابا بها وليس بذاك وقرئ بالسؤق على همز الواو لضمتها كما في أدؤر وقرئ بالسؤوق تنزيلا لضمة السين منزلة ضمة الواو وقرئ بالساق اكتفاء بالواحد عن الجمع لامن الالباس (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) أظهر ما قيل في فتنته عليه الصلاة والسلام ما روي مرفوعا أنه قال لاطوفن

لم يتدبر ولم يتامل ولم يساعده التوفيق الالهى لم يقف على هذه الاسرار العجيبة المذكورة فى هذا القرآن العظيم حيث يراه فى ظاهر الحال مقرونا بسوء الترتيب وهو فى الحقيقة مشتمل على أكمل جهات الترتيب فهذا ما حضرنا فى تفسير هذه الآيات و بالله التوفيق * قوله تعالى (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد فقال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ردوها على فطفق مسحا بالسوق والاعناق) واعلم أن هذا هو القصة الثانية وقوله نعم العبد فيه مباحث (الاول) نقول المخصوص بالمدح فى نعم العبد محذوف فقيل هو سليمان وقيل داود والاول أولى لانه أقرب المذكورين ولانه قال بعده انه أواب ولا يجوز أن يكون المراد هو داود لان وصفه بهذا المعنى قد تقدم فى الآية المتقدمة حيث قال واذكر عبدنا داود ذا الايد انه أواب فلو قلنا لفظ الاواب ههنا أيضا صفة داود لزم التكرار ولو قلنا انه صفة لسليمان لزم كون الابن شبيها لابيه فى صفات الكمال فى الفضيلة فكان هذا أولى (البحث الثانى) أنه قال أولا نعم العبد ثم قال بعده انه أواب وهذه الكلمة للتعليل فهذا يدل على انه انما كان نعم العبد لانه كان أوابا فيلزم ان كل من كان كثير الرجوع الى الله تعالى فى أكثر الاوقات وفى أكثر المهمات كان موصوفا بأنه نعم العبد وهذا هو الحق الذى لا شبهة فيه لان كمال الانسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به ورأس المعارف ورئيسها معرفة الله تعالى ورأس الطاعات ورئيسها الاعتراف بأنه لا يتم شئ من الخيرات الا باعانة الله تعالى ومن كان كذلك كان كثير الرجوع الى الله تعالى فكان أوابا فثبت أن كل من كان أوابا وجب أن يكون نعم العبد أما قوله اذ عرض عليه ففيه وجوه (الاول) التقدير نعم العبد هو اذا كان من أعماله انه فعل كذا (الثانى) انه ابتداء كلام والتقدير اذكر يا محمد اذ عرض عليه كذا وكذا والعشى هو من حين العصر الى آخر النهار عرض الخيل عليه لينظر اليها و يقف على كيفية أحوالها والصافنات الجياد الخيل وصفت بوصفين (أولهما) الصافنات قال صاحب الصحاح الصافن الذى يصفن قدميه وفى الحديث كنا اذا صلينا خلفه فرفع رأسه من الركوع قمنا صفونا أى قمنا صافنين أقدامنا وأقول على كلا التقديرين فالصفون صفة دالة على فضيلة الفرس (والصفة الثانية) للخيل فى هذه الآية الجياد قال المبرد والجياد جمع جواد وهو الشديد الجرى كما ان الجواد من الناس هو السريع البذل فالمقصود وصفها بالفضيلة والكمال حالتى وقوفها وحركتها اما حال وقوفها فوصفها بالصفون وأما حال حركتها فوصفها بالجودة يعنى انها اذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها على أحسن الاشكال فاذا جرت كانت سراعا فى جريها فاذا طلبت لحقت واذا طلبت لم تلحق ثم قال تعالى قال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى وفى تفسير هذه اللفظة وجوه (الاول) أن يضمن أحببت معنى فعل يتعدى بعن كأنه قيل أنبت حب الخير عن ذكر ربى (والثانى) ان أحببت بمعنى ألزمت والمعنى انى ألزمت حب الخيل

الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى ولم يقل ان شاء الله تعالى فطاف عليهن فلم تحمل الا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذى نفسى بيده لو قال ان شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون وقيل ولد له ابن فاجتمعت الشياطين على قتله فعلم ذلك فكان يغذوه فى السحاب فما شعر به الا أن ألقى على كرسيه ميتا فتنبه لخطئه حيث لم يتوكل على الله عز وعلا وقيل انه غزا صيدون من الجزائر فقتل ملكها وأصاب بنتا له تسمى جرادة من أحسن الناس فاصطفاها لنفسه وأسلمت وأحبها وكان لا يرقأ دمعها جزعا على أبيها فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته وكانت تغدو اليها وتروح مع ولائدها يسجدن لها كعادتهن فى ملكه فأخبره آصف بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ثم خرج

عن ذكر ربي أي عن كتاب ربي وهو التوراة لان ارتباط الخيل كما أنه في القرآن ممدوح فكذلك في التوراة ممدوح (والثالث) ان الانسان قد يحب شيأ لكنه يحب أن لا يحبه كالمريض الذي يشتهي ما يزيد في مرضه والاب الذي يحب ولده الردئ وأما من أحب شيأ وأحب أن يحبه كان ذلك غاية المحبة فقوله أحببت حب الخير بمعنى أحببت حبي لهذه الخيل ثم قال عن ذكر ربي بمعنى ان هذه المحبة الشديدة انما حصلت عن ذكر الله وأمره لا عن الشهوة والهوى وهذا الوجه أظهر الوجوه ثم قال تعالى حتى توارت أقول الضمير في قوله حتى توارت وفي قوله ردوها يحتمل أن يكون كل واحد منهما عائدا الى الشمس لانه جرى ذكر ماله تعلق بها وهو العشي ويحتمل أن يكون كل واحد منهما عائدا الى الصافنات ويحتمل أن يكون الاول متعلقا بالشمس والثاني بالصافنات ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك فهذه احتمالات أربعة لا مزيد عليها (فالاول) أن يعود الضميران معا الى الصافنات كأنه قال حتى توارت الصافنات بالحجاب ردوا الصافنات علي والاحتمال الثاني أن يكون الضميران معا عائدين الى الشمس كأنه قال حتى توارت الشمس بالحجاب ردوا الشمس وروي أنه صلى الله عليه وسلم لما اشتغل بالخيل فاتته صلاة العصر فسأل الله أن يرد الشمس فقوله ردوها على اشارة الى طلب رد الشمس وهذا الاحتمال عندي بعيد والذي يدل عليه وجوه (الاول) ان الصافنات مذكورة تصريحا والشمس غير مذكورة وعود الضمير الى المذكور أولى من عوده الى المقدر (الثاني) أنه قال اني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب وظاهر هذا اللفظ يدل على أن سليمان عليه السلام كان يقول اني أحببت حب الخير عن ذكر ربي وكان يعيد هذه الكلمات الى أن توارت الحجاب فلو قلنا المراد حتى توارت الصافنات بالحجاب كان معناه انه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة الى أن غابت عن عينه وذلك مناسب ولو قلنا المراد حتى توارت الشمس بالحجاب كان معناه انه كان يعيد عين هذه الكلمة من وقت العصر الى وقت المغرب وهذا في غاية البعد (الثالث) انا لو حكمنا بعود الضمير في قوله حتى توارت الى الشمس وحملنا اللفظ على انه ترك صلاة العصر كان هذا منافيا لقوله أحببت حب الخير عن ذكر ربي فان تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله لما نسي الصلاة ولما ترك ذكر الله (الرابع) انه بتقدير انه عليه السلام بقي مشغولا بتلك الخيل حتى غربت الشمس وفاتت صلاة العصر فكان ذلك ذنبا عظيما وجرما قويا فالاليق بهذه الحالة التضرع والبكاء والمبالغة في اظهار التوبة فأما أن يقول على سبيل التهور والعظمة لاله العالم ورب العالمين ردوها على بمثل هذه الكلمة العارية عن كل جهات الادب عقيب ذلك الجرم العظيم فهذا لا يصدر عن أبعد الناس عن الخير فكيف يجوز اسناده الى الرسول المطهر المكرم (الخامس) ان القادر على تحريك الافلاك والكواكب هو الله تعالى فكان يجب أن يقول ردها على ولا يقول ردوها على فان قالوا انما ذكر صيغة الجمع للتنبيه على تعظيم المخاطب فنقول قوله ردوها

وحده الى فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائبا الى الله تعالى باكيا متضرعا وكانت له أم ولد يقال لها امينة اذا دخل للطهارة أو لاصابة امرأة يعطيها خاتمه وكان ملكه فيه فأعطاها يوما فتمثل لها بصورته شيطان اسمه صخر وأخذ الخاتم فتختم به وجلس على كرسيه فاجتمع عليه الخلق ونفذ حكمه في كل شئ الا في نسائه وغير سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته فعرف ان الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف واذا قال أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ثم عمد الى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على ذلك أربعين صباحا عدد ما عبد الوثن في بيته فأنكر آصف وعظماء بني اسرائيل حكم الشيطان ثم طار اللعين وقذف الخاتم في البحر

لفظ مشعر بأعظم أنواع الاهانة فكيف يليق بهذا اللفظ رعاية التعظيم (السادس) الشمس لو رجعت بعد الغروب لكان ذلك مشاهداً لكل أهل الدنيا ولو كان الامر كذلك لتوفرت الدواعي على نقله واظهاره وحيث لم ينقل أحد ذلك علمنا فساده (السابع) انه تعالى قال اذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ثم قال حتى توارت بالحجاب وعود الضمير الى أقرب المذكورين أولى وأقرب المذكورين هو الصافنات الجياد وأما العشي فابعدهما فكان عود ذلك الضمير الى الصافنات أولى فثبت بما ذكرنا أن حمل قوله حتى توارت بالحجاب على توارى الشمس وأن حمل قوله ردوها على على أن المراد منه طلب أن يرد الله الشمس بعد غروبها كلام في غاية البعد عن النظم ثم قال تعالى فطفق مسحاً بالسوق والاعناق أي فجعل سليمان عليه السلام يمسح سوقها وأعناقها قال الاكثرون معناه انه مسح السيف بسوقها وأعناقها أي قطعها قالوا انه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر الى تلك الخيل استردها وعقر سوقها وأعناقها تقرباً الى الله تعالى وعندي ان هذا أيضاً بعيد ويدل عليه وجوه (الاول) أنه لو كان معنى مسح السوق والاعناق قطعها لكان معنى قوله وامسحوا برؤسكم وأرجلكم قطعها وهذا مما لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق أما اذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم البتة من المسح العقر والذبح (الثاني) القائلون بهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعاً من الافعال المذمومة (فأولها) ترك الصلاة (وثانيها) انه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا الى حيث نسي الصلاة وقال صلى الله عليه وسلم حب الدنيا رأس كل خطيئة (وثالثها) انه بعد الاتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والانابة البتة (ورابعها) أنه خاطب رب العالمين بقوله ردوها على وهذه كلمة لا يذكرها الرجل الحصيف الا مع الخادم الخسيس (وخامسها) انه أتبع هذه المعاصي بعقر الخيل في سوقها وأعناقها وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن ذبح الحيوان الا لمأكله فهذه أنواع من الكبائر نسبوها الى سليمان عليه السلام مع ان لفظ القرآن لم يدل على شئ منها (وسادسها) ان هذه القصص انما ذكرها الله تعالى عقيب قوله وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب وان الكفار لما بلغوا في السفاهة الى هذا الحد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر يا محمد على سفاهتهم واذكر عبدنا داود وذكر قصة داود ثم ذكر عقيبها قصة سليمان وكان التقدير انه تعالى قال لمحمد عليه السلام اصبر يا محمد على ما يقولون واذكر عبدنا سليمان وهذا الكلام انما يكون لائقا لو قلنا ان سليمان عليه السلام أتى في هذه القصة بالاعمال الفاضلة والاخلاق الحميدة وصبر على طاعة الله واعرض عن الشهوات واللذات فاما لو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام في هذا الموضع انه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر هذه القصة لائقا بهذا الموضع فثبت ان كتاب الله تعالى ينادي على هذه الاقوال الفاسدة بالرد والافساد

﴿ والابطال ﴾

فابتلعته سمكة فوقعت في يد سليمان فبقر بطنها فاذا هو بالخاتم فتختم به وخر ساجداً وعاد اليه ملكه وجاب صخرة لصخر فجعله فيها وسد عليه بأخرى ثم أوثقهما بالحديد والرصاص وقذفه في البحر وعلى هذا فالجسد عبارة عن صخر سمي به وهو جسم لا روح فيه لانه تمثل بما لم يكن كذلك والخطيئة تغافله عليه الصلاة والسلام عن حال أهله لان اتخاذ التماثيل لم يكن محظوراً حينئذ وسجود الصورة بغير علم منه لا يضره (قال) بدل من أناب وتفسير له (رب اغفر لي) أي ما صدر عني من الزلة (وهب لي ملكاً لا ينبغي لاحد من بعدي) لا يتسهل له ولا يكون ممكناً في مناسبة لحالي فانه عليه الصلاة والسلام لما نشأ في بيت الملك والنبوة وورثهما معاً استدعى من ربه معجزة جامعة لحكمهما أو لا ينبغي لاحد أن يسلبه مني بعد هذه

والابطال بل التفسير المطابق للحق لالفاظ القرآن والصواب أن نقول ان رباط الخيل
كان مندوبا اليه في دينهم كما أنه كذلك في دين محمد صلى الله عليه وسلم ثم ان سليمان عليه
السلام احتاج الى الغزو فجلس وأمر باحضار الخيل وأمر باجرائها وذكر اني لا أحبها
لاجل الدنيا ونصيب النفس وانما أحبها لامر الله وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله
عن ذكر ربي ثم انه عليه السلام أمر باعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أي غابت عن
بصره ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل اليه فلما عادت اليه طفق يمسح سوقها
وأعناقها والغرض من ذلك المسح أمور (الاول) تشريفا لها وابانة لعزتها لكونها من
أعظم الاعوان في دفع العدو (الثاني) أنه أراد أن يظهر انه في ضبط السياسة والملك يتضع
الى حيث يباشر أكثر الامور بنفسه (الثالث) انه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها
وعيوبها فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض فهذا
التفسير الذي ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقا مطابقا موافقا ولا يلزمنا نسبة
شيء من تلك المنكرات والمحذورات وأقول أنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه
الوجوه السخيفة مع أن العقل والنقل يردها وليس لهم في اثباتها شبهة فضلا عن حجة فان
قيل فالجمهور فسروا الآية بتلك الوجوه فما قولك فيه فنقول لنا ههنا مقامان (المقام
الاول) ان ندعي ان لفظ الآية لا يدل على شيء من تلك الوجوه التي يذكرونها وقد
ظهر والحمد لله ان الامر كما ذكرناه وظهوره لا يرتاب العاقل فيه (المقام الثاني) أن يقال
هب ان لفظ الآية لا يدل عليه الا انه كلام ذكره الناس فما قولك فيه وجوابنا ان الدلائل
الكثيرة قامت على عصمة الانبياء عليهم السلام ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات
ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالى بهم
ولا يلتفت الى أقوالهم والله أعلم * قوله تعالى (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا
ثم أناب قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي انك أنت الوهاب فسخرنا
له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين
في الاصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وان له عندنا لزلفى وحسن مآب)
اعلم ان هذه الآية شرح واقعة ثانية لسليمان عليه السلام واختلفوا في المراد من
قوله ولقد فتنا سليمان ولاهل الحشو والرواية فيه قول ولاهل العلم والتحقيق قول آخر
أما قول أهل الحشو فذكروا فيه حكايات (الاولى) قالوا ان سليمان بلغه خبر مدينة
في البحر فخرج اليها بجنوده تحمله الريح فأخذها وقتل ملكها وأخذ بنتا له اسمها جرادة
من أحسن الناس وجها فاصطفاها لنفسه وأسلمت فأحبها وكانت تبكي أبدا على أبيها فأمر
سليمان الشيطان فمثل لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تذهب الى تلك الصورة
بكرة وعشيا مع جواريها يسجدن لها فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب
المرأة ثم خرج وحده الى فلاة وفرش الرماد فجلس عليه تائبا الى الله تعالى وكانت له أم ولد

السلبة أو لا يصح لاحد من
بعدي لعظمته كقولك
لفلان ما ليس لاحد
من الفضل والمال على
ارادة وصف الملك
بالعظمة لا أن لا يعطى
أحد مثله فيكون منافسة
وقيل كان ملكا عظيما
فخاف أن يعطى مثله
أحد فلا يحافظ على
حدود الله تعالى وتقديم
الاستغفار على الاستيهاب
لمزيد اهتمامه بأمر الدين
جريا على سنن الانبياء
عليهم الصلاة والسلام
والصالحين وكون ذلك
أدخل في الاجابة وقرئ
لي بفتح الياء (انك أنت
الوهاب) تعليل للدعاء
بالمغفرة والهبة معا
لا بالاخيرة فقط فان المغفرة
أيضا من أحكام وصف
الوهابية قطعا (فسخرنا له
الريح) أي فذللناها
لطاعته اجابة لدعوته
فعاد أمره عليه الصلاة
والسلام الى ما كان عليه
قبل الفتنة وقرئ الرياح
(تجري بأمره) بيان
لتسخيرها له (رخاء) أي
لينة من الرخاوة طيبة
لا تزعزع وقيل مطيعة
لا تمتنع عليه كالمأمور المنقاد

يقال لها أمينة اذا دخل الطهارة أو لاصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه فى خاتمه فوضعه عندها يوما فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان وقال يا أمينة خاتمى فتختم به وجلس على كرسى سليمان فأتى عليه الطير والجن والانس وتغيرت هيئة سليمان فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته فعرف ان الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف واذا قال أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ثم أخذ يخدم السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على هذه الحالة أربعين يوما عدد ما عبد الوثن فى بيته فأنكر آصف وعظماء بنى اسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان فقلن ما يدع امرأة منا فى دمها ولا يغتسل من جنابة وقيل بل نفذ حكمه كل شئ الا فيهن ثم طار الشيطان وقذف الخاتم فى البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة فى يد سليمان فبقر بطنها فاذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجدا لله ورجع اليه ملكه وأخذ ذلك الشيطان وأدخله فى صخرة وألقاها فى البحر (الرواية الثانية) للحشوية ان تلك المرأة لما أقدمت على عبادة تلك الصورة افتتن سليمان وكان يسقط الخاتم من يده ولا يتماسك فيها فقال له آصف انك لمفتون بذنبك فتب الى الله (والرواية الثالثة) لهم قالوا ان سليمان قال لبعض الشياطين كيف تفتنون الناس فقال ارنى خاتمك أخبرك فلما أعطاه اياه نبذه فى البحر فذهب ملكه وقعد هذا الشيطان على كرسيه ثم ذكر الحكاية الى آخرها اذا عرفت هذه الروايات فهؤلاء قالوا المراد من قوله ولقد فتنا سليمان ان الله تعالى ابتلاه وقوله وألقينا على كرسيه جسدا هو جلوس ذلك الشيطان على كرسيه (والرواية الرابعة) انه كان سبب فتنته احتجابه عن الناس ثلاثة أيام فسلب ملكه وألقى على سريره شيطان عقوبة له واعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه (الاول) ان الشيطان لو قدر على أن يتشبه بالصورة والخلقة بالانبياء فحينئذ لا يبقى اعتماد على شئ من الشرائع فلعل هؤلاء الذين رآهم الناس فى صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم فى الصورة لاجل الاغواء والاضلال ومعلوم ان ذلك يبطل الدين بالكلية (الثانى) ان الشيطان لو قدر على ان يعامل نبى الله سليمان بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد وحينئذ وجب أن يقتلهم وأن يمزق تصانيفهم وان يخرب ديارهم ولما بطل ذلك فى حق آحاد العلماء فلأن يبطل مثله فى حق أكابر الانبياء أولى (الثالث) كيف يليق بحكمة الله واحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان ولا شك انه قبيح (الرابع) لو قلنا ان سليمان أذن لتلك المرأة فى عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه وان لم يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه فأما الوجوه التى ذكرها أهل التحقيق فى هذا الباب فأشياء (الاول) ان فتنة سليمان أنه ولد له ابن فقالت الشياطين ان عاش صار مسلطا علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله فعلم سليمان ذلك فكان يربيه فى السحاب فبينما هو مشتغل بمهماته اذ ألقى ذلك الولد

(حيث أصاب) أى حيث قصد وأراد حكى الاصمعى عن العرب أصاب الصواب فأخطأ الجواب (والشياطين) عطف على الريح (كل بناء وغواص) بدل من الشياطين (وآخرين مقرنين فى الاصفاد) عطف على كل بناء داخل فى حكم البدل كأنه عليه الصلاة والسلام فصل الشياطين الى عملة استعملهم فى الاعمال الشاقة من البناء والغوص ونحو ذلك والى مردة قرن بعضهم مع بعض فى السلاسل لكفهم عن الشر والفساد ولعل أجسامهم شفافة فلا ترى صلبة فيمكن تقييدها ويقدرون على الاعمال الصعبة وقد يجوز أن يكون الاقران فى الاصفاد عبارة عن كفهم عن الشرور بطريق التمثيل والصفد القيد وسمى به العطاء لانه يرتبط بالمنعم عليه وفرقوا بين فعليهما فقالوا صفده قيده وأصفده أعطاه على عكس وعد وأوعد وقوله تعالى (هذا) الخ اما حكاية لما خوطب به سليمان عليه السلام

ميتا على كرسيه فنبه على خطئه في انه لم يتوكل فيه على الله فاستغفر ربه وأناب (الثاني) روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال قال سليمان لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل ان شاء الله فطاف عليهن فلم تحمل الا امرأة واحدة جاءت بشق رجل فجيء به على كرسيه فوضع في حجره فوالذي نفسي بيده لو قال ان شاء الله لجاهدوا كلهم في سبيل الله فرسانا أجمعون فذلك قوله ولقد فتنا سليمان (الثالث) قوله ولقد فتنا سليمان بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه وألقينا على كرسيه منه جسدا وذلك لشدة المرض والعرب تقول في الضعيف انه لحم على وضم وجسم بلا روح ثم أناب أي رجع الى حال الصحة فاللفظ يحتمل لهذه الوجوه ولا حاجة البتة الى حمله على تلك الوجوه الركيكة (الرابع) أقول لا يبعد أيضا أن يقال انه ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسي ثم انه أزال الله عنه ذلك الخوف وأعاده الى ما كان عليه من القوة وطيب القلب أما قوله تعالى قال رب اغفر لي فاعلم ان الذين حملوا الكلام المتقدم على صدور الزلة منه تمسكوا بهذه الآية فانه لولا تقدم الذنب لما طلب المغفرة ويمكن أن يجاب عنه بان الانسان لا ينفك البتة عن ترك الافضل والاولى وحينئذ يحتاج الى طلب المغفرة لان حسنات الابرار سيآت المقربين ولانهم أبدا في مقام هضم النفس واظهار الذلة والخضوع كما قال صلى الله عليه وسلم واني لاستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة ولا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى والله أعلم ثم قال تعالى وهب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي دلت هذه الآية على انه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا لان سليمان طلب المغفرة أولا ثم بعده طلب المملكة وأيضا الآية تدل على ان طلب المغفرة من الله تعالى سبب لانفتاح أبواب الخيرات في الدنيا لان سليمان طلب المغفرة أولا ثم توسل به الى طلب المملكة ونوح عليه السلام هكذا فعل أيضا لانه تعالى حكى عنه انه قال فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم باموال وبنين وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك فان قيل قوله عليه السلام ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي مشعر بالحسد والجواب عنه ان القائلين بان الشيطان استولى على مملكته قالوا معنى قوله لا ينبغي لاحد من بعدي هو أن يعطيه الله ملكا لا تقدر الشياطين أن يقوموا مقامه البتة فأما المنكرون لذلك فقد أجابوا عنه من وجوه (الاول) ان الملك هو القدرة فكان المراد أقدرني على أشياء لا يقدر عليها غيري البتة ليصير اقتداري عليها معجزة تدل على صحة نبوتي ورسالتي والدليل على صحة هذا الكلام انه تعالى قال عقيبه فسخرنا له الريح تجري بامره رخاء حيث أصاب فكون الريح جاريا بامره قدرة عجيبة وملك عجيب ولا شك انه معجزة دالة على نبوته فكان قوله هب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي هو هذا المعنى لان شرط المعجزة أن لا يقدر غيره على

منبه لعظم شأن ما أوتي من الملك وأنه مفوض اليه تفويضا كليا واما مقول لقول مقدر هو معطوف على سخرنا أو حال من فاعله كأمر في خاتمة قصة داود عليه السلام أي وقلنا له أو قائلين له هذا الامر الذي أعطيناكه من الملك العظيم والبسطة والتسلط على ما لم يسلط عليه غيرك (عطاؤنا) الخاص بك (فامنن أو أمسك) فاعط من شئت وامنع من شئت (بغير حساب) حال من المستكن في الامر أي غير محاسب على منه وامساكه لتفويض التصرف فيه اليك على الاطلاق أو من العطاء أي هذا عطاؤنا ملتبسا بغير حساب لغاية كثرته أو صلة له وما بينهما اعتراض على التقديرين وقيل الاشارة الى تسخير الشياطين والمراد بالمن والامساك الاطلاق والتقييد (وان له عندنا لزلفى) في الآخرة مع ما له من الملك العظيم في الدنيا (وحسن مآب) هو الجنة قيل فتن سليمان عليه السلام بعد ما ملك عشرين سنة وملك بعد

معارضتها فقوله لاينبغي لاحد من بعدي يعني لايقدر أحد على معارضته (والوجه الثاني) في الجواب انه عليه السلام لما مرض ثم عاد الى الصحة عرف ان خيرات الدنيا صائرة الى الغير بارث أوسبب آخر فسأل ربه ملكا لايمكن أن ينتقل منه الى غيره وذلك الذي سأله بقوله ملكا لاينبغي لاحد من بعدي أي ملكا لايمكن أن ينتقل عني الى غيري (والوجه الثالث) في الجواب ان الاحتراز عن طيبات الدنيا مع القدرة عليها أشق من الاحتراز عنها حال عدم القدرة عليها فكأنه قال ياالهي أعطني مملكة فائقة على ممالك البشر بالكلية حتى احترز عنها مع القدرة عليها ليصير ثوابي أكمل وأفضل (الوجه الرابع) من الناس من يقول ان الاحتراز عن لذات الدنيا عسر صعب لان هذه اللذات حاضرة وسعادات الآخرة نسيئة والنقد يصعب بيعه بالنسيئة فقال سليمان اعطني يارب مملكة تكون أعظم الممالك الممكنة للبشر حتى اني أبقى مع تلك القدرة الكاملة في غاية الاحتراز عنها ليظهر للخلق ان حصول الدنيا لا يمنع من خدمة المولى (الوجه الخامس) ان من لم يقدر على الدنيا يبقى ملتفت القلب اليها فيظن ان فيها سعادات عظيمة وخيرات نافعة فقال سليمان يارب العزة أعطني اعظم الممالك حتى يقف الناس على كمال حالها فحينئذ يظهر للعقل انه ليس فيها فائدة وحينئذ يعرض القلب عنها ولايلتفت اليها وأشتغل بالعبودية ساكن النفس غير مشغول القلب بعلائق الدنيا ثم قال فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب رخاء أي رخوة لينة وهي من الرخاوة والريح اذا كانت لينة لاتزعزع ولاتمتنع عليه كانت طيبة فان قيل أليس انه تعالى قال في آية أخرى ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره قلنا الجواب من وجهين (الاول) لامنافاة بين الآيتين فان المراد ان تلك الريح كانت في قوة الرياح العاصفة الا انها لما جرت بأمره كانت لذيذة طيبة فكانت رخاء (والوجه الثاني) من الجواب أن تلك الريح كانت لينة مرة وعاصفة أخرى ولامنافاة بين الامرين وقوله تعالى حيث أصاب أي قصد وأراد وحكى الاصمعي عن العرب انهم يقولون أصاب الصواب فأخطأ الجواب وعن رؤبة ان رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج اليهما فقال اين تصيبان فقالا هذا مطلوبنا وبالجملة فالمقصود أنه تعالى جعل الريح مسخرة له حتى صارت تجري بامره على وفق ارادته ثم قال والشياطين كل بناء وغواص قال صاحب الكشاف الشياطين عطف على الريح وكل بناء بدل من الشياطين وآخرين عطف على قوله كل بناء وهو بدل الكل من الكل كانوا يبنون له ماشاء من الابنية ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ وقوله مقرنين يقال قرنهم في الحبال والتشديد للكثرة والاصفاد الاغلال واحدها صفد والصفد العطية أيضا قال النابغة ❊ ولم اعرض أبيت اللعن بالصفد ❊ فعلى هذا الصفد القيد فكل من شددته شداوثيقا فقد صفدته وكل من أعطيته عطاء جزيلا فقد أصفدته وههنا بحث وهو ان هذه الآيات دالة على

فتنة عشرين سنة ذكر الفقيه أبو حنيفة احمد بن داود الدينوري في تاريخه أن سليمان عليه السلام ورث ملك أبيه في عصر كيخسرو بن سياوش وسار من الشام الى العراق فبلغ خبره كيخسرو فهرب الى خراسان فلم يلبث حتى هلك ثم سار سليمان عليه السلام الى مرو ثم الى بلاد الترك فوغل فيها ثم جاز بلاد الصين ثم عطف الى ان وافى بلاد فارس فنزلها أياما ثم عاد الى الشام ثم أمر ببناء بيت المقدس فلما فرغ منه سار الى تهامة ثم الى صنعاء وكان من حديثه مع صاحبتها ماذكر الله تعالى وغزا بلاد المغرب الاندلس وطنجة وغيرهما والله تعالى أعلم

(واذكر عبدنا أيوب) عطف على اذكر عبدنا داود وعدم تصدير قصة سليمان بهذا العنوان لكمال الاتصال بينه وبين داود عليهما السلام ﴿ ٢٠٥ ﴾ وأيوب هو ابن عيص بن اسحق عليه السلام (اذ نادى ربه) بدل اشتمال من عبدنا وأيوب عطف بيان له (أني) بأني (مسني الشيطان) بفتح ياء مسني وقرئ باسكانها واسقاطها (بنصب) أي تعب وقرئ بفتح النون وبفتحتين وبضمتين للتثقيل (وعذاب) أي ألم ووصب يريد مرضه وما كان يقاسيه من فنون الشدائد وهو المراد بالضر في قوله اني مسني الضر وهو حكاية لكلامه الذي ناداه به بعبارته والا لقيل انه مسه الخ والاسناد الى الشيطان اما لانه تعالى مسه بذلك لما فعل بوسوسته كما قيل انه أعجب بكثرة ماله أو استغاثه مظلوم فلم يغثه أو كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه أو لامتحان صبره فيكون اعترافا بالذنب أو مراعاة الادب أو لانه وسوس الى أتباعه حتى رفضوه واخرجوه من ديارهم أو لان المراد بالنصب والعذاب ما كان يوسوس به اليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه على الكراهة والجزع فالتجأ الى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق لدفعه ورده بالصبر الجميل وليس هذا تمام

أن الشياطين لها قوة عظيمة وبسبب تلك القوة قدروا على بناء الابنية القوية التي لا يقدر عليها البشر وقدروا على الغوص في البحار واحتاج سليمان عليه السلام الى قيدهم ولقائل أن يقول ان هذه الشياطين اما أن تكون أجسادهم كثيفة أو لطيفة فان كان الاول وجب أن يراهم من كان صحيح الحاسة اذ لو جاز أن لا نراهم مع كثافة أجسادهم فليجز أن تكون بحضرتنا جبال عالية وأصوات هائلة ولا نراها ولا نسمعها وذلك دخول في السفسطة وان كان الثاني وهو أن أجسادهم ليست كثيفة بل لطيفة رقيقة فمثل هذا يمتنع أن يكون موصوفا بالقوة الشديدة وأيضا لزم أن تتفرق أجسادهم وأن تتمزق بسبب الرياح القوية وأن يموتوا في الحال وذلك يمنع من وصفهم ببناء الابنية القوية وأيضا الجن والشياطين ان كانوا موصوفين بهذه القوة والشدة فلم لا يقتلون العلماء والزهاد في زماننا ولم لا يخربون ديار الناس مع أن المسلمين مبالغون في اظهار لعنهم وعداوتهم وحيث لم يحس شئ من ذلك علمنا أن القول باثبات الجن والشياطين ضعيف واعلم أن أصحابنا يجوزون أن تكون أجسامهم كثيفة مع انا لا نراها وأيضا لا يبعد أن يقال أجسامهم لطيفة بمعنى عدم اللون ولكنها صلبة بمعنى انها لا تقبل التفرق والتمزق وأما الجبائي فقد سلم انها كانت كثيفة الاجسام وزعم ان الناس كانوا يشاهدونهم في زمن سليمان ثم انه لما توفي سليمان عليه السلام أمات الله أولئك الجن والشياطين وخلق نوعا آخر من الجن والشياطين تكون أجسامهم في غاية الرقة ولا يكون لهم شئ من القوة والموجود في زماننا من الجن والشياطين ليس الا من هذا الجنس ثم قال تعالى هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وفيه قولان (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما أعط من شئت وامنع من شئت بغير حساب اي ليس عليك حرج فيما أعطيت وفيما أمسكت (الثاني) ان هذا في أمر الشياطين خاصة والمعنى هؤلاء الشياطين المسخرون عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين فخل عنه واحبس من شئت منهم في العمل بغير حساب ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على سليمان في الدنيا أردفه بانعامه عليه في الآخرة فقال وان له عندنا لزلفى وحسن مآب وقد سبق تفسيره ❊ قوله تعالى (واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربه اني مسني الشيطان بنصب وعذاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ووهبنا له اهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الالباب وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) اعلم ان هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة واعلم ان داود وسليمان كانا ممن أفاض الله عليه اصناف الآلاء والنعماء وأيوب كان ممن خصه الله تعالى بانواع البلاء والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار كان الله تعالى قال يا محمد اصبر على سفاهة قومك فانه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالا وجاها من داود وسليمان عليهما السلام وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف ان أحوال الدنيا لا تنتظم لاحد

وان العاقل لابدله من الصبر على المكاره وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف أيوب عطف بيان واذ بدل اشتمال منه انى مسنى أى بأنى مسنى حكاية لكلامه الذى ناداه بسببه ولو لم يحك لقال بانه مسه لانه غائب وقرئ بنصب بضم النون وفتحهما مع سكون الصاد وفتحها وضمهما فالنصب والنصب كالرشد والرشد والعدم والعدم والسقم والسقم والنصب على أصل المصدر والنصب تثقيل نصب والمعنى واحد وهو التعب والمشقة والعذاب والألم واعلم انه كان قد حصل عنده نوعان من المكروه الغم الشديد بسبب زوال الخيرات وحصول المكروهات والألم الشديد فى الجسم ولما حصل هذان النوعان لاجرم ذكر الله تعالى لفظين وهما النصب والعذاب (المسئلة الثانية) الناس فى هذا الموضع قولان (الاول) ان الآلام والاسقام الحاصلة فى جسمه انما حصلت بفعل الشيطان (الثانى) انها انما حصلت بفعل الله والعذاب المضاف فى هذه الآية الى الشيطان هو عذاب الوسوسة والقاء الخواطر الفاسدة (وأما القول الاول) فتقريره ماروى ان ابليس سأل ربه فقال هل فى عبيدك من لو سلطتنى عليه يمتنع منى فقال الله نعم عبدى أيوب فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى ابليس عيانا ولا يلتفت اليه فقال يارب انه قد امتنع على فسلطنى على ماله وكان يجيئه ويقول له هلك من مالك كذا وكذا فيقول الله اعطى والله أخذ ثم يحمد الله فقال يارب ان أيوب لايبالى بماله فسلطنى على ولده فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية فجاءه وأخبره به فلم يلتفت اليه فقال يارب لايبالى بماله وولده فسلطنى على جسده فاذن فيه فنفخ فى جلد أيوب وحدثت اسقام عظيمة وآلام شديدة فيه فمكث فى ذلك البلاء سنين حتى صار بحيث استقذره أهل بلده فخرج الى الصحراء وما كان يقرب منه أحد فجاء الشيطان الى امرأته وقال لو أن زوجك استعان بى لخلصته من هذا البلاء فذكرت المرأة ذلك لزوجها فحلف بالله لئن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدة وعند هذه الواقعة قال انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب فأجاب الله دعاءه وأوحى اليه أن اركض برجلك فأظهر الله من تحت رجله عينا باردة طيبة فاغتسل منها فأذهب الله عنه كل داء فى ظاهره وباطنه ورد عليه أهله وماله (والقول الثانى) ان الشيطان لاقدرة له البتة على ايقاع الناس فى الامراض والآلام والدليل عليه وجوه (الاول) انا لوجوزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان فلعل الواحد منا انما وجد الحياة بفعل الشيطان ولعل كل ما حصل عندنا من الخيرات والسعادات فقد حصل بفعل الشيطان وحينئذ لايكون لنا سبيل الى أن نعرف ان معطى الحياة والموت والصحة والسقم هو الله تعالى (الثانى) ان الشيطان لو قدر على ذلك فلم لايسعى فى قتل الانبياء والاولياء ولم لايخرب دورهم ولم لايقتل أولادهم (الثالث) انه تعالى حكى عن الشيطان انه قال ما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى فصرح بأنه لاقدرة له فى حق البشر الا على القاء الوساوس والخواطر الفاسدة وذلك

دعائه عليه الصلاة والسلام بل من جملته قوله وأنت أرحم الراحمين فاكتفى ههنا عن ذكره بما فى سورة الانبياء كما ترك هنالك ذكر الشيطان ثقة بما ذكر ههنا وقوله تعالى (اركض برجلك) الخ اما حكاية لماقيل له أو مقول لقول مقدر معطوف على نادى أى فقلنا له اركض برجلك أى اضرب بها الارض وكذا قوله تعالى (هذا مغتسل بارد وشراب) فانه أيضا اما حكاية لماقيل له بعد امتثاله بالامر ونبوع الماء أو مقول لقول مقدر معطوف على مقدر ينساق اليه الكلام كأنه قيل فضربها فنبعت عين فقلنا له هذا مغتسل تغتسل به وتشرب منه فيبرأ ظاهرك وباطنك وقيل نبعت عينان حارة للاغتسال وباردة للشرب ويأباه ظاهر النظم الكريم وقوله تعالى (ووهبناله أهله) معطوف على مقدر مترتب على مقدر آخر يقتضيه القول المقدر آنفا كأنه قيل فاغتسل وشرب فكشفنا بذلك ما به من ضر كما فى سورة الانبياء

يدل على قول من يقول ان الشيطان هو الذي ألقاه في تلك الامراض والآفات فان قال قائل لم لا يجوز أن يقال ان الفاعل لهذه الاحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان قلنا فاذا كان لابد من الاعتراف بأن خالق تلك الآلام والاسقام هو الله تعالى فأى فائدة في جعل الشيطان واسطة في ذلك بل الحق ان المراد من قوله انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب انه بسبب القاء الوساوس الفاسدة والخواطر الباطلة كان يلقيه في أنواع العذاب والعناء ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أن تلك الوساوس كيف كانت وذكروا فيه وجوها (الاول) ان علته كانت شديدة الالم ثم طالت مدة تلك العلة واستقذره الناس ونفروا عن مجاورته ولم يبق له شئ من الاموال البتة وامرأته كانت تخدم الناس وتحصل له قدر القوت ثم بلغت نفرة الناس عنه الى أن منعوا امرأته من الدخول عليهم ومن الاشتغال بخدمتهم والشيطان كان يذكره النعم التى كانت والآفات التى حصلت وكان يحتال فى دفع تلك الوساوس فلما قويت تلك الوساوس فى قلبه خاف وتضرع الى الله وقال انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب لانه كلما كانت تلك الخواطر أكثر كان ألم قلبه منها أشد (الثانى) انها لما طالت مدة المرض جاءه الشيطان وكان يقنطه من ربه ويزين له أن يجزع فخاف من تأكد خاطر القنوط فى قلبه فتضرع الى الله تعالى وقال انى مسنى الشيطان (الثالث) قيل ان الشيطان لما قال لامرأته لو اطاعنى زوجك أزلت عنه هذه الآفات فذكرت المرأة له ذلك فغلب على ظنه ان الشيطان طمع فى دينه فشق ذلك عليه فتضرع الى الله تعالى وقال انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب (الرابع) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه بقى أيوب فى البلاء ثمان عشرة سنة حتى رفضه القريب والبعيد الا رجلين ثم قال أحدهما لصاحبه لقد أذنب أيوب ذنبا ما أتى به أحد من العالمين ولولاه ما وقع فى مثل هذا البلاء فذكروا ذلك لايوب عليه السلام فقال لا أدرى ما تقولان غير أن الله يعلم انى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فارجع الى بيتى فاكفر عنهما كراهية ان يذكر الله تعالى الا فى الحق (الخامس) قيل ان امرأته كانت تخدم الناس فتأخذ منهم قدر القوت وتجئ به الى أيوب فاتفق انهم ما استخدموها البتة وطلب بعض النساء منها قطع احدى ذؤابتيها على أن تعطيها قدر القوت ففعلت ثم فى اليوم الثانى ففعلت مثل ذلك فلم يبق لها ذؤابة وكان أيوب عليه السلام اذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق بتلك الذؤابة فلما لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر المؤذية فى قلبه واشتد غمه فعند ذلك قال انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب (السادس) قال فى بعض الايام يارب لقد علمت ما اجتمع على أمران الا آثرت طاعتك ولما أعطيتنى المال كنت للارامل قيما ولابن السبيل معينا ولليتامى أبا فنودى من غمامة يا أيوب ممن كان ذلك التوفيق فاخذ أيوب التراب ووضعه على رأسه وقال منك يارب ثم خاف من الخاطر الاول فقال مسنى الشيطان بنصب وعذاب وقد ذكروا أقوالا أخرى والله

(ومثلهم معهم) عطف على أهله فكان له من الاولاد ضعف ما كان له قبل (رحمة منا) أى لرحمة عظيمة عليه من قبلنا (وذكرى لأولى الالباب) ولنذكرهم بذلك ليصبروا على الشدائد كما صبر ويلجؤا الى الله عز وجل فيما يحيق بهم كما لجأ ليفعل بهم ما فعل به من حسن العاقبة (وخذ بيدك ضغثا) معطوف على اركض أو على وهبنا بتقدير قلنا أى وقلنا خذ بيدك الخ والاول أقرب لفظا وهذا أنسب معنى فان الحاجة الى هذا الامر لا تمس الا بعد الصحة فان امرأته رحمة بنت افرايم بن يوسف وقيل ليا بنت يعقوب وقيل ماصر بنت ميشا بن يوسف عليه السلام ذهبت لحاجة فأبطأت فحلف ان برئ ليضربنها مائة ضربة فأمره الله تعالى بأخذ الضغث والضغث الحزمة الصغيرة من الحشيش ونحوه وعن ابن عباس رضى الله عنهما قبضة من الشجر وقال (فاضرب به) أى بذلك

وعليها لحسن خدمتها اياه ورضاه عنها وهي باقية ويجب ان يصيب المضروب كل واحد من المائة اما باطرافها قائمة أو باعراضها مبسوطة على هيئة الضرب (إنا وجدناه صابرا) فيما أصابه في النفس والاهل والمال وليس في شكواه الى الله تعالى اخلال بذلك فانه لا يسمى جزعا كتمني العافية وطلب الشفاء على أنه قال ذلك خيفة الفتنة في الدين حيث كان الشيطان يوسوس الى قومه بأنه لو كان نبيا لما ابتلي بمثل ما ابتلي به وارادة القوة على الطاعة فقد بلغ أموره الى أن لم يبق منه الا القلب واللسان ويروى أنه عليه الصلاة والسلام قال في مناجاته الهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي ولم يتبع قلبي بصري ولم يهبني ماملكت يميني ولم آكل الاومعي يتيم ولم أبت شبعان ولا كاسيا ومعي جائع أو عريان فكشف الله تعالى عنه (نعم العبد) أي أيوب (انه أواب) تعليل لمدحه أي رجاع الى الله تعالى

اعلم بحقيقة الحال وسمعت بعض اليهود يقول ان لموسى بن عمران عليه السلام كتابا مفردا في واقعة أيوب وحاصل ذلك الكتاب ان أيوب كان رجلا كثير الطاعة لله تعالى مواظبا على العبادة مبالغا في التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله ثم انه وقع في البلاء الشديد والعناء العظيم فهل كان ذلك لحكمة أم لا فان كان ذلك لحكمة فمن المعلوم انه ما أتى بجرم في الزمان السابق حتى يجعل ذلك العذاب في مقابلة ذلك الجرم وان كان ذلك لكثرة الثواب فالاله الحكيم الرحيم قادر على ايصال كل خير ومنفعة اليه من غير توسط تلك الآلام الطويلة والاسقام الكريهة وحينئذ لا يبقى في تلك الامراض والآفات فائدة وهذه كلمات ظاهرة جلية وهي دالة على ان أفعال ذي الجلال منزهة عن التعليل بالمصالح والمفاسد والحق الصريح انه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون (المسئلة الثالثة) لفظ الآية يدل على ان ذلك النصب والعذاب انما حصل من الشيطان ثم ذلك العذاب على القول الاول عبارة عما حصل في بدنه من الامراض وعلى القول الثاني عبارة عن الاحزان الحاصل في قلبه بسبب القاء الوساوس وعلى التقديرين فيلزم اثبات الفعل للشيطان وأجاب أصحابنا رحمهم الله بانا لا ننكر اثبات الفعل للشيطان لكنا نقول فعل العبد مخلوق لله تعالى على التفصيل المعلوم أما قوله تعالى اركض برجلك فالمعنى انه لما شكا من الشيطان فكأنه سأل ربه أن يزيل عنه تلك البلية فأجابه الله اليه بأن قال له اركض برجلك والركض هو الدفع القوي بالرجل ومنه ركضك الفرس والتقدير قلنا له اركض برجلك قيل انه ضرب برجله تلك الارض فنبعت عين فقيل هذا مغتسل بارد وشراب أي هذا ماء تغتسل به فيبرأ باطنك وظاهر اللفظ يدل على انه نبعت له عين واحدة من الماء اغتسل فيه وشرب منه والمفسرون قالوا انه نبعت له عينان فاغتسل من احداهما وشرب من الاخرى فذهب الداء من ظاهره ومن باطنه باذن الله وقيل ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ثم باليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها ثم قال تعالى ووهبنا له أهله فقد قيل فيهم عين أهله وزيادة مثلهم وقيل غيرهم مثلهم (والاول) أولى لانه هو الظاهر فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة ثم اختلفوا فقال بعضهم معناه ازلنا عنهم السقم فعادوا اصحاء وقال بعضهم بل حضروا عنده بعد أن غابوا عنه واجتمعوا بعد ان تفرقوا وقال بعضهم بل تمكن منهم وتمكنوا منه فيما يتصل بالعشرة وبالخدمة أما قوله ومثلهم معهم فالاقرب انه تعالى متعه بصحته وبماله وقواه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك وقال الحسن رحمه الله المراد بهبة الاهل انه تعالى أحياهم بعد ان هلكوا ثم قال رحمة منا أي انا فعلنا كل هذه الافعال على سبيل الفضل والرحمة لا على سبيل اللزوم ثم قال وذكرى لاولي الالباب يعني سلطنا البلاء عليه أولا فصبر ثم أزلنا عنه البلاء وأوصلناه الى الآلاء والنعماء تنبيها لاولي الالباب على أن من صبر ظفر والمقصود منه التنبيه على ما وقع ابتداء الكلام به وهو قوله لمحمد اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود

(واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب) عطف بيان لعبادنا وقرئ عبدنا اما على ان ابراهيم وحده لمزيد شرفه عطف بيان وقيل بدل وقيل نصب باضمار أعني والباقيان عطف على عبدنا واما على ان عبدنا اسم جنس وضع موضع الجمع (أولى الايدي والابصار) أولى القوة في الطاعة والبصيرة في الدين او أولى الاعمال الجليلة والعلوم الشريفة فعبر بالايدي عن الاعمال لان أكثرها تباشر بها وبالابصار عن المعارف ﴿ ٢٩ ﴾ لانها أقوى مباديها وفيه تعريض بالجهلة البطالين أنهم كالزمنى

قالت المعتزلة قوله تعالى رحمة منا وذكرى لأولى الالباب يعني انا فعلناه لهذه الاغراض والمقاصد وذلك يدل على ان أفعال الله واحكامه معللة بالاغراض والمصالح والكلام في هذا الباب قدمر غير مرة أما قوله تعالى وخذ بيدك ضغثا فهو معطوف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك واعلم أن هذا الكلام يدل على تقدم يمين منه وفي الخبر انه حلف على أهله ثم اختلفوا في السبب الذي لاجله حلف عليها ويبعد ما قيل انها رغبته في طاعة الشيطان ويبعد ايضا ما روى انها قطعت الذوائب عن رأسها لان المضطر الى الطعام يباح له ذلك بل الاقرب أنها خالفته في بعض المهمات وذلك أنها ذهبت في بعض المهمات فابطأت فحلف في مرضه ليضربنها مائة اذا برئ ولما كانت حسنة الخدمة له لاجرم حلل الله يمينه بأهون شئ عليه وعليها وهذه الرخصة باقية وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه أتى بمخدج خبث بأمة فقال خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة ثم قال تعالى انا وجدناه صابرا فان قيل كيف وجده صابرا وقد شكى اليه والجواب من وجوه (الاول) انه شكى من الشيطان اليه وما شكى منه الى أحد (الثاني) ان الالم حين كان على الجسد لم يذكر شيئا فلما عظمت الوساوس خاف على القلب والدين فتضرع (الثالث) ان الشيطان عدو والشكاية من العدو الى الحبيب لاتقدح في الصبر ثم قال نعم العبد انه أواب وهذا يدل على أن تشريف نعم العبد انما حصل لكونه أوابا وسمعت بعضهم قال لما نزل قوله تعالى نعم العبد في حق سليمان عليه السلام تارة وفي حق ايوب عليه السلام أخرى عظم الغم في قلوب أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا ان قوله تعالى نعم العبد في حق سليمان تشريف عظيم فان احتجنا الى اتفاق مملكة مثل مملكة سليمان حتى نجد هذا التشريف لم نقدر عليه وان احتجنا الى تحمل بلاء مثل أيوب لم نقدر عليه فكيف السبيل الى تحصيله فانزل الله تعالى قوله نعم المولى ونعم النصير والمراد انك ان لم تكن نعم العبد فانا نعم المولى وان كان منك الفضول في الفضل وان كان منك التقصير فمني الرحمة والتيسير * قوله تعالى (واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الايدي والابصار انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار واذكر اسمعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير عبدنا على الواحد وهي قراءة ابن عباس ويقول ان قوله عبدنا تشريف عظيم فوجب أن يكون هذا التشريف مخصوصا بأعظم الناس المذكورين في هذه الآية وهو ابراهيم وقرأ الباقون عبدنا قالوا لان غير ابراهيم من الانبياء قد اجرى عليه هذا الوصف فجاء في عيسى ان هو الا عبد أنعمنا عليه وفي أيوب نعم العبد وفي نوح انه كان عبدا شكورا فمن قرأ عبادنا جعل ابراهيم وحده عطف بيان له ثم عطف ذريته على عبدنا وهي اسحق ويعقوب ومن قرأ عبادنا جعل ابراهيم واسحق ويعقوب عطف بيان لعبادنا (المسئلة الثانية) تقدير الآية كأنه تعالى قال فاصبر على ما يقولون واذكر عبدنا

والعماة وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع تمكنهم منهما وقرئ أولى الايد بطرح الياء والاكتفاء بالكسر وقرئ أولى الايادي على جمع الجمع (انا أخلصناهم بخالصة) تعليل للوصفوا به من شرف العبودية وعلو الرتبة في العلم والعمل اي جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة عظيمة الشأن كائنة عنه التنكير التفخيمي وقوله تعالى (ذكرى الدار) بيان للخالصة بعد ابهامها للتفخيم أي تذكر للدار الآخرة دائما فان خلوصهم في الطاعة بسبب تذكرهم لها وذلك لان مطمح انظارهم ومطرح افكارهم في كل ما يأتون وما يذرون جوار الله عز وجل والفوز بلقائه ولا يتسنى ذلك الا في الآخرة وقيل أخلصناهم بتوفيقهم لها والطف بهم في اختيارها ويعضد الاول قراءة من قرأ بخالصتهم واطلاق الدار للاشعار بانها الدار في الحقيقة وانما الدنيا معبر وقرئ باضافة خالصة الى ذكرى أي بخالص ﴿ ٢٧ ﴾ سا من ذكرى الدار على معنى أنهم لا يشوبون ذكراها بهم آخر أصلا أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها وتزهيدهم في الدنيا كما هو شأن الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل ذكرى الدار الثناء الجميل في الدنيا ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم (وانهم عندنا لمن

المصطفين الاخيار) لمن المختارين من امثالهم المصطفين عليهم فى الخير والاخيار جمع خير كشر واشرار وقيل جمع خير أو خير مخفف منه كأموات فى جمع ميت وميت (واذكر اسمعيل) فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه للاشعار بعراقته فى الصبر الذى هو المقصود بالتذكير (واليسع) هو ابن أخطوب بن العجوز استخلفه الياس على بنى اسرائيل ثم استنبئ واللام فيه حرف تعريف دخل على يسع كما فى قول من قال ۞ رأيت الوليد بن ﴿٢١٠﴾ اليزيد مباركا ۞ وقرئ والليسع كأن أصله ليسع فيعل من اللسع دخل عليه حرف التعريف وقيل هو على القراءتين علم أعجمى دخل عليه اللام وقيل هو يوشع (وذا الكفل) هو ابن عم يسع أو بشر بن أيوب واختلف فى نبوته ولقبه فقيل فر اليه مائة نبى من بنى اسرائيل من القتل فآواهم وكفلهم وقيل كفل بعمل رجل صالح كان يصلى كل يوم مائة صلاة (وكل) أى وكلهم (من الاخيار) المشهورين بالخيرية (هذا) اشارة الى ماتقدم من الآيات الناطقة بمحاسنهم (ذكر) أى شرف لهم وذكر جميل يذكرون به أبدا أو نوع من الذكر الذى هو القرآن وباب منه مشتمل على أنباء الانبياء عليهم السلام وعن ابن عباس رضى الله عنهما هذا ذكر من مضى من الانبياء وقوله تعالى (وان للمتقين لحسن مآب) شروع فى بيان أجرهم الجزيل فى الآجل بعد بيان ذكرهم الجميل فى العاجل وهو باب آخر من أبواب التنزيل والمراد بالمتقين اما الجنس وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا واما ﴿ هذا ﴾ نفس المذكورين عبر عنهم بذلك مدحا لهم بالتقوى التى هى الغاية القاصية من الكمال (جنات عدن) عطف بيان لحسن مآب عند من يجوز تخالفهما تعريفا وتنكيرا فان عدنا

داود الى أن قال واذكر عبدنا ابراهيم أى واذكر يا محمد صبر ابراهيم حين ألقى فى النار وصبر اسحق للذبح وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره ثم قال أولى الايدى والابصار واعلم أن اليد آلة لأكثر الاعمال والبصر آلة لاقوى الادراكات فحسن التعبير عن العمل باليد وعن الادراك بالبصر اذا عرفت هذا فنقول النفس الناطقة الانسانية لها قوتان عاملة وعالمة أما القوة العاملة فأشرف مايصدر عنها طاعة الله واما القوة العالمة فأشرف مايصدر عنها معرفة الله وماسوى هذين القسمين من الاعمال والمعارف فكالعبث والباطل فقوله أولى الايدى والابصار اشارة الى هاتين الحالتين ثم قال تعالى انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله بخالصة قرئ بالتنوين والاضافة فمن نون كان التقدير أخلصناهم أى جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة خالصة لاشوب فيها وهى ذكرى الدار ومن قرأ بالاضافة فالمعنى بما خلص من ذكرى الدار يعنى ان ذكرى الدار قد تكون لله وقد تكون لغير الله فالمعنى انا أخلصناهم بسبب ماخلص من هذا الذكر (المسئلة الثانية) فى ذكرى الدار وجوه (الاول) المراد أنهم استغرقوا فى ذكرى الدار الآخرة وبلغوا فى هذا الذكر الى حيث نسوا الدنيا (الثانى) المراد حصول الذكر الجليل الرفيع لهم فى الدار الآخرة (الثالث) المراد أنه تعالى أبقى لهم الذكر الجميل فى الدنيا وقبل دعاءهم فى قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ثم قال تعالى وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار أى المختارين من أبناء جنسهم والاخيار جمع خير أو خير على التخفيف كاموات فى جمع ميت أو ميت واحتج العلماء بهذه الآية فى اثبات عصمة الانبياء قالوا لانه تعالى حكم عليهم بكونهم أخيارا على الاطلاق وهذا يعم حصول الخيرية فى جميع الافعال والصفات بدليل صحة الاستثناء وبدليل دفع الاجمال ثم قال واذكر اسمعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار وهم قوم آخرون من الانبياء تحملوا الشدائد فى دين الله وقد ذكرنا الكلام فى شرح هذه الاسماء وفى صفات هؤلاء الانبياء فى سورة الانبياء وفى سورة الانعام فلا فائدة فى الاعادة وههنا آخر الكلام فى قصص الانبياء فى هذه السورة ۞ قوله تعالى (هذا ذكر وان للمتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الابواب متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب وعندهم قاصرات الطرف أتراب هذا ماتوعدون ليوم الحساب ان هذا لرزقنا ماله من نفاد) اعلم ان فى قوله ذكر وجهين (الاول) انه تعالى لما شرح ذكر أحوال هؤلاء الانبياء عليهم السلام لاجل أن يصبر محمد عليه السلام على تحمل سفاهة قومه فلما تمم بيان هذا الطريق وأراد أن يذكر عقيبه طريقا آخر يوجب الصبر على سفاهة الجهال وأراد أن يميز أحد البابين عن الآخر لاجرم قال هذا ذكر ثم شرع فى تقرير الباب الثانى فقال وان للمتقين كما أن المصنف اذا تمم كلاما قال هذا باب ثم شرع فى باب آخر واذا فرغ الكاتب من فصل من كتابه وأراد الشروع فى آخر قال هذا وقد كان كيت وكيت والدليل عليه انه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يردفه بذكر أهل النار قال

معرفة لقوله تعالى جنات عدن التي وعد الرحمن عباده أو بدل منه أونصب على المدح وقوله تعالى (مفتحة لهم الابواب) حال من جنات عدن والعامل فيها ما في للمتقين من معنى الفعل والابواب مرتفعة باسم المفعول والرابط بين الحال وصاحبها اما ضمير مقدر كما هو رأي البصريين أي الابواب منها أو الالف واللام القائمة مقامه كما هو رأي الكوفيين اذ الاصل أبوابها وقرئتا ﴿ ٢١١ ﴾ مرفوعتين على الابتداء والخبر أو على أنهما خبران لمحذوف

هذا وان للطاغين (الوجه الثاني) في التأويل ان المراد هذا شرف وذكر جميل لهؤلاء الانبياء عليهم السلام يذكرون به أبدا والاول هو الصحيح أما قوله وان للمتقين لحسن مآب فاعلم أنه تعالى لما حكى عن كفار قريش سفاهتهم على النبي صلى الله عليه وسلم بان وصفوه بأنه ساحر كذاب وقالوا له على سبيل الاستهزاء ربنا عجل لنا قطنا فعند هذا أمر محمدا بالصبر على تلك السفاهة وبين ان ذلك الصبر لازم من وجهين (الاول) أنه تعالى لما بين ان الانبياء المتقدمين صبروا على المكاره واشدائد فيجب عليك أن تقتدي بهم في هذا المعنى (الثاني) انه تعالى بين في هذه الآية أن من أطاع الله كان له من الثواب كذا وكذا ومن خالفه كان له من العقاب كذا وكذا وكل ذلك يوجب الصبر على تكاليف الله تعالى وهذا نظم حسن وترتيب لطيف أما قوله تعالى وان للمتقين لحسن مآب المآب المرجع واحتج القائلون بقدم الارواح بهذه الآية وبكل آية تشتمل على لفظ الرجوع ووجه الاستدلال أن لفظ الرجوع انما يصدق لو كانت هذه الارواح موجودة قبل الاجساد وكانت في حضرة جلال الله ثم تعلقت بالابدان فعند انفصالها عن الابدان يسمى ذلك رجوعا وجوابه ان هذا ان دل فانما يدل على أن الارواح كانت موجودة قبل الابدان ولا يدل على قدم الارواح ثم قال تعالى جنات عدن وهو بدل من قوله لحسن مآب ثم قال مفتحة لهم الابواب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا في تأويل هذا اللفظ وجوها (الاول) قال الفراء معناه مفتحة لهم أبوابها والعرب تجعل الالف واللام خلفا من الاضافة تقول العرب مررت برجل حسن الوجه فالالف واللام في الوجه بدل من الاضافة (والثاني) قال الزجاج المعنى مفتحة لهم الابواب منها (الثالث) قال صاحب الكشاف الابواب بدل من الضمير وتقديره مفتحة هي الابواب كقولك ضرب زيد اليد والرجل وهو من بدل الاشتمال (المسئلة الثانية) قرئ جنات عدن مفتحة بالرفع على تقدير أن يكون قوله جنات عدن مبتدأ ومفتحة خبره وكلاهما خبر مبتدأ محذوف أي هو جنات عدن مفتحة لهم (المسئلة الثالثة) اعلم انه تعالى وصف من أحوال أهل الجنة في هذه الآية أشياء (الاول) أحوال مساكنهم فقوله جنات عدن يدل على أمرين (أحدهما) كونها جنات وبساتين (والثاني) كونها دائمة آمنة من الانقضاء وفي قوله مفتحة لهم الابواب وجوه (الاول) أن يكون المعنى ان الملائكة الموكلين بالجنان اذا رأوا صاحب الجنة فتحوا له أبوابها وحيوه بالسلام فيدخل كذلك محفوفا بالملائكة على أعز حال وأجمل هيئة قال تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين (الثاني) أن تلك الابواب كلما أرادوا انفتاحها انفتحت لهم وكلما أرادوا انغلاقها انغلقت لهم (الثالث) المراد من هذا الفتح وصف تلك المساكن بالسعة ومسافرة العيون فيها ومشاهدة الاحوال اللذيذة الطيبة ثم قال تعالى متكئين فيها يدعون فيها وفيه مباحث (الاول) انه تعالى ذكر في هذه الآية كونهم متكئين في الجنة وذكر في سائر الآيات

أي هي جنات عدن هي مفتحة (متكئين فيها) حال من ضمير لهم والعامل فيها مفتحة وقوله تعالى (يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب) استئناف لبيان حالهم فيها وقيل هو أيضا حال مما ذكر أو من ضمير متكئين والاقتصار على دعاء الفاكهة للايذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذي فانه لتحصيل بدل المتحلل ولا تحلل ثمة (وعندهم قاصرات الطرف) أي على أزواجهن لا ينظرن الى غيرهم (أتراب) لدات لهم فان التحاب بين الاقران أرسخ أو بعضهن لبعض لا عجوز فيهن ولا صبية واشتقاقه من التراب فانه يمسهم في وقت واحد (هذا ما توعدون ليوم الحساب) أي لاجله فان الحساب علة للوصول الى الجزاء وقرئ بالياء

ليوافق ما قبله والالتفات أليق بمقام الامتنان والتكريم (ان هذا) أي ما ذكر من ألوان النعم والكرامات (لرزقنا) أعطيناكموه (ماله من نفاد) انقطاع أبدا (هذا) اي الامر هذا أو هذا كما ذكر أو هذا ذكر وقوله تعالى (وان للطاغين لشر مآب) شروع في بيان أضداد الفريق السابق (جهنم) اعرابه كما سلف (يصلونها) أي يدخلونها حال من جهنم (فبئس المهاد) وهو المهد والمفرش مستعار من فراش النائم والمخصوص

بالذم محذوف وهو جهنم لقوله تعالى لهم من جهنم مهاد (هذا فليذوقوه) اى ليذوقوا هذا فليذوقوه كقوله تعالى وإياى فارهبون أو العذاب هذا فليذوقوه أو هذا مبتدأ خبره (حميم وغساق) وما بينهما اعتراض وهو على الاولين خبر مبتدا محذوف أى هو حميم والغساق مايغسق من صديد أهل النار من غسقت العين اذا سال دمعها وقيل الحميم يحرق بحره والغساق يحرق ببرده وقيل لو قطرت منه قطرة فى المشرق لنتنت أهل المغرب ولو قطرت قطرة فى المغرب لنتنت أهل المشرق وقيل الغساق عذاب لايعلمه الا الله تعالى وقرئ بتخفيف السين (وآخر من شكله) أى ومذوق آخر أو عذاب آخر من مثل هذا المذوق أو العذاب فى الشدة والفظاعة وقرئ وأخر أى ومذوقات أخر وتوحيد ضمير شكله بتأويل ماذكر أو الشراب الشامل للحميم والغساق أو هو راجع الى الغساق (أزواج) أى أجناس وهو خبر لآخر لانه يجوز أن يكون ضروبا أو صفة له أو للثلاثة أو مرتفع بالجار والخبر محذوف مثل لهم (هذا فوج مقتحم معكم) حكاية مايقال من جهة الخزنة لرؤساء الطاغين اذا دخلوا النار واقتحمها معهم فوج كانوا يتبعونهم فى الكفر والضلالة والاقتحام الدخول فى الشئ بشدة قال الراغب الاقتحام توسط شدة مخيفة وقوله تعالى (لامرحبا بهم) من اتمام كلام الخزنة بطريق الدعاء على الفوج أو صفة ﴿ وهو ﴾ للفوج أو حال منه أى مقول أو مقولا فى حقهم لامرحبا بهم أى لاأتوا مرحبا اولا رحبت بهم الدار مرحبا (انهم صالوا النار) تعليل من جهة الخزنة لاستحقاقهم الدعاء عليهم أو وصفهم بماذكر وقيل لامرحبا بهم الى هنا كلام الرؤساء فى حق أتباعهم عند خطاب الخزنة لهم باقتحام الفوج معهم تضجرا من مقارنتهم

كيفية ذلك الاتكاء فقال فى آية على الارائك متكؤن وقال فى آية أخرى متكئين على رفرف خضر (البحث الثانى) قوله متكئين فيها حال قدمت على العامل فيها وهو قوله يدعون فيها والمعنى يدعون فى الجنات متكئين فيها ثم قال بفاكهة كثيرة وشراب والمعنى بألوان الفاكهة وألوان الشراب والتقدير بفاكهة كثيرة وشراب كثير والسبب فى ذكر هذا المعنى ان ديار العرب حارة قليلة الفواكه والاشجار بقرغبهم الله تعالى فيه ولما بين تعالى أمر المسكن وأمر المأكول والمشروب ذكر عقيبه أمر المنكوح فقال وعندهم قاصرات الطرف وقد سبق تفسيره فى سورة والصافات وبالجملة فالمعنى كونهن قاصرات الطرف عن غيرهم مقصورات القلب على محبتهم وقوله أتراب أى على سن واحد ويحتمل كون الجوارى أتراب ويحتمل كونهن أترابا للازواج قال القفال والسبب فى اعتبار هذه الصفة انهن لما تشابهن فى الصفة والسن والحلية كان الميل اليهن على السوية وذلك يقتضى عدم الغيرة ثم قال تعالى هذا ماتوعدون ليوم الحساب يعنى ان الله تعالى وعد المتقين بالثواب الموصوف بهذه الصفة ثم انه تعالى اخبر عن دوام هذا الثواب فقال ان هذا لرزقنا ماله من نفاد ۞ قوله تعالى (هذا وان للطاغين لشرمآب جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج هذا فوج مقتحم معكم لامرحبا بهم انهم صالوا النار قالوا بل أنتم لامرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار وقالوا مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الابصار ان ذلك لحق تخاصم اهل النار) اعلم انه تعالى لما وصف ثواب المتقين وصف بعده عقاب الطاغين ليكون الوعيد مذكورا عقيب الوعد والترهيب عقيب الترغيب واعلم انه تعالى ذكر من أحوال أهل النار أنواعا (فالاول) مرجعهم ومآبهم فقال هذا وان للطاغين لشر مآب وهذا فى مقابلة قوله وان للمتقين لحسن مآب فبين تعالى ان حال الطاغين مضادة لحال المتقين واختلفوا فى المراد بالطاغين فاكثر المفسرين حملوه على الكفار وقال الجبائى انه محمول على أصحاب الكبائر سواء كانوا كفارا أو لم يكونوا كذلك واحتج الاولون بوجوه (الاول) ان قوله لشر مآب يقتضى أن يكون مآبهم شرا من مآب غيرهم وذلك لايليق الا بالكفار (الثانى) انه تعالى حكى عنهم انهم قالوا اتخذناهم سخريا وذلك لايليق الا بالكفار لان الفاسق لايتخذ المؤمن سخريا (الثالث) انه اسم ذم والاسم المطلق محمول على الكامل والكامل فى الطغيان هو الكافر واحتج الجبائى على صحة قوله بقوله تعالى ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى وهذا يدل على أن الوصف بالطغيان قد يحصل فى حق صاحب الكبيرة ولان كل من تجاوز عن تكاليف الله تعالى وتعداها فقد طغى اذا عرفت هذا فنقول قال ابن عباس رضى الله عنهما المعنى ان الذين طغوا وكذبوا رسلى لهم شر مآب أى شر مرجع ومصير ثم قال جهنم يصلونها والمعنى أنه تعالى لما حكى بان الطاغين لهم شر مآب فسره بقوله جهنم يصلونها ثم قال فبئس المهاد

وشنفرا من مصاحبتهم وقيل كل ذلك كلام الرؤساء بعضهم مع بعض فى حق الاتباع (قالوا) اى الاتباع عند سماعهم ماقيل فى حقهم ووجه خطابهم للرؤساء فى قولهم (بل أنتم لامرحبا بكم) الخ على الوجهين الاخيرين ظاهر وأما على الوجه الاول فلعلهم انما خاطبوهم مع أن الظاهر أن يقولوا بطريق الاعتذار الى الخزنة بل هم لامرحبا بهم الخ قصدا منهم الى اظهار صدقهم بالمخاصمة مع الرؤساء والتحاكم الى الخزنة طمعا فى قضائهم بتخفيف عذابهم أو تضعيف عذاب خصمائهم أى بل أنتم احق بما قيل لنا أو قلتم وقوله تعالى (أنتم قدمتموه لنا) تعليل لأحقيتهم بذلك أى أنتم قدمتم العذاب او الصلى لنا وأوقعتمونا فيه بتقديم مايؤدى اليه من العقائد الزائغة والاعمال السيئة وتزيينها فى أعيننا واغرائنا عليها لاأنا باشرناها من تلقاء أنفسنا (فبئس القرار) أى فبئس المقر جهنم قصدوا بذمها تغليظ جناية الرؤساء عليهم (قالوا) أى الاتباع أيضا وتوسيطه بين كلاميهم لما بينهما من التباين البين ذاتا وخطابا أى قالوا معرضين عن خصومتهم متضرعين الى الله تعالى (ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار) كقولهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار اى عذابا مضاعفا أى ذا ضعف وذلك بأن يزيد عليه مثله ويكون ضعفين كقوله ربنا آتهم ضعفين من العذاب وقيل المراد بالضعف الحيات والافاعى

(وقالوا) أى الطاغون (مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار) يعنون فقراء المسلمين الذين كانوا يسترذلونهم ويسخرون منهم (اتخذناهم سخريا) بهمزة استفهام سقطت لاجلها همزة الوصل والجملة استئناف لامحل لها من الاعراب قالوه انكارا على أنفسهم وتأنيبا لها فى الاستسخار منهم (أم زاغت

وهو كقوله لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش شبه الله ماتحتهم من النار بالمهاد الذى يفترشه النائم ثم قال تعالى هذا فليذوقوه حميم وغساق وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فيه وجهان (الاول) انه على التقديم والتأخير والتقدير هذا حميم وغساق فليذوقوه (الثانى) أن يكون التقدير جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه ثم يبتدئ فيقول حميم وغساق (المسئلة الثانية) الغساق بالتخفيف والتشديد فيه وجوه (الاول) انه الذى يغسق من صديد أهل النار يقال غسقت العين اذا سال دمعها وقال ابن عمر هو القيح الذى يسيل منهم يجتمع فيسقونه (الثانى) قيل الحميم يحرق بحره والغساق يحرق ببرده وذكر الازهرى ان الغاسق البارد ولهذا قيل لليل غاسق لانه ابرد من النهار (الثالث) ان الغساق المنتن حكى الزجاج لو قطرت منه قطرة فى المشرق لانتنت أهل المغرب ولو قطرت منه قطرة فى المغرب لأنتنت أهل المشرق (الرابع) قال كعب الغساق عين فى جهنم يسيل اليها سم كل ذات حمة من عقرب وحية (المسئلة الثالثة) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم غساق بتشديد السين حيث كان والباقون بالتخفيف قال أبو على الفارسى الاختيار التخفيف لانه اذا شدد لم يخل من أن يكون اسما أو صفة فان كان اسما فالاسماء لم تجئ على هذا الوزن الا قليلا وان صفة فقد أقيم مقام الموصوف والاصل ان لايجوز ذلك ثم قال تعالى وآخر من شكله أزواج وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو وأخر بضم الالف على جمع أخرى أى اصناف اخر من العذاب وهو قراءة مجاهد والباقون آخر على الواحد أى عذاب آخر أما على القراءة الاولى فقوله وأخر أى ومذوقات اخر من شكل هذا المذوق أى من مثله فى الشدة والفظاعة أزواج أى اجناس وأما على القراءة الثانية فالتقدير وعذاب أو مذوق آخر وأزواج صفة لآخر لانه لايجوز أن يكون ضربا بأوصفة للثلاثة وهم حميم وغساق وآخر من شكله قال صاحب الكشاف وقرئ من شكله بالكسر وهى لغة وأما الغنج فبالكسر لاغير واعلم انه تعالى لما وصف مسكن الطاغين وما كولهم حكى أحوالهم مع الذين كانوا أحباءهم فى الدنيا أولا ثم مع الذين كانوا أعداءهم فى الدنيا ثانيا (أما الاول) فهو قوله هذا فوج مقتحم معكم واعلم أن هذا حكاية كلام رؤساء أهل النار يقوله بعضهم لبعض بدليل أن ماحكى بعد هذا من أقوال الاتباع وهو قوله قالوا بل أنتم لامرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا وقيل ان قوله هذا فوج مقتحم معكم كلام الخزنة لرؤساء الكفرة فى اتباعهم وقوله لامرحبا بهم انهم صالوا النار كلام الرؤساء وقوله هذا فوج مقتحم معكم أى هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار كما كانوا قد اقتحموا معكم فى الجهل والضلال ومعنى اقتحم معكم النار أى دخل النار فى صحبتكم والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها والقحمة الشدة وقوله تعالى لامرحبا بهم دعاء منهم على اتباعهم يقول الرجل لمن يدعوله مرحبا أى أتيت رحبا فى البلاد لاضيقا أو رحبت بلادك رحبا ثم يدخل عليه كلمة لا فى دعاء السوء وقوله بهم بيان للمدعو عليهم انهم صالوا النار تعليل لاستيجابهم

عنهم الابصار) متصل باتخذناهم على أن أم متصلة والمعنى أي الامرين فعلنا بهم الاستسخار منهم أم الازدراء بهم وتحقيرهم وان أبصارنا كانت تزيغ عنهم وتقتحمهم على معنى انكار كل واحد من الفعلين على أنفسهم توبيخا لها أو على انها منقطعة والمعنى اتخذناهم سخريا بل أزاغت عنهم أبصارنا كقولك أزيد عندك أم عندك عمرو وعلى معنى توبيخ أنفسهم على الاستسخار ثم الاضراب والانتقال منه الى التوبيخ ﴿٢١٤﴾ على الازدراء والتحقير وقرئ اتخذناهم بغير همزة على أنه صفة أخرى رجالا فقوله تعالى أم زاغت متصل بقوله ما لنا لا نرى والمعنى ما لنا لا نراهم في النار أليسوا فيها فلذلك لا نراهم أم زاغت عنهم أبصارنا وهم فيها وقد جوز أن تكون الهمزة مقدرة على هذه القراءة وقرئ سخريا بضم السين (ان ذلك) أي الذي حكي من احوالهم (لحق) لا بد من وقوعه البتة وهو قوله تعالى (تخاصم أهل النار) خبر مبتدأ محذوف والجملة بيان لذلك وفي الابهام أولا والتبيين ثانيا مزيد تقرير له وقيل بدل من محل ذلك وقيل بدل من حق أو عطف بيان له وقرئ بالنصب على أنه بدل من ذلك وما قيل من أنه صفة له فقد قيل عليه ان اسم الاشارة لا يوصف الا بالمعرف باللام يقال بهذا الرجل ولا يقال بهذا غلام الرجل (قل) أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين (انما أنا منذر) من جهته تعالى أنذركم عذابه (وما من اله) في الوجود (الا الله الواحد) الذي لا يقبل الشركة والكثرة أصلا (القهار) ﴿حاضرين﴾ لكل شئ سواه (رب السموات والارض وما بينهما) من المخلوقات فكيف يتوهم أن يكون له شريك منها (العزيز) الذي لا يغلب في أمر من أموره (الغفار) المبالغ في المغفرة يغفر ما يشاء لمن يشاء وفي هذه النعوت من تقرير

الدعاء عليهم ونظير هذه الآية قوله تعالى كلما دخلت أمة لعنت أختها قالوا أي الاتباع بل أنتم لا مرحبا بكم يريدون ان الدعاء الذي دعوتم به علينا أيها الرؤساء أنتم أحق به وعللوا ذلك بقولهم أنتم قدمتموه لنا والضمير للعذاب أو لصليهم فان قيل ما معنى تقديمهم العذاب لهم قلنا الذي أوجب التقديم هو عمل السوء قال تعالى وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم الا أن الرؤساء لما كانوا هم السبب فيه باغوائهم وكان العذاب جزاءهم عليه قيل أنتم قدمتموه لنا فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدم والضمير في قوله قدمتموه كناية عن الطغيان الذي دل عليه قوله وان للطاغين لشر مآب وقوله فبئس القرار أي بئس المستقر والمسكن جهنم ثم قالت الاتباع ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا أي مضاعفا ومعناه ذا ضعف ونظيره قوله تعالى ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا وكذلك قوله تعالى ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب فان قيل كل مقدار يفرض من العذاب فان كان بقدر الاستحقاق لم يكن مضاعفا وان كان زائدا عليه كان ظلما وانه لا يجوز قلنا المراد منه قوله عليه السلام ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة والمعنى انه يكون أحد القسمين عذاب الضلال والثاني عذاب الاضلال والله أعلم وههنا آخر شرح أحوال الكفار مع الذين كانوا احبابا لهم في الدنيا وأما شرح أحوالهم مع الذين كانوا أعداء لهم في الدنيا فهو قوله وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار يعني ان الكفار اذا نظروا الى جوانب جهنم فحينئذ يقولون ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار يعنون فقراء المسلمين الذين لا يؤبه بهم وسموهم من الاشرار اما بمعنى الاراذل الذين لا خير فيهم ولا جدوى أو لانهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم اشرارا ثم قالوا أتخذناهم سخريا وفيه مسائل (المسألة الاولى) قرأ ابو عمرو وحمزة والكسائي من الاشرار اتخذناهم بوصل ألف اتخذناهم والباقون بفتحها على الاستفهام قال أبو عبيدة بالوصل يقرأ لان الاستفهام متقدم في قوله ما لنا لا نرى رجالا ولان المشركين لا يشكون في اتخاذهم المؤمنين في الدنيا سخريا لانه تعالى قد أخبر عنهم بذلك في قوله فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري فكيف يحسن أن يستفهموا عن شئ علموه أجاب الفراء عنه بان قال هذا من الاستفهام الذي معناه التعجب والتوبيخ ومثل هذا الاستفهام جائز عن الشئ المعلوم أما وجه قول من ألحق الهمزة للاستفهام انه لا بد من المصير اليه ليعادل قوله أتخذناهم بأم في قوله أم زاغت عنهم فان قيل فما الجملة المعادلة لقوله أم زاغت على القراءة الاولى قلنا انها محذوفة والمعنى المقصودون هم أم زاغت عنهم الابصار (المسألة الثانية) قرأ نافع سخريا بضم السين والباقون بكسرها وقيل هما بمعنى واحد وقيل بالكسر هو الهزؤ وبالضم هو التذليل والتسخير (المسألة الثالثة) اختلفوا في نظم الآية على قولين بناء على القراءتين المذكورتين أما القراءة على سبيل الاخبار فالتقدير ما لنا لا نراهم

التوحيد والوعد للموحدين والوعيد للمشركين مالا يخفى وتثنية مايشعر بالوعيد من وصف القهر والعزة وتقديمهما على وصف المغفرة لتوفية مقام الانذار حقه (قل) تكرير الامر للايذان بأن المقول أمر جليل له شان خطير لابد من الاعتناء به أمرا وائتمارا (هو) أى ما أنبأتكم به من أنى منذر من جهته تعالى وانه تعالى واحد لاشريك له وانه متصف بما ذكر من الصفات الجليلة والاظهر انه القرآن

وماذكر داخل فيه دخولا أوليا كما يشهد به آخر السورة الكريمة وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة (نبأ عظيم) وارد من جهته تعالى وقوله تعالى (أنتم عنه معرضون) استئناف ناع عليهم سوء صنيعهم به ببيان أنهم لايقدرون قدره الجليل حيث يعرضون عنه مع عظمته وكونه موجبا للاقبال الكلى عليه وتلقيه بحسن القبول وقيل صفة اخرى لنبأ وقوله تعالى (ماكان لى من علم بالملأ الأعلى) الخ استئناف مسوق لتحقيق انه نبأ عظيم وارد من جهته تعالى بذكر نبأ من أنبائه على التفصيل من غير سابقة معرفة به ولا مباشرة سبب من اسبابها المعتادة فان ذلك حجة بينة دالة على ان ذلك بطريق الوحى من عند الله تعالى وان سائر أنبائه أيضا كذلك والملأ الأعلى هم الملائكة وآدم عليهم السلام وابليس عليه اللعنة وقوله تعالى (اذ يختصمون) متعلق بمحذوف يقتضيه المقام اذ المراد نفى علمه عليه الصلاة والسلام بحالهم لابذواتهم والتقدير ما كان لى فيما سبق علم ما بوجه من الوجوه بحال الملأ الأعلى وقت اختصامهم وتقدير الكلام كما اختاره الجمهور تحجير للواسع فان علمه عليه الصلاة والسلام غير مقصور على ماجرى بينهم من الاقوال فقط بل عام لها وللافعال أيضا من سجود الملائكة واستكبار ابليس وكفره حسبما نطق به الوحى

حاضرين لاجل انهم لحقارتهم تركوا أو لاجل انهم زاغت عنهم الابصار وقع التعبير عن حقارتهم بقولهم اتخذناهم سخريا وأما القراءة على سبيل الاستفهام فالتقدير لاجل انا قد اتخذناهم سخريا وما كانوا كذلك فلم يدخلوا النار أم لاجل انه زاغت عنهم الابصار واعلم انه تعالى لما حكى عنهم هذه المناظرة قال ان ذلك الذى حكيناه عنهم لحق لابد وان يتكلموا به ثم بين أن الذى حكيناه عنهم ما هو فقال تخاصم أهل النار وانما سمى الله تعالى تلك الكلمات تخاصما لان قول الرؤساء لامرحبا بهم وقول الاتباع بل أنتم لامرحبا بكم من باب الخصومة ❊ قوله تعالى (قل انما انا منذر وما من اله الا الله الواحد القهار رب السموات والارض ومابينهما العزيز الغفار قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ما كان لى من علم بالملأ الاعلى اذ يختصمون ان يوحى الى الا انما أنا نذير مبين) اعلم أنه تعالى لما حكى فى أول السورة أن محمدا صلى الله عليه وسلم لما دعا الناس الى أنه لا اله الا اله واحد والى انه رسول مبين من عند الله والى أن القول بالقيامة حق فأولئك الكفار أظهروا السفاهة وقالوا انه ساحر كذاب واستهزؤا بقوله ثم انه تعالى ذكر قصص الانبياء لوجهين (الاول) ليصير ذلك حاملا لمحمد صلى الله عليه وسلم على التأسى بالانبياء عليهم السلام فى الصبر على سفاهة القوم (والثانى) ليصير ذلك رادعا للكفار على الاصرار على الكفر والسفاهة وداعيا الى قبول الايمان ولما تمم الله تعالى ذلك الطريق أردفه بطريق آخر وهو شرح نعيم أهل الثواب وشرح عقاب أهل العقاب فلما تمم الله تعالى هذه البيانات عاد الى تقرير المطالب المذكورة فى أول السورة وهى تقرير التوحيد والنبوة والبعث فقال قل يامحمد انما أنا منذر ولابد من الاقرار بأنه مامن اله الا الله الواحد القهار فان الترتيب الصحيح ان تذكر شبهات الخصوم أولا ويجاب عنها ثم تذكر عقيبها الدلائل الدالة على صحة المطلوب فكذا ههنا أجاب الله تعالى عن شبهتهم ونبه على فساد كلماتهم ثم ذكر عقيبه مايدل على صحة هذه المطالب لان ازالة مالاينبغى مقدمة على اثبات ماينبغى وغسل اللوح من النقوش الفاسدة مقدم على كتب النقوش الصحيحة فيه ومن نظر فى هذا الترتيب اعترف بأن الكلام من أول السورة الى آخرها قد جاء على أحسن وجوه الترتيب والنظم أما قوله قل انما أنا منذر يعنى أبلغ أحوال عقاب من أنكر التوحيد والنبوة والمعاد وأحوال ثواب من أقر بها وكما بدأ فى أول السورة بأدلة التوحيد حيث حكى عنهم انهم قالوا أجعل الآلهة الها واحدا فكذلك بدأ ههنا بتقرير التوحيد فقال وما من اله الا الله الواحد القهار وفى هذه الكلمة اشارة الى الدليل الدال على كونه منزها عن الشريك والنظير وبيانه ان الذى يجعل شريكا فى الالهية اما أن يكون موجودا قادرا على الاطلاق على التصرف فى العالم أولا يكون كذلك بل يكون جمادا عاجزا (والاول) باطل لانه لو كان شريكه قادرا على الاطلاق لم يكن هو قادرا قاهرا لانه يقدر أن يريد هو شيئا ويريد شريكه ضد ذلك الشئ لم يكن حصول أحد الامرين أولى من الآخر فيفضى الى اندفاع كل واحد

فلا بد من اعتبار العموم في نفيه أيضا لا محالة وقوله تعالى (ان يوحى الى الا أنما أنا نذير مبين) اعتراض وسط بين اجمال اختصامهم وتفصيله تقريرا لثبوت علمه عليه الصلاة والسلام وتعيينا لسببه الا أن بيان انتفائه فيما سبق لما كان منبأ عن ثبوته الآن ومن البين عدم ملابسته عليه الصلاة والسلام بشئ من مباديه المعهودة تعين انه ليس الا بطريق الوحي حتما فجعل ذلك أمرا مسلم الثبوت غنيا عن الاخبار به قصدا وجعل

مصب الفائدة والمقصود اخبار ماهو داع الى الوحي ومصحح له تحقيقا لقوله تعالى انما أنا منذر في ضمن تحقيق علمه عليه الصلاة والسلام بقصة الملا الأعلى فالقائم مقام الفاعل ليوحى اما ضمير عائد الى الحال المقدر أو ما يعمه وغيره فالمعنى مايوحى الي حال الملأ الاعلى أو مايوحى الي مايوحى من الامور الغيبية التي من جملتها حالهم الا انما أنا نذير مبين من جهته تعالى فان كونه عليه الصلاة والسلام كذلك من دواعي الوحي اليه ومن موجباته حتما وأما ان القائم مقام الفاعل هو الجار والمجرور أو هو انما أنا نذير مبين بلا تقدير الجار وان المعنى ما يوحى الي الا الانذار أو ما يوحى الي الا أن أنذر وأبلغ ولا افرط في ذلك كما قيل فمع ما فيه من الاضطرار الى التكلف في توجيه قصر الوحي على كونه للانذار في الاول وقصره على الانذار في الثاني فلا يساعده ﴿ و بتقدير ﴾ سياق النظم الكريم وسباقه كيف لا والاعتراض حينئذ يكون أجنبيا مما توسط بينهما من اجمال الاختصام وتفصيله فتأمل والله الارشد وقرئ انما بالكسر على الحكاية

منهما بالآخر وحينئذ لا يكون قادرا قاهرا بل كان عاجزا ضعيفا والعاجز لا يصلح للالهية فقوله الا الله الواحد القهار اشارة الى ان كونه قهارا يدل على كونه واحدا (وأما الثاني) وهو أن قال ان الذي جعل شريكا له لا يقدر على شئ البتة مثل هذه الاوثان فهذا أيضا فاسد لان صريح العقل يحكم بان عبادة الاله القادر القاهر أولى من عبادة الجماد الذي لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا فقوله ومامن اله الا الله الواحد القهار يدل على هذه الدلائل واعلم ان كونه سبحانه قهارا مشعر بالترهيب والتخويف فلما ذكر ذلك أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب فقال رب السموات والارض وما بينهما العزيز الغفار فكونه ربا مشعر بالتربية والاحسان والكرم والجود وكونه غفارا مشعر بالترغيب وهذا الموجود هو الذي تجب عبادته لانه هو الذي تخشى عقابه وترجى فضله وثوابه ونذكر طريقة أخرى في تفسير هذه الآيات فنقول انه تعالى ذكر من صفاته في هذا الموضع خمسة الواحد والقهار والرب والعزيز والغفار أما كونه واحدا فهو الذي وقع الخلاف فيه بين أهل الحق وبين المشركين واستدل تعالى على كونه واحدا بكونه قهارا وقد بينا وجه هذه الدلالة الى ان كونه قهارا وان دل على اثبات الواحدانية الا انه يوجب الخوف الشديد فأردفه تعالى بذكر صفات ثلاثة دالة على الرحمة والفضل والكرم (أولها) كونه ربا للسموات والارض وما بينهما وهذا انما تتم معرفته بالنظر في آثار حكمة الله تعالى في خلق السموات والارض والعناصر الاربعة والمواليد الثلاثة وذلك بحر لا ساحل له فاذا تأملت في آثار حكمته ورحمته في خلق هذه الاشياء عرفت حينئذ تربيته للكل وذلك يفيد الرجاء العظيم (وثانيها) كونه عزيزا والفائدة في ذكره ان لقائل أن يقول هب انه رب ومربي وكريم الا انه غير قادر على كل المقدورات فأجاب عنه بانه عزيز أي قادر على كل الممكنات فهو يغلب الكل ولا يغلبه شئ (وثالثها) كونه غفارا والفائدة في ذكره أن لقائل أن يقول هب انه رب ومحسن ولكنه يكون كذلك في حق المطيعين المخلصين في العبادة فأجاب عنه بأن من بقي على الكفر سبعين سنة ثم تاب فاني أزيل اسمه عن ديوان المذنبين وأستر عليه بفضلي ورحمتي جميع ذنوبه وأوصله الى درجات الابرار واعلم انه تعالى لما بين ذلك قال قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون وهذا النبأ العظيم يحتمل وجوها فيمكن أن يكون المراد ان القول بان الاله واحد نبأ عظيم ويمكن أن يقال المراد ان القول بالنبوة نبأ عظيم ويمكن أن يقال المراد ان القول باثبات الحشر والنشر والقيامة نبأ عظيم وذلك لان هذه المطالب الثلاثة كانت مذكورة في أول السورة ولاجلها انجر الكلام الى كل ما سبق ذكره ويمكن أيضا أن يكون المراد كون القرآن معجزا لان هذا أيضا قد تقدم ذكره في قوله كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وهؤلاء الاقوام أعرضوا عنه على ما قال قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون واعلم أن قوله أنتم عنه معرضون ترغيب في النظر والاستدلال ومنع من التقليد لان هذه المطالب مطالب شريفة عالية فان بتقدير أن يكون الانسان فيها على الحق يفوز بأعظم أبواب السعادة

وبتقدير أن يكون الانسان فيها على الباطل وقع في أعظم أبواب الشقاوة فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية بهية وصريح العقل يوجب على الانسان أن يأتى فيها بالاحتياط التام وان لا يكتفى بالمساهلة والمسامحة اما قوله تعالى ما كان لى من علم بالملأ الأعلى اذ يختصمون فاعلم انه تعالى رغب المكلفين فى الاحتياط فى هذه المسائل الاربعة وبالغ فى ذلك الترغيب من وجوه (الاول) أن كل واحد منها نبأ عظيم والنبأ العظيم يجب الاحتياط فيه (الثانى) ان الملأ الأعلى اختصموا وأحسن ما قيل فيه انه تعالى لما قال انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون والمعنى انهم قالوا أى فائدة فى خلق البشر مع انهم يشتغلون بقضاء الشهوة وهو المراد من قوله من يفسد فيها وبامضاء الغضب وهو المراد من قوله ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك فقال الله سبحانه وتعالى انى أعلم ما لا تعلمون وتقرير هذا الجواب والله أعلم أن يقال ان المخلوقات بحسب القسمة العقلية على أقسام أربعة (أحدها) الذين حصل لهم العقل والحكمة ولم تحصل لهم النفس والشهوة وهم الملائكة فقط (وثانيها) الذين حصل لهم النفس والشهوة ولم يحصل لهم العلم والحكمة وهى البهائم (وثالثها) الاشياء الخالية عن القسمين وهى الجمادات وبقى فى التقسيم قسم رابع وهو الذى حصل فيه الامران وهو الانسان والمقصود من تخليق الانسان ليس هو الجهل والتقليد والكبر والتمرد فان كل ذلك صفات البهائم والسباع بل المقصود من تخليقه ظهور العلم والحكمة والطاعة فقوله انى أعلم ما لا تعلمون يعنى ان هذا النوع من المخلوقات وان حصلت فيه الشهوة الداعية الى الفساد والغضب الحامل له على سفك الدماء لكن حصل فيه العقل الذى يدعوه الى المعرفة والمحبة والطاعة والخدمة واذا ثبت أنه تعالى انما أجاب الملائكة بهذا الجواب وجب على الانسان أن يسعى فى تحصيل هذه الصفات وان يجتهد فى اكتسابها وان يحترز عن طريقة الجهل والتقليد والاصرار والتكبر واذا كان كذلك فكل من وقف على كيفية هذه الواقعة صار وقوفه عليها داعيا له الى الجد والاجتهاد فى اكتساب المعارف الحقة والاخلاق الفاضلة زاجرا له عن اضدادها ومقابلاتها فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذا الكلام فى هذا المقام فان قيل الملائكة لا يجوز أن يقال انهم اختصموا بسبب قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فان المخاصمة مع الله كفر قلنا لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة لجواز المجاز فلهذا السبب حسن اطلاق لفظ المخاصمة عليه ولما أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم أن يذكر هذا الكلام على سبيل الرمز أمره أن يقول ان يوحى الى الا انما أنا نذير مبين يعنى أنا ما عرفت هذه المخاصمة الا بالوحى وانما أوحى الله الى هذه القصة لانذركم بها ولتصير هذه القصة حاصلة لكم على الاخلاص فى الطاعة والاحتراز عن الجهل والتقليد ❊ قوله تعالى (اذ قال ربك

وقوله تعالى (اذ قال ربك للملائكة) شروع فى تفصيل ما أجمل من الاختصام الذى هو ما جرى بينهم من التقاول وحيث كان تكليمه تعالى اياهم بواسطة الملك صح ﴿٢١٧﴾ اسناد الاختصام الى الملائكة واذ بدل من اذ الاولى وليس من ضرورة البدلية دخولها على نفس الاختصام بل يكفى اشتمال ما فى حيزها عليه فان القصة ناطقة بذلك تفصيلا والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه والايذان بأن وحى هذا النبأ اليه تربية وتأييد له عليه الصلاة والسلام والكاف وارد باعتبار حال الآمر لكونه أدل على كونه وحيا منزلا من عنده تعالى كما فى قوله تعالى قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم الخ دون حال المأمور والا لقيل ربى لانه داخل فى حيز الامر (انى خالق) أى فيما سيأتى وفيه ما ليس فى صيغة المضارع من الدلالة على أنه تعالى فاعل له البتة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه (بشرا) قيل أى جسما كثيفا يلاقى ويباشر وقيل خلقا بادى البشرة بلا صوف ولا شعر ولعل ما جرى عند وقوع المحكى ليس هذا الاسم الذى لم يخلق مسماه حينئذ فضلا عن ﴿ ٢٨ ﴾ سا تسميته به بل عبارة كاشفة عن حاله

للملائكة اني خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس استكبر وكان من الكافرين قال يا ابليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاخرج منها فانك رجيم وان عليك لعنتي الى يوم الدين قال رب فأنظرني الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) اعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر وذلك لان ابليس انما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر والكفار انما نازعوا محمدا عليه السلام بسبب الحسد والكبر فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا ليصير سماعها زاجرا لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين والحاصل انه تعالى رغب المكلفين في النظر والاستدلال ومنعهم عن الاصرار والتقليد وذكر في تقريره أمورا أربعة (أولها) انه نبأ عظيم فيجب الاحتياط فيه (والثاني) ان قصة سؤال الملائكة عن الحكمة في تخليق البشر يدل على أن الحكمة الاصلية في تخليق آدم هو المعرفة والطاعة لا الجهل والكبر (الثالث) ان ابليس انما خاصم آدم عليه السلام لاجل الحسد والكبر فيجب على العاقل أن يحترز عنهما فهذا هو وجه النظم في هذه الآيات واعلم أن هذه القصة قد تقدم شرحها في سور كثيرة فلا فائدة في الاعادة الا ما لا بد منه وفيها مسائل (المسئلة الاولى) في قوله اني خالق بشرا من طين سؤالات (الاول) ان هذا النظم انما يصح لو أمكن خلق البشر لا من الطين كما اذا قيل انا نتخذ سوارا من ذهب فهذا انما يستقيم لو امكن اتخاذه من الفضة (الثاني) ذكر ههنا انه خلق البشر من طين وفي سائر الآيات ذكر انه خلقه من سائر الاشياء كقوله تعالى في آدم انه خلقه من تراب وكقوله من صلصال من حمأ مسنون وكقوله خلق الانسان من عجل (الثالث) أن هذه الآية تدل على أنه تعالى لما أخبر الملائكة بأنه خلق بشرا من طين لم يقولوا شيئا وفي الآية الاخرى وهي التي قال اني جاعل في الارض خليفة بين انهم أوردوا السؤال والجواب فبينهما تناقض والجواب عن الاول ان التقدير كأنه سبحانه وصف لهم أولا ان البشر شخص جامع للقوة البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية فلما قال اني خالق بشرا من طين فكأنه قال ذلك الشخص المستجمع لتلك الصفات انما أخلقه من الطين والجواب عن الثاني ان المادة البعيدة هو التراب وأقرب منه الطين وأقرب منه الحمأ المسنون وأقرب منه الصلصال فثبت انه لا منافاة بين الكل والجواب عن الثالث انه في الآية المذكورة في سورة البقرة بين انهم أنه يخلق في الارض خليفة وبالآية المذكورة ههنا بين أن ذلك الخليفة بشر مخلوق من الطين (المسئلة الثانية) قال فاذا سويته ونفخت فيه من روحي وهذا يدل على أن تخليق البشر لا يتم الا بأمرين التسوية أولا ثم نفخ الروح ثانيا وهذا حق لان الانسان مركب من جسد ونفس أما الجسد فانه انما يتولد من المني

بتعديل طبائعه (ونفخت فيه من روحي) النفخ اجراء الريح الى تجويف جسم صالح لامساكها والامتلاء بها وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل لافاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها أي فاذا كملت استعداده وأفضت عليه مايحيا به من الروح التي هي من أمري (فقعوا له) أمر من وقع وفيه دليل على أن المأمور به ليس مجرد الانحناء كما قيل أي اسقطوا له (ساجدين) تحية له وتكريما (فسجد الملائكة) أي فخلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد له الملائكة (كلهم) بحيث لم يبق منهم أحد الا سجد (أجمعون) اي بطريق المعية بحيث لم يتأخر في ذلك أحد منهم عن أحد ولا اختصاص لافادة هذا المعنى بالحالية بل يفيد التأكيد أيضا وقيل أكد بتأكيدين مبالغة في التعميم هذا وأما أن سجودهم هذا هل ترتب على ماحكى من الامر التعليق كما تقتضيه هذه الآية الكريمة

والتى فى سورة الحجر فان ظاهرهما يستدعى ترتبه عليه من غير أن يتوسط بينهما شئ غير ما تفصح عنه الفاء
الفصيحة من الخلق والتسوية ونفخ الروح أو على الامر التنجيزى كما يقتضيه مافى سورة البقرة
ومافى سورة الاعراف
ومافى سورة بنى اسرائيل
ومافى سورة الكهف
ومافى سورة طه من
الآيات الكريمة فقد مر
تحقيقه بتوفيق الله عز
وجل فى سورة البقرة
وسورة الاعراف
(الا ابليس) استثناء
متصل لما أنه كان جنيا
مفردا مغمورا بألوف
من الملائكة موصوفا
بصفاتهم فغلبوا عليه
ثم استثنى استثناء واحد
منهم أولان من الملائكة
جنسا يتوالدون وهو
منهم أو منقطع وقوله
تعالى (استكبر) على
الاول استئناف مبين
لكيفية ترك السجود
المفهوم من الاستثناء
فان تركه يحتمل أن يكون
للتأمل والتروى وبه
يتحقق أنه للاباء
والاستكبار وعلى الثانى
يجوز اتصاله بما قبله
أى لكن ابليس استكبر
(وكان من الكافرين)
أى وصار منهم بمخالفته
الامر واستكباره عن
الطاعة أو كان منهم
فى علم الله عز وجل (قال
يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) أى خلقته بالذات من غير توسط أب وأم والتثنية لابراز كمال الاعتناء

والمنى انما يتولد من دم الطمث وهو انما يتولد من الاخلاط الاربعة وهى انما تتولد من
الاركان الاربعة ولا بد فى حصول هذه التسوية من رعاية مقدار مخصوص لكل واحد
منها ومن رعاية كيفية امتزاجاتها وتركباتها ومن رعاية المدة التى فى مثلها حصل ذلك
المزاج الذى لاجله يحصل الاستعداد لقبول النفس الناطقة وأما النفس فاليها الاشارة
بقوله ونفخت فيه من روحى ولما أضاف الروح الى نفسه دل على أنه جوهر شريف علوى
قدسى وذهبت الحلولية الى أن كلمة من تدل على التبعيض وهذا يوهم أن الروح جزء من
أجزاء الله تعالى وهذا فى غاية الفساد لان كل ماله جزء وكل فهو مركب وممكن الوجود
لذاته ومحدث وأما كيفية نفخ الروح فاعلم أن الاقرب ان جوهر النفس عبارة عن أجسام
شفافة نورانية علوية العنصر قدسية الجوهر وهى تسرى فى البدن سريان الضوء فى الهواء
وسريان النار فى الفحم فهذا القدر معلوم أما كيفية ذلك النفخ فمما لا يعلمه الا الله تعالى
(المسئلة الثالثة) الفاء فى قوله فقعوا له ساجدين تدل على انه كما تم نفخ الروح فى الجسد
توجه أمر الله عليهم بالسجود واما أن المأمور بذلك السجود ملائكة الارض أو دخل
فيه ملائكة السموات مثل جبريل وميكائيل والروح الاعظم المذكور فى قوله يوم يقوم
الروح والملائكة صفا ففيه مباحث عميقة وقال بعض الصوفية الملائكة الذين أمروا
بالسجود لآدم هم القوى النباتية والحيوانية الحسية والحركية فانها فى بدن الانسان
خوادم النفس الناطقة وابليس الذى لم يسجد هو القوة الوهمية التى هى المنازعة لجوهر
العقل والكلام فيه طويل وأما بقية المسائل وهى كيفية سجود الملائكة لآدم وان
ذلك هل يدل على كونه أفضل من الملائكة أم لا وان ابليس هل كان من الملائكة أم لا
وانه هل كان كافرا أصليا أم لا فكل ذلك تقدم فى سورة البقرة وغيرها (المسئلة الرابعة)
احتج من أثبت الاعضاء والجوارح لله تعالى بقوله تعالى ما منعك أن تسجد لما خلقت
بيدى فى اثبات يدى الله تعالى بأن قالوا ظاهر الآية يدل عليه فوجب المصير اليه والآيات
الكثيرة واردة على وفق هذه الآية فوجب القطع به واعلم أن الدلائل الدالة على نفى كونه
تعالى جسما مركبا من الاجزاء والاعضاء قد سبقت الا أنا نذكر ههنا نكتا جارية مجرى
الالزامات الظاهرة (فالاول) ان من قال انه مركب من الاعضاء والاجزاء فاما ان يثبت
الاعضاء التى ورد ذكرها فى القرآن ولا يزيد عليها واما أن يزيد عليها فان كان الاول لزمه
اثبات صورة لا يمكن أن يزاد عليها فى القبح لانه يلزمه اثبات وجه بحيث لا يوجد منه
الا مجرد رقعة الوجه لقوله كل شئ هالك الا وجهه ويلزمه أن يثبت فى تلك الرقعة عيونا
كثيرة لقوله تجرى بأعيننا وان يثبت جنبا واحدا لقوله تعالى يا حسرتا على ما فرطت فى
جنب الله وأن يثبت على ذلك الجنب أيدى كثيرة لقوله تعالى مما عملت أيدينا وبتقدير أن
يكون له يدان فانه يجب أن يكون كلاهما على جانب واحد لقوله صلى الله عليه وسلم الحجر
الاسود يمين الله فى الارض وان يثبت له ساقا واحدا لقوله تعالى يوم يكشف عن ساق

فيكون الحاصل من هذه الصورة مجرد رقعة الوجه ويكون عليها عيون كثيرة وجنب واحد ويكون عليه أيد كثيرة وساق واحد ومعلوم ان هذه الصورة أقبح الصور ولو كان هذا عبدا لم يرغب أحد في شرائه فكيف يقول العاقل ان رب العالمين موصوف بهذه الصورة (واما القسم الثاني) وهو ان لا يقتصر على الاعضاء المذكورة في القرآن بل يزيد وينقص على وفق التأويلات فحينئذ يبطل مذهبه في الحمل على مجرد الظواهر ولا بد له من قبول دلائل العقل (الحجة الثانية) في ابطال قولهم انهم اذا أثبتوا الاعضاء لله تعالى فان أثبتوا له عضو الرجل فهو رجل وان أثبتوا له عضو النساء فهو أنثى وان نفوهما فهو خصي أو عنين وتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا (الحجة الثالثة) انه في ذاته سبحانه وتعالى اما أن يكون جسما صلبا لا ينغمز البتة فيكون حجرا صلبا واما أن يكون قابلا للانغماز فيكون لينا قابلا للتفرق والتمزق وتعالى الله عن ذلك (الحجة الرابعة) انه ان كان بحيث لا يمكنه أن يتحرك عن مكانه كان كالزمن المقعد العاجز وان كان بحيث يمكنه أن يتحرك عن مكانه كان محلا للتغيرات فدخل تحت قوله لا أحب الآفلين (الحجة الخامسة) ان كان لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يتحرك كان كالميت وان كان يفعل هذه الاشياء كان انسانا كثير التهمة محتاجا الى الاكل والشرب والوقاع وذلك باطل (الحجة السادسة) انهم يقولون انه ينزل كل ليلة من العرش الى السماء الدنيا فنقول لهم حين نزوله هل يبقى مدبرا للعرش ويبقى مدبرا للسماء الدنيا حين كان على العرش وحينئذ لا يبقى في النزول فائدة وان لم يبق مدبر العرش فعند نزوله يصير معزولا عن الهية العرش والسموات (الحجة السابعة) انهم يقولون انه تعالى أعظم من العرش وان العرش لا نسبة لعظمته الى عظمة الكرسي وعلى هذا الترتيب حتى ينتهي الى السماء الدنيا فاذا كان كذلك كان السماء الدنيا بالنسبة الى عظمة الله كالذرة بالنسبة الى البحر فاذا نزل فاما أن يقال ان الاله يصير صغيرا بحيث تسعه السماء الدنيا واما أن يقال ان السماء الدنيا تصير أعظم من العرش وكل ذلك باطل (الحجة الثامنة) ثبت أن العالم كرة فان كان فوق بالنسبة الى قوم كان تحت بالنسبة الى قوم آخرين وذلك باطل وان كان فوق بالنسبة الى الكل فحينئذ يكون جسما محيطا بهذا العالم من كل الجوانب فيكون اله العالم على هذا القول فلكا من الافلاك (الحجة التاسعة) لما كانت الارض كرة وكانت السموات كرات فكل ساعة تفرض من الساعات فانها تكون ثلث الليل في حق أقوام معينين من سكان كرة العوارض فلو نزل من العرش في ثلث الليل وجب أن يبقى أبدا نازلا عن العرش وأن لا يرجع الى العرش البتة (الحجة العاشرة) انا انما نفينا الهية الشمس والقمر لثلاثة أنواع من العيوب (أولها) كونه مؤلفا من الاجزاء والابعاض (وثانيها) كونه محدودا متناهيا (وثالثها) كونه موصوفا بالحركة والسكون والطلوع والغروب فاذا كان اله المشبهة مؤلفا من الاعضاء والاجزاء كان مركبا فاذا كان على العرش كان محدودا متناهيا وان كان ينزل من العرش

المستحقين للتفوق وقيل أستكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين وقرئ بحذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة أم عليها وقوله تعالى (قال انا خير منه) ادعاء منه لشئ مستلزم لمنعه من السجود على زعمه واشعار بأنه لا يليق أن يسجد الفاضل للمفضول كما يعرب عنه قوله لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون وقوله تعالى (خلقتني من نار وخلقته من طين) تعليل لما ادعاه من فضله عليه عليه الصلاة والسلام ولقد اخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر وزل عنه ما من جهة الفاعل كما أنبأ عنه قوله تعالى لما خلقت بيدي وما من جهة الصورة كما نبه عليه قوله تعالى ونفخت فيه من روحي وما من جهة الغاية وهو ملاك الامر ولذلك أمر الملائكة بسجوده عليهم السلام حين ظهر لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة في الارض وأنه خواص ﴿ ويرجع ﴾ ليست لغيره (قال فاخرج منها) الفاء

ويرجع اليه كان موصوفا بالحركة والسكون فهذه الصفات الثلاثة ان كانت منافية للالهية وجب تنزيه الاله عنها بأسرها وذلك يبطل قول المشبهة وان لم تكن منافية للالهية فحينئذ لا يقدر أحد على الطعن فى الهية الشمس والقمر (الحجة الحادية عشرة) قوله تعالى قل هو الله أحد ولفظ الاحد مبالغة فى الوحدة وذلك ينافى كونه مركبا من الاجزاء والابعاض (الحجة الثانية عشرة) قوله تعالى والله الغنى وأنتم الفقراء ولو كان مركبا من الاجزاء والابعاض لكان محتاجا اليها وذلك يمنع من كونه غنيا على الاطلاق فثبت بهذه الوجوه أن القول باثبات الاعضاء والاجزاء لله محال ولما ثبت بالدلائل اليقينية وجوب تنزيه الله تعالى عن هذه الاعضاء فنقول ذكر العلماء فى لفظ اليد وجوها (الاول) ان اليد عبارة عن القدرة تقول العرب مالى بهذا الامر من يد أى من قوة وطاقة قال تعالى أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح (الثانى) اليد عبارة عن النعمة يقال أيادى فلان فى حق فلان ظاهرة والمراد النعم والمراد باليدين النعم الظاهرة والباطنة أو نعم الدين والدنيا (الثالث) ان لفظ اليد قد يزاد للتأكيد كقول القائل لمن جنى باللسان هذا ما كسبت يداك وكقوله تعالى بشرا بين يدى رحمته ولقائل أن يقول حمل اليد على القدرة ههنا غير جائز ويدل عليه وجوه (الاول) ان ظاهر الآية يقتضى اثبات اليدين فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لزم اثبات قدرتين لله وهو باطل (والثانى) أن الآية تقتضى أن كون آدم مخلوقا باليدين يوجب فضيلته وكونه مسجودا للملائكة فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لكان آدم مخلوقا بالقدرة لكن جميع الاشياء مخلوقة بقدرة الله تعالى فكما أن آدم عليه السلام مخلوق بيد الله تعالى فكذلك ابليس مخلوق بيد الله تعالى وعلى تقدير أن تكون اليد عبارة عن القدرة لم تكن هذه العلة علة لكون آدم مسجودا لابليس أولى من أن يكون ابليس مسجودا لآدم حينئذ يختل نظم الآية ويبطل (الثالث) انه جاء فى الحديث انه صلى الله عليه وسلم قال كلتا يديه يمين ومعلوم أن هذا الوصف لا يليق بالقدرة (وأما التأويل الثانى) وهو حمل اليدين على النعمتين فهو أيضا باطل لوجوه (الاول) ان نعم الله تعالى كثيرة كما قال وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وظاهر الآية يدل على أن اليد لا تزيد على الاثنين (الثانى) لو كانت اليد عبارة عن النعمة فنقول النعمة مخلوقة فحينئذ لا يكون آدم مخلوقا لله تعالى بل يكون مخلوقا لبعض المخلوقات وذلك بأن يكون سببا لمزيد النقصان أولى من أن يكون سببا لمزيد الكمال (الثالث) لو كانت اليد عبارة عن النعمة لكان قوله تبارك الذى بيده الملك معناه تبارك الذى بنعمته الملك ولكان قوله بيدك الخير معناه بنعمتك الخير ولكان قوله يداه مبسوطتان معناه نعمتاه مبسوطتان ومعلوم ان كل ذلك فاسد (وأما التأويل الثالث) وهو قوله ان لفظ اليد قد يذكر زيادة لاجل التأكيد فنقول لفظ اليد قد يستعمل فى حق من يكون هذا العضو حاصلا له وفى حق من لا يكون هذا العضو حاصلا فى حقه (أما الاول) فكقولهم فى حق من جنى بلسانه هذا

لترتيب الامر على ماظهر من اللعين من المخالفة للامر الجليل وتعليلها بالاباطيل أى فاخرج من الجنة أو من زمرة الملائكة وهو المراد بالامر بالهبوط لا الهبوط من السماء كما قيل فان وسوسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد وقد بين كيفية وسوسته فى سورة البقرة وقيل اخرج من الخلقة التى كنت فيها وانسلخ منها فانه كان يفتخر بخلقته فغير الله خلقته فاسود بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسنا وأظلم بعد ما كان نورانيا وقوله تعالى (فانك رجيم) تعليل للامر بالخروج أى مطرود من كل خير وكرامة فان من يطرد يرجم بالحجارة او شيطان يرجم بالشهب (وان عليك لعنتى) أى ابعادى عن الرحمة وتقييدها بالاضافة مع اطلاقها فى قوله تعالى وان عليك اللعنة لما أن لعنة اللاعنين من الملائكة والثقلين أيضا من جهته تعالى وأنهم يدعون عليه بلعنة الله تعالى وابعاده من الرحمة (الى يوم الدين) أى يوم الجزاء والعقوبة وفيه ايذان بأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لجنايته بل هى أنموذج لما سيلقاه مستمرا الى ذلك اليوم لكن لا على انها تنقطع يومئذ كما يوهمه ظاهر التوقيت بل على أنه سيلقى يومئذ من ألوان العذاب وأفانين العقاب ماينسى عنده اللعنة وتصير كالزائل ألا يرى الى قوله تعالى فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على

ما كسبت يداك والسبب في هذا أن محل القدرة هو اليد فاطلق اسم اليد على القدرة وعلى هذا التقدير فيصير المراد من لفظ اليد القدرة وقد تقدم ابطال هذا الوجه (وأما الثاني) فكقوله بين يدي عذاب شديد وقوله بين يدي الساعة الا أنا نقول هذا المجاز بهذا اللفظ مذكور والمجاز لا يقاس عليه ولا يكون مطردا فلا جرم لا يجوز أن يقال ان هذا المعنى انما حصل بيد العذاب وبيد الساعة ونحن نسلم ان قوله لا تقدموا بين يدي الله ورسوله قد يجوز أن يراد به التأكيد والصلة أما المذكور في هذه الآية ليس هذا اللفظ بل قوله تعالى خلقت بيدي وان كان القياس في المجازات باطلا فقط سقط كلامهم بالكلية فهذا منتهى البحث في هذا الباب والذي تلخص عندي في هذا الباب ان السلطان العظيم لا يقدر على عمل شئ بيده الا اذا كانت غاية عنايته مصروفة الى ذلك العمل فاذا كانت العناية الشديدة من لوازم العمل باليد أمكن جعله مجازا عنه عند قيام الدلائل القاهرة فهذا ما لخصناه في هذا الباب والله أعلم أما قوله تعالى أستكبرت أم كنت من العالين فالمعنى أستكبرت الآن أم كنت أبدا من المتكبرين العالين فأجاب ابليس بقوله أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فالمعنى اني لو كنت مساويا له في الشرف لكان يقبح أمري بسجودي له فكيف وأنا خير منه ثم بين كونه خيرا منه بأن أصله من النار والنار أشرف من الطين فصح أن أصله خير من أصل آدم ومن كان أصله خيرا من أصله فهو خير منه فهذه مقدمات ثلاثة (المقدمة الاولى) ان ابليس مخلوق من النار يدل عليه قوله تعالى حكاية عنه خلقتني من نار وخلقته من طين وقوله تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم (المقدمة الثانية) ان النار أفضل من الطين ويدل عليه وجوه (الاول) ان الاجرام الفلكية أشرف من الاجرام العنصرية والنار أقرب العناصر من الفلك والارض أبعدها عنه فوجب كون النار أفضل من الارض (الثاني) ان النار خليفة الشمس والقمر في اضاءة هذا العالم عند غيبتهما والشمس والقمر أشرف من الارض فخليفتهما في الاضاءة أفضل من الارض (الثالث) ان الكيفية الفاعلة الاصلية اما الحرارة او البرودة والحرارة أفضل من البرودة لان الحرارة تناسب الحياة والبرودة تناسب الموت (الرابع) الارض كثيفة والنار لطيفة واللطافة أشرف من الكثافة (الخامس) النار مشرقة والارض مظلمة والنور خير من الظلمة (السادس) النار خفيفة تشبه الروح والارض ثقيلة تشبه الجسد والروح أفضل من الجسد فالنار أفضل من الارض ولذلك فان الاطباء أطبقوا على أن العنصرين الثقيلين أعون على تركيب الاجساد وان العنصرين الخفيفين أعون على تولد الارواح (السابع) النار صاعدة والارض هابطة والصاعد أفضل من الهابط (الثامن) ان أول بروج الفلك هو الحمل لانه هو الذي يبدأ من نقطة الاستواء الشمالي ثم ان الحمل على طبيعة النار وأشرف أعضاء الحيوان القلب والروح وهما على طبيعة النار وأخس أعضاء الحيوان هو العظم وهو بارد يابس أرضي (التاسع) ان الاجسام الارضية كلما كانت

الظالمين وقوله تعالى ويلعن بعضهم بعضا (قال رب فأنظرني) أي أمهلني وأخرني والفاء متعلقة بمحذوف ينسحب عليه الكلام أي اذا جعلتني رجيما فأمهلني ولا تمتني (الى يوم يبعثون) ﴿ ٢٢٢ ﴾ أي آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وأراد بذلك أن يجد فسحة لاغوائهم ويأخذ منهم ثاره وينجو من الموت بالكلية اذ لا موت بعد يوم البعث (قال فانك من المنظرين) وورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما سأله لآخرين على وجه يشعر بكون السائل تبعا لهم في ذلك دليل واضح على أنه اخبار بالانظار المقدر لهم ازلا لا انشاء لانظار خاص به قد وقع اجابة لدعائه وأن استنظاره كان طلبا لتأخير الموت اذ به يتحقق كونه منهم لا لتأخير العقوبة كما قيل فان ذلك معلوم من اضافة اليوم الى الدين أي انك من جملة الذين أخرت آجالهم ازلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين (الى يوم الوقت المعلوم) الذي قدره الله وعينه لفناء الخلائق وهو وقت النفخة الاولى لا الى وقت البعث الذي هو المسؤل فالفاء ليست لربط نفس الانظار بالاستنظار بل لربط الاخبار المذكور به كما في قول من قال * فان ترحم فأنت لذاك أهل * فانه لا امكان لجعل الفاء فيه لربط ﴿ اشد ﴾
ما له تعالى من الاهلية القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة بل هي لربط الاخبار بتلك الاهلية

للوجه بوقوعها هنا وقد ترك التوقيت في سورة الاعراف ثم ترك النداء والفاء في الاستنظار والانظار تعويلا على ماذكرههنا وفي سورة الحجر وان خطر ببالك ﴿٢٢٣﴾ أن كل وجه من وجوه النظم الكريم لابد أن يكون له مقام يقتضيه مغاير لمقام غيره وأن ماحكى من اللعين انما صدر عنه مرة وكذا جوابه لم يقع الادفعة فمقام الاستنظار والانظار ان اقتضى أحد الوجوه الحكية فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال والبالغ الى رتبة البلاغة ودرجة الاعجاز وأما ماعداه من الوجوه فهو بمعزل من بلوغ طبقة البلاغة فضلا عن العروج الى معارج الاعجاز فقد سلف تحقيقه في سورة الاعراف بفضل الله تعالى وتوفيقه (قال فبعزتك) الباء للقسم والفاء لترتيب مضمون الجملة على الانظار ولا ينافيه قوله تعالى فبما أغويتني وقوله رب بما أغويتني فان اغواءه تعالى اياه أثر من آثار قدرته تعالى وعزته وحكم من أحكام قهره وسلطنته فمآل الاقسام بهما واحد ولعل اللعين أقسم بهما جميعا فحكى تارة قسمه بأحدهما وأخرى بالآخر أي فأقسم بعزتك (لاغوينهم أجمعين) أي ذرية آدم بتزيين المعاصي لهم (الا عبادك منهم المخلصين) وهم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم من الغواية وقرئ المخلصين على صيغة الفاعل اي الذين أخلصوا

أشد نورانية ومشابهة بالنار كانت أشرف وكلما كانت أكثر غبرة وكثافة وكدورة ومشابهة بالارض كانت أخس مثاله الاجسام الشبيهة بالنار الذهب والياقوت والاحجار الصافية النورانية ومثاله أيضا من الثياب الابريسم ومايتخذ منه واما ان كل ماكان أكثر أرضية وغبرة فهو أخس فالامر ظاهر (العاشر) ان القوة الباصرة قوة في غاية الشرف والجلالة ولايتم عملها الابالشعاع وهو جسم شبيه بالنار (الحادي عشر) ان أشرف أجسام العالم الجسماني هو الشمس ولاشك انه شبيه بالنار في صورته وطبيعته وأثره (الثاني عشر) ان النضج والهضم والحياة لاتتم الابالحرارة ولولا قوة الحرارة لماتم المزاج وتولد المركبات (الثالث عشر) ان أقوى العناصر الاربعة في قوة الفعل هو النار وأكثرها في قوة الانفعال هو الارض والفعل أفضل من الانفعال فالنار أفضل من الارض أما القائلون بتفضيل الارض على النار فذكروا أيضا وجوها (الاول) ان الارض أمين مصلح فاذا أودعتها حبة ردتها اليك شجرة مثمرة والنار خائنة تفسد كل ماأسلمته اليها (الثاني) ان الحس البصري أثنى على النار فليسمع مايقوله الحس اللمسي (الثالث) ان الارض مستولية على النار فانها تطفئ النار وأما النار فانها لاتؤثر في الارض الخالصة (واما المقدمة الثالثة) فهي ان من كان أصله خيرا من أصله فهو خير منه فاعلم ان هذه المقدمة كاذبة جدا وذلك لان أصل الرماد النار وأصل البساتين النزهة والاشجار المثمرة هو الطين ومعلوم بالضرورة أن الاشجار المثمرة خير من الرماد وأيضا فهب ان اعتبار هذه الجهة يوجب الفضيلة الا ان هذا يمكن ان يصير معارضا بجهة أخرى توجب الرجحان مثل انسان نسيب عار عن كل الفضائل فان نسبه يوجب رجحانه الا ان الذي لايكون نسيبا قد يكون كثير العلم والزهد فيكون هو أفضل من ذلك النسيب بدرجات لاحد لها فالمقدمة الكاذبة في القياس الذي ذكره ابليس هو هذه المقدمة فان قال قائل هب أن ابليس أخطأ في هذا القياس لكن كيف لزمه الكفر من تلك المخالفة وبيان هذا السؤال من وجوه (الاول) ان قوله اسجدوا أمر والامر لايقتضي الوجوب بل الندب ومخالفة الندب لاتوجب العصيان فضلا عن الكفر وأيضا فالذين يقولون ان الامر للوجوب فهم لاينكرون كونه محتملا للندب احتمالا ظاهرا ومع قيام هذا الاحتمال الظاهر كيف يلزم العصيان فضلا عن الكفر (الثاني) هب انه للوجوب الا ان ابليس ماكان من الملائكة فأمر الملائكة بسجود آدم لايدخل فيه ابليس (الثالث) هب انه يتناوله الا أن تخصيص العام بالقياس جائز فخصص نفسه عن عموم ذلك الامر بالقياس (الرابع) هب انه لم يسجد مع علمه بأنه كان مأمورا به الا ان هذا القدر يوجب العصيان ولايوجب الكفر فكيف لزمه الكفر (والجواب) هب أن صيغة الامر لاتدل على الوجوب ولكن يجوز أن ينضم اليها من القرائن مايدل على الوجوب وههنا حصلت تلك القرائن وهي قوله تعالى أستكبرت أم كنت من العالين فلما أتى ابليس بقياسه الفاسد دل ذلك على انه انما ذكر ذلك القياس

تعالى (قال) أي الله عز وجل (فالحق والحق أقول) برفع الاول على أنه مبتدأ محذوف الخبر أو خبر محذوف المبتدأ
ونصب الثاني على أنه مفعول لما بعده قدم عليه للقصر أي لا أقول الا الحق والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي
فالحق قسمي (لأملأن جهنم) على أن الحق اما اسمه تعالى أو نقيض الباطل عظمه الله تعالى باقسامه به أو أنا
الحق أو فقولي الحق وقوله تعالى لأملأن جهنم الخ حينئذ جواب لقسم محذوف أي والله لأملأن
الخ وقوله تعالى والحق أقول على كل تقدير اعتراض مقرر على الوجهين الاولين لمضمون الجملة القسمية وعلى الوجه الثالث لمضمون الجملة المتقدمة أعني فقولي الحق وقرئا منصوبين على أن الاول مقسم به كقولك الله لافعلن وجوابه لأملأن وما بينهما اعتراض وقرئا مجرورين على أن الاول مقسم به قد أضمر حرف قسمه كقولك الله لافعلن والحق أقول على حكاية لفظ المقسم به على تقدير كونه نقيض الباطل ومعناه التأكيد والتشديد وقرئ بجر الاول على اضمار حرف القسم ونصب الثاني على المفعولية (منك) أي من جنسك من الشياطين (وممن تبعك) في الغواية والضلال (منهم) من ذرية آدم (أجمعين) تأكيد للكاف وما عطف
عليه أي لأملأنها من المتبوعين والاتباع أجمعين كقوله تعالى لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴿الآيتين﴾
وهذا القول هو المراد بقوله تعالى ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وحيث كان مناط
الحكم ههنا اتباع الشيطان اتضح أن مدار عدم المشيئة في قوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها اتباع
الكفرة للشيطان بسوء اختيارهم لا تحقق القول فليس في ذلك شائبة الجبر فتدبر

ليتوسل به الى القدح في أمر الله وتكاليفه وذلك يوجب الكفر * اذا عرفت هذا فنقول
ان ابليس لما ذكر هذا القياس الفاسد قال تعالى اخرج منها فانك رجيم واعلم انه ثبت
في أصول الفقه ان ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدل على كون ذلك الحكم معللا
بذلك الوصف وههنا الحكم بكونه رجيما ورد عقيب ما حكى عنه انه خصص النص بالقياس
فهذا يدل على أن تخصيص النص بالقياس يوجب هذا الحكم وقوله منها أي من الجنة
أو من السموات والرجيم المرجوم وفيه قولان (الاول) انه مجاز عن الطرد لان الظاهر
ان من طرد فقد يرمى بالحجارة وهو الرجم فلما كان الرجم من لوازم الطرد جعل الرجم كناية
عن الطرد فان قالوا الطرد هو اللعن فلو حملنا قوله رجيم على الطرد لكان قوله بعد ذلك
وان عليك لعنتي تكرارا والجواب من وجهين (الاول) انا نحمل الرجم على الطرد من
الجنة أو من السموات ونحمل اللعن على الطرد من رحمة الله (والثاني) انا نحمل الرجم على
الطرد ونحمل قوله وان عليك لعنتي الى يوم الدين على ان ذلك الطرد يمتد الى آخر القيامة
فيكون هذا فائدة زائدة ولا يكون تكريرا (والقول الثاني) في تفسير الرجيم ان نحمله على
الحقيقة وهو كون الشياطين مرجومين بالشهب والله أعلم فان قيل كلمة الى لانتهاء الغاية
فقوله الى يوم الدين يقتضي انقطاع تلك اللعنة عند مجيء يوم الدين أجاب صاحب الكشاف
بأن اللعنة باقية عليه في الدنيا فاذا جاء يوم القيامة جعل مع اللعنة أنواع من العذاب تصير
اللعنة مع حضورها منسية * واعلم أن ابليس لما صار ملعونا قال فانظرني الى يوم يبعثون
قيل انما طلب الانظار الى يوم يبعثون لاجل أن يتخلص من الموت لانه اذا انظر الى يوم
البعث لم يمت قبل يوم البعث وعند مجيء يوم البعث لا يموت أيضا فحينئذ يتخلص من الموت
فقال تعالى انك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم ومعناه انك من المنظرين الى يوم يعلمه الله
ولا يعلمه أحد سواه فقال ابليس فبعزتك وهو قسم بعزة الله وسلطانه لأغوينهم أجمعين
فههنا أضاف الاغواء الى نفسه وهو على مذهب القدر وقال مرة أخرى رب بما أغويتني
فأضاف الاغواء الى الله على ما هو مذهب الجبر وهذا يدل على انه متحير في هذه المسئلة
وأما قوله الا عبادك منهم المخلصين ففيه فوائد (الفائدة الاولى) قيل غرض ابليس من
ذكر هذا الاستثناء أن لا يقع في كلامه الكذب لانه لو لم يذكر هذا الاستثناء وادعى انه
يغوي الكل لكان يظهر كذبه حين يعجز عن اغواء عباد الله الصالحين فكأن ابليس قال
انما ذكرت هذا الاستثناء لئلا يقع الكذب في هذا الكلام وعند هذا يقال ان الكذب
شيء يستنكف منه ابليس فكيف يليق بالمسلم الاقدام عليه فان قيل كيف الجمع بين هذه
الآية وبين قوله وما أرسلنا من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته قلنا ان
ابليس لم يقل اني لم أقصد اغواء عباد الله الصالحين بل قال لأغوينهم وهو وان كان يقصد
الاغواء الا انه لا يغويهم (الفائدة الثانية) هذه الآية تدل على أن ابليس لا يغوي عباد
الله المخلصين وقال تعالى في صفة يوسف انه من عبادنا المخلصين فتحصل من مجموع هاتين

قل ما أسألكم عليه) على القرآن أو على تبليغ ما يوحى الى (من أجر ...
حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن (أن هو) أى ما هو (الا ذكر) من الله عزوجل (للعالمين) أى للثقلين كافة (ولتعلمن نبأه)
أى ما أنبأ به من الوعد والوعيد وغيرهما أو صحة خبره وأنه الحق والصدق (بعد حين) بعد الموت أو يوم القيامة أو عند
ظهور الاسلام وفشوه وقيل من بقى علم ذلك ﴿ ٢٢٥ ﴾ اذا ظهر أمره وعلا ومن مات علمه بعد الموت وفيه من
التهديد ما لا يخفى * عن
رسول الله صلى الله
عليه وسلم من قرأ سورة
ص كان له بوزن كل
جبل سخره الله لداود
عشر حسنات وعصم أن
يصر على ذنب صغير
او كبير وقال أبو أمامة
عصمه الله تعالى من كل
ذنب صغيرا أو كبيرا والله
أعلم * (سورة الزمر مكية
الا قوله قل لعبادى الآية
وآيها خمس وسبعون
أو ثنتان وسبعون) *
* (بسم الله الرحمن
الرحيم) * (تنزيل
الكتاب) خبر لمبتدا
محذوف هو اسم اشارة
أشير به الى السورة تنزيلا
لها منزلة الحاضر
المشار اليه لكونها على
شرف الذكر والحضور
كما مر مرارا وقد قيل هو
ضمير عائد الى الذكر فى
قوله تعالى ان هو الا ذكر
للعالمين وقوله تعالى (من
الله العزيز الحكيم)
صلة للتنزيل أو خبر ثان
أو حال من الت...
ما ... ... يل
... ...ها معنى الاشارة
أو من الكتاب الذى هو ﴿ ٢٩ ﴾ ... مفعول معنى عاملها المضاف وقيل هو ... خبر لتنزيل الكتاب والوجه الاول
أوفى بمقتضى المقام الذى هو بيان أن السورة أو القرآن تنزيل الكتا... ...ب من الله تعالى لابيان أن تنزيل الكتاب منه
تعالى لا من غيره كما يفيده الوجه الاخير وقرئ تنزيل الكتاب بالنصب على اضمار فعل نحو اقرأ أو الزم

الآيتين ان ابليس ما أغوى يوسف عليه السلام وذلك يدل على كذب الحشوية فيما
ينسبون الى يوسف عليه السلام من القبائح واعلم أن ابليس لما ذكر هذا الكلام قال الله
تعالى فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وفيه مسائل
(المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة فالحق بالرفع والحق بالنصب والباقون بالنصب فيهما
أما الرفع فتقديره فالحق قسمى واما النصب فعلى القسم أى فبالحق كقولك والله لأفعلن
وأما قوله والحق أقول انتصب قوله والحق بقوله أقول (المسئلة الثانية) قوله منك أى من
جنسك وهم الشياطين وممن تبعك منهم من ذرية آدم فان قيل قوله أجمعين تأكيد لماذا
قلنا يحتمل أن يؤكد به الضمير فى منهم أو الكاف فى منك مع من تبعك ومعناه لأملأن
جهنم من المتبوعين والتابعين لا أترك منهم أحدا (المسئلة الثالثة) احتج أصحابنا بهذه
الآية فى مسئلة أن الكل بقضاء الله من وجوه (الاول) انه تعالى قال فى حق ابليس
اخرج منها فانك رجيم وان عليك لعنتى الى يوم الدين فهذا اخبار من الله تعالى بأنه
لا يؤمن فلو آمن لانقلب خبر الله الصدق كذبا وهو محال فكان صدور الايمان منه محالا
مع انه أمر به (والثانى) انه قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين فالله تعالى علم منه انه يغويهم
وسمع منه هذه الدعوى وكان قادرا على منعه عن ذلك والقادر على المنع اذا لم يمنع كان
راضيا به فان قالوا لعل ذلك المنع مفسد قلنا هذا قول فاسد لأن ذلك المنع يخلص ابليس
عن الاضلال ويخلص بنى آدم عن الضلال وهذا عين المصلحة (الثالث) انه تعالى أخبر
انه يملأ جهنم من الكفرة فلو لم يكفر والزم الكذب والجهل فى حق الله تعالى (الرابع)
انه لو أراد أن لا يكفر الكافر لوجب أن يبقى الانبياء والصالحين وان يميت ابليس
والشياطين وحيث قلب الامر علمنا انه فاسد (الخامس) ان تكليف أولئك الكفار
بالايمان يقتضى تكليفهم بالايمان بهذه الآيات التى هى دالة على أنهم لا يؤمنون البتة
وحينئذ يلزم أن يصيروا مكلفين بأن يؤمنوا بأنهم لا يؤمنون البتة وذلك تكليف
بما لا يطاق والله أعلم * قوله تعالى (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين
ان هو الا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين) اعلم أن الله تعالى ختم هذه السورة بهذه
الخاتمة الشريفة وذلك لانه تعالى ذكر طرقا كثيرة دالة على وجوب الاحتياط فى طلب
الدين ثم قال عند الختم هذا الذى أدعو الناس اليه يجب أن ينظر فى حال الداعى وفى حال
الدعوة ليظهر انه حق أو باطل أما الداعى وهو أنا فأنا لا أسألكم على هذه الدعوة أجرا
ومالا ومن الظاهر ان الكذاب لا ينقطع طمعه عن طلب المال البتة وكان من الظاهر أنه
صلى الله عليه وسلم كان بعيدا عن الدنيا عديم الرغبة فيها وأما كيفية الدعوة فقال
وما أنا من المتكلفين والمفسرون ذكروا فيه وجوها والذى يغلب على الظن أن المراد أن
هذا الذى أدعوكم اليه دين ليس يحتاج فى معرفة صحته الى التكلفات الكثيرة بل هو
دين يشهد صريح العقل بصحته فانى أدعوكم الى الاقرار بوجود الله أولا ثم أدعوكم ثانيا

الى تنزيهه وتقديسه عن كل مالايليق به يسوى ذلك قوله ليس كمثله شئ وامثاله ثم أدعوكم ثالثا الى الاقرار بكونه موصوفا بكمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة ثم أدعوكم رابعا الى الاقرار بكونه منزها عن الشركاء والاضداد ثم أدعوكم خامسا الى الامتناع عن عبادة هذه الاوثان التى هى جمادات خسيسة ولامنفعة فى عبادتها ولامضرة فى الاعراض عنها ثم أدعوكم سادسا الى تعظيم الارواح الطاهرة المقدسة وهم الملائكة والانبياء ثم أدعوكم سابعا الى الاقرار بالبعث والقيامة ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ثم أدعوكم ثامنا الى الاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة فهذه الاصول الثمانية هى الاصول القوية المعتبرة فى دين الله تعالى ودين محمد صلى الله عليه وسلم وبداءة العقول وأوائل الافكار شاهدة بصحة هذه الاصول الثمانية فثبت أنى لست من المتكلفين فى الشريعة التى أدعوا الخلق اليها بل كل عقل سليم وطبع مستقيم فانه يشهد بصحتها وجلالتها وبعدها عن الباطل والفساد وهو المراد من قوله ان هو الاذكر للعالمين ولما بين هذه المقدمات قال ولتعلمن نبأه بعد حين والمعنى انكم ان أصررتم على الجهل والتقليد وأبيتم قبول هذه البيانات التى ذكرناها فستعلمون بعد حين انكم كنتم مصيبين فى هذا الاعراض أومخطئين وذكر مثل هذه الكلمة بعد تلك البيانات المتقدمة مما لامزيد عليه فى التخويف والترهيب والله أعلم ✽ قال المصنف رحمة الله عليه تم تفسير هذه السورة يوم الخميس فى آخر الثلاثاء الثانى من شهر ذى القعدة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله على آلائه ونعمائه ✽ والصلاة على المطهرين من عباده فى أرضه وسمائه والمدح والثناء كما يليق بصفاته وأسمائه ✽ والتعظيم التام لانبيائه وأوليائه ✽ وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين

(سورة الزمر سبعون وخمس آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم الاليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ان الله لايهدى من هو كاذب كفار لوأراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق مايشاء سبحانه هو الله الواحد القهار) اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ذكر الفراء والزجاج فى رفع تنزيل وجهين (أحدهما) أن يكون قوله تنزيل مبتدأ وقوله من الله العزيز الحكيم خبر (الثانى) أن يكون التقدير هذا تنزيل الكتاب فيضمر المبتدأ كقوله سورة أنزلناها أى هذه سورة قال بعضهم الوجه الاول أولى لوجوه (الاول) أن الاضمار خلاف الاصل فلا يصار اليه الالضرورة ولاضرورة ههنا (الثانى) انا اذا قلنا تنزيل الكتاب من الله جملة تامة من المبتدا والخبر

والتعرض لوصفى العزة والحكمة للايذان بظهور أثريهما فى الكتاب بجريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه من غير مدافع ولاممانع وبابتناء جميع مافيه على أساس الحكم الباهرة وقوله تعالى (انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق) شروع فى بيان شأن المنزل اليه ومايجب عليه اثر بيان شأن المنزل وكونه من عند الله تعالى والمراد بالكتاب هو القرآن واظهاره على تقدير كونه هو المراد بالاول أيضا لتعظيمه ومزيد الاعتناء ✽ ٢٣٦ ✽ بشأنه والباء اما متعلقة بالانزال أى بسبب الحق واثباته واظهاره أو بداعية الحق واقتضائه للانزال واما بمحذوف هو حال من نون العظمة أومن الكتاب أى انزلناه اليك محقين فى ذلك او انزلناه ملتبسا بالحق والصواب أى كل مافيه حق لاريب فيه موجب للعمل به حتما والفاء فى قوله تعالى (فاعبد الله مخلصا له الدين) لترتيب الامر بالعبادة على انزال الكتاب اليه عليه الصلاة والسلام بالحق أى فاعبده تعالى ممحضا له الدين من شوائب الشرك والرياء حسبما بين فى تضاعيف ماأنزل اليك وقرئ برفع الدين على أنه مبتدأ خبره الظرف المقدم عليه لتأكيد الاختصاص المستفاد من اللام والجملة استئناف وقع تعليلا للامر باخلاص العبادة وقوله تعالى (ألا لله الدين الخالص) استئناف مقرر لماقبله من الامر باخلاص الدين له تعالى ووجوب الامتثال به وعلى القراءة الاخيرة مؤكد لاختصاص الدين به تعالى أى ألا هو الذى يجب أن يخص باخلاص الطاعة له لانه المتفرد بصفات ✽ افاد ✽ الالوهية التى من جملتها الاطلاع على السرائر والضمائر وقوله تعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء) تحقيق لحقية ماذكر من اخلاص الدين الذى هو عبارة عن التوحيد ببيان بطلان الشرك الذى هو عبارة عن ترك اخلاصه والموصول

عبارة عن المشركين ومحله الرفع على الابتداء خبره ماسيأتى من الجملة المصدرة بان والاولياء عن الملائكة وعيسى عليهم السلام والاصنام وقوله تعالى (مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) حال بتقدير القول من واتخذوا مبينة لكيفية اشراكهم وعدم خلوص دينهم والاستثناء مفرغ من أعم العلل و زلفى مصدر مؤكد على غير لفظ الصدر ملاق له فى المعنى أى والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى بل شابوها بعبادة غيره قائلين مانعبدهم لشئ من الاشياء الا ليقربونا الى الله تعالى تقريبا (ان الله يحكم بينهم) أى و بين خصمائهم الذين هم المخلصون للدين وقد حذف لدلالة الحال عليه كما فى قوله تعالى لانفرق بين أحد من رسله على أحد الوجهين أى بين أحد منهم و بين غيره وعليه قول النابغة * فما كان بين الخير لو جاء سالما * أبو حجر الا ليال قلائل * أى بين الخير و بينى وقيل ضمير بينهم للفريقين جميعا (فيما هم فيه يختلفون) من الدين الذى اختلفوا فيه بالتوحيد والاشراك وادعى كل فريق منهم صحة ما انتحله وحكمه تعالى فى ذلك ادخال الموحدين الجنة والمشركين النار فالضمير للفريقين هذا هو الذى يستدعيه مساق النظم الكريم وأما تجويز أن يكون الموصول عبارة عن المعبودين على حذف العائد اليه واضمار المشركين من غير ذكر تعويلا على دلالة المساق عليهم و يكون التقدير والذين اتخذهم المشركون أولياء قائلين مانعبدهم الا ليقربونا الى الله ان الله يحكم بينهم أى بين العبدة والمعبودين فيما هم فيه يختلفون حيث يرجو العبدة شفاعتهم وهم يلعنونهم فبعد الاغضاء عما فيه من التعسفات بمعزل من السداد كيف لا وليس فيما ذكر من طلب الشفاعة واللعن مادة يختلف فيها الفريقان اختلافا

أفاد فائدة شريفة وهى ان تنزيل الكتاب يكون من الله لامن غيره وهذا الحصر معنى معتبر أما اذا أضمرنا المبتدا لم تحصل هذه الفائدة (الثالث) اذا أضمرنا المبتدا صار التقدير هذا تنزيل الكتاب من الله وحينئذ يلزمنا مجاز آخر لان هذا اشارة الى السورة والسورة ليست نفس التنزيل بل السورة منزلة فحينئذ نحتاج الى أن نقول المراد من المصدر المفعول وهو مجاز تحملناه لاالضرورة (المسألة الثانية) القائلون بخلق القرآن احتجوا بأن قالوا انه تعالى وصف القرآن بكونه تنزيلا ومنزلا وهذا الوصف لايليق الا بالمحدث المخلوق والجواب انا نحمل هذه اللفظة على الصيغ والحروف (المسألة الثالثة) الآيات الكثيرة تدل على وصف القرآن بكونه تنزيلا وآيات أخر تدل على كونه منزلا (أما الاول) فقوله تعالى وانه لتنزيل رب العالمين وقال تنزيل من حكيم حميد وقال حم تنزيل من الرحمن الرحيم (وأما الثانى) فقوله انا نحن نزلنا الذكر وقال و بالحق أنزلناه و بالحق نزل وأنت تعلم أن كونه منزلا أقرب الى الحقيقة من كونه تنزيلا فكونه منزلا مجاز أيضا لانه ان كان المراد من القرآن الصفة القائمة بذات الله فهو لايقبل الانفصال والنزول وان كان المراد منه الحروف والاصوات فهى أعراض لاتقبل الانتقال والنزول بل المراد من النزول نزول الملك الذى بلغها الى الرسول صلى الله عليه وسلم (المسألة الرابعة) قالت المعتزلة العزيز هو القادر الذى لايغلب فهذا اللفظ يدل على كونه تعالى قادرا على مالانهاية له والحكيم هو الذى يفعل لداعية الحكمة لالداعية الشهوة وهذا انما يتم اذا ثبت انه تعالى عالم بجميع المعلومات وانه غنى عن جميع الحاجات اذا ثبت هذا فنقول كونه تعالى عزيزا حكيما يدل على هذه الصفات الثلاثة العلم بجميع المعلومات والقدرة على كل الممكنات والاستغناء عن كل الحاجات فمن كان كذلك امتنع أن يفعل القبيح وأن يحكم بالقبيح واذا كان كذلك فكل مايفعله يكون حكمة وصوابا اذا ثبت هذا فنقول الانتفاع بالقرآن يتوقف على أصلين (أحدهما) أن يعلم ان القرآن كلام الله والدليل عليه انه ثبت بالمعجز كون الرسول صادقا وثبت بالتواتر انه كان يقول القرآن كلام الله فيحصل من مجموع هاتين المقدمتين ان القرآن كلام الله (والاصل الثانى) ان الله أراد بهذه الالفاظ المعانى التى هى موضوعة لها اما بحسب اللغة أو بحسب القرينة العرفية أو الشرعية لانه لولم يرد بها ذلك لكان ذلك تلبيسا وذلك لايليق بالحكيم فثبت بما ذكرنا ان الانتفاع بالقرآن لايحصل الا بعد تسليم هذين الاصلين وثبت أنه لاسبيل الى اثبات هذين الاصلين الا باثبات كونه تعالى حكيما وثبت أنه لاسبيل الى اثبات كونه حكيما الا بالبناء على كونه تعالى عزيزا فلهذا السبب قال تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم أما قوله تعالى انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق ففيه سؤالان (السؤال الاول) لفظ التنزيل يشعر بأنه تعالى أنزله عليه نجما نجما على سبيل التدريج ولفظ الانزال يشعر بأنه تعالى أنزله عليه دفعة واحدة فكيف الجمع بينهما والجواب ان صح الفرق بين التنزيل

محوجا الى الحكم والفصل وانما ذاك مابين فريقي الموحدين والمشركين في الدنيا من الاختلاف في الدين الباقي الى يوم القيامة وقرئ قالوا مانعبدهم فهو بدل من الصلة لا خبر للموصول كما قيل اذ ليس في الاخبار بذلك مزيد مزية وقرئ مانعبدكم الا لتقربونا حكاية لما خاطبوا به آلهتهم وقرئ نعبدهم اتباعا للباء (ان الله لا يهدي) أي لا يوفق للاهتداء الى الحق الذي هو طريق النجاة عن المكروه والفوز بالمطلوب (من هو كاذب كفار) أي راسخ في الكذب مبالغ في الكفر كما يعرب عنه قراءة كذاب وكذوب فانهما فاقدان للبصيرة غير قابلين للاهتداء لتغيرهما الفطرة الاصلية بالتمرن في الضلالة والتمادي في الغي والجملة تعليل لما ذكر من حكمه تعالى (لو أراد الله أن يتخذ ولدا) الخ استئناف مسوق لتحقيق الحق وابطال القول بأن الملائكة بنات الله وعيسى ابنه تعالى عن ذلك علوا كبيرا ببيان استحالة اتخاذ الولد في حقه تعالى على الاطلاق ليندرج فيه استحالة ماقيل اندراجا أوليا أي لو أراد الله أن يتخذ ولدا (لاصطفى) أي لاتخذ (مما يخلق) أي من جملة ما يخلقه أو من جنس ما يخلقه (مايشاء) ان يتخذه اذ لا موجود سواه الا وهو مخلوق له تعالى لامتناع تعدد الواجب ووجوب استناد جميع ماعداه اليه ومن البين أن اتخاذ الولد منوط بالمماثلة بين المتخذ والمتخذ وأن المخلوق لا يماثل خالقه حتى يمكن اتخاذه ولدا فما فرضناه من اتخاذ ولد لم يكن اتخاذ ولد بل اصطفاء عبد واليه أشير حيث وضع الاصطفاء موضع الاتخاذ الذي تقتضيه الشرطية تنبيها على استحالة مقدمها لاستلزام فرض وقوعه بل فرض ارادة وقوعه انتفاءه أي لو أراد الله تعالى أن يتخذ ولدا لفعل شيأ ليس هو من اتخاذ الولد في شئ أصلا بل انما

و بين الانزال من الوجه الذي ذكرتم فطريق الجمع أن يقال المعنى انا حكمنا حكما كليا جزما بأن يوصل اليك هذا الكتاب وهذا هو الانزال ثم أوصلناه نجما نجما اليك على وفق المصالح وهذا هو التنزيل (السؤال الثاني) ما المراد من قوله انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق والجواب فيه وجهان (الاول) المراد أنزلنا الكتاب اليك ملتبسا بالحق والصدق والصواب على معنى كل ما أودعناه فيه من اثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع التكاليف فهو حق وصدق يجب العمل به والمصير اليه (الثاني) أن يكون المراد انا أنزلنا اليك الكتاب بناء على دليل حق دل على أن الكتاب نازل من عند الله وذلك الدليل هو ان الفصحاء عجزوا عن معارضته ولو لم يكن معجزا لما عجزوا عن معارضته ثم قال فاعبد الله مخلصا له الدين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى لما بين في قوله انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق ان هذا الكتاب مشتمل على الحق والصدق والصواب أردف هنا بعض ما فيه من الحق والصدق وهو أن يشتغل الانسان بعبادة الله تعالى على سبيل الاخلاص ويتبرأ عن عبادة غير الله تعالى بالكلية فأما اشتغاله بعبادة الله تعالى على سبيل الاخلاص فهو المراد من قوله تعالى فاعبد الله مخلصا واما براءته من عبادة غير الله تعالى فهو المراد بقوله ألا لله الدين الخالص لان قوله ألا لله يفيد الحصر ومعنى الحصر أن يثبت الحكم في المذكور وينتفي عن غير المذكور واعلم أن العبادة مع الاخلاص لا تعرف حقيقة الا اذا عرفنا أن العبادة ماهي وان الاخلاص ماهو وان الوجوه المنافية للاخلاص ماهي فهذه أمور ثلاثة لابد من البحث عنها (أما العبادة) فهي فعل أو قول أو ترك فعل أو ترك قول يؤتى به لمجرد اعتقاد أن الامر به عظيم يجب قبوله (وأما الاخلاص) فهو ان يكون الداعي له الى الاتيان بذلك الفعل أو الترك مجرد هذا الانقياد والامتثال فان حصل منه داع آخر فاما أن يكون جانب الداعي الى الطاعة راجحا على الجانب الآخر أو معادلا له أو مرجوحا وأجمعوا على ان المعادل والمرجوح ساقط وأما اذا كان الداعي الى طاعة الله راجحا على الجانب الآخر فقد اختلفوا في انه هل يفيد أم لا وقد ذكرنا هذه المسئلة مرارا ولفظ القرآن يدل على وجوب الاتيان به على سبيل الخلوص لان قوله فاعبد الله مخلصا صريح في أنه يجب الاتيان بالعبادة على سبيل الخلوص وتأكد هذا بقوله تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين وأما بيان الوجوه المنافية للاخلاص فهي الوجوه الداعية للشريك وهي اقسام (أحدها) أن يكون للرياء والسمعة فيه مدخل (وثانيها) أن يكون مقصوده من الاتيان بالطاعة الفوز بالجنة والخلاص من النار (وثالثها) أن يأتي بها ويعتقد أن لها تأثيرا في ايجاب الثواب أو دفع العقاب (ورابعها) وهو ان يخلص تلك الطاعات عن الكبائر حتى تصير مقبولة وهذا القول انما يعتبر على قول المعتزلة (المسئلة الثانية) من الناس من قال فاعبد الله مخلصا له الدين المراد منه شهادة ان لا اله الا الله واحتجوا بما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا اله الا الله حصني ومن دخل

هو اصطفاء عبد ولا ريب فى ان ما يستلزم فرض وقوعه انتفاءه فهو ممتنع قطعا فكأنه قيل لو أراد الله ان يتخذ ولدا لامتنع ولم يصح لكن لا على أن الامتناع منوط بتحقق الارادة بل على أنه متحقق عند عدمها بطريق الاولوية على منوال لولم يخف الله لم يعصه وقوله تعالى (سبحانه) تقرير لما ذكر من استحالة اتخاذ الولد فى حقه تعالى وتأكيد له ببيان تنزهه تعالى عنه أى تنزه بالذات عن ذلك تنزهه الخاص به على ان السبحان مصدر من سبح اذا بعد أو اسبحه تسبيحا لائقا به على أنه علم للتسبيح مقول على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحا حقيقا بشأنه وقوله تعالى (هو الله الواحد القهار) استئناف مبين لتنزهه تعالى بحسب الصفات اثر بيان تنزهه تعالى عنه بحسب الذات فان صفة الالوهية المستتبعة لسائر صفات الكمال النافية لسمات النقصان والوحدة الذاتية الموجبة لامتناع المماثلة والمشاركة بينه تعالى وبين غيره على الاطلاق مما يقضى بتنزهه تعالى عما قالوا قضاء متقنا وكذا وصف القهار لما أن اتخاذ الولد شأن من يكون تحت ملكوت الغير عرضة للفناء ليقوم ولده مقامه عند فنائه ومن هو مستحيل الفناء قهار لكل الكائنات كيف يتصور أن يتخذ من الاشياء الفانية ما يقوم مقامه وقوله تعالى (خلق السموات والارض بالحق) تفصيل لبعض أفعاله تعالى الدالة على تفرده بما ذكر من الصفات الجليلة أى خلقهما وما بينهما من الموجودات ملتبسة بالحق والصواب مشتملة على الحكم والمصالح وقوله تعالى (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) بيان لكيفية تصرفه تعالى فيهما بعد بيان خلقهما فان حدوث الليل والنهار فى الارض منوط بتحريك السموات أى يغشى كل واحد منهما الآخر كأنه

حصنى أمن من عذابى وهذا قول من يقول لا تضر المعصية مع الايمان كما لا تنفع الطاعة مع الكفر وأما الاكثرون فقالوا الآية متناولة لكل ما كلف الله به من الاوامر والنواهى وهذا هو الاولى لان قوله فاعبد الله عام وروى ان امرأة الفرزدق لما قرب وفاتها أوصت أن يصلى الحسن البصرى عليها فلما صلى عليها ودفنت قال للفرزدق يا أبا فراس ما الذى أعددت لهذا الامر قال شهادة أن لا اله الا الله فقال الحسن رضى الله عنه هذا العمود فأين الطنب فبين بهذا اللفظ الوجيز أن عمود الخيمة لا ينتفع به الا مع الطنب حتى يمكن الانتفاع بالخيمة قال القاضى فأما ما يروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ وأبى الدرداء وان زنى وان سرق على رغم أنف أبى الدرداء فان صح فانه يجب أن يحمل عليه بشرط التوبة والا لم يجز قبول هذا الخبر لانه مخالف للقرآن ولانه يوجب أن لا يكون الانسان مزجورا عن الزنا والسرقة وان لا يكون متعديا بفعلهما الا انه مع شدة شهوته للقبيح يعلم أنه لا يضره مع تمسكه بالشهادتين فكان ذلك اغراء بالقبيح والكل ينافى حكمة الله تعالى ولا يلزم أن يقال ذلك فأقول بأنه يزول ضرره بالتوبة يوجب أيضا الاغراء بالقبيح لانا نقول ان من اعتقد أن ضرره يزول بالتوبة فقد اعتقد أن فعل القبيح مضرة الا انه يزيل ذلك الضرر بفعل التوبة بخلاف قول من يقول ان فعل القبيح لا يضر مع التمسك بالشهادتين هذا تمام كلام القاضى فيقال له أما قولك ان القول بالمغفرة تخالف للقرآن فليس كذلك بل القرآن يدل عليه قال تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقال وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم أى حال ظلمهم كما يقال رأيت الامير على أكله وشربه أى حال كونه آكلا وشاربا وقال يا عبادى الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا وأما قوله ان ذلك يوجب الاغراء بالقبيح فيقال له ان كان الامر كذلك وجب أن يقبح غفرانه عقلا وهذا مذهب البغداديين من المعتزلة وأنت لا تقول به لان مذهب البصريين أن عذاب المذنب جائز عقلا وأيضا فيلزم عليه أن لا يحصل الغفران بالتوبة لانه اذا علم أنه اذا أذنب ثم تاب غفر الله له لم ينزجر وأما الفرق الذى ذكره القاضى فبعيد لانه اذا عزم على أن يتوب عنه فى الحال علم انه لا يضره ذلك الذنب البتة ثم نقول مذهبنا انا نقطع بحصول العفو عن الكبائر فى الجملة فأما فى حق كل واحد من الناس فذلك مشكوك فيه لانه تعالى قال ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فقطع بحصول المغفرة فى الجملة الا أنه سبحانه وتعالى لم يقطع بحصول هذا الغفران فى حق كل أحد بل فى حق من شاء واذا كان الامر كذلك كان الخوف حاصلا فلا يكون الاغراء حاصلا والله أعلم (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قرئ الدين بالرفع ثم قال وحق من رفعه أن يقرأ مخلصا بفتح اللام لقوله تعالى وأخلصوا دينهم لله حتى يطابق قوله ألا لله الدين الخالص والخالص والمخلص واحد الا أنه وصف الدين بصفة صاحبه على الاسناد المجازى كقولهم شعر شاعر واعلم انه تعالى لما بين ان رأس العبادات ورئيسها الاخلاص

يلفه عليه لف اللباس على اللابس أو يغيبه به كما يغيب الملفوف باللفافة أو يجعله كارا عليه كرورا متتابعا تتابع أكوار العمامة وصيغة المضارع للدلالة على التجدد (وسخر الشمس والقمر) جعلهما منقادين لامره تعالى وقوله تعالى (كل يجري لاجل مسمى) بيان لكيفية تسخيرهما أي كل منهما يجري لمنتهى دورته أو منقطع حركته وقد مر تفصيله غير مرة (ألا هو العزيز) الغالب القادر على كل شيء من الاشياء التي من جملتها عقاب

العصاة (الغفار) المبالغ في المغفرة ولذلك لا يعاجل بالعقوبة وسلب ما في هذه الصنائع البديعة من آثار الرحمة وتصدير الجملة بحرف التنبيه لاظهار كمال الاعتناء بمضمونها (خلقكم من نفس واحدة) بيان لبعض آخر من أفعاله الدالة على ما ذكر وترك عطفه على خلق السموات للايذان باستقلاله في الدلالة ولتعلقه بالعالم السفلي والبداءة بخلق الانسان لعراقته في الدلالة لما فيه من تعاجيب آثار القدرة وأسرار الحكمة وأصالته في المعرفة فان الانسان بحال نفسه أعرف والمراد بالنفس نفس آدم عليه السلام وقوله (ثم جعل منها زوجها) عطف على محذوف هو صفة لنفس أي من نفس خلقها ثم جعل منها زوجها أو على معنى واحدة أي من نفس وحدت ثم جعل منها زوجها فشفعها أو على خلقكم لتفاوت ما بينهما في الدلالة فانهما وان كانتا آيتين دالتين على ما ذكر لكن الأولى لاستمرارها صارت معتادة وأما الثانية

فحيث لم تكن معتادة خارجة عن قياس الاولى كما يشعر به التعبير عنها بالجعل دون الخلق كانت أدخل في كونها آية وأجلب للتعجب من السامع فعطفت على الاولى بثم دلالة على مباينتها لها فضلا ومزية وتراخيها عنها فيما

في التوحيد أردفه بذم طريقة المشركين فقال والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وتقدير الكلام والذين اتخذوا من دونه أولياء يقولون ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وعلى هذا التقدير فخبر والذين محذوف وهو قوله يقولون واعلم ان الضمير في قوله ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى عائد على الاشياء التي عبدت من دون الله وهي قسمان العقلاء وغير العقلاء اما العقلاء فهو أن قوما عبدوا المسيح وعزيرا والملائكة وكثير من الناس يعبدون الشمس والقمر والنجوم و يعتقدون فيها أنها أحياء عاقلة ناطقة وأما الاشياء التي عبدت مع أنها ليست موصوفة بالحياة والعقل فهي الاصنام اذا عرفت هذا فنقول الكلام الذي ذكره الكفار لائق بالعقلاء أما بغير العقلاء فلا يليق و بيانه من وجهين (الاول) ان الضمير في قوله ما نعبدهم ضمير للعقلاء فلا يليق بالاصنام (الثاني) أنه لا يبعد أن يعتقد أولئك الكفار في المسيح والعزير والملائكة أن يشفعوا لهم عند الله أما يبعد من العاقل أن يعتقد في الاصنام والجمادات أنها تقربه الى الله وعلى هذا التقدير فمرادهم أن عبادتهم لها تقربهم الى الله و يمكن أن يقال ان العاقل لا يعبد الصنم من حيث انه خشب أو حجر وانما يعبدونه لاعتقادهم انها تماثيل الكواكب أو تماثيل الارواح السماوية أو تماثيل الانبياء والصالحين الذين مضوا و يكون مقصودهم من عبادتها توجيه تلك العبادات الى تلك الاشياء التي جعلوا هذه التماثيل صورا لها وحاصل الكلام لعباد الاصنام أن قالوا ان الاله الاعظم أجل من أن يعبده البشر لكن اللائق بالبشر أن يشتغلوا بعبادة الاكابر من عباد الله مثل الكواكب ومثل الارواح السماوية ثم انها تشتغل بعبادة الاله الاكبر فهذا هو المراد من قولهم ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى واعلم أن الله تعالى لما حكى مذاهبهم أجاب عنها من وجوه (الاول) انه اقتصر في الجواب على مجرد التهديد فقال ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون واعلم أن الرجل المبطل اذا ذكر مذهبا باطلا وكان مصرا عليه فالطريق في علاجه أن يحتال بحيلة توجب زوال ذلك الاصرار عن قلبه فاذا زال الاصرار عن قلبه فبعد ذلك يسمعه الدليل الدال على بطلانه فيكون هذا الطريق أفضى الى المقصود والاطباء يقولون لا بد من تقديم المنضج على سقي المسهل فان بتناول المنضج تصير المواد الفاسدة رخوة قابلة للزوال فاذا سقيته المسهل بعد ذلك حصل النقاء التام فكذلك ههنا اسماع التهديد والتخويف أولا يجري مجرى سقي المنضج أولا واسماع الدليل ثانيا يجري مجرى سقي المسهل ثانيا فهذا هو الفائدة في تقديم هذا التهديد ثم قال تعالى ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار والمراد أن من أصر على الكذب والكفر بقي محروما عن الهداية والمراد بهذا الكذب وصفهم لهذه الاصنام بانها آلهة مستحقة للعبادة مع علمهم بأنها جمادات خسيسة وهم نحتوها وتصرفوا فيها والعلم الضروري حاصل بأن وصف هذه الاشياء بالالهية كذب محض وأما الكفر فيحتمل أن يكون المراد منه الكفر الراجع الى

ترجع الى زيادة كونها آية فهو من التراخي في الحال والمنزلة وقيل أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق منه حواء ففيه ثلاث آيات مترتبة على خلق آدم عليه السلام بلا أب وأم وخلق حواء من قصيراه ثم تشعيب الخلق الفائت للحصر منهما وقوله تعالى (وأنزل لكم) بيان لبعض آخر من أفعاله الدالة على ما ذكر أي قضى أو قسم لكم فان قضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء حيث تكتب في اللوح المحفوظ أو أحدث لكم بأسباب نازلة من السماء كالامطار وأشعة الكواكب (من الانعام ثمانية أزواج) ذكر وأنثى هي الابل والبقر والضأن والمعز وقيل خلقها في الجنة ثم أنزلها وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما أخر فان كون الانزال لمنافعهم وكونه من الجهة العالية من الامور المهمة المشوقة الى ما أنزل لامحالة وقوله تعالى (يخلقكم في بطون أمهاتكم) استئناف مسوق لبيان كيفية خلقهم وأطواره المختلفة الدالة على القدرة الباهرة وصيغة المضارع للدلالة على التدرج والتجدد وقوله تعالى (خلقا من بعد خلق) مصدر مؤكد أي يخلقكم فيها خلقا كائنا من بعد خلق أي خلقا مدرجا حيوانا سويا من بعد عظام مكسوة لحما من بعد عظام عارية من بعد مضغ مخلقة من بعد مضغ غير مخلقة من بعد علقة من بعد نطفة (في ظلمات ثلاث) متعلق بيخلقكم وهي ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة أو ظلمة الصلب والبطن والرحم (ذلكم) اشارة اليه تعالى باعتبار أفعاله المذكورة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته تعالى في العظمة والكبرياء ومحله الرفع على الابتداء أي ذلكم العظيم الشان الذي عددت أفعاله (الله) وقوله تعالى (ربكم)

الاعتقاد والامر ههنا كذلك فان وصفهم لها بالالهية كذب واعتقادهم فيها بالالهية جهل وكفر ويحتمل أن يكون المراد كفران النعمة والسبب فيه أن العبادة نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق الا بمن يصدر عنه غاية الانعام وذلك المنعم هو الله سبحانه وتعالى وهذه الاوثان لا مدخل لها في ذلك الانعام فالاشتغال بعبادة هذه الاوثان يوجب كفران نعمة المنعم الحق ثم قال تعالى لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار والمراد من هذا الكلام اقامة الدلائل القاهرة على كونه منزها عن الولد وبيانه من وجوه (الاول) أنه لو اتخذ ولدا لما رضي الا بأكمل الاولاد وهو الابن فكيف نسبتم اليه البنت (الثاني) أنه سبحانه واحد حقيقي والواحد الحقيقي يمتنع أن يكون له ولد أما أنه واحد حقيقي فلانه لو كان مركبا لاحتاج الى كل واحد من أجزائه وجزؤه غيره فكان يحتاج الى غيره والمحتاج الى الغير ممكن لذاته والممكن لذاته لا يكون واجب الوجود لذاته وأما أن الواحد لا يكون له ولد فلوجوه (الاول) أن الولد عبارة عن جزء من أجزاء الشئ ينفصل عنه ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الوالد وهذا انما يعقل في الشئ الذي ينفصل منه جزء والفرد المطلق لا يقال ذلك فيه (الثاني) شرط الولد أن يكون مماثلا في تمام الماهية للوالد فتكون حقيقة ذلك الشئ حقيقة نوعية محمولة على شخصين وذلك محال لان تعيين كل واحد منهما ان كان من لوازم تلك الماهية لزم أن لا يحصل من تلك الماهية الا الشخص الواحد وان لم يكن ذلك التعيين من لوازم تلك الماهية كان ذلك التعيين معلولا بسبب منفصل فلا يكون الها واجب الوجود لذاته فثبت أن كونه الها واجب الوجود لذاته يوجب كونه واحدا في حقيقته وكونه واحدا في حقيقته يمنع من ثبوت الولد له فثبت أن كونه واحدا يمنع من ثبوت الولد (الثالث) أن الولد لا يحصل الا من الزوج والزوجة والزوجان لابد وأن يكونا من جنس واحد فلو كان له ولد لما كان واحدا بل كانت زوجته من جنسه وأما أن كونه قهارا يمنع من ثبوت الولد له فلان المحتاج الى الولد هو الذي يموت فيحتاج الى ولد يقوم مقامه فالمحتاج الى الولد هو الذي يكون مقهورا بالموت أما الذي يكون قاهرا ولا يقهره غيره كان الولد في حقه محالا فثبت ان قوله هو الله الواحد القهار ألفاظ مشتملة على دلائل قاطعة في نفي الولد عن الله تعالى ❁ قوله تعالى (خلق السموات والارض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى ألا هو العزيز الغفار خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فأنى تصرفون ان تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون انه عليم بذات الصدور) اعلم ان الآيات المتقدمة دلت على انه تعالى بين كونه منزها

خبرا اخر اى من يكم فيما ذكر من الاطوار وفيما بعدها وما لكم المستحق لتخصيص العبادة به (له الملك) على الاطلاق في الدنيا والآخرة ليس لغيره شركة في ذلك بوجه من الوجوه والجملة خبر آخر وكذا قوله تعالى (لا اله الا هو) والفاء في قوله تعالى (فانى تصرفون) لترتيب ما بعدها على ما ذكر من شؤنه تعالى أى فكيف تصرفون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها ودواعيها وانتفاء الصارف عنها بالكلية الى عبادة غيره من غير داع اليها مع كثرة الصوارف عنها (ان تكفروا) به تعالى بعد مشاهدة ماذكر من فنون نعمائه ومعرفة شؤنه العظيمة الموجبة للايمان والشكر (فان الله غنى عنكم) أى فاعلموا انه تعالى غنى عن ايمانكم وشكركم غير متأثر من انتفائهما (ولا يرضى لعباده الكفر) أى عدم رضاه بكفر عباده لاجل منفعتهم ودفع مضرتهم رحمة عليهم لا لتضرره تعالى به (وان تشكروا يرضه لكم) أى يرض الشكر لاجلكم ومنفعتكم لانه سبب لفوزكم بسعادة الدارين لا لانتفاعه تعالى به وانما قيل لعباده لا لكم لتعميم الحكم وتعليله بكونهم عباده تعالى وقرئ باسكان الهاء (ولا تزر وازرة وزر أخرى) بيان لعدم سراية كفر الكافر الى غيره أصلا أى لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى (ثم الى ربكم مرجعكم) بالبعث بعد الموت (فينبئكم) عند ذلك (بما كنتم تعملون) أى كنتم تعملونه في الدنيا من أعمال الكفر والايمان أى يجازيكم بذلك ثوابا وعقابا (انه عليم بذات الصدور) أى بمضمرات القلوب فكيف بالاعمال الظاهرة وهو تعليل للتنبئة

عن الولد بكونه الها واحدا وقهارا غالبا أى كامل القدرة فلما بنى تلك المسئلة على هذه الاصول ذكر عقيبها ما يدل على كمال القدرة وعلى كمال الاستغناء وأيضا فانه تعالى طعن في الهية الاصنام فذكر عقيبها الصفات التى باعتبارها تحصل الالهية واعلم انا بينا في مواضع من هذا الكتاب ان الدلائل التى ذكرها الله تعالى في اثبات الالهية اما أن تكون فلكية أو عنصرية أما الفلكية فاقسام (أحدها) خلق السموات والارض وهذا المعنى يدل على وجود الاله القادر من وجوه كثيرة شرحناها في تفسير قوله تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض (والثانى) اختلاف أحوال الليل والنهار وهو المراد ههنا من قوله يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وذلك لان النور والظلمة عسكران مهيبان عظيمان وفي كل يوم يغلب هذا ذاك تارة وذاك هذا أخرى وذلك يدل على ان كل واحد منهما مغلوب مقهور ولا بد من غالب قاهر لهما يكونان تحت تدبيره وقهره وهو الله سبحانه وتعالى والمراد من هذا التكوير انه يزيد في كل واحد منهما بقدر ما ينقص عن الآخر والمراد من تكوير الليل والنهار ما ورد في الحديث نعوذ بالله من الحور بعد الكور أى من الادبار بعد الاقبال واعلم انه سبحانه وتعالى عبر عن هذا المعنى بقوله يكور الليل على النهار وبقوله يغشى الليل والنهار وبقوله يولج الليل في النهار وبقوله وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر (والثالث) اعتبار أحوال الكواكب لا سيما الشمس والقمر فان الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل وأكثر مصالح هذا العالم مربوطة بهما وقوله كل يجرى لاجل مسمى الاجل المسمى يوم القيامة لا يزالان يجريان الى هذا اليوم فاذا كان يوم القيامة ذهبا ونظيره قوله تعالى وجمع الشمس والقمر والمراد من هذا التسخير ان هذه الافلاك تدور كدور المنجنون على حد واحد الى يوم القيامة وعنده تطوى السماء كطى السجل للكتاب ولما ذكر الله هذه الانواع الثلاثة من الدلائل الفلكية قال ألا هو العزيز الغفار والمعنى ان خلق هذه الاجرام العظيمة وان دل على كونه عزيزا أى كامل القدرة الا انه غفار عظيم الرحمة والفضل والاحسان فانه لما كان الاخبار عن كونه عظيم القدرة يوجب الخوف والرهبة فكونه غفارا يوجب كثرة الرحمة وكثرة الرحمة توجب الرجاء والرغبة ثم انه تعالى أتبع ذكر الدلائل الفلكية بذكر الدلائل المأخوذة من هذا العالم الاسفل فبدأ بذكر الانسان فقال خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ودلالة تكون الانسان على الاله المختار قد سبق بيانها مرارا كثيرة فان قيل كيف جاز أن يقول خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها والزوج مخلوق قبل خلقهم أجابوا عنه من وجوه (الاول) ان كلمة ثم كما تجئ لبيان كون احدى الواقعتين متأخرة عن الثانية فكذلك تجئ لبيان تأخر أحد الكلامين عن الآخر كقول القائل بلغنى ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب ويقول أيضا قد أعطيتك اليوم شيئا ثم الذى أعطيتك أمس أكثر (الثانى) ان يكون التقدير خلقكم من نفس خلقت وحدها ثم جعل منها زوجها

(واذا مس الانسان ضر) من مرض وغيره (دعا ربه منيبا اليه) راجعا اليه مما كان يدعو في حالة الرخاء لعلمه بأنه بمعزل من القدرة على كشف ضره وهذا وصف للجنس بحال بعض أفراده كقوله تعالى ان الانسان لظلوم كفار (ثم اذا خوله نعمة منه) أي اعطاه نعمة عظيمة من جنابه تعالى من التخول وهو التعهد أي جعله خائل مال من قولهم فلان خائل مال اذا كان متعهدا له حسن القيام به أو من الخول وهو الافتخار أي جعله يخول أي يختال ويفتخر (نسي ما كان يدعو اليه) أي نسي الضر الذي كان يدعو الله تعالى فيما سبق الى كشفه (من قبل) أي من قبل التخويل أو نسي ربه الذي كان يدعوه ويتضرع اليه اما بناء على أن ما بمعنى من كما في قوله تعالى وما خلق الذكر والانثى وقوله تعالى ولا أنتم عابدون ما أعبد واما ايذانا بأن نسيانه بلغ الى حيث لا يعرف مدعوه ما هو فضلا عن أن يعرفه من هو كما مر في قوله تعالى عما أرضعت (وجعل لله أندادا) شركاء في العبادة (ليضل الناس بذلك (عن سبيله) الذي هو التوحيد وقرئ ليضل بفتح الياء أي يزداد ضلالا أو يثبت عليه والا فاصل الضلال غير متأخر عن الجعل المذكور واللام لام العاقبة كما في قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا

زوجها (الثالث) أخرج الله تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق بعد ذلك حواء واعلم انه تعالى لما ذكر الاستدلال بخلقة الانسان على وجود الصانع ذكر عقيبه الاستدلال بوجود الحيوان عليه فقال وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج وهي الابل والبقر والضأن والمعز وقد بينا كيفية دلالة هذه الحيوانات على وجود الصانع في قوله والانعام خلقها لكم فيها دفء وفي تفسير قوله تعالى وأنزل لكم وجوه (الاول) ان قضاء الله وتقديره وحكمه موصوف بالنزول من السماء لاجل انه كتب في اللوح المحفوظ كل كائن يكون (الثاني) ان شيئا من الحيوان لا يعيش الا بالنبات والنبات لا يقوم الا بالماء والتراب والماء ينزل من السماء فصار التقدير كأنه أنزلها (الثالث) انه تعالى خلقها في الجنة ثم أنزلها الى الارض وقوله ثمانية أزواج أي ذكر وأنثى من الابل والبقر والضأن والمعز والزوج اسم لكل واحد معه آخر فاذا انفرد فهو فرد منه قال تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ثم قال تعالى يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق وفيه ابحاث (الاول) قرأ حمزة بكسر الالف والميم والكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم والباقون أمهاتكم بضم الالف وفتح الميم (الثاني) انه تعالى لما ذكر تخليق الناس من شخص واحد وهو آدم عليه السلام أردفه بتخليق الانعام وانما خصها بالذكر لانها أشرف الحيوانات بعد الانسان ثم ذكر عقيب ذكرهما حالة مشتركة بين الانسان وبين الانعام وهي كونها مخلوقة في بطون أمهاتهم وقوله خلقا من بعد خلق المراد منه ما ذكره الله تعالى في قوله ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين وقوله في ظلمات ثلاث قيل الظلمات الثلاث البطن والرحم والمشيمة وقيل الصلب والرحم والبطن ووجه الاستدلال بهذه الحالات قد ذكرناه في قوله هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء واعلم انه تعالى لما شرح هذه الدلائل ووصفها قال ذلكم الله ربكم أي ذلكم الشئ الذي عرفتم عجائب أفعاله هو الله ربكم وفي هذه الآية دلالة على كونه سبحانه وتعالى منزها عن الاجزاء والاعضاء وعلى كونه منزها عن الجسمية والمكانية وذلك أنه تعالى عندما أراد أن يعرف عباده ذاته المخصوصة لم يذكر الا كونه فاعلا لهذه الاشياء ولو كان جسما مركبا من الاعضاء لكان تعريفه بتلك الاجزاء والاعضاء تعريفا للشئ بأجزاء حقيقته وأما تعريفه بأحواله وافعاله وآثاره فذلك تعريف له بأمور خارجة عن ذاته والتعريف الاول أكمل من الثاني ولو كان ذلك القسم ممكنا لكان الاكتفاء بهذا القسم الثاني تقصيرا ونقصانا وذلك غير جائز فعلمنا ان الاكتفاء بهذا القسم انما حسن لان القسم الاول محال ممتنع الوجود وذلك يدل على كونه سبحانه وتعالى متعاليا عن الجسمية والاعضاء والاجزاء ثم قال تعالى له الملك وهذا يفيد الحصر أي له الملك لا لغيره ولما ثبت انه لا ملك الا له وجب القول بانه لا اله الا هو لانه لو ثبت اله آخر فذلك الاله اما أن يكون له الملك أو لا يكون

خلا أن هذا أقرب الى الحقيقة لان الجاعل ههنا قاصد بجعله المذكور حقيقة الاضلال والضلال وان لم يعرف لجهله
أنهما اضلال وضلال وأما آل فرعون فهم غير قاصدين بالتقاطهم العداوة أصلا (قل) تهديدا لذلك
الضال والمضل وبيانا
لحاله ومآله (تمتع بكفرك
قليلا) أي تمتعا قليلا
أو زمانا قليلا (انك من
أصحاب النار) أي من
ملازميها والمعذبين فيها
على الدوام وهو تعليل
لقلة التمتع وفيه من الاقناط
من النجاة ما لا يخفى
كأنه قيل اذ قد أبيت
قبول ما أمرت به من
الايمان والطاعة فمن
حقك أن تؤمر بتركه
لتذوق عقوبته (أمن
هو قانت آناء الليل) الخ
من تمام الكلام المأمور به
وأم اما متصلة قد حذف
معادلها ثقة بدلالة مساق
الكلام عليه كأنه قيل له
تأكيدا للتهديد وتهكما به
أأنت أحسن حالا ومآلا
أم من هو قائم بمواجب
الطاعات ودائم على
أداء وظائف العبادات
في ساعات الليل حالتي
السراء والضراء لا عند
مساس الضر فقط
كدأبك حال كونه
(ساجدا وقائما) أي
جامعا بين الوصفين
المحمودين وتقديم
السجود على القيام
لكونه أدخل في معنى العبادة وقرئ كلاهما بالرفع على أنه خبر بعد خبر (يحذر الآخرة) حال أخرى ﴿ سلطان ﴾
على الترادف أو التداخل أو استئناف وقع جوابا عما نشأ

له الملك فان كان له الملك فحينئذ يكون كل واحد منهما مالكا قادرا ويجري بينهما التمانع
كما ثبت في قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وذلك محال وان لم يكن للثاني شيء من
القدرة والملك فيكون ناقصا ولا يصلح للالهية فثبت أنه لما دل الدليل على انه لا ملك الا لله
وجب أن يقال لا اله للعالمين ولا معبود للخلق أجمعين الا الله الاحد الحق الصمد ثم اعلم انه
سبحانه لما بين بهذه الدلائل كمال قدرة الله سبحانه وحكمته ورحمته رتب عليه تزييف
طريقة المشركين والضالين من وجوه (الاول) قوله فأنى تصرفون يحتج به أصحابنا ويحتج به
المعتزلة أما أصحابنا فوجه الاستدلال لهم بهذه الآية انها صريحة في انهم لم ينصرفوا
بأنفسهم عن هذه البيانات بل صرفهم عنها غيرهم وما ذاك الغير الا الله وأيضا فدليل العقل
يقوي ذلك لان كل واحد يريد لنفسه تحصيل الحق والصواب فلما لم يحصل ذلك وانما حصل
الجهل والضلال علمنا انه من غيره لا منه وأما المعتزلة فوجه الاستدلال لهم ان قوله فأنى
تصرفون تعجب من هذا الانصراف ولو كان الفاعل لذلك الصرف هو الله تعالى لم يبق لهذا
التعجب معنى ثم قال تعالى ان تكفروا فان الله غني عنكم والمعنى أن الله تعالى ما كلف
المكلفين ليجر الى نفسه منفعة أو ليدفع عن نفسه مضرة وذلك لانه تعالى غني على الاطلاق
ويمتنع في حقه جر المنفعة ودفع المضرة وانما قلنا انه غني لوجوه (والاول) انه واجب الوجود
لذاته وواجب الوجود في جميع صفاته ومن كان كذلك كان غنيا على الاطلاق (الثاني)
انه لو كان محتاجا لكانت تلك الحاجة اما قديمة واما حادثة (الاول) باطل والا لزم أن يخلق
في الازل ما كان محتاجا اليه وذلك محال لان الخلق والازلي متناقض (والثاني) باطل لان
الحاجة نقصان والحكيم لا يدعوه الداعي الى تحصيل النقصان لنفسه (الثالث) هب انه
يبقى الشك في انه هل تصح الشهوة والنفرة والحاجة عليه أم لا اما من المعلوم بالضرورة
ان الاله القادر على خلق السموات والارض والشمس والقمر والنجوم والعرش والكرسي
والعناصر الاربعة والمواليد الثلاثة يمتنع أن ينتفع بصلاة زيد وصيام عمرو وان يستضر
بعدم صلاة هذا وعدم صيام ذاك فثبت بما ذكرنا ان جميع العالمين لو كفروا وأصروا على
الجهل فان الله غني عنهم ثم قال تعالى بعده ولا يرضى لعباده الكفر يعني انه وان كان لا ينفعه
ايمان ولا يضره كفران الا أنه لا يرضى بالكفر واحتج الجبائي بهذه الآية من وجهين
(الاول) ان المجبرة يقولون ان الله تعالى خلق كفر العباد وانه من جهة ما خلقه حق وصواب
قال ولو كان الامر كذلك لكان قد رضي الكفر من الوجه الذي خلقه وذلك ضد الآية
(الثاني) لو كان الكفر بقضاء الله تعالى لوجب علينا ان نرضى به لان الرضا بقضاء الله
تعالى واجب وحيث اجتمعت الامة على ان الرضا بالكفر كفر ثبت انه ليس بقضاء الله
وليس أيضا برضا الله تعالى وأجاب الاصحاب عن هذا الاستدلال من وجوه (الاول)
أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين قال الله تعالى وعباد الرحمن الذين
يمشون على الارض هونا وقال عينا يشرب بها عباد الله وقال ان عبادي ليس لك عليهم

سلطان فعلى هذا التقدير قوله ولا يرضى لعباده الكفر أى ولا يرضى للمؤمنين الكفر وذلك لايضرنا (الثانى) انانقول الكفر بارادة الله تعالى ولانقول انه برضا الله لان الرضا عبارة عن المدح عليه والثناء بفعله قال الله تعالى لقد رضى الله عن المؤمنين أى يمدحهم ويثنى عليهم (الثالث) كان الشيخ الوالد ضياء الدين عمر رحمه الله يقول الرضا عبارة عن ترك اللوم والاعتراض وليس عبارة عن الارادة والدليل عليه قول ابن دريد

رضيت قسرا وعلى القسر رضا ❊ من كان ذا سخط على صرف القضا

أثبت الرضا مع القسر وذلك يدل على ماقلناه (والرابع) هب ان الرضا هو الارادة الا ان قوله ولا يرضى لعباده الكفر عام فنخصصه بالآيات الدالة على انه تعالى يريد الكفر من الكافر كقوله تعالى وماتشاؤن الا أن يشاء الله والله أعلم ثم قال تعالى وان تشكروا يرضه لكم والمراد انه لما بين انه لا يرضى الكفر بين أنه يرضى الشكر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلف القراء فى هاء يرضه على ثلاثة أوجه (أحدها) قرأ نافع وابو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة بضم الهاء مختلسة غير مشبعة (وثانيها) قرأ أبو عمرو وحمزة فى بعض الروايات يرضه ساكنة الهاء للتخفيف (وثالثها) قرأ نافع فى بعض الروايات وابن كثير وابن عامر والكسائى مضمومة الهاء مشبعة قال الواحدى رحمه الله من القراء من أشبع الهاء حتى ألحق بها واوا لان ماقبل الهاء متحرك فصار بمنزلة ضربه وله فكما ان هذا مشبع عند الجميع كذلك يرضه ومنهم من حرك الهاء ولم يلحق الواو لان الاصل يرضاه والالف المحذوفة للجزم ليس يلزم حذفها فكانت كالباقية ومع بقاء الالف لايجوز اثبات الواو فكذا ههنا (المسئلة الثانية) الشكر حالة مركبة من قول واعتقاد وعمل (أما القول) فهو الاقرار بحصول النعمة (وأما الاعتقاد) فهو اعتقاد صدور النعمة من ذلك المنعم ثم قال تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى قال الجبائى هذا يدل على انه تعالى لايعذب أحدا على فعل غيره فلو فعل الله كفرهم لما جاز أن يعذبهم عليه وأيضا لايجوز أن يعذب الاولاد بذنوب الآباء بخلاف مايقول القوم واحتج أيضا من أنكر وجوب ضرب الدية على العاقلة بهذه الآية ثم قال تعالى ثم الى ربكم مرجعكم واعلم انا ذكرنا كثيرا ان أهم المطالب للانسان أن يعرف خالقه بقدر الامكان وان يعرف مايضره وماينفعه فى هذه الحياة الدنيوية وان يعرف أحواله بعد الموت ففى هذه الآية ذكر الدلائل الكثيرة من العالم الاعلى والعالم الاسفل على كمال قدرة الصانع وعلمه وحكمته ثم أتبعه بان أمره بالشكر ونهاه عن الكفر ثم بين احواله بعد الموت بقوله ثم الى ربكم مرجعكم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المشبهة تمسكوا بلفظ الى على ان اله العالم فى جهة وقد أجبنا عنه مرارا (المسئلة الثانية) زعم القوم ان هذه الارواح كانت موجودة قبل الاجساد وتمسكوا بلفظ الرجوع الموجود فى هذه الآية وفى سائر الآيات (المسئلة الثالثة) دلت هذه الآية على اثبات البعث والقيامة ثم قال فينبئكم بما كنتم تعملون وهذا تهديد للعاصى وبشارة

الكمال مع الاضافة الى ضمير الراجى لأنه يحذر ضر الدنيا ويرجو خيرها فقط واما منقطعة وما فيها من الاضراب للانتقال من التهديد الى التبكيت بتكليف الجواب الملجئ الى الاعتراف بما بينهما من التباين البين كأنه قيل بل أمن هو قانت الخ أفضل أم من هو كافر مثلك كما هو المعنى على قراءة التخفيف (قل) بيانا للحق وتنبيها على شرف العلم والعمل (هل يستوى الذين يعلمون) حقائق الاحوال فيعملون بموجب علمهم كالقانت المذكور (والذين لايعلمون) أى ماذكر أو شيأ فيعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم كدأبك والاستفهام للتنبيه على ان كون الاولين فى اعلى معارج الخير وكون الآخرين فى أقصى مدارج الشر من الظهور بحيث لايكاد يخفى على أحد من منصف ومكابر وقيل هو وارد على سبيل التشبيه أى كما لايستوى العالمون والجاهلون لايستوى القانتون والعاصون وقوله تعالى (انما يتذكر أولوا الالباب) كلام مستقل غير داخل

للمطيع وقوله تعالى انه عليم بذات الصدور كالعلة لما سبق يعني انه انما يمكنه أن ينبئكم بأعمالكم لانه عالم بجميع المعلومات فيعلم ما في قلوبكم من الدواعي والصوارف وقال صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى أقوالكم ولكن ينظر الى قلوبكم واعمالكم ✵ قوله تعالى (واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو اليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب النار أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الاخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الالباب) واعلم ان الله تعالى لما بين فساد القول بالشرك وبين أن الله تعالى هو الذي يجب أن يعبد بين في هذه الآية ان طريقة هؤلاء الكفار الذين يعبدون الاصنام متناقضة وذلك لانهم اذا مسهم نوع من أنواع الضر لم يرجعوا في طلب دفعه الا الى الله واذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا الى عبادة الاصنام ومعلوم أنهم انما رجعوا الى الله تعالى عند حصول الضر لانه هو القادر على ايصال الخير ودفع الضر واذا عرفوا ان الامر كذلك في بعض الاحوال كان الواجب عليهم أن يعترفوا به في كل الاحوال فثبت ان طريقتهم في هذا الباب متناقضة اما قوله تعالى واذا مس الانسان فقيل المراد بالانسان أقوام معينون مثل عتبة بن ربيعة وغيره وقيل المراد به الكافر الذي تقدم ذكره لان الكلام يخرج على معهود تقدم وأما قوله ضر فيدخل فيه جميع المكاره سواء كان في جسمه أو في ماله أو أهله أو ولده لان اللفظ مطلق فلا معنى للتقييد ودعا ربه أي استجار بربه وناداه ولم يؤمل في كشف الضر سواه فلذلك قال منيبا اليه أي راجعا اليه وحده في ازالة ذلك الضر لان الانابة هي الرجوع ثم اذا خوله نعمة منه اي أعطاه قال صاحب الكشاف وفي حقيقته وجهان (أحدهما) جعله خائل مال من قولهم هو خائل مال وخال مال اذا كان متعهدا له حسن القيام به ومنه ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يتخول أصحابه بالموعظة (والثاني) جعله يخول من خال يخول اذا اختال وافتخر وفي المعنى قالت العرب ✵ ان الغني طويل الذيل مياس ✵ ثم قال تعالى نسي ما كان يدعو اليه من قبل أي نسي ربه الذي كان يتضرع اليه ويبتهل اليه وما بمعنى من كقوله تعالى وما خلق الذكر والانثى وقوله تعالى ولا أنتم عابدون ما أعبد وقوله تعالى فانكحوا ما طاب لكم من النساء وقيل نسي الضر الذي كان يدعو الله الى كشفه والمراد من قوله نسي أي ترك دعاءه كأنه لم يفزع الى ربه ولو اراد به النسيان الحقيقي لما ذمه عليه ويحتمل أن يكون المراد انه نسي أن لا يفزع وأن لا اله سواه فعاد الى اتخاذ الشركاء مع الله ثم قال تعالى وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضل بفتح الياء والباقون ليضل بضم الياء على معنى ليضل غيره (المسئلة الثانية) المراد انه تعالى يعجب العقلاء من مناقضتهم عند هاتين الحالتين فعند الضر يعتقدون أنه لا مفزع الى ما سواه وعند النعمة يعودون الى اتخاذ آلهة معه

في الكلام المأمور به وارد من جهته تعالى بعد الامر بما ذكر من القوارع الزاجرة عن الكفر والمعاصي لبيان عدم تأثيرها في قلوب الكفرة لاختلال عقولهم كما في قول من قال ✵ عوجوا فحيوا لنعمى دمنة الدار ✵ ماذا تحيون من نؤي واحجار أي انما يتعظ بهذه البيانات الواضحة أصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وهؤلاء بمعزل من ذلك وقرئ انما يذكر بالادغام (قل ياعبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتذكير المؤمنين وحملهم على التقوى والطاعة اثر تخصيص التذكر بأولي الالباب ايذانا بأنهم هم كما سيصرح به أي قل لهم قولي هذا بعينه وفيه تشريف لهم باضافتهم الى ضمير الجلالة ومزيد اعتناء بشأن المأمور به فان نقل عين أمر الله أدخل في ايجاب الامتثال به وقوله تعالى (للذين أحسنوا) تعليل للامر أو لوجوب الامتثال به وايراد الاحسان في حيز الصلة دون التقوى للايذان بأنه من باب الاحسان وأنهما متلازمان وكذا الصبر كما مر في قوله تعالى ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفي قوله تعالى انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين وقوله تعالى (في هذه الدنيا) ﴿ ومعلوم ﴾ متعلق بأحسنوا أي عملوا الاعمال الحسنة في هذه الدنيا على

ومعلوم أنه تعالى اذا كان انما يفزع اليه فى حال الضر لاجل انه هو القادر على الخير والشر وهذا المعنى باق فى حال الراحة والفراغ كان فى تقرير حالهم فى هذين الوقتين ما يوجب المناقضة وقلة العقل (المسئلة الثالثة) معنى قوله ليضل عن سبيله انه لا يقتصر فى ذلك على أن يضل نفسه بل يدعو غيره الى أن يشاركه فى ذلك فيزداد اثما على اثمه واللام فى قوله ليضل لام العاقبة كقوله فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ذكر الله تعالى عنهم هذا الفعل المتناقض هددهم فقال قل تمتع بكفرك قليلا وليس المراد منه الامر بل الزجر وأن يعرفه قلة تمتعه فى الدنيا ثم يكون مصيره الى النار ولما شرح الله تعالى صفات المشركين والضالين ثم تمسكهم بغير الله تعالى أردفه بشرح احوال المحقين الذين لا رجوع لهم الا الى الله ولا اعتماد لهم الا على فضل الله فقال أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن كثير وحمزة أمن مخففة الميم والباقون بالتشديد أما التخفيف ففيه وجهان (الاول) أن الالف الف الاستفهام داخلة على من والجواب محذوف على تقدير كمن ليس كذلك وقيل كالذى جعل لله أندادا فاكتفى بما سبق ذكره (والثانى) أن يكون ألف نداء كأنه قيل يا من هو قانت أنت من أهل الجنة وأما التشديد فقال الفراء الاصل أم من فادغمت الميم فى الميم وعلى هذا القول هى أم التى فى قولك أزيد أفضل أم عمرو (المسئلة الثانية) القانت القائم بما يجب عليه من الطاعة ومنه قوله صلى الله عليه وسلم أفضل الصلاة القنوت وهو القيام فيها ومنه القنوت فى الصبح لانه يدعو قائما عن ابن عمر رضى الله عنه انه قال لا أعلم القنوت الا قراءة القرآن وطول القيام وتلا أمن هو قانت وعن ابن عباس القنوت طاعة الله لقوله كل له قانتون أى مطيعون وعن قتادة آناء الليل ساعات الليل أوله ووسطه وآخره وفى هذه اللفظة تنبيه على فضل قيام الليل وانه أرجح من قيام النهار ويؤكده وجوه (الاول) ان عبادة الليل استر عن العيون فتكون ابعد عن الرياء (الثانى) ان الظلمة تمنع من الابصار ونوم الخلق يمنع من السماع فاذا صار القلب فارغا عن الاشتغال بالاحوال الخارجية عاد الى المطلوب الاصلى وهو معرفة الله وخدمته (الثالث) ان الليل وقت النوم فتركه يكون أشق فيكون الثواب أكثر (الرابع) قوله تعالى ان ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا وقوله ساجدا حال وقرئ ساجد وقائم على أنه خبر والواو للجمع بين الصفتين واعلم ان هذه الآية دالة على اسرار عجيبة فاولها انه بدأ فيها بذكر العمل وختم فيها بذكر العلم أما العمل فكونه قانتا ساجدا قائما وأما العلم فقوله هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون وهذا يدل على ان كمال الانسان محصور فى هذين المقصودين فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هو النهاية (الفائدة الثانية) انه تعالى نبه على ان الانتفاع بالعمل انما يحصل اذا كان الانسان مواظبا عليه فان القنوت عبارة عن كون الرجل قائما بما يجب عليه من الطاعات وذلك يدل على ان العمل انما يفيد اذا واظب عليه الانسان وقوله ساجدا وقائما

وجه الاخلاص وهو الذى عبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الاحسان بقوله عليه السلام ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (حسنة) ﴿ ٢٣٧ ﴾ أى حسنة عظيمة لا يكتنه كنهها وهى الجنة وقيل هو متعلق بحسنة على أنه بيان لمكانها أو حال من ضميرها فى الظرف فالمراد بها حينئذ الصحة والعافية (وأرض الله واسعة) فمن تعسر عليه التوفر على التقوى والاحسان فى وطنه فليهاجر الى حيث يتمكن فيه من ذلك كما هو سنة الانبياء والصالحين فانه لا عذر له فى التفريط أصلا وقوله تعالى (انما يوفى الصابرون) الخ ترغيب فى التقوى المأمور بها وايثار الصابرين على المتقين للايذان بأنهم حائزون لفضيلة الصبر كحيازتهم لفضيلة الاحسان لما أشير اليه من استلزام التقوى لهما مع ما فيه من زيادة حث على المصابرة والمجاهدة فى تحمل مشاق المهاجرة ومتاعبها أى انما يوفى الذين صبروا على دينهم وحافظوا على حدوده ولم يفرطوا فى مراعاة حقوقه لما اعتراهم فى ذلك من فنون الآلام والبلايا التى من جملتها مهاجرة الاهل ومفارقة الاوطان (أجرهم) بمقابلة ما كابدوا من الصبر (بغير حساب) أى بحيث لا يحصى ولا يحصر عن ابن عباس رضى الله عنهما لا يهتدى اليه حساب الحساب ولا يعرف

وفى الحديث انه تنصب الموازين يوم القيامة لاهل الصلاة والصدقة والحج فيؤتون بها أجورهم ولا تنصب لاهل البلاء بل يصب عليهم الاجر صبا حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن ﴿ ۲۳۸ ﴾ أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل (قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين) أى من كل ما ينافيه من الشرك والرياء وغير ذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان ما أمر به نفسه من الاخلاص فى عبادة الله الذى هو عبارة عما أمر به المؤمنون من التقوى مبالغة فى حثهم على الاتيان بما كلفوه وتمهيدا لما يعقبه مما خوطب به المشركون (وأمرت لان أكون أول المسلمين) أى وأمرت بذلك لاجل أن أكون مقدمهم فى الدنيا والآخرة لان احراز قصب السبق فى الدين بالاخلاص فيه والعطف لمغايرة الثانى الاول بتقيده بالعلة والاشعار بأن العبادة المذكورة كما تقتضى الامر بها لذاتها تقتضيه لما يلزمها من السبق فى الدين ويجوز أن تجعل اللام مزيدة كما فى أردت لان أقوم بدليل قوله تعالى وأمرت أن أكون أول من أسلم فالمعنى وأمرت أن أكون اول من أسلم من أهل زمانى أو من قومى او أكون أول من دعا غيره الى ما دعا اليه نفسه (قل انى ﴿ اعلم ﴾ أخاف ان عصيت ربى) بترك الاخلاص والميل الى ما أنتم عليه من الشرك

اشارة الى أصناف الاعمال وقوله يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه اشارة الى ان الانسان عند المواظبة ينكشف له فى الاول مقام القهر وهو قوله يحذر الآخرة ثم بعده مقام الرحمة وهو قوله ويرجو رحمة ربه ثم يحصل أنواع المكاشفات وهو المراد بقوله هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (الفائدة الثالثة) انه قال فى مقام الخوف يحذر الآخرة فما أضاف الحذر الى نفسه وفى مقام الرجاء أضافه الى نفسه وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل وأليق بحضرة الله تعالى (المسئلة الثالثة) قيل المراد من قوله أمن هو قانت آناء الليل عثمان لانه كان يحيى الليل فى ركعة واحدة ويقرأ القرآن فى ركعة واحدة والصحيح ان المراد منه كل من كان موصوفا بهذه الصفة فيدخل فيه عثمان وغيره لان الآية غير مقتصرة عليه (المسئلة الرابعة) لاشبهة فى أن فى الكلام حذفا والتقدير أمن هو قانت كغيره وانما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه لانه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر وذكر بعدها قل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون وتقدير الآية قل هل يستوى الذين يعلمون وهم الذين صفتهم انهم يقنتون آناء الليل سجدا وقياما والذين لا يعلمون وهم الذين وصفهم عند البلاء والخوف يوحدون وعند الراحة والفراغة يشركون فاذا قدرنا هذا التقدير ظهر المراد وانما وصف الله الكفار بأنهم لا يعلمون لانهم وان آتاهم الله آلة العلم الا أنهم أعرضوا عن تحصيل العلم فلهذا السبب جعلهم كأنهم ليسوا أولى الالباب من حيث انهم لم ينتفعوا بعقولهم وقلوبهم واما قوله تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون فهو تنبيه عظيم على فضيلة العلم وقد بالغنا فى تقرير هذا المعنى فى تفسير قوله تعالى وعلم آدم الاسماء كلها قال صاحب الكشاف أراد بالذين يعلمون الذين سبق ذكرهم وهم القانتون وبالذين لا يعلمون الذين لا يأتون بهذا العمل كأنه جعل القانتين هم العلماء وهو تنبيه على أن من لم يعمل فهو غير عالم ثم قال وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقنتون ويفتنون فيها ثم يفتنون بالدنيا فهم عند الله جهلة ثم قال تعالى انما يتذكر أولو الالباب يعنى هذا التفاوت العظيم الحاصل بين العلماء والجهال لا يعرفه أيضا الا أولو الالباب قيل لبعض العلماء انكم تقولون العلم أفضل من المال ثم نرى العلماء يجتمعون عند أبواب الملوك ولا نرى الملوك مجتمعين عند أبواب العلماء فأجاب العالم بأن هذا أيضا يدل على فضيلة العلم لان العلماء علموا ما فى المال من المنافع فطلبوه والجهال لم يعرفوا ما فى العلم من المنافع فلا جرم تركوه * قوله تعالى (قل يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لان أكون أول المسلمين قل انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم قل الله أعبد مخلصا له دينى فاعبدوا ما شئتم من دونه قل ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم واهليهم يوم القيامة الا ذلك هو الخسران المبين لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون)

(عذاب يوم عظيم) هو يوم القيامة وصف بالعظمة لعظمة ما فيه من الدواهي والاهوال (قل الله أعبد) لاغيره

لا استقلالا ولا اشتراكا (مخلصا له ديني) من كل شوب أمر عليه الصلاة والسلام أولا ببيان كونه

مأمورا بعبادة الله تعالى والاخلاص الدين له ثم بالاخبار بخوفه من العذاب على تقدير العصيان ثم بالاخبار بامتثاله بالامر على أبلغ وجه وآكده اظهارا لتصلبه فى الدين وحسما لاطماعهم الفارغة وتمهيدا لتهديدهم بقوله تعالى (فاعبدوا ماشئتم) أن تعبدوه (من دونه) تعالى وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم ما لا يخفى كأنهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه أمروا به كى يحل بهم العقاب (قل ان الخاسرين) أى الكاملين فى الخسران الذى هو عبارة عن اضاعة ما يهمه واتلاف مالابد منه (الذين خسروا أنفسهم وأهليهم) باختيارهم الكفر لهما أى أضاعوهما وأتلفوهما (يوم القيامة) حين يدخلون النار حيث عرضوهما للعذاب السرمدى وأوقعوهما

فى هلكة لاهلكة وراءها وقيل خسروا أهلهم لانهم ان كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم وان كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لااياب بعده وفيه أن المحذور ذهاب ما لو آب لانتفع به الخاسر وذلك غير متصور فى الشق الاخير وقيل خسروهم

اعلم انه تعالى لما بين نفى المساواة بين من يعلم و بين من لايعلم اتبعه بأن أمر رسوله بان يخاطب المؤمنين بأنواع من الكلام (النوع الاول) قوله قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم والمراد ان الله تعالى أمر المؤمنين بأن يضموا الى الايمان التقوى وهذا من أدل الدلائل على ان الايمان يبقى مع المعصية قال القاضى أمرهم بالتقوى لكيلا يحبطوا ايمانهم لان عند الاتقاء من الكبائر يسلم لهم الثواب و بالاقدام عليها يحبط فيقال له هذا بأن يدل على ضد قولك أولى لانه لما أمر المؤمنين بالتقوى دل ذلك على انه يبقى مؤمنا مع عدم التقوى وذلك يدل على أن الفسق لايزيل الايمان واعلم انه تعالى لما أمر المؤمنين بالاتقاء بين لهم ما فى هذا الاتقاء من الفوائد فقال تعالى للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة فقوله فى هذه الدنيا يحتمل أن يكون صلة لقوله أحسنوا أو لحسنة فعلى التقدير الاول معناه للذين أحسنوا فى هذه الدنيا فلهم حسنة فى الآخرة وهى دخول الجنة والتنكير فى قوله حسنة للتعظيم يعنى حسنة لايصل العقل الى كنه كمالها (وأما على التقدير الثانى) فمعناه الذين أحسنوا فلهم فى هذه الدنيا حسنة والقائلون بهذا القول قالوا هذه الحسنة هى الصحة والعافية وأقول الاولى ان تحمل على الثلاثة المذكورة فى قوله صلى الله عليه وسلم ثلاثة ليس لها نهاية الأمن والصحة والكفاية ومن الناس من قال القول الاول أولى و يدل عليه وجوه (الاول) ان التنكير فى قوله حسنة يدل على النهاية والجلالة والرفعة وذلك لايليق بأحوال الدنيا فانها خسيسة ومنقطعة وانما يليق بأحوال الآخرة فانها شريفة وآمنة من الانقضاء والانقراض (والثانى) ان ثواب المحسن بالتوحيد والاعمال الصالحة انما يحصل فى الآخرة قال تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت وأيضا فنعمة الدنيا من الصحة والأمن والكفاية حاصلة للكفار وأيضا فحصولها للكافر أكثر وأتم من حصولها للمؤمن كما قال صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقال تعالى لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون (الثالث) ان قوله للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة يفيد الحصر بمعنى انه يفيد أن حسنة هذه الدنيا لاتحصل الا للذين أحسنوا وهذا باطل اما لو حملنا هذه الحسنة على حسنة الآخرة صح هذا الحصر فكان حمله على حسنة الآخرة أولى ثم قال الله تعالى وأرض الله واسعة وفيه قولان (الاول) المراد انه لاعذر البتة للمقصرين فى الاحسان حتى انهم ان اعتلوا بأوطانهم و بلادهم وانهم لايتمكنون فيها من التوفر على الاحسان وصرف الهمم اليه قل لهم فان أرض الله واسعة و بلاده كثيرة فتحولوا من هذه البلاد الى بلاد تقدرون فيها على الاشتغال بالطاعات والعبادات واقتدوا بالانبياء والصالحين فى مهاجرتهم الى غير بلادهم ليزدادوا احسانا الى احسانهم وطاعة الى طاعتهم والمقصود منه الترغيب فى الهجرة من مكة الى المدينة والصبر على مفارقة الوطن ونظيره قوله تعالى قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة

لانهم لم يدخلوا مدخل الذين لهم أهل في الجنة وخسروا أهليهم الذين كانوا يتمتعون بهم لو آمنوا وأياما كان فليس المراد بمجرد تعريف الكاملين في الخسران بما ذكر بل بيان أنهم اما بجعل الموصول عبارة عنهم أو عماهم مندرجون فيه اندراجا أوليا وما في قوله تعالى (ألا ذلك هو الخسران المبين) من استئناف الجملة وتصديرها بحرف التنبيه والاشارة بذلك الى بعد منزلة المشار اليه في الشر وتوسيط ضمير الفصل وتعريف الخسران ووصفه بالمبين من الدلالة على كمال هوله وفظاعته وأنه لا خسران وراءه مالا يخفى وقوله تعالى (لهم من فوقهم ظلل من النار) الخ نوع بيان لخسرانهم بعد تهويله بطريق الابهام على أن لهم خبر لظلل ومن فوقهم متعلق بمحذوف قبل هو حال من ظلل والاظهر أنه حال من الضمير في الظرف المقدم ومن النار صفة لظلل أي لهم كائنة من فوقهم ظلل كثيرة متراكبة بعضها فوق بعض كائنة من النار (ومن تحتهم) أيضا (ظلل) أي أطباق كثيرة بعضها تحت بعض ظلل لآخرين بل لهم أيضا عند ترديهم في دركاتها (ذلك) العذاب الفظيع هو الذي ﴿ ما يبغي ﴾ (يخوف الله به عباده) ويحذرهم اياه بآيات الوعيد ليجتنبوا ما يوقعهم فيه (يا عباد فاتقون) ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي وهذه عظة من الله تعالى بالغة منطوية على غاية اللطف والرحمة

فتهاجروا فيها (والقول الثاني) قال أبو مسلم لا يمتنع أن يكون المراد من الارض أرض الجنة وذلك لانه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى وهي خشية الله ثم بين أن من أتى ذلك في الآخرة الحسنة وهي الخلود في الجنة ثم بين ان أرض الله أي جنته واسعة لقوله تعالى نتبوأ من الجنة حيث نشاء وقوله تعالى وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين (والقول الاول) عندي أولى لان قوله انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب لا يليق الا بالاول وفي هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) اما تحقيق الكلام في ماهية الصبر فقد ذكرناه في سورة البقرة والمراد ههنا بالصابرين الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرهم وعلى تجرع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله تعالى (المسئلة الثانية) تسمية المنافع وعد الله بها على الصبر بالاجر توهم ان العمل علة الثواب لان الاجر هو المستحق الا انه قامت الدلائل القاهرة على أن العمل ليس علة الثواب فوجب حمل لفظ الاجر على كونه أجرا بحسب الوعد لا بحسب الاستحقاق (المسئلة الثالثة) انه تعالى وصف ذلك الاجر بأنه بغير حساب وفيه وجوه (الاول) قال الجبائي المعنى انهم يعطون ما يستحقون ويزدادون تفضلا فهو بغير حساب ولو لم يعطوا الا المستحق لكان ذلك حسابا قال القاضي هذا ليس بصحيح لان الله تعالى وصف الاجر بأنه بغير حساب ولو لم يعطوا الا الاجر المستحق والاجر غير التفضل (الثاني) ان الثواب له صفات ثلاثة (أحدها) انها تكون دائمة الاجر لهم وقوله بغير حساب معناه بغير نهاية لان كل شئ دخل تحت الحساب فهو متناه فالا نهاية له كان خارجا عن الحساب (وثانيها) انها تكون منافع كاملة في أنفسها وعقل المطيع ما كان يصل الى كنه ذلك الثواب قال صلى الله عليه وسلم ان في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وكل ما يشاهدونه من أنواع الثواب وجدوه أزيد مما تصوروه وتوقعوه وما لا يتوقعه الانسان فقد يقال انه ليس في حسابه فقوله بغير حساب محمول على هذا المعنى (والوجه الثالث) في التأويل ان ثواب أهل البلاء لا يقدر بالميزان والمكيال روى صاحب الكشاف عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ينصب الله الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون بالموازين ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب عليهم الاجر صبا قال الله تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا ان أجسادهم تقرض بالمقاريض لما به أهل البلاء من الفضل (النوع الثاني) من البيانات التي أمر الله رسوله أن يذكرها قوله تعالى قل اني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين قال مقاتل ان كفار قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ما يحملك على هذا الدين الذي أتيتنا به الا تنظر الى ملة أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى فأنزل الله قل يا محمد اني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأقول ان التكليف نوعان (أحدهما) الامر بالاحتراز عما لا ينبغي (والثاني) الامر بتحصيل

ماينبغي والمرتبة الاولى مقدمة على المرتبة الثانية بحسب الرتبة الواجبة اللازمة اذا ثبت هذا فنقول انه تعالى قدم الامر بازالة مالا ينبغي فقال اتقوا ربكم لان التقوى هي الاحتراز عما لا ينبغي ثم ذكر عقيبه الامر بتحصيل ماينبغي فقال انى أمرت أن أعبدالله مخلصا له الدين وهذا يشتمل على قيدين (أحدهما) الامر بعبادة الله (والثاني) كون تلك العبادة خالصة عن شوائب الشرك الجلي وشوائب الشرك الخفي وانما خص الله تعالى الرسول بهذا الامر لينبه على أن غيره بذلك أحق فهو كالترغيب للغير وقوله تعالى وأمرت لان أكون أول المسلمين لاشبهة في أن المراد انى أول من تمسك بالعبادات التي أرسلت بها وفي هذه الآية فائدتان (الفائدة الاولى) كأنه يقول انى لست من الملوك الجبابرة الذين يأمرون الناس باشياء وهم لايفعلون ذلك بل كل ما أمرتكم به فانا أول الناس شروعا فيه وأكثرهم مداومة عليه (الفائدة الثانية) انه قال انى أمرت أن أعبدالله والعبادة لها ركنان عمل القلب وعمل الجوارح وعمل القلب أشرف من عمل الجوارح فقدم ذكر الجزء الاشرف وهو قوله مخلصا له الدين ثم ذكر عقيبه الادون وهو عمل الجوارح وهو الاسلام فان النبي صلى الله عليه وسلم فسر الاسلام في خبر جبريل عليه السلام بالاعمال الظاهرة وهو المراد بقوله في هذه الآية وأمرت لان أكون أول المسلمين وليس لقائل أن يقول ماالفائدة في تكرير لفظ أمرت لانا نقول ذكر لفظ أمرت أولا في عمل القلب وثانيا في عمل الجوارح ولايكون هذا تكريرا (الفائدة الثالثة) في قوله وأمرت لان أكون اول المسلمين التنبيه على كونه رسولا من عند الله واجب الطاعة لان أول المسلمين في شرائع الله لايمكن أن يكون الا رسول الله لان أول من يعرف تلك الشرائع والتكاليف هو الرسول المبلغ ولما بين الله تعالى أمره بالاخلاص بالقلب وبالاعمال المخصوصة وكان الامر يحتمل الوجوب ويحتمل الندب بين ان ذلك الامر للوجوب فقال قل انى أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم وفيه فوائد (الفائدة الاولى) ان الله أمر محمدا صلى الله عليه وسلم أن يجري هذا الكلام على نفسه والمقصود منه المبالغة في زجر الغير عن المعاصي لانه مع جلالة قدره وشرف نبوته اذا وجب أن يكون خائفا حذرا عن المعاصي فغيره بذلك أولى (الفائدة الثانية) دلت الآية على ان المرتب على المعصية ليس حصول العقاب بل الخوف من العقاب وهذا يطابق قولنا ان الله تعالى قد يعفو عن المذنب والكبيرة فيكون اللازم عند حصول المعصية هو الخوف من العقاب لانفس حصول العقاب (الفائدة الثالثة) دلت هذه الآية على ان ظاهر الامر للوجوب وذلك لانه قال في أول الآية انى أمرت أن أعبدالله ثم قال بعده قل انى أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم فيكون معنى هذا العصيان ترك الامر الذي تقدم ذكره وذلك يقتضي أن يكون تارك الامر عاصيا والعاصي يترتب عليه الخوف من العقاب ولامعنى للوجوب الاذلك (النوع الثالث) من الاشياء التي أمر الله رسوله أن

وقرئ ياعبادي (والذين اجتنبوا الطاغوت) أي البالغ أقصى غاية الطغيان فعلوت منه بتقديم اللام على العين بني للمبالغة في المصدر كالرحموت والعظموت ثم وصف به للمبالغة في النعت والمراد به هو الشيطان (أن يعبدوها) بدل الاشتمال منه فان عبادة غير الله تعالى عبادة للشيطان اذ هو الآمر بها والمزين لها (وأنابوا الى الله) وأقبلوا اليه معرضين عما سواه اقبالا كليا (لهم البشرى) بالثواب على ألسنة

يذكرها قوله قل الله أعبد مخلصاله ديني فان قيل مامعنى التكرير في قوله قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصاله الدين وقوله قل الله أعبد مخلصاله ديني قلنا هذا ليس بتكرير لان الاول اخبار بأنه مأمور من جهة الله بالاتيان بالعبادة والثانى اخبار بأنه أمر بأن لا يعبد أحدا غير الله وذلك لان قوله أمرت أن أعبد الله لا يفيد الحصر وقوله تعالى قل الله أعبد يفيد الحصر يعنى الله أعبد ولا أعبد أحدا سواه والدليل عليه انه لما قال بعده قل الله أعبد قال بعده فاعبدوا ماشئتم من دونه ولا شبهة في أن قوله فاعبدوا ماشئتم من دونه ليس أمرا بل المراد منه الزجر كأنه يقول لما بلغ البيان في وجوب رعاية التوحيد الى الغاية القصوى فبعد ذلك أنتم أعرف بأنفسكم ثم بين تعالى كمال الزجر بقوله قل ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم لوقوعها في هلاك لا يعقل هلاك أعظم منه وخسروا أهليهم أيضا لانهم ان كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم وان كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لا رجوع بعده البتة وقال ابن عباس ان لكل رجل منزلا وأهلا وخدما في الجنة فان أطاع أعطى ذلك وان كان من أهل النار حرم ذلك فخسر نفسه وأهله ومنزله وورثه غيره من المسلمين والخاسر المغبون ولما شرح الله خسرانهم وصف ذلك الخسران بغاية الفظاعة فقال ألا ذلك هو الخسران المبين كان التكرير لاجل التأكيد (الثاني) انه تعالى ذكر في أول هذه الكلمة حرف ألا وهو للتنبيه وذكر التنبيه في هذا الموضع يدل على التعظيم كأنه قيل انه بلغ في العظمة الى حيث لا تصل عقولكم اليها فتنبهوا لها (الثالث) ان كلمة هو في قوله هو الخسران المبين تفيد الحصر كأنه قيل كل خسران فانه يصير في مقابلته كلا خسران (الرابع) وصفه بكونه مبينا يدل على التهويل وأقول قد بينا ان لفظ الآية يدل على كونه خسرانا مبينا فلنبين بحسب المباحث العقلية كونه خسرانا مبينا وأقول نفتقر الى بيان أمرين الى بيان كونه خسرانا ثم الى بيان كونه مبينا (أما الاول) فتقريره انه تعالى أعطى هذه الحياة وأعطى العقل وأعطى المكنة وكل ذلك رأس المال اما هذه الحياة فالمقصود منها أن يكتسب فيها الحياة الطيبة في الآخرة وأما العقل فانه عبارة عن العلوم البديهية وهذه العلوم هى رأس المال والنظر والفكر لا معنى له الا ترتيب علوم ليتوصل بذلك الترتيب الى تحصيل علوم كسبية فتلك العلوم البديهية المسماة بالعقل رأس المال وتركيبها على الوجوه المخصوصة يشبه تصرف التاجر في رأس المال وتركيبها على الوجوه بالبيع والشراء وحصول العلم بالنتيجة يشبه حصول الربح وأيضا حصول القدرة على الاعمال يشبه رأس المال واستعمال تلك القوة في تحصيل الاعمال البر والخير يشبه تصرف التاجر في رأس المال وحصول أعمال الخير والبر يشبه الربح اذا ثبت هذا فنقول ان من أعطاه الله الحياة والعقل والتمكن ثم انه لم يستفد منها الا معرفة الحق ولا عمل الخير البتة كان محروما عن الربح بالكلية واذا مات فقد ضاع رأس المال

الرسل أو الملائكة عند حضور الموت وحين يحشرون وبعد ذلك (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) هم الموصوفون بالاجتناب والانابة بأعيانهم لكن وضع موضع ضميرهم الظاهر تشريفا لهم بالاضافة ودلالة على أن مدار اتصافهم بالوصفين الجليلين كونهم نقادا في الدين يميزون الحق من الباطل ويؤثرون الافضل فالافضل (أولئك) اشارة اليهم

بالكلية فكان ذلك خسرانا فهذا بيان كونه خسرانا (واما الثانى) وهو بيان كون ذلك الخسران مبينا فهو أن لم يربح الزيادة ولكنه مع ذلك سلم من الآفات والمضار فهذا كالم يحصل له من بدنفع لم يحصل له أيضا من بدضرر أما هؤلاء الكفار فقد استعملوا عقولهم التى هى رأس مالهم فى استخراج وجوه الشبهات وتقوية الجهالات والضلالات واستعملوا قواهم وقدرهم فى افعال الشر والباطل والفساد فهم قد جمعوا بين أمور فى غاية الرداءة (أولها) انهم اتعبوا أبدانهم وعقولهم طلبا فى تلك العقائد الباطلة والاعمال الفاسدة (وثانيها) انهم عند الموت يضيع عنهم رأس المال من غير فائدة (وثالثها) أن تلك المتاعب الشديدة التى كانت موجودة فى الدنيا فى نصرة تلك الضلالات تصير أسبابا للعقوبة الشديدة والبلاء العظيم بعد الموت وعند الوقوف على هذه المعانى يظهر انه لايعقل خسران أقوى من خسرانهم ولا حرمان أعظم من حرمانهم ونعوذ بالله منه ولما شرح الله تعالى أحوال حرمانهم عن الربح وبين كيفية خسرانهم بين انهم لم يقتصروا على الحرمان والخسران بل ضموا اليه استحقاق العذاب العظيم والعقاب الشديد فقال لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل والمراد احاطة النار بهم من جميع الجوانب ونظيره فى الاحوال النفسانية احاطة الجهل والحرمان والحرص وسائر الاخلاق الذميمة بالانسان فان قيل الظلل ما على الانسان فكيف سمى ما تحته بالظلل والجواب من وجوه (الاول) انه من باب اطلاق اسم أحد الضدين على الآخر كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها (الثانى) ان الذى يكون تحته يكون ظلة لانسان آخر تحته لان النار دركات كما أن الجنة درجات (والثالث) أن الظلة التحتانية اذا كانت مشابهة للظلة الفوقانية فى الحرارة والاحراق والايذاء أطلق اسم أحدهما على الآخر لاجل المماثلة والمشابهة قال الحسن هم بين طبقتين من النار لايدرون مافوقهم أكثر مما تحتهم ونظير هذه الآية قوله تعالى يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقوله تعالى لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ثم قال تعالى ذلك يخوف الله به عباده أى ذلك الذى تقدم ذكره من وصف العذاب فقوله ذلك مبتدأ وقوله يخوف الله به عباده خبر وفى قوله يخوف الله به عباده قولان (الاول) التقدير ذلك العذاب المعد للكفار هو الذى يخوف الله به عباده أى المؤمنين لانا بينا أن لفظ العباد فى القرآن مختص بأهل الايمان وانما كان تخويفا للمؤمنين لاجل انهم اذا سمعوا ان حال الكفار ماتقدم خافوا فأخلصوا فى التوحيد والطاعة (الوجه الثانى) ان هذا الكلام فى تقدير جواب عن سؤال لانه يقال انه تعالى غنى عن العالمين منزه عن الشهوة والانتقام وداعية الايذاء فكيف يليق به أن يعذب هؤلاء المساكين الى هذا الحد العظيم وأجيب عنه بأن المقصود منه تخويف الكفار والضلال عن الكفر والضلال فاذا كان التكاليف لايتم الا بالتخويف والتخويف لايكمل الانتفاع به الا بادخال ذلك الشئ فى الوجود وجب ادخال

باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجليلة ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل ومحله الرفع على الابتداء خبره ما بعده من الموصول أى أولئك المنعوتون بالمحاسن الجليلة (الذين هداهم الله) للدين الحق (وأولئك هم أولو الالباب) أى هم أصحاب العقول السليمة عن معارضة الوهم ومنازعة الهوى المستحقون للهداية

ذلك النوع من العذاب في الوجود تحصيلا لذلك المطلوب الذي هو التكليف (والوجه الاول) عندي أقرب والدليل عليه انه قال بعده ياعباد فاتقون وقوله ياعباد الاظهر منه ان المراد منه المؤمنون فكأنه قيل المقصود من شرح عذاب الكفار للمؤمنين تخويف المؤمنين فيا أيها المؤمنون بالغوا في الخوف والحذر والتقوى * قوله تعالى (والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها وأنابوا الى الله لهم البشرى فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الانهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد) اعلم أن الله تعالى لما ذكر وعيد عبدة الاصنام والاوثان ذكر وعد من اجتنب عبادتها واحترز عن الشرك ليكون الوعد مقرونا بالوعيد أبدا فيحصل كمال الترغيب والترهيب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الطاغوت فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت الا أن فيها قلبا بتقديم اللام على العين وفي هذا اللفظ أنواع من المبالغة (احدها) التسمية بالمصدر كأن عين ذلك الشئ الطغيان (وثانيها) ان البناء بناء المبالغة فان الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك المبسوط (وثالثها) ماذكرنا من تقديم اللام على العين ومثل هذا انما يصار اليه عند المبالغة (المسئلة الثانية) اختلفوا في أن المراد من الطاغوت ههنا الشيطان أم الاوثان فقيل انه الشيطان فان قيل انهم ماعبدوا الشيطان وانما عبدوا الصنم قلنا الداعى الى عبادة الصنم لما كان هو الشيطان كان الاقدام على عبادة الصنم عبادة للشيطان وقيل المراد بالطاغوت الصنم وسميت طواغيت على سبيل المجاز لانه لافعل لها والطغاة هم الذين يعبدونها الا انه لما حصل الطغيان عند مشاهدتها والقرب منها وصفت بهذه الصفة اطلاقا لاسم المسبب على السبب بحسب الظاهر وقيل كل مايعبد ويطاع من دون الله فهو طاغوت ويقال في التواريخ ان الاصل في عبادة الاصنام ان القوم كانوا مشبهة اعتقدوا في الاله انه نور عظيم وفي الملائكة انها أنوار مختلفة في الصغر والكبر فوضعوا تماثيل وصورا على وفق تلك الخيالات فكانوا يعبدون تلك التماثيل على اعتقاد انهم يعبدون الله والملائكة وأقول حاصل الكلام في قوله والذين اجتنبوا الطاغوت أى أعرضوا عن عبودية كل ماسوى الله قوله تعالى وأنابوا الى الله أى رجعوا بالكلية الى الله ورأيت في السفر الخامس من التوراة ان الله تعالى قال لموسى ياموسى أجب الهك بكل قلبك وأقول مادام يبقى في القلب التفات الى غير الله فهو ما أجاب الهه بكل قلبه وانما تحصل الاجابة بكل القلب اذا أعرض القلب عن كل ماسوى الله من باب الطاعات فكيف يعرض عنها مع انه بالحس يشاهد الاسباب المفضية الى المسببات في هذا العالم قلنا ليس المراد من اعراض القلب عنها أن يقضى عليها بالعدم فان ذلك دخول في السفسطة وهو باطل بل المراد ان

لاغيرهم وفيه دلالة على ان الهداية تحصل بفعل الله تعالى وقبول النفس لها (أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار) بيان لاحوال أضداد المذكورين على طريقة الاجمال وتسجيل عليهم بحرمان الهداية وهم عبدة الطاغوت ومتبعو خطواتها كما يلوح به التعبير عنهم بمن حق عليه كلمة العذاب فان المراد بها قوله تعالى لابليس لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقوله تعالى لمن تبعك

يعرف أن واجب الوجود لذاته واحد وان كل ماسواه فانه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكنا لذاته فانه لايوجد الا بتكوين الواجب وايجاده ثم انه سبحانه وتعالى جعل تكوينه للاشياء على قسمين منها ما يكون بغير واسطة وهى عالم السموات والروحانيات ومنها ما يكون بواسطة وهو عالم العناصر والعالم الاسفل فاذا عرفت الاشياء على هذا الوجه عرفت أن الكل لله ومن الله وبالله وأنه لامدبر الا هو ولامؤثر غيره وحينئذ ينقطع نظره عن هذه الممكنات ويبقى مشغول القلب بالمؤثر الاول والموجد الاول فانه ان كان قد وضع الاسباب الروحانية والجسمانية بحيث يتأدى الى هذا المطلوب فهذا الشئ يحصل وان كان قد وضع بحيث لايفضى الى حصول هذا الشئ لم يحصل وبهذا الطريق ينقطع نظره عن الكل ولايبقى فى قلبه التفات الى الشئ الا الى الموجود الاول وقد اتفق انى كنت أقول مع بعض الصبيان فى حفظ العرض والمال فعارضنى وقال لايجوز الاعتماد على الجد والجهد بل يجب الاعتماد على قضاء الله وقدره فقلت هذه كلمة حقة سمعتها ولكنك ماعرفت معناها وذلك لانه لاشبهة ان الكل من الله تعالى الا انه سبحانه دبر الاشياء على قسمين منها ماجعل حدوثه وحصوله معلقا باسباب معلومة ومنها ما يحدثه من غير واسطة هذه الاسباب (أما القسم الاول) فهو حوادث هذا العالم الاسفل (وأما القسم الثانى) فهو حوادث هذا العالم الاعلى واذا ثبت هذا فنقول من طلب حوادث هذا العالم الاسفل لامن الاسباب التى عينها الله تعالى لها كان هذا الشخص منازعا لله فى حكمته مخالفا فى تدبيره فان الله تعالى حكم بحدوث هذه الاشياء بناء على تلك الاسباب المعينة المعلومة وأنت تريد تحصيلها لامن تلك الاسباب فهذا هو الكلام فى تحقيق الاعراض عن غير الله والاقبال بالكلية على الله تعالى فقوله تعالى والذين اجتنبوا الطاغوت اشارة الى الاعراض عن غير الله وقوله تعالى وأنابوا الى الله اشارة الى الاقبال بالكلية على عبادة الله ثم انه تعالى وعد هؤلاء باشياء (أحدها) قوله تعالى لهم البشرى واعلم ان هذه الكلمة تتعلق بجهات (أحدها) ان هذه البشارة متى تحصل فنقول انها تحصل عند القرب من الموت وعند الوضع فى القبر وعند الخروج من القبر وعند الوقوف فى عرصة القيامة وعند مايصير فريق فى الجنة وفريق فى السعير وعند مايدخل المؤمنون الجنة ففى كل موقف من هذه المواقف تحصل البشارة بنوع من الخير والروح والراحة والريحان (وثانيها) ان هذه البشارة فبماذا تحصل فنقول ان هذه البشارة تحصل بزوال المكروهات وبحصول المرادات أما زوال المكروهات فقوله تعالى أن لاتخافوا ولاتحزنوا والخوف انما يكون من المستقبل والحزن انما يكون بسبب الاحوال الماضية فقوله ان لاتخافوا يعنى لاتخافوا فيما تستقبلونه من احوال القيامة ولاتحزنوا بسبب مافاتكم من خيرات الدنيا ولما أزال الله عنهم هذه المكروهات بشرهم بحصول الخيرات والسعادات فقال وأبشروا بالجنة وقال أيضا فى آية أخرى يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم

منهم لاملأن جهنم منكم أجمعين وأصل الكلام أمن حق عليه كلمة العذاب فانت تنقذه على أنها شرطية دخل عليها الهمزة لانكار مضمونها ثم الفاء لعطفها على جملة مستتبعة لها مقدرة بعد الهمزة ليتعلق الانكار والنفى بمضمونيهما معا أى أأنت مالك أمر الناس فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه ثم كررت الهمزة فى الجزاء لتأكيد الانكار وتذكيره لما طال الكلام ثم وضع موضع الضمير من فى النار

الفاعل فهو الله سبحانه وهو المراد من قوله أولئك الذين هداهم الله وأما القابل فاليه الاشارة بقوله وأولئك هم أولوا الالباب فان الانسان ما لم يكن عاقلا كامل الفهم امتنع حصول هذه المعارف الحقية في قلبه وانما قلنا ان الفاعل لهذه الهداية هو الله وذلك لان جوهر النفس مع ما فيها من نور العقل قابل للاعتقاد الحق والاعتقاد الباطل واذا كان الشئ قابلا لاضدين كانت نسبة ذلك القابل اليهما على السوية ومتى كان الامر كذلك امتنع كون ذلك القابل سببا لرجحان أحد الطرفين ألا ترى أن الجسم لما كان قابلا للحركة والسكون على السوية امتنع أن تصير ذات الجسم سببا لرجحان أحد الطرفين على الآخر فان قالوا لا نقول ان ذات النفس والعقل يوجب هذا الرجحان بل نقول انه يريد تحصيل أحد الطرفين فتصير تلك الارادة سببا لذلك الرجحان فنقول هذا باطل لان ذات النفس كما انها قابلة لهذه الارادة فكذلك ذات العقل قابلة لارادة مضادة لتلك الارادة فيمتنع كون جوهر النفس سببا لتلك الارادة فثبت ان حصول الهداية لابد لها من فاعل ومن قابل (أما الفاعل) فيمتنع أن يكون هو النفس بل الفاعل هو الله تعالى (وأما القابل) فهو جوهر النفس فلهذا السبب قال أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب ثم قال أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في لفظ الآية سؤال وهو انه يقال انه قال افمن حق عليه كلمة العذاب ولا يصح في الكلام العربي أن يدخل حرف الاستفهام على الاسم وعلى الخبر معا فلا يقال أزيد أتقتله بل ههنا شئ آخر وهو أنه كما دخل حرف الاستفهام على الشرط وعلى الجزاء فكذلك دخل حرف الفاء عليهما معا وهو قوله أفمن حق أفأنت تنقذ ولاجل هذا السؤال اختلف النحويون وذكروا فيه وجوها (الاول) قال الكسائي الآية جملتان والتقدير أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تحميه أفأنت تنقذ من في النار (الثاني) قال صاحب الكشاف أصل الكلام أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه وهي جملة شرطية دخل عليها همزة الانكار والفاء فاء الجزاء ثم دخلت الفاء التي في أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب والتقدير أأنت مالك أمرهم فمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه والهمزة الثانية هي الاولى كررت لتوكيد معنى الانكار والاستبعاد ووضع من في النار موضع الضمير والآية على هذا جملة واحدة (الثالث) لا يبعد أن يقال ان حرف الاستفهام انما ورد ههنا لافادة معنى الانكار ولما كان استنكاره هذا المعنى كاملا تاما لاجرم ذكر هذا الحرف في الشرط وأعاده في الجزاء تنبيها على المبالغة التامة في ذلك الانكار (المسئلة الثانية) احتج الاصحاب بهذه الآية في مسئلة الهدى والضلال وذلك لانه تعالى قال أفمن حق عليه كلمة العذاب فاذا حقت كلمة العذاب عليه امتنع منه فعل الايمان والطاعة والالزم انقلاب خبر الله الصدق كذبا وانقلاب علمه جهلا وهو محال (والوجه الثاني) في الاستدلال بالآية انه تعالى حكم بأن

وهم المخاطبون أيضا في ما سبق بقوله تعالى يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم الآية وبين أن لهما درجات عالية في جنات النعيم بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة في الجحيم أي لهم علالي بعضها فوق بعض (مبنية) بناء المنازل المبنية المؤسسة على الارض في الرصانة والاحكام (تجري من تحتها) من تحت تلك الغرف (الانهار) من غير تفاوت بين العلو والسفل (وعد الله) مصدر مؤكد لقوله تعالى لهم غرف الخ فانه وعد أي وعد (لا يخلف الله الميعاد) لاستحالته عليه سبحانه

حقيه كلمة العذاب توجب الاستنكار التام من صدور الايمان والطاعة منه ولو كان ذلك ممكنا ولم تكن حقية كلمة العذاب مانعة منه لم يبق لهذا الاستنكار والاستبعاد معنى (المسئلة الثالثة) احتج القاضى بهذه الآية على ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يشفع لأهل الكبائر قال لانه حق عليهم العذاب فلان الشفاعة تكون جارية مجرى انقاذهم من النار وان الله تعالى حكم عليهم بالانكار والاستبعاد فيقال له لانسلم ان أهل الكبائر قد حق عليهم العذاب وكيف يحق العذاب عليهم مع ان الله تعالى قال ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومع قوله ان الله يغفر الذنوب جميعا والله أعلم (النوع الثانى) من الاشياء التى وعدها الله هؤلاء الذين اجتنبوا وانابوا قوله تعالى لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية وهذا كالمقابل لما ذكر فى وصف الكفار لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل فان قيل ما معنى قوله مبنية قلنا لان المنزل اذا بنى على منزل آخر تحته كان الفوقانى أضعف بناء من التحتانى فقوله مبنية معناه وان كان فوق غيره لكنه فى القوة والشدة مساو للمنزل الاسفل والحاصل ان المنزل الفوقانى والتحتانى حصل فى كل واحد منهما فضيلة و منقصة أما الفوقانى ففضيلته العلو والارتفاع ومنقصته الرخاوة والسخافة وأما التحتانى فبالضد منه اما منازل الجنة فانها تكون مستجمعة لكل الفضائل وهى عالية مرتفعة وتكون فى غاية القوة والشدة وقال حكماء الاسلام هذه الغرف المبنية بعضها فوق البعض مثاله من الاحوال النفسانية العلوم الكسبية فان بعضها يكون مبنيا على البعض والنتائج الآخرة التى هى عبارة عن معرفة ذات الله وصفاته تكون فى غاية القوة بل تكون فى القوة و الشدة كالعلوم الاصلية البديهية ثم قال تجرى من تحتها الانهار وذلك معلوم ثم ختم الكلام فقال وعد الله لا يخلف الله الميعاد فقوله وعد الله مصدر مؤكد لان قوله لهم غرف فى معنى وعدهم الله ذلك وفى الآية دقيقة شريفة وهى انه تعالى فى كثير من آيات الوعد صرح بأن هذا وعد الله وانه لا يخلف وعده ولم يذكر فى آيات الوعيد البتة مثل هذا التأكيد والتقوية وذلك يدل على أن جانب الوعد أرجح من جانب الوعيد بخلاف ما يقوله المعتزلة فان قالوا أليس انه قال فى جانب الوعيد ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد قلنا قوله ما يبدل القول لدى ليس تصريحا بجانب الوعيد بل هو كلام عام يتناول القسمين أعنى الوعد والوعيد فثبت ان الترجيح الذى ذكرناه حق والله أعلم * قوله تعالى (ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الارض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ان فى ذلك لذكرى لاولى الالباب) اعلم انه تعالى لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لاولى الالباب فيها وصف الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها وذلك انه تعالى بين انه أنزل من السماء ماء وهو المطر وقيل كل ما كان فى الارض فهو من السماء ثم انه تعالى ينزله الى بعض المواضع ثم يقسمه فيسلكه ينابيع فى الارض أى فيدخله وينظمه

(ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء) استئناف وارد اما لتمثيل الحياة الدنيا فى سرعة الزوال وقرب الاضمحلال بما ذكر من أحوال الزرع ترغيبا عن زخارفها وزينتها وتحذيرا من الاغترار ببهجتها كما فى نظائر قوله تعالى انما مثل الحياة الدنيا الآية أو للاستشهاد على تحقق الموعود من الانهار الجارية من تحت الغرف بما يشاهد من انزال الماء من السماء وما يترتب عليه من آثار قدرته تعالى واحكام حكمته ورحمته والمراد بالماء المطر وقيل كل ماء فى الارض فهو من السماء ينزل منها الى الصخرة ثم يقسمه الله تعالى بين البقاع (فسلكه) فأدخله ونظمه (ينابيع فى الارض) أى عيونا ومجارى كالعروق فى الاجساد وقيل مياها نابعة فيها فان الينبوع يطلق على المنبع والنابع فنصبها على الحال وعلى الاول بنزع الجار أى فى ينابيع (ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه) أصنافه من بر وشعير وغيرهما أو كيفياته من الالوان والطعوم وغيرهما وكلمة ثم للتراخى فى الرتبة أو الزمان وصيغة المضارع لاستحضار الصورة (ثم يهيج) أى يتم جفافه ويشرف على أن يثور من منابته (فتراه مصفرا) من بعد

ما خضرته ونضرته وقرئ مصفارا (ثم يجعله حطاما) فتاتا متكسرة كأن لم تغن بالامس ولكون هذه

ينابيع فى الارض عيونا ومسالك ومجارى كالعروق فى الاجسام ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك أو مختلفا أصنافه من بر وشعير وسمسم ثم يهيج وذلك لانه اذا تم جفافه حان له أن ينفصل عن منابته وان لم تتفرق أجزاؤه فتلك الاجزاء كأنها هاجت لان تتفرق ثم يصير حطاما يابسا ان فى ذلك لذكرى يعنى ان من شاهد هذه الاحوال فى النبات علم أن أحوال الحيوان والانسان كذلك وانه وان طال عمره فلا بد له من الانتهاء الى أن يصير مصفر اللون منحطم الاعضاء والاجزاء ثم تكون عاقبته الموت فاذا كانت مشاهدة هذه الاحوال فى النبات تذكره حصول مثل هذه الاحوال فى نفسه وفى حياته فحينئذ تعظم نفرته فى الدنيا وطيباتها والحاصل انه تعالى فى الآيات المتقدمة ذكر ما يقوى الرغبة فى الآخرة وذكر فى هذه الآية ما يقوى النفرة عن الدنيا فشرح صفات القيامة يقوى الرغبة فى طاعة الله وشرح صفات الدنيا يقوى النفرة عن الدنيا وانما قدم الترغيب فى الآخرة على التنفير عن الدنيا لان الترغيب فى الآخرة مقصود بالذات والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض فهذا تمام الكلام فى تفسير الآية بقى ههنا ما يتعلق بالبحث عن الالفاظ قال الواحدى والينابيع جمع ينبوع وهو يفعول من نبع ينبع يقال نبع الماء ينبع وينبع وينبع ثلاث لغات ذكرها الكسائى والفراء وقوله ينابيع نصب بحذف الخافض لان التقدير فسلكه فى ينابيع ثم يهيج أى يخضر والحطام ما يتفتت ويتكسر من النبت * قوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون) وفيه مسائل (المسألة الاولى) اعلم انه تعالى لما بالغ فى تقرير البيانات الدالة على وجوب الاقبال على طاعة الله تعالى ووجوب الاعراض عن الدنيا بين بعد ذلك أن الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل الا اذا شرح الله الصدور ونور القلوب فقال أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه واعلم انا بالغنا فى سورة الانعام فى تفسير قوله فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام فى تفسير شرح الصدور وفى تفسير الهداية ولا بأس باعادة كلام قليل ههنا فنقول انه تعالى خلق جواهر النفوس مختلفة بالماهية فبعضها خيرة نورانية شريفة مائلة الى الالهيات عظيمة الرغبة فى الاتصال بالروحانيات وبعضها نذلة كدرة خسيسة مائلة الى الجسمانيات وهذا التفاوت أمر

للايذان ببعد منزلته فى الغرابة والدلالة على ما قصد بيانه (لذكرى) لتذكيرا عظيما (لأولى الالباب) لاصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وتنبيها لهم على حقيقة الحال يتذكرون بذلك أن حال الحياة الدنيا فى سرعة التقضى والانصرام كما يشاهدونه من حال الحطام كل عام فلا يغترون ببهجتها ولا يفتتنون بفتنتها أو يجزمون بأن من قدر على انزال الماء من السماء واجرائه فى ينابيع الارض قادر على اجراء الانهار من تحت الغرف هذا وأما ما قيل ان فى ذلك لتذكيرا وتنبيها على أنه لا بد من صانع حكيم وأنه كائن عن تقدير وتدبير لا عن تعطيل واهمال فبمعزل من تفسير الآية الكريمة وانما يليق ذلك بان لو ذكر ما ذكر من الآثار الجليلة والافعال الجميلة من غير اسناد لها الى مؤثر ما فحيث ما ذكرت مسندة الى الله عز وجل تعين أن يكون متعلق التذكير والتنبيه شؤونه تعالى أو شؤون آثاره حسبما بين لا وجوده تعالى

وقوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للاسلام) الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تخصيص الذكرى * حاصل * بأولى

حاصل في جواهر النفوس البشرية والاستقراء يدل على ان الامر كذلك اذا عرفت هذا فنقول المراد بشرح الصدور هو ذلك الاستعداد الشديد الموجود في فطرة النفس واذا كان ذلك الاستعداد الشديد حاصلا كفى خروج تلك الحالة من القوة الى الفعل بأدنى سبب مثل الكبريت الذي يشتعل بأدنى نار أما اذا كانت النفس بعيدة عن قبول هذه الجلايا القدسية والاحوال الروحانية بل كانت مستغرقة في طلب الجسمانيات قليلة التأثر عن الاحوال المناسبة للالهيات فكانت قاسية كدرة ظلمانية وكلما كان ايراد الدلائل اليقينية والبراهين الباهرة عليها أكثر كانت قسوتها وظلمتها أقوى اذا عرفت هذه القاعدة فنقول اما شرح الصدور فهو ماذكرناه وأما النور فهو عبارة عن الهدايات والمعارف وما لم يحصل شرح الصدور أولا لم يحصل النور ثانيا واذا كان الحاصل هو القوة النفسانية لم يحصل الانتفاع البتة بسماع الدلائل وربما صار سماع الدلائل سببا لزيادة القسوة واشتدة النفرة فهذه أصول يقينية يجب أن تكون معلومة عند الانسان حتى يمكنه الوقوف على معاني هذه الآيات أما استدلال أصحابنا في مسئلة الجبر والقدر وكلام الخصوم عليه فقد تقدم هنالك والله أعلم (المسئلة الثانية) من محذوف الخبر كما في قوله أمن هو قانت والتقدير أفمن شرح الله صدره للاسلام فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته والجواب متروك لان الكلام المذكور دل عليه وهو قوله تعالى فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله (المسئلة الثالثة) قوله فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله فيه سؤال وهو ان ذكر الله سبب لحصول النور والهداية وزيادة الاطمئنان كما قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب فكيف جعله في هذه الآية سببا لحصول قسوة القلب والجواب أن نقول ان النفس اذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات شديدة الميل الى الطبائع البهيمية والاخلاق الذميمة فان سماعها لذكر الله يزيدها قسوة وكدورة وتقرير هذا الكلام بالامثلة فان الفاعل الواحد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشمس يسود وجه القصار ويبيض ثوبه وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح وقد نرى انسانا واحدا يذكر كلاما واحدا في مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه غيره وماذاك الا ماذكرناه من اختلاف جواهر النفوس ومن اختلاف أحوال تلك النفوس ولما نزل قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين وكان قد حضر هنالك عمر بن الخطاب وانسان آخر فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قوله تعالى ثم أنشأناه خلقا آخر قال كل واحد منهم فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب فهكذا أنزلت فازداد عمر ايمانا على ايمان وازداد ذلك الانسان كفرا على كفر اذا عرفت هذا لم يبعد أيضا أن يكون ذكر الله يوجب النور والهداية والاطمئنان في النفوس الطاهرة الروحانية ويوجب القسوة والبعد عن الحق في النفوس الخبيثة الشيطانية اذا عرفت هذا فنقول ان رأس الادوية التي تفيد الصحة الروحانية ورئيسها

الألباب وشرح الصدر للاسلام عبارة عن تكميل الاستعداد له فانه محل للقلب الذي هو منبع الروح التي تتعلق بها النفس القابلة للاسلام فانشراحه مستدع لاتساع القلب واستضاءته بنوره فانه روي أنه عليه الصلاة والسلام قال اذا دخل النور القلب انشرح وانفسح فقيل فما علامة ذلك قال عليه الصلاة والسلام الانابة الى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزوله والكلام في الهمزة والفاء كالذي مر في قوله تعالى أفمن حق عليه كلمة العذاب وخبر من محذوف لدلالة مابعده عليه والتقدير أكل الناس سواء فمن شرح الله صدره أي خلقه متسع الصدر مستعدا للاسلام فبقي على الفطرة الاصلية ولم يتغير بالعوارض المكتسبة القادحة فيها (فهو) بموجب ذلك مستقر (على نور) عظيم (من ربه) وهو اللطف الالهي الفائض عليه عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية والتوفيق للاهتداء بها الى الحق كمن قسا قلبه وحرج صدره بسبب تبديل فطرة الله بسوء اختياره واستولى عليه ظلمات الغي والضلالة فأعرض عن تلك الآيات بالكلية حتى لايتذكر بها ولايغتنمها (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) أي من أجل ذكره الذي حقه أن تنشرح له الصدور.

وتطمئن به القلوب أي إذا ذكر الله تعالى عندهم أو آياته اشمأزوا من أجله وازدادت قلوبهم قساوة كقوله تعالى فزادتهم رجسا وقرئ عن ذكر الله أي عن قبوله (أولئك) البعداء ﴿٢٥٢﴾ الموصوفون بما ذكر من قساوة القلوب (في ضلال) بعد عن الحق (مبين) ظاهر كونه ضلالا لكل أحد قيل نزلت الآية في حمزة وعلي رضي الله عنهما وأبي لهب وولده وقيل في عمار بن ياسر رضي الله عنه وأبي جهل وذويه (الله نزل أحسن الحديث) هو القرآن الكريم روي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة فقالوا له عليه الصلاة والسلام حدثنا حديثا وعن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم قالوا لو حدثتنا فنزلت والمعنى أن فيه مندوحة عن سائر الأحاديث وفي إيقاع الاسم الجليل مبتدأ وبناء نزل عليه من تفخيم أحسن الحديث ورفع محله والاستشهاد على حسنه وتأكيد استناده إليه تعالى وأنه من عنده لا يمكن صدوره عن غيره والتنبيه على أنه وحي معجز ما لا يخفى (كتابا) بدل من أحسن الحديث أو حال منه سواء اكتسب من المضاف إليه تعريفا أولا فإن مساغ مجيء الحال من النكرة المضافة اتفاقي ووقوعه حالا مع كونه اسما لا صفة إما لاتصافه ﴿كتاب﴾ بقوله تعالى (متشابها) أو لكونه في قوة مكتوبا

هو ذكر الله تعالى فإذا اتفق لبعض النفوس أن صار ذكر الله تعالى سببا لازدياد مرضها كان مرض تلك النفس مرضا لا يرجى زواله ولا يتوقع علاجه وكانت في نهاية الشر والرداءة فلهذا المعنى قال تعالى فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين وهذا كلام كامل محقق ولما بين تعالى ذلك أردفه بما يدل على أن القرآن سبب لحصول النور والشفاء والهداية وزيادة الاطمئنان والمقصود منه بيان أن القرآن لما كان موصوفا بهذه الصفات ثم إنه في حق ذلك الإنسان صار سببا لمزيد القسوة دل ذلك على أن جوهر تلك النفس قد بلغ في الرداءة والخساسة إلى أقصى الغايات فنقول إنه تعالى وصف القرآن بأنواع من صفات الكمال (الصفة الأولى) قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث وفيه مسائل (المسألة الأولى) القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه (الأول) أنه تعالى وصفه بكونه حديثا في هذه الآية وفي آيات أخرى منها قوله تعالى فليأتوا بحديث مثله ومنها قوله تعالى أفبهذا الحديث أنتم مدهنون والحديث لا بد وأن يكون حادثا قالوا بل الحديث أقوى في الدلالة على الحدوث من الحادث لأنه يصح أن يقال هذا حديث وليس بعتيق وهذا عتيق وليس بحديث ولا يصح أن يقال هذا عتيق وليس بحادث فثبت أن الحديث هو الذي يكون قريب العهد بالحدوث وسمي الحديث حديثا لأنه مؤلف من الحروف والكلمات وتلك الحروف والكلمات تحدث حالا فحالا وساعة فساعة فهذا تمام تقرير هذا الوجه (وأما الوجه الثاني) في بيان استدلال القوم أن قالوا إنه تعالى وصفه بأنه نزله والمنزل يكون في محل تصرف الغير وما يكون كذلك فهو محدث وحادث (وأما الوجه الثالث) في بيان استدلال القوم أن قالوا إن قوله أحسن الحديث يقتضي أن يكون هو من جنس سائر الأحاديث كما أن قوله زيد أفضل الإخوة يقتضي أن يكون زيد مشاركا لأولئك الأقوام في صفة الأخوة ويكون من جنسهم فثبت أن القرآن من جنس سائر الأحاديث ولما كان سائر الأحاديث حادثة وجب أيضا أن يكون القرآن حادثا (أما الوجه الرابع) في الاستدلال أن قالوا إنه تعالى وصفه بكونه كتابا والكتاب مشتق من الكتبة وهي الاجتماع وهذا يدل على أنه مجموع جامع ومحل تصرف متصرف وذلك يدل على كونه محدثا (والجواب) أن نقول نحمل هذا الدليل على الكلام المؤلف من الحروف والأصوات والألفاظ والعبارات وذلك الكلام عندنا محدث مخلوق والله أعلم (المسألة الثانية) كون القرآن أحسن الحديث إما أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه أو بحسب معناه (القسم الأول) أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه وذلك من وجهين (الأول) أن يكون ذلك الحسن لأجل الفصاحة والجزالة (الثاني) أن يكون بحسب النظم في الأسلوب وذلك لأن القرآن ليس من جنس الشعر ولا من جنس الخطب ولا من جنس الرسائل بل هو نوع يخالف الكل مع أن كل ذي طبع سليم يستطيبه ويستلذه (القسم الثاني) أن يكون كونه أحسن الحديث لأجل المعنى وفيه وجوه (الأول) أنه

ومعنى كونه متشابها تشابه معانيه فى الصحة والاحكام والابتناء على الحق والصدق واستتباع منافع الخلق فى المعاد والمعاش وتناسب ألفاظه فى الفصاحة وتجاوب نظمه فى الاعجاز (مثانى) صفة أخرى لكتابا أو حال أخرى منه وهو جمع مثنى بمعنى مردد ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه وقيل لانه يثنى فى التلاوة وقيل هو جمع مثنى مفعل من التثنية بمعنى التكرير والاعادة كما فى قوله تعالى فارجع البصر كرتين أى كرة بعد كرة ووقوعه صفة لكتابا باعتبار تفاصيله كما يقال القرآن سور وآيات و يجوز أن ينتصب على التمييز من متشابها كما يقال رأيت رجلا حسنا شمائل اى شمائله والمعنى متشابهة مثانيه (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) قيل صفة لكتابا أو حال منه لتخصصه بالصفة والاظهر أنه استئناف مسوق لبيان آثاره الظاهرة فى سامعيه بعد بيان أوصافه فى نفسه ولتقرير كونه أحسن الحديث والاقشعرار التقبض يقال اقشعر الجلد اذا تقبض تقبضا شديدا وتركيبه من القشم وهو الاديم اليابس قد ضم اليه الراء ليكون رباعيا ود الا

كتاب منزه عن التناقض كما قال تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ومثل هذا الكتاب اذا خلا عن التناقض كان ذلك من المعجزات (الوجه الثانى) اشتماله على الغيوب الكثيرة فى الماضى والمستقبل (الوجه الثالث) ان العلوم الموجودة فيه كثيرة جدا وضبطها ان العلوم ان نقول العلوم النافعة هى ما ذكره الله فى كتابه فى قوله والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير فيقول أحسن ضبط يمكن ذكره للعلوم النافعة (أما القسم الاول) وهو الايمان بالله فاعلم انه يشتمل على خمسة أقسام معرفة الذات والصفات والافعال والاحكام والاسماء أما معرفة الذات فهى ان يعلم وجود الله وقدمه و بقاءه وأما معرفة الصفات فهى نوعان (أحدهما) ما يجب تنزيهه عنه وهو كونه جوهرا ومركبا من الاعضاء والاجزاء وكونه مختصا بحيز وجهة ويجب ان يعلم ان الالفاظ الدالة على التنزيه أربعة ليس ولم وما ولا وهذه الاربعة المذكورة مذكورة فى كتاب الله تعالى لبيان التنزيه اما كلمة ليس فقوله ليس كمثله شئ وأما كلمة لم فقوله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وأما كلمة ما فقوله وما كان ربك نسيا ما كان لله أن يتخذ من ولد وأما كلمة لا فقوله تعالى لا تأخذه سنة ولا نوم وهو يطعم ولا يطعم وهو يجير ولا يجار عليه وقوله فى سبعة وثلاثين موضعا من القرآن لا اله الا الله (وأما النوع الثانى) وهى الصفات التى يجب كونه موصوفا بها من القرآن (فأولها) العلم بالله والعلم بكونه محدثا خالقا قال تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض (وثانيها) العلم بكونه قادرا قال تعالى فى أول سورة القيامة بلى قادرين على أن نسوى بنانه وقال فى آخر هذه السورة أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى (وثالثها) العلم بكونه تعالى عالما قال تعالى هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة (ورابعها) العلم بكونه عالما بكل المعلومات قال تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو وقوله تعالى الله يعلم ما تحمل كل أنثى (وخامسها) العلم بكونه حيا قال تعالى هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين (وسادسها) العلم بكونه مريدا قال الله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام (وسابعها) كونه سميعا بصيرا قال تعالى وهو السميع البصير وقال تعالى اننى معكما أسمع وأرى (وثامنها) كونه متكلما قال تعالى ولو ان ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله (وتاسعها) كونه آمرا قال تعالى لله الامر من قبل ومن بعد (وعاشرها) كونه رحمانا رحيما ملكا قال تعالى الرحمن الرحيم ملك يوم الدين فهذا ما يتعلق بمعرفة الصفات التى يجب اتصافه بها (وأما القسم الثالث) وهو الافعال فاعلم ان الافعال اما أرواح واما أجسام اما الارواح فلا سبيل للوقوف عليها الا القليل كما قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وأما الاجسام فهى اما العالم الاعلى واما العالم الاسفل اما العالم الاعلى فالبحث فيه من وجوه (أحدها) البحث عن أحوال السموات (وثانيها) البحث عن أحوال الشمس والقمر

على معنى زائد يقال اقشعر جلده وقف شعره اذا عرض له خوف شديد من منكر هائل دهمه بغتة والمراد اما بيان افراط خشيتهم بطريق التمثيل والتصوير أو بيان حصول

تلك الحالة وعروضها لهم بطريق التحقيق والمعنى أنهم اذا سمعوا القرآن وقوارع آيات وعيده أصابتهم هيبة وخشية تقشعر منها جلودهم واذا ذكروا رحمة الله تعالى تبدلت خشيتهم رجاء ورهبتهم رغبة وذلك قوله تعالى (ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله) أى ساكنة مطمئنة الى ذكر رحمته تعالى وانما لم يصرح بها ايذانا بأنها أول ما يخطر بالبال عند ذكره تعالى (ذلك) أى الكتاب الذى شرح أحواله (هدى الله يهدى به من يشاء) أن يهديه بصرف مقدوره الى الاهتداء بتأمله فيما فى تضاعيفه من شواهد الحقية ودلائل كونه من عند الله تعالى (ومن يضلل الله) أى يخلق فيه الضلالة بصرف قدرته الى مباديها واعراضه عما يرشده الى الحق بالكلية وعدم تأثره بوعيده ووعده أصلا أو ومن يخذل (فما له من هاد) يخلصه من ورطة الضلال وقيل ذلك الذى ذكر من الخشية والرجاء أثر هداه تعالى يهدى بذلك

ولهو

﴿ الاخلاق ﴾

قال تعالى ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره (وثالثها) البحث عن أحوال الاضواء قال الله تعالى الله نور السموات والارض وقال تعالى هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا (ورابعها) البحث عن أحوال الظلال قال الله تعالى ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا (وخامسها) واختلاف الليل والنهار قال الله تعالى يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل (وسادسها) منافع الكواكب قال تعالى وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر (وسابعها) صفات الجنة قال تعالى وجنة عرضها كعرض السماء والارض (وثامنها) صفات النار قال تعالى لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم (وتاسعها) صفة العرش قال تعالى الذين يحملون العرش ومن حوله (وعاشرها) صفة الكرسى قال تعالى وسع كرسيه السموات والارض (وحادى عشرها) صفة اللوح والقلم أما اللوح فقوله تعالى بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ وأما القلم فقوله تعالى ن والقلم وما يسطرون * وأما شرح أحوال العالم الاسفل (فاولها) الارض وقد وصفها بصفات كثيرة (احداها) كونه مهدا قال تعالى الذى جعل لكم الارض مهدا (وثانيها) كونه مهادا قال تعالى ألم نجعل الارض مهادا (وثالثها) كونه كفاتا قال تعالى كفاتا أحياء وأمواتا (ورابعها) الذلول قال تعالى هو الذى جعل لكم الارض ذلولا (وخامسها) كونه بساطا قال تعالى والله جعل لكم الارض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا والكلام فيه طويل (وثانيها) البحر قال تعالى وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا (وثالثها) الهواء والرياح قال تعالى وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وقال تعالى وأرسلنا الرياح لواقح (ورابعها) الآثار العلوية كالرعد والبرق قال تعالى ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وقال تعالى فترى الودق يخرج من خلاله ومن هذا الباب ذكر الصواعق والامطار وتراكم السحاب (وخامسها) أحوال الاشجار والثمار وأنواعها وأصنافها (وسادسها) أحوال الحيوانات قال تعالى وبث فيها من كل دابة وقال والانعام خلقها لكم (وسابعها) عجائب تكوين الانسان فى أول الخلقة قال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين (وثامنها) العجائب فى سمعه وبصره ولسانه وعقله وفهمه (وتاسعها) تواريخ الانبياء والملوك وأحوال الناس من أول خلق العالم الى آخر قيام القيامة (وعاشرها) ذكر أحوال الناس عند الموت وبعد الموت وكيفية البعث والقيامة وشرح أحوال السعداء والاشقياء فقد أشرنا الى عشرة أنواع من العلوم فى عالم السموات والى عشرة أخرى فى عالم العناصر والقرآن مشتمل على شرح هذه الانواع من العلوم العالية الرفيعة (وأما القسم الرابع) وهو شرح أحكام الله تعالى وتكاليفه فنقول هذه التكاليف اما أن تحصل فى أعمال القلوب أو فى أعمال الجوارح (أما القسم الاول) فهو المسمى بعلم الاخلاق وبيان تميز

الا من يشاء من عباده ومن يضلل أى ومن لم يؤثر فيه لطفه لقسوة قلبه واصراره على فجوره (فما له من هاد) من مؤثر فيه بشىء قط (أفمن يتقى بوجهه) ﴿ ٢٥٥ ﴾ الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تباين حالى المهتدى والضال والكلام فى الهمزة والفاء وحذف الخبر كالذى مر فى نظيره والتقدير أكل الناس سواء فمن شأنه أن يتقى نفسه بوجهه الذى هو أشرف أعضائه (سوء العذاب) أى العذاب السيء الشديد (يوم القيامة) لكون يده التى بها كان يتقى المكاره والمخاوف مغلولة الى عنقه كمن هو آمن لا يعتريه مكروه ولا يحتاج الى الاتقاء بوجه من الوجوه وقيل نزلت فى أبى جهل (وقيل للظالمين) عطف على يتقى أى ويقال لهم من جهة خزنة النار وصيغة الماضى للدلالة على التحقق والتقرر وقيل هو حال من ضمير يتقى باضمار قد ووضع الظاهر فى مقام المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والاشعار بعلة الامر فى قوله تعالى (ذوقوا ما كنتم تكسبون) أى وبال ما كنتم تكسبونه فى الدنيا على الدوام من الكفر والمعاصى (كذب الذين من قبلهم) استئناف مسوق لبيان

الاخلاق الفاضلة والاخلاق الفاسدة والقرآن يشتمل على كل ما لابد منه فى هذا الباب قال الله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وقال خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين (وأما الثانى) فهو التكاليف الحاصلة فى أعمال الجوارح وهو المسمى بعلم الفقه والقرآن مشتمل على جملة أصول هذا العلم على أكمل الوجوه (وأما القسم الخامس) وهو معرفة أسماء الله تعالى فهو مذكور فى قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها فهذا كله يتعلق بمعرفة الله (وأما القسم الثانى) من الاصول المعتبرة فى الايمان الاقرار بالملائكة كما قال تعالى والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته والقرآن يشتمل على شرح صفاتهم تارة على سبيل الاجمال وأخرى على طريق التفصيل اما الاجمال فقوله وملائكته وأما التفصيل فمنها ما يدل على كونهم رسل الله قال تعالى جاعل الملائكة رسلا ومنها المدبرات لهذا العالم قال تعالى فالمقسمات أمرا فالمدبرات أمرا وقال تعالى والصافات صفا ومنها حملة العرش قال ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ومنها الحافون حول العرش قال وترى الملائكة حافين من حول العرش ومنها خزنة النار قال تعالى عليها ملائكة غلاظ شداد ومنها الكرام الكاتبون قال وان عليكم لحافظين كراما كاتبين ومنها المعقبات قال تعالى له معقبات من بين يديه ومن خلفه وقد يتصل بأحوال الملائكة أحوال الجن والشياطين (وأما القسم الثالث) من الاصول المعتبرة فى الايمان معرفة الكتب والقرآن يشتمل على شرح أحوال كتاب آدم عليه السلام قال تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات ومنها أحوال صحف ابراهيم عليه السلام قال تعالى واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ومنها أحوال التوراة والانجيل والزبور (وأما القسم الرابع) من الاصول المعتبرة فى الايمان معرفة الرسل والله تعالى فشرح أحوال البعض وأبهم أحوال الباقين قال منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك (القسم الخامس) ما يتعلق بأحوال المكلفين وهى على نوعين (الاول) أن يقروا بوجوب هذه التكاليف عليهم وهو المراد من قوله وقالوا سمعنا وأطعنا (والثانى) أن يعترفوا بصدور التقصير عنهم فى تلك الاعمال ثم طلبوا المغفرة وهو المراد من قوله غفرانك ربنا ثم لما كانت مقادير رؤية التقصير فى مواقف العبودية بحسب المكاشفات فى مطالعة عزة الربوبية أكثر كانت المكاشفات فى تقصير العبودية أكثر وكان قوله غفرانك ربنا أكثر (القسم السادس) معرفة المعاد والبعث والقيامة وهو المراد من قوله واليك المصير وهذا هو الاشارة الى معرفة المطالب المهمة فى طلب الدين والقرآن بحر لا نهاية له فى تقرير هذه المطالب وتفريعها وشرحها ولا ترى فى مشارق الارض ومغاربها كتابا يشتمل على جملة هذه العلوم كما اشتمل القرآن عليها ومن تأمل فى هذا التفسير علم أنا لم نذكر من بحار فضائل القرآن الا قطرة ولما كان الامر على هذه الجملة لاجرم مدح الله عز وجل القرآن فقال تعالى الله نزل أحسن الحديث

ماأصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوى اثر بيان مايصيب الكل من العذاب الاخروى أى كذب الذين من قبلهم من الامم السالفة (فأتاهم العذاب) المقدر لكل أمة منهم (من حيث لايشعرون) من الجهة التى لايحتسبون ولايخطر ببالهم اتيان الشر منها (فأذاقهم الله الخزى) أى الذل والصغار (فى الحياة الدنيا) كالمسخ والخسف والقتل والسبى والاجلاء ونحو ذلك من فنون النكال (ولعذاب الآخرة) المعد لهم (أكبر) لشدته وسرمديته (لوكانوا يعلمون) أى لوكان من شأنهم أن يعلموا شيئا لعلموا ذلك واعتبروا به (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) يحتاج اليه الناظر فى أمور دينه (لعلهم يتذكرون) كى يتذكروا به ويتعظوا (قرآنا عربيا) حال مؤكدة من هذا على أن مدار التأكيد هو الوصف كقولك جاءنى زيد رجلا صالحا أو مدح له (غير ذى عوج) لااختلاف فيه بوجه من الوجوه فهو أبلغ من المستقيم وأخص بالمعانى وقيل المراد بالعوج الشك (لعلهم يتقون) علة أخرى مترتبة على الاولى

والله أعلم (الصفة الثانية) من صفات القرآن قوله تعالى كتابا متشابها أما الكتاب فقد فسرناه فى قوله تعالى ذلك الكتاب لاريب فيه وأما كونه متشابها فاعلم ان هذه الآية تدل على ان القرآن كله متشابه وقوله هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات يدل على كون البعض متشابها دون البعض وأما كونه كله متشابها كما فى هذه الآية فقال ابن عباس معناه انه يشبه بعضه بعضا وأقول هذا التشابه يحصل فى أمور (أحدها) ان الكاتب البليغ اذا كتب كتابا طويلا فانه يكون بعض كلماته فصيحا ويكون البعض غير فصيح والقرآن يخالف ذلك فانه فصيح كامل الفصاحة بجميع أجزائه (وثانيها) ان الفصيح اذا كتب كتابا فى واقعة بألفاظ فصيحة فلو كتب كتابا آخر فى غير تلك الواقعة كان الغالب ان كلامه فى الكتاب الثانى غير كلامه فى الكتاب الاول والله تعالى حكى قصة موسى عليه السلام فى مواضع كثيرة من القرآن وكلها متساوية متشابهة فى الفصاحة (وثالثها) ان كل ما فيه من الآيات والبيانات فانه يقوى بعضها بعضا ويؤكد بعضها بعضا (ورابعها) ان هذه الانواع الكثيرة من العلوم التى عددناها متشابهة متشاركة فى ان المقصود منها بأسرها الدعوى الى الدين وتقرير عظمة الله ولذلك فانك لاترى قصة من القصص الا ويكون محصلها المقصود الذى ذكرناه فهذا هو المراد من كونه متشابها والله الهادى (الصفة الثالثة) من صفات القرآن كونه مثانى وقد بالغنا فى تفسير هذه اللفظة عند قوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثانى وبالجملة فأكثر الاشياء المذكورة وقعت زوجين زوجين مثل الامر والنهى والعام والخاص والمجمل والمفصل وأحوال السموات والارض والجنة والنار والظلمة والضوء واللوح والقلم والملائكة والشياطين والعرش والكرسى والوعد والوعيد والرجاء والخوف والمقصود منه بيان أن كل ما سوى الحق زوج ويدل على ان كل شئ مبتلى بضده ونقيضه وان الفرد الاحد الحق هو الله سبحانه (الصفة الرابعة) من صفات القرآن قوله تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله وفيه مسائل (المسألة الاولى) معنى تقشعر جلودهم تأخذهم قشعريرة وهى تغير يحدث فى جلد الانسان عند الوجل والخوف قال المفسرون والمعنى انهم عند سماع آيات الرحمة والاحسان يحصل لهم الفرح فتلين قلوبهم الى ذكر الله وأقول ان المحققين من العارفين قالوا السائرون فى مبدأ جلال الله ان نظروا الى عالم الجلال طاشوا وان لاح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا ويجب علينا ان نذكر فى هذا الباب مزيد شرح وتقرير فنقول الانسان اذا تأمل فى الدلائل الدالة على انه يجب تنزيه الله عن التحيز والجهة فههنا يقشعر جلده لان اثبات موجود لاداخل العالم ولاخارج ولامتصل بالعالم ولامنفصل عن العالم مما يصعب تصوره فههنا تقشعر الجلود أما اذا تأمل فى الدلائل الدالة على انه يجب أن يكون فردا أحدا وثبت أن كل متحيز فهو منقسم فههنا يلين جلده وقلبه الى ذكر الله وأيضا اذا أراد أن يحيط عقله بمعنى الازل فيتقدم فى ذهنه

بمقدار ألف ألف سنة ثم يتقدم أيضا بحسب كل لحظة من لحظات تلك المدة ألف ألف سنة ولا يزال يحتال و يتقدم و يتخيل في الذهن فاذا بلغ و توغل وظن أنى استحضر معنى الازل قال العقل هذا ليس بشئ لان كل ما استحضرته في فهو متناه والازل هو الوجود المتقدم على هذه المدة المتناهية فههنا يتحير العقل و يقشعر الجلد وأما اذا ترك هذا الاعتبار وقال ههنا موجود والوجود اما واجب واما ممكن فان كان واجبا فهو دائما منزه عن الاول والآخر وان كان ممكنا فهو محتاج الى الواجب فيكون أزليا أبديا فاذا اعتبر العقل فهم معنى الازلية فههنا يلين جلده وقلبه الى ذكر الله فثبت ان المقامين المذكورين في الآية لا يجب قصرهما على سماع آية العذاب وآية الرحمة بل ذاك أول تلك المراتب و بعده مراتب لا حد لها ولا حصر في حصول تلك الحالتين المذكورتين (المسئلة الثانية) روى الواحدى في البسيط عن قتادة انه قال القرآن دل على أولياء الله موصوفون بأنهم عند المكاشفات والمشاهدات تارة تقشعر جلودهم وأخرى تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله وليس فيه ان عقولهم تزول وأن أعضاءهم تضطرب فدل هذا على أن تلك الاحوال لو حصلت لكانت من الشيطان وأقول ههنا بحث آخر وهو ان الشيخ أبا حامد الغزالى أورد مسئلة في كتاب احياء علوم الدين وهى أنا نرى كثيرا من الناس يظهر عليه الوجد الشديد التام عند سماع الابيات المشتملة على شرح الوصل والهجر وعند سماع الآيات لا يظهر عليه شئ من هذه الاحوال ثم انه سلم هذا المعنى وذكر العذر فيه من وجوه كثيرة وأنا أقول انى خلقت محروما عن هذا المعنى فانى كلما تأملت في أسرار القرآن اقشعر جلدى ووقف على شعرى وحصلت في قلبى دهشة وروعة وكلما سمعت تلك الاشعار غلب الهزل على وما وجدت البتة في نفسى منها أثرا وأظن أن المنهج القويم والصراط المستقيم هو هذا و بيانه من وجوه (الاول) ان تلك الاشعار كلمات مشتملة على وصل وهجر و بغض وحب تليق بالخلق واثباته في حق الله تعالى كفر وأما الانتقال من تلك الاحوال الى معان لائقة بجلال الله فلا يصل اليها الا العلماء الراسخون في العلم وأما المعانى التى يشتمل عليها القرآن فهى أحوال لائقة بجلال الله فمن وقف عليها عظم الوله في قلبه فان من كان عنده نور الايمان وجب أن يعظم اضطرابه عند سماع قوله وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو الى آخر الآية (والثانى) وهو أنى سمعت بعض المشايخ قال كان الكلام له أثر فكذلك صدور ذلك الكلام من القائل المعين له أثر لان قوة نفس القائل تعين على نفاذ الكلام في الروح والقائل في القرآن هنا هو الله بواسطة جبريل بتبليغ الرسول المعصوم والقائل هناك شاعر كذاب مملوء من الشهوة وداعية الفجور (والثالث) ان مدار القرآن على الدعوة الى الحق قال تعالى وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما في السموات وما في الارض وأما الشعر فمداره على الباطل قال تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون فهذه الوجوه الثلاثة فروق ظاهرة واما ما يتعلق

(ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون) ايراد لمثل من الامثال القرآنية بعد بيان أن الحكمة في ضربها هو التذكر والاتعاظ بها وتحصيل التقوى ﴿ ٢٥٧ ﴾ والمراد بضرب المثل ههنا تطبيق حالة عجيبة بأخرى مثلها وجعلها مثلها كما مر في سورة يس ومثلا مفعول ثان لضرب ورجلا مفعوله الاول أخر عن الثانى للتشويق اليه وليتصل به ما هو من تتمته التى هى العمدة في التمثيل وفيه ليس بصلة لشركاء كما قيل بل هو خبر له و بيان أنه في الاصل كذلك مما لا حاجة اليه والجملة في حيز النصب على أنه وصف لرجلا أو الوصف هو الجار والمجرور وشركاء مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على الموصوف فالمعنى جعل الله تعالى مثلا للمشرك حسبما يقود اليه مذهبه من ادعاء كل من معبوديه عبوديته عبدا يتشارك فيه جماعة يتجاذبونه و يتعاورونه في مهماتهم المتباينة في تحيره وتوزع قلبه (ورجلا) أى للموحد مثلا رجلا (سلما) أى خالصا (لرجل) فرد ليس لغيره عليه سبيل أصلا وقرئ سلما بفتح السين وكسرها مع سكون اللام والكل مصادر من سلم له كذا أى خلص نعت بها مبالغة أو حذف منها ذو وقرئ سالما وسالم أى وهناك رجل سالم وتخصيص الرجل لانه أفطن لما يجرى عليه من الضر

بالوجدان من النفس فان كل أحد انما يخبر عما يجده من نفسه والذى وجدته من النفس والعقل ماذكرته والله أعلم (المسئلة الثالثة) فى بيان مابقى من المشكلات فى هذه الآية ونذكرها فى معرض السؤال والجواب (السؤال الاول) كيف تركيب لفظ القشعريرة الجواب قال صاحب الكشاف تركيبه من حروف القشع وهو الاديم اليابس مضموما اليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعيا ودالا على معنى زائد يقال اقشعر جلده من الخوف وقف شعره وذلك مثل فى شدة الخوف (السؤال الثانى) كيف قال تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله وما الوجه فى تعديه بحرف الى والجواب التقدير تلين جلودهم وقلوبهم حال وصولها الى حضرة الله وهو لايحس بالادراك (السؤال الثالث) لم قال الى ذكر الله ولم يقل الى ذكر رحمة الله والجواب أن من أحب الله لاجل رحمته فهو ما أحب الله وانما أحب شيئا غيره وأما من أحب الله لالشئ سواه فهذا هو المحب المحق وهو الدرجة العالية فلهذا السبب لم يقل ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر رحمة الله بل قال الى ذكر الله وقد بين الله تعالى هذا المعنى فى قوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام وفى قوله ألا بذكر الله تطمئن القلوب وأيضا قال لامة موسى يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وقال أيضا لامة محمد صلى الله عليه وسلم فاذكرونى أذكركم (السؤال الرابع) لم قال فى جانب الخوف قشعريرة الجلود فقط وفى جانب الرجاء لين الجلود والقلوب معا والجواب لان المكاشفة فى مقام الرجاء أكمل منها فى مقام الخوف لان الخير مطلوب بالذات والشر مطلوب بالعرض ومحل المكاشفات هو القلوب والارواح والله أعلم ثم انه تعالى لما وصف القرآن بهذه الصفات قال ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد فقوله ذلك اشارة الى الكتاب وهو هدى الله يهدى به من يشاء من عباده وهو الذى شرح صدره أولا لقبول هذه الهداية ومن يضلل الله أى من جعل قلبه قاسيا مظلما بليد الفهم منافيا لقبول هذه الهداية فماله من هاد واستدلال أصحابنا بهذه الآية وسؤالات المعتزلة وجوابات أصحابنا عين ماتقدم فى قوله فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام أما قوله تعالى أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة فاعلم أنه تعالى حكم على القاسية قلوبهم بحكم فى الدنيا وبحكم فى الآخرة أما حكمهم فى الدنيا فهو الضلال التام كما قال ومن يضلل الله فماله من هاد وأما حكمهم فى الآخرة فهو العذاب الشديد وهو المراد من قوله أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وتقريره ان اشرف الاعضاء هو الوجه لانه محل الحسن والصباحة وهو أيضا صومعة الحواس وانما يتميز بعض الناس عن بعض بسبب الوجه وأثر السعادة والشقاوة لايظهر الا فى الوجه قال تعالى وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة اولئك هم الكفرة الفجرة ويقال لمقدم القوم ياوجه العرب ويقال للطريق الدال على كنه حال الشئ وجه كذا هو كذا فثبت بماذكرنا ان أشرف الاعضاء هو الوجه فاذا وقع الانسان فى

فى أعلى عليين والآخر فى أسفل سافلين وهو السر فى ابهام الفاضل والمفضول وانتصاب مثلا على التميز أى هل يستوى حالاهما وصفتاهما والاقتصار فى التميز على الواحد لبيان الجنس وقرئ مثلين كقوله تعالى أكثر أموالا وأولادا للاشعار باختلاف النوع أولان المراد هل يستويان فى الوصفين على أن الضمير للمثلين لان التقدير مثل رجل فيه الخ ومثل رجل الخ وقوله تعالى (الحمد لله) تقرير لما قبله من نفى الاستواء بطريق الاعتراض وتنبيه للموحدين على أن مالهم من المزية بتوفيق الله تعالى وأنها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل أن لهم المثل الاعلى وللمشركين مثل السوء صنع جميل ولطف تام منه عز وجل مستوجب لحمده وعبادته وقوله تعالى (بل أكثرهم لايعلمون) اضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور الى بيان أن أكثر الناس وهم

نوع من أنواع العذاب فانه يجعل يده وقاية لوجهه وفداءله واذا عرفت هذا فنقول اذا كان القادر على الاتقاء يجعل كل ماسوى الوجه فداء للوجه لاجرم حسن جعل الاتقاء بالوجه كناية عن العجز عن الاتقاء ونظيره قول النابغة

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

أي لاعيب فيهم الاهذا وهو ليس بعيب فلا عيب فيهم اذن بوجه من الوجوه فكذا ههنا لايقدرون على الاتقاء بوجه من الوجوه الابالوجه وهذا ليس باتقاء فلا قدرة لهم على الاتقاء البتة ويقال أيضا ان الذي يلقى في النار يلقى مغلولة يداه الى عنقه ولا يتهيأ له ان يتقي النار الا بوجهه اذا عرفت هذا فنقول جوابه محذوف وتقديره أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن من العذاب فحذف الخبر كما حذف في نظائره وسوء العذاب شدته ثم قال تعالى وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ولما بين الله تعالى كيفية عذاب القاسية قلوبهم في الآخرة بين أيضا كيفية وقوعهم في العذاب في الدنيا فقال كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لايشعرون وهذا تنبيه على حال هؤلاء لان الفاء في قوله فأتاهم العذاب تدل على أنهم انما أتاهم العذاب بسبب التكذيب فاذا كان التكذيب حاصلا ههنا لزم حصول العذاب استدلالا بالعلة على المعلول وقوله من حيث لايشعرون أي من الجهة التي لايحسبون ولا يخطر ببالهم ان الشر يأتيهم منها بيناهم آمنون اذ أتاهم العذاب من الجهة التي توقعوا الأمن منها ولما بين تعالى انه أتاهم العذاب في الدنيا بين أيضا انه أتاهم الخزي وهو الذل والصغار والهوان والفائدة في ذكر هذا القيد أن العذاب التام هو ان يحصل فيه الالم مقرونا بالهوان والذل ثم قال ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون يعني أن أولئك وان نزل عليهم العذاب والخزي كما تقدم ذكره فالعذاب المدخر لهم في يوم القيامة أكبر وأعظم من ذلك الذي وقع والمقصود من كل ذلك التخويف والترهيب فلما ذكر الله تعالى هذه الفوائد المتكاثرة والنفائس المتوافرة في هذه المطالب بين تعالى انه بلغت هذه البيانات الى حد الكمال والتمام فقال ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون والمقصود ظاهر وقالت المعتزلة دلت الآية على ان افعال الله وأحكامه معللة ودلت أيضا على انه يريد الايمان والمعرفة من الكل لان قوله ولقد ضربنا للناس مشعر بالتعليل وقوله في آخر الآية لعلهم يتذكرون مشعر بالتعليل أيضا ومشعر بأن المقصود من ضرب هذه الامثال ارادة حصول التذكر والعلم ولما كانت هذه البيانات النافعة والبينات الباهرة موجودة في القرآن لاجرم وصف القرآن بالمدح والثناء فقال قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج القائلون بحدوث القرآن بهذه الآية من وجوه (الاول) ان قوله ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون يدل على انه تعالى انما ذكر هذه الامثال ليحصل لهم التذكر والشيء الذي يؤتى به لغرض آخر يكون محدثا فان القديم

المشركون لايعلمون ذلك مع كمال ظهوره فيبقون في ورطة الشرك والضلال وقوله تعالى (انك ميت وانهم ميتون) تمهيد لما يعقبه من الاختصام يوم القيامة وقرئ مائت ومائتون وقيل كانوا يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم موته أي انكم جميعا بصدد الموت (ثم انكم يوم القيامة عند ربكم) أي مالك أموركم (تختصمون) فتحتج أنت عليهم بأنك بلغتهم ما أرسلت به من الاحكام والمواعظ التي من جملتها ما في تضاعيف هذه الآيات واجتهدت في الدعوة الى الحق حق الاجتهاد وهم قد لجوا في المكابرة والعناد وقيل المراد به الاختصام العام الجاري في الدنيا بين الانام

هو الذي يكون موجودا في الازل وهذا يمتنع أن يقال انه انما أتى به لغرض كذا وكذا (والثاني) انه وصفه بكونه عربيا وانما كان عربيا لان هذه الالفاظ انما صارت دالة على هذه المعاني بوضع العرب وباصطلاحهم وما كان حصوله بسبب أوضاع العرب واصطلاحاتهم كان مخلوقا محدثا (الثالث) انه وصفه بكونه قرآنا والقرآن عبارة عن القراءة والقراءة مصدر والمصدر هو المفعول المطلق فكان فعلا ومفعولا والجواب أنا نحمل كل هذه الوجوه على الحروف والاصوات وهي حادثة ومحدثة (المسئلة الثانية) قال الزجاج قوله عربيا منصوب على الحال والمعنى ضربنا للناس في هذا القرآن في حال عربيته وبيانه ويجوز أن ينتصب على المدح (المسئلة الثالثة) انه تعالى وصفه بصفات ثلاثة (أولها) كونه قرآنا والمراد كونه متلوا في المحاريب الى قيام القيامة كما قال انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (وثانيها) كونه عربيا والمراد انه أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته كما قال قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (وثالثها) كونه غير ذي عوج والمراد براءته عن التناقض كما قال ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا وأما قوله لعلهم يتقون فالمعتزلة يتمسكون به في تعليل أحكام الله تعالى (وفيه بحث آخر) وهو انه تعالى قال في الآية الاولى لعلهم يتذكرون وقال في هذه الآية لعلهم يتقون والسبب فيه أن التذكر متقدم على الاتقاء لانه اذا تذكره وعرفه ووقف على فحواه وأحاط بمعناه حصل الاتقاء والاحتراز والله أعلم* قوله تعالى (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق اذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين) اعلم انه تعالى لما بالغ في شرح وعيد الكفار أردفه بذكر مثل ما يدل على فساد مذهبهم وقبح طريقتهم فقال ضرب الله مثلا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المتشاكسون المختلفون العسرون يقال شكس يشكس شكوسا وشكسا اذا عسر وهو رجل شكس أي عسر وتشاكس اذا تعاسر قال الليث التشاكس التنازع والاختلاف ويقال الليل والنهار متشاكسان أي انهما متضادان اذا جاء أحدهما ذهب الآخر وقوله فيه صلة شركاء كما تقول اشتركوا فيه (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وأبو عمرو سالما بالالف وكسر اللام يقال سلم فهو سالم والباقون سلما بفتح السين واللام بغير الالف ويقال أيضا بفتح السين وكسرها مع سكون اللام اما من قرأ سالما فهو اسم الفاعل تقديره سلم فهو سالم واما سائر القراآت فهي مصادر سلم والمعنى ذا سلامة وقوله لرجل أي ذا خلوص له من الشركة من قولهم سلمت له الضيعة وقرئ بالرفع على الابتداء أي وهناك رجل سالم لرجل (المسئلة الثالثة) تقدير الكلام اضرب لقومك مثلا وقل لهم ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع كل واحد منهم يدعي انه عبده فهم

والاول هو الاظهر الانسب بقوله تعالى (فمن أظلم ممن كذب على الله) فانه الى آخره مسوق لبيان كل من طرفي الاختصام الجاري في شأن الكفر والايمان لا غير أي اظلم من كل ظالم من افترى على الله سبحانه وتعالى بان أضاف اليه الشريك والولد (وكذب بالصدق) أي بالامر الذي هو عين الحق ونفس الصدق وهو ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم (اذ جاءه) أي في أول مجيئه من غير تدبر فيه ولا تأمل (أليس في جهنم مثوى للكافرين) أي لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وسارعوا الى التكذيب بالصدق من أول الامر والجمع باعتبار معنى من كما أن الافراد في الضمائر السابقة باعتبار لفظها أو لجنس الكفرة وهم داخلون في الحكم دخولا أوليا

(والذى جاء بالصدق وصدق به) الموصول عبارة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه كما أن المراد فى قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون هو عليه الصلاة والسلام وقومه وقيل عن الجنس المتناول للرسل والمؤمنين بهم ويؤيده قراءة ابن مسعود رضى الله عنه والذين جاؤا بالصدق وصدقوا به وقيل هو صفة لموصوف محذوف هو الفوج أو الفريق (أولئك) الموصوفون بما ذكر من المجئ بالصدق والتصديق به (هم المتقون) المنعوتون بالتقوى التى هى أجل الرغائب وقرئ وصدق به بالتخفيف أى صدق به الناس فأداه اليهم كما نزل عليه من غير تغيير وقيل وصار صادقا به أى بسببه لان ما جاء به من القرآن معجزة دالة على صدقه عليه الصلاة والسلام وقرئ صدق به على البناء للمفعول (لهم ما يشاؤن عند ربهم) بيان لما لهم فى الآخرة من حسن المآب بعد بيان ما لهم فى الدنيا من محاسن الاعمال أى لهم كل ما يشاؤنه من جلب المنافع ودفع المضار فى الآخرة لا فى الجنة فقط لما أن بعض

يتجاذبونه فى حوائجهم وهو متحير فى أمره فكلما أرضى أحدهم غضب الباقون واذا احتاج فى مهم اليهم فكل واحد منهم يرده الى الآخر فهو يبقى متحيرا لا يعرف أيهم أولى بأن يطلب رضاه وأيهم يعينه فى حاجاته فهو بهذا السبب فى عذاب دائم وتعب مقيم ورجل آخر له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الاخلاص وذلك المخدوم يعينه على مهماته فأى هذين العبدين أحسن حالا وأحمد شأنا والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى فان أولئك الآلهة تكون متنازعة متغالبة كما قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقال ولعلا بعضهم على بعض فيبقى ذلك المشرك متحيرا ضالا لا يدرى أى هؤلاء الآلهة يعبد وعلى ربوبية أيهم يعتمد وممن يطلب رزقه وممن يلتمس رفقه فهمه شعاع وقلبه أوزاع أما من لم يثبت الا الها واحدا فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه وما أسخطه فكان حال هذا أقرب الى الصلاح من حال الاول وهذا مثل ضرب فى غاية الحسن فى تقبيح الشرك وتحسين التوحيد فان قيل هذا المثال لا ينطبق على عبادة الاصنام لانها جمادات فليس بينها منازعة ولا مشاكسة قلنا ان عبدة الاصنام مختلفون منهم من يقول هذه الاصنام تماثيل الكواكب السبعة فهم فى الحقيقة انما يعبدون الكواكب السبعة ثم ان القوم يثبتون بين هذه الكواكب منازعة ومشاكسة ألا ترى انهم يقولون زحل هو النحس الاعظم والمشترى هو السعد الاعظم ومنهم من يقول هذه الاصنام تماثيل الارواح الفلكية والقائلون بهذا القول زعموا ان كل نوع من أنواع حوادث هذا العالم يتعلق بروح من الارواح السماوية وحينئذ يحصل بين تلك الارواح منازعة ومشاكسة وحينئذ يكون المثل مطابقا ومنهم من يقول هذه الاصنام تماثيل الاشخاص من العلماء والزهاد الذين مضوا فهم يعبدون هذه التماثيل لتصير أولئك الاشخاص من العلماء والزهاد شفعاء لهم عند الله والقائلون بهذا القول تزعم كل طائفة منهم أن المحق هو ذلك الرجل الذى هو على دينه وان من سواه مبطل وعلى هذا التقدير أيضا ينطبق المثال فثبت أن هذا المثال مطابق للمقصود أما قوله تعالى هل يستويان مثلا فالتقدير هل يستويان صفة فقوله مثلا نصب على التمييز والمعنى هل تستوى صفتاهما وحالاهما وانما اقتصر فى التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرئ مثلين ثم قال الحمد لله والمعنى انه لما بطل القول باثبات الشركاء والانداد وثبت انه لا اله الا هو الواحد الاحد الحق ثبت ان الحمد له لا لغيره ثم قال بعده بل أكثرهم لا يعلمون أى لا يعلمون ان الحمد له لا لغيره وان المستحق للعبادة هو الله لا غيره وقيل المراد انه لما سبقت هذه الدلائل الظاهرة والبينات الباهرة قال الحمد لله على حصول هذه البيانات وظهور هذه البينات وان كان أكثر الخلق لم يعرفوها ولم يقفوا عليها ولما تمم الله هذه البيانات قال انك ميت وانهم ميتون والمراد أن هؤلاء الاقوام وان لم يلتفتوا الى هذه الدلائل القاهرة بسبب استيلاء الحرص والحسد عليهم فى الدنيا فلا تبال يا محمد بهذا فانك ستموت وهم أيضا سيموتون ثم تحشرون يوم القيامة وتختصمون عند الله تعالى والعادل

ما يشاؤنه من تكفير السيآت والأمن من الفزع الاكبر وسائر أهوال القيامة انما يقع قبل دخول الجنة (ذلك) الذى ذكر من حصول كل ما يشاؤنه (جزاء المحسنين) أى الذين

الحق يحكم بينكم فيوصل الى كل واحد ماهو حقه وحينئذ يتميز المحق من المبطل والصديق من الزنديق فهذا هو المقصود من الآية وقوله تعالى انك ميت وانهم ميتون أى انك واياهم وان كنتم أحياء فانك واياهم فى اعداد الموتى لان كل ماهو آت آت ثم بين تعالى نوعا آخر من قبائح أفعالهم وهو أنهم يكذبون و يضمون اليه انهم يكذبون القائل المحق اما انهم يكذبون فهو انهم أثبتوا لله ولدا وشركاء واما انهم مصرون على تكذيب الصادقين فلانهم يكذبون محمدا صلى الله عليه وسلم بعد قيام الدلالة القاطعة على كونه صادقا فى ادعاء النبوة ثم أردفه بالوعيد فقال أليس فى جهنم مثوى للكافرين ومن الناس من تمسك بهذه الآية فى تكفير المخالف من أهل القبلة وذلك لان المخالف فى المسائل كلها القطعية يكون كاذبا فى قوله و يكون مكذبا للمذهب الذى هو الحق فوجب دخوله تحت هذا الوعيد ❊ قوله تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم مايشاؤن عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون أليس الله بكاف عبده و يخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فماله من هاد ومن يهد الله فماله من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام) اعلم انه تعالى لما ذكر وعيد الكاذبين والمكذبين الصادقين ذكر عقيبه وعد الصادقين ووعد المصدقين ليكون الوعد مقرونا بالوعيد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله والذى جاء بالصدق وصدق به تقديره والذى جاء بالصدق والذى صدق به وفيه قولان (الاول) ان المراد شخص واحد فالذى جاء بالصدق محمد والذى صدق به هو أبو بكر وهذا القول مروى عن على بن ابى طالب عليه السلام وجماعة من المفسرين رضى الله عنهم (والثانى) ان المراد منه كل من جاء بالصدق فالذى جاء بالصدق الانبياء والذى صدق به الاتباع واحتج القائلون بهذا القول بأن الذى جاء بالصدق جماعة والا لم يجز أن يقال أولئك هم المتقون (المسئلة الثانية) ان الرسالة لاتتم الا بأركان أربعة المرسل والمرسل والرسالة والمرسل اليه والمقصود من الارسال اقدام المرسل اليه على القبول والتصديق فأول شخص أتى بالتصديق هو الذى يتم به الارسال وسمعت بعض القاصين من الذى يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال دعوا أبا بكر فانه من تمة النبوة واعلم انا سواء قلنا المراد بالذى صدق به شخص معين او قلنا المراد منه كل من كان موصوفا بهذه الصفة فان أبا بكر داخل فيه أما على التقدير الاول فدخول أبى بكر فيه ظاهر وذلك لان هذا يتناول أسبق الناس الى التصديق وأجمعوا على أن الاسبق الافضل اما أبو بكر واما على وحمل هذا اللفظ على أبى بكر أولى لان عليا عليه السلام كان وقت البعثة صغيرا فكان كالولد الصغير الذى يكون فى البيت ومعلوم أن اقدامه على التصديق لايفيد مزيد قوة وشوكة اما أبو بكر فانه كان رجلا كبيرا فى السن كبيرا فى المنصب فاقدامه على التصديق يفيد مزيد قوة وشوكة فى الاسلام فكان حمل هذا اللفظ على ابى بكر أولى (وأما على التقدير الثانى) فهو أن يكون المراد كل من كان موصوفا بهذه

أحسنوا أعمالهم وقد مر تفسير الاحسان غير مرة وقوله تعالى (ليكفر الله عنهم اسوأ الذى عملوا) الخ متعلق بقوله تعالى لهم مايشاؤن لكن لا باعتبار منطوقه ضرورة أن التكفير المذكور لايتصور كونه غاية لثبوت مايشاؤن لهم فى الآخرة كيف لا وهو بعض ماسيثبت لهم فيها بل باعتبار فحواه فانه حيث لم يكن اخبارا بما ثبت لهم فيما مضى بل بما سيثبت لهم فيما سيأتى كان فى معنى الوعد به كما مر فى قوله تعالى وعد الله فانه مصدر مؤكد لما قبله من قوله تعالى لهم غرف من فوقها غرف فانه فى معنى وعدهم الله غرفا فانتصب به وعد الله كأنه قيل وعدهم الله جميع مايشاؤنه من زوال المضار وحصول المسار ليكفر عنهم بموجب ذلك الوعد أسوأ الذى عملوا دفعا لمضارهم (ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) اعطاء لمنافعهم واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لابراز كمال الاعتناء بمضمون الكلام واضافة الاسوا والاحسن الى مابعدهما ليست من قبيل اضافة المفضل الى المفضل عليه بل من اضافة الشئ الى بعضه للقصد الى التحقيق والتوضيح من غير اعتبار تفضيله عليه وانما المعتبر فيهما مطلق الفضل والزيادة لا على المضاف اليه المعين بخصوصه كما فى قولهم الناقص والاشج اعدلا بنى مروان ❊ الصفة ❊

الصفة وعلى هذا التقدير يكون أبو بكر داخلا فيه (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قرئ وصدق بالتخفيف أى صدق به الناس ولم يكذبهم يعنى أداه اليهم كما نزل عليه من غير تحريف وقيل وصار صادقا به أى بسببه لان القرآن معجزة والمعجزة تصديق من الحكيم الذى لا يفعل القبيح فيصير المدعى الرسالة صادقا بسبب تلك المعجزة وقرئ وصدق واعلم انه تعالى اثبت الذى جاء بالصدق وصدق به أحكاما كثيرة (فالحكم الاول) قوله أولئك هم المتقون وتقريره ان التوحيد والشرك ضدان وكلما كان أحد الضدين أشرف وأكمل كان الضد الثانى أخس وأرذل ولما كان التوحيد أشرف الاسماء كان الشرك أخس الاشياء والآتى بأحد الضدين يكون تاركا للضد الثانى فالآتى بالتوحيد الذى هو أفضل الاشياء يكون تاركا للشرك الذى هو أخس الاشياء وأرذلها فلهذا المعنى وصف المصدقين بكونهم متقين (الحكم الثانى) للمصدقين قوله تعالى لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك جزاء المحسنين وهذا الوعد يدخل فيه كل ما رغب المكلف فان قيل لاشك ان الكمال محبوب لذاته مرغوب فيه لذاته وأهل الجنة لاشك انهم عقلاء فاذا شاهدوا الدرجات العالية التى هى للانبياء وأكابر الاولياء عرفوا أنها خيرات عالية ودرجات كاملة والعلم بالشئ من حيث انه كمال وخير يوجب الميل اليه والرغبة فيه واذا كان كذلك فهم يشاؤن حصول تلك الدرجات لانفسهم فوجب حصولها لهم بحكم هذه الآية وأيضا فان لم يحصل لهم ذلك المراد كانوا فى الغصة ووحشة القلب وأجيب عنه بأن الله تعالى يزيل الحقد والحسد عن قلوب أهل الآخرة وذلك يقتضى ان أحوالهم فى الآخرة بخلاف أحوالهم فى الدنيا ومن الناس من تمسك بهذه الآية فى أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة قالوا ان الذين يعتقدون انهم يرون الله تعالى لاشك انهم داخلون تحت قوله تعالى وصدق به لانهم صدقوا الانبياء عليهم السلام ثم ان ذلك الشخص يريد رؤية الله تعالى فوجب أن يحصل له ذلك لقوله تعالى لهم ما يشاؤن عند ربهم فان قالوا لانسلم ان أهل الجنة يشاؤن ذلك قلنا هذا باطل لان الرؤية أعظم وجوه التجلى وزوال الحجاب ولاشك انها حالة مطلوبة لكل أحد نظر الى هذا الاعتبار بل لو ثبت بالدليل كون هذا المطلوب ممتنع الوجود لعينه فانه يترك طلبه لا لاجل عدم المقتضى للطلب بل لقيام المانع وهو كونه ممتنعا فى نفسه فثبت ان هذه الشبهة قائمة والنص يقتضى حصول كل ما أرادوه وشاؤه فوجب حصولها واعلم أن قوله عند ربهم لا يفيد العندية بمعنى الجهة والمكان بل بمعنى الصمدية والاخلاص كما فى قوله تعالى عند مليك مقتدر واعلم ان المعتزلة تمسكوا بقوله وذلك جزاء المحسنين على أن هذا الاجر مستحق لهم على احسانهم فى العبادة (الحكم الثالث) قوله تعالى ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون فقوله لهم ما يشاؤن عند ربهم يدل على حصول الثواب على أكمل الوجوه وقوله ليكفر الله عنهم يدل على سقوط العقاب عنهم على أكمل الوجوه فقيل المراد انهم اذا

خلا أن الزيادة المعتبرة فيهما ليست بطريق الحقيقة بل هى فى الاول بالنظر الى ما يليق بحالهم من استعظام سيآتهم وان قلت واستصغار حسناتهم وان جلت والثانى بالنظر الى لطف أكرم الاكرمين من استكثار الحسنة اليسيرة ومقابلتها بالمثوبات الكثيرة وحمل الزيادة على الحقيقة وان أمكن فى الاول بناء على أن تخصيص الاسوا بالذكر لبيان تكفير مادونه بطريق الاولوية ضرورة استلزام تكفير الاسوا لتكفير السيء لكن لما لم يكن ذلك فى الاحسن كان الاحسن نظمهما فى سلك واحد من الاعتبار والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل فى صلة الموصول الثانى دون الاول للايذان باستمرارهم على الاعمال الصالحة بخلاف السيئة (أليس الله بكاف عبده) انكار ونفى لعدم كفايته تعالى على أبلغ وجه وآكده كأن الكفاية من التحقق والظهور بحيث لا يقدر أحد على أن يتفوه بعدمها أو يتلعثم فى الجواب بوجودها والمراد بالعبد اما رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الجنس المنتظم له عليه السلام انتظاما أوليا ويؤيده قراءة من قرأ عباده وفسر بالانبياء عليهم الصلاة والسلام وكذا قراءة من قرأ بكافى عباده على الاضافة ويكافى عباده على صيغة المغالبة اما من الكفاية لافادة

المبالغة فيها واما من المكافاة بمعنى المجازاة وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما قالت له قريش انا نخاف أن تخبلك آلهتنا و يصيبك مضرتها لعيبك اياها وفى رواية قالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون كما قال قوم هود ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء وذلك قوله تعالى (ويخوفونك بالذين من دونه) أى الاوثان التى اتخذوها آلهة من دونه تعالى والجملة استئناف وقيل حال (ومن يضلل الله) حتى غفل عن كفايته تعالى وعصمته له عليه الصلاة والسلام وخوفه بما لا ينفع ولا يضر أصلا (فما له من هاد) يهديه الى خير ما (ومن يهد الله فما له من مضل) يصرفه عن مقصده أو يصيبه بسوء يخل بسلوكه اذ لا راد لفعله ولا معارض لارادته كما ينطق به قوله تعالى (أليس الله بعزيز) غالب لا يغالب منيع لا يمانع ولا ينازع (ذى انتقام) ينتقم من أعدائه لاوليائه واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) لوضوح الدليل وسنوح السبيل (قل) تبكيتا لهم (أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره) أى بعد ما تحققتم أن خالق العالم العلوى والسفلى هو الله عز وجل فاخبرونى أن آلهتكم ان أرادنى الله بضر هل يكشفن عنى ذلك الضر (أو أرادنى ﴿ برحمة ﴾

صدقوا الانبياء عليهم السلام فيما أتوا فان الله يكفر عنهم أسوأ أعمالهم وهو الكفر السابق على ذلك الايمان و يوصل اليهم أحسن أنواع الثواب وقال مقاتل يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوى واعلم أن مقاتلا كان شيخ المرجئة وهم الذين يقولون لا يضر شئ من المعاصى مع الايمان كما لا ينفع شئ من الطاعات مع الكفر واحتج بهذه الآية فقال انها تدل على أن من صدق الانبياء والرسل فانه تعالى يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ولا يجوز حمل هذا الاسوأ على الكفر السابق لان الظاهر من الآية يدل على أن التكفير انما حصل فى حال ما وصفهم الله بالتقوى وهو التقوى من الشرك واذا كان كذلك وجب أن يكون المراد منه الكبائر التى يأتى بها بعد الايمان فتكون هذه الآية تنصيصا على أنه تعالى يكفر عنهم بعد ايمانهم أسوأ ما يأتون به وذلك هو الكبائر (الحكم الرابع) انه جرت العادة ان المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة فحسم الله مادة هذه الشبهة بقوله تعالى أليس الله بكاف عبده وذكره بلفظ الاستفهام والمراد تقرير ذلك فى النفوس والامر كذلك لانه ثبت انه عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات غنى عن كل الحاجات فهو تعالى عالم بحاجات العباد وقادر على دفعها وابدالها بالخيرات والراحات وهو ليس بخيلا ولا محتاجا حتى يمنعه بخله وحاجته عن اعطاء ذلك المراد واذا ثبت هذا كان الظاهر انه سبحانه يدفع الآفات و يزيل البليات و يوصل اليه كل المرادات فلهذا قال أليس الله بكاف عبده ولما ذكر الله المقدمة رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال و يخوفونك بالذين من دونه يعنى لما ثبت أن الله كاف عبده كان التخويف بغير الله عبثا و باطلا قرأ أكثر القراء عبده بلفظ الواحد وهو اختيار أبى عبيدة لانه قال له و يخوفونك روى أن قريشا قالت للنبى صلى الله عليه وسلم انا نخاف أن تخبلك آلهتنا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقرأ جماعة عباده بلفظ الجمع قيل المراد بالعباد الانبياء فان نوحا كفاه الغرق وابراهيم النار و يونس بالانجاء مما وقع له فهو تعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك وقيل أمم الانبياء قصدوهم بالسوء لقوله تعالى وهمت كل أمة برسولهم وكفاهم الله شر من عاداهم واعلم انه تعالى لما أطنب فى شرح الوعيد والوعد والترهيب والترغيب ختم الكلام بخاتمة هى الفصل الحق فقال ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهدى الله فما له من مضل يعنى هذا الفصل لا ينفع والبينات الا اذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق وقوله أليس الله بعزيز ذى انتقام تهديد للكفار واعلم أن أصحابنا يتمسكون فى مسئلة خلق الاعمال وارادة الكائنات بقوله ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهدى الله فما له من مضل والمباحث فيه من الجانبين معلومة والمعتزلة يتمسكون على صحة مذهبهم فى هاتين المسئلتين بقوله أليس الله بعزيز ذى انتقام ولو كان الخالق للكفر فيهم هو الله لكان الانتقام والتهديد بغير لائق به * قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى

برحمة) أى أو أرادنى بنفع ... وقرئ كاشفات ضره وممسكات رحمته بالتنوين فيهما
ونصب ضره ورحمته وتعليق ارادة الضر والرحمة بنفسه عليه الصلاة والسلام للرد فى نحورهم حيث كانوا خوفوه معرة
الاوثان ولما فيه من الايذان بامحاض النصيحة (قل ﴿ ٢٦٥ ﴾ حسبى الله) أى فى جميع أمورى من اصابة الخير ودفع

برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون قل ياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) اعلم انه تعالى لما اطنب فى وعيد المشركين وفى وعد الموحدين عاد الى اقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الاصنام وبنى هذا التزييف على أصلين (الاصل الاول) هو أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الاله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد بقوله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله واعلم أن من الناس من قال ان العلم بوجود الاله القادر الحكيم الرحيم متفق عليه بين جمهور الخلائق لانزاع بينهم فيه وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم فان من تأمل فى عجائب أحوال السموات والارض وفى عجائب أحوال النبات والحيوان خاصة وفى عجائب بدن الانسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة علم انه لابد من الاعتراف بالاله القادر الحكيم الرحيم والاصل الثانى ان هذه الاصنام لاقدرة لها على الخير والشر وهو المراد من قوله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته فثبت انه لابد من الاقرار بوجود الاله القادر الحكيم الرحيم وثبت ان هذه الاصنام لاقدرة لهما على الخير والشر واذا كان الامر كذلك كانت عبادة الله كافية وكان الاعتماد عليه كافيا وهو المراد من قوله قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون فاذا ثبت هذا الاصل لم يلتفت العاقل الى تخويف المشركين فكان المقصود من هذه الآية هو التنبيه على الجواب عما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله تعالى ويخوفونك بالذين من دونه وقرئ كاشفات ضره وممسكات رحمته بالتنوين على الاصل وبالاضافة للتخفيف فان قيل كيف قوله كاشفات وممسكات على التأنيث بعد قوله ويخوفونك بالذين من دونه قلنا المقصود التنبيه على كمال ضعفها فان الانوثة مظنة الضعف ولانهم كانوا يصفونها بالتأنيث ويقولون اللات والعزى ومناة ولما أورد الله عليهم هذه الحجة التى لادافع لها قال بعده على وجه التهديد قل ياقوم اعملوا على مكانتكم أى أنتم تعتقدون فى أنفسكم انكم فى نهاية القوة والشدة فاجتهدوا فى أنواع مكركم وكيدكم فانى عامل أيضا فى تقرير دينى فسوف تعلمون ان العذاب والخزى يصيبنى أو يصيبكم والمقصود منه التخويف ﴿ قوله تعالى (انا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لايملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والارض ثم اليه ترجعون) فى الآية مسائل (المسألة الاولى) اعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعظم عليه اصرارهم على الكفر كما قال فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا وقال لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين وقال تعالى فلا تذهب

الشر روى أنه عليه الصلاة والسلام لما سألهم سكتوا فنزل ذلك (عليه يتوكل المتوكلون) لاعلى غيره أصلا لعلمهم بان كل ماسواه تحت ملكوته تعالى (قل ياقوم اعملوا على مكانتكم) على حالتكم التى انتم عليها فيها فان المكانة تستعار من العين للمعنى كما تستعار هنا وحيث للزمان مع كونهما للمكان وقرئ على مكاناتكم (انى عامل) أى على مكانتى فحذف للاختصار والمبالغة فى الوعيد والاشعار بان حاله لاتزال تزداد قوة بنصر الله عز وجل وتأييده ولذلك توعدهم بكونه منصورا عليهم فى الدارين بقوله تعالى (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) فان خزى أعدائه دليل غلبته عليه الصلاة والسلام وقد عذبهم الله تعالى وأخزاهم يوم بدر (ويحل عليه عذاب مقيم) أى دائم وهو عذاب النار (انا أنزلنا عليك الكتاب للناس) لاجلهم

فانه مناط مصالحهم فى ﴿ ٣٤ ﴾ سا المعاش والمعاد (بالحق) حال من فاعل أنزلنا أو من مفعوله (فمن اهتدى) بان عمل بما فيه (فلنفسه)

أي انما نفع به نفسه (من ضل) بان لم يعمل بموجبه (فانما يضل عليها) لما أن وبال ضلاله مقصور عليها (وما أنت عليهم بوكيل) لتجبرهم على الهدى وما وظيفتك الا البلاغ وقد بلغت أي بلاغ (الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) أي يقبضها من الابدان بان يقطع تعلقها عنها ﴿ ٢٦٦ ﴾ وتصرفها فيها اما ظاهرا او باطنا كما عند الموت أو ظاهرا فقط كما عند النوم (فيمسك التي قضى عليها الموت) ولا يردها الى البدن وقرئ قضى على البناء للمفعول ورفع الموت (ويرسل الاخرى) أي النائمة الى بدنها عند التيقظ (الى أجل مسمى) هو الوقت المضروب لموته وهو غاية لجنس الارسال الواقع بعد الامساك لا لفرد منه فان ذلك مما لا امتداد فيه ولا كمية وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ان في ابن آدم نفسا وروحا بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس هي التي بها العقل والتمييز والروح هي التي بها النفس والتحرك فتتوفيان عند الموت وتتوفى النفس وحدها عند النوم قريب مما ذكر (ان في ذلك) أي فيما ذكر من التوفي على الوجهين والامساك في أحدهما والارسال في الآخر (لآيات) عجيبة دالة على كمال قدرته تعالى وحكمته وشمول رحمته (لقوم يتفكرون) في كيفية تعلقها بالابدان وتوفيها عنها تارة بالكلية كما عند الموت وامساكها باقية لا تفنى بفنائها وما يعتريها ﴿ بخواص ﴾ من السعادة والشقاوة وأخرى عن ظواهرها فقط كما عند النوم وارسالها حينا بعد حين الى انقضاء آجالها

نفسك عليهم حسرات فلما أطنب الله تعالى في هذه الآية في فساد مذاهب المشركين تارة بالدلائل والبينات وتارة بضرب الامثال وتارة بذكر الوعيد أردفه بكلام يزيل ذلك الخوف العظيم عن قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال انا أنزلنا عليك هذا الكتاب الكامل الشريف لنفع الناس ولاهتدائهم به وجعلنا انزاله مقرونا بالحق وهو المعجز الذي يدل على انه من عند الله فمن اهتدى فنفعه يعود اليه ومن ضل فضرر ضلاله يعود اليه وما أنت عليهم بوكيل والمعنى انك لست مأمورا بان تحملهم على الايمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض اليهم وذلك لتسلية الرسول في اصرارهم على الكفر ثم بين تعالى أن الهداية والضلال لا يحصلان الا من الله تعالى وذلك لان الهداية تشبه الحياة واليقظة والضلال يشبه الموت والنوم كما أن الحياة واليقظة وكذلك الموت والنوم لا يحصلان الا بتخليق الله عز وجل وايجاده فكذلك الهداية والضلال لا تحصلان الا من الله تعالى ومن عرف هذه الدقيقة فقد عرف سر الله تعالى في القدر ومن عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب فيصير التنبيه على هذه الدقيقة سببا لزوال ذلك الحزن عن قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا وجه النظم في الآية وقيل نظم الآية أنه تعالى ذكر حجة أخرى في اثبات انه الاله العالم ليدل على انه بالعبادة أحق من هذه الاصنام (المسألة الثانية) المقصود من الآية انه تعالى يتوفى الانفس عند الموت وعند النوم الا انه يمسك الانفس التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى وهي النائمة الى أجل مسمى أي الى وقت ضربه لموتها فقوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها يعني انه تعالى يتوفى الانفس التي نامت وما ماتت عند منامها وقوله تعالى فيمسك التي قضى عليها الموت يعني ان النفس التي يتوفاها عند الموت يمسكها ولا يردها الى البدن وقوله ويرسل الاخرى الى أجل مسمى يعني ان النفس التي يتوفاها عند النوم يردها الى البدن عند اليقظة وتبقى هذه الحالة الى أجل مسمى وذلك الاجل هو وقت الموت فهذا تفسير لفظ الآية وهي مطابقة للحقيقة ولكن لا بد فيه من مزيد بيان فنقول النفس الانسانية عبارة عن جوهر مشرق روحاني اذا تعلق بالبدن حصل ضوؤه في جميع الاعضاء وهو الحياة فنقول انه في وقت الموت ينقطع تعلقه عن ظاهر هذا البدن وعن باطنه وذلك هو الموت وأما في وقت النوم فانه ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن من بعض الوجوه ولا ينقطع ضوؤه عن باطن البدن فثبت ان الموت والنوم من جنس واحد الا ان الموت انقطاع تام كامل والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه واذا ثبت هذا ظهر ان القادر العالم الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أوجه (أحدها) ان يقع ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه وذلك هو اليقظة (وثانيها) أن يرتفع ضوء النفس عن ظاهر البدن من بعض الوجوه دون باطنه وذلك هو النوم (وثالثها) أن يرتفع ضوء النفس عن البدن بالكلية وهو الموت فثبت أن الموت والنوم يشتركان في كون كل واحد منهما توفيا للنفس ثم يمتاز أحدهما عن الآخر

(أم اتخذوا) أى بل اتخذ قريش (من دون الله) من دون اذنه تعالى (شفعاء) تشفع لهم عنده تعالى (قل أولو كانوا لايملكون شيئا ولايعقلون) الهمزة لانكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه أى قل أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا لايملكون شيئا من الاشياء ولايعقلونه فضلا عن أن

يملكوا الشفاعة عند الله تعالى أوهى لانكار الوقوع ونفيه على أن المراد بيان أن ما فعلوا ليس من اتخاذ الشفعاء فى شئ لانه فرع كون الاوثان شفعاء وذلك أظهر المحالات فالمقدر حينئذ غير ما قدر أولا وعلى أى تقدير كان فالواو للعطف على شرطية قد حذفت لدلالة المذكورة عليها أى أيشفعون لو كانوا يملكون شيئا ولو كانوا لايملكون الخ وجواب لو محذوف لدلالة المذكور عليه وقد مر تحقيقه مرارا (قل) بعد تبكيتهم وتجهيلهم بما ذكر تحقيقا للحق (لله الشفاعة جميعا) أى هو مالكها لايستطيع أحد شفاعة ما الا ان يكون المشفوع له مرتضى والشفيع مأذونا له وكلاهما مفقودهنا وقوله تعالى (له ملك السموات والارض) تقرير له وتأكيد أى له ملكهما ومافيهما من المخلوقات لايملك أحد أن يتكلم فى أمر من أموره بدون اذنه ورضاه (ثم اليه ترجعون) يوم القيامة لا الى أحد سواه لا استقلالا ولا اشتراكا فيفعل يومئذ مايريد (واذا ذكر الله وحده) دون آلهتهم (اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة) أى انقبضت ونفرت كما فى قوله تعالى واذا ذكرت ربك فى القرآن

بخواص معينة فى صفات معينة ومثل هذا التدبير العجيب لايمكن صدوره الا عن القادر العليم الحكيم وهو المراد من قوله ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ويحتمل أن يكون المراد بهذا أن الدليل يدل على أن الواجب على العاقل ان يعبد الها موصوفا بهذه القدرة وبهذه الحكمة وان لايعبد الاوثان التى هى جمادات لاشعور لها ولا ادراك واعلم ان الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالا فقالوا نحن لانعبد هذه الاصنام لاعتقادنا انها آلهة تضر وتنفع وانما نعبدها لاجل انها تماثيل لاشخاص كانوا عند الله من المقربين فنحن نعبدها لاجل أن يصير أولئك الاكابر شفعاء لنا عند الله فأجاب الله تعالى بأن قال أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لايملكون شيئا ولايعقلون وتقرير الجواب أن هؤلاء الكفار اما أن يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الاصنام أو من أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الاصنام تماثيل لها (والاول) باطل لان هذه الجمادات وهى الاصنام لاتملك شيئا ولاتعقل شيئا فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها (والثانى) باطل لان فى يوم القيامة لايملك أحد شيئا ولايقدر أحد على الشفاعة الا باذن الله فيكون الشفيع فى الحقيقة هو الله الذى يأذن فى تلك الشفاعة فكان الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره وهذا هو المراد من قوله تعالى قل لله الشفاعة جميعا ثم بين انه لاملك لاحد غير الله بقوله له ملك السموات والارض ثم اليه ترجعون ومنهم من تمسك فى نفى الشفاعة مطلقا بقوله تعالى قل لله الشفاعة جميعا وهذا ضعيف لانا نسلم انه سبحانه مالم يأذن فى الشفاعة لم يقدر أحد على الشفاعة فان قيل قوله الله يتوفى الانفس حين موتها فيه سؤال لان هذا يدل على ان المتوفى هو الله فقط وتأكد هذا بقوله الذى خلق الموت والحياة وبقوله ربى الذى يحيى ويميت وبقوله كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم ان الله تعالى قال فى آية أخرى قل يتوفاكم ملك الموت وقال فى آية ثالثة حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وجوابه ان المتوفى فى الحقيقة هو الله الا انه تعالى فوض فى عالم الاسباب كل نوع من أنواع الاعمال الى ملك من الملائكة ففوض قبض الارواح الى ملك الموت وهو رئيس وتحته اتباع وخدم فاضيف التوفى فى هذه الآية الى الله تعالى بالاضافة الحقيقية وفى الآية الثانية الى ملك الموت لانه هو الرئيس فى هذا العمل والى سائر الملائكة لانهم هم الاتباع لملك الموت والله أعلم * قوله تعالى (واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون قل اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ولو أن للذين ظلموا مافى الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيآت ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) اعلم ان هذا نوع آخر من الاعمال القبيحة للمشركين وهو انك اذا ذكرت الله وحده تقول لا اله الا الله وحده لاشريك له ظهرت آثار النفرة من وجوههم

حده ولوا على أدبارهم نفورا (وإذا ذكر الذين من دونه) فرادى أو مع ذكر الله تعالى (إذا هم يستبشرون) لفرط افتتانهم بها ونسيانهم حق الله تعالى ولقد بولغ في بيان حاليهم القبيحتين حيث بين الغاية فيهما فان الاستبشار هو أن يمتلئ القلب سرورا حتى ينبسط له بشرة الوجه والاشمئزاز أن يمتلئ غيظا وغما ينقبض منه أديم الوجه والعامل في إذا الأولى اشمأزت وفي الثانية ما هو العامل في إذا المفاجأة تقديره وقت ذكر الذين من دونه فاجؤا وقت الاستبشار (قل اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة) اي التجئ اليه تعالى بالدعاء لما تحيرت في أمر الدعوة وضجرت من شدة شكيمتهم في المكابرة والعناد فانه القادر على الاشياء بجملتها والعالم بالاحوال برمتها (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) أي حكما يسلمه كل مكابر معاند ويخضع له كل عات مارد وهو العذاب الدنيوي أو الاخروي وقوله تعالى (ولو أن للذين ظلموا ما في الارض جميعا) الخ كلام مستأنف مسوق لبيان آثار الحكم الذي استدعاه النبي صلى الله عليه وسلم وغاية شدته وفظاعته أي لو أن لهم جميع ما في الدنيا من الاموال والذخائر (ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة) أي لجعلوا كل ذلك فدية لانفسهم من العذاب الشديد وهيهات ولات حين مناص وهذا كما ترى ﴿ يؤمنون ﴾ وعيد شديد وإقناط كلي لهم من الخلاص (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) أي ظهر لهم

وقلوبهم وإذا ذكرت الاصنام والاوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم وصدورهم وذلك يدل على الجهل والحماقة لان ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات وأما ذكر الاصنام التي هي الجمادات الخسيسة فهو رأس الجهالات والحماقات فنفرتهم عن ذكر الله وحده واستبشارهم بذكر هذه الاصنام من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ والحمق الشديد قال صاحب الكشاف وقد يقابل الاستبشار والاشمئزاز اذ كل واحد منهما غاية في بابه لان الاستبشار ان يمتلئ قلبه سرورا حتى يظهر أثر ذلك السرور في بشرة وجهه ويتهلل والاشمئزاز ان يعظم غمه وغيظه فينقبض الروح الى داخل القلب فيبقى في أديم الوجه أثر الغبرة والظلمة الارضية ولما حكى عنهم هذا الامر العجيب الذي تشهد فطرة العقل بفساده أردفه بأمرين (أحدهما) انه ذكر الدعاء العظيم فوصفه أولا بالقدرة التامة وهي قوله قل اللهم فاطر السموات والارض وثانيا بالعلم الكامل وهو قوله تعالى عالم الغيب والشهادة وانما قدم ذكر القدرة على ذكر العلم لان العلم بكونه تعالى قادرا متقدم على العلم بكونه عالما ولما ذكر هذا الدعاء قال انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون يعني ان نفرتهم عن التوحيد وفرحهم عند سماع الشرك أمر معلوم الفساد ببديهة العقل ومع ذلك القوم قد أصروا عليه فلا يقدر أحد على ازالتهم عن هذا الاعتقاد الفاسد والمذهب الباطل الا أنت عن أبي سلمة قال سألت عائشة بم كان يفتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته بالليل قالت كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك وانك لتهدي من تشاء الى صراط مستقيم واعلم انه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل ذكر في وعيدهم اشياء (أولها) ان هؤلاء الكفار لو ملكوا كل ما في الارض من الاموال وملكوا مثله معه لجعلوا الكل فدية لانفسهم من ذلك العذاب الشديد (وثانيها) قوله تعالى وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون أي ظهرت لهم أنواع من العقاب لم تكن في حسابهم وكما انه صلى الله عليه وسلم قال في صفة الثواب في الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فكذلك في العقاب حصل مثله وهو قوله وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون (وثالثها) قوله تعالى وبدا لهم سيآت ما كسبوا ومعناه ظهرت لهم آثار تلك السيآت التي اكتسبوها أي ظهرت لهم أنواع من العقاب آثار تلك السيآت التي اكتسبوها ثم قال وحاق بهم من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزؤن به فنبه تعالى بهذه الوجوه على عظم عقابهم * قوله تعالى (فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فأصابهم سيآت ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيآت ما كسبوا وما هم بمعجزين أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان في ذلك لآيات لقوم

من فنون العقوبات مالم يكن في حسابهم وهذه غاية من الوعيد لاغاية وراءها ونظيره في الوعد قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين (و بدا لهم سيآت ما كسبوا) سيآت أعمالهم أو كسبهم حين تعرض عليهم صحائفهم (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) ﴿ ٢٦٩ ﴾ أي أحاط بهم جزاؤه (فاذا مس الانسان ضر دعانا) اخبار عن الجنس بما يفعله غالب أفراده والفاء لترتيب ما بعدها من المناقضة والتعكيس على ما مر من حالتيهم القبيحتين وما بينهما اعتراض مؤكد للانكار عليهم أي انهم يشمئزون عن ذكر الله تعالى وحده و يستبشرون بذكر الآلهة فاذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا عن ذكره دون من استبشروا بذكره (ثم اذا خولناه نعمة منا) أعطيناه اياها تفضلا فان التخويل مختص به لا يطلق على ما أعطى جزاء (قال انما أوتيته على علم) أي على علم مني بوجوه كسبه أو باني سأعطاه لما لي من الاستحقاق أو على علم من الله تعالى بي و باستحقاقي والهاء لما ان جعلت موصولة والا فلنعمة والتذكير لما أن المراد شيء من النعمة (بل هي فتنة) أي محنة وابتلاء له أيشكر أم يكفر وهو رد لما قاله وتغيير السبك للمبالغة فيه والايذان بان ذلك ليس من باب الايتاء المنبئ عن الكرامة وانما هو أمر مباين له بالكلية وتأنيث الضمير باعتبار لفظ النعمة أو باعتبار الخبر وقرئ بالتذكير (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن الامر كذلك وفيه دلالة على أن المراد بالانسان هو الجنس (قد قالها الذين من قبلهم) الهاء لقوله

يؤمنون) اعلم أن هذا حكاية طريقة أخرى من طرائقهم الفاسدة وذلك لانهم عند الوقوع في الضر الذي هو الفقر والمرض يفزعون الى الله تعالى و يرون أن دفع ذلك لا يكون الا منه ثم انه تعالى اذا خولهم النعمة وهي اما السعة في المال أو العافية في النفس زعم انه انما حصل ذلك بكسبه و بسبب جهده وجده فان كان مالا قال انما حصل بكسبي وان كان صحة قال انما حصل ذلك بسبب العلاج الفلاني وهذا تناقض عظيم لانه كان في حال العجز والحاجة أضاف الكل الى الله وفي حال السلامة والصحة قطعه عن الله وأسنده الى كسب نفسه وهذا تناقض قبيح فبين تعالى قبح طريقتهم فيما هم عليه عند الشدة والرخاء بلفظة وجيزة فصيحة فقال بل هي فتنة يعني النعمة التي خولها هذا الكافر فتنة لان عند حصولها يجب الشكر وعند فواتها يجب الصبر ومن هذا حاله يوصف بأنه فتنة من حيث يختبر عنده حال من أوتي النعمة كما يقال فتنت الذهب بالنار اذا عرضته على النار لتعرف خلاصته ثم قال تعالى ولكن أكثرهم لا يعلمون والمعنى ما قدمنا ان هذا التخويل انما كان لاجل الاختبار * و بقي في الآية أبحاث نذكرها في معرض السؤال والجواب (السؤال الاول) ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء ههنا وعطف مثلها في أول السورة بالواو والجواب أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية انهم يشمئزون من سماع التوحيد و يستبشرون بسماع ذكر الشركاء ثم ذكر بفاء التعقيب انهم اذا وقعوا في الضر والبلاء التجؤا الى الله تعالى وحده كان الفعل الاول مناقضا للفعل الثاني فذكر فاء التعقيب ليدل على انهم واقعون في المناقضة الصريحة في الحال وانه ليس بين الاول والثاني فاصل مع ان كل واحد منهما مناقض للثاني فهذا هو الفائدة في ذكر فاء التعقيب ههنا فاما الآية الاولى فليس المقصود منها بيان وقوعهم في التناقض في الحال فلا جرم ذكره الله بحرف الواو ولا بحرف الفاء (السؤال الثاني) ما معنى التخويل الجواب التخويل هو التفضل يعني نحن نتفضل عليه وهو يظن انه انما وجده بالاستحقاق (السؤال الثالث) ما المراد من قوله قال انما أوتيته على علم الجواب يحتمل أن يكون المراد انما أوتيته على علم الله بكوني مستحقا لذلك ويحتمل أن يكون المراد انما أوتيته على علمي بكوني مستحقا له و يحتمل أن يكون المراد انما أوتيته على علم لاجل ذلك العلم قدرت على اكتسابه مثل أن يكون مريضا فيعالج نفسه فيقول انما وجدت الصحة لعلمي بكيفية العلاج وانما وجدت المال لعلمي بكيفية الكسب (السؤال الرابع) النعمة مؤنثة والضمير في قوله أوتيته عائد على النعمة فضمير التذكير كيف عاد الى المؤنث بل قال بعده بل هي فتنة فجعل الضمير مؤنثا فما السبب فيه والجواب ان التقدير حتى اذا خولناه شيأ من النعمة فلفظ النعمة مؤنث ومعناه مذكر فلا جرم جاز الامران ثم قال تعالى قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم الضمير في قالها راجع الى قوله انما أوتيته على علم عندي لانها كلمة أو جملة من القول والذين من قبلهم هم قارون وقومه حيث قال انما أوتيته على علم عندي وقومه راضون به

انما أوتيته على علم لانها كلمة أو جملة وقرئ بالتذكير والموصول عبارة عن قارون وقومه حيث قال انما أوتيته على علم عندي وهم راضون به (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) من متاع الدنيا ويجمعون منه (فأصابهم سيآت ما كسبوا) جزاء سيآت أعمالهم

أو أجزية ما كسبوا وتسميتها سيآت لانها في مقابلة سيآتهم وجزاء سيئة سيئة مثلها (والذين ظلموا من هؤلاء) المشركين ومن للبيان أو للتبعيض أي أفرطوا في الظلم والعتو (سيصيبهم سيآت ما كسبوا) من الكفر والمعاصي كما أصاب أولئك والسين للتأكيد وقد أصابهم أي اصابة حيث قحطوا سبع سنين وقتل صناديدهم يوم بدر (وما هم بمعجزين) أي فائتين (أولم يعلموا) أي أقالوا ذلك ولم يعلموا أو أغفلوا ولم يعلموا (أن الله يبسط الرزق لمن يشاء) أن يبسطه له (ويقدر) لمن يشاء أن يقدره له من غير أن يكون لاحد مدخل ما في ذلك حيث حبس عنهم الرزق سبعا ثم بسطه لهم سبعا (ان في ذلك) الذي ذكر (لآيات) دالة على أن الحوادث كافة من الله عز وجل (لقوم يؤمنون) اذهم المستدلون بها على مدلولاتها (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم) أي أفرطوا في الجناية عليها بالاسراف في المعاصي واضافة العباد تخصصه بالمؤمنين على ما هو

عرف القرآن الكريم (لا تقنطوا من رحمة الله) أي لا تيأسوا من مغفرته أولا وتفضله ثانيا (ان الله يغفر الذنوب جميعا) عفوا لمن يشاء

فكأنهم قالوها ويجوز أيضا أن يكون في الامم الخالية قائلون مثلها ثم قال تعالى فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون أي ما أغنى عنهم ذلك الاعتقاد الباطل والقول الفاسد الذي اكتسبوه من عذاب الله شيأ بل أصابهم سيآت ما كسبوا ولما بين في أولئك المتقدمين انهم أصابهم سيآت ما كسبوا أي عذاب عقائدهم الباطلة وأقوالهم الفاسدة قال وما هم بمعجزين أي لا يعجزونني في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر يعني أولم يعلموا أن الله تعالى هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء تارة ويقبض تارة أخرى وقوله ويقدر أي ويقتر ويضيق والدليل عليه انا نرى الناس مختلفين في سعة الرزق وضيقه ولا بد له من سبب وذلك السبب ليس هو عقل الرجل وجهله لانا نرى العاقل القادر في أشد الضيق ونرى الجاهل المريض الضعيف في أعظم السعة وليس ذلك أيضا لاجل الطبائع والانجم والافلاك لان في الساعة التي ولد فيها ذلك الملك الكبير والسلطان القاهر قد ولد فيه أيضا عالم من الناس وعالم من الحيوانات غير الانسان ويولد أيضا في تلك الساعة عالم من النبات فلما شاهدنا حدوث هذه الاشياء الكثيرة في تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة في السعادة والشقاوة علمنا انه ليس المؤثر في السعادة والشقاوة هو الطالع ولما بطلت هذه الاقسام علمنا ان المؤثر فيه هو الله سبحانه وصح بهذا البرهان العقلي القاطع صحة قوله تعالى أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر قال الشاعر

فلا السعد يقضي به المشتري ٭ ولا النحس يقضي علينا زحل
ولكنه حكم رب السما ٭ وقاضي القضاة تعالى وجل

٭ قوله تعالى (قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم وانيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وانتم لا تشعرون ان تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين أو تقول لو ان الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فاكون من المحسنين بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) اعلم انه تعالى لما أطنب في الوعيد أردفه بشرح كمال رحمته وفضله واحسانه في حق العبيد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يعفو عن الكبائر فقالوا انا بينا في هذا الكتاب ان عرف القرآن جار بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين قال تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وقال عينا يشرب بها عباد الله ولان لفظ العباد مذكور في معرض التعظيم فوجب ان لا يقع الا على المؤمنين اذا ثبت هذا ظهر ان قوله يا عبادي مختص بالمؤمنين ولان المؤمن هو الذي يعترف بكونه عبد الله أما المشركون فانهم يسمون أنفسهم بعبد اللات والعزى وعبد المسيح فثبت ان قوله يا عبادي لا يليق الا بالمؤمنين اذا ثبت هذا فنقول انه تعالى قال الذين أسرفوا على أنفسهم وهذا

عام فى حق جميع المسرفين ثم قال تعالى ان الله يغفر الذنوب جميعا وهذا يقتضى كونه غافرا لجميع الذنوب الصادرة عن المؤمنين وذلك هو المقصود فان قيل هذه الآية لا يمكن اجراؤها على ظاهرها والا لزم القطع بكون الذنوب مغفورة قطعا وأنتم لاتقولون به فما هو مدلول هذه الآية لاتقولون به والذى تقولون به لاتدل عليه هذه الآية فسقط الاستدلال وأيضا انه تعالى قال عقيب هذه الآية وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون الى قوله بغتة وأنتم لاتشعرون ولو كان المراد من أول الآية أنه تعالى غفر جميع الذنوب قطعا لما أمر عقيبه بالتوبة ولما خوفهم بنزول العذاب عليهم من حيث لايشعرون وأيضا قال أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله ولو كانت الذنوب كلها مغفورة فأى حاجة به الى أن يقول ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله وأيضا فلو كان المراد مايدل عليه ظاهر لفظ الآية لكان ذلك اغراء بالمعاصى واطلاقا فى الاقدام عليها وذلك لايليق بحكمة الله واذا ثبت هذا وجب ان يحمل على ان يقال المراد منه التنبيه على أنه لايجوز أن يظن العاصى انه لاخلاص له من العذاب البتة فان من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله اذ لاأحد من العصاة المذنبين الا ومتى تاب زال عقابه وصار من أهل المغفرة والرحمة فمعنى قوله ان الله يغفر الذنوب جميعا أى بالتوبة والانابة والجواب قوله الآية تقتضى كون كل الذنوب مغفورة قطعا وانتم لاتقولون به قلنا بل نحن نقول به ونذهب اليه وذلك لان صيغة يغفر صيغة المضارع وهى للاستقبال وعندنا أن الله تعالى يخرج من النار من قال لااله الا الله محمد رسول الله وعلى هذا التقدير فصاحب الكبيرة مغفور له قطعا اما قبل الدخول فى نار جهنم واما بعد الدخول فيها فثبت أن مايدل عليه ظاهر الآية فهو عين مذهبنا أما قوله لو صارت الذنوب باسرها مغفورة لما أمر بالتوبة فالجواب ان عندنا التوبة واجبة وخوف العقاب قائم فانا لانقطع بازالة العقاب بالكلية بل نقول لعله يعفو مطلقا ولعله يعذب بالنار مدة ثم يعفو بعد ذلك وبهذا الحرف يخرج الجواب عن بقية الاسئلة والله أعلم (المسئلة الثانية) اعلم ان هذه الآية تدل على رجاء الرحمة من وجوه (الاول) انه سمى المذنب بالعبد والعبودية مفسرة بالحاجة والذلة والمسكنة واللائق بالرحيم الكريم افاضة الخير والرحمة على المسكين المحتاج (الثانى) انه تعالى اضافهم الى نفسه بياء الاضافة فقال ياعبادى الذين أسرفوا وشرف الاضافة اليه يفيد الامن من العذاب (الثالث) انه تعالى قال أسرفوا على أنفسهم ومعناه ان ضرر تلك الذنوب ماعاد اليه بل هو عائد اليهم فيكفيهم من تلك الذنوب عود مضارها اليهم ولاحاجة الى الحاق ضرر آخر بهم (الرابع) انه قال لاتقنطوا من رحمة الله نهاهم عن القنوط فيكون هذا أمرا بالرجاء والكريم اذا أمر بالرجاء فلا يليق به الا الكرم (الخامس) أنه تعالى قال أولا ياعبادى وكان الاليق ان يقول لاتقنطوا من رحمتى لكنه ترك هذا اللفظ وقال لاتقنطوا من رحمة الله لان قولنا الله أعظم اسماء الله وأجلها فالرحمة المضافة اليه

وأو بعد حين بتعذيب فى الجملة و بغيره حسبما يشاء وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر كيف لا وقوله تعالى ان الله لايغفر أن يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء ظاهر فى الاطلاق فيما عدا الشرك ومما يدل عليه التعليل بقوله تعالى (انه هو الغفور الرحيم) على المبالغة وافادة الحصر والوعد بالرحمة بعد المغفرة وتقديم مايستدعى عموم المغفرة مما فى عبادى من الدلالة على الذلة والاختصاص المقتضيين للترحم وتخصيص ضرر الاسراف بأنفسهم والنهى عن القنوط مطلقا عن الرحمة فضلا عن المغفرة واطلاقها وتعليله بان الله يغفر الذنوب ووضع الاسم الجليل موضع الضمير لدلالته على أنه المستغنى والمنعم على الاطلاق والتأكيد بالجميع وماروى من أسباب النزول الدالة على ورود الآية فيمن تاب لايقتضى اختصاص الحكم بهم ووجوب حمل المطلق على المقيد فى كلام واحد مثل أكرم الفضلاء أكرم الكاملين غير مسلم فكيف فيما هو بمنزلة كلام واحد ولايخل بذلك الامر بالتوبة والاخلاص فى قوله تعالى (وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون) اذ ليس المدعى أن الآية تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبق تعذيب لتغنى عن الامر بها وتنافى الوعيد بالعذاب (واتبعوا أحسن ماأنزل اليكم من ربكم) أى القرآن أو المأمور به دون المنهى عنه أو العزائم دون الرخص أو الناسخ دون المنسوخ ولعله ماهو أنجى وأسلم كالانابة والمواظبة على الطاعة (من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون) بمجيئه لتتداركوا وتتأهبوا له (أن تقول نفس) أى كراهة أن تقول والتنكير للتكثير كما فى قوله تعالى علمت نفس

ما أحضرت فانه مسلك ربما يسلك عند ارادة التكثير والتعميم وقدمر تحقيقه فى مطلع سورة الحجر (ياحسرتا) بالالف بدلا من ياء الاضافة وقرئ ياحسرتاه بهاء السكت وقفا وقرئ ياحسرتاى بالجمع بين العوضين وقرئ ياحسرتى على الاصل أى احضرى فهذا أوان حضورك (على ما فرطت) أى على تفريطى وتقصيرى (فى جنب الله) أى جانبه وفى حقه وطاعته وعليه قول من قال ☼ أما تتقين الله فى جنب وامق ☼ له كبد حرى وعين ترقرق * وهو كناية فيها مبالغة وقيل فى ذات الله على تقدير مضاف كالطاعة وقيل فى قربه من قوله تعالى والصاحب بالجنب وقرئ فى ذكر الله (وان كنت لمن الساخرين) أى المستهزئين بدين الله تعالى وأهله ومحل الجملة النصب على الحال أى فرطت وأنا ساخر (أو تقول لو أن الله هدانى) بالارشاد الى الحق (لكنت من المتقين) الشرك والمعاصى (أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة) رجعة الى الدنيا (فأكون من المحسنين) فى العقيدة والعمل وأو للدلالة على أنها لا تخلو عن هذه الأقوال تحسرا وتحيرا وتعللا بما لا طائل تحته وقوله تعالى (بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) رد من الله تعالى عليه لما تضمنه قوله لو أن الله هدانى من معنى النفى وفصله عنه لما أن تقديمه يفرق القرائن وتأخير المردود يخل بالترتيب الوجودى لانه يتحسر بالتفريط ثم يتعلل بفقد الهداية ثم يتمنى الرجعة وهو لا يمنع تأثير قدرة الله تعالى فى فعل العبد ولا ما فيه من اسناد الفعل اليه كما عرفت وتذكير الخطاب باعتبار المعنى

يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة والفضل (السادس) انه لما قال لا تقنطوا من رحمة الله كان الواجب أن يقول انه يغفر الذنوب جميعا ولكنه لم يقل ذلك بل أعاد اسم الله وقرن به لفظة ان المفيدة لاعظم وجوه التأكيد وكل ذلك يدل على المبالغة فى الوعد بالرحمة (السابع) انه لو قال يغفر الذنوب لكان المقصود حاصلا لكنه أردفه باللفظ الدال على التأكيد فقال جميعا وهذا أيضا من المؤكدات (الثامن) انه وصف نفسه بكونه غفورا ولفظ الغفور يفيد المبالغة (والتاسع) انه وصف نفسه بكونه رحيما والرحمة تفيد فائدة زائدة على المغفرة فكان قوله انه هو الغفور اشارة الى ازالة موجبات العقاب وقوله الرحيم اشارة الى تحصيل موجبات الرحمة والثواب (العاشر) أن قوله انه هو الغفور الرحيم يفيد الحصر ومعناه انه لا غفور ولا رحيم الا هو وذلك يفيد الكمال فى وصفه سبحانه بالغفران والرحمة فهذه الوجوه العشرة مجموعة فى هذه الآية وهى باسرها دالة على كمال الرحمة والغفران ونسأل الله تعالى الفوز بها والنجاة من العقاب بفضله ورحمته (المسئلة الثالثة) ذكروا فى سبب النزول وجوها قيل انها نزلت فى أهل مكة فانهم قالوا يزعم محمد أن من عبد الاوثان وقتل النفس لم يغفر له وقد عبدنا وقتلنا فكيف نسلم وقيل نزلت فى وحشى قاتل حمزة لما أراد أن يسلم وخاف أن لا تقبل توبته فلما نزلت الآية أسلم فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذه له خاصة أم للمسلمين عامة فقال بل للمسلمين عامة وقيل نزلت فى اناس أصابوا ذنوبا عظاما فى الجاهلية فلما جاء الاسلام اشفقوا أن لا يقبل الله توبتهم وقيل نزلت فى عياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين اسلموا ثم فتنوا فافتتنوا وكان المسلمون يقولون فيهم لا يقبل الله منهم توبتهم فنزلت هذه الآيات فكتب بها عمر وبعث بها اليهم فاسلموا وهاجروا واعلم ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فنزول هذه الآيات فى هذه الوقائع لا يمنع من عمومها (المسئلة الرابعة) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم ياعبادى بفتح الياء والباقون وعاصم فى بعض الروايات بغير فتح وكلهم يقفون عليه باثبات الياء لانها ثابتة فى المصحف الا فى بعض رواية أبى بكر عن عاصم انه يقف بغير ياء وقرأ أبو عمرو والكسائى تقنطوا بكسر النون والباقون بفتحها وهما لغتان قال صاحب الكشاف وفى قراءة ابن عباس وابن مسعود يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء ثم قال تعالى وأنيبوا الى ربكم قال صاحب الكشاف أى وتوبوا اليه واسلموا له أى واخلصوا له العمل وانما ذكر الانابة على اثر المغفرة لئلا يطمع طامع فى حصولها بغير توبة وللدلالة على انها شرط فيها لازم لا تحصل بدونه وأقول هذا الكلام ضعيف جدا لان عندنا التوبة عن المعاصى واجبة فلم يلزم من ورود الامر بها طعن فى الوعد بالمغفرة فان قالوا لو كان الوعد بالمغفرة حاصلا قطعا لما احتيج الى التوبة لان التوبة انما تراد لاسقاط العقاب فاذا سقط العقاب بعفو الله عنه فلا حاجة الى التوبة فنقول هذا ضعيف لان مذهبنا انه تعالى وان كان يغفر الذنوب قطعا لو يغفر عنها قطعا الا ان هذا العفو والغفران يقع على وجهين

تارة يقع ابتداء وتارة يعذب مدة في النار ثم يخرجه من النار ويعفو عنه ففائدة التوبة ازالة هذا العقاب فثبت ان الذي قاله صاحب الكشاف ضعيف ولا فائدة فيه ثم قال واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم واعلم انه تعالى لما وعد بالمغفرة أمر بعد هذا الوعد بأشياء (فالاول) أمر بالانابة وهو قوله تعالى وأنيبوا الى ربكم (والثاني) أمر بمتابعة الاحسن وفي المراد بهذا الاحسن وجوه (الاول) انه القرآن ومعناه واتبعوا القرآن والدليل عليه قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتابا (الثاني) قال الحسن معناه والتزموا طاعة الله واجتنبوا معصية الله فان الذي أنزل على ثلاثة أوجه ذكر القبيح ليجتنب عنه والادون لئلا يرغب فيه والاحسن ليتقوى به ويتبع (الثالث) المراد بالاحسن الناسخ دون المنسوخ لان الناسخ أحسن من المنسوخ لقوله تعالى ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ولان الله تعالى لما نسخ حكما وأثبت حكما آخر كان اعتمادنا على الناسخ أحسن لنا من اعتمادنا على المنسوخ ثم قال من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون والمراد منه التهديد والتخويف والمعنى أنه يفجأ العذاب وأنتم غافلون عنه واعلم انه تعالى لما خوفهم بالعذاب بين تعالى أن بتقدير نزول العذاب عليهم ماذا يقولون فحكى الله تعالى عنهم ثلاثة أنواع من الكلمات (فالاول) قوله تعالى ان تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين وفيه مسائل (المسألة الاولى) قوله ان تقول مفعول له أي كراهة أن تقول يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وأما تنكير لفظ النفس ففيه وجهان (الاول) يجوز أن تراد نفس ممتازة عن سائر النفوس لاجل اختصاصها بمزيد اضرار بالاينق رغبتها في المعاصي (والثاني) يجوز أن يراد به الكثرة وذلك لانه ثبت في علم أصول الفقه ان الحكم المذكور عقيب وصف يناسبه يفيد الظن بأن ذلك الحكم معلل بذلك الوصف فقوله يا حسرتا يدل على غاية الاسف ونهاية الحزن وانه مذكور عقيب قوله تعالى على ما فرطت في جنب الله والتفريط في طاعة الله تعالى يناسب شدة الحسرة وهذا يقتضي حصول تلك الحسرة عند حصول هذا التفريط وذلك يفيد العموم بهذا الطريق (المسألة الثانية) القائلون بثبات الاعضاء لله تعالى استدلوا على اثبات الجنب بهذه الآية واعلم ان دلائلنا على نفي الاعضاء قد كثرت فلا فائدة في الاعادة ونقول بتقدير أن يكون المراد من هذا الجنب عضوا مخصوصا لله تعالى فانه يمتنع وقوع التفريط فيه فثبت انه لا بد من المصير الى التأويل وللمفسرين فيه عبارات قال ابن عباس يريد ضيعت من ثواب الله وقال مقاتل ضيعت من ذكر الله وقال مجاهد في أمر الله وقال الحسن في طاعة الله وقال سعيد ابن جبير في حق الله واعلم ان الاكثار من هذه العبارات لا يفيد شرح الصدور وشفاء الغليل فنقول الجنب سمي جنبا لانه جانب من جوانب ذلك الشيء والشيء الذي يكون من لوازم الشيء وتوابعه يكون كأنه جند من جنوده وجانب من جوانبه فلما حصلت هذه

وقرئ بالتأنيث (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله) بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه كاتخاذ الولد (وجوههم مسودة) بما ينالهم من الشدة أو بما يتخيل عليها من ظلمة الجهل والجملة حال قد اكتفي فيها بالضمير عن الواو وعلى أن الرؤية بصرية أو مفعول ثان لها على أنها عرفانية (أليس في جهنم مثوى) أي مقام (للمتكبرين) من الايمان والطاعة وهو تقرير لما قبله من رؤيتهم كذلك (وينجي الله الذين اتقوا) الشرك والمعاصي أي من جهنم وقرئ ينجي من الانجاء (بمفازتهم) مصدر ميمي اما من فاز بالمطلوب أي ظفر به والباء متعلقة بمحذوف هو حال من الموصول مفيدة لمقارنة تنجيتهم من العذاب لنيل الثواب أي ينجيهم الله تعالى من مثوى المتكبرين ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم الذي هو الجنة وقوله تعالى (لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون) اما حال أخرى من

المشابهة بين الجنب الذي هو العضو و بين ما يكون لازما للشئ وتابعاله لاجرم حسن اطلاق لفظ الجنب على الحق والامر والطاعة قال الشاعر

أما تتقين الله في جنب وامق ❊ له كبد حرا عليك تقطع

(المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قرئ ياحسرتى على الاصل و ياحسرتاى على الجمع بين العوض والمعوض عنه وأما قوله تعالى وان كنت لمن الساخرين أى انه ماكان مكتفيا بذلك التقصير بل كان من المستهزئين بالدين قال قتادة لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ومحل وان كنت نصب على الحال كانه قال فرطت في جنب الله وأنا ساخر أى فرطت في حال سخريتى (النوع الثانى) من الكلمات التى حكاها الله تعالى عن أهل العذاب انهم يذكرونه بعد نزول العذاب عليهم قوله أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين (النوع الثالث) قوله أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين وحاصل الكلام ان هذا المقصر أتى بثلاثة أشياء (أولها) الحسرة على التفريط في الطاعة (وثانيها) التعلل بفقد الهداية (وثالثها) تمنى الرجعة ثم أجاب الله تعالى عن كلامهم بأن قال التعلل بفقد الهداية باطل لان الهداية كانت حاضرة والاعذار زائلة وهو المراد بقوله بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال الزجاج بلى جواب النفى وليس في الكلام لفظ النفى الا أنه حصل فيه معنى النفى لان معنى قوله لو أن الله هدانى انه ما هدانى فلا جرم حسن ذكر لفظة بلى بعده (المسئلة الثانية) قال الواحدى رحمه الله القراءة المشهورة واقعة على التذكير في قوله بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين لان النفس تقع على الذكر والانثى فخوطب المذكر وروى الربيع بن أنس عن أم سلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ على التأنيث قال أبو عبيد لو صح هذا عن النبى صلى الله عليه وسلم لكان حجة لا يجوز لاحد تركها ولكنه ليس بمسند لان الربيع لم يدرك أم سلمة وأما وجه التأنيث فهو انه ذكر النفس ولفظ النفس ورد في القرآن في أكثر الامر على التأنيث بقوله سولت لى نفسى وان النفس لأمارة بالسوء و ياأيتها النفس المطمئنة (المسئلة الثالثة) قال القاضى هذه الآيات دالة على صحة القول بالقدر من وجوه (الاول) انه لا يقال فلان أسرف على نفسه على وجه الذم الا لما يكون من قبله وذلك يدل على أن أفعال العباد تحصل من قبلهم لامن قبل الله تعالى (وثانيها) ان طلب الغفران والرجاء في ذلك أو اليأس لا يحسن الا اذا كان الفعل فعل العبد (وثالثها) اضافة الانابة والاسلام اليه من قبل أن يأتيه العذاب وذلك لا يكون الامع تمكنه من محاولتهما قبل نزول العذاب ومذهبهم أن الكافر لم يتمكن قط من ذلك (ورابعها) قوله تعالى واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم وذلك لا يتم الا اذا هو المختار للاتباع (وخامسها) ذمه لهم على انهم لا يشعرون بما يوجب العذاب وذلك لا يصح الامع التمكن

الموصول أو من ضمير مفازتهم مفيدة لكون نجاتهم أو فوزهم بالجنة غير مسبوقة بمساس العذاب والحزن واما من فاز منه أى نجا منه والباء للملابسة وقوله تعالى لا يمسهم الى آخره تفسير وبيان لمفازتهم أى ينجيهم الله تعالى ملتبسين بنجاتهم الخاصة بهم أى بنفى السوء والحزن عنهم أو للسببية اما على حذف المضاف أى ينجيهم بسبب مفازتهم التى هى تقواهم كما يشعر به ايراده في حيز الصلة واما على اطلاق المفازة على سببها الذى هو التقوى وليس المراد نفى دوام المساس والحزن بل دوام نفيهما كما مر مرارا (الله خالق كل شئ) من خير وشر وايمان وكفر لكن لا بالجبر بل بمباشرة الكاسب لاسبابها (وهو على كل شئ وكيل) يتولى التصرف فيه كيفما يشاء (له مقاليد السموات والارض) لا يملك أمرها ولا يتمكن من التصرف فيها غيره وهو عبارة عن قدرته

من الفعل (وسادسها) قولهم يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ولا يتحسر المرء على امر سبق منه الا وكان يصح منه أن يفعله (وسابعها) قوله تعالى على ما فرطت في جنب الله ومن لا يقدر على الايمان كما يقول القوم ولا يكون الايمان من فعله لا يكون مفرطا (وثامنها) ذمه لهم بانهم من الساخرين وذلك لا يتم الا أن تكون السخرية فعلهم وكان يصح منهم أن لا يفعلوه (وتاسعها) قوله لو أن الله هداني أى مكنني لكنت من المتقين وعلى قولهم اذا لم يقدر على التقوى فكيف يصح ذلك منه (وعاشرها) قوله لو أن لي كرة فاكون من المحسنين وعلى قولهم لو رده الله أبدا كرة بعد كرة وليس فيه الا قدرة الكفر لم يصح أن يكون محسنا (والحادى عشر) قوله تعالى موبخا لهم بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين فبين تعالى ان الحجة عليهم لله لا أن الحجة لهم على الله ولو أن الامر كما قالوا لكان لهم أن يقولوا قد جاءتنا الآيات ولكنك خلقت فينا التكذيب بها ولم تقدرنا على التصديق بها (والثاني عشر) انه تعالى وصفهم بالتكذيب والاستكبار والكفر على جهة الذم ولو لم تكن هذه الاشياء أفعالا لهم لما صح هذا الكلام (والجواب) عنه ان هذه الوجوه معارضة بما ان القرآن مملوء من أن الله تعالى هو الذى يضل ويمنع ويصدر منه اللين والقسوة والاستدراج ولما كان هذا التفسير مما أومنا لم يكن الى الاعادة حاجة ❊ قوله تعالى (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولاهم يحزنون) اعلم ان هذا نوع آخر من تقرير الوعيد والوعد أما الوعيد فقوله تعالى ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة وفيه بحثان (أحدهما) ان هذا التكذيب كيف هو (والثاني) ان هذا السواد كيف هو أما الاول وهو البحث عن حقيقة هذا التكذيب فنقول المشهور ان الكذب هو الاخبار عن الشئ على خلاف ما هو عليه ومنهم من قال هذا القدر لا يكون كذبا بل الشرط في كونه كذبا ان يقصد الاتيان بخبر يخالف المخبر عنه اذا عرفت هذا الاصل فنذكر أقوال الناس في هذه الآية قال الكعبي ويرد الجبر بان هذه الآية قد وردت في المجبرة ثم قال والدليل على ان الامر كذلك ان هذه الآية وردت عقيب قوله لو ان الله هداني يعني انه ما هداني بل أضلني فلما حكى الله هذا عن الكفار ثم ذكر عقيبه ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة وجب أن يكون هذا عائدا الى ذلك الكلام المتقدم ثم روى عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما بال أقوام يصلون ويقرؤن القرآن يزعمون ان الله كتب الذنوب على العباد وهم كذبة على الله والله مسود وجوههم واعلم ان أصحابنا قالوا آخر الآية يدل على فساد هذا التأويل لانه تعالى قال في آخر الآية أليس في جهنم مثوى للمتكبرين وهذا يدل على ان أولئك الذين صارت وجوههم مسودة أقوام متكبرون والتكبر لا يليق بمن يقول انا لا اقدر على الخلق والاعادة والايجاد وانما القادر عليه هو الله سبحانه وتعالى أما الذين

فيها الا من بيده مفاتيحها وهو جمع مقليد او مقلاد من قلدته اذا ألزمته وقيل جمع اقليد معرب كليد على الشذوذ كالمذاكير وعن عثمان رضى الله عنه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المقاليد فقال عليه الصلاة والسلام تفسيرها لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم هو الاول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير والمعنى على هذا ان لله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد وهي مفاتيح خير السموات والارض من تكلم بها أصابه (والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون) متصل بما قبله والمعنى ان الله تعالى خالق لجميع الاشياء ومتصرف فيها كيفما يشاء بالاحياء والاماتة

يقولون ان الله يريد شيأ وأنا أريد بضده فيحصل مرادي ولا يحصل مراد الله فالتكبر بهذا القائل أليق فثبت أن هذا التأويل الذي ذكروه فاسد ومن الناس من قال ان هذا الوعيد مختص باليهود والنصارى ومنهم من قال انه مختص بمشركي العرب قال القاضي يجب حمل الآية على الكل من المشبهة والمجبرة وكذلك كل من وصف الله بما لا يليق به نفيا واثباتا فاضاف اليه ما يجب تنزيهه عنه أو نزهه عما يجب أن يضاف اليه فالكل منهم داخلون تحت هذه الآية لانهم كلهم كذبوا على الله فتخصيص الآية بالمجبرة والمشبهة أو اليهود والنصارى لا يجوز واعلم أنا لو اجرينا هذه الآية على عمومها كما ذكره القاضي لزمه تكفير الامة لانك لا ترى فرقة من فرق الامة الا وقد حصل بينهم اختلاف شديد في صفات الله تعالى ألا ترى أنه حصل الاختلاف بين أبي هاشم وأهل السنة في مسائل كثيرة من صفات الله تعالى ويلزم على قانون قول القاضي تكفير أحدهما فثبت انه يجب أن يحمل الكذب المذكور في الآية على ما اذا قصد الاخبار عن الشيء مع أنه يعلم انه كاذب فيما يقول ومثال هذا كفار قريش فانهم كانوا يصفون تلك الاصنام بالالهية مع انهم كانوا يعلمون بالضرورة كونها جمادات وكانوا يقولون ان الله تعالى حرم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام مع انهم كانوا ينكرون القول بأن الله حرم كذا وأباح كذا وكان قائله عالما بأنه كذب واذا كان كذلك فالحاق مثل هذا الوعيد بهذا الجاهل الكذاب الضال المضل مناسبا أما من لم يقصد الا الحق والصدق لكنه أخطأ بعد الحاق هذا الوعيد به (البحث الثاني) الكلام في كيفية السواد الحاصل في وجوههم والاقرب أنه سواد يخالف لسائر أنواع السواد وهو سواد يدل على الجهل بالله والكذب على الله وأقول ان الجهل ظلمة والظلمة تتخيل كأنها سواد فسواد قلوبهم أوجب سواد وجوههم وتحت هذا الكلام أسرار عميقة من مباحث أحوال القيامة فلما ذكر الله هذا الوعيد أردفه بالوعد فقال وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم الآية قال القاضي المراد به من اتقى كل الكبائر اذ لا يوصف بالاتقاء المطلق الا من كان هذا حاله فيقال له أمرك عجيب جدا فانك قلت لما تقدم قوله تعالى لو أن الله هداني لكنت من المتقين وجب أن يحمل قوله ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة على الذين قالوا لو أن الله هداني فعلى هذا القانون لما تقدم قوله ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ثم قال تعالى بعده وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم وجب أن يكون المراد هم الذين اتقوا ذلك الكذب فهذا يقتضي ان كل من لم يتصف بذلك الكذب أن يدخل تحت الوعد المذكور بقوله وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم وان يكون قولك الذين اتقوا المراد منه من اتقى كل الكبائر فاسدا فثبت ان التعصب يحمل الرجل العاقل على الكلمات المتناقضة بل الحق أن نقول المتقي هو الآتي بالاتقاء والآتي بالاتقاء في صورة واحدة آت بمسمى الاتقاء وبهذا الحرف قلنا الامر المطلق لا يفيد التكرار ثم ذلك الاتقاء

والتنزيلية التي من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بذلك هم الخاسرون خسرانا لا خسار وراءه هذا وقيل هو متصل بقوله تعالى وينجي الله وما بينهما اعتراض فتدبر (قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) أي أبعد مشاهدة هذه الآيات غير الله اعبد وتأمروني اعتراض للدلالة على انهم أمروه به عقيب ذلك وقالوا استلم بعض آلهتنا نؤمن بالهك لفرط غباوتهم ويجوز أن ينتصب غير بما يدل عليه تأمروني أعبد لانه بمعنى تعبدونني وتقولون لي اعبد على أن أصله تأمرونني أن أعبد فحذف أن ورفع ما بعدها كما في قوله * ألا أيهذا الزاجري احضر الوغى * وأن اشهد اللذات هل أنت مخلدي * ويؤيده قراءة أعبد بالنصب وقرئ تأمرونني باظهار النونين على

غير مذكور بعينه في هذه اللفظة فوجب حمله على الانتفاء عن الشيء الذي سبق ذكره وهذا هو الكذب على الله تعالى فثبت ان ظاهر الآية يقتضي ان من اتق عن تلك الصفة وجب دخوله تحت هذا الوعد الكريم ثم قال تعالى بمفازتهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بمفازاتهم على الجمع والباقون بمفازتهم على التوحيد وحكى الواحدي عن الفراء انه قال كلاهما صواب اذ يقال في الكلام قد تبين أمر القوم وأمور القوم قال أبو علي الفارسي الافراد للمصدر ووجه الجمع ان المصادر قد تجمع اذا اختلفت أجناسها كقوله تعالى وتظنون بالله الظنونا ولاشك ان لكل متق نوعا آخر من المفازة (المسئلة الثانية) المفازة مفعلة من الفوز وهو السعادة فكان المعنى ان النجاة في القيامة حصلت بسبب فوزهم في الدنيا بالطاعات والخيرات فعبر عن الفوز بأوقاتها ومواضعها ثم قال لا يمسهم السوء ولاهم يحزنون والمراد انه كالتفسير لتلك النجاة كأنه قيل كيف ينجيهم فقيل لا يمسهم السوء ولاهم يحزنون وهذه كلمة جامعة لانه اذا علم انه لا يمسه السوء كان فارغ البال بحسب الحال عما وقع في قلبه بسبب فوات الماضي فحينئذ يظهر انه سلم عن كل الآفات ونسأل الله الفوز بهذه الدرجات بمنه وكرمه (المسئلة الثالثة) دلت الآية على ان المؤمنين لا ينالهم الخوف والرعب في القيامة وتأكد هذا بقوله لا يحزنهم الفزع الاكبر ۞ قوله تعالى (الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل له مقاليد السموات والارض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) واعلم انه لما أطال الكلام في شرح الوعد والوعيد عاد الى دلائل الالهية والتوحيد وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرنا في سورة الانعام ان أصحابنا تمسكوا بقوله تعالى الله خالق كل شيء على ان أعمال العباد مخلوقة لله تعالى وأطنبنا هنالك في الاسئلة والاجوبة فلا فائدة ههنا في الاعادة الا ان الكعبي ذكر ههنا كلمات فنذكرها ونجيب عنها فقال ان الله تعالى مدح نفسه بقوله الله خالق كل شيء وليس من المدح أن يخلق الكفر والقبائح فلا يصح أن يحتج المخالف به وأيضا فلم يكن في صدر هذه الامة خلاف في أعمال العباد بل كان الخلاف بينهم وبين المجوس والزنادقة في خلق الامراض والسباع والهوام فأراد الله تعالى أن يبين انها جمع من خلقه وأيضا لفظة كل قد لا توجب العموم لقوله تعالى وأوتيت من كل شيء تدمر كل شيء وأيضا لو كانت أعمال العباد من خلق الله لما أضافها اليهم بقوله كفار احسدا من عند أنفسهم ولما صح قوله ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ولما صح قوله وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا فهذا جملة ماذكره الكعبي في تفسيره وقال الجبائي الله خالق كل شيء سوى افعال خلقه التي صح فيها الامر والنهي واستحقوا بها الثواب والعقاب ولو كانت

الاصل وبحذف الثانية (ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك) أي من الرسل عليهم السلام (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) كلام وارد على طريقة الفرض لتهييج الرسل واقناط الكفرة والايذان بغاية شناعة الاشراك وقبحه وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره فكيف بمن عداه وافراد الخطاب باعتبار كل واحد واللام الاولى موطئة للقسم والاخريان للجواب واطلاق الاحباط يحتمل أن يكون من خصائصهم عند الاشراك منهم لان الاشراك منهم أشد وأقبح وأن يكون مقيدا بالموت كما صرح به في قوله تعالى ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم وعطف الخسران عليه من عطف المسبب على السبب (بل الله فاعبد) رد لما أمروه به ولولا دلالة التقديم على القصر لم يكن كذلك (وكن من

افعالهم خلقا لله تعالى ما جاز ذلك فيه كما لا يجوز مثله في ألوانهم وصورهم وقال أبو مسلم الخلق هو التقدير لا الايجاد فاذا أخبر الله عن عباده أنهم يفعلون الفعل الفلاني فقد قدر ذلك الفعل فيصح أن يقال انه تعالى خلقه وان لم يكن موجدا له واعلم أن الجواب عن هذه الوجوه قد ذكرناه بالاستقصاء في سورة الانعام فمن أراد الوقوف عليه فليطالع هذا الموضع من هذا الكتاب والله اعلم اما قوله تعالى وهو على كل شئ وكيل فالمعنى ان الاشياء كلها موكولة اليه فهو القائم بحفظها وتدبيرها من غير منازع ولا مشارك وهذا أيضا يدل على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى لان فعل العبد لو وقع بتخليق العبد لكان ذلك الفعل غير موكول الى الله تعالى فلم يكن الله تعالى وكيلا عليه وذلك ينافي عموم الآية ثم قال تعالى له مقاليد السموات والارض والمعنى سبحانه مالك أمرها وحافظها وهو من باب الكناية لان حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي بيده مقاليدها ومنه قولهم فلان ألقيت مقاليد الملك اليه وهي المفاتيح قال صاحب الكشاف ولا واحد لها من لفظها وقيل مقليد ومقاليد وقيل مقلاد ومقاليد مثل مفتاح ومفاتيح وقيل اقليد وأقاليد قال صاحب الكشاف والكلمة أصلها فارسية الا أن القوم لما عربوها صارت عربية واعلم أن الكلام في تفسير قوله له مقاليد السموات والارض قريب من الكلام في قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب وقد سبق الاستقصاء هناك قيل سأل عثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله له مقاليد السموات والارض فقال يا عثمان ما سألني عنها أحد قبلك تفسيرها لا اله الا الله والله أكبر سبحان الله وبحمده أستغفر الله ولا حول ولا قوة الا بالله هو الاول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شئ قدير هكذا نقله صاحب الكشاف ثم قال تعالى والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) صريح الآية يقتضي انه لا خاسر الا الكافر وهذا يدل على ان كل من لم يكن كافرا فانه لا بد وأن يحصل له حظ من رحمة الله (المسئلة الثانية) أورد صاحب الكشاف سؤالا وهو انه بم اتصل قوله والذين كفروا وأجاب عنه بأنه اتصل بقوله تعالى وينجي الله الذين اتقوا أي ينجي الله المتقين بمفازتهم والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون واعترض ما بينهما انه خالق للاشياء كلها وان له مقاليد السموات والارض وأقول هذا عندي ضعيف من وجهين الاول ان وقوع الفاصل الكبير بين المعطوف والمعطوف عليه بعيد (الثاني) ان قوله وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم جملة فعلية وقوله والذين كفروا بآيات الله هم الخاسرون جملة اسمية وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية لا يجوز بل الاقرب عندي أن يقال انه لما وصف الله تعالى نفسه بالصفات الالهية والجلالية وهو كونه خالقا للاشياء كلها وكونه مالكا لمقاليد السموات والارض بأسرها قال بعده والذين كفروا بهذه الآيات الظاهرة الباهرة أولئك هم الخاسرون ثم قال تعالى قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون وفيه مسائل

الشاكرين) انعامه عليك وفيه اشارة الى ما يوجب الاختصاص ويقتضيه (وما قدروا الله حق قدره) ما قدروا عظمته تعالى في أنفسهم حق عظمته حيث جعلوا له شريكا ووصفوه بما لا يليق بشؤنه الجليلة وقرئ بالتشديد (والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) تنبيه على غاية عظمته وكمال قدرته وحقارة الافعال العظام التي تتحير فيها الاوهام بالنسبة الى قدرته تعالى ودلالة على أن تخريب العالم أهون شئ عليه على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازا كقولهم شابت لمة الليل والقبضة المرة من القبض أطلقت بمعنى القبضة وهي المقدار المقبوض بالكف تسمية بالمصدر أو بتقدير ذات قبضة وقرئ بالنصب على الظرف تشبيها للموقت بالمبهم وتأكيد الارض بالجميع لان المراد بها الارضون

(المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر تأمرونني بنونين ساكنة الياء وكذلك هي في مصاحف الشام قال الواحدي وهو الاصل وقرأ ابن كثير تأمروني بنون مشددة على اسكان الاولى وادغامها في الثانية وقرأ نافع تأمروني بنون واحدة خفيفة على حذف احدى النونين والباقون بنون واحدة مكسورة مشددة (المسئلة الثانية) أفغير الله منصوب بأعبد وتأمروني اعتراض ومعناه أفغير الله أعبد بأمركم وذلك حين قال له المشركون أسلم ببعض آلهتنا ونؤمن بإلهك وأقول نظير هذه الآية قوله تعالى قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والارض وقد ذكرنا في تلك الآية وجه الحكمة في تقديم الفعل (المسئلة الثالثة) انما وصفهم بالجهل لانه تقدم وصف الاله بكونه خالقا للاشياء وبكونه مالكا لمقاليد السموات والارض وظاهر كون هذه الاصنام جمادات أنها لاتضر ولا تنفع ومن أعرض عن عبادة الاله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة واشتغل بعبادة هذه الاجسام الخسيسة فقد بلغ في الجهل مبلغا لامزيد عليه فلهذا السبب قال أيها الجاهلون ولاشك ان وصفهم بهذا الامر لائق بهذا الموضع ثم قال تعالى ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين واعلم ان الكلام التام مع الدلائل القوية والجواب عن الشبهات في مسئلة الاحباط قد ذكرناه في سورة البقرة فلا نعيده قال صاحب الكشاف قرئ ليحبطن عملك على البناء المفعول وقرئ بالياء والنون أي ليحبطن الله أو الشرك وفي الآية سؤالات (السؤال الاول) كيف أوحي اليه والى من قبله حال شركه على التعيين والجواب تقدير الآية أوحي اليك لئن أشركت ليحبطن عملك والى الذين من قبلك مثله أو أوحي اليك والى كل واحد منهم لئن أشركت كما تقول كسانا حلة أي كل واحد منا (السؤال الثاني) ما الفرق بين اللامين الجواب الاولى موطئة للقسم المحذوف والثانية لام الجواب (السؤال الثالث) كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى ان رسله لايشركون ولاتحبط أعمالهم والجواب ان قوله لئن أشركت ليحبطن عملك قضية شرطية والقضية الشرطية لايلزم من صدقها صدق جزأيها ألاترى ان قولك لو كانت الخمسة زوجا لكانت منقسمة بمتساويين قضية صادقة مع ان كل واحد من جزأيها غير صادق قال الله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ولم يلزم من هذا صدق القول بأن فيهما آلهة وبأنهما قد فسدتا (السؤال الرابع) ما معنى قوله ولتكونن من الخاسرين والجواب كما ان طاعات الانبياء والرسل أفضل من طاعات غيرهم فكذلك القبائح التي تصدر عنهم فانها بتقدير الصدور تكون أقبح لقوله تعالى اذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات فكان المعنى ضعف الشرك الحاصل منه وبتقدير حصوله منه يكون تأثيره في جانب غضب الله أقوى وأعظم واعلم انه تعالى لما قدم هذه المقدمات ذكر ما هو المقصود فقال بل الله فاعبد وكن من الشاكرين والمقصود منه رد ما أمروه به من الاسلام ببعض آلهتهم كأنه قال انكم تأمرونني بأن لا أعبد الا غير الله

السبع أو جميع أبعاضها البادية والغائرة وقرئ مطويات على أنها حال والسموات معطوفة على الارض منظومة في حكمها (سبحانه وتعالى عما يشركون) ما أبعد وما أعلى من هذه قدرته وعظمته عن اشراكهم أو عما يشركونه من الشركاء (ونفخ في الصور) هي النفخة الاولى (فصعق من في السموات ومن في الارض) أي خروا أمواتا أو مغشيا عليهم (الا من شاء الله) قيل هم جبريل وميكائيل واسرافيل فانهم لايموتون بعد وقيل حملة العرش (ثم نفخ فيه أخرى) نفخة أخرى هي النفخة الثانية وأخرى يحتمل النصب والرفع (فاذا هم قيام) قائمون من قبورهم أو متوقفون وقرئ بالنصب على أن الخبر (ينظرون) وهو حال من ضميره والمعنى يقلبون أبصارهم في الجوانب كالمبهوتين أو ينظرون ما يفعل بهم (وأشرقت الارض بنور ربها) بما أقام فيها

لان قوله قل أفغير الله تأمروني أعبد يفيد أنهم عينوا عليه عبادة غير الله فقال الله انهم بئسما قالوا ولكن أنت على الضد مما قالوا فلا تعبد الا الله وذلك لان قوله بل الله فاعبد يفيد الحصر ثم قال وكن من الشاكرين على ما هداك الى انه لا يجوز الاعبادة الاله القادر على الاطلاق العليم الحكيم وعلى ما أرشدك الى أنه يجب الاعراض عن عبادة كل ما سوى الله ✲ قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) واعلم انه تعالى لما حكى عن المشركين انهم أمروا الرسول بعبادة الاصنام ثم أنه تعالى أقام الدلائل على فساد قولهم وأمر الرسول بأن يعبد الله ولا يعبد شيئا آخر سواه بين انهم لو عرفوا الله حق معرفته لما جعلوا هذه الاشياء الخسيسة مشاركة له في المعبودية فقال وما قدروا الله حق قدره وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج بعض الناس بهذه الآية على ان الخلق لا يعرفون حقيقة الله قالوا لان قوله وما قدروا الله حق قدره يفيد هذا المعنى الا انا ذكرنا ان هذا صفة حال الكفار فلا يلزم من وصف الكفار بأنهم ما قدروا الله حق قدره وصف المؤمنين بذلك فسقط هذا الكلام (المسئلة الثانية) قوله وما قدروا الله حق قدره أي ما عظموه حق تعظيمه وهذه الآية مذكورة في سورة ثلاثة في سورة الانعام وفي سورة الحج وفي هذه السورة واعلم انه تعالى لما بين انهم ما عظموه تعظيما لائقا به أردفه بما يدل على كمال عظمته ونهاية جلالته فقال والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه قال القفال وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة كقول القائل وما قدرتني حق قدري وانا الذي فعلت كذا وكذا أي لما عرفت ان حالي وصفتي هذا الذي ذكرت فوجب أن لا تحطني عن قدري ومنزلتي ونظيره قوله تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم أي كيف تكفرون بمن هذا وصفه وحال ملكه فكذا ههنا والمعنى وما قدروا الله حق قدره اذ زعموا ان له شركاء وانه لا يقدر على احياء الموتى مع ان الارض والسموات في قبضته و قدرته قال صاحب الكشاف الغرض من هذا الكلام اذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين الى جهة حقيقة أو جهة مجاز وكذلك ما روي ان يهوديا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا القاسم ان الله يمسك السموات يوم القيامة على اصبع والارضين على اصبع والجبال على اصبع والشجر على اصبع والثرى على اصبع وسائر الخلق على اصبع ثم يهزهن فيقول أنا الملك فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبا مما قال قال صاحب الكشاف وانما ضحك أفصح العرب لانه لم يفهم منه الا ما يفهمه

من العدل استعير له النور لانه يزين البقاع ويظهر الحقوق كما يسمى الظلم ظلمة وفي الحديث الظلم ظلمات يوم القيامة ولذلك أضيف الاسم الجليل الى ضمير الارض او بنور خلقه فيها بلا توسط أجسام مضيئة ولذلك اضيف الى الاسم الجليل (ووضع الكتاب) الحساب والجزاء من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه أو صحائف الاعمال في أيدي العمال واكتفى باسم الجنس عن الجمع وقيل اللوح المحفوظ يقابل به الصحائف (وجيء بالنبيين والشهداء) للامم وعليهم من الملائكة والمؤمنين وقيل المستشهدون (وقضي بينهم) بين العباد (بالحق وهم لا يظلمون) بنقص ثواب أو زيادة عقاب على ما جرى به الوعد (ووفيت كل نفس ما عملت) أي جزاءه (وهو أعلم بما يفعلون) فلا يفوته شيء من أفعالهم

علماء البيان من غير تصور امساك ولا أصبع ولا هز ولا شئ من ذلك ولكن فهمه وقع أول كل شئ وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة وان الافعال العظام التي تتحير فيها الاوهام ولا تكتنهها الاذهان هينة عليه قال ولا نرى بابا في علم البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب فيقال له هل تسلم ان الاصل في الكلام حمله على الحقيقة وأنه انما يعدل عن الحقيقة الى المجاز عند قيام الدلالة على ان حمله على حقيقته ممتنع فحينئذ يجب حمله على المجاز فان أنكر هذا الاصل فحينئذ يخرج القرآن بالكلية عن أن يكون حجة فان لكل أحد أن يقول المقصود من الآية الفلانية كذا وكذا فأنا أحمل الآية على ذلك المقصود ولا ألتفت الى الظواهر مثاله من تمسك بالآيات الواردة في ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار قال المقصود بيان سعادات المطيعين وشقاوة المذنبين وانا أحمل هذه الآيات على هذا المقصود ولا أثبت الأكل والشرب ولا سائر الاحوال الجسمانية ومن تمسك بالآيات الواردة في اثبات وجوب الصلاة قال المقصود منه ايجاب تنوير القلب بذكر الله فأنا أكتفي بهذا القدر ولا أوجب هذه الاعمال المخصوصة واذا عرفت الكلام في هذين المثالين فقس عليه سائر المسائل الاصولية والفروعية وحينئذ يخرج القرآن عن أن يكون حجة في المسائل الاصولية والفروعية وذلك باطل قطعا وأما ان سلم ان الاصل في علم القرآن ان يعتقد أن الاصل في الكلام حمله على حقيقته فان قام دليل منفصل على انه يتعذر حمله على حقيقته فحينئذ يتعين صرفه الى مجازه فان حصلت هناك مجازات لم يتعين صرفه الى مجاز معين الا اذا كان الدليل يوجب ذلك التعيين فنقول ههنا لفظ القبضة ولفظ اليمين حقيقة في الجارحة المخصوصة ولا يمكنك ان تصرف ظاهر الكلام عن هذا المعنى الا اذا أقمت الدلالة على ان حمل هذه الالفاظ على ظواهرها ممتنع فحينئذ يجب حملها على المجازات ثم تبين بالدليل ان المعنى الفلاني يصح جعله مجازا عن تلك الحقيقة ثم تبين بالدليل أن هذا المجاز أولى من غيره واذا ثبتت هذه المقدمات وترتيبها على هذا الوجه فهذا هو الطريق الصحيح الذي عليه تعويل أهل التحقيق فأنت ما أتيت في هذا الباب بطريقة جديدة وكلام غريب بل هو عين ما ذكره أهل التحقيق فثبت ان الفرح الذي أظهره من أنه اهتدى الى الطريق الذي لم يعرفه غيره طريق فاسد دال على قلة وقوفه على المعاني ولنرجع الى الطريق الحقيقي فنقول لا شك ان لفظ القبضة واليمين مشعر بهذه الاعضاء والجوارح الا ان الدلائل العقلية قامت على امتناع ثبوت الاعضاء والجوارح لله تعالى فوجب حمل هذه الالفاظ على وجوه المجاز فنقول انه يقال فلان في قبضة فلان اذا كان تحت تدبيره وتسخيره قال تعالى الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم والمراد منه كونه مملوكا له ويقال هذه الدار في يد فلان وفلان صاحب اليد والمراد من الكل القدرة والفقهاء يقولون في الشروط وقبض فلان كذا وصار في قبضته ولا يريدون الا خلوص ملكه واذا ثبت تعذر حمل هذه

وقوله تعالى (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا) الخ تفصيل للتوفية وبيان لكيفيتها أي سيقوا اليها بالعنف والاهانة أفواجا متفرقة بعضها في اثر بعض مترتبة حسب ترتب طبقاتهم في الضلالة والشرارة والزمر جمع زمرة واشتقاقها من الزمر وهو الصوت اذ الجماعة لا تخلو عنه (حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها) ليدخلوها وحتى هي التي تحكى بعدها الجملة وقرئ بالتشديد (وقال

الالفاظ على حقائقها وجب حملها على مجازاتها صونا لهذه النصوص عن التعطيل فهذا هو الكلام الحقيقى فى هذا الباب ولنا كتاب مفرد فى اثبات تنزيه الله تعالى عن الجسمية والمكان سميناه بتأسيس التقديس من أراد الاطناب فى هذا الباب فليرجع اليه (المسئلة الثالثة) فى تفسير الفاظ الآية قوله والارض المراد منه الارضون السبع ويدل عليه وجوه (الاول) قوله جميعا فان هذا التأكيد لا يحسن ادخاله الا على الجمع ونظيره قوله كل الطعام وقوله تعالى أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء وقوله تعالى والنخل باسقات وقوله تعالى ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فان هذه الالفاظ المحفة بالالفاظ المفرد تدل على أن المراد منه الجمع فكذا ههنا (والثانى) انه قال بعده والسموات مطويات فوجب أن يكون المراد بالارض الارضون (الثالث) أن الموضع موضع تعظيم وتفخيم فهذا مقتضى المبالغة وأما القبضة فهى المرة الواحدة من القبض قال تعالى فقبضت قبضة من أثر الرسول والقبضة بالضم المقدار المقبوض بالكف ويقال أيضا أعطنى قبضة من كذا يريد معنى القبضة تسمية بالمصدر والمعنى والارضون جميعا قبضته أى ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة من قبضاته يعنى ان الارضين مع مالهن من العظمة والبسطة لا يبلغن الا قبضة واحدة من قبضاته أما اذا أريد معنى القبضة فظاهر لان المعنى ان الارضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة فان قيل ما وجه قراءة من قرأ قبضته بالنصب قلنا جعل القبضة ظرفا وقوله مطويات من الطى الذى هو ضد النشر كما قال تعالى يوم نطوى السماء كطى السجل وعادة طاوى السجل أن يطويه بيمينه ثم قال صاحب الكشاف وقيل قبضته ملكه ويمينه قدرته وقيل مطويات بيمينه أى مفنيات بقسمه لانه أقسم أن يقبضها ولما ذكر هذه الوجوه عاد الى القول الاول بأنها وجوه ركيكة وان حمل هذا الكلام على محض التمثيل أولى وبالغ فى تقرير هذا الكلام فأطنب وأقول ان حال هذا الرجل فى اقدامه على تحسين طريقته وتقبيح طريقة القدماء عجيب جدا فانه ان كان مذهبه انه يجوز ترك ظاهر اللفظ والمصير الى المجاز من غير دليل فهذا طعن فى القرآن واخراج له عن أن يكون حجة فى شئ وان كان مذهبه أن الاصل فى الكلام الحقيقة وانه لا يجوز العدول عنه الا لدليل منفصل فهذا هو الطريقة التى أطبق عليها جمهور المتقدمين فأين الكلام الذى يزعم انه علمه وأين العلم الذى لم يعرفه غيره مع انه وقع فى التأويلات العسرة والكلمات الركيكة فان قالوا المراد انه لما دل الدليل على انه ليس المراد من لفظ القبضة واليمين هذه الاعضاء وجب علينا أن نكتفى بهذا القدر ولا نشتغل بتعيين المراد بل نفوض علمه الى الله فنقول هذا هو طريق الموحدين الذين يقولون انا نعلم انه ليس مراد الله من هذه الالفاظ هذه الاعضاء فأما تعيين المراد فانا نفوض ذلك العلم الى الله تعالى وهذا هو طريقة السلف المعرضين عن التأويلات فثبت ان هذه التأويلات التى

لهم خزنتها) تقريعا وتوبيخا (ألم يأتكم رسل منكم) من جنسكم وقرئ نذر منكم (يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا) أى وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع من حيث انهم عللوا توبيخهم باتيان الرسل وتبليغ الكتب (قالوا بلى) قد أتونا وأنذرونا (ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) حيث قال الله تعالى

لابليس لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقد كنا ممن تبعه وكذبنا الرسل وقلنا ما نزل الله من شئ ان أنتم الا تكذبون (قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها) أى مقدرا خلودكم فيها وابهام القائل لانهو يل القول (فبئس مثوى المتكبرين) اللام للجنس والمخصوص بالذم محذوف ثقة بذكره آنفا أى فبئس مثواهم جهنم ولا يقدح ما فيه من الاشعار بأن كون مثواهم جهنم لتكبرهم عن الحق فى أن

أنى بها هذا الرجل ليس تحتها شئ من الفائدة أصلا والله أعلم واعلم انه تعالى لما بين عظمته من الوجه الذى تقدم قال سبحانه وتعالى عما يشركون يعنى ان هذا القادر القاهر العظيم الذى حارت العقول والالباب فى وصف عظمته تنزه وتقدس عن أن تجعل الاصنام شركاء له فى المعبودية فان قيل السؤال على هذا الكلام من وجوه (الاول) ان العرش أعظم من السموات السبع والارضين السبع ثم انه قال فى صفة العرش ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية واذا وصف الملائكة بكونهم حاملين العرش العظيم فكيف يجوز تقدير عظمة الله بكونه حاملا للسموات والارض (السؤال الثانى) ان قوله والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه شرح حالة لا تحصل الا فى يوم القيامة والقوم ما شاهدوا ذلك فان كان هذا الخطاب مع المصدقين للانبياء فهم يكونون معترفين بأنه لا يجوز القول بجعل الاصنام شركاء الله تعالى فلا فائدة فى ايراد هذه الحجة عليهم وان كان هذا الخطاب مع المكذبين بالنبوة وهم ينكرون قوله والارض جميعا قبضته يوم القيامة فكيف يمكن الاستدلال به على ابطال القول بالشرك (السؤال الثالث) حاصل القول فى القبضة واليمين هو القدرة الكاملة الوافية بحفظ هذه الاجسام العظيمة وكما ان حفظها وامساكها يوم القيامة ليس الا بقدرة الله فكذلك الآن فما الفائدة فى تخصيص هذه الاحوال بيوم القيامة (والجواب عن الاول) أن مراتب التعظيم كثيرة فأولها تقرير عظمة الله بكونه قادرا على حفظ هذه الاجسام العظيمة ثم بعده تقرير عظمته بكونه قادرا على امساك أولئك الملائكة الذين يحملون العرش (والجواب عن السؤال الثانى) ان المقصود ان الحق سبحانه هو المتولى لابقاء السموات والارضين على وجوه العمارة فى هذا الوقت وهو المتولى لتخريبها وافنائها فى يوم القيامة فذلك يدل على حصول قدرة تامة على الايجاد والاعدام وتنبيه أيضا على كونه غنيا على الاطلاق فانه يدل على انه اذا حاول تخريب الارض فكأنه يقبض قبضة صغيرة ويريد افناءها وذلك يدل على كمال الاستغناء (والجواب عن السؤال الثالث) انه انما خصص تلك الحالة بيوم القيامة ليدل على أنه كما ظهر كمال قدرته فى الايجاد عند عمارة الدنيا فكذلك ظهر كمال قدرته عند خراب الدنيا والله أعلم واعلم انه تعالى لما قرر كمال عظمته بما سبق ذكره أردفه بذكر طريقة أخرى تدل أيضا على كمال قدرته وعظمته وذلك شرح مقدمات يوم القيامة لان نفخ الصور يكون قبل ذلك اليوم فقال ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون واختلفوا فى الصعقة منهم من قال انها غير الموت بدليل قوله تعالى فى موسى عليه السلام وخر موسى صعقا مع انه لم يمت فهذا هو النفخ الذى يورث الفزع الشديد وعلى هذا التقدير فالمراد من نفخ الصعقة ومن نفخ الفزع واحد وهو المذكور فى سورة النمل فى قوله ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض وعلى هذا القول

فنفخ الصور ليس الامرتين (والقول الثاني) ان الصعقة عبارة عن الموت والقائلون بهذا القول قالوا انهم يموتون من الفزع وشدة الصوت وعلى هذا التقدير فالنفخة تحصل ثلاث مرات (أولها) نفخة الفزع وهي المذكورة في سورة النمل (والثانية) نفخة الصعق (والثالثة) نفخة القيام وهما مذكورتان في هذه السورة وأما قوله الامن شاء الله ففيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما عند نفخة الصعق يموت من في السموات ومن في الارض الاجبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت ثم يميت الله ميكائيل واسرافيل ويبقى جبريل وملك الموت ثم يميت جبريل (والقول الثاني) انهم هم الشهداء لقوله تعالى بل أحياء عند ربهم يرزقون وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش (القول الثالث) قال جابر هذا المستثنى هو موسى عليه السلام لانه صعق مرة فلا يصعق ثانيا (القول الرابع) انهم الحور العين وسكان العرش والكرسي (والقول الخامس) قال قتادة الله أعلم بأنهم من هم وليس في القرآن والاخبار مايدل على انهم من هم ثم قال تعالى ثم نفخ فيه أخرى فاذاهم قيام ينظرون وفيه ابحاث (الاول) لفظ القرآن دل على أن هذه النفخة متأخرة عن النفخة الاولى لان لفظ ثم يفيد التراخي قال الحسن رحمه الله القرآن دل على ان هذه النفخة متأخرة عن النفخة الاولى وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن بينهما أربعين ولا أدري أربعون يوما أو شهرا اوأربعون سنة أو أربعون ألف سنة (البحث الثاني) قوله أخرى تقدير الكلام ونفخ في الصور نفخة واحدة ثم نفخ فيه نفخة أخرى وانما حسن الحذف لدلالة أخرى عليها ولكونها معلومة (الثالث) قوله فاذاهم قيام يعني قيامهم من القبور يحصل عقيب هذه النفخة الاخيرة في الحال من غير تراخ لان الفاء في قوله فاذاهم تدل على التعقيب (الرابع) قوله ينظرون وفيه وجهان (الاول) ينظرون يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت اذا فاجأه خطب عظيم (والثاني) ينظرون ماذا يفعل بهم ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والجمود في مكان لاجل استيلاء الحيرة والدهشة عليهم ولما بين الله تعالى حال هاتين النفختين قال وأشرقت الارض بنور ربها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذه الارض المذكورة ليست هي هذه الارض التي يقعد عليها الآن بدليل قوله يوم تبدل الارض غير الارض وبدليل قوله تعالى وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة بل هي أرض أخرى يخلقها الله تعالى لمحفل يوم القيامة (المسئلة الثانية) قالت المجسمة ان الله تعالى نور محض فاذا حضر الله في تلك الارض لاجل القضاء بين عباده أشرقت تلك الارض بنور الله وأكدوا هذا بقوله تعالى الله نور السموات والارض واعلم أن الجواب عن هذه الشبهة من وجوه (الاول) أنا بينا في تفسير قوله تعالى الله نور السموات والارض انه لايجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى نورا بمعنى كونه من جنس هذه الانوار المشاهدة وبينا أنه لما تعذر حمل الكلام على الحقيقة وجب حمل لفظ

دخولهم النار اسبق كلمة العذاب عليهم فانها انما حقت عليهم بناء على تكبرهم وكفرهم وقد مر تحقيقه في سورة الم السجدة (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة) مساق اعزاز وتشريف للاسراع بهم الى دار الكرامة وقيل سيق مراكبهم اذلايذهب بهم الاراكبين (زمرا) متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم في الفضل وعلو الطبقة (حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها) وقرئ بالتشديد

النور ههنا على العدل فيحتاج ههنا الى بيان أن لفظ النور قد يستعمل فى هذا المعنى ثم الى بيان أن المراد من لفظ النور ههنا ليس الا هذا المعنى أما بيان الاستعمال فهو أن الناس يقولون للملك العادل أشرقت الآفاق بعدلك و أضاءت الدنيا بقسطك كما يقولون أظلمت البلاد بجورك وقال صلى الله عليه وسلم الظلم ظلمات يوم القيامة وأما بيان أن المراد من النور ههنا العدل فقط أنه قال وجيء بالنبيين والشهداء ومعلوم أن المجيء بالشهداء ليس الا لاظهار العدل وأيضا قال فى آخر الآية وهم لا يظلمون فدل هذا على أن المراد من ذلك النور ازالة ذلك الظلم فكأنه تعالى فتح هذه الآية باثبات العدل وختمها بنفي الظلم (والوجه الثانى) فى الجواب عن الشبهة المذكورة ان قوله تعالى وأشرقت الارض بنور ربها يدل على انه يحصل هناك نور مضاف الى الله تعالى ولا يلزم كون ذلك صفة ذات الله تعالى لانه يكفى فى صدق الاضافة أدنى سبب فلما كان ذلك النور من خلق الله وشرفه بأن أضافه الى نفسه كان ذلك النور نور الله كقوله بيت الله وناقة الله وهذا الجواب أقوى من الاول لان فى هذا الجواب لا يحتاج الى ترك الحقيقة والذهاب الى المجاز (والوجه الثالث) انه قد يقال فلان رب هذه الارض ورب هذه الدار ورب هذه الجارية ولا يبعد أن يكون رب تلك الارض ملكا من الملوك وعلى هذا التقدير فلا يمتنع كونه نورا (المسئلة الثالثة) انه تعالى ذكر فى هذه الآية من أحوال ذلك اليوم أشياء (أولها) قوله وأشرقت الارض بنور ربها وقد سبق الكلام فيه (وثانيها) قوله ووضع الكتاب وفى المراد بالكتاب وجوه (الاول) انه اللوح المحفوظ الذى يحصل فيه شرح أحوال عالم الدنيا الى وقت قيام القيامة (الثانى) المراد كتب الاعمال كما قال تعالى فى سورة سبحان وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا وقال أيضا فى آية أخرى مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها (وثالثها) قوله وجيء بالنبيين والمراد أن يكونوا شهداء على الناس قال تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وقال تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم (ورابعها) قوله والشهداء والمراد ما قاله فى وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس أو أراد بالشهداء المؤمنين وقال مقاتل يعنى الحفظة ويدل عليه قوله تعالى وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد وقيل أراد بالشهداء المستشهدين فى سبيل الله ولما بين الله تعالى انه يحضر فى محفل القيامة جميع ما يحتاج اليه فى فصل الحكومات وقطع الخصومات بين تعالى أنه يوصل الى كل أحد حقه وعبر تعالى عن هذا المعنى بأربع عبارات (أولها) قوله تعالى وقضى بينهم بالحق (وثانيها) قوله وهم لا يظلمون (وثالثها) قوله ووفيت كل نفس ما عملت أى وفيت كل نفس جزاء ما عملت (ورابعها) قوله وهو أعلم بما يفعلون يعنى انه تعالى اذا لم يكن عالما بكيفيات أحوالهم فلعله لا يقضى بالحق لاجل عدم العلم أما اذا كان عالما بمقادير أفعالهم وبكيفياتها امتنع

وجواب اذا محذوف للايذان بأن لهم حينئذ من فنون الكرامات ما لا يحدق به نطاق العبارات كأنه قيل حتى اذا جاؤها وقد فتحت أبوابها (وقال لهم خزنتها سلام عليكم) من جميع المكاره والآلام (طبتم) طهرتم من دنس المعاصى أو طبتم نفسا بما أتيح لكم من النعيم (فادخلوها خالدين) كان ما كان مما يقصر عنه البيان (وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده) بالبعث والثواب

دخول الخطافي ذلك الحكم فثبت أنه تعالى عبر عن هذا المقصود بهذه العبارات المختلفة والمقصود المبالغة في تقرير أن كل مكلف فانه يصل الى حقه * قوله تعالى (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل القيامة على سبيل الاجمال فقال ووفيت كل نفس ما عملت بين بعده كيفية أحوال أهل العقاب ثم كيفية أحوال أهل الثواب وختم السورة أما شرح أحوال أهل العقاب فهو المذكور في هذه الآية وهو قوله وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا قال ابن زيد ان سوق الذين كفروا الى جهنم يكون بالعنف والدفع والدليل عليه قوله تعالى يوم يدعون الى نار جهنم دعا أي يدفعون دفعا نظيره قوله تعالى فذلك الذي يدع اليتيم أي يدفعه ويدل عليه أيضا قوله تعالى ونسوق المجرمين الى جهنم وردا وأما الزمر فهي الافواج المتفرقة بعض في أثر بعض فبين الله تعالى انهم يساقون الى جهنم فاذا جاؤها فتحت أبوابها وهذا يدل على أن أبواب جهنم انما تفتح عند وصول أولئك اليها فاذا دخلوا جهنم قال لهم خزنة جهنم ألم يأتكم رسل منكم أي من جنسكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا فان قيل فلم أضيف اليوم اليهم قلنا أراد لقاء وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة واستعمال لفظ اليوم والايام في أوقات الشدة مستفيض فعند هذا تقول الكفار بلى قد أتونا وتلوا علينا ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين وفي هذه الآية مسئلتان (المسئلة الاولى) تقدير الكلام انه حقت علينا كلمة العذاب ومن حقت عليه كلمة العذاب فكيف يمكنه الخلاص من العذاب وهذا صريح في ان السعيد لا ينقلب شقيا والشقي لا ينقلب سعيدا وكلمات المعتزلة في دفع هذا الكلام معلومة وأجوبتنا عنها ايضا معلومة (المسئلة الثانية) دلت الآية على انه لا وجوب قبل مجئ الشرع لان الملائكة بينوا أنه ما بقي لهم علة ولا عذر بعد مجئ الانبياء عليهم السلام ولو لم يكن مجئ الانبياء شرطا في استحقاق العذاب لما بقي في هذا الكلام فائدة ثم ان الملائكة اذا سمعوا منهم هذا الكلام قالوا لهم ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين قالت المعتزلة لو كان دخولهم في النار لاجل انه حقت عليهم كلمة العذاب لم يبق لقول الملائكة فبئس مثوى المتكبرين فائدة بل هذا الكلام انما يبقى مفيدا اذا قلنا انهم انما دخلوا النار لانهم تكبروا على الانبياء ولم يقبلوا قولهم ولم يلتفتوا الى دلائلهم وذلك يدل على صحة قولنا والله أعلم بالصواب * قوله تعالى (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين وترى

(وأورثنا الارض) يريدون المكان الذي استقروا فيه على الاستعارة وايراثها تمليكها مخلفة عليهم من أعمالهم أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه (نتبوأ من الجنة حيث نشاء) أي يتبوأ كل واحد منا في أي مكان أراده من جنته الواسعة على أن فيها مقامات معنوية لا يتمانع واردوها (فنعم أجر العاملين) الجنة (وترى الملائكة حافين) محدقين (من حول العرش) أي حوله ومن مزيدة أو لابتداء الحفوف

الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) اعلم انه تعالى لما شرح أحوال أهل العقاب فى الآية المتقدمة شرح أحوال أهل الثواب فى هذه الآية فقال وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا فان قيل السوق فى أهل النار للعذاب معقول لانهم لما أمروا بالذهاب الى موضع العذاب والشقاوة ولابد وأن يساقوا اليه واما أهل الثواب فاذا أمروا بالذهاب الى موضع الكرامة والراحة والسعادة فأى حاجة فيه الى السوق والجواب من وجوه (الاول) ان المحبة والصداقة باقية بين المتقين يوم القيامة كما قال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين فاذا قيل لواحد منهم اذهب الى الجنة فيقول لا أدخلها حتى يدخلها احبائى وأصدقائى فيتأخرون لهذا السبب فحينئذ يحتاجون الى أن يساقوا الى الجنة (والثانى) ان الذين اتقوا ربهم قد عبدوا الله تعالى لا للجنة ولا للنار فتصير شدة استغراقهم فى مشاهدة مواقف الجلال والجمال مانعة لهم عن الرغبة فى الجنة فلاجرم يحتاجون الى أن يساقوا الى الجنة (والثالث) ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أكثر أهل الجنة البله وعليون للابرار فلهذا السبب يساقون الى الجنة (والرابع) ان أهل الجنة وأهل النار يساقون الا ان المراد بسوق أهل النار طردهم اليها بالهوان والعنف كما يفعل بالاسير اذا سيق الى الحبس والقيد والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لانه لايذهب بهم الا راكبين والمراد بذلك السوق اسراعهم الى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على الملوك فشتان ما بين السوقين ثم قال تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها الآية واعلم أن جملة هذا الكلام شرط واحد مركب من قيود (القيد الاول) هو مجيئهم الى الجنة (والقيد الثانى) قوله تعالى وفتحت أبوابها فان قيل قال فى أهل النار فتحت أبوابها بغير الواو وقال ههنا بالواو فما الفرق قلنا الفرق ان أبواب جهنم لا تفتح الا عند دخول أهلها فيها فاما أبواب الجنة ففتحها يكون متقدما على وصولهم اليها بدليل قوله جنات عدن مفتحة لهم الابواب فلذلك جئ بالواو كأنه قيل حتى اذا جاؤها وقد فتحت أبوابها (القيد الثالث) قوله وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين فبين تعالى أن خزنة الجنة يذكرون لاهل الثواب هذه الكلمات الثلاثة (فأولها) قولهم سلام عليكم وهذا يدل على انهم يبشرونهم بالسلامة من كل الآفات (وثانيها) قولهم طبتم والمعنى طبتم من دنس المعاصى وطهرتم من خبث الخطايا (وثالثها) قولهم فادخلوها خالدين والفاء فى قوله فادخلوها يدل على كون ذلك الدخول معللا بالطيب والطهارة قالت المعتزلة هذا يدل على ان أحدا لا يدخلها الا اذا كان طاهرا عن كل المعاصى قلنا هذا ضعيف لانه تعالى يبدل سيآتهم حسنات وحينئذ يصيرون طيبين طاهرين بفضل الله تعالى فان قيل فهذا الذى تقدم ذكره هو الشرط فاين الجواب قلنا فيه وجهان (الاول) ان الجواب محذوف والمقصود من الحذف

(يسبحون بحمد ربهم) أى ينزهونه تعالى عما لا يليق به ملتبسين بحمده والجملة حال ثانية أو مقيدة للاولى والمعنى ذاكرين له تعالى بوصفى جلاله واكرامه تلذذا به وفيه اشعار بأن أقصى درجات العليين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق فى شؤنه عز وجل (وقضى بينهم بالحق) أى بين الخلق بادخال بعضهم النار وبعضهم الجنة أو بين الملائكة باقامتهم فى منازلهم على حسب تفاضلهم (وقيل الحمد لله

ان يدل على انه بلغ فى الكمال الى حيث لا يمكن ذكره (الثانى) ان الجواب هو قوله تعالى وقال لهم خزنتها سلام عليكم والواو محذوف والصحيح هو الاول ثم أخبر الله تعالى بأن الملائكة اذا خاطبوا المتقين بهذه الكلمات قال المتقون عند ذلك الحمد لله الذى صدقنا وعده فى قوله أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون وأورثنا الارض والمراد بالارض أرض الجنة وانما عبر عنه بالارث لوجوه (الاول) ان الجنة كانت فى أول الامر لآدم عليه السلام لانه تعالى قال فكلا منها رغدا حيث شئتما فلما عادت الجنة الى أولاد آدم كان ذلك سببا لتسميتها بالارث (الثانى) ان هذا اللفظ مأخوذ من قول القائل هذا أورث كذا وهذا العمل أورث كذا فلما كانت طاعتهم قد أفادتهم الجنة لا جرم قالوا وأورثنا الارض والمعنى ان الله تعالى أورثنا الجنة بأن وفقنا للاتيان بأعمال أورثت الجنة (الثالث) أن الوارث يتصرف فيما يرثه كما يشاء من غير منازع ولا مدافع فكذلك المؤمنون المتقون يتصرفون فى الجنة كيف شاؤا وأرادوا والمشابهة علة حسن المجاز فان قيل ما معنى قوله حيث نشاء وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره قلنا يكون لكل أحد جنة لا يحتاج معها الى جنة غيره قال حكماء الاسلام الجنات نوعان الجنات الجسمانية والجنات الروحانية فالجنات الجسمانية لا تحتمل المشاركة فيها أما الروحانيات فحصولها لواحد لا يمنع من حصولها للآخرين ولما بين الله تعالى صفة أهل الجنة قال فنعم أجر العاملين قال مقاتل ليس هذا من كلام أهل الجنة بل من كلام الله تعالى لانه لما حكى ما جرى بين الملائكة وبين المتقين من صفة ثواب أهل الجنة قال بعده فنعم أجر العاملين ولما قال تعالى وترى الملائكة حافين من حول العرش ذكر عقيبه ثواب الملائكة فقال كما أن دار ثواب المتقين المؤمنين هى الجنة فكذلك دار ثواب الملائكة جوانب العرش واطرافه فلهذا قال وترى الملائكة حافين من حول العرش أى محدقين بالعرش قال الليث يقال حف القوم بسيدهم يحفون حفا اذا طافوا به اذا عرفت هذا فنقول بين تعالى ان دار ثوابهم هو جوانب العرش واطرافه ثم قال يسبحون بحمد ربهم وهذا مشعر بأن ثوابهم هو عين ذلك التحميد والتسبيح وحينئذ رجع حاصل الكلام الى أن أعظم درجات الثواب استغراق قلوب العباد فى درجات التنزيه ومنازل التقديس ثم قال وقضى بينهم بالحق والمعنى انهم على درجات مختلفة ومراتب متفاوتة فلكل واحد منهم فى درجات المعرفة والطاعة حد محدود لا يتجاوزه ولا يتعداه وهو المراد من قوله وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين أى الملائكة لما قضى بينهم بالحق قالوا الحمد لله رب العالمين على قضائه بيننا بالحق وههنا دقيقة أعلى مما سبق وهى انه سبحانه لما قضى بينهم بالحق فهم ما حمدوه لاجل ذلك القضاء بل حمدوه بصفته الواجبة وهى كونه رب العالمين فان من حمد المنعم لاجل أن انعامه وصل اليه فهو فى الحقيقة ما حمد المنعم وانما حمد الانعام وأما من حمد المنعم لا لانه وصل اليه النعمة فههنا قد وصل الى لجة بحر التوحيد هذا اذا قلنا ان قوله

رب العالمين) أى على ما قضى بيننا بالحق وأنزل كلا منا منزلته التى هى حقه والقائلون هم المؤمنون ممن قضى بينهم أو الملائكة وطى ذكرهم لتعينهم وتعظيمهم

* عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله تعالى رجاءه يوم القيامة واعطاه ثواب الخائفين وعن عائشة رضى الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ كل ليلة بنى اسرائيل والزمر

وترى الملائكة حافين من حول العرش شرح أحوال الملائكة في الثواب أما اذا قلنا انه من بقية شرح ثواب المؤمنين فتقريره أن يقال ان المتقين لما قالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فقد ظهر منهم انهم في الجنة اشتغلوا بحمد الله و بذكره بالمدح والثناء فبين تعالى انه كان حرفة المتقين في الجنة الاشتغال بهذا التحميد والتمجيد فكذلك حرفة الملائكة الذين هم حافون حول العرش الاشتغال بالتحميد والتسبيح ثم ان جوانب العرش ملاصقة لجوانب الجنة وحينئذ يظهر منه أن المؤمنين المتقين وان الملائكة المقربين يصيرون متوافقين على الاستغراق في تحميد الله وتسبيحه فكان ذلك سببا لمزيد التذاذهم بذلك التسبيح والتحميد ثم قال وقضى بينهم بالحق أى بين البشر ثم قال وقيل الحمد لله رب العالمين والمعنى انهم يقدمون التسبيح والمراد منه تنزيه الله عن كل مالا يليق بالالهية وأما قوله تعالى وقيل الحمد لله رب العالمين فالمراد وصفه بصفات الالهية فالتسبيح عبارة عن الاعتراف بتنزيهه عن كل مالا يليق به وهو صفات الجلال وقوله وقيل الحمد لله رب العالمين عبارة عن الاقرار بكونه موصوفا بصفات الالهية وهى صفات الاكرام ومجموعهما هو المذكور في قوله تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام وهو الذى كانت الملائكة يذكرونه قبل خلق العالم وهو قولهم ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك وفي قوله وقيل الحمد لله رب العالمين دقيقة أخرى وهى انه لم يبين ان ذلك القائل من هو والمقصود من هذا الابهام التنبيه على ان خاتمة كلام العقلاء فى الثناء على حضرة الجلال والكبرياء ليس الا ان يقولوا الحمد لله رب العالمين وتأكد هذا بقوله تعالى فى صفة أهل الجنة وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ❊ قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة في ليلة الثلاثاء آخر ذى القعدة من سنة ثلاث وستمائة يقول مصنف هذا الكتاب الملائكة المقربون عجزوا عن احصاء ثنائك فمن أنا والانبياء المرسلون اعترفوا بالعجز والقصور فمن أنا وليس معى الا أن أقول أنت وأنا أنا فمنك الرحمة والفضل والجود والاحسان ومنى العجز والذلة والخيبة والخسران يارحمان ياديان ياحنان يامنان أفض على سجال الرحمة والغفران برحمتك ياأرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد النبى الامى وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين وسلم تسليما كثيرا

* (سورة المؤمن ثمانون وخمس آيات مكية) *

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا اله الا هو اليه المصير ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب وكذلك حقت كلمت ربك على الذين كفروا انهم أصحاب النار) اعلم أن فى الآية مسائل (المسألة الاولى) قرأ عاصم فى

❊(سورة المؤمن مكية وآيها خمس أو ثمان وثمانون آية)❊ ❊(بسم الله الرحمن الرحيم)❊ (حم) بتفخيم الالف وتسكين الميم وقرئ بامالة الالف ❊﴿٢٨٩﴾❊ و باخراجها بين بين و بفتح الميم لالتقاء الساكنين أو نصبها باضمار اقرأ أو نحوه ومنع الصرف للتعريف والتأنيث أو للتعريف وكونها على زنة قابيل وهابيل و بقية الكلام فيه وفى قوله تعالى (تنزيل الكتاب) كالذى سلف فى ألم السجدة وقوله تعالى (من الله العزيز العليم) كما فى مطلع سورة الزمر فى الوجوه كلها ووجه التعرض لنعتى العزة والعلم ما ذكر هناك (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول) اما صفات أخر لتحقيق ما فيها من الترغيب والترهيب والحث على ما هو المقصود والاضافة فيها حقيقية على انه لم يرد بها زمان مخصوص وأريد بشديد العقاب مشدده أو الشديد عقابه بحذف اللام للازدواج وأمن الالتباس أو ابدال وجعله وحده بدلا كما فعله الزجاج مشوش للنظم وتوسيط الواو بين الاولين لافادة الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة أو تغاير الوصفين اذ ربما يتوهم الاتحاد أو تغاير موقع الفعلين لان

رواية أبي بكر وحمزة والكسائي حم بكسر الحاء والباقون بفتح الحاء ونافع في بعض الروايات وابن عامر بين الفتح والكسر وهو أن لا يفتحها فتحها شديدا قال صاحب الكشاف قرئ بفتح الميم وتسكينها ووجه الفتح التحريك لالتقاء الساكنين وايثار أخف الحركات نحو أين وكيف أو النصب باضمار اقرأ ومنع الصرف اما للتأنيث والتعريف من حيث انها اسم للسورة أو للتعريف وانها على زنة أعجمي نحو قابيل وهابيل وأما السكون فلأنا بينا أن الاسماء المجردة تذكر موقوفة الاواخر (المسئلة الثانية) الكلام المستقصى في هذه الفواتح مذكور في أول سورة البقرة والاقرب ههنا أن يقال حم اسم للسورة فقوله حم مبتدأ وقوله تنزيل الكتاب من الله خبره والتقدير ان هذه السورة المسماة بحم تنزيل الكتاب فقوله تنزيل مصدر لكن المراد منه المنزل واما قوله من الله فاعلم انه لما ذكر أن حم تنزيل الكتاب وجب بيان أن المنزل من هو فقال من الله ثم بين ان الله تعالى موصوف بصفات الجلال وسمات العظمة ليصير ذلك حاملا على التشمير عن ساق الجد عند الاستماع وزجره عن التهاون والتواني فيه فبين أن المنزل هو الله العزيز العليم واعلم ان الناس اختلفوا في ان العلم بالله ماهو فقال جمع عظيم انه العلم بكونه قادرا وبعده العلم بكونه عالما اذا عرفت هذا فنقول العزيز له تفسيران (أحدهما) الغالب فيكون معناه القادر الذي لا يساويه أحد في القدرة (والثاني) الذي لا مثل له ولا يجوز أن يكون المراد بالعزيز ههنا القادر لان قوله تعالى الله يدل على كونه قادرا فوجب حمل العزيز على المعنى الثاني وهو الذي لا يوجد له مثل وما كان كذلك وجب أن لا يكون جسما والذي لا يكون جسما يكون منزها عن الشهوة والنفرة والذي يكون كذلك يكون منزها عن الحاجة واما العليم فهو مبالغة في العلم والمبالغة التامة انما تتحقق عند كونه تعالى عالما بكل المعلومات فقوله من الله العزيز العليم يرجع معناه الى أن هذا الكتاب تنزيل من القادر المطلق الغني المطلق العالم المطلق ومن كان كذلك كان عالما بوجوه المصالح والمفاسد وكان عالما بكونه غنيا عن جر المصالح ودفع المفاسد ومن كان كذلك كان رحيما جوادا وكانت أفعاله حكمة وصوابا منزهة عن القبيح والباطل فكأنه سبحانه انما ذكر عقيب قوله تنزيل هذه الاسماء الثلاثة لكونها دالة على أن افعاله سبحانه حكمة وصواب ومتى كان الامر كذلك لزم أن يكون هذا التنزيل حقا وصوابا وقيل الفائدة في ذكر العزيز العليم أمران (أحدهما) انه بقدرته وعلمه انزل القرآن على هذا الحد الذي يتضمن المصالح والاعجاز ولولا كونه عزيزا عليما لما صح ذلك (والثاني) أنه تكفل بحفظه وبعموم التكليف فيه وظهوره الى حين انقطاع التكليف وذلك لا يتم الا بكونه عزيزا لا يغلب وبكونه عليما لا يخفى عليه شئ ثم وصف نفسه بما يجمع الوعيد والوعد والترهيب والترغيب فقال غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا اله الا هو اليه المصير فهذه ستة أنواع من الصفات (الصفة الاولى) قوله غافر الذنب قال الجبائي معناه انه غافر الذنب اذا استحق غفرانه اما بتوبة

الغفر هو الستر مع بقاء الذنب وذلك لمن لم يتب فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له والتوب مصدر كالتوبة وقيل هو جمعها والطول الفضل بترك العقاب المستحق وفي توحيد

صفة العذاب مغمورة بصفات الرحمة دليل سبقها ورجحانها (لا اله الا هو) فيجب الاقبال الكلي على طاعته في أوامره ونواهيه (اليه المصير) فحسب لا الى غيره لا استقلالا ولا اشتراكا فيجازي كلا من المطيع والعاصي (ما يجادل في آيات الله) أي بالطعن فيها واستعمال المقدمات الباطلة لادحاض الحق كقوله تعالى وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق (الا الذين كفروا) بها وأما الذين آمنوا فلا يخطر ببالهم شائبة شبهة منها فضلا عن الطعن فيها وأما الجدال فيها لحل مشكلاتها وكشف معضلاتها واستنباط حقائقها الكلية وتوضيح مناهج الحق في مضايق الافهام ومزالق الاقدام وابطال شبه أهل الزيغ والضلال فمن أعظم الطاعات ولذلك قال عليه الصلاة والسلام ان جدالا في القرآن كفر بالتنكير للفرق بين جدال وجدال والفاء في قوله تعالى (فلا يغررك تقلبهم في البلاد) لترتيب

قوله ان غفران الخ غرضه ان من تاب لعبد عما جنى فمقتضى التحسين العقلى الذى هو مذهب المعتزلة يجب ان يسامحه وحينئذ فيكون لافرق بين الله والعبيد * انتهى

أوطاعة أعظم منه ومراده منه أن فاعل المعصية اما أن يقال انه كان قد أتى قبل ذلك بطاعة كان ثوابها أعظم من عقاب هذه المعصية أوما كان الامر كذلك فان كان الاول كانت هذه المعصية صغيرة فيحبط عقابها وان كان الثانى كانت هذه المعصية كبيرة فلا يزول عقابها الابالتوبة ومذهب أصحابنا ان الله تعالى قد يعفو عن الكبائر بدون التوبة وهذه الآية تدل على ذلك وبيانه من وجوه (الاول) ان غفران الكبيرة بعد التوبة وغفران الصغيرة من الامور الواجبة على العبد وجميع الانبياء والاولياء والصالحين من أوساط الناس مشتركون فى فعل الواجبات فلوحملنا كونه تعالى غافر الذنب على هذا المعنى لم يبق بينه وبين أقل الناس من زمرة المطيعين فرق فى المعنى الموجب لهذا المدح وذلك باطل فثبت انه يجب أن يكون المراد منه كونه غافر الكبائر قبل التوبة وهو المطلوب (الثانى) أن الغفران عبارة عن الستر ومعنى الستر انما يعقل فى الشئ الذى يكون باقيا موجودا فيستر والصغيرة تحبط بسبب كثرة ثواب فاعلها فمعنى الغفر فيها غير معقول ولا يمكن حمل قوله غافر الذنب على الكبيرة بعد التوبة لان معنى كونه قابلا للتوب ليس الا ذلك فلو كان المراد بكونه غافر الذنب هذا المعنى لزم التكرار وانه باطل فثبت ان كونه غافر الذنب يفيد كونه غافرا للذنوب الكبائر قبل التوبة (الثالث) ان قوله غافر الذنب مذكور فى معرض المدح العظيم فوجب حمله على مايفيد أعظم أنواع المدح وذلك هو كونه غافر الكبائر قبل التوبة وهو المطلوب (الصفة الثانية) قوله تعالى قابل التوب وفيه بحثان (الاول) فى لفظ التوب قولان الاول انه مصدر وهو قول أبى عبيدة والثانى انه جماعة التوبة وهو قول الاخفش قال المبرد يجوز أن يكون مصدرا يقال تاب يتوب توبا وتوبة مثل قال يقول قولا وقولة ويجوز أن يكون جمعا لتوبة فيكون توبة وتوب مثل تمرة وتمر الا أن المصدر أقرب لان على هذا التقدير يكون تأويله انه يقبل هذا الفعل (البحث الثانى) مذهب أصحابنا أن قبول التوبة من المذنب يقع على سبيل التفضل وليس بواجب على الله وقالت المعتزلة انه واجب على الله واحتج أصحابنا بانه تعالى ذكر كونه قابلا للتوب على سبيل المدح والثناء ولو كان ذلك من الواجبات لم يبق فيه من معنى المدح الا القليل وهو القدر الذى يحصل لجميع الصالحين عند اداء الواجبات والاحتراز عن المحظورات (الصفة الثالثة) قوله شديد العقاب وفيه مباحث (البحث الاول) فى هذه الآية سؤال وهو ان قوله شديد العقاب يصلح أن يكون نعتا للنكرة ولا يصلح أن يكون نعتا للمعرفة تقول مررت برجل شديد البطش ولا تقول مررت بعبد الله شديد البطش وقوله الله اسم علم فيكون معرفة فكيف يجوز وصفه بكونه شديد العقاب مع انه لا يصلح الا أن يجعل وصفا للنكرة قالوا وهذا بخلاف قولنا غافر الذنب وقابل التوب لانه ليس المراد منهما حدوث هذين الفعلين وانه يغفر الذنب ويقبل التوبة الآن أوغدا وانما أريد ثبوت ذلك ودوامه فكان حكمهما حكم اله الخلق ورب العرش واما شديد العقاب فمشكل لانه فى تقدير شديد عقابه فيكون نكرة فلا يصح جعله

أو وجوب الانتهاء على ماقبلها من التسجيل عليهم بالكفر الذى لاشئ أمقت منه عند الله تعالى ولا أجلب لخسران الدنيا والآخرة فان من تحقق ذلك لايكاد يغتر بمالهم من حظوظ الدنيا وزخارفها فانهم مأخوذون عما قليل أخذ من قبلهم من الامم حسبما ينطق به قوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم) أى الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم بعد قوم نوح مثل عاد وثمود وأضرابهم (وهمت كل أمة) من تلك الامم العاتية (برسولهم) وقرئ برسولها (ليأخذوه) ليتمكنوا منه فيصيبوا به ما أرادوا من تعذيب أوقتل من الاخذ بمعنى الاسر (وجادلوا بالباطل) الذى لا أصل ولا حقيقة له أصلا (ليدحضوا به الحق) الذى لامحيد عنه كما فعل هؤلاء (فأخذتهم) بسبب ذلك أخذ عزيز مقتدر (فكيف كان عقاب) الذى عاقبتهم به فان آثار دمارهم عبرة للناظرين ولآخذن هؤلاء أيضا لاتحادهم فى الطريقة واشتراكهم فى الجريرة كما ينبئ عنه قوله تعالى (وكذلك حقت كلمت ربك) أى كما وجب وثبت حكمه تعالى وقضاؤه بالتعذيب على أولئك الامم المكذبة

صفة للمعرفة هذا تقرير السؤال وأجيب عنه بوجوه (الاول) ان هذه الصفة وان كانت نكرة الا انها لما ذكرت مع سائر الصفات التى هى معارف حسن ذكرها كما فى قوله وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد (والثانى) قال الزجاج ان خفض شديد العقاب على البدل لان جعل النكرة بدلا من المعرفة وبالعكس أمر جائز واعترضوا عليه بأن جعله وحده بدلا من الصفات فيه نبوة ظاهرة (الثالث) انه لا نزاع فى ان قوله غافر الذنب وقابل التوب يحسن جعلهما صفة وانما كان كذلك لانهما مفيدان معنى الدوام والاستمرار فكذلك قوله شديد العقاب يفيد معنى الدوام والاستمرار لان صفات الله تعالى منزهة عن الحدوث والتجدد فكونه شديد العقاب معناه كونه بحيث يشتد عقابه وهذا المعنى حاصل أبدا وغير موصوف بأنه حصل بعد أن لم يكن كذلك فهذا ما قيل فى هذا الباب (البحث الثانى) هذه الآية مشعرة بترجيح جانب الرحمة والفضل لانه تعالى لما أراد أن يصف نفسه بأنه شديد العقاب ذكر قبله أمرين كل واحد منهما يقتضى زوال العقاب وهو كونه غافر الذنب وقابل التوب وذكر بعده ما يدل على حصول الرحمة العظيمة وهو قوله ذى الطول فكونه شديد العقاب لما كان مسبوقا بتينك الصفتين وملحوقا بهذه الصفة دل ذلك على أن جانب الرحمة والكرم أرجح (البحث الثالث) لقائل ان يقول ذكر الواو فى قوله غافر الذنب وقابل التوب ولم يذكرها فى قوله شديد العقاب فما الفرق قلنا انه لو لم يذكر الواو فى قوله غافر الذنب وقابل التوب لاحتمل أن يقع فى خاطر انسان انه لا معنى لكونه غافر الذنب الا كونه قابل التوب أما لما ذكر الواو زال هذا الاحتمال لان عطف الشئ على نفسه محال اما كونه شديد العقاب فمعلوم انه مغاير لكونه غافر الذنب وقابل التوب فاستغنى به عن ذكر الواو (الصفة الرابعة) قوله ذى الطول أى ذى التفضل يقال طال علينا طولا أى تفضل علينا تفضلا ومن كلامهم طل على بفضلك ومنه قوله تعالى أولوا الطول منهم ومضى تفسيره عند قوله ومن لم يستطع منكم طولا واعلم انه لما وصف نفسه بكونه شديد العقاب لا بد وان يكون المراد بكونه تعالى آتيا بالعقاب الشديد الذى لا يقبح منه اتيانه به بل لا يجوز وصفه تعالى بكونه آتيا لفعل القبيح واذا ثبت هذا فنقول ذكر بعده كونه ذا الطول وهو كونه ذا الفضل فيجب أن يكون معناه كونه ذا الفضل بسبب أن يترك العقاب الذى له ان يفعله لانه ذكر كونه ذا الطول ولم يبين انه ذو الطول فيماذا فوجب صرفه الى كونه ذا الطول فى الامر الذى سبق ذكره وهو فعل العقاب الحسن دفعا للاجمال وهذا يدل على انه تعالى قد يترك العقاب الذى يحسن منه تعالى فعله وذلك يدل على أن العفو عن أصحاب الكبائر جائز وهو المطلوب (الصفة الخامسة) التوحيد المطلق وهو قوله لا اله الا هو والمعنى انه وصف نفسه بصفات الرحمة والفضل فلو كان معه اله آخر يشاركه ويساويه فى صفة الرحمة والفضل لما كانت الحاجة الى عبوديته شديدة اما اذا كان واحدا وليس له شريك ولا شبيه كانت الحاجة الى الاقرار بعبوديته شديدة

المتحزبة على رسلهم المجادلة بالباطل لادحاض الحق به وجب أيضا (على الذين كفروا) أى كفروا بك وتحزبوا عليك وهموا بما لم ينالوا كما ينبئ عنه اضافة اسم الرب الى ضميره عليه الصلاة والسلام فان ذلك الاشعار بأن وجوب كلمة العذاب عليهم من أحكام تربيته التى من جملتها نصرته عليه الصلاة والسلام وتعذيب أعدائه وذلك انما يتحقق بكون الموصول عبارة عن كفار قومه لا عن الامم المهلكة وقوله تعالى (انهم أصحاب النار) فى حيز النصب بحذف لام التعليل أى لانهم مستحقو أشد العقوبات وأفظعها التى هى عذاب النار وملازموها ابدا لكونهم كفارا معاندين متحزبين على الرسول عليه الصلاة والسلام كدأب من قبلهم من الامم المهلكة فهم لسائر فنون العقوبات أشد استحقاقا وأحق استيجابا وقيل هو فى محل الرفع على أنه بدل من كلمة ربك والمعنى مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة المهلكة كونهم من أصحاب النار أى كما وجب اهلاكهم فى الدنيا بعذاب الاستئصال كذلك وجب تعذيبهم بعذاب النار فى الآخرة ومحل الكاف على التقديرين النصب على

﴿فكان﴾

فكان الترغيب والترهيب الكاملان يحصلان بسبب هذا التوحيد (الصفة السادسة) قوله اليه المصير وهذه الصفة أيضا مما يقوى الرغبة فى الاقرار بعبوديته لانه بتقدير أن يكون موصوفا بصفات الفضل والكرم وكان واحدا لا شريك له الا أن القول بالحشر والنشر ان كان باطلا لم يكن الخوف الشديد حاصلا من عصيانه أما لما كان القول بالحشر والقيامة حاصلا كان الخوف أشد والحذر أكمل فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه الصفات واحتج أهل التشبيه بلفظة الى قالوا انها تفيد انتهاء الغاية والجواب عنه مذكور فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب واعلم انه تعالى لما قرر أن القرآن كتاب أنزله ليهتدى به فى الدين ذكر أحوال من يجادل لغرض ابطاله واخفاء أمره فقال ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان الجدال نوعان جدال فى تقرير الحق وجدال فى تقرير الباطل أما الجدال فى تقرير الحق فهو حرفة الانبياء عليهم السلام قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم وجادلهم بالتى هى أحسن وقال حكاية عن الكفار انهم قالوا لنوح عليه السلام يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا واما الجدال فى تقرير الباطل فهو مذموم وهو المراد بهذه الآية حيث قال ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا وقال ماضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون وقال وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق وقال صلى الله عليه وسلم ان جدالا فى القرآن كفر فقوله ان جدالا على لفظ التنكير يدل على التمييز بين جدال وجدال واعلم ان لفظ الجدال فى الشئ مشعر بالجدال الباطل ولفظ الجدال عن الشئ مشعر بالجدال لاجل تقريره والذب عنه قال صلى الله عليه وسلم ان جدالا فى القرآن كفر وقال لاتماروا فى القرآن فان المراء فيه كفر (المسئلة الثانية) الجدال فى آيات الله هو أن يقال مرة انه سحر ومرة انه شعر ومرة انه قول الكهنة ومرة أساطير الاولين ومرة انما يعلمه بشر وأشباه هذا مما كانوا يقولونه من الشبهات الباطلة فذكر تعالى انه لا يفعل هذا الا الذين كفروا وأعرضوا عن الحق ثم قال تعالى فلا يغررك تقلبهم فى البلاد أى لا ينبغى ان تغتر بانى أمهلهم واتركهم سالمين فى أبدانهم وأموالهم يتقلبون فى البلاد أى يتصرفون فيها للتجارات وطلب المعاش فانى وان أمهلتهم فانى سآخذهم وانتقم منهم كما فعلت بأشكالهم من الامم الماضية وكانت قريش كذلك يتقلبون فى بلاد الشام واليمن ولهم الاموال الكثيرة يتجرون فيها ويربحون ثم كشف عن هذا المعنى فقال كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم فذكر من أولئك المكذبين قوم نوح والاحزاب من بعدهم أى الامم المستمرة على الكفر كقوم عاد وثمود وغيرهم كما قال فى سورة ص كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الايكة أولئك الاحزاب وقوله وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه أى وعزمت كل أمة من هؤلاء الاحزاب ان يأخذوا رسولهم ليقتلوه ويعذبوه ويحبسوه وجادلوا بالباطل أى هؤلاء جادلوا رسلهم بالباطل أى بايراد الشبهات ليدحضوا به الحق أى ان

ومكانتهم عنده ومحل الموصول الرفع على الابتداء خبره (يسبحون بحمد ربهم) والجملة استئناف مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان أن اشراف الملائكة عليهم السلام مثابرون على ولاية من معه من المؤمنين ونصرتهم واستدعاء ما يسعدهم فى الدارين أى ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل ملتبسين بحمده على نعمائه التى لا تتناهى (ويؤمنون به) ايمانا حقيقيا بحالهم والتصريح به مع الغنى عن ذكره رأسا لاظهار فضيلة الايمان وابراز شرف أهله والاشعار بعلة دعائهم للمؤمنين حسبما ينطق به قوله تعالى (ويستغفرون للذين آمنوا) فان المشاركة فى الايمان أقوى المناسبات وأتمها وأدعى الدواعى الى النصح والشفقة وفى نظم استغفارهم لهم فى سلك وظائفهم المفروضة عليهم من تسبيحهم وتحميدهم وايمانهم ايذان بكمال اعتنائهم به واشعار بوقوعه

من الملائكة فان خلقا من الملائكة يقال له اسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله وقد ماه في الارض السفلى وقد مرق رأسه من سبع سموات وانه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع وفي الحديث ان الله أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلا لهم على سائرهم وقيل خلق الله تعالى العرش من جوهرة خضراء وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام وقيل حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا أيمانهم على الشمائل ما منهم

يزيلوا بسبب ايراد تلك الشبهات الحق والصدق فأخذتهم فكيف كان عقاب أي فانزلت بهم من الهلاك ماهموا بانزاله بالرسل وأرادوا ان يأخذوهم فاخذتهم أنا فكيف كان عقابي اياهم أليس كان مهلكا مستأصلا مهيبا في الذكر والسماع فانا أفعل بقومك كما فعلت بهؤلاء ان أصروا على الكفر والجدال في آيات الله ثم كشف عن هذا المعنى فقال وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار أي ومثل الذي حق على أولئك الامم السالفة من العقاب حقت كلمتي أيضا على هؤلاء الذين كفروا من قومك فهم على شرف نزول العقاب بهم قال صاحب الكشاف أنهم أصحاب النار في محل الرفع بدل من قوله كلمة ربك أي مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار ومعناه كما وجب اهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل كذلك وجب اهلاكهم بعذاب النار في الآخرة أو في محل النصب بحذف لام التعليل وايصال الفعل واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن قضاء الله بالسعادة والشقاوة لازم لا يمكن تغيره فقالوا انه تعالى أخبر انه حقت كلمة العذاب عليهم وذلك يدل على انهم لا قدرة لهم على الايمان لانهم لو تمكنوا منه لتمكنوا من ابطال هذه الكلمة الحقة ولتمكنوا من ابطال علم الله وحكمه ضرورة ان المتمكن من الشئ يجب كونه متمكنا من كل ماهو من لوازمه ولانهم لو آمنوا الواجب عليهم ان يؤمنوا بهذه الآية فحينئذ كانوا قد آمنوا بانهم لا يؤمنون أبدا وذلك تكليف مالا يطاق وقرأ نافع وابن عامر حقت كلمات ربك على الجمع والباقون على الواحد * قوله تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) اعلم انه تعالى لما بين ان الكفار يبالغون في اظهار العداوة مع المؤمنين بين ان أشرف طبقات المخلوقات هم الملائكة الذين هم حملة العرش والحافون حول العرش يبالغون في اظهار المحبة والنصرة للمؤمنين كأنه تعالى يقول ان كان هؤلاء الاراذل يبالغون في العداوة فلا تبال بهم ولا تلتفت اليهم ولا تقم لهم وزنا فان حملة العرش معك والحافون من حول العرش معك ينصرونك وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى حكى عن نوعين من فرق الملائكة هذه الحكاية (أحدهما) الذين يحملون العرش وقد حكى تعالى أن الذين يحملون العرش يوم القيامة ثمانية فيمكن أن يقال الذين يحملون في هذا الوقت هم أولئك الثمانية الذين يحملونه يوم القيامة ولاشك ان حملة العرش أشراف الملائكة وأكابرهم روى صاحب الكشاف ان حملة العرش أرجلهم في الارض السفلى ورؤسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وعن النبي صلى الله عليه وسلم لا تتفكروا في عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله تعالى من الملائكة فان خلقا من

الملائكة يقال له اسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله وقدماه فى الارض السفلى وقد مرق رأسه من سبع سموات وانه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع وقيل انه طائر صغير وروى ان الله تعالى أمر جميع الملائكة ان يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلا لهم على سائر الملائكة وقيل خلق الله العرش من جوهرة خضراء وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام وقيل حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الايمان على الشمائل ما منهم أحد الا ويسبح بما لا يسبح به الآخر هذه الآثار نقلتها من الكشاف (واما القسم الثانى) من الملائكة الذين ذكرهم الله تعالى فى هذه الآية فقوله تعالى ومن حوله والاظهر أن المراد منهم ما ذكره فى قوله وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وأقول العقل يدل على ان حملة العرش والحافين حول العرش يجب أن يكونوا أفضل الملائكة وذلك لان نسبة الارواح الى الارواح كنسبة الاجساد الى الاجساد فلما كان العرش أشرف الموجودات الجسمانية كانت الارواح المتعلقة بتدبير العرش يجب أن تكون أفضل من الارواح المدبرة للاجساد وأيضا يشبه أن يكون هناك أرواح حاملة لجسم العرش ثم يتولد عن تلك الارواح القاهرة المستعلية المدبرة لجسم العرش أرواح أخر من جنسها وهى متعلقة باطراف العرش واليهم الاشارة بقوله وترى الملائكة حافين من حول العرش وبالجملة فقد ظهر بالبراهين اليقينية وبالمكاشفات الصادقة انه لا نسبة لعالم الاجساد الى عالم الارواح وكل ما شاهدته بعين البصر فى اختلاف مراتب عالم الاجساد فيجب ان تشاهده بعين بصيرتك فى اختلاف مراتب عالم الارواح (المسئلة الثانية) دلت هذه الآية على انه سبحانه منزه عن أن يكون فى العرش وذلك لانه تعالى قال فى هذه الآية الذين يحملون العرش وقال فى آية أخرى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ولا شك ان حامل العرش يكون حاملا لكل من فى العرش فلو كان اله العالم فى العرش لكان هؤلاء الملائكة حاملين لاله العالم فحينئذ يكونون حافظين لاله العالم والحافظ القادر أولى بالالهية والمحمول المحفوظ أولى بالعبودية فحينئذ ينقلب الاله عبدا والعبد الها وذلك فاسد فدل هذا على ان اله العرش والاجسام متعال عن العرش والاجسام واعلم انه تعالى حكى عن حملة العرش وعن الحافين بالعرش ثلاثة أشياء (أولها) قوله يسبحون بحمد ربهم ونظيره قوله حكاية عن الملائكة ونحن نسبح بحمدك وقوله تعالى وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم فالتسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغى والتحميد الاعتراف بأنه هو المنعم على الاطلاق فالتسبيح اشارة الى الجلال والتحميد اشارة الى الاكرام فقوله يسبحون بحمد ربهم قريب من قوله تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام (والنوع الثانى) مما حكى الله عن هؤلاء الملائكة هو قوله تعالى ويؤمنون به فان قيل فاى

أوحال (وسعت كل شئ رحمة وعلما) أى وسعت رحمتك وعلمك فأزيل عن أصله للاغراق فى وصفه تعالى بالرحمة والعلم والمبالغة فى عمومهما وتقديم الرحمة لانها المقصودة بالذات ههنا والفاء فى قوله تعالى (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) أى للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيل الحق لترتيب الدعاء على ما قبلها من سعة الرحمة والعلم (وقهم عذاب الجحيم) واحفظهم عنه وهو تصريح بعد اشعار للتأكيد (ربنا وأدخلهم) عطف على قهم وتوسيط النداء بينهما للمبالغة فى الجؤار (جنات عدن التى وعدتهم) اى وعدتهم اياها وقرئ جنة عدن (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) أى صلاحا مصححا لدخول الجنة فى الجملة وان كان دون صلاح أصولهم وهو عطف على الضمير الاول أى وأدخلها معهم هؤلاء ليتم سرورهم ويتضاعف ابتهاجهم أو على الثانى لكن لا بناء على الوعد العام للكل كما قيل اذ لا يبقى حينئذ للعطف وجه بل بناء على الوعد الخاص بهم بقوله تعالى ألحقنا بهم ذريتهم بأن يكونوا أعلى درجة من ذريتهم قال سعيد ابن جبير يدخل المؤمن الجنة

فيقول أين أبي أين والدي أين زوجي فيقال انهم لم يعملوا مثل عملك فيقول اني كنت أعمل لي ولهم فيقال أدخلوهم الجنة وسبق الوعد بالادخال والالحاق لايستدعي حصول

الموعود بلا توسط شفاعة واستغفار وعليه مبنى قول من قال فائدة الاستغفار زيادة الكرامة والثواب والاول هو الاولى لان الدعاء بالادخال فيه صريح وفي الثاني ضمني وقرئ صلح بالضم وذريتهم بالافراد (انك أنت العزيز) أي الغالب الذي لايمتنع عليه مقدور (الحكيم) أي الذي لايفعل الاما تقتضيه الحكمة الباهرة من الامور التي من جملتها انجاز الوعد فالجملة تعليل لما قبلها (وقهم السيئات) أي العقوبات لان جزاء السيئة سيئة مثلها أوجزا السيئات على حذف المضاف وهو تعميم بعد تخصيص أومخصوص بالاتباع أوالمعاصي في الدنيا فمعنى قوله تعالى (ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) ومن تقه المعاصي في الدنيا فقد رحمته في الآخرة كأنهم طلبوا لهم السبب بعدما سألوا المسبب (وذلك) اشارة الى الرحمة المفهومة من

فائدة في قوله ويؤمنون به فان الاشتغال بالتسبيح والتحميد لايمكن الا وقد سبق الايمان بالله قلنا الفائدة فيه ماذكره صاحب الكشاف وقد أحسن فيه جدا فقال ان المقصود منه التنبيه على أن الله تعالى لو كان حاضرا بالعرش لكان حملة العرش والحافون حول العرش يشاهدونه ويعاينونه ولما كان ايمانهم بوجود الله موجبا للمدح والثناء لان الاقرار بوجود شئ حاضر مشاهد معاين لايوجب المدح والثناء ألا ترى ان الاقرار بوجود الشمس وكونها مضيئة لايوجب المدح والثناء فلما ذكر الله تعالى ايمانهم بالله على سبيل الثناء والمدح والتعظيم علم انهم آمنوا به بدليل انهم ماشاهدوه حاضرا جالسا هناك ورحم الله صاحب الكشاف فلو لم يحصل في كتابه الاهذه النكتة لكفاه فخرا وشرفا (النوع الثالث) مما حكى الله عن هؤلاء الملائكة قوله تعالى ويستغفرون للذين آمنوا واعلم انه قد ثبت ان كمال السعادة مربوط بأمرين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله ويجب أن يكون التعظيم لامر الله مقدما على الشفقة على خلق الله فقوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به مشعر بالتعظيم لامر الله وقوله ويستغفرون للذين آمنوا مشعر بالشفقة على خلق الله ثم في الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج كثير من العلماء بهذه الآية في اثبات ان الملك أفضل من البشر قالوا لان هذه الآية تدل على ان الملائكة لما فرغوا من ذكر الله بالثناء والتقديس اشتغلوا بالاستغفار لغيرهم وهم المؤمنين وهذا يدل على انهم مستغنون عن الاستغفار لانفسهم اذلوكانوا محتاجين اليه لقدموا الاستغفار لأنفسهم على الاستغفار لغيرهم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم ابدأ بنفسك وأيضا قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم فاعلم انه لااله الاالله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات فأمر محمدا أن يذكر أولا الاستغفار لنفسه ثم بعده يذكر الاستغفار لغيره وحكى عن نوح عليه السلام انه قال رب اغفرلي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات وهذا يدل على أن كل من كان محتاجا الى الاستغفار فانه يقدم الاستغفار لنفسه على الاستغفار لغيره فالملائكة لوكانوا محتاجين الى الاستغفار لكان اشتغالهم بالاستغفار لانفسهم مقدما على اشتغالهم بالاستغفار لغيرهم ولما لم يذكر الله تعالى عنهم استغفارهم لانفسهم علمنا ان ذلك انما كان لانهم ماكانوا محتاجين الى الاستغفار وأما الانبياء عليهم السلام فقد كانوا محتاجين الى الاستغفار بدليل قوله تعالى لمحمد عليه السلام واستغفر لذنبك واذا ثبت هذا فقد ظهر ان الملك أفضل من البشر والله أعلم (المسئلة الثانية) احتج الكعبي بهذه الآية على أن تأثير الشفاعة في حصول زيادة الثواب للمؤمنين لافي اسقاط العقاب عن المذنبين قال وذلك لان الملائكة قالوا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك قال وليس المراد فاغفر للذين تابوا من الكفر سواء كان مصرا على الفسق أولم يكن كذلك لان من هذا حاله لايوصف بكونه متبعا سبيل ربه ولايطلق ذلك فيه وأيضا ان الملائكة يقولون وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم وهذا لايليق بالفاسقين لان خصومنا لايقطعون على

رحمته أواليها والى الوقاية ومافيه من معنى البعد لما مر مرارا من الاشعار ببعد درجة المشار اليه ﴿ ان (هو الفوز العظيم) الذي لامطمع وراءه لطامع

(ان الذين كفروا) شروع في بيان أحوال الكفرة بعد دخولهم النار بعد ما بين فيما سبق أنهم أصحاب النار (ينادون) أي من مكان بعيد وهم في النار وقد مقتوا أنفسهم الامارة بالسوء التي وقعوا فيما وقعوا باتباع هواها أو مقت

ان الله تعالى وعدهم الجنة وانما يجوزون ذلك فثبت ان شفاعة الملائكة لاتتناول الا أهل الطاعة فوجب أن تكون شفاعة الانبياء كذلك ضرورة أنه لاقائل بالفرق والجواب أن نقول هذه الآية تدل على حصول الشفاعة من الملائكة للمذنبين فبين هذا ثم نجيب عما ذكره الكعبي أما بيان دلالة هذه الآية على ما قلناه فمن وجوه (الاول) قوله ويستغفرون للذين آمنوا والاستغفار طلب المغفرة والمغفرة لاتذكر الا في اسقاط العقاب أما طلب النفع الزائد فانه لايسمى استغفارا (الثاني) قوله تعالى ويستغفرون للذين آمنوا وهذا يدل على انهم يستغفرون لكل أهل الايمان فاذا دللنا على ان صاحب الكبيرة مؤمن وجب دخوله تحت هذه الشفاعة (الثالث) قوله تعالى فاغفر للذين تابوا طلب المغفرة للذين تابوا ولا يجوز أن يكون المراد اسقاط عقوبة الكبيرة بعد التوبة لان ذلك واجب على الله عند الخصم وما كان فعله واجبا كان طلبه بالدعاء قبيحا ولا يجوز أيضا أن يكون المراد اسقاط عقوبة الصغائر لان ذلك أيضا واجب فلا يحسن طلبه بالدعاء ولا يجوز أن يكون المراد طلب زيادة منفعة على الثواب لان ذلك لايسمى مغفرة فثبت أنه لايمكن حمل قوله فاغفر للذين تابوا الا على اسقاط عقاب الكبيرة قبل التوبة واذا ثبت هذا في حق الملائكة فكذلك في حق الانبياء لانعقاد الاجماع على انه لافرق أما الذي تمسك به الكعبي وهو انهم طلبوا المغفرة للذين تابوا فنقول يجب أن يكون المراد منه الذين تابوا عن الكفر واتبعوا سبيل الايمان وقوله ان التائب عن الكفر المصر على الفسق لايسمى تائبا ولا متبعا سبيل الله قلنا لانسلم قوله بل يقال انه تائب عن الكفر وتابع سبيل الله في الدين والشريعة واذا ثبت انه تائب عن الكفر ثبت أنه تائب ألا ترى أنه يكفي في صدق وصفه بكونه ضاربا وضاحكا صدور الضرب والضحك عنه مرة واحدة ولا يتوقف ذلك على صدور كل أنواع الضرب والضحك عنه فكذا ههنا (المسئلة الثالثة) قال أهل التحقيق ان هذه الشفاعة الصادرة عن الملائكة في حق البشر تجري مجرى اعتذار عن زلة سبقت وذلك لانهم قالوا في أول تخليق البشر أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فلما سبق منهم هذا الكلام تداركوا في آخر الامر بأن قالوا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم وهذا كالتنبيه على ان من آذى غيره فالاولى ان يجبر ذلك الايذاء بايصال نفع واعلم انه تعالى لما حكى عن الملائكة انهم يستغفرون للذين تابوا بين كيفية ذلك الاستغفار فحكى عنهم انهم قالوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان الدعاء في أكثر الامر مذكور بلفظ ربنا ويدل عليه ان الملائكة عند الدعاء قالوا ربنا بدليل هذه الآية وقال آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا وقال نوح عليه السلام رب اني أعوذ بك أن أسئلك ماليس لي به علم وقال أيضا رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا وقال أيضا رب اغفر لي ولوالدي وقال عن ابراهيم عليه السلام رب أرني كيف تحيي الموتى وقال رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب

بعضهم بعضا من الاحباب كقوله تعالى يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا أي أبغضوها أشد البغض وأنكروها أبلغ الانكار وأظهروا ذلك على رؤس الاشهاد فيقال لهم عند ذلك (لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم) أي لمقت الله أنفسكم الامارة بالسوء أو مقته اياكم في الدنيا (اذ تدعون) من جهة الانبياء (الى الايمان) فتأبون قبوله (فتكفرون) اتباعا لانفسكم الامارة ومسارعة الى هواها أو اقتداء بأخلائكم المضلين واستحبابا لآرائهم أكبر من مقتكم أنفسكم الامارة أو من مقت بعضكم بعضا اليوم فاذ ظرف للمقت الاول وان توسط بينهما الخبر لما في الظروف من الاتساع وقيل لمصدر آخر مقدر أي مقته اياكم اذ تدعون وقيل مفعول لاذكروا والاول هو الوجه وقيل كلام المتقين في الآخرة واذ تدعون تعليل لما بين الظرف

والسبب من علاقة اللزوم والمعنى لمقت الله اياكم الآن أكبر من

مقتكم أنفسكم لما كنتم تدعون الى الايمان فتكفرون وتخصيص هذا الوجه بصورة كون المراد بأنفسهم أضرابهم مما لا داعي اليه (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين)

صفتان لمصدري الفعلين المذكورين أي اماتتين واحياءتين أو موتتين وحياتين على أنهما مصدران لهما أيضا بحذف الزوائد أو لفعلين يدل عليهما المذكوران فان الاماتة والاحياء ينبئان على الموت والحياة حتما كأنه قيل أمتنا فمتنا موتتين اثنتين وأحييتنا فحيينا حياتين اثنتين على طريقة قول من قال وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع من المال الا مسحت أو مجلف أي لم تدع فلم يبق الا مسحت الخ قيل أرادوا بالاماتة الاولى خلقهم أمواتا وبالثانية اماتتهم عند انقضاء آجالهم على أن الاماتة جعل الشئ عادم الحياة أعم من أن يكون بانشائه كذلك كما في قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل أو بجعله كذلك بعد الحياة وبالاحياءين الاحياء الاول واحياء البعث وقيل أرادوا بالاماتة الاولى ما بعد حياة الدنيا وبالثانية ما بعد حياة القبر وبالاحياءين ما في القبر وما عند البعث وهو الانسب بحالهم وأما حديث لزوم الزيادة على النص ضرورة تحقق حياة الدنيا فمدفوع

﴿ راجع ﴾

وقال ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وقال عن يوسف رب قد آتيتني من الملك وقال عن موسى عليه السلام رب أرني أنظر اليك وقال في قصة الوكز رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين وحكى تعالى عن داود أنه استغفر ربه وخر راكعا وأناب وعن سليمان انه قال رب هب لي ملكا وعن زكريا انه نادى ربه نداء خفيا وعن عيسى عليه السلام انه قال ربنا أنزل علينا مائدة من السماء وعن محمد صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى قال له وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وحكى عن المؤمنين انهم قالوا ربنا ما خلقت هذا باطلا وأعادوا هذه اللفظة خمس مرات وحكى أيضا عنهم انهم قالوا غفرانك ربنا واليك المصير الى آخر السورة فثبت بما ذكرنا ان من أرضى الدعاء أن ينادي العبد ربه بقوله يارب وتمام الاشكال فيه أن يقال لفظ الله أعظم من لفظ الرب فلم صار لفظ الرب مختصا بوقت الدعاء والجواب كأن العبد يقول كنت في كتم العدم المحض والنفي الصرف فأخرجتني الى الوجود وربيتني فاجعل تربيتك لي شفيعا اليك في ان لا تخليني طرفة عين عن تربيتك واحسانك وفضلك (المسئلة الثانية) السنة في الدعاء أن يبدأ فيه بالثناء على الله تعالى ثم يذكر الدعاء عقيبه والدليل عليه هذه الآية فان الملائكة لما عزموا على الدعاء والاستغفار للمؤمنين بدؤا بالثناء فقالوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما وأيضا ان الخليل عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء ذكر الثناء أولا فقال الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين واذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين فكل هذا ثناء على الله تعالى ثم بعده ذكر الدعاء فقال رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين واعلم ان العقل يدل أيضا على رعاية هذا الترتيب وذلك لان ذكر الله بالثناء والتعظيم بالنسبة الى جوهر الروح كالاكسير الاعظم بالنسبة الى النحاس فكما ان ذرة من الاكسير اذا وقعت على عالم من النحاس انقلب الكل ذهبا ابريزا فكذلك اذا وقعت ذرة من اكسير معرفة جلال الله تعالى على جوهر الروح النطقية انقلب من نحوسة النحاسية الى صفاء القدس وبقاء عالم الطهارة فثبت ان عند اشراق نور معرفة الله تعالى في جوهر الروح يصير الروح أقوى صفاء وأكمل اشراقا ومتى صار كذلك كانت قوته أقوى وتأثيره أكمل فكان حصول الشئ المطلوب بالدعاء أقرب وأكمل وهذا هو السبب في تقديم الثناء على الله على الدعاء (المسئلة الثالثة) اعلم أن الملائكة وصفوا الله تعالى بثلاثة أنواع من الصفات الربوبية والرحمة والعلم أما الربوبية فهي اشارة الى الايجاد والابداع وفيه لطيفة أخرى وهي ان قولهم ربنا اشارة الى التربية والتربية عبارة عن ابقاء الشئ على أكمل أحواله وأحسن صفاته وهذا يدل على ان هذه الممكنات كما انها محتاجة حال حدوثها الى احداث الحق سبحانه وتعالى وايجاده فكذلك انها محتاجة حال بقائها الى ابقاء الله وأما الرحمة فهي اشارة الى ان جانب الخير والرحمة والاحسان

لكن لا بما قيل من عدم اعتدادهم بها لزوالها وانقضائها وانقطاع آثارها وأحكامها بل بأن مقصودهم احداث
الاعتراف بما كانوا ينكرونه فى الدنيا كما ينطق به قولهم (فاعترفنا بذنوبنا) والتزام العمل بموجب ذلك
الاعتراف ليتوسلوا بذلك
الى ما علقوا به أطماعهم
الفارغة من الرجع الى
الدنيا كما قد صرحوا به
حيث قالوا فارجعنا نعمل
صالحا انا موقنون
وهو الذى أرادوه بقولهم
(فهل الى خروج
من سبيل) مع نوع
استبعاد له واستشعار
يأس منه لا أنهم قالوه
بطريق القنوط البحت
كما قيل ولا ريب فى
أن الذى كانوا ينكرونه
ويفرعون عليه فنون
الكفر والمعاصى ليس
الا الاحياء بعد الموت
وأما الاحياء الاول فلم
يكونوا ينكرونه اينظموه
فى سلك ما اعترفوا به
وزعموا أن الاعتراف
يجديهم نفعا وانما ذكروا
الموتة الاولى مع كونهم
معترفين بها فى الدنيا
لتوقف حياة القبر عليها
وكذا حال الموتة فى القبر
فان مقصدهم الاصلى
هو الاعتراف بالاحياءين
وانما ذكروا والاماتتين
لترتيبهما عليهم
ذكرا حسب ترتبهما
عليهما وجودا وتنكير
سبيل للابهام أى من سبيل ما كيفما كان وقوله تعالى (ذلكم) الخ جواب لهم باستحالة حصول ما يرجونه
ببيان ما يوجبها من

راجح على جانب الضرر وانه تعالى انما خلق الخلق للرحمة والخير لا للاضرار والشر فان
قيل قوله ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فيه سؤال لان العلم وسع كل شئ أما الرحمة
فما وصلت الى كل شئ لان المضرور حال وقوعه فى الضرر لا يكون ذلك الضرر رحمة وهذا
السؤال أيضا مذكور فى قوله ورحمتى وسعت كل شئ قلنا كل موجود فقد نال من رحمة الله
تعالى نصيبا وذلك لان الموجود اما واجب واما ممكن أما الواجب فليس الا الله سبحانه
وتعالى وأما الممكن فوجوده من الله تعالى وبايجاده وذلك رحمة فثبت انه لا موجود غير
الله الا وقد وصل اليه نصيب ونصاب من رحمة الله فلهذا قال ربنا وسعت كل شئ رحمة
وعلما وفى الآية دقيقة أخرى وهى ان الملائكة قدموا ذكر الرحمة على ذكر العلم فقالوا
وسعت كل شئ رحمة وعلما وذلك لان مطلوبهم ايصال الرحمة وأن يتجاوز عما علمه منهم من
أنواع الذنوب فالمطلوب بالذات هو الرحمة والمطلوب بالعرض أن يتجاوز عما علمه منهم
والمطلوب بالذات مقدم على المطلوب بالعرض ألا ترى انه لما كان ابقاء الصحة مطلوبا
بالذات وازالة المرض مطلوبا بالعرض لا جرم لما ذكروا حد الطب قدموا فيه حفظ
الصحة على ازالة المرض فقالوا الطب علم يتعرف منه أحوال بدن الانسان من جهة ما يصح
ويزول عن الصحة لتحفظ الصحة حاصلة وتسترد زائلة فكذا ههنا المطلوب بالذات هو الرحمة
وأما التجاوز عما علمه منهم من أنواع الذنوب فهو مطلوب بالعرض لاجل ان حصول الرحمة
على سبيل الكمال لا يحصل الا بالتجاوز عن الذنوب فلهذا السبب وقع ذكر الرحمة سابقا
على ذكر العلم (المسئلة الرابعة) دلت هذه الآية على ان المقصود بالقصد الاول فى الخلق
والتكوين انما هو الرحمة والفضل والجود والكرم ودلت الدلائل اليقينية على ان كل
ما دخل فى الوجود من أنواع الخير والشر والسعادة والشقاوة فبقضاء الله وقدره والجمع
بين هذين الاصلين فى غاية الصعوبة فعند هذا قالت الحكماء الخير مراد مرضى والشر مراد
مكروه والخير مقضى به بالذات والشر مقضى به بالعرض وفيه غور عظيم (المسئلة
الخامسة) قوله وسعت كل شئ رحمة وعلما يدل على كونه سبحانه عالما بجميع المعلومات
التى لا نهاية لها من الكليات والجزئيات وأيضا فلولا ذلك لم يكن فى الدعاء والتضرع فائدة
لانه اذا جاز أن يخرج عن علمه بعض الاشياء فعلى هذا التقدير لا يعرف هذا الداعى ان الله
سبحانه يعلمه ويعلم دعاءه وعلى هذا التقدير لا يبقى فى الدعاء فائدة البتة واعلم أنه تعالى لما
حكى عنهم كيفية ثنائهم على الله تعالى حكى عنهم كيفية دعائهم وهو انهم قالوا فاغفر
للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم واعلم أن الملائكة طلبوا بالدعاء من الله
تعالى أشياء كثيرة للمؤمنين فالمطلوب الاول الغفران وقد سبق تفسيره فى قوله فاغفر للذين
تابوا واتبعوا سبيلك فان قيل لا معنى للغفران الا اسقاط العذاب وعلى هذا التقدير فلا فرق
بين قوله فاغفر لهم وبين قوله وقهم عذاب الجحيم قلنا دلالة لفظ المغفرة على اسقاط عذاب
الجحيم دلالة حاصلة على سبيل الرمز والاشارة فلما ذكروا هذا الدعاء على سبيل الرمز

والاشارة أردفوه بذكره على سبيل التصريح لاجل التأكيد والمبالغة واعلم انهم
لما طلبوا من الله ازالة العذاب عنهم أردفوه بأن طلبوا من الله ايصال الثواب اليهم
فقالوا ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم فان قيل أنتم زعمتم ان هذه الشفاعة انما
حصلت للمذنبين وهذه الآية تبطل ذلك لانه تعالى ما وعد المذنبين بأن يدخلهم في جنات
عدن قلنا لا نسلم انه ما وعدهم بذلك لانا بينا ان الدلائل الكثيرة في القرآن دلت على انه
تعالى لا يخلد أهل لا اله الا الله محمد رسول الله في النار واذا أخرجهم من النار وجب أن
يدخلهم الجنة فكان هذا وعدا من الله تعالى لهم بأن يدخلهم في جنات عدن اما من غير
دخول النار واما بعد أن يدخلهم النار قال تعالى ومن صلح من آبائهم وأزواجهم
وذرياتهم يعني وأدخل معهم في الجنة هؤلاء الطوائف الثلاثة وهم الصالحون من الآباء
والازواج والذريات وذلك لان الرجل اذا حضر معه في موضع عيشه وسروره أهله
وعشيرته كان ابتهاجه أكمل قال الفراء والزجاج من نصب من مكانين فان شئت رددته
على الضمير في قوله وأدخلهم وان شئت في وعدتهم والمراد من قوله ومن صلح أهل الايمان
ثم قالوا انك أنت العزيز الحكيم وانما ذكروا في دعائهم هذين الوصفين لانه لو لم يكن عزيزا
بل كان بحيث يغلب ويمنع لما صح وقوع المطلوب منه ولو لم يكن حكيما لما حصل هذا
المطلوب على وفق الحكمة والمصلحة ثم قالوا بعد ذلك وقهم السيآت قال بعضهم المراد
وقهم عذاب السيآت فان قيل فعلى هذا التقدير لا فرق بين قوله وقهم السيآت وبين
ما تقدم من قوله وقهم عذاب الجحيم وحينئذ يلزم التكرار الخالي عن الفائدة وانه لا يجوز
قلنا بل التفاوت حاصل من وجهين (الاول) أن يكون قوله وقهم عذاب الجحيم دعاء
مذكورا للاصول وقوله وقهم السيآت دعاء مذكورا للفروع (الثاني) أن يكون
قوله وقهم عذاب الجحيم مقصورا على ازالة الجحيم وقوله وقهم السيآت يتناول عذاب
الجحيم وعذاب موقف القيامة وعذاب الحساب والسؤال (والقول الثاني) في تفسير قوله
وقهم السيآت هو أن الملائكة طلبوا ازالة عذاب النار بقولهم وقهم عذاب الجحيم
وطلبوا ايصال ثواب الجنة اليهم بقولهم وأدخلهم جنات عدن ثم طلبوا بعد ذلك أن
يصونهم الله تعالى في الدنيا عن العقائد الفاسدة والاعمال الفاسدة وهو المراد بقولهم وقهم
السيآت ثم قالوا ومن تق السيآت يومئذ فقد رحمته يعني ومن تق السيآت في الدنيا
فقد رحمته في يوم القيامة ثم قالوا وذلك هو الفوز العظيم حيث وجدوا بأعمال منقطعة
نعيما لا ينقطع وبأعمال حقيرة ملكا لا تصل العقول الى كنه جلالته * قوله تعالى (ان الذين
كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم اذ تدعون الى الايمان فتكفرون
قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل ذلكم بانه
اذا دعي الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير) اعلم انه تعالى
لما عاد الى شرح أحوال الكافرين المجادلين في آيات الله وهم الذين ذكرهم الله في قوله

وتسارعوا فيه وفي ايراد اذا وصيغة الماضي في الشرطية الاولى وان وصيغة المضارع في الثانية ما لا يخفى من الدلالة على كمال سوء حالهم وحيث كان حالكم كذلك (فالحكم لله) الذي لا يحكم الا بالحق ولا يقضي الا بما تقتضيه الحكمة (العلي الكبير) الذي ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه وقد حكم بأنه لا مغفرة للمشرك ولا نهاية لعقوبته كما لا نهاية لشناعته فلا سبيل لكم الى الخروج أبدا (هو الذي يريكم آياته) الدالة على شؤونه العظيمة الموجبة لتفرده بالالوهية لتستدلوا بها على ذلك وتعملوا بموجبها فتوحدوه تعالى وتخصوه بالعبادة (وينزل) بالتشديد وقرئ بالتخفيف من الانزال (لكم من السماء رزقا) أي سبب رزق وهو المطر وافراده بالذكر مع كونه من جملة الآيات
الدالة على كمال قدرته تعالى لتفرده بعنوان كونه من آثار رحمته وجلائل نعمته الموجبة للشكر ﴿ ما يجادل ﴾

وصيغة المضارع في الفعلين للدلالة على تجدد الارادة والتنزيل واستمرارهما وتقديم الجار والمجرور على المفعول لما مر غير مرة (وما يتذكر) بتلك الآيات الباهرة وما يعمل بمقتضاها (الا من ينيب) الى الله تعالى ويتفكر فيما أودعه في تضاعيف مصنوعاته من شواهد قدرته الكاملة ونعمته الشاملة الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى ومن ليس كذلك فهو بمعزل من التذكر والاتعاظ (فادعوا الله مخلصين له الدين) أي اذا كان الامر كما ذكر من اختصاص التذكر بمن ينيب فاعبدوه أيها المؤمنون مخلصين له دينكم بموجب انابتكم اليه تعالى وايمانكم به (ولو كره الكافرون) ذلك وغاظهم اخلاصكم (رفيع الدرجات) نحو بديع السموات على أنه صفة مشبهة أضيفت الى فاعلها بعد النقل الى فعل بالضم كما هو المشهور وتفسيره بالرافع ليكون من اضافة اسم الفاعل الى المفعول بعيد في الاستعمال أي رفيع درجات ملائكته أي معارجهم ومصاعدهم الى العرش (ذو العرش) أي مالكه وهما خبران آخران لقوله تعالى هو أخبر عنه بهما ايذانا بعلو شأنه تعالى وعظم سلطانه الموجبين لتخصيص العبادة به واخلاص الدين له اما بطريق الاستشهاد بهما عليهما

ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا بين أنهم في القيامة يعترفون بذنوبهم واستحقاقهم العذاب الذي ينزل بهم ويسألون الرجوع الى الدنيا ليتلافوا ما فرط منهم فقال ان الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) في الآية حذف وفيها أيضا تقديم وتأخير أما الحذف فتقديره لمقت الله اياكم وأما التقديم والتأخير فهو أن التقدير أن يقال لمقت الله لكم حال ما تدعون الى الايمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم وفي تفسير مقتهم أنفسهم وجوه (الاول) انهم اذا شاهدوا القيامة والجنة والنار مقتوا أنفسهم على اصرارهم على التكذيب بهذه الاشياء في الدنيا (الثاني) ان الاتباع يشتد مقتهم للرؤساء الذين دعوهم الى الكفر في الدنيا والرؤساء أيضا يشتد مقتهم للاتباع فعبر عن مقت بعضهم بعضا بأنهم مقتوا أنفسهم كما انه تعالى قال فاقتلوا أنفسكم والمراد قتل بعضهم بعضا (الثالث) قال محمد بن كعب اذا خطبهم ابليس وهم في النار بقوله وما كان لي عليكم من سلطان الى قوله ولوموا أنفسكم ففي هذه الحالة مقتوا أنفسهم واعلم أنه لا نزاع ان مقتهم أنفسهم انما يحصل في القيامة اما مقت الله لهم ففيه وجهان (الاول) انه حاصل في الآخرة والمعنى لمقت الله لكم في هذا الوقت أشد من مقتكم أنفسكم في هذا الوقت (والثاني) وعليه الاكثرون ان التقدير لمقت الله لكم في الدنيا اذ تدعون الى الايمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم الآن في تفسير الالفاظ المذكورة في الآية أوجه (الاول) ان الذين ينادونهم ويذكرون لهم هذا الكلام هم خزنة جهنم (الثاني) المقت أشد البغض وذلك في حق الله تعالى محال فالمراد منه أبلغ الانكار والزجر (الثالث) قال الفراء ينادون لمقت الله معناه انهم ينادون ان مقت الله أكبر يقال ناديت ان زيدا قائم وان زيدا لقائم (الرابع) قوله اذ تدعون الى الايمان فيه حذف والتقدير لمقت الله لكم اذ تدعون الى الايمان فتأتون بالكفر أكبر من مقتكم الآن أنفسكم ثم انه تعالى بين ان الكفار اذا خوطبوا بهذا الخطاب قالوا ربنا أمتنا اثنتين الى آخر الآية والمعنى انهم لما عرفوا ان الذي كانوا عليه في الدنيا كان فاسدا باطلا تمنوا الرجوع الى الدنيا لكي يشتغلوا عند الرجوع اليها بالاعمال الصالحة وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج أكثر العلماء بهذه الآية في اثبات عذاب القبر وتقرير الدليل انهم أثبتوا لانفسهم موتتين حيث قالوا ربنا أمتنا اثنتين فأحد الموتتين مشاهد في الدنيا فلا بد من اثبات حياة أخرى في القبر حتى يصير الموت الذي يحصل عقيبها موتا ثانيا وذلك يدل على حصول حياة في القبر فان قيل قال كثير من المفسرين الموتة الاولى اشارة الى الحالة الحاصلة عند كون الانسان نطفة وعلقة والموتة الثانية اشارة الى ما حصل في الدنيا فلم لا يجوز أن يكون الامر كذلك والذي يدل على ان الامر ما ذكرناه قوله تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم والمراد من قوله وكنتم أمواتا الحالة الحاصلة عند كونه نطفة وعلقة وتحقيق الكلام ان الاماتة تستعمل

فان ارتفاع معارج ملائكته الى العرش وكون العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوى والسفلى تحت ملكوته
وقبضة قدرته مما يقضى بكون علو شأنه وعظم سلطانه فى نهاية لاغاية وراءها واما بجعلهما
عبارة عنهما بطريق
المجاز المتفرع على
الكناية كالاستواء على
العرش وتمهيدا لما
يعقبهما من قوله تعالى
(يلقى الروح من أمره)
فانه خبر آخر لما ذكر
منبئ عن انزال الرزق
الروحانى الذى هو
الوحى بعد بيان انزال
الرزق الجسمانى الذى
هو المطر أى ينزل الوحى
الجارى من القلوب
منزلة الروح من الاجساد
وقوله تعالى من أمره
بيان للروح الذى أريد
به الوحى فانه أمر بالخير
أو حال منه أى حال كونه
ناشئا ومبتدأ من أمره
أو صفة له على رأى
من يجوز حذف الموصول
مع بعض صلته أى
الروح الكائن من أمره
أو متعلق بيلقى ومن
للسببية كالباء مثل
ما فى قوله تعالى مما
خطيآتهم أى يلقى الوحى
بسبب أمره (على من
يشاء من عباده) وهو
الذى اصطفاه لرسالته
وتبليغ أحكامه اليهم
(لينذر) أى الله تعالى
أو الملقى عليه أو الروح وقرئ لتنذر على أن الفاعل هو الرسول عليه الصلاة والسلام أو الروح ﴿ ذاك ﴾
لانها قد تؤنث (يوم التلاق) اما ظرف للمفعول الثانى أى لينذر الناس

بمعنيين (أحدهما) ايجاد الشئ ميتا (والثانى) تصيير الشئ ميتا بعد أن كان حيا كقولك وسع الخياط ثوبى يحتمل انه خاطه واسعا ويحتمل أنه صيره واسعا بعد ان كان ضيقا فلم لايجوز فى هذه الآية ان يكون المراد بالاماتة خلقها ميتة ولا يكون المراد تصييرها ميتة بعد ان كانت حية (السؤال الثانى) ان هذا كلام الكفار فلا يكون حجة (السؤال الثالث) ان هذه الآية تدل على المنع من حصول الحياة فى القبر وبيانه انه لو كان الامر كذلك لكان قد حصلت الحياة ثلاث مرات أولها فى الدنيا وثانيها فى القبر وثالثها فى القيامة والمذكور فى الآية ليس الا حياتين فقط فتكون احداهما الحياة فى الدنيا والحياة الثانية فى القيامة والموت الحاصل بينهما هو الموت المشاهد فى الدنيا (السؤال الرابع) انه ان دلت هذه الآية على حصول الحياة فى القبر فههنا ما يدل على عدمه وذلك بالمنقول والمعقول أما المنقول فمن وجوه (الاول) قوله تعالى أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه فلم يذكر فى هذه الآية الا الحذر عن الآخرة ولو حصلت الحياة فى القبر لكان الحذر عنها حاصلا ولو كان الامر كذلك لذكره ولما لم يذكره علمنا أنه غير حاصل (الثانى) انه تعالى حكى فى سورة الصافات عن المؤمنين المتقين أنهم يقولون بعد دخولهم فى الجنة أفما نحن بميتين الا موتتنا الاولى ولا شك ان كلام أهل الجنة حق وصدق ولو حصلت لهم حياة فى القبر لكانوا قد ماتوا موتتين وذلك على خلاف قوله أفما نحن بميتين الا موتتنا الاولى قالوا والاستدلال بهذه الآية أقوى من الاستدلال بالآية التى ذكرتموها لان الآية التى تمسكنا بها حكاية قول المؤمنين الذين دخلوا الجنة والآية التى تمسكتم بها حكاية قول الكافرين الذين دخلوا النار وأما المعقول فمن وجوه (الاول) وهو ان الذى افترسته السباع وأكلته لو أعيد حيا لكان اما أن يعاد حيا بمجموعه أو بآحاد أجزائه والاول باطل لان الحس يدل على أنه لم يحصل له مجموع والثانى باطل لانه لما أكلته السباع فلو جعلت تلك الاجزاء أحياء لحصلت أحياء فى معدة السباع وفى أمعائها وذلك فى غاية الاستبعاد (الثانى) ان الذى مات لو تركناه ظاهرا بحيث يراه كل أحد فانهم يرونه باقيا على موته فلو جوزنا مع هذه الحالة انه يقال انه صار حيا لكان هذا تشكيكا فى المحسوسات وانه دخول فى السفسطة (والجواب) قوله لم لا يجوز أن تكون الموتة الاولى هى الموتة التى كانت حاصلة حال ما كان نطفة وعلقة فنقول هذا لا يجوز وبيانه أن المذكور فى الآية ان الله أماتهم ولفظ الاماتة مشروط بسبق حصول الحياة اذ لو كان الموت حاصلا قبل هذه الحالة امتنع كون هذا اماتة والا لزم تحصيل الحاصل وهو محال وهذا بخلاف قوله كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا لان المذكور فى هذه الآية أنهم كانوا أمواتا وليس فيها ان الله أماتهم بخلاف الآية التى نحن فى تفسيرها لانها تدل على ان الله تعالى أماتهم مرتين وقد بينا ان لفظ الاماتة لا يصدق الا عند سبق الحياة فظهر الفرق أما قوله ان هذا كلام الكفار فلا يكون حجة قلنا لما ذكروا

العذاب يوم التلاق وهو يوم القيامة لانه يتلاقى فيه الارواح والاجسام وأهل السموات والارض أو هو المفعول الثاني
اتساعا أو أصالة فانه من شدة هوله وفظاعته حقيق بالانذار أصالة وقرئ لينذر على البناء للمفعول

ذلك لم يكذبهم الله تعالى اذ لو كانوا كاذبين لأظهر الله تكذيبهم ألا ترى أنهم لما كذبوا في قولهم والله ربنا ما كنا مشركين كذبهم الله في ذلك فقال انظر كيف كذبوا وأما قوله ظاهر الآية يمنع من اثبات حياة في القبر اذ لو حصلت هذه الحياة لكان عدد الحياة ثلاث مرات لا مرتين فنقول الجواب عنه من وجوه (الاول) هو ان مقصودهم تعديد أوقات البلاء والمحنة وهي أربعة الموتة الاولى والحياة في القبر والموتة الثانية والحياة في القيامة فهذه الاربعة أوقات البلاء والمحنة فأما الحياة في الدنيا فليست من أقسام أوقات البلاء والمحنة فلهذا السبب لم يذكروها (الثاني) لعلهم ذكروا الحياتين وهي الحياة في الدنيا والحياة في القيامة أما الحياة في القبر فأهملوا ذكرها لقلة وجودها وقصر مدتها (الثالث) لعلهم لما صاروا أحياء في القبور لم يموتوا بل بقوا أحياء اما في السعادة واما في الشقاوة واتصل بها حياة القيامة فكانوا من جملة من أرادهم الله بالاستثناء في قوله فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله (الرابع) لو ثبت الحياة في القبر لزم أن لا يحصل الموت الا مرة واحدة فكان اثبات الموت مرتين كذبا وهو على خلاف لفظ القرآن أما لو اثبتنا الحياة في القبر لزمنا اثبات الحياة ثلاث مرات والمذكور في القرآن مرتين أما المرة الثالثة فليس في اللفظ ما يدل على ثبوتها أو عدمها فثبت ان نفي حياة القبر يقتضي ترك ما دل اللفظ عليه فأما اثبات حياة القبر فانه يقتضي اثبات شئ زائد على ما دل عليه اللفظ مع ان اللفظ لا اشعار فيه بثبوته ولا بعدمه فكان هذا أولى وأما ما ذكروه في المعارضة الاولى فنقول قوله يحذر الآخرة تدخل فيه الحياة الآخرة سواء كانت في القبر أو في القيامة وأما المعارضة الثانية فجوابها أنا نرجح قولنا بالاحاديث الصحيحة الواردة في عذاب القبر وأما الوجهان العقليان فمدفوعان لانا اذا قلنا ان الانسان ليس عبارة عن هذا الهيكل بل هو عبارة عن جسم نوراني سار في هذا البدن كانت الاشكالات التي ذكرتموها غير واردة في هذا الباب والله أعلم (المسئلة الثانية) اعلم أنا لما اثبتنا حياة القبر فيكون الحاصل في حق بعضهم أربعة أنواع من الحياة وثلاثة أنواع من الموت والدليل عليه قوله تعالى في سورة البقرة ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم فهؤلاء أربع مراتب في الحياة حياتان في الدنيا وحياة في القبر وحياة رابعة في القيامة (المسئلة الثالثة) قوله اثنتين نعت لمصدر محذوف والتقدير اماتتين اثنتين ثم حكى الله عنهم انهم قالوا فاعترفنا بذنوبنا فان قيل الفاء في قوله فاعترفنا تقتضي أن تكون الاماتة مرتين والاحياء مرتين سببا لهذا الاعتراف فبينوا هذه السببية قلنا لانهم كانوا منكرين البعث فلما شاهدوا الاحياء بعد الاماتة مرتين لم يبق لهم عذر في الاقرار بالبعث فلا جرم وقع هذا الاقرار كالمسبب عن تلك الاحياء والاماتة ثم قال فهل الى خروج من سبيل أي هل الى نوع من الخروج سريع أو بطئ من سبيل أم اليأس وقع فلا خروج ولا سبيل اليه وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط واعلم

ورفع اليوم (يومهم بارزون) بدل من يوم التلاق أي خارجون من قبورهم أو ظاهرون لا يسترهم شئ من جبل أو أكمة أو بناء لكون الارض يومئذ قاعا صفصفا ولا عليهم ثياب انما هم عراة مكشوفون كما جاء في الحديث يحشرون عراة حفاة غرلا وقيل ظاهرة نفوسهم لا تحجبهم غواشي الابدان أو أعمالهم وسرائرهم (لا يخفى على الله منهم شئ) استئناف لبيان بروزهم وتقرير له وازاحة لما كان يتوهمه المتوهمون في الدنيا من الاستتار توهما باطلا أو خبر ثان وقيل حال من ضمير بارزون اي لا يخفى عليه تعالى شئ ما من أعيانهم وأعمالهم واحوالهم الجلية والخفية السابقة واللاحقة (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) حكاية لما يقع حينئذ من السؤال والجواب بتقدير قول معطوف على ما قبله من الجملة المنفية المستأنفة أو مستأنف يقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية بروزهم وظهور أحوالهم كأنه قيل فاذا يكون حينئذ فقيل يقال الخ أي ينادي

أن الجواب الصريح عنه أن يقال لا أو نعم وهو تعالى لم يفعل ذلك بل ذكر كلاما يدل على انه لا سبيل لهم الى الخروج فقال ذلكم بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا أي ذلكم الذي أنتم فيه وهو أن لا سبيل لكم الى خروج قط انما وقع بسبب كفركم بتوحيد الله تعالى وايمانكم بالاشراك به فالحكم لله حيث حكم عليكم بالعذاب السرمدي وقوله العلي الكبير دلالة على الكبرياء والعظمة وعلى أن عقابه لا يكون الا كذلك والمشبهة استدلوا بقوله تعالى العلي على العلو الاعلى في الجهة و بقوله الكبير على كبر الجثة والذات وكل ذلك باطل لانا دللنا على أن الجسمية والمكان محالان في حق الله تعالى فوجب أن يكون المراد من العلي الكبير العلو والكبرياء بحسب القدرة والالهية * قوله تعالى (هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر الا من ينيب فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) اعلم انه تعالى لما ذكر ما يوجب التهديد الشديد في حق المشركين أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته ليصير ذلك دليلا على انه لا يجوز جعل هذه الاحجار المنحوتة والخشب المصورة شركاء لله تعالى في العبودية فقال هو الذي يريكم آياته واعلم ان أهم المهمات رعاية مصالح الاديان ومصالح الابدان فهو سبحانه وتعالى راعى مصالح اديان العباد باظهار البينات والآيات وراعى مصالح أبدانهم بانزال الرزق من السماء فموقع الآيات من الاديان كموقع الارزاق من الابدان فالآيات لحياة الاديان والارزاق لحياة الابدان وعند حصولهما يحصل الانعام على أقوى الاعتبارات وأكمل الجهات ثم قال وما يتذكر الا من ينيب والمعنى ان الوقوف على دلائل توحيد الله تعالى كالامر المركوز في العقل الا أن القول بالشرك والاشتغال بعبادة غير الله يصير كالمانع من تجلي تلك الانوار فاذا أعرض العبد عنها وأناب الى الله تعالى زال الغطاء والوطاء فظهر الفوز التام ولما قرر هذا المعنى صرح بالمطلوب وهو الاعراض عن غير الله والاقبال بالكلية على الله تعالى فقال فادعوا الله مخلصين له الدين من الشرك ومن الالتفات الى غير الله ولو كره الكافرون قرأ ابن كثير ينزل خفيفة والباقون بالتشديد * قوله تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شئ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب) اعلم انه تعالى لما ذكر من صفات كبريائه وأكرامه كونه مظهرا للآيات منزلا للارزاق ذكر في هذه الآية ثلاثة أخرى من صفات الجلال والعظمة وهو قوله رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح قال صاحب الكشاف ثلاثة اخبار لقوله هو مرتبة على قوله الذي يريكم أو اخبار مبتدأ محذوف وهي مختلفة تعريفا وتنكيرا وقرئ رفيع الدرجات بالنصب على المدح وأقول لابد من تفسير هذه الصفات الثلاثة (فالصفة الاولى) قوله رفيع الدرجات واعلم ان الرفيع يحتمل أن يكون المراد منه الرافع وان يكون المراد منه المرتفع أما اذا حملناه على الاول ففيه وجوه (الوجه الاول) انه تعالى يرفع

مناد لمن الملك اليوم فيجيبه أهل المحشر لله الواحد القهار وقيل المجيب هو السائل بعينه لما روى أنه يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد في أرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط فأول ما يتكلم به أن ينادي مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقيل حكاية لما ينطق به لسان الحال من تقطع أسباب التصرفات المجازية واختصاص جميع الافاعيل بقبضة القدرة الالهية (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) الخ اما من تتمة الجواب لبيان حكم اختصاص الملك به تعالى ونتيجته التي هي الحكم السوي والقضاء الحق أو حكاية لما سيقوله تعالى يومئذ عقيب السؤال والجواب أي تجزى كل نفس من النفوس البرة والفاجرة بما كسبت من خير أو شر (لا ظلم اليوم) بنقص ثواب أو زيادة عذاب (ان الله سريع الحساب) أي سريع حسابه تعالى اذ لا يشغله تعالى شان عن شان فيحاسب الخلائق قاطبة في أقرب زمان كما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه تعالى اذا أخذ في حسابهم لم يقل أهل الجنة الا فيها ولا أهل النار الا فيها فيكون تعليلا لقوله تعالى اليوم تجزى الخ فان كون ذلك اليوم بعينه يوم التلاقي و يوم البروز ربما يوهم استبعاد وقوع الكل فيه أو سريع مجيئا فيكون تعليلا الانذار

﴿ درجات ﴾

درجات الانبياء والاولياء في الجنة (والثاني) رافع درجات الخلق في العلوم والاخلاق الفاضلة فهو سبحانه عين لكل أحد من الملائكة درجة معينة كما قال ومامنا الاله مقام معلوم وعين لكل واحد من العلماء درجة معينة فقال يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وعين لكل جسم درجة معينة فجعل بعضها سفلية عنصرية و بعضها فلكية كوكبية و بعضها من جواهر العرش والكرسي فجعل لبعضها درجة أعلى من درجة الثاني وأيضا جعل لكل أحد مرتبة معينة في الخلق والرزق والاجل فقال وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات وجعل لكل أحد من السعداء والاشقياء في الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة وفي الآخرة لظهور آثار تلك السعادة والشقاوة فاذا حملنا الرفيع على الرافع كان معناه ماذكرناه وأما اذا حملناه على المرتفع فهو سبحانه أرفع الموجودات في جميع صفات الكمال والجلال أما في أصل الوجود فهو أرفع الموجودات لانه واجب الوجود لذاته وماسواه ممكن ومحتاج اليه واما في دوام الوجود فهو أرفع الموجودات لانه واجب الوجود لذاته وهو الازلي والابدي والسرمدي الذي هو أول لكل ماسواه وليس له أول وآخر لكل ماسواه وليس له آخر أما في العلم فلانه هو العالم بجميع الذوات والصفات والكليات والجزئيات كما قال وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الاهو وأما في القدرة فهو أعلى القادرين وأرفعهم لانه في وجوده وجميع كمالات وجوده غني عن كل ماسواه وكل ماسواه فانه محتاج في وجوده وفي جميع كمالات وجوده اليه وأما في الوحدانية فهو الواحد الذي يمتنع أن يحصل له ضد وند وشريك ونظير وأقول الحق سبحانه له صفتان (أحدهما) استغناؤه في وجوده وفي جميع صفات وجوده عن كل ماسواه (والثاني) افتقار كل ماسواه اليه في وجوده وفي صفات وجوده فالرفيع ان فسرناه بالمرتفع كان معناه انه أرفع الموجودات واعلاها في جميع صفات الجلال والاكرام وان فسرناه بالرفع كان معناه ان كل درجة وفضيلة ورحمة ومنقبة حصلت لشئ سواه فانما حصلت بايجاده وتكوينه وفضله ورحمته (الصفة الثانية) قوله ذوالعرش ومعناه انه مالك العرش ومدبره وخالقه واحتج بعض الاغمار من المشبهة بقوله رفيع الدرجات ذوالعرش وحملوه على أن المراد بالدرجات السموات و بقوله ذوالعرش انه موجود في العرش فوق سبع سموات وقد أعظموا الفرية على الله تعالى فانا بينا بالدلائل القاهرة العقلية والنقلية ان كونه تعالى جسما وفي جهة محال وأيضا فظاهر اللفظ لايدل على ماقالوه لان قوله ذوالعرش لايفيد الا اضافته الى العرش ويكفي فيه اضافته اليه بكونه مالكاله ومخرجاله من العدم الى الوجود فأي ضرورة تدعونا الى الذهاب الى القول الباطل والمذهب الفاسد والفائدة في تخصيص العرش بالذكر هو انه أعظم الاجسام والمقصود بيان كمال الهيبة ونفاذ قدرته فكل ماكان محل التصرف والتدبير أعظم كانت دلالته على كمال القدرة أقوى (الصفة الثالثة) قوله يلقي الروح من

أمره على من يشاء من عباده وفيه مباحث (البحث الاول) اختلفوا فى المراد بهذا الروح والصحيح أن المراد هو الوحى وقد أطنبنا فى بيان أنه لم سمى الوحى بالروح فى أول سورة النحل فى تفسير قوله ينزل الملائكة بالروح من أمره وقال أيضا أومن كان ميتا فأحييناه وحاصل الكلام فيه أن حياة الارواح بالمعارف الالهية والجلايا القدسية فاذا كان الوحى سببا لحصول هذه الارواح سمى بالروح فان الروح سبب لحصول الحياة والوحى سبب لحصول هذه الحياة الروحانية واعلم أن هذه الآية مشتملة على أسرار عجيبة من علوم المكاشفات وذلك لان كمال كبرياء الله تعالى لاتصل اليه العقول والافهام فالطريق الكامل فى تعريفه بقدر الطاقة البشرية أن يذكر ذلك الكلام على الوجه الكلى العقلى ثم يذكر عقيبه شئ من المحسوسات المؤكدة لذلك المعنى العقلى ليصير الحس بهذا الطريق معاضدا للعقل فههنا أيضا كذلك فقوله رفيع الدرجات اما أن يكون بمعنى كونه رافعا للدرجات وهو اشارة الى تأثير قدرة الله تعالى فى ايجاد الممكنات على اختلاف درجاتها وتباين منازلها وصفاتها أو الى كونه تعالى مرتفعا فى صفات الجلال ونعوت العزة عن كل الموجودات فهذا الكلام كلى عقلى برهانى ثم انه سبحانه بين هذا الكلام الكلى بمزيد تقرير وذلك لان ماسوى الله تعالى اما جسمانيات واما روحانيات فبين فى هذه الآية ان كلا القسمين مسخر تحت تسخير الحق سبحانه وتعالى أما الجسمانيات فأعظمها العرش فقوله ذو العرش يدل على استيلائه على كلية عالم الاجسام ولما كان العرش من جنس المحسوسات كان هذا المحسوس مؤكدا لذلك المعقول أعنى قوله رفيع الدرجات وأما الروحانيات فكلها مسخرة للحق سبحانه واليه الاشارة بقوله يلقى الروح من أمره واعلم ان أشرف الاحوال الظاهرة فى روحانيات هذا العالم ظهور آثار الوحى والوحى انما يتم باركان أربعة (فاولها) المرسل وهو الله سبحانه وتعالى فلهذا أضاف القاء الوحى الى نفسه فقال يلقى الروح (والركن الثانى) الارسال والوحى وهو الذى سماه بالروح (والركن الثالث) أن وصول الوحى من الله تعالى الى الانبياء لا يمكن أن يكون الا بواسطة الملائكة وهو المشار اليه فى هذه الآية بقوله من أمره فالركن الروحانى يسمى أمرا قال تعالى وأوحى فى كل سماء أمرها وقال ألاله الخلق والامر (والركن الرابع) الانبياء الذين يلقى الله الوحى اليهم وهو المشار اليه بقوله على من يشاء من عباده (والركن الخامس) تعيين الغرض والمقصود الاصلى من القاء هذا الوحى اليهم وذلك هو ان الانبياء عليهم السلام يصرفون الخلق من عالم الدنيا الى عالم الآخرة ويحملونهم على الاعراض عن هذه الجسمانيات والاقبال على الروحانيات واليه الاشارة بقوله لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون فهذا ترتيب عجيب يدل على هذه الاشارات العالية من علوم المكاشفات الالهية وبقى ههنا ان نبين أنه ما السبب فى تسمية يوم القيامة بيوم التلاق وكم الصفات التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة ليوم التلاق أما السبب فى تسمية يوم القيامة بيوم التلاق ففيه

وجوه (الاول) ان الارواح كانت متباينة عن الاجساد فاذا جاء يوم القيامة صارت الارواح ملاقية للاجساد فكان ذلك اليوم يوم التلاق (الثانى) ان الخلائق يتلاقون فيه فيقف بعضهم على حال البعض (الثالث) ان أهل السماء ينزلون على اهل الارض فيلتقى فيه أهل السماء وأهل الارض قال تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا (الرابع) ان كل أحد يصل الى جزاء عمله فى ذلك اليوم فكان ذلك من باب التلاق وهو مأخوذ من قولهم فلان لقى عمله (الخامس) يمكن أن يكون ذلك مأخوذا من قوله فن كان يرجو لقاء ربه ومن قوله تحيتهم يوم يلقونه سلام (السادس) يوم يلتقى فيه العابدون والمعبودون (السابع) يوم يلتقى فيه آدم عليه السلام وآخر ولده (الثامن) قال ميمون بن مهران يوم يلتقى فيه الظالم والمظلوم فربما ظلم الرجل رجلا وانفصل عنه ولو أراد أن يجده لم يقدر عليه ولم يعرفه ففى يوم القيامة يحضران ويلقى بعضهم بعضا قرأ ابن كثير التلاقى والتنادى باثبات الياء فى الوصل والوقف وهادى وواقى بالياء فى الوقف وبالتنوين فى الوصل وأما بيان ان الله تعالى كم عدد من الصفات ووصف بها يوم القيامة فى هذه الآية فنقول (الصفة الاولى) كونه يوم التلاق وقد ذكرنا تفسيره (الصفة الثانية) قوله يوم هم بارزون وفى تفسير هذا البروز وجوه (الاول) انهم برزوا عن بواطن القبور (والثانى) بارزون أى ظاهرون لا يسترهم شئ من جبل أو أكمة أو بناء لان الارض بارزة قاع صفصف وليس عليهم أيضا ثياب انما هم عراة مكشوفون كما جاء فى الحديث يحشرون عراة حفاتا غرلا (الثالث) أن يجعل كونهم بارزين كناية عن ظهور أعمالهم وانكشاف أسرارهم كما قال تعالى يوم تبلى السرائر (الرابع) ان هذه النفوس الناطقة البشرية كأنها فى الدنيا انغمست فى ظلمات اعمال الابدان فاذا جاء يوم القيامة أعرضت عن الاشتغال بتدبير الجسمانيات وتوجهت بالكلية الى عالم القيامة ومجمع الروحانيات فكأنها برزت بعد أن كانت كامنة فى الجسمانيات مستترة بها (الصفة الثالثة) قوله لا يخفى على الله منهم شئ والمراد يوم لا يخفى على الله منهم شئ والمقصود منه الوعيد فانه تعالى بين انهم اذا برزوا من قبورهم واجتمعوا وتلاقوا فان الله تعالى يعلم مافعله كل واحد منهم فيجازى كلا بحسبه ان خيرا فخير وان شرا فشر فهم وان لم يعلموا تفصيل مافعلوه فالله تعالى عالم بذلك ونظيره قوله يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية وقال يوم تبلى السرائر وقال اذا بعثر ما فى القبور وحصل مافى الصدور وقال يومئذ تحدث أخبارها فان قيل الله تعالى لا يخفى عليه منهم شئ فى جميع الايام فامعنى تقييد هذا المعنى بذلك اليوم قلنا انهم كانوا يتوهمون فى الدنيا اذا استتروا بالحيطان والحجب ان الله لا يراهم ويخفى عليه اعمالهم فهم فى ذلك اليوم صائرون من البروز والانكشاف الى حال لا يتوهمون فيها مثل ما يتوهمونه فى الدنيا قال تعالى ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون وقال يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معنى قوله وبرزوا لله الواحد القهار (الصفة الرابعة) قوله

تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار والتقدير يوم ينادى فيه لمن الملك اليوم وهذا النداء فى أى الاوقات يحصل فيه قولان (الاول) قال المفسرون اذا هلك كل من فى السموات ومن فى الارض فيقول الرب تعالى لمن الملك اليوم يعنى يوم القيامة فلا يجيبه أحد فهو تعالى يجيب نفسه فيقول لله الواحد القهار قال أهل الاصول هذا القول ضعيف وبيانه من وجوه (الاول) انه تعالى بين ان هذا النداء انما يحصل يوم التلاق ويوم البروز ويوم تجزى كل نفس بما كسبت والناس فى ذلك الوقت أحياء فبطل قولهم ان الله تعالى انما ينادى بهذا النداء حين هلك كل من فى السموات والارض (والثانى) أن الكلام لابد فيه من فائدة لان الكلام اما أن يذكر حال حضور الغير أو حال مالا يحضر الغير والاول باطل ههنا لان القوم قالوا انه تعالى انما يذكر هذا الكلام عند فناء الكل والثانى أيضا باطل لان الرجل انما يحسن تكلمه حال كونه وحده امالانه يحفظ به شيأ كالذى يكرر على الدرس وذلك على الله محال أولاجل انه يحصل له سرور بما يقوله وذلك أيضا على الله محال أولاجل أن يعبد الله بذلك الذكر وذلك أيضا على الله محال فثبت أن قول من يقول ان الله تعالى يذكر هذا النداء حال هلاك جميع المخلوقات باطل لا أصل له (والقول الثانى) ان فى يوم التلاق اذا حضر الاولون والآخرون وبرزوا لله نادى مناد لمن الملك اليوم فيقول كل الحاضرين فى محفل القيامة لله الواحد القهار فالمؤمنون يقولونه تلذذا بهذا الكلام حيث نالوا بهذا الذكر المنزلة الرفيعة والكفار يقولونه على الصغار والذلة على وجه التحسر والندامة على ان فاتهم هذا الذكر فى الدنيا وقال القائلون بهذا القول ان صح القول الاول عن ابن عباس وغيره لم يمتنع أن يكون المراد ان هذا النداء يذكر بعد فناء البشر الا انه حضر هناك ملائكة يسمعون ذلك النداء وأقول أيضا على هذا القول لايبعد أن يكون السائل والمجيب هو الله تعالى ولايبعد أيضا أن يكون السائل جمعا من الملائكة والمجيب جمعا آخرين والكل ممكن وليس على التعيين دليل فان قيل وما الفائدة فى تخصيص هذا اليوم بهذا النداء فنقول الناس كانوا مغرورين فى الدنيا بالاسباب الظاهرة وكان الشيخ الامام الوالد عمر رضى الله عنه يقول لولا الاسباب لما ارتاب مرتاب وفى يوم القيامة زالت الاسباب وانعزلت الارباب ولم يبق البتة غير حكم مسبب الاسباب فلهذا اختص النداء بيوم القيامة واعلم انه وان كان ظاهر اللفظ يدل على اختصاص ذلك النداء بذلك اليوم الا ان قوله لله الواحد القهار يفيد أن هذا النداء حاصل من جهة المعنى أبدا وذلك لان قولنا الله اسم لواجب الوجود لذاته وواجب الوجود لذاته واحد وكل ماسواه ممكن لذاته والممكن لذاته لايوجد الا بايجاد الواجب لذاته ومعنى الايجاد هو ترجيح جانب الوجود على جانب العدم وذلك الترجيح هو قهر للجانب المرجوح فثبت ان الاله القهار واحد أبدا ونداء لمن الملك اليوم انما ظهر من كونه واحدا قهارا فاذا كان كونه قهارا باقيا من الازل الى الابد لاجرم كان نداء لمن الملك اليوم

باقيا فى جانب المعنى من الازل الى الابد (الصفة الخامسة) من صفات ذلك اليوم قوله اليوم تجزى كل نفس بما كسبت واعلم انه سبحانه لما شرح صفات القهر فى ذلك اليوم أردفه ببيان صفات العدل والفضل فى ذلك اليوم فقال اليوم تجزى كل نفس بما كسبت وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) هذا الكلام اشتمل على أمور ثلاثة (اولها) اثبات الكسب للانسان (والثانى) ان كسبه يوجب الجزاء (والثالث) ان ذلك الجزاء انما يستوفى فى ذلك اليوم فهذه الكلمة على اختصارها مشتملة على هذه الاصول الثلاثة فى هذا الكتاب وهى أصول عظيمة الموقع فى الدين وقد سبق تقرير هذه الاصول مرارا ولا بأس بذكر بعض النكت فى تقرير هذه الاصول أما الاول فهو اثبات الكسب للانسان وهو عبارة عن كون أعضائه سليمة صالحة للفعل والترك فما دام يبقى على هذا الاستواء امتنع صدور الفعل والترك عنه فاذا انضاف اليه الداعى الى الفعل أو الداعى الى الترك وجب صدور ذلك الفعل أو الترك عنه وأما الثانى وهو بيان ترتب الجزاء عليه فاعلم أن الافعال على قسمين منها ما يكون الداعى اليه طلب الخيرات الجسمانية الحاصلة فى عالم الدنيا ومنها ما يكون الداعى اليه طلب الخيرات الروحانية التى لا يظهر كمالها الا فى عالم الآخرة وقد ثبت بالتجربة أن كثرة الافعال سبب لحصول الملكات الراسخة فمن غلب عليه القسم الاول استحكمت رغبته فى الدنيا وفى الجسمانيات فعند الموت يحصل الفراق بينه وبين مطلوبه على أعظم الوجوه ويعظم عليه البلاء ومن غلب عليه القسم الثانى فعند الموت يفارق المبغوض ويتصل بالمحبوب فتعظم الآلاء والنعماء فهذا هو معنى الكسب ومعنى كون ذلك الكسب موجبا للجزاء فظهر بهذا ان كمال الجزاء لا يحصل الا فى يوم القيامة فهذا قانون كلى عقلى والشريعة الحقة أتت بما يقوى هذا القانون الكلى فى تفاصيل الاعمال والاقوال والله أعلم (المسئلة الثانية) هذه الآية أصل عظيم فى أصول الفقه وذلك لانا نقول لو كان شئ من أنواع الضرر مشروعا لكان اما أن يكون مشروعا لكونه جزاء على شئ من الجنايات أو لا لكونه جزاء والقسمان باطلان فبطل القول بكونه مشروعا أما بيان انه لا يجوز أن يكون مشروعا ليكون جزاء على شئ من الاعمال فلان هذا النص يقتضى تأخير الاجزية الى يوم القيامة فاثباته فى الدنيا يكون على خلاف هذا النص وأما بيان انه لا يجوز أن يكون مشروعا للجزاء فقوله تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولقوله تعالى وما جعل عليكم فى الدين من حرج وقوله صلى الله عليه وسلم لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام عدلنا عن هذه العمومات فيما اذا كانت المضار أجزية وفيما ورد نص فى الاذن فيه كذبح الحيوانات فوجب أن يبقى على أصل الحرمة فيما عداه فثبت بما ذكرنا ان الاصل فى المضار والآلام التحريم فان وجدنا نصا خاصا يدل على الشرعية قضينا به تقديما للخاص على العام والا فهو باق على أصل التحريم وهذا أصل كلى منتفع به فى الشريعة والله أعلم (الصفة السادسة) من صفات ذلك اليوم قوله لا ظلم

الخطة الآزفة وهي مشارفة أهل النار دخولها وقيل وقت حضور الموت كما في قوله تعالى فلولا اذا بلغت الحلقوم وقوله كلا اذا بلغت التراقي وقوله تعالى (اذ القلوب لدى الحناجر) بدل من يوم الآزفة فانها ترتفع من أماكنها فتلتصق بحلوقهم فلا تعود فيتروحوا ولا تخرج فيستريحوا بالموت (كاظمين) على الغم حال من أصحاب القلوب على المعنى اذ الاصل قلوبهم أو من ضميرها في الظرف وجمع السلامة باعتبار أن الكظم من أحوال العقلاء كقوله تعالى فظلت أعناقهم لها خاضعين أو من مفعول أنذرهم على انها حال مقدرة أي أنذرهم مقدرا كظمهم أو مشارفين الكظم (ما للظالمين من حميم) أي قريب مشفق (ولا شفيع يطاع) أي لا شفيع مشفع على معنى نفي الشفاعة والطاعة معا على طريقة قوله

اليوم المقصود انه لما قال اليوم تجزى كل نفس بما كسبت أردفه بما يدل على انه لا يقع في ذلك اليوم نوع من أنواع الظلم قال المحققون وقوع الظلم في الجزاء يقع على أربعة أقسام (أحدها) أن يستحق الرجل ثوابا فيمنع منه (وثانيها) أن يعطى بعض حقه ولكنه لا يوصل اليه حقه بالتمام (وثالثها) أن يعذب من لا يستحق العذاب (ورابعها) أن يكون الرجل مستحقا للعذاب فيعذب ويزاد على قدر حقه فقوله تعالى لا ظلم اليوم يفيد نفي هذه الاقسام الاربعة قال القاضي هذه الآية قوية في ابطال قول المجبرة لان على قولهم لا ظلم غائبا وشاهدا الا من الله ولانه تعالى اذا خلق فيه الكفر ثم عذبه عليه فهذا هو عين الظلم والجواب عنه معلوم ثم قال تعالى ان الله سريع الحساب وذكر هذا الكلام في هذا الموضع لائق جدا لانه تعالى لما بين انه لا ظلم بين انه سريع الحساب وذلك يدل على انه يصل اليهم ما يستحقونه في الحال والله أعلم * قوله تعالى (وأنذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشئ ان الله هو السميع البصير أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم اشد منهم قوة وآثارا في الارض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك بانهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله انه قوي شديد العقاب) اعلم ان المقصود من هذه الآية وصف يوم القيامة بأنواع أخرى من الصفات الهائلة المهيبة وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا في تفسير يوم الآزفة وجوها (الاول) ان يوم الآزفة هو يوم القيامة والآزفة فاعلة من ازف الامر اذا دنا وحضر لقوله في صفة يوم القيامة أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة وقال الشاعر

أزف الترحل غير أن ركابنا * لما تزل برحالنا وكأن قد

والمقصود منه التنبيه على أن يوم القيامة قريب ونظيره قوله تعالى اقتربت الساعة قال الزجاج انما قيل لها آزفة لانها قريبة وان استبعد الناس مداها وما هو كائن فهو قريب واعلم ان الآزفة نعت لمحذوف مؤنث على تقدير يوم القيامة الآزفة أو يوم المجازاة الآزفة قال القفال واسماء القيامة تجري على التأنيث كالطامة والحاقة ونحوها كأنها يرجع معناها الى الداهية (والقول الثاني) ان المراد بيوم الآزفة وقت الآزفة وهي مشارفتهم دخول النار فان عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها من شدة الخوف (والقول الثالث) قال أبو مسلم يوم الآزفة يوم المنية وحضور الاجل والذي يدل عليه انه تعالى وصف يوم القيامة بأنه يوم التلاق ويوم هم بارزون ثم قال بعده وأنذرهم يوم الآزفة فوجب ان يكون هذا اليوم غير ذلك اليوم وأيضا هذه الصفة مخصوصة في سائر الآيات بيوم الموت قال تعالى فلولا اذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون وقال كلا اذا بلغت التراقي وأيضا فوصف يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب وأيضا الصفات المذكورة بعد قوله يوم

الآزفة لانها قريبة يوم حضور الموت لان الرجل عند معاينة ملائكة العذاب يعظم خوفه فكان قلوبهم تبلغ حناجرهم من شدة الخوف و يبقوا كاظمين ساكتين عن ذكر ما في قلوبهم من شدة الخوف ولايكون لهم حميم ولاشفيع يدفع مابهم من أنواع الخوف والقلق (المسئلة الثانية) اختلفوا في أن المراد من قوله اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين كناية عن شدة الخوف أو هو محمول على ظاهره قيل المراد وصف ذلك اليوم بشدة الخوف والفزع ونظيره قوله تعالى و بلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا وقال فلولا اذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون وقيل بل هو محمول على ظاهره قال الحسن القلوب انتزعت من الصدور بسبب شدة الخوف و بلغت القلوب الحناجر فلا تخرج فيموتوا ولاترجع الى مواضعها فيتنفسوا و يتروحوا ولكنها مقبوضة كالسجال كما قال فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقوله كاظمين أى مكروبين والكاظم الساكت حال امتلائه غما وغيظا فان قيل بم انتصب كاظمين قلنا هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى لان المراد اذ قلوبهم لدى الحناجر حال كونهم كاظمين و يجوز أيضا أن يكون حالا عن القلوب وان القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر وانما جمع الكاظمة جمع السلامة لانه وصفها بالكظم الذى هو من افعال العقلاء كما قال رأيتهم لى ساجدين وقال فظلت أعناقهم لها خاضعين و يعضده قراءة من قرأ كاظمون و بالجملة فالمقصود من الآية تقرير أمرين (أحدهما) الخوف الشديد وهو المراد من قوله اذ القلوب لدى الحناجر (والثانى) العجز عن الكلام وهو المراد من قوله كاظمين فان الملهوف اذا قدر على الكلام حصلت له خفة وسكون اما اذا لم يقدر على الكلام و بث الشكوى عظم قلقه وقوى خوفه (المسئلة الثالثة) احتج أكثر المعتزلة فى نفى الشفاعة عن المذنبين بقوله تعالى ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع قالوا نفى حصول شفيع لهم يطاع فوجب ان لا يحصل لهم هذا الشفيع أجاب أصحابنا عنه من وجوه (الاول) انه تعالى نفى أن يحصل لهم شفيع يطاع وهذا لا يدل على نفى الشفيع ألا ترى انك اذا قلت ما عندى كتاب يباع فهذا يقتضى نفى كتاب يباع ولا يقتضى نفى الكتاب وقالت العرب * ولاترى الضب بها ينجحر * ولفظ الطاعة يقتضى حصول المرتبة فهذا يدل على انه ليس لهم يوم القيامة شفيع يطيعه الله لانه ليس فى الوجود أحد أعلى حالا من الله تعالى حتى يقال ان الله يطيعه (الوجه الثانى) فى الجواب ان المراد من الظالمين ههنا الكفار والدليل عليه ان هذه الآية وردت فى زجر الكفار الذين يجادلون فى آيات الله فوجب أن يكون مختصا بهم وعندنا انه لا شفاعة فى حق الكفار (والثالث) ان لفظ الظالمين اما أن يفيد الاستغراق واما أن لا يفيد فان افاد الاستغراق كان المراد من الظالمين مجموعهم وجملتهم و يدخل فى مجموع هذا الكلام الكفار وعندنا انه ليس لهذا المجموع شفيع لان بعض هذا المجموع هم الكفار وليس لهم شفيع فحينئذ لا يكون لهذا المجموع شفيع وان لم يفد الاستغراق كان المراد من

ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم وتعليل الحكم به (يعلم خائنة الاعين) النظرة الخائنة كالنظرة الثانية الى غير المحرم واستراق النظر اليه أو خيانة الاعين على أنها مصدر كالعافية (وما تخفى الصدور) من الضمائر والاسرار والجملة خبر آخر مثل يلقى الروح للدلالة على أنه ما من خفى الا وهو متعلق العلم والجزاء (والله يقضى بالحق) لانه المالك الحاكم على الاطلاق فلا يقضى بشئ الا وهو حق وعدل (والذين يدعون) يعبدونهم (من دونه) تعالى (لا يقضون بشئ) تهكم بهم لان الجماد لا يقال فى حقه يقضى أو لا يقضى وقرئ تدعون على الخطاب التفاتا أو على اضمار قل (ان الله هو السميع البصير) تقرير لعلمه تعالى بخائنة الاعين وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون ويفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه (أولم يسيروا فى الارض فينظروا

وثمود وأضرابهم (كانوا هم أشد منهم قوة) قدرة وتمكنا من التصرفات وانما جيء بضمير الفصل مع أن حقه التوسط بين معرفتين لمضاهاة أفعل من المعرفة في امتناع دخول اللام عليه وقرئ أشد منكم بالكاف (وآثارا في الارض) مثل القلاع الحصينة والمدائن المتينة وقيل المعنى وأكثر آثارا كقوله * متقلدا سيفا ورمحا * (فأخذهم الله بذنوبهم) أخذا وبيلا (وما كان لهم من الله من واق) أي من واق يقيهم عذاب الله (ذلك) أي ما ذكر من الاخذ (بأنهم) بسبب أنهم (كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) أي بالمعجزات أو بالاحكام الظاهرة (فكفروا فأخذهم الله انه قوى) متمكن مما يريد غاية التمكن (شديد العقاب) لا يؤبه عند عقابه بعقاب

الظالمين بعض من كان موصوفا بهذه الصفة وعندنا ان بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم شفيع وهم الكافرون أجاب المستدلون عن السؤال الاول فقالوا يجب حمل كلام الله تعالى على محمل مفيد وكل أحد يعلم انه ليس في الوجود شيء يطيعه الله لان المطيع ادون حالا من المطاع وليس في الوجود شيء على مرتبة من الله تعالى حتى يقال ان الله يطيعه واذا كان هذا المعنى معلوما بالضرورة كان حمل الآية عليه اخراجا لها عن الفائدة فوجب حمل الطاعة على الاجابة والذي يدل على ورود لفظ الطاعة بمعنى الاجابة قول الشاعر

رب من أنضجت غيظا صدره ❁ قد تمنى لي موتا لم يطع ❁

(وأما السؤال الثاني) فقد أجابوا عنه بان لفظ الظالمين صيغة جمع دخل عليها حرف التعريف فيفيد العموم أقصى ما في الباب ان هذه الآية وردت لذم الكفار الا ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (وأما السؤال الثالث) فجوابه ان قوله ما للظالمين من حميم يفيد ان كل واحد من الظالمين محكوم عليه بانه ليس له حميم ولا شفيع يطاع فهذا تمام كلام القوم في تقرير ذلك الاستدلال أجاب أصحابنا عن السؤال الاول فقالوا ان القوم كانوا يقولون في الاصنام انها شفعاؤنا عند الله وكانوا يقولون انها تشفع لنا عند الله من غير حاجة فيه الى اذن الله ولهذا السبب رد الله تعالى عليهم ذلك بقوله من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه فهذا يدل على ان القوم اعتقدوا انه يجب على الله اجابة الاصنام في تلك الشفاعة وهذا نوع طاعة فالله تعالى نفى تلك الطاعة بقوله ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع وأجابوا عن الكلام الثاني بأن قالوا الاصل في حرف التعريف ان ينصرف الى المعهود السابق فاذا دخل حرف التعريف على صيغة الجمع وكان هناك معهود سابق انصرف اليه وقد حصل في هذه الآية معهود سابق وهم الكفار الذين يجادلون في آيات الله فوجب أن ينصرف اليه وأجابوا عن الكلام الثالث بأن قالوا قوله ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يحتمل عموم السلب ويحتمل سلب العموم اما الاول فعلى تقدير أن يكون المعنى ان كل واحد من الظالمين محكوم عليه بانه ليس له حميم ولا شفيع وأما الثاني فعلى تقدير أن يكون المعنى ان مجموع الظالمين ليس لهم حميم ولا شفيع ولا يلزم من نفي الحكم عن المجموع نفيه عن كل واحد من آحاد ذلك المجموع والذي يؤكد ما ذكرناه قوله تعالى ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون فقوله ان الذين كفروا لا يؤمنون ان حملناه على ان كل واحد منهم محكوم عليه بانه لا يؤمن لزم وقوع الخلف في كلام الله لان كثيرا ممن كفر فقد آمن بعد ذلك اما لو حملناه على ان مجموع الذين كفروا لا يؤمنون سواء آمن بعضهم أو لم يؤمن صدق وتخلص عن الخلف فلا جرم حملنا هذه الآية على سلب العموم ولم نحملها على عموم السلب فكذا قوله ما للظالمين من حميم ولا شفيع يجب حمله على سلب العموم لا على عموم السلب وحينئذ يسقط استدلال المعتزلة بهذه الآية فهذا غاية الكلام في هذا الباب (المسئلة الرابعة) في بيان نظم الآية فنقول انه تعالى

لتغاير العنوانين واما بعض مشاهيرها كالعصا أفردت بالذكر مع اندراجها تحت الآيات لاناقتها

ذكر في هذه الآية جميع الاسباب الموجبة للخوف (فأولها) انه سمى ذلك اليوم يوم الآزفة أي يوم القرب من عذابه لمن ابتلى بالذنب العظيم لانه اذا قرب زمان عقوبته كان في اقصى غايات الخوف حتى قيل ان تلك الغموم والهموم أعظم في الايحاش من عين تلك العقوبة (والثاني) قوله اذ القلوب لدى الحناجر والمعنى انه بلغ ذلك الخوف الى أن انقلع القلب من الصدر وارتفع الى الحنجرة والتصق بها وصار مانعا من دخول النفس (والثالثة) قوله كاظمين والمعنى انه لا يمكنهم أن ينطقوا وان يشرحوا ما عندهم من الحزن والخوف وذلك يوجب مزيد القلق والاضطراب (والرابعة) قوله ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع فبين انه ليس لهم قريب ينفعهم ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته (والخامسة) قوله يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور والمعنى انه سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض والحاكم اذا بلغ في العلم الى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديدا جدا قال صاحب الكشاف الخائنة صفة النظرة أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة والمراد استراق النظر الى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب والمراد بقوله وما تخفي الصدور مضمرات القلوب والحاصل ان الافعال قسمان افعال الجوارح وافعال القلوب أما افعال الجوارح فاخفاها خائنة الاعين والله أعلم بها فكيف الحال في سائر الاعمال وأما افعال القلوب فهي معلومة لله تعالى لقوله وما تخفي الصدور فدل هذا على كونه تعالى عالما بجميع افعالهم (السادسة) قوله تعالى والله يقضي بالحق وهذا أيضا يوجب عظم الخوف لان الحاكم اذا كان عالما بجميع الاحوال وثبت منه انه لا يقضي الا بالحق في كل مادق وجل كان خوف المذنب منه في الغاية القصوى (السابعة) ان الكفار انما عولوا في دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الاصنام وقد بين الله تعالى انه لا فائدة فيها البتة فقال والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء (الثامنة) قوله ان الله هو السميع البصير أي يسمع من الكفار ثناءهم على الاصنام ولا يسمع منهم ثناءهم على الله ويبصر خضوعهم وسجودهم لهم ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله فهذه الاحوال الثمانية اذا اجتمعت في حق المذنب الذي عظم ذنبه كان بالغا في التخويف الى الحد الذي لا تعقل الزيادة عليه ثم انه تعالى لما بالغ في تخويف الكفار بعذاب الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم والمعنى ان العاقل من اعتبر بغيره فان الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار وأقوى آثارا في الارض منهم والمراد حصونهم وقصورهم وعساكرهم فلما كذبوا رسلهم أهلكهم الله بضروب الهلاك معجلا حتى ان هؤلاء الحاضرين من الكفار يشاهدون تلك الآثار فحذرهم الله تعالى من مثل ذلك بهذا القول وبين بقوله وما كان لهم من الله من واق أنه لما نزل العذاب بهم عند أخذه تعالى لهم لم يجدوا من يعينهم ويخلصهم ثم بين ان ذلك نزل بهم لاجل انهم كفروا وكذبوا الرسل فحذر قوم الرسول من مثله وختم الكلام بانه قوي شديد العقاب بالغة

افراد جبريل وميكال به مع دخولهما في الملائكة عليهم السلام (الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) أي فيما أظهره من المعجزات وفيما ادعاه من رسالة رب العالمين (فلما جاءهم بالحق من عندنا) وهو ما ظهر على يده من المعجزات القاهرة (قالوا اقتلوا ابناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) كما قال فرعون سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم أي اعيدوا عليهم ما كنتم تفعلونه أولا وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان فلما بعث عليه الصلاة والسلام وأحس بأنه قد وقع ما وقع أعاده عليهم غيظا وحنقا وزعما منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرته ظنا منهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكهم على يده (وما كيد الكافرين الا في ضلال) أي في ضياع وبطلان لا يغني عنهم شيئا وينفذ عليهم لا محالة القدر المقدور والقضاء المحتوم واللام اما للعهد

فى التحذير والتخويف والله أعلم وقرأ ابن عامر وحده كانوا هم أشد منكم بالكاف والباقون بالهاء (أما وجه) قراءة ابن عامر فهو انصراف من الغيبة الى الخطاب كقوله اياك نعبد واياك نستعين بعد قوله الحمد لله والوجه فى حسن هذا الخطاب انه فى شان أهل مكة فجعل الخطاب على لفظ المخاطب الحاضر لحضورهم وهذه الآية فى المعنى كقوله مكناهم فى الارض مالم نمكن لكم وأما قراءة الباقين على لفظ الغيبة فلاجل موافقة ماقبله من ألفاظ الغيبة * قوله تعالى (ولقد ارسلنا موسى باياتنا وسلطان مبين الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين الافى ضلال وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الارض الفساد وقال موسى انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب) واعلم انه تعالى لما سلى رسوله بذكر الكفار الذين كذبوا الانبياء قبله وبمشاهدة آثارهم سلاه أيضا بذكر قصة موسى عليه السلام وأنه مع قوة معجزاته بعثه الى فرعون وهامان وقارون فكذبوه وكابروه وقالوا هو ساحر كذاب واعلم أن موسى عليه السلام لما جاءهم بتلك المعجزات الباهرة وبالنبوة وهى المراد بقوله فلما جاءهم بالحق من عندنا حكى الله تعالى عنهم ما صدر عنهم من الجهالات (فالاول) انهم وصفوه بكونه ساحرا كذابا وهذا فى غاية البعد لان تلك المعجزات كانت قد بلغت فى القوة والظهور الى حيث يشهد كل ذى عقل سليم بانه ليس من السحر البتة (الثانى) انهم قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم والصحيح ان هذا القتل غير القتل الذى وقع فى وقت ولادة موسى عليه السلام لان فى ذلك الوقت أخبره المنجمون بولادة عدو له يظهر عليه فأمر بقتل الابناء فى ذلك الوقت وأما فى هذا الوقت فموسى عليه السلام قد جاء وأظهر المعجزات الظاهرة فعند هذا أمر بقتل أبناء الذين آمنوا معه لئلا ينشؤا على دين موسى فيتقوى بهم وهذه العلة مختصة بالبنين دون البنات فلهذا السبب أمر بقتل الابناء ثم قال تعالى وما كيد الكافرين الافى ضلال ومعناه ان جميع مايسعون فيه من مكايدة موسى ومكايدة من آمن معه يبطل لان مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها (النوع الثالث) من قبائح أفعال أولئك الكفار مع موسى عليه السلام ماحكاه الله تعالى وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وهذا الكلام كالدلالة على انهم كانوا يمنعونه من قتله وفيه احتمالان (الاول) انهم منعوه عن قتله لوجوه (الاول) لعله كان فيهم من يعتقد بقلبه كون موسى صادقا فيأتى بوجوه الحيل فى منع فرعون من قتله (الثانى) قال الحسن ان أصحابه قالوا له لاتقتله فانما هو ساحر ضعيف ولايمكنه ان يغلب سحرتك وان قتلته أدخلت الشبهة على الناس وقالوا انه كان محقا وعجزوا عن جوابه فقتلوه (الثالث) لعلهم كانوا يحتالون فى منعه من قتله لاجل أن يبقى فرعون مشغول القلب بموسى فلا يتفرغ لتأديب أولئك الاقوام فان من شأن الامراء أن يشغلوا قلب ملكهم بخصم خارجى حتى

والاظهار فى موقع الاضمار لذمهم بالكفر والاشعار بعلة الحكم أو للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة اعتراض جئ به فى تضاعيف ماحكى عنهم من الاباطيل للمسارعة الى بيان بطلان ما أظهروه من الابراق والارعاد واضمحلاله بالمرة (وقال فرعون ذرونى أقتل موسى) كان ملؤه اذا هم بقتله عليه الصلاة والسلام كفوه بقولهم ليس هذا بالذى تخافه فانه أقل من ذلك وأضعف وماهو الا بعض السحرة وبقولهم اذا قتلته أدخلت على الناس شبهة واعتقدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة وعدلت الى المقارعة بالسيف والظاهر من دهاء اللعين ونكارته أنه كان قد استيقن أنه نبى وأن ماجاء به آيات باهرة وماهو بسحر ولكن كان يخاف ان هم بقتله أن يعاجل بالهلاك وكان قوله هذا تمويها على قومه وايهاما أنهم هم الكافون له عن قتله ولولاهم لقتله وماكان الذى يكفه الا مافى نفسه من الفزع الهائل وقوله (وليدع ربه) تجلد منه واظهار لعدم المبالاة بدعائه ولكنه أخوف ما يخافه (انى أخاف) ان لم أقتله (أن يبدل دينكم) أن يغير ما أنتم عليه من الدين الذى هو عبارة عن

بصيروا آمنين من شر ذلك الملك (والاحتمال الثانى) ان أحدا مامنع فرعون من قتل موسى وانه كان يريد ان يقتله الا انه كان خائفا من أنه لو حاول قتله لظهرت معجزات قاهرة تمنعه عن قتله فيفتضح الا انه لوقاحته قال ذرونى أقتل موسى وغرضه منه انه يوهم انه انما امتنع عن قتله رعاية لقلوب أصحابه وغرضه منه اخفاء خوفه اما قوله وليدع ربه فانما ذكره على سبيل الاستهزاء يعنى انى أقتله فليقل لربه حتى يخلصه منى وأما قوله انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الارض الفساد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فتح ابن كثير الياء من قوله ذرونى وفتح نافع وابن كثير وأبو عمرو الياء من انى أخاف وأيضا قرأ نافع وأبو عمرو وان يظهر بالواو بحذف أو يعنى انه يجمع بين تبديل الدين وبين اظهار الفاسد والذين قرؤا بصيغة أو فمعناه انه لابد من وقوع أحد الامرين وقرئ يظهر بضم الياء وكسر الهاء الفساد بالنصب على التعدية وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم بلفظ أو يظهر بفتح الياء والهاء الفساد بالرفع أما وجه القراءة الاولى فهو انه أسند الفعل الى موسى فى قوله يبدل وكذلك فى يظهر ليكون الكلام على نسق واحد واما وجه القراءة الثانية فهو انه اذا بدل الدين فقد ظهر الفساد الحاصل بسبب ذلك التبديل (المسئلة الثانية) المقصود من هذا الكلام بيان السبب الموجب لقتله وهو أن وجوده يوجب اما فساد الدين أو فساد الدنيا أما فساد الدين فلان القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هو الذى كانوا عليه فلما كان موسى ساعيا فى افساده كان فى اعتقادهم انه ساع فى افساد الدين الحق وأما فساد الدنيا فهو انه لابد وان يجتمع عليه قوم ويصير ذلك سببا لوقوع الخصومات واثارة الفتن ولما كان حب الناس لاديانهم فوق حبهم لاموالهم لاجرم بدأ فرعون بذكر الدين فقال انى أخاف أن يبدل دينكم ثم اتبعه بذكر فساد الدنيا فقال أو أن يظهر فى الارض الفساد واعلم انه تعالى لما حكى عن فرعون هذا الكلام حكى بعده ماذكره موسى عليه السلام فحكى عنه انه قال انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ نافع وأبو بكر وحمزة والكسائى عذت بادغام الذال فى التاء والباقون بالاظهار (المسئلة الثانية) المعنى انه لم يأت فى دفع شره الا بان استعاذ بالله واعتمد على فضل الله فلا جرم صانه الله عن كل بلية وأوصله الى كل أمنية واعلم ان هذه الكلمات التى ذكرها موسى عليه السلام تشتمل على فوائد (الفائدة الاولى) أن لفظة انى تدل على التأكيد فهذا يدل على أن الطريق المؤكد المعتبر فى دفع الشرور والآفات عن النفس الاعتماد على الله والتوكل على عصمة الله تعالى (الفائدة الثانية) انه قال انى عذت بربى وربكم فكما ان عند القراءة يقول المسلم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فالله تعالى يصون دينه واخلاصه عن وساوس شياطين الجن فكذلك عند توجه الآفات والمخافات من شياطين الانس اذا قال المسلم أعوذ بالله فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات (الفائدة الثالثة) قوله ربى وربكم والمعنى كان العبد يقول ان الله سبحانه هو الذى ربانى والى درجات الخيرات رقانى

عبادته وعبادة الاصنام المقربهم اليه (أو أن يظهر فى الارض الفساد) مايفسد دنياكم من التحارب والتهارج ان لم يقدر على تبديل دينكم بالكلية وقرئ بالواو الجامعة وقرئ بفتح الياء والهاء ورفع الفساد وقرئ يظهر بتشديد الظاء والهاء من تظهر بمعنى تظاهر أى تتابع وتعاون (وقال موسى) أى لقومه حين سمع بما تقوله اللعين من حديث قتله عليه السلام (انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب) صدر عليه الصلاة والسلام كلامه بان تأكيدا له واظهارا لمزيد الاعتناء بمضمونه وفرط الرغبة فيه وخص اسم الرب المنبئ عن الحفظ والتربية لانهما الذى يستدعيه وأضافه اليه واليهم حثا لهم على موافقته فى العياذ به تعالى والتوكل عليه فان فى تظاهر النفوس تأثيرا قويا فى استجلاب الاجابة ولم يسم فرعون بل ذكره بوصف يعمه وغيره من الجبابرة لتعميم الاستعاذة والاشعار بعلة القساوة والجرأة على الله تعالى وقرئ عدت بالادغام (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) قيل كان قبطيا ابن عم لفرعون آمن بموسى سرا وقيل كان اسرائيليا أو غريبا موحدا

(يكتم ايمانه) أي من فرعون وملئه (أتقتلون رجلا) أتقصدون قتله (أن يقول) لأن يقول أو كراهة أن يقول (ربي الله) أي وحده من غير روية وتأمل في أمره (وقد جاءكم بالبينات) والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها وعهدتموها (من ربكم) أضافه اليهم بعد ذكر البينات احتجاجا عليهم واستنزالا لهم عن رتبة المكابرة ثم أخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط فقال (وان يك كاذبا فعليه كذبه) لا يتخطاه وبال كذبه فيحتاج في دفعه الى قتله (وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم) أي ان لم يصبكم كله فلا أقل من اصابة بعضه لاسيما ان تعرضتم له بسوء وهذا كلام صادر عن غاية الانصاف وعدم التعصب ولذلك قدم من شقي الترديد كونه كاذبا أو يصبكم ما يعدكم من عذاب الدنيا وهو بعض ما يعدهم كأنه خوفهم بما هو أظهر احتمالا عندهم وتفسير البعض بالكل مستدلا بقول لبيد * تراك امكنة اذا لم أرضها * أو يرتبط بعض النفوس حمامها * مردود لأن مراده بالبعض نفسه (ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) احتجاج آخر

ومن الآفات وقاني وأعطاني نعما لا حد لها ولا حصر فلما كان المولى ليس الا الله وجب أن لا يرجع العاقل في دفع كل الآفات الا الى حفظ الله تعالى (الفائدة الرابعة) ان قوله وربكم فيه بعث لقوم موسى عليه السلام على ان يقتدوا به في الاستعاذة بالله والمعنى فيه ان الارواح الطاهرة القوية اذا تطابقت على همة واحدة قوي ذلك التأثير جدا وذلك هو السبب الاصلي في اداء الصلوات في الجماعات (الفائدة الخامسة) انه لم يذكر فرعون في هذا الدعاء لانه كان قد سبق له حق تربية على موسى من بعض الوجوه فترك التعيين رعاية لذلك الحق (الفائدة السادسة) ان فرعون وان كان قد أظهر ذلك الفعل الا انه لا فائدة في الدعاء على فرعون بعينه بل الاولى الاستعاذة بالله في دفع كل من كان موصوفا بتلك الصفة حتى يدخل فيه كل من كان عدوا سواء كان مظهرا لتلك العداوة أو كان مخفيا لها (الفائدة السابعة) ان الموجب للاقدام على ايذاء الناس أمران (أحدهما) كون الانسان متكبرا قاسي القلب (والثاني) كونه منكرا للبعث والقيامة وذلك لان المتكبر القاسي قد يحمله طبعه على ايذاء الناس الا انه اذا كان مقرا بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعا له من الجري على موجب تكبره فاذا لم يحصل عنده الايمان بالبعث والقيامة كانت الطبيعة داعية له الى الايذاء والمانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائلا واذا كان الخوف من السؤال والحساب زائلا فلا جرم تحصل القسوة والايذاء (الفائدة الثامنة) ان فرعون لما قال ذروني أقتل موسى قال على سبيل الاستهزاء وليدع ربه فقال موسى ان الذي ذكرته يا فرعون بطريق الاستهزاء هو الدين المبين والحق وأنا ادعو ربي وأطلب منه أن يدفع شرك عني وسترى أن ربي كيف يقهرك وكيف يسلطني عليك واعلم أن من أحاط عقله بهذه الفوائد علم انه لا طريق أصلح ولا أصوب في دفع كيد الاعداء وابطال مكرهم الا الاستعاذة بالله والرجوع الى حفظ الله والله أعلم * قوله تعالى (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه اتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) اعلم انه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام أنه ما زاد في دفع مكر فرعون وشره على الاستعاذة بالله بين أنه تعالى قيض انسانا اجنبيا غير موسى حتى ذب عنه على أحسن الوجوه وبالغ في تسكين تلك الفتنة واجتهد في ازالة ذلك الشر * يقول مصنف هذا الكتاب رحمه الله وقد جربت في أحوال نفسي انه كلما قصدني شرير بشر ولم أتعرض له وأكتفي بتفويض ذلك الامر الى الله فانه سبحانه يقيض أقواما لا أعرفهم البتة يبالغون في دفع ذلك الشر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا في ذلك الرجل الذي كان من آل فرعون فقيل انه كان ابن عم له وكان جاريا مجرى ولي العهد ومجرى صاحب الشرطة وقيل كان قبطيا من آل فرعون وما كان من أقاربه وقيل انه كان من بني اسرائيل والقول الاول أقرب لان لفظ الآل يقع على القرابة والعشيرة قال تعالى

ذووجهين احدهما انه لوكان مسرفا كذابا لما هداه الله تعالى الى البينات ولما ايده بتلك المعجزات وثانيهما ان كان كذلك خذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم الى قتله واعله أراهم المعنى الثاني ﴿٣١٧﴾ وهو عاكف على المعنى الاول لتلين شكيمتهم

الا آل لوط نجيناهم بسحر روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الصديقون ثلاثة حبيب النجار مؤمن آل ياسين ومؤمن آل فرعون الذي قال أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله والثالث علي بن أبي طالب وهو أفضلهم وعن جعفر بن محمد أنه قال كان أبو بكر خيرا من مؤمن آل فرعون لانه كان يكتم ايمانه وقال أبو بكر جهارا أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله فكان ذلك سرا وهذا كان جهارا (المسئلة الثانية) لفظ من في قوله من آل فرعون يجوز أن يكون متعلقا بقوله مؤمن اى كان ذلك المؤمن شخصا من آل فرعون ويجوز أن يكون متعلقا بقوله يكتم ايمانه والتقدير رجل مؤمن يكتم ايمانه من آل فرعون وقيل ان هذا الاحتمال غير جائز لانه لا يقال كتمت من فلان كذا انما يقال كتمته كذا قال تعالى ولا يكتمون الله حديثا (المسئلة الثالثة) رجل مؤمن الاكثرون قرؤا بضم الجيم وقرئ رجل بكسر الجيم كما يقال عضد في عضد (المسئلة الرابعة) قوله تعالى أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله استفهام على سبيل الانكار وقد ذكر في هذا الكلام ما يدل على حسن ذلك الاستنكار وذلك لانه ما زاد على ان قال ربي الله وجاء بالبينات وذلك لا يوجب القتل البتة وقوله وقد جاءكم بالبينات من ربكم يحتمل وجهين (الاول) ان قوله ربي الله اشارة الى التوحيد وقوله وقد جاءكم بالبينات اشارة الى تقرير النبوة باظهار المعجزة (الثاني) ان قوله ربي الله اشارة الى التوحيد وقوله وقد جاءكم بالبينات اشارة الى الدلائل الدالة على التوحيد وهو قوله في سورة طه ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وقوله في سورة الشعراء رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين الى آخر الآيات ثم ذكر ذلك المؤمن حجة ثانية في أن الاقدام على قتله غير جائز وهي حجة مذكورة على طريقة التقسيم فقال ان كان هذا الرجل كاذبا كان وبال كذبه عائدا عليه فاتركوه وان كان صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم فثبت ان على كلا التقديرين كان الاولى ابقاءه حيا فان قيل السؤال على هذا الدليل من وجهين (الاول) أن قوله وان يك كاذبا فعليه كذبه معناه ان ضرر كذبه مقصور عليه ولا يتعداه وهذا الكلام فاسد لوجوه (أحدها) انا لا نسلم ان بتقدير كونه كاذبا كان ضرر كذبه مقصورا عليه لانه يدعو الناس الى ذلك الدين الباطل فيغتر به جماعة منهم ويقعون في المذهب الباطل والاعتقاد الفاسد ثم يقع بينهم وبين غيرهم الخصومات الكثيرة فثبت ان بتقدير كونه كاذبا لم يكن ضرر كذبه مقصورا عليه بل كان متعديا الى الكل ولهذا السبب فان العلماء أجمعوا على ان الزنديق الذي يدعو الناس الى زندقته يجب قتله (وثانيها) أنه ان كان هذا الكلام حجة له فلا كذاب الا ويمكنه أن يتمسك بهذه الطريقة فوجب تمكين جميع الزنادقة والمبطلين من تقرير اديانهم الباطلة (وثالثها) ان الكفار الذين أنكروا نبوة موسى عليه السلام وجب أن لا يجوز الانكار عليهم لانه يقال ان كان ذلك المنكر كاذبا في ذلك الانكار فعليه كذبه وان يك صادقا انتفعتم بصدقه فثبت أن هذا الطريق يوجب تصويب ضده وما أفضى ثبوته الى عدمه كان باطلا

وقد عرض به لفرعون بأنه مسرف كذاب لا يهديه الله سبيل الصواب ومنهاج النجاة (يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين) غالبين عالين على بني اسرائيل (في الارض) أي أرض مصر لا يقاومكم أحد في هذا الوقت (فمن ينصرنا بأس الله) من أخذه وعذابه (ان جاءنا) أي فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله بقتله فانه ان جاءنا لم يمنعنا منه أحد وانما نسب ما يسرهم من الملك والظهور في الارض اليهم خاصة ونظم نفسه في سلكهم فيما يسوءهم من مجيء بأس الله تعالى تطييبا لقلوبهم وايذانا بأنه مناصح لهم ساع في تحصيل ما يجديهم ودفع ما يرديهم سعيه في حق نفسه ليتأثروا بنصحه (قال فرعون) بعد ما سمع نصحه (ما أريكم) أي ما أشير عليكم (الا ما أرى) وأستصوبه من قتله (وما أهديكم) بهذا الرأي (الا سبيل الرشاد) اي الصواب أو لا أعلمكم

الاما أعلم ولا أسر عنكم خلاف ماأظهره ولقد كذب حيث كان مستشعرا للخوف الشديد ولكنه كان يتجلد ولولاه
لما استشار أحدا أبدا وقرئ بتشديد الشين للمبالغة من رشد كعلام أو من رشد كعباد لا من أرشد كجبار

(السؤال الثانى) انه كان من الواجب أن يقال وان يك صادقا يصبكم كل الذى يعدكم لان الذى يصيب فى بعض مايعد دون البعض هم أصحاب الكهانة والنجوم أما الرسول الصادق الذى لا يتكلم الا بالوحى فانه يجب أن يكون صادقا فى كل مايقول فكان قوله يصبكم بعض الذى يعدكم غير لائق بهذا المقام (والجواب) عن الاسئلة الثلاثة بحرف واحد وهو أن تقدير الكلام أن يقال انه لا حاجة بكم فى دفع شره الى قتله بل يكفيكم ان تمنعوه عن اظهار هذه المقالة ثم تتركوا قتله فان كان كاذبا فحينئذ لا يعود ضرره الا اليه وان كان صادقا انتفعتم به والحاصل أن المقصود من ذكر ذلك التقسيم بيان أنه لا حاجة الى قتله بل يكفيكم أن تعرضوا عنه وأن تمنعوه عن اظهار دينه فبهذا الطريق الاسئلة الثلاثة مدفوعة (وأما السؤال الثانى) وهو قوله كان الاولى أن يقال يصبكم كل الذى يعدكم فالجواب عنه من وجوه (الاول) ان مدار هذا الاستدلال على اظهار الانصاف وترك اللجاج لان المقصود منه ان كان كاذبا كان ضرر كذبه مقصورا عليه وان كان صادقا فلا أقل من أن يصل اليكم بعض مايعدكم وان كان المقصود من هذا الكلام ماذكر صح ونظيره قوله تعالى وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين (والوجه الثانى) انه عليه السلام كان يتوعدهم بعذاب الدنيا وبعذاب الآخرة فاذا وصل اليهم فى الدنيا عذاب الدنيا فقد أصابهم بعض الذى يعدهم به (الوجه الثالث) حكى عن أبى عبيدة انه قال ورود لفظ البعض بمعنى الكل جائز واحتج بقول لبيد

تراك أمكنة اذا لم أرضها * أو يرتبط بعض النفوس حمامها

والجمهور على ان هذا القول خطأ قالوا وأراد لبيد ببعض النفوس نفسه والله أعلم ثم حكى تعالى عن هذا المؤمن حكاية ثالثة فى أنه لا يجوز ايذاء موسى عليه السلام فقال ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب وتقرير هذا الدليل أن يقال ان الله تعالى هدى موسى الى الاتيان بهذه المعجزات الباهرة ومن هداه الله الى الاتيان بالمعجزات لا يكون مسرفا كذابا فهذا يدل على ان موسى عليه السلام ليس من الكاذبين فكان قوله ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب اشارة الى علو شأن موسى عليه السلام على طريق الرمز والتعريض ويحتمل أيضا ان يكون المراد أن فرعون مسرف فى عزمه على قتل موسى كذاب فى اقدامه على ادعاء الآلهية والله لا يهدى من هذا شأنه وصفته بل يبطله ويهدم أمره * قوله تعالى (ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الارض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا قال فرعون ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد وقال الذى آمن ياقوم انى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد وياقوم انى أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد) اعلم ان مؤمن آل فرعون لما أقام أنواع الدلائل على انه لا يجوز الاقدام على قتل موسى خوفهم فى ذلك بعذاب الله فقال ياقوم لكم الملك اليوم

من أجبر لانه مقصور على السماع أو للنسبة الى الرشد كعواج وبتات غير منظور فيه الى فعل (وقال الذى آمن) مخاطبا لقومه (ياقوم انى أخاف عليكم) فى تكذيبه والتعرض له بالسوء (مثل يوم الاحزاب) مثل أيام الامم الماضية يعنى وقائعهم وجمع الاحزاب مع التفسير أغنى عن جمع اليوم (مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود) أى مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر وايذاء الرسل (والذين من بعدهم) كقوم لوط (وما الله يريد ظلما للعباد) فلا يعاقبهم بغير ذنب ولا يخلى الظالم منهم بغير انتقام وهو أبلغ من قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد لما أن المنفى فيه ارادة ظلم ما فينتفى الظلم بطريق الاولوية (ويا قوم انى أخاف عليكم يوم التناد) خوفهم بالعذاب الاخروى بعد تخويفهم
بالعذاب الدنيوى ويوم التناد يوم القيامة لانه ينادى فيه بعضهم للاستغاثة أو يتصايحون بالويل ﴿ ظاهرين ﴾
والثبور أو ينادى أصحاب الجنة

ظاهرين فى الارض يعنى قد علوتم الناس وقهرتموهم فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه فانه لاقبل لكم به وانما قال ينصرنا وجاءنا لانه كان يظهر من نفسه انه منهم وأن الذى ينصحهم به هو مشارك لهم فيه ولما قال ذلك المؤمن هذا الكلام قال فرعون ما أريكم الا ما أرى أى لا أشير اليكم برأى سوى ما ذكرته أنه يجب قتله حسما لمادة الفتنة وما أهديكم بهذا الرأى الا سبيل الرشاد والصلاح ثم حكى تعالى ان ذلك المؤمن رد هذا الكلام على فرعون فقال انى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب واعلم انه تعالى حكى عن ذلك المؤمن انه كان يكتم ايمانه والذى يكتم كيف يمكنه أن يذكر هذه الكلمات مع فرعون ولهذا السبب حصل ههنا قولان (الاول) ان فرعون لما قال ذرونى أقتل موسى لم يصرح ذلك المؤمن بأنه على دين موسى بل أوهم انه مع فرعون وعلى دينه الا انه زعم ان المصلحة تقتضى ترك قتل موسى لانه لم يصدر عنه الا الدعوة الى الله والاتيان بالمعجزات القاهرة وهذا لا يوجب القتل والاقدام على قتله يوجب الوقوع فى ألسنة الناس بأقبح الكلمات بل الاولى ان يؤخر قتله وأن يمنع من اظهار دينه لان على هذا التقدير ان كان كاذبا كان وبال كذبه عائدا اليه وان كان صادقا حصل الانتفاع به من بعض الوجوه ثم أكد ذلك بقوله ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب يعنى انه ان صدق فيما يدعيه من اثبات الاله القادر الحكيم فهو لا يهدى المسرف الكذاب فأوهم فرعون انه أراد بقوله ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب أنه يريد موسى وهو انما كان يقصد به فرعون لان المسرف الكذاب هو فرعون (والقول الثانى) ان مؤمن آل فرعون كان يكتم ايمانه أولا فلما قال فرعون ذرونى أقتل موسى ازال الكتمان وأظهر كونه على دين موسى وشافه فرعون بالحق واعلم انه تعالى حكى عن هذا المؤمن أنواعا من الكلمات ذكرها لفرعون (فالاول) قوله يا قوم انى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب والتقدير مثل أيام الاحزاب الا أنه لما أضاف اليوم الى الاحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود فحينئذ ظهر أن كل حزب كان له يوم معين فى البلاء فاقتصر من الجمع على ذكر الواحد لعدم الالتباس ثم فسر قوله انى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب بقوله مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود ودأب هؤلاء دونهم فى عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصى فيكون ذلك دائبا ودائما لا يفترون عنه ولا بد من حذف مضاف يريد مثل جزاء دأبهم والحاصل أنه خوفهم بهلاك معجل فى الدنيا ثم خوفهم أيضا بهلاك الآخرة وهو قوله ومن يضلل الله فما له من هاد والمقصود منه التنبيه على عذاب الآخرة (النوع الثانى) من كلمات ذلك المؤمن قوله تعالى وما الله يريد ظلما للعباد يعنى أن تدمير أولئك الاحزاب كان عدلا لانهم استوجبوه بسبب تكذيبهم للانبياء فتلك العلة قائمة ههنا فوجب حصول الحكم ههنا قالت المعتزلة قوله وما الله يريد ظلما للعباد يدل على انه لا يريد أن يظلم بعض العباد بعضا ويدل على أنه لا يريد ظلم أحد من العباد فلو خلق الكفر فيهم ثم يعذبهم على ذلك الكفر لكان ظالما واذا ثبت انه لا يريد الظلم البتة ثبت

وأصحاب النار حسبما حكى فى سورة الاعراف وقرئ بتشديد الدال وهو أن يند بعضهم من بعض كقوله تعالى يوم يفر المرء من أخيه وعن الضحاك اذا سمعوا زفير النار ندوا هربا فلا يأتون قطرا من الاقطار الا وجدوا ملائكة صفوفا فبيناهم يموج بعضهم فى بعض اذ سمعوا مناديا أقبلوا الى الحساب (يوم تولون مدبرين) بدل من يوم التناد أى منصرفين عن الموقف الى النار أو فارين منها حسبما نقل آنفا (ما لكم من الله من عاصم) يعصمكم من عذابه والجملة حال أخرى من ضمير تولون (ومن يضلل الله فما له من هاد) يهديه الى طريق النجاة (ولقد جاءكم يوسف) هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام على أن فرعونه فرعون موسى أو على نسبة أحوال الآباء الى الاولاد وقيل سبطه يوسف بن ابراهيم بن يوسف الصديق (من قبل) من قبل موسى (بالبينات) بالمعجزات الواضحة (فما زلتم فى شك مما جاءكم به) من الدين (حتى اذا هلك) بالموت (قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) ضما الى تكذيب رسالته تكذيب رسالة من بعده أو جزما بأن لا يبعث بعده رسول مع الشك فى رسالته وقرئ ألن يبعث الله على أن بعضهم

انه غير خالق لافعال العباد لانه لو خلقها لارادها وثبت أيضا أنه قادر على الظلم اذ لو لم يقدر عليه لما حصل المدح بترك الظلم وهذا الاستدلال قد ذكرناه مرارا في هذا الكتاب مع الجواب فلا فائدة في الاعادة (النوع الثالث) من كلمات هذا المؤمن قوله ويا قوم انى أخاف عليكم يوم التناد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) التناد تفاعل من النداء يقال تنادى القوم أي نادى بعضهم بعضا والاصل الياء وحذف الياء حسن في الفواصل وذكرنا ذلك في يوم التلاق واجمع المفسرون على ان يوم التناد يوم القيامة وفي سبب تسمية ذلك اليوم بذلك الاسم وجوه (الاول) أن أهل النار ينادون أهل الجنة وأهل الجنة ينادون أهل النار كما ذكر الله عنهم في سورة الاعراف ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار (الثاني) قال الزجاج لا يبعد أن يكون السبب فيه قوله تعالى يوم ندعو كل أناس بامامهم (الثالث) انه ينادي بعض الظالمين بعضا بالويل والثبور فيقولون ياويلنا (الرابع) ينادون الى المحشر أي يدعون (الخامس) ينادي المؤمن هاؤم اقرؤا كتابيه والكافر ياليتني لم أوت كتابيه (السادس) ينادي باللعنة على الظالمين (السابع) يجاء بالموت على صورة كبش أملح ثم يذبح وينادي يا أهل القيامة لا موت فيزداد أهل الجنة فرحا على فرحهم واهل النار حزنا على حزنهم (الثامن) قال أبو على الفارسي التنادي مشتق من التناد من قولهم ند فلان اذا هرب وهو قراءة ابن عباس وفسرها فقال يندون كما تند الابل ويدل على صحة هذه القراءة قوله تعالى يوم يفر المرء من أخيه الآية وقوله تعالى بعد هذه الآية يوم تولون مدبرين لانهم اذا سمعوا زفير النار يندون هاربين فلا يأتون قطرا من الاقطار الا وجدوا ملائكة صفوفا فيرجعون الى المكان الذي كانوا فيه (المسئلة الثانية) انتصب قوله يوم التناد لوجهين (أحدهما) الظرف للخوف كأنه خاف عليهم في ذلك اليوم لما يلحقهم من العذاب ان لم يؤمنوا (والآخر) أن يكون التقدير انى أخاف عليكم عذاب يوم التناد واذا كان كذلك كان انتصاب يوم انتصاب المفعول به لا انتصاب الظرف لان اعرابه اعراب المضاف المحذوف ثم قال يوم تولون مدبرين وهو بدل من قوله يوم التناد عن قتادة منصرفين عن موقف يوم الحساب الى النار وعن مجاهد فارين عن النار غير معجزين ثم أكد التهديد فقال مالكم من الله من عاصم ثم نبه على قوة ضلالتهم وشدة جهالتهم فقال ومن يضلل الله فماله من هاد

❊ قوله تعالى (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) واعلم أن مؤمن آل فرعون لما قال ومن يضلل الله فماله من هاد ذكر لهذا مثلا وهو أن يوسف لما جاءهم بالبينات الباهرة فأصروا على الشك والشبهة ولم ينتفعوا بتلك الدلائل وهذا يدل على ان من أضله الله فماله

في عصيانه (مرتاب) في دينه شاك فيما تشهد به البينات لغلبة الوهم والانهماك في التقليد (الذين يجادلون في آيات الله) بدل من الموصول الاول أو بيان له أو صفة باعتبار معناه كأنه قيل كل مسرف مرتاب أو المسرفين المرتابين (بغير سلطان) متعلق بيجادلون بغير حجة صالحة للتمسك بها في الجملة (أتاهم) صفة سلطان (كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا) فيه ضرب من التعجب والاستعظام وفي كبر ضمير يعود الى من وتذكيره باعتبار اللفظ وقيل الى الجدال المستفاد من يجادلون (كذلك) أي مثل ذلك الطبع الفظيع (يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) فيصدر عنه امثال ما ذكر من الاسراف والارتياب والمجادلة بالباطل وقرئ بتنوين قلب ووصفه بالتكبر والتجبر لانه منبعهما

من هاد وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قيل ان يوسف هذا هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام ونقل صاحب الكشاف انه يوسف بن افرايم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نيفا وعشرين سنة وقيل ان فرعون موسى هو فرعون يوسف بقى حيا الى زمانه وقيل فرعون آخر والمقصود من الكل شئ واحد وهو أن يوسف جاء قومه بالبينات وفى المراد بها قولان (الاول) ان المراد بالبينات قوله أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار (والثانى) المراد بها المعجزات وهذا أولى ثم انهم بقوا فى نبوته شاكين مرتابين ولم ينتفعوا البتة بتلك البينات فلما مات قالوا انه لن يبعث الله من بعده رسولا وانما حكموا بهذا الحكم على سبيل التشهى والتمنى من غير حجة ولا برهان بل انما ذكروا ذلك ليكون ذلك أساسا لهم فى تكذيب الانبياء الذين يأتون بعد ذلك وليس قولهم لن يبعث الله من بعده رسولا لاجل تصديق رسالة يوسف وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها وانما هو تكذيب لرسالة من هو بعده مضموما الى تكذيب رسالته ثم قال كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب أى مثل هذا الضلال يضل الله كل مسرف فى عصيانه مرتاب فى دينه قال الكعبى هذه الآية حجة لاهل القدر لانه تعالى بين كفرهم ثم بين انه تعالى انما أضلهم لكونهم مسرفين مرتابين فثبت ان العبد ما لم يضل عن الدين فان الله تعالى لا يضله ثم بين تعالى ما لاجله بقوا فى ذلك الشك والاسراف فقال الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أى بغير حجة بل اما بناء على التقليد المجرد واما بناء على شبهات خسيسة كبر مقتا عند الله والمقت هو أن يبلغ المرء فى القوم مبلغا عظيما فيمقته الله ويبغضه ويظهر خزيه وتعسه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى ذمه اياهم بأنهم يجادلون بغير سلطان دلالة على ان الجدال بالحجة حسن وحق وفيه أبطال التقليد (المسئلة الثانية) قال القاضى مقت الله اياهم يدل على ان فعلهم ليس بخلق الله لان كونه فاعلا للفعل وماقتا له محال (المسئلة الثالثة) الآية تدل على انه يجوز وصف الله تعالى بأنه قد يمقت بعض عباده الا ان ذلك صفة واجبة التأويل فى حق الله كالغضب والحياء والتعجب والله أعلم ثم بين ان هذا المقت كما حصل عند الله فكذلك قد حصل عند الذين آمنوا ثم قال كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر وأبو عمرو وقتيبة عن الكسائى قلب منونا متكبر صفة للقلب والباقون بغير تنوين على اضافة القلب الى المتكبر قال أبو عبيد الاختيار الاضافة لوجوه (الاول) ان عبد الله قرأ على قلب كل متكبر وهو شاهد لهذه القراءة (الثانى) ان وصف الانسان بالتكبر والجبروت أولى من وصف القلب بهما وأما الذين قرؤا بالتنوين فقالوا ان الكبر قد أضيف الى القلب فى قوله ان فى صدورهم الا كبر وقال تعالى فانه آثم قلبه وأيضا فيمكن أن يكون ذلك على حذف المضاف أى على كل ذى قلب متكبر وأيضا قال قوم الانسان الحقيقى هو القلب وهذا البحث طويل وقد ذكرناه فى تفسير قوله نزل به الروح الامين على قلبك قالوا ومن أضاف فلا بد له من تقدير حذف

والتقدير يطبع الله على قلب كل متكبر (المسئلة الثانية) الكلام في الطبع والرين والقسوة والغشاوة قد سبق في هذا الكتاب بالاستقصاء وأصحابنا يقولون قوله كذلك يطبع الله يدل على أن الكل من الله والمعتزلة يقولون ان قوله كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار يدل على أن هذا الطبع انما حصل من الله لانه كان في نفسه متكبرا جبارا وعند هذا تصير الآية حجة لكل واحد من هذين الفريقين من وجه وعليه من وجه آخر والقول الذي يخرج عليه الوجهان ما ذهبنا اليه وهو انه تعالى يخلق دواعي الكبر والرياسة في القلب فتصير تلك الدواعي مانعة من حصول ما يدعو الى الطاعة والانقياد لامر الله فيكون القول بالقضاء والقدر حقا ويكون تعليل الصد عن الدين بكونه متجبرا متكبرا باقيا فثبت ان هذا المذهب الذي اخترناه في القضاء والقدر هو الذي ينطبق لفظ القرآن من أوله الى آخره عليه (المسئلة الثالثة) لابد من بيان الفرق بين المتكبر والجبار قال مقاتل متكبر عن قبول التوحيد جبار في غير حق وأقول كمال السعادة في أمرين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله فعلى قول مقاتل المتكبر كالمضاد للتعظيم لامر الله والجبروت كالمضاد للشفقة على خلق الله والله أعلم * قوله تعالى (وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلي ابلغ الاسباب أسباب السموات فاطلع الى اله موسى واني لاظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون الا في تباب) اعلم انه تعالى لما وصف فرعون بكونه متكبرا جبارا بين انه بلغ في البلادة والحماقة الى أن قصد الصعود الى السموات وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج الجم الكثير من المشبهة بهذه الآية في اثبات ان الله في السموات وقرروا ذلك من وجوه (الاول) ان فرعون كان من المنكرين لوجود الله وكل ما يذكره في صفات الله تعالى فذلك انما يذكره لاجل انه سمع ان موسى يصف الله بذلك فهو أيضا يذكره كما سمعه فلولا انه سمع موسى يصف الله بأنه موجود في السماء والا لما طلبه في السماء (الوجه الثاني) انه قال واني لاظنه كاذبا ولم يبين انه كاذب فيماذا والمذكور السابق متعين لصرف الكلام اليه فكان التقدير فأطلع الى الاله الذي يزعم موسى انه موجود في السماء ثم قال واني لاظنه كاذبا أي واني لاظن موسى كاذبا في ادعائه ان الاله موجود في السماء وذلك يدل على ان دين موسى هو ان الاله موجود في السماء (الوجه الثالث) العلم بأنه لو وجد الاله لكان موجودا في السماء علم بديهي متقرر في كل العقول ولذلك فان الصبيان اذا تضرعوا الى الله رفعوا وجوههم وأيديهم الى السماء وان فرعون مع نهاية كفره لما طلب الاله فقد طلبه في السماء وهذا يدل على ان العلم بأن الاله موجود في السماء علم متقرر في عقل الصديق والزنديق والملحد والموحد والعالم والجاهل فهذا جملة استدلالات المشبهة بهذه الآية والجواب ان هؤلاء الجهال يكفيهم في كمال الخزي والضلال أن جعلوا اقوال فرعون اللعين حجة لهم على صحة دينهم وأما موسى عليه السلام فانه لم يزد في تعريف اله العالم على ذكر صفة الخلاقية فقال في سورة طه ربنا الذي

(وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا) أي بناء مكشوفا عاليا من صرح الشئ اذا ظهر (لعلي أبلغ الاسباب) أي الطرق (اسباب السموات) بيان لها وفي ابهامها ثم ايضاحها تفخيم لشأنها وتشويق للسامع الى معرفتها (فاطلع الى اله موسى) بالنصب على جواب الترجي وقرئ بالرفع عطفا على أبلغ ولعله أراد ان يبني له رصدا في موضع عال ليرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الارضية فيرى هل فيها ما يدل على ارسال الله تعالى اياه أو ان يرى فساد قوله عليه الصلاة والسلام بأن اخباره من اله السماء يتوقف على اطلاعه عليه ووصوله اليه وذلك لا يتأتى الا بالصعود الى السماء وهو مما لا يقوى عليه الانسان وما ذاك الا لجهله بالله سبحانه وكيفية استنبائه (واني لاظنه كاذبا) فيما يدعيه من الرسالة (وكذلك) أي ومثل ذلك التزيين البليغ المفرط (زين لفرعون سوء عمله) فانهمك فيه انهماكا لا يرعوى عنه بحال (وصد عن السبيل) اي سبيل الرشاد والفاعل في الحقيقة هو الله تعالى ويؤيده قراءة زين بالفتح وبالتوسط الشيطان وقرئ وصد على أن فرعون صد الناس عن الهدى بأمثال هذه التمويهات والشبهات ويؤيده قوله تعالى (وما كيد فرعون الا في تباب) أي

﴿ اعطى ﴾

أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وقال في سورة الشعراء ربكم ورب آبائكم الاولين رب المشرق والمغرب وما بينهما فظهر أن تعريف ذات الله بكونه في السماء دين فرعون وتعريفه بالخلاقية والموجودية دين موسى فمن قال بالاول كان على دين فرعون ومن قال بالثاني كان على دين موسى ثم نقول لا نسلم أن كل ما يقوله فرعون في صفات الله تعالى فذلك قد سمعه من موسى عليه السلام بل لعله كان على دين المشبهة فكان يعتقد أن الاله لو كان موجودا لكان حاصلا في السماء فهو انما ذكر هذا الاعتقاد من قبل نفسه لا لاجل انه قد سمعه من موسى عليه السلام وأما قوله واني لاظنه كاذبا فنقول لعله لما سمع موسى عليه السلام قال رب السموات والارض ظن انه عنى به انه رب السموات كما يقال للواحد منا انه رب الدار بمعنى كونه ساكنا فيه فلما غلب على ظنه ذلك حكى عنه وهذا ليس بمستبعد فان فرعون كان قد بلغ في الجهل والحماقة الى حيث لا يبعد نسبة هذا الخيال اليه فان استبعد الخصم نسبة هذا الخيال اليه كان ذلك لائقا بهم لانهم لما كانوا على دين فرعون وجب عليهم تعظيمه وأما قوله ان فطرة فرعون شهدت بأن الاله لو كان موجودا لكان في السماء قلنا نحن لا ننكر أن فطرة أكثر الناس تخيل اليهم صحة ذلك لا سيما من بلغ في الحماقة الى درجة فرعون فثبت ان هذا الكلام ساقط (المسئلة الثانية) اختلف الناس في أن فرعون هل قصد بناء الصرح ليصعد منه الى السماء أم لا اما الظاهريون من المفسرين فقد قطعوا بذلك وذكروا حكاية طويلة في كيفية بناء ذلك الصرح والذي عندي انه بعيد والدليل عليه أن يقال فرعون لا يخلو اما أن يقال انه كان من المجانين أو كان من العقلاء فان قلنا انه كان من المجانين لم يجز من الله تعالى ارسال الرسول اليه لان العقل شرط في التكليف ولم يجز من الله أن يذكر حكاية كلام مجنون في القرآن وأما ان قلنا انه كان من العقلاء فنقول ان كل عاقل يعلم ببديهة عقله انه يتعذر في قدرة البشر وضع بناء يكون أرفع من الجبل العالي ويعلم أيضا ببديهة عقله انه لا يتفاوت في البصر حال السماء بين أن ينظر اليه من أسفل الجبال وبين أن ينظر اليه من أعلى الجبال واذا كان هذان العلمان بديهيين امتنع أن يقصد العاقل وضع بناء يصعد منه الى السماء واذا كان فساد هذا معلوما بالضرورة امتنع اسناده الى فرعون والذي عندي في تفسير هذه الآية ان فرعون كان من الدهرية وغرضه من ذكر هذا الكلام ايراد شبهة في نفي الصانع وتقريره انه قال انا لا نرى شيأ نحكم عليه بأنه اله العالم فلم يجز اثبات هذا الاله أما انه لا نراه فلأنه لو كان موجودا لكان في السماء ونحن لا سبيل لنا الى صعود السموات فكيف يمكننا أن نراه ثم انه لاجل المبالغة في بيان انه لا يمكنه صعود السموات قال ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الاسباب والمقصود انه لما عرف كل أحد أن هذا الطريق ممتنع كان الوصول الى معرفة وجود الله بطريق الحس ممتنعا ونظيره قوله تعالى فان استطعت أن تبتغي نفقا في الارض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية وليس المراد منه أن محمدا صلى الله عليه وسلم طلب نفقا في الارض

خسار وهلاك أو على أنه من صد صدودا أي أعرض وقرئ بكسر الصاد على نقل حركة الدال اليه وقرئ وصد على انه عطف على سوء عمله وقرئ وصدوا أي هو وقومه

أو وضع سلما الى السماء بل المعنى انه لما عرف ان هذا المعنى ممتنع فقد عرف انه لا سبيل لك الى تحصيل ذلك المقصود فكذا ههنا غرض فرعون من قوله ياهامان ابن لى صرحا يعنى أن الاطلاع على اله موسى لما كان لا سبيل اليه الا بهذا الطريق وكان هذا الطريق ممتنعا فحينئذ يظهر منه انه لا سبيل الى معرفة الاله الذى يثبته موسى فنقول هذا ما حصلته فى هذا الباب واعلم أن هذه الشبهة فاسدة لان طرق العلم ثلاثة الحس والخبر والنظر ولا يلزم من انتفاء طريق واحد وهو الحس انتفاء المطلوب وذلك لان موسى عليه السلام كان قد بين لفرعون أن الطريق فى معرفة الله تعالى انما هو الحجة والدليل كما قال ربكم ورب آبائكم الاولين رب المشرق والمغرب الا ان فرعون لخبثه ومكره تغافل عن ذلك الدليل وألقى الى الجهال انه لما كان لا طريق الى الاحساس بهذا الاله وجب نفيه فهذا ما عندى فى هذا الباب وبالله التوفيق والعصمة (المسئلة الثالثة) ذهب قوم الى انه تعالى خلق جواهر الافلاك وحركاتها بحيث تكون هى الاسباب لحدوث الحوادث فى هذا العالم الاسفل واحتجوا بقوله تعالى لعلى أبلغ الاسباب أسباب السموات ومعلوم أنها ليست أسبابا للحوادث هذا العالم قالوا ويؤكد هذا بقوله تعالى فى سورة ص فليرتقوا فى الاسباب اما المفسرون فقد ذكروا فى تفسير قوله تعالى لعلى أبلغ الاسباب أسباب السموات أن المراد بأسباب السموات طرقها وأبوابها وما يؤدى اليها وكل ما أداك الى شئ فهو سبب كالرشاء ونحوه (المسئلة الرابعة) قالت اليهود اطبق الباحثون عن تواريخ بنى اسرائيل وفرعون أن هامان ما كان موجودا البتة فى زمان موسى وفرعون وانما جاء بعدهما بزمان مديد ودهر داهر فالقول بأن هامان كان موجودا فى زمان موسى وفرعون خطأ فى التاريخ وليس لقائل أن يقول ان وجود شخص يسمى بهامان بعد زمان فرعون لا يمنع من وجود شخص آخر يسمى بهذا الاسم فى زمانه قالوا لان هذا الشخص المسمى بهامان الذى كان موجودا فى زمان فرعون ما كان شخصا خسيسا فى حضرة فرعون بل كان كالوزير له ومثل هذا الشخص لا يكون مجهول الوصف والحلية فلو كان موجودا لعرف حاله وحيث أطبق الباحثون عن أحوال فرعون وموسى ان الشخص المسمى بهامان ما كان موجودا فى زمان فرعون وانما جاء بعده بادوار علم انه غلط وقع فى التواريخ قالوا ونظير هذا انا نعرف فى دين الاسلام أن أبا حنيفة انما جاء بعد محمد صلى الله عليه وسلم فلو أن قائلا ادعى أن أبا حنيفة كان موجودا فى زمان محمد عليه السلام وزعم انه شخص آخر سوى الاول وهو أيضا يسمى بأبى حنيفة فان أصحاب التواريخ يقطعون بخطئه فكذا ههنا والجواب أن تواريخ موسى وفرعون قد طال العهد بها واضطربت الاحوال والادوار فلم يبق على كلام أهل التواريخ اعتماد فى هذا الباب فكان الاخذ بقول الله أولى بخلاف حال رسولنا مع أبى حنيفة فان هذه التواريخ قريبة غير مضطربة بل هى مضبوطة فظهر الفرق بين البابين فهذا جملة ما يتعلق بالمباحث المعنوية فى هذه الآية وبقى ما يتعلق

(وقال الذي آمن) اي مؤمن ال فرعون وقيل موسى عليه السلام (ياقوم اتبعون) فيما دللتكم عليه (أهدكم
سبيل الرشاد) أي سبيلا يصل سالكه الى المقصود وفيه تعريض بأن مايسلكه فرعون وقومه

بالمباحث اللفظية قيل الصرح البناء الظاهر الذي لايخفى على الناظر وان بعد اشتقوه من صرح الشيء اذا ظهر وأسباب السموات طرقها فان قيل مافائدة هذا التكرير ولو قيل لعلي أبلغ أسباب السموات كان كافيا أجاب صاحب الكشاف عنه فقال اذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيما لشأنه فلما أراد تفخيم أسباب السموات ابهمها ثم أوضحها وقوله فأطلع الى اله موسى قرأ حفص عن عاصم فأطلع بفتح العين والباقون بالرفع قال المبرد من رفع فقد عطفه على قوله ابلغ والتقدير لعلي أبلغ الاسباب ثم اطلع الا أن حرف ثم أشد تراخيا من الفاء ومن نصب جعله جوابا والمعنى لعلي أبلغ الاسباب فمتى بلغتها اطلع والمعنى مختلف لان الاول لعلي أطلع والثاني لعلي أبلغ وانا ضامن اني متى بلغت فلابد وأن اطلع واعلم انه تعالى لما حكى عن فرعون هذه القصة قال بعدها وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وصد بضم الصاد قال أبو عبيدة وبه يقرأ لان ماقبله فعل مبني للمفعول به فجعل ماعطف عليه مثله والباقون وصد بفتح الصاد على انه منع الناس عن الايمان قالوا ومن صده قوله لاقطعن أيديكم وأرجلكم ويؤيد هذه القراءة قوله الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وقوله هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام (المسئلة الثانية) قوله تعالى زين لابدله من المزين فقالت المعتزلة انه الشيطان فقيل لهم ان كان المزين لفرعون هو الشيطان فالمزين للشيطان ان كان شيطانا آخر لزم اثبات التسلسل في الشياطين أو الدور وهو محال ولما بطل ذلك وجب انتهاء الاسباب والمسببات في درجات الحاجات الى واجب الوجود وأيضا فقوله زين يدل على ان الشيء ان لم يكن في اعتقاد الفاعل موصوفا بأنه خير وزينة وحسن فانه لايقدم عليه الا ان ذلك الاعتقاد ان كان صوابا فهو العلم وان كان خطأ فهو الجهل ففاعل ذلك الجهل ليس هو ذلك الانسان لان العاقل لايقصد تحصيل الجهل لنفسه ولانه انما يقصد تحصيل الجهل لنفسه اذا عرف كونه جهلا ومتى عرف كونه جهلا امتنع بقاؤه جاهلا فثبت أن فاعل ذلك الجهل ليس هو ذلك الانسان ولايجوز أن يكون فاعله هو الشيطان لان البحث الاول بعينه عائد فيه فلم يبق الا أن يكون فاعله هو الله تعالى والله أعلم ويقوي ماقلناه ان صاحب الكشاف نقل انه قرئ وزين له سوء عمله على البناء للفاعل والفعل لله عز وجل ويدل عليه قوله الى اله موسى ثم قال تعالى وما كيد فرعون الا في تباب والتباب الهلاك والخسران ونظيره قوله تعالى ومازادوهم غير تتبيب وقوله تعالى تبت يدا أبي لهب والله أعلم ۞ قوله تعالى (وقال الذي آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ياقوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار من عمل سيئة فلايجزى الا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ويا قوم مالي أدعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار تدعونني لاكفر بالله واشرك به ماليس لي به علم وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار لاجرم أنما تدعونني اليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا الى

سبيل الغي والضلال (ياقوم انما هذه الحياة الدنيا متاع) أي تمتع يسير لسرعة زوالها أجمل لهم أولا ثم فسر فافتتح بذم الدنيا وتصغير شأنها لان الاخلاد اليها رأس كل شر ومنه تتشعب فنون مايؤدي الى سخط الله تعالى ثم ثنى بتعظيم الآخرة فقال (وان الآخرة هي دار القرار) لخلودها ودوام مافيها (من عمل) في الدنيا (سيئة فلا يجزى) في الآخرة (الا مثلها) عدلا من الله سبحانه وفيه دليل على أن الجنايات تغرم بأمثالها (ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك) الذين عملوا ذلك (يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) أي بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافا مضاعفة فضلا من الله عز وجل ورحمة وجعل العمل عمدة والايمان حالا للايذان بأنه لاعبرة بالعمل بدونه وأن ثوابه أعلى من ذلك

(ويا قوم مالي أدعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار) كرر نداءهم ايقاظا لهم عن سنة الغفلة واعتناء بالمنادى له ومبالغة في توبيخهم على مايقابلون به نصحه ومدار التعجب الذي يلوح

به الاستفهام دعوتهم اياه الى النار ودعوته اياهم الى النجاة كأنه قيل أخبروني كيف هذه الحال أدعوكم الى الخير وتدعونني الى الشر وقد جعله بعضهم من قبيل مالي أراك حزينا أي مالك تكون حزينا وقوله تعالى (تدعونني لأكفر بالله) بدل أو بيان فيه تعليل والدعاء كالهداية في التعدية بالى واللام (وأشرك به ما ليس لي به) بشركته له تعالى في المعبودية وقيل بربوبيته (علم) والمراد نفي المعلوم والاشعار بأن الالوهية لابد لها من برهان موجب للعلم بها (وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار) الجامع لجميع صفات الالوهية من كمال القدرة والغلبة وما يتوقف عليه من العلم والارادة والتمكن من المجازاة والقدرة على التعذيب والغفران (لاجرم) لارد لما دعوه اليه وجرم فعل ماض بمعنى حق وفاعله قوله تعالى (أن ما تدعونني اليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة) أي حق ووجب عدم دعوة آلهتكم الى عبادتها أصلا أو عدم دعوة مستجابة أو عدم استجابة دعوتها وقيل جرم بمعنى كسب وفاعله مستكن فيه أي كسب ذلك الدعاء اليه بطلان

الله وأن المسرفين هم أصحاب النار فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد) اعلم ان هذا من بقية كلام الذي آمن من آل فرعون وقد كان يدعوهم الى الايمان بموسى والتمسك بطريقته واعلم انه نادى في قومه ثلاث مرات في المرة الاولى دعاهم الى قبول ذلك الدين على سبيل الاجمال وفي المرتين الباقيتين على سبيل التفصيل اما الاجمال فهو قوله يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد وليس المراد بقوله اتبعون طريقة التقليد لانه قال بعده أهدكم سبيل الرشاد والهدى هو الدلالة ومن بين الادلة للغير يوصف بأنه هداه وسبيل الرشاد هو سبيل الثواب والخير وما يؤدي اليه لان الرشاد نقيض الغي وفيه تصريح بأن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغي وأما التفصيل فهو أنه بين حقارة حال الدنيا وكمال حال الآخرة أما حقارة الدنيا فهي قوله يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع والمعنى انه يستمتع بهذه الحياة الدنيا في أيام قليلة ثم تنقطع وتزول واما الآخرة فهي دار القرار والبقاء والدوام وحاصل الكلام ان الآخرة باقية دائمة والدنيا منقضية منقرضة والدائم خير من المنقضي وقال بعض العارفين لو كانت الدنيا ذهبا فانيا والآخرة خزفا باقيا لكانت الآخرة خيرا من الدنيا فكيف والدنيا خزف فان والآخرة ذهب باق واعلم ان الآخرة كما ان النعيم فيها دائم فكذلك العذاب فيها دائم وان الترغيب في النعيم الدائم والترهيب عن العذاب الدائم من أقوى وجوه الترغيب والترهيب ثم بين كيف تحصل المجازاة في الآخرة وأشار فيه الى أن جانب الرحمة غالب على جانب العقاب فقال من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها والمراد بالمثل ما يقابلها في الاستحقاق فان قيل كيف يصح هذا الكلام مع ان كفر ساعة يوجب عقاب الابد قلنا ان الكافر يعتقد في كفره كونه طاعة وايمانا فلهذا السبب يكون الكافر على عزم أن يبقى مصرا على ذلك الاعتقاد أبدا فلا جرم كان عقابه مؤبدا بخلاف الفاسق فانه يعتقد فيه كونه خيانة ومعصية فيكون على عزم أن لا يبقى مصرا عليه فلا جرم قلنا ان عقاب الفاسق منقطع أما الذي يقوله المعتزلة من أن عقابه مؤبد فهو باطل لان مدة تلك المعصية منقطعة والعزم على الاتيان بها أيضا ليس دائما بل منقطعا فمقابلته بعقاب دائم يكون على خلاف قوله من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها واعلم أن هذه الآية أصل كبير في علوم الشريعة فيما يتعلق بأحكام الجنايات فانها تقتضي أن يكون المثل مشروعا وأن يكون الزائد على المثل غير مشروع ثم نقول ليس في الآية بيان ان تلك المماثلة معتبرة في أي الامور فلو حملناه على رعاية المماثلة في شيء معين مع ان ذلك المعين غير مذكور في الآية صارت الآية مجملة ولو حملناه على رعاية المماثلة في جميع الامور صارت الآية عاما مخصوصا وقد ثبت في أصول الفقه ان التعارض اذا وقع بين الاجمال وبين التخصيص كان دفع الاجمال أولى فوجب أن تحمل هذه الآية على رعاية المماثلة من كل الوجوه الا في مواضع التخصيص واذا ثبت هذا فالاحكام الكثيرة في باب الجنايات على النفوس وعلى الاعضاء وعلى الاموال يمكن تفريعها على هذه الآية ثم نقول

دعوته بمعنى ما حصل من ذلك الا ظهور بطلان دعوته وقيل جرم فعل من الجرم وهو القطع ﴿ انه ﴾ كما أن بد من لابد فعل من التبديد أي التفريق والمعنى لاقطع لبطلان

انه تعالى لما بين ان جزاء السيئة مقصور على المثل بين ان جزاء الحسنة غير مقصور على المثل بل هو خارج عن الحساب فقال ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب واحتج أصحابنا بهذه الآية فقالوا قوله ومن عمل صالحا نكرة في معرض الشرط في جانب الاثبات فيجري مجرى أن يقال من ذكر كلمة أو من خطا خطوة فله كذا فانه يدخل فيه كل من أتى بتلك الكلمة أو بتلك الخطوة مرة واحدة فكذلك ههنا وجب أن يقال كل من عمل صالحا واحدا من الصالحات فانه يدخل الجنة و يرزق فيها بغير حساب والآتي بالايمان والمواظب على التوحيد والتقديس مدة ثمانين سنة قد أتى بأعظم الصالحات و بأحسن الطاعات فوجب أن يدخل الجنة والخصم يقول انه يبقى مخلدا في النار أبد الآباد فكان ذلك على خلاف هذا النص الصريح قالت المعتزلة انه تعالى شرط فيه كونه مؤمنا وصاحب الكبيرة عندنا ليس بمؤمن فلا يدخل في هذا الوعد والجواب انا بينا في أول سورة البقرة في تفسير قوله تعالى الذين يؤمنون بالغيب أن صاحب الكبيرة مؤمن فسقط هذا الكلام واختلفوا في تفسير قوله يرزقون فيها بغير حساب فنهم من قال لما كان لانهاية لذلك الثواب قيل بغير حساب وقال الآخرون لانه تعالى يعطيهم ثواب أعمالهم و يضم الى ذلك الثواب من أقسام التفضل ما يخرج عن الحساب وقوله بغير حساب واقع في مقابلة الا مثلها يعني ان جزاء السيئة له حساب وتقدير لئلا يزيد على الاستحقاق فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة وأقول هذا يدل على ان جانب الرحمة والفضل راجح على جانب القهر والعقاب فاذا عارضنا عمومات الوعد بعمومات الوعيد وجب أن يكون الترجيح بجانب عمومات الوعد وذلك يهدم قواعد المعتزلة ثم استأنف ذلك المؤمن ونادى في المرة الثالثة وقال ياقوم مالي أدعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار يعني أنا أدعوكم الى الايمان الذي يوجب النجاة وتدعونني الى الكفر الذي يوجب النار فان قيل لم كرر نداء قومه ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني قلنا أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وايقاظ من سنة الغفلة واظهار أن له بهذا المهم مزيد اهتمام وعلى أولئك الاقوام فرط شفقة وأما المجيء بالواو العاطفة فلأن الثاني يقرب من أن يكون عين الاول لان الثاني بيان للاول والبيان عين المبين وأما الثالث فلأنه كلام مباين للاول والثاني فحسن ايراد الواو العاطفة فيه ولما ذكر هذا المؤمن انه يدعوهم الى النجاة وهم يدعونه الى النار فسر ذلك بانهم يدعونه الى الكفر بالله والى الشرك به أما الكفر بالله فلأن الاكثرين من قوم فرعون كانوا ينكرون وجود الاله ومنهم من كان يقر بوجود الله الا انه كان يثبت عبادة الاصنام وقوله تعالى وأشرك به ماليس لي به علم المراد بنفي العلم نفي المعلوم كأنه قال وأشرك به ماليس باله وماليس باله كيف يعقل جعله شريكا للاله ولما بين أنهم يدعونه الى الكفر والشرك بين انه يدعوهم الى الايمان بالعزيز الغفار فقوله العزيز اشارة الى كونه

الوهية الاصنام أي لا ينقطع في وقت ما فينقلب حقا و يؤيده قولهم لاجرم أنه يفعل بضم الجيم و سكون الراء وفعل وفعل اخوان كرشد ورشد (وأن مردنا الى الله) أي بالموت عطف على أن ما تدعونني داخل في حكمه وكذا قوله تعالى (وأن المسرفين) أي في الضلال والطغيان كالاشراك وسفك الدماء (هم أصحاب النار) أي ملازموها (فستذكرون) وقرئ فستذكرون أي فسيذكر بعضكم بعضا عند معاينة العذاب (ما أقول لكم) من النصائح (وأفوض أمري الى الله) قاله لما أنهم كانوا توعدوه (ان الله بصير بالعباد) فيحرس من يلوذ به من المكاره

كامل القدرة وفيه تنبيه على أن الاله هو الذى يكون كامل القدرة وأما فرعون فهو فى غاية العجز فكيف يكون الها وأما الاصنام فانها أحجار منحوتة فكيف يعقل القول بكونها آلهة وقوله الغفار اشارة الى أنه لا تجب أن يكونوا آيسين من رحمة الله بسبب اصرارهم على الكفر مدة مديدة فان اله العالم وان كان عزيزا لا يغلب قادرا لا يغالب لكنه غفار يغفر كفر سبعين سنة بايمان ساعة واحدة ثم قال ذلك المؤمن لا جرم الكلام فى تفسير لا جرم مر فى سورة هود فى قوله لا جرم أنهم فى الآخرة هم الاخسرون وقد أعاده صاحب الكشاف ههنا فقال لا جرم مساقه على مذهب البصريين أن يجعل لا ردا لما دعاه اليه قومه وجرم فعل بمعنى حق وانما مع مافى حيزه فاعله أى حق ووجب بطلان دعوته أو بمعنى كسب من قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا أى كسب ذلك الدعاء اليه بطلان دعوته بمعنى انه ماحصل من ذلك الا ظهور بطلان دعوته ويجوز أن يقال ان لا جرم نظيره لا بد فعل من الجرم وهو القطع كما أن بد فعل من التبديد وهو التفريق وكما أن معنى لا بد أنك تفعل كذا انه لا بد لك من فعله فكذلك لا جرم ان لهم النار أى لا قطع لذلك بمعنى انهم أبدا يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ولا قطع لبطلان دعوة الاصنام أى لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك فينقلب حقا وروى عن بعض العرب لا جرم انه يفعل بضم الجيم وسكون الراء بزنة بد وفعل وفعل اخوان كرشد ورشد وكعدم وعدم هذا كله ألفاظ صاحب الكشاف ثم قال انما تدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة والمراد أن الاوثان التى تدعوننى الى عبادتها ليس لها دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وفى تفسير هذه الدعوة احتمالان (الاول) ان المعنى ان ما تدعوننى الى عبادته ليس له دعوة الى نفسه لانها جمادات والجمادات لا تدعو احدا الى عبادة نفسها وقوله فى الآخرة يعنى أنه تعالى اذا قلبها حيوانا فى الآخرة فانها تتبرأ من هؤلاء العابدين (والاحتمال الثانى) أن يكون قوله ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة معناه ليس له استجابة دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة فسميت استجابة الدعوة بالدعوة اطلاقا لاسم أحد المتضايفين على الآخر كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها ثم قال وان مردنا الى الله فبين ان هذه الاصنام لا فائدة فيها البتة ومع ذلك فان مردنا الى الله العالم بكل المعلومات القادر على كل الممكنات الغنى عن كل الحاجات الذى لا يبدل القول لديه وما هو بظلام للعبيد فأى عاقل يجوز له عقله أن يشتغل بعبادة تلك الاشياء الباطلة وان يعرض عن عبادة هذا الاله الذى لا بد وان يكون مرده اليه وقوله وان المسرفين هم أصحاب النار قال قتادة يعنى المشركين وقال مجاهد السفاكين للدماء والصحيح انهم أسرفوا فى معصية الله بالكمية والكيفية أما الكمية فالدوام وأما الكيفية فبالعود والاصرار ولما بالغ مؤمن آل فرعون فى هذه البيانات ختم كلامه بخاتمة لطيفة فقال فستذكرون ما أقول لكم وهذا كلام مبهم يوجب التخويف ويحتمل

أن يكون المراد أن هذا الذكر يحصل في الدنيا وهو وقت الموت وأن يكون في القيامة وقت مشاهدة الاهوال وبالجملة فهو تحذير شديد ثم قال وأفوض أمري الى الله وهذا كلام من هدد بأمر يخافه فكأنهم خوفوه بالقتل وهو أيضا خوفهم بقوله فستذكرون ما أقول لكم ثم عول في دفع تخويفهم وكيدهم ومكرهم على فضل الله تعالى فقال وأفوض أمري الى الله وهو انما تعلم هذه الطريقة من موسى عليه السلام فان فرعون لما خوفه بالقتل رجع موسى في دفع ذلك الشر الى الله حيث قال اني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب فتح نافع وأبو عمرو الياء من أمري والباقون بالاسكان ثم قال ان الله بصير بالعباد أي عالم باحوالهم وبمقادير حاجاتهم وتمسك أصحابنا بقوله تعالى وأفوض أمري الى الله على ان الكل من الله وقالوا ان المعتزلة الذين قالوا ان الخير والشر يحصل بقدرتهم قد فوضوا أمر أنفسهم اليهم وما فوضوها الى الله والمعتزلة تمسكوا بهذه الآية فقالوا ان قوله أفوض اعتراف بكونه فاعلا مستقلا بالفعل والمباحث المذكورة في قوله أعوذ بالله عائدة بتمامها في هذا الموضع والله أعلم وههنا آخر كلام مؤمن آل فرعون والله الهادي ❊ قوله تعالى (فوقاه الله سيآت ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب واذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين الا في ضلال) اعلم انه تعالى لما بين أن ذلك الرجل لم يقصر في تقرير الدين الحق وفي الذب عنه فالله تعالى رد عنه كيد الكافرين وقصد القاصدين وقوله تعالى فوقاه الله سيآت ما مكروا يدل على انه لما صرح بتقرير الحق فقد قصدوه بنوع من أنواع السوء ❊ قال مقاتل لما ذكر هذه الكلمات قصدوا قتله فهرب منهم الى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه وقيل المراد بقوله فوقاه الله سيآت ما مكروا انهم قصدوا ادخاله في الكفر وصرفه عن الاسلام فوقاه الله عن ذلك الا ان الاول أولى لان قوله بعد ذلك وحاق بآل فرعون سوء العذاب لا يليق الا بالوجه الاول وقوله تعالى وحاق بآل فرعون أي أحاط بهم سوء العذاب أي غرقوا في البحر وقيل بل المراد منه النار المذكورة في قوله النار يعرضون عليها قال الزجاج النار بدل من قوله سوء العذاب قال وجائز أيضا أن تكون مرتفعة على اضمار تفسير سوء العذاب كأن قائلا قال ما سوء العذاب فقيل النار يعرضون عليها قرأ حمزة حاق بكسر الحاء وكذلك في كل القرآن والباقون بالفتح أما قوله النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج أصحابنا بهذه الآية على اثبات عذاب القبر قالوا

(فوقاه الله سيآت ما مكروا) شدائد مكرهم وما هموا به من الحاق أنواع العذاب بمن خالفهم قيل نجا مع موسى عليه السلام (وحاق بآل فرعون) أي بفرعون وقومه وعدم التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره ضرورة أنه أولى منهم بذلك وقيل بطلبة المؤمن من قومه لما أنه ﴿ ٣٢٩ ﴾ فر الى جبل فاتبعه طائفة ليأخذوه فوجدوه يصلي والوحوش صفوف حوله فرجعوا رعبا فقتلهم (سوء العذاب) الغرق والقتل والنار (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) جملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية سوء العذاب أو النار خبر مبتدأ محذوف كأن قائلا قال ما سوء العذاب فقيل هو النار ويعرضون استئناف للبيان أو بدل من سوء العذاب ويعرضون حال منها أو من الآل ولا يشترط في الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه حتى يرد أن آل فرعون لم يعذبوا بتعذيبه بالنار ليكون ابتلاؤهم بها من قبيل رجوع ما هموا به عليهم بل يكفي في ذلك أن يكون مما يطلق عليه اسم السوء وقرئت منصوبة على الاختصاص أو باضمار فعل يفسره يعرضون مثل يصلون فان عرضهم على النار باحراقهم بها من قولهم عرض الاسارى على السيف اذا قتلوا به وذلك لارواحهم كما روى ابن مسعود رضي الله عنه أن أرواحهم ﴿ ٤٣ ﴾ في اجواف طير سود تعرض على النار بكرة وعشيا الى يوم القيامة [illegible]

تعالى أعلم بحالهم وأما التأبيد هنا مادامت الدنيا (ويوم تقوم الساعة) يقال للملائكة (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) أي عذاب جهنم فانه أشد مما كانوا فيه أو أشد عذاب جهنم فان عذابها ألوان بعضها أشد من بعض وقرئ ادخلوا من الدخول أي يقال لهم ادخلوا يا آل فرعون أشد العذاب (واذ يتحاجون في النار) أي واذكر الوقت وقت تخاصمهم فيها (فيقول الضعفاء) منهم (للذين استكبروا) وهم رؤساؤهم (انا كنا لكم تبعا) أتباعا كخدم في جمع خادم أو ذوي تبع أي اتباع على اضمار المضاف أو تبعا على الوصف بالمصدر مبالغة (فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار) بالدفع أو الحمل ونصيبا منصوب بمضمر يدل عليه مغنون أي دافعون عنا نصيبا الخ أو بمغنون على تضمينه معنى الحمل أي مغنون عنا حاملين نصيبا الخ أو نصب على المصدر كشيأ في قوله تعالى لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيأ فانه في موقع غناء فكذلك نصيبا (قال الذين استكبروا انا كل فيها) أي نحن وأنتم فكيف نغني عنكم ولو قدرنا لاغنينا عن أنفسنا وقرئ كلا على التأكيد لاسم ان بمعنى كلنا وتنوينه عوض عن المضاف اليه ولا مساغ لجعله حالا من المستكن في الظرف فانه لا يعمل في الحال المتقدمة كما يعمل في الظرف المتقدم فانك تقول ﴿ من كل يوم لك ثوب ولا تقول جديدا لك ثوب (ان الله قد حكم بين العباد)

الآية تقتضي عرض النار عليهم غدوا وعشيا وليس المراد منه يوم القيامة لانه قال ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب وليس المراد منه أيضا الدنيا لان عرض النار عليهم غدوا وعشيا ما كان حاصلا في الدنيا فثبت ان هذا العرض انما حصل بعد الموت وقبل يوم القيامة وذلك يدل على اثبات عذاب القبر في حق هؤلاء واذا ثبت في حقهم ثبت في حق غيرهم لانه لا قائل بالفرق فان قيل لم لا يجوز أن يكون المراد من عرض النار عليهم غدوا وعشيا عرض النصائح عليهم في الدنيا لان أهل الدين اذا ذكروا لهم الترغيب والترهيب وخوفوهم بعذاب الله فقد عرضوا عليهم النار ثم نقول في الآية ما يمنع من حمله على عذاب القبر وبيانه من وجهين (الاول) ان ذلك العذاب يجب أن يكون دائما غير منقطع وقوله يعرضون عليها غدوا وعشيا يقتضي أن لا يحصل ذلك العذاب الا في هذين الوقتين فثبت ان هذا لا يمكن حمله على عذاب القبر (الثاني) ان الغدوة والعشية انما يحصلان في الدنيا أما في القبر فلا وجود لهما فثبت بهذين الوجهين انه لا يمكن حمل هذه الآية على عذاب القبر والجواب عن السؤال الاول أن في الدنيا عرض عليهم كلمات تذكرهم أمر النار لا أنه يعرض عليهم نفس النار فعلى قولهم يصير معنى الآية الكلمات المذكرة لامر النار كانت تعرض عليهم وذلك يفضي الى ترك الظاهر اللفظ والعدول الى المجاز أما قوله الآية تدل على حصول هذا العذاب في هذين الوقتين وذلك لا يجوز قلنا لم لا يجوز أن يكتفى في القبر بايصال العذاب اليه في هذين الوقتين ثم عند قيام القيامة يلقى في النار فيدوم عذابه بعد ذلك وأيضا لا يمتنع أن يكون ذكر الغدوة والعشية كناية عن الدوام كقوله ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا أما قوله انه ليس في القبر والقيامة غدوة وعشية قلنا لم لا يجوز أن يقال ان عند حصول هذين الوقتين لاهل الدنيا يعرض عليهم العذاب والله أعلم (المسئلة الثانية) قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ادخلوا آل فرعون أي يقال لخزنة جهنم ادخلوهم في أشد العذاب والباقون ادخلوا على معنى أنه يقال لهؤلاء الكفار ادخلوا أشد العذاب والقراءة الاولى اختيار أبي عبيدة واحتج عليها بقوله تعالى يعرضون فهذا يفعل بهم فكذلك ادخلوا وأما وجه القراءة الثانية فقوله ادخلوا أبواب جهنم وههنا آخر الكلام في قصة مؤمن آل فرعون واعلم ان الكلام في تلك القصة لما انجر الى شرح أحوال النار لا جرم ذكر الله عقيبها قصة المناظرات التي تجري بين الرؤساء والاتباع من أهل النار فقال واذ يتحاجون في النار والمعنى اذكر يا محمد لقومك اذ يتحاجون أي يحاج بعضهم بعضا ثم شرح خصومتهم وذلك ان الضعفاء يقولون للرؤساء انا كنا لكم تبعا في الدنيا قال صاحب الكشاف تبعا كخدم في جمع خادم أو ذوي تبع أي اتباع أو وصفا بالمصدر فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار أي فهل تقدرون على أن تدفعوا أيها الرؤساء عنا نصيبا من العذاب واعلم ان أولئك الاتباع يعلمون ان أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف وانما مقصودهم

من هذا الكلام المبالغة في تخجيل أولئك الرؤساء وإيلام قلوبهم لأنهم هم الذين سعوا في إيقاع هؤلاء الأتباع في أنواع الضلالات فعند هذا يقول الرؤساء إنا كل فيها يعني أنا كنا واقعون في هذا العذاب فلو قدرت على إزالة العذاب عنك لدفعته عن نفسي ثم يقولون إن الله قد حكم بين العباد يعني يوصل إلى كل أحد مقدار حقه من النعيم أو من العذاب ثم عند هذا يحصل اليأس للأتباع من المتبوعين فيرجعون إلى خزنة جهنم ويقولون لهم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فإن قيل لم لم يقل وقال الذين في النار لخزنتها بل قال وقال الذين في النار لخزنة جهنم قلنا فيه وجهان (الأول) أن يكون المقصود من ذكر جهنم التهويل والتفظيع (والثاني) أن يكون جهنم اسما لموضع هو أبعد النار قعرا من قولهم بئر جهنام أي بعيدة القعر وفيها أعظم أقسام الكفار عقوبة وخزنة ذلك الموضع تكون أعظم خزنة جهنم عند الله درجة فإذا عرف الكفار أن الأمر كذلك استغاثوا بهم فأولئك الملائكة يقولون لهم أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات والمقصود أن قبل إرسال الرسل كان للقوم أن يقولوا إنه ما جاءنا من بشير ولا نذير أما بعد مجيء الرسل فلم يبق عذر ولا علة كما قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وهذه الآية تدل على أن الواجب لا يتحقق إلا بعد مجيء الشرع ثم إن أولئك الملائكة يقولون للكفار ادعوا أنتم فإنا لا نجترئ على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين (أحدهما) كون المشفوع له مؤمنا (والثاني) حصول الإذن في الشفاعة ولم يوجد واحد من هذين الشرطين فإقدامنا على هذه الشفاعة ممتنع لكن ادعوا أنتم وليس قولهم فادعوا لرجاء المنفعة ولكن للدلالة على الخيبة فإن الملك المقرب إذا لم يسمع دعاؤه فكيف يسمع دعاء الكفار ثم يصرحون لهم بأنه لا أثر لدعائهم فيقولون وما دعاء الكافرين إلا في ضلال فإن قيل إن الحاجة على الله محال وإذا كان كذلك امتنع أن يقال إنه تأذى من هؤلاء المجرمين بسبب جرمهم وإذا كان التأذي محالا عليه كانت شهوة الانتقام ممتنعة في حقه وإذا ثبت هذا فنقول إيصال هذه المضار العظيمة إلى أولئك الكفار إضرار لا منفعة فيه إلى الله تعالى ولا لأحد من العبيد فهو إضرار خال عن جميع الجهات المنتفعة فكيف يليق بالرحيم الكريم أن يبقي على ذلك الإيلام أبد الآباد ودهر الداهرين من غير أن يرحم حاجتهم ومن غير أن يسمع دعاءهم ومن غير أن يلتفت إلى تضرعهم وانكسارهم ولو أن أقسى الناس قلبا فعل مثل هذا التعذيب ببعض عبيده لدعاه كرمه ورحمته إلى العفو عنه مع أن هذا السيد في محل النفع والضرر والحاجة فأكرم الأكرمين كيف يليق به هذا الإضرار قلنا أفعال الله لا تعلل ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فلما جاء الحكم الحق به في الكتاب الحق وجب الإقرار به والله أعلم بالصواب

* قوله تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا

وقضى قضاء متقنا لا مرد له ولا معقب لحكمه (وقال الذين في النار) من الضعفاء والمستكبرين جميعا لما ضاقت حيلهم وعيت بهم عللهم (لخزنة جهنم) أي للقوام بتعذيب أهل النار ووضع جهنم موضع الضمير للتهويل والتفظيع أو لبيان محلهم فيها بأن تكون جهنم أبعد دركات النار وفيها أعتى الكفرة وأطغاهم أو لكون الملائكة الموكلين بعذاب أهلها أقدر على الشفاعة لمزيد قربهم من الله تعالى (ادعوا ربكم يخفف عنا يوما) أي مقدار يوم أو في يوم ما من الأيام على أنه ظرف لا معيار شيئا (من العذاب) واقتصارهم في الاستدعا على ما ذكر من تخفيف قدر يسير من العذاب في مقدار قصير من الزمان دون رفعه رأسا أو تخفيف قدر كثير منه في زمان مديد لأن ذلك عندهم مما ليس في حيز الإمكان ولا يكاد يدخل تحت أمانيهم (قالوا) أي الخزنة (أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات) أي ألم تنبهوا على هذا ولم تك تأتيكم رسلكم في الدنيا على الاستمرار بالحجج الواضحة الدالة على سوء عاقبة ما كنتم عليه من الكفر والمعاصي كما في قوله تعالى ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا أرادوا بذلك إلزامهم وتوبيخهم على إضاعة أوقات الدعاء وتعطيل أسباب الإجابة (قالوا بلى) أي أتونا بها فكذبناهم كما نطق به قوله تعالى بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير والفاء في قوله تعالى (قالوا فادعوا) فصيحة كما في

بنى اسرائيل الكتاب هدى وذكرى لاولى الالباب فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار) اعلم ان فى كيفية النظم وجوها (الاول) انه تعالى لما ذكر وقاية الله موسى صلوات الله عليه وذلك المؤمن من مكر فرعون بين فى هذه الآية انه ينصر رسله والذين آمنوا معه (الثانى) لما بين من قبل ما يقع بين أهل النار من التخاصم وانهم عند الفزع الى خزنة جهنم يقولون ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات اتبع ذلك بذكر الرسل وانه ينصرهم فى الدنيا والآخرة (والثالث) وهو الاقرب عندى ان الكلام فى أول السورة انما وقع من قوله ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد وامتد الكلام فى الرد على أولئك المجادلين وعلى أن المحقين أبدا كانوا مشغولين بدفع كيد المبطلين وكل ذلك انما ذكره الله تعالى تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتصبيرا له على تحمل أذى قومه ولما بلغ الكلام فى تقرير المطلوب الى الغاية القصوى وعده تعالى رسوله بأن ينصره على أعدائه فى الحياة الدنيا وفى الآخرة فقال انا لننصر رسلنا الآية أما فى الدنيا فهو المراد بقوله فى الحياة الدنيا وأما فى الآخرة فهو المراد بقوله ويوم يقوم الاشهاد فحاصل الكلام انه تعالى وعد بأنه ينصر الانبياء والرسل وينصر الذين ينصرونهم نصرة يظهر أثرها فى الدنيا وفى الآخرة واعلم ان نصرة الله المحقين تحصل بوجوه (أحدها) النصرة بالحجة وقد سمى الله الحجة سلطانا فى غير موضع وهذه النصرة عامة للمحقين أجمع ونعم ما سمى الله هذه النصرة سلطانا لان السلطنة فى الدنيا قد تبطل وقد تتبدل بالفقر والذلة والحاجة والفتور وأما السلطنة الحاصلة بالحجة فانها تبقى أبد الآباد ويمتنع تطرق الخلل والفتور اليها (وثانيها) انهم منصورون بالمدح والتعظيم فان الظلمة وان قهروا شخصا من المحقين الا انهم لا يقدرون على اسقاط مدحه عن ألسنة الناس (وثالثها) انهم منصورون بسبب ان بواطنهم مملوءة من أنوار الحجة وقوة اليقين فانهم انما ينظرون الى الظلمة والجهال كما ينظر ملائكة السموات الى أخس الاشياء (ورابعها) ان المبطلين وان كان يتفق لهم ان يحصل لهم استيلاء على المحقين ففى الغالب ان ذلك لا يدوم بل ينكشف للناس ان ذلك كان أمرا وقع على خلاف الواجب ونقيض الحق (وخامسها) ان المحق ان اتفق له ان وقع فى نوع من أنواع المحذور فذلك يكون سببا لمزيد ثوابه وتعظيم درجاته (وسادسها) ان الظلمة والمبطلين كما يموتون تموت آثارهم ولا يبقى لهم فى الدنيا أثر ولا خبر وأما المحقون فان آثارهم باقية على وجه الدهر والناس بهم يقتدون فى أعمال البر والخير ولمنهجهم يتبركون فهذا كله أنواع نصرة الله للمحقين فى الدنيا (وسابعها) انه تعالى قد ينتقم للانبياء والاولياء بعد موتهم كما نصر يحيى بن زكريا فانه لما قتل قتل به سبعون ألفا وأما نصرته تعالى اياهم فى الآخرة فذلك باعلاء درجاتهم فى مراتب الثواب وكونهم مصاحبين لانبياء الله كما قال فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا واعلم أن فى قوله انا

﴿ لننصر ﴾

قول من قال * فقد جئنا خراسانا * أى اذا كان الامر كذلك فادعوا انتم فان الدعاء لمن يفعل ذلك مما يستحيل صدوره عنا وتعليل امتناعهم عن الدعاء بعدم الاذن فيه مع عرائه عن بيان أن سببه من قبلهم كما تفصح عنه الفاء ربما يوهم أن الاذن فى حيز الامكان وأنهم لو أذن لهم فيه لفعلوا ولم يريدوا بأمرهم بالدعاء اطماعهم فى الاجابة بل اقناطهم منها واظهار خيبتهم حسبما صرحوا به فى قولهم (وما دعاء الكافرين الا فى ضلال) أى ضياع وبطلان وقوله تعالى (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا) الخ كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى لبيان أن ما أصاب الكفرة من العذاب المحكى من فروع حكم كلى تقتضيه الحكمة وهو أن شأننا المستمر أنا ننصر رسلنا وأتباعهم (فى الحيوة الدنيا) بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبى وغير ذلك من العقوبات ولا يقدح فى ذلك ما قد يتفق لهم من صورة الغلبة امتحانا اذ العبرة انما هى بالعواقب وغالب الامر (ويوم يقوم الاشهاد) أى يوم القيامة عبر عنه بذلك للاشعار بكيفية النصرة وأنها تكون عند جميع الاولين والآخرين بشهادة الاشهاد للرسل بالتبليغ وعلى الكفرة بالتكذيب (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم) بدل من الاول وعدم نفع المعذرة لانها باطلة وقرئ لا تنفع بالتاء (ولهم اللعنة) أى البعد عن الرحمة (ولهم سوء الدار) أى جهنم (ولقد آتينا

لننصر رسلنا الى قوله ويوم يقوم الاشهاد دقيقة معتبرة وهي ان السلطان العظيم اذا خص بعض خواصه بالاكرام العظيم والتشريف الكامل عند حضور الجمع العظيم من أهل المشرق والمغرب كان ذلك ألذ وأبهج فقوله انا لننصر رسلنا الى يوم يقوم الاشهاد المقصود منه هذه الدقيقة واختلفوا في المراد بالاشهاد والظاهر ان المراد كل من يشهد بأعمال العباد يوم القيامة من ملك ونبي ومؤمن أما الملائكة فهم الكرام الكاتبون يشهدون بما شاهدوا وأما الانبياء فقال تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وقال تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا قال المبرد يجوز أن يكون واحد الاشهاد شاهدا كالطيار وطائر وأصحاب وصاحب ويجوز أن يكون واحد الاشهاد شهيدا كأشراف وشريف وأيتام ويتيم ثم قال تعالى يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر لاتنفع بالتاء لتأنيث المعذرة والباقون بالياء كأنه أريد الاعتذار واعلم ان المقصود أيضا من هذا شرح تعظيم ثواب أهل الثواب وذلك لانه تعالى بين أنه ينصرهم في يوم يجتمع فيه الاولون والآخرون فحالهم في علو الدرجات في ذلك اليوم ماذكرناه وأما حال اعدائهم فهو انه حصلت لهم أمور ثلاثة (أحدها) انه لا ينفعهم شئ من المعاذير البتة (وثانيها) ان لهم اللعنة وهذا يفيد الحصر يعني اللعنة مقصورة عليهم وهي الاهانة والاذلال (وثالثها) سوء الدار وهو العقاب الشديد فهذا اليوم اذا كان الاعداء واقعين في هذه المراتب الثلاثة من الوحشة والبلية ثم انه خص الانبياء والاولياء بأنواع التشريفات الواقعة في الجمع الاعظم فههنا يظهر أن سرور المؤمن كم يكون وان غموم الكافرين الى أين تبلغ فان قيل قوله يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم يدل على انهم يذكرون الاعذار الا أن تلك الاعذار لاتنفعهم فكيف الجمع بين هذا وبين قوله ولا يؤذن لهم فيعتذرون قلنا قوله لا ينفع الظالمين معذرتهم لايدل على انهم ذكروا الاعذار بل ليس فيه الا انه ليس عندهم عذر مقبول نافع وهذا القدر لايدل على انهم ذكروه أم لا وأيضا فيقال يوم القيامة يوم طويل فيعتذرون في وقت ولا يعتذرون في وقت آخر ولما بين الله تعالى أنه ينصر الانبياء والمؤمنين في الدنيا والآخرة ذكر نوعا من أنواع تلك النصرة في الدنيا فقال ولقد آتينا موسى الهدى ويجوز أن يكون المراد من الهدى ما آتاه الله من العلوم الكثيرة النافعة في الدنيا والآخرة ويجوز أن يكون المراد تلك الدلائل القاهرة التي أوردها على فرعون وأتباعه وكادهم بها ويجوز أن يكون المراد هو النبوة التي هي أعظم المناصب الانسانية ويجوز أن يكون المراد انزال التوراة عليه ثم قال تعالى وأورثنا بني اسرائيل الكتاب هدى وذكرى لاولي الالباب يجوز أن يكون المراد منه انه تعالى لما أنزل التوراة على موسى بقي ذلك العلم فيهم وتوارثوه خلفا عن سلف ويجوز أن يكون المراد سائر الكتب التي أنزلها الله عليهم وهي كتب أنبياء بني اسرائيل . لا يؤمنون بود

موسى الهدى) ما يهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع (وأورثنا بني اسرائيل الكتاب) وتركنا عليهم من بعده التوراة (هدى وذكرى) هداية وتذكرة أو هاديا ومذكرا (لاولي الالباب) لذوي العقول السليمة العاملين بما في تضاعيفه (فاصبر) على ما نالك ﴿ ٣٣٣ ﴾ من اذية المشركين (ان وعد الله) أي وعده الذي ينطق به قوله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون او وعده الخاص بك أو جميع مواعيده التي من جملتها ذلك (حق) لايحتمل الاخلاف أصلا واستشهد بحال موسى وفرعون (واستغفر لذنبك) تداركا لما فرط منك من ترك الاولى في بعض الاحايين فانه تعالى كافيك في نصرة دينك واظهاره على الدين كله (وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار) أي ودم على التسبيح ملتبسا بحمده تعالى وقيل صل لهذين الوقتين اذ كان الواجب بمكة ركعتين بكرة وركعتين عشيا وقيل صل شكرا لربك بالعشي والابكار وقيل هما صلاة العصر وصلاة الفجر (ان الذين يجادلون في آيات الله) ويجحدون بها (بغير سلطان أتاهم) في ذلك من جهته تعالى وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة اتيانه للايذان بأن التكلم في أمر الدين لابد من استناده الى سلطان مبين البتة وهو عام لكل مجادل مبطل وان نزل في مشركي مكة وقوله تعالى (ان في صدورهم الا كبر) ... لان أي ما في قلوبهم الا تكبر عن الحق وتعظم عن

التفكر والتعلم أو الارادة الرياسة والتقدم على الاطلاق أو الارادة أن تكون النبوة لهم دونك حسدا وبغيا حسبما
قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وقالوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه ولذلك
يجادلون فيها الا أن فيه موقع جدال ما وأن لهم شيأ يتوهم أن يصلح مدار المجادلة لهم في الجملة وقوله تعالى (ماهم ببالغيه) صفة لكبر قال مجاهد ماهم ببالغيه صفة لكبر قال مجاهد ماهم ببالغي مقتضى ذلك الكبر وهو ما أرادوه من الرياسة أو النبوة وقيل المجادلون هم اليهود وكانوا يقولون لست صاحبنا المذكور في التوراة بل هو المسيح ابن داود يريدون الدجال يخرج في آخر الزمان ويبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الانهار وهو آية من آيات الله تعالى فيرجع الينا الملك فسمى الله تعالى تمنيهم ذلك كبرا ونفى أن يبلغوا متمناهم (فاستعذ بالله) أي فالتجئ اليه من كيد من يحسدك ويبغي عليك وفيه رمز الى أنه من همزات الشياطين (انه هو السميع البصير) لأقوالكم وأفعالكم وقوله تعالى (لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس) تحقيق للحق وتبيين لأشهر ما يجادلون فيه من أمر البعث على منهاج ﴿ تمت ﴾
أي ابتدائه تعالى أوليس الذي ... السموات والارض

والانجيل والفرق بين الهدى والذكرى أن الهدى ما يكون دليلا على الشئ وليس من شرطه أن يذكر شيأ آخر كان معلوما ثم صار منسيا وأما الذكرى فهي الذي يكون كذلك وكتب أنبياء الله مشتملة على هذين القسمين بعضها دلائل في أنفسها وبعضها مذكرات لما ورد في الكتب الالهية المتقدمة ولما بين ان الله تعالى ينصر رسله وينصر المؤمنين في الدنيا والآخرة وضرب المثال في ذلك بحال موسى وخاطب بعد ذلك محمدا صلى الله عليه وسلم فقال فاصبر ان وعد الله حق فالله ناصرك كما نصرهم ومنجز وعده في حقك كما كان كذلك في حقهم ثم أمره بأن يقبل على طاعة الله النافعة في الدنيا والآخرة فان من كان لله كان الله له واعلم أن مجامع الطاعات محصورة في قسمين التوبة عما لا ينبغي والاشتغال بما ينبغي والاول مقدم على الثاني بحسب الرتبة الذاتية فوجب أن يكون مقدما عليه في الذكر أما التوبة عما لا ينبغي فهو قوله واستغفر لذنبك والطاعنون في عصمة الانبياء عليهم السلام يتمسكون به ونحن نحمله على التوبة عن ترك الاولى والافضل أو على ما كان قد صدر عنهم قبل النبوة وقيل أيضا المقصود منه محض التعبد كما في قوله ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك فان ايتاء ذلك الشئ واجب ثم انه أمرنا بطلبه وكقوله رب احكم بالحق مع أنا نعلم انه لا يحكم الا بالحق وقيل اضافة المصدر الى الفاعل والمفعول فقوله واستغفر لذنبك من باب اضافة المصدر الى المفعول أي واستغفر لذنب أمتك في حقك وأما الاشتغال بما ينبغي فهو قوله وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار والتسبيح عبارة عن تنزيه الله عن كل ما لا يليق به والعشي والابكار قيل صلاة العصر وصلاة الفجر وقيل الابكار عبارة عن أول النهار الى النصف والعشي عبارة عن النصف الى آخر النهار فيدخل فيه كل الاوقات وقيل المراد طرفي النهار كما قال وأقم الصلاة طرفي النهار وبالجملة فالمراد منه الامر بالمواظبة على ذكر الله وأن لا يفتر اللسان عنه وأن لا يغفل القلب عنه حتى يصير الانسان بهذا السبب داخلا في زمرة الملائكة كما قال في وصفهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون والله أعلم * قوله تعالى (ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ان في صدورهم الا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله انه هو السميع البصير لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون وما يستوي الاعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسئ قليلا ما تتذكرون ان الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) اعلم انا بينا ان الكلام في أول هذه السورة انما ابتدئ ردا على الذين يجادلون في آيات الله واتصل البعض بالبعض وامتد على الترتيب الذي لخصناه والنسق الذي كشفنا عنه الى هذا الموضع ثم انه تعالى نبه في هذه الآية على الداعية التي تحمل أولئك الكفار على تلك المجادلة فقال ان الذين يجادلون في آيات الله بغير ... انما حملهم على هذا الجدال الباطل كبر في صدورهم فذلك الكبر هو الذي يحم... هذا الجدال الباطل وذلك الكبر هو أنهم لو سلموا نبوتك لزمهم أن يكونوا

والصديقين

وعدم

بقادر على أن يخلق مثلهم (ولكن أكثر الناس لايعلمون) لقصورهم في النظر والتأمل لفرط غفلتهم واتباعهم لاهوائهم (ومايستوي الاعمى والبصير) أى الغافل والمستبصر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولاالمسئ) أى والمحسن والمسئ فلا بد أن تكون لهم حال أخرى يظهر فيها مابين الفريقين من التفاوت وهى فيما بعد البعث وزيادة لافى المسئ لتأكيد النفى لطول الكلام بالصلة ولان المقصود نفى مساواته للمحسن فيما له من الفضل والكرامة والعاطف الثانى عطف الموصول بما عطف عليه على الاعمى والبصير لتغاير الوصفين فى المقصود أو الدلالة بالصراحة والتمثيل (قليلا ماتتذكرون) على الخطاب بطريق الالتفات أى تذكرا قليلا تتذكرون وقرئ على الغيبة والضمير للناس أوالكفار (ان الساعة لآتية لاريب فيها) أى فى مجيئها لوضوح شواهدها واجماع الرسل على الوعد بوقوعها (ولكن أكثر الناس لايؤمنون) لايصدقون بها لقصور أنظارهم على ظواهر مايحسون به (وقال ربكم ادعونى) أى اعبدونى (استجب لكم) أى أثبكم لقوله تعالى (ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) أى صاغرين أذلاء وان فسر الدعاء بالسؤال كان الامر الصارف عنه

تحت يدك وأمرك ونهيك لان النبوة تحتها كل ملك ورياسة وفى صدورهم كبر لايرضون أن يكونوا فى خدمتك فهذا هوالذى يحملهم على هذه المجادلات الباطلة والمخاصمات الفاسدة ثم قال تعالى ماهم ببالغيه يعنى انهم يريدون أن يكونوا تحت يدك ولايصلون الى هذا المراد بل لابد وان يصيروا تحت أمرك ونهيك ثم قال فاستعذ بالله أى فالتجئ اليه من كيد من يجادلك انه هو السميع بمايقولون أوتقول البصير بما تعمل ويعملون فهو يجعلك نافذ الحكم عليهم ويصونك عن مكرهم وكيدهم واعلم انه تعالى لما وصف جدالهم فى آيات الله بأنه بغير سلطان ولاحجة ذكر لهذا مثالا فقال لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس والقادر على الاكبر قادر على الاصغر لامحالة وتقرير هذا الكلام ان الاستدلال بالشئ على غيره على ثلاثة أقسام (أحدها) أن يقال لما قدر على الاضعف وجب أن يقدر على الاقوى وهذا فاسد (وثانيها) أن يقال لما قدر على الشئ قدر على مثله فهذا استدلال حق لماثبت فى العقول ان حكم الشئ حكم مثله (وثالثها) ان يقال لما قدر على الاقوى الاكمل فبأن يقدر على الاقل الارذل كان أولى وهذا الاستدلال فى غاية الصحة والقوة ولايرتاب فيه عاقل البتة ثم ان هؤلاء القوم يسلمون أن خالق السموات والارض هوالله سبحانه وتعالى ويعلمون بالضرورة ان خلق السموات والارض أكبر من خلق الناس وكان من حقهم أن يقروا بأن القادر على خلق السموات والارض يكون قادرا على اعادة الانسان الذى خلقه أولا فهذا برهان جلى فى افادة هذا المطلوب ثم ان هذا البرهان على قوته صار بحيث لايعرفه أكثر الناس والمراد منهم الذين ينكرون الحشر والنشر فظهر بهذا المثال أن هؤلاء الكفار يجادلون فى آيات الله بغير سلطان ولاحجة بل بمجرد الحسد والجهل والكبر والتعصب ولما بين الله تعالى أن الجدال المقرون بالكبر والحسد والجهل كيف يكون وان الجدال المقرون بالحجة والبرهان كيف يكون نبه تعالى على الفرق بين البابين بذكر المثال فقال ومايستوى الاعمى والبصير يعنى ومايستوى المستدل والجاهل المقلد ثم قال والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولاالمسئ فالمراد بالاول التفاوت بين العالم والجاهل والمراد بالثانى التفاوت بين الآتى بالاعمال الصالحة وبين الآتى بالاعمال الفاسدة الباطلة ثم قال قليلا ماتتذكرون يعنى انهم وان كانوا يعلمون ان العلم خير من الجهل وان العمل الصالح خير من العمل الفاسد الا انه قليلا ماتتذكرون فى النوع المعين من الاعتقاد أنه علم أوجهل والنوع المعين من العمل انه عمل صالح أو فاسد فان الحسد يعمى قلوبهم فيعتقدون فى الجهل والتقليد انه محض المعرفة وفى الحسد والحقد والكبر انه محض الطاعة فهذا هوالمراد من قوله قليلا ماتتذكرون قرأ عاصم وحمزة والكسائى تتذكرون بالتاء على الخطاب أى قل لهم قليلا ماتتذكرون والباقون بالياء على الغيبة ولما قرر الدليل الدال على امكان وجود يوم القيامة أردفه بأن أخبر عن وقوعها ودخولها فى الوجود فقال ان الساعة لآتية لاريب فيها ولكن أكثر الناس لايؤمنون

والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث والقيامة * قوله تعالى (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ذلكم الله ربكم خالق كل شئ لا اله الا هو فأنى تؤفكون كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون) اعلم انه تعالى لما بين ان القول بالقيامة حق وصدق وكان من المعلوم بالضرورة ان الانسان لا ينتفع في يوم القيامة الا بطاعة الله تعالى لا جرم كان الاشتغال بالطاعة من أهم المهمات ولما كان أشرف أنواع الطاعات الدعاء والتضرع لا جرم أمر الله تعالى به في هذه الآية فقال وقال ربكم ادعوني أستجب لكم واختلف الناس في المراد بقوله ادعوني فقيل انه الامر بالدعاء وقيل انه الامر بالعبادة بدليل انه قال بعده ان الذين يستكبرون عن عبادتي ولولا ان الامر بالدعاء أمر بمطلق العبادة لما بقي لقوله ان الذين يستكبرون عن عبادتي معنى وأيضا الدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن كقوله ان يدعون من دونه الا اناثا وأجيب عنه بأن الدعاء هو اعتراف بالعبودية والذلة والمسكنة فكأنه قيل ان تارك الدعاء انما تركه لاجل أن يستكبر عن اظهار العبودية وأجيب عن قوله ان الدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن بأن ترك الظاهر لا يصار اليه الا بدليل منفصل فان قيل كيف قال ادعوني استجب لكم وقد يدعى كثيرا فلا يستجاب أجاب الكعبي عنه بان قال الدعاء انما يصح على شرط ومن دعا كذلك استجيب له وذلك الشرط هو أن يكون المطلوب بالدعاء مصلحة وحكمة ثم سأل نفسه فقال فاهو أصلح يفعله بلا دعاء فما الفائدة في الدعاء وأجاب عنه من وجهين (الاول) ان فيه الفزع والانقطاع الى الله (والثاني) ان هذا أيضا وارد على الكل لانه ان علم أنه يفعله فلا بد وان يفعله فلا فائدة في الدعاء وان علم انه لا يفعله فانه البتة لا يفعله فلا فائدة في الدعاء وكل ما يقولونه ههنا فهو جوابنا هذا تمام ما ذكره وعندي فيه وجه آخر وهو أنه قال ادعوني أستجب لكم فكل من دعا الله وفي قلبه ذرة من الاعتماد على ماله وجاهه وأقاربه وأصدقائه وجده واجتهاده فهو في الحقيقة ما دعا الله الا باللسان أما بالقلب فانه معول في تحصيل ذلك المطلوب على غير الله فهذا الانسان ما دعا ربه في وقت أما اذا دعا في وقت لا يبقى في القلب التفات الى غير الله فالظاهر أنه تحصل الاستجابة اذا عرفت هذا ففيه بشارة كاملة وهي ان انقطاع القلب بالكلية عما سوى الله لا يحصل الا عند القرب من الموت فان الانسان قاطع في ذلك الوقت بأنه لا ينفعه شئ سوى فضل الله تعالى فعلى القانون الذي ذكرناه وجب أن يكون الدعاء في ذلك الوقت مقبولا عند الله ونرجو من فضل الله واحسانه أن يوفقنا للدعاء المقرون بالاخلاص والتضرع في ذلك الوقت واعلم ان الكلام المستقصى في الدعاء قد سبق ذكره في سورة البقرة ثم قال تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين أي صاغرين وهذا احسان عظيم من الله تعالى حيث ذكر الوعيد الشديد على ترك الدعاء فان

منه لا منزلة الاستكبار عن العادة للمبالغة أو المراد بالعبادة الدعاء فانه من أفضل أبوابها وقرئ سيدخلون على صيغة المبني للمفعول من الادخال (الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) بأن خلقه باردا مظلما ليؤدي الى ضعف المحركات وهدء الحواس لتستريحوا فيه وتقديم الجار والمجرور على المفعول قد مر سره مرارا (والنهار مبصرا) أي مبصرا فيه أو به (ان الله لذو فضل) عظيم لا يوازيه ولا يدانيه فضل (على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) لجهلهم بالنعم واغفالهم مواضع النعم وتكرير الناس لتخصيص الكفران بهم (ذلكم) المتفرد بالافعال المقتضية للالوهية والربوبية (الله ربكم خالق كل شئ لا اله الا هو) أخبار مترادفة تخصص اللاحقة منها السابقة وتقررها وقرئ خالق بالنصب على الاختصاص فيكون لا اله الا هو استئنافا بما هو كالنتيجة للاوصاف المذكورة (فأنى تؤفكون) فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عبادته خاصة الى عبادة غيره (كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون) أي مثل ذلك الافك العجيب الذي لا وجه له ولا مصحح أصلا يؤفك كل من جحد بآياته تعالى أي آية كانت لا افكا آخر له وجه ومصحح في الجملة ﴿ قيل ﴾

(الله الذى جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء) بيان لفضله تعالى المتعلق بالمكان بعد بيان فضله المتعلق بالزمان وقوله تعالى (وصوركم فأحسن صوركم) بيان لفضله المتعلق بأنفسهم والفاء فى فأحسن تفسيرية فان الاحسان عين التصوير أى صوركم أحسن تصوير ﴿ ٣٣٧ ﴾ حيث خلقكم منتصبى القامة بادى البشرة متناسبى الاعضاء والتخطيطات متهيئين لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات (ورزقكم من الطيبات) أى اللذائذ (ذلكم) الذى نعت بما ذكر من النعوت الجليلة (الله ربكم) خبر ان لذلكم (فتبارك الله) أى تعالى بذاته (رب العالمين) أى مالكهم ومربيهم والكل تحت ملكوته مفتقر اليه فى ذاته ووجوده وسائر أحواله جميعا بحيث لو انقطع فيضه عنه آنا لانعدم بالكلية (هو الحى) المتفرد بالحياة الذاتية الحقيقية (لا اله الا هو) اذ لا موجود يدانيه فى ذاته وصفاته وأفعاله (فادعوه) فاعبدوه خاصة لاختصاص ما يوجبه به تعالى (مخلصين له الدين) أى الطاعة من الشرك الجلى والخفى (الحمد لله رب العالمين) أى قائلين ذلك * عن ابن عباس رضى الله عنهما من قال لا اله الا الله فليقل على اثرها الحمد لله رب العالمين (قل انى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى) من الحجج والآيات ﴿ ٤٤ ﴾ سا أو من الآيات لكونها مؤيدة لأدلة العقل منبهة عليها فان الآيات التنزيلية مفسرات للآيات التكوينية الآفاقية والأنفسية (وأمرت أن أسلم لرب

قيل روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال حكاية عن رب العزة انه قال من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين فهذا الخبر يقتضى أن ترك الدعاء أفضل وهذه الآية تدل على أن ترك الدعاء يوجب الوعيد الشديد فكيف الجمع بينهما قلنا لاشك أن العقل اذا كان مستغرقا فى الثناء كان ذلك أفضل من الدعاء لان الدعاء طلب للحظ والاستغراق فى معرفة جلال الله أفضل من طلب الحظ أما اذا لم يحصل ذلك الاستغراق كان الاشتغال بالدعاء أولى لان الدعاء يشتمل على معرفة عزة الربوبية وذلة العبودية ثم قال تعالى الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه واعلم أن تعلقه بما قبله من وجهين (الاول) كأنه تعالى قال انى أنعمت عليك قبل طلبك بهذه النعم الجليلة العظيمة ومن أنعم قبل السؤال بهذه النعم العالية فكيف لا ينعم بالاشياء القليلة بعد السؤال (والثانى) انه تعالى لما أمر بالدعاء فكأنه قيل الاشتغال بالدعاء لابد وأن يكون مسبوقا بحصول المعرفة فما الدليل على وجود الاله القادر وقد ذكر الله تعالى هذه الدلائل العشرة على وجوده وقدرته وحكمته واعلم انا بينا أن دلائل وجود الله وقدرته اما فلكية واما عنصرية أما الفلكيات فاقسام كثيرة (أحدها) تعاقب الليل والنهار وكان أكثر مصالح العالم مربوطا بهما فذكرهما الله تعالى فى هذا المقام وبين أن الحكمة فى خلق الليل حصول الراحة بسبب النوم والسكون والحكمة فى خلق النهار ابصار الاشياء ليحصل مكنة التصرف فيها على الوجه الانفع اما أن السكون فى وقت النوم سبب الراحة فبيانه من وجهين (الاول) ان الحركات توجب الاعياء من حيث ان الحركة توجب السخونة والجفاف وذلك يوجب التألم (والثانى) أن الاحساس بالاشياء انما يكون بايصال الارواح الجسمانية الى ظاهر الحس ثم ان تلك الارواح تتحلل بسبب كثرة الحركات فتضعف الحواس والاحساسات واذا نام الانسان عادت الارواح الحساسة فى باطن البدن وركدت وقويت وتخلصت عن الاعياء وأيضا الليل بارد رطب فبرودته ورطوبته يتدارك ما حصل فى النهار من الحر والجفاف بسبب ما حدث من كثرة الحركات فهذه هى المنافع المطلوبة من قوله تعالى الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه وأما قوله والنهار مبصرا فاعلم ان الانسان مدنى بالطبع ومعناه انه ما لم يحصل مدينة تامة لم تنتظم مهمات الانسان فى مأكوله ومشروبه وملبوسه ومنكحه وتلك المهمات لا تحصل الا باعمال كثيرة وتلك الاعمال تصرفات فى أمور وهذه التصرفات لا تكمل الا بالضوء والنور حتى يميز الانسان بسبب ذلك النور بين ما يوافقه وبين ما لا يوافقه فهذا هو الحكمة فى قوله والنهار مبصرا فان قيل كان الواجب بحسب رعاية النظم أن يقال هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه أو يجعل لكم الليل ساكنا ولكنه لم يقل كذلك بل قال فى الليل لتسكنوا فيه وقال فى النهار مبصرا فالفائدة فيه وأيضا فالحكمة فى تقديم ذكر الليل على ذكر النهار مع ان النهار أشرف من الليل قلنا أما الجواب عن الاول فهو ان الليل والنوم فى

الحقيقة طبيعة عدمية فهو غير مقصود بالذات اما اليقظة فأمور وجودية وهى مقصودة بالذات وقد بين الشيخ عبد القاهر النحوى فى دلائل الاعجاز أن دلالة صيغة الاسم على التمام والكمال أقوى من دلالة صيغة الفعل عليهما فهذا هو السبب فى هذا الفرق والله أعلم وأما الجواب عن الثانى فهو أن الظلمة طبيعة عدمية والنور طبيعة وجودية والعدم فى المحدثات مقدم على الوجود ولهذا السبب قال فى أول سورة الانعام وجعل الظلمات والنور واعلم انه تعالى لما ذكر ما فى الليل والنهار من المصالح والحكم البالغة قال ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون والمراد ان فضل الله على الخلق كثير جدا ولكنهم لايشكرونه واعلم ان ترك الشكر لوجوه (أحدها) أن يعتقد الرجل ان هذه النعم ليست من الله تعالى مثل ان يعتقد أن هذه الافلاك واجبة الوجود لذواتها وواجبة الدوران لذواتها فحينئذ هذا الرجل لايعتقد أن هذه النعم من الله (وثانيها) أن الرجل وان اعتقد أن كل هذا العالم حصل بتخليق الله وتكوينه الا أن هذه النعم العظيمة أعنى نعمة تعاقب الليل والنهار لما دامت واستمرت نسيها الانسان فاذا ابتلى الانسان بفقدان شئ منها عرف قدرها مثل أن يتفق لبعض الناس والعياذ بالله أن يحبسه بعض الظلمة فى آبار عميقة مظلمة مدة مديدة فحينئذ يعرف ذلك الانسان قدر نعمة الهواء الصافى وقدر نعمة الضوء ورأيت بعض الملوك كان يعذب بعض خدمه بأن أمر أقواما حتى يمنعوه من الاستناد الى الجدار وعن النوم فعظم وقع هذا التعذيب (وثالثها) أن الرجل وان كان عارفا بمواقع هذه النعم الا انه يكون حريصا على الدنيا محبا للمال والجاه فاذا فاته المال الكثير والجاه العريض وقع فى كفران هذه النعم العظيمة ولما كان أكثر الخلق هالكين فى أحد هذه الاودية الثلاثة التى ذكرناها لاجرم قال تعالى ولكن أكثر الناس لايشكرون ونظيره قوله تعالى وقليل من عبادى الشكور وقول ابليس ولاتجد أكثرهم شاكرين ولما بين الله تعالى بتلك الدلائل المذكورة وجود الاله القادر الرحيم الحكيم قال ذلكم الله ربكم خالق كل شئ لااله الا هو قال صاحب الكشاف ذلكم المعلوم المميز بالافعال الخاصة التى لايشاركه فيها أحد هو الله ربكم خالق كل شئ لااله الا هو أخبار مترادفة أى هو الجامع لهذه الاوصاف من الالهية والربوبية وخلق كل شئ وانه لاثانى له فأنى تؤفكون والمراد فأنى تصرفون ولم تعدلون عن هذه الدلائل وتكذبون بها ثم قال تعالى كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون يعنى أن كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ولم يكن فيه همة لطلب الحق وخوف العاقبة أفك كما أفكوا ۞ قوله تعالى (الله الذى جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين هو الحى لااله الا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين قل انى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين هو الذى خلقكم من تراب ثم نطفة ثم من

العالمين) أى بأن أنقاد له وأخلص له دينى (هو الذى خلقكم من تراب) أى فى ضمن خلق آدم عليه الصلاة والسلام منه حسبما مر تحقيقه مرارا (ثم من نطفة) أى ثم خلقكم خلقا تفصيليا من نطفة أى منى (ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا) أى اطفالا والافراد لارادة الجنس أو لارادة كل واحد من أفراده (ثم لتبلغوا أشدكم) علة ليخرجكم معطوفة على علة أخرى له مناسبة لها كأنه قيل ثم يخرجكم طفلا لتكبروا شيئا فشيئا ثم لتبلغوا كمالكم فى القوة والعقل وكذا الكلام فى قوله تعالى (ثم لتكونوا شيوخا) ويجوز عطفه على لتبلغوا وقرئ شيخا كقوله تعالى طفلا (ومنكم من يتوفى من قبل) أى من قبل الشيخوخة بعد بلوغ الاشد أو قبله أيضا (ولتبلغوا) متعلق بفعل مقدر بعده أى ولتبلغوا (أجلا مسمى) هو وقت الموت أو يوم القيامة يفعل ذلك (ولعلكم تعقلون) ولكى تعقلوا ما فى ذلك من فنون الحكم والعبر (هو الذى يحيى) الاموات (ويميت) الاحياء أو الذى يفعل الاحياء والاماتة (فاذا قضى أمرا) أى أراد أمرا من الامور (فانما يقول له كن فيكون) من غير توقف على شئ من الاشياء أصلا وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى فى المقدورات عند تعلق ارادته بها وتصوير لسرعة ترتب المكونات على تكوينه من غير أن يكون هناك أمر ومأمور والفاء ﴿ حاشية ﴾ الاولى للدلالة على أن ما بعدها من نتائج ما قبلها من اختصاص الاحياء والاماتة

سبحانه (ألم تر الى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون) تعجيب من أحوالهم الشنيعة وآرائهم الركيكة وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن و بسائر الكتب والشرائع وترتيب الوعيد على ذلك كما أن ماسبق من قوله تعالى ان الذين يجادلون في آيات الله الخ ﴿ ٣٣٩ ﴾ بيان لابتناء جدالهم على مبنى فاسد لا يكاد يدخل تحت الوجود هو الامنية الفارغة فلا تكرير فيه أى انظر الى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجبة للايمان بها الزاجرة عن الجدال فيها كيف يصرفون عنها مع تعاضد الدواعي الى الاقبال عليها وانتفاء الصوارف عنها بالكلية وقوله تعالى (الذين كذبوا بالكتاب) أى بكل القرآن أو بجنس الكتب السماوية فان تكذيبه تكذيب لها في محل الجر على انه بدل من الموصول الاول أو في حيز النصب أو الرفع على الذم وانما وصل الموصول الثاني بالتكذيب دون المجادلة لان المعتاد وقوع المجادلة في بعض المواد لا في الكل وصيغة الماضي للدلالة على التحقق كما أن صيغة المضارع في الصلة الاولى للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها (وبما أرسلنا به رسلنا) من سائر الكتب أو بمطلق الوحي والشرائع (فسوف يعلمون) كنه مافعلوا من الجدال والتكذيب عند مشاهدتهم لعقوباته (اذ الاغلال في أعناقهم) ظرف ليعلمون اذ المعنى على الاستقبال ولفظ الماضي لتيقنه (والسلاسل) عطف على الاغلال والجار في نية التأخير وقيل مبتدأ حذف

علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا اجلا مسمى ولعلكم تعقلون) اعلم انا بينا أن دلائل وجود الله وقدرته اما أن تكون من باب دلائل الآفاق أو من باب دلائل الانفس أما دلائل الآفاق فالمراد كل ماهو غير الانسان من كل هذا العالم وهي أقسام كثيرة والمذكور منها في هذه الآية أقسام منها أحوال الليل والنهار وقد سبق ذكره (وثانيها) الارض والسماء وهو المراد من قوله الله الذى جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء قال ابن عباس في قوله قرارا أى منزلا في حال الحياة و بعد الموت والسماء بناء كالقبة المضروبة على الارض وقيل مسك الارض بلا عمد حتى أمكن التصرف عليها والسماء بناء أى قائما ثابتا والا لوقعت علينا وأما دلائل الانفس فالمراد منها دلالة أحوال بدن الانسان ودلالة أحوال نفسه على وجود الصانع القادر الحكيم والمذكور منها في هذه الآية قسمان (أحدهما) ما هو حاصل حال كمال حاله والثاني ما كان حاصلا في ابتداء خلقته وتكوينه (أما القسم الاول) فأنواع كثيرة والمذكور منها في هذه الآية انواع ثلاثة (أولها) حدوث صورته وهو المراد من قوله وصوركم (وثانيها) حسن صورته وهو المراد من قوله فأحسن صوركم (وثالثها) انه رزقه من الطيبات وهو المراد من قوله و رزقكم من الطيبات وقد أطنبنا في تفسير هذه الاشياء في هذا الكتاب مرارا لاسيما في تفسير قوله تعالى ولقد كرمنا بني آدم ولما ذكر الله تعالى هذه الدلائل الخمسة اثنين من دلائل الآفاق وثلاثة من دلائل الانفس قال ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين وتفسير تبارك اما الدوام والثبات واما كثرة الخيرات ثم قال هو الحي لا اله الا هو وهذا يفيد الحصر وأن لا حي الا هو فوجب أن يحمل ذلك على الحي الذى يمتنع أن يموت امتناعا ذاتيا وحينئذ لا حي الا هو فكأنه أجرى الشئ الذى يجوز زواله مجرى المعدوم واعلم ان الحي عبارة عن الدراك الفعال والدراك اشارة الى العلم التام والفعال اشارة الى القدرة الكاملة ولما نبه على هاتين الصفتين من صفات الجلال نبه على الصفة الثالثة وهي الواحدانية بقوله لا اله الا هو ولما وصفه بهذه الصفات أمر العباد بشيئين (أحدهما) بالدعاء (والثاني) بالاخلاص فيه فقال فادعوه مخلصين له الدين ثم قال الحمد لله رب العالمين فيجوز أن يكون المراد قول الحمد لله رب العالمين ويجوز أن يكون المراد انه لما كان موصوفا بصفات الجلال والعزة استحق لذاته أن يقال له الحمد لله رب العالمين ولما بين صفات الجلال والعظمة قال قل انى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله فأورد ذلك على المشركين بألين قول ليصرفهم عن عبادة الاوثان و بين أن وجه النهي في ذلك ماجاءه من البينات وتلك البينات أن اله العالم قد ثبت كونه موصوفا بصفات الجلال والعظمة على ماتقدم ذكره وصريح العقل يشهد بأن العبادة لا تليق الا به وان جعل الاحجار المنحوتة والخشب المصورة شركاء له في المعبودية مستنكر في بديهة العقل ولما بين انه نهى عن عبادة غير الله بين انه أمر بعبادة الله تعالى

فقال وأمرت أن أسلم لرب العالمين وانما ذكر هذه الاحكام فى حق نفسه لانهم كانوا يعتقدون فيه انه فى غاية العقل وكمال الجوهر ومن المعلوم بالضرورة ان كل أحد فانه لا يريد لنفسه الا الافضل الاكمل فاذا ذكر أن مصلحته لاتتم الا بالاعراض عن غير الله والاقبال بالكلية على طاعة الله ظهر به ان هذا الطريق أكمل من كل ماسواه ثم قال هو الذى خلقكم من تراب واعلم انا قد ذكرنا أن الدلائل على قسمين دلائل الآفاق والانفس أما دلائل الآفاق فكثيرة والمذكور منها فى هذه الآية أربعة الليل والنهار والارض والسماء وأما دلائل الانفس فقد ذكرنا أنها على قسمين (أحدهما) الاحوال الحاضرة حال كمال الصحة وهى أقسام كثيرة والمذكور ههنا منها ثلاثة أنواع الصورة وحسن الصورة ورزق الطيبات (والقسم الثانى) وهو كيفية تكون هذا البدن من ابتداء كونه نطفة وجنينا الى آخر الشيخوخة والموت فهو المذكور فى هذه الآية فقال هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة فقيل المراد آدم وعندى لاحاجة اليه لان كل انسان فهو مخلوق من المنى ومن دم الطمث والمنى مخلوق من الدم فالانسان مخلوق من الدم والدم انما تولد من الاغذية والاغذية اما حيوانية واما نباتية والحال فى تكون ذلك الحيوان كالحال فى تكون الانسان فالاغذية بأسرها منتهية الى النباتية والنبات انما يكون من التراب والماء فثبت ان كل انسان فهو متكون من التراب ثم ان ذلك التراب يصير نطفة ثم علقة ثم بعد كونه علقة مراتب كثيرة الى ان ينفصل من بطن الام فالله تعالى ترك ذكرها ههنا لاجل انه تعالى ذكرها فى سائر الآيات واعلم انه تعالى رتب عمر الانسان على ثلاث مراتب أولها كونه طفلا وثانيها أن يبلغ أشده وثالثها الشيخوخة وهذا ترتيب صحيح مطابق للعقل وذلك لان الانسان فى أول عمره يكون فى التزايد والنشو والنماء وهو المسمى بالطفولية والمرتبة الثانية أن يبلغ الى كمال النشو والى أشد السن من غير أن يكون قد حصل فيه نوع من أنواع الضعف وهذه المرتبة هى المراد من قوله لتبلغوا أشدكم والمرتبة الثالثة أن يتراجع ويظهر فيه أثر من آثار الضعف والنقص وهذه المرتبة هى المراد من قوله ثم لتكونوا شيوخا واذا عرفت هذا التقسيم عرفت ان مراتب العمر بحسب هذا التقسيم لاتزيد على هذه الثلاثة قال صاحب الكشاف قوله لتبلغوا أشدكم متعلق بفعل محذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا ثم قال ومنكم من يتوفى من قبل أى من قبل الشيخوخة أو من قبل هذه الاحوال اذا خرج سقطا ثم قال ولتبلغوا أجلا مسمى ومعناه يفعل ذلك لتبلغوا أجلا مسمى وهو وقت الموت وقيل يوم القيامة ثم قال ولعلكم تعقلون مافى هذه الاحوال العجيبة من أنواع العبر وأقسام الدلائل ❊ قوله تعالى (هو الذى يحيى ويميت فاذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) اعلم انه تعالى لما ذكر انتقال الانسان من كونه ترابا الى كونه نطفة ثم الى كونه علقة ثم الى كونه طفلا ثم الى بلوغ الاشد ثم الى الشيخوخة واستدل بهذه التغيرات على وجود الاله القادر قال بعده هو الذى يحيى ويميت

خبره لدلالة خبر الاول عليه وقيل قوله تعالى (يسحبون) بحذف العائد أى يسحبون بها وهو على الاولين حال من المستكن فى الظرف وقيل استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية حالهم كأنه قيل فماذا يكون حالهم بعد ذلك فقيل يسحبون (فى الحميم) وقرئ والسلاسل يسحبون بالنصب وفتح الياء على تقديم المفعول وعطف الفعلية على الاسمية والسلاسل بالجر حملا على المعنى لان قوله تعالى اذ الاغلال فى أعناقهم فى معنى أعناقهم فى الاغلال أو اضمارا للباء ويدل عليه القراءة به (ثم فى النار يسجرون) أى يحرقون من سجر التنور اذا ملأه بالوقود ومنه السجير الصديق كأنه سجر بالحب أى ملئ والمراد بيان أنهم يعذبون بأنواع العذاب وينقلون من باب الى باب (ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا) أى يقال لهم ويقولون وصيغة الماضى للدلالة على التحقيق ومعنى ضلوا عنا غابوا عنا وذلك قبل أن يقرن بهم آلهتهم أو ضاعوا عنا فلم نجد ما كنا نتوقع منهم (بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا) أى بل تبين لنا أنا لم نكن نعبد شيأ بعبادتهم لما ظهر لنا اليوم أنهم لم يكونوا شيأ يعتد به كقولك حسبته شيأ فلم يكن (كذلك) أى مثل ذلك الضلال الفظيع (يضل الله الكافرين) حيث لا يهتدون الى شئ ينفعهم فى الآخرة أو كما ضل عنهم آلهتهم يضلهم عن آلهتهم حتى لو تطالبوا لم يتصادفوا ❊ (ذلكم) الاضلال (بما كنتم تفرحون فى الارض)

اى تبطرون وتتكبرون (بغير الحق) وهو الشرك والطغيان (و بما كنتم تمرحون) تتوسعون فى البطر والاشر والالتفات للمبالغة فى التوبيخ (ادخلوا أبواب جهنم) أى أبوابها السبعة المقسومة لكم (خالدين فيها) مقدرا الخلود كم فيها (فبئس مثوى المتكبرين) أى من الحق والتعبير عن مدخلهم بالمثوى لكون دخولهم بطريق الخلود (فاصبر) الى أن يلاقوا ما أعدا لهم من العذاب (أن وعد الله) بتعذيبهم (حق) كائن لامحالة (فاما نرينك) أى فان نرك وما مزيدة لتأكيد الشرطية ولذلك لحقت النون الفعل ولا تلحق مع ان وحدها (بعض الذى نعدهم) وهو القتل والاسر (أو نتوفينك) قبل ذلك (فالينا يرجعون) يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم وهو جواب نتوفينك وجواب نرينك محذوف مثل فذاك ويجوز أن يكون جوابا لهما بمعنى ان نعذبهم فى حياتك أولم نعذبهم فانا نعذبهم فى الآخرة أشد العذاب وأفظعه كما ينبئ عنه الاقتصار على ذكر الرجوع فى هذا المعنى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) اذ قيل عدد الانبياء عليهم السلام مائة وأربعة وعشرون ألفا والمذكور قصصهم أفراد معدودة وقيل أربعة آلاف من بنى اسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس (وما كان لرسول) أى وما صح وما استقام لرسول منهم (أن يأتى بآية الا باذن الله) فان المعجزات على تشعب فنونها عطايا من الله تعالى قسمها بينهم حسبما اقتضته

يعنى كما أن الانتقال من صفة الى صفة أخرى من الصفات التى تقدم ذكرها يدل على الاله القادر فكذلك الانتقال من الحياة الى الموت و بالعكس يدل على الاله القادر وقوله فاذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون فيه وجوه (الاول) معناه انه لما نقل هذه الاجسام من بعض هذه الصفات الى صفة أخرى لم يتعب فى ذلك التصرف ولم يحتج الى آلة وأداة فعبر عن نفاذ قدرته فى الكائنات والمحدثات من غير معارض ولا مدافع بما اذا قال كن فيكون (الوجه الثانى) انه عبر عن الاحياء والاماتة بقوله كن فيكون فكأنه قيل الانتقال من كونه ترابا الى كونه نطفة ثم الى كونه علقة انتقالات تحصل على التدريج قليلا قليلا وأما صيرورة الحياة فهى انما تحصل لتعلق جوهر الروح النطقية به وذلك يحدث دفعة واحدة فلهذا السبب وقع التعبير عنه بقوله كن فيكون (الوجه الثالث) ان من الناس من يقول ان تكون الانسان انما ينعقد من المنى والدم فى الرحم فى مدة معينة و بحسب انتقالاته من حالات الى حالات فكأنه قيل انه يمتنع أن يكون كل انسان عن انسان آخر لان التسلسل محال ووقوع الحادث فى الازل محال فلابد من الاعتراف بانسان هو أول الناس فحينئذ يكون حدوث ذلك الانسان لا بواسطة المنى والدم بل بايجاد الله تعالى ابتداء فعبر الله تعالى عن هذا المعنى بقوله كن فيكون * قوله تعالى (ألم تر الى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب و بما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون اذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيأ كذلك يضل الله الكافرين ذلكم بما كنتم تفرحون فى الارض بغير الحق و بما كنتم تمرحون ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) اعلم أنه تعالى عاد الى ذم الذين يجادلون فى آيات الله فقال ألم تر الى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون وهذا ذم لهم على أن جادلوا فى انكار آيات الله ودفعها والتكذيب بها فعجب تعالى منهم بقوله أنى يصرفون كما يقول الرجل لمن لا يبين أنى يذهب بك تعجبا من غفلته ثم بين أنهم هم الذين كذبوا بالكتاب أى بالقرآن و بما أرسلنا به رسلنا من سائر الكتب فان قيل سوف للاستقبال واذ للماضى فقوله فسوف يعلمون اذ الاغلال فى أعناقهم مثل قولك سوف أصوم أمس قلنا المراد من قوله اذ هو اذا لان الامور المستقبلة لما كانت فى أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعا بها عبر عنها بلفظ ما كان ووجد والمعنى على الاستقبال هذا لفظ صاحب الكشاف ثم انه تعالى وصف كيفية عقابهم فقال اذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم والمعنى أنه يكون فى أعناقهم الاغلال والسلاسل ثم يسحبون بتلك السلاسل فى الحميم أى فى الماء المسخن بنار جهنم ثم فى النار يسجرون والسجر فى اللغة الايقاد فى التنور ومعناه أنهم فى النار فهى محيطة بهم و يقرب منه قوله تعالى نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله فيقولون ضلوا

مشيئته المبنية على الحكم البالغة كسائر القسم ليس لهم اختيار في ايثار بعضها والاستبداد باتيان المقترح منها (فاذا جاء أمر الله) بالعذاب في الدنيا والآخرة (قضى بالحق) بانجاء المحق واثابته واهلاك المبطل وتعذيبه (وخسر هنالك) أى وقت مجيء أمر الله اسم مكان استعير للزمان (المبطلون) أى المتمسكون ﴿٣٤٢﴾ بالباطل على الاطلاق فيدخل فيهم المعاندون المقترحون دخولا أوليا (الله الذي جعل لكم الانعام) قيل هي الابل خاصة أى خلقها لاجلكم ومصلحتكم وقوله تعالى (لتركبوا منها ومنها تأكلون) تفصيل لما دل عليه اللام اجمالا ومن لابتداء الغاية ومعناها ابتداء الركوب والاكل منها أى تعلقهما بها وقيل للتبعيض أى لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها لا على أن كلا من الركوب والاكل مختص ببعض معين منها بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر بل على أن كل بعض منها صالح لكل منهما وتغيير النظم الكريم في الجملة الثانية لمراعاة الفواصل مع الاشعار بأصالة الركوب (ولكم فيها منافع) أخر غير الركوب والاكل كألبانها وأوبارها وجلودها (ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم) بحمل أثقالكم من بلد الى بلد (وعليها وعلى الفلك تحملون) لعل المراد به حمل النساء والولدان عليها بالهودج وهو السر في فصله عن الركوب والجمع بينها وبين الفلك ﴿الذي﴾ في الحمل لما بينهما من المناسبة التامة حتى سميت سفائن البر وقيل هي الازواج الثمانية فمعنى الركوب والاكل منها تعلقهما [illegible] الاكل لكن لا على أن كلا منهما يجوز تعلقه بكل منها (ذلكم) اه

هنا أى غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا نستشفع بهم ثم قالوا بل لم نكن ندعوا من قبل شيأ أى تبين لنا أنهم لم يكونوا شيأ وما كنا نعبد بعبادتهم شيأ كما تقول حسبت أن فلانا شيء فاذا هو ليس بشيء اذا جربته فلم تجد عنده خيرا ويجوز أيضا أن يقال أنهم كذبوا وانكروا أنهم عبدوا غير الله كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الانعام أنهم قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ثم قال تعالى كذلك يضل الله الكافرين قال القاضي معناه انه يضلهم عن طريق الجنة اذ لا يجوز أن يقال يضلهم عن الحجاج وقد هداهم في الدنيا اليها وقال صاحب الكشاف كذلك يضل الله الكافرين مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم حتى انهم لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يجد أحدهما الآخر ثم قال ذلكم بما كنتم تفرحون في الارض أى ذلكم الاضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحق وهو الشرك وعبادة الاصنام ادخلوا أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم قال الله تعالى لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين والمراد منه ما قال في الآية المتقدمة في صفة هؤلاء المجادلين ان في صدورهم الا كبر ☼ قوله تعالى (فاصبر ان وعد الله حق فاما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فالينا يرجعون ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول ان يأتي بآية الا باذن الله فاذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون) اعلم انه تعالى لما تكلم من أول السورة الى هذا الموضع في تزييف طريقة المجادلين في آيات الله أمر في هذه الآية رسوله بأن يصبر على ايذائهم وايحاشهم بتلك المجادلات ثم قال ان وعد الله حق وعنى به ما وعد به الرسول من نصرته ومن انزال العذاب على أعدائه ثم قال فاما نرينك بعض الذي نعدهم يعني أولئك الكفار من أنواع العذاب مثل القتل يوم بدر فذلك هو المطلوب أو نتوفينك قبل انزال العذاب عليهم فالينا يرجعون يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام ونظيره قوله تعالى فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون أو نرينك الذي وعدناهم فانا عليهم مقتدرون ثم قال تعالى ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك والمعنى أنه قال لمحمد صلى الله عليه وسلم أنت كالرسل من قبلك وقد ذكرنا حال بعضهم لك ولم نذكر حال الباقين وليس فيهم أحد أعطاه الله آيات ومعجزات الا وقد جادله قومه فيها وكذبوه فيها وجرى عليهم من الهم ما يقارب ما جرى عليك فصبروا وكانوا ابدا يقترحون على الانبياء اظهار المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل العناد والتعنت ثم ان الله تعالى لما علم أن الصلاح في اظهار ما أظهره والا لم يظهره ولم يكن ذلك قادحا في نبوتهم فكذلك الحال في اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة لما لم يكن اظهارها صلاحا لاجرم ما أظهرناها وهذا هو المراد من قوله وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله ثم قال فاذا جاء أمر الله قضى بالحق وهذا وعيد ورد عقيب اقتراح الآيات وأمر الله القيامة والمبطلون هم المعاندون الذين يجادلون في آيات الله ويقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل التعنت ☼ قوله تعالى (الله

ولاعلى أن كلا منهما مختص ببعض معين منها بحيث لايجوز تعلقه بالتعلق به الآخر بل على أن بعضها يتعلق به الاكل فقط كالغنم و بعضها يتعلق به كلاهما كالابل والبقر والمنافع تعم الكل و بلوغ الحاجة عليها يعم البقر (و يريكم آياته) دلائله الدالة على كمال قدرته ووفور رحمته (فأى آيات الله) أى فأى آية من تلك الآيات الباهرة (تنكرون) فان كلا منها من الظهور

بحيث لايكاد يجترئ على انكارها من له عقل فى الجملة وهو

الذى جعل لكم الانعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون) اعلم انه تعالى لما أطنب فى تقرير الوعيد عاد الى ذكر مايدل على وجود الاله الحكيم الرحيم والى ذكر مايصلح أن يعد انعاما على العباد قال الزجاج الانعام الابل خاصة وقال القاضى هى الازواج الثمانية وفى الآية سؤالات (السؤال الاول) انه لم أدخل لام الغرض على قوله لتركبوا وعلى قوله لتبلغوا ولم يدخل على البواقى فالسبب فيه (الجواب) قال صاحب الكشاف الركوب فى الحج والغزو اما أن يكون واجبا أو مندوبا فهذان القسمان اغراض دينية فلاجرم ادخل عليهما حرف التعليل واما الاكل واصابة المنافع فمن جنس المباحات فلاجرم ما ادخل عليها حرف التعليل نظيره قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة فادخل التعليل على الركوب ولم يدخله على الزينة (السؤال الثانى) قوله تعالى وعليها وعلى الفلك تحملون معناه تحملون فى البر والبحر اذا عرفت هذا فنقول لم لم يقل وفى الفلك كما قال قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين والجواب ان كلمة على للاستعلاء فالشئ الذى يوضع فى الفلك كما يصح أن يقال وضع فيه يصح أن يقال وضع عليه ولما صح الوجهان كانت لفظة على أولى حتى يتم المراد فى قوله وعليها وعلى الفلك تحملون ولما ذكر الله هذه الدلائل الكثيرة قال ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون يعنى أن هذه الآيات التى عددناها كلها ظاهرة باهرة فقوله فأى آيات الله تنكرون تنبيه على أنه ليس فى شئ من الدلائل التى تقدم ذكرها مايمكن انكاره قال صاحب الكشاف قوله فأى آيات الله جاء على اللغة المستفيضة وقولك فأية آيات الله قليل لان التفرقة بين المذكر والمؤنث فى الاسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب وهى فى أى أغرب لابهامه والله أعلم * قوله تعالى (أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الارض فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزؤن فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) اعلم أنه تعالى راعى ترتيبا لطيفا فى آخر هذه السورة وذلك انه ذكر فصلا فى دلائل الالهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة ثم أردفه بفصل فى التهديد والوعيد وهذا الفصل الذى وقع عليه ختم هذه السورة هو الفصل المشتمل على الوعيد والمقصود أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون فى آيات الله وحصل الكبر العظيم فى صدورهم بهذا والسبب فى ذلك كله طلب الرياسة والتقدم على الغير فى المال والجاه فمن ترك الانقياد للحق لاجل طلب هذه الاشياء فقد باع الآخرة بالدنيا فبين تعالى أن هذه الطريقة فاسدة لان الدنيا فانية ذاهبة واحتج عليه بقوله تعالى أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم يعنى لو ساروا فى أطراف الارض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين

ناصب لأى واضافة الآيات الى الاسم الجليل لتربية المهابة وتهويل انكارها وتذكيرأى هو الشائع المستفيض والتأنيث قليل لان التفرقة بين المذكر والمؤنث فى الاسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب وهى فى أى أغرب لابهامه (أفلم يسيروا) أى أقعدوا فلم يسيروا (فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الامم المهلكة وقوله تعالى (كانوا أكثر منهم وأشد قوة) الخ استئناف مسوق لبيان مبادى أحوالهم وعواقبها (وآثارا فى الارض) باقية بعدهم من الابنية والقصور والمصانع وقيل هى آثار أقدامهم فى الارض لعظم أجرامهم (فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون) ما الاولى نافية أو استفهامية منصوبة بأغنى والثانية موصولة

مصدرية مرفوعة أى لم يغن عنهم أو أى شئ أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات أو بالآيات الواضحة (فرحوا بما عندهم من العلم) أى أظهروا الفرح بذلك وهو ما لهم من العقائد الزائغة والشبه الداحضة وتسميتها علما للتهكم بهم أو علم الطبائع

والتنجيم والصنائع ونحو ذلك أو هو علم الأنبياء الذي أظهره رسلهم على أن معنى فرحهم به ضحكهم منه واستهزاؤهم به ويؤيده قوله تعالى (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) وقيل الفرح أيضا للرسل فإنهم لما شاهدوا تمادي جهلهم وسوء عاقبتهم فرحوا بما أوتوا من العلم المؤدي الى حسن العاقبة وشكروا الله عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم (فلما رأوا بأسنا) شدة عذابنا ومنه قوله تعالى بعذاب بئيس (قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين) يعنون الأصنام (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) أي عند رؤية عذابنا لامتناع قبوله حينئذ ولذلك قيل فلم يك بمعنى لم يصح ولم يستقم والفاء الأولى لبيان عاقبة كثرتهم وشدة قوتهم وما كانوا يكسبون بذلك زعما منهم أن ذلك يغني عنهم فلم يترتب عليه الا عدم الاغناء فبهذا الاعتبار جرى مجرى النتيجة وإن كان عكس الغرض ونقيض المطلوب كما في قولك وعظته فلم يتعظ والثانية تفسير وتفصيل لما أبهم وأجمل من عدم الاغناء وقد كثر في الكلام مثل هذه الفاء ومبناها على أن التفسير بعد الابهام والتفصيل بعد الاجمال والثالثة لمجرد التعقيب وجعل ما بعدها تابعا لما قبلها واقعا عقيبه لأن مضمون قوله تعالى فلما جاءتهم الخ هو أنهم كفروا فصار مجموع الكلام بمنزلة أن يقال فكفروا ثم لما رأوا بأسنا آمنوا والرابعة للعطف على آمنوا كأنه قيل فآمنوا فلم ينفعهم لأن النافع هو الايمان الاختياري (سنة الله التي قد خلت في عباده) أي سن الله تعالى ذلك سنة ماضية في العباد وهو من المصادر المؤكدة (وخسر هنالك الكافرون) أي وقت رؤيتهم البأس على أنه اسم مكان قد استعير للزمان كما سلف آنفا ✲ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المؤمنون لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن الا صلى عليه واستغفر له

المتمردين ليست الا الهلاك والبوار مع أنهم كانوا أكثر عددا ومالا وجاها من هؤلاء المتأخرين فلما لم يستفيدوا من تلك المكنة العظيمة والدولة القاهرة الا الخيبة والخسار والحسرة والبوار فكيف يكون حال هؤلاء الفقراء المساكين أما بيان أنهم كانوا أكثر من هؤلاء عددا فانما يعرف في الاخبار وأما أنهم كانوا أشد قوة وآثارا في الارض فلأنه قد بقيت آثارهم بعدهم من حصون عظيمة بعدهم مثل الاهرام الموجودة بمصر ومثل هذه البلاد العظيمة التي بناها الملوك المتقدمون ومثل ما حكى الله عنهم من أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا ثم قال تعالى فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ما في قوله فما أغنى عنهم نافية أو متضمنة معنى الاستفهام ومحلها النصب وما في قوله ما كانوا يكسبون موصولة أو مصدرية ومحلها الرفع بمعنى أي شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم ثم بين تعالى أن أولئك الكفار لما جاءتهم رسلهم بالبينات والمعجزات فرحوا بما عندهم من العلم واعلم أن الضمير في قوله فرحوا يحتمل أن يكون عائدا الى الكفار وأن يكون عائدا الى الرسل أما اذا قلنا انه عائد الى الكفار فذلك العلم الذي فرحوا به أي علم كان وفيه وجوه (الاول) أن يكون المراد الاشياء التي كانوا يسمونها بالعلم وهي الشبهات التي حكاها الله عنهم في القرآن كقولهم وما يهلكنا الا الدهر وقولهم لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا وقولهم من يحيي العظام وهي رميم ولئن رددت الى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به علوم الانبياء كما قال كل حزب بما لديهم فرحون (الثاني) يجوز أن يكون المراد علوم الفلاسفة فانهم كانوا اذا سمعوا بوحي الله دفعوه وصغروا علم الانبياء الى علومهم وعن سقراط أنه سمع بمجيء بعض الانبياء فقيل له لو هاجرت اليه فقال نحن قوم مهديون فلا حاجة بنا الى من يهدينا (الثالث) يجوز أن يكون المراد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ذلك مبلغهم من العلم فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات وهي معرفة الله تعالى ومعرفة المعاد وتطهير النفس عن الرذائل لم يلتفتوا اليها واستهزؤا بها واعتقدوا أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به أما اذا قلنا الضمير عائد الى الانبياء ففيه وجهان (الاول) أن يجعل الفرح للرسل ومعناه ان الرسل لما رأوا من قومهم جهلا كاملا واعراضا عن الحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واعراضهم فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم (الثاني) أن يكون المراد فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به كأنه قال استهزؤا بالبينات وبما جاؤا به من علم الوحي فرحين ويدل عليه قوله تعالى وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ثم قال تعالى فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين البأس شدة العذاب ومنه قوله تعالى بعذاب بئيس فان قيل أي فرق بين قوله فلم يك ينفعهم ايمانهم وبين ما لو قيل فلم ينفعهم ايمانهم قلنا هو مثل كان في نحو قوله ما كان لله أن يتخذ من ولد والمعنى فلم يصح ولم يستقم

(سورة السجدة مكية وآيها ثلاث أو أربع وخمسون آية) *(بسم الله الرحمن الرحيم)* (حم) ان جعل اسما للسورة فهو اما خبر لمبتدأ محذوف وهو الاظهر لما مر سره مرارا أو مبتدأ خبره (تنزيل) وهو على الاول خبر بعد خبر وخبر لمبتدأ محذوف ان جعل مسرودا على نمط التعديد وقوله تعالى (من الرحمن الرحيم) متعلق به مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية ﴿٣٤٥﴾ أو خبر آخر أو تنزيل مبتدأ تخصص بالصفة خبره (كتاب) وهو على الوجوه الاول بدل منه أو خبر آخر أو خبر لمحذوف ونسبة التنزيل الى الرحمن الرحيم للايذان بأنه مدار المصالح الدينية والدنيوية واقع بمقتضى الرحمة الربانية حسبما ينبئ عنه قوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (فصلت آياته) ميزت بحسب النظم والمعنى وجعلت تفاصيل في أساليب مختلفة ومعان متغايرة من أحكام وقصص ومواعظ وأمثال ووعد ووعيد وقرئ فصلت أى فرقت بين الحق والباطل أو فصل بعضها من بعض باختلاف الاساليب والمعاني من قولك فصل من البلد فصولا (قرآنا عربيا) نصب على المدح أو الحالية من كتاب لتخصصه بالصفة أو من آياته (لقوم يعلمون) أى معانيه لكونه على لسانهم وقيل لاهل العلم والنظر لانهم المنتفعون به واللام ﴿ ٤٤ سا ﴾ متعلقة بمحذوف هو صفة أخرى لقرآنا أى كائنا لقوم الخ أو بتنزيل على أن من الرحمن الرحيم ليست بصفة له أو بفصلت (بشيرا ونذيرا) صفتان أخريان لقرآنا أى بشيرا لاهل الطاعة ونذيرا لاهل المعصية أو حالان من كتاب أو من آياته وقرئا بالرفع على الوصفية لكتاب أو الخبرية لمحذوف (فأعرض أكثرهم) عن تدبره مع كونه على لغتهم (فهم لا يسمعون) سماع تفكر وتأمل حتى يفهموا جلالة قدره فيؤمنوا به (وقالوا) أى لرسول الله

أن ينفعهم ايمانهم فان قيل اذكروا ضابطا في الوقت الذي لا ينفع الاتيان بالايمان فيه قلنا انه الوقت الذي يعاين فيه نزول ملائكة الرحمة والعذاب لان في ذلك الوقت يصير المرء ملجأ الى الايمان فذلك الايمان لا ينفع انما ينفع مع القدرة على خلافه حتى يكون المرء مختارا أما اذا عاينوا علامات الآخرة فلا ثم قال تعالى سنة الله التي قد خلت في عباده والمعنى ان عدم قبول الايمان حال البأس سنة الله مطردة في كل الامم ثم قال وخسر هنالك الكافرون فقوله هنالك مستعار للزمان أى وخسروا وقت رؤية البأس والله الهادي للصواب* تم تفسير هذه السورة يوم السبت الثاني من ذي الحجة من سنة ثلاث وستمائة من الهجرة في بلد هراة ☼ يامن لا يبلغ أدنى ما استأثرت به من جلالك وعزتك أقصى نعوت الناعتين يامن تقاصرت عن الاحاطة بمبادي اسرار كبريائه أفهام المتفكرين وأنظار المتأملين لا تجعلنا بفضلك ورحمتك في زمرة الخاسرين المبطلين ولا تجعلنا يوم القيامة من الحيرة ومين فانك أكرم الاكرمين وأرحم الراحمين والحمد لله رب العالمين وصلوات الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين

☼(سورة فصلت السجدة خمسون وأربع آيات مكية)☼

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الي أنما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) اعلم أن في أول هذه السورة احتمالات (أحدها) وهو الاقوى أن يقال حم اسم للسورة وهو في موضع المبتدأ وتنزيل خبره (وثانيها) قال الاخفش تنزيل رفع بالابتداء وكتاب خبره (وثالثها) قال الزجاج تنزيل رفع بالابتداء وخبره كتاب فصلت آياته ووجهه ان قوله تنزيل تخصص بالصفة وهو قوله من الرحمن الرحيم فجاز وقوعه مبتدأ ☼ واعلم انه تعالى حكم على السورة المسماة بحم بأشياء (أولها) كونها تنزيلا والمراد المنزل والتعبير عن المفعول بالمصدر مجاز مشهور يقال هذا بناء الامير أى مبنية وهذا الدرهم ضرب السلطان أى مضروبه والمراد من كونها منزلا ان الله تعالى كتبها في اللوح المحفوظ وأمر جبريل عليه السلام بأن يحفظ تلك الكلمات ثم ينزل بها على محمد صلى الله عليه وسلم ويبلغها اليه فلما حصل تفهيم هذه الكلمات بواسطة نزول جبريل عليه السلام سمي لذلك تنزيلا (وثانيها) كون ذلك التنزيل من الرحمن الرحيم وذلك يدل على كون التنزيل نعمة عظيمة من الله تعالى لان الفعل المقرون بالصفة لا بد وأن يكون مناسبا لتلك الصفة فكونه تعالى رحمانا رحيما صفتان دالتان على كمال

الرحمة فالتنزيل المضاف الى هاتين الصفتين لابد وأن يكون دالا على أعظم وجوه النعمة والامر فى نفسه كذلك لان الخلق فى هـذا العالم كالمرضى والزمنى والمحتاجين والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج اليه المرضى من الادوية وعلى كل ما يحتاج اليه الاصحاء من الاغذية فكان أعظم النعم عند الله تعالى على أهل هذا العالم انزال القرآن عليهم (وثالثها) كونه كتابا وقد بينا أن هذا الاسم مشتق من الجمع وانما سمى كتابا لانه جمع فيه علوم الاولين والآخرين (ورابعها) قوله فصلت آياته والمراد انه فرقت آياته وجعلت تفاصيل فى معان مختلفة فبعضها فى وصف ذات الله تعالى وشرح صفات التنزيه والتقديس وشرح كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته وعجائب أحوال خلقة السموات والارض والكواكب وتعاقب الليل والنهار وعجائب أحوال النبات والحيوان والانسان وبعضها فى أحوال التكاليف المتوجهة نحو القلوب ونحو الجوارح وبعضها فى الوعد والوعيد والثواب والعقاب ودرجات أهل الجنة ودرجات أهل النار وبعضها فى المواعظ والنصائح وبعضها فى تهذيب الاخلاق ورياضة النفس وبعضها فى قصص الاولين وتواريخ الماضين وبالجملة فمن انصف علم أنه ليس فى يد الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة والمباحث المتباينة مثل ما فى القرآن (وخامسها) قوله قرآنا والوجه فى تسميته قرآنا قد سبق وقوله تعالى قرآنا نصب على الاختصاص والمدح أى أريد بهذا الكتاب المفصل قرآنا من صفته كيت وكيت وقيل هو نصب على الحال (وسادسها) قوله عربيا والمعنى ان هذا القرآن انما نزل بلغة العرب وأكد هذا بقوله تعالى وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه (وسابعها) قوله تعالى لقوم يعلمون والمعنى أنا جعلناه عربيا لاجل انا أنزلناه على قوم عرب فجعلناه بلغة العرب ليفهموا منه المراد فان قيل قوله لقوم يعلمون متعلق بماذا قلنا يجوز أن يتعلق بقوله تنزيل أو بقوله فصلت أى تنزيل من الله لاجلهم أو فصلت آياته لاجلهم والاجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده أى قرآنا عربيا كائنا لقوم عرب لئلا يفرق بين الصلات والصفات (وثامنها وتاسعها) قوله بشيرا ونذيرا يعنى بشيرا للمطيعين بالثواب ونذيرا للمجرمين بالعقاب والحق ان القرآن بشارة ونذارة الا انه أطلق اسم الفاعل عليه للتنبيه على كونه كاملا فى هذه الصفة كما يقال شعر شاعر وكلام قائل (الصفة العاشرة) كونهم معرضين عنه لا يسمعون ولا يلتفتون اليه فهذه هى الصفات العشر التى وصف الله القرآن بها ويتفرع عليها مسائل (المسئلة الاولى) القائلون بخلق القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه (الاول) انه وصف القرآن بكونه تنزيلا ومنزلا والمنزل والتنزيل مشعر بالتصيير من حال الى حال فوجب أن يكون مخلوقا (الثانى) ان التنزيل مصدر والمصدر هو المفعول المطلق باتفاق النحويين (الثالث) المراد بالكتاب اما الكتاب وهو المصدر الذى هو المفعول المطلق أو المكتوب الذى هو المفعول (الرابع) ان قوله فصلت يدل على ان متصرفا يتصرف فيه بالتفصيل والتمييز وذلك لا يليق بالقديم (الخامس) انه انما سمى قرآنا لانه قرن

صلى الله عليه وسلم عند دعوته اياهم الى الايمان والعمل بما فى القرآن (قلوبنا فى أكنة) أى أغطية متكاثفة (مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر) أى صمم وأصله الثقل وقرئ بالكسر وقرئ بفتح القاف (ومن بيننا وبينك حجاب) غليظ يمنعنا عن التواصل ومن للدلالة على أن الحجاب مبتدأ من الجانبين بحيث استوعب ما بينهما من المسافة المتوسطة ولم يبق ثمة فراغ أصلا وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن ادراك ﴿٣٤٦﴾ الحق وقبوله ومج أسماعهم له كأن بها صمما وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول عليه الصلاة والسلام (فاعمل) أى على دينك وقيل فى ابطال أمرنا (اننا عاملون) أى على ديننا وقيل ابطال امرك والاول هو الاظهر فان قوله تعالى (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد) تلقين للجواب عنه أى لست من جنس مغاير لكم حتى يكون بينى وبينكم حجاب وتباين مصحح لتباين الاعمال والاديان كما ينبئ عنه قولكم فاعمل اننا عاملون بل انما أنا بشر مثلكم مأمور بما أمرتم به حيث أخبرنا جميعا بالتوحيد بخطاب جامع بينى وبينكم فان الخطاب فى الهكم محكى منتظم للكل لانه خطاب منه عليه الصلاة والسلام للكفرة كما فى مثلكم وقيل المعنى لست ملكا ولا جنيا لا يمكنكم التلقى منه ولا أدعوكم الى ما تنبو عنه العقول والاسماع وانما أدعوكم الى التوحيد والاستقامة فى العمل وقد تدل عليهما دلائل العقل وشواهد النقل وقيل المعنى انى لست بملك وانما أنا بشر مثلكم ﴿ بعض ﴾ وقد أوحى الى دونكم فصحت بالوحى الى وأنا بشر نبوتى واذا صحت نبوتى وجب عليكم اتباعى فتأمل والفاء فى قوله تعالى (فاستقيموا اليه) لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ايحاء الوحدانية فان ذلك موجب لاستقامتهم اليه تعالى بالتوحيد والاخلاص فى الاعمال (واستغفروه)

عما كنتم عليه من سوء العقيدة والعمل وقوله تعالى (وويل للمشركين) ترهيب وتنفير لهم عن الشرك إثر ترغيبهم في التوحيد ووصفهم بقوله تعالى (الذين لا يؤتون الزكوة) لزيادة التحذير والتخويف عن منع الزكاة حيث جعل من أوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة حيث قيل (وهم بالآخرة هم كافرون) وهو عطف على يؤتون داخل في حيز الصلة واختلافهما بالفعلية والاسمية لما أن عدم إيتائها متجدد والكفر أمر مستمر ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسر لا يؤتون الزكاة بقوله لا يقولون لا إله إلا الله فإنها زكاة الأنفس والمعنى لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد وهو مأخوذ من قوله تعالى ونفس وما سواها وقال الضحاك ومقاتل لا ينفقون في الطاعة ولا يتصدقون وقال مجاهد لا يزكون أعمالهم (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أي لا يمن به عليهم من المن وأصله الثقل أو لا ينقطع من مننت الحبل قطعته وقيل نزلت في المرضى والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملونه (قل أئنكم لتكفرون) إنكار وتشنيع لكفرهم وإن واللام إما لتأكيد الإنكار وتقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة لا لإنكار التأكيد وإما للإشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج إلى التأكيد وإنما علق كفرهم بالموصول حيث قيل (بالذي خلق الأرض في يومين) لتفخيم شأنه تعالى واستعظام كفرهم به أي بالعظيم الشأن الذي قدر وجودها أي حكم بأنها ستوجد في مقدار يومين أو في نوبتين على أن ما يوجد في كل نوبة يوجد بأسرع ما يكون والإفاليوم الحقيقي إنما يتحقق بعد وجودها وتسوية السموات وإبداع نيراتها وترتيب حركاتها (وتجعلون له أندادا) عطف على تكفرون داخل في حكم

بعض أجزائه بالبعض وذلك يدل على كونه مفعول فاعل ومجعول جاعل (السادس) وصفه بكونه عربيا وإنما صحت هذه النسبة لأجل أن هذه الألفاظ إنما دلت على هذه المعاني بحسب وضع العرب واصطلاحاتهم وما جعل بجعل جاعل وفعل فاعل فلا بد وأن يكون محدثا ومخلوقا (والجواب) أن كل هذه الوجوه التي ذكرتموها عائدة إلى اللغات وإلى الحروف والكلمات وهي عندنا محدثة مخلوقة إنما الذي ندعي قدمه شيء آخر سوى هذه الألفاظ والله أعلم (المسئلة الثانية) ذهب أكثر المتكلمين إلى أنه يجب على المكلف تنزيل ألفاظ القرآن على المعاني التي هي موضوعة لها بحسب اللغة العربية فأما حملها على معان أخر لا بهذا الطريق فهذا باطل قطعا وذلك مثل الوجوه التي يذكرها أهل الباطن مثل أنهم تارة يحملون الحروف على حساب الجمل وتارة يحملون كل حرف على شيء آخر وللصوفية طرق كثيرة في هذا الباب ويسمونها علم المكاشفة والذي يدل على فساد تلك الوجوه بأسرها قوله تعالى قرآنا عربيا وإنما سماه عربيا لكونه دالا على هذه المعاني المخصوصة بوضع العرب وباصطلاحاتهم وذلك يدل على أن دلالة هذه الألفاظ لم تحصل إلا على تلك المعاني المخصوصة وأن ما سواه فهو باطل (المسئلة الثالثة) ذهب قوم إلى أنه حصل في القرآن من سائر اللغات كقوله استبرق وسجيل فإنهما فارسيان وقوله مشكاة فإنها من لغة الحبشة وقوله قسطاس فإنه من لغة الروم والذي يدل على فساد هذا المذهب قوله قرآنا عربيا وقوله وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة لفظ الإيمان والكفر والصلاة والزكاة والصوم والحج ألفاظ شرعية لا لغوية والمعنى أن الشرع نقل هذه الألفاظ عن مسمياتها اللغوية الأصلية إلى مسميات أخرى وعندنا أن هذا باطل وليس للشرع تصرف في هذه الألفاظ عن مسمياتها إلا من وجه واحد وهو أنه خصص هذه الأسماء بنوع واحد من أنواع مسمياتها مثلا الإيمان عبارة عن التصديق فخصصه الشرع بنوع معين من التصديق والصلاة عبارة عن الدعاء فخصصه الشرع بنوع معين من الدعاء وكذا القول في البواقي ودليلنا على صحة مذهبنا قوله تعالى قرآنا عربيا وقوله وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه (المسئلة الخامسة) إنما وصف الله القرآن بكونه عربيا في معرض المدح والتعظيم وهذا المطلوب لا يتم إلا إذا ثبت أن لغة العرب أفضل اللغات واعلم أن هذا المقصود إنما يتم إذا انضبطنا أقسام فضائل اللغات بضابط معلوم ثم بينا أن تلك الأقسام حاصلة فيه لا في غيره فنقول لا شك أن الكلام مركب من الكلمات المفردة وهي مركبة من الحروف فالكلمة لها مادة وهي الحروف ولها صورة وهي تلك الهيئة المعينة الحاصلة عند التركيب فهذه الفضيلة إنما تحصل إما بحسب مادتها أو بحسب صورتها أما التي بحسب مادتها فهي آحاد الحروف واعلم أن الحروف على قسمين بعضها بينة المخارج ظاهرة المقاطع وبعضها خفية المخارج مشتبهة المقاطع وحروف العرب بأسرها ظاهرة المخارج بينة المقاطع لا يشتبه شيء منها بالآخر وأما الحروف المستعملة

الانكار والتوبيخ وجمع الانداد باعتبار ماهو الواقع لابان يكون مدار الانكار هو التعدد أي وتجعلون له أندادا والحال أنه لا يمكن أن يكون له ند واحد (ذلك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلته في العظمة وافراد الكاف لما مر مرارا من أن المراد ليس تعيين المخاطبين وهو مبتدأ خبره ما بعده أي ذلك العظيم الشأن الذي فعل ما ذكر (رب العالمين) ﴿ ٣٤٨ ﴾ أي خالق جميع الموجودات ومربيها دون الارض خاصة فكيف يتصور أن يكون أخس مخلوقاته ندا له وقوله تعالى (وجعل فيها رواسي) عطف على خلق داخل في حكم الصلة والجعل ابداعي وحينئذ يلزم الفصل بينهما بجملتين خارجتين عن حيز الصلة مدفوع بأن الاولى متحدة بقوله تعالى تكفرون فهو بمنزلة الاعادة له والثانية اعتراضية مقررة لمضمون الكلام بمنزلة التأكيد فالفصل بهما كلا فصل على أن فيه فائدة التنبيه على أن مجرد المعطوف عليه كاف في تحقق ربوبيته للعالمين واستحالة أن يجعل له ند فكيف اذا انضم اليه المعطوفات وقيل هو عطف على مقدر أي خلقها وجعل الخ وقيل هو كلام مستأنف وأياما كان فالمراد تقدير الجعل لا الجعل بالفعل وقوله تعالى (من فوقها) متعلق بجعل أو بمضمر هو صفة لرواسي أي كائنة من فوقها مرتفعة عليها لتكون منافعها معرضة لاهلها ويظهر للنظار ما فيها من مراصد ﴿ نقد ﴾ الاعتبار ومطارح الافكار (وبارك فيها) أي قدر أن يكثر خيرها بان يخلق أنواع الحيوانات التي من جملتها الانسان وأصناف النبات التي منها معايشهم (وقدر فيها أقواتها) أي حكم بالفعل بان يوجد فيما سيأتي لاهلها من الانواع المختلفة أقواتها المناسبة لها على مقدار معين تقتضيه الحكمة

في سائر اللغات فليست كذلك بل قد يحصل فيها حروف يشتبه بعضها بالبعض وذلك يخل بكمال الفصاحة وأيضا الحركات المستعملة في سائر لغة العرب حركات ظاهرة جلية وهي النصب والجر وكل واحد من هذه الثلاثة فانه يمتاز عن غيره امتيازا ظاهرا جليا وأما الاشمام والروم فقل حصولهما في لغات العرب وذلك أيضا من جنس ما يوجب الفصاحة وأما الكلمات الحاصلة بحسب التركيب فهي أنواع (أحدها) ان الحروف على قسمين متقاربة المخرج ومتباعدة المخرج وأيضا الحروف على قسمين منها صلبة ومنها رخوة فيحصل من هذا التقسيم أقسام أربعة الصلبة المتقاربة والرخوة المتقاربة والصلبة المتباعدة والرخوة المتباعدة فاذا توالى في الكلمة حرفان صلبان متقاربان صعب اللفظ بهما لان بسبب تقارب المخرج يصير التلفظ بهما جاريا مجرى ما اذا كان الانسان مقيدا ثم يمشي وبسبب صلابة تلك الحروف تتوارد الاعمال الشاقة القوية على الموضع الواحد من المخرج وتوالي الاعمال الشاقة يوجب الضعف والاعياء ومثل هذا التركيب في اللغة العربية قليل (وثانيها) ان جنس بعض الحروف ألذ وأطيب في السمع وكل كلمة يحصل فيها حرف من هذا الجنس كان سماعها أطيب (وثالثها) الوزن فنقول الكلمة اما أن تكون ثنائية أو ثلاثية أو رباعية وأعدلها هو الثلاثي لان الصوت انما يتولد بسبب الحركة والحركة لابد لها من مبدا ووسط ومنتهى فهذه ثلاث مراتب فالكلمة لابد وأن يحصل فيها هذه المراتب الثلاث حتى تكون تامة أما الثنائية فهي ناقصة وأما الرباعية فهي زائدة والغالب في كلام العرب الثلاثيات فثبت بما ذكرنا ضبط فضائل اللغات والاستقراء يدل على ان لغة العرب موصوفة بها وأما سائر اللغات فليست كذلك والله أعلم (المسئلة السادسة) قوله لقوم يعلمون يعني انا جعلناه عربيا لاجل أن يعلموا المراد منه والقائلون بان افعال الله معللة بالمصالح والحكم تمسكوا بهذه الآية وقالوا انها تدل على انه انما جعله عربيا لهذه الحكمة فهذا يدل على أن تعليل أفعال الله تعالى واحكامه جائز (المسئلة السابعة) قال قوم القرآن كله غير معلوم بل فيه ما يعلم وفيه ما لا يعلم وقال المتكلمون لا يجوز أن يحصل فيه شئ غير معلوم والدليل عليه قوله تعالى قرآنا عربيا لقوم يعلمون يعني انا جعلناه عربيا ليصير معلوما والقول بانه غير معلوم يقدح فيه (المسئلة الثامنة) قوله تعالى فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون يدل على ان الهادي من هداه الله وان الضال من أضله الله وتقريره ان الصفات التسعة المذكورة للقرآن توجب قوة الاهتمام بمعرفته وبالوقوف على معانيه لانا بينا ان كونه نازلا من عند الاله الرحمن الرحيم يدل على اشتماله على أفضل المنافع واجل المطالب وكونه قرآنا عربيا مفصلا يدل على انه في غاية الكشف والبيان وكونه بشيرا ونذيرا يدل على ان الاحتياج الى فهم ما فيه من أهم المهمات لان سعي الانسان في معرفة ما يوصله الى الثواب أو الى العقاب من أهم المهمات وقد حصلت هذه الموجبات الثلاثة في تأكيد الرغبة في فهم القرآن وفي شدة الميل الى الاحاطة به ثم مع ذلك

وقرئ وقسم فيها أقواتها (في أربعة أيام) متعلق بحصول الامور المذكورة لا بتقديرها أي قدر حصولها في يومين وانما قيل في أربعة أيام أي تتمة أربعة أيام تصريحا بالفذلكة (سواء) مصدر مؤكد لمضمر هو صفة لايام أي استوت سواء أي استواء كما ينبئ عنه القراءة بالجر وقيل هو حال من الضمير في أقواتها أو في فيها وقرئ بالرفع أي هي سواء (للسائلين) متعلق بمحذوف تقديره هذا ﴿ ٣٤٩ ﴾ الحصر للسائلين عن مدة خلق الارض وما فيها أو بقدر أي قدر فيها أقواتها لاجل السائلين أي الطالبين لها المحتاجين اليها من المقتاتين وقوله تعالى (ثم استوى الى السماء) شروع في بيان كيفية التكوين اثر بيان كيفية التقدير ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالارض وأهلها لما أن بيان اعتنائه تعالى بأمر المخاطبين وترتيب مبادي معايشهم قبل خلقهم مما يحملهم على الايمان ويزجرهم عن الكفر والطغيان أي ثم قصد نحوها قصدا سويا لا يلوي على غيره (وهي دخان) أي أمر ظلماني عبر به عن مادتها أو عن الاجزاء المتصغرة التي ركبت هي منها أو دخان مرتفع من الماء كما سيأتي وانما خص الاستواء بالسماء مع أن الخطاب المترتب عليه متوجه اليهما معا حسبما ينطق به قوله تعالى (فقال لها وللارض) اكتفاء بذكر تقديرها وتقدير ما فيها كأنه قيل فقال لها وللارض التي قدر وجودها ووجود ما فيها (ائتيا) اي كونا واحدثا على وجه معين وفي وقت مقدر لكل منكما وهو عبارة عن تعلق ارادته تعالى بوجودهما تعلقا فعليا بطريق التمثيل بعد تقدير أمرهما من غير أن يكون هناك آمر ومأمور كما في قوله تعالى كن وقوله تعالى (طوعا أو كرها) تمثيل لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالة امتناعهما من ذلك لا لاثبات الطوع والكره لهما وهما مصدران وقعا موقع الحال أي طائعتين أو كارهتين

فقد أعرضوا عنه ولم يلتفتوا اليه ونبذوه وراء ظهورهم وذلك يدل على انه لا يهدي الا من هداه الله ولا يضل الا من أضله الله واعلم انه تعالى لما وصف القرآن بأنهم أعرضوا عنه ولا يسمعونه بين انهم صرحوا بهذه النفرة والمباعدة وذكروا ثلاثة أشياء (أحدها) انهم قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه والأكنة جمع كنان كالأغطية جمع غطاء والكنان هو الذي يجعل فيه السهام (وثانيها) قولهم وفي آذاننا وقر أي صمم وثقل يمنع من استماع قولك (وثالثها) قولهم ومن بيننا وبينك حجاب والحجاب هو الذي يمنع من الرؤية والفائدة في كلمة من في قوله ومن بيننا انه لو قيل وبيننا وبينك حجاب لكان المعنى ان حجابا حصل وسط الجهتين اما بزيادة لفظ من كان المعنى ان الحجاب ابتدأ منا وابتدأ منك فالمسافة الحاصلة بيننا وبينك مستوعبة بالحجاب وما بقي جزء منها فارغا عن هذا الحجاب فكانت هذه اللفظة دالة على قوة هذا الحجاب هكذا ذكره صاحب الكشاف وهو في غاية الحسن واعلم انه انما وقع الاقتصار على هذه الاعضاء الثلاثة وذلك لان القلب محل المعرفة وسلطان البدن والسمع والبصر هما الآلتان المعينتان لتحصيل المعارف فلما بين ان هذه الثلاثة محجوبة كان ذلك أقصى ما يمكن في هذا الباب واعلم انه اذا تأكدت النفرة عن الشيء صارت تلك النفرة في القلب فاذا سمع منه كلاما لم يفهم معناه كما ينبغي واذا رآه لم تصر تلك الرؤية سببا للوقوف على دقائق أحوال ذلك المرئي وذلك لان المدرك والشاعر هو النفس وشدة نفرة النفس عن الشيء تمنعها من التدبر والوقوف على دقائق ذلك الشيء فاذا كان الامر كذلك كان قولهم قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب استعارات كاملة في افادة المعنى المراد فان قيل انه تعالى حكى هذا المعنى عن الكفار في معرض الذم وذكر أيضا ما يقرب منه في معرض الذم فقال وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم ثم انه تعالى ذكر هذه الاشياء الثلاثة بعينها في معرض التقرير والاثبات في سورة الانعام فقال وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا فكيف الجمع بينهما قلنا انه لم يقل ههنا انهم كذبوا في ذلك انما الذي ذمهم عليه انهم قالوا انا اذا كنا كذلك لم يجز تكليفنا وتوجيه الامر والنهي علينا وهذا الثاني باطل اما الاول فلانه ليس في الآية ما يدل على انهم كذبوا فيه واعلم انهم لما وصفوا أنفسهم بهذه الصفات الثلاثة قالوا فاعمل اننا عاملون والمراد فاعمل على دينك اننا عاملون على ديننا و يجوز أن يكون المراد فاعمل في ابطال أمرنا اننا عاملون في ابطال أمرك والحاصل عندنا ان القوم ما كذبوا في قولهم قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب بل انما أتوا بالكفر والكلام الباطل في قولهم فاعمل اننا عاملون ولما حكى الله عنهم هذه الشبهة أمر محمدا صلى الله عليه وسلم أن يجيب عن هذه الشبهة بقوله قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الي وبيان هذا الجواب كأنه يقول اني لا أقدر على ان أحملكم على الايمان جبرا وقهرا فاني بشر مثلكم ولا امتياز بيني وبينكم الا بمجرد ان الله عز وجل أوحى الي وما أوحى اليكم فأنا أبلغ هذا الوحي اليكم ثم

وقوله تعالى (قالتا أتينا طائعين) اى منقادين تمثيل لكمال تأثرهما بالذات عن القدرة الربانية وحصولهما كما امرتا به وتصوير لكون وجودهما كما هما عليه جاريا على مقتضى الحكمة البالغة فان الطوع منبئ عن ذلك والكره موهم لخلافه وانما قيل طائعين باعتبار كونهما فى معرض الخطاب والجواب كقوله تعالى ساجدين وقوله تعالى (فقضاهن سبع سموات) تفسير وتفصيل لتكوين السماء المجمل المعبر عنه بالامر وجوابه لا انه فعل مترتب على تكوينها أى خلقهن خلقا ابداعيا وأتقن أمرهن حسبما تقتضيه الحكمة والضمير اما للسماء على المعنى أو مبهم وسبع سموات حال على الاول تمييز على الثانى (فى يومين) فى وقت مقدر بيومين وقد بين مقدار زمان خلق الارض وخلق ما فيها عند بيان تقديرهما فكان خلق الكل فى ستة أيام حسبما نص عليه فى مواقع من التنزيل (وأوحى فى كل سماء أمرها) عطف على قضاهن أى خلق فى كل منهما ما فيهما من الملائكة والنيرات وغير ذلك مما لا يعلمه الا الله تعالى كما قاله قتادة والسدى فالوحى عبارة عن التكوين كالامر مقيد بما قيد به المعطوف عليه من الوقت أو أوحى الى أهل كل منهما أوامره وكلفهم ما يليق بهم من التكاليف فهو بمعناه ومطلق عن القيد المذكور وأيا ما كان فعلى ما قرر من التفصيل لا دلالة فى الآية الكريمة على الترتيب بين ايجاد الارض وايجاد السماء ﴿ الثلاثة ﴾ وانما الترتيب بين التقدير والايجاد وأما على تقدير كون الخلق وما عطف عليه من الافعال الثلاثة على معانيها الظاهرة فهى وما فى سورة البقرة من قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات تدلان على تقدم خلق الارض وما فيها على خلق السماء وما فيها وعليه اطباق أكثر

بعد ذلك ان شرفكم الله بالتوحيد والتوفيق قبلتموه وان خذلكم بالحرمان رددتموه وذلك لا تعلق بنبوتى ورسالتى ثم بين أن خلاصة ذلك الوحى ترجع الى أمرين العلم والعمل أما العلم فالرأس والرئيس فيه معرفة التوحيد وذلك لان الحق هو أن الله واحد وهو المراد من قوله انما الهكم اله واحد واذا كان الحق فى نفس الامر ذلك وجب علينا أن نعترف به وهو المراد من قوله فاستقيموا اليه ونظيره قوله اهدنا الصراط المستقيم وقوله ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وقوله تعالى وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه وفى قوله تعالى فاستقيموا اليه وجهان (الاول) فاستقيموا متوجهين اليه (الثانى) أن يكون قوله فاستقيموا اليه معناه فاستقيموا له لان حروف الجر يقام بعضها مقام البعض واعلم أن التكاليف له ركنان (أحدهما) الاعتقاد والرأس والرئيس فيه اعتقاد التوحيد فلما أمر بذلك انتقل الى وظيفة العمل والرأس والرئيس فيه الاستغفار فلهذا السبب قال واستغفروه فان قيل المقصود من الاستغفار والتوبة ازالة ما لا ينبغى وذلك مقدم على فعل ما ينبغى فلم عكس هذا الترتيب ههنا وقدم فعل ما ينبغى على ازالة ما لا ينبغى قلنا ليس المراد من هذا الاستغفار الاستغفار عن الكفر بل المراد منه أن يعمل ثم يستغفر بعده لاجل الخوف من وقوع التقصير فى العمل الذى أتى به كما قال صلى الله عليه وسلم وانه ليغان على قلبى وانى لاستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة ولما رغب الله تعالى فى الخير والطاعة أمر بالتحذير عما لا ينبغى فقال وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون وفى هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) وجه النظم فى هذه الآية من وجوه (الاول) أن العقول والشرائع ناطقة بأن خلاصة السعادات مربوطة بأمرين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله وذلك لان الموجودات اما الخالق واما الخلق فاما الخالق فكمال السعادة فى المعاملة معه أن يقر بكونه موصوفا بصفات الجلال والعظمة ثم يأتى بافعال دالة على كونه فى نهاية العظمة فى اعتقادنا وهذا هو المراد من التعظيم لامر الله واما الخلق فكمال السعادة فى المعاملة معهم أن يسعى فى دفع الشر عنهم وفى ايصال الخير اليهم وذلك هو المراد من الشفقة على خلق الله فثبت ان أعظم الطاعات التعظيم لامر الله وأفضل أبواب التعظيم لامر الله الاقرار بكونه واحدا واذا كان التوحيد أعلى المراتب وأشرفها كان ضده وهو الشرك أخس المراتب وأرذلها ولما كان أفضل أنواع المعاملة مع الخلق هو اظهار الشفقة عليهم كان الامتناع من الزكاة أخس الاعمال لانه ضد الشفقة على خلق الله اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى أثبت الويل لمن كان موصوفا بصفات ثلاثة (أولها) أن يكون مشركا وهو ضد التوحيد واليه الاشارة بقوله وويل للمشركين (وثانيها) كونه ممتنعا من الزكاة وهو ضد الشفقة على خلق الله واليه الاشارة بقوله الذين لا يؤتون الزكاة (وثالثها) كونه منكرا للقيامة مستغرقا فى طلب الدنيا ولذاتها واليه الاشارة بقوله وهم بالآخرة هم كافرون وتمام الكلام فى انه لا زيادة على هذه المراتب

الثلاثة أن الانسان له ثلاثة أيام الامس واليوم والغد اما معرفة انه كيف كانت أحوال الامس فى الازل فهو بمعرفة الله تعالى الازلى الخالق لهذا العالم وأما معرفة انه كيف ينبغى وقوع الاحوال فى اليوم الحاضر فهو بالاحسان الى أهل العالم بقدر الطاقة وأما معرفة الاحوال فى اليوم المستقبل فهو الاقرار بالبعث والقيامة واذا كان الانسان على ضد الحق فى هذه المراتب الثلاثة كان فى نهاية الجهل والضلال فلهذا حكم الله عليه بالويل فقال وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون وهذا ترتيب فى غاية الحسن والله أعلم (الوجه الثانى) فى تقرير كيفية النظم أن يقال المراد بقوله لا يؤتون الزكاة أى لا يزكون أنفسهم من لوث الشرك بقولهم لا اله الا الله وهو مأخوذ من قوله تعالى ونفس وما سواها (الثالث) قال الفراء ان قريشا كانت تطعم الحاج فحرموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا فى اثبات أن الكفار مخاطبون بفروع الاسلام بهذه الآية فقالوا انه تعالى ألحق الوعيد الشديد بناء على أمرين (أحدهما) كونه مشركا (والثانى) انه لا يؤتى الزكاة فوجب أن يكون لكل واحد من هذين الامرين تأثير فى حصول ذلك الوعيد وذلك يدل على أن لعدم ايتاء الزكاة من المشرك تأثيرا عظيما فى زيادة الوعيد وذلك هو المطلوب (المسئلة الثالثة) احتج بعضهم على أن الامتناع من ايتاء الزكاة يوجب الكفر فقال انه تعالى لما ذكر هذه الصفة ذكر قبلها ما يوجب الكفر وهو قوله فويل للمشركين وذكر أيضا بعدها ما يوجب الكفر وهو قوله وهم بالآخرة هم كافرون فلو لم يكن عدم ايتاء الزكاة كفرا لكان ذكرها بين الصفتين الموجبتين للكفر قبيحا لان الكلام انما يكون فصيحا اذا كانت المناسبة مرعية بين أجزائه ثم اكدوا ذلك بأن أبا بكر الصديق رضى الله عنه حكم بكفر مانعى الزكاة والجواب لما ثبت بالدليل ان الايمان عبارة عن التصديق بالقلب والاقرار باللسان وهما حاصلان عند عدم ايتاء الزكاة فلم يلزم حصول الكفر بسبب عدم ايتاء الزكاة والله أعلم ثم انه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أردفه بوعد المؤمنين فقال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون أى غير مقطوع من قولك مننت الحبل أى قطعته ومنه قولهم قد منه السفر أى قطعه وقيل لا يمن عليهم لانه تعالى لما سماه أجرا فاذا الاجر لا يوجب المنة وقيل نزلت فى المرضى والزمنى اذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الاجر كأحسن ما كانوا يعملون * قوله تعالى (قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها فى اربعة ايام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء امرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) اعلم انه تعالى لما أمر محمدا صلى الله عليه وسلم فى الآية الاولى ان يقول انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه

اهل التفسير وقد روى أن العرش العظيم كان قبل خلق السموات والارض على الماء ثم انه تعالى احدث فى الماء اضطرابا فأزبد فارتفع منه دخان فاما الزبد فبقى على وجه الماء فخلق فيه اليبوسة فجعله أرضا واحدة ثم فتقها فجعلها أرضين وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السموات وروى أنه تعالى خلق جرم الارض يوم الاحد ويوم الاثنين ودحاها وخلق مافيها يوم الثلاثاء ويوم الاربعاء وخلق السموات ومافيهن يوم الخميس ويوم الجمعة وخلق آدم عليه السلام فى آخر ساعة منه وهى الساعة التى تقوم فيها القيامة وقيل ان خلق جرم الارض مقدم على خلق السموات لكن دحوها وخلق ما فيها مؤخر عنه لقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها ولما روى عن الحسن رحمه الله من أنه تعالى خلق الارض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليه دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر فى موضعها وبسط منها الارض وذلك قوله تعالى كانتا رتقا ففتقناهما الآية وليس المراد بنظمها مع السماء فى سلك الامر بالاتيان انشاءها واحداثها بل انشاء دحوها وجعلها على وجه خاص يليق بها من شكل معين ووصف مخصوص كأنه قيل ائتيا على ما ينبغى أن تأتيا عليه ائتى يا ارض مدحوة قرارا ومهادا لاهلك وائتى يا سماء مقببة سقفا لهم ومعنى الاتيان الحصول على ذلك الوجه كما ينبئ عنه قراءة آتيا وآتينا من المواتاة وهى الموافقة وأنت خبير بان المذكور قبل الامر بالاتيان ليس مجرد خلق جرم الارض حتى يأتى ماذكر بل خلق ما فيها أيضا من الامور المتأخرة عن دحوها قطعا فالاظهر أن يسلك مسلك الاولين ويحمل الامر بالاتيان على تكوينهما متوافقين على الوجه المذكور وليس من ضرورته ان يكون دحوها مترتبا على

ذلك التكوين وانما اللازم ترتب حصول التوافق عليه ولا ريب في أن تكوين السماء على الوجه اللائق بها كاف في حصوله ولا يقدح في ذلك تكوين الارض على الوجه المذكور قبل ذلك وأن يجعل الارض في قوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها منصوبا بمضمر قد حذف على شريطة التفسير ويجعل ذلك اشارة الى ذكر ما ذكر من بناء السماء ورفع سمكها وتسويتها وغيرها الا الى انفسها وتحمل البعدية اما على أنه تماسر ﴿ ٣٥٢ ﴾ عن الاول في الدلالة على القدرة القاهرة كما قيل واما على أنه أدخل في الالزام لما أن المنافع المنوطة بما في الارض أكثر وتعلق مصالح الناس بذلك أظهر واحاطتهم بتفاصيلها أكمل وليس ما روى عن الحسن رضي الله عنه نصا في تأخر دحو الارض عن خلق السماء فان بسط الارض معطوف على اصعاد الدخان وخلق السماء بالواو فلا دلالة في ذلك على الترتيب قطعا وقد نقل الامام الواحدي عن مقاتل أن خلق السماء مقدم على ايجاد الارض فضلا عن دحوها فلا بد من حمل الامر باتيانهما حينئذ أيضا على ما ذكر من التوافق والمواتاة ولا يقدح في ذلك تقدم خلق السماء على خلق الارض كما لم يقدح فيه تقدم خلق الارض على خلق السماء هذا كله على تقدير كون كلمة ثم للتراخي الزماني وأما على تقدير كونها للتراخي الرتبي كما جنح اليه الاكثرون فلا دلالة في الآية الكريمة على الترتيب كما في الوجه الاول وعلى ذلك بنى الكلام ﴿ والظاهر ﴾ في تفسير قوله تعالى هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا الآية وانما يحمل الخلق هنالك على معنى التقدير كما حمل عليه ههنا لتوفية مقام الامتنان حقه (وزينا السماء الدنيا بمصابيح) من الكواكب فانها كلها ترى متلألئة عليها كأنها فيها والالتفات الى نون العظمة لابراز مزيد العناية بالامر وقوله تعالى (وحفظا) مصدر مؤكد لفعل معطوف

واستقر وأردفه بما يدل على انه لا يجوز اثبات الشركة بينه تعالى وبين هذه الاصنام في الالهية والعبودية وذلك بأن بين كمال قدرته وحكمته في خلق السموات والارض في مدة قليلة فمن هذا صفته كيف يجوز جعل الاصنام الخسيسة شركاء له في الالهية والعبودية فهذا تقرير النظم وفي الآية مسائل (المسألة الاولى) قرأ ابن كثير أينكم لتكفرون بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مد وأما نافع في رواية قالون وأبو عمرو فعلى هذه الصورة الا انهما يمدان والباقون بهمزتين بلا مد (المسألة الثانية) قوله تعالى أئنكم استفهام بمعنى الانكار وقد ذكر عنهم شيئين منكرين (أحدهما) الكفر بالله وهو قوله لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين (وثانيهما) اثبات الشركاء والانداد له ويجب أن يكون الكفر المذكور أولا مغايرا لاثبات الانداد له ضرورة ان عطف أحدهما على الآخر يوجب التغاير والاظهر أن المراد من كفرهم وجوه (الاول) قولهم ان الله تعالى لا يقدر على حشر الموتى فلما نازعوا في ثبوت هذه القدرة فقد كفروا بالله (والثاني) انهم كانوا ينازعون في صحة التكليف وفي بعثة الانبياء وكل ذلك قدح في الصفات المعتبرة في الالهية وهو كفر بالله (والثالث) انهم كانوا يضيفون اليه الاولاد وذلك أيضا قدح في الالهية وهو يوجب الكفر بالله فالحاصل انهم كفروا بالله لاجل قولهم بهذه الاشياء وأثبتوا الانداد أيضا لله لاجل قولهم بالهية تلك الاصنام واحتج تعالى على فساد قولهم بالأمر فقال كيف يجوز الكفر بالله وكيف يجوز جعل هذه الاصنام الخسيسة أندادا لله تعالى مع انه تعالى هو الذي خلق الارض في يومين وتمم بقية مصالحها في يومين آخرين وخلق السموات بأسرها في يومين آخرين فمن قدر على خلق هذه الاشياء العظيمة كيف يعقل الكفر به وانكار قدرته على الحشر والنشر وكيف يعقل انكار قدرته على التكليف وعلى بعثة الانبياء وكيف يعقل جعل هذه الاصنام الخسيسة أندادا له في المعبودية والالهية فان قيل من استدل بشئ على اثبات شئ فذلك الشئ المستدل به يجب أن يكون مسلما عند الخصم حتى يصح الاستدلال به وكونه تعالى خالقا للارض في يومين أمر لا يمكن اثباته بالعقل المحض وانما يمكن اثباته بالسمع ووحي الانبياء والكفار كانوا منازعين في الوحي والنبوة فلا يعقل تقرير هذه المقدمة عليهم واذا امتنع تقرير هذه المقدمة عليهم امتنع الاستدلال بها على فساد مذاهبهم قلنا اثبات كون السموات والارض مخلوقة بطريق العقل ممكن فاذا ثبت ذلك أمكن الاستدلال به على وجود الاله القادر القاهر العظيم وحينئذ يقال للكافرين فكيف يعقل التسوية بين الاله الموصوف بهذه القدرة القاهرة وبين الصنم الذي هو جماد لا يضر ولا ينفع في المعبودية والالهية بقي أن يقال فحينئذ لا يبقى في الاستدلال بكونه تعالى خالقا للارض في يومين أثر فنقول هذا أيضا له أثر في هذا الباب وذلك لان أول التوراة مشتمل على هذا المعنى فكان ذلك في غاية الشهرة بين أهل الكتاب فكفار مكة كانوا يعتقدون في أهل الكتاب أنهم أصحاب العلوم والحقائق

والظاهر أنهم كانوا قد سمعوا من أهل الكتاب هذه المعاني واعتقدوا في كونها حقة وإذا كان الامر كذلك فحينئذ يحسن أن يقال لهم ان الاله الموصوف بالقدرة على خلق هذه الاشياء العظيمة في هذه المدة الصغيرة كيف يليق بالعقل جعل الخشب المنحوت والحجر المنحوت شريكاله في المعبودية والالهية فظهر بما قررنا أن هذا الاستدلال قوي حسن وأما قوله تعالى ذلك رب العالمين أي ذلك الموجود الذي علمت من صفته وقدرته انه خلق الارض في يومين هو رب العالمين وخالقهم ومبدعهم فكيف أثبتم له اندادا من الخشب والحجر ثم انه تعالى لما أخبر عن كونه خالقا للارض في يومين أخبر انه أتى بثلاثة أنواع من الصنع العجيب والفعل البديع بعد ذلك (فالاول) قوله وجعل فيها رواسي من فوقها والمراد منها الجبال وقد تقدم تفسير كونها رواسي في سورة النحل فان قيل ما الفائدة في قوله من فوقها ولم لم يقتصر على قوله وجعل فيها رواسي كقوله تعالى وجعلنا فيها رواسي شامخات وجعلنا في الارض رواسي قلنا لانه تعالى لو جعل فيها رواسي من تحتها لاوهم ذلك ان تلك الاساطين التحتانية هي التي أمسكت هذه الارض الثقيلة عن النزول ولكنه تعالى قال خلقت هذه الجبال الثقال فوق الارض ليرى الانسان بعينه ان الارض والجبال اثقال على أثقال وكلها مفتقرة الى ممسك وحافظ وما ذاك الحافظ المدبر الا الله سبحانه وتعالى (والنوع الثاني) مما أخبر الله تعالى في هذه الآية قوله وبارك فيها والبركة كثرة الخير والخيرات الحاصلة من الارض أكثر مما يحيط به الشرح والبيان وقد ذكرناها بالاستقصاء في سورة البقرة قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد شق الانهار وخلق الجبال وخلق الاشجار والثمار وخلق أصناف الحيوانات وكل ما يحتاج اليه من الخيرات (والنوع الثالث) قوله تعالى وقدر فيها أقواتها وفيه أقوال (الاول) ان المعنى وقدر فيها اقوات أهلها ومعايشهم وما يصلحهم قال محمد بن كعب قدر أقوات الابدان قبل أن يخلق الابدان (والقول الثاني) قال مجاهد وقدر فيها أقواتها من المطر وعلى هذا القول فالاقوات للارض لا للسكان والمعنى ان الله تعالى قدر لكل أرض حظها من المطر (والقول الثالث) أن المراد من اضافة الاقوات الى الارض كونها متولدة من تلك الارض وحادثة فيها لان النحويين قالوا يكفي في حسن الاضافة أدنى سبب فالشئ قد يضاف الى فاعله تارة والى محله أخرى فقوله وقدر أقواتها أي قدر الاقوات التي يختص حدوثها بها وذلك لانه تعالى جعل كل بلدة معدنا لنوع آخر من الاشياء المطلوبة حتى ان أهل هذه البلدة يحتاجون الى الاشياء المتولدة في تلك البلدة وبالعكس فصار هذا المعنى سببا لرغبة الناس في التجارات من اكتساب الاموال ورأيت من كان يقول صنعة الزراعة والحراثة أكثر الحرف والصنائع بركة لان الله تعالى وضع الارزاق والاقوات في الارض قال وقدر فيها أقواتها واذا كانت الاقوات موضوعة في الارض كان طلبها من الارض متعينا ولما ذكر الله سبحانه هذه الانواع الثلاثة من التدبير قال

على زينا أي وحفظناها من الآفات أو من المسترقة حفظا وقيل مفعول له على المعنى كأنه قيل وخلقنا المصابيح زينة وحفظا (ذلك) الذي ذكر بتفاصيله (تقدير العزيز العليم) البالغ في القدرة والعلم (فان أعرضوا) متصل بقوله تعالى قل أئنكم الخ أي فان أعرضوا عن التدبر فيما ذكر من عظائم الامور الداعية الى الايمان أو عن الايمان بعد هذا البيان (فقل) لهم (أنذرتكم) أي أنذركم وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الانذار المنبئ عن تحقق المنذر به (صاعقة) أي عذابا هائلا شديد الوقع كأنه صاعقة (مثل صاعقة عاد وثمود) وقرئ صعقة مثل صعقة عاد وثمود وهي المرة من الصعق أو الصعق يقال صعقته الصاعقة صعقا فصعق صعقا

بعده في أربعة أيام سواء للسائلين وههنا سؤالات (السؤال الاول) انه تعالى ذكر انه خلق الارض في يومين وذكر انه أصلح هذه الانواع الثلاثة في أربعة أيام أخر وذكر انه خلق السموات في يومين فيكون المجموع ثمانية أيام لكنه ذكر في سائر الآيات انه خلق السموات والارض في ستة أيام فلزم التناقض واعلم أن العلماء أجابوا عنه بأن قالوا المراد من قوله وقدر فيها أقواتها في اربعة أيام مع اليومين الاولين وهذا كقول القائل سرت من البصرة الى بغداد في عشرة أيام وسرت الى الكوفة في خمسة عشر يوما يريد كلا المسافتين ويقول الرجل للرجل أعطيتك ألفا في شهر وألوفا في شهرين فيدخل الالف في الالوف والشهر في الشهرين (السؤال الثاني) انه لما ذكر انه خلق الارض في يومين فلو ذكر انه خلق هذه الانواع الثلاثة الباقية في يومين آخرين كان أبعد عن الشبهة وأبعد عن الغلط فلم ترك هذا التصريح وذكر ذلك الكلام المجمل والجواب أن قوله في أربعة أيام سواء للسائلين فيه فائدة زائدة على ما اذا قال خلقت هذه الثلاثة في يومين وذلك لانه لو قال خلقت هذه الاشياء في يومين لم يفد هذا الكلام كون هذين اليومين مستغرقين بتلك الاعمال لانه قد يقال عملت هذا العمل في يومين مع أن اليومين ما كانا مستغرقين بذلك العمل أما لما ذكر خلق الارض وخلق هذه الاشياء ثم قال بعده في أربعة أيام سواء للسائلين دل ذلك على أن هذه الايام الاربعة صارت مستغرقة في تلك الاعمال من غير زيادة ولا نقصان (السؤال الثالث) كيف القراآت في قوله سواء والجواب قال صاحب الكشاف قرئ سواء بالحركات الثلاثة الجر على الوصف والنصب على المصدر استوت سواء أي استواء والرفع على هي سواء (السؤال الرابع) ما المراد من كون تلك الايام الاربعة سواء فنقول ان الايام قد تكون متساوية المقادير كالايام الموجودة في أماكن خط الاستواء وقد تكون مختلفة كالايام الموجودة في سائر الاماكن فبين تعالى ان تلك الايام الاربعة كانت متساوية غير مختلفة (السؤال الخامس) بم تعلق قوله للسائلين الجواب فيه وجهان (الاول) ان الزجاج قال قوله في أربعة أيام أي في تتمة أربعة أيام اذا عرفت هذا فالتقدير وقدر فيها أقواتها في تتمة أربعة أيام لاجل السائلين أي الطالبين للاقوات المحتاجين اليها (والثاني) انه متعلق بمحذوف والتقدير كأنه قيل هذا الحصر والبيان لاجل من سأل في كم خلقت الارض وما فيها ولما شرح الله تعالى كيفية تخليق الارض وما فيها أتبعه بكيفية تخليق السموات فقال ثم استوى الى السماء وهي دخان وفيه مباحث (البحث الاول) قوله تعالى ثم استوى الى السماء من قولهم استوى الى مكان كذا اذا توجه اليه توجها لا يلتفت معه الى عمل آخر وهو من الاستواء الذي هو ضد الاعوجاج ونظيره قولهم استقام اليه وامتد اليه ومنه قوله تعالى فاستقيموا اليه والمعنى ثم دعاه داعي الحكمة الى خلق السماء بعد خلق الارض وما فيها من غير صارف يصرفه عن ذلك (البحث الثاني) ذكر صاحب الاثر انه كان عرش الله على الماء قبل خلق

وهو من باب فعلته ففعل (اذ جاءتهم الرسل) حال من صاعقة عاد ولا سداد جعله ظرفا لانذرتكم أو صفة لصاعقة لفساد المعنى وأما جعله صفة لصاعقة عاد أي الكائنة اذ جاءتهم ففيه حذف الموصول مع بعض صلته (من بين أيديهم ومن خلفهم) متعلق بجاءتهم أي من جميع جوانبهم واجتهدوا بهم من كل جهة أو من جهة الزمان الماضي للانذار عما جرى فيه على الكفار ومن جهة المستقبل بالتحذير عما سيحيق بهم من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وقيل المعنى جاءتهم الرسل المتقدمون والمتأخرون على تنزيل مجيء كلامهم ودعوتهم الى الحق منزلة مجيء أنفسهم فان هودا وصالحا كانا داعيين لهم الى الايمان بهما وبجميع الرسل ممن

السموات والارض فأحدث الله في ذلك الماء سخونة فارتفع زبد ودخان أما الزبد فبقي على
وجه الماء فخلق الله منه اليبوسة وأحدث منه الارض وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق
الله منه السموات واعلم ان هذه القصة غير موجودة في القرآن فان دل عليه دليل صحيح قبل
والا فلا وهذه القصة مذكورة في أول الكتاب الذي يزعم اليهود انه التوراة وفيه انه تعالى
خلق السماء من اجزاء مظلمة وهذا هو المعقول لانه قد دللنا في المعقولات على ان الظلمة
ليست كيفية وجودية بدليل انه لو جلس انسان في ضوء السراج وانسان آخر في الظلمة
فان الذي جلس في الضوء لا يرى مكان الجالس في الظلمة ويرى ذلك الهواء مظلما وأما
الذي جلس في الظلمة فانه يرى ذلك الذي كان جالسا في الضوء ويرى ذلك الهواء مضيئا
ولو كانت الظلمة صفة قائمة بالهواء لما اختلفت الاحوال بحسب اختلاف أحوال الناظرين
ثبت أن الظلمة عبارة عن عدم النور فالله سبحانه وتعالى لما خلق الاجزاء التي لا تتجزأ
فقبل أن خلق فيها كيفية الضوء كانت مظلمة عديمة النور ثم لما ركبها وجعلها سموات
وكواكب وشمسا وقمرا وأحدث صفة الضوء فيها فحينئذ صارت مستنيرة فثبت ان
تلك الاجزاء حين قصد الله تعالى ان يخلق منها السموات والشمس والقمر كانت مظلمة
فصح تسميتها بالدخان لانه لا معنى للدخان الا أجزاء متفرقة غير متواصلة عديمة النور فهذا
ما خطر بالبال في تفسير الدخان والله أعلم بحقيقة الحال (البحث الثالث) قوله ثم استوى
الى السماء وهي دخان مشعر بأن تخليق السماء حصل بعد تخليق الارض وقوله تعالى
والارض بعد ذلك دحاها مشعر بأن تخليق الارض حصل بعد تخليق السماء وذلك يوجب
التناقض واختلف العلماء في هذه المسئلة والجواب المشهور أن يقال انه تعالى خلق
الارض في يومين أولا ثم خلق بعدها السماء ثم بعد خلق السماء دحا الارض وبهذا
الطريق يزول التناقض واعلم ان هذا الجواب مشكل عندي من وجوه (الاول) انه تعالى
بين أنه خلق الارض في يومين ثم انه في اليوم الثالث جعل فيها رواسي من فوقها وبارك
فيها وقدر فيها أقواتها وهذه الاحوال لا يمكن ادخالها في الوجود الا بعد أن صارت الارض
مدحوة لان خلق الجبال فيها لا يمكن الا بعد ان صارت الارض مدحوة منبسطة وقوله
تعالى وبارك فيها مفسر بخلق الاشجار والنبات والحيوان فيها وذلك لا يمكن الا بعد
صيرورتها منبسطة ثم انه تعالى قال بعد ذلك ثم استوى الى السماء فهذا يقتضي انه تعالى
خلق السماء بعد خلق الارض وبعد أن جعلها مدحوة وحينئذ يعود السؤال المذكور
(الثاني) انه قد دلت الدلائل الهندسية على أن الارض كرة فهي في أول حدوثها ان قلنا
بانها كانت كرة والآن بقيت كرة أيضا فهي منذ خلقت كانت مدحوة وان قلنا انها غير كرة
ثم جعلت كرة فيلزم أن يقال انها كانت مدحوة قبل ذلك ثم أزيل عنها هذه الصفة وذلك
باطل (الثالث) ان الارض جسم في غاية العظم والجسم الذي يكون كذلك فانه من أول
دخوله في الوجود يكون مدحوا فيكون القول بأنها ما كانت مدحوة ثم صارت مدحوة قول

جاء من بين أيديهم أي
من قبلهم ومن يجي
من خلفهم أي من بعد
هم فكأن الرسل قد
جاؤهم وخاطبوهم
بقوله تعالى (ان
تعبدوا الا الله) أي بأ
لا تعبدوا على أن أ
مصدرية أو أي
تعبدوا على أنها
مفسرة (قالوا لو شـ
ربنا) أي ارسال الرسـ
لانزل الملائكة كما قيل
فانه عار عن افاد
ما أرادوه من نفي رسا
البشر وقد مر في
سلف (لانزل ملائكة
أي لارسلهم لكن
كان ارسالهم بطريـ
الانزال قيل لانزل (ف
بما ارسلتم به) أي ع
زعمكم وفيه ضر
تهكم بهم (كافرون
لما انكم بشر مثلنا
غير فضل لكم عـ
روى أن أبا جهل
في ملأ من قريش
التبس علينا أمر
فلو التمستم لنا رجلا
بالشعر والكهانة

باطل والذى جاء فى كتب التواريخ ان الارض خلقت فى موضع الصخرة ببيت المقدس فهو كلام مشكل لانه ان كان المراد أنها على عظمها خلقت فى ذلك الموضع فهذا قول بتداخل الاجسام الكثيفة وهو محال وان كان المراد منه انه خلق أولا أجزاء صغيرة فى ذلك الموضع ثم خلق بقية أجزائها وأضيفت الى تلك الاجزاء التى خلقت أولا فهذا يكون اعترافا بأن تخليق الارض وقع متأخرا عن تخليق السماء (الرابع) انه لما حصل تخليق ذات الارض فى يومين وتخليق سائر الاشياء الموجودة فى الارض فى يومين آخرين وتخليق السموات فى يومين آخرين كان مجموع ذلك ستة أيام فاذا حصل دحو الارض من بعد ذلك فقد حصل هذا الدحو فى زمان آخر بعد الايام الستة فحينئذ يقع تخليق السموات والارض فى أكثر من ستة أيام وذلك باطل (الخامس) انه لانزاع ان قوله تعالى بعد هذه الآية ثم استوى الى السماء فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها كناية عن ايجاد السماء والارض فلو تقدم ايجاد السماء على ايجاد الارض لكان قوله ائتيا طوعا أو كرها يقتضى ايجاد الموجود وانه محال باطل فهذا تمام البحث عن هذا الجواب المشهور ونقل الواحدى فى البسيط عن مقاتل انه قال خلق الله السموات قبل الارض وتأويل قوله ثم استوى الى السماء ثم كان قد استوى الى السماء وهى دخان وقال لها قبل أن تخلق الارض وأضمر فيه كان كما قال تعالى قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل معناه ان يكن سرق وقال تعالى وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا والمعنى فكان قد جاءها هذا مانقله الواحدى وهو عندى ضعيف لان تقدير الكلام ثم كان قد استوى الى السماء وهذا جمع بين الضدين لان كلمة ثم تقتضى التأخير وكلمة كان تقتضى التقديم والجمع بينهما يفيد التناقض وذلك دليل على انه لا يمكن اجراؤه على ظاهره وقد بينا ان قوله ائتيا طوعا او كرها انما حصل قبل وجودهما واذا كان الامر كذلك امتنع حمل قوله ائتيا على الامر والتكليف فوجب حمله على ماذكرناه بقى على لفظ الآية سؤالات (السؤال الاول) ما الفائدة فى قوله تعالى فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها (الجواب) المقصود منه اظهار كمال القدرة والتقدير ائتيا شئتما ذلك أو أبيتما كما يقول الجبار لمن تحت يده لتفعلن هذا شئت أولم تشأ ولتفعلنه طوعا أو كرها وانتصابهما على الحال بمعنى طائعين أو مكرهين فقالتا أتينا على الطوع لا على الكره وقيل انه تعالى ذكر السماء والارض ثم ذكر الطوع والكره فوجب أن ينصرف الطوع الى السماء والكره الى الارض وتخصيص السماء بالطوع لوجوه (أحدها) أن السماء فى دوام حركتها على نهج واحد لا يختلف تشبه حيوانا مطيعا لله تعالى بخلاف الارض فانها مختلفة الاحوال تارة تكون فى السكون وأخرى فى الحركات المضطربة (وثانيها) ان الموجود فى السماء ليس الا الطاعة قال تعالى يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون وأما أهل الارض فليس الامر فى حقهم كذلك (وثالثها) السماء موصوفة بكمال الحال فى جميع الامور قالوا انها أفضل الالوان وهى

والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمر فقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علما وما يخفى على فأتاه فقال أنت يامحمد خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله فبم تشتم آلهتنا وتضللنا فان كنت تريد الرياسة عقدنا لك الالواء فكنت رئيسا وان تك بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن أى بنات قريش شئت وان كان بك المال جمعنا لك ما تستغنى ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت فلما فرغ عتبة قال عليه الصلاة والسلام بسم الله الرحمن الرحيم حم الى قوله تعالى مثل صاعقة عاد وثمود فامسك عتبة على فيه عليه الصلاة والسلام وناشده بالرحم ورجع الى أهله ولم يخرج الى قريش فلما

احتبس عنهم فقالوا ماترى عتبة الاقد صبأ فانطلقوا اليه وقالوا ياعتبة ماحبسك عنا الا انك قد صبأت فغضب ثم قال والله لقد كلمته فاجابني بشئ والله ماهو بشعر ولا كهانة ولا سحر ولما بلغ صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف وقد علمتم أن محمدا اذا قال شيئا لم يكذب فخفت ان ينزل بكم العذاب (فأما عاد فاستكبروا في الارض) شروع في حكاية مايخص بكل واحدة من الطائفتين من الجناية والعذاب اثر حكاية مايعم الكل من الكفر المطلق أي فعظموا فيها على اهلها أو استعلوا فيها واستولوا على أهلها (بغير الحق) أي بغير استحقاق للتعظم والولاية (وقالوا) مدلين بشدتهم وقوتهم (من أشد منا قوة) حيث كانوا ذوي أجسام

المستنيرة وأشكالها أفضل الاشكال وهي المستديرة ومكانها أفضل الامكنة وهو الجو العالي واجرامها أفضل الاجرام وهي الكواكب المتلألئة بخلاف الارض فانها مكان الظلمة والكثافة واختلاف الاحوال وتغير الذوات والصفات فلاجرم وقع التعبير عن تكون السماء بالطوع وعن تكون الارض بالكره واذا كان مدار خلق الارض على الكره كان أهلها موصوفين أبدا بما يوجب الكره والكرب والقهر والقسر (السؤال الثاني) ما المراد من قوله ائتيا ومن قوله أتينا الجواب المراد ائتيا الى الوجود والحصول وهو كقوله كن فيكون وقيل المعنى ائتيا على ماينبغي ان تأتيا عليه من الشكل والوصف أي يا أرض مدحوة قرارا ومهادا أو أي يا سماء مقببة سقفا لهم ومعنى الاتيان الحصول والوقوع على وفق المراد كما تقول أتى عمله مرضيا وجاء مقبولا و يجوز أيضا أن يكون المعنى لتأتي كل واحدة منكما صاحبتها الاتيان الذي تقتضيه الحكمة والتدبير من كون الارض قرارا للسماء وكون السماء سقفا للارض (السؤال الثالث) هلا قيل طائعين على اللفظ أو طائعات على المعنى لانهما سموات وأرضون (الجواب) لما جعلن مخاطبات ومجيبات ووصفن بالطوع والكره قيل طائعين في موضع طائعات نحو قوله ساجدين ومنهم من استدل به على كون السموات أحياء وقال الارض في جوف السموات أقل من الذرة الصغيرة في جوف الجبل الكبير فلهذا السبب صارت اللفظة الدالة على العقل والحياة غالبة الا أن هذا القول باطل لاجماع المتكلمين على فساده ثم قال تعالى فقضاهن سبع سموات في يومين وقضاء الشئ انما هو اتمامه والفراغ منه والضمير في قوله فقضاهن يجوز أن يرجع الى السماء على المعنى كما قال طائعين ونحوه أعجاز نخل خاوية و يجوز أن يكون ضميرا مبهما مفسرا بسبع سموات والفرق بين النصبين ان أحدهما على الحال والثاني على التمييز * ذكر أهل الاثر انه تعالى خلق الارض في يوم الاحد والاثنين وخلق سائر ما في الارض في يوم الثلاثاء والاربعاء وخلق السموات وما فيها في يوم الخميس والجمعة وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة فان قيل اليوم عبارة عن النهار والليل وذلك انما يحصل بسبب طلوع الشمس وغروبها وقبل حدوث السموات والشمس والقمر كيف يعقل حصول اليوم قلنا معناه انه مضى من المدة مالو حصل هناك فلك وشمس لكان المقدار مقدرا بيوم ثم قال تعالى وأوحى في كل سماء أمرها قال مقاتل أمر في كل سماء بما أراد وقال قتادة خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وقال السدي خلق في كل سماء خلقها من الملائكة وما فيها من البحار وجبال البرد قال ولله في كل سماء بيت يحج اليه و يطوف به الملائكة كل واحد منها مقابل الكعبة ولو وقعت منه حصاة ماوقعت الا على الكعبة والاقرب أن يقال قد ثبت في علم النحو أنه يكفي في حسن الاضافة أدنى سبب ولله تعالى على أهل كل سماء تكليف خاص فمن الملائكة من هو في القيام من أول خلق العالم الى قيام القيامة ومنهم

ركوع لاينتصبون ومنهم سجود لايرفعون واذا كان ذلك الامر مختصا باهل ذلك السماء
كان ذلك الامر مختصا بتلك السماء وقوله تعالى وأوحى فى كل سماء أمرها أى وكان قد
خص كل سماء بالامر المضاف اليه كقوله وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا والمعنى فكان
قد جاءها هذا مانقله الواحدى وهو عندى ضعيف لان تقدير الكلام ثم كان قد استوى الى
السماء وكان قد أوحى وهذا جمع بين الضدين لان كلمة ثم تقتضى التأخير وكلمة كان تقتضى
التقديم فالجمع بينهما يفيد التناقض ونظيره قول القائل ضربت اليوم زيدا ثم ضربت
عمرا بالامس فكما ان هذا باطل فكذا ماذكرتموه وانما يجوز تأويل كلام الله بمالا يؤدى
الى وقوع التناقض والركاكة فيه والمختار عندى أن يقال خلق السموات مقدم على خلق
الارض بقى أن يقال كيف تأويل هذه الآية فنقول الخلق ليس عبارة عن التكوين
والايجاد والدليل عليه قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له
كن فيكون فلو كان الخلق عبارة عن الايجاد والتكوين لكان تقدير الآية أوجده من
تراب ثم قال له كن فيكون وهذا محال لانه يلزم انه تعالى قد قال للشئ الذى وجد كن ثم انه
يكون وهذا محال فثبت ان الخلق ليس عبارة عن التكوين والايجاد بل هو عبارة عن
التقدير والتقدير فى حق الله تعالى هو حكمه بأنه سيوجده وقضاؤه بذلك واذا ثبت هذا
فنقول قوله خلق الارض فى يومين معناه انه قضى بحدوثه فى يومين وقضاء الله بأنه
سيحدث كذا فى مدة كذا لايقتضى حدوث ذلك الشئ فى الحال فقضاء الله تعالى
بحدوث الارض فى يومين قد تقدم على احداث السماء ولايلزم منه تقدم احداث
الارض على احداث السماء وحينئذ يزول السؤال فهذا ماوصلت اليه فى هذا الموضع
المشكل ثم قال تعالى فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين واعلم ان
ظاهر هذا الكلام يقتضى ان الله تعالى أمر السماء والارض بالاتيان فأطاعا وامتثلا
وعند هذا حصل فى هذه الآية قولان (الاول) ان نجرى هذه الآية على ظاهرها
فنقول ان الله تعالى أمرهما بالاتيان فاطاعاه قال القائلون بهذا القول وهذا غير
مستبعد ألاترى انه تعالى أمر الجبال أن تنطق مع داود عليه السلام فقال ياجبال أوبى
معه والطير والله تعالى تجلى للجبل قال فلما تجلى ربه للجبل والله تعالى أنطق الايدى
والارجل قال يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون واذا كان
كذلك فكيف يستبعد أن يخلق الله فى ذات السماء والارض حياة وعقلا وفهما ثم
يوجه الامر والتكليف عليهما ويتأكد هذا الاحتمال بوجوه (الاول) ان الاصل حمل
اللفظ على ظاهره الا اذا منع منه مانع وههنا لامانع فوجب اجراؤه على ظاهره (الثانى)
انه تعالى أخبر عنهما فقال قالتا أتينا طائعين وهذا الجمع جمع مايعقل ويعلم (والثالث) قوله
تعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وهذا يدل على
كونها عارفة بالله مخصوصة بتوجيه تكاليف الله عليها والاشكال عليه أن يقال المراد

طوال وخلق عظيم
وقد بلغ من قوتهم
أن الرجل كان ينزع
الصخرة من الجبل
فيقتلعها بيده (أولم يروا)
أى أغفلوا ولم ينظروا
ولم يعلموا علما جليا شبيها
بالمشاهدة والعيان
(ان الله الذى خلقهم
هو أشد منهم قوة) أى
قدرة فانه تعالى قادر
بالذات مقتدر على مالا
يتناهى قوى على مالا
يقدر عليه غيره مفيض
للقوى والقدر على كل
قوى وقادر وانما أورد
فى خبر الصلة خلقهم
دون خلق السموات
والارض لادعائهم
الشدة فى القوة وفيه
ضرب من التهكم بهم
(وكانوا بآياتنا) المنزلة
على الرسل (يجحدون)
أى ينكرونها وهم
يعرفون حقيتها وهو
عطف على فاستكبروا
كقوله تعالى وقالوا
ومابينهما اعتراض
للرد على كلماتهم الشنعاء
(فأرسلنا

من قوله ائتيا طوعا أو كرها الاتيان الى الوجود والحدوث والحصول وعلى هذا التقدير فمحال توجه هذا الامر كانت السموات والارض معدومة اذ لو كانت موجودة لصار حاصل هذا الامر أن يقال يا موجود كن موجودا وذلك لا يجوز فثبت أنه محال توجه هذا الامر عليها كانت معدومة واذا كانت معدومة لم تكن فاهمة ولا عارفة للخطاب فلم يجز توجيه الامر عليها فان قال قائل روى مجاهد عن ابن عباس انه قال قال الله سبحانه للسموات اطلعي شمسك وقمرك ونجومك وقال للارض شققي انهارك وأخرجي ثمارك وكان الله تعالى أودع فيهما هذه الاشياء ثم أمرهما بابرازها واظهارها فنقول فعلى هذا التقدير لا يكون المراد من قوله ائتيا طائعين حدوثهما في ذاتهما بل يصير المراد من هذا الامر أن يظهرا ما كان مودعا فيهما الا ان هذا الكلام باطل لانه تعالى قال فقضاهن سبع سموات في يومين والفاء للتعقيب وذلك يدل على ان حدوث السموات انما حصل بعد قوله ائتيا طوعا أو كرها فهذا جملة ما يمكن ذكره في هذا البحث (القول الثاني) ان قوله تعالى قال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها ليس المراد منه توجيه الامر والتكليف على السموات والارض بل المراد منه انه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع اذا ورد عليه أمر الامير المطاع ونظيره قول القائل الجدار للوتد لم تشقني قال الوتد اسأل من يدقني فان الحجر الذي ورائي ما خلاني ورائي واعلم ان هذا عدول عن الظاهر وانما جاز العدول عن الظاهر اذا قام دليل على انه لا يمكن اجراؤه على ظاهره وقد بينا ان قوله ائتيا طوعا أو كرها انما حصل قبل وجودهما واذا كان الامر كذلك امتنع حمل قوله ائتيا طوعا أو كرها على الامر والتكليف فوجب حمله على ما ذكرنا واعلم ان اثبات الامر والتكليف فيهما مشروط بحصول المأمور فيهما وهذا يدل على انه تعالى أسكن هذه السموات الملائكة وأنه تعالى أمرهم بأشياء ونهاهم عن أشياء وليس في الآية ما يدل على انه انما خلق الملائكة مع السموات أو أنه تعالى خلقهم قبل السموات ثم انه تعالى أسكنهم فيها وأيضا ليس في الآية بيان الشرائع التي أمر الملائكة بها وهذه الاسرار لا تليق بعقول البشر بل هي أعلى من مصاعد أفهامهم ومرامي أوهامهم ثم قال وزينا السماء الدنيا بمصابيح وهي النيرات التي خلقها في السموات وخص كل واحد بضوء معين وسر معين وطبيعة معينة لا يعرفها الا الله ثم قال وحفظا يعني وحفظناها حفظا يعني من الشياطين الذين يسترقون السمع وأعد لكل شيطان نجما يرميه به ولا يخطئه فمنها ما يحرق ومنها ما يقتل ومنها ما يجعله مخبلا وعن ابن عباس ان اليهود سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن خلق السموات والارض فقال خلق الله تعالى الارض في يوم الاحد والاثنين وخلق الجبال والشجر في يومين وخلق في يوم الخميس السماء وخلق في يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة ثم خلق آدم عليه السلام وأسكنه الجنة ثم قالت اليهود ثم ماذا يا محمد قال ثم استوى على العرش قالوا ثم استراح فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم

عليهم ريحا صرصرا﴾ أي باردة تهلك وتحرق بشدة بردها من الصر وهو البرد الذي يصر أي يجمع ويقبض أو عاصفة تصوت في هبوبها من الصرير (في أيام نحسات) جمع نحسة من نحس نحسا نقيض سعد سعدا وقرئ بالسكون على التخفيف أو على أنه نعت على فعل أو وصف بمصدر مبالغة قيل كن آخر شوال من الاربعاء الى الاربعاء وما عذب قوم الا في يوم الاربعاء (لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا) وقرئ لتذيقهم على اسناد الاذاقة الى الريح أو الى الايام وأضيف العذاب الى الخزي الذي هو الذل والاستكانة على وصف له كما يعرب عنه قوله سبحانه (ولعذاب الآخرة أخزى) وهو في الحقيقة وصف للمعذب وقد وصف به

فنزل قوله تعالى وما مسنا من لغوب واعلم انه تعالى لما ذكر هذه التفاصيل قال ذلك تقدير العزيز العليم والعزيز اشارة الى كمال القدرة والعليم اشارة الى كمال العلم وما أحسن هذه الخاتمة لان تلك الاعمال لا تمكن الا بقدرة كاملة وعلم محيط * قوله تعالى (فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا الا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون فأما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فارسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) اعلم ان الكلام انما ابتدئ من قوله انما الهكم اله واحد واحتج عليه بقوله قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وحاصله ان الاله الموصوف بهذه القدرة القاهرة كيف يجوز الكفر به وكيف يجوز جعل هذه الاجسام الخسيسة شركاء له فى الالهية ولما تمم تلك الحجة قال فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود وبيان ذلك لان وظيفة الحجة قد تمت على أكمل الوجوه فان بقوا مصرين على الجهل لم يبق حينئذ علاج فى حقهم الا انزال العذاب عليهم فلهذا السبب قال فان أعرضوا فقل أنذرتكم بمعنى ان أعرضوا عن قبول هذه الحجة القاهرة التى ذكرناها وأصروا على الجهل والتقليد فقل أنذرتكم والانذار هو التخويف قال المبرد والصاعقة الثائرة المهلكة لاى شئ كان وقرئ صعقة مثل صعقة عاد وثمود قال صاحب الكشاف وهى المرة من الصعق ثم قال اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم وفيه وجهان (الاول) المعنى ان الرسل المبعوثين اليهم أتوهم من كل جانب واجتهدوا بهم وأتوا بجميع وجوه الحيل فلم يروا منهم الا العتو والاعراض كما حكى الله تعالى عن الشيطان قوله ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم يعنى لآتينهم من كل جهة ولأعملن فيهم كل حيلة ويقول الرجل استدرت بفلان من كل جانب فلم تؤثر حيلتى فيه (السؤال الثانى) المعنى ان الرسل جاءتهم من قبلهم ومن بعدهم فان قيل الرسل الذين جاؤا من قبلهم ومن بعدهم كيف يمكن وصفهم بانهم جاؤهم قلنا قد جاءهم هود وصالح داعيين الى الايمان بهما وبجميع الرسل وبهذا التقدير فكان جميع الرسل قد جاؤهم ثم قال الا تعبدوا الا الله يعنى ان الرسل الذين جاؤهم من بين أيديهم ومن خلفهم أمروهم بالتوحيد ونفى الشرك قال صاحب الكشاف أن فى قوله أن لا تعبدوا الا الله بمعنى أى أو مخففة من الثقيلة أصله بانه لا تعبدوا أى بأن الشأن والحديث قولنا لكم لا تعبدوا الا الله ثم حكى الله تعالى عن أولئك الكفار انهم قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة يعنى انهم

العذاب للمبالغة (وهم لا ينصرون) بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه • (وأما ثمود فهديناهم) فدللناهم على الحق بنصب الآيات التكوينية وارسال الرسل وانزال الآيات التشريعية وأزحنا عللهم بالكلية وقد مر تحقيق معنى الهدى فى تفسير قوله تعالى هدى للمتقين وقرئ ثمود بالنصب بفعل يفسره ما بعده ومنونا فى الحالين وبضم الثاء (فاستحبوا العمى على الهدى) أى اختاروا الضلالة على الهداية (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) داهية العذاب وقارعة العذاب والهون الهوان وصف به العذاب مبالغة أو أبدل منه (بما كانوا يكسبون) من اختيار الضلالة (ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) من تلك الصاعقة

كذبوا أولئك الرسل وقالوا الدليل على كونكم كاذبين انه تعالى لو شاء ارسال الرسل الى البشر لجعل رسله من زمرة الملائكة لان ارسال الملائكة الى الخلق افضى الى المقصود من البعثة والرسالة ولما ذكروا هذه الشبهة قالوا فانا بما أرسلتم به كافرون معناه فاذا أنتم بشر ولستم بملائكة فأنتم لستم برسل واذا لم تكونوا من الرسل لم يلزمنا قبول قولكم وهو المراد من قوله فانا بما أرسلتم به كافرون واعلم انا بالغنا في الجواب عن هذه الشبهات في سورة الانعام وقوله أرسلتم به ليس باقرار منهم بكون أولئك الانبياء رسلا وانما ذكروه حكاية لكلام الرسل أو على سبيل الاستهزاء كما قال فرعون ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون * روى ان أبا جهل قال في ملأ من قريش التبس علينا أمر محمد فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والسحر والكهانة فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره فقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعت الشعر والسحر والكهانة وعلمت من ذلك علما وما يخفى على فأتاه فقال يامحمد أنت خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله لم تشتم آلهتنا وتضللنا فان كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا وان تمكن بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن أي بنات من شئت من قريش وان كان المال مرادك جمعنا لك ما تستغني به ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت فلما فرغ قال بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم الى قوله صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ورجع الى أهله ولم يخرج الى قريش فلما احتبس عنهم قالوا لا نرى عتبة الا قد صبأ فانطلقوا اليه وقالوا ياعتبة ما حبسك عنا الا أنك قد صبأت فغضب واقسم لا يكلم محمدا أبدا ثم قال والله لقد كلمته فاجابني بشئ ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة ولما بلغ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم ولقد علمت ان محمدا اذا قال شيئا لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب واعلم انه تعالى لما بين كفر قوم عاد وثمود على الاجمال بين خاصة كل واحدة من هاتين الطائفتين فقال فأما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق وهذا الاستكبار فيه وجهان (الاول) اظهار النخوة والكبر وعدم الالتفات الى الغير (والثاني) الاستعلاء على الغير واستخدامهم ثم ذكر تعالى سبب ذلك الاستكبار وهو انهم قالوا من أشد منا قوة وكانوا مخصوصين بكبر الاجسام وشدة القوة ثم انه تعالى ذكر ما يدل على انه لا يجوز لهم ان يغتروا بشدة قوتهم فقال أولم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة يعني انهم وان كانوا أقوى من غيرهم فالله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة فان كانت الزيادة في القوة توجب كون الناقص في طاعة الكامل فهذه المعاملة توجب عليهم كونهم منقادين لله تعالى خاضعين لاوامره ونواهيه واحتج أصحابنا بهذه الآية على اثبات القدرة لله فقالوا القوة ههنا هي القدرة فقوله الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة يدل على اثبات القوة لله تعالى ويتأكد هذا بقوله ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين فان قيل صيغة افعل التفضيل انما تجري بين شيئين لاحدهما مع الآخر نسبة لكن قدرة العبد متناهية وقدرة الله

ماسيأتي من قوله تعالى في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس وقرئ نحشر على بناء الفاعل ونصب أعداء الله وبنون العظمة وضم الشين وكسرها (الى النار) أي الى موقف الحساب اذ هناك تتحقق الشهادة الآتية لابعد تمام السؤال والجواب وسوقهم الى النار والتعبير عنه بالنار اما للايذان بأنها عاقبة حشرهم وانهم على شرف دخولها واما لان حسابهم يكون على شفيرها او يوم اما منصوب باذكر أو ظرف لمضمر مؤخر قد حذف ايهاما لقصور العبادة عن تفصيله كما مر في قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل وقيل ظرف لما يدل عليه قوله تعالى (فهم يوزعون) أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا وهو عبارة عن كثرتهم وقيل يساقون ويدفعون الى النار وقوله تعالى (حتى اذا ماجاؤها) أي جميعا غاية لحشر

أو ليوزعون أي حتى اذا حضروها وما مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور

لانهاية لها والمتناهي لانسبة له الى غير المتناهي فما معنى قوله ان الله أشد منهم قوة قلنا هذا ورد على قانون قولنا الله أكبر ثم قال وكانوا بآياتنا يجحدون والمعنى انهم كانوا يعرفون انها حق ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعة واعلم ان نظم الكلام أن يقال أما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق وكانوا بآياتنا يجحدون وقوله وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة اعتراض وقع في البين لتقرير السبب الداعي لهم الى الاستكبار واعلم انا ذكرنا ان مجامع الخصال الحميدة الاحسان الى الخلق والتعظيم للخالق فقوله استكبروا في الارض بغير الحق مضاد للاحسان الى الخلق وقوله وكانوا بآياتنا يجحدون مضاد للتعظيم للخالق واذا كان الامر كذلك فهم قد بلغوا في الصفات المذمومة الموجبة للهلاك والابطال الى الغاية القصوى فلهذا المعنى سلط الله العذاب عليهم فقال فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا وفي الصرصر قولان (أحدهما) انها العاصفة التي تصرصر أي تصوت في هبوبها وفي علة هذه التسمية وجوه قيل ان الرياح عند اشتداد هبوبها يسمع منها صوت يشبه صوت الصرصر فسميت هذه الرياح بهذا الاسم وقيل هو من صرير الباب وقيل من الصرة وهي الصيحة ومنه قوله تعالى فأقبلت امرأته في صرة (والقول الثاني) انها الباردة التي تحرق ببردها كما تحرق النار بحرها وأصلها من الصر وهو البرد قال تعالى كمثل ريح فيها صر وروي عن رسول الله انه قال الرياح ثمان أربع منها عذاب العاصف والصرصر والعقيم والسموم وأربع منها رحمة الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات وعن ابن عباس ان الله تعالى ما أرسل على عباده من الريح الا قدر خاتمي والمقصود انه مع قلته أهلك الكل وذلك يدل على كمال قدرته وأما قوله في أيام نحسات ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو نحسات بسكون الحاء والباقون بكسر الحاء قال صاحب الكشاف يقال نحس نحسا نقيض سعد سعدا فهو نحس وأما نحس فهو اما مخفف نحس أو صفة على فعل أو وصف بمصدر (المسئلة الثانية) استدل الاحكاميون من المنجمين بهذه الآية على ان بعض الايام قد يكون نحسا وبعضها قد يكون سعدا وقالوا هذه الآية صريحة في هذا المعنى أجاب المتكلمون بأن قالوا أيام نحسات أي ذوات غبار وتراب ثائر لا يكاد يبصر فيه ويتصرف وأيضا قالوا معنى كون هذه الايام نحسات ان الله أهلكهم فيها أجاب المستدل الاول بأن النحسات في وضع اللغة هي المشؤمات لان النحس يقابله السعد والكدر يقابله الصافي وأجاب عن السؤال الثاني ان الله تعالى أخبر عن ايقاع ذلك العذاب في تلك الايام النحسات فوجب أن يكون كون تلك الايام نحسة مغايرا لذلك العذاب الذي وقع فيها ثم قال تعالى لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا أي عذاب الهوان والذل والسبب فيه انهم استكبروا فقابل الله ذلك الاستكبار بايصال الخزي والهوان والذل اليهم ثم قال تعالى ولعذاب الآخرة أخزى أي أشد اهانة وخزيا وهم لا ينصرون أي انهم يقعون في الخزي الشديد ومع ذلك فلا يكون

(شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) في الدنيا من فنون الكفر والمعاصي بأن ينطقها الله تعالى أو يظهر عليها آثار ما اقترفوا بها وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان المراد بشهادة الجلود شهادة الفروج وهو الأنسب بتخصيص السؤال بها في قوله تعالى (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا) فان ما تشهد به من الزنا أعظم جناية وقبحا وأجلب للخزي والعقوبة مما يشهد به السمع والابصار من الجنايات المكتسبة بتوسطهما وقيل المراد بالجلود الجوارح أي سألوها سؤال توبيخ لما روي أنهم قالوا لها فعنكن كنا نناضل وفي رواية بعدا لكن وسحقا عنكن كنت أجادل وصيغة جمع العقلاء في خطاب الجلود في قوله تعالى (قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء) لوقوعها في موقع السؤال والجواب المختصين بالعقلاء أي أنطقنا الله الذي أنطق كل ناطق وأقدرنا على بيان الواقع فشهدنا عليكم بما عملتم بواسطتنا من القبائح وما كتمناها وقيل ما نطقنا باختيارنا بل أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وليس بذاك لما فيه من ايهام الاضطرار في الاخبار وقيل سألوها سؤال تعجب فالمعنى ﴿ لهم ﴾

لهم ناصر يدفع ذلك الخزي عنهم ولما ذكر الله تعالى قصة عاد اتبعه بقصة ثمود فقال وأما ثمود قال صاحب الكشاف قرئ ثمود بالرفع والنصب منونا وغير منون والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء وقرئ بضم الثاء فهديناهم أي دللناهم على طريق الخير والشر فاستحبوا العمى على الهدى أي اختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشد واعلم أن صاحب الكشاف ذكر في تفسير الهدى في قوله تعالى هدى للمتقين ان الهدى عبارة عن الدلالة الموصلة الى البغية وهذه الآية تبطل قوله لانها تدل على ان الهدى قد حصل مع ان الافضاء الى البغية لم يحصل فثبت ان قيد كونه مفضيا الى البغية غير معتبر في اسم الهدى وقد ثبت في هذه الآية سؤال يشعر بذلك الا انه لم يذكر جوابا شافيا فتركناه قالت المعتزلة هذه الآية دالة على ان الله تعالى قد نصب الدلائل وأزاح الاعذار والعلل الا ان الايمان انما حصل من العبد لان قوله وأما ثمود فهديناهم يدل على انه تعالى قد نصب لهم الدلائل وقوله فاستحبوا العمى على الهدى يدل على انهم من عند أنفسهم أتوا بذلك العمى فهذا يدل على ان الكفر والايمان يحصلان من العبد وأقول بل هذه الآية من أدل الدلائل على انهما انما يحصلان من الله لا من العبد وبيانه من وجهين (الاول) انهم انما صدر عنهم ذلك العمى لانهم أحبوا تحصيله فلما وقع في قلبهم هذه المحبة دون محبة ضده فان حصل ذلك الترجيح لا لمرجح فهو باطل وان كان المرجح هو العبد عاد الطلب وان كان المرجح هو الله فقد حصل المطلوب (الثاني) انه تعالى قال فاستحبوا العمى على الهدى ومن المعلوم بالضرورة أن أحدا لا يحب العمى والجهل مع العلم بكونه عمى وجهلا بل ما لم يظن في ذلك العمى والجهل كونه تبصرة وعلما لا يرغب فيه فاقدامه على اختيار ذلك الجهل لابد وان يكون مسبوقا بجهل آخر فان كان ذلك الجهل الثاني باختياره أيضا لزم التسلسل وهو محال فلا بد من انتهاء تلك الجهالات الى جهل يحصل فيه لا باختياره وهو المطلوب ولما وصف الله كفرهم قال فأخذتهم صاعقة العذاب الهون وصاعقة العذاب أي داهية العذاب والهون الهوان وصف به العذاب مبالغة أو أبدل منه بما كانوا يكسبون يريد من شركهم وتكذيبهم صالحا وعقرهم الناقة وشرع صاحب الكشاف ههنا في سفاهة عظيمة والاولى ان لا يلتفت اليه لانه وان كان قد سعى سعيا حسنا فيما يتعلق بالالفاظ الا ان المسكين كان بعيدا من المعاني ولما ذكر الله الوعيد أردفه بالوعد فقال ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون يعني وكانوا يتقون الاعمال التي كان يأتي بها قوم عاد وثمود فان قيل كيف يجوز لرسول صلى الله عليه وسلم أن ينذر قومه مثل صاعقة عاد وثمود مع العلم بان ذلك لا يقع في أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقد صرح الله تعالى بذلك في قوله وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وجاء في الاحاديث الصحيحة ان الله تعالى رفع عن هذه الامة هذه الانواع من الآفات قلنا انهم لما عرفوا كونهم مشاركين لعاد وثمود في استحقاق مثل تلك الصاعقة جوزوا حدوث ما يكون من جنس ذلك وان كان أقل درجة منهم وهذا القدر يكفي في

حينئذ ليس نطقنا بعجب من قدرة الله الذى أنطق كل شئ (وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون) فان من قدر على خلقكم وانشائكم أولا وعلى اعادتكم ورجعكم الى جزائه ثانيا لا يتعجب من انطاقه لجوارحكم ولعل صيغة المضارع مع أن هذه المحاورة بعد البعث والرجع لما أن المراد بالرجع ليس مجرد الرد الى الحياة بالبعث بل ما يعمه وما يترتب عليه من العذاب الخالد المترقب عند التخاطب على تغليب المتوقع على الواقع على أن فيه مراعاة الفواصل وقوله تعالى (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) حكاية لما سيقال لهم يومئذ من جهته تعالى بطريق التوبيخ والتقريع تقريرا لجواب الجلود أي ما كنتم تستترون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافة أن تشهد عليكم جوارحكم بذلك كما كنتم تستترون من الناس مخافة الافتضاح عندهم بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأسا (ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون) من القبائح المخفية فلا يظهرها في الآخرة ولذلك اجترأتم على ما فعلتم وفيه ايذان بان شهادة الجوارح باعلامه تعالى حينئذ

التخويف * قوله تعالى (ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى اذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين فان يصبروا فالنار مثوى لهم وان يستعتبوا فما هم من المعتبين) واعلم أنه تعالى لما بين كيفية عقوبة أولئك الكفار في الدنيا أردفه بكيفية عقوبتهم في الآخرة ليحصل منه تمام الاعتبار في الزجر والتحذير وقرأ نافع نحشر بالنون أعداء بالنصب أضاف الحشر الى نفسه والتقدير يحشر الله عز وجل أعداءه الكفار من الأولين والآخرين وحجته انه معطوف على قوله ونجينا فيحسن أن يكون على وفقه في اللفظ ويقويه قوله يوم نحشر المتقين وحشرناهم وأما الباقون فقرؤا على فعل ما لم يسم فاعله لأن قصته متقدمة وقوله ويوم يحشر ابتداء كلام آخر وأيضا الحاشرون لهم هم المأمورون بقوله احشروا وهم الملائكة وأيضا ان هذه القراءة موافقة لقوله فهم يوزعون وأيضا فتقدير القراءة الأولى ان الله تعالى قال ويوم نحشر أعداء الله الى النار فكان الأولى على هذا التقدير أن يقال ويوم نحشر أعداءنا الى النار واعلم انه تعالى لما ذكر أن أعداء الله يحشرون الى النار قال فهم يوزعون أي يحبس أولهم على آخرهم أي يوقف سوابقهم حتى يصل اليهم تواليهم والمقصود بيان انهم اذا اجتمعوا سئلوا عن أعمالهم ثم قال حتى اذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم وفيه مسائل (المسئلة الأولى) التقدير حتى اذا جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم وعلى هذا التقدير فكلمة ما صلة وقيل فيها فائدة زائدة وهي تأكيد ان عند مجيئهم لا بد وأن تحصل هذه الشهادة كقوله أثم اذا ما وقع آمنتم به أي لا بد لوقت وقوعه من أن يكون وقت ايمانهم به (المسئلة الثانية) روي ان العبد يقول يوم القيامة يا رب العزة ألست قد وعدتني ان لا تظلمني فيقول الله تعالى فان لك ذلك فيقول العبد اني لا أقبل على نفسي شاهدا الا من نفسي فيختم الله على فيه وينطق أعضاءه بالأعمال التي صدرت منه فذلك قوله شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم واختلف الناس في كيفية الشهادة وفيه ثلاثة أقوال (أحدها) انه تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه (والثاني) انه تعالى يخلق في تلك الأعضاء الأصوات والحروف الدالة على تلك المعاني كما خلق الكلام في الشجرة (والثالث) أن يظهر في تلك الأعضاء أحوالا تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الانسان وتلك الامارات تسمى شهادات كما يقال يشهد هذا العالم بتغيرات أحواله على حدوثه واعلم ان هذه المسئلة صعبة على المعتزلة أما القول الأول فهو صعب على مذهبهم لأن البنية عندهم شرط لحصول العقل والقدرة فاللسان مع كونه لسانا يمتنع أن يكون محلا للعلم والعقل فان خير الله تعالى تلك البنية

لا لأنها كانت حالة بما شهدت به عند صدوره عنهم * عن ابن مسعود رضي الله عنه كنت مستترا بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر ثقفيان وقرشي أو قرشيان وثقفي فقال أحدهم أترون أن الله يسمع ما نقول قال الآخر يسمع ان جهرنا ولا يسمع ان أخفينا فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى وما كنتم تستترون الآية فالحكم المحكي حينئذ يكون خاصا بمن كان على ذلك الاعتقاد من الكفرة ولعل الأنسب أن يراد بالظن معنى مجازي يعم معناه الحقيقي وما يجري مجراه من الأعمال المنبئة عنه كما في قوله تعالى يحسب أن ماله أخلده ليعم ما حكي من الحال جميع أصناف الكفرة فتدبر (وذلكم) اشارة الى ما ذكر من ظنهم وما فيه من معنى البعد للايذان بغاية بعد منزلته في الشر والسوء وهو مبتدأ وقوله تعالى (ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم) خبران له ويجوز أن يكون ظنكم بدلا وأرداكم خبرا (فأصبحتم) بسبب ذلك الظن السوء الذي أهلككم (من الخاسرين) اذ صار ما منحوا لنيل سعادة الدارين سببا لشقاء النشأتين (فان يصبروا فالنار مثوى لهم) أي محل ثواء وإقامة

والصورة تخرج عن كونه لسانا وجلدا وظاهر الآية يدل على اضافة تلك الشهادة الى السمع والبصر والجلود فان قلنا ان الله تعالى ماغير بنية هذه الاعضاء فحينئذ يمتنع علينا كونها عاقلة ناطقة فاهمة وأما القول الثاني وهو أن يقال ان الله تعالى خلق هذه الاصوات والحروف في هذه الاعضاء وهذا أيضا باطل على أصول المعتزلة لان مذهبهم أن المتكلم هو الذي فعل الكلام لاما كان موصوفا بالكلام فانهم يقولون ان الله تعالى خلق الكلام في الشجرة وكان المتكلم بذلك الكلام هو الله تعالى لا الشجرة فههنا لو قلنا ان الله خلق الاصوات والحروف في تلك الاعضاء لزم أن يكون الشاهد هو الله تعالى لا تلك الاعضاء ولزم أن يكون المتكلم بتلك الكلام هو الله لا تلك الاعضاء وظاهر القرآن يدل على أن تلك الشهادة شهادة صدرت من تلك الاعضاء لا من الله تعالى لانه تعالى قال شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم وأيضا انهم قالوا لتلك الاعضاء لم شهدتم علينا فقالت الاعضاء أنطقنا الله الذي أنطق كل شئ وكل هذه الآيات دالة على ان المتكلم بتلك الكلمات هي تلك الاعضاء وان تلك الكلمات ليست كلام الله تعالى فهذا توجيه الاشكال على هذين القولين وأما القول الثالث وهو تفسير هذه الشهادة بظهور أمارات مخصوصة على هذه الاعضاء دالة على صدور تلك الاعمال منهم فهذا عدول عن الحقيقة الى المجاز والاصل عدمه فهذا منتهى الكلام في هذا البحث أما على مذهب أصحابنا فهذا الاشكال غير لازم لان عندنا البنية ليست شرطا للحياة ولا للعلم ولا للقدرة فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق في كل جزء من أجزاء هذه الاعضاء وعلى هذا التقدير فالاشكال زائل وهذه الآية يحسن التمسك بها في بيان أن البنية ليست شرطا للحياة ولا لشئ من الصفات المشروطة بالحياة والله أعلم (المسئلة الثالثة) مارأيت للمفسرين في تخصيص هذه الاعضاء الثلاثة بالذكر سببا وفائدة وأقول لاشك ان الحواس خمسة السمع والبصر والشم والذوق واللمس ولاشك أن آلة اللمس هي الجلد فالله تعالى ذكر ههنا ثلاثة أنواع من الحواس وهي السمع والبصر واللمس وأهمل ذكر نوعين وهما الذوق والشم لان الذوق داخل في اللمس من بعض الوجوه لان ادراك الذوق انما يتأتى بان تصير جلدة اللسان والحنك مماسة لجرم الطعام فكان هذا داخلا فيه فبقي حس الشم وهو حس ضعيف في الانسان وليس لله فيه تكليف ولا أمر ولا نهي اذا عرفت هذا فنقول نقل عن ابن عباس أنه قال المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج قال هذا من باب الكنايات كما قال ولكن لا تواعدوهن سرا وأراد النكاح وقال أو جاء أحد منكم من الغائط والمراد قضاء الحاجة وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أول ما يتكلم من الآدمي فخذه وكفه وعلى هذا التقدير فتكون هذه الآية وعيدا شديدا في الاتيان بالزنا لان مقدمة الزنا انما تحصل بالكف ونهاية الامر فيه انما تحصل بالفخذ ثم حكى الله تعالى عنهم أنهم يقولون لتلك الاعضاء لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شئ وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون ومعناه

أيدية لهم بحيث لا براح لهم منها والالتفات الى الغيبة الايذان باقتضاء حالهم أن يعرض عنهم ويحكى سوء حالهم لغيرهم أو الاشعار بابعادهم عن حيز الخطاب والقائهم في غاية دركات النار (وان يستعتبوا) أي يسألوا العتبى وهو الرجوع الى ما يحبونه جزعا مما هم فيه (فما هم من المعتبين) المجابين اليها ونظيره قوله تعالى سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ٩ وقرئ وان يستعتبوا فما هم من المعتبين أي ان يسألوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون لفوات المكنة (وقيضنا لهم) أي قدرنا للكفرة في الدنيا (قرناء) جمع قرين أي أخدانا من الشياطين يستولون عليهم استيلاء القيض وهو القشر وقيل أصل القيض البدل ومنه المقايضة للمعاوضة (فزينوا لهم ما بين أيديهم) من أمور الدنيا واتباع الشهوات (وما خلفهم) من أمور الآخرة حيث أروهم ان لا بعث ولا حساب ولا مكروه قط (وحق عليهم القول) أي ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب وتحقق موجبها ومصداقها وهو قوله تعالى

---

٩ قوله وقرئ وان يستعتبوا أي بصيغة المفعول والمعتبين بصيغة الفاعل اه

لابليس فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقوله تعالى لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين كما مر مرارا (في أمم) حال من الضمير المجرور أي كائنين في جملة أمم وقيل في بمعنى مع وهذا كما ترى صريح في أن المراد بأعداء الله تعالى فيما سبق المعهودون من عاد وثمود لا الكفار من الأولين والآخرين كما قيل (قد خلت) صفة لأمم أي مضت (من قبلهم من الجن والانس) على الكفر والعصيان كدأب هؤلاء (انهم كانوا خاسرين) تعليل لاستحقاقهم العذاب والضمير للأولين والآخرين (وقال الذين كفروا) من رؤساء المشركين لأعقابهم أو قال بعضهم لبعض (لا تسمعوا لهذا القرآن) أي لا تنصتوا له (والغوا فيه) وعارضوه بالخرافات من الرجز والشعر والتصدية والمكاء أو ارفعوا أصواتكم بها لتشوشوه على القارئ بضم الغين والمعنى واحد يقال لغي يلغى كلقي يلقى ولغا يلغو اذا هذى (لعلكم تغلبون) أي تغلبونه على قراءته (فلنذيقن الذين كفروا) أي فوالله لنذيقن هؤلاء القائلين واللاغين أو جميع الكفار وهم داخلون فيهم دخولا أوليا (عذابا شديدا) لا يقادر قدره (ولنجزينهم ﴿ أي ﴾

ان القادر على خلقكم وانطاقكم في المرة الأولى حالما كنتم في الدنيا ثم على خلقكم وانطاقكم في المرة الثانية وهي حال القيامة والبعث كيف يستبعد منه انطاق الجوارح والأعضاء ثم قال تعالى وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم فالمعنى اثبات أنهم كانوا يستترون عند الاقدام على الأعمال القبيحة الا ان استتارهم ما كان لأجل خوفهم من أن تشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم وذلك لأنهم كانوا منكرين للبعث والقيامة ولكن ذلك الاستتار لأجل انهم كانوا يظنون أن الله لا يعلم الأعمال التي يقدمون عليها على سبيل الخفية والاستتار * عن ابن مسعود قال كنت مستترا بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر على ثقفيان وقرشي فقال أحدهم أترون الله يسمع ما تقولون فقال الرجلان اذا سمعنا أصواتنا سمع والا لم يسمع فذكرت ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم فنزل وما كنتم تستترون ثم قال تعالى وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين وهذا نص صريح في ان من ظن بالله تعالى انه يخرج شئ من المعلومات عن علمه فانه يكون من الهالكين الخاسرين قال أهل التحقيق الظن قسمان ظن حسن بالله تعالى وظن فاسد أما الظن الحسن فهو أن يظن به الرحمة والفضل قال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله عز وجل انا عند ظن عبدي بي وقال صلى الله عليه وسلم لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله والظن القبيح فاسد وهو أن يظن بالله تعالى أنه يعزب عن علمه بعض هذه الأحوال وقال قتادة الظن نوعان ظن منج وظن مرد فالمنجي قوله اني ظننت أني ملاق حسابيه وقوله الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأما الظن المردي فهو قوله وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم قال صاحب الكشاف وذلكم رفع بالابتداء وظنكم وأرداكم خبران ويجوز أن يكون ظنكم بدلا من ذلكم وأرداكم الخبر ثم قال فان يصبروا فالنار مثوى لهم يعني ان أمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه لم يجدوا ذلك وتكون النار مثوى لهم أي مقاما لهم وان يستعتبوا فما هم من المعتبين أي [illegible] والعتبى ولم يجابوا اليها ونظيره قوله تعالى أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص [illegible] يستعتبوا فما هم من المعتبين أي ان يسئلوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون أي لا سبيل لهم الى ذلك * قوله تعالى (وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) اعلم انه تعالى لما ذكر الوعيد الشديد في الدنيا والآخرة على كفر أولئك الكفار أردفه بذكر السبب الذي لأجله وقعوا في ذلك الكفر فقال وقيضنا لهم قرناء وفيه مسائل (المسئلة الأولى) قال صاحب الصحاح يقال قايضت الرجل مقايضة

أى عاوضته بمتاع وهما قيضان كما يقال بيعان وقيض الله فلانا لفلان أى جاءه به وأتى به له ومنه قوله تعالى وقيضنا لهم قرناء (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى يريد الكفر من الكافر فقالوا انه تعالى ذكر أنه قيض لهم أولئك القرناء وكان عالما بأنه متى قيض لهم أولئك القرناء فانهم يزينون الباطل لهم وكل من فعل فعلا وعلم أن ذلك الفعل يفضى الى أثر لامحالة فان فاعل ذلك الفعل لابد وان يكون مريدا لذلك الاثر فثبت أنه تعالى لما قيض لهم قرناء فقد أراد منهم ذلك الكفر أجاب الجبائى عنه بأن قال لو أراد المعاصى لكانوا بفعلها مطيعين اذ الفاعل لما أراده منه غيره يجب أن يكون مطيعا له وبأن قوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون يدل على انه لم يرد منهم الا العبادة فثبت بهذا أنه تعالى لم يرد منهم المعاصى واما هذه الآية فنقول انه تعالى لم يقل وقيضنا لهم قرناء ليزينوا لهم وانما قال فزينوا لهم فهو تعالى قيض القرناء لهم بمعنى انه تعالى أخرج كل أحد الى آخر من جنسه فقيض أحد الزوجين للآخر والغنى للفقير والفقير للغنى ثم بين تعالى ان بعضهم يزين المعاصى لبعض واعلم ان وجه استدلال أصحابنا ما ذكرناه وهو أن من فعل فعلا وعلم قطعا أن ذلك الفعل يفضى الى أثر فان فاعل ذلك الفعل يكون مريدا لذلك الاثر فههنا الله تعالى قيض أولئك القرناء لهم وعلم أنه متى قيض أولئك القرناء لهم فانهم يقعون فى ذلك الكفر والضلال وما ذكره الجبائى لا يدفع ذلك وقوله ولو أراد الله منهم المعاصى لكانوا بفعلها مطيعين لله قلنا لو كان من فعل ما أراده غيره مطيعا له لوجب أن يكون الله مطيعا لعباده اذا فعل ما أرادوه ومعلوم أنه باطل وأيضا فهذا الزام لفظى لانه يقال ان أردت بالطاعة انه فعل ما أراد فهذا الزام للشئ على نفسه وان أردت غيره فلا بد من بيانه حتى ينظر فيه انه هل يصح أم لا (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى المراد بقوله فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وذكر الزجاج فيه وجهين (الاول) زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة انه لا بعث ولا جنة ولا نار وما خلفهم من أمر الدنيا فزينوا ان الدنيا قديمة وانه لا فاعل ولا صانع الا الطبائع والافلاك (الثانى) زينوا لهم أعمالهم التى يعملونها ويشاهدونها وما خلفهم وما يزعمون انهم يعملونه وعبر ابن زيد عنه فقال زينوا لهم ما مضى من اعمالهم الخبيثة وما بقى من اعمالهم الخبيثة ثم قال تعالى وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين وقوله فى أمم فى محل النصب على الحال من الضمير فى عليهم والتقدير حق عليهم القول حال كونهم كائنين فى جملة أمم من المتقدمين انهم كانوا خاسرين واحتج أصحابنا ايضا بانه تعالى اخبر بانه حق عليهم القول فلو لم يكونوا كفارا لانقلب هذا القول الحق باطلا وهذا العلم جهلا وهذا الخبر الصدق كذبا وكل ذلك محال ومستلزم المحال محال فثبت ان صدور الايمان عنهم وعدم صدور الكفر عنهم محال واعلم ان الكلام فى اول السورة ابتدئ من قوله وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه الى قوله فاعمل اننا عاملون فأجاب الله تعالى عن تلك الشبهة بوجوه

أسوأ الذى كانوا يعملون) أى جزاء سيآت ﴿٣٦٧﴾ أعمالهم التى هى فى انفسها أسوأ وقيل انه لا يجازيهم بمحاسن أعمالهم كاغاثة الملهوفين وصلة الارحام وقرى الاضياف لانها محبطة بالكفر وعن ابن عباس رضى الله عنهما عذابا شديدا يوم بدر وأسوأ الذى كانوا يعملون فى الآخرة (ذلك) مبتدأ وقوله تعالى (جزاء أعداء الله) خبره اى ما ذكر من الجزاء جزاء معد لاعداء الله تعالى وقوله تعالى (النار) عطف بيان للجزاء أو ذلك خبر مبتدا محذوف أى الامر ذلك على انه عبارة عن مضمون الجملة لا عن الجزاء وما بعده جملة مستقلة مبينة لما قبلها وقوله تعالى (لهم فيها دار الخلد) جملة مستقلة مقررة لما قبلها أو النار مبتدأ هى خبره اى هى بعينها دار اقامتهم على ان فى للتجريد وهو ان ينتزع من امر ذى صفة امر آخر مثله مبالغة لكماله فيها كما يقال فى البيضة عشرون منا حديد وقيل هى على معناها والمراد ان لهم فى النار المشتملة على الدركات دارا مخصوصة هم فيها خالدون (جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون) منصوب

من الاجوبة واتصل الكلام بعضه بالبعض الى هذا الموضع ثم انه تعالى حكى عنهم شبهة أخرى فقال وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون قال صاحب الكشاف قرئ والغوا فيه بفتح الغين وضمها يقال لغي يلغى ولغا يلغو واللغو الساقط من الكلام الذى لاطائل تحته واعلم ان القوم علموا أن القرآن كلام كامل فى المعنى وفى اللفظ وأن كل من سمعه وقف على جزالة ألفاظه وأحاط عقله بمعانيه وقضى عقله بانه كلام حق واجب القبول فدبروا تدبيرا فى منع الناس عن استماعه فقال بعضهم لبعض لاتسمعوا لهذا القرآن اذا قرئ وتشاغلوا عند قراءته برفع الاصوات بالخرافات والاشعار الفاسدة والكلمات الباطلة حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوا على قراءته كانت قريش يوصى بذلك بعضهم بعضا والمراد افعلوا عند تلاوة القرآن مايكون لغوا وباطلا لتخرجوا قراءة القرآن عن أن تصير مفهومة للناس فبهذا الطريق تغلبون محمدا صلى الله عليه وسلم وهذا جهل منهم لانهم فى الحال أقروا بانهم مشتغلون باللغو والباطل من العمل والله تعالى ينصر محمدا بفضله ولما ذكر الله تعالى ذلك هددهم بالعذاب الشديد فقال فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا لان لفظ الذوق انما يذكر فى القدر القليل الذى يؤتى به لاجل التجربة ثم انه تعالى ذكر أن ذلك الذوق عذاب شديد فاذا كان القليل منه عذابا شديدا فكيف يكون حال الكثير منه ثم قال ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون واختلفوا فيه فقال الاكثرون المراد جزاء سوء أعمالهم وقال الحسن بل المراد أنه لايجازيهم على محاسن أعمالهم لانهم أحبطوها بالكفر فضاعت تلك الاعمال الحسنة عنهم ولم يبق معهم الا الاعمال القبيحة الباطلة فلاجرم لم يحصلوا الا على جزاء السيآت ثم قال تعالى ذلك جزاء أعداء الله النار والمعنى انه تعالى لما قال فى الآية المتقدمة ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون بين أن ذلك الاسوأ الذى جعل جزاء أعداء الله هو النار ثم قال تعالى لهم فيها دار الخلد أى لهم فى جملة النار دار السيآت معينة وهى دار العذاب المخلد لهم جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون أى جزاء بما كانوا يلغون فى القراءة وانما سماه جحودا لانهم لما علموا ان القرآن بالغ الى حد الاعجاز خافوا من انه لو سمعه الناس لآمنوا به فاستخرجوا تلك الطريقة الفاسدة وذلك يدل على انهم علموا كونه معجزا الا انهم جحدوا للحسد واعلم انه تعالى لما بين ان الذى حملهم على الكفر الموجب للعقاب الشديد مجالسة قرناء السوء بين ان الكفار عند الوقوع فى العذاب الشديد يقولون ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والانس والسبب فى ذكر هذين القسمين ان الشيطان على ضربين جنى وانسى قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن وقال الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس وقيل هما ابليس وقابيل لان الكفر سنة ابليس والقتل بغير حق سنة قابيل وقرئ أرنا بسكون الراء لثقل الكسرة كما قالوا فى فخذ فخذ وقيل معناه أعطنا اللذين أضلانا وحكوا عن الخليل انك اذا قلت أرنى ثوبك بالكسر فالمعنى بصرنيه واذا قلته بالسكون فهو

بفعل مقدر اى يجزون جزاء او بالمصدر السابق فان المصدر ينتصب بمثله كما فى قوله تعالى فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا والباء الاولى متعلقة بجزاء والثانية بيجحدون قدمت عليه لمراعاة الفواصل اى بسبب ماكانوا يجحدون بآياتنا الحقة او يلغون فيها وذكر الجحود لكونه سببا للغو (وقال الذين كفروا) وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب (ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس) يعنون فريقى شياطين النوعين المقيضين لهم الحاملين لهم على الكفر والمعاصى بالتسويل والتزيين وقيل هما ابليس وقابيل فانهما سنا الكفر والقتل بغير حق وقرئ أرنا تخفيفا كفخذ فى فخذ وقيل معناه اعطناهما وقرئ باختلاس كسرة الراء (نجعلهما تحت اقدامنا) أى ندسهما انتقاما منهما وقيل نجعلهما فى الدرك الاسفل (ليكونا من الاسفلين) اى ذلا ومهانة ومكانا

(ان الذين قالوا ربنا الله) شروع فى بيان حسن أحوال المؤمنين فى الدنيا والآخرة بعد بيان سوء حال الكفرة فيهما أى قالوه اعترافا بربوبيته تعالى واقرارا بوحدانيته ﴿ ٣٦٩ ﴾ (ثم استقاموا) أى ثبتوا على الاقرار ومقتضياته على أن ثم للتراخى فى الزمان أو فى الرتبة فان الاستقامة لها الشان كله وما روى عن الخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم فى معناها من الثبات على الايمان واخلاص العمل وأداء الفرائض بيان لجزئياتها (تتنزل عليهم الملائكة) من جهته تعالى بما يهمهم فيما يعن لهم من الامور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الالهام كما أن الكفرة يغويهم ما قيض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح وقيل تتنزل عند الموت بالبشرى وقيل اذا قاموا من قبورهم وقيل البشرى فى مواطن ثلاثة عند الموت وفى القبر وعند البعث والاظهر هو العموم والاطلاق كما ستعرفه (أن لا تخافوا) ما تقدمون عليه فان الخوف غم يلحق لتوقع المكروه (ولا تحزنوا) على ما خلفتم فانه غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار

وقيل المراد نفي ﴿ ٤٧ ﴾ سا عن العموم على الاطلاق والمعنى ان الله تعالى

استعطاء معناه أعطني ثوبك ثم قال تعالى نجعلهما تحت أقدامنا قال مقاتل يكونان أسفل منا فى النار ليكونا من الاسفلين قال الزجاج ليكونا فى الدرك الاسفل من النار وكان بعض تلامذتى ممن يميل الى الحكمة يقول المراد باللذين يضلان الشهوة والغضب واليهما الاشارة فى قصة الملائكة بقوله أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ثم قال والمراد بقوله نجعلهما تحت أقدامنا يعني يا ربنا أعنا حتى نجعل الشهوة والغضب تحت أقدام جوهر النفس القدسية والمراد بكونهما تحت أقدامه كونهما مسخرين للنفس القدسية مطيعين لها وأن لا يكونا مستولين عليها قاهرين لها ☆ قوله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم) اعلم أنه تعالى لما أطنب فى الوعيد أردفه بهذا الوعد الشريف وهذا ترتيب لطيف مدار كل القرآن عليه وقد ذكرنا مرارا أن الكمالات على ثلاثة أقسام النفسانية والبدنية والخارجية وأشرف المراتب النفسانية وأوسطها البدنية وأدونها الخارجية وذكرنا أن الكمالات النفسانية محصورة فى نوعين العلم اليقيني والعمل الصالح فان أهل التحقيق قالوا كمال الانسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به ورأس المعارف اليقينية ورئيسها معرفة الله واليه الاشارة بقوله ان الذين قالوا ربنا الله ورأس الاعمال الصالحة ورئيسها أن يكون الانسان مستقيما فى الوسط غير مائل الى طرفى الافراط والتفريط كما قال وكذلك جعلناكم أمة وسطا وقال أيضا اهدنا الصراط المستقيم واليه الاشارة فى هذه الآية بقوله ثم استقاموا وسمعت أن قارئا قرأ عند بعض العباد هذه الآية فقال العابد والبادية فى القيامة بقدر الاستقامة اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ليس المراد منه القول باللسان فقط لان ذلك لا يفيد الاستقامة فلما ذكر عقيب ذلك القول الاستقامة علمنا أن ذلك القول كان مقرونا باليقين التام والمعرفة الحقيقية اذا عرفت هذا فنقول فى الاستقامة قولان (أحدهما) ان المراد منه الاستقامة فى الدين والتوحيد والمعرفة (والثانى) أن المراد منه الاستقامة فى الاعمال الصالحة أما على القول الاول ففيه عبارات قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ثم استقاموا أى لم يلتفتوا الى اله غيره قال ابن عباس فى بعض الروايات هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وذلك أن أبا بكر رضى الله عنه وقع فى أنواع شديدة من البلاء والمحنة ولم يتغير البتة عن دينه فكان هو الذى قال ربنا الله وبقى مستقيما عليه لم يتغير بسبب من الاسباب وأقول يمكن فيه وجوه أخرى وذلك ان من أقر بان لهذا العالم الها بقيت له مقامات أخرى (فأولها) أن لا يتوغل فى جانب النفى الى حيث ينتهى الى التعطيل ولا يتوغل فى جانب الاثبات الى حيث ينتهى الى التشبيه بل يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل وأيضا يجب أن يبقى على الخط المستقيم الفاصل

بين الجبر والقدر وكذا في الرجاء والقنوط يجب أن يكون على الخط المستقيم فهذا هو المراد من قوله ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وأما على القول الثاني وهو أن تحمل الاستقامة على الاتيان بالاعمال الصالحة فهذا قول جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين قالوا وهذا أولى حتى يكون قوله ان الذين قالوا ربنا الله متناولا للقول والاعتقاد ويكون قوله ثم استقاموا متناولا للاعمال الصالحة ثم قال تتنزل عليهم الملائكة قيل عند الموت وقيل في مواقف ثلاثة عند الموت وفي القبر وعند البعث الى القيامة أن لاتخافوا ان بمعنى أي أومخففة من الثقيلة وأصله بأنه لاتخافوا والهاء ضمير الشان واعلم ان الغاية القصوى في رعاية المصالح دفع المضار وجلب المنافع ومعلوم ان دفع المضرة أولى بالرعاية من جلب المصلحة والمضرة أما ان تكون حاصلة في المستقبل أو في الحال أو في الماضي وههنا دقيقة عقلية وهي ان المستقبل مقدم على الحاضر والحاضر مقدم على الماضي فان الشئ الذي لم يوجد ويتوقع حدوثه يكون مستقبلا فاذا وجد يصير حاضرا فاذا عدم وفني بعد ذلك يصير ماضيا وأيضا المستقبل في كل ساعة يصير أقرب حصولا والماضي في كل حالة ابعد حصولا ولهذا قال الشاعر

فلا زال ماتهواه أقرب من غد ❊ ولازال ماتخشاه أبعد من أمس

واذا ثبت هذا فالمضار التي يتوقع حصولها في المستقبل أولى بالدفع من المضار الماضية وأيضا الخوف عبارة عن تألم القلب بسبب توقع حصول مضرة في المستقبل والغم عبارة عن تألم القلب بسبب فوت نفع كان موجودا في الماضي واذا كان كذلك فدفع الخوف أولى من دفع الحزن الحاصل بسبب الغم اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى اخبر عن الملائكة انهم في أول الامر يخبرون بأنه لاخوف عليكم بسبب ماتستقبلونه من أحوال القيامة ثم يخبرون بانه لاحزن عليكم بسبب مافاتكم من أحوال الدنيا وعند حصول هذين الامرين فقد زالت المضار والمتاعب بالكلية ثم بعد الفراغ منه يبشرون بحصول المنافع وهو قوله تعالى وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون فان قيل البشارة عبارة عن الخبر الاول بحصول المنافع فاما اذا أخبر الرجل بحصول منفعة ثم أخبر ثانيا بحصولها كان الاخبار الثاني اخبارا ولا يكون بشارة والمؤمن قد يسمع بشارات الخير فاذا سمع المؤمن هذا الخبر من الملائكة وجب أن يكون هذا اخبارا ولا يكون بشارة فما السبب في تسمية هذا الخبر بالبشارة قلنا المؤمن يسمع ان من كان مؤمنا تقيا كان له الجنة امامن لم يسمع البتة انه من أهل الجنة فاذا سمع هذا الكلام من الملائكة كان هذا اخبارا بنفع عظيم مع انه هو الخبر الاول بذلك فكان ذلك بشارة واعلم ان هذا الكلام يدل على ان المؤمن عند الموت وفي القبر وعند البعث لايكون فازعا من الاهوال ومن الفزع الشديد بل يكون آمن القلب ساكن الصدر لان قوله أن لاتخافوا ولاتحزنوا يفيد نفي الخوف والحزن على الاطلاق ثم انه تعالى أخبر عن الملائكة انهم قالوا للمؤمنين نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة

سروا (بالجنة التي كنتم توعدون) في الدنيا على السنة الرسل هذا من بشاراتهم في أحد المواطن الثلاثة وقوله تعالى (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا) الخ من بشاراتهم في الدنيا أي أعوانكم في أموركم نلهمكم الحق ونرشدكم الى مافيه خيركم وصلاحكم ولعل ذلك عبارة عما يخطر ببال المؤمنين المستمرين على الطاعات من أن ذلك بتوفيق الله تعالى وتأييده لهم بواسطة الملائكة عليهم السلام (وفي الآخرة) نمدكم بالشفاعة ونتلقاكم بالكرامة حين يقع بين الكفرة وقرنائهم مايقع من التعادي والخصام (ولكم فيها) أي في الآخرة (ماتشتهي أنفسكم) من فنون الطيبات (ولكم فيها ماتدعون) ماتتمنون افتعال من الدعاء بمعنى الطلب أي تدعون لانفسكم وهو أعم من الاول ولكم في الوضعين خبر وما مبتدأ وفيها حال من ضميره في الخبر وعدم الاكتفاء بعطف ماتدعون على ماتشتهي للاشباع في البشارة والايذان باستقلال كل ﴿ وهذا ﴾

وهذا فى مقابلة ماذكره فى وعيد الكفار حيث قال وقيضنا لهم قرناء ومعنى كونهم أولياء للمؤمنين ان للملائكة تأثيرات فى الارواح البشرية بالالهامات والمكاشفات اليقينية والمقامات الحقيقية كما ان للشياطين تأثيرات فى الارواح بالقاء الوساوس فيها وتخييل الاباطيل اليها وبالجملة فكون الملائكة أولياء للارواح الطيبة الطاهرة حاصل من جهات كثيرة معلومة لارباب المكاشفات والمشاهدات فهم يقولون كما ان تلك الولاية كانت حاصلة فى الدنيا فهى تكون باقية فى الآخرة فان تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى وذلك لان جوهر النفس من جنس الملائكة وهى كالشعلة بالنسبة الى الشمس والقطرة بالنسبة الى البحر والتعلقات الجسمانية هى التى تحول بينها وبين الملائكة كما قال صلى الله عليه وسلم لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السموات فاذا زالت العلائق الجسمانية والتدبيرات البدنية فقد زال الغطاء والوطاء فيتصل الاثر بالمؤثر والقطرة بالبحر والشعلة بالشمس فهذا هو المراد من قوله نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ثم قال ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون قال ابن عباس قوله ولكم فيها ماتدعون أى ماتتمنون كقوله تعالى لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون فان قيل فعلى هذا التفسير لايبقى فرق بين قوله ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم وبين قوله ولكم فيها ماتدعون قلنا الاقرب عندى ان قوله ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم اشارة الى الجنة الجسمانية وقوله ولكم فيها ماتدعون اشارة الى الجنة الروحانية المذكورة فى قوله دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ثم قال نزلا من غفور رحيم والنزل رزق النزيل وهو الضيف وانتصابه على الحال قال العارفون دلت هذه الآية على ان كل هذه الاشياء المذكورة جارية مجرى النزل والكريم اذا أعطى النزل فلابد وان يبعث الخلع النفيسة بعدها وتلك الخلع النفيسة ليست الا السعادات الحاصلة عند الرؤية والتجلى والكشف التام نسأل الله تعالى أن يجعلنا اهلا بفضله وكرمه انه قريب مجيب * قوله تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين ولاتستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ومايلقاها الا الذين صبروا ومايلقاها الا ذو حظ عظيم واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم) اعلم أن فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) انا ذكرنا ان الكلام من أول هذه السورة انما ابتدئ حيث قالوا للرسول قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه ومرادهم ان لانقبل قولك ولانلتفت الى دليلك ثم ذكروا طريقة أخرى فى السفاهة فقالوا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وانه سبحانه ذكر الاجوبة الشافية والبيانات الكافية فى هذه الشبهات وازالة هذه الضلالات ثم انه سبحانه وتعالى بين ان القوم وان أتوا بهذه الكلمات الفاسدة الا انه يجب عليك تتابع المواظبة على التبليغ

منهما (نزلا من غفور رحيم) حال مما تدعون مفيدة لكون ما يتمنونه بالنسبة الى مايعطون من عظائم الاجور كالنزل للضيف (ومن أحسن قولا ممن دعا ﴿ ٢٧١ ﴾ الى الله) أى الى توحيده تعالى وطاعته * عن ابن عباس رضى الله عنهما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الى الاسلام وعنه انهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت فى المؤذنين والحق أن حكمها عام لكل من جمع ما فيها من الخصال الحميدة وان نزلت فيمن ذكر (وعمل صالحا) فيما بينه وبين ربه (وقال اننى من المسلمين) ابتهاجا بأنه منهم أو اتخاذا للاسلام دينا ونحلة من قولهم هذا قول فلان أى مذهبه لا أنه تكلم بذلك وقرئ انى بنون واحدة (ولاتستوى الحسنة ولا السيئة) جملة مستأنفة سيقت لبيان محاسن الاعمال الجارية بين العباد اثر بيان محاسن الاعمال الجارية بين العبد وبين الرب عز وجل ترغيبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصبر على اذية المشركين ومقابلة اساءتهم بالاحسان أى لاتستوى الخصلة الحسنة والسيئة فى الآثار والاحكام ولا الثانية مزيدة لتأكيد النفى وقوله تعالى (ادفع بالتى هى أحسن) الخ استئناف مبين لحسن عاقبة الحسنة أى ادفع السيئة حيث اعترضتك

والدعوة فان الدعوة الى الدين الحق أكمل الطاعات ورأس العبادات وعبر عن هذا المعنى فقال ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين فهذا وجه شريف حسن في نظم آيات هذه السورة وفيه وجه آخر وهو أن مراتب السعادات اثنان التام وفوق التام اما التام فهو ان يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملا في ذاته فاذا فرغ من هذه الدرجة اشتغل بعدها بتكميل الناقصين وهو فوق التام اذا عرفت هذا فنقول ان قوله ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا اشارة الى المرتبة الاولى وهي اكتساب الاحوال التي تفيد كمال النفس في جوهرها فاذا حصل الفراغ من هذه المرتبة وجب الانتقال الى المرتبة الثانية وهي الاشتغال بتكميل الناقصين وذلك انما يكون بدعوة الخلق الى الدين الحق وهو المراد من قوله ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله فهذا أيضا وجه حسن في نظم هذه الآيات واعلم أن من آتاه الله قريحة قوية ونصابا وافيا من العلوم الالهية الكشفية عرف انه لا ترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن (المسئلة الثانية) من الناس من قال المراد من قوله ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله هو الرسول صلى الله عليه وسلم ومنهم من قال هم المؤذنون ولكن الحق المقطوع به ان كل من دعا الى الله بطريق من الطرق فهو داخل فيه وللدعوة الى الله مراتب (فالمرتبة الاولى) دعوة الانبياء عليهم السلام ودعوتهم راجحة على دعوة غيرهم من وجوه (أحدها) انهم جمعوا بين الدعوة بالحجة أولا ثم الدعوة بالسيف ثانيا وقلما اتفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين (وثانيها) انهم هم المبتدئون بهذه الدعوة وأما العلماء فانهم يبنون دعوتهم على دعوة الانبياء والشارع في احداث الامر الشريف على طريق الابتداء أفضل (وثالثها) ان نفوسهم أقوى قوة وأرواحهم أصفى جوهرا فكانت تأثيراتها في احياء القلوب الميتة واشراق الارواح الكدرة أكمل فكانت دعوتهم أفضل (ورابعها) ان النفوس على ثلاثة أقسام ناقصة وكاملة لا تقوى على تكميل الناقصين وكاملة تقوى على تكميل الناقصين (فالقسم الاول) العوام (والقسم الثاني) هم الاولياء (والقسم الثالث) هم الانبياء ولهذا السبب قال صلى الله عليه وسلم علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل واذا عرفت هذا فنقول ان نفوس الانبياء حصلت لها مزيتان الكمال في الذات والتكميل للغير فكانت قوتهم على الدعوة أقوى وكانت درجاتهم أفضل وأكمل اذا عرفت هذا فنقول الانبياء عليهم السلام لهم صفتان العلم والقدرة اما العلماء فهم نواب الانبياء في العلم وأما الملوك فهم نواب الانبياء في القدرة والعلم يوجب الاستيلاء على الارواح والقدرة توجب الاستيلاء على الاجساد فالعلماء خلفاء الانبياء في عالم الارواح والملوك خلفاء الانبياء في عالم الاجساد واذا عرفت هذا ظهر أن اكمل الدرجات في الدعوة الى الله بعد الانبياء درجة العلماء ثم العلماء على ثلاثة أقسام العلماء بالله والعلماء بصفات الله والعلماء باحكام الله اما العلماء بالله فهم الحكماء الذين قال الله تعالى في حقهم يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت

من بعض اغاديك بالتي هي احسن ما يمكن دفعها به من الحسنات كالاحسان الى من أساء فانه أحسن من العفو واخراجه مخرج الجواب عن سؤال من قال كيف أصنع للمبالغة ولذلك وضع ﴿ ٣٧٢ ﴾ احسن موضع الحسنة وقوله تعالى (فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) بيان لنتيجة الدفع المأمور به أي فاذا فعلت ذلك صار عدوك المشاق مثل الولي الشفيق (وما يلقاها) أي ما يؤتى هذه الخصلة والسجية التي هي مقابلة الاساءة بالاحسان (الا الذين صبروا) أي شأنهم الصبر (وما يلقاها الا ذو حظ عظيم) من الخير وكمال النفس وقيل الحظ العظيم الجنة وقيل هو الثواب قيل نزلت في أبي سفيان بن حرب وكان مؤذيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فصار وليا مصافيا (واما ينزغنك من الشيطان نزغ) النزغ والنسغ بمعنى وهو شبه به وسوسة الشيطان لانها بعث على الشر وجعل نازغا على طريقة جد جده أو أريد واما ينزغنك نازغ وصفا للشيطان بالمصدر أي وان صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن (فاستعذ بالله) من شره ولا تطعه (انه هو السميع) باستعاذتك (العليم) بنيتك أو بصلاحك وفي جعل ترك

الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وأما العلماء بصفات الله تعالى فهم أصحاب الاصول وأما العلماء باحكام الله فهم الفقهاء ولكل واحد من هذه المقامات ثلاث درجات لانهاية لها فلهذا السبب كان للدعوة الى الله درجات لانهاية لها وأما الملوك فهم أيضا يدعون الى دين الله بالسيف وذلك بوجهين امابتحصيله عند عدمه مثل المحاربة مع الكفار واما بابقائه عند وجوده وذلك مثل قولنا المرتد يقتل وأما المؤذنون فهم يدخلون في هذا الباب دخولا ضعيفا امادخولهم فيه فلأن ذكر كلمات الاذان دعوة الى الصلاة فكان ذلك داخلا تحت الدعاء الى الله واما كون هذه المرتبة ضعيفة فلان الظاهر من حال المؤذن انه لايحيط بمعانى تلك الكلمات وبتقدير أن يكون محيطا بها الاانه لايريد بذكرها تلك المعانى الشريفة فهذا هو الكلام فى مراتب الدعوة الى الله (المسئلة الثالثة) قوله ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله يدل على أن الدعوة الى الله أحسن من كل ماسواها اذا عرفت هذا فنقول كل ما كان أحسن الاعمال وجب أن يكون واجبا لان كل مالايكون واجبا فالواجب أحسن منه فثبت أن كل ماكان أحسن الاعمال فهو واجب اذا عرفت هذا فنقول الدعوة الى الله أحسن الاعمال بمقتضى هذه الآية وكل ماكان أحسن الاعمال فهو واجب ثم ينتج أن الدعوة الى الله واجبة ثم نقول الأذان دعوة الى الله والدعوة اليه واجبة فينتج الاذان واجب واعلم أن الاكثرين من الفقهاء زعموا أن الاذان غير واجب وزعموا أن الاذان غير داخل فى هذه الآية والدليل القاطع عليه ان الدعوة المرادة بهذه الآية يجب أن تكون أحسن الاقوال وثبت أن الاذان ليس أحسن الاقوال لان الدعوة الى دين الله سبحانه وتعالى بالدلائل اليقينية احسن من الاذان ينتج من الشكل الثانى ان الداخل تحت هذه الآية ليس هو الاذان (المسئلة الرابعة) اختلف الناس فى أن الاولى ان يقول الرجل أنامسلم أو الاولى أن يقول أنامسلم ان شاء الله فالقائلون بالقول الاول احتجوا على صحة قولهم بهذه الآية فان التقدير ومن أحسن قولا ممن قال انى من المسلمين فحكم بأن هذا القول أحسن الاقوال ولو كان قولنا ان شاء الله معتبرا فى كونه أحسن الاقوال لبطل مادل عليه ظاهر هذه الآية (المسئلة الخامسة) الآية تدل على أن أحسن الاقوال قول من جمع بين خصال ثلاثة (أولها) الدعوة الى الله (وثانيها) العمل الصالح (وثالثها) ان يكون من المسلمين أما الدعوة الى الله فقد شرحناها وهى عبارة عن الدعوة الى الله باقامة الدلائل اليقينية والبراهين القطعية وأما قوله وعمل صالحا فاعلم أن العمل الصالح اما أن يكون عمل القلب وهو المعرفة أو عمل الجوارح وهو سائر الطاعات واما قوله وقال اننى من المسلمين فهو ان ينضم الى عمل القلب وعمل الجوارح الاقوال باللسان فيكون هذا الرجل موصوفا بخصال أربعة (أحدها) الاقرار باللسان (والثانى) الاعمال الصالحة بالجوارح (والثالث) الاعتقاد الحق بالقلب (والرابع) الاشتغال باقامة الحجة على دين الله ولاشك ان الموصوف

بهذه الخصال الاربعة أشرف الناس وأفضلهم وكمال الدرجة فى هذه المراتب الاربعة ليس الالمحمد صلى الله عليه وسلم ثم قال تعالى ولاتستوى الحسنة ولاالسيئة واعلم انا بينا أن الكلام من اول السورة ابتدئ من ان الله حكى عنهم انهم قالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه فاظهروا من أنفسهم الاصرار الشديد على أديانهم القديمة وعدم التأثر بدلائل محمد صلى الله عليه وسلم ثم انه تعالى أطنب فى الجواب عنه وذكر الوجوه الكثيرة وأردفها بالوعد والوعيد ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهى قولهم لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وأجاب عنها أيضا بالوجوه الكثيرة ثم انه تعالى بعد الاطناب فى الجواب عن تلك الشبهات رغب محمدا صلى الله عليه وسلم فى أن لايترك الدعوة الى الله فابتدأ أولا بأن قال ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وافلهم الثواب العظيم ثم ترقى من تلك الدرجة الى درجة أخرى وهى ان الدعوة الى الله من أعظم الدرجات فصار الكلام من أول السورة الى هذا الموضع واقعا على أحسن وجه ترتيب ثم كأن سائلا سأل فقال ان الدعوة الى الله وان كانت طاعة عظيمة الا ان الصبر على سفاهة هؤلاء الكفار شديد لاطاقة لنا به فعند هذا ذكر الله ما يصلح لان يكون دافعا لهذا الاشكال فقال ولاتستوى الحسنة ولاالسيئة والمراد بالحسنة دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم الى الدين الحق والصبر على جهالة الكفار وترك الانتقام وترك الالتفات اليهم والمراد بالسيئة ما اظهروه من الجلافة فى قولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وماذكروه فى قولهم لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه فكأنه قال يا محمد فعلك حسنة وفعلهم سيئة ولاتستوى الحسنة ولاالسيئة بمعنى انك اذا أتيت بهذه الحسنة تكون مستوجبا للتعظيم فى الدنيا والثواب فى الآخرة وهم بالضد من ذلك فلا ينبغى أن يكون اقدامهم على تلك السيئة مانعا لك من الاشتغال بهذه الحسنة ثم قال ادفع بالتى هى أحسن يعنى ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق الذى هو أحسن الطرق فانك اذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى ولم تقابل سفاهتهم بالغضب ولا اضرارهم بالايذاء والايحاش استحيوا من تلك الاخلاق المذمومة وتركوا تلك الافعال القبيحة ثم قال فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم يعنى اذا قابلت اساءتهم بالاحسان وافعالهم القبيحة بالافعال الحسنة تركوا افعالهم القبيحة وانقلبوا من العداوة الى المحبة ومن البغضة الى المودة ولما أرشد الله تعالى الى هذا الطريق النافع فى الدين والدنيا والآخرة عظمه فقال وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الاذوحظ عظيم قال الزجاج أى وما يلقى هذه الفعلة الا الذين صبروا على تحمل المكاره وتجرع الشدائد وكظم الغيظ وترك الانتقام ثم قال وما يلقاها الاذو حظ عظيم من الفضائل النفسانية والدرجة العالية فى القوة الروحانية فان الاشتغال بالانتقام والدفع لايحصل الابعد تأثر النفس وتأثر النفس من الواردات الخارجية لايحصل الا عند ضعف النفس فاما اذا كانت النفس قوية الجوهر لم تتأثر من الواردات الخارجية واذا لم تتأثر منها

لم تصعب ولم تتأذ ولم تشتغل بالانتقام فثبت أن هذه السيرة التي شرحناها لا يلقاها الا ذو حظ
عظيم من قوة النفس وصفاء الجوهر وطهارة الذات ويحتمل أن يكون المراد وما يلقاها
الا ذو حظ عظيم من ثواب الآخرة فعلى هذا الوجه قوله وما يلقاها الا الذين صـ...
بفعل الصبر وقوله وما يلقاها الا ذو حظ عظيم وعد بأعظم الحظ من الثواب ... طريقا
الطريق الحسن الكامل في دفع الغضب والانتقام وفي ترك الخصومة ذ... بالله انه هو
آخر عظيم النفع أيضا في هذا الباب فقال واما ينزغنك من الشيطان ... سورة الاعراف
السميع العليم وهذه الآية مع ما فيها من الفوائد الجليلة مفسر ... وهو شبه النخس
على الاستقصاء قال صاحب الكشاف النزغ والنسغ ... النزغ نازغا كما قيل جد
والشيطان ينزغ الانسان كأنه ينخسه يبعثه على ما لا ينبغي ... فالمقصود من الآية وان
جده أو أراد بدوا ما ينزغنك نازغ وصفا للشيطان بالصدر ... بالله من شره وامض على
صرفك الشيطان عما شرعت من الدفع التي هي أحسن ... والشمس والقمر لا تسجدوا
شأنك ولا تطعه والله أعلم * قوله تعالى ... آياته الليل ... اياه تعبدون فان استكبروا فالذين
للشمس ولا للقمر واسجدوا لله ... لا يسأمون ... ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة فاذا
عند ربك يسبحون له بالليل والنهار ... أحياها ... الموتى انه على كل شئ قدير) اعلم أنه
أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان ... الاعمال والاقوال هو الدعوة الى الله تعالى
تعالى لما بين في الآية المتقدمة ان ... قدرته وحكمته تنبيها على أن الدعوة الى الله
اردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله ... ذات الله وصفاته فهذه تنبيهات شريفة مستفادة
تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ... لطائف أحسن علوم القرآن وقد عرفت أن
من تناسق هذه الآيات فكان العلم ... هي العالم بجميع ما فيه من الاجزاء والابعاض
الدلائل الدالة على هذه المطالب ... ار وانما قدم ذكر الليل على ذكر النهار تنبيها على
فبدأ ههنا بذكر الفلكيات وهي ... سابق على الوجود فهذا كالتنبيه على حدوث هذه
أن الظلمة عدم والنور موجود ... الافلاك وسائر الكواكب على وجود الصانع فقد
الاشياء وأما دلالة الشمس وا... ـنها في تفسير قوله الحمد لله رب العالمين وفي تفسير قوله
شرحناها في هذا الكتاب ... ض ولما بين أن الشمس والقمر محدثان وهما دليلان
الحمد لله الذي خلق السموات ... تسجدوا للشمس ولا للقمر يعني انهما عبدان دليلان على
على وجود الاله القادر قال ... غاية التعظيم فهي لا تليق الا بمن كان أشرف الموجودات
وجود الاله واسجدوا عبارة ... لانهما عبدان مخلوقان واسجدوا لله الخالق القادر
فقال لا تسجدوا للشمس ... لليل والنهار والشمس والقمر لان حكم جماعة ما لا يعقل
الحكم والضمير في قوله خلـ... الام بريتها وبريتهن ولما قال ومن آياته كن في معنى الاناث
حكم الانثى والاناث يقال ... اياه تعبدون لان ناسا كانوا يسجدون للشمس والقمر
فقال خلقهن وانما قال ان ...

من جملة مخلوقاته المسخرة لاوامره مثلكم (واسجدوا لله الذي خلقهن) لان حكم جماعة ما لا يعقل حكم الانثى أو الاناث أو لانها عبارة عن الآيات وتعليق الفعل بالكل مع كفاية بيان مخلوقية الشمس والقمر للايذان بكمال سقوطهما عن رتبة المسجودية بنظمهما في المخلوقية في سلك الاعراض التي لا قيام لها بذاتها وهو السر في نظم الكل في سلك آياته تعالى (ان كنتم اياه تعبدون) فان السجود أقصى مراتب العبادة فلا بد من تخصيصه به سبحانه وهو موضع السجود عند الشافعي رحمه الله وعندنا آخر الآية الاخرى لانه تمام المعنى (فان استكبروا) عن الامتثال (فالذين عند ربك) من الملائكة (يسبحون له بالليل والنهار) أي دائما (وهم لا يسأمون) لا يفترون ولا يملون وقرئ لا يسأمون بكسر الياء (ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة) يابسة متطامنة مستعار من الخشوع بمعنى التذلل (فاذا أنزلنا عليها الماء) أي المطر (اهتزت

كالصابئين في عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله فنهوا عن هذه الواسطة وأمروا أن لا يسجدوا الا الله الذي خلق هذه الاشياء فان قيل اذا كان لابد في الصلاة من قبلة معينة فلو جعلنا الشمس قبلة معينة عند السجود كان ذلك أ... الشمس جوهر مشرق عظيم الرفعة عالي الدرجة فلو أذن الشرع في جعلها قبلة في الصلوات ... للشمس لا لله ... داعتياد السجود الى جانب الشمس ربما غلب على الاوهام ان ذلك السجود قبلة للسجود ... لاجل الخوف من هذا المحذور نهى الشارع الحكيم عن جعل الشمس حاصلا والمحذور المذ... الحجر المعين فانه ليس فيه ما يوهم الالهية فكان المقصود من القبلة أن موضع السجود هو ... ر زائلا فكان هذا أولى واعلم أن مذهب الشافعي رضي الله عنه هو قوله وهم لا يسأمون لا... له تعبدون لاجل أن قوله واسجدوا لله متصل به وعند أبي حنيفة فان استكبروا فالذين عند ر... الكلام انما تم عنده ثم انه تعالى لما أمر بالسجود قال بعده (السؤال الاول) ان الذين ... بك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون وفيه سؤالات يحصل لنا أهلية عبودية الله تعا... يسجدون للشمس والقمر يقولون نحن أقل وأذل من أ... قول هؤلاء هكذا فكيف يليق أن يقال انهم ... كبراء ... الشمس والقمر وهما عبدان لله واذا كا... المراد من لفظ الاستكبار ما ذكرتم بل المرو ما ذكروه استكبروا عن السجود لله (والجواب) ليس عن السجود للشمس والقمر (السؤال الثاني) لهم ... استكبروا عن قبول قولك باحمد في النهي ... جهة تمسكوا بقوله فالذين عند ربك في اثبات المكان والجهة لله تعالى والجواب انه ... ل قرب الملك من الجند كذا وكذا ولا يراد به قرب المكان فكذا ههنا ويدل عليه قوله أنا ... د ظن عبدي بي وأنا عند المنكسرة قلوبهم لاجلي في مقعد صدق عند مليك مقتدر و ... قال عند الشافعي رضي الله عنه ان المسلم لا يقتل بالذمي (السؤال الثالث) هل تدل هذه الا... ية على أن الملك أفضل من البشر الجواب نعم لانه انما يستدل بحال الاعلى على حال الا... استكبروا عن طاعة فلان فالاكابر يخدمونه ويعترفون ... ون فيقال هؤلاء الاقوام ان من الاستدلال انما يحسن بحال الاعلى على حال الادون ... تقدمه فثبت أن هذا النوع صفة الملائكة يسبحون له بالليل والنهار فهذا يدل على ... (السؤال الرابع) قال ههنا في لا ينفكون عنه لحظة واحدة واشتغالهم بهذا العمل ع... نهم مواظبون على التسبيح الاشتغال بسائر الاعمال ككونهم ينزلون الى الارض كما قال ... سبيل الدوام يمنعهم من قلبك وقال ونبئهم عن ضيف ابراهيم وقال تعالى عليها ملائكة ... نزل به الروح الامين على الذين ذكرهم الله تعالى ههنا بكونهم مواظبين على التسبيح ... لاظ شداد (والجواب) ان وهم الاشراف الاكابر منهم لانه تعالى وصفهم بكونهم عنده ... اقوام معينون من الملائكة الشرف والمنقبة وهذا لا ينافي كون طائفة أخرى من الملا... والمراد من هذه العندية كمال فان قالوا هب ان الامر كذلك الا انهم لابد وان يتنف... ئكة مشتغلين بسائر الاعمال ... سوا فاشتغالهم بذلك التنفس

ور بت) أي تحركت بالنبات وانتفخت لان النبت اذا دنا أن يظهر ارتفعت له الارض وانتفخت ثم تصدعت عن النبات وقيل تزخرفت بالنبات وقرئ ربأت أي ارتفعت (ان الذي أحياها) بما ذكر بعد موتها (لمحيي الموتى) بالبعث (انه على كل شئ) من الاشياء التي من جملتها الاحياء (قدير) مبالغ في القدرة

(ان الذين يلحدون) يميلون عن الاستقامة وقرئ يلحدون (في آياتنا) بالطعن فيها وتحريفها بحملها على المحامل الباطلة (لا يخفون علينا) فنجازيهم بالحادهم وقوله تعالى (أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة) تنبيه على كيفية الجزاء (اعملوا ما شئتم) من الاعمال المؤدية الى ما ذكر من الالقاء في النار والاتيان آمنا وفيه تهديد شديد (انه بما تعملون بصير) فيجازيكم بحسب أعمالكم وقوله تعالى (ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم) بدل من قوله تعالى ان الذين يلحدون الخ وخبر ان هو الخبر السابق وقيل مستأنف وخبرها محذوف وقال الكسائي سد مسده الخبر السابق والذكر القرآن وقوله تعالى (وانه لكتاب عزيز) أي كثير المنافع عديم النظير أو منيع لا تتأتى معارضته جملة حالية مفيدة لغاية شناعة الكفر به وقوله تعالى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) أي لا يتطرق اليه الباطل من جهة من الجهات صفة أخرى لكتاب وقوله تعالى (تنزيل من حكيم حميد) خبر لمبتدأ محذوف أو صفة أخرى لكتاب مفيدة لفخامته الاضافية كما أن الصفتين السابقتين مفيدتان لفخامته الذاتية وقوله تعالى لا يأتيه الخ اعتراض عند من لا يجيز تقديم غير الصريح من الصفات على الصريح كل ذلك لتأكيد بطلان الكفر بالقرآن وقوله تعالى (ما يقال لك) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يصيبه من أذية الكفار أي ما يقال في شأنك وشأن ما أنزل اليك من القرآن من جهة كفار قومك (الا ما قد قيل للرسل من قبلك) أي الا مثل ما قد قيل في حقهم مما لا خير فيه (ان ربك لذو مغفرة) لانبيائه (وذو عقاب أليم) لاعدائهم وقد نصر من قبلك من الرسل وانتقم من أعدائهم وسيفعل مثل ذلك بك وبأعدائك أيضا

يصدهم عن تلك الحالة من التسبيح ولما كان التنفس سبب اصلاح حال الحياة بالنسبة الى البشر فذكر الله تعالى سبب اصلاح حالهم في حياتهم ولا يجب على العاقل المنصف أن يقيس أحوال الملائكة في صفاء جوهرها واشراق ذواتها واستغراقها في معارج معارف الله بأحوال البشر فان بين الحالتين بعد المشرقين ثم قال تعالى ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة واعلم انه تعالى لما ذكر الآيات الاربع الفلكية وهي الليل والنهار والشمس والقمر أتبعها بذكر آية أرضية فقال ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة والخشوع التذلل والتصاغر واستعير هذا اللفظ لحال الارض حال خلوها عن المطر والنبات فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت أي تحركت بالنبات وربت انتفخت لان النبت اذا قرب أن يظهر ارتفعت له الارض وانتفخت ثم تصدعت عن النبات ثم قال ان الذي أحياها لمحيي الموتى يعني ان القادر على احياء الارض بعد موتها هو القادر على احياء هذه الاجساد بعد موتها وقد ذكرنا تقرير هذا الدليل مرارا لا حصر لها ثم قال انه على كل شئ قدير وهذا هو الدليل الاصلي وتقريره أن عودة التأليف والتركيب الى تلك الاجزاء المتفرقة ممكن لذاته وعود الحياة والعقل والقدرة الى تلك الاجزاء بعد اجتماعها أيضا أمر ممكن لذاته والله تعالى قادر على الممكنات فوجب أن يكون قادرا على اعادة التركيب والتأليف والحياة والقدرة والعقل والفهم الى تلك الاجزاء وهذا يدل دلالة واضحة على أن حشر الاجساد ممكن لا امتناع فيه البتة والله أعلم * قوله تعالى (ان الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) اعلم أنه تعالى لما بين أن الدعوة الى دين الله تعالى أعظم المناصب وأشرف المراتب ثم بين أن الدعوة الى دين الله تعالى انما تحصل بذكر دلائل التوحيد والعدل وصحة البعث والقيامة عاد الى تهديد من ينازع في تلك الآيات ويحاول القاء الشبهات فيها فقال ان الذين يلحدون في آياتنا يقال ألحد الحافر ولحد اذا مال عن الاستقامة فحفر في شق فالملحد هو المنحرف ثم بحكم العرف اختص بالمنحرف عن الحق الى الباطل وقوله لا يخفون علينا تهديد كما اذا قال الملك المهيب ان الذين ينازعونني في ملكي أعرفهم فانه يكون ذلك تهديدا ثم قال أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة وهذا استفهام بمعنى التقرير والغرض التنبيه على أن الذين يلحدون في آياتنا يلقون في النار والذين يؤمنون بآياتنا يأتون آمنين يوم القيامة ثم قال اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير وهذا أيضا تهديد ثالث ونظيره ما يقوله الملك المهيب عند الغضب الشديد اذا أخذ يعاتب بعض عبيده ثم يقول لهم اعملوا ما شئتم فان هذا مما يدل على الوعيد الشديد ثم قال تعالى ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وهذا أيضا تهديد وفي جوابه وجهان (أحدهما) انه محذوف كسائر الاجوبة المحذوفة في القرآن على تقدير ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم يجازون

بكفرهم أو ما أشبه ذلك (والثانى) أن جوابه قوله أولئك ينادون من مكان بعيد والاول أصوب ولما بالغ فى تهديد الذين يلحدون فى آيات القرآن أتبعه ببيان تعظيم القرآن فقال وانه لكتاب عزيز والعزيز له معنيان (أحدهما) الغالب القاهر (والثانى) الذى لا يوجد نظيره اما كون القرآن عزيزا بمعنى كونه غالبا فالامر كذلك لانه بقوة حجته غلب على كل ماسواه واما كونه عزيزا بمعنى عديم النظير فالامر كذلك لان الاولين والآخرين عجزوا عن معارضته ثم قال لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وفيه وجوه (الاول) لا تكذبه الكتب المتقدمة عليه كالتوراة والانجيل والزبور ولا يجئ كتاب من بعده يكذبه (الثانى) ما حكم القرآن بكونه حقا لا يصير باطلا وما حكم بكونه باطلا لا يصير حقا (الثالث) معناه انه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه والدليل عليه قوله وانا له لحافظون فعلى هذا الباطل هو الزيادة والنقصان (الرابع) يحتمل أن يكون المراد انه لا يوجد فى المستقبل كتاب يمكن جعله معارضا له ولم يوجد فيما تقدم كتاب يصلح جعله معارضا له (الخامس) قال صاحب الكشاف هذا تمثيل والمقصود ان الباطل لا يتطرق اليه ولا يجد اليه سبيلا من جهة من الجهات حتى يتصل اليه واعلم ان لابى مسلم الاصفهانى أن يحتج بهذه الآية على انه لم يوجد النسخ فيه لان النسخ ابطال فلو دخل النسخ فيه لكان قد أتاه الباطل من خلفه وانه على خلاف هذه الآية ثم قال تعالى تنزيل من حكيم حميد أى حكيم فى جميع احواله وأفعاله حميد الى جميع خلقه بسبب كثرة نعمه ولهذا السبب جعل الحمد لله رب العالمين فاتحة كلامه وأخبر أن خاتمة كلام أهل الجنة هو قوله الحمد لله رب العالمين ✲ قوله تعالى (ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وانهم لفى شك منه مريب من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد) واعلم انه تعالى لما هدد الملحدين فى آيات الله ثم بين شرف آيات الله وعلو درجة كتاب الله رجع الى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بان يصبر على أذى قومه وان لا يضيق قلبه بسبب ما حكاه عنهم فى أول السورة من انهم قالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه الى قوله فاعمل اننا عاملون فقال ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك وفيه وجهان (الاول) وهو الاقرب ان المراد ما تقول لك كفار قومك الا مثل ما قد قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن فى الكتب المنزلة ان ربك لذو مغفرة للمحقين وذو عقاب أليم للمبطلين ففوض هذا الامر الى الله واشتغل بما أمرت به وهو التبليغ والدعوة الى الله تعالى (الثانى) أن يكون المراد ما قال الله لك الا مثل ما قال لسائر الرسل وهو انه تعالى أمرك وأمر كل الانبياء بالصبر على سفاهة الاقوام فمن حقه أن يرجوه أهل

(ولو جعلناه قرآنا أعجميا) جواب لقولهم هلا أنزل القرآن بلغة العجم والضمير للذكر (لقالوا لولا فصلت آياته) اى بينت بلسان نفقهه وقوله تعالى (أأعجمى وعربى) انكار مقرر للتحضيض والاعجمى يقال للكلام لا يفهم وللمتكلم به والياء للمبالغة فى الوصف كأحمرى والمعنى أكلام أعجمى ورسول أو مرسل اليه عربى على أن الافراد مع كون المرسل اليهم أمة جمة لما أن المراد بيان التنافى والتنافر بين الكلام و بين المخاطب به لا بيان كون المخاطب واحدا أو جمعا وقرئ أعجمى أى أكلام منسوب الى أمة العجم وقرئ أعجمى على الاخبار بأن القرآن أعجمى والمتكلم والمخاطب عربى و يجوز أن يراد هلا فصلت آياته فجعل بعضها أعجميا لافهام العجم و بعضها عربيا لافهام العرب وأيا ما كان فالمقصود بيان أن آيات الله تعالى على أى وجه جاءتهم وجدوا فيها متعنتا يتعللون به (قل هو للذين آمنوا هدى) يهديهم الى الحق (وشفاء) لما فى الصدور من شك وشبهة (والذين لا يؤمنون) مبتدأ خبره (فى آذانهم وقر) على أن التقدير هو أى القرآن فى آذانهم وقر على أن وقر خبر للضمير المقدر وفى آذانهم متعلق بمحذوف وقع حالا من وقر وهو أوفق لقوله تعالى (وهو عليهم عمى) وقيل خبر الموصول فى آذانهم ووقر فاعل الظرف وقيل وقر مبتدأ والظرف خبره والجملة خبر للموصول وقيل التقدير والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ومن جوز العطف على عاملين عطف الموصول على الموصول الاول أى هو للاولين هدى وشفاء وللآخرين وقر فى آذانهم (أولئك) اشارة الى الموصول الثانى باعتبار اتصافه بما فى حيز صلته وملاحظة ما أثبت له وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلته فى الشر مع ما فيه من كمال المناسبة للنداء من بعيد

﴿ طاعته ﴾

أى اولئك البعداء الموصوفون بماذكر من التصام عن الحق الذى يسمعونه والتعامى عن الآيات الظاهرة التى يشاهدونها (ينادون من مكان بعيد) تمثيل لهم فى عدم قبولهم واستماعهم له بمن ينادى من مسافة نائية لايكاد يسمع من مثلها الاصوات (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) كلام مستأنف مسوق لبيان أن الاختلاف فى شأن الكتب عادة قديمة للامم غير مختص بقومك على منهاج قوله تعالى ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك أى و بالله لقد آتيناه التوراة فاختلف فيها فمن مصدق لها ومكذب وهكذا حال قومك فى شأن ما آتيناك من القرآن فمن مؤمن به وكافر (ولولا كلمة سبقت من ربك) فى حق أمتك المكذبة وهى العدة بتأخير عذابهم وفصل ما بينهم وبين المؤمنين من الخصومة الى يوم القيامة بنحو قوله تعالى بل الساعة موعدهم وقوله تعالى ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى (لقضى بينهم) باستئصال المكذبين كما فعل بمكذبى الامم السالفة (وانهم) أى كفار قومك (لفى شك منه مريب) أى من القرآن وجعل الضمير الاول لليهود والثانى للتوراة مما لا وجه له (من عمل صالحا) بأن آمن بالكتب وعمل بموجبها (فلنفسه) أى فلنفسه يعمله أو فنفعه لنفسه لا لغيره (ومن اساء فعليها) ضرره لا على غيره (وما ربك بظلام للعبيد) اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله مبنى على تنزيل ترك اثابة المحسن بعمله أو اثابة الغير بعمله وتنزيل التعذيب بغير اساءة أو باساءة غيره منزل الظلم الذى يستحيل صدوره عنه سبحانه وتعالى وقد مر ما فى المقام من التحقيق والتفصيل فى سورة آل عمران وسورة الانفال (اليه يرد علم الساعة) أى اذا سئل عنها يقال الله يعلم أو لا يعلمها الا الله تعالى (ما تخرج من ثمرات من أكمامها) أى من أوعيتها جمع كم بالكسر وهو وعاء الثمرة كجف الطلعة وقرئ

طاعته ويخافه أهل معصيته وقد ظهر من كلامنا فى تفسير هذه السورة ان المقصود من هذه السورة هو ذكر الاجوبة عن قولهم وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون فتارة ينبه على فساد هذه الطريقة وتارة يذكر الوعيد لمن لم يؤمن بهذا القرآن وأعرض عنه وامتد الكلام الى هذا الموضع من أول السورة على الترتيب الحسن والنظم الكامل ثم انه تعالى ذكر جوابا آخر عن قولهم وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر فقال ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم أأعجمى بهمزتين على الاستفهام والباقون بهمزة واحدة ومدة على أصلهم فى أمثاله كقوله أأنذرتهم بنحوها على الاستفهام وروى عن ابن عباس بهمزة واحدة على الخبر وأما القراء بهمزتين فالهمزة الاولى همزة انكار والمراد انكروا وقالوا قرآن أعجمى ورسول عربى أو مرسل اليه عربى وأما القراءة بغير همزة الاستفهام فالمراد الاخبار بأن القرآن أعجمى والمرسل اليه عربى (المسئلة الثانية) نقلوا فى سبب نزول هذه الآية ان الكفار لاجل التعنت قالوا لو نزل القرآن بلغة العجم فنزلت هذه الآية وعندى ان أمثال هذه الكلمات فيها حيف عظيم على القرآن لانه يقتضى ورود آيات لا تعلق للبعض فيها بالبعض وانه يوجب أعظم أنواع الطعن فكيف يتم مع التزام مثل هذا الطعن ادعاء كونه كتابا منتظما فضلا عن ادعاء كونه معجزا بل الحق عندى ان هذه السورة من أولها الى آخرها كلام واحد على ما حكى الله تعالى عنهم من قولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر وهذا الكلام أيضا متعلق به وجواب له والتقدير انا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا كيف أرسلت الكلام العجمى الى القوم العرب ويصح لهم أن يقولوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه أى من هذا الكلام وفى آذاننا وقر منه لانفهمه ولانحيط بمعناه اما لما أنزلنا هذا الكتاب بلغة العرب وبألفاظهم وأنتم من أهل هذه اللغة فكيف يمكنكم ادعاء ان قلوبكم فى أكنة منها وفى آذانكم وقر منها فظهر انا اذا جعلنا هذا الكلام جوابا عن ذلك الكلام بقيت السورة من أولها الى آخرها على أحسن وجوه النظم اما على الوجه الذى يذكره الناس فهو عجيب جدا ثم قال تعالى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد واعلم ان هذا متعلق بقولهم وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه الى آخر الآية كأنه تعالى يقول ان هذا الكلام أرسلته اليكم بلغتكم لا بلغة أجنبية عنكم فلا يمكنكم أن تقولوا ان قلوبنا فى أكنة منه بسبب جهلنا بهذه اللغة فبقى أن يقال ان كل من آتاه الله طبعا مائلا الى الحق وقلبا مائلا الى الصدق وهمة تدعوه الى بذل الجهد فى طلب الدين فان هذا القرآن يكون فى حقه هدى وشفاء اما كونه هدى فلأنه دليل على الخيرات ويرشد الى كل السعادات واما كونه شفاء فانه اذا أمكنه

من ثمرة على ارادة الجنس والجمع لاختلاف الانواع وقد قرئ بجمع الضمير ايضا وما نافية ومن الاولى مزيدة للاستغراق واحتمال أن تكون ما موصولة معطوفة على الساعة ومن مبينة بعيد (وما تحمل من أنثى ولا تضع) أي حملها وقوله تعالى (الا بعلمه) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أي وما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع ملابسا بشيء من الاشياء الا ملابسا بعلمه المحيط ﴿ ٣٨٠ ﴾ (ويوم يناديهم أين شركائي) أي بزعمكم كما نص عليه في قوله تعالى أين شركائي الذين زعمتم وفيه تهكم بهم وتقريع لهم ويوم منصوب باذكر أو ظرف لمضمر مؤخر قد ترك ايذانا بقصور البيان عنه كما مر في قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل (قالوا آذناك) أي أخبرناك (ما منا من شهيد) من أحد يشهد لهم بالشركة اذ تبرأنا منهم لما عاينا الحال وما منا أحد الا وهو موحد لك أو ما منا من أحد يشاهدهم لانهم ضلوا عنهم حينئذ وقيل هو قول الشركاء أي ما منا من شهيد يشهد لهم بأنهم كانوا محقين وقولهم آذناك اما لان هذا التوبيخ مسبوق بتوبيخ آخر مجاب بهذا الجواب أو لان معناه انك علمت من قلوبنا وعقائدنا الآن أنا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة لانه اذا علمه من نفوسهم فكأنهم اعلموه أو لان معناه الانشاء لا الاخبار بايذان قد كان قبل ذلك (وضل عنهم ما كانوا يدعون) أي يعبدون (من قبل) أي غابوا عنهم أو ظهر عدم نفعهم فكان حضورهم كغيبتهم ﴿ لاسبيل ﴾ (وظنوا) أي أيقنوا (ما لهم من محيص) مهرب والظن معلق عنه بحرف النفي (لا يسأم الانسان) أي لا يمل ولا يفتر (من دعاء الخير) من طلب السعة في النعمة واسباب المعيشة وقرئ من دعاء بالخير (وان مسه الشر) اى العسر والضيقة (فيؤس قنوط) فيه مبالغة من جهة البناء ومن جهة التكرير ومن جهة ان القنوط عبارة عن يأس مفرط

الاهتداء فقد حصل الهدى فذلك الهدى شفاء له من مرض الكفر والجهل وأما من كان غرقا في بحر الخذلان وتائها في مفاوز الحرمان ومشغوفا بمتابعة الشيطان كان هذا القرآن في آذانه وقرا كما قال وفي آذاننا وقر وكان القرآن عليهم عمى كما قال ومن بيننا وبينك حجاب فاولئك ينادون من مكان بعيد بسبب ذلك الحجاب الذي حال بين الانتفاع ببيان القرآن وكل من أنصف ولم يتعسف علم انا اذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرناه صارت هذه السورة من أولها الى آخرها كلاما واحدا منتظما مسوقا نحو غرض واحد فيكون هذا التفسير أولى مما ذكروه وقرأ الجمهور وهو عليهم عمى على المصدر وقرأ ابن عباس عم على النعت قال أبو عبيدة الاول هو الوجه كقوله هدى وشفاء وكذلك عمى هو مصدر مثلهما ولو كان المذكور انه هاد وشاف لكان الكسر في عمى أجود فيكون نعتا مثلهما وقوله تعالى أولئك ينادون من مكان بعيد قال ابن عباس يريد مثل البهيمة التي لا تفهم الا دعاء ونداء وقيل من دعي من مكان بعيد لم يسمع وان سمع لم يفهم فكذا حال هؤلاء ثم قال تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه وأقول أيضا ان هذا متعلق بما قبله كأنه قيل انا لما آتينا موسى الكتاب اختلفوا فيه فقبله بعضهم ورده الآخرون فكذلك آتيناك هذا الكتاب فقبله بعضهم وهم أصحابك ورده آخرون وهم الذين يقولون قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه ثم قال تعالى ولولا كلمة سبقت من ربك يعني في تأخير العذاب عنهم الى أجل مسمى وهو يوم القيامة كما قال بل الساعة موعدهم لقضي بينهم يعني المصدق والمكذب بالعذاب الواقع بمن كذب وانهم لفي شك من صدقك وكتابك مريب فلا ينبغي ان تستعظم استيحاشك من قولهم قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه ثم قال من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها يعني خفف على نفسك اعراضهم فانهم ان آمنوا فنفع ايمانهم يعود عليهم وان كفروا فضرر كفرهم يعود اليهم والله سبحانه يوصل الى كل أحد ما يليق بعمله من الجزاء وما ربك بظلام للعبيد * قوله تعالى (اليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرة من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منا من شهيد وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص لا يسأم الانسان من دعاء الخير وان مسه الشر فيؤس قنوط ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ألا انهم في مرية من لقاء ربهم ألا انه بكل شيء محيط) اعلم انه تعالى لما هدد الكفار في الآية المتقدمة بقوله من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ومعناه ان جزاء كل أحد يصل اليه في يوم القيامة وكان سائلا قال ومتى يكون ذلك اليوم فقال تعالى انه

لاسبيل للخلق الى معرفة ذلك اليوم ولا يعلمه الا الله فقال اليه يرد علم الساعة وهذه الكلمة تفيد الحصر أى لا يعلم وقت الساعة بعينه الا الله وكما ان هذا العلم ليس الا عند الله فكذلك العلم بحدوث الحوادث المستقبلة فى أوقاتها المعينة ليس الا عند الله سبحانه وتعالى ثم ذكر من أمثلة هذا الباب مثالين (أحدهما) قوله وما تخرج من ثمرة من أكمامها (والثانى) قوله وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه قال أبو عبيدة أكمامها أوعيتها وهى ما كانت فيه الثمرة واحدها كم وكمة قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم من ثمرات بالالف على الجمع والباقون من ثمرة بغير ألف على الواحد واعلم ان نظير هذه الآية قوله ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث الى آخر الآية فان قيل أليس ان المنجمين قد يتعرفون من طالع سنة العالم احوالا كثيرة من أحوال العالم وكذلك قد يتعرفون من طوالع الناس أشياء من أحوالهم وههنا شئ آخر يسمى علم الرمل وهو كثير الاصابة وأيضا علم التعبير بالاتفاق قد يدل على أحوال المغيبات فكيف الجمع بين هذه العلوم المشاهدة وبين هذه الآية قلنا ان أصحاب هذه العلوم لا يمكنهم القطع والجزم فى شئ من المطالب البتة وانما الغاية القصوى ادعاء ظن ضعيف والمذكور فى هذه الآية ان علمها ليس الا عند الله والعلم هو الجزم واليقين وبهذا الطريق زالت المنافاة والمعاندة والله أعلم ثم انه تعالى لما ذكر القيامة أردفه بشئ من أحوال يوم القيامة وهذا الذى ذكره ههنا شديد التعلق أيضا بما وقع الابتداء به فى أول السورة وذلك لان أول السورة يدل على أن شدة نفورهم عن استماع القرآن انما حصلت من أجل ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم الى التوحيد والى البراءة عن الاصنام والاوثان بدليل انه قال فى أول السورة قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد فذكر فى خاتمة السورة وعيد القائلين بالشركاء والانداد فقال ويوم يناديهم فيقول أين شركائى أى بحسب زعمكم واعتقادكم قالوا آذناك قال ابن عباس أسمعناك كقوله تعالى وأذنت لربها وحقت بمعنى سمعت وقال الكلبى أعلمناك وهذا بعيد لان أهل القيامة يعلمون الله ويعلمون انه يعلم الاشياء علما واجبا فالاعلام فى حقه محال ثم قال ما منا من شهيد وفيه وجوه (الاول) ليس أحد منا يشهد بأن لك شريكا فالمقصود انهم فى ذلك اليوم يتبرؤن من اثبات الشريك لله تعالى (الثانى) ما منا من أحد يشاهدهم لانهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم لا يبصرونها فى ساعة التوبيخ (الثالث) ان قوله ما منا من شهيد كلام الاصنام فان الله يحييها ثم انها تقول ما منا من أحد يشهد بصحة ما أضافوا الينا من الشركة وعلى هذا التقدير فمعنى ضلالهم عنهم أنها لا تنفعهم فكأنهم ضلوا عنهم ثم قال وظنوا ما لهم من محيص وهذا ابتداء كلام من الله تعالى يقول ان الكفار ظنوا اولا ثم أيقنوا انه محيص لهم عن النار والعذاب ومنهم من قال انهم ظنوا أولا انه لا محيص لهم عن النار ثم أيقنوا ذلك بعده وهذا بعيد لان اهل النار يعلمون ان عقابهم دائم ولما بين الله تعالى من حال هؤلاء الكفار انهم بعد ان كانوا مصرين على

يظهر أثره فى الشخص فيتضاءل وينكسر أى مبالغ فى قطع الرجاء من فضل الله تعالى ورحمته وهذا وصف للجنس بوصف غالب أفراده لما أن اليأس من رحمته تعالى لا يأتى الا من الكافر وسيصرح به (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته) بتفريجها عنه (ليقولن هذا لى) أى حقى أستحقه لمالى من الفضل والعمل أولى لا لغيرى فلا يزول عنى أبدا (وما أظن الساعة قائمة) أى تقوم فيما سيأتى (ولئن رجعت الى ربى) على تقدير قيامها (ان لى عنده للحسنى) أى للحالة الحسنى من الكرامة وذلك لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه له وأن نعم الآخرة كذلك (فلننبئن الذين كفروا بما عملوا) أى لنعلمنهم بحقيقة أعمالهم حين أظهرناها بصورها الحقيقية وقد مر تحقيقه فى سورة الاعراف عند قوله تعالى والوزن يومئذ الحق وفى قوله تعالى انما بغيكم على أنفسكم من سورة يونس (ولنذيقنهم من عذاب غليظ) لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه (واذا أنعمنا على الانسان أعرض) أى عن الشكر (ونأى بجانبه) أى ذهب بنفسه وتباعد بكليته تكبرا وتعظما والجانب مجاز عن النفس كما فى قوله تعالى فى جنب الله ويجوز أن يراد به عطفه ويكون عبارة عن الانحراف

والازورار كما قالوا ثنى عطفه وتولى بركنه (واذا مسه الشر فذو دعاء عريض) أي كثير مستعار مما له عرض متسع للاشعار بكثرته واستمراره وهو ابلغ من الطويل اذ الطول اطول الامتدادين فاذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله

القول باثبات الشركاء والاضداد لله في الدنيا تبرؤا عن تلك الشركاء في الآخرة بين ان الانسان في جميع الاوقات متبدل الاحوال متغير المنهج فان أحس بخير وقدرة انتفخ وتعظم وان أحس ببلاء ومحنة ذبل كما قيل في المثل ان هذا كالقرلي ان رأى خيرا تدلى وان رأى شرا تولى فقال لا يسأم الانسان من دعاء الخير وان مسه الشر فيؤس قنوط يعني انه في حال الاقبال ومجيء المرادات لا ينتهي قط الى درجة الا ويطلب الزيادة عليها ويطمع بالفوز بها وفي حال الادبار والحرمان يصير آيسا قانطا فالانتقال من ذلك الرجاء الذي لا آخر له الى هذا اليأس الكلي يدل على كونه متبدل الصفة متغير الحال وفي قوله يؤس قنوط مبالغة من وجهين (أحدهما) من طريق بناء فعول (والثاني) من طريق التكرير واليأس من صفة القلب والقنوط أن يظهر آثار اليأس في الوجه والاحوال الظاهرة ثم بين تعالى ان هذا الذي صار آيسا قانطا لو عاودته النعمة والدولة وهو المراد من قوله ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته فان هذا الرجل يأتي بثلاثة أنواع من الاقاويل الفاسدة والمذاهب الباطلة الموجبة للكفر والبعد عن الله تعالى (فأولها) انه لا بد وان يقول هذا لي وفيه وجهان (الاول) معناه ان هذا حق وصل الي لاني استوجبته بما حصل عندي من أنواع الفضائل وأعمال البر والقربة من الله ولا يعلم المسكين ان أحدا لا يستحق على الله شيئا وذلك لانه ان كان ذلك الشخص عاريا عن الفضائل فهذا الكلام ظاهر الفساد وان كان موصوفا بشيء من الفضائل والصفات الحميدة فهي بأسرها انما حصلت له بفضل الله واحسانه واذا تفضل الله بشيء على بعض عبيده امتنع ان يصير تفضله عليه بتلك العطية سببا لأن يستحق على الله شيئا آخر فثبت بهذا فساد قوله انما حصلت هذه الخيرات بسبب استحقاق (والوجه الثاني) ان هذا لي أي لا يزول عني ويبقى علي وعلى أولادي وذريتي (والنوع الثاني) من كلماتهم الفاسدة أن يقول وما أظن الساعة قائمة يعني انه يكون شديد الرغبة في الدنيا عظيم النفرة عن الآخرة فاذا آل الامر الى أحوال الدنيا يقول انها لي واذا آل الامر الى الآخرة يقول وما أظن الساعة قائمة (والنوع الثالث) من كلماتهم الفاسدة ان يقول ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى يعني ان الغالب على الظن ان القول بالبعث والقيامة باطل وبتقدير أن يكون حقا فان لي عنده للحسنى وهذه الكلمة تدل على جزمهم بوصولهم الى الثواب من وجوه (الاول) ان كلمة ان تفيد التأكيد (الثاني) ان تقديم كلمة لي تدل على هذا التأكيد (الثالث) قوله عنده يدل على ان تلك الخيرات حاضرة مهيأة عنده كما تقول لي عند فلان كذا من الدنانير فان هذا يفيد كونها حاضرة عنده فلو قلت ان لي على فلان كذا من الدنانير لا يفيد ذلك (والرابع) اللام في قوله للحسنى تفيد التأكيد (الخامس) للحسنى يفيد الكمال في الحسنى ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الاقوال الثلاثة الفاسدة قال فلننبئن الذين كفروا بما عملوا أي نظهر لهم ان الامر على ضد ما اعتقدوه وعلى عكس ما تصوروه كما قال تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه

ولعل هذا شأن بعض غير البعض الذي حكى عنه اليأس والقنوط أو شأن الكل في بعض الاوقات (قل أرأيتم) أي أخبروني (ان كان) أي القرآن (من عند الله ثم كفرتم به) مع تعاضد موجبات الايمان به (من أضل ممن هو في شقاق بعيد) أي من أضل منكم فوضع الموصول موضع الضمير شرحا لحالهم وتعليلا لمزيد ضلالهم (سنريهم آياتنا) الدالة على حقيته وكونه من عند الله (في الآفاق) هو ما أخبرهم به النبي صلى الله عليه وسلم من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية وما يسر الله تعالى له ولخلفائه من الفتوح والظهور على آفاق الدنيا والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب على وجه خارق للعادة (وفي أنفسهم) هو ما ظهر فيما بين أهل مكة وما حل بهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما في الآفاق أي منازل الامم الخالية وآثارهم وفي نفسهم أي يوم بدر وقال مجاهد والحسن والذي في الآفاق

مايفتح الله من القرى عليه عليه الصلاة والسلام والمسلمين وفي أنفسهم فتح مكة وقيل في الآفاق أي في أقطار السموات والارض من الشمس والقمر والنجوم ومايترتب عليهما من الليل والنهار والاضواء والضلال والظلمات ومن النبات والاشجار والانهار وفي أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة في تكوين الاجنة في ظلمات الارحام وحدوث الاعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة كقوله تعالى وفي أنفسكم أفلا تبصرون واعتذر بأن معنى السين مع أن اراءة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك أنه تعالى سيطلعهم على تلك الآيات زمانا فزمانا ويزيدهم وقوفا على حقائقها يوما فيوما (حتى يتبين لهم) بذلك (أنه الحق) أي القرآن أو الاسلام والتوحيد (أولم يكف بربك) استئناف وارد لتوبيخهم على ترددهم في شأن القرآن وعنادهم المحوج الى اراءة الآيات وعدم اكتفائهم باخباره تعالى والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي ألم يغن ولم يكف ربك والباء مزيدة للتأكيد ولاتكاد تزاد الامع كفى وقوله تعالى (أنه على كل شئ شهيد) بدل منه أي ألم يغنهم عن اراءة الآيات الموعودة المبينة لحقية القرآن ولم يكفهم في

هباء منثورا ولنذيقنهم من عذاب غليظ في مقابلة قولهم ان لي عنده للحسنى ولما حكى الله تعالى أقوال الذي أنعم عليه بعد وقوعه في الآفات حكى أفعاله أيضا فقال واذا أنعمنا على الانسان أعرض عن التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله ونأى بجانبه أي ذهب بنفسه وتكبر وتعظم ثم ان مسه الضر والفقر أقبل على دوام الدعاء وأخذ في الابتهال والتضرع وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفات الاجرام ويستعار له الطول أيضا كما استعير الغلظ لشدة العذاب واعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد العظيم على الشرك وبين ان المشركين يرجعون عن القول بالشرك في يوم القيامة ويظهرون من أنفسهم الذلة والخضوع بسبب استيلاء الخوف عليهم وبين ان الانسان جبل على التبدل فان وجد لنفسه قوة بالغ في التكبر والتعظم وان أحس بالفتور والضعف بالغ في اظهار الذلة والمسكنة ذكر عقيبه كلاما آخر يوجب على هؤلاء الكفار أن لايبالغوا في اظهار النفرة من قبول التوحيد وان لايفرطوا في اظهار العداوة مع الرسول صلى الله عليه وسلم فقال قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد وتقرير هذا الكلام انكم كلما سمعتم هذا القرآن أعرضتم عنه وما تأملتم فيه وبالغتم في النفرة عنه حتى قلتم قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ثم من المعلوم بالضرورة انه ليس العلم بكون القرآن باطلا علما بديهيا وليس العلم بفساد القول بالتوحيد والنبوة علما بديهيا فقبل الدليل يحتمل أن يكون صحيحا وان يكون فاسدا فبتقدير أن يكون صحيحا كان اصراركم على دفعه من أعظم موجبات العقاب فهذا الطريق يوجب عليكم ان تتركوا هذه النفرة وان ترجعوا الى النظر والاستدلال فان دل الدليل على صحته قبلتموه وان دل على فساده تركتموه فاما قبل الدليل فالاصرار على الدفع والاعراض بعيد عن العقل وقوله عمن هو في شقاق بعيد موضوع موضع منكم بيانا لحالهم وصفا لهم ولما ذكر هذه الوجوه الكثيرة في تقرير التوحيد والنبوة وأجاب عن شبهات المشركين وتمويهات الضالين قال سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق قال الواحدي واحد الآفاق أفق وهو الناحية من نواحي الارض وكذلك آفاق السماء نواحيها وأطرافها وفي تفسير قوله سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم قولان (الاول) ان المراد بآيات الآفاق الآيات الفلكية والكوكبية وآيات الليل والنهار وآيات الاضواء والاظلال والظلمات وآيات عالم العناصر الاربعة وآيات المواليد الثلاثة وقد أكثر الله منها في القرآن وقوله وفي أنفسهم المراد منها الدلائل المأخوذة من كيفية تكون الاجنة في ظلمات الارحام وحدوث الاعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة كما قال تعالى وفي أنفسكم أفلا تبصرون يعني نريهم هذه الدلائل مرة بعد أخرى الى أن تزول الشبهات عن قلوبهم ويحصل فيها الجزم والقطع بوجود الاله القادر الحكيم العليم المنزه عن المثل والضد فان قيل هذا الوجه ضعيف لان قوله تعالى سنريهم يقتضي أنه تعالى ما أطلعهم على تلك الآيات الى

ذلك أنه تعالى شهيد على جميع الاشياء وقد أخبر بانه من عنده وقيل معناه ان هذا الموعود من اظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شئ شهيد أي مطلع يستوي عنده غيبه وشهادته فيكفيهم ذلك دليلا على أنه حق وأنه من عنده ولو لم يكن كذلك لما قوى هذه القوة والمنصر حاملوه هذه النصرة فتأمل وأما ماقيل من أن المعنى أولم يكفك أنه تعالى على كل شئ شهيد محقق له فيحقق أمرك باظهار الآيات الموعودة كما حقق سائر الاشياء الموعودة فمع اشعاره بمالايليق بجلالة منصبه عليه السلام من التردد فيما ذكر من تحقيق الموعود يرده قوله تعالى (ألا انهم في مرية من لقاء ربهم) أي في شك عظيم من ذلك بالبعث والجزاء فانه صريح في أن عدم الكفاية معتبر بالنسبة اليهم وقرئ مرية بالضم وهو لغة فيها (ألا انه بكل شئ محيط) عالم بجميع الاشياء جملها وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها ولا تخفى عليه خافية منهم وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم لامحالة * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ ﴿ الجنة ﴾ سورة السجدة أعطاه الله تعالى بكل حرف عشر حسنات والله أعلم

الآن وسيطلعهم عليها بعد ذلك والآيات الموجودة في العالم الاعلى والاسفل قد كان الله أطلعهم عليها قبل ذلك فثبت انه تعذر حمل هذا اللفظ على هذا الوجه قلنا ان القوم وان كانوا قد رأوا هذه الاشياء الا أن العجائب التي أودعها الله تعالى في هذه الاشياء مما لانهاية لها فهو تعالى يطلعهم على تلك العجائب زمانا فزمانا ومثاله كل أحد رأى بعينه بنية الانسان وشاهدها الا أن العجائب التي أبدعها الله في تركيب هذا البدن كثيرة وأكثر الناس لايعرفونها والذي وقف على شئ منها فكلما ازداد تفكرا ازداد وقوفا على تلك العجائب والغرائب فصح بهذا الطريق قوله سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم (والقول الثاني) ان المراد بآيات الآفاق فتح البلاد المحيطة بمكة وبآيات أنفسهم فتح مكة والقائلون بهذا القول رجحوه على القول الاول لاجل ان قوله سنريهم يليق بهذا الوجه ولايليق بالاول الا انا أجبنا عنه بأن قوله سنريهم لائق بالوجه الاول كما قررناه فان قيل حمل الآية على هذا الوجه بعيد لان أقصى مافي الباب ان محمدا صلى الله عليه وسلم استولى على بعض البلاد المحيطة بمكة ثم استولى على مكة الا ان الاستيلاء على بعض البلاد لايدل على كون المستولي محقا فانا نرى ان الكفار قد يحصل لهم استيلاء على بلاد الاسلام وعلى ملوكهم وذلك لايدل على كونهم محقين قلنا ولهذا السبب قلنا ان حمل الآية على الوجه الاول أولى ثم نقول ان أردنا تصحيح هذا الوجه قلنا انا لانستدل بمجرد استيلاء محمد صلى الله عليه وسلم على تلك البلاد على كونه محقا في ادعاء النبوة بل نستدل به من حيث انه صلى الله عليه وسلم أخبر عن مكة أنه يستولي عليها ويقهر أهلها ويصير أصحابه قاهرين للاعداء فهذا اخبار عن الغيب وقد وقع مخبره مطابقا لخبره فيكون هذا اخبارا صادقا عن الغيب والاخبار عن الغيب معجزة فبهذا الطريق يستدل بحصول هذا الاستيلاء على كون هذا الدين حقا ثم قال أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد وقوله بربك في موضع الرفع على انه فاعل يكف وانه على كل شئ شهيد بدل منه وتقديره أولم يكفهم ان ربك على كل شئ شهيد ومعنى كونه تعالى شهيدا على الاشياء خلق الدلائل عليها وقد استقصينا ذلك في تفسير قوله قل أي شئ أكبر شهادة قل الله والمعنى ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التي أوضحها الله تعالى وقررها في هذه السورة وفي كل سور القرآن الدالة على التوحيد والتنزيه والعدل والنبوة والمعاد ثم ختم السورة بقوله ألا انهم في مرية من لقاء ربهم أي ان القوم في شك عظيم وشبهة شديدة من البعث والقيامة وقرئ في مرية بالضم ثم قال ألا انه بكل شئ محيط أي عالم بجميع المعلومات التي لانهاية لها فيعلم بواطن هؤلاء الكفار وظواهرهم ويجازي كل أحد على فعله بحسب مايليق به ان خيرا فخير وان شرا فشر فان قيل قوله ألا انه بكل شئ محيط يقتضي أن تكون علومه متناهية قلنا قوله بكل شئ محيط يقتضي أن يكون علمه محيطا بكل شئ من الاشياء فهذا يقتضي كون كل واحد منها متناهيا لا كون مجموعها متناهيا والله أعلم بالصواب تم تفسير هذه السورة وقت ظهر الرابع من ذي

(سورة حم عسق وتسمى الشورى مكية وهي ثلاث وخمسون اية) (بسم الله الرحمن الرحيم) (حم عسق) اسمان للسورة ولذلك فصل بينهما وعد آيتين وقيل اسم واحد والفصل ليناسب سائر الحواميم وقرئ حم سق فعلى الاول هما خبران لمبتدأ محذوف وقيل حم مبتدأ أو عسق ﴿385﴾ خبره وعلى الثاني الكل خبر واحد وقوله تعالى (كذلك يوحي اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) كلام مستأنف وارد لتحقيق أن مضمون السورة موافق لما في تضاعيف سائر الكتب المنزلة على الرسل المتقدمة في الدعوة الى التوحيد والارشاد الى الحق أو أن ايحاءها مثل ايحائها بعد تنويهها بذكر اسمها والتنبيه على فخامة شأنها والكاف في حيز النصب على أنه مفعول ليوحي على الاول وعلى أنه نعت لمصدر مؤكد له على الثاني وذلك على الاول اشارة الى ما فيها وعلى الثاني الى ايحائها وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته في الفضل أي مثل ما في هذه السورة من المعاني أوحي اليك في سائر السور والى من قبلك من الرسل في كتبهم على أن مناط المماثلة ما أشير اليه من الدعوة الى التوحيد والارشاد الى الحق وما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد أو مثل ايحائها أوحي ﴿49﴾ سا اليك عند ايحاء سائر السور والى سائر الرسل عند ايحاء كتبهم اليهم لا ايحاء مغايراله كافي قوله تعالى انا أوحينا اليك كما أوحينا

الجمعة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين وصلاته على خاتم النبيين محمد وآله وصحبه وسلم

﴿سورة شورى خمسون وثلاث آيات مكية﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم عسق كذلك يوحي اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم له ما في السموات وما في الارض وهو العلي العظيم تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الارض ألا ان الله هو الغفور الرحيم والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل) اعلم أن الكلام في أمثال هذه الفواتح معلوم الا أن في هذا الموضع سؤالان زائدان (الاول) أن يقال ان هذه السور السبعة مصدرة بقوله حم فما السبب في اختصاص هذه السورة بمزيد عسق (الثاني) انهم أجمعوا على أنه لا يفصل بين كهيعص وههنا يفصل بين حم وبين عسق فما السبب فيه واعلم أن الكلام في أمثال هذه الفواتح يضيق وفتح باب المجازفات مما لا سبيل اليه فالاولى أن يفوض علمها الى الله وقرأ ابن عباس وابن مسعود حم سق أما قوله تعالى كذلك يوحي اليك فالكاف معناه المثل وذا للاشارة الى شئ سبق ذكره فيكون المعنى مثل حم عسق يوحي اليك والى الذين من قبلك وعند هذا حصل قولان (الاول) نقل عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال لا نبي صاحب كتاب الا وقد أوحي اليه حم عسق وهذا عندي بعيد (والثاني) أن يكون المعنى مثل الكتاب المسمى بحم عسق يوحي الله اليك والى الذين من قبلك وهذه المماثلة المراد منها المماثلة في الدعوة الى التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وتقبيح أحوال الدنيا والترغيب في التوجه الى الآخرة والذي يؤكد هذا أنا بينا في تفسير سورة سبح اسم ربك الاعلى ان أولها في تقرير التوحيد وأوسطها في تقرير النبوة وآخرها في تقرير المعاد ولما تم الكلام في تقرير هذه المطالب الثلاثة قال ان هذا لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى يعني أن المقصود من انزال جميع الكتب الالهية ليس الا هذه المطالب الثلاثة فكذلك ههنا يعني مثل الكتاب المسمى بحم عسق يوحي الله اليك والى كل من قبلك من الانبياء والمراد بهذه المماثلة الدعوة الى هذه المطالب العالية والمباحث المقدسة الالهية قال صاحب الكشاف ولم يقل أوحي اليك ولكن قال يوحي اليك على لفظ المضارع ليدل على أن ايحاء مثله عادته وقرأ ابن كثير كذلك يوحى بفتح الحاء على ما لم يسم فاعله وهي احدى الروايتين عن أبي عمرو وعن بعضهم نوحي بالنون وقرأ الباقون يوحي اليك والى الذين من قبلك بكسر الحاء فان قيل فعلى القراءة الاولى ما رافع اسم الله تعالى قلنا ما دل عليه يوحي كأن قائلا قال من الموحي فقيل الله ونظيره قراءة السلمي وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم على البناء للمفعول ورفع شركاؤهم فان قيل فما رافعه فيمن قرأ نوحي بالنون قلنا يرتفع بالابتداء والعزيز وما بعده أخبار

أو العزيز الحكيم صفتان والظرف خبره واذكر أن هذا الكتاب حصل بالوحي بين أن الموحي من هو فقال انه هو العزيز الحكيم وقد بينا في أول سورة حم المؤمن ان كونه عزيزا يدل على كونه قادرا على ما لا نهاية له وكونه حكيما يدل على كونه عالما بجميع المعلومات غنيا عن جميع الحاجات فيحصل لنا من كونه عزيزا حكيما كونه قادرا على جميع المقدورات عالما بجميع المعلومات غنيا عن جميع الحاجات ومن كان كذلك كانت أفعاله وأقواله حكمة وصوابا وكانت مبرأة عن العيب والعبث قال مصنف الكتاب قلت في قصيدة

الحمد لله ذي الآلاء والنعم ❊ والفضل والجود والاحسان والكرم
منزه الفعل عن عيب وعن عبث ❊ مقدس الملك عن عزل وعن عدم

(والصفة الثالثة) قوله له ما في السموات وما في الارض وهذا يدل على مطلوبين في غاية الجلال (أحدهما) كونه موصوفا بقدرة كاملة نافذة في جميع أجزاء السموات والارض على عظمتها وسعتها بالايجاد والاعدام والتكوين والابطال (والثاني) انه لما بين بقوله له ما في السموات وما في الارض أن كل ما في السموات وما في الارض فهو ملكه وملكه وجب أن يكون منزها عن كونه حاصلا في السموات وفي الارض والا لزم كونه ملكا لنفسه واذا ثبت أنه ليس في شئ من السموات امتنع كونه أيضا في العرش لان كل ما سماك فهو سماء فاذا كان العرش موجودا فوق السموات كان في الحقيقة سماء فوجب أن يكون كل ما كان حاصلا في العرش ملكا لله وملكا له فوجب أن يكون منزها عن كونه حاصلا في العرش وان قالوا انه تعالى قال له ما في السموات وكلمة ما لا تتناول من يعقل قلنا هذا مدفوع من وجهين (الاول) ان لفظة ما واردة في حق الله تعالى قال تعالى والسماء وما بناها والارض وما طحاها وقال لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد (والثاني) ان صيغة من وردت في مثل هذه السورة قال تعالى ان كل من في السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا وكلمة من لا شك أنها واردة في حق الله تعالى فدلت هذه الآية على أن كل من في السموات والارض فهو عبد الله فلو كان الله موجودا في السموات والارض وفي العرش لكان هو من جملة من في السموات فوجب أن يكون عبد الله ولما ثبت بهذه الآية أن كل من كان موجودا في السموات والعرش فهو عبد الله وجب فيمن تقدست كبرياؤه عن تهمة العبودية أن يكون منزها عن الكون في المكان والجهة والعرش والكرسي (والصفة الرابعة والخامسة) قوله تعالى وهو العلي العظيم ولا يجوز أن يكون المراد بكونه عليا العلو في الجهة والمكان لما ثبت الدلالة على فساده ولا يجوز أن يكون المراد من العظيم العظمة بالجثة وكبر الجسم لان ذلك يقتضي كونه مؤلفا من الاجزاء والابعاض وذلك ضد قوله الله أحد فوجب أن يكون المراد من العلي المتعالي عن مشابهة الممكنات ومناسبة المحدثات ومن العظيم العظمة بالقدرة والقهر

الى نوح الآية على أن مدار التلاوة كونه بواسطة الملك وصيغة المضارع على حكاية الحال الماضية اعلاما بأنهما للوحي وان ايحاء مثله عادته وفي جعل مضمون السورة أو ايحاءها مشبها به من تفخيمها ما لا يخفى وكذا في وصفه تعالى بوصفي العزة والحكمة وتأخير الفاعل لرعاية الفواصل مع ما فيه من التشويق وقرئ يوحى على البناء للمفعول على أن كذلك مبتدأ ويوحى خبره المسند الى ضميره أو مصدر ويوحى مسند الى اليك والله مرتفع بما دل عليه يوحى كأنه قيل من يوحى فقيل الله والعزيز الحكيم صفتان له أو مبتدأ كما في قراءة نوحي والعزيز وما بعده خبران له أو العزيز الحكيم صفتان له وقوله تعالى (له ما في السموات وما في الارض وهو العلي العظيم) خبران له وعلى الوجوه السابقة استئناف مقرر لعزته وحكمته (تكاد السموات) وقرئ بالياء (يتفطرن) يتشققن من عظمة الله تعالى وقيل من دعاء الولد له كما في سورة مريم وقرئ ينفطرن والاول أبلغ لانه مطاوع فطر وهذا مطاوع فطر وقرئ تتفطرن بالتاء لتأكيد التأنيث وهو نادر (من فوقهن) أي يبتدأ التفطر من جهتهن الفوقانية وتخصيصها على الاول لان أعظم الآيات وأدلها على العظمة والجلال من تلك الجهة وعلى الثاني للدلالة على التفطر من تحتهن بالطريق الاولى لان تلك الكلمة الشنعاء الواقعة في الارض حيث أثرت في جهة الفوق فلأن تؤثر

بالاستعلاء وكمال الالهية ثم قال تكاد السموات يتفطرن من فوقهن وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر تكاد بالتاء ينفطرن بالياء والنون وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة تكاد بالتاء يتفطرن بالياء والتاء وقرأ نافع والكسائى يكاد بالياء يتفطرن أيضا بالتاء قال صاحب الكشاف وروى يونس عن أبى عمرو قراءة غريبة تتفطرن بالتاءين مع النون ونظيرها حرف نادر روى فى نوادر ابن الاعرابى الابل تتشممن (المسئلة الثانية) فى فائدة قوله من فوقهن وجوه (الاول) روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال تكاد السموات يتفطرن من فوقهن قال والمعنى انها تكاد تتفطر من ثقل الله عليها واعلم أن هذا القول سخيف ويجب القطع ببراءة ابن عباس عنه ويدل على فساده وجوه (الاول) أن قوله من فوقهن لا يفهم منه من فوقهن (وثانيها) هب أنه يحمل على ذلك لكن لم قلتم ان هذه الحالة انما حصلت من ثقل الله عليها ولم لا يجوز أن يقال ان هذه الحالة انما حصلت من ثقل الملائكة عليها كما جاء فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع شبر الا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد (وثالثها) لم لا يجوز أن يكون المراد تكاد السموات تنشق وتنفطر من هيبة من هو فوقها فوقية بالالهية والقهر والقدرة فثبت بهذه الوجوه ان القول الذى ذكروه فى غاية الفساد والركاكة (والوجه الثانى) فى تأويل الآية ما ذكره صاحب الكشاف وهو أن كلمة الكفر انما جاءت من الذين تحت السموات وكان القياس أن يقال ينفطرن من تحتهن من الجهة التى جاءت منها الكلمة ولكنه بولغ فى ذلك فقلب فجعلت مؤثرة فى جهة الفوق كأنه قيل يكدن ينفطرن من الجهة التى فوقهن ودع الجهة التى تحتهن ونظيره فى المبالغة قوله تعالى يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود فجعل مؤثرا فى اجزائهم الباطنة (الوجه الثالث) فى تأويل الآية أن يقال من فوقهن أى من فوق الارضين لانه تعالى قال قبل هذه الآية له ما فى السموات وما فى الارض ثم قال تكاد السموات ينفطرن من فوقهن أى من فوق الارضين (والوجه الرابع) فى التأويل أن يقال معنى من فوقهن أى من الجهة التى حصلت هذه السموات فيها وتلك الجهة هى فوق فقوله من فوقهن أى من الجهة الفوقانية التى هن فيها (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى أن هذه الهيئة لم حصلت وفيه قولان (الاول) انه تعالى لما بين ان الموحى لهذا الكتاب هو الله العزيز الحكيم بين وصف جلاله وكبريائه فقال تكاد السموات ينفطرن من فوقهن أى من هيبته وجلالته (والقول الثانى) ان السبب فيه اثباتهم الولد لله لقوله تكاد السموات يتفطرن منه وههنا السبب فيه اثباتهم الشركاء لله لقوله بعد هذه الآية والذين اتخذوا من دونه أولياء والصحيح هو الاول ثم قال والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الارض واعلم أن مخلوقات الله تعالى نوعان عالم الجسمانيات وأعظمها السموات وعالم الروحانيات وأعظمها الملائكة والله تعالى يقرر كمال عظمته

فى جهة التحت أولى وقيل الضمير للارض فانها فى معنى الارضين (والملائكة يسبحون بحمد ربهم) ينزهونه تعالى عما لا يليق به ملتبسين بحمده (ويستغفرون لمن فى الارض) بالسعى فيما يستدعى مغفرتهم من الشفاعة والالهام وترتيب الاسباب المقربة الى الطاعة واستدعاء تأخير العقوبة طمعا فى ايمان الكافر وتوبة الفاسق وهذا يعم المؤمن والكافر بل لو فسر الاستغفار بالسعى فيما يدفع الخلل المتوقع عم الحيوان بل الجماد وحيث خص بالمؤمنين كما فى قوله تعالى ويستغفرون للذين آمنوا فالمراد به الشفاعة (ألا ان الله هو الغفور الرحيم) اذ ما من مخلوق الا وله حظ عظيم من رحمته تعالى والآية على الاول زيادة تقرير لعظمته تعالى وعلى الثانى بيان لكمال تقدسه عما نسب اليه وأن ترك معاجلتهم بالعقاب على تلك الكلمة الشنعاء بسبب استغفار الملائكة وفرط غفرانه ورحمته ففيها رمز الى أنه تعالى يقبل استغفارهم ويزيدهم على ما طلبوه من المغفرة رحمة (والذين اتخذوا من دونه أولياء) شركاء وأندادا (الله حفيظ عليهم) رقيب على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها (وما أنت عليهم بوكيل) بموكل بهم أو بموكول اليك أمرهم وانما وظيفتك الانذار (وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا) ذلك اشارة الى مصدر أوحينا ومحل الكاف النصب على المصدرية وقرآنا عربيا مفعول لأوحينا أى ومثل ذلك الايحاء البديع البين المفهم أوحينا اليك قرآنا عربيا لا لبس

فيه عليك ولا على قومك وقيل اشارة الى معنى الآية المتقدمة من انه تعالى هو الحفيظ عليهم وانما انت نذير فحسب فالكاف مفعول به لأوحينا وقرآنا عربيا حال من المفعول به أى أوحيناه اليك وهو قرآن عربى بين (لتنذر أم القرى) أهلها وهى مكة (ومن حولها) من العرب (وتنذر يوم الجمع) أى يوم القيامة لانه يجمع فيه الخلائق قال تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع وقيل تجمع فيه الارواح والاشباح وقيل الاعمال والعمال والانذار يتعدى الى مفعولين وقد يستعمل ثانيهما بالباء وقد حذف هو هنا ثانى مفعولى الاول وأول مفعولى الثانى للتهويل وايهام التعميم وقرئ لينذر بالياء على أن فاعله ضمير القرآن (لا ريب فيه) اعتراض مقرر لما قبله (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) أى بعد جمعهم فى الموقف فانهم يجمعون فيه أولا ثم يفرقون بعد الحساب والتقدير منهم فريق والضمير للمجموعين لدلالة الجمع عليه وقرئا منصوبين على الحالية منهم أى وتنذر يوم جمعهم متفرقين أى مشارفين للتفرق أو متفرقين فى دارى الثواب والعقاب (ولو شاء الله لجعلهم) أى فى الدنيا (أمة واحدة) قيل مهتدين أو ضالين وهو تفصيل لما أجمله ابن عباس رضى الله عنه فى قوله على دين واحد فمعنى قوله تعالى (ولكن يدخل من يشاء فى رحمته) أنه تعالى يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها ويدخل فى عذابه من يشاء أن يدخله فيه ولا ريب فى ان مشيئته

لاجل نفاذ قدرته وهيبته فى الجسمانيات ثم يردفه بنفاذ قدرته واستيلاء هيبته على الروحانيات والدليل عليه انه تعالى قال فى سورة عم يتساءلون لما أراد تقرير العظمة والكبرياء بدأ بذكر الجسمانيات فقال رب السموات والارض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا ثم انتقل الى ذكر عالم الروحانيات فقال يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا فكذلك القول فى هذه الآية بين كمال عظمته باستيلاء هيبته على الجسمانيات فقال تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ثم انتقل الى ذكر الروحانيات فقال والملائكة يسبحون بحمد ربهم فهذا ترتيب شريف وبيان باهر واعلم أن الموجودات على ثلاثة أقسام مؤثر لا يقبل الاثر وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الاقسام ومتأثر لا يؤثر وهو القابل وهو الجسم وهو أخس الاقسام وموجود يقبل الاثر من القسم الاول ويؤثر فى القسم الثانى وهو الجواهر الروحانيات المقدسة وهو المرتبة المتوسطة اذا عرفت هذا فنقول الجواهر الروحانية لها تعلقان تعلق بعالم الجلال والكبرياء وهو تعلق القبول فان الجلايا القدسية والاضواء الصمدية اذا أشرقت على الجواهر الروحانية استضاءت جواهرها وأشرقت ماهياتها ثم ان الجواهر الروحانية اذا استفادت تلك القوى الروحانية قويت بها على الاستيلاء على عوالم الجسمانيات واذا كان كذلك فلها وجهان وجه الى جانب الكبرياء وحضرة الجلال ووجه الى عالم الاجسام والوجه الاول أشرف من الثانى اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى يسبحون بحمد ربهم اشارة الى الوجه الذى لهم الى عالم الجلال والكبرياء وقوله يستغفرون لمن فى الارض اشارة الى الوجه الذى لهم الى عالم الاجسام فأحسن هذه اللطائف وما أشرفها وما أشد تأثيرها فى جذب الارواح من حضيض الخلق الى أوج معرفة الحق اذا عرفت هذا فنقول أما الجهة الاولى وهى الجهة العلوية المقدسة فقد اشتملت على أمرين أحدهما التسبيح وثانيهما التحميد لان قوله يسبحون بحمد ربهم يفيد هذين الامرين والتسبيح مقدم على التحميد لان التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغى والتحميد عبارة عن وصفه بكونه مفيضا لكل الخيرات وكونه منزها فى ذاته عما لا ينبغى مقدم بالرتبة على كونه فياضا للخيرات والسعادات لان وجود الشئ مقدم على ايجاد غيره وحصوله فى نفسه مقدم على تأثيره فى حصول غيره فلهذا السبب كان التسبيح مقدما على التحميد ولهذا قال يسبحون بحمد ربهم وأما الجهة الثانية وهى الجهة التى لتلك الارواح الى عالم الجسمانيات فالاشارة اليها بقوله ويستغفرون لمن فى الارض والمراد منه تأثيراتها فى نظم أحوال هذا العالم وحصول الطريق الاصوب الاصلح فيها فهذه ملامح من المباحث العالية الالهية مدرجة فى هذه الآيات المقدسة ولنرجع الى ما يليق بعلم التفسير فان قيل كيف يصح أن يستغفروا لمن فى الارض وفيهم الكفار وقد قال تعالى أولئك عليهم لعنة الله والملائكة فكيف يكونون لاعنين ومستغفرين لهم قلنا الجواب عنه من وجوه (الاول) ان قوله لمن

في الارض لا يفيد العموم لانه يصح أن يقال انهم استغفروا الكل من في الارض وأن يقال انهم استغفروا لبعض من في الارض دون البعض ولو كان قوله لمن في الارض صريحا في العموم لما صح ذلك التقسيم (الثاني) هب ان هذا النص يفيد العموم الا انه تعالى حكى عن الملائكة في سورة حم المؤمن فقال ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك (الثالث) يجوز أن يكون المراد من الاستغفار أن لا يعاجلهم بالعقاب كما في قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا الى أن قال انه كان حليما غفورا (الرابع) يجوز أن يقال انهم يستغفرون لكل من في الارض أما في حق الكفار فبواسطة طلب الايمان لهم وأما في حق المؤمنين فبالتجاوز عن سيآتهم فانا نقول اللهم اهد الكافرين وزين قلوبهم بنور الايمان وأزل عن خواطرهم وحشة الكفر وهذا في الحقيقة استغفار واعلم أن قوله ويستغفرون لمن في الارض يدل على انهم لا يستغفرون لانفسهم ولو كانوا مصرين على المعصية لكان استغفارهم لانفسهم قبل استغفارهم لمن في الارض وحيث لم يذكر الله عنهم استغفارهم لانفسهم علمنا أنهم مبرؤن عن كل الذنوب والانبياء عليهم السلام لهم ذنوب والذي لا ذنب له البتة أفضل ممن له ذنب وأيضا فقوله ويستغفرون لمن في الارض يدل على انهم يستغفرون للانبياء لان الانبياء من جملة من في الارض واذا كانوا مستغفرين للانبياء عليهم السلام كان الظاهر انهم أفضل منهم ولما حكى الله تعالى عن الملائكة التسبيح والتحميد والاستغفار قال الا ان الله هو الغفور الرحيم والمقصود التنبيه على ان الملائكة وان كانوا يستغفرون للبشر الا أن المغفرة المطلقة والرحمة المطلقة للحق سبحانه وتعالى وبيانه من وجوه (الاول) ان اقدام الملائكة على طلب المغفرة للبشر من الله تعالى انما كان لان الله تعالى خلق في قلوبهم داعية لطلب تلك المغفرة ولولا أن الله تعالى خلق في قلوبهم تلك الدواعي والا لما أقدموا على ذلك الطلب واذا كان كذلك كان الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله سبحانه وتعالى (الثاني) ان الملائكة قالوا في أول الامر أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ثم في آخر الامر صاروا يستغفرون لمن في الارض وأما رحمة الحق واحسانه فقد كان موجودا في الاول والآخر فثبت ان الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله تعالى (الثالث) انه تعالى حكى عنهم أنهم يستغفرون لمن في الارض ولم يحك عنهم انهم يطلبون الرحمة لمن في الارض فقال ألا ان الله هو الغفور الرحيم يعني انه يعطي المغفرة التي طلبوها ويضم اليها الرحمة الكاملة التامة ثم قال تعالى والذين اتخذوا من دونه أولياء أي جعلوا له شركاء وأندادا الله حفيظ عليهم أي رقيب على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شئ وهو محاسبهم عليها لا رقيب عليهم الا هو وحده وما أنت يا محمد بمفوض اليك أمرهم ولا قسرهم على الايمان انما أنت منذر فحسب * قوله تعالى (وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى

تعالى الكل من الادخالين تابعة لاستحقاق كل من الفريقين لدخول مدخله ومن ضرورة اختلاف الرحمة والعذاب اختلاف حال الداخلين فيهما قطعا فلم يشأ جعل الكل أمة واحدة بل جعلهم فريقين وانما قيل (والظالمون مالهم من ولي ولا نصير) للايذان بأن الادخال في العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم لا من جهته تعالى كما في الادخال في الرحمة لا لما قيل من المبالغة في الوعيد وقيل مؤمنين كلهم وهو ما قاله مقاتل على دين الاسلام كما في قوله تعالى ولو شاء الله لجمعهم على الهدى وقوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها والمعنى ولو شاء الله مشيئة قدرة لقسرهم على الايمان ولكنه شاء مشيئة حكمة وكلفهم وبنى أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بقوله تعالى يدخل من يشاء وترك الظالمين بغير ولي ولا نصير وأنت خبير بأن فرض جعل الكل مؤمنين يأباه تصدير الاستدراك بادخال بعضهم في رحمته اذ الكل حينئذ داخلون فيها فكان المناسب حينئذ تصديره باخراج بعضهم من بينهم وادخالهم في عذابه فالذي يقتضيه سياق النظم الكريم وسياقه أن يراد الاتحاد في الكفر كما في قوله تعالى كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين الآية على أحد الوجهين بأن يراد بهم الذين هم في فترة ادريس أو في فترة نوح عليهما السلام فالمعنى ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة متفقة على الكفر بأن لا يرسل اليهم رسولا لينذرهم

ماذكر من يوم الجمع ومافيه من الوان الاهوال فيبقوا على ماهم عليه من الكفر ولكن يدخل من يشاء في رحمته
أي شأنه ذلك فيرسل الى الكل من ينذرهم ماذكر فيتأثر بعضهم بالانذار فيصرفون اختيارهم الى الحق فيوفقهم
الله للايمان والطاعة ويدخلهم في رحمته ولا يتأثر به الآخرون ويتمادون في غيهم وهم الظالمون

ومن حولها وتنذر يوم الجمع لاريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير ولو شاء الله لجعلهم
أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون مالهم من ولي ولا نصير أم اتخذوا
من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شئ قدير وما اختلفتم فيه من
شئ فحكمه الى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت واليه أنيب فاطر السموات والارض
جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الانعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شئ وهو السميع
البصير له مقاليد السموات والارض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه بكل شئ عليم) اعلم
أن كلمة ذلك للاشارة الى شئ سبق ذكره فقوله وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا يقتضي
تشبيه وحي الله بالقرآن بشئ ههنا قد سبق ذكره وليس ههنا شئ سبق ذكره يمكن تشبيه وحي
القرآن به الا قوله والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل
يعني كما أوحينا اليك أنك لست حفيظا عليهم ولست وكيلا عليهم فكذلك أوحينا اليك
قرآنا عربيا لتكون نذيرا لهم وقوله تعالى لتنذر أم القرى أي لتنذر أهل أم القرى لان
البلد لا تعقل وهو كقوله واسئل القرية وأم القرى أصل القرى وهي مكة وسميت بهذا
الاسم اجلالا لها لان فيها البيت ومقام ابراهيم والعرب تسمي أصل كل شئ أمه حتى يقال
هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان ومن حولها من أهل البدو والحضر وأهل المدر
والانذار التخويف فان قيل فظاهر اللفظ يقتضي ان الله تعالى انما أوحى اليه لينذر أهل
مكة وأهل القرى المحيطة بمكة وهذا يقتضي أن يكون رسولا اليهم فقط وأن لا يكون
رسولا الى كل العالمين (والجواب) ان التخصيص بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما سواه
فهذه الآية تدل على كونه رسولا الى هؤلاء خاصة وقوله وما أرسلناك الا كافة للناس
يدل على كونه رسولا الى كل العالمين وأيضا لما ثبت كونه رسولا الى أهل مكة وجب كونه
صادقا ثم انه نقل الينا بالتواتر أنه كان يدعي أنه رسول الى كل العالمين والصادق اذا أخبر
عن شئ وجب تصديقه فيه فثبت انه رسول الى كل العالمين ثم قال تعالى وتنذر يوم الجمع
الاصل أن يقال أنذرت فلانا بكذا فكان الواجب أن يقال لتنذر أم القرى بيوم الجمع
وأيضا فيه اضمار والتقدير لتنذر أهل أم القرى بعذاب يوم الجمع وفي تسميته بيوم الجمع
وجوه (الاول) ان الخلائق يجمعون فيه قال تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع فيجتمع فيه
أهل السموات مع أهل الارض (الثاني) أنه يجمع بين الارواح والاجساد (الثالث)
يجمع بين كل عامل وعمله (الرابع) يجمع بين الظالم والمظلوم وقوله لاريب فيه صفة ليوم
الجمع أي يوم الجمع الذي لاريب فيه وقوله فريق في الجنة وفريق في السعير تقديره ليوم
الجمع الذي من صفته يكون القوم فيه فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير فان قيل
قوله يوم الجمع يقتضي كون القوم مجتمعين وقوله فريق في الجنة وفريق في السعير يقتضي
كونهم متفرقين والجمع بين الصفتين محال قلنا انهم يجتمعون أولا ثم يصيرون فريقين

فيبقون في الدنيا على
ماهم عليه من الكفر
ويصيرون في الآخرة
الى السعير من غير ولي
يلي أمرهم ولا نصير
يخلصهم من العذاب
(أم اتخذوا من دونه
أولياء) جملة مستأنفة
مقررة لما قبلها من
انتفاء أن يكون للظالمين
ولي أو نصير وأم منقطعة
ومافيها من بل للانتقال
من بيان ماقبلها الى
بيان مابعدها والهمزة
لانكار الوقوع ونفيه
على ابلغ وجه وآكده
لا لانكار الواقع واستقباحه
كما قيل اذ المراد بيان
أن مافعلوا ليس من
اتخاذ الاولياء في شئ
لان ذلك فرع كون
الاصنام أولياء وهو
اظهر الممتنعات أي
بل اتخذوا متجاوزين الله
أولياء من الاصنام
وغيرها هيهات وقوله
تعالى (فالله هو الولي)
جواب شرط محذوف
كأنه قيل بعد ابطال
ولاية مااتخذوه أولياء
ان أرادوا وليا في الحقيقة
فالله هو الولي لا ولي
سواه (وهو يحيي الموتى) أي ومن شأنه ذلك (وهو على كل شئ قدير) فهو الحقيق بأن يتخذ
وليا فليخصوه بالاتخاذ دون من لا يقدر على شئ (وما اختلفتم فيه من شئ) حكاية لقول

﴿ ثم ﴾

رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين أى وماخالفكم الكفار فيه من أمور الدين فاختلفتم أنتم وهم (فحكمه) راجع (الى الله) وهو اثابة المحقين وعقاب المبطلين (ذلكم) الحاكم العظيم الشان (الله ربى) مالكى (عليه توكلت) فى مجامع أمورى خاصة لا على غيره (واليه أنيب) أرجع فى كل مايعن لى من معضلات الامور لا الى أحد سواه وحيث كان التوكل أمرا واحدا مستمرا والانابة متعددة متجددة حسب تجدد موادها أوثر فى الاول صيغة الماضى وفى الثانى صيغة المضارع وقيل وما اختلفتم فيه وتنازعتم فى شئ من الخصومات فتحاكموا فيه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره وقيل وما اختلفتم فيه من تأويل آية واشتبه عليكم فارجعوا فى بيانه الى المحكم من كتاب الله والظاهر من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل وما وقع بينكم الخلاف فيه من العلوم التى لا تتعلق بتكليفكم ولا طريق لكم الى علمه فقولوا الله أعلم كمعرفة الروح ولا مساغ لحمل هذا على الاجتهاد لعدم جوازه بحضرة الرسول عليه الصلاة والسلام (فاطر السموات والارض) خبر آخر لذلكم أو خبر لمبتدا محذوف أو مبتدأ خبره (جعل لكم) وقرئ بالجر على أنه بدل من الضمير أو صفة للاسم الجليل فى قوله تعالى وما بينهما اعتراض بين الصفة والموصوف (من أنفسكم) من جنسكم

ثم قال ولوشاء الله لجعلهم أمة واحدة والمراد تقرير قوله والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل أى لايكن فى قدرتك أن تحملهم على الايمان فلوشاء الله ذلك لفعله لانه أقدر منك ولكنه جعل البعض مؤمنا والبعض كافرا فقوله يدخل من يشاء فى رحمته يدل على انه تعالى هو الذى أدخلهم فى الايمان والطاعة وقوله والظالمون مالهم من ولى ولا نصير يعنى أنه تعالى ماأدخلهم فى رحمته وهذا يدل على ان الاولين انما دخلوا فى رحمته لانه كان لهم ولى ونصير أدخلهم فى تلك الرحمة وهؤلاء ما كان لهم ولى ولا نصير يدخلهم فى رحمته ثم قال تعالى أم اتخذوا من دونه أولياء والمعنى انه تعالى حكى عنهم أولا انهم اتخذوا من دونه أولياء ثم قال بعده لمحمد صلى الله عليه وسلم لست عليهم رقيبا ولا حافظا ولا يجب عليك أن تحملهم على الايمان شاؤا أم أبوا فان هذا المعنى لو كان واجبا لفعله الله لانه أقدر منك ثم انه تعالى أعاد بعده ذلك الكلام على سبيل الاستنكار فان قوله أم اتخذوا من دونه أولياء استفهام على سبيل الانكار ثم قال تعالى فالله هو الولى والفاء فى قوله فالله هو الولى جواب شرط مقدر كأنه قال ان أرادوا أولياء بحق فالله هو الولى بالحق لا ولى سواه لانه يحيى الموتى وهو على كل شئ قدير فهو الحقيق بأن يتخذوا ولياً دون من لا يقدر على شئ ثم قال وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه الى الله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) وجه النظم انه تعالى كما منع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحمل الكفار على الايمان قهرا فكذلك منع المؤمنين أن يشرعوا معهم فى الخصومات والمنازعات فقال وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه الى الله وهو اثابة المحقين فيه ومعاقبة المبطلين وقيل وما اختلفتم فيه من شئ وتنازعتم فتحاكموا فيه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تؤثروا حكومة غيره على حكومته وقيل وما وقع بينكم فيه خلاف من الامور التى لا تصل بتكليفكم ولا طريق لكم الى علمه كحقيقة الروح فقولوا الله أعلم به قال تعالى ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى (المسئلة الثانية) تقدير الآية كأنه تعالى قال قل يا محمد وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه الى الله والدليل عليه قوله تعالى ذلكم الله ربى عليه توكلت واليه أنيب (المسئلة الثالثة) احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا قوله تعالى وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه الى الله اما أن يكون المراد فحكمه مستفاد من نص الله عليه أو المراد فحكمه مستفاد من القياس على ما نص الله عليه والثانى باطل لانه يقتضى كون كل الاحكام مثبتة بالقياس وانه باطل فيتعين الاول فوجب كون كل الاحكام مثبتة بالنص وذلك ينفى العمل بالقياس ولقائل أن يقول لم لا يجوز أن يكون المراد فحكمه يعرف من بيان الله تعالى سواء كان ذلك البيان بالنص او بالقياس أجيب عنه بأن المقصود من التحاكم الى الله قطع الاختلاف والرجوع الى القياس يقوى حكم الاختلاف ولا يوضعه فوجب أن يكون الواجب هو الرجوع الى نصوص الله تعالى ثم قال تعالى ذلكم الله ربى أى ذلكم الحاكم بينكم هو ربى عليه توكلت فى دفع كيد

(أزواجا) نساء وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح قد مر سره غير مرة (ومن الانعام) أي وجعل للانعام من جنسها (أزواجا) أو خلق لكم من الانعام أصنافا أو ذكورا واناثا (يذرؤكم) يكثركم من الذرو وهو البث وفي معناه الذرء والذر (فيه) أي فيما ذكر من التدبير فان جعل الناس والانعام أزواجا يكون بينهم توالد كالمنبع للبث والتكثير (ليس كمثله شئ) أي ليس مثله شئ في شأن من الشؤن التي من جملتها هذا التدبير البديع والمراد من مثله ذاته كما في قولهم مثلك لا يفعل كذا على قصد المبالغة في نفيه عنه فانه اذا نفي عمن يناسبه كان نفيه عنه أولى ثم سلكت هذه الطريقة في شأن من لا مثل له وقيل مثله صفته أي ليس كصفته صفة (وهو السميع البصير) المبالغ في العلم بكل ما يسمع ويبصر (له مقاليد السموات والارض) أي خزائنهما (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يوسع ويضيق حسبما تقتضيه مشيئته المؤسسة على الحكم البالغة (انه بكل شئ عليم) مبالغ في الاحاطة به فيفعل كل ما يفعل على ما ينبغي أن يفعل عليه والجملة تعليل لما قبلها وتمهيد لما بعدها من قوله تعالى

الاعداء وفي طلب كل خير واليه أنيب أي واليه أرجع في كل المهمات وقوله عليه توكلت يفيد الحصر أي لا أتوكل الا عليه وهو اشارة الى تزييف طريقة من اتخذ غير الله وليا ثم قال فاطر السموات والارض قرئ بالرفع والجر فالرفع على أنه خبر ذلكم أو خبر مبتدا محذوف والجر على تقدير أن يكون الكلام هكذا وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه الى الله فاطر السموات والارض وقوله ذلكم الله ربي اعتراض وقع بين الصفة والموصوف جعل لكم من أنفسكم من جنسكم من الناس أزواجا ومن الانعام أزواجا أي خلق من الانعام أزواجا ومعناه وخلق أيضا للانعام من أنفسها أزواجا يذرؤكم يكثركم يقال ذرأ الله الخلق أي كثرهم وقوله فيه أي في هذا التدبير وهو التزويج وهو أن جعل الناس والانعام أزواجا حتى كان بين ذكورهم واناثهم التوالد والتناسل والضمير في يذرؤكم يرجع الى المخاطبين الا انه غلب فيه جانب الناس من وجهين (الاول) انه غلب فيه جانب العقلاء على غير العقلاء (والثاني) انه غلب فيه جانب المخاطبين على الغائبين فان قيل ما معنى يذرؤكم في هذا التدبير ولم يقل يذرؤكم به قلنا جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن لهذا التكثير ألا ترى انه يقال للحيوان في خلق الازواج تكثير كما قال تعالى ولكم في القصاص حياة ثم قال تعالى ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وهذه الآية فيها مسائل (المسئلة الاولى) احتج علماء التوحيد قديما وحديثا بهذه الآية في نفي كونه تعالى جسما مركبا من الاعضاء والاجزاء وحاصلا في المكان والجهة وقالوا لو كان جسما لكان مثلا لسائر الاجسام فيلزم حصول الامثال والاشباه له وذلك باطل بصريح قوله تعالى ليس كمثله شئ ويمكن ايراد هذه الحجة على وجه آخر فيقال اما أن يكون المراد ليس كمثله شئ في ماهيات الذات أو أن يكون المراد ليس كمثله في الصفات شئ والثاني باطل لان العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين كما ان الله تعالى يوصف بذلك وكذلك يوصفون بكونهم معلومين مذكورين مع ان الله تعالى يوصف بذلك فثبت ان المراد بالمماثلة المساواة في حقيقة الذات فيكون المعنى ان شيأ من الذوات لا يساوي الله تعالى في الذاتية فلو كان الله تعالى جسما لكان كونه جسما ذاتا لا صفة فاذا كان سائر الاجسام مساوية له في الجسمية أعني في كونها متحيزة طويلة عريضة عميقة فحينئذ تكون سائر الاجسام مماثلة لذات الله تعالى في كونه ذاتا والنص ينفي ذلك فوجب أن لا يكون جسما واعلم أن محمد بن اسحق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية في الكتاب الذي سماه بالتوحيد وهو في الحقيقة كتاب الشرك واعترض عليها وأنا أذكر حاصل كلامه بعد حذف التطويلات لانه كان رجلا مضطرب الكلام قليل الفهم ناقص العقل فقال نحن نثبت لله وجها ونقول ان لوجه ربنا من النور والضياء والبهاء ما لو كشف حجابه لأحرقت سبحات وجهه كل شئ أدركه بصره ووجه ربنا منفي عنه الهلاك والفناء ونقول ان لبني آدم وجوها كتب الله عليها الهلاك والفناء ونفى عنها الجلال والاكرام غير موصوفة بالنور والضياء

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى) وايذان بان ما شرع
لهم صادر عن كمال العلم والحكمة كما أن بيان

نسبته الى المذكورين عليهم الصلاة والسلام تنبيه على كونه دينا قديما أجمع عليه الرسل والخطاب لامته عليه الصلاة والسلام أى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ومن بعده من أرباب الشرائع وأولى العزائم من مشاهير الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأمرهم به أمرا مؤكدا على أن تخصيصهم بالذكر لما ذكر من علو شأنهم ولاستمالة قلوب الكفرة اليه لاتفاق الكل على نبوة بعضهم وتفرد اليهود فى شأن موسى عليه السلام وتفرد النصارى فى حق عيسى عليه السلام والافا من نبى الا وهو مأمور بما أمروا به وهو عبارة عن التوحيد ودين الاسلام وما لا يختلف باختلاف الامم وتبدل الاعصار من أصول الشرائع والاحكام كما ينبئ عنه التوصية فانها معربة عن تأكيد الامر والاعتناء بشأن المأمور به والمراد بايحائه اليه عليه الصلاة والسلام اما ما ذكر فى صدر السورة الكريمة وفى قوله تعالى وكذلك أوحينا الآية

أو ما يتعلق بهما وغيرهما مما وقع فى سائر المواقع التى من جملتها قوله تعالى ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا

والبهاء ولو كان مجرد اثبات الوجه لله يقتضى التشبيه لكان من قال ان لبنى آدم وجوها وللخنازير والقردة والكلاب وجوها لكان قد شبه وجوه بنى آدم بوجوه الخنازير والقردة والكلاب ثم قال ولا شك انه اعتقاد الجهمية لانه لو قيل له وجهك يشبه وجه الخنازير والقردة لغضب ولشافهه بالسوء فعلمنا انه لا يلزم من اثبات الوجه واليدين لله اثبات التشبيه بين الله و بين خلقه وذكر فى فصل آخر من هذا الكتاب ان القرآن دل على وقوع التسوية بين ذات الله تعالى و بين خلقه فى صفات كثيرة ولم يلزم منها أن يكون القائل بها مشبها فكذا ههنا ونحن نعد الصور التى ذكرها على الاستقصاء (فالاول) انه تعالى قال فى هذه الآية وهو السميع البصير وقال فى حق الانسان فجعلناه سميعا بصيرا (الثانى) قال وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله وقال فى حق المخلوقين أولم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء (الثالث) قال واصنع الفلك بأعيننا واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وقال فى حق المخلوقين ترى أعينهم تفيض من الدمع (الرابع) قال لابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى وقال بل يداه مبسوطتان وقال فى حق المخلوقين ذلك بما قدمت أيديكم ذلك بما قدمت يداك ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم (الخامس) قال تعالى الرحمن على العرش استوى وقال فى الذين يركبون الدواب لتستووا على ظهوره وقال فى سفينة نوح واستوت على الجودى (السادس) سمى نفسه عزيزا فقال العزيز الجبار ثم ذكر هذا الاسم فى حق المخلوقين بقوله يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر (السابع) سمى نفسه بالملك وسمى بعض عبيده أيضا بالملك فقال وقال الملك ائتونى به وسمى نفسه بالعظيم ثم أوقع هذا الاسم على المخلوق فقال رب العرش العظيم وسمى نفسه بالجبار المتكبر وأوقع هذا الاسم على المخلوق فقال كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ثم طول فى ضرب الامثلة من هذا الجنس وقال ومن وقف على الامثلة التى ذكرناها امكنه الاكثار منها فهذا ما أورده هذا الرجل فى هذا الكتاب وأقول هذا المسكين الجاهل انما وقع فى امثال هذه الخرافات لانه لم يعرف حقيقة المثلين وعلماء التوحيد حققوا الكلام فى المثلين ثم فرعوا عليه الاستدلال بهذه الآية فنقول المثلان هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر فى حقيقته وماهيته وتحقيق الكلام فيه مسبوق بمقدمة أخرى فنقول المعتبر فى كل شئ اما تمام ماهيته واما جزء من أجزاء ماهيته وأما أمر خارج عن ماهيته ولكنه يكون من لوازم تلك الماهية واما أمر خارج عن ماهيته ولكنه ليس من لوازم تلك الماهية وهذا التقسيم مبنى على الفرق بين ذات الشئ و بين الصفات القائمة به وذلك معلوم بالبديهة فانا نرى الحبة من الحصرم كانت فى غاية الخضرة والحموضة ثم صارت فى غاية السواد والحلاوة فالذات باقية والصفات مختلفة والذات الباقية مغايرة للصفات المختلفة وأيضا نرى الشعر قد كان فى غاية السواد ثم صار فى غاية البياض فالذات باقية والصفات متبدلة والباقى غير المتبدل فظهر بما ذكرنا

ان الذوات مغايرة للصفات اذا عرفت هذا فنقول اختلاف الصفات لايوجب اختلاف الذوات البتة لاترى الجسم الواحد كان ساكنا ثم بصير متحركا ثم يسكن بعد ذلك فالذوات باقية فى الاحوال كلها على نهج واحد ونسق واحد والصفات متعاقبة متزايلة فثبت بهذا ان اختلاف الصفات والاعراض لايوجب اختلاف الذوات اذا عرفت هذا فنقول الاجسام التى منها تألف وجه الكلب والقرد مساوية للاجسام التى تألف منها وجه الانسان والفرس وانما حصل الاختلاف بسبب الاعراض القائمة وهى الالوان والاشكال والخشونة والملاسة وحصول الشعور فيه وعدم حصولها فالاختلاف انما وقع بسبب الاختلاف فى الصفات والاعراض فاما ذوات الاجسام فهى متماثلة الا ان العوام لايعرفون الفرق بين الذوات و بين الصفات فلاجرم يقولون ان وجه الانسان مخالف لوجه الحمار ولقد صدقوا فانه حصلت تلك المخالفة بسبب الشكل واللون وسائر الصفات فاما الاجسام من حيث انها أجسام فهى متماثلة متساوية فثبت ان الكلام الذى أورده انما ذكره لاجل انه كان من العوام وما كان يعرف ان المعتبر فى التماثل والاختلاف حقائق الاشياء وماهياتها لا الاعراض والصفات القائمة بها بقى ههنا ان يقال فما الدليل على ان الاجسام كلها متماثلة فنقول لنا ههنا مقامان (المقام الاول) أن نقول هذه المقدمة اما أن تكون مسلمة أو لاتكون مسلمة فان كانت مسلمة فقد حصل المقصود وان كانت ممنوعة فنقول فلم لايجوز أن يقال اله العالم هو الشمس أو القمر أو الفلك أو العرش أو الكرسى و يكون ذلك الجسم مخالفا الماهية سائر الاجسام فكان هو قديما أزليا واجب الوجود وسائر الاجسام محدثة مخلوقة ولو أن الاولين والآخرين اجتمعوا على أن يسقطوا هذا الالزام عن المجسمة لايقدرون عليه فان قالوا هذا باطل لان القرآن دل على أن الشمس والقمر والافلاك كلها محدثة مخلوقة فيقال هذا من باب الحماقة المفرطة لان صحة القرآن وصحة نبوة الانبياء مفرعة على معرفة الاله فاثبات معرفة الاله بالقرآن وقول النبى لايقوله عاقل يفهم مايتكلم به (والمقام الثانى) ان علماء الاصول أقاموا البرهان القاطع على تماثل الاجسام فى الذوات والحقيقة واذا ثبت هذا ظهر انه لو كان اله العالم جسما لكانت ذاته مساوية لذوات الاجسام الا ان هذا باطل بالعقل والنقل اما العقل فلان ذاته اذا كانت مساوية لذوات سائر الاجسام وجب أن يصح عليه مايصح على سائر الاجسام فيلزم كونه محدثا مخلوقا قابلا للعدم والفناء قابلا للتفرق والتمزق واما النقل فقوله تعالى ليس كمثله شئ فهذا تمام الكلام فى تقرير هذا الدليل وعند هذا يظهر انا لانقول بأنه متى حصل الاستواء فى الصفة لزم حصول الاستواء فى تمام الحقيقة الا انا نقول لما ثبت ان الاجسام متماثلة فى تمام الماهية فلو كانت ذاته جسما لكان ذلك الجسم مساويا لسائر الاجسام فى تمام الماهية وحينئذ يلزم أن يكون كل جسم مثلا له لما بينا ان المعتبر فى حصول المماثلة اعتبار الحقائق من حيث هى هى لا اعتبار الصفات القائمة بها

ماوقع فى الآيات المذكورة ولما فى الايحاء من التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لانكار الكفرة والالتفات الى نون العظمة لاظهار كمال الاعتناء بايحائه وهو السر فى تقديمه على ما بعده مع تقدمه عليه زمانا وتقديم توصية نوح عليه السلام للمسارعة الى بيان كون المشروع لهم دينا قديما وتوجيه الخطاب اليه عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه عليه الصلاة والسلام (ان أقيموا الدين) أى دين الاسلام الذى هو توحيد الله تعالى وطاعته والايمان بكتبه ورسله و بيوم الجزاء وسائر ما يكون الرجل به مؤمنا والمراد باقامته تعديل أركانه وحفظه من ان يقع فيه زيغ أو المواظبة عليه والتشمر له ومحل أن أقيموا اما النصب على أنه بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه أو الرفع على أنه جواب عن سؤال نشأ من ابهام المشروع كأنه قيل وما ذاك فقيل هو اقامة الدين وقيل بدل من ضمير به وليس بذاك لما أنه مع ﴿ نظهر ﴾

فظهر بالتقرير الذي ذكرناه أن حجة أهل التوحيد في غاية القوة وان هذه الكلمات التي أوردها هذا الانسان انما أوردها لانه كان بعيدا عن معرفة الحقائق فجرى على منهج كلمات العوام فاغتر بتلك الكلمات التي ذكرها ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة (المسئلة الثانية) في ظاهر هذه الآية اشكال فانه يقال المقصود منها نفي المثل عن الله تعالى وظاهرها يوجب اثبات المثل لله فانه يقتضي نفي المثل عن مثله لا عنه وذلك يوجب اثبات المثل لله تعالى وأجاب العلماء عنه بان قالوا ان العرب تقول مثلك لا يبخل أي أنت لا تبخل فنفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عنه ويقول الرجل هذا الكلام لا يقال لمثلي أي لا يقال لي قال الشاعر* ومثلي كمثل جذوع النخيل * والمراد منه المبالغة فانه اذا كان ذلك الحكم منتفيا عن كان مشابها بسبب كونه مشابها له فلان يكون منتفيا عنه كان ذلك أولى ونظيره قولهم سلام على المجلس العالي والمقصود ان سلام الله اذا كان واقعا على مجلسه وموضعه فلأن يكون واقعا عليه كان ذلك أولى فكذا ههنا قوله تعالى ليس كمثله شئ والمعنى ليس كهو شئ على سبيل المبالغة من الوجه الذي ذكرناه وعلى هذا التقدير فلم يكن هذا اللفظ ساقطا عديم الاثر بل كان مفيدا للمبالغة من الوجه الذي ذكرناه وزعم جهم ابن صفوان أن المقصود من هذه الآية بيان انه تعالى ليس مسمى باسم الشئ قال لان كل شئ فانه يكون مثلا لمثل نفسه فقوله ليس كمثله شئ معناه ليس مثل مثله شئ وذلك يقتضي أن لا يكون هو مسمى باسم الشئ وعندي فيه طريقة أخرى وهي ان المقصود من ذكر الجمع بين حرفي التشبيه الدليل الدال على كونه منزها عن المثل وتقريره أن يقال لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه وهذا محال فاثبات المثل له محال أما بيان انه لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه فالامر فيه ظاهر واما بيان ان هذا محال فلانه لو كان مثل مثل نفسه لكان مساويا لمثله في تلك الماهية ومباينا له في نفسه وما به المشاركة غير ما به المباينة فتكون ذات كل واحد منهما مركبا وكل مركب ممكن فثبت انه لو حصل لواجب الوجود مثل لما كان هو في نفسه واجب الوجود اذا عرفت هذا فقوله ليس مثل مثله شئ اشارة الى انه لو صدق عليه انه مثل مثل نفسه لما كان هو شيئا بناء على ما بينا انه لو حصل لواجب الوجود مثل لما كان واجب الوجود فهذا ما يحتمله اللفظ (المسئلة الثالثة) هذه الآية دالة على نفي المثل وقوله تعالى وله المثل الأعلى يقتضي اثبات المثل فلا بد من الفرق بينهما فنقول المثل هو الذي يكون مساويا للشئ في تمام الماهية والمثل هو الذي يكون مساويا له في بعض الصفات الخارجة عن الماهية وان كان مخالفا في تمام الماهية (المسئلة الرابعة) قوله وهو السميع البصير يدل على كونه تعالى سامعا للمسموعات مبصرا للمرئيات فان قيل يمتنع اجراء هذا اللفظ على ظاهره وذلك لانه اذا حصل قرع أو قلع انقلب الهواء من بين ذينك الجسمين انقلابا بعنف فيتموج الهواء بسبب ذلك ويتأدى ذلك التموج الى سطح الصماخ فهذا هو السماع واما الابصار فهو عبارة عن تأثر الحدقة بصورة المرئي فثبت أن السمع

انه متوجه الى أمته صلى الله عليه وسلم وأنهم المتفرقون كما سنحيط به خبرا أي لا تتفرقوا في الدين الذي هو عبارة عما ذكر من الاصول دون الفروع المختلفة حسب اختلاف الامم باختلاف الاعصار كما ينطق به قوله تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا وقوله تعالى (كبر على المشركين) شروع في بيان أحوال بعض من شرع لهم ما شرع من الدين القويم أي عظم وشق عليهم (ما تدعوهم اليه) من التوحيد ورفض عبادة الاصنام واستبعدوه حيث قالوا أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشئ عجاب وقوله تعالى (الله يجتبي اليه من يشاء) استئناف وارد لتحقيق الحق والاشعار بان منهم من يجيب الى الدعوة أي الله يجتلب الى ما تدعوهم اليه من يشاء أن يجتبيه اليه وهو من صرف اختياره الى ما دعي اليه كما ينبئ عنه قوله تعالى (ويهدي اليه من ينيب) أي يقبل اليه حيث يمده بالتوفيق والالطاف وقوله تعالى (وما تفرقوا) شروع في بيان أحوال أهل الكتاب عقيب الاشارة

الاجمالية الى احوال أهل الشرك قال ابن عباس رضى الله عنهما هم اليهود والنصارى لقوله تعالى وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الامن بعد ماجاءتهم البينة أى وما تفرقوا ﴿ ٣٩٦ ﴾ فى الدين الذى دعوا اليه ولم يؤمنوا كما آمن بعضهم (الامن بعد ما جاءهم العلم) بحقيقته بما شاهدوا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن من دلائل الحقية حسبما وجدوه فى كتابهم أو العلم بمبعثه عليه الصلاة والسلام وهو استثناء مفرغ من أعم الاحوال أو من أعم الاوقات أى وما تفرقوا فى حال من الاحوال أو فى وقت من الاوقات الا حال مجىء العلم أو الا وقت مجىء العلم (بغيا بينهم) وحمية وطلبا للرياسة لا لان لهم فى ذلك شبهة (ولولا كلمة سبقت من ربك) وهى العدة بتأخير العقوبة (الى أجل مسمى) هو يوم القيامة (لقضى بينهم) لاوقع القضاء بينهم باستئصالهم لاستيجاب جناياتهم لذلك قطعا وقوله تعالى (وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم) الخ بيان لكيفية كفر المشركين بالقرآن اثر بيان كيفية كفر أهل الكتاب وقرئ ورثوا وورثوا أى وان المشركين الذين أورثوا القرآن من بعدما أورث أهل الكتاب ﴿ بما ﴾ كتابهم (لفى شك منه) من القرآن (مريب) موقع فى القلق أو فى الريبة ولذلك لا يؤمنون به لا لمحض البغى والمكابرة بعد

والبصر عبارة عن تأثر الحاسة وذلك على الله محال فثبت ان اطلاق السمع والبصر على علمه تعالى بالمسموعات والمبصرات غير جائز (والجواب) الدليل على أن السماع مغاير لتأثر الحاسة انا اذا سمعنا الصوت علمنا انه من أى الجوانب جاء فعلمنا انا أدركنا الصوت حيث وجد ذلك الصوت فى نفسه وهذا يدل على ان ادراك الصوت حالة مغايرة لتأثر الصماخ عن تموج ذلك الهواء وأما الرؤية فالدليل على انها حالة مغايرة لتأثر الحدقة فذلك لان نقطة الناظر جسم صغير فيستحيل انطباع الصورة العظيمة فيه فنقول الصورة المنطبعة صغيرة والصورة المرئية فى نفس العالم عظيمة وهذا يدل على ان الرؤية حالة مغايرة لنفس ذلك الانطباع واذا ثبت هذا فنقول لايلزم من امتناع التأثر فى حق الله امتناع السمع والبصر فى حقه فان قالوا هب ان السمع والبصر حالتان مغايرتان لتأثر الحاسة الا أن حصولهما مشروط بحصول ذلك التأثر فلما كان حصول ذلك التأثر فى حق الله تعالى ممتنعا كان حصول السمع والبصر فى حق الله ممتنعا فنقول ظاهر قوله وهو السميع البصير يدل على كونه سميعا بصيرا فلم يجز لنا أن نعدل عن هذا الظاهر الا اذا قام الدليل على أن الحاسة المسماة بالسمع والبصر مشروطة بحصول التأثر والتأثر فى حق الله تعالى ممتنع فكان حصول الحاسة المسماة بالسمع والبصر ممتنعا وأنتم المدعون لهذا الاشتراط فعليكم الدلالة على حصوله وانما نحن متمسكون بظاهر اللفظ الى أن تذكروا مايوجب العدول عنه فان قال قائل قوله وهو السميع البصير يفيد الحصر فما معنى هذا الحصر مع أن العباد أيضا موصوفون بكونهم سميعين بصيرين فنقول السميع والبصير لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على سبيل الكمال والكمال فى كل الصفات ليس الا لله فهذا هو المراد من هذا الحصر أما قوله تعالى له مقاليد السموات والارض فاعلم أن المراد من الآية انه تعالى فاطر السموات والارض والاصنام ليست كذلك وأيضا فهو خالق أنفسنا وأزواجنا وخالق أولادنا منا ومن أزواجنا والاصنام ليست كذلك وأيضا فله مقاليد السموات والارض والاصنام ليست كذلك والمقصود من الكل بيان القادر المنعم الكريم الرحيم فكيف يجوز جعل الاصنام التى هى جمادات مساوية له فى المعبودية فقوله له مقاليد السموات والارض يريد مفاتيح الرزق من السموات والارض فمقاليد السموات الامطار ومقاليد الارض النبات وذكرنا تفسير المقاليد فى سورة الزمر عند قوله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لان مفاتيح الارزاق بيده انه بكل شئ من البسط والتقدير عليم * قوله تعالى (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى اوحينا اليك وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم اليه الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب وماتفرقوا الا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولاتتبع أهواءهم وقل آمنت

ما علموا بحقيته كدأب أهل الكتابين هذا وأما ماقيل من أن ضمير تفرقوا للامم الانبياء عليهم الصلاة والسلام وان المراد تفرق كل أمة بعد نبيها مع علمهم بان الفرقة ضلال وفساد وأمر متوعد عليه على ألسنة الانبياء عليهم الصلاة والسلام فيرده قوله تعالى ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضي بينهم وكذا ماقيل من أن الناس كانوا أمة واحدة مؤمنين بعدما اهلك الله تعالى أهل الارض بالطوفان فلما مات الآباء اختلف الابناء فيما بينهم وذلك حين بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وجاءهم العلم وانما اختلفوا للبغي بينهم فان مشاهير الامم المذكورة قد أصابهم عذاب الاستئصال من غير انظار وامهال على ان مساق النظم الكريم لبيان أحوال هذه الامة وانما ذكر من ذكر من الانبياء عليهم الصلاة والسلام لتحقيق أن ما شرع لهؤلاء دين قديم أجمع عليه أولئك الاعلام عليهم الصلاة والسلام تأكيدا لوجوب اقامته وتشديدا للزجر عن التفرق والاختلاف فيه فالتعرض لبيان تفرق أممهم عنه ربما يوهم الاخلال بذلك المرام (فلذلك) أي فلاجل ماذكر من التفرق والشك المريب أو فلاجل أنه شرع لهم الدين القويم القديم الحقيق بان يتنافس فيه المتنافسون (فادع) أي الناس كافة الى اقامة

بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا ان الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز) اعلم انه تعالى لما عظم وحيه الى محمد صلى الله عليه وسلم بقوله كذلك يوحي اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ذكر في هذه الآية تفصيل ذلك فقال شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والمعنى شرع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ما وصى به نوحا ومحمدا وابراهيم وموسى وعيسى هذا هو المقصود من لفظ الآية وانما خص هؤلاء الانبياء الخمسة بالذكر لانهم أكابر الانبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والاتباع الكثيرة الا انه بقي في لفظ الآية اشكالات (أحدها) انه قال في أول الآية ما وصى به نوحا وفي آخرها وما وصينا به ابراهيم وفي الوسط والذي أوحينا اليك فما الفائدة في هذا التفاوت (وثانيها) انه ذكر نوحا عليه السلام على سبيل الغيبة فقال ما وصى به نوحا والقسمين الباقيين على سبيل التكلم فقال والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم (وثالثها) انه يصير تقدير الآية شرع الله لكم من الدين الذي اوحينا اليك فقوله شرع لكم خطاب الغيبة وقوله والذي أوحينا اليك خطاب الحضور فهذا يقتضي الجمع بين خطاب الغيبة وخطاب الحضور في الكلام الواحد بالاعتبار الواحد وهو مشكل فهذه المضائق يجب البحث عنها والقوم ما داروا حولها وبالجملة فالمقصود من الآية انه يقال شرع لكم من الدين دينا تطابقت الانبياء على صحته وأقول يجب أن يكون المراد من هذا الدين شيأ مغايرا للتكاليف والاحكام وذلك لانها مختلفة متفاوتة قال تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا فيجب أن يكون المراد منه الامور التي لا تختلف باختلاف الشرائع وهي الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والايمان يوجب الاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة والسعي في مكارم الاخلاق والاحتراز عن رذائل الاحوال ويجوز عندي أن يكون المراد من قوله ولا تتفرقوا أي لا تتفرقوا بالآلهة الكثيرة كما قال يوسف عليه السلام أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار وقال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون واحتج بعضهم بقوله شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا على ان النبي صلى الله عليه وسلم في أول الامر كان مبعوثا بشريعة نوح عليه السلام والجواب ما ذكرناه انه عطف عليه سائر الانبياء وذلك يدل على ان المراد هو الاخذ بالشريعة المتفق عليها بين الكل ومحل أن أقيموا الدين اما نصب بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه واما رفع على الاستئناف كأنه قيل ما ذلك المشروع فقيل هو اقامة الدين كبر على المشركين عظم عليهم

ذلك الدين والعمل بموجبه فان كلا من تفرقهم وكونهم فى شك مريب ومن شرع ذلك الدين لهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب للدعوة اليه والامر بها وليس المشار اليه ماذكر من التوصية والامر بالاقامة والنهى عن التفرق حتى يتوهم شائبة التكرار وقيل المشار اليه نفس الدين المشروع واللام بمعنى الى كما فى قوله تعالى بان ربك أوحى لها أى فالى ذلك الدين فادع (واستقم) عليه وعلى الدعوة اليه (كما أمرت) وأوحى اليك (ولا تتبع أهواءهم) الباطلة (وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب) أى كتاب كان من الكتب المنزلة لا كالذين آمنوا ببعض منها وكفروا ببعض وفيه تحقيق للحق وبيان لاتفاق الكتب فى الاصول وتأليف لقلوب أهل الكتابين وتعريض بهم وقد مر بيان كيفية الايمان بها فى خاتمة سورة البقرة (وأمرت لاعدل بينكم) فى تبليغ الشرائع والاحكام وفصل القضايا عند المحاكمة والخصام وقيل معناه لاسوى بينى وبينكم ولا آمركم بما لا أعمله ولا أخالفكم الى ما نهاكم عنه ولا أفرق بين اكابركم وأصاغركم واللام اما على حقيقتها والمأمور به محذوف أى أمرت بذلك لاعدل أو زائدة أى أمرت ان أعدل والباء محذوفة (الله ربنا وربكم) أى خالقنا ﴿ واعلم ﴾

وشق عليهم ما تدعوهم اليه من اقامة دين الله تعالى على سبيل الاتفاق والاجماع بدليل ان الكفار قالوا أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشئ عجاب وههنا مسائل (المسئلة الاولى) احتج نفاة القياس بهذه الآية قالوا انه تعالى اخبر أن اكابر الانبياء اطبقوا على انه يجب اقامة الدين بحيث لا يفضى الى الاختلاف والتنازع والله تعالى ذكر فى معرض المنة على عباده انه أرشدهم الى الدين الخالى عن التفرق والمخالفة ومعلوم أن فتح باب القياس يفضى الى أعظم أنواع التفرق والمنازعة فان الحس شاهد بان هؤلاء الذين بنوا دينهم على الاخذ بالقياس تفرقوا تفرقا لا رجاء فى حصول الاتفاق بينهم الى آخر القيامة فوجب أن يكون ذلك محرما ممنوعا عنه (المسئلة الثانية) هذه الآية تدل على أن هذه الشرائع على قسمين منها ما يمتنع دخول النسخ والتغيير فيه بل يكون واجب البقاء فى جميع الشرائع والاديان كالقول بحسن الصدق والعدل والاحسان والقول بقبح الكذب والظلم والايذاء ومنها ما يختلف باختلاف الشرائع والاديان ودلت هذه الآية على أن سعى الشرع فى تقرير النوع الاول أقوى من سعيه فى تقرير النوع الثانى لان المواظبة على القسم الاول مهمة فى اكتساب الاحوال المفيدة لحصول السعادة فى الدار الآخرة (المسئلة الثالثة) قوله تعالى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه مشعر بأن حصول الموافقة أمر مطلوب فى الشرع والعقل وبيان منفعته من وجوه (الاول) ان للنفوس تأثيرات واذا انطابقت النفوس وتوافقت على شئ واحد قوى التأثير (الثانى) انها اذا توافقت صار كل واحد منها معينا للآخر فى ذلك المقصود المعين وكثرة الاعوان توجب حصول المقصود أما اذا تخالفت تنازعت وتجادلت فضعفت فلا يحصل المقصود (الثالث) ان حصول التنازع ضد مصلحة العالم لان ذلك يفضى الى الهرج والمرج والقتل والنهب فلهذا السبب أمر الله تعالى فى هذه الآية باقامة الدين على وجه لا يفضى الى التفرق وقال فى آية أخرى ولا تنازعوا فتفشلوا ثم قال الله تعالى يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب وفيه وجهان (الاول) انه تعالى لما أرشد أمة محمد صلى الله عليه وسلم الى التمسك بالدين المتفق عليه بين أنه تعالى انما أرشدهم الى هذا الخير لانه اجتباهم واصطفاهم وخصهم بمزيد الرحمة والكرامة (الثانى) انه انما كبر عليهم هذا الدعاء من الرسل لما فيه من الانقياد لهم تكبرا وأنفة فبين تعالى انه يخص من يشاء بالرسالة ويلزم الانقياد لهم ولا يعتبر الحسب والنسب والغنى بل الكل سواء فى انه يلزمهم اتباع الرسل الذين اجتباهم الله تعالى واشتقاق لفظ الاجتباء يدل على الضم والجمع فمنه جبى الخراج واجتباه وجبى الماء فى الحوض فقوله الله يجتبى اليه أى يضمه اليه ويقربه منه تقريب الاكرام والرحمة وقوله من يشاء كقوله تعالى يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ثم قال ويهدى اليه من ينيب وهو كما روى فى الخبر من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة أى من أقبل الى بطاعته أقبلت اليه بهدايتى وارشادى بان أشرح له صدره وأسهل أمره

جميعا ومتولى أمورنا (لنا أعمالنا) لايتخطانا جزاؤها ثوابا كان أو عقابا (ولكم أعمالكم) لاتجاوزكم آثارها لنستفيد بحسناتكم ونتضرر بسيآتكم (لاحجة بيننا وبينكم) أى لامحاجة ولاخصومة لان الحق قد ظهر ولم يبق للمحاجة حاجة ولا للمخالفة محل سوى المكابرة (الله يجمع بيننا) ﴿ ٣٩٩ ﴾ يوم القيامة (واليه المصير) فيظهر هنالك حالنا وحالكم وهذا كما ترى محاجزة فى مواقف المجاوبة لامتاركة فى مواطن المحاربة حتى يصار الى النسخ بآية القتال (والذين يحاجون فى الله) أى فى دينه (من بعد ما استجيب له) من بعد ما استجاب له الناس ودخلوا فيه والتعبير عن ذلك بالاستجابة باعتبار دعوتهم اليه أو من بعد ما استجاب الله لرسوله عليه الصلاة والسلام وأيده بنصره أو من بعد ما استجاب له أهل الكتاب بان أقروا بنبوته عليه الصلاة والسلام واستفتحوا به قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام وذلك أن اليهود والنصارى كانوا يقولون للمؤمنين كتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم وأولى بالحق (حجتهم داحضة عند ربهم) زائلة باطلة بل لا حجة لهم أصلا وانما عبر عن أباطيلهم بالحجة مجاراة معهم على زعمهم الباطل (وعليهم غضب) عظيم لمكابرتهم الحق بعد ظهوره (ولهم عذاب شديد)

واعلم أنه تعالى لما بين انه أمر كل الانبياء والامم بالاخذ بالدين المتفق عليه كان لقائل أن يقول فلماذا نجدهم متفرقين فاجاب الله تعالى عنهم بقوله وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم يعنى انهم ما تفرقوا الا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة ولكنهم فعلوا ذلك للبغى وطلب الرياسة فحملتهم الحمية النفسانية والانفة الطبيعية على أن ذهب كل طائفة الى مذهب ودعا الناس اليه وقبح ما سواه طلبا للذكر والرياسة فصار ذلك سببا لوقوع الاختلاف ثم أخبر تعالى انهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل الا انه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب لان لكل عذاب عنده أجلا مسمى أى وقتا معلوما اما لمحض المشيئة كما هو قولنا أو لانه علم أن الصلاح تأخيره كما عند المعتزلة وهو معنى قوله ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم والاجل المسمى قد يكون فى الدنيا وقد يكون فى القيامة واختلفوا فى الذين أريدوا بهذه الصفة من هم فقال الاكثرون هم اليهود والنصارى والدليل عليه قوله تعالى فى آل عمران وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم وقال فى سورة لم يكن وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة ولان قوله الا من بعد ما جاءهم العلم لائق بأهل الكتاب وقال آخرون انهم هم العرب وهذا باطل للوجوه المذكورة لان قوله تعالى بعد هذه الآية وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لايليق بالعرب لان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم هم أهل الكتاب الذين كانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لفى شك من كتابهم لايؤمنون به حق الايمان ثم قال تعالى فلذلك فادع واستقم كما أمرت يعنى فلاجل ذلك التفرق ولاجل ما حدث من الاختلافات الكثيرة فى الدين فادع الى الاتفاق على الملة الحنيفية واستقم عليها وعلى الدعوة اليها كما أمرك الله ولاتتبع أهواءهم المختلفة الباطلة وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب أى بأى كتاب صح ان الله أنزله يعنى الايمان بجميع الكتب المنزلة لان المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ونظيره قوله نؤمن ببعض ونكفر ببعض الى قوله أولئك هم الكافرون ثم قال وأمرت لأعدل بينكم أى فى الحكم اذا تخاصمتم فتحاكمتم الى قال القفال معناه ان ربى أمرنى أن لا أفرق بين نفسى وأنفسكم بأن آمركم بما لا أعمله أو أخالفكم الى ما أنهيتكم عنه لكنى أسوى بينكم وبين نفسى وكذلك أسوى بين أكابركم وأصاغركم فيما يتعلق بحكم الله ثم قال الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير والمعنى ان اله الكل واحد وكل واحد مخصوص بعمل نفسه فوجب أن يشتغل كل واحد فى الدنيا بنفسه فان الله يجمع بين الكل فى يوم القيامة ويجازيه على عمله والمقصود منه المتاركة واشتغال كل أحد بمهم نفسه فان قيل كيف يليق بهذه المتاركة ما فعل بهم من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والاجلاء قلنا هذه المتاركة كانت مشروطة بشرط أن يقبلوا الدين المتفق على صحته بين كل الانبياء ودخل فيه التوحيد وترك عبادة الاصنام والاقرار بنبوة الانبياء وبصحة البعث والقيامة فلما

لايقادر قدره (الله الذي انزل الكتاب) أي جنس الكتاب (بالحق) ملتبسا به في أحكامه وأخباره أو بما يحق انزاله من العقائد والاحكام (والميزان) والشرع الذي يوزن به الحقوق ويسوى بين الناس أو نفس العدل بأن انزل الامر به أو آلة الوزن (وما يدريك) أي أي شئ يجعلك عالما (لعل الساعة) التي يخبر بمجيئها الكتاب الناطق بالحق (قريب) أي شئ قريب أو قريب مجيئها وقيل القريب بمعنى ذات قرب أو الساعة بمعنى البعث والمعنى أنها على جناح الاتيان فاتبع الكتاب واعمل به وواظب على العدل قبل أن يفاجئك اليوم الذي يوزن فيه الاعمال ويوفى جزاؤها (يستعجل بها الذين لايؤمنون بها) استعجال انكار واستهزاء كانوا يقولون متى هي ليتها قامت حتى يظهر لنا الحق أهو الذي نحن عليه ام الذي عليه محمد وأصحابه (والذين آمنوا مشفقون منها) خائفون منها مع اعتنائهم بها لتوقع الثواب (ويعلمون أنها الحق) أي الكائن لامحالة (ألا ان الذين يمارون في الساعة) يجادلون فيها من المرية أو من مريت الناقة اذا مسحت ضرعها بشدة للحلب لان كلا من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه بكلام فيه شدة (لفي ضلال بعيد) عن الحق فان البعث اشبه الغائبات بالمحسوسات فمن لم يهتد الى تجويزه فهو عن الاهتداء الى ما وراءه أبعد وأبعد (الله لطيف بعباده) أي بر بليغ البر بهم يفيض عليهم من فنون ألطافه مالايكاد يناله أيدي الافكار والظنون (يرزق من يشاء) ﴿استيفاء﴾ أي يرزق كيفما يشاء فيخص كلا من عباده بنوع من البر على ماتقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة (وهو القوي) الباهر القدرة الغالب على كل شئ (العزيز) المنيع الذي لايغلب

لم يقبلوا هذا الدين فحينئذ فات الشرط فلا جرم فات المشروط واعلم انه ليس المراد من قوله لاحجة بيننا وبينكم تحريم ما يجري مجرى محاجتهم ويدل عليه وجوه (الاول) ان هذا الكلام مذكور في معرض المحاجة فلو كان المقصود من هذه الآية تحريم المحاجة لزم كونها محرمة لنفسها وهو متناقض (والثاني) انه لولا الادلة لما توجه التكليف (الثالث) أن الدليل يفيد العلم وذلك لايمكن تحريمه بل المراد أن القوم عرفوا بالحجة صدق محمد صلى الله عليه وسلم وانما تركوا تصديقه بغيا وعنادا فبين تعالى انه قد حصل الاستغناء عن محاجتهم لانهم عرفوا بالحجة صدقه فلا حاجة معهم الى المحاجة البتة ومما يقوي قولنا انه لايجوز تحريم المحاجة قوله وجادلهم بالتي هي أحسن وقوله تعالى ادع الى سبيل ربك وقوله ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن وقوله يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا وقوله وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ثم قال تعالى والذين يحاجون في الله أي يخاصمون في دينه من بعد ما استجيب له أي من بعد ما استجاب الناس لذلك الدين حجتهم داحضة أي باطلة وتلك المخاصمة هي ان اليهود قالوا ألستم تقولون ان الاخذ بالمتفق أولى من الاخذ بالمختلف فنبوة موسى وحقية التوراة معلومة بالاتفاق ونبوة محمد ليست متفقا عليها فاذا بنيتم كلامكم في هذه الآية على ان الاخذ بالمتفق أولى وجب أن يكون الاخذ باليهودية أولى فبين تعالى أن هذه الحجة داحضة أي باطلة فاسدة وذلك لان اليهود اطبقوا على انه انما يوجب الايمان بموسى عليه السلام لاجل ظهور المعجزات على وفق قوله وههنا ظهرت المعجزات على وفق قول محمد عليه السلام واليهود شاهدوا تلك المعجزات فان كان ظهور المعجزة يدل على الصدق فههنا يجب الاعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وان كان لايدل على الصدق وجب في حق موسى ان لايقروا بنبوته واما الاقرار بنبوة موسى والاصرار على انكار نبوة محمد مع استوائهما في ظهور المعجزة يكون متناقضا ولما قرر الله هذه الدلائل خوف المنكرين بعذاب القيامة فقال الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب والمعنى انه تعالى أنزل الكتاب المشتمل على أنواع الدلائل والبينات وأنزل الميزان وهو الفصل الذي هو القسطاس المستقيم وأنهم لايعلمون ان القيامة متى تفاجئهم ومتى كان الامر كذلك وجب على العاقل أن يجد ويجتهد في النظر والاستدلال ويترك طريقة أهل الجهل والتقليد ولما كان الرسول يهددهم بنزول القيامة واكثر ذلك وانهم ما رأوا منه أثرا قالوا على سبيل السخرية فمتى تقوم القيامة وليتها قامت حتى يظهر لنا ان الحق ما نحن عليه أو الذي عليه محمد وأصحابه فلدفع هذه الشبهة قال تعالى يستعجل بها الذين لايؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها والمعنى ظاهر وانما يشفقون ويخافون لعلمهم ان عندها تمتنع التوبة وأما منكر البعث فلانه لايحصل له هذا الخوف ثم قال ألا ان الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد والمماراة الملاجة قال الزجاج الذين تدخلهم المرية والشك في وقوع الساعة فيمارون فيها ويجحدون لفي ضلال بعيد لان

استيفاء حق المظلوم من الظالم واجب في العدل فلو لم تحصل القيامة لزم اسناد الظلم الى الله تعالى وهذا من أمحل المحالات فلا جرم كان انكار القيامة ضلالا بعيدا ثم قال الله لطيف بعباده أي كثير الاحسان بهم وانما حسن ذكر هذا الكلام ههنا لانه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة فكان ذلك من لطف الله بعباده وأيضا المنكرون استوجبوا العذاب الشديد ثم انه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب فكان ذلك أيضا من لطف الله تعالى فلما سبق ذكر ايصال أعظم المنافع اليهم ودفع أعظم المضار عنهم لا جرم حسن ذكره ههنا ثم قال يرزق من يشاء يعني ان أصل الاحسان والبر عام في حق كل العباد وذلك هو الاحسان بالحياة والعقل والفهم واعطاء ما لا بد منه من الرزق ودفع أكثر الآفات والبليات عنهم فاما مراتب العطية والبهجة فمتفاوتة مختلفة ثم قال وهو القوي أي القادر على كل ما يشاء العزيز الذي لا يغالب ولا يدافع * قوله تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وان الظالمين لهم عذاب أليم ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسئلكم عليه أجرا الا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ان الله غفور شكور أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت ويعلم ما تفعلون ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد) اعلم انه تعالى لما بين كونه لطيفا بعباده كثير الاحسان اليهم بين انه لا بد لهم من أن يسعوا في طلب الخيرات وفي الاحتراز عن القبائح فقال من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه قال صاحب الكشاف انه تعالى سمى ما يعمله العامل مما يطلب به الفائدة حرثا على سبيل المجاز وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى أظهر الفرق في هذه الآية بين من أراد الآخرة وبين من أراد الدنيا من وجوه (الاول) انه قدم مريد حرث الآخرة في الذكر على مريد حرث الدنيا وذلك يدل على التفضيل لانه وصفه بكونه آخرة ثم قدمه في الذكر تنبيها على قوله نحن الآخرون السابقون (الثاني) انه قال في مريد حرث الآخرة نزد له في حرثه وقال في مريد حرث الدنيا نؤته منها وكلمة من للتبعيض فالمعنى انه يعطيه بعض ما يطلبه ولا يؤتيه كله وقال في سورة بني اسرائيل عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد وأقول البرهان العقلي مساعد على الفرق وذلك لان كل من عمل للآخرة وواظب على ذلك العمل فكثرة الاعمال سبب لحصول الملكات فكل من كانت مواظبته على تلك الاعمال أكثر كان ميل

(من كان يريد حرث الآخرة) الحرث في الاصل القاء البذر في الارض يطلق على الزرع واستعمل في ثمرات الاعمال ونتائجها بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهها بالغلال الحاصلة من البذور المتضمن لتشبيه الاعمال بالبذور أي من كان يريد بأعماله ثواب الآخرة (نزد له في حرثه) نضاعف له ثوابه بالواحد عشرة الى سبعمائة فما فوقها (ومن كان يريد) بأعماله (حرث الدنيا) وهو متاعها وطيباتها (نؤته منها) أي شيأ منها حسبما قسمناله لا ما يريده ويبتغيه (وما له في الآخرة من نصيب) اذ كانت همته مقصورة على الدنيا وقد مر تفصيله في سورة الاسراء (أم لهم شركاء) أي بل ألهم شركاء من الشياطين والهمزة للتقرير والتقريع (شرعوا لهم) بالتسويل (من الدين ما لم يأذن به الله) كالشرك وانكار البعث والعمل للدنيا وقيل شركاؤهم أوثانهم واضافتها اليهم لانهم الذين جعلوها شركاء لله تعالى واسناد الشرع

(ولو لاكلمة الفصل) أي القضاء السابق بتأخير الجزاء أو العدة بأن الفصل يكون يوم القيامة (لقضي بينهم) أي بين الكافرين والمؤمنين أو بين المشركين وشركائهم (وان الظالمين لهم عذاب أليم) وقرئ بالفتح عطفا على كلمة الفصل أي ولولا كلمة الفصل وتقدير عذاب الظالمين في الآخرة لقضي بينهم في الدنيا فان العذاب الاليم غالب في عذاب الآخرة (ترى الظالمين) يوم القيامة والخطاب لكل أحد ممن يصلح له القصد الى أن سوء حالهم غير مختص برؤية راء دون راء (مشفقين) خائفين (مما كسبوا) من السيآت (وهو واقع بهم) أي ووباله لاحق بهم لامحالة أشفقوا أولم يشفقوا والجملة حال من ضمير مشفقين أو اعتراض (والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات) مستقرون في أطيب بقاعها وأنزهها (لهم مايشاؤن

قلبه الى طلب الآخرة أكثر وكلما كان الامر كذلك كان الابتهاج أعظم والسعادات أكثر وذلك هو المراد بقوله نزد له في حرثه وأما طالب الدنيا فكلما كانت مواظبته على أعمال ذلك الطلب أكثر كانت رغبته في الفوز بالدنيا أكثر وميله اليها أشد واذا كان الميل أبدا في التزايد وكان حصول المطلوب باقيا على حالة واحدة كان الحرمان لازما لامحالة (الثالث) أنه تعالى قال في طالب حرث الآخرة نزد له في حرثه ولم يذكر أنه تعالى يعطيه الدنيا أم لا بل بقي الكلام ساكتا عنه نفيا واثباتا وأما طالب حرث الدنيا فانه تعالى بين انه لايعطيه شيئا من نصيب الآخرة على التنصيص وهذا يدل على التفاوت العظيم كانه يقول الآخرة أصل والدنيا تبع فواجد الاصل يكون واجد التبع بقدر الحاجة الا انه لم يذكر ذلك تنبيها على ان الدنيا أخس من أن يقرن ذكرها بذكر الآخرة (الرابع) انه تعالى بين ان طالب الآخرة يزاد في مطلوبه و بين ان طالب الدنيا يعطى بعض مطلوبه من الدنيا وأما في الآخرة فانه لايحصل له منها نصيب البتة فبين بالكلام الاول ان طالب الآخرة يكون حاله أبدا في الترقي والتزايد وبين بالكلام الثاني ان طالب الدنيا يكون حاله في المقام الاول في النقصان وفي المقام الثاني في البطلان التام (الخامس) ان الآخرة نسيئة والدنيا نقد والنسيئة مرجوحة بالنسبة الى النقد لان الناس يقولون النقد خير من النسيئة فبين تعالى ان هذه القضية انعكست بالنسبة الى أحوال الآخرة والدنيا فالآخرة وان كانت نسيئة الا انها متوجهة للزيادة و الدوام فكانت افضل وأكمل والدنيا وان كانت نقدا الا انها متوجهة الى النقصان ثم الى البطلان فكانت أخس وارذل فهذا يدل على ان حال الآخرة لايناسب حال الدنيا البتة وانه ليس في الدنيا من أحوال الآخرة الا مجرد الاسم كما هو مروي عن ابن عباس (السادس) الآية دالة على ان منافع الآخرة والدنيا ليست حاضرة بل لابد في البابين من الحرث والحرث لايتأتى الا بتحمل المشاق في البذر ثم التسقية والتنمية ثم الحصد ثم التنقية فلما سمى الله كلا القسمين حرثا علمنا ان كل واحد منهما لايحصل الا بتحمل المتاعب والمشاق ثم بين تعالى ان مصير الآخرة الى الزيادة والكمال وان مصير الدنيا الى النقصان ثم الفناء فكأنه قيل اذا كان لابد في القسمين جميعا من تحمل متاعب الحراثة والتسقية والتنمية والحصد والتنقية فلان تصرف هذه المتاعب الى مايكون في التزايد والبقاء أولى من صرفها الى مايكون في النقصان والانقضاء والفناء (المسئلة الثانية) في تفسير قوله نزد له في حرثه قولان (الاول) المعنى انا نزيد في توفيقه واعانته وتسهيل سبل الخيرات والطاعات عليه وقال مقاتل نزد له في حرثه بتضعيف الثواب قال تعالى ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من أصبح وهمه الدنيا شتت الله تعالى عليه همه وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله همه وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة عن أنفها أولفظ يقرب من أن يكون هذا معناه

(المسئلة الثالثة) ظاهر اللفظ يدل على ان من صلى لاجل طلب الثواب أو لاجل دفع العقاب فانه تصح صلاته وأجمعوا على أنها لا تصح (والجواب) انه تعالى قال من كان يريد حرث الآخرة والحرث لا يتأتى الا بالقاء البذر الصحيح في الارض والبذر الصحيح لجميع الخيرات والسعادات ليس الا عبودية الله تعالى (المسئلة الرابعة) قال أصحابنا اذا توضأ بغير نية لم يصح قالوا لان هذا الانسان ما أراد حرث الآخرة لان الكلام فيما اذا كان غافلا عن ذكر الله وعن الآخرة فوجب أن لا يحصل له نصيب فيما يتعلق بالآخرة والخروج عن عهدة الصلاة من باب منافع الآخرة فوجب أن لا يحصل في الوضوء العاري عن النية واعلم ان الله تعالى لما بين القانون الاعظم والقسطاس الاقوم في أعمال الآخرة والدنيا أردفه بالتنبيه على ما هو الاصل في باب الضلالة والشقاوة فقال أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ومعنى الهمزة في أم التقرير والتقريع وشركاؤهم شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك وانكار البعث والعمل للدنيا لانهم لا يعلمون غيرها وقيل شركاؤهم أوثانهم وانما أضيفت اليهم لانهم هم الذين اتخذوها شركاء لله ولما كانت سببا لضلالتهم جعلت شارعة لدين الضلالة كما قال ابراهيم صلى الله عليه وسلم رب انهن أضللن كثيرا من الناس وقوله شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله يعني ان تلك الشرائع بأسرها على ضد دين الله ثم قال ولولا كلمة الفصل أي القضاء السابق بتأخير الجزاء أو يقال ولولا الوعد بأن الفصل يكون يوم القيامة لقضي بينهم أي بين الكافرين والمؤمنين أو بين المشركين وشركائهم وان الظالمين لهم عذاب أليم وقرأ بعضهم وان بفتح الهمزة في أن عطفا له على كلمة الفصل يعني ولولا كلمة الفصل وتقرير تعذيب الظالمين في الآخرة لقضي بينهم في الدنيا ثم انه تعالى ذكر أحوال أهل العقاب وأحوال أهل الثواب أما الاول فهو قوله ترى الظالمين مشفقين خائفين خوفا شديدا مما كسبوا من السيآت وهو واقع بهم يريد أن وباله واقع بهم سواء أشفقوا أو لم يشفقوا وأما الثاني فهو أحوال أهل الثواب وهو قوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لان روضة الجنة أطيب بقعة فيها وفي الآية تنبيه على ان الفساق من أهل الصلاة كلهم في الجنة الا انه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات وهي البقاع الشريفة من الجنة فالبقاع التي دون تلك الروضات لا بد وأن تكون مخصوصة بمن كان دون أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم قال لهم ما يشاؤن عند ربهم وهذا يدل على ان كل الاشياء حاضرة عنده مهيأة ثم قال تعالى في تعظيم هذه الدرجة ذلك هو الفضل الكبير وأصحابنا استدلوا بهذه الآية على ان الثواب غير واجب على الله وانما يحصل بطريق الفضل من الله تعالى لانه تعالى قال والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤن عند ربهم فهذا يدل على ان روضات الجنات ووجدان كل ما يريدونه انما كان جزاء على الايمان والاعمال الصالحة ثم قال تعالى ذلك هو الفضل

عند ربهم) أي ما يشتهونه من فنون المستلذات حاصل لهم عند ربهم على أن عند ربهم ظرف للاستقرار العامل في لهم وقيل ظرف ليشاؤن (ذلك) اشارة الى ما ذكر من حال المؤمنين وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه (هو الفضل الكبير) الذي لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته (ذلك) الفضل الكبير هو (الذي يبشر الله عباده) أي يبشرهم به فحذف الجار ثم العائد الى الموصول كما في قوله تعالى أهذا الذي بعث الله رسولا أو ذلك التبشير الذي يبشره الله تعالى عباده (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقرئ يبشر من ابشر (قل لا أسئلكم عليه) روى أنه اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم لبعض أترون أن محمدا يسأل على ما يتعاطاه أجرا فنزلت أي لا أطلب منكم على ما أنا عليه من التبليغ والبشارة (أجرا) نفعا (الا المودة في القربى) أي الا أن تودوني لقرابتي منكم أو تودوا أهل قرابتي وقيل الاستثناء منقطع والمعنى

في أهلها أو في حق القرابة والقربى مصدر كالزلفى بمعنى القرابة روى أنها لما نزلت قيل يارسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم قال علي وفاطمة وابناهما وعن النبي صلى الله عليه وسلم حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذاني في عترتي ومن اصطنع صنيعة الى أحد من ولد عبد المطلب ولم يجازه فأنا أجازيه عليها غدا اذا لقيني يوم القيامة وقيل القربى التقرب الى الله أي الا أن تودوا الله ورسوله في تقربكم اليه بالطاعة والعمل الصالح وقرئ الا مودة في القربى (ومن يقترف حسنة) أي يكتسب أي حسنة كانت فتتناول مودة ذي القربى تناولا أوليا وعن السدي انها المرادة وقيل نزلت في الصديق رضي الله عنه ومودته فيهم (نزد له فيها) أي في الحسنة (حسنا) بمضاعفة الثواب وقرئ يزد أي يزد الله

الكبير وهذا تصريح بان الجزاء المرتب على العمل انما حصل بطريق الفضل لا بطريق الاستحقاق ثم قال ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قال صاحب الكشاف قرئ يبشر من بشره ويبشر من أبشره ويبشر من بشره واعلم ان هذه الآيات دالة على تعظيم حال الثواب من وجوه (الاول) ان الله سبحانه رتب على الايمان وعمل الصالحات روضات الجنات والسلطان الذي هو أعظم الموجودات وأكرمهم اذا رتب على أعمال شاقة جزاء دل ذلك على ان ذلك الجزاء قد بلغ الى حيث لا يعلم كنهه الا الله تعالى (الثاني) انه تعالى قال لهم مايشاؤن عند ربهم وقوله لهم مايشاؤن يدخل في باب غير المتناهي لانه لا درجة الا والانسان يريد ماهو أعلى منها (الثالث) انه تعالى قال ذلك هو الفضل الكبير والذي يحكم بكبره من له الكبرياء والعظمة على الاطلاق كان في غاية الكبر (الرابع) انه تعالى أعاد البشارة على سبيل التعظيم فقال الذي يبشر الله عباده وذلك يدل أيضا على غاية العظمة نسأل الله الفوز بها والوصول اليها واعلم انه تعالى لما أوحى الى محمد صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب الشريف العالي وأودع فيه ثلاثة أقسام الدلائل وأصناف التكاليف ورتب على الطاعة الثواب وعلى المعصية العقاب بين انى لا أطلب منكم بسبب هذا التبليغ نفعا عاجلا ومطلوبا حاضرا لئلا يتخيل جاهل أن مقصود محمد صلى الله عليه وسلم من هذا التبليغ المال والجاه فقال قل لا أسئلكم عليه أجرا الا المودة في القربى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكر الناس في هذه الآية ثلاثة أقوال (الاول) قال الشعبي أكثر الناس علينا في هذه الآية فكتبنا الى ابن عباس نسأله عن ذلك فكتب ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان واسط النسب من قريش ليس بطن من بطونهم الا وقد ولده فقال الله قل لا أسئلكم على ماأدعوكم اليه أجرا الا أن تودوني لقرابتي منكم والمعنى انكم قومي وأحق من أجابني وأطاعني فاذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى ولا تؤذوني ولا تهيجوا على (والقول الثاني) روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ان النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كانت تعروه نوائب وحقوق وليس في يده سعة فقال الانصار ان هذا الرجل قد هداكم الله على يده وهو ابن أختكم وجاركم في بلدكم فاجمعوا له طائفة من أموالكم ففعلوا ثم أتوه به فرده عليهم فنزل قوله تعالى قل لا أسئلكم عليه أجرا أي على الايمان الا أن تودوا أقاربي فحثهم على مودة أقاربه (القول الثالث) ماذكره الحسن فقال الا أن تودوا الى الله فيما يقربكم اليه من التودد اليه بالعمل الصالح فالقربى على القول الاول القرابة التي هي بمعنى الرحم وعلى الثاني القرابة التي هي بمعنى الاقارب وعلى الثالث هي فعلى من القرب والتقرب فان قيل الآية مشكلة وذلك لان طلب الاجرة على تبليغ الوحي لا يجوز ويدل عليه وجوه (الاول) انه تعالى حكى عن اكثر الانبياء عليهم السلام انهم صرحوا بنفي طلب الاجرة فذكر في قصة نوح عليه السلام وما أسئلكم عليه من أجر ان أجري الا على رب العالمين وكذا في

قصة هود وصالح وفي قصة لوط وشعيب عليهم السلام ورسولنا أفضل من سائر الانبياء عليهم السلام فكان بان لا يطلب الاجر على النبوة والرسالة أولى (والثانى) انه صلى الله عليه وسلم صرح بنفي طلب الاجر في سائر الآيات فقال قل ماسألتكم من أجر فهو لكم وقال قل ماأسألكم عليه من أجر وماأنا من المتكلفين (والثالث) العقل يدل عليه وذلك لان ذلك التبليغ كان واجبا عليه قال تعالى بلغ ماأنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته وطلب الاجر على اداء الواجب لايليق بأقل الناس فضلا عن أعلم العلماء (الرابع) أن النبوة أفضل من الحكمة وقد قال تعالى في صفة الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وقال في صفة الدنيا قل متاع الدنيا قليل فكيف يحسن في العقل مقابلة أشرف الاشياء بأخس الاشياء (الخامس) ان طلب الاجر كان يوجب التهمة وذلك ينافي القطع بصحة النبوة فثبت بهذه الوجوه انه لايجوز من النبي صلى الله عليه وسلم أن يطلب أجرا البتة على التبليغ والرسالة وظاهر هذه الآية يقتضى انه طلب أجرا على التبليغ والرسالة وهو المودة في القربى هذا تقرير السؤال (والجواب) عنه انه لانزاع في انه لايجوز طلب الاجر على التبليغ والرسالة بقى قوله الا المودة في القربى نقول الجواب عنه من وجهين (الاول) ان هذا من باب قوله

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم * بهن فلول من قراع الدارعين

يعنى أنا لا أطلب منكم الا هذا وهذا في الحقيقة ليس أجرا لان حصول المودة بين المسلمين أمر واجب قال تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض وقال صلى الله عليه وسلم المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضا والآيات والاخبار في هذا الباب كثيرة واذا كان حصول المودة بين جمهور المسلمين واجبا فحصولها في حق أشرف المسلمين وأكابرهم أولى وقوله تعالى قل لاأسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى تقديره والمودة في القربى ليست أجرا فرجع الحاصل الى انه لاأجر البتة (والوجه الثانى) في الجواب ان هذا استثناء منقطع وتم الكلام عند قوله قل لاأسألكم عليه أجرا ثم قال الا المودة في القربى أى لكن أذكركم قرابتى منكم وكأنه في اللفظ أجر وليس بأجر (المسئلة الثالثة) نقل صاحب الكشاف عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من مات على حب آل محمد مات شهيدا ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائبا ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الايمان ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير ألا ومن مات على حب آل محمد يزف الى الجنة كما تزف العروس الى بيت زوجها ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان الى الجنة ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا ألا ومن

وقرئ حسنى (ان الله غفور) لمن أذنب (شكور) لمن أطاع بتوفية الثواب والتفضل عليه بالزيادة (أم يقولون) بل أيقولون (افترى) محمد (على الله كذبا) بدعوى النبوة وتلاوة القرآن على أن الهمزة للانكار التوبيخى كأنه قيل أيتمالكون أن ينسبوا مثله عليه السلام وهو هو الى الافتراء لاسيما الافتراء على الله الذى هو أعظم الفرى وأفحشها وقوله تعالى (فان يشأ الله يختم على قلبك) استشهاد على بطلان ماقالوا ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله تعالى لمنعه من ذلك قطعا وتحقيقه أن دعوى كون القرآن افتراء عليه تعالى قول منهم بأنه تعالى لايشاء صدوره عن النبي صلى الله عليه وسلم بل يشاء عدم صدوره عنه ومن ضرورته منعه عنه قطعا فكأنه قيل لو كان افتراء عليه تعالى لشاء عدم صدوره عنك وان يشأ ذلك يختم على قلبك بحيث لم يخطر ببالك معنى من معانيه ولم تنطق بحرف من حروفه وحيث لم يكن الامر كذلك بل تواتر الوحي حينا

مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة هذا هو الذي رواه صاحب الكشاف وأنا أقول آل محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين يؤول أمرهم اليه فكل من كان أمرهم اليه أشد وأكمل كانوا هم الآل ولاشك ان فاطمة وعليا والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل وأيضا اختلف الناس في الآل فقيل هم الاقارب وقيل هم أمته فان حملناه على القرابة فهم الآل وان حملناه على الامة الذين قبلوا دعوته فهم أيضا آل فثبت ان على جميع التقديرات هم الآل وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل مختلف فيه وروى صاحب الكشاف انه لما نزلت هذه الآية قيل يارسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم فقال علي وفاطمة وابناهما فثبت ان هؤلاء الاربعة أقارب النبي صلى الله عليه وسلم واذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم ويدل عليه وجوه (الاول) قوله تعالى الا المودة في القربى ووجه الاستدلال به ماسبق (الثاني) لاشك ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب فاطمة عليها السلام قال صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة مني يؤذيني مايؤذيها وثبت بالنقل المتواتر عن محمد صلى الله عليه وسلم انه كان يحب عليا والحسن والحسين واذا ثبت ذلك وجب على كل الامة مثله لقوله واتبعوه لعلكم تهتدون ولقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره ولقوله قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ولقوله سبحانه لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة (الثالث) ان الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة وهو قوله اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم محمدا وآل محمد وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل فكل ذلك يدل على ان حب آل محمد واجب وقال الشافعي رضي الله عنه

ياراكبا قف بالمحصب من منى * واهتف بساكن خيفها والناهض
سحرا اذا فاض الحجيج الى منى * فيضا كملتطم الفرات الفائض
ان كان رفضا حب آل محمد * فليشهد الثقلان اني رافضي

(المسئلة الثالثة) قوله الا المودة في القربى فيه منصب عظيم للصحابة لانه تعالى قال والسابقون السابقون أولئك المقربون فكل من أطاع الله كان مقربا عند الله تعالى فدخل تحت قوله الا المودة في القربى والحاصل ان هذه الآية تدل على وجوب حب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب أصحابه وهذا المنصب لايسلم الا على قول أصحابنا أهل السنة والجماعة الذين جمعوا بين حب العترة والصحابة وسمعت بعض المذكرين قال انه صلى الله عليه وسلم قال مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا وقال صلى الله عليه وسلم أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ونحن الآن في بحر التكليف وتضربنا أمواج الشبهات والشهوات وراكب البحر يحتاج الى أمرين (أحدهما) السفينة

فعينا تبين أنه من عند الله تعالى هذا وقيل المعنى ان يشأ يجعلك من المختوم على قلوبهم فانه لايجترئ على الافتراء عليه تعالى الا من كان كذلك ومؤداه استبعاد الافتراء من مثله عليه السلام وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختوم على قلوبهم وعن قتادة يختم على قلبك ينسك القرآن ويقطع عنك الوحي يعني لوافترى على الله الكذب لفعل به ذلك وهذا معنى ماقيل لو كذب على الله لأنساه القرآن وقيل يختم على قلبك يربط عليه بالصبر حتى لايشق عليك اذاهم (ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته) استئناف مقرر لنفي الافتراء غير معطوف على يختم كما ينبئ عنه اظهار الاسم الجليل وسقوط الواو كما في بعض المصاحف لاتباع اللفظ كما في قوله تعالى ويدع الانسان بالشر أي ومن عادته تعالى أنه يمحو الباطل ويثبت الحق بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل

الخالية عن العيوب والثقب (والثانى) الكواكب الظاهرة الطالعة النيرة فاذا ركب تلك السفينة ووقع نظره على تلك الكواكب الظاهرة كان رجاء السلامة غالبا فكذلك ركب أصحابنا أهل السنة سفينة حب آل محمد ووضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة فرجوا من الله تعالى أن يفوزوا بالسلامة والسعادة فى الدنيا والآخرة ولنرجع الى التفسير أورد صاحب الكشاف على نفسه سؤالا فقال هلا قيل الامودة القربى أوالامودة للقربى ومامعنى قوله الاالمودة فى القربى وأجاب عنه بأن قال جعلوا مكانا للمودة ومقرالها كقولك لى فى آل فلان مودة ولى فيهم هوى وحب شديد تريد احبهم وهم مكان حبى ومحله ثم قال تعالى ومن يقترف حسنة نزدله فيها حسنا قيل نزلت هذه الآية فى أبى بكر رضى الله عنه والظاهر العموم فى أى حسنة كانت الاأنها لما ذكرت عقيب ذكر المودة فى القربى دل ذلك على ان المقصود التأكيد فى تلك المودة ثم قال تعالى ان الله غفور شكور والشكور فى حق الله تعالى مجاز والمعنى انه تعالى يحسن الى المطيعين فى ايصال الثواب اليهم وفى أن يزيد عليه أنواعا كثيرة من التفضيل وقال تعالى أم يقولون افترى على الله كذبا واعلم ان الكلام فى أول هذه السورة انما ابتدئ فى تقرير ان هذا الكتاب انما حصل بوحى الله وهو قوله تعالى كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم واتصل الكلام فى تقرير هذا المعنى وتعلق البعض بالبعض حتى وصل الى ههنا ثم حكى ههنا شبهة القوم وهى قولهم ان هذا ليس وحيا من الله تعالى فقال أم يقولون افترى على الله كذبا قال صاحب الكشاف أم منقطعة ومعنى الهمزة فيه التوبيخ كأنه قيل أيقع فى قلوبهم ويجرى فى ألسنتهم أن ينسبوا مثله الى الافتراء على الله الذى هو أقبح أنواع الفرية وأفحشها ثم أجاب عنه بأن قال فان يشأ الله يختم على قلبك وفيه وجوه (الاول) قال مجاهد يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لايشق عليك قولهم انه مفتر كذاب (الثانى) يعنى بهذا الكلام انه ان يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى يفترى عليه الكذب فانه لايجترئ على افتراء الكذب على الله الامن كان فى مثل هذه الحالة والمقصود من ذكر هذا الكلام المبالغة فى تقرير الاستبعاد ومثاله أن ينسب رجل بعض الامناء الى الخيانة فيقول الأمين لعل الله خذلنى لعل الله أعمى قلبى وهو لايريد اثبات الخذلان وعمى القلب لنفسه وانما يريد استبعاد صدور الخيانة عنه ثم قال تعالى ويمح الله الباطل ويحق الحق أى ومن عادة الله ابطال الباطل وتقرير الحق فلوكان محمد مبطلا كذابا لفضحه الله ولكشف عن باطله ولما أيده بالقوة والنصرة ولما لم يكن الامر كذلك علمنا انه ليس من الكاذبين المفترين على الله و يجوز أن يكون هذا وعدا من الله لرسوله بأنه يمحو الباطل الذى هم عليه من البهت والفرية والتكذيب و يثبت الحق الذى كان محمد صلى الله عليه وسلم عليه ثم قال انه عليم بذات الصدور أى ان الله عليم بما فى صدرك وصدورهم فيجرى الامر على حسب ذلك وعن قتادة يختم على قلبك ينسك

عليه من البهت والتكذيب ويثبت الحق الذى هو عليه بالقرآن أو بقضائه الذى لامرد له بنصرته عليهم (انه عليم بذات الصدور) فيجرى عليها أحكامها اللائقة بها من المحو والاثبات (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده) التوبة هى الرجوع عن المعاصى بالندم عليها والعزم على أن لايعاودها أبدا وروى جابر رضى الله عنه أن أعرابيا دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم انى استغفرك وأتوب اليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له على رضى الله عنه يا هذا ان سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك هذه تحتاج الى التوبة فقال ياامير المؤمنين وما التوبة قال اسم يقع على ستة معان على الماضى من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الاعادة ورد المظالم واذابة

القرآن و يقطع عنك الوحي يعني لو افترى على الله الكذب لفعل الله به ذلك واعلم انه تعالى لما قال أم يقولون افترى على الله كذبا ثم برأ رسوله مما اضافوه اليه من هذا وكان من المعلوم انهم قد استحقوا بهذه الفرية عقابا عظيما لاجرم ندبهم الله الى التوبة وعرفهم أنه يقبلها من كل مسيء وان عظمت اساءته فقال وهو الذي يقبل التوبة عن عباده و يعفو عن السيآت وفي هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف يقال قبلت منه الشيء وقبلته عنه فمعنى قبلته منه أخذته منه وجعلته مبدأ قبول ومنشأه ومعنى قبلته عنه أخذته عنه وأثبته عنه وقد سبق البحث المستقصى عن حقيقة التوبة في سورة البقرة وأقل مالابد منه الندم على الماضي والترك في الحال والعزم على أن لايعود اليه في المستقبل وروى جابر أن أعرابيا دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم اني أستغفرك وأتوب اليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له علي عليه السلام ياهذا ان سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين فتوبتك تحتاج الى توبة فقال ياأمير المؤمنين وما التوبة فقال اسم يقع على ستة أشياء على الماضي من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الاعادة ورد المظالم واذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية واذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة يجب على الله تعالى عقلا قبول التوبة وقال اصحابنا لايجب على الله شيء وكل مايفعله فانما يفعله بالكرم والفضل واحتجوا على صحة مذهبهم بهذه الآية فقالوا انه تعالى تمدح بقبول التوبة ولو كان ذلك القبول واجبا لما حصل التمدح العظيم ألاترى ان من مدح نفسه بأن لايضرب الناس ظلما ولايقتلهم غضبا كان ذلك مدحا قليلا أما اذا قال اني أحسن اليهم مع ان ذلك لايجب علي كان ذلك مدحا وثناء (المسئلة الثالثة) قوله تعالى و يعفو عن السيآت اما أن يكون المراد منه أن يعفو عن الكبائر بعد الاتيان بالتوبة أوالمراد منه انه يعفو عن الصغائر أوالمراد منه انه يعفو عن الكبائر قبل التوبة والاول باطل والا لصار قوله و يعفو عن السيآت عين قوله وهو الذي يقبل التوبة والتكرار خلاف الاصل (والثاني) أيضا باطل لان ذلك واجب وأداء الواجب لايتمدح به فبقي القسم الثالث فيكون المعنى انه تارة يعفو بواسطة قبول التوبة وتارة يعفو ابتداء من غير توبة ثم قال و يعلم ماتفعلون قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالتاء على المخاطبة والباقون بالياء على المغايبة والمعنى انه تعالى يعلمه فيثيبه على حسناته و يعاقبه على سيآته ثم قال ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات و يزيدهم من فضله وفيه قولان (أحدهما) الذين آمنوا وعملوا الصالحات رفع على انه فاعل تقديره و يجيب المؤمنون الله فيما دعاهم اليه (والثاني) محله نصب والفاعل مضمر وهو الله وتقديره ويستجيب الله للمؤمنين الا انه حذف اللام كما حذف في قوله واذا كالوهم وهذا الثاني أولى لان الخبر فيما قبل و بعد عن الله لان ماقبل الآية قوله تعالى وهو الذي يقبل

النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية واذاقتها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته (و يعفو عن السيئات) صغيرها وكبيرها لمن يشاء (و يعلم مايفعلون) كائنا ماكان من خير وشر فيجازي ويتجاوز حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح وقرئ بما تفعلون بالتاء (ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي يستجيب الله لهم فحذف اللام كما في قوله تعالى واذا كالوهم أي كالوا لهم والمراد اجابة دعوتهم والاثابة على طاعتهم فانها كدعاء وطلب لما يترتب عليها ومنه قوله عليه السلام أفضل الدعاء الحمد لله أو يستجيبون الله بالطاعة اذا دعاهم اليها وعن ابراهيم بن أدهم أنه قيل له مابالنا ندعو فلا نجاب قال لانه دعاكم ولم تجيبوه ثم قرأ والله يدعو الى دار السلام (و يزيدهم من فضله) على ماسألوا واستحقوا بموجب الوعد (والكافرون لهم عذاب شديد) بدل ماللمؤمنين من الثواب والفضل المزيد

التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت وما بعدها قوله ويزيدهم من فضله فيزيد عطف على ويستجيب وعلى الاول ويجيب العبد ويزيد الله من فضله أما من قال ان الفعل للذين آمنوا ففيه وجهان (أحدهما) ويجيب المؤمنون ربهم فيما دعاهم اليه (والثانى) يطيعونه فيما أمرهم به والاستجابة الطاعة وأما من قال ان الفعل لله فقد اختلفوا فقيل يجيب الله دعاء المؤمنين ويزيدهم ماطلبوه من فضله فان قالوا تخصيص المؤمنين باجابة الدعاء هل يدل على انه تعالى لا يجيب دعاء الكفار قلنا قال بعضهم لا يجوز لان اجابة الدعاء تعظيم وذلك لا يليق بالكفار وقيل يجوز على بعض الوجوه وفائدة التخصيص ان اجابة دعاء المؤمنين تكون على سبيل التشريف واجابة دعاء الكافرين تكون على سبيل الاستدراج ثم قال ويزيدهم من فضله أى يزيدهم على ماطلبوه بالدعاء والكافرون لهم عذاب شديد والمقصود التهديد ☼ قوله تعالى (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض ولكن ينزل بقدر مايشاء انه بعباده خبير بصير وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاء قدير وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير وما أنتم بمعجزين فى الارض ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما قال فى الآية الاولى انه يجيب دعاء المؤمنين ورد عليه سؤال وهو أن المؤمن قد يكون فى شدة وبلية وفقر ثم يدعو فلا يشاهد أثر الاجابة فكيف الحال فيه مع ماتقدم من قوله ويستجيب الذين آمنوا فاجاب تعالى عنه بقوله ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض ولأقدموا على المعاصى ولما كان ذلك محذورا وجب أن لا يعطيهم ماطلبوه قال الجبائى هذه الآية تدل على بطلان قول المجبرة من وجهين (الاول) ان حاصل الكلام انه تعالى لو بسط الرزق لعباده لبغوا فى الارض والبغى فى الارض غير مراد فارادة بسط الرزق غير حاصلة فهذا الكلام انما يتم اذا قلنا انه تعالى لا يريد البغى فى الارض وذلك يوجب فساد قول المجبرة (الثانى) انه تعالى بين انه انما لم يرد بسط الرزق لانه يفضى الى المفسدة فلما بين تعالى أنه لا يريد مايفضى الى المفسدة فبأن لا يكون مريدا للمفسدة كان أولى أجاب أصحابنا بأن الميل الشديد الى البغى والقسوة والقهر صفة حدثت بعد ان لم تكن فلا بد لها من فاعل وفاعل هذه الاحوال اما العبد أو الله (والاول) باطل لانه انما يفعل هذه الاشياء لو مال طبعه اليها فيعود السؤال فى أنه من المحدث لذلك الميل الثانى ويلزم التسلسل وأيضا فالميل الشديد الى الظلم والقسوة عيوب ونقصانات والعاقل لا يرضى بتحصيل موجبات النقصان لنفسه ولما بطل هذا ثبت ان محدث هذا الميل والرغبة هو الله تعالى ثم أورد الجبائى فى تفسيره على نفسه سؤالا قال فان قيل أليس قد بسط الله الرزق لبعض عباده

(ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض) لتكبروا وأفسدوا فيها بطرا أو لعلا بعضهم على بعض بالاستيلاء والاستعلاء كما عليه الجبلة البشرية وأصل البغى طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى من حيث الكمية أو الكيفية (ولكن ينزل بقدر) أى بتقدير (مايشاء) أن ينزله مما تقتضيه مشيئته (انه بعباده خبير بصير) محيط بخفايا أمورهم وجلاياها فيقدر لكل واحد منهم فى كل وقت من أوقاتهم مايليق بشأنهم فيفقر ويغنى ويمنع ويعطى ويقبض ويبسط حسبما تقتضيه الحكمة الربانية ولو أغناهم جميعا لبغوا ولو أفقرهم لهلكوا وروى ان أهل الصفة تمنوا الغنى فنزلت وقيل نزلت فى العرب كانوا اذا أخصبوا تحاربوا واذا أجدبوا انتجعوا (وهو الذى ينزل الغيث) أى المطر الذى يغيثهم من الجدب ولذلك خص بالنافع منه وقرئ ينزل من الانزال (من بعد ماقنطوا) يئسوا منه وتقييد تنزيله بذلك مع تحققه بدونه أيضا لتذكير كمال النعمة وقرئ بكسر النون (وينشر رحمته) أى بركات الغيث ومنافعه فى كل شئ من السهل والجبل والنبات والحيوان أو رحمته

وصفاتها تدل على شؤنه العظيمة (ومابث فيهما) عطف على السموات أو الخلق (من دابة) من حي على اطلاق اسم المسبب على السبب أو مما يدب على الارض فان ما يختص بأحد الشيئين المتجاورين يصح نسبته اليهما كما في قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان وانما يخرج من الملح وقد يجوز أن يكون للملائكة عليهم السلام مشي مع الطيران فيوصفوا بالدبيب وأن يخلق الله في السماء حيوانا يمشون فيها مشي الأناسي على الارض كما ينبئ عنه قوله تعالى ويخلق مالا تعلمون وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والارض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والارض ثم فوق ذلك العرش العظيم (وهو على جمعهم) أي حشرهم بعد البعث للمحاسبة

مع انه بغى وأجاب عنه بان الذي عنده الرزق و بغى كان المعلوم من حاله انه يبغي على كل حال سواء اعطى ذلك الرزق أو لم يعط وأقول هذا الجواب فاسد و يدل عليه القرآن والعقل أما القرآن فقوله تعالى ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى حكم مطلقا بأن حصول الغنى سبب لحصول الطغيان وأما العقل فهو ان النفس اذا كانت مائلة الى الشر لكنها كانت فاقدة للآلات والادوات كان الشر أقل واذا كانت واجدة لها كان الشر أكثر فثبت ان وجدان المال يوجب الطغيان (المسئلة الثانية) في بيان الوجه الذي لاجله كان التوسع موجبا للطغيان ذكروا فيه وجوها (الاول) ان الله تعالى لو سوى في الرزق بين الكل لامتنع كون البعض خادما للبعض ولو صار الامر كذلك لخرب العالم وتعطلت المصالح (الثاني) ان هذه الآية مختصة بالعرب فانه كلما اتسع رزقهم ووجدوا من ماء المطر ما يرويهم ومن الكلا والعشب ما يشبعهم أقدموا على النهب والغارة (الثالث) ان الانسان متكبر بالطبع فاذا وجد الغنى والقدرة عاد الى مقتضى خلقته الاصلية وهو التكبر واذا وقع في شدة و بلية ومكروه انكسر فعاد الى الطاعة والتواضع (المسئلة الثالثة) قال خباب بن الارت فينا نزلت هذه الآية وذلك انا نظرنا الى أموال بني قريظة والنضير و بني قينقاع فتمنيناها وقيل نزلت في أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى ثم قال تعالى ولكن ينزل بقدر ما يشاء قرأ ابن كثير وأبو عمرو ينزل خفيفة والباقون بالتشديد ثم نقول بقدر بتقدير يقال قدره قدرا وقدرا انه بعباده خبير بصير يعني انه عالم بأحوال الناس و بطباعهم و بعواقب أمورهم فيقدر أرزاقهم على وفق مصالحهم ولما بين تعالى أنه لا يعطيهم مازاد على قدر حاجتهم لاجل انه علم أن تلك الزيادة تضرهم في دينهم بين انهم اذا احتاجوا الى الرزق فانه لا يمنعهم منه فقال وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا قرأ نافع وابن عامر وعاصم ينزل مشددة والباقون مخففة قال صاحب الكشاف قرئ قنطوا بفتح النون وكسرها وانزال الغيث بعد القنوط أدعى الى الشكر لان الفرح بحصول النعمة بعد البلية أتم فكان اقدام صاحبه على الشكر أكثر و ينشر رحمته أي بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب وعن عمر رضي الله عنه انه قيل له أشتد القحط وقنط الناس فقال اذن مطروا أراد هذه الآية و يجوز أن يريد رحمته الواسعة في كل شئ كأنه قيل ينزل الرحمة التي هي الغيث و ينشر سائر أنواع الرحمة وهو الولي الحميد الولي الذي يتولى عباده باحسانه والحميد المحمود على ما يوصل للخلق من أقسام الرحمة ثم ذكر آية أخرى تدل على الهيته فقال ومن آياته خلق السموات والارض ومابث فيهما من دابة فنقول أما دلالة خلق السموات والارض على وجود الاله الحكيم فقد ذكرناها وكذلك دلالة وجود الحيوانات على وجود الاله الحكيم فان قيل كيف يجوز اطلاق لفظ الدابة على الملائكة قلنا فيه وجوه (الاول) انه قد يضاف الفعل الى جماعة وان كان فاعله واحدا منهم يقال بنو فلان فعلوا كذا وانما فعله واحد منهم ومنه قوله تعالى يخرج منهما

وقوله تعالى

اللؤلؤ والمرجان (الثانى) ان الدبيب هو الحركة والملائكة لهم حركة (الثالث) لا يبعد أن يقال انه تعالى خلق فى السموات أنواعا من الحيوانات يمشون مشى الاناسى على الارض ثم قال تعالى وهو على جمعهم اذا يشاء قدير قال صاحب الكشاف اذا تدخل على المضارع كما تدخل على الماضى قال تعالى والليل اذا يغشى ومنه اذا يشاء قدير والمقصود انه تعالى خلقها متفرقة لا لعجز ولكن لمصلحة فلهذا قال وهو على جمعهم اذا يشاء قدير يعنى الجمع للحشر والمحاسبة وانما قال على جمعهم ولم يقل على جمعها لاجل أن المقصود من هذا الجمع المحاسبة فكأنه تعالى قال وهو على جمع العقلاء اذا يشاء قدير واحتج الجبائى بقوله اذا يشاء قدير على ان مشيئته تعالى محدثة بأن قال ان كلمة اذ تفيد ظرف الزمان وكلمة يشاء صيغة المستقبل فلو كانت مشيئته تعالى قديمة لم يكن لتخصيصها بذلك الوقت المعين من المستقبل فائدة ولما دل قوله اذا يشاء قدير على هذا التخصيص علمنا ان مشيئته تعالى محدثة (والجواب) أن هاتين الكلمتين كما دخلتا على المشيئة أى مشيئة الله فقد دخلتا أيضا على لفظ القدير فلزم على هذا أن يكون كونه قادرا صفة محدثة ولما كان هذا باطلا فكذا القول فيما ذكرته والله أعلم ثم قال تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن عامر بما كسبت بغير فاء وكذلك هى فى مصاحف الشام والمدينة والباقون بالفاء وكذلك هى فى مصاحفهم وتقدير الاول ان ما مبتدأ بمعنى الذى و بما كسبت خبره والمعنى والذى أصابكم وقع بما كسبت أيديكم وتقدير الثانى تضمين كلمة ما معنى الشرطية (المسئلة الثانية) المراد بهذه المصائب الاحوال المكروهة نحو الآلام والاسقام والقحط والغرق والصواعق وأشباهها واختلفوا فى نحو الآلام انها هل هى عقوبات على ذنوب سلفت أم لا منهم من أنكر ذلك لوجوه (الاول) قوله تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت بين تعالى ان الجزاء انما يحصل فى يوم القيامة وقال تعالى فى سورة الفاتحة مالك يوم الدين أى يوم الجزاء وأطبقوا على ان المراد منه يوم القيامة (والثانى) أن مصائب الدنيا يشترك فيها الزنديق والصديق وما يكون كذلك امتنع جعله من باب العقوبة على الذنوب بل الاستقراء يدل على أن حصول هذه المصائب للصالحين والمتقين أكثر منه للمذنبين ولهذا قال صلى الله عليه وسلم خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل (الثالث) ان الدنيا دار التكليف فلو حصل الجزاء فيها لكانت الدنيا دار التكليف ودار الجزاء معا وهو محال وأما القائلون بأن هذه المصائب قد تكون أجزية على الذنوب المتقدمة فقد تمسكوا أيضا بما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا يصيب ابن آدم خدش عود ولا غيره الا بذنب أو لفظ هذا معناه وتمسكوا أيضا بهذه الآية وتمسكوا أيضا بقوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات وتمسكوا أيضا بقوله تعالى بعد هذه الآية أو يوبقهن بما كسبوا وذلك تصريح بأن ذلك الاهلاك كان بسبب كسبهم واجاب الاولون عن التمسك بهذه الآية فقالوا ان

الوقت كما تدخل الماضى تدخل المضارع (وما أصابكم من مصيبة) أى مصيبة كانت (فبما كسبت أيديكم) أى فهى بسبب معاصيكم التى اكتسبتموها والفاء لان ما شرطية أو متضمنة لمعنى الشرط وقرئ بدونها اكتفاء بما فى الباء من معنى السببية (ويعفوا عن كثير) من الذنوب فلا يعاقب عليها والآية مخصوصة بالمجرمين فان ما أصاب غيرهم لاسباب آخر منها تعريضه للثواب بالصبر عليه (وما أنتم بمعجزين فى الارض) فائتين ما قضى عليكم من المصائب وان هربتم من أقطارها كل مهرب (وما لكم من دون الله من ولى) يحميكم منها (ولا نصير) يدفعها عنكم (ومن آياته الجوار) السفن الجارية (فى البحر) وقرئ الجوارى (كالاعلام) أى كالجبال على الاطلاق لا التى عليها النار للاهتداء خاصة (ان يشأ يسكن الريح) التى تجريها وقرئ الرياح (فيظللن رواكد على ظهره) فيبقين ثوابت على ظهر البحر أى غير جاريات لا غير متحركات أصلا

حصول هذه المصائب يكون من باب الامتحان فى التكليف لا من باب العقوبة كما فى حق الانبياء والاولياء و يحمل قوله فبما كسبت أيديكم على أن الاصلح عند اتيانكم بذلك الكسب انزال هذه المصائب عليكم وكذا الجواب عن بقية الدلائل والله أعلم (المسئلة الثالثة) احتج أهل التناسخ بهذه الآية وكذلك الذين يقولون ان الاطفال والبهائم لا تتألم فقالوا دلت الآية على ان حصول المصائب لا يكون الا سابقة الجرم ثم ان أهل التناسخ قالوا لكن هذه المصائب حاصلة للاطفال والبهائم فوجب أن يكون قد حصل لها ذنوب فى الزمان السابق وأما القائلون بأن الاطفال والبهائم ليس لها ألم قالوا قد ثبت ان هذه الاطفال والبهائم ما كانت موجودة فى بدن آخر لفساد القول بالتناسخ فوجب القطع بأنها لا تتألم اذ الالم مصيبة (والجواب) ان قوله تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم خطاب مع من يفهم و يعقل فلا يدخل فيه البهائم والاطفال ولم يقل تعالى ان جميع ما يصيب الحيوان من المكاره فانه بسبب ذنب سابق والله أعلم (المسئلة الرابعة) قوله فبما كسبت أيديكم يقتضى اضافة الكسب الى اليد قال والكسب لا يكون باليد بل بالقدرة القائمة باليد واذا كان المراد من لفظ اليد ههنا القدرة وكان هذا المجاز مشهورا مستعملا كان لفظ اليد الوارد فى حق الله تعالى يجب حمله على القدرة تنزيها لله تعالى عن الاعضاء والاجزاء والله أعلم ثم قال تعالى و يعفوا عن كثير ومعناه انه تعالى قد يترك الكثير من هذه التشديدات بفضله ورحمته وعن الحسن قال دخلنا على عمران بن حصين فى الوجع الشديد فقيل له انا لنغتم لك من بعض ما نرى فقال لا تفعلوا فوالله ان أحبه الى الله أحبه الى وقرأ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم فهذا بما كسبت يداى وسيأتينى عفو ربى وقد روى أبو سخلة عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال ما عفا الله عنه فهو أعز وأكرم من أن يعود اليه فى الآخرة وما عاقب عليه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعيد العذاب عليه فى الآخرة رواه الواحدى فى البسيط وقال اذا كان كذلك فهذه ارجى آية فى كتاب الله لان الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين صنف كفره عنهم بالمصائب فى الدنيا وصنف عفا عنه فى الدنيا وهو كريم لا يرجع فى عفوه وهذه سنة الله مع المؤمنين وأما الكافر فلانه لا يعجل عليه عقوبة ذنبه حتى يوافى به يوم القيامة ثم قال تعالى وما أنتم بمعجزين فى الارض يقول ما أنتم يا معشر المشركين بمعجزين فى الارض اى لا تعجزوننى حيث ما كنتم فلا تسبقوننى بسبب هربكم فى الارض ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير والمراد بهم من يعبد الاصنام بين أنه لا فائدة فيها البتة والنصير هو الله تعالى فلا جرم هو الذى تحسن عبادته * قوله تعالى (ومن آياته الجوار فى البحر كالاعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا و يعف عن كثير و يعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص فما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير

فى انفسها كثيرة فى العدد دالة على ما ذكر من شئونه تعالى (لكل صبار شكور) لكل من حبس نفسه عن التوجه الى ما لا ينبغى ووكل همته بالنظر فى آيات الله تعالى والتفكر فى آلائه أو لكل مؤمن كامل فان الايمان نصفه صبر ونصفه شكر (أو يوبقهن بما كسبوا) عطف على يسكن والمعنى ان يشأ يسكن الريح فيركدن أو يرسلها فيغرقن بعصفها وايقاع الايباق عليهن مع أنه حال اهلهن للمبالغة والتهويل واجراء حكمه على العفو فى قوله تعالى (ويعف عن كثير) لما أن المعنى أو يرسلها فيوبق ناسا وينج آخرين بطريق العفو عنهم وقرئ و يعفوا على الاستئناف (و يعلم الذين يجادلون فى آياتنا) عطف على علة مقدرة مثل لينتقم منهم وليعلم الخ كما فى قوله تعالى ولنجعله آية للناس

وقوله ولنعلمه من تأويل الاحاديث ونظائرهما وقرئ بالرفع على الاستئناف و بالجزم عطفا على يعف ﴿ وابقى ﴾ فيكون المعنى وان يشأ يجمع بين اهلاك قوم وانجاء قوم وتحذير قوم

وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون والذين اذا أصابهم البغي هم ينتصرون) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وأبو عمرو الجواري بياء في الوصل والوقف فاثبات الياء على الاصل وحذفها للتخفيف (المسئلة الثالثة) الجواري يعني السفن الجواري فحذف الموصوف لعدم الالتباس (المسئلة الثانية) اعلم أنه تعالى ذكر من آياته أيضا هذه السفن العظيمة التي تجري على وجه البحر عند هبوب الرياح واعلم أن المقصود من ذكره أمران (أحدهما) أن يستدل به على وجود القادر الحكيم (والثاني) أن يعرف ما فيه من النعم العظيمة لله تعالى على العباد (أما الوجه الاول) فقد اتفقوا على ان المراد بالاعلام الجبال قالت الخنساء في مرثية أخيها

وان صخرا لتأتم الهداة به ✲ كأنه علم في رأسه نار

ونقل ان النبي صلى الله عليه وسلم استنشد قصيدتها هذه فلما وصل الراوي الى هذا البيت قال قاتلها الله ما رضيت بتشبيهها له بالجبل حتى جعلت على رأسه نارا اذا عرفت هذا فنقول هذه السفن العظيمة التي تكون كالجبال تجري على وجه البحر عند هبوب الرياح على أسرع الوجوه وعند سكون هذه الرياح تقف وقد بينا بالدليل في سورة النحل ان محرك الرياح ومسكنها هو الله تعالى اذ لا يقدر أحد على تحريكها من البشر ولا على تسكينها وذلك يدل على وجود الاله القادر وأيضا ان تلك السفينة تكون في غاية الثقل ثم انها مع ثقلها بقيت على وجه الماء وهو أيضا دلالة أخرى (وأما الوجه الثاني) وهو معرفة ما فيها من المنافع فهو انه تعالى خص كل جانب من جوانب الارض بنوع آخر من الامتعة واذا نقل متاع هذا الجانب الى ذلك الجانب في السفن وبالعكس حصلت المنافع العظيمة في التجارة فلهذه الاسباب ذكر الله تعالى حال هذه السفينة ثم قال تعالى ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره قرأ أبو عمرو والجمهور بهمزة ان يشأ لان سكون الهمزة علامة للجزم وعن ورش عن نافع بلا همز وقرأ نافع وحده يسكن الرياح على الجمع والباقون الريح على الواحد قال صاحب الكشاف قرئ يظللن بفتح اللام وكسرها من ظل يظل ويظل وقوله تعالى رواكد أي رواتب أي لا تجري على ظهره أي على ظهر البحر ان في ذلك لآيات لكل صبار على بلاء الله شكور لنعمائه والمقصود التنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يكون غافلا عن دلائل معرفة الله البتة لانه لا بد وأن يكون اما في البلاء واما في الآلاء فان كان في البلاء كان من الصابرين وان كان في النعماء كان من الشاكرين وعلى هذا التقدير فانه لا يكون البتة من الغافلين ثم قال تعالى أو يوبقهن بما كسبوا يعني أو يهلكهن يقال أوبقه أي أهلكه ويقال للمجرم أوبقته ذنوبه أي أهلكته والمعنى انه تعالى ان شاء ابتلى المسافرين في البحر باحدى بليتين اما أن يسكن الريح فتركد

(ما لهم من محيص) أي من مهرب من العذاب والجملة معلق عنها الفعل (فما أوتيتم من شيء) مما ترغبون وتتنافسون فيه (فمتاع الحياة الدنيا) أي فهو متاعها تتمتعون به مدة حياتكم (وما عند الله) من ثواب الآخرة (خير) ذاتا لخلوص نفعه (وأبقى) زمانا حيث لا يزول ولا يفنى (للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) لا على غيره أصلا والموصول الاول لما كان متضمنا لمعنى الشرط من حيث ان ايتاء ما أوتوا سبب للتمتع بها في الحياة الدنيا دخلت جوابها الفاء بخلاف الثاني وعن علي رضي الله عنه انه تصدق أبو بكر رضي الله عنه بماله كله فلامه جمع من المسلمين فنزلت وقوله تعالى (والذين يجتنبون كبائر الاثم) أي الكبائر من هذا الجنس (والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون) مع ما بعده عطف على الذين آمنوا أو مدح بالنصب أو الرفع وبناء يغفرون على الضمير خبرا له للدلالة على أنهم الاخصاء بالمغفرة حال الغضب لعزة منالها وقرئ كبير الاثم وعن ابن عباس رضي الله عنهما كبير الاثم الشرك (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة) نزلت في الانصار دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الايمان فاستجابوا له

الجواري على متن البحر وتقف واما أن يرسل الرياح عاصفة فيهلكهن بسبب الاغراق وعلى هذا التقدير فقوله أو يوبقهن معطوف على قوله يسكن لان التقدير ان يشأ يسكن الريح فيركدن أو يعصفها فيغرقن بعصفها وقوله ويعفو عن كثير معناه ان يشأ يهلك ناسا وينج ناسا على طريق العفو عنهم فان قيل فما معنى ادخال العفو في حكم الايباق حيث جعل مجزوما مثله قلنا معناه ان يشأ يهلك ناسا على طريق العفو عنهم وأما من قرأ ويعفو فقد استأنف الكلام ثم قال ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص قرأ نافع وابن عامر يعلم بالرفع على الاستئناف وقرأ الباقون بالنصب فالقراءة بالرفع على الاستئناف وأما بالنصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون في آياتنا والعطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن ومنه قوله تعالى ولنجعله آية للناس وقوله تعالى خلق السموات والارض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت قال صاحب الكشاف ومن قرأ على جزم ويعلم فكأنه قال أو ان يشأ يجمع بين ثلاثة أمور هلاك قوم ونجاة قوم وتحذير آخرين اذا عرفت هذا فنقول معنى الآية وليعلم الذين يجادلون أي ينازعون على وجه التكذيب ان لا خلاص لهم اذا وقفت السفن واذا عصفت الرياح فيصير ذلك سببا لاعترافهم بأن الاله النافع الضار ليس الا الله واعلم انه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد أردفها بالتنفير عن الدنيا وتحقير شأنها لان الذي يمنع من قبول الدليل انما هو الرغبة في الدنيا بسبب الرياسة وطلب الجاه فاذا صغرت الدنيا في عين الرجل لم يلتفت اليها فحينئذ ينتفع بذكر الدلائل فقال فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وسماه متاعا تنبيها على قلته وحقارته ولان الحس شاهد بأن كل ما يتعلق بالدنيا فانه يكون سريع الانقراض والانقضاء ثم قال تعالى وما عند الله خير وأبقى والمعنى ان مطالب الدنيا خسيسة منقرضة ونبه على خساستها بتسميتها بالمتاع ونبه على انقراضها بأن جعلها من الدنيا وأما الآخرة فانها خير وأبقى وصريح العقل يقتضي ترجيح الخير الباقي على الخسيس الفاني ثم بين ان هذه الخيرية انما تحصل لمن كان موصوفا بصفات (الصفة الاولى) ان يكون من المؤمنين بدليل قوله تعالى للذين آمنوا (الصفة الثانية) أن يكون من المتوكلين على فضل الله بدليل قوله تعالى وعلى ربهم يتوكلون فأما من زعم أن الطاعة توجب الثواب فهو متكل على عمل نفسه لا على الله فلا يدخل تحت الآية (الصفة الثالثة) أن يكونوا مجتنبين لكبائر الاثم والفواحش عن ابن عباس كبير الاثم هو الشرك نقله صاحب الكشاف وهو عندي بعيد لان شرط الايمان مذكور أولا وهو يغني عن عدم الشرك وقيل المراد بكبائر الاثم ما يتعلق بالبدع واستخراج الشبهات وبالفواحش ما يتعلق بالقوة الشهوانية وبقوله واذا ما غضبوا هم يغفرون ما يتعلق بالقوة الغضبية وانما خص الغضب بلفظ الغفران لان الغضب على طبع النار واستيلاؤه شديد ومقاومته صعبة فلهذا السبب خصه بهذا اللفظ والله أعلم (الصفة الرابعة) قوله تعالى والذين

(وأمرهم شورى بينهم) أي ذو شورى لا ينفردون برأي حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه وكانوا قبل الهجرة وبعدها اذا حزبهم أمر اجتمعوا وتشاوروا (ومما رزقناهم ينفقون) أي في سبيل الخير ولعل فصله عن قرينه بذكر المشاورة لوقوعها عند اجتماعهم للصلوات (والذين اذا أصابهم البغي هم ينتصرون) أي ينتقمون ممن بغى عليهم على ما جعله الله تعالى لهم كراهة التذلل وهو وصفهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر مهمات الفضائل وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران فان كلا منهما فضيلة محمودة في موقع نفسه ورذيلة مذمومة في موقع صاحبه فان الحلم عن العاجز وعوراء الكرام محمود وعن المتغلب وافواه اللئام مذموم فانه اغراء على البغي وعليه قول من قال
* اذا أنت أكرمت الكريم ملكته * وان أنت أكرمت اللئيم تمردا
* فوضع الندى في موضع السيف بالعلا * مضر كوضع السيف في موضع الندى *
وقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) بيان لوجه كون الانتصار من الخصال الحميدة مع كونه في نفسه اساءة الى الغير بالاشارة الى أن البادي هو الذي فعله لنفسه فان الافعال مستتبعة لاجزيتها حتما

ان خيرا فخير وان شرا فشر وفيه تنبيه على حرمة التعدي واطلاق السيئة على الثانية لانها تسوء من نزلت به (فمن عفا) على المسيء اليه (وأصلح) بينه وبين من

يعاديه بالعفو والاغضاء كما في قوله تعالى فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (فأجره على الله) عدة مبهمة منبئة عن عظم شأن الموعود وخروجه عن الحد المعهود (انه لا يحب الظالمين) البادئين بالسيئة والمتعدين في الانتقام (ولمن انتصر بعد ظلمه) أي بعد ما ظلم وقد قرئ به (فأولئك) اشارة الى من باعتبار المعنى كما أن الضميرين اولا باعتبار اللفظ (ما عليهم من سبيل) بالمعاتبة أو المعاقبة (انما السبيل على الذين يظلمون الناس) يبتدؤنهم بالاضرار أو يعتدون في الانتقام (ويبغون في الارض بغير الحق) أي يتكبرون فيها تجبرا وفسادا (أولئك) الموصوفون بما ذكر من الظلم والبغي بغير الحق (لهم عذاب أليم) بسبب ظلمهم وبغيهم (ولمن صبر) على الاذى (وغفر) لمن ظلمه ولم ينتصر وفوض أمره الى الله تعالى (ان ذلك) الذي ذكر من الصبر والمغفرة (لمن عزم الامور) أي ان ذلك منه فحذف ثقة بغاية ظهوره كما في قولهم السمن منوان بدرهم وهذا في المواد التي لا يؤدي العفو الى الشر كما أشير

استجابوا لربهم والمراد منه تمام الانقياد فان قالوا أليس انه لما جعل الايمان شرطا فيه فقد دخل في الايمان اجابة الله قلنا الاقرب عندي أن يحمل هذا على الرضاء بقضاء الله من صميم القلب وان لا يكون في قلبه منازعة في أمر من الامور ولما ذكر هذا الشرط قال وأقاموا الصلاة والمراد منه اقامة الصلوات الواجبة لان هذا هو الشرط في حصول الثواب وأما قوله تعالى وأمرهم شورى بينهم فقيل كان اذا وقعت بينهم واقعة اجتمعوا وتشاوروا فأثنى الله عليهم أي لا ينفردون برأي بل ما لم يجتمعوا عليه لا يقدمون عليه وعن الحسن ما تشاور قوم الا هدوا لأرشد أمرهم والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ومعنى قوله وأمرهم شورى بينهم أي ذو شورى (الصفة الخامسة) قوله تعالى والذين اذا أصابهم البغي هم ينتصرون والمعنى أن ينتصروا في الانتصار على ما جعله الله لهم ولا يعتدونه وعن النخعي انه كان اذا قرأها قال كانوا يكرهون ان يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم السفهاء فان قيل هذه الآية مشكلة لوجهين (الاول) انه لما ذكر قبله واذا ما غضبوا هم يغفرون فكيف يليق أن يذكر معه ما يجري مجرى الضد له وهو قوله والذين اذا أصابهم البغي هم ينتصرون (الثاني) وهو أن جميع الآيات دالة على أن العفو أحسن قال تعالى وان تعفوا أقرب للتقوى وقال واذا مروا باللغو مروا كراما وقال خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وقال وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين فهذه الآيات تناقض مدلول هذه الآية (والجواب) ان العفو على قسمين (أحدهما) ان يصير العفو سببا لتسكين الفتنة وجناية الجاني ورجوعه عن جنايته (والثاني) أن يصير العفو سببا لمزيد جراءة الجاني ولقوة غيظه وغضبه والآيات في العفو محمولة على القسم الاول وهذه الآية محمولة على القسم الثاني وحينئذ يزول التناقض والله أعلم الا ترى ان العفو عن المصر يكون كالاغراء له ولغيره فلو أن رجلا وجد عبده فجر بجاريته وهو مصر فلو عفا عنه كان مذموما وروي أن زينب أقبلت على عائشة فشتمتها فنهاها النبي صلى الله عليه وسلم عنها فلم تنته فقال النبي صلى الله عليه وسلم دونك فانتصري وأيضا انه تعالى لم يرغب في الانتصار بل بين انه مشروع فقط ثم بين بعده أن شرعه مشروط برعاية المماثلة ثم بين ان العفو أولى بقوله فمن عفا وأصلح فأجره على الله فزال السؤال والله أعلم * قوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقال الذين آمنوا ان الخاسرين الذين

الية (ومن يضلل الله فماله من ولى من بعده) من ناصر يتولاه من بعد خذلانه تعالى اياه (وترى الظالمين لما رأوا العذاب)
أى حين يرونه وصيغة الماضى للدلالة على التحقق (يقولون هل الى مرد) ﴿٤١٦﴾ أى الى رجعة الى الدنيا (من سبيل)
حتى نؤمن ونعمل صالحا (وتراهم يعرضون عليها) أى على النار المدلول عليها بالعذاب والخطاب فى الموضعين لكل من يتأدى منه الرؤية (خاشعين من الذل) متذللين متضائلين مما دهاهم (ينظرون من طرف خفى) أى يبتدئ نظرهم الى النار من تحريك لأجفانهم ضعيف كالمصبور ينظر الى السيف (وقال الذين آمنوا ان الخاسرين) أى المتصفين بحقيقة الخسران (الذين خسروا أنفسهم وأهليهم) بالتعريض للعذاب الخالد (يوم القيامة) اما ظرف لخسروا والقول فى الدنيا أو لقال فالقول يوم القيامة أى يقولون حين يرونهم على تلك الحال وصيغة الماضى للدلالة على تحققه وقوله تعالى (ألا ان الظالمين فى عذاب مقيم) اما من تمام كلامهم أو تصديق من الله تعالى لهم (وما كان لهم من أولياء ينصرونهم) برفع العذاب عنهم (من دون الله) حسبما كانوا يرجون ذلك فى الدنيا (ومن يضلل الله فماله من سبيل) يؤدى سلوكه الى النجاة

خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ان الظالمين فى عذاب مقيم وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فماله من سبيل) اعلم انه تعالى لما قال والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون أردفه بما يدل على ان ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيدا بالمثل فان النقصان حيف والزيادة ظلم والتساوى هو العدل وبه قامت السموات والارض فلهذا السبب قال وجزاء سيئة سيئة مثلها وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) لقائل أن يقول جزاء السيئة مشروع مأذون فيه فكيف سمى بالسيئة أجاب صاحب الكشاف عنه كلتا الفعلتين الاولى وجزاؤها سيئة لانها تسوء من تنزل به قال تعالى وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا وأجاب غيره بأنه لما جعل احدهما فى مقابلة الآخر أطلق اسم أحدهما على الآخر على سبيل المجاز والحق ما ذكره صاحب الكشاف (المسئلة الثانية) هذه الآية أصل كبير فى علم الفقه فان مقتضاها أن تقابل كل جناية بمثلها وذلك لان الاهدار يوجب فتح باب الشر والعدوان لان فى طبع كل أحد الظلم والبغى والعدوان فاذا لم يزجر عنه أقدم عليه ولم يتركه وأما الزيادة على قدر الذنب فهو ظلم والشرع منزه عنه فلم يبق الا ان يقابل بالمثل ثم تأكد هذا النص بنصوص أخر كقوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به وقوله تعالى من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها وقوله عز وجل كتب عليكم القصاص فى القتلى والقصاص عبارة عن المساواة والمماثلة وقوله تعالى والجروح قصاص وقوله تعالى ولكم فى القصاص حياة فهذه النصوص بأسرها تقتضى مقابلة الشئ بمثله ثم ههنا دقيقة وهى أنه اذا لم يمكن استيفاء الحق الا باستيفاء الزيادة فههنا وقع التعارض بين الحاق زيادة الضرر بالجانى وبين منع المجنى عليه من استيفاء حقه فأيهما أولى فههنا محل اجتهاد المجتهدين ويختلف ذلك باختلاف الصور وتفرع على هذا الاصل بعض المسائل تنبيها على الباقى (المثال الاول) احتج الشافعى رضى الله عنه على أن المسلم لا يقتل بالذمى وان الحر لا يقتل بالعبد بأن قال المماثلة شرط لجريان القصاص وهى مفقودة فى هاتين المسئلتين فوجب أن لا يجرى القصاص بينهما أما بيان أن المماثلة شرط لجريان القصاص فهى النصوص المذكورة وكيفية الاستدلال بها أن نقول اما أن نحمل المماثلة المذكورة فى هذه النصوص على المماثلة فى كل الامور الا ما خصه الدليل أو نحملها على المماثلة فى أمر معين والثانى مرجوح لان ذلك الامر المعين غير مذكور فى الآية فلو حملنا الآية عليها لزم الاجمال ولو حملنا النص على القسم الاول لزم تحمل التخصيص ومعلوم ان دفع الاجمال أولى من دفع التخصيص فثبت أن الآية تقتضى رعاية المماثلة فى كل الامور الا ما خصه دليل العقل ودليل نقلى منفصل واذا ثبت هذا فنقول رعاية المماثلة فى قتل المسلم بالذمى وفى قتل الحر بالعبد لا تمكن لان الاسلام اعتبره الشرع فى ايجاب القتل لتحصيله عند عدمه كما فى حق الكافر الاصلى ولابقائه عند وجوده كما فى حق

المرتد وأيضا الحرية صفة اعتبرها الشرع فى حق القضاء والامامة والشهادة فثبت ان المماثلة شرط لجريان القصاص وهى مفقودة ههنا فوجب المنع من القصاص (المثال الثانى) احتج الشافعى رضى الله عنه فى أن الايدى تقطع باليد الواحدة فقال لاشك انه اذا صدر كل القطع أو بعضه عن كل أولئك القاطعين أو عن بعضهم فوجب أن يشرع فى حق أولئك القاطعين مثله لهذه النصوص وكل من قال بشرع القطع اما كله أو بعضه فى حق كلهم أو بعضهم قال بايجابه على الكل بقى أن يقال فيلزم منه استيفاء الزيادة من الجانى وهو ممنوع منه الا انا نقول لما وقع التعارض بين جانب الجانى و بين جانب المجنى عليه كان جانب المجنى عليه بالرعاية أولى (المثال الثالث) شريك الاب شرع فى حقه القصاص والدليل عليه انه صدر عنه الجرح فوجب أن يقابل بمثله لقوله تعالى والجروح قصاص واذا ثبت هذا ثبت تمام القصاص لانه لاقائل بالفرق (المثال الرابع) قال الشافعى رضى الله تعالى عنه من حرق حرقناه ومن غرق غرقناه والدليل عليه هذه النصوص الدالة على مقابلة كل شئ بمماثله (المثال الخامس) شهود القصاص اذا رجعوا وقالوا تعمدنا الكذب يلزمهم القصاص لانهم بتلك الشهادة أهدروا دمه فوجب أن يصير دمهم مهدرا لقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها (المثال السادس) قال الشافعى رضى الله عنه المكره يجب عليه القود لانه صدر عنه القتل ظلما فوجب أن يجب عليه مثله أما انه صدر عنه القتل فالحس يدل عليه وأما أنه قتل ظلما فلان المسلمين أجمعوا على أنه مكلف من قبل الله تعالى بان لا يقتل وأجمعوا على انه يستحق به الاثم العظيم والعقاب الشديد واذا ثبت هذا فوجب أن يقابل بمثله لقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها (المثال السابع) قال الشافعى رضى الله عنه القتل بالمثقل يوجب القود والدليل عليه ان الجانى أبطل حياته فوجب أن يتمكن ولى المقتول من ابطال حياة القاتل لقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها (المثال الثامن) الحر لا يقتل بالعبد قصاصا ونحن وان ذكرنا هذه المسئلة فى المثال الاول الا انا نذكر ههنا وجها آخر من البيان فنقول ان القاتل أتلف على مالك العبد شيئا يساوى عشرة دنانير مثلا فوجب عليه أداء عشرة دنانير لقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها واذا وجب الضمان وجب أن لا يجب القصاص لانه لاقائل بالفرق (المثال التاسع) منافع الغصب مضمونة عند الشافعى رضى الله عنه والدليل عليه ان الغاصب فوت على المالك منافع تقابل فى العرف بدينار فوجب أن يفوت على الغاصب مثله من المال لقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وكل من أوجب تفويت هذا القدر على الغاصب قال بانه يجب أداؤه الى المغصوب منه (المثال العاشر) الحر لا يقتل بالعبد قصاصا لانه لو قتل بالعبد لكان هو مساويا للعبد فى المعانى الموجبة للقصاص لقوله من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ولسائر النصوص التى تلوناها ثم ان عبد غيره يقتل قصاصا بعبد نفسه فوجب أن يكون عبد غيره مساويا لعبد نفسه فى المعانى الموجبة للقصاص لعين هذه النصوص التى ذكرناها

(استجيبوا لربكم) اذ دعاكم الى الايمان على لسان نبيه (من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله) أى لا يرده الله بعد ما حكم به على أن من صلة مرد أو من قبل أن يأتى من الله يوم لا يمكن رده (ما لكم من ملجأ يومئذ) أى مفر تلتجؤن اليه (وما لكم من نكير) لما اقترفتموه لانه مدون فى صحائف أعمالكم وتشهد عليكم جوارحكم (فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا) تلوين للكلام وصرف له عن خطاب الناس بعد أمرهم بالاستجابة وتوجيه له الى الرسول عليه الصلاة والسلام أى فان لم يستجيبوا وأعرضوا عما تدعوهم اليه فما أرسلناك رقيبا ومحاسبا عليهم (ان عليك الا البلاغ) وقد فعلت (وانا اذا أذقنا الانسان منا رحمة) أى نعمة من الصحة والغنى والامن (فرح بها) أريد بالانسان

فعلى هذا التقدير يكون عبد نفسه مساو بالعبد غيره فى المعانى الموجبة للقصاص فكان عبد نفسه مثلا لمثل نفسه و مثل المثل مثل فوجب كون عبد نفسه مثلا لنفسه فى المعانى الموجبة للقصاص ولو قتل الحر بعبد غيره لقتل بعبد نفسه بالبيان الذى ذكرناه ولا يقتل بعبد نفسه فوجب ان لا يقتل بعبد غيره فقد ذكرنا هذه الامثلة العشرة فى التفريع على هذه الآية ومن أخذت الفطانة بيده سهل عليه تفريع كثير من مسائل الشريعة على هذا الاصل والله أعلم ثم ههنا بحث وهو ان أباحنيفة رضى الله عنه قال فى قطع الايدى لاشك انه صدر كل القطع أو بعضه عن كلهم أو عن بعضهم الا انه لا يمكن استيفاء ذلك الحق الا باستيفاء الزيادة لان تفويت عشرة من الايدى أزيد من تفويت يد واحدة فوجب ان يبقى على أصل الحرمة فقال الشافعى رضى الله عنه لو كان تفويت عشرة من الايدى فى مقابلة يد واحدة حراما لكان تفويت عشرة من النفوس فى مقابلة نفس واحدة حراما لان تفويت النفس يشتمل على تفويت اليد فتفويت عشرة من النفوس فى مقابلة النفس الواحدة يوجب تفويت عشرة من الايدى فى مقابلة اليد الواحدة فلو كان تفويت عشرة من الايدى فى مقابلة اليد الواحدة حراما لكان تفويت عشرة من النفوس لاجل النفس الواحدة مشتملا على الحرام والمشتمل على الحرام حرام فكان يجب أن يحرم قتل النفوس العشرة فى مقابلة النفس الواحدة وحيث أجمعنا على انه لا يحرم علمنا ان ما ذكرتم من استيفاء الزيادة غير ممنوع منه شرعا والله اعلم (المسئلة الثالثة) قد بينا ان قوله وجزاء سيئة سيئة مثلها يقتضى وجوب رعاية المماثلة مطلقا فى كل الاحوال الا فيما خصه الدليل والفقهاء ادخلوا التخصيص فيه فى صور كثيرة فتارة بناء على نص آخر أخص منه وأخرى بناء على القياس ولا شك ان من ادعى التخصيص فعليه البيان والمكلف يكفيه أن يتمسك بهذا النص فى جميع المطالب قال مجاهد والسدى اذا قال له أخزاه الله فليقل له أخزاه الله أما اذا قذفه قذفا يوجب الحد فليس له ذلك بل الحد الذى أمر الله به ثم قال تعالى فمن عفى وأصلح بينه و بين خصمه بالعفو والاغضاء كما قال تعالى فاذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولى حميم فأجره على الله وهو وعد مبهم لا يقاس أمره فى التعظيم ثم قال تعالى انه لا يحب الظالمين وفيه قولان (الاول) ان المقصود منه التنبيه على ان المجنى عليه لا يجوز له استيفاء الزيادة من الظالم لان الظالم فيما وراء ظلمه معصوم والانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز التسويه والتعدى خصوصا فى حال الحرب والتهاب الحمية فربما صار المظلوم عند الاقدام على استيفاء القصاص ظالما وعن النبى صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجر فليقم قال فيقوم خلق فيقال لهم ما أجركم على الله فيقولون نحن الذين عفونا عمن ظلمنا فيقال لهم ادخلوا الجنة باذن الله تعالى (الثانى) انه تعالى لما حث على العفو عن الظالم أخبر انه مع ذلك لا يحبه تنبيها على انه اذا كان لا يحبه ومع ذلك فانه يندب الى عفوه فالمؤمن الذى هو حبيب الله بسبب ايمانه أولى أن يعفو عنه ثم قال تعالى ولمن

الجنس لقوله تعالى (وان تصبهم سيئة) أى بلاء من مرض وفقر وخوف (بما قدمت أيديهم فان الانسان كفور) بليغ الكفر ينسى النعمة رأسا و يذكر البلية ويستعظمها و لا يتأمل سببها بل يزعم أنها أصابته بغير استحقاق لها واسناد هذه الخصلة الى الجنس مع كونها من خواص المجرمين لغلبتهم فيما بين الافراد وتصدير الشرطية الاولى باذا مع اسناد الاذاقة الى نون العظمة التنبيه على ان ايصال النعمة محقق الوجود كثير الوقوع و أنه مقتضى الذات كما أن تصدير الثانية بان و اسناد الاصابة الى السيئة وتعليلها باعمالهم للايذان بندرة وقوعها وأنها بمعزل عن الانتظام فى سلك الارادة بالذات ووضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل على أن هذا الجنس موسوم بكفران النعم (لله ملك السموات

انتصر بعد ظلمه أي ظلم الظالم اياه وهذا من باب اضافة المصدر الى المفعول فأولئك يعني المنتصرين ما عليهم من سبيل كعقوبة ومؤاخذة لانهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار واحتج الشافعي رضي الله تعالى عنه بهذه الآية في بيان أن سراية القود مهدرة فقال الشرع اما أن يقال انه أذن له في القطع مطلقاً أو بشرط ان لا يحصل منه السريان وهذا الثاني باطل لان الاصل في القطع الحرمة فاذا كان تجويزه معلقاً بشرط عدم السريان وكان هذا الشرط مجهولا وجب أن يبقى ذلك القطع على أصل الحرمة لان الاصل فيه هو الحرمة والحل انما يحصل معلقا على شرط مجهول فوجب أن يبقى ذلك على أصل الحرمة وحيث لم يكن كذلك علمنا ان الشرع أذن له في القطع كيف كان سواء سرى أو لم يسر واذا كان كذلك وجب ان لا يكون ذلك السريان مضمونا لانه قد انتصر من بعد ظلمه فوجب أن لا يحصل لاحد عليه سبيل ثم قال انما السبيل على الذين يظلمون الناس أي يبدؤن بالظلم ويبغون في الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ثم قال تعالى ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور والمعنى ولمن صبر بأن لا يقتص وغفر وتجاوز فان ذلك الصبر والتجاوز من عزم الامور يعني ان صبره على ترك الانتصار لمن عزم الامور الجيدة وحذف الراجع لانه مفهوم كما حذف من قولهم السمن منوان بدرهم ويحكى ان رجلا سب رجلا في مجلس الحسن فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق ثم قام وتلا هذه الآية فقال الحسن عقلها والله وفهمها اذ ضيعها الجاهلون ثم قال تعالى ومن يضلل الله فماله من ولي من بعده أي فليس له من ناصر يتولاه من بعد خذلانه أي من بعد اضلال الله اياه وهذا صريح في جواز الاضلال من الله تعالى وفي ان الهداية ليست في مقدور احد سوى الله تعالى قال القاضي المراد ومن يضلل الله عن الجنة فماله من ولي بعده ينصره (والجواب) أن تقييد الاضلال بهذه الصورة المعينة خلاف الدليل وأيضا فالله تعالى ما أضله عن الجنة على قولكم بل هو أضل نفسه عن الجنة ثم قال تعالى وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل والمراد انهم يطلبون الرجوع الى الدنيا لعظم ما يشاهدون من العذاب ثم ذكر حالهم عند عرض النار عليهم فقال وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل أي حال كونهم خاشعين حقيرين مهانين بسبب ما لحقهم من الذل ثم قال ينظرون من طرف خفي أي يبتدئ نظرهم من تحريك لاجفانهم ضعيف خفي بمسارقة كما ترى الذي يتيقن أن يقتل فانه ينظر الى السيف كأنه لا يقدر على أن يفتح أجفانه عليه ويملأ عينيه منه كما يفعل في نظره الى المحبوبات فان قيل أليس انه تعالى قال في صفة الكفار انهم يحشرون عميا فكيف قال ههنا انهم ينظرون من طرف خفي قلنا لعلهم يكونون في الابتداء هكذا ثم يجعلون عميا أو لعل هذا في قوم وذلك في قوم آخرين ولما وصف الله تعالى حال الكفار حكى ما يقوله المؤمنون فيهم فقال وقال الذين آمنوا ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة قال صاحب الكشاف يوم القيامة اما ان يتعلق بخسروا أو يكون

والارض) فمن قضيته أن يملك التصرف فيهما وكل ما فيهما كيفما يشاء ومن جملته أن يقسم النعمة والبلية حسبما يريده (يخلق ما يشاء) مما تعلمه ومما لا تعلمه (يهب لمن يشاء اناثا) من الاولاد (ويهب لمن يشاء الذكور) منهم من غير أن يكون في ذلك مدخل لاحد (أو يزوجهم) أي يقرن بين الصنفين فيهبهما جميعا (ذكرانا واناثا) قالوا معنى يزوجهم أن تلد غلاما ثم جارية أو جارية ثم غلاما أو تلد ذكرا وانثى توأمين (ويجعل من يشاء عقيما) والمعنى يجعل أحوال العباد في حق الاولاد مختلفة على ما تقتضيه المشيئة فيهب لبعض اما صنفا واحدا من ذكر أو أنثى واما صنفين ويعقم آخرين ولعل تقديم الاناث لانها أكثر لتكثير النسل أو لان مساق الآية للدلالة على أن الواقع ما تتعلق به مشيئته تعالى لا ما تتعلق

قول المؤمنين واقعا في الدنيا واما أن يتعلق بقال أي يقولون يوم القيامة اذا رأوهم على
تلك الصفة ثم قال ألا ان الظالمين في عذاب مقيم أي دائم قال القاضي وهذا يدل على ان
الكافر والفاسق يدوم عذابهما (والجواب) ان لفظ الظالم المطلق في القرآن مخصوص
بالكافر قال تعالى والكافرون هم الظالمون والذي يؤكد هذا انه تعالى قال بعد هذه
الآية وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله والمعنى ان الاصنام التي كانوا
يعبدونها لاجل أن تشفع لهم عند الله تعالى ما أتوا بتلك الشفاعة ومعلوم أن هذا لا يليق
الا بالكفار ثم قال ومن يضلل الله فما له من سبيل وذلك يدل على ان المضل والهادي هو الله
تعالى على ما هو قولنا ومذهبنا والله أعلم * قوله تعالى (استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي
يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير فان أعرضوا فما أرسلناك
عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ وانا اذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وان
تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فان الانسان كفور لله ملك السموات والارض يخلق
ما يشاء يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل
من يشاء عقيما انه عليم قدير) اعلم انه تعالى لما أطنب في الوعد والوعيد ذكر بعده ما هو
المقصود فقال استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله وقوله من الله يجوز أن
يكون صلة لقوله لا مرد له يعني لا يرده الله بعدما حكم به و يجوز أن يكون صلة لقوله يأتي أي
من قبل أن يأتي من الله يوم لا يقدر أحد على رده واختلفوا في المراد بذلك اليوم فقيل هو
يوم ورود الموت وقيل يوم القيامة لانه وصف ذلك اليوم بانه لا مرد له وهذا الوصف
موجود في كلا اليومين و يحتمل أن يكون معنى قوله لا مرد له أنه لا يقبل التقديم
والتأخير أو ان يكون معناه أن لا مرد فيه الى حال التكليف حتى يحصل فيه التلافي ثم
قال تعالى في وصف ذلك اليوم ما لكم من ملجأ ينفع في التخلص من العذاب وما لكم من
نكير ممن ينكر ذلك حتى يتغير حالكم بسبب ذلك المنكر و يجوز أن يكون المراد من النكير
الانكار أي لا تقدرون أن تنكروا شيئا مما اقترفتموه من الاعمال فان أعرضوا أي هؤلاء
الذين أمرتهم بالاستجابة ان لم يقبلوا هذا الامر فما أرسلناك عليهم حفيظا بان تحفظ أعمالهم
وتحصيها ان عليك الا البلاغ وذلك تسلية من الله تعالى ثم انه تعالى بين السبب في اصرارهم
على مذاهبهم الباطلة وذلك انهم وجدوا في الدنيا سعادة وكرامة والفوز بمطالب الدنيا يفيد
الغرور والفجور والتكبر وعدم الانقياد للحق فقال وانا اذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح
بها ونعم الله في الدنيا وان كانت عظيمة الا انها بالنسبة الى السعادات المعدة في الآخرة
كالقطرة بالنسبة الى البحر فلذلك سماها ذوقا فبين تعالى أن الانسان اذا فاز بهذا القدر الحقير
الذي حصل في الدنيا فانه يفرح بها و يعظم غروره بسببها ويقع في العجب والكبر ويظن أنه
فاز بكل المنى ووصل الى أقاصي السعادات وهذه طريقة من يضعف اعتقاده في سعادات

به مشيئة الانسان والاناث
كذلك أو لان الكلام
في البلاء والعرب
تعدهن اعظم البلايا
أو لتطييب قلوب آبائهن
أو للمحافظة على
الفواصل ولذلك عرف
الذكور أو لجبر التأخير
وتغيير العاطف في الثالث
لانه قسيم المشترك بين
القسمين ولا حاجة اليه
في الرابع لافصاحه بانه
قسيم المشترك بين الاقسام
المتقدمة وقيل المراد بيان
أحوال الانبياء عليهم
السلام حيث وهب
لشعيب ولوط اناثا
ولابراهيم ذكورا وللنبي
صلى الله عليه وسلم ذكورا
واناثا وجعل يحيى وعيسى
عقيمين (انه عليم قدير)
مبالغ في العلم والقدرة
فيفعل ما فيه حكمة
ومصلحة (وما كان لبشر)
أي وما صح لفرد من
أفراد البشر (أن يكلمه
الله) بوجه من الوجوه
(الا وحيا) أي الا بان
يوحي اليه و يلهمه
ويقذف في قلبه كما أوحى
الى أم موسى والى

الآخرة وهذه الطريقة مخالفة لطريقة المؤمن الذى لايعد نعم الدنيا الا كالوصلة الى نعم الآخرة ثم بين أنه متى أصابتهم سيئة أى شئ يسوءهم فى الحال كالمرض والفقر وغيرهما فانه يظهر منه الكفر وهو معنى قوله فان الانسان كفور والكفور الذى يكون مبالغا فى الكفران ولم يقل فانه كفور ليبين ان طبيعة الانسان تقتضى هذه الحالة الا اذا أدبها الرجل بالآداب التى أرشد الله اليها ولما ذكر الله اذاقة الانسان الرحمة واصابته بضدها اتبع ذلك بقوله لله ملك السموات والارض والمقصود منه ان لايغتر الانسان بما ملكه من المال والجاه بل اذا علم ان الكل ملك الله وملكه وانه انما حصل ذلك القدر تحت يده لان الله أنعم عليه به فحينئذ يصير ذلك حاملا له على مزيد الطاعة والخدمة وأما اذا اعتقد أن تلك النعم انما تحصل بسبب عقله وجده واجتهاده بقى مغرورا بنفسه معرضا عن طاعة الله تعالى ثم ذكر من أقسام تصرف الله فى العالم انه يخص البعض بالاولاد الاناث والبعض بالذكور والبعض بهما والبعض بان يجعله محروما من الكل وهو المراد من قوله ويجعل من يشاء عقيما واعلم ان أهل الطبائع يقولون السبب فى حدوث الولد صلاح حال النطفة والرحم وسبب الذكورة استيلاء الحرارة وسبب الانوثة استيلاء البرودة وقد ذكرنا هذا الفصل بالاستقصاء التام فى سورة النحل وابطلناه بالدلائل اليقينية وظهر ان ذلك من الله تعالى لا انه من الطبائع والانجم والافلاك وفى الآية سؤالات (السؤال الاول) انه قدم الاناث فى الذكر على الذكور فقال يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور ثم فى الآية الثانية قدم الذكور على الاناث فقال أو يزوجهم ذكرانا واناثا فما السبب فى هذا التقديم والتأخير (السؤال الثانى) انه ذكر الاناث على سبيل التنكير فقال يهب لمن يشاء اناثا وذكر الذكور بلفظ التعريف فقال ويهب لمن يشاء الذكور فما السبب فى هذا الفرق (السؤال الثالث) لم قال فى اعطاء الاناث وحدهن وفى اعطاء الذكور وحدهم بلفظ الهبة فقال يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور وقال فى اعطاء الصنفين معا أو يزوجهم ذكرانا واناثا (السؤال الرابع) لما كان حصول الولد هبة من الله فيكفى فى عدم حصوله ان لا يهب فأى حاجة فى عدم حصوله الى أن يقول ويجعل من يشاء عقيما (السؤال الخامس) هل المراد من هذا الحكم جمع معينون أو المراد الحكم على الانسان المطلق (والجواب) عن السؤال الاول من وجوه (الاول) أن الكريم يسعى فى أن يقع الختم على الخير والراحة والسرور والبهجة فاذا وهب الولد الانثى أولا ثم أعطاه الذكر بعده فكأنه نقله من الغم الى الفرح وهذا غاية الكرم أما اذا أعطى الولد أولا ثم أعطى الانثى ثانيا فكأنه نقله من الفرح الى الغم فذكر تعالى هبة الولد الانثى أولا وثانيا هبة الولد الذكر حتى يكون قد نقله من الغم الى الفرح فيكون ذلك أليق بالكرم (الوجه الثانى) أنه اذا أعطى الولد الانثى أولا علم أنه لا اعتراض له على الله تعالى فيرضى بذلك فاذا أعطاه الولد الذكر بعد ذلك علم ان هذه الزيادة فضل من الله تعالى واحسان اليه فيزداد شكره وطاعته ويعلم أن ذلك انما حصل

ابراهيم عليهما السلام فى ذبح ولده وقد روى عن مجاهد أوحى الله الزبور الى داود عليه السلام فى صدره أو بأن يسمعه كلامه الذى يخلقه فى بعض الاجرام من غير أن يبصر السامع من يكلمه وهو المراد بقوله تعالى (أو من وراء حجاب) فانه تمثيل له بحال الملك المحتجب الذى يكلم بعض خواصه من وراء الحجاب يسمع صوته ولا يرى شخصه وذلك كما كلم موسى وكما يكلم الملائكة عليهم السلام أو بأن يكلمه بواسطة الملك وذلك قوله تعالى (أو يرسل رسولا) أى ملكا (فيوحى) ذلك الرسول الى المرسل اليه الذى هو الرسول البشرى (باذنه) أى بأمره تعالى وتيسيره (ما يشاء) أن يوحيه اليه وهذا هو الذى يجرى بينه تعالى وبين الانبياء عليهم الصلاة والسلام فى عامة الاوقات من الكلام وقيل قوله تعالى وحيا

بعض الفضل والكرم (والوجه الثالث) قال بعض المذكر بن الانثى ضعيفة ناقصة عاجزة فقدم ذكرها تنبيها على أنه كلما كان العجز والحاجة أتم كانت عناية الله به أكثر (الوجه الرابع) كأنه يقال أيتها المرأة الضعيفة العاجزة ان أباك وأمك يكرهان وجودك فان كانا قد كرها وجودك فانا قدمتك في الذكر لتعلمي أن المحسن المكرم هو الله تعالى فاذا علمت المرأة ذلك زادت في الطاعة والخدمة والبعد عن موجبات الطعن والذم فهذه المعانى هي التي لاجلها وقع ذكر الاناث مقدما على ذكر الذكور وانما قدم ذكر الذكور بعد ذلك على ذكر الاناث لان الذكر أكمل وأفضل من الانثى والافضل الاكمل مقدم على الاخس الارذل والحاصل ان النظر الى كونه ذكرا وأنثى يقتضي تقديم ذكر الذكر على ذكر الانثى أما العوارض الخارجية التي ذكرناها فهذا أوجبت تقديم ذكر الانثى على ذكر الذكر فلما حصل المقتضى التقديم والتأخير في البابين لاجرم قدم هذا مرة وقدم ذلك مرة أخرى والله أعلم (وأما السؤال الثاني) وهو قوله لم عبر عن الاناث بلفظ التنكير وعن الذكور بلفظ التعريف فجوابه أن المقصود منه التنبيه على كون الذكر أفضل من الانثى (وأما السؤال الثالث) وهو قوله لم قال تعالى في اعطاء الصنفين أو يزوجهم ذكرانا واناثا فجوابه ان كل شيئين يقرن أحدهما بالآخر فهما زوجان وكل واحد منهما يقال له زوج والكناية في يزوجهم عائدة على الاناث والذكور التي في الآية الاولى والمعنى يقرن الاناث والذكور فيجعلهم أزواجا (وأما السؤال الرابع) فجوابه ان العقيم هو الذي لا يولد له يقال رجل عقيم لا يلد وامرأة عقيم لا تلد وأصل العقم القطع ومنه قيل الملك عقيم لانه يقطع فيه الارحام بالقتل والعقوق (وأما السؤال الخامس) فجوابه قال ابن عباس يهب لمن يشاء اناثا يريد لوطا وشعيبا عليهما السلام لم يكن لهما الا البنات ويهب لمن يشاء الذكور يريد ابراهيم عليه السلام لم يكن له الا الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا يريد محمدا صلى الله عليه وسلم كان له من البنين أربعة القاسم والطاهر وعبد الله وابراهيم ومن البنات أربعة زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ويجعل من يشاء عقيما يريد عيسى ويحيى وقال الاكثرون من المفسرين هذا الحكم عام في حق كل الناس لان المقصود بيان نفاذ قدرة الله في تكوين الاشياء كيف شاء وأراد فلم يكن للتخصيص معنى والله أعلم ثم ختم الآية بقوله انه عليم قدير قال ابن عباس عليم بما خلق قدير على ما يشاء ان يخلقه والله أعلم

❊ قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء انه علي حكيم وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما في السموات وما في الارض ألا الى الله تصير الامور) اعلم انه تعالى لما بين كمال قدرته وعلمه وحكمته اتبعه ببيان انه كيف يخص أنبياءه بكلامه وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) وما كان لبشر وما صح لاحد من البشر

وقوله تعالى أو يرسل مصدران واقعان موقع الحال وقوله تعالى أو من وراء حجاب ظرف واقع موقعها والتقدير وما صح أن يكلم الا موحيا أو مسمعا من وراء حجاب أو مرسلا وقرئ أو يرسل بالرفع على اضمار مبتدا وروى أن اليهود قالت للنبي عليه الصلاة والسلام الا تكلم الله وتنظر اليه ان كنت نبيا كما كلمه موسى ونظر اليه فانا لن نؤمن حتى تفعل ذلك فقال عليه السلام لم ينظر موسى عليه السلام الى الله تعالى فنزلت وعن عائشة رضى الله عنها من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ثم قالت رضى الله عنها أولم تسمعوا ربكم يقول فتلت هذه الآية (انه علي) متعال عن صفات المخلوقين لا يتأتى جريان المفاوضة بينه تعالى وبينهم الا بأحد الوجوه المذكورة وسوى والى يجرى أفعاله على سنن

أن يكلمه الله الا على أحد ثلاثة أوجه اما على الوحى وهو الالهام والقذف فى القلب أو المنام كما أوحى الله الى أم موسى وابراهيم عليه السلام فى ذبح ولده وعن مجاهد أوحى الله تعالى الزبور الى داود عليه السلام فى صدره واما على أن يسمعه كلامه من غير واسطة مبلغ وهذا ايضا وحى بدليل أنه تعالى أسمع موسى كلامه من غير واسطة مع أنه سماه وحيا قال تعالى فاستمع لما يوحى واما على أن يرسل اليه رسولا من الملائكة فيبلغ ذلك الملك ذلك الوحى الى الرسول البشرى فطريق الحصر أن يقال وصول الوحى من الله الى البشر اما أن يكون من غير واسطة مبلغ أو يكون بواسطة مبلغ واذا كان الاول وهو أن يصل اليه وحى الله لا بواسطة شخص آخر فههنا اما أن يقال انه لم يسمع عين كلام الله أو يسمعه أما الاول وهو أنه وصل اليه الوحى لا بواسطة شخص آخر وما سمع عين كلام الله فهو المراد بقوله الا وحيا وأما الثانى وهو أنه وصل اليه الوحى لا بواسطة شخص آخر ولكنه سمع عين كلام الله فهو المراد من قوله أو من وراء حجاب وأما الثالث وهو أنه وصل اليه الوحى بواسطة شخص آخر فهو المراد بقوله أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء واعلم ان كل واحد من هذه الاقسام الثلاثة وحى الا انه تعالى خصص القسم الاول باسم الوحى لان ما يقع فى القلب على سبيل الالهام فهو يقع دفعة فكان تخصيص لفظ الوحى به أولى فهذا هو الكلام فى تمييز هذه الاقسام بعضها عن بعض (المسئلة الثانية) القائلون بأن الله فى مكان احتجوا بقوله أو من وراء حجاب وذلك لان التقدير وما كان لبشر أن يكلمه الله الا على أحد ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون الله من وراء حجاب وانما يصح ذلك لو كان مختصا بمكان معين وجهة معينة (والجواب) ان ظاهر اللفظ وان أوهم ما ذكرتم الا انه دلت الدلائل العقلية والنقلية على انه تعالى يمتنع حصوله فى المكان والجهة فوجب حمل هذا اللفظ على التأويل والمعنى ان الرجل اذا سمع كلاما مع انه لا يرى ذلك المتكلم كان ذلك شبيها بما اذا تكلم من وراء حجاب والمشابهة سبب لجواز المجاز (المسئلة الثالثة) قالت المعتزلة هذه الآية تدل على انه تعالى لا يرى وذلك لانه تعالى حصر أقسام وحيه فى هذه الثلاثة ولو صحت رؤية الله لصح من الله تعالى أنه يتكلم مع العبد حال ما يراه العبد فحينئذ يكون ذلك قسما رابعا زائدا على هذه الاقسام الثلاثة والله تعالى نفى القسم الرابع بقوله وما كان لبشر أن يكلمه الله الا على أحد هذه الاوجه الثلاثة (والجواب) نزيد فى اللفظ قيدا فيكون التقدير وما كان لبشر أن يكلمه الله فى الدنيا الا على أحد هذه الاقسام الثلاثة وحينئذ لا يلزم ما ذكروه وزيادة هذا القيد وان كانت على خلاف الظاهر لكنه يجب المصير اليها للتوفيق بين هذه الآيات وبين الآيات الدالة على حصول الرؤية فى يوم القيامة والله أعلم (المسئلة الرابعة) أجمعت الامة على ان الله تعالى متكلم ومن سوى الاشعرى واتباعه أطبقوا على ان كلام الله هو هذه الحروف المسموعة والاصوات المؤلفة وأما الاشعرى واتباعه فانهم زعموا ان كلام الله تعالى صفة قديمة يعبر عنها بهذه الحروف

الحكمة فيكلم تارة بواسطة وأخرى بدونها واما الهاما واما خطابا (وكذلك) أى ومثل ذلك الايحاء البديع (أوحينا اليك روحا من أمرنا) هو القرآن الذى هو للقلوب بمنزلة الروح للابدان حيث يحييها حياة أبدية وقيل هو جبريل عليه السلام ومعنى ايحائه اليه عليهما السلام ارساله اليه بالوحى (ما كنت تدرى) قبل الوحى (ما الكتاب) أى أى شئ هو (ولا الايمان) أى الايمان بتفاصيل ما فى تضاعيف الكتاب من الامور التى لا تهتدى اليها العقول لا الايمان بما يستقل به العقل والنظر فان درايته عليه الصلاة والسلام له مما لاريب فيه قطعا (ولكن جعلناه) أى الروح الذى أوحيناه اليك (نورا نهدى به من نشاء) هدايته (من عبادنا) وهو الذى يصرف اختياره نحو الاهتداء به وقوله تعالى (وانك لتهدى) تقرير

والاصوات (أما الفريق الاول) وهم الذين قالوا كلام الله تعالى هو هذه الحروف والكلمات فهم فريقان (أحدهما) الحنابلة الذين قالوا بقدم هذه الحروف وهؤلاء أخس من أن يذكروا في زمرة العقلاء واتفق اني قلت يوما لبعضهم لو تكلم الله بهذه الحروف اما أن يتكلم بها دفعة واحدة أو على التعاقب والتوالي والاول باطل لان التكلم بجملة هذه الحروف دفعة واحدة لا يفيد هذا النظم المركب على هذا التعاقب والتوالي فوجب أن لا يكون هذا النظم المركب من هذه الحروف المتوالية كلام الله تعالى والثاني باطل لانه تعالى لو تكلم بها على التوالي والتعاقب كانت محدثة ولما سمع ذلك الرجل هذا الكلام قال الواجب علينا ان نقر ونمر يعني نقر بأن القرآن قديم ونمر على هذا الكلام على وفق ما سمعناه فتعجبت من سلامة قلب ذلك القائل وأما العقلاء من الناس فقد أطبقوا على ان هذه الحروف والاصوات كائنة بعد ان لم تكن حاصلة بعد ان كانت معدومة ثم اختلفت عباراتهم في انها هل هي مخلوقة أو لا يقال ذلك بل يقال انها حادثة أو يعبر عنها بعبارة أخرى واختلفوا أيضا في ان هذه الحروف هل هي قائمة بذات الله تعالى أو يخلقها في جسم آخر فالاول هو قول الكرامية والثاني قول المعتزلة وأما الاشعرية الذين زعموا أن كلام الله صفة قديمة تدل عليها هذه الالفاظ والعبارات فقد اتفقوا على ان قوله أو من وراء حجاب هو ان الملك والرسول يسمع ذلك الكلام المنزه عن الحروف والصوت من وراء حجاب قالوا وكما لا يبعد ان ترى ذات الله مع انه ليس بجسم ولا في حيز فأي بعد في ان يسمع كلام الله مع أنه لا يكون حرفا ولا صوتا وزعم أبو منصور الماتريدي السمرقندي أن تلك الصفة القائمة يمتنع كونها مسموعة وانما المسموع حروف وأصوات يخلقها الله تعالى في الشجرة وهذا القول قريب من قول المعتزلة والله أعلم (المسئلة الخامسة) قال القاضي هذه الآية تدل على حدوث كلام الله تعالى من وجوه (الاول) ان قوله تعالى أن يكلمه الله يدل عليه لان كلمة ان مع المضارع تفيد الاستقبال (الثاني) انه وصف الكلام بانه وحي لان لفظ الوحي يفيد أنه وقع على أسرع الوجوه (الثالث) ان قوله أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء يقتضي أن يكون الكلام الذي يبلغه الملك الى الرسول البشري مثل الكلام الذي سمعه من الله والذي يبلغه الى الرسول البشري حادث فاذا كان الكلام الذي سمعه من الله مماثلا لهذا الذي بلغه الى الرسول البشري وهذا الذي بلغه الى الرسول البشري حادث ومثل الحادث حادث وجب أن يقال ان الكلام الذي سمعه من الله حادث (الرابع) ان قوله أو يرسل رسولا فيوحي يقتضي كون الوحي حاصلا بعد الارسال وما كان حصوله متأخرا عن حصول غيره كان حادثا (والجواب) انا نصرف جملة هذه الوجوه التي ذكرتموها الى الحروف والاصوات ونعترف بانها حادثة كائنة بعد ان لم تكن وبديهة العقل شاهدة بان الامر كذلك فاي حاجة الى اثبات هذا المطلوب الذي علمت صحته ببديهة العقل وبظواهر القرآن والله أعلم (المسئلة السادسة) ثبت ان الوحي من الله تعالى

لهدايته تعالى وبيان لكيفيتها ومفعول اتهدي محذوف ثقة بغاية الظهور أي وانك اتهدي بذلك النور من تشاء هدايته (الى صراط مستقيم) هو الاسلام وسائر الشرائع والاحكام وقرئ لتهدى أي ليهديك الله وقرئ لتدعو (صراط الله) بدل من الاول واضافته الى الاسم الجليل ثم وصفه بقوله تعالى (الذي له ما في السموات وما في الارض) لتفخيم شأنه وتقرير استقامته وتأكيد وجوب سلوكه فان كون جميع ما فيهما من الموجودات له تعالى خلقا وملكا وتصرفا مما يوجب ذلك أتم ايجاب (ألا الى الله تصير الامور) أي أمورهما فيها قاطبة لا الى غيره ففيه من الوعد للمهتدين الى الصراط المستقيم والوعيد للضالين عنه ما لا يخفى * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة حم عسق كان ممن تصلي عليه الملائكة ويستغفرون ويترحمون له

له المذكور يجري أفعاله

اما أن لا يكون بواسطة شخص آخر واما أن يكون بواسطة شخص آخر ويمتنع أن يكون كل وحي حاصلا بواسطة شخص آخر والا لزم اما التسلسل واما الدور وهما محالان فلا بد من الاعتراف بحصول وحي يحصل لا بواسطة شخص آخر ثم ههنا أبحاث (البحث الاول) ان الشخص الاول الذي سمع وحي الله لا بواسطة شخص آخر كيف يعرف ان الكلام الذي سمعه كلام الله فان قلنا انه سمع تلك الصفة القديمة المنزهة عن كونها حرفا وصوتا لم يبعد انه اذا سمعها علم بالضرورة كونها كلام الله تعالى ولم يبعد أن يقال انه يحتاج بعد ذلك الى دليل زائد أما ان قلنا ان المسموع هو الحرف والصوت امتنع أن يقطع بكونه كلام الله تعالى الا اذا ظهرت دلالة على أن ذلك المسموع هو كلام الله تعالى (البحث الثاني) ان الرسول اذا سمعه من الملك كيف يعرف ان ذلك المبلغ ملك معصوم لا شيطان مضل والحق انه لا يمكنه القطع بذلك الا بناء على معجزة تدل على ان ذلك المبلغ معصوم لا شيطان خبيث وعلى هذا التقدير فالوحي من الله تعالى لا يتم الا بثلاث مراتب في ظهور المعجزات (المرتبة الاولى) ان الملك اذا سمع ذلك الكلام من الله تعالى فلا بد له من معجزة تدل على أن ذلك الكلام كلام الله تعالى (والمرتبة الثانية) ان ذلك الملك اذا وصل الى الرسول لا بد له أيضا من معجزة (والمرتبة الثالثة) ان ذلك الرسول اذا أوصله الى الامة فلا بد له أيضا من معجزة فثبت ان التكليف لا يتوجه على الخلق الا بعد وقوع ثلاث مراتب في المعجزات (البحث الثالث) انه لا شك ان ملكا من الملائكة قد سمع الوحي من الله تعالى ابتداء فذلك الملك هو جبريل ويقال لعل جبريل سمعه من ملك آخر فالكل محتمل ولو بألف واسطة ولم يوجد ما يدل على القطع بواحد من هذه الوجوه (البحث الرابع) هل في البشر من سمع وحي الله تعالى من غير واسطة المشهور أن موسى عليه السلام سمع كلام الله من غير واسطة بدليل قوله تعالى فاستمع لما يوحى وقيل ان محمدا صلى الله عليه وسلم سمعه أيضا لقوله تعالى فأوحى الى عبده ما أوحى (البحث الخامس) ان الملائكة يقدرون على أن يظهروا أنفسهم على اشكال مختلفة فبتقدير أن يراه الرسول صلى الله عليه وسلم في كل مرة وجب أن يحتاج الى المعجزة ليعرف ان هذا الذي رآه في هذه المرة عين ما رآه في المرة الاولى وان كان لا يرى شخصه كانت الحاجة الى المعجز أقوى لاحتمال انه حصل الاشتباه في الصوت الا ان الاشكال في أن الحاجة الى اظهار المعجزة في كل مرة لم يقل به أحد (المسئلة السابعة) دلت المناظرات المذكورة في القرآن بين الله تعالى وبين ابليس على انه تعالى كان يتكلم مع ابليس من غير واسطة فذلك هل يسمى وحيا من الله تعالى الى ابليس أم لا الاظهر منعه ولا بد في هذا الموضع من بحث غامض كامل (المسئلة الثامنة) قرأ نافع أو يرسل رسولا برفع اللام فيوحي بسكون الياء ومحله رفع على تقدير او هو يرسل فيوحي والباقون بالنصب على تأويل المصدر كانه قيل ما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو أسماعا لكلامه من وراء حجاب أو يرسل لكن فيه اشكال لان قوله وحيا أو اسماعا اسم وقوله أو يرسل فعل

(سورة الزخرف مكية وقيل الا قوله واسأل من أرسلنا وآيها تسع وثمانون)

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم) الكلام فيه كالذي مر في فاتحة سورة يس خلا أن الظاهر على تقدير اسميته كونه اسما للقرآن لا للسورة كما قيل فان ذلك مخل بجزالة النظم الكريم (والكتاب) بالجر على أنه مقسم به اما ابتداء او عطفا على حم على تقدير كونه مجرورا باضمار باء القسم على أن مدار العطف المغايرة في العنوان ومناط تكرير القسم المبالغة في تأكيد مضمون الجملة القسمية (المبين) أي المبين لمن أنزل عليهم لكونه بلغتهم وعلى أساليبهم أو المبين لطريق الهدى من طريق الضلالة الموضح لكل ما يحتاج اليه في أبواب الديانة (انا جعلناه قرآنا عربيا) جواب للقسم لكن لا على أن مرجع التأكيد جعله كذلك كما قيل بل ما هو غايته التي يعرب عنها قوله تعالى (لعلكم تعقلون) فانها المحتاجة الى

وعطف الفعل على الاسم قبيح فأجيب عنه بان التقدير وماكان لبشر أن يكلمه الا أن يوحي اليه وحيا أو يسمع اسماعا من وراء حجاب أو يرسل رسولا (المسئلة التاسعة) الصحيح عند أهل الحق ان عندما يبلغ الملك الوحي الى الرسول لا يقدر الشيطان على القاء الباطل في أثناء ذلك الوحي وقال بعضهم يجوز ذلك لقوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته وقالوا الشيطان ألقى في أثناء سورة النجم تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى وكان صديقنا الملك سام بن محمد رحمه الله وكان أفضل من لقيته من أرباب السلطنة يقول هذا الكلام بعد الدلائل القوية القاهرة باطل من وجهين آخرين (الاول) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من رآني في المنام فقد رآني فان الشيطان لا يتمثل بصورتي فاذا لم يقدر الشيطان على أن يتمثل في المنام بصورة الرسول فكيف قدر على التشبه بجبريل حال اشتغال تبليغ وحي الله تعالى (والثاني) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما سلك عمر فجا الا وسلك الشيطان فجا آخر فاذا لم يقدر الشيطان أن يحضر مع عمر في فج واحد فكيف يقدر على أن يحضر مع جبريل في موقف تبليغ وحي الله تعالى (المسئلة العاشرة) قوله تعالى فيوحي باذنه ما يشاء يعني فيوحي ذلك الملك باذن الله ما يشاء الله وهذا يقتضي ان الحسن لا يحسن لوجه عائد عليه وان القبيح لا يقبح لوجه عائد اليه بل لله أن يأمر بما يشاء من غير تخصيص وان ينهى عما يشاء من غير تخصيص اذ لو لم يكن الامر كذلك لما صح قوله ما يشاء والله أعلم ثم قال تعالى في آخر الآية انه علي حكيم يعني أنه علي عن صفات المخلوقين حكيم يجري أفعاله على موجب الحكمة فيتكلم تارة بغير واسطة على سبيل الالهام وأخرى باسماع الكلام وثالثا بتوسيط الملائكة الكرام ولما بين الله تعالى كيفية أقسام الوحي الى الانبياء عليهم السلام قال وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا والمراد به القرآن وسماه روحا لانه يفيد الحياة من موت الجهل أو الكفر ثم قال تعالى ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان واختلف العلماء في هذه الآية مع الاجماع على انه لا يجوز أن يقال الرسل كانوا قبل الوحي على الكفر وذكروا في الجواب وجوها (الاول) ما كنت تدري ما الكتاب أي القرآن ولا الايمان اي الصلاة لقوله تعالى وما كان الله ليضيع ايمانكم أي صلاتكم (الثاني) أن يحمل هذا على حذف المضاف اي ما كنت تدري ما الكتاب ومن أهل الايمان يعني من الذي يؤمن ومن الذي لا يؤمن (الثالث) ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان حين كنت طفلا في المهد (الرابع) الايمان عبارة عن الاقرار بجميع ما كلف الله تعالى به وانه قبل النبوة ما كان عارفا بجميع تكاليف الله تعالى بل انه كان عارفا بالله تعالى وذلك لا ينافي ما ذكرناه (الخامس) صفات الله تعالى على قسمين منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقل ومنها ما لا يمكن معرفته الا بالدلائل السمعية فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة ثم قال تعالى ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا واختلفوا في الضمير

التحقيق والتأكيد لكونها منبئة عن الاعتناء بأمرهم واتمام النعمة عليهم وازاحة أعذارهم أي جعلنا ذلك الكتاب قرآنا عربيا لكي تفهموه وتحيطوا بما فيه من النظم الرائق والمعنى الفائق وتقفوا على ما يتضمنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر وتعرفوا حق النعمة في ذلك وتنقطع أعذاركم بالكلية (وانه في أم الكتاب) أي في اللوح المحفوظ فانه أصل الكتب السماوية وقرئ ام الكتاب بالكسر (لدينا) أي عندنا (لعلي) رفيع القدر بين الكتب شريف (حكيم) ذو حكمة بالغة أو محكم وهما خبران لان وما بينهما بيان لمحل الحكم كأنه قيل بعد بيان اتصافه بما ذكر من الوصفين الجليلين هذا في أم الكتاب ولدينا والجملة اما عطف على الجملة المقسم عليها داخلة في حكمها في الافسام بالقرآن على علو قدره عنده تعالى براعة بديعة وايذان بأنه من علو الشأن بحيث

في قوله ولكن جعلناه منهم من قال انه راجع الى القرآن دون الايمان لانه هو الذي يعرف به الاحكام فلاجرم شبه بالنور الذي يهتدي به ومنهم من قال انه راجع اليهما معا وحسن ذلك لان معناهما واحد كقوله تعالى واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها ثم قال نهدي به من نشاء من عبادنا وهذا يدل على انه تعالى بعد ان جعل القرآن في نفسه هدى كما قال هدى للمتقين فانه قد يهدي به البعض دون البعض وهذه الهداية ليست عبارة عن الدعوة وايضاح الادلة لانه تعالى قال في صفة محمد صلى الله عليه وسلم وانك لتهدي الى صراط مستقيم وهو يفيد العموم بالنسبة الى الكل وقوله نهدي به من نشاء من عبادنا يفيد الخصوص فثبت أن الهداية بمعنى الدعوة عامة والهداية في قوله نهدي به من نشاء من عبادنا خاصة والهداية الخاصة غير الهداية العامة فوجب أن يكون المراد من قوله نهدي به من نشاء من عبادنا أمرا مغايرا لاظهار الدلائل ولازالة الاعذار ولا يجوز أيضا أن يكون عبارة عن الهداية الى طريق الجنة لانه تعالى قال ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا أي جعلنا القرآن نورا نهدي به من نشاء وهذا لا يليق الا بالهداية التي تحصل في الدنيا وأيضا فالهداية الى الجنة عندكم في حق البعض واجب وفي حق الآخرين محظور وعلى التقديرين فلا يبقى لقوله من نشاء من عبادنا فائدة فثبت أن المراد انه تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء ولا اعتراض عليه فيه ثم قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم وانك لتهدي الى صراط مستقيم فبين تعالى انه كما ان القرآن يهدي فكذلك الرسول يهدي وبين انه يهدي الى صراط مستقيم وبين ان ذلك الصراط هو صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض نبه بذلك على ان الذي تجوز عبادته هو الذي يملك السموات والارض والغرض منه ابطال قول من يعبد غير الله ثم قال ألا الى الله تصير الامور وذلك كالوعيد والزجر فبين ان أمر من لا يقبل هذه التكاليف يرجع الى الله تعالى أي الى حيث لا حاكم سواه فيجازي كلا منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب (قال رضي الله عنه) تم تفسير هذه السورة آخر يوم الجمعة الثامن من شهر ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة * يا مدبر الامور ويا مدهر الدهور ويا معطي كل خير وسرور ويا دافع البلايا والشرور أوصلنا الى منازل النور في ظلمات القبور بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين

﴿ سورة الزخرف وهي تسع وثمانون آية مكية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

(حم والكتاب المبين انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم أفنضرب عنكم الذكر صفحا ان كنتم قوما مسرفين وكم أرسلنا من نبي في الاولين وما يأتيهم من نبي الا كانوا به يستهزؤن فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الاولين)

اعلم ان قوله حم والكتاب المبين يحتمل وجهين (الاول) أن يكون التقدير هذه حم والكتاب

لايحتاج في بيانه الى الاستشهاد عليه بالاقسام بغيره بل هو بذاته كاف في الشهادة على ذلك من حيث الاقسام به كما أنه كاف فيها من حيث اعجازه ورمز الى أنه لا يخطر بالبال عند ذكره شئ آخر أولى منه بالاقسام به واما مستأنفة مقررة لعلو شانه الذي أنبأ عنه الاقسام به على منهاج الاعتراض في قوله تعالى وانه لقسم لو تعلمون عظيم وبعد ما بين علو شأن القرآن العظيم وحقق أن انزاله على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به ويعملوا بموجبه عقب ذلك بانكار أن يكون الامر بخلافه فقيل (أفنضرب عنكم الذكر) أي ننحيه ونبعده عنكم مجاز من قولهم ضرب الغرائب عن الحوض وفيه اشعار باقتضاء الحكمة توجه الذكر اليهم وملازمته لهم كأنه يتهافت عليهم والفاء للعطف على محذوف يقتضيه المقام أي أنهملكم فننحي الذكر عنكم (صفحا) أي إعراضا عنكم على أنه مفعول له للمذكور أو مصدر

صفحا أو بمعنى الجانب فينتصب على الظرفية أي أفننحيه عنكم جانبا (أن كنتم قوما مسرفين) أي لأن كنتم منهمكين في الاسراف مصرين عليه على معنى أن حالكم وان اقتضى تخليتكم وشأنكم حتى تموتوا على الكفر والضلالة وتبقوا في العذاب الخالد لكنا لسعة رحمتنا لا نفعل ذلك بل نهديكم الى الحق بارسال الرسول الامين وانزال الكتاب المبين وقرئ ان بالكسر على أن الجملة شرطية مخرجة للمحقق مخرج المشكوك لاستجهالهم والجزاء محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه وقوله تعالى (وكم أرسلنا من نبي في الاولين وما يأتيهم من نبي الا كانوا به يستهزؤن) تقرير لما قبله ببيان ان اسراف الامم السالفة لم يمنعه تعالى من ارسال الانبياء اليهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم

المبين فيكون القسم واقعا على أن هذه السورة هي سورة حم ويكون قوله انا جعلناه قرآنا عربيا ابتداء لكلام آخر (والثاني) أن يكون التقدير هذه حم ثم قال والكتاب المبين انا جعلناه قرآنا عربيا فيكون المقسم عليه هو قوله انا جعلناه قرآنا عربيا وفي المراد بالكتاب قولان (أحدهما) ان المراد به القرآن وعلى هذا التقدير فقد أقسم بالقرآن انه جعله عربيا (الثاني) ان المراد بالكتاب الكتابة والخط أقسم بالكتابة لكثرة ما فيها من المنافع فان العلوم انما تكاملت بسبب الخط فان المتقدم اذا استنبط علما واثبته في كتاب وجاء المتأخر ووقف عليه امكنه أن يزيد في استنباط الفوائد فبهذا الطريق تكاثرت الفوائد وانتهت الى الغايات العظيمة وفي وصف الكتاب بكونه مبينا وجوه (الاول) أنه المبين للذين أنزل اليهم لانه بلغتهم ولسانهم (والثاني) المبين هو الذي أبان طريق الهدى من طريق الضلالة وأبان كل باب عما سواه وجعلها مفصلة ملخصة واعلم ان وصفه بكونه مبينا مجاز لان المبين هو الله تعالى وسمي القرآن بذلك توسعا من حيث انه حصل البيان عنده أما قوله انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه (الاول) ان الآية تدل على ان القرآن مجعول والمجعول هو المصنوع المخلوق فان قالوا لم لا يجوز أن يكون المراد أنه سماه عربيا قلنا هذا مدفوع من وجهين (الاول) انه لو كان المراد بالجعل هذا لوجب أن من سماه عجميا أن يصير عجميا وان كان بلغة العرب ومعلوم أنه باطل (الثاني) انه لو صرف الجعل الى التسمية لزم كون التسمية مجعولة والتسمية أيضا كلام الله وذلك يوجب أنه فعل بعض كلامه واذا صح ذلك في البعض صح في الكل (الثاني) انه وصفه بكونه قرآنا وهو انما سمي قرآنا لانه جعل بعضه مقرونا لبعض وما كان كذلك كان مصنوعا معمولا (الثالث) انه وصفه بكونه عربيا وهو انما كان عربيا لان هذه الالفاظ انما اختصت بمسمياتها بوضع العرب واصطلاحاتهم وذلك يدل على كونه معمولا ومجعولا (الرابع) ان القسم بغير الله لا يجوز على ما هو معلوم فكان التقدير حم ورب الكتاب المبين ونأكد هذا أيضا بما روي انه عليه السلام كان يقول يارب طه ويسن ويارب القرآن العظيم (والجواب) ان هذا الذي ذكرتموه حق وذلك لانكم انما استدللتم بهذه الوجوه على كون هذه الحروف المتوالية والكلمات المتعاقبة محدثة مخلوقة وذلك معلوم بالضرورة ومن الذي ينازعكم فيه بل كان كلامكم يرجع حاصله الى اقامة الدليل على ما عرف ثبوته بالضرورة (المسئلة الثانية) كلمة لعل للتمني والترجي وهو لا يليق بمن كان عالما بعواقب الامور فكان المراد منها ههنا كي أي أنزلناه قرآنا عربيا لكي تعقلوا معناه وتحيطوا بفحواه قالت المعتزلة فصار حاصل الكلام انا أنزلناه قرآنا عربيا لاجل أن تحيطوا بمعناه وهذا يفيد أمرين (أحدهما) ان أفعال الله تعالى معللة بالاغراض والدواعي (والثاني) انه تعالى انما أنزل القرآن ليهتدي به الناس وذلك يدل على انه تعالى أراد من الكل

الهداية والمعرفة خلاف قول من يقول انه تعالى أراد من البعض الكفر والاعراض واعلم ان هذا النوع من استدلالات المعتزلة مشهور وأجوبتنا عنه مشهورة فلا فائدة في الاعادة والله أعلم (المسئلة الثالثة) قوله لعلكم تعقلون يدل على ان القرآن معلوم وليس فيه شئ مبهم مجهول خلافا لمن يقول القرآن بعضه معلوم وبعضه مجهول ثم قال تعالى وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائي ام الكتاب بكسر الالف والباقون بالضم (المسئلة الثانية) الضمير في قوله وانه عائد الى الكتاب الذي تقدم ذكره في أم الكتاب لدينا واختلفوا في المراد بأم الكتاب على قولين (فالقول الاول) انه اللوح المحفوظ لقوله بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ واعلم ان على هذا التقدير فالصفات المذكورة ههنا كلها صفات اللوح المحفوظ (فالصفة الاولى) انه أم الكتاب والسبب فيه ان أصل كل شئ أمه والقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ ثم نقل الى سماء الدنيا ثم أنزل حالا بعد حال بحسب المصلحة عن ابن عباس رضي الله عنه ان أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق فالكتاب عنده فان قيل وما الحكمة في خلق هذا اللوح المحفوظ مع انه تعالى علام الغيوب ويستحيل عليه السهو والنسيان قلنا انه تعالى لما أثبت في ذلك أحكام حوادث المخلوقات ثم ان الملائكة يشاهدون ان جميع الحوادث انما تحدث على موافقة ذلك المكتوب استدلوا بذلك على كمال حكمة الله وعلمه (الصفة الثانية) من صفات اللوح المحفوظ قوله لدينا هكذا ذكره ابن عباس وانما خصه الله تعالى بهذا التشريف لكونه كتابا جامعا لاحوال جميع المحدثات فكأنه الكتاب المشتمل على جميع ما يقع في ملك الله وملكوته فلا جرم حصل له هذا التشريف قال الواحدي ويحتمل أن يكون هذا صفة القرآن والتقدير وانه لدينا في أم الكتاب (الصفة الثالثة) كونه عليا والمعنى كونه عاليا عن وجوه الفساد والبطلان وقيل المراد كونه عاليا على جميع الكتب بسبب كونه معجزا باقيا على وجه الدهر (الصفة الرابعة) كونه حكيما أي محكما في أبواب البلاغة والفصاحة وقيل حكيم أي ذو حكمة بالغة وقيل ان هذه الصفات كلها صفات القرآن على ما ذكرناه (والقول الثاني) في تفسير أم الكتاب انه الآيات المحكمة لقوله تعالى هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ومعناه ان سورة حم واقعة في الآيات المحكمة التي هي الاصل والام ثم قال تعالى أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وحمزة والكسائي ان كنتم بكسر الالف تقديره ان كنتم مسرفين لانضرب عنكم الذكر صفحا وقيل ان بمعنى اذ كقوله تعالى وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين وبالجملة فالجزاء مقدم على الشرط والباقون بفتح الالف على التعليل أي لان كنتم مسرفين (المسئلة الثانية) قال الفراء والزجاج يقال ضربت عنه وأضربت عنه أي تركته وامسكت عنه وقوله صفحا أي اعراضا والاصل فيه انك توليت بصفحة عنقك وعلى

عليه الصلاة والسلام ووعيد لهم بمثل ما جرى على الاولين ووصفهم بأشدية البطش لاثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الاولوية (ومضى مثل الاولين) أي سلف في القرآن غير مرة ذكر قصتهم التي حقها ان تسير مسير المثل (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم) أي ليسندن خلقهما الى من هذا شأنه في الحقيقة وفي نفس الامر لانهم يعبرون عنه بهذا العنوان وسلوك هذه الطريقة للاشعار بان اتصافه تعالى بما سرد من جلائل الصفات والافعال وبما يستلزمه ذلك من البعث والجزاء أمر بين لاريب فيه وأن الحجة قائمة عليهم شاؤا أو أبوا وقد يجوز أن يكون ذلك عين عبارتهم وقوله تعالى (الذي جعل لكم الارض مهادا) استئناف من جهته تعالى أي بسطها لكم تستقرون فيها (وجعل لكم فيها

هذا فقوله أفنضرب عنكم الذكر صفحا تقديره أفنضرب عنكم اضرابا أوتقديره أفنصفح عنكم صفحا واختلفوا في معنى الذكر فقيل معناه أفنرد عنكم ذكر عذاب الله وقيل أفنرد عنكم النصائح والمواعظ وقيل أفنرد عنكم القرآن وهذا استفهام على سبيل الانكار يعني انا لا نترك هذا الاعذار والانذار بسبب كونكم مسرفين قال قتادة لوأن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الامة لهلكوا ولكن الله برحمته كرره عليهم ودعاهم اليه عشرين سنة اذا عرفت هذا فنقول هذا الكلام يحتمل وجهين (الاول) الرحمة يعني انا لانترككم مع سوء اختياركم بل نذكركم ونعظكم الى أن ترجعوا الى الطريق الحق (الثاني) المبالغة في التغليظ يعني أتظنون أن نترككم مع ماتريدون كلا بل نلزمكم العمل وندعوكم الى الدين ونؤاخذكم متى أخللتم بالواجب وأقدمتم على القبيح (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف الفاء في قوله أفنضرب للعطف على محذوف تقديره انهملكم فنضرب عنكم الذكر ثم قال تعالى وكم أرسلنا من نبي في الاولين وما يأتيهم من نبي الا كانوا به يستهزؤن والمعنى ان عادة الامم مع الانبياء الذين يدعونهم الى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء فلا ينبغي أن تتأذى من قومك بسبب اقدامهم على التكذيب والاستهزاء لان المصيبة اذا عمت خفت ثم قال تعالى فأهلكنا أشد منهم بطشا يعني ان أولئك المتقدمين الذين ارسل الله اليهم الرسل كانوا أشد بطشا من قريش يعني أكثر عددا وجلدا ثم قال ومضى مثل الاولين والمعنى ان كفار مكة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم فليحذروا أن ينزل بهم من الخزي مثل مانزل بهم فقد ضربنا لهم مثلهم كما قال وكلا ضربنا له الامثال وكقوله وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم الى قوله وضربنا لكم الامثال والله أعلم ❊ قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم الذي جعل لكم الارض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون والذي خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ماتركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون) اعلم انه قد تقدم ذكر المسرفين وهم المشركون وتقدم أيضا ذكر الانبياء فقوله ولئن سألتهم يحتمل أن يرجع الى الانبياء ويحتمل أن يرجع الى الكفار الا ان الاقرب رجوعه الى الكفار فبين تعالى انهم مقرون بان خالق السموات والارض ومابينهما هو الله العزيز الحكيم والمقصود انهم مع كونهم مقرين بهذا المعنى يعبدون معه غيره وينكرون قدرته على البعث وقد تقدم الاخبار عنهم ثم انه تعالى ابتدأ دالا على نفسه بذكر مصنوعاته فقال الذي جعل لكم الارض مهدا ولو كان هذا من جملة كلام الكفار لوجب ان يقولوا الذي جعل لنا الارض مهدا ولان قوله في اثناء الكلام

التوحيد الذي هو المقصد الاصلي (والذي نزل من السماء ماء بقدر) بمقدار تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح (فأنشرنا به) أي أحيينا بذلك الماء (بلدة ميتا) خاليا عن النماء والنبات بالكلية وقرئ ميتا بالتشديد وتذكيره لان البلدة في معنى البلد والمكان والالتفات الى نون العظمة لاظهار كمال العناية بأمر الاحياء والاشعار بعظم خطره (كذلك) اي مثل ذلك الاحياء الذي هو في الحقيقة اخراج النبات من الارض (تخرجون) أي تبعثون من قبوركم أحياء وفي التعبير عن اخراج النبات بالانشار الذي هو احياء الموتى وعن احيائهم بالاخراج تفخيم لشأن الانبات وتهوين لأمر البعث لتقويم سنن الاستدلال وتوضيح منهاج القياس (والذي خلق الازواج كلها) أي

فأنشرنا به بلدة ميتا لايليق الابكلام الله ونظيره من كلام الناس أن يسمع الرجل رجلا يقول الذي بنى هذا المسجد فلان العالم فيقول السامع لهذا الكلام الزاهد الكريم كان ذلك السامع يقول أنا أعرفه بصفات حميدة فوق ماتعرفه فازيد في وصفه فيكون النعتان جميعا من رجلين لرجل واحد اذا عرفت كيفية النظم في الآية فنقول انها تدل على انواع من صفات الله تعالى (الصفة الاولى) كونه خالقا للسموات والارض والمتكلمون بينوا ان أول العلم بالله العلم بكونه محدثا للعالم فاعلا له فلهذا السبب وقع الابتداء بذكر كونه خالقا وهذا انما يتم اذا فسرنا الخلق بالاحداث والابداع (الصفة الثانية) العزيز وهو الغالب ومالاجله يحصل المكنة من الغلبة هو القدرة فكان العزيز اشارة الى كمال القدرة (والصفة الثالثة) العليم وهو اشارة الى كمال العلم واعلم ان كمال العلم والقدرة اذا حصل كان الموصوف به قادرا على خلق جميع الممكنات فلهذا المعنى أثبت تعالى كونه موصوفا بهاتين الصفتين ثم فرع عليه سائر التفاصيل (الصفة الرابعة) قوله الذي جعل لكم الارض مهدا وقد ذكرنا في هذا الكتاب ان كون الارض مهدا انما حصل لاجل كونها واقفة ساكنة ولاجل كونها موصوفة بصفات مخصوصة باعتبارها يمكن الانتفاع بها في الزراعة وبناء الابنية وفي كونها ساترة لعيوب الاحياء والاموات ولما كان المهد موضع الراحة للصبي جعل الارض مهدا لكثرة مافيها من الراحات (الصفة الخامسة) قوله وجعل لكم فيها سبلا والمقصود ان انتفاع الناس انما يكمل اذا قدر كل أحد ان يذهب من بلد الى بلد ومن اقليم الى اقليم ولولا أن الله تعالى هيأ تلك السبل ووضع عليها علامات مخصوصة والا لما حصل هذا الانتفاع ثم قال تعالى لعلكم تهتدون يعني المقصود من وضع السبل أن يحصل لكم المكنة من الاهتداء والثاني المعنى لتهتدوا الى الحق في الدين (الصفة السادسة) قوله تعالى والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا وههنا مباحث (أحدها) ان ظاهر هذه الآية يقتضي ان الماء ينزل من السماء فهل الامر كذلك أو يقال انه ينزل من السحاب وسمي نازلا من السماء لان كل ماسماك فهو سماء وهذا البحث قد مر ذكره بالاستقصاء (وثانيها) قوله بقدر أي انما ينزل الماء من السماء بقدر مايحتاج اليه أهل تلك البقعة من غير زيادة ولانقصان لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم بل بقدر حتى يكون معاشا لكم ولانعامكم (وثالثها) قوله فأنشرنا به بلدة ميتا أي خالية من النبات فاحييناها وهو الانشار ثم قال كذلك تخرجون يعني ان هذا الدليل كما يدل على قدرة الله وحكمته فكذلك يدل على قدرته على البعث والقيامة ووجه التشبيه انه يجعلهم أحياء بعد الاماتة كهذه الارض التي انشرت بعد ما كانت ميتة وقا[illegible]هم بل وجه التشبيه أن يعيدهم ويخرجهم من الارض بماء كالمني كما تنبت الا[illegible]ر وهذا الوجه ضعيف لانه ليس في ظاهر اللفظ الا اثبات الاعادة فقط د[illegible]ه (الصفة السابعة) قوله تعالى والذي

أصناف المخلوقات وعن ابن عباس رضي الله عنهما الازواج الضروب والانواع كالحلو والحامض والابيض والاسود والذكر والانثى وقيل كل ماسوى الله تعالى فهو زوج كالفوق والتحت واليمين واليسار الى غير ذلك (وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون) أي ما تركبونه تغليبا للانعام على الفلك فان الركوب متعد بنفسه واستعماله في الفلك ونحوها بكلمة في للرمز الى مكانيتها وكون حركتها غير ارادية كما مر في سورة هود عند قوله تعالى وقال اركبوا فيها (لتستووا على ظهوره) أي لتستعلوا على ظهور ما تركبونه من الفلك والانعام والجمع باعتبار المعنى (ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه) أي تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظمين لها ثم تحمدوا عليها بألسنتكم (وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا) متعجبين من ذلك كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

خلق الازواج كلها قال ابن عباس الازواج الضروب والانواع كالحلو والحامض والابيض والاسود والذكر والانثى وقال بعض المحققين كل ماسوى الله فهو زوج كالفوق والتحت واليمين واليسار والقدام والخلف والماضي والمستقبل والذوات والصفات والصيف والشتاء والربيع والخريف وكونها أزواجا يدل على كونها ممكنة الوجود في ذواتها محدثة مسبوقة بالعدم فاما الحق سبحانه فهو الفرد المنزه عن الضد والند والمقابل والمعاضد فلهذا قال سبحانه والذي خلق الازواج كلها أي كل ماهو زوج فهو مخلوق فدل هذا على أن خالقها فرد مطلق منزه عن الزوجية وأقول أيضا العلماء بعلم الحساب بينوا أن الفرد أفضل من الزوج من وجوه (الاول) ان أقل الازواج هو الاثنان وهو لايوجد الا عند حصول وحدتين فالزوج يحتاج الى الفرد والفرد وهو الوحدة غنية عن الزوج والغنى أفضل من المحتاج (الثاني) ان الزوج يقبل القسمة بقسمين متساويين والفرد هو الذي لايقبل القسمة وقبول القسمة انفعال وتأثر وعدم قبولها قوة وشدة ومقاومة فكان الفرد أفضل من الزوج (الثالث) ان العدد الفرد لابد وان يكون أحد قسميه زوجا والثاني فردا فالعدد الفرد حصل فيه الزوج والفرد معا وأما العدد الزوج فلابد وأن يكون كل واحد من قسميه زوجا والمشتمل على القسمين أفضل من الذي لايكون كذلك (الرابع) ان الزوجية عبارة عن كون كل واحد من قسميه معادلا للقسم الاخر في الذات والصفات والمقدار واذا كان كل ماحصل له من الكمال فهو حاصل لغيره لم يكن هو كاملا على الاطلاق أما الفرد فالفردية كانت خاصة لاغيره ولامثله فكان كماله حاصلا له لالغيره فكان أفضل (الخامس) ان الزوج لابد وأن يكون كل واحد من قسميه مشاركا للقسم الاخر في بعض الامور ومغايرا له في أمور أخرى ومابه المشاركة غير مابه المخالفة فكل زوجين فهما ممكنا الوجود لذاتيهما وكل ممكن فهو محتاج فثبت ان الزوجية منشأ الفقر والحاجة واما الفردانية فهي منشأ الاستغناء والاستقلال لان العدد محتاج الى كل واحد من تلك الوحدات وأما كل واحد من تلك الوحدات فانه غني عن ذلك العدد فثبت ان الازواج ممكنات ومحدثات ومخلوقات وأن الفرد هو القائم بذاته المستقل بنفسه الغني عن كل ماسواه فلهذا قال سبحانه والذي خلق الازواج كلها (الصفة الثامنة) قوله وجعل لكم من الفلك والانعام ماتركبون وذلك لان السفر اما سفر البحر أو سفر البر أما سفر البحر فالحامل هو السفينة وأما سفر البر فالحامل هو الانعام وههنا سؤالان (الاول) لم لم يقل على ظهورها أجابوا عنه من وجوه (الاول) قال أبو عبيدة التذكير لقوله ما والتقدير ماتركبوه (الثاني) قال الفراء أضاف الظهور الى واحد فيه معنى الجمع بمنزلة الجيش والجند ولذلك ذكر وجمع الظهور (الثالث) ان هذا التأنيث ليس تأنيثا حقيقيا فجاز ان يختلف اللفظ فيه كما قال عندي من النساء من يوافقك (السؤال الثاني) يقال ركبوا الانعام وركبوا في الفلك وقد ذكر الجنسين فكيف قال تركبون (والجواب) غلب

كان اذا وضع رجله في الركاب قال بسم الله فاذا استوى على الدابة قال الحمد لله على كل حال سبحان الذي سخر لنا هذا الى قوله تعالى لمنقلبون وكبر ثلاثا وهلل ثلاثا (وما كنا له مقرنين) أي أي مطيقين من أقرن الشئ اذا أطاقه وأصله وجده قرينة لان الصعب لايكون قرينة للضعيف وقرئ بالتشديد والمعنى واحد وهذا من تمام ذكر نعمته تعالى اذ بدون اعتراف المنعم عليه بالعجز عن تحصيل النعمة لايعرف قدرها ولاحق المنعم بها (وانا الى ربنا لمنقلبون) أي راجعون وفيه ايذان بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلابسه من المسير ويتذكر منه المسافرة العظمى التي هي الانقلاب الى الله تعالى فيبني أموره في مسيره ذلك على تلك الملاحظة ولايخطر بباله في شئ مما يأتي ويذر امرا ينافيها ومن ضرورته أن يكون ركوبه لامر

(وجعلوا له من عباده جزأ) متصل بقوله تعالى ولئن سألتهم الخ أي وقد جعلوا له سبحانه بالسنتهم واعتقادهم بعد ذلك الاعتراف من عباده ولدا وانما عبر عنه بالجزء لمزيد استحالته في حق الواحد الحق من جميع الجهات وقرئ جزأ بضمتين (ان الانسان لكفور مبين) ظاهر الكفران مبالغ فيه ولذلك يقولون مايقولون سبحان الله عما يصفون (أم اتخذ مما يخلق بنات) أم منقطعة ومافيها من معنى بل الانتقال من بيان بطلان جعلهم له تعالى ولدا على الاطلاق الى بيان بطلان جعلهم ذلك الولد من أخس صنفيه والهمزة للانكار والتوبيخ والتعجيب من شأنهم وقوله تعالى (وأصفاكم بالبنين) اما عطف على اتخذ داخل في حكم الانكار والتعجيب أو حال من فاعله باضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور والالتفات الى خطابهم لتأكيد الالزام وتشديد التوبيخ أي بل أتخذ من خلقه أخس الصنفين واختار لكم أفضلهما على معنى هبوا أنكم اجترأتم على اضافة اتخاذ جنس الولد اليه سبحانه مع ظهور استحالته وامتناعه أما كان لكم شئ من العقل ونبذ من الحياء حتى اجترأتم على التفوه بالعظيمة الخارقة للعقول من ادعاء أنه تعالى آثركم على نفسه بخير الصنفين واعلاهما وترك له شرهما وادناهما وتنكير بنات وتعريف

المتعدي بغير واسطة لقوته على المتعدي بواسطة ثم قال تعالى ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه ومعنى ذكر نعمة الله أن يذكروها في قلوبهم وذلك الذكر هو أن يعرف ان الله تعالى خلق وجه البحر وخلق الرياح وخلق جرم السفينة على وجه يمكن الانسان من تصريف هذه السفينة الى أي جانب شاء وأراد فاذا تذكروا ان خلق البحر وخلق الرياح وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصريفات الانسان ولتحريكاته ليس من ذلك الانسان وانما هو من تدبير الحكيم العليم القدير عرف ان ذلك نعمة عظيمة من الله تعالى فيحمله ذلك على الانقياد والطاعة له تعالى وعلى الاشتغال بالشكر لنعمه التي لا نهاية لها ثم قال تعالى وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين واعلم انه تعالى عين ذكرا معينا لركوب السفينة وهو قوله بسم الله مجراها ومرساها وذكرا آخر لركوب الانعام وهو قوله سبحان الذي سخر لنا هذا وذكر عند دخول المنازل ذكرا آخر وهو قوله رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين وتحقيق القول فيه ان الدابة التي يركبها الانسان لابد وان تكون أكثر قوة من الانسان بكثير وليس لها عقل يهديها الى طاعة الانسان ولكنه سبحانه خلق تلك البهيمة على وجوه مخصوصة في خلقها الظاهر وفي خلقها الباطن يحصل منها هذا الانتفاع اما خلقها الظاهر فلأنها تمشي على أربع قوائم فكان ظاهرها كالموضع الذي يحسن استقرار الانسان عليه واما خلقها الباطن فلأنها مع قوتها الشديدة قد خلقها الله سبحانه بحيث تصير منقادة للانسان ومسخرة له فاذا تأمل الانسان في هذه العجائب وغاص بعقله في بحار هذه الاسرار عظم تعجبه من تلك القدرة القاهرة والحكمة الغير المتناهية فلابد وان يقول سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين قال أبو عبيدة فلان مقرن لفلان أي ضابط له قال الواحدي وكأن اشتقاقه من قولك ضرب له قرنا ومعنى انا قرن لفلان أي مثله في الشدة فكان المعنى انه ليس عندنا من القوة والطاقة ان نقرن هذه الدابة والفلك وان نضبطهما فسبحان من سخرهما لنا بعلمه وحكمته وكمال قدرته روى صاحب الكشاف عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان اذا وضع رجليه في الركاب قال بسم الله فاذا استوى على الدابة قال الحمد لله على كل حال سبحان الذي سخر لنا هذا الى قوله لمنقلبون وروى القاضي في تفسيره عن أبي مخلد أن الحسن بن علي عليهما السلام رأى رجلا ركب دابة فقال سبحان الذي سخر لنا هذا فقال له ما بهذا أمرت امرت أن تقول الحمد لله الذي هدانا للاسلام الحمد لله الذي من علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم والحمد لله الذي جعلنا من خير أمة أخرجت للناس ثم تقول سبحان الذي سخر لنا هذا وروى أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا سافر وركب راحلته كبر ثلاثا ثم يقول سبحان الذي سخر لنا هذا ثم قال اللهم اني أسألك في سفري هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى اللهم هون علينا السفر واطو عنا بعد الارض اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة على الاهل اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا وكان اذا رجع الى أهله يقول آيبون تائبون

البنين المرتبية ما اعتبر فيهما من الحقارة والفخامة (واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا) الخ استئناف مقرر لما قبله وقيل حال على معنى أنهم نسبوا اليه ما ذكر ومن حالهم أن أحدهم اذا بشر به اغتم والالتفات للايذان باقتضاء ذكر قبائحهم أن يعرض عنهم وتحكى لغيرهم تعجيبا منها أى اذا أخبر أحدهم بولادة ما جعله مثلا له سبحانه اذ الولد لابد أن يجانس الوالد ويماثله (ظل وجهه مسودا) أى صار أسود فى الغاية من سوء ما بشر به (وهو كظيم) مملوء من الكرب والكآبة والجملة حال وقرئ مسود ومسواد على أن فى ظل ضمير المبشر ووجهه مسود جملة وقعت خبرا له (أومن ينشأ فى الحلية) تكرير للانكار وتثنية للتوبيخ ومن منصوبة بمضمر معطوف على جعلوا اى أو جعلوا من شأنه أن يربى فى الزينة وهو عاجز عن أن يتولى لامره بنفسه فالهمزة لانكار الوقوع واستقباحه وقد جوز انتصابها بمضمر معطوف على اتخذ فالهمزة حينئذ لانكار الوقوع واستبعاده واقحامها بين المعطوفين لتذكير ما فى أم المنقطعة من الانكار وتأكيده والعطف للتغاير العنوانى أى اتخذ من هذه الصفة الذميمة صفته (وهو) مع ماذكر من القصور (فى ﴿ ان ﴾ الخصام) أى الجدال الذى لايكاد يخلو عنه

لربنا حامدون قال صاحب الكشاف دلت هذه الآية على خلاف قول المجبرة من وجوه (الاول) انه تعالى قال لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم فذكره بلام كى وهذا يدل على انه تعالى أراد منا هذا الفعل وهذا يدل على بطلان قولهم انه تعالى أراد الكفر منه وأراد الاصرار على الانكار (الثانى) ان قوله لتستووا يدل على أن فعله معلل بالاغراض (الثالث) انه تعالى بين ان خلق هذه الحيوانات على هذه الطبائع انما كان لغرض أن يصدر الشكر عن العبد فلو كان فعل العبد فعلا لله تعالى لكان معنى الآية انى خلقت هذه الحيوانات لاجل أن أخلق سبحان الله فى لسان العبد وهذا باطل لانه تعالى قادر على أن يخلق هذا اللفظ فى لسانه بدون هذه الوسائط واعلم ان الكلام على هذه الوجوه معلوم فلا فائدة فى الاعادة ثم قال تعالى وانا الى ربنا لمنقلبون واعلم ان وجه اتصال هذا الكلام بما قبله ان ركوب الفلك فى خطر الهلاك فانه كثيرا ما تنكسر السفينة ويهلك الانسان وراكب الدابة أيضا كذلك لان الدابة قد يتفق لها اتفاقات توجب هلاك الراكب واذا كان كذلك فركوب الفلك والدابة يوجب تعريض النفس للهلاك فوجب على الراكب أن يتذكر أمر الموت وان يقطع انه هالك لامحالة وانه منقلب الى الله تعالى وغير منقلب من قضائه وقدره حتى لو اتفق له ذلك المحذور كان وطن نفسه على الموت * قوله تعالى (وجعلوا له من عباده جزأ ان الانسان لكفور مبين أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم أومن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون) اعلم انه تعالى لما قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله بين انهم مع اقرارهم بذلك جعلوا له من عباده جزأ والمقصود منه التنبيه على قلة عقولهم وسخافة محصولهم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم فى رواية أبى بكر جزأ بضم الزاى والهمزة فى كل القرآن وهما لغتان واما حمزة فاذا وقف عليه قال جزا بفتح الزاى بلا همزة (المسئلة الثانية) فى المراد من قوله وجعلوا له من عباده جزأ قولان (الاول) وهو المشهور أن المراد انهم أثبتوا له ولدا وتقرير الكلام ان ولد الرجل جزء منه قال عليه السلام فاطمة بضعة منى ولان المعقول من الوالد أن ينفصل عنه جزء من أجزائه ثم يتربى ذلك الجزء ويتولد منه شخص مثل ذلك الاصل واذا كان كذلك فولد الرجل جزء منه وبعض منه فقوله وجعلوا له من عباده جزأ معنى جعلوا حكموا وأثبتوا وقالوا به والمعنى انهم أثبتوا له جزأ وذلك الجزء هو عبد من عباده واعلم انه لو قال وجعلوا لعباده منه جزأ لافاد ذلك انهم أثبتوا انه حصل جزء من أجزائه فى بعض عباده وذلك هو الولد فكذا قوله وجعلوا له من عباده جزأ معناه وأثبتوا له جزأ وذلك الجزء هو عبد من عباده والحاصل انهم أثبتوا لله ولدا وذكروا فى تقرير هذا القول وجوها أخر فقالوا الجزء هو الانثى فى لغة العرب واحتجوا فى اثبات هذه اللغة ببيتين فالاول قوله

انأجزأت حرة يوما فلا عجب * قد تجزئ الحرة المذكاة أحيانا

وقوله زوجتها من بنات الاوس مجزئة * للعوسج اللدن في أبياتها غزل

وزعم الزجاج والازهرى وصاحب الكشاف ان هذه اللغة فاسدة وان هذه الابيات مصنوعة (والقول الثانى) فى تفسير الآية ان المراد من قوله وجعلوا له من عباده جزأ اثبات الشركاء لله وذلك لانهم لما أثبتوا الشركاء لله تعالى فقد زعموا ان كل العباد ليس لله بل بعضها لله وبعضها لغير الله فهم ما جعلوا لله من عباده كلهم بل جعلوا له منهم بعضا وجزأ منهم قالوا والذى يدل على ان هذا القول أولى من الاول انا اذا حملنا هذه الآية على انكار الشريك لله وحملنا الآية التى بعدها على انكار الولد لله كانت الآية جامعة للرد على جميع المبطلين ثم قال تعالى ام اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين واعلم انه تعالى رتب هذه المناظرة على أحسن الوجوه وذلك لانه تعالى بين ان اثبات الولد لله محال وبتقدير أن يثبت الولد فجعله بنتا أيضا محال أما بيان ان اثبات الولد لله محال فلان الولد لابد وان يكون جزأ من الوالد وما كان له جزء كان مركبا وكل مركب ممكن وأيضا ما كان كذلك فانه يقبل الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق وما كان كذلك فهو عبد محدث فلا يكون الهاقديما أزليا (واما المقام الثانى) وهو ان بتقدير ثبوت الولد فانه يمتنع كونه بنتا وذلك لان الابن أفضل من البنت فلو قلنا انه اتخذ لنفسه البنات وأعطى البنين لعباده لزم أن يكون حال العبد أكمل وأفضل من حال الله وذلك مدفوع فى بديهة العقل يقال أصفيت فلانا بكذا أى آثرته به ايثارا حصل له على سبيل الصفاء من غير أن يكون له فيه مشارك وهو كقوله أفأصفاكم ربكم بالبنين ثم بين نقصان البنات من وجوه (الاول) قوله واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم والمعنى ان الذى بلغ حاله فى النقص الى هذا الحد كيف يجوز للعاقل اثباته لله تعالى وعن بعض العرب ان امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذى فيه المرأة فقالت

مالأبى حمزة لا يأتينا * يظل فى البيت الذى يلينا * غضبان أن لا نلد البنينا

ليس لنا من أمرنا ماشينا * وانما نأخذ ما أعطينا

وقوله ظل أى صار كما يستعمل اكثر الافعال الناقصة قال صاحب الكشاف قرئ مسود ومسواد والتقدير وهو مسود فتقع هذه الجملة موقع الخبر (والثانى) قوله أومن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين على ما لم يسم فاعله أى يربى والباقون ينشأ بضم الياء وسكون النون وفتح الشين قال صاحب الكشاف وقرئ يناشأ قال ونظير المناشاة بمعنى الانشاء المغالاة بمعنى الاغلاء (المسئلة الثانية) المراد من قوله أومن ينشأ فى الحلية التنبيه على نقصانها وهو ان الذى يربى فى الحلية يكون ناقص الذات لانه لولا نقصان فى ذاتها لما احتاجت تزيين نفسها بالحلية ثم بين نقصان حالها بطريق آخر وهو قوله وهو

الانسان فى العادة (غير مبين) غير قادر على تقرير دعواه واقامة حجته لنقصان عقله وضعف رأيه واضافة غير لا تمنع عمل مابعده فى الجار المتقدم لانه بمعنى النفى وقرئ ينشأ ويناشأ من الافعال والمفاعلة والكل بمعنى واحد ونظيره غلاه وأغلاه وغالاه (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا) بيان لتضمن كفرهم المذكور لكفر آخر وتقريع لهم بذلك وهو جعلهم أكمل العباد وأكرمهم على الله عز وجل أنقصهم رأيا وأخسهم صنفا وقرئ عبيد الرحمن وقرئ عند الرحمن على تمثيل زلفاهم وقرئ أنثا وهو جمع الجمع (أشهدوا خلقهم) أى أحضروا خلق الله تعالى اياهم فشاهدوهم اناثا حتى يحكموا بأنوثتهم فان ذلك مما يعلم بالمشاهدة وهو تجهيل لهم وتهكم بهم وقرئ أأشهدوا بهمزتين مفتوحة ومضمومة وآأشهدوا بألف بينهما (ستكتب شهادتهم) هذه فى ديوان أعمالهم (ويسئلون) عنها يوم القيامة وقرئ سيكتب وسنكتب بالياء والنون وقرئ شهاداتهم وهى قولهم ان لله جزأ وان له بنات وانها الملائكة وقرئ يساءلون من المساءلة للمبالغة (وقالوا لوشاء الرحمن ما عبدناهم) بيان لفن آخر من كفرهم أى لوشاء عدم عبادتنا للملائكة مشيئة ارتضاء ماعبدناهم أرادوا بذلك بيان أن ما فعلوه حق مرضى عنده تعالى

في الخصام غير مبين يعني انها اذا احتاجت الى المخاصمة والمنازعة عجزت وكانت غير مبين وذلك لضعف لسانها وقلة عقلها وبلادة طبعها ويقال قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها الا تكلمت بما كانت حجة عليها فهذه الوجوه دالة على كمال نقصها فكيف يجوز اضافتهن بالولدية اليه (المسئلة الثالثة) دلت الآية على ان التحلي مباح للنساء وانه حرام للرجال لانه تعالى جعل ذلك من المعايب وموجبات النقصان واقدام الرجل عليه يكون القاء النفس في الذل وذلك حرام لقوله عليه السلام ليس للمؤمن أن يذل نفسه وانما زينة الرجل الصبر على طاعة الله والتزين بزينة التقوى قال الشافعي

تدرعت يوما القنوع حصينة * أصون بها عرضي وأجعلها ذخرا
ولم أحذر الدهر الخؤن وانما * قصاراه ان يرمي بي الموت والفقرا
فأعددت للموت الاله وعفوه * وأعددت الفقر التجلد والصبرا

ثم قال تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المراد بقوله جعلوا أي حكموا به ثم قال أشهدوا خلقهم وهذا استفهام على سبيل الانكار يعني انهم لم يشهدوا خلقهم وهذا مما لا سبيل الى معرفته بالدلائل العقلية واما الدلائل النقلية فكلها مفرعة على اثبات النبوة وهؤلاء الكفار منكرون للنبوة فلا سبيل لهم الى اثبات هذا المطلوب بالدلائل النقلية فثبت انهم ذكروا هذه الدعوى من غير أن عرفوه لا بضرورة ولا بدليل ثم انه تعالى هددهم فقال ستكتب شهادتهم ويسألون وهذا يدل على أن القول بغير دليل منكر وان التقليد يوجب الذم العظيم والعقاب الشديد قال أهل التحقيق هؤلاء الكفار كفروا في هذا القول من ثلاثة أوجه (أولها) اثبات الولد لله تعالى (وثانيها) ان ذلك الولد بنت (وثالثها) الحكم على الملائكة بالانوثة (المسئلة الثانية) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر عند الرحمن بالنون وهو اختيار أبي حاتم واحتج عليه بوجوه (الاول) انه يوافق قوله ان الذين عند ربك وقوله ومن عنده (والثاني) ان كل الخلق عباده فلا مدح لهم فيه (والثالث) ان التقدير ان الملائكة يكونون عند الرحمن لا عند هؤلاء الكفار فكيف عرفوا كونهم اناثا واما الباقون فقرؤا عباد جمع عبد وقيل جمع عابد كقائم وقيام وصائم وصيام ونائم ونيام وهي قراءة ابن عباس واختيار أبي عبيد قال لانه تعالى رد عليهم قولهم انهم بنات الله وأخبر انهم عبيد ويؤيد هذا القراءة قوله بل عباد مكرمون (المسئلة الثالثة) قرأ نافع وحده أأشهدوا بهمزة ومدة بعدها خفيفة لينة وضمة أي أحضروا خلقهم وعن نافع غير ممدود على ما لم يسم فاعله والباقون أشهدوا بفتح الالف من شهدوا أي أحضروا (المسئلة الرابعة) احتج من قال بتفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية فقال أما قراءة عند بالنون فهذه العندية لا شك انها عندية الفضل والقرب من الله تعالى بسبب الطاعة ولفظة هم توجب الحصر والمعنى انهم هم الموصوفون بهذه العندية لا غيرهم فوجب كونهم أفضل من غيرهم رعاية للفظ الدال على الحصر واما من قرأ عباد

وأنهم انما يفعلونه بمشيئته تعالى لا الاعتذار من ارتكاب ما ارتكبوه بأنه بمشيئته تعالى اياه منهم مع اعترافهم بقبحه حتى يتعرض ذمهم به دليلا للمعتزلة وبنى كلامهم الباطل على مقدمتين احداهما أن عبادتهم اياهم بمشيئته تعالى والثانية أن ذلك مستلزم لكونها مرضية عنده تعالى ولقد أخطؤا في الثانية حيث جهلوا أن المشيئة عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعض كائنا ما كان من غير اعتبار الرضا أو السخط في شيء من الطرفين ولذلك جهلوا بقوله تعالى (ما لهم بذلك) أي بما أرادوا بقولهم ذلك من كون ما فعلوه بمشيئة الارتضاء لا بمطلق المشيئة فان ذلك محقق ينطق به ما لا يحصى من الآيات الكريمة (من علم) يستند الى سند ما (ان هم الا يخرصون) يتعلون تمحلا باطلا وقد جوز أن يشار بذلك الى أصل الدعوى كأنه لما أظهر وجوه فسادها وحكى شبههم المزيفة نفى أن يكون لهم بها علم من طريق العقل ثم أضرب عنه الى ابطال أن يكون لهم سند من جهة النقل فقيل (أم آتيناهم كتابا من قبله) من قبل القرآن أو من قبل ادعائهم ينطق بصحة ما يدعونه (فهم به) بذلك الكتاب (مستمسكون) وعليه معولون (بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون) * أي لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية بل اعترفوا بأن

لاستدلهم سوى تقليد آباءهم الجهلة مثلهم والامة الدين والطريقة التي تؤم أي تقصد كالرحلة لما يرحل اليه
وقرئ أمة بالكسر وهي الحالة التي يكون عليها الآم أي القاصد وقوله تعالى على آثارهم

جمع عبد فقد ذكرنا ان لفظ العباد مخصوص في القرآن بالمؤمنين فقوله هم عباد الرحمن
يفيد حصر العبودية فيهم فاذا كان اللفظ الدال على العبودية دالا على الفضل والشرف
كان اللفظ الدال على حصر العبودية دالا على حصر الفضل والمنقبة والشرف فيهم وذلك
يوجب كونهم أفضل من غيرهم والله أعلم * قوله تعالى (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم
ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون بل قالوا
انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من
نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون قال أولو جئتكم
بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما أرسلتم به كافرون فانتقمنا منهم فانظر كيف
كان عاقبة المكذبين) اعلم انه تعالى حكى نوعا آخر من كفرهم وشبهاتهم وهو انهم قالوا
لو شاء الرحمن ما عبدناهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة هذه الآية تدل على
فساد قول المجبرة في أن كفر الكافر يقع بارادة الله من وجهين (الاول) انه تعالى حكى عنهم
انهم قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم وهذا صريح قول المجبرة ثم انه تعالى أبطله بقوله ما لهم
بذلك من علم ان هم الا يخرصون فثبت انه حكى مذهب المجبرة ثم أردفه بالابطال والافساد
فثبت ان هذا المذهب باطل ونظيره قوله تعالى في سورة الانعام سيقول الذين أشركوا لو شاء
الله ما أشركنا الى قوله قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم
الا تخرصون (والوجه الثاني) انه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنواع كفرهم (فأولها)
قوله وجعلوا له من عباده جزأ (وثانيها) قوله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا
(وثالثها) قوله تعالى وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم فلما حكى هذه الاقاويل الثلاثة
بعضها على اثر بعض وثبت ان القولين الاولين كفر محض فكذلك هذا القول الثالث
يجب أن يكون كفرا واعلم أن الواحدي أجاب في البسيط عنه من وجهين (الاول) ما ذكره
الزجاج وهو ان قوله تعالى ما لهم بذلك من علم عائد الى قولهم الملائكة اناث والى قولهم
الملائكة بنات الله (والثاني) انهم أرادوا بقولهم لو شاء الرحمن ما عبدناهم انه أمرنا بذلك
وانه رضي بذلك وأقرنا عليه فانكر ذلك عليهم فهذا ما ذكره الواحدي في الجواب وعندي
هذان الوجهان ضعيفان (اما الاول) فلأنه تعالى حكى عن القوم قولين باطلين وبين وجه
بطلانهما ثم حكى بعده مذهبا ثالثا في مسئلة أجنبية عن المسئلتين الاوليين ثم حكم
بالبطلان والوعيد فصرف هذا الابطال عن هذا الذي ذكره عقيبه الى كلام متقدم أجنبي
عنه في غاية البعد (واما الوجه الثاني) فهو أيضا ضعيف لان قوله لو شاء الله ما عبدناهم ليس
فيه بيان متعلق بتلك المشيئة والاجمال خلاف الدليل فوجب أن يكون التقدير لو شاء الله
ان لا نعبدهم ما عبدناهم وكلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره فهذا يدل على انه لم توجد
مشيئة الله لعدم عبادتهم وهذا عين مذهب المجبرة فالابطال والافساد يرجع الى هذا المعنى
ومن الناس من أجاب عن هذا الاستدلال بأن قال انهم انما ذكروا ذلك الكلام على

مهتدون خبران والظرف صلة لمهتدون (وكذلك) أي والامر كما ذكر من عجزهم عن الحجة وتشبثهم بذيل التقليد وقوله تعالى (ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) استئناف مبين لذلك دال على أن التقليد فيما بينهم ضلال قديم ليس لاسلافهم أيضا سند غيره وتخصيص المترفين بتلك المقالة للايذان بأن التنعم وحب البطالة هو الذي صرفهم عن النظر الى التقليد (قال) حكاية لما جرى بين المنذرين وبين أممهم عند تعللهم بتقليد آبائهم أي قال كل نذير من أولئك المنذرين لامهم (أولو جئتكم) أي أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم (بأهدى) بدين أهدى (مما وجدتم عليه آباءكم) من الضلالة التي ليست من الهداية في شئ وانما عبر عنها بذلك مجاراة معهم على
مسلك الانصاف وقرئ قل على أنه حكاية أمر ماض أوحي حينئذ الى كل نذير لا على أنه خطاب للرسول
صلى الله عليه وسلم كما قيل لقوله تعالى (قالوا انا بما أرسلتم به كافرون) فانه حكاية عن الامم قطعا اى قال كل أمة
لنذيرها انا بما أرسلت به الخ

الى ما أرسل به الكل من التوحيد لاجماعهم عليه كما في نظائر قوله تعالى كذبت عاد المرسلين تمحل بعيد يرده بالكلية قوله تعالى (فانتقمنا منهم) أي بالاستئصال (فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) من الامم المذكورين فلا تكترث بتكذيب قومك (واذ قال ابراهيم) أي واذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام (لأبيه وقومه) المكبين على التقليد كيف تبرأ عما هم فيه بقوله (انني براء مما تعبدون) وتمسك بالبرهان ليسلكوا مسلكه في الاستدلال أو ليقلدوه ان لم يكن لهم بد من التقليد فانه أشرف آبائهم و براء مصدر نعت به مبالغة ولذلك يستوى فيه الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث وقرئ برئ و براء بضم الباء ككريم وكرام وما اما مصدرية أو موصولة حذف عائدها أى انني برئ من عبادتكم أو معبودكم (الا الذى فطرنى) استثناء منقطع أو متصل على أن ما تعم اولى العلم وغيرهم وأنهم كانوا يعبدون الله والاصنام أو صفة على أن ما موصوفة أى انني براء من آلهة تعبدونها غير الذى فطرنى (فانه

سبيل الاستهزاء والسخرية فلهذا السبب استوجبوا الطعن والذم وأجاب صاحب الكشاف عنه من وجهين (الاول) انه ليس فى اللفظ ما يدل على انهم قالوا مستهزئين وادعاء ما لا دليل عليه باطل (الثانى) انه تعالى حكى عنهم ثلاثة أشياء وهى انهم جعلوا له من عباده جزأ وانهم جعلوا الملائكة اناثا وانهم قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم فلو قلنا بانه انما جاء الذم على القول الثالث لانهم ذكروه على طريق الهزؤ لا على طريق الجد وجب أن يكون الحال فى حكاية القولين الاولين كذلك فلزم انهم لو نطقوا بتلك الاشياء على سبيل الجد أن يكونوا محقين ومعلوم انه كفر واما القول بأن الطعن فى القولين الاولين انما توجه على نفس ذلك القول وفى القول الثالث لا على نفسه بل على ايراده على سبيل الاستهزاء فهذا يوجب تشويش النظم وانه لا يجوز فى كلام الله واعلم ان الجواب الحق عندى عن هذا الكلام ما ذكرناه فى سورة الانعام وهو ان القوم انما ذكروا هذا الكلام لانهم استدلوا بمشيئة الله تعالى للكفر على انه لا يجوز ورود الامر بالايمان فاعتقدوا ان الامر والارادة يجب كونهما متطابقين وعندنا ان هذا باطل فالقوم لم يستحقوا الذم بمجرد قولهم ان الله يريد الكفر من الكافر بل لاجل انهم قالوا لما أراد الكفر من الكافر وجب أن يقبح منه أمر الكافر بالايمان واذا صرفنا الذم والطعن الى هذا المقام سقط استدلال المعتزلة بهذه الآية وتمام التقرير مذكور فى سورة الانعام والله أعلم (المسئلة الثانية) انه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل قال ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون وتقريره كأنه قيل ان القوم يقولون لما أراد الله الكفر من الكافر وخلق فيه ما أوجب ذلك الكفر وجب أن يقبح منه ان يأمره بالايمان لان مثل هذا التكليف قبيح فى الشاهد فيكون قبيحا فى الغائب فقال تعالى ما لهم بذلك من علم أى ما لهم بصحة هذا القياس من علم وذلك لان أفعال الواحد منا وأحكامه مبنية على رعاية المصالح والمفاسد لاجل ان كل ما سوى الله فانه ينتفع بحصول المصالح ويستضر بحصول المفاسد فلا جرم ان صريح طبعه وعقله يحمله على بناء أحكامه وأفعاله على رعاية المصالح اما الله سبحانه وتعالى فانه لا ينفعه شئ ولا يضره شئ فكيف يمكن القطع بأنه تعالى يبنى أحكامه وأفعاله على رعاية المصالح مع ظهور هذا الفارق العظيم فقوله تعالى ما لهم بذلك من علم أى ما لهم بصحة قياس الغائب على الشاهد فى هذا الباب علم ثم قال ان هم الا يخرصون أى كما لم يثبت لهم صحة ذلك القياس فقد ثبت بالبرهان القاطع كونهم كذابين خراصين فى ذلك القياس لان قياس المنزه عن النفع والضر من كل الوجوه على المحتاج المنتفع المتضرر قياس باطل فى بديهة العقل ثم قال أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون يعنى القول الباطل الذى حكاه الله تعالى عنهم عرفوا صحته بالعقل أو بالنقل اما اثباته بالعقل فهو باطل لقوله ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون واما اثباته بالنقل فهو أيضا باطل لقوله أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون والضمير فى قوله من قبله للقرآن أو للرسول والمعنى انهم وجدوا ذلك الباطل

سيهدين) اى سيثبتنى على الهداية أو سيهدين الى ماوراء الذى هدانى اليه الى الآن والاوجه أن السين للتأكيد دون التسويف وصيغة المضارع الدلالة على الاستمرار (وجعلها) أى جعل ابراهيم كلمة التوحيد التى ماتكلم به عبارة عنها (كلمة باقية فى عقبه) أى فى ذريته حيث وصاهم بها كما نطق به قوله تعالى ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب الآية فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى ويدعو الى توحيده وقرئ كلمة وفى عقبه على التخفيف (لعلهم يرجعون) علة للجعل أى جعلها باقية فى عقبه رجاء أن يرجع اليها من أشرك منهم بدعاء الموحد (بل متعت هؤلاء) اضراب عن محذوف ينساق اليه الكلام كأنه قيل جعلها كلمة باقية فى عقبه بأن وصى بها بنيه رجاء أن يرجع اليها من أشرك منهم بدعاء الموحد فلم يحصل ما رجاه بل متعت منهم هؤلاء المعاصرين للرسول صلى الله عليه وسلم من أهل مكة (وآباءهم) بالمد فى العمر والنعمة فاغتروا بالمهلة وانهمكوا فى الشهوات وشغلوا بها عن كلمة التوحيد (حتى جاءهم) أى هؤلاء (الحق) أى القرآن (ورسول) أى رسول (مبين) ظاهر الرسالة واضحها بالمعجزات الباهرة أو مبين للتوحيد بالآيات البينات والحجج وقرئ متعنا ومتعت بالخطاب على انه تعالى اعترض به على ذاته فى قوله

فى كتاب منزل قبل القرآن حتى جاز لهم أن يعولوا عليه وان يتمسكوا به والمقصود منه ذكره فى معرض الانكار ولما ثبت انه لم يدل عليه لادليل عقلى ولادليل نقلى وجب أن يكون القول به باطلا ثم قال تعالى بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون والمقصود انه تعالى لما بين انه لادليل لهم على صحة ذلك القول البتة بين انه ليس لهم حامل يحملهم عليه الا التقليد المحض ثم بين ان تمسك الجهال بطريقة التقليد أمر كان حاصلا من قديم الدهر فقال وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قرئ على امة بالكسر وكلتاهما من الام وهو القصد فالامة الطريقة التى تؤم أى تقصد كالرحلة للمرحول اليه والامة الحالة التى يكون عليها الآم وهو القاصد (المسئلة الثانية) اولم يكن فى كتاب الله الا هذه الآيات لكفت فى ابطال القول بالتقليد وذلك لانه تعالى بين ان هؤلاء الكفار لم يتمسكوا فى اثبات ماذهبوا اليه لا بطريق عقلى ولا بدليل نقلى ثم بين انهم انما ذهبوا اليه بمجرد تقليد الآباء والاسلاف وانما ذكر تعالى هذه المعانى فى معرض الذم والتهجين وذلك يدل على ان القول بالتقليد باطل ومما يدل عليه أيضا من حيث العقل ان التقليد أمر مشترك فيه بين المبطل وبين المحق وذلك لانه كما حصل لهذه الطائفة قوم من المقلدة فكذلك حصل لاضدادهم أقوام من المقلدة فلو كان التقليد طريقا الى الحق لوجب كون الشئ ونقيضه حقا ومعلوم ان ذلك باطل (المسئلة الثالثة) انه تعالى بين ان الداعى الى القول بالتقليد والحامل عليه انما هو حب التنعم فى طيبات الدنيا وحب الكسل والبطالة وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلال لقوله الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة والمترفون هم الذين أترفتهم النعمة أى أبطرتهم فلا يحبون الا الشهوات والملاهى ويبغضون تحمل المشاق فى طلب الحق واذا عرفت هذا علمت ان رأس جميع الآفات حب الدنيا واللذات الجسمانية ورأس جميع الخيرات هو حب الله والدار الآخرة ولهذا قال عليه السلام حب الدنيا رأس كل خطيئة ثم قال تعالى لرسوله قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم أى بدين أهدى من دين آبائكم فعند هذا حكى الله عنهم انهم قالوا انا ثابتون على دين آبائنا لاننفك عنه وان جئتنا بما هو أهدى فانا بما ارسلتم به كافرون وان كان أهدى مما كنا عليه فعند هذا لم يبق لهم عذر ولا علة فلهذا قال تعالى فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين والمراد منه تهديد الكفار والله أعلم * قوله تعالى (واذ قال ابراهيم لابيه وقومه انى براء مما تعبدون الا الذى فطرنى فانه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وانا به كافرون) اعلم انه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة انه ليس لأولئك الكفار داع يدعوهم الى تلك الاقاويل الباطلة الا تقليد الآباء والاسلاف ثم بين انه طريق باطل ومنهج فاسد وان الرجوع الى الدليل أولى من

الاعتماد على التقليد أردفه بهذه الآية والمقصود منها ذكر وجه آخر يدل على فساد القول بالتقليد وتقريره من وجهين (الاول) انه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام انه تبرأ عن دين آبائه بناء على الدليل فنقول اما أن يكون تقليد الآباء في الاديان محرما أو جائزا فان كان محرما فقد بطل القول بالتقليد وان كان جائزا فمعلوم ان أشرف آباء العرب هو ابراهيم عليه السلام وذلك لانه ليس لهم فخر ولا شرف الا بانهم من أولاده واذا كان كذلك فتقليد هذا الاب الذي هو أشرف الآباء أولى من تقليد سائر الآباء واذا ثبت ان تقليده أولى من تقليد غيره فنقول انه ترك دين الآباء وحكم بان اتباع الدليل أولى من متابعة الآباء واذا كان كذلك وجب تقليده في ترك تقليد الآباء ووجب تقليده في ترجيح الدليل على التقليد واذا ثبت هذا فنقول فقد ظهر ان القول بوجوب التقليد يوجب المنع من التقليد وما أفضى ثبوته الى نفيه كان باطلا فوجب أن يكون القول بالتقليد باطلا فهذا طريق دقيق في ابطال التقليد وهو المراد من هذه الآية (الوجه الثاني) في بيان ان ترك التقليد والرجوع الى متابعة الدليل أولى في الدنيا وفي الدين انه تعالى بين ان ابراهيم عليه السلام لما عدل عن طريقة أبيه الى متابعة الدليل لاجرم جعل الله دينه ومذهبه باقيا في عقبه الى يوم القيامة واما أديان آبائه فقد اندرست و بطلت فثبت ان الرجوع الى متابعة الدليل يبقى محمود الاثر الى قيام الساعة وان التقليد والاصرار ينقطع أثره ولا يبقى منه في الدنيا خبر ولا أثر فثبت من هذين الوجهين ان متابعة الدليل وترك التقليد أولى فهذا بيان المقصود الاصلي من هذه الآية ولنرجع الى تفسير الفاظ الآية اما قوله انني براء مما تعبدون فقال الكسائي والفراء والمبرد والزجاج براء مصدر لا يثنى ولا يجمع مثل عدل ورضا وتقول العرب انا البراء منك والخلاء منك ونحن البراء منك والخلاء ولا يقولون البراآن ولا البراؤن لان المعنى ذو البراء وذوو البراء فان قلت بريء وخلي ثنيت وجمعت ثم استثنى خالقه من البراءة فقال الا الذي فطرني والمعنى انا اتبرأ مما تعبدون الا من الله عز وجل و يجوز أن يكون الا بمعنى لكن فيكون المعنى لكن الذي فطرني فانه سيهدين أي سيرشدني لدينه ويوفقني لطاعته واعلم انه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام في آية أخرى انه قال الذي خلقني فهو يهدين وحكى عنه ههنا انه قال سيهدين فاجمع بينهما وقدر كأنه قال فهو يهدين وسيهدين فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال وجعلها أي وجعل ابراهيم كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله انني براء مما تعبدون جاريا مجرى لا اله وقوله الا الذي فطرني جاريا مجرى قوله الا الله فكان مجموع قوله انني براء مما تعبدون الا الذي فطرني جاريا مجرى قوله لا اله الا الله ثم بين تعالى ان ابراهيم جعل هذه الكلمة باقية في عقبه أي في ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله و يدعو الى توحيده لعلهم يرجعون أي لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحده منهم وقيل وجعلها الله وقرئ كلمة على التخفيف وفي عقبه ثم قال تعالى بل متعت هؤلاء يعني أهل مكة وهم من عقب ابراهيم بالمد في العمر

تعالى وجعلها كلمة باقية الخ مبالغة في تعييرهم فان التمتع بزيادة النعم يوجب عليهم أن يجعلوه سببا لزيادة الشكر والثبات على التوحيد والايمان فجعله سببا لزيادة الكفران أقصى مراتب الكفر والضلال (ولما جاءهم الحق) لينبههم عما هم فيه من الغفلة و يرشدهم الى التوحيد ازدادوا كفرا وعتوا وضموا الى كفرهم السابق معاندة الحق والاستهانة به حيث (قالوا هذا سحر وانا به كافرون) فسموا القرآن سحرا وكفروا به واستحقروا الرسول صلى الله عليه وسلم

(وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين) أي من احدى القريتين مكة والطائف على نهج قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (عظيم) أي بالجاه والمال كالوليد بن المغيرة المخزومي وعروة بن مسعود الثقفي وقيل حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي وعن مجاهد عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل ولم يتفوهوا بهذه العظيمة حسدا على نزوله الى الرسول صلى الله عليه وسلم دون من ذكر من عظمائهم مع اعترافهم ﴿ ٤٤١ ﴾ بقرآنيته بل استدلالا على عدمها بمعنى أنه لو كان قرآنا

انزل الى أحد هؤلاء بناء على ما زعموا من أن الرسالة منصب جليل لا يليق به الا من له جلالة من حيث المال والجاه ولم يدروا أنها رتبة روحانية لا يترقى اليها الا همم الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتحلين بالفضائل الانسية وأما المتزخرفون بالزخارف الدنيوية المتمتعون بالحظوظ الدنية فهم من استحقاق تلك الرتبة بألف معزل وقوله تعالى (أهم يقسمون رحمة ربك) انكار فيه تجهيل لهم وتعجيب من تحكمهم والمراد بالرحمة النبوة (نحن قسمنا بينهم معيشتهم) أي أسباب معيشتهم (في الحياة الدنيا) قسمة تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحكم والمصالح ولم نفوض أمرها اليهم علما منا بعجزهم عن تدبيرها بالكلية (ورفعنا بعضهم فوق بعض) في الرزق وسائر مبادي المعاش (درجات) متفاوتة بحسب القرب ﴿ ٥٦ ﴾ سا والبعد حسبما تقتضيه الحكمة فمن ضعيف وقوي وفقير وغني وخادم ومخدوم وحاكم ومحكوم (ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) ليصرف بعضهم بعضا في مصالحهم ويستخدموهم في مهنهم ويسخروهم في أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا الى مرافقهم لا لكمال في الموسع

والنعمة فاغتروا بالمهلة واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد حتى جاءهم الحق وهو القرآن ورسول مبين بين الرسالة وأوضحها بما معه من الآيات والبينات فكذبوا به وسموه ساحرا وما جاء به سحرا وكفروا به ووجه النظم انهم لما عولوا على تقليد الآباء ولم يتفكروا في الحجة اغتروا بطول الامهال وامتاع الله اياهم بنعيم الدنيا فاعرضوا عن الحق قال صاحب الكشاف ان قيل ما وجه قراءة من قرأ متعت بفتح التاء قلنا كأن الله سبحانه اعترض على ذاته في قوله وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون فقال بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد وأراد بذلك المبالغة في تعييرهم لانه اذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سببا في زيادة الشكر والثبات على التوحيد لا أن يشركوا به ويجعلوا له أندادا فمثاله أن يشكو الرجل اساءة من أحسن اليه ثم يقبل على نفسه فيقول أنت السبب في ذلك بمعروفك واحسانك اليه وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعل نفسه * قوله تعالى (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون) اعلم ان هذا هو النوع الرابع من كفرياتهم التي حكاها الله تعالى عنهم في هذه السورة وهؤلاء المساكين قالوا منصب رسالة الله منصب شريف فلا يليق الا برجل شريف وقد صدقوا في ذلك الا انهم ضموا اليه مقدمة فاسدة وهي ان الرجل الشريف هو الذي يكون كثير المال والجاه ومحمد ليس كذلك فلا تليق رسالة الله به وانما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه كثير المال في احدى القريتين وهي مكة والطائف قال المفسرون والذي بمكة هو الوليد بن المغيرة والذي بالطائف هو عروة بن مسعود الثقفي ثم أبطل الله تعالى هذه الشبهة من وجهين (الاول) قوله أهم يقسمون رحمة ربك وتقرير هذا الجواب من وجوه (أحدها) انا أوقعنا التفاوت في مناصب الدنيا ولم يقدر أحد من الخلق على تغييره فالتفاوت الذي أوقعناه في مناصب الدين والنبوة بأن لا يقدروا على التصرف فيه كان أولى (وثانيها) أن يكون المراد ان اختصاص ذلك الغني بذلك المال الكثير انما كان لاجل حكمنا وفضلنا واحساننا اليه فكيف يليق بالعقل أن نجعل احساننا اليه بكثرة المال حجة علينا في أن نحسن اليه أيضا بالنبوة (وثالثها) انا لما أوقعنا التفاوت في الاحسان بمناصب الدنيا لا لسبب سابق فلم لا يجوز أيضا أن نوقع التفاوت في الاحسان بمناصب الدين والنبوة لا لسبب سابق فهذا تقرير الجواب ونرجع الى تفسير الالفاظ فنقول الهمزة في قوله أهم يقسمون رحمة ربك للانكار الدال على التجهيل والتعجيب من اعتراضهم وتحكمهم وأن يكونوا هم المدبرين لامر النبوة ثم ضرب لهذا مثالا فقال نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انا أوقعنا

ولا النقص في المقترواوفوضناذلك الى تدبيرهم لضاعوا وهلكوا فاذا كانوا في تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم من متاع الدنيا الدنيئة وهو في طرف الثمام على هذه الحالة فما ظنهم بأنفسهم في تدبير أمر الدين وهو أبعد من مناط العيوق ومن أين لهم البحث عن أمر النبوة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بأمرها (ورحمة ربك) أي النبوة وما يتبعها من سعادة الدارين (خير مما يجمعون) من حطام الدنيا الدنيئة الفانية وقوله تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة)

هذا التفاوت بين العباد في القوة والضعف والعلم والجهل والحذاقة والبلاهة والشهرة والخمول وانما فعلنا ذلك لانا لو سوينا بينهم في كل هذه الاحوال لم يخدم احد أحدا ولم يصر أحد منهم مسخرا لغيره وحينئذ يفضي ذلك الى خراب العالم وفساد نظام الدنيا ثم ان أحدا من الخلق لم يقدر على تغيير حكمنا ولا على الخروج عن قضائنا فاذا عجزوا عن الاعراض عن حكمنا في أحوال الدنيا مع قلتها ودناءتها فكيف يمكنهم الاعتراض على حكمنا وقضائنا في تخصيص بعض العباد بمنصب النبوة والرسالة (المسئلة الثانية) قوله تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا يقتضي أن تكون كل أقسام معايشهم انما تحصل بحكم الله وتقديره وهذا يقتضي أن يكون الرزق الحرام والحلال كله من الله تعالى (والوجه الثاني) في الجواب ماهو المراد من قوله ورحمة ربك خير مما يجمعون وتقريره ان الله تعالى اذا خص بعض عبيده بنوع من أنواع فضله ورحمته في الدين فهذه الرحمة خير من الاموال التي يجمعها لان الدنيا على شرف الانقضاء والانقراض وفضل الله ورحمته تبقى أبد الآباد * قوله تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى اذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى أجاب عن الشبهة التي ذكروها بناء على تفضيل الغني على الفقير بوجه ثالث وهو انه تعالى بين ان منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيسة عند الله وبين حقارتها بقوله ولولا أن يكون الناس امة واحدة والمعنى لولا أن يرغب الناس في الكفر اذا رأوا الكافر في سعة من الخير والرزق لأعطيتهم اكثر الاسباب المفيدة للتنعم (أحدها) أن يكون سقفهم من فضة (وثانيها) معارج أيضا من فضة عليها يظهرون (وثالثها) أن نجعل لبيوتهم أبوابا من فضة وسررا أيضا من فضة عليها يتكئون ثم قال وزخرفا وله تفسيران (أحدهما) أنه الذهب (والثاني) أنه الزينة بدليل قوله تعالى حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت فعلى التقدير الاول يكون المعنى ونجعل لهم مع ذلك ذهبا كثيرا وعلى الثاني انا نعطيهم زينة عظيمة في كل باب ثم بين تعالى ان كل ذلك متاع الحياة الدنيا وانما سماه متاعا لان الانسان يستمتع به قليلا ثم ينقضي في الحال وأما الآخرة فهي باقية دائمة وهي عند الله تعالى وفي حكمه للمتقين عن حب الدنيا المقبلين على حب المولى وحاصل الجواب ان أولئك الجهال ظنوا ان الرجل الغني أولى بمنصب الرسالة من محمد بسبب فقره فبين تعالى ان المال والجاه حقيران عند الله وانهما على شرف الزوال

استئناف مبين لحقارة متاع الدنيا ودناءة قدره عند الله عز وجل والمعنى أن حقارة شأنه بحيث لولا أن يرغب الناس لحبهم الدنيا في الكفر اذا رأوا أهله في سعة وتنعم فيجتمعوا عليه لاعطيناه بحذافيره من هو شر الخلائق وأدناهم منزلة وذلك قوله تعالى (لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة) أي متخذة منها ولبيوتهم بدل اشتمال من لمن وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن افراد المستكن في يكفر باعتبار لفظها والسقف جمع سقف كرهن جمع رهن وعن الفراء أنه جمع سقيفة كسفن وسفينة وقرئ سقفا بسكون القاف تخفيفا وسقفا اكتفاء بجمع البيوت وسقفا كأنه لغة في سقف وسقوفا (ومعارج) أي جعلنا لهم معارج من فضة أي مصاعد جمع معرج وقرئ معاريج جمع معراج (عليها يظهرون) أي يعلون السطوح والعلالي (ولبيوتهم) أي وجعلنا لبيوتهم (أبوابا ﴿ فصولهما ﴾ وسررا) من فضة (عليها) أي على السرر (يتكئون) ولعل تكرير ذكر بيوتهم لزيادة التقرير (وزخرفا) أي زينة عطف على سقفا أو ذهبا عطف على محل من فضة (وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا) أي وما كل ماذكر من البيوت الموصوفة بالصفات المفصلة الا شيء يتمتع

به في الحياة الدنيا وفي معناه ماقرئ وماكل ذلك الامتاع الحياة الدنيا وقرئ بتخفيف ما على أن ان هي المخففة واللام هي الفارقة وقرئ بكسر اللام على انها لام العلة وما موصولة قد حذف عائدها أي الذي هو متاع الخ كما في قوله تعالى تماما على الذي أحسن (والآخرة) بما فيها من فنون النعم التي تقصر عنها البيان (عند ربك للمتقين) أي عن الكفر والمعاصي وبهذا تبين أن العظيم هو العظيم في الآخرة لا في الدنيا (ومن يعش) أي يتعام (عن ذكر الرحمن) وهو القرآن واضافته الى اسم الرحمن للايذان بنزوله رحمة للعالمين وقرئ يعش بالفتح أي يعم يقال عشى يعشى اذا كان في بصره آفة وعشا يعشو اذا تعشى بلا آفة كعرج وعرج وقرئ يعشو على أن من موصولة غير مضمنة معنى الشرط والمعنى ومن يعرض عنه لفرط اشتغاله بزهرة الحياة الدنيا وانهماكه في حظوظها الفانية والشهوات (نقيض له شيطانا فهو له قرين) لا يفارقه ولا يزال يوسوسه ويغويه وقرئ يقيض بالياء على اسناده الى ضمير الرحمن ومن رفع يعشو فحقه أن يرفع يقيض (وانهم) أي الشياطين الذين قيض كل واحد منهم لكل واحد ممن يعشو (ليصدونهم) أي قرناءهم فمدار جمع الضميرين اعتبار معنى من كما أن مدار افراد الضمائر السابقة اعتبار لفظها (عن السبيل) المستبين الذي يدعو اليه القرآن (ويحسبون) أي العاشون (انهم) أي الشياطين (مهتدون) أي الى السبيل المستقيم والالما اتبعوهم أو يحسبون أن انفسهم مهتدون لان اعتقاد كون الشياطين مهتدين مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك لاتحاد مسلكهما والجملة حال من مفعول يصدون بتقدير المبتدا أو من فاعله أو منهما لاشتمالها على ضميريهما أي وانهم ليصدونهم عن الطريق الحق وهم

فحصولهما لا يفيد حصول الشرف والله أعلم (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وأبو عمرو سقفا بفتح السين وسكون القاف على لفظ الواحد لارادة الجنس كما في قوله فخر عليهم السقف من فوقهم والباقون سقفا على الجمع واختلفوا فقيل هو جمع سقف كرهن ورهن قال أبو عبيدة ولا ثالث لهما وقيل السقف جمع سقوف كرهن ورهون وزبور وزبر فهو جمع الجمع (المسئلة الثالثة) قوله لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم فقوله لبيوتهم بدل اشتمال من قوله لمن يكفر قال صاحب الكشاف قرئ معارج ومعاريج والمعارج جمع معرج أو اسم جمع لمعراج وهي المصاعد الى المساكن العالية كالدرج والسلالم عليها يظهرون أي على تلك المعارج يظهرون وفي نصب قوله وزخرفا قولان قيل لجعلنا لبيوتهم سقفا من فضة وجعلنا لهم زخرفا وقيل من فضة وزخرف فلما حذف الخافض انتصب وأما قوله وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا قرأ عاصم وحمزة لما بتشديد الميم والباقون بالتخفيف أما قراءة حمزة بالتشديد فانه جعل لما في معنى الا وحكى سيبويه نشدتك بالله لما فعلت بمعنى الا فعلت ويقوى هذه القراءة ان في حرف أبي وما ذلك الا متاع الحياة الدنيا وهذا يدل على ان لما بمعنى الا وأما القراءة بالتخفيف فقال الواحدي لفظة ما لغو والتقدير لمتاع الحياة الدنيا قال أبو الحسن الوجه التخفيف لان لما بمعنى الا لا تعرف وحكى عن الكسائي أنه قال لا أعرف وجه التثقيل (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة دلت الآية على انه تعالى انما لم يعط الناس نعم الدنيا لاجل انه لو فعل بهم ذلك لدعاهم ذلك الى الكفر فهو تعالى لم يفعل بهم ذلك لاجل أن لا يدعوهم الى الكفر وهذا يدل على أحكام (أحدها) أنه اذا لم يفعل بهم ما يدعوهم الى الكفر فلأن لا يخلق فيهم الكفر أولى (وثانيها) أنه ثبت ان فعل اللطف قائم مقام ازاحة العذر والعلة فلما بين تعالى انه لم يفعل ذلك ازاحة للعذر والعلة عنهم دل ذلك على أنه يجب أن يفعل بهم كل ما كان لطفا داعيا لهم الى الايمان فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على أنه يجب على الله تعالى فعل اللطف (وثالثها) أنه ثبت بهذه الآية ان الله تعالى انما يفعل ما يفعله ويترك ما يتركه لاجل حكمة ومصلحة وذلك يدل على تعليل أحكام الله تعالى وأفعاله بالمصالح والعلل فان قيل لما بين تعالى أنه لو فتح على الكافر أبواب النعم لصار ذلك سببا لاجتماع الناس على الكفر فلم لم يفعل ذلك بالمسلمين حتى يصير ذلك سببا لاجتماع الناس على الاسلام قلنا لان الناس على هذا التقدير كانوا يجتمعون على الاسلام لطلب الدنيا وهذا الايمان ايمان المنافقين فكان الاصوب أن يضيق الامر على المسلمين حتى ان كل من دخل الاسلام فانما يدخل فيه لمتابعة الدليل ولطلب رضوان الله تعالى فحينئذ يعظم ثوابه لهذا السبب ثم قال تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين والمراد منه التنبيه على آفات الدنيا وذلك ان من فاز بالمال والجاه صار كالاعشى عن ذكر الله ومن صار كذلك صار من جلساء الشياطين الضالين المضلين فهذا وجه تعلق هذا الكلام بما قبله قال صاحب الكشاف

يحسبون أنهم مهتدون اليه وصيغة المضارع في الافعال الاربعة للدلالة على الاستمرار التجددي لقوله تعالى (حتى اذا جاءنا) فان حتى وان كانت ابتدائية داخلة على الجملة الشرطية لكنها تقتضي حتما أن تكون غاية لامر ممتد كما مر مرارا وافراد الضمير في جاء ومابعده لما أن المراد حكاية مقالة كل واحد واحد من العاشين لقرينه لتهويل الامر وتفظيع الحال والمعنى يستمر العاشون على ماذكر من مقارنة الشياطين والصد والحسبان الباطل حتى اذا جاءنا كل واحد منهم مع قرينه يوم القيامة (قال) مخاطبا له (ياليت بيني و بينك) في الدنيا (بعد المشرقين) أي بعد المشرق والمغرب أي تباعد كل منهما عن الآخر فغلب المشرق وثنى وأضيف البعد اليهما (فبئس القرين) أي أنت وقوله تعالى (ولن ينفعكم) الخ حكاية لما سيقال لهم حينئذ من جهة الله عز وجل توبيخا وتقريعا أي لن ينفعكم (اليوم) أي يوم القيامة تمنيكم لمباعدتهم (اذ ظلمتم) أي لاجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا باتباعكم اياهم في الكفر والمعاصي وقيل اذ ظلمتم بدل من اليوم أي اذ تبين عندكم وعند الناس جميعا أنكم ظلمتم انفسكم في الدنيا وعليه قول من قال * اذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة * أي تبين أني لم تلدني لئيمة بل كريمة وقوله تعالى (انكم في العذاب مشتركون) تعليل لنفي النفع أي لان حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا و يجوز أن يسند الفعل اليه لكن لا بمعنى لن ينفعكم اشتراككم في العذاب كما ينفع الواقعين في شدائد الدنيا اشتراكهم فيها لتعاونهم في تحمل أعبائها وتقسمهم لعنائها لان لكل منهم مالا تبلغه طاقته كما قيل لان الانتفاع بذلك الوجه مما يخطر ببالهم حتى يرد

قرئ ومن يعش بضم الشين وفتحها والفرق بينهما انه اذا حصلت الآفة في بصره قيل عشى واذا نظر نظر العشى ولا آفة به قيل عشى ونظيره عرج لمن به الآفة وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج قال الحطيئة * متى تأته تعشو الى ضوء ناره * أي تنظر اليها نظر العشى لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء وقرئ يعشو على ان من موصولة غير مضمنة معنى الشرط وحق هذا القارئ ان يرفع نقيض ومعنى القراءة بالفتح ومن يعم عن ذكر الرحمن وهو القرآن لقوله صم بكم عمي وأما القراءة بالضم فمعناها ومن يتعام عن ذكره أي يعرف انه الحق وهو يتجاهل و يتعامى كقوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم نقيض له شيطانا قال مقاتل نضم اليه شيطانا فهو له قرين ثم قال وانهم ليصدونهم عن السبيل يعني وان الشياطين ليصدونهم عن سبيل الهدى والحق وذكر الكناية عن الانسان والشياطين بلفظ الجمع لان قوله ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا يفيد الجمع وان كان اللفظ على الواحد و يحسبون أنهم مهتدون يعني الشياطين يصدون الكفار عن السبيل والكفار يحسبون أنهم مهتدون ثم عاد الى اللفظ الواحد فقال حتى اذا جاءنا يعني الكافر وقرئ جاآنا يعني الكافر وشيطانه روى ان الكافر اذا بعث يوم القيامة من قبره أخذ شيطانه بيده فلم يفارقه حتى يصيرهما الله الى النار فذلك حيث يقول ياليت بيني و بينك بعد المشرقين والمراد ياليت حصل بيني و بينك بعد على أعظم الوجوه واختلفوا في تفسير قوله بعد المشرقين وذكروا فيه وجوها (الاول) قال الاكثرون المراد بعد المشرق والمغرب ومن عادة العرب تسمية الشيئين المتقابلين باسم أحدهما قال الفرزدق * لنا قمراها والنجوم الطوالع * يريد الشمس والقمر ويقولون للكوفة والبصرة البصرتان وللغداة والعصر العصران ولابي بكر وعمر العمران وللماء والتمر الاسودان (الثاني) ان أهل النجوم يقولون الحركة التي تكون من المشرق الى المغرب هي حركة الفلك الاعظم والحركة التي من المغرب الى المشرق هي حركة الكواكب الثابتة وحركة الافلاك الممثلة التي للسيارات سوى القمر واذا كان كذلك فالمشرق والمغرب كل واحد منهما مشرق بالنسبة الى شيء آخر فثبت ان اطلاق لفظ المشرق على كل واحد من الجهتين حقيقة (الثالث) قالوا يحمل ذلك على مشرق الصيف ومشرق الشتاء و بينهما بعد عظيم وهذا بعيد عندي لان المقصود من قوله ياليت بيني و بينك بعد المشرقين المبالغة في حصول البعد وهذه المبالغة انما تحصل عند ذكر بعد لا يمكن وجود بعد آخر أزيد منه والبعد بين مشرق الصيف ومشرق الشتاء ليس كذلك فيبعد حمل اللفظ عليه (الرابع) وهو ان الحس يدل على ان الحركة اليومية انما تحصل بطلوع الشمس من المشرق الى المغرب وأما القمر فانه يظهر في أول الشهر في جانب المغرب ثم لا يزال يتقدم الى جانب المشرق وذلك يدل على أن مشرق حركة القمر هو المغرب واذا ثبت هذا فالجانب المسمى بالمشرق هو مشرق الشمس ولكنه مغرب القمر وأما الجانب المسمى بالمغرب فانه

عليهم بئ ؤ بل يعني لن يحصل لكم التشفي بكون قرنائكم معذبين مثلكم حيث كنتم تدعون عليهم بقولكم ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا وقولكم فآتهم عذابا ضعفا من النار ونظائرهما لتشتفوا بذلك * كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبالغ في المجاهدة في دعاء قومه وهم لا يزيدون الا غيا وتعاميا عما يشاهدونه من شواهد النبوة وتصاما عما يسمعونه من بينات القرآن فنزل (أفأنت تسمع ﴿٤٤٥﴾ الصم أو تهدي العمي) وهو انكار تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم وهم قد تمرنوا في الكفر واستغرقوا في الضلال بحيث صار ما بهم من العشي عمى مقرونا بالصمم (ومن كان في ضلال مبين) عطف على العمي باعتبار تغاير الوصفين ومدار الانكار هو التمكن والاستقرار في الضلال المفرط بحيث لا ارعواء له منه لا توهم القصور من قبل الهادي ففيه رمز الى أنه لا يقدر على ذلك الا الله تعالى وحده بالقسر والالجاء (فاما نذهبن بك) أي فان قبضناك قبل أن نبصرك عذابهم ونشفي بذلك صدرك وصدور المؤمنين (فانا منهم منتقمون) لا محالة في الدنيا والآخرة فامزيدة للتأكيد بمنزلة لام القسم في أنها لا تفارق النون المؤكدة (أو نرينك الذي وعدناهم) أي أو أردنا أن نريك العذاب الذي وعدناهم (فانا عليهم مقتدرون) بحيث لا مناص لهم من تحت ملكتنا وقهرنا وقد أراه عليه السلام ذلك يوم بدر (فاستمسك بالذي أوحي اليك) من الآيات والشرائع سواء عجلنا لك الموعود أو أخرناه الى يوم الآخرة وقرئ أوحى على البناء للفاعل وهو لله عز وجل (انك على صراط مستقيم) تعليل للاستمساك أو للامر به (وانه لذكر) لشرف عظيم (لك ولقومك وسوف تسألون) يوم القيامة عنه وعن قيامكم

مشرق القمر ولكنه مغرب الشمس وبهذا التقدير يصح تسمية المشرق والمغرب بالمشرقين ولعل هذا الوجه أقرب الى مطابقة اللفظ ورعاية المقصود من سائر الوجوه والله أعلم ثم قال تعالى فبئس القرين أي الكافر يقول لذلك الشيطان ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين أنت فهذا ما يتعلق بتفسير الالفاظ والمقصود من هذا الكلام تحقير الدنيا وبيان ما في المال والجاه من المضار العظيمة وذلك لان كثرة المال والجاه تجعل الانسان كالاعشى عن مطالعة ذكر الله تعالى ومن صار كذلك صار جليسا للشيطان ومن صار كذلك ضل عن سبيل الهدى والحق وبقي جليس الشيطان في الدنيا وفي القيامة ومجالسة الشيطان حالة توجب الضرر الشديد في القيامة بحيث يقول الكافر ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين أنت فثبت بما ذكرنا ان كثرة المال والجاه توجب كمال النقصان والحرمان في الدين والدنيا واذا ظهر هذا فقد ظهر ان الذين قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم قالوا كلاما فاسدا وشبهة باطلة ثم قال تعالى ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون فقوله انكم في محل الرفع على الفاعلية يعني ولن ينفعكم اليوم كونكم مشتركين في العذاب والسبب فيه ان الناس يقولون المصيبة اذا عمت طابت وقالت الخنساء في هذا المعنى

ولولا كثرة الباكين حولي * على اخوانهم لقتلت نفسي
ولا يبكون مثل أخي ولكن * أعزي النفس عنه بالتأسي

فبين تعالى ان حصول الشركة في ذلك العذاب لا يفيد التخفيف كما كان يفيده في الدنيا والسبب فيه وجوه (الاول) ان ذلك العذاب شديد فاشتغال كل واحد بنفسه يذهله عن حال الآخر فلا جرم الشركة لا تفيد الخفة (الثاني) ان قوما اذا اشتركوا في العذاب أعان كل واحد منهم صاحبه بما قدر عليه فيحصل بسببه بعض التخفيف وهذا المعنى متعذر في القيامة (الثالث) ان جلوس الانسان مع قرينه يفيده أنواعا كثيرة من السلوة فبين تعالى ان الشيطان وان كان قرينا له الا ان مجالسته في القيامة لا توجب السلوة وخفة العقوبة وفي كتاب ابن مجاهد عن ابن عامر قرأ اذ ظلمتم انكم بكسر الالف والباقون انكم بفتح الالف والله أعلم * قوله تعالى (أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون أو نرينك الذي وعدناهم فانا عليهم مقتدرون فاستمسك بالذي أوحي اليك انك على صراط مستقيم وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) اعلم انه تعالى لما وصفهم في الآية المتقدمة بالعشى وصفهم في هذه الآية بالصمم والعمى وما أحسن هذا الترتيب وذلك لان الانسان في أول اشتغاله بطلب الدنيا يكون كمن حصل بعينه رمد ضعيف ثم كلما كان اشتغاله بتلك الاعمال أكثر كان ميله الى الجسمانيات أشد واعراضه عن الروحانيات أكمل لما ثبت في علوم العقل ان كثرة

بحقوقه (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا) أى واسأل أممهم وعلماء دينهم كقوله تعالى فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك وفائدة هذا المجاز التنبيه على أن المسؤل عنه عين ما نطقت به ألسنة الرسل لا ما يقوله أممهم وعلماؤهم من تلقاء أنفسهم قال الفراء هم انما يخبرونه عن كتب الرسل فاذا سألهم فكأنه سأل الانبياء عليهم الصلاة والسلام (أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) أى هل حكمنا بعبادة الاوثان وهل جاءت ﴿ ٤٤٦ ﴾ فى ملة من مللهم والمراد به الاستشهاد باجماع الانبياء على التوحيد والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه حتى يكذب و يعادى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) ملتبسا بها (الى فرعون وملئه فقال انى رسول رب العالمين) أريد باقتصاصه تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستشهاد بدعوة موسى عليه السلام الى التوحيد اثر ما أشير الى اجماع جميع الرسل عليهم السلام عليه (فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منها يضحكون) أى فاجؤا وقت ضحكهم منها أى استهزؤا بها اول ما رأوها ولم يتأملوا فيها (وما نريهم من آية) من الآيات (الا هى أكبر من أختها) الا وهى بالغة أقصى مراتب الاعجاز بحيث يحسب كل من ينظر اليها أنها أكبر من كل ما يقاس بها من الآيات والمراد وصف الكل بغاية الكبر من غير ملاحظة قصور فى شئ منها والا وهى مختصة بضرب من الاعجاز مفضلة بذلك الاعتبار على غيرها (وأخذناهم بالعذاب) كالسنين والطوفان والجراد وغيرها (لعلهم ﴿ عليه ﴾ يرجعون) لكى يرجعوا عما هم عليه من الكفر (وقالوا يا أيها الساحر) نادوه بذلك فى مثل تلك الحالة لغاية عتوهم ونهاية حماقتهم وقيل كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم

الافعال توجب حصول الملكات الراسخة فينتقل الانسان من الرمد الى ان يصير اعشى فاذا واظب على تلك الحالة أياما أخرى انتقل من كونه اعشى الى كونه أعمى فهذا ترتيب حسن موافق لما ثبت بالبراهين اليقينية روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يجتهد فى دعاء قومه وهم لا يزيدون الا تصميما على الكفر وتماديا فى الغى فقال تعالى أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى يعنى انهم بلغوا فى النفرة عنك وعن دينك الى حيث اذا أسمعتهم القرآن كانوا كالاصم واذا أريتهم المعجزات كانوا كالاعمى ثم بين تعالى ان صممهم وعماهم انما كان بسبب كونهم فى ضلال مبين ولما بين تعالى ان دعوته لا تؤثر فى قلوبهم قال فاما نذهبن بك يريد بحصول الموت قبل نزول النقمة بهم فانا منهم منتقمون بعدك أو نرينك فى حياتك ما وعدناهم من الذل والقتل فانا مقتدرون على ذلك واعلم ان هذا الكلام يفيد كمال التسلية للرسول عليه السلام لانه تعالى بين أنهم لا تؤثر فيهم دعوته واليأس احدى الراحتين ثم بين انه لابد وأن ينتقم لاجله منهم اما حال حياته أو بعد وفاته وذلك أيضا يوجب التسلية فبعد هذا أمره أن يتمسك بما أمره الله تعالى به فقال فاستمسك بالذى أوحى اليك بأن تعتقد أنه حق و بأن تعمل بموجبه فانه الصراط المستقيم الذى لا يميل عنه الا ضال فى الدين ولما بين تأثير التمسك بهذا الدين فى منافع الدين بين أيضا تأثيره فى منافع الدنيا فقال وانه لذكر لك ولقومك أى انه يوجب الشرف العظيم لك ولقومك حيث يقال ان هذا الكتاب العظيم أنزله الله على رجل من قوم هؤلاء واعلم ان هذه الآية تدل على الانسان لابد وأن يكون عظيم الرغبة فى الثناء الحسن والذكر الجميل ولو لم يكن الذكر الجميل أمرا مرغوبا فيه لما من الله به على محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال وانه لذكر لك ولقومك ولما طلبه ابراهيم عليه السلام حيث قال واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ولان الذكر الجميل قائم مقام الحياة الشريفة بل الذكر أفضل من الحياة لان أثر الحياة لا يحصل الا فى مسكن ذلك الحى أما أثر الذكر الجميل فانه يحصل فى كل مكان وفى كل زمان ثم قال تعالى وسوف تسئلون وفيه وجوه (الاول) قال الكلبى تسألون هل أديتم شكر أنعامنا عليكم بهذا الذكر الجميل (الثانى) قال مقاتل المراد أن من كذب به يسأل لم كذبه فيسأل سؤال توبيخ (الثالث) تسألون هل عملتم بما دل القرآن عليه من التكاليف واعلم أن السبب الاقوى فى انكار الكفار لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم وابغضهم له أنه كان ينكر عبادة الاصنام فبين تعالى ان انكار عبادة الاصنام ليس من خواص دين محمد صلى الله عليه وسلم بل كل الانبياء والرسل كانوا مطبقين على انكاره فقال واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمة آلهة يعبدون وفيه أقوال (الاول) معناه واسأل مؤمنى اهل الكتاب أى أهل التوراة والانجيل فانهم سيخبرونك انه لم يرد فى دين أحد من الانبياء عبادة الاصنام واذا كان هذا الامر متفقا عليه بين كل الانبياء والرسل وجب ان لا يجعلوه سببا لبغض محمد صلى الله

السحر وقرئ الساحر بضم الهاء (ادع لنا ربك) ليكشف عنا العذاب (بما عهد عندك) بعهده عندك من النبوة او من استجابة دعوتك او من كشف العذاب عمن اهتدى او بما عهد عندك فوفيت به من الايمان والطاعة (اننا لمهتدون) أى لمؤمنون على تقدير كشف العذاب عنا بدعوتك كقولهم لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك (فلما كشفنا عنهم العذاب) بدعوته (اذاهم ينكثون) فاجؤا وقت نكث عهدهم بالاهتداء وقدمر تفصيله فى الاعراف (ونادى فرعون) بنفسه أو بمناديه (فى قومه) فى مجمعهم وفيما بينهم بعد ان كشف العذاب عنهم مخافة أن يؤمنوا (قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار) أنهار النيل ومعظمها أربعة انهر نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس (تجرى من تحتى) أى من تحت قصرى أو أمرى وقيل من تحت سريرى لارتفاعه وقيل بين يدى فى جنانى و بساتينى والواو اما عاطفة لهذه الانهار على ملك مصر فتجرى حال منها أو للحال فهذه مبتدأ والانهار صفتها وتجرى خبر للمبتدأ (أفلا تبصرون) ذلك يريد به استعظام ملكه (أم أنا خير) مع هذه المملكة والبسطة (من هذا الذى هو مهين) ضعيف حقير من المهانة وهى القلة (ولا يكاد يبين) أى الكلام قاله افتراء عليه عليه السلام وتنقيصا له عليه السلام فى أعين الناس باعتبار ماكان فى لسانه عليه السلام من نوع رتة وقد كانت ذهبت عنه لقوله تعالى قد أوتيت سؤلك وأم اما منقطعة والهمزة للتقرير كأنه قال اثر ماعدد اسباب فضله ومبادى خيريته أثبت عندكم واستقر لديكم أنى أنا خير وهذه حالى من هذا الخ واما متصلة فالمعنى افلا

عليه وسلم (والقول الثانى) قال عطاء عن ابن عباس لما أسرى به صلى الله عليه وسلم الى المسجد الاقصى بعث الله له آدم وجميع المرسلين من ولده فأذن جبريل ثم أقام فقال يامحمد تقدم فصل بهم فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة قال له جبريل عليه السلام واسأل يامحمد من أرسلنا من قبلك من رسلنا الآية فقال صلى الله عليه وسلم لاأسال لانى لست شاكا فيه (والقول الثالث) ان ذكر السؤال فى موضع لايمكن السؤال فيه يكون المراد منه النظر والاستدلال كقول من قال سل الارض من شق انهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك فانها ان لم تجبك جوابا اجابتك اعتبارا فههنا سؤال النبى صلى الله عليه وسلم على الانبياء الذين كانوا قبله ممتنع فكان المراد منه انظر فى هذه المسئلة بعقلك وتدبر فيها بفهمك والله أعلم * قوله تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملائه فقال انى رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا اذاهم منها يضحكون وما نريهم من آية الا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون وقالوا ياأيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون فلما كشفنا عنهم العذاب اذاهم ينكثون ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى افلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن المقصود من اعادة قصة موسى عليه السلام وفرعون فى هذا المقام تقرير الكلام الذى تقدم وذلك لان كفار قريش طعنوا فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسبب كونه فقيرا عديم المال والجاه فبين الله تعالى أن موسى عليه السلام بعد ان أورد المعجزات القاهرة الباهرة التى لايشك على صحتها عاقل أورد فرعون عليه هذه الشبهة التى ذكرها كفار قريش فقال انى غنى كثير المال والجاه ألا ترون انه حصل لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى وأما موسى فانه فقير مهين وليس له بيان ولسان والرجل الفقير كيف يكون رسولا من عند الله الى الملك الكبير الغنى فثبت ان هذه الشبهة التى ذكرها كفار مكة وهى قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم قد أوردها بعينها فرعون على موسى ثم انا انتقمنا منهم فأغرقناهم والمقصود من ايراد هذه القصة تقرير أمرين (أحدهما) ان الكفار والجهال أبدا يحتجون على الانبياء بهذه الشبهة الركيكة فلا يبالى بها ولا يلتفت اليها (والثانى) ان فرعون على غاية كمال حال فى الدنيا صار مقهورا باطلا فيكون الامر فى حق أعدائك هكذا فثبت انه ليس المقصود من اعادة هذه القصة عين هذه القصة بل المقصود تقرير الجواب عن الشبهة المذكورة وعلى هذا فلا يكون هذا تقريرا للقصة البتة وهذا من نفائس الابحاث والله أعلم

(المسئلة الثانية) في تفسير الالفاظ ذكر تعالى انه ارسل موسى بآياته وهي المعجزات التي كانت مع موسى عليه السلام الى فرعون وملائه أي قومه فقال موسى اني رسول رب العالمين فلما جاءهم بتلك الآيات اذاهم منها يضحكون قيل انه لما ألقى عصاه صار ثعبانا ثم أخذه فعاد عصا كما كان ضحكوا ولما عرض عليهم اليد البيضاء ثم عادت كما كانت ضحكوا فان قيل كيف جاز ان يجاب عن لما باذا الذي يفيد المفاجأة قلنا لان فعل المفاجأة معها مقدر كأنه قيل فلما جاءهم بآياتنا فاجؤا وقت ضحكهم ثم قال وما نريهم من آية الاهي اكبر من أختها فان قيل ظاهر هذا اللفظ يقتضي كون كل واحد منها أفضل من الثاني وذلك محال قلنا اذا أريد المبالغة في كون كل واحد من تلك الاشياء بالغا الى أقصى الدرجات في الفضيلة فقد يذكر هذا الكلام بمعنى انه لا يبعد في أناس ينظرون اليها أن يقول هذا ان هذا أفضل من الثاني وأن يقول الثاني لا بل الثاني أفضل وأن يقول الثالث لا بل الثالث أفضل وحينئذ يصير كل واحد من تلك الاشياء مقولا فيه انه أفضل من غيره ثم قال تعالى وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون أي عن الكفر الى الايمان قالت المعتزلة هذا يدل على انه تعالى يريد الايمان من الكل وانما أظهر تلك المعجزات القاهرة لارادة ان يرجعوا من الكفر الى الايمان قال المفسرون ومعنى قوله وأخذناهم بالعذاب أي بالاشياء التي سلطها عليهم كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس ثم قال تعالى وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون فان قيل كيف سموه بالساحر مع قولهم اننا لمهتدون قلنا فيه وجوه (الاول) انهم كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لانهم كانوا يستعظمون السحر وكما يقال في زماننا في العامل العجيب الكامل انه أتى بالسحر (الثاني) يا أيها الساحر في زعم الناس ومتعارف قوم فرعون كقوله يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون أي نزل عليه الذكر في اعتقاده وزعمه (الثالث) ان قولهم اننا لمهتدون وقد كانوا عازمين على خلافه ألا ترى الى قوله فلما كشفنا عنهم العذاب اذاهم ينكثون فتسميتهم اياه الساحر لا ينافي قولهم اننا لمهتدون ثم بين تعالى انه لما كشف عنهم العذاب نكثوا ذلك العهد ولما حكى الله تعالى معاملة قوم فرعون مع موسى حكى أيضا معاملة فرعون معه فقال ونادى فرعون في قومه والمعنى انه أظهر هذا القول فقال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي يعني الانهار التي فصلوها من النيل ومعظمها أربعة نهر الملك ونهر دمياط ونهر تنيس قيل كانت تجري تحت قصره وحاصل الامر انه احتج بكثرة أمواله وقوة جاهه على فضيلة نفسه ثم قال أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين وعنى بكونه مهينا كونه فقيرا ضعيف الحال وبقوله ولا يكاد يبين حبسة كانت في لسانه واختلفوا في معنى أم ههنا فقال أبو عبيدة مجازها بل أنا خير وعلى هذا فقد تم الكلام عند قوله أفلا تبصرون ثم ابتدأ فقال أم أنا خير بمعنى بل أنا خير وقال الباقون أم هذه متصلة لان المعنى

تبصرون أم تبصرون خلافه وضع قوله أنا خير موضع تبصرون لانهم اذا قالوا له انت خير فهم عنده بصراء وهذا من باب تنزيل السبب منزلة المسبب ويجوز ان يجعل من تنزيل المسبب منزلة السبب فان ابصارهم لما ذكر من أسباب فضله سبب على زعمه لحكمهم بخيريته (فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب) أي فهلا ألقي اليه مقاليد الملك ان كان صادقا لما أنهم كانوا اذا سودوا رجلا سوروه وطوقوه بطوق من ذهب وأسورة جمع سوار وقرئ أساور جمع أسورة وقرئ أساورة جمع أسوار بمعنى السوار على تعويض التاء من ياء أساوير وقد قرئ كذلك وقرئ ألقى عليه أسورة وأساور على البناء للفاعل وهو الله تعالى (أو جاء معه الملائكة مقترنين) مقرونين يعينونه أو يصدقونه من قرنته به فاقترن أو متقارنين من اقترن بمعنى تقارن (فاستخف قومه) فاستفزهم وطلب منهم الخفة في مطاوعته أو فاستخف أحلامهم (فأطاعوه) فيما أمرهم به (انهم كانوا قوما فاسقين) فلذلك سارعوا الى طاعة ذلك الفاسق الغوي (فلما آسفونا) أي أغضبونا أشد الغضب منقول من أسف اذا اشتد غضبه (انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) في اليم (فجعلناهم سلفا) قدوة لمن بعدهم من الكفار يسلكون مسلكهم في استيجاب مثل ما حل بهم من العذاب وهو اما مصدر نعت به أو جمع سالف كخدم جمع خادم وقرئ بضم السين واللام على أنه جمع سليف أي فريق قد سلف كرغف أو سالف كصبر أو سلف كأسد وقرئ سلفا بابدال ضمة اللام فتحة أو على أنه جمع سلفة أي ثلة قد سلفت (ومثلا للآخرين) أي عظة لهم أو قصة عجيبة تسير مسير الامثال لهم فيقال مثلكم مثل قوم فرعون

(ولما ضرب ابن مريم مثلا) أى ضرب به ابن الزبعرى حين جادل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم حيث قال أهذا لنا ولآلهتنا أو لجميع الامم فقال عليه الصلاة والسلام هو لكم ولآلهتكم ولجميع الامم فقال اللعين خصمتك ورب الكعبة أليس النصارى يعبدون المسيح واليهود عزيرا وبنو مليح الملائكة فان كان هؤلاء فى النار فقد رضينا أن نكون ﴿ ٤٤٩ ﴾ نحن وآلهتنا معهم ففرح به قومه وضحكوا وارتفعت أصواتهم وذلك قوله تعالى (اذا قومك منه) أى من ذلك المثل (يصدون) اى يرتفع لهم جلبة وضجيج فرحا وجذلا وقرئ يصدون أى من أجل ذلك المثل يعرضون عن الحق أى يثبتون على ما كانوا عليه من الاعراض أو يزدادون فيه وقيل هو ايضا من الصديد وهما لغتان فيه نحو يعكف ويعكف وهو الانسب بمعنى المفاجأة (وقالوا أآلهتنا خير أم هو) حكاية لطرف من المثل المضروب قالوه تمهيدا لما بنوا عليه من الباطل المموه بما يغتر به السفهاء أى ظاهر أن عيسى خير من آلهتنا فحيث كان هو فى النار فلا بأس بكوننا مع آلهتنا فيها واعلم أن ما نقل عنهم من الفرح ورفع الاصوات لم يكن لما قيل من أنه عليه الصلاة والسلام سكت عند ذلك الى أن نزل قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية فان ذلك مع ايهامه لما يجب تنزيه ساحته عليه الصلاة والسلام عنه من شائبة الافحام من أول الامر خلاف الواقع كيف لا وقد روى أن قول ابن الزبعرى خصمتك ورب الكعبة صدر عنه من أول الامر عند سماع ﴿ ٥٧ ﴾ سبأ الآية الكريمة فرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله عليه السلام ما أجهلك بلغة قومك أما فهمت أن ما لما لا يعقل وانما لم يخص عليه السلام هذا الحكم بآلهتهم حين سأل الفاجر عن الخصوص والعموم ثم لا بما ذكر من اختصاص كلمة ما بغير العقلاء لان اخراج بعض المعبودين عنه عند المحاجة موهم للرخصة فى عبادته فى الجملة فعممه عليه السلام للكل لكن لا بطريق عبارة النص بل بطريق الدلالة بجامع الاشتراك فى المعبودية

أفلا تبصرون أن تبصرون الا أنه وضع قوله أنا خير موضع تبصرون لانهم اذا قالوا له أنت خير فهم عنده بصراء وقال آخرون ان تمام الكلام عند قوله أم وقوله أنا خير ابتداء الكلام والتقدير أفلا تبصرون أم تبصرون لكنه اكتفى فيه بذكر أم كما تقول لغيرك أتأكل أم أى أتأكل أم لا تأكل تقتصر على ذكر كلمة أم ايثارا للاختصار فكذا ههنا فان قيل أليس أن موسى عليه السلام سأل الله تعالى أن يزيل الرتة عن لسانه بقوله واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى فأعطاه الله تعالى ذلك بقوله قد أوتيت سؤلك يا موسى فكيف عابه فرعون بتلك الرتة (والجواب) عنه من وجهين (الاول) ان فرعون أراد بقوله ولا يكاد يبين حجته التى تدل على صدقه فيما يدعى ولم يرد أنه لا قدرة له على الكلام (والثانى) انه عابه بما كان عليه أولا وذلك أن موسى كان عند فرعون زمانا طويلا وفى لسانه حبسة فنسبه فرعون الى ما عهده عليه من الرتة لانه لم يعلم ان الله تعالى أزال ذلك العيب عنه ثم قال فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب والمراد ان عادة القوم جرت بأنهم اذا جعلوا واحدا منهم رئيسا لهم سوروه بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب فطلب فرعون من موسى مثل هذه الحالة واختلف القراء فى اسورة فبعضهم قرأ اسورة وآخرون أساورة فأسورة جمع سوار لادنى العدد كقولك حمار واحمرة وغراب واغربة ومن قرأ أساورة فذلك لان أساور جمع اسوار وهو السوار فأساورة تكون الهاء عوضا عن الياء نحو بطريق وبطارقة وزنديق وزنادقة وفرزين وفرازنة فتكون أساورة جمع اسوار وحاصل الكلام يرجع الى حرف واحد وهو ان فرعون كان يقول أنا أكثر مالا وجاها فوجب أن أكون أفضل منه فيمتنع كونه رسولا من الله لان منصب النبوة يقتضى المخدومية والاخس لا يكون مخدوما للاشرف ثم المقدمة الفاسدة هى قوله من كان أكثر مالا وجاها فهو أفضل وهى عين المقدمة التى تمسك بها كفار قريش فى قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ثم قال أو جاء معه الملائكة مقترنين يجوز أن يكون المراد مقترنين به من قولك قرنته به فاقترن وان يكون من قولهم اقترنوا بمعنى تقارنوا قال الزجاج معناه يمشون معه فيدلون على صحة نبوته ثم قال تعالى فاستخف قومه فأطاعوه أى طلب منهم الخفة فى الاتيان بما كان يأمرهم به فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين حيث أطاعوا ذلك الجاهل الفاسق فلما آسفونا أغضبونا حكى أن ابن جريج غضب فى شئ فقيل له أتغضب يا أبا خالد فقال قد غضب الذى خلق الاحلام ان الله يقول فلما آسفونا أى أغضبونا ثم قال تعالى انتقمنا منهم واعلم ان ذكر لفظ الاسف فى حق الله تعالى محال وذكر لفظ الانتقام وكل واحد منهما من المتشابهات التى يجب أن يصار فيها الى التأويل ومعنى الغضب فى حق الله ارادة العقاب ومعنى الانتقام ارادة العقاب لجرم سابق ثم قال تعالى فجعلناهم سلفا ومثلا السلف كل شئ قدمته من عمل صالح أو قرض فهو سلف والسلف أيضا من تقدم من آبائك وأقاربك واحدهم سالف ومنه قول طفيل يرثى قومه

من دون الله تعالى ثم بين عليه الصلاة والسلام بقوله بل هم عبدوا الشياطين التي امرتهم بذلك ان الملائكة والمسيح بمعزل من أن يكونوا معبوديهم كما نطق به قوله تعالى سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن الآية وقد مر تحقيق المقام عند قوله تعالى ان الذين سبقت لهم من الحسنى الآية بل انما كان ما أظهروه من الاحوال المنكرة لمحض وقاحتهم وتهالكهم على المكابرة والعناد كما ينطق به قوله تعالى (ماضربوه لك ﴿ ٤٥٠ ﴾ الا جدلا) أي ماضربوا لك ذلك المثل الا لأجل الجدال والخصام لا لطلب الحق حتى يذعنوا له عند ظهوره ببيانك (بل هم قوم خصمون) أى لدشداد الخصومة مجبولون على المحك واللجاج وقيل لما سمعوا قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب قالوا نحن أهدى من النصارى لانهم عبدوا آدميا ونحن نعبد الملائكة فنزلت فقولهم أآلهتنا خير أم هو حينئذ تفضيل لآلهتهم على عيسى عليه السلام لان المراد بهم الملائكة ومعنى ماضربوه الخ ماقالوا هذا القول الا للجدل وقيل لما نزلت ان مثل عيسى الآية قالوا ما يريد محمد بهذا الا أن نعبده وأنه يستأهل أن يعبد وان كان بشرا كما عبدت النصارى المسيح وهو بشر ومعنى يصدون يضجون ويضجرون والضمير في أم هو لمحمد عليه الصلاة والسلام وغرضهم بالموازنة بينه عليه السلام وبين آلهتهم الاستهزاء به وقد جوز أن يكون مرادهم التنصل عما أنكر عليهم من قولهم الملائكة بنات الله تعالى ومن عبادتهم لهم كأنهم قالوا ماقلنا بدعا من القول ولا نعلنا منكرا من الفعل فان النصارى جعلوا المسيح ابن الله وعبدوه فنحن أشف منهم قولا وفعلا ﴿ جهنم ﴾ حيث نسبنا اليه الملائكة وهم نسبوا اليه الاناسي فقوله تعالى (ان هو الا عبد أنعمنا عليه) اى بالنبوة (وجعلناه مثلا لبني اسرائيل) أى أمرا عجيبا حقيقا بان يسير ذكره كالامثال السائرة على الوجه الاول استئناف مسوق لتنزيهه عليه السلام عن أن ينسب اليه ما نسب الى الاصنام بطريق الرمز كما نطق به صريحا قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى

مضوا سلفا قصد السبيل عليهم * وصرف المنايا بالرجال تقلب

فعلى هذا قال الفراء والزجاج يقول جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخرون أى جعلناهم سلفا الكفار أمة محمد عليه السلام وأكثر القراء قرؤا بالفتح وهو جمع سالف كما ذكرناه وقرأ حمزة والكسائي سلفا بالضم وهو جمع سلف قال الليث يقال سلف بضم اللام يسلف سلوفا فهو سلف أى متقدم وقوله ومثلا للآخرين يريد عظة لمن بقي بعدهم وآية وعبرة قال أبو علي الفارسي المثل واحد يراد به الجمع ومن ثم عطف على سلف والدليل على وقوعه على أكثر من واحد قوله تعالى ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ ومن رزقناه فأدخل تحت المثل شيئين والله أعلم *قوله تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ماضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ان هو الا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني اسرائيل ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الارض يخلفون وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ولا يصدنكم الشيطان انه لكم عدو مبين) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى ذكر أنواعا كثيرة من كفرياتهم في هذه السورة وأجاب عنها بالوجوه الكثيرة (فأولها) قوله تعالى وجعلوا له من عباده جزأ (وثانيها) قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا (وثالثها) قوله وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم (ورابعها) قوله وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (وخامسها) هذه الآية التي نحن الآن في تفسيرها ولفظ الآية لا يدل الا على انه لما ضرب ابن مريم مثلا أخذ القوم يضجون ويرفعون أصواتهم فاما ان ذلك المثل كيف كان وفي أي شئ كان فاللفظ لا يدل عليه والمفسرون ذكروا فيه وجوها كلها محتملة (فالاول) ان الكفار لما سمعوا ان النصارى يعبدون عيسى قالوا اذا عبدوا عيسى فآلهتنا خير من عيسى وانما قالوا ذلك لانهم كانوا يعبدون الملائكة (الثاني) روى انه لما نزل قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم قال عبد الله بن الزبعرى هذا خاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الامم فقال صلى الله عليه وسلم بل لجميع الامم فقال خصمتك ورب الكعبة الست تزعم ان عيسى بن مريم نبي وتثني عليه خيرا وعلى أمه وقد علمت ان النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيرا والملائكة يعبدون فاذا كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم فسكت النبي صلى الله عليه وسلم وفرح القوم وضحكوا وضجوا فأنزل الله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ونزلت هذه الآية أيضا ولما ضرب عبد الله بن الزبعرى عيسى بن مريم مثلا وجادل رسول الله بعبادة النصارى اياه اذا قومك قريش منه أي من هذا المثل يصدون أي يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحا وجدلا وضحكا بسبب ما رأوا من اسكات رسول الله فانه قد جرت العادة بان احد الخصمين اذا انقطع أظهر الخصم الثاني الفرح والضجيج وقالوا أآلهتنا خير أم هو يعنون ان آلهتنا عندك ليست خيرا من عيسى فاذا كان عيسى من حصب

جهنم كان أمر آلهتنا أهون (الوجه الثالث) فى التأويل وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه الها لأنفسهم قال كفار مكة ان محمدا يريد أن يجعل لنا الها كما جعل النصارى المسيح الها لأنفسهم ثم عند هذا قالوا أآلهتنا خير أم هو يعنى أآلهتنا خير أم محمد وذكروا ذلك لاجل انهم قالوا ان محمدا يدعونا الى عبادة نفسه وآباؤنا زعموا انه يجب عبادة هذه الاصنام واذا كان لا بد من أحد هذين الامرين فعبادة هذه الاصنام أولى لان آباءنا واسلافنا كانوا متطابقين عليه وأما محمد فانه متهم فى أمرنا بعبادته فكان الاشتغال بعبادة الاصنام أولى ثم انه تعالى بين انا لم نقل ان الاشتغال بعبادة المسيح طريق حسن بل هو كلام باطل فان عيسى ليس الا عبدا أنعمنا عليه فاذا كان الامر كذلك فقد زالت شبهتهم فى قولهم ان محمدا يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه فهذه الوجوه الثلاثة مما يحتمل كل واحد منها لفظ الآية (المسئلة الثانية) قرأ نافع وابن عامر والكسائى وأبو بكر عن عاصم يصدون بضم الصاد وهو قراءة على بن أبى طالب عليه السلام والباقون بكسر الصاد وهى قراءة ابن عباس واختلفوا فقال الكسائى هما بمعنى نحو يعرشون ويعرشون ويعكفون ويعكفون ومنهم من فرق أما القراءة بالضم فمن الصدود أى من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه وأما بالكسر فمعناه يضجون (المسئلة الثالثة) قرأ عاصم وحمزة والكسائى أآلهتنا استفهاما بهمزتين الثانية مطولة والباقون استفهاما بهمزة ومدة ثم قال تعالى ما ضربوه لك الا جدلا أى ما ضربوا لك هذا المثل الا لاجل الجدل والغلبة فى القول لا لطلب الفرق بين الحق والباطل بل هم قوم خصمون مبالغون فى الخصومة وذلك لان قوله انكم وما تعبدون من دون الله لا يتناول الملائكة وعيسى وبيانه من وجوه (الاول) ان كلمة ما لا تتناول العقلاء البتة (والثانى) أن كلمة ما ليست صريحة فى الاستغراق بدليل انه يصح ادخال لفظى الكل والبعض عليه فيقال انكم وكل ما تعبدون من دون الله انكم وبعض ما تعبدون من دون الله (الثالث) ان قوله انكم وكل ما تعبدون من دون الله أو وبعض ما تعبدون خطاب مشافهة فلعله ما كان فيهم أحد يعبد المسيح والملائكة (الرابع) أن قوله انكم وما تعبدون من دون الله هب انه عام الا ان النصوص الدالة على تعظيم الملائكة وعيسى أخص منه والخاص مقدم على العام (المسئلة الرابعة) القائلون بذم الجدل تمسكوا بهذه الآية الا انا قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا ان الآيات الكثيرة دالة على ان الجدل موجب للمدح والثناء وطريق التوفيق ان تصرف تلك الآيات الى الجدل الذى يفيد تقرير الحق وان تصرف هذه الآية الى الجدل الذى يوجب تقرير الباطل ثم قال تعالى ان هو الا عبد أنعمنا عليه يعنى ما عيسى الا عبد كسائر العبيد أنعمنا عليه حيث جعلناه آية بان خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر ولو نشاء لجعلنا منكم اولدنا منكم يا رجال ملائكة يخلفونكم فى الارض كما يخلفكم أولادكم كما ولدنا عيسى من أنثى

الآية وفيه تنبيه على بطلان رأى من رفعه عن رتبة العبودية وتعريض بفساد رأى من يرى رأيهم فى شأن الملائكة وعلى الثانى والرابع لبيان أنه قياس باطل أو بأبطل على زعمهم وما عيسى الا عبد كسائر العبيد قصارى أمره أنه من أنعمنا عليهم بالنبوة وخصصناه ببعض الخواص البديعة بان خلقناه بوجه بديع وقد خلقنا آدم بوجه أبدع منه فأين هو من رتبة الربوبية ومن أين يتوهم صحة مذهب عبدته حتى يفتخر عبدة الملائكة بكونهم أهدى منهم أو يعتذروا بان حالهم أخف أو أخف من حالهم وأما على الوجه الثالث فهو ولردهم وتكذيبهم فى افترائهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان أن عيسى فى الحقيقة وفيما أوحى الى الرسول عليهما الصلاة والسلام ليس الا أنه عبد منعم عليه كما ذكر فكيف يرضى عليه السلام بمعبوديته أو كيف يتوهم الرضا بمعبودية نفسه وقوله تعالى (ولو نشاء) الخ لتحقيق أن مثل عيسى عليه السلام ليس ببدع من قدرة الله وأنه تعالى قادر على أبدع من ذلك وأبرع مع التنبيه على سقوط الملائكة أيضا من درجة المعبودية أى قدرتنا بحيث لو نشاء (لجعلنا) أى لخلقنا بطريق التوالد (منكم) وأنتم رجال ليس من شأنكم الولادة (ملائكة) كما خلقناهم بطريق الابداع (فى الارض) مستقرين فيها كما جعلناهم مستقرين فى السماء (يخلفون) أى يخلفونكم مثل أولادكم فيما تأتون وما تذرون ويباشرون الافاعيل المنوطة بمباشرتكم مع أن شأنهم التسبيح والتقديس فى السماء فمن شأنهم بهذه المثابة بالنسبة الى القدرة الربانية كيف يتوهم استحقاقهم للمعبودية أو انتسابهم اليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا (وانه) وان عيسى (لعلم للساعة) أى انه بنزوله شرط من أشراطها وتسميته علما لحصوله به أو بحدوثه بغير أب أو باحيائه الموتى دليل على صحة البعث الذى هو معظم ما ينكره الكفرة من الامور الواقعة فى الساعة وقرئ علم أى علامة وقرئ للعلم وقرئ الذكر على تسمية ما يذكر به ذكرا كتسمية ما يعلم به علما وفى الحديث ان عيسى عليه السلام ينزل على ثنية

بالارض المقدسة يقال لها أفيق وعليه ممصرتان و بيده حربة وبها يقتل الدجال فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح فيتأخر الامام فيقدمه عيسى عليه السلام و يصلي خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير و يكسر الصليب و يخرب البيع والكنائس و يقتل النصارى الا من آمن به وقيل الضمير للقرآن لما أن فيه الاعلام بالساعة (فلا تمترن بها) فلا تشكن في وقوعها (واتبعون) أي واتبعوا هداي أو شرعي أو رسولي وقيل هو قول الرسول مأمورا من جهته تعالى (هذا) أي الذي أدعوكم اليه أو القرآن على أن الضمير فى انه له (صراط مستقيم) موصل الى الحق (ولا يصدنكم الشيطان) عن اتباعي (انه لكم عدو مبين) بين العداوة حيث أخرج أباكم من الجنة وعرضكم للبلية (ولما جاء عيسى بالبينات) أي بالمعجزات أو بآيات الانجيل أو بالشرائع الواضحات (قال) لبني اسرائيل (قد جئتكم بالحكمة) أي الانجيل أو الشريعة (ولأبين لكم) عطف على مقدر ينبئ عنه المجئ بالحكمة كأنه قيل قد جئتكم بالحكمة لاعلمكم اياها ولابين لكم (بعض الذي تختلفون فيه) وهو ما يتعلق بامور الدين وأما ما يتعلق بامور الدنيا فليس بيانه من وظائف الانبياء عليهم السلام كما قال عليه السلام أنتم أعلم بامور دنياكم (فاتقوا الله) في مخالفتي (وأطيعون) فيما أبلغه عنه تعالى (ان الله هو ربي وربكم فاعبدوه) بيان لما أمرهم بالطاعة فيه وهو اعتقاد التوحيد والتعبد بالشرائع (هذا) أي التوحيد والتعبد بالشرائع (صراط مستقيم) لا يضل سالكه وهو اما من تتمة كلامه عليه السلام أو استئناف من جهته تعالى مقرر لمقالة عيسى عليه السلام (فاختلف الاحزاب) الفرق المتحزبة (من بينهم) أي من بين من بعث اليهم من اليهود والنصارى (فويل للذين ظلموا) من المختلفين (من عذاب يوم أليم) هو يوم القيامة (هل ينظرون) أي ما ينتظر الناس (الا الساعة أن تأتيهم) أي الا اتيان الساعة (بغتة) اي فجأة لكن لا يكونون مترقبين لها بل غافلين عنها مشتغلين بامور الدنيا منكرين لها وذلك قوله

من غير فحل انعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة وانعرفوا أن دخول التولد والتولد في الملائكة أمر ممكن وذات الله متعالية عن ذلك وانه لعيسى لعلم للساعة أي شرط من أشراطها تعلم به فسمي الشرط الدال على الشئ علما لحصول العلم به وقرأ ابن عباس لعلم وهو العلامة وقرئ للعلم وقرأ أبي لذكر وفي الحديث ان عيسى ينزل على ثنية في الارض المقدسة يقال لها أفيق و بيده حربة وبها يقتل الدجال فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح والامام يؤمهم فيتأخر الامام فيقدمه عيسى و يصلي خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير و يكسر الصليب و يخرب البيع والكنائس و يقتل النصارى الا من آمن به فلا تمترن بها من المرية وهي الشك واتبعون واتبعوا هداي وشرعي هذا صراط مستقيم أي هذا الذي أدعوكم اليه صراط مستقيم ولا يصدنكم الشيطان انه لكم عدو مبين قد بانت عداوته لكم لاجل انه هو الذي أخرج أباكم من الجنة ونزع عنه لباس النور * قوله تعالى (ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون ان الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم هل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) اعلم انه تعالى ذكر انه لما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البينات الواضحات قال قد جئتكم بالحكمة وهي معرفة ذات الله وصفاته وافعاله ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه يعني ان قوم موسى كانوا قد اختلفوا في أشياء من أحكام التكاليف واتفقوا على أشياء فجاء عيسى ليبين لهم الحق في تلك المسائل الخلافية و بالجملة فالحكمة معناها أصول الدين و بعض الذي يختلفون فيه معناه فروع الدين فان قيل لم لم يبين لهم كل الذي يختلفون فيه قلنا لان الناس قد يختلفون في أشياء لا حاجة بهم الى معرفتها فلا يجب على الرسول بيانها ولما بين الاصول والفروع قال فاتقوا الله في الكفر به والاعراض عن دينه وأطيعون فيما أبلغه اليكم من التكاليف ان الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم والمعنى ظاهر فاختلف الاحزاب أي الفرق المتحزبة بعد عيسى وهم الملكانية واليعقوبية والنسطورية وقيل اليهود والنصارى فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم وهو وعيد يوم الاحزاب فان قيل قوله من بينهم الضمير فيه الى من يرجع قلنا الى الذين خاطبهم عيسى في قوله قد جئتكم بالحكمة وهم قومه ثم قال هل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة فقوله أن تأتيهم بدل من الساعة والمعنى هل ينظرون الا اتيان الساعة فان قالوا قوله بغتة يفيد عين ما يفيده قوله وهم لا يشعرون فما الفائدة فيه قلنا يجوز أن تأتيهم بغتة وهم يعرفونه بسبب انهم يشاهدونه * قوله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين وأنتم فيها

﴿ خالدون ﴾

تعالى (وهم لايشعرون الاخلاء) المتحابون فى الدنيا على الاطلاق أوفى الامور الدنيوية (يومئذ) يوم اذ تأتيهم الساعة (بعضهم لبعض عدو) لانقطاع مابينهم من علائق الخلة والتحاب لظهور كونها أسبابا للعذاب (الا المتقين) فان خلتهم فى الدنيا لما كانت فى الله تبقى على حالها بل تزداد بمشاهدة كل منهم آثار خلتهم من الثواب ورفع الدرجات والاستثناء على الاول متصل وعلى الثانى منقطع (ياعباد لاخوف عليكم اليوم ﴿٤٥٣﴾ ولا أنتم تحزنون) حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون فى الله يومئذ تشريفا لهم وتطييبا لقلوبهم (الذين آمنوا بآياتنا) صفة للمنادى أو نصب على المدح (وكانوا مسلمين) أى مخلصين وجوههم لنا جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا وهو حال من واو آمنوا عن مقاتل اذا بعث الله الناس فزع كل أحد فينادى مناد ياعبادى فيرفع الخلائق رؤسهم على الرجاء ثم يتبعها الذين آمنوا الآية فينكس أهل الاديان الباطلة رؤسهم (أدخلوا الجنة أنتم وأزواجكم) نساؤكم المؤمنات (تحبرون) تسرون سرورا يظهر حباره أى أثره على وجوهكم أو تزينون من الحبرة وهو حسن الهيئة أو تكرمون اكراما بليغا والحبرة المبالغة فيما وصف بجميل (يطاف عليهم) بعد دخولهم الجنة حسبما أمر وابه (بصحاف من ذهب وأكواب) كذلك والصحاف جمع صحفة قيل هى كالقصعة وقيل أعظم القصاع الجفنة ثم القصعة ثم الصحفة ثم المكيلة والاكواب جمع كوب وهو كوز لاعروة له (وفيها) أى فى الجنة (ماتشتهيه الانفس) من فنون الملاذ وقرئ ماتشتهى (وتلذ الاعين) أى تستلذه وتقر بمشاهدته وقرئ وتلذه (وأنتم فيها خالدون) اتمام النعمة واكمال السرور فان كل نعيم له زوال بالآخرة مقارن لخوفه لامحالة والالتفات للتشريف (وتلك الجنة) مبتدأ وخبر (التى أورثتموها) وقرئ ورثتموها (بما كنتم تعملون) فى الدنيا من الاعمال الصالحة شبه جزاء العمل بالميراث لانه يخلفه العامل عليه وقيل تلك الجنة مبتدأ وصفه والموصول مع صلته خبره وقيل هو صفة الجنة كالوجه الاول والخبر بما كنتم تعملون

خالدون وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) اعلم انه تعالى لما قال هل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة ذكر عقيبه بعض مايتعلق بأحوال القيامة (فأولها) قوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين والمعنى الاخلاء فى الدنيا يومئذ يعنى فى الآخرة بعضهم لبعض عدو يعنى ان الخلة اذا كانت على المعصية والكفر صارت عداوة يوم القيامة الا المتقين يعنى الموحدين الذين يخالل بعضهم بعضا على الايمان والتقوى فان خلتهم لاتصير عداوة وللحكماء فى تفسير هذه الآية طريق حسن قالوا ان المحبة أمر لايحصل الا عند اعتقاد حصول خير أودفع ضرر فمتى حصل هذا الاعتقاد حصلت المحبة لامحالة ومتى حصل اعتقاد انه يوجب ضررا حصل البغض والنفرة اذا عرفت هذا فنقول تلك الخيرات التى كان اعتقاد حصولها يوجب حصول المحبة اما أن تكون قابلة للتغير والتبدل أولا تكون كذلك فان كان الواقع هو القسم الاول وجب أن تبدل تلك المحبة بالنفرة لان تلك المحبة انما حصلت لاعتقاد حصول الخير والراحة فاذا زال ذلك الاعتقاد وحصل عقيبه اعتقاد أن الحاصل هو الضرر والالم وجب أن تتبدل تلك المحبة بالبغضة لان تبدل العلة يوجب تبدل المعلول أما اذا كانت الخيرات الموجبة للمحبة خيرات باقية أبدية غير قابلة للتبدل والتغير كانت تلك المحبة أيضا محبة باقية آمنة من التغير اذا عرفت هذا الاصل فنقول الذين حصلت بينهم محبة ومودة فى الدنيا ان كانت تلك المحبة لاجل طلب الدنيا وطيباتها ولذاتها فهذا المطالب لاتبقى فى القيامة بل يصير طلب الدنيا سببا لحصول الآلام والآفات فى يوم القيامة فلاجرم تنقلب هذه المحبة الدنيوية بغضة ونفرة فى القيامة أما ان كان الموجب لحصول المحبة فى الدنيا الاشتراك فى محبة الله وفى خدمته وطاعته فهذا السبب غير قابل للنسخ والتغير فلاجرم كانت هذه المحبة باقية فى القيامة بل كأنها تصير أقوى وأصفى وأكمل وأفضل مما كانت فى الدنيا فهذا هو التفسير المطابق لقوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين (الحكم الثانى) من أحكام يوم القيامة قوله تعالى ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون وقد ذكرنا مرارا ان عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين المطيعين المتقين فقوله ياعبادى كلام الله تعالى فكان الحق يخاطبهم بنفسه ويقول لهم ياعبادى لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون وفيه أنواع كثيرة مما يوجب الفرح (أولها) ان الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة (وثانيها) انه تعالى وصفهم بالعبودية وهذا تشريف عظيم بدليل انه لما أراد أن يشرف محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج قال سبحان الذى أسرى بعبده (وثالثها) قوله لاخوف عليكم اليوم فازال عنهم الخوف فى يوم القيامة بالكلية وهذا من أعظم النعم (ورابعها) قوله ولا أنتم تحزنون فنفى عنهم الحزن بسبب فوت الدنيا الماضية ثم قال تعالى الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين قيل الذين آمنوا مبتدأ وخبره مضمر والتقدير يقال لهم ادخلوا الجنة ويحتمل أن يكون المعنى أعنى الذين آمنوا قال

فتعلق الباء بمحذوف لابأورثتموها كما فى الاولين (لكم فيها فاكهة كثيرة) بحسب الانواع والاصناف لابحسب الافراد فقط (منها تأكلون) أى بعضها تأكلون فى كل نوبة وأما الباقى فعلى الاشجار على الدوام لاترى فيها شجرة خلت عن ثمرها لحظة فهى مزينة بالثمار أبدا موقرة بها وعن النبى صلى الله عليه وسلم لاينزع رجل فى الجنة من ثمرها الانبت مثلاها مكانها (ان المجرمين) أى الراسخين فى الاجرام وهم الكفار

حسبما ينبئ عنه ايرادهم فى مقابلة المؤمنين بالآيات (فى عذاب جهنم خالدون) خبران أو خالدون هو الخبر وفى متعلقة به (لايفتر عنهم) أى لايخفف العذاب عنهم من قولهم فترت عنه الحمى اذا سكنت قليلا والتركيب للضعف (وهم فيه) أى فى العذاب وقرئ فيها أى فى النار (مبلسون) آيسون من النجاة (وماظلمناهم) بذلك (ولكن كانوا هم الظالمين) لتعريضهم انفسهم للعذاب الخالد (ونادوا) خازن النار (يامالك) وقرئ يامال على الترخيم بالضم والكسر ولعله رمز الى ضعفهم وعجزهم عن تأدية اللفظ بتمامه (ليقض علينا ربك) اى ليمتنا حتى نستريح من قضى عليه اذا أماته والمعنى سل ربك أن يقضى علينا وهذا لاينافى ماذكر من ابلاسهم لانه جؤار وتمن للموت لفرط الشدة (قال انكم ماكثون) أى فى العذاب أبدا لاخلاص لكم منه بموت ولابغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما انه لايجيبهم الابعد ألف سنة وقيل بعد مائة وقيل بعد أربعين سنة (لقد جئناكم بالحق) فى الدنيا بارسال الرسل وانزال الكتب وهو خطاب توبيخ وتقريع من جهة الله تعالى مقرر لجواب مالك ومبين لسبب مكثهم وقيل فى قال ضمير الله تعالى (ولكن أكثركم للحق) أى حق كان (كارهون) لايقبلونه وينفرون عنه وأما الحق المعهود الذى هو التوحيد أو القرآن فكلهم كارهون له مشمئزون منه (أم أبرموا أمرا) كلام مبتدأ ناع عن المشركين مافعلوا من الكيد برسول الله صلى الله عليه وسلم وأم منقطعة ومافيها من معنى بل للانتقال من توبيخ أهل النار الى حكاية جناية هؤلاء والهمزة

مقاتل اذا وقع الخوف يوم القيامة نادى مناديا عبادى لاخوف عليكم اليوم فاذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤسهم فيقال الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين فتنكس أهل الاديان الباطلة رؤسهم (الحكم الثالث) من وقائع القيامة انه تعالى اذا أمن المؤمنين من الخوف والحزن وجب أن يرحسابهم على أسهل الوجوه وعلى أحسنها ثم يقال لهم ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون والحبرة المبالغة فى الاكرام فيما وصف بالجميل يعنى يكرمون اكراما على سبيل المبالغة وهذا مماسبق تفسيره فى سورة الروم ثم قال يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب قال الفراء الكوكب المستدير الرأس الذى لاأذن له فقوله يطاف عليهم بصحاف من ذهب اشارة الى المطعوم وقوله وأكواب اشارة الى المشروب ثم انه تعالى ترك التفصيل وذكر بيانا كليا فقال وفيها ماتشتهيه الانفس وتلذ الاعين وأنتم فيها خالدون ثم قال وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون وقد ذكرنا فى وراثة الجنة وجهين فى تفسير قوله أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس ولما ذكر الطعام والشراب فيما تقدم ذكر ههنا حال الفاكهة فقال لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون واعلم انه تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم الى العرب أولا ثم الى العالمين ثانيا والعرب كانوا فى ضيق شديد بسبب المأكول والمشروب والفاكهة فلهذا السبب تفضل الله تعالى عليهم بهذه المعانى مرة بعد أخرى تكميلا لرغباتهم وتقوية لدواعيهم ☼ قوله تعالى (ان المجرمين فى عذاب جهنم خالدون لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون وماظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون أم أبرموا أمرا فانا مبرمون أم يحسبون انا لانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) اعلم انه تعالى لما ذكر الوعد أردفه بالوعيد على الترتيب المستمر فى القرآن وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج القاضى على القطع بوعيد الفساق بقوله ان المجرمين فى عذاب جهنم خالدون لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون ولفظ المجرم يتناول الكافر والفاسق فوجب كون الكل فى عذاب جهنم وقوله خالدون يدل على الخلود وقوله أيضا لايفتر عنهم يدل على الخلود والدوام أيضا (والجواب) ان ماقبل هذه الآية ومابعدها يدل على ان المراد من لفظ المجرمين ههنا الكفار أما ماقبل هذه الآية فلانه قال ياعبادى لاخوف عليكم اليوم ولاأنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين فهذا يدل على أن كل من آمن بآيات الله وكانوا مسلمين فانهم يدخلون تحت قوله ياعبادى لاخوف عليكم اليوم ولاأنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين والفاسق من أهل الصلاة آمن بالله تعالى وبآياته وأسلم فوجب أن يكون داخلا تحت ذلك الوعد ووجب أن يكون خارجا عن هذا الوعيد وأما مابعد هذه الآية فهو قوله لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون والمراد بالحق ههنا اما الاسلام واما القرآن والرجل المسلم لايكره الاسلام ولاالقرآن وثبت ان ماقبل هذه الآية ومابعدها يدل على أن المراد من المجرمين الكفار والله أعلم

للانكار فان أريد بالابرام الاحكام حقيقة فهى لانكار الوقوع واستبعاده وان اريد الاحكام صورة فهى للانكار الواقع واستقباحه أى أأبرم مشركو مكة أمرا من كيدهم ومكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم (فانا مبرمون) كيدنا حقيقة لاهم أو فانا مبرمون كيدنا بهم حقيقة كما ابرموا كيدهم صورة كقوله تعالى أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون وكانوا يتناجون فى أنديتهم ويتشاورون فى أموره

عليه الصلاة والسلام (أم يحسبون) أى بل أيحسبون (أنا لا نسمع سرهم) وهو ما حدثوا به أنفسهم أو غيرهم فى مكان خال (ونجواهم) اى ما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجى (بلى) نحن نسمعهما ونطلع عليهما (ورسلنا) الذين يحفظون عليهم أعمالهم ويلازمونهم أينما كانوا (لديهم) عندهم (يكتبون) أى يكتبونهما او يكتبون كل ما صدر عنهم من الافعال والاقوال التى من جملتها ما ذكر من سرهم ونجواهم والجملة اما عطف على ما يترجم عنه بلى أو حال أى نسمعهما والحال أن رسلنا يكتبون (قل) اى للكفرة تحقيقا للحق وتنبيها لهم على أن مخالفتك لهم بعدم عبادتك لما يعبدونه من الملائكة عليهم السلام ليست لبغضك وعداوتك لهم أو لمعبوديهم بل انما هو لجزمك باستحالة ما نسبوا اليهم وبنوا عليه عبادتهم من كونهم بنات الله تعالى (ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين) أى له وذلك لانه عليه الصلاة والسلام اعلم الناس بشؤنه تعالى وبما يجوز عليه وبما لا يجوز وأولاهم بمراعاة حقوقه ومن مواجب تعظيم الوالد تعظيم ولده وفيه من الدلالة على انتفاء كونهم كذلك على أبلغ الوجوه وأقواها وعلى كون رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوة يقين وثبات قدم فى باب التوحيد ما لا يخفى مع ما فيه من استنزال الكفرة عن رتبة المكابرة حسبما يعرب عنه ايراد ان مكان لو المنبئة عن امتناع مقدم الشرطية وقيل ان كان للرحمن ولد فى زعمكم فانا اول العابدين الموحدين لله تعالى وقيل فانا اول الآنفين أى المستنكفين منه أو من أن يكون له ولد من عبد يعبد

(المسئلة الثانية) انه تعالى وصف عذاب جهنم فى حق المجرمين بصفات ثلاثة (أحدها) الخلود وقد ذكرنا فى مواضع كثيرة انه عبارة عن طول المكث ولا يفيد الدوام (وثانيها) قوله لا يفتر عنهم أى لا يخفف ولا ينقص من قولهم فترت عنه الحمى اذا سكنت ونقص حرها (وثالثها) قوله وهم فيه مبلسون والمبلس اليائس الساكت سكوت يائس من فرج عن الضحاك يجعل المجرم فى تابوت من نار ثم يقفل عليه فيبقى فيه خالدا لا يرى ولا يرى قال صاحب الكشاف وقرئ وهم فيها أى وهم فى النار (المسئلة الثالثة) احتج القاضى بقوله تعالى وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين فقال ان كان خلق فيهم الكفر ليدخلهم النار فالذى نفاه بقوله وما ظلمناهم وما الذى نسبه اليهم مما نفاه عن نفسه أوليس لو أثبتناه ظلما لهم كان لا يزيد على ما يقوله القوم فان قالوا ذلك الفعل لم يقع بقدرة الله عز وجل فقط بل انما وقع بقدرة الله مع قدرة العبد معا فلم يكن ذلك ظلما من الله قلنا عندكم ان القدرة على الظلم موجبة للظلم وخالق تلك القدرة هو الله تعالى فكأنه تعالى لما فعل مع خلق الكفر قدرة على الكفر خرج عن أن يكون ظالما لهم وذلك محال لان من يكون ظالما فى فعل فاذا فعل معه ما يوجب ذلك الفعل يكون بذلك أحق فيقال للقاضى قدرة العبد هل هى صالحة للطرفين أو هى متعينة لاحد الطرفين فان كانت صالحة لكلا الطرفين فالترجيح ان وقع لا لمرجح لزم نفى الصانع وان افتقر الى مرجح عاد التقسيم الاول فيه ولا بد وأن ينتهى الى داعية مرجحة يخلقها الله فى العبد وان كانت متعينة لاحد الطرفين فحينئذ يلزمك ما أوردته علينا واعلم انه بئس الرجل من يرى وجه الاستدلال فيذكره انما الرجل الذى ينظر فيما قبل الكلام وفيما بعده فان رآه واردا على مذهبه بعينه لم يذكره والله أعلم (المسئلة الرابعة) قرأ ابن مسعود يا مال بحذف الكاف للترخيم فقيل لابن عباس ان ابن مسعود قرأ ونادوا يا مال فقال ما اشغل أهل النار عن هذا الترخيم وأجيب عنه بانه انما حسن هذا الترخيم لانه يدل على انهم بلغوا فى الضعف والنحافة الى حيث لا يمكنهم ان يذكروا من الكلمة الا بعضها (المسئلة الخامسة) اختلفوا فى ان قولهم يا مالك ليقض علينا ربك على اى وجه طلبوه فقال بعضهم على التمنى وقال آخرون على وجه الاستغاثة والا فهم عالمون بانه لا خلاص لهم عن ذلك العقاب وقيل لا يبعد أن يقال انهم لشدة ما هم فيه من العذاب نسوا تلك المسئلة فذكروه على وجه الطلب ثم انه تعالى بين ان مالكا يقول لهم انكم ماكثون وليس فى القرآن متى أجابهم هل اجابهم فى الحال أو بعد ذلك بمدة وان كان بعد ذلك فهل حصل ذلك الجواب بعد ذلك السؤال بمدة قليلة أو بمدة طويلة فلا يمتنع أن تؤخر الاجابة استخفافا بهم وزيادة فى غمهم فعن عبد الله بن عمر بمقدار اربعين سنة وعن غيره بعد مائة سنة وعن ابن عباس بعد ألف سنة والله أعلم بذلك المقدار ثم بين تعالى ان مالكا لما أجابهم بقوله انكم ماكثون ذكر بعده ما هو كالعلة لذلك الجواب فقال لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون والمراد نفرتهم عن محمد وعن القرآن وشدة

اذا اشتد أنفة وقيل ان نافية أي ما كان للرحمن ولد فانا أول من قال بذلك وقرئ ولد (سبحان رب السموات والارض رب العرش عما يصفون) أي يصفونه به من أن يكون له ولد وفي اضافة اسم الرب الى أعظم الاجرام وأقواها تنبيه على انها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته وربوبيته كيف يتوهم أن يكون شئ منها جزأ منه سبحانه وفي تكرير اسم الرب تفخيم لشأن العرش (فذرهم) حيث لم يذعنوا للحق بعد ما سمعوا هذا البرهان الجلي (يخوضوا) في أباطيلهم (ويلعبوا) في دنياهم فان ما هم فيه من الافعال والاقوال ليست الا من باب الجهل واللعب والجزم في الفعل لجواب الامر (حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون) من يوم القيامة فانهم يومئذ يعلمون ما فعلوا وما يفعل بهم (وهو الذي في السماء اله وفي الارض اله) الظرفان متعلقان بالمعنى الوصفي الذي ينبئ عنه الاسم الجليل من معنى المعبودية بالحق بناء على اختصاصه بالمعبود بالحق كما مر في تفسير البسملة كأنه قيل وهو الذي مستحق لأن يعبد فيهما وقد مر تحقيقه في سورة الانعام وقرئ وهو الذي في السماء الله وفي الارض الله والراجع الى الموصول مبتدأ حذف لطول الصلة بتعلق الخبر والعطف عليه ولا مساغ لكون الجار خبرا مقدما واله مبتدأ مؤخرا للزوم عراء الجملة حينئذ عن العائد نعم يجوز أن يكون صلة للموصول واله خبر المبتدأ محذوف على ان الجملة بيان للصلة وأن كونه في السماء على سبيل الالهية لا على سبيل الاستقرار وفيه نفي الآلهة السماوية والارضية واختصاص لاستحقاق الالهية به تعالى وقوله تعالى (وهو الحكيم العليم) كالدليل على ما قبله (وتبارك الذي له ملك السموات والارض وما بينهما) اما على الدوام كالهواء أو في بعض الاوقات كالطير (وعنده علم الساعة) أي العلم بالساعة التي فيها تقوم القيامة (واليه ترجعون) للجزاء والتفات للتهديد وقرئ على الغيبة وقرئ تحشرون بالتاء (ولا يملك الذين يدعون) اي يدعونهم وقرئ بالتاء مخففا ومشددا (من دونه الشفاعة)

بعضهم لقبول الدين الحق فان قيل كيف قال ونادوا يا مالك بعد ما وصفهم بالابلاس قلنا تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة فتختلف بهم الاحوال فيسكتون أوقاتا لغلبة اليأس عليهم ويستغيثون أوقاتا لشدة ما بهم روى انه يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيقولون ادعوا مالكا فيدعون يا مالك ليقض علينا ربك ولما ذكر الله تعالى كيفية عذابهم في الآخرة ذكر بعده كيفية مكرهم وفساد باطنهم في الدنيا فقال أم أبرموا أمرا فانا مبرمون والمعنى أم أبرموا مشركو مكة أمرا من كيدهم ومكرهم برسول الله فانا مبرمون كيدنا كما أبرموا كيدهم كقوله تعالى أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون قال مقاتل نزلت في تدبيرهم في المكر به في دار الندوة وهو ما ذكره الله تعالى في قوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا وقد ذكرنا القصة ثم قال أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال والنجوى ما تكلموا به فيما بينهم بلى نسمعها ونطلع عليها ورسلنا يريد الحفظة يكتبون عليهم تلك الاحوال وعن يحيى بن معاذ من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شئ في السموات فقد جعله أهون الناظرين اليه وهو من علامات النفاق ❊ قوله تعالى (قل ان كان للرحمن ولد فانا اول العابدين سبحان رب السموات والارض رب العرش عما يصفون فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون وهو الذي في السماء اله وفي الارض اله وهو الحكيم العليم وتبارك الذي له ملك السموات والارض وما بينهما وعنده علم الساعة واليه ترجعون ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون وقيله يارب ان هؤلاء قوم لا يؤمنون فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون) وفيه مسائل (المسألة الاولى) قرأ حمزة والكسائي ولد بضم الواو واسكان اللام والباقون بفتحهما فانا أول العابدين قرأ نافع فانا بالفتحة لموافقة على النون والباقون بلا تطويل (المسألة الثانية) اعلم ان الناس ظنوا ان قوله قل ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين لو أجريناه على ظاهره فانه يقتضي وقوع الشك في اثبات ولد لله تعالى وذلك محال فلا جرم افتقروا الى تأويل الآية وعندي أنه ليس الامر كذلك وليس في ظاهر اللفظ ما يوجب العدول عن الظاهر وتقريره ان قوله ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين قضية شرطية والقضية الشرطية مركبة من قضيتين خبريتين أدخل على احداهما حرف الشرط وعلى الاخرى حرف الجزاء فحصل بمجموعهما قضية واحدة ومثاله هذه الآية فان قوله ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين قضية مركبة من قضيتين (احداهما) قوله ان كان للرحمن ولد (والثانية) قوله فانا أول العابدين ثم أدخل حرف الشرط وهو لفظة ان على القضية الاولى وحرف الجزاء وهو الفاء على القضية الثانية فحصل من مجموعهما قضية واحدة وهي القضية الشرطية اذا عرفت هذا فنقول القضية الشرطية لا تفيد الا كون الشرط مستلزما للجزاء ليس فيها اشعار بكون

الشرط حقا أو باطلا أو بكون الجزاء حقا أو باطلا بل نقول القضية الشرطية الحقة قد تكون مركبة من قضيتين حقيتين أو من قضيتين باطلتين أو من شرط باطل وجزاء حق أو من شرط حق وجزاء باطل (فأما القسم الرابع) وهو أن تكون القضية الشرطية الحقة مركبة من شرط حق وجزاء باطل فهذا محال ولنبين امثلة هذه الاقسام الاربعة فاذا قلنا ان كان الانسان حيوانا فالانسان جسم فهذه شرطية حقة وهي مركبة من قضيتين حقيتين (احدهما) قولنا الانسان حيوان والثانية قولنا الانسان جسم واذا قلنا ان كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة بمتساويين فهذه شرطية حقة لكنها مركبة من قولنا الخمسة زوج ومن قولنا الخمسة منقسمة بمتساويين وهما باطلان وكونهما باطلين لا يمنع من أن يكون استلزام أحدهما للآخر حقا وقد ذكرنا ان القضية الشرطية لا تفيد الا مجرد الاستلزام واذا قلنا ان كان الانسان حجرا فهو جسم فهذا أيضا حق لكنها مركبة من شرط باطل وهو قولنا الانسان حجر ومن جزاء حق وهو قولنا الانسان جسم وانما جاز هذا لان الباطل قد يكون بحيث يلزم من فرض وقوعه حق فانا لو فرضنا كون الانسان حجرا وجب كونه جسما فهذا شرط باطل يستلزم جزاء حقا (وأما القسم الرابع) وهو تركيب قضية شرطية حقة من شرط حق وجزاء باطل فهذا محال لان هذا التركيب يلزم منه كون الحق مستلزما للباطل وذلك محال بخلاف القسم الثالث فانه يلزم منه كون الباطل مستلزما للحق وذلك ليس بمحال اذا عرفت هذا الاصل فلنرجع الى الآية فنقول قوله ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين قضية شرطية حقة من شرط باطل ومن جزاء باطل لان قولنا كان للرحمن ولد باطل وقولنا أنا أول العابدين لذلك الولد باطل أيضا الا انا بينا ان كون كل واحد منهما باطلا لا يمنع من أن يكون استلزام أحدهما للآخر حقا كما ضربنا من المثال في قولنا ان كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة بمتساويين فثبت ان هذا الكلام لا امتناع في اجرائه على ظاهره ويكون المراد منه انه ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين لذلك الولد فان السلطان اذا كان له ولد فكما يجب على عبده ان يخدمه فكذلك يجب عليه أن يخدم ولده وقد بينا ان هذا التركيب لا يدل على الاعتراف باثبات ولد أم لا ومما يقرب من هذا الباب قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فهذا الكلام قضية شرطية والشرط هو قولنا فيهما آلهة والجزاء هو قولنا فسدتا فالشرط في نفسه باطل والجزاء أيضا باطل لان الحق انه ليس فيهما آلهة وكلمة لو تفيد انتفاء الشيء بانتفاء غيره لانهما ما فسدتا ثم مع كون الشرط باطلا وكون الجزاء باطلا كان استلزام ذلك الشرط لهذا الجزاء حقا فكذا ههنا فان قالوا الفرق ان ههنا ذكر الله تعالى هذه الشرطية بصيغة لو فقال لو كان فيهما آلهة وكلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره وأما في الآية التي نحن في تفسيرها انما ذكر الله تعالى كلمة ان وهذه الكلمة لا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره بل هذه الكلمة تفيد الشك في انه هل حصل الشرط أم لا وحصول هذا الشك للرسول

كما زعمون (الا من شهد بالحق) الذي هو التوحيد (وهم يعلمون) بما يشهدون به عن بصيرة وايقان واخلاص وجمع الضمير باعتبار معنى من كما أن الافراد أولا باعتبار لفظها والاستثناء اما متصل والموصول عام لكل ما يعبد من دون الله أو منفصل على أنه خاص بالاصنام (ولئن سألتهم من خلقهم) أي سألت العابدين والمعبودين (ليقولن الله) لتعذر الانكار لغاية بطلانه (فأنى يؤفكون) فكيف يصرفون عن عبادته الى عبادة غيره مع اعترافهم بكون الكل مخلوقا له تعالى (وقيله) بالجر اما على أنه عطف على الساعة أي عنده علم الساعة وعلم قوله عليه الصلاة والسلام (يارب) الخ فان القول والقيل والقال كلها مصادر أو على أن الواو للقسم وقوله

غير ممكن قلنا الفرق الذي ذكرتم صحيح الا أن مقصودنا بيان انه لا يلزم من كون الشرطية صادقة كون جزأيها صادقين أو كاذبين على ماقررناه اماقوله ان لفظة ان تفيد حصول الشك في ان الشرط هل حصل أم لا قلنا هذا ممنوع فان حرف ان حرف الشرط وحرف الشرط لا يفيد الا كون الشرط مستلزما للجزاء واما بيان ان ذلك الشرط معلوم الوقوع أو مشكوك الوقوع فاللفظ لا دلالة فيه عليه البتة فظهر من المباحث التي لخصناها ان الكلام ههنا ممكن الاجراء على ظاهره من جميع الوجوه وانه لا حاجة فيه البتة الى التأويل والمعنى انه تعالى قال قل يا محمد ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين لذلك الولد وانا أول الخادمين له والمقصود من هذا الكلام بيان اني لا انكر ولده لاجل العناد والمنازعة فان بتقدير أن يقوم الدليل على ثبوت هذا الولد كنت مقرا به معترفا بوجوب خدمته الا انه لم يوجد هذا الولد ولم يقم الدليل على ثبوته البتة فكيف أقول به بل الدليل القاطع قائم على عدمه فكيف أقول به وكيف اعترف بوجوده وهذا الكلام ظاهر كامل لا حاجة به البتة الى التأويل والعدول عن الظاهر فهذا ماعندي في هذا الموضع ونقل عن السدي من المفسرين انه كان يقول حمل هذه الآية على ظاهرها ممكن ولا حاجة الى التأويل والتقرير الذي ذكرناه يدل على أن الذي قاله هو الحق أما القائلون بانه لابد من التأويل فقد ذكروا فيه وجوها (الاول) قال الواحدي كثرت الوجوه في تفسير هذه الآية والاقوى أن يقال المعنى ان كان للرحمن ولد في زعمكم فانا أول العابدين أي الموحدين لله المكذبين لقولكم باضافة الولد اليه ولقائل أن يقول اما أن يكون تقدير الكلام ان يثبت للرحمن ولد في نفس الامر فانا أول المنكرين له أو يكون التقدير ان يثبت لكم ادعاء ان للرحمن ولدا فانا أول المنكرين له والاول باطل لان ثبوت الشئ في نفسه لا يقتضي كون الرسول منكرا له لان قوله ان كان الشئ ثابتا في نفسه فانا أول المنكرين يقتضي اصراره على الكذب والجهل وذلك لا يليق بالرسول (والثاني) أيضا باطل لانهم سواء أثبتوا لله ولدا أو لم يثبتوه له فالرسول منكر لذلك الولد فلم يكن لزعمهم تأثير في كون الرسول منكرا لذلك الولد فلم يصلح جعل زعمهم اثبات الولد مؤثرا في كون الرسول منكر الولد (والوجه الثاني) قالوا معناه ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد اذا اشتدت انفته فهو عبد وعابد وقرأ بعضهم عبدين واعلم ان السؤال المذكور قائم ههنا لانه ان كان المراد ان كان الرحمن ولد في نفس الامر فانا أول الآنفين من الاقرار به فهذا يقتضي الاصرار على الجهل والكذب وان كان المراد ان كان للرحمن ولد في زعمكم واعتقادكم فانا أول الآنفين فهذا التعليق فاسد لان هذه الانفة حاصلة سواء حصل ذلك الزعم والاعتقاد أو لم يحصلا واذا كان الامر كذلك لم يكن هذا التعليق جائزا (والوجه الثالث) قال بعضهم ان كلمة ان ههنا هي النافية والتقدير ما كان للرحمن ولد فانا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له واعلم أن التزام

تعالى (ان هؤلاء قوم لا يؤمنون) جوابه وفي الاقسام به من رفع شأنه عليه الصلاة والسلام وتفخيم دعائه والتجائه اليه تعالى ما لا يخفى وقرئ بالنصب بالعطف على سرهم أو على محل الساعة أو باضمار فعله أو بتقدير فعل القسم وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر ما بعده وقد جوز عطفه على علم الساعة (فاصفح عنهم) فأعرض عن دعوتهم واقنط عن ايمانهم (وقل سلام) أي أمري تسلم منكم ومتاركة (فسوف يعلمون) حالهم البتة وان تأخر ذلك وهو وعيد من الله تعالى لهم وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرئ تعلمون على أنه داخل في حيز قل ❁ عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة ياعباد لاخوف

هذه الوجوه البعيدة انما يكون للضرورة وقد بينا أنه لا ضرورة البتة فلم يجز المصير اليها والله أعلم ثم قال سبحانه وتعالى سبحان رب السموات والارض رب العرش عما يصفون والمعنى ان اله العالم يجب أن يكون واجب الوجود لذاته وكل ما كان كذلك فهو فرد مطلق لا يقبل التجزى بوجه من الوجوه والولد عبارة عن ان ينفصل عن الشئ جزء من أجزائه فيتولد عن ذلك الجزء شخص مثله وهذا انما يعقل فيما تكون ذاته قابلة للتجزى والتبعض واذا كان ذلك محالا فى حق اله العالم امتنع اثبات الولد له ولما ذكر هذا البرهان القاطع قال فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون والمقصود منه التهديد يعنى قد ذكرت الحجة القاطعة على فساد ما ذكروا وهم لم يلتفتوا اليها لاجل كونهم مستغرقين فى طلب المال والجاه والرياسة فاتركهم فى ذلك الباطل واللعب حتى يصلوا الى ذلك اليوم الذى وعدوا فيه بما وعدوا والمقصود منه التهديد ثم قال تعالى وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله وفيه ابحاث (البحث الاول) قال أبو على نظرت فيما يرتفع به اله فوجدت ارتفاعه يصح بان يكون خبر مبتدأ محذوف والتقدير وهو الذى فى السماء هو اله (والبحث الثانى) هذه الآية من أدل الدلائل على انه تعالى غير مستقر فى السماء لانه تعالى بين بهذه الآية ان نسبته الى السماء بالالهية كنسبته الى الارض فلما كان الها للارض مع انه غير مستقر فيها فكذلك يجب أن يكون الها للسماء مع انه لا يكون مستقرا فيها فان قيل وأى تعلق لهذا الكلام بنفى الولد عن الله تعالى قلنا تعلقه به انه تعالى خلق عيسى بمحض كن فيكون من غير واسطة النطفة والاب فكأنه قيل ان هذا القدر لا يوجب كون عيسى ولدا لله سبحانه لان هذا المعنى حاصل فى تخليق السموات والارض وما بينهما مع انتفاء حصول الوالدية هناك ثم قال تعالى وهو الحكيم العليم وقد ذكرنا فى سورة الانعام ان كونه تعالى حكيما عليما ينافى حصول الولد له ثم قال وتبارك الذى له ملك السموات والارض وما بينهما وعنده علم الساعة واليه ترجعون واعلم ان قوله تبارك اما أن يكون مشتقا من الثبات والبقاء واما أن يكون مشتقا من كثرة الخير وعلى التقديرين فكل واحد من هذين الوجهين ينافى كون عيسى عليه السلام ولدا لله تعالى لانه ان كان المراد منه الثبات والبقاء فعيسى عليه السلام لم يكن واجب البقاء والدوام لانه حدث بعد أن لم يكن ثم عند النصارى انه قتل ومات ومن كان كذلك لم يكن بينه وبين الباقى الدائم الازلى مجانسة ومشابهة فامتنع كونه ولدا له وان كان المراد بالبركة كثرة الخيرات مثل كونه خالقا للسموات والارض وما بينهما فعيسى لم يكن كذلك بل كان محتاجا الى الطعام وعند النصارى انه كان خائفا من اليهود وبالآخرة أخذوه وقتلوه فالذى هذا صفته كيف يكون ولدا لمن كان خالقا للسموات والارض وما بينهما واما قوله وعنده علم الساعة فالمقصود منه أنه لما شرح كمال قدرته فكذلك شرح كمال علمه والمقصود التنبيه على ان من كان كاملا فى الذات والعلم والقدرة على الحد الذى شرحناه امتنع أن يكون

عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ادخلوا الجنة بغير حساب * (سورة الدخان مكية الا قوله انا كاشفوا العذاب الآية وهى سبع أو تسع وخمسون آية) *

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم والكتاب المبين) الكلام فيه كالذى سلف فى السورة السابقة (انا أنزلناه) أى الكتاب المبين الذى هو القرآن (فى ليلة مباركة) هى ليلة القدر وقيل ليلة البراءة ابتدئ فيها انزاله أو أنزل فيها جملة الى السماء الدنيا من اللوح واملاه جبريل عليه السلام على السفرة ثم كان ينزله على النبى صلى الله عليه وسلم نجوما فى ثلاث وعشرين سنة كما مر فى سورة الفاتحة ووصفها بالبركة لما أن القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدنيوية بأجمعها

ولده في العجز وعدم الوقوف على أحوال العالم بالحد الذي وصفه النصارى ولما طنب الله تعالى في نفي الولد أردفه ببيان نفي الشركاء فقال ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون ذكر المفسرون في هذه الآية قولين (أحدهما) ان الذين يدعون من دونه الملائكة وعيسى وعزير والمعنى ان الملائكة وعيسى وعزيرا لا يشفعون الا لمن شهد بالحق روي أن النضر بن الحرث ونفرا معه قالوا ان كان ما يقول محمد حقا فنحن نتولى الملائكة فهم احق بالشفاعة من محمد فانزل الله هذه الآية يقول لا يقدر هؤلاء ان يشفعوا لاحد ثم استثنى فقال الا من شهد بالحق والمعنى على هذا القول هؤلاء لا يشفعون الا لمن شهد بالحق فأضمر اللام أو يقال التقدير الا شفاعة من شهد بالحق فحذف المضاف وهذا على لغة من يعدي الشفاعة بغير لام فيقول شفعت فلانا بمعنى شفعت له كما تقول كلمته وكلمت له ونصحته ونصحت له (والقول الثاني) ان الذين يدعون من دونه كل معبود من دون الله وقوله الا من شهد بالحق الملائكة وعيسى وعزير والمعنى ان الاشياء التي عبدها هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة الا من شهد بالحق وهم الملائكة وعيسى وعزير فان لهم شفاعة عند الله ومنزلة ومعنى من شهد بالحق من شهد انه لا اله الا الله ثم قال تعالى وهم يعلمون وهذا القيد يدل على ان الشهادة باللسان فقط لا تفيد البتة واحتج القائلون بان ايمان المقلد لا ينفع البتة بهذه الآية قالوا بين الله تعالى ان الشهادة لا تنفع الا اذا حصل معها العلم والعلم عبارة عن اليقين الذي لو شككه صاحبه فيه لم يتشكك وهذا لم يحصل الا عند الدليل فثبت ان ايمان المقلد لا ينفع البتة ثم قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ظن قوم ان هذه الآية وأمثالها في القرآن تدل على ان القوم مضطرون الى الاعتراف بوجود الاله للعالم قال الجبائي وهذا لا يصح لان قوم فرعون قالوا لا اله لهم غيره وقوم ابراهيم قالوا وانا لفي شك مما تدعوننا اليه فيقال لهم لا نسلم ان قوم فرعون كانوا منكرين لوجود الاله والدليل على قولنا قوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وقال موسى لفرعون لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر فالقراءة بفتح التاء في علمت تدل على ان فرعون كان عارفا بالله وأما قوم ابراهيم حيث قالوا وانا لفي شك مما تدعوننا اليه فهو مصروف الى اثبات القيامة واثبات التكاليف واثبات النبوة (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى ذكر هذا الكلام في أول هذه السورة وفي آخرها والمقصود التنبيه على انهم لما اعتقدوا ان خالق العالم وخالق الحيوانات هو الله تعالى فكيف أقدموا مع هذا الاعتقاد على عبادة أجسام خسيسة وأصنام خبيثة لا تضر ولا تنفع هي جمادات محضة وأما قوله فأنى تؤفكون معناه لم تكذبون على الله فتقولون ان الله أمرنا بعبادة الاصنام وقد احتج بعض أصحابنا به على ان افكهم ليس منهم بل من غيرهم بقوله فأنى تؤفكون وأجاب

أولا فيهما من تنزل الملائكة والرحمة واجابة الدعوة وقسم النعمة وفصل الاقضية وفضيلة العبادة واعطاء تمام الشفاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل يزيد في هذه الليلة ماء زمزم زيادة ظاهرة (انا كنا منذرين) استئناف مبين لما يقتضي الانزال كأنه قيل انا انزلناه لان من شأننا الانذار والتحذير من العقاب قيل جواب للقسم وقوله تعالى انا انزلناه الخ اعتراض وقيل جواب بغير عاطف (فيها يفرق كل أمر حكيم) استئناف كما قبله فان كونها مفرق الامور المحكمة أو الملتبسة بالحكمة الموافقة لها يستدعي أن ينزل فيها القرآن الذي هو من عظائمها وقيل صفة أخرى لليلة وما بينهما اعتراض وهذا يدل على أنها ليلة القدر ومعنى

القاضي بأن من يضل في فهم الكلام أو في الطريق يقال له أين يذهب بك والمراد أين تذهب وأجاب الاصحاب بأن قول القائل أين يذهب بك ظاهره يدل على ان ذاهبا آخر ذهب به فصرف الكلام عن حقيقته خلاف الاصل الظاهر وأيضا فان الذي ذهب به هو الذي خلق تلك الداعية في قلبه وقد ثبت بالبرهان الباهر ان خالق تلك الداعية هو الله تعالى ثم قال تعالى وقيله يارب ان هؤلاء قوم لايؤمنون وفيه مباحث (الاول) قرأ الاكثرون وقيله بفتح اللام وقرأ عاصم وحمزة بكسر اللام قال الواحدي وقرأ أناس من غير السبعة بالرفع أما الذين قرؤا بالنصب فذكر الاخفش والفراء فيه قولين (أحدهما) انه نصب على المصدر بتقدير وقال قيله وشكا شكواه الى ربه يعني النبي صلى الله عليه وسلم فانتصب قيله باضمار قال (والثاني) انه عطف على ماتقدم من قوله انا لانسمع سرهم ونجواهم وقيله وذكر الزجاج فيه وجها ثالثا فقال انه نصب على موضع الساعة لان قوله وعنده علم الساعة معناه انه علم الساعة والتقدير علم الساعة وقيله ونصيره قولك عجبت من ضرب زيد وعمرا وأما القراءة بالجر فقال الاخفش والفراء والزجاج انه معطوف على الساعة أي عنده علم الساعة وعلم قيله يارب قال المبرد العطف على المنصوب حسن وان تباعد المعطوف من المعطوف عليه لانه يجوز أن يفصل بين المنصوب وعامله والمجرور يجوز ذلك فيه على قبح وأما القراءة بالرفع ففيها وجهان (الاول) أن يكون وقيله مبتدأ وخبره مابعده (والثاني) أن يكون معطوفا على علم الساعة على تقدير حذف المضاف معناه وعنده علم الساعة وعلم قيله قال صاحب الكشاف في هذه الوجوه ليست قوية في المعنى لاسيما وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لايحسن اعتراضا ثم ذكر وجها آخر وزعم انه أقوى مما سبق وهو أن يكون النصب والجر على اضمار حرف القسم وحذفه والرفع على قولهم أيمن الله وأمانة الله ويمين الله و يكون قوله ان هؤلاء قوم لايؤمنون جواب القسم كأنه قيل واقسم بقيله يارب أو وقيله يارب قسمي وأقول هذا الذي ذكره صاحب الكشاف متكلف أيضا وههنا اضمار امتلأ القرآن منه وهو اضمار اذكر والتقدير واذكر قيله يارب واما القراءة بالجر فالتقدير واذكر وقت قيله يارب واذا وجب التزام الاضمار فلان يضمر شيئا جرت العادة في القرآن بالتزام اضماره أولى من غيره وعن ابن عباس أنه قال في تفسير قوله وقيله يارب المراد وقيل يارب والهاء زيادة (البحث الثاني) القيل مصدر كالقول ومنه قوله النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قيل وقال قال الليث تقول العرب كثر فيه القيل والقال وروى شمر عن أبي زيد يقال ماأحسن قيلك وقولك ومقالك وقالك ومقالتك خمسة أوجه (البحث الثالث) الضمير في قيله لرسول الله صلى الله عليه وسلم (البحث الرابع) ان النبي صلى الله عليه وسلم لما ضجر منهم وعرف اصرارهم أخبر عنهم أنهم قوم لايؤمنون وهو قريب مما حكى الله عن نوح أنه قال رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا ثم انه تعالى قال له فاصفح

يفرق أنه يكتب ويفصل كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم من هذه الليلة الى الاخرى من السنة القابلة وقيل يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح في ليلة البراءة ويقع الفراغ في ليلة القدر فتدفع نسخة الارزاق الى ميكائيل ونسخة الحروب الى جبريل وكذا الزلازل والخسف والصواعق ونسخة الاعمال الى اسمعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب الى ملك الموت عليهم السلام وقرئ يفرق بالتشديد وقرئ يفرق على البناء للفاعل أي يفرق الله تعالى كل أمر حكيم وقرئ نفرق بنون العظمة (أمرا من عندنا) نصب على الاختصاص أي أعني بهذا الامر امرا حاصلا من عندنا على مقتضى حكمتنا وهو بيان

عنهم فامر وبان يصفح عنهم وفي ضمنه منعه من أن يدعوا عليهم بالعذاب والصفح هو الاعراض ثم قال وقل سلام قال سيبويه انما معناه المتاركة ونظيره قول ابراهيم لابيه سلام عليك سأستغفر لك ربي وكقوله سلام عليكم لانبتغي الجاهلين فسوف يعلمون المقصود منه التهديد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن عامر تعلمون بالتاء على الخطاب والباقون بالياء كناية عن قوم لايؤمنون (المسئلة الثانية) احتج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السلام على الكافر وأقول ان صح هذا الاستدلال فهذا يوجب الاقتصار على مجرد قوله سلام وأن يقال للمؤمن سلام عليكم والمقصود التنبيه على التحية التي تذكر للمسلم والكافر (المسئلة الثالثة) قال ابن عباس قوله تعالى فاصفح عنهم وقل سلام منسوخ بآية السيف وعندي التزام النسخ في أمثال هذه المواضع مشكل لان الامر لايفيد الفعل الا مرة واحدة فاذا أتى به مرة واحدة فقد سقطت دلالة اللفظ فأي حاجة فيه الى التزام النسخ وأيضا فثله يمين الفور مشهورة عند الفقهاء وهي دالة على أن اللفظ المطلق قد يتقيد بحسب قرينة العرف واذا كان الامر كذلك فلا حاجة فيه الى التزام النسخ والله أعلم بالصواب قال مولانا المؤلف عليه سحائب الرحمة والرضوان تم تفسير هذه السورة يوم الاحد الحادي عشر من ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله أولا وآخرا وباطنا وظاهرا والصلاة على ملائكته المقربين والانبياء والمرسلين خصوصا على محمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه أجمعين أبد الآبدين ودهر الداهرين

(سورة الدخان خمسون وتسع آيات مكية الا قوله انا كاشفوا العذاب)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم والكتاب المبين انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم رب السموات والارض ومابينهما ان كنتم موقنين لااله الا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الاولين بل هم في شك يلعبون) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) في قوله حم والكتاب المبين وجوه من الاحتمالات (أولها) أن يكون التقدير هذه حم والكتاب المبين كقولك هذا زيد والله (وثانيها) أن يكون الكلام قد تم عند قوله حم ثم يقال والكتاب المبين انا أنزلناه (وثالثها) أن يكون التقدير وحم والكتاب المبين انا أنزلناه فيكون ذلك في التقدير قسمين على شيء واحد (المسئلة الثانية) قالوا هذا يدل على حدوث القرآن لوجوه (الاول) ان قوله حم تقديره هذه حم يعني هذا شيء مؤلف من هذه الحروف والمؤلف من الحروف المتعاقبة محدث (الثاني) انه ثبت ان الحلف لايصح بهذه الاشياء بل بالله فهذه الاشياء فيكون التقدير ورب حم ورب الكتاب المبين وكل من كان مربوبا فهو محدث (الثالث) أنه وصفه بكونه كتابا والكتاب مشتق من الجمع فمعناه أنه مجموع والمجموع محل تصرف

لفخامته الاضافية بعد بيان فخامته الذاتية ويجوز كونه حالا من كل أمر لتخصصه بالوصف أو من ضميره في حكيم وقد يجوز أن يراد به مقابل النهي ويجعل مصدرا مؤكدا ليفرق لاتحاد الامر والفرقان في المعنى أولفعله المضمر لما أن الفرق به أو حالا من أحد ضميري أنزلناه أي آمرين أو مأمورا به (انا كنا مرسلين) بدل من انا كنا منذرين وقيل جواب ثالث وقيل مستأنف وقوله تعالى (رحمة من ربك) غاية للارسال متأخرة عنه على أن المراد بها الرحمة الواصلة الى العباد وباعث متقدم عليه على أن المراد مبدؤها أي انا أنزلنا القرآن لان من عادتنا ارسال الرسل بالكتب الى العباد لاجل افاضة رحمتنا عليهم أو لاقتضاء رحمتنا السابقة

الغير وما كان كذلك فهو محدث (الرابع) قوله انا أنزلناه والمنزل محل تصرف الغير وما كان كذلك فهو محدث وقد ذكرنا مرارا أن جميع هذه الدلائل تدل على ان الشئ المركب من الحروف المتعاقبة والاصوات المتوالية محدث والعلم بذلك ضروري بديهي لا ينازع فيه الا من كان عديم العقل وكان غير عارف بمعنى القديم والمحدث واذا كان كذلك فكيف ينازع في صحة هذه الدلائل انما الذي ثبت قدمه شئ آخر سوى ما تركب من هذه الحروف والاصوات (المسئلة الثالثة) يجوز أن يكون المراد بالكتاب ههنا الكتب المتقدمة التي أنزلها الله على أنبيائه كما قال تعالى لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ويجوز أن يكون المراد اللوح المحفوظ كما قال يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وقال وانه في أم الكتاب لدينا ويجوز أن يكون المراد به القرآن وبهذا التقدير فقد أقسم بالقرآن على انه أنزل القرآن في ليلة مباركة وهذا النوع من الكلام يدل على غاية تعظيم القرآن فقد يقول الرجل اذا أراد تعظيم رجل له حاجة اليه أستشفع بك اليك وأقسم بحقك عليك (المسئلة الرابعة) المبين هو المشتمل على بيان ما بالناس حاجة اليه في دينهم ودنياهم فوصفه بكونه مبينا وان كانت حقيقة الابانة لله تعالى لاجل ان الابانة حصلت به كما قال تعالى ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل وقال في آية أخرى نحن نقص عليك أحسن القصص وقال أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون فوصفه بالتكلم اذ كان غاية في الابانة فكأنه ذو لسان ينطق والمعنى فيه المبالغة في وصفه بهذا المعنى (المسئلة الخامسة) اختلفوا في هذه الليلة المباركة فقال الاكثرون انها ليلة القدر وقال عكرمة وطائفة آخرون انها ليلة البراءة وهي ليلة النصف من شعبان (أما الاولون) فقد احتجوا على صحة قولهم بوجوه (أولها) انه تعالى قال انا أنزلناه في ليلة القدر وههنا قال انا أنزلناه في ليلة مباركة فوجب أن تكون هذه الليلة المباركة هي تلك المسماة بليلة القدر لئلا يلزم التناقض (وثانيها) انه تعالى قال شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن فبين ان انزال القرآن انما وقع في شهر رمضان وقال ههنا انا أنزلناه في ليلة مباركة فوجب أن تكون هذه الليلة المباركة واقعة في شهر رمضان وكل من قال ان هذه الليلة المباركة واقعة في شهر رمضان قال انها ليلة القدر فثبت انها ليلة القدر (وثالثها) انه تعالى قال في صفة ليلة القدر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر سلام هي وقال أيضا ههنا فيها يفرق كل أمر حكيم وهذا مناسب لقوله تنزل الملائكة والروح فيها وههنا قال أمرا من عندنا وقال في تلك الآية باذن ربهم من كل أمر وقال ههنا رحمة من ربك وقال في تلك الآية سلام هي واذا تقاربت الاوصاف وجب القول بأن احدى الليلتين هي الاخرى (ورابعها) نقل محمد ابن جرير الطبري في تفسيره عن قتادة أنه قال نزلت صحف ابراهيم في أول ليلة من رمضان والتوراة لست ليال منه والزبور لثنتي عشرة مضت منه والانجيل لثمان عشرة مضت منه

ارسالهم ووضع الرب موضع الضمير للايذان بأن ذلك من أحكام الربوبية ومقتضياتها واضافته الى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه أو تعليل ليفرق او لقوله تعالى أمرا على أن قوله تعالى رحمة مفعول للارسال كما في قوله تعالى وما يمسك فلا مرسل له أي يفرق فيها كل أمر أو تصدر الاوامر من عندنا لان من عادتنا ارسال رحمتنا ولا ريب في أن كلا من قسمة الارزاق وغيرها والاوامر الصادرة منه تعالى من باب الرحمة فان الغاية لتكليف العباد تعريضهم للمنافع وقرئ رحمة بالرفع أي تلك رحمة وقوله تعالى (انه هو السميع العليم) تحقيق لربوبيته تعالى وأنها لا تحق الا لمن هذه نعوته (رب السموات والارض وما بينهما) بدل من ربك أو بيان أو نعت وقرئ بالرفع على أنه خبر آخر أو استئناف على اضمار مبتدا (ان كنتم موقنين)

أي ان كنتم من أهل الايقان في العلوم أو ان كنتم موقنين في اقراركم بانه تعالى رب السموات والارض وما بينهما اذا سئلتم من خلقها فقلتم علمتم أن الامر كما قلنا أو ان كنتم مريدين اليقين فاعلموا ذلك (لا اله الا هو) جملة مستأنفة مقررة لما قبلها وقيل خبر لقوله رب السموات الخ وما بينهما اعتراض (يحيي ويميت) مستأنفة كما قبلها وكذا قوله تعالى (ربكم ورب آبائكم الاولين) باضمار مبتدأ أو بدل من رب السموات على قراءة الرفع أو بيان أو نعت له وقيل فاعل ايميت وفي يحيي ضمير راجع الى رب السموات وقرئ بالجر بدلا من رب السموات على قراءة الجر (بل هم في شك) مما ذكر من شؤونه تعالى غير موقنين في اقرارهم (يلعبون) لا يقولون ما يقولون عن جد واذعان بل مخلوطا بهزؤ ولعب والفاء في قوله تعالى

والقرآن لاربع وعشرين مضت من رمضان والليلة المباركة هي ليلة القدر (وخامسها) ان ليلة القدر انما سميت بهذا الاسم لان قدرها وشرفها عند الله عظيم ومعلوم انه ليس قدرها وشرفها السبب نفس ذلك الزمان لان الزمان شيء واحد في الذات والصفات فيمتنع كون بعضه أشرف من بعض لذاته فثبت ان شرفه وقدره بسبب انه حصل فيه أمور شريفة عالية لها قدر عظيم ومرتبة رفيعة ومعلوم ان منصب الدين أعلى وأعظم من منصب الدنيا وأعلى الاشياء وأشرفها منصبا في الدين هو القرآن لاجل ان به ثبتت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبه ظهر الفرق بين الحق والباطل في سائر كتب الله المنزلة كما قال في صفته ومهيمنا عليه وبه ظهرت درجات أرباب السعادات ودركات أرباب الشقاوات فعلى هذا الاشيء الا والقرآن أعظم قدرا وأعلى ذكرا وأعظم منصبا منه فلو كان نزوله انما وقع في ليلة أخرى سوى ليلة القدر لكانت ليلة القدر هي هذه الثانية لا الاولى وحيث أطبقوا على ان ليلة القدر هي التي وقعت في رمضان علمنا ان القرآن انما أنزل في تلك الليلة وأما القائلون بأن المراد من الليلة المباركة المذكورة في هذه الآية هي ليلة النصف من شعبان فما رأيت لهم فيه دليلا يعول عليه وانما قنعوا فيه بأن نقلوه عن بعض الناس فان صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه كلام فلا مزيد عليه والا فالحق هو الاول ثم ان هؤلاء القائلين بهذا القول زعموا ان ليلة النصف من شعبان لها أربعة أسماء الليلة المباركة وليلة البراءة وليلة الصك وليلة الرحمة وقيل انما سميت بليلة البراءة وليلة الصك لان البندار اذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة كذلك الله عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة وقيل هذه الليلة مختصة بخمس خصال (الاولى) تفريق كل أمر حكيم فيها قال تعالى فيها يفرق كل أمر حكيم (والثانية) فضيلة العبادة فيها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى في هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله اليه مائة ملك ثلاثون يبشرونه بالجنة وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا وعشرة يدفعون عنه مكايد الشيطان (الخصلة الثالثة) نزول الرحمة قال عليه السلام ان الله يرحم أمتي في هذه الليلة بعدد شعر أغنام بني كلب (والخصلة الرابعة) حصول المغفرة قال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة الا لكاهن أو مشاحن أو مدمن خمر أو عاق للوالدين أو مصر على الزنا (والخصلة الخامسة) انه تعالى أعطى رسوله في هذه الليلة تمام الشفاعة وذلك انه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمته فأعطي الثلث منها ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطي الثلثين ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطي الجميع الا من شرد على الله شراد البعير هذا الفصل نقلته من الكشاف فان قيل لاشك ان الزمان عبارة عن المدة الممتدة التي تقديرها حركات الافلاك والكواكب وانه في ذاته أمر متشابه الاجزاء فيمتنع كون بعضها أفضل من بعض والمكان أيضا عبارة عن الفضاء الممتد والخلاء الخالي فيمتنع كون بعض أجزائه أشرف

من البعض واذا كان كذلك كان تخصيص بعض أجزائه بمزيد الشرف دون الباقى ترجيحا لاحد طرفى الممكن على الآخر لا لمرجح وانه محال قلنا القول باثبات حدوث العالم واثبات أن فاعله فاعل مختار بناء على هذا الحرف وهو انه لا يبعد من الفاعل المختار تخصيص وقت معين باحداث العالم فيه دون ما قبله وما بعده فان بطل هذا الاصل فقد بطل حدوث العالم وبطل الفاعل المختار وحينئذ لا يكون للخوض فى تفسير القرآن فائدة وان صح هذا الاصل فقد زال ما ذكرتم من السؤال فهذا هو الجواب المعتمد والناس قالوا لا يبعد ان يخص الله تعالى بعض الاوقات بمزيد تشريف حتى يصير ذلك داعيا للمكلف الى الاقدام على الطاعات فى ذلك الوقت ولهذا السبب بين انه تعالى أخفاه فى الاوقات وما عينه لانه اذا لم يكن معينا جوز المكلف فى كل وقت معين أن يكون هو ذلك الوقت الشريف فيصير ذلك حاملا له على المواظبة على الطاعات فى كل الاوقات واذا وقفت على هذا الحرف ظهر عندك ان الزمان والمكان انما فازا بالتشريفات الزائدة تبعا لشرف الانسان فهو الاصل وكل ما سواه فهو تبع له والله أعلم (المسئلة السادسة) روى أن عطية الحرورى سأل ابن عباس رضى الله عنهما عن قوله انا انزلناه فى ليلة القدر وقوله انا أنزلناه فى ليلة مباركة كيف يصح ذلك مع أن الله تعالى أنزل القرآن فى جميع الشهور فقال ابن عباس رضى الله عنهما يا ابن الاسود لو هلكت أنا ووقع هذا فى نفسك ولم تجد جوابه لهلكت نزل القرآن جملة من اللوح المحفوظ الى البيت المعمور وهو فى السماء الدنيا ثم نزل بعد ذلك فى أنواع الوقائع حالا فحالا والله أعلم (المسئلة السابعة) فى بيان نظم هذه الآيات اعلم أن المقصود منها تعظيم القرآن من ثلاثة أوجه (أحدها) بيان تعظيم القرآن بحسب ذاته (الثانى) بيان تعظيمه بسبب شرف الوقت الذى نزل فيه (الثالث) بيان تعظيمه بحسب شرف منزله أما بيان تعظيمه بحسب ذاته فمن ثلاثة أوجه (أحدها) انه تعالى أقسم به وذلك يدل على شرفه (وثانيها) انه تعالى أقسم به على كونه نازلا فى ليلة مباركة وقد ذكرنا أن القسم بشئ على حالة من أحوال نفسه يدل على كونه فى غاية الشرف (وثالثها) انه تعالى وصفه بكونه مبينا وذلك يدل أيضا على شرفه فى ذاته (وأما النوع الثانى) وهو بيان شرفه لاجل شرف الوقت الذى أنزل فيه فهو قوله انا أنزلناه فى ليلة مباركة وهذا تنبيه على ان نزوله فى ليلة مباركة يقتضى شرفه وجلالته ثم نقول ان قوله انا أنزلناه فى ليلة مباركة يقتضى أمرين (أحدهما) انه تعالى أنزله (والثانى) كون تلك الليلة مباركة فذكر تعالى عقيب هذه الكلمة ما يجرى مجرى البيان لكل واحد منهما أما بيان انه تعالى لم أنزله فهو قوله انا كنا منذرين يعنى الحكمة فى انزال هذه السورة انذار الخلق لايتم الا به وأما بيان ان هذه الليلة ليلة مباركة فهو أمران (احدهما) انه تعالى يفرق فيها كل أمر حكيم (والثانى) ان ذلك الامر الحكيم يكون مخصوصا بشرف انه انما يظهر من عنده واليه الاشارة بقوله أمرا من عندنا (وأما النوع الثالث) فهو بيان شرف القرآن لشرف منزله وذلك هو قوله

(فارتقب) ترتيب الارتقاب أو الامر به على ما قبلها فان كونهم فى شك مما يوجب ذلك حتما أى فانتظر لهم (يوم تأتى السماء بدخان مبين) أى يوم شدة ومجاعة فان الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان اما لضعف بصره أو لان فى عام القحط يظلم الهواء لقلة الامطار وكثرة الغبار أو لان العرب تسمى الشر الغالب دخانا وذلك ان قريشا لما استعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف فأخذتهم سنة حتى أكلوا الجيف والعظام والعلهز وكان الرجل يرى بين السماء والارض الدخان وكان يحدث الرجل ويسمع كلامه ولا يراه من الدخان وذلك قوله تعالى (يغشى الناس) أى يحيط بهم (هذا عذاب اليم) أى قائلين ذلك فمشى اليه عليه الصلاة والسلام أبو سفيان ونفر معه وناشدوه الله تعالى والرحم وواعدوه ان دعا لهم وكشف عنهم أن يؤمنوا وذلك قوله تعالى (ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون) وهذا قول ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم وبه أخذ مجاهد ومقاتل وهو اختيار الفراء والزجاج وقيل هو دخان يأتى من السماء قبل يوم القيامة فيدخل فى اسماع الكفرة حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيذ ويعترى المؤمن منه كهيئة الزكام وتكون الارض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الآيات الدخان ونزول عيسى ابن مريم

وناريخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس الى المحشر قال حذيفة يارسول الله وما الدخان فتلا الآية وقال يملأ ما بين
المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة واما الكافر فهم كالسكران يخرج من منخريه
واذنيه ودبره الاول هو الذي يستدعيه مساق النظم الكريم قطعا فان قوله تعالى (أنى لهم الذكرى) الخ رد

انا كنا مرسلين فبين ان ذلك الانذار والارسال انما حصل من الله تعالى ثم بين ان ذلك الارسال انما كان لاجل تكميل الرحمة وهو قوله رحمة من ربك وكان الواجب أن يقال رحمة منا لانه وضع الظاهر موضع المضمر ايذانا بان الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين ثم بين أن تلك الرحمة وقعت على وفق حاجات المحتاجين لانه تعالى يسمع تضرعاتهم و يعلم أنواع حاجاتهم فلهذا قال انه هو السميع العليم فهذا ما خطر بالبال في كيفية تعلق بعض هذه الآيات ببعض (المسئلة الثامنة) في تفسير مفردات هذه الالفاظ اما قوله تعالى انا أنزلناه في ليلة مباركة فقد قيل فيه انه تعالى أنزل كلية القرآن من اللوح المحفوظ الى سماء الدنيا في هذه الليلة ثم أنزل في كل وقت ما يحتاج اليه المكلف وقيل يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة و يقع الفراغ في ليلة القدر فتدفع نسخة الارزاق الى ميكائيل ونسخة الحروب الى جبرائيل وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ونسخة الاعمال الى اسمعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب الى ملك الموت أما قوله تعالى فيها يفرق أي في تلك الليلة المباركة يفرق أي يفصل ويبين من قولهم فرقت الشيء أفرقه فرقا وفرقانا قال صاحب الكشاف وقرئ يفرق بالتشديد و يفرق على اسناد الفعل الى الفاعل ونصب كل والفارق هو الله عزوجل وقرأ زيد بن علي نفرق بالنون أما قوله كل أمر حكيم فالحكيم معناه ذو الحكمة وذلك لان تخصيص الله تعالى كل أحد بحالة معينة من العمر والرزق والاجل والسعادة والشقاوة يدل على حكمة بالغة لله تعالى فلما كانت تلك الافعال والاقضية دالة على حكمة فاعلها وصفت بكونها حكيمة وهذا من الاسناد المجازي لان الحكيم صفة صاحب الامر على الحقيقة ووصف الامر به مجاز ثم قال أمرا من عندنا وفي انتصاب قوله أمرا وجهان (الاول) انه نصب على الاختصاص وذلك لانه تعالى بين شرف تلك الاقضية والاحكام بسبب ان وصفها بكونها حكيمة ثم زاد في بيان شرفها بأن قال أعني بهذا الامر أمرا حاصلا من عندنا كائنا من لدنا وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا (والثاني) انه نصب على الحال وفيه ثلاثة أوجه (الاول) أن يكون حالا من أحد الضميرين في أنزلناه اما من ضمير الفاعل أي انا أنزلناه آمرين أمرا أو من ضمير المفعول أي انا أنزلناه في حال كونه أمرا من عندنا بما يجب أن يفعل (والثالث) ما حكاه أبو علي الفارسي عن أبي الحسن رحمهما الله انه حمل قوله أمرا على الحال وذو الحال قوله كل أمر حكيم وهو نكرة ثم قال انا كنا مرسلين يعني انا انما فعلنا ذلك الانذار لاجل انا كنا مرسلين يعني الانبياء ثم قال رحمة من ربك أي للرحمة فهي نصب على أن يكون مفعولا له ثم قال انه هو السميع العليم يعني أن تلك الرحمة كانت رحمة في الحقيقة لان المحتاجين اما أن يذكروا بألسنتهم حاجاتهم واما أن لا يذكروها فان ذكروها فهو تعالى يسمع كلامهم فيعرف حاجاتهم وان لم يذكروها فهو تعالى عالم بها فثبت أن كونه سميعا عليما يقتضي أن ينزل رحمته عليهم ثم قال رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين وفيه مسائل

لكلامهم واستدعائهم الكشف وتكذيب لهم في الوعد بالايمان المنبئ عن التذكر والاتعاظ اعتراهم من الداهية أي كيف يتذكرون أو من أين يتذكرون بذلك ويفون بما وعدوه من الايمان عند كشف العذاب عنهم (وقد جاءهم رسول مبين) أي والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر وموجبات الاتعاظ ما هو أعظم منه في ايجابها حيث جاءهم رسول عظيم الشان وبين لهم مناهج الحق باظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة تخر لها صم الجبال (ثم تولوا عنه) عن ذلك الرسول وهو هو ريثما شاهدوا منه ما شاهدوه من العظائم الموجبة للاقبال عليه ولم يقتنعوا بالتولي (وقالوا) في حقه (معلم مجنون) أي قالوا تارة يعلمه غلام أعجمي لبعض ثقيف وأخرى مجنون أو يقول بعضهم كذا وآخرون كذا فهل يتوقع من قوم هذه صفاتهم أن يتأثروا
بالعظة والتذكير وما مثلهم الا كمثل الكلب اذا جاع ضغا واذا شبع طغى وقوله تعالى (انا كاشفوا العذاب ﴿ المسئلة ﴾ قليلا انكم عائدون) جواب من جهته تعالى عن قولهم ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون بطريق

(المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بكسر الباء من رب عطفا على قوله رحمة من ربك والباقون بالرفع عطفا على قوله هو السميع العليم (المسئلة الثانية) المقصود من هذه الآية ان المنزل اذا كان موصوفا بهذه الجلالة والكبرياء كان المنزل الذى هو القرآن فى غاية الشرف والرفعة (المسئلة الثالثة) الفائدة فى قوله ان كنتم موقنين من وجوه (الاول) قال أبو مسلم معناه ان كنتم تطلبون اليقين وتريدونه فاعرفوا ان الامر كما قلنا كقولهم فلان منجد متهم أى يريد نجدا وتهامة (الثانى) قال صاحب الكشاف كانوا يقرون بأن للسموات والارض ربا وخالقا فقيل لهم ان ارسال الرسل وانزال الكتب رحمة من الرب سبحانه وتعالى ثم قيل ان هذا الرب هو السميع العليم الذى أنتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السموات والارض وما بينهما ان كان اقراركم عن علم ويقين كما تقول هذا انعام زيد الذى تسامع الناس بكرمه ان بلغك حديثه وسمعت قصته ثم انه تعالى رد أن يكونوا موقنين بقوله بل هم فى شك يلعبون وان اقرارهم غير صادر عن علم ويقين ولا عن جد وحقيقة بل قول مخلوط بهزؤ ولعب والله أعلم * قوله تعالى (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون انا كاشفوا العذاب قليلا انكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون) اعلم ان المراد بقوله فارتقب انتظر ويقال ذلك فى المكروه والمعنى انتظر يا محمد عذابهم فحذف مفعول الارتقاب لدلالة ما ذكر بعده عليه وهو قوله هذا عذاب أليم ويجوز أيضا أن يكون يوم تأتى السماء مفعول الارتقاب وقوله بدخان فيه قولان (الاول) ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا على قومه بمكة لما كذبوه فقال اللهم اجعل سنيهم كسنى يوسف فارتفع المطر وأجدبت الارض وأصابت قريشا شدة المجاعة حتى أكلوا العظام والكلاب والجيف فكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما فى بعض الروايات ومقاتل ومجاهد واختيار الفراء والزجاج وهو قول ابن مسعود رضى الله عنه وكان ينكر أن يكون الدخان الا هذا الذى أصابهم من شدة الجوع كالظلمة فى أبصارهم حتى كانوا كأنهم يرون دخانا فالحاصل أن هذا الدخان هو الظلمة التى فى أبصارهم من شدة الجوع وذكر ابن قتيبة فى تفسير الدخان بهذه الحالة وجهين (الاول) ان فى سنة القحط يعظم يبس الارض بسبب انقطاع المطر ويرتفع الغبار الكثير ويظلم الهواء وذلك يشبه الدخان ولهذا يقال لسنة المجاعة الغبراء (الثانى) ان العرب يسمون الشر الغالب بالدخان فيقولون كان بيننا أمر ارتفع له دخان والسبب فيه ان الانسان اذا اشتد خوفه أو ضعفه أظلمت عيناه فيرى الدنيا كالمملوءة من الدخان (والقول الثانى) فى الدخان انه دخان يظهر فى العالم وهو احدى علامات القيامة قالوا فاذا حصلت هذه الحالة حصل لاهل الايمان منه حالة تشبه الزكام وحصل لاهل الكفر حالة يصير لاجلها رأسه كرأس الحنيذ وهذا القول هو المنقول عن

لالتفات لمزيد التوبيخ والتهديد وما بينهما اعتراض أى انا نكشف العذاب المعهود عنكم كشفا قليلا أو زمانا قليلا انكم تعودون اثر ذلك الى ما كنتم عليه من العتو والاصرار على الكفر وتنسون هذه الحالة وصيغة الفاعل فى الفعلين للدلالة على تحققهما لا محالة ولقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم فما لبثوا ان عادوا الى ما كانوا عليه من العتو والعناد ومن فسر الدخان بما هو من الاشراط قال اذا جاء الدخان تضور المعذبون به من الكفار والمنافقين وغوثوا وقالوا ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون فيكشفه الله تعالى عنهم بعد أربعين يوما وريثما يكشفه عنهم يرتدون ولا يتمهلون (يوم نبطش البطشة الكبرى) يوم القيامة وقيل يوم بدر وهو ظرف لما دل عليه قوله تعالى (انا منتقمون) لا لمنتقمون لان ان مانعة من ذلك أى يومئذ ننتقم انا منتقمون وقيل هو بدل من يوم تأتى الخ وقرئ نبطش أى نحمل الملائكة على أن يبطشوا بهم البطشة الكبرى وهو التناول بعنف وصولة أو نجعل البطشة الكبرى باطشة بهم وقرئ نبطش بضم الطاء وهى لغة (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون) أى امتحناهم بارسال موسى عليه السلام او أوقعناهم فى الفتنة بالامهال وتوسيع الرزق عليهم وقرئ بالتشديد للمبالغة أو لكثرة القوم (وجاءهم رسول كريم) على الله تعالى أو على المؤمنين أو فى نفسه لان الله تعالى لم يبعث نبيا الا من سراة قومه وكرامهم (أن أدوا الى عباد الله) أى بأن أدوا الى بنى اسرائيل

وارسلوهم معي او بان أدوا الي ياعباد الله حقه من الايمان وقبول الدعوة وقيل انها مفسرة لان مجيء الرسول لايكون الا برسالة ودعوة وقيل مخففة من الثقيلة أي جاءهم بأن الشأن أدوا الي الخ وقوله تعالى (اني لكم رسول أمين) تعليل الامر أولوجوب المأمور به أي رسول غير ظنين قد ائتمني الله تعالى على وحيه وصدقني بالمعجزات القاهرة

(وأن لا تعلوا على الله) أي لا تتكبروا عليه تعالى بالاستهانة بوحيه وبرسوله وأن كالتي سلفت وقوله تعالى (اني آتيكم) أي من جهته تعالى (بسلطان مبين) تعليل للنهي أي آتيكم بحجة واضحة لاسبيل الى انكارها وآتيكم على صيغة الفاعل أوالمضارع وفي ايراد الاداء مع الامين والسلطان مع العلاء من الجزالة مالايخفى (واني عذت بربي وربكم) أي التجأت اليه وتوكلت عليه (أن ترجمون) من أن ترجموني أي تؤذوني ضربا أوشتما أوأن تقتلوني قيل لما قال وأن لاتعلوا على الله توعدوه بالقتل وقرئ بادغام الذال في التاء (وان لم تؤمنوا لي فاعتزلون) أي وان كابرتم مقتضى العقل ولم تؤمنوا لي فخلوني كفافا لاعلي ولالي ولاتتعرضوا لي بشر ولاأذى فليس ذلك جزاء من يدعوكم الى مافيه فلاحكم وحمله على معنى فاقطعوا أسباب الوصلة عني فلا موالاة بيني وبين من لايؤمن يأباه المقام (فدعا ربه) بعدما تموا على تكذيبه عليه السلام (ان هؤلاء) أي بأن هؤلاء ﴿ الجرجاني ﴾

(قوم مجرمون) هو تعريض بالدعاء عليهم بذكر مااستوجبوه به ولذلك سمى

علي بن أبي طالب عليه السلام وهو قول مشهور لابن عباس واحتج القائلون بهذا القول بوجوه (الاول) ان قوله يوم تأتي السماء بدخان يقتضي وجود دخان تأتي به السماء وما ذكرتموه من الظلمة الحاصلة في العين بسبب شدة الجوع فذاك ليس بدخان أتت به السماء فكان حمل لفظ الآية على هذا الوجه عدولا عن الظاهر لا لدليل منفصل وانه لايجوز (الثاني) انه وصف ذلك الدخان بكونه مبينا والحالة التي ذكرتموها ليست كذلك لانها عارضة تعرض لبعض الناس في أدمغتهم ومثل هذا لايوصف بكونها دخانا مبينا (والثالث) انه وصف ذلك الدخان بأنه يغشى الناس وهذا انما يصدق اذا وصل ذلك الدخان اليهم واتصل بهم والحالة التي ذكرتموها لاتوصف بأنها تغشى الناس الاعلى سبيل المجاز وقد ذكرنا ان العدول من الحقيقة الى المجاز لايجوز الالدليل منفصل (الرابع) روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أول الآيات الدخان ونزول عيسى ابن مريم عليهما السلام ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس الى المحشر قال حذيفة يارسول الله وما الدخان فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية وقال دخان يملأ مابين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة اما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره رواه صاحب الكشاف وروى القاضي عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال باكروا بالاعمال ستا وذكر منها طلوع الشمس من مغربها والدجال والدخان والدابة أما القائلون بالقول الاول فلاشك ان ذلك يقتضي صرف اللفظ عن حقيقته الى المجاز وذلك لايجوز الا عند قيام دليل يدل على ان حمله على حقيقته ممتنع والقوم لم يذكروا ذلك الدليل فكان المصير الى ماذكروه مشكلا جدا فان قالوا الدليل على أن المراد ماذكرناه انه تعالى حكى عنهم انهم يقولون ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون وهذا اذا حملناه على القحط الذي وقع بمكة استقام فانه نقل ان القحط لما اشتد بمكة مشى اليه أبو سفيان وناشده بالله والرحم وأوعده انه ان دعا لهم وأزال الله عنهم تلك البلية ان يؤمنوا به فلما أزال الله تعالى عنهم ذلك رجعوا الى شركهم أما اذا حملناه على ان المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة لم يصح ذلك لان عند ظهور علامات القيامة لايمكنهم أن يقولوا ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون ولم يصح أيضا أن يقال لهم انا كاشفوا العذاب قليلا انكم عائدون (والجواب) لم لايجوز أن يكون ظهور هذه العلامة جاريا مجرى ظهور سائر علامات القيامة في أنه لايوجب انقطاع التكليف فتحدث هذه الحالة ثم ان الناس يخافون جدا فيتضرعون فاذا زالت تلك الواقعة عادوا الى الكفر والفسق واذا كان هذا محتملا فقد سقط ماقالوه والله أعلم ولنرجع الى التفسير فنقول قوله تعالى يوم تأتي السماء بدخان مبين أي ظاهر الحال لايشك أحد في أنه دخان يغشى الناس أي يشملهم وهو في محل الجر صفة لقوله بدخان وفي قوله هذا عذاب أليم قولان (الاول) انه منصوب المحل بفعل مضمر وهو يقولون ويقولون منصوب على الحال أي قائلين ذلك (الثاني) قال

الجرجاني صاحب النظم هذا اشارة اليه واخبار عن دنوه واقترابه كما يقال هذا العدو فاستقبه وانفرص منه التنبيه على القرب ثم قال ربنا اكشف عنا العذاب فان قلنا التقدير يقولو هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب فالمعنى ظاهر وان لم يضمر القول هنالك أضمر اه ههنا والعذاب على القول الاول هو القحط الشديد وعلى القول الثاني الدخان المهلك انا مؤمنون أي بمحمد و بالقرآن والمراد منه الوعد بالايمان ان كشف عنهم العذاب ثم قال مالى أنى لهم الذكرى يعني كيف يتذكرون و كيف يتعظون بهذه الحالة وقد جاءهم ماهو أعظم وأدخل في وجوب الطاعة وهو ماظهر على رسول الله من المعجزات القاهرة والبينات الباهرة ثم تولوا عنه ولم يلتفتوا اليه وقالوا معلم مجنون وذلك لان كفار مكة كان لهم في ظهور القرآن على محمد عليه الصلاة و السلام قولان منهم من كان يقول ان محمدا يتعلم هذه الكلمات من بعض الناس لقوله انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي و كقوله تعالى وأعانه عليه قوم آخرون ومنهم من كان يقول انه مجنون والجن يلقون عليه هذه الكلمات حال مايعرض له الغشي ثم قال تعالى انا كاشفوا العذاب قليلا انكم عائدون أي كما يكشف العذاب عنكم تعودون في الحال الى ماكنتم عليه من الشرك والمقصود التنبيه على انهم لا يوفون بعهدهم وأنهم في حال العجز يتضرعون الى الله تعالى فاذا زال الخوف عادوا الى الكفر والتقليد لمذاهب الاسلاف ثم قال تعالى يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون قال صاحب الكشاف وقرئ نبطش بضم الطاء وقرأ الحسن نبطش بضم النون كأنه تعالى يأمر الملائكة بأن يبطشوا بهم والبطش الاخذ بشدة وأكثر مايكون بوقع الضرب المتتابع ثم صار بحيث يستعمل في ايصال الآلام المتتابعة وفي المراد بهذا اليوم قولان (الاول) انه يوم بدر وهو قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد ومقاتل وأبي العالية رضي الله تعالى عنهم قالوا ان كفار مكة لما أزال الله تعالى عنهم القحط والجوع عادوا الى التكذيب فانتقم الله منهم يوم بدر (والقول الثاني) انه يوم القيامة روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال قال ابن مسعود البطشة الكبرى يوم بدر وأنا أقول هي يوم القيامة وهذا القول أصح لان يوم بدر لايبلغ هذا المبلغ الذي يوصف بهذا الوصف العظيم ولان الانتقام التام انما يحصل يوم القيامة لقوله تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ولان هذه البطشة لما وصفت بكونها كبرى على الاطلاق وجب أن تكون أعظم أنواع البطش وذلك ليس الا في القيامة ولفظ الانتقام في حق الله تعالى من المتشابهات كالغضب والحياء والتعجب والمعنى معلوم والله أعلم

* قوله تعالى (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم ان ادوا الى عباد الله انى لكم رسول أمين وأن لاتعلوا على الله انى آتيكم بسلطان مبين وانى عذت بربى وربكم ان ترجمون وان لم تؤمنوا لى فاعتزلون فدعا ربه ان هؤلاء قوم مجرمون فاسر بعبادي ليلا انكم متبعون واترك البحر رهوا انهم جند مغرقون كم تركوا من جنات وعيون وزروع

فدعاء وقرئ بالكسر على اضمار القول قيل كان دعاؤه اللهم عجل لهم مايستحقونه باجرامهم وقيل هو قوله ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين (فأسر بعبادي ليلا) باضمار القول اما بعد الفاء أي فقال ربه أسر بعبادي واما قبلها كأنه قيل قال ان كان الامر كما تقول فأسر ﴿ ٤٦٩ ﴾ بعبادي أي بني اسرائيل فقد دبر الله تعالى أن تتقدموا وقرئ بوصل الهمزة من سرى (انكم متبعون) أي يتبعكم فرعون وجنوده بعد ماعلموا بخروجكم (واترك البحر رهوا) مفتوحا ذا فجوة واسعة أو ساكنا على هيئته بعد ماجاوزته ولاتضربه بعصاك لينطبق ولاتغيره عن حاله ليدخله القبط (انهم جند مغرقون) وقرئ أنهم بالفتح أي لانهم (كم تركوا) أي كثيرا تركوا بمصر (من جنات وعيون وزروع ومقام كريم) محافل مزينة ومنازل محسنة (ونعمة) اى تنعم (كانوا فيها فاكهين) متنعمين وقرئ فكهين (كذلك) الكاف في حيز النصب وذلك اشارة الى مصدر فعل يدل عليه تركوا أي مثل ذلك السلب سلبناهم اياها (وأورثناها قوما آخرين) وقيل مثل ذلك الاخراج أخرجناهم منها وقيل في حيز الرفع على الخبرية اى الامر كذلك فحينئذ يكون أورثناها معطوفا على تركوا وعلى الاولين على الفعل المقدر (فما بكت عليهم السماء والارض) مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم فيه تهكم بهم و بحالهم المنافية لحال من يعظم فقده فيقال له بكت عليه السماء والارض ومنه ماروى ان المؤمن ليبكى عليه مصلاه ومحل عبادته ومصاعد

عله ومهابط رزقه وآثاره فى الارض وقبل تقديره اهل السماء والارض (وما كانوا) لما جاء وقت هلاكهم (منظرين) ممهلين الى وقت آخر أو الى الآخرة بل عجل لهم فى الدنيا (ولقد نجينا بنى اسرائيل) بأن فعلنا بفرعون وقومه ما فعلنا (من العذاب المهين) من استعباد فرعون اياهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم على الخسف والضيم (من فرعون) بدل من العذاب اما على جعله نفس العذاب لافراطه فيه واما على حذف المضاف أى عذاب فرعون أو حال من المهين أى كائنا من فرعون وقرئ من فرعون على معنى هل تعرفونه من هو فى عتوه وتفرعنه وفى ابهام أمره أولا وتبيينه بقوله تعالى انه كان عاليا من المسرفين) ثانيا من الافصاح عن كنه امره فى الشر والفساد مالا مزيد عليه وقوله تعالى من المسرفين اما خبر ثان لكان أى كان متكبرا مسرفا أو حال من الضمير فى عاليا اى كان رفيع الطبقة من بين المسرفين فائقا لهم بليغا فى الاسراف (ولقد اخترنا هم) أى بنى اسرائيل (على علم) أى عالمين بانهم أحقاء بالاختيار أو عالمين بأنهم يزيغون فى بعض الاوقات ويكثر منهم الفرطات (على العالمين) جميعا لكثرة الانبياء فيهم أو على عالمى زمانهم (وآتيناهم من الآيات) كفلق البحر وتظليل الغمام وانزال المن ﴿ راه ﴾ والسلوى وغيرها من عظائم الآيات التى لم يعهد مثلها فى غيرهم (ما فيه بلاء مبين) نعمة جلية أو اختبار ظاهر لننظر كيف يعملون (ان هؤلاء) يعنى كفار قريش لان الكلام

ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين) اعلم انه تعالى لما بين ان كفار مكة مصرون على كفرهم بين أن كثيرا من المتقدمين أيضا كانوا كذلك فبين حصول هذه الصفة فى أكثر قوم فرعون قال صاحب الكشاف قرئ ولقد فتنا بالتشديد للتأكيد قال ابن عباس ابتلينا قال الزجاج بلونا والمعنى عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسول اليهم وجاءهم رسول كريم وهو موسى واختلفوا فى معنى الكريم ههنا فقال الكلبى كريم على ربه يعنى انه استحق على ربه أنواعا كثيرة من الاكرام وقال مقاتل حسن الخلق وقال الفراء يقال فلان كريم قومه لانه قل مابعث رسول الا من أشراف قومه وكرامهم ثم قال أن أدوا الى عباد الله وفى أن قولان (الاول) أنها أن المفسرة وذلك لان مجئ الرسول الى من بعث اليهم متضمن لمعنى القول لانه لا يجيئهم الا مبشرا ونذيرا وداعيا الى الله (الثانى) انها المخففة من الثقيلة ومعناه وجاءهم بان الشان والحديث أدوا وعباد الله مفعول به وهم بنو اسرائيل يقول أدوهم الى وأرسلوهم معى وهو كقوله فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم ويجوز أيضا أن يكون نداء لهم والتقدير أدوا الى يا عباد الله ما هو واجب عليكم من الايمان وقبول دعوتى واتباع سبيلى وعلل ذلك بانه رسول أمين قد ائتمنه الله تعالى على وحيه ورسالته وأن لا تعلوا أن هذه مثل الاولى فى وجهيها أى لا تتكبروا على الله باهانة وحيه ورسوله انى آتيكم بسلطان مبين بحجة بينة يعترف بصحتها كل عاقل وانى عذت بربى وربكم أن ترجمون قيل المراد أن تقتلون وقيل أن ترجمون بالقول فتقولوا انه ساحر كذاب وان لم تؤمنوا لى أى ان لم تصدقونى ولم تؤمنوا بالله لاجل ما آتيتكم به من الحجة فاللام فى لى لام الاجل فاعتزلون أى خلوا سبيلى لا لى ولا على قال مصنف الكتاب رحمه الله تعالى ان المعتزلة يتصلفون ويقولون ان لفظ الاعتزال أينما جاء فى القرآن كان المراد منه الاعتزال عن الباطل لا عن الحق فاتفق حضورى معهم فى بعض المحافل وذكر بعضهم هذا الكلام فاوردت عليه هذه الآية وقلت المراد من الاعتزال فى هذه الآية الاعتزال عن دين موسى عليه السلام وطريقته وذلك لاشك انه اعتزال عن الحق فانقطع الرجل ثم قال تعالى فدعا ربه الفاء فى فدعا تدل على انه متصل بمحذوف قبله والتأويل انهم كفروا ولم يؤمنوا فدعا موسى ربه بان هؤلاء قوم مجرمون فان قالوا الكفر أعظم حالا من الجرم فما السبب فى أن جعل صفة الكفار كونهم مجرمين حال ما أراد المبالغة فى ذمهم قلت لان الكافر قد يكون عدلا فى دينه وقد يكون مجرما فى دينه وقد يكون فاسقا فى دينه فيكون أخس الناس قال صاحب الكشاف قرئ ان هؤلاء بالكسر على اضمار القول اى فدعا ربه فقال ان هؤلاء فأسر بعبادى ليلا قرأ ابن كثير ونافع فاسر موصولة الالف والباقون مقطوعة الالف سرى وأسرى لغتان أى أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى ليلا انكم متبعون أى يتبعكم فرعون وقومه ويصير ذلك سببا لهلاكهم واترك البحر رهوا وفى الرهو قولان (أحدهما) انه الساكن يقال عيش

فيهم وقصة فرعون وقومه مسوقة للدلالة على تماثلهم في الاصرار على الضلالة والتحذير عن حلول مثل ما حل بهم

(ليقولون ان هي الا موتتنا الاولى) أي ما العاقبة ونهاية الامر الا الموتة الاولى المزيلة للحياة الدنيوية

راه اذا كان خافضا وادعا وافعل ذلك سهوا رهوا أي ساكنا بغير تشدد أراد موسى عليه السلام لما جاوز البحر ان يضرب به بعصاه فينطبق كما كان فأمره الله تعالى بان يتركه ساكنا على هيئته قارا على حاله في انفلاق الماء وبقاء الطريق يبسا حتى يدخله القبط فاذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم (والثاني) ان الرهو هو الفرجة الواسعة والمعنى ذا رهو أي ذا فرجة يعني الطريق الذي أظهره الله فيما بين البحر انهم جند مغرقون يعني اترك الطريق كما كان حتى يدخلوا فيغرقوا أنما أخبره الله تعالى بذلك حتى يبقى فارغ القلب عن شرهم وايذائهم ثم قال تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم دلت هذه الآية على انه تعالى أغرقهم ثم قال بعد غرقهم هذا الكلام وبين تعالى انهم تركوا هذه الاشياء الخمسة وهي الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم والمراد بالمقام الكريم ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة وقيل المنابر التي كانوا يمدحون فرعون عليها ونعمة كانوا فيها فاكهين قال علماء اللغة نعمة العيش بفتح النون حسنه ونضارته ونعمة الله احسانه وعطاؤه قال صاحب الكشاف النعمة بالفتح من التنعم وبالكسر من الانعام وقرئ فاكهين وفكهين كذلك الكاف منصوبة على معنى مثل ذلك الاخراج أخرجناهم منها وأورثناها أو في موضع الرفع على تقدير ان الامر كذلك وأورثناها قوما آخرين ليسوا منهم في شئ من قرابة ولا دين ولا ولاء وهم بنو اسرائيل كانوا مستعبدين في أيديهم فأهلكهم الله على ايديهم واورثهم ملكهم وديارهم ثم قال تعالى فما بكت عليهم السماء والارض وفيه وجوه (الاول) قال الواحدي في البسيط روى أنس بن مالك ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من عبد الا وله في السماء بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل فيه عمله فاذا مات فقداه و بكيا عليه وتلا هذه الآية قال وذلك لانهم لم يكونوا يعملون على الارض عملا صالحا فتبكي عليهم ولم يصعد لهم الى السماء كلام طيب ولا عمل صالح فتبكي عليهم وهذا قول أكثر المفسرين (القول الثاني) التقدير فما بكت عليهم أهل السماء وأهل الارض فحذف المضاف والمعنى ما بكت عليهم الملائكة ولا المؤمنون بل كانوا بهلاكهم مسرورين (والقول الثالث) ان عادة الناس جرت بان يقولوا في هلاك الرجل العظيم الشان انه أظلمت له الدنيا وكسفت الشمس والقمر لاجله و بكت الريح والسماء والارض ويريدون المبالغة في تعظيم تلك المصيبة لا نفس هذا الكذب ونقل صاحب الكشاف عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه الا بكت عليه السماء والارض وقال جرير

الشمس طالعة ليست بكاسفة * تبكي عليك نجوم الليل والقمر

وفيه ما يشبه السخرية بهم يعني انهم كانوا يستعظمون أنفسهم وكانوا يعتقدون في أنفسهم انهم لو ماتوا لبكت عليهم السماء والارض فما كانوا في هذا الحد بل كانوا دون ذلك وهذا انما يذكر على سبيل التهكم ثم قال وما كانوا منظرين أي لما جاء وقت هلاكهم لم ينظروا الى وقت آخر لتوبة وتدارك تقصير * قوله تعالى (ولقد نجينا بني اسرائيل من العذاب المهين

ولا قصد فيه الى اثبات موتة أخرى كما في قولك حج زيد الحجة الاولى ومات وقيل لما قيل لهم انكم تموتون موتة تعقبها حياة كما تقدمتكم موتة كذلك قالوا ماهي الا موتتنا الاولى أي ما الموتة التي تعقبها حياة الا الموتة الاولى وقيل المعنى ليست الموتة الا هذه الموتة دون الموتة التي تعقب حياة القبر كما تزعمون (وما نحن بمنشرين) بمبعوثين (فأتوا بآبائنا) خطاب لمن وعدهم بالنشور من الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين (ان كنتم صادقين) فيما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى ليظهر أنه حق وقيل كانوا يطلبون اليهم أن يدعوا الله تعالى فينشر لهم قصي ابن كلاب ليشاوروه وكان كبيرهم ومفزعهم في المهمات والملمات (أهم خير) رد لقولهم وتهديد لهم أي أهم خير في القوة والمنعة اللتين يدفع بهما اسباب الهلاك (أم قوم تبع) هو تبع الحميري الذي سار بالجيوش وحير الحيرة و بنى سمرقند وقيل هدمها وكان مؤمنا وقومه كافرين ولذلك ذمهم الله تعالى دونه وكان يكتب في عنوان كتابه بسم الله الذي ملك برا و بحرا أي

من فرعون انه كان عاليا من المسرفين ولقد اخترناهم على علم على العالمين وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ان هؤلاء ليقولون ان هي الا موتتنا الاولى وما نحن بمنشرين فأتوا بآبائنا ان كنتم صادقين أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم انهم كانوا مجرمين وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) اعلم انه تعالى لما بين كيفية اهلاك فرعون وقومه بين كيفية احسانه الى موسى وقومه واعلم ان دفع الضرر مقدم على ايصال النفع فبدأ تعالى ببيان دفع الضرر عنهم فقال ولقد نجينا بني اسرائيل من العذاب المهين يعني قتل الابناء واستخدام النساء والاتعاب في الاعمال الشاقة ثم قال من فرعون وفيه وجهان (الاول) ان يكون التقدير من العذاب المهين الصادر من فرعون (الثاني) أن يكون فرعون بدلا من العذاب المهين كأنه في نفسه كان عذابا مهينا لافراطه في تعذيبهم واهانتهم قال صاحب الكشاف وقرئ من عذاب المهين وعلى هذه القراءة فالمهين هو فرعون لانه كان عظيم السعي في اهانة المحقين وفي قراءة ابن عباس من فرعون وهو بمعنى الاستفهام وقوله انه كان عاليا من المسرفين جوابه كان التقدير أن يقال هل تعرفونه من هو في عتوه وشيطنته ثم عرف حاله بقوله انه كان عاليا من المسرفين أي كان عالي الدرجة في طبقة المسرفين ويجوز أن يكون المراد انه كان عاليا لقوله ان فرعون علا في الارض وكان أيضا مسرفا ومن اسرافه انه على حقارته وخسته ادعى الالهية ولما بين الله تعالى انه كيف دفع الضرر عن بني اسرائيل بين انه كيف أوصل اليهم الخيرات فقال ولقد اخترناهم على علم على العالمين وفيه بحثان (البحث الاول) أن قوله على علم في موضع الحال ثم فيه وجهان (أحدهما) أي عالمين بكونهم مستحقين لان يختاروا ويرجحوا على غيرهم (والثاني) أن يكون المعنى مع علمنا بأنهم قد يزيغون ويصدر عنهم الفرطات في بعض الاحوال (البحث الثاني) ظاهر قوله ولقد اخترناهم على علم على العالمين يقتضي كونهم أفضل من كل العالمين فقيل المراد على عالمي زمانهم وقيل هذا عام دخله التخصيص كقوله كنتم خير أمة أخرجت للناس ثم قال تعالى وآتيناهم من الآيات مثل فلق البحر وتظليل الغمام وانزال المن والسلوى وغيرها من الآيات القاهرة التي ما أظهر الله مثلها على أحد سواهم بلاء مبين أي نعمة ظاهرة لانه تعالى كان يبلو بالمحنة فقد يبلو أيضا بالنعمة اختبارا لظاهر التمييز الصديق عن الزنديق وههنا آخر الكلام في قصة موسى عليه السلام ثم رجع الى ذكر كفار مكة وذلك لان الكلام فيهم حيث قال بل هم في شك يلعبون أي بل هم في شك من البعث والقيامة ثم بين كيفية اصرارهم على كفرهم ثم بين أن قوم فرعون كانوا في الاصرار على الكفر على هذه القصة ثم بين انه كيف أهلكهم وكيف أنعم على بني اسرائيل ثم رجع الى الحديث الاول وهو كون كفار مكة منكرين للبعث فقال ان هؤلاء ليقولون ان هي الا موتتنا الاولى وما نحن بمنشرين

مارا كثيرة وعن النبي صلى الله عليه وسلم لا تسبوا تبعا فانه كان قد أسلم وعنه عليه الصلاة والسلام ما أدري أكان تبع نبيا أو غير نبي وعن ابن عباس رضي الله عنهما انه كان نبيا وقيل لملوك اليمن التبابعة لانهم يتبعون كما قيل لهم الاقيال لانهم يتقيلون (والذين من قبلهم) عطف على قوم تبع والمراد بهم عاد وثمود وأضرابهم من كل جبار عنيد أولي بأس شديد والاستفهام لتقرير أن أولئك أقوى من هؤلاء وقوله تعالى (أهلكناهم) استئناف لبيان عاقبة أمرهم وقوله تعالى (انهم كانوا مجرمين) تعليل لاهلاكهم ليعلم أن أولئك حيث أهلكوا بسبب اجرامهم مع ما كانوا في غاية القوة والشدة فلأن يهلك هؤلاء وهم شركاؤهم في الاجرام أضعف منهم في الشدة والقوة أولى (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما) أي ما بين الجنسين وقرئ وما بينهن (لاعبين) لاهين من غير أن يكون في خلقهما غرض صحيح رعاية جيدة (ما خلقناهما) وما بينهما (الا بالحق) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أو أعم الاسباب أي ما خلقناهما ملتبسا بشيء من الاشياء الا ملتبسا بالحق أو ما خلقناهما بسبب من الاسباب الا بسبب الحق الذي هو الايمان والطاعة والبعث والجزاء (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن الامر كذلك فيكون البعث والجزاء ﴿ فان ﴾

الطعام بالمهل وهو دردى الزيت وعكر القطران ومذاب النحاس وسائر الفلزات وتم الكلام ههنا ثم أخبر عن غليانه فى بطون الكفار فقال يغلى فى البطون وقرئ بالتاء فن قرأ بالتاء فلتأنيث الشجرة ومن قرأ بالياء حمله على الطعام فى قوله طعام الاثيم لان الطعام هو الشجرة فى المعنى واختار أبو عبيد الياء لان الاسم المذكور يعنى المهل هو الذى يلى الفعل فصار التذكير به أولى واعلم انه لا يجوز أن يحمل الغلى على المهل لان المهل مشبه به وانما يغلى مايشبه بالمهل كغلى الحميم والماء اذا اشتد غليانه فهو حميم ثم قال خذوه أى خذوا الاثيم فاعتلوه وقرئ بكسر التاء قال الليث العتل أن تأخذ بمنكب الرجل فتعتله أى تجره اليك وتذهب به الى حبس أو محنة واخذ فلان بزمام الناقة يعتلها وذلك اذا قبض على أصل الزمام عند الرأس وقادها قودا عنيفا وقال ابن السكيت عتلته الى السجن وأعتلته اذا دفعته دفعا عنيفا هذا قول جميع أهل اللغة فى العتل وذكروا فى اللغتين ضم التاء وكسرها وهما صحيحان مثل يعكفون ويعكفون ويعرشون ويعرشون قوله تعالى الى سواء الجحيم أى الى وسط الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم وكان الاصل أن يقال ثم صبوا من فوق رأسه الحميم يصب من فوق رؤسهم الحميم الا ان هذه الاستعارة أكمل فى المبالغة كأنه يقول صبوا عليه عذاب ذلك الحميم ونظيره قوله تعالى ربنا أفرغ علينا صبرا ذق انك أنت العزيز الكريم وذكروا فيه وجوها (الاول) انه يخاطب بذلك على سبيل الاستهزاء والمراد انك أنت بالضد منه (والثانى) ان أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم مابين جبليها أعز ولا أكرم منى فوالله ماتستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيأ (والثالث) انك كنت تعتز لا بالله فانظر ماوقعت فيه وقرئ أنك بمعنى لانك ثم قال ان هذا ما كنتم به تمترون أى ان هذا العذاب ما كنتم به تمترون أى تشكون والمراد منه ماذكره فى أول السورة حيث قال بل هم فى شك يلعبون * قوله تعالى (ان المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون يلبسون من سندس واستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى ووقاهم عذاب الجحيم فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون فارتقب انهم مرتقبون) اعلم انه تعالى لما ذكر الوعيد فى الآيات المتقدمة ذكر الوعد فى هذه الآيات فقال ان المتقين قال أصحابنا كل من اتقى الشرك فقد صدق عليه اسم المتقى فوجب ان يدخل الفاسق فى هذا الوعد واعلم انه تعالى ذكر من أسباب تنعمهم أربعة اشياء (أولها) مساكنهم فقال فى مقام أمين واعلم ان المسكن انما يطيب بشرطين (أحدهما) أن يكون آمنا عن جميع مايخاف ويحذر وهو المراد من قوله فى مقام أمين قرأ الجمهور فى مقام بفتح الميم وقرأ نافع وابن عامر بضم الميم قال صاحب الكشاف المقام بفتح الميم هو موضع القيام والمراد المكان وهو من الخاص الذى جعل مستعملا فى المعنى العام وبالضم هو موضع الاقامة والأمين من قولك امن الرجل امانة

موضع اقامة (أمين) يأمن صاحبه الآفات والانتقال عنه وهو من الأمن الذى هو ضد الخيانة وصف به المكان بطريق الاستعارة كأن المكان المخيف يخون صاحبه لما يلقى فيه من المكاره (فى جنات وعيون) بدل من مقام جئ به دلالة على نزاهته واشتماله على طيبات المآكل والمشارب (يلبسون من سندس واستبرق) اما خبر ثان او حال من الضمير فى الجار أو استئناف والسندس مارق من الحرير والاستبرق ماغلظ منه معرب (متقابلين) فى المجالس ليستأنس بعضهم ببعض (كذلك) أى الامر كذلك أو كذلك أثبناهم (و زوجناهم بحور عين) على الوصف وقرئ بالاضافة أى قرناهم بهن والحور جمع الحوراء وهى البيضاء والعين جمع العيناء وهى العظيمة العينين اختلف فى أنهن نساء الدنيا أوغيرها (يدعون فيها بكل فاكهة) أى يطلبون ويأمرون باحضار مايشتهونه باكه لا يتخصص شئ منها

فهو أمين وهو ضد الخائن فوصف به المكان استعارة لان المكان المخيف كأنه يخون صاحبه (والشرط الثانى) اطيب المكان أن يكون قد حصل فيه أسباب النزهة وهى الجنات والعيون فلما ذكر تعالى هذين الشرطين فى مساكن أهل الجنة فقد وصفها بما لايقبل الزيادة (والقسم الثانى) من تنعماتهم الملبوسات فقال يلبسون من سندس واستبرق قيل السندس مارق من الديباج والاستبرق ماغلظ منه وهو تعريب استبرك فان قالوا كيف جاز ورود الاعجمى فى القرآن قلنا لما عرب فقد صار عربيا (والقسم الثالث) فهو جلوسهم على صفة التقابل والغرض منه استئناس البعض بالبعض فان قالوا الجلوس على هذا الوجه موحش لانه يكون كل واحد منهم مطلعا على ما يفعله الآخر وأيضا فالذى يقل ثوابه اذا اطلع على حال من يكثر ثوابه يتنغص عيشه قلنا أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا (والقسم الرابع) أزواجهم فقال كذلك وزوجناهم بحور عين الكاف فيه وجهان أن تكون مرفوعة والتقدير الامر كذلك أو منصوبة والتقدير آتيناهم مثل ذلك قال أبو عبيدة جعلناهم ازواجا كما يزوج البعل بالبعل أى جعلناهم اثنين اثنين واختلفوا فى أن هذا اللفظ هل يدل على حصول عقد التزويج أم لا فقال يونس قوله وزوجناهم بحور عين أى قرناهم بهن فليس من عقد التزويج والعرب لاتقول تزوجت بها وانما تقول تزوجتها قال الواحدى رحمه الله والتنزيل يدل على ماقال يونس وذلك قوله فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ولو كان المراد تزوجت بها لقال زوجناك بها وأيضا فقول القائل زوجته به معناه انه كان فردا فزوجته بآخر كما يقال شفعته بآخر وأما الحور فقال الواحدى أصل الحور البياض والتحوير التبييض وقد ذكرنا ذلك فى تفسير الحواريين وعين حوراء اذا اشتد بياض بياضها واشتد سواد سوادها ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون حور عينيها بياضا فى لون الجسد والدليل على أن المراد بالحور فى هذه الآية البيض قراءة ابن مسعود بعيس عين والعيس البيض وأما العين فجمع عيناء وهى التى تكون عظيمة العينين من النساء قال الجبائى رجل أعين اذا كان ضخم العين واسعها والانثى عيناء والجمع عين ثم اختلفوا فى هؤلاء الحور العين فقال الحسن هن عجائزكم الدرد ينشئهن الله خلقا آخر وقال أبو هريرة انهن ليسوا من نساء الدنيا (والنوع الخامس) من تنعمات أهل الجنة المأكول فقال يدعون فيها بكل فاكهة آمنين قالوا انهم يأكلون جميع أنواع الفاكهة لاجل انهم آمنون من التخم والامراض ولما وصف الله تعالى أنواع ماهم فيه من الخيرات والراحات بين ان حياتهم دائمة فقال لايذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى وفيه سؤالان (السؤال الاول) انهم ماذاقوا الموتة الاولى فى الجنة فكيف حسن هذا الاستثناء واجيب عنه من وجوه (الاول) قال صاحب الكشاف أريد أن يقال لايذوقون فيها الموت البتة فوضع قوله الا الموتة الاولى موضع ذلك لان الموتة الماضية محال فى المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كأنه قيل ان كانت

أبدا والاستثناء منقطع أو متصل على أن المراد بيان استحالة ذوق الموت فيها على الاطلاق كأنه قيل لايذوقون فيها الموت الا اذا أمكن ذوق الموتة الاولى حينئذ (ووقاهم عذاب الجحيم) وقرئ مشددا للمبالغة فى الوقاية (فضلا من ربك) أى أعطوا ذلك كله عطاء وتفضلا منه تعالى وقرئ بالرفع أى ذلك فضل (ذلك هو الفوز العظيم) الذى لافوز وراءه اذ هو خلاص عن جميع المكاره ونيل لكل المطالب وقوله تعالى (فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون) فذلكة للسورة الكريمة اى انما انزلنا الكتاب المبين بلغتك كى يفهمه قومك ويتذكروا ويعملوا بموجبه واذا لم يفعلوا ذلك (فارتقب) فانتظر مايحل بهم (انهم مرتقبون) مايحل بك * روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أصبح مغفورا له

﴿ سورة الجاثية مكية وهى سبع أوست وثلاثون آية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الموتة الاولى يمكن ذوقها في المستقبل فانهم يذوقونها (الثاني) أن الا بمعنى لكن والتقدير لا يذوقون فيها الموت لكن الموتة الاولى قد ذاقوها (الثالث) أن الجنة حقيقتها ابتهاج النفس وفرحها بمعرفة الله تعالى و بطاعته ومحبته واذا كان الامر كذلك فان الانسان الذي فاز بهذه السعادة فهو في الدنيا في الجنة وفي الآخرة أيضا في الجنة واذا كان الامر كذلك فقد وقعت الموتة الاولى حين كان الانسان في الجنة الحقيقية التي هي جنة المعرفة بالله والمحبة فذكر هذا الاستثناء كالتنبيه على قولنا ان الجنة الحقيقية هي حصول هذه الحالة لا الدار التي هي دار الاكل والشرب ولهذا السبب قال عليه السلام أنبياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار الى دار (والرابع) ان من جرب شيأ ووقف عليه صح أن يقال انه ذاقه واذا صح أن يسمى ذلك العلم بالذوق صح أن يسمى تذكره أيضا بالذوق فقوله لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى يعني الا الذوق الحاصل بسبب تذكر الموتة الاولى (السؤال الثاني) أليس أن أهل النار أيضا لا يموتون فلم بشر أهل الجنة بهذا مع أن أهل النار يشاركونهم فيه (والجواب) ان البشارة ما وقعت بدوام الحياة بل بدوام الحياة مع سابقة حصول تلك الخيرات والسعادات فظهر الفرق ثم قال تعالى ووقاهم عذاب الجحيم قرئ ووقاهم بالتشديد فان قالوا مقتضى الدليل أن يكون ذكر الوقاية عن عذاب الجحيم متقدما على ذكر الفوز بالجنة لان الذي وقي عن عذاب الجحيم قد يفوز وقد لا يفوز فاذا ذكر بعده أنه فاز بالجنة حصلت الفائدة أما الذي فاز بخيرات الجنة فقد تخلص عن عقاب الله لا محالة فلم يكن ذكر الفوز عن عذاب جهنم بعد ذكر الفوز بثواب الجنة مفيدا قلنا التقدير كأنه تعالى قال ووقاهم في أول الامر عن عذاب الجحيم ثم قال فضلا من ربك يعني كل ما وصل اليه المتقون من الخلاص عن النار والفوز بالجنة فانما يحصل بفضل الله واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان الثواب يحصل تفضلا من الله تعالى لا بطريق الاستحقاق لانه تعالى لما عدد أقسام ثواب المتقين بين انها بأسرها انما حصلت على سبيل الفضل والاحسان من الله تعالى قال القاضي اكثر هذه الاشياء وان كانوا قد استحقوه بعملهم فهو بفضل الله لانه تعالى تفضل بالتكليف وغرضه منه أن يصيرهم الى هذه المنزلة فهو كمن أعطى غيره مالا ليصل به الى ملك ضيعة فانه يقال في تلك الضيعة انها من فضله قلنا مذهبنا ان هذا الثواب حق لازم على الله وأنه تعالى لو أخل به لصار سفيها ولخرج به عن الالهية فكيف يمكن وصف مثل هذا الشئ بأنه فضل من الله تعالى ثم قال تعالى ذلك هو الفوز العظيم واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان التفضل أعلى درجة من الثواب المستحق فانه تعالى وصفه بكونه فضلا من الله ثم وصف الفضل من الله بكونه فوزا عظيما ويدل عليه أيضا ان الملك العظيم اذا أعطى الاجير أجرته ثم خلع على انسان آخر فان تلك الخلعة أعلى حالا من اعطاء تلك الاجرة ولما بين الله تعالى الدلائل وشرح الوعد والوعيد قال فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون والمعنى انه تعالى وصف القرآن في أول هذه

(حم) الكلام فيه كما مر في فاتحة سورة المؤمن فان جعل اسما للسورة فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هذا مسمى بحم والاشارة الى السورة قبل جريان ذكرها قد وقفت على سره مرارا وان جعل مسرودا على نمط التعديد فلا حظ له من الاعراب وقوله تعالى (تنزيل الكتاب) على الاول خبر بعد خبر على أنه مصدر أطلق على المفعول مبالغة وعلى الثاني خبر لمبتدأ مضمر يلوح به ما قبله أي المؤلف من جنس ما ذكر تنزيل الكتاب وقيل هو خبر لحم أي المسمى به تنزيل الخ وقد مر مرارا ان الذي يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب اليه واذ لا عهد بالتسمية بعد فحقها الاخبار بها وأما جعله خبرا له بتقدير المضاف وابقاء التنزيل على اصله أي تنزيل حم تنزيل الكتاب فمع عرائه عن افادة فائدة يعتد بها تمحل على تمحل وقوله تعالى (من الله العزيز الحكيم) كما مر في صدر سورة الزمر على التفصيل وقيل حم مقسم به وتنزيل الكتاب صفته وجواب القسم قوله تعالى (ان في السموات والارض لآيات للمؤمنين) وهو على الوجوه

السورة بكونه كتابا مبينا أى كثير البيان والفائدة وذكر فى خاتمتها ما يؤكد ذلك فقال ان ذلك الكتاب المبين الكثير الفائدة انما يسرناه بلسانك أى انما أنزلناه عربيا بلغتك لعلهم يتذكرون قال القاضى وهذا يدل على انه تعالى أراد من الكل الايمان والمعرفة وأنه ما أراد من أحد الكفر وأجاب أصحابنا ان الضمير فى قوله لعلهم يتذكرون عائد الى أقوام مخصوصين فنحن نحمل ذلك على المؤمنين ثم قال فارتقب أى فانتظر ما يحل بهم انهم مرتقبون ما يحل بك متربصون بك الدوائر والله أعلم * قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة ليلة الثلاثاء فى نصف الليل الثانى عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة يا دائم المعروف يا قديم الاحسان شهد لك اشراق العرش وضوء الكرسى ومعارج السموات وأنوار الثوابت والسيارات على منابرها المتوغلة فى العلو الاعلى ومعارجها المقدسة عن غبار عالم الكون والفساد بان الاول الحق الازلى لا يناسبه شئ من علائق العقول وشوائب الخواطر ومناسبات المحدثات فالقمر بسبب محوه مقر بالنقصان والشمس بشهادة المعارج بتغيراتها معترفة بالحاجة الى تدبير الرحمن والطبائع مقهورة تحت القدرة القاهرة فالله فى غيبيات المعارج العالية والتغيرات شاهدة بعدم تغيره والمتعاقبات ناطقة بدوام سرمديته وكل ما توجه عليه انه مضى وسيأتى فهو خالقه وأعلى منه فبجوده الوجود والايجاد وباعدامه الفناء والفساد وكل ماسواه فهو تائه فى جبروته حائر عند طلوع نور ملكوته وليس عند عقول الخلق الا انه بخلاف كل الخلق له العز والجلال والقدرة والكمال والجود والافضال ربنا ورب مبادينا اياك نروم ولك نصلى ونصوم وعليك المعول وأنت المبدأ الاول سبحانك سبحانك

(سورة الجاثية ثلاثون وسبع آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ان فى السموات والارض لآيات للمؤمنين وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيى به الارض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان فى قوله حم تنزيل الكتاب وجوها (الاول) ان يكون حم مبتدأ وتنزيل الكتاب خبره وعلى هذا التقدير فلابد من حذف مضاف والتقدير تنزيل حم تنزيل الكتاب ومن الله صلة لتنزيل (الثانى) أن يكون قوله حم فى تقدير هذه حم ثم نقول تنزيل الكتاب واقع من الله العزيز الحكيم (الثالث) أن يكون حم قسما وتنزيل الكتاب نعتا له وجواب القسم ان فى السموات والتقدير وحم الذى هو تنزيل الكتاب ان الامر كذا وكذا (المسئلة الثانية) قوله العزيز الحكيم يجوز جعلهما صفة الكتاب

السموات والارض فانهما منطويتان من فنون الآيات على مايقصر عنه البيان واما خلقهما كما فى قوله تعالى ان فى خلق السموات والارض وهو الاوفق بقوله تعالى (وفى خلقكم) أى من نطفة ثم من علقة متقلبة فى أطوار مختلفة الى تمام الخلق (وما يبث من دابة) عطف على المضاف دون المضاف اليه اى وفيما ينشره ويفرقه من دابة (آيات) بالرفع على أنه مبتدأ خبره الظرف المقدم والجملة معطوفة على ماقبلها من الجملة المصدرة بان وقيل آيات عطف على ماقبلها من آيات باعتبار المحل عند من يجوزه وقرئ آية بالتوحيد وقرئ آيات بالنصب عطفا على ماقبلها من اسم ان والخبر هو الخبر كأنه قيل وان فى خلقكم وما يبث من دابة آيات (لقوم يوقنون) أى من شأنهم أن يوقنوا بالاشياء على ماهى عليه (واختلاف الليل والنهار) بالجر على اضمار الجار المذكور فى الآيتين قبله وقد قرئ بذكره والمراد ﴿ ويجوز ﴾ باختلافهما اما تعاقبهما أو تفاوتهما طولا وقصرا

ويجوز جعلهما صفة لله تعالى الا ان هذا الثاني أولى ويدل عليه وجوه (الاول) انا اذا جعلناهما صفة لله تعالى كان ذلك حقيقة واذا جعلناهما صفة الكتاب كان ذلك مجازا والحقيقة أولى من المجاز (الثاني) ان زيادة القرب توجب الرجحان (الثالث) انا اذا جعلنا العزيز الحكيم صفة لله كان ذلك اشارة الى الدليل الدال على ان القرآن حق لان كونه عزيزا يدل على كونه قادرا على كل الممكنات وكونه حكيما يدل على كونه عالما بجميع المعلومات غنيا عن كل الحاجات ويحصل لنا من مجموع كونه تعالى عزيزا حكيما كونه قادرا على جميع الممكنات عالما بجميع المعلومات غنيا عن كل الحاجات وكل ما كان كذلك امتنع منه صدور العبث والباطل واذا كان كذلك كان ظهور المعجز دليلا على الصدق فثبت انا اذا جعلنا كونه عزيزا حكيما صفتين لله تعالى يحصل منه هذه الفائدة وأما اذا جعلناهما صفتين للكتاب لم يحصل منه هذه الفائدة فكان الاول أولى والله أعلم ثم قال تعالى ان في السموات والارض لآيات للمؤمنين وفيه مباحث (الاول) ان قوله ان في السموات والارض لآيات يجوز اجراؤه على ظاهره لانه حصل في ذوات السموات والارض أحوال دالة على وجود الله تعالى مثل مقاديرها وكيفياتها وحركاتها وأيضا الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار موجودة في السموات والارض وهي آيات ويجوز أن يكون المعنى ان في خلق السموات والارض كما صرح به في سورة البقرة في قوله ان في خلق السموات والارض وهو يدل على وجود القادر المختار في تفسير قوله الحمد لله الذي خلق السموات والارض (البحث الثاني) قد ذكرنا الوجوه الكثيرة في دلالة السموات والارض على وجود الاله القادر المختار في تفسير قوله الحمد لله الذي خلق السموات والارض ولا بأس باعادة بعضها فنقول انها تدل على وجود الاله من وجوه (الاول) انها أجسام لا تخلو عن الحوادث وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث فهذه الاجسام حادثة وكل حادث فله محدث (الثاني) انها مركبة من الاجزاء وتلك الاجزاء متماثلة لما بينا ان الاجسام متماثلة وتلك الاجزاء وقع بعضها في العمق دون السطح وبعضها في السطح دون العمق فيكون وقوع كل جزء في الموضع الذي وقع فيه من الجائزات وكل جائز فلا بد له من مرجح ومخصص (الثالث) ان الافلاك والعناصر مع تماثلها في تمام الماهية الجسمية اختص كل واحد منهما بصفة معينة كالحرارة والبرودة واللطافة والكثافة الفلكية والعنصرية فيكون ذلك أمرا جائزا ولابد لها من مرجح (الرابع) ان اجرام الكواكب مختلفة في الالوان مثل كمودة زحل وبياض المشترى وحمرة المريخ والضوء الباهر للشمس ودرية الزهرة وصفرة عطارد ومحو القمر وأيضا فبعضها سعدة وبعضها نحسة وبعضها نهاري ذكر وبعضها ليلي انثى وقد بينا ان الاجسام في ذواتها متماثلة فوجب أن يكون اختلاف الصفات لاجل ان الاله القادر المختار خصص كل واحد منها بصفة المعينة (الخامس) ان كل فلك فانه مختص بالحركة الى جهة

(وما أنزل الله من السماء) عطف على اختلاف (من رزق) أي من مطر وهو سبب للرزق عبر عنه بذلك تنبيها على كونه آية من جهتي القدرة والرحمة (فأحيي به الارض) بان أخرج منها أصناف الزروع والثمرات والنبات (بعد موتها) وعرائها عن آثار الحياة وانتفاء قوة التنمية عنها وخلو أشجارها عن الثمار (وتصريف الرياح) من جهة الى أخرى ومن حال الى حال وقرئ بتوحيد الريح وتأخيره عن انزال المطر مع تقدمه عليه في الوجود اما للايذان بانه آية مستقلة حيث لو روعي الترتيب الوجودي لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح وانزال المطر آية واحدة واما لان كون التصريف آية ليس لمجرد كونه مبدأ لانشاء المطر بل له ولسائر المنافع التي من جملتها سوق السفن في البحار (آيات لقوم يعقلون) بالرفع على انه مبتدأ خبره ما تقدم من الجار والمجرور والجملة معطوفة على ما قبلها وقرئ بالنصب

معينة وتختص بمقدار واحد من السرعة والبطء وكل ذلك أيضا من الجائزات فلا بد من الفاعل المختار (السادس) ان كل فلك مختص بشئ معين وكل ذلك أيضا من الجائزات فلا بد من الفاعل المختار وتمام الوجوه مذكور في تفسير تلك الآيات (البحث الثالث) قوله لآيات للمؤمنين يقتضي كون هذه الآيات مختصة بالمؤمنين وقالت المعتزلة انها آيات للمؤمن والكافر الا انه لما انتفع بها المؤمن دون الكافر أضيف كونها آيات الى المؤمنين ونظيره قوله تعالى هدى للمتقين فانه هدى لكل الناس كما قال تعالى هدى للناس الا انه لما انتفع بها المؤمن خاصة لاجرم قيل هدى للمتقين فكذا ههنا وقال الاصحاب الدليل والآية هو الذي يترتب على معرفته حصول العلم وذلك العلم انما حصل بخلق الله تعالى لا بايجاب ذلك الدليل والله تعالى انما خلق ذلك العلم للمؤمن لا للكافر فكان ذلك آية دليلا في حق المؤمن لا في حق الكافر والله أعلم ثم قال تعالى وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون وفيه مباحث (البحث الاول) قال صاحب الكشاف قوله وما يبث عطف على الخلق المضاف لا على الضمير المضاف اليه لان المضاف ضمير متصل مجرور والعطف عليه مستقبح فلا يقال مررت بك وزيد ولهذا طعنوا في قراءة حمزة تساءلون به والارحام بالجر في قوله والارحام وكذلك ان الذين استقبحوا هذا العطف فلا يقولون مررت بك أنت وزيد (البحث الثاني) قرأ حمزة والكسائي آيات بكسر التاء وكذلك الذي بعده وتصريف الرياح آيات والباقون بالرفع فيهما أما الرفع فمن وجهين ذكرهما المبرد والزجاج وأبو علي (أحدهما) العطف على موضع ان وما عملت فيه لان موضعهما رفع بالابتداء فيحمل الرفع فيه على الموضع كما تقول ان زيدا منطلق وعمرو وان الله برئ من المشركين ورسوله لان معنى قوله ان الله برئ أن يقول الله برئ من المشركين ورسوله (والوجه الثاني) أن يكون قوله وفي خلقكم مستأنفا ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة أخرى كما تقول ان زيدا منطلق وعمرو كاتب جعلت قولك وعمرو كاتب كلاما آخر كما تقول زيد في الدار واخرج غدا الى بلد كذا فانما حدثت بحديثين ووصلت أحدهما بالآخر بالواو وهذا الوجه هو اختيار أبي الحسن والفراء وأما وجه القراءة بالنصب فهو بالعطف على قوله ان في السموات على معنى وان في خلقكم لآيات ويقولون هذه القراءة انها في قراءة ابي وعبد الله لآيات ودخول اللام يدل على ان الكلام محمول على ان (البحث الثالث) قوله وفي خلقكم معناه خلق الانسان وقوله وما يبث من دابة اشارة الى خلق سائر الحيوانات ووجه دلالتها على وجود الاله القادر المختار ان الاجسام متساوية فاختصاص كل واحد من الاعضاء بكون المعين وصفته المعينة وشكله المعين لابد وأن يكون بتخصيص القادر المختار ويدخل في هذا الباب انتقاله من سن الى سن آخر ومن حال الى حال آخر والاستقصاء في هذا الباب قد تقدم ثم قال تعالى واختلاف الليل والنهار وهذا الاختلاف يقع على وجوه (أحدها) تبدل النهار بالليل

على الاختصاص وقيل على أنه اسم ان والمجرور المتقدم خبرها بطريق العطف على معمولي عاملين مختلفين هما ان وفي أقيمت الواو مقامهما فعملت الجر في اختلاف والنصب في آيات وتنكير آيات في المواقع الثلاثة للتفخيم كما وكيفا واختلاف الفواصل لاختلاف مراتب الآيات في الدقة والجلاء (تلك آيات الله) مبتدأ وخبر وقوله تعالى (نتلوها عليك) حال عاملها معنى الاشارة وقيل هو الخبر وآيات الله بدل أو عطف بيان (بالحق) حال من فاعل نتلو ومن مفعوله أي نتلوها محقين أو ملتبسة بالحق (فبأي حديث) من الاحاديث (بعد الله وآياته) أي بعد آيات الله وتقديم الاسم الجليل لتعظيمها كما في قولهم أعجبني زيد وكرمه أو بعد حديث الله الذي هو القرآن حسبما نطق به قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث وهو المراد بآياته أيضا ومناط العطف التغاير العنواني (يؤمنون) بصيغة الغيبة وقرئ بالتاء

(ويل لكل افاك) كذاب (أثيم) كثير الآثام (يسمع ايات الله) صفة أخرى لافاك وقيل استئناف وقيل حال من الضمير في أثيم (تتلى عليه) حال من آيات الله ولامساغ لجعله مفعولا ثانيا ليسمع لان شرطه أن يكون ما بعده مما يسمع كقولك سمعت زيدا يقرأ (ثم يصر) أي يقيم على كفره وأصله من اصرار الحمار على العانة (مستكبرا) عن الايمان بما سمعه من آيات الله تعالى والاذعان لما تنطق به ✧ ٤٨١ ✧ من الحق مزدريا لها معجبا بما عنده من الاباطيل وقيل نزلت في النضر بن الحرث وكان يشتري من أحاديث الاعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن لكنها وردت بعبارة عامة ناعية عليه وعلى كل من يسير سيرته ماهم فيه من الشر والفساد وكلمة ثم لاستبعاد الاصرار والاستكبار بعد سماع الآيات التي حقها أن تذعن لها القلوب وتخضع لها الرقاب كما في قول من قال * يرى غمرات الموت ثم يزورها * (كأن لم يسمعها) أي كأنه لم يسمعها فخفف وحذف ضمير الشأن والجملة حال من يصر أي يصر شبيها بغير السامع (فبشره بعذاب أليم) على اصراره واستكباره (واذا علم من آياتنا شيأ) أي اذا بلغه من آياتنا شيء وعلم انه من آياتنا لا انه علمه كما هو عليه فانه بمعزل من ذلك العلم وقيل اذا علم منها شيأ يمكن أن يتشبث به المعاند ويجد له محملا فاسدا يتوصل به الى الطعن والغميزة (اتخذها) أي ✧ ٦١ ✧ سا الآيات كلها (هزوا) أي هزوا بها لاما سمعه فقط وقيل الضمير للشيء والتأنيث لانه في معنى الآية (أولئك) اشارة الى كل افاك من حيث الاتصاف بما ذكر من القبائح والجمع باعتبار الشمول للكل كما في قوله تعالى كل حزب بما لديهم فرحون كما أن الافراد فيما سبق من الضمائر باعتبار كل واحد واحد (لهم) بسبب جناياتهم المذكورة (عذاب مهين) وصف العذاب

وبا ضد منه (وثانيها) انه تارة يزداد طول النهار على طول الليل وتارة بالعكس وبمقدار ما يزداد في النهار الصيفي يزداد في الليل الشتوي (وثالثها) اختلاف مطالع الشمس في أيام السنة ثم قال تعالى وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيى به الارض بعد موتها وهو يدل على القول بالفاعل المختار من وجوه (أحدها) انشاء السحاب وانزال المطر منه (وثانيها) تولد النبات من تلك الحبة الواقعة في الارض (وثالثها) تولد الانواع المختلفة وهي ساق الشجرة وأغصانها وأوراقها وأثمارها ثم تلك الثمرة منها ما يكون القشر محيطا باللب كالجوز واللوز ومنها ما يكون اللب محيطا بالقشر كالمشمش والخوخ ومنها ما يكون خاليا عن القشر كالتين فتولد أقسام النبات على كثرة أصنافها وتباين أقسامها يدل على صحة القول بالفاعل المختار الحكيم الرحيم ثم قال وتصريف الرياح وهي تنقسم الى أقسام كثيرة بحسب تقسيمات مختلفة فمنها المشرقية والمغربية والشمالية والجنوبية ومنها الحارة والباردة ومنها الرياح النافعة والرياح الضارة ولما ذكر الله تعالى هذه الانواع الكثيرة من الدلائل قال انها آيات لقوم يعقلون واعلم ان الله تعالى جمع هذه الدلائل في سورة البقرة فقال ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيى به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون فذكر الله تعالى هذه الاقسام الثمانية من الدلائل والتفاوت بين الموضعين من وجوه (الاول) انه تعالى قال في سورة البقرة ان في خلق السموات والارض وقال ههنا ان في السموات والصحيح عند أصحابنا ان الخلق عين المخلوق وقد ذكر لفظ الخلق في سورة البقرة ولم يذكره في هذه السورة تنبيها على انه لا تفاوت بين أن يقال السموات وبين أن يقال خلق السموات فيكون هذا دليلا على ان الخلق عين المخلوق (الثاني) انه ذكر هناك ثمانية أنواع من الدلائل وذكر ههنا ستة أنواع وأهمل منها الفلك والسحاب والسبب أن مدار حركة الفلك والسحاب على الرياح المختلفة فذكر الرياح الذي هو كالسبب يغني عن ذكرهما (والتفاوت الثالث) انه جمع الكل وذكر لها مقطعا واحدا وههنا رتبها على ثلاثة مقاطع والغرض التنبيه على انه لابد من افراد كل واحد منها بنظر تام شاف (والتفاوت الرابع) انه تعالى ذكر في هذا الموضع ثلاثة مقاطع (أولها) يؤمنون (وثانيها) يوقنون (وثالثها) يعقلون وأظن ان سبب هذا الترتيب انه قيل ان كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل وان كنتم لستم من المؤمنين بل أنتم من طلاب الحق واليقين فافهموا هذه الدلائل وان كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل واعلم ان كثيرا من الفقهاء يقولون انه ليس في القرآن العلوم التي يبحث عنها المتكلمون بل ليس فيه الا ما يتعلق بالاحكام والفقه وذلك غفلة عظيمة لانه ليس في القرآن سورة طويلة منفردة بذكر الاحكام وفيه سور كثيرة خصوصا المكيات ليس فيها الا ذكر دلائل

بالاهانة توفية لحق استكبارهم واستهزائهم بآيات الله سبحانه وتعالى (من ورائهم جهنم) أى من قدامهم لانهم متوجهون الى ما أعد لهم أو من خلفهم لانهم معرضون عن ذلك مقبلون على الدنيا فان الوراء اسم للجهة التى يواريها الشخص من خلف وقدام (ولا يغنى عنهم) ولا يدفع (ما كسبوا) من الاموال والاولاد (شيئا) من عذاب الله تعالى أو شيأ من الاغناء (ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) أى الاصنام وتوسيط حرف النفى بين المعطوفين مع أن عدم غناء الاصنام أظهر وأجلى من عدم غناء الاموال والاولاد قطعا مبنى على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون فى شفاعتهم وفيه تهكم (ولهم) فيما وراءهم من جهنم (عذاب عظيم) لا يقادر قدره (هذا) أى القرآن (هدى) فى غاية الكمال من الهداية كأنه نفسها (والذين كفروا) أى بالقرآن وانما وضع موضع ضميره قوله تعالى (بآيات ربهم) لزيادة تشنيع كفرهم به وتفظيع حالهم (لهم عذاب من رجز) أى من أشد العذاب (أليم) بالرفع صفة عذاب وقرئ بالجر على أنه صفة رجز وتنوين عذاب فى المواقع الثلاثة للتفخيم ورفعه اما على الابتداء واما على الفاعلية (الله الذى سخر لكم البحر) بان جعله أملس السطح يطفو عليه ما يتخلخل كالاخشاب ولا يمنع الغوص والخرق لميعانه (لتجرى الفلك فيه بامره) وأنتم راكبوها (ولتبتغوا من فضله) بالتجارة والغوص ﴿ شيأ ﴾ والصيد وغيرها (ولعلكم تشكرون) ولكى تشكروا النعم المترتبة على ذلك (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض) من الموجودات بان جعلها مدارا لمنافعكم (جميعا) اما حال من ما فى السموات والارض أو توكيد له (منه) متعلق بمحذوف هو صفة لجميعا أو حال من ما أى جميعا كائنا منه تعالى أو سخر لكم هذه الاشياء

التوحيد والنبوة والبعث والقيامة وكل ذلك من علوم الاصوليين ومن تأمل علم أن ليس فى يد علماء الاصول الا تفصيل ما اشتمل القرآن عليه على سبيل الاجمال ثم قال تعالى تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق والمراد من قوله بالحق هو ان صحتها معلومة بالدلائل العقلية وذلك لان العلم بانها حقة صحيحة اما أن يكون مستفادا من النقل أو العقل والاول باطل لان صحة الدلائل النقلية موقوفة على سبق العلم باثبات الاله العالم القادر الحكيم وباثبات النبوة وكيفية دلالة المعجزات على صحتها فلو أثبتنا هذه الاصول بالدلائل النقلية لزم الدور وهو باطل ولما بطل هذا ثبت ان العلم بحقيقة هذه الدلائل لا يمكن تحصيله الا بمحض العقل واذا كان كذلك كان قوله تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق من أعظم الدلائل على الترغيب فى علم الاصول وتقرير المباحث العقلية ثم قال تعالى فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون يعنى ان من لم ينتفع بهذه الآيات فلا شئ بعده يجوز أن ينتفع به وأبطل بهذا قول من يزعم ان التقليد كاف وبين انه يجب على المكلف التأمل فى دلائل دين الله وقوله يؤمنون قرئ بالياء والتاء واختار أبو عبيد الياء لان قبله غيبة وهو قوله لقوم يؤمنون ولقوم يعقلون فان قيل ان فى أول الكلام خطابا وهو قوله وفى خلقكم قلنا الغيبة التى ذكرنا أقرب الى الحرف المختلف فيه والاقرب أولى ووجه قول من قرأ على الخطاب ان قل فيه مقدر أى قل لهم فبأى حديث بعد ذلك تؤمنون * قوله تعالى (ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم واذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) اعلم أنه تعالى لما بين الآيات للكفار وبين انهم بأى حديث بعده يؤمنون اذا لم يؤمنوا بها مع ظهورها اتبعه بوعيد عظيم لهم فقال ويل لكل أفاك أثيم الافاك الكذاب والاثيم المبالغ فى اقتراف الآثام واعلم ان هذا الاثيم له مقامان (الاول) ان يبقى مصرا على الانكار والاستكبار فقال تعالى يسمع آيات الله ثم يصر أى يقيم على كفره اقامة بقوة وشدة مستكبرا عن الايمان بالآيات معجبا بما عنده قيل نزلت فى النضر بن الحرث وما كان يشترى من أحاديث الاعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن والآية عامة فى كل من كان موصوفا بالصفة المذكورة فان قالوا ما معنى ثم فى قوله ثم يصر مستكبرا قلنا نظيره قوله تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض الى قوله ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ومعناه انه تعالى لما كان خالق السموات والارض كان من المستبعد جعل هذه الاصنام مساوية له فى المعبودية كذا ههنا سماع آيات الله على قوتها وظهورها من المستبعد أن يقابل بالانكار والاعراض ثم قال تعالى كأن لم يسمعها الاصل كأنه لم يسمعها والضمير ضمير الشان ومحل الجملة النصب على الحال أى يصير مثل غير السامع (المقام الثانى) ان ينتقل من مقام الاصرار والاستكبار الى مقام الاستهزاء فقال واذا علم من آياتنا

كائنة منه مخلوقة له تعالى او خبر لمحذوف أي هي جميعا منه تعالى وقرئ منة على المفعول له ومنه على انه فاعل سخر على الاسناد المجازي أو خبر مبتدا محذوف أي ذلك منه (ان في ذلك) أي فيما ذكر من الامور العظام (لآيات) عظيمة الشان كثيرة العدد (لقوم يتفكرون) في بدائع صنع الله تعالى فانهم يقفون بذلك على جلائل نعمه تعالى ودقائقها و يوفقون لشكرها (قل للذين آمنوا) حذف المقول لدلالة (يغفروا) عليه فانه جواب الامر باعتبار تعلقه به لا باعتبار نفسه فقط أي قل لهم اغفروا يغفروا (للذين لا يرجون أيام الله) أي يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقعون وقائعه تعالى باعدائه من قولهم أيام العرب لوقائعها وقيل لا يأملون الاوقات التي وقتها الله تعالى لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها قيل نزلت قبل آية القتال ثم نسخت بها وقيل نزلت في عمر رضي الله عنه حين شتمه غفاري فهم أن يبطش به وقيل حين قال ابن أبي ما قال وذلك انهم نزلوا في غزوة بني المصطلق على بئر يقال لها المريسيع فارسل ابن أبي غلامه يستقي فابطأ عليه فلما أتاه قال له ما حبسك قال غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحدا يستقي حتى ملأ قرب النبي صلى الله عليه وسلم وقرب أبي بكر فقال ابن أبي ما مثلنا ومثل هؤلاء الا كما قيل سمن كلبك يأكلك فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فاشتمل سيفه يريد التوجه اليه فانزلها الله تعالى (ليجزي قوما بما كانوا يكسبون) تعليل للامر بالمغفرة والمراد بالقوم المؤمنون والتنكير لمدحهم والثناء عليهم أي أمروا بذلك ليجزي يوم القيامة قوما أيما قوم قوما مخصوصين بما كسبوا في الدنيا من الاعمال الحسنة التي من جملتها الصبر على اذية الكفار والاغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه ما يقصر عنه البيان من الثواب العظيم هذا

شيئا اتخذها هزوا وكان من حق الكلام أن يقال اتخذه هزوا أي اتخذ ذلك الشيء هزوا الا انه تعالى قال اتخذها للاشعار بان هذا الرجل اذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بذلك الواحد ثم قال تعالى أولئك لهم عذاب مهين أولئك اشارة الى كل أفاك أثيم لشموله جميع الافاكين ثم وصف كيفية ذلك العذاب المهين فقال من ورائهم جهنم أي من قدامهم جهنم قال صاحب الكشاف الوراء اسم للجهة التي توارى بها الشخص من خلف أو قدام ثم بين ان ما ملكوه في الدنيا لا ينفعهم فقال ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا ثم بين أن أصنامهم لا تنفعهم فقال ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ثم قال ولهم عذاب عظيم فان قالوا انه قال قبل هذه الآية لهم عذاب مهين فما الفائدة في قوله بعده ولهم عذاب عظيم قلنا كون العذاب مهينا يدل على حصول الاهانة مع العذاب وكونه عظيما يدل على كونه بالغا الى أقصى الغايات في كونه ضررا ثم قال هذا هدى أي كامل في كونه هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم والرجز أشد العذاب بدلالة قوله تعالى فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء وقوله لئن كشفت عنا الرجز وقرئ أليم بالجر والرفع أما الجر فتقديره لهم عذاب من عذاب أليم واذا كان عذابهم من عذاب أليم كان عذابهم أليما ومن رفع كان المعنى لهم عذاب أليم ويكون المراد من الرجز الرجس الذي هو النجاسة ومعنى النجاسة فيه قوله ويسقى من ماء صديد وكان المعنى لهم عذاب من تجرع رجس أو شرب رجس فتكون من تبيينا للعذاب ☼ قوله تعالى (الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بامره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم الى ربكم ترجعون) اعلم أنه تعالى ذكر الاستدلال بكيفية جريان الفلك على وجه البحر وذلك لا يحصل الا بسبب تسخير ثلاثة أشياء (أحدها) الرياح التي تجري على وفق المراد (وثانيها) خلق وجه الماء على الملاسة التي تجري عليها الفلك (وثالثها) خلق الخشبة على وجه تبقى طافية على وجه الماء ولا تغوص فيه وهذه الاحوال الثلاثة لا يقدر عليها واحد من البشر فلا بد من موجد قادر عليها وهو الله سبحانه وتعالى وقوله ولتبتغوا من فضله معناه اما بسبب التجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان أو لاجل استخراج اللحم الطري ثم قال تعالى وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه والمعنى انه لولا أن الله تعالى أوقف أجرام السموات والارض في مقارها واحيازها لما حصل الانتفاع لان بتقدير كون الارض هابطة أو صاعدة لم يحصل الانتفاع بها وبتقدير كون الارض من الذهب أو الفضة أو الحديد لم يحصل الانتفاع وكل ذلك قد بيناه فان قيل ما معنى منه في قوله جميعا منه قلنا معناه انها واقعة موقع الحال والمعنى انه سخر هذه الاشياء كائنة

منه وحاصلة من عنده يعنى انه تعالى مكونها وموجدها بقدرته وحكمته ثم مسخرها لخلقه قال صاحب الكشاف قرأ سلمة بن محارب منه على أن يكون منه فاعل سخر على الاسناد المجازى أو على انه خبر مبتدا محذوف أى ذلك منه وهو منه واعلم انه تعالى لما علم عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة اتبع ذلك بتعليم الاخلاق الفاضلة والافعال الحميدة بقوله قل للذين امنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله والمراد بالذين لا يرجون أيام الله الكفار واختلفوا فى سبب نزول الآية قال ابن عباس قل للذين آمنوا يعنى عمر يغفروا للذين لا يرجون أيام الله يعنى عبد الله بن أبى وذلك انهم نزلوا فى غزوة بنى المصطلق على بئر يقال لها المريسيع فأرسل عبد الله غلامه ليستقى الماء فابطأ عليه فلما أتاه قال له ما حبسك قال غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحدا يستقى حتى ملأ قرب النبى صلى الله عليه وسلم وقرب أبى بكر وملأ لمولاه فقال عبد الله ما مثلنا ومثل هؤلاء الا كما قيل سمن كلبك يأكلك فبلغ قوله عمر فاشتمل بسيفه يريد التوجه اليه فانزل الله هذه الآية وقال مقاتل شتم رجل من كفار قريش عمر بمكة فهم أن يبطش به فامر الله بالعفو والتجاوز وأنزل هذه الآية وروى ميمون بن مهران أن فنحاص اليهودى لما نزل قوله من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا قال احتاج رب محمد فسمع بذلك عمر فاشتمل على سيفه وخرج فى طلبه فبعث النبى صلى الله عليه وسلم فى طلبه حتى رده وقوله للذين لا يرجون أيام الله قال ابن عباس لا يرجون ثواب الله ولا يخافون عقابه ولا يخشون مثل عقاب الامم الخالية وذكرنا تفسير أيام الله عند قوله وذكرهم بأيام الله وأكثر المفسرين يقولون انه منسوخ وانما قالوا ذلك لانه يدخل تحت الغفران أن لا يقتلوا ولا يقاتلوا فلما أمر الله بهذه المقاتلة كان نسخا والاقرب أن يقال انه محمول على ترك المنازعة فى المحقرات وعلى التجاوز عما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية والافعال الموحشة ثم قال تعالى ليجزى قوما بما كانوا يكسبون أى لكى يجازى بالمغفرة قوما يعملون الخيرات قيل ما الفائدة فى التنكير فى قوله ليجزى قوما مع ان المراد بهم هم المؤمنون المذكورون فى قوله قل للذين آمنوا قلنا التنكير يدل على تعظيم شانهم كأنه قيل ليجزى قوما وأى قوم من شانهم الصفح عن السيآت والتجاوز عن المؤذيات وتحمل الوحشة وتجرع المكروه وقال آخرون معنى الآية قل للمؤمنين يتجاوزوا عن الكفار ليجزى الله الكفار بما كانوا يكسبون من الاثم كأنه قيل لهم لا تكافئوهم أنتم حتى نكافئهم نحن ثم ذكر الحكم العام فقال من عمل صالحا فلنفسه وهو مثل ضربه الله للذين يغفرون ومن أساء فعليها مثل ضربه للكفار الذين كانوا يقدمون على ايذاء الرسول والمؤمنين وعلى ما لا يحل فبين تعالى ان العمل الصالح يعود بالنفع العظيم على فاعله والعمل الردىء يعود بالضرر على فاعله وانه تعالى أمر بهذا ونهى عن ذلك لحظ العبد لا لنفع يرجع اليه وهذا ترغيب منه فى العمل الصالح وزجر عن العمل الباطل * قوله تعالى (ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من

﴿ الطيبات ﴾

وقد يجوز أن يراد بالقوم الكفرة وبما كانوا يكسبون سيآتهم التى من جملتها ما حكى من الكلمة الخبيثة والتنكير للتحقير وفيه أن مطلق الجزاء لا يصلح تعليلا للامر بالمغفرة لتحققه على تقديرى المغفرة وعدمها فلا بد من تخصيصه بالكل بان لا يتحقق بعض منه فى الدنيا أو بما يصدر عنه تعالى بالذات وفى ذلك من التكلف ما لا يخفى وأن يراد كلا الفريقين وهو أكثر تكلفا وأشد تمحلا وقرئ ليجزى قوم وليجزى قوما أى ليجزى الجزاء قوما وقرئ لنجزى بنون العظمة (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) لا يكاد يسرى عمل الى غير عامله (ثم الى ربكم) مالك أموركم (ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم خيرا كان أو شرا (ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب) أى التوراة (والحكم) أى الحكمة النظرية والعملية والفقه فى الدين أو فصل الخصومات بين الناس اذ كان الملك فيهم (والنبوة) حيث كثر فيهم الانبياء ما لم يكثر فى غيرهم (ورزقناهم من الطيبات) مما أحل الله تعالى من اللذائذ كالمن والسلوى (وفضلناهم على العالمين) حيث آتيناهم ما لم نؤت من عداهم من فلق البحر واظلال الغمام ونظائرهما وقيل على عالمى زمانهم (وآتيناهم بينات من الامر) دلائل ظاهرة فى أمر الدين ومعجزات قاهرة وقال ابن عباس رضى الله عنهما هو العلم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم وما بين لهم من أمره وانه يهاجر من تهامة الى يثرب ويكون أنصاره أهل يثرب (فما اختلفوا) فى ذلك الامر (الا من بعد ما جاءهم العلم) بحقيقته وحقيته فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجبا لرسوخه (بغيا بينهم) أى عداوة وحسدا لا شكا فيه (ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة) بالمؤاخذة والجزاء (فيما كانوا فيه يختلفون) من أمر الدين (ثم جعلناك

على شريعة) اى سنة وطريقة عظيمة الشان (من الامر) اى أمر الدين (فاتبعها) باجراء أحكامها فى نفسك وفى غيرك من غير اخلال بشئ منها (ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) أى آراء الجهلة واعتقاداتهم الزائغة التابعة للشهوات وهم رؤساء قريش كانوا يقولون له عليه الصلاة والسلام ارجع الى دين آبائك (انهم ان يغنوا عنك من الله شيا) مما أراد بك ان اتبعتهم (وان الظالمين ﴿ ٤٨٥ ﴾ بعضهم أولياء بعض) لا يوالهم ولا يتبع اهواءهم الا من كان ظالما مثلهم (والله ولى المتقين) الذين أنت قدوتهم فدم على ما أنت عليه من توليه خاصة والاعراض عما سواه بالكلية (هذا) أى القرآن واتباع الشريعة (بصائر للناس) فان ما فيه من معالم الدين وشعائر الشرائع بمنزلة البصائر فى القلوب (وهدى) من ورطة الضلالة (ورحمة) عظيمة (لقوم يوقنون) من شانهم الايقان بالامور (أم حسب الذين اجترحوا السيآت) استئناف مسوق لبيان تباين حالى المسيئين والمحسنين اثر بيان تباين حالى الظالمين والمتقين وأم منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الاول الى الثانى والهمزة لانكار الحسبان لكن لا بطريق انكار الوقوع ونفيه كما فى قوله تعالى أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار بل بطريق انكار الواقع واستقباحه والتو[...] والاجتراح الاكتساب (ان نجعلهم) أى نصيرهم فى الحكم والاعتبار وهم على ما هم عليه من مس[...] [...]حوال (كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) وهم فيما هم فيه من محاسن الاعمال ونعاملهم معاملتهم فى الكر[...] [...]فع الدرجة وقوله تعالى (سواء محياهم ومماتهم) أى محيا الفريقين جميعا ومماتهم حال من الضمير فى الظ[...] [...]لموصول معا لاشتماله

الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الامر فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون انهم لن يغنوا عنك من الله شيأ وان الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) اعلم انه تعالى بين انه أنعم نعما كثيرة على بنى اسرائيل مع انه حصل بينهم الاختلاف على سبيل البغى والحسد والمقصود ان يبين ان طريقة قومه كطريقة من تقدم واعلم أن النعم على قسمين نعم الدين ونعم الدنيا ونعم الدين أفضل من نعم الدنيا فلهذا بدأ الله تعالى بذكر نعم الدين فقال ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة والاقرب ان كل واحد من هذه الثلاثة يجب أن يكون مغايرا لصاحبه اما الكتاب فهو التوراة وأما الحكم ففيه وجوه يجوز أن يكون المراد العلم والحكمة ويجوز أن يكون المراد العلم بفصل الحكومات ويجوز أن يكون المراد معرفة أحكام الله تعالى وهو علم الفقه واما النبوة فمعلومة واما نعم الدنيا فهى المراد من قوله تعالى ورزقناهم من الطيبات وذلك لانه تعالى وسع عليهم فى الدنيا فاورثهم أموال قوم فرعون وديارهم ثم أنزل عليهم المن والسلوى ولما بين تعالى انه أعطاهم من نعم الدين ونعم الدنيا نصيبا وافرا قال وفضلناهم على العالمين يعنى انهم كانوا أكبر درجة وأرفع منقبة ممن سواهم فى وقتهم فلهذا المعنى قال المفسرون المراد وفضلناهم على عالمى زمانهم ثم قال تعالى وآتيناهم بينات من الامر وفيه وجوه (الاول) انه آتاهم بينات من الامر أى أدلة على أمور الدنيا (الثانى) قال ابن عباس يعنى بين لهم من أمر النبى صلى الله عليه وسلم انه يهاجر من تهامة الى يثرب ويكون أنصاره أهل يثرب (الثالث) المراد وآتيناهم بينات أى معجزات قاهرة على صحة نبوتهم والمراد معجزات موسى عليه السلام ثم قال تعالى فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم وهذا مفسر فى سورة حم عسق والمقصود من ذكر هذا الكلام التعجب من هذه الحالة لان حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف وههنا صار مجئ العلم سببا لحصول الاختلاف وذلك لانهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم وانما المقصود منه طلب الرياسة والتقدم ثم ههنا احتمالات يريد انهم علموا ثم عاندوا ويجوز أن يريد بالعلم الدلالة التى توصل الى العلم والمعنى انه تعالى وضع الدلائل والبينات التى لو تأملوا فيها لعرفوا الحق لكنهم على وجه الحسد والعناد اختلفوا وأظهروا النزاع ثم قال تعالى ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون والمراد انه لا ينبغى أن يغتر المبطل بنعم الدنيا فانها وان ساوت نعم المحق أو زادت عليها فانه سيرى فى الآخرة ما يسوءه وذلك كالزجر لهم ولما بين تعالى انهم أعرضوا عن الحق لاجل البغى والحسد أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بان يعدل عن تلك الطريقة وان يتمسك بالحق وان لا يكون له غرض سوى اظهار

الحق وتقرير الصدق فقال تعالى ثم جعلناك على شريعة من الامر أي على طريقة ومنهاج من أمر الدين فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والبينات ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال وأديانهم المبنية على الاهواء والجهل قال الكلبي ان رؤساء قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ارجع الى ملة آبائك فهم كانوا أفضل منك وأسن وأنزل الله تعالى هذه الآية ثم قال تعالى انهم لن يغنوا عنك من الله شيأ أي لو ملت الى أديانهم الباطلة فصرت مستحقا للعذاب فهم لا يقدرون على دفع عذاب الله عنك ثم بين تعالى ان الظالمين يتولى بعضهم بعضا في الدنيا وفي الآخرة لا ولي لهم ينفعهم في ايصال الثواب وازالة العقاب واما المتقون المهتدون فالله وليهم وناصرهم وهم موالوه وما أبين الفرق بين الولايتين ولما بين الله تعالى هذه البيانات الباقية النافعة قال هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون وقد فسرناه في آخر سورة الاعراف والمعنى هذا القرآن بصائر الناس جعل ما فيه من البيانات الشافية والبينات الكافية بمنزلة البصائر في القلوب كما جعل في سائر الآيات روحا وحياة وهو هدى من الضلالة ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن ولما بين الله تعالى الفرق بين الظالمين وبين المتقين من الوجه الذي تقدم بين الفرق بينهما من وجه آخر فقال أم حسب الذين اجترحوا السيآت ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات وفيه مباحث (البحث الاول) أم كلمة وضعت للاستفهام عن شئ حال كونه معطوفا على شئ آخر سواء كان ذلك المعطوف مذكورا او مضمرا والتقدير ههنا أفيعلم المشركون هذا أم يحسبون انا نتولاهم كما نتولى المتقين (البحث الثاني) الاجتراح الاكتساب ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله أي كاسبهم قال تعالى ويعلم ما جرحتم بالنهار (البحث الثالث) قال الكلبي نزلت هذه الآية في علي وحمزة وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم وفي ثلاثة من المشركين عتبة وشيبة والوليد بن عتبة قالوا للمؤمنين والله ما أنتم على شئ ولو كان ما تقولون حقا لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة كما انا أفضل حالا منكم في الدنيا فانكر الله عليهم هذا الكلام وبين انه لا يمكن أن يكون حال المؤمن المطيع مساويا لحال الكافر العاصي في درجات الثواب ومنازل السعادات واعلم ان لفظ حسب يستدعي مفعولين (أحدهما) الضمير المذكور في قوله ان نجعلهم (والثاني) الكاف في قوله كالذين آمنوا والمعنى أحسب هؤلاء المجترحين ان نجعلهم أمثال الذين آمنوا ونظيره قوله تعالى أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون وقوله انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار وقوله تعالى أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون وقوله أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار ثم قال تعالى سواء محياهم ومماتهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم سواء بالنصب والباقون بالرفع واختيار أبي عبيد النصب أما وجه القراءة بالرفع فهو ان

على ضمير يهما على أن السواء بمعنى المستوى ومحياهم ومماتهم مرتفعان به على الفاعلية والمعنى أم حسبوا أن نجعلهم كالذين مثلهم حال كون الكل مستويا محياهم ومماتهم كلا لا يستوون في شئ منهما فان هؤلاء في عز الايمان والطاعة وشرفهما في المحيا وفي رحمة الله تعالى ورضوانه في الممات وأولئك في ذل الكفر والمعاصي وهو انهما في المحيا وفي لعنة الله والعذاب الخالد في الممات شتان بينهما وقد قيل المراد انكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة لان المسيئين والمحسنين مستو محياهم في الرزق والصحة وانما يفترقون في الممات وقرئ محياهم ومماتهم بالنصب على انهما ظرفان كمقدم الحاج وسواء حال على حاله أي حال كونهم مستوين في محياهم ومماتهم وقد ذكر في الآية الكريمة وجوه اخر من الاعراب والذي يليق بجزالة التنزيل هو الاول فتدبر وقرئ سواء بالرفع على أنه خبر ومحياهم مبتدأ فقيل الجملة بدل من الكاف وقيل حال وأياما كان فنسبة حسبان التساوي اليهم في ضمن الانكار التوبيخي مع انهم بمعزل منه جازمون بفضلهم على المؤمنين للمبالغة في الانكار والتشديد في التوبيخ فان انكار حسبان التساوي والتوبيخ عليه انكار لحسبان الجزم بالفضل وتوبيخ عليه على أبلغ وجه وآكده (ساء ما يحكمون) أي ساء حكمهم هذا أو بئس شيأ حكموا به ذلك (وخلق الله السموات والارض بالحق) ﴿ قوله ﴾ استئناف مقرر لما سبق من الحكم فان خلق الله تعالى اياهما ولما فيهما بالحق المقتضي للعدل يستدعي لا محالة تفضيل المحسن على المسئ في المحيا والممات وانتصار المظلوم من الظالم واذا لم يطرد ذلك في المحيا فهو بعد الممات حتما (ولتجزى كل نفس بما كسبت) عطف على بالحق لان فيه معنى التعليل اذ معناه خلقها

مقرونة بالحكمة والصواب دون العبث والباطل فحاصله خلقها الاجل ذلك وتجزى الخ أ. على علة محذوفة مثل ليدل بها على قدرته أو ليعدل وتجزى (وهم) أى النفوس المدلول عليها بكل نفس (لا يظلمون) بنقص ثواب أو بزيادة عقاب وتسمية ذلك ظلما مع أنه ليس كذلك على ما عرف من قاعدة أهل السنة لبيان غاية تنزه ساحة لطفه تعالى عما ذكر بتنزيله منزلة الظلم الذى يستحيل صدوره عنه تعالى

(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) تعجيب من حال من ترك متابعة الهدى الى مطاوعة الهوى فكأنه عبده أى أنظرت فرأيته فان ذلك مما يقضى منه العجب وقرئ آلهته هواه لان أحدهم كان يستحسن حجرا فيعبده فاذا رأى أحسن منه رفضه اليه فكأنه اتخذ آلهة شتى (وأضله الله) وخذله (على علم) أى عالما بضلاله وتبديله لفطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها (وختم على سمعه وقلبه) بحيث لا يتأثر بالمواعظ ولا يتفكر فى الآيات والنذر (وجعل على بصره غشاوة) مانعة عن الاستبصار والاعتبار وقرئ بفتح الغين وضمها وقرئ غشوة (فمن يهديه من بعد الله) أى من بعد اضلاله تعالى اياه بموجب تعاميه عن الهدى وتماديه فى الغى (أفلا تذكرون) أى ألا تلاحظون فلا تذكرون وقرئ تتذكرون على الاصل (وقالوا) بيان لاحكام ضلالهم المحكى أى قالوا من غاية غيهم وضلالهم (ما هى) أى ما الحياة (الا حياتنا الدنيا) التى نحن فيها (نموت ونحيى) أى يصيبنا الموت والحياة فيها وليس وراء ذلك حياة وقيل نكون نطفا وما قبلها وما بعدها ونحيا بعد ذلك أو نموت بانفسنا ونحيا ببقاء أولادنا أو يموت بعضنا ويحيا بعضنا وقد جوز أن يريدوا به التناسخ فانه عقيدة أكثر عبدة الاوثان وقرئ نحيا (وما يهلكنا الا الدهر) الامر والزمان وهو فى الاصل مدة بقاء العالم من دهره

قوله سواء محياهم ومماتهم مبتدأ والجملة فى حكم المفرد فى محل النصب على البدل من المفعول الثانى لقوله أم نجعل وهو الكاف فى قوله كالذين آمنوا ونظيره قوله ظننت زيدا أبوه منطلق وأما وجه القراءة بالنصب فقال صاحب الكشاف أجرى سواء مجرى مستويا فارتفع محياهم ومماتهم على الفاعلية وكان مفردا غير جملة ومن قرأ ومماتهم بالنصب جعل محياهم ومماتهم ظرفين كمقدم الحاج وخفوق النجم أى سواء فى محياهم ومماتهم قال أبو على من نصب سواء جعل المحيا والممات بدلا من الضمير المنصوب فى نجعلهم فيصير التقدير أن نجعل محياهم ومماتهم سواء قال ويجوز أن نجعله حالا ويكون المفعول الثانى هو الكاف فى قوله كالذين (المسئلة الثانية) اختلفوا فى المراد بقوله محياهم ومماتهم قال مجاهد عن ابن عباس يعنى أحسبوا ان حياتهم ومماتهم كحياة المؤمنين وموتهم كلا فانهم يعيشون كافرين ويموتون كافرين والمؤمنون يعيشون مؤمنين ويموتون مؤمنين لان المؤمن ما دام يكون فى الدنيا فانه يكون وليه هو الله وأنصاره المؤمنون حجة الله معه والكافر بالضد منه كما ذكره فى قوله وان الظالمين بعضهم أولياء بعض وعند القرب الى الموت فان حال المؤمن ما ذكره فى قوله تعالى الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة وحال الكافر ما ذكره فى قوله الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم وأما فى القيامة فقال تعالى وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة فهذا هو الاشارة الى بيان وقوع التفاوت بين الحالتين (والوجه الثانى) فى تأويل الآية أن يكون المعنى انكار أن يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة وذلك لان المؤمن والكافر قد يستوى محياهم فى الصحة والرزق والكفاية بل قد يكون الكافر أرجح حالا من المؤمن وانما يظهر الفرق بينهما فى الممات (والوجه الثالث) فى التأويل ان قوله سواء محياهم ومماتهم مستأنف على معنى ان محيا المسيئين ومماتهم سواء فكذلك محيا المحسنين ومماتهم أى كل يموت على حسب ما عاش عليه ثم انه تعالى صرح بانكار تلك التسوية فقال ساء ما يحكمون وهو ظاهر * قوله تعالى (وخلق الله السموات والارض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم الا أن قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون) اعلم انه تعالى لما أفتى بان المؤمن لا يساوى الكافر فى درجات السعادات أتبعه بالدلالة الظاهرة على صحة هذه الفتوى فقال وخلق الله السموات والارض بالحق ولو لم يوجد البعث لما كان ذلك بالحق بل كان بالباطل لانه تعالى لما خلق الظالم وسلطه على المظلوم الضعيف ثم لا ينتقم للمظلوم من الظالم كان ظالما ولو كان ظالما لبطل انه خلق السموات

اى غلبه وقرئ الادهر يمر وكانوا يزعمون أن المؤثر فى هلاك الانفس هو مرور الايام والليالى وينكرون ملك الموت وقبضه للارواح بامر الله تعالى ويضيفون الحوادث الى الدهر والزمان ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لاتسبوا الدهر فان الله هو الدهر أى فان الله هو الآتى بالحوادث لا الدهر (وما لهم بذلك) أى بما ذكر من اقتصار الحياة على ما فى الدنيا واسناد الحياة والموت الى الدهر (من علم) ما مستند الى عقل أو نقل (ان هم الا يظنون) ما هم الا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يكون لهم شئ يصح أن يتمسك به فى الجملة هذا معتقدهم الفاسد فى أنفسهم (واذا تتلى عليهم اياتنا) الناطقة بالحق الذى من جملته البعث (بينات) واضحات الدلالة على ما نطقت به أو مبينات له (ما كان حجتهم) بالنصب على انه خبر كان أى ما كان متمسكا لهم شئ من الاشياء (الا أن قالوا أتوا بآبائنا ان كنتم صادقين) فى أنا نبعث بعد الموت أى الا هذا القول الباطل الذى يستحيل أن يكون من قبيل الحجة وتسميته حجة اما لسوقهم اياه مساق الحجة على سبيل التهكم بهم أو لانه من قبيل تحية بينهم ضرب وجيع * وقرئ برفع حجتهم على أنها اسم كان فالمعنى ما كان حجتهم شيئا من الاشياء الا هذا القول الباطل (قل الله يحييكم) ابتداء (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم لا كما تزعمون من أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر (ثم يجمعكم) بعد الموت (الى يوم القيامة) للجزاء (لا ريب فيه) أى فى جمعكم فان من قدر على البدء قدر على الاعادة والحكمة اقتضت الجمع للجزاء محالة والوعد المصدق بالآيات دل على وقوعها حتما الاتيان بآبائهم حيث كان مزاحا للحكمة التشريعية امتنع ايقاعه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) استدراك من قوله تعالى لا ريب فيه وهو اما من تمام الكلام المأمور به أو كلام مسوق من جهته تعالى تحقيقا للحق وتنبيها على أن ارتيابهم لجهلهم وقصدهم فى النظر والتفكر لا لان فيه شائبة ريب ما

والارض بالحق وتمام تقرير هذه الدلائل مذكور فى أول سورة يونس قال القاضى هذه الآية تدل على أن فى مقدور الله ما لو حصل لكان ظلما وذلك لايصح الا على مذهب المجبرة الذين يقولون لو فعل كل شئ أراده لم يكن ظلما وعلى قول من يقول انه لا يوصف بالقدرة على الظلم وأجاب الاصحاب عنه بان المراد فعل ما لو فعله غيره لكان ظلما كما أن المراد من الابتلاء والاختبار فعل ما لو فعله غيره لكان ابتلاء واختبارا وقوله تعالى ولتجزى فيه وجهان (الاول) انه معطوف على قوله بالحق فيكون التقدير وخلق الله السموات والارض لاجل اظهار الحق ولتجزى كل نفس (الثانى) أن يكون العطف على محذوف والتقدير خلق الله السموات والارض بالحق ليدل بها على قدرته ولتجزى كل نفس والمعنى ان المقصود من خلق هذا العالم اظهار العدل والرحمة وذلك لا يتم الا اذا حصل البعث والقيامة وحصل التفاوت فى الدرجات والدركات بين المحقين وبين المبطلين ثم عاد تعالى الى شرح أحوال الكفار وقبائح طرائقهم فقال أفرأيت من اتخذ الهه هواه يعنى تركوا متابعة الهدى وأقبلوا على متابعة الهوى فكانوا يعبدون الهوى كما يعبد الرجل الهه وقرئ آلهته هواه لانه كلما مال طبعه الى شئ اتبعه وذهب خلفه فكأنه اتخذوا آلهة شتى يعبد كل وقت واحدا منها ثم قال تعالى وأضله الله على علم يعنى على علم بان جوهر روحه لا يقبل الصلاح ونظيره فى جانب التعظيم قوله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته وتحقيق الكلام فيه ان جواهر الارواح البشرية مختلفة فمنها مشرقة نورانية علوية الهية ومنها كدرة ظلمانية سفلية عظيمة الميل الى الشهوات الجسمانية فهو تعالى يقابل كلا منهم بحسب ما يليق بجوهره وماهيته وهو المراد من قوله وأضله الله على علم فى حق المردودين وقوله الله أعلم حيث يجعل رسالاته فى حق المقبولين ثم قال وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فقوله وأضله الله على علم هو المذكور فى قوله ان الذين كفروا الى قوله لا يؤمنون وقوله وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة هو المراد من قوله ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة وكل ذلك قد مر تفسيره فى سورة البقرة بالاستقصاء والتفاوت بين الآيتين انه فى هذه الآية قدم ذكر السمع على القلب وفى سورة البقرة قدم القلب على السمع والفرق ان الانسان قد يسمع كلاما فيقع فى قلبه منه أثر مثل ان جماعة من الكفار كانوا يلقون الى الناس أن النبى صلى الله عليه وسلم شاعر وكاهن وأنه يطلب الملك والرياسة فالسامعون اذا سمعوا ذلك أبغضوه ونفرت قلوبهم عنه وأما كفار مكة فهم كانوا يبغضونه بقلوبهم بسبب الحسد الشديد فكانوا يستمعون اليه ولو سمعوا كلامه فهموا منه شيئا نافعا ففى الصورة الاولى كان الاثر يصعد من البدن الى جوهر النفس وفى الصورة الثانية كان الاثر ينزل من جوهر النفس الى قرار البدن فلما اختلف القسمان لا جرم ارشد الله تعالى الى كلا هذين القسمين بهذين الترتيبين اللذين نبهنا عليهما ولما ذكر الله تعالى هذا الكلام قال فمن يهديه من بعد الله أى من بعد ان أضله الله أفلا تذكرون أيها

الناس قال الواحدى وليس يبقى للقدرية مع هذه الآية عذر ولا حيلة لان الله تعالى صرح بمنعه اياهم عن الهدى حين أخبرانه ختم على سمع هذا الكافر وقلبه و بصره وأقول هذه المناظرة قدسبقت بالاستقصاء فى أول سورة البقرة واعلم أنه تعالى حكى عنهم بعد ذلك شبهتهم فى انكار القيامة وفى انكار الاله القادر اما شبهتهم فى انكار القيامة فهى قوله تعالى وقالوا ماهى الاحياتنا الدنيا نموت ونحيى فان قالوا الحياة مقدمة على الموت فى الدنيا فمنكر والقيامة كان يجب أن يقولوا نحيى ونموت فما السبب فى تقديم ذكر الموت على الحياة قلنا فيه وجوه (الاول) المراد بقوله نموت حال كونهم نطفا فى أصلاب الآباء وأرحام الامهات و بقوله نحيا ماحصل بعد ذلك فى الدنيا (الثانى) نموت نحن ونحيا بسبب بقاء أولادنا (الثالث) يموت بعض و يحيا بعض (الرابع) وهو الذى خطر بالبال عند كتابة هذا الموضع انه تعالى قدم ذكر الحياة فقال ماهى الاحياتنا الدنيا ثم قال بعده نموت ونحيى يعنى ان تلك الحياة منها ماىطرأ عليها الموت وذلك فى حق الذين ماتوا ومنها مالم يطرأ الموت عليها وذلك فى حق الاحياء الذين لم يموتوا بعد وأما شبهتهم فى انكار الاله الفاعل المختار فهو قولهم ومايهلكنا الا الدهر يعنى تولد الاشخاص انما كان بسبب حركات الافلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع واذا وقعت تلك الامتزاجات على وجه خاص حصلت الحياة واذا وقعت على وجه آخر حصل الموت فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحركات الافلاك ولاحاجة فى هذا الباب الى اثبات الفاعل المختار فهذه الطائفة جمعوا بين انكار الاله و بين انكار البعث والقيامة ثم قال تعالى ومالهم بذلك من علم ان هم الا يظنون والمعنى ان قبل النظر ومعرفة الدلائل الاحتمالات باسرها قائمة فالذى قالوه يحتمل وضده أيضا يحتمل وذلك هو أن يكون القول بالبعث والقيامة حقا وأن يكون القول بوجود الاله الحكيم حقا فانهم لم يذكروا شبهة ضعيفة ولاقوية فى أن هذا الاحتمال الثانى باطل ولكنه خطر ببالهم ذلك الاحتمال الاول فجزموا به وأصروا عليه من غير حجة ولا بينة فثبت أنه ليس لهم علم ولا جزم ولا يقين فى صحة القول الذى اختاروه بل ليس لهم الا الظن والحسبان وميل القلب اليه من غير موجب وهذه الآية من أقوى الدلائل على ان القول بغير حجة و بينة قول باطل فاسد وان متابعة الظن والحسبان منكر عند الله تعالى ثم قال تعالى واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ماكان حجتهم الا أن قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ حجتهم بالنصب والرفع على تقديم خبر كان وتأخيره (المسئلة الثانية) سمى قولهم حجة لوجوه (الاول) انه فى زعمهم حجة (الثانى) ان يكون المراد من كان حجتهم هذا فليس لهم البتة حجة كقوله * تحية بينهم ضرب وجيع (الثالث) انهم ذكروها فى معرض الاحتجاج بها (المسئلة الثالثة) ان حجتهم على انكار البعث أن قالوا ان صح ذلك فائتوا بآبائنا الذين ماتوا ليشهدوا لنا بصحة البعث واعلم ان هذه الشبهة ضعيفة جدا لانه ليس كل مالا يحصل فى الحال وجب أن يكون ممتنع

(ولله ملك السموات والارض) بيان لاختصاص الملك المطلق والتصرف الكلى فيهما وفيما بينهما بالله عز وجل اثر بيان تصرفه تعالى فى الناس بالاحياء والاماتة

والبعث والجمع للمجازاة (و يوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون) العامل فى يوم يخسر و يومئذ بدل منه (وترى كل أمة) من الامم المجموعة (جاثية) باركة على الركب مستوفزة وقرئ جاذية أى جالسة على أطراف الاصابع والجذو أشد استيفازا من الجثو وعن ابن عباس رضى الله عنهما جاثية مجتمعة وقيل جماعات من الجثوة وهى الجماعة (كل أمة تدعى الى كتابها) الى صحيفة أعمالها وقرئ كل بالنصب على أنه بدل من الاول وتدعى صفة أوحال أومفعول ثان (اليوم تجزون ما كنتم تعملون) أى يقال لهم ذلك وقوله تعالى (هذا كتابنا) الخ من تمام ما يقال حينئذ وحيث كان كتاب كل أمة مكتوبا بأمر الله تعالى أضيف الى نون العظمة تفخيما لشأنه وتهويلا لامره فهذا مبتدأ وكتابنا خبره وقوله تعالى (ينطق عليكم) أى يشهد عليكم (بالحق) من غير زيادة ولا نقص خبر آخر أوحال و بالحق حال من فاعل ينطق وقوله تعالى (انا كنا نستنسخ)

الخ تعليل لنطقه عليهم بأعمالهم من

ثم الخطاب الى غيابة النار (ولا هم يستعتبون) أي يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أي يرضوه لفوات أوانه (فلله الحمد) خاصة (رب السموات ورب الارض رب العالمين) فلا يستحق الحمد أحد سواه وتكرير الرب للتأكيد الايذان بأن ربوبيته تعالى لكل منها بطريق الاصالة وقرئ برفع الثلاثة على المدح باضمار هو (وله الكبرياء في السموات والارض) اذ ظهر آثارها واحكامها فيهما واظهارهما في موضع الاضمار لتفخيم شأن الكبرياء (وهو العزيز) الذي لا يغلب (الحكيم) في كل ما قضى وقدر فاحمدوه وكبروه وأطيعوه * عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ حم الجاثية ستر الله تعالى عورته وسكن روعته يوم الحساب

﴿ سورة الاحقاف مكية وآيها أربع أو خمس وثلاثون آية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) الكلام فيه كالذي مر في مطلع السورة السابقة (ما خلقنا السموات والارض) بما فيهما من حيث الجزئية منهما ومن حيث الاستقرار فيهما (وما بينهما) من المخلوقات (الا بالحق) استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أي الا خلقا ملتبسا بالحق الذي تقتضيه الحكمة التكوينية والتشريعية

بالعقل (المسألة الثالثة) جواب أما محذوف والتقدير وأما الذين كفروا فيقال لهم ألم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم عن قبول الحق وكنتم قوما مجرمين فان قالوا كيف يحسن وصف الكافر بكونه مجرما في معرض الطعن فيه والذم له قلنا معناه انهم مع كونهم كفارا ما كانوا عدولا في أديان أنفسهم بل كانوا فساقا في ذلك الدين والله أعلم * قوله تعالى (واذا قيل ان وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين وبدا لهم سيآت ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون فلله الحمد رب السموات ورب الارض رب العالمين وله الكبرياء في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) وفيه مسائل (المسألة الاولى) قرئ والساعة رفعا ونصبا قال الزجاج من نصب عطف على الوعد ومن رفع فعلى معنى وقيل الساعة لا ريب فيها قال الاخفش الرفع أجود في المعنى وأكثر في كلام العرب اذا جاء بعد خبر ان لانه كلام مستقل بنفسه بعد مجيء الكلام الاول بتمامه (المسألة الثانية) حكى الله تعالى عن الكفار أنهم اذا قيل ان وعد الله بالثواب والعقاب حق وان الساعة آتية لا ريب فيها قالوا ما ندري ما الساعة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين أقول الاغلب على الظن أن القوم كانوا في هذه المسئلة على قولين منهم من كان قاطعا بنفي البعث والقيامة وهم الذين ذكرهم الله في الآية المتقدمة بقوله وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا ومنهم من كان شاكا متحيرا فيه لانهم لكثرة ما سمعوه من الرسول صلى الله عليه وسلم ولكثرة ما سمعوه من دلائل القول بصحته صاروا شاكين فيه وهم الذين أرادهم الله بهذه الآية والذي يدل عليه انه تعالى حكى مذهب أولئك القاطعين ثم اتبعه بحكاية قول هؤلاء فوجب كون هؤلاء مغايرين للفريق الاول ثم قال تعالى وبدا لهم أي في الآخرة سيآت ما عملوا وقد كانوا من قبل يعدونها حسنات فصار ذلك أول خسرانهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن وهذا كالدليل على ان هذه الفرقة لما قالوا ان نظن الا ظنا انما ذكروه على سبيل الاستهزاء والسخرية وعلى هذا الوجه فهذا الفريق شر من الفريق الاول لان الاولين كانوا منكرين وما كانوا مستهزئين وهذا الفريق ضموا الى الاصرار على الانكار الاستهزاء ثم قال تعالى وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وفي تفسير هذا النسيان وجهان (الاول) نترككم في العذاب كما تركتم الطاعة التي هي الزاد ليوم المعاد (الثاني) نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالى به كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم تلتفتوا اليه بل جعلتموه كالشيء الذي يطرح نسيا منسيا فجمع الله تعالى عليهم من وجوه العذاب الشديد ثلاثة أشياء (فأولها) قطع رحمة الله تعالى عنهم بالكلية (وثانيها) انه يصير مأواهم النار (وثالثها) أن لا يحصل لهم أحد من الاعوان

والانصار

والانصار ثم بين تعالى انه يقال لهم انكم انما صرتم مستحقين لهذه الوجوه ثلاثة من العذاب الشديد لاجل انكم أتيتم بثلاثة أنواع من الاعمال القبيحة (فأولها) الاصرار على انكار الدين الحق (وثانيها) الاستهزاء به والسخرية منه وهذان الوجهان داخلان تحت قوله تعالى ذلكم بانكم اتخذتم آيات الله هزوا (وثالثها) الاستغراق فى حب الدنيا والاعراض الكلية عن الآخرة وهو المراد من قوله تعالى وغرتكم الحياة الدنيا ثم قال تعالى فاليوم لا يخرجون منها قرأ حمزة والكسائى يخرجون بفتح الياء والباقون بضمها ولاهم يستعتبون أى ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أى يرضوه ولما تم الكلام فى هذه المباحث الشريفة الروحانية ختم السورة بتحميد الله تعالى فقال فلله الحمد رب السموات ورب الارض رب العالمين أى فاحمدوا الله الذى هو خالق السموات والارض بل خالق كل العالمين من الاجسام والارواح والذوات والصفات فان هذه الربوبية توجب الحمد والثناء على كل أحد من المخلوقين والمربوبين ثم قال تعالى وله الكبرياء فى السموات والارض وهذا مشعر بامرين (أحدهما) ان التكبير لابد وأن يكون بعد التحميد والاشارة الى أن الحامدين اذا حمدوه وجب أن يعرفوا انه أعلى وأكبر من ان يكون الحمد الذى ذكروه لائقا بانعامه بل هو أكبر من حمد الحامدين وأياديه أعلى وأجل من شكر الشاكرين (والثانى) ان هذا الكبرياء له لا لغيره لان واجب الوجود لذاته ليس الا هو ثم قال تعالى وهو العزيز الحكيم يعنى انه لكمال قدرته يقدر على خلق أى شئ أراد ولكمال حكمته يخص كل نوع من مخلوقاته بآثار الحكمة والرحمة والفضل والكرم وقوله وهو العزيز الحكيم يفيد الحصر فهذا يفيد ان الكامل فى القدرة وفى الحكمة وفى الرحمة ليس الا هو وذلك يدل على انه لا اله للخلق الا هو ولا محسن ولا متفضل الا هو قال مولانا رضى الله عنه تم تفسير هذه السورة يوم الجمعة بعد الصلاة الخامس عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله حمدا دائما طيبا مباركا مخلدا مؤبدا كما يليق بعلو شانه وباهر برهانه وعظيم احسانه والصلاة على الارواح الطاهرة المقدسة من ساكنى اعالى السموات وتخوم الارضين من الملائكة والانبياء والاولياء والموحدين خصوصا على سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

(سورة الاحقاف وهى ثلاثون وخمس آيات مكية وقيل أربع وثلاثون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ماخلقنا السموات والارض ومابينهما الا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم ان كنتم صادقين) اعلم ان نظم أول هذه السورة كنظم أول سورة

وانتهائها الى غايات جليلة مالا يخفى (وأجل مسمى) عطف على الحق بتقدير مضاف أى وبتقدير أجل مسمى ينتهى اليه أمر الكل وهو يوم القيامة يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وقيل هو آخر مدة البقاء المقدر لكل واحد ويأباه قوله تعالى (والذين كفروا عما أنذروا معرضون) فان ما أنذروه يوم القيامة ومافيه من الطامة التامة والاهوال العامة لا آخر أعمارهم وقد جوز كون ما مصدرية والجملة حالية أى ماخلقنا الخلق الا بالحق وتقدير الاجل الذى يجازون عنده والحال أنهم غير مؤمنين به معرضون عنه وعن الاستعداد له (قل) توبيخا لهم وتبكيتا (أرأيتم) أخبرونى وقرئ أرأيتكم (ماتدعون) ماتعبدون (من دون الله) من الاصنام (أرونى) تأكيد لارأيتم (ماذا خلقوا من الارض)

بيان للابهام فى ماذا (أم لهم شرك) أى شركة مع الله تعالى (فى السموات) أى فى خلقها أو ملكها وتدبيرها

حتى يتوهم أن يكون لهم شائبة استحقاق المعبودية فان ما لامدخل له في وجود شيء من الاشياء بوجه من الوجوه فهو بمعزل من ذلك الاستحقاق بالمرة وان كان من الاحياء العقلاء فما ظنكم

بالجماد وقوله تعالى (ائتوني بكتاب) الخ تبكيت لهم بتعجيزهم عن الاتيان بسند نقلي بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الاتيان بسند عقلي أي ائتوني بكتاب (من قبل هذا) الكتاب أي القرآن الناطق بالتوحيد وابطال الشرك دال على صحة دينكم (أو أثارة من علم) أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الاولين شاهدة باستحقاقهم للعبادة (ان كنتم صادقين) في دعواكم فانها لا تكاد تصح ما لم يقم عليها برهان عقلي أو سلطان نقلي وحيث لم يقم عليها شيء منهما وقد قامت على خلافها أدلة العقل والنقل تبين بطلانها وقرئ أثارة بكسر الهمزة أي مناظرة فانها تثير المعاني وأثرة أي شيء أوثرتم به وخصصتم من علم مطوي عن غيركم وأثرة بالحركات الثلاث مع سكون الثاء أما المكسورة فبمعنى الاثرة وأما المفتوحة فهي المرة من أثر الحديث أي رواه وأما المضمومة فاسم ما يؤثر كالخطبة

الجاثية وقد ذكرنا ما فيه وأما قوله ما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق فهذا يدل على اثبات الاله بهذا العالم ويدل على أن ذلك الاله يجب أن يكون عادلا رحيما بعباده ناظرا لهم محسنا اليهم ويدل على ان القيامة حق (أما المطلوب) الاول وهو اثبات الاله بهذا العالم وذلك لان الخلق عبارة عن التقدير وآثار التقدير ظاهرة في السموات والارض من الوجوه العشرة المذكورة في سورة الانعام وقد بينا ان جملة تلك الوجوه تدل على وجود الاله القادر المختار (وأما المطلوب) الثاني وهو اثبات ان اله العالم عادل رحيم فيدل عليه قوله تعالى الا بالحق لان قوله الا بالحق معناه الا لاجل الفضل والرحمة والاحسان وان الاله يجب أن يكون فضله زائدا وان يكون احسانه راجحا وان يكون وصول المنافع منه الى المحتاجين أكثر من وصول المضار اليهم قال الجبائي هذا يدل على ان كل ما بين السموات والارض من القبائح فهو ليس من خلقه بل هو من افعال عباده والا لزم أن يكون خالقا لكل باطل وذلك ينافي قوله ما خلقناهما الا بالحق أجاب أصحابنا وقالوا خلق الباطل غير والخلق بالباطل غير فنحن نقول انه هو الذي خلق الباطل الا انه خلق ذلك الباطل بالحق لان ذلك تصرف من الله تعالى في ملك نفسه وتصرف المالك في ملك نفسه يكون بالحق لا بالباطل قالوا والذي يقرر ما ذكرناه ان قوله تعالى ما خلقنا السموات والارض وما بينهما يدل على كونه تعالى خالقا لكل أعمال العباد لان أعمال العباد من جملة ما بين السموات والارض فوجب كونها مخلوقة لله تعالى ووقوع التعارض في الآية الواحدة محال فلم يبق الا أن يكون المراد ما ذكرناه فان قالوا افعال العباد اعراض والاعراض لا توصف بأنها حاصلة بين السموات والارض فنقول فعلى هذا التقدير سقط ما ذكرتموه من الاستدلال والله أعلم (وأما المطلوب الثالث) فهو دلالة الآية على صحة القول بالبعث والقيامة وتقريره انه لو لم توجد القيامة لتعطل استيفاء حقوق المظلومين من الظالمين ولتعطل توفية الثواب على المطيعين وتوفية العقاب على الكافرين وذلك يمنع من القول بأنه تعالى خلق السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأما قوله تعالى وأجل مسمى فالمراد انه ما خلق هذه الاشياء الا بالحق والا لاجل مسمى وهذا يدل على ان اله العالم ما خلق هذا العالم ليبقى مخلدا سرمدا بل انما خلقه ليكون دارا للعمل ثم انه سبحانه يفنيه ثم يعيده فيقع الجزاء في الدار الآخرة فعلى هذا الاجل المسمى هو الوقت الذي عينه الله تعالى لافناء الدنيا ثم قال تعالى والذين كفروا عما أنذروا معرضون والمراد ان مع نصب الله تعالى هذه الدلائل ومع ارسال الرسل وانزال الكتب ومع مواظبة الرسل على الترغيب والترهيب والاعذار والانذار بقي هؤلاء الكفار معرضين عن هذه الدلائل غير ملتفتين اليها وهذا يدل على وجوب النظر والاستدلال وعلى أن الاعراض عن الدليل مذموم في الدين والدنيا واعلم انه تعالى لما قرر هذا الاصل الدال على اثبات الاله وعلى اثبات كونه عادلا رحيما وعلى اثبات البعث والقيامة بنى عليه

التي اسم ما يخطب به (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له) انكار ونفي لأن يكون أحد ﴿ التفاريع ﴾

التفاريع (فالفرع الاول) الرد على عبدة الاصنام فقال قل أرأيتم ماتدعون من دون الله وهى الاصنام أرونى أى أخبرونى ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك فى السموات والمراد ان هذه الاصنام هل يعقل أن يضاف اليها خلق جزء من أجزاء هذا العالم فان لم يصح ذلك فهل يجوز أن يقال انها أعانت اله العالم فى خلق جزء من أجزاء هذا العالم ولما كان صريح العقل حاكما بأنه لا يجوز اسناد خلق جزء من أجزاء هذا العالم اليها وان كان ذلك الجزء أقل الاجزاء ولا يجوز أيضا اسناد الاعانة اليها فى أقل الافعال وأذلها فحينئذ صح ان الخالق الحقيقى لهذا العالم هو الله سبحانه وان المنعم الحقيقى بجميع أقسام النعم هو الله سبحانه والعبادة عبارة عن الاتيان بأكمل وجوه التعظيم وذلك لا يليق الا بمن صدر عنه أكمل وجوه الانعام فلما كان الخالق الحق والمنعم الحقيقى هو الله سبحانه وتعالى وجب أن لا يجوز الاتيان بالعبادة والعبودية الا له ولاجله بقى أن يقال انا لانعبدها لانها تستحق هذه العبادة بل انما نعبدها لاجل ان الاله الخالق المنعم أمرنا بعبادتها فعند هذا ذكر الله تعالى مايجرى مجرى الجواب عن هذا السؤال فقال ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم وتقرير هذا الجواب ان ورود هذا الامر لاسبيل الى معرفته الا بالوحى والرسالة فنقول هذا الوحى الدال على الامر بعبادة هذه الاوثان اما أن يكون على محمد أوفى سائر الكتب الالهية المنزلة على سائر الانبياء وان لم يوجد ذلك فى الكتب الالهية لكنه من تقابل العلوم المنقولة عنهم والكل باطل أما اثبات ذلك بالوحى الى محمد صلى الله عليه وسلم فهو معلوم البطلان وأما اثباته بسبب اشتمال الكتب الالهية المنزلة على الانبياء المتقدمين عليه فهو أيضا باطل لانه علم بالتواتر الضرورى اطباق جميع الكتب الالهية على المنع من عبادة الاصنام وهذا هو المراد من قوله تعالى ائتونى بكتاب من قبل هذا وأما اثبات ذلك بالعلوم المنقولة عن الانبياء سوى ماجاء فى الكتب فهذا أيضا باطل لان العلم الضرورى حاصل بأن أحدا من الانبياء مادعا الى عبادة الاصنام وهذا هو المراد من قوله أو أثارة من علم ولما بطل الكل ثبت ان الاشتغال بعبادة الاصنام عمل باطل وقول فاسد وبقى فى قوله تعالى أو أثارة من علم نوعان من البحث (النوع الاول) البحث اللغوى قال أبو عبيد والفراء والزجاج أثارة من علم أى بقية وقال المبرد أثارة ما يؤثر من علم أى بقية وقال المبرد أثارة تؤثر من علم كقولك هذا الحديث يؤثر عن فلان ومن هذا المعنى سميت الاخبار بالآثار يقال جاء فى الاثر كذا وكذا قال الواحدى وكلام أهل اللغة فى تفسير هذا الحرف يدور على ثلاثة أقوال (الاول) البقية واشتقاقها من أثرت الشئ أثيره اثارة كأنها بقية تستخرج فتثار (والثانى) من الاثر الذى هو الرواية (والثالث) هو الاثر بمعنى العلامة قال صاحب الكشاف وقرئ أثرة أى من شئ أوثرتم به وخصصتم من علم لا احاطة به لغيركم وقرئ أثرة بالحركات الثلاث مع سكون الثاء فالاثرة بالكسر بمعنى الاثر وأما الاثرة فالمرة من مصدر أثر الحديث اذا رواه وأما الاثرة بالضم

يساوى المشركين فى الضلال وان كان سبك التركيب لنفى الاضل منهم من غير تعرض لنفى المساوى كما مر غير مرة أى هم أضل من كل ضال حيث تركوا عبادة خالقهم السميع القادر المجيب الخبير الى عبادة مصنوعهم العارى عن السمع والقدرة والاستجابة (الى يوم القيامة) غاية لنفى الاستجابة (وهم عن دعائهم) الضمير الاول لمفعول يدعو والثانى لفاعله والجمع فيهما باعتبار معنى من كما أن الافراد فيما سبق باعتبار لفظها (غافلون) لكونهم جمادات وضمائر العقلاء لاجرائهم اياها مجرى العقلاء ووصفها بماذكر من ترك الاستجابة والغفلة مع ظهور حالها للتهكم بها وبعبدتها كقوله تعالى ان تدعوهم لايسمعوا دعاءكم الآية (واذا حشر الناس) عند قيام القيامة (كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) أى مكذبين بلسان الحال أو المقال على مايروى أنه تعالى يحيى الاصنام فتتبرأ عن عبادتهم وقد يجوز أن يراد بهم كل من يعبد من دون الله من الملائكة والجن والانس وغيرهم ويبنى ارجاع الضمائر واسناد العداوة والكفر اليهم على التغليب ويراد بذلك تبرؤهم عنهم وعن عبادتهم وقيل ضمير كانوا للعبدة وذلك قولهم والله ربنا ماكنا مشركين (واذا تتلى عليهم

فاسم ما يؤثر كالخطابة اسم لما يخطب به وههنا قول آخر في تفسير قوله تعالى أو أثارة من علم وهو ماروى عن ابن عباس انه قال أو أثارة من علم هو علم الخط الذي يخط في الرمل والعرب كانوا يخطونه وهو علم مشهور وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كان نبي من الانبياء يخط فمن وافق خطه خطه علم علمه وعلى هذا الوجه فمعنى الآية ائتوني بعلم من قبل هذا الخط الذي تخطونه في الرمل يدل على صحة مذهبكم في عبادة الاصنام فان صح تفسير الآية بهذا الوجه كان ذلك من باب التهكم بهم وبأقوالهم ودلائلهم والله تعالى أعلم ✵ قوله تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين أم يقولون افتراه قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم) اعلم أنه تعالى بين فيما سبق أن القول بعبادة الاصنام قول باطل من حيث انها لا قدرة لها البتة على الخلق والفعل والايجاد والاعدام والنفع والضر فأردفه بدليل آخر يدل على بطلان ذلك المذهب وهي أنها جمادات فلا تسمع دعاء الداعين ولا تعلم حاجات المحتاجين وبالجملة فالدليل الاول كان اشارة الى نفي العلم من كل الوجوه واذا انتفى العلم والقدرة من كل الوجوه لم تبق عبادة معلومة ببديهة العقل فقوله ومن أضل ممن يدعو من دون الله استفهام على سبيل الانكار والمعنى انه لا امرأ أبعد عن الحق وأقرب الى الجهل ممن يدعو من دون الله الاصنام فيتخذها آلهة ويعبدها وهي اذا دعيت لا تسمع ولا تصح منها الاجابة لا في الحال ولا بعد ذلك اليوم الى يوم القيامة وانما جعل ذلك غاية لان يوم القيامة قد قيل انه تعالى يحييها وتقع بينها وبين من يعبدها مخاطبة فلذلك جعله تعالى حدا واذا قامت القيامة وحشر الناس فهذه الاصنام تعادي هؤلاء العابدين واختلفوا فيه فالاكثرون على انه تعالى يحيي هذه الاصنام يوم القيامة وهي تظهر عداوة هؤلاء العابدين وتتبرأ منهم وقال بعضهم بل المراد عبدة الملائكة وعيسى فانهم في يوم القيامة يظهرون عداوة هؤلاء العابدين فان قيل ما المراد بقوله تعالى وهم عن دعائهم غافلون وكيف يعقل وصف الاصنام وهي جمادات بالغفلة وأيضا كيف جاز وصف الاصنام بما لا يليق الا بالعقلاء وهي لفظة من وقوله هم غافلون قلنا انهم لما عبدوها ونزلوها منزلة من يضر وينفع صح أن يقال فيها انها بمنزلة الغافل الذي لا يسمع ولا يجيب وهذا هو الجواب أيضا عن قوله ان لفظة من ولفظة هم كيف يليق بها وأيضا يجوز أن يريد كل معبود من دون الله من الملائكة وعيسى وعزير والاصنام الا انه غلب غير الاوثان على الاوثان واعلم انه تعالى لما تكلم في تقرير التوحيد ونفي الاضداد والانداد تكلم في النبوة وبين أن محمدا صلى الله

آياتنا بينات) واضحات أو مبينات (قال الذين كفروا للحق) أي لاجله وفي شأنه وهو عبارة عن الآيات المتلوة وضع موضع ضميرها تنصيصا على حقيقتها ووجوب الايمان بها كما وضع الموصول موضع ضمير المتلو عليهم تسجيلا عليهم بكمال الكفر والضلال (لما جاءهم) أي في أول ما جاءهم من غير تدبر وتأمل (هذا سحر مبين) أي ظاهر كونه سحرا (أم يقولون افتراه) اضراب وانتقال من حكاية شناعتهم السابقة الى حكاية ما هو أشنع منها وما في أم من الهمزة للانكار التوبيخي المتضمن للتعجب أي بل أيقولون افترى القرآن (قل ان افتريته) على الفرض (فلا تملكون لي من الله شيئا) اذ لا ريب في أنه تعالى يعاجلني حينئذ بالعقوبة فكيف أجترئ على أن أفتري عليه تعالى كذبا فأعرض نفسي للعقوبة التي لا مناص عنها (هو أعلم بما تفيضون فيه) اي تندفعون فيه من القدح في وحي الله والطعن في آياته وتسميته سحرا تارة وفرية أخرى (كفى به شهيدا بيني وبينكم) حيث يشهد لي بالصدق والبلاغ وعليكم بالكذب والجحود وهو وعيد بجزاء افاضتهم وقوله تعالى (وهو الغفور الرحيم) وعد بالغفران والرحمة لمن تاب وآمن واشعار بحلم الله تعالى عليه عنهم مع عظم جرائمهم

(قل ما كنت بدعا من الرسل) البدع بمعنى البديع كالخل بمعنى الخليل وهو ما لا مثل له وقرئ بفتح الدال على أنه صفة كقيم وزيم أو جمع مقدر بمضاف أي ذا بدع وقد جوز ذلك في القراءة الاولى أيضا على أنه مصدر كانوا يقترحون عليه عليه الصلاة والسلام آيات عجيبة ويسألونه ﴿٤٩٧﴾ عن المغيبات عناد او مكابرة فأمر عليه السلام بأن يقول لهم ما كنت بديعا من الرسل قادرا على ما لم يقدروا عليه حتى آتيكم بكل ما تقترحونه واخبركم بكل ما تسألون عنه من الغيوب فان من قبلي من الرسل عليهم الصلاة والسلام ما كانوا يأتون الا بما آتاهم الله تعالى من الآيات ولا يخبرونهم الا بما أوحى اليهم (وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم) أي أي شئ يصيبنا فيما يستقبل من الزمان من أفعاله تعالى وماذا يقدر لنا من قضاياه وعن الحسن رضي الله عنه ما أدرى ما يصير اليه أمرى وأمركم في الدنيا وعن ابن عباس رضي الله عنهما ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة وقال هي منسوخة بقوله تعالى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر وقيل يجوز أن يكون المنفى هي الدراية المفصلة والاظهر الاوفق لما ذكر من سبب النزول أن ما عبارة عما ليس علمه من وظائف النبوة من الحوادث والواقعات ﴿٦٣﴾ سا الدنيوية دون ما سيقع في الآخرة فان العلم بذلك من وظائف النبوة وقد ورد به الوحي الناطق بتفاصيل ما يفعل بالجانبين هذا وقد روى عن

عليه وسلم كلما عرض عليهم نوعا من أنواع المعجزات زعموا انه سحر فقال واذا تتلى عليهم الآيات البينة وعرضت عليهم المعجزات الباهرة سموها بالسحر ولما بين انهم يسمون المعجزة بالسحر بين انهم متى سمعوا القرآن قالوا ان محمدا افتراه واختلقه من عند نفسه ومعنى الهمزة في أم للانكار والتعجب كأنه قيل دع هذا واسمع القول المنكر العجيب ثم انه تعالى بين بطلان شبهتهم فقال ان افتريته على سبيل الفرض فان الله تعالى يعاجلني بعقوبة بطلان ذلك الافتراء وأنتم لا تقدرون على دفعه عن معاجلتي بالعقوبة فكيف أقدم على هذه الفرية وأعرض نفسي لعقابه يقال فلان لا يملك نفسه اذا غضب ولا يملك عنانه اذا صمم ومثله فمن يملك من الله شيئا ان اراد ان يهلك المسيح ابن مريم ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لا أملك لكم من الله شيئا ثم قال تعالى هو أعلم بما تفيضون فيه أي تندفعون فيه من القدح في وحي الله تعالى والطعن في آياته وتسميته سحرا تارة وفرية أخرى كفى به شهيدا بيني وبينكم يشهد لي بالصدق ويشهد عليكم بالكذب والجحود ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيدا لهم على اقامتهم في الطعن والشتم ثم قال وهو الغفور الرحيم بمن رجع عن الكفر وتاب واستعان بحكم الله عليهم مع عظم ما ارتكبوه * قوله تعالى (قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم ان أتبع الا ما يوحى الي وما أنا الا نذير مبين قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدي القوم الظالمين وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) اعلم انه تعالى لما حكى عنهم انهم طعنوا في كون القرآن معجزا بان قالوا انه يختلقه من عند نفسه ثم ينسبه الى انه كلام الله على سبيل الفرية حكى عنهم نوعا آخر من الشبهات وهو أنهم كانوا يقترحون منه معجزات عجيبة قاهرة ويطالبونه بأن يخبرهم عن المغيبات فأجاب الله تعالى عنه بان قال قل ما كنت بدعا من الرسل والبدع والبديع من كل شئ المبدأ والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجودا قبله بحكم السنة وفيه وجوه (الاول) ما كنت بدعا من الرسل أي ما كنت أولهم فلا ينبغي أن تنكروا اخباري باني رسول الله اليكم ولا تنكروا دعائي لكم الى التوحيد ونهيي عن عبادة الاصنام فان كل الرسل انما بعثوا بهذا الطريق (الوجه الثاني) انهم طلبوا منه معجزات عظيمة واخبارا عن الغيوب فقال قل ما كنت بدعا من الرسل والمعنى ان الاتيان بهذه المعجزات القاهرة والاخبار عن هذه الغيوب ليس في وسع البشر وانا من جنس الرسل واحد منهم لم يقدر على ما تريدونه فكيف أقدر عليه (الوجه الثالث) انهم كانوا يعيبونه بأكل الطعام ويمشي في الاسواق وبأنه فقير وأن أتباعه فقراء فقال قل ما كنت بدعا من الرسل وكلهم

كانوا على هذه الصفة و بهذه المثابة فهذه الاشياء لاتقدح فى نبوتى كما لاتقدح فى نبوتهم ثم قال وما أدرى مايفعل بى ولا بكم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تفسير الآية وجهان (أحدهما) ان يحمل ذلك على أحوال الدنيا (والثانى) ان يحمل على أحوال الآخرة (أما الاول) ففيه وجوه (الاول) لاأدرى مايصير اليه أمرى وأمركم ومن الغالب منا والمغلوب (والثانى) قال ابن عباس فى رواية الكلبى لما اشتد البلاء بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بمكة رأى فى المنام أنه يهاجر الى أرض ذات نخل وشجر وماء فقصها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا أن ذلك فرج مما هم فيه من اذى المشركين ثم انهم مكثوا برهة من الدهر لايرون أثر ذلك فقالوا يارسول الله ما رأينا الذى قلت ومتى نهاجر الى الارض التى رأيتها فى المنام فسكت النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى ما أدرى مايفعل بى ولا بكم وهو شئ رأيته فى المنام وأنا لاأتبع الا ما أوحاه الله الى (الثالث) قال الضحاك لاأدرى ماتؤمرون به ولا أومر به فى باب التكاليف والشرائع والجهاد ولا فى الابتلاء والامتحان وانما أنذركم بما أعلمنى الله به من أحوال الآخرة فى الثواب والعقاب (والرابع) المراد انه يقول لاأدرى مايفعل بى فى الدنيا أأموت أم أقتل كما قتل الانبياء قبلى ولاأدرى مايفعل بكم أيها المكذبون أترمون بالحجارة من السماء أم يخسف بكم أم يفعل بكم مافعل بسائر الامم أما الذين حملوا هذه الآية على أحوال الآخرة فروى عن ابن عباس انه قال لما نزلت هذه الآية فرح المشركون والمنافقون واليهود وقالوا كيف نتبع نبيا لايدرى مايفعل به وبنا فأنزل الله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك الى قوله وكان ذلك عند الله فوزا عظيما فبين تعالى مايفعل به وبمن اتبعه ونسخت هذه الآية وأرغم الله أنف المنافقين والمشركين وأكثر المحققين استبعدوا هذا القول واحتجوا عليه بوجوه (الاول) أن النبى صلى الله عليه وسلم لابد وان يعلم من نفسه كونه نبيا ومتى علم كونه نبيا علم انه لاتصدر عنه الكبائر وانه مغفور له واذا كان كذلك امتنع كونه شاكا فى انه هل هو مغفور له أم لا (الثانى) لاشك أن الانبياء أرفع حالا من الاولياء فلما قال فى هذا ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون فكيف يعقل أن يبقى الرسول الذى هو رئيس الاتقياء وقدوة الانبياء والاولياء شاكا فى انه هل هو من المغفورين أو من المعذبين (الثالث) انه تعالى قال الله أعلم حيث يجعل رسالته والمراد منه كمال حاله ونهاية قربه من حضرة الله تعالى ومن هذا حاله كيف يليق به أن يبقى شاكا فى أنه من المعذبين أو من المغفورين فثبت أن هذا القول ضعيف (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ مايفعل بفتح الياء أى يفعل الله عز وجل فان قالوا مايفعل مثبت وغير منفى وكان وجه الكلام أن يقال مايفعل بى وبكم قلنا التقدير ما أدرى مايفعل بى وما أدرى مايفعل بكم ثم قال تعالى ان أتبع الا مايوحى الى يعنى انى لاأقول قولا ولا أعمل عملا الا بمقتضى الوحى واحتج نفاة القياس بهذه

الكلبى ان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا له عليه السلام وقد ضجروا من أذية المشركين حتى متى نكون على هذا فقال ما أدرى مايفعل بى ولا بكم أأترك بمكة أم أومر بالخروج الى أرض ذات نخيل وشجر قد رفعت لى ورأيتها يعنى فى منامه وجوز أن تكون ما موصولة والاستفهامية ﴿ ﴾ أقضى لحق مقام التبرؤ عن الدراية وتكرير لالتذكير النفى المنسحب اليه وتأكيده وقرئ مايفعل على اسناد الفعل الى ضميره تعالى (ان أتبع الا مايوحى الى) أى ما أفعل الا اتباع مايوحى الى على معنى قصر أفعاله عليه الصلاة والسلام على اتباع الوحى لاقصر اتباعه على الوحى كما هو المتسارع الى الافهام وقد مر تحقيقه فى سورة الانعام وقرئ يوحى على البناء للفاعل وهو جواب عن اقتراحهم الاخبار عما لم يوح اليه عليه السلام من الغيوب وقيل عن استعجال المسلمين أن يتخلصوا عن أذية المشركين والاول هو الاوفق لقوله تعالى (وما أنا الا نذير) أنذركم عقاب الله تعالى حسبما يوحى الى (مبين) بين الانذار بالمعجزات الباهرة (قل أرأيتم ان كان) أى مايوحى الى من القرآن (من عند الله) لاسحرا ولا مفترى كما تزعمون وقوله تعالى (وكفرتم به) حال باضمار قد من الضمير فى الخبر وسطت بين اجزاء الشرط مسارعة الى التسجيل عليهم بالكفر أو عطف على كان ﴿ الآية ﴾ كما فى قوله تعالى قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به لكن لاعلى أن نظمه فى

الآية فقالوا النبي صلى الله عليه وسلم ماقال قولا ولا عمل عملا الا بالنص الذى أوحاه الله اليه فوجب أن يكون حالنا كذلك (بيان الاول) قوله تعالى ان أتبع الا ما يوحى الى (بيان الثانى) قوله تعالى واتبعوه وقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره ثم قال تعالى وما أنا الا نذير مبين كانوا يطالبونه بالمعجزات العجيبة وبالاخبار عن الغيوب فقال قل وما أنا الا نذير مبين والقادر على تلك الاعمال الخارجة عن قدرة البشر والعالم بتلك الغيوب ليس الا الله سبحانه ❊ ثم قال تعالى (قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لايهدى القوم الظالمين) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) جواب الشرط محذوف والتقدير ان يقال ان كان هذا الكتاب من عند الله ثم كفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على صحته ثم استكبرتم لكنتم من الخاسرين ثم حذف هذا الجواب ونظيره قولك ان أحسنت اليك وأسأت الى وأقبلت عليك وأعرضت عنى فقد ظلمتنى فكذا ههنا التقدير أخبرونى ان ثبت ان القرآن من عند الله بسبب عجز الخلق عن معارضته ثم كفرتم به وحصل أيضا شهادة أعلم بنى اسرائيل بكونه معجزا من عند الله فلو استكبرتم وكفرتم ألستم أضل الناس وأظلمهم واعلم أن جواب الشرط قد يحذف فى بعض الآيات وقد يذكر اما الحذف فكما فى هذه الآية وكما فى قوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى وأما المذكور فكما فى قوله تعالى قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل وقوله قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء (المسئلة الثانية) اختلفوا فى المراد بقوله تعالى وشهد شاهد من بنى اسرائيل على قولين (الاول) وهو الذى قال به الاكثرون أن هذا الشاهد عبد الله بن سلام روى صاحب الكشاف انه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نظر الى وجهه فعلم أنه ليس بوجه كذاب وتأمله وتحقق انه هو النبى صلى الله عليه وسلم المنتظر فقال له انى سائلك عن ثلاث مايعلمهن الا نبى ما أول أشراط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة والولد ينزع الى أبيه أو الى أمه فقال صلى الله عليه وسلم اما أول اشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق الى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت وأما الولد فاذا سبق ماء الرجل نزعه وان سبق ماء المرأة نزعه [illegible] أشهد انك لرسول الله حقا ثم قال يارسول الله ان اليهود قوم بهت وان علموا [illegible] قبل ان تسألهم عنى بهتونى عندك فجاءت اليهود فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم أى رجل عبد الله فيكم فقالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا فقال أرأيتم ان أسلم عبد الله فقالوا أعاذه الله من ذلك فخرج عليهم عبد الله فقال أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فقالوا شرنا وابن شرنا وانتقصوه فقال هذا ما كنت أخاف يارسول الله فقال سعد بن أبى وقاص ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاحد يمشى على الارض

بتلك الشرط المتردد بين الوقوع وعدمه عندهم باعتبار ما فى حسب ىن باعتبار حال المعطوف عليه عندهم فان كفرهم به أمر محقق عندهم أيضا وانما ترددهم فى أن ذلك كفر بما من عند الله تعالى أم لا وكذا الحال فى قوله تعالى (وشهد شاهد من بنى اسرائيل) وما بعده من الفعلين ﴿ ٤٩٩ ﴾ فان الكل أمور محققة عندهم وانما ترددهم فى أنها شهادة وايمان بما من عند الله تعالى واستكبار عنه أولا والمعنى أخبرونى ان كان ذلك فى الحقيقة من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد عظيم الشان من بنى اسرائيل الواقفين على شؤن الله تعالى وأسرار الوحى بما أوتوا من التوراة (على مثله) أى مثل القرآن من المعانى المنطوية فى التوراة المطابقة لما فى القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك فانها عين ما فيه فى الحقيقة كما يعرب عنه قوله تعالى وانه لفى زبر الاولين وقوله تعالى ان هذا لفى الصحف الاولى والمثلية باعتبار تأديتها بعبارات أخر أو على مثل ماذكر من كونه من عند الله تعالى والمثلية لما ذكر وقيل المثل صلة والفاء فى قوله تعالى (فآمن) للدلالة على أنه سارع الى الايمان بالقرآن لما علم أنه من جنس الوحى الناطق بالحق وهو عبد الله بن سلام لما سمع بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتاه فنظر الى وجهه الكريم فعلم أنه ليس بوجه كذاب وتأمله فحقق انه النبى المنتظر فقال له انى سائلك عن ثلاث لايعلمهن الا نبى ما أول اشراط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة والولد ينزع الى أبيه

انه من أهل الجنة الا لعبد الله بن سلام وفيه نزل وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله واعلم أن الشعبى ومسروقا وجماعة آخرين أنكروا أن يكون الشاهد المذكور فى هذه الآية هو عبد الله بن سلام قالوا لان اسلامه كان بالمدينة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعامين وهذه السورة مكية فكيف يمكن حمل هذه الآية المكية على واقعة حدثت فى آخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وأجاب الكلبى بأن السورة مكية الا هذه الآية فانها مدنية وكانت الآية تنزل فيؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يضعها فى سورة كذا فهذه الآية نزلت بالمدينة وان الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بان يضعها فى هذه السورة المكية فى هذا الموضع المعين ولقائل أن يقول ان الحديث الذى رويتم عن عبد الله بن سلام مشكل وذلك لان ظاهر الحديث يوهم انه لما سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن المسائل الثلاثة وأجاب النبى صلى الله عليه وسلم بتلك الجوابات آمن عبد الله بن سلام لاجل أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر تلك الجوابات وهذا بعيد جدا لوجهين (الاول) ان الاخبار عن أول اشراط الساعة وعن أول طعام يأكله أهل الجنة اخبار عن وقوع شئ من الممكنات وما هذا سبيله فانه لا يعرف كون ذلك الخبر صدقا الا اذا عرف أولا كون المخبر صادقا فلو عرفنا صدق المخبر بكون ذلك الخبر صدقا لزم الدور وانه محال (الثانى) انا نعلم بالضرورة ان الجوابات المذكورة عن هذه المسائل لا يبلغ العلم بها الى حد الاعجاز البتة بل نقول الجوابات القاهرة عن المسائل الصعبة لما لم تبلغ الى حد الاعجاز فامثال هذه الجوابات عن هذه السؤالات كيف يمكن أن يقال انها بلغت الى حد الاعجاز (والجواب) يحتمل انه جاء فى بعض كتب الانبياء المتقدمين أن رسول آخر الزمان يسأل عن هذه المسائل وهو يجيب عنها بهذه الجوابات وكان عبد الله بن سلام عالما بهذا المعنى فلما سأل النبى صلى الله عليه وسلم وأجاب بتلك الاجوبة عرف بهذا الطريق كونه رسولا حقا من عند الله وعلى هذا الوجه فلا حاجة بنا الى أن نقول العلم بهذه الجوابات معجز والله أعلم (القول الثانى) فى تفسير قوله تعالى وشهد شاهد من بنى اسرائيل انه ليس المراد منه شخصا معينا بل المراد منه ان ذكر محمد صلى الله عليه وسلم موجود فى التوراة والبشارة بمقدمه حاصلة فيها فتقدير الكلام لو أن رجلا منصفا عارفا بالتوراة أقر بذلك واعترف به ثم انه آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وأنكرتم ألستم ظالمين لانفسكم ضالين عن الحق فهذا الكلام مقرر سواء كان المراد بذلك الشاهد شخصا معينا أو لم يكن كذلك لان المقصود الاصلى من هذا الكلام انه ثبت بالمعجزات القاهرة ان هذا الكتاب من عند الله وثبت أن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم ومع هذين الامرين كيف يليق بالعقل انكار نبوته (المسئلة الثالثة) قوله تعالى على مثله ذكروا فيه وجوها والاقرب ان نقول انه صلى الله عليه وسلم قال لهم أرأيتم ان كان هذا القرآن من عند الله كما أقول وشهد شاهد من بنى اسرائيل

أو الى أمه فقال عليه الصلاة والسلام اما أول اشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق الى المغرب وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد حوت وأما الولد فان سبق ماء الرجل نزعه وان سبق ماء المرأة نزعته فقال أشهد أنك رسول الله حقا فقام ثم قال يا رسول الله ان اليهود قوم بهت فان علموا باسلامى قبل أن تسألهم بهتونى عندك فجاءت اليهود فقال لهم النبى عليه الصلاة والسلام أى رجل عبد الله فيكم فقالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا قال أرأيتم ان أسلم عبد الله قالوا أعاذه الله من ذلك فخرج اليهم عبد الله فقال أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فقالوا شرنا وابن شرنا وانتقصوه قال هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر قال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاحد يمشى على الارض انه من أهل الجنة الا لعبد الله بن سلام وفيه نزل وشهد شاهد الآية وقيل الشاهد موسى عليه السلام وشهادته بما فى التوراة من بعثة النبى عليهما الصلاة والسلام وبه قال الشعبى وقال مسروق والله ما نزلت فى عبد الله بن سلام فان آل حم نزلت بمكة وانما أسلم عبد الله بالمدينة وأجاب الكلبى بان الآية مدنية وان كانت السورة مكية (واستكبرتم) عطف على شهد شاهد وجواب الشرط ﴿ على ﴾ محذوف والمعنى أخبرونى ان كان من

عند الله تعالى وشهد على ذلك أعلم بني اسرائيل فآمن به من غير تلعثم واستكبرتم عن الايمان به بعد هذه المرتبة من أضل منكم بقرينة قوله تعالى قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من اضل ممن هو في شقاق بعيد وقوله تعالى (ان الله لايهدى القوم الظالمين) فان عدم الهداية ممايني عن الضلال قطعا ووصفهم بالظلم للاشعار بعلة الحكم فان تركه تعالى لهدايتهم لظلمهم ﴿ ٥٠١ ﴾ (وقال الذين كفروا) حكاية لبعض آخر من أقاويلهم الباطلة في حق القرآن العظيم والمؤمنين به أى قال كفار مكة (للذين آمنوا) أى لاجلهم (لوكان) أى ماجاء به عليه الصلاة والسلام من القرآن والدين (خيرا ماسبقونا اليه) فان معالى الامور لاينالها أيدى الاراذل وهم سقاط عامتهم فقراء وموال ورعاة قالوه زعما منهم أن الرياسة الدينية مماينال بأسباب دنيوية كما قالوا لولانزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وزل عنهم أنها منوطة بكمالات نفسانية وملكات روحانية مبناها الاعراض عن زخارف الدنيا الدنية والاقبال على الآخرة بالكلية وأن من فاز بها فقد حازها بحذافيرها ومن حرمها فاله منها من خلاق وقيل قاله بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع لما أسلم جهينة ومزينة وأسلم وغفار وقيل قالته اليهود حين أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه ويأباه أن السورة مكية ولابد حينئذ من الالتجاء الى ادعاء أن الآية نزلت بالمدينة (واذلم يهتدوا به) ظرف لمحذوف يدل عليه ماقبله ويترتب عليه مابعده أى واذلم يهتدوا بالقرآن قالوا ماقالوا (فسيقولون) غير مكتفين بنفي خيريته (هذا افك قديم) كما قالوا أساطير الاولين وقيل المحذوف ظهر عنادهم وليس بذاك (ومن قبله) أى من قبل القرآن وهو خبر لقوله تعالى (كتاب

على مثل ماقلت فآمن واستكبرتم ألستم كنتم ظالمين أنفسكم ثم قال تعالى ان الله لايهدى القوم الظالمين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تهديد وهو قائم مقام الجواب المحذوف والتقدير قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به فانكم لاتكونون مهتدين بل تكونون ضالين (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة هذه الآية تدل على انه تعالى انما منعهم الهداية بناء على الفعل القبيح الذى صدر منهم أولا فان قوله تعالى ان الله لايهدى القوم الظالمين صريح في انه تعالى لايهديهم لكونهم ظالمين أنفسهم فوجب أن يعتقدوا في جميع الآيات الواردة في المنع من الايمان والهداية أن يكون الحال فيها كما ههنا والله أعلم ثم قال تعالى وقال الذين كفروا للذين آمنوا لوكان خيرا ماسبقونا اليه وفيه مسائل (المسئلة الاولى)هذه شبهة أخرى للقوم في انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفي سبب نزوله وجوه (الاول) ان هذا كلام كفار مكة قالوا ان عامة من يتبع محمدا الفقراء والاراذل مثل عمار وصهيب وابن مسعود ولوكان هذا الدين خيرا ماسبقنا اليه هؤلاء (الثاني) قيل لما أسلمت جهينة ومزينة وأسلم وغفار قالت بنو عامر و غطفان وأسد وأشجع لوكان هذا خيرا ماسبقنا اليه رعاء البهم (الثالث) قيل ان أمة لعمر أسلمت وكان عمر يضربها حتى يفتر و يقول لولا انى فترت لزدتك ضربا فكان كفار قريش يقولون لوكان مايدعو محمد اليه حقا ماسبقتنا اليه فلانة (الرابع) قيل كان اليهود يقولون هذا الكلام عند اسلام عبد الله بن سلام (المسئلة الثانية) اللام في قوله تعالى للذين آمنوا ذكروا فيه وجهين (الاول) أن يكون المعنى وقال الذين كفروا للذين آمنوا على وجه الخطاب كما تقول قال زيد لعمرو ثم تترك الخطاب وتنتقل الى الغيبة كقوله تعالى حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم (الثاني) قال صاحب الكشاف للذين آمنوا لاجلهم يعني ان الكفار قالوا لاجل ايمان الذين آمنوا لوكان خيرا ماسبقونا اليه وعندى فيه وجه ثالث وهو ان الكفار لما سمعوا ان جماعة آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خاطبوا جماعة من المؤمنين الحاضرين وقالوا لهم لوكان هذا الدين خيرا لماسبقنا اليه أولئك الغائبون الذين أسلموا واعلم انه تعالى لماحكى عنهم هذا الكلام أجاب عنه بقوله واذلم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم والمعنى انهم لمالم يقفوا على وجه كونه معجزا فلابد من عامل في الظرف في قوله واذلم يهتدوا به ومن متعلق لقوله فسيقولون وغير مستقيم أن يكون فسيقولون هو العامل في الظرف لتدافع دلالى المضى والاستقبال فاوجه هذا الكلام وأجاب عنه بان العامل في اذ محذوف لدلالة الكلام عليه والتقدير واذلم يهتدوا به ظهر عنادهم فسيقولون هذا افك قديم ثم قال تعالى ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة كتاب موسى مبتدأ ومن قبله ظرف واقع خبرا مقدما عليه وقوله اماما نصب على الحال كقولك في الدار زيد قائما وقرئ ومن قبله كتاب موسى والتقدير وآتينا الذى قبله التوراة ومعنى اماما أى قدوة ورحمة يؤتم به في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالامام ورحمة لمن آمن به

موسى) قيل والجملة حالية أو مستأنفة وأياما كان فهو رد لقولهم هذا افك قديم وابطال له فان كونه مصدقا لكتاب موسى مقرر لحقيته قطعا (اماما ورحمة) حالان من كتاب موسى أي اماما يقتدى به في دين الله تعالى وشرائعه كما يقتدى بالامام ورحمة من الله تعالى لمن آمن به وعمل بموجبه (وهذا) الذي يقولون في حقه ما يقولون (كتاب) عظيم الشان (مصدق) أي لكتاب موسى الذي ﴿ ٥٠٢ ﴾ هو امام ورحمة أو لما بين يديه من جميع الكتب الالهية وقد قرئ كذلك (لسانا عربيا) حال من ضمير الكتاب في مصدق أو من نفسه لتخصصه بالصفة وعاملها معنى الاشارة وعلى الاول مصدق وقيل مفعول لمصدق أي يصدق ذا لسان عربي (لينذر الذين ظلموا) متعلق بمصدق وفيه ضمير الكتاب أو الله أو الرسول عليه الصلاة والسلام ويؤيد الاخير القراءة بتاء الخطاب (وبشرى للمحسنين) في حيز النصب عطفا على محل لينذر وقيل في محل الرفع على أنه خبر مبتدأ مضمر أي وهو بشرى وقيل على أنه عطف على مصدق (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) أي جمعوا بين التوحيد الذي هو خلاصة العلم والاستقامة في أمور الدين التي هي منتهى العمل وثم للدلالة على تراخي رتبة العمل وتوقف الاعتداد به على التوحيد (فلا خوف عليهم) من لحوق مكروه (ولا هم يحزنون) من فوات محبوب والفاء ﴿ في ﴾ لتضمن الاسم معنى الشرط والمراد بيان دوام نفي الحزن لا بيان نفي دوام الحزن كما يوهمه كون الخبر مضارعا وقد مر بيانه مرارا (أولئك) الموصوفون بما ذكر من الوصفين الجليلين (أصحاب الجنة خالدين فيها) حال من المستكن في أصحاب وقوله تعالى (جزاء) منصوب اما بعامل

وعمل بما فيه ووجه تعلق هذا الكلام بما قبله ان القوم طعنوا في صحة القرآن وقالوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه هؤلاء الصعاليك وكأنه تعالى قال الذي يدل على صحة القرآن انكم لا تنازعون في ان الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام وجعل هذا الكتاب اماما يقتدى به ثم ان التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فاذا سلمتم كون التوراة اماما يقتدى به فاقبلوا حكمه في كون محمد صلى الله عليه وسلم حقا من الله ثم قال تعالى وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا أي وهذا القرآن مصدق لكتاب موسى في أن محمدا رسول الله حق من عند الله وقوله تعالى لسانا عربيا نصب على الحال ثم قال لينذر الذين ظلموا قال ابن عباس مشركي مكة وفي قوله لتنذر قراءتان التاء لكثرة ما ورد من هذا المعنى بالمخاطبة كقوله تعالى لتنذر به وذكرى للمؤمنين والياء لتقدم ذكر الكتاب فأسند الانذار الى الكتاب كما أسند الى الرسول وقوله تعالى الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب الى قوله لينذر بأسا شديدا من لدنه ثم قال تعالى وبشرى للمحسنين قال الزجاج الاجود أن يكون قوله وبشرى في موضع رفع والمعنى وهو بشرى للمحسنين قال ويجوز أن يكون في موضع نصب على معنى لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين وحاصل الكلام ان المقصود من انزال هذا الكتاب انذار المعرضين وبشارة المطيعين ✻ قوله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ووصينا الانسان بوالديه احسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي اني تبت اليك واني من المسلمين أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيآتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) اعلم انه تعالى لما قرر دلائل التوحيد والنبوة وذكر شبهات المنكرين وأجاب عنها ذكر بعد ذلك طريقة المحقين والمحققين فقال ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وقد ذكرنا تفسير هذه الكلمة في سورة السجدة والفرق بين الموضعين ان في سورة السجدة ذكر ان الملائكة ينزلون ويقولون ان لا تخافوا ولا تحزنوا وههنا رفع الواسطة من البين وذكر انه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فاذا جمعنا بين الآيتين حصل من مجموعهما ان الملائكة يبلغون اليهم هذه البشارة وان الحق سبحانه يسمعهم هذه البشارة أيضا من غير واسطة واعلم ان هذه الآيات دالة على أن من آمن بالله وعمل صالحا فانهم بعد الحشر لا ينالهم خوف ولا حزن ولهذا قال أهل التحقيق انهم يوم القيامة آمنون من الاهوال وقال بعضهم خوف العقاب زائل عنهم اما خوف الجلال والهيبة فلا يزول البتة عن العبد ألا ترى ان الملائكة مع علو درجاتهم وكمال عصمتهم لا يزول الخوف عنهم فقال تعالى يخافون ربهم من فوقهم وهذه المسئلة سبقت بالاستقصاء

مقدر اي يجزون جزاء او بمعنى ما تقدم فان قوله تعالى أولئك أصحاب الجنة في معنى جازيناهم (بما كانوا يعملون) من الحسنات العلمية والعملية (ووصينا الانسان) بأن يحسن (بوالديه احسانا) وقرئ حسنا اي بأن يفعل بهما حسنا أي فعلا ذا حسن أو كأنه في ذاته نفس الحسن لفرط حسنه وقرئ بضم السين أيضا و بفتحهما اي بان يفعل بهما فعلا حسنا أو وصيناه ايصاء حسنا (حملته أمه كرها ووضعته كرها) أي ذات كره أو حملا ذا كره وهو المشقة وقرئ بالفتح وهما لغتان كالفقر والفقر وقيل المضموم اسم والمفتوح مصدر (وحمله وفصاله) أي مدة حمله وفصاله وهو الفطام وقرئ وفصله والفصل والفصال كالفطم والفطام بناء ومعنى والمراد به الرضاع التام المنتهي به كما أراد بالامد المدة من قال كل حي مستكمل مدة العمر * ومود اذا انتهى أمده (ثلاثون شهرا) تمضي عليها بمعاناة المشاق ومقاساة الشدائد لاجله وهذا دليل على ان أقل مدة الحمل ستة أشهر لما أنه اذا حط عنه للفصال حولان لقوله تعالى حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة يبقى للحمل ذلك قيل ولعل تعيين أقل مدة الحمل وأكثر مدة الرضاع لانضباطهما وتحقق ارتباط النسب والرضاع بهما (حتى اذا بلغ أشده) أي اكتهل واستحكم قوته وعقله (وبلغ أربعين سنة) قيل لم يبعث نبي قبل أربعين وقرئ حتى اذا استوى وبلغ اشده (قال رب أوزعني) أي ألهمني وأصله أولعني من أوزعته بالشيء (أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي) أي نعمة الدين أو ما يعمها وغيرها (وأن أعمل صالحا ترضاه) التنكير للتفخيم والتكثير (وأصلح لي في ذريتي) اي واجعل الصلاح ساريا في ذريتي راسخا فيهم كما في

في آيات كثيرة منها قوله تعالى لا يحزنهم الفزع الاكبر ثم قال تعالى أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون قالت المعتزلة هذه الآية تدل على مسائل (أولها) قوله تعالى أولئك أصحاب الجنة وهذا يفيد الحصر وهذا يدل على أن أصحاب الجنة ليسوا الا الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وهذا يدل على أن صاحب الكبيرة قبل التوبة لا يدخل الجنة (وثانيها) قوله تعالى جزاء بما كانوا يعملون وهذا يدل على فساد قول من يقول الثواب فضل لا جزاء (وثالثها) ان قوله تعالى بما كانوا يعملون يدل على اثبات العمل للعبد (ورابعها) ان هذا يدل على انه يجوز أن يحصل الاثر في حال المؤثر وأي أثر كان موجودا قبل ذلك بدليل أن العمل المتقدم أوجب الثواب المتأخر (وخامسها) كون العبد مستحقا على الله تعالى وأعظم أنواع هذا النوع الاحسان الى الوالدين لا جرم أردفه بهذا المعنى فقال تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا وقد تقدم الكلام في نظير هذه الآية في سورة العنكبوت في سورة لقمان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بوالديه احسانا والباقون حسنا واعلم أن الاحسان خلاف الاساءة والحسن خلاف القبح فمن قرأ احسانا فحجته قوله تعالى في سورة بني اسرائيل وبالوالدين احسانا والمعنى أمرناه بأن يوصل اليهما احسانا وحجة القراءة الثانية قوله تعالى في العنكبوت ووصينا الانسان بوالديه حسنا ولم يختلفوا فيه والمراد أيضا أنا أمرناه بان يوصل اليهما فعلا حسنا الا انه سمي ذلك الفعل الحسن بالحسن على سبيل المبالغة كما يقال هذا الرجل علم وكرم وانتصب حسنا على المصدر لان معنى ووصينا الانسان بوالديه أمرناه أن يحسن اليهما احسانا ثم قال تعالى حملته أمه كرها ووضعته كرها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي كرها بضم الكاف والباقون بفتحها قيل هما لغتان مثل الضعف والضعف والفقر والفقر ومن غير المصادر الدف والدف والشهد والشهد قال الواحدي الكره مصدر من كرهت الشيء أكرهه والكره الاسم كأنه الشيء المكروه قال تعالى كتب عليكم القتال وهو كره لكم فهذا بالضم وقال ان ترثوا النساء كرها فهذا موضع الحال ولم يقرأ الثانية بغير الفتح فما كان مصدرا أو في موضع الحال فالفتح فيه أحسن وما كان اسما نحو ذهبت به على كره كان الضم فيه أحسن (المسئلة الثانية) قال المفسرون حملته أمه على مشقة ووضعته في مشقة وليس يريد ابتداء الحمل فان ذلك لا يكون مشقة وقد قال تعالى فلما تغشاها حملت حملا خفيفا يريد ابتداء الحمل فان ذلك لا يكون مشقة فالحمل نطفة وعلقة ومضغة فاذا أثقلت فحينئذ حملته كرها ووضعته كرها يريد شدة الطلق (المسئلة الثالثة) دلت الآية على أن حق الام أعظم لانه تعالى قال أولا ووصينا الانسان بوالديه حسنا فذكرهما معا ثم خص الام بالذكر فقال حملته أمه كرها ووضعته كرها وذلك يدل على أن حقها أعظم وان وصول المشاق اليها بسبب الولد أكثر والاخبار كثيرة مذكورة في هذا الباب ثم قال تعالى وحمله وفصاله ثلاثون شهرا

قوله يجرح في مراقيها نصلي قال ابن عباس اجاب الله تعالى دعاء ابي بكر رضي الله عنهم فاعتق تسعة من المؤمنين
منهم بلال وعامر بن فهيرة ولم يرد شيئا من الخير الا اعانه الله تعالى عليه ودعا ايضا فقال وأصلح لي في ذريتي فأجابه الله
عز وجل فلم يكن له ولد الا آمنوا جميعا فاجتمع له اسلام أبويه واولاده جميعا فأدرك ابوه أبو قحافة
رسول الله صلى الله
عليه وسلم وابنه عبد
الرحمن بن ابي بكر وابن
عبد الرحمن ابو عتيق
كلهم ادركوا النبي
عليه الصلاة والسلام
ولم يكن ذلك لاحد
من الصحابة رضوان الله
تعالى عليهم اجمعين
(اني تبت اليك) عما
لا ترضاه أو عما يشغلني
عن ذكرك (واني
من المسلمين) الذين
اخلصوا لك انفسهم
(أولئك) اشارة الى
الانسان والجمع لان
المراد به الجنس المتصف
بالوصف المحكي عنه وما
فيه من معنى البعد للاشعار
بعلو رتبته وبعد منزلته
اي اولئك المنعوتون
بما ذكر من النعوت
الجليلة (الذين نتقبل
عنهم احسن ما عملوا)
من الطاعات فان المباح
حسن ولا يثاب عليه
(ونتجاوز عن سيئاتهم)
وقرئ الفعلان بالياء
على اسنادهما الى الله
تعالى وعلى بنائهما
للمفعول ورفع احسن
على انه قائم مقام الفاعل
وكذا الجار والمجرور (في أصحاب الجنة) أي كائنين في عدادهم منتظمين في سلكهم (وعد الصدق) مصدر ﴿ التي ﴾
مؤكد لما أن قوله تعالى نتقبل ونتجاوز وعد من الله تعالى لهم بالتقبل والتجاوز (الذي كانوا يوعدون) على ألسنة الرسل

وفيه مسائل (المسألة الاولى) هذا من باب حذف المضاف والتقدير ومدة حمله ومدة فصاله
ثلاثون شهرا والفصال الفطام وهو فصله عن اللبن فان قيل المراد بيان مدة الرضاعة
لا الفطام فكيف عبر عنه بالفصال قلنا لما كان الرضاع يليه الفصال ويلائمه لانه ينتهي
ويتم به سمي فصالا (المسألة الثانية) دلت الآية على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لانه
لما كان مجموع مدة الحمل والرضاع ثلاثون شهرا قال والوالدات يرضعن أولادهن حولين
كاملين فاذا أسقطت الحولين الكاملين وهي أربعة وعشرون شهرا من الثلاثين بقي أقل
مدة الحمل ستة أشهر روي عن عمر ان امرأة رفعت اليه وكانت قد ولدت لستة أشهر فأمر
برجمها فقال علي لا رجم عليها وذكر الطريق الذي ذكرناه وعن عثمان أنه هم بذلك فقرأ ابن
عباس عليه ذلك واعلم ان العقل والتجربة يدلان أيضا على ان الامر كذلك قال أصحاب
التجارب ان لتكوين الجنين زمانا مقدرا فاذا تضاعف ذلك الزمان تحرك الجنين فاذا
انضاف الى ذلك المجموع مثلاه انفصل الجنين عن الام فلنفرض أنه يتم خلقه في ثلاثين
يوما فاذا تضاعف ذلك الزمان حتى صار ستين تحرك الجنين فاذا تضاعف الى هذا المجموع
مثلاه وهو مائة وعشرون حتى صار المجموع مائة وثمانين وهو ستة أشهر فحينئذ ينفصل
الجنين فلنفرض أنه يتم خلقه في خمسة وثلاثين يوما فيتحرك في سبعين يوما فاذا انضاف
اليه مثلاه وهو مائة وأربعون يوما صار المجموع مائتين وعشرة أيام وهو سبعة أشهر
انفصل الولد ولنفرض أنه يتم خلقه في أربعين يوما فيتحرك في ثمانين يوما فينفصل عند
مائتين وأربعين يوما وهو ثمانية أشهر ولنفرض انه تمت الخلقة في خمسة وأربعين يوما
فيتحرك في تسعين يوما فينفصل عند مائتين وسبعين يوما وهو تسعة أشهر فهذا هو الضبط
الذي ذكره أصحاب التجارب قال جالينوس اني كنت شديد التفحص عن مقادير ازمنة
الحمل فرأيت امرأة ولدت في المائة والاربع والثمانين ليلة وزعم أبو علي بن سينا انه شاهد
ذلك فقد صار أقل مدة الحمل بحسب نص القرآن وبحسب التجارب الطبية شيئا واحدا
وهو ستة أشهر واما اكثر مدة الحمل فليس في القرآن ما يدل عليه قال أبو علي بن سينا
في الفصل السادس من المقالة التاسعة من عنوان الشفاء بلغني من حيث وثقت به كل
الثقة ان امرأة وضعت بعد الرابع من سني الحمل ولدا قد نبتت اسنانه وعاش وحكي عن
ارسطاطاليس انه قال أزمنة الولادة وحبل الحيوان مضبوطة سوى الانسان فربما
وضعت الحبلى لسبعة أشهر وربما وضعت في الثامن وقلما يعيش المولود في الثامن الا في
بلاد معينة مثل مصر والغالب هو الولادة بعد التاسع قال أهل التجارب والذي قلناه من
انه اذا تضاعف زمان التكوين تحرك الجنين واذا انضم الى المجموع مثلاه انفصل الجنين
انما قلناه بحسب التقريب لا بحسب التحديد فانه ربما زاد ونقص بحسب الايام لانه لم
يقم على هذا الضبط برهان انما هو تقريب ذكروه بحسب التجربة والله أعلم ثم قالوا المدة

التي فيها تتم خلقة الجنين تنقسم الى أقسام (فأولها) ان الرحم اذا اشتملت على المني ولم تقذفه الى الخارج استدار المني على نفسه منحصرا الى ذاته وصار كالكرة ولما كان من شأن المني أن يفسده الحركات لاجرم يثخن في هذا الوقت وبالحري أن خلق المني من مادة تجف بالحر اذا كان الغرض منه تكون الحيوان واستحصاف أجزائه و يصير المني زبدا في اليوم السادس (وثانيها) ظهور النقط الثلاثة الدموية فيه (احداها) في الوسط وهو الموضع الذي اذا تمت خلقته كان قلبا (والثاني) فوق وهو الدماغ (والثالث) على اليمين وهو الكبد ثم ان تلك النقط تتباعد ويظهر فيما بينها خيوط حمر وذلك يحصل بعد ثلاثة أيام اخرى فيكون المجموع تسعة أيام (وثالثها) ان تنفذ الدموية في الجميع فيصير علقة وذلك بعد ستة أيام أخرى حتى يصير المجموع خمسة عشر يوما (ورابعها) أن يصير لحما وقد تميزت الاعضاء الثلاثة وامتدت رطوبة النخاع وذلك انما يتم باثني عشر يوما فيكون المجموع سبعة وعشرين يوما (وخامسها) أن ينفصل الرأس على المنكبين والاطراف عن الضلوع والبطن يميز الحس في بعض ويخفى في بعض وذلك يتم في تسعة أيام أخرى فيكون المجموع ستة وثلاثين يوما (وسادسها) أن يتم انفصال هذه الاعضاء بعضها عن بعض ويصير بحيث يظهر ذلك الحس ظهورا بينا وذلك يتم في أربعة أيام أخرى فيكون المجموع أربعين يوما وقد يتأخر الى خمسة وأربعين يوما قال والاقل هو الثلاثون فصارت هذه التجارب الطبية مطابقة لما أخبر عنه الصادق المصدوق في قوله صلى الله عليه وسلم يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوما قال صاحب التجارب واذا سقط بعد الاربعين اذا شق عنه السلالة ووضع في الماء البارد ظهر شيء صغير متميز الاطراف (المسئلة الثالثة) هذه الآية دلت على أقل مدة الحمل وعلى أكثر مدة الرضاع اما انها تدل على أقل مدة الحمل فقد بيناه واما انها تدل على أكثر مدة الرضاع فلقوله تعالى والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة والفقهاء ربطوا بهذين الضابطين أحكاما كثيرة في الفقه وأيضا فاذا ثبت ان أقل مدة الحمل هو الاشهر الستة فبتقدير أن تأتي المرأة بالولد في هذه الاشهر يبقى جانبها مصونا على تهمة الزنا والفاحشة وبتقدير أن يكون أكثر مدة الرضاع ماذكرناه فاذا حصل الرضاع بعد هذه المدة لايترتب عليها أحكام الرضاع فتبقى المرأة مستورة عن الاجانب وعند هذا يظهر ان المقصود من تقدير أقل الحمل ستة أشهر وتقدير أكثر الرضاع حولين كاملين السعي في دفع المضار والفواحش وأنواع التهمة عن المرأة فسبحان من له تحت كل كلمة من هذا الكتاب الكريم أسرار عجيبة ونفائس لطيفة تعجز العقول عن الاحاطة بكمالها وروى الواحدي في البسيط عن عكرمة أنه قال اذا حملت تسعة أشهر أرضعته أحدا وعشرين شهرا واذا حملت ستة أشهر أرضعته أربعة وعشرين شهرا والصحيح ماقدمناه ثم قال تعالى حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى

(والذي قال لوالديه) عند دعوتهما له الى الايمان (أف لكما) هو صوت يصدر عن المرء عند تضجره واللام لبيان المؤفف له كما في هيت لك وقرئ أف بالفتح والكسر بغير تنوين وبالحركات الثلاث مع التنوين والموصول عبارة عن الجنس القائل ذلك القول ولذلك أخبر عنه بالمجموع كما سبق قيل هو في الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث وعن

والدى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلف المفسرون فى تفسير الاشد قال ابن عباس فى رواية عطاء يريد ثمانى عشرة سنة والاكثرون من المفسرين على انه ثلاثة وثلاثون سنة واحتج الفراء عليه بأن قال ان الاربعين أقرب فى النسق الى ثلاث وثلاثين منها الى ثمانية عشر ألا ترى انك تقول أخذت عامة المال أوكله فيكون أحسن من قولك أخذت أقل المال أوكله ومثله قوله تعالى ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه فبعض هذه الاقسام قريب من بعض فكذا ههنا وقال الزجاج الاولى حمله على ثلاث وثلاثين سنة لان هذا الوقت الذى يكمل فيه بدن الانسان وأقول تحقيق الكلام فى هذا الباب أن يقال ان مراتب سن الحيوان ثلاثة وذلك لان بدن الحيوان لا يتكون الا برطوبة غريزية وحرارة غريزية ولا شك ان الرطوبة الغريزية غالبة فى أول العمر وناقصة فى آخر العمر والانتقال من الزيادة الى النقصان لا يعقل حصوله الا اذا حصل الاستواء فى وسط هاتين المدتين فثبت ان مدة العمر منقسمة الى ثلاثة أقسام (أولها) ان تكون الرطوبة الغريزية زائدة على الحرارة الغريزية وحينئذ تكون الاعضاء قابلة للتمدد فى ذواتها وللزيادة بحسب الطول والعرض والعمق وهذا هو سن النشو والنماء (والمرتبة الثانية) وهى المرتبة المتوسطة أن تكون الرطوبة الغريزية وافية بحفظ الحرارة الغريزية من غير زيادة ولا نقصان وهذا هو سن الوقوف وهو سن الشباب (والمرتبة الثالثة) وهى المرتبة الاخيرة أن تكون الرطوبة الغريزية ناقصة عن الوفاء بحفظ الحرارة الغريزية ثم هذا النقصان على قسمين (فالاول) هو النقصان الخفى وهو سن الكهولة (والثانى) هو النقصان الظاهر وهو سن الشيخوخة فهذا ضبط معلوم ثم ههنا مقدمة أخرى وهى ان دور القمر انما يكمل فى مدة ثمانية وعشرين يوما وشئ فاذا قسمنا هذه المدة بأربعة أقسام كان كل قسم منها سبعة فلهذا السبب قدروا الشهر بالاسابيع الاربعة ولهذه الاسابيع تأثيرات عظيمة فى اختلاف أحوال هذا العالم اذا عرفت هذا فنقول ان المحققين من أصحاب التجارب قسموا مدة سن النماء والنشو الى أربعة أسابيع ويحصل للآدمى بحسب انتهاء كل سابوع من هذه السوابيع الاربعة نوع من التغير يؤدى الى كماله اما عند تمام السابوع الاول من العمر فتصلب أعضاؤه بعض الصلابة وتقوى افعاله أيضا بعض القوة وتتبدل اسنانه الضعيفة الواهية باسنان قوية وتكون قوة الشهوة فى هذا السابوع أقوى فى الهضم مما كان قبل ذلك واما فى نهاية السابوع الثانى فتقوى الحرارة وتقل الرطوبات وتتسع المجارى وتقوى قوة الهضم وتقوى الاعضاء وتصلب قوة وصلابة كافية ويتولد فيه مادة الزرع وعند هذا يحكم الشرع عليه بالبلوغ على قول الشافعى رضى الله عنه وهذا هو الحق الذى لا محيد عنه لان هذا الوقت لما قويت الحرارة الغريزية قلت الرطوبات واعتدل الدماغ فتكمل القوى النفسانية التى هى الفكر والذكر فلا جرم يحكم عليه بكمال العقل فلا جرم حكمت

قتادة هو نعت عبد سوء عاق والديه فاجر لربه وماروى من أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما قبل اسلامه يرده ما سيأتى من قوله تعالى اولئك الذين حق عليهم القول الآية فانه كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم وقد كذبت الصديقة رضى الله عنها من قال ذلك (أتعداننى أن أخرج) أبعث من القبر بعد الموت وقرئ أخرج من الخروج (وقد خلت القرون من قبلى) ولم يبعث

الشريعة بالبلوغ وتوجه التكاليف الشرعية فأحسن قول من ضبط البلوغ الشرعى بخمس عشرة سنة واعلم انه يتفرع على حصول هذه الحالة أحوال فى ظاهر البدن (أحدها) انفراق طرف الارنبة لان الرطوبة الغريزية التى هناك تنتقص فيظهر الانفراق (وثانيها) نتوء الحنجرة وغلظ الصوت لان الحرارة التى تنهض فى ذلك الوقت توسع الحنجرة فتنتوء ويغلظ الصوت (وثالثها) تغير ريح الابط وهى الفضلة العفنية التى يدفعها القلب الى ذلك الموضع وذلك لان القلب لما قويت حرارته لاجرم قويت على انضاج المادة ودفعها الى اللحم الغددى الرخو الذى فى الابط (ورابعها) نبات الشعر وحصول الاحتلام وكل ذلك لان الحرارة قويت فقدرت على توليد الابخرة المولدة للشعر وعلى توليد مادة الزرع وفى هذا الوقت تتحرك الشهوة فى الصبايا وينهد ثديهن وينزل حيضهن وكل ذلك بسبب ان الحرارة الغريزية التى فيهن قويت فى آخر هذا السابوع وأما فى السابوع الثالث فيدخل فى حد الكمال وينبت للذكر اللحية ويزداد حسنه وكماله وأما فى السابوع الرابع فلا تزال هذه الاحوال فيه متكاملة متزايدة وعند انتهاء السابوع الرابع نهاية أن لا يظهر الازدياد اما مده من الشباب وهى مدة الوقوف فسابوع واحد فيكون المجموع خمسة وثلاثين سنة ولما كانت هذه المدة اما قد تزداد واما قد تنقص بحسب الامزجة جعل الغاية فيه مدة أربعين سنة هذا هو السن الذى يحصل فيه الكمال اللائق بالانسان شرعا وطبا فان فى هذا الوقت يسكن أفعال القوى الطبيعية بعض السكون وتنتهى له أفعال القوة الحيوانية غايتها وتبتدئ أفعال القوة النفسانية بالقوة والكمال واذا عرفت هذه القسمة ظهر ان بلوغ الانسان وقت الاشد شئ وبلوغه الى الاربعين شئ آخر فان بلوغه الى وقت الاشد عبارة عن الوصول الى آخر سن النشو والنماء وأن بلوغه الى الاربعين عبارة عن الوصول الى آخر مدة الشباب ومن ذلك الوقت تأخذ القوى الطبيعية والحيوانية فى الانتقاص وتأخذ القوة العقلية والنطقية [illegible] وهذا أحد ما يدل على ان النفس غير البدن فان البدن عند الاربعين يأخذ فى الانتقاص والنفس من وقت الاربعين تأخذ فى الاستكمال ولو كانت النفس عين البدن لحصل للشئ الواحد فى الوقت الواحد الكمال والنقصان وذلك محال وهذا الكلام الذى ذكرناه ولخصناه مذكور فى صريح لفظ القرآن لانا بينا ان عند الاربعين تنتهى الكمالات الحاصلة بسبب القوى الطبيعية والحيوانية وأما الكمالات الحاصلة بحسب القوى النطقية والعقلية فانها تبتدئ بالاستكمال والدليل عليه قوله تعالى حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى فهذا يدل على ان توجه الانسان الى عالم العبودية والاشتغال بطاعة الله انما يحصل من هذا الوقت وهذا تصريح بان القوة النفسانية العقلية النطقية انما تبتدئ بالاستكمال من هذا الوقت فسبحان من أودع فى هذا الكتاب الكريم هذه الاسرار الشريفة

منهم أحد (وهما يستغيثان الله) يسألانه أن يغيثه ويوفقه للايمان (ويلك) أى قائلين له ويلك وهو فى الاصل دعاء عليه بالثبور أريد به الحث والتحريض على الايمان لا حقيقة الهلاك (آمن ان وعد الله حق) أى البعث أضافاه اليه تعالى تحقيقا للحق وتنبيها على خطئه فى اسناد الوعد اليهما وقرئ أن وعد الله أى آمن بأن وعد الله حق (فيقول) مكذبا لهما

المقدسة قال المفسرون لم يبعث نبي قط الا بعد أربعين سنة وأقول هذا مشكل بعيسى عليه السلام فان الله جعله نبيا من أول عمره الا انه يجب أن يقال الاغلب أنه ماجاءه الوحي الا بعد الاربعين وهكذا كان الامر في حق رسولنا صلى الله عليه وسلم ويروى ان عمر بن عبد العزيز لما بلغ أربعين سنة كان يقول اللهم أوزعني أن أشكر نعمتك الى تمام الدعاء وروى انه جاء جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يوماً الحافظان أنا ارفقا بعبدي من حداثة سنه حتى اذا بلغ الاربعين قبل احفظا وحققا فكان راوي هذا الحديث اذا ذكر هذا الحديث بكى حتى تبتل لحيته رواه القاضي في التفسير (المسئلة الثانية) اعلم ان قوله تعالى حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة يدل على ان الانسان كالمحتاج الى مراعاة الوالدين الى قريب من هذه المدة وذلك لان العقل كالناقص فلا بد له من رعاية الابوين على رعاية المصالح ودفع الآفات وفيه تنبيه على ان نعم الوالدين على الولد بعد دخوله في الوجود تمتد الى هذه المدة الطويلة وذلك يدل على ان نعم الوالدين كأنه يخرج عن وسع الانسان مكافأتها الا بالدعاء والذكر الجميل (المسئلة الثالثة) حكى الواحدي عن ابن عباس وقوم كثير من متأخري المفسرين ومتقدميهم أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه قالوا والدليل عليه ان الله تعالى قد وقت الحمل والفصال ههنا بمقدار يعلم انه قد ينقص وقد يزيد عنه بسبب اختلاف الناس في هذه الاحوال فوجب أن يكون المقصود منه شخصا واحدا حتى يقال ان هذا التقدير اخبار عن حاله فيمكن ان يكون أبو بكر كان حمله وفصاله هذا القدر ثم قال تعالى في صفة ذلك الانسان حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني ان اشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ومعلوم انه ليس كل انسان يقول هذا القول فوجب أن يكون المراد من هذه الآية انسانا معينا قال هذا القول واما أبو بكر فقد قال هذا القول في قريب من هذا السن لانه كان أقل سنا من النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين وشيء والنبي صلى الله عليه وسلم بعث عند الاربعين وكان أبو بكر قريبا من الاربعين وهو قد صدق النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به فثبت بما ذكرناه ان هذه الآيات صالحة لان يكون المراد منها أبو بكر واذا ثبت القول بهذه الصلاحية فنقول ندعي انه هو المراد من هذه الآية ويدل عليه انه تعالى قال في آخر هذه الآية اولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيآتهم في أصحاب الجنة وهذا يدل على ان المراد من هذه الآية افضل الخلق لان الذي يتقبل الله عنه أحسن أعماله ويتجاوز عن كل سيآته يجب أن يكون من أفاضل الخلق وأكابرهم واجمعت الامة على ان أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اما أبو بكر واما علي ولا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية علي بن أبي طالب رضي الله عنه لان هذه الآية انما تليق بمن أتى بهذه الكلمة عند بلوغ الاشد وعند القرب من الاربعين وعلي بن ابي طالب ما كان كذلك لانه انما آمن في زمان الصبا اوعند القرب من

(ما هذا) الذي تسميانه وعد الله (الا أساطير الاولين) أباطيلهم التي سطروها في الكتب من غير أن يكون لها حقيقة (أولئك) القائلون هذه المقالات الباطلة (الذين حق عليهم القول) وهو قوله تعالى لابليس لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين كما ينبئ عنه قوله تعالى (في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس) وقد مر تفصيله في سورة ألم السجدة

الصبا فثبت ان المراد من هذه الآية هو أبو بكر والله أعلم (المسئلة الرابعة) قوله تعالى أوزعني قال ابن عباس معناه ألهمني قال صاحب الصحاح أوزعته بالشئ أغريته به فاوزع به فهو موزع به أي مغرى به واستوزعت الله شكره فاوزعني أي استلهمته فالهمني (المسئلة الخامسة) اعلم انه تعالى حكى عن هذا الداعي انه طلب من الله تعالى ثلاثة أشياء (أحدها) ان يوفقه الله للشكر على نعمه (والثاني) ان يوفقه للاتيان بالطاعة المرضية عند الله (والثالث) أن يصلح له في ذريته وفي ترتيب هذه الاشياء الثلاثة على الوجه المذكور وجهان (الاول) انا بينا ان مراتب السعادات ثلاثة أكملها النفسانية وأوسطها البدنية وأدونها الخارجية والسعادات النفسانية هي اشتغال القلب بشكر آلاء الله ونعمائه والسعادات البدنية هي اشتغال البدن بالطاعة والخدمة والسعادات الخارجية هي سعادة الاهل والولد فلما كانت المراتب محصورة في هذه الثلاثة لاجرم رتبها الله تعالى على هذا الوجه (والسبب الثاني) لرعاية هذا الترتيب أنه تعالى قدم الشكر على العمل لان الشكر من أعمال القلوب والعمل من أعمال الجوارح وعمل القلب أشرف من عمل الجارحة وأيضا المقصود من الاعمال الظاهرة أحوال القلب قال تعالى وأقم الصلاة لذكري بين ان الصلاة مطلوبة لاجل انها تفيد الذكر فثبت ان اعمال القلوب أشرف من أعمال الجوارح والاشرف يجب تقديمه في الذكر وأيضا الاشتغال بالشكر اشتغال بقضاء حقوق النعم الماضية والاشتغال بالطاعة الظاهرة اشتغال بطلب النعم المستقبلة وقضاء الحقوق الماضية يجري مجرى قضاء الدين وطلب المنافع المستقبلة طلب الزوائد ومعلوم ان قضاء الدين مقدم على سائر المهمات فلهذا السبب قدم الشكر على سائر الطاعات وأيضا أنه قدم طلب التوفيق على الشكر وطلب التوفيق على الطاعة على طلب أن يصلح له ذريته وذلك لان المطلوبين الاولين اشتغال بالتعظيم لامر الله والمطلوب الثالث اشتغال بالشفقة على خلق الله ومعلوم ان التعظيم لامر الله يجب تقديمه على الشفقة على خلق الله (المسئلة السادسة) قال أصحابنا ان العبد طلب من الله تعالى أن يلهمه الشكر على نعم الله وهذا يدل على انه لايتم شئ من الطاعات والاعمال الا باعانة الله تعالى ولو كان العبد مستقلا بافعاله لكان هذا الطلب عبثا وأيضا المفسرون قالوا المراد من قوله أوزعني ان أشكر نعمتك التي أنعمت علي هو الايمان أو الايمان يكون داخلا فيه والدليل عليه قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم والمراد صراط الذين أنعمت عليهم بنعمة الايمان واذا ثبت هذا فنقول العبد يشكر الله على نعمة الايمان فلو كان الايمان من العبد لامن الله لكان ذلك شكر الله تعالى على فعله لاعلى فعل غيره وذلك قبيح لقوله تعالى ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فان قيل فهب أن يشكر الله على ما أنعم به عليه فكيف يشكره على النعم التي أنعم بها على والديه وانما يجب على الرجل أن يشكر ربه على مايصل اليه من النعم قلنا كل نعمة وصلت من الله تعالى الى

(انهم) جميعا (كانوا خاسرين) قد ضيعوا فطرتهم الاصلية الجارية مجرى رؤس أموالهم باتباعهم الشيطان والجملة تعليل للحكم بطريق الاستئناف التحقيقي (ولكل) من الفريقين المذكورين (درجات مما عملوا) مراتب من أجزية ماعملوا من الخير والشر والدرجات المثوبة وايرادها ههنا بطريق التغليب (وليوفيهم أعمالهم) أي

والديه فقد وصل منها أثر اليه فلذلك وصاه الله تعالى على ان يشكر ربه على الامرين (وأما المطلوب الثانى) من المطالب المذكورة فى هذا الدعاء فهو قوله وأن اعمل صالحا ترضاه واعلم ان الشئ الذى يعتقد الانسان فيه كونه صالحا على قسمين (أحدهما) الذى يكون صالحا عنده و يكون صالحا عند الله تعالى (والثانى) الذى يظنه صالحا ولكنه لا يكون صالحا عند الله تعالى فلما قسم الصالح فى ظنه الى هذين القسمين طلب من الله أن يوفقه لان يأتى بعمل صالح يكون صالحا عند الله و يكون مرضيا عند الله (والمطلوب الثالث) من المطالب المذكورة فى هذه الآية قوله تعالى وأصلح لى فى ذريتى لان ذلك من أجل نعم الله على الوالد كما قال ابراهيم عليه السلام واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام فان قيل ما معنى فى فى قوله وأصلح لى فى ذريتى قلنا تقدير الكلام هب لى الصلاح فى ذريتى واوقعه فيهم واعلم انه تعالى لما حكى عن ذلك الداعى انه طلب هذه الاشياء الثلاثة قال بعد ذلك انى تبت اليك وانى من المسلمين والمراد ان الدعاء لا يصح الامع التوبة والامع كونه من المسلمين فتبين أنى انما أقدمت على هذا الدعاء بعد أن تبت اليك من الكفر ومن كل قبيح و بعد أن دخلت فى الاسلام والانقياد لامر الله تعالى وقضائه و علم ان الذين قالوا ان هذه الآية نزلت فى أبى بكر قالوا ان أبا بكر أسلم والداه ولم يتفق لاحد من الصحابة والمهاجرين اسلام الابوين الا له فابوه أبو قحافة عثمان بن عمرو وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو وقوله وأن اعمل صالحا ترضاه قال ابن عباس فاجابه الله اليه فاعتق تسعة من المؤمنين يعذبون فى الله منهم بلال وعامر بن فهيرة ولم يرد شيأ من الخير الا اعانه الله عليه ودعا أيضا فقال وأصلح لى فى ذريتى قال ابن عباس لم يبق لابى بكر ولد من الذكور والاناث الا وقد آمنوا ولم يتفق لاحد من الصحابة أن أسلم أبواه وجميع أولاده الذكور والاناث الا لابى بكر ثم قال تعالى أولئك أى أهل هذا القول الذين نتقبل عنهم قرئ بضم الياء على بناء الفعل للمفعول وقرئ بالنون المفتوحة وكذلك نتجاوز وكلاهما فى المعنى واحد لان الفعل وان كان مبنيا للمفعول فمعلوم انه لله سبحانه فهو كقوله يغفر لهم ما قد سلف فبين تعالى بقوله أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا أن من تقدم ذكره ممن يدعو بهذا الدعاء و يسلك هذه الطريقة التى تقدم ذكرها نتقبل عنهم والتقبل من الله هو ايجاب الثواب له على عمله فان قيل ولم قال تعالى أحسن ما عملوا والله يتقبل الاحسن وما دونه قلنا الجواب من وجوه (الاول) المراد بالاحسن الحسن كقوله تعالى واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم وكقولهم الناقص والاشج اعدلا بنى مروان أى عادلا بنى مروان (الثانى) ان الحسن من الاعمال هو المباح الذى لا يتعلق به ثواب ولا عقاب والاحسن ما يغاير ذلك وهو كل ما كان مندوبا او واجبا ثم قال تعالى ونتجاوز عن سيأتهم والمعنى انه تعالى يتقبل طاعاتهم ويتجاوز عن سيأتهم ثم قال فى أصحاب الجنة قال صاحب الكشاف ومعنى هذا الكلام مثل قولك أكرمنى الامير فى مائتين من أصحابه

أجزية أعمالهم وقرئ بنون العظمة (وهم لا يظلمون) بنقص ثواب الاولين وزيادة عقاب الآخرين والجملة اما حال مؤكدة للتوفية أو استئناف مقرر لها واللام متعلقة بمحذوف مؤخر كأنه قيل وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم فعل ما فعل من تقدير الاجزية على مقادير أعمالهم فجعل الثواب درجات والعقاب دركات (ويوم يعرض

يريد أكرمني في جملة من أكرم منهم وضمني في عدادهم ومحله النصب على الحال على معنى كائنين في أصحاب الجنة ومعدودين منهم وقوله وعد الصدق مصدر مؤكد لأن قوله نتقبل ونتجاوز وعد من الله لهم بالتقبل والتجاوز والمقصود بيان أنه تعالى يعامل من صفته ماقدمناه بهذا الجزاء وذلك وعد من الله تعالى فبين انه صدق ولا شك فيه * قوله تعالى (والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن ان وعد الله حق فيقول ماهذا الا أساطير الاولين أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لايظلمون ويوم يعرض الذين كفروا على النار اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) اعلم انه تعالى لما وصف الولد البار بوالديه في الآية المتقدمة وصف الولد العاق لوالديه في هذه الآية فقال والذي قال لوالديه أف لكما وفي هذه الآية قولان (الاول) انها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قالوا كان أبواه يدعوانه الى الاسلام فيأبى وهو قوله أف لكما واحتج القائلون بهذا القول على صحته بانه لما كتب معاوية الى مروان بان يبايع الناس ليزيد قال عبد الرحمن بن أبي بكر لقد جئتم بها هرقلية أتبايعون لابنائكم فقال مروان ياأيها الناس هو الذي قال الله فيه والذي قال لوالديه أف لكما (والقول الثاني) انه ليس المراد منه شخص معين بل المراد منه كل من كان موصوفا بهذه الصفة وهو كل من دعاه أبواه الى الدين الحق فأباه وأنكره وهذا القول هو الصحيح عندنا ويدل عليه وجوه (الاول) انه تعالى وصف هذا الذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني بقوله أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين ولا شك ان عبد الرحمن آمن وحسن اسلامه وكان من سادات المسلمين فبطل حمل الآية عليه فان قالوا روى انه لما دعاه أبواه الى الاسلام وأخبراه بالبعث بعد الموت قال أتعدانني أن أخرج من القبر يعني أبعث بعد الموت وقد خلت القرون من قبلي يعني الامم الخالية فلم أر أحدا منهم بعث فأين عبد الله بن جدعان وأين فلان وفلان اذا عرفت هذا فنقول قوله أولئك الذين حق عليهم القول المراد هؤلاء الذين ذكرهم عبد الرحمن من المشركين الذين ماتوا قبله وهم الذين حق عليهم القول وبالجملة فهو عائد الى المشار اليهم بقوله وقد خلت القرون من قبلي لا الى المشار اليه بقوله والذي قال لوالديه أف لكما هذا ماذكره الكلبي في دفع ذلك الدليل وهو حسن (والوجه الثاني) في ابطال ذلك القول ماروى ان مروان لما خاطب عبد الرحمن ابن أبي بكر بذلك الكلام سمعت عائشة ذلك فغضبت وقالت والله ماهو به ولكن الله لعن أباك وانت في صلبه (الوجه الثالث) وهو الاقوى أن يقال انه تعالى وصف الولد البار

الذين كفروا على النار) أي يعذبون بها من قولهم عرض الاسارى على السيف أي قتلوا وقيل تعرض النار عليهم بطريق القلب مبالغة (أذهبتم طيباتكم) أي يقال لهم ذلك وهو الناصب للظرف وقرئ أأذهبتم بهمزتين وبألف بينهما على الاستفهام التوبيخي أي أصبتم وأخذتم ما كتب لكم من حظوظ الدنيا ولذائذها (في حياتكم الدنيا

بأبويه في الآية المتقدمة ووصف الولد العاق لابويه في هذه الآية وذكر من صفات ذلك الولد انه بالغ في العقوق الى حيث لما دعاه أبواه الى الدين الحق وهو الاقرار بالبعث والقيامة أصر على الانكار وأبى واستكبر وعول في ذلك الانكار على شبهات خسيسة وكلمات واهية واذا كان كذلك كان المراد كل ولد اتصف بالصفات المذكورة ولا حاجة البتة الى تخصيص اللفظ المطلق بشخص معين قال صاحب الكشاف قرئ أف بالفتح والكسر بغير تنوين وبالحركات الثلاث مع التنوين وهو صوت اذا صوت به الانسان علم انه متضجر كما اذا قال حس علم انه متوجع واللام للبيان معناه هذا التأفيف لكما خاصة ولاجلكما دون غيركما وقرئ أتعدانني بنونين وأتعداني باحدهما وأتعداني بالادغام وقرأ بعضهم أتعدانني بفتح النون كانه استثقل اجتماع النونين والكسرين والياء ففتح الاولى تحريا للتخفيف كما تحراه من أدغم ومن طرح أحدهما ثم قال أن اخرج أي ان ابعث وأخرج من الارض وقرئ أخرج وقد خلت القرون من قبلي يعني ولم يبعث منهم أحد ثم قال وهما يستغيثان الله أي الوالدان يستغيثان الله فان قالوا كان الواجب أن يقال يستغيثان بالله قلنا الجواب من وجهين (الاول) ان المعنى انهما يستغيثان بالله من كفره وانكاره فلما حذف الجار وصل الفعل (الثاني) يجوز أن يقال الباء حذف لانه أريد بالاستغاثة ههنا الدعاء على ما قاله المفسرون يدعوان الله فلما اريد بالاستغاثة الدعاء حذف الجار لان الدعاء لا يقتضيه وقوله ويلك أي يقولان له ويلك آمن وصدق بالبعث وهو دعاء عليه بالثبور والمراد به الحث والتحريض على الايمان لا حقيقة الهلاك ثم قال ان وعد الله بالبعث حق فيقول لهما ما هذا الذي تقولان من أمر البعث وتدعوانني اليه الا أساطير الاولين ثم قال تعالى اولئك الذين حق عليهم القول أي حقت عليهم كلمة العذاب ثم ههنا قولان فالذين يقولون المراد بنزول الآية عبد الرحمن بن أبي بكر قالوا المراد بهؤلاء الذين حقت عليهم كلمة العذاب هم القرون الذين خلوا من قبله والذين قالوا المراد به ليس عبد الرحمن بل كل ولد كان موصوفا بالصفة المذكورة قالوا هذا الوعيد مختص بهم وقوله في أمم نظير لقوله في أصحاب الجنة وقد ذكرنا أنه نظير لقوله أكرمني الامير في اناس من أصحابه يريد أكرمني في جملة من أكرم منهم ثم قال انهم كانوا خاسرين وقرئ أن بالفتح على معنى آمن بأن وعد الله حق ثم قال ولكل درجات مما عملوا وفيه قولان (الاول) ان الله تعالى ذكر الولد البار ثم أردفه بذكر الولد العاق فقوله ولكل درجات مما عملوا خاص بالمؤمنين وذلك لان المؤمن البار بوالديه له درجات متفاوتة ومراتب مختلفة في هذا الباب (والقول الثاني) أن قوله ولكل درجات مما عملوا عائد الى الفريقين والمعنى ولكل واحد من الفريقين درجات في الايمان والكفر والطاعة والمعصية فان قالوا كيف يجوز ذكر لفظ الدرجات في أهل النار وقد جاء في الاثر الجنة درجات والنار دركات قلنا فيه وجوه (الاول) يجوز أن يقال ذلك على جهة التغليب (الثاني) قال ابن زيد درج أهل الجنة

واستمتعتم بها) فلم يبق لكم بعد ذلك شيء منها (فاليوم تجزون عذاب الهون) أي الهوان وقد قرئ كذلك (بما كنتم) في الدنيا (تستكبرون في الارض بغير الحق) بغير استحقاق لذلك (وبما كنتم تفسقون) أي تخرجون عن طاعة الله عز وجل أي بسبب استكباركم وفسقكم المستمرين وقرئ تفسقون بكسر السين

(واذكر) أي لكفار مكة (أخا عاد) أي هودا عليه السلام (إذ أنذر قومه) بدل اشتمال منه أي وقت إنذاره إياهم (بالأحقاف) جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء من احقوقف الشيء إذا اعوج وكانت عاد أصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بأرض يقال لها الشحر من بلاد اليمن وقيل بين عمان ومهرة (وقد خلت النذر) أي الرسل جمع نذير بمعنى المنذر (من بين يديه) أي من قبله ﴿٥١٣﴾ (ومن خلفه) أي من بعده والجملة اعتراض مقرر لما قبله مؤكد لوجوب العمل بموجب الإنذار وسط بين أنذر قومه وبين قوله أن لا تعبدوا إلا الله مسارعة إلى ما ذكر من التقرير والتأكيد وإيذانا باشتراكهم في العبارة المحكية والمعنى واذكر لقومك إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه قومهم مثل ذلك فاذكرهم وأما جعلها حالا من فاعل أنذر على معنى أنه عليه الصلاة والسلام أنذرهم وقال لهم لا تعبدوا إلا الله (إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وقد أعلمهم أن الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره فمع ما فيه من تكلف تقدير الإعلام لا بد في نسبة الخلو إلى من بعده من الرسل من تنزيل الآتي منزلة الخالي (قالوا أجئتنا لتأفكنا) أي تصرفنا (عن آلهتنا) عن عبادتها (فأتنا بما تعدنا) من العذاب العظيم (إن كنت ﴿٦٥﴾ من الصادقين) في وعدك بنزوله بنا (قال إنما العلم) أي بوقت نزوله أو العلم بجميع الأشياء التي من جملتها ذلك (عند الله) وحده لا علم لي بوقت نزوله ولا مدخل لي في إتيانه وحلوله وإنما علمه عند الله تعالى فيأتيكم به في وقته المقدر له (وأبلغكم ما أرسلت به) من مواجب الرسالة التي من جملتها

يذهب علوا ودرج أهل النار ينزل هبوطا (الثالث) أن المراد بالدرجات المراتب المتزايدة إلا أن زيادات أهل الجنة في الخيرات والطاعات وزيادات أهل النار في المعاصي والسيئات ثم قال تعالى وليوفيهم قرئ بالياء والنون وهذا تعليل معلله محذوف لدلالة الكلام عليه كأنه قيل وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمون حقوقهم قدر جزاءهم على مقادير أعمالهم فجعل الثواب درجات والعقاب دركات ولما بين الله تعالى أنه يوصل حق كل أحد إليه بين أحوال أهل العقاب أولا فقال ويوم يعرض الذين كفروا على النار قيل يدخلون النار وقيل تعرض عليهم النار ليروا أهوالها أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا وقرأ ابن كثير آذهبتم استفهام بهمزة ومدة وابن عامر استفهام بهمزتين بلا مد والباقون أذهبتم بلفظ الخبر والمعنى أن كل ما قدر لكم من الطيبات والراحات فقد استوفيتموه في الدنيا وأخذتموه فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها وعن عمر لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأحسنكم لباسا ولكني أستبقي طيباتي وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دخل على أهل الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالأدم ما يجدون لها رقاعا فقال أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حلة ويروح في أخرى ويغدى عليه بجفنة ويراح عليه بأخرى ويستر بيته كما تستر الكعبة قالوا نحن يومئذ خير قال بل أنتم اليوم خير رواه صاحب الكشاف قال الواحدي إن الصالحين يؤثرون التقشف والزهد في الدنيا رجاء أن يكون ثوابهم في الآخرة أكمل إلا أن هذه الآية لا تدل على المنع من التنعم لأن هذه الآية وردت في حق الكافر وإنما وبخ الله الكافر لأنه تمتع بالدنيا ولم يؤد شكر المنعم بطاعته والإيمان به وأما المؤمن فإنه يؤدي بإيمانه شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه والدليل عليه قوله تعالى قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق نعم لا ينكر أن الاحتراز عن التنعم أولى لأن النفس إذا اعتادت التنعم صعب عليها الاحتراز والانقباض وحينئذ فربما حمله الميل إلى تلك الطيبات على فعل ما لا ينبغي وذلك مما يجر بعضه إلى بعض ويقع في البعد عن الله تعالى بسببه ثم قال تعالى فاليوم تجزون عذاب الهون أي الهوان وقرئ عذاب الهوان بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون فعلل تعالى ذلك العذاب بأمرين (أولهما) الاستكبار والترفع وهو ذنب القلب (والثاني) الفسق وهو ذنب الجوارح وقدم الأول على الثاني لأن أحوال القلوب أعظم وقعا من أعمال الجوارح ويمكن أن يكون المراد من الاستكبار أنهم يتكبرون عن قبول الدين الحق ويستنكفون عن الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام وأما الفسق فهو المعاصي واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع قالوا لأنه تعالى علل عذابهم بأمرين (أولهما) الكفر (وثانيهما) الفسق وهذا الفسق لا بد وأن يكون مغايرا لذلك الكفر لأن العطف يوجب المغايرة فثبت أن فسق الكفار يوجب العقاب في حقهم ولا معنى للفسق إلا ترك المأمورات وفعل المنهيات

بيان نزول العذاب ان لم تنتهوا عن الشرك من غير وقوف على وقت نزوله وقرئ أبلغكم من الابلاغ (ولكني أراكم قوما تجهلون) حيث تقترحون على ما ليس من وظائف الرسل من الاتيان بالعذاب وتعيين وقته والفاء في قوله تعالى (فلما رأوه) فصيحة والضمير اما مبهم يوضحه قوله تعالى (عارضا) اما تمييزا أو حالا أو راجع الى ما استعجلوه بقولهم فأتنا بما تعدنا أي فأتاهم فلما رأوه سحابا يعرض في أفق السماء (مستقبل أوديتهم) أي متوجه أوديتهم والاضافة فيه

لفظية كما في قوله تعالى (قالوا هذا عارض ممطرنا) ولذلك وقعا وصفين للنكرة (بل هو) أي قال هود وقد قرئ كذلك وقرئ قل وهو رد عليهم أي ليس الامر كذلك بل هو (ما استعجلتم به) من العذاب (ريح) بدل ما أو خبر لمبتدا محذوف (فيها عذاب أليم) صفة ريح وكذا قوله تعالى (تدمر) أي تهلك (كل شيء) من نفوسهم وأموالهم (بأمر ربها) وقرئ يدمر كل شيء من دمر دمارا اذا هلك فالاسناد الى الموصوف مذوف أو هو الهاء في ربها ويجوز أن يكون استئنافا واردا لبيان أن الكل ممكن فناؤه مقضيا منوطا بأمر بارئه وتكون الهاء لكل شيء لكونه بمعنى الاشياء وفي ذكر الامر والرب والاضافة الى الريح من الدلالة على عظمة شأنه عز وجل ما لا يخفى والفاء في قوله تعالى (فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم)

والله أعلم * قوله تعالى (واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالاحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ان لا تعبدوا الا الله اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين قال انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا ترى الا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) اعلم انه تعالى لما أورد أنواع الدلائل في اثبات التوحيد والنبوة وكان أهل مكة بسبب استغراقهم في لذات الدنيا واشتغالهم بطلبها أعرضوا عنها ولم يلتفتوا اليها ولهذا السبب قال تعالى في حقهم ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا فلما كان الامر كذلك بين ان قوم عاد كانوا أكثر أموالا وقوة وجاها منهم ثم ان الله تعالى سلط العذاب عليهم بسبب شؤم كفرهم فذكر هذه القصة ههنا ليعتبر بها أهل مكة فيتركوا الاغترار بما وجدوه من الدنيا ويقبلوا على طلب الدين فلهذا المعنى ذكر الله تعالى هذه القصة في هذا الموضع وهو مناسب لما تقدم لان من أراد تقبيح طريقة عند قوم كان الطريق فيه ضرب الامثال وتقريره ان من واظب على تلك الطريقة نزل به من البلاء كذا وكذا وقوله تعالى واذكر أخا عاد أي واذكر يا محمد لقومك أهل مكة هودا عليه السلام اذ أنذر قومه أي حذرهم عذاب الله ان لم يؤمنوا وقوله بالاحقاف قال أبو عبيدة الحقف الرمل المعوج ومنه قيل للمعوج محقوف وقال الفراء الاحقاف واحدها حقف وهو الكثيب المكسر غير العظيم وفيه اعوجاج قال ابن عباس الاحقاف واد بين عمان ومهرة والنذر جمع نذير بمعنى المنذر من بين يديه من قبله ومن خلفه من بعده والمعنى ان هودا عليه السلام قد أنذرهم وقال لهم ان لا تعبدوا الا الله اني أخاف عليكم العذاب واعلم ان الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو انذاره ثم حكى تعالى عن الكفار انهم قالوا أجئتنا لتأفكنا الافك الصرف يقال أفكه عن رأيه أي صرفه وقيل بل المراد لتزيلنا بضرب من الكذب عن آلهتنا وعن عبادتها فأتنا بما تعدنا من معاجلة العذاب على الشرك ان كنت من الصادقين في وعدك فعند هذا قال هود انما العلم عند الله وانما صلح هذا الكلام جوابا لقولهم فأتنا بما تعدنا لان قولهم فأتنا بما تعدنا استعجال منهم لذلك العذاب فقال لهم هود لا علم عندي بالوقت الذي يحصل فيه ذلك العذاب انما علم ذلك عند الله تعالى وأبلغكم ما أرسلت به وهو التحذير عن العذاب وأما العلم بوقته فما أوحاه الله الي ولكني أراكم قوما تجهلون وهذا يحتمل وجوها (الاول) المراد انكم لا تعلمون ان الرسل

فصيحة أي فجاءتهم الريح فدمرتهم فأصبحوا بحيث لا يرى الا مساكنهم وقرئ ترى بالتاء ونصب مساكنهم * ثم خطابا لكل احد يتأتى منه الرؤية تنبيها على أن حالهم بحيث لو حضر كل أحد بلادهم لا يرى فيها الا مساكنهم (كذلك) أي مثل ذلك الجزاء الفظيع (نجزي القوم المجرمين) وقد مر تفصيل القصة في سورة الاعراف

وقد روى أن الريح كانت تحمل الفسطاط والظعينة فترفعها فى الجو حتى ترى كأنها جرادة قيل أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت رأيت ريحا فيها كشهب النار وروى ان أول ما عرفوا به أنه عذاب ما رأوا ما كان فى الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير بها الريح بين السماء والارض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الابواب وصرعتهم وأمال الله تعالى الاحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم انين ثم كشف الريح عنهم فاحتملتهم فطرحتهم فى البحر وروى أن هودا عليه السلام لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا الى جنب عين تنبع وعن ابن عباس رضى الله عنهما اعتزل هود ومن معه فى حظيرة ما يصيبهم من الريح الا ما يلين على الجلود وتلذه الانفس وانها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والارض وتدمغهم بالحجارة (ولقد مكناهم) أى قررنا عادا أو أقدرناهم وما فى قوله تعالى (فيما ان مكناكم فيه) موصولة أو موصوفة وان نافية أى فى الذى أو فى شئ ما مكناكم فيه من السعة والبسطة وطول الاعمار وسائر مبادى التصرفات كما فى قوله تعالى ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الارض ما لم نمكن لكم ومما يحسن موقع ان ههنا التفصى عن تكرر لفظة ما وهو الداعى الى قلب الفها هاء فى مهما وجعلها شرطية أو زائدة مما لا يليق بالمقام (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة) ليستعملوها فيما خلقت له ويعرفوا بكل منها ما نيطت به معرفته من فنون النعم ويستدلوا بها على شئون منعمها عز وجل ويداوموا على شكره (فما أغنى عنهم سمعهم) حيث لم يستعملوه فى استماع الوحى ومواعظ الرسل (ولا أبصارهم) حيث لم يجتلوا بها الآيات التكوينية المنصوبة

لم يبعثوا سائلين عن غير ما أذن لهم فيه وانما بعثوا مبلغين (الثانى) أراكم قوما تجهلون من حيث انكم بقيتم مصرين على كفركم وجهلكم فيغلب على ظنى انه قرب الوقت الذى ينزل عليكم العذاب بسبب هذا الجهل المفرط والوقاحة التامة (الثالث) انى أراكم قوما تجهلون حيث تصرون على طلب العذاب وهب انه لم يظهر لكم كونى صادقا ولكن لم يظهر أيضا لكم كونى كاذبا فالاقدام على الطلب الشديد لهذا العذاب جهل عظيم ثم قال تعالى فلما رأوه ذكر المبرد فى الضمير فى رأوه قولين (أحدهما) انه عائد الى غير مذكور وبينه قوله عارضا كما قال ما ترك على ظهرها من دابة ولم يذكر الارض لكونها معلومة فكذا ههنا الضمير عائد الى السحاب كأنه قيل فلما رأوا السحاب عارضا وهذا اختيار الزجاج ويكون من باب الاضمار لا على شريطة التفسير (والقول الثانى) أن يكون الضمير عائدا الى ما فى قوله فأتنا بما تعدنا أى فلما رأوا ما يوعدون به عارضا قال أبو زيد العارض السحابة التى ترى فى ناحية السماء ثم تطبق وقوله مستقبل أوديتهم قال المفسرون كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياما فساق الله اليهم سحابة سوداء فخرجت عليهم من واد يقال له المغيث فلما رأوه مستقبل أوديتهم استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا والمعنى ممطر ايانا قيل كان هود قاعدا فى قومه فجاء سحاب مكثر فقالوا هذا عارض ممطرنا فقال بل هو ما استعجلتم به من العذاب ثم بين ماهيته فقال ريح فيها عذاب أليم ثم وصف تلك الريح فقال تدمر كل شئ أى تهلك كل شئ من الناس والحيوان والنبات بأمر ربها والمعنى ان هذا ليس من باب تأثيرات الكواكب والقرانات بل هو أمر حدث ابتداء بقدرة الله تعالى لاجل تعذيبكم فأصبحوا يعنى عادا لا ترى الا مساكنهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) روى ان الريح كانت تحمل الفسطاط فترفعها فى الجو حتى يرى كأنها جرادة وقيل أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت رأيت ريحا فيها كشهب النار وروى ان اول ما عرفوا به انه عذاب أليم انهم رأوا ما كان فى الصحراء من رحالهم ومواشيهم يطير به الريح بين السماء والارض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الابواب وصرعتهم وأمال الله عليهم الاحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين ثم كشفت الريح عنهم فاحتملتهم فطرحتهم فى البحر وروى ان هودا لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا الى جنب عين تنبع فكانت الريح التى تصيبهم ريحا لينة هادية طيبة والريح التى تصيب قوم عاد ترفعهم من الارض وتطيرهم الى السماء وتضرب بهم على الارض وأثر المعجزة انما ظهر فى تلك الريح من هذا الوجه وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما أمر الله خازن الرياح أن يرسل على عاد الا مثل مقدار الخاتم ثم ان ذلك القدر أهلكهم بكليتهم والمقصود من هذا الكلام اظهار كمال قدرة الله تعالى وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان اذا رأى الريح فزع وقال اللهم انى أسألك خيرها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها ومن شر ما أرسلت به (المسئلة الثانية) قرأ عاصم

وحمزة لا يرى بالياء وضمها مساكنهم بضم النون قال الكسائي معناه لا يرى شيء الا مساكنهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي لا ترى على الخطاب أي لا ترى أنت أيها المخاطب وفي بعض الروايات عن عاصم لا ترى بالتاء مساكنهم بضم النون وهي قراءة الحسن والتأويل لا ترى من بقايا عاد أشياء الا مساكنهم وقال الجمهور هذه القراءة ليست بالقوية ثم قال تعالى كذلك نجزي القوم المجرمين والمقصود منه تخويف كفار مكة فان قيل لما قال الله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم فكيف يبقى التخويف حاصلا قلنا قوله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم انما نزل في آخر الامر فكان التخويف حاصلا قبل نزوله ثم انه تعالى خوف كفار مكة وذكر فضل عاد بالقوة والجسم عليهم فقال ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه قال المبرد ما في قوله فيما بمنزلة الذي وان بمنزلة ما والتقدير ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه والمعنى انهم كانوا أقوى منكم قوة وأكثر منكم أموالا وقال ابن قتيبة كلمة ان زائدة والتقدير ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه وهذا غلط من وجوه (الاول) ان الحكم بأن حرفا من كتاب الله عبث لا يقول به عاقل (والثاني) ان المقصود من هذا الكلام انهم كانوا أقوى منكم قوة ثم انهم مع زيادة القوة ما نجوا من عقاب الله فكيف يكون حالكم وهذا المقصود انما يتم لو دلت الآية على انهم كانوا أقوى قوة من قوم مكة (والثالث) ان سائر الآيات تفيد هذا المعنى قال تعالى هم أحسن أثاثا ورئيا وقال كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الارض ثم قال تعالى وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة والمعنى انا فتحنا عليهم أبواب النعم وأعطيناهم سمعا فما استعملوه في سماع الدلائل وأعطيناهم أبصارا فما استعملوها في تأمل العبر وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله تعالى بل صرفوا كل هذه القوى الى طلب الدنيا ولذاتها فلا جرم ما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من عذاب الله تعالى شيئا ثم بين تعالى انه انما لم يغن عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم لاجل انهم كانوا يجحدون بآيات الله وقوله اذ كانوا يجحدون بمنزلة التعليل ولفظ اذ قد يذكر لافادة التعليل تقول ضربته اذ أساء والمعنى ضربته لانه أساء وفي هذه الآية تخويف لاهل مكة فان قوم عاد لما اغتروا بدنياهم واعرضوا عن قبول الدليل والحجة نزل بهم عذاب الله ولم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى بأن يحذروا من عذاب الله تعالى ويخافوا ثم قال تعالى وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن يعني انهم كانوا يطلبون نزول العذاب وانما كانوا يطلبونه على سبيل الاستهزاء والله أعلم * قوله تعالى (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك افكهم وما كانوا يفترون) اعلم ان المراد ولقد أهلكنا ما حولكم يا كفار مكة من القرى وهي قرى عاد وثمود باليمن والشام وصرفنا الآيات بيناها لهم لعلهم أي لعل أهل القرى يرجعون فالمراد بالتصريف الاحوال الهائلة التي

في صحائف العالم (ولا أفئدتهم) حيث لم يستعملوها في معرفة الله تعالى (من شيء) اي شيئا من الاغناء ومن مزيدة لافادة وقوله تعالى (اذ كانوا يجحدون بآيات الله) متعلق بما أغنى وهو ظرف جرى مجرى التعليل من حيث ان الحكم مرتب على ما أضيف اليه فان قولك أكرمته اذ اكرمني في قوة قولك اكرمته لاكرامه لانك اذا اكرمته وقت اكرامه فـ أكرمته فيه لوجود اكرامه فيه وكذا الحال في حيث (وحاق ﴿ ٥١٦ ﴾ بهم ما كانوا به يستهزؤن) من العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء ويقولون فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين (ولقد أهلكنا ما حولكم) يا أهل مكة (من القرى) كحجر ثمود وقرى قوم لوط (وصرفنا الآيات) كررناها لهم (لعلهم يرجعون) لكي يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة) القربان ما يتقرب به الى الله تعالى وأحد مفعولي اتخذوا ضمير الموصول المحذوف والثاني آلهة وقربانا حال والتقدير فهلا نصرهم وخلصهم من العذاب الذين اتخذوهم آلهة حال كونها متقربا بها الى الله تعالى حيث كانوا يقولون ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وهؤلاء شفعاؤنا عند الله وفيه تهكم بهم ولا مساغ لجعل قربانا مفعولا ثانيا وآلهة بدلا منه لفساد المعنى فان البدل وان كان هو المقصود لكنه لا بد في غير بدل الغلط من صحة المعنى بدونه ولا ريب في ان قولنا اتخذوهم ﴿وجدت﴾ من دون الله قربانا أي متقربا به مما لا صحة له قطعا لانه تعالى متقرب اليه لا متقرب به فلا يصح أنهم اتخذوهم قربانا متجاوزين الله في ذلك وقرئ قربانا بضم الراء (بل ضلوا عنهم) أي غابوا عنهم وفيه تهكم آخر بهم كأن عدم نصرهم لغيبتهم

ضلوا عنهم أي ظهر ضياعهم عنهم بالكلية وقيل امتنع نصرهم امتناع نصر الغائب عن المنصور (وذلك) أي ضياع آلهتهم عنهم وامتناع نصرهم (افكهم) أي أثر افكهم الذي هو اتخاذهم اياها آلهة ونتيجة شركهم وقرئ أفكهم وكلاهما مصدر كالحذر والحذر وقرئ أفكهم على صيغة الماضي فذلك اشارة حينئذ الى الاتخاذ أي وذلك الاتخاذ الذي هذه ثمرته وعاقبته صرفهم عن الحق وقرئ افكهم بالتشديد للمبالغة وآفكهم من الافعال أي جعلهم آفكين وقرئ آفكهم على صيغة اسم الفاعل مضافا الى ضميرهم أي قولهم الافك أي ذو الافك كما يقال قول كاذب (وما كانوا يفترون) عطف على افكهم أي وأثر افترائهم على الله تعالى أو أثر ما كانوا يفترونه عليه تعالى وقرئ وذلك افك مما كانوا يفترون أي بعض ما كانوا يفترون من الافك (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن) أملناهم اليك واقبلنا بهم نحوك وقرئ صرفنا بالتشديد للتكثير لانهم جماعة وهو السر في جمع الضمير في قوله تعالى (يستمعون القرآن) وما بعده وهو حال مقدرة من نفرا لتخصصه بالصفة أو صفة أخرى له أي واذكر لقومك وقت صرفنا اليك نفرا كائنا من الجن مقدرا استماعهم القرآن (فلما حضروه) أي القرآن عند تلاوته أو الرسول عند تلاوته على الالتفات والاول هو الاظهر (قالوا) أي قال بعضهم لبعض (أنصتوا) أي اسكتوا لنسمعه (فلما قضى) أتم وفرغ من تلاوته وقرئ على البناء للفاعل وهو ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام وهذا يؤيد عود ضمير حضروه اليه عليه الصلاة والسلام (ولوا الى قومهم منذرين) مقدرين انذارهم عند رجوعهم اليهم * روى أن الجن كانت تسترق السمع فلما حرست السماء ورجموا

وجدت قبل الاهلاك قال الجبائي قوله لعلهم يرجعون معناه لكي يرجعوا عن كفرهم دل بذلك على انه تعالى أراد رجوعهم ولم يرد اصرارهم (والجواب) انه فعل ما لو فعله غيره لكان ذلك لاجل الارادة المذكورة وانما ذهبنا الى هذا التأويل للدلائل الدالة على انه سبحانه مريد لجميع الكائنات ثم قال تعالى فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة القربان ما يتقرب به الى الله تعالى أي اتخذوهم شفعاء متقربا بهم الى الله حيث قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله وقالوا ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وفي اعراب الآية وجوه (الاول) قال صاحب الكشاف احد مفعولي اتخذ الراجع الى الذين هو محذوف (والثاني) آلهة وقربانا حال وقيل عليه ان الفعل المتعدي الى مفعولين لا يتم الا بذكرهما لفظا والحال مشعر بتمام الكلام ولا شك ان اتيان الحال بين المفعولين على خلاف الاصل (الثاني) قال بعضهم قربانا مفعول ثان قدم على المفعول الاول وهو آلهة فقيل عليه انه يؤدي الى خلو الكلام عن الراجع الى الذين (والثالث) قال بعض المحققين يضمر أحد مفعولي اتخذوا وهو الراجع الى الذين ويجعل قربانا مفعولا ثانيا وآلهة عطف بيان اذا عرفت الكلام في الاعراب فنقول المقصود أن يقال أن أولئك الذين أهلكهم الله هلا نصرهم الذين عبدوهم وزعموا انهم متقربون بعبادتهم الى الله ليشفعوا لهم بل ضلوا عنهم أي غابوا عن نصرتهم وذلك اشارة الى ان كون آلهتهم ناصرين لهم أمر ممتنع ثم قال تعالى وذلك افكهم أي وذلك الامتناع أثر افكهم الذي هو اتخاذهم اياها آلهة وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب في اثبات الشركاء له قال صاحب الكشاف وقرئ افكهم والافك والافك كالحذر والحذر وقرئ وذلك أفكهم بفتح الفاء والكاف أي ذلك الاتخاذ الذي هذا أثره وثمرته صرفهم عن الحق وقرئ افكهم على التشديد للمبالغة آفكهم جعلهم آفكين وآفكهم أي قولهم الافك أي ذو الافك كما تقول قول كاذب ثم قال وما كانوا يفترون والتقدير وذلك افكهم وافتراؤهم في اثبات الشركاء لله تعالى والله أعلم * قوله تعالى (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين) في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما بين ان في الانس من آمن وفيهم من كفر بين أيضا ان الجن فيهم من آمن وفيهم من كفر وأن مؤمنهم معرض للثواب وكافرهم معرض للعقاب وفي كيفية هذه الواقعة قولان (الاول) قال سعيد بن جبير كانت الجن تستمع فلما رجموا قالوا هذا الذي حدث في السماء انما حدث لشيء في الارض فذهبوا يطلبون السبب

بالشهب قالوا ما هذا الا لنبأ حدث فنهض سبعة نفر أو ستة نفر من أشراف جن نصيبين أو نينوى منهم زوبعة فضربوا حتى بلغوا تهامة ثم اندفعوا الى وادى نخلة فوافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم فى جوف الليل يصلى أو فى صلاة الفجر فاستمعوا لقراءته وذلك عند منصرفه من الطائف وعن سعيد بن جبير ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم وانما كان يتلو فى صلاته فمروا به فوقفوا مستمعين ﴿ ٥١٨ ﴾ وهو لا يشعر بهم فانبأه الله تعالى باستماعهم وقيل بل أمره الله تعالى أن ينذر الجن و يقرأ عليهم فصرف اليه نفرا منهم جمعهم له فقال عليه الصلاة والسلام انى أمرت ان أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعنى قالها ثلاثا فاطرقوا الا عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال فانطلقنا حتى اذا كنا باعلى مكة فى شعب الحجون خط لى فقال لا تخرج منه حتى اعود اليك ثم افتتح القرآن وسمعت لغطا شديدا حتى خفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وغشيته اسودة كثيرة حالت بينى و بينه حتى ما أسمع صوته عليه الصلاة والسلام ثم انقطعوا كقطع السحاب فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت شيأ قلت نعم رجالا سوداء مستشعرى ثياب بيض فقال أولئك جن نصيبين وكانوا اثنى عشر ألفا والسورة التى قرأها عليهم اقرأ باسم ربك (قالوا) أى عند رجوعهم الى قومهم (ياقومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى) ﴿ بوصفين ﴾ قيل قالوه لانهم كانوا على اليهودية وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام (مصدقا لما بين يديه) ارادوا به التوراة (يهدى الى الحق) من العقائد الصحيحة (والى طريق مستقيم) موصل اليه وهو الشرائع

وكان قد اتفق ان النبى صلى الله عليه وسلم لما أيس من أهل مكة ان يجيبوه خرج الى الطائف ليدعوهم الى الاسلام فلما انصرف الى مكة وكان ببطن نخل قام يقرأ القرآن فى صلاة الفجر فمر به نفر من أشراف جن نصيبين لان ابليس بعثهم ليعرفوا السبب الذى أوجب حراسة السماء بالرجم فسمعوا القرآن وعرفوا ان ذلك هو السبب (والقول الثانى) ان الله تعالى أمر رسوله ان ينذر الجن و يدعوهم الى الله تعالى و يقرأ عليهم القرآن فصرف الله اليه نفرا من الجن ليستمعوا منه القرآن و ينذروا قومهم و يتفرع على ماذكرناه فروع (الاول) نقل عن القاضى فى تفسيره الجن انه قال انهم كانوا يهودا لان فى الجن مللا كما فى الانس من اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الاصنام وأطبق المحققون على ان الجن مكلفون (سئل ابن عباس) هل للجن ثواب فقال نعم لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون فى الجنة و يزدحمون على أبوابها (الفرع الثانى) قال صاحب الكشاف النفر دون العشرة و يجمع على أنفار ثم روى محمد بن جرير الطبرى عن ابن عباس ان أولئك الجن كانوا سبعة نفر من اهل نصيبين فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلا الى قومهم وعن زر بن حبيش كانوا تسعة أحدهم زوبعة وعن قتادة ذكر لنا انهم صرفوا اليه من ساوة (الفرع الثالث) اختلفوا فى انه هل كان عبد الله بن مسعود مع النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الجن والروايات فيه مختلفة ومشهورة (الفرع الرابع) روى القاضى فى تفسيره عن أنس قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جبال مكة اذ أقبل شيخ متوكئ على عكازة فقال النبى صلى الله عليه وسلم مشية جنى ونغمته فقال أجل فقال من أى الجن أنت فقال انا هامة بن هيم بن لاقيس بن ابليس فقال أرى بينك و بين ابليس الا أبوين فكم أتى عليك فقال أكلت عمر الدنيا الا أقلها و كنت وقت قتل قابيل هابيل امشى بين الآكام وذكر كثيرا مما مر به وذكر فى جملته ان قال قال لى عيسى بن مريم ان لقيت محمدا فاقرئه منى السلام وقد بلغت سلامه وآمنت بك فقال عليه السلام وعلى عيسى السلام وعليك ياهامة ما حاجتك فقال ان موسى عليه السلام علمنى التوراة وعيسى علمنى الانجيل فعلمنى القرآن فعلمه عشر سور وقبض صلى الله عليه وسلم ولم ينعه قال عمر بن الخطاب ولا أراه الا حيا واعلم ان تمام الكلام فى قصة الجن مذكور فى سورة الجن (المسئلة الثانية) اختلفوا فى تفسير قوله واذ صرفنا اليك نفرا من الجن فقال بعضهم لما لم يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم قراءة القرآن عليهم فهو تعالى ألقى فى قلوبهم ميلا وداعية الى استماع القرآن فلهذا السبب قال واذ صرفنا اليك نفرا من الجن ثم قال تعالى فلما حضروه الضمير للقرآن أو لرسول الله قالوا أى قال بعضهم لبعض أنصتوا أى اسكتوا مستمعين يقال أنصت لكذا واستنصت له فلما فرغ من القراءة ولوا الى قومهم منذرين ينذرونهم وذلك لا يكون الا بعد ايمانهم لانهم لا يدعون غيرهم الى استماع القرآن والتصديق به الا وقد آمنوا فعنده قالوا ياقومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ووصفوه

والاعمال الصالحة (ياقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به) أي آمنوا به ما سمعوه من الكتاب ووصفوه بالدعوة الى الله تعالى بعد ما وصفوه بالهداية الى الحق والصراط المستقيم لتلازمهما دعوهم الى ذلك بعد بيان حقيته واستقامته ترغيباً لهم في الاجابة ثم أكدوه بقولهم (يغفر لكم من ذنوبكم) أي بعض ذنوبكم وهو ما كان في خالص حق الله تعالى فان حقوق العباد لا تغفر بالايمان (ويجركم من عذاب اليم) معد للكفرة واختلف في أن لهم أجراً غير هذا أولا والاظهر أنهم في حكم بني آدم ثواباً وعقاباً وقوله تعالى (ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض) ايجاب للاجابة بطريق الترهيب اثر ايجابها بطريق الترغيب وتحقيق لكونهم منذرين واظهار داعي الله من غير اكتفاء بأحد الضميرين للمبالغة في الايجاب بزيادة التقرير وتربية المهابة وادخال الروعة وتقييد الاعجاز بكونه في الارض لتوسيع الدائرة أي فليس بمعجز له تعالى بالهرب وان هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل في أعماقها وقوله تعالى (وليس له من دونه أولياء) بيان لاستحالة نجاته بواسطة الغير اثر بيان استحالة نجاته بنفسه وجمع الاولياء باعتبار معنى من فيكون من باب مقابلة الجمع بالجمع لانقسام الآحاد الى الآحاد كما أن الجمع في قوله تعالى (أولئك) بذلك الاعتبار أي أولئك الموصوفون بعدم اجابة داعي الله (في ضلال مبين) أي ظاهر كونه ضلالاً بحيث لا يخفى على أحد حيث أعرضوا عن اجابة من هذا شأنه (أولم يروا) الهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر يستدعيه المقام والرؤية قلبية أي ألم يتفكروا ولم يعلموا علماً جازماً متاخماً للمشاهدة والعيان (أن الله الذي خلق السموات والارض) ابتداء من غير مثال

بوصفين (الاول) كونه مصدقاً لما بين يديه أي مصدقاً لكتب الانبياء والمعنى ان كتب سائر الانبياء كانت مشتملة على الدعوة الى التوحيد والنبوة والمعاد والامر بتطهير الاخلاق فكذلك هذا الكتاب مشتمل على هذه المعاني (الثاني) قوله يهدي الى الحق والى طريق مستقيم واعلم ان الوصف الاول يفيد ان هذا الكتاب يماثل سائر الكتب الالهية في الدعوة الى هذه المطالب العالية الشريفة والوصف الثاني يفيد ان هذه المطالب التي اشتمل القرآن عليها مطالب حقة صدق في أنفسها يعلم كل أحد بصريح عقله كونها كذلك سواء وردت الكتب الالهية قبل ذلك بها أو لم ترد فان قالوا كيف قالوا من بعد موسى قلنا قد نقلنا عن الحسن انه قال انهم كانوا على اليهودية وعن ابن عباس ان الجن ما سمعت أمر عيسى فلذلك قالوا من بعد موسى ثم ان الجن لما وصفوا القرآن بهذه الصفات الفاضلة قالوا ياقومنا اجيبوا داعي الله واختلفوا في انه هل المراد بداعي الله الرسول أو الواسطة التي تبلغ عنه والاقرب انه هو الرسول لانه هو الذي يطلق عليه هذا الوصف واعلم ان قوله أجيبوا داعي الله فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) هذه الآية تدل على انه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثاً الى الجن كما كان مبعوثاً الى الانس قال مقاتل ولم يبعث الله نبياً الى الانس والجن قبله (المسئلة الثانية) قوله أجيبوا داعي الله أمر باجابته في كل ما أمر به فيدخل فيه الامر بالايمان الا انه أعاد ذكر الايمان على التعيين لاجل انه أهم الاقسام وأشرفها وقد جرت عادة القرآن بانه يذكر اللفظ العام ثم يعطف عليه أشرف أنواعه كقوله وملائكته وجبريل وقوله واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ولما أمر بالايمان بهذكر فائدة ذلك الايمان وهي قوله يغفر لكم من ذنوبكم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال بعضهم كلمة من ههنا زائدة والتقدير يغفر لكم ذنوبكم وقيل بل الفائدة فيه ان كلمة من ههنا لابتداء الغاية فكان المعنى انه يقع ابتداء الغفران بالذنوب ثم ينتهي الى غفران ما صدر عنكم من ترك الاولى والاكمل (المسئلة الثانية) اختلفوا في ان الجن هل لهم ثواب أم لا فقيل لا ثواب لهم الا النجاة من النار ثم يقال لهم كونوا تراباً مثل البهائم واحتجوا على صحة هذا المذهب بقوله تعالى ويجركم من عذاب أليم وهو قول أبي حنيفة والصحيح انهم في حكم بني آدم فيستحقون الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية وهذا القول قول ابن أبي ليلى ومالك وجرت بينه وبين أبي حنيفة في هذا الباب مناظرة قال الضحاك يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون والدليل على صحة هذا القول ان كل دليل دل على ان البشر يستحقون الثواب على الطاعة فهو بعينه قائم في حق الجن والفرق بين البابين بعيد جداً واعلم ان ذلك الجني لما أمر قومه باجابة الرسول والايمان به حذرهم من ترك تلك الاجابة فقال ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض أي لا ينجي منه مهرب ولا يسبق قضاءه سابق ونظيره قوله تعالى وانا ظننا أن لن نعجز الله في الارض ولن نعجزه هرباً ولا تجد له أيضاً ولياً

بتخليقه ولاقانون ينتحيه (ولم يعي بخلقهن) أي لم يتعب ولم ينصب بذلك اصلا أولم يعجز عنه يقال عييت الامر اذا لم تعرف وجهه وقوله تعالى (بقادر) في حيز الرفع لانه خبر أن كما ينبئ عنه القراءة بغير باء ووجه دخولها في القراءة الاولى اشتمال النفي الوارد في صدر الآية على أن وما في حيزها كأنه قيل أوليس الله بقادر (على أن يحيي الموتى) ولذلك أجيب عنه بقوله تعالى (بلى انه على كل شئ قدير) تقرير للقدرة على وجه عام يكون ﴿٥٢٠﴾ كالبرهان على المقصود (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) ظرف عامله قول مضمر مقوله (أليس هذا بالحق) على أن الاشارة الى ما يشاهدونه حينئذ من حيث هو من غير أن يخطر بالبال لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه اذ هو اللائق بتهويله وتفخيمه وقد مر في سورة الاحزاب وقيل هي الى العذاب وفيه تهكم بهم وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم وما نحن بمعذبين (قالوا بلى وربنا) أكدوا جوابهم بالقسم كأنهم يطمعون في الخلاص بالاعتراف بحقيتها كما في الدنيا وأنى لهم ذلك (قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) بها في الدنيا ومعنى الامر الاهانة بهم والتوبيخ لهم والفاء في قوله تعالى (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) جواب شرط محذوف أي اذا كان عاقبة أمر الكفرة ما ذكر فاصبر على ما يصيبك من جهتهم كما صبر أولوا الثبات والحزم من الرسل فانك من جملتهم بل من عليتهم ومن للتبيين وقيل ﴿ انه ﴾ للتبعيض والمراد باولي العزم أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيسها وتقريرها وصبروا على تحمل مشاقها ومعاداة الطاعنين فيها ومشاهيرهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام وقيل هم

ولا نصيرا ولا دافعا من دون الله ثم بين انهم في ضلال مبين * قوله تعالى (أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والارض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى انه على كل شئ قدير ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى ذكر في أول السورة ما يدل على وجود الاله القادر الحكيم المختار ثم فرع عليه فرعين (الاول) ابطال قول عبدة الاصنام (والثاني) اثبات النبوة وذكر شبهاتهم في الطعن في النبوة وأجاب عنها ولما كان أكثر اعراض كفار مكة عن قبول الدلائل بسبب اغترارهم بالدنيا واستغراقهم في استيفاء طيباتها وشهواتها وبسبب انه كان يثقل عليهم الانقياد لمحمد والاعتراف بتقدمه عليهم ضرب لذلك مثلا وهم قوم عاد فانهم كانوا أكمل في منافع الدنيا من قوم محمد فلما أصروا على الكفر أبادهم الله وأهلكهم فكان ذلك تخويفا لاهل مكة باصرارهم على انكار نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ثم لما قرر نبوته على الانس أردفه باثبات نبوته في الجن والى ههنا قد تم الكلام في التوحيد وفي النبوة ثم ذكر عقيبهما تقرير مسئلة المعاد ومن تأمل في هذا البيان الذي ذكرناه علم أن المقصود من كل القرآن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد واما القصص فالمراد من ذكرها ما يجري مجرى ضرب الامثال في تقرير هذه الاصول (المسئلة الثانية) المقصود من هذه الآية اقامة الدلالة على كونه تعالى قادرا على البعث والدليل عليه انه تعالى أقام الدلائل في أول هذه السورة على انه هو الذي خلق السموات والارض ولا شك ان خلقها أعظم وأفخم من اعادة هذا الشخص حيا بعد ان صار ميتا والقادر على الاقوى الاكمل لابد وأن يكون قادرا على الاقل الاضعف ثم ختم الآية بقوله انه على كل شئ قدير والمقصود منه ان تعلق الروح بالجسد أمر ممكن اذ لو لم يكن ممكنا في نفسه لما وقع أولا والله تعالى قادر على كل الممكنات فوجب كونه قادرا على تلك الاعادة وهذه الدلائل يقينية ظاهرة (المسئلة الثالثة) في قوله تعالى بقادر ادخال الباء على خبر ان وانما جاز ذلك لدخول حرف النفي على ان وما يتعلق بها فكأنه قيل أليس الله بقادر قال الزجاج لو قلت ظننت أن زيدا بقائم جاز ولا يجوز ظننت أن زيدا بقائم والله أعلم (المسئلة الرابعة) يقال عييت بالامر اذا لم تعرف وجهه ومنه أفعيينا بالخلق الاول واعلم انه تعالى لما أقام الدلالة على صحة القول بالحشر والنشر ذكر بعض أحوال الكفار فقال ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون فقوله أليس هذا بالحق التقدير يقال لهم أليس هذا بالحق والمقصود التهكم بهم والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم وما نحن بمعذبين * قوله تعالى (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون) واعلم

انه تم لى ماقرر المطالب الثلاثة وهى التوحيد والنبوة والمعاد وأجاب عن الشبهات أردفه بما يجرى مجرى الوعظ والنصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم وذلك لان الكفار كانوا يؤذونه ويوحشون صدره فقال تعالى فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل اى أولوا الجد والصبر والثبات وفى الآية قولان (الاول) أن تكون كلمة من للتبعيض ويراد بأولو العزم بعض الانبياء قيل هم نوح صبر على اذى قومه وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه وابراهيم على النار وذبح الولد واسحق على الذبح ويعقوب على فقدان الولد وذهاب البصر ويوسف على الجب والسجن وأيوب على الضر وموسى قال له قومه انا لمدركون قال كلا ان معى ربى سيهدين وداود بكى على زلته أربعين سنة وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وقال انها معبرة فاعبروها ولا تعمروها وقال الله تعالى فى آدم ولم نجد له عزما وفى يونس ولا تكن كصاحب الحوت (والقول الثانى) ان كل الرسل أولو عزم ولم يبعث الله رسولا الا كان ذا عزم وحزم ورأى وكمال وعقل ولفظة من فى قوله من الرسل تبيين لا تبعيض كما يقال كسيته من الخز وكأنه قيل اصبر كما صبر الرسل من قبلك على اذى قومهم وصفهم بالعزم لصبرهم وثباتهم ثم قال ولا تستعجل لهم ومفعول الاستعجال محذوف والتقدير لا تستعجل لهم بالعذاب قيل ان النبى صلى الله عليه وسلم ضجر من قومه بعض الضجر وأحب أن ينزل الله العذاب بمن أبى من قومه فأمر بالصبر وترك الاستعجال ثم أخبر أن ذلك العذاب منهم قريب وانه نازل بهم لا محالة وان تأخر وعند نزول ذلك العذاب بهم يستقصرون مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار والمعنى انهم اذا عاينوا العذاب صار طول لبثهم فى الدنيا والبرزخ كأنه ساعة من النهار أو كأن لم يكن لهول ما عاينوا والان شئ اذا مضى صار كأنه لم يكن وان كان طويلا قال الشاعر

كأن شيئا لم يكن اذا مضى * كأن شئ لم يزل اذا أتى

واعلم انه تم الكلام ههنا ثم قال تعالى بلاغ أى هذا بلاغ ونظيره قوله تعالى هذا بلاغ للناس أى هذا الذى وعظتم به فيه كفاية فى الموعظة أو هذا تبليغ من الرسل فهل يهلك الا الخارجون عن الاتعاظ والعمل بموجبه والله أعلم قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة يوم الاربعاء العشرين من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأزواجه والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين

(سورة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثون وتسع آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة فان آخرها قوله تعالى فهل يهلك الا القوم الفاسقون فان قال قائل كيف يهلك الفاسق وله أعمال صالحة كاطعام الطعام وصلة الارحام وغير ذلك مما

الصابرون على بلاء الله كنوح صبر على أذية قومه كانوا يضربونه حتى يغشى عليه وابراهيم صبر على النار وعلى ذبح ولده والذبيح على الذبح ويعقوب على فقد الولد والبصر ويوسف على الجب والسجن وأيوب على الضر وموسى قال له قومه انا لمدركون قال كلا ان معى ربى سيهدين وداود بكى على خطيئته أربعين سنة وعيسى لم يضع لبنة على لبنة صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين (ولا تستعجل لهم) أى للكفار كفة بالعذاب فانه على شرف النزول بهم (كأنهم يوم يرون ما يوعدون) من العذاب (لم يلبثوا) فى الدنيا (الا ساعة) يسيرة (من نهار) لما يشاهدون من شدة العذاب وطول مدته وقوله تعالى (بلاغ) خبر مبتدأ محذوف أى هذا الذى وعظتم به كفاية فى الموعظة أو تبليغ من الرسول

لايخلو عنه الانسان فى طول عمره فيكون فى اهلاكه اهدار عمله وقد قال تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره وقال تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم أى لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلم يمتنع الاهلاك وسنبين كيف ابطال الاعمال مع تحقيق القول فيه وتعالى الله عن الظلم وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) من المراد بقوله الذين كفروا فلنا فيه وجوه (الاول) هم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر منهم أبو جهل والحرث ابنا هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم (الثانى) كفار قريش (الثالث) أهل الكتاب (الرابع) هو عام يدخل فيه كل كافر (المسئلة الثانية) فى الصد وجهان (أحدهما) صدوا أنفسهم معناه انهم صدوا أنفسهم عن السبيل ومنعوا عقولهم من اتباع الدليل (وثانيهما) صدوا غيرهم ومنعوهم كما قال تعالى عن المستضعفين قال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين وعلى هذا فيه بحث وهو ان اضلال الاعمال مرتب على الكفر والصد والمستضعفون لم يصدوا فلا يضل أعمالهم فنقول التخصيص بالذكر لايدل على نفى ما عداه ولاسيما اذا كان المذكور أولى بالذكر من غيره وههنا الكافر الصاد أدخل فى الفساد فصار هو أولى بالذكر أو نقول كل من كفر صار صادا لغيره أما المستكبر فظاهر وأما المستضعف فلانه بمتابعته أثبت للمستكبر ما يمنعه من اتباع الرسول فانه بعد ما يكون متبوعا يشق عليه أن يصير تابعا ولان كل من كفر صار صادا لمن بعده لان عادة الكفار اتباع المتقدم كما قال عنهم انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون او مقتدون فان قيل فعلى هذا كل كافر صاد فما الفائدة فى ذكر الصد بعد الكفر نقول هو من باب ذكر السبب وعطف المسبب عليه تقول أكلت كثيرا وشبعت والكفر على هذا سبب الصد ثم اذا قلنا بأن المراد منه انهم صدوا انفسهم ففيه اشارة الى أن ما فى الانفس من الفطرة كان داعيا الى الايمان والامتناع لمانع وهو الصد لنفسه (المسئلة الثالثة) فى المصدود عنه وجوه (الاول) عن الانفاق على محمد عليه السلام وأصحابه (الثانى) عن الجهاد (الثالث) عن الايمان (الرابع) عن كل ما فيه طاعة الله تعالى وهو اتباع محمد عليه السلام وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم هاد اليه وهو صراط الله قال تعالى وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله فمن منع من اتباع محمد عليه السلام فقد صد عن سبيل الله (المسئلة الرابعة) فى الاضلال وجوه (الاول) المراد منه الابطال ووجهه هو ان المراد انه اضله بحيث لايجده فالطالب انما يطلبه فى الوجود وما لا يوجد فى الوجود فهو معدوم فان قيل كيف يبطل الله حسنة أوجدها نقول ان الابطال على وجوه (احدها) يوازن بسيآتهم الحسنات التى صدرت منهم ويسقطها بالموازنة ويبقى لهم سيآت محضة لان الكفر يزيد على غير الايمان من الحسنات والايمان يترجح على غير الكفر من السيآت (وثانيها) ابطلها لفقد شرط ثبوتها وابقائها وهو الايمان لانه شرط قبول العمل قال تعالى من عمل صالحا من ذكر

وبؤيده أنه قرئ بالغ وقرئ بلاغا أى بلغوا بلاغا (فهل يهلك الا القوم الفاسقون) أى الخارجون عن الاتعاظ به أوعن الطاعة وقرئ بفتح الياء وكسر اللام وبفتحهما من هلك وهلك وبنون العظمة من الاهلاك ونصب القوم ووصفه * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الاحقاف كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة فى الدنيا

❁ (سورة محمد صلى الله عليه وسلم وتسمى سورة القتال وهى مدنية وقيل مكية وآيها تسع أوثمان وثلاثون) ❁

❁ (بسم الله الرحمن الرحيم) ❁ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) أى أعرضوا عن الاسلام وسلوك طريقه من صد صدودا اومنعوا الناس عن ذلك من صده صدا كالمطعمين يوم بدر وقيل هم اثنا عشر رجلا من اهل الشرك

أوانثى وهو مؤمن وإذا لم يقبل الله العمل لا يكون له وجود لأن العمل لا بقاء له في نفسه بل
هو يعدم عقيب ما يوجد في الحقيقة غير أن الله تعالى يكتب عنده بفضله أن فلانا عمل
صالحا وعندي جزاؤه فيبقى حكما وهذا البقاء حكما خير من البقاء الذي للاجسام التي هي
محل الاعمال حقيقة فإن الاجسام وإن بقيت غير أن مآلها إلى الفناء والعمل الصالح
من الباقيات عند الله أبدا وإذا ثبت هذا تبين أن الله بالقبول متفضل وقد أخبر أني
لا أقبل إلا من مؤمن فمن عمل وتعب من غير سبق الايمان فهو المضيع تعبه لا الله تعالى
(وثالثها) لم يعمل الكافر عمله لوجه الله تعالى فلم يأت بخير فلا يرد علينا قوله فمن يعمل مثقال
ذرة خيرا يره وبيانه هو أن العمل لا يتميز إلا بمن له العمل لا بالعامل ولا بنفس العمل
وذلك لأن من قام ليقتل شخصا ولم يتفق قتله ثم قام ليكرمه ولم يتفق الاكرام ولا القتل
وأخبر عن نفسه أنه قام في اليوم الفلاني لقتله وفي اليوم الآخر لاكرامه يتميز القيامان
لا بالنظر إلى القيام فإنه واحد ولا بالنظر إلى القائم فإنه حقيقة واحدة وإنما تميز بما كان
لاجله القيام وكذلك من قام وقصد بقيامه اكرام الملك وقام وقصد بقيامه اكرام بعض
العوام تميز أحدهما عن الآخر بمنزلة العمل لكن نسبة الله الكريم إلى الاصنام فوق
نسبة الملوك إلى العوام فالعمل للاصنام ليس بخير ثم إن اتفق أن يقصد واحد بعمله وجه
الله تعالى ومع ذلك يعبد الاوثان لا يكون عمله خيرا لأن مثل ما أتى به لوجه الله أتى به للصنم
المنحوت فلا تعظيم (الوجه الثاني) الاضلال هو جعله مستهلكا وحقيقته هو أنه إذا كفر
وأتى للاحجار والاخشاب بالركوع والسجود فلم يبق لنفسه حرمة وفعله لا يبقى معتبرا
بسبب كفره وهذا كمن يخدم عند الحارس والسايس إذا قام فالسلطان لا يعلم
قيامه تعظيما لحسته كذلك الكافر وأما المؤمن فبقدر ما يتكبر على غير الله يظهر تعظيمه
لله كالملك الذي لا ينقاد لاحد إذا انقاد في وقت لملك من الملوك يتبين به عظمته (الوجه
الثالث) أضله أي أهمله وتركه كما يقال أضل بعيره إذا تركه مسيبا فضاع ثم إن الله تعالى
لما بين حال الكفار بين حال المؤمنين * فقال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا
بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم) وفيه مسائل (المسألة الأولى) قد ذكرنا مرارا أن
الله تعالى كلما ذكر الايمان والعمل الصالح رتب عليهما المغفرة والاجر كما قال إن الذين
آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم وقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات
لنكفرن عنهم سيآتهم ولنجزينهم وقلنا بأن المغفرة ثواب الايمان والاجر على العمل
الصالح واستوفينا البحث فيه في سورة العنكبوت فنقول ههنا جزاء ذلك قوله كفر عنهم
سيآتهم إشارة إلى ما يثيب على الايمان وقوله وأصلح بالهم إشارة إلى ما يثيب على العمل
الصالح (المسألة الثانية) قالت المعتزلة تكفير السيآت مرتب على الايمان والعمل
الصالح فمن آمن ولم يعمل الصالحات يبقى في العذاب خالدا فنقول لو كان كما ذكرتم لكان
الاضلال مرتبا على الكفر والصد فمن يكفر لا ينبغي أن تضل أعماله أو نقول قد ذكرنا أن

كانوا يصدون الناس
عن الاسلام ويأمرونهم
بالكفر وقيل أهل الكتاب
الذين كفروا وصدوا
من أراد منهم ومن غيرهم
أن يدخل في الاسلام
وقيل هو عام في كل من
كفر وصد (أضل
أعمالهم) أي أبطلها
وأحبطها وجعلها ضائعة
لا أثر لها أصلا لكن
لا بمعنى أنه أبطلها
وأحبطها بعد أن لم تكن
كذلك بل بمعنى أنه حكم
ببطلانها وضياعها فإن ما
كانوا يعملون من أعمال البر
كصلة الارحام وقرى
الاضياف وفك الاسارى
وغيرها من المكارم ليس
لها أثر من أصلها لعدم
مقارنتها للايمان أو أبطل
ما عملوه من الكيد لرسول
الله صلى الله عليه وسلم
والصد عن سبيله بنصر
رسوله وإظهار دينه على
الدين كله وهو الاوفق
لما سيأتي من قوله تعالى
فتعسا لهم وأضل
أعمالهم وقوله تعالى
فإذا لقيتم

الله تعالى رتب أمرين على امرين فزآمن كفر سيئاته ومن عمل صالحا اصلح باله او نقول اى مؤمن تصور انه غيرآت بالصالحات بحيث لايصدر عنه صلاة ولاصيام ولاصدقة ولااطعام وعلى هذا فقوله وعملوا عطف السبب على المسبب كما يقال في قول القائل أكلت كثيرا وشبعت (المسألة الثالثة) قوله وآمنوا بما نزل على محمد مع ان قوله آمنوا وعملوا الصالحات أفادهذا المعنى فالحكمة فيه ولبيان وجهه نقول ما وجدته فبيانه من وجوه (الاول) قوله والذين آمنوا أى بالله ورسوله واليوم الآخر وقوله وآمنوا بما نزل أي بجميع الاشياء الواردة في كلام الله ورسوله تعميم بعد أمور خاصة وهو حسن تقول خلق الله السموات والارض وكل شئ اما على معنى وكل شئ غيرماذكرنا واما على العموم بعد ذكر الخصوص (الثاني) أن يكون لمعنى آمنوا وآمنوا من قبل بما نزل على محمد وهو الحق المعجز الفارق بين الكاذب والصادق يعني آمنوا أولا بالمعجز وايقنوا بأن القرآن لايأتي به غيرالله فآمنوا وعملوا الصالحات والواو للجمع المطلق ويجوز أن يكون المتأخر ذكرا متقدما وقوعا وهذا كقول القائل آمن به وكان الايمان به واجبا أو يكون بيانا لايمانهم كأنهم آمنوا وآمنوا بما نزل على محمد أى آمنوا وآمنوا بالحق كما يقول القائل خرجت وخرجت مصيبا أى وكان خروجي جيدا حيث نجوت من كذا وربحت كذا فكذلك لما قال آمنوا بين ان ايمانهم كان بما أمر الله وأنزل الله لابما كان باطلا من عند غيرالله (الثالث) ماقاله أهل المعرفة وهو ان العلم العمل والعمل العلم فالعلم يحصل ليعمل به لماجاء اذاعمل العالم العمل الصالح علم مالم يكن يعلم فيعلم الانسان مثلا قدرة الله بالدليل وعلمه وامره فيحمله الامر على الفعل ويحثه عليه علمه بحاله وقدرته على ثوابه وعقابه فاذا اتى بالعمل الصالح علم من انواع مقدورات الله ومعلومات الله تعالى مالم يعلمه احد الاباطلاع الله عليه وبكشفه ذلك له فيؤمن وهذا هو المعنى في قوله هو الذى انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم فاذا آمن المكلف بمحمد بالبرهان وبالمعجزة وعمل صالحا حمله علمه على ان يؤمن بكل ماقاله محمد ولم يجد في نفسه شكا وللمؤمن في المرتبة الاولى أحوال وفي المرتبة الاخيرة احوال أمافي الايمان بالله ففي الاول يجعل الله معبودا وقد يقصد غيره في حوائجه فيطلب الرزق من زيد وعمرو ويجعل امرا سببا لامر وفي الاخيرة يجعل الله مقصودا ولايقصد غيره ولايرى الامنه سره وجهره فلاينيب الى شئ في شئ فهذا هو الايمان الآخر بالله وذلك الايمان الاول واما في النبي صلى الله عليه وسلم فيقول اولا هو صادق فيماينطق ويقول آخرا لانطق له الا بالله ولا كلام يسمع منه الاوهو من الله فهو في الاول يقول بالصدق ووقوعه منه وفي الثاني يقول بعدم امكان الكذب منه لان حاكي كلام الغير لاينسب اليه الكذب ولايمكن الافي نفس الحكاية وقد علم هوانه حاك عنه كماقاله وما في المرتبة الاولى فيجعل الحشر مستقبلا والحياة العاجلة حالا وفي المرتبة الاخيرة يجعل الحشر حالا والحياة الدنيا ماضيا فيقسم حياة نفسه

الخ (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) قيل هم ناس من قريش وقيل من الانصار وقيل هم مؤمنو أهل الكتاب وقيل عام للكل (وآمنوا بما نزل على محمد) خص بالذكر الايمان بذلك مع اندراجه فيما قبله تنويها بشأنه وتنبيها على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الايمان به وأنه الاصل في الكل ولذلك اكد بقوله تعالى (وهو الحق من ربهم) بطريق حصر الحقية فيه وقيل حقيته بكونه ناسخا غير منسوخ فالحق على هذا مقابل الزائل وعلى الاول مقابل الباطل وأيا ما كان فقوله تعالى من ربهم حال من ضمير الحق وقرئ نزل على البناء للفاعل وأنزل على البنائين ونزل بالتخفيف (كفر عنهم سيآتهم) أى سترها بالايمان والعمل الصالح (واصلح بالهم) أى حالهم في الدين والدنيا بالتأييد

في كل لحظة و يجعل الدنيا كالهباء مالا يلتفت اليها ولا يقبل عليها (المسألة الرابعة) قوله وآمنوا بما نزل على محمد هو في مقابلة قوله في حق الكافر وصدوا لانا بينا في وجه ان المراد بهم صدوا عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وهذا حث على اتباع محمد صلى الله عليه وسلم فهم صدوا أنفسهم عن سبيل الله وهو محمد عليه السلام وما أنزل عليه وهؤلاء حثوا أنفسهم على اتباع سبيله لاجرم حصل لهؤلاء ضد ما حصل لاولئك فاضل الله حسنات أولئك وستر على سيآت هؤلاء (المسألة الخامسة) قوله تعالى وهو الحق من ربهم هل يمكن أن يكون من ربهم وصفا فارقا كما يقال رأيت رجلا من بغداد فيصير وصفا للرجل فارقا بينه و بين من يكون من الموصل وغيره نقول لا لان كل ما كان من الله فهو الحق فليس هذا هو الحق من ربهم بل قوله من ربهم خبر بعد خبر كأنه قال وهو الحق وهو من ربهم أو يكون وصفا فارقا وهو على معنى انه الحق النازل من ربهم لان الحق قد يكون مشاهدا فان كون الشمس مضيئة حق وهو ليس نازلا من الرب بل هو علم حاصل بطريق يسره الله تعالى له * ثم قال تعالى (كفر عنهم سيآتهم وأصلح بالهم) أي سترها وفيه اشارة الى بشارة ما كانت تحصل بقوله أعدمها ومحاها لان محو الشئ لا ينبئ عن اثبات أمر آخر مكانه وأما الستر فينبئ عنه وذلك لان من يريد ستر ثوب بال أو وسخ لا يستره بمثله وانما يستره بثوب نفيس نظيف ولاسيما الملك الجواد اذا ستر على عبد من عبيده ثوبه البالي أمر باحضار ثوب من الجنس العالي لا يحصل الا بالثمن الغالي فليس هذا هو الستر بينه وبين المحو بين وكذلك المغفرة فان المغفرة والتكفير من باب واحد في المعنى وهذا هو المذكور في قوله تعالى فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وقوله وأصلح بالهم اشارة الى ماذكرنا من انه يبدلها حسنة فان قيل كيف تبدل السيئة حسنة نقول معناه انه يجزيه بعد سيآته مايجزي المحسن على احسانه فان قال الاشكال باق و بادوما زال بل زاد فان الله تعالى لو أثاب على السيئة كما يثيب على الحسنة لكان ذلك حثا على السيئة نقول ماقلنا انه يثيب على السيئة وانما قلنا انه يثيب بعد السيئة بما يثيب على الحسنة وذلك حيث يأتي المؤمن بسيئة ثم يتنبه و يندم و يقف بين يدي ربه معترفا بذنبه مستحقرا لنفسه فيصير أقرب الى الرحمة من الذي لم يذنب ودخل على ربه مفتخرا في نفسه فصار الذنب شرط الندم والثواب ليس على السيئة وانما هو على الندم و كان الله تعالى قال عبدي أذنب ورجع الى ففعله سيئ لكن ظنه بي حسن حيث لم يجد ملجأ غيري فاتكل على فضلي والظن عمل القلب والفعل عمل البدن واعتبار عمل القلب أولى ألا ترى ان النائم والمغمى عليه لا يلتفت الى عمل بدنه والمفلوج الذي لا حركة له يعتبر قصد قلبه ومثال الروح والبدن راكب دابة يركض فرسه بين يدي ملك يدفع عنه العدو بسيفه وسنانه والفرس يلطخ ثوب الملك بركضه في استنانه فهل يلتفت الى فعل الدابة مع فعل الفارس بلى لو كان الراكب فارغا والفرس يؤذي بالناويس يخاطب الفارس به فكذلك الروح راكب والبدن مركوب فان كانت

والتوفيق (ذلك) اشارة الى مامر من اضلال الاعمال وتكفير السيآت واصلاح البال وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (أن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) أي ذلك كائن بسبب أن الاولين اتبعوا الشيطان كما قاله مجاهد ففعلوا مافعلوا من الكفر والصد فبيان سببية اتباعه للاضلال المذكور متضمن لبيان سببيتهما له لكونه أصلا مستتبعا لهما قطعا و بسبب أن الآخرين اتبعوا الحق الذي لا محيد عنه كائنا من ربهم ففعلوا مافعلوا من الايمان به و بكتابه ومن الاعمال الصالحة فبيان سببية اتباعه لما ذكر من التكفير والاصلاح بعد الاشعار بسببية الايمان والعمل الصالح له متضمن لبيان سببيتهما له لكونه مبدأ ومنشأ لهما حتما فلا تدافع بين الاشعار والتصريح في شئ

الروح مشغولة بعبادة الله وذكره ويصدر من البدن شئ لا يلتفت اليه بل يستحسن منه ذلك ويزاد في تربية الفرس الراكض ويهجر الفرس الواقف وان كان غير مشغول فهو مؤاخذ بافعال البدن * ثم قال تعالى (ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وان الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) أي ذلك الاضلال والابطال بسبب اتباعهم الباطل وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في الباطل وجوه (الاول) مالا يجوز وجوده وذلك لانهم اتبعوا الها غير الله والها غير الله محال الوجود وهو الباطل وغاية الباطل لان الباطل هو المعدوم يقال بطل كذا أي عدم والمعدوم الذي لا يجوز وجوده ولا يمكن أن يوجد ولا يجوز أن يصير حقا موجودا فهو في غاية البطلان فعلى هذا فالحق هو الذي لا يمكن عدمه وهو الله تعالى وذلك لان الحق هو الموجود يقال تحقق الامر أي وجد وثبت والموجود الذي لا يجوز عدمه هو في غاية الثبوت (الثاني) الباطل الشيطان بدليل قوله تعالى لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين فبين ان الشيطان متبوع وأتباعه هم الكفار والفجار وعلى هذا فالحق هو الله لانه تعالى جعل في مقابلة حزب الشيطان حزب الله (الثالث) الباطل هو قول كبرائهم ودين آبائهم كما قال تعالى عنهم انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون ومقتدون فعلى هذا الحق ما قاله النبي عليه السلام عن الله (الرابع) الباطل كل ما سوى الله تعالى لان الباطل والهالك بمعنى واحد وكل شئ هالك الا وجهه وعلى هذا فالحق هو الله تعالى أيضا (المسئلة الثانية) لو قال قائل من ربهم لا يلائم الا وجها واحدا من أربعة أوجه وهو قولنا المراد من الحق هو ما أنزل الله وما قال النبي عليه السلام من الله فأما على قولنا الحق هو الله فكيف يصح قوله اتبعوا الحق من ربهم نقول على هذا من ربهم لا يكون متعلقا بالحق وانما يكون تعلقه بقوله تعالى اتبعوا أي اتبعوا أمر ربهم أي من فضل الله أو هداية ربهم اتبعوا الحق وهو الله سبحانه (المسئلة الثالثة) اذا كان الباطل هو المعدوم الذي لا يجوز وجوده فكيف يمكن اتباعه نقول لما كانوا يقولون انما يفعلون الاصنام وهي آلهة وهي تؤجرهم بذلك كانوا متبعين في زعمهم ولا متبع هناك (المسئلة الرابعة) قال في حق المؤمنين اتبعوا الحق من ربهم وقال في حق الكفار اتبعوا الباطل من آلهتهم أو الشيطان نقول أما آلهتهم فلانهم لا كلام لهم ولا عقل وحيث ينطقهم الله ينكرون فعلهم كما قال تعالى ويوم القيامة يكفرون بشرككم وقال تعالى وكانوا بعبادتهم كافرين والله تعالى رضي بفعلهم وثبتهم عليه ويحتمل أن يقال قوله من ربهم عائد الى الامرين جميعا أي من ربهم اتبع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق أي من حكم ربهم ومن عند ربهم * ثم قال تعالى (كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) وفيه أيضا مسائل (المسئلة الاولى) أي مثل ضرب به الله تعالى حتى يقول كذلك يضرب الله للناس أمثالهم نقول فيه وجهان (أحدهما) اضلال أعمال الكفار وتكفير سيآت الابرار (الثاني) كون الكافر متبعا للباطل وكون المؤمن متبعا للحق ويحتمل وجهين آخرين

من الموضعين ويجوز أن يحمل الباطل على ما يقابل الحق وهو الزائل الذاهب الذي لا اصل له أصلا فالتصريح بسببية اتباعه لاضلال أعمالهم وابطالها لبيان أن ابطالها لبطلان مبناها وزواله وأما حمله على ما لا ينتفع به فليس كما ينبغي لما أن الكفر والصد أفحش منه فلا وجه للتصريح بسببيته لما ذكر من اضلال أعمالهم بطريق القصر بعد الاشعار بسببيتهما له فتدبر ويجوز أن يراد بالباطل نفس الكفر والصد وبالحق نفس الايمان والاعمال الصالحة فيكون التنصيص على سببيتهما لما ذكر من الاضلال ومن التكفير والاصلاح تصريحا بالسببية المشعر بها في الموضعين (كذلك) أي مثل ذلك الضرب البديع (يضرب الله) أي يبين (للناس أمثالهم) أي أحوال الفريقين وأوصافهما الجارية في الغرابة

(أحدهما) على قولنا من ربهم أي من عند ربهم اتبع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق نقول هذا مثل يضرب عليه جميع الامثال فان الكل من عند الله الاضلال وغيره والاتباع وغيره (وثانيهما) هو ان الله تعالى لما بين ان الكافر يضل الله عمله والمؤمن يكفر الله سيآته وكان بين الكفر والايمان مباينة ظاهرة فانهما ضدان نبه على أن السبب كذا أي ليس الاضلال والتكفير بسبب المضادة والاختلاف بل بسبب اتباع الحق والباطل واذا علم السبب فالفعلان قد يتحدان صورة وحقيقة وأحدهما يورث ابطال الاعمال والآخر يورث تكفير السيآت بسبب ان أحدهما يكون فيه اتباع الحق والآخر اتباع الباطل فان من يؤمن ظاهرا وقلبه مملوء من الكفر ومن يؤمن بقلبه وقلبه مملوء من الايمان اتحد فعلاهما في الظاهر وهما مختلفان بسبب اتباع الحق واتباع الباطل لا بدع من ذلك فان من يؤمن ظاهرا وهو يسر الكفر ومن يكفر ظاهر بالاكراه وقلبه مطمئن بالايمان اختلف الفعلان في الظاهر وابطال الاعمال لمن أظهر الايمان بسبب ان اتباع الباطل من جانبه فكأنه تعالى قال الكفر والايمان مثلان يثبت فيهما حكمان وعلم سببه وهو اتباع الحق والباطل فكذلك اعلموا ان كل شئ اتبع فيه الحق كان مقبولا مثابا عليه وكل أمر اتبع فيه الباطل كان مردودا معاقبا عليه فصار هذا عاما في الامثال على انا نقول قوله كذلك لا يستدعي أن يكون هناك مثل مضروب بل معناه انه تعالى لما بين حال الكافر واضلال أعماله وحال المؤمن وتكفير سيآته وبين السبب فيهما كان ذلك غاية الايضاح فقال كذلك أي مثل هذا البيان يضرب الله للناس أمثالهم ويبين لهم أحوالهم (المسئلة الثانية) الضمير في قوله أمثالهم عائد الى من فيه وجهان (أحدهما) الى الناس كافة قال تعالى يضرب الله للناس أمثالهم على أنفسهم (وثانيهما) الى الفريقين السابقين في الذكر معناه يضرب الله للناس أمثال الفريقين السابقين * ثم قال تعالى (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الفاء في قوله فاذا لقيتم يستدعي متعلقا يتعلق به ويترتب عليه فاوجه التعلق بما قبله نقول هو من وجوه (الاول) لما بين ان الذين كفروا أضل الله أعمالهم واعتبار الانسان بالعمل ومن لم يكن له عمل فهو همج فان صار مع ذلك يؤذي حسن اعدامه فاذا لقيتم بعد ظهور ان لا حرمة لهم وبعد ابطال أعمالهم فاضربوا اعناقهم (الثاني) اذا تبين تباين الفريقين وتباعد الطريقين وان أحدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان والآخر يتبع الحق وهو حزب الرحمن حق القتال عند التحزب فاذا لقيتموهم فاقتلوهم (الثالث) ان من الناس من يقول لضعف قلبه وقصور نظره ايلام الحيوان من الظلم والطغيان ولا سيما القتل الذي هو تخريب بنيان فقال ردا عليهم لما كان اعتبار الاعمال باتباع الحق والباطل فمن يقتل في سبيل الله لتعظيم أمر الله لهم من الاجر ما للمصلي والصائم فاذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذكم بهم رأفة فان ذلك اتباع الحق والاعتبار به لا بصورة الفعل (المسئلة الثانية)

مجرى الامثال وهي اتباع الاولين الباطل وخيبتهم وخسرانهم واتباع الآخرين الحق وفوزهم وفلاحهم والفاء في قوله تعالى (فاذا لقيتم الذين كفروا) لترتيب ما في حيزها من الامر على ما قبلها فان ضلال أعمال الكفرة وخيبتهم وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم مما يوجب أن يرتب على كل من الجانبين ما يليق به من الاحكام أي فاذا كان الامر كما ذكر فاذا لقيتموهم في المحاربة (فضرب الرقاب) أصله فاضربوا الرقاب ضربا فحذف الفعل وقدم المصدر وأنيب منابه مضافا الى المفعول وفيه اختصار وتأكيد بليغ والتعبير به عن القتل تصوير له بأشنع صورة وتهويل لامره وارشاد للغزاة الى أيسر ما يكون

فضرب منصوب على المصدر أي فاضربوا ضرب الرقاب (المسألة الثالثة) ما الحكمة في اختيار ضرب الرقبة على غيرها من الاعضاء نقول فيه لما بين أن المؤمن ليس يدافع انما هو دافع وذلك ان من يدفع الصائل لا ينبغي ان يقصد أولا مقتله بل يتدرج و يضرب على غير المقتل فان اندفع فذاك ولا يترقى الى درجة الاهلاك فقال تعالى ليس المقصود الا دفعهم عن وجه الارض وتطهير الارض منهم وكيف لا والارض لكم مسجد والمشركون نجس والمسجد يطهر عن النجاسة فاذن ينبغي أن يكون قصدكم أولا الى قتلهم بخلاف دفع الصائل والرقبة أظهر المقاتل لان قطع الحلقوم والاوداج مستلزم الموت لكن في الحرب لا يتهيأ ذلك والرقبة ظاهرة في الحرب ففي ضربها حز العنق وهو مستلزم للموت بخلاف سائر المواضع ولاسيما في الحرب وفي قوله لقيتم ما ينبئ عن مخالفتهم الصائل لان قوله لقيتم يدل على ان القصد من جانبهم بخلاف قولنا لقيكم ولذلك قال في غير هذا الموضع فاقتلوهم حيث ثقفتموهم (المسألة الرابعة) قال ههنا ضرب الرقاب باظهار المصدر وترك الفعل وقال في الانفال فاضربوا فوق الاعناق باظهار الفعل وترك المصدر فهل فيه فائدة نقول نعم وما بينهما يتقدم مقدمة وهي ان المقصود أولا في بعض السور قد يكون صدور الفعل من فاعل ويتبعه المصدر ضمنا اذ لا يمكن ان يفعل فاعل الا و يقع منه المصدر في الوجود وقد يكون المقصود أولا المصدر ولكنه لا يوجد الا من فاعل فيطلب منه ان يفعل مثاله من قال اني حلفت أن أخرج من المدينة فيقال له فاخرج صار المقصود منه صدور الفعل منه والخروج في نفسه غير مقصود الانتفاء ولو أمكن أن يخرج من غير تحقق الخروج منه لما كان عليه الا أن يخرج لكن من ضرورات الخروج ان يخرج فاذا قال قائل ضاق بي المكان بسبب الاعداء فيقال له مثلا الخروج يعني الخروج فاخرج فان الخروج هو المطلوب حتى لو أمكن الخروج من غير فاعل لحصل الغرض لكنه محال فيتبعه الفعل اذا عرفت هذا فنقول في الانفال الحكاية عن الحرب الكائن وهم كانوا فيه والملائكة أنزلوا لنصرة من حضر في صف القتال فصدور الفعل منهم مطلوب وههنا الامر وارد وليس في وقت القتال بدليل قوله تعالى فاذا لقيتم والمقصود ان يكون المصدر مطلوبا لتقدم المأمور على الفعل قال فضرب الرقاب وفيما ذكرنا تنبيه فائدة أخرى وهي ان الله تعالى قال هناك واضربوا منهم كل بنان وذلك لان الوقت وقت القتال فأرشدهم الى قتل وغيره ان لم يصيبوا المقتل وههنا ليس وقت القتال فبين ان المقصود القتل وغرض المسلم ذلك (المسألة الخامسة) حتى لبيان غاية الامر لا لبيان غاية القتل أي حتى اذا أثخنتموهم لا يبقى الامر بالقتل و يبقى الجواز ولو كان لبيان القتل لما جاز القتل والقتل جائز اذا التحق المثخن بالشيخ الهرم والمراد كما اذا قطعت يداه ورجلاه فنهى عن قتله * ثم قال تعالى (فشدوا الوثاق) أمر ارشاد ثم قال تعالى (فاما منا بعد واما فداء) وفيه مسائل (المسألة الاولى) اما وانما للحصر وحالهم بعد الاسر غير منحصر

منه (حتى اذا أثخنتموهم) أي أكثرتم قتلهم واغلظتموه من الشيء الثخين وهو الغليظ أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض (فشدوا الوثاق) فأسروهم واحفظوهم والوثاق اسم لما يوثق به وكذا الوثاق بالكسر وقد قرئ بذلك (فاما منا بعد واما فداء) أي فاما تمنون منا بعد ذلك أو تفدون فداء والمعنى التخيير بين القتل والاسترقاق والمن والفداء وهذا ثابت عند الشافعي رحمه الله تعالى وعندنا منسوخ قالوا نزل ذلك يوم بدر ثم نسخ والحكم اما القتل أو الاسترقاق وعن مجاهد ليس اليوم من ولا فداء انما هو الاسلام أو ضرب العنق

فى الامرين بل يجوز القتل والاسترقاق والمن والفداء نقول هذا ارشاد فذكر الامر العام الجائز فى سائر الاجناس والاسترقاق غير جائز فى أسر العرب فان النبى صلى الله عليه وسلم كان معهم فلم يذكر الاسترقاق وأما القتل فلان الظاهر فى المثخن الازمان ولان القتل ذكره بقوله فضرب الرقاب فلم يبق الا الامران (المسئلة الثانية) منا وفداء منصوبان لكونهما مصدرين تقديره فاما تمنون منا واما تفدون فداء وتقديم المن على الفداء اشارة الى ترجيح حرمة النفس على طلب المال والفداء يجوز أن يكون مالا وأن يكون غيره من الاسرى أو شرطا يشترط عليهم أو عليه وحده (المسئلة الثالثة) اذا قدرنا الفعل وهو تمنون أو تفدون على تقدير المفعول حتى تقول اما تمنون عليهم منا أو تفدونهم فداء نقول لا لان المقصود المن والفداء لا عليهم وبهم كما يقول القائل فلان يعطى ويمنع ولا يقال يعطى زيدا ويمنع عمرا لان غرضه ذكر كونه فاعلا لا بيان المفعول وكذلك ههنا المقصود ارشاد المؤمنين الى الفضل * ثم قال تعالى (حتى تضع الحرب أوزارها) وفى تعلق حتى وجهان (أحدهما) تعلقها بالقتل أقتلوهم حتى تضع (وثانيهما) بالمن والفداء ويحتمل أن يقال متعلقة بشدوا الوثاق وتعلقها بالقتل أظهر وان كان ذكره أبعد وفى الاوزار وجهان (أحدهما) السلاح (والثانى) الآثام وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان كان المراد الاثم فكيف تضع الحرب الاثم والاثم على المحارب وكذلك السؤال فى السلاح لكنه على الاول اشد توجها فنقول تضع الحرب الاوزار لا من نفسها بل تضع الاوزار التى على المحاربين والسلاح الذى عليهم (المسئلة الثانية) هل هذا كقوله تعالى واسئل القرية حتى يكون كأنه قال حتى تضع أمة الحرب أو فرقة الحرب أوزارها نقول ذلك محتمل فى النظر الاول لكن اذا أمعنت فى المعنى تجد بينهما فرقا وذلك لان المقصود من قوله حتى تضع الحرب أوزارها انقراض الحرب بالكلية بحيث لا يبقى فى الدنيا حرب من أحزاب الكفر يحارب حزبا من احزاب الاسلام ولو قلنا حتى تضع أمة الحرب جاز أن يضعوا الاسلحة ويتركوا الحرب وهى باقية بمدتها كما تقول خصومتى ما انفصلت ولكنى تركتها فى هذه الايام واذا أسندنا الوضع الى الحرب يكون معناه ان الحرب لم يبق (المسئلة الثالثة) لو قال حتى لا يبقى حرب أو ينقرض الحرب هل يحصل معنى قوله حتى تضع الحرب أوزارها نقول لا والتفاوت بين العبارتين مع قطع النظر عن التعميم بل النظر الى نفس المعنى كالتفاوت بين قولك انقرضت دولة بنى أمية وقولك لم يبق من دولتهم أثر ولا شك ان الثانى ابلغ فكذلك ههنا قوله تعالى أوزارها معناه آثارها فان أوزار الحرب آثارها (المسئلة الرابعة) وقت وضع اوزار الحرب متى هو نقول فيه اقوال حاصلها راجع الى أن ذلك الوقت هو الوقت الذى لا يبقى فيه حزب من احزاب الاسلام وحزب من احزاب الكفر وقيل ذلك عند قتال الدجال ونزول عيسى عليه السلام * ثم قال تعالى (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم) فى معنى ذلك وجهان (احدهما) الامر ذلك والمبتدا محذوف ويحتمل ان يقال ذلك واجب او مقدم

وقرئ فداً كعصا (حتى تضع الحرب ﴿٥٢٩﴾ أوزارها) أوزار الحرب آلاتها وأثقالها التى لاتقوم الابها من السلاح والكراع وأسند وضعها اليها وهو لاهلها اسنادا مجازيا وحتى غاية عند الشافعى لاحد الامور الاربعة أو للمجموع والمعنى أنهم لايزالون على ذلك أبدا الى أن لايكون مع المشركين حرب بأن لاتبقى لهم شوكة وقيل بأن ينزل عيسى عليه السلام وأما عند أبى حنيفة رحمه الله تعالى فان حمل الحرب على حرب بدر فهى غاية للمن والفداء والمعنى يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها وان حملت على الجنس فهى غاية للضرب والشد والمعنى أنهم يقتلون ويؤسرون حتى يضع جنس الحرب أوزارها بأن لايبقى للمشركين شوكة وقيل أوزارها آثامها أى حتى يترك المشركون شركهم ومعاصيهم بأن أسلموا (ذلك) أى الامر ذلك أو افعلوا ذلك (ولو يشاء الله لانتصر منهم) لانتقم منهم ببعض أسباب الهلكة ﴿٦٧﴾ منا والاستئصال (ولكن) لم يشأ ذلك (ليبلو بعضكم

والكافرين بكم ليعاجلهم على أيديكم ببعض عذابهم كي يرتدع بعضهم عن الكفر (والذين قتلوا في سبيل الله) أي استشهدوا وقرئ قاتلوا أي جاهدوا وقتلوا وقتلوا (فلن يضل أعمالهم) أي فلن يضيعها وقرئ يضل أعمالهم على البناء للمفعول ويضل أعمالهم من ضل وعن قتادة أنها نزلت في يوم أحد (سيهديهم) في الدنيا الى أرشد الامور وفي الآخرة الى الثواب أو سيثبت هدايتهم (ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم) في الدنيا بذكر أوصافها بحيث اشتاقوا اليها أو بينها لهم بحيث يعلم كل أحد منزله ويهتدي اليه كأنه كان ساكنه منذ خلق وعن مقاتل أن الملك الموكل بعمله في الدنيا يمشي بين يديه فيعرفه كل شئ أعطاه الله تعالى أو طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة أو حددها لهم وأفرزها من عرف الدار فجنة كل منهم

كما يقول القائل ان فعلت فذاك أي فذاك مقصود ومطلوب ثم بين ان قتالهم ليس طريقا متعينا بل الله لو أراد أهلكهم من غير جند* قوله تعالى (ولكن ليبلو بعضكم ببعض) أي ولكن ليكلفكم به فيحصل لكم شرف باختياره اياكم لهذا الامر فان قيل ما التحقيق في قولنا التكليف ابتلاء وامتحان والله يعلم السر وأخفى وماذا يفهم من قوله ولكن ليبلو بعضكم ببعض نقول فيه وجوه (الاول) المراد منه يفعل ذلك فعل المبتلين أي كما يفعل المبتلي المختبر ومنها ان الله تعالى يبلو ليظهر الامر لغيره اما للملائكة واما للناس والتحقيق هو ان الابتلاء والامتحان والاختبار فعل يظهر بسببه أمر غير متعين عند العقلاء بالنظر اليه قصدا الى ظهوره وقولنا فعل يظهر بسببه أمر ظاهر الدخول في مفهوم الابتداء لان ما لا يظهر بسببه شئ أصلا لا يسمى ابتلاء وأما قولنا أمر غير متعين عند العقلاء وذلك لان من يضرب بسيفه على القثاء والخيار لا يقال انه يمتحن لان الامر الذي يظهر منه متعين وهو القطع والقد بقسمين فاذا ضرب بسيفه سبعا يقال يمتحن سيفه لان الامر فيه غير متعين وقد يقده وقد لا يقده وأما قولنا ليظهر منه ذلك فلان من يضرب سبعا بسيفه ليدفعه عن نفسه لا يقال انه يمتحن لان ضربه ليس لظهور أمر متعين اذا علم هذا فنقول الله تعالى اذا أمر بافعل يظهر بسببه أمر غير متعين وهو اما الطاعة أو المعصية في العقول ليظهر ذلك يكون ممتحنا وان كان عالما به لكون عدم العلم مقارنا فينا لابتلائنا فاذا ابتلينا وعدم العلم فينا مستمر أمرنا وليس من ضرورات الابتلاء فان قيل الابتلاء فائدته حصول العلم عند المبتلي فاذا كان الله تعالى عالما فاية فائدة فيه نقول ليس هذا سؤالا يختص بالابتلاء فان قول القائل لم ابتلى كقول القائل لم عاقب الكافر وهو مستغن ولم خلق النار محرقة وهو قادر على ان يخلقها بحيث تنفع ولا تضر (وجوابه) لا يسئل عما يفعل ونقول حينئذ ما قاله المتقدمون انه لظهور الامر المتعين لا له وبعد هذا فنقول المبتلي لا حاجة له الى الامر الذي يظهر من الابتلاء فان الممتحن السيف فيما ذكرنا من الصورة لا حاجة له الى قطع ما يجرب السيف فيه حتى انه لو كان محتاجا كما ضربنا من مثال دفع السبع بالسيف لا يقال انه يمتحن وقوله ليبلو بعضكم ببعض اشارة الى عدم الحاجة تقريرا لقوله تعالى ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم* ثم قال تعالى (والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) قرئ قتلوا وقاتلوا والكل مناسب لما تقدم اما من قرأ قتلوا فلانه لما قال فضرب الرقاب ومعناه فاقتلوهم بين ما للقاتل بقوله والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ردا على من زعم أن القتل فساد محرم اذ هو افناء من هو مكرم فقال عملهم ليس كحسنة الكافر يبطل بل هو فوق حسنات الكافر أضل الله أعمال الكفار ولن يضل القاتلين فكيف يكون القتل سيئة واما من قرأ قاتلوا فهو أكثر فائدة وأعم تناولا لانه يدخل فيه من سعى في القتل سواء قتل أو لم يقتل واما من قرأ والذين قتلوا على البناء للمفعول فنقول هي مناسبة لما تقدم من وجوه (أحدها) هو انه تعالى لما قال فضرب الرقاب أي اقتلوا والقتل لا يتأتى الا بالاقدام

محذوفة مغرزة والجملة اما مستأنفة أو حال باضمار قد أو بدونه (يا ايها الذين آمنوا ان تنصروا الله) اى

وخوف ان يقتل المقدم يمنعه من الاقدام فقال لا تخافوا قتل فان من يقتل في سبيل الله
له من الاجر والثواب مالا يمنع المقاتل من القتال بل يحثه عليه (وثانيها) هو انه تعالى
لما قال ليبلو بعضكم ببعض والمبتلى بالشئ له في كل وجه من وجوه اثر الظاهر بالابتلاء
حال من الاحوال فان السيف الممتحن تزيد قيمته على تقدير أن يقطع وتنقص على تقدير
أن لا يقطع فعال المبتلين ماذا فقال ان قتل فله ان لا يضل عمله ويهدى ويكرم ويدخل
الجنة واما ان قتل فلا يخفى أمره عاجلا وآجلا وترك بيانه على تقدير كونه قاتلا لظهوره
وبين حاله على تقدير كونه مقتولا (وثالثها) هو انه تعالى لما قال ليبلوكم ولا يبتلى الشئ
النفيس بما يخاف منه هلاكه فان السيف المهند العضب الكبير القيمة لا يجرب بالشئ
الصلب الذي يخاف عليه منه الانكسار ولكن الآدمي مكرم كرمه الله وشرفه وعظمه
فلماذا ابتلاه بالقتال وهو يفضي الى القتل والهلاك افضاء غير نادر فكيف يحسن هذا
الابتلاء فنقول القتل ليس باهلاك بالنسبة الى المؤمن فانه يورث الحياة الابدية فاذا
ابتلاه بالقتل فهو على تقدير أن يقتل مكرم وعلى تقدير ان لا يقتل مكرم هذا ان قاتل
وان لم يقاتل فالموت لا بد منه وقد فوت على نفسه الاجر الكبير واما قوله تعالى فلن يضل
اعمالهم قد علم معنى الاضلال بقي الفرق بين العبارتين في حق الكافر والضال قال أضل
وقال في حق المؤمن الداعي لن يضل لان المقاتل داع الى الايمان لان قوله حتى تضع الحرب
أوزارها قد ذكر أن معناه حتى لم يبق اثم بسبب حرب وذلك حيث يسلم الكافر فالمقاتل
يقول اما ان تسلم واما ان تقتل فهو داع والكافر صاد وبينهما تباين وتضاد فقال في حق
الكافر أضل بصيغة الماضي ولم يقل يضل اشارة الى ان عمله حيث وجد عدم وكأنه لم يوجد
من أصله وقال في حق المؤمن فلن يضل ولم يقل ما أضل اشارة الى ان عمله كما ثبت عليه أثبت
له فلن يضل للتأبيد وبينهما غاية الخلاف كما أن بين الداعي والصاد غاية التباين والتضاد فان
قيل ما معنى الفاء في قوله فلن يضل جوابه لان في قوله تعالى والذين قتلوا معنى الشرط
❊ وقوله تعالى (سيهديهم) ان قرئ قتلوا أو قاتلوا فالهداية محمولة على الآجلة والعاجلة
وان قرئ قتلوا فهو في الآخرة سيهديهم طريق الجنة من غير وقفة من قبورهم الى موضع
حبورهم ❊ وقوله (ويصلح بالهم) قد تقدم تفسيره في قوله تعالى أصلح بالهم والماضي
والمستقبل راجع الى ان هناك وعدهم ما وعدهم بسبب الايمان والعمل الصالح وذلك كان
واقعا منهم فاخبر عن الجزاء بصيغة تدل على الوقوع وههنا وعدهم بسبب القتال والقتل
فكان في اللفظ ما يدل على الاستقبال لان قوله تعالى فاذا لقيتم يدل على الاستقبال فقال
ويصلح بالهم ❊ ثم قال تعالى (ويدخلهم الجنة) وكان الله تعالى عند حشرهم يهديهم الى
طريق الجنة ويلبسهم في الطريق خلع الكرامة وهو اصلاح البال ويدخلهم الجنة فهو
على ترتيب الوقوع ❊ واما قوله (عرفها لهم) ففيه وجوه (أحدها) هو ان كل أحد يعرف
منزلته ومأواه حتى ان أهل الجنة يكونون أعرف بمنازلهم فيها من أهل الجمعة ينتشرون

دينه ورسوله (ينصركم) على أعدائكم ويفتح لكم (ويثبت أقدامكم) في مواطن الحرب ومواقفها أو على محجة الاسلام (والذين كفروا فتعسا لهم) التعس الهلاك والعثار والسقوط والشر والبعد والانحطاط ورجل تاعس وتعس وانتصابه بفعله الواجب حذفه سماعا أي فقال تعسا لهم أو فقضى تعسا لهم وقوله تعالى (وأضل أعمالهم) عطف عليه داخل معه في حيز الخبر به الموصول (ذلك) أي ما ذكر من التعس واضلال الاعمال (بأنهم) بسبب أنهم (كرهوا ما أنزل الله) من القرآن لما فيه من التوحيد وسائر الاحكام المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم الامارة بالسوء (فأحبط) لاجل ذلك (أعمالهم) التي لو كانوا عملوها مع الايمان لأثيبوا عليها (أفلم يسيروا في الارض) أي أقعدوا في اماكنهم فلم يسيروا فيها (فينظروا كيف كان عاقبة الذين

فى الارض كل أحد يأوى الى منزله ومنهم من قال الملك الموكل باعماله يهديه (الوجه الثانى) عرفها لهم أى طيبها يقال طعام معرف (الوجه الثالث) قال الزمخشرى يحتمل أن يقال عرفها لهم حددها من عرف الدار وأرفها أى حددها وتحديدها فى قوله وجنة عرضها السموات والارض ويحتمل أن يقال المراد هو قوله تعالى وتلك الجنة التى أورثتموها مشيرا اليها معرفا لهم بانها هى تلك وفيه وجه آخر وهو أن يقال معناه عرفها لهم قبل القتل فان الشهيد قبل وفاته تعرض عليه منزلته فى الجنة فيشتاق اليه (ووجه ثان) معناه يدخلهم الجنة ولا حاجة الى وصفها فانه تعالى عرفها لهم مرارا ووصفها (ووجه ثالث) وهو من باب تعريف الضالة فان الله تعالى لما قال ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة فكانه تعالى قال من يأخذ الجنة و يطلبها باماله أو بنفسه فالذى قتل سمع التعريف و بذل ما طلب منه عليها فادخلها ثم انه تعالى لما بين ما على القتال من الثواب والاجر وعدهم بالنصر فى الدنيا زيادة فى الحث ليزداد منهم الاقدام ✻ فقال (ياايها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم و يثبت أقدامكم) وفى نصر الله تعالى وجوه (الاول) ان تنصروا دين الله وطريقه (والثانى) ان تنصروا حزب الله وفريقه (والثالث) المراد نصرة الله حقيقة فنقول النصرة تحقيق مطلوب أحد المتعاديين عند الاجتهاد والاخذ فى تحقيق علامته فالشيطان عدو الله يجتهد فى تحقيق الكفر وغلبة أهل الايمان والله يطلب قمع الكفر واهلاك أهله وافناء من اختار الاشراك بجهله فمن حقق نصرة الله حيث حقق مطلوبه لا تقول حقق مراده فان مراد الله لا يحققه غيره ومطلوبه عند أهل السنة غير مراده فانه طلب الايمان من الكافر ولم يرده والا لوقع ثم قال ينصركم فان قيل فعلام قلت اذا نصر المؤمنين الله تعالى فقد حقق ما طلبه فكيف يحقق ما طلبه العبد وهو شئ واحد فنقول المؤمن ينصر الله بخروجه الى القتال واقدامه والله ينصره بتقويته وتثبيت اقدامه وارسال الملائكة الحافظين له من خلفه وقدامه ✻ ثم قال تعالى (والذين كفروا فتعسا لهم) هذا زيادة فى تقوية قلوبهم لانه تعالى لما قال و يثبت أقدامكم جاز أن يتوهم أن الكافر أيضا يصبر و يثبت للقتال فيدوم القتال والحراب والطعان والضراب وفيه المشقة العظيمة فقال تعالى لكم الثبات ولهم الزوال والتغير والهلاك فلا يكون الثبات وسببه ظاهر لان آلهتهم جمادات لا قدرة لها ولا ثبات عند من له قدرة فهى غير صالحة لدفع ما قدره الله تعالى عليهم من الدمار وعند هذا لا بد من زوال القدم والعثار وقال فى حق المؤمنين و يثبت بصيغة الوعد لان الله تعالى لا يجب عليه شئ وقال فى حقهم بصيغة الدعاء وهى أبلغ من صيغة الاخبار من الله لان عثارهم واجب لان عدم النصرة من آلهتهم واجب الوقوع اذ لا قدرة لها والتثبيت من الله ليس بواجب الوقوع لانه قادر مختار يفعل ما يشاء ✻ وقوله (واضل أعمالهم) اشارة الى بيان مخالفة موتاهم لقتلى المسلمين حيث قال فى حق قتلاهم فلن يضل أعمالهم وقال فى موتى الكافرين أضل أعمالهم ثم بين الله تعالى سبب

استئناف مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل كيف كان عاقبتهم فقيل استأصل الله تعالى عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم يقال دمره أهلكه ودمر عليه أهلك عليه ما يختص به (وللكافرين) أى ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتهم (امثالها) أمثال عواقبهم أو عقوباتهم لكن لا على أن لهؤلاء أمثال ما لاولئك وأضعافه بل مثله وانما جمع باعتبار مماثلته لعواقب متعددة حسب تعدد الامم المعذبة وقيل يجوز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الاولين وقد قتلوا وأسروا بأيدى من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم والقتل بيد المثل أشد ألما من الهلاك بسبب عام وقيل المراد بالكافرين المتقدمون بطريق وضع الظاهر موضع الضمير كأنه قيل دمر الله عليهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة أمثالها (ذلك) اشارة الى ثبوت أمثال عقوبة الامم السالفة لهؤلاء ﴿ ما اختلقوا ﴾ (بأن الله مولى الذين آمنوا)

ما لم ... فقال (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) وفيه وجوه (الاول) المراد القرآن ووجهه هو ان كيفية العمل الصالح لاتعلم بالعقل وانما تدرك بالشرع والشرع بالقرآن فلما أعرضوا لم يعرفوا العمل الصالح وكيفية الاتيان به فأتوا بالباطل فأحبط أعمالهم (الثانى) كرهوا ما أنزل الله من بيان التوحيد كما قال الله تعالى عنهم أئنا لتاركوا آلهتنا وقال تعالى أجعل الآلهة الها واحدا الى ان قال ان هذا الا اختلاق وقال تعالى واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ووجهه ان الشرك يحبط العمل قال الله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك وكيف لا والعمل من المشرك لايقع لوجه الله فلا بقاء له فى نفسه ولا بقاء له ببقاء من له العمل لان كل ماسوى وجه الله تعالى هالك محبط (الثالث) كرهوا ما أنزل الله من بيان أمر الاخرة فلم يعملوا لها والدنيا ومافيها وما آتها باطل فأحبط الله أعمالهم * وقوله (أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) فيه مناسبة للوجه الثالث يعنى فينظروا الى حالهم ويعلموا ان الدنيا فانية * وقوله (دمر الله عليهم) أى أهلك عليهم متاع الدنيا من الاموال والاولاد والارواح والاجساد * قوله تعالى (وللكافرين أمثالها) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد لهم أمثالها فى الدنيا وحينئذ يكون المراد من الكافرين هم الكافرون بمحمد عليه الصلاة والسلام (وثانيهما) أن يكون المراد لهم أمثالها فى الآخرة فيكون المراد من تقدم كأنه يقول دمر الله عليهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة أمثالها وفى العائد اليه ضمير المؤنث فى قوله أمثالها وجهان (أحدهما) هو المذكور وهو العاقبة (وثانيهما) هو المفهوم وهو العقوبة لان التدمير كان عقوبة لهم فان قيل على قولنا المراد للكافرين بمحمد عليه السلام أمثال ما كان لمن تقدمهم من العاقبة يرد سؤال وهو ان الاولين أهلكوا بوقائع شديدة كالزلازل والنيران وغيرهما من الرياح والطوفان ولا كذلك قوم محمد صلى الله عليه وسلم نقول جاز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الاولين لكون دين محمد أظهر بسبب تقدم الانبياء عليهم السلام عليه واخبارهم عنه وانذارهم به على انهم قتلوا واسروا بأيدى من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم والقتل بيد المثل آلم من الهلاك بسبب عام (وسؤال آخر) اذا كان الضمير عائدا الى العاقبة فكيف يكون لها أمثال قلنا يجوز أن يقال المراد العذاب الذى هو مدلول العاقبة أو الالم الذى كانت العاقبة عليه * ثم قال تعالى (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لامولى لهم) ذلك يحتمل أن يكون اشارة الى النصر وهو اختيار جماعة ذكره الواحدى ويحتمل وجها آخر أغرب من حيث النقل وأقرب من حيث العقل وهو انا لما بينا ان قوله تعالى وللكافرين أمثالها اشارة الى ان قوم محمد عليه الصلاة والسلام اهلكوا بأيدى أمثالهم الذين كانوا لا يرضون بمجالستهم وهو آلم من الهلاك بالسبب العام قال تعالى ذلك أى الاهلاك والهوان بسبب ان الله تعالى ناصر المؤمنين والكافرون اتخذوا آلهة لاتنفع ولا تضر وتركوا الله فلا ناصر لهم ولا شك ان من ينصره

من العقوبة والعذاب ولا يخالف هذا قوله تعالى ثم ردوا الى الله مولاهم الحق فان المولى هناك بمعنى المالك (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار) بيان لحكم ولايته تعالى لهم وثمرتها الاخروية (والذين كفروا يتمتعون) أى ينتفعون فى الدنيا بمتاعها (ويأكلون كما تأكل الانعام) غافلين عن عواقبهم (والنار مثوى لهم) أى منزل ثواء واقامة والجملة اما حال مقدرة من واو يأكلون أو استئناف (وكأين) كلمة مركبة من الكاف وأى بمعنى كم الخبرية ومحلها الرفع بالابتداء وقوله تعالى (من قرية) تمييزلها وقوله تعالى (هى أشد قوة من قريتك) صفة لقرية كما أن قوله تعالى (التى أخرجتك) صفة لقريتك وقد حذف عنهما المضاف وأجرى أحكامه عليهما كما يفصح عنه الخبر الذى هو قوله تعالى (أهلكناهم) أى وكم من أهل قرية

الله تعالى يقدر على القتل والاسر وان كان له أنف ناصر فضلا عن أن يكون لا ناصر لهم فان قيل كيف الجمع بين قوله تعالى لا مولى لهم و بين قوله مولاهم الحق نقول المولى ورد بمعنى السيد والرب والناصر فحيث قال لا مولى لهم أراد لا ناصر لهم وحيث قال مولاهم الحق أى ربهم ومالكهم كما قال تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم وقال ربكم ورب آبائكم الاولين وفى الكلام تباين عظيم بين الكافر والمؤمن لان المؤمن ينصره الله وهو خير الناصرين والكافر لا مولى له بصيغة نافية للجنس فليس له ناصر وانه شر الناصرين * ثم قال تعالى (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار والذين كفروا يتمتعون و يأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم) لما بين الله تعالى حال المؤمنين والكافرين فى الدنيا بين حالهم فى الآخرة قال انه يدخل المؤمن الجنة والكافر النار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كثيرا ما يقتصر الله على ذكر الانهار فى وصف الجنة لان الانهار يتبعها الاشجار والاشجار تتبعها الثمار ولانه سبب حياة العالم والنار سبب الاعدام وللمؤمنين الماء ينظر اليه و ينتفع به وللكافر النار يتقلب فيها و يتضرر بها (المسئلة الثانية) ذكرنا مرارا ان من فى قوله من تحتها الانهار يحتمل أن يكون صلة معناه تجرى تحتها الانهار و يحتمل أن يكون المراد ان ماءها منها لا يجرى اليها من موضع آخر فيقال هذا النهر منبعه من أين يقال من عين كذا من تحت جبل كذا (المسئلة الثالثة) قال والذين كفروا يتمتعون خصهم بالذكر مع ان المؤمن أيضا له التمتع بالدنيا وطيباتها نقول من يكون له ملك عظيم و يملك شيأ يسيرا أيضا لا يذكر الا بالملك العظيم لا يقال فى حق الملك العظيم صاحب الضيعة الفلانية ومن لا يملك الا شيأ يسيرا فلا يذكر الا به فالمؤمن له ملك الجنة فمتاع الدنيا لا يلتفت اليه فى حقه والكافر ليس له الا الدنيا ووجه آخر الدنيا للمؤمن سجن كيف كان ومن يأكل فى السجن لا يقال انه يتنعم فان قيل كيف تكون الدنيا سجنا مع ما فيها من الطيبات نقول للمؤمن فى الاخرة طيبات معدة واخوان مكرمون نسبتها ونسبتهم الى الدنيا ومن فيها تبين بمثال وهو ان من يكون له بستان فيه من كل الثمرات الطيبة فى غاية اللذة وأنهار جارية فى غاية الصفاء ودور وغرف فى غاية الرفعة وأولاده فيها وهو قد غاب عنهم سنين ثم توجه اليهم فيها فلما قرب منهم عوق فى أجمة فيها من بعض الثمار العفصة والمياه الكدرة وفيها سباع وحشرات كثيرة فهل يكون حاله فيها كحال مسجون فى بئر مظلمة وفى بيت خراب أم لا وهل يجوز أن يقال له اترك ما هو لك وتعلل بهذه الثمار وهذه الانهار أم لا كذلك حال المؤمن وأما الكافر فحاله كحال من يقدم الى القتل فيصبر عليه أياما فى مثل تلك الاجمة التى ذكرناها يكون فى جنة ونسبة الدنيا الى الجنة والنار دون ما ذكرنا من المثال لكنه ينبئ ذا البال عن حقيقة الحال وقوله كما تأكل الانعام يحتمل وجوها (أحدها) ان الانعام يهمها الاكل لا غير والكافر كذلك والمؤمن يأكل ليعمل صالحا ويقوى عليه (وثانيها) الانعام لا تستدل بالمأكول على خالقها والكافر كذلك

للايذان بأولوية الثانية منها بالاهلاك لضعف قوتها كما أن وصف الثانية باخراجه عليه الصلاة والسلام للايذان بأولويتها به لقوة جنايتها وعلى طريقته قول النابغة * كليب لعمرى كان أكثر ناصرا * وأيسر جرما منك ضرج بالدم * وقوله تعالى (فلا ناصر لهم) بيان لعدم خلاصهم من العذاب بواسطة الاعوان والانصار اثر بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم والفاء لترتيب ذكر ما بالغير على ذكر ما بالذات وهو حكاية حال ماضية (أفمن كان على بينة من ربه) تقرير لتباين حالى فريقى المؤمنين والكافرين وكون الاولين فى أعلى عليين والآخرين فى أسفل سافلين وبيان لعلة مالكل منهما من الحال والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقد قرئ بدونها ومن عبارة عن المؤمنين المتمسكين بأدلة الدين وجعلها عبارة عن النبى عليه الصلاة والسلام أوعنه وعن المؤمنين لا يساعده النظم الكريم ﴿ وثانيها ﴾ على ان الموازنة بينه عليه الصلاة

(وثالثها) الانعام تعلف لتسمن وهى غافلة عن الامر لاتعلم انها كلما كانت أسمن كانت أقرب الى الذبح والهلاك وكذلك الكافر ويناسب ذلك قوله تعالى والنار مثوى لهم (المسئلة الرابعة) قال فى حق المؤمن ان الله يدخل بصيغة الوعد وقال فى حق الكافر والنار مثوى لهم بصيغة تنبئ عن الاستحقاق لماذكرنا ان الاحسان لايستدعى أن يكون عن استحقاق فالمحسن الى من لم يوجد منه ما يوجب الاحسان كريم والمعذب من غير استحقاق ظالم * قوله تعالى (وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) لما ضرب الله تعالى لهم مثلا بقوله أفلم يسيروا فى الارض ولم ينفعهم مع ما تقدم من الدلائل ضرب للنبى عليه السلام مثلا تسلية له فقال وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك اهلكناهم وكانوا أشد من أهل مكة كذلك نفعل بهم فاصبر كما صبر رسلهم وقوله فلا ناصر لهم قال الزمخشرى كيف قوله فلا ناصر لهم مع ان الاهلاك ماض وقوله فلا ناصر لهم للحال والاستقبال والجواب انه محمول على الحكاية والحكاية كالحال الحاضر ويحتمل ان يقال أهلكناهم فى الدنيا فلا ناصر لهم ينصرهم ويخلصهم من العذاب الذى هم فيه ويحتمل أن يقال قوله فلا ناصر لهم عائد الى أهل قرية محمد عليه السلام كأنه قال أهلكنا من تقدم أهل قريتك ولا ناصر لاهل قريتك ينصرهم ويخلصهم مما جرى على الاولين * ثم قال تعالى (أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم) اعلم ان هذا اشارة الى الفرق بين النبى عليه السلام والكفار ليعلم ان اهلاك الكفار ونصرة النبى عليه السلام فى الدنيا محقق وان الحال يناسب تعذيب الكافر واثابة المؤمن وقوله على بينة فرق فارق وقوله من ربه مكمل له وذلك ان البينة اذا كانت نظرية تكون كافية للفرق بين المتمسك بها وبين القائل قولا لادليل عليه فاذا كانت البينة منزلة من الله تعالى تكون أقوى وأظهر فتكون أعلى وأبهر ويحتمل أن يقال قوله من ربه ليس المراد انزالها منه بل المراد كونها من الرب بمعنى قوله يهدى من يشاء وقولنا الهداية من الله وكذلك قوله تعالى كمن زين له سوء عمله فرق فارق وقوله واتبعوا أهواءهم تكملة وذلك ان من زين له سوء عمله وراجت الشبهة عليه فى مقابلة من يتبين له البرهان وقبله لكن من راجت الشبهة عليه قد يتفكر فى الامر ويرجع الى الحق فيكون أقرب الى من هو على البرهان وقد يتبع هواه ولايتدبر فى البرهان ولايتفكر فى البيان فيكون فى غاية البعد فاذن حصل النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمن مع الكافر فى طرفى التضاد وغاية التباعد حتى مدهم بالبينة والكافر له الشبهة وهو مع الله وأولئك مع الهوى وعلى قولنا من ربه معناه الاضافة الى الله كقولنا الهداية من الله فقوله اتبعوا أهواءهم مع ذلك القول يفيد معنى قوله تعالى ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وقوله كمن زين له سوء عمله بصيغة التوحيد محمول على لفظة من وقوله واتبعوا أهواءهم محمول على معناه فانها للجمع والعموم وذلك لان التزيين للكل على حد واحد فحمل على

والسلام وبينهم عما يأباه منصبه الجليل والتقدير أليس الامر كذا كمن كان مستقرا على حجة ظاهرة و برهان نير من مالك أمره ومربيه وهو القرآن الكريم وسائر المعجزات والحجج العقلية (كمن زين له سوء عمله) من الشرك وسائر المعاصى مع كونه فى نفسه أقبح القبائح (واتبعوا) بسبب ذلك التزيين (أهواءهم) الزائغة وانهمكوا فى فنون الضلالات من غير أن يكون لهم شبهة توهم صحة ما هم عليه فضلا عن حجة تدل عليه وجمع الضميرين الاخيرين باعتبار معنى من كما أن افراد الاولين باعتبار لفظها (مثل الجنة التى وعد المتقون) استئناف مسوق لشرح محاسن الجنة الموعودة آنفا للمؤمنين و بيان كيفية أنهارها التى أشير الى جريانها من تحتها وعبر عنهم بالمتقين ايذانا بأن الايمان والعمل الصالح من باب التقوى الذى هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك السيآت عن آخرها ومثلها وصفها العجيب الشأن وهو مبتدأ محذوف الخبر فقدره النضر بن شميل مثل الجنة ما تسمعون وقوله تعالى (فيها أنهار)

اللفظ اقرب منه في الحس والذكر وعند اتباع الهوى كل أحد يتبع هوى نفسه فظهر التعدد فحمل على المعنى * قوله تعالى (مثل الجنة التي وعد المتقون) لما بين الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال بين الفرق بينهما في مرجعهما ومآلهما وكما قدم من على البينة في الذكر على من اتبع هواه قدم حاله في مآله على حال من هو بخلاف حاله وفي التفسير مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى مثل الجنة يستدعى أمرا يمثل به فما هو نقول فيه وجوه (الاول) قول سيبويه حيث قال المثل هو الوصف معناه وصف الجنة وذلك لا يقتضي ممثلا به وعلى هذا ففيه احتمالان (احدهما) ان يكون الخبر محذوفا ويكون مثل الجنة مبتدأ تقديره فيما قصصنا مثل الجنة ثم يستأنف ويقول فيها انهار وكذلك القول في سورة الرعد يكون قوله تعالى تجري من تحتها الانهار ابتداء بيان (والاحتمال الثاني) ان يكون فيها أنهار وقوله تجري من تحتها خبرا كما يقال صف لي زيدا فيقول القائل زيد أحمر قصير والقول الثاني ان المثل زيادة والتقدير الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار (الوجه الثاني) ههنا الممثل به محذوف غير مذكور وهو يحتمل قولين (أحدهما) قول الزجاج حيث قال مثل الجنة جنة تجري فيها أنهار كما يقال مثل زيد رجل طويل أسمر فيذكر عين صفات زيد في رجل منكر لا يكون هو في الحقيقة الا زيدا (الثاني) من القولين هو أن يقال معناه مثل الجنة التي وعد المتقون مثل عجيب أو شيء عظيم أو مثل ذلك وعلى هذا يكون قوله فيها أنهار كلاما مستأنفا محققا لقولنا مثل عجيب (الوجه الثالث) الممثل به مذكور وهو قول الزمخشري حيث قال كمن هو خالد في النار مشبه به على طريقة الانكار وحينئذ فهذا كقول القائل حركات زيد أو اخلاقه كعمرو على أحد التأويلين اما على تأويل حركات عمرو أو على تأويل زيد في حركاته كعمرو وكذلك ههنا كأنه تعالى قال مثل الجنة كمن هو خالد في النار وهذا اقصى ما يمكن ان يقرر به قول الزمخشري وعلى هذا فقوله تعالى فيها أنهار وما بعدها جمل اعتراضية وقعت بين المبتدأ والخبر كما يقال نظير زيد فيه مروءة وعنده علم وله أصل عمرو * ثم قال تعالى (فيها أنهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى) اختار الانهار من الاجناس الاربعة وذلك لان المشروب اما ان نشرب لطعمه واما ان يشرب لامر غير عائد الى الطعم فان كان للطعم فالطعوم تسعة المر والمالح والحريف والحامض والعفص والقابض والتفه والحلو والدسم ألذها الحلو والدسم لكن احلى الاشياء العسل فذكروا اما ادسم الاشياء فالدهن لكن الدسومة اذا تمحضت لا تطيب للاكل ولا للشرب فان الدهن لا يؤكل ولا يشرب كما هو في الغالب وأما اللبن ففيه دسم الكائن في غيره وهو طيب للاكل وبه تغذية الحيوان أولا فذكره الله تعالى واما ما يشرب لا لامر عائد الى الطعم فالماء والخمر فان الخمر فيها أمر يشربها الشارب لاجله وهي كريهة الطعم باتفاق من يشربها وحصول التواتر به ثم عرى كل واحد من الاشياء الاربعة عن صفات النقص التي هي فيها وتنفي بها في الدنيا فالماء يتغير فيتأسن

المثل زائدة كزيادة الاسم في قول من قال * الى الحول ثم اسم السلام عليكما * والجنة مبتدأ خبره فيها أنهار الخ (من ماء غير آسن) أي غير متغير الطعم والرائحة وقرئ غير أسن (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) بأن صار قارصا ولا خازرا كألبان الدنيا (وانهار من خمر لذة للشاربين) لذيذة ليس فيها كراهة طعم وريح ولا غائلة سكر ولا خمار وانما هي تلذذ محض ولذة اما تأنيث لذ بمعنى لذيذ او مصدر نعت به مبالغة وقرئ لذة بالرفع على انها صفة انهار وبالنصب على العلة أي لاجل لذة الشاربين (وانهار من عسل مصفى) لا يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها وفي هذا تمثيل لما يجري مجرى الاشربة في الجنة بأنواع ما يستطاب منها ويستلذ في الدنيا بالتخلية عما ينغصها وينقصها والتحلية بما يوجب غزارتها ودوامها

الماء يأسن على وزن أمن يامن فهو آسن وأسن اللبن اذا بقى زمانا يتغير طعمه والخمر يكرهه الشارب عند الشرب والعسل يشوبه اجزاء من الشمع ومن النحل يموت فيه كثيرا ثم ان الله تعالى خلط الجنسين فذكر الماء الذي يشرب لا للطعم وهو عام الشرب وقرن به اللبن الذي يشرب لطعمه وهو عام الشرب اذ ما من أحد الا وكان شربه اللبن ثم ذكر الخمر الذي يشرب لا للطعم وهو قليل الشرب وقرن به العسل الذي يشرب للطعم وهو قليل الشرب فان قيل العسل لا يشرب نقول شراب الجلاب لم يكن الا من العسل والسكر قريب الزمان الا ترى ان السكنجبين من سركه وانكبين وهو الخل والعسل بالفارسية كما أن استخراجه كان أولا من الخل والعسل ولم يعرف السكر الا فى زمان متأخر ولان العسل اسم يطلق على غير عسل النحل حتى يقال عسل النحل للتمييز والله أعلم (المسئلة الثانية) قال فى الخمر لذة للشاربين ولم يقل فى اللبن لم يتغير طعمه للطاعمين ولا قال فى العسل مصفى للناظرين لان اللذة تختلف باختلاف الاشخاص فرب طعام يلتذ به شخص ويعافه الآخر فقال لذة للشاربين باسرهم ولان الخمر كريهة الطعم فقال لذة أى لا يكون فى خمر الآخرة كراهة الطعم وأما الطعم واللون فلا يختلفان باختلاف الناس فان الحلو والحامض وغيرهما يدركه كل أحد كذلك لكنه قد يعافه بعض الناس ويلتذ به البعض مع اتفاقهم على ان له طعما واحدا وكذلك اللون فلم يكن الى التصريح بالتعميم حاجة وقوله لذة يحتمل وجهين (أحدهما) ان يكون تأنيث لذ يقال طعام لذ ولذيذ واطعمة لذة ولذيذة (وثانيهما) أن يكون ذلك وصفا بنفس المعنى لا بالمشتق منه كما قال للحليم هو حلم كله والعاقل عقل كله ثم قال تعالى ﴿ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم﴾ بعد ذكر المشروب أشار الى المأكول ولما كان فى الجنة الاكل للذة لا للحاجة ذكر الثمار فانها تؤكل للذة بخلاف الخبز واللحم وهذا كقوله تعالى فى سورة الرعد مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الانهار اكلها دائم وظلها حيث أشار الى المأكول والمشروب وههنا لطيفة وهى انه تعالى قال فيها وظلها ولم يقل ههنا ذلك نقول قال ههنا ومغفرة والظل فيه معنى الستر والمغفرة كذلك ولان المغفور تحت نظر من رحمة الغافر يقال نحن تحت ظل الامير وظلها هو رحمة الله ومغفرته حيث لا يمسهم حر ولا برد (المسئلة الثالثة) المتقى لا يدخل الجنة الا بعد المغفرة فكيف يكون لهم فيها مغفرة فنقول (الجواب) عنه من وجهين (الاول) ليس بلازم أن يكون المعنى لهم مغفرة من ربهم فيها بل يكون عطفا على قوله لهم كانه تعالى قال لهم الثمرات فيها ولهم المغفرة قبل دخولها (والثانى) هو ان يكون المعنى لهم فيها مغفرة أى رفع التكليف عنهم فيأكلون من غير حساب بخلاف الدنيا فان الثمار فيها عليها حساب أو عقاب ووجه آخر وهو ان الاكل فى الدنيا لا يخلو عن استتباع قبيح أو مكروه كمرض أو حاجة الى تبرز فقال لهم فيها من كل الثمرات ومغفرة لا قبيح على الآكل بل هو مستور القبائح مغفور وهذا استفدته من المعلمين فى بلادنا فانهم يعودون الصبيان بان يقولوا

(ولهم فيها) مع ماذكر من فنون الانهار (من كل الثمرات) اى صنف من كل الثمرات (ومغفرة) أى ولهم مغفرة عظيمة لا يقادر قدرها وقوله تعالى (من ربهم) متعلق بمحذوف هو صفة لمغفرة مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى كائنة من ربهم وقوله تعالى (كمن هو خالد فى النار) خبر لمبتدا محذوف تقديره أمن هو خالد فى هذه الجنة حسبما جرى به الوعد كمن هو خالد فى النار كما نطق به قوله تعالى والنار مثوى لهم وقيل هو خبر لمثل الجنة على أن فى الكلام حذفا تقديره أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد فى النار أو أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد فى النار عرى عن حرف الانكار وحذف ما حذف تصويرا لمكابرة من يسوى بين المتمسك بالبينة وبين التابع للهوى بمكابرة من سوى بين الجنة الموصوفة بما فصل من الصفات الجليلة وبين النار (وسقوا ماء حميما) مكان تلك الاشربة (فقطع أمعاءهم) من فرط الحرارة قيل اذا دنا منهم

وقت حاجتهم الى اراقة البول وغيره يا معلم غفر الله لك فيفهم المعلم انهم يطلبون الاذن في الخروج لقضاء الحاجة فيأذن لهم فقلت في نفسي معناه هو ان الله تعالى في الجنة غفر لمن أكل وأماني الدنيا فلان للاكل توابع ولوازم لابد منها فيفهم من قولهم حاجتهم * ثم قال تعالى (كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع امعاءهم) وفيه أيضا مسائل (المسئلة الاولى) على قول من قال مثل الجنة معناه وصف الجنة فقوله كمن هو بماذا يتعلق نقول قوله لهم فيها من كل الثمرات يتضمن كونهم فيها فكأنه قال هو فيها كمن هو خالد في النار فالمشبه يكون محذوفا مدلولا عليه بما سبق ويحتمل أن يقال ماقيل في تقرير قول الزمخشري ان المراد هذه الجنة التي مثلها ماذكرنا كمقام من هو خالد في النار (المسئلة الثانية) قال الزجاج قوله تعالى كمن هو خالد في النار راجع الى ماتقدم كأنه تعالى قال أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله وهو خالد في النار فهل هو صحيح أم لا نقول انا اذا نظرنا الى اللفظ فيمكن تصحيحه بتعسف ونظرا الى المعنى لا يصح الا أن يعود الى ماذكرناه اما التصحيح فبحذف كمن في المرة الثانية أو جعله بدلا عن المتقدم أو باضمار عاطف يعطف كمن هو خالد على كمن زين له سوء عمله وكمن هو خالد في النار وأما التعسف فبين نظرا الى الحذف والى الاضمار مع الفاصل الطويل بين المشبه والمشبه به وأما طريقة البدل ففاسدة والا لكان الاعتماد على الثاني فيكون كأنه قال أفمن كان على بينة كمن هو خالد وهو سمج في التشبيه تعالى كلام الله عن ذلك واقول في اضمار العاطف كذلك لان المعطوف أيضا يصير مستقلا في التشبيه اللهم الا أن يقال يقابل المجموع بالمجموع كأنه يقول أفمن كان على بينة من ربه وهو في الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار كمن زين له سوء عمله وهو خالد في النار وعلى هذا تقع المقابلة بين من هو على بينة من ربه وبين من زين له سوء عمله وبين من في الجنة وبين من هو خالد في النار وقد ذكرناه فلا حاجة الى خلط الآية بالآية وكيف وعلى ماقاله تقع المقابلة بين من هو في النار وسقوا ماء حميما وبين من هو على بينة من ربه وأية مناسبة بينهما بخلاف ماذكرناه من الوجوه الأخر فان المقابلة فيها بين الجنة التي فيها الانهار وبين النار التي فيها الماء الحميم وذلك تشبيه انكار مناسب (المسئلة الثالثة) قال كمن هو خالد حملا على اللفظ الواحد وقال وسقوا ماء حميما على المعنى وهو جمع وكذلك قال من قبل كمن زين له سوء عمله على التوحيد والافراد واتبعوا أهواءهم على الجمع فما الوجه فيه نقول المسند الى من اذا كان متصلا فرعاية اللفظ أولى لانه هو المسموع واذا كان مع انفصال فالعود الى المعنى أولى لان اللفظ لا يبقى في السمع والمعنى يبقى في ذهن السامع فالحمل في الثاني على المعنى أولى وحمل الاول على اللفظ أولى فان قيل كيف قال في سائر المواضع من آمن وعمل صالحا ومن تاب وأصلح نقول اذا كان المعطوف مفردا أو شبيها بالمعطوف عليه في المعنى فالاولى ان يختلفا كما ذكرت فانه عطف مفرد على مفرد وكذلك لو قال كمن هو خالد في النار ومعذب فيها لان

المنافقون وافراد الضمير باعتبار لفظ من كما أن جمعه فيما سيأتي باعتبار معناها كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يراعونه حق رعايته تهاونا منهم (حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم) من الصحابة رضي الله عنهم (ماذا قال آنفا) أي ما الذي قال الساعة على طريقة الاستهزاء وان كان بصورة الاستعلام وآنفا من قولهم أنف الشيء لما تقدم منه مستعار من الجارحة ومنه استأنف الشيء وائتنف وهو ظرف بمعنى وقتا مؤتنفا أو حال من الضمير في قال وقرئ أنفا (أولئك) الموصوفون بما ذكر (الذين طبع الله على قلوبهم) لعدم توجههم نحو الخير أصلا (واتبعوا أهواءهم) الباطلة فلذلك فعلوا ما فعلوا مما لا خير فيه (والذين اهتدوا) الى طريق الحق (زادهم) أي تعالى (هدى) بالتوفيق والالهام

الا الساعة) أي القيامة وقوله تعالى (أن تأتيهم بغتة) أي تباغتهم بغتة وهي المفاجأة بدل اشتمال من الساعة والمعنى أنهم لا يتذكرون بذكر أهوال الامم الخالية ولا بالاخبار باتيان الساعة وما فيها من عظائم الاهوال وما ينتظرون للتذكر الا اتيان نفس الساعة بغتة وقرئ بغتة بفتح الغين وقوله تعالى (فقد جاء أشراطها) تعليل لمفاجأتها الا اتيانها مطلقا على معنى أنه لم يبق من الامور الموجبة للتذكر أمر مترقب ينتظرونه سوى اتيان نفس الساعة اذ قد جاء أشراطها فلم يرفعوا لها رأسا ولم يعدوها من مبادي اتيانها فيكون اتيانها بطريق المفاجأة لا محالة والاشراط جمع شرط بالتحريك وهي العلامة والمراد بها مبعثه صلى الله عليه وسلم وانشقاق القمر ونحوهما وقوله تعالى (فأنى لهم اذا جاءتهم ذكراهم) حكم بخطئهم وفساد رأيهم في تأخير التذكر الى اتيانها

المشابهة تنافي المخالفة واما اذا لم يكن كذلك كما في هذا الموضع فان قوله سقوا ماء حميما جملة غير مشابهة لقوله هو خالد وقوله تعالى وسقوا ماء حميما بيان لمخالفتهم في سائر أحوال اهل الجنة فلهم أنهار من ماء غير آسن ولهم ماء حميم فان قيل المشابهة الانكارية بالمخالفة على ما ثبت وقد ذكرت البعض وقلت بأن قوله على بينة في مقابلة زين له سوء عمله ومن ربه في مقابلة قوله واتبعوا أهواءهم والجنة في مقابلة النار في قوله خالد في النار والماء الحميم في مقابلة الانهار فأين ما يقابل قوله ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة فنقول تقطع الامعاء في مقابلة مغفرة لانا بينا على أحد الوجوه أن المغفرة التي في الجنة هي تعرية أكل الثمرات عما يلزمه من قضاء الحاجة والامراض وغيرها كأنه قال للمؤمن أكل وشرب مطهر طاهر لا يجتمع في جوفهم فيؤذيهم ويحوجهم الى قضاء حاجة وللكافر ماء حميم في أول ما يصل الى جوفهم يقطع امعاءهم ويشتهون خروجه من جوفهم واما الثمار فلم يذكر مقابلها لان في الجنة زيادة مذكورة فحققها بذكر أمر زائد (المسئلة الرابعة) الماء الحار يقطع أمعاءهم لامر آخر غير الحرارة وهي الحدة التي تكون في السموم المدونة والا فمجرد الحرارة لا يقطع فان قيل قوله تعالى فقطع بالماء يقتضي أن يكون القطع بما ذكر نقول نعم لكنه لا يقتضي أن يقال يقطع لانه ماء حميم فحسب بل ماء حميم مخصوص يقطع * ثم قال تعالى (ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم ماذا قال آنفا) لما بين الله تعالى حال الكافر ذكر حال المنافق بأنه من الكفار وقوله ومنهم يحتمل أن يكون الضمير عائدا الى الناس كما قال تعالى في البقرة ومن الناس من يقول آمنا بالله بعد ذكر الكفار ويحتمل أن يكون راجعا الى أهل مكة لان ذكرهم سبق في قوله تعالى هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم ويحتمل أن يكون راجعا الى معنى قوله هو خالد في النار وسقوا ماء حميما يعني ومن الخالدين في النار قوم يستمعون اليك وقوله حتى اذا خرجوا من عندك على ما ذكرنا حمل على المعنى الذي هو الجمع ويستمع حمل على اللفظ وقد سبق التحقيق فيه وقوله حتى للعطف في قول المفسرين وعلى هذا فالعطف بحتى لا يحسن الا اذا كان المعطوف جزأ من المعطوف عليه اما أعلاه أو دونه كقول القائل أكرمني الناس حتى الملك وجاء الحاج حتى المشاة وفي الجملة ينبغي أن يكون المعطوف عليه من حيث المعنى ولا يشترط في العطف بالواو وذلك فيجوز أن تقول في الواو جاء الحاج وما علمت ولا يجوز مثل ذلك في حتى اذا علمت هذا فوجه التعلق ههنا هو ان قوله حتى اذا خرجوا من عندك يفيد معنى زائدا في الاستماع كأنه يقول يستمعون استماعا بالغا جيدا لانهم يستمعون واذا خرجوا يستعيدون من العلماء كما يفعله المجتهد في التعلم الطالب للتفهم فان قلت فعلى هذا يكون هذا صفة مدح لهم وهو ذكرهم في معرض الذم نقول يتميز بما بعده وهو أحد أمرين اما كونهم بذلك مستهزئين كالذكي يقول للبليد أعد كلامك حتى أفهمه ويرى في نفسه انه مستمع اليه غاية الاستماع وكل أحد يعلم انه

مستهزئ غير مستفيد ولا مستعيد واما كونهم لا يفهمون مع انهم يستمعون و يستعيدون
ويناسب هذا الثانى قوله تعالى كذلك يطبع الله على قلوب المجرمين والاول يؤكده
قوله تعالى واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن (والثانى) يؤكده
قوله تعالى قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان
فى قلوبكم وقوله آنفا قال بعض المفسرين معناه الساعة ومنه الاستئناف وهو الابتداء
فعلى هذا فالاولى أن يقال يقولون ماذا قال آنفا بمعنى انهم يستعيدون كلامه من
الابتداء كما يقول المستعيد للمعيد اعد كلامك من الابتداء حتى لا يفوتنى شئ منه * ثم
قال تعالى (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) أى تركوا اتباع الحق
اما بسبب عدم الفهم أو بسبب عدم الاستماع للاستفادة واتبعوا ضده * ثم قال تعالى
(والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) لما بين الله تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع
و يستعيد ولا يستفيد بين ان حال المؤمن المهتدى بخلافه فانه يستمع فيفهم و يعمل
بما يعلم والمنافق يستعيد والمهتدى يفسر و يعيد وفيه فائدتان (أحداهما) ماذكرنا من
بيان التباين بين الفريقين (وثانيهما) قطع عذر المنافق وايضاح كونه مذموم
الطريقة فانه لو قال ما فهمته لغموضه وكونه معمى يرد عليه و يقول ليس كذلك فان
المهتدى فهم واستنبط لوازمه وتوابعه فذلك لعماء القلوب لا لخفاء المطلوب وفيه مسائل
(المسئلة الاولى) ما الفاعل للزيادة فى قوله زادهم نقول فيه وجوه (الاول) المسموع من
النبى عليه الصلاة والسلام من كلام الله وكلام الرسول يدل عليه قوله ومنهم من يستمع
اليك فانه يدل على مسموع والمقصود بيان التباين بين الفريقين فكأنه قال هم لم يفهموه
وهؤلاء فهموه (والثانى) ان الله تعالى زادهم و يدل عليه قوله تعالى أولئك الذين طبع
الله على قلوبهم وكأنه تعالى طبع على قلوبهم فزادهم عمى والمهتدى زاده هدى (والثالث)
استهزاء المنافق زاد المهتدى هدى ووجهه هو انه تعالى لما قال واتبعوا أهواءهم قال
والذين اهتدوا زادهم اتباعهم الهدى هدى فانهم استقبحوا فعلهم فاجتنبوه (المسئلة
الثانية) ما معنى قوله وآتاهم تقواهم نقول فيه وجوه منقولة ومستنبطة اما المنقولة
فنقول قيل فيه ان المراد آتاهم ثواب تقواهم وقيل آتاهم نفس تقواهم من غير اضمار
يعنى بين لهم التقوى وقيل آتاهم توفيق العمل بما علموا وأما المستنبط فنقول يحتمل أن
يكون المراد به بيان حال المستمعين للقرآن الفاهمين لمعانيه المفسرين له بيانا لغاية
الخلاف بين المنافق فانه استمع ولم يفهمه واستعاد ولم يعلمه والمهتدى فانه علمه و بينه لغيره
و يدل عليه قوله تعالى زادهم هدى ولم يقل اهتداء والهدى مصدر من هدى قال الله
تعالى فبهداهم اقتده أى خذ بما هدوا واهد كما هدوا وعلى هذا فقوله تعالى وآتاهم
تقواهم معناه جنبهم عن القول فى القرآن بغير برهان وحملهم على الاتقاء من التفسير
بالرأى وعلى هذا فقوله زادهم هدى معناه كانوا مهتدين فزادهم على الاهتداء هدى حتى

اذا جاءتهم على أن أنى خبر مقدم وذكراهم مبتدأ واذا جاءتهم اعتراض وسط بينهما رمزا الى غاية سرعة مجيئها واطلاق المجىء عن قيد البغتة لان مدار استحالة نفع التذكر كونه عند مجيئها مطلقا لا مقيدا بقيد البغتة وقرئ ان تأتهم على أنه شرط مستأنف جزاؤه فأنى لهم الخ والمعنى ان تأتهم الساعة بغتة لانه قد ظهر أماراتها فكيف لهم تذكرهم واتعاظهم اذا جاءتهم (فاعلم أنه لا اله الا الله) أى اذا علمت أن مدار السعادة هو التوحيد والطاعة ومناط الشقاوة هو الاشراك والعصيان فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية والعمل بموجبه (واستغفر لذنبك) وهو الذى ربما يصدر عنه عليه الصلاة والسلام من ترك الاولى عبر عنه بالذنب نظرا الى منصبه الجليل كيف لا وحسنات الابرار سيآت المقربين وارشاد له عليه الصلاة والسلام الى التواضع

ارتقوا من درجة المهتدين الى درجة الهادين ويحتمل أن يقال قوله زادهم هدى اشارة الى العلم وآتاهم تقواهم اشارة الى الاخذ بالاحتياط فيما يعلمونه وهو مستنبط من قوله تعالى فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وقوله تعالى والراسخون في العلم يقولون آمنا به (المعنى الثالث) يحتمل أن يكون المراد بيان ان المخلص على خطر فهو أخشى من غيره وتحقيقه هو انه لما قال زادهم هدى افاد انهم ازداد علمهم وقال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء فقال آتاهم خشيتهم التي يفيدها العلم (والمعنى الرابع) تقواهم من يوم القيامة كما قال تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ويدل عليه قوله تعالى فهل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة كان ذكر الساعة عقيب التقوى يدل عليه (المعنى الخامس) آتاهم تقواهم التقوى التي تليق بالمؤمن وهي التقوى التي لا يخاف معها لومة لائم قال تعالى الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله وكذلك قوله تعالى يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين وهذا الوجه مناسب لان الآية لبيان تباين الفريقين وهذا تحقق ذلك من حيث ان المنافق كان يخشى الناس وهم الفريقان المؤمنون والكافرون فكان يتردد بينهما ويرضى الفريقين ويسخط الله فقال الله تعالى المؤمن المهتدي بخلاف المنافق حيث علم ذلك ولم يعلم ذلك واتقى الله لا غيره واتقى ذلك غير الله * ثم قال تعالى (فهل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء اشراطها) يعني الكافرون والمنافقون لا ينظرون الا الساعة وذلك لان البراهين قد صحت والامور قد اتضحت وهم لم يؤمنوا فلا يتوقع منهم الايمان الا عند قيام الساعة وهو من قبيل بدل الاشتمال على تقدير لا ينظرون الا الساعة اتيانها بغتة وقرئ فهل ينظرون الا الساعة ان تأتيهم على الشرط وجزاؤه لا ينفعهم ذكراهم يدل عليه قوله تعالى فأنى لهم اذا جاءتهم ذكراهم وقد ذكرنا ان القيامة سميت بالساعة لسرعة الامور الواقعة فيها من البعث والحشر والحساب وقوله فقد جاء اشراطها يحتمل وجهين (أحدهما) لبيان غاية عنادهم وتحقيقه هو ان الدلائل لما ظهرت ولم يؤمنوا لم يبق الا الايمان اليأس وهو عند قيام الساعة لكن اشراطها بانت فكان ينبغي أن يؤمنوا ولم يؤمنوا فهم في لجة الفساد وغاية العناد (ثانيهما) أن يكون تسلية قلوب المؤمنين كأنه تعالى لما قال فهل ينظرون فهم منه تعذيبهم والساعة عند العوام مستبعدة فكان قائلا قال متى تكون الساعة فقد جاء أشراطها كقوله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر والاشراط العلامات قال المفسرون هي مثل انشقاق القمر ورسالة محمد عليه السلام ويحتمل أن يقال معنى الاشراط البينات الموضحة لجواز الحشر مثل خلق الانسان ابتداء وخلق السموات والارض كما قال تعالى أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم والاول هو التفسير * ثم قال تعالى (فأنى لهم اذا جاءتهم ذكراهم) يعني لا تنفعهم الذكرى اذ لا تقبل التوبة ولا يحسب

فيما يستدعي غفرانهم وفي اعادة صلة الاستغفار تنبيه على اختلاف متعلقيه جنسا وفي حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه اشعار بعراقتهم في الذنب وفرط افتقارهم الى الاستغفار (والله يعلم متقلبكم) في الدنيا فانها مراحل لا بد من قطعها لا محالة (ومثواكم) في العقبى فانها موطن اقامتكم فلا يأمركم الا بما هو خير لكم فيهما فبادروا الى الامتثال بما أمركم به فانه المهم لكم في المقامين وقيل يعلم جميع أحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها (ويقول الذين آمنوا) حرصا منهم على الجهاد (لولا نزلت سورة) أي هلا نزلت سورة تؤمر فيها بالجهاد (فاذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال) بطريق الامر به أي سورة مبينة لا تشابه ولا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال

الايمان والمراد فكيف لهم الحال اذا جاءتهم ذكراهم ومعنى ذلك يحتمل أن يكون هو قوله تعالى هذا يومكم الذى كنتم توعدون هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون فيذكرون به للتحسر وكذلك قوله تعالى ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا * ثم قال تعالى (فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم) ولبيان المناسبة وجوه (الاول) هو انه تعالى لما قال فقد جاء اشراطها قال فاعلم أنه لا اله الا الله يأتى بالساعة كما قال تعالى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة (وثانيها) فقد جاء أشراطها وهى آتية فكان قائلا قال متى هذا فقال فاعلم أنه لا اله الا الله فلا تشتغل به واشتغل بما عليك من الاستغفار وكن فى أى وقت مستعدا للقائها ويناسبه قوله تعالى واستغفر لذنبك (الثالث) فاعلم أنه لا اله الا الله ينفعك فان قيل النبى عليه الصلاة والسلام كان عالما بذلك فما معنى الامر نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) فاثبت على ما أنت عليه من العلم كقول القائل لجالس يريد القيام اجلس أى لا تقم (ثانيهما) الخطاب مع النبى عليه الصلاة والسلام والمراد قومه والضمير فى انه للشان وتقدير هذا هو انه عليه السلام لما دعا القوم الى الايمان ولم يؤمنوا ولم يبق شئ يحملهم على الايمان الا ظهور الامر بالبعث والنشور وكان ذلك مما يحزن النبى عليه الصلاة والسلام فسلى قلبه وقال أنت كامل فى نفسك مكمل لغيرك فان لم يكمل بك قوم لم يرد الله تعالى بهم خيرا فانت فى نفسك عامل بعلمك وعلمك حيث تعلم ان الله واحد وتستغفر وأنت بحمد الله مكمل تكمل المؤمنين والمؤمنات وأنت تستغفر لهم فقد حصل لك الوصفان فاثبت على ما انت عليه ولا يحزنك كفرهم وقوله تعالى واستغفر لذنبك يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الخطاب معه والمراد المؤمنون وهو بعيد لافراد المؤمنين والمؤمنات بالذكر وقال بعض الناس لذنبك أى لذنب أهل بيتك وللمؤمنين والمؤمنات أى الذين ليسوا منك باهل بيت (ثانيهما) المراد هو النبى والذنب هو ترك الافضل الذى هو بالنسبة اليه ذنب وحاشاه من ذلك (وثالثها) وجه حسن مستنبط وهو ان المراد توفيق العمل الحسن واجتناب العمل السيئ ووجهه ان الاستغفار طلب الغفران والغفران هو الستر على القبيح ومن عصم فقد ستر عليه قبائح الهوى ومعنى طلب الغفران أن لا تفضحنا وذلك قد يكون بالعصمة منه فلا يقع فيه كما كان للنبى صلى الله عليه وسلم وقد يكون بالستر عليه بعد الوجود كما هو فى حق المؤمنين والمؤمنات وفى هذه الآية لطيفة وهى ان النبى صلى الله عليه وسلم له أحوال ثلاثة حال مع الله وحال مع نفسه وحال مع غيره فاما مع الله فوحده واما مع نفسك فاستغفر لذنبك واطلب العصمة من الله واما مع المؤمنين فاستغفر لهم واطلب الغفران لهم من الله والله يعلم متقلبكم ومثواكم يعنى حالكم فى الدنيا وفى الآخرة او حالكم فى الليل والنهار * ثم قال تعالى (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا أنزلت سورة

* عن قتادة كل سورة فيها ذكر القتال فهى محكمة ❁ ❁ لم تنسخ وقرئ فاذا نزلت سورة وقرئ وذكر على اسناد الفعل الى ضميره تعالى ونصب القتال (رأيت الذين فى قلوبهم مرض) أى ضعف فى الدين وقيل نفاق وهو الاظهر الاوفق لسياق النظم الكريم (ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت) أى تشخص أبصارهم جبنا وهلعا كدأب من أصابته غشية الموت (فأولى لهم) أى فويل لهم وهو أفعل من الولى وهو القرب وقيل من آل ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه أو يؤل اليه أمرهم وقيل هو مشتق من الويل وأصله أويل نقلت العين الى ما بعد اللام فوزنه افلع (طاعة وقول معروف) كلام مستأنف أى أمرهم طاعة الخ أو طاعة وقول معروف خير لهم او حكاية لقولهم ويؤيده قراءة أبى يقولون طاعة وقول معروف أى أمرنا ذلك (فاذا عزم الامر) أسند العزم وهو الجد الى الامر وهو لاصحابه مجازا كما فى قوله تعالى ان ذلك من عزم الامور وعامل

الظرف محذوف أي خالفوا وتخلفوا وقيل ناقضوا وقيل كرهوا وقيل هو قوله تعالى (فلو صدقوا الله)

محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم) لما بين الله حال المنافق والكافر والمهتدي المؤمن عند استماع الآيات العلمية من التوحيد والحشر وغيرهما بقوله ومنهم من يستمع إليك وقوله والذين اهتدوا زادهم هدى بين حالهم في الآيات العملية فان المؤمن كان ينتظر ورودها ويطلب تنزيلها واذا تأخر عنه التكليف كان يقول هلا أمرت بشيء من العبادة خوفا من أن لا يؤهل لها والمنافق اذا نزلت السورة أو الآية وفيها تكليف شق عليه ليعلم تباين الفريقين في العلم والعمل حيث لا يفهم المنافق العلم ولا يريد العمل والمؤمن يعلم ويحب العمل وقولهم لولا نزلت سورة المراد منه سورة فيها تكليف بمحن المؤمن والمنافق ثم انه تعالى أنزل سورة فيها القتال فانه أشق تكليف وقوله سورة محكمة فيها وجوه (أحدها) سورة لم تنسخ (ثانيها) سورة فيها ألفاظ أريدت حقائقها بخلاف قوله الرحمن على العرش استوى وقوله في جنب الله فان قوله تعالى فضرب الرقاب أراد القتل وهو أبلغ من قوله اقتلوهم وقوله واقتلوهم حيث ثقفتموهم صريح وكذلك غير هذا من آيات القتال وعلى الوجهين فقوله محكمة فيها فائدة زائدة من حيث انهم لا يمكنهم أن يقولوا المراد غير ما يظهر منه أو يقولوا هذه آية وقد نسخت فلا نقاتل وقوله رأيت الذين في قلوبهم مرض أي المنافقين ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت لان عند التكليف بالقتال لا يبقى لنفاقهم فائدة فانهم قبل القتال كانوا يترددون الى الفريقين وعند الامر بالقتال لم يبق لهم امكان ذلك فأولى لهم دعاء كقول القائل فويل لهم ويحتمل أن يكون هو خبرا لمبتدا محذوف سبق ذكره وهو الموت كان الله تعالى لما قال نظر المغشي عليه من الموت قال فالموت أولى لهم لان الحياة التي لا في طاعة الله ورسوله الموت خير منها وقال الواحدي يجوز أن يكون المعنى فأولى لهم طاعة أي الطاعة أولى لهم * ثم قال تعالى (طاعة وقول معروف) كلام مستأنف محذوف الخبر تقديره خير لهم أي أحسن وأمثل لا يقال طاعة نكرة لا تصلح للابتداء لانا نقول هي موصوفة يدل عليه قوله وقول معروف فانه موصوف فكأنه تعالى قال طاعة مخلصة وقول معروف خير وقيل معناه قالوا طاعة وقول معروف أي قولهم أمرنا طاعة وقول معروف ويدل عليه قراءة أبي يقولون طاعة وقول معروف * وقوله تعالى (فاذا عزم الامر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) جوابه محذوف تقديره فاذا عزم الامر خالفوا وتخلفوا وهو مناسب لمعنى قراءة أبي كأنه يقول في أول الامر قالوا سمعا وطاعة وعند آخر الامر خالفوا وأخلفوا موعدهم ونسب العزم الى الامر والعزم لصاحب الامر معناه فاذا عزم صاحب الامر هذا قول الزمخشري ويحتمل أن يقال هو مجاز كقولنا جاء الامر وولى فان الامر في الاول يتوقع أن لا يقع وعند اظلاله وعجز الكاره عن ابطاله فهو واقع فقال عزم والوجهان متقاربان وقوله تعالى فلو صدقوا فيه وجهان على قولنا المراد من قوله طاعة انهم قالوا طاعة فمعناه لو صدقوا في ذلك

على طريقة قولك اذا حضرني طعام فلو جئتني لاطعمتك أي فلو صدقوه تعالى فيما قالوا من الكلام المنبئ عن الحرص على الجهاد بالجري على موجبه (لكان) أي الصدق (خيرا لهم) وفيه دلالة على اشتراك الكل فيما حكى عنهم من قوله تعالى لولا نزلت سورة وقيل فلو صدقوه في الايمان وواطأت قلوبهم فيه ألسنتهم وأياما كان فالمراد بهم الذين في قلوبهم مرض وهم المخاطبون بقوله تعالى (فهل عسيتم) الخ بطريق الالتفات لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع أي هل يتوقع منكم (ان توليتم) أمور الناس وتأمرتم عليهم (أن تفسدوا في الارض وتقطعوا أرحامكم) تناحرا على الملك وتهالكا على الدنيا فان من شاهد أحوالكم الدالة على الضعف في الدين والحرص على الدنيا حين أمرتم بالجهاد الذي هو عبارة عن احراز كل خير وصلاح ودفع كل

القول وأطاعوا لكان خيرا لهم وعلى قولنا طاعة وقول معروف خيرلهم وأحسن فمعناه لو صدقوا في ايمانهم واتباعهم الرسول لكان خيرا لهم ۞ ثم قال تعالى (فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الارض وتقطعوا أرحامكم) وهذه الآية فيها اشارة الى فساد قولهم وهو انهم كانوا يقولون كيف نقاتل والقتل افساد والعرب من ذوي ارحامنا وقبائلنا فقال تعالى ان توليتم لا يقع منكم الا الفساد في الارض فانكم تقتلون من تقدرون عليه وتنهبونه والقتال واقع بينكم أليس قتلكم البنات افسادا وقطعا للرحم فلا يصح تعللكم بذلك مع انه خلاف ما أمر الله وهذا طاعة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في استعمال عسى ثلاثة مذاهب (أحدها) الاتيان بها على صورة فعل ماض معه فاعل تقول عسى زيد وعسينا وعسوا وعسيت وعسيتما وعسيتم وعست وعسنا (والثاني) أن يؤتى بها على صورة فعل معه مفعول تقول عساه وعساهما وعساك وعساكم وعساي وعسانا (والثالث) الاتيان بها من غيران يقرن بها شئ تقول عسى زيد يخرج وعسى أنت تخرج وعسى أنا أخرج والكل له وجه وما عليه كلام الله أوجه وذلك لان عسى من الافعال الجامدة واقتران الفاعل بالفعل أولى من اقتران المفعول لان الفاعل كالجزء من الفعل ولهذا لم يجز فيه أربع متحركات في مثل قول القائل نصرت ويجوز في مثل قولهم نصرك ولان كل فعل له فاعل سواء كان لازما أو متعديا ولا كذلك المفعول به فعسيت وعساك كعصيت وعصاك في اقتران الفاعل بالفعل والمفعول به وأما قول من قال عسى أنت تقوم وعسى ان أقوم فدون ما ذكرنا للتطويل الذي فيه (المسئلة الثانية) الاستفهام للتقرير المؤكد فانه لو قال على سبيل الاخبار عسيتم ان توليتم لكان للمخاطب أن ينكره فاذا قال بصيغة الاستفهام كأنه يقول أنا أسألك عن هذا أنت لا تقدر أن تجيب الا بلا أو نعم فهو مقرر عندك وعندي (المسئلة الثالثة) عسى للتوقع والله تعالى عالم بكل شئ فنقول فيه ما قلنا في لعل وفي قوله ليبلوهم ان بعض الناس قال يفعل بكم فعل المترجي والمبتلي والمتوقع وقال آخرون كل من ينظر اليهم يتوقع منهم ذلك ونحن قلنا هو محمول على الحقيقة وذلك لان الفعل اذا كان ممكنا في نفسه فالنظر اليه غير مستلزم لامر وانما الامر يجوز أن يحصل منه تارة ولا يحصل منه أخرى فيكون الفعل لذلك الامر المطلوب على سبيل الترجي سواء كان الفاعل يعلم حصول الامر منه وسواء أن لم يكن يعلم مثاله من نصب شبكة لاصطياد الصيد يقال هو متوقع لذلك فان حصل له العلم بوقوعه فيه باخبار صادق أنه سقع فيه أو بطريق أخرى لا يخرج عن التوقع غاية ما في الباب ان في الشاهد لم يحصل لنا العلم فيما نتوقعه فيظن ان عدم العلم لازم للمتوقع وليس كذلك بل المتوقع هو المنتظر لامر ليس بواجب الوقوع نظرا الى ذلك الامر فحسب سواء كان له به علم أو لم يكن وقوله ان توليتم فيه وجهان (أحدهما) انه من الولاية يعني ان أخذتم الولاية وصار الناس بأمركم أفسدتم وقطعتم الارحام (وثانيهما) هو من التولي الذي

آمرين ما ذكر من الافساد وقطع الارحام وقيل ان أعرضتم عن الاسلام أن ترجعوا الى ما كنتم عليه في الجاهلية من الافساد في الارض بالتغاور والتناهب وقطع الارحام بمقاتلة بعض الاقارب بعضا ووأد البنات وفيه أن الواقع في حيز الشرط في مثل هذا المقام لابد أن تكون محذورا به باعتبار ما يستتبعه من المفاسد لا باعتبار ذاته ولا ريب في ان الاعراض عن الاسلام رأس كل شر وفساد فحقه أن يجعل عمدة في التوبيخ لا وسيلة للتوبيخ بما دونه من المفاسد وقرئ وليتم على البناء للمفعول أي جعلتم ولاة وقرئ توليتم أي تولاكم ولاة جور خرجتم معهم وساعدتموهم في الافساد وقطيعة الرحم وقرئ وتقطعوا من التقطع بحذف احدى التاءين فانتصاب أرحامكم حينئذ على نزع الجار أي في أرحامكم وقرئ وتقطعوا من القطع

(أولئك) اشارة الى المخاطبين بطريق الالتفات ايذانا بأن ذكر هناتهم أوجب اسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم وهو مبتدأ ﴿ ٥٤٥ ﴾ خبره (الذين لعنهم الله) أى أبعدهم من رحمته (فأصمهم)

هو الاعراض وهذا مناسب لما ذكرنا أى ان كنتم تتركون القتال وتقولون فيه الافساد وقطع الارحام لكون الكفار أقاربنا فلا يقع منكم الا ذلك حيث تقاتلون على أدنى شئ كما كان عادة العرب (الاول) يؤكده قراءة من قرأ وليتم وقراءة على عليه السلام توليتم أى ان تولاكم ولاة ظلمة جفاة غشمة ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بافسادهم معهم وقطعتم أرحامكم والنبى عليه السلام لا يأمركم الا بالاصلاح وصلة الارحام فلم تتقاعدون عن القتال وتتباعدون فى الضلال * ثم قال تعالى (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) اشارة لمن سبق ذكرهم من المنافقين أبعدهم الله عنه أو عن الخير فأصمهم فلا يسمعون الكلام المستبين وأعماهم فلا يتبعون الصراط المستقيم وفيه ترتيب حسن وذلك من حيث انهم استمعوا الكلام العلمى ولم يفهموه فهم بالنسبة اليه صم أصمهم الله وعند الامر بالعمل تركوه وعللوا بكونه افسادا وقطعا للرحم وهم كانوا يتعاطونه عند النهى عنه فلم يروا حالهم وما هم عليه وتركوا اتباع النبى الذى يأمرهم بالاصلاح وصلة الارحام واودعاهم من يأمر بالافساد وقطيعة الرحم لاتبعوه فهم عمى أعماهم الله وفيه لطيفة وهى ان الله تعالى قال أصمهم ولم يقل أصم آذانهم وقال أعمى أبصارهم ولم يقل أعماهم وذلك لان العين آلة الرؤية ولو أصابها آفة لا يحصل الابصار والاذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام لان الاذن خلقت وخلق فيها تعاريج ليكثر فيها الهواء المتموج ولا يقرع الصماخ بعنف فيؤذى كما يؤذى الصوت القوى فقال أصمهم من غير ذكر الاذن وقال أعمى أبصارهم مع ذكر العين لان البصر ههنا بمعنى العين ولهذا جمعه بالابصار ولو كان مصدرا لما جمع فلم يذكر الاذن اذ لا مدخل لها فى الاصمام والعين لها مدخل فى الرؤية بل هى الكل ويدل عليه ان الآفة فى غير هذه المواضع لما أضافها الى الاذن سماها وقرا كما قال تعالى وفى آذاننا وقر وقال كأن فى أذنيه وقرا والوقر دون الصمم وكذلك الطرش * ثم قال تعالى (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ولنذكر تفسيرها فى مسائل (المسئلة الاولى) لما قال الله تعالى فأصمهم وأعمى أبصارهم كيف يمكنهم التدبر فى القرآن قال تعالى أفلا يتدبرون وهو كقول القائل للاعمى أبصر وللاصم اسمع فنقول (الجواب) عنه من ثلاثة أوجه مترتبة بعضها أحسن من البعض (الاول) تكليف ما لا يطاق جائز والله أمر من علم انه لا يؤمن بأن يؤمن فكذلك جاز أن يعميهم ويذمهم على ترك التدبر (الثانى) ان قوله أفلا يتدبرون المراد منه الناس (الثالث) ان نقول هذه الآية وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة فانه تعالى قال أولئك الذين لعنهم الله أى أبعدهم عنه أو عن الصدق أو عن الخير أو غير ذلك من الامور الحسنة فأصمهم لا يسمعون حقيقة الكلام وأعماهم لا يتبعون طريق الاسلام فاذن هم بين أمرين اما لا يتدبرون القرآن فيبعدون منه لان الله تعالى لعنهم وأبعدهم عن الخير والصدق والقرآن منهما الصنف الاعلى بل النوع الاشرف واما يتدبرون لكن لا تدخل معانيه فى

عن استماع الحق لتصامهم عنه بسوء اختيارهم (وأعمى أبصارهم) لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة فى الأنفس والآفاق (أفلا يتدبرون القرآن) أى ألا يلاحظونه ولا يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات (أم على قلوب أقفالها) فلا يكاد يصل اليها ذكر أصلا وأم منقطعة وما فيها من معنى بل للانتقال من التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكر والهمزة للتقرير وتنكير القلوب اما لتهويل حالها وتفظيع شأنها بابهام أمرها فى القساوة والجهالة كأنه قيل على قلوب منكرة لا يعرف حالها ولا يقادر قدرها فى القساوة واما لان المراد بها قلوب بعض منهم وهم المنافقون واضافة الاقفال اليها للدلالة على انها أقفال مخصوصة بها مناسبة لها غير مجانسة لسائر الاقفال المعهودة وقرئ أقفلها واقفالها ﴿ ٦٩ ﴾ سا على المصدر (ان الذين ارتدوا على أدبارهم) أى رجعوا الى ما كانوا

القاهرة وقيل هم اليهود وقيل أهل الكتابين جميعا كفروا به عليه الصلاة والسلام بعدما وجدوا نعته في كتابهم وعرفوا أنه المنعوت بذلك وقوله تعالى (الشيطان سول لهم) جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرا لان أي سهل لهم ركوب العظائم من السول وهو الاسترخاء وقيل من السول المخفف من السؤل لاستمرار القلب فمعنى سول له أمرا حينئذ أوقعه أمنيته فان السؤل الامنية وقرئ سول مبنيا للمفعول على حذف المضاف أي كيد الشيطان (وأملى لهم) ومدلهم في الامانى والآمال وقيل امهلهم الله تعالى ولم يعاجلهم بالعقوبة وقرئ وأملى لهم على صيغة المتكلم فالمعنى أن الشيطان يغويهم وأنا أنظرهم فالواو للحال أو للاستئناف وقرئ أملى لهم على البناء للمفعول أي أمهلوا ومد في عمرهم (ذلك) اشارة الى ماذكر من ارتدادهم لا الى الاملاء كما نقل عن

فلو بهم لكونها مقفلة تقديره أفلا يتدبرون القرآن لكونهم مقفولين ... أم على قلوب اقفال فيتدبرون ولا يفهمون ... لا يحتاج أن نقول أم بمعنى بل بل هي على حقيقتها للاستفهام واقعة في وسط الكلام ... أحدث مكانها وهو الصدر وأم دخلت على القلوب التي في وسط الكلام (المسئلة الثانية) ... على قلوب على التنكير ما فائدته نقول قال الزمخشري يحتمل وجهين أحدهما أن يكون لتنبيه على كونه موصوفا لان النكرة بالوصف أولى ... المعرفة وكأنه قال أم على قلوب قاسية أو مظلمة (الثاني) أن يكون للتبعيض كأنه قال أم على بعض القلوب لان النكرة لا تعم تقول جاءني رجال فيفهم البعض وجاءني الرجال فيفهم الكل ونحن نقول التنكير للقلوب للتنبيه على الانكار الذي في القلوب وذلك لان القلب اذا كان عارفا كان معروفا لان القلب خلق للمعرفة فاذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف وهذا كما يقول القائل في الانسان المؤذي هذا ليس بانسان هذا سبع ولذلك يقال هذا ليس بقلب هذا حجر اذا علم هذا فالتعريف اما بالالف واللام واما بالاضافة واللام لتعريف الجنس أو للعهد ولم يمكن ارادة الجنس اذ ليس على كل قلب قفل ولا لتعريف العهد لان ذلك القلب ليس ينبغي أن يقال له قلب واما بالاضافة بان نقول على قلوب أقفالها وهي لعدم عود فائدة اليهم كأنها ليست لهم فان قيل فقد قال ختم الله على قلوبهم وقال فويل للقاسية قلوبهم فنقول الاقفال أبلغ من الختم فترك الاضافة لعدم انتفاعهم رأسا (المسئلة الثالثة) في قوله أقفالها بالاضافة ولم يقل اقفال كما قال قلوب لان الاقفال كانت من شأنها فأضافها اليها كأنها ليست الا لها وفي الجملة لم يضف القلوب اليهم لعدم نفعها اياهم واضاف الاقفال اليها لكونها مناسبة لها ونقول أراد به اقفالا مخصوصة هي اقفال الكفر والعناد * ثم قال تعالى (ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم) اشارة الى أهل الكتاب الذين تبين لهم الحق في التوراة بنعت محمد صلى الله عليه وسلم وبعثه وارتدوا أو الى كل من ظهرت له الدلائل وسمعها ولم يؤمن وهم جماعة منعهم حب الرياسة عن اتباع محمد عليه السلام وكانوا يعلمون انه الحق الشيطان سول لهم سهل لهم وأملى لهم يعني قالوا نعيش أياما ثم نؤمن به وقرئ وأملى لهم فان قيل الاملاء والامهال وحد الآجال لا يكون الا من الله فكيف يصح قراءة من قرأ وأملى لهم فان المملي حينئذ يكون هو الشيطان نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) جاز أن يكون المراد وأملى لهم الله فيقف على سول لهم (وثانيهما) هو ان المسول أيضا ليس هو الشيطان وانما أسند اليه من حيث ان الله قدر على يده ولسانه ذلك فذلك الشيطان يمليهم و يقول لهم في آجالكم فسحة فتمتعوا برياستكم ثم في آخر الامر تؤمنون وقرئ وأملى لهم بفتح الياء وضم الهمزة على البناء للمفعول * ثم قال تعالى (ذلك بانهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الامر والله يعلم اسرارهم) قال بعض المفسرين ذلك اشارة الى الاملاء أي ذلك الاملاء بسبب

الواحدي ولا الى التسويل كما قيل لان شيئا منهما ليس مسببا عن القول الآتي وهو مبتدأ خبره قوله ﴿ انهم ﴾ تعالى (بانهم) أي بسبب انهم

(قالوا) يعني المنافقين المذكورين لا اليهود الكافرين به عليه الصلاة والسلام بعد ما وجدوا نعته في التوراة كما قيل فان كفرهم به ليس بسبب هذا القول ولو فرض صدوره عنهم سواء كان القول لهم المنافقين أو المشركين على رأى القائل بل من حين بعثته عليه الصلاة والسلام (للذين كرهوا ما نزل الله) أي لليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع علمهم بانه من عند الله تعالى حسدا وطمعا في نزوله عليهم لا للمشركين كما قيل فان قوله تعالى (سنطيعكم في بعض الامر) عبارة قطعا عما حكى عنهم بقوله تعالى ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتم لننصرنكم وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويوادونهم وأرادوا بالبعض الذى أشاروا الى عدم اطاعتهم فيه اظهار كفرهم واعلان أمرهم بالفعل قبل قتالهم واخراجهم من ديارهم فانهم كانوا يأبون ذلك قبل مساس الحاجة الضرورية الداعية اليه لما كان لهم في اظهار الايمان من المنافع الدنيوية وانما كانوا يقولون لهم ما يقولون سرا كما يعرب عنه قوله تعالى (والله يعلم اسرارهم) أي اخفاءهم لما يقولونه

انهم قالوا للذين كرهوا وهو اختيار الواحدي وقال بعضهم ذلك اشارة الى التسويل ويحتمل ان يقال ذلك الارتداد بسبب انهم قالوا سنطيعكم وذلك لانا نبين ان قوله سنطيعكم في بعض الامر هو انهم قالوا نوافقكم على ان محمدا ليس برسول وانما هو كاذب ولكن لا نوافقكم في انكار الرسالة والحشر والاشراك بالله مع الاصنام ومن لم يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام فهو كافر وان آمن بغيره لابل من لم يؤمن بمحمد عليه السلام لا يؤمن بالله ولا برسله ولا بالحشر لان الله كما أخبر عن الحشر وهو جائز أخبر عن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وهي جائزة فاذا لم يصدق الله في شيء لا ينفي الكذب بقول الله في غيره فلا يكون مصدقا موقنا بالحشر ولا برسالة أحد من الانبياء لان طريق معرفتهم واحد والمراد من الذين كرهوا ما انزل الله هم المشركون والمنافقون وقيل المراد اليهود فان أهل مكة قالوا لهم نوافقكم في اخراج محمد وقتله وقتال اصحابه والاول أصح لان قوله كرهوا ما نزل الله لو كان مسندا الى أهل الكتاب لكان مخصوصا ببعض ما أنزل الله وان قلنا بانه مسند الى المشركين يكون عاما لانهم كرهوا ما انزل الله وكذبوا الرسل باسرهم وانكروا الرسالة رأسا وقوله سنطيعكم في بعض الامر يعني فيما يتعلق بمحمد من الايمان به فلا نؤمن والتكذيب به فنكذبه كما تكذبونه والقتال معه وأما الاشراك بالله واتخاذ الانداد له من الاصنام وانكار الحشر والنبوة فلا وقوله والله يعلم أسرارهم قال أكثرهم المراد منه هو انهم قالوا ذلك سرا فافشاه الله وأظهره لنبيه عليه السلام والاظهر أن يقال والله يعلم اسرارهم وهو ما في قلوبهم من العلم بصدق محمد عليه السلام فانهم كانوا مكابرين معاندين وكانوا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم وقرئ اسرارهم بكسر الهمزة على المصدر وما ذكرنا من المعنى ظاهر على هذه القراءة فانهم كانوا يسرون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وعلى قولنا المراد من الذين ارتدوا المنافقون فكانوا يقولون للمجاهدين من الكفار سنطيعكم في بعض الامر وكانوا يسرون أنهم ان غلبوا انقلبوا كما قال الله تعالى ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم وقال تعالى فاذا جاء الخوف سلقوكم بألسنة حداد * ثم قال تعالى (فكيف اذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) لما قال الله تعالى والله يعلم أسرارهم قال هب أنهم يسرون والله لا يظهره اليوم فكيف يبقى مخفيا وقت وفاتهم أو نقول لما قال تعالى والله يعلم اسرارهم قال هب انهم يختارون القتال لما فيه من الضراب والطعان مع انه مفيد على الوجهين جميعا ان غلبوا فالمال في الحال والثواب في المآل وان غلبوا فالشهادة والسعادة فكيف حالهم اذا ضرب وجوههم وأدبارهم وعلى هذا فيه لطيفة وهي ان القتال في الحال ان أقدم المبارز فربما يهزم الخصم ويسلم وجهه وقفاه وان لم يهزمه فالضرب على وجهه ان صبر وثبت وان لم يثبت وانهزم فان فات القرن فقد سلم وجهه وقفاه وان لم يفته فالضرب على قفاه لا غير ويوم الوفاة لا نصرة له ولا مفر فوجهه وظهره مضروب مطعون فكيف يحترز عن الاذى

ويختار العذاب الاكبر ✿ قوله تعالى (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه) وفيه لطيفة وهي ان الله تعالى ذكر أمرين ضرب الوجه وضرب الادبار وذكر بعدهما أمرين آخرين اتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه فكأنه تعالى قابل الامرين فقال يضربون وجوههم حيث أقبلوا على سخط الله فان المتبع للشئ متوجه اليه ويضربون أدبارهم لانهم تولوا عما فيه رضاء الله فان الكاره للشئ يتولى عنه وما أسخط الله يحتمل وجوها (الاول) انكار الرسول عليه الصلاة والسلام ورضوانه الاقرار به والاسلام (الثاني) الكفر هو ما أسخط الله والايمان يرضيه يدل عليه قوله تعالى ان تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم وقال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية الى ان قال رضي الله عنهم ورضوا عنه (الثالث) ما أسخط الله تسويل الشيطان ورضوان الله التعويل على البرهان والقرآن فان قيل هم ما كانوا يكرهون رضوان الله بل كانوا يقولون ان ما نحن عليه فيه رضوان الله ولا نطلب الا رضاء الله وكيف لا والمشركون باشراكهم كانوا يقولون انا نطلب رضاء الله كما قالوا ليقربونا الى الله زلفى وقالوا ليشفعوا لنا فنقول معناه كرهوا ما فيه رضاء الله تعالى (وفيه لطيفة) وهي ان الله تعالى قال ما أسخط الله ولم يقل ما أرضى الله وذلك لان رحمة الله سابقة فله رحمة ثابتة وهي منشأ الرضوان وغضب الله متأخر فهو يكون على ذنب فقال رضوانه لانه وصف ثابت لله سابق ولم يقل سخط الله بل ما أسخط الله اشارة الى أن السخط ليس ثبوته كثبوت الرضوان ولهذا المعنى قال في اللعان في حق المرأة والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين فقال غضب الله مضافا لان اللعان قد سبق مظهر الزنا بقوله وأيمانه وقبله لم يكن لله غضب ورضوان الله أمر يكون منه الفعل وغضب الله أمر يكون من فعله ولنضرب له مثالا الكريم الذي رسخ الكرم في نفسه يحمله الكرم على الافعال الحسنة فاذا كثر من المسئ الاساءة فغضبه لا لامر يعود اليه بل غضبه عليه يكون لاصلاح حاله وزجرا لامثاله عن مثل فعله فيقال هو كان الكريم فكرمه لما فيه من الغريزة الحسنة لكن فلانا أغضبه وظهر منه الغضب فيجعل الغضب ظاهرا من الفعل والفعل الحسن ظاهرا من الكرم فالغضب في الكريم بعد فعل والفعل منه بعد كرم ومن هذا يعرف لطف قوله ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ✿ ثم قال تعالى (فأحبط أعمالهم) حيث لم يطلبوا رضاء الله وانما طلبوا رضاء الشيطان والاصنام ✿ قوله تعالى (أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله اضغانهم) هذا اشارة الى المنافقين وأم تستدعي جملة أخرى استفهامية اذا كانت للاستفهام لان كلمة أم اذا كانت متصلة استفهامية تستدعي سبق جملة أخرى استفهامية يقال أزيد في الدار أم عمرو واذا كانت منقطعة لا تستدعي ذلك يقال ان هذا لزيد أم عمرو كما يقال بل عمرو والمفسرون على انها منقطعة ويحتمل ان يقال انها استفهامية والسابق مفهوم من قوله تعالى والله يعلم أسرارهم فكأنه تعالى قال

لليهود وقرئ أسرارهم أي جميع اسرارهم التي من جملتها قولهم هذا والجملة اعتراض مقرر لما قبله متضمن للاقناط في الدنيا والتعذيب في الآخرة والفاء في قوله تعالى (فكيف اذا توفتهم ﴿ ٥٤٨ ﴾ الملائكة) لترتيب ما بعدها على ما قبلها وكيف منصوب بفعل محذوف هو العامل في الظرف كأنه قيل يفعلون في حياتهم ما يفعلون من الحيل فكيف يفعلون اذا توفتهم الملائكة وقيل مرفوع على أنه خبر ابتداء محذوف أي فكيف حالهم أو حيلتهم اذا توفتهم الخ وقرئ توفاهم على أنه اما ماض أو مضارع قد حذف احدى تاءيه (يضربون وجوههم وأدبارهم) حال من فاعل توفتهم أو من مفعوله وهو تصوير لتوفيهم على أهول الوجوه وأفظعها وعن ابن عباس رضي الله عنهما لا يتوفى أحد على معصية الا يضرب الملائكة وجهه ودبره (ذلك) التوفي الهائل (بأنهم) أي بسبب انهم (اتبعوا ما أسخط الله) من الكفر والمعاصي (وكرهوا رضوانه) أي ما يرضاه من الايمان والطاعة حيث كفروا بعد الايمان وخرجوا عن الطاعة بما صنعوا من المعاملة مع اليهود (فأحبط) لاجل ذلك (أعمالهم) التي عملوها حال ايمانهم من الطاعات ﴿ احسب ﴾ أو بعد ذلك من أعمال البر التي لو عملوها حال الايمان لانتفعوا بها (أم حسب الذين في قلوبهم مرض)

هم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الشنيعة وصفوا بوصفهم السابق لكونه مدار النعي عليهم بقوله تعالى (أن لن يخرج الله أضغانهم) وأم منقطعة وأن مخففة من أن وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف ولن بما في حيزها خبرها والاضغان جمع ضغن وهو الحقد أي بل أحسب الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أنه لن يخرج الله أحقادهم ولن يبرزها لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين فتبقى أمورهم مستورة والمعنى ان ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال (ولو نشاء) اراءتهم (لاريناكهم) لعرفناكهم بدلائل تعرفهم بأعيانهم معرفة متاخمة للرؤية والالتفات الى نون العظمة لابراز العناية بالاراءة (فلعرفتهم بسيماهم) بعلامتهم التي نسمهم بها وعن انس رضي الله عنه ما خفي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شيء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم ولقد كنا في بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى كل واحد منهم مكتوب هذا منافق واللام لام الجواب كررت في المعطوف للتأكيد والفاء لترتيب المعرفة على الاراءة وأما في قوله تعالى

أحسب الذين كفروا ان لن يعلم الله اسرارهم أم حسب المنافقون أن لن يظهرها والكل قاصرون وانما يعلمها ويظهرها ويؤيد هذا ان المنقطعة لا تكاد تقع في صدر الكلام فلا يقال ابتداء بل جاء زيد ولا أم جاء عمرو والاخراج بمعنى الاظهار فانه ابراز والاضغان هي الحقود والامراض واحدها ضغن * ثم قال تعالى (ولو نشاء لاريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم) لما كان مفهوم قوله أم حسب الذين في قلوبهم مرض ان لن يخرج الله أضغانهم ان الله يظهر ضمائرهم ويبرز سرائرهم كان قائلا قال فلم لم يظهر فقال أخرناه لمحض المشيئة لا لخوف منهم كما لا تفشى أسرار الاكابر خوفا منهم ولو نشاء لاريناكهم أي لا مانع لنا والاراءة بمعنى التعريف وقوله فلعرفتهم لزيادة فائدة وهي ان التعريف قد يطلق ولا يلزمه المعرفة يقال عرفته ولم يعرف وفهمته ولم يفهم فقال ههنا فلعرفتهم يعني عرفناهم تعريفا تعرفهم به اشارة الى قوة التعريف واللام في قوله فلعرفتهم هي التي تقع في جزاء لو كما في قوله لاريناكهم أدخلت على المعرفة اشارة الى أن المعرفة كالمرتبة على المشيئة كأنه قال ولو نشاء لعرفتهم ليفهم أن المعرفة غير متأخرة عن التعريف فتفيد تأكيد التعريف أي ولو نشاء لعرفناك تعريفا معه المعرفة لا بعده واما اللام في قوله تعالى ولتعرفنهم جواب لقسم محذوف كأنه قال ولتعرفنهم والله وقوله في لحن القول فيه وجوه (أحدها) في معنى القول وعلى هذا يحتمل أن يكون المراد من القول قولهم أي لتعرفنهم في معنى قولهم حيث يقولون ما معناه النفاق كقولهم حين مجيء النصر انا كنا معكم وقولهم لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن وقولهم ان بيوتنا عورة وغير ذلك ويحتمل أن يكون المراد قول الله عز وجل أي لتعرفنهم في معنى قول الله تعالى حيث قال ما تعلم منه حال المنافقين كقوله تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا وقوله انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الى غير ذلك (وثانيها) في ميل القول عن الصواب حيث قالوا ما لم يعتقدوا فأمالوا كلامهم حيث قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون وقالوا ان بيوتنا عورة وما هي بعورة ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار الى غير ذلك (وثالثها) في لحن القول أي في الوجه الخفي من القول الذي يفهمه النبي عليه السلام ولا يفهمه غيره وهذا يحتمل أمرين أيضا النبي عليه السلام كان يعرف المنافق ولم يكن يظهر أمره الى ان أذن الله تعالى له في اظهار أمرهم ومنع من الصلاة على جنائزهم والقيام على قبورهم واما قوله بسيماهم فالظاهر ان المراد ان الله تعالى لو شاء لجعل على وجوههم علامة أو يمسخهم كما قال تعالى ولو نشاء لمسخناهم وروي ان جماعة منهم أصبحوا وعلى جباههم مكتوب هذا منافق وقوله تعالى والله يعلم أعمالكم وعد للمؤمنين وبيان لكون حالهم على خلاف حال المنافق فان المنافق له قول بلا عمل والمؤمن كان له عمل ولا يقول به وانما قوله التسبيح ويدل عليه قوله تعالى ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا

(ولتعرفنهم فى لحن القول) فالجواب قسم محذوف ولحن القول نحوه وأسلوبه او أماله الى جهة تعريض وتورية ومنه قيل للمخطي لاحن لعدله بالكلام عن سمت الصواب (والله يعلم أعمالكم) فيجازيكم بحسب قصدكم وهذا وعد للمؤمنين و ايذان بان حالهم بخلاف حال المنافقين (ولنبلونكم) بالامر بالجهاد ونحوه من التكاليف الشاقة (حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) على مشاق الجهاد علما فعليا يتعلق به الجزاء (ونبلو أخباركم) ما يخبر به عن أعمالكم فيظهر حسنها وقبحها وقرئ و يبلو بالياء وقرئ نبلو بسكون الواو على وهن نبلو (ان الذين كفروا وصدوا) الناس (عن سبيل الله و شاقوا الرسول) وعادوه (من بعد ما تبين لهم الهدى) بما شاهدوا نعته عليه الصلاة والسلام فى التوراة و بما ظهر على يديه من المعجزات ونزل عليه من الآيات وهم قريظة والنضير او المطعمون يوم بدر (لن يضروا الله) بكفرهم وصدهم (شيئا)من الاشياء أو شيأ من الضرر أو لن يضروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشاقته شيئا وقد حذف المضاف لتعظيمه وتفظيع مشاقته (وسيحبط اعمالهم) أى مكايدهم التى نصبوها فى ابطال ﴿ تعالى ﴾ دينه تعالى ومشاقة رسوله عليه

اوأخطأنا وقوله ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيأتنا وكانوا يعملون الصالحات ويتكلمون فى السيآت مستغفرين مشفقين والمنافق كان يتكلم فى الصالحات كقوله انا معكم قالت الاعراب آمنا ومن الناس من يقول آمنا و يفعل السيئ فقال تعالى الله يسمع أقوالهم الفارغة و يعلم أعمالكم الصالحة فلا يضيع ❊ ثم قال تعالى (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) أى لنأمرنكم بما لا يكون متعينا للوقوع بل بما يحتمل الوقوع و يحتمل عدم الوقوع كما يفعل المختبر وقوله تعالى حتى نعلم المجاهدين أى نعلم المجاهدين من غير المجاهدين و يدخل فى علم الشهادة فانه تعالى قد علمه علم الغيب وقد ذكرنا ما هو التحقيق فى الابتلاء وفى قوله حتى نعلم وقوله المجاهدين أى المقدمين على الجهاد والصابرين أى الثابتين الذين لا يولون الادبار وقوله ونبلوا أخباركم يحتمل وجوها (أحدها) قوله آمنا لان المنافق وجد منه هذا الخبر والمؤمن وجد منه ذلك أيضا وبالجهاد يعلم الصادق من الكاذب كما قال تعالى أولئك هم الصادقون (وثانيها) اخبارهم من عدم التولية فى قوله ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار الى غير ذلك فالمؤمن وفى بعهده وقاتل مع أصحابه فى سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص والمنافق كان كالهباء ينزعج بأدنى صيحة (وثالثها) المؤمن كان له أخبار صادقة مسموعة من النبي عليه السلام كقوله تعالى لتدخلن المسجد الحرام لاغلبن أنا ورسلي وان جندنا لهم الغالبون والمنافق اخبار هى أراجيف كما قال تعالى فى حقهم والمرجفون فى المدينة فعند تحقق الايجاف يتبين الصدق من الارجاف ❊ ثم قال تعالى (ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم) وفيه وجهان (أحدهما) هم أهل الكتاب قريظة والنضير (والثانى) كفار قريش يدل على الاول قوله تعالى من بعد ما تبين لهم الهدى فيل أهل الكتاب تبين لهم صدق محمد عليه السلام وقوله لن يضروا الله شيئا تهديد معناه هم يظنون ان ذلك الشقاق مع الرسول وهم به يشاقونه وليس كذلك بل الشقاق مع الله فان محمدا رسول الله ما عليه الا البلاغ فان ضروا يضروا المرسل لكن الله منزه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق وقوله وسيحبط أعمالهم قد علم معناه فان قيل قد تقدم فى أول السورة ان الله تعالى أحبط أعمالهم فكيف يحبط فى المستقبل نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان المراد من قوله الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله فى أول السورة المشركون ومن أول الامر كانوا مبطلين وأعمالهم كانت على غير شرع والمراد من الذين كفروا ههنا أهل الكتاب وكانت لهم أعمال قبل الرسول فاحبطها الله تعالى بسبب تكذيبهم الرسول و لا ينفعهم ايمانهم بالحشر والرسل والتوحيد والكافر المشرك أحبط عمله حيث لم يكن على شرع أصلا ولا كان معترفا بالحشر (الثانى) هو ان المراد بالاعمال ههنا مكايدهم فى القتال وذلك قد تحقق منهم والله سيبطله حيث يكون النصر للمؤمنين والمراد بالاعمال فى أول السورة هو ما ظنوه حسنة ❊ ثم قال

الصلاة والسلام فلا يصلون بها الى ما كانوا يبغون من الغوائل ولا تمر لهم الا القتل والجلاء عن أوطانهم (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) بما أبطل به هؤلاء أعمالهم من الكفر والنفاق والعجب والرياء والمن والأذى ونحوها وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) حكم يعم كل من مات على الكفر وإن صح نزوله في أصحاب القليب (فلا تهنوا) أي لا تضعفوا (وتدعوا الى السلم) أي ولا تدعوا الكفار الى الصلح خورا فان ذلك اعطاء الدنية ويجوز أن يكون منصوبا باضمار أن على جواب النهي وقرئ ولا تدعوا من ادعى القوم بمعنى تداعوا نحو ارتموا الصيد وتراموه ومنه تراءوا الهلال فان صيغة التفاعل قد يراد بها صدور الفعل عن المتعدد من غير اعتبار وقوعه عليه ومنه قوله تعالى عم يتساءلون على أحد الوجهين والفاء لترتيب النهي على ما سبق من الأمر بالطاعة وقوله تعالى (وأنتم الاعلون) جملة حالية مقررة لمعنى النهي مؤكدة لوجود الانتهاء وكذا قوله (والله معكم) فان كونهم الاعلين وكونه

تعالى (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) اعلم أن ههنا من باب عطف المسبب على السبب يقال اجلس واسترح وقم وامش لأن طاعة الله تحمل على طاعة الرسول وهذا اشارة الى العمل بعد حصول العلم كأنه تعالى قال ياأيها الذين آمنوا علمتم الحق فافعلوا الخير وقوله ولا تبطلوا أعمالكم يحتمل وجوها (أحدها) دوموا على ما أنتم عليه ولا تشركوا فتبطل أعمالكم قال تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك (الوجه الثاني) لا تبطلوا أعمالكم بترك طاعة الرسول كما أبطل أهل الكتاب أعمالهم بتكذيب الرسول وعصيانه ويؤيده قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم الى أن قال أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون (الثالث) لا تبطلوا أعمالكم بالمن والأذى كما قال تعالى يمنون عليك ان أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم وذلك ان من يمن بالطاعة على الرسول كأنه يقول هذا فعلته لأجل قلبك ولولا رضاك به لما فعلت وهو مناف للاخلاص والله لا يقبل الا العمل الخالص * ثم قال تعالى (ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) بين أن الله لا يغفر الشرك وما دون ذلك يغفره ان شاء حتى لا يظن ظان ان أعمالهم وان بطلت لكن فضل الله باق يغفر لهم بفضله وان لم يغفر لهم بعملهم * ثم قال تعالى (فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الاعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم) لما بين ان عمل الكافر الذي له صورة الحسنات محبط وذنبه الذي هو أقبح السيآت غير مغفور بين ان لا حرمة له في الدنيا ولا في الآخرة وقد أمر الله تعالى بطاعة الرسول بقوله وأطيعوا الرسول وأمر بالقتال بقوله فلا تهنوا أي لا تضعفوا بعد ما وجد السبب في الجد في الأمر والاجتهاد في الجهاد فقال فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وفي الآيات ترتيب في غاية الحسن وذلك لأن قوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول يقتضي السعي في القتال لأن أمر الله وأمر الرسول ورد بالجهاد وقد أمروا بالطاعة فذلك يقتضي أن لا يضعف المكلف ولا يكسل ولا يهن ولا يتهاون ثم ان بعد المقتضي قد يتحقق مانع ولا يتحقق المسبب والمانع من القتال اما أخروي واما دنيوي فذكر الأخروي وهو ان الكافر لا حرمة له في الدنيا والآخرة لأنه لا عمل له في الدنيا ولا مغفرة له في الآخرة فاذا وجد السبب ولم يوجد المانع ينبغي أن يتحقق المسبب ولم يقدم المانع الدنيوي على قوله فلا تهنوا اشارة الى أن الامور الدنيوية لا ينبغي أن تكون مانعة من الاتيان فلا تهنوا فان لكم النصر أو عليكم بالعزيمة على تقدير الاعتزام للهزيمة ثم قال تعالى بعد ذلك المانع الدنيوي مع أنه لا ينبغي أن يكون مانعا ليس بموجود أيضا حيث أنتم الاعلون والاعلون والمصطفون في الجمع حالة الرفع معلوم الاصل ومعلوم ان الامر كيف آل الى هذه الصيغة في التصريف وذلك لأن أصله في الجمع الموافق أعليون ومصطفيون فسكنت الياء لكونها حرف علة فتحرك ما قبلها والواو كانت ساكنة فالتقى ساكنان ولم يكن بد من حذف أحدهما أو تحريكه والتحريك كان يوقع في المحذور الذي اجتنب منه فوجب الحذف والواو كانت

فيه لمعنى لايستفاد الا منهما وهو الجمع فأسقطت الياء وبقي أعلون وبهذا الدليل صار في الجر أعلين ومصطفين، قوله تعالى والله معكم هداية وارشاد يمنع المكلف من الاعجاب بنفسه وذلك لانه تعالى لما قال أنتم الاعلون كان ذلك سبب الافتخار فقال والله معكم يعني ليس ذلك من أنفسكم بل من الله أو نقول لما قال وأنتم الاعلون فكان المؤمنون يرون ضعف أنفسهم وقلتهم مع كثرة الكفار وشوكتهم وكان يقع في نفس بعضهم انهم كيف يكون لهم الغلبة فقال ان الله معكم لايبقى لكم شك ولا ارتياب في أن الغلبة لكم وهذا كقوله تعالى لاغلبن أنا ورسلي وقوله وان جندنا لهم الغالبون وقوله ولن يتركم أعمالكم وعد آخر وذلك لان الله لما قال ان الله معكم كان فيه أن النصرة بالله لا بكم فكان القائل يقول لم يصدر مني عمل له اعتبار فلا استحق تعظيما فقال هو ينصركم ومع ذلك لاينقص من أعمالكم شيئا ويجعل كأن النصرة حصلت بكم ومنكم فكأنكم مستقلون في ذلك ويعطيكم أجر المستبد والترة النقص ومنه الموتر كأنه نقص منه مايشفعه ويقول عند القتال ان قتل من الكافر بن أحد فقد وتروا في أهلهم وعملهم حيث نقص عددهم وضاع عملهم والمؤمن ان قتل فانما ينقص من عدده ولم ينقص من عمله وكيف ولم ينقص من عدده أيضا فانه حي مرزوق فرح بما هو اليه مسوق * ثم قال تعالى (انما الحياة الدنيا لعب ولهو وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم) زيادة في التسلية يعني كيف تمنعك الدنيا من طلب الآخرة بالجهاد وهي لاتفوتك لكونك منصورا غالبا وان فاتتك فعملك غير موتر فكيف ومايفوتك فان فات فائت ولم يعوض لاينبغي لك ان تلتفت اليها لكونها لعبا ولهوا وقد ذكرنا في اللعب واللهو مرارا ان اللعب ماتشتغل به ولا يكون فيه ضرورة في الحال ولا منفعة في المآل ثم ان استعمله الانسان ولم يشغله عن غيره ولم ينته عن اشغاله المهمة فهو لعب وان شغله ودهشه عن مهماته فهو لهو ولهذا يقال ملاهي لآلات الملاهي لانها مشغلة عن الغير ويقال لما دونه لعب كاللعب بالشطرنج والحمام وقد ذكرنا ذلك غير مرة وقوله وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم اعادة للوعد والاضافة للتعريف أي الاجر الذي وعدكم بقوله أجر كريم وأجر كبير وأجر عظيم وقوله ولا يسئلكم أموالكم يحتمل وجوها (أحدها) ان الجهاد لابد له من انفاق فلو قال قائل أنا لا انفق مالي فيقال له الله لايسئلكم مالكم في الجهات المعينة من الزكاة والغنيمة وأموال المصالح فيما تحتاجون اليه من المال لاترعون باخراجه (وثانيها) الاموال لله وهي في أيديكم عارية وقد طلب منكم أو أجاز لكم في صرفها في جهة الجهاد فلا معنى لبخلكم بماله والى هذا أشار بقوله تعالى ومالكم أن لاتنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والارض أي الكل لله (وثالثها) لايسئلكم أموالكم كلها وانما يسألكم شيئا يسيرا منها وهو ربع العشر وهو قليل جدا لان العشر هو الجزء الاقل اذ ليس دونه جزء آخر وليس اسما مفردا وأما الجزء من أحد عشر ومن اثنى عشر ومن مائة جزء لما لم يكن ملتفتا اليه لم يوضع له اسم مفرد ثم ان الله تعالى لم يوجب ذلك

الاعمال حسبما يعرب عنه قوله تعالى (ولن يتركم أعمالكم) أي وان يضيعها من وترت الرجل اذا قتلت له قتيلا من ولد أو أخ أو حميم فأفردته عنه من الوتر الذي هو الفرد وعبر عن ترك الاثابة في مقابلة الاعمال بالوتر الذي هو اضاعة شئ معتد به من الانفس والاموال مع أن الاعمال غير موجبة للثواب على قاعدة أهل السنة ابرازا لغاية اللطف بتصوير الثواب بصورة الحق المستحق وتنزيل ترك الاثابة منزلة اضاعة أعظم الحقوق واتلافها وقدمر في قوله تعالى فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم (انما الحياة الدنيا لعب ولهو) لاثبات لها ولا اعتداد بها (وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم) أي ثواب ايمانكم وتقواكم من الباقيات الصالحات التي يتنافس فيها المتنافسون (ولا يسئلكم أموالكم) بحيث يخل أداؤها بمعاشكم وانما اقتصر على نزر يسير منها هو ربع العشر تؤدونها الى فقرائكم

(ان يسألكموها) أى أموالكم (فيحفكم) أى يجهدكم بطلب الكل فان الاحفاء والالحاف المبالغة وبلوغ الغاية يقال أحفى شاربه اذا استأصله (تبخلوا) فلا تعطوا ﴿ ٥٥٣ ﴾ (ويخرج أضغانكم) أى أحقادكم وضمير

في رأس المال بل أوجب ذلك في الربح الذي هو من فضل الله وعطائه وان كان رأس المال أيضا كذلك لكن هذا المعنى في الربح أظهر ولما كان المال منه ما ينفق للتجارة فيه ومنه ما لا ينفق وما انفق منه للتجارة أحد قسميه وهو يحتمل أن تكون التجارة فيه رابحة ويحتمل أن لا تكون رابحة فصار القسم الواحد قسمين فصار في التقدير كان الربح في ربعه فأوجب عشر الذي فيه الربح وهو عشر فهو ربع العشر وهو الواجب فعلم ان الله لا يسألكم أموالكم ولا الكثير منه * ثم قال تعالى (ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) الفاء في قوله فيحفكم للاشارة الى أن الاحفاء يتبع السؤال بيانا لشح الانفس وذلك لان العطف بالواو قد يكون للمثلين وبالفاء لا يكون الا للمتعاقبين أو متعلقين أحدهما بالآخر فكأنه تعالى بين ان الاحفاء يقع عقيب السؤال لان الانسان بمجرد السؤال لا يعطي شيأ وقوله تبخلوا ويخرج أضغانكم يعني ما طلبها ولو طلبها والح عليكم في الطلب لبخلتم كيف وأنتم تبخلون باليسير كيف لا تبخلون بالكثير وقوله ويخرج أضغانكم يعني بسببه فان الطالب وهو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يطلبونكم وأنتم لمحبة المال وشح الانفس تمتنعون فيفضي الى القتال وتظهر به الضغائن * ثم قال تعالى بيانا لما قاله (ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء) قد طلبت منكم اليسير فبخلتم فكيف لو طلبت منكم الكل وقوله هؤلاء يحتمل وجهين (أحدهما) ان تكون موصولة كأنه قال أنتم هؤلاء الذين تدعون لتنفقوا في سبيل الله (وثانيهما) هؤلاء وحدها خبر أنتم كما يقال أنت هذا تحقيقا للشهرة والظهور أى ظهر أمركم بحيث لا حاجة الى الاخبار عنكم بأمر مغاير ثم يبتدئ تدعون وقوله تدعون أى الى الانفاق اما في سبيل الله تعالى بالجهاد واما في صرفه الى المستحقين من اخوانكم وبالجملة ففي الجهتين تخزيل الاعداء ونصرة الاولياء فمنكم من يبخل ثم بين ان ذلك البخل ضرر عائد اليه فلا تظنوا انهم لا ينفقونه على غيرهم بل لا ينفقونه على أنفسهم فان من يبخل بأجرة الطبيب وثمن الدواء وهو مريض فلا يبخل الا على نفسه ثم حقق ذلك بقوله والله الغنى غير محتاج الى مالكم وأتمه بقوله وأنتم الفقراء حتى لا تقولوا انا أيضا أغنياء عن القتال ودفع حاجة الفقراء فانهم لا غنى لهم عن ذلك في الدنيا والآخرة اما في الدنيا فلانه لولا القتال لقتلوا فان الكافر ان لم يغز يغزو والمحتاج ان لم يدفع حاجته يقصده لاسيما اباح الشارع للمضطر ذلك وأما في الآخرة فظاهر فكيف لا يكون فقيرا وهو موقوف مسؤل يوم لا ينفع مال ولا بنون * ثم قال تعالى (وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) بيان الترتيب من وجهين (أحدهما) انه ذكره بيانا للاستغناء كما قال تعالى ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وقد ذكر ان هذا تقرير بعد التسليم كأنه تعالى يقول الله غنى عن العالم باسره فلا حاجة له اليكم فان كان ذاهب

يخرج لله تعالى ويعضده القراءة بنون العظمة أو للبخل لانه سبب الاضغان وقرئ يخرج من الخروج بالياء والتاء مسندا الى الاضغان (ها أنتم هؤلاء) أى أنتم أيها المخاطبون هؤلاء الموصوفون وقوله تعالى (تدعون لتنفقوا في سبيل الله) استئناف مقرر لذلك أو صلة لهؤلاء على انه بمعنى الذين أى ها أنتم الذين تدعون ففيه توبيخ عظيم وتحقير من شأنهم والانفاق في سبيل الله يعم نفقة الغزو والزكاة وغيرهما (فمنكم من يبخل) أى ناس يبخلون وهو في حيز الدليل على الشرطية السابقة (ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه) فان كلا من نفع النفاق وضرر البخل عائد اليه والبخل يستعمل بعن وعلى لتضمنه معنى الامساك والتعدى (والله الغنى) دون من عداه (وأنتم الفقراء) فما يأمركم به فهو لاحتياجكم الى ما فيه من المنافع فان امتثلتم فلكم وان

توليتم فعليكم وقوله تعالى (وان تتولوا) عطف على ﴿ ٥٥٤ ﴾ أن تؤمنوا أي وان تعرضوا عن الايمان والتقوى

يذهب الى ان ملكه بالعالم وجبروته يظهر به وعظمته بعباده فنقول هب ان هذا الباطل حق لكنكم غير متعينين له بل الله قادر على أن يخلق خلقا غيركم يفتخرون بعبادته وعالما غير هذا يشهد بعظمته وكبريائه (وثانيها) انه تعالى لما بين الامور وأقام عليها البراهين وأوضحها بالامثلة قال ان أطعتم فلكم أجوركم وزيادة وان تتولوا لم يبق لكم الا الاهلاك فان ما من نبي أنذر قومه وأصروا على تكذيبه الا وحق عليهم القول بالاهلاك وطهر الله الارض منهم وأتى بقوم آخرين طاهرين وقوله ثم لا يكونوا أمثالكم فيه مسئلة نحوية يتبين منها فوائد عزيزة وهي ان النحاة قالوا يجوز في المعطوف على جواب الشرط بالواو والفاء وثم الجزم والرفع جميعا قال الله تعالى ههنا وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم بالجزم وقال في موضع آخر وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لا ينصرون بالرفع باثبات النون وهو مع الجواز ففيه تدقيق وهو ان ههنا لا يكون متعلقا بالتولي لانهم ان لم يتولوا يكونون ممن يأتي بهم الله على الطاعة وان تولوا لا يكونون مثلهم لكونهم عاصين وكون من يأتي بهم مطيعين وأما هناك سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون فلم يكن للتعليق هناك وجه فرفع بالابتداء وههنا جزم للتعليق وقوله ثم لا يكونوا أمثالكم يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد لا يكونوا أمثالكم في الوصف ولا في الجنس وهو لائق (الوجه الثاني) وفيه وجوه (أحدها) قوم من العجم (وثانيها) قوم من فارس روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عمن يستبدل بهم ان تولوا وسلمان الى جنبه فقال هذا وقومه ثم قال لو كان الايمان منوطا بالثريا لناله رجال من فارس (وثالثها) قوم من الانصار والله أعلم والحمد لله رب العالمين وصلاته على خير خلقه محمد النبي وآله وصحبه وعترته وأهل بيته أجمعين وسلم تسليما كثيرا آمين

(سورة الفتح عشرون وتسع آيات مدنية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في الفتح وجوه (أحدها) فتح مكة وهو ظاهر (وثانيها) فتح الروم وغيرها (وثالثها) المراد من الفتح صلح الحديبية (ورابعها) فتح الاسلام بالحجة والبرهان والسيف والسنان (وخامسها) المراد منه الحكم كقوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وقوله ثم يفتح بيننا بالحق والمختار من الكل وجوه (أحدها) فتح مكة والآخر فتح الحديبية والثالث فتح الاسلام بالآية والبيان والحجة والبرهان والاول مناسب لآخر ما قبلها من وجوه (أحدها) انه تعالى لما قال ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله الى أن قال ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه بين تعالى انه فتح لهم مكة وغنموا ديارهم وحصل لهم اضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك فلا يكون بخلهم الا على أنفسهم (ثانيها) لما قال والله معكم وقال وأنتم

(يستبدل قوما غيركم) يخلف مكانكم قوما آخرين (ثم لا يكونوا أمثالكم) في التولي عن الايمان والتقوى بل يكونوا راغبين فيهما قيل هم الانصار وقيل الملائكة وقيل أهل فارس لما روى أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن القوم وكان سلمان الى جنبه فضرب على فخذه فقال هذا وقومه والذي نفسي بيده لو كان الايمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس وقيل كندة والنخع وقيل العجم وقيل الروم * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة محمد كان حقا على الله عز وجل أن يسقيه من أنهار الجنة

* (سورة الفتح مدنية نزلت في مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية وآيها تسع وعشرون) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) * (انا فتحنا لك) فتح البلد عبارة عن الظفر به عنوة أو صلحا بحراب أو بدونه فانه مالم يظفر به منغلق مأخوذ من فتح باب الدار واسناده الى نون العظمة لاستناد أفعال ﴿ الاعلون ﴾

الاعلون بين برهانه بفتح مكة فانهم كانوا هم الاعلون (ثالثها) لما قال تعالى فلاتهنوا وتدعوا الى السلم وكان معناه لاتسألوا الصلح من عندكم بل اصبروا فانهم يسألون الصلح ويجتهدون فيه كما كان يوم الحديبية وهو المراد بالفتح فى أحد الوجوه وكما كان فتح مكة حيث أتى صناديد قريش مستأمنين ومؤمنين ومسلمين فان قيل ان كان المراد فتح مكة فمكة لم تكن قد فتحت فكيف قال تعالى فتحنا لك فتحا مبينا بلفظ الماضى نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) فتحنا فى حكمنا وتقديرنا (ثانيهما) ما قدره الله تعالى فهو كائن فأخبر بصيغة الماضى اشارة الى أنه أمر لادافع له واقع لارافع له (المسئلة الثانية) قوله ليغفر لك الله ينبئ عن كون الفتح سببا للمغفرة والفتح لايصلح سببا للمغفرة فما الجواب عنه نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) ما قيل ان الفتح لم يجعله سببا للمغفرة وحدها بل هو سبب لاجتماع الامور المذكورة وهى المغفرة واتمام النعمة والهداية والنصرة كأنه تعالى قال ليغفر لك الله ويتم نعمته ويهديك وينصرك ولاشك ان الاجتماع لم يثبت الا بالفتح فان النعمة به تمت والنصرة بعده قد عمت (الثانى) هو ان فتح مكة كان سببا لتطهير بيت الله تعالى من رجس الاوثان وتطهير بيته صار سببا لتطهير عبده (الثالث) هو ان بالفتح يحصل الحج ثم بالحج تحصل المغفرة ألا ترى الى دعاء النبى عليه الصلاة والسلام حيث قال فى الحج اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا وذنبا مغفورا (الرابع) المراد منه التعريف تقديره انا فتحنا لك ليعرف انك مغفور معصوم فان الناس كانوا علموا بعد عام الفيل ان مكة لايأخذها عدو الله المسخوط عليه وانما يدخلها ويأخذها حبيب الله المغفور له (المسئلة الثالثة) لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم ذنب فماذا يغفر له قلنا الجواب عنه قد تقدم مرارا من وجوه (أحدها) المراد ذنب المؤمنين (ثانيها) المراد ترك الافضل (ثالثها) الصغائر فانها جائزة على الانبياء بالسهو والعمد وهو يصونهم عن العجب (رابعها) المراد العصمة وقد بيناه وجهه فى سورة القتال (المسئلة الرابعة) ما معنى قوله وما تأخر نقول فيه وجوه (أحدها) انه وعد النبى عليه السلام بأنه لايذنب بعد النبوة (ثانيها) ما تقدم على الفتح وما تأخر عن الفتح (ثالثها) العموم يقال اضرب من لقيت ومن لاتلقاه مع ان من لا يلقى لايمكن ضربه اشارة الى العموم (رابعها) من قبل النبوة ومن بعدها وعلى هذا فما قبل النبوة بالعفو وما بعدها بالعصمة وفيه وجوه أخر ساقطة منها قول بعضهم ما تقدم من أمر مارية وما تأخر من أمر زينب وهو أبعد الوجوه وأسقطها لعدم التئام الكلام وقوله تعالى ويتم نعمته عليك يحتمل وجوها (أحدها) هو ان التكاليف عند الفتح تمت حيث وجب الحج وهو آخر التكاليف والتكاليف نعم (ثانيها) يتم نعمته عليك باخلاء الارض لك عن معانديك فان يوم الفتح لم يبق للنبى عليه الصلاة والسلام عدو ذو اعتبار فان بعضهم كانوا أهلكوا يوم بدر والباقون آمنوا واستأمنوا يوم الفتح (ثالثها) ويتم نعمته عليك فى الدنيا باستجابة دعائك فى طلب الفتح وفى الآخرة

العباد اليه تعالى خلقا وايجادا والمراد به فتح مكة شرفها الله وهو المروى عن أنس رضى الله عنه بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم عند انصرافه من الحديبية والتعبير عنه بصيغة الماضى على سنن سائر الاخبار الربانية للايذان بتحققه لامحالة تأكيدا للتبشير كما أن تصدير الكلام بحرف التحقيق لذلك وفيه من الفخامة المنبئة عن عظمة شأن المخبر جل جلاله وعز سلطانه ما لايخفى وقيل هو ما أتيح له عليه الصلاة والسلام فى تلك السنة من فتح خيبر وهو المروى عن مجاهد وقيل هو صلح الحديبية فانه وان لم يكن فيه حراب شديد بل ترام بين الفريقين بسهام وحجارة لكن لما كان الظهور للمسلمين حيث سألهم المشركون الصلح كان فتحا بلا ريب وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم وعن الكلبى ظهروا عليهم حتى سألوا الصلح وقد روى أنه عليه الصلاة والسلام حين بلغه أن رجلا قال ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصد هدينا قال بل هو أعظم الفتوح وقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح

بقبول شفاعتك فى الذنوب ولو كانت فى غاية القبح وقوله تعالى و يهديك صراطا مستقيما يحتمل وجوها (أظهرها) يديك على الصراط المستقيم حتى لا يبقى من يلتفت الى قوله من المضلين أو ممن يقدر على الاكراه على الكفر وهذا يوافق قوله تعالى ورضيت لكم الاسلام دينا حيث أهلكت المجادلين فيه وحملتهم على الايمان (وثانيها) ان يقال جعل الفتح سببا للهداية الى الصراط المستقيم لانه سهل على المؤمنين الجهاد لعلمهم بالفوائد العاجلة بالفتح والآجلة بالوعد والجهاد سلوك سبيل الله ولهذا يقال للغازى فى سبيل الله مجاهد (وثالثها) ماذكرنا ان المراد التعريف أى ليعرف انك على صراط مستقيم من حيث ان الفتح لا يكون الا على يد من يكون على صراط الله بدليل حكاية الفيل وقوله و ينصرك الله نصرا عزيزا ظاهر لان بالفتح ظهر النصر واشتهر الامر وفيه مسئلتان (أحدهما) لفظية والاخرى معنوية اما اللفظية فهى ان الله وصف النصر بكونه عزيزا والعزيز من له النصر والجواب من وجهين (أحدهما) ماقاله الزمخشرى انه يحتمل وجوها ثلاثة (الاول) معناه نصرا ذا عز كقوله فى عيشة راضية أى ذات رضا (الثانى) وصف النصر بما يوصف به المنصور اسنادا مجازيا يقال له كلام صادق كما يقال له متكلم صادق (الثالث) المراد نصرا عزيزا صاحبه (الوجه الثانى) من الجواب أن نقول انما يلزمنا ماذكره الزمخشرى من التقديرات اذا قلنا العزة من الغلبة والعزيز الغالب وأما اذا قلنا العزيز هو النفيس القليل النظير أو المحتاج اليه القليل الوجود يقال عز الشئ اذا قل وجوده مع انه يحتاج اليه فالنصر كان محتاجا اليه ومثله لم يوجد وهو أخذ بيت الله من الكفار المتمكنين فيه من غير عدد (أما المسئلة المعنوية) وهى ان الله تعالى لما قال ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك ابرز الفاعل وهو الله ثم عطف عليه بقوله ويتم و بقوله و يهديك ولم يذكر لفظ الله على الوجه الحسن فى الكلام وهو ان الافعال الكثيرة اذا صدرت من فاعل يظهر اسمه فى الفعل الاول ولا يظهر فيما بعده تقول جاء زيد وتكلم وقام وراح ولا تقول جاء زيد وقعد زيد اختصارا للكلام بالاقتصار على الاول وهنا لم يقل و ينصرك نصرا بل أعاد لفظ الله فنقول هذا ارشاد الى طريق النصر ولهذا قلما ذكر الله النصر من غير اضافة فقال تعالى بنصر الله ينصر ولم يقل بالنصر ينصر وقال هو الذى أيدك بنصره ولم يقل أيدك بالنصر وقال اذا جاء نصر الله والفتح وقال نصر من الله وفتح قريب ولم يقل نصر وفتح وقال وما النصر الا من عند الله وهذا ادل الآيات على مطلوبنا وتحقيقه هو ان النصر بالصبر والصبر بالله قال تعالى واصبر وما صبرك الا بالله وذلك لان الصبر سكون القلب واطمئنانه وذلك بذكر الله كما قال تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب فلما قال هنا و ينصرك الله أظهر لفظ الله ذكرا للتعليم ان بذكر الله يحصل اطمئنان القلوب و به يحصل الصبر و به يتحقق النصر وههنا مسئلة أخرى وهو ان الله تعالى قال انا فتحنا ثم قال ليغفر لك الله ولم يقل انا فتحنا لنغفر لك تعظيما لامر الفتح وذلك لان المغفرة وان كانت عظيمة

ويسألوكم القضية ويرغبوا اليكم فى الامان وقد رأوا ﴿ ٥٥٦ ﴾ منكم ما يكرهون وعن الشعبى نزلت بالحديبية وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك الغزوة مالم يصب فى غزوة حيث أصاب أن بويع بيعة الرضوان وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وبلغ الهدى محله وأطعموا نخل خيبر وظهرت الروم على فارس ففرح به المسلمون وكان فى فتح الحديبية آية عظيمة هى انه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة فتمضمض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه وشبع وقيل فجاش الماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد وقيل هو جميع ما فتح له عليه الصلاة والسلام من الفتوح وقيل هو ما فتح الله له عليه الصلاة والسلام من الاسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيف ولا فتح أبين منه وأعظم وهو رأس الفتوح كافة اذ لا فتح من فتوح الاسلام الا وهو شعبة من شعبه وفرع من فروعه وقيل الفتح بمعنى القضاء ومنه الفتاحة للحكومة والمعنى قضينا لك على أهل مكة أن تدخلها من قابل وهو المروى عن قتادة رضى الله عنه

وأياما كان فحذف المفعول للقصد الى نفس الفعل والايذان بأن مناط التبشير نفس الفتح الصادر عنه سبحانه لا لخصوصية المفتوح (فتحا مبينا) بينا ظاهرا الامر مكشوف الحال أو فارقا بين الحق والباطل

وقوله تعالى (ليغفر لك الله) غاية للفتح من حيث انه مترتب على سعيه عليه الصلاة والسلام فى اعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الحروب واقتحام موارد الخطوب والالتفات الى اسم الذات المستتبع لجميع الصفات للاشعار بأن كل واحد مما انتظم فى سلك الغاية من أفعاله تعالى صادر عنه تعالى من حيثية غير حيثية الآخر مترتبة على صفة من صفاته تعالى (ما تقدم من ذنبك وما تأخر) أى جميع ما فرط منك من ترك الاولى وتسميته ذنبا بالنظر الى منصبه الجليل (ويتم نعمته عليك) باعلاء الدين وضم الملك الى النبوة وغيرهما مما أفاضه عليه من النعم الدينية والدنيوية (ويهديك صراطا مستقيما) فى تبليغ الرسالة واقامة مراسم الرياسة وأصل الاستقامة وان كانت حاصلة قبل الفتح لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق واستقامة مناهجه ما لم يكن

لكنها عامة لقوله تعالى ان الله يغفر الذنوب جميعا وقال ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ولئن قلنا بأن المراد من المغفرة فى حق النبى عليه السلام العصمة فذلك لم يختص بنبينا بل غيره من الرسل كان معصوما واتمام النعمة كذلك قال الله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى وقال يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وكذلك الهداية قال الله تعالى يهدى اليه من يشاء فعمم وكذلك النصر قال الله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وأما الفتح فلم يكن لاحد غير النبى صلى الله عليه وسلم فعظمه بقوله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا وفيه التعظيم من وجهين أحدهما انا وثانيهما لك أى لاجلك على وجه المنة ۞ ثم قال تعالى (هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ولله جنود السموات والارض وكان الله عليما حكيما) لما قال تعالى وينصرك الله بين وجه النصر وذلك لان الله تعالى قد ينصر رسله بصيحة يهلك بها أعداءهم أو رجفة تحكم عليهم بالفناء أو جند يرسله من السماء أو نصر وقوة وثبات قلب يرزق المؤمنين به ليكون لهم بذلك الثواب الجزيل فقال هو الذى أنزل السكينة أى تحقيقا للنصر وفى السكينة وجوه (أحدها) هو السكون (الثانى) الوقار لله ولرسول الله وهو من السكون (الثالث) اليقين والكل من السكون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) السكينة هنا غير السكينة فى قوله تعالى ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم فى قول اكثر المفسرين ويحتمل هى تلك لان المقصود منها على جميع الوجوه اليقين وثبات القلب (المسئلة الثانية) السكينة المنزلة عليهم هى سبب ذكرهم الله كما قال تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب (المسئلة الثالثة) قال الله تعالى فى حق الكافرين وقذف فى قلوبهم بلفظ القذف المزعج وقال فى حق المؤمنين وأنزل السكينة بلفظ الانزال المثبت وفيه معنى حكمى وهو ان من علم شيأ من قبل وتذكره واستدام تذكره فاذا وقع لا يتغير ومن كان غافلا عن شئ فيقع دفعة يرجف فؤاده الا ترى ان من اخبر بوقوع صيحة وقيل له لا تنزعج منها فوقعت الصيحة لا يرجف ومن لم يخبر به أو أخبر وغفل عنه يرتجف اذا وقعت فكذلك الكافر أتاه الله من حيث لا يحتسب وقذف فى قلبه فارتجف والمؤمن أتاه من حيث كان يذكره فسكن وقوله تعالى ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم فيه وجوه (أحدها) أمرهم بتكاليف شيأ بعد شئ فآمنوا بكل واحد منها مثلا أمروا بالتوحيد فآمنوا وأطاعوا ثم أمروا بالقتال والحج فآمنوا وأطاعوا فازدادوا ايمانا مع ايمانهم (ثانيها) أنزل السكينة عليهم فصبروا فرأوا عين اليقين بما علموا من النصر علم اليقين ايمانا بالغيب فازدادوا ايمانا مستفادا من الشهادة مع ايمانهم المستفاد من الغيب (ثالثها) ازدادوا بالفروع مع ايمانهم بالاصول فانهم آمنوا بأن محمدا رسول الله وان الله واحد والحشر كائن وآمنوا بان كل ما يقول النبى صلى الله عليه وسلم صدق وكل ما يأمر الله تعالى به واجب (رابعها) ازدادوا ايمانا استدلاليا مع ايمانهم الفطرى

وصف المصدر بوصف صاحبه مجازا للمبالغة أوعزيزا صاحبه (هوالذى أنزل السكينة) بيان لما أفاض عليهم من مبادى الفتح من الثبات والطمأنينة أى أنزلها (فى قلوب المؤمنين) بسبب الصلح والامن اظهارا لفضله تعالى عليهم بتيسير الامن بعد الخوف (ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم) أى يقينا منضما الى يقينهم أوأنزل فيها السكون الى ماجاءبه عليه الصلاة والسلام من الشرائع ليزدادوا ايمانا بها مقرونا مع ايمانهم بالوحدانية واليوم الآخر عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أول ماأتاهم به النبى صلى الله عليه وسلم التوحيد ثم الصلاة والزكاة ثم الحج والجهاد فازدادوا ايمانا مع ايمانهم أوأنزل فيها الوقار والعظمة لله تعالى ولرسوله ليزدادوا باعتقاد ذلك ايمانا الى ايمانهم (ولله جنود السموات والارض) يدبر أمرها كيفما يريد يسلط بعضها على

وعلى هذا الوجه نبين لطيفة وهى ان الله تعالى قال فى حق الكافرين انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولم يقل مع كفرهم لان كفرهم عنادى وليس فى الوجود كفر فطرى لينضم اليه الكفر العنادى بل الكفر ليس الا عناديا وكذلك الكفر بالفروع لايقال انضم الى الكفر بالاصول لامن ضرورة الكفر بالاصول الكفر بالفروع وليس من ضرورة الايمان بالاصول الايمان بالفروع بمعنى الطاعة والانقياد فقال ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم وقوله ولله جنود السموات والارض فكان قادرا على اهلاك عدوه بجنوده بل بصيحة ولم يفعل بل أنزل السكينة على المؤمنين ليكون اهلاك أعدائهم بايديهم فيكون لهم الثواب وفى جنود السموات والارض وجوه (أحدها) ملائكة السموات والارض (ثانيها) من فى السموات من الملائكة ومن فى الارض من الحيوانات والجن (وثالثها) الاسباب السماوية والارضية حتى يكون سقوط كسف من السماء والخسف من جنوده وقوله تعالى وكان الله عليما حكيما لما قال ولله جنود السموات والارض وعددهم غير محصور أثبت العلم اشارة الى أنه لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولافى الارض وأيضا لما ذكر أمر القلوب بقوله هوالذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين والايمان من عمل القلب ذكر العلم اشارة الى أنه يعلم السر وأخفى وقوله حكيما بعد قوله عليما اشارة الى أنه يفعل على وفق العلم فان الحكيم من يعمل شيأ متقنا ويعلمه فان من يقع منه صنع عجيب اتفاقا لا يقال له حكيم ومن يعلم ويعمل على خلاف العلم لايقال له حكيم ۞ وقوله تعالى (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيآتهم وكان ذلك عندالله فوزا عظيما) يستدعى فعلا سابقا ليدخل فان من قال ابتداء لتكرمنى لايصح مالم يقل قبله جئتك أوماقوم مقامه وفى ذلك الفعل وجوه وضبط الاحوال فيه بأن نقول ذلك الفعل اما أن يكون مذكورا بصريحة أولا يكون وحينئذ ينبغى ان يكون مفهوما فاما أن يكون مفهوما من لفظ يدل عليه أولا من لفظ يدل عليه بل فهم بقرينة حالية فان كان مذكورا فهو يحتمل وجوها (أحدها) قوله ليزدادوا ايمانا كأنه تعالى أنزل السكينة ليزدادوا ايمانا بسبب الانزال ليدخلهم بسبب الايمان جنات فان قيل فقوله ويعذب عطف على قوله ليدخل وازدياد ايمانهم لايصلح سببا لتعذيبهم نقول بلى ود من وجهين (أحدهما) ان التعذيب مذكور لكونه مقصودا للمؤمنين كأنه تعالى يقول بسبب ازديادكم فى الايمان يدخلكم فى الآخرة جنات ويعذب بايديكم فى الدنيا الكفار والمنافقين (الثانى) تقديره ويعذب بسبب مالكم من الازدياد يقال فعلته لأجرب به العدو والصديق أى لاعرف بوجوده الصديق وبعدمه العدو فكذلك ليزداد المؤمن ايمانا فيدخله الجنة ويزداد الكافر كفرا فيعذبه به (ووجه آخر ثالث) وهوان سبب زيادة ايمان المؤمنين بكثرة صبرهم وثباتهم فيعيى المنافق والكافر معه ويتعذب وهوقريب مما ذكرنا (الثانى) قوله وينصرك الله كأنه تعالى قال وينصرك الله بالمؤمنين ليدخل المؤمنين

بعض تارة و يوقع بينهما السلم أخرى حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح (وكان الله عليما) مبالغا في العلم بجميع الامور (حكيما) في تقديره وتدبيره وقوله تعالى (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) متعلق بما يدل عليه ما ذكر من كون جنود السموات والارض له تعالى من معنى التصرف والتدبير أى دبر ما دبر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمة الله في ذلك و يشكروها فيدخلهم الجنة (و يكفر عنهم سيآتهم) أى يغطيها ولا يظهرها وتقديم الادخال في الذكر على التكفير مع أن الترتيب في الوجود على العكس للمسارعة الى ما هو المطلب الاعلى (وكان ذلك) أى ما ذكر من الادخال والتكفير (عند الله فوزا عظيما) لا يقادر قدره لانه منتهى ما يمتد اليه أعناق الهمم من جلب نفع ودفع ضر وعند الله حال من فوزا لانه صفة في الاصل فلما قدم عليه صار حالا أى كائنا عند الله أى في علمه تعالى وقضائه والجملة اعتراض مقرر لما قبله (و يعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) عطفا على يدخل وفي تقديم المنافقين على

جنات (الثالث) قوله تعالى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك على قولنا المراد ذنب المؤمنين كأنه تعالى قال ليغفر لك ذنب المؤمنين ليدخل المؤمنين جنات وأما ان قلنا هو مفهوم من لفظ صريح فيحتمل وجوها أيضا (أحدها) قوله حكيما يدل على ذلك كأنه تعالى قال الله حكيم فعل ما فعل ليدخل المؤمنين جنات (وثانيها) قوله تعالى و يتم نعمته عليك في الدنيا والآخرة فيستجيب دعاءك في الدنيا و يقبل شفاعتك في العقبى ليدخل المؤمنين جنات (ثالثها) قوله انا فتحنا لك وجهه هو انه روى ان المؤمنين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم هنيئا لك ان الله غفر لك فماذا لنا فنزلت هذه الآية كأنه تعالى قال انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك وفتحنا للمؤمنين ليدخلهم جنات وأما ان قلنا ان ذلك مفهوم من غير مقال بل من قرينة الحال فنقول هو الامر بالقتال لان من ذكر الفتح والنصر علم ان الحال حال القتال فكأنه تعالى قال ان الله تعالى أمر بالقتال ليدخل المؤمنين أو نقول عرف من قرينة الحال ان الله اختار المؤمنين فكأنه تعالى قال اختار المؤمنين ليدخلهم جنات (المسئلة الرابعة) قال ههنا وفي بعض المواضع المؤمنين والمؤمنات وفي بعض المواضع اكتفى بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيهم كما في قوله تعالى و بشر المؤمنين وقوله تعالى قد أفلح المؤمنون فالحكمة فيه نقول في المواضع التي فيها ما يوهم اختصاص المؤمنين بالجزاء الموعود به مع كون المؤمنات يشتركن معهم ذكرهن الله صريحا وفي المواضع التي ليس فيها ما يوهم ذلك اكتفى بدخولهم في المؤمنين فقوله و بشر المؤمنين مع انه علم من قوله تعالى وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا العموم لا يوهم خروج المؤمنات عن البشارة وأما ههنا فلما كان قوله تعالى ليدخل المؤمنين لفعل سابق وهو اما الامر بالقتال أو الصبر فيه أو النصرة للمؤمنين أو الفتح بأيديهم على ما كان يتوهم لان ادخال المؤمنين كان للقتال والمرأة لا تقاتل فلا تدخل الجنة الموعود بها صرح الله بذكرهن وكذلك في المنافقات والمشركات والمنافقة والمشركة لم تقاتل فلا تعذب فصرح الله تعالى بذكرهن وكذلك في قوله تعالى ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات لان الموضع موضع ذكر النساء وأحوالهن لقوله ولا تبرجن وأقمن وآتين وأطعن وقوله واذكرن ما يتلى في بيوتكن فكان ذكر النساء هناك أصلا لكن الرجال لما كان لهم ما للنساء من الاجر العظيم ذكرهم وذكرهن بلفظ مفرد من غير تبعية لما بينا ان الاصل ذكرهن في ذلك الموضع (المسئلة الخامسة) قال الله تعالى و يكفر عنهم سيئاتهم بعد ذكر الادخال مع أن تكفير السيئات قبل الادخال نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) الواو لا تقتضي الترتيب (الثاني) تكفير السيآت والمغفرة وغيرهما من توابع كون المكلف من أهل الجنة فقدم الادخال في الذكر بمعنى انه من أهل الجنة (الثالث) وهو ان التكفير يكون بالباس خلع الكرامة وهي في الجنة وكان الانسان في الجنة تزال عنه قبائح البشرية الجرمية كالفضلات والمعنوية كالغضب والشهوة وهو التكفير وتثبت فيه الصفات الملكية وهي أشرف

أنواع الخلع وقوله تعالى وكان ذلك عند الله فوزا عظيما فيه وجهان (أحدهما) مشهور وهوان الادخال والتكفير في علم الله فوزعظيم يقال عندي هذا الامر على هذا الوجه أي في اعتقادي (وثانيهما) أغرب منه وأقرب منه عقلا وهو ان يجعل عند الله كما وصف لذلك كأنه تعالى يقول ذلك عند الله أي بشرط أن يكون عند الله تعالى و يوصف أن يكون عند الله فوزعظيما حتى ان دخول الجنة اولم يكن فيه قرب من الله بالعندية لما كان فوزا

※ ثم قال تعالى (و يعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم واعدلهم جهنم وساءت مصيرا ولله جنود السموات والارض وكان الله عزيزا حكيما) اعلم انه قدم المنافقين على المشركين في الذكر في كثير من المواضع لامور (أحدها) انهم كانوا أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر لان المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر وكان يخالط المنافق لظنه بايمانه وهو كان يفشي اسراره والى هذا اشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك والمنافق على صورة الشيطان فانه لايأتي الانسان على انى عدوك وانما يأتيه على انى صديقك والمجاهر على خلاف الشيطان من وجه ولان المنافق كان يظن أن يتخلص بالمخادعة والكافر لايقطع بأن المؤمن ان غلب يفديه فأول ما أخبر الله أخبر عن المنافق وقوله الظانين بالله ظن السوء هذا الظن يحتمل وجوها (أحدها) هو الظن الذي ذكره الله في هذه السورة بقوله بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول (ثانيها) ظن المشركين بالله في الاشراك كما قال تعالى ان هي الا أسماء سميتموها أنتم الى ان قال ان يتبعون الا الظن وان الظن لايغني من الحق شيئا (ثالثها) ظنهم ان الله لايرى ولايعلم كما قال ولكن ظننتم ان الله لايعلم كثيرا مما تعملون والاول أصح أو نقول المراد جميع ظنونهم حتى يدخل فيه ظنهم الذي ظنوا ان الله لايحيي الموتى وان العالم خلقه باطل كما قال تعالى ذلك ظن الذين كفروا و يؤيد هذا الوجه الالف واللام الذي في السوء وسنذكره في قوله ظن السوء وفيه وجوه (أحدها) مااختاره المحققون من الادباء وهوان السوء صار عبارة عن الفساد والصدق عبارة عن الصلاح يقال مررت برجل سوء أي فاسد وسئلت عن رجل صدق أي صالح فاذا كان مجموع قولنا رجل سوء يؤدي معنى قولنا فاسد فالسوء وحده يكون بمعنى الفساد وهذا ما اتفق عليه الخليل والزجاج واختاره الزمخشري وتحقيق هذا ان السوء في المعاني كالفساد في الاجساد يقال ساء مزاجه وساء خلقه وساء ظنه كما يقال فسد اللحم وفسد الهواء بل كل ماساء فقد فسد وكل مافسد فقد ساء غير أن أحدهما كثير الاستعمال في المعاني والآخر في الاجرام قال الله تعالى ظهر الفساد في البر والبحر وقال ساء ما كانوا يعملون هذا ماظهر لي من تحقيق كلامهم ثم قال تعالى عليهم دائرة السوء أي دائرة الفساد وحاق بهم الفساد بحيث لاخروج لهم منه ثم قال تعالى وغضب الله عليهم زيادة في الافادة لان من كان به بلاء فقد يكون مبتلى به على وجه الامتحان فيكون مصابا

المشركين مالايخفى من الدلالة على أنهم أحق منهم بالعذاب (الظانين بالله ظن السوء) أي ظن الامر السوء وهو أن لاينصر رسوله والمؤمنين (عليهم دائرة السوء) أي ما يظنونه و يتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم وقرئ دائرة السوء بالضم وهما لغتان من ساء كالكره والكره خلا أن المفتوح غلب في أن يضاف اليه ما يراد ذمه من كل شئ وأما المضموم فجار مجرى الشر (وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدلهم جهنم) عطف على ما استحقوه في الآخرة على ما استوجبوه في الدنيا والواو في الاخيرين مع أن حقهما الفاء المفيدة لسببية ماقبلها لما بعدها للايذان باستقلال كل منهما في الوعيد وأصالته من غير اعتبار استتباع بعضها البعض (وساءت مصيرا) أي جهنم (ولله جنود السموات والارض وكان الله عزيزا حكيما) اعادة لما سبق قالوا فائدتها التنبيه على أن لله تعالى جنود الرحمة وجنود العذاب وأن المراد ههنا جنود العذاب كما ينبئ عنه التعرض لوصف العزة

لكي يصير مثابا وقد يكون مصابا لا على وجه التعذيب فقوله وغضب الله عليهم اشارة الى ان الذي حاق بهم على وجه التعذيب وقوله ولعنهم زيادة افادة لان المغضوب عليه قد يكون بحيث يقنع الغاضب بالعتب والشتم أو الضرب ولا يفضى غضبه الى ابعاد المغضوب عليه من جنابه وطرده من بابه وقد يكون بحيث يفضى الى الطرد والابعاد فقال ولعنهم لكون الغضب شديدا ثم لما بين حالهم في الدنيا بين ما آل بهم في العقبى قال وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا وقوله ساءت اشارة لمكان التأنيث في جهنم يقال هذه الدار نعم المكان وقوله تعالى ولله جنود السموات والارض قد تقدم تفسيره وبقي فيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة في الاعادة نقول لله جنود الرحمة وجنود العذاب أو جنود الله انزالهم قد يكون للرحمة وقد يكون للعذاب فذكرهم أولا لبيان الرحمة بالمؤمنين قال تعالى وكان بالمؤمنين رحيما وثانيا لبيان انزال العذاب على الكافرين (المسئلة الثانية) قال هناك وكان الله عليما حكيما وهنا وكان الله عزيزا حكيما لان قوله ولله جنود السموات الارض قد بينا ان المقصود من ذكرهم الاشارة الى شدة العذاب فذكر العزة كما قال تعالى أليس الله بعزيز ذي انتقام وقال تعالى فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر وقال تعالى العزيز الجبار (المسئلة الثالثة) ذكر جنود السموات والارض قبل ادخال المؤمنين الجنة وذكرهم ههنا بعد ذكر تعذيب الكفار واعداد جهنم نقول فيه ترتيب حسن لان الله تعالى ينزل جنود الرحمة فيدخل المؤمنين مكرمين معظمين الجنة ثم يلبسهم خلع الكرامة بقوله ويكفر عنهم سيآتهم كما بينا ثم تكون لهم القربة والزلفى بقوله وكان ذلك عند الله فوزا عظيما وبعد حصول القرب والعندية لا تبقى واسطة الجنود فالجنود في الرحمة أولا ينزلون ويقربون آخرا واما في الكافر فيغضب عليه أولا فيبعد ويطرد الى البلاد النائية عن ناحية الرحمة وهي جهنم ويسلط عليهم ملائكة العذاب وهم جنود الله كما قال تعالى عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ولذلك ذكر جنود الرحمة أولا والقربة بقوله عند الله آخرا وقال ههنا غضب الله عليهم ولعنهم وهو الابعاد أولا وجنود السموات والارض آخرا * ثم قال تعالى (انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا) قال المفسرون شاهدا على أمتك بما يفعلون كما قال تعالى ويكون الرسول عليكم شهيدا والاولى ان يقال ان الله تعالى قال انا أرسلناك شاهدا وعليه يشهد انه لا اله الا الله كما قال تعالى شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم وهم الانبياء عليهم السلام الذين آتاهم الله علما من عنده وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ولذلك قال تعالى فاعلم انه لا اله الا الله أي فاشهد وقوله ومبشرا لمن قبل شهادته وعمل بها وبوافقه فيها ونذيرا لمن رد شهادته وبخالفه فيها ثم بين فائدة الارسال على الوجه الذي ذكره فقال لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا وهذا يحتمل وجهين (أحدهما) ان تكون الامور الاربعة

(ونذيرا) على المعصية (لتؤمنوا بالله ورسوله) الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ولامته (وتعزروه) وتوقروه بتقوية دينه ورسوله (وتوقروه) وتعظموه (وتسبحوه) وتنزهوه أو تصلوا له من السبحة (بكرة وأصيلا) غدوة وعشيا عن ابن عباس رضي الله عنهما صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر وقرئ الافعال الاربعة بالياء التحتانية وقرئ وتعزروه بضم التاء وتخفيف الزاي المكسورة وقرئ بفتح التاء وضم الزاي وكسرها وتعززوه بزاءين وتوقروه من أوقره بمعنى وقره (ان الذين يبايعونك) أي على قتال قريش تحت الشجرة وقوله تعالى (انما يبايعون الله) خبران يعني أن مبايعتك هي مبايعة الله عز وجل لان المقصود توثيق العهد بمراعاة أوامره ونواهيه وقوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) حال أو استئناف مؤكد

له على طريقة التخييل والمعنى ان عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله تعالى من غير تفاوت بينهما كقوله

المذكورة مرتبة على الامور المذكورة من قبل فقوله لتؤمنوا بالله و رسوله مرتب على قوله انا أرسلناك لان كونه مرسلا من الله يقتضي أن يؤمن المكلف بالله والمرسل و بالمرسل وقوله شاهدا يقتضي أن يعزر الله و يقوي دينه لان قوله شاهدا على ما بينا معناه انه يشهد انه لا اله الا هو فدينه هو الحق وأحق ان يتبع وقوله مبشرا يقتضي أن يوقر الله لان تعظيم الله عنده على شبه تعظيم الله اياه وقوله نذيرا يقتضي أن ينزه عن السوء والفحشاء مخافة عذابه الاليم وعقابه الشديد وأصل الارسال مرتب على أصل الايمان ووصف الرسول يترتب عليه وصف المؤمن (وثانيهما) أن يكون كل واحد مقتضيا للامور الاربعة فكونه مرسلا يقتضي أن يؤمن المكلف بالله و رسوله و يعزره و يوقره و يسبحه وكذلك كونه شاهدا بالوحدانية يقتضي الامور المذكورة وكذلك كونه مبشرا ونذيرا لا يقال ان اقتران اللام بالفعل يستدعي فعلا مقدما يتعلق به ولا يتعلق بالوصف وقوله لتؤمنوا يستدعي فعلا وهو قوله انا أرسلناك فكيف تترتب الامور على كونه شاهدا ومبشرا لانا نقول يجوز الترتيب عليه معنى لا لفظا كأن القائل اذا قال بعثت اليك عالما لتكرمه فاللفظ ينبئ عن كون البعث سبب الاكرام وفي المعنى كونه عالما هو السبب للاكرام ولهذا لو قال بعثت اليك جاهلا لتكرمه كان حسنا واذا أردنا الجمع بين اللفظ والمعنى نقول الارسال الذي هو ارسال حال كونه شاهدا سبب كما تقول بعث العالم سبب جعله سببا لا مجرد البعث ولا مجرد العالم وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال في الاحزاب انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا وههنا اقتصر على الثلاثة من الخمسة فالحكمة فيه نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان ذلك المقام كان مقام ذكره لان أكثر السورة في ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله و ما تقدمه من المبايعة والوعد والدخول ففصل هنالك ولم يفصل ههنا (ثانيهما) أن نقول الكلام مذكور ههنا لان قوله شاهدا لما لم يقتض أن يكون داعيا لجواز أن يقول مع نفسه أشهد أن لا اله الا الله ولا يدعو الناس قال هناك وداعيا لذلك وههنا لما لم يكن كونه شاهدا منبئا عن كونه داعيا قال لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه وقوله تعالى وتعزروه وتوقروه وتسبحوه دليل على كونه سراجا لانه أتى بما يجب من التعظيم و الاجتناب عما يحرم من السوء والفحشاء بالتنزيه وهو التسبيح (المسئلة الثانية) قد ذكرنا مرارا ان اختيار البكرة والاصيل يحتمل أن يكون اشارة الى المداومة و يحتمل أن يكون أمرا بخلاف ما كان المشركون يعملونه فانهم كانوا يجتمعون على عبادة الاصنام في الكعبة بكرة و عشية فأمروا بالتسبيح في اوقات كانوا يذكرون فيها الفحشاء والمنكر (المسئلة الثالثة) الكنايات المذكورة في قوله تعالى وتعزروه وتوقروه وتسبحوه راجعة الى الله تعالى أو الى الرسول عليه الصلاة والسلام والاصح هو الاول * ثم قال تعالى (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد

تعالى من يطع الرسول فقد اطاع الله وقرئ انما يبايعون لله أي لاجله ولوجهه (فمن نكث فانما ينكث على نفسه) أي فمن نقض عهده فانما يعود ضرر نكثه على نفسه وقرئ بكسر الكاف (ومن أوفى بما عاهد عليه الله) بضم الهاء فانه أبقى بعد حذف الواو توسلا بذلك الى تفخيم لام الجلالة وقرئ بكسرها أي ومن وفى بعهده (فسيؤتيه أجرا عظيما) هو الجنة وقرئ بما عهد وقرئ فسنؤتيه بنون العظمة (سيقول لك المخلفون من الاعراب) هم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والديل تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استنفر من حول المدينة من الاعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه عند ارادته المسير الى مكة عام الحديبية معتمرا حذرا من قريش أن يتعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت وأحرم عليه الصلاة والسلام

عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما) لما بين انه مرسل ذكر ان من بايعه فقد بايع الله وقوله تعالى يد الله فوق أيديهم يحتمل وجوها وذلك ان اليد في الموضعين اما ان تكون بمعنى واحد واما أن تكون بمعنيين فان قلنا انها بمعنى واحد ففيه وجهان (أحدهما) يد الله بمعنى نعمة الله عليهم فوق احسانهم الى الله كما قال تعالى بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان (وثانيهما) يد الله فوق أيديهم أي نصرته اياهم أقوى وأعلى من نصرتهم اياه يقال اليد لفلان أي الغلبة والنصرة والقهر واما ان قلنا انها بمعنيين فنقول في حق الله تعالى بمعنى الحفظ وفي حق المبايعين بمعنى الجارحة واليد كناية عن الحفظ مأخوذ من حال المتبايعين اذا مد كل واحد منهما يده الى صاحبه في البيع والشراء وبينهما ثالث متوسط لا يريد أن يتفاسخا العقد من غير اتمام البيع فيضع يده على يديهما ويحفظ أيديهما الى أن يتم العقد ولا يترك أحدهما يترك يد الآخر فوضع اليد فوق الايدي صار سببا للحفظ على البيعة فقال تعالى يد الله فوق أيديهم يحفظهم على البيعة كما يحفظ ذلك المتوسط أيدي المتبايعين وقوله تعالى فمن نكث فانما ينكث على نفسه أما على قولنا المراد من اليد النعمة أو الغلبة والقوة فلان من نكث فوت على نفسه الاحسان الجزيل في مقابلة العمل القليل فقد خسر ونكثه على نفسه وأما على قولنا المراد الحفظ فهو عائد الى قوله انما يبايعون الله يعني من يبايعك أيها النبي اذا نكث لا يكون نكثه عائدا اليك لان البيعة مع الله ولا الى الله لانه لا يتضرر بشيء فضرره لا يعود الا اليه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما وقد ذكرنا ان العظم في الاجرام لا يقال الا اذا اجتمع فيه الطول البالغ والعرض الواسع والسمك الغليظ فيقال للجبل الذي هو مرتفع ولا اتساع لعرضه جبل عال أو مرتفع أو شاهق فاذا انضم اليه الاتساع في الجوانب يقال عظيم والاجر كذلك لان مأكل الجنة تكون من أرفع الاجناس وتكون في غاية الكثرة وتكون ممتدة الى الابد لا انقطاع لها فحصل فيه ما يناسب ان يقال له عظيم والعظيم في حق الله تعالى اشارة الى كماله في صفاته كما أنه في الجسم اشارة الى كماله في جهاته * ثم قال تعالى

(سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا ان أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا) لما بين حال المنافقين ذكر المخلفين فان قوما من الاعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لظنهم انه يهزم فانهم قالوا أهل مكة يقاتلون عن باب المدينة فكيف يكون حالهم اذا دخلوا بلادهم وأحاط بهم العدو فاعتذروا وقولهم شغلتنا أموالنا وأهلونا فيه أمران يفيدان وضوح العذر (أحدهما) أموالنا ولم يقولوا شغلتنا الاموال وذلك لان جمع المال لا يصلح عذرا لانه لا نهاية له واما حفظ ما جمع من الشتات ومنع الحاصل من الفوات يصلح عذرا فقالوا أموالنا أي ما صار مالا لنا لا مطلق الاموال (وثانيهما) قوله تعالى وأهلونا وذلك لو أن قائلا قال لهم المال لا ينبغي

وساق معه الهدى ليعلم أنه لا يريد الحرب وتثاقلوا عن الخروج وقالوا نذهب الى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم فأوحى الله تعالى اليه عليه الصلاة والسلام بانهم سيقولون ويقولون (شغلتنا أموالنا وأهلونا) ولم يكن لنا من يخلفنا فيهم ويقوم بمصالحهم ويحميهم من الضياع وقرئ شغلتنا بالتشديد للتكثير (فاستغفر لنا) الله تعالى ليغفر لنا تخلفنا عنك حيث لم يكن ذلك باختيار بل عن اضطرار (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم) بدل من سيقول أو استئناف لتكذيبهم في الاعتذار والاستغفار (قل) ردا لهم عند اعتذارهم اليك بأباطيلهم (فمن يملك لكم من الله شيئا) أي فمن يقدر لاجلكم من مشيئة الله تعالى وقضائه على شيء من النفع (ان أراد بكم ضرا) أي ما يضركم من هلاك الاهل والمال وضياعهما حتى تخلفوا عن الخروج لحفظهما ودفع الضرر عنهما وقرئ ضرا بالضم (أو أراد بكم نفعا) أي

أن يبلغ الى درجة يمنعكم حفظه من متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لكان لهم أن يقولوا فالاهل يمنع الاشتغال بهم وحفظهم من أهم الامور ثم انهم مع العذر تضرعوا وقالوا فاستغفر لنا يعني فنحن مع اقامة العذر معترفون بالاساءة فاستغفر لنا واعف عنا في أمر الخروج فكذبهم الله تعالى وقال يقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم وهذا يحتمل أمرين (أحدهما) أن يكون التكذيب راجعا الى قولهم فاستغفر لنا وتحقيقه هو انهم أظهروا انهم يعتقدون انهم مسيؤن بالتخلف حتى استغفروا ولم يكن في اعتقادهم ذلك بل كانوا يعتقدون انهم بالتخلف محسنون (ثانيهما) قوله شغلتنا اشارة الى أن امتناعنا لهذا لا لغيره ولم يكن ذلك في اعتقادهم بل كانوا يعتقدون امتناعهم لاعتقاد أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يقهرون ويغلبون كما قال بعده بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا وقوله قل فمن يملك لكم من الله شيئا ان أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا معناه انكم تحترزون عن الضرر وتتركون أمر الله ورسوله وتقعدون طلبا للسلامة ولو أراد بكم الضر لا ينفعكم قعودكم من الله شيئا أو معناه انكم تحترزون عن ضرر القتال والمقاتلين وتعتقدون أن أهليكم وبلادكم تحفظكم من العدو فهب انكم حفظتم أنفسكم عن ذلك فمن يدفع عنكم عذاب الله في الآخرة مع أن ذلك أولى بالاحتراز وقد ذكرنا في سورة يس في قوله تعالى ان يردن الرحمن بضر انه في صورة كون الكلام مع المؤمن ادخل الباء على الضر فقال ان أرادني الله بضر وقال وان يمسسك الله بضر وفي صورة كون الكلام مع الكافر أدخل الباء على الكافر فقال ههنا ان أراد بكم ضرا وقال من ذا الذي يعصمكم من الله ان أراد بكم سوأ وقد ذكرنا الفرق الفائق هناك ولا نعيده لكون هذا باعثا على مطالعة تفسير سورة يس فانها درج الدرر اليتيمة بل كان الله بما تعملون خبيرا أي بما تعملون من اظهار الحرب واضمار غيره * ثم قال تعالى (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا) يعني لم يكن تخلفكم لما ذكرتم بل ظننتم أن لن ينقلب وأن مخففة من الثقيلة أي ظننتم انهم لا ينقلبون ولا يرجعون وقوله وزين ذلك في قلوبكم يعني ظننتم أولا فزين الشيطان ظنكم عندكم حتى قطعتم به وذلك لان الشبهة قد يزينها الشيطان ويضم اليها مخايلة يقطع بها الغافل وان كان لا يشك فيها العاقل وقوله تعالى وظننتم ظن السوء يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون هذا العطف عطفا يفيد المغايرة فقوله وظننتم ظن السوء غير الذي في قوله بل ظننتم وحينئذ يحتمل أن يكون الظن الثاني معناه وظننتم ان الله يخلف وعده أو ظننتم ان الرسول كاذب في قوله (وثانيهما) أن يكون قوله وظننتم ظن السوء هو ما تقدم من ظن أن لا ينقلبوا ويكون على حد قول القائل علمت هذه المسئلة وعلمت كذا أي هذه المسئلة لا غيرها وذلك كأنه قال بل ظننتم ظن أن لن ينقلب وظنكم ذلك فاسد وقد بينا التحقيق في ظن السوء وقوله تعالى وكنتم قوما بورا يحتمل

لاجل القيام بحفظهما وهذا تحقيق للحق ورد لهم بموجب ظاهر مقالتهم الكاذبة وتعميم الضر والنفع لما يتوقع على تقدير الخروج من القتل والهزيمة والظفر والغنيمة يرده قوله تعالى (بل كان الله بما تعملون خبيرا) فانه اضراب عما قالوا وبيان لكذبه بعد بيان فساده على تقدير صدقه أي ليس الامر كما تقولون بل كان الله خبيرا بجميع ما تعملون من الاعمال التي من جملتها تخلفكم وما هو من مباديه وقوله تعالى (بل ظننتم) الخ بدل من كان الله الخ مفسر لما فيه من الابهام أي بل ظننتم (أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا) بان يستأصلهم المشركون بالمرة فخشيتم ان كنتم معهم أن يصيبكم ما أصابهم فلاجل ذلك تخلفتم لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة والاهلون جمع أهل وقد يجمع على أهلات

وجهين (أحدهما) يصرتم بذلك الظن بائرين هالكين (وثانيهما) أنتم في الاصل بائرون وظننتم ذلك الظن الفاسد * ثم قال تعالى (ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا أعتدنا للكافرين سعيرا) على قولنا قوله وظننتم ظن السوء ظن آخر غير ما في قوله بل ظننتم ظاهر لانا بينا ان ذلك ظنهم بأن الله يخلف وعده أوظنهم بأن الرسول كاذب فقال ومن لم يؤمن بالله ورسوله ويظن به خلفا وبرسوله كذبا فانا أعتدنا له سعيرا وفي قوله للكافرين بدلا عن أن يقول فانا أعتدنا له فائدة وهي التعميم كأنه تعالى قال ومن لم يؤمن بالله فهو من الكافرين وانا أعتدنا للكافرين سعيرا * ثم قال تعالى (ولله ملك السموات والارض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما) بعد ما ذكر من له أجر عظيم من المبايعين ومن له عذاب أليم من الظانين الضالين أشار الى أنه يغفر للاولين بمشيئته ويعذب الآخرين بمشيئته وغفرانه ورحمته أعم وأشمل وأتم وأكمل وقوله تعالى ولله ملك السموات والارض يفيد عظمة الامرين جميعا لان من عظم ملكه يكون أجره وهبته في غاية العظم وعذابه وعقوبته كذلك في نهاية النكال والالم * ثم قال تعالى (سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم) أوضح الله كذبهم بهذا حيث كانوا عند ما يكون السير الى مغانم يتوقعونها يقولون من تلقاء أنفسهم ذرونا نتبعكم فاذا كان أموالهم وأهلوهم شغلتهم يوم دعوتكم اياهم الى أهل مكة فما بالهم لا يشتغلون بأموالهم يوم أخذ الغنيمة والمراد من المغانم مغانم أهل خيبر وفتحها وغنم المسلمون ولم يكن معهم الا من كان معه في المدينة وفي قوله سيقول المخلفون وعد المبايعين الموافقين بالغنيمة والمخلفين المخالفين بالحرمان * وقوله تعالى (يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل) يحتمل وجوها (أحدها) هو ما قال الله ان غنيمة خيبر لمن شاهد الحديبية وعاهد بها لا لغيره وهو الاشهر عند المفسرين والاظهر نظرا الى قوله تعالى كذلكم قال الله من قبل (ثانيها) يريدون أن يبدلوا كلام الله وهو قوله وغضب الله عليهم وذلك لانهم لو اتبعوكم لكانوا في حكم بيعة أهل الرضوان الموعودين بالغنيمة فيكونون من الذين رضي الله عنهم كما قال تعالى لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فلا يكونون من الذين غضب الله عليهم فيلزم تبديل كلام الله (ثالثها) هو ان النبي صلى الله عليه وسلم لما تخلف القوم أطلعه الله على باطنهم وأظهر له نفاقهم وانه يريد أن يعاقبهم وقال للنبي صلى الله عليه وسلم فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا فأرادوا أن يبدلوا ذلك الكلام بالخروج معه لا يقال فالآية التي ذكرتم واردة في غزوة تبوك لا في هذه الواقعة لانا نقول قد وجد ههنا بقوله لن تتبعونا على صيغة النفي بدلا عن قوله لا تتبعونا على صيغة النهي معنى لطيف وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم بنى على اخبار الله تعالى عنهم النفي لوثوقه وقطعه بصدقه فجزم وقال لن تتبعونا

ذلك في قلوبكم) وقبلتموه واشتغلتم بشأن أنفسكم غير مبالين بهم وقرئ زين على البناء للفاعل باسناده الى الله سبحانه أو الى الشيطان (وظننتم ظن السوء) المراد به اما الظن الاول والتكرير لتشديد التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء أو ما يعمه وغيره من الظنون الفاسدة التي من جملتها الظن بعدم صحة رسالته عليه الصلاة والسلام فان الجازم بصحتها لا يحوم حول فكره ما ذكر من الاستئصال (وكنتم قوما بورا) أي هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه على انه جمع بائر كعائذ وعوذ وفاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم وقيل البور من بار كالهلك من هلك بناء ومعنى ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث (ومن لم يؤمن بالله ورسوله) كلام مبتدأ من جهته تعالى غير داخل

في الكلام اللائق مقرر لإبارهم ومبين لكيفيته أي ومن لم يؤمن بهما كدأب هؤلاء المخلفين (فانا اعتدنا للكافرين سعيرا) أي لهم وانما وضع موضع الضمير الكافرون ايذانا بان من لم يجمع بين الايمان بالله و برسوله فهو كافر وانه مستوجب للسعير بكفره وتنكير سعيرا للتهويل أو لانها نار مخصوصة (ولله ملك السموات والارض) وما فيهما يتصرف في الكل كيف يشاء (يغفر لمن يشاء) أن يغفر له (و يعذب من يشاء) أن يعذبه من غير دخل لاحد في شيء منهما وجودا وعدما وفيه حسم لاطماعهم الفارغة في استغفاره عليه الصلاة والسلام لهم (وكان الله غفورا رحيما) مبالغا في المغفرة والرحمة لمن يشاء ولا يشاء الالمن تقتضى الحكمة مغفرته ممن يؤمن به و برسوله وأما من عداه من الكافرين فهم بمعزل من ذلك قطعا (سيقول المخلفون) أي المذكورون وقوله تعالى (اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها) ظرف لما قبله لاشرط لما بعده أي سيقولون عند انطلاقكم الى مغانم خيبر لتحوزوها حسبما وعدكم اياها وخصكم بها عوضا مما فاتكم من غنائم مكة (ذرونا نتبعكم) الى خيبر ونشهد معكم قتال أهلها (يريدون أن يبدلوا ﴿ ظه ﴾

يعني اوأذنتكم ولو أمرتكم أولو أردتم واخترتم لايتم لكم ذلك لما أخبرالله تعالى * ثم قال تعالى (فسيقولون بل تحسدوننا) رداعلى قوله تعالى كذلكم قال الله من قبل كأنهم قالوا ماقال الله كذلك من قبل بل تحسدوننا و بل للاضراب والمضروب عنه محذوف في الموضعين اماههنا فهو بتقدير ماقال الله كذلك فان قيل بماذا كان الحسد في اعتقادهم نقول كأنهم قالوا نحن كنا مصيبين في عدم الخروج حيث رجعوا من الحديبية من غير حاصل ونحن استرحنا فان خرجنا معهم و يكون فيه غنيمة يقولون هم غزوا معنا ولم تغزوا معنا * ثم قال تعالى ردا عليهم كما ردوا عليه (بل كانوا لايفقهون الا قليلا) اى لم يفقهوا من قولك لاتخرجوا الاظاهر النهي ولم يفهموا من حكمه الا قليلا فحملوه على ماأرادوه وعللوه بالحسد * ثم قال تعالى (قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم اولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما) لما قال النبي صلى الله عليه وسلم قل لن تتبعونا وقال فقل لن تخرجوا معي أبدا فكان المخلفون جمعا كثيرا من قبائل متشعبة دعت الحاجة الى بيان قبول توبتهم فانهم لم يبقوا على ذلك ولم يكونوا من الذين مردوا على النفاق بل منهم من حسن حاله وصلح باله فجعل لقبول توبتهم علامة وهو انهم يدعون الى قتال قوم أولى بأس شديد و يطيعون بخلاف حال ثعلبة حيث امتنع من اداء الزكاة ثم أتى بها ولم يقبل منه النبي صلى الله عليه وسلم واستمر عليه الحال ولم يقبل منه أحد من الصحابة كذلك كان يستمر حال هؤلاء ولا انه تعالى بين انهم يدعون فان كانوا يطيعون يؤتون الاجر الحسن وما كان أحد من الصحابة يتركهم يتبعونه والفرق بين حال ثعلبة و بين حال هؤلاء من وجهين (أحدهما) ان ثعلبة جاز أن يقال حاله لم يكن يتغير في علم الله فلم يبين لتوبته علامة وحال الاعراب تغيرت فان بعد النبي صلى الله عليه وسلم لم يبق من المنافقين على النفاق أحد على مذهب أهل السنة (وثانيهما) ان الحاجة الى بيان حال الجمع الكثير والجم الغفير أمس لانه لولا البيان لكان يفضي الامر الى قيام الفتنة بين فرق المسلمين وفي قوله تعالى ستدعون الى قوم أولى بأس شديد وجوه أشهرها وأظهرها انهم بنو حنيفة حيث تابعوا مسيلمة وغزاهم أبو بكر (وثانيها) هم فارس والروم غزاهم عمر (ثالثها) هم هوازن وثقيف غزاهم النبي صلى الله عليه وسلم وأقوى الوجوه هو ان الدعاء كان من النبي صلى الله عليه وسلم وان كان الاظهر غيره اما الدليل على قوة هذا الوجه هو أن أهل السنة اتفقوا على ان أمر العرب في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ظهر ولم يبق الا كافر مجاهر أو مؤمن تقي طاهر وامتنع النبي صلى الله عليه وسلم من الصلاة على موتى المنافقين وترك المؤمنون مخالطتهم حتى ان عبادة بن كعب مع كونه بين المؤمنين لم يكلمه المؤمنون مدة وما ذكره الله علامة اظهور حال من كان منافقا فان كان ظهر حالهم بغير هذا فلا معنى لجعل هذا علامة وان

ظهر بهذا والظهور كان في زمان النبي صلى الله عليه وسلم لان النبي عليه الصلاة والسلام لو امتنع من قبولهم لاتباعه لامتنع أبو بكر وعمر لقوله تعالى واتبعوه وقوله فاتبعوني فان قيل هذا ضعيف لوجهين (أحدهما) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لن تتبعونا وقال لن تخرجوا معي أبدا فكيف كانوا يتبعونه مع النفي (الثاني) قوله تعالى أولي بأس شديد ولم يبق بعد ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام حرب مع قوم أولي بأس شديد فان الرعب استولى على قلوب الناس ولم يبق للكفار بعده شدة وبأس واتفاق الجمهور يدل على القوة والظهور نقول اما الجواب عن الاول فمن وجهين (أحدهما) ان يكون ذلك مقيدا تقديره لن تخرجوا معي أبدا وأنتم على ما أنتم عليه ويجب هذا التقييد لانا أجمعنا على أن منهم من أسلم وحسن اسلامه بل اكثر ذلك وما كان يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم ان يقول لهم لستم مسلمين لقوله تعالى ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا ومع القول باسلامهم ما كان يجوز أن يمنعهم من الجهاد في سبيل الله مع وجوبه عليهم وكان ذلك مقيدا وقد تبين حسن حالهم فان النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم الى جهاد فأطاعه قوم وامتنع آخرون وظهر أمرهم وعلم من استمر على الكفر ممن استقر قلبه على الايمان (الثاني) المراد من قوله ان تتبعونا في هذا القتال فحسب وقوله لن تخرجوا معي كان في غير هذا هم المنافقون الذين تخلفوا في غزوة تبوك واما اتفاق الجمهور فنقول لا مخالفة بيننا وبينهم لانا نقول النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم أولا وأبو بكر رضي الله عنه أيضا دعاهم بعد معرفته جواز ذلك من فعل النبي صلى الله عليه وسلم انما نحن نثبت ان النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم فان قالوا أبو بكر رضي الله عنه دعاهم لا يكن بين القولين تناف وان قالوا لم يدعهم النبي صلى الله عليه وسلم فالنفي والجزم به في غاية البعد لجواز أن يكون ذلك قد وقع وكيف لا والنبي عليه الصلاة والسلام قال من كلام الله ان كنتم تحبون الله فاتبعوني وقال اتبعوني هذا صراط مستقيم ومنهم من أحب الله واختار اتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم لان بقاء جمعهم على النفاق والكفر بعدما اتسعت دائرة الاسلام واجتمعت العرب على الايمان بعيد ويوم قوله صلى الله عليه وسلم لن تتبعونا كان أكثر العرب على الكفر والنفاق لانه كان قبل فتح مكة وقبل أخذ حصون كثيرة واما قوله لم يبق للنبي صلى الله عليه وسلم حرب مع أولي بأس شديد قلنا لا نسلم ذلك لان النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية دعاهم الى الحرب لانه خرج محرما ومعه الهدي ليعلم قريش انه لا يطلب القتال وامتنعوا فقال ستدعون الى الحرب ولا شك ان من يكون خصمه مسلحا محاربا أكثر بأسا ممن يكون على خلاف ذلك فكان قد علم من حال مكة انهم لا يوقرون حاجا ولا معتمرا فقوله أولي بأس شديد يعني أولي سلاح من آلة الحديد فان الحديد فيه بأس شديد ومن قال بان الداعي أبو بكر وعمر تمسك بالآية على خلافتهما ودلالتها ظاهرة وحينئذ تقاتلونهم أو يسلمون اشارة الى ان أحدهما يقع وقرئ أو يسلموا بالنصب باضمار أن على معنى

كلام الله) إن يشاركوا في الغنائم التي خصها بأهل الحديبية فانه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم من سنة سبع ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها وغنم أموالا كثيرة فخصها بهم حسبما أمره الله عز وجل وقرئ كلم الله وهو جمع كلمة وأياما كان فالمراد ما ذكر من وعده تعالى غنائم خيبر لاهل الحديبية خاصة لا قوله تعالى لن تخرجوا معي أبدا فان ذلك في غزوة تبوك (قل) اقناطا لهم (لن تتبعونا) أي لا تتبعونا فانه نفي في معنى النهي للمبالغة (كذلكم قال الله من قبل) أي عند الانصراف من الحديبية (فسيقولون) للمؤمنين عند سماع هذا النهي (بل تحسدوننا) أي ليس ذلك النهي حكم الله بل تحسدوننا أن نشارككم في الغنائم وقرئ تحسدوننا بكسر السين وقوله تعالى (بل كانوا لا يفقهون) أي لا يفهمون (الا قليلا) أي الا فهما قليلا وهو فطنتهم لامور الدنيا رد لقولهم الباطل ووصف لهم بما هو أعظم من الحسد وأطم من الجهل المفرط وسوء الفهم في أمور الدين (قل للمخلفين من الاعراب) كرر ذكرهم بهذا العنوان مبالغة في ذمهم

تقاتلونهم الى ان يسلموا والتحقيق فيه هو ان أو لا تجيء الا بين المتغايرين وتنبئ عن الحصر فيقال العدد زوج أو فرد ولهذا لا يصح أن يقال هو زيد أو عمرو واحدا يقال العدد زوج أو خمسة أو غيرهما اذا علم هذا فقول القائل لألزمنك أو تقضيني حقي يفهم منه ان الزمان انحصر في قسمين قسم يكون فيه الملازمة وقسم يكون فيه قضاء الحق فلا يكون بين الملازمة وقضاء الحق زمان لا يوجد فيه الملازمة ولا قضاء الحق فيكون في قوله لألزمنك أو تقضيني كما حكى في قول القائل لألزمنك الى أن تقضي لامتداد زمان الملازمة الى القضاء وهذا مما يضعف قول القائل الداعي هو عمر والقوم فارس والروم لان الفريقين يقران بالجزية فالقتال معهم لا ينتهي الى الاسلام لجواز أن يؤدوا الجزية وقوله تعالى فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل فيه فائدة لان التولي اذا كان بعذر كما قال تعالى ليس على الاعمى حرج لا يكون للتولي عذاب أليم فقال وان تتولوا كما توليتم يعني ان كان توليكم بناء على الظن الفاسد والاعتقاد الباطل كما كان حيث قلتم بألسنتكم لا بقلوبكم شغلتنا أموالنا فالله يعذبكم عذابا أليما ❁ ثم ان الله تعالى قال (ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج) بين من يجوز له التخلف وترك الجهاد وما بسببه يجوز ترك الجهاد وهو ما يمنع من الكر والفر وبين ذلك ببيان ثلاثة أصناف (الاول) الاعمى فانه لا يمكنه الاقدام على العدو والطلب ولا يمكنه الاحتراز والهرب والاعرج كذلك والمريض كذلك وفي معنى الاعرج الاقطع والمقعد بل ذلك أولى بأن يعذر ومن به عرج لا يمنعه من الكر والفر لا يعذر وكذلك المرض القليل الذي لا يمنع من الكر والفر كالطحال والسعال اذ به يضعف و بعض أوجاع المفاصل لا يكون عذرا وفيه مسائل (المسألة الاولى) ان هذه اعذار تكون في نفس المجاهد ولنا أعذار خارجة كالفقر الذي لا يتمكن صاحبه من استصحاب ما يحتاج اليه والاشتغال بمن لولاه لضاع كطفل أو مريض والاعذار تعلم من الفقه ونحن نبحث فيما يتعلق بالتفسير في بيان مسائل (المسألة الاولى) ذكر الاعذار التي في السفر لان غيرها يمكن الازالة بخلاف العرج والعمى (المسألة الثانية) اقتصر منها على الاصناف الثلاثة لان العذر اما أن يكون باخلال في عضو أو باختلال في القوة والذي بسبب اخلال العضو فاما أن يكون بسبب اختلال في العضو الذي به الوصول الى العدو والانتقال في مواضع القتال أو في العضو الذي تتم به فائدة الحصول في المعركة والوصول والاول هو الرجل والثاني هو العين لان بالرجل يحصل الانتقال وبالعين يحصل الانتفاع في الطلب والهرب وأما الاذن والانف واللسان وغيرها من الاعضاء فلا مدخل لها في شيء من الامرين بقيت اليد فان المقطوع اليدين لا يقدر على شيء وهو عذر واضح ولم يذكره نقول لان فائدة الرجل وهي الانتقال تبطل بالخلل في احداهما وفائدة اليد وهي الضراب والبطش لا تبطل الا ببطلان اليدين جميعا ومقطوع اليدين لا يوجد الا نادرا ولعل في جماعة النبي صلى الله عليه وسلم

(ستدعون الى قوم أولي بأس شديد) هم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب أو غيرهم ممن ارتدوا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المشركون لقوله تعالى (تقاتلونهم أو يسلمون) أي يكون أحد الامرين اما المقاتلة أبدا أو الاسلام لا غير كما يفصح عنه قراءة أو يسلموا وأما من عداهم فينتهي قتالهم بالجزية كما ينتهي بالاسلام وفيه دليل على امامة أبي بكر رضي الله عنه اذ لم تتفق هذه الدعوة لغيره الا اذا صح أنهم ثقيف وهوازن فان ذلك كان في عهد النبوة فيختص دوام نفي الاتباع بما في غزوة خيبر كما قاله محيي السنة وقيل هم فارس والروم ومعنى يسلمون ينقادون فان الروم نصارى وفارس مجوس يقبل منهم الجزية (فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا) هو الغنيمة في الدنيا والجنة في الآخرة (وان تتولوا) عن الدعوة (كما توليتم من قبل) في الحديبية (يعذبكم عذابا أليما) لتضاعف جرمكم (ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج) أي في التخلف عن الغزو لما بهم من العذر والعاهة فان التكليف يدور على الاستطاعة وفي نفي الحرج عن كل من الطوائف المعدودة مزيد اعتناء بأمرهم وتوسيع لدائرة الرخصة ❁ لم يكن ❁

(ومن يطع الله ورسوله) فيما ذكر من الاوامر والنواهي (يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار) وقرئ ندخله بنون العظمة (ومن يتول) أى عن الطاعة (يعذبه) وقرئ بالنون (عذابا أليما) لايقادر قدره (لقد رضى الله عن المؤمنين) هم الذين ذكر شأن مبايعتهم وبهذه الآية ﴿ ٥٦٩ ﴾ سميت بيعة الرضوان وقوله تعالى (اذ يبايعونك تحت الشجرة) منصوب برضى وصيغة المضارع لاستحضار صورتها وتحت الشجرة متعلق به أو بمحذوف هو حال من مفعوله روى أنه عليه الصلاة والسلام لما نزل الحديبية بعث خراش بن أمية الخزاعى رسولا الى أهل مكة فهموا به فمنعه الاحابيش فرجع فبعث عثمان بن عفان رضى الله عنه فأخبرهم أنه عليه الصلاة والسلام لم يأت لحرب وانما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته فوقروه وقالوا ان شئت أن تطوف بالبيت فافعل فقال ما كنت لاطوف قبل أن يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبس عندهم فأرجف بأنهم قتلوه فقال عليه الصلاة والسلام لانبرح حتى نناجز القوم ودعا الناس الى البيعة فبايعوه تحت الشجرة وكانت سمرة وقيل سدرة على أن يقاتلوا قريشا ولا يفروا وروى على الموت دونه وأن لا يفروا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم اليوم خير أهل الارض وكانوا ألفا وخمسمائة وخمسة ﴿ ٧٢ ﴾ سا وعشرين وقيل ألفا وأربعمائة وقيل ألفا وثلثمائة وقوله تعالى (فعلم ما فى قلوبهم) عطف على يبايعونك لما عرفت من أنه بمعنى بايعوك لا على رضى فان

يكن أحد مقطوع اليدين فلم يذكره أولان المقطوع ينتفع به فى الجهاد فانه ينظر ولولاه لاستقل به مقاتل فيمكن أن يقاتل وهو غير معذور فى التخلف لان المجاهدين ينتفعون به بخلاف الاعمى فان قيل كان المقطوع اليد الواحدة لاتبطل منفعة بطشه كذلك الاعور لاتبطل منفعة رؤيته وقد ذكر الاعمى وما ذكر الاشل وأقطع اليدين قلنا لما بينا ان مقطوع اليدين نادر الوجود والآفة النازلة باحدى اليدين لاتعمهما والآفة النازلة بالعين الواحدة تعم العينين لان منبع النور واحد وهما مجاذبان والوجود يفرق بينهما فان الاعمى كثير الوجود ومقطوع اليدين نادر (المسئلة الثالثة) قدم الآفة فى الآلة على الآفة فى القوة لان الآفة فى القوة تزول وتطرأ والآفة فى الآلة اذا طرأت لاتزول فان الاعمى لايعود بصيرا فالعذر فى محل الآلة أتم (المسئلة الرابعة) قدم الاعمى على الاعرج لان عذر الاعمى يستمر وحضر القتال والاعرج ان حضر راكبا أو بطريق آخر يقدر على القتال بالرمى وغيره ...وا تعالى (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار ومن يتول يعذبه ... ...ضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل ... ...ثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما) ... ...هما طاعة للآخر فجمع بينهما بيانا لطاعة الله فان الله تعالى او قال ... ...ن لبعض الناس أن يقول نحن لانرى الله ولا نسمع كلامه فمن أين نعلم أمره حتى نطيعه فقال طاعته فى طاعة رسوله وكلامه يسمع من رسوله ثم قال ومن يتول أى بقلبه ثم لما بين من المخلفين بعد قوله ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله عاد الى بيان حالهم وقال لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم من الصدق كما علم ما فى قلوب المنافقين من المرض فأنزل السكينة عليهم حتى بايعوا على الموت وفيه معنى لطيف وهو ان الله تعالى قال قبل هذه الآية ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات فجعل طاعة الله والرسول علامة لادخال الله الجنة فى تلك الآية وفى هذه الآية بين ان طاعة الله والرسول وجدت من أهل بيعة الرضوان أما طاعة الله فالاشارة اليها بقوله لقد رضى الله عن المؤمنين وأما طاعة الرسول فبقوله اذ يبايعونك تحت الشجرة بقى الموعود به وهو ادخال الجنة أشار اليه بقوله تعالى لقد رضى الله عن المؤمنين لان الرضا يكون معه ادخال الجنة كما قال تعالى ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها رضى الله عنهم ثم قال تعالى فعلم ما فى قلوبهم والفاء للتعقيب وعلم الله قبل الرضا لانه علم ما فى قلوبهم من الصدق فرضى عنهم فكيف يفهم التعقيب فى العلم نقول قوله فعلم ما فى قلوبهم متعلق بقوله اذ يبايعونك تحت الشجرة كما يقول القائل فرحت أمس اذ كلمت زيدا فقام الى أو اذ دخلت عليه فأكرمنى فيكون الفرح بعد الاكرام ترتيبا كذلك ههنا قال تعالى لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم من الصدق اشارة الى ان الرضا لم يكن عند المبايعة فحسب بل عند المبايعة التى كان معها علم الله بصدقهم والفاء فى قوله فأنزل

السكينة عليهم للتعقيب الذي ذكرته فانه تعالى رضي عنهم فانزل السكينة عليهم وفي علم بيان
وصف المبايعة بكونها معقبة بالعلم بالصدق الذي في قلوبهم وهذا توفيق لايأتي الالمن
هداه الله تعالى الى معاني كتابه الكريم وقوله تعالى وأثابهم فتحا قريبا هو فتح خيبر ومغانم
كثيرة يأخذونها مغانمها وقيل مغانم هجر وكان الله عزيزا كامل القدرة غنيا عن اعانتكم
اياه حكيما حيث جعل هلاك أعدائه على أيديكم ليثيبكم عليه أولان في ذلك اعزاز قوم
واذلال آخرين فانه يذل من يشاء بعزته و يعز من يشاء بحكمته ❋ ثم قال تعالى (وعدكم الله
مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين
ويهديكم صراطا مستقيما) اشارة الى ان ما آتاهم من الفتح والمغانم ليس هو كل الثواب
بل الجزاء قدامهم وانما هي لعاجلة عجل بها وفي المغانم الموعود بها أقوال أحدها انه وعد
مغانم كثيرة من غير تعيين وكل ما غنموه كان منها والله كان عالما بها وهذا كما يقول الملك
الجواد لمن يخدمه يكون لك مني على ما فعلته الجزاء ان شاء الله ولا يريد شيئا بعينه ثم كل
ما يأتي به و يؤتيه يكون داخلا تحت ذلك الوعد غير ان الملك لا يعلم تفاصيل ما يصل اليه
وقت الوعد والله عالم بها وقوله تعالى وكف أيدي الناس عنكم لاتمام المنة كأنه قال
رزقتكم غنيمة باردة من غير مس حر القتال ولو تعبتم فيه لقلتم هذا جزاء تعبنا وقوله تعالى
ولتكون آية للمؤمنين عطف على مفهوم لانه لما قال الله تعالى فعجل لكم هذه واللام ينبئ
عن النفع كان على ينبئ عن الضر القائل لا علي ولا ليا يعني لا ما اتضرر به ولا ما انتفع به
ولا أضر به ولا أنفع فكذلك قوله فعجل لكم هذه لتنفعكم ولتكون آية للمؤمنين وفيه
معنى لطيف وهو أن المغانم الموعود بها كل ما يأخذه المسلمون فقوله ولتكون آية للمؤمنين
يعني لينفعكم بها وليجعلها لمن بعدكم آية تدلهم على ان ما وعدهم الله يصل اليهم كما وصل
اليكم أو نقول معناه لتنفعكم في الظاهر وتنفعكم في الباطن حيث يزداد يقينكم اذا رأيتم
صدق الرسول في اخباره عن الغيوب فيجمل اخباركم و يكمل اعتقادكم وقوله و يهديكم
صراطا مستقيما وهو التوكل عليه والتفويض اليه والاعتزاز به ❋ قوله تعالى (واخرى
لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا) قيل غنيمة هوازن وقيل غنائم
فارس والروم وذكر الزمخشري في أخرى ثلاثة أوجه أن تكون منصوبة بفعل مضمر
يفسره قد أحاط ولم تقدروا عليها صفة لاخرى كأنه يقول وغنيمة أخرى غير مقدورة قد
أحاط الله بها (ثانيها) ان تكون مرفوعة وخبرها قد أحاط الله بها وحسن جعلها مبتدأ مع
كونها نكرة لكونها موصوفة بلم تقدروا (وثالثها) الجر باضمار رب ويحتمل ان يقال
منصوبة بالعطف على منصوب وفيه وجهان (أحدهما) كأنه تعالى قال فعجل لكم هذه
وأخرى ما قدرتم عليها وهذا ضعيف لان أخرى لم يعجل بها (وثانيهما) على مغانم كثيرة
تأخذونها وأخرى أي وعدكم الله أخرى وحينئذ كأنه قال وعدكم الله مغانم تأخذونها
ومغانم لا تأخذونها أنتم ولا تقدرون عليها وانما يأخذها من يجيء بعدكم من المؤمنين وعلى

رضاه تعالى عنهم مترتب على علمه تعالى بما في قلوبهم من الصدق والاخلاص عند مبايعتهم له صلى الله عليه وسلم وقوله
تعالى (فأنزل السكينة عليهم) عطف على رضي أي فأنزل عليهم الطمأنينة والأمن وسكون النفس بالربط على قلوبهم
وقيل بالصلح (وأثابهم فتحا قريبا) هو فتح خيبر غب انصرافهم من الحديبية كما مر تفصيله وقرئ
وآتاهم (ومغانم كثيرة
يأخذونها) أي مغانم
خيبر والالتفات الى
الخطاب على قراءة
الاعمش وطلحة ونافع
لتشريفهم في مقام
الامتنان (وكان الله
عزيزا) غالبا (حكيما)
مراعيا لمقتضى الحكمة
في أحكامه وقضاياه
(وعدكم الله مغانم كثيرة)
هي ما يفيئه على المؤمنين
الى يوم القيامة
(تأخذونها) في أوقاتها
المقدرة لكل واحدة منها
(فعجل لكم هذه) أي
غنائم خيبر (وكف أيدي
الناس عنكم) أي أيدي
أهل خيبر وحلفائهم
من بني أسد وغطفان
حيث جاؤا لنصرتهم
فقذف الله في قلوبهم
الرعب فنكصوا وقيل
أيدي أهل مكة بالصلح
(ولتكون آية للمؤمنين)
أمارة يعرفون بها صدق
الرسول صلى الله عليه
وسلم في وعده اياهم عند
رجوعه من الحديبية ما
ذكر من المغانم وفتح مكة
ودخول المسجد الحرام
واللام متعلقة اما بمحذوف
مؤخر أي ولتكون آية لهم فعل ما فعل من التعجيل والكف أو بما تعلق به علة أخرى محذوف من أحد الفعلين ❋ هذا ❋
أي فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس لتغتنموها ولتكون الخ قالوا وعلى الاول اعتراضية وعلى الثاني عاطفة (ويهديكم)

هذا تبيين لقول الفراء حسن وذلك لانه فسر قوله تعالى قد أحاط الله بها أي حفظها للمؤمنين لا يجري عليها هلاك الى ان يأخذها المسلمون كاحاطة الحراس بالخزائن * ثم قال تعالى (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار) وهو يصلح جوابا لمن يقول كف الايدي عنهم كان أمرا اتفاقيا ولو اجتمع عليهم العرب كما عزموا لمنعوهم من فتح خيبر واغتنام غنائمها فقال ليس كذلك بل سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون والغلبة واقعة للمسلمين فليس أمرهم أمرا اتفاقيا بل هو أمر الهي محكوم به محتوم * وقوله تعالى (ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا) قد ذكرنا مرارا ان دفع الضرر عن الشخص اما أن يكون بولي ينفع باللطف أو بنصير يدفع بالعنف وليس للذين كفروا شيء من ذلك وفي قوله تعالى ثم لطيفة وهي ان من يولي دبره يطلب الخلاص من القتل بالالتحاق بما يحميه فقال وليس اذا ولوا الادبار يتخلصون بل بعد التولي الهلاك لاحق بهم * وقوله تعالى (سنة الله التي قد خلت من قبل) جواب عن سؤال آخر يقوم مقام الجهاد وهو ان الطوالع لها تأثيرات والاتصالات لها تغيرات فقال ليس كذلك سنة الله نصرة رسوله واهلاك عدوه * وقوله تعالى (ولن تجد لسنة الله تبديلا) بشارة ودفع وهم يقع بسبب وهم وهو انه اذا قال الله تعالى ليس هذا بالتأثيرات فلا يجب وقوعه بل الله فاعل مختار ولو أراد أن يهلك العباد لهلكهم بخلاف قول المنجم بان الغلب لمن له طالع وشواهد تقتضي غلبته قطعا فقال الله تعالى ولن تجد لسنة الله تبديلا يعني ان الله فاعل مختار يفعل ما يشاء و يقدر على اهلاك أصدقائه ولكن لا يبدل سنته ولا يغير عادته * ثم قال تعالى (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد ان أظفركم عليهم) تبيينا لما تقدم من قوله ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار أي هو بتقدير الله لانه كف أيديهم عنكم بالفرار وأيديكم عنهم بالرجوع عنهم وتركهم وقوله تعالى ببطن مكة اشارة الى أمر كان هناك يقتضي عدم الكف ومع ذلك وجد كف الايدي وذلك الامر هو دخول المسلمين بطن مكة فان ذلك يقتضي أن يصير المكفوف على القتال لكون العدو دخل دارهم طالبين ثارهم وذلك مما يوجب اجتهاد البليد في الذب عن الحريم و يقتضي ان يبالغ المسلمون في الاجتهاد في الجهاد لكونهم لو قصروا لكسروا وأسروا والبعد مانعهم فقوله ببطن مكة اشارة الى بعد الكف ومع ذلك وجد بمشيئة الله تعالى وقوله تعالى من بعد ان أظفركم عليهم صالح لامرين (أحدهما) ان يكون منة على المؤمنين بان الظفر كان لكم مع ان الظاهر كان يستدعي كون الظفر لهم لكون البلاد لهم ولكثرة عددهم (الثاني) أن يكون ذكر أمرين مانعين من الامرين الاولين مع ان الله حققهما مع المنافقين اما كف أيدي الكفار فكان بعيدا لكونهم في بلادهم ذابين عن أهليهم وأولادهم واليه اشار بقوله ببطن مكة وأما كف أيدي المسلمين فلانه كان بعد ان ظفروا بهم ومتى ظفر الانسان بعدوه الذي لو ظفر هو به لاستأصله يبعد انكفافه عنه مع ان الله كف اليدين * وقوله تعالى (وكان الله بما تعملون بصيرا) يعني كان الله يرى فيه من المصلحة وان كنتم لا ترون ذلك و بينه

بتلك الآية (صراطا مستقيما) هو الثقة بفضل الله تعالى والتوكل عليه في كل ما تأتون وما تذرون (وأخرى) عطف على هذه أي فعجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى (لم تقدروا عليها) وهي مغانم هوازن في غزوة حنين ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة قبل ذلك لزيادة ترغيبهم فيها وقوله تعالى (قد أحاط الله بها) صفة أخرى لاخرى مفيدة لسهولة تأتيها بالنسبة الى قدرته تعالى بعد بيان صعوبة منالها بالنظر الى قدرتهم أي قد قدر الله عليها واستولى واظهركم عليها وقيل حفظها لكم ومنعها من غيركم هذا وقد قيل ان اخرى منصوب بمضمر يفسره قد أحاط الله بها أي وقضى الله أخرى ولا ريب في أن الاخبار بقضاء الله اياها بعد اندراجها في جملة المغانم الموعودة بقوله تعالى وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ليس فيه مزيد فائدة وانما الفائدة في بيان تعجيلها (وكان الله على كل شيء قديرا) لان قدرته تعالى ذاتية لا تختص بشيء دون شيء (ولو قاتلكم الذين كفروا) أي أهل مكة ولم يصالحوكم وقيل حلفاء خيبر (لولوا الادبار) منهزمين (ثم لا يجدون وليا) يحرسهم (ولا نصيرا) ينصرهم (سنة الله التي قد خلت من قبل) أي سن الله غلبة أنبيائه سنة قديمة فيمن مضى من الامم (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أي تغييرا (وهو الذي كف أيديهم) أي أيدي كفار مكة (عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة) أي في داخلها (من بعد أن أظفركم عليهم) وذلك ان عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة الى الحديبية فبعث رسول الله صلى الله

عليه وسلم خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد وقيل كان يوم الفتح وبه استشهد أبو حنيفة على ان مكة فتحت عنوة لا صلحا (وكان الله بما تعملون) من مقاتلتهم وهزمهم أولا والكف عنهم ثانيا لتعظيم بيته الحرام وقرئ بالياء (بصيرا) فيجازيكم بذلك أو يجازيهم (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى) بالنصب عطفا على الضمير المنصوب في صدوكم وقرئ بالجر عطفا على المسجد بحذف المضاف أي ونحر الهدى وبالرفع على وصد الهدى وقوله تعالى (معكوفا) حال من الهدى أي محبوسا وقوله تعالى (ان يبلغ محله) بدل اشتمال من الهدى أو منصوب بنزع الخافض أي محبوسا من أن يبلغ مكانه الذي يحل فيه نحره وبه استدل أبو حنيفة رحمه الله تعالى على ان المحصر محل هديه الحرم قالوا بعض الحديبية من الحرم وروى أن خباءه صلى الله عليه وسلم كانت في الحل ومصلاه في الحرم وهناك نحرت هداياه صلى الله عليه وسلم والمراد صدها عن محلها المعهود الذي هو منى (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم) لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم وهو صفة لرجال ونساء وقوله تعالى (أن تطؤهم) أي توقعوا بهم وتهلكوهم بدل اشتمال منهم أو من الضمير المنصوب في تعلموهم (فتصيبكم منهم) أي من جهتهم (معرة) أي مشقة ومكروه كوجوب الدية أو الكفارة بقتلهم والتأسف عليهم وتعيير الكفار وسوء قالتهم والاثم بالتقصير في البحث

بقوله تعالى هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا الى ان قال ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات يعني كان الكف محافظة على ما في مكة من المسلمين ليخرجوا منها ويدخلوها على وجه لا يكون فيه ايذاء من فيهما من المؤمنين والمؤمنات واختلف المفسرون في ذلك الكف منهم من قال المراد ما كان عام الفتح ومنهم من قال ما كان عام الحديبية فان المسلمين هزموا جيش الكفار حتى أدخلوهم بيوتهم وقيل ان الحرب كان بالحجارة * وقوله تعالى (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا ان يبلغ محله) اشارة الى ان الكف لم يكن لأمر فيهم لانهم كفروا وصدوا واحصروا وكل ذلك يقتضي قتالهم فلا يقع لاحد ان الفريقين اتفقوا ولم يبق بينهما خلاف واصطلحوا ولم يبق بينهما نزاع بل الاختلاف باق والنزاع مستمر لانهم هم الذين كفروا وصدوكم ومنعوا فازدادوا كفرا وعداوة وانما ذلك للرجال المؤمنين والنساء المؤمنات وقوله والهدى منصوب على العطف على كم في صدوكم ويجوز الجر عطفا على المسجد أي وعن الهدى ومعكوفا حال وان يبلغ تقديره عن ان يبلغ ويحتمل أن يقال أن يبلغ [illegible] معكوفا بلوغه محله كما يقال رأيت زيدا شديدا بأسه ومعكوفا أي ممنوعا ولا [illegible] على هذا الوجه * وقوله تعالى (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات [illegible] تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم) وصف الرجال والنساء يعني لولا رجال [illegible] مؤمنون غير معلومين وقوله تعالى ان تطؤهم بدل اشتمال كأنه قال رجال غير معلومين [illegible] فتصيبكم منهم معرة عيب أو اثم وذلك لانكم ربما تقتلونهم فتلزمكم الكفارة وهي دليل الاثم أو يعيبكم الكفار بانهم فعلوا باخوانهم ما فعلوا باعدائهم وقوله تعالى بغير علم قال الزمخشري هو متعلق بقوله ان تطؤهم يعني تطؤهم بغير علم وجاز أن يكون بدلا عن الضمير المنصوب في قوله لم تعلموهم ولقائل أن يقول يكون هذا تكرارا لان على قولنا هو بدل من الضمير يكون التقدير لم تعلموا ان تطؤهم بغير علم فيلزم تكرار بغير علم لحصوله بقوله لم تعلموهم فالاولى أن يقال بغير علم هو في موضعه تقديره لم تعلموا ان تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم من الذي يعيركم ويعيب عليكم يعني ان وطئتموهم غير عالمين يصيبكم مسبة الكفار بغير علم أي بجهل لا يعلمون انكم معذورون فيه أو نقول تقديره لم تعلموا أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم أي فتقتلوهم بغير علم أو تؤذوهم بغير علم فيكون الوطء سبب القتل والوطء غير معلوم لكم والقتل الذي هو سبب المعرة وهو الوطء الذي يحصل بغير علم أو نقول المعرة قسمان (أحدهما) ما يحصل من القتل العمد ممن هو غير العالم بحال المحل (والثاني) ما يحصل من القتل خطأ وهو غير عدم العلم فقال تصيبكم منهم معرة غير معلومة لا التي تكون عن العلم وجواب لولا محذوف تقديره لولا ذلك لما كف أيديكم عنه هذا ما قاله الزمخشري وهو حسن ويحتمل ان يقال جوابه ما يدل عليه قوله تعالى هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام يعني فما استحقوا ان لا تقتلوا لولا رجال مؤمنون لوقع ما استحقوه كما يقول القائل

منهم وهى مفصلة من عرة اذا عراه ودهاه ما يكرهه (بغير علم) متعلق بان تطؤهم اى غير عالمين بهم و جواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه والمعنى لولا كراهة ان تهلكوا ناسا مؤمنين بين الكافرين غير عالمين بهم فيصيبكم بذلك مكروه لما كف أيديكم عنهم وقوله تعالى ﴿ ٥٧٣ ﴾ (ليدخل الله فى رحمته) متعلق بما يدل عليه الجواب المحذوف كأنه

هو سارق ولولا فلان لقطعت يده وذلك لان لولا لا تستعمل الا لامتناع الشئ لوجود غيره وامتناع الشئ لا يكون الا اذا وجد المقتضى له فمنعه الغير فذكر الله تعالى أولا المقتضى التام البالغ وهو الكفر والصد والمنع وذكر ما امتنع لاجله مقتضاه وهو وجود الرجال المؤمنين * وقوله تعالى (ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) فيه ابحاث (الاول) فى الفعل الذى يستدعى اللام الذى بسببه يكون الادخال وفيه وجوه (أحدها) أن يقال هو قوله كف ايديكم عنهم ليدخل لا يقال بانك ذكرت ان المانع وجود رجال مؤمنين فيكون كأنه قال كف أيديكم لئلا تطؤا فكيف يكون لشئ آخر نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن نقول كف أيديكم لئلا تطؤا لتدخلوا كما يقال أطعمته ليشبع ليغفر الله لى أى الاطعام للشبع كان ليغفر (الثانى) هو انا بينا ان لولا جوابه مادل عليه قوله هم الذين كفروا فيكون كأنه قال هم الذين كفروا واستحقوا التعجيل فى اهلاكهم ولولا رجال لعجلنا بهم ولكن كف أيديكم ليدخل (ثانيها) أن يقال فعل ما فعل ليدخل لان هناك افعالا من الالطاف والهداية وغيرهما وقوله ليدخل الله فى رحمته من يشاء ليؤمن منهم من علم الله تعالى انه يؤمن فى تلك السنة أو يخرج من مكة و يهاجر فيدخلهم فى رحمته وقوله تعالى لو تزيلوا أى لو تميزوا والضمير يحتمل أن يقال هو ضمير الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات فان قيل كيف يصح هذا وقد قلتم بان جواب لولا محذوف وهو قوله لما كف أو لعجل ولو كان لو تزيلوا راجعا الى الرجال لكان لعذبنا جواب لولا نقول وقد قال به الزمخشرى فقال لو تزيلوا يتضمن ذكر لولا فيحتمل أن يكون لعذبنا جواب لولا و يحتمل أن يقال هو ضمير من يشاء كأنه قال ليدخل من يشاء فى رحمته لو تزيلوا هم وتميزوا وآمنوا لعذبنا الذين كتب الله عليهم انهم لا يؤمنون وفيه ابحاث (البحث الاول) وهو على تقدير نفرضه فالكلام يفيد ان العذاب الاليم اندفع عنهم اما بسبب عدم التزيل او بسبب وجود الرجال وعلى تقدير وجود الرجال والعذاب الاليم لا يندفع عن الكافر نقول المراد عذابا عاجلا بأيديكم يبدأ بالجنس اذا كانوا غير مقرين ولا منقلبين اليهم فيظهرون و يقتدرون يكون أليما (البحث الثانى) ما الحكمة فى ذكر المؤمنين والمؤمنات مع ان المؤنث يدخل فى ذكر المذكر عند الاجتماع قلنا الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ما تقدم يعنى ان الموضع موضع وهم اختصاص الرجال بالحكم لان قوله تطؤهم فتصيبكم معناه تهلكوهم والمرأة لا تقاتل ولا تقتل فكان المانع هو وجود الرجال المؤمنين فقال والنساء المؤمنات أيضا لان تخريب بيوتهن ويتم أولادهن بسبب قتل رجالهن وطأة شديدة (وثانيهما) ان فى محل الشفقة تعد المواضع لترقيق القلب يقال لمن يعذب شخصا لا تعذبه وارحم ذله وفقره وضعفه و يقال أولاده وصغاره وأهله الضعفاء العاجزين فكذلك ههنا قال لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لترقيق قلوب المؤمنين ورضاهم بما جرى من الكف بعد الظفر * ثم قال تعالى

قيل عقيبه لكن كفها عنهم ليدخل بذلك الكف المؤدى الى الفتح بلا محذوف فى رحمته الواسعة بقسميها (من يشاء) وهم المؤمنون فانهم كانوا خارجين من الرحمة الدنيوية التى من جملتها الامن مستضعفين تحت أيدى الكفرة وأما الرحمة الاخروية فهم وان كانوا غير محرومين منها بالمرة لكنهم كانوا قاصرين فى اقامة مراسم العبادة كما ينبغى فتوفيقهم لاقامتها على الوجه الاتم ادخال لهم فى الرحمة الاخروية وقد يجوز أن يكون من يشاء عبارة عمن رغب فى الاسلام من المشركين ويأباه قوله تعالى (لو تزيلوا) الخ فان فرض التزيل وترتيب التعذيب عليه يقتضى تحقق المباينة بين الفريقين بالايمان والكفر قبل التزيل حتما أى لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض وقرئ لو تزايلوا (لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) بقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها (اذ جعل الذين كفروا) منصوب باذكر على المفعولية او بعذبنا على الظرفية وقيل بمضمر هو احسن الله الحكم وايا ما كان فوضع الموصول موضع ضميرهم للذمهم بما فى حيز الصلة وتعليل الحكم به

اذجعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها واهلها وكان الله بكل شئ عليما) اذ يحتمل أن يكون ظرفا فلابد من فعل يقع فيه و يكون عاملا له ويحتمل أن يكون مفعولا به فان قلنا انه ظرف فالفعل الواقع فيه يحتمل أن يقال هو مذكور ويحتمل أن يقال هو مفهوم غير مذكور فان قلنا هو مذكور ففيه وجهان (أحدهما) هو قوله تعالى وصدوكم أى وصدوكم حين جعلوا فى قلوبهم الحمية (وثانيهما) قوله تعالى لعذبنا الذين كفروا منهم أى لعذبناهم حين جعلوا فى قلوبهم الحمية (والثانى) أقرب لقربه لفظا وشدة مناسبته معنى لانهم اذا جعلوا فى قلوبهم الحمية لا يرجعون الى الاستسلام والانقياد والمؤمنون لما أنزل الله عليهم السكينة لا يتركون الاجتهاد فى الجهاد والله مع المؤمنين فيعذبونهم عذابا أليما أو غير المؤمنين واما ان قلنا ان ذلك مفهوم غير مذكور ففيه وجهان (أحدهما) حفظ الله المؤمنين عن أن يطؤهم وهم الذين كفروا الذين جعل فى قلوبهم الحمية (وثانيهما) أحسن الله اليكم اذجعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية وعلى هذا فقوله تعالى فأنزل الله سكينته تفسير لذلك الاحسان واما ان قلنا انه مفعول به فالعامل مقدر تقديره اذكر أى اذكر ذلك الوقت كما تقول اتذكر اذقام زيد أى اتذكر وقت قيامه كما تقول اتذكر زيدا وعلى هذا يكون الظرف للفعل المضاف اليه عاملا فيه وفيه لطائف معنوية ولفظية (الاولى) هو ان الله تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن فاشار الى ثلاثة أشياء (أحدها) جعل ما للكافرين بجعلهم فقال اذجعل الذين كفروا وجعل ما للمؤمنين بجعل الله فقال فأنزل الله و بين الفاعلين ما لا يخفى (ثانيها) جعل للكافرين الحمية وللمؤمنين السكينة و بين المفعولين تفاوت على ما سنذكره (ثالثها) اضاف الحمية الى الجاهلية واضاف السكينة الى نفسه حيث قال حمية الجاهلية وقال سكينته و بين الاضافتين ما لا يذكر (الثانية) زاد المؤمنين خيرا بعد حصول مقابلة شئ بشئ فعلهم بفعل الله والحمية بالسكينة والاضافة الى الجاهلية بالاضافة الى الله تعالى وألزمهم كلمة التقوى وسنذكر معناه واما اللفظية فثلاث لطائف (الاولى) قال فى حق الكافر جعل وقال فى حق المؤمن أنزل ولم يقل خلق ولا جعل سكينته اشارة الى ان الحمية كانت مجعولة فى الحال فى العرض الذى لا يبقى واما السكينة فكانت كالمحفوظة فى خزانة الرحمة معدة لعباده فانزلها (الثانية) قال الحمية ثم أضافها بقوله حمية الجاهلية لان الحمية فى نفسها صفة مذمومة وبالاضافة الى الجاهلية تزداد قبحا وللحمية فى القبح درجة لا يعتبر معها قبح القبائح كالمضاف الى الجاهلية واما السكينة فى نفسها وان كانت حسنة لكن الاضافة الى الله فيها من الحسن ما لا يبقى معه لحسن اعتبار فقال سكينته اكتفاء بحسن الاضافة (الثالثة) قوله فانزل بالفاء لا بالواو اشارة الى ان ذلك كالمقابلة تقول أكرمنى فاكرمته للمجازاة والمقابلة ولو قلت أكرمنى وأكرمته لا ينبئ عن ذلك وحينئذ يكون فيه لطيفة وهى ان عند اشتداد غضب أحد العدوين فالعدو الآخر اما أن يكون

والجعل اما بمعنى الالقاء فقوله تعالى (فى قلوبهم الحمية) اى الانفة والكبر متعلق به أو بمعنى التصيير فهو متعلق بمحذوف هو مفعول ثان له أى جعلوها ثابتة راسخة فى قلوبهم (حمية الجاهلية) بدل من الحمية أى حمية الملة الجاهلية أو الحمية الناشئة من الجاهلية وقوله تعالى (فأنزل الله ﴿ ٥٧٤ ﴾ سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) على الاول عطف على جعل والمراد تذكير حسن صنيع الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتوفيق الله تعالى وسوء صنيع الكفرة وعلى الثانى على ما يدل عليه الجملة الامتناعية كأنه قيل لم يتزيلوا فلم نعذب فأنزل الخ وعلى الثالث على المضمر تفسير له والسكينة الثبات والوقار يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل الحديبية بعث قريش سهيل ابن عمرو القرشى وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص بن الاحنف على أن يعرضوا على النبى صلى الله عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلى له قريش مكة من العام القابل ثلاثة ايام ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتابا فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا ما نعرف ما هذا اكتب باسمك اللهم ثم قال اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله أهل مكة فقالوا لو كنا ﴿ ضعيفا ﴾ نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك اكتب هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله أهل مكة فقال صلى الله عليه وسلم اكتب ما يريدون فهم المؤمنون ان يأبوا ذلك و يبطشوا بهم فأنزل الله

السكينة عليهم فتوقروا وحلموا (وألزمهم كلمة التقوى) أى كلمة الشهادة أو بسم الله الرحمن الرحيم أو محمد رسول الله وقيل كلمة التقوى هى الوفاء بالعهد والثبات عليه واضافتها الى التقوى لانها سبب التقوى واساسها أو كلمة أهلها (وكانوا أحق بها) متصفين بمزيد استحقاق لها على أن صيغة التفضيل للزيادة مطلقا وقيل أحق بها من الكفار (وأهلها) أى المستأهل لها (وكان الله بكل شئ عليما) فيعلم حق كل شئ فيسوقه الى مستحقه (لقد صدق الله رسوله الرؤيا) رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل خروجه الى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا رؤسهم وقصروا فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها فى عامهم فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبى وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت أى صدقه صلى الله عليه وسلم فى رؤياه كما فى قولهم صدقنى سن بكره وتحقيقه أراه الرؤيا الصادقة وقوله تعالى (بالحق) اما صفة لمصدر مؤكد محذوف أى صدقا ملتبسا بالحق أى بالغرض الصحيح والحكمة البالغة التى هى التمييز بين الراسخ فى الايمان والمتزلزل فيه أو حال من الرؤيا أى ملتبسة بالحق ليست من قبيل أضغاث الاحلام وقد يجوز أن يكون قسما بالحق الذى هو من أسماء الله تعالى أو بنقيض الباطل وقوله تعالى (لتدخلن المسجد الحرام) جوابه وهو على الاولين جواب قسم محذوف

ضعيفا أو قويا فان كان ضعيفا ينهزم وينقهر وان كان قويا فيورث غضبه فيه غضبا وهذا سبب قيام الفتن والقتال فقال فى نفس الحركة عند حركتهم ما أقدمنا وما انهزمنا وقوله تعالى فأنزل الله بالفاء يدل تعلق الانزال بالفاء على ترتيبه على شئ نقول فيه وجهان (أحدهما) ما ذكرنا من ان اذ ظرف كأنه قال أحسن الله اذ جعل الذين كفروا وقوله فأنزل تفسير لذلك الاحسان كما يقال أكرمنى فاعطانى لتفسير الاكرام (وثانيهما) أن تكون الفاء للدلالة على ان تعلق انزال السكينة بجعلهم الحمية فى قلوبهم على معنى المقابلة تقول أكرمنى فاثنيت عليه ويجوز أن يكونا فعلين واقعين من غير مقابلة كما تقول جاءنى زيد وخرج عمرو وهوهنا كذلك لانهم لما جعلوا فى قلوبهم الحمية فالمسلمون على مجرى العادة لو نظرت اليهم لزم ان يوجد منهم أحد الامرين اما اقدام واما انهزام لان أحد العدوين اذا اشتد غضبه فالعدو الآخر ان كان مثله فى القوة يغضب أيضا وهذا يثير الفتن وان كان أضعف منه ينهزم أو ينقاد له فالله تعالى أنزل فى مقابلة حمية الكافرين على المؤمنين سكينته حتى لم يغضبوا ولم ينهزموا بل يصبروا وهو بعيد فى العادة فهو من فضل الله تعالى قوله تعالى على رسوله وعلى المؤمنين فانه هو الذى أجاب الكافرين الى الصلح وكان فى نفس المؤمنين ان لا يرجعوا الا بأحد الثلاثة بالنحر فى المنحر وأبوا ان لا يكتبوا محمدا رسول الله و بسم الله فلما سكن رسول الله صلى الله عليه وسلم سكن المؤمنون وقوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى فيه وجوه أظهرها انه قوله لا اله الا الله فان بها يقع الاتقاء عن الشرك وقيل هو بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله فان الكافرين أبوا ذلك والمؤمنون التزموه وقيل هى الوفاء بالعهد الى غير ذلك ونحن نوضح فيه ما يترجح بالدليل فنقول وألزمهم يحتمل أن يكون عائدا الى النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين جميعا يعنى ألزم النبى والمؤمنين كلمة التقوى ويحتمل أن يكون عائدا الى المؤمنين فحسب فان قلنا انه عائد اليهما جميعا نقول هو الامر بالتقوى فان الله تعالى قال للنبى صلى الله عليه وسلم يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين وقال للمؤمنين يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته والامر بتقوى الله حتى تذهله تقواه عن الالتفات الى ما سوى الله كما قال فى حق النبى صلى الله عليه وسلم اتق الله ولا تطع الكافرين وقال تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ثم بين له حال من صدقه بقوله الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله وأما فى حق المؤمنين فقال يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته وقال فلا تخشوهم واخشونى وان قلنا بانه راجع الى المؤمنين فهو قوله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا الا ترى الى قوله واتقوا الله وهو قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله وفى معنى قوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى على هذا معنى لطيف وهو انه تعالى اذا قال اتقوا يكون الامر وارداثم ان من الناس من يقبله بتوفيق الله ويلتزمه ومنهم من لا يلتزمه ومن التزمه فقد التزمه بالزام الله اياه فكانه قال تعالى الزمهم كلمة التقوى وفى هذا المعنى رجحان

أى والله لتدخلن الخ وقوله تعالى (ان شاء الله) تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد أو للاشعار بأن بعضهم لا يدخلونه لموت أو غيبة أو غير ذلك أوهى حكاية لما قاله ملك الرؤيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لما قاله عليه الصلاة والسلام لاصحابه (آمنين) حال من فاعل لتدخلن والشرط معترض وكذا قوله تعالى (محلقين رؤسكم ومقصرين) أى محلقا بعضكم ومقصرا آخرون وقيل محلقين حال من ضمير آمنين فتكون متداخلة (لاتخافون) حال مؤكدة من فاعل لتدخلن أو آمنين أو محلقين أو مقصرين أو استئناف أى لاتخافون بعد ذلك (فعلم مالم تعلموا) عطف على صدق والمراد بعلمه تعالى العلم الفعلى المتعلق بأمر حادث بعد المعطوف عليه أى فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة مالم تعلموا من الحكمة الداعية الى تقديم مايشهد بالصدق علما فعليا (فجعل) لاجله (من دون ذلك) أى من دون تحقق مصداق ما اراه من دخول المسجد الحرام الخ (فتحا قريبا) وهو فتح خيبر والمراد بجعله وعده وانجازه من غير تسويف ليستدل به على صدق الرؤيا حسبما قال ولتكون آية للمؤمنين واما جعل مافى قوله تعالى مالم تعلموا عبارة عن الحكمة فى تأخير فتح مكة الى العام القابل كما جنح اليه الجمهور فتأباه الفاء فان علمه تعالى بذلك متقدم على اراءة الرؤيا قطعا ﴿ والسلام ﴾

من حيث ان التقوى وان كان كاملا ولكنه أقرب الى الكلمة وعلى هذا فقوله وكانوا أحق بها وأهلها معناه انهم كانوا عند الله أكرم الناس فازموا اتقواه وذلك لان قوله تعالى ان اكرمكم عند الله أتقاكم يحتمل وجهين (أحدهما) ان يكون معناه ان من يكون تقواه أكثر يكرمه الله أكثر (والثانى) أن يكون معناه ان من سكيون أكرم عند الله واقرب اليه كان اتقى كما فى قوله والمخلصون على خطر عظيم وقوله تعالى وهم من خشية ربهم مشفقون وعلى الوجه الثانى يكون معنى قوله وكانوا أحق بها لانهم كانوا اعلم بالله لقوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقوله وأهلها يحتمل وجهين (أحدهما) انه يفهم من معنى الاحق انه يثبت رجحانا على الكافرين ان لم يثبت الاهلية كما لو اختار الملك اثنين لشغل وكل واحد منهما غير صالح له ولكن أحدهما أبعد عن الاستحقاق فقال فى الاقرب الى الاستحقاق اذا كان ولابد فهذا أحق كما يقال الحبس أهون من القتل مع انه لا هين هناك فقال وأهلها دفعا لذلك (الثانى) وهو اقوى وهو أن يقال قوله تعالى وأهلها فيه وجوه نبينها بعد ما نبين معنى الاحق فنقول هو يحتمل وجهين (أحدهما) ان يكون الاحق بمعنى الحق لا للتفضيل كما فى قوله تعالى خير مقاما وأحسن نديا اذ لا خير فى غيره (والثانى) أن يكون للتفضيل وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون بالنسبة الى غيرهم اى المؤمنون احق من الكافرين (والثانى) أن يكون بالنسبة الى كلمة التقوى من كلمة اخرى غير تقوى تقول زيد احق بالاكرام منه بالاهانة كما اذا سأل شخص عن زيد انه بالطب اعلم أو بالفقه تقول هو بالفقه اعلم أى من الطب ۞ وقوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) بيان لفساد ما قاله المنافقون بعد انزال الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين ووقوفهم عند ما أمروا به من عدم الاقبال على القتال وذلك قولهم مادخلنا المسجد الحرام ولاحلقنا ولاقصرنا حيث كان النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه أن المؤمنين يدخلون مكة ويتمون الحج ولم يعين له وقتا فقص رؤياه على المؤمنين فقطعوا بان الامر كما رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه وظنوا ان الدخول يكون عام الحديبية والله اعلم انه لايكون الا عام الفتح فلما صالحوا ورجعوا قال المنافقون استهزاء مادخلنا ولاحلقنا فقال تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وتعدية صدق الى مفعولين يحتمل أن يكون بنفسه وكونه من الافعال التى تتعدى الى مفعولين ككلمة جعل وخلق ويحتمل أن يقال عدى الى الرؤيا بحرف تقديره صدق الله رسوله فى الرؤيا وعلى الاول معناه جعلها واقعة بين صدق وعده اذ وقع الموعود به وأتى به وعلى الثانى معناه ما أراه الله لم يكذب فيه وعلى هذا فيحتمل ان يكون رأى فى منامه ان الله تعالى يقول ستدخلون المسجد الحرام فيكون قوله صدق ظاهرا لان استعمال الصدق فى الكلام ظاهر ويحتمل أن يكون عليه الصلاة

بتبدل الأعصار وإظهار بطلان ما كان باطلا أو بتسليط المسلمين على أهل سائر الأديان إذ ما من أهل دين إلا وقد قهرهم المسلمون وفيه فضل تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أنه سبحانه سيفتح لهم من البلاد ويتيح لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون إليه فتح مكة (وكفى بالله شهيدا) على أن ما وعده كائن لا محالة أو على نبوته عليه الصلاة والسلام بإظهار المعجزات (محمد) خبر مبتدا محذوف وقوله تعالى (رسول الله) بدل أو بيان أو نعت أي ذلك الرسول المرسل بالهدى ودين الحق محمد رسول الله وقيل محمد مبتدأ رسول الله خبره والجملة مبينة للمشهود به وقوله تعالى (والذين معه) مبتدأ خبره (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وأشداء جمع شديد ورحماء جمع رحيم والمعنى أنهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة

والسلام رأى أنه يدخل المسجد فيكون قوله صدق الله معناه أنه أتى بالحق في المنام ويدل على كونه صادقا يقال صدقني سن بكره مثلا فيما إذا حقق الأمر الذي يريه من نفسه مأخوذ من الإبل إذا قيل له هدع سكن فتحقق كونه من صغار الإبل فإن هدع كلمة يسكن بها صغار الإبل وقوله تعالى بالحق قال الزمخشري هو حال أو قسم أو صفة صدق وعلى كونه حالا تقديره صدقه الرؤيا ملتبسة بالحق وعلى تقدير كونه صفة تقديره صدقه صدقا ملتبسا بالحق وعلى تقدير كونه قسما إما أن يكون قسما بالله فإن الحق من أسمائه وإما أن يكون قسما بالحق الذي هو نقيض الباطل هذا ما قاله ويحتمل أن يقال فيه وجهين آخرين (أحدهما) أن يقال فيه تقديم وتأخير تقديره صدق الله رسوله بالحق الرؤيا أي الرسول الذي هو رسول بالحق وفيه إشارة إلى امتناع الكذب في الرؤيا لأنه لما كان رسولا بالحق فلا يرى في منامه الباطل (والثاني) أن يقال بأن قوله لتدخلن المسجد الحرام إن قلنا بأن الحق قسم فاللام ظاهر وإن لم يقل به فتقديره لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق والله لتدخلن وقوله والله لتدخلن يجاز أن يكون تفسير الرؤيا يعني الرؤيا هي والله لتدخلن وعلى هذا تبين أن قوله صدق الله كان في الكلام لأن الرؤيا كانت كلاما ويحتمل أن يكون تحقيقا لقوله تعالى صدق الله رسوله يعني والله ليقعن الدخول وليظهرن الصدق فلتدخلن ابتداء كلام وقوله تعالى إن شاء الله فيه وجوه (أحدها) أنه ذكره تعليما للعباد الأدب وتأكيدا لقوله تعالى ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله (الثاني) هو أن الدخول لما لم يقع عام الحديبية وكان المؤمنون يريدون الدخول ويأبون الصلح قال لتدخلن ولكن لا بجلادتكم ولا بإرادتكم وإنما تدخلون بمشيئة الله تعالى (الثالث) هو أن الله تعالى لما قال في الوحي المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم لتدخلن ذكر أنه بمشيئة الله تعالى لأن ذلك من الله وعد ليس عليه دين ولا حق واجب ومن وعد بشيء لا يحققه إلا بمشيئة الله تعالى وإلا فلا يلزمه به أحد وإذا كان هذا حال الموعود به في الوحي المنزل صريحا في اليقظة فاظنكم بالوحي بالمنام وهو يحتمل التأويل أكثر مما يحتمله الكلام فإذا تأخر الدخول لم يستهزؤن (الرابع) هو أن ذلك تحقيقا للدخول وذلك لأن أهل مكة قالوا لا تدخلوها إلا بإرادتنا ولا نريد دخولكم في هذه السنة ونختار دخولكم في السنة القابلة والمؤمنون أرادوا الدخول في عامهم ولم يقع فكان لقائل أن يقول بقي الأمر موقوفا على مشيئة أهل مكة إن أرادوا في السنة الآتية يتركوننا ندخلها وإن كرهوا لا ندخلها فقال لا تشترط إرادتهم ومشيئتهم بل تمام الشرط بمشيئة الله وقوله محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون إشارة إلى أنكم تتمون الحج من أوله إلى آخره فقوله لتدخلن إشارة إلى الأول وقوله محلقين إشارة إلى الآخر وفيه مسئلتان (المسئلة الأولى) محلقين حال الداخلين والداخل لا يكون إلا محرما والمحرم لا يكون محلقا فقوله آمنين ينبئ عن الدوام فيه إلى

ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة كقوله تعالى أذلة على

الحق فكأنه قال تدخلونها آمنين متمكنين من أن تتموا الحج محلقين (المسئلة الثانية) قوله تعالى لا تخافون أيضا حال معناه غير خائفين وذلك حصل بقوله تعالى آمنين فما الفائدة في اعادته نقول فيه بيان كمال الأمن وذلك لان بعد الحلق يخرج الانسان عن الاحرام فلا يحرم عليه القتال وكان عند أهل مكة يحرم قتال من أحرم ومن دخل الحرم فقال تدخلون آمنين وتحلقون ويبقى أمنكم بعد خروجكم عن الاحرام وقوله تعالى فعلم مالم تعلموا أي من المصلحة وكون دخولكم في سنتكم سببا لوطء المؤمنين والمؤمنات أو فعلم للتعقيب فعلم وقع عقيب ماذا نقول ان قلنا المراد من فعلم وقت الدخول فهو عقيب صدق وان قلنا المراد فعلم المصلحة فالمعنى علم الوقوع والشهادة لا علم الغيب والتقدير يعني حصلت المصلحة في العام القابل فعلم مالم تعلموا من المصلحة المتجددة فجعل من دون ذلك فتحا قريبا اما صلح الحديبية واما فتح خيبر وقد ذكرناه وقوله تعالى وكان الله بكل شيء عليما يدفع وهم حدوث علمه من قوله فعلم وذلك لان قوله وكان الله بكل شيء عليما يفيد سبق علمه العام لكل علم محدث ❊ ثم قال تعالى (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا) تأكيدا لبيان صدق الله في الرؤيا وذلك لانه لما كان مرسلا لرسوله ليهدي لا يريد مالا يكون مهديا للناس فيظهر خلافه فيقع ذلك سببا للضلال ويحتمل وجوها أقوى من ذلك وهو ان الرؤيا بحيث توافق الواقع تقع لغير الرسل لكن رؤية الاشياء قبل وقوعها في اليقظة لا تقع لكل أحد فقال تعالى هو الذي ارسل رسوله بالهدى وحكى له ماسيكون في اليقظة ولا يبعد من ان يريه في المنام ما يقع فلا استبعاد في صدق رؤياه وفيها أيضا بيان وقوع الفتح ودخول مكة بقوله تعالى ليظهره على الدين كله أي من يقويه على الاديان لا يستبعد منه فتح مكة له والهدى يحتمل أن يكون هو القرآن كما قال تعالى أنزل فيه القرآن هدى للناس وعلى هذا دين الحق هو ما فيه من الاصول والفروع ويحتمل أن يكون الهدى هو المعجزة أي أرسله بالحق أي مع الحق اشارة الى ماشرع ويحتمل أن يكون الهدى هو الاصول ودين الحق هو الاحكام وذلك لان من الرسل من لم يكن له احكام بل بين الاصول فحسب والالف واللام في الهدى يحتمل أن تكون الاستغراق أي كل ما هو هدى ويحتمل أن تكون للعهد وهو قوله تعالى ذلك هدى الله يهدي به من يشاء وهو اما القرآن لقوله تعالى كتابا متشابها مثاني تقشعر الى ان قال ذلك هدى الله يهدي به من يشاء واما ما اتفق عليه كافة الرسل لقوله تعالى أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده والكل من باب واحد لان ما في القرآن موافق لما اتفق عليه الانبياء وقوله تعالى ودين الحق يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون الحق اسم الله تعالى فيكون كأنه قال بالهدى ودين الله (وثانيها) ان يكون الحق نقيض الباطل فيكون كأنه قال ودين الامر الحق (وثالثها) أن يكون المراد به الانقياد الى الحق والتزامه

المؤمنين أعزة على الكافرين وقرئ أشداء ورحماء بالنصب على المدح أو على الحال من المستكن في معه لوقوعه صلة فالخبر حينئذ قوله تعالى (تراهم ركعا سجدا) أي تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين لمواظبتهم على الصلاة وهو على الاول خبر آخر أو استئناف وقوله تعالى (يبتغون فضلا من الله ورضوانا) أي ثوابا ورضا اما خبر آخر أو حال من ضمير تراهم أو من المستتر في ركعا سجدا أو استئناف مبني على سؤال نشأ من بيان مواظبتهم على الركوع والسجود كأنه قيل ماذا يريدون بذلك فقيل يبتغون فضلا من الله الخ (سيماهم) أي سمتهم وقرئ سيماؤهم بالياء بعد الميم والمد وهما لغتان وفيها لغة ثالثة هي السيماء بالمد وهو مبتدأ خبره (في وجوههم) أي في جباههم وقوله تعالى (من أثر السجود) حال من المستكن في الجار أي من التأثير الذي يؤثره كثرة السجود وما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله عليه الصلاة والسلام لا تعلبوا صوركم أي لا تسموها انما هو فيما اذا اعتمد بجبهته على الارض ليحدث فيها تلك السمة وذلك محض رياء ونفاق والكلام فيما حدث في جبهة السجاد الذي لا يسجد الا خالصا لوجه الله عز

وجل وكان الامام زين العابدين وعلي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهما يقال لهما ذوا الثفنات لما أحدثت كثرة سجودهما في مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير قال قائلهم * ديار علي والحسين وجعفر * وحمزة والسجاد ذي الثفنات * وقيل صفرة الوجه من خشية الله تعالى وقيل ندى الطهور وتراب الارض وقيل استنارة وجوههم من طول ما صلوا بالليل قال عليه الصلاة والسلام من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار وقرئ من آثار السجود ومن اثر السجود بكسر الهمزة (ذلك) اشارة الى ما ذكر من نعوتهم الجليلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو شأنه وبعد منزلته في الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (مثلهم) أي وصفهم العجيب الشأن الجاري في الغرابة مجرى الامثال وقوله تعالى (في التوراة) حال من مثلهم والعامل معنى الاشارة وقوله تعالى (ومثلهم في الانجيل) عطف على مثلهم الاول كأنه قيل ذلك مثلهم في التوراة والانجيل وتكرير مثلهم لتأكيد غرابته وزيادة تقريرها وقوله تعالى (كزرع أخرج شطأه) الخ تمثيل مستأنف أي هم كزرع أخرج

ليظهره أي أرسله بالهدى وهو المجز على أحد الوجوه ليظهره على الدين كله أي جنس الدين فينسخ الاديان دون دينه وأكثر المفسرين على ان الهاء في قوله ليظهره راجعة الى الرسول والاظهر انه راجع الى دين الحق أي أرسل الرسول بالدين الحق ليظهره أي ليظهر الدين الحق على كل الاديان وعلى هذا فيحتمل أن يكون الفاعل للاظهار هو الله ويحتمل أن يكون هو النبي أي ليظهر النبي دين الحق وقوله تعالى وكفى بالله شهيدا أي في انه رسول الله وهذا مما يسلي قلب المؤمنين فانهم تأذوا من رد الكفار عليهم العهد المكتوب وقالوا لا نعلم انه رسول الله فلا تكتبوا محمد رسول الله بل اكتبوا محمد بن عبد الله فقال تعالى كفى بالله شهيدا في انه رسول الله وفيه معنى لطيف وهو ان قول الله مع انه كاف في كل شئ لكنه في الرسالة أظهر كفاية لان الرسول لا يكون الا بقول المرسل فاذا قال ملك هذا رسولي لو أنكر كل من في الدنيا انه رسول فلا يفيد انكارهم فقال تعالى أي خلل في رسالته بانكارهم مع تصديقي اياه بانه رسولي وقوله محمد رسول الله فيه وجوه (أحدها) خبر مبتدا محذوف تقديره هو محمد الذي سبق ذكره بقوله أرسل رسوله ورسول الله عطف بيان (وثانيها) ان محمدا مبتدأ خبره رسول الله وهذا تأكيد لما تقدم لانه لما قال هو الذي أرسل رسوله ولا تتوقف رسالته الا على شهادته وقد شهد له بها محمد رسول الله من غير نكير (وثالثها) وهو مستنبط وهو أن يقال محمد مبتدأ ورسول الله عطف بيان سيق للمدح لا للتمييز والذين معه عطف على محمد وقوله أشداء خبره كأنه قال تعالى والذين معه جميعهم أشداء على الكفار رحماء بينهم لان وصف الشدة والرحمة وجد في جميعهم أما في المؤمنين فكما في قوله تعالى أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وأما في حق النبي صلى الله عليه وسلم فكما في قوله واغلظ عليهم وقال في حقه بالمؤمنين رؤف رحيم وعلى هذا فقوله تراهم لا يكون خطابا مع النبي صلى الله عليه وسلم بل يكون عاما أخرج مخرج الخطاب تقديره تراهم أيها السامع كائنا من كان كما قلنا ان الواعظ يقول انتبه قبل ان يقع الانتباه ولا يريد به واحدا بعينه وقوله تعالى يبتغون فضلا من الله ورضوانا لتمييز ركوعهم وسجودهم عن ركوع الكفار وسجودهم وركوع المرائي وسجوده فانه لا يبتغى به ذلك وفيه اشارة الى معنى لطيف وهو ان الله تعالى قال الراكعون والساجدون لوجهه فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وقال الراكع يبتغي الفضل ولم يذكر الاجر لان الله تعالى اذا قال لكم أجر كان ذلك منه تفضلا واشارة الى أن عملكم جاء على ما طلب الله منكم لان الاجرة لا تستحق الا على العمل الموافق للطلب من المالك والمؤمن اذا قال انا ابتغي فضلك يكون منه اعترافا بالتقصير فقال يبتغون فضلا من الله ولم يقل أجرا وقوله تعالى (سيماهم في وجوههم من أثر السجود) فيه وجهان (أحدهما) ان ذلك يوم القيامة كما قال تعالى يوم تبيض وجوه وقال تعالى نورهم يسعى وعلى هذا فنقول نورهم في وجوههم بسبب توجههم نحو الحق كما قال ابراهيم

عليه السلام انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض ومن يحاذى الشمس يقع شعاعها على وجهه فيتبين على وجهه النور منبسطا مع ان الشمس نهانور عارضى يقبل الزوال والله نور السموات والارض فمن يتوجه الى وجهه يظهر فى وجهه نور يبهر الانوار (وثانيهما) ان ذلك فى الدنيا وفيه وجهان (أحدهما) ان المراد ما يظهر فى الجباه بسبب كثرة السجود (والثانى) ما يظهره الله تعالى فى وجوه الساجدين ليلا من الحسن نهارا وهذا محقق لمن يعقل فان رجلين يسهران بالليل أحدهما قد اشتغل بالشراب واللعب والآخر قد اشتغل بالصلاة والقراءة واستفادة العلم فكل أحد فى اليوم الثانى يفرق بين الساهر فى الشرب واللعب وبين الساهر فى الذكر والشكر ☼ وقوله تعالى (ذلك مثلهم فى التوراة) فيه ثلاثة أوجه مذكورة (أحدها) أن يكون ذلك مبتدأ ومثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل خبراله وقوله تعالى كزرع أخرج شطأه خبراله مبتدأ محذوف تقديره ومثلهم فى التوراة والانجيل كزرع (وثانيها) أن يكون خبر ذلك هو قوله مثلهم فى التوراة وقوله ومثلهم فى الانجيل مبتدأ وخبره كزرع (وثالثها) ان يكون ذلك اشارة غير معينة أوضحت بقوله تعالى كزرع كقوله ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين وفيه وجه رابع وهو أن يكون ذلك خبراله مبتدأ محذوف تقديره هذا الظاهر فى وجوههم ذلك يقال ظهر فى وجهه أثر الضرب فنقول اى والله ذلك أى هذا ذلك الظاهر أو الظاهر الذى تقوله ذلك ☼ وقوله تعالى (ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع) أى وصفوا فى الكتابين به ومثلوا بذلك وانما جعلوا كالزرع لانه أول ما يخرج يكون ضعيفا وله نمو الى حد الكمال فكذلك المؤمنون والشطأ الفرخ فآزره ويحتمل أن يكون المراد أخرج الشطأ وآزر الشطأ وهو أقوى وأظهر والكلام يتم عند قوله يعجب الزراع * وقوله تعالى (ليغيظ بهم الكفار) أى تخيلقنه ذلك ليغيظ أو يكون الفعل المعلل هو ☼ قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى وعد ليغيظ بهم الكفار يقال رغما لانفك انعم عليه ☼ وقوله تعالى (منهم مغفرة وأجرا عظيما) لبيان الجنس لا للتبعيض ويحتمل أن يقال هو للتبعيض ومعناه ليغيظ الكفار والذين آمنوا من الكفار لهم الاجر العظيم والمغفرة وقد تقدم مرارا والله تعالى اعلم وههنا لطيفة وهو انه تعالى قال فى حق الراكعين الساجدين انهم يبتغون فضلا من الله وقال لهم أجر ولم يقل لهم ما يطلبونه من ذلك الفضل وذلك لان المؤمن عند العمل لم يلتفت الى عمله ولم يجعل له اجرا يعتد به فقال لا ابتغى الا فضلك فان عملى نزر لا يكون له أجر والله تعالى آتاه ما آتاه من الفضل وسماه أجرا اشارة الى قبول عمله ووقوعه الموقع وعدم كونه عند الله نزرا لا يستحق المؤمن عليه أجرا وقد علم بما ذكرنا مرارا ان قوله وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لبيان ترتب المغفرة على الايمان فان كل مؤمن يغفر له كما قال تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء والاجر العظيم على العمل الصالح

فراخه وقيل هو تفسير الذلك على أنه اشارة مبهمة وقيل خبر لقوله تعالى ومثلهم فى الانجيل على أن الكلام قد تم عند قوله تعالى مثلهم فى التوراة وقرئ شطأه بفتحات وقرئ شطاه بفتح

الطاء وتخفيف الهمزة وشطاءه بالمد وشطه بحذف الهمزة ونقل حركتها الى ما قبلها وشطوه بقلبها واوا (فآزره) فقواه من المؤازرة بمعنى المعاونة أو من الايزار وهى الاعانة وقرئ فأزره بالتخفيف وأزره بالتشديد أى شد أزره وقوله تعالى (فاستغلظ) فصار غليظا بعد ما كان دقيقا (فاستوى على سوقه) فاستقام على قصبه جمع ساق وقرئ سؤقه بالهمزة (يعجب الزراع) بقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره وهو مثل ضربه الله عز وجل لاصحابه عليه الصلاة والسلام قلوا فى بدء الاسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم يوما فيوما بحيث أعجب الناس وقيل مكتوب فى الانجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقوله تعالى (ليغيظ بهم الكفار) علة لما يعرب عنه الكلام من تشبيههم بالزرع فى زكائه واستحكامه أو لما بعده من قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ والله ﴾ منهم مغفرة وأجرا عظيما)

والله أعلم قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة يوم الخميس السابع عشر من شهر ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

(سورة الحجرات ثماني عشرة آية مدنية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميع عليم) في بيان حسن الترتيب وجوه (أحدها) ان في السورة المتقدمة لما جرى منهم ميل الى الامتناع مما أجاز النبي صلى الله عليه وسلم من الصلح وترك آية التسمية والرسالة وألزمهم كلمة التقوى كان رسول الله قال لهم على سبيل العموم لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ولا تتجاوزوا ما يأمر الله تعالى ورسوله (الثاني) هو أن الله تعالى لما بين محل النبي عليه الصلاة والسلام وعلو درجته بكونه رسوله الذي يظهر دينه وذكره أنه رحيم بالمؤمنين بقوله رحماء قال لا تتركوا من احترامه شيئا لا بالفعل ولا بالقول ولا تغتروا برأفته وانظروا الى رفعة درجته (الثالث) هو أن الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم أشداء ورحماء فيما بينهم راكعين ساجدين نظرا الى جانب الله تعالى وذكر ان لهم من الحرمة عند الله ما أورثهم حسن الثناء في الكتب المتقدمة بقوله ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل فان الملك العظيم لا يذكر أحدا في غيبته الا اذا كان عنده محترما ووعدهم بالاجر العظيم فقال في هذه السورة لا تفعلوا ما يوجب انحطاط درجتكم واحباط حسناتكم ولا تقدموا * وقيل في سبب نزول الآية وجوه قيل نزلت في صوم يوم الشك وقيل نزلت في التضحية قبل صلاة العيد وقيل نزلت في ثلاثة قتلوا اثنين من سليم ظنوهما من بني عامر وقيل نزلت في جماعة أكثروا من السؤال وكان قد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفود والاصح انه ارشاد عام يشمل الكل ومنع مطلق يدخل فيه كل اثبات وتقدم واستبداد بالامر واقدام على فعل غير ضروري من غير مشاورة وفي التفسير مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى لا تقدموا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون من التقديم الذي هو متعد وعلى هذا ففيه وجهان (أحدهما) ترك مفعوله برأسه كما في قوله تعالى يحيي ويميت وقول القائل فلان يعطي ويمنع ولا يريد بهما اعطاء شيء معين ولا منع شيء معين وانما يريد بهما ان له منعا واعطاء كذلك ههنا كأنه تعالى يقول لا ينبغي أن يصدر منكم تقديم أصلا (والثاني) أن يكون المفعول الفعل أو الامر كأنه يقول لا تقدموا يعني لا تتقدموا وعلى هذا فهو مجاز ليس المراد هو نفس التقديم بل المراد لا تجعلوا لانفسكم تقدما عند النبي صلى الله عليه وسلم يقال فلان تقدم من بين الناس

فان الكفار اذا سمعوا بما أعد للمؤمنين في الآخرة مع ما لهم في الدنيا من العزة غاظهم ذلك أشد غيظ ومنهم للبيان * عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة

(سورة الحجرات مدنية وآيها ثماني عشرة آية)

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها الذين آمنوا) تصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطبين على أن ما في حيزه أمر خطير يستدعي مزيد اعتنائهم بشأنه وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته ووصفهم بالايمان لتنشيطهم والايذان بأنه داع الى المحافظة عليه ووازع عن الاخلال به (لا تقدموا) أي لا تفعلوا التقديم على أن ترك المفعول للقصد الى نفس الفعل من غير اعتبار تعلقه بأمر من الامور على طريقة قولهم فلان يعطي ويمنع أي يفعل الاعطاء والمنع أو لا تقدموا أمرا من الامور على أن حذف المفعول للقصد الى تعميمه والاول أوفى بحق المقام لافادته النهي عن التلبس بنفس الفعل الموجب لانتفائه بالكلية المستلزم لانتفاء تعلقه بمفعوله بالطريق البرهاني وقد جوز أن يكون التقديم بمعنى

اذا ارتفع أمره وعلا شأنه والسبب فيه ان من ارتفع يكون متقدما فى الدخول فى الامور العظام وفى الذكر عند ذكر الكرام وعلى هذا نقول سواء جعلناه متعديا أو لازما لا يتعدى الى ما يتعدى اليه التقديم فى قولنا قدمت زيدا فالمعنى واحد لان قوله لا تقدموا اذا جعلناه متعديا أو لازما لا يتعدى الى ما يتعدى اليه التقديم فى قولنا قدمت زيدا فتقديره لا تقدموا أنفسكم فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم أى لا تجعلوا لانفسكم تقدما ورأيا عنده ولا نقول بأن المراد لا تقدموا أمرا وفعلا وحينئذ تتحد القراءتان فى المعنى وهما قراءة من قرأ بفتح التاء والدال وقراءة من قرأ بضم التاء وكسر الدال وقوله تعالى بين يدى الله ورسوله أى بحضرتهما لان ما بحضرة الانسان فهو بين يديه وهو ناظر اليه وهو نصب عينيه وفى قوله بين يدى الله ورسوله فوائد (أحدها) ان قول القائل فلان بين يدى فلان اشارة الى كون كل واحد منهما حاضرا عند الآخر مع أن لاحدهما علو الشان وللآخر درجة العبيد والغلمان لان من يجلس بجنب الانسان يكلفه تقليب الحدقة اليه وتحريك الرأس اليه عند الكلام والامر ومن يجلس بين يديه لا يكلفه ذلك ولان اليدين تنبئ عن القدرة يقول القائل هو بين يدى فلان أى يقلبه كيف شاء فى اشغاله كما يفعل الانسان بما يكون موضوعا بين يديه وذلك مما يفيد وجوب الاحتراز من التقدم وتقديم النفس لان من يكون كمتاع يقلبه الانسان بيديه كيف يكون له عنده التقدم (وثانيها) ذكر الله اشارة الى وجوب احترام الرسول عليه الصلاة والسلام والانقياد لاوامره وذلك لان احترام الرسول صلى الله عليه وسلم قد يترك على بعد المرسل وعدم اطلاعه على ما يفعل برسوله فقال بين يدى الله أى أنتم بحضرة من الله تعالى وهو ناظر اليكم وفى مثل هذه الحالة يجب احترام رسوله (وثالثها) هو ان هذه العبارة كما تقرر النهى المتقدم تقرر معنى الامر المتأخر وهو قوله واتقوا لان من يكون بين أيدى الغير كالمتاع الموضوع بين يديه يفعل به ما يشاء يكون جديرا بأن يتقيه وقوله تعالى واتقوا الله يحتمل أن يكون ذلك عطفا يوجب مغايرة مثل المغايرة التى فى قول القائل لا تتم واشتغل أى فائدة ذلك النهى هو ما فى هذا الامر وليس المطلوب به ترك النوم كيف كان بل المطلوب بذلك الاشتغال فكذلك لا تقدموا أنفسكم ولا تتقدموا على وجه التقوى ويحتمل أن يكون بينهما مغايرة أتم من ذلك وهى التى فى قول القائل احترم زيدا واخدمه أى ائت بأتم الاحترام فكذلك ههنا معناه لا تتقدموا عنده واذا تركتم التقدم فلا تتكلوا على ذلك فلا تنتفعوا بل مع انكم قائمون بذلك محترمون له اتقوا الله واخشوه والا لم تكونوا أتيتم بواجب الاحترام وقوله تعالى ان الله سميع عليم يؤكد ما تقدم لانهم قالوا آمنا لان الخطاب يفهم بقوله يا أيها الذين آمنوا فقد يسمع قولهم ويعلم فعلهم وما فى قلوبهم من التقوى والخيانة فلا ينبغى أن يختلف قولكم وفعلكم وضمير قلبكم بل ينبغى أن يتم ما فى سمعه من قولكم آمنا وسمعنا وأطعنا وما فى علمه من فعلكم الظاهر وهو عدم

التقدم ومنه مقدمة الجيش للجماعة المتقدمة ويعضده قراءة من قرأ لا تقدموا بحذف احدى التاءين من تتقدموا وقرئ لا تقدموا من قدم وقوله تعالى (بين يدى الله ورسوله) مستعار مما بين الجهتين المسامتتين ليدى الانسان تهجينا لما نهوا عنه والمعنى لا تقطعوا أمرا قبل أن يحكما به وقيل المراد بين يدى رسول الله وذكر الله تعالى لتعظيمه والايذان بجلالة محله عنده عز وجل قيل نزل فيما جرى بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما لدى النبى صلى الله عليه وسلم فى تأمير الاقرع بن حابس أو القعقاع بن معبد (واتقوا الله) فى كل ما تأتون وما تذرون من الاقوال والافعال التى من جملتها ما نحن فيه (ان الله سميع) لاقوالكم (عليم) بافعالكم فمن حقه أن يتقى ويراقب (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) شروع فى النهى عن التجاوز فى كيفية القول عند النبى عليه الصلاة والسلام بعد النهى عن التجاوز فى نفس القول والفعل واعادة النداء مع قرب العهد به للمبالغة فى الايقاظ والتنبيه والاشعار باستقلال كل من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشانه أى لا تبلغوا باصواتكم ﴿ ...قدم ﴾ وراء حد يبلغه عليه الصلاة والسلام بصوته وقرئ لا ترفعوا باصواتكم على أن الباء زائدة (ولا تجهروا له

بالقول) اذا كلمتموه (كجهر بعضكم لبعض) أى جهرا كائنا كالجهر الجارى فيما بينكم بل اجعلوا صوتكم أخفض من
صوته عليه الصلاة والسلام وتعهدوا فى مخاطبته اللين القريب من الهمس كما هو الدأب عند مخاطبة

التقدم وما فى قلوبكم من الضمائر وهو التقوى * ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) لا تقدموا نهى عن فعل ينبئ عن كونهم جاعلين لانفسهم عند الله ورسوله بالنسبة اليهما وزنا ومقدارا ومدخلا فى أمر من أوامرهما ونواهيهما وقوله لا ترفعوا نهى عن قول ينبئ عن ذلك الامر لان من يرفع صوته عند غيره يجعل لنفسه اعتبارا زائدا وعظمة وفيه مباحث (البحث الاول) ما الفائدة فى اعادة النداء وما هذا النمط من الكلامين على قول القائل يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله لا ترفعوا أصواتكم نقول فى اعادة النداء فوائد خمسة منها أن يكون فى ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد كما فى قول لقمان لابنه يا بنى لا تشرك بالله يا بنى انها ان تك مثقال حبة يا بنى أقم الصلاة لان النداء لتنبيه المنادى ليقبل على استماع الكلام ويجعل باله منه فاعادته تفيد ذلك ومنها أن لا يتوهم متوهم ان المخاطب ثانيا غير المخاطب أولا فان من الجائز أن يقول القائل يا زيد افعل كذا وقل كذا يا عمرو فاذا أعاده مرة أخرى وقال يا زيد قل كذا يعلم من أول الكلام انه هو المخاطب ثانيا أيضا ومنها ان يعلم ان كل واحد من الكلامين مقصود ليس الثانى تأكيدا للاول كما تقول يا زيد لا تنطق ولا تتكلم الا بالحق فانه لا يحسن أن يقال يا زيد لا تنطق يا زيد لا تتكلم كما يحسن عند اختلاف المطلوبين وقوله تعالى لا ترفعوا أصواتكم يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون المراد حقيقته وذلك لان رفع الصوت دليل قلة الاحتشام وترك الاحترام وهذا من مسئلة حكمية وهى ان الصوت بالخارج ومن خشى قلبه ارتجف وتضعف حركته الدافعة فلا يخرج منه الصوت بقوة ومن لم يخف ثبت قلبه وقوى فرفع الهواء دليل عدم الخشية (ثانيها) أن يكون المراد المنع من كثرة الكلام لان من يكثر الكلام يكون متكلما عند سكوت الغير فيكون فى وقت سكوت الغير لصوته ارتفاع وان كان خائفا اذا نظرت الى حال غيره فلا ينبغى أن يكون لاحد عند النبى صلى الله عليه وسلم كلام كثير بالنسبة الى كلام النبى صلى الله عليه وسلم لان النبى عليه الصلاة والسلام مبلغ فالمتكلم عنده ان أراد الاخبار لا يجوز وان استخبر النبى عليه السلام عما وجب عليه البيان فهو لا يسكت عما يسأل وان لم يسأل وربما يكون فى السؤال حقيقة رد جواب لا يسهل على المكلف الاتيان به فيبقى فى ورطة العقاب (ثالثها) أن يكون المراد رفع الكلام بالتعظيم أى لا تجعلوا لكلامكم ارتفاعا على كلام النبى صلى الله عليه وسلم فى الخطاب كما يقول القائل لغيره أمرتك مرارا بكذا عندما يقول له صاحبه مرنى بأمر مثله فيكون أحد الكلامين أعلى وأرفع من الآخر والاول أصح والكل يدخل فى حكم المراد لان المنع من رفع الصوت لا يكون الا لاحترام واظهار الاحتشام ومن بلغ احترامه الى حيث تخفض الاصوات

المهيب المعظم وحافظوا على مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها وقيل معنى لا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض لا تقولوا له يا محمد يا أحمد وخاطبوه بالنبوة قال ابن عباس رضى الله عنهما لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر يا رسول الله والله لا أكلمك الا السرار أو أخا السرار حتى ألقى الله تعالى وعن عمر رضى الله عنه أنه كان يكلمه عليه الصلاة والسلام كأخى السرار لا يسمعه حتى يستفهمه وكان أبو بكر رضى الله عنه اذا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفود أرسل اليهم من يعلمهم كيف يسلمون ويأمرهم بالسكينة والوقار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (أن تحبط أعمالكم) اما علة للنهى أى لا تجهروا خشية أن تحبط أو كراهة أن تحبط كما فى قوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا أو للمنهى أى لا تجهروا لاجل الحبوط فان الجهر حيث كان بصدد الاداء الى الحبوط فكأنه فعل لاجله على طريقة التمثيل كقوله تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا وليس المراد

نهي عنه من الرفع والجهر ما يقارنه الاستخفاف والاستهانة فان ذلك كفر بل ما يتوهم أن يؤدي اليه مما يجري بينهم في أثناء
المحاورة من الرفع والجهر حسبما يعرب عنه قوله تعالى كجهر بعضكم لبعض خلا أن رفع الصوت فوق
صوته عليه الصلاة والسلام لما كان منكرا محضا لم يقيد بشيء ولا ما يقع منهما في حرب أو مجادلة معاند أو ارهاب عدو أو نحو ذلك وعن ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وكان في اذنه وقر وكان جهوري الصوت وربما كان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته وعن أنس رضي الله عنه أنه لما نزلت الآية فقد ثابت وتفقده عليه الصلاة والسلام فأخبر بشأنه فدعاه فسأله فقال يا رسول الله لقد أنزلت اليك هذه الآية واني رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملي قد حبط فقال له عليه الصلاة والسلام لست هناك انك تعيش بخير وتموت بخير وانك من أهل الجنة وأما ما يروى عن الحسن من أنها نزلت في بعض المنافقين الذين كانوا يرفعون أصواتهم فوق صوته عليه الصلاة
والسلام فقد قيل محمله أن نهيهم مندرج تحت نهي المؤمنين بدلالة النص (وأنتم لا تشعرون) حال ﴿ الى ﴾
من فاعل تحبط أي والحال أنكم لا تشعرون بحبوطها وفيه مزيد تحذير مما نهوا عنه وقوله تعالى

عنده من هيبته وعلو مرتبته لا يكثر عنده الكلام ولا يرجع المتكلم معه في الخطاب وقوله تعالى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض فيه فوائد (احداها) ان بالاول حصل المنع من أن يجعل الانسان كلامه أو صوته أعلى من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وصوته ولقائل أن يقول فامنعت من المساواة فقال تعالى ولا تجهروا له كما تجهرون لاقرانكم ونظرائكم بل اجعلوا كلمته عليا (والثانية) ان هذا أفاد انه لا ينبغي أن يتكلم المؤمن عند النبي عليه السلام كما يتكلم العبد عند سيده لان العبد داخل تحت قوله كجهر بعضكم لبعض لانه للعموم فلا ينبغي ان يجهر المؤمن للنبي صلى الله عليه وسلم كما يجهر العبد للسيد والا لكان قد جهر له كما يجهر بعضكم لبعض لا يقال المفهوم من هذا النمط أن لا تجعلوه كما يتفق بينكم بل تميزوه بأن لا تجهروا عنده أبدا وفيما بينكم لا تحافظون على الاحترام لانا نقول ماذكرنا أقرب الى الحقيقة وفيه ماذكرتم من المعنى وزيادة ويؤيد ماذكرنا قوله تعالى النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم والسيد ليس أولى عند عبده من نفسه حتى لو كانا في مخمصة ووجد العبد ما لو لم يأكله لمات لا يجب عليه بذله لسيده ويجب البذل للنبي صلى الله عليه وسلم ولو علم العبد ان بموته ينجو سيده لا يلزمه ان يلقي نفسه في التهلكة لانجاء سيده ويجب لانجاء النبي عليه الصلاة والسلام وقد ذكرنا حقيقته عند تفسير الآية وان الحكمة تقتضي ذلك كما ان العضو الرئيس أولى بالرعاية من غيره لان عند خلل القلب مثلا لا يبقى لليدين والرجلين استقامة فلو حفظ الانسان نفسه وترك النبي عليه الصلاة والسلام لهلك هو أيضا بخلاف العبد والسيد (الفائدة الثالثة) ان قوله تعالى لا ترفعوا أصواتكم لما كان من جنس لا تجهروا لم يستأنف النداء ولما كان هو يخالف التقدم لكون أحدهما فعلا والآخر قولا استأنف كما في قول لقمان يا بني لا تشرك وقوله يا بني أقم الصلاة لكون الاول من عمل القلب والثاني من عمل الجوارح وقوله يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر من غير استئناف النداء لكون الكل من عمل الجوارح واعلم انا ان قلنا المراد من قوله لا ترفعوا أصواتكم أي لا تكثروا الكلام فقوله ولا تجهروا يكون مجازا عن الاتيان بالكلام عند النبي صلى الله عليه وسلم بقدر ما يؤتى به عند غيره أي لا تكثروا وقللوا غاية التقليل وكذلك ان قلنا المراد بالرفع الخطاب فالمراد بقوله لا تجهروا أي لا تخاطبوه كما تخاطبون غيره وقوله تعالى ان تحبط أعمالكم فيه وجهان مشهوران (أحدهما) لئلا تحبط (والثاني) كراهة ان تحبط وقد ذكرنا ذلك في قوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا وامثاله ويحتمل ههنا وجها آخر وهو أن يقال معناه واتقوا الله واجتنبوا أن تحبط أعمالكم والدليل على هذا ان الاضمار لما لم يكن منه بد فما دل عليه الكلام الذي هو فيه أولى ان يضمر والامر بالتقوى قد سبق في قوله تعالى واتقوا وأما المعنى فنقول قوله ان تحبط اشارة الى انكم ان رفعتم أصواتكم وتقدمتم تمكن منكم هذه الرذائل وتؤدي

(ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) الخ ترغيب في الانتهاء عما نهوا عنه بعد الترهيب عن الاخلال به

الى الاستحقار وانه يفضي الى الانفراد والارتداد المحبط وقوله تعالى وأنتم لاتشعرون اشارة الى ان الردة تتمكن من النفس بحيث لايشعر الانسان فان من ارتكب ذنبا لم يرتكبه في عمره تراه نادما غاية الندامة خائفا غاية الخوف فاذا ارتكبه مرارا يقل الخوف والندامة ويصير عادة من حيث لايعلم انه لايتمكن وهذا كان للتمكن في المرة الاولى أو الثانية أو الثالثة أو غيرها وهذا كما ان من بلغه خبر فانه لايقطع بقول المخبر في المرة الاولى فاذا تكرر عليه ذلك وبلغ حد التواتر يحصل له اليقين ويتمكن الاعتقاد ولايدري متى كان ذلك وعند أي خبر حصل هذا اليقين فقوله وأنتم لاتشعرون تأكيد للمنع أي لاتقولوا بأن المرة الواحدة تعفى ولاتوجب ردة لان الامر غير معلوم فاحسموا الباب وفيه بيان آخر وهو ان المكلف اذا لم يحترم النبي صلى الله عليه وسلم ويجعل نفسه مثله فيما يأتي به بناء على أمره يكون كما يأتي به بناء على أمر نفسه لكون ما تأمر به النفس لايوجب الثواب وهو محبط حابط كذلك ما يأتي به بغير أمر النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ حابط محبط والله أعلم وأعلم أن الله تعالى لما أمر المؤمنين باحترام النبي صلى الله عليه وسلم واكرامه وتقديمه على أنفسهم وعلى كل من خلقه الله تعالى أمر نبيه عليه السلام بالرأفة والرحمة وان يكون أرأف بهم من الوالد كما قال واخفض جناحك للمؤمنين وقال تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم وقال ولاتكن كصاحب الحوت الى غير ذلك لئلا تكون خدمته خدمة الجبارين الذين يستعبدون الاحرار بالقهر فيكون انقيادهم لوجه الله ❁ ثم قال تعالى (ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) وفيه الحث على ما أرشدهم اليه من وجهين (أحدهما) ظاهر لكل أحد وذلك في قوله تعالى امتحن الله قلوبهم للتقوى وبيانه هوان من يقدم نفسه ويرفع صوته يريد اكرام نفسه واحترام شخصه فقال تعالى ترك هذا الاحترام يحصل به حقيقة الاحترام وبالاعراض عن هذا الاكرام يكمل الاكرام لان به تتبين تقواكم وان أكرمكم عند الله أتقاكم ومن القبيح ان يدخل الانسان حماما فيختار لنفسه فيه منصبا ويفوت بسببه منصبه عند السلطان ويعظم نفسه في الخلاء والمستراح وبسببه يهون في الجمع العظيم وقوله تعالى امتحن الله قلوبهم للتقوى فيه وجوه (أحدها) امتحنها ليعلم منها التقوى فان من يعظم واحدا من أبناء جنسه لكونه رسول مرسل يكون تعظيمه للمرسل أعظم وخوفه منه أقوى وهذا كما في قوله تعالى ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب أي تعظيم أوامر الله من تقوى الله فكذلك تعظيم رسول الله من تقواه (الثاني) امتحن أي علم وعرف لان الامتحان تعرف الشيء فيجوز استعماله في معناه وعلى هذا فاللام تتعلق بمحذوف تقديره عرف الله قلوبهم صالحة أي كائنة للتقوى كما يقول القائل أنت لكذا أي صالح أو كائن (الثالث) امتحن أي أخلص يقال للذهب ممتحن أي مخلص في النار وهذه الوجوه كلها مذكورة ويحتمل أن يقال معناه امتحنها للتقوى اللام للتعليل وهو يحتمل وجهين

أي يخفضونها مراعاة الادب أو ... مخالفة النهي (أولئك) اشارة الى الموصوف باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه لما مر مرارا من تفخيم شأنه وهو مبتدأ خبره (الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) أي جربها للتقوى ومرنها عليها أو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها فان الامتحان سبب المعرفة واللام صلة لمحذوف أو للفعل باعتبار الاصل أو ضرب قلوبهم بضروب المحن والتكاليف الشاقة لاجل التقوى فانها لاتظهر الا بالاصطبار عليها أو أخلصها للتقوى من امتحن الذهب اذا أذابه وميز ابريزه من خبثه وعن عمر رضي الله عنه اذهب عنها الشهوات (لهم) في الآخرة (مغفرة) عظيمة لذنوبهم (وأجر عظيم) لايقادر قدره والجملة اما خبر آخر لان كالجملة المصدرة باسم الاشارة أو استئناف لبيان جزائهم احمادا لحالهم وتعريضا بسوء حال من ليس مثلهم (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات) أي من خارجها من خلفها أو قدامها.

(أحدهما) أن يكون تعليلا يجري مجرى بيان السبب المتقدم كما يقول القائل جئتك لاكرامك أمس أي صار ذلك السابق سبب المجيء (وثانيهما) أن يكون تعليلا يجري مجرى بيان غاية المقصود المتوقع الذي يكون لاحقا لا سابقا كما يقول القائل جئتك لاداء الواجب فان قلنا بالاول فتحقيقه هو ان الله علم ما في قلوبهم من تقواه وامتحن قلوبهم للتقوى التي كانت فيها ولولا ان قلوبهم كانت مملوءة من التقوى لما أمرهم بتعظيم رسوله وتقديم نبيه على أنفسهم بل كان يقول لهم آمنوا برسولي ولا تؤذوه ولا تكذبوه فان الكافر أول ما يؤمن يؤمن بالاعتراف بكون النبي صلى الله عليه وسلم صادقا وبين من قيل له لا تستهزئ برسول الله ولا تكذبه ولا تؤذيه وبين من قيل له لا ترفع صوتك عنده ولا تجعل لنفسك وزنا بين يديه ولا تجهر بكلامك الصادق بين يديه بون عظيم واعلم ان بقدر تقديمك للنبي عليه الصلاة والسلام على نفسك في الدنيا يكون تقديم النبي عليه الصلاة والسلام اياك في العقبى فانه لا يدخل أحد الجنة ما لم يدخل الله أمته المتقين الجنة وان قلنا بالثاني فتحقيقه هو ان الله تعالى امتحن قلوبهم بمعرفته ومعرفة رسوله بالتقوى أي ليرزقهم الله التقوى التي هي حق التقاة وهي التي لا تخشى مع خشية الله أحدا فترى آمنا من كل مخيف لا يخاف في الدنيا بخسا ولا يخاف في الآخرة نحسا والناظر العاقل اذا علم ان بالخوف من السلطان يأمن جور الغلمان ويجتنب الاراذل يحجو من بأس السلطان فيجعل خوف السلطان جنة فكذلك العالم لو امعن النظر لعلم ان بخشية الله النجاة في الدارين وبالخوف من غيره الهلاك فيهما فيجعل خشية الله جنته التي يحرس بها نفسه في الدنيا والآخرة ۞ ثم قال تعالى (لهم مغفرة وأجر عظيم) وقد ذكرنا ان المغفرة ازالة السيآت التي هي في الدنيا لازمة للنفس والاجر العظيم اشارة الى الحياة التي هي بعد مفارقة الدنيا عن النفس فيزيل الله عنه القبائح البهيمية ويلبسه المحاسن الملكية ۞ ثم قال تعالى (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) بيانا لحال من كان في مقابلة من تقدم فان الاول غض صوته والآخر رفعه وفيه اشارة الى انه ترك الادب الحضور بين يديه وعرض الحاجة عليه واما قول القائل للملك يا فلان من سوء الادب فان قلت كل أحد يقول يا الله مع ان الله أكبر نقول النداء على قسمين (أحدهما) لتنبيه المنادى (وثانيهما) لاظهار حاجة المنادي (مثال الاول) قول القائل لرفيقه أو غلامه يا فلان (ومثال الثاني) قول القائل في الندبة يا أمير المؤمنيناه أو يا زيداه ولقائل ان يقول ان كان زيد بالمشرق لا لتنبيه فانه محال فكيف يناديه وهو ميت فنقول قولنا يا الله لاظهار حاجة الانفس لا لتنبيه المنادي وانما كان في النداء الامران جميعا لان المنادي لا ينادي الا لحاجة في نفسه يعرضها ولا ينادي في الاكثر الا معرضا أو غافلا فحصل في النداء الامران ونداؤهم كان للتنبيه وهو سوء ادب واما قول أحدنا للكبير يا سيدي ويا مولاي فهو جار مجرى الوصف والاخبار (الثاني) النداء من وراء الحجرات فان من ينادي غيره

ومن ابتدائية دالة على أن المناداة نشأت من جهة الوراء وان المنادي داخل الحجرة لوجوب اختلاف المبدا والمنتهى بحسب الجهة بخلاف ما لو قيل ينادونك وراء الحجرات وقرئ الحجرات بفتح الجيم وبسكونها وثلاثتها جمع حجرة وهي القطعة من الارض المحجورة بالحائط ولذلك يقال لحظيرة الابل حجرة وهي فعلة من الحجر بمعنى مفعول كالغرفة والقبضة والمراد بها حجرات أمهات المؤمنين ومناداتهم من ورائها اما بأنهم أتوها حجرة حجرة فنادوه عليه الصلاة والسلام من ورائها أو بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له عليه الصلاة والسلام فناداه بعض من وراء هذه وبعض من وراء تلك فأسند فعل الابعاض الى الكل وقد جوز أن يكونوا قد نادوه من وراء الحجرة التي كان عليه الصلاة والسلام فيها ولكنها جمعت اجلالا له عليه الصلاة والسلام وقيل ان الذي ناداه عيينة بن حصن الفزاري والاقرع ابن حابس وفدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين رجلا من بني تميم وقت الظهيرة وهو راقد فقالا يا محمد اخرج الينا وانما أسند

﴿ ولا ﴾

ولاحائل بينهما لايكلفه المشى والمجئ بل يجيبه من مكانه ويكلمه ولا يطلب المنادى الا التفات المنادى اليه ومن ينادى غيره من وراء الحائل فكأنه يريد منه حضوره كمن ينادى صاحب البستان من خارج البستان (الثالث) قوله الحجرات اشارة الى كون النبي صلى الله عليه وسلم فى خلوته التى لايحسن فى الادب اتيان المحتاج اليه فى حاجته فى ذلك الوقت بل الاحسن التأخير وان كان فى ورطة الحاجة وقوله تعالى أكثرهم لايعقلون فيه بيان المعايب بقدر ما فى سوء أدبهم من القبائح وذلك لان الكلام من خواص الانسان وهو أعلى مرتبة من غيره وليس لمن دونه كلام لكن النداء فى المعنى كالتنبيه وقد يحصل بصوت بضرب شئ على شئ وفى الحيوانات العجم ما يظهر لكل أحد كالنداء فان الشاة تصيح وتطلب ولدها وكذلك غيرها من الحيوانات والسخلة كذلك فكان النداء حصل فى المعنى لغير الآدمى فقال الله تعالى فى حقهم أكثرهم لايعقلون يعنى النداء الصادر منهم لما لم يكن مقرونا بحسن الادب كانوا فيه خارجين عن درجة من يعقل وكان نداؤهم كصياح صدر من بعض الحيوان وقوله تعالى أكثرهم فيه وجهان (أحدهما) ان العرب تذكر الاكثر وتريد الكل وانما تأتى بالاكثر احترازا عن الكذب واحتياطا فى الكلام لان الكذب مما يحبط به عمل الانسان فى بعض الاشياء فيقول الاكثر وفى اعتقاده الكل ثم ان الله تعالى مع احاطة علمه بالامور أتى بما يناسب كلامهم وفيه اشارة الى لطيفة وهى ان الله تعالى يقول انا مع احاطة علمى بكل شئ جريت على عادتكم استحسانا لتلك العادة وهى الاحتراز عن الكذب فلا تتركوها واجعلوا اختيارى ذلك فى كلامى دليلا قاطعا على رضائى بذلك (وثانيهما) ان يكون المراد انهم فى أكثر أحوالهم لايعقلون وتحقيق هذا هو ان الانسان اذا اعتبر مع وصف ثم اعتبر مع وصف آخر يكون المجموع الاول غير المجموع الثانى مثاله الانسان يكون جاهلا وفقيرا فيصير عالما وغنيا فيقال فى العرف زيد ليس هو الذى رأيته من قبل بل الآن على أحسن حال فيجعله كأنه ليس ذلك اشارة الى ما ذكرنا اذا علم هذا فهم فى بعض الاحوال اذا اعتبرتهم مع تلك الحالة مغايرون لانفسهم اذا اعتبرتهم مع غيرها فقال تعالى أكثرهم اشارة الى ما ذكرناه وفيه وجه ثالث وهو أن يقال لعل منهم من رجع عن تلك الاهواء ومنهم من استمر على تلك العادة الرديئة فقال أكثرهم اخراجا لمن ندم منهم عنهم ❊ ثم قال تعالى (ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم) اشارة الى حسن الادب الذى على خلاف ما أتوا به من سوء الادب فانهم لو صبروا لما احتاجوا الا الى النداء واذا كنت تخرج اليهم فلا يصح اتيانهم فى وقت اختلائك بنفسك أو بأهلك أو بربك فان للنفس حقا وللاهل حقا وقوله تعالى لكان خيرا لهم يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد ان ذلك هو الحسن والخير كقوله تعالى خير مستقرا (وثانيهما) ان يكون المراد هو ان بالنداء وعدم الصبر يستفيدون تنجيز الشغل ودفع الحاجة فى الحال وهو مطلوب ولكن المحافظة على حرمة النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه خير من ذلك لانها

النداء الى الكل لانهم رضوا بذلك أوامر وابه أولانه وجد فيما بينهم (أكثرهم لايعقلون) اذ لو كان لهم عقل لما تجاسروا على هذه المرتبة من سوء الادب (ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم) أى ولو تحقق صبرهم وانتظارهم حتى تخرج اليهم فان أن وان دلت بما فى حيزها على المصدر لكنها تفيد بنفسها التحقق والثبوت للفرق البين بين قولك بلغنى قيامك وبلغنى أنك قائم وحتى تفيد أن الصبر ينبغى أن يكون مغيا بخروجه عليه الصلاة والسلام فانها مختصة بما هو غاية للشئ فى نفسه ولذلك تقول أكلت السمكة حتى رأسها ولا تقول حتى نصفها أو ثلثها بخلاف الى فانها عامة وفى اليهم اشعار بأنه لو خرج لا لاجلهم ينبغى أن يصبروا حتى يفاتحهم بالكلام أو يتوجه اليهم (لكان) أى الصبر المذكور (خيرا لهم) من الاستعجال لما فيه من رعاية حسن الادب وتعظيم الرسول الموجبين للثناء والثواب والاسعاف بالمسؤل اذ روى أنهم وفدوا شافعين فى أسارى بنى العنبر فأطلق النصف وفادى النصف (والله غفور رحيم)

تدفع الحاجة الاصلية التي في الآخرة وحاجات الدنيا فضلية والمرفوع الذي يقتضيه كلمة كان اما الصبر وتقديره او أنهم صبروا لكان الصبر خيرا أو الخروج من غير نداء وتقديره او صبروا حتى تخرج اليهم لكان خروجك من غير نداء خيرا لهم وذلك مناسب للحكاية لانهم طلبوا خروجه عليه الصلاة والسلام ليأخذوا ذراريهم فخرج واعتق نصفهم واخذوا نصفهم ولو صبروا لكان يعتق كلهم والاول أصح ❊ ثم قال تعالى (والله غفور رحيم) تحقيقا لامرين (أحدهما) لسوء صنيعهم في التعجيل فان الانسان اذا أتى بقبيح ولا يعاقبه الملك أو السيد يقال ما أحلم سيده لا لبيان حلمه بل لبيان عظيم جناية العبد (وثانيهما) لحسن الصبر يعني بسبب اتيانهم بما هو خير يغفر الله لهم سيآتهم ويجعل هذه الحسنة كفارة لكثير من السيآت كما يقال للآبق اذا رجع الى باب سيده أحسنت في رجوعك وسيدك رحيم أي لا يعاقبك على ما تقدم من ذنبك بسبب ما أتيت به من الحسنة ويمكن أن يقال بان ذلك حث للنبي صلى الله عليه وسلم على الصفح وقوله تعالى أكثرهم لا يعقلون كالعذر لهم وقد ذكرنا ان الله تعالى ذكر في بعض المواضع الغفران قبل الرحمة كما في هذه السورة وذكر الرحمة قبل المغفرة في سورة سبأ في قوله وهو الرحيم الغفور حيث قال غفور رحيم أي يغفر سيآته ثم ينظر اليه فيراه عاريا محتاجا فيرحمه ويلبسه لباس الكرامة وقد يراه مغمورا في السيآت فيغفر سيآته ثم يرحمه بعد المغفرة فتارة تقع الاشارة الى الرحمة التي بعد المغفرة فيقدم المغفرة وتارة تقع الرحمة قبل المغفرة فيؤخرها ولما كانت الرحمة واسعة توجد قبل المغفرة وبعدها ذكرها قبلها وبعدها ❊ ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) هذه السورة فيها ارشاد المؤمنين الى مكارم الاخلاق وهي اما مع الله تعالى أو مع الرسول صلى الله عليه وسلم أو مع غيرهما من ابناء الجنس وهم على صنفين لانهم اما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة أو خارجا عنها وهو الفاسق والداخل في طائفتهم السالك لطريقتهم اما أن يكون حاضرا عندهم أو غائبا عنهم فهذه خمسة أقسام (أحدها) يتعلق بجانب الله (وثانيها) بجانب الرسول (وثالثها) بجانب الفساق (ورابعها) بالمؤمن الحاضر (وخامسها) بالمؤمن الغائب فذكر الله تعالى في هذه السورة خمس مرات يا أيها الذين آمنوا وأرشد في كل مرة الى مكرمة مع قسم من الاقسام الخمسة فقال أولا يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله لانها لا تعلم الا بقول رسول الله وقال ثانيا يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي لبيان وجوب احترام النبي صلى الله عليه وسلم وقال ثالثا يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم فانهم يريدون القاء الفتنة بينكم وبين ذلك عند تفسير قوله وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا وقال رابعا يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم وقال ولا تنابزوا والبيان وجوب ترك ايذاء المؤمنين في حضورهم

يبيع المغفرة والرحمة واسعهما فلن يضيق ساحتهما عن هؤلاء ان تابوا وأصلحوا (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) أي فتعرفوا وتفحصوا روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث الوليد بن عقبة أخا عثمان رضي الله عنه لامه مصدقا الى بني المصطلق وكان بينه وبينهم احنة فلما سمعوا به استقبلوه فحسب أنهم مقاتلوه فرجع وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة فهم عليه الصلاة والسلام بقتالهم فنزلت وقيل بعث اليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متهجدين فسلموا اليه الصدقات فرجع وفي ترتيب الامر بالتبين على فسق المخبر اشارة الى قبول خبر الواحد العدل في بعض المواد وقرئ فتثبتوا أي توقفوا الى أن يتبين لكم الحال (ان تصيبوا) حذار أن تصيبوا (قوما بجهالة) ملتبسين بجهالة حالهم (فتصبحوا) بعد ظهور براءتهم عما أسند اليهم (على ما فعلتم) في حقهم (نادمين) مغتمين غما لازما متمنين أنه لم يقع فان تركيب هذه الاحرف الثلاثة يدور مع الدوام ❊ والازدراء ❊ (واعلموا أن فيكم رسول الله)

والازدراء بحالهم ومنصبهم وقال خامسا يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم وقال ولا تجسسوا وقال ولا يغتب بعضكم بعضا لبيان وجوب الاحتراز عن اهانة جانب المؤمن حال غيبته وذكر مالو كان حاضرا لتأذى وهو في غاية الحسن من الترتيب فان قيل لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة الابتداء بالله ورسوله ثم بالمؤمن الحاضر ثم بالمؤمن الغائب ثم بالفاسق نقول قدم الله ما هو الاهم على ما دونه فذكر جانب الله ثم ذكر جانب الرسول ثم ذكر ما يفضي الى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الاصغاء الى كلام الفاسق والاعتماد عليه فانه يذكر كل ما كان أشد نفارا للصدور وأما المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤذى المؤمن الى حد يفضي الى القتال الا ترى ان الله تعالى ذكر عقيب نبأ الفاسق آية الاقتتال فقال وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا وفي التفسير مسائل (المسئلة الاولى) في سبب نزول هذه الآية هو ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة وهو أخو عثمان لامه الى بني المصطلق واليا ومصدقا فالتقوه فظنهم مقاتلين فرجع الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال انهم امتنعوا ومنعوا فهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالايقاع بهم فنزلت هذه الآية وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بانهم لم يفعلوا من ذلك شيئا وهذا جيد ان قالوا بان الآية نزلت في ذلك الوقت واما ان قالوا بأنها نزلت لذلك مقتصرا عليه ومتعديا الى غيره فلا بل نقول هو نزل عاما لبيان التثبت وترك الاعتماد على قول الفاسق ويدل على ضعف قول من يقول انها نزلت لكذا ان الله تعالى لم يقل اني أنزلتها لكذا والنبي صلى الله عليه وسلم لم ينقل عنه انه بين ان الآية وردت لبيان ذلك فحسب غاية ما في الباب انها نزلت في ذلك الوقت وهو مثل التاريخ لنزول الآية ونحن نصدق ذلك ويتأكد ما ذكرنا ان اطلاق لفظ الفاسق على الوليد شيء بعيد لانه توهم وظن فأخطأ والمخطئ لا يسمى فاسقا كيف والفاسق في أكثر المواضع المراد به من خرج عن ربقة الايمان لقوله تعالى ان الله لا يهدي القوم الفاسقين وقوله تعالى ففسق عن أمر ربه وقوله تعالى وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها الى غير ذلك (المسئلة الثانية) قوله تعالى ان جاءكم فاسق بنبأ اشارة الى لطيفة وهي ان المؤمن كان موصوفا بانه شديد على الكافر غليظ عليه فلا يتمكن الفاسق من أن يخبره بنبأ فان تمكن منه يكون نادرا فقال ان جاءكم بحرف الشرط الذي لا يذكر الا مع التوقع اذ لا يحسن أن يقال ان احمر البسر وان طلعت الشمس (المسئلة الثالثة) النكرة في معرض الشرط تعم اذا كانت في جانب الثبوت كما انها تعم في الاخبار اذا كانت في جانب النفي وتخص في معرض الشرط اذا كانت في جانب النفي كما تخص في الاخبار اذا كانت في جانب الثبوت فلنذكر بيانه بالمثال ودليله اما بيانه بالمثال فنقول اذا قال قائل لعبده ان كلمت رجلا فأنت حر فيكون كأنه قال لا اكلم رجلا حتى يعتق بتكلم كل رجل واذا قال ان لم أكلم اليوم رجلا فأنت حر يكون كأنه قال لأكلمن اليوم رجلا حتى لا يعتق العبد بترك كلام كل رجل كما لا يظهر الحالف

أن بما في حيزها ساد مسد مفعولي اعلموا باعتبار مابعده من قوله تعالى (لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم) فانه حال من أحد الضميرين في فيكم والمعنى أن فيكم رسول الله كائنا على حالة يجب عليكم تغييرها أو كائنين على حالة الخ وهي انكم تريدون أن يتبع عليه الصلاة والسلام رأيكم في كثير من الحوادث ولو فعل ذلك اوقعتم في الجهد والهلاك وفيه ايذان بأن بعضهم زينوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم الايقاع ببني المصطلق تصديقا لقول الوليد وأنه عليه الصلاة والسلام لم يطع رأيهم وأما صيغة المضارع فقد قيل انها للدلالة على ان امتناع عنتهم لامتناع استمرار طاعته عليه الصلاة والسلام لهم لان عنتهم انما يلزم من استمرار الطاعة فيما يعن لهم من الامور اذ فيه اختلال أمر الايالة وانقلاب الرئيس مرؤسا لا من اطاعته في بعض ما يرونه نادرا بل فيها استمالتهم بلا معرة وقيل انها للدلالة على أن امتناع عنتهم لاستمرار امتناع طاعته عليه الصلاة والسلام لهم في ذلك فان المضارع المنفي قد يدل على استمرار

النفي بحسب المقام كما في نظائر قوله تعالى ولا هم يحزنون والتحقيق أن الاستمرار الذي تفيده صيغة المضارع يعتبر تارة بالنسبة الى ما يتعلق بالفعل من الامور الزمانية المتجددة وذلك بأن يعتبر الاستمرار في نفس الفعل على الابهام ثم يعتبر تعلق ما يتعلق به بيانا لما فيه الاستمرار وأخرى بالنسبة الى ما يتعلق به من نفس الزمان المتجدد وذلك اذا اعتبر تعلقه بما يتعلق به أولا ثم اعتبر استمراره فيتعين أن يكون ذلك بحسب الزمان فان أريد باستمرار الطاعة استمرارها وتجددها بحسب تجدد مواقعها الكثيرة التي يفصح عنها قوله تعالى في كثير من الامر فالحق هو الاول ضرورة أن مدار امتناع العنت هو امتناع ذلك الاستمرار سواء كان ذلك الامتناع بعدم وقوع الطاعة في أمر ما من تلك الامور الكثيرة أصلا أو بعدم وقوعها في كلها مع وقوعها في بعض يسير منها حتى لو لم يمتنع ذلك الاستمرار بأحد الوجهين المذكورين بل وقعت الطاعة فيما ذكر من كثير من الامر في وقت من الاوقات وقع العنت قطعا وان أريد به ﴿ المريض ﴾ استمرار الطاعة الواقعة

في كلامه بكلام كل رجل اذا ترك الكلام مع رجل واحد وأما الدليل فلان النظر أولا الى جانب الاثبات الا ترى انه من غير حرف لما ان الوضع للاثبات والنفي بحرف فقول القائل زيد قائم وضع أولا ولم يحتج الى ان يقال مع ذلك حرف يدل على ثبوت القيام لزيد وفي جانب النفي احتجنا الى ان نقول زيد ليس بقائم ولو كان الوضع والتركيب أولا للنفي لما احتجنا الى الحرف الزائد اقتصارا أو اختصارا واذا كان كذلك فقول القائل رأيت رجلا يكفي فيه ما يصحح القول وهو رؤية واحد فاذا قلت ما رأيت رجلا وهو وضع لمقابلة قوله رأيت رجلا وركب لتلك المقابلة والمتقابلان ينبغي ان لا يصدقا فقول القائل ما رأيت رجلا لو كفي فيه انتفاء الرؤية عن غير واحد لصح قولنا رأيت رجلا وما رأيت رجلا فلا يكونان متقابلين فيلزمنا من الاصطلاح الاول الاصطلاح الثاني ولزم منه العموم في جانب النفي اذا علم هذا فقول الشرطية وضعت أولا ثم ركبت بعد الجزمية بدليل زيادة الحرف وهو في مقابلة الجزمية وكان قول القائل اذا لم تكن أنت حرا ما كلمت رجلا رجع الى معنى النفي وكما علم عموم القول في الفاسق علم عمومه في النبأ فمعناه أي فاسق جاءكم بأي نبأ فالتثبت فيه واجب (المسألة الرابعة) متمسك أصحابنا في ان خبر الواحد حجة وشهادة الفاسق لا تقبل أما في المسألة الاولى فقالوا علل الامر بالتوقف بكونه فاسقا ولو كان خبر الواحد العدل لا يقبل لما كان للترتيب على الفاسق فائدة وهو من باب التمسك بالمفهوم وأما في الثانية فلوجهين (أحدهما) أمر بالتبين فلو قبل قوله لما كان الحاكم مأمورا بالتبين فلم يكن قول الفاسق مقبولا ثم ان الله تعالى أمر بالتبين في الخبر والنبأ وباب الشهادة أضيق من باب الخبر (والثاني) هو انه تعالى قال ان تصيبوا قوما بجهالة والجهل فوق الخطا لان المجتهد اذا أخطأ لا يسمى جاهلا والذي يبني الحكم على قول الفاسق ان لم يصب جهل فلا يكون البناء على قوله جائزا (المسألة الخامسة) ان تصيبوا ذكرنا فيها وجهين (أحدهما) مذهب الكوفيين وهو ان المراد لئلا تصيبوا (وثانيهما) مذهب البصريين وهو ان المراد كراهة ان تصيبوا ويحتمل أن يقال المراد فتبينوا واتقوا وقوله تعالى أن تصيبوا قوما بين ما ذكرنا ان يقول الفاسق تظهر الفتن بين أقوام ولا كذلك بالالفاظ المؤذية في الوجه والغيبة الصادرة من المؤمنين لان المؤمن يمنعه دينه من الافحاش والمبالغة في الايحاش وقوله بجهالة في تقدير حال أي ان تصيبوهم جاهلين وفيه لطيفة وهي ان الاصابة تستعمل في السيئة والحسنة كما في قوله تعالى ما أصابك من حسنة فمن الله لكن الاكثر انها تستعمل فيما يسوء لكن الظن السوء يذكر معه كما في قوله تعالى وان تصبهم سيئة ثم حقق ذلك بقوله فتصبحوا على ما فعلتم نادمين بيانا لان الجاهل لا بد من أن يكون على فعله نادما وقوله فتصبحوا معناه تصيروا قال النحاة أصبح يستعمل على ثلاثة أوجه (أحدها) بمعنى دخول الرجل في الصباح كما يقول القائل أصبحنا نقضي عليه (وثانيها) بمعنى كان الامر وقت الصباح كذا وكذا كما يقال أصبح اليوم مريضنا خيرا مما كان غير انه تغير ضحوة النهار ويريد كونه في الصبح على حالة كأنه يقول كان

المرء من وقت الصبح خيرا وتغير ضحوة النهار (وثالثها) بمعنى صار تقول القائل اصبح زيد غنياء يريد به صار من غير ارادة وقت دون وقت والمراد ههنا هو المعنى الثالث وكذلك أمسى واضحى ولكن لهذا تحقيق وهو ان نقول لابد في اختلاف الالفاظ من اختلاف المعاني واختلاف الفوائد فنقول الصيرورة قد تكون من ابتداء أمر وتدوم وقد تكون في آخر الامر بمعنى آل الامر اليه وقد تكون متوسطة (مثال الاول) قول القائل صار الطفل فاهما أي أخذ فيه وهو في الزيادة (مثال الثاني) قول القائل صار الحق بينا واجبا أي انتهى حده وأخذ حقه (مثال الثالث) قول القائل صار زيد عالما وقويا اذا لم يرد أخذه فيه ولا بلوغه نهايته بل كونه متلبسا به متصفا به اذا علمت هذا فاصل استعمال أصبح فيما يصير الشي آخذا في وصف ومبتدأ في أمر وأصل امسى فيما يصير الشي بالغا في الوصف نهايته وأصل اضحى التوسط لا يقال أهل الاستعمال لا يفرقون بين الامور ويستعملون الالفاظ الثلاثة بمعنى واحد نقول اذا تقاربت المعاني جاز الاستعمال وجواز الاستعمال لا ينافي الاصل وكثير من الالفاظ أصله مضى واستعمل استعمالا شائعا فيما لا يشاركه اذا علم هذا فنقول قوله تعالى فتصبحوا أي فتصيروا آخذين في الندم متلبسين به ثم تستديمونه وكذلك في قوله تعالى فأصبحتم بنعمته اخوانا أي أخذتم في الاخوة وأنتم فيها زائدون ومستمرون وفي الجملة اختار في القرآن هذه اللفظة لان الامر المقرون بهذه اللفظة اما في الثواب أو في العقاب وكلاهما في الزيادة ولا نهاية للامور الالهية وقوله تعالى نادمين الندم هم دائم والنون والدال والميم في تقاليبها لا تنفك عن معنى الدوام كما في قول القائل أدمن في الشرب ومدمن أي أقام ومنه المدينة وقوله تعالى فتصبحوا على ما فعلتم نادمين فيه فائدتان (احداهما) تقرير التحذير وتأكيده ووجهه هو انه تعالى لما قال ان تصيبوا قوما بجهالة قال بعده وليس ذلك مما لا يلتفت اليه ولا يجوز للعاقل ان يقول هب اني أصبت قوما فماذا علي بل عليكم منه الهم الدائم والحزن المقيم ومثل هذا الشي واجب الاحتراز منه (والثانية) مدح المؤمنين أي لستم ممن اذا فعلوا سيئة لا يلتفتون اليها بل تصبحون نادمين عليها * ثم قال تعالى (واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان) ولنذكر في تفسير هذه الآية ما قيل وما يجوز ان يقال اما ما قيل فلنختر أحسنه وهو ما اختاره الزمخشري فانه بحث في تفسير هذه الآية بحثا طويلا فقال قوله تعالى لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم ليس كلاما مستأنفا لادائه الى تنافر النظم اذ لا تبقى مناسبة بين قوله واعلموا وبين قوله لو يطيعكم ثم وجه التعلق هو ان قوله لو يطيعكم في تقدير حال من الضمير المرفوع في قوله فيكم كأن التقدير كائن فيكم أو موجود فيكم على حال تريدون أن يطيعكم أو يفعل باستصوابكم ولا ينبغي أن يكون على تلك الحال لانه لو فعل ذلك لعنتم أو وقعتم في شدة أو أوثمتم به ثم قال تعالى ولكن الله حبب اليكم الايمان

امتناع استمرار الطاعة المذكورة ضرورة أنه موجب لوقوع العنت بل هو الاستمرار الزماني لامتناع تلك الطاعة الواقعة في تلك الامور الكثيرة بأحد الوجهين المذكورين حتى لو لم يستمر امتناعهما بان وقعت تلك الطاعة في وقت من الاوقات وقع العنت حتما واعلم أن الاحق بالاختيار والاولى بالاعتبار هو الوجه الاول لانه أوفق بالقياس المقتضي لاعتبار الامتناع واردا على الاستمرار حسب ورود كلمة لو المفيدة للاول على صيغة المضارع المفيدة للثاني على أن اعتبار الاستمرار واردا على النفي على خلاف القياس بمعونة المقام انما يصار اليه اذا تعذر الجريان على موجب القياس أو لم يكن فيه مزيد مزية كما في مثل قوله تعالى ولا هم يحزنون حيث حمل على استمرار نفي الحزن عنهم اذ ليس

خطابا مع بعض من المؤمنين غير المخاطبين بقوله لو يطيعكم قال الزمخشري اكتفى بالتغاير فى الصفة واختصر ولم يقل حبب الى بعضكم الايمان وقال أيضا بان قوله تعالى لو يطيعكم دون اطاعكم يدل على انهم كانوا يريدون استمرار تلك الحالة ودوام النبي صلى الله عليه وسلم على العمل باستصوابهم ولكن يكون مابعدها على خلاف ماقبلها وههنا كذلك وان لم تحصل المخالفة بصريح اللفظ لان اختلاف المخاطبين فى الوصف يدلنا على ذلك لان المخاطبين أولا بقوله لو يطيعكم هم الذين أرادوا أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم يعمل بمرادهم والمخاطبين بقوله حبب اليكم الايمان هم الذين أرادوا عملهم بمراد النبي صلى الله عليه وسلم هذا ماقاله الزمخشري واختاره وهو حسن والذى يجوز أن يقال وكأنه هو الاقوى أن الله تعالى لما قال ان جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أى فتثبتوا واكشفوا قال بعده واعلموا ان فيكم رسول الله أى الكشف سهل عليكم بالرجوع الى النبي صلى الله عليه وسلم فانه فيكم مبين مرشد وهذا كما يقول القائل عند اختلاف تلاميذ شيخ فى مسئلة هذا الشيخ قاعد لا يريد به بيان قعوده وانما يريد أمرهم بالمراجعة اليه وذلك لان المراد منه انه لا يطيعكم فى كثير من الامر وذلك لان الشيخ فيما ذكرنا من المثال لو كان يعتمد على قول التلاميذ لا تطمئن قلوبهم بالرجوع اليه اما اذا كان لا يذكر الا من النقل الصحيح ويقرره بالدليل القوى يراجعه كل أحد فكذلك ههنا قال استرشدوه فانه يعلم ولا يطيع أحدا فلا يوجد فيه حيف ولا يروج عليه زيف والذى يدل على ان المراد من قوله لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم بيان انه لا يطيعكم هو ان الجملة الشرطية فى كثير من المواضع ترد لبيان امتناع الشرط لامتناع الجزاء كما فى قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقوله تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فانه لبيان انه ليس فيهما آلهة وانه ليس من عند غير الله ثم قال تعالى ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم اشارة الى جواب سؤال يرد على قوله فتبينوا وهو ان يقول واحد أن يقول انه لا حاجة الى المراجعة وعقولنا كافية بها أدركنا الايمان وتركنا العصيان فكذلك نجتهد فى أمورنا فقال ليس ادراك الايمان بالاجتهاد بل الله بين البرهان وزين الايمان حتى حصل اليقين وبعد حصول اليقين لا يجوز التوقف والله انما أمركم بالتوقف عند تقليد قول الفاسق وما أمركم بالعناد بعد ظهور البرهان فكأنه تعالى قال توقفوا فيما يكون مشكوكا فيه لكن الايمان حببه اليكم بالبرهان فلا تتوقفوا فى قبوله وعلى قولنا المخاطب بقوله حبب اليكم هو المخاطب بقوله لو يطيعكم اذا علمت معنى الآية جملة فاسمعه مفصلا ونفصله فى مسائل (المسئلة الاولى) لو قال قائل اذا كان المراد بقوله واعلموا أن فيكم رسول الله الرجوع اليه والاعتماد على قوله فلم لم يقل بصريح اللفظ فتبينوا وراجعوا النبي صلى الله عليه وسلم وما الفائدة فى العدول الى هذا المجاز نقول الفائدة زيادة التأكيد وذلك لان قول القائل فيما ذكرنا من المثال هذا الشيخ قاعد آكد فى وجوب المراجعة اليه من قوله

فى نفى استمرار الحزن من يد فائدة وأما اذا انتظم الكلام مع مراعاة موجب القياس حق الانتظام فالعدول عنه تمحل لا يخفى وقوله تعالى (ولكن الله حبب اليكم الايمان) الخ تجريد للخطاب وتوجيه له الى بعضهم بطريق الاستدراك بيانا لبراءتهم عن أوصاف الاولين واحماد الافعالهم أى ولكنه تعالى جعل الايمان محبوبا لديكم (وزينه فى قلوبكم) حتى رسخ حبه فيها ولذلك أتيتم بما يليق به من الاقوال والافعال (وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان) ولذلك اجتنبتم عما يليق بها مما لا خير فيه من آثارها وأحكامها ولما كان فى التحبيب والتكريه معنى انهاء المحبة والكراهة وايصالهما اليهم استعملا بكلمة الى وقيل هو استدراك ببيان عذر الاولين كأنه قيل لم يكن ما صدر عنكم فى حق بنى المصطلق من خلل فى عقيدتكم بل من فرط حبكم للايمان وكراهتكم للكفر والفسوق والعصيان والاول هو الاظهر لقوله تعالى

راجعوا شيخكم وذلك لان القائل يجعل وجوب المراجعة اليه متفقا عليه و يجعل سبب عدم الرجوع عدم علمهم بقعوده فكأنه يقول انكم لاتشكون فى أن الكاشف هو الشيخ وأن الواجب مراجعته فان كنتم لاتعلمون قعوده فهو قاعد فيجعل حسن المراجعة أظهر من أمر القعود كانه يقول خفى عليكم قعوده فتركتم مراجعته ولايخفى عليكم حسن مراجعته فيجعل حسن المراجعة أظهر من الامر الحسى بخلاف مالوقال راجعوه لانه حينئذ يكون قائلا بانكم ماعلمتم ان مراجعته هو الطريق و بين الكلامين بون بعيد فكذلك قوله تعالى واعلموا أن فيكم رسول الله يعنى لايخفى عليكم وجوب مراجعته فان كان خفى عليكم كونه فيكم فاعلموا أنه فيكم فيجعل حسن المراجعة أظهر من كونه فيهم حيث ترك بيانه وأخذ فى بيان كونه فيهم وهذا من المعانى العزيزة التى توجد فى المجازات ولاتوجد فى الصرائح (المسئلة الثانية) اذا كان المراد من قوله لو يطيعكم بيان كونه غير مطيع لاحد بل هو متبع للوحى فلم يصرح به نقول بيان نفى الشئ مع بيان دليل النفى أتم من بيانه من غير دليل والجملة الشرطية بيان النفى مع بيان دليله فان قوله ليس فيهما آلهة لو قال قائل لم قلت انه ليس فيهما آلهة يجب أن يذكر الدليل فقال لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فكذلك ههنا لو قال لايطيعكم وقال قائل لم لايطيع لوجب أن يقال لو أطاعكم لاطاعكم لاجل مصلحتكم لكن لامصلحة لكم فيه لانكم تعنتون وتأثمون وهو يشق عليه عنتكم كما قال تعالى عزيز عليه ماعنتم فان طاعتكم لاتفيده شيئا فلا يطيعكم فهذا نفى الطاعة بالدليل و بين نفى الشئ بدليل ونفيه بغير دليل فرق عظيم (المسئلة الثالثة) قال فى كثير من الامر ليعلم انه قد يوافقهم و يفعل بمقتضى مصلحتهم تحقيقا لفائدة قوله تعالى وشاورهم فى الامر (المسئلة الرابعة) اذا كان المراد بقوله تعالى حبب اليكم الايمان فلاتتوقفوا فلم لم يصرح به قلنا لما بيناه من الاشارة الى ظهور الامر يعنى أنتم تعلمون ان اليقين لايتوقف فيه اذ ليس بعده مرتبة حتى يتوقف الى بلوغ تلك المرتبة لان من بلغ الى درجة الظن فانه يتوقف الى أن يبلغ درجة اليقين فلما كان عدم التوقف فى اليقين معلوما متفقا عليه لم يقل فلاتتوقفوا بل قال حبب اليكم الايمان أى بينه وزينه بالبرهان اليقينى (المسئلة الخامسة) ما المعنى فى قوله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم نقول قوله تعالى حبب اليكم أى قربه اليكم وادخله فى قلوبكم ثم زينه فيها بحيث لاتفارقونه ولايخرج من قلوبكم وهذا لان من يحب اشياء فقد يمل شيئا منها اذا حصل عنده وطال لبثه والايمان كل يوم يزداد حسنا ولكن من كانت عبادته أكثر وتحمله لمشاق التكليف أتم تكون العبادة والتكاليف عنده ألذ وأكمل ولهذا قال فى الاول حبب اليكم وقال ثانيا زينه فى قلوبكم كأنه قربه اليهم ثم أقامه فى قلوبهم (المسئلة السادسة) ما الفرق بين الامور الثلاثة وهى الكفر والفسوق والعصيان فنقول هذه أمور ثلاثة فى مقابلة الايمان الكامل لان الايمان الكامل المزين

(أولئك هم الراشدون) أى السالكون الى الطريق السوى الموصل الى الحق والالتفات الى الغيبة كالذى فى قوله تعالى وماآتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون (فضلا من الله ونعمة) أى وانعاما تعليل لحبب أو كره وما بينهما اعتراض وقيل نصبهما بفعل مضمر أى جرى ذلك فضلا وقيل يبتغون فضلا (والله عليم) مبالغ فى العلم فيعلم أحوال المؤمنين ومابينهم من التفاضل (حكيم) يفعل كل مايفعل بموجب الحكمة

هو ان يجمع التصديق بالجنان والاقرار باللسان والعمل بالاركان (أحدها) قوله تعالى وكره اليكم الكفر وهو التكذيب في مقابلة التصديق بالجنان والفسوق هو الكذب (وثانيها) هو ماقبل هذه الآية وهو قوله تعالى ان جاءكم فاسق بنبأ سمى من كذب فاسقا فيكون الكذب فسوقا (ثالثها) ماذكره بعد هذه الآية وهو قوله تعالى بئس الاسم الفسوق بعد الايمان فانه يدل على ان الفسوق أمر قولي لاقترانه بالاسم وسنبين تفسيره ان شاء الله تعالى (ورابعها) وجه معقول وهو أن الفسوق هو الخروج عن الطاعة على ماعلم في قول القائل فسقت الرطبة اذا خرجت وغير ذلك لان الفسوق هو الخروج زيد في الاستعمال كونه الخروج من الطاعة لكن الخروج لايكون له ظهور بالامر القلبي اذ لااطلاع على مافي القلوب لاحد الا الله تعالى ولايظهر بالافعال لان الامر قد يترك اما لنسيان أو سهو فلايعلم حال التارك والمرتكب انه مخطئ أو متعمد وأما الكلام فانه حصول العلم بما عليه حال المتكلم فالدخول في الايمان والخروج منه يظهر بالكلام فتخصيص الفسوق بالامر القولي أقرب واما العصيان فترك الامر وهو بالفعل أليق فاذا علم هذا ففيه ترتيب في غاية الحسن وهو انه تعالى كره اليكم الكفر وهو الامر الاعظم كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم ثم قال تعالى والفسوق يعني مايظهر لسانكم أيضا ثم قال والعصيان وهو دون الكل ولم يترك عليكم الامر الادنى وهو العصيان وقال بعض الناس الكفر ظاهر والفسوق هو الكبيرة والعصيان هو الصغيرة وماذكرناه أقوى ※ ثم قال تعالى (أولئك هم الراشدون) خطابا مع النبي صلى الله عليه وسلم وفيه معنى لطيف وهو ان الله تعالى في أول الامر قال واعلموا أن فيكم رسول الله أي هو مرشد لكم فخطاب المؤمنين للتنبيه على شفقته بالمؤمنين فقال في الاول كفى النبي مرشدا لكم ماتسترشدونه فاشفق عليهم وأرشدهم وعلى هذا قوله الراشدون أي الموافقون للرشد يأخذون مايأتيهم وينتهون عما ينهاهم ※ ثم قال تعالى (فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) نصب فضلا لاجل أمور اما لكونه مفعولا له وفيه وجهان (أحدهما) ان العامل فيه هو الفعل الذي في قوله الراشدون فان قيل كيف يجوز أن يكون فضل الله الذي هو فعل الله مفعولا له بالنسبة الى الرشد الذي هو فعل العبد نقول لما كان الرشد توفيقا من الله كان كأنه فعل الله فكأنه تعالى أرشدهم فضلا أي يكون متفضلا عليهم منعما في حقهم (والوجه الثاني) هو ان العامل فيه هو قوله حبب اليكم الايمان وكره اليكم الكفر فضلا وقوله أولئك هم الراشدون جملة اعترضت بين الكلامين أو يكون العامل فعلا مقدرا فكانه قال تعالى جرى ذلك فضلا من الله واما لكونه مصدرا وفيه وجهان (أحدهما) ان يكون مصدرا من غير اللفظ ولان الرشد فضل فكأنه قال أولئك هم الراشدون رشدا (وثانيهما) هو أن يكون مصدرا لفعل مضمر كأنه قال حبب اليكم الايمان وكره اليكم الكفر فأفضل فضلا وأنعم نعمة والقول بكونه

(وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) أي تقاتلوا والجمع باعتبار المعنى (فأصلحوا بينهما) بالنصح والدعاء الى حكم الله تعالى (فان بغت) أي تعدت (احداهما على الاخرى) ولم تتأثر بالنصيحة (فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ) أي ترجع (الى أمر الله) الى حكمه أو الى ما أمر به (فان فاءت) اليه وأقلعت عن القتال حذرا من قتالكم (فأصلحوا بينهما بالعدل) بفصل مابينهما على حكم الله تعالى ولاتكتفوا بمجرد متاركتهما عسى

منصوبا على انه مفعول مطلق وهو المصدر أو مفعول له قول الزمخشري واما أن يكون فضلا مفعولا به والفعل مضمرا دل عليه قوله تعالى أولئك هم الراشدون أي يبتغون فضلا من الله ونعمة (المسئلة الثانية) ما الفرق بين الفضل والنعمة في الآية نقول فضل الله اشارة الى ما عنده من الخير وهو مستغن عنه والنعمة اشارة الى ما يصل الى العبد وهو محتاج اليه لان الفضل في الاصل ينبئ عن الزيادة وعنده خزائن من الرحمة لا لحاجة اليها و يرسل منها على عباده ما لا يبقون معه في ورطة الحاجة بوجه من الوجوه والنعمة تنبئ عن الرأفة والرحمة وهو من جانب العبد وفيه معنى لطيف وهو تأكيد الاعطاء وذلك لان المحتاج يقول للغني اعطني ما فضل عنك وعندك وذلك غير ملتفت اليه وأنا به قيامي و بقائي فاذا قوله فضلا من الله اشارة الى ما هو من جانب الله الغني والنعمة اشارة الى ما هو من جانب العبد من اندفاع الحاجة وهذا مما يؤكد قولنا فضلا منصوب بفعل مضمر وهو الابتغاء والطلب (المسئلة الثالثة) ختم الآية بقوله والله عليم حكيم فيه مناسبات عدة منها انه تعالى لما ذكر نبأ الفاسق قال أن يشتبه على المؤمن كذب الفاسق فلا تعتمدوا على ترويجه عليكم الزور فان الله عليم ولا تقولوا كما كان عادة المنافق لولا يعذبنا الله بما نقول فان الله حكيم لا يفعل الا على وفق حكمته (وثانيها) لما قال الله تعالى واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم بمعنى لا يطيعكم بل يتبع الوحي قال فان الله من كونه عليما يعلمه ومن كونه حكيما يأمره بما تقتضيه الحكمة فاتبعوه (ثالثها) المناسبة التي بين قوله تعالى عليم حكيم وبين قوله حبب اليكم الايمان أي حبب بعلمه الايمان لاهل الايمان واختار له من يشاء بحكمته (رابعها) وهو الاقرب وهو أنه سبحانه وتعالى قال فضلا من الله ونعمة ولما كان الفضل هو ما عند الله من الخير المستغنى عنه قال تعالى هو عليم بما في خزائن رحمته من الخير وكانت النعمة هو ما يدفع به حاجة العبد قال هو حكيم ينزل الخير بقدر ما يشاء على وفق الحكمة

❁ ثم قال سبحانه وتعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله) لما حذر الله المؤمنين من النبأ الصادر من الفاسق أشار الى ما يلزم منه استدراكا لما يفوت فقال فان اتفق انكم تبنون على قول من يوقع بينكم وآل الامر الى اقتتال طائفتين من المؤمنين فازيلوا ما أثبته ذلك الفاسق وأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي أي الظالم يجب عليكم دفعه عنه ثم ان الظالم ان كان هو الرعية فالواجب على الامير دفعهم وان كان هو الامير فالواجب على المسلمين منعه بالنصيحة فما فوقها وشرطه ان لا يثير فتنة مثل التي في اقتتال الطائفتين أو أشد منها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى وان اشارة الى ندرة وقوع القتال بين طوائف المسلمين فان قيل فنحن نرى أكثر الاقتتال بين طوائفهم نقول قوله تعالى وان اشارة الى انه ينبغي ان لا يقع الا نادرا غاية ما في الباب ان الامر على خلاف ما ينبغي وكذلك ان جاءكم فاسق بنبأ اشارة الى أن مجيء

يكون بينهما قتال في وقت آخر وتقييد الاصلاح بالعدل لانه مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة وقد اكد ذلك حيث قيل (واقسطوا) أي واعدلوا في كل ما تأتون وما تذرون (ان الله يحب المقسطين) فيجازيهم أحسن الجزاء والآية نزلت في قتال حدث بين الاوس والخزرج في عهده عليه الصلاة والسلام بالسعف والنعال وفيها دلالة على أن الباغي لا يخرج بالبغي عن الايمان وأنه اذا أمسك عن الحرب ترك لانه فيء الى أمر الله

الفاسق بالنبأ ينبغي ان يقع قليلا مع أن مجيء الفاسق بالنبأ كثير وقول الفاسق صار عند أولي الامر أشد قبولا من قول الصادق الصالح (المسألة الثانية) قال تعالى وان طائفتان ولم يقل وان فرقتان تحقيقا للمعنى الذي ذكرناه وهو التقليل لان الطائفة دون الفرقة ولهذا قال تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة (المسألة الثالثة) قال تعالى من المؤمنين ولم يقل منكم مع ان الخطاب مع المؤمنين لسبق قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ تنبيها على قبح ذلك وتبعيدا لهم عنهم كما يقول السيد لعبده ان رأيت أحدا من غلماني يفعل كذا فامنعه فيصير بذلك مانعا للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن كأنه يقول أنت حاشاك ان تفعل ذلك فان فعل غيرك فامنعه كذلك ههنا قال وان طائفتان من المؤمنين ولم يقل منكم لما ذكرنا من التنبيه مع ان المعنى واحد (المسألة الرابعة) قال تعالى وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ولم يقل وان اقتتل طائفتان من المؤمنين مع ان كلمة ان اتصالها بالفعل أولى وذلك ليكون الابتداء بما يمنع من القتال فيتأكد معنى النكرة المدلول عليها بكلمة ان وذلك لان كونهما طائفتين مؤمنتين يقتضي أن لا يقع القتال منهما فان قيل فلم يقل يا أيها الذين آمنوا ان فاسق جاءكم أو ان أحد من الفساق جاءكم ليكون الابتداء بما يمنعهم من الاصغاء الى كلامه وهو كونه فاسقا نقول المجيء بالنبأ الكاذب يورث كون الانسان فاسقا أو يزداد بسببه فسقه فالمجيء به سبب الفسق فقدمه وأما الاقتتال فلا يقع سببا للايمان أو الزيادة فقال ان جاءكم فاسق أي سواء كان فاسقا أولا أو جاءكم بالنبأ فصار فاسقا به ولو قال وان أحد من الفساق جاءكم كان لا يتناول الا المشهور بالفسق قبل المجيء اذا جاءهم بالنبأ (المسألة الخامسة) قال تعالى اقتتلوا ولم يقل يقتتلوا لان صيغة الاستقبال تنبئ عن الدوام والاستمرار فيفهم منه ان طائفتين من المؤمنين ان تمادى الاقتتال بينهما فاصلحوا وهذا لان صيغة المستقبل تنبئ عن ذلك يقال فلان يتهجد ويصوم (المسألة السادسة) قال اقتتلوا ولم يقل اقتتلا وقال وأصلحوا بينهما ولم يقل بينهم وذلك لان عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة وكل أحد برأسه يكون فاعلا فعلا فقال اقتتلوا وعند العود الى الصلح تتفق كلمة كل طائفة والا لم يكن يتحقق الصلح فقال بينهما لكون الطائفتين حينئذ كنفسين ثم قال تعالى فان بغت احداهما اشارة الى نادرة اخرى وهي البغي لانه غير متوقع فان قيل كيف يصح في هذا الموضع كلمة ان مع انها تستعمل في الشرط الذي لا يتوقع وقوعه وبغي أحدهما عند الاقتتال لا بد منه اذ كل واحد منهما لا يكون محسنا فقوله ان تكون من قبيل قول القائل ان طلعت الشمس نقول فيه معنى لطيف وهو ان الله تعالى يقول الاقتتال بين طائفتين لا يكون الا نادر الوقوع وهو كما تظن كل طائفة ان الاخرى فيها الكفر والفساد فالقتال واجب كما سبق في الليالي المظلمة أو يقع لكل واحد ان القتال جائز بالاجتهاد وهو خطأ فقال تعالى الاقتتال لا يقع الا كذا فان بان لهما أو لاحدهما الخطأ واستمر عليه فهو نادر

تعالى وأنه يجب معاونة من بغى عليه بعد تقديم النصح والسعي في المصالحة (انما المؤمنون اخوة) استئناف مقرر لما قبله من الامر بالاصلاح أي انهم منتسبون الى أصل واحد هو الايمان الموجب للحياة الابدية والفاء في قوله تعالى (فأصلحوا بين أخويكم) للايذان بأن الاخوة الدينية موجبة للاصلاح ووضع المظهر مقام المضمر مضافا الى المأمورين للمبالغة في تأكيد وجوب الاصلاح والتخصيص عليه وتخصيص الاثنين بالذكر

وعندذلك يكون قد بغى فقال فان بغت احداهما على الاخرى يعنى بعد استبانة الامر وحينئذ فقوله ان بغت فى غاية الحسن لانه يفيد الندرة وقلة الوقوع وفيه أيضا مباحث (الاول) قال فان بغت ولم يقل فان تبغ لما ذكرنا فى قوله تعالى اقتتلوا ولم يقل يقتتلوا (الثانى) قال حتى تفئ اشارة الى أن القتال ليس جزاء للباغى كحد الشرب الذى يقام وان ترك الشرب بل القتال الى حد الفيئة فان فاءت الفئة الباغية حرم قتالهم (الثالث) هذا القتال لدفع الصائل فيتدرج فيه وذلك لانه لما كانت الفيئة من احداهما فان حصلت من الاخرى لا يوجد البغى الذى لاجله حل القتال (الرابع) هذا دليل على أن المؤمن بالكبيرة لا يخرج عن كونه مؤمنا لان الباغى جعله من احدى الطائفتين وسماهما مؤمنين (الخامس) قوله تعالى الى أمر الله يحتمل وجوها (أحدها) الى طاعة الرسول وأولى الامر لقوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم (ثانيها) الى أمر الله أى الى الصلح فانه مأمور به يدل عليه قوله تعالى فأصلحوا ذات بينكم (ثالثها) الى أمر الله بالتقوى فان من خاف الله حق الخوف لا يبقى له عداوة الامع الشيطان كما قال تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا (السادس) لو قال قائل قد ذكرتم ما يدل على كون الشرط غير متوقع الوقوع وقلتم بأن القتال والبغى من المؤمن نادر فاذن تكون الفيئة متوقعة فكيف قال فان فاءت نقول قول القائل لعبده ان مت فانت حر مع ان الموت لابد من وقوعه لكن لما كان وقوعه بحيث يكون العبد محلا للعتق بان يكون باقيا فى ملكه حيا يعيش بعد وفاته غير معلوم فكذلك ههنا لما كان الواقع فيئهم من تلقاء أنفسهم فلما لم يقع دل على تأكيد الاخذ بينهم فقال تعالى فان فاءت بقتالكم اياهم بعد اشتداد الامر والتحام الحرب فأصلحوا وفيه معنى لطيف وهو انه تعالى اشار الى أن من لم يخف الله وبغى لا يكون رجوعه بقتالكم الاجبرا (السابع) قال ههنا فاصلحوا بينهما بالعدل ولم يذكر العدل فى قوله وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا نقول لان الاصلاح هناك بازالة الاقتتال نفسه وذلك يكون بالنصيحة أو التهديد والزجر والتعذيب والاصلاح ههنا بازالة آثار القتل بعد اندفاعه من ضمان المتلفات وهو حكم فقال بالعدل فكأنه قال واحكموا بينهما بعد تركهما القتال بالحق وأصلحوا بالعدل مما يكون بينهما لئلا يؤدى الى ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى (الثامن) اذا قال فاصلحوا بينهما بالعدل فأية فائدة فى قوله وأقسطوا نقول قوله فاصلحوا بينهما بالعدل كان فيه تخصيص بحال دون حال فعمم الامر بقوله وأقسطوا أى فى كل أمر مفض الى أشرف درجة وأرفع منزلة وهى محبة الله والاقساط ازالة القسط وهو الجور والقاسط هو الجائر والتركيب دال على كون الامر غير مرضى من القسط والقاسط فى القلب وهو أيضا غير مرضى ولا معتد به فكذلك القسط ❊ ثم قال تعالى (انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم) تتميما للارشاد وذلك لانه لما قال وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا كان لظان أن يظن

لاثبات وجوب الاصلاح فيما فوق ذلك بطريق الاولوية لتضاعف الفتنة والفساد فيه وقيل المراد بالاخوين الاوس والخزرج وقرئ بين اخوتكم واخوانكم (واتقوا الله) فى كل ما تأتون وما تذرون من الامور التى من جملتها ما أمرتم به من الاصلاح (لعلكم ترحمون) راجين أن ترحموا على تقواكم (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم) أى منكم (من قوم) آخرين أيضا منكم وقوله تعالى (عسى أن يكونوا خيرا منهم) تعليل للنهى أو لموجبه

أولئوهم أن يتوهم ان ذلك عند اختلاف قوم فأما اذا كان الاقتتال بين اثنين فلا تعم المفسدة فلا يؤمر بالاصلاح وكذلك الامر بالاصلاح هناك عند الاقتتال وأما اذا كان دون الاقتتال كالتشاتم والتسافه فلا يجب الاصلاح فقال بين أخويكم وان لم تكن الفتنة عامة وان لم يكن الامر عظيما كالقتال بل لو كان بين رجلين من المسلمين أدنى اختلاف فاسعوا في الاصلاح ❊ وقوله (واتقوا الله لعلكم ترحمون) فيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى انما المؤمنون اخوة قال بعض أهل اللغة الاخوة جمع الاخ من النسب والاخوان جمع الاخ من الصداقة فالله تعالى قال انما المؤمنون اخوة تأكيد للامر واشارة الى أن ما بينهم ما بين الاخوة من النسب والاسلام كالاب قال قائلهم

ابي الاسلام لا أب سواه ❊ اذا افتخروا بقيس أو تميم

(المسئلة الثانية) عند اصلاح الفريقين والطائفتين لم يقل اتقوا وقال ههنا اتقوا مع ان ذلك أهم نقول الفائدة هو ان الاقتتال بين طائفتين يفضي الى ان تعم المفسدة ويلحق كل مؤمن منها شيء وكل يسعى في الاصلاح لامر نفسه فلم يؤكد بالامر بالتقوى واما عند تخاصم رجلين لا يخاف الناس ذلك وربما يزيد بعضهم تأكيدا الخصام بين الخصوم لغرض فاسد فقال فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله أو نقول قوله فأصلحوا اشارة الى الصلح وقوله واتقوا الله اشارة الى ما يصونهم عن التشاجر لان من اتقى الله شغله تقواه عن الاشتغال بغيره ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم الناس من لسانه لان المسلم يكون منقادا لامر الله مقبلا على عبادة الله فيشغله عيبه عن عيوب الناس ويمنعه ان يرهب الاخ المؤمن واليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله المؤمن من يأمن جاره بوائقه يعني اتقى الله فلا يتفرغ لغيره (المسئلة الثالثة) انما للحصر أي لا اخوة الا بين المؤمنين وأما بين المؤمن والكافر فلا لان الاسلام هو الجامع ولهذا اذا مات المسلم وله أخ كافر يكون ماله للمسلمين ولا يكون لاخيه الكافر وأما الكافر فكذلك لان في النسب المعتبر الاب الذي هو أب شرعا حتى ان ولدي الزنا من رجل واحد لا يرث أحدهما الآخر فكذلك الكفر كالجامع الفاسد فهو كالجامع العاجز لا يفيد الاخوة ولهذا من مات من الكفار وله أخ مسلم ولا وارث له من النسب لا يجعل ماله للكفار ولو كان الدين يجمعهم لكان مال الكافر للكفار كما ان مال المسلم للمسلمين عند عدم الوارث فان قيل قد ثبت ان الاخوة للاسلام اقوى من الاخوة النسبية بدليل ان المسلم يرثه المسلمون ولا يرثه الاخ الكافر من النسب فلم لم يقدموا الاخوة الاسلامية على الاخوة النسبية مطلقا حتى يكون مال المسلم للمسلمين لا لاخوته من النسب نقول هذا سؤال فاسد وذلك لان الاخ المسلم اذا كان أخا من النسب فقد اجتمع فيه اخوتان فصار أقوى والعصوبة لمن له القوة ألا ترى ان الاخ من الابوين يرث ولا يرث الاخ من الاب معه فكذلك الاخ المسلم من النسب له اخوتان فيقدم على سائر المسلمين والله أعلم (المسئلة الرابعة) قال النحاة

أي عسى أن يكون المسخور منهم خيرا عند الله تعالى من الساخرين والقوم مختص بالرجال لانهم القوام على النساء وهو في الاصل اما جمع قائم كصوم وزور في جمع صائم وزائر أو مصدر نعت به فشاع في الجمع وأما تسميتها للفريقين في مثل قوم عاد وقوم فرعون فاما للتغليب أو لانهن توابع واختيار الجمع لغلبة وقوع السخرية في المجامع والتنكير اما للتعميم أو للقصد الى نهي بعضهم عن سخرية بعض لما أنها مما يجري (بين بعض وبعض ولا نساء) أي

ولا نساء من نساء (من نساء) منهن (عسى أن يكن) أي المسخور منهن (خيرا منهن) أي من الساخرات فان مناط الخيرية في الفريقين ليس ما يظهر للناس من الصور والاشكال ولا الاوضاع والاطوار التي عليها يدور رأس السخرية غالبا بل انما هو الامور الكامنة في القلوب

ما في هذا الموضع كافة تكف ان عن العمل ولولا ذلك لقيل انما المؤمنين اخوة وفي قوله تعالى فبما رحمة من الله وقوله عما قليل ليست كافة والسؤال الاقوى هو ان رب من حروف الجر والباء وعن كذلك وما في رب كافة وفي عما وبما ليست كافة والتحقيق فيه هو ان الكلام بعد ربما وانما يكون تاما يمكن جعله مستقلا ولو حذف ربما وانما لما ضر فتقول ربما قام الامير وربما زيد في الدار ولو حذفت ربما وقلت زيد في الدار وقام الامير لصح وكذلك في انما ولكنما وأما عما وبما فليست كذلك لان قوله تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم لو أذهبت بما وقلت رحمة من الله لنت لهم لما كان كلاما فالباء بعد تعلقها بما يحتاج اليها فهي باقية حقيقة ولكنما وانما وربما المستغنى عنها فكأنها لم يبق حكمها ولا عمل للمعدوم فان قيل ان اذا لم تكف بما فما بعده كلام تام فوجب أن لا يكون له عمل تقول ان زيدا قائم ولو قلت زيد قائم الكفى وتم (نقول) ليس كذلك لان ما بعد ان جاز أن يكون نكرة تقول ان رجلا جاءني وأخبرني بكذا وأخبرني بعكسه وتقول جاءني رجل وأخبرني ولا يحسن انما رجل جاءني كما لو لم تكن هناك انما وكذلك القول في بما وأما فانك لو حذفتهما واقتصرت على ما يكون بعدهما لا يكون تاما فلم يكف والكلام في لعل قد تقدم مرارا * ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب) وقد بينا ان السورة للارشاد بعد ارشاد فبعد الارشاد الى ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى ومع النبي صلى الله عليه وسلم ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق بين ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن وقد ذكرنا ان المؤمن اما أن يكون حاضرا واما أن يكون غائبا فان كان حاضرا فلا ينبغي أن يسخر منه ولا يلتفت اليه بما ينافي التعظيم وفي الآية اشارة الى أمور ثلاثة مرتبة بعضها دون بعض وهي السخرية واللمز والنبز فالسخرية هي ان لا ينظر الانسان الى أخيه بعين الاجلال ولا يلتفت اليه ويسقطه عن درجته وحينئذ لا يذكر ما فيه من المعايب وهذا كما قال بعض الناس تراهم اذا ذكر عندهم عدوهم يقولون هو دون ان يذكروا قل من ان يلتفت اليه فقال لا تحقر والخوانكم ولا تستصغروهم (الثاني) هو اللمز وهو ذكر ما في الرجل من العيب في غيبته وهذا دون الاول لان في الاول لم يلتفت اليه ولم يرض بأن يذكره أحد وانما جعله مثل المسخرة الذي لا يغضب له ولا عليه (والثالث) هو النبز وهو دون الثاني لان في هذه المرتبة يضيف اليه وصفا ثابتا فيه يوجب بغضه وحط منزلته وأما النبز فهو مجرد التسمية وان لم يكن فيه وذلك لان اللقب الحسن والاسم المستحسن اذا وضع لواحد وعلق عليه لا يكون معناه موجودا فان من يسمى سعدا وسعيدا قد لا يكون كذلك وكذا من لقب امام الدين وحسام الدين لا يفهم منه انه كذلك وانما هو علامة وزينة وكذلك النبز بالمروان ومروان الحمار لم يكن كذلك وانما كان ذلك سمة ونسبة ولا يكون اللفظ مرادا اذا لم يرد به الوصف كما ان الاعلام

كذلك فانك اذا قلت لمن سمى بعبد الله أنت عبد الله فلا تعبد غيره وتريد به وصفه لا تكون قد أتيت باسم علم الاشارة فقال لا تتكبروا فتستحقروا اخوانكم وتستصغروهم بحيث لا تلتفتوا اليهم أصلا واذا نزلتم عن هذا من النعم اليهم فلا تعيبوا طالبين حط درجتهم والغض عن منزلتهم واذا تركتم النظر فى معايبهم ووصفهم بما يعيبهم فلا تسموهم بما يكرهونه ولا تقولوا هذا ليس بعيب يذكر فيه انما هو اسم يتلفظ به من غير قصد الى بيان صفة وذكر فى الآية مباحث (الاول) قوله لا يسخر قوم من قوم القوم اسم يقع على جمع من الرجال ولا يقع على النساء ولا على الاطفال لانه جمع قائم كصوم جمع صائم والقائم بالامور هم الرجال فعلى هذا الاقوام الرجال لا النساء (فائدة) وهى ان عدم الالتفات والاستحقار انما يصدر فى أكثر الامر من الرجال بالنسبة الى الرجال لان المرأة فى نفسها ضعيفة فاذا لم يلتفت الرجال اليها لا يكون لها أمر قال النبى صلى الله عليه وسلم النساء لحم على وضم الا ما ردت عنه وأما المرأة فلا يوجد منها استحقارا لرجل وعدم التفاتها اليه لاضطرارها فى دفع حوائجها وأما الرجال بالنسبة الى الرجال والنساء بالنسبة الى النساء فيوجد فيهم هذا النوع من القبح وهذا أشهر (المسئلة الثانية) قال فى الدرجة العالية التى هى نهاية المنكر عسى أن يكونوا خيرا منهم كسرا له و بغضا للنكره وقال فى المرتبة الثانية لا تلمزوا أنفسكم جعلهم كأنفسهم لما نزلوا درجة رفعهم الله درجة وفى الاول جعل المسخور منه خيرا وفى الثانى جعل المسخور منه مثلا وفى قوله عسى أن يكونوا خيرا منهم حكمة وهى انه وجد منهم النكر الذى هو مفض الى الاهمال وجعل نفسه خيرا منهم كما فعل ابليس حيث لم يلتفت الى آدم وقال أنا خير منه فصار هو خيرا و يمكن أن يقال المراد من قوله أن يكونوا يصيروا فان من استحقر انسانا لفقره أو وحدته أو ضعفه لا يأمن أن يفتقر هو ويستغنى الفقير و يضعف هو و يقوى الضعيف (المسئلة الثالثة) قال تعالى قوم من قوم ولم يقل نفس من نفس وذلك لان هذا فيه اشارة الى منع التكبر والمتكبر فى أكثر الامر يرى جبروته على رؤس الاشهاد واذا اجتمع فى الخلوات مع من لا يلتفت اليه فى الجامع يجعل نفسه متواضعا فذكرهم بلفظ القوم منعا لهم عما يفعلونه (المسئلة الرابعة) قوله تعالى ولا تلمزوا أنفسكم فيه وجهان (أحدهما) ان عيب الاخ عائد الى الاخ فاذا عاب عائب نفسا فكأنه عاب نفسه (وثانيهما) هو انه اذا عابه وهو لا يخلو من عيب يحار به المعيب فيعيبه فيكون هو بعيبه حاملا للغير على عيبه وكأنه هو العائب نفسه وعلى هذا يحمل قوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم أى أنكم اذا قتلتم نفسا فتكونوا كأنكم قتلتم أنفسكم و يحتمل وجها آخر ثالثا وهو ان لا تقول لا تعيبوا أنفسكم أى كل واحد منكم فانكم ان فعلتم فقد عبتم أنفسكم أى كل واحد عاب كل واحد فصرتم عائبين من وجه معيبين من وجه وهذا الوجه ههنا ظاهر ولا كذلك فى قوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم (المسئلة الخامسة) ان قيل قد ذكرتم ان هذا ارشاد

فلا يجترئ أحد على استحقار أحد فلعله أجمع منه لما نيط به الخيرية عند الله تعالى فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى والاستهانة بمن عظمه الله تعالى وقرئ عسوا أن يكونوا وعسين أن يكن فعسى حينئذ هى ذات الخبر كما فى قوله تعالى فهل عسيتم وأما على الاول فهى التى لا خبر لها (ولا تلمزوا أنفسكم) أى ولا يعب بعضكم بعضا فان المؤمنين كنفس واحدة أو لا تفعلوا ما تلمزون به فان من فعل ما يستحق به اللمز فقد لمز نفسه واللمز الطعن باللسان وقرئ بضم الميم (ولا تنابزوا بالالقاب) أى ولا يدع بعضكم بعضا بلقب السوء فان النبز مختص به عرفا

للمؤمنين الى مايجب ان يفعله المؤمن عندحضوره بعد الاشارة الى مايفعله فى غيبته لكن قوله تعالى ولاتلمزوا قيل فيه بأنه العيب خلف الانسان والهمز هو العيب فى وجـه الانسـان نقول ليس كذلك بل العكس أولى وذلك لانا اذانظرنا الى قلب الحروف دالان على العكس لان لمز قلبه لزم وهمز قلبه هزم والاول يدل على القرب والثانى على البعد فان قيل اللمز هو الطعن والعيب فى الوجه كان أولى مع ان كل واحد قيل بمعنى واحد (المسألة السادسة) قال تعالى ولاتنابزوا ولم يقل لاتنبزوا وذلك لان اللماز اذا لمز فالملموز قد لا يجد فيه فى الحال عيبا يلمزه به وانما يبحث ويتبع ليطلع منه على عيب فيوجد اللمز من جانب وأما النبز فلا يعجز كل واحد عن الاتيان به فان من نبز غيره بالحمار وهو ينبزه بالثور وغيره فالظاهر ان النبز يفضى فى الحال الى التنابز ولا كذلك اللمز * وقوله تعالى (بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) قيل فيه ان المراد بئس أن يقول للمسلم يايهودى بعد الايمان أى بعدما آمن فبئس تسميته بالكافر ويحتمل وجها أحسن من هذا وهو أن يقال هذا تمام الزجر كأنه تعالى قال ياأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم ولا تلمزوا ولاتنابزوا فانه ان فعل يفسق بعدما آمن والمؤمن يقبح منه أن يأتى بعد ايمانه بفسوق فيكون كقوله تعالى الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم و يصير التقدير بئس الفسوق بعد الايمان و بئس أن تسموا بالفاسق بسبب هذه الافعال بعدما سميتموهم مؤمنين * قال تعالى (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) وهذا يحتمل وجهين (أحدهما) ان يقال هذه الاشياء من الصغائر فمن يصر عليه يصير ظالما فاسقا و بالمرة الواحدة لايتصف بالظلم والفسق فقال ومن لم يترك ذلك ويجعله عادة فهو ظالم (وثانيهما) أن يقال قوله تعالى لايسخروا ولاتلمزوا ولاتنابزوا منع لهم عن ذلك فى المستقبل وقوله تعالى ومن لم يتب أمرهم بالتوبة عما مضى واظهـار الندم عليها مبالغة فى التحذير وتشديدا فى الزجر والاصل فى قوله تعالى ولاتنـابزوا لاتتنـابزوا أسقطت احدى التـائين كما أسقط فى استفهام احدى الهمزتين فقال سواء عليهم أنذرتهم والحذف ههنا أولى لان تاء الخطاب وتاء التفاعل حرفان من جنس واحد فى كلمة وهمزة الاستفهام كلمة برأسها وهمزة أنذرتهم أخرى واحتمال حرفين فى كلمتين أسهل من احتماله فى كلمة ولهذا وجب الادغام فى قولنا مد ولم يجب فى قولنا امدد وقولنا مردود وقوله أمر ربنا * ثم قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولاتجسسوا ولايغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم) لأن الظن هو السبب فيما تقدم وعليه تبنى القبائح ومنه يظهر العدو المكاشح والقائل اذا أوقف أموره على اليقين فقلما يتيقن فى أحد عيبا فيلمزه به فان الفعل فى الصورة قد يكون قبيحا وفى نفس الامر لايكون كذلك لجواز أن يكون فاعله ساهيا أو يكون الرائى

(بئس الاسم الفسوق بعد الايمان) أى بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسق بعد دخولهم الايمان أو اشتهارهم به فان الاسم ههنا بمعنى الذكر من قولهم طار اسمه فى النـاس بالكرم أو باللؤم والمراد به اما تهجين نسبة الكفر والفسوق الى المؤمنين خصوصا اذ روى أن الآية نزلت فى صفية بنت حيى أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان النساء يقلن لى يا يهودية بنت يهوديين فقـال عليه الصلاة والسلام هلا قلت ان أبى هرون وعمى موسى و زوجى محمد عليهم السلام أو الدلالة على أن التنابز فسق والجمع بينه وبين الايمان قبيح (ومن لم يتب) عما نهى عنه (فأولئك هم الظـالمون) بوضع العصيان موضع الطاعة وتعريض النفس للعذاب (ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن) أى كونوا على جانب منه

مختلطا وقوله كثيرا اخراج للظنون التي عليها تبنى الخيرات قال النبي صلى الله عليه وسلم ظنوا بالمؤمن خيرا وبالجملة كل أمر لا يكون بناؤه على اليقين فالظن فيه غير مجتنب مثاله حكم الحاكم على قول الشهود و براءة الذمة عند عدم الشهود الى غير ذلك فقوله اجتنبوا كثيرا وقوله تعالى ان بعض الظن اثم اشارة الى الاخذ بالاحوط كما ان الطريق المخوفة لا يتفق في كل مرة فيه قاطع طريق لكنك لا تسلك لاتفاق ذلك فيه مرة ومرتين الا اذا تعين فتسلكه مع رفقة كذلك الظن ينبغي بعد اجتهاد تام ووثوق بالغ ثم قال تعالى ولا تجسسوا اتماما لما سبق لانه تعالى لما قال اجتنبوا كثيرا من الظن فهم منه ان المعتبر اليقين فيقول القائل انا أكشف فلانا يعني أعلمه يقينا وأطلع على عيبه مشاهدة فأعيب فأكون قد اجتنبت الظن فقال تعالى ولا تتبعوا الظن ولا تجتهدوا في طلب اليقين في معايب الناس ثم قال تعالى ولا يغتب بعضكم بعضا اشارة الى وجوب حفظ عرض المؤمن في غيبته وفيه معان (أحدها) في قوله تعالى بعضكم بعضا فانه للعموم في الحقيقة كقوله لا تلمزوا أنفسكم وأما من اغتاب فالمغتاب أولا يعلم عيبه فلا يحمل فعله على ان يغتابه فلم يقل ولا تغتابوا أنفسكم لما ان الغيبة ليست حاملة للغائب على غيبة من اغتابه والعيب حامل على العيب (ثانيها) لو قال قائل هذا المعنى كان حاصلا بقوله تعالى لا تغتابوا مع الاقتصار عليه نقول لا وذلك لان الممنوع اغتياب المؤمن فقال بعضكم بعضا وأما الكافر فيعلن و يذكر بما فيه وكيف لا والفاسق يجوز أن يذكر بما فيه عند الحاجة (ثالثها) قوله تعالى أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا دليل على أن الاغتياب الممنوع اغتياب المؤمن لا ذكر الكافر وذلك لانه شبهه بأكل لحم الاخ وقال من قبل انما المؤمنون اخوة فلا اخوة الا بين المؤمنين ولا منع الا من شيء يشبه أكل لحم الاخ ففي هذه الآية نهي عن اغتياب المؤمن دون الكافر (رابعها) ما الحكمة في هذا التشبيه نقول هو اشارة الى ان عرض الانسان كدمه ولحمه وهذا من باب القياس الظاهر وذلك لان عرض المرء اشرف من لحمه فاذا لم يحسن من العاقل اكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الاولى لان ذلك آلم وقوله لحم أخيه آكد في المنع لان العدو يحمله الغضب على مضغ لحم العدو فقال أصدق الاصدقاء من ولدته أمك فأكل لحمه أقبح ما يكون وقوله تعالى ميتا اشارة الى دفع وهم وهو أن يقال القول في الوجه يؤلم فيحرم وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتاب فلا يؤلم فقال أكل لحم الاخ وهو ميت أيضا لا يؤلم ومع هذا هو في غاية القبح لما أنه لو اطلع عليه لتألم كما ان الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه وفيه معنى وهو أن الاغتياب كأكل لحم الآدمي ميتا ولا يحل أكله الا للمضطر بقدر الحاجة والمضطر اذا وجد لحم الشاة الميتة ولحم الآدمي الميت فلا يأكل لحم الآدمي فكذلك المغتاب ان وجد لحاجته مدفعا غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب وقوله تعالى ميتا حال عن اللحم أو عن الاخ فان قيل اللحم لا يكون ميتا قلنا بلى قال النبي صلى الله عليه وسلم ما ابين من حي فهو

وابهام الكثير لايجاب الاحتياط والتأمل في كل ظن ظن حتى يعلم أنه من أي قبيل فان من الظن ما يجب اتباعه كالظن فيما لا قاطع فيه من العمليات وحسن الظن بالله تعالى ومنه ما يحرم كالظن في الالهيات والنبوات وحيث يخالفه قاطع وظن السوء بالمؤمنين ومنه ما يباح كالظن في الامور المعاشية (ان بعض الظن اثم) تعليل للامر بالاجتناب أو لموجبه بطريق الاستئناف التحقيقي والاثم الذنب الذي يستحق العقوبة عليه وهمزته منقلبة من الواو كأنه يثم الاعمال أي يكسرها (ولا تجسسوا) أي ولا تبحثوا عن عورات المسلمين تفعل من الجس لما فيه من معنى الطلب كما أن التلمس بمعنى التطلب لما في اللمس من الطلب وقد جاء بمعنى الطلب في قوله تعالى وأنا لمسنا السماء وقرئ بالحاء من الحس الذي هو أثر الجس وغايته ولتقاربهما

ميت فسمي الفلقة ميتا فان قيل اذا جعلناه حالا عن الاخ لا يكون هو الفاعل ولا المفعول فلا يجوز جعله حالا كما يقول القائل مررت بأخي زيد قائما و يريد كون زيد قائما قلنا يجوز أن يقال من أكل لحمه فقد أكل فصار الاخ مأكولا مفعولا بخلاف المرور بأخي زيد فيجوز أن تقول ضربت وجهه آثما أي وهو آثم أي صاحب الوجه كانك اذا ضربت وجهه فقد ضربته ولا يجوز أن تقول مزقت ثوبه آثما فتجعل الآثم حالا من غيرك وقوله تعالى فكرهتموه فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) العائد اليه الضمير يحتمل وجوها (الاول) وهو الظاهر أن يكون هو الاكل لان قوله تعالى أيحب أحدكم أن يأكل معناه أيحب أحدكم الاكل لان أن مع الفعل تكون للمصدر يعني فكرهتم الاكل (الثاني) أن يكون هو اللحم أي فكرهتم اللحم (الثالث) أن يكون هو الميت في قوله ميتا وتقديره أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا متغيرا فكرهتموه فكأنه صفة لقوله ميتا ويكون فيه زيادة مبالغة في التحذير يعني الميتة ان أكلت في الندرة لسبب كان نادرا ولكن اذا أنتن وأروح وتغير لا يؤكل أصلا فكذلك ينبغي أن تكون الغيبة (المسئلة الثانية) الفاء في قوله تعالى فكرهتموه تقتضي وجود تعلق فما ذلك نقول فيه وجوه (أحدها) أن يكون ذلك تقدير جواب كلام كانه تعالى لما قال أيحب قيل في جوابه ذلك (وثانيها) أن يكون الاستفهام في قوله أيحب للانكار كأنه قال لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه اذا ولا يحتاج الى اضمار (وثالثها) أن يكون ذلك التعلق هو تعلق المسبب بالسبب وترتبه عليه كما تقول جاء فلان ماشيا فتعب لان المشي يورث التعب فكذا قوله ميتا لان الموت يورث النفرة الى حد لا يشتهي الانسان أن يبيت في بيت فيه ميت فكيف يقربه بحيث يأكل منه ففيه اذا كراهة شديدة فكذلك ينبغي أن يكون حال الغيبة ثم قال تعالى واتقوا الله ان الله تواب رحيم عطف على ما تقدم من الاوامر والنواهي أي اجتنبوا واتقوا وفي الآية لطائف منها ان الله تعالى ذكر في هذه الآية أمورا ثلاثة مرتبة بيانها هو ان الله تعالى قال اجتنبوا كثيرا أي لا تقولوا في حق المؤمنين ما لم تعلموه فيهم بناء على الظن ثم اذا سئلتم عن المظنونات فلا تقولوا نحن نكشف أمورهم لنستيقنها قبل ذكرها ثم ان علمتم منها شيأ من غير تجسس فلا تقولوه ولا تفشوه عنهم ولا تعيبوا ففي الاول نهي عما لم يعلم ثم نهى عن طلب ذلك العلم ثم نهى عن ذكر ما علم ومنها ان الله تعالى لم يقل اجتنبوا أن تقولوا أمرا على خلاف ما تعلمونه ولا قال اجتنبوا الشك بل أول ما نهى عنه هو القول بالظن وذلك لان القول على خلاف العلم كذب وافتراء والقول بالشك والرجم بالغيب سفه وهزؤ وهما في غاية القبح فلم ينه عنه اكتفاء بقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لان وصفهم بالايمان يمنعهم من الافتراء والارتياب الذي هو دأب الكافر وانما منعهم عما يكثر وجوده في المسلمين ولذلك قال في الآية لا يسخر ومنها انه ختم الآيتين بذكر التوبة فقال في الاولى ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون وقال في

للشاعر الحواس بالحاء والجيم وفي الحديث لا تتبعوا عورات المسلمين فان من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته (ولا يغتب بعضكم بعضا) أي لا يذكر بعضكم بعضا بالسوء في غيبته وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال ان تذكر أخاك بما يكره فان كان فيه فقد اغتبته وان لم يكن فيه فقد بهته وعن ابن عباس رضي الله عنهما الغيبة ادام كلاب الناس (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا) تمثيل وتصوير لما يصدر عن المغتاب من حيث صدوره عنه ومن حيث تعلقه بصاحبه على أفحش وجه وأشنعه طبعا وعقلا وشرعا مع مبالغات من فنون شتى الاستفهام التقريري واسناد الفعل الى أحد ايذانا بأن أحدا

الاخرى ان الله تواب لكن في الآية الاولى لما كان الابتداء بالنهي في قوله لايسخر قوم من قوم ذكر النفي الذي هو قريب من النهي وفي الآية الثانية لما كان الابتداء بالامر في قوله اجتنبوا ذكر الارتياب الذي هو قريب من الامر * ثم قال تعالى (ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير) تبيينا لما تقدم وتقريرا له وذلك لان السخرية من الغير والعيب ان كان بسبب التفاوت في الدين والايمان فهو جائز لما بينا ان قوله لايغتب بعضكم بعضا وقوله ولاتلمزوا أنفسكم منع من عيب المؤمن وغيبته وان لم يكن لذلك السبب فلايجوز لان الناس بعمومهم كفارا كانوا أومؤمنين يشتركون فيما يفتخر به المفتخر غير الايمان والكفر والافتخار ان كان بسبب الغنى فالكافر قديكون غنيا والمؤمن فقيرا وبالعكس وان كان بسبب النسب فالكافر قديكون نسيبا والمؤمن قديكون عبدا أسود وبالعكس فالناس فيما ليس من الدين والتقوى متساوون متقاربون وشئ من ذلك لايؤثر مع عدم التقوى فان كل من يتدين بدين يعرف أن من يوافقه في دينه أشرف ممن يخالفه فيه وان كان أرفع نسبا أوأكثر نشبا فكيف من له الدين الحق وهو فيه راسخ وكيف يرجح عليه من دونه فيه بسبب غيره وقوله تعالى ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى فيه وجهان (أحدهما) من آدم وحواء (ثانيهما) كل واحد منكم أيها الموجودون وقت النداء خلقناه من أب وأم فان قلنا ان المراد هو الاول فذلك اشارة الى ان لايتفاخر البعض على البعض لكنهم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة وان قلنا ان المراد هو الثاني فذلك اشارة الى أن الجنس واحد فان كل واحد خلق كما خلق الآخر من أب وأم والتفاوت في الجنس دون التفاوت في الجنسين فان من شأن التفاوت أن لايكون تقدير التفاوت بين الذباب والذئاب لكن التفاوت الذي بين الناس بالكفر والايمان كالتفاوت الذي بين الجنسين لان الكافر جماد اذ هو كالانعام بل أضل والمؤمن انسان في المعنى الذي ينبغي أن يكون فيه والتفاوت في الانسان تفاوت في الحس لا في الجنس اذ كلهم من ذكر وأنثى فلايبقى لذلك عند هذا اعتبار وفيه مباحث (البحث الاول) فان قيل هذا مبني على عدم اعتبار النسب وليس كذلك فان للنسب اعتبارا عرفا وشرعا حتى لايجوز تزويج الشريفة بالنبطي فنقول اذا جاء الامر العظيم لايبقى الامر الحقير معتبرا وذلك في الحس والشرع والعرف أما الحس فلان الكواكب لاترى عند طلوع الشمس ولجناح الذباب دوي ولايسمع عندمايكون رعد قوي وأما في العرف فلان من جاء مع الملك لايبقى له اعتبار ولااليه التفات اذا علمت هذا فيهما في الشرع كذلك اذا جاء الشرف الديني الالهي لايبقى لامر هناك اعتبار لا لنسب ولا لنشب ألاترى ان الكافر وان كان من أعلى الناس نسبا والمؤمن وان كان من أدونهم نسبا لايقاس أحدهما بالآخر وكذلك ماهو من الدين مع غيره ولهذا يصلح للمناصب الدينية كالقضاء

الانسان وجعل المأكول أخا للآكل وميتا واخراج تماثلها مخرج أمر بين غني عن الاخبار به وقرئ ميتا بالتشديد وانتصابه على الحالية من اللحم وقيل من الاخ والفاء في قوله تعالى (فكرهتموه) لترتيب مابعدها على ماقبلها من التمثيل كأنه قيل وحيث كان الامر كما ذكر فقد كرهتموه وقرئ كرهتموه أي جبلتم على كراهته (واتقوا الله) بترك ماأمرتم باجتنابه والندم على ماصدر عنكم من قبل (ان الله تواب رحيم) مبالغ في قبول التوبة وافاضة الرحمة حيث يجعل التائب كمن لم يذنب ولايخص ذلك بتائب دون تائب بل يعم الجميع وان كثرت ذنوبهم روى أن رجلين من الصحابة رضي الله عنهم بعثا سلمان الى رسول الله صلى الله عليه

وسلم يبغي لهما اداما وكان أسامة على طعامه عليه الصلاة والسلام فقال ماعندي شيء

والشهادة كل شريف ووضيع اذا كان دينا عالما صالحا ولا يصلح لشيء منها فاسق وان كان قرشي النسب وقاروني النشب ولكن اذا اجتمع في اثنين الدين المتين وأحدهما نسيب ترجح بالنسب عند الناس لاعند الله لان الله تعالى يقول وأن ليس للانسان الا ماسعى وشرف النسب ليس مكتسبا ولا يحصل بسعي (البحث الثاني) ما الحكمة في اختيار النسب من جملة أسباب التفاخر ولم يذكر المال نقول الامور التي يفتخر بها في الدنيا وان كانت كثيرة لكن النسب أعلاها لان المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار المفتخر به والحسن والسن وغير ذلك غير ثابت دائم والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له ذلك فاختاره الله للذكر وأبطل اعتباره بالنسبة الى التقوى ليعلم منه بطلان غيره بالطريق الاولى (البحث الثالث) اذا كان ورود الآية لبيان عدم جواز الافتخار بغير التقوى فهل لقوله تعالى انا خلقناكم فائدة نقول نعم وذلك لان كل شيء يترجح على غيره فاما أن يترجح بأمر فيه يلحقه و يترتب عليه بعد وجوده واما أن يترجح عليه بامر هو قبله والذي بعده كالحسن والقوة وغيرهما من الاوصاف المطلوبة من ذلك الشيء والذي قبله فاما راجع الى الاصل الذي منه وجد أو الى الفاعل الذي هو له أوجد كما يقال في اناءين هذا من النحاس وهذا من الفضة و يقال هذا عمل فلان وهذا عمل فلان فقال تعالى لا ترجيح فيما خلقتم منه لانكم كلكم من ذكر وأنثى ولا بالنظر الى جاعلكم لانكم كلكم خلقكم الله فان كان بينكم تفاوت يكون بامور تلحقكم وتحصل بعد وجودكم وأشرفها التقوى والقرب من الله تعالى ثم قال تعالى وجعلناكم شعوبا وقبائل وفيه وجهان (أحدهما) جعلناكم شعوبا متفرقة لا يدرى من يجمعكم كالعجم وقبائل يجمعكم واحد معلوم كالعرب وبني اسرائيل (وثانيهما) جعلناكم شعوبا داخلين في قبائل فان القبيلة تحتها شعوب وتحت الشعوب البطون وتحت البطون الافخاذ وتحت الافخاذ الفصائل وتحت الفصائل الاقارب وذكر الاعم لانه أذهب للافتخار لان الامر الاعم منها يدخله فقراء وأغنياء كثيرة غير محصورة وضعفاء وأقوياء كثيرة غير معدودة ثم بين فائدة ذلك وهي التعارف وفيه وجهان (أحدهما) ان فائدته التناصر لا التفاخر (وثانيهما) ان فائدته التعارف لا التناكر واللمز والسخرية والغيبة تفضي الى التناكر لا الى التعارف وفيه معان لطيفة (الاولى) قال تعالى انا خلقناكم وقال وجعلناكم لان الخلق أصل تفرع عليه الجعل شعوبا فان الاول هو الخلق والايجاد ثم الاتصاف بما اتصفوا به لكن الجعل شعوبا للتعارف والخلق للعبادة كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون واعتبار الاصل متقدم على اعتبار الفرع فاعلم ان النسب يعتبر بعد اعتبار العبادة كما ان الجعل شعوبا يتحقق بعد ما يتحقق الخلق فان كان فيكم عبادة تعتبر فيكم أنسابكم والافلا (الثانية) قوله تعالى خلقناكم وجعلناكم اشارة الى عدم جواز الافتخار لان ذلك ليس لسعيكم ولا قدرة لكم على شيء من ذلك فكيف

فأخبرهما سلمان فقالا لو بعثنا سلمان الى بئر سميحة لغار ماؤها فلما راحا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما فقالا ماتناولنا لحما فقال عليه الصلاة والسلام انكما قد اغتبتما فنزلت (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى) من آدم وحواء أو خلقنا كل واحد منكم من أب وأم فالكل سواء في ذلك فلا وجه للتفاخر بالنسب وقد يجوز أن يكون تأكيدا للنهي السابق بتقرير الاخوة المانعة من الاغتياب (وجعلناكم شعوبا وقبائل) الشعب الجمع العظيم المنتسبون الى أصل واحد وهو يجمع القبائل والقبيلة تجمع العمائر والعمارة تجمع البطون والبطن يجمع الافخاذ والفخذ يجمع الفصائل فخزيمة شعب وكنانة

والقبائل بطون العرب (لتعارفوا) ليعرف بعضكم بعضا بحسب الانساب فلا يعتزى أحد الى غير آبائه لالتفاخروا بالآباء والقبائل وتدعوا التفاوت والتفاضل فى الانساب وقرئ لتعارفوا على الاصل ولتعارفوا بالادغام ولتعرفوا (ان أكرمكم عندالله أتقاكم) تعليل للنهى عن التفاخر بالانساب المستفاد من الكلام بطريق الاستئناف التحقيقى كأنه قيل ان الاكرم عنده تعالى هو الاتقى فان فاخرتم ففاخروا بالتقوى وقرئ بان المفتوحة على حذف لام التعليل كأنه قيل لم لاتفاخر بالانساب فقيل لان أكرمكم عندالله أتقاكم لا أنسبكم فان مدار كمال النفوس وتفاوت الاشخاص هو التقوى فمن رام نيل الدرجات العلا فعليه بالتقوى قال عليه الصلاة والسلام

تفتخرون بما لامدخل لكم فيه فان قيل الهداية والضلال كذلك لقوله تعالى انا هديناه السبيل نهدى من نشاء فنقول أثبت الله لنا فيه كسبا مبنيا على فعل كما قال الله تعالى فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا ثم قال تعالى وماتشاؤن الا أن يشاء الله وأما فى النسب فلا (الثالثة) قوله تعالى لتعارفوا اشارة الى قياس خفى وبيانه هو انه تعالى قال انكم جعلتم قبائل لتعارفوا وأنتم اذا كنتم أقرب الى شريف تفتخرون به فخلقكم لتعرفوا ربكم فاذا كنتم أقرب منه وهو أشرف الموجودات كان الاحق بالافتخار هناك من الكل الافتخار بذلك (الرابعة) فيه ارشاد الى برهان يدل على ان الافتخار ليس بالانساب وذلك لان القبائل للتعارف بسبب الانتساب الى شخص فان كان ذلك الشخص شريفا صح الافتخار فى ظنكم وان لم يكن شريفا لم يصح فشرف ذلك الرجل الذى تفتخرون به هو بانتسابه الى فضيلة أو باكتساب فضيلة فان كان بالانتساب لزم الانتهاء وان كان بالاكتساب فالدين الفقيه الكريم المحسن صار مثل من يفتخر به المفتخر فكيف يفتخر بالاب وأب الاب على من حصل له من الحظ والخير مافضل به نفسه عن ذلك الاب والجد اللهم الا أن يجوز شرف الانتساب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فان أحد الا يقرب من الرسول فى الفضيلة حتى يقول أنا مثل أبيك ولكن فى هذا النسب أثبت النبى صلى الله عليه وسلم الشرف لمن انتسب اليه بالاكتساب ونفاه لمن أراد الشرف بالانتساب فقال نحن معاشر الانبياء لانورث وقال العلماء ورثة الانبياء أى لانورث بالانساب وانما نورث بالاكتساب سمعت أن بعض الشرفاء فى بلاد خراسان كان فى النسب أقرب الناس الى على عليه السلام غير انه كان فاسقا وكان هناك مولى أسود تقدم بالعلم والعمل ومال الناس الى التبرك به فاتفق انه خرج يوما من بيته يقصد المسجد فاتبعه خلق فلقيه الشريف سكران وكان الناس يطردون الشريف ويبعدونه عن طريقه فغلبهم وتعلق بأطراف الشيخ وقال له يا أسود الحوافر والشوافر يا كافر ابن كافر أنا ابن رسول الله أذل وتجل وأذم وتكرم وأهان وتعان فهم الناس بضربه فقال الشيخ لاهذا محتمل منه لجده وضربه معدود لحده ولكن يا أيها الشريف بيضت باطنى وسودت باطنك فيرى الناس بياض قلبى فوق سواد وجهى فحسنت وأخذت سيرة أبيك وأخذت سيرة أبى فرآنى الخلق فى سيرة أبيك ورأوك فى سيرة أبى فظنونى ابن أبيك وظنوك ابن أبى فعملوا معك مايعمل مع أبى وعملوا معى مايعمل مع أبيك ثم قال تعالى ان أكرمكم عندالله أتقاكم وفيه وجهان (أحدهما) ان المراد من يكون أتقى يكون عندالله أكرم أى التقوى تفيد الاكرام (ثانيهما) ان المراد أن من يكون أكرم عندالله يكون أتقى أى الاكرام يورث التقوى كما يقال المخلصون على خطر عظيم والاول أشهر والثانى أظهر لان المذكور ثانيا ينبغى أن يكون محمولا على المذكور أولا فى الظاهر فيقال الاكرام للتقى لكن ذو العموم فى المشهور هو الاول يقال ألذ الاطعمة أحلاها أى اللذة بقدر الحلاوة لا أن الحلاوة بقدر اللذة وهى

رجلان مؤمن تقي كريم على الله تعالى وفاجر شقي هين على الله تعالى وعن ابن عباس رضي الله عنهما اكرم الدنيا الغنى وكرم الآخرة التقوى (ان الله عليم) بكم وبأعمالكم (خبير) ببواطن أحوالكم (قالت الاعراب آمنا) نزلت في نفر من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدب فأظهروا الشهادتين وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتيناك بالاثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان يريدون الصدقة ويمنون عليه عليه الصلاة والسلام مافعلوا (قل) ردا لهم (لم تؤمنوا) اذ الايمان هو التصديق المقارن للثقة وطمانينة القلب ولم يحصل لكم ذلك والالما مننتم على ما ذكرتم كما ينبئ عنه آخر السورة (ولكن قولوا أسلمنا)

اثبات لكون التقوى متقدمة على كل فضيلة فان قيل التقوى من الاعمال والعلم أشرف قال النبي صلى الله عليه وسلم لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد نقول التقوى ثمرة العلم قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء فلا تقوى الا لعالم فالمتقي العالم أتم علمه والعالم الذي لا يتقي كشجرة لاثمرة لها لكن الشجرة المثمرة أشرف من الشجرة التي لا تثمر بل هو حطب وكذلك العالم الذي لا يتقي حصب جهنم وأما العابد الذي يفضل الله عليه الفقيه فهو الذي لا علم له وحينئذ لا يكون عنده من خشية الله نصاب كامل ولعله يعبده مخافة الالقاء في النار فهو كالمكره أو لدخول الجنة فهو يعمل كالفاعل له أجرة ويرجع الى بيته والمتقي هو العالم بالله المواظب لبابه أي المقرب الى جنابه عنده يبيت وفيه مباحث (البحث الاول) الخطاب مع الناس والاكرم يقتضي اشتراك الكل في الكرامة ولا كرامة للكافر فانه أضل من الانعام وأذل من الهوام نقول ذلك غير لازم مع انه حاصل بدليل قوله تعالى ولقد كرمنا بني آدم لان كل من خلق فقد اعترف بربه كأنه تعالى قال من استمر عليه وزاد زيد في كرامته ومن رجع عنه أزيل عنه أثر الكرامة (الثاني) ماحد التقوى ومن الاتقى نقول ادنى مراتب التقوى أن يجتنب العبد المناهي ويأتي بالاوامر ولا يقر ولا يامن الا عندهما فان اتفق ان ارتكب منهيا لا يأمن ولا يتكل له بل يتبعه بحسنة ويظهر عليه ندامة وتوبة ومتى ارتكب منهيا وماتاب في الحال واتكل على المهلة في الاجل ومنعه عن التذاكر طول الامل فليس بمتق أما الاتقى فهو الذي يأتي بما أمر به ويترك مانهي عنه وهو مع ذلك خاش ربه لا يشتغل بغير الله فينور الله قلبه فان التفت لحظة الى نفسه أو ولده جعل ذلك ذنبه وللاولين النجاة لقوله تعالى ثم ننجي الذين اتقوا وللآخرين السوق الى الجنة لقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم فبين من أعطاه السلطان بستانا وأسكنه فيه وبين من استخلصه لنفسه يستفيد كل يوم بسبب القرب منه بساتين وضياعا بون عظيم ثم قال تعالى ان الله عليم خبير أي عليم بظواهركم يعلم أنسابكم خبير ببواطنكم لا تخفى عليه أسراركم فاجعلوا التقوى عملكم وزيدوا في التقوى كما زادكم * ثم قال تعالى (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيأ ان الله غفور رحيم) لما قال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم والاتقى لا يكون الا بعد حصول التقوى وأصل الايمان هو الاتقاء من الشرك قالت الاعراب لنا النسب الشريف وانما يكون لنا الشرف قال الله تعالى ليس الايمان بالقول انما هو بالقلب فما آمنتم لانه خبير يعلم ما في الصدور ولكن قولوا أسلمنا أي انقدنا واستسلمنا قيل ان الآية نزلت في بني أسد أظهروا الاسلام في سنة مجدبة طالبين الصدقة ولم يكن قلبهم مطمئنا بالايمان وقد بينا ان ذلك كالتاريخ للنزول لا للاختصاص بهم لان كل من أظهر فعل المتقين وأراد أن يصير له ما للاتقياء من الاكرام لا يحصل له ذلك لان التقوى من عمل القلب وقوله تعالى

فان الاسلام انقياد ودخول فى السلم واظهار الشهادة وترك المحاربة مشعر به وايثار ما عليه النظم

قل لم تؤمنوا فى تفسيره مسائل (المسألة الاولى) قال تعالى ولاتقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا وقال ههنا قل لم تؤمنوا مع انهم ألقوا اليهم السلام نقول اشارة الى أن عمل القلب غير معلوم واجتناب الظن واجب وانما يحكم بالظاهر فلا يقال لمن يفعل فعلا هو مؤمن أى مخلص أسلم هو صادق ولكن الله خبير بما فى الصدور اذا قال فلان ليس بمؤمن حصل الاثم وقوله تعالى لم تؤمنوا هو الذى جوزنا ذلك القول وكان معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم حيث أطلعه الله على الغيب وضمير قلوبهم فقال لنا أنتم لاتقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا لعدم علمكم بما فى قلبه (المسألة الثانية) لم ولما حرفا نفى وما وان كذلك من حروف النفى ولم ولما يجزمان وغيرهما من حروف النفى لايجزم فالفرق بينهما نقول لم ولما يفعلان بالفعل ما لايفعل به غيرهما فانهما يغيران معناه من الاستقبال الى المضى تقول لم يؤمن أمس وآمن اليوم ولا تقول لا يؤمن أمس فلما فعلا بالفعل مالم يفعل به غيرهما جزم بهما فان قيل مع هذا لم جزم بهما غايته ما فى الباب ان الفرق حصل ولكن ما الدليل على وجوب الجزم بهما نقول لان الجزم والقطع يحصل فى الافعال الماضية فان من قال قام حصل القطع بقيامه ولا يجوز أن يكون ما قام والافعال المستقبلة اما متوقعة الحصول واما ممكنة غير متوقعة ولا يحصل القطع والجزم فيه فاذا كان لم ولما يقلبان اللفظ من الاستقبال الى المضى كانا يفيدان الجزم والقطع فى المعنى فجعل لهما تناسبا بالمعنى وهو الجزم لفظا وعلى هذا نقول السبب فى الجزم ماذكرنا وهذا فى الامر يجزم كأنه جزم على المأمور انه يفعله ولا يتركه فأى فائدة فى ان اللفظ يجزم مع ان الفعل فيه لابد من وقوعه وان فى الشرط تغيره وذلك لان ان تغير معنى الفعل من المضى الى الاستقبال كما ان لم تغيره من الاستقبال الى المضى تقول ان جئتنى جئتك وان أكرمتنى أكرمتك فلما كان ان مثل لم فى كونه حرفا وفى لزوم الدخول على الافعال وتغييره معنى الفعل صار جازما لشبه لفظى أما الجزاء فجزم لما ذكرنا من المعنى فان الجزاء يجزم بوقوعه عند وجود الشرط فالجزم اذا اما المعنى أو لشبه لفظى كما ان الجزاء كذلك فى الاضافة وفى الجر بحرف (المسألة الثالثة) قوله تعالى ولكن قولوا يقتضى قولا سابقا مخالفا لما بعده كقولنا لاتقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا وفى ترك التصريح به ارشاد وتأديب كأنه تعالى لم يجز النهى عن قولهم آمنا فلم يقل لاتقولوا آمنا وأرشدهم الى الامتناع عن الكذب فقال لم تؤمنوا فان كنتم تقولون شيأ فقولوا أمرا عاما لايلزم منه كذبكم وهو كقولهم أسلمنا فان الاسلام بمعنى الانقياد حصل (المسألة الرابعة) المؤمن والمسلم واحد عند أهل السنة فكيف يفهم ذلك مع هذا نقول بين العام والخاص فرق فالايمان لايحصل الا بالقلب وقد يحصل باللسان والاسلام أعم لكن العام فى صورة الخاص متحد مع الخاص ولا يكون أمرا آخر غيره مثاله الحيوان أعم من الانسان لكن الحيوان فى صورة الانسان ليس أمرا ينفك عن الانسان ولا يجوز أن يكون ذلك الحيوان حيوانا

الكريم على أن يقال لاتقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا أولم تؤمنوا ولكن أسلمتم الاحتراز من النهى عن التلفظ بالايمان والتفادى عن اخراج قولهم مخرج التسليم والاعتداد به مع كونه تقولا محضا (ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) حال من ضمير قولوا أى ولكن قولوا أسلمنا حال عدم مواطأة قلوبكم لألسنتكم وما فى لما من معنى التوقع مشعر بان هؤلاء قد آمنوا فيما بعد (وان تطيعوا الله ورسوله) بالاخلاص وترك النفاق (لايلتكم من أعمالكم) لاينقصكم (شيأ) من أجورها من لات يليت ليتا اذا نقص وقرئ لايألتكم من الالت وهى لغة غطفان أو شيأ من النقص (ان الله غفور) لما فرط من المطيعين (رحيم) بالتفضل عليهم

ولا يكون انسانا فالعام والخاص مختلفان في العموم متحدان في الوجود فكذلك المؤمن والمسلم وسنبين ذلك في تفسير قوله تعالى فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ان شاء الله تعالى (المسئلة الخامسة) قوله تعالى ولما يدخل الايمان في قلوبكم هل فيه معنى غير معنى قوله تعالى قل لم تؤمنوا نقول نعم وبيانه من وجوه (الاول) هو انهم لما قالوا آمنا وقيل لهم لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا قالوا اذا أسلمنا فقد آمنا قيل لا فان الايمان من عمل القلب لا غير والاسلام قد يكون عمل اللسان واذا كان ذلك عمل القلب ولم يدخل في قلوبكم الايمان لم تؤمنوا (الثاني) لما قالوا آمنا وقيل لهم لم تؤمنوا قالوا جدالا قد آمنا عن صدق نية مؤكدين لما أخبروا فقال ولما يدخل الايمان في قلوبكم لان لما يفعل يقال في مقابلة قد فعل ويحتمل أن يقال بان الآية فيها اشارة الى حال المؤلفة اذا أسلموا ويكون ايمانهم بعد ضعيفا قال لهم لم تؤمنوا لان الايمان ايقان وذلك بعد لم يدخل في قلوبكم وسيدخل باطلاعكم على محاسن الاسلام وان تطيعوا الله ورسوله يكمل لكم الاجر والذي يدل على هذا هو ان لما فيها معنى التوقع والانتظار والايمان اما أن يكون بفعل المؤمن واكتسابه ونظره في الدلائل واما أن يكون الهاما يقع في قلب المؤمن فقوله قل لم تؤمنوا أي ما فعلتم ذلك أنتم وقوله تعالى ولما يدخل الايمان في قلوبكم أي ولا دخل الايمان في قلبكم الهاما من غير فعلكم فلا ايمان لكم حينئذ ثم انه تعالى عند فعلهم قال لم تؤمنوا بحرف ليس فيه معنى الانتظار لقصور نظرهم وفتور فكرهم وعند فعل الايمان قال لما يدخل بحرف فيه معنى التوقع لظهور قوة الايمان كأنه يكاد يغشى القلوب بأسرها ثم انه تعالى قال وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم أي لا ينقصكم والمراد أنكم اذا أتيتم بما يليق بضعفكم من الحسنة فهو يؤتيكم ما يليق به من الجزاء وهذا لان من حمل الى ملك فاكهة طيبة يكون ثمنها في السوق درهما وأعطاه الملك درهما أو دينارا ينسب الملك الى قلة العطاء بل البخل فليس معناه أنه يعطي مثل ذلك من غير نقص بل المعنى يعطي ما تتوقعون باعمالكم من غير نقص وفيه تحريض على الايمان الصادق لان من أتى بفعل من غير صدق نية يضيع عمله ولا يعطى عليه أجرا فقال ان تطيعوا وتصدقوا لا ينقص عليكم فلا تضيعوا أعمالكم بعدم الاخلاص وفيه أيضا تسلية لقلوب من تأخر ايمانه كأنه يقول غيري سبقني وآمن حين كان النبي وحيدا وآواه حين كان ضعيفا ونحن آمنا عندما عجزنا عن مقاومته وغلبنا بقوته فلا يكون لايماننا وقع ولا لنا عليه أجر فقال تعالى ان أجركم لا ينقص وما تتوقعون تعطون غاية ما في الباب ان التقدم يزيد في أجورهم وماذا عليكم اذا أرضاكم الله أن يعطي غيركم من خزائن رحمته رحمة واسعة وما مثالكم في ذلك الا مثال ملك أعطى واحدا شيئا وقال لغيره ماذا تتمنى فتمنى عليه بلدة واسعة وأموالا فأعطاه ووفاه ثم زاد ذلك الاول أشياء أخرى من خزائنه فان تأذى من ذلك يكون بخلا وحسدا وذلك في الآخرة لا يكون وفي الدنيا هو من صفة الاراذل وقوله تعالى ان الله

في الشك مع التهمة وفيه اشارة الى أن فيهم ما يوجب نفي الايمان عنهم وثم للاشعار بان اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الايمان ليس في حال انشائه فقط بل وفيما يستقبل فهي كما في قوله تعالى ثم استقاموا (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) في طاعته على تكثر فنونها من العبادات البدنية المحضة والمالية الصرفة والمشتملة عليهما معا كالحج والجهاد (أولئك) الموصوفون بما ذكر من الاوصاف الجميلة (هم الصادقون) أي الذين صدقوا في دعوى الايمان لا غيرهم روى أنه لما نزلت الآية جاؤا وحلفوا أنهم مؤمنون صادقون فنزل لتكذيبهم قوله تعالى (قل أتعلمون الله بدينكم) أي أتخبرونه بذلك بقولكم آمنا والتعبير عنه بالتعليم لغاية تشنيعهم (والله يعلم ما في السموات وما في الارض) حال من مفعول تعلمون مؤكدة لتشنيعهم

وقوله تعالى (والله بكل شيء عليم) تذييل مقرر لما قبله

غفور رحيم أى يغفر لكم ما قد سلف و يرحمكم بما أتيتم به * ثم قال تعالى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) ارشاد للاعراب الذين قالوا امنا الى حقيقة الايمان فقال ان كنتم تريدون الايمان فالمؤمنون من آمن بالله ورسوله ثم لم يرتابوا يعنى أيقنوا بان الايمان ايقان وثم للتراخى فى الحكاية كأنه يقول آمنوا ثم أقول شيئا آخر لم يرتابوا و يحتمل أن يقال هو للتراخى فى الفعل تقديره آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا فيما قال النبى صلى الله عليه وسلم من الحشر والنشر وقوله تعالى وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم يحقق ذلك أى أيقنوا ان بعد هذه الدار دارا فجاهدوا طالبين العقبى وقوله أولئك هم الصادقون فى ايمانهم لا الاعراب الذين قالوا قولا ولم يخلصوا عملا * ثم قال تعالى (قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الارض والله بكل شئ عليم) فانه عالم به لا يخفى عليه شئ وفيه اشارة الى ان الدين ينبغى أن يكون لله وأنتم اظهرتموه لنا لا لله فلا يقبل منكم ذلك * وقوله تعالى (يمنون عليك ان أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين) يقرر ذلك و يبين ان اسلامهم لم يكن لله وفيه لطائف (الاولى) فى قوله تعالى يمنون عليك زيادة بيان لقبيح فعلهم وذلك لان الايمان له شرفان (أحدهما) بالنسبة الى الله تعالى وهو تنزيه الله عن الشرك وتوحيده فى العظمة (وثانيهما) بالنسبة الى المؤمن فانه ينزه النفس عن الجهل و يزينها بالحق والصدق فهم لا يطلبون باسلامهم جانب الله ولا يطلبون شرف أنفسهم بل منوا ولو علموا أن فيه شرفهم لما منوا به بل شكروا (اللطيفة الثانية) قال قل لا تمنوا على اسلامكم أى الذى عندكم اسلام ولهذا قال تعالى ولكن قولوا أسلمنا ولم يقل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم لئلا يكون تصديقا لهم فى الاسلام أيضا كما لم يصدقوا فى الايمان فان قيل لم لم يجز أن يصدقوا فى اسلامهم والاسلام هو الانقياد وقد وجد منهم قولا وفعلا وان لم يوجد اعتقادا وعلما وذلك القدر كاف فى صدقهم نقول التكذيب يقع على وجهين (أحدهما) ان لا يوجد نفس المخبر عنه (وثانيهما) ان لا يوجد كما أخبر فى نفسه فقد يقول ما جئتنا بل جاءت بك الحاجة فالله تعالى كذبهم فى قولهم آمنا على الوجه الاول أى ما آمنتم أصلا ولم يصدقهم فى الاسلام على الوجه الثانى فانهم انقادوا للحاجة وأخذ الصدقة (اللطيفة الثالثة) قال بل الله يمن عليكم يعنى لا منة لكم ومع ذلك لا تسلمون رأسا برأس بحيث لا يكون لكم علينا ولا لنا عليكم منة بل المنة عليكم وقوله تعالى بل الله يمن عليكم حسن أدب حيث لم يقل لا تمنوا على بل لى المنة عليكم حيث بينت لكم الطريق المستقيم ثم فى مقابلة هذا الادب قال الله تعالى وانك لتهدى الى صراط مستقيم (اللطيفة الرابعة) لم يقل يمن عليكم أن أسلمتم بل قال أن هداكم للايمان لان اسلامهم كان ضلالة حيث كان نفاقا فما من به عليهم فان قيل كيف من عليهم بالهداية الى الايمان مع انه بين انهم لم يؤمنوا نقول الجواب عنه من ثلاثة أوجه (أحدها) انه تعالى لم يقل بل الله يمن

تجهيل وتوبيخ لهم (يمنون عليك أن أسلموا) أى يعدون اسلامهم منة عليك وهى النعمة التى لا يطلب موليها ثوابا ممن أنعم بها عليه من المن بمعنى القطع لان المقصود بها قطع حاجته وقيل النعمة الثقيلة من المن (قل لا تمنوا على اسلامكم) أى لا تعدوا اسلامكم منة على أو لا تمنوا على باسلامكم فنصب بنزع الخافض (بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان) على ما زعمتم مع أن الهداية لا تستلزم الاهتداء وقرئ ان هداكم واذ هداكم (ان كنتم صادقين) فى ادعاء الايمان وجوابه محذوف يدل عليه ما قبله أى فلله المنة عليكم وفى سياق النظم الكريم من اللطف ما لا يخفى فانهم لما سموا ما صدر عنهم ايمانا ومنوا به نفى كونه ايمانا وسمى اسلاما قيل يمنون عليك بما هو فى الحقيقة اسلام وليس بجدير بالمن بل لو صح ادعاؤهم للايمان فلله المنة عليهم بالهداية اليه لا لهم

عليكم أن رزقكم الايمان بل قال أن هداكم للايمان وارسال الرسل بالآيات البينات هداية (ثانيها) هو انه تعالى يمن عليهم بما زعموا فكأنه قال أنتم قلتم آمنا فذلك نعمة في حقكم حيث تخلصتم من النار فقال هداكم في زعمكم (ثالثها) وهو الاصح هو أن الله تعالى بين بعد ذلك شرطا فقال ان كنتم صادقين * ثم قال تعالى (ان الله يعلم غيب السموات والارض والله بصير بما تعملون) اشارة الى انه لايخفى عليه أسراركم وأعمال قلوبكم الخفية وقال بصير بما تعملون يبصر أعمال جوارحكم الظاهرة وآخر السورة مع التئامه بما قبله فيه تقرير ما في أول السورة وهو قوله تعالى لاتقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله فانه لايخفى عليه سر فلا تتركوا خوفه في السر ولايخفى عليه علن فلا تأمنوه في العلانية والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبي بعده

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ سورة ق أربعون وخمس آيات مكية ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم * ق والقرآن المجيد) وقبل التفسير نقول ما يتعلق بالسورة وهي أمور * الاول أن هذه السورة تقرأ في صلاة العيد لقوله تعالى فيها ذلك يوم الخروج وقوله تعالى كذلك الخروج وقوله تعالى ذلك حشر علينا يسير فان العيد يوم الزينة فينبغي أن لاينسى الانسان خروجه الى عرصات الحساب ولايكون في ذلك اليوم فرحا فخورا ولايرتكب فسقا ولافجورا ولما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتذكير بقوله في آخر السورة فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ذكرهم بما يناسب حالهم في يومهم بقوله ق والقرآن * الثاني هذه السورة وسورة ص يشتركان في افتتاح أولهما بالحرف المعجم والقسم بالقرآن وقوله بل والتعجب ويشتركان في شئ آخر وهو أن أول السورتين وآخرهما متناسبان وذلك لان في ص قال في أولها والقرآن ذي الذكر وقال في آخرها ان هو الا ذكر للعالمين وفي ق قال في اولها والقرآن المجيد وقال في آخرها فذكر بالقرآن من يخاف وعيد فافتتح بما اختتم به * والثالث وهو أن في تلك السورة صرف العناية الى تقرير الاصل الاول وهو التوحيد بقوله تعالى أجعل الآلهة الها واحدا وقوله تعالى أن امشوا واصبروا على آلهتكم وفي هذه السورة الى تقرير الاصل الآخر وهو الحشر بقوله تعالى أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ولما كان افتتاح السورة في ص في تقرير المبدأ قال في آخرها اذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من طين وختمه بحكاية بدء آدم لانه دليل الوحدانية ولما كان افتتاح هذه لبيان الحشر قال في آخرها يوم تشقق الارض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير * وأما التفسير ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قيل (ق) اسم جبل محيط بالعالم وقيل معناه حكمة هي قولنا قضي الامر وفي ص صدق الله وقد ذكرنا أن الحروف تنبيهات قدمت على القرآن ليبقى السامع مقبلا على استماع مايرد عليه فلا يفوته شئ من الكلام الرائق والمعنى الفائق * وذكرنا أيضا أن العبادة منها قلبية

(ان الله يعلم غيب السموات والارض) أي ما غاب فيهما (والله بصير بما تعملون) في سركم وعلانيتكم فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم وقرئ بالياء * عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحجرات أعطي من الاجر بعدد من أطاع الله وعصاه

﴿ سورة ق مكية وهي خمس وأربعون آية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ (ق والقرآن المجيد) أي ذي المجد والشرف على سائر الكتب أولانه كلام المجيد أولان من علم معانيه وعمل بما فيه مجد عند الله تعالى وعند الناس والكلام فيه كالذي فصل في مطلع سورة ص وقوله تعالى

ومنها اللسانية ومنها الجارحية ظاهرة ووجد في الجارحية ما عقل معناه ووجد منها ما لم يعقل معناه كأعمال الحج من الرمي والسعي وغيرهما ووجد في القلبية ما عقل بدليل كعلم التوحيد وامكان الحشر وصفات الله تعالى وصدق الرسل ووجد فيها ما بعدها عن كونها معقولة المعنى أمور لا يمكن التصديق والجزم بها لولا السمع كالصراط الممدود الاحد من السيف الارق من الشعر والميزان الذي يوزن به الاعمال فكذلك كان ينبغي أن تكون الاذكار التي هي العبادة اللسانية منها ما يعقل معناه كجميع القرآن الاقليلا منه ومنها ما لا يعقل ولا يفهم كحرف التهجي لكون التلفظ به محض الانقياد للامر لا لما يكون في الكلام من طيب الحكاية والقصد الى غرض كقولنا ربنا اغفر لنا وارحمنا بل يكون النطق به تعبدا محضا ويؤيد هذا وجه آخر وهو أن هذه الحروف مقسم بها وذلك لان الله تعالى لما أقسم بالتين والزيتون كان تشريفا لهما فاذا أقسم بالحروف التي هي أصل الكلام الشريف الذي هو دليل المعرفة وآلة التعريف كان أولى واذا عرفت هذا فنقول على هذا فيه مباحث (الاول) القسم من الله وقع بأمر واحد كما في قوله تعالى والعصر وقوله تعالى والنجم وبحرف واحد كما في قوله تعالى ص ون ووقع بأمرين كما في قوله تعالى والضحى والليل اذا سجى وفي قوله تعالى والسماء والطارق وبحرفين كما في قوله تعالى طه وطس ويس وحم وبثلاثة أمور كما في قوله تعالى والصافات فالزاجرات فالتاليات وبثلاثة أحرف كما في الم وفي طسم والر وبأربعة أمور كما في والذاريات وفي والسماء ذات البروج وفي والتين وبأربعة أحرف كما في المص والمر وبخمسة أمور كما في والطور وفي والمرسلات وفي والنازعات وفي والفجر وبخمسة أحرف كما في كهيعص وحم عسق ولم يقسم بأكثر من خمسة أشياء الا في سورة واحدة وهي والشمس وضحاها ولم يقسم بأكثر من خمسة أصول لانه يجمع كلمة الاستثقال ولما استثقل حين ركب لمعنى كان استثقاله حين ركب من غير احاطة العلم بالمعنى أولا لمعنى كان أشد (البحث الثاني) عند القسم بالاشياء المعهودة ذكر حرف القسم وهي الواو فقال والطور والنجم والشمس وعند القسم بالحروف لم يذكر حرف القسم فلم يقل وق وحم لان القسم لما كان بنفس الحروف كان الحرف مقسما به فلم يورده في موضع كونه آلة القسم تسوية بين الحروف ❊ (البحث الثالث) أقسم الله بالاشياء كالتين والطور ولم يقسم بأصولها وهي الجواهر الفردة والماء والتراب وأقسم بالحروف من غير تركيب لان الاشياء عنده بتركيبها على أحسن حالها وأما الحروف ان ركبت بمعنى يقع الحلف بمعناه لا باللفظ كقولنا والسماء والارض وان ركبت لا بمعنى كان المفرد أشرف فاقسم بمفردات الحروف (البحث الرابع) أقسم بالحروف في أول ثمانية وعشرين سورة وبالاشياء التي عددها عدد الحروف وهي غير والشمس في أربع عشرة سورة لان القسم بالامور غير الحروف وقع في أوائل السور وفي أثنائها كقوله تعالى كلا والقمر والليل اذا أدبر وقوله تعالى والليل وما وسق وقوله والليل اذا عسعس والقسم بالحروف لم يوجد ولم يحسن الا في أوائل السور لان ذكر ما لا يفهم معناه في اثناء

(بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) أي لان جاءهم منذر من جنسهم لا من جنس الملك أو من جلدتهم اضراب عما ينبي عنه جواب القسم المحذوف كأنه قيل والقرآن المجيد أنزلناه اليك لتنذر به الناس حسبما ورد في صدر سورة الاعراف كأنه قيل بعد ذلك لم يؤمنوا به بل جعلوا

الكلام المنظوم المفهوم يخل بالفهم ولما كان القسم بالاشياء له موضعان والقسم بالحروف له موضع واحد جعل القسم بالاشياء في أوائل السور على نصف القسم بالحروف في أوائلها (البحث الخامس) القسم بالحروف وقع في النصفين جميعا بل في كل سبع وبالاشياء المعدودة لم يوجد الا في النصف الاخير بل لم يوجد الا في السبع الاخير غير والصافات وذلك لانا بينا أن القسم بالحروف لم ينفك عن ذكر القرآن أو الكتاب أو التنزيل بعده الا نادرا فقال تعالى يس والقرآن الحكيم حم تنزيل الكتاب الم ذلك الكتاب ولما كان جميع القرآن معجزة مؤداة بالحروف وجد ذلك عاما في جميع المواضع ولا كذلك القسم بالاشياء المعدودة وقد ذكرنا شيئا من ذلك في سورة العنكبوت ولنذكر ما يختص بقاف قيل انه اسم جبل محيط بالارض عليه أطراف السماء وهو ضعيف لوجوه أحدها أن القراءة الكثيرة الوقف ولو كان اسم جبل لما جاز الوقف في الادراج لان من قال ذلك قال بان الله تعالى أقسم به وثانيها انه لو كان كذلك لذكر بحرف القسم كما في قوله تعالى والطور وذلك لان حرف القسم يحذف حيث يكون المقسم به مستحقا لأن يقسم به كقولنا الله لافعلن كذا واستحقاقه لهذا غني عن الدلالة عليه باللفظ ولا يحسن أن يقال زيد لافعلن ثالثها هو أنه لو كان كما ذكر لكان يكتب قاف مع الالف والفاء كما يكتب عين جارية ويكتب أليس الله بكاف عبده وفي جميع المصاحف يكتب حرف ق ورابعها هو أن الظاهر أن الامر فيه كالامر في ص ون وحم وهي حروف لا كلمات وكذلك في ق ❊ فان قيل هو منقول عن ابن عباس نقول المنقول عنه ان ق اسم جبل وأما ان المراد في هذا الموضع به ذلك فلا وقيل ان معناه قضي الامر وفي ص صدق الله وقيل هو اسم الفاعل من قفا يقفو وص من صاد من المصاداة وهي المعارضة ومعناه هذا قاف جميع الاشياء بالكشف ومعناه حينئذ هو قوله تعالى ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين اذا قلنا ان الكتاب هناك القرآن هذا ما قيل في ق ❊ وأما القراءة فيه فكثيرة وحصرها بيان معناها فنقول ان قلنا هي مبنية على ما بينا فحقها الوقف اذ لا عامل فيها فيشبه بناء الاصوات ويجوز الكسر حذرا من التقاء الساكنين ويجوز الفتح اختيارا للاخف فان قيل كيف جاز اختيار الفتح ههنا ولم يجز عند التقاء الساكنين اذا كان أحدهما آخر كلمة والآخر أول أخرى كما في قوله تعالى لم يكن الذين كفروا ولا تطرد الذين نقول لان هناك انما وجب التحريك وعين الكسر في الفعل لشبهة تحرك الاعراب لان الفعل محل يرد عليه الرفع والنصب ولا يوجد فيه الجر فاختيرت الكسرة التي لا يخفى على أحد انها ليست بجر لان الفعل لا يجوز فيه الجر ولو فتح لاشتبه بالنصب وأما في أواخر الاسماء فلا اشتباه لان الاسماء محل ترد عليه الحركات الثلاث فلم يكن يمكن الاحتراز فاختاروا الاخف وأما ان قلنا انها حرف مقسم به فحقها الجر ويجوز النصب بجعله مفعولا باقسم على وجه الاتصال وتقدير الباء كأن لم يوجد وان قلنا هي اسم السورة فان قلنا مقسم بها مع ذلك فحقها الفتح لانها

كلا من المنذر والمنذر به عرضة للنكير والتعجب مع كونهما أوفق شئ لقضية العقول وأقربه الى التلقي بالقبول وقيل التقدير والقرآن المجيد انك لمنذر ثم قيل بعده انهم شكوا فيه ثم أضرب عنه وقيل بل عجبوا أي لم يكتفوا بالشك والرد بل جزموا بالخلاف حتى جعلوا ذلك من الامور العجيبة وقيل هو اضراب عما يفهم

لانتصرف حينئذ فتفتح في موضع الجر كما تقول وابراهيم وأحمد في القسم بهما وان قلنا انه ليس مقسما بها وقلنا اسم السورة فحقها الرفع ان جعلناها خبرا تقديره هذه ق وان قلنا هو من قفا يقفو فحقه التنوين كقولنا هذا داع وراع وان قلنا اسم جبل فالجر والتنوين ان كان قسما * ولنعد الى التفسير فنقول الوصف قد يكون للتمييز وهو الاكثر كقولنا الكلام القديم ليتميز عن الحادث والرجل الكريم ليمتاز عن اللئيم وقد يكون لمجرد المدح كقولنا الله الكريم اذ ليس في الوجود اله آخر حتى نميزه عنه بالكريم وفي هذا الموضع يحتمل الوجهين والظاهر أنه لمجرد المدح وأما التميز فبأن نجعل القرآن اسما للمقروء ويدل عليه قوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال والمجيد العظيم وقيل المجيد هو كثير الكرم وعلى الوجهين القرآن مجيد أما على قولنا المجيد هو العظيم فلأن القرآن عظيم الفائدة ولأنه ذكر الله العظيم وذكر العظيم عظيم ولانه لم يقدر عليه أحد من الخلق وهو آية العظمة يقال ملك عظيم اذا لم يكن يغلب ويدل عليه قوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم أي الذي لايقدر على مثله أحد ليكون معجزة دالة على نبوتك وقوله تعالى بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ أي محفوظ من أن يطلع عليه أحد الا باطلاعه تعالى فلا يبدل ولا يغير ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو غير مقدور عليه فهو عظيم وأما على قولنا المجيد هو كثير الكرم فالقرآن كريم كل من طلب منه مقصوده وجده وانه مغن كل من لاذ به واغناء المحتاج غاية الكرم ويدل عليه هو أن المجيد مقرون بالحميد في قولنا انك حميد مجيد فالحميد هو المشكور والشكر على الانعام والمنعم كريم فالمجيد هو الكريم البالغ في الكرم وفيه مباحث (الاول) القرآن مقسم به فالمقسم عليه ماذا نقول فيه وجوه وضبطها بان نقول ذلك اما أن يفهم بقرينة حالية أو قرينة مقالية والمقالية اما أن تكون متقدمة على المقسم به أو متأخرة فان قلنا بأنه مفهوم من قرينة مقالية متقدمة فلا متقدم هناك لفظا الا ق فيكون التقدير هذا ق والقرآن المجيد أو ق أنزلها الله تعالى والقرآن كما تقول هذا حاتم والله أي هو المشهور بالسخاء أو يقول الهلال رأيته والله وان قلنا بأنه مفهوم من قرينة مقالية متأخرة فنقول ذلك أمران أحدهما المنذر والثاني الرجع فيكون التقدير والقرآن المجيد انك المنذر أو والقرآن المجيد ان الرجع لكائن لان الامرين ورد القسم عليهما ظاهرا أما الاول فيدل عليه قوله تعالى يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين الى أن قال لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم وأما الثاني فدل عليه قوله تعالى والطور وكتاب مسطور الى أن قال ان عذاب ربك لواقع وهذا الوجه يظهر غاية الظهور على قول من قال ق اسم جبل فان القسم يكون بالجبل والقرآن وهناك القسم بالطور والكتاب المسطور وهو الجبل والقرآن * فان قيل أي الوجهين منهما أظهر عندك قلت الاول لان المنذر أقرب من الرجع ولان الحروف رأيناها مع القرآن والمقسم كونه مرسلا ومنذرا وما رأينا الحروف ذكرت وبعدها الحشر واعتبر ذلك في سور منها

من وصف القرآن بالمجيد كأنه قيل ليس سبب امتناعهم من الايمان بالقرآن أنه لامجد له ولكن لجهلهم (فقال الكافرون هذا شئ عجيب) تفسير لتعجبهم وبيان لكونه مقارنا لغاية الانكار مع زيادة تفصيل لمحل التعجب وهذا اشارة الى كونه عليه الصلاة والسلام

لاتنصرف حينئذ فتفتح في موضع الجر كما تقول وابراهيم وأحمد في القسم بهما وان قلنا انه ليس مقسما بها وقلنا اسم السورة فحقها الرفع ان جعلناها خبرا تقديره هذه ق وان قلنا هو من قفا يقفو فحقه التنوين كقولنا هذا داع وراع وان قلنا اسم جبل فالجر والتنوين ان كان قسما * ولنعد الى التفسير فنقول الوصف قد يكون للتمييز وهو الاكثر كقولنا الكلام القديم ليتميز عن الحادث والرجل الكريم ليمتاز عن اللئيم وقد يكون لمجرد المدح كقولنا الله الكريم اذ ليس في الوجود اله آخر حتى نميزه عنه بالكريم وفي هذا الموضع يحتمل الوجهين والظاهر أنه لمجرد المدح وأما التمييز فبأن نجعل القرآن اسما للمقروء ويدل عليه قوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال والمجيد العظيم وقيل المجيد هو كثير الكرم وعلى الوجهين القرآن مجيد أما على قولنا المجيد هو العظيم فلأن القرآن عظيم الفائدة ولانه ذكر الله العظيم وذكر العظيم عظيم ولانه لم يقدر عليه أحد من الخلق وهو آية العظمة يقال ملك عظيم اذا لم يكن يغلب ويدل عليه قوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم أي الذي لا يقدر على مثله أحد ليكون معجزة دالة على نبوتك وقوله تعالى بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ أي محفوظ من أن يطلع عليه أحد الا باطلاعه تعالى فلا يبدل ولا يغير ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو غير مقدور عليه فهو عظيم وأما على قولنا المجيد هو كثير الكرم فالقرآن كريم كل من طلب منه مقصوده وجده وانه مغني كل من لاذ به واغناء المحتاج غاية الكرم ويدل عليه هو أن المجيد مقرون بالحميد في قولنا انك حميد مجيد فالحميد هو المشكور والشكر على الانعام والمنعم كريم فالمجيد هو الكريم البالغ في الكرم وفيه مباحث (الاول) القرآن مقسم به فالمقسم عليه ماذا نقول فيه وجوه وضبطها بان نقول ذلك اما أن يفهم بقرينة حالية أو قرينة مقالية والمقالية اما أن تكون متقدمة على المقسم به أو متأخرة فان قلنا بأنه مفهوم من قرينة مقالية متقدمة فلا متقدم هناك لفظا الا ق فيكون التقدير هذا ق والقرآن المجيد أو ق أنزلها الله تعالى والقرآن كما يقول هذا حاتم والله أي هو المشهور بالسخاء أو يقول الهلال رأيته والله وان قلنا بأنه مفهوم من قرينة مقالية متأخرة فنقول ذلك أمران أحدهما المنذر والثاني الرجع فيكون التقدير والقرآن المجيد انك المنذر أو والقرآن المجيد ان الرجع لكائن لان الامرين ورد القسم عليهما ظاهرا أما الاول فيدل عليه قوله تعالى يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين الى أن قال لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم وأما الثاني فدل عليه قوله تعالى والطور وكتاب مسطور الى أن قال ان عذاب ربك لواقع وهذا الوجه يظهر غاية الظهور على قول من قال ق اسم جبل فان القسم يكون بالجبل والقرآن وهناك القسم بالطور والكتاب المسطور وهو الجبل والقرآن * فان قيل أي الوجهين منهما أظهر عندك قلت الاول لان المنذر أقرب من الرجع ولان الحروف رأيناها مع القرآن والمقسم كونه مرسلا ومنذرا وما رأينا الحروف ذكرت وبعدها الحشر واعتبر ذلك في سور منها

من وصف القرآن بالمجيد كأنه قيل ليس سبب امتناعهم من الايمان بالقرآن أنه لا مجد له ولكن لجهلهم (فقال الكافرون هذا شئ عجيب) تفسير لتعجبهم وبيان لكونه مقارنا لغاية الانكار مع زيادة تفصيل لمحل التعجب وهذا اشارة الى كونه عليه الصلاة والسلام

قوله تعالى الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر ولان القرآن معجزة دالة على كون محمد رسول الله فالقسم به عليه يكون اشارة الى الدليل على طريقة القسم وليس هو بنفسه دليلا على الحشر بل فيه أمارات مفيدة للجزم بالحشر بعد معرفة صدق الرسول وأما أن قلنا هو مفهوم بقرينة حالية فهو كون محمد صلى الله عليه وسلم على الحق والكلام صفة الصدق فان الكفار كانوا ينكرون ذلك والمختار ما ذكرناه (والثاني) بل عجبوا يقتضي أن يكون هناك أمر مضرب عنه فاذلك نقول قال الواحدي ووافقه الزمخشري انه تقدير قوله ما الامر كما يقولون ونزيده وضوحا فنقول على ما اخترناه فان التقدير والله أعلم ق والقرآن المجيد انك لتنذر فكأنه قال بعده وانهم شكوا فيه فأضرب عنه * وقال (بل عجبوا ان جاءهم منذر) يعني لم يقتنعوا بالشك في صدق الامر وطرحه بالترك وبعد الامكان بل جزموا بخلافه حتى جعلوا ذلك من الامور العجيبة فان قيل فما الحكمة في هذا الاختصار العظيم في موضع واحد حذف المقسم عليه والمضرب عنه وأتى بأمر لا يفهم الا بعد الفكر العظيم ولا يفهم مع الفكر الا بالتوفيق العزيز فنقول انما حذف المقسم عليه لان الترك في بعض المواضع يفهم منه ظهور لا يفهم من الذكر وذلك لان من ذكر الملك العظيم في مجلس وأثنى عليه يكون قد عظمه فاذا قال له غيره هو لا يذكر في هذا المجلس يكون بالارشاد الى ترك الذكر دالا على عظمته فوق ما يستفيد صاحبه بذكره فالله تعالى يقول لبيان رسالتك أظهر من أن يذكر وأما حذف المضرب عنه فلان المضرب عنه اذا ذكر وأضرب عنه بأمر آخر انما يحسن اذا كان بين المذكورين تفاوت ما فاذا عظم التفاوت لا يحسن ذكرهما مع الاضراب مثاله يحسن أن يقال الوزير يعظم فلانا بل الملك يعظمه ولا يحسن أن يقال البواب يعظم فلانا بل الملك يعظمه لكون البون بينهما بعيدا اذ الاضراب للتدريج فاذا ترك المتكلم المضرب عنه صريحا وأتى بحرف الاضراب استفيد منه أمران أحدهما انه يشير الى أمر آخر قبله وثانيهما أنه يجعل الثاني تفاوتا عظيما مثل ما يكون مما لا يذكر وههنا كذلك لان الشك بعد قيام البرهان بعيد لكن القطع بخلافه في غاية ما يكون من البعد (المبحث الثالث) أن مع الفعل يكون بمثابة ذكر المصدر تقول أمرت بأن أقوم وأمرت بالقيام وتقول ما كان جوابه الا أن قال وما كان جوابه الا قوله كذا وكذا واذا كان كذلك فلم يترك عن الاتيان بالمصدر حيث جاز أن يقال أمرت أن أقوم من غير حرف الالصاق ولا يجوز أن يقال أمرت القيام بل لا بد من الباء ولذلك قالوا أي عجبوا من مجيئه نقول أن جاءهم وان كان في المعنى قائما مقام المصدر لكنه في الصورة فعل وحرف وحروف التعدية كلها حروف جارة والجار لا يدخل على الفعل فكان الواجب أن لا يدخل فلا أقل من أن يجوز عدم الدخول فجاز أن يقال عجبوا أن جاءهم ولا يجوز عجبوا مجيئهم لعدم المانع من ادخال الحرف عليه * وقوله تعالى (منهم) يصلح أن يكون مذكورا كالمقرر

منذرا بالقرآن واضمارهم أولا للاشعار بتعينهم بما أسند اليهم واظهارهم ثانيا للتسجيل عليهم بالكفر بموجبه أو عطف لتعجبهم من البعث على تعجبهم من البعثة على أن هذا اشارة الى مبهم يفسره ما بعده من الجملة الانكارية ووضع المظهر موضع المضمر اما لسبق

البعد وقوله هذا اشارة الى الحاضر القريب فينبغي أن يكون المشار اليه بذلك غير المشار اليه بهذا وذلك لايصح الاعلى قولنا * ثم قال تعالى (أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) فانهم لما أظهروا العجب من رسالته أظهروا استبعاد كلامه وهذا كما قال تعالى عنهم قالوا ماهذا الارجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا الا افك مفترى * وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله أئذا متنا وكنا ترابا انكار منهم بقول أو بمفهوم دل عليه قوله تعالى جاءهم منذر لان الانذار لما لم يكن الا بالعذاب المقيم والعقاب الاليم كان فيه الاشارة للحشر فقالوا أئذا متنا وكنا ترابا (المسئلة الثانية) ذلك اشارة الى ماقاله وهو الانذار وقوله هذا شئ عجيب اشارة الى المجئ على ماقلنا فلما اختلفت الصفتان نقول المجئ والجائي كل واحد حاضر وأما الانذار وان كان حاضرا لكن الكون المنذر به لما كان غير حاضر قالوا فيه ذلك والرجع مصدر رجع يرجع اذا كان متعديا والرجوع مصدره اذا كان لازما وكذلك الرجعى مصدر عند لزومه والرجع أيضا يصح مصدر اللازم فيحتمل أن يكون المراد بقوله ذلك رجع بعيد أي رجوع بعيد ويحتمل أن يكون المراد الرجع المتعدي ويدل على الاول قوله تعالى ان الى ربك الرجعى وعلى الثاني قوله تعالى أئنا لمردودون أي مرجعون فانه من الرجع المتعدي فان قلنا هو من المتعدي فقد أنكروا كونه مقدورا في نفسه * ثم ان الله تعالى قال (قد علمنا ماتنقص الارض منهم وعندنا كتاب حفيظ) اشارة الى دليل جواز البعث وقدرته تعالى عليه وذلك لان الله تعالى عالم بجميع أجزاء كل واحد من الموتى لايشتبه عليه جزء أحد على الآخر وقادر على الجمع والتأليف فليس الرجوع منه ببعيد وهذا كقوله تعالى وهو الخلاق العليم حيث جعل للعلم مدخلا في الاعادة وقوله قد علمنا ماتنقص الارض يعني لايخفى علينا أجزاؤهم بسبب تشتتها في تخوم الارضين وهذا جواب لما كانوا يقولون أئذا ضللنا في الارض يعني ان ذلك اشارة الى أنه تعالى كما يعلم اجزاءهم يعلم أعمالهم من ظلمهم وتعديهم بما كانوا يقولون وبما كانوا يعملون ويحتمل أن يقال معنى قوله تعالى وعندنا كتاب حفيظ هو أنه عالم بتفاصيل الاشياء وذلك لان العلم اجمالي وتفصيلي فالاجمالي كما يكون عند الانسان الذي يحفظ كتابا ويفهمه ويعلم أنه اذا سئل عن أية مسئلة تكون في الكتاب يحضر عنده الجواب ولكن ذلك لايكون نصب عينيه حرفا بحرف ولايخطر بباله في حالة بابا بابا أو فصلا فصلا ولكن عند العرض على الذهن لايحتاج الى تجديد فكر وتحديد نظر والتفصيلي مثل الذي يعبر عن الاشياء والكتاب الذي كتب فيه تلك المسائل وهذا لايوجد عند الانسان الا في مسئلة ومسئلتين أما بالنسبة الى كتاب فلا يقال وعندنا كتاب حفيظ يعني العلم عندي كما يكون في الكتاب أعلم جزأ جزأ وشيئا شيئا والحفيظ يحتمل أن يكون بمعنى المحفوظ أي محفوظ من التغيير والتبديل ويحتمل أن يكون بمعنى الحافظ أي حافظ أجزاءهم وأعمالهم بحيث لاينسى شيئا منها والثاني هو الاصح لوجهين أحدهما أن الحفيظ بمعنى الحافظ

(أئذا متنا وكنا ترابا) تقرير للتعجب وتأكيد للانكار والعامل في اذا مضمر غني عن البيان لغاية شهرته مع دلالة مابعده عليه أي أحين نموت ونصير ترابا نرجع كما ينطق به النذير والمنذر به مع كمال التباين بيننا وبين الحياة حينئذ وقرئ اذا متنا على لفظ الخبر أو على حذف أداة الانكار (ذلك) اشارة الى محل النزاع (رجع بعيد) أي عن الاوهام أو العادة أو الامكان وقيل الرجع بمعنى المرجوع الذي هو الجواب فناصب الظرف حينئذ ماينبئ عنه المنذر من البعث

وارد في القرآن قال تعالى وما أنت عليهم بحفيظ وقال تعالى والله حفيظ عليم ولان
الكتاب على ماذكرنا للتمثيل فهو يحفظ الاشياء وهو مستغن عن أن يحفظ * وقوله تعالى
(بل كذبوا بالحق) ردعليهم فان قيل ما المضروب عنه نقول فيه وجهان (أحدهما)
تقديره لم يكذب المنذر بل كذبوا هم وتقريره هو أنه تعالى لما قال عنهم انهم قالوا هذا شئ
عجيب كان معنى قولهم ان المنذر كاذب فقال تعالى لم يكذب المنذر بل هم كذبوا فان
قيل ما الحق نقول يحتمل وجوها (الاول) البرهان القائم على صدق رسول الله صلى الله
عليه وسلم (الثاني) الفرقان المنزل وهو قريب من الاول لانه برهان (الثالث) النبوة الثابتة
بالمعجزة القاهرة فانها حق (الرابع) الحشر الذي لابد من وقوعه فهو حق فان قيل بين لنا
معنى الباء في قوله تعالى بالحق وأية حاجة اليها يعني أن التكذيب متعد بنفسه فهل هي
للتعدية الى مفعول ثان أوهي زائدة كما في قوله تعالى فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون
نقول فيه بحث وتحقيق وهي في هذا الموضع لاظهار معنى التعدية وذلك لان التكذيب
هو النسبة الى الكذب لكن النسبة تارة توجد في القائل وأخرى في القول تقول كذبني
فلان وكنت صادقا وتقول كذب فلان قول فلان ويقال كذبه أي جعله كاذبا
وتقول قلت لفلان زيد يجئ غدا فتأخر عمدا حتى كذبني وكذب قولي والتكذيب في
القائل يستعمل بالباء وبدونها قال تعالى كذبت ثمود المرسلين وقال تعالى كذبت ثمود
بالنذر وفي القول كذلك غير أن الاستعمال في القائل بدون الباء أكثر قال تعالى فكذبوه
وقال وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك الى غير ذلك وفي القول الاستعمال بالباء
أكثر قال الله تعالى فكذبوا بآياتنا كلها وقال كذبوا بالحق وقال تعالى وكذب بالصدق
اذ جاءه والتحقيق فيه هو أن المفعول المطلق هو المصدر لانه هو الذي يصدر من الفاعل فان
من ضرب لم يصدر منه غير الضرب غير أن له محلا يقع فيه فيسمى مضروبا ثم اذا كان ظاهرا
لكونه محلا للفعل يستغني بظهوره عن الحرف فيعدى من غير حرف يقال ضربت عمرا
وشربت لبنا للعلم بأن الضرب لابد له من محل يقوم به والشرب لايستغني عن مشروب
يتحقق فيه واذا قلت مررت يحتاج الى الحرف ليظهر معنى التعدية لعدم ظهوره في نفسه
لان من قال مر السحاب يفهم منه مروره ولايفهم منه من مر به ثم ان الفعل قد يكون في
الظهور دون الضرب والشرب وفي الخفاء دون المرور فيجوز الاتيان فيه بدون الحرف
لظهوره الذي فوق ظهور المرور ومع الحرف لكون الظهور دون ظهور الضرب ولهذا
لايجوز أن تقول ضربت بعمرو الا اذا جعلته آلة الضرب أما اذا ضربته بسوط أوغيره
فلا يجوز فيه زيادة الباء ولايجوز مررته الا مع الاشتراك وتقول مسحته ومسحت به
وشكرته وشكرت له لان المسح امرار اليد بالشئ فصار كالمرور والشكر فعل جميل غير أنه
يقع بمحسن فالاصل في الشكر الفعل الجميل وكونه واقعا بغيره كالتبع بخلاف الضرب
فانه امساس جسم بجسم بعنف فالمضروب داخل في مفهوم الضرب أولا والمشكور

(قد علمنا ما تنقص
الارض منهم) رد
لاستبعادهم وازاحة له
فان عم علمه ولطف
حتى انتهى الى حيث
علم ما تنقص الارض
من أجساد الموتى
وتأكل من لحومهم
وعظامهم كيف
يستبعد رجعه اياهم أحياء
كما كانوا ورد عن النبي
صلى الله عليه وسلم
كل ابن آدم يبلى الاعجب
الذنب وقيل ما تنقص
الارض منهم ما يموت
فيدفن في الارض منهم
(وعندنا كتاب
حفيظ) حافظ لتفاصيل
الاشياء كلها أو محفوظ
من التغير والمراد اما
تمثيل علمه تعالى
بكليات الاشياء
وجزئياتها بعلم من
عنده كتاب محيط
يتلقى منه كل شئ أو
تأكيد لعلمه تعالى بها
بثبوتها في اللوح المحفوظ
عنده (بل كذبوا
بالحق) اضراب وانتقال
من بيان شناعتهم
السابقة الى بيان ما هو
أشنع منه وأفظع

وهو تكذيبهم للنبوة الثابتة بالمعجزات الباهرة (لما جاءهم) من غير تأمل وتفكر وقرئ لما جاءهم بالكسر على أن اللام للتوقيت أي وقت مجيئه اياهم وقيل الحق القرآن أو الاخبار بالبعث (فهم في أمر مريج) أي مضطرب لاقرار له من مرج الخاتم في اصبعه حيث يقولون تارة انه شاعر وتارة ساحر وأخرى كاهن (أفلم ينظروا) أي أغفلوا أو أعموا فلم ينظروا (الى السماء فوقهم) بحيث يشاهدونها كل وقت (كيف بنيناها) أي رفعناها بغير عمد (وزيناها) بمافيها من الكواكب المرتبة على نظام بديع (ومالها من فروج) من فتوق لملاستها وسلامتها من كل عيب وخلل تأخيرهذا لمراعاة الفواصل (والارض مددناها) أي بسطناه (وألقينافيهارواسي)

داخل في مفهوم الشكر ثانيا اذا عرفت هذا فالتكذيب في القائل ظاهر لانه هو الذي يصدق أو يكذب وفي القول غير ظاهر فكان الاستعمال فيه بالباء أكثر والباء فيه لظهور معنى التعدية * وقوله (لما جاءهم) في الجائي وجهان (أحدهما) انه هو المكذب تقديره كذبوا بالحق لما جاءهم الحق أي لم يؤخروه الى الفكر والتدبر (ثانيهما) الجائي ههنا هو الجائي في قوله تعالى بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم تقديره كذبوا بالحق لما جاءهم المنذر والاول لايصح على قولنا الحق هو الرجع لانهم لايكذبون به وقت المجئ بل يقولون هذا ماوعد الرحمن * وقوله (فهم في أمر مريج) اي مختلف مختلط قال الزجاج وغيره لانهم تارة يقولون ساحر وأخرى شاعر وطورا ينسبونه الى الكهانة وأخرى الى الجنون والاصح أن يقال هذا بيان الاختلاف المذكور في الآيات وذلك لان قوله تعالى بل عجبوا يدل على أمر سابق أضرب عنه وقد ذكرنا أنه الشك وتقديره والقرآن المجيد انك لمنذر وانهم شكوا فيك بل عجبوا بل كذبوا وهذه مراتب ثلاث الاولى الشك وفوقها التعجب لان الشاك يكون الأمران عنده سيين والمتعجب يترجح عنده اعتقاد عدم وقوع العجيب لكنه لايقطع به والمكذب الذي يجزم بخلاف ذلك فكانهم كانوا شاكين وصاروا ظانين وصاروا جازمين فقال فهم في أمر مريج و يدل عليه الفاء في قوله فهم لانه حينئذ يصير كونهم في أمر مريج مرتبا على ماتقدم وفيما ذكروه لايكون مرتبا فان قيل المريج المختلط وهذه أمور مرتبة متميزة على مقتضى العقل لان الشاك ينتهي الى درجة الظن والظان ينتهي الى درجة القطع وعند القطع لايبقى الظن وعند الظن لايبقى الشك وأما ماذكروا ففيه يحصل الاختلاط لانهم لم يكن لهم في ذلك ترتيب بل تارة كانوا يقولون كاهن وأخرى مجنون ثم كانوا يعودون الى نسبته الى الكهانة بعد نسبته الى الجنون وكذا الى الشعر بعد السحر والى السحر بعد الشعر فهذا هو المريج نقول كان الواجب أن ينتقلوا من الشك الى الظن بصدقه لعلمهم بأمانته واجتنابه الكذب طول عمره بين أظهرهم ومن الظن الى القطع بصدقه لظهور المعجزات القاهرة على يديه ولسانه فلما غيروا الترتيب حصل عليه المرج ووقع الدرك مع المرج وأما ماذكروه فالائق به تفسير قوله تعالى انكم لفي قول مختلف لان ماكان يصدر منهم في حقه كان قولا مختلفا وأما الشك والظن والجزم فامور مختلفة وفيه لطيفة وهي أن اطلاق لفظ المريج على ظنهم وقطعهم ينبئ عن عدم كون ذلك الجزم صحيحا لان الجزم الصحيح لايتغير وكان ذلك منهم واجب التغير فكان أمرهم مضطربا بخلاف المؤمن الموفق فانه لايقع في اعتقاده تردد ولا يوجد في معتقده تعدد * ثم قال تعالى (أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج) اشارة الى الدليل الذي يدفع قولهم ذلك رجع بعيد وهذا كما في قوله تعالى أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم وقوله تعالى لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس وقوله تعالى أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والارض ولم يعي بخلقهن بقادر

على أن يحيي الموتى بلى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) همزة الاستفهام تارة تدخل على الكلام ولا واو فيه وتارة تدخل عليه و بعدها واو فهل بين الحالتين فرق نقول فرق أدق مما على الفرق وهو أن يقول القائل أزيد في الدار بعد وقد طلعت الشمس يذكره للانكار فاذا قال أو زيد في الدار بعد وقد طلعت الشمس يشير بالواو اشارة خفية الى أن قبح فعله صار بمنزلة فعلين قبيحين كأنه يقول بعد ما سمع ممن صدر عن زيد هو في الدار أغفل وهو في الدار بعد لأن الواو تنبئ عن سبق أمر مغاير لما بعدها وان لم يكن هناك سابق لكنه يومئ بالواو اليه زيادة في الانكار فان قيل قال في موضع أولم ينظروا وقال ههنا أفلم ينظروا بالفاء فالفرق نقول ههنا سبق منهم انكار الرجع فقال بحرف التعقيب بمخالفة فان قيل ففي يس سبق ذلك بقوله قال من يحيي العظام نقول هناك الاستدلال بالسموات لم يعقب الانكار على عقيب الانكار استدل بدليل آخر وهو قوله تعالى قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ثم ذكر الدليل الآخر وههنا الدليل كان عقيب الانكار فذكر بالفاء وأما قوله ههنا بلفظ النظر وفي الاحقاق بلفظ الرؤية ففيه لطيفة وهي أنهم ههنا لما استبعدوا أمر الرجع بقولهم ذلك رجع بعيد استبعد استبعادهم وقال أفلم ينظروا الى السماء لأن النظر دون الرؤية فكأن النظر كان في حصول العلم بانكار الرجع ولا حاجة الى الرؤية ليقع الاستبعاد في مقابلة الاستبعاد وهناك لم يوجد منهم انكار مذكور فأرشدهم اليه بالرؤية التي هي أتم من النظر ثم انه تعالى كمل ذلك وجمله بقوله الى السماء ولم يقل في السماء لأن النظر في الشئ ينبئ عن التأمل والمبالغة والنظر الى الشئ لا ينبئ عنه لأن الى للغاية فينتهي النظر عنده في الدخول في معنى الظرف فاذا انتهى النظر اليه ينبغي أن ينفذ فيه حتى يصح معنى النظر فيه وقوله تعالى فوقهم تأكيد آخر أي وهو ظاهر فوق رؤسهم غير غائب عنهم وقوله تعالى كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج اشارة الى وجه الدلالة وأولوية الوقوع وهي للرجع أما وجه الدلالة فان الانسان له أساس هي العظام التي هي كالدعامة وقوى وأنوار كالسمع والبصر فبناء السماء أرفع من أساس البدن وزينة السماء أكمل من زينة الانسان بلحم وشحم وأما الأولوية فان السماء ما لها من فروج فتأليفها أشد وللانسان فروج ومسام ولا شك أن التأليف الاشد كالنسج الاصفق والتأليف الاضعف كالنسج الاسخف والاول أصعب عند الناس وأعجب فكيف يستبعدون الادون مع علمهم بوجود الاعلى من الله تعالى قالت الفلاسفة الآية دالة على أن السماء لا تقبل الخرق وكذلك قالوا في قوله هل ترى من فطور وقوله سبعا شدادا وتعسفوا فيه لأن قوله تعالى ما لها من فروج صريح في عدم ذلك والاخبار عن عدم الشئ لا يكون اخبارا عن عدم امكانه فان من قال ما لفلان مال لا يدل على نفي امكانه ثم انه تعالى بين خلاف قولهم بقوله واذا السماء فرجت وقال اذا السماء انفطرت وقال فهي يومئذ واهية في مقابلة قوله سبعا شدادا وقال فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان الى غير ذلك والكل

جبا لا ثوابت من رسا الشئ اذا ثبت والتعبير عنها بهذا الوصف للايذان بان القاءها بارساء الارض بها (وأنبتنا فيها من كل زوج) من كل صنف (بهيج) حسن (تبصرة وذكرى) علتان للافعال المذكورة معنى وان انتصبتا بالفعل الاخير أو لفعل مقدر بطريق الاستئناف أي فعلنا ما فعلنا تبصيرا وتذكيرا (لكل عبد منيب) أي راجع الى ربه متفكر في بدائع صنائعه وقوله تعالى (ونزلنا من السماء ماء مباركا) أي كثير المنافع شروع في بيان كيفية انبات ما ذكره من كل زوج بهيج وهو عطف على أنبتنا وما بينهما على الوجه الاخير اعتراض مقرر لما قبله ومنبه على ما بعده (فانبتنا به) أي بذلك الماء (جنات) كثيرة أي أشجارا ذوات ثمار

في الرد عليهم صريح وماذكروه في الدلالة ليس بظاهر بل وليس له دلالة خفية أيضا وأما دليلهم المعقول فاضعف وأسخف من تمسكهم بالمنقول * ثم قال تعالى (والارض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) اشارة الى دليل آخر ووجه دلالة الارض هو أنهم قالوا الانسان اذا مات وفارقته القوة الغاذية والنامية لاتعود اليه تلك القوى فنقول الارض أشد جمودا وأكثر خمودا والله تعالى ينبت فيها أنواع النبات و ينمو و يزيد فكذلك الانسان تعود اليه الحياة وذكر في الارض ثلاثة أمور كما ذكر في السماء ثلاثة أمور في الارض المد والقاء الرواسي والانبات فيها وفي السماء البناء والتزيين وسد الفروج وكل واحد في مقابلة واحد فالمد في مقابلة البناء لان المد وضع والبناء رفع والرواسي في الارض ثابتة والكواكب في السماء مركوزة مزينة لها والانبات في الارض شقها كما قال تعالى انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا وهو على خلاف سد الفروج واعدامها اذا علمت هذا ففي الانسان أشياء موضوعة وأشياء مرفوعة وأشياء ثابتة كالانف والاذن وأشياء متحركة كالمقلة واللسان وأشياء مسدودة الفروج كدور الرأس والاغشية المنسوجة نسجا ضعيفا كالصفاق وأشياء لها فروج وشقوق كالمناخر والصماخ والفم وغيرها فالقادر على الاضداد في هذا المهاد في السبع الشداد غير عاجز عن خلق نظيرها في هذه الاجساد * تفسير الرواسي قد ذكرناه في سورة لقمان والبهيج الحسن * وقوله تعالى (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) يحتمل أن يكون الامران عائدين الى الامرين المذكورين وهما السماء والارض على ان خلق السماء تبصرة وخلق الارض ذكرى ويدل عليه ان السماء زينتها مستمرة غير مستجدة في كل عام فهي كالشئ المرئي على مرور الزمان وأما الارض فهي كل سنة تأخذ زخرفها فذكر السماء تبصرة والارض تذكرة ويحتمل أن يكون كل واحد من الامرين موجودا في كل واحد من الامرين فالسماء تبصرة والارض كذلك والفرق بين التبصرة والتذكرة هو ان فيها آيات مستمرة منصوبة في مقابلة البصائر وآيات متجددة مذكرة عند التناسي وقوله لكل عبد منيب أي راجع الى التفكر والتذكر والنظر في الدلائل * ثم قال تعالى (ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات) اشارة الى دليل آخر وهو ما بين السماء والارض فيكون الاستدلال بالسماء والارض وما بينهما وذلك انزال الماء من فوق واخراج النبات من تحت وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا الاستدلال قد تقدم بقوله تعالى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج فما الفائدة في اعادته بقوله فانبتنا به جنات وحب الحصيد نقول قوله فانبتنا استدلال بنفس النبات أي الاشجار تنمو وتزيد فكذلك بدن الانسان بعد الموت ينمو و يزيد بأن يرجع الله تعالى اليه قوة النشو والنماء كما يعيدها الى الاشجار بواسطة ماء السماء وحب الحصيد فيه حذف تقديره وحب الزرع

(وحب الحصيد) أي حب الزرع الذي شانه أن يحصد من البر والشعير وأمثالهما وتخصيص انبات حبه بالذكر لانه المقصود بالذات (والنخل) عطف على جنات وتخصيصها بالذكر مع اندراجها في الجنات لبيان فضلها على سائر الاشجار وتوسيط الحب بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية مع ما فيه من مراعاة الفواصل (باسقات) أي طوالا أو حوامل من أبسقت الشاة اذا حملت فيكون من باب فعل فهو فاعل وقرئ باصقات لاجل القاف (لها طلع نضيد) أي منضود بعضه فوق بعض والمراد تراكم الطلع أو كثرة ما فيه من الثمر

الحصيد وهو المحصود أي أنشأنا جنات يقطف ثمارها وأصولها باقية وزرعا يحصد كل سنة ويزرع في كل عام أو عامين ويحتمل ان يقال التقدير ونبت الحب الحصيد والاول هو المختار وقوله تعالى والنخل باسقات اشارة الى المختلط من جنسين لان الجنات تقطف ثمارها وتثمر من غير زراعة في كل سنة لكن النخل يؤبر ولولا التأبير لم يثمر فهو جنس مختلط من الزرع والشجر فكانه تعالى خلق ما يقطف كل سنة ويزرع وخلق ما لا يزرع كل سنة ويقطف مع بقاء اصلها وخلق المركب من جنسين في الاثمار لان بعض الثمار فاكهة ولا قوت فيه وأكثر الزرع قوت والتمر فاكهة وقوت والباسقات الطوال من النخل وقوله تعالى باسقات يؤكد كمال القدرة والاختيار وذلك من حيث ان الزرع ان قيل فيه انه يمكن ان يقطف منه ثمره لضعفه وضعف حجمه فكذلك يحتاج الى اعادته كل سنة والجنات لكبرها وقوتها تبقى وتثمر سنة بعد سنة فيقال أليس النخل الباسقات أكبر وأقوى من الكرم الضعيف والنخل محتاجة كل سنة الى عمل عامل والكرم غير محتاج فالله تعالى هو الذي قدر ذلك لذلك لا للكبر والصغر والطول والقصر * قوله تعالى (لها طلع نضيد) أي منضود بعضها فوق بعض في أكمامها كما في سنبلة الزرع وهو عجيب فان الاشجار الطوال اثمارها بارزة متميز بعضها من بعض لكل واحد منها أصل يخرج منه كالجوز واللوز وغيرهما والطلع كالسنبلة الواحدة يكون على أصل واحد * ثم قال تعالى (رزقا للعباد) وفيه وجهان أحدهما نصب على المصدر لان الانبات رزق فكانه تعالى قال أنبتناها انباتا للعباد والثاني نصب على كونه مفعولا له كانه قال أنبتناها لرزق العباد وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال في خلق السماء والارض تبصرة وذكرى وفي الثمار قال رزقا والثمار أيضا فيها تبصرة وفي السماء والارض أيضا منفعة غير التبصرة والتذكرة فما الحكمة في اختيار الامرين نقول فيه وجوه أحدها أن نقول الاستدلال وقع لوجود أمرين أحدهما الاعادة والثاني البقاء بعد الاعادة فان النبي صلى الله عليه وسلم كان يخبرهم بحشر وجمع يكون بعده الثواب الدائم والعقاب الدائم وأنكروا ذلك فأما الاول فالله القادر على خلق السموات والارض قادر على خلق الخلق بعد الفناء وأما الثاني فلان البقاء في الدنيا بالرزق والقادر على اخراج الارزاق من النجم والشجر قادر على أن يرزق العبد في الجنة ويبقى فكان الاول تبصرة وتذكرة بالخلق والثاني تذكرة بالبقاء بالرزق ويدل على هذا الفصل بينهما بقوله تبصرة وذكرى حيث ذكر ذلك بعد الآيتين ثم بدأ بذكر الماء وانزاله وانباته النبات * ثانيها ان منفعة الثمار الظاهرة هي الرزق فذكرها ومنفعة السماء الظاهرة ليست أمرا عائدا الى انتفاع العباد لبعدها عن ذهنهم حتى انهم لو توهموا عدم الزرع والثمر لظنوا ان يهلكوا ولو توهموا عدم السماء فوقهم لقالوا لا يضرنا ذلك مع ان الامر بالعكس أولى لان السماء سبب الارزاق بتقدير الله وفيها غير ذلك من المنافع والثمار ان لم تكن كان العيش كما أنزل الله على قوم المن

والجملة حال من النخل كما سقات بطريق الترادف أو من ضميرها في باسقات على التداخل أو الحال هو الجار والمجرور وطلع مرتفع به على الفاعلية وقوله تعالى (رزقا للعباد) أي لنرزقهم علة لقوله تعالى فانبتنا وفي تعليله بذلك بعد تعليل أنبتنا الاول بالتبصرة والتذكير تنبيه على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه بذلك من حيث التذكر والاستبصار أهم وأقدم من تمتعه به من حيث الرزق وقيل رزقا مصدر من معنى أنبتنا لان الانبات رزق (وأحيينا به) أي بذلك الماء (بلدة ميتا) أرضا جدبة لا نماء فيها أصلا بأن جعلناها بحيث ربت وأنبتت

والسلوى وعلى قوم المائدة من السماء فذكر الاظهر للناس فى هذا الموضع * ثالثها قوله رزقا اشارة الى كونه منعما لكون تكذيبهم فى غاية القبح فانه يكون اشارة بالمنعم وهو أقبح مايكون (المسئلة الثانية) قال تبصرة وذكرى لكل عبد منيب فقيد العبد بكونه منيبا وجعل خلقها تبصرة لعباده المخلصين وقال رزقا للعباد مطلقا لان الرزق حصل لكل أحد غيران المنيب يأكل ذاكرا شاكرا للانعام وغيره يا كل كما تا كل الانعام فلم يخصص الرزق بقيد (المسئلة الثالثة) ذكر فى هذه الآية أمورا ثلاثة أيضا وهى انبات الجنات والحب والنخل كما ذكر فى السماء والارض فى كل واحدة أمورا ثلاثة وقد ثبت ان الامور الثلاثة فى الآيتين المتقدمتين متناسبة فهل هى كذلك فى هذه الآية نقول قد بينا ان الامور الثلاثة اشارة الى الاجناس الثلاثة وهى التى يبقى أصلها سنين ولا تحتاج الى عمل عامل والتى لا يبقى اصلها وتحتاج كل سنة الى عمل عامل والتى يجتمع فيها الامران وليس شئ من الثمار والزروع خارجا عنها أصلا كما ان أمور الارض منحصرة فى ثلاثة ابتداء وهو المد ووسط وهو الثبات بالجبال الراسية وثالثها هو غاية الكمال وهو الانبات والتزيين بالزخارف * ثم قال تعالى (وأحيينا به بلدة ميتا) عطفا على انبتنا به وفيه بحثان (الاول) ان قلنا ان الاستدلال بانبات الزرع وانزال الماء كان لامكان البقاء بالرزق فقوله وأحيينا به اشارة الى أنه دليل على الاعادة كما أنه دليل على البقاء ويدل عليه قوله تعالى كذلك الخروج فان قيل كيف يصح قولك استدلالا وانزال الماء كان لبيان البقاء مع أنه تعالى قال بعد ذلك وأحيينا به بلدة ميتا * وقال (كذلك الخروج) فيكون الاستدلال على البقاء قبل الاستدلال على الاحياء والاحياء سابق على الابقاء فينبغى ان يبين أولا أنه يحيى الموتى ثم يبين أنه يبقيهم نقول لما كان الاستدلال بالسموات والارض على الاعادة كافيا بعد ذكر دليل الاحياء ذكر دليل الابقاء ثم عاد واستدرك فقال هذا الدليل الدال على الابقاء دال على الاحياء وهو غير محتاج اليه لسبق دليلين قاطعين فبدأ ببيان البقاء وقال وأنبتنا به جنات ثم ثنى باعادة ذكر الاحياء فقال وأحيينا به وان قلنا ان الاستدلال بانزال الماء وانبات الزرع لا لبيان امكان الحشر فقوله وأحيينا به ينبغى أن يكون مغايرا لقوله فأنبتنا به بخلاف ما لو قلنا بالقول الاول لان الاحياء وان كان غير الانبات لكن الاستدلال لما كان به على أمرين متغايرين جاز العطف تقول خرج للتجارة وخرج للزيارة ولا يجوز أن يقال خرج للتجارة وذهب للتجارة الا اذا كان الذهاب غير الخروج فنقول الاحياء غير انبات الرزق لان بانزال الماء من السماء يخضر وجه الارض ويخرج منها أنواع من الازهار ولا يتغذى به ولا يقتات وانما يكون به زينة وجه الارض وهو أعم من الزرع والشجر لانه يوجد فى كل مكان والزرع والثمر لا يوجدان فى كل مكان فكذلك هذا الاحياء فان قيل فكان ينبغى ان يقدم فى الذكر لان اخضرار وجه الارض يكون قبل حصول الزرع والثمر ولانه يوجد فى كل مكان بخلاف الزرع والثمر نقول لما كان انبات الزرع والثمر أكمل نعمة قدمه فى الذكر

أنواع النبات والازهار فصارت تهتز بها بعد ما كانت جامدة هامدة وتذكير ميتا لان البلدة بمعنى البلد والمكان (كذلك الخروج) جملة قدم فيها الخبر للقصد الى القصر وذلك اشارة الى الحياة المستفادة من الاحياء ومافيه من معنى البعد للاشعار ببعد رتبتها أى مثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور لا شئ مخالف لها وفى التعبير عن اخراج النبات من الارض بالاحياء وعن حياة الموتى بالخروج تفخيم لشأن الانبات وتهوين لامر البعث وتحقيق للمماثلة بين اخراج النبات واحياء

(الثانى) فى قوله بلدة ميتا نقول جاز اثبات التاء فى الميت وحذفها عند وصف المؤنث بها لان الميت تخفيف للميت والميت فيعل بمعنى فاعل فيجوز فيه اثبات التاء لان التسوية فى الفعيل بمعنى المفعول كقوله ان رحمة الله قريب من المحسنين فان قيل لم سوى بين المذكر والمؤنث فى الفعيل بمعنى المفعول قلنا لان الحاجة الى التمييز بين الفاعل والمفعول أشد من الحاجة الى التمييز بين المفعول المذكر والمفعول المؤنث نظرا الى المعنى ونظرا الى اللفظ وأما المعنى فظاهر وأما اللفظ فلان المخالفة بين الفاعل والمفعول فى الوزن والحرف أشد من المخالفة بين المفعول والمفعول له اذا علم هذا فنقول فى الفعيل لم تميز الفاعل بحرف فان فعيلا جاء بمعنى الفاعل كالنصير والبصير و بمعنى المفعول كالكسير والاسير ولا تميز بحرف عند المخالفة الا الاقوى فلا تميز عند المخالفة الادنى والتحقيق فيه ان فعيلا وضع لمعنى لفظى والمفعول وضع لمعنى حقيقى فكان القائل قال استعملوا لفظ المفعول للمعنى الفلانى واستعملوا لفظ الفعيل مكان لفظ المفعول فصار فعيل كالموضوع للمفعول والمفعول كالموضوع للمعنى ولما كان تغير اللفظ تابعا لتغير المعنى تغير المفعول لكونه بازاء المعنى ولم يتغير الفعيل لكونه بازاء اللفظ فى أول الامر فان قيل فما الفرق بين هذا الموضع و بين قوله وآية لهم الارض الميتة أحييناها حيث اثبت التاء هناك نقول الارض أراد بها الوصف فقال الارض الميتة لان معنى الفاعلية ظاهر هناك والبلدة الاصل فيها الحياة لان الارض اذا صارت حية صارت آهلة وأقام بها الناس وعمروها فصارت بلدة فأسقط التاء لان معنى الفاعلية ثبت فيها والذى بمعنى الفاعل لا يثبت فيه التاء وتحقيق هذا قوله بلدة طيبة حيث أثبت التاء حيث ظهر بمعنى الفاعل ولم يثبت حيث لم يظهر وهذا بحث عزيز * وقوله تعالى (كذلك الخروج) أى كالاحياء الخروج فان قيل الاحياء يشبه به الاخراج لا الخروج فنقول تقديره أحيينا به بلدة ميتا فتشققت وخرج منها النبات كذلك تشقق و يخرج منها الاموات وهذا يؤكد قولنا الرجع بمعنى الرجوع فى قوله ذلك رجع بعيد لانه تعالى بين لهم ما استبعدوه فلو استبعدوا الرجع الذى هو من المتعدى لناسب أن يقول كذلك الاخراج ولما قال كذلك الخروج فهم انهم انكروا الرجوع فقال كذلك الخروج نقول فيه معنى لطيف على القول الآخر وذلك لانهم استبعدوا الرجع الذى هو من المتعدى بمعنى الاخراج والله تعالى أثبت الخروج وفيهما مبالغة تنبيها على بلاغة القرآن مع انها مستغنية عن البيان ووجهها هو ان الرجع والاخراج كالسبب للرجوع والخروج والسبب اذا انتفى ينتفى المسبب جزما واذا وجد وقد يتخلف عنه المسبب لمانع تقول كسرته فلم ينكسر وان كان مجازا والمسبب اذا وجد فقد وجد سببه واذا انتفى لا ينتفى السبب لما تقدم اذا علم هذا فهم أنكروا وجود السبب ونفوه و ينتفى المسبب عند انتفائه جزما فبالغوا وأنكروا الامرين جميعا لان نفى السبب نفى المسبب فأثبت الله الامرين جميعا بالخروج كما نفوا الامرين جميعا بنفى الاخراج * ثم قال تعالى (كذبت

الموتى لتوضيح منهاج القياس وتقريبه الى أفهام الناس وقوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح) الخ استيناف وارد لتقرير حقية البعث ببيان اتفاق كافة الرسل عليهم السلام عليها وتعذيب منكريها (وأصحاب الرس) قيل هم ممن بعث اليهم شعيب عليه السلام وقيل وقيل كما مر فى سورة الفرقان على التفصيل (وثمود وعاد وفرعون) أى هو وقومه ليلائم ماقبله ومابعده (واخوان لوط) قيل كانوا من أصهاره عليه الصلاة والسلام (أصحاب الايكة) هم ممن بعث اليهم شعيب عليه السلام غير اهل مدين (وقوم تبع) سبق شرح حالهم فى سورة الدخان

(كل كذب الرسل) أى فيما ارسلوا به من الشرائع التى من جملتها البعث الذى اجمعوا عليه قاطبة أى كل قوم من الاقوام المذكورين كذبوا رسولهم أو كذب جميعهم جميع الرسل بالمعنى المذكور وافراد الضمير باعتبار لفظ الكل أو كل واحد منهم كذب جميع الرسل لاتفاقهم على الدعوة الى ﴿٦٢٥﴾ التوحيد والانذار بالبعث والحشر فتكذيب واحد منهم تكذيب للكل وهذا على تقدير رسالة تبع ظاهر واما على تقدير عدمها وهو الاظهر فمعنى تكذيبه قومه الرسل تكذيبهم من قبلهم من الرسل المجمعين على التوحيد والبعث والى ذلك كان يدعوهم تبع (فحق وعيد) أى فوجب وحل عليهم وعيدى وهى كلمة العذاب وفيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد لهم (أفعيينا بالخلق الاول) استئناف مقرر لصحة البعث الذى حكيت أحوال المنكرين له من الامم المهلكة والعى بالامر العجز عنه يقال عى بالامر وعيى به اذا لم يهتد لوجه عمله والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر ينبئ عنه العى من القصد والمباشرة كأنه قيل أقصدنا الخلق الاول فعجزنا عنه حتى يتوهم عجزنا عن الاعادة (بل هم فى لبس من خلق جديد) عطف على مقدر يدل عليه ما قبله كأنه قيل هم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الاول بل هم فى خلط وشبهة فى خلق مستأنف لما فيه من مخالفة العادة وتنكير خلق لتفخيم شأنه

قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون واخوان لوط وأصحاب الايكة وقوم تبع) ذكر المكذبين تذكيرا لهم بحالهم ووبالهم وأنذرهم باهلاكهم مثل استئصالهم وتفسيره ظاهر وفيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتنبيه بأن حاله كحال من تقدمه من الرسل كذبوا وصبروا فأهلك الله مكذبيهم ونصرهم وأصحاب الرس فيهم وجوه من المفسرين من قال هم قوم شعيب ومنهم من قال هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى وهم قوم عيسى عليه السلام ومنهم من قال هم أصحاب الاخدود والرس موضع نسبوا اليه أو فعل وهو حفر البئر يقال رس اذا حفر بئرا وقد تقدم فى سورة الفرقان ذلك وقال ههنا اخوان لوط وقال قوم نوح لان لوطا كان مرسلا الى طائفة من قوم ابراهيم عليه السلام معارف لوط ونوح كان مرسلا الى خلق عظيم وقال فرعون ولم يقل قوم فرعون وقال قوم تبع لان فرعون كان هو المغتر المستخف بقومه المستبد بأمره وتبع كان معتمدا بقومه فجعل الاعتبار لفرعون ولم يقل الى قوم فرعون * وقوله تعالى (كل كذب الرسل فحق وعيد) يحتمل وجهين احدهما ان كل واحد كذب رسوله فهم كذبوا الرسل واللام حينئذ لتعريف العهد وثانيهما وهو الاصح هو ان كل واحد كذب جميع الرسل واللام حينئذ لتعريف الجنس وهو على وجهين أحدهما ان المكذب للرسول مكذب لكل رسول وثانيهما وهو الاصح ان المذكورين كانوا منكرين للرسالة والحشر بالكلية وقوله فحق وعيد أى ما وعد الله من نصرة الرسل عليهم واهلاكهم * ثم قال تعالى (أفعيينا بالخلق الاول بل هم فى لبس من خلق جديد) وفيه وجهان أحدهما أنه استدلال بدلائل الانفس لانا ذكرنا مرارا ان الدلائل أفقية ونفسية كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ولما قرن الله تعالى دلائل الآفاق عطف بعضها على بعض بحرف الواو وقال والارض مددناها وفى غير ذلك ذكر الدليل النفسى وعلى هذا فيه لطائف لفظية ومعنوية * أما اللفظية فهى أنه تعالى فى الدلائل الآفاقية عطف بعضها على بعض بحرف الواو فقال والارض مددناها وقال وأنزلنا من السماء ماء مباركا ثم فى الدليل النفسى ذكر حرف الاستفهام والفاء بعدها اشارة الى أن تلك الدلائل من جنس وهذا من جنس فلم يجعل هذا تبعا لذلك ومثل هذا مراعى فى أواخر يس حيث قال تعالى أولم ير الانسان أنا خلقناه ثم لم يعطف الدليل الافقى ههنا نقول والله أعلم ههنا وجد منهم الاستبعاد بقوله ذلك رجع بعيد فاستدل بالاكبر وهو خلق السموات ثم نزل كأنه قال لا حاجة الى ذلك الاستدلال بل فى أنفسهم دليل جواز ذلك وفى سورة يس لم يذكر استبعادهم فبدأ بالادنى وارتقى الى الاعلى والوجه الثانى يحتمل أن يكون المراد بالخلق الاول هو خلق السموات لانه هو الخلق الاول وكأنه تعالى قال أفلم ينظروا الى السماء ثم قال أفعيينا بهذا الخلق ويدل على هذا قوله تعالى أولم يروا أن الله الذى خلق السموات

والاشعار بخروجه عن حدود العادات والايذان بانه حقيق بان يبحث عنه ويهتم بمعرفته (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه) أى ماتحدثه به نفسه وهومايخطر بالبال والوسوسة الصوت الخفى ومنه وسواس الحلى والضمير لما ان جعلت موصولة والباء كما فى صوت بكذا

او للانسان ان جعلت مصدرية والباء للتعدية

(ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) أى اعلم بحاله ممن كان أقرب اليه من حبل الوريد عبر عن قرب العلم بقرب الذات تجوزا لانه موجب له وحبل الوريد مثل فى فرط القرب والحبل العرق واضافته بيانية والوريدان عرقان مكتنفان بصفحتى العنق فى مقدمها متصلان بالوتين يردان من الرأس اليه وقيل سمى وريدا لان الروح ترده (اذ يتلقى المتلقيان) منصوب بما فى أقرب من معنى الفعل والمعنى أنه لطيف يتوصل علمه الى مالاشئ أخفى منه وهو أقرب من الانسان من كل قريب حين يتلقى ويتلقن الحفيظان ما يتلفظ به وفيه ايذان بأنه تعالى غنى عن استحفاظهما لاحاطة علمه بما يخفى عليهما وانما ذلك لما فى كتبتهما وحفظهما لاعمال العبد وعرض صحائفهما يوم يقوم الاشهاد وعلم العبد بذلك مع علمه باحاطته تعالى بتفصيل أحواله خبرا من زيادة لطف له فى الكف عن السيآت والرغبة فى الحسنات * وعنه عليه الصلاة والسلام ان مقعد ملكيك على ثنيتيك

والارض ولم يعى بخلقهن ويؤيد هذا الوجه هو أن الله تعالى قال بعد هذه الآية ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه فهو كالاستدلال بخلق الانسان وهو معطوف بحرف الواو على ماتقدم من الخلق وهو بناء السماء ومد الارض وتنزيل الماء وانبات الجنات وفى تعريف الخلق الاول وتنكير خلق جديد وجهان أحدهما ماعليه الامر ان لان الاول عرفه كل واحد وعلم انفسه والخلق الجديد لم يعلم لنفسه ولم يعرفه كل احد ولان الكلام عنهم وهم لم يكونوا عالمين بالخلق الجديد والوجه الثانى ان ذلك لبيان انكارهم للخلق الثانى من كل وجه كأنهم قالوا أيكون لنا خلق ما على وجه الانكار له بالكلية وقوله تعالى بل هم فى لبس تقديره ماعيينا بل هم فى شك من خلق جديد يعنى لامانع من جهة الفاعل فيكون من جانب المفعول وهو الخلق الجديد لانهم كانوا يقولون ذلك محال وامتناع وقوع المحال بالفاعل لايوجب عجزا فيه ويقال للمشكوك فيه ملتبس كما يقال لليقين انه ظاهر وواضح ثم ان اللبس يسند الى الامر كما قلنا انه يقال ان هذا أمر ظاهر وهذا أمر ملتبس وههنا أسند الامر اليهم حيث قال هم فى لبس وذلك لان الشئ يكون وراء حجاب والناظر اليه بصير فيخفى الامر من جانب الرائى فقال ههنا بل هم فى لبس ومن فى قوله من خلق جديد يفيد فائدة وهى ابتداء الغاية كأن اللبس كان حاصلا لهم من ذلك * قوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان) فيه وجهان * أحدهما أن يكون ابتداء استدلال بخلق الانسان وهذا على قولنا أفعيينا بالخلق الاول معناه خلق السموات * وثانيهما أن يكون تتميم بيان خلق الانسان وعلى هذا قولنا الخلق الاول هو خلق الانسان أول مرة ويحتمل أن يقال هو تنبيه على أمر يوجب عودهم عن مقالهم وبيانه أنه تعالى لما قال ولقد خلقنا الانسان ونعلم ماتوسوس به نفسه كان ذلك اشارة الى أنه لايخفى عليه خافية ويعلم ذوات صدورهم وقوله (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) بيان لكمال علمه والوريد العرق الذى هو مجرى الدم يجرى فيه ويصل الى كل جزء من أجزاء البدن والله أقرب من ذلك بعلمه لان العرق تحجبه أجزاء اللحم ويخفى عنه وعلم الله تعالى لايحجب عنه شئ ويحتمل أن يقال ونحن أقرب اليه من حبل الوريد بتفرد قدرتنا فيه يجرى فيه أمرنا كما يجرى الدم فى عروقه * ثم قال تعالى (اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد مايلفظ من قول الالديه رقيب عتيد) اذ ظرف والعامل فيه ما فى قوله تعالى ونحن أقرب اليه من حبل الوريد وفيه اشارة الى أن المكلف غير متروك سدى وذلك لان الملك اذا أقام كتابا على أمر اتكل عليهم فان كان له غفلة عنه فيكون فى ذلك الوقت يتكل عليهم واذا كان عند اقامة الكتاب لايبعد عن ذلك الامر ولا يغفل عنه فهو عند عدم ذلك أقرب اليه وأشد اقبالا عليه فنقول الله فى وقت أخذ الملكين منه فعله وقوله أقرب اليه من عرقه المخالط له فعند ما يخفى عليهما شئ يكون حفظنا بحاله أكمل وأتم ويحتمل أن يقال التلقى من الاستقبال يقال فلان يلقى الركب وعلى هذا الوجه فيكون معناه وقت مايتلقاه المتلقيان

ولسانك قلمهما وريقك مداده وأنت تجري فيما لا يعنيك لا تستحيي من الله ولا منهما وقد جوز أن يكون تلقي الملكين بيانا للاقرب على معنى انا أقرب اليه مطلعون على أعماله لان حفظتنا وكتبتنا موكلون به (عن اليمين وعن الشمال قعيد) أي عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد أي مقاعد كالجليس بمعنى المجالس لفظا ومعنى فحذف الاول لدلالة الثاني عليه كما في قول من قال * رماني بامر كنت منه ووالدي * بريا ومن أجل الطوى رماني وقيل يطلق الفعيل على الواحد والمتعدد كما في قوله تعالى والملائكة بعد ذلك ظهير (ما يلفظ من قول) ما يرمي به من فيه من خير أو شر وقرئ ما يلفظ على البناء للمفعول (الا لديه رقيب) ملك يرقب قوله ويكتبه فان كان خيرا فهو صاحب اليمين بعينه والا فهو صاحب الشمال ووجه تغيير العنوان غني عن البيان والافراد مع وقوفهما معا على ما صدر عنه لما أن كلا منهما رقيب لما فوض اليه لا لما فوض الى صاحبه كما ينبئ عنه قوله تعالى (عتيد) أي معد مهيأ لكتابة ما أمر به من الخير والشر ومن لم يتنبه له توهم ان معناه رقيبان عتيدان وتخصيص القول بالذكر لاثبات الحكم في الفعل بدلالة النص واختلف فيما يكتبانه فقيل يكتبان كل شئ حتى أنينه في مرضه وقيل انما يكتبان ما فيه أجر أو وزر وهو الاظهر كما ينبئ عنه قوله صلى الله عليه وسلم كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيآت

يكون عن يمينه وعن شماله قعيد فالمتلقيان على هذا الوجه هما الملكان اللذان يأخذان روحه من ملك الموت أحدهما يأخذ ارواح الصالحين وينقلها الى السرور والحبور الى يوم النشور والآخر يأخذ ارواح الطالحين وينقلها الى الويل والثبور الى يوم الحشر من القبور فقال تعالى وقت تلقيهما وسؤالهما انه من اي القبيلين يكون عند الرجل قعيد عن اليمين وقعيد عن الشمال يعني الملكان ينزلان وعنده ملكان آخران كاتبان لاعماله يسألانهما من اي القبيلين كان فان كان من الصالحين يأخذ روحه ملك السرور ويرجع الى الملك الآخر مسرورا حيث لم يكن مسرورا ممن يأخذها هو وان كان من الطالحين يأخذها ملك العذاب ويرجع الى الآخر محزونا حيث لم يكن ممن يأخذها هو ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى سائق وشهيد فالشهيد هو القعيد والسائق هو المتلقي يتلقى اخذ روحه من ملك الموت فيسوقه الى منزله وقت الاعادة وهذا اعرف الوجهين وأقربهما الى الفهم وقول القائل جلست عن يمين فلان فيه انباء عن تنحيه عنه احتراما له واجتنابا منه وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال نحن أقرب اليه من حبل الوريد المخالط لاجزائه المداخل في أعضائه والملك متنح عنه فيكون علمنا به أكمل من علم الكاتب لكن من أجلس عنده أحدا ليكتب أفعاله وأقواله ويكون الكاتب ناهضا خبيرا والملك الذي أجلس الرقيب يكون جبارا عظيما فنفسه أقرب اليه من الكاتب بكثير والقعيد هو الجليس كما ان قعد بمعنى جلس * وقوله تعالى (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) أي شدته التي تذهب العقول وتذهل الفطن وقوله بالحق يحتمل وجوها أحدها أن يكون المراد منه الموت فانه حق كأن شدة الموت تحضر الموت والباء حينئذ للتعدية يقال جاء فلان بكذا أي أحضره ثانيها أن يكون المراد من الحق ما أتى به من الدين لانه حق وهو يظهر عند شدة الموت وما من أحد الا وهو في تلك الحالة يظهر الايمان لكنه لا يقبل الا من سبق منه ذلك وآمن بالغيب ومعنى المجيء به هو أنه يظهره كما يقال الدين الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم أي اظهره ولما كانت شدة الموت مظهرة له قيل فيه جاء به والباء حينئذ يحتمل أن يكون المراد منها ملتبسة يقال جئتك بأمل فسيح وقلب خاشع وقوله ذلك يحتمل أن يكون اشارة الى الموت ويحتمل أن يكون اشارة الى الحق وحاد عن الطريق أي مال عنه والخطاب قيل مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو منكر وقيل مع الكافرين وهو أقرب والاقوى أن يقال هو خطاب عام مع السامع كأنه يقول ذلك ما كنت منه تحيد أيها السامع * وقوله تعالى (ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد) عطف على قوله وجاءت سكرة الموت والمراد منه اما النفخة الاولى فيكون بيانا لما يكون عند مجيء سكرة الموت أو النفخة الثانية وهو أظهر لان قوله تعالى ذلك يوم الوعيد بالنفخة الثانية أليق ويكون قوله وجاءت سكرة الموت اشارة الى الاماتة وقوله ونفخ في الصور اشارة الى الاعادة والاحياء وقوله تعالى ذلك ذكر الزمخشري أنه اشارة الى المصدر الذي من قوله ونفخ أي وقت

على يساره وكاتب الحسنات امير على كاتب السيآت فاذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر (وجاءت سكرة الموت بالحق) بعد ماذكر استبعادهم للبعث والجزاء وأزيح ذلك بتحقيق قدرته تعالى وعلمه وبين أن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة عليهم أتبع ذلك ببيان مايلاقونه لامحالة من الموت والبعث ومايتفرع عليه من الاحوال والاهوال وقد عبر عن وقوع كل منها بصيغة الماضي ايذانا بتحققها وغاية اقترابها وسكرة الموت شدته الذاهبة بالعقل والباء اما للتعدية كما في قولك جاء الرسول بالخبر والمعنى أحضرت سكرة الموت حقيقة الامر الذي نطقت به كتب الله ورسله أوحقيقة الامر وجلية الحال من سعادة الميت وشقاوته وقيل الحق الذي لابد أن يكون لامحالة من الموت أو الجزاء فان الانسان خلق له واما للملابسة كالتي في قوله تعالى تنبت بالدهن أي ملتبسة بالحق أي بحقيقة الامر أو بالحكمة والغاية الجميلة وقرئ سكرة الحق بالموت والمعنى انها السكرة التي كتبت على الانسان بموجب الحكمة وأنها لشدتها توجب زهوق الروح أو تستعقبه وقيل الباء بمعنى مع وقيل سكرة الحق سكرة الله تعالى على أن الاضافة للتهويل وقرئ سكرات الموت (ذلك) أي الموت (ماكنت منه تحيد) أي تميل وتنفر عنه والخطاب للانسان فان النفرة عنه شاملة لكل فرد

ذلك النفخ يوم الوعيد وهو ضعيف لان يوم لوكان منصوبا لكان ماذكرناظاهرا وأما رفع يوم فيفيد أن ذلك نفس اليوم والمصدر لايكون نفس الزمان وانما يكون في الزمان فالاولى أن يقال ذلك اشارة الى الزمان المفهوم من قوله ونفخ لان الفعل كما يدل على المصدر يدل على الزمان فكأنه تعالى قال ذلك الزمان يوم الوعيد والوعيد هو الذي أوعد به من الحشر والاتيان والمجازاة ❋ وقوله تعالى (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) فيه مباحث قيل أن السائق هو الذي يسوقه الى الموقف ومنه الى مقعده والشهيد هو الكاتب والسائق لازم للبر والفاجر أما البر فيساق الى الجنة وأما الفاجر فالى النار وقال تعالى وسيق الذين كفروا وسيق الذين اتقوا ربهم ❋ وقوله تعالى (لقد كنت في غفلة من هذا) اما على تقدير يقال له أو قيل له لقد كنت كما قال تعالى وقال لهم خزنتها وقال تعالى قيل ادخلوا أبواب جهنم والخطاب عام اما الكافر فمعلوم الدخول في هذا الحكم واما المؤمن فانه يزداد علما ويظهر له ماكان مخفيا عنه ويرى علمه يقينا رأى المعتبر يقينا فيكون بالنسبة الى تلك الاحوال وشدة الاهوال كالغافل وفيه الوجهان اللذان ذكرناهما في قوله تعالى ما كنت منه تحيد والغفلة شئ من الغطاء كاللبس وأكثر منه لان الشاك يلتبس الامر عليه والغافل يكون الامر بالكلية محجوبا قلبه عنه وهو الغلف ❋ وقوله تعالى (فكشفنا عنك غطاءك) أي أزلنا عنك غفلتك (فبصرك اليوم حديد) وكان من قبل كليلا وقرئ ذلك حديدا وكان في الدنيا كليلا واليه الاشارة ❋ بقوله تعالى (وقال قرينه هذا مالدي عتيد) وفي القرين وجهان أحدهما الشيطان الذي زين الكفر له والعصيان وهو الذي قال تعالى فيه وقيضنا لهم قرناء وقال تعالى نقيض له شيطانا فهو له قرين وقال تعالى فبئس القرين فالاشارة بهذا الى المرتكب الفجور والفسوق والعتيد معناه المعد للنار وجملة الآية معناها أن الشيطان يقول هذا العاصي شئ هو عندي معد لجهنم أعددته بالاغواء والاضلال والوجه الثاني قال قرينه أي الملك الشهيد الذي سبق ذكره وهو الملك وهذا اشارة الى كتاب أعماله وذلك لان الشيطان في ذلك الوقت لايكون له من المكانة أن يقول ذلك القول ولان قوله هذا مالدي عتيد فيكون عتيد صفته وثانيهما أن تكون موصولة فيكون عتيد محتملا[٦] لثلاثة أوجه أحدها أن يكون خبرا بعد خبر والخبر الاول مالدي معناه هذا الذي وهو عتيد وثانيها أن يكون عتيد هو الخبر لاغير ومالدي يقع كالوصف المميز للعتيد عن غيره كما تقول هذا الذي عندي زيد وهذا الذي يجيئني عمرو فيكون الذي عندي والذي يجيئني لتمييز المشار اليه عن غيره ثم تخبر عنه بما بعده ثم يقال للسائق أو الشهيد (ألقيا في جهنم) فيكون هو أمرا لواحد وفيه وجهان أحدهما أنه مثنى تكرار الامر كما يقال ألق ألق وثانيهما عادة العرب ذلك ❋ وقوله (كل كفار عنيد) الكفار يحتمل أن يكون من الكفران فيكون بمعنى كثير

﴿ الكفران ﴾

٦ قوله لثلاثة أوجه قد أخل بالثالث اهـ

من امرائه عليها (ونفخ في الصور) هي النفخة الثانية (ذلك) اى وقت ذلك النفخ على حذف المضاف (يوم الوعيد) أي يوم انجاز الوعيد الواقع في الدنيا أو يوم وقوع الوعيد على أنه عبارة عن العذاب الموعود وقيل ذلك اشارة الى الزمان المفهوم من نفخ فان الفعل

كما يدل على الحدث يدل على الزمان وتخصيص الوعيد بالذكر مع أنه يوم الوعد أيضا للتهويل ولذلك بدئ ببيان حال الكفرة (وجاءت كل نفس) من النفوس البرة والفاجرة (معها سائق وشهيد) وان اختلفت كيفية السوق والشهادة حسب اختلاف النفوس عملا أي معها ملكان أحدهما يسوقها الى المحشر والآخر يشهد بعملها أو ملك جامع بين الوصفين كأنه قيل معها ملك يسوقها ويشهد عليها وقيل السائق كاتب السيآت والشهيد كاتب الحسنات وقيل السائق نفسه أو قرينه والشهيد جوارحه أو أعماله ومحل معها النصب على الحالية من كل لاضافته الى ما هو في حكم المعرفة كأنه قيل كل النفوس أو الجر على أنه وصف لنفس أو الرفع على أنه وصف لكل وقوله تعالى (لقد كنت في غفلة من هذا) محكي باضمار قول هو إما صفة أخرى لنفس أو حال أخرى منها أو استئناف مبني على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل فماذا يفعل بها فقيل يقال لقد كنت في غفلة الخ وخطاب الكل بذلك لما أنه ما من احد الا وله غفلة ما من الآخرة وقيل الخطاب للكافر وقرئ كنت بكسر التاء

الكفران ويحتمل أن يكون من الكفر فيكون بمعنى شديد الكفر والتشديد في لفظة فعال يدل على شدة في المعنى والعنيد فعيل بمعنى فاعل من عند عنودا ومنه العناد فان كان الكفار من الكفران فهو أنكر نعم الله مع كثرتها * وقوله تعالى (مناع للخير) فيه وجهان أحدهما كثير المنع للمال الواجب وان كان من الكفر فهو أنكر دلائل وحدانية الله مع قوتها وظهورها فكان شديد الكفر عنيدا حيث أنكر الأمر اللائح والحق الواضح وكان كثير الكفران لوجود الكفران منه عند كل نعمة عنيدا ينكرها مع كثرتها عن المستحق الطالب والخير هو المال فيكون كقوله تعالى وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة حيث بدأ ببيان الشرك وثنى بالامتناع من ايتاء الزكاة وعلى هذا ففيه مناسبة شديدة اذا جعلنا الكفار من الكفران كأنه يقول كفر أنعم الله تعالى ولم يؤد منها شيأ لشكر أنعمه ثانيهما شديد المنع من الايمان فهو مناع للخير وهو الايمان الذي هو خير محض من أن يدخل في قلوب العباد وعلى هذا ففيه مناسبة شديدة اذا جعلنا الكفار من الكفر كأنه يقول كفر بالله ولم يقتنع بكفره حتى منع الخير من الغير * وقوله تعالى (معتد) فيه وجهان أحدهما أن يكون قوله معتد مرتبا على مناع بمعنى مناع الزكاة فيكون معناه لم يؤد الواجب وتعدى ذلك حتى أخذ الحرام أيضا بالربا والسرقة كما كان عادة المشركين وثانيهما أن يكون قوله معتد مرتبا على مناع بمعنى منع الايمان كأنه يقول منع الايمان ولم يقنع به حتى تعداه وأهان من آمن وآذاه وأعان من كفر وآواه * وقوله تعالى (مريب) فيه وجهان أحدهما ذو ريب وهذا على قولنا الكفار كثير الكفران والمناع مانع الزكاة كأنه يقول لا يعطي الزكاة لأنه في ريب من الآخرة والثواب فيقول لا أقدم مالا من غير عوض وثانيهما مريب يوقع الغير في الريب بالقاء الشبهة والارابة جاءت بالمعنيين جميعا وفي الآية ترتيب آخر غير ما ذكرناه وهو أن يقال هذا بيان أحوال الكفار بالنسبة الى الله والى رسول الله والى اليوم الآخر فقوله كفار عنيد اشارة الى حاله مع الله يكفر به ويعاند آياته وقوله مناع للخير معتد اشارة الى حاله مع رسول الله فيمنع الناس من اتباعه ومن الانفاق على من عنده ويتعدى بالايذاء وكثرة الهذاء وقوله مريب اشارة الى حاله بالنسبة الى اليوم الآخر يريب فيه ويرتاب ولا يظن أن الساعة قائمة فان قيل قوله تعالى ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير الى غير ذلك يوجب أن يكون الالقاء خاصا بمن اجتمع فيه هذه الصفات بأسرها والكفر كاف في ايراث الالقاء في جهنم والامر به فنقول قوله تعالى كل كفار عنيد ليس المراد منه الوصف المميز كما يقال أعط العالم الزاهد بل المراد الوصف المبين بكون الموصوف موصوفا به اما على سبيل المدح أو على سبيل الذم كما يقال هذا حاتم السخي فقوله كل كفار عنيد يفيد أن الكفار عنيد ومناع فالكفار كافر لان آيات الوحدانية ظاهرة ونعم الله تعالى على عباده وافرة وعنيد ومناع للخير لانه يمدح دينه ويذم دين الحق

على اعتبار تانيث النفس والتذكير على القراءة المشهورة بتأويل الشخص كما فى قول جبلة بن حريث * يانفس انك باللذات مسرور * فاذكر فهل ينفعك اليوم تذكير (وكشفنا عنك غطاءك) الغطاء الحجاب المغطى لامور المعاد وهو الغفلة والانهماك فى المحسوسات والالف بها وقصر النظر عليها (فبصرك اليوم حديد) نافذ لزوال المانع للابصار وقرئ بكسر الكاف فى المواضع الثلاثة (وقال قرينه) أى الشيطان المقيض له مشيرا اليه (هذا مالدى عتيد) أى هذا ماعندى وفى ملكتى عتيد لجهنم قد هيأته لها باغوائى واضلالى وقيل قال الملك الموكل به مشيرا الى مامعه من كتاب عمله هذا مكتوب عندى عتيد مهيأ للعرض وما ان جعلت موصوفة فعتيد صفتها وان جعلت موصولة فهى بدل منها أو خبر لمبتدا محذوف (ألقيا فى جهنم كل كفار) خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد أو للملكين من خزنة النار أو لواحد على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل وتكريره كقول من قال * فان تزجرانى يا ابن عفان أنزجر * وان تدعانى أحم عرضا ممنعا قوله المسئلة الثالثة اطراف الكلام فيها غير ملتئمة كما لا يخفى ﴿ والعظمة ﴾

فهو يمنع ومريب لانه شاك فى الحشر فكل كافر فهو موصوف بهذه الصفات * وقوله تعالى (الذى جعل مع الله الها آخر فألقياه فى العذاب الشديد) فيه ثلاثة أوجه (أحدها) أنه بدل من قوله كل كفار عنيد (ثانيها) أنه عطف على كل كفار عنيد (ثالثها) أن يكون عطفا على قوله ألقيا فى جهنم كأنه قال ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد أى والذى جعل مع الله الها آخر فألقياه بعد ما ألقيتموه فى جهنم فى عذاب شديد من عذاب جهنم * ثم قال تعالى (قال قرينه ربنا ما أطغيته) وهو جواب لكلام مقدر كأن الكافر حين ما يلقى فى النار يقول ربنا أطغانى شيطانى فيقول الشيطان ربنا ما أطغيته يدل عليه قوله تعالى بعد هذا قال لا تختصموا لدى لان الاختصام يستدعى كلاما من الجانبين وحينئذ هذا كما قال الله تعالى فى هذه السورة وفى ص قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم وقوله تعالى قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده الى أن قال ان ذلك لحق تخاصم أهل النار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الزمخشرى المراد بالقرين فى الآية المتقدمة هو الشيطان لا الملك الذى هو شهيد وقعيد واستدل عليه بهذا وقال غيره المراد الملك لا الشيطان وهذا يصلح دليلا لمن قال ذلك وبيانه هو أنه فى الاول لو كان المراد الشيطان فيكون قوله هذا مالدى عتيد معناه هذا الشخص عندى عتيد معتد للنار اعتدته باغوائى فان الزمخشرى صرح فى تفسير ذلك بهذا وعلى هذا فيكون قوله ربنا ما أطغيته مناقضا لقوله اعتدته وللزمخشرى أن يقول الجواب عنه من وجهين أحدهما أن يقول ان الشيطان يقول اعتدته بمعنى زينت له الامر وما ألجأته فيصح القولان من الشيطان وثانيهما أن تكون الاشارة الى حالين ففى الحالة الاولى انما فعلت به ذلك اظهارا للانتقام من بنى آدم وتصحيحا لما قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين ثم اذا رأى العذاب وأنه معه مشترك وله على الاغواء عذاب كما قال تعالى فالحق والحق أقول لاملأن جهنم منك وممن تبعك فيقول ربنا ما أطغيته فيرجع عن مقالته عند ظهور العذاب (المسئلة الثانية) قال ههنا قال قرينه من غير واو وقال فى الآية الاولى وقال قرينه بالواو العاطفة وذلك لان فى الاول الاشارة وقعت الى معنيين مجتمعين وان كل نفس فى ذلك الوقت تجىء ومعها سائق ويقول الشهيد ذلك القول وفى الثانى لم يوجد هناك معنيان مجتمعان حتى يذكر بالواو والفاء فى قوله فألقياه فى العذاب لا يناسب قوله تعالى قال قرينه ربنا ما أطغيته مناسبة مقتضية للعطف بالواو (المسئلة الثالثة ؟) القائل ههنا واحد وقال ربنا ولم يقل رب وفى كثير من المواضع مع كون القائل واحدا قال رب كما فى قوله قال رب أرنى أنظر اليك وقول نوح رب اغفر لى وقوله تعالى قال رب السجن أحب الى وقوله قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة الى غير ذلك وقوله تعالى قال رب أنظرنى الى يوم يبعثون نقول فى جميع تلك المواضع القائل طالب ولا يحسن أن يقول الطالب يارب عمرنى واخصصنى وأعطنى كذا وانما يقول أعطنا لان كونه ربا لا يناسب تخصيص الطالب وأما هذا الموضع فموضع الهيبة

أو على أن الالف بدل من نون التأكيد على اجراء الوصل مجرى الوقف و يؤيده أنه قرئ ألقين بالنون الخفيفة (عنيد)
معاند للحق (مناع للخير) كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة وقيل المراد بالخير الاسلام فان الآية نزلت

والعصمة وعرض الحال دون الطلب فقال ربنا ما أطغيته * وقوله تعالى (ولكن كان في ضلال بعيد) يعني أن ذلك لم يكن باطغائه وانما كان ضالا ضلالا في الضلال فسعى وفيه مسائل (المسألة الاولى) ما الوجه في اتصاف الضلال بالبعيد نقول الضال يكون أكثر ضلالا عن الطريق فاذا تمادى في الضلال وبقي فيه مدة يبعد عن المقصد كثيرا واذا علم الضلال قصر في الطريق من قريب فلا يبعد عن المقصد كثيرا فقوله ضلال بعيد وصف المصدر بما يوصف به الفاعل كما يقال كلام صادق وعيشة راضية أي ضلال ذو بعد والضلال اذا بعد مداه وامتد الضال فيه يصير بينا ويظهر الضلال لان من حاد عن الطريق وأبعد عنه تتغير عليه السمات والجهات ولا يرى عين المقصد ويتبين له أنه ضل عن الطريق وربما يقع في أودية ومفاوز ويظهر له امارات الضلال بخلاف من حاد قليلا فالضلال وصفه الله تعالى بالوصفين في كثير من المواضع فقال تارة في ضلال مبين وأخرى قال في ضلال بعيد (المسألة الثانية) قوله تعالى ولكن كان في ضلال بعيد اشارة الى قوله الا عبادك منهم المخلصين وقوله تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان أي لم يكونوا من العباد فجعلتهم أهل العناد ولو كان لهم في سبيلك قدم لما كان لي عليهم من يد والله أعلم (المسألة الثالثة) كيف قال ما أطغيته مع أنه قال لأغوينهم أجمعين قلنا الجواب عنه من ثلاثة أوجه وجهان قد تقدما في الاعتذار عما قاله الزمخشري والثالث هو أن يكون المراد من قوله لأغوينهم أي لأديمنهم على الغواية كما أن الضال اذا قال له شخص أنت على الجادة فلا تتركها يقال انه يضله كذلك ههنا وقوله ما أطغيته أي ما كان ابتداء الاطغاء مني * ثم قال تعالى (قال لا تختصموا لدي) قد ذكرنا ان هذا دليل على أن هناك كلاما قبل قوله قال قرينه ربنا ما أطغيته وهو قول الملقى في النار ربنا أطغاني وقوله لا تختصموا لدي يفيد مفهومه أن الاختصام كان ينبغي أن يكون قبل الحضور والوقوف بين يدي * وقوله تعالى (وقد قدمت اليكم بالوعيد) تقرير للمنع من الاختصام و بيان لعدم فائدته كأنه يقول قد قلت انكم اذا اتبعتم الشيطان تدخلون النار وقد اتبعتموه فان قيل ما حكم الباء في قوله تعالى بالوعيد قلنا فيها وجوه أحدها أنها مزيدة كما في قوله تعالى تنبت بالدهن على قول من قال انها هناك زائدة وقوله وكفى بالله وثانيها معدية فقدمت بمعنى تقدمت كما في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ثالثها في الكلام اضمار تقديره وقد قدمت اليكم مقترنا بالوعيد ما يبدل القول لدي فيكون المقدم هو قوله ما يبدل القول لدي والباء بمعناها للمصاحبة يقول القائل اشتريت الفرس بلجامه وسرجه أي معه فيكون كأنه تعالى قال قدمت اليكم ما يجب مع الوعيد على تركه بالانذار * وقوله تعالى (ما يبدل القول لدي) يحتمل وجهين أحدهما أن يكون قوله لدي متعلقا بالقول أي ما يبدل القول الذي لدي وثانيهما أن يكون ذلك متعلقا بقوله ما يبدل أي لا يقع التبديل عندي وعلى الوجه الاول في القول

في الوليد بن المغيرة لما منع بني أخيه منه (معتد) ظالم متخط للحق (مريب) شاك في الله وفي دينه (الذي جعل مع الله الها آخر) مبتدأ متضمن لمعنى الشرط خبره (فألقياه في العذاب الشديد) او بدل من كل كفار وقوله تعالى فألقياه تكرير للتوكيد أو مفعول لمضمر يفسره فألقياه (قال قرينه) أي الشيطان المقيض له وانما استؤنف استئناف الجمل الواقعة في حكاية المقاولة لما أنه جواب لمحذوف دل عليه قوله تعالى (ربنا ما أطغيته) فانه منبئ عن سابقة كلام اعتذر به الكافر كأنه قال هو أطغاني فأجاب قرينه بتكذيبه واسناد الطغيان اليه بخلاف الجملة الاولى فانها واجبة العطف على ما قبلها دلالة على أن الجمع بين مفهوميهما في الحصول أعني مجيء كل نفس مع الملكين وقول قرينه (ولكن كان) هو بالذات (في ضلال بعيد) من الحق فأعنته عليه بالاغواء والدعوة اليه من غير قسر والجاء كما في قوله تعالى وما كان لي عليكم

من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي (قال) استئناف مبني على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل فماذا قال الله تعالى فقيل قال (لا تختصموا لدي) أي في موقف الحساب والجزاء اذ لا فائدة في ذلك (وقد قدمت اليكم بالوعيد) على الطغيان في دار الكسب في كتبي وعلى ألسنة رسلي فلا تطمعوا في الخلاص عنه بما أنتم فيه من التعلل بالمعاذير الباطلة والجملة حال فيها تعليل للنهي على معنى لا تختصموا وقد صح عندكم أني قدمت اليكم بالوعيد حيث قلت لابليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين فاتبعتموه معرضين عن الحق فلا وجه للاختصام في هذا الوقت والباء مزيدة أو معدية على أن قدم بمعنى تقدم وقد جوز أن يكون قدمت واقعا على قوله تعالى (ما يبدل القول لدي) الخ ويكون بالوعيد متعلقا بمحذوف هو حال من المفعول أو الفاعل أي وقد قدمت اليكم هذا القول ملتبسا بالوعيد مقترنا به أو قدمته اليكم موعدا لكم به فلا تطمعوا أن أبدل وعيدي والعفو عن بعض المذنبين لأسباب داعية اليه ليس بتبديل فان دلائل العفو تدل على تخصيص الوعيد

الذي لديه وجوه (أحدها) هو أنه لما قالوا ربنا ما أطغيته يبدل ما قيل في حقهم ألقيا بقول الله بعد اعتذارهم لا تلقياه فقال تعالى لا يبدل هذا القول لدي وكذلك قوله وقيل ادخلوا أبواب جهنم لا تبديل له (ثانيها) هو قوله ولكن حق القول مني لأملأن جهنم أي لا تبديل لهذا القول (ثالثها) لا خلف في ايعاد الله تعالى كما لا خلف في ميعاد الله وهذا رد على المرجئة حيث قالوا ما ورد في القرآن من الوعيد فهو تخويف لا يحقق الله شيأ منه وقالوا الكريم اذا وعد أنجز ووفى واذا أوعد أخلف وعفا (رابعها) لا يبدل القول السابق ان هذا شقي وهذا سعيد حين خلقت العباد قلت هذا شقي ويعمل عمل الاشقياء وهذا تقي ويعمل عمل الاتقياء وذلك القول عندي لا تبديل له بسعي ساع ولا سعادة الا بتوفيق الله تعالى وأما على الوجه الثاني في لا يبدل وجوه أيضا أحدها لا يكذب لدي ولا يفترى بين يدي فاني عالم علمت من طغى ومن أطغى ومن كان طاغيا ومن كان أطغى فلا يفيدكم قولكم أطغاني شيطاني ولا قول الشيطان ربنا ما أطغيته ثانيها اشارة الى معنى قوله تعالى فارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا كأنه تعالى قال لو أردتم ان لا أقول فألقياه في العذاب الشديد كنتم بدلتم هذا من قبل بتبديل الكفر بالايمان قبل ان تقفوا بين يدي وأما الآن فما يبدل القول لدي كما قلنا في قوله تعالى قال لا تختصموا لدي المراد ان اختصامكم كان يجب ان يكون قبل هذا حيث قلت ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ثالثها معناه لا يبدل الكفر بالايمان لدي فان الايمان عند اليأس غير مقبول فقولكم ربنا والهنا لا يفيدكم فمن تكلم بكلمة الكفر لا يفيده قوله ربنا ما أشركنا وقوله ربنا آمنا وقوله تعالى ما يبدل القول اشارة الى نفي الحال كأنه تعالى يقول ما يبدل اليوم لدي القول لان ما ينفى بها الحال اذا دخلت على الفعل المضارع يقول القائل ماذا تفعل غدا يقال ما أفعل شيأ أي في الحال واذا قال القائل ماذا يفعل غدا يقال لا يفعل شيأ أو لن يفعل شيأ اذا أريد زيادة بيان النفي فان قيل هل فيه بين معنوي يفيد افتراق ما ولا في المعنى نقول نعم وذلك لان كلمة لا أدل على النفي لكونها موضوعة للنفي وما في معناه كالنهي خاصة لا يفيد الاثبات الا بطريق الحذف أو الاضمار وبالجملة فبطريق المجاز كما في قوله لا أقسم وأما ما فغير متمحضة للنفي لانها واردة لغيره من المعاني حيث تكون اسما والنفي في الحال لا يفيد النفي المطلق لجواز أن يكون مع النفي في الحال الاثبات في الاستقبال كما يقال ما يفعل الآن شيأ وسيفعل ان شاء الله فاختص بما لم يتمحض نفيا حيث لم تكن متمحضة للنفي لا يقال ان لا للنفي في الاستقبال والاثبات في الحال فاكتفي في الاستقبال بما لم يتمحض نفيا لانا نقول ليس كذلك اذ لا يجوز أن يقال لا يفعل زيد ويفعل الآن نعم يجوز أن يقال لا يفعل غدا ويفعل الآن لكون قولك غدا يجعل الزمان مميزا فلم يكن قولك لا يفعل للنفي في الاستقبال بل كان للنفي في بعض أزمنة الاستقبال وفي مثالنا قلنا ما يفعل وسيفعل وما قلنا سيفعل غدا وبعد غد بل ههنا نفينا في الحال وأثبتنا في الاستقبال من غير

تمييز زمان من أزمنة الاستقبال عن زمان ومثاله فى العكس أن يقال لايفعل زيدوهو يفعل من غيرتعيين وتمييز ومعلوم ان ذلك غير جائز* وقوله تعالى (وماأنا بظلام للعبيد) مناسب لماتقدم على الوجهين جميعا اما اذاقلنا بأن المراد من قوله لدى ان قوله فألقياه وقول القائل فى قوله قيل ادخلوا أبواب جهنم لاتبديل له فظاهر لان الله تعالى بين ان قوله ألقيافى جهنم لايكون الاللكافر العنيد فلايكون هوظلاما للعبيد وأما اذاقلنا بأن المراد لايبدل القول لدى بل كان الواجب التبديل قبل الوقوف بين يدى فكذلك لانه أنذرمن قبل وماعذب الابعد أن أرسل و بين السبل (وفيه مباحث لفظية ومعنوية) اما اللفظية فهى فى الباء من قوله ليس بظلام وفى اللام من قوله للعبيد أما الباء فنقول الباء تدخل فى المفعول به حيث لايكون تعلق الفعل به ظاهرا ولايجوز ادخالها فيه حيث يكون فى غاية الظهور و يجوز الادخال والترك حيث لايكون فى غاية الظهور ولافى غاية الخفاء فلايقال ضربت بزيد لظهور تعلق الفعل بزيد ولايقال خرجت وذهبت زيدا بدل قولنا خرجت وذهبت بزيد لخفاء تعلق الفعل بزيد فيهما و يقال شكرته و شكرت له للتوسط فكذلك خبرماكان مشبها بالمفعول وليس فى كونه فعلا غيرظاهر غاية الظهور لان الحاق الضمائر التى تلحق بالافعال الماضية كالتاء والنون فى قولك لست ولستم ولستن ولسنا يصحح كونها فعلا كما فى قولك كنت وكنا لكن فى الاستقبال يبين الفرق حيث تقول يكون وتكون وكن ولاتقول ذلك فى ليس ومايشبه بها فصارتا كالفعل الذى لايظهر تعلقه بالمفعول غاية الظهور فجاز ان يقال ليس زيد جاهلا وليس زيد بجاهل كما يقال مسحته ومسحت به وغيرذلك مماتعدى بنفسه وبالباء ولم يجزان يقال كان زيد بخارج وصار عمرو بدارج لان صار وكان فعل ظاهر غاية الظهور بخلاف ليس وما النافية وهذا يؤيدقول من قال ماهذا بشر و هذا ظاهر (البحث الثانى) لوقال قائل كان ينبغى ان لايجوز اخلاء خبرما عن الباء كما لايجوز ادخال الباء فى خبر كان وخبر ليس يجوز فيه الامران وتقرير هـذا السؤال هوأن كان لماكان فعلا ظاهرا جعلناه بمنزلة ضرب حيث منعنا دخول الباء فى خبره كما منعناه فى مفعوله وليس لماكان فعلا من وجه نظرا الى قولنا لست ولسنا ولستم ولم يكن فعلاظاهرا نظرا الى صيغ الاستقبال والامر جعلناه متوسطا وجوزنا ادخال الباء فى خبره وتركه كما قلنا فى مفعول شكرته وشكرت له ومالم يكن فعلا بوجه كان ينبغى أن يكون بمنزلة الفعل الذى لايتعدى الى المفعول الابالحرف وكان ينبغى أن لايجئ خبره الامع الباء كما لايجئ مفعول ذهب الامع الباء ويؤيد هذا انافرقنا بين ما وليس وكان وجعلنا الكل واحدة مرتبة ليست للاخرى فجوزنا تأخير كان فى اللفظ حيث جوزنا أن يقول القائل زيدخارجا كان وماجوزنا زيدخارجا ليس لان كان فعل ظاهر وليس دونه فى الظهور وماجوزنا تأخيرما عن أحد شطرى الكلام ايضا بخلاف ليس حيث جوزأن يقول القائل زيدما بظلام الاأن يعيدمايرجع اليه فيقول زيدما هو بظلام

وقوله تعالى (وماأنا بظلام للعبيد) وارد لتحقيق الحق على الوجه الكلى وتبيين ان عدم تبديل القول وتحقيق موجب الوعيد ليس من جهته تعالى من غير استحقاق له منهم بل انماذلك بماصدر عنهم من الجنايات الموجبة له حسبما أخبرالبه آنفا أى و ما أنا بمعذب للعبيد بغير ذنب من قبلهم والتعبير عنه بالظلم مع ان تعذيبهم بغيرذنب ليس بظلم على ماتقرر من قاعدة اهل السنة فضلا

فصار بينهما ترتيب ما يوجه وليس يؤخر عن احد الشطرين ولا يؤخر فى الكلام بالكلية وكان يؤخر بالكلية لما ذكرنا من الظهور والخفاء فكذلك القول فى الحاق الباء كان ينبغى ان لا يصح اخلاء خبر ما عن الباء وفى ليس يجوز الامران وفى كان لا يجوز الادخال وهذا هو المعتمد عليه فى لغة بنى تميم حيث قالوا ان ما بعد ما اذا جعل خبرا يجب ادخال الباء عليه فان لم تدخل عليه يكون ذلك معربا على الابتداء أو على وجه آخر و لا يكون خبرا والجواب عن السؤال هو ان نقول الاكثر ادخال الباء فى خبر ما ولا سيما فى القرآن قال الله تعالى وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم وما أنت بمسمع وما هم بخارجين وما أنا بظلام وأما الوجوب فلا لان ما أشبه ليس فى المعنى فى الحقيقة وخالفهما فى العوارض وهو لحوق التاء والنون وأما المعنى فهما لنفى الحال فالشبه مقتض لجواز الاخلاء والمخالفة مقتضية لوجوب الادخال لكن ذلك المقتضى أقوى لانه راجع الى الامر الحقيقى وهذا راجع الى الامر العارضى وما بالنفس أقوى مما بالعارض وأما التقديم والتأخير فلا يلزم منه وجوب ادخال الباء ❊ وأما الكلام فى اللام فنقول اللام لتحقيق معنى الاضافة يقال غلام زيد وغلام لزيد وهذا فى الاضافات الحقيقية باثبات التنوين فيه وأما فى الاضافات اللفظية كقولنا ضارب زيد وقاتل عمرو فان الاضافة فيه غير معنوية فاذا خرج الضارب عن كونه مضافا باثبات التنوين فقد كان يجب ان يعاد الاصل و ينصب ما كان مضافا اليه الفاعل بالمفعول به ولا يؤتى باللام لانه حينئذ لم تبق الاضافة فى اللفظ ولم تكن اضافة فى المعنى غير ان اسم الفاعل منحط الدرجة عن الفعل فصار تعلقه بالمفعول أضعف من تعلق الفعل بالمفعول وصار من باب الافعال الضعيفة التعلق حيث بينا جواز تعديتها الى المفعول بحرف وغير حرف فلذلك جاز أن يقال ضارب زيدا وضارب لزيد كما جاز مسحته ومسحت به وشكرته وشكرت له وذلك اذا تقدم المفعول كما فى قوله تعالى أن كنتم للرؤيا تعبرون للضعف (وأما المعنوية فمباحث) الاول الظلام مبالغة فى الظالم و يلزم من اثباته اثبات أصل الظلم اذا قال القائل هو كذاب يلزم ان يكون كاذبا كثر كذبه ولا يلزم من نفيه نفى أصل الكذب لجواز أن يقال فلان ليس بكذاب كثير الكذب لكنه يكذب أحيانا ففى قوله تعالى وما أنا بظلام لا يفهم منه نفى أصل الظلم والله ليس بظالم فما الوجه فيه نقول الجواب عنه من ثلاثة أوجه أحدها ان الظلام بمعنى الظالم كالتمار بمعنى التامر وحينئذ يكون اللام فى قوله للعبيد لتحقيق النسبة لان الفعال حينئذ بمعنى ذى ظلم وهذا وجه جيد مستفاد من الامام زين الدين أدام الله فوائده والثانى ما ذكره الزمخشرى وهو ان [illegible] أمر تقديرى كانه تعالى يقول لو ظلمت عبدى الضعيف الذى هو محل الرحمة لكان ذلك غاية الظلم وما أنا بذلك فيلزم من نفى كونه ظلاما نفى كونه ظالما ويحقق هذا الوجه اظهار لفظ العبيد حيث يقول ما أنا بظلام للعبيد أى فى ذلك اليوم الذى امتلأت جهنم مع سعتها حتى تصيح وتقول لم يبق لى طاقة بهم ولم يبق فى موضع لهم فهل من مزيد استفهام

عن كونه ظلاما مفرط البيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بابراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى معرض المبالغة فى الظلم وقيل هى لرعاية جمعية العبيد من قولهم فلان ظالم لعبده وظلام لعبيده على انها

استكثار فذلك اليوم مع انى أتى فيها عددا لاحصر له لا أكون بسبب كثرة التعذيب كثير الظلم وهذا مناسب وذلك لانه تعالى خصص النفى بالزمان حيث قال ما أنا بظلام يوم نقول أى وما أنا بظلام فى جميع الازمان أيضا وخصص بالعبيد حيث قال وما أنا بظلام للعبيد ولم يطلق فكذلك خصص النفى بنوع من أنواع الظلم ولم يطلق فلم يلزم منه أن يكون ظالما فى غير ذلك الوقت وفى حق غير العبيد وان خصص والفائدة فى التخصيص انه أقرب الى التصديق من التعميم والثالث هذا يدل على ان التخصيص بالذكر لا يدل على نفى ما عداه لانه نفى كونه ظلاما ولم يلزم منه نفى كونه ظالما ونفى كونه ظلاما للعبيد ولم يلزم منه نفى كونه ظلاما لغيرهم كما قال فى حق الآدمى ومنهم ظالم لنفسه (البحث الثانى) قال ههنا وما أنا بظلام للعبيد من غير اضافة وقال ما أنت بهادى العمى وما أنت بمسمع من فى القبور على وجه الاضافة فما الفرق بينهما نقول الكلام قد يخرج أولا مخرج العموم ثم يخصص لامر ما لا لغرض التخصيص يقول القائل فلان يعطى ويمنع ويكون غرضه التعميم فان سأل سائل يعطى من ويمنع من يقول زيدا وعمرا ويأتى بالمخصص لا لغرض التخصيص وقد يخرج أولا مخرج الخصوص فيقول فلان يعطى زيدا ماله اذا علمت هذا فقوله ما أنا بظلام كلام لو اقتصر عليه لكان للعموم فأتى بلفظ العبيد لا لكون عدم الظلم مختصا بهم بل لكونهم أقرب الى كونهم محل الظلم من نفسه تعالى وأما النبى صلى الله عليه وسلم فكان فى نفسه هاديا وانما أراد نفى ذلك الخاص فقال ما أنت بهادى العمى وما قال ما أنت بهاد وكذلك قوله تعالى أليس الله بكاف عبده (البحث الثالث) العبيد يحتمل أن يكون المراد منه الكفار كما فى قوله تعالى ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول يعنى أعذبهم وما أنا بظلام لهم ويحتمل أن يكون المراد منه المؤمنين ووجهه هو ان الله تعالى يقول لو بدلت القول ورحمت الكافر لكنت فى تكليف العباد ظالما لعبادى المؤمنين لانى منعتهم من الشهوات لاجل هذا اليوم فان كان ينال من لم يأت بما أتى المؤمن ما يناله المؤمن لكان اتيانه بما أتى به من الايمان والعبادة غير مفيد فائدة وهذا معنى قوله تعالى لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ومعنى قوله تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقوله تعالى لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ويحتمل أن يكون المراد التعميم ❁ ثم قال تعالى (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) العامل فى يوم ماذا فيه وجوه الاول ما أنا بظلام مطلقا والثانى الوقت حيث قال ما أنا يوم كذا ولم يقل ما أنا بظلام فى سائر الازمان وقد تقدم بيانه فان قيل فما فائدة التخصيص نقول النفى الخاص اقرب الى التصديق من النفى العام لان المتوهم ذلك فان قاصر النظر يقول يوم يدخل الله عبده الضعيف جهنم يكون ظالما له ولا يقول بانه يوم خلقه برزقه وربيه يكون ظالما ويتوهم انه يظلم عبده بادخاله النار ولا يتوهم انه يظلم نفسه أو غير عبيده المذكورين ويتوهم انه من يدخل خلقا كثيرا لا يحوزه حد ولا يدركه عد النار

مبالغة كما لا كيفا (يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) سؤال وجواب جئ بهما على منهاج التمثيل والتخييل لتهويل أمرها والمعنى انها مع اتساعها وتباعد أقطارها تطرح فيها من الجنة والناس فوجا بعد فوج حتى تمتلئ أو انها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها بعد محل فارغ أو انها لغيظها على العصاة تطلب زيادتهم وقرئ يقول بالياء والمزيد اما مصدر كالحميد والمجيد أو مفعول كالمبيع ويوم اما منصوب باذكر

و يتركهم فيها زمانا لا نهاية له كثير الظلم فيقع فيما يتوهم دون ما لا يتوهم وقوله هل امتلأت
بيان لتصديق قوله تعالى لأملأن جهنم وقوله هل من مزيد فيه وجهان أحدهما انه لبيان
استكثارها الداخلين كما ان من يضرب غيره ضربا مبرحا أو يشتمه شتما قبيحا فاحشا يقول
المضروب هل بقي شيء آخر ويدل عليه قوله تعالى لأملأن لان الامتلاء لا بد من أن يحصل
فلا يبقى في جهنم موضع خال حتى تطلب المزيد والثاني هو انها تطلب الزيادة وحينئذ لو قال
قائل فكيف يفهم مع هذا معنى قوله تعالى لأملأن نقول الجواب عنه من وجوه أحدها
ان هذا الكلام ربما يقع قبل ادخال الكل وفيه لطيفة وهي ان جهنم تتغيظ على الكفار
فتطلبهم ثم يبقى فيها موضع لعصاة المؤمنين فتطلب جهنم امتلاءها لظنها بقاء أحد من
الكفار خارجا فيدخل العاصي من المؤمنين فيبرد ايمانه حرارتها ويسكن ايقانه غيظها
فتسكن وعلى هذا يحمل ما ورد في بعض الاخبار ان جهنم تطلب الزيادة حتى يضع الجبار
قدمه والمؤمن جبار متكبر على ما سوى الله تعالى ذليل متواضع لله الثاني أن تكون
جهنم تطلب أولا سعة في نفسها ثم مزيدا في الداخلين لظنها بقاء أحد من الكفار الثالث
ان الملء له درجات فان الكيل اذا ملئ من غير كبس صح أن يقال ملئ وامتلأ فاذا كبس
يسع غيره ولا ينافي كونه ملآن أولا فكذلك في جهنم ملأها الله ثم تطلب زيادة تضييقا
للمكان عليهم وزيادة في التعذيب والمزيد جاز أن يكون بمعنى المفعول أي هل بقي أحد
تزيد به * ثم قال تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) بمعنى قربا أو بمعنى قربت
والاول أظهر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما وجه التقريب مع ان الجنة مكان
والامكنة يقرب منها وهي لا تقرب نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) ان الجنة لا تزال
ولا تنقل ولا المؤمن يؤمر في ذلك اليوم بالانتقال اليها مع بعدها لكن الله تعالى يطوي
المسافة التي بين المؤمن والجنة فهو التقريب فان قيل فعلى هذا ليس ازلاف الجنة من
المؤمن بأولى من ازلاف المؤمن من الجنة فما الفائدة في قوله أزلفت الجنة نقول اكراما
للمؤمن كأنه تعالى أراد بيان شرف المؤمن المتقي انه ممن يمشى اليه ويدنى منه (الثاني) قربت
من الحصول في الدخول لا بمعنى القرب المكاني يقال يطلب من الملك أمرا خطيرا والملك
بعيد عن ذلك ثم اذا رأى منه مخايل انجاز حاجته يقال قرب الملك وما زلت أنهي اليه حالك
حتى قربته فكذلك الجنة كانت بعيدة الحصول لانها بما فيها لا قيمة لها ولا قدرة للمكلف
على تحصيلها لولا فضل الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم ما من أحد يدخل الجنة
الا بفضل الله تعالى فقيل ولا انت يا رسول الله فقال ولا أنا وعلى هذا فقوله غير نصب على
الحال تقديره قربت من الحصول ولم تكن بعيدة في المسافة حتى يقال كيف قربت (الثالث)
هو ان الله تعالى قادر على نقل الجنة من السماء الى الارض فيقربها للمؤمن وأما ان قلنا
انها قربت فمعناه جمعت محاسنها كما قال تعالى فيها ما تشتهي الانفس (المسئلة الثانية) على
هذا الوجه وعلى قولنا قربت تقريب حصول ودخول فهو يحتمل وجهين أحدهما ان

أو أنذر أو ظرف لنفخ
فيكون قلت حينئذ اشارة
اليه من غير حاجة الى
تقدير مضاف أو لمقدر
مؤخر أي يكون من
الاحوال والاهوال
ما يقصر عنه المقال
(وأزلفت الجنة للمتقين)
شروع في بيان حال
المؤمنين بعد النفخ
ومجيء النفوس الى
موقف الحساب وقد م
ـر تقديم بيان حال الكفرة
عليه وهو عطف على
نفخ أي قربت للمتقين
من الكفر والمعاصي
بحيث يشاهدونها من
الموقف ويقفون على
ما فيها من فنون المحاسن
فيبتهجون بأنهم محشورون
اليها فائزون بها وقوله
تعالى (غير بعيد) تأكيد
للازلاف

﴿ يكون ﴾

يكون قوله تعالى وأزلفت أي في ذلك اليوم ولم يكن قبل ذلك واما في جمع المحاسن فربما يزيد الله فيها زينة وقت الدخول واما في الحصول فلان الدخول قبل ذلك كان مستبعدا اذلم يقدر الله دخول المؤمنين الجنة في الدنيا ووعد به في الآخرة فقربت في ذلك اليوم وثانيهما ان يكون معنى قوله تعالى وأزلفت الجنة أي أزلفت في الدنيا اما بمعنى جمع المحاسن فلانها مخلوقة وخلق فيها كل شيء واما بمعنى تقريب الحصول فلانها تحصل بكلمة حسنة وأما على تفسير الازلاف بالتقريب المكاني فلا يكون ذلك محمولا الا على ذلك الوقت أي أزلفت في ذلك اليوم للمتقين (المسئلة الثالثة) ان حمل على القرب المكاني فما الفائدة في الاختصاص بالمؤمنين مع ان المؤمن والكافر في عرصة واحدة فنقول قد يكون شخصان في مكان واحد وهناك مكان آخر هو الى أحدهما في غاية القرب وعن الآخر في غاية البعد مثاله مقطوع الرجلين والسليم الشديد العدو اذا اجتمعا في موضع وبحضرتهما شيء لاتصل اليه اليد بالمد فذلك بعيد عن المقطوع وهو في غاية القرب من العادي أو نقول اذا اجتمع شخصان في مكان وأحدهما أحيط به سد من حديد ووضع بقربه شيء لاتناله يده بالمد والآخر لم يحط به ذلك السد يصح ان يقال هو بعيد عن المسدود وقريب من المحظوظ والمجدود وقوله تعالى غير بعيد يحتمل ان يكون نصبا على الظرف يقال اجلس غير بعيد مني أي مكانا غير بعيد وعلى هذا فقوله غير بعيد يفيد التأكيد وذلك لان القريب قد يكون بعيدا بالنسبة الى شيء فان المكان الذي هو على مسيرة يوم قريب بالنسبة الى البلاد النائية وبعيد بالنسبة الى منتزهات المدينة فاذا قال قائل ايما أقرب المسجد الاقصى أو البلد الذي هو بأقصى المغرب أو المشرق يقال له المسجد الاقصى قريب وان قال أيهما أقرب هو أو البلد يقال له هو بعيد فقوله تعالى أزلفت غير بعيد أي قربت قربا حقيقيا لانسبيا حيث لا يقال فيها انها بعيدة عنه مقايسة أو مناسبة ويحتمل أن يكون نصبا على الحال تقديره قربت حال كون ذلك غاية التقريب أو نقول على هذا الوجه يكون معنى أزلفت قربت وهي غير بعيد فيحصل المعنيان جميعا الاقراب والاقتراب أو يكون المراد القرب والحصول لا المكان فيحصل معنيان القرب المكاني بقوله غير بعيد والحصول بقوله أزلفت وقوله غير بعيد مع قوله أزلفت على التأنيث يحتمل وجوها الاول اذا قلنا ان غير نصب على المصدر تقديره مكانا غير بعيد الثاني التذكير فيه كما في قوله تعالى ان رحمة الله قريب اجراء لفعيل بمعنى فاعل مجرى فعيل بمعنى مفعول الثالث ان يقال غير منصوب نصبا على المصدر على انه صفة مصدر محذوف تقديره أزلفت الجنة ازلافا غير بعيد أي عن قدرتنا فانا قد ذكرنا ان الجنة مكان والمكان لا يقرب وانما يقرب منه فقال الازلاف غير بعيد عن قدرتنا فانا نطوي المسافة بينهما ❊ ثم قال تعالى (هذا ما توعدون) قال الزمخشري هي جملة معترضة بين كلامين وذلك لان قوله تعالى لكل أواب بدل عن المتقين كانه تعالى قال أزلفت الجنة للمتقين لكل أواب كما في قوله تعالى لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم غير ان ذلك بدل

أي مكانا غير بعيد بحيث يشاهدونها أو حال كونها غير بعيد أي شيأ غير بعيد ويجوز أن يكون التذكير لكونه على زنة المصدر الذي يستوي في الوصف به المذكر والمؤنث أو لتأويل الجنة بالبستان (هذا ما توعدون) اشارة الى الجنة والتذكير لما ان المشار اليه هو المسمى من غير ان يخطر بالبال لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه فانهما من أحكام اللفظ العربي كما في قوله تعالى فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي وقوله تعالى ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا

الاشتمال وهذا بدل الكل وقال هذا اشارة الى الثواب أى هذا الثواب ماتوعدون أوالى الازلاف المدلول عليه بقوله أزلفت أى هذا الازلاف ماوعدتم به ويحتمل أن يقال هو كلام مستقل ووجهه ان ذلك محمول على المعنى لاما يوعد به يقال للموعود هذا لك وكأنه تعالى قال هذا ماقلت انه لكم * ثم قال تعالى (لكل أواب حفيظ) بدلا من الضمير فى توعدون وكذلك ان قرئ بالياء يكون تقديره هذا لكل أواب بدلا عن الضمير والاواب الرجاع قيل هو الذى يرجع من الذنوب ويستغفر والحفيظ الحافظ الذى يحفظ توبته من النقض ويحتمل أن يقال الاواب هو الرجاع الى الله بفكره والحفيظ الذى يحفظ الله فى ذكره أى رجع اليه بالفكر فيرى كل شئ واقعا به وموجودا منه ثم اذا انتهى اليه حفظه بحيث لاينساه عند الرخاء والنعماء والاواب والحفيظ كلاهما من باب المبالغة أى يكون كثير الاوب شديد الحفظ وفيه وجوه اخر أدق وهو ان الاواب هو الذى رجع عن متابعة هواه فى الاقبال على ماسواه والحفيظ هو الذى اذا أدركه بأشرف قواه لايتركه فيكمل بها تقواه ويكون هذا تفسيرا للمتقى لان المتقى هو الذى اتقى الشرك والتعطيل ولم ينكره ولم يعترف بغيره والاواب هو الذى لايعترف بغيره ويرجع عن كل شئ غير الله تعالى والحفيظ هو الذى لم يرجع عنه الى شئ مما عداه * ثم قال تعالى (من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) وفى من وجوه أحدها وهو أغربها انه منادى كأنه تعالى قال يامن خشى الرحمن ادخلوها بسلام وحذف حرف النداء شائع وثانيها من بدل عن كل فى قوله تعالى لكل أواب من غير اعادة حرف الجر تقديره أزلفت الجنة لمن خشى الرحمن بالغيب ثالثها فى قوله تعالى أواب حفيظ موصوف معلوم غير مذكور كأنه يقول لكل شخص أواب أو عبد أو غير ذلك فقوله تعالى من خشى الرحمن بالغيب بدل عن ذلك الموصوف هذه وجوه ثلاثة ذكرها الزمخشرى وقال لايجوز أن يكون بدلا عن أواب أو حفيظ لان أواب وحفيظ قد وصف به موصوف معلوم غير مذكور كما بيناه والبدل فى حكم المبدل منه فتكون من موصوفا بها ومن لايوصف بها لايقال الرجل من جاءنى جالسنى كما يقال الرجل الذى جاءنى جالسنى هذا تمام كلام الزمخشرى فان قال قائل اذا كان من والذى يشتركان فى كونهما من الموصولات فلماذا لايشتركان فى جواز الوصف بهما نقول الامر معقول نبينه فى ماومنه يتبين الامر فيه فنقول ما اسم مبهم يقع على كل شئ فمفهومه هو شئ لكن الشئ هو اعم الاشياء فان الجوهر شئ والعرض شئ والواجب شئ والممكن شئ والاعم قبل الاخص فى الفهم لانك اذا رأيت من البعد شبحا تقول أولا انه شئ ثم اذا ظهر لك منه ما يختص بالناس تقول انسان فاذا بان لك انه ذكر قلت هو رجل فاذا وجدته ذاقوة تقول شجاع الى غير ذلك فالاعم أعرف وهو قبل الاخص فى الفهم فمفهوم ماقبل كل شئ فلا يجوز أن يكون صفة لان الصفة بعد الموصوف هذا من حيث المعقول وأما من حيث النحو فلان الحقائق لايوصف بها فلا يقال جسم رجل جاءنى كما يقال جسم ناطق جاءنى لان الوصف يقوم بالموصوف والحقيقة

هذا ماوعدنا الله ورسوله ويجوز أن يكون ذلك لتذكير الخبر وقيل هو اشارة الى الثواب وقيل الى مصدر أزلفت وقرئ يوعدون والجملة اما اعتراض بين البدل والمبدل منه واما مقدر بقول هو حال من المتقين أو من الجنة والعامل أزلفت أى مقولا لهم أو مقولا فى حقها هذا ماتوعدون (لكل أواب) أى رجاع الى الله تعالى بدل من المتقين باعادة الجار (حفيظ) حافظ لتوبته من النقض وقيل هو الذى يحفظ ذنوبه حتى يرجع عنها ويستغفر منها وقيل هو الحافظ لاوامر الله تعالى وقيل لما استودعه الله تعالى من حقوقه (من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب)

تقوم بنفسها لا بغيرها وكل ما يقع وصفا للغير يكون معناه شيء له كذا فقولنا عالم معناه شيء له علم أو عالمية فيدخل في مفهوم الوصف شيء مع أمر آخر وهو له كذا لكن المجرد شيء فلا يوجد فيه ما يتم به الوصف وهو الامر الآخر الذي معناه ذو كذا فلم يجز أن يكون صفة واذا بان القول فمن في العقلاء كما في غيرهم وفيهم فمن معناه انسان أو ملك أو غيرهما من الحقائق العاقلة والحقائق لا تقع صفات وأما الذي يقع على الحقائق والاوصاف ويدخل في مفهومه تعريفا أكثر ما يدخل في مجاز الوصف بما دون من ❊ وفي الآية لطائف معنوية (الاولى) الخشية والخوف معناهما واحد عند أهل اللغة لكن بينهما فرق وهو ان الخشية من عظمة المخشى وذلك لان تركيب حروف خ ش ى في تقاليبها يلزمه معنى الهيبة يقال شيخ للسيد والرجل الكبير السن وهما جميعا مهيبان والخوف خشية من ضعف الخاشي وذلك لان تركيب خ و ف في تقاليبها يدل على الضعف تدل عليه الخيفة والخفية ولولا قرب معناهما لما ورد في القرآن تضرعا وخيفة وتضرعا وخفية والمختفي فيه ضعف كالخائف اذا علمت هذا تبين لك اللطيفة وهي ان الله تعالى في كثير من المواضع ذكر لفظ الخشية حيث كان الخوف من عظمة المخشى قال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقال لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله فان الجبل ليس فيه ضعف يكون الخوف من ضعفه وانما الله عظيم يخشاه كل قوي وهم من خشية ربهم مشفقون مع ان الملائكة أقوياء وقال تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه أي تخافهم اعظاما لهم اذ لا ضعف فيك بالنسبة اليهم وقال تعالى لا تخف ولا تحزن أي لا تخف ضعفا فانهم لا عظمة لهم وقال يخافون يوما حيث كان عظمة اليوم بالنسبة الى عظمة الله ضعيفة وقال لا تخافوا ولا تحزنوا أي بسبب مكروه يلحقكم من الآخرة فان المكروهات كلها مدفوعة عنكم وقال تعالى خائفا يترقب وقال اني أخاف أن يقتلون لوحدته وضعفه وقال هرون اني خشيت لعظمة موسى في عين هرون لا لضعف فيه وقال فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا حيث لم يكن لضعف فيه وحاصل الكلام انك اذا تأملت استعمال الخشية وجدتها مستعملة لخوف بسبب عظمة المخشى واذا نظرت الى استعمال الخوف وجدته مستعملا لخشية من ضعف الخائف وهذا في الاكثر وربما يتخلف المدعى عنه لكن الكثرة كافية (الثانية) قال الله تعالى ههنا خشي الرحمن مع ان وصف الرحمة غالبا يقابل الخشية اشارة الى مدح المتقي حيث لم تمنعه الرحمة من الخوف بسبب العظمة وقال تعالى لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله اشارة الى ذم الكافر حيث لم تحمله الالوهية التي تنبئ عنها لفظة الله وفيها العظمة على خوفه وقال انما يخشى الله من عباده العلماء لان انما للحصر فكان فيه اشارة الى أن الجاهل لا يخشاه فذكر الله ليبين ان عدم خشيته مع قيام المقتضى وعدم المانع وهو الرحمة وقد ذكرنا ذلك في سورة يس ونزيد ههنا شيأ آخر وهو ان نقول لفظة الرحمن اشارة الى مقتضى الخشية لا الى المانع

بدل بعد بدل أو بدل من موصوف أواب ولا يجوز أن يكون في حكمه لان من لا يوصف به ولا يوصف الا بالذي أو مبتدأ خبره

وذلك لان الرحمن معناه واهب الوجود بالخلق والرحيم واهب البقاء بالرزق وهو فى الدنيا رحمان حيث أوجدنا بالرحمة ورحيم حيث ابقى بالرزق ولا يقال لغيره رحيم لان البقاء بالرزق قد يظن ان مثل ذلك يأتى ممن يطعم المضطر فيقال فلان هو الذى ابقى فلانا وهو فى الآخرة أيضا رحمان حيث يوجدنا ورحيم حيث يرزقنا وذكرنا ذلك فى تفسير الفاتحة حيث قلنا قال بسم الله الرحمن الرحيم اشارة الى كونه رحمانا فى الدنيا حيث خلقنا رحيما فى الدنيا حيث رزقنا رحمة ثم قال مرة أخرى بعد قوله الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم أى هو رحمن مرة أخرى فى الآخرة بخلقنا ثانيا واستدلينا عليه بقوله بعد ذلك مالك يوم الدين أى يخلقنا ثانيا ورحيم يرزقنا ويكون هو المالك فى ذلك اليوم اذا علمت هذا فمن يكون منه وجود الانسان لا يكون خوفه خشية من غيره فان القائل يقول لغيره أخاف منك أن تقطع رزقى أو تبدل حياتى فاذا كان الله تعالى رحمانا منه الوجود ينبغى أن يخشى فان من بيده الوجود بيده العدم وقال صلى الله عليه وسلم خشية الله رأس كل حكمة وذلك لان الحكيم اذا تفكر فى غير الله وجده محل التغير يجوز عليه العدم فى كل طرفة عين وربما يقدره الله عدمه قبل أن يتمكن من الاضرار لان غير الله ان لم يقدر الله أن يضر لا يقدر على الضرر وان قدر عليه بتقدير الله فسيزول الضرر بموت المعذب أو المعذب وأما الله تعالى فلا راد لما أراد ولا آخر لعذابه وقال تعالى بالغيب أى كانت خشيتهم قبل ظهور الامور حيث ترى رأى العين وقوله تعالى وجاء بقلب منيب اشارة الى صفة مدح أخرى وذلك لان الخاشى قد يهرب و يترك القرب من المخشى ولا ينفع واذا علم المخشى انه تحت حكمه تعالى علم انه لا ينفعه الهرب فيأتى المخشى وهو خاش فقال وجاء ولم يذهب كما يذهب الآبق وقوله تعالى بقلب منيب الباء فيه يحتمل وجوها ذكرناها فى قوله تعالى وجاءت سكرة الموت بالحق أحدها التعدية أى أحضر قلبا سليما كما يقال ذهب به اذا أذهبه ثانيها المصاحبة يقال اشترى فلان الفرس بسرجه أى مع سرجه وجاء فلان بأهله أى مع أهله ثالثها وهو أعرفها الباء للسبب يقال ما أخذ فلان الا بقول فلان وجاء بالرجاء له فكأنه تعالى قال جاء وما جاء الا بسبب انابة فى قلبه علم انه لا مرجع الا الى الله فجاء بسبب قلبه المنيب والقلب المنيب كالقلب السليم فى قوله تعالى اذ جاء ربه بقلب سليم أى سليم من الشرك ومن سلم من الشرك يترك غير الله و يرجع الى الله فكان منيبا ومن أناب الى الله برئ من الشرك فكان سليما ❊ ثم قال تعالى (ادخلوها بسلام) فالضمير عائد الى الجنة التى فى وأزلفت الجنة أى لما تكامل حسنها وقربها وقيل لهم انها منزلكم بقوله هذا ما توعدون اذن لهم فى دخولها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الخطاب مع من نقول ان قرئ ما توعدون بالتاء فهو ظاهر لا يخفى ان الخطاب مع الموعودين وان قرئ بالياء فالخطاب مع المتقين أى يقال للمتقين ادخلوها (المسئلة الثانية) هذا يدل على ان ذلك يتوقف على الاذن وفيه من الانتظار ما لا يليق بالاكرام نقول ليس كذلك فان من دعا مكرما الى بستانه يفتح له الباب ويجلس

(ادخلوها) بتأويل يقال لهم ادخلوها والجمع باعتبار معنى من وقوله تعالى بالغيب متعلق بمحذوف هو حال من فاعل خشى أو مفعوله أو صفة لمصدره اى خشية متلبسة بالغيب حيث خشى عقابه وهو غائب عنه أو هو غائب عن الاعين لا يراه احد والتعرض لعنوان الرحمانية للاشارة بانهم مع خشيتهم عقابه راجون رحمته أو بأن علمهم بسعة رحمته تعالى لا يصدهم عن خشيته تعالى وانهم عاملون بموجب قوله تعالى نبئ عبادى انى انا الغفور الرحيم وان عذابى هو العذاب الاليم ووصف القلب بالانابة لما أن العبرة برجوعه الى الله تعالى (بسلام) متعلق بمحذوف هو حال من فاعل ادخلوها اى ملتبسين بسلامة من العذاب وزوال النعم او بسلام من جهة الله تعالى وملائكته

في موضعه ولايقف على الباب من يرحبه و يقول اذابلغت بستاني فادخله وان لم يكن هناك احديكون قدأخل باكرامه بخلاف من يقف على بابه قوم يقولون ادخل باسم الله يدل على الاكرام قوله تعالى بسلام كما يقول المضيف ادخل مصاحبا بالسلامة والسعادة والكرامة والباء للمصاحبة في معنى الحال أى سالمين مقرنين بالسلامة أو معناه ادخلوها مسلما عليكم يسلم الله وملائكته عليكم ويحتمل عندى وجها آخر وهو ان يكون ذلك ارشادا للمؤمنين الى مكارم الاخلاق في ذلك اليوم كما أرشدوا اليها في الدنيا حيث قال تعالى لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها فكأنه تعالى قال هذه داركم ومنزلكم ولكن لاتتركوا حسن عادتكم ولاتخلوا بمكارم اخلاقكم فادخلوها بسلام و يصبحون سلاما على من فيها و يسلم من فيها عليهم و يقولون السلام عليكم و يدل عليه قوله تعالى الاقيلا سلاما سلاما أى يسلمون على من فيها و يسلم من فيها عليهم وهذا الوجه ان كان منقولا فنعم وان لم يكن منقولا فهو مناسب معقول أيده دليل منقول (ذلك يوم الخلود) حتى لايدخل في قلبهم أن ذلك ربما ينقطع عنهم فتبقى في قلبهم حسرته فان قيل المؤمن قدعلم انه اذا دخل الجنة خلد فيها فما الفائدة في التذكير والجواب عنه من وجهين أحدهما ان قوله ذلك يوم الخلود قول قاله الله في الدنيا اعلاما واخبارا وليس ذلك قولا يقوله عند قوله ادخلوها فكأنه تعالى اخبرنا في يومنا أن ذلك اليوم يوم الخلود ثانيهما اطمئنان القلب بالقول أكثر قال الزمخشري في قوله يوم الخلود اضمار تقديره ذلك يوم تقدير الخلود و يحتمل ان يقال اليوم يذكر و يراد الزمان المطلق سواء كان يوما أوليلا تقول يوم يولد لفلان ابن يكون السرور العظيم ولوولد له بالليل لكان السرور حاصلا فتريد به الزمان فكأنه تعالى قال ذلك زمان الاقامة الدائمة * ثم قال تعالى (لهم مايشاؤن فيها ولدينا مزيد) وفي الآية ترتيب في غاية الحسن وذلك لانه تعالى بدأ ببيان اكرامهم حيث قال وأزلفت الجنة للمتقين ولم يقل قرب المتقون من الجنة بيانا للاكرام حيث جعلهم ممن تنقل اليهم الجنان بما فيها من الحسان ثم قال لهم هذا لكم بقوله هذا ماتوعدون ثم بين انه أجر اعمالهم الصالحة بقوله لكل أواب حفيظ وقوله من خشي الرحمن فان تصرف المالك الذى ملك شيئا بعوض أتم فيه من تصرف من ملك بغير عوض لامكان الرجوع في التمليك بغير عوض ثم زاد في الاكرام بقوله ادخلوها كما بينا أن ذلك اكرام لان من فتح بابه للناس ولم يقف ببابه من يرحب الداخلين لايكون قد أتى بالاكرام التام ثم قال ذلك يوم الخلود أى لاتخافوا ما لحقكم من قبل حيث أخرج أبويكم منها فهذا دخول لاخروج بعده منها * ثم لما بين أنهم فيها خالدون قال لاتخافوا انقطاع أرزاقكم و بقاءكم في حاجة كما كنتم في الدنيا من كان يعمر ينكس و يحتاج بل لكم الخلود ولا ينفد ماتمتعون به فلكم ماتشاؤن في أى وقت تشاؤن والى الله المنتهى وعنده الوصول اليه والمثول بين يديه فلا يوصف مالديه ولايطلع أحد عليه وعظمة من عنده تدلك

(ذلك) اشارة الى الزمان الممتد الذى وقع في بعض منه ماذكر من الامور (يوم الخلود) اذلا انتهاء له أبدا (لهم ما يشاؤن) من فنون المطالب كائنا ماكان (فيها) متعلق بيشاؤن وقيل بمحذوف هو حال من الموصول أو من عائده المحذوف من صلته (ولدينا مزيد) هو مالا يخطر ببالهم ولايندرج تحت مشيئتهم من معالى الكرامات التى لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقيل ان السحاب تمر باهل الجنة فتمطرهم الحور فتقول نحن المزيد الذى قال تعالى ولدينا مزيد.

على فضيلة ما عنده هذا هو الترتيب وأما التفسير ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال تعالى ادخلوها بسلام على سبيل المخاطبة ثم قال لهم ولم يقل لكم ما الحكمة فيه الجواب عنه من وجوه الاول هو أن قوله تعالى ادخلوها مقدر فيه يقال لهم أى يقال لهم ادخلوها فلا يكون على هذا التفاتا الثانى هو انه من باب الالتفات والحكمة الجمع بين الطرفين كأنه تعالى يقول أكرمهم به فى حضورهم ففى حضورهم الحبور وفى غيبتهم الحور والقصور والثالث هو ان يقال قوله تعالى لهم جاز أن يكون كلاما مع الملائكة يقول للملائكة توكلوا بخدمتهم واعلموا ان لهم ما يشاؤن فيها فأحضروا بين أيديهم ما يشاؤن وأما أنا فعندى ما لا يخطر ببالهم ولا تقدرون أنتم عليه (المسئلة الثانية) قد ذكرنا ان لفظ مزيد يحتمل أن يكون معناه الزيادة فيكون كما فى قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ويحتمل أن يكون بمعنى المفعول أى عندنا ما نزيده على ما يرجون وما يكون مما يشتهون

* ثم قال تعالى (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا) لما أنذرهم بما بين أيديهم من اليوم العظيم والعذاب الأليم أنذرهم بما يعجل لهم من العذاب المهلك والاهلاك المدرك وبين لهم حال من تقدمهم وقد تقدم تفسيره فى مواضع والذى لا يختص بهذا الموضع أمور (أحدها) اذا كان ذلك للجمع بين الانذار بالعذاب العاجل والعقاب الآجل فلم توسطهما قوله تعالى وأزلفت الجنة للمتقين الى قوله ولدينا مزيد نقول ليكون ذلك دعاء بالخوف والطمع فذكر حال الكفور المعاند وحال الشكور العابد فى الآخرة ترهيبا وترغيبا ثم قال تعالى ان كنتم فى شك من العذاب الابدى الدائم فأنتم فى ريب من العذاب العاجل المهلك الذى أهلك أمثالكم فان قيل فلم يجمع بين الترهيب والترغيب فى العاجلة كما جمع بينهما فى الآجلة ولم يذكر حال من أسلم من قبل وأنعم عليه كما ذكر حال من اشرك به فأهلكه نقول لان النعمة كانت قد وصلت اليهم وكانوا متقلبين فى النعم فلم يذكرهم به وانما كانوا غافلين عن الهلاك فانذرهم به وأما فى الآخرة فكانوا غافلين عن الامرين جميعا فاخبرهم بهما (الثانى) * قوله تعالى (فنقبوا فى البلاد) فى معناه وجوه أحدها هو ما قال تعالى فى حق ثمود الذين جابوا الصخر بالواد من قوتهم خرقوا الطرق ونقبوها وقطعوا الصخور وثقبوها (ثانيها) نقبوا أى ساروا فى الاسفار ولم يجدوا ملجأ ومهربا وعلى هذا يحتمل أن يكون المراد أهل مكة أى هم ساروا فى الاسفار ورأوا ما فيها من الآثار (ثالثها) فنقبوا فى البلاد أى صاروا نقباء فى الارض أراد ما أفادهم بطشهم وقوتهم ويدل على هذا الفاء لانها تصير حينئذ مفيدة ترتب الامر على مقتضاه تقول كان زيد أقوى من عمرو فغلبه وكان عمرو مريضا فغلبه زيد كذلك ههنا قال تعالى هم أشد منهم بطشا فصاروا نقباء فى الارض وقرئ فنقبوا بالتشديد وهو أيضا يدل على ما ذكرنا فى الوجه الثالث لان التنقيب البحث وهو من نقب بمعنى صار نقيبا الثالث * قوله تعالى (هل من محيص) يحتمل وجوها ثلاثة (الاول) على قراءة من قرأ بالتشديد يحتمل ان يقال هو مفعول أى بحثوا عن المحيص

(وكم أهلكنا قبلهم) أى قبل قومك (من قرن هم أشد منهم بطشا) أى قوة كعاد وأضرابها (فنقبوا فى البلاد) أى خرقوا فيها ودوخوا وتصرفوا فى أقطارها أو جالوا فى أكناف الارض كل مجال حذار الموت وأصل التنقيب والنقب التنقير عن الامر والبحث والطلب والفاء للدلالة على أن شدة بطشهم أقدرتهم على التنقيب لا قيل هى عاطفة فى المعنى كأنه قيل اشتد بطشهم فنقبوا الخ وقرئ بالتخفيف (هل من محيص) أى هل لهم من مخلص من أمر الله تعالى والجملة اما على اضمار قول هو حال من واو نقبوا أى نقبوا فى البلاد قائلين هل من محيص أو على اجراء التنقيب لما فيه من معنى التتبع والتفتيش مجرى القول أو هو كلام مستأنف وارد لنفى أن يكون لهم محيص وقيل ضمير نقبوا لاهل مكة أى ساروا فى مسايرهم وأسفارهم فى بلاد القرون فهل رأوا لهم محيصا حتى يؤملوا مثله لانفسهم ويعضده القراءة على صيغة الامر وقرئ فنقبوا بكسر القاف من النقب وهو أن ينتقب خف البعير أى أكثروا السير حتى نقبت أقدامهم أو أخفاف ابلهم ﴿هل﴾

هل من محيص (الثاني) على القراآت جميعا استفهام بمعنى الانكار أى لم يكن لهم محيص (الثالث) هو كلام مستأنف كأنه تعالى يقول لقوم محمد صلى الله عليه وسلم هم أهلكوا مع قوة بطشهم فهل من محيص لكم تعتمدون عليه والمحيص كالمحيد غيران المحيص معدل ومهرب عن الشدة يدلك عليه قولهم وقعوا فى حيص بيص أى فى شدة وضيق والمحيد معدل وان كان لهم بالاختيار يقال حاد عن الطريق نظرا ولا يقال حاص عن الامر نظرا * ثم قال تعالى (ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب) الاشارة الى الاهلاك و يحتمل ان يقال هو اشارة الى ماقاله من ازلاف الجنة وملء جهنم وغيرهما والذكرى اسم مصدر هو التذكر والتذكرة وهى فى نفسها مصدر ذكره يذكره ذكرا وذكرى وقوله ان كان له قلب قيل المراد قلب موصوف بالوعى أى ان كان له قلب واع يقال لفلان مال أى كثير فالتنكير يدل على معنى فى الكمال والاولى ان يقال هو لبيان وضوح الامر بعد الذكر وأن لاخفاء فيه لمن كان له قلب ما ولو كان غير كامل كما يقال أعطه شيأ ولو كان درهما ونقول الجنة لمن عمل خيرا ولو حسنة فكأنه تعالى قال ان فى ذلك لذكرى لمن يصح ان يقال له قلب وحينئذ فمن لا يتذكر لاقلب له أصلا كما فى قوله تعالى صم بكم عمى حيث لم تكن آذانهم وألسنتهم وأعينهم مفيدة لما يطلب منها كذلك من لا يتذكر كأنه لاقلب له ومنه قوله تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل أى هم كالجماد وقوله تعالى كأنهم خشب مسندة أى لهم صور وليس لهم قلب للذكر ولا لسان للشكر * وقوله تعالى (أو ألقى السمع وهو شهيد) أى استمع والقاء السمع كناية فى الاستماع لان من لا يسمع فكأنه حفظ سمعه وأمسكه فاذا ارسله حصل الاستماع فان قيل على قول من قال التنكير فى القلب للتكثير يظهر حسن ترتيب فى قوله أو ألقى السمع وذلك لانه يصير كأنه تعالى يقول ان فى ذلك لذكرى لمن كان ذا قلب واع ذكى يستخرج الامور بذكائه أو ألقى السمع و يستمع من المنذر فيتذكر وأما على قولك المراد من صح ان يقال له قلب ولو كان غير واع لا يظهر هذا الحسن نقول على ماذكرنا ربما يكون الترتيب أحسن وذلك لان التقدير يصير كأنه تعالى قال فيه ذكرى لكل من كان له قلب ذكى يستمع و يتعلم ونحن نقول الترتيب من الادنى الى الاعلى كأنه يقول فيه ذكرى لكل واحد كيف كان قلبه لظهور الامر فان كان لا يحصل لكل أحد فلمن يستمع حاصل و يؤيد ماذكرناه قوله تعالى أو ألقى السمع حيث لم يقل أو استمع لان الاستماع ينبئ عن طلب زائد وأما القاء السمع فمعناه ان الذكرى حاصلة لمن لا يمسك سمعه بل يرسله ارسالا وان لم يقصد السماع كالسامع فى الصوت الهائل فانه يحصل عند مجرد فتح الاذن وان لم يقصد السماع والصوت الخفى لا يسمع الا باستماع وتطلب فنقول الذكرى حاصلة لمن كان له قلب كيف كان قلبه لظهورها فان لم تحصل فلمن له اذن غير مسدودة كيف كان حاله سواء استمع باجتهاد أو لم يجتهد فى سماعه فان قيل فقوله تعالى وهو شهيد للحال وهو يدل على أن القاء السمع بمجرده غير كاف نقول هذا يصحح ماذكرناه لانا قلنا بأن الذكرى حاصلة لمن له قلب ما فان لم تحصل له

(ان فى ذلك) أى فيما ذكر من قصتهم وقيل فيما ذكر فى السورة (لذكرى) لتذكرة وعظة (لمن كان له قلب) أى قلب سليم يدرك به كنه مايشاهده من الامور و يتفكر فيها كما ينبغى فان من كان له ذلك يعلم أن مدار دمارهم هو الكفر فيرتدع عنه بمجرد مشاهدة الآثار من غير تذكير (أو ألقى السمع) أى الى ماتلى عليه من الوحى الناطق بما جرى عليهم فان من فعله يقف على جلية الامر فينزجر عما يؤدى اليه من الكفر فكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع فان القاء السمع لايجدى بدون سلامة القلب كما يلوح به قوله تعالى (وهو شهيد) أى حاضر بفطنته لان من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب وتجريد القلب عما ذكر من الصفات للايذان بان من عرى قلبه عنها كمن لا قلب له أصلا

فيحصل له اذا ألقى السمع وهو حاضر بباله من القلب وأما على الاول فمعناه من ليس له قلب واع يحصل له الذكر اذا ألقى السمع وهو حاضر بقلبه فيكون عند الحضور بقلبه يكون له قلب واع وقد فرض عدمه هذا اذا قلنا بان قوله وهو شهيد بمعنى الحال واذا لم نقل به فلا يرد ماذكروهو يحتمل غيرذلك بيانه هوأن يقال ذلك اشارة الى القرآن وتقريره هوان الله تعالى لما قال فى أول السورة ق والقرآن المجيد بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم وذكر مايدفع تعجبهم و بين كونه منذراصادقا وكون الحشر أمرا واقعاوا رغب وأرهب بالثواب والعذاب آجلا وعاجلا وأتم الكلام قال ان فى ذلك أى القرآن الذى سبق ذكره لذكرى لمن له قلب أولمن يستمع ثم قال وهو شهيد أى المنذر الذى تعجبتم منه شهيد كما قال تعالى انا أرسلناك شاهدا وقال تعالى ليكون الرسول عليكم شهيدا ۞ ثم قال تعالى (ولقد خلقنا السموات والارض ومابينهما فى ستة أيام ومامسنا من لغوب) اعاد الدليل مرة أخرى وقد ذكرنا تفسير ذلك فى الم السجدة وقلنا ان الاجسام ثلاثة اجناس أحدها السموات ثم حركها وخصصها بامور ومواضع وكذلك الارض خلقها ثم دحاها وكذلك مابينهما خلق أعيانها وأصنافها فى ستة أيام اشارة الى ستة أطوار والذى يدل عليه و يقرره هو ان المراد من الايام لايمكن أن يكون هو المفهوم فى وضع اللغة لان اليوم عبارة فى اللغة عن زمان مكث الشمس فوق الارض من الطلوع الى الغروب وقبل خلق السموات لم يكن شمس ولاقمر لكن اليوم يطلق و يراد به الوقت يقال يوم يولد الملك ابن يكون سرورعظيم و يوم يموت فلان يكون حزن شديد وان اتفقت الولادة أو الموت ليلا ولايتعين ذلك و يدخل فى مراد العاقل لانه أراد باليوم مجرد الحين والوقت اذا علمت الحال من اضافة اليوم الى الافعال فافهم ماعند اطلاق اليوم فى قوله ستة أيام وقال بعض المفسرين المراد من الآية الرد على اليهود حيث قالوا بدأ الله تعالى خلق العالم يوم الاحد وفرغ منه فى ستة أيام آخرها يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على عرشه فقال تعالى ومامسنا من لغوب ردا عليهم والظاهر ان المراد الرد على المشرك والاستدلال بخلق السموات والارض ومابينهما وقوله تعالى ومامسنا من لغوب أى ماتعينا بالخلق الاول حتى لانقدر على الاعادة ثانيا والخلق الجديد كما قال تعالى أفعيينا بالخلق الاول وأما ماقاله اليهود ونقلوه من التوراة فهو اما تحريف منهم أولم يعلموا تأويله وذلك لان الاحد والاثنين ازمنة متميز بعضها عن بعض فلو كان خلق السموات ابتدئ يوم الاحد لكان الزمان متحققا قبل الاجسام والزمان لاينفك عن الاجسام فيكون قبل خلق الاجسام اجسام أخر فيلزم القول بقدم العالم وهو مذهب الفلاسفة ومن العجب ان بين الفلاسفة والمشبهة غاية الخلاف فان الفلسفى لايثبت لله تعالى صفة أصلا ويقول بان الله تعالى لايقبل صفة بل هو واحد من جميع الوجوه فعلمه وقدرته وحياته هو حقيقته وعينه وذاته والمشبهى يثبت لله صفة الاجسام من الحركة والسكون والاستواء والجلوس والصعود والنزول فبينهما منافاة ثم ان اليهود فى هذا

(ولقد خلقنا السموات والارض ومابينهما) من أصناف المخلوقات (فى ستة أيام ومامسنا) بذلك مع كونه ممالايفى به القوى والقدر (من لغوب) من اعياء ما ولا تعب فى الجملة وهذا رد على جهلة اليهود فى زعمهم أنه تعالى بدأ خلق العالم يوم الاحد وفرغ منه يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا

الكلام جمعوا بين المسئلتين فاخذوا بمذهب الفلاسفة فى المسئلة هى اخص المسائل بهم وهى القدم حيث أثبتوا قبل خلق الاجسام أياما معدودة وأزمنة محدودة وأخذوا بمذهب المشبهة فى المسئلة التى هى أخص المسائل بهم وهى الاستواء على العرش فأخطؤا وأضلوا فى الزمان والمكان جميعا * ثم قال تعالى (فاصبر على ما يقولون) قال من تقدم ذكرهم من المفسرين ان معناه اصبر على ما يقولون من حديث التعب بالاستلقاء وعلى ما قلنا معناه اصبر على ما يقولون ان هذا الشئ عجيب وسبح بحمد ربك وما ذكرناه أقرب لانه مذكور وذكر اليهود وكلامهم لم يجر * وقوله (وسبح بحمد ربك) يحتمل وجوها (احدها) ان يكون الله أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة فيكون كقوله تعالى وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل * وقوله تعالى (قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) اشارة الى طرفى النهار * وقوله (ومن الليل فسبحه) اشارة الى زلفا من الليل ووجه هذا هو أن النبي صلى الله عليه وسلم له شغلان أحدهما عبادة الله وثانيهما هداية الخلق فاذا هداهم ولم يهتدوا قيل له أقبل على شغلك الآخر وهو عبادة الحق (ثانيها) سبح بحمد ربك أى نزهه عما يقولون ولا تسأم من امتناعهم بل ذكرهم بعظمة الله تعالى ونزهه عن الشرك والعجز عن الممكن الذى هو الحشر قبل الطلوع وقبل الغروب فانهما وقت اجتماعهم ومن الليل فسبحه أى أوائل الليل فانه أيضا وقت اجتماع العرب ووجه هذا أنه لا ينبغى ان تسأم من تكذيبهم فان الرسل من قبلك أوذوا وكذبوا وصبروا على ما كذبوا وأوذوا وعلى هذا فلقوله تعالى (وأدبار السجود) فائدة جليلة وهى الاشارة الى ما ذكرنا ان شغل الرسول أمران العبادة والهداية فقوله وأدبار السجود أى عقب ما سجدت وعبدت نزه ربك بالبرهان عند اجتماع القوم ليحصل لك العبادة بالسجود والهداية بادبار السجود (ثالثها) أن يكون المراد قل سبحان الله وذلك لان ألفاظا معدودة جاءت بمعنى التلفظ بكلامهم فقولنا كبر يطلق ويراد به قول القائل الله أكبر وسلم يراد به قوله السلام عليكم وحمدل يقال لمن قال الحمد لله ويقال هلل لمن قال لا اله الا الله وسبح لمن قال سبحان الله ووجهه ان هذه أمور تتكرر من الانسان فى الكلام والحاجة تدعو الى الاخبار عنها فلو قال القائل فلان قال لا اله الا الله أو قال الله أكبر طول الكلام فمست الحاجة الى استعمال لفظة واحدة مفيدة لذلك لعدم تكرر ما فى الاول وأما مناسبة هذا الوجه للكلام الذى هو فيه فهى أن تكذيبهم الرسول وتعجبهم من قوله واستهزاءهم كان يوجب فى العادة أن يشتغل النبي صلى الله عليه وسلم بلعنهم وسبهم والدعاء عليهم فقال فاصبر على ما يقولون واجعل كلامك بدل الدعاء عليهم التسبيح لله والحمد له ولا تكن كصاحب الحوت أو كنوح عليه السلام حيث قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا بل ادع الى ربك فاذا ضجرت عن ذلك بسبب اصرارهم فاشتغل بذكر ربك فى نفسك وفيه مباحث (الأول) استعمل الله التسبيح تارة مع اللام فى قوله تعالى يسبح لله ويسبحون له وأخرى مع

(فاصبر على ما يقولون) أى ما يقوله المشركون فى شان البعث من الاباطيل المبنية على الانكار والاستبعاد فان من فعل هذه الافاعيل بلا فتور قادر على بعثهم والانتقام منهم أو ما يقوله اليهود من مقالات الكفر والتشبيه (وسبح بحمد ربك) أى نزهه تعالى عن العجز عما يمكن وعن وقوع الخلف فى أخباره التى من جملتها الاخبار بوقوع البعث وعن وصفه تعالى بما يوجب التشبيه حامدا له تعالى على ما أنعم به عليك من اصابة الحق وغيرها (قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) هما وقت الفجر والعصر وفضيلتهما مشهورة (ومن الليل فسبحه) وسبحه بعض الليل (وأدبار السجود) وأعقاب الصلوات جمع دبر وقرئ بالكسر من أدبرت الصلاة اذا انقضت وتمت ومعناه وقت انقضاء السجود وقيل المراد بالتسبيح الصلوات فالمراد بما قبل الطلوع صلاة الفجر وبما قبل الغروب الظهر والعصر وبما من الليل العشاآن والتهجد وما يصلى بادبار السجود النوافل بعد المكتوبات

الباء في قوله تعالى فسبح باسم ربك العظيم وسبح بحمد ربك وثالثها من غير حرف في قوله وسبحه وقوله وسبحوه بكرة وقوله سبح اسم ربك الاعلى فالفرق بينها نقول اما الباء فهي الاهم بالتقديم أولى في هذا الموضع كقوله تعالى وسبح بحمد ربك فنقول اما على قولنا المراد من سبح قل سبحان الله فالباء للمصاحبة أي مقترنا بحمد الله فيكون كانه تعالى قال قل سبحان الله والحمد لله وعلى قولنا المراد التنزيه للدلالة أي نزهه واقرنه بحمد أي سبحه واشكره حيث وفقك الله لتسبيحه فان السعادة الابدية لمن سبحه وعلى هذا فيكون المفعول غير مذكور لحصول العلم به من غير ذكر تقديره سبح الله بحمد ربك أي ملتبسا ومقترنا بحمد ربك وعلى قولنا صل نقول يحتمل ان يكون ذلك أمرا بقراءة الفاتحة في الصلاة يقال صلى فلان بسورة كذا أو صلى بقل هو الله أحد فكانه يقول صل بحمد الله أي مقروا فيها الحمد لله رب العالمين وهو أبعد الوجوه واما التعدية من غير حرف فنقول هو الاصل لان التسبيح يتعدى بنفسه لان معناه تبعيد من السوء واما اللام فيحتمل وجهين احدهما ان يكون كما في قول القائل نصحته ونصحت له وشكرته وشكرت له وثانيهما ان يكون لبيان الاظهر أي يسبحون الله وقلوبهم لوجه الله خالصة (البحث الثاني) قال ههنا سبح بحمد ربك ثم قال تعالى ومن الليل فسبحه من غير باء فما الفرق بين الموضعين نقول الامر في الموضعين واحد على قولنا التقدير سبح الله مقترنا بحمد ربك وذلك لان سبح الله كقول القائل فسبحه غير أن المفعول لم يذكر أولا لدلالة قوله بحمد ربك عليه وثانيا الدلالة ما سبق عليه لم يذكر بحمد ربك الجواب الثاني على قولنا سبح بمعنى صل يكون الاول أمرا بالصلاة والثاني أمرا بالتنزيه أي وصل بحمد ربك في الوقت وبالليل نزهه عما لا يليق وحينئذ يكون هذا اشارة الى العمل والذكر والفكر فقوله سبح اشارة الى خير الاعمال وهو الصلاة وقوله بحمد ربك اشارة الى الذكر وقوله ومن الليل فسبحه اشارة الى الفكر حين هدو الاصوات وصفاء الباطن نزهه عن كل سوء بفكرك واعلم انه لا يتصف الا بصفات الكمال ونعوت الجلال وقوله تعالى وادبار السجود قد تقدم بعض ما يقال في تفسيره ووجه آخر هو أنه اشارة الى الامر بادامة التسبيح فقوله بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه اشارة الى أوقات الصلاة وقوله وأدبار السجود يعني بعد ما فرغت من السجود وهو الصلاة فلا تترك تسبيح الله وتنزيهه بل داوم أدبار السجود ليكون جميع أوقاتك في التسبيح فيفيد فائدة قوله تعالى واذكر ربك اذا نسيت وقوله فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب وقرئ وادبار السجود (البحث الثالث) الفاء في قوله تعالى فسبحه ما وجهها نقول هي تفيد تأكيد الامر بالتسبيح من الليل وذلك لانه يتضمن الشرط كانه يقول وأما من الليل فسبحه وذلك لان الشرط يفيدان عند وجوده يجب وجود الجزاء وكانه تعالى يقول النهار محل الاشتغال وكثرة الشواغل فاما الليل فمحل السكون والانقطاع فهو وقت التسبيح أو نقول بالعكس

الليل محل النوم والثبات والغفلة فقال اما الليل فلا تجعله للغفلة بل اذكر فيه ربك ونزهه
(البحث الرابع) من في قوله ومن الليل يحتمل وجهين أحدهما ان يكون لابتداء الغاية
أي من أول الليل فسبحه وعلى هذا فلم يذكر له غاية لاختلاف ذلك بغلبة النوم وعدمها
يقال انا من الليل أنتظرك ثانيهما ان يكون للتبعيض اى اصرف من الليل طرفا الى
التسبيح يقال من مالك متع ومن الليل انتبه أي ببعضه (البحث الخامس) قوله وادبار
السجود عطف على ماذا نقول يحتمل أن يكون عطفا على ماقبل الغروب كأنه قال
تعالى وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب وادبار السجود وذكر بينهما
قوله ومن الليل فسبحه وعلى هذا ففيه ماذكرنا من الفائدة وهي الامر بالمداومة كأنه قال
سبح قبل طلوع الشمس واذا جاء وقت الفراغ من السجود وقبل الطلوع فسبح وسبح قبل
الغروب وبعد الفراغ من السجود قبل الغروب سبحه فيكون ذلك اشارة الى صرف
الليل الى التسبيح ويحتمل أن يكون عطفا على ومن الليل فسبحه وعلى هذا يكون عطفا
على الجار والمجرور جميعا تقديره وبعض الليل فسبحه وادبار السجود * ثم قال تعالى
(واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب) هذا اشارة الى بيان غاية التسبيح يعني اشتغل
بتنزيه الله وانتظر المنادي كقوله تعالى واعبد ربك حتى يأتيك اليقين وفيه مسائل
(المسئلة الاولى) ماالذي يستمعه قلنا يحتمل وجوها ثلاثة أحدها أن يترك مفعوله
رأسا ويكون المقصود كن مستمعا ولاتكن مثل هؤلاء المعرضين الغافلين يقال هو رجل
سميع مطيع ولايراد مسموع بعينه كما يقال فلان يكسو وكاس فلان يعطي ويمنع ثانيها استمع
لما يوحى اليك ثالثها استمع نداء المنادي (المسئلة الثانية) يوم يناد المناد منصوب باى
فعل نقول هو مبني على المسئلة الاولى ان قلنا استمع لامفعول له فعامله مايدل عليه
قوله تعالى يوم الخروج تقديره يخرجون يوم ينادي المنادي وان قلنا مفعوله لما يوحى
فتقديره واستمع لما يوحى يوم ينادي ويحتمل ماذكرنا وجها آخر وهو مايوحى أي مايوحى
يوم ينادي المنادي اسمعه فان قيل استمع عطف على فاصبر وسبح وهو في الدنيا
والاستماع يكون في الدنيا ومايوحى يوم ينادي المنادي لايستمع في الدنيا نقول ليس
بلازم ذلك لجواز أن يقال صل وادخل الجنة أي صل في الدنيا وادخل الجنة في العقبى
فكذلك ههنا ويحتمل أن يقال بان استمع بمعنى انتظر فيحتمل الجمع في الدنيا وان قلنا
استمع الصيحة وهو نداء المنادي ياعظام انتشري والسؤال الذي ذكره علم الجواب منه
وجواب آخر نقوله حينئذ وهو ان الله تعالى قال ونفخ في الصور فصعق من في السموات
ومن في الارض الا من شاء الله قلنا ان من شاء الله هم الذين علموا وقوع الصيحة
واستيقظوا لها فلم تزعجهم كمن يرى برقا أومض وعلم ان عقيبه يكون رعد قوي فينظره
ويستمع له وآخر غافل فاذا رعد بقوة ربما يغشى على الغافل ولايتأثر منه المستمع فقال
استمع ذلك كي لاتكون ممن يصعق في ذلك اليوم (المسئلة الثالثة) ماالذي ينادي المنادي

(واستمع) أي لما يوحى
اليك من أحوال القيامة
وفيه تهويل وتفظيع
للمخبر به (يوم ينادي
المنادي) أي اسرافيل
أوجبريل عليهما السلام
فيقول أيتها العظام
البالية واللحوم المتمزقة
والشعور المتفرقة ان الله
يأمركن أن تجتمعن
لفصل القضاء وقيل
اسرافيل ينفخ وجبريل
ينادي بالحشر (من
مكان قريب) بحيث
يصل نداؤه الى الكل
على سواء وقيل من
صخرة بيت المقدس وقيل
من تحت اقدامهم وقيل
من منابت شعورهم
يسمع من كل شعرة ولعل
ذلك في الاعادة مثل كن
في البدء

نقول فيه وجوه محتملة منقولة معقولة وحصرها بأن نقول المنادي اما أن يكون هو الله تعالى أو الملائكة أو غيرهما وهم المكلفون من الانس والجن في الظاهر وغيرهم لاينادي فان قلنا هو الله تعالى فيه وجوه أحدها ينادي احشروا الذين ظلموا وازواجهم ثانيها ينادي ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مع قوله ادخلوها بسلام ومثله قوله تعالى خذوه فغلوه يدل على هذا قوله تعالى يوم يناد المناد من مكان قريب وقال وأخذوا من مكان قريب ثالثها غيرهما لقوله تعالى يناديهم أين شركائي وغير ذلك واما على قولنا المنادي غير الله ففيه وجوه أيضا احدها قول اسرافيل ايتها العظام البالية اجتمعوا للوصل واسمعوا للفصل ثانيها النداء مع النفس يقال للنفس ارجعي الى ربك لتدخلي مكانك من الجنة أو النار ثالثها ينادي مناد هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار كما قال تعالى فريق في الجنة وفريق في السعير وعلى قولنا المنادي هو المكلف فيحتمل ان يقال هو ما بين الله تعالى في قوله ونادوا يامالك أو غير ذلك الا ان الظاهر ان المراد احد الوجهين الاولين لان قوله المنادي للتعريف وكون الملك في ذلك اليوم مناد يا معروف عرف حاله وان لم يجر ذكره فيقال قال صلى الله عليه وسلم وان لم يكن قد سبق ذكره وأما ان الله تعالى مناد فقد سبق في هذه السورة في قوله ألقيا وهذا نداء وقوله يوم نقول لجهنم وهو نداء واما المكلف فليس كذلك وقوله تعالى من مكان قريب اشارة الى ان الصوت لايخفى على أحد بل يستوي في استماعه كل أحد وعلى هذا فلا يبعد حمل المنادي على الله تعالى اذليس من المكان القريب نفس المكان بل ظهور النداء وهو من الله تعالى أقرب وهذا كما قال في هذه السورة ونحن أقرب اليه من حبل الوريد وليس ذلك بالمكان ثم قال تعالى (يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج) هذا تحقيق مابينا من الفائدة في قوله واستمع أي لاتكن من الغافلين حتى لاتصعق يوم الصيحة و بيانه هو انه قال استمع أي كن قبل أن تستمع مستيقظا لوقوعه فان السمع لابد منه انت وهم فيه سواء فهم يسمعون لكن من غير استماع فيصعقون وأنت تسمع بعد الاستماع فلا يؤثر فيك الاما لابد منه و يوم يحتمل وجوها أحدها ماقاله الزمخشري انه بدل من يوم في قوله واستمع يوم ينادي المنادي والعامل فيهما الفعل الذي يدل عليه قوله تعالى ذلك يوم الخروج أي يخرجون يوم يسمعون وثانيها ان يوم يسمعون العامل فيه مافي قوله ذلك و يوم ينادي المنادي العامل فيه ماذكرنا ثالثها أن يقال استمع عامل في يوم ينادي كما ذكرنا و ينادي عامل في يوم يسمعون وذلك لان يوم ينادي وان لم يجز أن يكون منصوبا بالمضاف اليه وهو ينادي لكن غيره يجوز أن يكون منصوبا به يقال اذكر حال زيد ومذلته يوم ضرب به عمرو يوم كان عمرو واليا اذا كان القائل يريد بيان مذلة زيد عندما صار زيد يكرم بسبب من الاسباب فلايكون يوم كان عمرو واليا منصوبا بقوله اذكر لان غرض القائل التذكير بحال زيد ومذلته وذلك يوم الضرب لكن يوم كان عمرو منصوب بقوله ضرب به عمرو يوم كان واليا فكذلك

(يوم يسمعون الصيحة) بدل من يوم ينادي الخ وهي النفخة الثانية (بالحق) متعلق بالصيحة و العامل في الظرف مايدل عليه قوله تعالى (ذلك يوم الخروج) اى يوم يسمعون الصيحة ملتبسة بالحق الذي هو البعث يخرجون من القبور

(انا نحن نحيي ونميت) في الدنيا من غير أن يشاركنا في ذلك أحد (والينا المصير) للجزاء في الآخرة لا الى غيرنا لا استقلالا و لا اشتراكا (يوم تشقق الارض عنهم) بحذف احدى التاءين من تتشقق وقرئ بتشديد الشين وتشقق على البناء للمفعول من التفعيل وتنشق (سراعا) مسرعين

ههنا قال استمع يوم ينادى المنادى لئلا تكون ممن يفزع و يصعق ثم بين هذا النداء بقوله ينادى المنادى يوم يسمعون أي لا يكون نداء خفيا بحيث لا يسمعه بعض الناس بل يكون نداؤه بحيث تكون نسبته الى من في اقصى المغرب كنسبته الى من في المشرق وكلكم تسمعون ولا شك ان مثل هذا الصوت يجب ان يكون الانسان متهيئا لاستماعه وذلك يشغل النفس بعبادة الله تعالى وذكره والتفكر فيه فظهر فائدة جليلة من قوله فاصبر وسبح واستمع يوم ينادى المنادى و يوم يسمعون واللام في الصيحة للتعريف وقد عرف حالها وذكرها الله مرارا كما في قوله تعالى ان كانت الاصيحة واحدة وقوله فانما هي زجرة واحدة وقوله نفخة واحدة وقوله بالحق جاز ان يكون متعلقا بالصيحة أي الصيحة بالحق يسمعونها وعلى هذا ففيه وجوه (الاول) الحق الحشر أي الصيحة بالحشر وهو حق يسمعونها يقال صاح زيد يا قوم اجتمعوا على حد استعمال تكلم بهذا الكلام وتقديره حينئذ يسمعون الصيحة يا عظام اجتمعي وهو المراد بالحق (الثاني) الصيحة بالحق أي باليقين والحق هو اليقين يقال صاح فلان بيقين لا بظن وتخمين أي وجد منه الصياح يقينا لا كالصدى وغيره هو يجري مجرى الصفة للصيحة يقال استمع سماعا بطلب وصاح صيحة بقوة أي قوية فكانه قال الصيحة المحققة (الثالث) ان يكون معناه الصيحة المقترنة بالحق وهو الوجود يقال كن فيتحقق و يكون و يقال اذهب بالسلامة وارجع بالسعادة أي مقرونا ومصحوبا فان قيل زدتيانا فان الباء في الحقيقة للالصاق فكيف يفهم معنى الالصاق في هذه المواضع نقول التعدية قد تتحقق بالباء يقال ذهب بزيد على معنى ألصق الذهاب بزيد فوجد قائما به فصار مفعولا فعلى قولنا المراد يسمعون صيحة من صاح يا عظام اجتمعي هو تعدية المصدر بالباء يقال اعجبني ذهاب زيد بعمرو و كذلك قوله الصيحة بالحق أي ارفع الصوت على الحق وهو الحشر وله موعد نبينه في موضع اخر ان شاء الله تعالى (الوجه) الثاني أن يكون الحق متعلقا بقوله يسمعون أي يسمعون الصيحة بالحق وفيه وجهان الاول هو قول القائل سمعته بيقين الثاني الباء في يسمعون بالحق قسم أي يسمعون الصيحة بالله الحق وهو ضعيف وقوله تعالى ذلك يوم الخروج فيه وجهان أحدهما ذلك اشارة الى يوم أي ذلك اليوم يوم الخروج ثانيهما ذلك اشارة الى نداء المنادى * ثم قال تعالى (انا نحن نحيي و نميت والينا المصير) قد ذكرنا في سورة يس ما يتعلق بقوله انا نحن وأما قوله نحيي ونميت فالمراد من الاحياء الاحياء أولا ونميت اشارة الى الموتة الاولى وقوله والينا بيان للحشر فقدم انا نحن لتعريف عظمته يقول القائل انا انا أي مشهور ونحيي ونميت أمور مؤكدة معنى العظمة والينا المصير بيان للمقصود * وقوله تعالى (يوم تشقق الارض عنهم سراعا) العامل فيه هو ما في قوله يوم الخروج من الفعل أي يخرجون يوم تشقق الارض عنهم سراعا وقوله سراعا حال للخارجين لان قوله تعالى عنهم يفيد كونهم مفعولين بالتشقق فكان التشقق عند الخروج من القبر كما يقال كشف عنه

فهو مكشوف عنه فيصير سراعا هيئة المفعول كأنه قال مسرعين والسراع جمع سريع كالكرام جمع كريم * قوله (ذلك حشر) يحتمل أن يكون اشارة الى التشقق عنهم ويحتمل أن يكون اشارة الى الاخراج المدلول عليه بقوله سراعا ويحتمل أن يكون معناه ذلك الحشر حشر يسير لان الحشر علم مما تقدم من الالفاظ * وقوله تعالى (علينا يسير) بتقديم الظرف يدل على الاختصاص أي هو علينا هين لا على غيرنا وهو اعادة جواب قولهم ذلك رجع بعيد و الحشر الجمع ويوم القيامة جمع الاجزاء بعضها الى بعض وجمع الارواح مع الاشباح أي يجمع بين كل روح وجسدها وجمع الامم المتفرقة والرمم المتمزقة والكل واحد في الجمع * ثم قال تعالى (نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) فيه وجوه (أحدها) تسلية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وتحريض لهم على ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم من الصبر والتسبيح أي اشتغل بما قلناه ولا يشغلك الشكوى الينا فانا نعلم أقوالهم ونرى أعمالهم وعلى هذا فقوله وما أنت عليهم بجبار مناسب له أي لا تقل بأني أرسلت اليهم لاهديهم فكيف أشتغل بما يشغلني عن الهداية وهو الصلاة والتسبيح فانك ما بعثت مسلطا على دواعيهم وقدرهم وانما أمرت بالتبليغ وقد بلغت فاصبر وسبح وانتظر اليوم الذي يفصل فيه بينكم (ثانيها) هي كلمة تهديد وتخويف لان قوله والينا المصير ظاهر في التهديد بالعلم بعملكم لان من يعلم ان مرجعه الى الملك ولكنه يعتقد ان الملك لا يعلم ما يفعله لا يمتنع من القبائح اما اذا علم انه يعلمه وعنده غيبه واليه عوده يمتنع فقال تعالى والينا المصير ونحن اعلم وهو ظاهر في التهديد وهذا حينئذ كقوله تعالى ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون انه عليم بذات الصدور (ثالثها) تقرير الحشر وذلك لانه لما بين ان الحشر عليه يسير لكمال قدرته ونفوذ ارادته ولكن تمام ذلك بالعلم الشامل حتى يميز بين جزء بدنين جزء بدن زيد وجزء بدن عمرو فقال ذلك حشر علينا يسير لكمال قدرتنا ولا يخفى علينا الاجزاء لكمال علمنا وعلى هذا فقوله نحن أعلم بما يقولون معناه نحن نعلم عين ما يقولون في قولهم أئذا متنا وكنا ترابا أئذا ضللنا في الارض فيقول نحن نعلم الاجزاء التي يقولون فيها انها ضالة وخفية ولا يكون المراد نحن نعلم قولهم و في الاول جاز أن تكون ما مصدرية فيكون المراد من قوله ما يقولون أي قولهم وفي الوجه الآخر تكون خبرية وعلى هذا الدليل فلا يصح قوله نحن اعلم اذ لا عالم بتلك الاجزاء سواه حتى يقول نحن أعلم نقول قد علم الجواب عنه مرارا من وجوه (أحدها) أن أفعل لا يقتضي الاشتراك في أصل الفعل كما في قوله تعالى والله أحق أن تخشاه وفي قوله تعالى أحسن نديا وفي قوله وهو أهون عليه (ثانيها) معناه نحن أعلم بما يقولون من كل عالم بما يعلمه والاول أصح وأظهر واوضح وأشهر وقوله تعالى وما أنت عليهم بجبار فيه وجوه (أحدها) انه للتسلية أيضا وذلك لانه لما من عليه بالاقبال على الشغل الاخروي وهو العبادة اخبر بأنه لم يصرف عن الشغل الآخر وهو البعث كما ان

(ذلك حشر) بعث وجمع وسوق (علينا يسير) أي هين وتقديم الجار والمجرور لتخصيص اليسر به تعالى (نحن أعلم بما يقولون) من نفي البعث وتكذيب الآيات الناطقة به وغير ذلك مما لا خير فيه (وما أنت عليهم بجبار) بمتسلط تقسرهم على الايمان أو تفعل بهم ما تريد وانما أنت مذكر (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) وأما من عداهم فنحن نفعل بهم ما توجبه أقوالهم وتستدعيه أعمالهم من ألوان العقاب وفنون العذاب * عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة ق هون الله عليه ثارات الموت وسكراته

الملك اذا أمر بعض عبيده بشغلين فظهر عجزه في أحدهما يقول له أقبل على الشغل الآخر منهما ونحن نبعث من يقدر على الذي عجزت عنه منهما فقال اصبر وسبح وما أنت بجبار أي فما كان امتناعهم بسبب تجبر منك أو تكبر فاشمأزوا من سوء خلقك بل كنت بهم رؤفا وعليهم عطوفا وبالغت و بلغت وامتنعوا فاقبل على الصبر والتسبيح غير مصروف عن الشغل الاول بسبب جبروتك وهذا في معنى قوله تعالى ما أنت بنعمة ربك بمجنون الى أن قال وانك لعلى خلق عظيم (ثانيها) هو بيان ان النبي صلى الله عليه وسلم أتى بما عليه من الهداية وذلك لانه أرسله منذرا وهاديا لا ملجئا ومجبرا وهذا كما في قوله تعالى وما أرسلناك عليهم حفيظا أي تحفظهم من الكفر والنار وقوله وما أنت عليهم في معنى قول القائل اليوم فلان علينا في جواب من يقول من عليكم اليوم أي من الوالي عليكم (ثالثها) هو بيان لعدم وقت نزول العذاب بعد وذلك لان النبي صلى الله عليه وسلم لما انذر واعذر وأظهر ولم يؤمنوا كان يقول ان هذا وقت العذاب فقال نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بمسلط فذكر بعدا بي ان لم يؤمنوا من بقي منهم ممن تعلم أنه يؤمن ثم تسلط عليهم ويؤيد هذا قول المفسرين ان الآية نزلت قبل نزول آية القتال وعلى هذا فقوله فذكر بالقرآن من يخاف وعيد أي من بقي منهم ممن يخاف يوم الوعيد وفيه وجوه أخر (احدها) انا بينا في أحد الوجوه ان قوله تعالى فاصبر على ما يقولون وسبح معناه أقبل على العبادة ثم قال ولا تترك الهداية بالكلية بل وذكر المؤمنين فان الذكرى تنفع المؤمنين وأعرض عن الجاهلين وقوله بالقرآن فيه وجوه (الاول) فذكر بما في القرآن واتل عليهم القرآن يحصل لهم بسبب ما فيه المنفعة (الثاني) فذكر بالقرآن أي بين به انك رسول لكونه معجزا واذا ثبت كونك رسولا لزمهم قبول قولك في جميع ما تقول به (الثالث) المراد فذكر بمقتضى ما في القرآن من الاوامر الواردة بالتبليغ والتذكير وحينئذ يكون ذكر القرآن لانتفاع النبي صلى الله عليه وسلم به أي اجعل القرآن امامك وذكرهم بما أخبرت فيه بان تذكرهم وعلى الاول معناه اتل عليهم القرآن ليتذكروا بسببه وقوله تعالى من يخاف وعيد من جملة ما يبين كون الخشية دالة على عظمة المخشي أكثر مما يدل عليه الخوف حيث قال يخاف عند ما جعل المخوف عذابه و وعيده وقال اخشوني عند ما جعل المخوف نفسه العظيم وفي هذه الآية اشارة الى الاصول الثلاثة قوله وذكر اشارة الى أنه مرسل مأمور بالتذكير منزل عليه القرآن حيث قال بالقرآن وقوله وعيد اشارة الى اليوم الآخر وضمير المتكلم في قوله وعيد يدل على الوحدانية فانه لو قال من يخاف وعيد الله كان يذهب وهم الجاهل الى كل صوب فلهذا قال وعيدي والمتكلم أعرف المعارف وأبعد عن الاشراك به وقبول الاشتراك فيه وقد بينا في أول السورة أن أول السورة وآخرها متقاربان في المعنى حيث قال في الاول ق والقرآن المجيد وقال في آخرها فذكر بالقرآن * وهذا آخر تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين

* (سورة والذاريات مكية وآيها ستون) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) * (والذاريات ذروا) أي الرياح التي تذرو التراب وغيره وقرئ بادغام التاء في الذال (فالحاملات وقرا) أي السحب الحاملة للمطر أو الرياح الحاملة للسحب وقرئ وقرا على تسمية المحمول بالمصدر (فالجاريات يسرا) أي السفن الجارية في البحر او الرياح الجارية في مهابها أو السحب الجارية في الجو بسوق الرياح أو الكواكب الجارية في مجاريها ومنازلها ويسرا صفة لمصدر محذوف

وصلاته على خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه وأزواجه وذرياته أجمعين

(سورة الذاريات ستون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا) أول هذه السورة مناسب لآخر ماقبلها وذلك لانه تعالى لمابين الحشر بدلائله وقال ذلك حشر علينا يسير وقال وماأنت عليهم بجبار أي تجبرهم وتلجئهم الى الايمان اشارة الى اصرارهم على الكفر بعد اقامة البرهان وتلاوة القرآن عليهم لم يبق الا اليمين فقال والذاريات ذروا انما توعدون لصادق وأول هذه السورة وآخرها متناسبان حيث قال في أولها انما توعدون لصادق وقال في آخرها فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون * وفي تفسير الايات مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرنا الحكمة وهي في القسم من المسائل الشريفة والمطالب العظيمة في سورة والصافات ونعيدها ههنا وفيها وجوه (الاول) أن الكفار كانوا في بعض الاوقات يعترفون بكون النبي صلى الله عليه وسلم غالبا في اقامة الدليل وكانوا ينسبونه الى الجدال والى أنه عارف في نفسه بفساد مايقوله وانه يغلبنا بقوة الجدل لابصدق المقال كما أن بعض الناس اذا أقام عليه الخصم الدليل ولم يبق له حجة يقول انه غلبني لعلمه بطريق الجدل وعجزي عن ذلك وهو في نفسه يعلم أن الحق بيدي فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين فيقول والله ان الامر كما أقول ولا أجادلك بالباطل وذلك لانه لوسلك طريقا آخر من ذكر دليل آخر فاذا تم الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ماقال في الاول ان ذلك تقرير بقوة علم الجدل فلا يبقى الا السكوت أو التمسك بالايمان وترك اقامة البرهان (الثاني) هو أن العرب كانت تحترز عن الايمان الكاذبة وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع ثم ان النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من الايمان بكل شريف ولم يزده ذلك الا رفعة وثباتا وكان يحصل لهم العلم بأنه لايحلف بها كاذبا والا لاصابه شؤم الايمان وناله المكروه في بعض الازمان (الثالث) وهو أن الايمان التي حلف الله تعالى بها كلها دلائل أخرجها في صورة الايمان مثاله قول القائل لمنعمه وحق نعمك الكثيرة انى لأزال أشكرك فيذكر النعم وهي سبب مفيد لدوام الشكر ويسلك مسلك القسم كذلك هذه الاشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الاعادة فان قيل فلم أخرجها مخرج الايمان نقول لان المتكلم اذا شرع في أول كلامه بحلف يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم فيصغي اليه أكثر من أن يصغي اليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر فبدأ بالحلف وأدرج الدليل في صورة اليمين حتى أقبل القوم على سماعه فخرج لهم البرهان المبين والتبيان المتين في صورة اليمين وقد استوفينا الكلام في سورة والصافات (المسئلة الثانية)

أي جريا ذا يسر (فالمقسمات أمرا) أي الملائكة التي تقسم الامور من الامطار والارزاق وغيرها أو السحب التي يقسم الله تعالى بها أرزاق العباد وقد يجوز أن يراد بالكل الرياح تنزيلا لاختلاف العنوان منزلة اختلاف الذات فانها كما تذرو ماتذروه تثير السحاب وتحمله وتجري في الجو جريا سهلا وتقسم الامطار بتصريف السحاب في الاقطار فان حملت الامور المقسم بها على ذوات مختلفة فالفاء لترتيب الاقسام باعتبار مابينها من التفاوت في الدلالة على كمال القدرة والا فهي لترتيب ماصدر عن الريح من الافاعيل فانها تذرو الابخرة الى الجو حتى تنعقد سحابا فتجري به باسطة له الى ماأمرت به فتقسم المطر وقوله

في جميع السور التي أقسم الله في ابتدائها بغير الحروف كان القسم لاثبات أحد الاصول الثلاثة وهي الوحدانية والرسالة والحشر وهي التي يتم بها الايمان ثم انه تعالى لم يقسم لاثبات الوحدانية الا في سورة واحدة من تلك السور وهي والصافات حيث قال فيها ان الهكم لواحد وذلك لانهم وان كانوا يقولون أجعل الآلهة الها واحدا على سبيل الانكار وكانوا يبالغون في الشرك لكنهم في تضاعيف أقوالهم وتصاريف أحوالهم كانوا يصرحون بالتوحيد وكانوا يقولون انما نعبدهم ليقربونا الى الله زلفى وقال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله فلم يبالغوا في الحقيقة في انكار المطلوب الاول فاكتفى بالبرهان ولم يكثر من الايمان وفي سورتين منها أقسم لاثبات صدق محمد صلى الله عليه وسلم وكونه رسولا في احداهما بامر واحد وهو قوله تعالى والنجم اذا هوى ماضل صاحبكم وفي الثانية بأمرين وهو قوله تعالى والضحى والليل اذا سجى ماودعك ربك وماقلى وذلك لان القسم على اثبات رسالته قد كثر بالحروف والقرآن كما في قوله تعالى يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين وقد ذكرنا الحكم فيه أن من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم القرآن فاقسم به ليكون في القسم الاشارة واقعة الى البرهان وفي باقي السور كان المقسم عليه الحشر والجزاء وما يتعلق به لكون انكارهم في ذلك خارجا عن الحد وعدم استيفاء ذلك في صورة القسم بالحروف (المسئلة الثالثة) أقسم الله تعالى بجموع السلامة المؤنثة في سور خمس ولم يقسم بجموع السلامة المذكرة في سورة أصلا فلم يقل والصالحين من عبادي ولا المقربين الى غير ذلك مع أن المذكر أشرف وذلك لان جموع السلامة بالواو والنون في الامر الغالب لمن يعقل وقد ذكرنا أن القسم بهذه الاشياء ليس لبيان التوحيد الا في صورة ظهور الامر فيه وحصول الاعتراف منهم به ولا للرسالة لحصول ذلك في صور القسم بالحروف والقرآن * بقي أن يكون المقصود اثبات الحشر والجزاء لكن اثبات الحشر لثواب الصالح وعذاب الطالح وفائدة ذلك راجع الى من يعقل فكان الامر يقتضي أن يكون القسم بغيرهم والله أعلم (المسئلة الرابعة) في السورة التي أقسم لاثبات الوحدانية أقسم في أول الامر بالساكنات حيث قال والصافات وفي السور الاربع الباقية أقسم بالمتحركات فقال والذاريات وقال والمرسلات وقال والنازعات ويؤيده قوله تعالى والسابحات فالسابقات وقال والعاديات وذلك لان الحشر فيه جمع وتفريق وذلك بالحركة أليق أو ان نقول في جميع السور الاربع أقسم بالرياح على ما بين وهي التي تجمع وتفرق فالقادر على تأليف السحاب المتفرق بالرياح الذارية والمرسلة قادر على تأليف الاجزاء المتفرقة بطريق من الطرق التي يختارها بمشيئته تعالى (المسئلة الخامسة) في الذاريات أقوال (الاول) هي الرياح تذرو التراب وغيره كما قال تعالى تذروه الرياح (الثاني) هي الكواكب من ذرا يذرو اذا أسرع (الثالث) هي الملائكة (الرابع) رب الذاريات والاول أصح (المسئلة السادسة)

تعالى (انما توعدون لصادق وان الدين لواقع) جواب للقسم وفي تخصيص الامور المذكورة بالاقسام بها رمز الى شهادتها بتحقق مضمون الجملة المقسم عليها من حيث انها أمور بديعة مخالفة لمقتضى الطبيعة فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود وما موصولة أو مصدرية ووصف الوعد بالصدق كوصف العيشة بالرضا والدين الجزاء ووقوعه حصوله (والسماء ذات الحبك) قال ابن عباس وقتادة وعكرمة

الامور الاربعة جاز أن تكون أمورا متباينة وجاز أن تكون أمر الله أربع اعتبارات والاول هو ماروى عن على عليه السلام أن الذاريات هى الرياح والحاملات هى السحاب والجاريات هى السفن والمقسمات هى الملائكة الذين يقسمون الارزاق والثانى وهو الاقرب أن هذه صفات أربع للرياح فالذاريات هى الرياح التى تنشئ السحاب أولا والحاملات هى الرياح التى تحمل السحب التى هى بخار المياه التى اذا سحت جرت السيول العظيمة وهى أوقار أثقل من جبال والجاريات هى الرياح التى تجرى بالسحب بعد حملها والمقسمات هى الرياح التى تفرق الامطار على الاقطار ويحتمل أن يقال هذه أمور أربعة مذكورة فى مقابلة أمور أربعة بها تتم الاعادة وذلك لان الاجزاء التى تفرقت بعضها فى تخوم الارضين و بعضها فى قعور البحور و بعضها فى جو الهواء وهى الاجزاء اللطيفة البخارية التى تنفصل عن الابدان فقوله تعالى والذاريات يعنى الجامع للذاريات من الارض على ان الذارية هى التى تذرو التراب عن وجه الارض وقوله تعالى فالحاملات وقرا هى التى تجمع الاجزاء من الجو وتحمله حملا فان التراب لاترفعه الرياح حملا بل تنقله من موضع وترميه فى موضع بخلاف السحاب فانه يحمله و ينقله فى الجو حملا لايقع منه شئ وقوله فالجاريات يسرا اشارة الى الجامع من الماء فان من يجرى السفن الثقيلة من تيار البحار الى السواحل يقدر على نقل الاجزاء من البحر الى البر فاذا تبين أن الجمع من الارض وجو الهواء ووسط البحار ممكن واذا اجتمع بقى نفخ الروح لكن الروح من أمر الله كما قال تعالى و يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى فقال فالمقسمات أمرا الملائكة التى تنفخ الروح فى الجسد بأمر الله وانما ذكرهم بالمقسمات لان الانسان فى الاجزاء الجسمية غير مخالف تخالفا بينا فان لكل أحد رأسا ورجلا والناس متقاربة فى الاعداد والاقدار لكن التفاوت الكثير فى النفوس فان الشريفة والخسيسة بينهما غاية الخلاف وتلك القسمة المتفاوتة تتقسم بقسم مختار ومأمور مختار فقال فالمقسمات أمرا (المسئلة السابعة) ماهذه المنصوبات من حيث النحو فنقول أما ذروا فلاشك فى كونه منصوبا على أنه مصدر وأما وقرا فهو مفعول به كما يقال حمل فلان عدلا ثقيلا ويحتمل أن يكون اسما أقيم مقام المصدر كما يقال ضربه سوطا يؤيده قراءة من قرأ بفتح الواو وأما يسرا فهو أيضا منصوب على أنه صفة مصدر تقديره جريا ذا يسر وأما المقسمات أمرا فهو اما مفعول به كما يقال فلان قسم الرزق أو المال واما حال أتى على صورة المصدر كما يقال قتلته صبرا أى مصبورا كذلك ههنا المقسمات أمرا أى مأمورة فان قيل ان كان وقرا مفعولا به فلم لم يجمع وما قيل والحاملات أوقارا نقول لان الحاملات على ماذكرنا صفة الرياح وهى تتوارد على وقر واحد فان ريحا تهب وتسوق السحابة فتسبق السحاب فتهب أخرى وتسوقها وربما تحول عنه يمنة و يسرة بسبب اختلاف الرياح وكذلك القول فى المقسمات أمرا اذا قلنا هو مفعول به لان جماعة يكونون مأمورين تتقسم أمرا واحدا

ذات الخلق المستوى وقال سعيد ابن جبير ذات الزينة وقال مجاهد هى المتقنة البنيان وقال مقاتل والكلبى والضحاك ذات الطرائق والمراد اما الطرائق المحسوسة التى هى مسير الكواكب أو المعقولة التى يسلكها النظار والنجوم فان لها طرائق وعن الحسن حبكها نجومها حيث تزينها كما تزين الموشى طرائق الوشى وهى اما جمع حباك أو حبيكة كمثال ومثل وطريقة وطرق وقرئ الحبك بوزن القفل والحبك بوزن السلك والحبك كالجبل والحبك كالبرق والحبك كالنعم والحبك كالابل (انكم لفى قول مختلف)

أو نقول هو فى تقدير التكرير كأنه قال فالحاملات وقرا وقرا والمقسمات أمرا أمرا (المسئلة الثامنة) مافائدة الفاء نقول ان قلنا انها صفات الرياح فلبيان ترتيب الامور فى الوجود فان الذاريات تنشئ السحاب فتقسم الامطار على الاقطار وان قلنا انها أمور اربعة فالفاء للترتيب فى القسم لا للترتيب فى المقسم به كأنه يقول أقسم بالرياح الذاريات ثم بالسحب الحاملات ثم بالسفن الجاريات ثم بالملائكة المقسمات وقوله فالحاملات وقوله فالجاريات اشارة الى بيان مافى الرياح من الفوائد أما فى البر فانشاء السحب وأما فى البحر فاجراء السفن ثم المقسمات اشارة الى مايترتب على حمل السحب وجرى السفن من الارزاق والارباح التى تكون بقسمة الله تعالى فتجرى سفن بعض الناس كما يشتهى ولا تربح وبعضهم تربح وهو غافل عنه كما قال تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم ❊ ثم قال تعالى (ان ما توعدون لصادق) مايحتمل أن تكون مصدرية معناه الايعاد صادق وان تكون موصولة أى الذى توعدون صادق والصادق معناه ذو صدق كعيشة راضية ووصف المصدر بما يوصف به الفاعل بالمصدر فيه افادة مبالغة فكما أن من قال فلان لطف محض وحلم يجب أن يكون قد بالغ كذلك من قال كلام صادق وبرهان قاهر للخصم أو غير ذلك يكون قد بالغ والوجه فيه هو أنه اذا قال هو لطف بدل قوله لطيف فكأنه قال اللطيف شئ له لطف فى اللطيف لطف وشئ آخر فأراد أن يبين كثرة اللطف فجعله كله لطفا وفى الثانى لما كان الصدق يقوم بالمتكلم بسبب كلامه فكأنه قال هذا الكلام لا يحوج الى شئ آخر حتى يصح اطلاق الصادق عليه بل هو كاف فى اطلاق الصادق لكونه سببا قويا وقوله تعالى توعدون يحتمل ان يكون من وعد ويحتمل أن يكون من أوعد والثانى هو الحق لان اليمين مع المنكر بوعيد لا بوعد ❊ وقوله تعالى (وان الدين لواقع) أى الجزاء كائن وعلى هذا فالايعاد بالحشر فى الموعد هو الحساب والجزاء هو العقاب فكأنه تعالى بين بقوله انما توعدون لصادق وان الدين لواقع أن الحساب يستوفى وان العقاب يوفى ❊ ثم قال (والسماء ذات الحبك) وفى تفسيره مباحث الاول والسماء ذات الحبك قيل الطرائق وعلى هذا فيحتمل أن يكون المراد طرائق الكواكب وممراتها كما يقال فى المجابك ويحتمل أن يكون المراد مافى السماء من الاشكال بسبب النجوم فان فى سمت كواكبها طريق التنين والعقرب والنسر الذى يقول به أصحاب الصور ومنطقة الجوزاء وغير ذلك كالطرائق وعلى هذا فالمراد به السماء المزينة بزينة الكواكب ومثله قوله تعالى والسماء ذات البروج وقيل حبكها صفاقها يقال فى الثواب الصفيق حسن الحبك وعلى هذا فهو كقوله تعالى والسماء ذات الرجع لشدتها وقوتها هذا ماقيل فيه (البحث الثانى) فى المقسم عليه وهو قوله تعالى (انكم لفى قول مختلف) وفى تفسيره أقوال مختلفة كلها محكمة (الاول) انكم فى قول مختلف فى حق محمد صلى الله عليه وسلم تارة تقولون انه أمين وأخرى انه كاذب وتارة تنسبونه الى الجنون وتارة تقولون انه كاهن

اى متخالف متناقض وهو قولهم فى حقه عليه الصلاة والسلام تارة شاعر وأخرى ساحر وأخرى مجنون وفى شان القران الكريم تارة شعر وأخرى سحر وأخرى أساطير وفى هذا الجواب تأييد لكون الحبك عبارة عن الاستواء كما يلوح به مانقل عن الضحاك من أن قول الكفرة لايكون مستويا انما هو متناقض مختلف وقيل النكتة فى هذا القسم تشبيه اقوالهم فى اختلافها وتنافى أغراضها بطرائق السموات فى تباعدها واختلاف غاياتها وليس بذاك (يؤفك عنه من أفك)

وشاعر وساحر وهذا محتمل لكنه ضعيف اذ لا حاجة الى اليمين على هذا لانهم كانوا يقولون ذلك من غير افكار حتى يؤكد بيمين (الثاني) انكم لفي قول مختلف أي غير ثابتين على أمر ومن لا يثبت على قول لا يكون متيقنا في اعتقاده فيكون كأنه قال تعالى والسماء انكم غير جازمين في اعتقادكم وانما تظهرون الجزم لشدة عنادكم وعلى هذا القول فيه فائدة وهي انهم لما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم انك تعلم أنك غير صادق في قولك وانما تجادل ونحن نعجز عن الجدل قال والذاريات ذروا أي انك صادق ولست معاندا ثم قال تعالى بل أنتم والله جازمون بأني صادق فعكس الامر عليهم (الثالث) انكم لفي قول مختلف أي متناقض أما في الحشر فلأنكم تقولون لا حشر ولا حياة بعد الموت ثم تقولون انا وجدنا آباءنا على أمة فاذا كان لا حياة بعد الموت ولا شعور للميت فاذا يصيب آباءكم اذا خالفتموهم وانما يصح هذا ممن يقولون بأن بعد الموت عذابا فلو علمنا شيئا يكرهه الميت بيدي فلا معنى لقولكم انا لا ننسب آباءنا بعد موتهم الى الضلال وكيف وأنتم تربطون الركائب على قبور الاكابر وأما في التوحيد فتقولون خالق السموات والارض هو الله تعالى لا غير ثم تقولون هو اله الآلهة وترجعون الى الشرك وأما في قول النبي صلى الله عليه وسلم فتقولون انه مجنون ثم تقولون له انك تغلبنا بقوة جدالك والمجنون كيف يقدر على الكلام المنتظم المعجز الى غير ذلك من الامور المتناقضة * ثم قال تعالى (يؤفك عنه من أفك) وفيه وجوه (أحدها) أنه مدح للمؤمنين أي يؤفك عن القول المختلف ويصرف من صرف عن ذلك القول ويرشد الى القول المستوى (وثانيها) أنه ذم معناه يؤفك عن الرسول (ثالثها) يؤفك عن القول بالحشر (رابعها) يؤفك عن القرآن وقرئ يؤفن عنه من أفن أي يحرم وقرئ يؤفك عنه من أفك أي كذب * ثم قال تعالى (قتل الخراصون) وهذا يدل على ان المراد من قوله انكم لفي قول مختلف أنهم غير ثابتين على أمر وغير جازمين بل هم يظنون ويخرصون ومعناه لعن الخراصون دعاء عليهم بمكروه ثم وصفهم فقال (الذين هم في غمرة ساهون) وفيه مسئلتان احداهما لفظية والاخرى معنوية (أما اللفظية) فقوله ساهون يحتمل أن يكون خبرا بعد خبر والمبتدأ هو قوله هم وتقديره هم كائنون في غمرة ساهون كما يقال زيد جاهل جائر لا على قصد وصف الجاهل بالجائر بل الاخبار بالوصفين عن زيد ويحتمل أن يكون ساهون هو خبرا وفي غمرة ظرف له كما يقال زيد في بيته قاعد يكون الخبر هو القاعد لا غير وفي بيته لبيان ظرف القعود كذلك في غمرة لبيان ظرف السهو الذي يصح وصف المعرفة بالجملة ولولاها لما جاز وصف المعرفة بالجملة (وأما المعنوية) فهي ان وصف الخراص بالسهو والانهماك في الباطل يحقق كون الخراص صفة ذم وذلك لان ما لا سبيل اليه الا الظن اذا خرص الخارص واطلق عليه الخراص لا يكون ذلك مفيد نقص كما يقال في خراص الفواكه والعساكر وغير ذلك وأما الخرص في محل المعرفة واليقين فهو ذم فقال قتل الخراصون الذي هم جاهلون ساهون لا الذين تعين طريقهم في التخمين والحزر

أي يصرف عن القران أو الرسول عليه الصلاة والسلام من صرف اذ لا صرف افظع منه واشد وقيل يصرف عنه من صرف في علم الله تعالى وقضائه ويجوز ان يكون الضمير للقول المختلف على معنى يصدر افك من افك من ذلك القول وقرئ من افك اي من افك الناس وهم قريش حيث كانوا يصدون الناس عن الايمان (قتل الخراصون) دعاء عليهم كقوله تعالى قتل الانسان ما اكفره واصله الدعاء بالقتل والهلاك ثم جرى مجرى لعن والخراصون الكذابون المقدرون ما لا صحة له وهم اصحاب القول المختلف كأنه قيل قتل هؤلاء الخراصون وقرئ قتل الخراصين اي قتل الله (الذين هم في غمرة) من الجهل والضلال (ساهون) غافلون عما امروا به

وقوله تعالى ساهون بعد قوله في غمرة يفيد أنهم وقعوا في جهل وباطل ونسوا أنفسهم فيه فلم يرجعوا عنه * ثم قال تعالى (يسئلون أيان يوم الدين) فان قيل الزمان يجعل ظرف الافعال ولا يمكن أن يكون الزمان ظرفا لظرف آخر وههنا جعل أيان ظرف اليوم فقال أيان يوم الدين ويقال متى يقدم زيد فيقال يوم الجمعة ولا يقال متى يوم الجمعة فالجواب التقدير متى يكون يوم الجمعة وأيان يكون يوم الدين وأيان من المركبات ركب من أي التي يقع بها الاستفهام وآن التي هي الزمان أو من أي وأوان فكأنه قال أي أوان فلما ركب بني وهذا منهم جواب لقوله وان الدين لواقع فكأنهم قالوا أيان يقع استهزاء وترك المسؤل في قوله يسئلون حيث لم يقل يسألون من يدل على أن غرضهم ليس الجواب وانما يسألون استهزاء * وقوله تعالى (يوم هم على النار يفتنون) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون جوابا عن قولهم أيان يقع وحينئذ كما أنهم لم يسألوا سؤال مستفهم طالب لحصول العلم كذلك لم يجبهم جواب مجيب معلم مبين حيث قال يوم هم على النار يفتنون وجهلهم بالثاني أقوى من جهلهم بالاول ولا يجوز أن يكون الجواب بالاخفى فاذا قال قائل متى يقدم زيد فلو قال المجيب يوم يقدم رفيقه ولا يعلم يوم قدوم الرفيق لا يصح هذا الجواب الا اذا كان الكلام في صورة جواب ولا يكون جوابا كما ان القائل اذا قال كم تعد عداني وتخلفها الى متى هذا الاخلاف فيغضب ويقول الى ان أم يوم عليك الكلامان في صورة سؤال وجواب ولا الاول يريد به السؤال ولا الثاني يريد به الجواب فكذلك ههنا قال يوم هم على النار يفتنون مقابلة استهزائهم بالايعاد لا على وجه الاتيان بالبيان (والثاني) ان يكون ذلك ابتداء كلام تمامه في قوله تعالى (ذوقوا فتنتكم) فان قيل هذا يفضي الى الاضمار نقول الاضمار لابد منه لان قوله ذوقوا فتنتكم غير متصل بما قبله الا باضمار يقال ويفتنون قيل معناه يحرقون والاولى ان يقال معناه يعرضون على النار عرض المجرب الذهب على النار لان كلمة على تناسب ذلك ولو كان المراد يحرقون لكان بالنار أو في النار أليق لان الفتنة هي التجربة واما ما يقال من اختبره ومن انه تجربة الحجارة فعنى بذلك المعنى مصدر الفتن وههنا قال ذوقوا فتنتكم والفتنة الامتحان فان قيل فاذا جعلت يوم هم على النار يفتنون مقولا لهم ذوقوا فتنتكم فما قوله (هذا الذي كنتم به تستعجلون) قلنا يحتمل أن يكون المراد كنتم تستعجلون بصريح القول كما في قوله تعالى حكاية عنهم ربنا عجل لنا قطنا وقوله فأتنا بما تعدنا الى غير ذلك يدل عليه ههنا قوله تعالى يسئلون أيان يوم الدين فانه نوع استعجال ويحتمل أن يكون المراد الاستعجال بالفعل وهو الاصرار على العناد واظهار الفساد فانه يعجل العقوبة * ثم قال تعالى (ان المتقين في جنات وعيون) بعد بيان حال المفترين المجرمين بين حال المحق المتقي وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرنا ان المتقي له مقامات أدناها أن يتقي الشرك واعلاها أن يتقي ما سوى الله وأدنى درجات المتقي الجنة فما من مكلف اجتنب الكفر الا ويدخل الجنة فيرزق نعيمها (المسئلة الثانية) الجنة تارة

(يسألون أيان يوم الدين) أي متى وقوع يوم الجزاء لكن لا بطريق الاستعلام حقيقة بل بطريق الاستعجال استهزاء وقرئ ايان بكسر الهمزة (يوم هم على النار يفتنون) جواب للسؤال أي يقع يوم هم على النار يحرقون ويعذبون ويجوز أن يكون يوم هم خبر المبتدا المحذوف أي هو يوم هم الخ والفتح لاضافته الى غير متمكن ويؤيده أنه قرئ بالرفع (ذوقوا فتنتكم) أي مقولا لهم

وحدها كما قال تعالى مثل الجنة التى وعد المتقون وأخرى جمعها كما فى هذا المقام قال ان المتقين فى جنات وتارة ثناها فقال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان فالحكمة فيه نقول أما الجنة عند التوحيد فلانها لاتصال المنازل والاشجار والانهار كجنة واحدة وأما حكمة الجمع فلانها بالنسبة الى الدنيا و بالاضافة الى جنانها جنات لا يحصرها عدد وأما التثنية فسنذكرها فى سورة الرحمن غير انا نقول ههنا الله تعالى عند الوعد وحد الجنة وكذلك عند الشراء حيث قال ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة وعند الاعطاء جمعها اشارة الى أن الزيادة فى الوعد موجودة والخلاف مالو وعد بجنات ثم كان يقول انه فى جنة لانه دون الموعود (الثالثة) قوله تعالى وعيون يقتضى أن يكون المتقى فيها ولا لذة فى كون الانسان فى ماء أو غير ذلك من المائعات نقول معناه فى خلال العيون وذلك بين الانهار بدليل أن قوله تعالى فى جنات ليس معناه الا بين جنات وفى خلالها لان الجنة هى الاشجار وانما يكون بينها كذلك القول فى العيون والتنكير مع أنها معرفة للتعظيم يقال فلان رجل أى عظيم فى الرجولية * وقوله تعالى (آخذين ما آتاهم ربهم) فيه مسائل ولطائف أما المسائل (فالاولى) منها ما معنى آخذين نقول فيه وجهان أحدهما قابضين ما آتاهم شيئا فشيئا ولا يستوفونه بكماله لامتناع استيفاء ما لا نهاية له (ثانيهما) آخذين قابلين قبول راض كما قال تعالى و يأخذ الصدقات أى يقبلها وهذا ذكره الزمخشرى (وفيه وجه ثالث) وهو أن قوله فى جنات يدل على السكنى فحسب وقوله آخذين يدل على التملك ولذا يقال أخذ بلاد كذا وقلعة كذا اذا دخلها متملكا لها وكذلك يقال لمن اشترى دارا أو بستانا أخذه بثمن قليل أى تملكه وان لم يكن هناك قبض حسا ولا قبول برضا وحينئذ فائدته بيان ان دخولهم فيها ليس دخول مستعير أو ضيف يسترد منه ذلك بل هو ملكه الذى اشتراه بماله ونفسه من الله تعالى وقوله آتاهم يكون لبيان ان أخذهم تلك لم يكن عنوة وفتوحا وانما كان باعطاء الله تعالى وعلى هذا الوجه ما راجعة الى الجنات والعيون * وقوله (انهم كانوا قبل ذلك محسنين) اشارة الى ثمنها أى أخذوها وملكوها بالاحسان كما قال تعالى للذين أحسنوا الحسنى بلام الملك وهى الجنة (المسئلة الثانية) آخذين حال وهو فى معنى قول القائل يأخذون فكيف قال ما آتاهم ولم يقل ما يؤتيهم ليتفق اللفظان و يوافق المعنى لان قوله آتاهم ينبئ عن الانقراض وقوله يؤتيهم تنبيه على الدوام وايتاء الله فى الجنة كل يوم متجدد ولا نهاية له ولا سيما اذا فسرنا الاخذ بالقبول كيف يصح أن يقال فلان يقبل اليوم ما آتاه زيد امس نقول اما على ما ذكرنا من التفسير لا يرد لان معناه يملكون ما أعطاهم وقد يوجد الاعطاء امس و يملك اليوم وأما على ما ذكروه فنقول الله تعالى أعطى المؤمن الجنة وهو فى الدنيا غير أنه لم يكن جنى ثمارها فهو يدخلها على هيئة الآخذ وربما يأخذ خيرا مما آتاه ولا ينافى ذلك كونه داخلا على تلك الهيئة يقول القائل جئتك خائفا فاذا أنا آمن وما ذكرتم انما يلزم ان لو

هذا القول وقوله تعالى (هذا الذى كنتم به تستعجلون) جملة من مبتدا وخبر داخلة تحت القول المضمر أى هذا ما كنتم تستعجلون به بطريق الاستهزاء ويجوز أن يكون هذا بدلا من فتنتكم بتأويل العذاب والذى صفته (ان المتقين فى جنات وعيون) لا يبلغ كنهها ولا يقادر قدرها (آخذين ما آتاهم ربهم) أى قابلين لما أعطاهم راضين به على معنى أن كل ما آتاهم حسن

كان أخذهم مقتصرا على ما آتاهم من قبل وليس كذلك وانما هم دخلوها على ذلك ولم يخطر ببالهم غيره فيؤتيهم الله مالم يخطر ببالهم فيأخذون ما يؤتيهم الله وان دخلوها ليأخذوا ما آتاهم وقوله تعالى ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل هو أخذهم ما آتاهم وقد ذكرناه فى سورة يس (المسئلة الثالثة) ذلك اشارة الى ماذا نقول يحتمل وجهين (أحدهما) قبل دخولهم لان قوله تعالى فى جنات فيه معنى الدخول يعنى قبل دخولهم الجنة أحسنوا (ثانيهما) قبل ايتاء الله ما آتاهم أحسنوا فآتاهم الحسنى وهى الجنة فأخذوها وفيه وجوه أخر وهو ان ذلك اشارة الى يوم الدين وقد تقدم (وأما اللطائف) فقد سبق بعضها ومنها ان قوله تعالى ان المتقين لما كان اشارة الى التقوى من الشرك كان كأنه قال الذين آمنوا لكن الايمان مع العمل الصالح يفيد سعادتين ولذلك دلالة أتم من قول القائل انهم أحسنوا (اللطيفة الثانية) اما التقوى فلانه لما قال لا اله فقد اتقى الشرك واما الاحسان فلانه لما قال الا الله فقد أتى بالاحسان ولهذا قيل فى معنى كلمة التقوى انها لا اله الا الله وفى الاحسان قال تعالى ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وقيل فى تفسير هل جزاء الاحسان الا الاحسان ان الاحسان هو الاتيان بكلمة لا اله الا الله وهما حينئذ لا ينفصلان بل هما متلازمان * وقوله تعالى (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) كالتفسير لكونهم محسنين تقول حاتم كان سخيا كان يبذل موجوده ولا يترك مجهوده وفيه مباحث (الاول) قليلا منصوب على الظرف تقديره يهجعون قليلا تقول قام بعض الليل فتنصب بعض على الظرف وخبر كان هو قوله يهجعون وما زائدة هذا هو المشهور وفيه وجه آخر وهو أن يقال كانوا قليلا معناه نفى النوم عنهم وهذا منقول عن الضحاك ومقاتل وأنكر الزمخشرى كون ما نافية وقال لا يجوز ان تكون نافية لان ما بعد ما لا يعمل فيما قبلها لا تقول زيدا ما ضربت ويجوز ان يعمل ما بعد لم فيما قبلها تقول زيدا لم أضرب وسبب ذلك هو ان الفعل المتعدى انما يفعل فى النفى حملا له على الاثبات لانك اذا قلت ضرب زيد عمرا ثبت تعلق فعله بعمرو فاذا قلت ما ضربه لم يوجد منه فعل حتى يتعلق به ويتعدى اليه لكن النفى محمول على الاثبات فاذا ثبت هذا فالنفى بالنسبة الى الاثبات كاسم الفاعل بالنسبة الى الفعل فانه يعمل عمل الفعل لكن اسم الفاعل اذا كان بمعنى الماضى لا يعمل فلا تقول زيد ضارب عمرا أمس وتقول زيد ضارب عمرا غدا واليوم والآن لان الماضى لم يبق موجودا ولا متوقع الوجود فلا يتعلق بالمفعول حقيقة لكن الفعل لقوته يعمل واسم الفاعل لضعفه لم يعمل اذا عرفت هذا فنقول ما ضرب للنفى فى الماضى فاجتمع فيه النفى والمضى فضعف وأما لم أضرب وان كان يقلب المستقبل الى الماضى لكن الصيغة صيغة المستقبل فوجد فيه ما يوجد فى قول القائل زيد ضارب عمرا غدا فاعمل هذا بيان قوله غير ان القائل بذلك القول يقول قليلا ليس منصوبا بقوله يهجعون وانما ذلك خبر كانوا أى كانوا قليلين ثم قال من الليل ما يهجعون أى ما يهجعون أصلا بل يحيون

مرضى يتأتى بحسن القول (انهم كانوا قبل ذلك) فى الدنيا (محسنين) أى لأعمالهم الصالحة آتين بها على ما ينبغى فلذلك نالوا ما نالوا من الفوز العظيم ومعنى الاحسان بالاجمال ما اشار اليه عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وقد فسر بقوله تعالى (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) أى كانوا يهجعون فى طائفة قليلة من الليل على أن

الليل جميعه ومن يكون لبيان الجنس لا للتبعيض وهذا الوجه حينئذ فيه معنى قوله تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم وذلك لانا ذكرنا ان قوله ان المتقين فيه معنى الذين آمنوا وقوله محسنين فيه معنى الذين عملوا الصالحات وقوله كانوا قليلا فيه معنى قوله تعالى وقليل ماهم (البحث الثاني) على القول المشهور وهو ان ما زائدة يحتمل أن يكون قليلا صفة مصدر تقديره يهجعون هجوعا قليلا (البحث الثالث) يمكن أن يقال قليلا منصوب على انه خبر كان وما مصدرية تقديره كان هجوعهم من الليل قليلا فيكون فاعل كانوا هو الهجوع ويكون ذلك من باب بدل الاشتمال لان هجوعهم متصل بهم فكأنه قال كان هجوعهم قليلا كما يقال كان زيد خلقه حسنا فلا يحتاج الى القول بزيادة واعلم ان النحاة لا يقولون فيه انه بدل فيفرقون بين قول القائل زيد حسن وجهه أو الوجه وبين قوله زيد وجهه حسن فيقولون في الاول صفة وفي الثاني بدل ونحن حيث قلنا انه من باب بدل الاشتمال أردنا به معنى لا اصطلاحا والا فقليلا عند التقديم ليس في النحو مثله عند التأخير حتى قولك فلان قليل هجوعه ليس ببدل وفلان هجوعه قليل بدل وعلى هذا يمكن أن تكون ما موصولة معناه كان ما يهجعون فيه قليلا من الليل هذا ما يتعلق باللفظ اما ما يتعلق بالمعنى فنقول تقديم قليلا في الذكر ليس لمجرد السجع حتى يقع يهجعون ويستغفرون في أواخر الآيات بل فيه فائدتان (الاولى) هي ان الهجوع راحة لهم وكان المقصود بيان اجتهادهم وتحملهم السهر لله فلو قال كانوا يهجعون كان المذكور أولا راحتهم ثم يصفه بالقلة وربما يغفل الانسان السامع عما بعد الكلام فيقول احسانهم وكونهم محسنين بسبب انهم يهجعون واذا قدم قوله قليلا يكون السابق الى الفهم قلة الهجوع وهذه الفائدة من يراعيها يقول فلان قليل الهجوع ولا يقول هجوعه قليل لان الغرض بيان قلة الهجوع لا بيان الهجوع بوصف القلة أو الكثرة فان الهجوع اولم يكن لكان في القلة أولى ولا كذلك قلة الهجوع لانها لولم تكن لكان بدلها الكثرة في الظاهر (الفائدة الثانية) في قوله تعالى من الليل وذلك لان النوم القليل بالنهار قد يوجد من كل أحد وأما الليل فهو زمان النوم لا يسهره في الطاعة الا متعبد مقبل فان قيل الهجوع لا يكون الا بالليل والنوم نهارا لا يقال له الهجوع قلنا ذكر الامر العام وارادة التخصيص حسن فنقول رأيت حيوانا ناطقا فصيحا وذكر الخاص وارادة العام لا يحسن الا في بعض المواضع فلا نقول رأيت فصيحا ناطقا حيوانا اذا عرفت هذا فنقول في قوله تعالى كانوا قليلا من الليل ذكر أمرا هو كالعام يحتمل أن يكون بعده كانوا من الليل يسبحون ويستغفرون أو يسهرون أو غير ذلك فاذا قال يهجعون فكأنه خصص ذلك الامر العام المحتمل له ولغيره فلا اشكال فيه ❊ ثم قال تعالى (وبالاسحارهم يستغفرون) اشارة الى انهم كانوا يتهجدون ويجتهدون ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك وأخلص منه ويستغفرون من التقصير وهذا سيرة الكريم يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ويعتذر

قليلا ظرف أو كانوا يهجعون هجوعا قليلا على أنه صفة للمصدر وما مزيدة في الوجهين ويجوز أن تكون مصدرية أو موصولة مرتفعة بقليلا على الفاعلية أي كانوا قليلا من الليل هجوعهم او ما يهجعون فيه وفيه مبالغات في تقليل نومهم واستراحتهم ذكر القليل والليل الذي هو وقت الراحة والهجوع الذي هو الغرار من النوم وزيادة ما ولا مساغ لجعل ما نافية على معنى

انهم لايهجعون من الليل قليلا بل يحيونه كله لما أن ما النافية لايعمل ما بعدها فيما قبلها (وبالاسحارهم يستغفرون) أي هم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم يداومون على الاستغفار في الاسحار كأنهم أسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم وفي بناء الفعل على الضمير اشعار بانهم الأحقاء بان يوصفوا بالاستغفار كأنهم المختصون به لاستدامتهم له واطنابهم فيه (وفي أموالهم حق)

من التقصير والاثيم يأتي بالقليل ويستكثره ويمن به وفيه وجه آخر ألطف منه وهو انه تعالى لما بين انهم يهجعون قليلا والهجوع مقتضى الطبع قال يستغفرون أي من ذلك القدر من النوم القليل وفيه لطيفة أخرى تنبيها في جواب سؤال وهو انه تعالى مدحهم بقلة الهجوع ولم يمدحهم بكثرة السهر وما قال كانوا كثيرا من الليل ما يسهرون فما الحكمة فيه مع ان السهر هو الكلفة والاجتهاد لا الهجوع نقول اشارة الى ان نومهم عبادة حيث مدحهم الله تعالى بكونهم هاجعين قليلا وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى وهو الاستغفار في وجوه الاسحار ومنعهم من الاعجاب بأنفسهم والاستكبار وفيه مباحث (البحث الاول) في الباء فانها استعملت للظرف ههنا وهي ليست للظرف نقول قال بعض النحاة ان حروف الجر ينوب بعضها مناب بعض يقال في الظرف خرجت لعشر بقين وبالليل وفي شهر رمضان فيستعمل اللام والباء وفي كذلك في المكان تقول أقمت بالمدينة كذا وفيها ورأيته ببلدة كذا وفيها فان قيل ما التحقيق فيه نقول الحروف لها معان مختلفة كما أن الاسماء والافعال كذلك غير أن الحروف غير مستقلة بافادة المعنى والاسم والفعل مستقلان لكن بين بعض الحروف وبعضها تنافي وتباعد كما في الاسماء والافعال فان البيت والمسكن مختلفان متفاوتان وكذلك سكن ومكث ولا كذلك كل اسمين يفرض أو كل فعلين يوجد اذا عرفت هذا فنقول بين الباء واللام وفي مشاركة اما الباء فلانها للالصاق والمتمكن في مكان ملتصق به متصل وكذلك الفعل بالنسبة الى الزمان فاذا قال سار بالنهار معناه ذهب ذهابا متصلا بالنهار وكذا قوله تعالى وبالاسحارهم يستغفرون أي استغفارا متصلا بالاسحار مقترنا بها لان الكائن فيها مقترن بها فان قيل فهل يكون بينهما في المعنى تفاوت نقول نعم وذلك لان من قال قمت بالليل واستغفرت بالاسحار أخبر عن الامرين وذلك أدل على وجود الفعل مع أول جزء من اجزاء الوقت من قوله قمت في الليل لانه يستدعي احتواش الزمان بالفعل وكذلك قول القائل أقمت ببلد كذا لايفيد انه كان محاطا بالبلد وقوله أقمت فيها يدل على احاطتها به فاذن قول القائل أقمت بالبلدة ودعوت بالاسحار أعم من قوله قمت فيه لان القائم فيه قائم به والقائم به ليس قائما فيه من كل بد اذا علمت هذا فقوله تعالى وبالاسحارهم يستغفرون اشارة الى انهم لايخلون وقتا عن العبادة فانهم بالليل لايهجعون ومع أول جزء من السحر يستغفرون فيكون فيه بيان كونهم مستغفرين من غير أن يسبق منهم ذنب لانهم وقت الانتباه في الاسحار لم يخلوا الوقت للذنب فان قيل زدنا بيانا فان من الازمان أزمانا لاتجعل ظروفا بالباء فلا يقال خرجت بيوم الجمعة ويقال بلى نقول ان كل فعل جار في زمان فهو متصل به فالخروج في يوم الجمعة متصل مقترن بذلك الزمان ولم يستعمل خرجت بيوم الجمعة نقول الفارق بينهما الاطلاق والتقييد بدليل انك ان قلت خرجت بنهار او بليلة الجمعة لم يحسن ولو قلت خرجت بيوم سعد وخرج هو بيوم نحس حسن فالنهار والليل لما لم يكن فيهما خصوص

وتقييد جاز استعمال الباء فيهما فاذا قيدتهما وخصصتهما زال ذلك الجواز ويوم الجمعة لما كان فيه خصوص لم يجز استعمال الباء وحيث زال الخصوص بالتنكير وقلت خرجت بيوم كذا عاد الجواز والسر فيه ان مثل يوم الجمعة وهذه الساعة وتلك الليلة وجد فيها أمر غير الزمان وهو خصوصيات وخصوصية الشئ فى الحقيقة أمور كثيرة غير محصورة عند العاقل على وجه التفصيل لكنها محصورة على الاجمال مثاله اذا قلت هذا الرجل فالعام فيه هو الرجل ثم انك لو قلت الرجل الطويل ما كان يصير مخصصا لكنه يقرب من الخصوص ويخرج عن القصار فان قلت العالم لم يصر مخصصا لكنه يخرج عن الجهال فاذا قلت الزاهد فكذلك فاذا قلت ابن عمرو خرج عن أبناء زيد وبكر وخالد وغيرهم فاذا قلت هذا يتناول تلك المخصصات التى بأجمعها لا تجتمع الا فى ذلك فاذن الزمان المتعين فيه أمور غير الزمان والفعل حدث مقترن بزمان لا ناشئ عن الزمان وأما فى فصحيح لان ما حصل فى العام فهو فى الخاص لان العام أمر داخل فى الخاص وأما فى فيدخل فى الذى فيه الشئ فصح أن يقال فى يوم الجمعة وفى هذه الساعة وأما بحث اللام فتؤخره الى موضعه وقد تقدم بعضه فى تفسير قوله تعالى والشمس تجرى لمستقر لها وقولهم غير خال عن فائدة قال الزمخشرى فائدته انحصار المستغفرين أى لكمالهم فى الاستغفار كأن غيرهم ليس بمستغفر فهم المستغفرون لا غير يقال فلان هو العالم لكماله فى العلم كأنه تفرد به وهو جيد ولكن فيه فائدة أخرى وهى ان الله تعالى لما عطف وبالاسحار هم يستغفرون على قوله كانوا قليلا من الليل ما يهجعون فلو لم يؤكد معنى الاثبات بكلمة هم لصلح أن يكون معناه وبالاسحار قليلا ما يستغفرون تقول فلان قليلا ما يؤذى والى الناس يحسن قد يفهم انه قليل الايذاء قليل الاحسان فاذا قلت قليلا ما يؤذى وهو يحسن زال ذلك الفهم وظهر فيه معنى قوله قليل الايذاء كثير الاحسان والاستغفار يحتمل وجوها أحدها طلب المغفرة بالذكر بقولهم ربنا اغفر لنا الثانى طلب المغفرة بالفعل أى بالاسحار يأتون بفعل آخر طلبا للغفران وهو الصلاة أو غيرها من العبادات الثالث وهو أغربها الاستغفار من باب استحصد الزرع اذا جاء أوان حصاده فكأنهم بالاسحار يستحقون المغفرة ويأتيهم أوان المغفرة فان قيل فالله لم يؤخر مغفرتهم الى السحر نقول وقت السحر تجتمع ملائكة الليل والنهار وهو الوقت المشهود فيقول الله على ملأ منهم انى غفرت لعبدى والاول أظهر والثانى عند المفسرين أشهر * ثم قال تعالى (وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) وقد ذكرنا مرارا ان الله تعالى بعد ذكر تعظيم نفسه يذكر الشفقة على خلقه ولا شك ان قليل الهجوع المستغفر فى وجوه الاسحار وجد منه التعظيم العظيم فأشار الى الشفقة بقوله وفى أموالهم حق وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اضاف المال اليهم وقال فى مواضع أنفقوا مما رزقكم الله وقال ومما رزقناهم ينفقون نقول سببه ان فى تلك المواضع كان الذكر للحث فذكر معه ما يدفع الحث ويرفع المانع فقال هو رزق الله والله يرزقكم

أى نصيب وافر يستوجبونه على أنفسهم تقربا الى الله تعالى واشفاقا على الناس (للسائل والمحروم) للمستجدى والمتعفف الذى يحسبه الناس غنيا فيحرم الصدقة (وفى الارض آيات للموقنين) أى دلائل واضحة على شؤنه تعالى على التفصيل من حيث انها مدحوة كالبساط الممهد وفيها مسالك وفجاج للمتقلبين فى أقطارها والسالكين فى مناكبها وفيها سهل وجبل وبر

فلا تخافوا الفقر واعطوا وأما ههنا فمدح على مافعلوه فلم يكن الى الحرص حاجة (المسئلة الثانية) المشهور فى الحق انه هو القدر الذى علم شرعا وهو الزكاة وحينئذ لا يبقى هذا صفة مدح لان كون المسلم فى ماله حق وهو الزكاة ليس صفة مدح لان كل مسلم كذلك بل الكافر اذا قلنا انه مخاطب بفروع الاسلام فى ماله حق معلوم غير انه اذا أسلم سقط عنه وان مات عوقب على تركه وان ادى من غير الاسلام لا يقع الموقع فكيف يفهم كونه مدحا نقول الجواب عنه من وجوه أحدها انا نفسر السائل بمن يطلب شرعا والمحروم هو الذى لا مكنة له من الطلب ومنعه الشارع من المطالبة ثم ان المنع قد يكون لكون الطالب غير مستحق وقد يكون لكون المطلوب منه لم يبق عليه حق فلا يطالب فقال تعالى فى ماله حق للطالب وهو الزكاة ولغير الطالب وهو الصدقة المتطوع بها فان ذلك المالك لا يطالب بها ويحرم الطالب منه طلبا على سبيل الجزية والزكاة بل يسأل سؤالا اختياريا فيكون حينئذ كأنه قال فى ماله زكاة وصدقة والصدقة فى المال لا تكون الا بفرضه هو ذلك وتقديره وافرازه للفقراء والمساكين الجواب الثانى هو ان قوله وفى أموالهم حق للسائل أى مالهم ظرف لحقوقهم فان كلمة فى للظرفية لكن الظرف لا يطلب الا المظروف فكأنه تعالى قال هم لا يطلبون المال ولا يجمعونه الا ويجعلونه ظرفا للحق ولا شك ان المطلوب من الظرف هو المظروف والظرف مالهم فجعل مالهم ظرفا للحقوق ولا يكون فوق هذا مدح فان قيل فلو قيل مالهم للسائل هل كان أبلغ قلنا لا وذلك لان من يكون له أربعون دينارا فتصدق بها لا تكون صدقته دائمة لكن اذا اجتهد واتجر وعاش سنين وأدى الزكاة والصدقة يكون مقدار المؤدى أكثر وهذا كما فى الصلاة والصوم لو أضعف واحد نفسه بهما حتى عجز عنهما لا يكون مثل من اقتصد فيهما واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فان المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا أبقى وفى السائل والمحروم وجوه أحدها ان السائل هو الناطق وهو الآدمى والمحروم كل ذى روح غيره من الحيوانات المحرمة قال النبى صلى الله عليه وسلم لكل كبد حرى أجر (وثانيها) وهو الاظهر والاشهر أن السائل هو الذى يسأل والمحروم المتعفف الذى يحسبه بعض الناس غنيا فلا يعطيه شيئا والاول كقوله تعالى كلوا وارعوا أنعامكم والثانى كقوله واطعموا القانع والمعتر فالقانع كالمحروم فان قيل على الوجه الاول الترتيب فى غاية الحسن فان دفع حاجة الناطق مقدم على دفع حاجة البهائم فما وجه الترتيب فى الوجه الثانى نقول فيه وجهان أحدهما ان السائل اندفاع حاجته قبل اندفاع حاجة المحروم فى الوجود لانه يعرف حاله بمقاله ويطلب لقلة ماله فيقدم بدفع حاجته والمحروم غير معلوم فلا تندفع حاجته الا بعد الاطلاع عليه فكان الذكر على الترتيب الواقع وثانيهما هو ان ذلك اشارة الى كثرة العطاء فيقول يعطى السائل فاذا لم يجدهم يسأل هو عن المحتاجين فيكون سائلا ومسؤلا (الثالث) هو أن المحاسن اللفظية غير مهجورة فى الكلام الحكمى فان قول

و بحر وقطع متجاورات وعيون متفجرة ومعادن مفتتة وانها تلقح بألوان النبات وأنواع الاشجار وأصناف الثمار المختلفة الالوان والطعوم والروائح وفيها دواب منبثة قد رتب كلها ودبر لمنافع ساكنيها ومصالحهم فى صحتهم واعتلالهم (وفى أنفسكم) أى وفى أنفسكم آيات اذ ليس فى العالم شئ الا وفى الانفس له نظير يدل دلالته على ما انفرد به من الهيئات النافعة والمناظر البهية

القائل ان رجوعهم الينا وعلينا حسابهم ليس كقوله تعالى ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم والكلام له جسم وهو اللفظ وله روح وهو المعنى وكما أن الانسان الذى نور روحه بالمعرفة ينبغى أن ينور جسمه الظاهر بالنظافة كذلك الكلام ورب كلمة حكمية لا تؤثر فى النفوس لركاكة لفظها اذا عرفت هذا فقوله و بالاسحارهم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم أحسن من حيث اللفظ من قولنا و بالاسحارهم يستغفرون وفى أموالهم حق للمحروم والسائل فان قيل قدم السائل على المحروم ههنا لما ذكرت من الوجوه ولم قدم المحروم على السائل فى قوله القانع والمعتر لان القانع هو الذى لا يسأل والمعتر السائل نقول قد قيل ان القانع هو السائل والمعتر الذى لا يسأل فلا فرق بين الموضعين وقيل بان القانع والمعتر كلاهما لا يسأل لكن القانع لا يتعرض ولا يخرج من بيته والمعتر يتعرض للاخذ بالسلام والتردد ولا يسأل وقيل بان القانع لا يسأل والمعتر يسأل فعلى هذا فلحم البدنة يفرق من غير مطالبة ساع أو مستحق مطالبة جزية والزكاة لها طالب وسائل هو الساعى والامام فقوله للسائل اشارة الى الزكاة وقوله والمحروم أى الممنوع اشارة الى الصدقة المتطوع بها واحداهما قبل الاخرى بخلاف اعطاء اللحم ﴿ ثم قال تعالى (وفى الارض آيات للموقنين) وهو يحتمل وجهين أحدهما أن يكون متعلقا بقوله انما توعدون لصادق وان الدين لواقع وفى الارض آيات للموقنين تدلهم على ان الحشر كائن كما قال تعالى ومن آياته انك ترى الارض خاشعة الى ان قال ان الذى أحياها لمحيى الموتى وثانيهما أن يكون متعلقا بأفعال المتقين فانهم خافوا الله فعظموه فاظهروا الشفقة على عباده وكان لهم آيات فى الارض وفى أنفسهم على اصابتهم الحق فى ذلك فان من يكون له فى الارض الآيات العجيبة يكون له القدرة التامة فيخشى و يتقى ومن له فى أنفس الناس حكم بالغة ونعم سابغة يستحق أن يعبد و يترك الهجوع لعبادته واذا قابل العبد العبادة بالنعمة يجدها دون حد الشكر فيستغفر على التقصير واذا علم أن الرزق من السماء لا يبخل بماله فالآيات الثلاثة المتأخرة فيها تقرير ما تقدم وعلى هذا فقوله تعالى فورب السماء والارض يكون عود الكلام بعد اعتراض الكلام الاول أقوى وأظهر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كيف خصص الموقنين بكون الآيات لهم مع ان الآيات حاصلة للكل قال تعالى وآية لهم الارض الميتة أحييناها نقول قد ذكرنا ان اليمين آخر ما يأتى به المبرهن وذلك لانه أولا يأتى بالبرهان فان صدق فذلك وان لم يصدق لا بد له من أن ينسبه الخصم الى اصرار على الباطل لانه اذا لم يقدر على قدح فيه ولم يصدقه يعترف له بقوة الجدل و ينسبه الى المكابرة فيتعين طريقه فى اليمين فاذا آيات الارض لم تفدهم لان اليمين بقوله والذاريات ذروا دلت على سبق اقامة البينات وذكر الآيات ولم يفد فقال فيها وفى الارض آيات للموقنين وان لم يحصل للمصر المعاند منها فائدة وأما فى سورة يس وغيرها من المواضع التى جعل فيها آيات الارض للعامة لم يحصل فيها اليمين

والترتيبات العجيبة والتمكن من الافعال البديعة واستنباط الصنائع المختلفة واستجماع الكمالات المتنوعة (أفلا تبصرون) أى ألا تنظرون فلا تبصرون بعين البصيرة (وفى السماء رزقكم) أى اسباب رزقكم أو تقديره وقيل المراد بالسماء السحاب و بالرزق المطر فانه سبب الاقوات (وما توعدون) من الثواب لان الجنة فى السماء السابعة أولان الاعمال وثوابها مكتوبة مقدرة فى السماء وقيل انه مبتدا خبره قوله تعالى

وذكر الايات قبله فجاز أن يقال ان الارض آيات لمن ينظر فيها (الجواب الثانى) وهو الاصح أن هنا الآيات بالفعل والاعتبار للمؤمنين أى حصل ذلك لهم وحيث قال لكل معناه أن فيها آيات لهم ان نظروا وتأملوا (المسئلة الثانية) ههنا قال وفى الارض آيات وقال هناك وآية لهم الارض نقول لما جعل الآية للموقنين ذكر بلفظ الجمع لان الموقن لا يغفل عن الله تعالى فى حال ويرى فى كل شئ آيات دالة وأما الغافل فلا يتنبه الا بأمور كثيرة فيكون الكل له كالآية الواحدة * ثم قال تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) اشارة الى دليل الانفس وهو كقوله تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم وانما اختار من دلائل الآفاق ما فى الارض لظهورها لمن علا ظهورها فان أطرافها وأكنافها ما لا يمكن عد أصنافها فدليل الانفس فى قوله وفى أنفسكم عام ويحتمل أن يكون مع المؤمنين وانما أتى بصيغة الخطاب لانها أظهر لكون علم الانسان بما فى نفسه أتم وقوله تعالى وفى أنفسكم يحتمل أن يكون المراد وفيكم يقال الحجارة فى نفسها صلبة ولا يراد بها النفس التى هى منبع الحياة والحس والحركات ويحتمل أن يكون المراد وفى نفوسكم التى بها حياتكم آيات وقوله أفلا تبصرون بالاستفهام اشارة الى ظهورها * وقوله تعالى (وفى السماء رزقكم) فيه وجوه أحدها فى السحاب المطر ثانيها فى السماء رزقكم مكتوب ثالثها تقدير الارزاق كلها من السماء ولولاه لما حصل فى الارض حبة قوت وفى الآيات الثلاث ترتيب حسن وذلك لان الانسان له أمور يحتاج اليها لا بد من سبقها حتى يوجد هو فى نفسه وأمور تقارنه فى الوجود وأمور تلحقه وتوجد بعده ليبقى بها فالارض هى المكان واليه يحتاج الانسان ولا بد من سبقها فقال وفى الارض آيات ثم فى نفس الانسان أمور من الاجسام والاعراض فقال وفى أنفسكم ثم بقاؤه بالرزق فقال وفى السماء رزقكم ولولا السماء لما كان للناس البقاء وقوله تعالى (وما توعدون) فيه وجوه أحدها الجنة الموعود بها لانها فى السماء ثانيها هو من الايعاد لان البناء للمفعول من أوعد يوعد أى وما توعدون اما من الجنة والنار فى قوله تعالى يوم هم على النار وقوله ان المتقين فى جنات فيكون ايعادا عاما واما من العذاب وحينئذ يكون الخطاب مع الكفار فيكون كأنه تعالى قال وفى الارض آيات للموقنين كافية وأما أنتم أيها الكافرون ففى أنفسكم آيات هى أظهر الآيات وتكفرون بها لحطام الدنيا وحب الرياسة وفى السماء الارزاق فلو نظرتم وتأملتم حق التأمل لما تركتم الحق لاجل الرزق فانه واصل بكل طريق ولا اجتنبتم الباطل اتقاء لما توعدون من العذاب النازل * ثم قال تعالى (فورب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون) وفى المقسم عليه وجوه (أحدها) ما توعدون أى ما توعدون لحق يؤيده قوله تعالى انما توعدون لصادق وعلى هذا يعود كل ما قلناه فى وجوه ما توعدون ان قلنا ان ذلك هو الجنة فالمقسم عليه هو هى (ثانيها) الضمير راجع الى القرآن أى ان القرآن حق وفيما ذكرنا فى قوله تعالى يؤفك عنه دليل هذا وعلى هذا فقوله مثل

(فورب السماء والارض انه لحق) على أن الضمير لما وأما على الاول فاماله وأما لما ذكر من أمر الآيات والرزق على أنه مستعار لاسم الاشارة (مثل ما أنكم تنطقون) أى كما أنه لا شك لكم فى أنكم تنطقون ينبغى أن لا تشكوا فى حقيته ونصبه على الحالية من المستكن فى لحق أو على أنه وصف لمصدر محذوف أى انه لحق حقا مثل نطقكم وقيل انه مبنى على الفتح لاضافته الى غير متمكن وهو ما ان كانت عبارة عن شئ وأن بما فى حيزها ان جعلت زائدة ومحله الرفع على أنه صفة لحق ويؤيده القراءة بالرفع

ما انكم تنطقون معناه تكلم به الملك النازل من عند الله به مثل ما أنكم تتكلمون وسنذكره (ثالثها) أنه راجع الى الدين كما فى قوله تعالى وان الدين لواقع (رابعها) أنه راجع الى اليوم المذكور فى قوله أيان يوم الدين يدل عليه وصف الله اليوم بالحق فى قوله تعالى ذلك اليوم الحق (خامسها) أنه راجع الى القول الذى يقال هذا الذى كنتم به تستعجلون ❊ وفى التفسير مباحث الاول الفاء تستدعى تعقيب أمر لامر فالامر المتقدم نقول فيه وجهان أحدهما الدليل المتقدم كأنه تعالى يقول انما توعدون لحق بالبرهان المبين ثم بالقسم واليمين ثانيهما القسم المتقدم كأنه تعالى يقول والذاريات ورب السماء والارض ❊ وعلى هذا يكون الفاء حرف عطف أعيد معه حرف القسم كما يعاد الفعل اذ يصح أن يقال ومررت بعمرو ❊ فقوله والذاريات ذروا فالحاملات وقرا عطف من غير اعادة حرف القسم وقوله فورب السماء مع اعادة حرفه ❊ والسبب فيه وقوع الفصل بين القسمين ويحتمل أن يقال الامر المتقدم هو بيان الثواب فى قوله يوم هم على النار يفتنون وقوله ان المتقين فى جنات وفيه فائدة وهو أن الفاء تكون تنبيها على أن لا حاجة الى اليمين مع ما تقدم من الكشف المبين فكأنه يقول ورب السماء والارض انه لحق كما يقول القائل بعدما يظهر دعواه هذا والله ان الامر كما ذكرت فيؤكد قوله باليمين ويشير الى ثبوته من غير يمين (البحث الثانى) أقسم من قبل الامور الارضية وهى الرياح وبالسماء فى قوله والسماء ذات الحبك ولم يقسم بربها وههنا أقسم بربها نقول كذلك الترتيب يقسم المتكلم أولا بالادنى ثم لم يصدق يرتقى الى الاعلى ولهذا قال بعض الناس اذا قال قائل وحياتك والله لا يكفر واذا قال والله وحياتك لاشك يكفر وهذا استشهاد وان كان الامر على خلاف ما قاله ذلك القائل لان الكفر اما بالقلب أو باللفظ الظاهر فى أمر القلب أو بالفعل الظاهر وماذكره ليس بظاهر فى تعظيم جانب غير الله والعجب من ذلك القائل أنه لا يجعل التأخير فى الذكر مفيدا للترتيب فى الوضوء وغيره (البحث الثالث) قرئ مثل بالرفع وحينئذ يكون وصفا لقوله لحق ومثل وان أضيف الى المعرفة لا يخرجه عن جواز وصف المنكر به تقول رأيت رجلا مثل عمرو لانه لا يفيده تعريفا لانه فى غاية الابهام وقرئ مثل بالنصب ويحتمل وجهين أحدهما أن يكون مفتوحا لاضافته الى ما وهو ضعيف والاجاز أن يقال زيد قاتل من يعرفه أو ضارب من يشتمه ثانيهما أن يكون منصوبا على البيان تقديره لحق حقا مثل ويحتمل أن يقال انه منصوب على أنه صفة مصدر معلوم غير مذكور ووجهه انا اذا قلنا أن المراد من الضمير فى قوله انه هو القرآن فكأنه قال ان القرآن لحق نطق به الملك نطقا مثل ما انكم تنطقون وما مجرور لاشك فيه ❊ ثم قال تعالى (هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين) اشارة الى تسلية قلب النبى صلى الله عليه وسلم ببيان أن غيره من الانبياء عليهم السلام كان مثله واختار ابراهيم لكونه شيخ المرسلين وكون النبى عليه الصلاة والسلام على سنته فى بعض الاشياء وانذارا لقومه بما

(هل أتاك حديث ضيف ابراهيم) تفخيم لشأن الحديث وتنبيه على أنه ليس مما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير طريق الوحى والضيف فى الاصل مصدر ضافه ولذلك يطلق على الواحد والجماعة كالزور والصوم وكانوا اثنى عشر ملكا وقيل تسعة عاشرهم جبريل وقيل ثلاثة جبريل وميكائيل وملك آخر معهما عليهم السلام وتسميتهم ضيفا لانهم كانوا فى صورة الضيف حيث أضافهم ابراهيم عليه السلام أو لانهم كانوا فى حسبانه كذلك (المكرمين) أى المكرمين عند الله تعالى أو عند ابراهيم حيث خدمهم بنفسه وبزوجته

جرى من الضيف ومن انزال الحجارة على المذنبين المضلين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذا كان المراد ماذكرت من التسلية والانذار فأى فائدة فى حكاية الضيافة نقول ليكون ذلك اشارة الى الفرج فى حق الانبياء والبلاء على الجهلة والاغبياء اذجاءهم من حيث لايحتسب * قال الله تعالى فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا فلم يكن عند ابراهيم عليه السلام خبر من انزال العذاب مع ارتفاع مكانته (المسئلة الثانية) كيف سماهم ضيفا ولم يكونوا نقول لما حسبهم ابراهيم عليه السلام ضيفا لم يكذبه الله تعالى فى حسبانه اكراما له يقال فى كلمات المحققين الصادق يكون مايقول والصديق يقول مايكون (المسئلة الثالثة) ضيف لفظ واحد والمكرمين جمع فكيف وصف الواحد بالجمع نقول الضيف يقع على القوم يقال قوم ضيف ولانه مصدر فيكون كلفظ الرزق مصدرا وانما وصفهم بالمكرمين اما لكونهم عبادا مكرمين كما قال تعالى بل عباد مكرمون واما لاكرام ابراهيم عليه السلام اياهم فان قيل بماذا أكرمهم قلنا ببشاشة الوجه أولا وبالاجلاس فى أحسن المواضع وألطفها ثانيا وتعجيل القرى ثالثا وبعدم التكليف للضيف بالاكل والجلوس وكانوا عدة من الملائكة وفى قول ثلاثة جبريل وميكائيل وثالث وفى قول عشرة وفى آخر اثنا عشر (المسئلة الرابعة) مم ارسلوا للعذاب بدليل قولهم انا أرسلنا الى قوم مجرمين وهم لم يكونوا من قوم ابراهيم عليه السلام وانما كانوا من قوم لوط فما الحكمة فى مجيئهم الى ابراهيم عليه السلام نقول فيه حكمة بالغة وبيانها من وجهين أحدهما أن ابراهيم عليه السلام شيخ المرسلين وكان لوط من قومه ومن اكرام الملك للذى فى عهدته وتحت طاعته اذا كان يرسل رسولا الى غيره يقول له اعبر على فلان الملك وأخبره برسالتك وخذ فيها رأيه وثانيهما هو أن الله تعالى لما قدر أن يهلك قوما كثيرا وجما غفيرا وكان ذلك مما يحزن ابراهيم عليه السلام شفقة منه على عباد قال لهم بشروه بغلام يخرج من صلبه أضعاف مايهلك ويكون من صلبه خروج الانبياء عليهم السلام * ثم قال تعالى (اذدخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما العامل فى اذ فيه وجوه (أحدها ما فى المكرمين من الاشارة الى الفعل ان قلنا وصفهم بكونهم مكرمين بناء على أن ابراهيم عليه السلام أكرمهم فيكون كأنه تعالى يقول اكرموا اذ دخلوا وهذا من شان الكريم أن يكرم ضيفه وقت الدخول (ثانيها) ما فى الضيف من الدلالة على الفعل لانا قلنا ان الضيف مصدر فيكون كأنه يقول أضافوهم اذدخلوا (وثالثها) يحتمل أن يكون العامل فيه أتاك تقديره ما أتاك حديثهم وقت دخولهم فاسمع الآن ذلك لان هل ليس للاستفهام فى هذا الموضع حقيقة بل للاعلام وهذا أولى لانه فعل مصرح به ويحتمل أن يقال اذكر اذدخلوا (المسئلة الثانية) لماذا اختلف اعراب السلامين فى القراءة المشهورة نقول نبين أولا وجوه النصب والرفع ثم نبين وجوه الاختلاف فى الاعراب أما النصب فيحتمل وجوها (أحدها)

(فقالوا سلاما) أى نسلم عليك سلاما (قال) أى ابراهيم (سلام) أى عليكم سلام عدل به الى الرفع بالابتداء للقصد الى الثبات والدوام حتى تكون تحيته عليه الصلاة والسلام أحسن من تحيتهم وقرئا مرفوعين وقرئ سلم وقرئ منصوبا والمعنى واحد (قوم منكرون) أنكرهم عليه الصلاة والسلام للسلام الذى هو علم الاسلام أولانهم ليسوا ممن عهد من الناس أولان أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه الناس ولعله عليه الصلاة والسلام انما قاله فى نفسه من غير أن يشعرهم بذلك لأنه خاطبهم به جهرا أو سألهم أن يعرفوه أنفسهم كما قيل والا لكشفوا أحوالهم عند ذلك ولم يتصد عليه الصلاة والسلام لمقدمات الضيافة

أن يكون المراد من السلام هو التحية وهو المشهور ونصبه حينئذ على المصدر تقديره نسلم سلاما (ثانيها) هو أن يكون السلام نوعا من أنواع الكلام وهو كلام سلم به المتكلم من أن يلغو أو يأثم فكأنهم لما دخلوا عليه فقالوا حسبنا سلموا من الاثم و حينئذ يكون مفعولا للقول لان مفعول القول هو الكلام يقال قال فلان كلاما ولا يكون هذا من باب ضرب به سوطا لان المضروب هناك ليس هو السوط وههنا القول هو الكلام فسره قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وقوله تعالى قيلا سلاما سلاما (ثالثها) أن يكون مفعول فعل محذوف تقديره نبلغك سلاما لا يقال على هذا ان المراد لو كان ذلك لعلم كونهم رسل الله عند السلام فما كان يقول قوم منكرون ولا كان يقرب اليهم الطعام ولما قال نكرهم وأوجس لانا نقول جاز أن يقال انهم قالوا نبلغك سلاما ولم يقولوا من الله تعالى الى أن سألهم ابراهيم عليه السلام ممن تبلغون لى السلام وذلك لان الحكيم لا يأتى بالامر العظيم الا بالتدريج فلما كانت هيبتهم عظيمة فلو ضموا اليه الامر العظيم الذى هو السلام من الله تعالى لانزعج ابراهيم عليه السلام ثم ان ابراهيم عليه السلام اشتغل باكرامهم عن سؤالهم واخر السؤال الى حين الفراغ فنكرهم بين السلام والسؤال عمن منه السلام هذا وجه النصب وأما الرفع فنقول يحتمل ان المراد منه السلام الذى هو التحية وهو المشهور أيضا وحينئذ يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره سلام عليكم وكون المبتدأ نكرة يحتمل فى قول القائل سلام عليكم وويل له أو خبر مبتدأ محذوف تقديره جوابه سلام ويحتمل أن يكون المراد قولا يسلم أو ينبئ عن السلامة فيكون خبر مبتدأ محذوف تقديره أمرى سلام بمعنى مسالمة لا تعلق بينى وبينكم لانى لا أعرفكم أو يكون المبتدأ قولكم تقديره قولكم سلام ينبئ عن السلامة وأنتم قوم منكرون فاخطبكم فان الامر أشكل على وهذا ما يحتمل أن يقال فى النصب والرفع وأما الفرق فنقول اما على التفسير المشهور وهو أن السلام فى الموضعين بمعنى التحية فنقول الفرق بينهما من حيث اللفظ ومن حيث المعنى (أما من حيث اللفظ فنقول سلام عليك انما جوز واستحسن لكونه مبتدأ وهو نكرة من حيث انه كالمتروك على أصله لان الاصل أن يكون منصوبا على تقدير أسلم سلاما وعليك يكون لبيان من أريد بالسلام ولا يكون لعليك حظ من المعنى غير ذلك البيان فيكون كالخارج عن الكلام والكلام التام أسلم سلاما كأنك تقول ضربت زيدا على السطح يكون على السطح خارجا عن الفعل والفاعل والمفعول لبيان مجرد الظرفية فاذا كان الامر كذلك وكان السلام والادعية كثيرا لوقوع قالوا نعدل عن الجملة الفعلية الى الاسمية ونجعل لعليك حظا فى الكلام فنقول سلام عليك فتصير عليك لفائدة لابد منها وهى الخبر يقوى بترك السلام نكرة كما كان حال النصب اذا علم هذا فالنصب أصل والرفع مأخوذ منه والاصل مقدم على المأخوذ منه فقال قالوا سلاما قال سلام قدم الاصل على

المتفرع منه (وأما المعنى) فذلك لان ابراهيم عليه السلام أراد أن يرد عليهم بالاحسن فأتى بالجملة الاسمية فانها أدل على الدوام والاستمرار فان قولنا جلس زيد ينبئ عنه لان الفعل لا بد فيه من الانباء عن التجدد والحدوث ولهذا لو قلت الله موجود الآن لا ثبت العقل الدوام اذ لا ينبئ عن التجدد ولو قال قائل وجد الله الآن لكاد ينكره العاقل لما بينا فلما قالوا سلام ما قال سلام عليكم مستمر دائم وأما على قولنا المراد القول ذو السلامة فظاهر الفرق فانهم قالوا قولا ذا سلام وقال لهم ابراهيم عليه السلام سلام أى قولكم ذو سلام وأنتم قوم منكرون فالتبس الامر على وان قلنا المراد أمرى مسالمة ومتاركة وهم سلموا عليه تسليما فنقول فيه جمع بين أمرين تعظيم جانب الله ورعاية قلب عباد الله فانه لو قال سلام عليكم وهو لم يعلم كونهم من عباد الله الصالحين كان يجوز ان يكونوا على غير ذلك فيكون الرسول قد أمنهم فان السلام أمان وأمان الرسول أمان المرسل فيكون فاعلا للامر من غير اذن الله نيابة عن الله فقال أنتم سالمتم على وأنا متوقف أمرى متاركة لا تعلق بيننا الى أن يتبين الحال ويدل على هذا هو أن الله تعالى قال واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وقال فى مثل هذا المعنى للنبى صلى الله عليه وسلم فاصفح عنهم وقل سلام ولم يقل قل سلاما وذلك لان الاخيار المذكورين فى القرآن لو سلموا على الجاهلين لا يكون ذلك سببا لحرمة التعرض اليهم وأما النبى صلى الله عليه وسلم لو سلم عليهم لصار ذلك سببا لحرمة التعرض اليهم فقال قل سلام أى أمرى معكم متاركة تركناه الى أن يأتى أمر الله بأمر وأما على قولنا بمعنى نبلغ سلاما فنقول هم لما قالوا نبلغك سلاما ولم يعلم ابراهيم عليه السلام أنه ممن قال سلام أى ان كان من الله فان هذا منه قد ازداد به شرفى والا فقد يلغنى منه سلام وبه شرفى ولا أتشرف بسلام غيره هذا ما يمكن أن يقال فيه والله أعلم بمراده والاول والثانى عليهما الاعتماد فانهما أقوى وقد قيل بهما (المسئلة الثالثة) قال فى سورة هود فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم فدل على ان انكارهم كان حاصلا بعد تقريبه العجل منهم وقال ههنا قال سلام قوم منكرون * ثم قال تعالى (فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم قال ألا تأكلون) بفاء التعقيب فدل على أن تقريب الطعام منهم بعد حصول الانكار لهم فما الوجه فيه نقول جاز أن يحصل اولا عنده منهم نكر ثم زاد عند امساكهم والذى يدل على هذا هو أنهم كانوا على شكل وهيئة غير ما يكون عليه الناس وكانوا فى أنفسهم عند كل أحد منكرين واشترك ابراهيم عليه السلام وغيره فيه ولهذا لم يقل أنكرتكم بل قال أنتم منكرون فى أنفسكم عند كل أحد منا ثم ان ابراهيم عليه السلام تفرد بمشاهدة أمر منهم هو الامساك فنكرهم فوق ما كان منهم بالنسبة الى الكل الحالة فى سورة هود محكية على وجه ابسط مما ذكره ههنا فان ههنا لم يبين المبشر به وههناك ذكر باسمه وهو اسحق ولم يقل ههنا ان القوم قوم من وهناك قال قوم لوط وفى الجملة من تأمل السورتين يعلم أن الحكاية محكية هناك على وجه

(فراغ الى أهله) أى ذهب اليهم على خفية من ضيفه فان من أدب المضيف ان يبادره بالقرى ويبادر به حذارا من أن يكفه ويعذره أو يصير منتظرا والفاء فى قوله تعالى (فجاء بعجل سمين) الفاء فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وايذانا بكمال سرعة المجئ بالطعام كما فى قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فذبح عجلا فحنذه فجاء به (فقربه اليهم) بأن وضعه لديهم حسبما هو المعتاد (قال ألا تأكلون) انكارا لعدم تعرضهم للاكل

الاضافة أبسط فذكر فيها النكتة الزائدة ولم يذكرها ههنا ولنعد الى بيان ما أتى به من آداب
الاضافة وما أتوا به من آداب الضيافة فالاكرام أولا من جاءه ضيف قبل أن يجتمع به ويسلم
أحدهما على الآخر أنواع من الاكرام وهي اللقاء الحسن والخروج اليه والتهيؤ له
ثم السلام من الضيف على الوجه الحسن الذي دل عليه النصب في قوله سلاما اما لكونه
مؤكدا بالمصدر ولكونه مبلغا من هو أعظم منه ثم الرد الحسن الذي دل عليه الرفع
والامساك عن الكلام لا يكون فيه وفاء ان قلنا ان ابراهيم عليه السلام لم يقل سلام
عليكم بل قال أمري مسالمة أو قولكم سلام و سلامكم منكر فان ذلك وان كان مخلا
بالاكرام لكن الغدر ليس من شيم الكرام وموادة أعداء الله لا تليق بالانبياء عليهم
السلام ثم تعجيل القرى الذي دل عليه قوله تعالى فما لبث أن جاء وقوله ههنا فراغ فان
الروغان يدل على السرعة والروغ الذي بمعنى النظر الخفي أو الرواح المخفي أيضا كذلك ثم
الاخفاء فان الضيف اذا أحضر شيئا ينبغي أن يخفيه عن الضيف كي لا يمنعه من الاحضار
بنفسه حيث راغ هو ولم يقل هاتوا وغيبة المضيف لحظة من الضيف مستحسن ليستريح
و يأتي بدفع ما يحتاج اليه و يمنعه الحياء منه ثم اختيار الاجود بقوله سمين ثم تقديم
الطعام اليهم لا نقلهم الى الطعام بقوله فقربه اليهم لان من قدم الطعام الى قوم يكون كل
واحد مستقرا في مقره لا تختلف عليه المكان فان نقلهم الى مكان الطعام ربما يحصل
هناك اختلاف جلوس فيقرب الادنى ويضيق على الاعلى ثم العرض لا الامر حيث قال
ألا تأكلون ولم يقل كلوا ثم كون المضيف مسرورا بأكلهم غير مسرور بتركهم
الطعام كما يوجد في بعض البخلاء المتكلفين الذين يحضرون طعاما كثيرا و يكون نظره
ونظر أهل بيته في الطعام حتى يمسك الضيف يده عنه يدل عليه ﴿ قوله تعالى (فأوجس منهم
خيفة قالوا لا تخف و بشروه بغلام عليم) ثم أدب الضيف أنه اذا أكل حفظ حق
المؤاكلة يدل عليه أنه خافهم حيث لم يأكلوا ثم وجوب اظهار العذر عند الامساك يدل
عليه قوله لا تخف ثم تحسين العبارة في العذر وذلك لان من يكون مجتنبا وأحضر لديه
الطعام فله فهناك أمران أحدهما أن الطعام لا يصلح له لكونه مضرا به الثاني كونه
ضعيف القوة عن هضم ذلك الطعام فينبغي أن لا يقول الضيف هذا طعام غليظ لا يصلح لي
بل الحسن أن يأتي بالعبارة الاخرى و يقول لي مانع من أكل الطعام وفي بيتي لا آكل
أيضا شيئا يدل عليه قوله وبشروه بغلام حيث فهموه أنهم ليسوا ممن يأكلون ولم يقولوا
لا يصلح لنا الطعام والشراب ثم أدب آخر في البشارة أن لا يخبر الانسان بما يسره دفعة فانه
يورث مرضا يدل عليه أنهم جلسوا واستأنس بهم ابراهيم عليه السلام ثم قالوا نبشرك ثم
ذكروا أشرف النوعين وهو الذكر ولم يقنعوا به حتى وصفوه بأحسن الاوصاف فان
الابن قد يكون دون البنت اذا كانت البنت كاملة الخلقة حسنة الخلق والابن بالضد
ثم انهم تركوا سائر الاوصاف من الحسن والجمال والقوة والسلامة واختاروا العلم اشارة

(فأوجس منهم) أضمر
في نفسه (خيفة) لتوهم
أنهم جاؤا للشر وقيل
وقع في قلبه أنهم ملائكة
جاؤا للعذاب (قالوا
لا تخف) قيل مسح
جبريل عليه السلام
العجل بجناحه فقام
يدرج حتى لحق بأمه
فعرفهم وأمن منهم
(و بشروه) وفي سورة
الصافات وبشرناه أي
بواسطتهم (بغلام)
هو اسحق عليه السلام
(عليم) عند بلوغه
واستوائه

الى أن العلم رأس الاوصاف ورئيس النعوت وقد ذكرنا فائدة تقديم البشارة على الاخبار
عن اهلاكهم قوم لوط ليعلم أن الله تعالى يهلكهم الى خلف و يأتى ببدلهم خيرا منهم * ثم
قال تعالى (فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم) أى أقبلت على
أهلها وذلك لانها كانت فى خدمتهم فلما تكلموا مع زوجها بولادتها استحيت وأعرضت
عنهم فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الاقبال على الاهل ولم يقل بلفظ الادبار عن الملائكة
وقوله تعالى فى صرة أى صيحة كما جرت عادة النساء حيث يسمعن شيئا من أحوالهن يصحن
صيحة معتادة لهن عند الاستحياء أو التعجب و يحتمل أن يقال تلك الصيحة كانت بقولها
ياويلتا تدل عليه الآية التى فى سورة هود وصك الوجه أيضا من عادتهن واستبعدت
ذلك لوصفين من اجتماعهما أحدهما كبر السن و الثانى العقم لانها كانت لا تلد فى صغر
سنها وعنفوان شبابها ثم عجزت وآيست فاستبعدت فكأنها قالت ياليتكم دعوتم دعاء
قريبا من الاجابة ظنا منها أن ذلك منهم كما يصدر من الضيف على سبيل الاخبار من الادعية
كقول الداعى الله يعطيك مالا و يرزقك ولدا فقالوا هذا منا ليس بدعاء وانما ذلك قول الله
تعالى (قالوا كذلك قال ربك) ثم دفعوا استبعادها بقولهم (انه هو الحكيم العليم)
وقد ذكرنا تفسيرهما مرارا فان قيل لم قال ههنا الحكيم العليم وقال فى هود حميد مجيد
نقول لما بينا أن الحكاية هناك ابسط فذكروا مايدفع الاستبعاد بقولهم أتعجبين من أمر
الله ثم لما صدقت أرشدوهم الى القيام بشكر نعم الله وذكروهم بنعمته بقولهم حميد فان
الحميد هو الذى يتحقق منه الافعال الحسنة وقولهم مجيد اشارة الى أن الفائق العالى
الهمة لا يحمده لفعله الجميل وانما يحمد ويسبح له لنفسه وههنا لما لم يقولوا أتعجبين
أشاروا الى ما يدفع تعجبها من التنبيه على حكمه وعلمه وفيه لطيفة وهى أن هذا الترتيب
مراعى فى السورتين فالحميد يتعلق بالفعل والمجيد يتعلق بالقول وكذلك الحكيم هو الذى
فعله كما ينبغى لعلمه قاصدا لذلك الوجه بخلاف من يتفق فعله موافقا للمقصود اتفاقا كمن
ينقلب على جنبه فيقتل حية وهو نائم فانه لا يقال له حكيم وأما اذا فعل فعلا قاصدا لقتلها
بحيث يسلم عن نهشها يقال له حكيم فيه والعليم راجع الى الذات اشارة الى أنه يستحق
الحمد بمجده وان لم يفعل فعلا وهو قاصد لعله وان لم يفعل على وفق القاصد ثم قال تعالى
(قال فما خطبكم أيها المرسلون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لما علم حالهم بدليل قوله
منكرون لم لم يقنع بما بشروه لجواز أن يكون نزولهم للبشارة لاغير نقول ابراهيم عليه
السلام أتى بما هو من آداب المضيف حيث يقول لضيفه اذا استعجل فى الخروج ماهذه
العجلة وما شغلك الذى يمنعنا من التشرف بالاجتماع بك ولا يسكت عند خروجهم مخافة
أن يكون سكوته يوهم استثقالهم ثم انهم أتوا بما هو من آداب الصديق الذى لا يستر عن
الصديق الصدوق لاسيما وكان ذلك باذن الله تعالى لهم فى اطلاع ابراهيم عليه السلام

من الصرير ومحله النصب على الحالية أو المفعولية ان جعل أقبلت بمعنى أخذت كما يقال أقبل يشتمنى (فصكت وجهها) أى لطمته من الحياء لما أنها وجدت حرارة دم الطمث وقيل ضربت باطراف أصابعها جبينها كما يفعله المتعجب (وقالت عجوز عقيم) أى أنا عجوز عاقر فكيف ألد (قالوا كذلك) مثل ذلك القول الكريم (قال ربك) وانما نحن معبرون نخبرك به عنه تعالى لا أنا نقوله من تلقاء أنفسنا (انه هو الحكيم العليم) فيكون قوله حقا وفعله متقنا لامحالة * روى أن جبريل عليه السلام قال لها انظرى الى سقف بيتك فنظرت فاذا جذوعه مورقة مثمرة ولم تكن هذه المفاوضة مع سارة فقط بل مع ابراهيم عليه السلام ايضا حسبما شرح فى سورة الحجر وانما لم يذكر ههنا
اكتفاء بما ذكر هناك كما أنه لم يذكر هناك سارة اكتفاء بما ذكر ههنا و فى سورة هود (قال) أى ابراهيم عليه السلام
لما علم أنهم ملائكة أرسلوا الامر (فما خطبكم) أى شأنكم الخطير الذى لاجله أرسلتم سوى البشارة (أيها المرسلون)

على اهلاكهم وجبر قلبه بتقديم البشارة بخبر التدل وهوأبو الانبياء اسحق عليه السلام على الصحيح فان قيل فما الذى اقتضى ذكره بالفاء ولو كان كما ذكرتم لقال ماهذا الاستعجال وماخطبكم المعجل لكم نقول لو كان أوجس منهم خيفة وخرجوا من غير بشارة وايناس ما كان يقول شيئا فلما آنسوه قال ماخطبكم أى بعد هذا الانس العظيم ماهذا الايحاش الاليم (المسئلة الثانية) هل فى الخطب فائدة لاتوجد فى غيره من الالفاظ نقول نعم وذلك من حيث ان الالفاظ المفردة التى تقرب منها الشغل والامر والفعل وامثالها وكل ذلك لايدل على عظم الامر وأما الخطب فهو الامر العظيم وعظم الشأن يدل على عظم من على يده ينقضى فقال ماخطبكم أى لعظمتكم لاترسلون الافى عظيم ولوقال بلفظ مركب بأن يقول ماشغلكم الخطير وأمركم العظيم للزم التطويل فالخطب أفاد التعظيم مع الايجاز (المسئلة الثالثة) من اين عرف كونهم مرسلين فنقول (قالوا) له بدليل قوله تعالى انا أرسلنا الى قوم لوط وانما لم يذكرههنا لما بينا ان الحكاية بيسطها مذكورة فى سورة هود أونقول لما قالوا لامرأته كذلك قال ربك علم كونهم منزلين من عند الله حيث كانوا يحكون قول الله تعالى يدل على هذا ان قولهم (انا أرسلنا الى قوم مجرمين) كان جواب سؤاله منهم (المسئلة الرابعة) هذه الحكاية بعينها هى المحكية فى هود وهناك قالوا انا أرسلنا بعد مازال عنه الروع وبشروه وهنا قالوا انا أرسلنا بعدماسألهم عن الخطب وأيضا قالوا هناك انا أرسلنا الى قوم لوط وقالوا ههنا انا أرسلنا الى قوم مجرمين والحكاية عن قولهم فان لم يقولوا ذلك وردالسؤال أيضا فنقول اذاقال قائل حاكيا عن زيد قال زيد عمرو خرج ثم يقول مرة أخرى قال زيد ان بكرا خرج فامأ ان يكون صدر من زيد قولان واما أن لايكون حاكيا ماقاله زيد والجواب عن الاول هوانه لما خاف جاز أنهم ماقالواله لاتخف انا أرسلنا الى قوم لوط فلما قال لهم ماذا تفعلون بهم كان لهم ان يقولوا انا أرسلنا الى قوم لوط لنهلكهم كما يقول القائل خرجت من البيت فيقال لماذا خرجت فيقول خرجت لاتجر لكن ههنا فائدة معنوية وهى انهم انما قالوا فى جواب ماخطبكم نهلكهم بأمر الله لتعلم براءتهم عن ايلام البرىء واهمال الردىء فاعادوا لفظ الارسال وأما عن الثانى نقول الحكاية قد تكون حكاية اللفظ كما تقول قال زيد بعمرو مررت فيحكى لفظه المحكى وقد يكون حكاية لكلامه بمعناه تقول زيد قال عمرو خرج ولك ان تبدل مرة أخرى فى غير تلك الحكاية بلفظة أخرى فتقول لماقال زيد بكر خرج قلت كيت وكيت كذلك ههنا القرآن لفظ معجز وماصدر ممن تقدم نبينا عليه السلام سواء كان منهم كان منزلا عليهم لم يكن لفظه معجزا فيلزم ان لاتكون هذه الحكايات بتلك الالفاظ فكأنهم قالوا له انا أرسلنا الى قوم مجرمين وقالوا انا أرسلنا الى قوم لوط وله أن يقول قالوا انا أرسلنا الى قوم من آمن بك لانه لايحكى لفظهم حتى يكون ذلك واحدا بل يحكى كلامهم بمعناه وله عبارات كثيرة ألا ترى أنه تعالى لماحكى لفظهم

قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين) يعنون قوم لوط

فى السلام على أحد الوجوه فى التفسير قال فى الوضعين سلاما وسلام ثم بين ما لاجله أرسلوا بقوله (لنرسل عليهم حجارة من طين) وقد فسرنا ذلك فى العنكبوت وقلنا ان ذلك دليل على وجوب الرمى بالحجارة على اللائط وفيه مسائل (المسألة الاولى) اى حاجة الى قوم من الملائكة وواحد منهم كان يقلب المدائن بريشة من جناحه نقول الملك القادر قد يأمر الحقير باهلاك الرجل الخطير و يأمر الرجل الخطير بخدمة الشخص الحقير اظهارا لنفاذ امره فحيث أهلك الخلق الكثير بالقمل والجراد والبعوض بل بالريح التى بها الحياة كان أظهر فى القدرة وحيث أمر آلافا من الملائكة باهلاك أهل بدر مع قلتهم كان أظهر فى نفاذ الامر وفيه فائدة أخرى وهى ان من يكون تحت طاعة ملك عظيم ويظهر له عدو ويستعين بالملك فيعينه بأكابر عسكره يكون ذلك تعظيما منه له وكلما كان العدو اكثر والمدد أوفر كان التعظيم أتم لكن الله تعالى أعان لوطا بعشرة ونبينا عليه السلام بخمسة آلاف وبين العددين من التفاوت ما لا يخفى وقد ذكرنا نبذا منه فى تفسير قوله تعالى وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء (المسألة الثانية) ما الفائدة فى تأكيد الحجارة بكونها من طين نقول لان بعض الناس يسمى البرد حجارة فقوله من طين يدفع ذلك التوهم واعلم ان بعض من يدعى النظر يقول لا ينزل من السماء الا حجارة من طين مدورات على هيئة البرد وهيئة البنادق التى يتخذها الرماة قالوا وسبب ذلك هو ان الاعصار يصعد الغبار من الفلوات العظيمة التى لا عمارة فيها والرياح تسوقها الى بعض البلاد ويتفق وصول ذلك الى هواء ندى فيصير طينا رطبا والرطب اذا نزل وتفرق استدار بدليل أنك اذا رميت الماء الى فوق ثم نظرت اليه رأيته ينزل كرات مدورات كاللآلئ الكبار ثم فى النزول اذا اتفق ان تضربه النيران التى فى الجو جعلته حجارة كالآجر المطبوخ فينزل فيصيب من قدر الله هلاكه وقد ينزل كثيرا فى المواضع التى لا عمارة بها فلا يرى ولا يدرى به ولهذا قال من طين لان ما لا يكون من طين كالحجر الذى فى الصواعق لا يكون كثيرا بحيث يمطر وهذا تعسف ومن يكون كامل العقل يسند الفكر الى ما قاله ذلك القائل فيقول ذلك الاعصار لما وقع فان وقع بحادث آخر يلزم التسلسل ولا بد من الانتهاء الى محدث ليس بحادث فذلك المحدث لا بد وأن يكون فاعلا مختارا والمختار له أن يفعل ما ذكروه وله أن يخلق من الحجارة من طين على وجه آخر من غير نار ولا غبار لكن العقل لا طريق له الى الجزم بطريق احداثه وما لا يصل العقل اليه يجب أخذه بالنقل والنص ورد به فأخذنا به ولا نعلم الكيفية وانما المعلوم ان الحجارة التى من طين نزولها من السماء أغرب وأعجب من غيرها لانها فى العادة لا بد لها من مكث فى النار ❊ قوله تعالى (مسومة عند ربك للمسرفين) فيه وجوه أحدها مكتوب على كل واحد اسم واحد يقتل به ثانيها انها خلقت باسمهم ولتعذيبهم بخلاف سائر الاحجار فانها مخلوقة للانتفاع فى الابنية وغيرها ثالثها مرسلة للمجرمين لان الارسال يقال فى السوائم يقال أرسلها المرعى فيجوز أن يقول سومها بمعنى أرسلها وبهذا

(لنرسل عليهم) أى بعد ما قلبنا قراهم وجعلنا عاليها سافلها حسبما فصل فى سائر السور الكريمة (حجارة من طين) اى طين متحجر هو السجيل (مسومة) مرسلة من أسمت الماشية أى أرسلتها أو معلمة من السومة وهى العلامة وقد مر تفصيله فى سورة هود (عند ربك للمسرفين) المجاوزين الحد فى الفجور وقوله تعالى (فاخرجنا) الخ حكاية من جهته تعالى لما جرى على قوم لوط عليه السلام

يفسر قوله تعالى والخيل المسومة اشارة الى الاستغناء عنها وانها ليست للركوب لكون أدل على الغنى كالقال والقناطير المقنطرة وقوله تعالى للمسرفين اشارة الى خلاف ما يقوله الطبيعيون ان الحجارة اذا أصابت واحدا من الناس فذلك نوع من الاتفاق فانها تنزل بطبعها ثم يتفق شخص لها فتصيبه فقوله مسومة أى فى أول ما خلق وأرسل اذا علم هذا فانما كان ذلك على قصد اهلاك المسرفين فان قيل اذا كانت الحجارة مسومة للمسرفين فكيف قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين لنرسل عليهم مع ان المسرف غير المجرم فى اللغة نقول المجرم هو الآتى بالذنب العظيم لان الجرم فيه دلالة على العظم ومنه جرم الشئ لعظمة مقداره والمسرف هو الآتى بالكبيرة ومن أسرف ولو فى الصغائر يصير مجرما لان الصغير الى الصغير اذا انضم صار كبيرا ومن أجرم فقد أسرف لانه أتى بالكبيرة ولو دفعة واحدة فالوصفان اجتمعا فيهم لكن فيه لطيفة معنوية وهى ان الله تعالى سومها للمسرف المصر الذى لا يترك الجرم والعلم بالامور المستقبلة عند الله تعالى يعلم انهم مسرفون فأمر الملائكة بارسالها عليهم وأما الملائكة فعلمهم تعلق بالحاضر وهم كانوا مجرمين فقالوا انا أرسلنا الى قوم نعلمهم مجرمين لنرسل عليهم حجارة خلقت لمن لا يؤمن و يصر و يسرف ولزم من هذا علمنا بانهم لو عاشوا سنين لتمادوا فى الاجرام فان قيل اللام لتعريف الجنس أو لتعريف العهد نقول لتعريف العهد أى مسومة لهؤلاء المسرفين اذ ليس لكل مسرف حجارة مسومة فان قيل ما اسرافهم نقول ما دل عليه قوله سبحانه وتعالى ما سبقكم بها من أحد من العالمين أى لم يبلغكم أحد * وقوله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين) فيه فائدتان احديهما بيان القدرة والاختيار فان من يقول بالاتفاق يقول يصيب البر والفاجر فلما ميز الله المجرم عن المحسن دل على الاختيار ثانيتهما بيان انه ببركة المحسن ينجو المسئ فان القرية ما دام فيها المؤمن لم تهلك والضمير عائد الى القرية وهى معلومة وان لم تكن مذكورة * وقوله تعالى (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) فيه اشارة الى ان الكفر اذا غلب والفسق اذا فشا لا تنفع معه عبادة المؤمنين بخلاف ما لو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون و يزنون وقيل فى مثاله ان العالم كبدن و وجود الصالحين كالاغذية الباردة والحارة والكفار والفساق كالسموم الواردة عليه الضارة ثم ان البدن ان خلا عن المنافع وفيه المضار هلك وان خلا عن المضار وفيه المنافع طاب عيشه ونما وان وجد فيه كلاهما فالحكم للغالب وكذلك البلاد والعباد والدلالة على أن المسلم بمعنى المؤمن ظاهرة والحق أن المسلم أعم من المؤمن واطلاق العام على الخاص لا مانع منه فاذا سمى المؤمن مسلما لا يدل على اتحاد مفهوميهما فكأنه تعالى قال أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الاعم منهم الا بيتا من المسلمين و يلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين وهذا كما لو قال قائل لغيره من فى البيت من الناس فيقول له ما فى البيت من الحيوانات أحد غير زيد فيكون مخبرا له بخلو البيت عن كل انسان غير زيد

بطريق الاجمال بعد حكاية ما جرى بين الملائكة و بين ابراهيم عليه السلام من الكلام والفاء فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت ثقة بذكرها فى مواضع أخر كأنه قيل فباشروا ما أمروا به فأخرجنا بقولنا فأسر بأهلك الخ (من كان فيها) أى فى قرى قوم لوط وأضمارها بغير ذكر لشهرتها (من المؤمنين) ممن آمن بلوط (فما وجدنا فيها غير بيت) أى غير أهل بيت (من المسلمين) قيل هم لوط وابنتاه وقيل كان لوط وأهل بيته

※ثم قال تعالى (وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الاليم) وفي الآية خلاف قيل هو
ماء أسود منتن انشقت أرضهم وخرج منها ذلك وقيل حجارة مرمية في ديارهم وهي بين
الشام والحجاز وقوله للذين يخافون العذاب الاليم أي المنتفع بها هو الخائف كما قال تعالى
لقوم يعقلون في سورة العنكبوت و بينهما في اللفظ فرق قال ههنا آية وقال هناك آية
بينة وقال هناك لقوم يعقلون وقال ههنا للذين يخافون فهل في المعنى فرق نقول هناك
مذكور بأبلغ وجه يدل عليه قوله تعالى آية بينة حيث وصفها بالظهور وكذلك منها وفيها
فان من للتبعيض فكأنه تعالى قال من نفسها لكم آية باقية وكذلك قال لقوم يعقلون
فان العاقل أعم من الخائف فكانت الآية هناك أظهر وسببه ما ذكرنا أن القصد هناك
تخويف القوم وههنا تسلية القلب الا ترى الى قوله تعالى فأخرجنا من كان فيها من
المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وقال هناك انا منجوك وأهلك من غير بيان
واف بنجاة المسلمين والمؤمنين بأسرهم ※ ثم قال تعالى (وفي موسى اذ أرسلناه الى فرعون
بسلطان مبين) قوله وفي موسى يحتمل أن يكون معطوفا على معلوم ويحتمل أن يكون
معطوفا على مذكور أما الاول ففيه وجوه (الاول) أن يكون المراد ذلك في ابراهيم وفي
موسى لان من ذكر ابراهيم يعلم ذلك (الثاني) لقومك في لوط وقومه عبرة وفي موسى
وفرعون (الثالث) أن يكون هناك معنى قوله تعالى تفكروا في ابراهيم ولوط وقومهما
وفي موسى وفرعون والكل قريب بعضه من بعض وأما الثاني ففيه أيضا وجوه (أحدها)
أنه عطف على قوله وفي الارض آيات للموقنين وفي موسى وهو بعيد لبعده في الذكر ولعدم
المناسبة بينهما (ثانيها) انه عطف على قوله وتركنا فيها آية للذين يخافون وفي موسى أي
وجعلنا في موسى على طريقة قولهم علفتها تبنا وماء باردا وتقلدت سيفا ورمحا وهو أقرب
ولا يخلو عن تعسف اذا قلنا بما قال بعض المفسرين ان الضمير في قوله تعالى وتركنا فيها
عائد الى القرية (ثالثها) أن نقول فيها راجع الى الحكاية فيكون التقدير وتركنا في حكايتهم
آية أو في قصتهم فيكون وفي قصة موسى آية وهو قريب من الاحتمال الاول وهو العطف
على المعلوم (رابعها) أن يكون عطفا على هل أتاك حديث ضيف ابراهيم وتقديره وفي
موسى حديث اذ أرسلناه وهو مناسب اذ جمع الله كثيرا من ذكر ابراهيم وموسى عليهما
السلام كما قال تعالى أم لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفى وقال تعالى صحف
ابراهيم وموسى والسلطان القوة بالحجة والبرهان والمبين الفارق وقد ذكرنا أنه يحتمل أن
يكون المراد منه ما كان معه من البراهين القاطعة التي حاج بها فرعون ويحتمل أن يكون
المراد المعجز الفارق بين سحر الساحر وأمر المرسلين ※ قوله تعالى (فتولى بركنه) فيه
وجوه (الاول) الباء للمصاحبة والركن اشارة الى القوم كأنه تعالى يقول أعرض مع
قومه يقال نزل فلان بعسكره على كذا و يدل على هذا الوجه قوله تعالى فأراه الآية
الكبرى فكذب وعصى ثم أدبر يسعى قال أدبر وهو بمعنى تولى وقوله فحشر فنادى في قومه

الذين نجوا ثلاثة عشر
(وتركنا فيها) أي
في القرية (آية) أي
علامة دالة على ما
أصابهم من العذاب
قيل هي تلك الاحجار
أو صخر منضود فيها
أو ماء منتن (للذين
يخافون العذاب الأليم)
أي من شأنهم أن يخافوه
لسلامة فطرتهم ورقة
قلوبهم دون من عداهم
من ذوي القلوب
القاسية فانهم لا يعتدون
بها ولا يعدونها آية
(وفي موسى) عطف
على قوله تعالى
وفي الارض أو على
قوله تعالى وتركنا فيها
آية على معنى وجعلنا
في موسى آية كقو[illegible]
من قال
علفتها تب[illegible]
(اذ أر[illegible]) قيل هو
منصو[illegible]ب بآية وقيل

قوله تعالى بركنه (الثاني) فتولى أي اتخذ وليا والباء للتعدية حينئذ يعني تقوى بجنده
(والثالث) تولى امر موسى بقوته كأنه قال اقتل موسى لئلا يبدل دينكم ولا يظهر في
الارض الفساد فتولى أمره بنفسه وحينئذ يكون المفعول غير مذكور وركنه هو نفسه
القوية ويحتمل أن يكون المراد من ركنه هامان فانه كان وزيره وعلى هذا الوجه الثاني
أظهر * (وقال ساحر أو مجنون) أي هذا ساحر أو مجنون وقوله ساحر أي يأتي الجن
بسحره أو يقرب منهم والجن يقربون منه ويقصدونه ان كان هو لا يقصدهم فالساحر
والمجنون كلاهما أمره مع الجن غير أن الساحر يأتيهم باختياره والمجنون يأتونه من غير
اختياره فكأنه أراد صيانة كلامه عن الكذب فقال هو يسحر الجن او يسحر فان كان
ليس عنده منه خبر ولا يقصد ذلك فالجن يأتونه * ثم قال تعالى (فأخذناه وجنوده فنبذناهم
في اليم وهو مليم) وهو اشارة الى بعض ما أتى به كأنه يقول واتخذ الاولياء فلم ينفعوه وأخذه
الله وأخذ اركانه وألقاهم جميعا في اليم وهو البحر والحكاية مشهورة وقوله تعالى
وهو مليم نقول فيه بيان شرف موسى عليه السلام وبشارة للمؤمنين أما شرفه فلأنه تعالى
قال بانه أتى بما يلام عليه بمجرد قوله اني أريد هلاك أعدائك يا اله العالمين فلم يكن له سبب
الا هذا وأما فرعون فقال أنا ربكم الاعلى فكان سببه تلك وهذا كما قال القائل فلان
عيبه أنه سارق أو قاتل أو يعاشر الناس فيؤذيهم وفلان عيبه أنه مشغول بنفسه لا يعاشر
فتكون نسبة العيبين بعضهما الى بعض سببا لمدح أحدهما وذم الآخر وأما بشارة
المؤمنين فهو بسبب أن من التقمه الحوت وهو مليم نجاه الله تعالى بتسبيحه ومن أهلكه
الله بتعذيبه لم ينفعه ايمانه حين قال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنوا اسرائيل
وكلاهما قد أتى بما يلام عليه فذنب المؤمن وقت ظهور اليأس مغفور وايمان الكافر غير
مقبول * ثم قال تعالى (وفي عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) وفيه ما ذكرنا من الوجوه
التي ذكرناها في عطف موسى عليه السلام وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكرت أن
المقصود ههنا تسلية قلب النبي صلى الله عليه وسلم وتذكيره بحال الانبياء ولم يذكر في عاد
وثمود أنبياءهم كما ذكر ابراهيم وموسى عليهما السلام نقول في ذكر الآيات ست حكايات
حكاية ابراهيم عليه السلام وبشارته وحكاية قوم لوط ونجاة من كان فيها من المؤمنين
وحكاية موسى عليه السلام وفي هذه الحكايات الثلاث ذكر الرسل والمؤمنين لان الناجين
فيهم كانوا كثيرين أما في حق ابراهيم وموسى عليهما السلام فظاهر وأما في قوم لوط
فلان الناجين وان كانوا أهل بيت واحد ولكن المهلكين كانوا أيضا أهل بقعة واحدة
وأما عاد وثمود وقوم نوح فكان عدد المهلكين بالنسبة الى الناجين اضعاف ما كان عدد
المهلكين بالنسبة الى الناجين من قوم لوط عليه السلام فذكر الحكايات الثلاث الاول
للتسلية بالنجاة وذكر الثلاث المتأخرة للتسلية باهلاك العدو والكل مذكور للتسلية
... تعالى في آخر هذه الآيات كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا

بحذوف أي كأنه
وقت ارسالنا وقيل
بتركنا (الى فرعون
بسلطان مبين) هو
ماظهر على يديه من
المعجزات الباهرة
(فتولى بركنه) أي
فأعرض عن الايمان به
وازور كقوله تعالى ونأى
بجانبه وقيل فتولى بما
يتقوى به من ملكه
وعساكره فان الركن
اسم لما يركن اليه الشيء
وقرئ بركنه بضم
الكاف (وقال ساحر)
أي هو ساحر (أو مجنون)
كأنه نسب ماظهر
على يديه عليه الصلاة
والسلام من الخوارق
العجيبة الى الجن وتردد
في أنه حصل باختياره
أو بغيرهما
وجنوده

... عقله لكان لتوهم أن
... قال كل ... المبارز الشجاع اخبرتك
... (فما استطاعوا من قيام) يحتمل وجهين (أحدهما)
... من الهرب والفرار على سبيل المبالغة فان من لا يقدر على قيام كيف يمشي
... من ان يهرب وعلى هذا فيه لطائف لفظية (أحدها) قوله تعالى فما استطاعوا فان
الاستطاعة دون القدرة لان في الاستطاعة دلالة الطلب وهو ينبئ عن عدم القدرة
والاستقلال فمن استطاع شيئا كان دون من يقدر عليه ولهذا يقول المتكلمون
الاستطاعة مع الفعل أو قبل الفعل اشارة الى قدرة مطلوبة من الله تعالى مأخوذة منه
واليه الاشارة بقوله تعالى هل تستطيع ربك على قراءة من قرأ بالتاء وقوله فما استطاعوا
أبلغ من قول القائل ما قدروا على قيام (ثانيها) قوله تعالى من قيام بزيادة من وقد عرفت
ما فيه من التأكيد (ثالثها) قوله قيام بدل قوله هرب لما بينا ان العاجز عن القيام أولى ان
يعجز عن الهرب (الوجه الثاني) هو ان المراد من قيام القيام بالامر أي ما استطاعوا من
قيام به * وقوله تعالى (وما كانوا منتصرين) أي ما استطاعوا الهزيمة والهرب ومن
لا يقدر عليه يقاتل وينتصر بكل ما يمكنه لانه يدفع عن الروح وهم مع ذلك ما كانوا
منتصرين وقد عرفت ان قول القائل ما هو بمنتصر أبلغ من قوله ما انتصر ولا ينتصر
والجواب ترك مع كونه يجب تقديره وقوله ما انتصر أي لشئ من شأنه ذلك كما تقول فلان
لا ينصر أو فلان ليس ينصر * ثم قال تعالى (وقوم نوح من قبل انهم كانوا قوما فاسقين)
قرئ قوم بالجر والنصب فأوجههما نقول أما الجر فظاهر عطفا على ما تقدم في قوله تعالى
وفي عاد وفي موسى تقول لك في فلان عبرة وفي فلان وفلان وأما النصب فعلى تقدير وأهلكنا
قوم نوح من قبل لان ما تقدم دل على الهلاك فهو عطف على المحل وعلى هذا فقوله من قبل
معناه ظاهر كأنه يقول وأهلكنا قوم نوح من قبل وأما على الوجه الاول فتقديره وفي قوم
نوح لكم عبرة من قبل ثمود وعاد وغيرهم * ثم قال تعالى (والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون)
وهو بيان للوحدانية وما تقدم كان بيانا للحشر وأما قوله ههنا والسماء بنيناها بأيد وأنتم
تعرفون ان ما تعبدون من دون الله ما خلقوا منها شيئا فلا يصح الاشراك ويمكن أن يقال
هذا عود بعد التهديد الى اقامة الدليل وبناء السماء دليل على القدرة على خلق الاجسام
ثانيا كما قال تعالى أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم وفيه
مسائل (المسئلة الاولى) النصب على شريطة التفسير يختار في مواضع اذا كان العطف
على جملة فعلية فالك الجملة نقول في بعض الوجوه التي ذكرناها قوله تعالى وفي عاد
وثمود تقديره وهل أتاك حديث عاد وهل أتاك حديث ثمود عطفا على قوله هل أتاك حديث

العلامات التي بينها صالح عليه السلام من اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا الى قتله عليه السلام فنجاه الله تعالى الى ارض فلسطين لما كان ضحوة اليوم الرابع تحنطوا وتكفنوا بالانطاع فأتتهم الصيحة فهلكوا وقرئ الصعقة وهي المرة (وهم ينظرون) ويعاينونها
استطاعوا من قيام كقوله تعالى فاصبحوا في دارهم جاثمين (وما

ولان قوله تعالى فنبذناهم و[...]
كلها فعليات فصار النصب مختارا (الم[...]
والسماء وما بناها وقال تعالى أم السماء بناها وهنا
بناء فما الحكمة فيه نقول فيه وجوه (أحدها) ان البناء باق الى قيام [...]
شئ ولم يعدم منه جزء وأما الارض فهى فى التبدل والتغير فهى كالفرش الذى
ويطوى وينقل والسماء كالبناء المبنى الثابت واليه الاشارة بقوله تعالى سبعا شدادا
وأما الاراضى فكم منها ما صار بحرا وعاد أرضا من وقت حدوثها (ثانيها) أن السماء
ترى كالقبة المبنية فوق الرؤس والارض مبسوطة مدحوة والبناء بالمرفوع أليق كما قال
تعالى رفع سمكها (ثالثها) قال بعض الحكماء السماء مسكن الارواح والارض موضع
الاعمال والمسكن أليق بكونه بناء والله أعلم (المسئلة الثالثة) الاصل تقديم العامل على
المعمول والفعل هو العامل فقوله بنينا عامل فى السماء فما الحكمة فى تقديم المفعول على
الفعل ولو قال بنينا السماء بأيد كان أوجز نقول الصانع قبل الصنع عند الناظر فى المعرفة
فلما كان المقصود اثبات العلم بالصانع قدم الدليل فقال والسماء المزينة التى لاتشكون
[...] بنيناها فاعرفونا بها ان كنتم لاتعرفونا (المسئلة الرابعة) اذا كان المقصود اثبات
التوحيد فكيف قال بنيناها ولم يقل بنيتها أو بناها الله نقول قوله بنيناها أدل على عدم
الشريك فى التصرف والاستبداد وقوله بنيتها يمكن أن يكون فيه تشريك وتمام التقرير
هو أن قوله تعالى بنينا لا يورث ايهاما بان الآلهة التى كانوا يعبدونها هى التى يرجع اليها
الضمير فى قوله بنينا لان الآلهة اما أصنام منحوتة واما كواكب جعلوا الاصنام على صورها
وطبائعها فاما الاصنام المنحوتة فلا يشكون انها ما بنت من السماء شيئا وأما الكواكب
فهى فى السماء محتاجة اليها فلا تكون هى بانيتها وانما يمكن أن يقال انها بنيت لها وجعلت
أماكنها فلم يتوهم ما قالوا فقال بنينا نحن ونحن غير ما يقولون ويدعونه فلا يصلحون لنا شركاء
لان كل ما هو غير السماء فهو محتاج الى السماء ودون السماء فى الرتبة فلا يكون خالق السماء
وبانيها فاذن علم أن المراد جمع التعظيم وأفاد النص عظمته فالعظمة أنفى للشريك فثبت
ان قوله بنيناها أدل على نفى الشريك من بنيتها أو بناها الله * فان قيل لم قلت ان الجمع يدل
على التعظيم قلنا الجواب من وجهين (الاول) أن الكلام على قدر فهم السامع والسامع
هو الانسان والانسان يقيس الشاهد على الغائب فان الكبير عندهم من يفعل الشئ بجنده
وخدمه ولا يباشر بنفسه فيقول الملك فعلنا أى فعله عبادنا بامرنا ويكون فى ذلك تعظيم
فكذلك فى حق الغائب (والوجه الآخر) هو ان القول اذا وقع من واحد وكان الغير به
راضيا يقول القائل فعلنا كانا كذا واذا اجتمع جمع على فعل لا يقع الا بالبعض كما اذا خرج

كانوا منتصرين)
بغيرهم كما لم يمتنعوا بانفسهم
(وقوم نوح) أى
وأهلكنا قوم نوح
فان ما قبله يدل عليه
أو واذكر ويجوز
أن يكون معطوفا
على محل فى عاد ويؤيده
القراءة بالجر وقيل هو
[...]طوف على مفعول
[...]خذناه (من قبل) أى
[...] هؤلاء المهلكين
كانوا قوما

[...]دون فيما كانوا
[...]ه من الكفر والمعاصى
(والسماء بنيناها بايد)
[...]ى بقوة (وانا لموسعون)
لقادرون من الوسع
بمعنى الطاقة والموسع
القادر على الانفاق
[...] لموسعون السماء أو ما
بينها وبين الارض
أو الرزق

ينظرون اشارة الى أحد معنيين اما بمعنى تسليمهم وعدم قدرتهم على الدفع كا
للمضروب يضرب بك فلان وأنت تنظر اشارة الى أنه لا يدفع واما
لا على غفلة بل أنذروا به من قبل بثلاثة أيام وانتظروه ولو كا
يتوهم أنهم أخذوا على غفلة أخذ العاجل الم
بقصدى اياك فانتظرنى * وقوله تعالى
أنه لبيان عجزهم
فضلا

فيه وجهان د هنا (أحد

اهم المكرمين وعلى هذا يكون ماتقدم جملة فعلية لاخفاء فيه وعلى غير ذلك
ر الى النصب أقرب منه الى الرفع فكان عطفا على ما بالنصب أولى
قوله أرسلنا وقوله تعالى فاخذتهم الصاعقة وفما استطاعوا
الة الثانية) كرر ذكر البناء في السموات قال تعالى
تعالى جعل الارض قرارا والسماء
م كاملة لم يسقط منه
بسط

(والارض فرشناها) مهدناها و بسطناها ليستقروا عليها (فنعم الماهدون) أي نحن (ومن كل شئ) أي من الاجناس (خلقنا زوجين) أي نوعين ذكرا وأنثى وقيل متقابلين السماء والارض والليل والنهار والشمس والقمر و البر والبحر و نحو ذلك (لعلكم تذكرون) أي فعلنا ذلك كله كي تتذكروا فتعرفوا أنه خالق الكل ورازقه وأنه المستحق للعبادة وأنه قادر على اعادة الجميع فتعملوا بمقتضاه وقوله تعالى (ففروا الى الله) مقدر بقول خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين والفاء اما لترتيب الامر على ما حكى من آثار غضبه الموجبة للفرار منها ومن أحكام رحمته المستدعية للفرار اليها كأنه قيل قل لهم اذا كان الامر كذلك فاهربوا الى الله الذي هذه شؤنه

جم غفير وجمع كثير اقتل سبع وقتلوه يقال قتله أهل بلدة كذا رضاء الكل به وقصد الكل اليه اذا عرفت هذا فالله تعالى كيفما أمر بفعل شئ لا يكون لاحد رده وكان كل واحد منقادا له يقول بدل فعلت فعلنا واهذا يقول الملك العظيم أجمعنا بحيث لا ينكر أحد ولا يرده نفس وقوله تعالى بأيد أي قوة والايد القوة هذا هو المشهور وبه فسر قوله تعالى ذا الايد انه أواب و يحتمل أن يقال ان المراد جمع اليد ودليله أنه قال تعالى لما خلقت بيدي وقال تعالى مما عملت أيدينا أنعاما وهو راجع في الحقيقة الى المعنى الاول وعلى هذا فحيث قال خلقت قال بيدي وحيث قال بنينا قال بايد لمقابلة الجمع بالجمع فان قيل فلم لم يقل بنيناها بايدينا وقال مما عملت أيدينا نقول لفائدة جليلة وهي أن السماء لا تخطر ببال أحد انها مخلوقة لغير الله والانعام ليست كذلك فقال هناك مما عملت أيدينا تصريحا بان الحيوان مخلوق لله تعالى من غير واسطة وكذلك خلقت بيدي وفي السماء بايد من غير اضافة لاستغناء عنها وفيه لطيفة أخرى وهي ان هناك لما أثبت الاضافة بعد حذف الضمير العائد الى المفعول فلم يقل خلقته بيدي ولا قال عملته أيدينا وقال ههنا بنيناها لان هناك لم يخطر ببال أحد ان الانسان غير مخلوق وان الحيوان غير معمول فلم يقل خلقته ولا عملته وأما السماء فبعض الجهال يزعم انها غير مجعولة فقال بنيناها بعود الضمير تصريحا بانها مخلوقة وقوله تعالى وانا لموسعون فيه وجوه (أحدها) انه من السعة أي أوسعناها بحيث صارت الارض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة الى السماء وسعتها كحلقة في فلاة والبناء الواسع الفضاء عجيب فان القبة الواسعة لا يقدر عليها البناؤن لانهم يحتاجوا الى اقامة آلة يصح بها استدارتها و يثبت بها تماسك أجزائها الى ان يتصل بعضها ببعض (ثانيها) قوله وانا لموسعون أي لقادرون ومنه قوله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها أي قدرتها والمناسبة حينئذ ظاهرة و يحتمل ان يقال بان ذلك حينئذ اشارة الى المقصود الآخر وهو الحشر كأنه يقول بنينا السماء وانا لقادرون على أن نخلق أمثالها كما في قوله تعالى أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم (ثالثها) انا لموسعون الرزق على الخلق * ثم قال تعالى (والارض فرشناها فنعم الماهدون) استدلالا بالارض وقد علم ما في قوله والارض فرشناها وفيه دليل على أن دحو الارض بعد خلق السماء لان بناء البيت يكون في العادة قبل الفرش وقوله تعالى فنعم الماهدون أي نحن أو فنعم الماهدون ماهدوها * ثم قال تعالى (ومن كل شئ خلقنا زوجين) استدلالا بما بينهما والزوجان اما الضدان فان الذكر والانثى كالضدين والزوجان منهما كذلك واما المتشاكلان فان كل شئ له شبيه ونظير وضد وند قال المنطقيون المراد بالشئ الجنس وأقل ما يكون تحت الجنس نوعان فمن كل جنس خلق نوعين من الجوهر مثلا المادي والمجرد ومن المادي النامي والجامد ومن النامي المدرك والنبات ومن المدرك الناطق والصامت وكل ذلك يدل على

انه فرد لا كثرة فيه * وقوله تعالى (لعلكم تذكرون) أى لعلكم تذكرون أن خالق الازواج لا يكون له زوج والا لكان ممكنا فيكون مخلوقا ولا يكون خالقا أو لعلكم تذكرون أن خالق الازواج لا يعجز عن حشر الاجساد وجمع الارواح * ثم قال تعالى (ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين) أمر بالتوحيد وفيه لطائف (الاولى) قوله تعالى ففروا ينبئ عن سرعة الاهلاك كأنه يقول الاهلاك والعذاب أسرع وأقرب من ان يحتمل الحال الابطاء فى الرجوع فافزعوا الى الله سريعا وفروا (الثانية) قوله تعالى الى الله بيان المهروب اليه ولم يذكر الذى منه الهرب لاحد وجهين اما لكونه معلوما وهو هول العذاب أو الشيطان الذى قال فيه ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا واما ليكون عاما كأنه يقول كل ماعدا الله عدوكم ففروا اليه من كل ماعداه وبيانه وهو ان كل ماعداه فانه يتلف عليك رأس مالك الذى هو العمر ويفوت عليك ماهو الحق والخير ومتلف رأس المال ومفوت الكمال عدو وأما اذا فررت الى الله واقبلت على الله فهو يأخذ عمرك ولكن يرفع أمرك ويعطيك بقاء لا فناء معه (والثالثة) الفاء للترتيب معناه اذا ثبت ان خالق الزوجين فرد ففروا اليه واتركوا غيره تركا مؤبدا (الرابعة) فى تنوع الكلام فائدة وبيانها هو أن الله قال والسماء بنيناها والارض فرشناها ومن كل شئ خلقنا ثم جعل الكلام للنبى عليه السلام وقال ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين ولم يقل ففروا الينا وذلك لان لاختلاف الكلام تأثيرا وكذلك لاختلاف المتكلمين تأثير ولهذا يكثر الانسان من النصائح مع ولده الذى حاد عن الجادة ويجعل الكلام مختلفا نوعا ترغيبا ونوعا ترهيبا وتنبيها بالحكايات ثم يقول لغيره تكلم معه لعل كلامك ينفع لما فى أذهان الناس أن اختلاف المتكلمين واختلاف الكلام كلاهما مؤثر والله تعالى ذكر أنواعا من الكلام وكثيرا من الاستدلالات والآيات وذكر طرفا صالحا من الحكايات ثم ذكر كلاما من متكلم آخر هو النبى صلى الله عليه وسلم ومن المفسرين من يقول تقديره فقل لهم ففروا قوله انى لكم منه نذير اشارة الى الرسالة وفيه أيضا لطائف (احدها) أن الله تعالى بين عظمته بقوله والسماء بنيناها والارض فرشناها وهيبته بقوله فنبذناهم فى اليم وقوله تعالى أرسلنا عليهم الريح العقيم وقوله فأخذتهم الصاعقة وفيه اشارة الى أنه تعالى اذا عذب قدر على أن يعذب بما به البقاء والوجود وهو التراب والماء والهواء والنار فحكاية لوط تدل على أن التراب الذى منه الوجود والبقاء اذا أراد الله جعله سبب الفناء والماء كذلك فى قوم فرعون والهواء فى عاد والنار فى ثمود ولعل ترتيب الحكايات الاربع للترتيب الذى فى العناصر الاربعة وقد ذكر فى سورة العنكبوت شيئا منه ثم اذا بان عظمته وهيبته قال لرسوله عرفهم الحال وقل أنا رسول بتقديم الآيات وسرد الحكايات فلا ردافه بذكر الرسول فائدة (ثانيها) فى الرسالة أمور ثلاثة المرسل والرسول والمرسل اليه وههنا ذكر الكل فقوله لكم اشارة الى المرسل اليهم وقوله منه اشارة الى

بالايمان والطاعة كى تنجوا من عقابه وتفوزوا بثوابه واما العطف على جملة مقدرة مترتبة على قوله تعالى لعلكم تذكرون كأنه قيل قل لهم فتذكروا ففروا الى الله الخ وقوله تعالى (انى لكم منه نذير مبين) تعليل للامر بالفرار اليه تعالى أو لوجوب الامتثال به فان كونه عليه الصلاة والسلام أن يأمرهم بالفرار اليه وعليهم أن يمتثلوا به أى انى لكم من جهته تعالى منذر بين كونه منذرا منه تعالى أو مظهر لما يجب اظهاره من العذاب المنذر به وفى أمره تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يأمرهم بالهرب اليه تعالى من عقابه وتعليله بأنه عليه الصلاة والسلام ينذرهم من جهته تعالى لا من تلقاء نفسه وعد كريم

المرسل وقوله نذير بيان للرسول وقدم المرسل اليه في الذكر لان المرسل اليه أدخل في أمر الرسالة لان عنده يتم الامر والملك لولم يكن هناك من يخالفه أو يوافقه فيرسل اليه نذيرا أو بشيرا لا يرسل وان كان ملكا عظيما واذا حصل المخالف أو الموافق يرسل وان كان غير عظيم ثم المرسل لانه متعين وهو الباعث وأما الرسول فباختياره ولولا المرسل المتعين لما تمت الرسالة وأما الرسول فلا يتعين لان الملك اختيار من يشاء من عباده فقال منه ثم قال نذير تأخيرا للرسول عن المرسل (ثالثها) قوله مبين اشارة الى ما به تعرف الرسالة لان كل ما حدث له سبب وعلامة فالرسول هو الذى به تتم الرسالة ولا بدله من علامة يعرف بها فقوله مبين اشارة اليها وهي اما البرهان أو المعجزة * ثم قال تعالى (ولا تجعلوا مع الله الها آخر) اتماما للتوحيد وذلك لان التوحيد بين التعطيل والتشريك وطريقة التوحيد هي الطريقة فالمعطل يقول لا اله أصلا والمشرك يقول في الوجود آلهة والموحد يقول قول الاثنين باطل ونفي الواحد باطل فقوله تعالى ففروا الى الله أثبت وجود الله ولما قال ولا تجعلوا مع الله الها آخر نفي الاكثر من الواحد فصح التوحيد بالآيتين ولهذا قال مرتين (اني لكم منه نذير مبين) أي في المقامين والموضعين وقد ذكرنا مرارا ان المعطل اذا قال لا واجب يجعل الكل ممكنا فان كل موجود ممكن لكن الله في الحقيقة موجود فقد جعله في تضاعيف قوله كالممكنات فقد أشرك وجعل الله كغيره والمشرك لما قال بان غيره اله يلزم من قوله نفي كون الاله الها لما ذكرنا في تقرير دلالة التمانع من أنه لو كان فيهما آلهة الا الله لزم عجز كل واحد فلا يكون في الوجود اله أصلا فيكون نافيا للالهية فيكون معطلا فالمعطل مشرك والمشرك معطل وكل واحد من الفريقين معترف بأن خصمه مبطل لكنه هو على مذهب خصمه يقول انه نفسه مبطل وهو لا يعلم والحمد لله الذى هدانا وقوله ولا تجعلوا فيه لطيفة وهي انه اشارة الى ان الآلهة مجعولة لا يقال فالله متخذ لقوله فاتخذه وكيلا قلنا الجواب عنه ظاهر وقد سبق في قوله تعالى واتخذوا من دون الله آلهة * ثم قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون) والتفسير معلوم مما سبق وقد ذكرنا أنه يدل على ان ذكر الحكايات للتسلية غير أن فيه لطيفة واحدة لا نتركها وهي أن هذه الآية دليل على ان كل رسول كذب وحينئذ يرد عليه اسئلة (الاول) هو أن من الانبياء من قرر دين النبي الذي كان قبله وبقي القوم على ما كانوا عليه كانبياء بني اسرائيل مدة وكيف وآدم لما أرسل لم يكذب (الثاني) ما الحكمة في تقدير الله تكذيب الرسل ولم يرسل رسولا مع كثرتهم واختلاف معجزاتهم بحيث يصدقه أهل زمانه (الثالث) قوله ما أتى الا قالوا دليل على انهم كلهم قالوا ساحر وليس كذلك لانه ما من رسول الا وآمن به قوم وهم ما قالوا ذلك (والجواب عن الاول) هو أن نقول أما المقرر فلا نسلم أنه رسول بل هو نبي على دين رسول ومن كذب رسوله فهو مكذبه أيضا ضرورة (وعن الثاني) هو أن الله لا يرسل الا عند حاجة

بنجاتهم من المهروب وفوزهم بالمطلوب وقوله تعالى (ولا تجعلوا مع الله الها آخر) نهي موجب للفرار من سبب العقاب بعد الامر بالفرار من نفسه كما يشعر به قوله تعالى (اني لكم منه) أي من الجعل المنهي عنه (نذير مبين) فان تعلق كلمة من بالانذار مع كون صلته الباء بتضمينه معنى الافرار يقال فر منه أي هرب وأفره غيره كأنه قيل وفروا من أن تجعلوا معه تعالى اعتقادا أو قولا الها آخر وفيه تأكيد لما قبله من الامر بالفرار من العقاب اليه تعالى لكن لا بطريق التكرير كما قيل بل بالنهي عن سببه وايجاب الفرار منه (كذلك) أي الامر مثل ما ذكر من تكذيبهم الرسول وتسميتهم له ساحرا أو مجنونا وقوله تعالى (ما أتى الذين من قبلهم) الخ تفسير له أي ما أتاهم (من رسول)

الخلق وذلك عند ظهور الكفر في العالم ولا يظهر الكفر الا عند كثرة الجهل ثم ان الله تعالى لا يرسل رسولا مع كون الايمان به ضروريا الالكان الايمان به ايمان اليأس فلا يقبل والجاهل اذالم يكن المبين له في غاية الوضوح لا يقبله فيبقى في ورطة الضلالة فهذا قدر لزم بقضاء الله على الخلق على هذا الوجه وقد ذكرنا مرة أخرى أن بعض الناس يقول كل ما هو بقضاء الله فهو خير والشر في القدر فالله قضى بأن النار فيها مصلحة للناس لانها نور ويجعلونها متاعا في الاسفار وغيرها كما ذكره الله والماء فيه مصلحة الشرب لكن النار انماتتم مصلحتها بالحرارة البالغة والماء بالسيلان القوى وكونهما كذلك يلزمهما باجراء الله عادته عليهما أن يحرق ثوب الفقير ويغرق شاة المسكين فالمنفعة في القضاء والمضرة في القدر وهذا الكلام له غور والسنة أن تقول يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد (وعن الثالث) أن ذلك ليس بعام فانه لم يقل الاقال كلهم وانما قال الا قالوا ولما كان كثير منهم بل أكثرهم قائلين به قال الله تعالى الاقالوا فان قيل فلم لم يذكر المصدقين كما ذكر المكذبين وقال الاقال بعضهم صدقت وبعضهم كذبت نقول لان المقصود التسلية وهي على التكذيب فكأنه تعالى قال لاتأس على تكذيب قومك فان أقواما قبلك كذبوا ورسلا كذبوا ❊ ثم قال (أتواصوا به بل هم قوم طاغون) أي بذلك القول وهو قولهم ساحر أو مجنون ومعناه التعجب أي كيف اتفقوا على قول واحد كأنهم تواطأوا عليه وقال بعضهم لبعض لاتقولوا الا هذا ثم قال لم يكن ذلك عن التواطؤ وانما كان لمعنى جامع هو أن الكل أترفوا فاستغنوا فنسوا الله وطغوا فكذبوا رسله كما أن الملك اذا أمهل أهل بقعة ولم يكلفهم بشئ ثم قعد بعد مدة وطلبهم الى بابه يصعب عليهم لاتخاذهم القصور والجنان وتحسين بلادهم من الوجوه الحسان فيحملهم ذلك على العصيان والقول بطاعة ملك آخر ❊ ثم قال تعالى (فتول عنهم فما أنت بملوم) هذه تسلية أخرى وذلك لان النبي صلى الله عليه وسلم كان من كرم الاخلاق ينسب نفسه الى تقصير ويقول ان عدم ايمانهم لتقصيري في التبليغ فيجتهد في الانذار والتبليغ فقال تعالى قد أتيت بما عليك ولا يضرك التولي عنهم وكفرهم ليس لتقصير منك فلا تحزن فانك لست بملوم بسبب التقصير وانما هم الملومون بالاعراض والعناد ❊ ثم قال تعالى (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) يعني ليس التولي مطلقا بل تول وأقبل وأعرض وادع فلا التولي يضرك اذا كان منهم ولا التذكير ينفع الا اذا كان مع المؤمنين وفيه معنى آخر ألطف منه وهو ان الهادي اذا كانت هدايته نافعة يكون ثوابه أكثر فلما قال تعالى فتول كان يقع لمتوهم أن يقول فحينئذ لا يكون للنبي عليه السلام ثواب عظيم فقال بلى وذلك لأن في المؤمنين كثرة فاذا ذكرتهم زاد هداهم وزيادة الهدى من قوله كزيادة القوم فان قوما كثيرا اذا صلى كل واحد ركعة أو ركعتين وقوما قليلا اذا صلى كل واحد ألف ركعة تكون العبادة في الكثرة كالعبادة عن زيادة العدد فالهادي له على عبادة كل مهتد

من رسل الله (الاقالوا) في حقه (ساحر أو مجنون) ولاسبيل الى انتصاب الكاف بأتى لامتناع عمل ما بعد ما النافية فيما قبلها (أتواصوا به) انكار وتعجيب من حالهم واجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التي لا تكاد تخطر ببال أحد من العقلاء فضلا عن التفوه بها اى أوصى بهذا القول بعضهم بعضا حتى اتفقوا عليه وقوله تعالى (بل هم قوم طاغون) اضراب عن كون مدار اتفاقهم على الشر تواصيهم بذلك واثبات لكونه أمرا أقبح من التواصي وأشنع منه من الطغيان الشامل للكل الدال على أن صدور تلك الكلمة الشنيعة عن كل واحد منهم بمقتضى جبلته الخبيثة لا بموجب وصية من قبلهم بذلك من غير أن يكون ذلك مقتضى طباعهم (فتول عنهم) فأعرض

أجر ولاينقص أجر المهتدى قال تعالى ان لك لاجرا أى وان توليت بسبب انتفاع المؤمنين بل وحالة اعراضك عن المعاندين وقوله تعالى فان الذكرى تنفع المؤمنين يحتمل وجوها (أحدها) أن يراد قوة يقينهم كما قال تعالى ليزدادوا ايمانا وقال تعالى فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وقال تعالى زادهم هدى وآتاهم تقواهم (ثانيها) تنفع المؤمنين الذين بعدك فكانك اذا أكثرت التذكير بالتكرير نقل عنك ذلك بالتواتر فينتفع به من يجئ بعدك من المؤمنين (ثالثها) هوأن الذكرى ان أفاد ايمان كافر فقد نفع مؤمنا لانه صار مؤمنا وان لم يفسد يوجد حسنة ويزاد فى حسنة المؤمنين فينتفعوا وهذا هو الذى قيل فى قوله تعالى وتلك الجنة التى أورثتموها * ثم قال تعالى (وما خلقت الجن والانس الاليعبدون) وهذه الآية فيها فوائد كثيرة ولنذكرها على وجه الاستقصاء فنقول أما تعلقها بماقبلها فلوجوه (أحدها) أنه تعالى لما قال وذكر عين أقصى غاية التذكير وهوان الخلق ليس الاللعبادة فالمقصود من ايجاد الانسان العبادة فذكرهم به وأعلمهم ان كل ماعداه تضييع للزمان (الثانى) هوانا ذكرنا مرارا ان شغل الانبياء منحصر فى أمرين عبادة الله وهداية الخلق فلما قال تعالى فتول عنهم فما أنت بملوم بين أن الهداية قد تسقط عند اليأس وعدم المهتدى وأما العبادة فهى لازمة والخلق المطلق لها وليس الخلق المطلق للهداية فما أنت بملوم اذا أتيت بالعبادة التى هى أصل اذا تركت الهداية بعد بذل الجهد فيها (الثالث) هوأنه لما بين حال من قبله من التكذيب ذكر هذه الآية ليبين سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الله فما كان خلقهم الاللعبادة وأما التفسير ففيه مسائل (الاولى) الملائكة أيضا من أصناف المكلفين ولم يذكرهم الله مع ان المنفعة الكبرى فى ايجادهم هى العبادة ولهذا قال بل عباد مكرمون وقال تعالى لايستكبرون عن عبادته فالحكمة فيه نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) قد ذكرنا فى بعض الوجوه أن تعلق الآية بماقبلها بيان قبح مايفعله الكفرة من ترك ماخلقوا له وهذا مختص بالجن والانس لان الكفر فى الجن أكثر والكافر منهم أكثر من المؤمن لما بينا أن المقصود بيان قبحهم وسوء صنيعهم (الثانى) هوأن النبى صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا الى الجن فلما قال وذكرهم مايذكر به وهو كون الخلق للعبادة خص أمته بالذكر أى ذكر الجن والانس (الثالث) ان عباد الاصنام كانوا يقولون بأن الله تعالى عظيم الشان خلق الملائكة وجعلهم مقربين فهم يعبدون الله وخلقهم لعبادته ونحن لنزول درجتنا لانصلح لعبادة الله فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله فقال تعالى وما خلقت الجن والانس الاليعبدون ولم يذكر الملائكة لان الامر فيهم كان مسلما بين القوم فذكر المتنازع فيه (الرابع) قيل الجن يتناول الملائكة لان الجن أصله من الاستتار وهم مستترون عن الخلق وعلى هذا فتقديم الجن لدخول الملائكة فيهم وكونهم أكثر عبادة وأخلصها (الخامس) قال بعض الناس لما ذكر الله الخلق كان فيه التقدير فى الجرم والزمان قال تعالى خلق السموات

عن جدالهم فقد كررت عليهم الدعوة فابوا الاالاباء (فما أنت بملوم) على التولى بعدما بذلت المجهود وجاوزت فى الابلاغ كل حد معهود (وذكر) أى افعل التذكير والموعظة ولاتدعهما بالمرة أوفذكرهم وقد حذف الضمير لظهور الامر (فان الذكرى تنفع المؤمنين) أى الذين قدر الله تعالى ايمانهم أوالذين آمنوا بالفعل فانها تزيدهم بصيرة وقوة فى اليقين (وما خلقت الجن والانس الاليعبدون) استئناف مؤكد للامر مقرر لمضمون تعليله فان كون خلقهم مغيا بعبادته تعالى ممايدعوه عليه الصلاة والسلام الى تذكيرهم يوجب عليهم التذكروا الاتعاظ ولعل تقديم خلق الجن فى الذكر لتقدمه على خلق الانس فى الوجود ومعنى

والارض ومابينهما في ستة أيام وقال تعالى خلق الارض في يومين وقال خلقت بيدي الى غير ذلك واما ما ذكره بلفظ الامر قال تعالى انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون وقال قل الروح من أمر ربي وقال تعالى ألا له الخلق والامر والملائكة كالارواح من عالم الامر أوجدهم من غير مرور زمان فقوله وماخلقت اشارة الى من هو من عالم الخلق فلا يدخل فيه الملائكة وهو باطل لقوله تعالى خالق كل شئ فالملك من عالم الخلق (المسئلة الثانية) تقديم الجن على الانس لأية حكمة نقول فيه وجوه الاول بعضها مر في المسئلة الاولى الثاني هو ان العبادة سرية وجهرية والسرية فضل على الجهرية لكن عبادة الجن سرية لايدخلها الرياء العظيم وأما عبادة الانس فيدخلها الرياء فانه قد يعبد الله لابناء جنسه وقد يعبد الله ليستخبر من الجن أو مخافة منهم ولا كذلك الجن (المسئلة الثالثة) فعل الله تعالى ليس لغرض والا لكان بالغرض مستكملا وهو في نفسه كامل فكيف يفهم لامر الله الغرض والعلة تقول المعتزلة تمسكوا به وقالوا افعال الله تعالى لاغراض وبالغوا في الانكار على منكري ذلك ونحن نقول فيه وجوه (الاول) ان التعليل لفظي ومعنوي واللفظي مايطلق الناظر اليه اللفظ عليه وان لم يكن له في الحقيقة مثاله اذا خرج ملك من بلاده ودخل بلاد العدو وكان في قلبه أن يتعب عسكر نفسه لاغير ففي المعنى المقصود ذلك وفي اللفظ لايصح ولو قال هو أنا ما سافرت الا ابتغاء اجر أو لاستفيد حسنة يقال هذا ليس بشئ ولايصح عليه ولو قال قائل في مثل هذه الصورة خرج ليأخذ بلاد العدو وليرهبه لصدق فالتعليل اللفظي هو جعل المنفعة المعتبرة علة للفعل الذي فيه المنفعة يقال اتجر للربح وان لم يكن في الحقيقة له اذا عرفت هذا فنقول الحقائق غير معلومة عند الناس والمفهوم من النصوص معانيها اللفظية لكن الشئ اذا كان فيه منفعة يصح التعليل بها لفظا والنزاع في الحقيقة في اللفظ (الثاني) هو ان ذلك تقدير كالتمني والترجي في كلام الله تعالى وكأنه يقول العبادة عند الخلق شئ لو كان ذلك من أفعالكم لقلتم انه لها كما قلنا في قوله تعالى لعله يتذكر أي بحيث يصير تذكره عندكم مرجوا وقوله عسى ربكم أن يهلك عدوكم أي يصير اهلاكه عندكم مرجوا تقولون انه قرب (الثالث) هو ان اللام قد تثبت فيما لايصلح غرضا كما في الوقت قال تعالى أقم الصلاة لدلوك الشمس وقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن والمراد المقارنة وكذلك في جميع الصور وحينئذ يكون معناه قرنت الخلق بالعبادة أي بفرض العبادة أي خلقتهم وفرضت عليهم العبادة والذي يدل على عدم جواز التعليل الحقيقي هو ان الله تعالى مستغن عن المنافع فلا يكون فعله لمنفعة راجعة اليه ولا الى غيره لان الله تعالى قادر على ايصال المنفعة الى الغير من غير واسطة العمل فيكون توسط ذلك لا ليكون علة واذا لزم القول بأن الله تعالى يفعل فعلا هو لتوسط لا لعلة لزمهم المسئلة وأما النصوص فاكثر من أن تعد وهي على أنواع منها مايدل على ان الاضلال بفعل الله كقوله تعالى يضل من يشاء وأمثاله ومنها مايدل على ان الاشياء

خلقهم لعبادته تعالى خلقهم مستعدين لها ومتمكنين منها أتم استعداد وأكمل تمكن مع كونها مطلوبة منهم بتنزيل ترتب الغاية على ماهي ثمرة له منزلة ترتب الغرض على ماهو غرض له فان استتباع أفعاله تعالى لغايات جليلة مما لانزاع فيه قطعا كيف لا وهي رحمة منه تعالى وتفضل على عباده وانما الذي لايليق بجنابه عز وجل تعليلها بالغرض بمعنى الباعث على الفعل بحيث لولاه لم يفعله لافضائه الى استكماله بفعله وهو الكامل بالفعل من كل وجه وأما بمعنى نهاية كمالية يفضي اليها فعل الفاعل الحق فغير منفي من أفعاله تعالى بل كلها جارية على ذلك المنهاج وعلى هذا الاعتبار يدور وصفه تعالى بالحكمة ويكفي في تحقق معنى

كلها بخلق الله كقوله تعالى خالق كل شئ ومنها الصرايح التي تدل على عدم ذلك كقوله تعالى لايسئل عما يفعل وقوله تعالى يفعل الله مايشاء ويحكم مايريد والاستقصاء مفوض فيه الى المتكلم الاصولى لا الى المفسر (المسئلة الرابعة) قال تعالى ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا وقال ليعبدون فهل بينهما اختلاف نقول ليس كذلك فان الله تعالى علل جعلهم شعوبا بالتعارف وههنا علل خلقهم بالعبادة وقوله هنالك ان أكرمكم عند الله أتقاكم دليل على ماذكره ههنا وموافق له لانه اذا كان اتقى كان اعبد وأخلص عملا فتكون المطلوب منه أتم في الوجود فيكون أكرم وأعز كالشئ الذى منفعته فائدة وبعض افراده يكون أنفع في تلك الفائدة مثاله الماء اذا كان مخلوقا للتطهير والشرب فالصافى منه أكثر فائدة في تلك المنفعة فيكون أشرف من ماء آخر فكذلك العبد الذى وجد فيه ماهو المطلوب منه على وجه أبلغ (المسئلة الخامسة) ما العبادة التى خلق الجن والانس لها قلنا التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله فان هذين النوعين لم يخل شرع منهما وأما خصوص العبادات فالشرائع مختلفة فيها بالوضع والهيئة والقلة والكثرة والزمان والمكان والشرائط والاركان ولما كان التعظيم اللائق بذى الجلال والاكرام لايعلم عقلا لزم اتباع الشرائع فيها والاخذ بقول الرسل عليهم السلام فقد أنعم الله على عباده بارسال الرسل وايضاح السبل في نوعى العبادة وقيل ان معناه ليعرفونى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عز وجل كنت كنزا مخفيا فأردت ان أعرف * ثم قال تعالى (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) وفيه جواب سؤال وهو ان الخلق للغرض ينبئ عن الحاجة فقال ماخلقتهم ليطعمون والنفع فيه لهم لا لى وذلك لان منفعة العبد في حق السيد أن يكتسب له اما بتحصيل المال له أو بحفظ المال عليه وذلك لان العبد ان كان للكسب فغرض التحصيل فيه ظاهر وان كان الشغل فلولا العبد لاحتاج السيد الى استئجار من يفعل الشغل له فيحتاج الى اخراج مال والعبد يحفظ ماله عليه ويغنيه عن الاخراج فهو نوع كسب فقال تعالى ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون أى لست كالسادة في طلب العبادة بل هم الرابحون في عبادتهم وفيه وجه آخر وهو ان يقال هذا تقرير لكونهم مخلوقين للعبادة وذلك لان الفعل في العرف لابد له من منفعة لكن العبيد على قسمين قسم منهم يكون للعظمة والجمال كمماليك الملوك يطعمهم الملك ويسقيهم ويعطيهم الاطراف من البلاد ويؤتيهم الطراف بعد التلاد والمراد منهم التعظيم والمثول بين يديه ووضع اليمين على الشمال لديه وقسم منهم للانتفاع بهم في تحصيل الارزاق أو لاصلاحها فقال تعالى انى خلقتهم فلابد فيهم من منفعة فليتفكروا في أنفسهم هل هم من قبيل أن يطلب منهم تحصيل رزق وليسوا كذلك فما أريد منهم من رزق أو هل هم ممن يطلب منهم اصلاح قوت كالطباخ والخوانى الذى يقرب الطعام وليسوا كذلك فما أريد أن يطعمون

التعليل على ما يقوله الفقهاء ويتعارفه أهل اللغة هذا المقدار وبه يتحقق مدلول اللام وأما ارادة الفاعل لها فليست من مقتضيات اللام حتى يلزم من عدم صدور العبادة عن البعض تخلف المراد عن الارادة فان تعوق البعض عن الوصول الى الغاية مع تعاضد المبادى وتآخذ المقدمات الموصلة اليها لايمنع كونها غاية كما في قوله تعالى كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور ونظائره وقيل المعنى الا ليؤمروا بعبادتى كما في قوله تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا وقيل المراد سعداء الجنسين كما أن المراد بقوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس اشقياؤهما ويعضده قراءة من قرأ وماخلقت الجن

فاذن هم عبيد من القسم الاول فينبغي ان لا يتركوا التعظيم وفيه لطائف نذكرها في مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة في تكرار الارادتين ومن لا يريد من أحد رزقا لا يريد أن يطعمه نقول هو لما ذكرناه من قبل وهو ان السيد قد يطلب من العبد الكسب له وهو طلب الرزق منه وقد يكون للسيد مال وافر يستغني عن الكسب لكنه يطلب منه قضاء حوائجه بماله من المال واحضار الطعام بين يديه من ماله فالسيد قال لا أريد ذلك ولا هذا (المسئلة الثانية) لم قدم طلب الرزق على طلب الاطعام نقول ذلك من باب الارتقاء كقول القائل لا أطلب منك الاعانة ولا من هو أقوى ولا يعكس ويقال فلان يكرمه الامراء بل السلاطين ولا يعكس فقال ههنا لا أطلب منكم رزقا ولا ما هو دون ذلك وهو تقديم طعام بين يدي السيد فان ذلك امر كثير الطلب من العباد وان كان الكسب لا يطلب منهم (المسئلة الثالثة) لو قال ما أريد منهم أن يرزقون وما أريد منهم من طعام هل تحصل هذه الفائدة نقول على ما ذكرنا لا وذلك لان بالكسب يطلب الغنى لا الفعل فان من اشتغل بشغل ولم يحصل له غنى لا يكون كمن حصل له غنى وان لم يشتغل كالعبد المتكسب اذا ترك الشغل لحاجته ووجد مطلبا يرضى منه السيد اذا كان شغله التكسب وأما من يراد منه الفعل لذات الفعل كالجائع اذا بعث عبده لاحضار الطعام فاشتغل باخذ المال من مطلب فربما لا يرضى به السيد فالمقصود من الرزق الغنى فلم يقل بلفظ الفعل والمقصود من الاطعام الفعل نفسه فذكر بلفظ الفعل ولم يقل وما أريد منهم من طعام هذا مع ما في اللفظين من الفصاحة والجزالة للتنويع (المسئلة الرابعة) اذا كان المعنى به ما ذكرت فما فائدة الاطعام وتخصيصه بالذكر مع ان المقصود عدم طلب فعل منهم غير التعظيم نقول لما عمم في المطلب الاول اكتفى بقوله من رزق فانه يفيد العموم واشار الى التعظيم فذكر الاطعام وذلك لان أدنى درجات الافعال ان يستعين السيد بعبده أو جاريته في تهيئة أمر الطعام ونفي الادنى يستتبعه نفي الاعلى بطريق الاولى فصار كأنه قال تعالى ما أريد منهم من عين ولا عمل (المسئلة الخامسة) على ما ذكرت لا تنحصر المطالب فيما ذكر لان السيد قد يشتري العبد لا لطلب عمل منه ولا لطلب رزق ولا للتعظيم بل يشتريه للتجارة والربح فيه نقول عموم قوله ما أريد منهم من رزق يتناول ذلك فان من اشترى عبدا ليتجر فيه فقد طلب منه رزقا (المسئلة السادسة) ما أريد في العربية يفيد النفي في الحال والتخصيص بالذكر يوهم نفي ما عدا المذكور لكن الله تعالى لا يريد منهم رزقا لا في الحال ولا في الاستقبال فلم لم يقل لا أريد منهم من رزق ولا أريد نقول ما للنفي في الحال ولا للنفي في الاستقبال فالقائل اذا قال فلان لا يفعل هذا الفعل وهو في الفعل لا يصدق لكنه اذا ترك مع فراغه من قوله يصدق القائل ولو قال ما يفعل لما صدق فيما ذكرنا من الصورة مثاله اذا كان الانسان في الصلاة وقال قائل انه ما يصلي فانظر اليه فاذا كان نظر اليه الناظر وقد قطع صلاة نفسه صح أن يقول انا قلت انك لا تصلي ولو قال القائل انه ما يصلي في تلك الحالة

والانس من المؤمنين وقال مجاهد واختاره البغوي معناه الا ليعرفون ومداره قوله صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن رب العزة كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف ولعل السر في التعبير عن المعرفة بالعبادة على طريق اطلاق اسم السبب على المسبب التنبيه على أن المعتبر هي المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) بيان لكون شانه تعالى مع عباده متعاليا عن أن يكون كشأن السادة مع عبيدهم حيث يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وتهيئة أرزاقهم أي ما أريد أن أصرفهم في تحصيل رزقي ولا رزقهم بل أتفضل عليهم برزقهم وبما يصلحهم ويعيشهم من عندي فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي

لماصدق فاذا علمت هذا فكل واحد من اللفظين للنافية فيه خصوص لكن النفي في الحال أولى لان المراد من الحال الدنيا والاستقبال هو في امر الآخرة فالدنيا وأمورها كلها حالية فقوله ما أريد أي في هذه الحالة الراهنة التي هي ساعة الدنيا ومن المعلوم ان العبد بعد موته لا يصلح ان يطلب منه رزق او عمل فكان قوله ما اريد مفيدا للنفي العام ولو قال لا أريد لما أفاد ذلك * ثم قال تعالى (ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) تعليلا لما تقدم من الامرين فقوله هو الرزاق تعليل لعدم طلب الرزق وقوله تعالى ذو القوة تعليل لعدم طلب العمل لان من يطلب رزقا يكون فقيرا محتاجا ومن يطلب عملا من غيره يكون عاجزا لاقوة له فصار كأنه يقول ما أريد منهم من رزق فاني أنا الرزاق ولا عمل فاني قوي وفيه مباحث (الاول) قال ما أريد ولم يقل اني رزاق بل قال على الحكاية عن الغائب ان الله فالحكمة فيه نقول قد روي ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ اني أنا الرزاق على ما ذكرت وأما القراءة المشهورة ففيها وجوه (الاول) ان يكون المعنى قل يا محمد ان الله هو الرزاق (الثاني) ان يكون ذلك من باب الالتفات والرجوع من التكلم عن النفس الى التكلم عن الغائب وفيه ههنا فائدة وهي ان اسم الله يفيد كونه رزاقا وذلك لان الاله بمعنى المعبود كما قلنا مرارا وتمسكنا بقوله تعالى ويذرك وآلهتك أي معبوديك واذا كان الله هو المعبود ورزق العبد استعماله في غير الكسب اذ رزقه على السيد وههنا لما قال ما خلقت الجن والانس الا ليعبدون فقد بين انه استخلصهم لنفسه وعبادته وكان عليه رزقهم فقال تعالى ان الله هو الرزاق بلفظ الله الدال على كونه رازقا ولو قال اني أنا الرزاق لحصلت المناسبة التي ذكرت ولكن لا يحصل ما ذكرنا (الثالث) ان يكون قل مضمرا عند قوله تعالى ما أريد منهم تقديره قل يا محمد ما أريد منهم من رزق فيكون بمعنى قوله قل ما أسئلكم عليه من أجر ويكون على هذا قوله تعالى ان الله هو الرزاق من قول النبي صلى الله عليه وسلم ولم يقل القوي بل قال ذو القوة وذلك لان المقصود تقرير ما تقدم من عدم ارادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير لكن في عدم طلب الرزق لا يكفي كون المستغني بحيث يرزق واحدا فان كثيرا من الناس يرزق ولده وغيره ويسترزق والملك يرزق الجند ويسترزق فاذا كثر منه الرزق قل منه الطلب لان المسترزق من يكثر الرزق لا يسترزق من رزقه فلم يكن ذلك المقصود يحصل له الا بالمبالغة في وصف الرزق فقال الرزاق وأما ما يغني عن الاستعانة بالغير فدون ذلك وذلك لان القوي اذا كان في غاية القوة يعين الغير فاذا كان دون ذلك لا يعين غيره ولا يستعين به واذا كان دون ذلك يستعين استعانة ما وتتفاوت بعد ذلك ولما قال وما أريد أن يطعمون كفاه بيان نفس القوة فقال ذو القوة في افادة معنى القوي دون القوي لانه لا يقال في الوصف اللازم البين فيقال في الآدمي ذو مال ومتمول وذو جمال وجميل وذو خلق حسن وخليق الى غير ذلك مما لا يلزمه لزوما بينا ولا يقال في الثلاثة ذات فردية ولا في الاربعة ذات زوجية ولهذا

(ان الله هو الرزاق) الذي يرزق كل ما يفتقر الى الرزق وفيه تلويح بانه غني عنه وقرئ اني أنا الرزاق (ذو القوة المتين) بالرفع على أنه نعت للرزاق أو لله أو خبر بعد خبر أو خبر لمضمر وقرئ بالجر على أنه وصف للقوة على تأويل الاقتدار أو الايد

(فان للذين ظلموا) أى ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو وضعوا مكان التصديق تكذيبا وهم أهل مكة (ذنوبا) أى نصيبا وافرا من العذاب (مثل ذنوب أصحابهم) مثل أنصباء نظرائهم من الامم المحكية وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب وهو الدلو العظيم المملوءة (فلا يستعجلون) أى لا يطلبوا منى أن أعجل فى المجىء به يقال استعجله أى حثه على العجلة وأمره بها ويقال استعجله أى طلب وقوعه بالعجلة ومنه قوله تعالى أتى أمر الله فلا تستعجلوه وهو جواب لقولهم متى هذا الوعد ان كنتم صادقين (فويل للذين كفروا) وضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بما فى حيز الصلة من الكفر واشعارا بعلة الحكم والفاء لترتيب ثبوت الويل لهم على أن لهم عذابا عظيما كما أن الفاء الاولى لترتيب النهى عن الاستعجال على ذلك ومن فى قوله تعالى (من يومهم الذى يوعدون) للتعليل أى يوعدونه من يوم بدر وقيل يوم القيامة وهو الانسب بما فى صدر السورة الكريمة الآتية والاول هو الاوفق لما قبله من حيث انهما من العذاب الدنيوى * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ والذاريات أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت فى الدنيا ﴿ فى ﴾

لم يرد فى الاوصاف الحقيقية التى ليست مأخوذة من الافعال ولذا لم يسم ذو الوجود ولا ذو الحياة ولا ذو العلم ويقال فى الانسان ذو علم وذو حياة لانها عرض فيه عارض لا لازم بين وفى صفات الفعل يقال الله تعالى ذو الفضل كثيرا وذو الخلق قليلا لان ذا كذا بمعنى صاحبه وربه والصحبة لا يفهم منها اللزوم فضلا عن اللزوم البين والذى يؤيد هذا هو انه تعالى قال وفوق كل ذى علم عليم فجعل غيره ذا علم ووصف نفسه بالفعل فبين ذى العلم والعليم فرق وكذلك بين ذى القوة والقوى ويؤيده أيضا انه تعالى قال فاخذهم الله انه قوى شديد العقاب وقال تعالى الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز وقال تعالى لأغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز لان فى هذه الصور كان المراد بيان القيام بالافعال العظيمة والمراد ههنا عدم الاحتياج ومن لا يحتاج الى الغير يكفيه من القوة قدر ما ومن يقوم مستبدا بالفعل لا بد له من قوة عظيمة لان عدم الحاجة قد يكون بترك الفعل والاستغناء عنه ولو بين هذا البحث فى معرض الجواب عن سؤال سائل عن الفرق بين قوله ذو القوة ههنا وبين قوله قوى فى تلك المواضع لكان أحسن * فان قيل فقد قال تعالى ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز وفيه ما ذكرت من المعنى وذلك قوله قوى لبيان انه غير محتاج الى النصرة وانما يريد ان يعلم ليثيب الناصر لكن عدم الاحتياج الى النصرة يكفى فيه قوة ما فلم يقل ان الله ذو القوة نقول فيه انه تعالى قال من ينصره ورسله ومعناه انه يغنى رسله عن الحاجة ولا يطلب نصرتهم من خلقه لعجزهم وانما يطلبها لثواب الناصرين لا لاحتياج المستنصرين والا فالله تعالى وعدهم بالنصرة حيث قال ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون ولما ذكر الرسل قال قوى ليكون ذلك تقوية لقلوب رسله والمؤمنين وتسلية لصدورهم وصدور المؤمنين (البحث الثانى) قال المتين وذلك لان ذو القوة كما بينا لا يدل الا على ان له قوة ما فزاد فى الوصف بيانا وهو الذى له ثبات لا يتزلزل وهو مع المتين من باب واحد لفظا ومعنى فان متن الشئ هو أصله الذى عليه ثباته والمتن هو الظهر الذى عليه أساس البدن والمتانة مع القوة كالعزة مع القوة حيث ذكر الله تعالى فى مواضع ذكر القوة العزة فقال قوى عزيز وقال القوى العزيز وفيه لطيفة تؤيد ما ذكرنا من البحث فى القوى وذى القوة وذلك لان المتين هو الثابت الذى لا يتزلزل والعزيز هو الغالب فنى المتين انه لا يغلب ولا يقهر ولا يهزم وفى العزيز انه يغلب ويقهر ويزل الاقدام والعزة أكمل من المتانة كما ان القوى أبلغ من ذى القوة فقرن الاكمل بالاكمل وما دونه بما دونه ولو نظرت حق النظر وتأملت حق التأمل لرأيت فى كتاب الله تعالى لطائف تذهلك على عناد المنكرين وقبح انكار المعاندين * ثم قال تعالى (فان للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) وهو مناسب لما قبله وذلك لانه تعالى بين ان من يضع نفسه فى موضع عبادة غير الله يكون وضع الشئ

في غير موضعه فيكون ظالما وقال اذا ثبت ان الانس مخلوق للعبادة فان الذين ظلموا بعبادة لغيرا لهم هلاك مثل هلاك من تقدم وذلك لان الشئ اذا خرج عن الانتفاع المطلوب منه لا يحفظ وان كان موضع يخلى المكان عنه ألا ترى ان الدابة التي لا يبقى منتفعا بها بالموت أو بمرض يخلى عنها الاصطبل والطعام الذي يتعفن يبدد ويفرغ منه الاناء فكذلك الكافر اذا ظلم ووضع نفسه في غير موضعه خرج عن الانتفاع فحسن اخلاء المكان عنه وحق نزول الهلاك به * وفي التفسير مسائل (المسئلة الاولى) فيما يتعلق به الفاء وقد ذكرنا ذلك في وجه التعلق (المسئلة الثانية) ما مناسبة الذنوب نقول العذاب مصبوب عليهم كأنه قال تعالى نصب من فوق رؤسهم ذنوبا كذنوب صب فوق رؤس أولئك ووجه آخر وهو ان العرب يستقون من الآبار على النوبة ذنوبا فذنوبا وذلك وقت عيشهم الطيب فكأنه تعالى قال فان الذين ظلموا من الدنيا وطيباتها ذنوبا أي ملأه ولا يكون لهم في الآخرة من نصيب كما كان عليه حال أصحابهم استقوا ذنوبا وتركوها وعلى هذا فالذنوب ليس بعذاب ولا هلاك وانما هو رغد العيش وهو أليق بالعربية وقوله تعالى فلا يستعجلون فان الرزق مالم يفرغ لا يأتي الاجل ثم اعاد ما ذكر في أول السورة فقال فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

(سورة الطور أربعون وتسع آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والطور وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور) هذه السورة مناسبة للسورة المتقدمة من حيث الافتتاح بالقسم وبيان الحشر فيهما وأول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها لان في آخرها قوله تعالى فويل للذين كفروا وهذه السورة في أولها فويل يومئذ للمكذبين وفي آخر تلك السورة قال فان للذين ظلموا ذنوبا اشارة الى العذاب وقال هنا ان عذاب ربك لواقع وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الطور وما الكتاب المسطور نقول فيه وجوه (الاول) الطور هو جبل معروف كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه (الثاني) هو الجبل الذي قال الله تعالى وطور سينين (الثالث) هو اسم الجنس والمراد القسم بالجبل غير ان الطور الجبل العظيم كالطود وأما الكتاب ففيه أيضا وجوه (أحدها) كتاب موسى عليه السلام (ثانيها) الكتاب الذي في السماء (ثالثها) صحائف أعمال الخلق (رابعها) القرآن وكيفما كان فهي في رقوق وسنبين فائدة قوله تعالى في رق منشور وأما البيت المعمور ففيه وجوه (الاول) هو بيت في السماء العليا عند العرش ووصفه بالعمارة لكثرة الطائفين به من الملائكة (الثاني) هو بيت الله الحرام وهو معمور بالحاج الطائفين به

☼(سورة الطور مكية وآيها تسع وأربعون آية)☼

☼(بسم الله الرحمن الرحيم)* (والطور) الطور بالسريانية الجبل والمراد به طور سينين وهو جبل بمدين سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله تعالى (وكتاب مسطور) مكتوب على وجه الانتظام فان السطر ترتيب الحروف المكتوبة والمراد القرآن أو ألواح موسى عليه السلام وهو الانسب بالطور أو ما يكتب في اللوح أو ما يكتبه الحفظة (في رق منشور) الرق الجلد الذي يكتب فيه استعير لما يكتب فيه الكتاب من الصحيفة وتنكيرهما للتفخيم أو للاشعار بأنهما ليسا مما يتعارفه الناس

العاكفين (الثالث) البيت المعمور اللام فيه لتعريف الجنس كأنه يقسم بالبيوت المعمورة والعمائر المشهورة والسقف المرفوع السماء والبحر المسجور قيل الموقد نارا يقال سجرت التنور وقيل هو البحر المملوء ماء المتموج وقيل هو بحر معروف في السماء يسمى بحر الحيوان (المسئلة الثانية) ما الحكمة في اختيار هذه الاشياء نقول هي تحتمل وجوها (أحدها) ان الاماكن الثلاثة وهي الطور والبيت المعمور والبحر المسجور أماكن كانت الثلاثة أنبياء ينفردون فيها للخلوة بربهم والخلاص من الخلق والخطاب مع الله أما الطور فانتقل اليه موسى عليه السلام والبيت المعمور محمد صلى الله عليه وسلم والبحر المسجور يونس عليه السلام والكل خاطبوا الله هناك فقال موسى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء وقال أرني أنظر اليك وأما محمد صلى الله عليه وسلم فقال سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وأما يونس فقال لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين فصارت الاماكن شريفة بهذه الاسباب فحلف الله تعالى بها وأما ذكر الكتاب فان الانبياء كان لهم في هذه الاماكن مع الله تعالى كلام والكلام في الكتاب واقترانه بالطور أدل على ذلك لان موسى عليه السلام كان له مكتوب ينزل عليه وهو بالطور وأما ذكر السقف المرفوع ومعه البيت المعمور ليعلم عظمة شأن محمد صلى الله عليه وسلم (ثانيها) وهو ان القسم لما كان على وقوع العذاب وعلى انه لا دافع له وذلك لانه لا مهرب من عذاب الله لان من يريد دفع العذاب عن نفسه في بعض الاوقات يتحصن بمثل الجبال الشاهقة التي ليس لها طرف وهي متضايقة بين انه لا ينفع التحصن بها من أمر الله تعالى كما قال ابن نوح عليه السلام سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم حكاية عن نوح عليه السلام (المسئلة الثالثة) ما الحكمة في تنكير الكتاب وتعريف باقي الاشياء نقول ما يحتمل الخفاء من الامور الملتبسة بأمثالها من الاجناس يعرف باللام فيقال رأيت الامير ودخلت على الوزير فاذا بلغ الامير الشهرة بحيث يؤمن الالتباس مع شهرته ويريد الواصف وصفه بالعظمة يقول اليوم رأيت أميرا ماله نظير جالسا وعليه سيماء الملوك وأنت تريد ذلك الامير المعلوم والسبب فيه انك بالتنكير تشير الى أنه خرج عن أن يعلم ويعرف بكنه عظمته فيكون كقوله تعالى الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة فاللام وان كانت معرفة لكن أخرجها عن المعرفة كون شدة هولها غير معروف فكذلك ههنا الطور ليس في الشهرة بحيث يؤمن اللبس عند التنكير وكذلك البيت المعمور وأما الكتاب الكريم فقد تميز عن سائر الكتب بحيث لا يسبق الى افهام السامعين من النبي صلى الله عليه وسلم لفظ الكتاب الا ذلك فلما أمن اللبس وحصلت فائدة التعريف سواء ذكر باللام أو لم يذكر قصد الفائدة الاخرى وهي في الذكر بالتنكير وفي تلك الاشياء لما لم تحصل فائدة التعريف الا بآلة التعريف استعملها وهذا يؤيد كون

(والبيت المعمور) أي الكعبة وعمارتها بالحجاج والعمار والمجاورين أو الضراح وهو في السماء الرابعة وعمرانه كثرة غاشيته من الملائكة (والسقف المرفوع) أي السماء ولا يخفى حسن موقع العنوان المذكور (والبحر المسجور) اي المملوء وهو البحر المحيط أو الموقد من قوله تعالى واذا البحار سجرت فالمراد به الجنس روي أن الله تعالى يجعل البحار يوم القيامة نارا يسجر بها نار جهنم

المراد منه القرآن وكذلك اللوح المحفوظ مشهور (المسئلة الرابعة) ما الفائدة فى قوله تعالى فى رق منشور وعظمة الكتاب بلفظه ومعناه لا بخطه ورقه نقول هو اشارة الى الوضوح وذلك لان الكتاب المطوى لا يعلم ما فيه فقال هو فى رق منشور ليس كالكتب المطوية وعلى هذا المراد اللوح المحفوظ فمعناه هو منشور لكم لا يمنعكم أحد من مطالعته وان قلنا بأن المراد كتاب اعمال كل أحد فالتنكير لعدم المعرفة بعينه وفى رق منشور لبيان وصفه كما قال تعالى كتابا يلقاه منشورا وذلك لان غير المعروف اذا وصف كان الى المعرفة أقرب شبها (المسئلة الخامسة) فى بعض السور أقسم بجموع كما فى قوله تعالى والذاريات وقوله والمرسلات وقوله والنازعات وفى بعضها بأفراد كما فى هذه السورة حيث قال والطور ولم يقل والاطوار والبحار ولاسيما اذا قلنا المراد من الطور الجبل العظيم كالطود كما فى قوله تعالى ورفعنا فوقهم الطور أى الجبل فالحكمة فيه نقول فى الجموع فى أكثرها أقسم بالمتحركات والريح الواحدة ليست بثابتة مستمرة حتى يقع القسم بها بل هى متبدلة بافرادها مستمرة بانواعها والمقصود منها لا يحصل الا بالتبدل والتغير فقال والذاريات اشارة الى النوع المستمر لا الى الفرد المعين المستقر واما الجبل فهو ثابت قليل التغير والواحد من الجبال دائم زمانا ودهرا فاقسم فى ذلك بالواحد وكذلك قوله والنجم والريح ماعلم القسم به وفى الطور علم ❊ ثم قال تعالى (ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع) اشارة الى المقسم عليه وفيه مباحث (الاول) فى حرف ان وفيه مقامات (الاول) هى تنصب الاسم وترفع الخبر والسبب فيه هو انها شبهت بالفعل من حيث اللفظ والمعنى اما اللفظ فلكون الفتح لازما فيها واختصاصها بالدخول على الاسماء والمنصوب منها على وزن ان أينا واما المعنى فنقول اعلم ان الجملة الاثباتية قبل الجملة الانتفائية ولهذا استغنوا عن حرف يدل على الاثبات فاذا قالوا زيد منطلق فهم منه ارادة اثبات الانطلاق لزيد والانتفائية لما كانت بعد المثبتة زيد فيها حرف يغيرها عن الاصل وهو الاثبات فقيل ليس زيد منطلقا فصار ليس زيد منطلقا بعد قول القائل زيد منطلق ثم ان قول القائل ان زيدا منطلق مستنبط من قوله ليس زيد منطلقا كأن الواضع لما وضع أولا زيد منطلق للاثبات وعند النفى يحتاج الى ما يغيره أتى بلفظ مغير وهو فعل من وجه لانك قد تبقى مكانه ما النافية ولهذا قيل لست وليسوا فالحق به ضمير الفاعل ولولا انه فعل لما جاز ذلك ثم أراد أن يضع فى مقابلة ليس زيد منطلقا جملة اثباتية فيها لفظ الاثبات كما كان فى النافية لفظ النفى فقال ان ولم يقصد أن ان فعل لان ليس يشبه بالفعل لما فيه من معنى الفعل وهو التغيير فانها غيرت الجملة عن أصلها الذى هو الاثبات وأما ان فلم تغير فالجملة على ما كانت عليه اثباتية فصارت مشبهة بالمشبهة بالفعل وهى ليس وهذا ما يقوله النحويون فى ان وأن وكأن وليت ولعل انها حروف مشبهة بالافعال اذا علمت هذا فنقول كما ان ليس لها اسم كالفاعل وخبر كالمفعول نقول ليس زيد لئيما بالرفع والنصب كما تقول بات زيد كريما

(ان عذاب ربك لواقع) أى لنازل حتما جواب للقسم وقوله تعالى (ماله من دافع) اما خبر ثان لان او صفة لواقع ومن دافع اما مبتدأ للظرف أو مرتفع به على الفاعلية ومن مزيدة للتأكيد وتخصيص هذه الامور بالاقسام بها لما أنها أمور عظام تنبئ عن عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته الدالة على احاطته تعالى بتفاصيل أعمال العباد وضبطها الشاهدة بصدق اخباره التى من جملتها الجملة المقسم عليها وقوله تعالى

(يوم تمور السماء مورا) ظرف لواقع مبين لكيفية الوقوع منبئ عن كمال هوله وفظاعته والمور الاضطراب والتردد في المجئ والذهاب وقيل هو تحرك في تموج قيل تدور السماء كما تدور الرحا وتتكفأ بأهلها تكفؤ السفينة وقيل تختلف أجزاؤها (وتسير الجبال سيرا) أي تزول عن وجه الارض فتصير هباء وتأكيد الفعلين بمصدريهما للايذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة اي مورا عجيبا وسيرا بديعا لايدرك كنههما (فويل يومئذ للمكذبين) اي اذا وقع ذلك أو اذا كان الامر كما ذكر فويل يوم اذ يقع ذلك لهم (الذين هم في خوض) أي اندفاع عجيب في الاباطيل والاكاذيب (يلعبون) يلهون

فكذلك ان لها اسم وخبر لكن اسمها يخالف اسم ليس وخبرها خبرها فان اسم ان منصوب وخبرها مرفوع لان ان لما كانت زيادة على خلاف الاصل لانها لا تفيد الا الاثبات الذي كان مستفادا من غير حرف وليس لما كانت زيادة على الاصل لانها تغير الاصل ولولاها لما حصل المقصود جعل المرفوع والمنصوب في ليس على الاصل لان الاصل تقديم الفاعل وفي ان جعل ذلك على خلاف الاصل وقدم المشبه بالمفعول على المشبه بالفاعل تقديما لازما فلا يجوز أن يقال ان منطلق زيدا وهو في ليس منطلقا زيد جائز كما في الفعل لانها فعل (المقام الثاني) هي لم تكسر تارة وتفتح أخرى نقول الاصل في الكسرة والفتحة لعارض وان كان هذا في الظاهر يخالف قول النحاة لكن في الحقيقة هي كذلك (المقام الثالث) لم تدخل اللام على خبر ان المكسورة دون المفتوحة قلنا قد خرج مما سبق ان قول القائل زيد منطلق أصل لان المثبتات هي المحتاجة الى الاخبار عنها فان التغير في ذلك وأما العدميات فعلى أصولها مستمرة ولهذا يقال الاصل في الاشياء البقاء ثم ان السامع له قد يحتاج الى الرد عليه فيقول ليس زيد منطلقا فيقول هو ان زيدا منطلق فيقول هو ردا عليه ليس زيد بمنطلق فيقول ردا عليه ان زيدا لمنطلق وأن ليست في مقابلة ليس وانما هي متفرعة عن المكسورة (المبحث الثاني) قوله تعالى عذاب ربك فيه لطيفة عزيزة وهي انه تعالى لو قال ان عذاب الله لواقع والله اسم منبئ عن العظمة والهيبة كان يخاف المؤمن بل النبي صلى الله عليه وسلم من ان يلحقه ذلك لكونه تعالى مستغنيا عن العالم بأسره فضلا عن واحد فيه فأمنه بقوله ربك فانه حين يسمع لفظ الرب يأمن (المبحث الثالث) قوله لواقع فيه اشارة الى الشدة فان الواقع والوقوع من باب واحد فالواقع أدل على الشدة من الكائن ❊ ثم قال تعالى ماله من دافع والبحث فيه قد تقدم في قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد وقد ذكرنا ان قوله والطور والبيت المعمور والبحر المسجور فيه دلالة على عدم الدافع فان من يدفع عن نفسه عذابا قد يدفع بالتحصن بقلل الجبال ولجج البحار ولا ينفع ذلك بل الوصول الى السقف المرفوع ودخول البيت المعمور لا يدفع ❊ ثم قال تعالى (يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الناصب اليوم نقول المشهور ان ذلك هو الفعل الذي يدل عليه واقع أي يقع العذاب يوم تمور السماء مورا والذي أظنه انه هو الفعل المدلول عليه بقوله ماله من دافع وانما قلت ذلك لان العذاب الواقع على هذا ينبغي أن يقع في ذلك اليوم لكن العذاب الذي به التخويف هو الذي بعد الحشر ومور السماء قبل الحشر واما اذا قلنا معناه ليس له دافع يوم تمور فيكون في معنى قوله فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا كأنه تعالى يقول ماله من دافع في ذلك اليوم وهو ما اذا صارت السماء تمور في اعينكم والجبال تسير وتحققون ان الامر لا ينفع شيئا ولا يدفع (المسئلة الثانية) ما مور السماء نقول خروجها عن مكانها تتردد وتموج والذي تقوله الفلاسفة قد علمت ضعفه مرارا وقوله

تعالى وتسير الجبال سيرا يدل على خلاف قولهم وذلك لانهم وافقوا على ان خروج الجبل العظيم عن مكانه جائز وكيف لا وهم يقولون بأن زلزلة الارض مع ما فيها من الجبال ببخار يجتمع تحت الارض فيحركها واذا كان كذلك فنقول السماء قابلة للحركة باخراجها خارجة عن السمتيات والجبل ساكن يقتضي طبعه السكون واذا قيل جسم الحركة مع اتيانها على خلاف طبعه فلا يقبلها جرم آخر مع اتيانها على موافقته أولى وقولهم القابل للحركة المستديرة لا يقبل الحركة المستقيمة في غاية الضعف وقوله مورا يفيد فائدة جليلة وهي ان قوله تعالى وتسير الجبال يحتمل ان يكون بيانا لكيفية مور السماء وذلك لان الجبال اذا سارت وسيرت معها سكانها يظهر أن السماء كالسائرة الى خلاف تلك الجهة كما يشاهده راكب السفينة فانه يرى الجبل الساكن متحركا فكان لقائل ان يقول السماء تمور في رأى العين بسبب سير الجبال كما يرى القمر سائرا راكب السفينة والسماء اذا مارت كذلك فلا يبقى مهرب ولا مفزع لا في السماء ولا في الارض (المسئلة الثالثة) ما السبب في مورها وسيرها قلنا قدرة الله تعالى وأما الحكمة فالايذان والاعلام بان لا عود الى الدنيا وذلك لان الارض والجبال والسماء والنجوم كلها لعمارة الدنيا والانتفاع لبني آدم بها فان لم يتفق لهم عود لم يبق فيها نفع فاعدمها الله تعالى (المسئلة الرابعة) لو قال قائل كنت وعدت ببحث في الزمان يستفيد العاقل منه فوائد في اللفظ والمعنى وهذا موضعه فان الفعل لا يضاف الى شيء غير الزمان فيقال يوم يخرج فلان حين يدخل فلان وقال الله تعالى يوم ينفع الصادقين وقال يوم تمور السماء وقال يوم خلق السموات والارض وكذلك يضاف الى [illegible] الجملة فالسبب في ذلك فنقول الزمان ظرف الافعال كما ان المكان ظرف الاعيان وكما ان [illegible] جوهرا من الجواهر لا يوجد الا في مكان فكذلك عرض من [illegible] الاعراض لا يتجدد الا في زمان وفيهما تحير خلق عظيم فقالوا ان كان المكان جوهرا فله مكان [illegible] ويتسلسل الامر وان كان عرضا فالعرض لا بد له من جوهر والجوهر لا بد له من مكان [illegible] الامر أو يتسلسل وان لم يكن جوهرا ولا عرضا فالجوهر يكون حاصلا فيما لا وجود [illegible] الاشارة اليه وليس كذلك وقالوا في الزمان ان كان الزمان غير متجدد فيكون كالامور المستمرة فلا يثبت فيه المضي والاستقبال وان كان متجددا وكل متجدد فهو في زمان فللزمان زمان آخر فيتسلسل الامر ثم ان الفلاسفة التزموا التسلسل في الازمنة ووقعوا بسبب هذا في القول بقدم العالم ولم يلتزموا التسلسل في الامكنة وفرقوا بينهما من غير فارق وقوم التزموا التسلسل فيهما جميعا وقالوا بالقدم وأزمان لا نهاية لها وبالامتداد وأبعاد لا نهاية لها وهم وان خالفونا في المسئلتين جميعا والفلاسفة وافقونا في احداهما دون الاخرى لكنهم سلكوا جادة الوهم ولم يتركوا على أنفسهم سبيل الالتزام في الازمان فان قيل فالمتجدد الاول قبله ماذا نقول ليس قبله شيء فان قيل فعدمه قبله أو قبله عدمه نقول قولنا ليس قبله شيء أعم من قولك قبله عدمه لانا اذا قلنا ليس قبل

آدم حيوان بألف رأس صدقنا ولا يستلزم ذلك صدق قولنا آدم قبل حيوان بألف رأس أو حيوان بألف رأس بعد آدم لانتفاء ذلك الحيوان أولا وآخرا وعدم دخوله في الوجود ازلا وأبدا فكذلك ما قلنا فان قيل هذا لا يصح لان الله تعالى شيء موجود وهو قبل العالم نقول قولنا ليس قبل المتجدد الاول شيء معناه ليس قبله شيء بالزمان واما الله تعالى فليس قبله بالزمان اذ كان الله ولا زمان والزمان وجد مع المتجدد الاول فان قيل فامعنى وجود الله قبل كل شيء غيره تقول معناه كان الله ولم يكن شيء غيره لا يقال ماذكرتم اثبات شيء لشيء ولا يثبت ذلك الشيء الا بعد ما تروموه اثباته فان بداية الزمان غرضكم وهو مبني على المتجدد الاول والنزاع في المتجدد فان عند الخصم ليس في الوجود متجدد أول بل قبل كل متجدد متجدد لانا نقول نحن ماذكرنا ذلك دليلا وانما ذكرناه بيانا لعدم الالزام وانه لا يرد علينا شيء اذا قلنا بالحدوث ونهاية الابعاد واللزوم والالزام فيسلم الكلام الاول ثم يلزم ويقول ألست تقول ان لنا متجددا أولا فكذلك قل له عدم فنقول لا بل ليس قبله امر بالزمان فيكون ذلك نفيا عاما وانما يكون ذلك لانتفاء الزمان كما ذكرنا في المثال اذا علمت هذا فصار الزمان تارة موجودا مع عرض وأخرى موجودا بعد عرض لان يومنا هذا وغيره من الايام كلها صارت متميزة بالمتجدد الاول والمتجدد الاول له زمان هو معه اذا عرفت الزمان والمكان أمرهما مشكل بالنسبة الى بعض الاوهام والامر الخفي يعرف بالوصف والاضافة فانك اذا قلت غلام لم يعرف فاذا وصفته أو أضفته وقلت غلام صغير أو كبير أو أبيض أو أسود قرب من الفهم وكذلك اذا قلت غلام زيد قرب ولم يكن بد من معرفة الزمان ولا يعرف الشيء الا بما يختص به فانك اذا قلت في الانسان حيوان موجود بعدته عن الفهم واذا قلت حيوان طويل القامة قربته منه ففي الزمان كان يجب أن يعرف بما يختص به لان الفعل الماضي والمستقبل والحال يختص بازمنة والمصدر له زمان مطلق فلو قلت زمان الخروج تميز عن زمان الدخول وغيره فاذا قلت يوم خرج أفاد ما أفاد قولك يوم الخروج مع زيادة هو أنه تميز عن يوم يخرج والاضافة الى ما هو أشد تميزا أولى كانك اذا قلت غلام رجل ميزته عن غلام امرأة واذا قلت غلام زيد زدت عليه في الافادة وكان أحسن كذلك قولنا يوم خرج لتعريف ذلك اليوم خير من قولك يوم الخروج فظهر من هذا البحث أن الزمان يضاف الى الفعل وغيره لا يضاف لاختصاص الفعل بالزمان دون غيره الا المكان في قوله اجلس حيث يجلس فان حيث يضاف الى الجمل لمشابهة ظرف المكان لظرف الزمان وأما الجمل فهي انما يصح بواسطة تضمنها الفعل فلا يقال يوم زيد أخوك ويقال يوم زيد فيه خارج * ومن جملة الفوائد اللفظية ان لات تختص استعمالها بالزمان قال الله تعالى ولات حين مناص ولا يقال لات رجل سوء وذلك لان الزمان تجدد بعد تجدد ولا يبقى بعد الفناء حياة أخرى وبعد كل حركة حركة أخرى وبعد كل زمان زمان واليه الاشارة بقوله تعالى كل يوم هو في شأن أي قبل الخلق لم يخلق شيئا

لكنه بعدماخلق فهو أبدا دائما يخلق شيئا بعد شئ فبعد حياتنا موت وبعد موتنا حياة وبعد حياتنا حساب وبعد الحساب ثواب دائم أو عقاب لازم ولا يترك الله الفعل فلما بعد الزمان عن النفي زيد في الحروف النافية زيادة فان قيل فالله تعالى أبعد عن الانتفاء فكان ينبغي أن لا تقرن التاء بكلمة لا هنالك نقول في لات حين مناص تأويل وعليه لا يرد ماذكرتم وهو أن لا هي المشبهة بليس تقديره ليس الحين حين مناص وهو المشهور ولذلك اختص بالحين دون اليوم والليل لان الحين أدوم من الليل والنهار فالليل والنهار قد لا يكون والحين يكون * ثم قال تعالى (فويل يومئذ للمكذبين الذين هم في خوض يلعبون) أي اذا علم أن عذاب الله واقع وأنه ليس له دافع فويل اذا للمكذبين فالفاء لاتصال المعنى وهو الايذان بامان أهل الايمان وذلك لانه لما قال ان عذاب ربك لواقع لم يبين بأن موقعه بمن فلما قال فويل يومئذ للمكذبين علم المخصوص به وهو المكذب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذا قلت بان قوله ويل يومئذ للمكذبين بيان لمن يقع به العذاب وينزل عليه فمن لا يكذب لا يعذب فأهل الكبائر لا يعذبون لانهم لا يكذبون نقول ذلك العذاب لا يقع على أهل الكبائر وهذا كما في قوله تعالى كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا فنقول المؤمن لا يلقى فيها القاء بهوان وانما يدخل فيها ليطهر ادخالا مع نوع اكرام فكذلك الويل للمكذبين والويل ينبئ عن الشدة وتركيب حروف الواو والياء واللام لا ينفك عن نوع شدة منه لوى اذا دفع ولوى بلوى اذا كان قويا والولي فيه القوة على المولى عليه ويدل عليه قوله تعالى يدعون فان المكذب يدع والمصدق لا يدع وقد ذكرنا جواز التنكير في قوله ويل مع كونه مبتدأ لانه في تقدير المنصوب لانه دعاء ومضى وجهه في قوله تعالى قال سلام والخوض نفسه خص في استعمال القرآن بالاندفاع في الاباطيل ولهذا قال تعالى وخضتم كالذي خاضوا وقال تعالى وكنا نخوض مع الخائضين وتنكير الخوض يحتمل وجهين (أحدهما) ان يكون للتكثير أي في خوض كامل عظيم (ثانيهما) أن يكون التنوين تعويضا عن المضاف اليه كما في قوله تعالى الا وقوله وان كلا وبعضهم ببعض والاصل في خوضهم المعروف منهم وقوله الذين هم في خوض ليس وصفا للمكذبين بما يميزهم وانما هو للذم كما انك تقول الشيطان الرجيم ولا تريد فصله عن الشيطان الذي ليس برجيم بخلاف قولك اكرم الرجل العالم فالوصف بالرجيم للذم به لا للتعريف وتقول في المدح الله الذي خلق والله العظيم للمدح لا للتمييز ولا للتعريف عن اله لم يخلق أو اله ليس بعظيم فان الله واحد لا غير * ثم قال تعالى (يوم يدعون الى نار جهنم دعا) وفيه مباحث لفظية ومعنوية أما اللفظية ففيها مسائل (الاولى) يوم منصوب بماذا نقول الظاهر انه منصوب بما بعده وهو ما يدل عليه قوله تعالى هذه النار تقديره يوم يدعون يقال لهم هذه النار التي كنتم بها تكذبون ويحتمل غير هذا وهو أن يكون يوم بدلا عن يوم في يومئذ تقديره فويل يومئذ

(يوم يدعون الى نار جهنم دعا) أي يدفعون اليها دفعا عنيفا شديدا بان تغل ايديهم الى أعناقهم وتجمع نواصيهم الى أقدامهم فيدفعوا الى النار وقرئ يدعون من الدعاء فيكون دعاء حالا بمعنى مدعوعين ويوم اما بدل من يوم تمور أو ظرف لقول مقدر قبل قوله تعالى (هذه النار التي كنتم بها تكذبون) أي يقال لهم ذلك ومعنى التكذيب بها تكذيبهم بالوحي الناطق بها وقوله تعالى (أفسحر هذا) توبيخ وتقريع لهم حيث كانوا يسمونه سحرا كأنه قيل كنتم تقولون للقرآن الناطق بهذا سحر فهذا أيضا سحر وتقديم الخبر لانه محط الانكار ومدار التوبيخ (أم أنتم لا تبصرون) أي أم أنتم عمي عن المخبر عنه كما كنتم عميا عن الخبر أو أم سدت أبصاركم كما سدت في الدنيا

للمكذبين يوم يدعون أى المكذبون وذلك ان قوله يومئذ معناه يوم يقع العذاب وذلك اليوم هو يوم يدعون فيه الى النار (المسئلة الثانية) قوله يدعون الى نار يدل على هول نار جهنم لان خزنتها لا يقربون منها وانما يدفعون أهلها اليها من بعيد ويلقونهم فيها وهم لا يقربونها (الثالثة) دعا مصدر وقد ذكرت فائدة ذكر المصادر وهي الايذان بأن الدع دع معتبر يقال له دع ولا يقال فيه ليس بدع كما يقول القائل في الضرب الخفيف مستحقرا له هذا ليس بضرب والعدو المهين هذا ليس بعدو في غير المصادر والرجل الحقير ليس برجل الاعلى قراءة من قرأ يدعون الى نار جهنم دعا فان دعا حينئذ يكون منصوبا على الحال تقديره يقال لهم هلموا الى النار مدعوعين اليها * أما المعنوية فنقول قوله تعالى يوم يدعون الى نار جهنم يدل على ان خزنتها يقذفونهم فيها وهم بعداء عنها وقال تعالى يوم يسحبون في النار نقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) أن الملائكة يسحبونهم في النار ثم اذا قربوا من نار مخصوصة هي نار جهنم يقذفونهم فيها من بعيد فيكون السحب في النار والدفع في نار أشد وأقوى و يدل عليه قوله تعالى يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون أى يكون لهم سحب في حموة النار ثم بعد ذلك يكون لهم ادخال (الثاني) جاز أن يكون في كل زمان يتولى أمرهم ملائكة فالى النار يدفعهم ملك وفي النار يسحبهم آخر (الثالث) جاز أن يكون السحب بسلاسل يسحبون في النار والساحب خارج النار (الرابع) يحتمل أن يكون الملائكة يدفعون أهل النار الى النار اهانة واستخفافا بهم ثم يدخلون معهم النار ويسحبونهم فيها * ثم قال تعالى (هذه النار التي كنتم بها تكذبون) على تقدير يقال * ثم قال تعالى (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون) تحقيقا الامر وذلك لان من يرى شيئا ولا يكون الامر على ما يراه فذلك الخطأ يكون لاجل أحد أمرين اما لامر عائد الى المرئي واما لامر عائد الى الرائي فقوله أفسحر هذا أى هل في المرئي شك أم هل في بصركم خلل استفهام انكار أى لا واحد منهما ثابت فالذي ترونه حق وقد كنتم تقولون انه ليس بحق وانما قال أفسحر وذلك انهم كانوا ينسبون المرئيات الى السحر فكانوا يقولون بأن انشقاق القمر وأمثاله سحر و في ذلك اليوم لما تعلق بهم مع المبصر الالم المدرك بحس اللمس و بلغ الايلام الغاية لم يمكنهم أن يقولوا هذا سحر والا لما صح منهم طلب الخلاص من النار * ثم قال تعالى (اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون) أى اذا لم يمكنكم انكارها وتحقق أنه ليس بسحر ولا خلل في ابصاركم فاصلوها وقوله تعالى فاصبروا أو لا تصبروا فيه فائدتان (احداهما) بيان عدم الخلاص وانتفاء المناص فان من لا يصبر يدفع الشئ عن نفسه اما بأن يدفع المعذب فيمنعه واما بان يغضبه فيقتله و يريحه ولا شئ من ذلك يفيد في عذاب الآخرة فان من لا يغلب المعذب فيدفعه ولا يتخلص بالاعدام فانه لا يقضى عليه فيموت فاذن

قوله الاعلى قراءة من قرأ يدعون أى من الدعاء وهي قراءة زيد بن على ودعا على حاله كما في الكشاف اه

على زعمكم حيث كنتم تقولون انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون (اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا) أى ادخلوها وقاسوا شدائدها فافعلوا ماشئتم من الصبر وعدمه (سواء عليكم) أى الأمران في عدم النفع لا يدفع العذاب ولا يخففه وقوله تعالى (انما تجزون ما كنتم تعملون) تعليل للاستواء فان الجزاء حيث كان واجب الوقوع حتما كان الصبر وعدمه سواء في عدم النفع (ان المتقين في جنات ونعيم) أى في أية جنات وأى نعيم على أن التنوين للتفخيم أو في جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين على أنه للتنويع (فاكهين) ناعمين متلذذين (بما آتاهم ربهم) وقرئ فكهين وفاكهون على أنه الخبر والظرف

الصبر كعدمه لان من يصبر يدوم فيه ومن لا يصبر يدوم فيه (الثانية) بيان ما يتفاوت به عذاب الآخرة عن عذاب الدنيا فان المعذب في الدنيا صبر ربما انتفع بالصبر اما بالجزاء في الآخرة واما بالحمد في الدنيا فيقال له ما أشجعه وما أقوى قلبه وان جزع يذم فيقال يجزع كالصبيان والنسوان وأما في الآخرة لا مدح ولا ثواب على الصبر وقوله تعالى سواء عليكم سواء خبر ومبتداه مدلول عليه بقوله فاصبروا أولا تصبروا كأنه يقول الصبر وعدمه سواء فان قيل يلزم الزيادة في التعذيب و يلزم التعذيب على المنوى الذي لم يفعله نقول فيه لطيفة وهي أن المؤمن بايمانه استفاد أن الخير الذي ينويه يثاب عليه والشر الذي ينويه ولا يحققه لا يعاقب عليه والكافر بكفره صار على الضد فالخير الذي ينويه ولا يعمله لا يثاب عليه والشر الذي يقصده ولا يقع منه يعاقب عليه ولا ظلم فان الله تعالى أخبره به وهو اختار ذلك ودخل فيه باختياره كأن الله تعالى قال فان من كفر ومات كافرا أعذبه أبدا فاحذروا ومن آمن أثيبه دائما فمن ارتكب الكفر وداوم عليه بعد ماسمع ذلك فاذا عاقبه المعاقب دائما تحقيقا لما أوعده به لا يكون ظالما * ثم قال تعالى (ان المتقين في جنات ونعيم) على ما هو عادة القرآن من بيان حال المؤمن بعد بيان حال الكافر وذكر الثواب عقيب ذكر العقاب ليتم أمر الترهيب والترغيب وقد ذكرنا تفسير المتقين في مواضع والجنة وان كانت موضع السرور لكن الناطور قد يكون في البستان الذي هو في غاية الطيبة وهو غير متنعم فقوله ونعيم يفيد أنهم فيها يتنعمون كما يكون المتفرج لا كما يكون الناطور * وقوله (فاكهين) يزيد في ذلك لان المتنعم قد يكون آثار التنعم على ظاهره وقلبه مشغول فلما قال فاكهين يدل على غاية الطيبة وقوله (بما آتاهم ربهم) يفيد زيادة في ذلك لان المفكه قد يكون خسيس النفس فيسره أدنى شئ ويفرح بأقل سبب فقال فاكهين لا بدنو همهم بل لعلو نعمهم حيث هي من عند ربهم * وقوله تعالى (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد انهم فاكهون بأمرين أحدهما بما آتاهم والثاني بانه وقاهم (وثانيهما) أن يكون ذلك جملة أخرى منسوقة على الجملة الاولى كأنه بين أنه أدخلهم جنات ونعيما ووقاهم عذاب الجحيم * ثم قال تعالى (كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين) وفيه بيان أسباب التنعيم على الترتيب فاول ما يكون المسكن وهو الجنات ثم الاكل والشرب ثم الفرش والبسط ثم الازواج فهذه أمور أربعة ذكرها الله على الترتيب وذكر في كل واحد منها ما يدل على كماله فقوله جنات اشارة الى المسكن والمسكن للجسم ضروري وهو المكان فقال فاكهين لان مكان التنعيم قد يتنغص بامور وبين سبب الفكاهة وعلو المرتبة بكونه مما آتاهم الله وقد ذكرنا هذا وأما في الاكل والشرب والاذن المطلق فترك ذكر المأكول والمشروب لتنوعهما وكثرتهما وقوله تعالى هنيئا

لغو متعلق بالخبر أو خبر آخر (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) عطف على ما آتاهم على أن ما مصدرية أو على خبران أو حال باضمار قد اما من المستكن في الخبر أو في الحال واما من فاعل آتى أو من مفعوله أو منهما واظهار الرب في موقع الاضمار مضافا الى ضميرهم للتشريف والتعليل (كلوا واشربوا) أكلا وشربا (هنيئا) او طعاما وشرابا هنيئا وهو الذي لا تنغيص فيه (بما كنتم تعملون) بسببه أو بمقابلته وقيل الباء زائدة وما فاعل هنيئا أي هنأ كم ما كنتم تعملون أي جزاؤه (متكئين على سرر مصفوفة) مصطفة (وزوجناهم بحور عين) وقرئ بحور عين على اضافة الموصوف الى صفته بالتأويل

اشارة الى خلوهما عما يكون فيهما من المفاسد فى الدنيا منها ان الآكل يخاف من المرض فلا يهنأ له الطعام ومنها انه يخاف النفاد فلا يستحيو بالاكل والكل منتف فى الجنة فلا مرض ولا انقطاع فان كل أحد عنده ما يفضل عنه ولا اثم ولا تعب فى تحصيله فان الانسان فى الدنيا ربما يترك لذة الاكل لما فيه من تهيئة المأكول بالطبخ والتحصيل من التعب أو المنة أو ما فيه من قضاء الحاجة واستقذار ما فيه فلا يتهنأ وكل ذلك فى الجنة منتف وقوله تعالى بما كنتم تعملون اشارة الى أنه تعالى يقول أى مع انى ربكم وخلقتكم وأدخلتكم بفضلى الجنة وانما منتى عليكم فى الدنيا اذ هديتكم ووفقتكم للاعمال الصالحة كما قال تعالى بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان وأما اليوم فلا من عليكم لان هذا انجاز الوعد فان قيل قال فى حق الكفار انما تجزون ما كنتم تعملون وقال فى حق المؤمنين بما كنتم تعملون فهل بينهما فرق قلت بينهما بون عظيم من وجوه (الاول) كلمة انما للحصر أى لا تجزون الا ذلك ولم يذكر هذا فى حق المؤمن فانه يجزيه أضعاف ما عمل ويزيده من فضله وحينئذ ان كان من الله على عبده فبذلك لا بالاكل والشرب (الثانى) قال هنا بما كنتم وقال هناك ما كنتم أى تجزون عين أعمالكم اشارة الى المبالغة فى المماثلة كما تقول هذا عين ما عملت وقد تقدم بيان هذا وقال فى حق المؤمن بما كنتم كان ذلك أمر ثابت مستمر بعملكم هذا (الثالث) ذكر الجزاء هناك وقال ههنا بما كنتم تعملون لان الجزاء ينبئ عن الانقطاع فان من أحسن الى أحد فاتى بجزائه لا يتوقع المحسن منه شيئا آخر ❊ فان قيل فالله تعالى قال فى موضع جزاء بما كنتم تعملون فى الثواب نقول فى تلك المواضع لما لم يخاطب المجزى لم يقل تجزى وانما أتى بما يفيد العلم بالدوام وعدم الانقطاع ❊ وأما فى السرر فذكر أمورا أيضا (أحدها) الاتكاء فانه هيئة تختص بالمنعم والفارغ الذى لا كلفة عليه ولا تكلف لديه فان من يكون عنده من يتكلف له يجلس له ولا يتكئ عنده ومن يكون فى مهم لا يتفرغ للاتكاء فالهيئة دليل خير ثم الجمع يحتمل أمرين (أحدهما) أن يكون لكل واحد سرر وهو الظاهر لان قوله مصفوفة يدل على انها لواحد لان سرر الكل لا تكون فى موضع واحد مصطفة ولفظ السرر فيه حروف السرور بخلاف التخت وغيره وقوله مصفوفة دليل على انه لمجرد العظم فانها لو كانت متفرقة لقيل فى كل موضع واحد ليتكئ عليه صاحبه اذا حضر فى هذا الموضع وقوله تعالى وزوجناهم اشارة الى النعمة الرابعة وفيها أيضا ما يدل على كمال الحال من وجوه (أحدها) انه تعالى هو المزوج وهو يتولى الطرفين يزوج عباده بامائه ومن يكون كذلك لا يفعل الا ما فيه راحة العباد والاماء (ثانيها) قال وزوجناهم بحور ولم يقل وزوجناهم حورا مع ان لفظ التزويج يتعدى فعله الى مفعولين بغير حرف يقال زوجتكها قال تعالى فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها وذلك اشارة الى ان المنفعة فى التزويج لهم وانما زوجوا للذتهم بالحور لا للذة الحور بهم وذلك لان المفعول

قوله وقرئ بعين عين فى الكشاف وقرئ بعيس عين اه المشهور وقرئ بعين عين والباء مع أن التزويج مما يتعدى الى مفعولين لما فيه من معنى الوصل والالصاق أو السببية اذ المعنى صيرناهم أزواجا بسببهن فان الزوجية لا تتحقق بدون انضمامهن اليهم وقوله تعالى (والذين آمنوا) كلام مستأنف مسوق لبيان حال طائفة من أهل الجنة اثر بيان حال الكل وهم الذين شاركتهم ذريتهم فى الايمان وهو مبتدأ خبره ألحقنا بهم وقوله تعالى (واتبعتهم ذريتهم) عطف على آمنوا وقيل اعتراض وقوله تعالى (بايمان) متعلق بالاتباع أى اتبعتهم ذريتهم بايمان فى الجملة قاصر عن رتبة ايمان الآباء واعتبار هذا القيد للايذان بثبوت الحكم فى الايمان الكامل اصالة لا الحاقا وقرئ ذرياتهم للمبالغة فى الكثرة

بغير حرف يعلق الفعل به كذلك التزويج تعلق بهم ثم بالحور لان ذلك بمعنى جعلنا
ازدواجهم بهذا الطريق وهو الحور (ثالثها) عدم الاقتصار على الزوجات بل وصفهن
بالحسن واختار الاحسن من الاحسن فان أحسن ما في صورة الآدمي وجهه وأحسن
ما في الوجه العين ولأن الحور والعين يدلان على حسن المزاج في الاعضاء ووفرة المادة
في الارواح أما حسن المزاج فبلامة الحور وأما وفرة الروح فلسعة العين بسبب كثرة
الروح المصبوبة فيها فان قيل قوله وزوجناهم ذكره بفعل ماض ومتكئين حال ولم يسبق
ذكر فعل ماض يعطف عليه ذلك وعطف الماضي على الماضي والمستقبل على المستقبل
أحسن نقول الجواب من وجوه اثنان لفظيان ومعنوي (أحدها) ان ذلك حسن
في كثير من المواضع تقول جاء زيد ويجيء عمرو وخرج زيد (ثانيها) ان قوله تعالى ان
المتقين في جنات ونعيم تقديره أدخلناهم في جنات وذلك لان الكلام على تقدير أن في
اليوم الذي يدع الكافر في النار في ذلك الوقت يكون المؤمن قد أدخل مكانه فكأنه تعالى
يقول في يوم يدعون الى نار جهنم ان المتقين كائنون في جنات (والثالث) المعنوي وهو
انه تعالى ذكر بجزاء الحكم فهو في هذا اليوم زوج عباده حورا عينا وهن منتظرات
الزفاف يوم الآزفة * ثم قال تعالى (والذين آمنوا واتبعناهم ذرياتهم بايمان ألحقنا بهم
ذرياتهم) وفيه لطائف (الاولى) ان شفقة الابوة كما هي في الدنيا متوفرة كذلك في الآخرة
ولهذا طيب الله تعالى قلوب عباده بانه لا يولههم باولادهم بل يجمع بينهم فان قيل قد
ذكرت في تفسير بعض الآيات ان الله تعالى يسلي الآباء عن الابناء وبالعكس ولا يتذكر
الاب الذي هو من أهل الجنة الابن الذي هو من أهل النار نقول الولد الصغير وجد في
والده الابوة الحسنة ولم يوجد لها معارض ولهذا الحق الله الولد بالوالد في الاسلام في دار
الدنيا عند الصغر واذا كبر استقل فان كفر ينسب الى غير أبيه وذلك لان الاسلام
للمسلمين كالاب ولهذا قال تعالى انما المؤمنون اخوة جمع أخ بمعنى اخوة الولادة
والاخوان جمعه بمعنى اخوة الصداقة والمحبة فاذا الكفر من حيث الحس والعرف أب
فان خالف دينه دين أبيه صار له من حيث الشرع أب آخر وفيه ارشاد الآباء الى أن
لا يشغلهم شيء عن الشفقة على الولد فيكون من القبيح الفاحش أن يشتغل الانسان
بالتفرج في البستان مع الاحبة والاخوان عن تحصيل قوت الولدان وكيف لا يشتغل
أهل الجنة بما في الجنة من الحور العين عن أولادهم حتى ذكروهم فاراح الله قلوبهم بقوله
ألحقنا بهم ذرياتهم واذا كان كذلك فاظنك بالفاسق الذي يبذر ماله في الحرام ويترك
أولاده يتكففون وجوه اللئام والكرام نعوذ بالله منه وهذا يدل على ان من يورث أولاده
مالا حلالا يكتب له به صدقة ولهذا لم يجوز للمريض التصرف في أكثر من الثلث (اللطيفة
الثانية) قوله تعالى وأتبعناهم ذرياتهم فهذا ينبغي أن يكون دليلا على أنا في الآخرة
نلحق بهم لا في دار الدنيا مراعاة الاسباب أكثر ولهذا لم يجر الله عادته على أن يقدم بين

وذرياتهم بكسر الذال
وقرئ وأتبعناهم
ذرياتهم أي جعلناهم
تابعين لهم في الايمان
وقرئ اتبعتهم (ألحقنا
بهم ذريتهم) أي في
الدرجة كما روي أنه
عليه الصلاة والسلام
قال انه تعالى يرفع
ذرية المؤمن في درجته
وان كانوا دونه لتقربهم
عينه ثم تلا هذه الآية
(وما ألتناهم) وما نقصنا
الآباء بهذا الالحاق
(من عملهم) من ثواب
عملهم (من شيء)
بان أعطينا بعض
مثوباتهم أبناءهم
فتنقص مثوبتهم
وتنحط درجتهم وانما
رفعناهم الى منزلتهم
بمحض التفضل
والاحسان وقرئ
ألتناهم بكسر اللام
من ألت يألت كعلم يعلم
والاول كضرب
يضرب ولتناهم من لات
يليت وآلتناهم من آلت
يؤلت وأولتناهم
من ولت يلت والكل
بمعنى واحد هذا
وقد قيل

يدي الانسان طعاما من السماء فالم يتسبب له بالزراعة والطحن والعجن لا يأكله وفي الآخرة يؤتيه ذلك من غير سعي جزاءله على ماسعى له من قبل فينبغي أن يجعل ذلك دليلا ظاهرا على ان الله تعالى يلحق به ولده وان لم يعمل عملا صالحا كاتباعه وان لم يشهد ولم يعتقد شيئا (اللطيفة الثالثة) في قوله تعالى بايمان فان الله تعالى اتبع الولد الوالدين في الايمان ولم يتبعه أباه في الكفر بدليل أن من أسلم من الكفار حكم باسلام أولاده ومن ارتد من المسلمين والعياذ بالله لا يحكم بكفر ولده (اللطيفة الرابعة) قال في الدنيا أتبعناهم وقال في الآخرة ألحقنا بهم وذلك لان في الدنيا لا يدرك الصغير المتبع مساواة المتبوع وانما يكون هو تبعا والاب أصلا لفضل الساعي على غير الساعي وأما في الآخرة فاذا ألحق الله بفضله ولده به جعل له من الدرجة مثل ما لابيه (اللطيفة الخامسة) في قوله تعالى وما ألتناهم تطييب لقلبهم وازالة وهم المتوهم أن ثواب عمل الاب يوزع على الوالد والولد بل للوالد أجر عمله بفضله السعي وللاولاد مثل ذلك فضلا من الله ورحمة (اللطيفة السادسة) في قوله تعالى من عملهم ولم يقل من أجرهم وذلك لان قوله تعالى وما ألتناهم من عملهم دليل على بقاء عملهم كما كان والاجر على العمل مع الزيادة فيكون فيه الاشارة الى بقاء العمل الذي له الاجر الكبير الذي عليه العظيم العائد اليه ولو قال ما ألتناهم من أجرهم لكان ذلك حاصلا بأدنى شئ لان كل ما يعطي الله عبده على عمله فهو أجر كامل ولانه لو قال تعالى ما ألتناهم من أجرهم كان مع ذلك يحتمل أن يقال ان الله تعالى تفضل عليه بالاجر الكامل على العمل الناقص وأعطاه الاجر الجزيل مع أن عمله كان له ولولده جميعا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى والذين آمنوا عطف على ماذا نقول على قوله ان المتقين (المسئلة الثانية) اذا كان كذلك فلم أعاد لفظ الذين آمنوا وكان المقصود يحصل بقوله تعالى وألحقنا بهم ذرياتهم بعد قوله وزوجناهم وكان يصير التقدير وزوجناهم وألحقنا بهم نقول فيه فائدة وهو أن المتقين هم الذين اتقوا الشرك والمعصية وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقال ههنا الذين آمنوا أي بوجود الايمان يصير ولده من أهل الجنة ثم ان ارتكب الاب كبيرة أو صغيرة على صغيرة لا يعاقب به ولده بل الوالد وربما يدخل الجنة الابن قبل الاب وفيه لطيفة معنوية وهو أنه ورد في الاخبار أن الولد الصغير يشفع لابيه وذلك اشارة الى الجزاء (المسئلة الثالثة) هل يجوز غير ذلك نقول نعم يجوز أن يكون قوله تعالى والذين آمنوا عطفا على حور عين تقديره زوجناهم بحور عين أي قرناهم بهن وبالذين آمنوا اشارة الى قوله تعالى اخوانا على سرر متقابلين أي جمعنا شملهم بالازواج والاخوان والاولاد بقوله تعالى وأتبعناهم وهذا الوجه ذكره الزمخشري والاول أحسن وأصح فان قيل كيف يصح على هذا الوجه الاخبار بلفظ الماضي مع انه سبحانه وتعالى بعد ما قرن بينهم قلنا صح في زوجناهم على ما ذكر الله تعالى من تزوجهن منا من يوم خلقهن وان تأخر زمان الاقتران (المسئلة الرابعة) قرئ ذرياتهم في الموضعين

الموصول معطوف على حور والمعنى قرناهم بالحور وبالذين آمنوا أي بالرفقاء والجلساء منهم فيتمتعون تارة بملاعبة الحور وأخرى بمؤانسة الاخوان المؤمنين وقوله تعالى واتبعتهم عطف على زوجناهم وقوله تعالى بايمان متعلق بما بعده أي بسبب ايمان عظيم رفيع المحل وهو ايمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم وان كانوا لا يستأهلونها تفضلا عليهم وعلى آبائهم ليتم سرورهم ويكمل نعيمهم أو بسبب ايمان داني المنزلة وهو ايمان الذرية كأنه قيل بشئ من الايمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم (كل امرئ بما كسب رهين) قيل هو فعيل بمعنى مفعول والمعنى كل امرئ مرهون عند الله تعالى بالعمل

بالجمع وذريتهم فيهما بالفرد وقرئ في الاول ذرياتهم و في الثاني ذريتهم فهل الثالث وجه نقول نعم معنوي لالفظي وذلك لان المؤمن تتبعه ذرياته في الايمان وان لم توجد على معنى أنه لووجدله الف ولد لكانوا أتباعه في الايمان حكما وأما الالحاق فلا يكون حكما انما هو حقيقة وذلك في الوجود فالتابع أكثر من الملحوق فجمع في الاول وأفرد في الثاني (المسئلة الخامسة) ما الفائدة في تنكير الايمان في قوله وأتبعناهم ذرياتهم بايمان نقول هو اما للتخصيص أو التنكير كأنه يقول اتبعناهم ذرياتهم بايمان مخلص كامل أو يقول اتبعناهم بايمان ما أي شئ منه فان الايمان كاملا لا يوجد في الولد بدليل أن من آمن وله ولد صغير حكم بايمانه فاذا بلغ وصرح بالكفر وأنكر التبعية قيل بانه لايكون مرتدا وتبين بقوله انه لم يتبع وقيل بانه يكون مرتدا لانه كفر بعد ماحكم بايمانه كالمسلم الاصلي فاذن بهذا الخلاف تبين أن ايمانه ليس بقوي وهذان الوجهان ذكرهما الزمخشري ويحتمل أن يكون المراد غير هذا وهوأن يكون التنوين للعوض عن المضاف اليه كما في قوله تعالى بعضهم بعض وقوله تعالى وكلا وعدالله الحسنى وبيانه هوأن التقدير اتبعناهم ذرياتهم بايمان أي بسبب ايمانهم لان الاتباع ليس بايمان كيف كان وممن كان بايماهو بايمان الآباء لكن الاضافة تنبئ عن تقييد وعدم كون الايمان ايمانا على الاطلاق فان قول القائل ماء الشجر وماء الرمان يصح واطلاق اسم الماء من غير اضافة لايصح فقوله بايمان يوهم أنه ايمان مضاف اليهم كما قال تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا حيث أثبت الايمان المضاف ولم يكن ايمانا فقطع الاضافة مع ارادتها ليعلم أنه ايمان صحيح وعوض التنوين ليعلم أنه لايوجب الامان في الدنيا الا ايمان الآباء وهذا وجه حسن * ثم قال تعالى (كل امرئ بما كسب رهين) قال الواحدي هذا عود الى ذكر أهل النار فانهم مرتهنون في النار وأما المؤمن فلا يكون مرتهنا قال تعالى كل نفس بما كسبت رهينة الا أصحاب اليمين وهو قول مجاهد وقال الزمخشري كل امرئ بما كسب رهين عام في كل أحد مرهون عندالله بالكسب فان كسب خيرا فك رقبته والا أربق بالرهن والذي يظهر منه أنه عام في حق كل أحد وفي الآية وجه آخر وهو أن يكون الرهين فعيلا بمعنى الفاعل فيكون المعنى والله أعلم كل امرئ بما كسب راهن أي دائم ان أحسن ففي الجنة مؤبدا وان أساء ففي النار مخلدا وقد ذكرنا أن في الدنيا دوام الاعمال بدوام الاعيان فان العرض لايبقى الا في جوهر ولا يوجد الا فيه وفي الآخرة دوام الاعيان بدوام الاعمال فان الله يبقي أعمالهم لكونها عندالله تعالى من الباقيات الصالحات وماعندالله باق والباقي يبقى مع عامله * ثم قال تعالى (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) أي زدناهم مأكولا ومشروبا أما المأكول فالفاكهة واللحم وأما المشروب فالكاس الذي يتنازعون فيها وفي تفسيرها لطائف (اللطيفة الاولى) لما قال ألحقنا بهم ذرياتهم بين الزيادة ليكون ذلك جاريا على عادة الملوك في الدنيا اذا زادوا في حق عبد من

الصالح فان عمله فكه والا أهلكه وقيل بمعنى الفاعل والمعنى كل امرئ بما كسب راهن أي دائم ثابت وهذا أنسب بالمقام فان الدوام يقتضي عدم المفارقة بين المرء وعمله ومن ضرورته أن لاينقص من ثواب الآباء شئ فالجملة تعليل لما قبلها (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) وزدناهم على ما كان لهم من مبادي التنعم وقتا فوقتا مايشتهون من فنون النعماء وألوان الآلاء (يتنازعون فيها) أي يتعاطون فيها هم وجلساؤهم بكمال رغبة واشتياق كما ينبئ عنه التعبير عن ذلك بالتنازع. (كأسا) أي خمرا تسمية لها باسم محلها (لا لغو فيها) أي في شربها حيث لايتكلمون في أثناء الشرب بلغو الحديث وسقط الكلام (ولا

عبيدهم يزيدون فى أقدار أخبازهم وأقطاعهم واختار من المأكول ارفع الانواع وهو الفاكهة واللحم فانهما طعام المتنعمين وجمع اوصافا حسنة فى قوله مما يشتهون لانه لو ذكر نوعا فربما يكون ذلك النوع غير مشتهى عند بعض الناس فقال كل واحد يعطى ما يشتهى فان قيل الاشتهاء كالجوع وفيه نوع ألم نقول ليس كذلك بل الاشتهاء به اللذة والله تعالى لا يتركه فى الاشتهاء بدون المشتهى حتى يتألم بل المشتهى حاصل مع الشهوة والانسان فى الدنيا لا يتألم الا بأحد أمرين اما باشتهاء صادق وعجزه عن الوصول الى المشتهى واما بحصول أنواع الاطعمة والاشربة عنده وسقوط شهوته وكلاهما منتف فى الآخرة (اللطيفة الثانية) لما قال وما ألتناهم ونفى النقصان يصدق بحصول المساوى فقال ليس عدم النقصان بالاقتصار على المساوى بل بطريق آخر وهو الزيادة والامداد فان قيل أكثر الله من ذكر الاكل والشرب وبعض العارفين يقولون لخاصة الله بالله شغل شاغل عن الاكل والشرب وكل ما سوى الله نقول هذا على العمل ولهذا قال تعالى جزاء بما كانوا يعملون وقال بما كنتم تعملون وأما على العلم بذلك فذلك ولهذا قال لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولا من رب رحيم أى للنفوس ما تتفكه به وللارواح ما تتمناه من القربة والزلفى * وقوله تعالى (يتنازعون فيها كأسا) فيكون ذلك على عادة الملوك اذا جلسوا فى مجالسهم الشرب يدخل عليهم بفواكه ولحوم وهم على الشرب وقوله تعالى يتنازعون أى يتعاطون ويحتمل أن يقال التنازع التجاذب وحينئذ يكون تجاذبهم تجاذب ملاعبة لا تجاذب منازعة وفيه نوع لذة وهو بيان ما هو عليه حال الشراب فى الدنيا فانهم يتفاخرون بكثرة الشرب ولا يتفاخرون بكثرة الاكل ولهذا اذا شرب أحدهم يرى الآخر واجبا أن يشرب مثل ما شرب به حريفه ولا يرى واجبا أن يأكل مثل ما أكل نديمه وجليسه * وقوله تعالى (لا لغو فيها ولا تأثيم) وسواء قلنا فيها عائدة الى الجنة أو الى الكاس فذكرهما لجريان ذكر الشراب وحكايته على ما فى الدنيا فقال تعالى ليس فى الشرب فى الآخرة كل ما فيه فى الدنيا من اللغو بسبب زوال العقل ومن التأثيم الذى بسبب نهوض الشهوة والغضب عند وفور العقل والفهم وفيه وجه ثالث وهو أن يقال لا يعتريه كما يعترى الشارب بالشرب فى الدنيا فلا يؤثم أى لا ينسب الى اثم وفيه وجه رابع وهو أن يكون المراد من التأثيم السكر وحينئذ يكون فيه ترتيب حسن وذلك لان من الناس من يسكر ويكون رزين العقل عديم اعتياد العربدة فيسكن وينام ولا يؤذى ولا يتأذى ولا يهذى ولا يسمع الى من هذى ومنهم من يعربد فقال لا لغو فيها * ثم قال تعالى (ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون) أى بالكؤس وقال تعالى يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين وقوله لهم أى ملكهم اعلاما لهم بقدرتهم على التصرف فيهم بالامر والنهى والاستخدام وهذا هو المشهور ويحتمل وجوها أخر وهو

تأثيم) ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله أى ينسب الى الاثم لو فعله فى دار التكليف كما هو ديدن المنادمين فى الدنيا وانما يتكلمون بالحكم وأحاسن الكلام ويفعلون ما يفعله الكرام وقرئ لا لغو فيها ولا تأثيم بالفتح (ويطوف عليهم) أى بالكأس (غلمان لهم) أى مماليك مخصوصون بهم وقيل هم أولادهم الذين سبقوهم (كأنهم لؤلؤ مكنون) مصون فى الصدف من بياضهم وصفائهم أو مخزون لانه لا يخزن الا الثمين الغالى القيمة قيل لقتادة هذا الخادم فكيف المخدوم فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ان فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وعنه عليه الصلاة والسلام ان أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجيبه الف ببابه لبيك لبيك

انه تعالى لما بين امتياز خمر الآخرة عن خمر الدنيا بين امتياز غلمان الآخرة عن غلمان الدنيا فان الغلمان في الدنيا اذا طافوا على السادة والملوك يطوفون عليهم لحظ أنفسهم اما لتوقع النفع أو لتوفر الصفع وأما في الآخرة فطوفهم عليهم متمحض لهم ولنفعهم ولا حاجة لهم اليهم والغلام الذي هذا شأنه له مزية على غيره وربما يبلغ درجة الاولاد وقوله تعالى كأنهم لؤلؤ أي في الصفاء ومكنون ليفيد زيادة في صفاء الوانهم أو لبيان أنهم كالمخدرات لا بروز لهم ولا خروج من عندهم فهم في أكنافهم * ثم قال تعالى (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا انا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم انا كنا من قبل ندعوه انه هو البر الرحيم) اشارة الى انهم يعلمون ما جرى عليهم في الدنيا ويذكرونه وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم في الدنيا فتزداد لذة المؤمن من حيث يرى نفسه انتقلت من السجن الى الجنة ومن الضيق الى السعة ويزداد الكافر ألما حيث يرى نفسه منتقلة من الشرف الى التلف ومن النعيم الى الجحيم ثم يتذكرون ما كانوا عليه في الدنيا من الخشية والخوف فيقولون انا كنا قبل في أهلنا مشفقين وهو أنهم يكون تساؤلهم عن سبب ما وصلوا اليه فيقولون خشية الله كنا نخاف فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم وفيه لطيفة وهو أن يكون اشفاقهم على فوات الدنيا والخروج منها ومفارقة الاخوان ثم لما نزلوا الجنة علموا خطأهم ثم قال تعالى (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فاني معكم من المتربصين) وتعلق الآية بما قبلها ظاهر لانه تعالى بين أن في الوجود قوما يخافون الله ويشفقون في أهليهم والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم مأمور بتذكير من يخاف الله تعالى بقوله فذكر بالقرآن من يخاف وعيد فحقق من يذكره فوجب التذكير وأما الرسول عليه السلام فليس له الا الاتيان بما أمر به وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في الفاء في قوله فذكر قد علم تعلقه بما قبله فحسن ذكره بالفاء (المسئلة الثانية) معنى الفاء في قوله فما أنت أيضا قد علم أي أنك لست بكاهن فلا تتغير ولا تتبع أهواءهم فان ذلك سيرة المزور فذكر فانك لست بمزور وذلك سبب التذكير (المسئلة الثالثة) ما وجه تعلق قوله نتربص به ريب المنون بقوله شاعر نقول فيه وجهان (الاول) أن العرب كانت تحترز عن ايذاء شعراء وتتقي ألسنتهم فان الشعر كان عندهم يحفظ ويدون وقالوا لا نعارضه في الحال مخافة أن يغلبنا بقوة شعره وانما سبيلنا الصبر وتربص موته (الثاني) أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول ان الحق دين الله وان الشرع الذي أتيت به يبقى أبد الدهر وكتابي يتلى الى قيام الساعة فقالوا ليس كذلك انما هو شاعر والذي يذكره في حق آلهتنا شعر ولا ناصر له وسيصيبه من بعض آلهتنا الهلاك فنتربص به ذلك (المسئلة الرابعة) ما معنى ريب المنون نقول قيل هو اسم للموت فعول من المن وهو القطع والموت قطوع ولهذا سمي بمنون وقيل المنون الدهر وريبه حوادثه وعلى هذا قولهم نتربص يحتمل وجها آخر وهو أن

(وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) أي يسأل كل بعض منهم بعضا آخر عن أحواله وأعماله فيكون كل بعض سائلا ومسؤلا لا أنه يسأل بعض معين منهم بعضا آخر معينا (قالوا) أي المسؤلون وهم كل واحد منهم في الحقيقة (انا كنا قبل) أي في الدنيا (في أهلنا مشفقين) ارقاء القلوب خائفين من عصيان الله تعالى معتنين بطاعة أو وجلين من العاقبة (فمن الله علينا) بالرحمة أو التوفيق للحق (ووقانا عذاب السموم) عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم وقرئ ووقانا بالتشديد (انا كنا من قبل ندعوه) أي نعبده أو نسأله الوقاية (انه هو البر) المحسن (الرحيم) الكثير الرحمة الذي اذا عبد أثاب واذا سئل أجاب وقرئ أنه بالفتح بمعنى لانه (فذكر) فاثبت على ما أنت عليه من التذكير بما أنزل اليك من الآيات والذكر الحكيم ولا تكترث بما يقولون مما لا خير فيه من الاباطيل (فما أنت بنعمة ربك) بحمده

وانعامه بصدق النبوة ورجاحة العقل (بكاهن ولا مجنون) كما يقولون قاتلهم الله أنى يؤفكون (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون)

يكون المراد انه اذا كان شاعرا فصروف الزمان ربما تضعف ذهنه وتورث وهنه فيتبين لكل فساد أمره وكساد شعره (المسئلة الخامسة) كيف قال تربصوا بلفظ الامر وأمر النبي صلى الله عليه وسلم يوجب المأمور أو يفيد جوازه وتربصهم ذلك كان حراما نقول ذلك ليس بامر وانما هو تهديد معناه تربصوا ذلك فانا نتربص الهلاك بكم على حد ما يقول السيد الغضبان لعبده افعل ماشئت فاني لست عنك بغافل وهو أمر لتهوين الامر على النفس كما يقول القائل لمن يهدده برجل ويقول أشكوك الى زيد فيقول اشكني أي لا يهمني ذلك وفيه زيادة فائدة وذلك لانه لو قال لا تشكني لكان ذلك دليل الخوف وينافيه معناه فاني بجواب تام من حيث اللفظ والمعنى فان قيل لو كان كذلك لقال تربصوا أولا تربصوا كما قال اصبروا أولا تصبروا نقول ليس كذلك لانه اذا قال القائل فيما ذكرناه من المثال اشكني أولا تشكني يكون ذلك مفيدا عدم خوفه منه فاذا قال اشكني يكون أدل على عدم الخوف فكأنه يقول أنا فارغ عنه وانما أنت تتوهم أنه يفيد فافعل حتى يبطل اعتقادك (المسئلة السادسة) في قوله تعالى فاني معكم من المتربصين وهو يحتمل وجوها (أحدها) اني معكم من المتربصين أتربص هلاككم وقد أهلكوا يوم بدر وفي غيره من الايام هذا ما عليه الاكثرون والذي نقوله في هذا المقام هو أن الكلام يحتمل وجوها بيانها هو أن قوله تعالى نتربص به ريب المنون ان كان المراد من المنون الموت فقوله اني معكم من المتربصين معناه اني أحاف الموت ولا أتمناه لا لنفسي ولا لاحد لعدم علمي بما قدمت يداه وانما أنا نذير وأنا أقول ما قال ربي أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم فتربصوا موتي وأنا متربصه ولا يسركم ذلك لعدم حصول ما تتوقعون بعدي ويحتمل أن يكون كما قيل تربصوا موتي فاني متربص موتكم بالعذاب وان قلنا المراد من ريب المنون صروف الدهر فمعناه انكار كون صروف الدهر مؤثرة فكأنه يقول انا من المتربصين حتى ابصر ماذا يأتي به دهركم الذي تجعلونه مهلكا ماذا يصيبني منه وعلى التقديرين فنقول النبي صلى الله عليه وسلم يتربص ما يتربصون غير أن في الاول تربصه مع اعتقاد الوقوع وفي الثاني تربصه مع اعتقاد عدم التأثير على طريقة من يقول انا أيضا انتظر ما ينتظره حتى أرى ماذا يكون منكرا عليه وقوع ما يتوقع وقوعه وانما قلنا هذا لان ترك المفعول في قوله اني معكم من المتربصين لكونه مذكورا وهو ريب المنون أولى من تركه وارادة غير المذكور وهو العذاب (الثاني) أتربص صروف الدهر ليظهر عدم تأثيرها فيهم ولم يتربص بهم شيئا على الوجهين وعلى هذا الوجه يتربص بقاءه بعدهم وارتفاع كلمته فلم يتربص بهم شيئا على الوجوه التي اخترناها فقال اني معكم من المتربصين * ثم قال تعالى (أم تأمرهم احلامهم بهذا أم هم قوم طاغون) وأم هذه أيضا على ما ذكرنا متصلة تقديرها أنزل عليهم ذكر أم تأمرهم احلامهم بهذا وذلك لان الاشياء اما ان تثبت بسمع واما أن تثبت بعقل فقال هل ورد أمر سمعي أم عقولهم تأمرهم بما كانوا يقولون أم هم قوم طاغون يغترون

وهو ما يقلق النفوس ويشخص بها من حوادث الدهر وقيل المنون الموت وهو في الاصل فعول من منه اذا قطعه لان الموت قطوع أي بل أيقولون ننتظر به نوائب الدهر (قل تربصوا فاني معكم من المتربصين) أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي وفيه عدة كريمة (ام تأمرهم أحلامهم) أي عقولهم (بهذا) أي بهذا التناقض في المقال فان الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر في الامور والمجنون مغطى عقله مختل فكره والشاعر ذو كلام موزون متسق مخيل فكيف يجتمع أوصاف هؤلاء في واحد وأمر الاحلام بذلك مجاز عن أدائها اليه (أم هم قوم طاغون) مجاوزون الحدود في المكابرة والعناد لا يحومون حول الرشد والسداد ولذلك يقولون ما يقولون من الاكاذيب الخارجة عن دائرة العقول والظنون وقرئ بل هم

ويقولون مالادليل عليه سمعا ولامقتضى له عقلا والطغيان مجاوزة الحد فى العصيان وكذلك كل شئ ظاهره مكروه قال الله تعالى لما طغى الماء وفيه مسائل (الاولى) اذا كان المراد ماذكرت فلم أسقط مايصدر به نقول لان كون ما يقولون به مسندا الى نقل معلوم عدمه لايخفى واما كونه معقولا فهم كانوا يدعون انه معقول واما كونهم طاغين فهو حق فخص الله تعالى بالذكر ماقالوا به وقال الله به فهم قالوا نحن نتبع العقل والله تعالى قال هم طاغون فذكر الامرين اللذين وقع فيهما الخلاف (المسئلة الثانية) قوله تأمرهم احلامهم اشارة الى ان كل مالايكون على وفق العقل لاينبغى أن يقال وانما ينبغى أن يقال مايجب قوله عقلا فهل صار واجبا عقلا مأموراته (المسئلة الثالثة) ما الاحلام نقول جمع حلم وهو العقل وهما من باب واحد من حيث المعنى لان العقل يضبط المرء فيكون كالبعير المعقول لايتحرك عن مكانه والحلم من الحلم وهو ايضا سبب وقار المرء وثباته وكذلك يقال للعقول النهى من النهى وهو المنع وفيه معنى لطيف وهو أن الحلم فى أصل اللغة هو مايراه النائم فينزل ويلزمه الغسل وهو سبب البلوغ وعنده يصير الانسان مكلفا وكان الله تعالى من لطف حكمته قرن الشهوة بالعقل وعند ظهور الشهوة كمل العقل فاشار الى العقل بالاشارة الى مايقارنه وهو الحلم ليعلم أنه بذر كمال العقل لا العقل الذى به يحترز الانسان تخطى الشوك ودخول النار وعلى هذا ففيه تأكيد لما ذكرنا أن الانسان لاينبغى أن يقول كل معقول بل لايقول الا مايأمر به العقل الرزين الذى عنده يصح التكليف (المسئلة الرابعة) هذا اشارة الى ماذا نقول فيه وجوه (الاول) أن يكون هذا اشارة مبهمة أى بهذا الذى يظهر منهم قولا وفعلا حيث يعبدون الاصنام والاوثان ويقولون الهذيان من الكلام (الثانى) هذا اشارة الى قولهم هو كاهن هو شاعر هو مجنون (الثالث) هذا اشارة الى التربص فانهم لما قالوا نتربص قال الله تعالى أعقولهم تأمرهم بتربص هلاكهم فان أحدا لم يتوقع هلاك نبيه الا وهلاك (المسئلة الخامسة) هل يصح ان تكون أم فى هذا الموضع بمعنى بل نقول نعم تقديره يقولون انه شاعر قولا بل يعتقدونه عقلا ويدخل فى عقولهم ذلك أى ليس ذلك قولا منهم من غير عقل بل يعتقدون كونه كاهنا ومجنونا ويدل عليه قراءة من قرأ بل هم قوم طاغون لكن بل ههنا واضح وفى قوله بل تأمرهم أحلامهم خفى * ثم قال تعالى (أم يقولون تقوله بل لايؤمنون) وهو متصل بقوله تعالى أم يقولون شاعر نتربص به وتقديره على ماذكرنا أتقولون كاهن أم تقولون شاعر أم تقوله * ثم قال ابطالا جميع الاقسام (فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين) أى ان كان هو شاعرا ففيكم الشعراء البلغاء والكهنة الاذكياء ومن يرتجل الخطب والقصائد ويقص القصص ولا يختلف الناقص والزائد فليأتوا بمثل ماأتى به والتقول يراد به الكذب وفيه اشارة الى معنى لطيف وهو ان التفعل للتكلف وارائة الشئ وهو ليس على مايرى يقال تمرض فلان أى لم يكن مريضا وأرى من نفسه المرض وحينئذ كأنهم كانوا يقولون كذب وليس

(أم يقولون تقوله) أى اختلقه من تلقاء نفسه (بل لا يؤمنون) فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه الاباطيل التى لايخفى على أحد بطلانها كيف لا وما رسول الله صلى الله عليه وسلم الا واحد من العرب فكيف أتى بما عجز عنه كافة الامم من العرب والعجم (فليأتوا بحديث مثله) مثل القرآن فى النعوت التى استقل بها من حيث النظم ومن حيث المعنى (ان كانوا صادقين) فيما زعموا فان صدقهم فى ذلك يستدعى قدرتهم على الاتيان بمثله بقضية مشاركتهم له عليه الصلاة والسلام فى البشرية والعربية مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والاشعار وكثرة المزاولة لاساليب النظم والنثر والمبالغة فى حفظ الوقايع والايام ولا ريب فى أن القدرة على الشئ من موجبات الاتيان به ودواعى الامر بذلك

يقول انما هو تقول صورته صورة القول وليس في الحقيقة به ليعلم أن المكذب هو الصادق وقوله تعالى بل لا يؤمنون بيان هذا انهم كانوا في زمان نزول الوحي وحصول المعجزة كانوا يشاهدونها وكان ذلك يقتضي أن يشهدوا له عند غيرهم و يكونوا كالنجوم للمؤمنين كما كانت الصحابة رضي الله عنهم وهم لم يكونوا كذلك بل أقل من ذلك لم يكونوا أيضا وهو أن يكونوا من آحاد المؤمنين الذين لم يشهدوا تلك الامور ولم يظهر الامر عندهم ذلك الظهور وقوله تعالى فليأتوا الفاء للتعقيب أي اذا كان كذلك فيجب عليهم أن يأتوا بمثل ما أتى به ليصح كلامهم و يبطل كلامه وفيه مباحث (الاول) قال بعض العلماء فليأتوا أمر تعجيز يقوله القائل لمن يدعي أمرا أو فعلا و يكون غرضه اظهار عجزه والظاهر ان الامر ههنا مبقى على حقيقته لانه لم يقل ائتوا مطلقا بل انما قال ائتوا ان كنتم صادقين وعلى هذا التقدير وجود ذلك الشرط يجب الاتيان به وأمر التعجيز في كلام الله تعالى قوله تعالى ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر وليس هذا بحثا يورث خللا في كلامهم (الثاني) قالت المعتزلة الحديث محدث والقرآن سماه حديثا فيكون محدثا نقول الحديث اسم مشترك يقال للمحدث والقديم ولهذا يصح أن يقال هذا حديث قديم بمعنى متقادم العهد لا بمعنى سلب الاولية وذلك لا نزاع فيه (الثالث) النحاة يقولون الصفة تتبع الموصوف في التعريف والتنكير لكن الموصوف حديث وهو منكر ومثل مضاف الى القرآن والمضاف الى المعرف معرف فكيف هذا نقول مثل وغير لا يتعرفان بالاضافة وكذلك كل ما هو مثلهما والسبب ان غيرا ومثلا وأمثالهما في غاية التنكير فانك اذا قلت ما رأيت شيئا مثل زيد يتناول كل شيء فان كل شيء مثل زيد في كونه شيئا فالجماد مثله في الجسم والحجم والامكان والنبات مثله في النشور والنماء والذبول والفناء والحيوان مثله في الحركة والادراك وغيرهما من الاوصاف واما غير فهو عند الاضافة ينكر وعند قطع الاضافة ربما يتعرف فانك اذا قلت غير زيد صار في غاية الابهام فانه يتناول أمورا لا حصر لها واما اذا قطعته عن الاضافة ربما تقول الغير والمغايرة من باب واحد وكذلك التغير فتجعل الغير كأسماء الاجناس أو تجعله مبتدأ وتريد به معنى معينا (البحث الرابع) ان كانوا صادقين أي في قولهم تقوله وقد ذكرنا أن ذلك راجع الى ما سبق من أنه كاهن وأنه مجنون وأنه شاعر وأنه متقول ولو كانوا صادقين في شيء من ذلك لهان عليهم الاتيان بمثل القرآن ولما امتنع كذبوا في الكل (البحث الخامس) قد ذكرنا أن القرآن معجز ولا شك فيه فان الخلق عجزوا عن الاتيان بمثل ما يقرب منه مع التحدي فاما أن يكون كونه معجزا لفصاحته وهو مذهب أكثر أهل السنة واما أن يكون معجزا لصرف الله عقول العقلاء عن الاتيان بمثله وعقله وألسنتهم عن النطق بما يقرب منه ومنع القادر من الاتيان بالمقدور كاتيان الواحد بفعل لا يقدر عليه غيره فان من قال لغيره أنا أحرك هذا الجبل يستبعد منه وكذا اذا قال اني أفعل فعلا لا يقدر الخلق على حمل تفاحة من

موضعها يستبعد منه على ان كل واحد فعل مجز اذا اتصل بالدعوى وهذا مذهب بعض المتكلمين ولا فساد فيه وعلى أن يقال هو معجز بهما جميعا ❁ ثم قال تعالى (أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون) ومن ههنا لا خلاف ان أم ليست بمعنى بل لكن أكثر المفسرين على ان المراد ما يقع فى صدر الكلام من الاستفهام اما بالهمزة فكأنه يقول أخلقوا من غير شئ أو هل و يحتمل أن يقال هو على أصل الوضع للاستفهام الذى يقع فى اثناء الكلام وتقديره أما خلقوا أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما وجه تعلق الآية بما قبلها نقول لما كذبوا النبى صلى الله عليه وسلم ونسبوه الى الكهانة والجنون والشعر وبرأه الله من ذلك ذكر الدليل على صدقه ابطالا لتكذيبهم وبدأ بأنفسهم كأنه يقول كيف يكذبونه وفى أنفسهم دليل صدقه لان قوله فى ثلاثة أشياء فى التوحيد والحشر والرسالة وفى انفسهم ما يعلم به صدقه وبيانه هو انهم خلقوا وذلك دليل التوحيد لما بينا ان ❁ فى كل شئ له آية تدل على انه واحد ❁ وقد بينا وجهه مرارا فلا نعيده وأما الحشر فلان الخلق الاول دليل على جواز الخلق الثانى وامكانه ويدل على ما ذكرنا ان الله تعالى ختم الاستفهامات بقوله أم لهم اله غير الله سبحان الله عما يشركون (٢) (المسئلة الثانية) اذا كان الامر على ما ذكرت فلم حذف قوله أما خلقوا نقول لظهور انتفاء ذلك ظهورا لا يبقى معه للخلاف وجه فان قيل فلم لم يصدر بقوله أما خلقوا ويقول أم خلقوا من غير شئ نقول ليعلم ان قبل هذا أمرا منفيا ظاهرا وهذا المذكور قريب منه فى ظهور البطلان فان قيل قوله أم خلقوا من غير شئ أيضا ظاهر البطلان لانهم علموا انهم مخلوقون من تراب وماء ونطفة نقول الاول أظهر فى البطلان لان كونهم غير مخلوقين أمر يكون مدعيه منكرا للضرورة فمنكره منكر لامر ضرورى (المسئلة الثالثة) ما المراد من قوله تعالى من غير شئ نقول فيه وجوه المنقول منها انهم خلقوا من غير خالق وقيل انهم خلقوا لا لشئ عبثا وقيل انهم خلقوا من غير أب وأم ويحتمل أن يقال أم خلقوا من غير شئ أى ألم يخلقوا من تراب أو من ماء دليله قوله تعالى ألم نخلقكم من ماء مهين ويحتمل أن يقال الاستفهام الثانى ليس بمعنى النفى بل هو بمعنى الاثبات قال الله تعالى أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤن كل ذلك فى الاول منفى وفى الثانى مثبت كذلك ههنا قال الله تعالى أم خلقوا من غير شئ أى الصادق هو هذا الثانى حينئذ وهذا كما فى قوله تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا فان قيل كيف يكون ذلك الاثبات والآدمى خلق من تراب نقول والتراب خلق من غير شئ فالانسان اذا نظرت الى خلقه واسندت النظر الى ابتداء أمره وجدته خلق من غير شئ أو نقول المراد أم خلقوا من غير شئ مذكور أو معتبر وهو الماء المهين (المسئلة الرابعة) ما الوجه فى ذكر الامور الثلاثة التى فى الآية نقول هى أمور مرتبة كل واحد منها يمنع القول بالوحدانية والحشر فاستفهم بها وقال أما خلقوا

(أم خلقوا من غير شئ) أى أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع من غير محدث ومقدر وقيل أم خلقوا من أجل لا شئ من عبادة وجزاء (أم هم الخالقون) لانفسهم فلذلك لا يعبدون الله سبحانه

(٢) لعله ترك الثالث لظهوره وهو أنه اذا ثبت حقية المبدأ والمعاد ثبت حقيقة أمر الرسالة الخ ما ذكره زاده فراجعه

قوله فان قيل فلم لم يصدر الخ لا يخفى أن هذا عين ما قبله فتأمل

أصلا والثالث ينكرون القول بالتوحيد لانتفاء الايجاد وهو الخبر ينكرون الحشر لانتفاء الخلق الاول أم خلقوا من غير شئ أى أم يقولون بانهم خلقوا ولا اعادة كما قال أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وعلى قولنا ان المراد خلقوا الامن تراب ولا من ماء وجه ظاهر وهو ان الخلق اذا لم يكن شئ بل يكون ابدا عبثا يخفى كونه مخلوقا على أعظم الاغبياء ولهذا قال بعضهم السماء رفع اتفاقا ووجد من غير خالق وأما الانسان الذى يكون أولا نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحما وعظما لا يمكن أحد من انكاره بعد مشاهدة أحواله فقال تعالى أم خلقوا بحيث يخفى عليهم وجه خلقهم بان خلقوا ابتداء من غير سبق حالة عليهم يكونون فيها ترابا ولا ماء ولا نطفة ليس كذلك بل هم كانوا شيئا من تلك الاشياء خلقوا منه خلقا فما خلقوا من غير شئ حتى ينكروا الوحدانية ولهذا قال تعالى يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ولهذا أكثر الله من قوله خلقنا الانسان من نطفة وقوله ألم نخلقكم من ماء مهين يتناول الامرين المذكورين فى هذا الموضع لان قوله ألم نخلقكم من ماء يحتمل أن يكون نفى المجموع بنفى الخلق فيكون كانه قال أخلقتم لامن ماء وعلى قول من قال المراد منه أم خلقوا من غير شئ أى غير خالق. ففيه ترتيب حسن أيضا وذلك لان نفى الصانع اما أن يكون بنفى كون العالم مخلوقا فلا يكون ممكنا واما أن يكون ممكنا لكن الممكن لا يكون محتاجا فيقع الممكن من غير مؤثر وكلاهما محال وأما قوله تعالى أم هم الخالقون فمعناه أهم الخالقون للخلق فيعجز الخالق بكثرة العمل فان دأب الانسان انه يعيا بالخلق فاقوالهم أما خلقوا فلا يثبت لهم اله البتة أم خلقوا وخفى عليهم وجه الخلق أم جعلوا الخالق مثلهم فنسبوا اليه العجز ومثله قوله تعالى أفعيينا بالخلق الاول هذا بالنسبة الى الحشر وأما بالنسبة الى التوحيد فهو رد عليهم حيث قالوا الامور مختلفة واختلاف الآثار يدل على اختلاف المؤثرات وقالوا أجعل الآلهة الها واحدا فقال تعالى أم هم الخالقون حيث لا يقدر الخباز على الخياطة والخياط على البناء وكل واحد يشغله شأن عن شأن * ثم قال تعالى (ام خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون) وفيه وجوه (أحدها) ما اختاره الزمخشرى وهو أنهم لا يوقنون بانهم خلقوا وهو حينئذ فى معنى قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله أى هم معترفون بانه خلق الله وليس خلق أنفسهم (وثانيها) المراد بل لا يوقنون بان الله واحد وتقديره ليس الامر كذلك أى ما خلقوا وانما لا يوقنون بوحدة الله (وثالثها) لا يوقنون أصلا من غير ذكر مفعول يقال فلان ليس بمؤمن وفلان ليس بكافر لبيان مذهبه وان لم ينو مفعولا وكذلك قول القائل فلان يؤذى ويؤذى لبيان مافيه لا مع القصد الى ذكر مفعول وحينئذ يكون تقديره انهم ما خلقوا السموات والارض ولا يوقنون بهذه الدلائل بل لا يوقنون أصلا وان جئتهم بكل آية يدل عليه قوله تعالى بعد ذلك وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم وهذه الآية اشارة الى دليل الآفاق وقوله من قبل

(أم خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون) أى اذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والارض قالوا الله وهم غير موقنين بما قالوا والا لما أعرضوا عن عبادته

أم خلقوا دليل الانفس * ثم قال تعالى (أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون) وفيه وجوه (أحدها) المراد من الخزائن خزائن الرحمة (ثانيها) خزائن الغيب (ثالثها) انه اشارة الى الاسرار الالهية المخفية عن الاعيان (رابعها) خزائن المخلوقات التي لم يرها الانسان ولم يسمع بها وهذه الوجوه الاول والثاني منقول والثالث والرابع مستنبط وقوله تعالى أم هم المسيطرون تتمة للرد عليهم وذلك لانه لما قال أم عندهم خزائن ربك اشار الى انهم ليسوا بخزنة الله فيعلموا خزائن الله وليس بمجرد انتفاء كونهم خزنة ينتفي العلم لجواز أن يكون مشرفا على الخزانة فان العلم بالخزائن عند الخازن والكاتب في الخزانة فقال لستم بخزنة ولا بكتبة الخزانة المسلطين عليها ولا يبعد تفسير المسيطرين بكتبة الخزانة لان التركيب يدل على السطر وهو يستعمل في الكتاب وقيل المسيطر المسلط وقرئ بالصاد وكذلك في كثير من السينات التي مع الطاء كما في قوله تعالى بمسيطر ومصيطر * ثم قال تعالى (أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين) وهو أيضا تتمة للدليل فان من لا يكون خازنا ولا كاتبا قد يطلع على الامر باستماع من الخازن أو الكاتب فقال أنتم لستم بخزنة ولا كتبة ولا اجتمعتم بهم لانهم ملائكة ولا صعود لكم اليهم وفيه مسائل (المسألة الاولى) المقصود نفي الصعود ولا يلزم من نفي السلم لهم نفي الصعود فالجواب عنه نقول النفي أبلغ من نفي الصعود وهو نفي الاستماع وآخر الآية شامل للكل قال تعالى فليأت مستمعهم بسلطان مبين (المسألة الثانية) السلم لا يستمع فيه وانما يستمع عليه فما الجواب نقول من وجهين (أحدهما) ما ذكره الزمخشري ان المراد يستمعون صاعدين فيه (وثانيهما) ما ذكره الواحدي ان في بمعنى على كما في قوله تعالى ولأصلبنكم في جذوع النخل أي على جذوع النخل وكلاهما ضعيف لما فيه من الاضمار والتغيير (المسألة الثالثة) لم ترك ذكر مفعول يستمعون وماذا هو نقول فيه وجوه (أحدها) المستمع هو الوحي أي هل لهم سلم يستمعون فيه الوحي (ثانيها) يستمعون ما يقولون من أنه شاعر وأن لله شريكا وأن الحشر لا يكون (ثالثها) ترك المفعول رأسا كأنه يقول هل لهم قوة الاستماع من السماء حتى يعلموا انه ليس برسول وكلامه ليس بمرسل (المسألة الرابعة) قال فليأت مستمعهم ولم يقل فليأتوا كما قال تعالى فليأتوا بحديث مثله نقول طلب منهم ما يكون أهون على تقدير صدقهم ليكون امتناعهم عنه أدل على بطلان قولهم فقال هناك فليأتوا أي اجتمعوا عليه وتعاونوا وأتوا بمثله فان ذلك عند الاجتماع أهون وأما الارتقاء في السلم بالاجتماع متعذر لانه لا يرتقي الا واحد بعد واحد ولا يحصل في الدرجة العليا الا واحد فقال فليأت ذلك الواحد الذي كان أشد رقيا بما سمعه (المسألة الخامسة) قوله بسلطان مبين ما المراد به نقول هو اشارة الى لطيفة وهي أنه لو طلب منهم ما سمعوه وقيل لهم فليأت مستمعهم بما سمع لكان لواحد أن يقول أنا سمعت كذا وكذا فيفتري كذبا فقال لا بل الواجب ان يأتي بدليل يدل عليه * ثم قال تعالى (أم له البنات ولكم البنون) اشارة الى نفي

(أم عندهم خزائن ربك) أي خزائن رزقه ورحمته حتى يرزقوا النبوة من شاؤا ويمسكوها عمن شاؤا وعندهم خزائن علمه وحكمته حتى يختاروا لها من اقتضت الحكمة اختيارا (أم هم المسيطرون) أي الغالبون على الامور يدبرونها كيفما شاؤا حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الامور على ارادتهم ومشيئتهم وقرئ المصيطرون بالصاد لمكان الطاء (أم لهم سلم) منصوب الى السماء (يستمعون فيه) صاعدين الى كلام الملائكة وما يوحى اليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من الامور التي يتقولون فيها رجما بالغيب ويعلقون بها أطماعهم الفارغة (فليأت مستمعهم بسلطان مبين) بحجة واضحة تصدق استماعه (أم له البنات ولكم البنون) تسفيه لهم وتركيك لعقولهم وايذان بان من هذا رأيه لا يكاد يعد من العقلاء فضلا عن الترقي الى عالم الملكوت والتطلع على الاسرار الغيبية والالتفات الى الخطاب لتشديد ما في أم المنقطعة من الانكار والتوبيخ

الشرك وفساد مايقولون بطريق آخر وهوان المتصرف انما يحتاج الى الشريك لعجزه والله قادر فلا شريك له فانهم قالوا نحن لانجعل هذه الاصنام وغيرها شركاء وانما نعظمها لانها بنات الله فقال تعالى كيف تجعلون لله البنات وخالق البنات والبنين انما كان لجواز الفناء على الشخص ولولا التوالد لانقطع النسل وارتفع الاصل من غير أن يقوم مقامه انفصل فقدر الله التوالد ولهذا لايكون فى الجنة ولادة لان الدار دار البقاء لاموت فيها للآباء حتى تقام العمارة بحدوث الابناء اذا ثبت هذا فالولد انما يكون فى صورة امكان فناء الاب ولهذا قال تعالى فى أوائل سورة آل عمران الحى القيوم أى حى لايموت فيحتاج الى ولد يرثه وهو قيوم لايتغير ولايضعف فيفتقر الى ولد يقوم مقامه لانه ورد فى نصارى نجران ثم ان الله تعالى بين هذا بأبلغ الوجوه وقال انهم يجعلون له بنات و يجعلون لانفسهم بنين مع ان جعل البنات لهم أولى وذلك لان كثرة البنات تعين على كثرة الاولاد لان الاناث الكثيرة يمكن منهن الولادة بأولاد كثيرة من واحد وأما الذكور الكثيرة لايمكن منهم احبال أنثى واحدة بأولاد الاترى ان الغنم لاتذبح منها الاناث الانادرا وذلك لماثبت ان ابقاء النوع بالانثى انفع نظرا الى التكثير فقال تعالى انا القيوم الذى لافناء لى ولاحاجة لى فى بقاء النوع فى حدوث الشخص وأنتم معرضون للموت العاجل و بقاء العالم بالاناث أكثر وتتبرأون منهن والله تعالى مستغن عن ذلك وتجعلون له البنات وعلى هذا فماتقدم كان اشارة الى نفى الشريك نظرا الى انه لاابتداء لله وهذا اشارة الى نفى الشريك نظرا الى انه لافناء له فان قيل كيف وقع لهم نسبة البنات الى الله تعالى مع ان هذا أمر فى غاية القبح لايخفى على عاقل والقوم كان لهم العقول التى هى مناط التكليف وذلك القدر كاف فى العلم بفساد هذا القول نقول ذلك القول دعاهم اليه اتباع العقل وعدم اعتبار النقل ومذهبهم فى ذلك مذهب الفلاسفة حيث يقولون يجب اتباع العقل الصريح و يقولون النقل يعزل لايتبع الااذا وافق العقل واذا وافق فلا اعتبار للنقل لان العقل هناك كاف ثم قالوا الوالد يسمى والدا لانه سبب وجود الولد ولهذا يقال اذا ظهر شئ من شئ هذا تولد من ذلك فيقولون الحى تتولد من عفونة الخلط فقالوا الله تعالى سبب وجود الملائكة سببا واجبا لااختيار له فسموه بالوالد ولم يلتفتوا الى وجوب تنزيه الله فى تسميته بذلك عن التسمية بما يوهم النقص ووجوب الاقتصار فى أسمائه على الاسماء الحسنى التى ورد بها الشرع لعدم اعتبارهم النقل فقالوا يجوز اطلاق الاسماء المجازية والحقيقية على الله تعالى وصفاته فسموه عاشقا ومعشوقا وسموه أبا ووالدا ولم يسموه ابنا ولامولودا باتفاقهم وذلك ضلالة ❊ ثم قال تعالى (أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون) وجه التعلق هو أن المشركين لما طرحوا الشرع واتبعوا ماظنوه عقلا وسموا الموجود بعد العدم مولودا ومتولدا والموجد والدا لزمهم الكفر بسببه والاشراك فقال لهم ما الذى يحملكم على اطراح الشرع وترك اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم هل ذلك اطلبه منكم

(أم تسألهم أجرا) رجوع الى خطابه عليه الصلاة والسلام واعراض عنهم أى بل أتسألهم أجرا على تبليغ الرسالة (فهم) لذلك (من مغرم) من التزام غرامة فادحة (مثقلون) محملون الثقل فلذلك لايتبعونك

شيئا فما كان يسعهم ان يقولوا نعم فلم يبق لهم الا أن يقولوا لا فنقول لهم كيف اتبعتم قول الفلسفي الذي يسوغ لكم قول الزور وما يوجب الاستخفاف بجانب الله تعالى لفظا ان لم يكن معنى كما تقولون ولا تتبعون الذي يأمركم بالعدل في المعنى والاحسان في اللفظ ويقول لكم اتبعوا المعنى الحق الواضح واستعملوا اللفظ الحسن المؤدب وهذا في غاية الحسن من التقدير * وأما التفسير ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة في سؤال النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال أم تسألهم ولم يقل أم يسألون أجرا كما قال تعالى أم يقولون وقال تعالى أم يريدون كيدا الى غير ذلك نقول فيه فائدتان (احداهما) تسلية قلب النبي صلى الله عليه وسلم وذلك لانهم لما امتنعوا من الاستماع واستنكفوا من الاتباع صعب على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له ربه أنت أتيت بما عليك فلا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا فأنت غير ملوم وانما كنت تلام لو كنت طلبت منهم أجرا فهل طلبت ذلك فأثقلهم فلا حرج عليك اذا (ثانيتهما) انه لو قال أم يسألون لزم في طلب أجر مطلقا وليس كذلك وذلك لانهم كانوا مشركين وكانوا يطالبون بالاجر من رؤسائهم وأما النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أنت لا تسألهم أجرا فهم لا يتبعونك وغيرك يسألهم وهم يسألون ويتبعون السائلين وهذا غاية الضلال (المسئلة الثانية) ان قال قائل ألزمت أن تبين ان أم لا تقع الا متوسطة حقيقة أو تقديرا فكيف ذلك ههنا نقول كأنه تعالى يقول أتهديهم أو حد الله أم تسألهم أجرا وترك الاول لعدم وقوع الانكار عليه كما قلنا في قوله أم له البنات ان التقدير الهو واحد أم له البنات وترك ذكر الاول لعدم وقوع الانكار عليه من الله تعالى وكونهم قائلين بانه لا يريد وجه الله تعالى وانما يريد الرياسة والاجر في الدنيا (المسئلة الثالثة) هل في خصوص قوله تعالى أجرا فائدة لا توجد في غيره لو قال أم تسألهم شيئا ومالا أو غير ذلك نقول نعم وقد تقدم القول منا ان كل لفظ في القرآن فيه فائدة وان كنا لا نعلمها والذي يظهر ههنا ان ذلك اشارة الى أن ما يأتي به النبي صلى الله عليه وسلم فيه مصلحتهم وذلك لان الاجر لا يطلب الا عند فعل شيء يفيد المطلوب منه الاجر فقال أنت أتيتهم بما لو طلبت عليه أجرا وعلموا كمال ما في دعوتك من المنفعة لهم وبهم لأتوك بجميع أموالهم ولفدوك بأنفسهم ومع هذا لا تطلب منهم أجرا ولو قال شيئا أو مالا لما حصلت هذه الفائدة والله اعلم (المسئلة الرابعة) هذا يدل على انه لم يطلب منهم اجرا ما وقوله تعالى قل لا اسئلكم عليه اجرا الا المودة في القربى يدل على انه طلب اجرا ما فكيف الجمع بينهما نقول لا تفرقة بينهما بل الكل حق وكلاهما ككلام واحد وبيانه هو ان المراد من قوله الا المودة في القربى هو اني لا اسئلكم عليه أجرا يعود الى الدنيا وانما أجري المحبة في الزلفى الى الله تعالى وان عباد الله الكاملين أقرب الى الله تعالى من عباده الناقصين وعباد الله الذين كلهم الله وكلموه وأرسلهم لتكميل عباده فكملوا أقرب الى الله من الذين لم يرسلهم الله ولم يكملوا وعلى هذا فهو في معنى قوله ان أجري الا على الله واليه

أعمى وقوله صلى الله عليه وسلم فانى أباهى بكم الامم يوم القيامة وقوله فهم من مغرم مثقلون بين ماذكرنا ان قوله أم تسالهم أجرا المراد أجرا الدنيا وقوله قل لاأسئلكم عليه أجرا المراد العموم ثم استثنى ولاحاجة الى ماقاله الواحدى ان ذلك منقطع معناه لكن المودة فى القربى وقد ذكرناه هنالك فليطلب منه (المسئلة الخامسة) قوله تعالى فهم من مغرم مثقلون اشارة الى أنه صلى الله عليه وسلم ماطلب منهم شيئا ولوطلبهم باجر ما كان لهم أن يتركوا اتباعه بادنى شئ اللهم الا ان أثقلهم التكليف ويأخذ كل مالهم وعنهم التخليف فيثقلهم الدين بعدما لايبقى لهم العين * ثم قال تعالى (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) وهو على الترتيب الذى ذكرناه كانه تعالى قال لهم بم اطرحتم الشرع ومحاسنه وقلتم ماقلتم بناء على اتباعكم الاوهام الفاسدة التى تسمونها المعقولات والنبى صلى الله عليه وسلم لايطلب منكم أجرا وأنتم لاتعلمون فلاعذر لكم لان العذر اما فى الغرامة واما فى عدم الحاجة الى ماجاء به ولاغرامة عليكم فيه ولاغنى لكم عنه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كيف التقدير قلنا لاحاجة الى التقدير بل هو استفهام متوسط على ماذكرنا كأنه قال أتهديهم اوجه الله تعالى أم تسألهم أجرا فيمتنعون أم لاحاجة لهم الى ماتقول لكونهم عندهم الغيب فلايتبعون (المسئلة الثانية) الالف واللام فى الغيب لتعريف ماذا الجنس أو العهد نقول الظاهر ان المراد نوع الغيب كما يقول القائل اشتر اللحم يريد بيان الحقيقة لاكل لحم ولالحما معينا والمراد فى قوله تعالى عالم الغيب والشهادة الجنس واستغراقه لكل غيب (المسئلة الثالثة) على هذا كيف يصح عندهم الغيب وماعند الشخص لايكون غيبا نقول معناه حضر عندهم ماغاب عن غيرهم وقيل هذا متعلق بقوله نتربص به ريب المنون أى أعندكم الغيب تعلمون انه يموت قبلكم وهو ضعيف لبعد ذلك ذكرا ولان قوله تعالى قل تربصوا متصل به وذلك يمنع اتصال هذا بذلك (المسئلة الرابعة) ما الفائدة فى قوله فهم يكتبون نقول وضوح الامر واشارة الى ان ماعند النبى صلى الله عليه وسلم من علم الغيب علم بالوحى أمورا واسرارا واحكاما واخبارا كثيرة كلها هو جازم بها وليس كما يقول المتفرس الامر كذا وكذا فان قيل اكتب به خطك انه يكون يمتنع ويقول أنا لاأدعى فيه الجزم والقطع ولكن اذكره كذا وكذا على سبيل الظن والاستنباط وان كان قاطعا يقول اكتبوا هذا عنى وأثبتوا فى الدواوين ان فى اليوم الفلانى يقع كذا وكذا فقوله أم عندهم الغيب فهم يكتبون يعنى هل صاروا فى درجة محمد صلى الله عليه وسلم حتى استغنوا عنه وأعرضوا ونقل عن ابن قتيبة ان المراد من الكتابة الحكم معناه يحكمون متمسكا بقوله صلى الله عليه وسلم اقض بيننا بكتاب الله أى حكم الله وليس المراد ذلك بل هو من باب الاضمار معناه بما فى كتاب الله تعالى يقال فلان يقضى بمذهب الشافعى أى بما فيه ويقول الرسول الذى معه كتاب الملك للرعية اعلموا بكتاب الملك * ثم قال تعالى (أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون)

(أم عندهم الغيب) أى اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب (فهم يكتبون) مافيه حتى يتكلموا فى ذلك بنفى أو اثبات (أم يريدون كيدا) هو كيدهم برسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة (فالذين كفروا) هم المذكورون ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بما فى حيز الصلة من الكفر

وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما وجه التعلق والمناسبة بين الكلامين قلنا بين ذلك ببيان المراد من قوله أم يريدون كيدا فبعض المفسرين قال أم يريدون أن يكيدوك فهم المكيدون أي لا يقدرون على الكيد فان الله يصونك بعينه وينصرك بصونه وعلى هذا اذا قلنا بقول من يقول أم عندهم الغيب متصل بقوله تعالى نتربص به ريب المنون فيه ترتيب في غاية الحسن وهو انهم لما قالوا نتربص به ريب المنون قيل لهم أتعلمون الغيب فتعلمون انه يموت قبلكم أم تريدون كيدا فتقولون نقتله فيموت قبلنا فان كنتم تدعون الغيب فانتم كاذبون وان كنتم تظنون انكم تقدرون عليه فانتم غالطون فان الله يصونه عنكم وينصره عليكم واما على ما قلنا ان المراد منه انه صلى الله عليه وسلم لا يسألكم على الهداية مالا وأنتم لا تعلمون ما جاء به ولا هدايته لكونه من الغيوب فنقول فيه وجوه (الاول) ان المراد من قوله تعالى أم يريدون كيدا أي من الشيطان وازاغته فيحصل مرادهم كأنه تعالى قال أنت لا تسألهم أجرا وهم لا يعلمون الغيب فهم محتاجون اليك وأعرضوا فقد اختاروا كيد الشيطان ورضوا بازاغته والارادة بمعنى الاختيار والمحبة كما قال تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه وكما قال أئفكا آلهة دون الله تريدون وأظهر من ذلك قوله تعالى اني أريد أن تبوء باثمي واثمك (الوجه الثاني) أن يقال ان المراد والله أعلم أم يريدون كيد الله فيه واصل اليهم وهم عن قريب مكيدون وترتيب الكلام هو انهم لم يبق لهم حجة في الاعراض فهم يريدون نزول العذاب بهم والله أرسل اليهم رسولا لا يسألهم أجرا ويهديهم الى ما لا علم لهم ولا كتاب عندهم وهم يعرضون فهم يريدون اذا أن يهلكهم ويكيدهم لان الاستدراج كيد والاملاء لازدياد الاثم كذلك لا يقال هو فاسد لان الكيد والاساءة لا يطلق على فعل الله تعالى الا بطريق المقابلة وكذلك المكر فلا يقال أساء الله الى الكفار ولا اعتدى الله الا اذا ذكر أولا فيهم شيء من ذلك ثم قال بعد ذلك بسببه لفظا في حق الله تعالى كما في قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وقال فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه وقال ومكروا ومكر الله وقال يكيدون كيدا وأكيد كيدا لانا نقول الكيد ما يسوء من نزل به وان حسن ممن وجد منه ألا ترى ان ابراهيم عليه السلام قال لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين من غير مقابلة (المسئلة الثانية) ما الفائدة في قوله تعالى فالذين كفروا هم المكيدون وما الفرق بين معنى هذا الكلام ومعنى قول القائل أم يريدون كيدا فهم المكيدون نقول الفائدة كون الكافر مكيدا في مقابلة كفره لا في مقابلة ارادته الكيد ولو قال أم يريدون كيدا فهم المكيدون كان يفهم منه انهم ان لم يريدوه لا يكونوا مكيدين وهذا يؤيد ما ذكرنا ان المراد من الكيد كيد الشيطان أو كيد الله بمعنى عذابه اياهم لان قوله فالذين كفروا هم المكيدون عام في كل كافر كاده الشيطان ويكيده الله أي يعذبه وصار المعنى على ما ذكرناه أتهديهم لوجه الله أم تسألهم أجرا فتثقلهم فيمتنعون عن الاتباع

وتعليل الحكم به أوجع الكفرة وهم داخلون فيهم دخولا أوليا (هم المكيدون) أي هم الذين يحيق بهم كيدهم أو يعود عليهم وباله لا من أرادوا أن يكيدوه وهو ما أصابهم يوم بدر أو هم المغلوبون في الكيد من كايدته فكدته

ام عندهم الغيب فلا يحتاجون اليك فيعرضون عنك أم ليس شئ من هذين الامرين
الأخيرين فيريدون العذاب والعذاب غير مدفوع عنهم بوجه من الوجوه لكفرهم
فالذين كفروا معذبون (المسئلة الثالثة) ما الفائدة فى تنكير الكيد حيث لم يقل
أم يريدون كيدك أو المكيد أو غير ذلك ليزول الابهام نقول فيه فائدة وهى الاشارة
الى وقوع العذاب من حيث لا يشعرون فكأنه قال يأتيهم بغتة ولا يكون لهم به
علم أو يكون ايرادا لعظمته كما ذكرنا مرارا * ثم قال تعالى (أم لهم اله غير الله سبحان
الله عما يشركون) أعاد التوحيد وهو يفيد فائدة قوله تعالى أم له البنات ولكم
البنون وفى سبحان الله بحث شريف وهو أن أهل اللغة قالوا سبحان اسم علم للتسبيح
وقد ذكرنا ذلك فى تفسير قوله فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون واكثرنا من
الفوائد فان قيل يجوز أن نقول سبحان اسم مصدر ونقول سبحان على وزن فعلان
فذكر سبحان فى غير مواضع الايقاع لله كما يقال فى التسبيح نقول ذلك مثل قول القائل
من حرف جار وفى كلمة ظرف حيث يخبر عنه مع ان الحرف لا يخبر عنه فيجاب ان من وفى
حينئذ جعلا كالاسم ولم يتركا على أصلهما المستعمل فى مثل قولك أخذت من زيد والدرهم
فى الكيس فكذلك سبحان فيما ذكر من المواضع لم يترك على موضع استعماله فانه
حينئذ لم يترك علما كما يقال زيد على وزن فعل بخلاف التسبيح فيما ذكرنا (المسئلة الرابعة)
ما فى قوله تعالى عما يشركون يحتمل وجهين (أحدهما) أن تكون مصدرية معناه سبحانه
عن اشراكهم (ثانيهما) خبرية معناه عن الذين يشركون وعلى هذا فيحتمل أن يكون
عن الولد لانهم كانوا يقولون البنات لله فقال سبحان الله عن البنات والبنين ويحتمل أن
يكون عن مثل الآلهة لانهم كانوا يقولون هو مثل ما يعبدونه فقال سبحان الله عن مثل
ما يعبدونه * ثم قال تعالى (وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم)
وجه الترتيب فيه هو انه تعالى لما بين فساد أقوالهم وسقوطها عن درجة الاعتبار أشار الى
أنه لم يبق لهم شئ من وجه الاعتذار فان الآيات ظهرت والحجج تميزت ولم يؤمنوا وبعد ذلك
ان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب أى ينكرون الآية لكن الآية اذا
ظهرت فى أظهر الاشياء كانت أظهر وبيانه هو ان من يأتى بجسم من الاجسام من بيته
وادعى فيه انه فعل به كذا فربما يخطر ببال السامع انه فى بيته ولما يدعه فاذا قال للناس
هاتوا اجساما تريدون حتى أجعل لكم منه كذا يزول ذلك الوهم لكن أظهر الاشياء عند
الانسان الارض التى هى مهده وفرشه والسماء التى هى سقفه وعرشه وكانت العرب
على مذهب الفلاسفة فى أصل المذهب ولا يلتفت الى قول الفلسفى نحن ننزه غاية
التنزيه حتى لا نجوز رؤيته واتصافه بوصف زائد على ذاته ليكون واحدا فى الحقيقة
فكيف يكون مذهبنا مذهب من يشرك بالله صنما منحوتا نقول أنتم لما نسبتم الحوادث
الى الكواكب وشرعتم فى دعوة الكواكب أخذ الجهال عنكم ذلك واتخذوه مذهبا

(أم لهم اله غير الله) يعينهم ويحرسهم من عذابه (سبحان الله عما يشركون) أى عن اشراكهم أو عن شركة ما يشركونه (وان يروا كسفا) قطعة (من السماء ساقطا) لتعذيبهم (يقولوا) من فرط طغيانهم وعنادهم (سحاب مركوم) أى هم فى الطغيان بحيث لو أسقطنا عليهم حسبما قالوا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا لقالوا هذا سحاب تراكم بعضه على بعض يمطرنا ولم يصدقوا انه كسف ساقط للعذاب

واذا ثبت ان العرب في الجاهلية كانت في الاصل على مذهب الفلاسفة وهم يقولون بالطبائع فيقولون الارض طبعها التكوين والسماء طبعها يمنع الانفصال والانفكاك فقال الله تعالى رداعليهم في مواضع ان نشأ نخسف بهم الارض أونسقط عليهم كسفا من السماء ابطالا للطبايع وايثارا للاختيار في الوقائع فقال ههنا ان أتينا بشئ غريب في غاية الغرابة في أظهر الاشياء وهو السماء التي يرونها أبدا ويعلمون أن احدالايصل اليها ليعمل بالادوية وغيرها مايوجب سقوطها لانكروا ذلك فكيف فيما دون ذلك من الامور والذي يؤيد ماذكرناه وانهم كانوا على مذهب الفلاسفة في أمر السماء انهم قالوا أوتسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أي ذلك في زعمك ممكن فاما عندنا فلا والكسفة القطعة يقال كسفة من ثوب أي قطعة وفيه مباحث (البحث الاول) استعمل في السماء لفظة الكسف والغويون ذكروا استعمالها في الثوب لان الله تعالى شبه السماء بالثوب المشو ولهذا ذكره فيما مضى فقال والسموات مطويات وقال تعالى يوم نطوى السماء (البحث الثاني) استعمل الكسف في السماء والخسف في الارض فقال تعالى نخسف بهم الارض وهو يدل على قول من قال يقال في القمر خسوف وفي الشمس كسوف ووجهه ان مخرج الخاء دون مخرج الكاف ومخرج الكاف فوقه متصل به فاستعمال وصف الاسفل للاسفل والاعلى للاعلى فقالوا في الشمس والسماء الكسوف والكسف وفي القمر والارض الخسوف والخسف وهذا من قبيل قولهم في المائح والماتح ان ماتقطه فوق لم فوق البئر وماتقطه من أسفل عند من يجوز نقطه من أسفل لمن تحت في أسفل البئر (البحث الثالث) قال في السحاب وتحمله كسفا مع انه تحت القمر وقال في القمر وخسف القمر وذلك لان القمر عند الخسوف له نظير فوقه وهو الشمس عند الكسوف والسحاب اعتبر فيه نسبته الى أهل الارض حيث ينظرون اليه فلم يقل في القمر خسف بالنسبة الى السحاب وانما قيل ذلك بالنسبة الى الشمس وفي السحاب قيل بالنسبة الى الارض (المسئلة الثانية) ساقطا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون مفعولا ثانيا يقال رأيت زيدا عالما (وثانيهما) أن يكون حالا كما يقال ضربته قائما والثاني أولى لان الرؤية عند التعدي الى مفعولين في أكثر الامر تكون بمعنى العلم تقول أرى هذا المذهب صحيحا وهذا الوجه ظاهرا وعند التعدي الى واحد تكون بمعنى رأى العين في الاكثر تقول رأيت زيدا وقال تعالى لما رأوا بأسنا وقال فاما ترين من البشر أحدا والمراد في الآية رؤية العين (المسئلة الثالثة) في قوله ساقطا فائدة لا تحصل في غير السقوط وذلك لان عندهم لايجوز الانفصال على السموات ولا يمكن نزولها وهبوطها فقال ساقطا ليكون مخالفا لما يعتقدونه من وجهين (أحدهما) الانفصال (والآخر) السقوط ولو قال وان يروا كسفا منفصلا أو معلقا لما حصلت هذه الفائدة (المسئلة الرابعة) في قوله يقولوا فائدة أخرى وذلك لانه يفيد بيان العناد الذي هو مقصود

سرد الآية وذلك لانهم فى ذلك الوقت يستخرجون وجوها حتى لا يلزمهم التسليم فيقولون سحاب قولا من غير عقيدة وعلى هذا يحتمل أن يقال ان يروا المراد العلم ليكون أدخل فى العناد أى اذا علموا وتيقنوا ان السماء ساقطة غيروا وعاندوا وقالوا هذا سحاب مركوم (المسألة الخامسة) قوله تعالى يقولوا سحاب مركوم اشارة الى انهم حين يعجزون عن التكذيب ولا يمكنهم أن يقولوا لم يقع شئ على الارض يرجعون الى التأويل والتخييل وقوله مركوم أى مركب بعضه على بعض كأنهم يدفعون عن أنفسهم ما يورد عليهم بأن السحاب رقيق والاشياء لا ينفذ الجسم فيه وهذا أقوى مانع فيقولون انه ركام فصار صلبا قويا (المسألة السادسة) فى اسقاط كلمة الاشارة حيث لم يقل يقولوا هذا اشارة الى وضوح الامر وظهور العناد فلا يستحسنون ان يأتوا بما لا يبقى معه مراء وقالوا سحاب مركوم مع حذف المبتدأ ليبقى للقائل فيه مجال فيقولون عند تكذيب الخلق اياهم قلنا سحاب مركوم شبهه ومثاله ان تخشى الامر مع عدواتهم استتروا وهذا مجال من يخاف من كلام ولا يعلم انه يقبل منه أو لا يقبل فيجعله ذا وجهين فان رأى النكر على أحدهما فسره بالآخر وان رأى القبول خرج بمراده * ثم قال تعالى (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) أى اذا تبين انهم لا يرجعون فدعهم حتى يلاقوا وفيه مسائل (المسألة الاولى) فذرهم أمر وكان يجب أن يقال لم يبق للنبى صلى الله عليه وسلم جواز دعائهم الى الاسلام وليس كذلك والجواب عنه من وجوه (أحدها) ان هذه الآيات مثل قوله تعالى فاعرض وتول عنهم الى غير ذلك كلها منسوخة بآية القتال وهو ضعيف (ثانيها) ليس المراد الامر وانما المراد التهديد كما يقول سيد العبد الجانى لمن ينصحه دعه فانه سينال وبال جنايته (ثالثها) ان المراد من يعاند وهو غير معين والنبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو الخلق على سبيل العموم ويجوز أن يكون المراد بالخطاب من لم يظهر عناده لا من ظهر عناده فلم يقل الله فى حقه فذرهم ويدل على هذا انه تعالى قال من قبل فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون وقال ههنا فذرهم فمن يذكرهم هم المشفقون الذين قالوا انا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ومن يذرهم الذين قالوا شاعر نتربص به ريب المنون الى غير ذلك (المسألة الثانية) حتى للغاية فيكون كأنه تعالى قال ذرهم الى ذلك اليوم ولا تكلمهم ذلك اليوم تجدد الكلام ونقول ألم أقل لكم ان الساعة آتية وان الحساب يقوم والعذاب يدوم فلا تكلمهم الى ذلك اليوم ثم كلمهم لتعلمهم (ثانيها) ان المراد من حتى الغاية يستعمل فيها اللام كما يقول القائل لا تطعمه حتى يموت أى ليموت لان اللام التى للغرض عندها ينتهى الفعل الذى للغرض فيوجد فيهما معنى الغاية ومعنى التعليل ويجوز استعمال الكلمتين فيها ولعل المراد من قوله تعالى واعبد ربك حتى يأتيك اليقين هذا أى الى أن يأتيك اليقين فان قيل فمن لا يذره أيضا يلاقى ذلك اليوم نقول المراد من قوله يصعقون يهلكون فالمذكر المشفق لا يهلك ويكون مستفتى منهم كما قال

(فذرهم حتى يلاقوا) وقرئ حتى يلقوا (يومهم الذى فيه يصعقون) على البناء للمفعول من صعقته الصاعقة أو من أصعقه بفتح الياء والعين وهو يوم يصيبهم الصعقة بالقتل يوم بدر لا النفخة الاولى كما قيل اذ لا يصعق بها الا من كان حيا حينئذ ولان قوله تعالى

تعالى فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله وقد ذكرنا هنالك أن من اعترف بالحق وعلم ان يوم الحساب كائن فاذا وقعت الصيحة يكون كمن يعلم ان الرعد يرعد ويستعد لسماعه ومن لا يعلم يكون كالغافل فاذا وقعت الصيحة ارتجف الغافل ولم يرتجف العالم وحينئذ لا يكون التوعد بملاقاة يومهم لأن كل أحد يلاقى يومه وانما يكون بملاقاة يومهم الذى فيه يصعقون أى اليوم الموصوف بهذه الصفة وهذا كما قال تعالى لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فان النفى ليس النبذ بالعراء لانه تحقق بدليل قوله تعالى فنبذناه بالعراء وهو سقيم وانما النفى النبذ الذى يكون هو معه مذموما وهذا لم يوجد (المسألة الثالثة) حتى ينصب ما بعدها من الفعل المستقبل تارة ويرفع أخرى والفاصل بينهما ان الفعل اذا كان مستقبلا منتظرا لا يقع فى الحال ينصب تقول تعلمت الفقه حتى ترفع درجتى فانك تنتظره وان كان حالا يرفع تقول اكرر حتى تسقط قوتى ثم أنام والسبب فيه هو أن حتى فى المستقبل الغاية ولام التعليل للغرض والغرض غاية الفعل تقول لم تبنى الدار يقول للسكنى فصار قوله حتى ترفع كقوله لارفع وفيهما اضمار أن فان قيل ما قلت شيئا وما ذكرت السبب فى النصب عند ارادة الاستقبال والرفع عند ارادة الحال نقول الفعل المستقبل اذا كان منتظرا وكان نصب العين ومنصوبا لدى الذهن يوقد يفعل بالفظ ما كان فى معناه ولهذا قالوا فى الاضافة ان المضاف للجر أمر الى أمر فى المعنى جره فى اللفظ والذى يؤيد ما ذكرنا أن الفعل انما ينصب بأن ولن وكى واذن وخواص الفعل الاستقبال فى هذه المواضع جاز والحرف الذى يجعل الفعل للحال يمنع النصب حيث لا يجوز أن تقول اتقول الا ان ينصب فان قيل السين وسوف مع انهما يخلصان الفعل للاستقبال لا ينصبان ويمنعان النصب بالناصب كما فى قوله تعالى علم أن سيكون منكم مرضى نقول سوف والسين ليسا بمعنى غير اختصاص الفعل بالاستقبال وأن ولن بمعنى لا يصح الا فى الاستقبال فلم يثبت بالسين الا الاستقبال ولم يثبت به معنى فى الاستقبال والمنتظر هو ما فى الاستقبال لا نفس الاستقبال مثاله اذا قلت أعبد الله كى يغفر لى أو ليغفر لى أثبت كى غرضا وهو المغفرة وهى فى المستقبل من الزمان واذا قلت أستغفرك ربى أثبت السين استقبال المغفرة وفرق بين ما يكون المقصود من الكلام بيان الاستقبال لكن الاستقبال لا يوجد الا فى معنى فاتى بالمعنى ليبين به الاستقبال وبين ما يكون المقصود منه معنى فى المستقبل فتذكر الاستقبال لتبين محل مقصودك ❊ ثم قال تعالى (يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون) لما قال يلاقوا يومهم وكل بر وفاجر يلاقى يوما أعاد صفة يومهم وذكر ما يتميز به يومهم عن يوم المؤمنين فقال يوم لا يغنى وهو يخالف يوم المؤمنين فانه تعالى قال فيه هذا يوم ينفع الصادقين وفيه مسائل (الاولى) فى يوم لا يغنى وجهان الاول بدل عن قوله يومهم ثانيهما ظرف يلاقوا أى يلاقوا يومهم يوم فان قيل هذا يلزم منه أن يكون اليوم فى يوم فيكون اليوم

(يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا) أى شيئا من الاغناء بدل من يومهم ولا يخفى أن التعرض لبيان عدم نفع كيدهم يستدعى استعمالهم له طمعا فى الانتفاع به وليس ذلك الا ما دبروه فى امره صلى الله عليه وسلم من الكيد الذى من جملته مناصبتهم يوم بدر وأما النفخة الاولى فليست مما يجرى فى مدافعته الكيد والحيل وقيل هو يوم موتهم وفيه ما فيه مع ما تأباه الاضافة المنبئة عن اختصاصه بهم (ولا هم ينصرون) من جهة الغير فى دفع العذاب عنهم

ظرف اليوم تقول هو على حد قول من يقول يأتى يوم قتل فلان يوم تبين جرائمه ولامانع منه وقد ذكرنا بحث الزمان وجواز كونه ظرفا فى قوله تعالى يومئذ وجواز اضافة اليوم الى الزمان مع انه زمان (المسئلة الثانية) قال تعالى يوم لايغنى عنهم كيدهم ولم يقل يوم لايغنيهم كيدهم مع ان الاغناء يتعدى بنفسه لفائدة جليلة وهى ان قول القائل أغنانى كذا يفهم منه انه نفعنى وقوله أغنى عنى يفهم منه انه دفع عنى الضرر وذلك لان قوله أغنانى معناه فى الحقيقة أفادنى غير مستفيد وقوله أغنى عنى أى لم يحوجنى الى الحضور فأغنى غيرى عن حضورى يقول من يطلب لامر خذوا عنى ولدى فانه يغنى عنى أى يغنيكم عنى فيدفع عنى أيضا مشقة الحضور فقوله لايغنى عنهم أى لايدفع عنهم الضرر ولاشك ان قوله لايدفع عنهم ضررا أبلغ من قوله لاينفعهم نفعا واذا قال فى المؤمن لوقال يوم يغنى عنهم صدقهم لما فهم منه نفعهم فقال يوم ينفع كأنه قال يوم يغنيهم صدقهم فكأنه استعمل فى المؤمن يغنيهم وفى الكافر لايغنى عنهم وهو مما لايطلع عليه الا من يكون عنده من علم البيان طرف ويتفكر بقريحة وقادة آيات الله ووفقه الله (المسئلة الثالثة) الاصل تقديم الفاعل على المفعول والاصل تقديم المضمر على المظهر أما فى الاول فلان الفاعل متصل بالفعل ولهذا قالوا فعلت فاسكنوا اللام لئلا يلزم أربع متحركات فى كلمة واحدة وقالوا ضربك ولم يسكنوا لان الكاف ضمير المفعول وهو منفصل وأما تقديم المضمر فلانه يكون أشد اختصارا فانك اذا قلت ضربنى زيد يكون أقرب الى الاختصار من قولك ضرب زيد اياى فان لم يكن هناك اختصار كقولك مربى زيد ومر زيد بى فالاولى تقديم الفاعل وههنا لوقال يوم لايغنيهم كيدهم كان الاحسن تقديم المفعول فاذا قال يوم لايغنى عنهم صار كما قلنا فى مر زيد بى فلم لم يقدم الفاعل نقول فيه فائدة مستفادة من علم البيان وهو أن تقديم الاهم أولى فلو قال يوم لايغنى كيدهم كان السامع لهذا الكلام ربما يقول لايغنى كيدهم غيرهم فيرجو الخير فى حقهم واذا سمع لايغنى عنهم انقطع رجاؤه وانتظر الامر الذى ليس بغنى (المسئلة الرابعة) قد ذكرنا أن معنى الكيد هو فعل يسوء من نزل به وان حسن ممن صدر منه فما الفائدة فى تخصيص العمل الذى يسوء بالذكر ولم يقل يوم لايغنى عنهم أفعالهم على الاطلاق نقول هو قياس بالطريق الاولى لانهم كانوا يأتون بفعل يسىء النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وكانوا يعتقدون انه أحسن اعمالهم فقال ما أغنى أحسن أعمالهم الذى كانوا يعتقدون فيه ليقطع رجاؤهم عما دونه وفيه وجه آخر وهو انه تعالى لما قال من قبل أم يريدون كيدا وقد قلنا ان أكثر المفسرين على أن المراد به تدبيرهم فى قتل النبى صلى الله عليه وسلم قال هم المكيدون أى لاينفعهم كيدهم فى الدنيا فماذا يفعلون يوم لاينفعهم ذلك الكيد بل يضرهم وقوله ولاهم ينصرون فيه وجوه (أحدها) أنه متمم بيان وجهه هو ان الداهى أولا يرتب أمور الدفع المكروه بحيث لايحتاج الى الانتصار بالغير والمنة ثم اذا

لم يتعد ذلك يقتصر باختيار قتال لا ينفعهم أعمال أنفسهم ولا ينصرهم غيرهم عند البأس وخصوص اليأس عن إقبالهم (ثانيها) أن المراد منه ما هو المراد من قوله تعالى لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون بقوله يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا أي عبادتهم الأصنام وقولهم هؤلاء شفعاؤنا وقولهم ما نعبدهم إلا ليقربونا وقوله ولا هم ينصرون أي لا ناصر لهم كما لا شافع ودفع العذاب إما بشفاعة شفيع أو بنصر ناصر (ثالثها) أن نقول الإضافة في كيدهم إضافة المصدر إلى المفعول لا إضافته إلى الفاعل فكأنه قال لا يغني عنهم كيد الشيطان إياهم وبيانه هو أنك تقول أعجبني ضرب زيد عمرا وأعجبني ضرب عمرو فإذا اقتصرت على المصدر والمضاف إليه لا يعلم إلا بالقرينة والنية فإذا سمعت قول القائل أعجبني ضرب زيد يحتمل أن يكون زيد ضاربا ويحتمل أن يكون مضروبا فإذا سمعت قول القائل أعجبني قطع اللص على سرقة دلت القرينة على أنه مضاف إلى المفعول فإن قيل هذا فاسد من حيث أنه لا يصح حينئذ لأن كيد الملك لا ينفع قطعا ولا يخفى ذلك على أحد فلا يحتاج إلى بيان لكن بعد لكائد يظن أنه ينفع فقال تعالى ذلك لا ينفع نقول كيد الشيطان إياهم على عبادة الأصنام وهم كانوا يظنون أنها تنفع وأما كيدهم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يعلمون أنه لا ينفع في الآخرة وإنما طلبوا أن ينفعهم في الدنيا لا في الآخرة فلا إشكال يبقى على مذهب الوجه الأول ولا إشكال على الوجهين جميعا إذ تمسكت قوله فليأتوا ثم قال تعالى (وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون) في اتصال الكلام وجهان (أحدهما) متصل بقوله تعالى فذرهم وذلك لأنه يدل على عدم جواز القتال وقد قيل إنه نازل قبل شرع القتال وحينئذ كأنه قال فذرهم ولا تذرهم مطلقا من غير قتال بل إن قبل يوم القيامة عذاب يوم بدر حيث تؤمر بقتالهم فيكون بيانا ووعدا بالفتح فذرهم بالعذاب يوم بدر (ثانيهما) هو متصل بقوله تعالى لا يغني وذلك لأنه لما بين أن كيدهم لا يغني عنهم شيئا ولا يقتصر على عدم الإغناء بل إنهم مع أن كيدهم لا يغني بل آخر وهو العذاب المعد لهم ولو قال لا يغني عنهم كيدهم كان يوهم أنه لا ينفع ولكن لا يضر فلما قال مع ذلك وإن للذين ظلموا عذابا زال ذلك وفيه مسائل (المسألة الأولى) الذين ظلموا هم أهل مكة إن قلنا العذاب هو عذاب يوم بدر وإن قلنا العذاب هو عذاب القبر فالذين ظلموا عام في كل ظالم (المسألة الثانية) ما المراد من الظلم ههنا نقول فيه وجوه (الأول) هو كيدهم نبيهم والثاني عبادتهم الأوثان والثالث كفرهم وهذا مناسب للوجه الثاني (المسألة الثالثة) دون ذلك على قول أكثر المفسرين معناه قبل ذلك ويؤيده قوله تعالى ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ويحتمل وجهين آخرين (أحدهما) دون ذلك أي أقل من ذلك في الدوام والشدة يقال الضرب دون القتل في الإيلام ولا شك أن عذاب الدنيا دون عذاب الآخرة على هذا المعنى وعلى هذا ففيه فائدة التنبيه على أن عذاب الآخرة العظيم وذلك لأنه إذا قال عذابا

(وإن للذين ظلموا) أي لهم ووضع الموصوف موضع الضمير لما ذكر من قبل أي وإن لهؤلاء الظلمة (عذابا) آخر (دون ذلك) دون ما لاقوه من القتل أي قبله وهو القحط الذي أصابهم سبع سنين أو وراءه كما في قوله تريك القذى من دونها وهو دونها وهو عذاب القبر وما بعده من فنون عذاب الآخرة وقرئ دون ذلك قريبا (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن الأمر كما ذكر وفيه إشارة إلى أن فيهم من يعلم ذلك وإنما يصر على الكفر عنادا أو لا يعلمون شيئا أصلا

دون ذلك أي قتلا وعذابا في القبر فيتذكر المتذكر ويقول مايكون القتل دونه لا يكون الاعظيما فان قيل فهذا المعنى لا يمكن أن يقال في قوله تعالى ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر قلنا نسلم ذلك ولكن لامانع من أن يكون المراد ههنا هذا الثاني على طريقة قول القائل تحت لجاجك مفاسد ودون غرضك متاعب وبيانه هوانهم لما عبدوا غير الله ظلموا أنفسهم حيث وضعوها في غير موضعها الذي خلقت له فقيل لهم ان لكم دون ذلك الظلم عذابا (المسئلة الرابعة) ذلك اشارة الى ماذا نقول الظاهر انه اشارة الى اليوم وفيه وجهان آخران (أحدهما) في قوله يصعقون وقوله لا يغني عنهم اشارة الى عذاب واقع فقوله ذلك اشارة اليه ويمكن أن يقال قد تقدم قوله ان عذاب ربك لواقع وقوله دون ذلك أي دون ذلك العذاب (ثانيهما) دون ذلك اي كيدهم فذلك اشارة الى الكيد وقد بينا وجهه في المثال الذي مثلنا وهو قول القائل تحت لجاجك حرمانك والله أعلم (المسئلة الخامسة) ولكن اكثرهم لا يعلمون ذكرنا فيه وجوها (أحدها) انه جرى على عادة العرب حيث تعبر عن الكل بالاكثر كما قال تعالى أكثرهم بهم مؤمنون ثم ان الله تعالى تكلم على تلك العادة ليعلم ان الله استحسنها من المتكلم حيث يكون ذلك بعيدا عن الخلف (ثانيها) منهم من آمن فلم يكن ممن لا يعلم (ثالثها) هم في أكثر الاحوال لم يعلموا وفي بعض الاحوال علموا وأقله انهم علموا حال الكشف وان لم ينفعهم (المسئلة السادسة) مفعول لا يعلمون جاز أن يكون هو ما تقدم من الامر وهو أن لهم عذابا دون ذلك وجاز أن لا يكون له مفعول أصلا فيكون المراد أكثرهم غافلون جاهلون * ثم قال تعالى (فاصبر لحكم ربك فانك باعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم) وقد ذكرناه في تفسير قوله تعالى فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ونشير الى بعضه ههنا فان طول العهد ينسي فنقول لما قال تعالى فذرهم كان فيه الاشارة الى انه لم يبق في نصحهم نفع ولا سيما وقد تقدم قوله تعالى وان يروا كسفا من السماء وكان ذلك مما يحمل النبي صلى الله عليه وسلم على الدعاء كما قال نوح عليه السلام رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا وكادعا يونس عليه السلام فقال الله تعالى اصبر وأمر بدل اللعن بالتسبيح وسبح بحمد ربك بدل قولك اللهم أهلكهم الاترى الى قوله تعالى فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت وقوله تعالى فانك باعيننا فيه وجوه (الاول) انه تعالى لما بين أنهم يكيدونه كان ذلك مما يقتضي في العرف المبادرة الى اهلاكهم لئلا يتم كيدهم فقال اصبر ولا تخف فانك محفوظ باعيننا (ثانيها) انه تعالى قال فاصبر ولا تدع عليهم فانك بمرأى منا نراك وهذه الحالة تقتضي أن تكون على أفضل مايكون من الاحوال لكن كونك مسبحا لنا أفضل من كونك داعيا على عباد خلقناهم فاختر الافضل فانك بمرأى منا (ثالثها) أن من يشكو حاله عند غيره يكون فيه انباء عن عدم علم المشكو اليه بحال الشاكي فقال تعالى اصبر ولا تشك حالك فانك باعيننا نراك فلا فائدة في شكواك وفيه مسائل مختصة

(فاصبر لحكم ربك) بامهالهم الى يومهم الموعود وابقائك فيما بينهم مع مقاساة الاحزان ومعاناة الهموم (فانك بأعيننا) أي في حفظنا وحمايتنا بحيث نراقبك ونكلؤك وجمع العين لجمع الضمير والايذان بغاية الاعتناء بالحفظ (وسبح) أي نزهه تعالى عما لا يليق به ملتبسا (بحمد ربك) على نعمائه الفائتة للحصر (حين تقوم) من أي مكان قمت قال سعيد بن جبير وعطاء أي قل حين تقوم من مجلسك سبحانك اللهم وبحمدك وقال ابن عباس رضي الله عنهما معناه صل لله حين تقوم من منامك وقال الضحاك والربيع اذا قمت الى الصلاة فقل سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله غيرك وقوله تعالى

بهذا الموضع لاتوجد في قوله فاصبر على مايقولون (المسألة الاولى) اللام في قوله فاصبر لحكم تحتمل وجوها (الاول) هي بمعنى الى أي اصبر الى أن يحكم الله (الثاني) الصبر فيه معنى الثبات فكأنه يقول فاثبت لحكم ربك يقال ثبت فلان لحمل قرنه (الثالث) هي اللام التي تستعمل بمعنى السبب يقال لم خرجت فيقال لحكم فلان علي بالخروج فقال فاصبر واجعل سبب الصبر امتثال الامر حيث قال فاصبر أي فاصبر لهذا الحكم عليك لالشيء آخر (المسألة الثانية) قال ههنا بأعيننا وقال في موضع آخر ولتصنع على عيني نقول لما وحد الضمير هناك وهو ياء المتكلم وحده وحد العين ولما ذكر ههنا ضمير الجمع في قوله بأعيننا وهو النون جمع العين وقال بأعيننا هذا من حيث اللفظ وأما من حيث المعنى فلان الحفظ ههنا أتم لان الصبر مطية الرحمة بالنبي صلى الله عليه وسلم حيث اجتمع له الناس وجمعوا له مكايد وتشاوروا في أمره وكذلك أمره بالفلك وأمره بالاتخاذ عند عدم الماء وحفظه من الغرق مع كون كل البقاع مغمورة تحت الماء تحتاج الى حفظ عظيم في نظر الخلق فقال بأعيننا (المسألة الثالثة) ماوجه تعلق الباء ههنا قلنا قد ظهر من جميع الوجوه أما ان قلنا بأنه للحفظ فتقديره محفوظ بأعيننا وان قلنا للعلم فمعناه بمرأى منا أي بمكان نراك وتقديره فانك بأعيننا مرئي وحينئذ هو كقول القائل رأيته بعيني كما يقال كتب بالقلم ألا آلة وان كان رؤية الله ليست بآلة فان قيل فما الفرق في الموضعين حيث قال في طه على عيني وقال هنا بأعيننا وما الفرق بين على و بين الباء نقول معنى على هناك هو انه يرى على مايرضاه الله تعالى كما يقول افعله على عيني أي على رضاي تقديره على وجه يدخل في عيني وألتفت اليه فان من يفعل شيئا لغيره ولا يرتضيه لاينظر فيه ولا يقلب عينه اليه والباء في قوله وسبح بحمد ربك قد ذكرناها وقوله حين تقوم فيه وجوه (الاول) تقوم من موضعك والمراد قبل القيام حين ماتعزم على القيام وحين مجيء القيام وقد ورد في الخبر أن من قال سبحان الله من قبل أن يقوم من مجلسه يكتب ذلك كفارة لما يكون قد صدر منه من اللفظ واللغو في ذلك المجلس (الثاني) حين تقوم من النوم وقد ورد أيضا فيه خبر يدل على انه صلى الله عليه وسلم كان يسبح بعد الانتباه (الثالث) حين تقوم الى الصلاة وقد ورد في الخبر أنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم في افتتاح الصلاة سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله غيرك (الرابع) حين تقوم لامر ما ولاسيما اذا قمت منتصبا لمجاهدة قومك ومعاداتهم والدعاء عليهم فسبح بحمد ربك وبدل قيامك للمعاداة وانتصابك للانتقام بقيامك لذكر الله وتسبيحه (الخامس) حين تقوم أي بالنهار فان الليل محل السكون والنهار محل الابتغاء وهو بالقيام أولى وعلى هذا يكون كقوله ومن الليل فسبحه اشارة الى ما بقي من الزمان وكذلك ادبار النجوم وهو اول الصبح * وقوله تعالى (ومن الليل فسبحه وادبار النجوم) قد تقدم تفسيره وهو كقوله تعالى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وقد ذكرنا فائدة الاختصاص بهذه الاوقات

(ومن الليل فسبحه) افراد لبعض الليل بالتسبيح لما أن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد عن الرياء كما يلوح به تقديمه على الفعل (وادبار النجوم) أي وقت ادبارها من آخر الليل أي غيبتها بضوء الصباح وقيل التسبيح من الليل صلاة العشاءين وادبار النجوم صلاة الفجر وقرئ أدبار النجوم بالفتح أي في أعقابها اذا غربت اوخفيت * عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة والطور كان حقا على الله تعالى أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه في جنته

ومعناه ونختم هذه السورة بفائدة وهي أنه تعالى قال ههنا وادبار النجوم وقال في ق وادبار السجود ويحتمل أن يقال المعنى واحد والمراد من السجود جمع ساجد والنجوم سجود قال تعالى والنجم والشجر يسجدان وقيل المراد من النجم نجوم السماء وقيل النجم ما لا ساق له من النبات قال الله تعالى ولله يسجد من في السماوات ومن في الارض أو المراد من النجوم الوظائف وكل وظيفة نجم في اللغة أي اذا فرغت من وظائف الصلاة فقل سبحان الله وقد ورد في الحديث من قال عقيب الصلاة سبحان الله عشر مرات والحمد لله عشر مرات والله أكبر عشر مرات كتب له ألف حسنة فيكون المعنى في الموضعين واحدا لان السجود من الوظائف والمشهور الظاهر أن المراد من ادبار النجوم وقت الصبح حيث يدبر النجم ويخفى ويذهب ضياؤها بضوء الشمس وحينئذ تبين ما ذكرناه من الوجه الخامس في قوله حين تقوم أن المراد منه النهار لانه محل القيام ومن الليل القدر الذي يكون الانسان يقظان فيه وادبار النجوم وقت الصبح فلا يخرج عن التسبيح الا وقت النوم وهذا آخر تفسير هذه السورة والله أعلم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

(سورة النجم ستون وآيتان مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والنجم اذا هوى) وقبل الشروع في التفسير نقدم مسائل ثم نتفرغ للتفسير وان لم تكن منه (الاولى) أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها لفظا ومعنى أما اللفظ فلان ختم والطور بالنجم وافتتاح هذه بالنجم مع واو القسم وأما المعنى فنقول الله تعالى لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم بين له أنه جزاه في أجزاء مكابدة النبي صلى الله عليه وسلم بالنجوم بعده فقال ما ضل صاحبكم وما غوى (المسئلة الثانية) السور التي تقدمت وافتتاحها بالقسم بالاسماء دون الحروف هي والصافات والذاريات والطور وهذه السورة بعدها فالاولى فيها القسم لاثبات الوحدانية كما قال تعالى ان الهكم لواحد وفي الثانية لوقوع الحشر والجزاء كما قال تعالى انما توعدون لصادق وان الدين لواقع وفي الثالثة لدوام العذاب بعد وقوعه كما قال تعالى ان عذاب ربك لواقع ما له من دافع وفي هذه السورة لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم لتكمل الاصول الثلاثة الوحدانية والحشر والنبوة (المسئلة الثالثة) لم يقسم الله على الوحدانية ولا على النبوة كثيرا أما على الوحدانية فلانه أقسم بأمر واحد في سورة الصافات وأما على النبوة فلانه أقسم بأمر واحد في هذه السورة وبأمرين في سورة الضحى وأكثر من القسم على الحشر وما يتعلق به فان قوله تعالى والليل اذا ... قوله تعالى والشمس وضحاها وقوله تعالى والسماء ذات البروج الى غير ذلك كلها ... الحشر وما يتعلق به وذلك لان دلائل الوحدانية كثيرة كلها عقلية كما قيل

(سورة والنجم مكية وآيها احدى أو اثنتان وستون)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والنجم اذا هوى) المراد بالنجم اما الثريا فانه اسم غالب لها أو جنس النجوم ويهويه غروبه وقيل طلوعه يقال هوى هويا بوزن قبول اذا غرب وهويا بوزن دخول اذا علا وصعد وأما النجم من نجوم القرآن فهويه نزوله والعامل في اذا فعل القسم فانه بمعنى مطلق الوقت منسلخ من معنى الاستقبال كما في قولك آتيك اذا احمر البسر وفي الاقسام بذلك على نزاهته عليه الصلاة والسلام عن شائبة الضلال والغواية من البراعة البديعة وحسن الموقع ما لا غاية وراءه أما على الاولين فلان النجم شأنه أن يهتدي به الساري الى مسالك الدنيا كأنه قيل والنجم الذي يهتدي به السابلة الى سواء

وفي كل شيء له آية ❋ تدل على أنه واحد

ودلائل النبوة أيضا كثيرة وهي المعجزات المشهورة والمتواترة وأما الحشر فامكانه يثبت بالعقل وأما وقوعه فلا يمكن اثباته الا بالسمع فأكثر القسم ليقطع به المكلف ويعتقده اعتقادا جازما وأما التفسير ففيه مسائل (الأولى) الواو للقسم بالنجم أو برب النجم ففيه خلاف تقدم والأظهر أنه قسم بالنجم يقال ليس للقسم في الأصل حرف أصلا لكن الباء والواو يستعملان فيه لمعنى عارض وذلك لأن الباء في أصل القسم هي الباء التي للالصاق والاستعانة وكما يقول القائل استعنت بالله يقول أقسمت بالله وكما يقول أقوم بعون الله على العدو يقول أقسم بحق الله فالباء فيهما بمعنى كما تقول كتبت بالقلم فالباء في الحقيقة ليست للقسم غير أن القسم كثر في الكلام فاستغنى عن ذكره وغيره لم يكثر فلم يستغن عنه فاذا قال القائل بحق زيد يفهم منه القسم لان المراد لو كان هو شيئا آخر لقال بحق زيد اذهب بحق زيد أو لقال أقسم بحق زيد لذكر كما ذكر في هذه الأشياء لعدم الاستغناء فلما لم يذكر شيئا علم أن الحذف للشهرة والاستغناء وذلك ليس في غير القسم فعلم أن المحذوف فعل القسم فكأنه قال أقسم بحق فالباء في الأصل ليس للقسم لكن العارض ما ذكرنا من الكثرة والاشتهار فعل الباء للقسم ثم ان المتكلم نظر فيه فقال هذه لا تخلو عن التباس فاني اذا قلت بالله توقف السامع فان سمع بعده فعلا غير القسم كقوله بالله استعنت وبالله مررت وبالله بحثت وأخذت لا يحمله على القسم وان لم يسمع حمله على القسم فالسامع يتوهم وجود فعل دارك ولم يسمعه اما ان توهم أني ذكرت مع قولي بالله شيئا آخر وما سمعه هو وأيضا يتوقف فيه في فهمه توقف فاذا أراد المتكلم الحكيم الذهاب ذلك مع الاختصار وترك ما استغنى عنه وهو فعل القسم أبدل الباء بالتاء وقال تالله فتكلم بحرفين كلمة الله لاشتهار كلمة الله وأمن من الالتباس فان التاء في أوائل الكلمات قد تكون أصلية وقد تكون للخطاب وللتأنيث فلو أقسم بحرف التاء بن اسمه داعي أو راعي أو هادي أو عادي يقول تداعي أو تراعي أو تهادي أو تعادي فيلتبس وكذلك في اسمه روما أو نوران اذا قلت تروما أو تنوران على أنك تقسم بالتاء تلتبس بتاء الخطاب والتأنيث في الاستقبال فأبدلها واوا والاشكال عليه اشكالان (الأول) مع الواو لم يؤمن الالتباس تقول ولي فتلتبس الواو الأصلية بالتي للقسم لانا نقول ذلك لم يلزم مما ذهبنا اليه وانما كان ذلك في الواو حيث يدل وينبئ عن العطف وان لم يستعمل الواو للقسم كيف وذلك في الباء التي هي كالأصل متحقق تقول برام في جمع برمة وبهام في جمع بهمة ويقال للبسه الباء الأصلية التي في البغال والبرام بالباء التي تلصقها بقولك مال ورأى فتقول بمال وأما التاء لما استعملت للقسم لزم من ذلك الاستعمال الالتباس حيث لم يكن من قبل حرفا من الأدوات كالباء والواو (والاشكال الثاني) لم تركت الباء مما لا التباس فيه كقولك تالرحيم وتالعظيم نقول لما كان كلمة الله في غاية الشهرة والظهور استعملت التاء فيهما على خلاف

(ما ضل صاحبكم) أي ما عدل عن طريق الحق الذي هو مسلك الآخرة (وما غوى) أي وما اعتقد باطلا قط أي هو في غاية الهدى والرشد وليس مما تتوهمونه من الضلال والغواية في شيء أصلا وأما على الثاني فلأنه تنويه بشأن القرآن كما أشير اليه في مطلع سورة يس وسورة الزخرف وتنبيه على مناط اهتدائه عليه الصلاة والسلام ومدار رشاده كأنه قيل والقرآن الذي هو آية في الهداية الى مناهج

الاصل بمعنى لم يجز أن يقاس عليها الاما يكون فى شهرتها وأما غيرها فربما يخفى عند البعض فان من لم يسمع الرخيم وسمع فى الندرة ترخيم بمعنى قطع ربما يقول ترخيم فعل وفاعل أو فعل ومفعول وان كان ذلك فى غاية البعد لكن الاستواء فى الشهرة فى المنقول منه والمنقول اليه لازم ولا مشهور مثل كلمة الله على أنا نقول لم قلت ان عند الأمن لا تستعمل الا ترى انه نقل عن العرب ترب الكعبة والذى يؤيد ما ذكرنا أنك تقول أقسم بالله ولا تقول أقسم تالله لان التاء فيه مخافة الالتباس عند حذف الفعل من القسم وعند الاتيان به لم يخف ذلك فلم يجز (المسئلة الثانية) اللام فى قوله تعالى والنجم لتعريف العهد فى قول ولتعريف الجنس فى قول والاول قول من قال والنجم المراد منه الثريا قال قائلهم

ان بدا النجم عشيا ❊ ابتغى الراعى كسيا

والثانى فيه وجوه (أحدها) النجم هو نجم السماء التى هى ثابتة فيها للاهتداء وقيل لا بل النجوم المنقضة فيها التى هى رجوم للشياطين (ثانيها) نجوم الارض وهى من النبات ما لا ساق له (ثالثها) نجوم القرآن ونذكر مناسبة كل وجه ونبين فيه المختار منها أما على قولنا المراد الثريا فهو أظهر النجوم عند الرائى لان له علامة لا يلتبس بغيره فى السماء ويظهر لكل واحد والنبى صلى الله عليه وسلم تميز عن الكل بآيات بينات فأقسم به ولان الثريا اذا ظهرت من المشرق بالبكر حان ادراك الثمار واذا ظهرت بالعشاء أواخر الخريف تقل الامراض والنبى صلى الله عليه وسلم لما ظهر قل الشك والامراض القلبية وأدركت الثمار الحكمية والحلمية وعلى قولنا المراد هى النجوم التى فى السماء للاهتداء نقول النجوم بها الاهتداء فى البرارى فأقسم الله بها لما بينهما من المشابهة والمناسبة على قولنا المراد الرجوم من النجوم فالنجوم تبعد الشياطين عن أهل السماء والانبياء يبعدون الشياطين عن أهل الارض وعلى قولنا المراد القرآن فهو استدلال بمعجزة النبى صلى الله عليه وسلم على صدقه وبراءته فهو كقوله تعالى يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين على صراط مستقيم ما ضللت ولا غويت وعلى قولنا النجم هو النبات فنقول النبات به ثبات القوى الجسمانية وصلاحها والقوة العقلية أولى بالاصلاح وذلك بالرسل وايضاح السبيل ومن هذا يظهر أن المختار هو النجوم التى هى فى السماء لانها أظهر عند السامع وقوله اذا هوى أدل عليه ثم بعد ذلك القرآن أيضا فيه ظهور ثم الثريا (المسئلة الثالثة) القول فى والنجم كالقول فى الطور حيث لم يقل والنجوم ولا والاطوار وقال والذاريات والمرسلات وقد تقدم ذكره (المسئلة الرابعة) ما الفائدة فى تقييد القسم به بوقت هويه نقول النجم اذا كان فى وسط السماء يكون بعيدا عن الارض لا يهتدى به السارى لانه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال فاذا زال تبين بزواله جانب المغرب من المشرق والجنوب من الشمال كذلك النبى صلى الله عليه وسلم خفض جناحه للمؤمنين وكان على خلق عظيم كما قال تعالى وانك لعلى خلق عظيم وكما قال تعالى فبما رحمة من الله

الدين ومسالك الحق ما ضل عنها محمد عليه الصلاة والسلام وما غوى والخطاب لقريش وايراده عليه الصلاة والسلام بعنوان صاحبهم للايذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة واحاطتهم خبرا ببراءته عليه الصلاة والسلام بغاية الهدى والرشاد فان طول صحبتهم له عليه الصلاة والسلام ومشاهدتهم لمحاسن شؤنه العظيمة مقتضية لذلك حتما

لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فان قيل الاهتداء بالنجم اذا كان على أفق المشرق كالاهتداء به اذا كان على أفق المغرب فلم يبق ماذكرت جوابا عن السؤال نقول الاهتداء بالنجم وهو مائل الى المغرب أكثر لانه يهدي في الطريقين الدنيوي والديني أما الدنيوي فلما ذكرنا وأما الديني فكما قال الخليل لا أحب الآفلين وفيه لطيفة وهي أن الله لما أقسم بالنجم شرفه وعظمه وكان من المشركين من يعبده فقرن بتعظيمه وصفا يدل على أنه لم يبلغ درجة العبادة فانه هاو آفل * ثم قال تعالى (ماضل صاحبكم وماغوى) أكثر المفسرين لم يفرقوا بين الضلال والغي والذي قاله بعضهم عند محاولة الفرق ان الضلال في مقابلة الهدى والغي في مقابلة الرشد قال تعالى وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا وقال تعالى قد تبين الرشد من الغي وتحقيق القول فيه أن الضلال أعم استعمالا في الوضع تقول ضل بعيري ورحلي ولا تقول غوى فالمراد من الضلال ان لا يجد السالك الى مقصده طريقا أصلا والغواية أن لا يكون له طريق الى المقصد مستقيم يدلك على هذا انك تقول للمؤمن الذي ليس على طريق السداد انه سفيه غير رشيد ولا تقول انه ضال والضال كالكافر والغاوي كالفاسق فكأنه تعالى قال ماضل أي ما كفر ولا اقل من ذلك فما فسق ويؤيد ماذكرنا قوله تعالى فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم اونقول الضلال كالعدم والغواية كالوجود الفاسد في الدرجة والمرتبة وقوله صاحبكم فيه وجهان (الاول) سيدكم والآخر مصاحبكم يقال صاحب البيت ورب البيت ويحتمل أن يكون المراد من قوله ماضل أي ماجن فان المجنون ضال وعلى هذا فهو كقوله تعالى ن والقلم ومايسطرون ماأنت بنعمة ربك بمجنون وان لك لاجرا فيرممنون فيكون اشارة الى انه ماغوى بل هو رشيد مرشد دال على الله بارشاد آخر كما قال تعالى قل ماأسئلكم عليه من أجر وقال ان أجري الا على الله وقوله تعالى وانك لعلى خلق عظيم اشارة الى قوله ههنا (وماينطق عن الهوى) فان هذا خلق عظيم ولنبين الترتيب فنقول قال أولا ماضل أي هو على الطريق وماغوى أي طريقه الذي هو عليه مستقيم وما ينطق عن الهوى أي هو راكب متنه آخذ سمت المقصد وذلك لان من يسلك طريقا ليصل الى مقصده فربما يبقى بلا طريق وربما يجد اليه طريقا بعيدا فيه متاعب ومهالك وربما يجد طريقا واسعا آمنا ولكنه يميل يمنة ويسرة فيبعد عنه المقصد ويتأخر عليه الوصول فاذا سلك الجادة وركب متنها كان أسرع وصولا ويمكن أن يقال وماينطق عن الهوى دليل على انه ماضل وماغوى تقديره كيف يضل أو يغوى وهو لا ينطق عن الهوى وانما يضل من يتبع الهوى ويدل عليه قوله تعالى ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله فان قيل ماذكرت من الترتيب الاول على صيغة الماضي في قوله ماضل وصيغة المستقبل في قوله وماينطق في غاية الحسن أي ماضل حين اعتزلكم وماتعبدون في صغره وماغوى حين اختلى بنفسه ورأى في منامه مارأى وماينطق عن الهوى الآن حيث أرسل اليكم

وتقييد القسم بوقت الهوى على الوجه الاخير ظاهر وأما على الاولين فلان النجم لا يهتدي به الساري عند كونه في وسط السماء ولا يعلم المشرق من المغرب ولا الشمال من الجنوب وانما يهتدي به عند هبوطه اوصعوده مع ما فيه من كمال المناسبة لما سيحكى من تدلي جبريل من الافق الاعلى ودنوه منه عليهما السلام هذا هو اللائق بشأن التنزيل الجليل وأما حمل هويه على انتثاره

وجعل رسولا شاهدا عليكم فلم يكن أولا ضالا ولا غاويا وصار الآن منقذا من الضلالة ومرشدا وهاديا وأما على ماذكرت أن تقديره كيف يضل وهو لا ينطق عن الهوى فلا تو افقه الصيغة نقول بلى وبيانه أن الله تعالى يصون من يريد ارساله في صغره عن الكفر والمعايب القبيحة كالسرقة والزنا واعتياد الكذب فقال تعالى ماضل في صغره لانه لا ينطق عن الهوى وأحسن ما يقال في تفسير الهوى أنها المحبة لكن من النفس يقال هويته بمعنى أحببته لكن الحروف التي في هوى تدل على الدنو والنزول والسقوط ومنه الهاوية فالنفس اذا كانت دنيئة وتركت المعالي وتعلقت بالسفاسف فقد هوت فاختص الهوى بالنفس الامارة بالسوء ولو قلت أهوى بقلبي لزال ما فيه من السفالة لكن الاستعمال بعد استبعاد استعمال القرآن حيث لم يستعمل الهوى الا في الموضع الذي يخالف المحبة فانها مستعملة في موضع المدح والذي يدل على ماذكرنا قوله تعالى فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا الى قوله ونهى النفس عن الهوى اشارة الى علو مرتبة النفس ﴿ ثم قال تعالى (ان هو الا وحي يوحى) بكلمة البيان وذلك لانه تعالى لما قال ما ينطق عن الهوى كان قائلا قال فماذا ينطق أعن الدليل أو الاجتهاد فقال لا وانما ينطق عن الله بالوحي وفيه مسائل (المسألة الاولى) ان استعملت مكان ما النافية كما استعملت ما الشرطية مكان ان قال تعالى ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها والمشابهة بينهما من حيث اللفظ والمعنى أما اللفظ فلان ان مركبة من الهمزة والنون وما من الميم والالف والالف كالهمزة والنون كالميم أما الاول فبدليل جواز القلب وأما الثاني فبدليل جواز الادغام ووجوبه وأما المعنى فلان ان تدل على النفي من وجه وعلى الاثبات من وجه ولكن دلالتها على النفي أقوى وأبلغ لان الشرط والجزاء في صورة استعمال لفظة ان يجب أن يكونا في الحال معدومين اذا كان المقصود الحث أو المنع تقول ان تحسن فلك الثواب وان تسيء فلك العقاب وان كان المراد بيان حال القسمين المشكوك فيهما كقولك ان كان هذا الفص زجاجا فقيمته نصف وان كان جوهرا فقيمته ألف فههنا وجود شيء منهما غير معلوم وعدم العلم حاصل وعدم العلم ههنا كعدم الحصول في الحث والمنع فلابد في صور استعمال ان من عدم اما في الامر واما في العلم وأما في الوجود فذلك عند وجود الشرط في بيان الحال ولهذا قال النحاة لا يحسن أن يقال ان احمر البسر آتك لان ذلك أمر سيوجد لا محالة وجوزوا استعمال ان في لا يوجد أصلا يقال في قطع الرجاء ان ابيض القار تغلبني قال الله تعالى فان استقر مكانه فسوف تراني ولم يوجد الاستقرار ولا الرؤية فعلم أن دلالتها على النفي أتم فان مدلوله مدلول ما أقرب فاستعمل أحدهما مكان الآخر هذا هو الظاهر وما يقال ان وما حرفان نافيان في الاصل فلا حاجة الى الترادف (المسألة الثانية) هو ضمير معلوم أو ضمير مذكور نقول فيه وجهان (أشهرهما) أنه ضمير معلوم وهو القرآن كأنه يقول ما القرآن الا وحي وهذا على قول من قال النجم ليس المراد منه القرآن وأما على قول من يقول هو القرآن فهو عائد الى مذكور (الوجه

يوم القيامة أو على انقضاض النجم الذي يرجم به أو حمل النجم على النبات وحمل هويه على سقوطه على الارض أو على ظهوره منها بما لا يناسب المقام (وما ينطق عن الهوى) أي وما يصدر نطقه بالقرآن عن هواه ورأيه أصلا فان المراد استمرار نفي النطق عن الهوى لا نفي استمرار النطق عنه كما مر مرارا (ان هو) أي ما الذي ينطق به من القرآن (الا وحي) من الله تعالى وقوله تعالى (يوحى) صفة مؤكدة لوحي رافعة لاحتمال المجاز مفيدة للاستمرار التجددي

الثانى) أنه عائد الى مذكور ضمنا وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم وكلامه وذلك لان قوله تعالى وما ينطق عن الهوى فى ضمنه النطق وهو كلام وقول فكأنه تعالى يقول وما كلامه وهو نطقه الا وحى وفيه وجه آخر أبعد وأدق وهو أن يقال قوله تعالى ما ضل صاحبكم قد ذكر أن المراد منه فى وجه أنه ما جن وما مسه الجن فليس بكاهن وقوله وما غوى أى ليس بينه و بين الغواية تعلق فليس بشاعر فان الشعراء يتبعهم الغاوون وحينئذ يكون قوله وما ينطق عن الهوى ردا عليهم حيث قالوا قوله قول كاهن وقالوا قوله قول شاعر فقال ما قوله الا وحى وليس بقول كاهن ولا شاعر كما قال تعالى وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون (المسئلة الثالثة) الوحى اسم أو مصدر نقول يحتمل الوجهين فان الوحى اسم معناه الكتاب ومصدر وله معان منها الارسال والالهام والكتابة والكلام والاشارة والافهام فان قلنا هو ضمير القرآن فالوحى اسم معناه الكتاب كأنه يقول ما القرآن الا كتاب و يوحى بمعنى يرسل و يحتمل على هذا أيضا أن يقال هو مصدر أى ما القرآن الا ارسال والهام بمعنى المفعول أى مرسل وان قلنا المراد من قوله ان هو قوله وكلامه فالوحى حينئذ هو الالهام بمعنى ملهم أى كلامه ملهم من الله أو مرسل وفيه مباحث (البحث الاول) الظاهر خلاف ما هو المشهور عند بعض المفسرين وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم ما كان ينطق الا عن وحى ولا حجة لمن توهم هذا فى الآية لان قوله تعالى ان هو الا وحى يوحى ان كان ضمير القرآن فظاهر وان كان ضميرا عائدا الى قوله فالمراد من قوله هو القول الذى كانوا يقولون فيه انه قول شاعر ورد الله عليهم فقال ولا بقول شاعر وذلك القول هو القرآن وان قلنا بما قالوا به فينبغى أن يفسر الوحى بالالهام (البحث الثانى) هذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يجتهد وهو خلاف الظاهر فانه فى الحروب اجتهد وحرم ما قال الله لم تحرم واذن لمن قال تعالى عفا الله عنك لم أذنت لهم نقول على ما ثبت لا تدل الآية عليه (البحث الثالث) يوحى يحتمل أن يكون من وحى يوحى و يحتمل أن يكون من أوحى يوحى تقول عدم يعدم وأعدم يعدم وكذلك علم يعلم وأعلم يعلم فنقول يوحى من أوحى لا من وحى وان كان وحى وأوحى كلاهما جاء بمعنى ولكن الله فى القرآن عند ذكر المصدر لم يذكر الايحاء الذى هو مصدر أوحى وعند ذكر الفعل لم يذكر وحى الذى مصدره وحى بل قال عند ذكر المصدر الوحى وقال عند ذكر الفعل أوحى وكذلك القول فى حب واحب فان حب وأحب بمعنى واحد والله تعالى عند ذكر المصدر لم يذكر فى القرآن الاحباب وذكر الحب قال أو أشد حبا وعند الفعل لم يقل حبه الله بل قال يحبهم و يحبونه وقال أيحب أحدكم وقال لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون الى غير ذلك وفيه سر من علم الصرف وهو أن المصدر والفعل الماضى الثلاثى فيهما خلاف قال بعض علماء الصرف المصدر مشتق من الفعل الماضى والماضى هو الاصل والدليل عليه وجهان لفظى ومعنوى أما اللفظى فانهم يقولون مصدر فعل يفعل اذا كان متعديا فعل بسكون العين واذا كان لازما

(علمه شديد القوى) أى ملك شديد قواه وهو جبريل عليه السلام فانه الواسطة فى ابداء الخوارق وناهيك دليلا على شدة قوته أنه قلع قرى قوم لوط من الماء الاسود الذى هو تحت الثرى وحملها على جناحه ورفعها الى السماء ثم قلبها وصاح بثمود صيحة فاصبحوا جاثمين وكان هبوطه على الانبياء وصعوده فى أسرع من رجعة الطرف (ذو مرة) أى حصافة فى عقله ورأيه ومتانة فى دينه (فاستوى) عطف على علمه بطريق التفسير فانه الى

فعول في الاكثر ولا يقولون الفعل الماضي من فعول فعل وهذا دليل ما ذكرنا وأما المعنوي فلانما يوجد من الامور لا يوجد الا وهو خاص وفي ضمنه العام مثاله الانسان الذي يوجد ويتحقق يكون زيدا أو عمرا أو غيرهما ويكون في ضمنه انه هندي أو تركي وفي ضمن ذلك أنه حيوان وناطق ولا يوجد ولا انسان ثم يصير تركيا ثم يصير زيدا أو عمرا اذا علمت هذا فالفعل الذي يتحقق لا ينفك من أن يكون ماضيا أو مستقبلا وفي ضمنه أنه فعل مع قطع النظر عن مضيه واستقباله مثاله الضرب اذا وجد فاما أن يكون قد مضى أو بعد لم يمض والاول ماض والثاني حاضر أو مستقبل ولا يوجد الضرب من حيث انه ضرب خاليا عن المضي والحضور والاستقبال غير أن العاقل يدرك من فعل وهو يفعل الآن وسيفعل غدا أمرا مشتركا فيسميه فعلا وكذلك يدرك في ضرب وهو يضرب الآن وسيضرب غدا أمرا مشتركا فيسميه ضربا فضرب يوجد أولا ويستخرج منه الضرب والالفاظ وضعت لامور تحقق فيها فيعبر بها عنها والامور المشتركة لا تحقق الا في ضمن أشياء أخر فالوضع أولا لما يوجد منه لا يدرك منه قبل الضرب وهذا ما يمكن أن يقال لمن يقول الماضي أصل والمصدر مأخوذ منه * وأما الذي يقول المصدر اصل والماضي مأخوذ منه فله دلائل منها أن الاسم أصل والفعل متفرع والمصدر اسم ولأن المصدر معرب والماضي مبني والاعراب قبل البناء ولان قال وقال وراع وراع اذا أردنا الفرق بينهما نرد أبنيتهما الى المصدر فنقول قال الالف منقلبة من واو بدليل القول وقال ألفه منقلبة من ياء بدليل القيل وكذلك الروع والريع وأما المعقول فلان الالفاظ وضعت للامور التي في الاذهان والعام قبل الخاص في الذهن فان الموجود اذا أدرك معناه يقول المدرك هذا الموجود جوهر أو عرض فاذا أدرك أنه جوهر يقول انه جسم أو غير جسم عند من يجعل الجسم جوهرا وهو الاصح الاظهر ثم اذا أدرك كونه جسما يقول هو نام وكذلك الامر الى أن ينتهي الى أخص الاشياء ان أمكن الانتهاء اليه بالتقسيم فالوضع الاول الفعل وهو المصدر من غير زيادة ثم اذا انضم اليه زمان تقول ضرب أو سيضرب فالمصدر قبل الماضي وهذا هو الاصح اذا علمت هذا فنقول على مذهب من يقول المصدر في الثلاثي من الماضي فالحب وأحب كلاهما في درجة واحدة لان كليهما من حب يحب والمصدر من الثلاثي قبل مصدر المنشعبة بمرتبة وعلى مذهب من يقول الماضي في الثلاثي مأخوذ من المصدر فالمصدر الثلاثي قبل المصدر في المنشعبة بمرتبتين فاستعمل مصدر الثلاثي لانه قبل مصدر المنشعبة وأما الفعل في أحب وأوحى فلان الالف فيهما تفيد فائدة لا يفيدها الثلاثي المجرد لان أحب أدخل في التعدية وأبعد عن توهم اللزوم فاستعمله (المسئلة الرابعة) ان هو الا وحي أبلغ من قول القائل هو وحي وفيه فائدة غير المبالغة وهي أنهم كانوا يقولون هو قول كاهن هو قول شاعر فاراد نفي قولهم وذلك يحصل بصيغة النفي فقال ما هو كما يقولون وزاد فقال بل هو وحي وفيه زيادة فائدة

قوله تعالى ما أوحى بيان لكيفية التعليم أي فاستقام على صورته التي خلقه الله تعالى عليها دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب أن يراه في صورته التي جبل عليها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء فطلع له جبريل عليه السلام من المشرق فسد الارض من المغرب وملأ الافق فخر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه السلام في صورة الآدميين

أخرى وهو قوله يوحي وذلك كقوله تعالى ولا طائر يطير بجناحيه وفيه تحقيق الحقيقة فان الفرس الشديد العدو ربما يقال هو طائر فاذا قال يطير بجناحيه يزيل جواز المجاز كذلك يقول بعض من لا يحترز في الكلام ويبالغ في المبالغة كلام فلان وحي كما يقول شعره سحر وكما يقول قوله معجز فاذا قال يوحي يزول ذلك المجاز او يبعد ✲ ثم قال تعالى (علمه شديد القوى) وفيه وجهان أشهرهما عند المفسرين ان الضمير في علمه عائد الى الوحي أي الوحي علمه شديد القوى والوحي ان كان هو الكتاب فظاهر وان كان الالهام فهو كقوله تعالى نزل به الروح الامين والاولى أن يقال الضمير عائد الى محمد صلى الله عليه وسلم تقديره علم محمدا شديد القوى جبريل وحينئذ يكون عائدا الى صاحبكم تقديره علم صاحبكم وشديد القوى هو جبريل أي قواه العلمية والعملية كلها شديدة فيعلم ويعمل وقوله شديد القوى فيه فوائد (الاولى) ان مدح المعلم مدح المتعلم فلو قال علمه جبريل ولم يصفه ما كان يحصل النبي صلى الله عليه وسلم به فضيلة ظاهرة (الثانية) هي ان فيه ردا عليهم حيث قالوا أساطير الاولين سمعها وقت سفره الى الشام فقال لم يعلمه احد من الناس بل معلمه شديد القوى والانسان خلق ضعيفا وما أوتي من العلم الا قليلا (الثالثة) فيه وثوق بقول جبريل عليه السلام فقوله تعالى شديد القوى جمع ما يوجب الوثوق لان قوة الادراك شرط الوثوق بقول القائل لانا ان ظننا بواحد فساد ذهن ثم نقل الينا عن بعض الاكابر مسئلة مشكلة لا نثق بقوله ونقول هو ما فهم ما قال وكذلك قوة الحفظ حتى لا نقول أدركها لكن نسيها وكذلك قوة الامانة حتى لا نقول حرفها وغيرها فقال شديد القوى ليجمع هذه الشرائط فيصير كقوله تعالى ذي قوة عند ذي العرش مكين الى أن قال أمين (الرابعة) فيه تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وهي من حيث ان الله تعالى لم يكن مختصا بمكان فنسبته الى جبريل كنسبته الى محمد صلى الله عليه وسلم فاذا علم بواسطته يكون نقصا عن درجته فقال ليس كذلك لانه شديد القوى يثبت لمكالمتنا وأنت بعد ما استويت فتكون كموسى حيث خر فكانه تعالى قد علمه بواسطة ثم علمه من غير واسطة كما قال تعالى وعلمك ما لم تكن تعلم وقال صلى الله عليه وسلم أدبني ربي فاحسن تأديبي ✲ ثم قال تعالى (ذو مرة فاستوى) وفي قوله تعالى ذو مرة وجوه (أحدها) ذو قوة (ثانيها) ذو كمال في العقل والدين جميعا (ثالثها) ذو منظر وهيبة عظيمة (رابعها) ذو خلق حسن فان قيل على قولنا المراد ذو قوة قد تقدم بيان كونه اقوى في قوله شديد القوى فكيف نقول قواه شديدة وله قوة نقول ذلك لا يحسن ان جاء وصفا بعد وصف وأما ان جاء بدلا يجوز كانه قال علمه ذو قوة وترك شديد القوى فليس وصفا له وتقديره ذو قوة عظيمة أو كاملة وهو حينئذ كقوله تعالى انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين فكانه قال علمه ذو قوة فاستوى والوجه الآخر في الجواب هو أن افراد قوة بالذكر ربما يكون لبيان ان قواه المشهورة شديدة وله قوة أخرى خصه الله بها يقال فلان

فضمه الى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه قبل ما رآه أحد من الانبياء في صورته غير النبي عليه الصلاة والسلام فانه رآه فيها مرتين مرة في الارض ومرة في السماء وقيل استوى بقوته على ما جعل له من الامر وقوله تعالى (وهو بالافق الاعلى) أي أفق الشمس حال من فاعل استوى (ثم دنا) أي أراد الدنو من النبي عليهما الصلاة والسلام (فتدلى) أي استرسل من الافق الاعلى مع تعلق به فدنا من النبي يقال تدلت

كثير المال وله مال لا يعرفه أحد أي أمواله الظاهرة كثيرة وله مال باطن على أنا نقول المراد ذو شدة وتقديره علمه من قواه شديدة وفي ذاته أيضا شدة فان الانسان ربما تكون قواه شديدة وفي جسمه صغر وحقارة ورخاوة وفيه لطيفة وهي أنه تعالى أراد بقوله شديد القوى قوته في العلم * ثم قال تعالى ذو مرة أي شدة في جسمه فقدم العلمية على الجسمية كما قال تعالى وزاده بسطة في العلم والجسم وفي قوله فاستوى وجهان المشهور ان المراد جبريل أي فاستوى جبريل في خلقه * ثم قال تعالى (وهو بالافق الاعلى) والمشهور أن هو ضمير جبريل وتقديره استوى كما خلقه الله تعالى بالافق الشرقي فسد المشرق لعظمته والظاهر ان المراد محمد صلى الله عليه وسلم معناه استوى بمكان وهو بالمكان العالي رتبة ومنزلة في رفعة القدر لا حقيقة في الحصول في المكان فان قيل كيف يجوز هذا والله تعالى يقول ولقد رآه بالافق المبين اشارة الى أنه رأى جبريل بالافق المبين نقول وفي ذلك الموضع أيضا نقول كما قلنا ههنا انه صلى الله عليه وسلم رأى جبريل وهو بالافق المبين يقول القائل رأيت الهلال فيقال له أين رأيته فيقول فوق السطح أي أن الرائي فوق السطح لا المرئي والمبين هو الفارق من أبان أي فرق أي هو بالافق الفارق بين درجة الانسان ومنزلة الملك فانه صلى الله عليه وسلم انتهى وبلغ الغاية وصار نبيا كما صار بعض الانبياء نبيا يأتيه الوحي في نومه وعلى هيئته وهو واصل الى الافق الاعلى والافق الفارق بين المنزلتين فان قيل ما بعده يدل على خلاف ما ذهب اليه فان قوله ثم دنا فتدلى الى غير ذلك وقوله تعالى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى كل ذلك يدل على خلاف ما ذكرته نقول سنبين موافقته لما ذكرنا ان شاء الله تعالى في مواضعه عند ذكر تفسيره فان قيل الاحاديث تدل على خلاف ما ذكرته حيث ورد في الاخبار أن جبريل صلى الله عليه وسلم أرى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه على صورته فسد المشرق فنقول نحن ما قلنا انه لم يكن وليس في الحديث أن الله تعالى أراد بهذه الآية تلك الحكاية حتى يلزم مخالفة الحديث وانما نقول ان جبريل أرى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه مرتين وبسط جناحيه وقد ستر الجانب الشرقي وسده لكن الآية لم ترد لبيان ذلك * ثم قال تعالى (ثم دنا فتدلى) وفيه وجوه مشهورة (أحدها) ان جبريل دنا من النبي صلى الله عليه وسلم أي بعد ما مد جناحه وهو بالافق عاد الى الصورة التي كان يعتاد النزول عليها وقرب من النبي صلى الله عليه وسلم وعلى هذا ففي تدلى ثلاثة وجوه (أحدها) فيه تقديم وتأخير تقديره ثم تدلى من الافق الاعلى فدنا من النبي صلى الله عليه وسلم (الثاني) الدنو والتدلي بمعنى واحد كأنه قال دنا فقرب (الثالث) دنا أي قصد القرب من محمد صلى الله عليه وسلم وتحرك عن المكان الذي كان فيه فتدلى فنزل الى النبي صلى الله عليه وسلم (الثاني) على ما ذكرنا من الوجه الاخير في قوله وهو بالافق الاعلى ان محمدا صلى الله عليه وسلم دنا من الخلق والامة ولان لهم وصار كواحد منهم فتدلى أي فتدلى اليهم بالقول اللين والدعاء الرفيق فقال أنا

الثمرة وذلى رجليه من السرير وأدلى دلوه والدوالي الثمر المعلق (فكان) أي مقدار امتداد ما بينهما (قاب قوسين) أي مقدارهما قاب القاب والقيب والقاد والقيد والقيس المقدار وقيل فكان جبريل عليه السلام كأنى قولك هو مني معقد الازار (أو ادنى) أي على تقديركم كما في قوله تعالى او يزيدون والمراد تمثيل ملكة الاتصال وتحقيق استماعه لما أوحى اليه بنفي البعد الملبس (فأوحى) أي جبريل عليه السلام

بشر ملك يوحى الى وعلى هذا فى الكلام كمالان كأنه تعالى قال الاوحى يوحى جبريل على محمد فاستوى محمد وكل فدنا من الخلق بعد علوه وتدلى اليهم وبلغ الرسالة (الثالث) وهو ضعيف سخيف وهو أن المراد منه هو ربه تعالى وهو مذهب القائلين بالجهة والمكان اللهم الا أن يريد القرب بالمنزلة وعلى هذا يكون فيه ما فى قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه تعالى من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ومن مشى الى أتيته هرولة اشارة الى المعنى المجازى وههنا لما بين ان النبى صلى الله عليه وسلم استوى وعلا فى المنزلة العقلية لا فى المكان الحسى قال وقرب الله منه تحقيقا لما قوله من تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا * ثم قال تعالى (فكان قاب قوسين أو أدنى) أى بين جبرائيل ومحمد عليهما السلام مقدار قوسين أو أقل ورد هذا على استعمال العرب وعادتهم فان الاميرين منهم أو الكبيرين اذا اصطلحا وتعاهدا خرجا بقوسيهما ووتر كل واحد منهما طرف قوسه بطرف قوس صاحبه ومن دونهما من الرعية يكون كفه بكفه فينهيان باعيهما ولذلك تسمى مبايعة وعلى هذا ففيه لطيفة وهى ان قوله قاب قوسين على جعل كونهما كبيرين وقوله أو أدنى لفضل أحدهما على الآخر فان الامير اذا بايعه الرعية لا يكون مع المبايع قوس فيصافحه الامير فكأنه تعالى أخبر انهما كاميرين كبيرين فكان بينهما مقدار قوسين أو كان جبرائيل عليه السلام سفيرا بين الله تعالى ومحمد صلى الله عليه وسلم فكان كالتبع لمحمد صلى الله عليه وسلم فصار كالمبايع الذى يمد الباع لا القوس هذا على قول من يفضل النبى صلى الله عليه وسلم على جبرائيل عليه السلام وهو مذهب أهل السنة الا قليلا منهم اذ كان جبرائيل رسولا من الله واجب التعظيم والاتباع فصار النبى صلى الله عليه وسلم عنده كالتبع له على قول من يفضل جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم وفيه وجه آخر على ما ذكرنا وهو أن يكون القوس عبارة عن بعد من قاس يقوس وعلى هذا فنقول ذلك البعد هو البعد النوعى الذى كان للنبى صلى الله عليه وسلم فانه على كل حال كان بشرا وجبريل على كل حال كان ملكا فالنبى صلى الله عليه وسلم وان زال عن الصفات التى تخالف صفات الملك من الشهوة والغضب والجهل والهوى لكن بشريته كانت باقية وكذلك جبريل وان ترك الكمال والاطف الذى يمنع الرؤية والاحتجاب لكن لم يخرج عن كونه ملكا فلم يبق بينهما الا اختلاف حقيقتهما وأما سائر الصفات الممكنة الزوال فزالت عنهما فارتفع النبى صلى الله عليه وسلم حتى بلغ الافق الاعلى من البشرية وتدلى جبريل عليه السلام حتى بلغ الافق الادنى من الملكية فتقاربا ولم يبق بينهما الا حقيقتهما وعلى هذا ففى فاعل أوحى الاول وجهان (أحدهما) ان الله تعالى أوحى وعلى هذا ففى عبده وجهان (أحدهما) انه جبريل عليه السلام ومعناه أوحى الله الى جبريل وعلى هذا ففى فاعل أوحى الاخير وجهان (أحدهما) الله تعالى أيضا والمعنى حينئذ أوحى الله تعالى الى جبريل عليه السلام الذى

(الى عبده) عبد الله تعالى واضماره قبل الذكر لغاية ظهوره كما فى قوله تعالى ما ترك على ظهرها (ما أوحى) أى من الامور العظيمة التى لا تفى بها العبارة أو فاوحى الله تعالى حينئذ بواسطة جبريل ما أوحى قبل أوحى اليه ان الجنة محرمة على الانبياء حتى تدخلها وعلى الامم حتى تدخلها أمتك (ما كذب الفؤاد) أى فؤاد محمد عليه الصلاة والسلام (ما روى) أى ما رآه ببصره من صورة جبريل عليهما السلام أى ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك ولو قال ذلك لكان كاذبا لانه عرفه بقلبه كما رآه ببصره

أوحاه اليه تفخيما وتعظيما للوحي (ثانيهما) فاعل أوحي ثانيا جبريل والمعنى أوحى الله الى جبريل ما أوحى جبريل الى كل رسول وفيه بيان ان جبرائيل أمين لم يخن في شيء مما اوحي اليه وهذا كقوله تعالى نزل به الروح الامين وقوله مطاع ثم أمين (الوجه الثاني) في عبده على قولنا الموحي هو الله الى محمد صلى الله عليه وسلم معناه أوحى الله الى محمد ما أوحى اليه للتفخيم والتعظيم وهذا على ماذكرنا من التفسير ورد على ترتيب في غاية الحسن وذلك لان محمدا صلى الله عليه وسلم في الاول حصل في الافق الاعلى من مراتب الانسان وهو النبوة ثم دنا من جبريل وهو في مرتبة النبوة فصار رسولا فاستوى وتكامل ودنا من الامة باللطف وتدلى اليهم بالقول الرفيق وجعل يتردد مرارا بين أمته وربه فاوحى الله اليه من غير واسطة جبريل ما أوحى (والوجه الثاني) في فاعل أوحى أولا هو انه جبريل أوحى الى عبده أي الى عبد الله والله معلوم وان لم يكن مذكورا وفي قوله تعالى ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن ما يوجب القطع بعدم جواز اطلاق هذا اللفظ على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى هذا ففاعل أوحى ثانيا يحتمل وجهين (أحدهما) انه جبريل أي أوحى جبريل الى عبد الله ما أوحاه جبريل للتفخيم (وثانيهما) أن يكون هو الله تعالى أي أوحى جبريل الى محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله اليه وفي الذي أوحى وجوه (أولها) الذي أوحى الصلاة (ثانيها) ان أحدا من الانبياء لا يدخل الجنة قبلك وأمة من الامم لاتدخل الجنة قبل أمتك (ثالثها) ان ما للعموم والمراد كل ماجاء به جبريل وهذا على قولنا بان المراد جبريل صحيح والوجهان المتقدمان على قولنا المراد محمد عليه الصلاة والسلام أظهر وفيه وجه غريب من حيث العربية مشهور معناه عند الاصوليين ولنبين ذلك في معرض الجواب عن سؤال وهو أن يقال بم عرف محمد صلى الله عليه وسلم ان جبريل ملك من عند الله وليس أحدا من الجن والذي يقال ان خديجة كشفت رأسها امتحانا في غاية الضعف ان ادعى ذلك القائل ان المعرفة حصلت بامثال ذلك وهذا ان أراد القصة والحكاية وان خديجة فعلت هذا لان فعل خديجة غير منكر وانما المنكر دعوى حصول المعرفة بفعلها وامثالها وذلك لان الشيطان ربما تستر عند كشف رأسها اصلا فكان يشتبه بالملائكة فيحصل اللبس والابهام والجواب الصحيح من وجهين (أحدهما) ان الله أظهر على يد جبريل معجزة عرفه النبي صلى الله عليه وسلم بها كما أظهر على يد محمد معجزات عرفناه بها (وثانيهما) ان الله تعالى خلق في محمد صلى الله عليه وسلم علما ضروريا بان جبريل من عند الله ملك لاجني ولا شيطان كما ان الله تعالى خلق في جبريل علما ضروريا ان المتكلم معه هو الله تعالى وأن المرسل له ربه لاغيره اذا علم الجوابان فنقول * قوله تعالى (فاوحى الى عبده ما أوحى) فيه وجهان (أحدهما) أوحى الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ما أوحاه الى جبريل أي كلمة الله انه وحي

وقرئ ماكذب أي صدقه ولم يشك أنه جبريل بصورته (أفتمارونه على ما يرى) أي أتكذبونه فتجادلونه على ما رآه معاينة أو أبعد ماذكر من أحواله المنافية للمماراة تمارونه من المراء وهو الملاحاة والمجادلة واشتقاقه من مرى الناقة كان كلا من المتجادلين يمري ماعند صاحبه وقرئ أفتمرونه أي أفتغلبونه في المراء من ماريته فمريته ولما فيه من معنى الغلبة عدي بعلى كما يقال غلبته على كذا وقيل أفتمرونه أفتجحدونه من مراه حقه اذا جحده (ولقد رآه نزلة أخرى) أي

أوخلق فيه علما ضروريا (ثانيهما) أوحى الى جبريل ما أوحى الى محمد دليله الذي به يعرف انه وحي فعلى هذا يمكن أن يقال ما مصدرية تقديره فأوحى الى محمد صلى الله عليه وسلم الايحاء أي العلم بالايحاء ليفرق بين الملك والجن ❊ ثم قال تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الفؤاد فؤاد من نقول المشهور انه فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم معناه انه ما كذب فؤاده واللام تعريف ما علم حاله لسبق ذكر محمد عليه الصلاة والسلام في قوله الى عبده وفي قوله وهو بالافق الاعلى وقوله تعالى ما ضل صاحبكم ويحتمل أن يقال ما كذب الفؤاد أي جنس الفؤاد لان الكذب هو الوهم والخيال يقول كيف يرى الله أو كيف يرى جبريل مع انه الطف من الهواء والهواء لا يرى وكذلك يقول الوهم والخيال ان رأى ربه رأى في جهة ومكان وعلى هيئة والكل ينافي كون المرئي الها ولو رأى جبريل عليه السلام مع انه صار على صورة دحية أوغيره فما انقلبت حقيقته ولو جاز ذلك لارتفع الامان عن المرئيات فنقول رؤية الله تعالى ورؤية جبريل عليه السلام على ما رآه محمد عليهما الصلاة والسلام جائزة عند من له قلب فالفؤاد لا ينكر ذلك وان كانت النفس المتوهمة والمتخيلة تنكره (المسئلة الثانية) ما معنى ما كذب نقول فيه وجوه (الوجه الاول) ما قاله الزمخشري وهو ان قلبه لم يكذب وما قال ان ما رآه بصرك ليس بصحيح ولو قال فؤاده ذلك لكان كاذبا فيما قاله وهو قريب مما قاله المبرد حيث قال معناه صدق الفؤاد فيما رأى شيئا فصدق فيه (الثاني) قرئ ما كذب الفؤاد بالتشديد ومعناه ما قال ان المرئي خيال لا حقيقة له (الثالث) هو ان هذا مقرر لما ذكرنا من أن محمدا صلى الله عليه وسلم لما رأى جبريل عليه السلام خلق الله له علما ضروريا علم انه ليس بخيال وليس هو على ما ذكرنا قصد الحق وتقديره ما جوز أن يكون كاذبا ونفي الوقوع وارادة نفي الجواز كثير قال الله تعالى لا يخفى على الله منهم شئ وقال لا تدركه الابصار وقال وما ربك بغافل والكل لنفي الجواز بخلاف قوله تعالى لا نضيع أجر المحسنين ولا نضيع أجر من أحسن عملا ولا يغفر أن يشرك به فانه لنفي الوقوع (المسئلة الثالثة) الرائي في قوله ما رأى هو الفؤاد أو البصر أو غيرهما نقول فيه وجوه (الاول) الفؤاد كأنه تعالى قال ما كذب الفؤاد ما رآه الفؤاد أي لم يقل انه جني أو شيطان بل تيقن ان ما رآه بفؤاد صدق صحيح (الثاني) البصر أي ما كذب الفؤاد ما رآه البصر ولم يقل ان ما رآه البصر خيال (الثالث) ما كذب الفؤاد ما رأى محمد عليه الصلاة والسلام وهذا على قولنا الفؤاد للجنس ظاهر أي القلوب تشهد بصحة ما رآه محمد صلى الله عليه وسلم وان كانت الاوهام لا تعرف بها (المسئلة الرابعة) ما المرئي في قوله ما رأى نقول على الاختلاف السابق والذي يحتمل الكلام وجوه ثلاثة (الاول) الرب تعالى (والثاني) جبريل عليه السلام (والثالث) الآيات العجيبة الالهية فان قيل كيف تمكن رؤية الله تعالى بحيث لا يقدح فيه ولا يلزم منه كونه جسما في جهة نقول أعلم أن العاقل اذا تأمل

و بالله لقد رأى جبريل في صورته مرة أخرى من النزول نصبت النزلة نصب الظرف الذي هو مرة لان الفعلة اسم للمرة من الفعل فكانت في حكمها وقيل تقديره ولقد رآه نازلا نزلة أخرى فنصبها على المصدر (عند سدرة المنتهى) هي شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش ثمرها كقلال هجر وورقها كآذان الفيول تنبع من أصلها الانهار التي ذكرها الله تعالى في كتابه يسير الراكب في ظلها سبعين عاما لا يقطعها والمنتهى موضع الانتهاء أو الانتهاء كأنها

وتفكر في رجـل موجود في مكان وقال هذا مرئي الله تعالى يراه الله وتفكر في أمر لايوجد أصلا وقال هذا مرئي الله تعالى يراه الله تعالى يجد بينهما فرقا وعقله يصحح الكلام الاول ويكذب الكلام الثاني فذلك ليس بمعنى كونه معلوما لانه لو قال الموجود معلوم الله والمعدوم معلوم الله لما وجد في كلامه خللا واستبعادا فالله راء بمعنى كونه عالما ثم ان الله يكون رائيا ولا يصير مقابلا للمرئي ولا يحصل في جهة ولا يكون مقابلا له وانما يصعب على الوهم ذلك من حيث انه لم يرشيئا الا في جهة فيقول ان ذلك واجب ومما يصحح هذا انك ترى في الماء قمرا وفي الحقيقة مارأيت القمر حالة نظرك الى الماء الا في مكانه فوق السماء فرايت القمر في الماء لان الشعاع الخارج من البصر اتصل به فرد الماء ذلك الشعاع الى السماء لكن وهمك لما رأى أكثر ماراه في المقابلة لم يعهد رؤية شيء يكون خلفه الا بالتوجه اليه قال اني أرى القمر ولا رؤية الا اذا كان المرئي في مقابلة الحدقة ولامقابل للحدقة الا الماء فحكم اذن بناء على هذا انه يرى القمر في الماء فالوهم يغلب العقل في العالم لكون الامور العاجلة أكثرها وهمية حسية وفي الآخرة تزول الاوهام وتجلى الافهام فترى الاشياء اوجودها لا لتحيزها واعلم ان من ينكر جواز رؤية الله تعالى يلزمه أن ينكر جواز رؤية جبريل عليه السلام وفيه انكار لرسالة وهو كفر وفيه مايكاد أن يكون كفرا وذلك لان من شك في رؤية الله تعالى يقول لو كان الله تعالى جائز الرؤية لكان واجب الرؤية لان حواسنا سليمة والله تعالى ليس من وراء حجاب ولا هو في غاية البعد عنا لعدم كونه في جهة ولا مكان فلو جاز أن يرى ولا نراه لزم القدح في المحسوسات المشاهدات اذ يجوز حينئذ أن يكون عندنا جبل ولا نراه فيقال لذلك القائل قد صح ان جبريل عليه السلام كان ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم وعنده غيره وهو يراه ولو وجب ما يجوز لرآه كل أحد فان قيل ان هناك حجابا نقول وجب أن يرى هناك حجابا فان الحجاب لا يحجب اذا كان مرئيا على مذهبهم ثم ان النصوص وردت أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه بفؤاده فجعل بصره في فؤاده أو رآه ببصره فجعل فؤاده في بصره وكيف لا وعلى مذهب أهل السنة الرؤية بالارادة لا بقدرة العبد فاذا حصل الله تعالى العلم بالشيء من طريق البصر كان رؤية وان حصله من طريق القلب كان معرفة والله قادر على أن حصل العلم بخلق مدرك للمعلوم في البصر كما قدر على أن يحصله بخلق مدرك في القلب والمسئلة مختلف فيها بين الصحابة في الوقوع واختلاف الوقوع مما ينبئ عن الاتفاق على الجواز والمسئلة مذكورة في الاصول دلائلها ❋ ثم قال تعالى (أفتمارونه على ما يرى) أي كيف تجادلونه وتوردون شكوككم عليه مع انه رأى ما رأى عين اليقين ولا شك بعد الرؤية فهو جازم متيقن وأنتم تقولون اصابه الجن ويمكن أن يقال هو مؤكد للمعنى الذي تقدم وذلك لان من تيقن شيئا قد يكون بحيث لا يزول عن نفسه تشكيك ❋ وأكده بقوله تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى)

في منتهى الجنة وقيل اليها ينتهى علم الخلائق وأعمالهم ولا يعلم أحد ماوراءها وقيل ينتهى اليها أرواح الشهداء وقيل ينتهى اليها ما يهبط من فوقها او يصعد من تحتها قيل اضافة السدرة الى المنتهى اما اضافة الشيء الى مكانه كقولك أشجار البستان أو اضافة المحل الى الحال كقولك كتاب الفقه والتقدير سدرة عندها منتهى علوم الخلائق أو اضافة الملك الى المالك على حذف الجار والمجرور أي سدرة المنتهى اليه وهو الله عز وجل قال تعالى الى ربك المنتهى

أن يكون الحال هو الظرف وجنة المأوى مرتفع به على الفاعلية وقوله تعالى (اذ يغشى السدرة ما يغشى) ظرف زمان لرآه لا لما بعده من الجملة المنفية كما قيل فان ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها والغشيان بمعنى التغطية والستر ومنه الغواشي أو بمعنى الاتيان يقال فلان يغشاني كل حين أي يأتيني والاول هو الاليق بالمقام وفي ابهام ما يغشى من التفخيم ما لا يخفى وتأخيره عن المفعول للتشويق اليه أي ولقد رآه عند السدرة وقت ما غشيها مما لا يكتنهه الوصف ولا يفي به البيان كيفا ولا كما وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورتها البديعة وللايذان باستمرار الغشيان بطريق...

ذلك لانه صلى الله عليه وسلم لما رآه وهو على بسيط الارض كان يحتمل أن يقال انه من الجن احتمالا في غاية البعد لما بينا انه صلى الله عليه وسلم حصل له العلم الضروري بانه ملك مرسل والاحتمال البعيد لا يقدح في الجزم واليقين ألا ترى انا اذا نمنا بالليل وانتبهنا بالنهار نجزم بان البحار وقت نومنا ما نشفت ولا غارت والجبال ما عدمت ولا سارت مع احتمال ذلك فان الله قادر على ذلك وقت نومنا ويعيدها الى ما كانت عليه في نومنا فلما رآه عند سدرة المنتهى وهو فوق السماء السابعة لم يحتمل أن يكون هناك جن ولا انس فنفي ذلك الاحتمال أيضا فقال تعالى أفتمارونه على ما يرى رأي العين وكيف وهو قد رآه في السماء فاذا تقدرون أن تقولوا فيه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الواو يحتمل أن تكون عاطفة ويحتمل أن تكون للحال على ما بينا اي كيف تجادلونه فيما رآه على وجه لا يشك فيه ومع ذلك لا يحتمل ايراد الشكوك عليه فان كثيرا ما يشك المتقد اشيء فيه ولكن ترد عليه الشكوك ولا يمكنه الجواب عنها ولا تتريب مع ذلك في أن الامر كما ذكرنا من المثال لانا لانشك في أن البحار ما صارت ذهبا والجبال ما صارت عهنا واذا أورد علينا مورد شكا وقال وقت نومك يحتمل ان الله تعالى قلبها ثم أعادها لا يمكننا الجواب عنه مع انا لانشك في استمرارها على ما هي عليه لا يقال اللام تنافي كون الواو للحال فان استعمل يقال أفتمارونه وقدر أي من غير لام لانا نقول الواو التي للحال تدخل على جملة والجملة تتركب من مبتدأ وخبر أو من فعل وفاعل وكلاهما يجوز فيه اللام (المسئلة الثانية) قوله نزلة فعلة من النزول فهي كجلسة من الجلوس فلا بد من نزول فذلك النزول لمن كان نقول فيه وجوه وهي مرتبة على أن الضمير في رآه عائد الى من وفيه قولان (الاول) عائد الى الله تعالى أي رأى الله نزلة أخرى وهذا على قول من قال ما رأى في قوله ما كذب الفؤاد ما رأى هو الله تعالى وقد قيل بان النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بقلبه مرتين وعلى هذا فالنزلة تحتمل وجهين (أحدهما) انها لله وعلى هذا وجهان (أحدهما) قول من يجوز على الله تعالى الحركة والانتقال وهو باطل (وثانيهما) النزول بالقرب المعنوي لا الحسي فان الله تعالى قد يقرب بالرحمة والفضل من عبده ولا يراه العبد ولهذا قال موسى عليه السلام رب أرني أي ازل بعض حجب العظمة والجلال وادن من العبد بالرحمة والافضال لاراك (والوجه الثاني) ان محمدا صلى الله عليه وسلم رأى الله نزلة أخرى وحينئذ يحتمل ذلك وجهين (أحدهما) ان النبي صلى الله عليه وسلم نزل على متن الهوى ومركب النفس ولهذا يقال لمن ركب متن هواه انه علا في الارض واستكبر قال تعالى علا في الارض (ثانيهما) ان المراد من النزلة ضدها وهي العرجة كأنه قال رآه عرجة أخرى وانما اختار النزلة لان العرجة التي في الآخرة لا نزلة لها فقال نزلة ليعلم انها من الذي كان في الدنيا (والقول الثاني) انه عائد الى جبريل عليه السلام أي رأى جبريل نزلة أخرى والنزلة حينئذ يحتمل أن تكون لمحمد صلى الله عليه وسلم كما ذكرناه لان النبي صلى الله

عليه وسلم على ماورد فى بعض اخبار ليلة المعراج جاوز جبريل عليه السلام وقال جبريل عليه السلام لودنوت انملة لاحترقت ثم عاد اليه فذلك نزلة فان قيل فكيف قال أخرى نقول لان النبى صلى الله عليه وسلم فى أمر الصلاة تردد مرارا فربما كان يجاوز كل مرة و ينزل الى جبريل و يحتمل أن تكون لجبريل عليه السلام وكلاهما منقول وعلى هذا الوجه فنزلة أخرى ظاهر لان جبريل كان له نزلات وكان له نزلتان عليه وهو على صورته وقوله تعالى عند سدرة المنتهى المشهور ان السدرة شجرة فى السماء السابعة وعليها مثل النبق وقيل فى السماء السادسة وورد فى الخبر انه صلى الله عليه وسلم قال نبقها كقلال هجر وورقها كآذان الفيلة وقيل سدرة المنتهى هى الحيرة القصوى من السدرة والسدرة كالركبة من الراكب يعنى عند مايحار العقل حيرة لاحيرة فوقها اماحار النبى صلى الله عليه وسلم وماغاب ورأى مارأى وقوله عندظرف مكان أوظرف زمان فى هذا الموضع نقول المشهور انه ظرف مكان تقديره رأى جبريل أوغيره بقرب سدرة المنتهى وقيل ظرف زمان كما يقال صليت عندطلوع الفجر وتقديره رآه عندالحيرة القصوى أى فى الزمان الذى تحار فيه عقول العقلاء والرؤية من أتم العلوم وذلك الوقت من أشد أوقات الجهل والحيرة فهو عليه الصلاة والسلام ماحار وقتا من شانه ان يحار العاقل فيه والله أعلم (المسئلة الثانية) ان قلنا معناه رأى الله كيف يفهم عندسدرة المنتهى قلنا فيه اقوال (الاول) قول من يجعل الله فى مكان وهو باطل وقد بالغنا فى بيان بطلانه فى سورة السجدة (الثانى) رآه محمد صلى الله عليه وسلم وهو عندسدرة المنتهى لان الظرف قد يكون ظرفا للرائى كما ذكرنا من المثال يقال رأيت الهلال فيقال لقائله أين رأيته فيقول على السطح و ربما يقول عندالشجرة الفلانية وأماان قلنا ان المراد جبريل عليه السلام فالوجهان ظاهران وكون النبى صلى الله عليه وسلم مع جبريل عندسدرة المنتهى أظهر (المسئلة الثالثة) اضافة السدرة الى المنتهى من أى الاضافة نقول يحتمل وجوها (أحدها) اضافة الشئ الى مكانه يقال أشجار بلدة كذا لاتطول من البرد و يقال أشجار الجنة لاتيبس ولاتخلو من الثمار فالمنتهى حينئذ موضع لايتعداه ملك وقيل لايتعداه روح من الارواح (وثانيها) اضافة المحل الى الحال فيه يقال كتاب الفقه ومحل السواد وعلى هذا فالمنتهى عند السدرة تقديره سدرة عندها منتهى العلوم (ثالثها) اضافة الملك الى مالكه يقال دار زيد واشجار زيد وحينئذ فالمنتهى اليه محذوف تقديره سدرة المنتهى اليه قال الله تعالى الى ربك المنتهى فالمنتهى اليه هو الله واضافة السدرة اليه حينئذ كاضافة البيت اليه للتشريف والتعظيم و يقال فى التسبيح ياغاية مناه و يامنتهى أمله ✽ ثم قال تعالى (عندها جنة المأوى) و فى الجنة خلاف قال بعضهم جنة المأوى هى الجنة التى وعدبها المتقون وحينئذ الاضافة كما فى قوله تعالى دار المقامة وقيل هى جنة أخرى عندها يكون أرواح الشهداء وقيل هى جنة للملائكة وقرئ جنه بالهاء من جن بمعنى اجن يقال جن

بها كما يزور الناس الكعبة وقيل يغشاها سبحات أنوار الله عز وجل حين يتجلى لها كما تجلى للجبل لكنها كانت أقوى من الجبل وأثبت حيث لم يصبها ما أصابه من الدك وقيل يغشاها فراش أوجراد من ذهب وهو قول ابن عباس وابن مسعود والضحاك وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال رأيت السدرة يغشاها فراش من ذهب و رأيت على كل ورقة ملكا قائما يسبح الله تعالى وعنه عليه الصلاة والسلام يغشاها رفرف من طير خضر (ما زاغ البصر) أى ما مال بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عما رآه (وماطغى) وماتجاوزه مع ما شاهد هنالك من الامور العجيبة المذهلة مالايحصى بل اثبته اثباتا صحيحا متيقنا أو ما عدل عن رؤية العجائب التى أمر

(وقيل واجن وعلى هذه القراءة يحتمل أن يكون الضمير فى قوله عندها عائدا الى النزلة أى
عند النزلة جن محمدا المأوى والظاهر انه عائد الى السدرة وهى الاصح وقيل ان عائشة
أنكرت هذه القراءة وقيل انها اجازتها * وقوله تعالى (اذ يغشى السدرة ما يغشى) فيه
مسائل (المسئلة الاولى) العامل فى اذ ما قبلها أو ما بعدها فيه وجهان فان قلنا ما قبلها
ففيه احتمالان أظهرهما رآه أى رآه وقت ما يغشى السدرة الذى يغشى والاحتمال
الآخر العامل فيه الفعل الذى فى النزلة تقديره رآه نزلة أخرى تلك النزلة وقت ما يغشى
السدرة ما يغشى أى نزوله لم يكن الا بعد ما ظهرت العجائب عند السدرة وغشيها ما غشى
فحينئذ نزل محمد نزلة اشارة الى انه لم يرجع من غير فائدة وان قلنا ما بعده فالعامل فيه ما زاغ
البصر أى ما زاغ بصره وقت غشيان السدرة ما غشيها وسنذكره عند تفسير الآية
(المسئلة الثانية) قد ذكرت ان فى بعض الوجوه سدرة المنتهى هى الحيرة القصوى وقوله
يغشى السدرة على ذلك الوجه ينادى بالبطلان فهل يمكن تصحيحه نقول يمكن أن يقال
المراد من الغشيان غشيان حالة أى ورد على حالة الحيرة حالة الرؤية واليقين ورأى
محمد صلى الله عليه وسلم عندما حار العقل ما رآه وقت ما طرأ على تلك الحالة ما طرأ من فضل
الله تعالى ورحمته والاول هو الصحيح فان النقل الذى ذكرنا من ان السدرة نبقها كقلال
هجر يدل على انها شجرة (المسئلة الثالثة) ما الذى غشى السدرة نقول فيه وجوه (الاول)
فراش أو جراد من ذهب وهو ضعيف لان ذلك لا يثبت الا بدليل سمعى فان صح فيه خبر فلا
يبعد من جواز التأويل وان لم يصح فلا وجه له (الثانى) الذى يغشى السدرة ملائكة
يغشونها كأنهم طيور وهو قريب لان المكان مكان لا تتعداه الملائكة فهم يرتقون اليه
متشرفين به متبركين زائرين كما يزور الناس الكعبة فيجتمعون عليها (الثالث) أنوار الله
تعالى وهو ظاهر لان النبى صلى الله عليه وسلم لما وصل اليها تجلى ربه لها كما تجلى للجبل
وظهرت الانوار لكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت فجعل الجبل دكا ولم تتحرك
الشجرة وخر موسى صعقا ولم يتزلزل محمد (الرابع) هو مبهم للتعظيم يقول القائل رأيت
ما رأيت عند الملك يشير الى الاظهار من وجه والى الاخفاء من وجه (المسئلة الرابعة)
يغشى يستر ومنه الغواشى أو من معنى الاتيان يقال فلان يغشانى كل وقت أى يأتينى
والوجهان محتملان وعلى قول من يقول الله يأتى و يذهب فالاتيان أقرب * ثم قال تعالى
(ما زاغ البصر وما طغى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اللام فى البصر يحتمل وجهين
(أحدهما) المعروف وهو بصر محمد صلى الله عليه وسلم أى ما زاغ بصر محمد وعلى هذا
فعدم الزيغ على وجوه ان قلنا الغاشى للسدرة هو الجراد والفراش فمعناه لم يلتفت اليه
ولم يشتغل به ولم يقطع نظره عن المقصود وعلى هذا فغشيان الجراد والفراش يكون ابتلاء
وامتحانا لمحمد صلى الله عليه وسلم وان قلنا أنوار الله ففيه وجهان (أحدهما) لم يلتفت
يمنة و يسرة واشتغل بمطالعتها (وثانيهما) ما زاغ البصر بصعقة بخلاف موسى عليه

عنتها ومكن منها وماجاوزها (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) أى والله لقد رأى الآيات التى
هى كبراها وعظماها
حين عرج به الى السماء
فأرى من عجائب الملك
والملكوت مالايحيط به
نطاق العبارة و يجوز
أن تكون الكبرى صفة
للآيات و المفعول
محذوف أى شيئا عظيما
من آيات ربه وان تكون
من مزيدة (أفرأيتم
اللات والعزى ومناة
الثالثة الاخرى) هى
أصنام كانت لهم
فاللات كانت لثقيف
بالطائف وقيل لقريش
بنخلة وهى فعلة من
لوى لانهم كانوا
يلوون عليها ويطوفون
بها وقرئ بتشديد
التاء على انه اسم فاعل
أشتهر به رجل كان
يلت السمن بالزيت
و يطعمه الحاج وقيل
كان يلت السويق
بالطائف و يطعمه
الحاج فلما مات عكفوا
على قبره يعبدونه وقيل
كان يجلس على حجر
فلما مات سمى الحجر
باسمه وعبد من دون الله
وقيل كان الحجر
على صورته والعزى
تأنيث

السلام فانه قطع النظر وغشى عليه وفى الاول بيان أدب محمد صلى الله عليه وسلم الثاني بيان قوته (الوجه الثاني) فى اللام انه لتعريف الجنس أى مازاغ بصره أصلا فى ذلك الموضع لعظمة الهيبة فان قيل لو كان كذلك لقال مازاغ بصر لانه أدل على العموم لان النكرة فى معرض النفى تعم نقول هو كقوله لاتدركه الابصار ولم يقل لايدركه بصر (المسئلة الثالثة) ان كان المراد محمدا فلو قال مازاغ قلبه كان يحصل به فائدة قوله مازاغ البصر نقول وذلك لان من يحضر عند ملك عظيم يرى من نفسه انه يهابه و يرتجف اظهارا لعظمته مع ان قلبه قوى فاذا قال مازاغ البصر يحصل منه فائدة ان الامر كان عظيما ولم يزغ بصره من غير اختيار من صاحب البصر (المسئلة الثالثة) وماطغى عطف جملة مستقلة على جملة أخرى أو عطف جملة مقدرة على جملة مثال المستقلة خرج زيد ودخل عمرو ومثال المقدرة خرج زيد ودخل فنقول الوجهان جائزان (أما الاول) فكأنه تعالى قال عند ظهور النور مازاغ بصر محمد صلى الله عليه وسلم وماطغى محمد بسبب الالتفات ولو التفت لكان طاغيا (وأما الثاني) فظاهر على الاوجه أما على قولنا غشى السدرة جراد فلم يلتفت اليه وماطغى أي ماالتفت الى غير الله فلم يلتفت الى الجراد ولا الى غير الجراد سوى الله وأما على قولنا غشيها نور فقوله مازاغ أي مامال عن الانوار وماطغى أي ماطلب شيئا وراءها (وفيه لطيفة) وهي أن الله تعالى قال مازاغ وماطغى ولم يقل مامال وماجاوز لان الميل فى ذلك الموضع والمجاوزة مذمومان فاستعمل الزيغ والطغيان فيه وفيه وجه آخر وهو أن يكون ذلك بيانا لوصول محمد صلى الله عليه وسلم الى سدرة اليقين الذى لايقين فوقه ووجه ذلك ان بصر محمد صلى الله عليه وسلم مازاغ أي مامال عن الطريق فلم ير الشئ على خلاف ماهو عليه بخلاف من ينظر الى عين الشمس مثلا ثم ينظر الى شئ أبيض فانه يراه أصفر وأخضر يزيغ بصره عن جادة الابصار وماطغى ماتخيل المعدوم موجودا فرأى المعدوم مجاوز الحد * ثم قال تعالى (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فيه دليل على ان النبى صلى الله عليه وسلم رأى ليلة المعراج آيات الله ولم ير الله وفيه خلاف ووجهه هو أن الله تعالى ختم قصة المعراج ههنا برؤية الآيات وقال سبحان الذى أسرى بعبده ليلا الى ان قال لنريه من آياتنا ولو كان رأى ربه لكان ذلك أعظم مايمكن فكانت الآية الرؤية وكان أكبر شئ هو الرؤية الاترى أن من له مال يقال له سافر لتربح ولا يقال سافر لتتفرج لما أن الربح أعظم من التفرج (المسئلة الثانية) قال بعض المفسرين لقد رأى من آيات ربه الكبرى هي أنه رأى جبريل عليه السلام فى صورته فهل هو على ماقاله نقول الظاهر أن هذه الآيات غير تلك وذلك لان جبريل عليه السلام وان كان عظيما لكن ورد فى الاخبار ان لله ملائكة أعظم منه والكبرى تأنيث الاكبر فكأنه تعالى يقول رأى من آيات ربه آيات هن أكبر الآيات فان قيل قال الله تعالى انها لاحدى الكبر مع ان أكبر من سقر عجائب الله فكذلك الآيات

الاعز كانت لغطفان وهى سمرة كانوا يعبدونها فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها واضعة يدها على رأسها وهى تولول فجعل خالد يضربها بالسيف حتى قتلها فاخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تلك العزى ولن تعبد أبدا ومناة صخرة لهذيل وخزاعة وقيل لثقيف وكأنها سميت مناة لان دماء النسائك تمنى عندها أى تراق وقرئ مناءة وهى مفعلة من النوء كأنهم كانوا يستمطرون عندها الانواء تبركا بها والاخرى صفة ذم لها وهى المتأخرة الوضيعة المقدار وقد جوز ان تكون الاولية والتقدم عندهم للات والعزى ثم انهم كانوا مع ماذكر من عبادتهم لها يقولون ان الملائكة وتلك الاصنام بنات الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا فقيل لهم توبيخا وتبكيتا أفرأيتم الخ والهمزة للانكار والفاء

الكبرى تكون جبريل ومافيه وان كان لله آيات أكبر منه نقول سقر احدى الكبر أي احدى الدواهي الكبر ولاشك ان في الدواهي سقر عظيمة كبيرة وأما آيات الله فليس جبريل أكبرها ولان سقر في نفسها أعظم وأعجب من جبريل عليه السلام فلا يلزم من صفتها بالكبر صفتها بالكبرى (المسئلة الثالثة) الكبرى صفة ماذا نقول فيه وجهان أحدهما صفة محذوف تقديره لقد رأى من آيات ربه الآية الكبرى ثانيهما صفة آيات ربه وعلى هذا يكون مفعول رأى محذوفا تقديره رأى من الآيات الكبرى آية أو شيئا* ثم قال تعالى (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى) لما قرر الرسالة ذكر ما ينبغي أن يبتدئ به الرسول وهو التوحيد ومنع الخلق عن الاشراك فقوله تعالى أفرأيتم اشارة الى ابطال قولهم بنفس القول كما ان ضعيفا اذا ادعى الملك ثم رآه العقلاء في غاية البعد عما يدعيه يقولون انظروا الى هذا الذي يدعى الملك منكرين عليه غير مستدلين بدليل لظهور أمره فلذلك قال أفرأيتم اللات والعزى أي كما هما فكيف تشركونهما بالله والتاء في اللات تاء تأنيث كما في المناة لكنهما تكتب مطولة لئلا يوقف عليها فتصير هاء فيشتبه باسم الله تعالى فان الهاء في الله أصلية ليس تاء تأنيث وقف عليها فانقلبت هاء وهي صنم كانت لثقيف بالطائف قال الزمخشري هي فعلة من لوى يلوى وذلك لانهم كانوا يلوون عليها وعلى ما قال فأصله لوية اسكنت الياء وحذفت لالتقاء الساكنين فبقيت لوة قلبت الواو الفا لفتح ما قبلها فصارت لات وقرئ اللات بالتشديد من لت قيل انه مأخوذ من رجل كان يلت بالسمن الطعام ويطعم الناس فعبدوا واتخذ على صورته وثن وسموه باللات وعلى هذا فاللات ذكر وأما العزى فتأنيث الاعز وهي شجرة كانت تعبد فبعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضي الله عنه فقطعها وخرجت منها شيطانة مكشوفة الرأس منشورة الشعر تضرب رأسها وتدعو بالويل والثبور فقتلها خالد وهو يقول

(ياعز كفرانك لاسبحانك * اني رأيت الله قد أهانك) ورجع الى النبي صلى الله عليه وسلم واخبره بما رأى وفعل فقال تلك العزى ولن تعبد أبدا وأما مناة فهي فعلة صنم الصفا وهي صخرة كانت لهذيل وخزاعة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الآخر لا يصح ان يقال الا اذا كان الاول مشاركا للثاني فلا يقال رأيت أمرأة ورجلا آخر ويقال رأيت رجلا ورجلا آخر لاشتراك الاول والثاني في كونهما من الرجال وههنا قوله الثالثة الاخرى يقتضي على ما ذكرنا ان تكون العزى ثالثة أولى ومناة ثالثة أخرى وليس كذلك والجواب عنه من وجوه (الاول) الاخرى كما هي تستعمل للذم قال الله تعالى وقالت أولاهم لاخراهم أي لمتأخريهم وهم الاتباع ويقال لهم الاذناب لتأخرهم في المراتب فهي صفة ذم كأنه تعالى يقول ومناة الثالثة المتأخرة الذليلة ونقول على هذا الاصنام الثلاثة ترتيب وذلك لان الاول كان وثنا على صورة آدمي والعزى صورتها صورة نبات ومناة صورتها صورة صخرة هي جماد فالآدمي أشرف من النبات والنبات أشرف من الجماد فالجماد متأخر والمناة جماد

ومفعولها الثاني محذوف لدلالة الحال عليه فالمعنى أعقيب ما سمعتم من آثار كمال عظمة الله عز وجل في ملكه وملكوته وجلاله وجبروته واحكام قدرته ونفاذ أمره في الملأ الاعلى وما تحت الثرى وما بينهما رأيتم هذه الاصنام مع غاية حقارتها وقماءتها بنات له تعالى وقيل المعنى أفرأيتم هذه الاصنام مع حقارتها وذلتها شركاء الله تعالى مع ما تقدم من عظمته وقيل أخبروني عن آلهتكم هل لها شيء من القدرة والعظمة التي وصف بها رب العزة في الآي السابقة وقيل المعنى أظننتم أن هذه الاصنام التي تعبدونها تنفعكم وقيل أظننتم انها تشفع لكم في الآخرة وقيل أفرأيتم الى هذه الاصنام ان عبدتموها لاتنفعكم وان تركتموها لاتضركم والاول

هو الحق كما يشهد به قوله تعالى (ألكم الذكر وله الانثى) شهادة بينة فانه توبيخ مبني على التوبيخ

فهي في الاخريات من المراتب (الجواب) الثاني فيه محذوف تقديره أفرأيتم اللات والعزى المعبودين بالباطل ومناة الثالثة المعبودة الاخرى (والجواب الثالث) هو أن الاصنام كان فيها كثرة واللات والعزى اذا أخذناهما متقدمتين فكل صنمة توجد فهي ثالثة فهنالك توالت فكأنه يقول لهما توالث كثيرة وهذه ثالثة أخرى وهذا كقول القائل يوما ويوما (الجواب الرابع) فيه تقديم وتأخير تقديره ومناة الاخرى الثالثة ويحتمل أن يقال الاخرى تستعمل لموهوم أو مفهوم وان لم يكن مشهورا ولا مذكورا يقول من يكثر تأذيه من الناس اذا آذاه الانسان الآخر جاء يؤذينا وربما يسكت على قوله أنت الآخر فيفهم غرضه كذلك ههنا (المسئلة الثانية) وهي في الترتيب أولى ما فائدة الفاء في قوله أفرأيتم اللات والعزى وقد استعمل في مواضع بغير الفاء قال تعالى أرأيتم ما تدعون من دون الله أرأيتم شركاءكم نقول لما تقدم من عظمة آيات الله في ملكوته ان رسول الله الى الرسل الذي يسد الآفاق ببعض أجنحته ويهلك المدائن بشدته وقوته لا يمكنه أن يتعدى السدرة في مقام جلال الله وعزته قال أفرأيتم هذه الاصنام مع ذلتها وحقارتها شركاء الله مع ما تقدم فقال بالفاء أي عقيب ما سمعتم من عظمة آيات الله تعالى الكبرى ونفاذ أمره في الملأ الاعلى وما تحت الثرى فانظروا الى اللات والعزى تعلموا فساد ما ذهبتم اليه وعولتم عليه (المسئلة الثالثة) أين تتمة الكلام الذي يفيد فائدة ما نقول قد تقدم بيانه وهو أنه يقول هل رأيتم هذه حق الرؤية فان رأيتموها علمتم انها لا تصلح شركاء ونظيره ما ذكر فيمن ينكر كون ضعيف يدعي ملكا يقول لصاحبه أما تعرف فلانا مقتصرا عليه مشيرا الى بطلان ما يذهب اليه * ثم قال تعالى (ألكم الذكر وله الانثى) وقد ذكرنا ما يجب ذكره في سورة والطور في قوله أم له البنات ولكم البنون ونعيد ههنا بعض ذلك أو ما يقرب منه فنقول لما ذكر اللات والعزى ومناة ولم يذكر شيئا آخر قال ان هذه الاشياء التي رأيتموها وعرفتموها تجعلونها شركاء الله وقد سمعتم جلال الله وعظمته وان الملائكة مع رفعتهم وعلوهم ينتهون الى السدرة ويقفون هنالك لا يبقى شك في كونهم بعيدين عن طريقة المعقول أكثر مما بعدوا عن طريقة المنقول فكأنهم قالوا نحن لا نشك ان شيئا منها ليس مثلا لله تعالى ولا قريبا من أن يماثله وانما صورنا هذه الاشياء على صور الملائكة المعظمين الذين اعترف بهم الانبياء وقالوا انهم يرتقون ويقفون عند سدرة المنتهى ويرد عليهم الامر والنهي وينهون الى الله ما يصدر من عباده في أرضه وهم بنات الله فاتخذنا صورا على صور الاناث وسميناها اسماء الاناث فاللات تأنيث الله وكان أصله ان يقال اللاهة لكن في التأنيث يوقف عليها فتصير اللاهة فاسقط احدى الهاءين وبقيت الكلمة على حرفين أصليين وتاء التأنيث فجعلناها كالاصلية كما فعلنا بذات مال وذا مال والعزى تأنيث الاعز فقال لهم كيف جعلتم لله بنات وقد اعترفتم في أنفسكم ان البنات ناقصات والبنين كاملون والله كامل العظمة فالمنسوب اليه كيف جعلتموه ناقصا وأنتم في غاية الحقارة

الاول وحيث كان مداره تفضيل جانب أنفسهم على جنابه تعالى بنسبتهم اليه تعالى الاناث مع اختيارهم لانفسهم الذكور وجب أن يكون مناط الاول نفس تلك النسبة حتى يبتنى بناء التوبيخ الثاني عليه وظاهر انه ليس في شيء من التقديرات المذكورة من تلك النسبة عين ولا أثر وأما ما قيل من أن هذه الجملة مفعول ثان للرؤية وخلوها عن العائد الى المفعول الاول لما أن الاصل أخبروني أن اللات والعزى ومناة ألكم الذكر وله هن أي تلك الاصنام فوضع موضعها الانثى لمراعاة الفواصل وتحقيق مناط التوبيخ فمع ما فيه من التمحلات التي ينبغي تنزيه ساحة التنزيل عن أمثالها يقتضي اقتصار التوبيخ على ترجيح جانبهم الحقير على جناب الله العزيز الجليل من غير تعرض للتوبيخ على نسبة الولد اليه سبحانه (تلك) اشارة الى القسمة المنفهمة من الجملة

﴿ والذلة ﴾

والذلة حيث جعلتم أنفسكم أذل من حمار وعبد ثم صخرة وشجرة ثم نسبتم الى أنفسكم الكامل فهذه القسمة جائرة على طريقكم أيضا حيث اذللتم أنفسكم ونسبتم اليها الاعظم من الثقلين وابغضتم البنات ونسبتموهن الى الاعظم وهوالله تعالى وكان على عادتكم ان تجعلوا الاعظم العظيم والانقص للحقير فاذن أنتم خالفتم الفكر والعقل والعادة التى لكم ❁ وقوله تعالى (تلك اذاقسمة ضيزى) فيه مسائل (المسئلة الاولى) تلك اشارة الى ماذا نقول الى محذوف تقديره تلك القسمة قسمة ضيزى أى غير عادلة و يحتمل أن يقال معناه تلك النسبة قسمة وذلك لانهم ماقسموا وماقالوا لنا البنون وله البنات وانما نسبوا الى الله البنات وكانوا يكرهونهن كما قال تعالى و يجعلون لله مايكرهون فلما نسبوا الى الله البنات حصل من تلك القسمة قسمة جائرة وهذا الخلاف لايرهق (المسئلة الثانية) اذا جواب ماذا نقول يحتمل وجوها (الاول) نسبتكم البنات الى الله تعالى اذا كان لكم البنو قسمة ضيزى (الثانى) نسبتكم البنات الى الله تعالى مع اعتقادكم انهن ناقصات واختياركم البنين مع اعتقادكم انهم كاملون اذا كنتم فى غاية الحقارة والله تعالى فى نهاية العظمة قسمة ضيزى فان قيل ماأصل اذا قلنا هو اذا التى للظرف قطعت الاضافة عنها فحصل فيها تنوين و بيانه هو انك تقول آتيك اذا طلعت الشمس فكانك أضفت اذا الطلوع الشمس وقلت آتيك وقت طلوع الشمس فاذا قال قائل آتيك فتقول له اذا أكرمك اى اذا أتيتنى أكرمك فلما حذفت الاتيان لسبق ذكره فى قول القائل أتيت بدله بتنوين وقلت اذا كما تقول وكلا آتيناه (المسئلة الثالثة) ضيزى قرئ بالهمز و بغير همز وعلى الاولى هى فعلى بكسر الفاء كذكرى على انه مصدر وصف به كرجل عدل أى قسمة ضائزة وعلى القراءة الثانية هى فعلى وكان أصلها ضوزى لكن عين الكلمة كانت يائية فكسرت الفاء لتسلم العين عن القلب كذلك فعل ببيض فان جمع افعل فعل تقول أسود وسود وأحمر وحمر وتقول أبيض و بيض وكان الوزن بيض وكان يلزم منه قلب العين فكسرت الباء وتركت الياء على حالها وعلى هذا ضيزى للمبالغة من ضائزة تقول فاضل وأفضل وفاضلة وفضلى وكبير وأكبر وكبيرة وكبرى كذلك ضائز واضوز وضائزة وضوزى وعلى هذا نقول اضوز من ضائز وضيزى من ضائزة فان قيل قد قلت من قبل ان قوله أم له البنات ولكم البنون ليس بمعنى انكار الامرين بل بمعنى انكار الاول واظهار النكر بالامر الثانى كما تقول أتجعلون لله أندادا وتعلمون انه خلق كل ماسواه فانه لاينكر الثانى وههنا قوله تلك اذا قسمة ضيزى دل على انه أنكر الامرين جميعا نقول قد ذكرنا هناك ان الامرين محتملان اما انكار الامرين فظاهر فى المشهور أما انكار الاول فثابت بوجوه واما الثانى فلما ذكرنا انه تعالى قال كيف تجعلون لله البنات وقد صار لكم البنون بقدرته كما قال تعالى يهب لمن يشاء اناثا و يهب لمن يشاء الذكور وخالق البنين لكم لايكون له بنات وأما قوله تعالى تلك اذا قسمة ضيزى فنقول قد بينا ان تلك عائد الى النسبة أى

وهو الجور لكنه كسر فاؤه لتسلم الياء كما فعل فى بيض فان فعلى بالكسر لم يأت فى الوصف وقرئ ضئزى بالهمزة من ضازه اذا ظلمه على انه مصدر نعت به وقرئ ضيزى اما على انه صفة كسكرى وعطشى (ان هى) الضمير للاصنام أى ما الاصنام باعتبار الالوهية التى يدعونها (الا أسماء) محضة ليس تحتها مما تنبئ هى عنه من معنى الالوهية شئ ما أصلا وقوله تعالى (سميتموها) صفة لاسماء وضميرها لها لا للاصنام والمعنى جعلتموها أسماء لاجعلتم لها أسماء فان التسمية نسبة بين الاسم والمسمى فاذا قيست الى الاسم فمعناها جعله اسما للمسمى وان قيست الى المسمى فمعناها جعله مسمى للاسم وانما اختير ههنا المعنى الاول من غير تعرض للمسمى

نسبتكم البنات الى الله تعالى مع ان لكم البنين قسمة ضائزة فالمنكر تلك النسبة وان كان المنكر القسمة نقول يجوز أن يكون تقديره أيجوز جعل البنات لله تعالى كما ان واحدا اذا كان بينه و بين شريكه شيء مشترك على السوية فيأخذ نصفه لنفسه و يعطى من النصف الباقي نصفه لطالبه ونصفه لصاحب فقال هذه قسمة ضائزة لا لكونه أخذ النصف فذلك حقه بل لكونه لم يوصل اليه النصف * ثم قال تعالى (ان هي الا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) وفيه مباحث تدق عن ادراك اللغوي ان لم يكن عنده من المعلوم حظ عظيم ولنذكر ما قيل فيه أولا فنقول قيل معناه ان هي الأسماء أي كونها اناثا و كونها معبودات اسماء لا مسمى لها فانها ليست باناث حقيقة ولا معبودات وقيل اسماء أي قلتم بعضها عزى ولا عزة لها وقيل قلتم انها آلهة وليست بآلهة والذي نقوله هو ان هذا جواب عن كلامهم وذلك على ما بينا انهم قالوا نحن لا نشك في ان الله تعالى لم يلد كما تلد النساء ولم يولد كما تولد الرجال بالمجامعة والاحبال غير انا رأينا لفظ الولد مستعملا عند العرب في المسبب تقول بنت الجبل و بنت الشفة لما يظهر منهما و يوجد لكن الملائكة أولاد الله بمعنى انهم وجدوا بسببه من غير واسطة فقلنا انهم أولاده ثم ان الملائكة فيها تاء التأنيث فقلنا هم أولاد مؤنثة والولد المؤنث بنت فقلنا لهم بنات الله أي لا واسطة بينهم و بين الله تعالى في الايجاد كما تقول الفلاسفة فقال تعالى هذه الاسماء استنبطتموها أنتم بهوى أنفسكم واطلقتم على الله ما يوهم النقص وذلك غير جائز وقوله تعالى ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله وقوله بيده الخير اسماء موهمة غير انه تعالى أنزلها وله ان يسمى نفسه بما اختار وليس لاحد أن يسميه باسم يوهم النقص من غير ورود الشرع به ولنبين التفسير في مسائل (الاولى) هي ضمير عائد الى ماذا نقول الظاهر انها عائدة الى امر معلوم وهو الاسماء كأنه قال ما هذه الاسماء التي وضعتموها أنتم وهو المشهور و يحتمل ان يقال هي عائدة الى الاصنام بأنفسها أي ما هذه الاصنام الا أسماء وعلى هذا فهو على سبيل المبالغة والتجوز يقال لتحقير انسان ما زيد الا اسم وما الملك الا اسم اذا لم يكن مشتملا على صفة تعتبر في الكلام بين الناس و يؤيد هذا القول قوله تعالى ما تعبدون من دونه الا أسماء أي ما هذه الاصنام الا أسماء (المسئلة الثانية) ما الفائدة في قوله سميتموها مع ان جميع الاسماء هم وضعوها أو بعضها هم وضعوها ولم ينكر عليهم نقول المسئلة مختلف فيها ولا يتم الذم الا بقوله تعالى ما أنزل الله بها من سلطان و بيانه هو ان الاسماء ان أنزلها الله تعالى فلا كلام فيها وان وضعها الناس للتفاهم فينبغي ان لا يكون في ضمن تلك الفائدة مفسدة أعظم منها لكن ايهام النقص في صفات الله تعالى أعظم منها فالله تعالى ما جوز وضع الاسماء للحقائق الا حيث تسلم عن المحرم فلم يوجد في هذه الاسماء دليل نقلي ولا وجه عقلي لان ارتكاب المفسدة العظيمة لاجل المنفعة القليلة لا يجوزه العاقل فاذا ما أنزل الله بها من سلطان ووضع الاسم لا يجوز الا بدليل نقلي أو عقلي وهو أنه يقع خاليا

ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها الآية لا ان هناك مسميات لكنها لا تستحق التسمية وقيل هي للاسماء الثلاثة المذكورة حيث كانوا يطلقونها على تلك الاصنام لاعتقادهم أنها تستحق العكوف على عبادتها والاعزاز والتقرب اليها بالقرابين وأنت خبير بانه لو سلم دلالة الاسماء المذكورة على ثبوت تلك المعاني الخاصة للاصنام فليس في سلبها عنها مزيد فائدة بل انما هي في سلب الالوهية عنها كما هو زعمهم المشهور في حق جميع الاصنام على وجه برهاني فان انتفاء الموصوف يقتضي انتفاء الوصف بطريق الاولوية أي ما هي الا أسماء خالية عن المسميات وضعتموها (أنتم وآباؤكم) بمقتضى أهوائكم الباطلة (ما أنزل الله بها من سلطان) برهان تتعلقون به

من وجوه المضار الراجحة (المسئلة الثالثة) كيف قال سميتموها أنتم مع أن هذه الاسامي لاصنامهم كانت قبلهم نقول فيه لطيفة وهي أنهم لوقالوا ماسميناها وانما هي موضوعة قبلنا قيل لهم كل من يطلق هذه الالفاظ فهو كالمبتدئ الواضع وذلك لان الواضع الاول لهذه الاسماء لما لم يكن واضعا بدليل نقلي ولاواضعا بدليل عقلي لم يجب اتباعه لمن يطلق اللفظ لان فلانا أطلقه لايصح منه كما لايصح أن يقول أضلني الاعمى ولوقاله لقيل له بل أنت أضللت نفسك حيث اتبعت من عرفت أنه لايصلح للاقتداء به (المسئلة الرابعة) الاسماء لاتسمى وانما يسمى بها فكيف قال سميتموها نقول عنه جوابان (أحدهما) لغوي وهو أن التسمية وضع الاسم فكأنه قال أسماء وضعتموها فاستعمل سميتموها استعمال وضعتموها ويقال سميته زيدا وسميته بزيد فسميتموها بمعنى سميتم بها (وثانيهما) معنوي وهو أنه لوقال أسماء سميتم بها لكان هناك غير الاسم شئ يتعلق به الباء في قوله بها لان قول القائل سميت به يستدعي مفعولا آخر تقول سميت بزيد أبني أوعبدي أوغير ذلك فيكون قد جعل للاصنام اعتبارا وراء أسمائها واذا قال ان هي الا أسماء سميتموها أي وضعتموها في أنفسها الا تسميات لها لم يكن ذلك فان قيل هذا باطل بقوله تعالى واني سميتها مريم حيث لم يقل واني سميتها بمريم ولم يكن ماذكرت مقصودا والا لكانت مريم غير ملتفت اليها كما قلت في الاصنام نقول بينهما بون عظيم وذلك لان هناك قال سميتها مريم فذكر المفعولين فاعتبر حقيقة مريم بقوله سميتها واسمها بقوله مريم وأما ههنا فقال ان هي الا أسماء سميتموها أي ماهناك الا أسماء موضوعة فلم تعتبر الحقيقة ههنا واعتبرت في مريم (المسئلة الخامسة) ما أنزل الله بها من سلطان على أي وجه استعملت الباء في قوله بها من سلطان نقول كما يستعمل القائل ارتحل فلان بأهله ومتاعه أي ارتحل ومعه الاهل والمتاع كذلك ههنا * ثم قال تعالى (ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) وفيه مسائل (الاولى) قرئ ان تتبعون بالتاء على الخطاب وهو ظاهر مناسب لقوله تعالى أنتم وآباؤكم وعلى الغائبة وفيه وجهان (أحدهما) أن يكون الخطاب معهم لكنه يكون التفاتا كأنه قطع الكلام معهم وقال لنبيه انهم لايتبعون الا الظن فلا تلتفت الى قولهم (ثانيهما) أن يكون المراد غيرهم وفيه احتمالان (أحدهما) أن يكون المراد آباءهم وتقديره هو أنه لما قال سميتموها أنتم كأنهم قالوا هذه ليست أسماء وضعنا نحن وانما هي كسائر الاسماء تلقيناها ممن قبلنا من آبائنا فقال وسماها آباؤكم وما يتبعون الا الظن فان قيل كان ينبغي أن يكون بصيغة الماضي نقول وبصيغة المستقبل أيضا كأنه يفرض الزمان بعد زمان الكلام كما في قوله تعالى وكلبهم باسط ذراعيه (ثانيهما) أن يكون المراد عامة الكفار كأنه قال ان يتبع الكافرون الا الظن (المسئلة الثانية) مامعنى الظن وكيف ذمهم به وقد وجب علينا اتباعه في الفقه وقال صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي نقول اما الظن فهو خلاف العلم

(ان يتبعون) التفات الى الغيبة للايذان بأن تعداد قبائحهم اقتضى الاعراض عنهم وحكاية جناياتهم لغيرهم أي ما يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها (الا الظن) الا توهم أن ماهم عليه حق توهما باطلا (وما تهوى الانفس) أي تشتهيه أنفسهم الامارة بالسوء (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) قيل هي حال من فاعل يتبعون أو اعتراض وأياما كان ففيه تأكيد لبطلان اتباع الظن وهوى النفس وزيادة تقبيح لحالهم فان اتباعهما من أي شخص كان قبيح وممن هداه الله تعالى بارسال الرسول صلى الله عليه وسلم وانزال الكتاب أقبح

وقد استعمل مجازا مكان العلم والعلم مكانه وأصل العلم الظهور ومنه العلم والعالم وقد بينا في تفسير العالمين أن حروف ع ل م في تقاليبها فيها معنى الظهور ومنها لمع الآل اذا ظهر وميض السراب ولمع الغزال اذا عدا وكذا النعام وفيه الظهور وكذلك علمت والظن اذا كان في مقابلة العلم ففيه الخفاء ومنه بئر ظنون لا يدرى أفيها ماء أم لا ومنه الظنين المتهم لا يدرى ما يظن نقول يجوز بناء الامر على الظن الغالب عند العجز عن درك اليقين والاعتقاد ليس كذلك لان اليقين لم يتعذر علينا والى هذا أشار بقوله ولقد جاءهم من ربهم الهدى أي اتبعوا الظن وقد أمكنهم الاخذ باليقين و في العمل يمتنع ذلك أيضا (المسئلة الثالثة) ما في قوله تعالى وماتهوى الانفس خبرية أومصدرية نقول فيه وجهان (أحدهما) مصدرية كأنه قال ان يتبعون الا الظن وهوى الانفس فان قيل ما الفائدة في العدول عن صريح المصدر الى الفعل مع زيادة ما فيه تطويل نقول فيه فائدة وانها في أصل الوضع ثم نذكرها هنا فنقول اذا قال القائل أعجبني صنعك يعلم من الصيغة أن الاعجاب من مصدر قد تحقق وكذلك اذا قال أعجبني ما تصنع يعلم أن الاعجاب من مصدر هو فيه فلو قال أعجبني صنعك وله صنع أمس وصنع اليوم لا يعلم أن المعجب أي صنع هو واذا علمت هذا فنقول ههنا قوله وماتهوى الانفس يعلم منه أن المراد انهم يتبعون ماتهوى أنفسهم في الحال والاستقبال اشارة الى انهم ليسوا بثابتين على ضلال واحد وماهوت أنفسهم في الماضي شيئا من أنواع العبادة فالتزموا به وداموا عليه بل كل يوم هم يستخرجون عبادة واذا انكسرت أصنامهم اليوم أتوا بغيرها غدا و يغيرون وضع عبادتهم بمقتضى شهوتهم اليوم (ثانيهما) انها خبرية تقديره والذى تشتهيه أنفسهم والفرق بين المصدرية والخبرية ان المتبع على الاول الهوى وعلى الثاني مقتضى الهوى كما اذا قلت أعجبني مصنوعك (المسئلة الرابعة) كيف قال وماتهوى الانفس بلفظ الجمع مع انهم لا يتبعون ماتهواه كل نفس فان من النفوس مالاتهوى ما تهواه غيرها نقول هو من باب مقابلة الجمع بالجمع معناه اتبع كل واحد منهم ماتهواه نفسه يقال خرج الناس بأهليهم أي كل واحد بأهله لا كل واحد بأهل الجمع (المسئلة الخامسة) بين لنا معنى الكلام جملة نقول قوله تعالى ان يتبعون الا الظن وماتهوى الانفس أمران مذكور يحتمل أن يكون ذكرهما لامرين تقدير يبين يتبعون الظن في الاعتقاد و يتبعون ماتهوى الانفس في العمل والعبادة وكلاهما فاسد لان الاعتقاد ينبغي أن يكون مبناه على اليقين وكيف يجوز اتباع الظن في الامر العظيم وكلما كان الامر أشرف وأخطر كان الاحتياط فيه أوجب وأحذر وأما العمل فالعبادة مخالفة للهوى فكيف تبنى على متابعته و يحتمل أن يكون في أمر واحد على طريقة النزول درجة درجة فقال ان يتبعون الا الظن وماتهوى الانفس أي ومادون الظن لان القرونة تهوى مالا يظن به خير وقوله تعالى ولقد جاءهم من ربهم الهدى اشارة الى أنهم على حال لا يعتد به لان

البينين مقدور عليه وتحقق بمجيء الرسل * والهدى فيه وجوه ثلاثة (الاول) القرآن (الثاني) الرسل (الثالث) المعجزات * ثم قال تعالى (أم للانسان ما تمنى) المشهور ان أم منقطعة معناه أللانسان ما اختاره واشتهاه وفي ما تمنى وجوه (الاول) الشفاعة تمنوها وليس لهم شفاعة (الثاني) قولهم ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى (الثالث) قول الوليد بن المغيرة لأوتين مالا وولدا (الرابع) تمنى جماعة أن يكونوا أنبياء ولم تحصل لهم تلك الدرجة الرفيعة فان قلت هل يمكن أن تكون أم ههنا متصلة نقول نعم والجملة الاولى حينئذ تحتمل وجهين (أحدهما) انها مذكورة في قوله تعالى ألكم الذكر وله الانثى كأنه قال ألكم الذكر وله الانثى على الحقيقة أو تجعلون لانفسكم ما تشتهون وتتمنون وعلى هذا فقوله تلك اذا قسمة ضيزى وغيرها جمل اعترضت بين كلامين متصلين (ثانيهما) انها محذوفة وتقرير ذلك هو انا بينا ان قوله أفرأيتم لبيان فساد قولهم والاشارة الى ظهور ذلك من غير دليل كما اذا قال قائل فلان يصلح للملك فيقول آخر لثالث أما رأيت هذا الذي يقوله فلان ولا يذكر انه لا يصلح للملك ويكون مراده ذلك فيذكره وحده منبها على عدم صلاحه فههنا قال تعالى أفرأيتم اللات والعزى أي يستحقان العبادة أم للانسان أن يعبد ما يشتهيه طبعه وان لم يكن يستحق العبادة وعلى هذا فقوله أم للانسان أي هل له أن يعبد بالتمني والاشتهاء ويؤيد هذا قوله تعالى وما تهوى الانفس أي عبدتم بهوى أنفسكم ما لا يستحق العبادة فهل لكم ذلك * ثم قال تعالى (فلله الآخرة والاولى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في تعلق الفاء بالكلام وفيه وجوه (الاول) ان تقديره الانسان اذا اختار معبودا في دنياه على ما تمناه واشتهاه فلله الآخرة والاولى يعاقبه على فعله في الدنيا وان لم يعاقبه في الدنيا فيعاقبه في الآخرة وقوله تعالى وكم من ملك الى قوله تعالى لا تغني شفاعتهم يكون مؤكدا لهذا المعنى أي عقابهم يقع ولا يشفع فيهم أحد ولا يغنيهم شفاعة شافع (الثاني) انه تعالى لما بين ان اتخاذ اللات والعزى باتباع الظن وهوى الانفس كأنه قرره وقال ان لم تعلموا هذا فلله الآخرة والاولى وهذه الاصنام ليس لها من الامر شيء فكيف يجوز الاشراك وقوله تعالى وكم من ملك على هذا الوجه جواب كلام كأنهم قالوا لا نشرك بالله شيئا وانما هذه الاصنام شفعاؤنا فانها صور ملائكة مقربين فقال وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا (الثالث) هذا تسلية كأنه تعالى قال ذلك لنبيه حيث بين رسالته ووحدانية الله ولم يؤمنوا فقال لا تأس فلله الآخرة والاولى أي لا يعجزون الله (الرابع) هو ترتيب حسن على دليله بيانه هو أنه تعالى لما بين رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بقوله ان هو الا وحي يوحى الى آخره وبين بعض ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وهو التوحيد قال اذا علمتم صدق محمد ببيان رسالة الله تعالى فلله الآخرة والاولى لانه صلى الله عليه وسلم أخبركم عن الحشر فهو صادق (الخامس) هو ان الكفار كانوا يقولون للمؤمنين أهؤلاء أهدى منا وقالوا لو كان خيرا ما سبقونا

(أم للانسان ما تمنى) أم منقطعة وما فيها من بل للانتقال من بيان ان ما هم عليه غير مستند الا الى توهمهم وهوى أنفسهم الى بيان أن ذلك مما لا يجدي نفعا أصلا والهمزة للانكار والنفي أي ليس للانسان كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه من الامور التي من جملتها أطماعهم الفارغة في شفاعة الآلهة ونظائرها التي لا تكاد تدخل تحت الوجود (فلله الآخرة والاولى) تعليل لانتفاء أن يكون للانسان ما يتمناه حتما فان اختصاص أمور الآخرة والاولى جميعا به تعالى مقتض لانتفاء أن يكون له أمر من الامور

اليه فقال تعالى ان الله اختار لكم الدنيا واعطاكم الاموال ولم يعط المؤمنين بعض ذلك الامر بل قلتم لوشاء الله لاغناهم وتحققتم هذه القضية فلله الآخرة والاولى فوا في الآخرة ماقلتم في الدنيا يهدي الله من يشاء كما يغني الله من يشاء (المسئلة الثانية) الآخرة صفة ماذا نقول صفة الحياة أو صفة الدار وهي اسم فاعل من فعل غير مستعمل تقول أخرته فتأخر وكان من حقه أن تقول فأخر كما تقول غيرته فغير فنعت منه سماعا ولهذا البحث فائدة ستاتي ان شاء الله تعالى (المسئلة الثالثة) الاولى فعلى للتأنيث فالاول اذن أفعل صفة وفيه مباحث (الاول) لابد من فاعل أخذ منه الافعل والفعلى فان كل فعلى وافعل للتأنيث والتذكيرله أصل فليؤخذ منه كالفضلى والافضل من الفاضلة والفاضل فاذاً نقول ههنا أخذ من أصل غير مستعمل كما قلنا ان الآخر فاعل من فعل غير مستعمل وسبب ذلك هو أن كل فعل مستعمل فله آخر وذلك لان له ماضيا فاذا استعملت ماضيه لزم فراغ الفعل والا لكان الفاعل بعد في الفعل فلا يكون ماضيا فانك لاتقول لمن هو بعد في الاكل أكل الا متجوزا عندما يبقى له قليل فيقول أكل اشارة الى أن ما بقي غير معتد به وتقول لمن قرب من الفراغ فرغت فيقول فرغت بمعنى ان ما بقي قليل لا يعتد به فكاني فرغت وأما الماضي في الحقيقة لايصح الا عند تمام الشئ والفراغ عنه فاذاً الفعل المستعمل آخر فلو كان لقولنا آخر على وزن فاعل فعل هو أخر يأخر كأمر يأمر لكان معناه صدر مصدره كجالس معناه صدر الجلوس منه بالتمام والكمال فكان ينبغي أن القائل اذا قال فلان آخر كان معناه وجد منه تمام الآخرية وفرغ منها فلا يكون بعده ما يكون آخرا لكن تقدم ان كل فعل فله آخر بعده لايقال يشكل بقولنا تأخر فان معناه صار آخرا لانا نقول وزن الفعل ينادي على صحة ما ذكرنا فانه من باب التكليف والتكبر اذا استعمل في غير المتكبر أي يرى انه آخر وليس في الحقيقة كذلك اذا علمت هذا فنقول الآخر فاعل ليس له فعل ومبالغته بأفعل وهو كقولنا أخر فنقلت الهمزة الى مكان الف والالف الى مكان الهمزة فصارت الالف همزة والهمزة ألفا ويدل عليه التأويل في المعنى فان آخر الشئ جزء منه متصل به والآخر مباين عنه منفصل والمنفصل بعد المتصل والآخر أشد أخراعن الشئ من آخره والاول افعل ليس له فاعل وليس له فعل والاول أبعد عن الفعل من الآخر وذلك لان الفعل الماضي علم له آخر من وصفة بالماضي ولولا ذلك الوصف لما علم له آخر وأما الفعل لتفسير كونه فعلا علم له أول لان الفعل لابد له من فاعل يقوم به أو يوجد منه فاذا الفاعل أول اتم الفعل فاذا كان الفاعل أول الفعل كيف يكون الاول له فعل يوجد منه فلا فعل له ولا فاعل فلا يقال آل الشئ بمعنى سبق كما يقال قال من القول أو نال من النيل لايقال أن قولنا سبق أخذ منه السابق ومن السابق الاسبق مع ان الفاعل يسبق الفعل وكذلك يقال تقدم الشئ مع ان الفاعل متقدم على الفعل الى غير ذلك نقول اما تقدم قد مضى الجواب عنه في تأخر وأما سبق

من شفاعة الملائكة لهم موجب لاقناطهم من شفاعة الاصنام بطريق الاولى وكم خبرية مفيدة للتكثير محلها الرفع على الابتداء والخبر هى الجملة المنفية وجمع الضمير فى شفاعتهم مع افراد الملك باعتبار المعنى أى وكثير من الملائكة لاتغنى شفاعتهم عند الله تعالى شيئا من الاغناء فى وقت من الاوقات (الامن بعد أن يأذن الله) لهم فى الشفاعة (لمن يشاء) أن يشفعوا له (ويرضى) ويراه أهلا للشفاعة من أهل التوحيد والايمان وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم من أذن الله تعالى بمعزل وعن الشفاعة بألف منزل فاذا كان حال الملائكة فى باب الشفاعة كما ذكر فاظنهم بحال الاصنام

يقول القائل سابقته فسبقته فيجيب عنه بان ذلك مفتقر الى أمر يصدر من فاعل فالسابق ان استعمل فى الاول فهو بطريق المشابهة لابطريق الحقيقة والفاعل أول الفعل بمعنى قبل الفعل وليس سابق الفعل لان الفاعل والفعل لايتسابقان فالفاعل لايسبقه والذي يوضح ماذكرنا ان الآخر أبعد من الاول عن الفعل بخلاف الآخر ورابقان ان أول بمعنى جعل الآخر اولا لاستخراج معنى من الكلام فبعيد والالم يكن أخر دونه فى افادة ذلك بل التأويل من آل الشئ اذا رجع أى رجعه الى المعنى المراد وأبعد من اللفظين قبل وبعد فان الآخر فاعل من غير فعل والاول أفعل من غير فاعل ولافعل وقبل و بعد لافاعل ولاأفعل فلايفهم من فعل أصلا لان الاول أول لمافيه من معنى قبل وليس قبل قبلا لمافيه من معنى الاول والآخر آخر لمافيه من معنى بعد وليس بعد بعدا لمافيه من معنى الآخر يدلك عليه انك تعالى أحدهما بالاخر ولاتعكسه فتقول هذا آخر من جاء لانه جاء بعد الكل ولاتقول هوجاء بعد الكل لانه آخر من جاء و يؤيده أن الآخر لايحقق الابعدية مخصوصة وهى التى لابعدية بعدها و بعد ليس لاتحقق الا بالآخر فان المتوسط بعد الاول ليس بآخر وهذا البحث من ابحاث الزمان ومنه يعلم معنى قوله صلى الله عليه وسلم لاتسبوا الدهر أى الدهر هو الذى يفهم منه القبلية والبعدية والله تعالى هو الذى يفهم منه ذلك والبعدية والقبلية حقيقة لاثبات الله ولامفهوم للزمان الامابه القبلية والبعدية فلاتسبوا الدهر فان ماتفهمونه منه لايتحقق الا فى الله و بالله ولولاه لما كان قبل ولابعد (البحث الثانى) ورد فى كلام العرب الاولة تأنيث الاول هو ينافيه صحة استعمال الاولى لان الاولى تدل على ان الاول أفعل للتفضيل وأفعل للتفضيل لايلحقه تاء التأنيث فلايقال زيدا علم وزينب اعلمة لسبب يطول ذكره وسنذكره فى موضع آخر ان شاء الله تعالى نقول الجواب عنه هو ان أول لما كان أفعل وليس له فاعل شابه الاربع والارنب فجاز الحاق التاء به ولما كان صفة شابه الاكبر والاصغر فقيل أولى (المسئلة الرابعة) أولى تدل على ان أول لاينصرف فكيف يقال أفعله أولا و يقال جاء زيد أولا وعمرو ثانيا فان قيل جاز فيه الامر ان بناء على أوله وأولى فمن قال بأن تأنيث أول أولة فهو كالاربع والاربعة فجاز التنوين ومن قال أولى لايجوز نقول اذا كان كذلك كان الاشهر ترك التنوين لان الاشهر أن تأنيثه أولى وعليه استعمال القرآن فاذن الجواب ان عند التأنيث الاولى ان يقال أولى نظرا الى المعنى وعند العرب أولة لانه هو الاصل ودل عليه دليل وان كان أضعف من الغير وربما يقال بان منع الصرف من أفعل لايكون الا اذا لم يكن تأنيثه الافعلى وأما اذا كان تأنيثه بالتاء أوجاز ذلك فيه لايكون غير منصرف * ثم قال تعالى (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء و يرضى) وقد علم وجه تعلقها بماقبلها فى الوجوه المتقدمة فى قوله تعالى فلله الآخرة ان قلنا ان معناه ان اللات والعزى وغيرهما ليس لهم من الامر

شئ فلله الآخرة والاولى فلا يجوز اشراكهم فيقولون نحن لانشرك بالله شيئا وانما نقول هؤلاء شفعاؤنا فقال كيف تشفع هذه ومن في السموات لايملك الشفاعة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كم كلمة تستعمل في المقادير امالاستبانتها فتكون استفهامية كقولك كم ذراعا طوله وكم رجلا جاءك أى كم عدد الجائين تستبين المقدار وهى حينئذ مثل كيف لاستبانة الاحوال واى لاستبانة الافراد ومالاستبانة الحقائق وأمالبيانها على الاجمال فتكون خبرية كقولك كم رجل اكرمنى أى كثير منهم أكرمونى غير ان عليه أسئلة (الاول) لم لم يجز ادخالمن على الاستفهامية وجاز على الخبرية (الثانى) لم نصب مميز الاستفهامية وجر الذى للخبرية (الثالث) هى تستعمل في الخبرية في مقابلة رب فلم جعل اسما مع ان رب حرف أما الجواب عن الاول فهو ان من يستعمل في الموضع المتعين بالاضافة تقول خاتم من فضة كما تقول خاتم فضة ولما لم تضف في الاستفهامية لم يجز استعمال مايضاهيه وسنبين هذا الجواب * والجواب عن السؤال الثانى هو ان نقول ان الاصل في المميز الاضافة وعن الثالث هو ان كم يدخل عليه حرف الجر فنقول الى كم تصبر وفي كم يوم جئت وبكم رجل مررت ومن حيث المعنى ان كم اذاقرن بها من وجمع مميزه جمعا كما في قول القائل كم من رجال خدمتهم يكون معناه كثير من الرجال خدمتهم ورب وان كانت للتقليل لكن لاتقوم مقام القليل فلا يمكن ان يقال في رب انها عبارة عن قليل كما قلنا في كم انه عبارة عن كثير (المسئلة الثانية) قال شفاعتهم على عود الضمير الى المعنى ولوقال شفاعته لكان العود الى اللفظ فيجوز أن يقال كم من رجل رأيته وكم من رجل رأيتهم فان قلت هل بينهما فرق معنوى قلت نعم وهو انه تعالى لما قال لاتغنى شفاعتهم يعنى شفاعة الكل ولوقال شفاعته لكان معناه كثير من الملائكة كل واحد لاتغنى شفاعته فربما كان يخطر ببال أحد ان شفاعتهم تغنى اذا اجتمعت وعلى هذا ففي الكلام أمور كلها تشير الى عظم الامر (أحدها) كم فانه للتكثير (ثانيها) لفظ الملك فانه أشرف أجناس المخلوقات (ثالثها) في السموات فانها اشارة الى علو منزلتهم ودنو مرتبتهم من مقر السعادة (رابعها) اجتماعهم على الامر في قوله شفاعتهم وكل ذلك لبيان فساد قولهم ان الاصنام يشفعون أى كيف تشفع مع حقارتها وضعفها ودناءة منزلتها فان الجماد أخس الاجناس والملائكة أشرفها وهم في أعلى السموات ولاتقبل شفاعة الملائكة فكيف تقبل شفاعة الجمادات (المسئلة الثالثة) ما الفائدة في قوله تعالى كم من ملك يعنى كثير من الملائكة مع ان كل من في السموات منهم لايملك الشفاعة نقول المقصود الرد عليهم في قولهم هذه الاصنام تشفع وذلك لايحصل ببيان ان ملكا من الملائكة لاتقبل شفاعته فاكتفى بذكر الكثير ولم يقل مامنهم أحد يملك الشفاعة لانه أقرب الى المنازعة فيه من قوله كثير مع ان المقصود حاصل به * ثم ههنا بحث وهو أن في بعض الصور تستعمل صيغة العموم والمراد الكثير وفي البعض يستعمل الكثير والمراد الكل وكلاهما على

طريقة واحدة وهو استقلال الباقي وعدم الاعتداد في قوله تعالى تدمر كل شيء كأنه يجعل الخارج عن الحكم غير ملتفت اليه وفي قوله تعالى وكم من ملك وقوله بل أكثرهم لا يعلمون وقوله أكثرهم بهم مؤمنون يجعل المخرج غير ملتفت اليه فيجعل كأنه ما أخرجه كالامر الخارج عن الحكم كأنه ما خرج وذلك يختلف باختلاف المقصود من الكلام فان كان الكلام مذكورا لامر فيه يبالغ يستعمل الكل مثاله يقال للملك كل الناس يدعون لك اذا كان الغرض بيان كثرة الدعاء له لا غير وان كان الكلام مذكورا لامر خارج عنه لا يبالغ فيه لان المقصود غيره فلا يستعمل الكل مثاله اذا قال الملك لمن قال له اغتنم دعائي كثير من الناس يدعون لي اشارة الى عدم احتياجه الى دعائه لا لبيان كثرة الدعاء له فكذلك ههنا (المسئلة الرابعة) قال لا تغني شفاعتهم ولم يقل لا يشفعون مع ان دعواهم ان هؤلاء شفعاؤنا لا أن شفاعتهم تنفع أو تغني وقال تعالى في مواضع أخر من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه فنفى الشفاعة بدون الاذن وقال مالهم من ولي ولا شفيع نفى الشفيع وههنا نفى الاغناء نقول هم كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا وكانوا يعتقدون نفع شفاعتهم كما قال تعالى ليقربونا الى الله زلفى نقول نفى دعواهم يشتمل على فائدة عظيمة أما نفى دعواهم لانهم قالوا الاصنام تشفع لنا شفاعة مقربة مغنية فقال لا تغني شفاعتهم بدليل ان شفاعة الملائكة لا تغني وأما الفائدة فلانه لما استثنى بقوله الا من بعد أن يأذن الله أي فيشفع ولكن لا يكون فيه بيان انها تقبل وتغني أو لا تقبل فاذا قال لا تغني شفاعتهم ثم قال الا من بعد أن يأذن الله فيكون معناه تغني فيحصل البشارة لانه تعالى قال الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا وقال تعالى ويستغفرون لمن في الارض والاستغفار شفاعة وأما قوله من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه فليس المراد نفى الشفاعة وقبولها كما في هذه الآية حيث رد عليهم قولهم وانما المراد عظمة الله تعالى وانه لا ينطق في حضرته أحد لا يتكلم كما في قوله تعالى لا يتكلمون الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء (المسئلة الخامسة) اللام في قوله لمن يشاء ويرضى تحتمل وجهين (أحدهما) أن تتعلق بالاذن وهو على طريقين (أحدهما) ان يقال الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء من الملائكة في الشفاعة لمن يشاء الشفاعة ويرضى (الثاني) أن يكون الاذن في المشفوع له لان الاذن حاصل للكل في الشفاعة للمؤمنين لانهم جميعهم يستغفرون لهم فلا معنى للتخصيص ويمكن أن ينازع فيه (وثانيهما) ان تتعلق بالاغناء يعني الا من بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة فتغني شفاعتهم لمن يشاء ويمكن ان يقال بان هذا بعيد لان ذلك يقتضي ان تشفع الملائكة والاغناء لا يحصل الا لمن يشاء فيجاب عنه بان فيه التنبيه على معنى عظمة الله تعالى فان الملك اذا شفع فالله تعالى على مشيئته بعد شفاعتهم يغفر لمن يشاء (المسئلة السادسة) ما الفائدة في قوله تعالى ويرضى نقول فيه فائدة الارشاد وذلك لانه لما قال لمن يشاء كان

المكلف مترددا لايعلم مشيئته فقال يرضى ليعلم انه العابد الشاكر لاالمعاند الكافر فانه تعالى قال ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولايرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم فكأنه قال لمن يشاء ثم قال و يرضى بيانا لمن يشاء وجواب آخر على قولنا لاتغنى شفاعتهم شيئا من يشاء هوان فاعل يرضى المدلول عليه لمن يشاء كأنه قال و يرضى هواى تغنيه الشفاعة شيئا صالحا فيحصل به رضاه كاقال و يرضى هوأى تغنيه الشفاعة وحينئذ يكون يرضى للبيان لانه لما قال لاتغنى شفاعتهم اشارة الى نفى كل قليل وكثير كان اللازم عنده بالاستثناء ان شفاعتهم تغنى شيئا ولوكان قليلا و يرضى المشفوع له ليعلم انها تغنى أكثر من اللازم بالاستثناء و يمكن أن يقال و يرضى لتبيين ان قوله يشاء ليس المراد المشيئة التى هى الرضا فان الله تعالى اذا شاء الضلالة بعبد لم يرض به واذا شاء الهداية رضى فقال لمن يشاء و يرضى ليعلم ان تلك المشيئة ليست هى المشيئة العامة انماهى الخاصة * ثم قال تعالى (ان الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى) وقد بينا ذلك فى سورة الطور واستدللنا بهذه الآية ونذكر مايقرب منه ههنا فنقول الذين لايؤمنون بالآخرة هم الذين لايؤمنون بالرسل ولايتبعون الشرع وانما يتبعون مايدعون انه عقل فيقولون أسماء الله تعالى ليست توقيفية و يقولون الولد هوالموجود من الغير و يستدلون عليه بقول اهل اللغة كذا يتولد منه كذا يقال الزاج يتولد من الآخر بمعنى يوجد منه وكذا القول فى بنت الكرم و بنت الجبل ثم قالوا الملائكة وجدوا من الله تعالى فهم اولاده بمعنى الايجاد ثم انهم رأوا فى الملائكة تاء التأنيث وصح عندهم ان يقال سجدت الملائكة فقالوا بنات الله فقال ان الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى اى كاسمى الاناث بنات وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كيف يصح ان يقال انهم لايؤمنون بالآخرة مع انهم كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا عندالله وكان من عادتهم أن يربطوا مركوبا على قبر من يموت و يعتقدون انه يحشرعليه فنقول الجواب عنه من وجهين (احدهما) انهم لما كانوا لايجزمون به كانوا يقولون لاحشر فان كان فلنا شفعاء يدل عليه قوله تعالى وماأظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى (ثانيهما) انهم ماكانوا يعترفون بالآخرة على الوجه وهوماورد به الرسل (المسئلة الثانية) قال بعض الناس انثى فعلى من افعل يقال فى فعلها آنث و يقال فى فاعلها أنيث يقال حديد ذكر وحديد انيث والحق أن الانثى يستعمل فى الاكثر على خلاف ذلك بدليل جمعها على اناث (المسئلة الثالثة) كيف قال تسمية الانثى ولم يقل تسمية الاناث نقول عنه جوابان (احدهما) ظاهر والآخر دقيق اماالظاهر فهوان المراد بيان الجنس وهذا اللفظ اليق بهذا الموضع لماجاء على وفقه آخر الآيات والدقيق هو انه لوقال يسمونهم تسمية الاناث يحتمل وجهين احدهما البنات وثانيهما الاعلام المعتادة للاناث كعائشة وحفصة فان تسمية الاناث كذلك تكون فاذا قال تسمية الانثى

(ان الذين لايؤمنون بالآخرة) و بما فيها من العقاب على ما يتعاطونه من الكفر والمعاصى (ليسمون الملائكة) المنزهين من سمات النقصان على الاطلاق اى يسمون كل واحد منهم (تسمية الانثى) فان قولهم الملائكة بنات الله قول منهم بان كلامنهم بنته سبحانه وهى التسمية بالانثى وفى تعليقها بعدم الايمان بالآخرة اشعار بانهافى الشناعة والفظاعة واستتباع العقوبة فى الآخرة بحيث لايجترئ عليها الامن لايؤمن بها رأسا

تعين ان تكون للجنس وهى البنت والبنات ومناسبة هذه الآية لماقبلها هى انهم لما قيل لهم ان الصنم جماد لايشفع و بين لهم ان أعظم أجناس الخلق لاشفاعة لهم الابالاذن قالوانحن لانعبد الاصنام لانهاجمادات وانما نعبد الملائكة بعبادتها فانها على صورها ننصبها بين أيدينا ليذكرنا الشاهد الغائب فنعظم الملك الذى ثبت انه مقرب عظيم الشان رفيع المكان فقال تعالى رداعليهم كيف تعظمونهم وأنتم تسمونهم تسمية الاناث ثم ذكر فيه مستندهم فى ذلك وهو لفظ الملائكة ولم يقل ان الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائك تسمية الانثى بل قال ليسمون الملائكة فانهم اغتروا بالتاء واغترارهم باطل لان التاء تجئ لمعان غير لتأنيث الحقيقى والبنت لاتطلق الاعلى المؤنث الحقيقى بالاطلاق والتاء فيها لتأكيد معنى الجمع كما فى صياقلة وهى تشبه تلك التاء وذلك لان الملائكة فى المشهور جمع ملك والملك اختصار من الملائك بحذف الهمزة والملائك قلب المألك من الالوكة وهى الرسالة فالملائكة على هذا اقول مفاعلة والاصل مفاعل ورد الى ملائكة فى الجمع فهى تشبه فعائل وفعائلة والظاهر ان الملائكة فعائلة جمع مليكى منسوب الى المليك بدليل قوله تعالى عند مليك مقتدر فى وعد المؤمن وقال فى وصف الملائكة فالذين عند ربك وقال أيضا فى الوعد وان له عندنا لزلفى وقال فى وصف الملائكة ولاالملائكة المقربون فهم اذن عباد مكرمون اختصهم الله بمزيد قربه و يفعلون مايؤمرون كما للملوك والمستخدمين عند السلاطين الواقفين بأبوابهم منتظرين لورود أمر عليهم فهم منتسبون الى المليك المقتدر فى الحال فهم مليكيون وملائكة فالتاء للنسبة فى الجمع كما فى الصيارفة والبياطرة فان قيل هذا باطل من وجوه (الاول) ان احدالم يستعمل لواحد منهم مليكى كما استعمل صيرفى (والثانى) ان الانسان عندما يصير عندالله تعالى يجب أن يكون من الملائكة وليس كذلك لان المفهوم من الملائكة جنس غير الآدمى (الثالث) هوان فعائلة فى جمع فعيلى لم يسمع وانما يقال فعيلة كما يقال جاء بالتسمية والحقيقة (الرابع) لو كان كذلك لما جمع ملك * نقول اما عدم استعمال واحده فسلم وهولسبب وهو ان الملك كلما كان أعظم كان حكمه وخدمه وحشمه أكثر فاذا وصف بالعظمة وصف بالجمع فيقال صاحب العسكر الكثير ولايوصف بواحد وصف تعظيم وأما ذلك الواحد فان نسب الى المليك عين للخبر بأن يقال هذا مليكى وذلك عندما تعرف عينه فتجعله مبتدأ وتخبر بالمليكى عنه والملائكة لم يعرفوا بأعيانهم الاقليلا منهم كجبريل وميكائيل وحينئذ لافائدة فى قولنا جبريل مليكى لان من عرف المبتدأ عرف الخبر ولايصاغ الجمل الالبيان ثبوت الخبر للمبتدأ فلا يقال للانسان حيوان أوجسم لانه ايضاح واضح اللهم الاأن يستعمل ذلك فى ضرب مثال وفى صورة نادرة لغرض واما أن ينسب الى المليك وهو مبتدأ فلا لان العظمة فى أن يقول واحدمن الملائكة فنبه على كثرة المقربين اليه كما تقول واحد من أصحاب الملك ولاتقول صاحب

وقوله تعالى (ومالهم به من علم) حال من فاعل يسمون أى يسمونهم والحال أنه لا علم لهم بما يقولون أصلا وقرئ بها أى بالملائكة أو بالتسمية (ان يتبعون) فى ذلك (الاالظن) الفاسد (وان الظن) أى جنس الظن كما يلوح به الاظهار فى موقع الاضمار (لايغنى من الحق شيئا) من الاغناء فان الحق الذى هو عبارة من حقيقة الشئ لايدرك الابالعلم والظن لااعتداد به فى شأن المعارف الحقيقية وانما يعتد به فى العمليات وما يؤدى اليها

الملك فاذا اردت التعظيم البالغ فعند الواحد استعمل اسم الملك غير منسوب بل هو موضوع لشدته وقوته كما قال تعالى ذو مرة وذو قوة فقال شديد القوى و م ل ك تدل على الشدة فى تقاليبها على ما عرف وعند الجمع استعمل الملائكة للتعظيم كما قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وأما الجواب عن الثانى فنقول قد يكون الاسم فى الاول لوصف يختص ببعض من يتصف به وغيره لو صار متصفا بذلك الوصف يسمى بذلك الاسم كالدابة فاعلة من دب ولا يقال للمرأة ذات الدب دابة اسما وربما يقال لها صفة عند حالة مادب بدب مخصوص غير الدب العام الذى فى الكل كما لو دبت بليل لاخذ شئ أو غيره أو يقال انما سميت الملائكة ملائكة لطول انتسابهم من قبل خلق الآدمى بسنين لا يعلم عددها الا الله فمن لم يصل الى الله ويقوم ببابه لا يحصل له العهد والانتساب فلا يسمى بذلك الاسم وأما عن الثالث فنقول الجموع اقياسية لامانع لها كفعال فى جمع فعل كجمال وثمار وافعال كأثقال وأشجار وفعلان وغيرها وأما السماع وان لم يرد الا قليلا فاكتفى بما فيه من التعظيم من نسبة الجمع الكثير الى باب الله ويكون من باب المرأة والنساء اما الجواب عن الرابع فالمنع ولعل هذا منه أو نقول حمل فعيلى على فعيل فى الجمع كما حمل فيعل فى الجمع على فعيل فعيل فى جمع جيد جياد ولا يقال فى فعيل أفاعل ويؤيد ماذكرنا ان ابليس عندما كان واقفا بالباب كان داخلا فى جملة الملائكة فنقول قوله تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس عندما صرف وأبعد خرج عنهم وصار من الجن وأما ما قاله بعض أهل اللغة من أن الملائكة جمع ملأك وأصل ملأك مألك من الألوكة وهى الرسالة ففيه تعسفات أكثر مما ذكرنا بكثير منها ان الملك لا يكون فعل بل هو مفعل وهو خلاف الظاهر ولم يستعمل مألك على أصله كما آرب ومآثم ومآكل وغيرها مما لا يعد الا بتعسف ومنها ان ملكا لم جعل ملأك ولم يفعل ذلك باخواته التى ذكرناها ومنها ان التاء لم الحقت بجمعه ولم يقل ملائك كما فى جمع كل مفعل والذى يرد قولهم قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا فهى غير الرسل فلا يصح أن يقال جعلت الملائكة رسلا كما لا يصح جعلت الرسل مرسلين وجعل المقترب قريبا الا ان الجعل لا بد فيه من تغيير ومما يدل على خلاف ما ذكروا ان الكل منسوبون اليه موقوفون بين يديه منتظرون امره لورود الاوامر عليهم * ثم قال تعالى (وما لهم به من علم ان يتبعون الا الظن) وفيما يعود اليه الضمير فى به وجوه (أحدها) ما نقله الزمخشرى وهو انه عائد الى ما كانوا يقولون من غير علم (ثانيها) انه عائد الى ما تقدم فى الآية المتقدمة من علم أى ما لهم بالله من علم فيشركون وقرئ ما لهم بها وفيه وجوه أيضا (أحدها) ما لهم بالآخرة (ثانيها) ما لهم بالتسمية (ثالثها) ما لهم بالملائكة فان قلنا ما لهم بالآخرة فهو جواب لما قلنا انهم وان كانوا يقولون بأن الاصنام شفعاؤنا عند الله وكانوا يربطون الابل على قبور الموتى ليركبوها لكن ما كانوا يقولون به عن علم وان قلنا بالتسمية ففيه اشكال وهو أن العلم

(فأعرض عن من تولى عن ذكرنا) أى عنهم ووضع الموصول موضع ضميرهم للتوسل به الى وصفهم بما فى حيز صلته من الاوصاف القبيحة وتعليل الحكم بها أى فأعرض عن من أعرض عن ذكرنا المفيد للعلم اليقينى وهو القرآن المنطوى على علوم الاولين والآخرين المذكر لامور الآخرة أو عن ذكرنا كما ينبغى فان ذلك مستتبع لذكر الآخرة وما فيها من الامور المرغوب فيها والمرهوب عنها و(لم يرد الا الحياة الدنيا) راضيا بها قاصرا نظره عليها والمراد

بالتسمية حاصل لهم فانهم يعلمون انهم ليسوا في شك اذ التسمية قد تكون وضعا أوليا وهو لا يكون بالظن بل بالعلم بأنه وضع وقد يكون استعمالا معنويا ويتطرق اليه الكذب والصدق والعلم مثال الاول من وضع أولا اسم السماء لموضوعها وقال هذا سماء مثال الثاني اذا قلنا بعد ذلك للماء والحجر هذا سماء فانه كذب ومن يعتقده فهو جاهل وكذلك قولهم في الملائكة انها بنات الله لم تكن تسمية وضعية وانما أرادوا به انهم موصوفون بامر يجب استعمال لفظ البنات فيهم وذلك كذب ومعتقده جاهل فهذا هو المراد بما ذكرنا ان الظن يتبع في الامور المصلحية والافعال العرفية أو الشرعية عند عدم الوصول الى اليقين واما في الاعتقادات فلا يغني الظن شيئا من الحق فلن قيل أليس الظن قد يصيب فكيف يحكم عليه بانه لا يغني أصلا نقول المكلف يحتاج الى يقين تميز الحق من الباطل ليعتقد الحق ويميز الخير من الشر ليفعل الخير لكن في الحق ينبغي أن يكون جازما لاعتقاد مطابقه والظان لا يكون جازما وفي الخير ربما يعتبر الظن في مواضع ويحتمل أن يقال المراد من الحق هو الله تعالى ومعناه ان الظن لا يفيد شيئا من الله تعالى أي الاوصاف الالهية لا تستخرج بالظنون يدل عليه قوله تعالى ذلك بان الله هو الحق وفيه لطيفة وهي ان الله تعالى في ثلاثة مواضع منع من الظن وفي جميع تلك المواضع كان المنع عقيب التسمية والدعاء باسم موضعان منها في هذه السورة (أحدهما) قوله تعالى ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن (والثاني) قوله تعالى ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا (والثالث) في الحجرات قال الله تعالى ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن عقيب الدعاء بالقلب وكل ذلك دليل على ان حفظ اللسان أولى من حفظ غيره من الاركان وان الكذب أقبح من السيئات الظاهرة من الايدي والارجل وهذه المواضع الثلاثة (أحدها) مدح من لا يستحق المدح كاللات والعزى من العز (وثانيها) ذم من لا يستحق الذم وهم الملائكة الذين هم عباد الرحمن يسمونهم تسمية الانثى (وثالثها) ذم من لم يعلم حاله وأما مدح من حاله لا يعلم فلم يقل فيه لا يتبعون الا الظن بل الظن فيه معتبر والاخذ بظاهر حال العاقل واجب * ثم قال تعالى (فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيوة الدنيا) أي اترك مجادلتهم فقد بلغت وأتيت بما كان عليك وأكثر المفسرين يقولون بان كل ما في القرآن من قوله تعالى فاعرض منسوخ بآية القتال وهو باطل فان الامر بالاعراض موافق لآية القتال فكيف ينسخ به وذلك لان النبي صلى الله عليه وسلم كان مأمورا بالدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة فلما عارضوه باباطيلهم قيل له وجادلهم بالتي هي أحسن ثم لما لم ينفع قال له ربه فاعرض عنهم ولا تقابلهم بالدليل والبرهان فانهم لا يتبعون الا الظن ولا يتبعون الحق وقابلهم بالاعراض عن المناظرة بشرط جواز المقاتلة فكيف يكون منسوخا

النهي عن دعوته والاعتناء بشانه فان من أعرض عما ذكر وانهمك في الدنيا بحيث كانت هي منتهى همته وقصارى سعيه لا تزيده الدعوة الى خلافها الا عنادا واصرارا على الباطل (ذلك) أي ما أداهم الى ما هم فيه من التولي وقصر الارادة على الحياة الدنيا (مبلغهم من العلم) لا يكادون يجاوزونه الى غيره حتى تجديهم الدعوة والارشاد وجمع الضمير في مبلغهم باعتبار معنى من كما أن افراده فيما سبق باعتبار لفظها والمراد بالعلم مطلق الادراك

والاعراض من باب أشكاه والهمزة فيه للسلب كأنه قال ازل العرض ولاتعرض عليهم بعد هذا أمرا وقوله تعالى عمن تولى عن ذكرنا لبيان تقديم فائدة العرض والمناظرة لان من لايصغي الى القول كيف يفهم معناه وفي ذكرنا وجوه (الاول) القرآن (الثاني) الدليل والبرهان (الثالث) ذكر الله تعالى فان من لاينظر في الشيء كيف يعرف صفاته وهم كانوا يقولون نحن لانتفكر في آلاء الله لعدم تعلقنا بالله وانما أمرنا مع من خلقنا وهم الملائكة أو الدهر على اختلاف أقاويلهم وتباين أباطيلهم وقوله تعالى ولم يرد الا الحياة الدنيا اشارة الى انكارهم الحشر كما قالوا ان هي الا حياتنا الدنيا وقال تعالى أرضيتم بالحياة الدنيا يعني لم يثبتوا وراءها شيئا آخر يعملون له فقوله عمن تولى عن ذكرنا اشارة الى انكارهم الحشر لانه اذا ترك النظر في آلاء الله تعالى لايعرفه فلا يتبع رسوله فلا ينفعه كلامه واذا لم يقل بالحشر والحساب لايخاف فلا يرجع عما هو عليه فلا يبقى اذن فائدة في الدعاء واعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان طبيب القلوب فاتى على ترتيب الاطباء وترتيبهم ان الحال اذا أمكن اصلاحه بالغذاء لايستعملون الدواء وما أمكن اصلاحه بالدواء الضعيف لايستعملون الدواء القوي ثم اذا عجزوا عن المداواة بالمشروبات وغيرها عدلوا الى الحديد والكي وقيل آخر الدواء الكي فالنبي صلى الله عليه وسلم أولا أمر القلوب بذكر الله فحسب فان بذكر الله تطمئن القلوب كما ان بالغذاء تطمئن النفوس فالذكر غذاء القلب ولهذا قال أولا قولوا لا اله الا الله أمر بالذكر لمن انتفع مثل أبي بكر وغيره ممن انتفع ومن لم ينتفع ذكر لهم الدليل وقال أولم يتفكروا قل انظروا أفلا ينظرون الى غير ذلك ثم أتى بالوعيد والتهديد فلما لم ينفعهم قال أعرض عن المعالجة واقطع الفاسد لئلا يفسد الصالح ❊ ثم قال تعالى (ذلك مبلغهم من العلم) ذلك فيه وجوه (الاول) أظهرها انه عائد الى الظن أي غاية ما يبلغون به انهم يأخذون بالظن (وثانيها) ايثار الحياة الدنيا مبلغهم من العلم أي ذلك الايثار غاية ما بلغوه من العلم (ثالثها) فأعرض عمن تولى وذلك الاعراض غاية ما بلغوه من العلم والعلم على هذا يكون المراد منه العلم بالمعلوم وتكون الالف واللام للتعريف والعلم بالمعلوم هو ما في القرآن وتقرير هذا أن القرآن لما ورد بعضهم تلقاه بالقبول وانشرح صدره فبلغ الغاية القصوى وبعضهم قبله من حيث انه معجزة واتبع الرسول فبلغ الدرجة الوسطى وبعضهم توقف فيه كأبي طالب وذلك أدنى المراتب وبعضهم رده وعابه فالاولون لم يجز الاعراض عنهم والآخرون وجب الاعراض عنهم وكان موضع بلوغه من العلم انه قطع الكلام معه وأعرض عنه وعليه سؤال وهو ان الله تعالى بين ان غايتهم ذلك ولا يكلف الله نفسا الا وسعها والمجنون الذي لا علم له والصبي لايؤمر بما فوق احتماله فكيف يعاقبهم الله نقول ذكر قبل ذلك انهم تولوا عن ذكر الله فكان عدم علمهم لعدم قبولهم العلم وانما قدر الله توليهم ليضاف الجهل الى ذلك فيحقق العقاب قال الزمخشري ذلك مبلغهم من العلم كلام معترض بين كلامين والمتصل قوله

المنتظم للظن الفاسد والجملة اعتراض مقرر لمضمون ماقبلها من قصر الارادة على الحياة الدنيا وقوله تعالى (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) تعليل للامر بالاعراض وتكرير قوله تعالى هو أعلم لزيادة التقرير والايذان بكمال تباين المعلومين والمراد بمن ضل من أصر عليه ولم يرجع الى الهدى أصلا وبمن اهتدى من من شانه الاهتداء في الجملة أي هو المبالغ في العلم بمن لايرعوي عن الضلال أبدا وبمن يقبل الاهتداء في الجملة

تعالى فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وعلى ماذكرنا المقصود لايتم الا به ويكون كانه تعالى قال أعرض عنهم فان ذلك غايتهم ولا يوجد وراء ماظهر منهم شئ وكان قوله عمن تولى اشارة الى قطع عذرهم بسبب الجهل فان الجهل كان بالتولي وايثار العاجل * ثم ابتدأ وقال (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) وفى المناسبة وجوه (الاول) انه تعالى لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم أعرض وكان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الميل الى ايمان قومه كان ربما هجس فى خاطره ان فى الذكرى بعد منفعة وربما يؤمن من الكافرين قوم آخرون من غير قتال فقال له ربك أعلم بمن ضل عن سبيله علم انه لايؤمن بمجرد الدعاء أحد من المكلفين وانما ينفع فيهم ان يقع السيف والقتال فأعرض عن الجدال وأقبل على القتال وعلى هذا فقوله بمن اهتدى اى علم فى الازل من ضل فى تقديره ومن اهتدى فلا يشتبه عليه الامران ولابأس فى الاعراض ويعد فى العرف مصلحة (ثانيها) هو على معنى قوله تعالى وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين وقوله تعالى الله يحكم بيننا ووجهه انهم كانوا يقولون نحن على الهدى وأنتم مبطلون وأقام النبي صلى الله عليه وسلم الحجة عليهم فلم ينفعهم فقال تعالى أعرض عنهم وأجرك وقع على الله فانه يعلم انكم مهتدون ويعلم انهم ضالون والمتناظران اذا تناظرا عند ملك قادر مقصودهم ظهور الامر عند الملك فان اعترف الخصم بالحق فذاك والا فغرض المصيب يظهر عند الملك فقال تعالى جادلت وأحسنت والله أعلم بالمحق من المبطل (ثالثها) انه تعالى لما أمر نبيه بالاعراض وكان قد صدر منهم ايذاء عظيم وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتحمله رجاء أن يؤمنوا فنسخ جميع ذلك فلما لم يؤمنوا فكأنه قال سعيي وتحملي لايذائهم وقع هباء فقال الله تعالى ان الله يعلم حال الضالين والمهتدين لله مافى السموات والارض ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا من المهتدين وفيه مسائل (المسألة الاولى) هو يسمى عمادا وفصلا ولو قال ان ربك أعلم لتم الكلام غير ان عند خلو الكلام عن هذا العماد ربما يتوقف السامع على سماع مابعده ليعلم ان أعلم خبر ربك أو هو مع شئ آخر خبر مثاله لو قال ان زيدا أعلم منه عمرو ويكون خبر زيد الجملة التى بعده فان قال هو أعلم انتفى ذلك التوهم (المسألة الثانية) أعلم يقتضى مفضلا عليه يقال زيد اعلم من عمرو والله أعلم ممن تقول أفعل يجئ كثيرا بمعنى عالم لاعالم مثله وحينئذ ان كان هناك عالم فذاك مفضل عليه وان لم يكن فى الحقيقة هو العالم لاغير وفى كثير من المواضع أفعل فى صفات الله بذلك المعنى يقال الله اكبر وفى الحقيقة لاكبير مثله ولا أكبر الا هو والذى يناسب هذا انه ورد فى الدعوات يا اكرم الاكرمين كأنه قال لا اكرم مثلك وفى الحقيقة لا اكرم الا هو وهذا معنى قول من يقول اعلم بمعنى عالم بالمهتدى والضال ويمكن ان يقال اعلم من كل عالم بفرض عالم غيره (المسألة الثالث) علمته وعلمت به مستعملان قال الله تعالى فى الانعام هو اعلم من يضل عن سبيله ثم

لاغيره فلا تتعب نفسك فى دعوتهم فانهم من القبيل الاول وفى تعليل الامر باعراضه عليه السلام عن الاعتناء بامرهم باقتصار العلم باحوال الفريقين عليه تعالى رمز الى أنه تعالى يعاملهم بموجب علمه بهم فيجزى كلا منهم بما يليق به من الجزاء ففيه وعيد ووعد ضمنا كما سيأتى صريحا (ولله ما فى السموات ومافى الارض) أى خلقا وملكا لا لغيره أصلا لا استقلالا ولا اشتراكا وقوله تعالى (ليجزى) الخ متعلق بما دل عليه أعلم الخ

ينبغي ان يكون المراد من المعلوم ان العلم اذا كان تعلقه بالمعلوم اقوى اما لقوة العلم واما لظهور المعلوم واما لتأكيد وجوب العلم به واما لكون الفعل له قوة اما قوة العلم فكما في قوله تعالى ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثي الليل ونصفه وقال الم يعلم بان الله يرى لما كان علم الله تعالى تاما شاملا علقه بالمفعول الذي هو حال من أحوال عبده الذي هو بمرأى منه من غير حرف ولما كان علم العبد ضعيفا حادثا علقه بالمفعول الذي هو صفة من صفات الله تعالى الذي لا يحيط به علم البشر بالحرف أو لما كان كون الله رائيا لم يكن محسوسا به مشاهدا علق الفعل به بنفسه وبالآخر بالحرف وأما ظهور المعلوم فكما قال تعالى أولم يعلموا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء وهو معلوم ظاهر وأما تأكيد وجوب العلم به كما في قوله تعالى فاعلم أنه لا اله الا الله ويمكن ان يقال هو من قبيل الظاهر وكذلك قوله تعالى واعلموا انكم غير معجزي الله وأما قوة الفعل فقال تعالى علم ان لن تحصوه وقال تعالى ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى لما كان المستعمل صيغة الفعل علقه بالمفعول بغير حرف وقال تعالى ان ربك أعلم بمن هو لما كان المستعمل اسما دالا على فعل ضعف عمله لتعلقه بالمفعول (المسئلة الرابعة) قدم العلم بمن ضل على العلم بالمهتدي في كثير من المواضع منها في سورة الانعام ومنها في سورة ن ومنها في هذه السورة لان في المواضع كلها المذكور نبيه صلى الله عليه وسلم والمعاندون فذكرهم أولا تهديدا لهم وتسلية لقلب نبيه عليه الصلاة والسلام (المسئلة الخامسة) قال في موضع واحد من المواضع هو أعلم من يضل عن سبيله وفي غيره قال بمن ضل فهل عندك فيه شيء قلت نعم ونبين ذلك ببحث عقلي وآخر نقلي (أما العقلي) فهو ان العلم القديم يتعلق بالمعلوم على ما هو عليه ان وجد أمس علم انه وجد أمس في نهار أمس وليس مثل علمنا حيث يجوز ان يتحقق الشيء أمس ونحن لا نعلمه الا في يومنا هذا بل لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والارض ولا يتأخر الواقع عن علمه طرفة عين (واما النقلي) فهو ان اسم الفاعل يعمل عمل الفعل اذا كان بمعنى المستقبل ولا يعمل عمله اذا كان ماضيا فلا تقول انا ضارب زيدا أمس والواجب ان كنت تنصب ان تقول ضربت زيدا وان كنت تستعمل اسم الفاعل فالواجب الاضافة تقول ضارب زيد امس انا ويجوز ان يقال انا غدا ضارب زيدا والسبب فيه ان الفعل اذا وجد فلا تجدد له في الاستقبال ولا تحقق له في الحال فهو عدم وضعف عن ان يعمل وأما الحال وما يتوقع فله وجود فيمكن اعماله اذا ثبت هذا فنقول لما قال ضل كان الامر ماضيا وعلمه تعلق به وقت وجوده فعلم وقوله أعلم بمعنى عالم فيصير كأنه قال عالم بمن ضل فلو ترك الباء لكان اعمالا للفاعل بمعنى الماضي ولما قال يضل كان يعلم الضلال عند الوقوع وان كان قد علم في الأزل انه سيضل لكن للعلم بعد ذلك تعلق آخر سيوجد وهو تعلقه بكون الضلال قد وقع وحصل ولم يكن ذلك في الازل فانه لا يقال انه تعالى علم ان فلانا ضل في الازل وانما الصحيح ان يقال علم في الازل انه سيضل فيكون كأنه يعلم انه يضل فيكون اسم الفاعل بمعنى

وما بينهما اعتراض مقرر لما قبله فان كون الكل خلقه تعالى مما يقرر علمه تعالى بأحوالهم ألا يعلم من خلق كأنه قيل فيعلم ضلال من ضل واهتداء من اهتدى ويحفظهما ليجزي (الذين اساؤا بما عملوا) أي بعقاب ما عملوا من الضلال الذي عبر عنه بالاساءة بيانا لحاله أو بسبب ما عملوا (ويجزي الذين أحسنوا) أي اهتدوا (بالحسنى) أي بالمثوبة الحسنى التي هي الجنة أو بسبب اعمالهم الحسنى وقيل متعلق بما دل عليه قوله تعالى ولله

المستقبل وهو يعمل عمل الفعل فلا يقال زيد اعلم مسئلتنا من عمرو وانما الواجب ان يقال زيد اعلم بمسئلتنا من عمرو ولهذا قالت النحاة في سورة الانعام ان ربك هو أعلم من يضل بعلم من يضل وقالوا اعلم للتفضيل لا يبنى الا من فعل لازم غير متعد فان كان متعديا يرد الى لازم وقولنا اعلم كانه من باب علم بالضم وكذا في التعجب اذا قلنا ما أعلمه بكذا كانه من فعل لازم وأما انا فقد أجبت عن هذا بأن قوله أعلم من يضل معناه عالم وقد قدمنا ما يجب ان يعتقد في أوصاف الله في أكثر الامر ان معناه انه عالم ولا عالم مثله فيكون اعلم على حقيقته وهو أحسن من ان يقال هو بمعنى عالم لا غير فان قيل لم قال ههنا بمن ضل وقال هناك يضل قلنا لان ههنا حصل الضلال في الماضي وتأكد حيث حصل يأس الرسول صلى الله عليه وسلم وأمر بالاعراض وأما هناك فقال تعالى من قبل وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ثم قال تعالى ان ربك هو أعلم من يضل بمعنى ان ضلالت يعلمك به فكان الضلال غير حاصل فيه فلم يستعمل صيغة الماضي (المسئلة السادسة) قال في الضلال عن سبيله ولم يقل في الاهتداء الى سبيله لان الضلال عن السبيل هو الضلال وهو كاف في الضلال لان الضلال لا يكون الا في السبيل وأما بعد الوصول فلا ضلال أولان من ضل عن سبيله لا يصل الى المقصود سواء سلك سبيلا أو لم يسلك وأما من اهتدى الى سبيل فلا وصول له ان لم يسلكه ويصحح هذا ان من ضل في غير سبيله فهو ضال ومن اهتدى اليها لا يكون مهتديا الا اذا اهتدى الى كل مسئلة يضر الجهل بها بالايمان فكان الاهتداء اليقيني هو الاهتداء المطلق فقال بمن اهتدى وقال بالمهتدين ✿ ثم قال تعالى (ولله ما في السموات وما في الارض ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين احسنوا بالحسنى) اشارة الى كمال غناه وقدرته ليذكر بعد ذلك ويقول ان ربك هو أعلم من الغنى القادر لان من علم ولم يقدر لا يتحقق منه الجزاء فقال ولله ما في السموات وما في الارض وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الزمخشري ما يدل على انه يعتقد ان اللام في قوله ليجزي كاللام في قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وهو جري في ذلك على مذهبه فقال ولله ما في السموات وما في الارض معناه خلق ما فيهما لغرض الجزاء وهو لا يتحاشى عما ذكره لما عرف من مذهب الاعتزال وقال الواحدي اللام للعاقبة كما في قوله تعالى ليكون لهم عدوا أي اخذوه وعاقبته انه يكون لهم عدوا والتحقيق فيه هو ان حتى ولام الغرض متقاربان في المعنى لان الغرض نهاية الفعل وحتى للغاية المطلقة فبينهما مقاربة فيستعمل أحدهما مكان الآخر يقال سرت حتى أدخلها ولكي أدخلها فلام العاقبة هي التي تستعمل في موضع حتى للغاية ويمكن ان يقال هنا وجه أقرب من الوجهين وان كان أخفى منهما وهو ان يقال ان قوله ليجزي متعلق بقوله ضل واهتدى لا بالعلم ولا بخلق ما في السموات تقديره كانه قال هو أعلم بمن ضل واهتدى ليجزي أي من ضل واهتدى يجزي الجزاء والله أعلم به فيصير قوله ولله ما في السموات وما في الارض كلاما معترضا ويحتمل ان

ما في السموات وما في الارض كأنه قيل خلق ما فيهما ليجزي الخ وقيل متعلق بضل واهتدى على أن اللام للعاقبة أي هو أعلم بمن ضل ليؤل أمره الى أن يجزيه الله تعالى بعمله وبمن اهتدى ليؤل أمره الى ان يجزيه بالحسنى وفيه من البعد ما لا يخفى وتكرير الفعل لابراز كمال الاعتناء بامر الجزاء والتنبيه على تباين الجزاءين (الذين يجتنبون كبائر الاثم) بدل من الموصول الثاني وصيغة الاستقبال في صلته للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره أو بيان

يقال هو متعلق بقوله تعالى فأعرض أي اعرض عنهم ليقع الجزاء كما يقول المريد فعلا لمن يمنعه منه ذرني لأفعله وذلك لأن مادام النبي صلى الله عليه وسلم لم ييأس ما كان العذاب ينزل والاعراض وقت اليأس وقوله تعالى و يجزي الذين أحسنوا بالحسنى حينئذ يكون مذكورا ليعلم ان العذاب الذي عند اعراضه يتحقق ليس مثل الذي قال تعالى فيه واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة بل هو يختص بالذين ظلموا وغيرهم لهم الحسنى وقوله تعالى في حق المسيء بما عملوا وفي حق المحسن بالحسنى فيه لطيفة لأن جزاء المسيء عذاب فنبه على ما يدفع الظلم فقال لا يعذب الا عن ذنب وأما الحسنى فلم يقل بما عملوا لأن الثواب ان كان لا على حسنة يكون في غاية الفضل فلا يخل بالمعنى هذا اذا قلنا الحسنى هي المثوبة بالحسنى وأما اذا قلنا الاعمال الحسنى ففيه لطيفة غير ذلك وهي ان اعمالهم لم يذكر فيها التساوي وقال في أعمال المحسنين الحسنى اشارة الى الكرم والصفح حيث ذكر أحسن الاسمين والحسنى صفة أقيمت مقام الموصوف كأنه تعالى قال بالاعمال الحسنى كقوله تعالى الاسماء الحسنى وحينئذ هو كقوله تعالى لنكفرن عنهم سيآتهم ولنجزينهم احسن الذي كانوا يعملون أي يأخذ أحسن أعمالهم و يجعل ثواب كل ما وجد منهم لجزاء ذلك الاحسن أو هي صفة المثوبة كأنه قال و يجزي الذين أحسنوا بالمثوبة الحسنى أو بالعاقبة الحسنى أي جزاؤهم حسن العاقبة وهذا جزاء فحسب وأما الزيادة التي هي الفضل بعد الفضل فغير داخلة فيه * ثم قال تعالى (الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم) الذين يحتمل أن يكون بدلا عن الذين أحسنوا وهو الظاهر وكأنه تعالى قال ليجزي الذين أساؤا و يجزي الذين أحسنوا و يتبين به ان المحسن ليس ينفع الله باحسان شيئا وهو الذي لا يسيء ولا يرتكب القبيح الذي هو سيئة في نفسه عند ربه فالذين أحسنوا هم الذين اجتنبوا ولهم الحسنى و بهذا يتبين المسيء والمحسن لأن من لا يجتنب كبائر الاثم يكون مسيئا والذي يجتنبها يكون محسنا وعلى هذا ففيه لطيفة وهو ان المحسن لما كان هو من يجتنب الآثام فالذي يأتي بالنوافل يكون فوق المحسن لكن الله تعالى وعد المحسن بالزيادة فالذي فوقه يكون له زيادات فوقها وهم الذين لهم جزاء الضعف و يحتمل أن يكون ابتداء كلام تقديره الذين يجتنبون كبائر الاثم يغفر الله لهم والذي يدل عليه قوله تعالى ان ربك واسع المغفرة وعلى هذا تكون هذه الآية مع ما قبلها مبينة لحال المسيء والمحسن وحال من لم يحسن ولم يسيء وهم الذين لم يرتكبوا سيئة وان لم تصدر منهم الحسنات وهم كالصبيان الذين لم يوجد فيهم شرائط التكليف ولهم الغفران وهو دون الحسنى و يظهر هذا بقوله تعالى بعده هو أعلم بكم اذ انشأكم من الارض واذ أنتم أجنة أي يعلم الحالة التي لا احسان فيها ولا اساءة كما علم من أساء وضل ومن أحسن واهتدى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذا كان بدلا عن الذين أحسنوا فلم خالف ما بعده بالمضي والاستقبال حيث قال تعالى الذين أحسنوا وقال الذين يجتنبون ولم يقل اجتنبوا نقول هو كما يقول القائل الذين

أو نعت أو منصوب على المدح وكبائر الاثم ما يكبر عقابه من الذنوب وهو ما رتب عليه الوعيد بخصوصه وقرئ كبير الاثم على ارادة الجنس او الشرك من الكبائر خصوصا (الا اللمم) اي الا ما قل وصغر فانه مغفور ممن يجتنب الكبائر وقيل هي النظرة والغمزة والقبلة وقيل هي الخطرة من الذنب وقيل كل ذنب لم يذكر الله عليه حدا ولا عذابا وقيل عادة النفس الحين بعد الحين والاستثناء منقطع

سألوني أعطيتهم الذين يترددون الى سائلين اى الذين عادتهما التردد والسؤال سألوني واعطيتهم فكذلك ههنا قال الذين يجتنبون أي الذين عادتهم ودأبهم الاجتناب لا الذين اجتنبوا مرة وقدموا عليها أخرى فان قيل في كثير من المواضع قال في الكبائر والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون وقال في عباد الطاغوت والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا الى الله فالفرق نقول عبادة الطاغوت راجعة الى الاعتقاد والاعتقاد اذا وجد دام ظاهرا فمن اجتنبها اعتقد بطلانها فيستمر وأما مثل الشرب والزنا أمر يختلف أحوال الناس فيه فيتركه زمانا ويعود اليه ولهذا يستبرأ الفاسق اذا تاب ولا يستبرأ الكافر اذا أسلم فقال في الآثام الذين يجتنبون دائما ويثابرون على الترك أبدا وقال في عبادة الاصنام اجتنبوا بصيغة الماضي ليكون أدل على الحصول ولان كبائر الاثم لها عدد وأنواع فينبغي ان يجتنب عن نوع ويجتنب عن آخر ويجتنب عن ثالث ففيه تكرر وتجدد فاستعمل فيه صيغة الاستقبال وعبادة الصنم أمر واحد متحد فترك فيه ذلك الاستعمال وأتى بصيغة الماضي الدالة على وقوع الاجتناب لها دفعة (المسئلة الثانية) الكبائر جمع كبيرة وهي صفة لموصوف تقول هي صفة الفعلة كأنه يقول الفعلات الكبائر من الاثم فان قيل فما بال اختصاص الكبيرة بالذنوب في الاستعمال ولو قال قائل الفعلة الكبيرة الحسنة لا يمنعه مانع نقول الحسنة لا تكون كبيرة لانها اذا قوبلت بما يجب ان يوجد من العبد في مقابلة نعم الله تعالى تكون في غاية الصغر ولولا ان الله يقبلها لكانت هباء لكن السيئة من العبد الذي أنعم الله عليه بانواع النعم كبيرة ولولا فضل الله لكن الاشتغال بالاكل والشرب والاعراض عن عبادته سيئة لكن الله غفر بعض السيئات وخفف بعضها (المسئلة الثالثة) اذا ذكر الكبائر فالفواحش بعدها نقول الكبائر اشارة الى ما فيها من مقدار السيئة والفواحش اشارة الى ما فيها من وصف القبح كأنه قال عظيمة المقادير قبيحة الصور والفاحش في اللغة يختص بالقبيح الخارج قبحه عن حد الخفاء وتركيب الحروف في التقاليب يدل عليه فانك اذا قلبتها وقلت حشف كان فيه معنى الرداءة الخارجة عن الحد ويقال فشحت الناقة اذا وقفت على هيئة مخصوصة للبول فالفحش يلازمه القبح ولهذا لم يقل بالفواحش من الاثم وقال في الكبائر كبائر الاثم لان الكبائر ان لم يميزها بالاضافة الى الاثم لما حصل المقصود بخلاف الفواحش (المسئلة الرابعة) كثرت الاقاويل في الكبائر والفواحش فقيل الكبائر ما وعد الله عليه بالنار صريحا وظاهرا والفواحش ما أوجب عليه حدا في الدنيا وقيل الكبائر ما يكفر مستحله وقيل الكبائر ما لا يغفر الله لفاعله الا بعد التوبة وهو على مذهب المعتزلة وكل هذه التعريفات تعريف الشئ بما هو مثله في الخفاء أو فوقه وقد ذكرنا ان الكبائر هي التي مقدارها عظيم والفواحش هي قبحها واضح فالكبيرة صفة عائدة الى المقدار والفاحشة صفة عائدة الى الكيفية كما يقال مثلا في الابرص علته

(ان ربك واسع المغفرة) حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر فالجملة تعليل لاستثناء اللمم وتنبيه على أن اخراجه عن حكم المؤاخذة به ليس لخلوه عن الذنب في نفسه بل لسعة المغفرة الربانية وقيل المعنى له أن يغفر لمن يشاء من المؤمنين ما يشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها والاسل تعقيب وعيد المسيئين ووعد المحسنين بذلك حينئذ لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته تعالى ولا يتوهم وجوب العقاب عليه تعالى (هو أعلم بكم) أي بأحوالكم يعلمها (اذ أنشأكم) في ضمن انشاء أبيكم آدم عليه السلام (من الارض) انشاء اجماليا جسميا من تقرير

بياض لطخه كبيرة ظاهرة اللون فالكبيرة لبيان الكمية والظهور لبيان الكيفية وعلى هذا فنقول على ماقلنا ان الاصل فى كل معصية ان تكون كبيرة لان نعم الله كثيرة ومخالفة المنعم سيئة عظيمة غيران الله تعالى حط عن عباده الخطأ والنسيان لانهما لايدلان على ترك التعظيم اما لعمومه فى العباد أو لكثرة وجوده منهم كالكذبة والغيبة مرة اومرتين والنظرة والقبائح التى فيها شبهة فان المجتنب عنها قليل فى جميع الاعصار ولهذا قال أصحابنا ان استماع الغناء الذى مع الاوتار يفسق به وان استمعه من أهل بلده لايعتدون أمر ذلك لايفسق فعادت الصغيرة الى ماذكرنا من ان العقلاء ان لم يعدوه تاركا للتعظيم لايكون مرتكبا الكبيرة وعلى هذا تختلف الامور باختلاف الاوقات والاشخاص فالعالم المتقى اذا كان يتبع النساء أو يكثر من اللعب يكون مرتكبا للكبيرة و الدلال والباعة والمتفرغ الذى لاشغل له لايكون كذلك وكذلك اللعب وقت الصلاة واللعب فى غير ذلك الوقت وعلى هذا كل ذنب كبيرة الا ما علم المكلف أوظن خروجه بفضل الله وعفوه عن الكبائر (المسئلة الخامسة) فى اللمم وفيه أقوال (أحدها) مايقصده المؤمن ولايحققه وهو على هذا القول من لم بم اذا جمع فكأنه جمع عزمه وأجمع عليه (وثانيها) مايأتى به المؤمن ويندم فى الحال وهو من اللمم الذى هو مس من الجنون كأنه مسه وفارقه ويؤيد هذا قوله تعالى والذين اذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم (ثالثها) اللمم الصغير من الذنب من ألم اذا نزل نزولا من غير لبث طويل ويقال ألم بالطعام اذا قلل من أكله وعلى هذا فقوله الا اللمم يحتمل وجوها (أحدها) ان يكون ذلك استثناء من الفواحش وحينئذ فيه وجهان (أحدهما) استثناء منقطع لان اللمم ليس من الفواحش (وثانيهما) غير منقطع لما بينا ان كل معصية اذا نظرت الى جانب الله تعالى ومايجب ان يكون عليه فهى كبيرة وفاحشة ولهذا قال الله تعالى واذا فعلوا فاحشة غير ان الله تعالى استثنى منها أمورا يقال الفواحش كل معصية الا ما استثناه الله تعالى منها ووعدنا بالعفو عنه (ثانيها) الا بمعنى غير وتقديره والفواحش غير اللمم وهذا الوصف ان كان للتمييز كما يقال الرجال غير أولى الاربة فاللمم عين الفاحشة وان كان لغيره كما يقال الرجال غير النساء جاؤنى لتأكيد وبيان فلا (وثالثها) هو استثناء من الفعل الذى يدل عليه قوله تعالى الذين يجتنبون لان ذلك يدل على انهم لايقربونه فكأنه قال لايقربونه الا مقاربة من غير مواقعة وهو اللمم *ثم قال تعالى (ان ربك واسع المغفرة) وذلك على قولنا الذين يجتنبون ابتداء الكلام فى غاية الظهور لان المحسن مجزى وذنبه مغفور ومجتنب الكبائر كذلك ذنبه الصغير مغفور والمقدم على الكبائر اذا تاب مغفور الذنب فلم يبق من لم تصل اليهم المغفرة الا الذين أساؤا وأصروا عليها فالمغفرة واسعة وفيه معنى آخر لطيف وهو انه تعالى لما أخرج المسئ عن المغفرة بين ان ذلك ليس لضيق فيها بل ذلك بمشيئة الله تعالى ولو أراد الله مغفرة كل من أحسن وأساء لفعل وماكان يضيق عنهم مغفرته

مرارا (واذ أنتم أجنة) أى ووقت كونكم أجنة (فى بطون أمهاتكم) على أطوار مختلفة مترتبة لايخفى عليه حال من أحوالكم وعمل من أعمالكم التى من جملتها اللمم الذى لولا المغفرة الواسعة لاصابكم وباله فالجملة استئناف مقرر لما قبلها والفاء فى قوله تعالى (فلا تزكوا انفسكم) لترتيب النهى عن تزكية النفس على ماسبق من أن عدم المؤاخذة باللمم ليس لعدم كونه من قبيل الذنوب بل لمحض مغفرته تعالى مع علمه بصدوره عنكم أى اذا كان الامر كذلك فلا تثنوا عليها بالطهارة عن المعاصى بالكلية أو بما يستلزمها

والمغفرة من الستر وهو لا يكون الا على قبيح وكل من خلقه الله اذا نظرت فى فعله ونسبته الى نعم الله تجده مقصرا مسيأ فان من جازى المنعم بنعم لا تحصى مع استغنائه الظاهر وعظمته الواضحة بدرهم أو أقل منه يحتاج الى ستر مافعله ✿ ثم قال تعالى (هو أعلم بكم اذ أنشأكم من الارض واذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) وفى المناسبة وجوه (أحدها) هو تقرير لما مر من قوله هو أعلم بمن ضل كان العامل من الكفار يقول نحن نعمل أمورا فى جوف الليل المظلم وفى البيت الخالى فكيف يعلمه الله تعالى فقال ليس عملكم أخفى من أحوالكم وأنتم أجنة فى بطون أمهاتكم والله عالم بتلك الاحوال (ثانيها) هو اشارة الى ان الضال والمهتدى حصلا على ما هما عليه بتقدير الله فان الحق علم أحوالهم وهم فى بطون الامهات فكتب على البعض انه ضال والبعض انه مهتد (ثالثها) تأكيد وبيان للجزاء وذلك لانه لما قال ليجزى الذين أساؤا بما عملوا قال الكافرون هذا الجزاء لا يتحقق الا بالحشر وجمع الاجزاء بعد تفرقها واعادة ما كان لزيد من الاجزاء فى بدنه من غير اختلاط غير ممكن فقال تعالى هو أعلم بكم اذ أنشأكم فيجمعها بقدرته على وفق علمه كما أنشأكم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) العامل فى اذ يحتمل ان يكون ما يدل عليه أعلم أى علمكم وقت الانشاء ويحتمل ان يكون اذكروا فيكون تقريرا لكونه عالما ويكون تقديره هو أعلم بكم وقدتم الكلام ثم يقول ان كنتم فى شك من علمه بكم فاذكروا حال انشائكم من التراب (المسئلة الثانية) ذكرنا مرارا ان قوله من الارض من الناس من قال آدم فانه تراب وقررنا أن كل أحد أصله من التراب فانه يصير غذاء ثم يصير دما ثم يصير نطفة (المسئلة الثالثة) لو قال قائل لابد من صرف اذ أنشأكم من الارض الى آدم لان واذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم عائد الى غيره فانه لم يكن جنينا ولو قلت بان قوله تعالى اذ أنشأكم عائد الى جميع الناس فينبغى ان يكون جميع الناس أجنة فى بطون الامهات وهو قول الفلاسفة نقول ليس كذلك لانا نقول الخطاب مع الموجودين حالة الخطاب وقوله تعالى هو أعلم بكم خطاب مع كل من بعد الانزال على قول ومع من حضر وقت الانزال على قول ولاشك ان كل هؤلاء من الارض وهم كانوا أجنة (المسئلة الرابعة) الاجنة هم الذين فى بطون الامهات وبعد الخروج لا يسمى الا ولدا أو سقطا فما فائدة قوله تعالى فى بطون أمهاتكم نقول التنبيه على كمال العلم والقدرة فان بطن الام فى غاية الظلمة ومن علم بحال الجنين فيها لا يخفى عليه ما ظهر من حال العباد (المسئلة الخامسة) لقائل أن يقول اذا قلنا ان قوله هو أعلم بكم تقرير لكونه عالما بمن ضل فقوله تعالى فلا تزكوا أنفسكم تعلقه به ظاهر وأما ان قلنا انه تأكيد وبيان للجزاء فانه يعلم الاجزاء فيعيدها الى أبدان أشخاصها فكيف يتعلق به فلا تزكوا أنفسكم نقول معناه حينئذ فلا تبرئوا أنفسكم من العذاب ولا تقولوا تفرقت الاجزاء فلا يقع العذاب لان العالم بكم عند الانشاء عالم بكم عند الاعادة وعلى هذا قوله أعلم بمن اتقى أى يعلم اجزاءه فيعيدها اليه ويثيبه بما أقدم عليه

من زكاء العمل ونماء الخير بل اشكروا الله تعالى على فضله ومغفرته (هو أعلم بمن اتقى) المعاصى جميعا وهو استئناف مقرر للنهى ومشعر بأن فيهم من يتقيها بأسرها وقيل كان ناس يعملون أعمالا حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا فنزلت وهذا اذا كان بطريق الاعجاب أو الرياء فأما من اعتقد ان ما عمله من الاعمال الصالحة من الله تعالى وبتوفيقه وتأييده ولم يقصد به التمدح لم يكن من المزكين أنفسهم فان المسرة بالطاعة وذكرها شكر (أفرأيت الذى تولى) أى عن اتباع الحق والثبات عليه (وأعطى قليلا) أى شيئا قليلا أو اعطاء قليلا (وأكدى) أى

(المسئلة السادسة) الخطاب مع من فيه ثلاث احتمالات (الاول) مع الكفار وهذا على قولنا انهم قالوا كيف يعلمه الله فرد عليهم قولهم (الثانى) كل من كان زمان الخطاب و بعده من المؤمنين والكفار (الثالث) هو مع المؤمنين وتقريره هو أن الله تعالى لما قال فاعرض عمن تولى عن ذكرنا قال لنبيه صلى الله عليه وسلم قد علم كونك ومن معك على الحق وكون المشركين على الباطل فاعرض عنهم ولا تقولوا نحن على الحق وانتم على الضلال لانهم يقابلونكم بمثل ذلك وفوض الامر الى الله تعالى فهو أعلم بمن اتقى ومن طغى وعلى هذا فقول من قال فاعرض منسوخ أظهر وهو كقوله تعالى وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين والله أعلم بجملة الامور و يحتمل أن يقال على هذا الوجه الثالث انه ارشاد للمؤمنين فخاطبهم الله وقال هو أعلم بكم أيها المؤمنون علم مالكم من أول خلقكم الى آخر يومكم فلا تزكوا أنفسكم رياء وخيلاء ولا تقولوا لآخر أنا خير منك وأنا أزكى منك واتقى فان الامر عند الله ووجه آخر وهو اشارة الى وجوب الخوف من العاقبة أى لا تقطعوا بخلاصكم أيها المؤمنون فان الله يعلم عاقبة من يكون على التقى وهذا يؤيد قول من يقول أنا مؤمن ان شاء الله لصرف الى العاقبة ❊ ثم قال تعالى (أفرأيت الذى تولى وأعطى قليلا وأكدى أعنده علم الغيب فهو يرى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال بعض المفسرين نزلت الآية فى الوليد بن المغيرة جلس عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وسمع وعظه وأثرت الحكمة فيه تأثيرا قويا فقال له رجل لم تترك دين آبائك ثم قال له لا تخف واعطنى كذا وأنا أتحمل عنك أوزارك فاعطاه بعض ما التزمه وتولى عن الوعظ وسماع الكلام من النبى صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم نزلت فى عثمان رضى الله عنه كان يعطى ماله عطاء كثيرا فقال له أخوه من أمه عبد الله بن سعد بن أبى سرح يوشك ان يفنى مالك فامسك فقال له عثمان ان لى ذنوبا أرجو أن يغفر الله لى بسبب العطاء فقال له أخوه أنا أتحمل عنك ذنوبك ان تعطنى ناقتك مع كذا فاعطاه ما طلب وامسك يده عن العطاء فنزلت الآية وهذا قول باطل لا يجوز ذكره لانه لم يتواتر ذلك ولا اشتهر وظاهر حال عثمان رضى الله عنه يأبى ذلك بل الحق أن يقال ان الله تعالى لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم من قبل فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا وكان التولى من جملة أنواعه تولى المستغنى فان العالم بالشئ لا يحضر مجالس ذكر ذلك الشئ و يسعى فى تحصيل غيره فقال أفرأيت الذى تولى عن استغناء اعلم بالغيب (المسئلة الثانية) الفاء تقتضى كلاما يترتب هذا عليه فماذا هو نقول هو ما تقدم من بيان علم الله وقدرته ووعده المسئ والمحسن بالجزاء وتقريره هو أنه تعالى لما بين أن الجزاء لابد من وقوعه على الاساءة والاحسان وان المحسن هو الذى يجتنب كبائر الاثم فلم يكن الانسان مستغنيا عن سماع كلام النبى صلى الله عليه وسلم واتباعه فبعد هذا من تولى لا يكون توليه الا بعد غاية الحاجة ونهاية الافتقار (المسئلة الثالثة) الذى على ما قال بعض المفسرين عائد الى معلوم وهو ذلك الرجل وهو الوليد والظاهر انه عائد الى مذكور

وقطع العطاء من قولهم أكدى الحافر اذا بلغ الكدية أى الصلابة كالصخرة فلا يمكنه أن يحفر قالوا نزلت فى الوليد بن المغيرة كان يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعيره بعض المشركين وقال له تركت دين الاشياخ وضللتهم فقال اخشى عذاب الله فضمن أن يتحمل عنه العذاب ان أعطاه بعض ماله فارتد وأعطاه بعض المشروط و بخل بالباقى وقيل نزلت فى العاص بن وائل السهمى لما أنه كان يوافق النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الامور وقيل فى أبى جهل كان ربما يوافق الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعض الامور وكان يقول والله ما رأمرنا محمد

فان الله تعالى قال من قبل فأعرض عمن تولى عن ذكرنا وهو المعلوم لان الامر بالاعراض غير مختص بواحد من المعاندين فقال أفرأيت الذى تولى أى الذى سبق ذكره فان قيل كان ينبغى أن يقول الذين تولوا لان من فى قوله عمن تولى للعموم نقول العود الى اللفظ كثير شائع قال تعالى من جاء بالحسنة فله ولم يقل فلهم (المسئلة الرابعة) قوله تعالى وأعطى قليلا ما المراد منه نقول على ما تقدم هو المقدار الذى أعطاه الوليد وقوله وأكدى هو ما أمسك عنه ولم يعط الكل وعلى هذا وقال قائل ان الاكداء لا يكون مذموما لان الاعطاء كان بغير حق فالامتناع لا يذم عليه وأيضا فلا يبقى لقوله قليلا فائدة لان الاعطاء حينئذ نفسه يكون مذموما نقول فيه بيان خروجهم عن العقل والعرف أما العقل فلانه منع من الاعطاء لاجل حمل الوزر فانه لا يحصل به وأما العرف فلان عادة الكرام من العرب الوفاء بالعهد وهو لم يف به حيث التزم الاعطاء وامتنع والذى يليق بما ذكرناه وأن نقول تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيوة الدنيا يعنى اعطاء ما وجب اعطاؤه فى مقابلة ما يجب لاصلاح أمور الآخرة ويتم قوله تعالى أعنده علم الغيب فى مقابلة قوله تعالى ذلك مبلغهم من العلم أى لم يعلم الغيب وما فى الآخرة وقوله تعالى أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى فى مقابلة قوله هو أعلم بمن ضل الى قوله ليجزى الذين أساؤا لأن الكلامين جميعا لبيان الجزاء ويمكن ان يقال ان الله تعالى لما بين حال المشركين المعاندين العابدين للات والعزى والقائلين بان الملائكة بنات الله شرع فى بيان أهل الكتاب وقال بعد ما رأيت حال المشرك الذى تولى عن ذكرنا أفرأيت حال من تولى وله كتاب وأعطى قليلا من الزمان حقوق الله تعالى ولما بلغ زمان محمد أكدى فهل علم الغيب فقال شيأ لم يرد فى كتبهم ولم ينزل عليهم فى الصحف المتقدمة ووجد فيها بأن كل واحد يؤخذ بفعله ويجازى بعمله وقوله تعالى أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى يخبر أن المتولى المذكور من أهل الكتاب (المسئلة الخامسة) أكدى قيل هو من بلغ الكدية وهى الارض الصلبة لا تحفر وحافر البئر اذا وصل اليها فامتنع عليه الحفر أو تعسر يقال أكدى الحافر والاظهر أنه الرد والمنع يقال أكديته أى رددته وقوله تعالى أعنده علم الغيب فهو يرى قد علم تفسيره جملة ان المراد جهل المتولى وحاجته وبيان قبح التولى مع الحاجة الى الاقبال وعلم الغيب أى العلم بالغيب أى علم ما هو غائب عن الخلق وقوله فهو يرى تتمة بيان وقت جواز التولى وهو حصول الرؤية وهو الوقت الذى لا ينفع الايمان فيه وهنالك لا يبقى وجوب متابعة أحد فيما رآه لان الهادى يهدى الى الطريق فاذا رأى المهتدى مقصده بعينه لا ينفعه السماع فقال تعالى هل علم الغيب بحيث رآه فلا يكون علمه علما نظريا بل علما بصريا فسعى فتولى وقوله تعالى فهو يرى يحتمل أن يكون مفعول يرى هو احتمال الواحد وزر الآخر كانه قال فهو يرى ان وزره محمول ألم يسمع ان وزره غير محمول فهو عالم بالحمل وغافل عن عدم الحمل ليكون معذورا يحتمل ان لا يكون له مفعول تقديره

الا بمكارم الاخلاق وذلك قوله تعالى وأعطى قليلا وأكدى والاول هو الاشهر المناسب لما بعده من قوله تعالى (أعنده علم الغيب فهو يرى) الخ أى علم بالامور الغيبية التى من جملتها تحمل صاحبه عنه يوم القيامة (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى) أى وفر وأتم ما ابتلى به من الكلمات أوامر به أو بالغ فى الوفاء بما عاهد الله وتخصيصه بذلك لاحتماله ما لم يحتمله غيره كالصبر على نار نمرود حتى انه أتاه جبريل عليه السلام حين يلقى فى النار فقال ألك حاجة فقال اما اليك فلا وعلى ذبح الولد ويروى انه كان يمشى كل يوم

فهو يرى رأى نظر غير محتاج الى هاد ونذير * قوله تعالى (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى) حال أخرى مضادة للاولى يعذر فيها المتولى وهو الجهل المطلق فان من علم الشئ علما تاما لا يؤمر بتعلمه والذى جهله جهلا مطلقا وهو الغافل على الاطلاق كالنائم أيضا لا يؤمر فقال هذا المتولى هل علم الكل فجاز له التولى أو لم يسمع شيأ وما بلغه دعوة أصلا فيعذر ولا واحد من الامرين بكائن فهو فى التولى غير معذور وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى بما فى يحتمل وجهين (أحدهما) ان يكون المراد ما فيها لا بصفة كونه فيها فكأنه تعالى يقول أم لم ينبأ بالتوحيد والحشر وغير ذلك وهذه أمور مذكورة فى صحف موسى مثاله يقول القائل لمن توضأ بغير الماء توضأ بما توضأ به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا يريد به نفس الماء الذى توضأ به النبى صلى الله عليه وسلم وعلى هذا فالكلام مع الكل لان المشرك وأهل الكتاب نبأهم النبى صلى الله عليه وسلم بما فى صحف موسى (ثانيهما) ان يكون المراد بما فى الصحف مع كونه فيها كما يقول القائل فيما ذكرنا من المثال توضأ بما فى القربة لا بما فى الجرة فيريد عين ذلك لا جنسه وعلى هذا فالكلام مع أهل الكتاب لانهم الذين نبؤا به (المسئلة الثانية) صحف موسى وابراهيم هل جمعها لكونها صحفا كثيرة او لكونها مضافة الى الاثنين كما قال تعالى فقد صغت قلوبكما الظاهر انها كثيرة قال الله تعالى وأخذ الالواح وقال تعالى وألقى الالواح وكل لوح صحيفة (المسئلة الثالثة) ما المراد بالذى فيها نقول قوله تعالى أن لا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للانسان الا ما سعى وما بعده من الامور المذكورة على قراءة من قرأ أن بالفتح وعلى قراءة من يكسر ويقول وان الى ربك المنتهى ففيه وجوه (أحدها) هو ما ذكره بقوله أن لا تزر وازرة وزر أخرى وهو الظاهر وانما احتمل غيره لان صحف موسى وابراهيم ليس فيها هذا فقط وليس هذا معظم المقصود بخلاف قراءة الفتح فان فيها تكون جميع الاصول على ما بين (ثانيها) هو أن الآخرة خير من الاولى يدل عليه قوله تعالى ان هذا لفى الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى (ثالثها) أصول الدين كلها مذكورة فى الكتب بأسرها ولم يخل الله كتابا عنها ولهذا قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فبهداهم اقتده وليس المراد فى الفروع لان فروع دينه مغايرة لفروع دينهم من غير شك (المسئلة الرابعة) قدم موسى ههنا ولم يقل كما قال فى سبح اسم ربك الاعلى فهل فيه فائدة نقول مثل هذا فى كلام الفصحاء لا يطلب له فائدة بل التقديم والتأخير سواء فى كلامهم فيصح أن يقتصر على هذا الجواب ويمكن ان يقال ان الذكر هناك لمجرد الاخبار والانذار وههنا المقصود بيان انتفاء الاعذار فذكر هناك على ترتيب الوجود صحف ابراهيم قبل صحف موسى فى الانزال واما ههنا فقد قلنا ان الكلام مع أهل الكتاب وهم اليهود فقدم كتابهم وان قلنا الخطاب عام فصحف موسى عليه السلام كانت كثيرة الوجود فكأنه قيل لهم انظروا فيها تعلمون ان الرسالة حق وارسل من قبل موسى رسل والتوحيد صدق والحشر واقع فلما كانت صحف موسى عند اليهود كثيرة الوجود قدمها واما صحف ابراهيم

فى سخا ير تاد ضيفا فان وافقه اكرمه والا نوى الصوم وتقديم موسى لما ان صحفه التى هى التوراة أشهر عندهم وأكثر (ان لا تزر وازرة وزر أخرى) اى انه لا تحمل نفس من شانها الحمل حمل نفس اخرى على ان ان هى المخففة من الثقيلة وضمير الشان الذى هو اسمها محذوف والجملة المنفية خبرها ومحل الجملة الجر على انها بدل مما فى صحف موسى او الرفع على انها خبر مبتدأ محذوف كأنه قيل ما فى صحفهما فقيل هو ان لا تزر الخ والمعنى انه لا يؤاخذ احد بذنب غيره ليتخلص الثانى من عقابه ولا يقدح فى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام من سن سنة سيئة

فكانت بعيدة وكانت المواعظ التى فيها غير مشهورة فيما بينهم كصحف موسى فأخر ذكرها (المسئلة الخامسة) كثيرا ما ذكر الله موسى فأخره عليه السلام لانه كان مبتلى فى أكثر الامر بمن حواليه وهم كانوا مشركين ومتهودين والمشركون كانوا يعظمون ابراهيم عليه السلام لكونه أباهم وأما قوله تعالى وفى ففيه وجهان (احدهما) أنه من الوفاء الذى يذكر فى العهود وعلى هذا فالتشديد للمبالغة يقال وفى ووفى كقطع وقطع وقتل وقتل وهو ظاهر لانه وفى بالنذر واضجع ابنه للذبح وورد فى حقه قد صدقت الرؤيا وقال تعالى ان هذا لهو البلاء المبين (وثانيهما) انه من التوفية التى من الوفاء وهو التمام والتوفية الاتمام يقال وفاه أى اعطاه تاما وعلى هذا فهو من قوله واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن وقيل وفى أى أعطى حقوق الله فى بدنه وعلى هذا فهو على ضد من قال تعالى فيه وأعطى قليلا وأكدى مدح ابراهيم ولم يصف موسى عليه السلام نقول أما بيان توفيته ففيه لطيفة وهى انه لم يعهد الاوفى به وقال لابيه سأستغفر لك ربى فاستغفر ووفى بالعهد ولم يغفر الله له فعلم أن ليس للانسان الا ما سعى وأن وزره لا تزره نفس أخرى وأما مدح ابراهيم عليه السلام فلانه كان متفقا عليه بين اليهود والمشركين والمسلمين ولم ينكر أحد كونه وفيا وموفيا وربما كان المشركون يتوقفون فى وصف موسى عليه السلام * ثم قال تعالى (ان لا تزر وازرة وزر أخرى) وقد تقدم تفسيره فى سورة الملائكة والذى يحسن بهذا الموضع مسائل (الاولى) أنا بينا ان الظاهر أن المراد من قوله بما فى صحف موسى هو ما بينه بقوله أن لا تزر فيكون هذا بدلا عن ما وتقديره أم لم ينبأ بان لا تزر وذكرنا هناك وجهين أحدهما المراد ان الآخرة خير وثانيهما الاصول (المسئلة الثانية) أن لا تزر أن خفيفة من الثقيلة كانه قال انه لا تزر وتخفيف الثقيلة لازم وغير لازم جائز وغير جائز فاللازم عندما يكون بعدها فعل او حرف داخل على فعل ولزم فيها التخفيف لانها مشبهة بالفعل فى اللفظ والمعنى والفعل لا يمكن ادخاله على فعل فاخرج عن شبه الفعل الى صورة تكون حرفا مختصا بالفعل فتناسب الفعل فتدخل عليه (المسئلة الثالثة) ان قال قائل الآية مذكورة لبيان ان وزر المسىء لا يحمل عنه وبهذا الكلام لا تحصل هذه الفائدة لان الوازرة تكون مثقلة بوزرها فيعلم كل أحد أنها لا تحمل شيأ ولو قال لا تحمل فارغة وزر أخرى كان أبلغ نقول ليس كما ظننت وذلك لان المراد من الوازرة هى التى يتوقع منها الوزر والحمل لا التى وزرت وحملت كما يقال شاة حلوب وان لم يكن عليه فى الحال حمل واذا لم تزر تلك النفس التى يتوقع منها ذلك فكيف تحمل وزر غيرها فتكون الفائدة كاملة * وقوله تعالى (وان ليس للانسان الا ما سعى) تتمة بيان أحوال المكلف فانه لما بين له ان سيئته لا يحملها عنه أحد بين له ان حسنة الغير لا تجدى نفعا ومن لم يعمل صالحا لا ينال خيرا فيكمل بها ويظهر أن المسىء لا يجد بسبب حسنة الغير ثوابا ولا يحمل عنه أحد عقابا وفيه أيضا مسائل (الاولى) ليس للانسان فيه وجهان (أحدهما) انه عام وهو الحق وقيل

فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة فان ذلك وزر الاضلال الذى هو وزره وقوله تعالى (وأن ليس للانسان الا ما سعى) بيان لعدم انتفاع الانسان بعمل غيره من حيث جلب النفع اليه اثر بيان عدم انتفاعه به من حيث دفع الضرر عنه واما شفاعة الانبياء عليهم السلام واستغفار الملائكة عليهم السلام ودعاء الاحياء للاموات وصدقتهم عنهم وغير ذلك مما لا يكاد يحصى من الامور النافعة للانسان مع انها ليست من عمله قطعا فحيث كان مناطة منفعة كل منها عمله الذى هو الايمان والصلاح ولم يكن لشئ منها نفع ما بدونه جعل النافع

عليه بان فى الاخبار ان ما يأتى به القريب من الصدقة والصوم يصل الى الميت والدعاء أيضا نافع فللانسان شئ لم يسع فيه وأيضا قال الله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وهى فوق ما سعى والجواب عنه أن الانسان ان لم يسع فى أن يكون له صدقة القريب بالايمان لا يكون له صدقته فليس له الا ما سعى وأما الزيادة فنقول الله تعالى لما وعد المحسن بالامثال والعشرة وبالاضعاف المضاعفة فاذا أتى بحسنة راجيا أن يؤتيه الله ما يتفضل به فقد سعى فى الامثال فان قيل أنتم اذن حملتم السعى على المبادرة الى الشئ يقال سعى فى كذا اذا أسرع اليه والسعى فى قوله تعالى الا ما سعى معناه العمل يقال سعى فلان أى عمل ولو كان كما ذكرتم لقال الا ما سعى فيه نقول على الوجهين جميعا لابد من زيادة فان قوله تعالى ليس للانسان الا ما سعى ليس المراد منه ان له عين ما سعى بل المراد على ما ذكرت ليس له الا ثواب ما سعى أو الا أجر ما سعى أو يقال بان المراد ان ما سعى محفوظ له مصون عن الاحباط فاذن له فعله يوم القيامة (الوجه الثانى) أن المراد من الانسان الكافر دون المؤمن وهو ضعيف وقيل بان قوله ليس للانسان الا ما سعى كان فى شرع من تقدم ثم ان الله تعالى نسخه فى شرع محمد صلى الله عليه وسلم وجعل للانسان ما سعى وما لم يسع وهو باطل اذ لا حاجة الى هذا التكلف بعد ما بان الحق وعلى ما ذكر فقوله ما سعى مبقى على حقيقته معناه له عين ما سعى محفوظ عند الله تعالى ولا نقصان يدخله ثم يجزى به كما قال تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (المسئلة الثانية) ان ما خبرية أو مصدرية نقول كونها مصدرية أظهر بدليل قوله تعالى وأن سعيه سوف يرى أى سوف يرى المسعى والمصدر للمفعول يجئ كثيرا يقال هذا خلق الله أى مخلوقه (المسئلة الثالثة) المراد من الآية بيان ثواب الاعمال الصالحة او بيان كل عمل نقول المشهور أنها لكل عمل فالخير مثاب عليه والشر معاقب به والظاهر انه لبيان الخيرات يدل عليه اللام فى قوله تعالى للانسان فان اللام لعود المنافع وعلى لعود المضار تقول هذا له وهذا عليه ويشهد له ويشهد عليه فى المنافع والمضار وللقائل الاول أن يقول بان الامرين اذا اجتمعا غلب الافضل كجموع السلامة تذكر اذا اجتمعت الاناث مع الذكور وايضا يدل عليه قوله تعالى ثم يجزاه الجزاء الاوفى والاوفى لا يكون الا فى مقابلة الحسنة وأما فى السيئة فالمثل أو دونه أو العفو بالكلية (المسئلة الرابعة) الا ما سعى بصيغة الماضى دون المستقبل لزيادة الحث على السعى فى العمل الصالح وتقريره هو انه تعالى لو قال ليس للانسان الا ما يسعى تقول النفس انى أصلى غدا كذا ركعة وأتصدق بكذا درهما ثم يجعل مثبتا فى صحيفتى الآن لانه أمر يسعى فيه وله ما يسعى فيه فقال ليس له الا ما قد سعى وحصل وفرغ منه وأما تسويلات الشيطان وعداته فلا اعتماد عليها * ثم قال تعالى (وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) أى يعرض عليه ويكشف له من أريته الشئ وفيه بشارة للمؤمنين على ما ذكرنا وذلك ان الله يريه أعماله الصالحة ليفرح بها أو يكون يرى ملائكته وسائر خلقه ليفتخر العامل به على ما هو

نفس عمله وان كان بانضمام عمل غيره اليه وان مخففة كأختها معطوفة عليها وكذا قوله تعالى (وأن سعيه سوف يرى) أى يعرض عليه ويكشف له يوم القيامة فى صحيفته وميزانه من أريته الشئ (ثم يجزاه) اى يجزى الانسان سعيه يقال جزاه الله بعمله وجزاه على عمله وجزاه عمله بحذف الجار وايصال الفعل ويجوز ان يجعل الضمير للجزاء ثم يفسر بقوله تعالى (الجزاء الأوفى) او يبدل هو عنه كما فى قوله تعالى وأسروا النجوى الذين ظلموا

المشهور وهو مذكور لفرح المسلم ولحزن الكافر فان سعيه يرى الخلق و يرى لنفسه و يحتمل ان يقال هو من رأى يرى فيكون كقوله تعالى وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله وفيها وفي الآية التي بعدها مسائل (الاولى) العمل كيف يرى بعد وجوده ومضيه نقول فيه وجهان (أحدهما) يراه على صورة جميلة ان كان العمل صالحا (ثانيهما) هو على مذهبنا غير بعيد فان كل موجود يرى والله قادر على اعادة كل معدوم فبعد الفعل يرى وفيه وجه ثالث وهو ان ذلك مجاز عن الثواب يقال سيرى احسانك عند الملك أي جزاءه عليه وهو بعيد لما قال بعده ثم يجزاه الجزاء الاوفى (المسئلة الثانية) الهاء ضمير السعي أي ثم يجزى الانسان سعيه بالجزاء والجزاء يتعدى الى مفعولين قال تعالى وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ويقال جزاك الله خيرا و يتعدى الى ثلاث مفاعيل بحرف يقال جزاه الله على عمله الخير الجنة و يحذف الجار و يوصل الفعل فيقال جزاه الله عمله الخير الجنة هذا وجه وفيه وجه آخر وهو أن الضمير للجزاء وتقديره ثم يجزى جزاء و يكون قوله الجزاء الاوفى تفسيرا أو بدلا مثل قوله تعالى وأسروا النجوى الذين ظلموا فان التقدير والذين ظلموا أسروا النجوى الذين ظلموا والجزاء الاوفى على ماذكرنا يليق بالمؤمنين الصالحين لانه جزاء الصالح وان قال تعالى فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا وعلى ماقيل يجاب أن الاوفى بالنظر اليه فان جهنم ضررها أكثر بكثير من نفع الآثام فهي في نفسها أوفى (المسئلة الثالثة) ثم لتراخي الجزاء أو لتراخي الكلام أي ثم نقول يجزاه فان كان لتراخي الجزاء فكيف يؤخر الجزاء عن الصالح وقد ثبت أن الظاهر أن المراد منه الصالح نقول الوجهان محتملان وجواب السؤال هو أن الوصف بالاوفى يدفع ماذكرت لان الله تعالى من أول زمان يموت الصالح يجزيه جزاء على خيره ويؤخر له الجزاء الاوفى وهي الجنة أو نقول الاوفى اشارة الى الزيادة فصار كقوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وهي الجنة وزيادة وهي الرؤية فكأنه تعالى قال وأن سعيه سوف يرى ثم يرزق الرؤية وهذا الوجه يليق بتفسير اللفظ فان الاوفى مطلق غير مبين فلم يقل أوفى من كذا فينبغي أن يكون أوفى من كل واف ولا يتصف به غير رؤية الله تعالى (المسئلة الرابعة) في بيان لطائف في الآيات (الاولى) قال في حق المسئ لا تزر وازرة وزر أخرى وهو لا يدل الا على عدم الحمل عن الوازرة وهذا يلزم منه بقاء الوزر عليها من ضرورة اللفظ لجواز أن يسقط عنها و يمحو الله ذلك الوزر فلا يبقى عليها ولا يحمل عنها غيرها ولو قال لا تزر وازرة الا وزر نفسها كان من ضرورة الاستثناء انها تزر وقال في حق المحسن ليس للانسان الا ماسعى ولم يقل ليس له مالم يسع لان العبارة الثانية ليس فيها ان له ماسعى وفي العبارة الاولى أن له ماسعى نظرا الى الاستثناء وقال في حق المسئ بعبارة لا تقطع رجاءه وفي حق المحسن بعبارة تقطع خوفه كل ذلك اشارة الى سبق الرحمة الغضب * ثم قال تعالى (وأن الى ربك المنتهى) القراءة المشهورة فتح الهمزة على العطف على مايعني ان

(وأن الى ربك المنتهى) أي انتهاء الخلق ورجوعهم اليه تعالى لا الى غيره استقلالا ولا اشتراكا وقرئ بكسر ان على الابتداء

هذا أيضا فى الصحف وهو الحق وقرئ بالكسر على الاستئناف وفيه مسائل (الاولى)
ما المراد من الآية قلنا فيه وجهان (أحدهما) وهو المشهور بيان المعاد اى للناس بين
يدى الله وقوف وعلى هذا فهو يتصل بما تقدم لانه تعالى لما قال ثم يجزاه كان قائلا قال
لا نرى الجزاء ومتى يكون فقال ان المرجع الى الله وعند ذلك يجازى الشكور و يجزى
الكفور (وثانيهما) المراد التوحيد وقد فسر الحكماء أكثر الآيات التى فيها الانتهاء
والرجوع بما سنذكره غير ان فى بعضها تفسيرهم غير ظاهر وفى هذا الموضع ظاهر فنقول
هو بيان وجود الله تعالى ووحدانيته وذلك لانك اذا نظرت الى الموجودات الممكنة
لا تجد لها بدا من موجود ثم ان موجودها ربما يظن انه ممكن آخر كالحرارة التى تكون
على وجه يظن انها من اشراق الشمس أو من النار فيقال الشمس والنار ممكنتان فمن
وجودهما فان استندتا الى ممكن آخر لم يجد العقل بدا من الانتهاء الى غير ممكن فهو واجب
الوجود فاليه ينتهى الامر فالرب هو المنتهى وهذا فى هذا الموضع ظاهر معقول موافق
للمنقول فان المروى عن أبى بن كعب انه قال عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال وان
الى ربك المنتهى لا فكرة فى الرب أى انتهى الامر الى واجب الوجود وهو الذى
لا يكون وجوده بموجد ومنه كل وجود وقال أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال
اذا ذكر الرب فانتهوا وهو يحتمل لما ذكرنا وأما بعض الناس فيبالغ و يفسر كل آية
فيها الرجعى والمنتهى وغيرهما بهذا التفسير حتى قيل اليه يصعد الكلم الطيب بهذا
المعنى * هذا دليل الوجود وأما دليل الوحدانية فمن حيث ان العقل انتهى الى واجب
الوجود من حيث انه واجب الوجود لانه لو لم يكن واجب الوجود لما كان منتهى بل
يكون له موجد قبله فالمنتهى هو الواجب من حيث انه واجب وهذا المعنى واحد
فى الحقيقة والعقل لانه لابد من الانتهاء الى هذا الواجب أو الى ذلك الواجب فلا يثبت
للواجب معنى غير انه واجب فيبعد اذا وجوبه ولو كان واجبان فى الوجود لكان كل
واحد قبل المنتهى لان المجموع قبله الواجب فهو المنتهى وهذان دليلان ذكرتهما
على وجه الاختصار (المسئلة الثانية) قوله تعالى الى ربك المنتهى فى المخاطب وجهان
(أحدهما) انه عام تقديره الى ربك أيها السامع أو العاقل (ثانيهما) الخطاب مع النبى
صلى الله عليه وسلم وفيه بيان صحة دينه فان كل أحد كان يدعى ربا والهاً لكنه صلى الله
عليه وسلم لما قال ربى الذى هو أحد وصمد يحتاج اليه كل ممكن فاذا ربك هو المنتهى وهو
رب الارباب ومسبب الاسباب وعلى هذا القول الكاف أحسن موقعا أما على قولنا ان
الخطاب عام فهو تهديد بليغ للمسئ وحث شديد للمحسن لان قوله أيها السامع كائنا
من كان الى ربك المنتهى يفيد الامرين افادة بالغة حد الكمال وأما على قولنا
الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم فهو تسلية لقلبه كأنه يقول لا تحزن فان المنتهى الى الله
فيكون كقوله تعالى فلا يحزنك قولهم انا نعلم ما يسرون وما يعلنون الى أن قال تعالى

فى آخر السورة واليه ترجعون وأمثاله كثيرة فى القرآن (المسئلة الثالثة) اللام على الوجه الاول للعهد لان النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول أبدا ان مرجعكم الى الله فقال وان الى ربك المنتهى الموعود المذكور فى القرآن وكلام النبى صلى الله عليه وسلم وعلى الوجه الثانى للعموم أى الى الرب كل منتهى وهو مبدأ وعلى هذا الوجه نقول منتهى الادراكات المدركات فان الانسان أولا يدرك الاشياء الظاهرة ثم يمعن النظر فينتهى الى الله فيقف عنده ✲ ثم قال تعالى (وأنه هو أضحك وأبكى) وفيه مسائل (الاولى) على قولنا اليه المنتهى المراد منه اثبات الوحدانية هذه الآيات مثبتات لمسائل يتوقف عليها الاسلام من جملتها قدرة لله تعالى فان من الفلاسفة من يعترف بان الله المنتهى وانه واحد لكن يقول هو موجب لاقادر فقال تعالى هو أوجد ضدين الضحك والبكاء فى محل واحد والموت والحياة والذكورة والانوثة فى مادة واحدة وان ذلك لايكون الا من قادر واعترف به كل عاقل وعلى قولنا ان قوله تعالى وان الى ربك المنتهى بيان المعاد فهو اشارة الى بيان أمر فهو كما يكون فى بعضه اضحك كما فرحوا وفى بعضها ابكى كما حزنوا كذلك يفعل به فى الآخرة (المسئلة الثانية) أضحك وأبكى لامفعول لهما فى هذا الموضع لانهما مسوقتان لقدرة الله لا لبيان المقدور فلا حاجة الى المفعول يقول القائل فلان بيده الاخذ والعطاء يعطى ويمنع ولا يريد ممنوعا ومعطى (المسئلة الثالثة) اختار هذين الوصفين للذكر والانثى لانهما أمران لايعللان فلا يقدر أحد من الطبيعيين أن يبدى فى اختصاص الانسان بالضحك والبكاء وجها وسببا واذا لم يعلل بأمر ولابد له من موجد فهو الله تعالى بخلاف الصحة والسقم فانهم يقولون سببهما اختلال المزاج وخروجه عن الاعتدال ويدلك على هذا انهم اذا ذكروا فى الضحك أمرا له الضحك قالوا قوة التعجب وهو فى غاية البطلان لان الانسان ربما يبهت عند رؤية الامور العجيبة ولا يضحك وقيل قوة الفرح وليس كذلك لان الانسان يفرح كثيرا ولا يضحك والحزين الذى عنده غاية الحزن يضحكه المضحك وكذلك الامر فى البكاء وان قيل لاكثرهم علما بالامور التى يدعيها الطبيعيون ان خروج الدمع من العين عند امور مخصوصة لماذا لايقدر على تعليل صحيح وعند الخواص كالتى فى المغناطيس وغيرها ينقطع الطبيعى كما ان عند أوضاع الكواكب ينقطع هو والمهندس الذى لايفوض أمره الى قدرة الله تعالى وارادته ✲ ثم قال تعالى (وأنه هو أمات وأحيى) والبحث فيه كما فى الضحك والبكاء غير أن الله تعالى فى الاول بين خاصة النوع الذى هو اخص من الجنس فانه أظهر وعن التعليل أبعد ثم عطف عليه ما هو اعم منه ودونه فى البعد عن التعليل وهى الاماتة والاحياء وهما صفتان متضادتان أى الموت والحياة كالضحك والبكاء والموت على هذا ليس بمجرد العدم والالكان الممتنع ميتا وكيفما كان فالاماتة والاحياء أمر وجودى وهما من خواص الحيوان ويقول الطبيعى فى الحياة لاعتدال المزاج والمزاج من أركان متضادة هى النار والهواء والماء

(وأنه هو أضحك وأبكى) أى هو خلق قوتى الضحك والبكاء (وأنه هو أمات وأحيى) لايقدر على الاماتة والاحياء غيره فان أثر القاتل نقض البنية وتفريق الاتصال وانما يحصل الموت عنده بفعل الله تعالى على العادة

والتراب وهي متداعية الى الانفكاك وماالتركيب فيه من المتضادات لاموت له لان المتضادات كل أحد يطلب مفارقة مجاوره فقال تعالى الذى خلق ومزج العناصر وحفظهامدة قادر على أن يحفظها أكثر من ذلك فاذا مات فليس عن ضرورة فهو بفعل فاعل مختار وهوالله تعالى فهوالذى أمات وأحيافان قيل متى أمات وأحيا حتى يعلم ذلك بل مشاهدة الاحياء والاماتة بناء على الحياة والموت نقول فيه وجوه (احدها) أنه على التقديم والتأخير كأنه قال أحيا وأمات (ثانيها) هو بمعنى المستقبل فان الامر قريب يقال فلان وصل والليل دخل اذا قرب مكانه و زمانه فكذلك الاحياء والاماتة (ثالثها) أمات أى خلق الموت والجمود في العناصر ثم ركبها وأحيا أى خلق الحس والحركة فيها * ثم قال تعالى (وأنه خلق الزوجين الذكر والانثى) وهوأيضا من جملة المتضادات التي تتوارد على النطفة فبعضها يخلق ذكرا وبعضها أنثى لا يصل اليه فهم الطبيعي الذي يقول انه من البرد والرطوبة في الانثى فرب امرأة أيبس مزاجا من الرجل وكيف واذا نظرت في المميزات بين الصغير والكبير تجدها امورا عجيبة منها نبات اللحية وأقوى ماقالوا في نبات اللحية انهم قالوا الشعور مكونة من بخار دخاني يصعد الى المسام فاذا كانت المسام في غاية الرطوبة والتحلل كما في مزاج الصبي والمرأة لاينبت الشعر لخروج تلك الادخنة من المسام الرطبة بسهولة قبل أن يتكون شعرا واذا كانت في غاية اليبوسة والتكاثف ينبت الشعر لعسر خروجه من المخرج الضيق ثم ان تلك المواد تنجذب الى مواضع مخصوصة فتندفع أما الى الرأس فتندفع اليه لانه مخلوق كقبة فوق الابخرة والادخنة فتتصاعد اليه تلك المواد فلهذا يكون شعر الرأس أكثر وأطول ولهذا في الرجل مواضع تنجذب اليها الابخرة والادخنة منها الصدر لحرارة القلب والحرارة تجذب الرطوبة كالسراج للزيت ومنها بقرب آلة التناسل لان حرارة الشهوة تجذب أيضا ومنها اللحيان فانها كثيرة الحركة بسبب الاكل والكلام والحركة أيضا جاذبة فاذا قيل لهم فالسبب الموجب لتلازم نبات شعر اللحية وآلة التناسل فانها اذا قطعت لم تنبت اللحية وماالفرق بين سن الصبا وسن الشباب و بين المرأة والرجل ففي بعضها يبهت وفي بعضها يتكلم بامور واهية ولو فوضها الى حكمة الهية لكان أولى وفيه مسئلتان (الاولى) قال تعالى وانه خلق ولم يقل وانه هو خلق كما قال وانه هو أضحك وأبكى وذلك لان الضحك والبكاء ربما يتوهم متوهم انه بفعل الانسان وفي الاماتة والاحياء وان كان ذلك التوهم بعيدا لكن ربما يقول به جاهل كما قال من حاج ابراهيم الخليل عليه السلام حيث قال أنا أحيي وأميت فأكد ذلك بذكر الفصل وأما خلق الذكر والانثى من النطفة فلا يتوهم أحد انه بفعل أحد من الناس فلم يؤكد بالفصل الاترى الى قوله تعالى وأنه هو أغنى وأقنى حيث كان الاغناء عندهم غير مستند الى الله تعالى وكان في معتقدهم ان ذلك بفعلهم كما قال قارون انما أوتيته على علم عندي ولذلك

﴿ وانه خلق الزوجين الذكر والانثى ﴾

قال وانه هو رب الشعرى لانهم كانوا يستبعدون أن يكون رب محمد هو رب الشعرى فاكد فى مواضع استبعادهم النسبة الى الله تعالى الاسناد ولم يؤكده فى غيره (المسئلة الثانية) الذكر والانثى اسمان هما صفة أو اسمان ليسا بصفة المشهور عند أهل اللغة الثانى والظاهر انهما من الاسماء التى هى صفات فالذكر كالحسن والعزب والانثى كالحبلى والكبرى وانما قلنا انها كالحبلى فى رأى لانها حيالها انثت لا كالكبرى وان قلنا انها كالكبرى فى رأى وانما قلنا ان الظاهر انهما صفتان لان الصفة ما يطلق على شئ ثبت له أمر كالعالم يطلق على شئ له علم والمتحرك يقال لشئ له حركة بخلاف الشجر والحجر فان الشجر لا يقال لشئ بشرط أن يثبت له أمر بل هو اسم موضوع لشئ معين والذكر اسم يقال لشئ له أمر ولهذا يوصف به ولا يوصف بالشجر يقال جاءنى شخص ذكر او انسان ذكر ولا يقال جسم شجر والذى ذهب الى انه اسم غير صفة انما ذهب اليه لانه لم يرله فعلا والصفة فى الغالب له فعل كالعالم والجاهل والحسن والعزب والكبرى والحبلى وذلك لا يدل على ماذهب اليه لان الذكورة والانوثة من الصفات التى لا يتبدل بعضها ببعض فلا يصاغ لها افعال لان الفعل لما يتوقع له تجدد فى صورة الغالب ولهذا لم يوجد للاضافيات افعال كالابوة والبنوة والاخوة اذ لم تكن من الذى يتبدل ووجد للاضافيات المتبدلة افعال يقال واخاه وتبناه لما لم يكن مثبتا بتكلف فقبل التبدل

* وقوله تعالى (من نطفة) أى قطعة من الماء * وقوله تعالى (اذا تمنى) من أمنى المنى اذا نزل أو من منى يمنى اذا قدر وقوله تعالى من نطفة تنبيه على كمال القدرة لان النطفة جسم متناسب الاجزاء ويخلق الله تعالى منه أعضاء مختلفة وطباعا متباينة وخلق الذكر والانثى منها أعجب مايكون على ما بينا ولهذا لم يقدر أحد على أن يدعيه كما لم يقدر أحد على أن يدعى خلق السموات ولهذا قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله كما قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله * ثم قال تعالى (وأن عليه النشأة الاخرى) وهى فى قول أكثر المفسرين اشارة الى الحشر والذى ظهر لى بعد طول التفكر والسؤال من فضل الله تعالى الهداية فيه الى الحق انه يحتمل أن يكون المراد نفخ الروح الانسانية فيه وذلك لان النفس الشريفة لا الامارة تخالط الاجسام الكثيفة المظلمة وبها كرم الله بنى آدم واليه الاشارة فى قوله تعالى فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر غير خلق النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاما وبهذا الخلق الآخر تميز الانسان عن أنواع الحيوانات وشارك الملك فى الادراكات فكما قال هنالك أنشأناه خلقا آخر بعد خلق النطفة قال ههنا وأن عليه النشأة الاخرى فجعل نفخ الروح نشأة أخرى كما جعله هنالك انشاء آخر والذى أوجب القول بهذا هو ان قوله تعالى وأن الى ربك المنتهى عند الاكثرين لبيان الاعادة وقوله تعالى ثم يجزاه الجزاء الاوفى كذلك فيكون ذكر النشأة الاخرى اعادة ولانه تعالى قال بعد هذا وانه هو اغنى

من نطفة اذا تمنى) تدفق فى الرحم او تخلق او يقدر منها الولد من منى بمعنى قدر (وان عليه النشأة الاخرى) اى الاحياء بعد الموت وفاء بوعده وقرئ النشاءة بالمد وهى ايضا مصدر نشأ

وأقنى وهذا من أحوال الدنيا وعلى ماذكرنا يكون الترتيب في غاية الحسن فانه يقول تعالى خلق الذكر والانثى ونفخ فيهما الروح الانسانية الشريفة ثم أغناه بلبن الام وبنفقة الاب في صغره ثم أقناه بالكسب بعد كبره فان قيل فقد وردت النشاة الاخرى للحشر في قوله تعالى فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشاة الاخرة نقول الآخرة من الآخر لا من الآخر لان الآخر أفعل وقد تقدم على ان هناك لما ذكر البدء حمل على الاعادة وههنا ذكر خلقه من نطفة كما في قوله ثم خلقنا النطفة علقة ثم قال أنشأناه خلقا آخر وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) على الوجوب ولا يجب على الله الاعادة فما معنى قوله تعالى ان عليه قال الزمخشري على ماهو مذهبه عليه عقلا فان من الحكمة الجزاء وذلك لايتم الابالحشر فيجب عليه عقلا الاعادة ونحن لانقول بهذا القول ونقول فيه وجهان (الاول) عليه بحكم الوعد فانه تعالى قال انا نحن نحيي الموتى فعليه بحكم الوعد لا بالعقل ولا بالشرع (الثاني) عليه للتعيين قال من حضر بين جمع وحاولوا أمرا وعجزوا عنه يقال وجب عليك اذن أن تفعله أي تعين له (المسئلة الثانية) قرئ النشاة على انه مصدر كالضرب والشرب على وزن فعلة وهي المرة تقول ضربته ضربتين اي مرة بعد مرة يعني النشاة مرة أخرى عليه وقرئ النشاءة بالمد على انه مصدر على وزن فعالة كالكفالة وكيفما قرئ فهي من نشأ وهو لازم وكان الواجب أن يقال عليه الانشاء لا النشاة نقول فيه فائدة وهي ان الجزم يحصل من هذا بوجود الخلق مرة أخرى ولو قال عليه الانشاء ربما يقول قائل الانشاء من باب الاجلاس حيث يقال في السعة أجلسته فاجلس وأقمته فاقام فيقال أنشأه وماأنشأ أي قصده لينشأ ولم يوجد فاذا قال عليه النشاة أي يوجد النشء ويحققه بحيث يوجد جزما (المسئلة الثالثة) هل بين قول القائل عليه النشاة مرة أخرى وبين قوله عليه النشاة الاخرى فرق نقول نعم اذ قال عليه النشاة مرة أخرى لايكون النشء قد علم أولا واذا قال عليه النشأة الاخرى يكون قد علم حقيقة النشاة الاخرى فنقول ذلك المعلوم عليه * ثم قال تعالى (وأنه هو أغنى وأقنى) وقد ذكرنا تفسيره فنقول أغنى يعني دفع حاجته ولم يتركه محتاجا لان الفقير في مقابلة الغني فمن لم يبق فقيرا بوجه من الوجوه فهو غني مطلقا ومن لم يبق فقيرا من وجه فهو غني من ذلك الوجه قال صلى الله عليه وسلم أغنوهم عن المسئلة في هذا اليوم وحمل ذلك على زكاة الفطر ومعناه اذا اتاه ما احتاج اليه وقوله تعالى أقنى معناه وزاد عليه الاقناء فوق الاغناء والذي عندي ان الحروف متناسبة في المعنى فنقول لما كان مخرج القاف فوق مخرج الغين جعل الاقناء لحالة فوق الاغناء وعلى هذا فالاغناء هو ما آتاه الله من العين واللسان وهداه الى الارتضاع في صباه أوهو ما أعطاه الله تعالى من القوت واللباس المحتاج اليهما وفي الجملة كل مادفع الله به الحاجة فهو اغناء وكل مازاد عليه فهو اقناء * ثم قال تعالى (وأنه هو رب الشعرى) اشارة الى فساد قول قوم آخرين وذلك لان بعض

(وانه هو اغنى واقنى) واعطى القنية وهي ماينأثل من الاموال وافرادها بالذكر لانها اشرف الاموال او ارضى وتحقيقه جعل الرضا له قنية (وأنه هو رب الشعرى) أى رب معبودهم وهي العبور وهي أشد ضياء من الغميصاء وكانت خزاعة تعبدها سن لهم ذلك ابو كبشة رجل من أشرافهم وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبو كبشة تشبيها له عليه الصلاة والسلام به لمخالفته اياهم في دينهم

الناس يذهب الى أن الفقر والغنى بكسب الانسان واجتهاده فمن كسب استغنى ومن
كسل افتقر و بعضهم يذهب الى ان ذلك بالبخت وذلك بالنجوم فقال هو أغنى وأقنى وان
قائل الغنى بالنجوم غالط فنقول هو رب النجوم وهو محركها كما قال تعالى هو رب الشعرى
وقوله هو رب الشعرى لانكارهم ذلك أكد بالفصل والشعرى نجم مضئ وفي النجوم
شعريان احداهما شامية والاخرى يمانية والظاهر أن المراد اليمانية لانهم كانوا
يعبدونها * ثم قال تعالى (وأنه أهلك عادا الاولى) لما ذكر انه اغنى وأقنى وكان ذلك
بفضل الله لا بعطاء الشعرى وجب الشكر ان قد أهلك وكفى لهم دليلا حال عاد وثمود
وغيرهم . وعادا الاولى قيل بالاولى تميزت عن قوم كانوا بمكة هم عاد الآخرة وقيل الاولى
لبيان تقدمهم لا لتمييزهم تقول زيد العالم جاءني فتصفه لا لتميزه ولكن لتبين علمه وفيه
قراآت عادا الاولى بكسر نون التنوين لالتقاء الساكنين وعاد الاولى باسقاط نون التنوين
أيضا لالتقاء الساكنين كقراءة عزير بن الله وقل هو الله أحد الله الصمد وعادا الولى بادغام
النون في اللام ونقل ضمة الهمزة الى اللام وعاد الؤلى بهمز الواو وقرأ هذا القارئ على
سؤقه ودليله ضعيف وهو تحتمل هذا في موضع المؤقدة والمؤصدة للضمة والواو فهي في
هذا الموضع تجري على الهمزة وكذا في سؤقه لوجود الهمزة في الاصل وفي موسى وقراءة
لا يحسن * ثم قال تعالى (وثمود فما أبقى) يعني وأهلك ثمود وقوله فما أبقى عائد الى عاد وثمود
أي فما أبقى عليهم ومن المفسرين من قال فما أبقاهم أي فما أبقى منهم أحدا و يؤيد هذا
قوله تعالى فهل ترى لهم من باقية وتمسك الحجاج لى من قال ان ثقيفا من ثمود بقوله تعالى
فما أبقى * (وقوم نوح) أي أهلكهم (من قبل) والمسئلة مشهورة في قبل و بعد تقطع
عن الاضافة فتصير كالغاية فتبنى على الضمة أما البناء فلتضمنه الاضافة وأما على
الضمة فلانها لو بنيت على الفتحة لكان قد أثبت فيه ما يستحقه بالاعراب من حيث انها
ظروف زمان فتستحق النصب والفتح مثله ولو بنيت على الكسر لكان الامر على
ما يقتضيه الاعراب وهو الجر بالجار فبني على ما يخالف حالتي اعرابها * وقوله تعالى
(انهم كانوا هم أظلم وأطغى) اما أظلم فلانهم هم البادئون به المتقدمون فيه ومن سن سنة
سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها والبادي أظلم وأما أطغى فلانهم سمعوا المواعظ وطال
عليهم الامد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم ولا يدعو نبي على قومه الا بعد الاصرار العظيم
والظالم واضع الشئ في غير موضعه والطاغي المجاوز الحد فالطاغي أدخل في الظلم فهو
كالمغاير والمخالف فان المخالف مغاير مع وصف آخر زائد وكذا المغاير والمضاد وكل ضد
غير وليس كل غير ضدا وعليه سؤال وهو ان قوله وقوم نوح المقصود منه تخويف الظالم
بالهلاك فاذا قال هم كانوا في غاية الظلم والطغيان فاهلكوا يقول الظالم هم كانوا أظلم
فاهلكوا لمبالغتهم في الظلم ونحن ما بلغنا فلا نهلك وأما لو قال أهلكوا لانهم ظلمة لخاف

(وأنه اهلك عادا الاولى) هي قوم هود عليه السلام وعاد الاخرى ارم وقيل الاولى القدماء لانهم أولى الامم هلاكا بعد قوم نوح وقرئ عاد الاولى بحذف الهمزة ونقل ضمتها الى اللام وعادا ولى بادغام التنوين في اللام وطرح همزة أولى ونقل حركتها الى لام التعريف (وثمود) عطف على عادا لان ما بعده لا يعمل فيه وقرئ وثمودا بالتنوين (فما أبقى) أي أحدا من الفريقين (وقوم نوح) عطف عليه أيضا (من قبل) أي من قبل اهلاك عاد وثمود (انهم كانوا هم أظلم وأطغى) من الفريقين حيث كانوا يؤذونه وينفرون الناس عنه وكانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه وكانوا يضربونه عليه الصلاة والسلام حتى لا يكون به حراك وما أثر فيهم دعاؤه قريبا من ألف سنة

بعد ان رفعها على جناح جبريل عليه السلام الى السماء (فغشاها ماغشى) من فنون العذاب وفيه من التهويل والتفظيع مالاغاية وراءه (فبأى آلاء ربك تتمارى) تتشكك والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام على طريقة قوله تعالى لئن اشركت ليحبطن عملك اولكل احد واسناد فعل التمارى الى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه فان صيغة التفاعل وان كانت موضوعة لافادة صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه بحيث يكون كل من ذلك فاعلا ومفعولا معا لكنها قد تجرد عن المعنى الثانى فيراد بها المعنى الاول فقط كما فى يتداعونهم اى يدعونهم وقد تجرد عنهم ايضا فيكتفى بتعدد الفعل بتعدد متعلقه كما فيما نحن فيه فان المراد تعدد بتعدد الالاء فتدبر وتسمية الامور المعدودة الاء مع ان بعضها نقم لما انها ايضا نعم من حيث انها

كل ظالم فما الفائدة فى قوله أظلم نقول المقصود بيان شدتهم وقوة أجسامهم فانهم لم يقدموا على الظلم والطغيان الشديد الا بتماديهم وطول أعمارهم ومع ذلك مانجا أحد منهم فأحال من هو دونهم فى العمر والقوة فهو كقوله تعالى أشد منهم بطشا * وقوله تعالى (والمؤتفكة أهوى) المؤتفكة المنقلبة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ والمؤتفكات والمشهور فيه انها قرى قوم لوط لكن كانت لهم مواضع ائتفكت فهى مؤتفكات ويحتمل أن يقال المراد كل من انقلبت مساكنه ودثرت اماكنه ولهذا ختم المهلكين بالمؤتفكات كمن يقول مات فلان وفلان وكل من كان من أمثالهم وأشكالهم (المسئلة الثانية) أهوى أى أهواها بمعنى أسقطها فقيل أهواها من الهوى الى الارض من حيث حملها جبريل عليه السلام على جناحه ثم قلبها وقيل كانت عمارتهم مرتفعة فاهواها بالزلزلة وجعل عاليها سافلها (المسئلة الثالثة) قوله تعالى والمؤتفكة أهوى على ماقلت كقول القائل والمنقلبة قلبها وقلب المنقلب تحصيل الحاصل نقول ليس معناه المنقلبة ماانقلبت بنفسها بل الله قلبها فانقلبت (المسئلة الرابعة) ما الحكمة فى اختصاص المؤتفكة باسم الموضع فى الذكر وقال فى عاد وثمود وقوم نوح اسم القوم نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان ثمود اسم الموضع فذكر عادا باسم القوم وثمود باسم الموضع وقوم نوح باسم القوم والمؤتفكة باسم الموضع ليعلم أن القوم لايمكنهم صون أماكنهم عن عذاب الله تعالى ولا الموضع يحصن القوم عنه فان فى العادة تارة يقوى الساكن فيذب عن مسكنه وأخرى يقوى المسكن فيرد عن ساكنه وعذاب الله لايمنعه مانع وهذا المعنى حصل للمؤمنين فى آيتين (احداهما) قوله تعالى وكف ايدى الناس عنكم وقوله تعالى وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله ففى الاول لم يقدر الساكن على حفظ مسكنه وفى الثانى لم يقو الحصن على حفظ الساكن (والوجه الثانى) هو ان عادا وثمود وقوم نوح كان امرهم متقدما وأماكنهم كانت قد دثرت ولكن أمرهم كان مشهورا متواترا وقوم لوط كانت مساكنهم وآثار الانقلاب فيها ظاهرة فذكر الاظهر من الامرين فى كل قوم * ثم قال تعالى (فغشاها ماغشى) يحتمل أن يكون ما مفعولا وهو الظاهر ويحتمل أن يكون فاعلا يقال ضربه من ضربه وعلى هذا نقول يحتمل أن يكون الذى غشى هو الله تعالى فيكون كقوله تعالى والسماء ومابناها ويحتمل أن يكون ذلك اشارة الى سبب غضب الله عليهم أى غشاها عليهم السبب بمعنى ان الله غضب عليهم بسببه يقال لمن أغضب ملكا بكلام فضربه الملك كلامك الذى ضربك * ثم قال تعالى (فبأى آلاء ربك تتمارى) قيل هذا أيضا مما فى الصحف وقيل هو ابتداء كلام والخطاب عام كأنه يقول بأى النعم أيها السامع تشك أو تجادل وقيل هو خطاب مع الكافر ويحتمل أن يقال مع النبى صلى الله عليه وسلم ولايقال كيف يجوز أن يقول للنبى صلى الله عليه وسلم تتمارى لانا نقول هو من باب لئن أشركت ليحبطن

عملك يعني لم يبق فيه امكان الشك حتى ان فارضنا لو فرض النبي صلى الله عليه وسلم ممن يشك أو يجادل في بعض الامور الخفية لما كان يمكنه المراء في نعم الله والعموم هو الصحيح كانه يقول باي آلاء ربك تتمارى أيها الانسان كما قال يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم وقال تعالى وكان الانسان أكثر شيء جدلا فان قيل المذكور من قبل نعم والآلاء نعم فكيف قال آلاء ربك نقول لما عد من قبل النعم وهو الخلق من النطفة ونفخ الروح الشريفة فيه والاغناء والاقناء وذكر ان الكافر بنعمه اهلك قال فبأي آلاء ربك تتمارى فيصيبك مثل ما أصاب الذين تماروا من قبل أو نقول لما ذكر الاهلاك قال للشاك أنت ما أصابك الذي أصابهم وذلك بحفظ الله اياك فبأي آلاء ربك تتمارى وسنزيده بيانا في قوله تعالى فبأي آلاء ربكما تكذبان في مواضع العذاب * ثم قال تعالى (هذا نذير من النذر الاولى) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المشار اليه بهذا ماذا نقول فيه وجوه (أحدها) محمد صلى الله عليه وسلم من جنس النذر الاولى (ثانيها) القرآن (ثالثها) ما ذكره من اخبار المهلكين ومعناه حينئذ هذا بعض الامور التي هي منذرة وعلى قولنا المراد محمد صلى الله عليه وسلم فالنذير هو المنذر ومن لبيان الجنس وعلى قولنا المراد هو القرآن يحتمل ان يكون النذير بمعنى المصدر ويحتمل ان يكون بمعنى الفاعل وكون الاشارة الى القرآن بعيد لفظا ومعنى أما معنى فلان القرآن ليس من جنس الصحف الاولى لانه معجز وتلك لم تكن معجزة وذلك لانه تعالى لما بين الوحدانية وقال فباي آلاء ربك تتمارى قال هذا نذير اشارة الى محمد صلى الله عليه وسلم واثباتا للرسالة وقال بعد ذلك أزفت الآزفة اشارة الى القيامة ليكون في الآيات الثلاث المرتبة اثبات أصول ثلاث مرتبة فان الاصل الاول هو الله ووحدانيته ثم الرسول ورسالته ثم الحشر والقيامة واما لفظا فلان النذير ان كان كاملا فما ذكره من حكاية المهلكين أولى لانه أقرب ويكون على هذا من التي على حقيقة التبعيض أي هذا الذي ذكرنا بعض ما جرى ونبذ مما وقع أو يكون لابتداء الغاية بمعنى هذا انذار من المنذرين المتقدمين يقال هذا الكتاب وهذا الكلام من فلان وعلى الاقوال كلها ليس ذكر الاولى لبيان الموصوف بالوصف وتمييزه عن النذر الآخرة كما يقال الفرقة الاولى احترازا عن الفرقة الاخيرة وانما هو لبيان الوصف للموصوف كما يقال زيد العالم جاءني فيذكر العالم اما لبيان ان زيدا عالم غير انك لا تذكره بلفظ الخبر فتاتي به على طريقة الوصف واما المدح زيد به واما لامر آخر والاولى على العود الى لفظ الجمع وهو النذر ولو كان لمعنى الجمع لقال من النذر الاولين يقال من الاقوام المتقدمة والمتقدمين على اللفظ والمعنى * ثم قال تعالى (أزفت الآزفة) وهو كقوله تعالى وقعت الواقعة ويقال كانت الكائنة وهذا الاستعمال يقع على وجوه منها ما اذا كان الفاعل صار فاعلا لمثل ذلك الفعل من قبل ثم صدر منه مرة أخرى مثل الفعل فيقال فعل الفاعل أي الذي كان فاعلا صار فاعلا مرة أخرى يقال حاكه الحائك أي من شغله ذلك من قبل فعله ومنها ما يصير الفاعل فاعلا

(هذا نذير من النذر الاولى) هذا اما اشارة الى القرآن والنذير مصدر او الى الرسول عليه الصلاة والسلام والنذير بمعنى المنذر وأياما كان فالتنوين للتفخيم ومن متعلقة بمحذوف هو نعت لنذير مقرر له ومتضمن للوعيد أي

هذا القرآن الذي تشاهدونه نذير من قبيل الانذارات المتقدمة التي سمعتم عاقبتها أو هذا الرسول منذر من جنس المنذرين الاولين والاولى على تأويل الجماعة لمراعاة الفواصل وقد علمتم أحوال قومهم المنذرين وفي تعقيبه بقوله تعالى (أزفت الآزفة) اشعار بان تعذيبهم مؤخر الى يوم القيامة أي دنت الساعة الموصوفة بالدنو في نحو قوله تعالى اقتربت الساعة (ليس لها من دون الله كاشفة) أي ليس لها نفس قادرة على كشفها عند وقوعها الا الله تعالى لكنه لا يكشفها أو ليس لها الآن نفس كاشفة بتأخيرها الا الله تعالى فانه المؤخر لها أو ليس لها كاشفة لوقتها الا الله تعالى كقوله تعالى لا يجليها لوقتها الا هو أو ليس لها من غير الله تعالى كشف على أن كاشفة مصدر كالعافية (أفمن هذا الحديث) أي القرآن

(تعجبون) انكارا (وتضحكون) إستهزاء مع كونه

بذلك الفعل ومنه يقال اذا مات الميت انقطع عمله واذا غصب العين غاصب ضمنه فقوله أزفت الآزفة يحتمل أن يكون من القبيل الاول أى قربت الساعة التى كل يوم يزداد قربها فهى كائنة قريبة وازدادت فى القرب ويحتمل أن يكون كقوله تعالى وقعت الواقعة أى قرب وقوعها وأزفت فاعلها فى الحقيقة القيامة أو الساعة فكأنه قال أزفت القيامة الآزفة أو الساعة أومثلها * وقوله تعالى (ليس لها من دون الله كاشفة) فيه وجوه (أحدها) لامظهر لها الا الله فمن يعلمها لا يعلم الا باعلام الله تعالى اياه واظهاره اياها له فهو كقوله تعالى ان الله عنده علم الساعة وقوله تعالى لا يجليها لوقتها الا هو (ثانيها) لا يأتى بها الا الله كقوله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وفيه مسائل (الاولى) من زائدة تقديره ليس لها غير الله كاشفة وهى تدخل على النفى فتؤكد معناه تقول ماجاءنى أحد وماجاءنى من أحد وعلى هذا يحتمل أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره ليس لها من كاشفة دون الله فيكون نفيا عاما بالنسبة الى الكواشف ويحتمل أن يقال ليست بزائدة بل معنى الكلام انه ليس فى الوجود نفس تكشفها أى تخبر عنها كما هى ومتى وقتها من غير الله تعالى يعنى من يكشفها فانما يكشفها من الله لا من غير الله يقال كشف الامر من زيد ودون يكون بمعنى غير كما فى قوله تعالى أئفكا آلهة دون الله تريدون أى غير الله (المسئلة الثانية) كاشفة صفة لمؤنث أى نفس كاشفة وقيل هى للمبالغة كما فى العلامة وعلى هذا لا يقال بانه نفى أن يكون لها كاشفة بصيغة المبالغة ولا يلزم من نفى الكاشف الفائق نفى نفس الكاشف لانا نقول لو كشفها أحد لكان كاشفا بالوجه الكامل فلا كاشف لها ولا يكشفها أحد وهو كقوله تعالى وما أنا بظلام للعبيد من حيث نفى كونه ظالما مبالغا ولا يلزم منه نفى كونه ظالما وقلنا هناك انه لو ظلم عبيده الضعفاء بغير حق لكان فى غاية الظلم وليس فى غاية الظلم فلا يظلمهم أصلا (المسئلة الثالثة) اذا قلت ان معناه ليس لها نفس كاشفة فقوله من دون الله استثناء على الاشهر من الاقوال فيكون الله تعالى نفسا لها كاشفة نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) لا فساد فى ذلك قال الله تعالى ولا أعلم ما فى نفسك حكاية عن عيسى عليه السلام والمعنى الحقيقة (الثانى) ليس هو صريح الاستثناء فيجوز فيه ان لا يكون نفسا (الثالث) الاستثناء الكاشف المبالغ * ثم قال تعالى (أفمن هذا الحديث تعجبون) قيل من القرآن ويحتمل أن يقال هذا اشارة الى حديث أزفت الآزفة فانهم كانوا يتعجبون من حشر الاجساد وجمع العظام بعد الفساد * وقوله تعالى (وتضحكون) يحتمل أن يكون المعنى وتضحكون من هذا الحديث كما قال تعالى فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منها يضحكون فى حق موسى عليه السلام وكانوا هم أيضا يضحكون من حديث النبى والقرآن ويحتمل أن يكون انكارا على مطلق الضحك مع سماع حديث القيامة أى أتضحكون وقد سمعتم أن القيامة قريب فكان حقا أن لا تضحكوا حينئذ * وقوله تعالى (ولا تبكون) أى كان حقا لكم ان تبكوا منه فتتركون ذلك وتأتون بضده

أبعد شيء من ذلك (ولا تبكون) حزنا على ما فرطتم فى شأنه وخوفا من أن يحيق بكم ما حاق بالامم المذكورة (وأنتم سامدون) أى لاهون أو مستكبرون من سمد البعير اذا رفع رأسه أو مغنون لتشغلوا الناس عن استماعه من السمود بمعنى الغناء على لغة حمير او خاشعون جامدون من السمود بمعنى الجمود والخشوع كما فى قول من قال * رمى الحدثان نسوة آل سعد * بمقدار سمدن له سمودا * فرد شعورهن السود بيضا * ورد وجوههن البيض سودا * والجملة حال من فاعل لا تبكون خلا أن مضمونها على الوجه الاخير قيد للنفى والانكار وارد على نفى البكاء والسمود معا وعلى الوجوه الاول قيد للنفى والانكار متوجه الى نفى البكاء ووجود السمود والاول أوفى بحق المقام فتدبر والفاء فى قوله تعالى (فاسجدوا لله واعبدوا) لترتيب الامر أو موجبه على ما تقرر من بطلان مقابلة القرآن بالانكار والاستهزاء ووجوب تلقيه بالايمان مع كمال الخضوع والخشوع أى واذا كان الامر كذلك فاسجدوا لله الذى أنزله واعبدوه * عن النبى عليه الصلاة

شرفها الله تعالى

(سورة القمر مكية وآيها خمس وخمسون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم) (اقتربت الساعة وانشق القمر) روى أن الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر قال ابن عباس رضي الله عنهما انفلق فلقتين فلقة ذهبت وفلقة بقيت وقال ابن مسعود رأيت حراء بين فلقتي القمر وعن عثمان بن عطاء عن أبيه ان معناه سينشق يوم القيامة ويرده قوله تعالى (وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) فانه ناطق بانه قد وقع وانهم قد شاهدوه بعد مشاهدة نظائره وقرئ وقد انشق القمر أي اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق ومعنى الاستمرار الاطراد أو الاستحكام أي وان يروا آية من آيات الله يعرضوا عن التأمل فيها ليقفوا على حقيقتها وعلو طبقتها ويقولوا سحر مطرد دائم يأتي به محمد على مر الزمان لا يكاد يختلف بحال كسائر أنواع السحر أو قوي مستحكم لا يمكن ازالته وقيل مستمر ذاهب يزول ولا يبقى

وقوله تعالى (وأنتم سامدون) أي غافلون وذكر باسم الفاعل لان الغفلة دائمة واما الضحك والعجب فهما أمران يتجددان و يعدمان وقوله تعالى (فاسجدوا لله واعبدوا) يحتمل أن يكون الامر عاما ويحتمل أن يكون التفاتا فيكون كانه قال أيها المؤمنون اسجدوا شكرا على الهداية واشتغلوا بالعبادة ولم يقل اعبدوا الله اما لكونه معلوما واما لان العبادة في الحقيقة لا تكون الا لله فقال واعبدوا أي ائتوا بالمأمور ولا تعبدوا غير الله لانها ليست بعبادة وهذا يناسب السجدة عند قراءته مناسبة أشد وأتم مما اذا حملناه على العموم والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين

(سورة القمر خمسون وخمس آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اقتربت الساعة وانشق القمر) أول السورة مناسب لآخر ما قبلها وهو قوله أزفت الآزفة فكأنه أعاد ذلك مع الدليل وقال قلت أزفت الآزفة وهو حق اذ القمر انشق والمفسرون بأسرهم على ان المراد أن القمر انشق وحصل فيه الانشقاق ودلت الاخبار على حديث الانشقاق وفي الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة وقالوا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الانشقاق بعينها معجزة فسأل ربه فشقه ومضى وقال بعض المفسرين المراد سينشق وهو بعيد ولا معنى له لان من منع ذلك وهو الفلسفي يمنعه في الماضي والمستقبل ومن يجوزه لا حاجة الى التأويل وانما ذهب اليه ذلك الذاهب لان الانشقاق أمر هائل فلو وقع لعم وجه الارض فكان ينبغي أن يبلغ حد التواتر نقول النبي صلى الله عليه وسلم لما كان يتحدى بالقرآن وكانوا يقولون انا نأتي بأفصح ما يكون من الكلام وعجزوا عنه فكان القرآن معجزة باقية الى قيام القيامة لا يتمسك بمعجزة أخرى فلم ينقله العلماء بحيث يبلغ حد التواتر وأما المؤرخون تركوه لان التواريخ في أكثر الامر يستعملها المنجم وهو لما وقع الامر قالوا بانه مثل خسوف القمر وظهور شئ في الجو على شكل نصف القمر في موضع آخر فتركوا حكايته في تواريخهم والقرآن أدل دليل وأقوى مثبت له وامكانه لا يشك فيه وقد أخبر عنه الصادق فيجب اعتقاد وقوعه وحديث امتناع الخرق والالتئام حديث اللئام وقد ثبت جواز الخرق والتخريب على السموات وذكرناه مرارا فلا نعيده *وقوله تعالى (وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) تقديره وبعد هذا ان يروا آية يقولوا سحر فانهم رأوا آيات أرضية وآيات سماوية ولم يؤمنوا ولم يتركوا عنادهم فان يروا ما يرون بعد هذا لا يؤمنون وفيه وجه آخر وهو أن يقال المعنى ان عادتهم انهم ان يروا آية يعرضوا فلما رأوا انشقاق القمر أعرضوا لتلك العادة وفيه مسائل (الاولى) قوله آية ماذا نقول آية اقتراب الساعة فان انشقاق القمر من آياته وقد ردوا

وكذبوا فان يروا غيرها أيضا يعرضوا أو آية الانشقاق فانها معجزة أما كونها معجزة ففى غاية الظهور وأما كونها آية الساعة فلان منكر خراب العالم ينكر انشقاق السماء وانفطارها وكذلك قوله فى كل جسم سماوى من الكواكب فاذا انشق بعضها ثبت خلاف مايقول به وبان جواز خراب العالم وقال أكثر المفسرين معناه ان من علامات قيام الساعة انشقاق القمر عن قريب وهذا ضعيف حملهم على هذا القول ضيق المكان وخفاء الامر على الاذهان وبيان ضعفه هو أن الله تعالى لو أخبر فى كتابه أن القمر ينشق وهو علامة قيام الساعة لكان ذلك أمرا لابد من وقوعه مثل خروج دابة الارض وطلوع الشمس من المغرب فلا يكون معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم كما أن هذه الاشياء عجائب وليست بمعجزة للنبى لا يقال الاخبار عنها قبل وقوعها معجزة لانا نقول فحينئذ يكون هذا من قبيل الاخبار عن الغيوب فلا يكون هو معجزة برأسه وذلك فاسد ولا يقال بان ذلك كان معجزة وعلامة فاخبر الله فى الصحف والكتب السالفة أن يكون معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم وتكون الساعة قريبة حينئذ وذلك لان بعثة النبى صلى الله عليه وسلم علامة كائنة حيث قال بعثت انا والساعة كهاتين ولهذا يحكى عن سطيح أنه لما أخبر بوجود النبى صلى الله عليه وسلم قال عن أمور تكون فكان وجوده دليل أمور وأيضا القمر لما انشق كان انشقاقه عند استدلال النبى صلى الله عليه وسلم على المشركين وهم كانوا غافلين عما فى الكتب وأما أصحاب الكتب فلم يفتقروا الى بيان علامة الساعة لانهم كانوا يقولون بها فهى اذا آية دالة على جواز تخريب السموات وهو العمدة الكبرى لان السموات اذا طويت وجوز ذلك فالارض ومن عليها لا يستبعد فناؤها اذا ثبت هذا فنقول معنى اقتربت الساعة يحتمل أن يكون فى العقول والاذهان يقول من يسمع أمرا لا يقع هذا بعيد مستبعد وهذا وجه حسن وان كان بعض ضعفاء الاذهان ينكره وذلك لان حمله على قرب الوقوع زمانا لا امكانا يمكن الكافر من مجادلة فاسدة فيقول قال الله تعالى فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم اقتربت ويقولون بأن من قبل أيضا فى الكتب كان يقول اقترب الوعد ثم مضى مائة سنة ولم يقع ولا يبعد أن يمضى ألف آخر ولا يقع ولو صح اطلاق لفظ القرب زمانا على مثل هذا لا يبقى وثوق بالاخبارات وأيضا قوله اقتربت لانتهاز الفرصة والايمان قبل أن لا يصح الايمان فللكافر أن يقول اذا كان القرب بهذا المعنى فلا خوف منها لانها لا تدركنى ولا تدرك أولادى ولا أولاد أولادى واذا كان امكانها قريبا فى العقول يكون ذلك ردا بالغا على المشركين والفلاسفة والله سبحانه وتعالى أول ما كلف الاعتراف بالوحدانية واليوم الآخر وقال اعلموا أن الحشر كائن فخالف المشرك والفلسفى ولم يقنع بمجرد انكار ماورد الشرع ببيانه ولم يقل لا يقع أو ليس بكائن بل قال ذلك بعيد ولم يقتنع بهذا أيضا بل قال ذلك غير ممكن ولم يقنع به أيضا بل قال فان امتناعه ضرورى فان مذهبهم ان اعادة المعدوم واحياء الموتى محال

على البناء للمفعول من الارادة (وكذبوا) أى بالنبى صلى الله عليه وسلم وما عاينوه مما أظهره الله تعالى على يده من المعجزات (واتبعوا أهواءهم) التى زينها الشيطان لهم أو كذبوا الآية التى هى انشقاق القمر واتبعوا أهواءهم وقالوا سحر القمر أو سحر أعيننا والقمر بحاله وصيغة الماضى للدلالة على التحقق وقوله تعالى (وكل أمر مستقر) استئناف مسوق لاقناطهم عما علقوا به أمانيهم الفارغة من عدم استقرار أمره عليه الصلاة والسلام حسبما قالوا سحر مستمر ببيان ثباته و رسوخه أى وكل أمر من الامور مستقر أى منته الى غاية يستقر عليها لامحالة ومن جملتها أمر النبى صلى الله عليه وسلم فسيصير الى غاية يتبين عندها حقيته وعلو شأنه وابهام المستقر عليه للتنبيه على كمال ظهور الحال وعدم الحاجة الى التصريح به

بالضرورة ولهذا قالوا أئذا متنا أئذا كنا عظاما أئذا ضللنا في الارض بلفظ الاستفهام بمعنى الانكار مع ظهور الامر فلما استبعدوا لم يكتف الله ورسوله ببيان وقوعه بل قال ان الساعة آتية لا ريب فيها ولم يقتصر عليه بل قال وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ولم يتركها حتى قال اقتربت الساعة واقترب الوعد الحق اقترب للناس حسابهم اقترابا عقليا لا يجوز ان ينكر ما يقع في زمان طرفة عين لانه على الله يسير كان تقليب الحدقة علينا يسير بل هو أقرب منه بكثير والذي يقويه قول العامة ان زمان وجود العالم زمان مديد والباقي بالنسبة الى الماضي شئ يسير فلهذا قال اقتربت الساعة وأما قوله صلى الله عليه وسلم بعثت انا والساعة كهاتين فمعناه لا نبي بعدي فان زماني يمتد الى قيام الساعة فزماني والساعة متلاصقان كهاتين ولا شك أن الزمان زمان النبي صلى الله عليه وسلم وما دامت أوامره نافذة فالزمان زمانه وان كان ليس هو فيه كما ان المكان الذي تنفذ فيه أوامر الملك مكان الملك يقال له بلاد فلان فان قيل كيف يصح حمله على القرب بالمعقول مع انه مقطوع به قلت كما صح قوله تعالى لعل الساعة تكون قريبا فان لعل للترجي والامر عند الله معلوم وفائدته ان قيام الساعة ممكن لا امكانا بعيدا عن العادات كحمل الآدمي في زماننا حملا في غاية الثقل أو قطعه مسافة بعيدة في زمان يسير فان ذلك ممكن امكانا بعيدا وأما تقليب الحدقة فممكن امكانا في غاية القرب (المسئلة الثانية) الجمع الذي تكون الواو ضميرهم في قوله يروا ويعرضوا غير مذكور فمن هم نقول هم معلومون وهم الكفار تقديره وهؤلاء الكفار ان يروا آية يعرضوا (المسئلة الثالثة) التنكير في الآية للتعظيم أي ان يروا آية قوية أو عظيمة يعرضوا (المسئلة الرابعة) قوله تعالى ويقولوا سحر مستمر ما الفائدة فيه نقول فائدته بيان كون الآية خالية عن شوائب الشبه وان الاعتراف لزمهم لانهم لم يقدروا أن يقولوا نحن نأتي بمثلها وبيان كونهم معرضين لا اعراض معذور فان من يعرض اعراض مشغول بامر مهم فلم ينظر في الآية لا يستقبح منه الاعراض مثل ما يستقبح لمن ينظر فيها الى آخرها ويعجز عن نسبتها الى أحد ودعوى الاتيان بمثلها ثم يقول هذا ليس بشئ هذا سحر لان ما من آية الا ويمكن المعاند أن يقول فيها هذا القول (المسئلة الخامسة) ما المستمر نقول فيه وجوه (أحدها) دائم فان محمدا صلى الله عليه وسلم كان يأتي كل زمان بمعجزة قولية أو فعلية أرضية أو سماوية فقالوا هذا سحر مستمر دائم لا يختلف بالنسبة الى النبي عليه السلام بخلاف سحر السحرة فان بعضهم يقدر على أمر وأمرين وثلاثة ويعجز عن غيرها وهو قادر على الكل (ثانيها) مستمر أي قوي من حبل مرير الفتل من المرة وهي الشدة (وثالثها) من المرارة أي سحر مر مستبشع (ورابعها) مستمر أي مار ذاهب فان السحر لا بقاء له * ثم قال تعالى (وكذبوا واتبعوا أهواءهم) وهو يحتمل أمرين (أحدهما) وكذبوا محمدا المخبر عن اقتراب الساعة (وثانيهما) كذبوا بالآية وهي انشقاق القمر فان قلنا كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقوله واتبعوا أهواءهم أي

وقيل المعنى كل أمر من أمرهم وأمره عليه الصلاة والسلام مستقر أي سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة في الدنيا وشقاوة أو سعادة في الآخرة وقرئ بالفتح على أنه مصدر أو اسم مكان أو اسم زمان أي ذو استقرار أو ذو موضع استقرار أو ذو زمان استقرار وبالكسر والجر على انه صفة أمر وكل عطف على الساعة أي اقتربت الساعة وكل أمر مستقر (ولقد جاءهم) أي في القرآن وقوله تعالى (من الانباء) أي أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة متعلق بمحذوف هو حال مما بعده أي وبالله لقد جاءهم كائنا من الانباء (ما فيه مزدجر) أي ازدجار من تعذيب أو وعيد أو موضع ازدجار على ان في تجريدية والمعنى انه في نفسه موضع ازدجار وتاء الافتعال تقلب دالا مع الدال والذال والزاي للتناسب وقرئ مزجر بقلبها زاء وادغامها (حكمة بالغة) غايتها لا خلل فيها وهي بدل من ما أو خبر لمحذوف وقرئ بالنصب حالا منها

تركوا الحجة وأولوا الآيات وقالوا هو مجنون تعينه الجن وكاهن يقول عن النجوم
ويختار الاوقات للافعال وساحر فهذه اهواؤهم وان قلنا كذبوا بانشقاق القمر فقوله
واتبعوا أهواءهم في انه سحر القمر وانه خسوف والقمر لم يصبه شيء فهذه أهواؤهم
وكذلك قولهم في كل آية * وقوله تعالى (وكل أمر مستقر) فيه وجوه (احدها) كل أمر
مستقر على سنن الحق يثبت والباطل يزهق وحينئذ يكون تهديدا لهم وتسلية للنبي صلى الله
عليه وسلم وهو كقوله تعالى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم أي بانها حق (ثانيها) وكل
أمر مستقر في علم الله تعالى لا يخفى عليه شيء فهم كذبوا واتبعوا اهواءهم والانبياء صدقوا
وبلغوا ما جاءهم كقوله تعالى لا يخفى على الله منهم شيء وكما قال تعالى في هذه السورة وكل
شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر (ثالثها) هو جواب قولهم سحر مستمر أي
ليس أمره بذاهب بل كل أمر من أموره مستقر * ثم قال تعالى (ولقد جاءهم من الانباء
ما فيه مزدجر) اشارة الى ان كل ما هو لطف بالعباد قد وجد فاخبرهم الرسول باقتراب
الساعة وأقام الدليل على صدقه وامكان قيام الساعة عقيب دعواه بانشقاق القمر الذي هو
آية لأن من يكذب بها لا يصدق بشيء من الآيات فكذبوا بها واتبعوا الاباطيل الذاهبة
وذكروا الاقاويل الكاذبة فذكر لهم أنباء المهلكين بالآيتين تخويفا لهم وهذا هو
الترتيب الحكمي ولهذا قال بعد الآيات حكمة بالغة أي هذه حكمة بالغة والانباء هي
الاخبار العظام ويدلك على صدقه ان في القرآن لم يرد النبأ والانباء الا لما له وقع قال
وجئتك من سبإ بنبإ يقين لانه كان خبرا عظيما وقال ان جاءكم فاسق بنبإ أي بمحاربة
أو مسالمة وما يشبهه من الامور العرفية وانما يجب التثبت فيما يتعلق به حكم ويترتب
عليه أمر ذو بال وكذلك قال تعالى تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك فكذلك الانباء ههنا
وقال تعالى عن موسى لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة حيث لم يكن يعلم انه يظهر له شيء عظيم
يصلح أن يقال له نبأ ولم يقصده والظاهر أن المراد انباء المهلكين بسبب التكذيب وقال
بعضهم المراد القرآن وتقديره جاءكم فيه الانباء وقيل قوله جاءكم من الانباء يتناول جميع
ما ورد في القرآن من الزواجر والمواعظ وما ذكرنا أظهر لقوله فيه مزدجر وفي ما وجهان
(أحدهما) انها موصولة أي جاءكم الذي فيه مزدجر (ثانيهما) موصوفة تقديره جاءكم
من الانباء شيء موصوف بان فيه مزدجر وهذا أظهر والمزدجر فيه وجهان أحدهما
ازدجار وثانيهما موضع ازدجار كالمرتقى ولفظ المفعول بمعنى المصدر كثير لان المصدر هو
المفعول الحقيقي * ثم قال تعالى (حكمة بالغة) وفيه وجوه (الاول) على قول من قال ولقد
جاءهم من الانباء المراد منه القرآن قال حكمة بالغة بدل كانه قال ولقد جاءهم حكمة بالغة
(ثانيها) أن يكون بدلا عن ما في قوله ما فيه مزدجر (الثاني) حكمة بالغة خبر مبتدأ محذوف
تقديره هذه حكمة بالغة والاشارة حينئذ تحتمل وجوها (أحدها) هذا الترتيب الذي
في ارسال الرسول وايضاح الدليل والانذار بمن مضى من القرون وانقضى حكمة بالغة

﴿ ثانيها ﴾

أنها موصولة أو موصوفة
تخصصت بصفتها
فساغ نصب الحال عنها
(فما تغني النذر) نفي للاغناء
أو انكار له والفاء لترتيب
عدم الاغناء على مجيء
الحكمة البالغة مع كونه
مظنة للاغناء وصيغة
المضارع للدلالة على
تجدد عدم الاغناء
واستمراره حسب تجدد
مجيء الزواجر واستمراره
وما على الوجه الثاني
منصوبة أي فأي اغناء
تغني النذر وهو جمع نذير
بمعنى المنذر أو مصدر
بمعنى الانذار (فتول عنهم)
لعلمك بان الانذار لا يؤثر
فيهم البتة (يوم يدع
الداع) منصوب بيخرجون
أو باذكر والداعي
اسرافيل عليه السلام
ويجوز أن يكون الدعاء
فيه كالامر في قوله تعالى
كن فيكون واسقاط الياء
للاكتفاء بالكسر تخفيفا
(الى شيء نكر) أي منكر
فظيع تنكره النفوس لعدم
العهد بمثله وهو هول
القيامة وقرئ نكر
بالتخفيف ونكر بمعنى
انكر (خشعا أبصارهم)
حال من فاعل (يخرجون) والتقديم لان العامل متصرف أي يخرجون

(ثانيها) انزال مافيه الانباء حكمة بالغة (ثالثها) هذه الساعة المقتربة والآية الدالة عليها حكمة (الثالث) قرئ بالنصب فيكون حالا وذو الحال ما فى قوله مافيه مزدجر أى جاءكم ذلك حكمة فان قيل ان كان ما موصولة تكون معرفة فيحسن كونه ذا الحال فاما ان كانت بمعنى جاءهم من الانباء شئ فيه ازدجار يكون منكرا وتنكير ذى الحال قبيح نقول كونه موصوفا يحسن ذلك ❁ وقوله (فما تغنى النذر) فيه وجهان (أحدهما) ان ما نافية ومعناه أن النذر لم يبعثوا ليغنوا ويلجؤا قومهم الى الحق وانما ارسلوا مبلغين وهو كقوله تعالى فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ويؤيد هذا قوله تعالى فتول عنهم أى ليس عليك ولا على الانبياء الاغناء والالجاء فاذا بلغت فقد أوتيت بما عليك من الحكمة البالغة التى أمرت بها بقوله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وتول اذا لم تقدر (ثانيهما) ما استفهامية ومعنى الآيات حينئذ انك أتيت بما عليك من الدعوى واظهار الآية عليها وكذبوا وأنذرتهم بما جرى على المكذبين فلم يفدهم فهذه حكمة بالغة وما الذى تغنى النذر غير هذا فلم يبق عليك شئ آخر ❁ قوله تعالى (فتول عنهم) قد ذكرنا ان المفسرين يقولون ان قوله تول منسوخ وليس كذلك بل المراد منه لا تناظرهم بالكلام ❁ ثم قال تعالى (يوم يدع الداع الى شئ نكر) قد ذكرنا أيضا ان من ينصح شخصا ولا يؤثر فيه النصح يعرض عنه ويقول مع غيره مافيه نصح المعرض عنه ويكون فيه قصد ارشاد أيضا فقال [illegible]ما قال فتول عنهم يوم يدع الداع يخرجون من الاجداث للتخويف والعامل فى يوم هو ما بعده وهو قوله يخرجون من الاجداث والداعى معرف كالمنادى فى قوله يوم ينادى المنادى لانه معلوم [illegible] أخبر عنه فقيل ان مناديا ينادى وداعيا يدعو وفى الداعى وجوه أ[illegible] انه اسرافيل وثانيها انه جبريل وثالثها انه ملك موكل بذلك والتعريف حينئذ لا[illegible] [illegible]طلع حد العلمية وانما يكون ذلك كقولنا جاء رجل فقال الرجل وقوله تعالى الى شئ أى منكر وهو يحتمل وجوها (أحدها) الى شئ نكر فى يومنا هذا لانهم أنكروه أى يوم يدعو الداعى الى الشئ الذى أنكروه يخرجون (ثانيها) نكر اى منكر يقول ذلك القائل كان ينبغى ان لا يكون أى من شأنه ان لا يوجد يقال فلان ينهى عن المنكر وعلى هذا فهو عندهم كان ينبغى ان لا يقع لانه يرديهم فى الهاوية فان قيل ماذلك الشئ النكر نقول الحساب أو الجمع أو النشر للجمع وهذا أقرب فان قيل النشر لا يكون منكرا فانه احياء ولان الكافر من أين يعرف وقت النشر وما يجرى عليه لينكره نقول يعرف ويعلم بدليل قوله تعالى عنهم ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ❁ ثم قال تعالى (خاشعا أبصارهم يخرجون من الاجداث كأنهم جراد منتشر) وفيه قرآت خاشعا وخاشعة وخشعا فمن قرأ خاشعا على قول القائل يخشع أبصارهم على ترك التأنيث لتقدم الفعل ومن قرأ خاشعة على قوله تخشع أبصارهم ومن قرأ خشعا فله وجوه (أحدها) على قول من يقول يخشعن أبصارهم على طريقة من يقول أكلونى البراغيث (ثانيها) فى خشعا ضمير أبصارهم بدل عنه

(من الاجداث) اذلة أبصارهم من شدة الهول وقرئ خاشعا والافراد والتذكير لان فاعله ظاهر غير حقيقى التأنيث وقرئ خاشعة على الاصل وقرئ خشع أبصارهم على الابتداء والخبر على ان الجملة حال (كأنهم جراد منتشر) فى الكثرة والتموج والتفرق فى الاقطار (مهطعين الى الداع) مسرعين مادى أعناقهم اليه أو ناظرين اليه (يقول الكافرون) استئناف وقع جوابا عما نشأ من وصف اليوم بالاهوال وأهله بسوء الحال كأنه قيل فماذا يكون حينئذ فقيل يقول الكافرون (هذا يوم عسر) أى صعب شديد وفى اسناد القول المذكور الى الكفار تلويح بان المؤمنين ليسوا فى تلك المرتبة من الشدة (كذبت قبلهم قوم نوح) شروع فى تعداد بعض ما ذكر من الانباء الموجبة للازدجار ونوع تفصيل لها وبيان لعدم تأثرهم بها تقريرا

تقديره يخشعون أبصارهم على بدل الاشتمال كقول القائل أعجبوني حسنهم (ثالثها) فيه فعل مضمر يفسره يخرجون تقديره يخرجون خشعا أبصارهم على بدل الاشتمال والصحيح خاشعا روى أن مجاهدا رأى النبي صلى الله عليه وسلم فى منامه فقال له يانبي الله خشعا ابصارهم أو خاشعا أبصارهم فقال عليه السلام خاشعا ولهذه القراءة وجه آخر أظهر مما قالوه وهو أن يكون خشعا منصوبا على انه مفعول بقوله يوم يدع الداع خشعا أي يدعو هؤلاء فان قيل هذا فاسد من وجوه (أحدها) ان التخصيص لا فائدة فيه لان الداعي يدعو كل أحد (ثانيها) قوله يخرجون من الاجداث بعد الدعاء فيكونون خشعا قبل الخروج وانه باطل (ثالثها) قراءة خاشعا تبطل هذا نقول اما الجواب عن الاول فهو أن يقال قوله الى شئ نكر يدفع ذلك لان كل أحد لا يدعى الى شئ نكر وعن الثاني المراد من شئ نكر الحساب العسير يعني يوم يدعو الداعي الى الحساب العسير خشعا ولا يكون العامل فى يوم يدعو يخرجون بل اذكروا أو فما تغنى النذر كما قال تعالى فما تنفعهم شفاعة الشافعين ويكون يخرجون ابتداء كلام وعن الثالث أنه لا منافاة بين القراءتين وخاشعا نصب على الحال أو على انه مفعول يدعو كأنه يقول الداعي قوما خاشعا أبصارهم والخشوع السكون قال تعالى وخشعت الاصوات وخشوع الابصار سكونها على حال لا تنقلب يمنة ولا يسرة كما فى قوله تعالى لا يرتد اليهم طرفهم وقوله تعالى يخرجون من الاجداث كأنهم جراد منتشر مثلهم بالجراد المنتشر فى الكثرة والتموج ويحتمل أن يقال المنتشر مطاوع نشره اذا أحياه فكأنهم جراد يتحرك من الارض ويدب اشارة الى كيفية خروجهم من الاجداث وضعفهم ۞ ثم قال تعالى (مهطعين الى الداع) أى مسرعين اليه انقيادا (يقول الكافرون هذا يوم عسر) يحتمل أن يكون العامل الناصب ليوم فى قوله تعالى يوم يدع الداع أي يوم يدعو الداعي يقول الكافرون هذا يوم عسر وفيه فائدتان (احداهما) تنبيه المؤمن ان ذلك اليوم على الكافر عسر فحسب كما قال تعالى فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير يعني له عسر لا يسر معه (ثانيتهما) هي ان الأمرين متفقان مشتركان بين المؤمن والكافر فان الخروج من الاجداث كأنهم جراد والاهطاع الى الداعي يكون للمؤمن فانه يخاف ولا يأمن العذاب الا بايمان الله تعالى اياه فيؤتيه الله الثواب فيبقى الكافر فيقول هذا يوم عسر* ثم انه تعالى أعاد بعض الانباء فقال (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر) فيها تهوين وتسلية لقلب محمد صلى الله عليه وسلم فان حاله كحال من تقدمه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الحاق ضمير المؤنث بالفعل قبل ذكر الفاعل جائز بالاتفاق وحسن والحاق ضمير الجمع به قبيح عند الاكثرين فلا يجوزون كذبوا قوم نوح ويجوزون كذبت فما الفرق نقول التأنيث قبل الجمع لان الانوثة والذكورة للفاعل أمر لا يتبدل ولم تحصل الانوثة للفاعل بسبب فعلها الذي هو فاعله فليس اذا قلنا ضربت هذه كانت هذه أنثى لاجل

(فكذبوا عبدنا) تفسير لذلك التكذيب المبهم كما فى قوله تعالى ونادى نوح ربه فقال رب الخ وفيه مزيد تقرير وتحقيق للتكذيب وقيل معناه كذبوه تكذيبا اثر تكذيب كلما خلا منهم قرن مكذب جاء عقيبه قرن آخر مكذب مثله وقيل كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا لانه من جملتهم وفى ذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان العبودية مع الاضافة الى نون العظمة تفخيم له عليه الصلاة والسلام ورفع لمحله وزيادة تشنيع لمكذبيه (وقالوا مجنون) أي لم يقتصروا على مجرد التكذيب بل نسبوه الى الجنون (وازدجر) عطف على قالوا أى وزجر عن التبليغ بأنواع الاذية وقيل هو من جملة ما قالوه أى هو مجنون وقد ازدجرته الجن وتخبطته

الضرب بخلاف الجمع لان الجمع للفاعلين بسبب فعلهم الذي هم فاعلوه فانا اذا قلنا جمع ضربوا وهم ضاربون ليس بمجرد اجتماعهم في الوجود يصح قولنا ضربوا وهم ضاربون لانهم ان اجتمعوا في مكان فهم جمع ولكن ان لم يضرب الكل لا يصح قولنا ضربوا فضمير الجمع من الفعل فاعلون جمعهم بسبب الاجتماع في الفعل والفاعلية وليس بسبب الفعل فلم يجز أن يقال ضربوا جمع لان الجمع لم يفهم الا بسبب أنهم ضربوا جمعهم فينبغي أن يعلم أولا اجتماعهم في الفعل فيقول الضاربون ضربوا وأما ضربت هند فصحيح لانه لا يصح أن يقال التأنيث لم يفهم الا بسبب أنها ضربت بل هي كانت أنثى فوجد منها ضرب فصارت ضاربة وليس الجمع كانوا جمعا فضربوا فصاروا اضار بين بل صاروا ضار بين لاجتماعهم في الفعل ولهذا ورد الجمع على اللفظ بعد ورود التأنيث عليه فقيل ضاربة وضاربات ولم يجمع اللفظ أولا لانثى ولا لذكر ولهذا لم يحسن أن يقال ضرب هند وحسن بالاجماع ضرب قوم والمسلمون (المسئلة الثانية) لما قال تعالى كذبت ما الفائدة في قوله تعالى فكذبوا عبدنا نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) ان قوله كذبت قبلهم قوم نوح اي بآياتنا وآية الانشقاق فكذبوا (الثاني) كذبت قوم نوح الرسل وقالوا لم يبعث الله رسولا وكذبوهم في التوحيد فكذبوا عبدنا كما كذبوا غيره وذلك لان قوم نوح كانوا مشركين يعبدون الاصنام ومن يعبد الاصنام يكذب كل رسول وينكر الرسالة لانه يقول لا تعلق لله بالعالم السفلي وانما أمره الى الكواكب فكان مذهبهم التكذيب فكذبوا (الثالث) قوله تعالى فكذبوا عبدنا للتصديق والرد عليهم تقديره كذبت قوم نوح وكان تكذيبهم عبدنا أي لم يكن تكذيبا بحق كما يقول القائل كذبني فكذب صادقا (المسئلة الثالثة) كثيرا ما يخص الله الصالحين بالاضافة الى نفسه كما في قوله تعالى ان عبادي ياعبادي واذكر عبدنا انه من عبادنا وكل واحد عبده فما السر فيه نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) ما قيل في المشهور أن الاضافة اليه تشريف منه فمن خصصه بكونه عبده شرف وهذا كقوله تعالى أن طهرا بيتي وقوله تعالى ناقة الله (الثاني) المراد من عبدنا أي الذي عبدنا فالكل عباد لانهم مخلوقون للعبادة لقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ولكن منهم من عبد فحقق المقصود فصار عبده ويؤيد هذا قوله تعالى كونوا عبادا لي أي حققوا المقصود (الثالث) الاضافة تفيد الحصر فمعنى عبدنا هو الذي لم يقل بمعبود سوانا ومن اتبع هواه فقد اتخذ الها فالعبد المضاف هو الذي بكليته في كل وقت لله فأكله وشربه وجميع أموره لوجه الله تعالى وقليل ما هم (المسئلة الرابعة) ما الفائدة في اختيار لفظ العبد مع انه لو قال رسولنا لكان أدل على قبح فعلهم نقول قوله عبدنا أدل على صدقه وقبح تكذيبهم من قوله رسولنا لو قاله لان العبد أقل تحريفا لكلام السيد من الرسول فيكون كقوله تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين (المسئلة الخامسة) قوله تعالى وقالوا مجنون اشارة الى انه

أتى بالآيات الدالة على صدقه حيث رأوا ما عجزوا عنه وقالوا هو مصاب الجن أو هو لزيادة بيان قبح صنعهم حيث لم يقنعوا بقولهم انه كاذب بل قالوا مجنون أي يقول ما لا يقبله عاقل والكاذب العاقل يقول ما يظن به أنه صادق فقالوا مجنون أي يقول ما لم يقل به عاقل فبين مبالغتهم في التكذيب (المسئلة السادسة) وازدجر اخبار من الله تعالى أو حكاية قولهم نقول فيه خلاف منهم من قال اخبار من الله تعالى وهو عطف على كذبوا وقالوا أي هم كذبوا وهو ازدجر أي أوذي وزجر وهو كقوله تعالى كذبوا وأوذوا وعلى هذا ان قيل لو قال كذبوا عبدنا وزجروه كان الكلام أكثر مناسبة نقول لا بل هذا أبلغ لان المقصود تقوية قلب النبي صلى الله عليه وسلم بذكر من تقدمه فقال وازدجر أي فعلوا ما يوجب الانزجار من دعائهم حتى ترك دعوتهم وعدل عن الدعاء الى الايمان الى الدعاء عليهم ولو قال زجروه ما كان يفيد أنه تأذى منهم لان في السعة يقال آذوني ولكن ما تأذيت وأما أوذيت فهو كاللازم لا يقال الا عند حصول الفعل لا قبله ومنهم من قال وازدجر حكاية قولهم أي هم قالوا ازدجر تقديره قالوا مجنون مزدجر ومعناه ازدجره الجن أو كأنهم قالوا جن وازدجر والاول أصح ويترتب عليه *قوله تعالى (فدعا ربه أني مغلوب فانتصر) ترتبا في غاية الحسن لانهم لما زجروه وانزجر هو عن دعائهم دعا ربه اني مغلوب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ اني بكسر الهمزة على انه دعاء فكأنه قال اني مغلوب وبالفتح على معنى بأني (المسئلة الثانية) ما معنى مغلوب نقول فيه وجوه (الأول) غلبني الكفار فانتصر لي منهم (الثاني) غلبتني نفسي وحملتني على الدعاء عليهم فانتصر لي من نفسي وهذا الوجه نقله ابن عطية وهو ضعيف (الثالث) وجه مركب من الوجهين وهو أحسن منهما وهو أن يقال ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يدعو على قومه ما دام في نفسه احتمال وحلم واحتمال نفسه يمتد ما دام الايمان منهم محتملا ثم ان يأسه يحصل والاحتمال يفر بعد اليأس بمدة بدليل قوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم لعلك باخع نفسك فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وقال الله تعالى ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون فقال نوح يا الهي ان نفسي غلبتني وقد أمرتني بالدعاء عليهم فأهلكهم فيكون معناه مغلوب بحكم البشرية أي غلبت وعيل صبري فانتصر لي منهم لا من نفسي (المسئلة الثالثة) فانتصر معناه انتصر لي أو لنفسك فانهم كفروا بك وفيه وجوه (احدها) فانتصر لي مناسب لقوله مغلوب (ثانيها) فانتصر لك ولدينك فاني غلبت وعجزت عن الانتصار لدينك (ثالثها) فانتصر للحق ولا يكون فيه ذكر نولا ذكر ربه وهذا يقوله قوي النفس يكون الحق معه يقول القائل اللهم أهلك الكاذب منا وانصر المحق منا* ثم قال تعالى (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) عقيب دعائه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المراد من الفتح والابواب والسماء حقائقها او هو مجاز نقول فيه قولان (احدهما) حقائقها وللسماء ابواب تفتح وتغلق ولا استبعاد فيه (وثانيهما) وهو على طريق

(فدعا ربه أني) أي بأني وقرئ بالكسر على ارادة القول (مغلوب) أي من جهة قومي مالي قدرة على الانتقام منهم (فانتصر) أي فانتقم لي منهم وذلك بعد تقرر يأسه منهم بعد اللتيا والتي فقد روي أن الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشيا عليه ويقول اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) منصب وهو تمثيل لكثرة الامطار وشدة انصبابها وقرئ ففتحنا بالتشديد لكثرة الابواب

الاستعارة فان الظاهر ان الماء كان من السحاب وعلى هذا فهو كما يقول القائل في المطر الوابل جرت ميازيب السماء وفتح أفواه القرب أي كأنه ذلك فالمطر في الطوفان كان بحيث يقول القائل فتحت أبواب السماء ولا شك ان المطر من فوق كان في غاية الهطلان (المسئلة الثانية) قوله تعالى ففتحنا بيان أن الله انتصر منهم وانتقم بماء لا بجند أنزله كما قال تعالى وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ان كانت الا صيحة واحدة بيانا لكمال القدرة ومن العجيب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين فأهلكهم بمطلوبهم (المسئلة الثالثة) الباء في قوله بماء منهمر ما وجهه وكيف موقعه نقول فيه وجهان (أحدهما) كما هي في قول القائل فتحت الباب بالمفتاح وتقديره هو أن يجعل كأن الماء جاء وفتح الباب وعلى هذا تفسير قول من يقول يفتح الله لك بخير أي يقدر خيرا يأتي ويفتح الباب وعلى هذا ففيه لطيفة وهي من بدائع المعاني وهي أن يجعل المقصود مقدما في الوجود ويقول كأن مقصودك جاء الى باب مغلق ففتحه وجاءك وكذلك قول القائل لعل الله يفتح برزق أي يقدر رزقا يأتي الى الباب الذي كالمغلق فيدفعه ويفتحه فيكون الله قد فتحه بالرزق (ثانيهما) فتحنا أبواب السماء مقرونة بماء منهمر والانهمار الانسكاب والانصباب صبا شديدا والتحقيق فيه ان المطر يخرج من السماء التي هي السحاب خروج مترشح من ظرفه وفي ذلك اليوم كان يخرج خروج مرسل خارج من باب

* ثم قال تعالى (وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر) وفيه من البلاغة ما ليس في قول القائل فجرنا عيون الارض وهذا بيان التمييز في كثير من المواضع اذا قلت ضاق زيد ذرعا أثبت ما لا يثبته قولك ضاق ذرع زيد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال وفجرنا الارض عيونا ولم يقل ففتحنا السماء أبوابا لان السماء أعظم من الارض وهي للمبالغة ولهذا قال أبواب السماء ولم يقل أنابيب ولا منافذ ولا مجاري أو غيرها واما قوله تعالى وفجرنا الارض عيونا فهو أبلغ من قوله وفجرنا عيون الارض لأنه يكون حقيقة لا مبالغة فيه ويكفي في صحة ذلك القول أن يجعل في الارض عيونا ثلاثة ولا يصلح مع هذا في السماء الا قول القائل فأنزلنا من السماء ماء أو مياها ومثل هذا الذي ذكرناه في المعنى لا في المعجز والحكمة قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض حيث لا مبالغة فيه وكلامه لا يماثل كلام الله ولا يقرب منه غير أني ذكرته مثلا ولله المثل الأعلى (المسئلة الثانية) العيون في عيون الماء حقيقة أو مجاز نقول المشهور أن لفظ العين مشترك والظاهر أنها حقيقة في العين التي هي آلة الابصار ومجاز في غيرها أما في عيون الماء فلأنها تشبه العين الباصرة التي يخرج منها الدمع أو لأن الماء الذي في العين كالنور الذي في العين غير أنه مجاز مشهور صار غالبا حتى لا يفتقر الى القرينة عند الاستعمال الا للتمييز بين العينين فكما لا يحمل اللفظ على العين الباصرة الا بقرينة كذلك لا يحمل على الفوارة الا بقرينة مثل شربت من العين واغتسلت منها وغير ذلك من الامور

(وفجرنا الارض عيونا) أي جعلنا الارض كلها كأنها عيون متفجرة وأصله وفجرنا عيون الارض فغير قضاء لحق المقام (فالتقى الماء) أي ماء السماء وماء الارض والافراد لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة والتقارب بل بطريق الاختلاط والاتحاد وقرئ الماوان بقلب الهمزة واوا (على أمر قد قدر) أي كائنا على حال قد قدرها الله تعالى من غير تفاوت أو على حال قدرت وسويت وهو أن قدر ما أنزل على قدر ما أخرج أو على أمر قدره الله تعالى وهو هلاك قوم نوح بالطوفان

التي توجد في الينبوع ويقال عانه بعينه اذا أصابه بالعين وعينه تعيينا حقيقته جعله بحيث تقع عليه العين وعاينه معاينة وعيانا وعين أي صار بحيث تقع عليه العين (المسئلة الثالثة) قوله تعالى فالتقى الماء قرئ فالتقى الماآن أي النوعان منه ماء السماء وماء الارض فتثنى أسماء الاجناس على تأويل صنف وتجمع أيضا يقال عندي تمران وتمور واتمار على تأويل نوعين وأنواع منه والصحيح المشهور فالتقى الماء وله معنى لطيف وذلك انه تعالى لما قال ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ذكر الماء وذكر الانهمار وهو النزول بقوة فلما قال وفجرنا الارض عيونا كان من الحسن البديع أن يقول ما يفيد أن الماء نبع منها بقوة فقال فالتقى الماء أي من العين فار الماء بقوة حتى ارتفع والتقى بماء السماء ولو جرى جريا ضعيفا لما كان هو يلتقي مع ماء السماء بل كان ماء السماء يرد عليه ويتصل به ولعل المراد من قوله وفار التنور مثل هذا وقوله تعالى على أمر قد قدر فيه وجوه (الاول) على حال قد قدرها الله تعالى كما شاء (الثاني) على حال قدر احد الماءين بقدر الآخر (الثالث) على سائر المقادير وذلك لان الناس اختلفوا فمنهم من قال ماء السماء كان أكثر ومنهم من قال ماء الارض ومنهم من قال كانا متساويين فقال على أي مقدار كان والاول اشارة الى عظمة أمر الطوفان فان تنكير الامر يفيد ذلك يقول القائل جرى على فلان شئ لا يمكن أن يقال اشارة الى عظمته وفيه احتمال آخر وهو أن يقال التقى الماء أي اجتمع على أمر هلاكهم وهو كان مقدورا مقدرا وفيه رد على المنجمين الذين يقولون ان الطوفان كان بسبب اجتماع الكواكب السبعة حول برج مائي والغرق لم يكن مقصودا بالذات وانما ذلك أمر لزم من الطوفان الواجب وقوعه فقال لم يكن ذلك الالامر قد قدر ويدل عليه أن الله تعالى أوحى الى نوح بانهم من المغرقين ✲ وقوله تعالى (وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري باعيننا) أي سفينة حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه اشارة الى انها كانت من ألواح مركبة موثقة بدسر وكان انفكاكها في غاية السهولة ولم يقع فهو بفضل الله والدسر المسامير وقوله تعالى تجري أي سفينة ذات الواح جارية وقوله تعالى باعيننا أي بمرأى منا أو بحفظنا لان العين آلة ذلك فتستعمل فيه ✲ وقوله تعالى (جزاء لمن كان كفر) يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون نصبه بقوله حملناه جزاء أي ليكون ذلك الحمل جزاء الصبر على كفرانهم (وثانيها) أن يكون بقوله تجري باعيننا لان فيه معنى حفظنا أي ما تركناه عن اعيننا وعوننا جزاء له (ثالثها) أن يكون بفعل حاصل من مجموع ما ذكره كأنه قال فتحنا أبواب السماء وفجرنا الارض عيونا وحملناه وكل ذلك فعلناه جزاء له وانما ذكرنا هذا لان الجزاء ما كان يحصل الا بحفظه وانجائه لهم فوجب أن يكون جزاء منصوبا بكونه مفعولا له بهذه الافعال ولنذكر ما فيه من اللطائف في مسائل (المسئلة الاولى) قال في السماء ففتحنا أبواب السماء لان السماء ذات الرجع وما لها فطور ولم يقل وشققنا السماء وقال في الارض وفجرنا الارض لانها ذات الصدع (الثانية) لما جعل المطر كالماء الخارج

(وحملناه) أي نوحا عليه السلام (على ذات ألواح) أي أخشاب عريضة (ودسر) ومسامير جمع دسار من الدسر وهو الدفع وهي صفة للسفينة أقيمت مقامها من حيث انها كالشرح لها تؤدي مؤداها (تجري باعيننا) بمرأى منا أي محفوظة بحفظنا (جزاء لمن كان كفر) أي فعلنا ذلك جزاء لنوح عليه السلام لانه كان نعمة كفروها فان كل نبي نعمة من الله تعالى على أمته ورحمة وأي نعمة وأي رحمة وقد يجوز أن يكون على حذف الجار وايصال الفعل الى الضمير واستتاره في الفعل بعد انقلابه مرفوعا وقرئ لمن كفر أي للكافرين

من ابواب مفتوحة واسعة ولم يقل في الارض واجرينا من الارض بحارا وانهارا بل قال
عيونا والخارج من العين دون الخارج من الباب ذكر في الارض انه تعالى فجرها كلها
فقال وفجرنا الارض لتقابل كثرة عيون الارض سعة ابواب السماء فيحصل بالكثرة ههنا
ما حصل بالسعة (الثالثة) ذكر عند الغضب سبب الاهلاك وهو فتح ابواب السماء وفجر
الارض بالعيون واشار الى الاهلاك بقوله تعالى على امر قد قدر اى امر الاهلاك ولم
يصرح وعند الرحمة ذكر الانجاء صريحا بقوله تعالى وحملناه واشار الى طريق النجاة بقوله
ذات الواح وكذلك قال في موضع آخر فاخذهم الطوفان ولم يقل فاهلكوا وقال فانجيناه
واصحاب السفينة فصرح بالانجاء ولم يصرح بالاهلاك اشارة الى سعة الرحمة وغاية الكرم
اى خلقنا سبب الهلاك ولو رجعوا لما ضرهم ذلك السبب كما قال صلى الله عليه وسلم يابنى
اركب معنا وعند الانجاء انجاه وجعل للنجاة طريقا وهو اتخاذ السفينة ولو انكسرت
لما ضره بل كان ينجيه فالمقصود عند الانجاء هو النجاة فذكر المحل والمقصود عند الاهلاك
اظهار البأس فذكر السبب صريحا (الرابعة) قوله تعالى تجرى بأعيننا ابلغ من
حفظنا يقول القائل اجعل هذا نصب عينك ولا يقول أحفظه طلبا للمبالغة (الخامسة)
بأعيننا يحتمل ان يكون المراد بحفظنا ولهذا يقال الرؤية لسان العين (السادسة) قال
كان ذلك جزاء على ما كفروا به لا على ايمانه وشكره فما جوزى به كان جزاء صبره على
كفرهم وأما جزاء شكره لنا فباق وقرئ جزاء بكسر الجيم أى مجازاة كقتال ومقاتلة
وقرئ لمن كان كفر بفتح الكاف وأما كفر ففيه وجهان (أحدهما) أن يكون كفر
مثل شكر يعدى بالحرف وبغير حرف يقال شكرته وشكرت له قال تعالى واشكروا لى
ولا تكفرون وقال تعالى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله (ثانيهما) أن يكون من الكفر
لا من الكفران أى جزاء لمن ستر أمره وأنكر شانه ويحتمل أن يقال كفر به وترك لظهور
المراد * ثم قال تعالى (ولقد تركناها آية) وفى العائد اليه الضمير وجهان (أحدهما)
عائد الى مذكور وهو السفينة التى فيها ألواح وعلى هذا ففيه وجهان (أحدهما) ترك
الله عينها مدة حتى رؤيت وعلمت وكانت على الجودى بالجزيرة وقيل بارض الهند
(وثانيهما) ترك مثلها فى الناس يذكر (وثانى الوجهين الاولين) أنه عائد الى معلوم أى
تركنا السفينة آية والاول أظهر وعلى هذا الوجه يحتمل ان يقال تركناها أى جعلناها
آية لانها بعد الفراغ منها صارت متروكة ومجعولة يقول القائل تركت فلانا مثلة أى جعلته
لما بينا انه من فرغ من أمر تركه وجعله فذكر أحد الفعلين بدلا عن الآخر * وقوله
تعالى (فهل من مدكر) اشارة الى ان الامر من جانب الرسل قد تم ولم يبق الا جانب
المرسل اليهم بأن كانوا منذرين متفكرين يهتدون بفضل الله فهل من مدكر مهتد
وهذا الكلام يصلح حثا ويصلح تخويفا وزجرا وفيه مسائل (الاولى) قال ههنا ولقد
تركناها وقال فى العنكبوت وجعلناها آية قلنا هما وان كانا فى المعنى واحدا على ما تقدم

(ولقد تركناها) أى السفينة أو الفعلة (آية) يعتبر بها من يقف على خبرها وقال قتادة أبقاها الله تعالى بأرض الجزيرة وقيل على الجودى دهرا طويلا حتى نظر اليها أوائل هذه الامة (فهل من مدكر) اى معتبر بتلك الآية الحقيقية بالاعتبار وقرئ مذتكر على الاصل ومذكر بقلب التاء ذالا والادغام فيها

بيانه لكن لفظ الترك يدل على الجعل والفراغ بالايام فكانها هنا مذكورة بالتفصيل حيث بين الامطار من السماء وتفجير الارض وذكر السفينة بقوله ذات ألواح ودسر وذكر جريها فقال تركناها اشارة الى تمام الفعل المقدور وقال هناك وجعلناها اشارة الى بعض ذلك فان قيل ان كان الامر كذلك فكيف قال ههنا وحملناه ولم يقل وأصحابه وقال هناك وأنجيناه وأصحاب السفينة نقول النجاة ههنا مذكورة على وجه أبلغ مما ذكره هناك لانه قال تجري بأعيننا أي حفظنا وحفظ السفينة حفظ لاصحابه وحفظ لاموالهم ودوابهم والحيوانات التي معهم فقوله وأنجيناه وأصحاب السفينة لايلزم منه انجاء الاموال الابيان آخر والحكاية في سورة هود أشد تفصيلا وأتم فلهذا قال قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين بين المحمول ثم قال تعالى واستوت على الجودي تصريحا بخلاص السفينة واشارة الى خلاص كل من فيها وقوله آية منصوبة على انها مفعول ثان الترك لانه بمعنى الجعل على ما تقدم بيانه وهو الظاهر ويحتمل أن يقال حال فانك تقول تركتها وهي آية وهي ان لم تكن على وزن الفاعل والمفعول فهي في معناه كأنه قال تركناها دالا ويحتمل ان يقال نصبها على التمييز لانها بعض وجوه الترك كقوله ضربته سوطا (المسئلة الثانية) مدكر مفتعل من ذكر يذكر وأصله مذتكر وكان مخرج الدال قريبا من مخرج التاء ٦والحروف المتقاربة المخرج يصعب النطق بها على التوالي ولهذا اذا نظرت الى الدال مع التاء عند النطق تقرب الدال من ان تصير تاء والتاء تقرب من أن تصير دالا فجعل التاء دالا ثم أدغمت الدال فيها ومنهم من قرأ على الاصل مذتكر ومنهم من قلب التاء دالا وقرأ مذدكر ومن اللغويين من يقول في مدكر مذدكر فيقلب التاء ولايدغم ولكل وجهة والمدكر المعتبر المتفكر وفي قوله مدكر اما اشارة الى ما في قوله ألست بربكم قالوا بلى أي هل من يتذكر تلك الحالة واما الى وضوح الامر كأنه حصل للكل آيات الله ونسوها فهل من مدكر يتذكر شيأ منها ❁ ثم قال تعالى (فكيف كان عذابي ونذر) وفيه وجهان (أحدهما) أن يكون ذلك استفهاما من النبي صلى الله عليه وسلم تنبيها له ووعدا بالعاقبة (وثانيهما) أن يكون عاما تنبيها للخلق ونذر أسقط منه ياء الاضافة كما حذف ياء يسري في قوله تعالى والليل اذا يسر وذلك عند الوقف ومثله كثير كما في قوله تعالى فاياي فاعبدون ولا ينقذون وقوله تعالى ياعباد فاتقون وقوله تعالى ولاتكفرون وقرئ باثبات الياء عذابي ونذري ❁ وفيه مسائل (الاولى) ما الذي اقتضى الفاء في قوله تعالى فكيف كان نقول أما ان قلنا ان الاستفهام من النبي صلى الله عليه وسلم فكأنه تعالى قال له قد علمت اخبار من كان قبلك فكيف كان أي بعد ما أحاط بهم علمك بنقلها اليك وأما ان قلنا الاستفهام عام فنقول لما قال هل من مدكر فرض وجودهم وقال يامن يتذكر وعلم الحال بالتذكير فكيف كان عذابي ويحتمل أن يقال هو متصل بقوله فهل من مدكر تقديره مدكر كيف كان عذابي (المسئلة الثانية) ما رأوا العذاب ولا النذر فكيف استفهم منهم نقول

٦قوله والحروف المتقاربة الخ ليس هنا توالي وعبارة المحلي أصله مذتكر أبدلت التاء دالا مهملة وكذا المعجمة وأدغمت فيها اهـ

(فكيف كان عذابي ونذر) استفهام تعظيم وتعجيب أي كانا على كيفية هائلة لايحيط بها الوصف والنذر جمع نذير بمعنى الانذار

أما على قولنا الاستفهام من النبي صلى الله عليه وسلم فقد علم لما علم واما على قولنا عام فهو على تقدير الادكار وعلى تقدير الادكار بعلم الحال و يحتمل ان يقال انه ليس باستفهام وانما هو اخبار عن عظمة الامر كما في قوله تعالى الحاقة ما الحاقة و القارعة ما القارعة وهذا لان الاستفهام يذكر للاخبار كان صيغة الاخبار تذكر للاستفهام فيقال زيد في الدار بمعنى هل زيد في الدار و يقول المجيز وعده هل صدقت فكانه تعالى قال عذابي وقع وكيف كان اى كان عظيما وحينئذ لا يحتاج الى علم من يستفهم منه (المسئلة الثالثة) قال تعالى من قبل فقتحنا وفجرنا و بأعيننا ولم يقل كيف كان عذابنا نقول لوجهين (احدهما) لفظى وهو ان ياء المتكلم يمكن حذفها لانها في اللفظ تسقط كثيرا فيما اذا التقى سا كنان تقول غلامى الذى ودارى التى وهنا حذفت لتواخى آخر الآيات واما النون والالف في ضمير الجمع فلا تحذف (واما الثانى) وهو المعنوى فنقول ان كان الاستفهام من النبي صلى الله عليه وسلم فتوحيد الضمير للانباء وفي فتحنا وفجرنا الترهيب العصاة ونقول قد ذكرنا ان قوله مدكر فيه اشارة الى قوله ألست بربكم فلما وحد الضمير بقوله ألست بربكم قال فكيف كان (المسئلة الرابعة) النذر جمع نذير فهل هو مصدر كالنسيب والنحيب أو فاعل كالكبير والصغير نقول أكثر المفسرين على انه مصدر ههنا أى كيف كان عاقبة عذابى وعاقبة انذارى والظاهر أن المراد الانباء أى كيف كان عاقبة أعداء الله ورسله هل أصاب العذاب من كذب الرسل أم لا فاذا علمت الحال يامحمد فاصبر فان عاقبة أمرك كعاقبة أولئك النذر ولم يجمع العذاب لانه مصدر ولو جمع لكان في جمعه تقدير وفرض ولا حاجة اليه فان قيل قوله تعالى كذبت ثمود بالنذر أى بالانذارات لان الانذرات جاءتهم وأما الرسل فقد جاءهم واحد نقول كل من تقدم من الامم الذين أشركوا بالله كذبوا بالرسل وقالوا ما أنزل الله من شئ وكان المشركون مكذبين بالكل ما خلا ابراهيم عليه السلام فكانوا يعتقدون فيه الخير لكونه شيخ المرسلين فلا يقال كذبت ثمود بالنذر أى بالانباء باسرهم كما انكم أيها المشركون تكذبون بهم * ثم قال تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر) وفيه وجوه (الاول) للحفظ فيمكن حفظه و يسهل ولم يكن شئ من كتب الله تعالى يحفظ على ظهر القلب غير القرآن * وقوله تعالى (فهل من مدكر) أى هل من يحفظه و يتلوه (الثانى) سهلناه للاتعاظ حيث أتينا فيه بكل حكمة (الثالث) جعلناه بحيث يعلق بالقلوب و يستلذ سماعه ومن لا يفهم يتفهمه ولا يسأم من سمعه وفهمه ولا يقول قد علمت فلا اسمعه بل كل ساعة يزداد منه لذة وعلما (الرابع) وهو الاظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر بحال نوح عليه السلام وكان له معجزة قيل له ان معجزتك القرآن ولقد يسرنا القرآن للذكر تذكره لكل أحد وتتحدى به في العالم و يبقى على مرور الدهور ولا يحتاج كل من يحضرك الى دعاء ومسئلة في اظهار معجزة و بعدك لا ينكر احد وقوع ما وقع كما ينكر البعض انشقاق القمر وقوله تعالى فهل من مدكر

(ولقد يسرنا القرآن) الخ جملة قسمية وردت فى اواخر القصص الاربع تقرير المضمون ماسبق من قوله تعالى ولقد جاءهم من الانباء مافيه مزدجر حكمة بالغة فما تغنى النذر وتنبيها على ان كل قصة منها مستقلة بايجاب الادكار كافية في الازدجار ومع ذلك لم تقع واحدة فى حيز الاعتبار اى و بالله لقد سهلنا القرآن لقومك بان نزلناه على لغتهم وو شحناه بأنواع الموعظ والعبر وصرفنا فيه من الوعيد والوعد (للذكر) أى للتذكر والاتعاظ (فهل من مدكر) انكار ونفى للمتعظ على أبلغ وجه وآكده حيث يدل على أنه لا يقدر أحد أن يجيب المستفهم بنعم وحمل تيسيره على تسهيل حفظه بجزالة نظمه وعذوبة ألفاظه وعباراته مما لا يساعده المقام

اي متذكر لان الافتعال والتفعل كثيرا ما يجيء بمعنى وعلى هذا فلو قال قائل هذا يقتضي وجود امر سابق فنسي نقول ماني الفطرة من الانقياد للحق هو كالمنسي فهل من مذكر يرجع الى مافطر عليه وقيل فهل من مدكر أي حافظ أومتعظ على ما فسرنا به قوله تعالى يسرنا القرآن للذكر وقوله فهل من مدكر وعلى قولنا المراد متذكر اشارة الى ظهور الامر فكأنه لايحتاج الى فكر بل هو أمر حاصل عنده لايحتاج الى معاودة ماعند غيره * ثم قال تعالى (كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر) وفيه مسائل (الاولى) قال في قوم نوح كذبت قوم نوح ولم يقل في عاد كذبت قوم هود وذلك لان التعريف كلما أمكن أن يؤتى به على وجه أبلغ فالاولى ان يؤتى به والتعريف بالاسم العلم أولى من التعريف بالاضافة اليه فانك اذا قلت بيت الله لايفيد مايفيد قولك الكعبة فكذلك اذا قلت رسول الله لايفيد مايفيد قولك محمد فعاد اسم علم للقوم لايقال قوم هود اعرف لوجهين (أحدهما) ان الله تعالى وصف عادا بقوم هود حيث قال ألا بعدا لعاد قوم هود ولا يوصف الاظهر بالاخفى والاخص بالاعم (ثانيهما) ان قوم هود واحد وعاد قيل انه لفظ يقع على أقوام ولهذا قال تعالى عادا الاولى لانا نقول اما قوله تعالى لعاد قوم هود فليس ذلك صفة وانما هو بدل ويجوز في البدل أن يكون دون المبدل في المعرفة ويجوز أن يبدل عن المعرفة بالنكرة واما عادا الاولى فقد قدمنا ان ذلك لبيان تقدمهم أي عادا الذين تقدموا وليس ذلك للتمييز والتعريف كما تقول محمد النبي شفيعي والله الكريم ربي ورب الكعبة المشرفة لبيان الشرف لالبيانها وتعريفها كما تقول دخلت الدار المعمورة من الدارين وخدمت الرجل الزاهد من الرجلين فتبين المقصود بالوصف (المسئلة الثانية) لم يقل كذبوا هودا كما قال فكذبوا عبدنا وذلك لوجهين (أحدهما) ان تكذيب نوح كان أبلغ وأشد حيث دعاهم قريبا من ألف سنة وأصروا على التكذيب ولهذا ذكر الله تعالى تكذيب نوح في مواضع ولم يذكر تكذيب غير نوح صريحا وان نبه عليه واحد منها في الاعراف قال فنجيناه والذين معه في الفلك وقال حكاية عن نوح قال رب ان قومي كذبون وقال انهم عصوني وفي هذه المواضع لم يصرح بتكذيب قوم غيره منهم الاقليلا ولذلك قال تعالى في مواضع ذكر شعيب فكذبوه وقال الذين كذبوا شعيبا وقال تعالى عن قومه وانا لنظنك من الكاذبين لانه دعا قومه زمانا مديدا (وثانيهما) ان حكاية عاد مذكورة ههنا على سبيل الاختصار فلم يذكر الا تكذيبهم وتعذيبهم فقال كذبت عاد كما قال كذبت قوم نوح ولم يذكر دعاءه عليهم واجابته كما قال في نوح (المسئلة الثالثة) قال تعالى فكيف كان عذابي قبل ان بين العذاب وفي حكاية نوح بين العذاب ثم قال فكيف كان فما الحكمة فيه نقول الاستفهام الذي ذكره في حكاية نوح مذكور ههنا وهو قوله تعالى فكيف كان عذابي ونذر كما قال من قبل ومن بعد في حكاية ثمود غير انه تعالى حكى في حكاية عاد فكيف كان مرتين المرة الاولى استفهم ليبين كما يقول المعلم لمن

(كذبت عاد) اى هودا عليه السلام ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم له روما للاختصار ومسارعة الى بيان مافيه الازدجار من العذاب وقوله تعالى (فكيف كان عذابي ونذر) لتوجيه قلوب السامعين نحو الاصغاء الى مايلقى اليهم قبل ذكره لاللتهويل وتعظيمه وتعجيبهم من حاله بعد بيانه كما قبله وما بعده كأنه قيل كذبت عاد فهل سمعتم أو فاسمعوا كيف كان عذابي وانذاراتي لهم

لايعرف كيف المسئلة الفلانية ليصير المسؤل سائلا فيقول كيف هي فيقول انها كذا وكذا فكذلك ههنا قال كذبت عاد فكيف كان عذابي فقال السامع بين أنت فاني لاأعلم فقال انا أرسلنا وأما المرة الثانية فاستفهم للتعظيم كما يقول القائل للعارف المشاهد كيف فعلت وصنعت فيقول نعم مافعلت و يقول أتيت بعجيبة فيحقق عظمة الفعل بالاستفهام وانما ذكر ههنا المرة الاولى ولم يذكر في موضع آخر لان الحكاية ذكرها مختصرة فكان يفوت الاعتبار بسبب الاختصار فقال كيف كان عذابي حثا على التدبر والتفكر وأما الاختصار في حكايتهم فلان أكثر أمرهم الاستكبار والاعتماد على القوة وعدم الالتفات الى قول النبي صلى الله عليه وسلم و يدل عليه قوله تعالى فاما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق وقالوا من أشد مناقوة وذكر استكبارهم كثيرا وماكان قوم محمد صلى الله عليه وسلم مبالغين في الاستكبار وانما كانت مبالغتهم في التكذيب ونسبته الى الجنون وذكر حالة نوح على التفصيل فان قومه جمعوا بين التكذيب والاستكبار وكذلك حال صالح عليه السلام ذكرها على التفصيل لشدة مناسبتها بحال محمد صلى الله عليه وسلم * ثم قال تعالى (انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال تعالى فكيف كان عذابي بتوحيد الضمير هناك ولم يقل عذابنا وقال ههنا انا ولم يقل اني والجواب ماذكرناه في قوله تعالى ففتحنا أبواب السماء (المسئلة الثانية) الصرصر فيها وجوه (أحدها) الريح الشديدة الصوت من الصرير والصرة شدة الصياح (ثانيها) دائمة الهبوب من أصر على الشيء اذا دام وثبت وفيه بحث وهو ان الاسماء المشتقة هي التي تصلح لان يوصف بها وأما أسماء الاجناس فلا يوصف بها سواء كانت أجراما أو معاني فلا يقال انسان رجل جاء ولا يقال لون أبيض وانما يقال انسان عالم وجسم أبيض وقولنا أبيض معناه شيء له بياض ولا يكون الجسم ماخوذا فيه و يظهر ذلك في قولنا رجل عالم فان العالم شيء له علم حتى الحداد والخباز ولو أمكن قيام العلم بهما لكان عالما ولايدخل الحي في المعنى من حيث المفهوم فانا اذا قلنا عالم يفهم أن ذلك حي لان اللفظ ما وضع لحي يعلم بل اللفظ وضع لشيء يعلم و يزيده ظهورا قولنا معلوم فانه شيء يعلم أو أمر يعلم وان لم يكن شيئا ولو دخل الجسم في الابيض لكان قولنا جسم أبيض كقولنا جسم له بياض فيقع الوصف بالجثة اذا علمت هذا فمن المستفاد بالجنس شيء دون شيء فان قولنا الهندي يقع على منسوب الى الهند وأما المهند فهو سيف منسوب الى الهند فيصح أن يقال عبد هندي وتمر هندي ولا يصح ان يقال مهند وكذا الابلق ولون آخر في فرس ولا يقال للثوب أبلق كذلك الافطس أنف فيه تقعير اذا قال القائل انف أفطس فيكون كانه قال انف به فطس فيكون وصفه بالجثة وكان ينبغي أن لايقال فرس ابلق ولا انف افطس ولا سيف مهند وهم يقولون فالجواب وهذا السؤال يرد على الصرصر لانها الريح الباردة فاذا قال ريح صرصر فليس ذلك كقولنا ريح باردة فان الصرصر هي

وقوله تعالى (انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا) استئناف ببيان ما أجمل أولا أي أرسلنا عليهم ريحا باردة أو شديدة الصوت (في يوم نحس) شؤم (مستمر) أي شؤمه اومستمر عليهم الى أن أهلكهم أو شامل لجميعهم كبيرهم وصغيرهم أو مشتد مرارته وكان يوم الاربعاء آخر الشهر

الريح البـاردة فحسب فكأنه قال ريح ريح باردة فنقول الالفـاظ التى فى معانيها امران فصاعدا كقولنا عالم فانه يدل على شئ له علم ففيه شئ وعلم هى على ثلاثة اقسام (احدها) ان يكون الحال هو المقصود والمحل تبع كما فى العالم والضارب والابيض فان المقاصد فى هذه الالفاظ العلم والضرب والبياض بخصوصها واما المحل فمقصود من حيث انه على عمومه حتى ان البياض لو كان يدل بلون غيره اختل مقصوده كالاسود والجسم الذى هو محل البياض ان امكن ان يبدل وأمكن قيام البياض بجوهر غير جسم لما اختل الغرض (ثانيها) أن يكون المحل هو المقصود كقولنا الحيوان لأنه اسم لجنس ماله الحياة لا كالحى الذى هو اسم لشئ له الحياة فالمقصود هنا المحل وهو الجسم حتى لو وجد حى ليس بجسم لا يحصل مقصود من قال الحيوان ولو حمل اللفظ على الله الحى الذى لا يموت لحصل غرض المتكلم ولو حمل لفظ الحيوان على فرس قائم أو انسان نائم لم تفارقه الحياة لم يبق للسامع نفع ولم يحصل للمتكلم غرض فان القائل اذا قال لانسان قائم وهو ميت هذا حيوان ثم بان موته لا يرجع عما قال بل يقول اما قلت انه حى بل قلت انه حيوان فهو حيوان فارقته الحياة (ثالثها) ما يكون الامران مقصودين كقولنا رجل وامرأة وناقة وجمل فان الرجل اسم موضوع لانسان ذكر والمرأة لانسان أنثى والناقة لبعير أنثى والجمل لبعير ذكر فالناقة ان أطلقت على حيوان فظهر فرسا أو ثورا اختل الغرض وان بان جملا كذلك اذا علمت هذا ففى كل صورة كان المحل مقصودا اما وحده واما مع الحال فلا يوصف به فلا يقال جسم حيوان ولا يقال بعير ناقة وانما يجعل ذلك جملة فيوصف بالجملة فيقال جسم هو حيوان و بعير هو ناقة ثم ان الابلق والافطس شأنه الحيوان من وجه وشأنه العالم من وجه وكذلك المهند لكن دليل ترجيح الحال فيه ظاهر لان المهند لا يذكر الا لمدح السيف والافطس لا يقال الا لوصف الانف لا لحقيقته وكذلك الابلق بخلاف الحيوان فانه لا يقال لوصفه وكذلك الناقة اذا علمت هذا فالصرصر يقال لشدة الريح أو لبردها فوجب أن يعمل به ما يعمل بالبارد والشديد فجاز الوصف وهذا بحث عزيز (المسئلة الثالثة) قال تعالى ههنا انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا وقال فى الطور وفى عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم فعرف الريح هناك ونكرها هنا لان العقم فى الريح أظهر من البرد الذى يضر النبات أو الشدة التى تعصف الاشجار لان الريح العقيم هى التى لا تنشئ سحابا ولا تلقح شجرا وهى كثيرة الوقوع وأما الريح المهلكة الباردة فقلما توجد فقال الريح العقيم أى هذا الجنس المعروف ثم زاده بيانا بقوله ما تذر من شئ أتت عليه الا جعلته كالرميم فتميزت عن الرياح العقم وأما الصرصر فقليلة الوقوع فلا تكون مشهورة فنكرها (المسئلة الرابعة) قال هنا فى يوم نحس مستمر وقال فى السجدة فى أيام نحسات وقال فى الحاقة سبع ليال وثمانية أيام حسوما والمراد من اليوم هنا الوقت والزمان كما فى قوله تعالى يوم ولدت و يوم أموت و يوم أبعث حيا وقوله مستمر يفيد ما يفيده

الايام لان الاستمرار ينبئ عن امرار الزمان كما ينبئ عنه الايام وانما اختلف اللفظ مع اتحاد المعنى لان الحكاية هنا مذكورة على سبيل الاختصار فذكر الزمان ولم يذكر مقداره وانلك لم يصفها ثم ان فيه قراءتين احداهما يوم نحس باضافة يوم وتسكين نحس على وزن نفس وثانيتهما يوم نحس بتنوين الميم وكسر الحاء على وصف اليوم بالنحس كما في قوله تعالى في أيام نحسات فان قيل أيتهما أقرب قلنا الاضافة اصح وذلك لان من يقرأ يوم نحس مستمر يجعل المستمر صفة ليوم ومن يقرأ يوم نحس مستمر يكون المستمر وصفا لنحس فيحصل منه استمرار النحوسة فالاول أظهر وأبلغ فان قيل من يقرأ يوم نحس بسكون الحاء فماذا يقول في النحس نقول يحتمل أن يقول هو تخفيف نحس كفخذ وفخذ في غير الصفات ونصر ونصر ورعد ورعد وعلى هذا يلزمه أن يقول تقديره يوم كائن نحس كما تقول في قوله تعالى بجانب الغربي ويحتمل أن يقول نحس ليس بنعت بل هو اسم معنى او مصدر فيكون كقولهم يوم برد وحر وهو أقرب وأصح (المسئلة الخامسة) ما معنى مستمر نقول فيه وجوه (الاول) ممتد ثابت مدة مديدة من استمر الامر اذا دام وهذا كقوله تعالى في أيام نحسات لان الجمع يفيد معنى الاستمرار والامتداد وكذلك قوله حسوما (الثاني) شديد من المرة كما قلنا من قبل في قوله سحر مستمر وهذا كقولهم أيام الشدائد واليه الاشارة بقوله تعالى في أيام نحسات لنذيقهم بعض الذي فانه يذيقهم المر المضر من العذاب * ثم قال تعالى (تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) فيه مسائل (المسئلة الاولى) تنزع الناس وصف أو حال نقول يحتمل الامرين جميعا اذ يصح أن يقال أرسل ريحا صرصرا نازعة للناس ويصح أن يقال أرسل الريح نازعة فان قيل كيف يمكن جعلها حالا وذو الحال نكرة نقول الامر هنا أهون منه في قوله تعالى ولقد جاءهم من الانباء ما فيه مزدجر فانه نكرة وأجابوا عنه بان ما موصوفة فتخصصت فحسن جعلها ذات الحال فكذلك نقول ههنا الريح موصوفة بالصرصر والتنكير فيه للتعظيم والا فهي ثلاثة فلا يبعد جعلها ذات حال وفيه وجه آخر وهو انه كلام مستأنف على فعل وفاعل كما تقول جاء زيد جذبني وتقديره جاء فجذبني كذلك ههنا قال انا ارسلنا عليهم ريحا فاصبحت تنزع الناس ويدل عليه قوله تعالى فترى القوم فيها صرعى فالتاء في قوله تنزع الناس اشارة الى ما أشار اليه بقوله صرعى وقوله تعالى كأنهم أعجاز نخل منقعر فيه وجوه (احدها) نزعتهم فصرعتهم كأنهم أعجاز نخل كما قال صرعى كأنهم أعجاز نخل (ثانيها) نزعتهم فهم بعد النزع كأنهم أعجاز نخل وهذا أقرب لان الانقعار قبل الوقوع فكان الريح تنزع وتقعر فينقعر فيقع فيكون صريعا فيخلو الموضع عنه فيخوى وقوله في الحاقة فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية اشارة الى حاله بعد الانقعار الذي هو بعد النزع وهذا يفيد ان الحكاية ههنا مختصرة حيث لم يشر الى صرعهم وخلو منازلهم عنهم بالكلية فان حال الانقعار لا يحصل الخلو التام اذ هو مثل الشروع في الخروج والاخذ فيه (ثالثها) تنزعهم نزعا

(تنزع الناس) تقلعهم روى أنهم دخلوا الشعاب والحفر وتمسك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح وصرعتهم موتى (كأنهم أعجاز نخل منقعر) أي منقلع عن مغارسه قيل شبهوا باعجاز النخل وهي أصولها بلا فروع لان الريح كانت تقلع رؤسهم فتبقى أجسادا وجثثا بلا رؤس وتذكير صفة نخل للنظر الى اللفظ كما أن تأنيثها في قوله تعالى أعجاز نخل خاوية للنظر الى المعنى

بعنف كأنهم أعجاز نخل تقعرهم فينقعر والاشارة الى قوتهم وثباتهم على الارض وفى المعنى وجوه (احدها) انه ذكر ذلك اشارة الى عظمة اجسادهم وطول اقدادهم (ثانيها) ذكره اشارة الى ثباتهم فى الارض فكأنهم كانوا يعملون أرجلهم فى الارض ويقصدون المنع به على الريح (وثالثها) ذكره اشارة الى يبسهم وجفافهم بالريح فكانت تقتلهم وتحرقهم ببردها المفرط فيقعون كأنهم أخشاب باسة (المسئلة الثانية) قال ههنا منقعر فذكر النخل وقال فى الحاقة كأنهم أعجاز نخل خاوية فانثها قال المفسرون فى تلك السورة كانت أواخر الآيات تقتضى ذلك لقوله مستمر ومنهمر ومنتشر وهو جواب حسن فان الكلام كما يزين بحسن المعنى يزين بحسن اللفظ ويمكن أن يقال النخل لفظه لفظ الواحد كالبقل والنمل ومعناه معنى الجمع فيجوز أن يقال فيه نخل منقعر ومنقعرة ومنقعرات ونخل خاو وخاوية وخاويات ونخل باسق وباسقة وباسقات فاذا قال قائل منقعر أو خاو أو باسق جرد النظر الى اللفظ ولم يراع جانب المعنى واذا قال منقعرات أو خاويات أو باسقات جرد النظر الى المعنى ولم يراع جانب اللفظ واذا قال منقعرة أو خاوية أو باسقة جمع بين الاعتبارين من حيث وحدة اللفظ وربما قال منقعرة على الافراد من حيث اللفظ والحق به تاء التأنيث التى فى الجماعة اذا عرفت هذا فنقول ذكر الله تعالى لفظ النخل فى مواضع ثلاثة ووصفها على الوجوه الثلاثة فقال والنخل باسقات فانها حال منها وهى كالوصف وقال نخل خاوية وقال نخل منقعر فحيث قال منقعر كان المختار ذلك لان المنقعر فى حقيقة الامر كالمفعول لانه الذى ورد عليه القعر فهو مقعور والخاوى والباسق فاعل ومعناه اخلاء ماهو مفعول عن علامة التأنيث أولاكما تقول امرأة كفيل وامرأة كفيلة وامرأة كبير وامرأة كبيرة وأما الباسقات فهى فاعلات حقيقة لان البسوق أمر قام بها وأما الخاوية فهى من باب حسن الوجه لان الخاوى موضعها فكأنه قال نخل خاوية المواضع وهذا غاية الاعجاز حيث أتى بلفظ مناسب للالفاظ السابقة واللاحقة من حيث اللفظ فكان الدليل يقتضى ذلك بخلاف الشاعر الذى يختار اللفظ على المذهب الضعيف لاجل الوزن والقافية ۞ ثم قال تعالى (فكيف كان عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وتفسيره قد تقدم والتكرير للتقرير وفى قوله عذابى ونذر لطيفة ماذكرناها وهى تثبت بسؤال وجواب لو قال القائل أكثر المفسرين على ان النذر فى هذا الموضع جمع نذير الذى هو مصدر معناه انذار فالحكمة فى توحيد العذاب حيث لم يقل فكيف كان انواع عذابى ووبال انذارى نقول فيه اشارة الى غلبة الرحمة الغضب وذلك لان الانذار اشفاق ورحمة فقال الانذارات التى هى نعم ورحمة تواترت فلما لم تنفع وقع العذاب دفعة واحدة فكانت النعم كثيرة والنقمة واحدة وسنبين هذا زيادة بيان حين نفسر قوله تعالى فبأى آلاء ربكما تكذبان حيث جمع الآلاء وكثر ذكرها وكررها ثلاثين مرة ثم بين الله تعالى حال

وقوله تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) تهويل لهما وتعجيب من أمرهما بعد بيانهما فليس فيه شائبة تكرار وماقيل من أن الاول لماحاق بهم فى الدنيا والثانى لما يحيق بهم فى الآخرة يرده ترتيب الثانى على العذاب الدنيوى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) الكلام فيه كالذى مر فيما سبق

قوم اخرين * فقال (كذبت ثمود بالنذر) وقد تقدم تفسيره غيرانه فى قصة عاد قال كذبت ولم يقل بالنذر وفى قصة نوح قال كذبت قوم نوح بالنذر فنقول هذا يؤيد ماذكرنا من أن المراد بقوله كذبت قبلهم قوم نوح ان عادتهم ومذهبهم انكار الرسل وتكذيبهم فكذبوا نوحا بناء على مذهبهم وانما صرح ههنا لان كل قوم يأتون بعد قوم وأتاهما رسولان فالمكذب المتأخر يكذب المرسلين جميعا حقيقة والاولون يكذبون رسولا واحدا حقيقة ويلزمهم تكذيب من بعده بناء على ذلك لانهم لما كذبوا من تقدم فى قوله الله تعالى واحد والحشر كائن ومن أرسل بعده كذلك قوله ومذهبه لزم منه أن يكذبوه ويدل على هذا ان الله تعالى قال فى قوم نوح فكذبوه فانجيناه وقال فى عاد وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله وأما قوله تعالى كذبت قوم نوح المرسلين فاشارة الى انهم كذبوا وقالوا ما يفضى الى تكذيب جميع المرسلين ولهذا ذكره بلفظ الجمع المعرف للاستغراق ثم انه تعالى قال هناك عن نوح رب ان قومى كذبون ولم يقل كذبوا رسلك اشارة الى ما صدر منهم حقيقة لا ان ما لزمهم لزمه اذا عرفت هذا فالسابق قصة ثمود ذكر رسولين ورسولهم ثالثهم قال كذبت ثمود بالنذر هذا كله اذا قلنا ان النذر جمع نذير بمعنى منذر واما اذا قلنا انها الانذارات فنقول قوم نوح وعاد لم تستمر المعجزات التى ظهرت فى زمانهم واما ثمود فانذروا واخرج لهم ناقة من صخرة وكانت تدور بينهم وكذبوا فكان تكذيبهم بانذارات وايات ظاهرة فصرح بها وقوله فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه يؤيد الوجه الاول لان من يقول لاأتبع بشرا مثلى وجميع المرسلين من البشر يكون مكذبا للرسل والباء فى قوله بالنذر يؤيد الوجه الثانى لانا بينا ان الله تعالى فى تكذيب الرسل عدى التكذيب بغير حرف فقال كذبوه وكذبوا رسلنا وكذبوا عبدنا وكذبونى وقال كذبوا بآيات ربهم وبآياتنا فعدى بحرف لان التكذيب هو النسبة الى الكذب والقائل هو الذى يكون كاذبا حقيقة والكلام والقول يقال فيه كاذب مجازا وتعلق التكذيب بالقائل أظهر فيستغنى عن الحرف بخلاف القول وقد ذكرنا ذلك وبيناه بيانا شافيا * وفى قوله تعالى (فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه) مسائل (المسئلة الاولى) زيدا ضربته وزيد ضربته كلاهما جائز والنصب مختار فى مواضع منها هذا الموضع وهو الذى يكون ما يرد عليه النصب والرفع بعد حرف الاستفهام والسبب فى اختيار النصب أمر معقول وهو ان المستفهم يطلب من المسؤل أن يجعل ماذكره بعد حرف الاستفهام مبدأ لكلامه ويخبر عنه فاذا قال أزيد عندك معناه أخبرنى عن زيد واذكر لى حاله فاذا انضم الى هذه الحالة فعل مذكور ترجح جانب النصب فيجوز أن يقال أزيدا ضربته وان لم يجب فالاحسن ذلك فان قيل من قرأ أبشر منا واحد نتبعه كيف ترك الاجود نقول نظرا الى قوله تعالى فقالوا اذ ما بعد القول لا يكون الا جملة والاسمية أولى والاولى أقوى وأظهر (المسئلة الثانية) اذا كان بشرا منصوبا بفعل فما الحكمة فى تأخر الفعل فى الظاهر نقول قد تقدم مرارا

(كذبت ثمود بالنذر) أى الانذارات والمواعظ التى سمعوها من صالح أو بالرسل عليهم السلام فان تكذيب أحدهم تكذيب للكل لاتفاقهم على أصول الشرائع (فقالوا أبشرا منا) أى كائنا من جنسنا وانتصابه بفعل يفسره ما بعده (واحدا) أى منفردا لاتبع له أو واحدا من آحادهم لا من أشرافهم وهو صفة اخرى لبشرا وتأخيره عن الصفة المؤولة للتنبيه على أن كلا من الجنسية والوحدة مما يمنع الاتباع ولو قدم عليها لفاتت هذه النكتة وقرئ أبشر منا واحد على الابتداء وقوله تعالى (نتبعه) خبره والاول أوجه للاستفهام

ان الأبلغ يقدم في الكلام ما يكون تعلق غرضه به أكثر وهم كانوا يريدون تبيين كونهم محقين في ترك الاتباع فلو قالوا أنتبع بشرا يمكن أن يقال نعم اتبعوه وماذا يمنعكم من اتباعه فاذا قدموا حاله وقالوا هو من نوعنا بشر ومن صنفنا رجل ليس غريبا نعتقد فيه انه يعلم ما لا نعلم أو يقدر على ما لا نقدر وهو واحد وحيد وليس له جند وحشم وخيل وخدم فكيف نتبعه فيكونون قد قدموا الموجب لجواز الامتناع من الاتباع واعلم ان في الآية اشارات الى ذلك (أحدها) نكروه حيث قالوا أبشرا ولم يقولوا أنتبع صالحا أو الرجل المدعي النبوة أو غير ذلك من المعرفات والتنكير تحقير (ثانيها) قالوا أبشرا ولم يقولوا أرجلا (ثالثها) قالوا منا وهو يحتمل أمرين أحدهما من صنفنا ليس غريبا وثانيهما منا أي تبعنا يقول القائل لغيره أنت منا فيتأذى السامع ويقول لا بل أنت منا ولست أنا منكم وتحقيقه ان من للتبعيض والبعض يتبع الكل لا الكل يتبع البعض (رابعها) واحدا يحتمل أمرين أيضا * أحدهما وحيدا اشارة الى ضعفه * وثانيهما واحدا أي هو من الآحاد لا من الأكابر المشهورين وتحقيق القول في استعمال الآحاد في الأصاغر حيث يقال هو من آحاد الناس هو ان من لا يكون مشهورا بحسب ولا نسب اذا حدث عنه من لا يعرفه فلا يمكن أن يقول عنه قال فلان أو ابن فلان فيقول قال واحد وفعل واحد فيكون ذلك غاية الخمول لان الأرذل لا ينضم اليه أحد فيبقى في أكثر أوقاته واحدا فيقال للأرذال آحاد * وقوله تعالى عنهم (انا اذا لفي ضلال وسعر) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكونوا قد قالوا في جواب من يقول لهم ان لم تتبعوه تكونوا في ضلال فيقولون له لا بل ان تبعناه نكون في ضلال (ثانيهما) ان يكون ذلك ترتيبا على ما مضى أي حاله ما ذكرنا من الضعف والوحدة فان اتبعناه نكون في ضلال وسعر أي جنون على هذا الوجه فان قلنا ان ذلك قالوه على سبيل الجواب فيكون القائل قال لهم ان لم تتبعوه فانا اذا في الحال في ضلال وفي سعر في العقبى فقالوا لا بل لو اتبعناه فانا اذا في الحال في ضلال وفي سعر من الذل والعبودية مجازا فانهم ما كانوا يعترفون بالسعير (المسألة الثالثة) السعير في الآخرة واحد فكيف جمع نقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) في جهنم دركات يحتمل أن تكون كل واحدة سعيرا أو فيها سعير (ثانيها) لدوام العذاب عليهم فانه كلما نضجت جلودهم بدلهم جلودا كأنهم في كل زمان في سعير آخر وعذاب آخر (ثالثها) لسعة السعير الواحد كأنها سعر يقال للرجل الواحد فلان ليس برجل واحد بل هو رجال * ثم قال تعالى عنهم (أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر) وقد تقدم ان النفي بطريق الاستفهام أبلغ لان من قال ما أنزل عليه الذكر ربما يعلم أو يظن أو يتوهم ان السامع يكذبه فيه فاذا ذكر بطريق الاستفهام يكون معناه ان السامع يجيبني بقوله ما أنزل فيجعل الأمر حينئذ منفيا ظاهرا لا يخفى على أحد بل كل أحد يقول ما أنزل والذكر الرسالة أو الكتاب ان كان ويحتمل أن يراد به ما يذكره من الله تعالى كما يقال الحق

انا اذا) أي على تقدير اتباعنا له وهو منفرد ونحن أمة جمة (لفي ضلال) عن الصواب (وسعر) أي جنون كان ذلك بمعزل من مقتضى العقل وقيل كان يقول لهم ان لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق وسعر أي نيران جمع سعير فعكسوا عليه عليه السلام لغاية عتوهم فقالوا ان اتبعناك كنا اذن كما تقول (أألقي الذكر) أي الكتاب والوحي (عليه من بيننا) وفينا من هو أحق منه بذلك (بل هو كذاب أشر) أي ليس الأمر كذلك بل هو كذا وكذا حمله بطره على الترفع علينا بما ادعاه

ويراد به ماشعل من الله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قولهم أألقى بدل أأنزل وفيه اشارة
الى ماكانوا ينكرونه من طريق المبالغة وذلك لان الالقاء انزال بسرعة والنبي كان يقول
جاءنى الوحى مع الملك فى لحظة يسيرة فكانهم قالوا الملك جسم والسماء بعيدة فكيف ينزل
فى لحظة فقالوا أألقى ولم يقولوا أأنزل وقولهم عليه انكار آخر كانهم قالوا ماألقى ذكر أصلا
ثم قالوا ان ألقى فلا يكون عليه من بيننا وفينا من هو فوقه فى الشرف والذكاء وقولهم
أألقى بدلا عن قولهم أألقى الله للاشارة الى أن الالقاء من السماء غير ممكن فضلا عن أن
يكون من الله تعالى (المسئلة الثانية) عرفوا الذكر ولم يقولوا أألقى عليه ذكر وذلك
لان الله تعالى حكى انكارهم لما لاينبغى أن ينكر فقال انكروا الذكر الظاهر المبين الذى
لاينبغى أن ينكر فهو كقول القائل نكروا المعلوم (المسئلة الثالثة) بل يستدعى أمرا
مضروبا عنه سابقا فماذاك نقول قولهم أألقى للانكار فهم قالوا ماألقى ثم ان قولهم أألقى
عليه الذكر لايقتضى الا انه ليس بنبى ثم قالوا بل هو ليس بصادق (المسئلة الرابعة)
الكذاب فعال من فاعل للمبالغة أو يقال بل من فاعل للنسب كخباط وتمار نقول الاول هو
الصحيح الاظهر على ان الثانى من باب الاولى لان المنسوب الى الشئ لابد له من أن يكثر من
مزاولة الشئ فان من خاط يوما ثوبه مرة لايقال له خياط اذا عرفت هذا فنقول المبالغة
اما فى الكثرة واما فى الشدة فالكذاب اما شديد الكذب يقول مالايقبله العقل أو كثير
الكذب ويحتمل أن يكونوا وصفوه به لاعتقادهم الامرين فيه وقولهم أشر اشارة الى انه
كذب لا لضرورة وحاجة الى خلاص كما يكذب الضعيف وانما هو استغنى وبطر وطلب
الرياسة عليكم وأراد اتباعكم له فكان كل وصف مانعا من الاتباع لان الكاذب لايلتفت
اليه ولاسيما اذا كان كذبه لا لضرورة وقرئ أشر فقال المفسرون هذا على الاصل
المرفوض فى الاشر والاخير على وزن أفعل التفضيل وانما رفض الاصل فيه لان أفعل
اذا فسر قد يفسر بأفعل أيضا والثانى بأفعل ثالث مثاله اذا قال ما معنى الاعلم يقال هو
الاكثر علما فاذا قيل الاكثر ماذا فيقال الازيد عددا او شئ مثله فلابد من أمر يفسر به
الافعل لا من بابه فقالوا افعل التفضيل والفضيلة اصلها الخير والخير أصل فى باب أفعل
فلا يقال فيه أخير ثم ان الشر فى مقابلة الخير يفعل به مايفعل بالخير فقال هو شر من كذا
وخير من كذا والاشر فى مقابلة الاخير ثم ان خيرا يستعمل فى موضعين (أحدهما) مبالغة
الخير بفعل أو افعل على اختلاف يقال هذا خير وهذا أخير ويستعمل فى مبالغة خير على
المشابهة لا على الاصل فمن يقول أشر يكون قد ترك الاصل المستعمل لانه أخذ فى الاصل
المرفوض بمعنى هو شر من غيره وكذا معنى الاعلم ان علمه خير من علم غيره أو هو خير من غيره
الجهل كذلك القول فى الاضعف وغيره * ثم قال تعالى (سيعلمون غدا من الكذاب
الاشر) فان قال قائل سيعلم للاستقبال ووقت انزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم
كانوا قد علموا لان بعد الموت تتبين الامور وقد عاينوا ماعاينوا فكيف القول فيه نقول

وقوله تعالى (سيعلمون غدا من الكذاب الاشر) حكاية لما قاله تعالى لصالح عليه السلام وعداله ووعيد لقومه والسين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده والمراد بالغد وقت نزول العذاب أى سيعلمون البتة عن قريب من الكذاب الاشر الذى حمله أشره وبطره على الترفع أصالح هو أم من كذبه وقرئ ستعلمون على الالتفات لتشديد التوبيخ أو على حكاية ماأجابهم به صالح وقرئ الاشر كقولهم حذر فى حذر وقرئ الاشر أى الابلغ فى الشرارة وهو أصل مرفوض كالاخير وقيل المراد بالغد يوم القيامة وياباه

فيه وجهان (احدهما) أن يكون هذا القول مفروض الوقوع في وقت قولهم بل هو كذاب أشر فكأنه تعالى قال يوم قالوا بل هو كذاب أشر سيعلمون غدا (وثانيهما) ان هذا التهديد بالتعذيب لا بحصول العلم بالعذاب الاليم وهو عذاب جهنم لا عذاب القبر فهم سيعذبون يوم القيامة وهو مستقبل وقوله تعالى غدا لقرب الزمان في الامكان والاذهان ثم ان قلنا ان ذلك للتهديد بالتعذيب لا للتكذيب فلا حاجة الى تفسيره بل يكون ذلك اعادة لقولهم من غير قصد الى معناه وان قلنا هو للرد والوعد ببيان انكشاف الامر فقوله تعالى سيعلمون غدا معناه سيعلمون غدا انهم الكاذبون الذين كذبوا لا لحاجة وضرورة بل بطروا وأشروا لما استغنوا وقوله تعالى غدا يحتمل أن يكون المراد يوم القيامة ويحتمل أن يكون المراد يوم العذاب وهذا على الوجه الاول ثم قال تعالى (انا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله انا مرسلوا الناقة بمعنى الماضي أو بمعنى المستقبل ان كان بمعنى الماضي فكيف يقول فارتقبهم واصطبر وان كان بمعنى المستقبل فما الفرق بين حكاية عاد وحكاية ثمود حيث قال هناك انا أرسلنا وقال ههنا انا مرسلوا الناقة بمعنى انا نرسل نقول هو بمعنى المستقبل وماقبله وهو قوله سيعلمون غدا يدل عليه فان قوله انا مرسلوا الناقة كالبيان له كانه قال سيعلمون حيث نرسل الناقة ومابعده من قوله فارتقبهم ونبئهم أيضا يقتضي ذلك فان قيل قوله تعالى فنادوا دليل على ان المراد الماضي قلنا سنجيب عنه في موضعه وأما الفارق فنقول حكاية ثمود مستقصاة في هذا الموضع حيث ذكر تكذيب القوم بالنذر وقولهم لرسولهم وتصديق الرسل بقوله سيعلمون وذكر المعجزة وهي الناقة وما فعلوه بها والعذاب والهلاك فذكر حكاية على وجه الماضي والمستقبل ليكون وصفه للنبي صلى الله عليه وسلم كأنه حاضرها فيقتدي بصالح في الصبر والدعاء الى الحق ويثق بربه في النصر على الاعداء بالحق فقال اني مؤيدك بالمعجزة القاطعة واعلم ان الله تعالى ذكر في هذه السورة خمس قصص وجعل القصة المتوسطة مذكورة على أتم وجه لان حال صالح كان اكثر مشابهة بحال محمد صلى الله عليه وسلم لانه أتى بأمر عجيب أرضي كان أعجب مما جاء به الانبياء لان عيسى عليه السلام أحيا الميت لكن الميت كان محلا للحياة فاثبت باذن الله الحياة في محل كان قابلا لها وموسى عليه السلام انقلبت عصاه ثعبانا فاثبت الله له في الخشبة الحياة لكن الخشبة نبات كان له قوة في النماء يشبه الحيوان في النمو فهو أعجب وصالح عليه السلام كان الظاهر في يده خروج الناقة من الحجر والحجر جماد لا محل للحياة ولا محل للنمو والنبي صلى الله عليه وسلم أتى باعجب من الكل وهو التصرف في جرم السماء الذي يقول المشرك لا وصول لاحد الى السماء ولا امكان لشقه وخرقه واما الارضيات فقالوا انها أجسام مشتركة المواد يقبل كل واحد منها صورة الاخرى والسموات لا تقبل ذلك فلما أتى بامر فوافيه انه لا يقدر على مثله آدمي كان أتم وأبلغ من معجزة صالح عليه السلام التي هي أتم معجزة من

معجزات من كان من الانبياء غير محمد صلى الله عليه وسلم (وفيه لطيفة) وهو ان اسم الفاعل اذا كان بمعنى الماضي وذكر معه مفعوله فالواجب الاضافة تقول وحشي قاتل عم النبي صلى الله عليه وسلم فان قلنا قاتل عم النبي بالاعمال فلابد من تقدير الحكاية في الحال كما في قوله تعالى وكلبهم باسط ذراعيه على انه يحكي القصة في حال وقوعها تقول خرجت أمس فاذا زيد ضارب عمرا كما تقول يضرب عمرا وان كان الضرب قد مضى واذا كان بمعنى المستقبل فالاحسن الاعمال تقول انى ضارب عمرا غدا فان قلت انى ضارب عمرو غدا حيث كان الامر وقع وكان جاز لكنه غير الاحسن والتحقيق فيه ان قولنا ضارب وسارق وقاتل أسماء في الحقيقة غير ان لها دلالة على الفعل فاذا كان الفعل تحقق في الماضي فهو قد عدم حقيقة فلا وجود للفعل في الحقيقة ولا في التوقع فيجب الحمل على ما للاسم من الاضافة وترك ما للفعل من الاعمال لغلبة الاسمية وفقدان الفعل بالماضي واذا كان الفعل حاضرا أو متوقعا في الاستقبال فله وجود حقيقة أو في التوقع فيجوز الاضافة لصورة الاسم والاعمال لتوقع الفعل أو لوجوده ولكن الاعمال أولى لان في الاستقبال لن يضرب يفيد لا يكون ضاربا فلا ينبغي أن يضاف أما الاعمال فهو ينبئ عن توقع الفعل أو وجوده لانه اذا قال زيد ضارب عمرا فالسامع اذا سمع يضرب عمرو وعلم أنه يفعل فاذا لم يره في الحال يتوقعه في الاستقبال غير ان الاضافة تفيد تخفيفا حيث سقط بها التنوين والنون فتختار لفظا لا معنى اذا عرفت هذا فنقول مرسلو الناقة مع ما فيه من التخفيف فيه تحقيق الامر وتقديره كانه وقع وكان بخلاف ما لو قيل انا نرسل الناقة (المسئلة الثانية) فتنة مفعول له فتكون الفتنة هي المقصودة من الارسال لكن المقصود منه تصديق النبي صلى الله عليه وسلم وهو صالح عليه السلام لانه معجزة فالتحقيق في تفسيره نقول فيه وجهان (أحدهما) ان المعجزة فتنة لان بها يتميز حال من يثاب ممن يعذب لان الله تعالى بالمعجزة لا يعذب الكفار الا اذا كان ينبئهم بصدقه من حيث نبوته فالمعجزة ابتلاء لانها تصديق وبعد التصديق يتميز المصدق من المكذب (وثانيهما) وهو ادق أن اخراج الناقة من الصخرة كان معجزة وارسالها اليهم ودورانها فيما بينهم وقسمة الماء كان فتنة ولهذا قال انا مرسلو الناقة فتنة ولم يقل انا مخرجوا الناقة فتنة والتحقيق في الفتنة والابتلاء والامتحان قد تقدم مرارا واليه اشارة خفية وهي ان الله تعالى يهدي من يشاء والهداية طرق منها ما يكون على وجه يكون للانسان مدخل فيه بالكسب مثاله يخلق شيئا دالا ويقع تفكر الانسان فيه ونظره اليه على وجه يترجح عنده الحق فيتبعه وتارة يلجئه اليه ابتداء ويصونه عن الخطا من صغره فاظهار المعجز على يد الرسول أمر يهدي به من يشاء اهتداءه مع الكسب وهداية الانبياء من غير كسب منهم بل يخلق فيهم علوما غير كسبية فقوله انا مرسلو الناقة فتنة اشارة اليهم ولهذا قال لهم ومعناه على وجه يصلح لان يكون فتنة وعلى هذا كل من كانت معجزته أظهر يكون ثواب قومه أقل

وقوله تعالى فارتقبهم أي فارتقبهم بالعذاب ولم يقل فارتقب العذاب اشارة الى حسن الادب والاجتناب من طلب الشر وقوله تعالى واصطبر يؤيد ذلك بمعنى ان كانوا يؤذونك فلا تستعجل لهم العذاب و يحتمل أن يكون ذلك اشارة الى قرب الوقت الى أمرهما والامر بحيث يعجز عن الصبر * ثم قال تعالى (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر) أى مقسوم وصف بالمصدر مراد به المشتق منه كقوله ماء ملح وقول زور وفيه ضرب من المبالغة يقال للكريم كرم كانه هو عين الكرم و يقال فلان لطف محض و يحتمل أن يكون القسمة وقعت بينهما لان الناقة كانت عظيمة وكانت حيوانات القوم تنفر منها ولا ترد الماء وهي على الماء فصعب عليهم ذلك فجعل الماء بينهما يوما للناقة و يوما للقوم و يحتمل أن تكون لقلة الماء فشربه يوما للناقة و يوما للحيوانات و يحتمل أن يكون الماء كان بينهم قسمة يوم لقوم و يوم لقوم ولما خلق الله الناقة كانت ترد الماء يوما فكان الذين لهم الماء في غير يوم ورودها يقولون الماء كله لنا في هذا اليوم و يومكم كان أمس والناقة ما أخرت شيئا فلا نمكنكم من الورود أيضا في هذا اليوم فيكون النقصان واردا على الكل وكانت الناقة تشرب الماء بأسره وهذا أيضا ظاهر ومنقول والمشهور هنا الوجه الاوسط ونقول ان قوما كانوا يكتفون بلبنها يوم ورودها الماء والكل ممكن ولم يرد فيه شئ خبر متواتر والثالث قطع وهو من القسمة لانها مثبتة بكتاب الله تعالى أما كيفية القسمة والسبب فلا وقوله تعالى كل شرب محتضر مما يؤيد الوجه الثالث أي كل شرب محتضر للقوم بأسرهم لانه لو كان ذلك لبيان كون الشرب محتضرا للقوم أو الناقة فهو معلوم لان الماء ما كان يترك من غير حضور وان كان لبيان انه تحضره الناقة يوما والقوم يوما فلا دلالة في اللفظ عليه وأما اذا كانت العادة قبل الناقة على أن يرد الماء قوم في يوم وآخرون في يوم آخر ثم لما خلقت الناقة كانت تنقص شرب البعض وتترك شرب الباقين من غير نقصان فقال كل شرب محتضركم أيها القوم فردوا كل يوم الماء وكل شرب ناقص تقاسموه وكل شرب كامل تقاسموه * ثم قال تعالى (فنادوا صاحبهم) نداء المستغيث كانهم قالوا يالقدار للقوم كما يقول القائل يالله للمسلمين وصاحبهم قدار وكان أشجع وأهجم على الامور و يحتمل أن يكون رئيسهم * وقوله تعالى (فتعاطى فعقر) يحتمل وجوها (الاول) تعاطى آلة العقر فعقر (الثاني) تعاطى الناقة فعقرها وهو أضعف (الثالث) التعاطي يطلق و يراد به الاقدام على الفعل العظيم والتحقيق هو ان الفعل العظيم يقدم كل أحد فيه صاحبه و يبرئ نفسه منه فمن يقبله و يقدم عليه يقال تعاطاه كأنه كان فيه تدافع فأخذه هو بعد التدافع (الرابع) ان القوم جعلوا له على عمله جعلا فتعاطاه وعقر الناقة * ثم قال تعالى (فكيف كان عذابي ونذر) وقد تقدم بيانه وتفسيره غير ان هذه الآية ذكرها في ثلاثة مواضع ذكرها في حكاية نوح بعد بيان العذاب وذكرها ههنا قبل بيان العذاب وذكرها في حكاية عاد قبل بيانه و بعد بيانه فحيث ذكر قبل بيان العذاب

قوله تعالى (انا مرسلو الناقة) الخ فانه استئناف مسوق لبيان مبادي الموعود حتما أى مخرجوها من الهضبة حسبما سألوا (فتنة لهم) اى امتحانا (فارتقبهم) أى فانتظرهم وتبصر ما يصنعون (واصطبر) على أذيتهم (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم) مقسوم لها يوم ولهم يوم و بينهم لتغليب العقلاء (كل شرب محتضر) يحضره صاحبه في نوبته (فنادوا صاحبهم) هو قدار بن سالف أحيمر ثمود (فتعاطى فعقر) فاجترأ على تعاطي الامر العظيم غير مكترث له فاحدث العقر بالناقة وقيل فتعاطى الناقة فعقرها أو فتعاطى السيف فقتلها والتعاطي تناول الشئ بتكلف (فكيف كان عذابي ونذر) الكلام فيه كالذى مر في صدر قصة عاد

ذكرها للبيان كما تقول ضربت فلانا أى ضرب وايما ضرب وتقول ضربته وكيف ضربته أى قويا وفى حكاية عاد ذكرها مرتين للبيان والاستفهام وقد ذكرنا السبب فيه فى حكاية نوح ذكر الذى للتعظيم وفى حكاية ثمود ذكر الذى للبيان لان عذاب قوم نوح كان بأمر عظيم عام وهو الطوفان الذى عم العالم ولا كذلك عذاب قوم هود فانه كان مختصا بهم * ثم قال تعالى (انا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) سمعوا صيحة فماتوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كان فى قوله فكانوا من أى الاقسام نقول قال النحاة تجيء تارة بمعنى صار وتمسكوا بقول القائل

بتيماء قفر والمطى كأنها * قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

بمعنى صارت فقال بعض المفسرين فى هذا الموضع انها بمعنى صاروا والتحقيق ان كان لا تخالف غيرها من الافعال الماضية اللازمة التى لا تتعدى والذى يقال ان كان تامة وناقصة وزائدة وبمعنى صار فليس ذلك يوجب اختلاف أحوالها اختلافا يفارق غيرها من الافعال وذلك لان كان بمعنى وجد واحصل أو تحقق غير ان الذى وجد تارة يكون حقيقة الشئ وأخرى صفة من صفاته فاذا قلت كانت الكائنة وكن فيكون جعلت الوجود والحصول للشئ فى نفسه فكذلك قلت وجدت الحقيقة الكائنة وكن أى احصل فيوجد فى نفسه واذا قلت كان زيد عالما أى وجد علم زيد غيرانا نقول فى وجد زيد عالما ان عالما حال وفى كان زيد عالما نقول انه خبر كقولنا حصل زيد عالما غيران قولنا وجد زيد عالما ربما يفهم منه ان الوجود والحصول لزيد فى تلك الحال كما تقول قام زيد متهيئا حيث يكون القيام لزيد فى تلك الحال وقولنا كان زيد عالما ليس معناه كان زيد وفى تلك الحال هو عالم لكن هذا لا يوجب ان كان على خلاف غيره من الافعال اللازمة التى لها بالحال تعلق شديد لان من يفهم من قولنا حصل زيد اليوم على أحسن حال ما يفهمه من قولنا خرج زيد اليوم فى أحسن زى لا يمنعه مانع من أن يفهم من قولنا كان زيد على أحسن حال مثل ما فهم هناك * اذا عرفت هذا فنقول الفعل الماضى يطلق تارة على ما يوجد فى الزمان المتصل بالحاضر كقولنا قام زيد فى صباه ويطلق تارة على ما يوجد فى الزمان الحاضر كقولنا قام زيد فقم وقم فان زيدا قام وكذلك القول فى كان ربما يقال كان زيد قائما عام كذا وربما يقال كان زيد قائما الآن كما فى قام زيد فقوله تعالى فكانوا فيه استعمال الماضى فيما اتصل بالحال فهو كقولك أرسل عليهم صيحة فماتوا أى متصلا بتلك الحال نعم لو استعمل فى هذا الموضع صار يجوز لكن كان وصار كل واحد بمعنى فى نفسه وانما يلزم حمل كان على صار اذا لم يمكن أن يقال هو كذا كما فى البيت حيث لا يمكن أن يقال البيوض فراخ وأما ههنا يمكن أن يقال هم كهشيم ولولا الكاف لامكن ان يقال يجب حمل كان على صار اذا كان المراد انهم انقلبوا هشيما كما يقلب الممسوخ وليس المراد ذلك (المسئلة الثانية) ما الهشيم نقول هو المهشوم أى المكسور وسمى هاشم

(انا أرسلنا عليهم صيحة واحدة) هى صيحة جبريل عليه السلام (فكانوا) أى فصاروا (كهشيم المحتظر) اى كالشجر اليابس الذى يتخذه من يعمل الحظيرة لاجلها وكالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء وقرئ بفتح الظاء أى كهشيم الحظيرة أو الشجر المتخذ لها

هاشما الهشيم المتردد في الجبال فيران الهشيم استعمل كثيرا في الحطب المتكسر اليابس فقال المفسرون كانوا كالحشيش الذي يخرج من الحظائر بعد البلاغة واستدلوا عليه بقوله تعالى هشيما تذروه الرياح وهو من باب اقامة الصفة مقام الموصوف كما يقال رأيت جريحا وسئله السعير في المسئلة الثانية) لماذا شبههم به قلنا يحتمل أن يكون التشبيه بكونهم يابسين كالحشيش بين الموتى الذين ماتوا من زمان وكانه يقول سمعوا الصيحة فكانوا كأنهم ماتوا من أيام ويحتمل أن يكون لانهم انضموا بعضهم الى بعض كما ينضم الرفقاء عند الخوف داخلين بعضهم في بعض فاجتمعوا بعضهم فوق بعض كحطب الحاطب الذي يصفف شيأ فوق شئ منتظرا حضور من يشترى منه شيأ من الحطاب الذى عنده الحطب الكثير يجعل منه كالحظيرة ويحتمل أن يكون ذلك لبيان كونهم في الجحيم أى كانوا كالحطب اليابس الذي للوقيد فهو محقق لقوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وقوله تعالى فكانوا لجهنم حطبا وقوله أغرقوا فادخلوا نارا كذلك ماتوا فصاروا كالحطب الذى لا يكون الا للاحراق لان الهشيم لا يصلح للبناء * ثم قال تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) والتكرار للتذكار ثم بين حال قوم آخرين وهم قوم لوط * فقال (كذبت قوم لوط بالنذر) ثم بين عذابهم واهلاكهم * فقال (انا أرسلنا عليهم حاصبا الا آل لوط نجيناهم بسحر) وفيه مسائل (الاولى) الحاصب فاعل من حصب اذا رمى الحصباء وهي اسم الحجارة والمرسل عليهم هو نفس الحجارة قال الله تعالى وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل وقال تعالى عن الملائكة لنرسل عليهم حجارة من طين فالمرسل عليهم ليس بحاصب فكيف الجواب عنه نقول الجواب من وجوه (الاول) أرسلنا عليهم ريحا حاصبا بالحجارة التى هى الحصباء وكثر استعمال الحاصب في الريح الشديدة فاقام الصفة مقام الموصوف (فان قيل) هذا ضعيف من حيث اللفظ والمعنى أما اللفظ فلان الريح مؤنثة قال تعالى ريح صرصر عاتية بريح طيبة وقال تعالى انا سخرنا له الريح تجرى بأمره وقال تعالى غدوها شهر وقال تعالى في الرياح لواقح وما قال لقاحا ولا لقحة وأما المعنى فلان الله تعالى بين أنه أرسل عليهم حجارة من سجيل مسومة عليها علامة كل واحد وهى لا تسمى حصباء وكان ذلك بايدى الملائكة لا بالريح (نقول) تأنيث الريح ليس حقيقة ولها أصناف الغالب فيها التذكير كالاعصار قال تعالى اعصار فيه نار فلما كان حاصب حجارة كان كالذى فيه نار وأما قوله كان الرمى بالسجيل لا بالحصباء وبايدى الملائكة لا بالريح فنقول كل ريح يرمى بحجارة يسمى حاصبا وكيف لا والسحاب الذى يأتى بالبرد يسمى حاصبا تشبيها للبرد بالحصباء فكيف لا يقال في السجيل وأما الملائكة فانهم حركوا الريح وهى حصبت الحجارة عليهم (الجواب الثانى) المراد عذاب حاصب وهذا أقرب لتناوله الملك والسحاب والريح وكل ما يفرض (الجواب الثالث) قوله حاصبا هو أقرب من الكل لان قوله انا أرسلنا يدل على مرسل هو مرسل الحجارة وحاصبها فان

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر كذبت قوم لوط بالنذر انا أرسلنا عليهم حاصبا) أى ريحا تحصبهم أى ترميهم بالحصباء (الا آل لوط نجيناهم بسحر) في سحر وهو آخر الليل وقيل هو السدس الاخير منه أى ملتبسين بسحر

قيل كان ينبغي أن يقول حاصبة نقول لما لم يذكر الموصوف رجح جانب اللفظ كأنه قال شيئا حاصبا اذ المقصود بيان جنس العذاب لا بيان من على يده العذاب وهذا يرد على من قال الريح مؤنث لان ترك التأنيث هناك كترك علامة الجمع هنا (المسئلة الثانية) ما رتب الارسال على التكذيب بالفاء ولم يقل كذبت قوم لوط بالنذر فارسلنا كما قال ففتحنا أبواب السماء لان الحكاية مسوقة على مساق ما تقدم من الحكايات فكأنه قال فكيف كان عذابي ونذر كما قال من قبل ثم قيل لا علم لنا به وانما أنت العليم فأخبرنا فقال انا أرسلنا (المسئلة الثالثة) ما الحكمة في ترك العذاب حيث لم يقل فكيف كان عذابي كما قال في الحكايات الثلاث نقول لان التكرار ثلاث مرات بالغ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم ألا هل بلغت ثلاثا وقال صلى الله عليه وسلم فنكاحها باطل باطل باطل والادكار تكرر ثلاث مرات فبثلاث مرار حصل التأكيد وقد بينا أنه تعالى ذكر فكيف كان عذابي في حكاية نوح للتعظيم وفي حكاية ثمود للبيان وفي حكاية عاد أعادها مرتين للتعظيم والبيان جميعا واعلم أنه تعالى ذكر فكيف كان عذابي في ثلاث حكايات أربع مرات فالمرة الواحدة للانذار والمرات الثلاثة للادكار لان المقصود حصل بالمرة الواحدة وقوله تعالى فبأي آلاء ربكما تكذبان ذكره مرة للبيان وأعادها ثلاثين مرة غير المرة الاولى كما أعاد فكيف كان عذابي ونذر ثلاث مرات غير المرة الاولى فكان ذكر الآلاء عشرة أمثال ذكر العذاب اشارة الى الرحمة التي قال في بيانها من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وسنبين ذلك في سورة الرحمن (المسئلة الرابعة) الا آل لوط استثناء مما ذا ان كان من الذين قال فيهم أنا أرسلنا عليهم حاصبا فالضمير في عليهم عائد الى قوم لوط وهم الذين قال فيهم كذبت قوم لوط ثم قال انا أرسلنا عليهم لكن لم يستثن عند قوله كذبت قوم لوط وآله من قومه فيكون آله قد كذبوا ولم يكن كذلك الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الاستثناء ممن عاد اليهم الضمير في عليهم وهم القوم باسرهم غيران قوله كذبت قوم لوط لا يوجب كون آله مكذبين لان قول القائل عصى أهل بلدة كذا يصح وان كان فيها شرذمة قليلة يطيعون فكيف اذا كان فيهم واحد او اثنان من المطيعين لا غير فان قيل ماله حاجة الى الاستثناء لان قوله انا أرسلنا عليهم يصح وان نجا منهم طائفة يسيرة نقول الفائدة لما كانت لاتحصل الابيان اهلاك من كذب وانجاء من آمن فكان ذكر الانجاء مقصودا وحيث يكون القليل من الجمع الكثير مقصودا لا يجوز التعميم والاطلاق من غير بيان حال ذلك المقصود بالاستثناء أو بكلام منفصل مثاله فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس استثنى الواحد لانه كان مقصودا وقال تعالى وأوتيت من كل شيء ولم يستثن اذ المقصود بيان انها أوتيت لا بيان انها ما أوتيت وفي حكاية ابليس كلاهما مراد ليعلم أن من تكبر على آدم عوقب ومن تواضع أثيب كذلك القول ههنا وأما عند التكذيب فكان المقصود ذكر المكذبين فلم يستثن (الجواب الثاني) ان

الاستثناء من كلام مدلول عليه كأنه قال انا أرسلنا عليهم حاصبا فأنجينا من الحاصب الا آل لوط وجاز أن يكون الارسال عليهم والاهلاك يكون عاما كما في قوله تعالى واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة فكان الحاصب أهلك من كان الارسال عليه مقصودا ومن لم يكن كذلك كأطفالهم ودوابهم ومساكنهم فانجا منهم احدا الا آل لوط فان قيل اذا لم يكن الاستثناء من قوم لوط بل كان من امر عام فيجب أن يكون لوط أيضا مستثنى نقول هو مستثنى عقلا لانه من المعلوم انه لايجوز تركه وانجاء اتباعه والذي يدل عليه أنه مستثنى قوله تعالى عن الملائكة نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته في جوابهم لابراهيم عليه السلام حيث قال ان فيها لوطا فان قيل قوله في سورة الحجر الا آل لوط انا لمنجوهم الاستثناء من المجرمين وآل لوط لم يكونوا مجرمين فكيف استثنى منهم والجواب مثل ماذكرنا (فاحد الجوابين) انا أرسلنا الى قوم يصدق عليهم انهم مجرمون وان كان فيهم من لم يجرم (ثانيهما) الى قوم مجرمين باهلاك يعم الكل الا آل لوط وقوله تعالى نجيناهم بسحر كلام مستأنف لبيان وقت الانجاء أو لبيان كيفية الاستثناء لان آل لوط كان يمكن أن يكونوا فيهم ولايصيبهم الحاصب كما في عاد كانت الريح تقلع الكافر ولايصيب المؤمن منها مكروه أو يجعل لهم مددا كما في قوم نوح فقال نجيناهم بسحر أي أمرناهم بالخروج من القرية في آخر الليل والسحر قبيل الصبح وقيل هو السدس الاخير من الليل * ثم قال تعالى (نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر) أي ذلك الانجاء كان فضلا منا كما ان ذلك الاهلاك كان عدلا ولو أهلكوا لكان ذلك عدلا قال تعالى واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة قال الحكماء العضو الفاسد يقطع ولابد أن يقطع معه جزء من الصحيح ليحصل استئصال الفساد غيران الله تعالى قادر على التمييز التام فهو مختار ان شاء أهلك من آمن وكذب ثم يثبت الذين أهلكهم من المصدقين في دار الجزاء وان شاء أهلك من كذب فقال نعمة من عندنا اشارة الى ذلك وفي نصبها وجهان (أحدهما) انه مفعول له كأنه قال نجيناهم نعمة منا (ثانيهما) على انه مصدر لان الانجاء منه انعام فكأنه تعالى قال أنعمنا عليهم بالانجاء انعاما وقوله تعالى كذلك نجزي من شكر فيه وجهان (أحدهما) ظاهر وعليه أكثر المفسرين وهو انه من آمن كذلك ننجيه من عذاب الدنيا ولانهلكه وعد الامة محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنين بانه يصونهم عن الاهلاكات العامة والسيآت المطبقة الشاملة (وثانيهما) وهو الاصح ان ذلك وعدلهم وجزاؤهم بالثواب في دار الآخرة كأنه قال كما نجيناهم في الدنيا أي كما أنعمنا عليهم ننعم عليهم يوم الحساب والذي يؤيد هذا أن النجاة من الاهلاكات في الدنيا ليس بلازم ومن عذاب الله في الآخرة لازم بحكم الوعيد وكذلك ينجي الله الشاكرين من عذاب النار ويذر الظالمين فيه ويدل عليه قوله تعالى من يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكر وقوله تعالى فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري

(نعمة من عندنا) أي انعاما منا وهو علة لنجينا (كذلك) أي مثل ذلك الجزاء العجيب (نجزي من شكر) نعمتنا بالايمان والطاعة

من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين والشاكر محسن فعلم أن المراد جزاؤهم في الآخرة ❊ ثم قال تعالى (ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر) وفيه تبرئة لوط عليه السلام وبيان أنه أتى بما عليه فانه تعالى لما رتب التعذيب على التكذيب وكان من الرحمة أن يؤخره ويقدم عليه الانذارات البالغة بين ذلك فقال أهلكناهم وكان وقد أنذرهم من قبل وفي قوله بطشتنا وجهان (أحدهما) المراد البطشة التي وقعت وكان يخوفهم بها ويدل عليه قوله تعالى انا أرسلنا عليهم حاصبا فكأنه قال انا أرسلنا عليهم ما سبق ذكرها للانذار بها والتخويف (وثانيهما) المراد بها ما في الآخرة كما في قوله تعالى يوم نبطش البطشة الكبرى وذلك لان الرسل كلهم كانوا ينذرون قومهم بعذاب الاخرة كما قال تعالى فأنذرتكم نارا تلظى وقال وأنذرهم يوم الآزفة وقال تعالى انا أنذرناكم عذابا قريبا الى غير ذلك وعلى هذا ففيه لطيفة وهي ان الله تعالى قال ان بطش ربك لشديد وقال ههنا بطشتنا ولم يقل بطشنا وذلك لان قوله تعالى ان بطش ربك لشديد بيان لجنس بطشه فاذا كان جنسه شديدا فكيف الكبرى منه وأما لوط عليه السلام فذكر لهم البطشة الكبرى لئلا يكون مقصرا في التبليغ وقوله تعالى فتماروا بالنذر يدل على أن النذر هي الانذارات ❊ ثم قال تعالى (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر) والمراودة من الرود ومنه الارادة وهي قريبة من المطالبة غير أن المطالبة تستعمل في العين يقال طالب زيد عمرا بالدراهم والمراودة لا تستعمل الا في العمل يقال راوده عن المساعدة ولهذا تعدى المراودة الى مفعول ثان بعن والمطالبة بالباء وذلك لان الشغل منوط باختيار الفاعل والعين قد توجد من غير اختيار منه وهذا فرق الحال فاذا قلت أخبرني بأمر تعين عليه الخبر بالعين بخلاف ما اذا قيل عن كذا ويزيد هذا ظهورا قول القائل أخبرني زيد عن مجيء فلان وقوله أخبرني بمجيئه فان من قال عن مجيئه ربما يكون الاخبار عن كيفية المجيء لا عن نفسه وأخبرني بمجيئه لا يكون الا عن نفس المجيء والضيف يقع على الواحد والجماعة وقد ذكرناه في سورة الذاريات وكيفية المراودة مذكورة فيما تقدم وهي انهم كانوا مفسدين وسمعوا بضيف دخلوا على لوط فراودوه عنهم وقوله فطمسنا أعينهم نقول ان جبريل كان فيهم فضرب ببعض جناحه على وجوههم فأعماهم وفي الآية مسائل (الاولى) الضمير في راودوه ان كان عائدا الى قوم لوط فالضمير في قوله أعينهم أيضا عائد اليهم فيكون قد طمس أعين قوم لوط ولم يطمس الا أعين قليل منهم وهم الذين دخلوا دار لوط وان كان عائدا الى الذين دخلوا الدار فلا ذكر لهم فكيف القول فيه نقول المراودة حقيقة حصلت من جمع منهم لكن لما كان الامر من القوم وكان غيرهم ذلك مذهبه أسندها الى الكل ثم بقوله راودوه حصل قوم هم المراودون حقيقة فعاد الضمير في أعينهم اليهم مثاله قول القائل الذين آمنوا صلوا فصحت صلاتهم فيكون هم في صلاتهم عائدا الى الذين صلوا بعد ما آمنوا ولا يعود الى مجرد الذين آمنوا الا أنك

(ولقد أنذرهم) لوط عليه السلام (بطشتنا) أي اخذتنا الشديدة بالعذاب (فتماروا) فكذبوا (بالنذر) متشاكين ❊ (ولقد راودوه عن ضيفه) قصدوا الفجور بهم (فطمسنا أعينهم) فمسحناها وسويناها كسائر الوجه روى أنهم لما دخلوا داره عنوة صفقهم جبريل عليه السلام صفقة فتركهم يترددون لا يهتدون الى الباب حتى أخرجهم لوط عليه السلام (فذوقوا عذابي ونذر) أي فقلنا لهم ذوقوا على ألسنة الملائكة أو ظاهر الحال والمراد به الطمس فانه من جملة ما أنذروه من العذاب

لو اقتصرت على الذين آمنوا فصحت صلاتهم لم يكن كلاما منظوما ولو قلت الذين صلوا فصحت صلاتهم صح الكلام فعلم أن الضمير عائد الى ما حصل بعد قوله راودوه والضمير في راودوه عائد الى المنذرين المتمارين بالنذر (المسئلة الثانية) قال ههنا فطمسنا أعينهم وقال في يس ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فما الفرق نقول هذا مما يؤيد قول ابن عباس فانه نقل عنه أنه قال المراد من الطمس الحجب عن الادراك فما جعل على بصرهم شئ غير انهم دخلوا ولم يروا هناك شيئا فكانوا كالمطموسين وفي يس أراد انه لو شاء لجعل على بصرهم غشاوة أي الزق احد الجفنين بالآخر فيكون على العين جلدة فيكون قد طمس عليها وقال غيره انهم عموا وصارت عينهم مع وجههم كالصفحة الواحدة ويؤيده قوله تعالى فذوقوا عذابي لانهم ان بقوا مبصرين ولم يروا شيئا هناك لا يكون ذلك عذابا والطمس بالمعنى الذي قاله غير ابن عباس عذاب فنقول الاولى أن يقال انه تعالى حكى ههنا ما وقع وهو طمس العين واذهاب ضوئها وصورتها بالكلية حتى صارت وجوههم كالصفحة الملساء ولم يمكنهم الانكار لانه أمر وقع وأما هناك فقد خوفهم بالممكن المقدور عليه فاختار ما يصدقه كل أحد ويعرف به وهو الطمس على العين لان اطباق الجفن على العين أمر كثير الوقوع وهو بقدرة الله تعالى وارادته فقال ولو نشاء لطمسنا على أعينهم وما شققنا جفنهم عن عينهم وهو أمر ظاهر الامكان كثير الوقوع والطمس على ما وقع لقوم لوط نادر فقال هناك على أعينهم ليكون أقرب الى القبول (المسئلة الثالثة) قوله تعالى فذوقوا عذابي ونذر خطاب ممن وقع ومع من وقع فلنا فيه وجوه (أحدها) فيه اضمار تقديره فقلت على لسان الملائكة ذوقوا عذابي (ثانيها) هذا خطاب مع كل مكذب تقديره كنتم تكذبون فذوقوا عذابي فانهم لما كذبوا اذاقوه (ثالثها) ان هذا الكلام خرج مخرج كلام الناس فان الواحد من الملوك اذا أمر بضرب مجرم وهو شديد الغضب فاذا ضرب ضربا مبرحا وهو يصرخ والملك يسمع صراخه يقول عند سماع صراخه ذق انك مجرم مستاهل ويعلم الملك أن المعذب لا يسمع كلامه والمخاطب بكلامه المستغيث الصارخ وهذا كثير فكذلك لما كان كل أحد يرى من الله تعالى يسمع اذا عذب معاندا كان قد سخط الله عليه يقول ذق انك أنت العزيز الكريم ذوقوا لقاء يومكم هذا فذوقوا عذابي ولا يكون به مخاطبا لمن يسمع ويجيب وذلك اظهار العدل أي لست بغافل عن تعذيبك فتخلص بالصراخ والضراعة وانما أنا بك عالم وأنت له أهل لما قد صدر منك فان قيل هذا وقع بغير الفاء وأما بالفاء فلا نقول وبالفاء فانه ربما يقول كنتم تكذبون فذوقوا (المسئلة الرابعة) النذر كيف يذاق نقول معناه ذق فعلك أي مجازاة فعلك وموجبه ويقال ذق الالم على فعلك وقوله فذوقوا عذابي كقولهم ذق الالم وقوله ونذر كقولهم ذق فعلك أي ذق ما لزم من انذاري فان قيل فعلى هذا لا يصح العطف لان قوله فذوقوا عذابي وما لزم من انذاري وهو العذاب يكون كقول القائل ذوقوا عذابي

وعذابي تقول قوله تعالى فذوقوا عذابي أي العاجل منه وما لزم من انذاري وهو العذاب الآجل لان الانذار كان به على ما تقدم بيانه فكأنه قال ذوقوا عذابي العاجل وعذابي الآجل فان قيل هما لم يكونا في زمان واحد فكيف يقال ذوقوا تقول العذاب الآجل أوله متصل بآخر العذاب العاجل فهما كالواقع في زمان واحد وهو كقوله تعالى أغرقوا فادخلوا نارا * ثم قال تعالى (ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) أي العذاب الذي عم القوم بعد الخاص الذي طمس اعين البعض وفيه مسائل (المسئلة الاولى) صبحهم فيه دلالة على الصبح فما معنى بكرة نقول فائدته تبيين انطرافه فيه فقوله بكرة يحتمل وجهين (احدهما) انها منصوبة على انها ظرف ومثله نقول في قوله تعالى اسرى بعبده ليلا وفيه بحث وهو ان الزمخشري قال ما الفائدة في قوله ليلا وقال جوابا في التنكير دلالة على انه كان في بعض الليل وتمسك بقراءة من قرأ من الليل وهو غير ظاهر والاظهر فيه ان يقال بأن الوقت المبهم يذكر لبيان ان تعيين الوقت ليس بمقصود المتكلم وانه لا يريد بيانه كما يقول خرجنا في بعض الاوقات مع ان الخروج لا بد من ان يكون في بعض الاوقات فانه لا يريد بيان الوقت المعين ولو قال خرجنا لربما يقول السامع متى خرجتم فاذا قال في بعض الاوقات أشار الى أن غرضه بيان الخروج لا تعين وقته فكذلك قوله تعالى صبحهم بكرة أي بكرة من البكر وأسرى بعبده ليلا أي ليلا من الليالي فلا أبينه فان المقصود نفس الاسراء ولو قال أسرى بعبده من المسجد الحرام لكان للسامع أن يقول ايما ليلة فاذا قال ليلة من الليالي قطع سؤاله وصار كانه قال لا ابينه وان كان القائل ممن يجوز عليه الجهل فانه يقول لا اعلم الوقت فهذا أقرب فاذا علمت هذا في أسرى ليلا فاعلم مثله في صبحهم بكرة ويحتمل ان يقال على هذا الوجه صبحهم بمعنى قال لهم عموا صباحا استهزاء بهم كما قال فبشرهم بعذاب أليم فكأنه قال جاءهم العذاب بكرة كالمصبح والاول أصح ويحتمل قوله تعالى صبحهم بكرة على قولنا انها منصوبة على الظرف ما لا يحتمله قوله تعالى أسرى بعبده ليلا وهو أن صبحهم معناه أتاهم وقت الصبح لكن التصبيح يطلق على الاتيان في أزمنة كثيرة من أول الصبح الى ما بعد الاسفار فاذا قال بكرة افاد أنه كان اول جزء منه وما أخر الى الاسفار وهذا اوجه والبق لان الله تعالى اوعدهم به وقت الصبح بقوله ان موعدهم الصبح وكان من الواجب بحكم الاخبار تحققه بمجيء العذاب في أول الصبح ومجرد قوله صبحهم ما كان يفيد ذلك وهذا اقوى لانك تقول صبحته امس بكرة واليوم بكرة فيأتي فيه ما ذكرنا من ان المراد بكرة من البكر (الوجه الثاني) انها منصوبة على المصدر من باب ضربته سوطا ضربا فان المنصوب في ضربته ضربا على المصدر وقد يكون غير المصدر كما في ضربته سوطا لا يقال ضربته سوطا بين احد انواع الضرب لان الضرب قد يكون بسوط وقد يكون بغيره وأما بكرة فلا يبين ذلك لانا نقول قد بينا ان بكرة بين ذلك لان الصبح قد يكون بالاتيان وقت الاسفار وقد يكون بالاتيان

(ولقد صبحهم بكرة) وقرئ بكرة غير مصروفة على أن المراد بها أول نهار مخصوص (عذاب مستقر) لا يفارقهم حتى يسلمهم الى النار وفي وصفه بالاستقرار ايماء الى أن ما قبله من عذاب الطمس ينتهي اليه

بالابكار فان قيل مثله يمكن ان يقال فى اسرى بعبده ليلا قلنا نعم فان قيل ليس هناك بيان نوع من أنواع الاسراء نقول هو كقول القائل ضربته شيئا فان شيئا لابد منه فى كل ضرب ويصح ذلك على انه نصب على المصدر وفائدته ماذكرنا من بيان عدم تعلق الغرض بانواعه وكان القائل يقول انى لاابين ماضربته به ولااحتاج الى بيانه لعدم تعلق المقصود به ليقطع سؤال السائل باذاضربه بسوط او بعصا فكذلك القول فى اسرى بعبده ليلا يقطع سؤال السائل عن الاسراء لان الاسراء هو السير اول الليل والسرى هو السير آخر الليل اوغير ذلك (المسئلة الثانية) مستقر يحتمل وجوها (احدها) عذاب لامدفع له اى يستقر عليهم ويثبت ولايقدر احد على ازالته و رفعه اواحالته ودفعه (ثانيها) دائم فانهم لما اهلكوا انقلوا الى الجحيم فكان ماأتاهم عذاب لايندفع بموتهم فان الموت يخلص من الالم الذى يجده المضروب من الضرب والمحبوس من الحبس وموتهم ماخلصهم (ثالثها) عذاب مستقر عليهم لايتعدى غيرهم أى هو امر قد قدره الله عليهم وقرره فاستقر وليس كما يقال انه امر اصابهم اتفاقا كالبرد الذى يضر زرع قوم دون قوم و يظن به انه امر اتفاق وليس لوخرجوا من أماكنهم لنجوا كما نجا آل لوط بل كان ذلك يتبعهم لانه كان أمرا قد استقر (المسئلة الثالثة) الضمير فى صبحهم عائد الى الذين عاد اليهم الضمير فى أعينهم فيعود لفظا اليهم للقرب ومعنى الى الذين تماروا بالنذر أو الذين عاد اليهم الضمير فى قوله ولقد أنذرهم بطشتنا * ثم قال تعالى (فذوقوا عذابى ونذر) مرة أخرى لان العذاب كان مرتين (أحدهما) خاص بالمراودين والآخر عام (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) قد فسرنا مرارا وبينا مالاجله كرر تكرارا * ثم قال تعالى (ولقد جاء آل فرعون النذر كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة فى لفظ آل فرعون بدل قوم فرعون نقول القوم أعم من الآل فالقوم كل من يقوم الرئيس بأمرهم أو يقومون بأمره والآل كل من يؤل الى الرئيس خيرهم وشرهم أو يؤل اليهم خيره وشره فالبعيد الذى لايعرفه الرئيس ولايعرف هو عين الرئيس وانما يسمع اسمه فليس هو بآله اذا عرفت الفرق نقول قوم الانبياء الذين هم غير موسى عليهم السلام لم يكن فيهم قاهر يقهر الكل ويجمعهم على كلمة واحدة وانما كانوا هم رؤساء واتباعا ولرؤساء اذا كثروا لايبقى لاحد منهم حكم نافذ على احد اما على من هو مثله فظاهر وأما على الاراذل فلأنهم يلجؤن الى واحد منهم ويدفعون به الآخر فيصير كل واحد برأسه فكان الارسال اليهم جميعا وأما فرعون فكان قاهرا يقهر الكل وجعلهم بحيث لايخالفونه فى قليل ولا كثير فارسل الله اليه الرسول وحده غيرانه كان عنده جماعة من التابعين المقربين مثل قارون تقدم عنده لماله العظيم وهامان لدهائه فاعتبرهم الله فى الارسال حيث قال فى مواضع ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملائه وقال تعالى بآياتنا الى فرعون وهامان وقارون وقال فى العنكبوت وقارون وفرعون وهامان ولقد

(فذوقوا عذابى ونذر) حكاية لما قيل لهم حينئذ من جهته تعالى تشديدا للعذاب (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) مر ما فيه من الكلام (ولقد جاء آل فرعون النذر) صدرت قصتهم بالتوكيد القسمى لابراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عظم ما فيها من الآيات وكثرتها وهول ما لاقوه من العذاب وقوة ايجابها للاتعاظ والاكتفاء بذكر آل فرعون للعلم بان نفسه أولى بذلك أى وبالله لقد جاءهم الانذارات وقوله تعالى (كذبوا بآياتنا كلها) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية مجئ النذر كأنه قيل فماذا فعلوا حينئذ فقيل كذبوا بجميع آياتنا وهى الآيات التسع (فأخذناهم أخذ عزيز) لايغالب (مقتدر) لايعجزه شئ

جاءهم موسى لانهم ان آمنوا آمن الكل بخلاف الاقوام الذين كانوا قبلهم و بعدهم فقال ولقد جاء آل فرعون النذر وقال كثيرا مثل هذا كما فى قوله أدخلوا آل فرعون أشد العذاب وقال تعالى وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه وقال بلفظ الملأ أيضا كثيرا (المسئلة الثانية) قال ولقد جاء ولم يقل فى غيرهم جاء لان موسى عليه السلام ما جاءهم كما جاء المرسلون أقوامهم بل جاءهم حقيقة حيث كان غائبا عن القوم فقدم عليهم ولهذا قال تعالى فلما جاء آل لوط المرسلون وقوله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم حقيقة أيضا لانه جاءهم من الله من السموات بعد المعراج كما جاء موسى قومه من الطور حقيقة (المسئلة الثالثة) النذر ان كان المراد منها الانذارات وهو الظاهر فالكلام الذى جاءهم على لسان موسى و يده تلك وان كان المراد الرسل فهو لان موسى وهرون عليهما السلام جاءه وكل مرسل تقدمهما جاءه لانهم كلهم قالوا ما قالا من التوحيد وعبادة الله وقوله بعد ذلك كذبوا بآياتنا من غير فاء تقتضى ترتب التكذيب على المجىء فيه وجهان (أحدهما) ان الكلام ثم عند قوله ولقد جاء آل فرعون النذر وقوله كذبوا كلام مستأنف والضمير عائد الى كل من تقدم ذكرهم من قوم نوح الى آل فرعون (ثانيهما) ان الحكاية مسوقة على سياق ما تقدم فكأنه قال فكيف كان عذابى ونذر وقد كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم وعلى الوجه الاول آياتنا كلها ظاهرة وعلى الوجه الثانى المراد آياته التى كانت مع موسى عليه السلام وهى التسع فى قول أكثر المفسرين ويحتمل أن يقال المراد انهم كذبوا بآيات الله كلها السمعية والعقلية فان فى كل شىء له آية تدل على انه واحد وقوله تعالى فأخذناهم اشارة الى انهم كانوا كالآبقين أو الى انهم عاصون يقال أخذ الامير فلانا اذا حبسه وفى قوله عزيز مقتدر لطيفة وهى ان العزيز المراد منه الغالب لكن العزيز قد يكون يغلب على العدو ويظفر به وفى الاول يكون غير متمكن من أخذه لبعده ان كان هاربا ولمنعته ان كان محاربا فقال أخذ غالب لم يكن عاجزا وانما كان مهلا * ثم قال تعالى (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر) تنبيها لهم لئلا يأمنوا العذاب فانهم ليسوا بخير من أولئك الذين أهلكوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الخطاب مع أهل مكة فينبغى أن يكون كفارهم بعضهم والا لقال أنتم خير من أولئكم واذا كان كفارهم بعضهم فكيف قال أم لكم براءة ولم يقل أم لهم كما يقول القائل جاءنا الكرماء فأكرمناهم ولا يقول فأكرمناكم نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان المراد منه أكفاركم المستمرون على الكفر الذين لا يرجعون وذلك لان جمعا عظيما ممن كان كافرا من اهل مكة يوم الخطاب ايقنوا بوقوع ذلك والعذاب لا يقع الا بعد العلم بانه لم يبق من القوم من يؤمن فقال الذين يصرون منكم على الكفر يا اهل مكة خير ام الذين اصروا من قبل فيصح كون التهديد مع بعضهم واما قوله تعالى ام لكم براءة ففيه وجهان (أحدهما) ام لكم لعمومكم براءة فلا يخاف المصر منكم

(أكفاركم) يا معشر العرب (خير) قوة وشدة وعدة وعدة أو مكانة (من أولئكم) الكفار المعدودين والمعنى أنه أصابهم ما أصابهم مع ظهور خيريتهم منكم فيما ذكر من الامور فهل تطمعون أن لا يصيبكم مثل ذلك وأنتم شر منهم مكانا وأسوأ حالا وقوله تعالى (أم لكم براءة فى الزبر) اضراب وانتقال من التبكيت بما ذكر الى التبكيت بوجه آخر أى بل ألكم براءة وأمن من تبعات ما تعملون من الكفر والمعاصى وغوائلهما فى الكتب السماوية فلذلك تصرون على ما أنتم عليه وقوله تعالى

لكونه في قوم لهم براءة (وثانيهما) أم لكم براءة ان أصررتم فيكون الخطاب عاما والتهديد كذلك فالشرط غير مذكور وهو الاصرار (المسئلة الثانية) ما المراد بقوله خير وقول القائل خير يقتضي اشتراك امرين في صفة محمودة مع رجحان احدهما على الآخر ولم يكن فيهم خير ولا صفة محمود نقول الجواب عنه من وجوه (احدها) منع اقتضاء الاشتراك يدل عليه قول حسان * فشركما لخيركما الفداء * مع اختصاص الخير بالنبي عليه السلام والشر بمن هجاه وعدم اشتراكهما في شيء منهما (ثانيها) ان ذلك عائد الى ما في زعمهم اي ازعم كفاركم انهم خير من الكفار المتقدمين الذين اهلكوا وهم كانوا يزعمون في انفسهم الخير وكذا فيمن تقدمهم من عبدة الاوثان ومكذبي الرسل وكانوا يقولون ان الهلاك كان بأسباب سماوية من اجتماع الكواكب على هيئة مذمومة (ثالثها) المراد اكفاركم اشد قوة فكانه قال اكفاركم خير في القوة والقوة محمودة في العرف (رابعها) ان كل موجود ممكن ففيه صفات محمودة واخرى غير محمودة فاذا نظرت الى المحمودة في الموضعين وقابلت احداهما بالاخرى تستعمل فيها لفظ الخير وكذلك في الصفات المذمومة تستعمل فيها لفظ الشر فاذا نظرت الى كافرين وقلت أحدهما خير من الآخر فذلك حينئذ أن تريد أن أحدهما خير من الآخر في الحسن والجمال واذا نظرت الى مؤمنين يؤذيانك قلت أحدهما شر من الآخر أي في الاذية لا الايمان فكذلك ههنا أكفاركم خير لان النظر وقع على ما يصلح لخلاصهم من العذاب فهو كما يقال أكفاركم فيهم أمر شيء مما يخلصهم لم يكن في غيرهم فهم خير أم لا شيء فيهم يخلصهم لكن الله بفضله أمنهم لا لخصال فيهم (المسئلة الثالثة) أم لكم براءة اشارة الى سبب آخر من أسباب الخلاص وذلك لان الخلاص اما أن يكون بسبب أمر فيهم أو لا يكون كذلك فان كان بسبب أمر فيهم وذلك السبب لم يكن في غيرهم من الذين تقدموهم فيكونون خيرا منهم وان كان لا بسبب أمر فيهم فيكون بفضل الله ومسامحته اياهم وايمانه اياهم من العذاب فقال لهم أنتم خير منهم فلا تهلكون ام لستم بخير منهم لكن الله آمنكم وأهلكم وكل واحد منهما منتف فلا تأمنوا وقوله تعالى أم لكم براءة في الزبر اشارة الى لطيفة وهي ان العاقل لا يأمن الا اذا حصل له الجزم بالامن أو صار له آيات تقرب الامر من القطع فقال لكم براءة يوثق بها وتكون متكررة في الكتب فان الحاصل في بعض الكتب ربما يحتمل التاويل أو يكون قد تطرق اليه التحريف والتبديل كما في التوراة والانجيل فقال هل حصل لكم براءة متكررة في كتب تأمنون بسببها العذاب فان لم يكن كذلك لا يجوز الامن لكن البراءة لم تحصل في كتب ولا في كتاب واحد ولا في شبه كتاب فيكون أمنهم من غاية الغفلة وعند هذا تبين فضل المؤمن فانه مع ما في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من الوعد لا يأمن وان بلغ درجة الاولياء والانبياء لما في آيات الوعيد من احتمال التخصيص وكون كل واحد ممن يستثنى من الامة ويخرج عنها فالمؤمن خائف والكافر

آمن في الدنيا وفي الآخرة الامر على العكس * ثم قال تعالى (أم يقولون نحن جميع منتصر) تتميما لبيان أقسام الخلاص وحصره فيها وذلك لان الخلاص اما أن يكون لاستحقاق من يخلص عن العذاب كما ان الملك اذا عذب جماعة و رأى فيهم من أحسن اليه فلا يعذبه وإما ان يكون لامر في الخلاص كما اذا رأى فيهم من له ولد صغير او ام ضعيفة فيرحمه وان لم يستحق و يكتب له الخلاص واما ان لا يكون فيه ما يستحق الخلاص بسببه ولا في نفس المعذب مما يوجب الرحمة لكنه لا يقدر عليه بسبب كثرة اعوانه وتعصب اخوانه كما اذا هرب واحد من الملك والتجأ الى عسكر يمنعون الملك عنه فكما نفي القسمين الاولين كذلك نفي القسم الثالث وهو التمنع بالاعوان وتحزب الاخوان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في حسن الترتيب وذلك لان المستحق لذاته اقرب الى الخلاص من المرحوم فان المستحق لم يوجد فيه سبب العذاب والمرحوم وجد فيه ذلك ووجد المانع من العذاب وما لا سبب له لا يتحقق أصلا وما له مانع ربما لا يقوى المانع على دفع السبب وما في نفس المعذب من المانع اقوى من الذي بسبب الغير لان الذي من عنده يمنع الداعية ولا يتحقق الفعل عند عدم الداعية والذي من الغير بسبب التمنع لا يقطع قصده بل يجتهد فيه و ربما يغلب فيكون تعذيبه اضعاف ما كان من قبل بخلاف من يرق له قلبه وتمنعه الرحمة فانها وان لم تمنعه لكن لا يزيد في حمله وحبسه وزيادته في التعذيب عند القدرة فهذا ترتيب في غاية الحسن (المسئلة الثانية) جميع فيه فائدتان احداهما الكثرة والاخرى الاتفاق كأنه قال نحن كثير متفقون فلنا الانتصار ولا يقوم غير هذه اللفظة مقامها من الالفاظ المفردة انما قلنا ان فيه فائدتين لان الجميع يدل على الجماعة بحروفه الاصلية من جمع و بوزنه وهو فعيل بمعنى مفعول على انهم جمعوا جمعيتهم العصبية و يحتمل ان يقال معناه نحن الكل لا خارج عنا اشارة الى أن من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم لا اعتداد به قال تعالى في نوح أنؤمن لك واتبعك الارذلون الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وعلى هذا جميع يكون التنوين فيه لقطع الاضافة كأنهم قالوا نحن جميع الناس (المسئلة الثالثة) ما وجه افراد المنتصر مع ان نحن ضمير الجمع نقول على الوجه الاول ظاهر لانه وصف الجزء الآخر الواقع خبرا فهو كقول القائل أنتم جنس منتصر وهم عسكر غالب والجمع كالجنس لفظه لفظ واحد ومعناه جمع فيه الكثرة وأما على الوجه الثاني فالجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المعنى وان كان جميع الناس لا خارج عنهم الامن لا يعتد به لكن لما قطع ونون صار كالنكر في الاصل فجاز وصفه بالمنكر نظرا الى اللفظ فعاد الى الوجه الاول (وثانيهما) أنه خبر بعد خبر و يجوز أن يكون أحد الخبرين معرفة والآخر نكرة قال تعالى وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد وعلى هذا فقوله نحن جميع منتصر افرده لمجاورة جميع و يحتمل ان يقال معنى نحن جميع منتصر أن جميعا بمعنى كل واحد كأنه قال نحن كل واحد منا منتصر كما تقول هم جميعهم اقوياء بمعنى أن كل واحد منهم قوي وهم،

(أم يقولون نحن جميع منتصر) اضراب من التبكيت المذكور الى وجه آخر من التبكيت والالتفات للايذان باقتضاء حالهم للاعراض عنهم واسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية قبائحهم لغيرهم أي بل أيقولون واثقين بشوكتهم نحن أولو حزم ورأي امرنا مجتمع لا نرام ولا نضام او منتصر من الاعداء لا نغلب او متناصر ينصر بعضنا بعضا والافراد باعتبار لفظ الجميع

كلهم على أمر كل واحد منا ظالم فترك الجمع واختار الافراد لعود الخبر الى كل واحد فانهم كانوا يقولون كل واحد منا يغلب محمدا صلى الله عليه وسلم كما قال أبي بن خلف الجمحي وهذا فيه معنى لطيف وهو انهم ادعوا ان كل واحد غالب والله رد عليهم باجمعهم بقوله (سيهزم الجمع ويولون الدبر) وهو انهم ادعوا القوة العامة بحيث يغلب كل واحد منهم محمدا صلى الله عليه وسلم والله تعالى بين ضعفهم الظاهر الذي يعمهم جميعهم بقوله ويولون الدبر وحينئذ يظهر سؤال وهو انه قال يولون الدبر ولم يقل يولون الادبار وقال في موضع آخر يولوكم الادبار ثم لا ينصرون وقال ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار وقال في موضع آخر فلا تولوهم الادبار فكيف تصحيح الافراد وما الفرق بين المواضع نقول أما التصحيح فظاهر لان قول القائل فعلوا كقوله فعل هذا وفعل ذاك وفعل الآخر فالواو في الجمع تنوب مناب الواوات التي في العطف وقوله يولون بمثابة يولي هذا الدبر ويولي ذاك ويولي الآخر أي كل واحد يولي دبره وأما الفرق فنقول اقتضاء أواخر الآيات حسن الافراد فقوله يولون الدبر افراده اشارة الى انهم في التولية كنفس واحدة فلا يتخلف أحد عن الجمع ولا يثبت أحد للزحف فهم كانوا في التولية كدبر واحد وأما في قوله فلا تولوهم الادبار أي كل واحد يوجد به ينبغي أن يثبت ولا يولي دبره فليس المنهي هناك توليتهم باجمعهم بل المنهي أن يولي واحد منهم دبره فكل أحد منهي عن تولية دبره فجعل كل واحد برأسه في الخطاب ثم جمع الفعل بقوله فلا تولوهم ولا يتم الا بقوله الادبار وكذلك في قوله ولقد كانوا عاهدوا الله أي كل واحد قال أنا أثبت ولا أولي دبري وأما في قوله ليولن الادبار فان المراد المنافقون الذين وعدوا اليهود وهم متفرقون بدليل قوله تعالى تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى وأما في هذا الموضع فهم كانوا يدا واحدة على من سواهم * ثم قال تعالى (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) اشارة الى ان الامر غير مقتصر على انهزامهم وادبارهم بل الامر أعظم منه فان الساعة موعدهم فانه ذكر ما يصيبهم في الدنيا من الدبر ثم بين ما هو منه على طريقة الاصرار هذا قول أكثر المفسرين والظاهر أن الانذار بالساعة عام لكل من تقدم كانه قال أهلكنا الذين كفروا من قبلك وأصروا وقوم محمد عليه السلام ليسوا بخير منهم فيصيبهم ما أصابهم ان أصروا ثم ان عذاب الدنيا ليس لاتمام المجازاة فاتمام المجازاة بالاليم الدائم * وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الحكمة في اختصاص كون الساعة موعدهم مع انها موعد كل أحد نقول الموعد الزمان الذي فيه الوعد والوعيد والمؤمن موعود بالخير ومأمور بالصبر فلا يقول هو متى يكون بل يفوض الامر الى الله واما الكافر فغير مصدق فيقول متى يكون العذاب فيقال له اصبر فانه آت يوم القيامة ولهذا كانوا يقولون عجل لنا قطنا وقال ويستعجلونك بالعذاب (المسئلة الثانية) ادهى من اى شئ نقول يحتمل وجهين (احدهما) مما مضى من انواع عذاب الدنيا (ثانيهما) ادهى الدواهي فلا داهية مثلها (المسئلة الثالثة) ما المراد من قوله وامر قلنا فيه وجهان (احدهما) هو

وقوله تعالى (سيهزم الجمع) رد وابطال لذلك والسين للتاكيد أي يهزم جمعهم البتة (ويولون الدبر) اى الادبار وقد قرئ كذلك والتوحيد لارادة الجنس او ارادة ان كل واحد منهم يولي دبره وقد كان كذلك يوم بدر قال سعيد بن المسيب سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لما نزلت سيهزم الجمع ويولون الدبر كنت لا أدري اى جمع يهزم فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس الدرع يقول سيهزم الجمع ويولون الدبر فعرفت تأويلها وقرئ سيهزم الجمع اى الله عز وعلا (بل الساعة موعدهم) اى ليس هذا تمام عقوبتهم بل الساعة موعد اصل عذابهم وهذا من طلائعه (والساعة ادهى وامر) اى في اقصى غاية من الفظاعة والمرارة والداهية الامر الفظيع الذي لا يهتدي الى الخلاص عنه واظهار الساعة في موقع اضمارها لتربية تهويلها

مبالغة من المر وهو مناسب لقوله تعالى فذوقوا عذابي وقوله ذوقوا مس سقر وعلى هذا فأدهى اى اشد وامر اى آلم والفرق بين الشديد والاليم ان الشديد يكون اشارة الى انه لا يطيقه احد لقوته ولا يدفعه احد بقوته مثاله ضعيف التي في ماء يغلبه اونار لا يقدر على الخلاص منها وقوى التي في بحر اونار عظيمة يستويان في الالم والعذاب ويتساويان في الايلام لكن يفترقان في الشدة فان نجاة الضعيف من الماء الضعيف باعانة معين ممكن ونجاة القوى من البحر العظيم غير ممكن (ثانيهما) أمر مبالغة في المار اذ هي أكثر مرورا بهم اشارة الى الدوام فكانه يقول أشد وأدوم وهذا مختص بعذاب الآخرة فان عذاب الدنيا ان اشتد قتل المعذب وزال فلا يدوم وان دام بحيث لا يقتل فلا يكون شديدا (ثالثها) انه المر وهو من المرة التي هي الشدة وعلى هذا فاما أن يكون الكلام كما يقول القائل فلان نحيف نحيل وقوى شديد فأتى بلفظين مترادفين اشارة الى التأكيد وهو ضعيف واما أن يكون أدهى مبالغة من الداهية التي هي اسم الفاعل من دهاه أمر كذا اذا أصابه وهو أمر صعب لان الداهية صارت كالاسم الموضوع للشديد على وزن الباطنة والسابية التي لا تكون من أسماء الفاعلين وان كانت الداهية أصلها ذلك فيرانها استعملت استعمال الاسماء وكتبت في أبوابها وعلى هذا يكون معناه ألزم واضيق اى هى بحيث لا تدفع * ثم قال تعالى (ان المجرمين في ضلال وسعر) وفي الآية مسائل (الاولى) فيمن نزلت الآية في حقهم اكثر المفسرين اتفقوا على انها نازلة في القدرية روى الواحدي في تفسيره قال سمعت الشيخ رضي الدين المؤيد الطوسي بنيسابور قال سمعت عبد الجبار قال اخبرنا الواحدي قال اخبرنا ابو القاسم عبد الرحمن بن محمد السراج قال اخبرنا ابو محمد عبد الله الكعبي قال حدثنا حمدان بن صالح الاشج حدثنا عبد الله بن عبد العزيز بن ابي داود حدثنا سفيان الثوري عن زياد بن اسمعيل المخزومي عن محمد بن عباد بن جعفر عن ابي هريرة قال جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فأنزل الله تعالى ان المجرمين في ضلال وسعر الى قوله انا كل شئ خلقناه بقدر وكذلك نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ان هذه الآية نزلت في القدر * وروى عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال مجوس هذه الامة القدرية وهم المجرمون الذين سماهم الله تعالى في قوله ان المجرمين في ضلال وسعر وكثرت الاحاديث في القدرية * وفيه مباحث (الاول) في معنى القدرية الذين قال النبي صلى الله عليه وسلم نزلت الآية فيهم فنقول كل فريق في خلق الاعمال يذهب الى ان القدري خصمه فالجبري يقول القدري من يقول الطاعة والمعصية ليستا بخلق الله وقضائه وقدره فهم قدرية لانهم ينكرون القدر والمعتزلي يقول القدري هو الجبري الذي يقول حين يزني ويسرق الله قدرني فهو قدري لاثباته القدر وهما جميعا يقولان لاهل السنة الذي يعترف بخلق الله وليس من العبد انه قدري والحق ان القدري الذي نزل فيه الآية هو الذي ينكر القدر ويقول بأن

(ان المجرمين) من الاولين والاخرين (في ضلال وسعر) اى في هلاك ونيران مسعرة وقيل في ضلال عن الحق في الدنيا ونيران في الآخرة وقوله تعالى (يوم يسحبون) الخ منصوب اما بما يفهم من قوله تعالى في ضلال اى كائنون في ضلال وسعر يوم يجرون (في النار على وجوههم) واما بقول مقدر بعده اى يوم يسحبون يقال لهم (ذوقوا مس سقر) اى قاسوا حرها وألمها وسقر علم جهنم ولذلك لم يصرف من سقرته النار وصقرته اذا لوحته والقول المقدر على الوجه الاول حال من ضمير يسحبون

الحوادث كلها حادثة بالكواكب واتصالاتها ويدل عليه قوله جاء مشركو قريش يحاجون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فان مذهبهم ذلك وما كانوا يقولون مثل ما يقول المعتزلة ان الله خلق لي سلامة الاعضاء وقوة الادراك ومكنني من الطاعة والمعصية والله قادر على ان يخلق في الطاعة الجاء والمعصية الجاء وقادر على ان يطعم الفقير الذي اطعمه انا بفضل الله والمشركون كانوا يقولون انطعم من لو يشاء الله اطعمه منكرين لقدرة الله تعالى على الاطعام وأما قوله صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الامة هم القدرية فنقول المراد من هذه الامة اما الامة التي كان محمد صلى الله عليه وسلم مرسلا اليهم سواء آمنوا به أو لم يؤمنوا كلفظ القوم واما أمته الذين آمنوا به فان كان المراد الاول فالقدرية في زمانه هم المشركون الذين أنكروا قدرة الله على الحوادث فلا يدخل فيهم المعتزلة وان كان المراد هو الثاني فقوله مجوس هذه الامة يكون معناه الذين نسبتهم الى هذه الامة كنسبة المجوس الى الامة المتقدمة لكن الامة المتقدمة اكثرهم كفرة والمجوس نوع منهم أضعف شبهة وأشد مخالفة للعقل فكذلك القدرية في هذه الامة تكون نوعا منهم أضعف دليلا ولا يقتضي ذلك الجزم بكونهم في النار فالحق أن القدري هو الذي ينكر قدرة الله تعالى ان قلنا ان النسبة للنفي أو الذي يثبت قدرة غير الله تعالى على الحوادث ان قلنا ان النسبة للاثبات وحينئذ يقطع بكونه في ضلال وسعر وانه ذائق مس سقر (البحث الثاني) في بيان من يدخل في القدرية التي في النص ممن هو منتسب الى انه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ان قلنا القدرية سموا بهذا الاسم لنفيهم قدرة الله تعالى فالذي يقول لا قدرة لله على تحريك العبد بحركة هي الصلاة وحركة هي الزنا مع ان ذلك أمر ممكن لا يبعد دخوله فيهم وأما الذي يقول بأن الله قادر غير انه لم يجبره وتركه مع داعية العبد كالوالد الذي يجرب الصبي في حمل شيء تركه معه لا لعجز او الدليل للابتلاء والامتحان لا كالمفلوج الذي لا قوة له اذا قال لغيره احمل هذا فلا يدخل فيهم ظاهرا وان كان مخطئا وان قلنا ان القدرية سموا بهذا الاسم لاثباتهم القدرة على الحوادث لغير الله من الكواكب والجبري الذي قال هو الحائط الساقط الذي لا يجوز تكليفه بشيء لصدور الفعل من غيره وهم أهل الاباحة فلا شك في دخوله في القدرية فانه يكفر بنفيه التكليف وأما الذي يقول خلق الله تعالى فينا الافعال وقدرها وكلفنا ولا يسئل عما يفعل فاهو منهم (البحث الثالث) اختلف القائلون في التعصب ان الاسم بالمعتزلة أحق أم بالاشاعرة فقالت المعتزلة الاسم بكم أحق لان النسبة تكون للاثبات لا للنفي يقال للدهري دهري لقوله بالدهر واثباته وللاباحي اباحي لاثباته الاباحة وللثنوية ثنوية لاثباتهم الاثنين وهما النور والظلمة وكذلك أمثاله وأنتم تثبتون القدر وقالت الاشاعرة النصوص تدل على ان القدري من ينفي قدرة الله تعالى ومشركو قريش ما كانوا قدرية الا لاثباتهم قدرة لغير الله قالت المعتزلة انما سمي المشركون قدرية لانهم قالوا ان كان

قادرا على الحوادث كما نقول يا محمد فلو شاء الله لهدانا ولو شاء لأطعم الفقير فاعتقدوا
أن من لوازم قدرة الله تعالى على الحوادث خلقه الهداية فيهم ان شاء وهذا مذهبكم أيها
الاشاعرة والحق الصراح ان كل واحد من المسلمين الذين ذهبوا الى المذهبين خارج
عن القدرية ولا يصير واحد منهم قدريا الا اذا صار النافي نافيا للقدرة والمثبت منكرا
للتكاليف (المسئلة الثانية) المجرمون هم المشركون ههنا كما فى قوله تعالى ولو ترى اذ
المجرمون ناكسوا رؤسهم وقوله يود المجرم لو يفتدي وفي قوله يعرف المجرمون بسيماهم
فالآية عامة وان نزلت فى قوم خاص وجرمهم تكذيب الرسل والنذر بالاشراك وانكار
الحشر وانكار قدرة الله تعالى على الاحياء بعد الاماتة وعلى غيره من الحوادث (المسئلة
الثالثة) فى ضلال وسعر يحتمل وجوها ثلاثة (أحدها) الجمع بين الامرين فى الدنيا أي هم
فى الدنيا فى ضلال وجنون لا يعقلون ولا يهتدون وعلى هذا فقوله يسحبون بيان حالهم فى
تلك الصورة وهو أقرب (ثانيها) الجمع فى الآخرة أي هم فى ضلال الآخرة وسعر أيضا
اما السعر فكونهم فيها ظاهر وأما الضلال فلا يجدون الى مقصدهم أو الى ما يصلح مقصدا
وهم مضيرون سبيلا فان قيل الصحيح هو الوجه الاخير لا غير لان قوله تعالى يوم يسحبون
ظرف القول أي يوم يسحبون يقال لهم ذوقوا وسنبين ذلك فنقول يوم يسحبون يحتمل أن
يكون منصوبا بعامل مذكور أو مفهوم غير مذكور والاحتمال الاول له وجهان
(أحدهما) العامل سابق وهو معنى كائن ومستقر غير ان ذلك صار نسيا منسيا (ثانيهما)
العامل متأخر وهو قوله ذوقوا تقديره ذوقوا مس سقر يوم يسحب المجرمون والخطاب
حينئذ مع من خوطب بقوله أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة (والاحتمال الثاني) ان
المفهوم هو أن يقال لهم يوم يسحبون ذوقوا وهذا هو المشهور وقوله تعالى ذوقوا
استعارة وفيه حكمة وهو أن الذوق من جملة الادراكات فان الذوق اذا لاقى اللسان
يدرك أيضا حرارته وبرودته وخشونته وملاسته كما يدرك سائر أعضائه الحسية ويدرك
أيضا طعمه ولا يدركه غير اللسان فادراك اللسان أتم فاذا تأذى من نار تأذى بحرارته
ومرارته ان كان الحار أو غيره لا يتأذى الا بحرارته فاذن الذوق ادراك لمسي أتم من غيره
فى الملموسات فقال ذوقوا اشارة الى أن ادراكهم بالذوق أتم الادراكات فيجتمع فى
العذاب شدته وايلامه بطول مدته ودوامه ويكون المدرك له لا عذر له يشغله وانما هو
على أتم ما يكون من الادراك فيحصل الالم العظيم وقد ذكرنا انه على قول الاكثرين يقال
لهم او نقول مضمر وقيل [illegible] نه لا حاجة الى الاضمار اذا كان الخطاب مع غير من قيل فى
حقهم ان المجرمين فى ضلال فانه يصير كأنه قال ذوقوا ايها المكذبون بمحمد صلى الله عليه
وسلم مس سقر يوم يسحب المجرمون المتقدمون فى النار * ثم قال تعالى (انا كل شيء خلقناه
بقدر) وفيه مسائل (الاولى) المشهور ان قوله انا كل شيء متعلق بما قبله كأنه قال ذوقوا
فانا كل شيء خلقناه بقدر أي هو جزاء لمن أنكر ذلك وهو كقوله تعالى ذق انك انت العزيز

(انا كل شيء) من الاشياء (خلقناه بقدر) أي ملتبسا بقدر معين اقتضته الحكمة التي عليها يدور أمر التكوين أو مقدرا مكتوبا فى اللوح قبل وقوعه وكل شيء منصوب بفعل يفسره ما بعده وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ وخلقناه خبره

ه قوله وجوها ثلاثة سقط الثالث وهو التفريق فقوله فى ضلال أي فى الدنيا وسعر أي نيران فى الآخرة وقوله هو الوجه الاخير فيه انه يناسب الثاني أيضا وبالجملة فالعبارة تحتاج لتحرير

الكريم والظاهر أنه ابتداء كلام وتم الكلام عند قوله ذوقوا مس سقر ثم ذكر بيان العذاب لان عطف وما امرنا الا واحدة يدل على ان قوله انا كل شيء خلقناه بقدر ليس آخر الكلام ويدل عليه قوله تعالى ألا له الخلق والامر وقد ذكر في الآية الاولى الخلق بقوله انا كل شيء خلقناه فيكون من اللائق ان يذكر الامر فقال وما امرنا الا واحدة وأما ماذكر من الجدل فنقول النبي صلى الله عليه وسلم تمسك عليهم بقوله ان المجرمين في ضلال الى قوله ذوقوا مس سقر وتلا آية أخرى على قصد التلاوة ولم يقرأ الآية الاخيرة اكتفاء بعلم من علم الآية كما تقول في الاستدلالات لا تاكلوا اموالكم الآية ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه الآية وإذا تداينتم الآية الى غير ذلك (المسئلة الثانية) كل قرئ بالنصب وهو الاصح المشهور وبالرفع فمن قرأ بالنصب فنصبه بفعل مضمر يفسره الظاهر كقوله والقمر قدرناه وقوله والظالمين اعد لهم وذلك الفعل هو خلقنا وقد فسره قوله خلقناه كأنه قال انا خلقنا كل شيء بقدر وخلقناه على هذا لا يكون صفة لشيء كما في قوله تعالى ومن كل شيء خلقنا زوجين فيران هناك يمنع من ان يكون صفة كونه خاليا عن ضمير عائد الى الموصوف وههنا لم يوجد ذلك المانع وعلى هذا فالآية حجة على المعتزلة لان أفعال الشيء فتكون داخلة في كل شيء فتكون مخلوقة لله تعالى ومن قرأ بالرفع فلم يمكنه أن يقول كما يقول في قوله وأما ثمود فهديناهم حيث قرئ بالرفع لان كل شيء نكرة فلا يصح مبتدأ فيلزمه أن يقول كل شيء خلقناه فهو بقدر كقوله تعالى وكل شيء عنده بمقدار في المعنى وهذان الوجهان ذكرهما ابن عطية في تفسيره وذكر أن المعتزلي يتمسك بقراءة الرفع ويحتمل أن يقال القراءة الاولى وهو النصب له وجه آخر وهو أن يقال نصبه بفعل معلوم لا بمضمر مفسر وهو قدرنا أو خلقنا كأنه قال انا خلقنا كل شيء خلقناه بقدر أو قدرنا كل شيء خلقناه بقدر وانما قلنا انه معلوم لان قوله ذلكم الله ربكم خالق كل شيء دل عليه وقوله وكل شيء عنده بمقدار دل على انه قدر وحينئذ لا يكون في الآية دلالة على بطلان قول المعتزلي وانما يدل على بطلان قوله الله خالق كل شيء وأما على القراءة الثانية وهي الرفع فنقول جاز أن يكون كل شيء مبتدأ وخلقناه بقدر خبره وحينئذ تكون الحجة قائمة عليهم بابلغ وجه وقوله كل شيء نكرة فلا يصلح مبتدأ ضعيف لان قوله كل شيء عم الاشياء كلها باسرها فليس فيه المحذور الذي في قولنا رجل قائم لانه لا يفيد فائدة ظاهرة وقوله كل شيء يفيد ما يفيد زيد خلقناه وعمرو خلقناه مع زيادة فائدة ولهذا جوزوا ما أحد خير منك لانه أفاد العموم ولم يحسن قول القائل أحد خير منك حيث لم يفد العموم (المسئلة الثالثة) ما معنى القدر قلنا فيه وجوه (أحدها) المقدار كما قال تعالى وكل شيء عنده بمقدار وعلى هذا فكل شيء مقدر في ذاته وفي صفاته أما المقدر في الذات فالجسم وذلك ظاهر فيه وكذلك القائم بالجسم من المحسوسات كالبياض والسواد وأما الجوهر الفرد ما لا مقدار له والقائم بالجوهر ما لا مقدار له بمعنى الامتداد كالعلم والجهل وغيرهما فنقول ههنا

مقادير لا بمعنى الامتداد اما الجوهر الفرد فان الاثنين منه أصغر من الثلاثة ولولا أن له حجما يزداد به الامتداد والا لما حصل دون الامتداد فيه وأما القائم بالجوهر فله نهاية وبداية كمقدار العلوم الحادثة والقدر المخلوقة متناهية وأما الصفة فلان لكل شئ ابتدئ زمانا فله مقدار في البقاء لكون كل شئ حادثا فان قيل الله تعالى وصف به ولا مقدار له ولا ابتداء لوجوده نقول المتكلم اذا كان موصوفا بصفة أو مسمى باسم ثم ذكر الاشياء المسماة بذلك الاسم أو الاشياء الموصوفة بتلك الصفة وأسند فعلا من افعاله اليه يخرج هو عنه كما يقول القائل رأيت شيئا ... في هذا البيت فرأيتهم كلهم أكرمني و يقول ما في هذا البيت أحد الا وضربني او شتمني به يخرج هو عنه لا لعدم كونه مقتضى الاسم بل بما في التركيب من الدليل على خروجه عن الارادة فكذلك قوله خلقناه وخالق كل شئ يخرج عنه لا بطريق التخصيص بل بطريق الحقيقة اذا قلنا ان التركيب وضعي فان هذا التركيب لم يوضع حينئذ الا لغير المتكلم (ثانيهما) القدر التقدير قال الله تعالى فقدرنا فنعم القادرون وقال الشاعر * وقد قدر الرحمن ما هو قادر * أي قدر ما هو مقدر وعلى هذا فالمعنى ان الله تعالى لم يخلق شيئا من غير تقدير كما يرمى الرامي السهم فيقع في موضع لم يكن قد قدره بل خلق الله كما قدر بخلاف قول الفلاسفة انه فاعل لذاته والاختلاف للقوابل فالذي جاء قصيرا أو صغيرا فلاستعداد مادته والذي جاء طويلا و كبيرا فلاستعداد آخر فقال لا بل كل شئ خلقناه بقدر منا فالصغير جاز أن يكون كبيرا والكبير جاز خلقه صغيرا (ثالثها) بقدر هو ما يقال مع القضاء يقال بقضاء الله وقدره وقالت الفلاسفة في القدر الذي مع القضاء ان ما يقصد اليه فقضاء وما يلزمه فقدر فيقولون خالق النار حارة بقضاء وهو مقضي به لانها ينبغي أن تكون كذلك لكن من لوازمها انها اذا تعلقت بقطن عجوز أو وقعت في قصب صعلوك تحرقه فهو بقدر لا بقضاء وهو كلام فاسد بل القضاء ما في العلم والقدر ما في الارادة فقوله كل شئ خلقناه بقدر أي بقدره مع ارادته لا على ما يقولون انه موجب ردا على المشركين * ثم قال تعالى (وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر) أي الا كلمة واحدة وهو قوله له كن هذا هو المشهور الظاهر وعلى هذا فالله اذا اراد شيئا قال له كن فهنا شيا آن الارادة والقول فالارادة قدر والقول قضاء وقوله واحدة يحتمل أمرين (أحدهما) بيان انه لا حاجة الى تكرير القول اشارة الى نفاذ الامر (ثانيهما) بيان عدم اختلاف الحال فامره عند خلق العرش العظيم كامره عند خلق النمل الصغير فامره عند الكل واحد وقوله كلمح بالبصر تشبيه الكون لا تشبيه الامر فكانه قال أمرنا واحدة فاذن المامور كائن كلمح بالبصر لانه لو كان راجعا الى الامر لا يكون ذلك صفة مدح يليق به فان كلمة كن شئ ايضا يوجد كلمح بالبصر هذا هو التفسير الظاهر المشهور وفيه وجه ظاهر ذهب اليه الحكماء وهي ان مقدرات الله تعالى هي الممكنات يوجدها بقدرته وفي عندما خلاف لا يليق بيانه بهذا الموضع لطوله لا لسبب غيره ثم ان الممكنات التي

(وما أمرنا الا واحدة) أي كلمة واحدة سريعة التكوين وهو قوله تعالى كن أو الا فعلة واحدة هو الايجاد بلا معالجة (كلمح بالبصر) في اليسر والسرعة وقيل معناه قوله تعالى وما أمر الساعة الا كلمح البصر

يوجدها الله تعالى قسمان (أحدهما) أمور لها اجزاء ملتئمة عند التئامها يتم وجودها كالانسان والحيوان والاجسام النباتية والمعدنية وكذلك الاركان الاربعة والسموات وسائر الاجسام وسائر ما يقوم بالاجسام من الاعراض فهي كلها مقدرة له وحوادث فان أجزاءها توجد أولا ثم يوجد فيها التركيب والالتئام بعينها ففيها تقديرات نظرا الى الاجزاء والتركيب والاعراض (وثانيهما) أمور ليس لها أجزاء ومفاصل ومقادير امتدادية وهي الارواح الشريفة المنورة للاجسام وقد أثبتها جميع الفلاسفة الا قليلا منهم ووافقهم جمع من المتكلمين وقطع بها كثير ممن له قدم من أصحاب الرياضات وأرباب المجاهدات فتلك الامور وجودها واحد ليس يوجد أولا اجزاء وثانيا تتحقق تلك الاجزاء بخلاف الاجسام والاعراض القائمة بها اذا عرفت هذا قالوا الاجسام خلقية قدرية والارواح ابداعية أمرية وقالوا اليه الاشارة بقوله تعالى ألا له الخلق والامر فالخلق في الاجسام والامر في الارواح ثم قالوا لا ينبغي أن يظن بهذا الكلام انه على خلاف الاخبار فانه صلى الله عليه وسلم قال أول ما خلق الله العقل وروى عنه عليه السلام أنه قال خلق الله الارواح قبل الاجسام بالفي عام وقال تعالى الله خالق كل شئ فالخلق أطلق على ايجاد الارواح والعقل لان اطلاق الخلق على ما يطلق عليه الامر جائز وان العالم بالكلية حادث واطلاق الخلق بمعنى الاحداث جائز وان كان في حقيقة الخلق تقدير في أصل اللغة ولا كذلك في الاحداث ولولا الفرق بين العبارتين والا لا استقبح الفلسفي من أن يقول المخلوق قديم كما يستقبح من أن يقول المحدث قديم فاذن قوله صلى الله عليه وسلم خلق الارواح بمعنى أحدثها بامره وفي هذا الاطلاق فائدة عظيمة وهي أنه صلى الله عليه وسلم لو غير العبارة وقال في الارواح انها موجودة بالامر والاجسام بالخلق لظن الذي لم يرزقه الله العلم الكثير أن الروح ليست بمخلوقة بمعنى ليست بمحدثة فكان يضل والنبي صلى الله عليه وسلم بعث رحمة وقالوا اذا نظرت الى قوله تعالى ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي والى قوله تعالى خلق السموات والارض في ستة أيام والى قوله تعالى خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما تجد التفاوت بين الامر والخلق والارواح والاشباح حيث جعل الخلق بعض الاجسام زمانا ممتدا هو ستة أيام وجعل لبعضها تراخيا وترتيبا بقوله ثم خلقنا وبقوله فخلقنا ولم يجعل للروح ذلك ثم قالوا ينبغي أن لا يظن بقولنا هذا ان الاجسام لابد لها من زمان ممتد وأيام حتى يوجدها الله تعالى فيه بل الله مختار ان أراد خلق السموات والارض والانسان والدواب والشجر والنبات في أسرع من لمح البصر لخلقها كذلك ولكن مع هذا لا تخرج عن كونها موجودات حصلت لها أجزاء ووجود أجزائها قبل وجود التركيب فيها ووجودها بعد وجود الاجزاء والتركيب فيها فهي ستة ثلاثة في ثلاثة كما يخلق الله الكسر والانكسار في زمان واحد ولهما ترتيب عقلي فالجسم اذن كيفما فرضت خلقه ففيه تقدير ووجودات

كلها بايجاد الله على الترتيب والروح لهما وجود واحد بايجاد الله تعالى هذا قولهم ولنذكر مافى الخلق والامر من الوجوه المنقولة والمعقولة (أحدها) ماذكرنا أن الامر هو كلمة كن والخلق هو ما بالقدرة والارادة (ثانيها) ماذكروا فى الاجسام ان منها الارواح (ثالثها) هو ان الله له قدرة بها الايجاد وارادة بها التخصيص وذلك لان المحدث له وجود مختص بزمان وله مقدار معين فوجوده بالقدرة واختصاصه بالزمان بالارادة فالذى بقدرته خلق والذى بالارادة أمر حيث يخصصه بأمره بزمان ويدل عليه المنقول والمعقول أما المنقول فقوله تعالى انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون جعل كن لتعلق الارادة واعلم أن المراد من كن ليس هو الحرف والكلمة التى من الكاف والنون لان الحصول أسرع من كلمة كن اذا حملتهما على حقيقة اللفظ فان الكاف والنون لا يوجد من متكلم واحد الا على الترتيب ففى كن لفظ زمان والكون بعده بدليل قوله تعالى فيكون بالفاء فاذن لو كان المراد بكن حقيقة الحرف والصوت لكان الحصول بعده بزمان وليس كذلك فان قال قائل يمكن أن يوجد الحرفان معا وليس كلام الله تعالى ككلامنا يحتاج الى الزمان قلنا قد جعل له معنى غير مانفهمه من اللفظ واما المعقول فلان الاختصاص بالزمان ليس لمعنى وعلة وان كان بعض الناس ذهب الى أن الخلق والايجاد لحكمة وقال ان الله خلق الارض لتكون مقر الناس أو مثل هذا من الحكم ولم يمكنه أن يقول خلق الارض فى الزمان المخصوص لتكون مقرا لهم لانه لو خلقها فى غير ذلك لكانت أيضا مقرا لهم فاذن التخصيص ليس لمعنى فهو لمحض الحكمة فهو يشبه أمر الملك الجبار الذى يأمر ولا يقال له لم أمرت ولم فعلت ولا يعلم مقصود الآمر الا منه (رابعها) هو ان الاشياء المخلوقة لا تنفك عن أوصاف ثلاثة أو عن وصفين متقابلين مثاله الجسم لا بد له بعد خلقه أن يكون متحيزا ولا بد له من أن يكون ساكنا أو متحركا فايجاده أولا بخلقه وما هو عليه بامره يدل عليه قوله تعالى ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام الى أن قال مسخرات بأمره فجعل مالها بعد خلقها من الحركة والسكون وغيرهما بامره ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له أقبل فاقبل ثم قال له ادبر فادبر جعل الخلق فى الحقيقة والامر فى الوصف وكذلك قوله تعالى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم قال يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره وقد ذكرنا تفسيره (خامسها) مخلوقات الله تعالى على قسمين (أحدهما) خلقه الله تعالى فى أسرع ما يكون كالعقل وغيره (وثانيهما) خلقه بمهلة كالسموات والانسان والحيوان والنبات فالمخلوق سريعا أطلق عليه الامر والمخلوق بمهلة أطلق عليه الخلق وهذا مثل الوجه الثانى (سادسها) ماقاله فخر الدين الرازى فى تفسير قوله تعالى فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها وهو ان الخلق هو التقدير والايجاد بعده بعدية ترتيبية لا زمانية ففى علم الله تعالى ان السموات تكون سبع سموات فى يومين

تقديرية فهو قدر خلقه كما علم وهو ايجاد فالاول خلق والثانى وهو الايجاد أمر وأخذ
هذا من المفهوم اللغوى قال الشاعر * وبعض الناس يخلق ثم لا يفرى * أى يقدر
ولا يقطع ولا يفصل كالخياط الذى يقدر أولا ويقطع ثانيا وهو قريب الى اللغة لكنه
بعيد الاستعمال فى القرآن لان الله تعالى حيث ذكر الخلق أراد الايجاد مثل قوله تعالى
ولئن سألتهم من خلق ومنه قوله تعالى أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة وليس المراد
انا قدرنا انه سيوجد منها الى غير ذلك (سابعها) الخلق هو الايجاد ابتداء والامر هو ما به
الاعادة فان الله خلق الخلق أولا بمهلة ثم يوم القيامة يبعثهم فى اسرع من لحظة فيكون
قوله وما أمرنا الا واحدة كقوله تعالى فانما هى زجرة واحدة وقوله صيحة واحدة
ونفخة واحدة وعلى هذا فقوله انا كل شئ خلقناه بقدر اشارة الى الوحدانية وقوله تعالى
وما أمرنا الا واحدة اشارة الى الحشر فكأنه بين الاصل الاول والاصل الآخر بالآيات
(ثامنها) الايجاد خلق والاعدام أمر يعنى يقول للملائكة الغلاظ الشداد أهلكوا
وافعلوا فلا يعصون الله ما أمرهم ولا يتوقفون الامتثال على اعادة الامر مرة أخرى
فأمر مرة واحدة يعقبه العدم والهلاك (وفيه لطيفة) وهى ان الله تعالى جعل الايجاد
الذى هو من الرحمة بيده والاهلاك يسلط عليه رسله وملائكته وجعل الموت بيد ملك
الموت ولم يجعل الحياة بيد ملك وهذا مناسب لهذا الموضع لانه بين النعمة بقوله انا كل شئ
خلقناه بقدر وبين قدرته على النقمة فقال وما أمرنا الا واحدة وانا على ذهاب به لقادرون
وهو كقوله اذا جاء أمرنا وفار التنور عند العذاب وقوله تعالى فلما جاء أمرنا نجينا صالحا
وقوله تعالى فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وكما ذكر فى هذه الحكايات العذاب بلفظ
الامر وبين الاهلاك به كذلك ههنا ولا سيما اذا نظرت الى ما تقدم من الحكايات
ووجدتها عين تلك الحكايات يقوى هذا القول وكذلك قوله تعالى ولقد أهلكنا أشياعكم
فهل من مدكر يدل على صحة هذا القول (تاسعها) فى معنى اللمح بالبصر وجهان
(أحدهما) النظر بالعين يقال لمحته ببصرى كما يقال نظرت اليه بعينى والباء حينئذ كما يذكر
فى الآلات فيقال كتبت بالقلم واختار هذا المثال لان النظر بالعين أسرع حركة توجد
فى الانسان لان العين وجد فيها امور تعين على سرعة الحركة (أحدها) قرب المحرك منها
فان المحرك العصبية ومنبتها الدماغ والعين فى غاية القرب منه (ثانيها) صغر حجمها فانها
لا تعصى على المحرك ولا تثقل عليه بخلاف العظام (ثالثها) استدارة شكلها فان دحرجة
الكرة أسهل من دحرجة المربع والمثلث (رابعها) كونها فى رطوبة مخلوقة فى العضو
الذى هو موضعها وهذه الحكمة فى أن المرئيات فى غاية الكثرة بخلاف المأكولات
والمسموعات والمقاصد التى تقصد بالارجل والمذوقات فلولا سرعة حركة الآلة التى
بها ادراك المبصرات لما وصل الى الكل الابعد طول زمان (وثانيهما) اللمح بالبصر
معناه البرق يخطف بالبصر ويمر به سريعا والباء حينئذ للالصاق لا للاستعانة كقوله

مررت به وذلك فى غاية السرعة وقوله بالبصر فيه فائدة وهى غاية السرعة فانه لوقال كلمح البرق حين برق ويبتدى حركته من مكان وينتهى الى مكان آخر فى أول زمان يفرض تصح لكن مع هذا فالقدر الذى مروره يكون بالبصر أول من الذى يكون من مبتداه الى منتهاه فقال كلمح لاتأمل من المبدا الى المنتهى بل القدر الذى يمر بالبصر وهو فى غاية القلة ونهاية السرعة * ثم قال تعالى (ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر) والاشياع الاشكال وقد ذكرنا ان هذا يدل على ان قوله وما أمرنا الا واحدة تهديد بالاهلاك والثانى ظاهر * وقوله تعالى (وكل شئ فعلوه فى الزبر) اشارة الى أن الامر غير مقتصر على اهلاكهم بل الاهلاك هو العاجل والعذاب الآجل الذى هو معد لهم على مافعلوه مكتوب عليهم والزبر هى كتب الكتبة الذين قال تعالى فيهم كلا بل تكذبون بالدين وان عليكم لحافظين كراما كاتبين وفعلوه صفة شئ والنكرة توصف بالجمل * وقوله تعالى (وكل صغير وكبير مستطر) تعميم للحكم أى ليست الكتابة مقتصرة على مافعلوه بل مافعله غيرهم أيضا مسطور فلا يخرج عن الكتب صغيرة ولا كبيرة وقد ذكرنا فى قوله تعالى لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب ان قوله أكبر فائدة عظيمة وهى ان من يكتب حساب انسان فانما يكتبه فى غالب الامر لئلا ينسى فاذا جاءه الجملة العظيمة التى يأمن نسيانها ربما يترك كتابتها و يشتغل بكتبة مايخاف نسيانه فلما قال ولا أكبر من ذلك أشار الى الامور العظام التى يؤمن من نسيانها انها مكتوبة أى ليست كتابتنا مثل كتابتكم التى يكون المقصود منها الامن من النسيان فكذلك نقول ههنا وفى قوله تعالى ماله ذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وفى جميع هذه المواضع قدم الصغيرة لانها أليق بالثبت عند الكتابة فيبتدئ بها حفظا عن النسيان فى عادة الخلق فاجرى الله الذكر على عادتهم وهذا يؤيد ماذكرنا من قبل ان كلا وان كان نكرة يحسن الابتداء به للعموم وعدم الابهام * ثم قال تعالى (ان المتقين فى جنات ونهر) قد ذكرنا تفسير المتقين والجنات فى سور منها الطور وأما النهر ففيه قراآت فتح النون والهاء كعجر وهو اسم جنس و يقوم مقام الانهار وهذا هو الظاهر الاصح * وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لاشك ان كمال اللذة بالبستان أن يكون الانسان فيه وليس من اللذة بالنهر أن يكون الانسان فيه بل لذته بان يكون فى الجنة عند النهر فما معنى قوله تعالى ونهر نقول قد أجبنا عن هذا فى تفسير قوله تعالى ان المتقين فى جنات وعيون فى سورة الذاريات وقلنا المراد فى خلال العيون وفيما بينها من المكان وكذلك فى جنات لان الجنة هى الاشجار التى تستر شعاع الشمس ولهذا قال تعالى فى ظلال وعيون واذا كانت الجنة هى الاشجار الساترة فالانسان لايكون فى الاشجار وانما يكون بينها أوفى خلالها فكذلك النهر (ونزيد ههنا وجها آخر) وهو ان المراد فى جنات وعند نهر لكون المجاورة تحسن اطلاق اللفظ الذى لايحسن اطلاقه عند عدم المجاورة كما قال

(ولقد أهلكنا أشياعكم) أى أشباهكم فى الكفر من الامم وقيل أتباعكم (فهل من مدكر) يتعظ بذلك (وكل شئ فعلوه) من الكفر والمعاصى مكتوب على التفصيل (فى الزبر) أى فى ديوان الحفظة (وكل صغير وكبير) من الاعمال (مستطر) مسطور فى اللوح المحفوظ بتفاصيله ولما كان بيان سوء حال الكفرة بقوله تعالى ان المجرمين الخ ممايستدعى بيان حسن حال المؤمنين ليتكافا الترهيب والترغيب بين مالهم من حسن الحال بطريق الاجمال فقيل (ان المتقين) أى من الكفر و المعاصى (فى جنات) عظيمة الشان (ونهر) أى أنهار كذلك والافراد للاكتفاء باسم الجنس مراعاة للفواصل وقرئ نهر جمع نهر كاسد وأسد

علفتها تبنا وماء باردا وقالوا تقلدت سيفا ورمحا والماء لا يعلف والرمح لا يتقلد ولكن لمجاورة التبن والسيف حسن الاطلاق فكذلك هنا لم يأت في الثاني بما أتى به في الاول من كلمة في

(المسئلة الثانية) وحد النهر مع جمع الجنات وجمع الانهار في كثير من المواضع كما في قوله تعالى تجري من تحتها الانهار الى غيره من المواضع فالحكمة فيه نقول أما على الجواب الاول فنقول لما بين ان معنى في نهر في خلال فلم يكن للسامع حاجة الى سماع الانهار لعلمه بان النهر الواحد لا يكون له خلال وأما في قوله تعالى تجري من تحتها الانهار فلو لم يجمع الانهار لجاز ان يفهم ان في الجنات كلها نهرا واحدا كما في الدنيا فقد يكون نهر واحد ممتد جار في جنات كثيرة وأما على الثاني فنقول الانسان يكون في جنات لانا بينا ان الجمع في في جنات اشارة الى سعتها وكثرة اشجارها وتنوعها والتوحيد عند ما قال مثل الجنة وقال ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة لاتصال أشجارها وعدم وقوع الفيعان الخربة بينها واذا علمت هذا فالانسان في الدنيا اذا كان في بيت في دار وتلك الدار في محله وتلك المحلة في مدينة يقال انه في بلدة كذا وأما القرب فاذا كان الانسان في الدنيا بين نهرين بحيث يكون قربه منهما على السواء يقال انه جالس عند نهرين فاذا قرب من أحدهما يقال هو عند احد النهرين دون الآخر لكن في دار الدنيا لا يمكن أن يكون عند ثلاثة أنهار وانما يمكن أن يكون عند نهرين والثالث منه أبعد من النهرين فهو في الحقيقة ليس يكون في زمان واحد عند أنهار والله تعالى يذكر أمر الآخرة على ما نفهمه في الدنيا فقال عند نهر لما بينا ان قوله ونهر وان كان يقتضي في نهر لكن ذلك للمجاورة كما تقلدت سيفا ورمحا وأما قوله تجري من تحتها الانهار فحقيقته مفهومة عندنا لان الجنة الواحدة قد يجري فيها أنهار كثيرة أكثر من ثلاثة وأربعة فهذا ما فيه مع ان أواخر الآيات يحسن فيها التوحيد دون الجمع ويحتمل أن يقال ونهر التنكير للتعظيم وفي الجنة نهر وهو أعظم الانهر وأحسنها وهو الذي من الكوثر ومن عين الرضوان وكان الحصول عنده شرفا وغبطة وكل أحد يكون له مقعد عنده وسائر الانهار تجري في الجنة ويراها أهلها ولا يرون القاعد عندها فقال في جنات ونهر أي ذلك النهر الذي عنده مقاعد المؤمنين وفي قوله تعالى ان الله مبتليكم بنهر لكونه غير معلوم لهم وفي هذا وجه حسن أيضا ولا يحتاج على الوجهين ان نقول نهر في معنى الجمع لكونه اسم جنس

(المسئلة الثالثة) قال ههنا في نهر وقال في الذاريات وعيون فالفرق بينهما نقول انا ان قلنا في نهر معناه في خلال فالانسان يمكن أن يكون في الدنيا في خلال عيون كثيرة تحيط به اذا كان على موضع مرتفع من الارض والعيون تتفجر منه وتجري فتصير أنهارا عند الامتداد ولا يمكن أن يكون في خلال أنهار وانما هي نهران فحسب وأما ان قلنا ان المراد عند نهر فكذلك وان قلنا نهر أي عظيم عليه مقاعد فنقول يكون ذلك النهر ممتدا واصلا الى كل واحد وله عند مقعده عيون كثيرة تابعة فالنهر للتشريف والعيون للتفرج والتنزه

مع النهر العظيم يجتمع مع العيون الكثيرة فكان النهر مع وحدته يقوم مقام العيون مع كثرتها وهذا كله مع النظر الى أواخر الآيات ههنا وهناك يحسن ذكر لفظ الواحد ههنا والجمع هناك (المسألة الرابعة) قرئ في جنات ونهر على انها جمع نهار اذ لا ليل هناك وعلى هذا فالكلمة في حقيقة فيه فقوله في جنات ظرف مكان وقوله ونهر أي وفي نهار اشارة الى ظرف زمان وقرئ ونهر بسكون الهاء وضم النون على انه جمع نهر كأسد في جمع أسد نقله الزمخشري ويحتمل أن يقال نهر بضم الهاء جمع نهر كثمر في جمع ثمر * ثم قال تعالى (في مقعد صدق عند مليك مقتدر) وفيه مسائل (المسألة الاولى) في مقعد صدق كيف تخريجه نقول يحتمل وجهين (أحدهما) ان يكون على صورة بدل كما يقول القائل فلان في بلدة كذا في دار كذا وعلى هذا يكون مقعد من جملة الجنات موضعا مختار المعزية على ما في الجنات من المواضع وعلى هذا قوله عند مليك لا نافياً في احد الوجوه ان المراد من قوله في جنات ونهر في جنات عند نهر فقال في مقعد صدق عند مليك مقتدر ويحتمل أن يقال عند مليك صفة مقعد صدق تقول درهم في ذمة ملي خير من دينار في ذمة معسر وقليل عند أمين أفضل من كثير عند خائن فيكون صفة والاحسن جعله مبتدأ (ثانيهما) أن يكون في مقعد صدق كالصفة لجنات ونهر أي في جنات ونهر موصوفين بأنهما في مقعد صدق تقول وقفة في سبيل الله أفضل من كذا وعند مليك صفة بعد صفة (المسألة الثانية) قوله في مقعد صدق يدل على لبث لا يدل عليه المجلس وذلك لان قعد وجلس ليسا على ما يظن انهما بمعنى واحد لا فرق بينهما بل بينهما فرق ولكن لا يظهر الا للبارع والفرق هو أن القعود جلوس فيه مكث حقيقة واقتضاء ويدل عليه وجوه (الاول) هو أن الزمن يسمى مقعدا ولا يسمى مجلسا لطول المكث حقيقة ومنه سمي قواعد البيت والقواعد من النساء قواعد ولا يقال لهن جوالس لعدم دلالة الجلوس على المكث الطويل فذكر القواعد في الموضعين لكونه مستقرا بين الدوام والثبات على حالة واحدة ويقال للمركوب من الابل قعود لدوام اقتعاده اقتضاء وان لم يكن حقيقة فهو لصونه من الحمل واتخاذه للركوب كأنه يجد فيه نوع قعود دائم اقتضى ذلك ولم يرد الاجلاس (الثاني) النظر الى تقاليب الحروف فانك اذا نظرت الى ق ع د وقلبتها تجد معنى المكث في الكل فاذا قدمت القاف رأيت قعد وقدع بمعنى ومنه تقادع الفراش بمعنى تهافت واذا قدمت العين رأيت عقد وعدق بمعنى المكث في غاية الظهور وفي عدق خفاء يقال أعدق بيدك الدلو في البئر اذا أمر بطلبه بعد وقوعه فيها والعودقة خشبة عليها كلاب يخرج معه الدلو الواقع في البئر واذا قدمت الدال رأيت دقع ودعق والمكث في الدقع ظاهر والدقعاء هي التراب الملتصق بالارض والفقر المدقع هو الذي يلصق صاحبه بالتراب وفي دعق أيضا اذ الدعق مكان تطؤه الدواب بحوافرها فيكون صلبا بالاجزاء متداخل بعضها ببعض لا يتحرك شئ منها عن موضعه (الوجه الثالث) الاستعمالات في القعود اذا اعتبرت ظهر ماذكرنا قال

(في مقعد صدق) في مكان مرضي وقرئ في مقاعد صدق (عند مليك مقتدر) أي مقربين عند مليك لا يقادر قدر ملكه وسلطانه فلا شئ الا وهو تحت ملكوته سبحانه ما أعظم شأنه *عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة القمر في كل غب بعثه الله تعالى يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر

تعالى لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمراد الذى لايكون بعده اتباع وقال تعالى مقاعد للقتال مع انه تعالى قال ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص فأشار الى الثبات العظيم وقال تعالى اذا لقيتم فئة فاثبتوا فالمقاعد اذن هى المواضع التى يكون فيها المقاتل بثبات ومكث واطلاق مقعدة على العضو الذى عليه القعود أيضا يدل عليه اذا عرفت هذا الفرق بين الجلوس والقعود حصل لك فوائد منها ههنا فانه يدل على دوام المكث وطول اللبث ومنها فى قوله تعالى عن اليمين وعن الشمال قعيد فان القعيد بمعنى الجليس والنديم ثم اذا عرف هذا وقيل للمفسرين الظاهرين ما الفائدة فى اختيار لفظ القعيد بدل لفظ الجليس مع ان الجليس أشهر يكون جوابهم ان آخر الآيات من قوله حبل الوريد ولدى عتيد وقوله بجبار عنيد يناسب القعيد ولا يناسب الجليس واعجاز القرآن ليس فى السجع واذا نظرت الى ما ذكر تبين لك فائدة جليلة معنوية حكمية فى وضع اللفظ المناسب لان القعيد دل على انهما لايفارقانه ويداومان الجلوس معه وهذا هو المعجز وذلك لان الشاعر يختار اللفظ الفاسد لضرورة الشعر والسجع ويجعل المعنى تبعا اللفظ والله تعالى بين الحكمة على ما ينبغى وجاء باللفظ على أحسن ما ينبغى وفائدة أخرى فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم واذا قيل انشزوا فانشزوا فان قوله فافسحوا اشارة الى الحركة وقوله فانشزوا اشارة الى ترك الجلوس فذكر المجلس اشارة الى أن ذلك موضع جلوس فلا يجب ملازمته وليس بمقعد حتى لايفارقونه (المسئلة الثالثة) فى مقعد صدق وجهان (أحدهما) مقعد صدق أى صالح يقال رجل صدق للصالح ورجل سوء للفاسد وقد ذكرناه فى سورة انا فتحنا فى قوله تعالى وظننتم ظن السوء (وثانيهما) الصدق المراد منه ضد الكذب وعلى هذا ففيه وجهان (الاول) مقعد صدق من أخبر عنه وهو الله ورسوله (الثانى) مقعد ناله من صدق فقال بان الله واحد وأن محمدا رسوله ويحتمل أن يقال المراد انه مقعد لايوجد فيه كذب لأن الله تعالى صادق ويستحيل عليه الكذب ومن وصل اليه امتنع عليه الكذب لان مظنة الكذب الجهل والواصل اليه يعلم الاشياء كما هى ويستغنى بفضل الله عن أن يكذب ليستفيد بكذبه شيئا فهو مقعد صدق وكلمة عند قد عرفت معناها والمراد منه قرب المنزلة والشأن لا قرب المعنى والمكان وقوله تعالى مليك مقتدر لان القربة من الملوك لذيذة كلما كان الملك أشد اقتدارا كان المتقرب منه أشد التذاذا وفيه اشارة الى مخالفة معنى القرب منه من معنى القرب من الملوك فان الملوك يقربون من يكون ممن يحبونه ومن يرهبونه مخافة أن يعصوا عليه وينحازوا الى عدوه فيغلبونه والله تعالى قال مقتدر لايقربه أحدا الا بفضله والحمد لله وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وآله وصحبه وسلامه

(تم الجزء السابع ويليه الجزء الثامن أوله سورة الرحمن)

* (فهرسة الجزء السابع من تفسير الفخر الرازى) *

صحيفه

صحيفه

(تمت)